فانتازيا

السلسلة الكاملة

من (1) الى (64)



د. أحمد خالد توفيق



روايات مصرية

1

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

قصة لا تنتهي



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (01)

قصة لا تنتهي

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

1- مقدمة..

اسمها (عبير) ... لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا)..
وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

هي

مقدمة لا بد منها لنعرف كل شيء عن أبطالنا وعاداتهم ومشاكلهم قبل أن يرحلوا إلى (فانتازيا)

1- اصبري يا (عبير)!

كانت (عبير عبد الرحمن) إنسانة ملولا..
كلهم قالوا عنها نفس الشيء.. أمها.. شقيقتها..
الأستاذ (حمدي).. (شهيرة).. (غادة)..
وحين يُجمع كل هؤلاء على شيء واحد، يكون من العسير توقّع أنهم قد أخطئوا في حكمهم..، و (عبير) نفسها تعرف ذلك، ويثير ذهولها مدى ما وصلت إليه من ضيق خلق وسرعة ملل.
وفي المدرسة.. في الشارع.. في البيت كانت ترى وجوها ترمقها في شيء من الشفقة الممزوجة بحزم صارم.. وتسمعهم جميعا يقولون:
- اصبرى يا (عبير)!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن تعترف لأحد بأنها كانت تغلق الحمام على نفسها، وتذهب إلى المرآة الرخيصة المعلقة هناك، والتي تناثرت على سطحها البراق تلك البقع السوداء القبيحة، التي سقط طلاؤها من الخلف وهناك تدنو من السطح اللامع تتأمل وجهها..
تتأمل أبشع وأقسى منظر رأته في حياتها..
من الصعب عليها أن تصدق أن هذه العجفاء السمراء بارزة الوجنتين، التي ترمقها من الناحية الأخرى هي (عبير).. كانت تدفع شعرها إلى أعلى.. تبتسم في رقة. تقطب متظاهرة بالجدية.. ترسم في عينيها الضيقتين نظرة حالمة..
لكن النتيجة هي هي...
لم تزدها هذه المحاولات سوى قبحٌ على قبحٍ..
بالتأكيد هي لا تبدو كممثلات السينما الحسناوات، وعلى كل حال هي لا تشبه (غادة) على الإطلاق...
كيف ستعرف الحب يوما ما؟.. وكيف ستتزوج؟..
هي ليست مرعبة مثل الغيلان.. لكنها كانت بحاجة إلى أن ترى وجها أجمل وجسدا أرشق.. معنوياتها تحتاج إلى هذا.. كانت تشعر بأنها تتضاءل، وأنها تتقلص.. وخيل لها شبابها الغض أن هناك نوعا من الجمال في كل الناس سواها.. هي وحدها تعيش في تعاسة.. تمقت الماضي وتخاف الغد..
قالت لها أمها إنها ما زالت في مرحلة التكوين، وأن (خرَّاط النساء) أتٍ حتما ليزورها ويسبغ على وجهها مسحة الجمال..
في نفاد صبر هتفت:
- إذن متى؟.. متى؟
قالت الأم في حنان حازم:
- اصبرى يا (عبير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دارها كانت في إحدى حواري (غمرة) الضيقة..

وكانت هناك دوما بركة من الماء الأسن أمام الباب، لا تدري حقا من أين تجيء هذه المياه الأبدية، إذا لم يكن هناك مطر ولا صنبور ماء ولا بالوعة مكشوفة؟..
ولا بد أن تجد الأطفال أشباه العراة يتشاجرون وقطا أجرب يلتهم أمعاء دجاجة رمتها إحدى الجارات الشمطاوات أمام الباب..
وتدلف إلى مدخل البيت الضيق حيث تفوح رائحة مقيتة.. لم تعرف مصدرها يوما برغم أنها تشمها طيلة سبعة عشر عاما هي عمرها..
تصعد الدرجات المتأكلة إلى الطابق الثاني حيث تعيش.
الدار ضيقة مكونة من حجرتين وصالة.. أثاثها عتيق رخيص ينمّ عن ذوق فظيع.. والجدران تم دهانها بالجير الأصفر.. وعُلِّقت عليها تلكم اللوحات الشنيعة التي يتصور الناس أنها فنّ.. تعرفون بالطبع تلك الصورة المقززة للطفلين اللذين هما من ذهب وفضة.. وتلك الصورة السخيفة للمرأة التي تقرِّب ثعبانا من ثغرها..، تلك الصور الخالية من أي فنّ ويعلقها الناس دون أن يحبوها..
ثم هناك قصاصات من المجلات الفنية، تحمل صور ممثلات ومطربين.. و (بوستر) كبير لـ (وليد توفيق) ألصقته شقيقتها بالنشا على الجدار..
وبصفة عامة لا يمكنك أن تجد في هذا المنزل سريرا لم تسقط مُلته، أو مقعدا أرجله سليمة، أو مفرشا لم يتم ترقيعه..
وكان المطبخ ضيقا كالقبر، به موقد غازي صغير (وقلتان) في صينية ملأي بالماء.. وثلاجة صغيرة تلفت منذ دهور..
في الصالة جهاز (تليفزيون) ملوّن صغير اشترته أمها بالتقسيط من معاش الأب، بعد أن بدأ دخل الابن يتحسن من معرض الأدوات الصحية الذي يعمل فيه..
وفي هذا الجهاز عرفت (عبير) أن هناك عالمًا براقًا جميلا لا يمتّ بصلة لواقعها الكئيب.. رأت أطفالا لا يلوث الطين وجوههم، وفتياتنا ليس في أجسادهم طعنات مطواة قديمة، وفتيات لم يكس الفقر كعوبهن بطبقة خشنة كالصنفرة..
وكانت - في المساء - تجلس مع أسرتها تشاهد المسلسل اليومي، وتتسلى بمراقبة وجوههم التي تتابع الصور الملونة، في نظرة خاوية غير واعية.. لكنها تتابع دون كلل..
تصاعد الدم إلى رأسها، وتمنّت لو تفر من هذا البيت الخانق..
فقال لها الجميع:
- صبرا يا (عبير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طالبة في إحدى المدارس الثانوية الفنية هي..
تدرك جيدا أن المستقبل مسدود أمامها، وأنها لن تغدو أبدًا مهندسة أو طبيبة - والأدهى - لن تكون أبدا (باليرينا) كما تمنت منذ نعومة أظفارها..
هاته الفراشات الرقيقات يثبن حول النور.. لكم تمنت لو صارت واحدة منهن!.. لكنها كانت تدرك أن هذا مستحيل.. حتى ولو كانت نحيلة مثلهن.. هي لا تعرف الطريق الذي يسلكه المرء كي يصير راقص باليه.. لكنه بالتأكيد ليس طريقها..
تدفن أحزانها في مداعبات سمجة مع أترابها، وتختطف من هذه شريط (الكاسيت) الذي أحضرته معها.. ومن تلك صورة خطيبها ثم تخلد للهدوء إذ يدخل الأستاذ قاعة الدرس.. ويبدأ

الكلام.. الكلام الممل الذي لا أول له ولا آخر عن ثابت (بلانك)، والاستاتيكية، وجند (كسرى) الذين صبحهم الغطاريف أمام شاعر أعشى شيئا..
كانت عاجزة تماما عن وضع عقلها فيما تسمعه..
مخلصة حاولت.. وأسفة فشلت.. ولهذا رسبت مرتين فيما سبق.. ولربما صارت المرتان ثلاثا، لو أنها لم تستطع وضع السرج فوق صهوة جواد أحلامها..
كانت تمقت هذه الجدران المقيتة الرطبة ولم تستطع قط أن تشعر أن لها صديقة حقيقية، مجرد وجوه فتيات مألوفة تراها كل يوم، ولا تحمل لها أية مودة.. ولو أن صاروخا ذا رأس نووي هوى فوق هذا الفصل ونجت هي، لما شعرت بأي حزن على زميلاتها، ولا افتقدت واحدة منهن..
كان أساتذتها يؤمنون بأن لديها قدرا كبيرا من الذكاء.. فقط لو أنها أقل مللا وأقل شرودًا وأكثر طموحا وأكثر اهتماما..
ألن ينتهي هذا السجن أبدا؟..
عندئذ تقول لها المعلمة وهي تنظف السبورة:
- اصبري يا (عبير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة البيت إلى المدرسة.. رحلة المدرسة إلى البيت..
لقد صار هذا قدرا محتوما.. كهجرة الطيور.. شيئا من نواميس الطبيعة لا يتغير.. قانونا أقوى من قوانين (نيوتن) ذاتها..
وفي البيت ترتدي جلباب النوم، وتجلس مع أسرتها الصغيرة، المكونة من أمها وأختيها وأخيها الطفل، يلتهمون الأرز والخضر.. الخضر بلا لحم طبعا عدا يوم الخميس..، أما عن أخيها الأكبر فالطعام ينتظره عند عودته منهكًا محطمًا في المساء، من متجر الأدوات الصحية..
بعد الغذاء يأتي دور كوب الشاي، ترشفه في النافذة الضيقة - التي لا تطل على أي شيء في الواقع - مع أختها.. ثم تدخل الفراش الضيق الذي يصدر صريرا.. وتمد يدها الناحلة إلى رفين من الخشب، قام أخوها بتثبيتهما في الجدار، وربطهما معا بالحبال..
هذان الرفان يحويان كل ما كانت تريده من هذا العالم.. عشرات الكتب المهترئة المزدحمة فوق الرفين بانتظارها..
من أجل هذه اللحظة تنتظر اليوم بأكمله من أجل لحظة ما بعد الظهيرة، تتحمل ساعات الدراسة.. ومن أجل لحظة المساء تتحمل ساعات الخواء والوحدة بعد الغروب..
بين صفحات هذه الكتب ترعرعت أحلامها ونمت..
كتب!.. عشرات الكتب!..
صحيح أنها جميعا روايات.. ولكن ما المشكلة في ذلك؟.. هي تقرأ كي تستمتع، ولا تقرأ كي تؤدي واجبا وطنيا.. لقد قرأت (للعقاد) ذات مرة يقول:
- إن الجسم يغديه ما يشتهيه.. فاقرأ ما تحب تستفد..
و (عبير) كانت تحب الروايات.. وكانت تؤمن بأن الروايات تغذي جسدها وعقلها، فلم تجرؤ يوما على أن تعتبر الروبيات أقلّ منزلة من الكتب الفلسفية والسياسية مثلا..
كانت قد قرأت جيشا من المؤلفات لكتاب عرب وأجانب..
عرفت الكثير عن عالمها والعالم الخارجي، وسافرت إلى الصين وإلى جزر الكاريبي، وإلى وديان

القمر عبر صفحات هذه المخترعات الساحرة، التي يسمونها كتبا..



عرفت الكثير عن عالمها والعالم الخارجي، وسافرت إلى الصين وإلى جزر الكاريبي، وإلى وديان القمر..

تنفست مع غادة الكاميليا.. وانتابها طموح (حميدة) المجنون الشبيه بطموح مدام (بوفاري)..

وعاشت في جمهورية فرحات.. وتسللت ليلا إلى قصور النبلاء مع (أرسين لوبين).. وكادت الديناصورات تلتهمها وهي تجتاز الأرض التي غفل عنها الزمن..
لكم من حيوات ساحرة أضيفت إلى عمرها..!
لم تستطع قط أن تجيب جهاز (التليفزيون)، لأن الروايات كانت تمنحها مطلق الحرية في الحلم.. وكانت إذ تقرأ سطور الرواية، تجد نفسها في عالم ملموس كامل التفاصيل.. بل ومسموع كذلك، حتى أن قراءتها لكلمة (النجدة!) مكتوبة، كانت تجعلها تتخيل أنها تسمعها بذات الحدَّة والهلع التي يمكنها سماعها في فيلم مصوَّر..
كانت عاجزة تماما عن تمييز الغث من الجيد، وكانت تحسب أبطال القصة موجودين منذ الأزل يتصرفون بكامل إرادتهم.. فإذا حدث خلل في سياق القصة أو نبَتْ عن المنطق.. حسبت أن هذا بسبب أن الأبطال يتصرفون بغباء لا أكثر!
لهذا كانت تقضي كل ساعات عدم القراءة تنتظر - في شوق جائع - ساعات القراءة.. وكان كل من يراها في حالة التوتر هذه ينصحها:
- اصبرى يا (عبير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يأتي هنا دور الجانب العاطفي في حياة (عبير).. وكما قلنا هي فتاة ملأي بالحيوية، مفعمة بالرومانسية لكن هذه الرومانسية لم تكن تخص أحدا بعينه..
ساعدها على هذا أن الرجال الموجودين في عالمها، لم يكونوا سوى حفنة من الأوغاد، الذين يتبادلون الطعنات بمطاوي (قرن الغزال) عند أدنى استفزاز لهم.. وكلهم ثقيلو الظل معدومو الخيال..
وبالتأكيد لم يكن أحدهم وسيما مثل القديس (سيمون تمبلر)، أو حويطا مثل (بيري ميسون)، أو لغزا دائما مثل (أدهم صبري)..
لهذا تركزت رومانسيتها على لا أحد..
كانت تحب الليل، وعبير أنسام الصيف، وارتجاف القطط الصغيرة في يدها.. وتمزج كل هذا بصوت (عبد الحليم حافظ) المليء بأشجان المراهقة منذ الأزل..، وكانت تخلق من كل هذا كانا عملاقا لا شكل له ولا حدود.. وتحبه..
وحين كانت تتساءل سرا - وهي تتابع الدرس في الفصل عن اليوم والطريقة التي تستحوذ بها على ذلك الكائن، كانت تتنهد وتهمس لنفسها:
- اصبرى يا (عبير)!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- مشكلة دوائر متكاملة...

والآن نحرِّك عقارب ساعتنا بضع أيام إلى الوراء.. في شقة أنيقة ب. (العجوزة)، يقف (شريف) يتأمل خارطة الدوائر المتكاملة المعلقة على الجدار، والتي امتلأت بالأسهم الحمراء التي تم محوها بأخرى زرقاء..
ثمة شيء ما خطأ، لكنه لا يستطيع تركيز ذهنه، خاصة والحاجة إلى التبغ تمزق أعصابه.. لكنه أقسم منذ أربعة أيام، على ألا يلمس لفافة تبغ أخرى، وها هو ذا اليوم الخامس يبدأ، والحاجة الملحة تتزايد..
تناول بعض أقراص النعناع، وجرع بعدها كأسا من الماء البارد؛ ليتلذذ بذلك الشعور الحارق المنعش في حلقه..
ثمة شيء ما خطأ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمه (شريف إبراهيم).. في العقد الرابع من عمره.. وسيم كسيارة جديدة براقة لم تسر على الأرض مترا واحدا.. فارع القامة.. يمكنك - دون جهد - أن تحسبه ممثلا أو عارض أزياء.. ولا تجرؤ على تخيل أن هذا الرأس الجميل يحوي مخ عبقري...
العباقرة - كما علمتنا القصص المصورة - لا علاقة بينهم وبين الجمال.. وصلع الرأس علامة أكيدة على اكتنازه بالأفكار..
لكن (شريف) حطم القاعدة منذ زمن..
منذ طفولته والجميع يؤكدون أن هذا الطفل (معتوه لكن فيه شيئا ما لا يمكن وصفه).. كان أبوه يقسم على هذا، بينما (شريف) يهشم المنبه.. يكسر المذياع.. يفك المروحة.. عندئذ كان الأب يؤكد في فخر:
- التخريب علامة على العبقرية لدى الطفل!.. هذا ما يؤكده د. (سبوك) ([1]) في كتابه.. لقد قرأت كل سطر فيه!
وتمر الأيام..
وككل مواليد برج (الجوزاء)، جرب (شريف) كل شيء.. جرب كتابة الشعر، والسفر بطريقة (الأوتوستوب)، وتعلم المصارعة الحرة، لكنه – ككل مواليد برج (الجوزاء) - لم يبرع في شيء..
وفي السادسة عشرة من عمره، التحق بالجامعة الأمريكية ليدرس بها ذلك العلم الغامض الكهنوتي (الكمبيوتر).. وكانت هذه هي عصا الساحر التي لمسته، لتنقلب حياته رأسا على عقب.. كف عن الأكل.. عن الشراب.. عن النوم.. غرق في لجة الإدمان اللذيذ لهذا الاختراع الرهيب.. لقد وجد حبه الضائع!..
وسافر إلى الولايات المتحدة؛ ليتعمق أكثر في دراسة (الكمبيوتر)، وأثار ذهول من علموه هناك لأنه دنا منهم.. ثم صار مثلهم.. ثم سبقهم في مجالات عديدة..!
وحين عاد إلى مصر أخيرا، كانت أبواب العمل كلها مفتوحة أمامه، واستطاع أن يلتحق بإحدى الشركات الأمريكية لأعمال الحاسب الآلي.. وكان راتبه مجزيا، ولم يلق أية مصاعب في الزواج من (إيناس) زميلته القديمة في الجامعة.. كما أنه لم يلق أية مصاعب في الطلاق منها بعد عامين، لأنها لم تعد تتحمل أكثر:

- أنت إنسان أناني، غير مؤهل لتكون زوجا أو أبا أو حتى بواب عمارة.. أنت فاقد الإحساس بالآخرين غارق في عالمك ليلا ونهارا.. فلم يعد لديك متسع لإنسانة معتوهة، ظنت أنها قادرة على أن تصنع معك أسرة!.
وحين رحلت - أخيرا - ظل خمس ساعات أمام شاشة (الكمبيوتر) يحاول تغيير الحماية التي ابتكرها للقرص المرن.. وحين نجح أخيرا: أعد لنفسه قدحا من القهوة وجلس يرشفه أمام الشاشة.. وغمغم:
- حسنٌ.. أنا الآن وحيد. أخيرا أنا وحيد!..
لن يطالبه أحد بعد اليوم بزيارة الأقارب، أو شراء البقالة، أو دفع فاتورة الكهرباء، أو اصطحابه إلى طبيب الأسنان، أو...
هو اليوم وحيد تماما.. ولإن هلك جوعا أو صعقته الكهرباء، أو انفجر فيه السخان، فلن يعرف أحد بذلك سوى حين يشم الجيران رائحة عفن خارجة من شقته.. عندئذ ينتقل إلى المكان المقدم (فلان) والعقيد (فلان) ليهشموا باب الشقة، ويخرجوا جثته!...
حمدا لله العلي القدير!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البدء كان خاطرا.. ثم غدا احتمالا..
وعلى الورق استطاع أن يخط عشرات (الاسكتشات) لفكرته المجنونة، التي صارت تطارده ليلا ونهارا.. وتحرمه متعة النوم..
لِمَ لا يقوم بتصوير الأحلام؟!.
لم يجرؤ على أن يصارح أحدا بذلك، لكنه تبّنى الفكرة.. فهو يعلم أنه قادر على تنفيذها.. وكان أحد أصدقائه قد صار أستاذا لعلم وظائف الأعضاء بجامعة (......)، فذهب إليه يستشيره.. إن الأحلام هي مجرد نبضات كهربية خافتة تعبر أجواز المخ من خلية إلى أخرى.. فلم لا يمكن التقاطها وترجمتها؟..
إن الفكرة ذاتها حلم كبير لكن يمكن تحقيقه..
حدثه الطبيب عن المشعوذ البريطاني، الذي كان يتخيل صورة ما، ويمسك بعدسة الكاميرا حتى إذا ما أحس بأن الصورة واضحة؛ ضغط الزناد..
عندئذ كانت خيالاته تنطبع على الفيلم..
قال لصديقه وهو يجذب شعيرات سالفه كعادته حين يفكر:
- ربما لم يكن نصّابا.. لكن - حتى لو صح هذا - فطريقته تعتمد على قدرات نفسية خارقة غير متاحة للجميع.. وأنا أبحث عن طريقة (شعبية) تناسب كل إنسان..
- إذن عليك أن تدرس جهاز رسم المخ الكهربي بعناية.. فهو يلتقط النبضات الكهربية الخافتة، ويحيلها إلى نبضات يمكن رسمها على الورق.
- أدرسه..؟..
بل سأفعل ما هو أكثر.. سأشتري واحدا لنفسي..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك الكثير من الفشل..
فهو لم يكن خبيرا بالإلكترونات.. إنه أستاذ في برمجة الحاسب الآلي، لكن هذا يختلف تماما عن

دراسة دوائره وتوصيلاته.. ذلك العلم المسمى (هارد - وير)..
إن الفارق ما بين علم البرمجة (سوفت - وير) وعلم الـ (هارد - وير) هو ذات الفارق ما بين دارسة علم النفس ودراسة تشريح المخ..
لقد اقتضى منه هذا جهدا لا يوصف، وأقداحا عديدة من القهوة..
لكن جزاء العرق مُجزٍ دائما...
وحمد الله كثيرا لأن زوجته قد تركته.. فما كانت لتتحمل كل هذا التركيز المفرط، ودخان التبغ في كل مكان.. كانت ستطالبه بأشياء، وأشياء، وهو يفتقر إلى أية سعة نفسية في الآونة الحالية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البدء قام بتحويل عدد من الصور الفوتوغرافية إلى صور على شاشة (الكمبيوتر)، صالحة لدخول ذاكرته.. إن هذا سهل.. ويعتمد على استخدام جهاز يسمى (ديجيتايزر).. وهو جهاز متاح للجميع..
لكن (شريف) قام بدراسة عمل هذا الجهاز بعناية؛ ليعرف كيف تتحول بضع نبضات كهربية إلى صورة على شاشة (الكمبيوتر)..
ثم إنه عكف على دراسة جهاز رسام المخ الكهربي؛ ليعرف كيف يحوِّل الأفكار المجردة إلى نبضات كهربية.. وبمساعدة مهندس إلكترونيات، تمكّن من تصنيع دائرة توفيقية، قادرة على نقل نبضات رسام المخ الكهربي إلى جهاز (الديجيتايزر)، مع تغيير دوائر هذا الأخير، لتنقل إلى (الكمبيوتر) بيانات رقمية تسمح له برسم صورة..
كم من محاولات فاشلة غاص فيها!..
وكم من إحباطات عاشها..!
إن ترشيح نبضات المخ الخاصة بالتخيل، كان عملا مستحيلا، لكنه لاحظ أن لها ترددا معينا يمكن قياسه واستبعاد ما دونه وما فوقه، وبالتالي يتم ترشيحه وتوصيل اللازم إلى (الكمبيوتر)..
ثم كان على (الكمبيوتر) أن يعيد تنسيق هذه النبضات على شكل صورة محددة المعالم.. بل ومتحركة...
وفي اليوم الموعود؛ جلس (شريف) على مقعد مريح، وربط الأقطاب على دماغه.. ثم ضغط زر جهاز رسم المخ، وشرع يركز ذهنه في صورة ثابتة محددة.. هذه الصورة التي اختارها هي وجه أمه يتأرجح بين العبوس والبشاشة..
وأمام عينيه المذهولتين رأي الصورة تتشكل ببطء على شاشة (الكمبيوتر)..!
مذبذبة نعم.. مليئة بالخدوش حقا.. لم تكد تظهر حتى بدأت تتلاشى لأن عقله كف عن التركيز حين شاهد الشاشة!
لكنه فعلها!.. فعلها..!
نزع الأقطاب، وشرع يرقص في أرجاء الغرفة دائسًا نباتات الظل.. مبعثرا الأكواب وراميا منفضة التبغ على الأرض..
لقد فعلها!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتمر الأيام..
ويزداد (شريف) إتقانا لعمله..

قام بتوصيل جهاز (الفيديو كاسيت) إلى (الكمبيوتر) ليسجل ما يراه..
ثم بدأ يركز ذهنه لمدة دقائق..
في النهاية كان لديه شريط مدته خمس دقائق يصور وحشا أسطوريا قد برز من تحت الماء ليلتهم سفينة..



في النهاية كان لديه شريط مدته خمس دقائق، يصوّر وحشًا أسطوريًا قد برز من تحت الماء ليلتهم سفينة..

وفي الأيام التالية شرع يخلق أفلاما كاملة لها حوار وأحداث.. أفلاما بلا ممثلين ولا مخرجين ولا مصورين..

أفلاما ولدت من خلايا مخه هو وحده..!
أحيانا - وهذا حق - كانت الصورة تهتز.. وكان وجه البطل يتغير عدة مرات في نفس الدقيقة.. وكانت حواف المشهد مهزوزة غير واضحة.. لكن المشكلة هي مشكلة تركيز..
كلما ازداد التركيز، ازداد وضوح المشهد.. وكلما قلّ، تشتتت الصورة وضاعت معالمها..
- عزيزي (شريف)! » - قال لنفسه – أنت عبقري.. يمكنك أن تنتج من الأفلام السينمائية ما يملأ مكتبة (فيديو) دون أن يكلفك الإنتاج مليما واحدا! »
لقد بدأ يبيع الخيال.. فوجده مربحا.. ولكن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن العباقرة لا يشبعون..
و (شريف) كان عبقريا - على الأقل بالنسبة لنا ـ لهذا لم يرض قط عما وصل إليه..
إن اختراعه غريب حقا ومسلٍّ.. لكنه غير ذي نفع اقتصادي..
من الصعب أن يجد التركيز الكافي لعمل أفلام طويلة روائية، ولو أنك حاولت أن تتخيل لبضع دقائق منظر ساحة قتال يتعارك فيها جيشان، لأدركت تعقيد الأمر..
من المستحيل تقريبا أن تحافظ على التتابع في خيالك..
من ضرب من؟ وأين ذهب سلاح هذا؟. ومتى سقط هذا؟ إلخ
هذه الأشياء تكون رمزية عند التخيل، لكنها على الشاشة تغدو هيستيريا حقيقية، والمباني تتحول إلى بقعة من اللون الرمادي لأنك - بالطبع - غير قادر على تخيل كل نافذة وكل جدار في المبنى لهذا أيقن (شريف) أن الاستفادة من اختراعه..
عسيرة جدا.. ربما يحتاج الأمر إلى كاهن من كهنة (زن) اليابانيين الذين لا يفعلون شيئا في حياتهم سوى التركيز.
وخطرت له فكرة أخرى..
لم لا يعكس عمل الجهاز؟..
لم لا تسرى النبضات من (الكمبيوتر) إلى المخ؟.
ألن يصنع وقتها آلة أحلام حقيقية؟..
شرع يجرب ويجرب.. قام بعكس الدوائر بالكامل ثم وضع صورة على شاشة (الكمبيوتر).. ولكن.. لا...
إن رؤيته للصورة قد تؤدي به إلى أن يتخيلها تلقائيا دون معونة الجهاز..
لذا انتقى عشر صور فوتوغرافية تمثل قطا.. بيتا.. (مادونا).. (شوبير).. إلخ... وأدخلها إلى ذاكرة (الكمبيوتر) مستعملا جهاز (الديجيتايزر) إياه.. ثم كتب برنامجا قصيرا يجعل (الكمبيوتر) ينتخب صورة عشوائية ويرسلها إليه.. وعمله هو أن يعرف أية صورة هي..
وضع الأقطاب على رأسه.. أغمض عينيه وشرع ينتظر..
أخيرا رأى بعين الخيال - وبوضوح تام - صورة سيارة تندفع على طريق صحراوي مقفر.. إن هذا الرائع!..
المشكلة الوحيدة هنا هي أن هذه الصورة لم توضع على الكمبيوتر) أصلا!.. لقد كانت صورة (شوبير) هي الظاهرة الآن على شاشة الجهاز.. فالسيارة إذن مجرد صورة عابرة زارت ذهنه بطريق الصدفة!
ومعنى هذا أن المحاولة فشلت..

كان هناك شيء ما خطأ.. ولكن ما هو؟!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- لقاء غير منتظر...

جلس (شريف) مع صديق عمره (صفوت)، في شقة هذا الأخير يتحدثان.. وكان (شريف) يحب (صفوت) كما هو.. بمعنى أنه لا يعبأ كثيرا بكونه نصابا.. مدعيا.. ضيق الأفق.. تافها..!
كان (صفوت) يريح جسده البدين المترهل على الأريكة، ويلتهم حبيبات الترمس التي قدمتها لهما زوجته.. ويقول:
- أنت هو أنت يا (شريف).. الراكض الأبدي وراء الأوهام.
- ما دمت أؤكد لك أن هذا ممكن..
قالها (شريف) ومد يده إلى جيبه ليخرج علبة التبغ... ثم تذكّر أنها غير موجودة، وأن الموجودة مكانها هي أقراص النعناع إياها.. تناول قرصا ورماه في فمه وأردف:
- إن الاختراع يعمل.. أنا واثق من كونه يعمل..
لكن هناك عدة مشاكل لا مفر من مواجهتها، فصراع الأفكار الداخلى لدى أمثالنا، يجعل استجابة المخ للإيحاء شبه معدومة.. إن من يمر بهذه التجربة لا بد أن يتمتع بمواصفات معينة...
وفتح أصابع يده اليسرى ليعد عليها بسبابته اليمنى..
أولا: يجب أن يكون شخصا ضعيف الإرادة سهل الإيحاء إليه..
ثانيا: يجب أن يكون جاهلا بالعلوم تماما..
ثالثا: يجب أن يكون واسع الاطلاع في الأدب..
رابعا: يجب أن يكون رومانسي النزعة.. وأن يكون واسع الخيال.. وبعبارة أخرى يجب أن يكون امرأة..
خامسا: يجب أن يقبل وضع هذه الأقطاب المرعبة على جمجمته..
ضحك (صفوت) فتناثر الترمس الممضوغ من فمه.. وقال:
- أما هذا فلا.. لن أقبل أن أرتدي طاقية المخابيل هذه، ولو دفعت لى وزني ذهبا..
نظر له (شريف) في مقت.. من الصعب عليه أن يصدق أن هذا الخنزير المترهل،
كان هو الآخر مهندس (كمبيوتر).. إن (الكمبيوتر) - على غرار الشِعر - يحرق الروح بنيران القلق ولا يمكن للشعر و (الكمبيوتر) أن يسكنا في جسد بدين راضٍ عن نفسه إلى هذا الحد.. بل هما لا يستطيعان أساسا عبور طبقات الدهن والشحم..
في حياته لم يعترف قط بشاعر بدين.. ولم يثق قط في خبرات مبرمج (كمبيوتر) مكتنز.. والاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها هنا هو (صلاح جاهين) عبقري الشِعر.. و (صفوت) موهبة (الكمبيوتر) التي لم يختلف عليها اثنان..
لكن (صفوت) كان قصير الأنفاس قريب الطموح.. آثر الطريق السهل، وافتتح مكتبا صغيرا ل (الكمبيوتر)، هو عبارة عن شقة مفروشة ضيقة في حي شعبي..
تعرفون بالطبع هذه المكاتب التي تملأ المدينة، ويكون اسمها مجرد تباديل وتوافيق بين حروف (الآي) و (السي)، مثل (آي سي آي) و (سي آي آي) و (سي سي آي) إلخ..
مع لافتة تؤكد أن المكتب يضم نخبة من علماء (الكمبيوتر) و.. و.. ثم في الداخل لا تجد سوى فتاة شاحبة مصابة بالأنيميا، ترتدي شبشبا، وثلاثة أجهزة (كمبيوتر)، متهالكة، يلعب عليها الصبية ألعاب (الفيديو) السخيفة..

كان هذا هو المجال الذي ارتاح إليه (صفوت)، ووجد ذاته فيه فالأمر لا يكلفه سوى سرقة البرامج المباعة في السوق، ونسخها على شرائط (كاسيت) تباع كالكعك الساخن...
كان هذا هو (صفوت)..
لكن (شريف) كان واقعيا.. وكان يعرف أنه لو انتظر قدوم إنسان بلا عيوب كي يصادقه، فلسوف ينتظر طويلا..
قال (صفوت):
- ثم.. حتى لو نجح اختراعك هذا.. فما نفعه؟
- ألا تجد شيئا مفيدا في جهاز يصنع الأحلام لمن عجزوا عنها؟
- (الأفيون) يقدم ذات الشيء.. ولا أحد يعتبره مفيدا..
- (الأفيون) يسبب الإدمان.. وهو بكل المعايير خطوة للوراء، أما هذا الجهاز فخطوة إلى الأمام.. بل خطوات..
- تريد بيع أحلام اليقظة وتعتبرها خطوة للأمام؟!
صعد الدم إلى رأس (شريف) وتحفز في جلسته..
- لن تكون أحلام يقظة.. بل هي نتاج خبرات المرء وثقافته، يتم صهرها والتفاعل معها.. تخيل لو أنك عالم رياضيات، ورأيت حلما يناقشك فيه (فيثاغورس) و (الخوارزمي) و (نيوتن) و (أينشتين)..!
- وهل سيكونون هم المتكلمين حقا؟
- بل سيكون عقلك يحاور نفسة.. وهذه المحاورة ستنجب أفكارا أرق وأعمق بكثير مما حسبت نفسك قادرا على إيجاده.. وإذا تم تسجيل كل شيء على شريط (فيديو)، نكون قد قدمنا للبشرية أعظم اختراع تثقيفي بعد التليفزيون..
نظر (صفوت) إلى (شريف) بضع ثوان.. ثم غمغم:
- أكره أن أراك فاشلا يا (شريف).. لهذا - أرجوك - كن حذرا..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ذلك الصباح المشمس، غادر (شريف) صدفة السلحفاة التي عاش بها شهورا.. سار في الطرقات قاصدا مكتب (الكمبيوتر - ونقولها تجاوزا – الخاص بصديقه اللعين (صفوت)..
لم تكن الشمس قد رأت جلده منذ فترة طويلة.. لا شيء سوى الضوء الصناعي، والأحرف الخضراء على (المونيتور)، ودخان التبغ، وأقداح القهوة..
أقداح القهوة التي - حتما - حولت دمه إلى قهوة ساخنة تجرى فيها بعض الكريات الحمراء...
لهذا - وله الحق - شعر بالانبهار والرضا عن الكون.. وشرع يتأمل الناس في نهم..
ثم رأي اللافتة النيون مكتوبا عليها: (آي. سي. سي) للكمبيوتر.. خدمات - استشارات - العاب - تأجير - خبراء متخصصون.. هذا هو العنوان إذن.
اجتاز المدخل الرطب حيث تتراص الدراجات مربوطة بجنازير إلى ماسورة مياه صدئة أفقية..
وقبل أن يدخل الباب، سمع الصوت المميز إياه...
بوم!.. بوم...!.. دززززز!.. كليك!.. دززززز!.. كليك!
هذا الصوت المميز لألعاب (الكمبيوتر)، التي يسمونها (أركيد).. وهي ألعاب قائمة كلها على (تحاش واضرب).. هناك دائما أشياء تحاول أن تصطدم بك (ولتكن سفن فضاء، أو شهبا، أو زهورا، أو محاربي فايكنج)، وأشياء يجب أن تطلق عليها النار، ضاغطا ذلك الزر الأحمر في عصا

اللعب عندئذ تنفجر هذه الأشياء (بوم!) أو تمنحك مزية ما.. المهم أن كل هذه الألعاب سواء.
ومن الغريب أن (شريف) كتب مثل هذه الألعاب مرارا.. لكنه ظل عاجزا عن إجادة لعب حتى تلك الألعاب التي خلقها بنفسه!
كان هناك عشرة فتيان ملتفين حول ثلاثة أجهزة (كمبيوتر).. وكلهم من تلك السن التي تدل على أنهم في المرحلة الإعدادية.. وكانت سمات الإدمان والاستغراق بادية عليهم، وهم يتمايلون بأجسادهم أمام الشاشة، محاولين زيادة فعالية عصا التحكم.. كأنما أجسادهم هي نفسها مركبة فضاء، من التي يرونها على الشاشة..
كانوا يقسمون ب. (عهد الله) وينادون بعضهم ب. (يا كابتن)، كديدن الصبية في هذه السن..
بززز!.. كلاش!.. بونج!.. بام!..
وسط هذه الضوضاء اجتاز (شريف) طريقه باحثا عن (صفوت).. إن دوران المنظر الخلفي (السكرول)، يبدو متقطعا في هذه اللعبة التي يراها على اليمين.. وهذا خطأ فادح من صناع اللعبة.. هكذا فكر وهو يرمق الشاشات بنصف عين.
وعلى مكتب متهالك في ركن القاعة، جلست فتاة ناحلة سمراء، تقرأ في انهماك كتابا ما.. وأمامها كراسة دونت بها أسماء اللاعبين، وميعاد إنهاء كل دور بنا منها فأحست بوجوده.. قالت دون أن ترفع عينيها:
- لا توجد أجهزة شاغرة.. ميعادك بعد ساعة من الآن!
إذن فهذه الملعونة تحسبك (كابتن) أنت الآخر!!..
إلى رأسه صعد الدم، وأوشك أن يصارحها برأيه فيها، لكنها رفعت عينيها.. رأت أمامها أوسم رجل رأته في حياتها، وعرفت أنها أهانته دون قصد..
شاعت ابتسامة مشرقة على وجهها، وهبت تعتذر، فقال:
- كنت أبحث عن المهندس (صفوت) و....
- هو آت حالا.. تفضل بالجلوس..
جلس في حرج، وأعاد ربط رباط عنقه.. مهذبة هي.. ويوجد شيء مريح في وجهها..، نظر إلى الكتاب الذي كانت تقرؤه، متوقعا أنه لن يكون أكثر من كتاب عن الأبراج، أو رسائل الحب، وهي نوعية الكتب التي تقرؤها فتاة من نوعيتها.. ولكن.. كان الكتاب مجموعة قصص ل (وليام فوكنر)..!
غريب هذا!.. هو نفسه لم يقرأ سطرا ل. (فوكنر) برغم أنه كان في (أمريكا)، ويعرف أهمية هذا الأديب وتعقيد كتاباته..
- هل تسمحين لي؟
ومد يده مستأذنا فناولته الكتاب..
كتاب مهترئ يوحي بأن صاحبه قد افترسه افتراسا..
من هي هذه الفتاة؟.. هل هي تعمل هنا؟..
وبدأ يحاورها محاولا معرفة شيء عنها..
- اسمي (عبير).. (عبير عبد الرحمن).. أقطن قريبا من هنا.. حاصلة على دبلوم فني منذ أيام.
بالطبع لم أجد عملا ولن أجد.. ثم عرفت أن (الباشمهندس) يبحث عن فتاة ترعى هذا المكتب..
- وما هي طبيعة عملك؟.. هل تعرفين شيئا عن (الكمبيوتر)؟ ضحكت في طلاقة (وإن ظلت محتفظة بحيائها) وقالت:

- لا أعرف عنه حرفا.. كنت بحاجة للمرتب..
- وما هو مرتبك؟
احمر وجهها هنيهة.. ثم قالت:
- خمسون جنيها!
خمسون جنيها!.. المبلغ الذي تنفقه أنت على الغداء فقط يوميا في ذلك المطعم اللعين!.. لم يستطع أن يصدق أن هناك أناسا فقراء إلى هذا الحد، هو الذي عاش في سعة منذ ولد.. لو عرفت هذه الفتاة (حقيقة) راتبك لأغشي عليها.. أو أصابها جنون ذهولي.. إذن فلتصمت ولا تعلق..
- ومتى تعلمتِ (الكمبيوتر)؟
- قلت لك إني لا أفقه حرفا.. فقط علمني (الباشمهندس) كيف أنتقي شريط (كاسيت)، وأضعه في (الكاسيت)، أنقل برنامج (الكمبيوتر) إلى الجهاز.. وأبدأ اللعبة.. أطفئ الجهاز بعدها..
- إذن لا تستعملون الأقراص؟
نظرت له في غباء.. ولم تفهم...
- إن القرص - مثل شريط (الكاسيت) - وسيط تخزين، لكنه أكثر سعة وسرعة...
ثم إنه مط شفتيه في اشمئزاز:
- هذه هي كل علاقتكم (بالكمبيوتر)؟.. اللعب!!
- نعم..
- يصعب عليّ أن أرى هذا الجهاز العبقري يُهان إلى هذا الحد كأنكِ جئتِ ب. (بيتهوفن) وطلبتِ منه أن يعزف في الأفراح.. أو جئت ببطل العالم في رفع الأثقال، وجعلته حمالا في (رمسيس)..
ابتسمت للتشبيه، وأيقن هو أنها تفهمه.. الفتاة التي تقرأ (فوكنر) لابد أن تفهم كلام (شريف)..
وهنا تعالي صوت قرعات متكررة، فهرعت الفتاة توبخ الصبية، بأنه ممنوع استعمال المسطرة بدلا من الزر الأحمر..
دززززز!.. بوم!.. كليك!.. بانج بانج!.. دززززز..!
وبينما هو غارق في هذه الضوضاء الإلكترونية؛ سمع صوت (صفوت) يرحب به:
- أخيرا تنازل الكاهن الأعظم، وجاء يزور تلاميذه (الأرزقية)!
ودعاه في حرارة كي يصحبه إلى غرفة أخرى، فتح بابها بالمفتاح..
غرفة ضيقة بها جهاز (كمبيوتر) شخصي على مكتب صغير.. وطابعة.. وحزمة من الأقراص المرنة.. - هذه هي صومعتي.. أخر علاقة لي (بالكمبيوتر) كعلم.. هيه!.. أراهن على أنك لم تحب كل ما رأيته..
جلس (شريف) على مقعد جلدي، وغمغم:
- أرجو إعفاءي من ذكر رأيي في الأمر ككل..
ثم أشار إلى الباب.. وتساءل:
- هذه الفتاة.. ما قصتها؟
- مجرد فتاة بائسة تعاني الفقر والبطالة.. وقد تدّخل كرمي الطبيعي ليجعلني أتيح لها فرصة الكسب..
كسب أيها الوغد!؟.. كسب خمسين جنيها عليها أن تأكل بها، وتتزين بها، وتستقل الحافلة بها؟!..
لكنه لم يصارح (صفوت) بآرائه، لأن هذا سيجلب المتاعب للفتاة البائسة.. وهو لا يضمن

(صفوت)..
قال (صفوت) وقد خمّن بعض ما في ذهن صديقه:
- ليس ما تكسبه كثيرا بالطبع.. لكنها لن تكسب شيئا إذا بقيت في دارها.. ثم إنها في سن زواج، ولابد أن يراها أحدهم ليتزوجها..!
- ياله من منطق!
وإلى فمه حمل قرصين من النعناع.. وتساءل:
- هل هي تقرأ كثيرا؟
- تقرأ؟.. إنها عثة كتب!.. صحيح أنها لا تقرأ سوى روايات، لكني لم أر فتاة في مثل ظروفها تطالع كل هذا الكمّ..
نظر (شريف) إلى خارج الغرفة، وقد بدأت فكرة ما تتبلور في ذهنه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل طيلة المساء يرمق الضوء الخافت المنبعث من شاشة (الكمبيوتر)،.. المؤشر يتألق منتظرا الأوامر الجديدة.. لكن (شريف) كان شاردا يفكر في (عبير) التي قابلها اليوم..
أولا: واضح أنها ضعيفة الإرادة سهلة الإيحاء..
ثانيا: هي لا تفقه شيئا في مجال العلوم..
ثالثا: هي (عثة كتب) كما قال (صفوت) عنها..
رابعا: واضح أنها امرأة..
خامسا: يمكن بشيء من الإلحاح والإقناع والإغراء المادي، أن تقبل وضع تلك الأقطاب على رأسها..
إن هذه الفتاة ملائمة مائة بالمائة، وقد ساقتها عناية الله إلى طريقه ليجري عليها التجربة الكبرى..
المشكلة هنا ليست هي هل تقبل؟.. بل هل يقبل (صفوت)؟.. حتما هو يخشي مسئولية كهذه، ولن يقحم نفسه فيها.. ثم هو لن يجازف بفقد هذه الفتاة المطيعة المتواضعة، التي تعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا - دون - دون غداء. تحصل على خمسين جنيها في الشهر..
يجب أن يقبل (صفوت)..
وعندئذ ستقبل هي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) أيضا لم تستطع القراءة إذ رقدت في فراشها الضيق..
لم تستطع أن تنسى ذلك الوجه الوسيم الباسم الممتلئ رجولة وحنانا لقد حدثها بطلاقة كأنه يعرفها منذ زمن، وأحست معه بأنها جميلة، فهو لم يُظهر ما يدل على أنه لاحظ قبحها..
كان وجهه هو ذلك المزيج الساحر من (آلان ديلون)، ومدرس التاريخ، لو أن هذا الأخير لم يكن أحول..
وأيقنت أنها ستراه مرة أخرى.. حتما ستراه مرة أخرى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا يا سيدي.. لن أسمح لك!

- ولكنني أؤكد لك يا (صفوت) ألا مخاطرة هنالك..
مسح (صفوت) العرق المتكاثف على مؤخرة عنقه وجبينه.. وقال في عصبية وهو يلتهم المزيد من (الخس):
- تشومب.. تشومب!.. هذه التجربة قد تسبب الخبال لها.. وعندئذ أكون أنا مسئولا عن هذا أمام أهلها..
- ومن أين يأتي الخبال؟.. أنا جربت ذات الشيء على نفسي..
- ولم تحظ بنتيجة ما.. إذن أنت تتوقع أن تتبدل الأمور.. وكيف؟.. ربما يحدث للفتاة ما لم يحدث لك.. تشومب تشومب!
في استسلام قلب (شريف) كفه المفتوحة كناية عن العجز.. ثم إنه تناول عودا من (الخس) دسّه في فمه، وقال:
- تشومب تشومب!.. إذن دعني أحاول الكلام إليها بنفسي والأمر بعد هذا رهن بإرادتها الحرة..
- تشومب تشومب!.. لك هذا.. ولكنك ستجعلها توقع إقرارا يقول إنني لم أرغمها على شيء ولم أتدخل في الأمر كله..
- الإقرار - تشومب تشومب! - سيجعلها تتوجس..
- إما هذا وإلا فلا..
- تشومب تشومب!.. عليك اللعنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يمكننا أن نعرف الأسباب الكاملة، التي دفعت (عبير) إلى القبول..
ربما كان هناك ذلك الانجذاب الواضح إلى (شريف)، وشعورها بأنها تستطيع أن تترك له مصيرها ولا تخشى شيئا..
ربما كان السبب احتياجها للمال.. وقد وعدها بثلاثمائة جنيه عن كل تجربة تمر بها.. وربما كان السبب الأهم، هو حاجتها إلى الفرار..
بعيدا بعيدا عن واقعها الكئيب.. لقد وعدها بأنها سترحل إلى جنّة الخيال.. فلم لا؟.. لطالما تمنت هذا منذ تعلمت أن تحلم..
وربما كان السبب هو أنها لم تعد تملك ما تفقده، ولا يعنيها كثيرا أن تموت أو تفقد صوابها.. فماضيها بائس، وحاضرها تعس، ومستقبلها مظلم.. هي تعرف هذا جيدا ولن تخسر شيئا لو حاولت..
الخلاصة أنها وافقت.. وكتبت ذلك الإقرار بخطها الرديء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والآن يجيء اليوم الموعود...
تجلس (عبير) على مقعد في غرفة (صفوت) مسترخية
على حين يبدأ (شريف) في وضع الأقطاب على رأسها....
إنها اللحظة المنتظرة...
لحظة السفر إلى (فانتازيا)...



والآن يجيء اليوم الموعود..

تجلس (عبير) على مقعد في غرفة (صفوت) مسترخية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني
الرحيل

أعتقد أننا الآن قد عرفنا كل شيء عن المسافر.. فلم تبق سوى الرحلة ذاتها.. ومن يدري؟.. لربما كان هذا الجزء مشوِّقا كما نأمل له أن يكون..

1- ما قبل الرحيل...

قال (شريف) وقد احمرت أذناه من فرط انفعال يكاد يقتله:
- الجهاز الذي نحن بصدد تجربته يا (عبير)، هو فريد من نوعه.. وقد اخترت له اسما موحيا (دي - جي -١)..
قال (صفوت) في ملل وهو يلفظ قشور اللب:
- ولماذا (دي - جي - 1) وليس (دي - جي - 95) مثلا؟..
- دي - جي - 1) معناها (دريم جنريتور) أي مولِّد أحلام.. ولما كان هو أول نموذج، كان من الطبيعي أن يأخذ الرقم (واحد).
- مفهوم.. وإن كنت أفضل أن تسميه اسما عربيا مثل (م - ح - 1) وهو يفي بالغرض إن ولعكم بالتغريب...
- ليس تغريبا.. إن الإنجليزية هي لغة العلم اليوم.. واليابانيون يسمون مخترعاتهم بأسماء إنجليزية.. و... ألن تدعني أكمل كلامي هذا العام؟!
هز (صفوت) كتفيه معتذرا.. وطفق يقذف اللب لفمه ويصغي.
قال (شريف) ل (عبير) وهو يوصل أقطاب الجهاز بالدائرة، ويفتح جهاز (الكمبيوتر): - هكذا.. يقوم جهاز (دي جي - 1) بثلاث خطوات أساسية..
أولا: يبحث في مقدمة مخك عن الخبرات التي لديك من قرءاتك ويبعثها (للكمبيوتر).
ثانيا: يقوم (الكمبيوتر) بابتكار أحداث عشوائية مستخدما هذه الخبرات..
ثالثا: يرسل جهاز (الكمبيوتر) هذه الأحداث إلى مخك لتتفاعلي معها.. هل فهمتِ ما سيحدث؟
- لا..
قالتها (عبير) في براءة وهي تتلذذ بكونها صارت مهمة إلى هذا الحد فلم يجد مفرا من أن يتنهد، ويتبادل نظرة ذات معنى مع (صفوت).. ثم إنه أشار إلى جهاز (كمبيوتر) آخر وقال:
- أما عن هذا الجهاز، فيقوم بتصوير ما ستمرين به على الشاشة.. على شريط (فيديو) على شريط (فيديو)... وبهذا لن يذهب ما ترين هباءً.. لسوف نراه، ولسوف ترينه أنتِ أيضا..
ونظر في عينيها السوداوين البريئتين وهمس:
- (عبير).. أنتِ أول من يجوب هذا الكون الغريب.. أول من يرحل إلى هذا العالم الذي هو وليد خيالك.. فهل أنتِ مستعدة؟ إن هذا مثير.. أليس كذلك؟
- بلى!
قالتها وأرجعت رأسها للوراء.. وأخذت شهيقا عميقا:
سأل (صفوت) وهو يراجع سطور البرنامج على الشاشة:
- استعملت (لغة التجميع)؟.. لا بأس.. كم يستغرق البرنامج في رأيك؟
- حوالي نصف ساعة.. لكنك تذكر قول (فرويد): لا وجود للزمن في العقل الباطن..، هكذا سيخيل لها أنها عاشت دهورا كاملة في هذا النصف ساعة.. أنت تفهم هذا.. إن فيلما سينمائيا مدته ساعتان قد تحدث فيه أحداث تستغرق قرنين..
ثم بلل بلسانه شفتيه.. وغمغم:
- والآن فلنبدأ..!
وعلى شاشة (الكمبيوتر) الأول كتب أمام المؤشر الذي يشبه علامة أصغر من (<) اسم البرنامج

(دي - جي -١)..
ثم ضغط زر الإدخال..
وبدأ البرنامج يعمل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هي الآن تتذكر...
كانت تريد أن تحرم (دعاء) شقيقتها من لعب الكرة.. الكرة الوبرية الجميلة المحشوة بالإسفنج.. أخفتها في.. في.. في تنجيد المقعد بين خيوط الكتان.. كان المقعد ممزقا منذ عرفت بوجوده...
ثم نسيت كل شيء عن الكرة وعن مكان إخفائها..
لكنها الآن تتذكر غريب هذا!.. 4 × 7 = 28.. ظل تمام الزاوية...
كان خالها يملك وحمة على خده الأيسر، لهذا كانت تكره أن تقبّله.. الوحمة البشعة حمراء اللون التي توحي بالبلل..
6 × 3 = 18.. خيزرانة مدرسّة التاريخ كانت ملفوفة بشريط لاصق أخضر.. 18 ضربة بالخيزرانة لأنها لم تحفظ الدرس.. (جوهر الصقلي) بنى القاهرة.. كيف نسيت ذلك برغم أنه بديهي؟..
(إيما لازاروس) شاعرة برتغالية هي صاحبة الكلمات المنقوشة على قاعدة تمثال الحرية تذكرها جيدا لأنها رأت صورتها وأحست بأنها تشبهها.. الوجه الأسمر بارز العظام.. إلىّ أيها المتعبون فأنا أحمل مشعل الحرية.. 12 × 12 = 144
(حمدية) الشمطاء ساكنة الطابق السفلي.. كانت تداعبها مع زوجها بقذفها في الهواء كالكرة.. قذفتها نحو زوجها لكن هذا الأخير لم يلتقطها في الوقت المناسب.. سقطت أرضا وتهشمت عظمة ترقوتها.. آي!.. من الغريب أنها تشعر الآن بذات الألم الحاد الممض.. آي...
اللوغاريتمات مستحيلة الفهم.. لكنها أحبت الشعر، حتى ولو كان ذلك الشعر الجاهلي المتحجر..

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لماذا يحب شعراء الجاهلية أن يخاطبوا المثنى؟!
ما أقسى بذرة المانجو.. لكنها قضت ساعات وساعات تحكها في بلاط الصالة، محاولة أن تثقبها من الطرفين جاعلة منها صفارة.. (هند) قالت لها ذلك.. و (هند) كانت لها قدمان جميلتان.. لكن الامتحان كان عسيرا.. والبرص الذي يأتي في الصيف ليقف على سقف غرفتها لم يعد يجيء.. و........ 8 × 7 = 56..
إنها تجد صعوبة غير عادية في إيقاف شلال الخواطر هذا....
كأنه يدفعها بسرعة نحو هاوية مظلمة بلا قرار...
تحاول التشبث بحافة المقعد..
التشبث بغصون أشجار لا تدري من أين جاءت..
لكن التيار أقوى منها..
وها هي ذي الهاوية...
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد لحظات من الترنح والتمسك العصبي بمسنديّ المقعد؛ بدأ رأسها يسترخي أخيرا.. وانفتح كفاها نظر (شريف) إليها. كانت عيناها مغمضتين، ورأسها يميل إلى اليسار..، ومن فمها نصف المفتوح سال خيط من اللعاب إلى صدرها..
نظر إلى شاشة (الكمبيوتر)، فوجد البرنامج يعمل كأفضل ما يكون.. كان قد تعمَّد جعل البرنامج يكتب على الشاشة أرقاما؛ ليعرف بها في أية مرحلة هو..
والآن كان الرقم هو (4).. أي أن محتوى ذكريات الفتاة قد تدفق إلى ذاكرة (الكمبيوتر)، وتم تلفيق أحداث عشوائية له.. والآن يُعاد بثّ هذه الخيالات إلى عقلها.. وعلى (الكمبيوتر) الآخر - الموصول بجهاز (الفيديو) - كانت الشاشة ترسم حشدا من الظلال والخيالات والأرقام بسرعة يستحيل تتبعها.. سأله (صفوت) وهو يشير إلى تلك الشاشة:
- ما هذا؟
- جاربيدج..
قالها مستعملا تلك الكلمة الإنجليزية التي تدل على القمامة.. الركام.. المخلفات التي تخرج من ذاكرة الفتاة بسرعة غير عادية..، وهو يعرف أن الفتاة لم تنس شيئا في حياتها.. من مذاق أول رضعة ذاقتها وحتى لفظة (فلنبدأ) آخر ما قاله (شريف) لها.. فقط هي لا تعرف أنها تذكر ذلك.. ولا تعرف كيفية إخراجه من دهاليز عقلها.. والآن ها هي ذي تخرجه كله على الشاشة ليعاد تنسيقه..
لكنه أحس بالقلق من جسدها المتراخي...
ظل يرمق الشاشتين بضع ثوان..
ثم إنه - وقد بدأ الفأر (يلعب في عبه) إذا سمحتم لي بالتعبير - قرر أن ينهي التجربة عند هذا الحد..
إن البرامج المكتوبة بلغة الآلة تصعب مقاطعتها، وعندما تقاطع يكون الاستمرار من نفس النقطة عسيرا.
لكن (شريف) كان قد أعدّ حلقة دائمة تجعل (الكمبيوتر) يتقفد المفاتيح كلما مر1/64 من الثانية.. فإذا ما وجد المسطرة مضغوطة أنهى البرنامج..
ضغط (شريف) المسطرة فلم يحدث شيء..
أعاد ضغطها دون جدوى..
- ماذا حدث؟
- إنه الانهيار (كراش)..
والانهيار - أو ال (كراش) - يحدث حين يدخل البرنامج حلقة مفرغة دائمة.. عندئذ تستحيل مقاطعته.. ولا يوجد حل سوى قطع التيار الكهربي عن الجهاز والبدء من جديد..، تم هذا نتيجة خلل في البرمجة.. كأن تطلب من رجل أن يتوجه إلى صديق لك.. فإذا ذهب لهذا الصديق طلب منه أن يتوجه إليك!.. وهكذا دواليك..
- اذن أغلق الجهاز..
ربما لو.. لحظة..
وحاول من جديد أن يضغط المسطرة لكن (الكمبيوتر) - ذلك الوغد - ظل متجاهلا لها في تعصب عنيد..
كان مستمرا في محاولاته حين نهض (صفوت) وتفحص الفتاة.. من إصبعين وفتح جفنها.. فرأى الحدقة الشاخصة المتسعة..

قال وهو يتأمل وجهها:
- هل تريد رأيي يا (شريف)؟
- هم م م م؟
- أعتقد أن هذه الفتاة قد ماتت!...
....





∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- من يملك الحلّ؟

كان المحقق - والشهادة لله - مهذبا، ونجح في جعل الجو العام للتحقيق أقرب إلى الود.. كأنهما صديقان يثرثران قال وهو يشعل لفافة تبغ ل. (شريف): نسيت أن أقول إن (شريف) قد نجح في الإقلاع عن أقراص النعناع:
- أكرر لك يا أستاذ (شريف).. عملي ليس هو أن أدمرك أو أخرب بيتك.. بل عملي هو معرفة الحقيقة..
ثم حك فوده بكفه وقرب رأسه من (شريف) وأردف:
- لهذا أتوقع منك أن توضِّح لي الأمر، ودون أية مصطلحات تقنية.. هل (عبير) هذه ميتة أم لا؟
قال (شريف) وهو يفك ربطة عنقه:
- ليست ميتة حتما.. إنها تتنفس.. وتنبض.. وعقلها يرسل موجات كهربية.. لنقل إنها في غيبوبة.. ألم يقل أطباؤكم الشرعيون ذلك؟
- بلى...
قالها المحقق وأعاد تفحص الشاب الوسيم الجالس أمامه، عيناه تنمان عن أقصى حالات التوتر والإرهاق..
شاب على حافة الانهيار العصبي وقد احمرت أذناه كالطماطم من فرط شعور بالذنب..
- وما سر هذه الغيبوبة؟
- لقد دخل وعيها دائرة مغلقة مع برنامج (الكمبيوتر).. إنها غارقة في الأحلام.. لقد حدث شيء ما (لتركيبها الشبكي) المسئول عن بقائها مستيقظة..
- إذن لماذا لا تغلق (الكمبيوتر) وينتهي الأمر؟
- من الممكن أن نجرّب هذا، لو كنا واثقين من أن الصدمة لن تؤدى إلى وفاتها.. إن كل خبراتها وذكرياتها، تدور دورة منتظمة من مخها إلى (الكمبيوتر) فالعكس.. فلو أوقفنا الجهاز، بينما هذه الخبرات داخل ذاكرة (الكمبيوتر)، فلربما أدى هذا إلى هلاكها.. ومن يدري؟.. لربما أدى هذا إلى استيقاظها.. أو استيقاظها مخبولة عاجزة عن اتخاذ قرار.. لا أحد يدري ما سيحدث..
- إذن فجهاز (الكمبيوتر) مستمر في العمل؟
- بالتأكيد.. لقد حرصنا على عدم انتزاع الأقطاب من على رأسها.. وقمنا بتوصيل (الكمبيوتر) إلى مولّد صغير في أثناء نقلها إلى المستشفى.. ثم قمنا بنقل الدائرة لتعمل على مصدر تيار غير قابل للانقطاع (يو - بي - إس) حتى نضمن عدم وقوع حوادث مؤسفة..
- إذن فالفتاة الآن..
- لنقل إنها في حالة إحياء مؤقت.. تتغذى على المحاليل الوريدية، ويتم مراقبة تنفسها ونبضها..
- وإلى متى؟
- إلى أن تموت أو نجد مخرجا..
نظر المحقق إلى (شريف) وضم أصابعه قائلا:
- أعتقد أنك في ورطة حقيقية يا أستاذ (شريف)!
دفن (شريف) باقي لفافة التبغ في المطفأة.. وهز رأسه:
- نعم.. أعرف هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) هناك في المستشفى.. ممددة على فراش في العناية المركزة، وجوارها جهازا (كمبيوتر) يعملان بلا انقطاع..
كانت (تتنفس) دون عون من أحد، وفيما عدا الخوف من قرح الفراش الذي كان يدعوهم إلى تقليبها كل ساعتين؛ لم تكن هناك مشاكل ما، كأنها الأميرة النائمة التي تنتظر أميرها ليوقظها..
وعلى (الكمبيوتر المستقبل تتوالى الصور بسرعة جنونية، يستحيل معها تبين شيء ما.. أما (الكمبيوتر) المرسل فعلي شاشته تتوالى الأرقام١1- 2- 3- 4 - 5 - 6- 7- 8 - 9- 10-1-2-.... دواليك..
كانت حالة فريدة من نوعها...
وقد جاءها حشد من الأطباء وخبراء (الكمبيوتر)، الرؤية أول غيبوبة يسببها (الكمبيوتر) في التاريخ..
وتم الاتفاق على نقلها إلى أحد مراكز الإحياء المؤقت في (نيوجرسي) بالولايات المتحدة، وأن تقوم الحكومة الأمريكية بتمويل علاجها الذي يتكلف ستمائة دولار يوميا، وهو رقم يستحيل على أهلها البؤساء أن يوفروه على مدار عام كامل..
وهكذا.. ينتهي الأمر ببطلتنا غائبة عن العالم تماما، راقدة على فراش خاص بقرح الفراش، على حين تتوافد الخبرات العلمية لرؤيتها والإدلاء بالآراء..
ولا داعي للقول إن جهازي (الكمبيوتر) جوارها لم يتوقفا لحظة عن العمل، لأن أحدا لم يجرؤ على محاولة الإيقاف..
أما عن (شريف) و (صفوت) فقد أخلى سبيلهما بكفالة لأن جريمتهما - إن وجدت - لم تكن قابلة لتصنيفها في أية خانة قانونية..
عاد (صفوت) يبحث عن فتاة أخرى تدير له مكتب (الكمبيوتر)، على حين شدّ (شريف) رحاله إلى الولايات المتحدة..
لقد أقسم: لو أن هناك علاجا لحالة الفتاة فهو - حتما - واجده قبل أي إنسان آخر.. لن يغفر لنفسه أبدا أن تلك الفتاة المفعمة بالحيوية صارت جثة حية بسببه.. لأنها وثقت به...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي (نيوجيرسي) وجد أن العلماء هناك عاكفون على تجربة مثيرة.. إن الصور السريعة التي يلتقطها جهاز (الكمبيوتر) من ذهن (عبير)، قد تعني شيئا..
لو أنهم فقط تمكنوا من إبطائها قليلا فلربما استخلصوا منها ما يطلعهم على ما تراه الفتاة في سباتها الطويل هذا..
وبدأت المحاولات البطولية التصوير هذه الصور على شرائط (فيديو).. ثم نقل هذه الشرائط إلى أفلام مقياس (16 مم).. ثم دراسة كادرات هذه الأفلام ومحاولة التوصل إلى سرعة مناسبة لعرضها..
وأخيرا أدركوا أن السرعة المثلى هي كادران لكل ثانية (سرعة العرض العادية هي أربعة وعشرون كادرا لكل ثانية)..
وجلسوا ومعهم (شريف) يتأملون حصيلة يوم كامل من الخيالات التي خرجت من مخ (عبير)....
كان الفهم عسيرا.. والصور أقرب إلى الأطياف، لكنهم استطاعوا استنتاج قصة لا بأس بها..
وعرفوا الكثير عما تمر به الفتاة في هذه اللحظات...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثالث
فانتازيا

أما وقد اقتربنا من نصف الكتيب، فلا داعي للمزيد من إضاعة الوقت.. ولنسرع إلى (فانتازيا)....

1- عالم جديد...

. ها هي ذي (عبير) تقف هناك..
شعرها يتطاير مع الريح والشرود يطل من عينيها.. وأمامها - حيث وقفت على الهضبة - يمتد ذياك الوادي السحيق، تحيط به مجموعة من المرتفعات والغابات متشابكة الأشجار..
لم تكن تعرف أين هي ولا من هي...
ثم بدأت تعرف إجابة السؤال الثاني...
هي (عبير عبد الرحمن).. جاءت هنا بعد اجتيازها تجربة مولِّد الأحلام (دي - جي - 1) الذي ابتكره ذلك المهندس الوسيم (شريف)..
أين هي؟.. وكيف وصلت ها هنا؟..
- مرحبا بك يا آنسة في (فانتازيا).
سمعت هذه العبارة فأجفلت.. استدارت للوراء لترى رجلا يرتدي سترة سوداء أنيقة، ويضع يده في جيبه..
كان مهذبا يتمتع بوجه مريح.. لكن هذا لا يبرر وجوده ها هنا خاصة وهي لم تره قادما..
- من أنت؟
هز الرجل وجهه بتؤدة.. وأخرج من جيبه قلما من الذي يفتح ويغلق بضغط أعلاه.. وقال:
- إنهم يدعونني (المرشد).. ومهمتي هي أن أجعلك أكثر إلماما بجوانب عالمك الجديد.. إن هذا يستغرق وقتا كما تعلمين..
تراجعت للوراء خطوتين.. وتأملته حيث وقف كالتمثال أمامها.. لا شيء يتحرك فيه سوى إصبعه الذي يضغط على القلم مخرجا ومدخلا السن مرارا.. تك!.. تتك!.. تك.. تتك...
سألته وهي تحاول ألا تُبدي رعبا:
- تبدو.. تبدو شبيها بشخص أعرفه
- طبعا.. أذكرك بأستاذ اللغة العربية الذي كان يدرس لك وأنت طفلة.. كان يعرف كل شيء بالنسبة لك، وظل رمزا للعلم في عقلك الباطن.. لهذا من الطبيعي أن أكون أنا من يقودك عبر هذا العالم..
ثم ابتسم وواصل ضغط القلم...
- أنت ضيفة على عالمنا الذي هو عالمك الخاص..
- ماذا تعني؟...
- أعني أن هذا العالم كله من صنع خيالك أنت..
بعبارة أخرى أنت تائهة في دهاليز عقلك.. كل هذه الوديان.. الجبال.. الأشخاص.. كلهم من نسج خيالكِ الخاص..
لم يبدُ عليها أنها فهمت شيئا، فأخذ بيدها برفق ودعاها كي تنزل معه إلى الوادي.. لم تجد القوة كي تعترض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظت أن الوادي يمتد إلى مساحة شاسعة.. وأدركت أن هناك خلف الجبال توجد مدينة كاملة شامخة المباني..

كان هناك أطفال يلهون هنا وهناك.. وثمة فلاحة تملأ جرة ماء من نهر لا تذكر (عبير) أنها رأته من أعلى..
وكانت هناك قضبان قطار تمر بمحاذاة النهر.. ثم رأت القطار نفسه يدنو.. قطارا مكونا من عربة صغيرة زاهية الألوان، تجرها مقطورة بدائية.. ورأت القطار يقف أمامها كأنه بانتظارهما..
- هذا هو القطار وسيلة التنقل في (فانتازيا)..
قالها (المرشد) وهو يقودها إلى ذلك القطار العجيب..
دعاها للصعود فلم تجد مفرا.. وضعت قدمها اليمنى على الدرجة المعدنية الأولى ثم تبعتها باليسرى.. وشرع القطار يهتز قاصدا وجهته المجهولة.
قال لها مبتسما وهو يسترخي في مقعده الخشبي البسيط:
- كما ترين يشبه الأمر تلك القطار الذي يجوب بالزوار مدينة (ديزني لاند)..
لم تردّ لأنها كانت منهمكة تراقب الأشياء العجيبة التي تتلاحق على جانبي الطريق..
كانت هناك مدينة تشبه مدن رعاة البقر في كل شيء.. الحانة واسطبل الخيول وعربات المسافرين، وفي الشارع الرئيسي رأت فارسين يتقدمان ببطء نحو بعضهما، ويد كل منهم تحوم حول مسدسه..
ثم رأت كلا منهما يسحب سلاحه بسرعة البرق، وسمعت دوي الرصاص، ثم رأت جثة أحدهما ممددة على الأرض تنزف دما..

- هنا الجزء الخاص بقصص (الوسترن) – قال (المرشد) إذ رأى اهتمامها ويمكنك هنا أن تقابلي أبطالا قرأتِ عنهم مثل (بافالوبيل) و (ديفي كروكيت).. هل ترغبين في النزول هنا؟

الثلج يتكاثف على الأرض، وريح باردة تهب عاصفة بجسدها النحيل.. والسماء تكفهر ببطء..
وبعد ثوان ألفت القطار يسير بين الثلوج.. وفجأة وجدت المشهد يتبدل لترى أدغالا إفريقية تتلألأ تحت شمس حارقة.. وثمة فرس نهر يتثاءب في مستنقع..
قال (المرشد) وهو يداعب القلم:
- هذا هو الجزء الخاص بأدغال (إفريقيا).. يمكنك هنا أن ترى أبطال (هي) أو (كنوز الملك سليمان).. أو لورد (جراي ستوك) الشهير ب...
هاآآآآآآآآآآآه!
دوت الصيحة المألوفة في أذنها فنظرت لترى ذلك العملاق الأبيض يتواثب بين الأشجار متعلقا بفرعٍ متدلٍ، يتبعه (شامبانزي) صغير..
تحركت شفتاها لتكمل عبارة (المرشد) والانبهار يخنقها:
- الشهير ب. (طرزان)!
القطار مستمر في طريقه..
ترى الآن مدينة تشبه مدينتها، وأزقة كالتي تربت فيها.. ووجوها لا يمكن إلا أن تكون مصرية..
سألت (المرشد) في حيرة:
- وهذا؟
- إنها قاهرة أبطال (نجيب محفوظ) و (يحي حقي) وغيرهم.. يمكنك هنا أن تقابلي (أحمد عبد الجواد) وسواه..
ظلت ترمق المشهد مفتونة، بينما القطار يواصل رحلته الغريبة...
وها هي ذي ترى مدينة حديثة، تلتمع ناطحات سحابها في ضوء الشمس.. وفي السماء تحلق طائرة مدنية يتصاعد الدخان الأسود من محركاتها.. يبدو أن قائدها يلاقي مشكلة ما...
وفي اللحظة التالية، ترى شيئا ما يشق عنان السماء.. شيئا بدا لها أشبه بخط طويل أزرق - أم لعله أحمر؟ - يدور دورة واحدة ثم يتجه إلى ذيل الطائرة ليمسك بها.. وتوازنت الطائرة ثم شرعت تهبط - ببطء - إلى حيث اختفت خلف المباني..
وسمعت (عبير) (المرشد) يقول لها وهو (يتكتك) بالقلم:
- أهو طائر أم طائرة؟.. لا.. إنه (سوبر مان)!
- أتعني أنه هنا؟.. هذا شيء خيالي!
- ولِمَ لا؟... إن الخيال هو اسم اللعبة هنا يا صغيرتي..
كان الظلام قد بدأ يسود المدينة.. اللون الأزرق يغلف ناطحات السحاب بلا رحمة، وفجأة هي ذي تري دائرة من الضوء تسقط على جسم إحدى الناطحات.. وفي وسط الدائرة ارتسم ذلك الخيال المألوف.. خفاش يفرد جناحيه..
- إنها (جوتام سيتي).. هناك متاعب ما دفعتهم لاستدعاء الرجل الوطواط!.. هل تريدين النزول هنا؟
- لا.. - متلاحقة الأنفاس - أريد أن أرى هذا العالم كله مرة واحدة!
- لن تجدي عمرا كافيا لذلك.. إن كل إبداعات الإنسان عبر العصور هنا..
الآن تنتهي المدينة، وتجد نفسها وسط خرائب إغريقية تحوم فوقها طيور لها وجوه بشر.. وترى رجالا أقوياء كالأسود يصارعون مسوخا.. ومن بعيد يتحرك عملاق ذو عين واحدة يصطدم رأسه بالسحاب..، وعادت الشمس تشرق..
قال (المرشد) في لا مبالاة:

- هذا هو عالم الأساطير الإغريقية.. حروب طروادة.. (ميدوسا) و (هركيول) و (وأطلس)..
القطار يمر بجبلين.. وتم (عبير) عنقها الناحل لتري رجلا ضخم العضلات معلقا بين الجبلين وهو يتلوّى ألما..
- هل ننقذه؟
- دعك منه.. إنه (برومثيوس) يتلقى عقابه على سرقة النار المقدسة..
ثم تثاءب وأردف:
- لسوف ينقذه (هركيول) يوما ما..
القطار يمشي الآن ببطء على حافة وادٍ سحيق مظلم.. وترى (عبير) الوادي أقرب إلى وديان القمر بحفره البركانية العميقة ورماله الرمادية.. ثم ترى من بعيد شيئا أشبه بقذيفة المدفع، وشيئا أشبه بالكرة.. تميل على (المرشد) تسأله:
- وما هذا؟
- إنه عالم القمر حيث أحداث (أول رجال على القمر) و (من الأرض إلى القمر)..
- إذن كيف نتنفس نحن بهذه السهولة؟
- لأن كل هذا خيال.. لكنك لو نويت مغادرة القطار لاستحال عليكِ التنفس لأنك ستُعاملين وقتها بقواعد القصة.
ومن بعيد تدور المكوكات الفضائية وتحوم الأطباق الطائرة.. ثمة سفينة فضاء عملاقة، تطلق إشعاعات خضراء على كل ما يتحرك فينفجر.. وتتناثر الشظايا..
- عالم روايات الفضاء.. ستجدين هنا كل ما كتبه (أرثر كلارك) و (راي برادبوري) و (إيزاك أزيموف) و (نهاد جاد) و (رءوف وصفي) وغيرهم...
ويستمر القطار في الاهتزاز مارا بما يمكن أن يكون مدينة فرنسية من القرن الماضي.. نساء يرتدين تنورات طويلة ويحملن المظلات، يلوحن بأيديهن للقطار.. ورجال يرتدون (الريدنجوت) يلوحون بقبعاتهم..
- هل تحبين الروايات العاطفية الفرنسية؟
- لا أدري..
- هنا تقابلين غادة الكاميليا، ومدام (بوفاري)، وكل بطلات (بول بورجيه) وغيره.. ومن يدري؟.. ربما قابلت (أرسين لوبين)! ثم ظهر حشد من الغوغاء يتصايحون.. كأنها مظاهرة.. وقد تقدم أحدهم الموكب يحمل راية مثلثة الألوان، وخلفه أخر يحمل بندقيته.. والموكب يحيط بعربة تجرها خيول، يقف بداخلها مجموعة من الرجال والنساء الذين تنم ثيابهم الرثة عن أصل راق عومل بعنف..
قال لها (المرشد):
- هذا المكان يسبق ما رأيناه بمائة عام.. هؤلاء النبلاء ذاهبون إلى المقصلة!
- تعني أن هذه (قصة مدينتين) لـ (تشارلز ديكنز)؟
هز رأسه في سأم وغمغم:
- وكيف لي أن أعرف؟.. ربما كانت إحدى قصص (فكتور هوجو)..
وتسمع الحشد يهلل فتشيح ببصرها عن المنظر القاسي..
ومن بعيد ترى غابة أخرى.. غابة تختلف عن الإفريقية التي رأتها.. وتسمع صوت بوق يدوى.. ثم ترى عشرات الأشخاص يرتدون ثيابا خضراء، ويثبون من فوق الشجيرات، بينما كل منهم يحمل في يده قوسا وسهما.. قال (المرشد):

- هذه هي......
- نعم.. نعم.. (شيروود) حيث يعيش (روبن هود) الخارج على القانون.. ولكن من هو هذا الفارس الملثم الذي يحمل رمحًا؟
- إنه (إيفانهو).. كلها أساطير إنجليزية عتيقة، لكننا ندين بالفضل للسير (والتر سكوت) الذي جمعها ونسقها.. مثلما فعل (عبد الرحمن الأبنودي) بكل التراث المبعثر عن (أبو زيد الهلالي)..
وبدأ المشهد يتكشف عن مجموعة من القلاع رهيبة الشكل.. وألسنة البرق تهوي من السماء لتعطيها - لثوان - منظرا يجمد الدماء في العروق.
قال (المرشد) وهو يشير لها إلى بعيد:
- هذا هو عالم الرعب هنا.. هذه الشامخة هناك هي قلعة ال: الكونت (دراكيولا).. ستجدين هنا الكثير من المذءوبين والموتى الأحياء، ولربما صادفت د. (فرانكنشتاين) عاكفا على اختراعاته الشنيعة.. ولربما قابلت العجوز (رفعت إسماعيل)!
- يا للهول!.. أنا لا أهوى الرعب..
- وأنا مثلك.. لهذا لا أزور هذا المكان كثيرا..
ويترك القطار هذه الهضاب لتري من بعيد بحيرة تتوسطها جزيرة.. والجزيرة يتوسطها بركان شبه ثائر.. معركة بالمسدسات بين رجال يرتدون ثيابا معدنية براقة ورجل متأنق يرتدي بذلة السهرة البيضاء ورابطة عنق، بينما يمسك في يده يد حسناء شقراء، ويطلق الرصاص باستمرار.. ويجري، من العجيب أن الرجال المعدنيين كانوا يسقطون.. في حين لم تؤثر فيه طلقاتهم على الإطلاق كأنما يضربونه بالحلوى.. ودنت طائرة (هليكوبتر) غريبة المنظر، فتعلق الرجل ببابها، وساعد الفتاة على الصعود.. وأطلق طلقتي رصاص قتلتا ستة رجال - لا أدري كيف - ثم وثبت إلى الطائرة.. ومن بابها المفتوح أخرج يده يلوح بكأس من (الشمبانيا) للرجال المطاردين الذين ظلوا أحياء..
- ما هذا الهراء؟..
- إنه العميل (صفر صفر سبعة).. أو بعبارة أخرى (جيمس بوند) في إحدى قصص (إيان فلمنج).. ألا تقرئينها؟
- بلى.. قرأت واحدة في سن العاشرة وكدت أموت غيظا من لا معقولية الأحداث..
- إن (جيمس بوند) له معجبوه.. وعلى كل حال يمكنك ألا ترتادي هذا الجزء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن بعد رأت (عبير) مدينة يعود. طراز مبانيها إلى القرن الماضي، أو أوائل هذا القرن..
كانت العربات ذات الخيول تمضي هنا وهناك فوق الأرضية المصنوعة من الحجارة، على حين يتصاعد الضباب في كل مكان، ورجال شرطة يرتدون ثيابا سوداء وقبعات عالية غريبة، يسيرون هنا وهناك ملوّحين بهراواتهم..
وكان الرعاع يتبادلون السباب بلغة فظة.. فهم لا ينطقون الهاء بتاتا، بل ينطقون الهمزة بدلا منها، وحتى بإنجليزيتها الكسيحة أدركت أنهم يتحدثون بلغة سوقية خشنة..
قال لها (المرشد) وهم يعبرون السوق المزدحم:
- (لندن) القرن الماضي وبدايات هذا القرن.. هي مسرح لعدد كبير من القصص المسلية...
وواصل ضغط القلم وتركه.. تك.. تتك.. تك!..
(لقد بدأت هذه العادة تثير أعصابها حقا).. وأردف:

- ستجدين هنا (شيرلوك هولمز) وكل شخصيات (تشارلز ديكنز).. لربما صادفت (أوليفر تويست) يتسكع في مكان ما.. هناك عالم شاب في داره الان يجربا آلة الزمن، بينما د. (جيكل) يتحول إلى مستر (هايد) في معمله المظلم.. وشخص ملثم يعبر الطريق، دون أن يعرف أحد أنه هو الرجل الخفي..
وفي أحد الأقبية يرقد الكونت (دراكيولا) في صندوقه الخشبي المستورد من (رومانيا)، عازما على مصّ دماء (مينا)!
ثم نظر لها نظرة إغراء.. وسألها:
- هل نتوقف هنا؟
نظرت له وقلبها يخفق انفعالا..
- لِمَ لا؟
وهكذا توقف القطار..
ونزلت منه (عبير) لترتاد هذا العالم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- أدركني يا مسر (هولمز)!

ابتسم (المرشد) ل.(عبير) وقد رأى انبهارها بهذا العالم:
- إذا ما سئمتِ (لندن) هذا العصر، يمكنك الاتجاه غربا إلى حيث تجدين (لندن) المعاصرة.. أو شرقا إلى حيث تجدين (لندن) في عصور غابرة.. وكما قلت لك لا مستحيل هناك..
كانت هي تسير مبهورة في عالم لا يصدق..
بائعات الزهور يسرن هنا وهناك، ورجال الشرطة يرمقون الصبية المتشردين بعين الشك، على حين تشق العربات ذات الخيول طريقها عبر الشوارع التي تنيرها مصابيح (الكيروسين) على أعمدتها، وينزل من هذه العربات رجال متأنقون، يرتدون السترات الطويلة والقبعات العالية، يتأبطون أذرع نسوة يرتدين التنورات الواسعة المزركشة بالدانتيلا، ويحملن مظلات تقيهن المطر..
كان الجو معتما وسحب كثيفة تغطى وجه الشمس الذي يطل على استحياء من أعلى وكان هناك سيرك في نهاية الشارع، يقف على بابه رجل بدين، يكرر - دون كلال - كلمات لابد أنها دعاية لما بالداخل، وجواره رجل نحيل أسمر ينفث النيران من فمه.. وفقير هندي يلف ثعبانا من نوع (الأصلة) حول جذعه الناحل..
قال لها (المرشد) وهو يشير إلى السيرك:
- لو دخلت لربما رأيت الرجل الفيل ذاته ([2])!
ابتسمت.. ونظرت له في امتنان.
لم يخطر لها قط أن خيالها قادر على اصطناع هذا العالم الساحر الذي يدير الأعناق..
أما الجديد في الموضوع، فهو أنها أدركت فجأة، أنها لم تعد ترتدي ثيابها العصرية الرخيصة.. نظرت لأسفل فوجدت أنها ترتدي ثوبا واسعا مزركشا بالدانتيلا، فوقه تايور أنيق.. ووجدت في يدها مظلة، وعلى رأسها قبعة عالية، أدركت من نظرة إلى صورتها في واجهة محل أنها محلاة بالزهور..



نظرت لأسفل فوجدت أنها ترتدي ثوبًا واسعًا مزركشًا بالدانتيلات، فوقه تايور أنيق..

إن (دي - جي - 1) يؤدي عمله جيدا.. لقد أعدّ لها كل شيء كي تندمج في القصة.. الأغرب هو أنها صارت قادرة على فهم الإنجليزية والكلام بها، لا تدري كيف.. حتى إنجليزية الرعاع المشوهة

التي يسمونها (كوكني) لم تعد غريبة عليها..
قالت (للمرشد) وهي ترمق أحد السكارى يخرج من حانة:
- ومتى أستطيع مغادرة هذا العالم أيها المرشد...؟
وقطعت عبارتها لأنها أدركت أنه لم يعد واقفا جوارها..!..
لقد اختفى (المرشد) بعد أن قادها إلى قلب (لندن) في القرن التاسع عشر.. وكأنه أنهى مهمته.. تركها وحيدة لتعيش مغامرتها..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأت أمام عينها لافتة محل كبير اسمه (ستانفورد).. فخطر لها أن تدخله لتتفقد المعروضات بالداخل.. لسوف يعطيها هذا فكرة أفضل عن أزياء هذا العصر ولوازمه..
ثم لماذا لا تشترى شيئا؟.. كانت الأن تعرف أن في كيس نقودها مبلغ مائة جنيه استرليني لا تدري كيف جاءت.. لكنها تكفيها في الوقت الحالي.. إن (لندن) بالتأكيد لم تكن باهظة التكاليف في ذلك الزمن المبارك..
دخلت المحل، وشرعت تتأمل في انبهار الموديلات الخشبية التي تمثل فتيات يستعرضن أناقتهن.
كانت هناك علب تبغ كثيرة، وكتب، وأدوات كتابة، وقطع أثاث فاخرة.. لقد كان المحل أقرب إلى ما نسميه اليوم (سوبر ماركت)..
وكانت البائعات يركضن في كل الأرجاء - كالنحل – على حين وقف رجل بدين أصلع، يرتدي ثيابا متحذلقة، وقد قلب شفته السفلى اشمئزازا؛ يصدر لهن تعليماته وينتقدهن بغلظة.. من الواضح أن هذا هو المستر (ستانفورد) نفسه..
ثم اختلست نظرة لخارج المحل فرأت رجلين يتناجيان أحدهما متأنق شعر رأسه بلون الثلج، والآخر رث الثياب يبدو كالعمال.. وبعد قليل رأت الرجل رث الثياب يدفع باب المحل الزجاج، ويتقدم إلى البائعة الحسناء، حاملا لفافة ما..
- هل أستطيع معاونتك يا آنسة؟
بوغتت (عبير) للحظة.. ثم نظرت للوراء فرأت بائعة شقراء يملا النمش وجهها، وتفرك يديها في تأدب، منتظرة إجابتها..
قالت (عبير) بعد أن تنحنحت:
- لا شيء.. أعنى.. كنت أبحث عن راديو صغير..
كان كلامها بالإنجليزية كما قلنا.. وخرج من فمها سلسًا إلى حد غير متوقع.. ولم تكن تملك ما تطلبه سوي (الراديو) لأنها تعرف أن البائعة ستهز كتفيها أسفا.. وتقول:
- (راديو)؟.. عفوا.. ليس لدينا.. هل هو نوع من الشاي؟
ابتسمت (عبير) في إحراج:
- نعم.. نعم.. شاي هندي ممتاز.. لكن...
- آه.. أرى.. لم لا تجربين شاي (إيرل جراي) وارد مستعمراتنا؟
- لم لا..؟.. أعطيني منه علبة.. وتركتها البائعة لتحضر الشاي.. على حين دنت (عبير) من الرجل رث الثياب الذي كان يناقش البائعة، وكان مستر (ستانفورد) الفظ قد تدّخل في المحادثة، بينما الرجل يكرر:
- ثق بأن هذا هو الصواب.. إنها أصلية تماما..

لكن مستر (ستانفورد) ظل مرتابًا:
- كيف لي أن أتأكد؟
قال الرجل وهو يجفف عرقه: - إذن لنعقد اتفاقا.. ستعرضها أنت في واجهة المحل، وتعطيني بها إيصالا دون أن تدفع بنسا واحدا.. وإذا جاءها مشترٍ يمكنك إعطائي نقودي بعد أخذ عمولتك..
- ما رأيك يا (هيلين)؟
قالها مستر (ستانفورد) سائلا البائعة.. وقد بدا عليه التفكير.. لم يكن يطلب رأيها قدر ما يطلب مهلة لاتخاذ القرار..
قالت الفتاة في كياسة:
- إن كان هذا فلن نخسر شيئا يا سيدي.. يمكننا قبول العرض.. نظر (ستانفورد) للرجل، ثم عاد يتأمل اللفافة..
- المشكلة هي أنني لا أفقه شيئا في التحف.. كيف أتأكد من أن هذه المروحة أصلية، وأنها تخص الملكة (تي) شخصيا؟!
هرش الرجل رث الثياب عنقه وغمغم:
- إن لهذه الأشياء مشتريها.. ولسوف يعرفونها حين يرونها في واجهة المحل.. وكما قلت لك، أنت لا تطالب أحدا بشيء.. من يريدها سيأخذها دون مشاكل..
- إنني أجد نفسي مدفوعا إلى قبول عرضك..
- الشاي يا آنسة!
دوت العبارة في أذني (عبير) فاستدارت لترى البائعة، وقد جلبت لها ما أرادت.. شكرتها.. وذهبت إلى الصراف لتدفع ثمنه آسفة على أنها لم تستكمل المحادثة المثيرة للاهتمام..
وخرجت من المحل لترى ذلك الرجل المتأنق أشيب الشعر، يقف على جانب الطريق الآخر.. ورأت الرجل رث الثياب يلحق به ويتبادلان بضع كلمات.. ومن نافذة المتجر رأت العاملة تضع المروحة الفرعونية المزعومة في إهمال.. وفي اللحظة التالية رأت شيئا مثيرا للاهتمام.. الرجل المتأنق يعبر الشارع إلى واجهة المحل ليرمق المروحة في انبهار.. ثم يجتاز الباب إلى الداخل..
كان هذا أقوى من تحمّلها.. فعبرت الشارع جريًا هي الأخرى ودخلت المحل في اللحظة المناسبة، بينما كان المتأنق يتجه نحو إحدى البائعات في تؤدة.. وسمعت المدير يجيبه:
- نهار جميل يا لورد (ثاكري)..
إذن هم يعرفونه.. ولكن لماذا.....؟.. ولكن.. لتصغِ الباقي المحادثة عليها تفهم ما يحدث.
قال اللورد وهو يرفع عكازه في وقار ويداعب شاربه:
- حفظ الله الملكة يا عزيزي مستر (ستانفورد).. كنت مارًا من هنا، فوجدت في واجهة المحل ما بدا لى كمروحة أصلية تخص الملكة (تي).. أنت تعرف ولعي بالآثار!
تبادل المدير والبائعة نظرة ذات معنى.. يالها من مصادفة!.. ثم رسم على وجهه سيماء التاجر الحاذق وقال:
- الواقع أنك لم تخطئ الحدس يا سيدي اللورد.. لقد وصلتنا هذه المروحة مع أحد المستكشفين من (مصر) منذ أسبوع، وحرصنا على أن يراها عملاؤنا مرهفو الذوق واسعو الثقافة.
- كم؟
هرش المدير صلعته في شرود.. فهو لم يفكر قط في تثمين هذا الشيء الذي رآه لأول مرة منذ

ربع ساعة.. ثم قال:
- عشرة.. عشرة آلاف.. أو لنقل......
- ماذا؟ - هتفت الورد كأنما رأى لتوه تجديفا خارقا..
- عشرة آلاف؟
- إذا كان السعر...
سأدفع لك عشرين ألفا حالا.. أنت لا تحسن تقدير التحف الفرعونية إلى درجة إهانتها!
ورأته (عبير) يخرج شيكا ليدون عليه الرقم، ويعطيه للمدير، ثم يتجه للبائعة التي ناولته المروحة، ويخرج من الباب وسط الانحناءات والذهول..
وعبر النافذة رأته يعبر الشارع إلى الرصيف الآخر ورأته يناول المروحة إلى الرجل الآخر رث الثياب الذي كان ينتظره!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا فوق احتمالها..
ما معنى هذا الذي حدث؟.. لابد أن له تفسيرا..
ولكن من يعينها على الفهم؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سارت عبر الطرقات تتأمل العربات والناس برغم أنها - كما قلنا - لم تكن تجيد الإنجليزية؛ كان من السهل عليها الآن أن تطالع اللافتات وتسمع لغو القوم وتعرف أين هي بالضبط.
لم تقلق بصدد أين تبيت ليلتها؛ لأنها تثق بقدرة (دي - جي -١) على الحكم.. ومن يدري؟.. ربما كانت هذه هي مغامرتها المرتقبة.. أن تبحث عن مأوي..!
ها هو ذا (بيكر ستريت).. إن الاسم مألوف لها.. مألوف أكثر من اللازم، ولكن متى وأين؟.. وهنا تذكرت.
لقد قرأت هذا الاسم مرارا في أثناء مطالعتهم لروائع (أرثر كونان دويل).. فهذا هو الشارع الذي يقيم فيه - حسب القصة - أذكى مخبر بوليسي عرفه العالم: (شيرلوك هولمز)..
ولم تكن تعرف أن التاريخ قد خلّد هذا الشارع، وأنه - حتى في دنيا الواقع - ما زال هناك من يأتون إلى هذا الشارع متوقعين أن يقابلوا هناك المخبر العبقري..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا يجدر بنا أن نتوقف لحظة لنقول شيئا عن (هولمز)..
ابتكر السير (أرثر كونان دويل) هذه الشخصية عام 1891 مستوحيًا شخصية أحد أساتذته في الجامعة، وبعد ما قرأ بضع قصص لـ (إدجار الآن بو)..
وبرغم أن الشخصية أحدثت دويًا سريعا ثم خبت.. إلا أنها سرعان ما عادت للحياة في عام 19، وصار الإقبال على قراءتها كاسحا في كل بقاع العالم؛ بسبب الشخصية الجذابة لهذا المخبر البريطاني الرصين..
ولقد سيطرت هذه الشخصية على إنتاج الكاتب إلى حد أنه صار عاجزا عن التخلص منها، وقوبلت كتاباته الأخرى بفتور بالغ..
بل إنهم - عام 1901 - أقاموا معرضا خاصا لـ (هولمز) في انجلترا، وكونوا جمعية أصدقائه،

ودرست أجهزة التحقيق الجنائي في كل أرجاء العالم أساليبه وطبقتها..
لقد كان (هولمز) نموذجا لعبقرية أديب استطاع أن يخلق عالما متكاملا متشابكا إلى حد أنه صار أسلوب حياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت (عبير) أحد المارة عن دار مستر (هولمز) فأشار لها إلى باب موصد جواره مقبض مخصص للطرق.
ها هي ذي تدق المقبض وتنتظر..
ينفتح الباب عن رجل أميل للبدانة ضيق العينين يرتدي سترة من الصوف المنقوش بالمربعات، وله شارب كثّ معتني به..
- معذرة سيدي.. كنت أبحث عن مستر (هولمز)..
انحنى الرجل في أدب ليعينها على الدخول...
وفي هيبة دخلت.. إلى قاعة جلوس اشتعلت في ركن منها نيران مدفأة، كانت القاعة غير منسقة تنم عن إهمال شديد وقلة اكتراث بالنظام دخان التبغ يملأ المكان - كأن حربا دارت هنا - مما جعل التنفس عسيرا، وكانت هناك أوراق وملفات ملقاة في كل مكان.. وثمة كمان ملقى على أريكة.. وعلى الحائط رأت ثقوبا.. ثقوب رصاص، كأن أحدهم كان يتدرب على الرماية بالمسدس محاولا أن يرسم حروفا على الحائط...
وعلى إحدى الأرائك رأته ممددا وقدماه - اللتان دسهما في خفّ صوفي - مستراحتان على مسند..
كان هذا (شيرلوك هولمز) نفسه كما تخيلته مرارا!
- ماذا هناك يا عزيزي (واطسون)؟
- إن هذه الآنسة تعتقد أن لديها ما تقوله لك يا (هولمز).. إذن فهذا هو د. (واطسون) صديق (هولمز) الصدوق الذي يحكي قصصه كلها!.. إن هذا لا يوصف... كما تخيلته تماما بادنا ضخما محدود الذكاء لكنه نبيل ومخلص،..
قال (هولمز) وهو يعتدل في جلسته:
- تفضلي بالجلوس أي آنستي.. (واطسون).. لو كنت خارجا الآن فلا تنس أن تمر على متجر (براد) وتوصيه بأن يرسل لى أجود ما عنده من تبغ..
ثم نظف غليونه والتفت إليها:
- بم أستطيع أن أساعدك؟
كان في منتصف العمر.. وسيما مهيبا.. يميل شعر رأسه إلى الشيب وقد بدأ يتساقط في مقدمة جمجمته، وكان أنفه محدبًا كصقر وذقنه الحليقة مدببة توحي بقوة الشكيمة..
وكان يرتدي روبا منزليا قصيرا من نوعية (الكاروهات)..
كل شيء فيه كان يوحي بالهدوء والثقة..
قال لها إذ وجد أنها تجد صعوبة في الكلام:
- على رسلكِ يا آنسة.. لا تخفى عني شيئا.. أرى أنكِ لست إنجليزية.. ربما من شمال إفريقيا.. وأرى أنك قطعت مسافة طويلة إلى هنا، وأنك رأيت ما يريب في متجر (ستانفورد) منذ دقائق طويلة.. ويبدو لي أنك جئت (لندن) بالقطار منذ ساعة!
كانت تعرف أسلوب (هولمز) في إبهار زواره جيدا، لكنها لم تستطع مقاومة الفضول.. كيف عرف؟

قال (هولمز) إذ رأى حيرتها:
- هذا شيء أولى يا صغيرتي..
أولا: لا يبدو عليك أنك إنجليزية، وملامحك أقرب إلى ملامح المصريين..
ثانيا: يبدو عليك الانهاك مما يجزم بأنك كنتِ على سفر، خاصة والمطر كان يهطل على (لندن) طيلة اليوم، فلو كنت هنا لابتلت ثيابك.. إلا في الساعة الأخيرة حيث صار الجو صحوا..
ثالثا: أنت تحملين لفافة عليها علامة متجر (ستانفورد)..
رابعا: واضح أنك رأيت ما يريب هناك وإلا لما جئتِ..
ابتسمت (عبير) وتأملت اللفافة في يدها – لفافة الشاي - ثم قالت:
- أنت رائع حقا كما قالوا عنك يا مستر (هولمز).. الواقع أن ما رأيته حدث فعلا في متجر (ستانفورد) منذ دقائق.. رأيت رجلين يسيران معا.. أحدهما دخل المحل وترك لمديره مروحة فرعونية ثمينة ثم خرج.. بعدها بدقيقة دخل الرجل الثاني المحل وابتاعها بثمن باهظ.. ثم خرج ليعطيها للرجل الأول!.. لا أجد أي تفسير لهذا الذي حدث..
مال (هولمز) في مقعده وقد بدا عليه الاهتمام: تعنين أن المروحة كانت مع الرجلين منذ البداية؟
نعم.. كل ما فعلاه أنهما دفعا مبلغا باهظا للحصول على ما كان معهما بالفعل..
- إن هذا يثير الشكوك حقا..
وأفرغ غليونه في مطفأة السجائر.. ثم أعاد حشوه، وسألها:
- وهل عرفتِ أيا منهما؟
- الثاني.. كان.. كان متأنقا.. وسمعت مدير المحل يدعوه بلورد (ثاكري).
- لورد (ثاكري)؟.. غريب..!..! إنني أعرفه.. كيف يمكن أن يتورط في شيء كهذا؟
- أي شيء؟
نظر لها في رزانة.. وابتسم وقال بغموض:
- هذا هو ما سنحاول معرفته...!



وابتسم وقال بغموض:

- هذا هو ما سنحاول معرفته..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- لورد (ثاكري)...!

قال (هولمز) وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه:
- إن لورد (ثاكري) لمن الأشخاص المشهود لهم بالأمانة والشرف وعراقة النسب، وهو بالفعل مهتم بالمصريات، وقد عاش في الهند فترة، ثم ذهب إلى (مصر) حيث خلبت الحضارة الفرعونية لبه، ولا أحسبه إلا رجلا شريفا.
ثم نظر نحو د. (واطسون) الذي كان قد عاد من الخارج وسأله:
- أنت سمعت هذه القضية العجيبة يا د. (واطسون)، وأحسبك قد كونت رأيا فيها.. فهلا أسمعتني رأيك؟
قال د. (واطسون) وهو يشعل غليونه:
- حفظ الله الملكة يا عزيزي (هولمز).. يخيل إلى أن هذه المروحة الفرعونية مسروقة.. وكان هذا هو السبيل الوحيد للحصول على فاتورة تدل على أنها بيعت في محل محترم..
في توتر هتفت (عبير) وهي تستعيد ما رأته بالتفصيل:
- لكنه لم يأخذ فاتورة بها يا د. (واطسون).. أنا واثقة من هذا.. لقد كتب شيكا للمحل بالثمن وحمل المروحة وذهب..
أضاف (هولمز) في تؤدة:
- ثم إن أحدا لا يدفع عشرين ألف جنيه من أجل هذا يا (واطسون).. إن لتصريف البضائع المسروقة أساليب أكثر سهولة وأقل تكلفة.. كلا.. لابد من حل آخر..
ثم إنه نظر نحو (عبير):
- أحسب أنك لا تجدين مكانا تمضين فيه أمسيتك يا آنسة.. إن (واطسون) لكفيل بأن يجد لك فندقًا محترما.. أما أنا فسأدخن بضعة غلايين من التبغ الممتاز، وأفكر في هذه القضية المستعصية.. ولسوف أزورك كي أبلغك بما يستجد..
- ليكن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا...
وجدت (عبير) نفسها تمضي ليلتها في غرفة فندق من الطراز الفيكتوري، تحيط بها ستائر الدانتيلا، وقطع الأثاث المبطنة بالمخمل الأحمر، والمدفأة المشتعلة باستمرار يعلوها شمعدان عتيق.. ولم تملك إلا أن تتمنى لو كان هناك جهاز (تليفزيون) من الطراز الفيكتوري لتتسلى به!، فلا يوجد الآن في حوزتها سوى الصحف ورواية عملاقة من روايات (ديكنز) وجدتها هناك.. لقد كان (ديكنز) هو (تليفزيون) ذلك العصر حقا..
وبينما هي جالسة تتأمل غرفتها، دق الباب ودق معه قلبها.. هرعت إلى هناك تتساءل عن الطارق.. فسمعت الصوت الهادئ المحبب ل (هولمز) يطلب منها أن تفتح..
طبعا لم يكن من ديدنها أن تستقبل الرجال في حجرتها.. لكن هذا كله كان خيالا محضا.. وهي لا تملك إلا أن تندهش، كلما تذكرت أن كل هذا الأثاث والعالم المتشابك، ليس سوى حلم تحلمه..
وفتحت الباب ل (هولمز) ورفيقه (واطسون).. كانا منهكين.. وعيناهما بلون الدم من فرط

إرهاق..
قال لها (هولمز) وهو يريح قامته الفارعة على أريكة:
- اليوم ذهبنا إلى متجر (ستانفورد) - وهو بالصدفة متجري الأثير - فعرفنا من مديره أن الشيك الذي كتبه لورد (ثاكري) صحيح تماما ولا غبار عليه، وقد قام المتجر بتحصيله فورا من البنك..
أضاف د. (واطسون) وهو يخلع قبعته:
- وقد عاد الرجل رث الثياب إلى المتجر وحصل على ثمن المروحة، وهو عشرة آلاف جنيه.. طبعا زعم مستر (ستانفورد) أنه لم يحصل الا على اثني عشر ألفا - إن ذلك العجوز (ستانفورد) تاجر بارع.. وهو قادر على انتزاع الذهب من بين أسنان الموتى..
ونهض (هولمز) يذرع الغرفة في تؤدة..
كان يرتدي تلك الثياب التي اشتهر بها.. البيريه الغريب الشبيه بالكاسكيت.. والعباءة التي يغطي بها كتفيه دون أن يخرج ذراعيه منها.. والغليون المصنوع من خشب ثمين بمبسمه الذي صيغ من (الكهرمان)..
قال ل (عبير) وهو يتأمل لهب المدفأة:
- ثمة خبر صغير ينبغي أن تعرفيه..
- وما هو؟
- ذهبنا - أنا و (واطسون) - إلى منزل اللورد (ثاكري) كي نسأله عن سر هذه الصفقة المريبة.. لم نكن نبغي سوى أن نجعله يتعثر في القول، إلا أننا وجدناه قد مات!..

∞∞∞∞∞

وهكذا اكتملت قطع اللغز في خلال عشر ساعات..
مروحة فرعونية.. صفقة غامضة.. موت.. كل القطع موجودة لا ينقصها سوى عقل بارع يقوم بتنسيقها في شكل صورة مفهومة..
ولم ينم (هولمز) هذه الليلة..
قضى الليل كله في حجرته يدخن الغليون، ويتأمل نيران المدفأة، ويعيد ترتيب أحداث هذه القضية الغامضة..
كذلك (عبير) لم تنم ليلتها..
ظلت ساهرة في حجرتها تسترجع كلمات (هولمز) عن موت اللورد:
- ذهبت مع (واطسون) إلى منزل اللورد كي نحاول استجوابه، لكننا وجدنا الباب مفتوحا ولم يكن هناك خدم كي يستقبلونا..
وما إن دخلنا حتى وجدنا إدارة (سكوتلاند يارد) كلها هناك....
لقد وجد رئيس الخدم سيده ميتا في مكتبة الذي كان قد دخله عصر اليوم. حاول أن يسعفه، لكن اللورد كان ميتا.. ميتا جدا إذا صح التعبير، وأكد أن أحدا لم يدخل الدار أو يصعد إلى سيده منذ دخل مكتبه طالبا عدم المقاطعة..
لم تكن هناك آثار عنف أو سرقة.. كل ما هنالك هو أن اللورد كان جالسا على مكتبه، وقد ارتسمت في عينيه نظرة مثيرة للهلع، وإلى جواره قارورة صغيرة تحوي سما زعافا يبدو أنه ابتلعها بالكامل.. وكان هناك خطاب انتحار صغير على المكتب يقول: اغفروا لى.. هذا هو المهرب الوحيد من اللعنة التي تطاردني. وإلى جوار هذه الورقة المختصرة، وجدنا المروحة الفرعونية إياها وإلى جانبها واحد من قواميس اللغة الهيروغليفية، مما يرجح أنه كان عاكفا على فك رموز

النقوش التي امتلأت بها..، وإنني لأسائل نفسي عن السبب الذي يجعل المنتحرين غير ميالين للثرثرة.. لو أنني نويت الانتحار لكتبت لمن سيجدون جثتي كراسة كاملة تحوي أسباب انتحاري وخواطري وآرائي في الحياة، فأنا لا أريد منهم أن يشقوا بأسئلة لا إجابة لها.
تذكرت كذلك ما قاله (هولمز):
السؤال الأهم هو لماذا انتحر اللورد؟.. إن الإجابة علية هي مفتاح القضية كلها.. السؤال التالي في الأهمية، هو ما المكتوب على المروحة ويدفع رجلا شجاعا للانتحار؟.. السؤال الأخير هو، أين ذهب الرجل رثّ الثياب؟
ثم إنه قال لها وهو يرتدي البيريه المميز له..
- إنها لقضية معقدة.. أعتقد - وأرجو ألا أكون مخطئا - إنها تحتاج عقلا ناضجا إضافيا.
ثم نظر نحو (واطسون) وقال بلهجة الطلب:
- إن (هيركيول بوارو) سيكون خير عون لي!!
فغرت (عبير) فاها في بلاهة.. (هيركيول بوارو)؟..
لكن كيف؟.. هو و (هولمز) و.......
- هل تعني (هيركيول بوارو) المخبر البلجيكي؟
- حتما!
- لكنه في (لندن) المعاصرة.. أعني.. أنه سيجيئ العالم بعد ما لا يقل عن خمسين عاما!
- هل نسيت أننا في (فانتازيا)؟.. لا وجود لقيود الزمان والمكان يا آنسة.. لو أن هناك عقلية تفوق عقلية (بوارو) في عصر الرومان لجئت بها معي!
ثم أشعل غليونه وقال:
- إن هذا البلجيكي جيد حقا وموهوب.. ولولا محاولته المضحكة للتظاهر بأنه يجيد الإنجليزية، لقلت إنني أميل إليه.. هل سبق لك أن رأيته؟
- ن.. نعم ف.. في.........
وأمسكت.....
كانت تريد القول إنها رأته في خيالها مرارا..
المخبر البلجيكي الأصلع الميال إلى البدانة، والذي يعني بأناقة شاربه وبذلته إلى حد مبالغ فيه؛ ذلك المخبر الذي اختار (انجلترا) ليعمل فيها مع صديقه المخلص محدود الذكاء - هو الآخر - كابتن (هاستنجز)..........
لقد ولد (بوارو) من عقل كاتبة قصص بوليسية موهوبة، هي (أجاثا كريستي).. واكتسب حيوية فائقة قاربت جاذبية (هولمز) بل كادت تفوقها ولقد كتبت (أجاثا كريستي) عن شخصيتين أخريين، هما (مس ماربل)، و (باركر باين) لكنهما لم تستطيعا أن تصلا إلى سحر ومغناطيسية (هيركيول بوارو) العجوز..
كانت (عبير) - منذ أعوام طوال - قد قرأت قصة مترجمة يلعب بطولتها (أرسين لوبين) و (بوارو) و (مس ماربل).. وقد شعرت وقتها بالعجب من أن يتزامن هؤلاء ويتواجدوا بين دفتي كتاب واحد، ثم فطنت إلى أن هذا استهتار ذميم من المترجم، الذي يترجم أية رواية، ويبدل أسماء أبطالها كما يشاء؛ ليجذب إليه القراء الذين يبحثون عن أحد هذه الأسماء الشهيرة.
الآن ها هي ذي تري من جديد هذا التزامن العجيب، بين شخصيات متباعدة في الزمان والمكان.. لكنها اليوم تصدق كل هذا.. وتؤمن به.. وتحبه وهي ذي تنتظر في حجرتها، عالمة أن البرقية التي أرسلها (واطسون) ستصل إلى (بوارو) في الصباح....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح ذهبت إلى دار (هولمز) في (بيكر ستريت) فوجدته منهمكا في التدريب على الملاكمة.
ولم يثر هذا دهشتها؛ لأنها تعرف أن (هولمز) - برغم قلة اهتمامه بالرياضة - ملاكم ممتاز..
فما إن انتهي حتى جلس على الأريكة يجفف وجهه بالمنشفة، ثم تناول الكمان الصغير وشرع يعزف عليه..
الملاكمة والموسيقا!.. هوايتا (هولمز) الوحيدتان، بالإضافة إلى تدخين الغليون وحل القضايا الغامضة بعد ساعة من الصمت الذي لا يقطعه سوى صوت أوتار الكمان، دق الباب فنهض (واطسون) ليفتحه..
لقد بلغت الهلوسة أقصى مداها الآن، فمن الباب يدخل ذلك الرجل البدين الأصلع الذي يرتدي بذلة عصرية تعود إلى خمسينات القرن العشرين، ومعه شاب رياضي البنيان لا تكف عيناه عن الحركة..
قال البدين وهو يداعب شاربه بأنامله ويصلح رباط عنقه:
- تحية يا عزيزي (هولمز).. جنت و (هاستنجز) بمجرد أن وصلتني برقيتك.. أرى أنك لم تزل تؤدي ما يفترض منك أن تؤديه! نهض (هولمز) في رصانة، وصافح الرجل..
- نهارك سعيد يا مستر (بوارو).. إن الغموض المخيم على هذه القضية ليحتاج إلى عقلين حاديّ الذكاء..
ظلت (عبير) ترمق المشهد في انبهار.. إنه اللقاء..
- مستحيل الحدوث - بين قطبين من أقطاب الرواية البوليسية الإنجليزية: (شيرلوك هولمز) و (هيركيول بوارو)..
وللمرة الأولى، لاحظت التشابه الشديد بين الاثنين في الطباع.. والتشابه الأشد بين مرافقيهما..
إن (واطسون) هو (هاستنجز) آخر.. كلاهما محدود الذكاء مخلص كالكلاب معدوم النفع والضرر.. لكن كليهما يتكفل بدور الراوي لحكايات صديقه..
قال (هولمز) لضيفه:
- لم نسمع عنك مؤخرا..
- كنت مشغولا مع قاتل الحروف الأبجدية، الذي لا يقتل إلا حسب الترتيب الأبجدي.. ويقتل في كل مدينة شخصا يشترك معها في الحرف الأول من الاسم.. كانت قضية معقدة، وكلفتني إجهاد خلايا مخي الرمادية..
قال (هولمز) وقد أحس أن ضيفه يستعرض عضلاته:
- أما أنا فعائد من (ديفون شاير)، حيث كنت أحقق في قضية كلب عائلة (باسكرفيل).. لقد كدت ألقي حتفي في هذه القصة، ولا أدري إن كنت تعلم تفاصيلها...
- أعرفها.. أعرفها يا سيدي.. وأعتقد أن للحظ دورا كبيرا فيها.. ولكن.. أرى أنك لم تتحل بالنظام بعد.. ما زلت مهملا قليل الترتيب.. وأنت تعرف ولعي بالنظام والأشكال الهندسية.. حتى أنني أتمنى أحيانا لو وجدت بيضا مكعبا!
- سأفترض يا مستر (بوارو) أن ضعف لغتك الإنجليزية، هو سبب ما يخيل لي أنني أسمعه من انتقادات مهينة للغاية..
وهنا أدرك (واطسون) أن الرجلين سيتشاجران مالم يتدخل هو في كياسة ليهدئ النفوس..
صاح بصوت جهوري:
- أرى أيها السيدان أن ندخر جهودنا لحل القضية التي نحن بصددها..

صمت الرجلان وقد أدركا أنه محق في هذا على الأقل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عرض (واطسون) للقضية جيدا، وتدخلت (عبير) في بعض المواضع لتضيف بعض الأفكار أو التفاصيل.. وبرغم أن (بوارو) لم يبد اهتماما كبيرا بها، فإنها كانت تؤمن بحقها في التدخل.. أليس كل هؤلاء يعيشون في خيالها؟.. حتى الثياب التي يرتدونها هي التي ألبستهم إياها!.. كأنها صاحبة مسرح يطالبها الممثلون بعدم التدخل في أدائهم.. فكيف تقبل؟!..
بعد انتهاء القصة ساد الصمت هنيهة.
ثم إن (بوارو) تساءل في تؤدة:
- والسم الذي جرعه هذا اللورد.. ماذا كان نوعه؟
قال (هولمز) وهو يدس يده في جيبه:
- لا أدري فالطب الشرعي لم يُخترع بعد.. لكني حصلت على الزجاجة من مفتش (سكوتلاند يارد)..
- وتمسكها هكذا؟.. والبصمات؟
- تنسى أننا لا نفحص البصمات في هذا الزمن ولا ندري شيئا عنها..
تناول (بوارو) القنينة وتشممها هنيهة ثم غمغم:
- رائحة اللوز المر.. إنه سيانور.. كيف كان منظر الجثة حين رأيتموها؟
قال د. (واطسون) وهو يشعل غليونه:
- كانت عيناها مفتوحتين يا مستر (بوارو).. وكانت الحدقتان متسعتين تماما.
- هذه هي علامات التسمم (بالأتروبين) يا عزيزي
(هاستنجز).. فالسيناتور لا يوسع حدقة العين.. وهذا يعني أن اللورد قد توفي بسمٍّ غير الذي وجدناه جواره.. والأمر بصورته الحالية يشير إلى جريمة قتل!
نهض (هولمز)، وذرع الغرفة جيئة وذهابا. كان يشعر بالغيظ لأن مؤلف قصصه - (أرثر كونان دويل) لم يكن ذا خبرة بالسموم مثل مؤلفة (بوارو) (أجاثا كريستي)، التي عملت فترة طويلة كمشرفة على قسم السموم بالمستشفى في أثناء الحرب العالمية الأولى..
قال (هولمز):
- إن هذا شيء أولي يا عزيزي (واطسون).. هناك من جعل اللورد (ثاكري) يجرع (الأتروبين)، ثم بادر بإخفاء القنينة، ووضع ورقة الاعتراف هذه..
ولماذا يبذل نوع السم؟.. لأنه يشير بوضوح إلى شخص القاتل.. إن (الأتروبين) يستعمل لعلاج المغص.. وأعتقد أن أقدر الناس على إعطائه للورد هو طبيبه الخاص.. فإذا تصورنا لحظة أنه قام بتركيب جرعة زائدة، تناولها اللورد بسلامة نية؛ فإن من واجب هذا الطبيب أن يداري قنينة السم التي تشير إليه، ويضع بدلا منها قنينة أخرى فارغة تفوح منها رائحة اللوز المر..
تساءل (واطسون):

- ولكن كيف ومتى دخل الطبيب غرفة المكتب؟.. وكيف أرغم اللورد على كتابة هذه الرسالة المزعومة؟
داعب (بوارو) شاربه في ثقة وقال:
- إن الأمر يشير إلى رئيس الخدم.. فهو القادر على تبديل القارورتين، وقادر على دس السم للورد في دوائه، وقادر على ترك هذه الرسالة.. وقادر على الكذب علينا..

ثم نهض وأصلح ربطة عنقه:
- أرى أن نذهب إلى مسرح الأحداث.. ولسوف نرى هناك ما ينعش خلايا مخنا الرمادية أكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

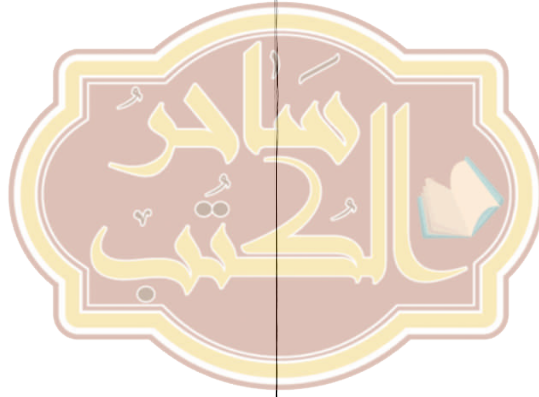


4- الحقائق تتضح...!

هتف (هولمز) في سائق العربة وهو يحكم غلق أزرار معطفه:
- هلم يا صاحبي إلى (ريجنت ستريت).. ولئن أوصلتنا هناك سريعا فلسوف أمنحك جنيها كاملا.
وأخرج ساعته من جيب صدريته وشرع يتأمل عقاربها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح رئيس الخدم في منزل لورد (ثاكري) الباب لهذه المجموعة الغريبة من الناس: (هولمز) و (واطسون) و (عبير)..
وكان يعرف الأولين، لهذا سمح لهم جميعا بالدخول..
نظر (هولمز) إلى الرجل.. المتهم رقم واحد في الوقت الحالي.. فوجده رجلا نحيلا مهذبا شاحب الوجه راقي اللغة..
سأله وهو ينزع معطفه عن كتفيه:
- من يدفع لكم أجوركم الآن؟
- محامى اللورد (ثاكيري) حريص على ألا يتغير شيء وإلى أن يصل وريث اللورد الوحيد من (أمريكا).. لهذا يدفع لنا أجورنا بانتظام..
مال (هولمز) على أذن (بوارو) وهمس:
- أسمعت؟.. هناك وريث اللورد (ثاكيري).. إن تقاليد قصصي الفكتورية تحتم أن يكون القاتل هو الوريث!
- أما أنا فتقاليد قصصي تحتم أن يكون القاتل هو رئيس الخدم!
- الوريث!
- رئيس الخدم!
رفع رئيس الخدم حاجبيه في تهذيب:
- هل يطلب السادة شيئا معينا؟
- نعم.. أ.. نريد أن نرى غرفة مكتب اللورد ثانية.
- هذا مطلب غير معتاد.. لكني أعرف أنني أستطيع الثقة في مستر (هولمز) خاصة، ورجال (سكوتلاند يارد) يثقون به..
وتقدمهم صاعدا في الدرج إلى الغرفة المذكورة..
وعلى الباب وقف ينتظرهم في أدب حتى يفرغوا..
كان (بوارو) أول من دخل، فاتحني يتفحص المكتب الذي كانت أدراجه موصده بطبيعة الحال..
ثم إنه ركع على ركبتيه يتفحص الأرض، حيث كان طرف السجادة ينتهي تحت أرجل المكتب..
هبط (هولمز) إلى جواره ليرى ما يثير شغفه...
كان (بوارو) قد وجد وريقة ممزقة ملقاة في إهمال هناك.. نظر لها ثم ناولها ل (هولمز) وهو ينظر له نظرة معناها: أترى؟



كانت الوريقة خطابا يحمل توقيع اللورد في أعلاه، والخطاب موجه لبعض شركائه الماليين، يقول الخطاب في آخر فقرة منه:

.. ولهذا - ونظرا لضيق حالتي المالية - أجد نفسي مضطرا لبيع كل أسهمي في شركة (سميث أند وارين)..
أرجو أن..
وينتهي الكلام هنا؛ لأن باقي الصفحة كان ممزقا بأناقة، كأن هناك من تعمد تمزيق الجزء الباقي ليترك الكلام مبتورا..
قال (هولمز) وهو يبتسم:
- إن تكملة الكلام معروفة لكلينا.
- (اغفروا لي.. هذا هو المهرب الوحيد من اللعنة التي تطاردني)!.. لقد اقتطع القاتل هذا الجزء الموحى..
وتركه أمام اللورد ليقنعنا بانتحاره.. وبخط يده!
وهنا جثت (عبير) على ركبتيها جوار الرجلين وأدنت فمها من أذن (هولمز) لتهمس له:
- هذا الخادم.. إنه هو..
- هو من؟
- هو الرجل رث الثياب الذي كان مع لورد (ثاكري) في ذاك المحل.. الرجل الذي عرض المروحة للبيع..!
- إن القضية تتضح أكثر..
ثم إن (هولمز) نهض على قدميه، وضم أطراف معطفه على جسده، وقال الرئيس الخدم:
- قل لى يا صديقي.. هل سبق لك أن ذهبت إلى متجر (ستانفورد)؟
فتح الرجل فاه ليتكلم، لكن (هولمز) قاطعه في كبرياء..
- قبل أن تكذب، عليك أن تعلم أن هذه الآنسة رأتك هناك، وهي مستعدة لأن تقسم على ذلك..
وحتى لا تخونك الذاكرة أقول لك إن الأمر كان يتعلق بأثر فرعوني له أهمية خاصة..
ودنا أكثر من الرجل الذي امتقع وجهه.. وأردف:
- إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نربط بين عملية البيع والشراء المريبة هذه، وبين مصرع اللورد الذي تستطيع أن نؤكد أنه ليس انتحارا..
نهض (بوارو) من على ركبتيه، وقد احتقن وجهه حنقا.. ومن أثر الانحناء، هو الذي لم يعتد ذلك قط..
وصاح:
- يا لهذا الإنجليزي المتحذلق..!.. لماذا تتعجل مواجهته بما نعلم؟ كان ينبغي أن تنتظر أكثر، حتى نضيق الخناق علية تماما! قال (هولمز) في كبرياء:
- هذا هو أسلوبي إن لم يرق لك..
- إنك تتبع أساليب عتيقة عفا عليها الدهر..
كان رئيس الخدم يتراجع للوراء أكثر.. لكنه اصطدم ب (هاستنجز) الذي لم يكن ضعيفا في الواقع.. فقال في ضيق وهو يعود لمكانه:
- ليكن.. أنتم تعرفون كل شيء إذن.. في الواقع إن المروحة كانت مسروقة.. اللورد نفسه سرقها حين كان في (مصر).. ولما كان العجوز يقدس الشرف، فإنه شعر بأنه لن يكفر عن خطيئته مالم يشتر هذه التحفة المسروقة، ويدفع فيها مالا.. لقد كانت له نزوات غريبة، وأجبرني على تركها في متجر (ستانفورد)، ثم دخل هو المتجر قبل أن يشتريها واحد آخر، واشتراها هو..
تبادل (هولمز) و (بوارو) النظرات.. ثم نظر الأول إلى (عبير):

- لقد كان تصرفا شريفا، لكن أحدا لم يستفد به.. ربما لو كان تبرع بهذا المبلغ للفقراء بدلا من (ستانفورد) فاحش الثراء، لكان هذا أدني للعقل..
قال (بوارو) وهو يمشط شاربه:
- من الواضح أنه كان بحاجة إلى عملية بيع
وشراء.. وأجرؤ على القول إنه لهذا السبب بالذات باع أسهمه في شركة (سميث أندوران) كي يوفر بعض السيولة لهذا التكفير..
هنا هتف (واطسون) وهو يجلس على أحد المقاعد:
- لكننا لم نفسر بعد لماذا قتل..؟
مشى (بوارو) ذارعا الغرفة والمشط في يده... وقال:
- دعنا نخمن.. ربما قتله رئيس الخدم من أجل السرقة.. فهو يعرف أن لديه مبلغا كبيرا من المال، كما أنه لن يكون مضطرا وقتها لرد المبلغ الذي حصل عليه من متجر (ستانفورد)..
أضاف (هولمز) وهو يشعل غليونه:
- وربما كان رئيس الخدم هو من سرق المروحة من اللورد.. وخشي أن تدفع صحوة الضمير هذا الأخير إلى الإبلاغ عنه، فقتله..
قال (بوارو) في شرود:
- ولربما أراد الحصول على المروحة لنفسه، فقتل اللورد ثم وضع مكانها مروحة زائفة..
والتقت خمسة أزواج من العيون المتشككة على وجه رئيس الخدم الممتقع.. وقد بدأ العرق البارد يسيل على جبينه.. وسأله (هولمز):
- والآن ماذا تقول يا سيدي؟
قال رئيس الخدم وهو يبتلع ريقه:
. الأمر أبسط من هذا يا سادة.. الحقيقة هي أن....
....
مرحبا بعودتك يا (عبير)!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- العودة..

دعونا الآن نرجع بضع صفحات إلى الوراء..
كما قلنا آنفا، كان العلماء في (نيوجيرسي) عاكفين على دراسة الصور المتلاحقة المنبعثة من ذهن الفتاة..
ثم خطر لأحدهم أن يدرس الفقرات التي تنقطع فيها النبضات عن الوصول إلى الشاشة، هذه الفترات لابد أن تكون موازية للفترات التي يستقبل فيها عقل الفتاة كل شيء، ولا يرسل شيئا..
فلو أنهم أغلقوا جهاز (الكمبيوتر) في إحدى هذه الفترات، تكون الفرصة لا بأس بها في أن تصحو الفتاة سالمة..
إنها لمخاطرة.. خاصة وأن الفترة لا تزيد على واحد من ستين جزءا من الثانية، لكن الأمر يستحق المحاولة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا قاموا بتطوير (كمبيوتر) ثالث، مهمته إيجاد التزامن الدقيق، القادر على قطع الدائرة في اللحظة المختارة..
وحول جثمان الفتاة وقفوا يتبادلون النظرات.. ثم هتف (شريف) وهو يحبس أنفاسه:
- الأن!
وفي الحال بدأ (الكمبيوتر) يعمل..
كان يبحث عن نقطة الالتحام الضعيفة بين حلقات السلسلة..
ووجدها بعد ثوان..
وعلى الفور اختفت الصورة من على شاشتي (الكمبيوتر) الأول والثاني.
وقبل أن يقتلهم القلق سمعوا الفتاة تسعل بصوت مسموع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مرحبا بعودتك يا (عبير)؟
قالها (شريف) والانفعال يعصف به، وهو يحاول ألا يبكي أو يرتجف.. في حياته لم ير لحظة أجمل من هذه..
لقد فتحت عينيها أخيرا!..
النظرة الزائفة الخاوية لما حولها.. العينان الحمراوان..
شفتاها ملتصقتان بفعل اللعاب الجاف.. ثم:
- أين أنا؟
أصدقاء محبين!.. لقد عدت من عالم الوهم!
هنا كان رد فعلها خارقا للعادة..
لقد هبت من الفراش كثور بري هائج.. وفي جنون صاحت:
- لماذا أيها الحمقى.. لماذا؟
تبادلوا النظرات محاولين فهم ما تعنيه..
- لقد كنت على وشك معرفة سبب قتل اللورد (ثاكري)!

ثم أمسكت بقميص (شريف) واعتصرته بين يديها:
- كان معي (هولمز) و (هركيول بوارو).. هل تفهم هذا يا أحمق؟.. لقد كنت أعيش أجمل لحظات عمري.. هل تفهم؟
بالطبع لم يفهم.. لكنه هز رأسه متظاهرا بالإدراك العميق..
وفي ذهنه تردد السؤال: هل جنت البائسة أخيرا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قد نسيت الكثير من التفاصيل..
لكنها إذا جلست مع (شريف) تشاهد شرائط (الفيديو) التي تم التقاطها لأحلامها - بدأت تسترجع مشاهد عديدة..
ثم تسترجع كل شيء..
- (شريف) - سألته وقد وجدت ألا داعي للألقاب بعد تجربتها العجيبة - كم من الوقت ظللت في غيبوبة؟
- أربعة أسابيع وثلاثة أيام - لا أفهم.. إذن أنا ظللت أحلم طيلة هذه الفترة، وبرغم هذا لم أعش في الحلم سوى ثلاثة أيام؟
قال وهو يحك ذقنه في شرود:
- قلت لك ألا وجود للزمن في العقل الباطن.. الإحساس بالزمن ذاته خاضع لتقديرنا الشخصي..
- لكنكم لم تسجلوا سوى عشرة شرائط برغم ما قلته عن سرعة تلاحق الصور على الشاشة.. كان من المفترض أن تسجلوا ألف شريط إذن.. أين ذهب كل هذا؟
- قلت لك إن عقلك كان يرسل الكثير من الركام (جاربيدج)، وكان علينا أن نلخص ما ترين ليمكن فهمه
لم تفهم.. لكنها لن تحاول أكثر.. كفاها الآن أن تراقب الصور على شاشة (التليفزيون).. ها هي ذي صورة المرشد يكلمها.. صورة قطار (فانتازيا)..
طرزان) يقفز بين الأشجار.. صور رديئة مشوشة لكنها - بالنسبة لها - مفهومة واضحة.. (جيمس بوند) يبيد مهاجميه.. (لندن).. متجر (ستانفورد)..
- لم أر نفسي في أية صورة...
- هذا طبيعي.. كنت تعيشين الأحداث من وجهة نظرك، فلم يكن من الممكن أن ترى نفسك (من الخارج) أبدا.. شيرلوك هولمز) جالسا على الأريكة يدخن الغليون.. غرفة الفندق.. د. (واطسون) يصل إلى المكان.. (بوارو) و (هاستنجز).. رئيس الخدم يفتح الباب..
البحث تحت المكتب، كانت تسمع الحوار بالإنجليزية.. حتى صوتها هي كان واضحا، لكن كان من المستحيل عليها الآن أن تفهم حرفا مما يقال.. وحتى (شريف) قال لها إن الحوار (يبدو) بالإنجليزية لكنه لا يفهم مقاطعه لقد عاشت في حلم.. لكنها قادرة على استعادته كلما أرادت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (شريف).. أعدني إلى (فانتازيا)!
قالتها له بينما الطائرة تهدر محركاتها إيذانا بالإقلاع، فمال عليها كي يسمع أكثر وناولها قطعة من اللبان لتلكوها، وقذف في فمه بقطعة أخرى:
- معذرة.. إن طنين أذني..

- قلت لك أعدني إلى (فانتازيا)!
- مستحيل يا (عبير).. لقد كنت تموتين.. ألا تفهمين ذلك؟
- نعم لا أفهمه.. أنا بخير الأن.. وأنت قادر على إصلاح هذا البرنامج، ومنع ذلك الخلل من أن يتكرر إنني أحببت هذا العالم يا (شريف).. وجدت كل ما افتقدته في حياتي هناك.. ولم يزل ذلك الكون مفعما بالفرص والاكتشافات.. تخيل أنني لم أر سوى واحد على الألف من هذا البلد الغامض! صدقني لن تكون لحياتي جدوى ثانية واحدة، طالما أنا بعيدة عن أرض أحلامي.. لقد كنت أبكي بحرقة في طفولتي؛ لأنني أرغب في دخول مجلات (ديزني) لألهو مع (ميكي ماوس) و (دونالد داك)..، واليوم أنت ذا تقدم لي هذه الفرصة وتحاول حرماني منها.
- عزيزتي.. إن....
- ستوافق يا (شريف).. أنت لم تتعلم القسوة بعد..
تنهد في استسلام.. وغمغم وهو يرمق السحب خارج النافذة..
- أعدكِ أن أفكر في الأمر..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن (عبير) تعرف - كما نعرف نحن - أن (شريف) سيوافق.. لسوف يصلح البرنامج، ويأخذها، في رحلة أخرى إلى (فانتازيا).. وكما قلنا آنفا لم تكن (عبير) جميلة ولا مثقفة ولا قوية.. لكنها تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تملك هذه القدرة، غدا الكون كله طوعا لها.. وصارت بطلة حقيقية من أبطال الروايات التي تقرؤها طيلة الوقت.
ستكون لد (عبير) جولات وجولات..
ولسوف نضيف نحن المزيد من الحكايات المسلية إلى رفوف مكتباتنا، أو فوق جهاز (التليفزيون) إذا كنتم ممن يضعون الكتب هناك!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المرة القادمة نذهب مع (عبير) إلى (والاشيا)،
حيث يجول الكونت غريب الأطوار المسمى (فلاد الوالاشي).. والذي نعرفه نحن باسم... (دراكيولا)...

(تمت بحمد الله)

قصة لا تنتهي..
الفرار!.. الفرار!.. الفرار من معالم شارعك.. من رائحة الأوراق على مكتبك..
الفرار من أصحاب الوجوه التي لا تتغير الفرار من ذكرياتك.. من همومك.. من كل من كانوا لك أعداء، ومن كل من كنت لهم عدوا.. الفرار إلى عوالم الحلم.. إلى مدينة لم ولن توجد إلا في مخيلة الحالمين مثلي ومثلك.. الفرار!.. الفرار!..
د. أحمد خالد توفيق

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

لينك القنـاة – Link

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) بنيامين سبوك: طبيب أطفال أمريكي له كتب عدة حول تربية الطفل أشهرها (دستور الأم).

[←2]

(*) جون ميريك أو الرجل الفيل شخصية حقيقية عاشت في القرن الماضي وكان يعاني من تشوه خلقي مريع جعله أقرب إلى فيل بشرى، ومن العجيب أن المطرب غريب الأطوار (مايكل جاكسون) دفع مبلغا فادحا لشراء مومياء هذا الرجل الفيل.

روايات مصرية

2

حكايات من والاشيا

فانتازيا

فريق متميزون



E-BOOK

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (02)

حكايات من والاشيا

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) ··· لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كى تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كى ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- عودة إلى الواقع....

ها نحن أولاء نعود إلى أرض الواقع كئيب بعض الشيء.. هذا صحيح.. لكنه آمن ومألوف.. ولا نتوقع فيه أية مفاجآت غير سارة.. أنت تعرف راحة يدك جيدا.. وتعرف أنك كلما نظرت إليها وجدتها كما هي: راحة يد.. فإذا افترضنا أنك نظرت إليها الآن، ووجدت بدلا منها مخالب ذئب، أو هالة من النور، أو سمكة قرش، فمن المؤكد أنك ستولول هلعا.. وستتمنى لو أن هبة الخيال قد زالت عنك؛ لتعود الأمور إلى مألوفها القديم ربما أن مشاعر كهذه قد دارت في خلد (عبير عبد الرحمن)، يوم عادت تمارس حياتها السابقة.
كان مذاق مغامرتها القصيرة التي لم تكتمل قط مع (هولمز) و (بوارو) عالقا بلسانها.. بعد لم تنس عبق الطباق القوي الذي يدخنه (هولمز)، ولا البارفان الفرنسي الثمين الذي يضمخ به (بوارو) طرفي شاربه.. ولا لغته الإنجليزية المضحكة.
لم تنس صوت (سوستة) القلم في يد المرشد ولا هدير القطار الصغير الذي عبر بها (فانتازيا)... لقد حدث لها هذا كله.. وهي تؤمن بأنه كان حقيقيا لكن أحدا لم يصدقها.. وهي لا تلوم على ذلك سوى نفسها...
ولكم قضت الساعات في سجنها الضيق داخل الحارة، ترمق العالم الخارجي.. وتضحك على دعايات لم يقلها أحد.. وتقطب من مواقف خطرة لم تحدث!..
الخلاصة أنها- بالنسبة لذويها - بدت على شفا الخبال، وكان هذا منطقيا للغاية.. وكانت تفهمه ومن نافلة القول هنا أن نقول إن سجنها كان كاملاً..
حرمتها الأسرة من الخروج من زيارة الصديقات.. من العمل بكل أنواعه، برغم أن عروضا مغرية جاءتها من الجيران الوقوف في مكتبة؛ لتبيع المساطر والأقلام لطلبة المدارس مقابل سبعين جنيها في الشهر.. العمل في محل أزياء جاهزة، مقابل تسعين جنيها في الشهر ليس هذا فحسب - تخيلوا - بل إن صاحب المحل يضمن لها أن يقدم اسمها إلى التأمينات الاجتماعية كي تحظى بتأمين صحي كامل.
ثمة عرض مسل جاءها من صاحب نادي (فيديو).. كل ما عليها أن تجلس كالصخرة طيلة اليوم؛ لتدون أسماء من يقترضون الأفلام ومن يعيدونها.. ويمكنها مشاهدة بعضها على تليفزيون صغير هناك عروض كلها مغر.. أو - حتى لا نتهم بالمبالغة - كلها يفوق الوصف، والفرص المتاحة لفتاة لها مؤهلات (عبير) من القبح والتعليم المتوسط والذكاء المحدود.
لكن الأسرة رفضت بصرامة.. وكما قالت أمها - وهي منهمكة في تمزيق العلب الورقية القديمة إلى شرائط تصلح لإشعال الموقد توفيرا للثقاب:
- أنا لم أعد أضمن أحدا.. أمس قالوا لي: دعيها تعمل في الكمبيوتر.. ذهبت إلى هناك وعقلها يزن الدنيا وما فيها.. فإذا بابن ال. (...) هذا يعيدها لي فاقدة الرشد.. وحتى حين أفاقت صارت إلى العته أقرب.. كلا!.. ربما يعيدها لى صاحب العمل الجديد جثة هامدة أو أسوأ.. لا يا سيدي.. الله الغنى عن عمل هذه يجب أن نقول هنا إن (عبير) هي الأخرى لم تعد راغبة في أن تعمل.. فالعمل كان يعني المزيد من الواقع الكئيب الذي تحاول الهرب منه طيلة الوقت. كانت تعرف أنها خلقت لعالم آخر.. عالم له مقاييس أخرى غير هذا العالم.. ولقد وجدت ضالتها يوم ارتحلت إلى (فانتازيا).. يقولون إنها كادت تهلك يقولون إنها كانت في غيبوبة.. ولكنها هي نفسها لم تخف ولم تجزع.. وها هي ذي اليوم سالمة تماما..

فلماذا لا تعيد التجربة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين ذهب (شريف)؟..

هي لم تره منذ أعادها إلى دار أسرتها، وكاد أخوها يفتك به، لولا أن فرحة نجاتها تكفلت بتسوية الحسابات، وعرفت أن أهلها قد قلبوا الدنيا فوق رأس (شريف)، ذلك البائس.. وأن الحادث نشر في صحف عديدة.. لكن غرابته كانت تجعل شيئا من عدم التصديق يحوم حوله.. وتكفلت آراء الأساتذة الأطباء - الذين يقضون حياتهم في الإدلاء بآرائهم للصحف - بإضاعة الحقيقة تماما، باعتبار ما حدث نوعا من التهاب المخ.. أو غيبوبة سكر.. أو تصلب منتشر لهذا كله لم يلق (شريف) عقابا معينا.. لكنه اختفى.. اختفى تماما وهي في أشد الحاجة إليه لأنها تحب (فانتازيا).. ولأنها..... تحبه. وجاء العريس المرتقب اسمه (سعيد).. عائد لتوه من (الأردن) أو (العراق) لا تذكر بالضبط.. تخرج في أحد هذه المعاهد التي لا يمكنك تذكر اسمها والتي لا مستقبل لها على الإطلاق، وهو يعمل أساساً في تجارة الأدوات الصحية مع أخيها.. وأحيانا (يتسلى) بممارسة السباكة، حبه الأول والأخير على حد قوله.

فظ هو.. له شارب كث، يعتقد أنه فاتن.. ويتكلم بلغة (الصنايعية) برغم أنه متعلم، ويطفئ أعقاب السجائر على البلاط.. ويبصق كثيرا في منديل (محلاوى) عملاق، خيل إليها أن هذا هو كفنها نفسه.. ويطيل ظفري إصبعية البنصر وكان يملك شقة من حجرة وصالة في حارة مجاورة.. وقد اتفق على (النابوليا) مع أحد النجارين في الحى؛ لأنه - كما قال - يحب (النابوليا) الثقيلة المكينة (بالأويما)..

- « الخشب الجيد يا (تانت) » - يقول لأمها هو أهم شيء..!

وفي ذعر تأملت (عبير) الموقف..

واضح أن الكل متحمس لهذا العريس الجاهز.. والكل يؤمن بأن هذه أفضل فرصة ممكنة لها وهي تعرف أنها لن تقاوم كثيرا..

منذ الطفولة تعلمت ألا تقاوم ما يراد بها.. إن حياتها تتلخص في أنهم (جعلوها فانجعلت).. ومعنى هذا أنها ستصحو يوما لتجد نفسها عند الكوافير الذي في أول الحارة، يلطخ وجهها بالمساحيق الرخيصة، ويثبت لها الطرحة على الفستان الرديء، الذي استأجرته بعشرين جنيها.. ثم تزغرد النسوة وكل واحدة منهن تضع رضيعا على كتفها.. وتبدأ الطبول تدق بأيدي (صياع) الحارة.. ويتقدم فارسها منها، مرتديا بدلة لونها سكرى قبيح،، وهو يجفف عرقه بمنديل (محلاوي) عملاق.. على حين يرسل (الفيديو) - بالفاء - إضاءة حارقة على الوجوه، والزغاريد المسعورة.. وصديقاتها يقبلنها في افتعال ثم تنهض كل واحدة لتنزع حذاءيها وترقص حافية القدمين بعض الوقت، محاولة أن تجد لنفسها عريسا آخر بين الموجودين..

وينتهي كل شيء لتجد نفسها تشارك (سعيد) هذا حياته.. وأحلامه.. وطموحاته.. وكل شيء..

كيف يمكن أن تعيش مع رجل، السباكة هي حبة الأول والأخير.. ويؤمن أن الخشب الجيد أهم شيء في الوجود؟!..

هي.. هي التي قرأت كل شيء عن (أرسين لوبين) و (هولمز) و (روب روى) و (سوبرمان) و... و... كيف تقحم في كل هذا؟.. لماذا لا ينقذها (أدهم صبرى) بطائرة هليوكوبتر تنتزعها من هذا العالم الخانق؟..

لماذا لا يهرع فرسان (النينجا) بسيوفهم ليأخذوها !!.. لماذا.. لماذا..؟

- (شريف)..

همست وهي ترمق الزقاق المظلم متجاهلة الضوضاء خلف ظهرها...
- أريد العودة إلى (فانتازيا)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- رحلة جديدة..

و (شريف) لم يكن قد تلاشى من الكون..
المهندس الموهوب (شريف إبراهيم). الوسيم كتماثيل الإغريق.. الذي كفلاسفتهم.. ولم يكن قد ابتعد إلا ريثما يهدأ غبار المعركة، ويتبين موضع خطا قدمية..
لقد أحرز نجاحا باهرا.. صحيح أنه نجاح مبتور، لكن انتزاع النبتة قبل أن تنمو وتزدهر، لا يعني أنها في ظروف أفضل لن تنبت.. وكانت نبتته موشكة على الازدهار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد دراسات مدققة استطاع أن يفهم خطأ البرنامج السابق، الذي كان يدخل الفتاة في حلقة لا نهائية..
وبعد تطوير الجهاز ليصير أكثر براعة في الأداء، قام بتزويده بالشيء الذي كان عليه أن يضعه من البداية:
مكبر صوت!...
نعم مكبر صوت يمكنه اقتحام عالم الكمبيوتر، الذي يخلق الأحداث العشوائية، وبالتالي يدخل صوته إلى عالم الحلم ليسهم بالتوجيه إذا كانت هناك معضلة ما تواجه الفتاة..
إن كل شيء جاهز.. والان يمكنه أن يطلق على الجهاز اسم (دى - جى - ٢) فهو التطوير الثاني.
وللذين يتعذر عليهم فهم السياق، أرجح أنهم لم يطالعوا الكتيب الأول بعد.. لهذا أرجوهم أن يجدوه ويقرءوه لأن السلسلة كلها تقوم على كتفي هذا الكتيب.. إن كل شيء جاهز.. وأنتم تعرفون ما يعرفه (شريف)..
والآن يجب العثور على (عبير)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن (عبير) قد صارت عسيرة المنال..
هي لم تعد إلى مكتب الكمبيوتر إياه قط..، ولم تتصل به ولا بصديقه.. وبرغم أنه يعرف عنوانها، فهو لم يعد راغبا في العودة إلى هناك.. لقد كان أخوها فظا وأوشك أن يفتك به، في ذلك اليوم الذي عاد إليهم بها سالمة من الغيبوبة..
و (شريف) لم يكن ذا باع في المشاجرة.. وكان يرتج عليه كلما وجد أحدهم يصرخ في وجهه، فما بالك بمن يريد ضربه؟..
لكنه في أمس الحاجة إلى (عبير)..
فماذا يفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهنا لا يفوت كاتب هذه السطور، أن يلفت نظركم إلى المفارقة في هذا الموقف.. إن طرفي الصفقة راغبان أشد الرغبة في إتمامها، ومع هذا فهي لا تتم.. لأسباب شتى.
يبدو لي في اللحظة الحالية أن الوضع مستحيل.. لكني لا أعرف حقا ما قد تقدمه الحياة من مفاجآت.. وما يبدو مستحيلا اليوم، قد يغدو ممكنا غدا.. دعونا ننتظر ولا نيئس....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لهذا - وفي ذلك النهار الدافئ - سمع (شريف) قرعات على باب شقته.. ففتحه.. وفي ضوء المدخل الخافت، رأى وجهها الشاحب ينظر نحوه في أمل.. تحاول ألا تقفز وتصفق بيديها فرحا كما هو واضح.. أحس بالحرج.. دعاها إلى الدخول، وأجلسها في الصالة، ثم هرع إلى الحمام يعيد تمشيط شعره، ويحكم إغلاق سترته..

ثم عاد إليها..

منزوية منطوية على نفسها كيمامة تهشم جناحها.. جالسة وسط ديكورات المكان الأنيقة المتحذلقة، كأنها ذبابة تقف على مفاتيح كمبيوتر حديث...

جلس أمامها وحاول أن يبدو رصينا وقال:

- كيف عرفت العنوان؟

هو ذا صوتها المبحوح المألوف يتردد:

- من الأستاذ (صفوت).. كنت عنده الان...

- وهل يعلمون في دارك أنك هنا؟

- لا...

- إذن لن أرحب بوجودك دقيقة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



هو ذا صوتها المبحوح المألوف يتردّد:

– من الأستاذ (صفوت).. كنت عنده الآن..

نظرت في عينيه.. وللمرة الأولى رأي تلك القوة الكاسحة في نظرتها.. هي تعرف كيف تحصل على ما تريد، ولسوف تحصل عليه..

يا له من مأزق!.. الحقيقة هي أنه غير راغب - وغير قادر - على أن يطردها.. ولكن ماذا عساها تقول؟
- أنت لا تفهم.. لقد جئت ها هنا بمعجزة حقيقية.
- تعنين أنك محددة الإقامة بشكل ما؟
- هو كذلك.. إن قراني بعد شهر من الآن..
- إذن خرجت هذه المرة ضمن المشاوير الكثيرة. التي يكون على العروس المنتظرة أن تقوم بها..
- نعم.. كنت ذاهبة إلى الخياطة، سمحوا لي بالذهاب وحدي. لأن الجميع مشغول نظر لها هنيهة متسائلا في سره عن شعورها تجاه الزيجة المنتظرة.. لا تبدو طائرة من الفرح.. لكنه قرر أن يطلق طلقة اختبار ليعرف رد فعلها تجاه عريسها القادم:
- مبروك!
وكانت النتيجة مذهلة..
انفجرت الفتاة باكية.. كل هذا الماء يسيل من عينيها وأنفها وفمها الذي نسيت أن تغلقه.. يا لك من حمقاء تماما!.. إن بكاء امرأة أمامك لشبيه بانفجار صنبور المياه في الحمام..
محاولات تعسة خرقاء منك لوقف هذا السيل، الذي يوشك أن يجرف كل شيء.. كل شيء
- آنسة (عبير)؟
قدم لها منديله.. ثم هرع إلى المطبخ فجلب لها كوبا من الماء البارد... وحين عاد إليها كان قد عرف اجابة سؤاله....
يجب الان أن يكون حذرا، فالجزء التالي من المعضلة قد يكون واحدا من ثلاثة افتراضات:
ا- الفتاة تحبه هو: وهذه كارثة.. وكما قال ستيفن زفايج) على لسان أحد أبطاله: (الذئاب فقط هم من يسعدون بحب امرأة لا يحبونها.. إن حب امرأة ليس نصرا، بل هو كارثة حقيقية.. جبل من المسئولية عليك أن تزيحه عنك دون أن تدميها، أو تبدي فظاظة..)
و (شريف) لم يكن ذئبا.. لهذا - حتما سيجعله حبها تعسا
٢ - الفتاة لا تحب أحدا بالذات.. هي فقط تمقت عريسها القادم..، وفي هذه الحالة ماذا تريد من (شريف) بالضبط؟..
هو لا يذكر أنه يحرر بابا باسم (طبيب القلوب) أو (لمشكلتك حل) في أية مجلة.. ومن الغباء أن تفترض أنه يملك حلا لورطتها..
٣- الفتاة تحب (فانتازيا): وهذا هو أقرب الاحتمالات للصواب.. وهذا هو ما يرجوه بالضبط.. إن (شريف) يتمتع بعقلية تحليلية بارعة.. كأنما يخطط أحد برامج الكمبيوتر بأسلوب (الشفرة المزيفة)..
لكن احتمالا رابعا فاته.. هو أن تكون الاحتمالات الثلاثة الأولى صائبة جميعا..! وأنا أرى أن هذا هو الأقرب إلى الصواب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و هكذا...
وبعد جهد جهيد استطاع أن يفهم أن الفتاة تعاني حالة عدم قبول مزمنة لعالمها وواقعها.. هى غير راغبة في التورط أكثر في هذا الواقع المرير الذي لا يتغير..
قال لها في صبر:
- ليكن يا (عبير).. لنقل إنني أعدتك إلى (فانتازيا)..
أنت الآن تعرفين أن هذا سيتم لمدة ساعتين أو ثلاث.. بعدها تعودين إلى ذات الواقع.

- أعرف.. لكن ذكرى هاتين الساعتين ستعطيني القدرة على تحمل أسابيع أخرى من الشقاء
نظر لها حائرا ولم يدر ما يقول.. للمرة الأولى يرى الجانب الأخلاقي من الموضوع.
الهرب من الواقع.. هذا هو ما يقدمه نفس الشيء يقدمه بائع الخمور وتاجر الحشيش..
و هو - إذ يرى (عبير) بجفنيها المتقرحين ولهفتها - يشعر كأنها مدمنة مخدرات، جاءته طالبة جرعة (الماكس) اليومية كان القرار عسيرا..
وأدرك أنه عاجز عن تقييم نفسه: أصائب أم مخطئ.. أحسن أم سيئ..
لكن (عبير) قالت كأنما تقرأ خواطره:
- إن (فانتازيا) ليست مجرد خزعبلات.. إنها عالم خالص فذ، خلقته عبقرية الأدباء عبر التاريخ..
ونظرت له في ثبات وأردفت:
- أرجوك!
في تردد غمغم:
- ليكن.. لكنها المرة الأخيرة..
- أنت تعرف أنها لن تكون المرة الأخيرة.. أنت بدأت شيئا وتريد رؤية تمامه.. وكذلك أنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الكمبيوتران موضوعين على مكتب صغير في الحجرة التي يستخدمها لأبحاثه، والفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان...
عشرات الأسلاك والمعدات.. دوائر متكاملة ملقاة : على الأرض.. أوراق ممزقة.. قوابس.. مقاومات وعشرات من أكياس حلوى النعناع الفارغة.. وكان رسام المخ موضوعا على منضدة صغيرة، بينما جهاز (الديجيتايزر) فوق مقعد خشبي قال وهو يعينها على الجلوس:
- لقد قمت بإجراء تطويرات عدة ستعرفينها في حينها.. إلا أن هناك نقطة يهمني أن تلمي بها..
نظرت له وقد اتسعت عيناها شغفا.. فأضاف:
- في عالم الهلاوس يكون وجدانك ونظامك الطرفي مندمجا بالكامل في الهلوسة.. والنظام الطرفي له سيطرة كاملة على (المهاد التحتي) و (النخاع المستطيل).. هل تفهمين هذا؟
- ولا حرف!
ابتلع ريقه وقطب محاولا العثور على صيغة أسهل:
- حسن.. لنقل إن الهلوسة سيكون لها أثر عنيف على ضربات قلبك وضغط دمك وخلافه.. وإنه لو حدث أن هلكت في أثناء الحلم...
واتسعت عيناه ونظر إليها:
- ستهلكين في الواقع في نفس اللحظة!
- ولماذا؟
- لأن قلبك سيتوقف من الصدمة العصبية.. وهو ما قد يحدث لضعاف القلوب، إذا ما رأوا كابوسا، لهذا عليك أن تحتاطي وتحافظي على حياتك قدر الإمكان وأنا سأتصل بك لأعطيك رأيي في المواقف العسيرة..
تساءلت وهي تترك له رأسها يثبت عليه الأقطاب:
- ولماذا تقحم نفسك في هذه المخاطرة إذن؟..
ابتسم ابتسامة لم ترها ولم يقل شيئا.
كان راغبا في استكمال التجربة.. ولولا أنها ليست له - التجربة - لكان أول من يثبت هذه

الأقطاب حول رأسه هو.. على كل حال..
ضغط مفتاح الإدخال في جهاز الكمبيوتر..
وبدأت (عبير) رحلتها الثانية..
إلى (فانتازيا)......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- القلعة..

في هذه المرة كان الانتقال أكثر سلامة ونعومة. لم تغرق (عبير) في قيء الذكريات الذي وجدت نفسها فيه أول مرة.. ولكنها رأت ظلاما دامسا يسطع فيه ضياء بللورى خافت بلون الكهرمان..
وفي قلب هذا الضياء كانت ترى لقطات منفصلة سريعة من حياتها السابقة.. خطر لها في هذه اللحظة مدى التشابه الذي كتبوا عنه كثيرا ما بين الحلم والسينما.. الظلام في السينما هو ذاته ظلام النوم ثم تتهادى الرؤى على الشاشة الفضية للسينما، أو تلك الشاشة الوهمية التي يخلقها العقل الباطن في الحلم..
خطر لها كذلك أن ما تراه ربما يكون شبيها بما يراه المحتضرون.. حين يدور شريط حياتهم كاملا أمامهم، في زعم الزاعمين طبعا.. الفارق هنا هو أن المحتضر لن يعود ليحكي ما رآه.. أما هي فتعرف أنها ستحكى كل حرف ل (شريف) حين تعود.. ولماذا تحكى..
لا بد أن (شريف) جالس يراقب كل هذه الأحداث الأن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن الوضع بالنسبة ل (شريف) كان مختلفا بعض الشيء.. فالصور على شاشة الكمبيوتر العارض كانت تتحرك بسرعة لا تصدق، ويستحيل على العين البشرية أن تستخلص منها سوى بضع بقع سوداء وبيضاء تتواثب أمامها..
لهذا كان عليه أن يستخدم برنامجا خاصا، يقوم بتحليل الصور وتفكيكها إلى لقطات تعرض بسرعة ثماني لقطات في الثانية، على شاشة كمبيوتر ثالث وهكذا يستطيع أن يرى الأحداث بسرعة معقولة، وفي ذات الزمن الفعلي للحلم..
وسر هذه السرعة منطقي جدا.. إن الفتاة ستحلم المدة نصف ساعة أو ساعة.. لكن أحداث حلمها تستغرق أياما.. ربما أعواما.. (فالزمن لا وجود له في العقل الباطن) كما قال سيد مفسري الأحلام (سيجموند فرويد) يوما ما.. ومعنى هذا أن ما تراه مضغوط إلى حد لا يصدق، وعليه هو أن يفكك هذا الانضغاط ليتمكن من الرؤية والفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرة أخرى وجدت (عبير) نفسها واقفة على الهضبة إياها..
وإذ نظرت وراء كتفها، وجدت (المرشد) ممسكا بقلم الشهير في (السوستة). يداعبه بإبهامه بذات الطريقة المستفزة..
تك!.. تتك!.. تك!.. تتك!..
- مرحبا بك يا صغيرتي.. لقد هربت منا في المرة السابقة دون مبرر في الواقع..
أشرق وجهها إذ رأته وهتفت:
- كنت مجبرة على ذلك.. صدقني!
- لا عليك.. والآن هيا بنا.. القطار ينتظرك..
وتأبط ذراعها في رفق واتجه بها إلى القطار الصغير الواقف على القضيب يهدر..
وبدأ القطار يتحرك وسط مشاهد غريبة لم ترها من قبل.. قالت له وأنفاسها تنقطع انبهارا:
- لم أر هذا الجزء في الرحلة السابقة
- هذا طبيعي.. إن (فانتازيا) لا تبقى على حال.. في الواقع فقط يمكنك أن تقسمي أن (طوخ) تقع

ما بين (بنها) و (قليوب).. وأن (عين شمس) تقع جوار (المطرية).. أما في عالم الخيال فلا توجد حقائق.. مؤكدة... كل شيء يتغير... ولو أن الخيال اكتسب جمود وثبات الواقع لما صار خيالا..
كادت تصفق بكفيها طربا قائلة له (أعد)..
ثم سألته دون أن تبعد عينيها عن الطريق:
ما هي مغامرة اليوم؟
- أنت صاحبة القرار
- لقد غادرت عالم (هولمز) و (بوارو) قبل أن أعرف لماذا قتل الخادم سيده اللورد.. فلو أنني عدت إلى هناك ل..
هز كفه بحركة توحي بالسأم.. وقال:
- من دعك من هذا.. إن التفاصيل لا تتكرر هنا.. ولو أنك عدت لوجدت قصة جديدة تماما.. لا أحد يهتم بالتفاصيل في (فانتازيا)..
المهم هو الجو العام..
كان القطار يمشي بين الثلوج.. وثمة مرتفعات جليدية شاهقة يتحرك عليها شخص ما، يطارده شيء مشعر عملاق.. تساءلت:
- ما هذا؟
- أوه.. إنه عالم الثلوج - ثلوج (إفرست) أو الثلوج القطبية لا يهم. حيث يمكنك أن تقابلي رجل الثلوج (الياتي).. أو تعيشي مع كابتن (بيرد) أو أي شيء آخر.
وخرج القطار من هذا المكان الجليدي - غير البارد برغم هذا - إلى شاطئ بحر يتناثر رذاذ أمواجه كلما تحركت الريح.. وعلى مرمى البصر كان شيء ما يتحرك..
- هذا هو عالم البحار، حيث تجدين القبطان (إشاب) يبحث عن الحوت (موبي ديك) الذي التهم ساقه.. وتجدين العجوز يصارع البحر في قاربه العتيق.. وتجدين سمكة القرش البيضاء العظيمة في قصة (الفك المفترس).. وعشرات من سفن القراصنة والباحثين عن كنوز تركها هؤلاء القراصنة..
وداعب القلم بإصبعه.. تك!.. تتك!.. تك!..
- ما رأيك في النزول هنا؟
- أفضل الانتقال لاحتمال أخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن بعيد رأت غابات مظلمة تتلألأ أشجارها في ضوء قمر خافت.. وفي نهاية ممر الأشجار، رأت مرتفعات يبدو منها قصر كئيب المنظر.. جاثم كالوحش في الظلام..



وفي النهاية ممرّ الأشجار، رأت مرتفعات يبدو منها قصر كئيب المنظر..

خيل لها أنها تذكر هذا المكان.. حتما هي رأته في الرحلة السابقة، فماذا كان؟... سألت (المرشد) فأجابها وهو يبتسم:

- هذه هي (ترانسلفانيا) في (رومانيا).. وهذا هو قصر (فلاد) من (والاشيا)..
- (فلاد)؟.. لا أذكر أنني قرأت شيئا ك.
- بل قرأت بالتأكيد لكنك نسيت.. (فلاد الوالاشي) هو اسم من أسماء الكونت (دراكيولا).. أعني أنه الاسم الأصلي له قبل أن يدعوه مواطنوه (الشيطاني) أي (دراكيولا) باللغة الرومانية.
لا بد أنك قرأت هذه المعلومة يوما، وظلت في ذاكرتك.. وإلا ما كان ممكنا أن تضعيها في حلم...
- « فهمت »..
قالتها في انبهار.. وشرعت ترمق الجو الشبيه بكابوس ملون..
كانت - ككل أصحاب الخيال المرهف - تحب أن تخاف.. تخاف في فمها تحت الأغطية آمنة من كل شر..
لهذا لم توم كثيراً..
وبهدوء قالت للمرشد:
- إذن أنزلني هنا...
- إن أحلامك أوامر يا جميلتي..
قالها وشد حبلا صغيرا متدليا من السقف، فتوقف القطار بنعومة بين الغابات المظلمة.. وبرقة ساعدها على النزول.. ونزل خلفها.. ثم قاد ما بين الأشجار إلى موضع عند قمة طريق ممهد..
- من هنا تبدأ مغامرتك
نظرت إلى بعيد وتساءلت:
- ولكن.. لا توجد مواص..
ونظرت وراء كتفها لتجد ما توقعته.. لقد تلاشى (المرشد) تماما.. تركها لتعيش مغامرتها كاملة دون توجيهات من جانبه..
ولكن.. كيف تبدأ؟...
وقفت ترمق الأفق بعض الوقت..
ثمة ضوء يتحرك من بعيد.. يدنو بسرعة غير عادية منها.
واقترب الضوء أكثر، فأدركت أن هذه عربة مسافرين تجرها أربعة خيول.. والضوء ضوء مصباحين على جانبيها..
العربية تتوقف على بعد خطوات منها.. والحوذى - الذي يرتدي ثيابا مزركشة عجيبة - يتأملها وهو يمسك بزجاجة..
ثم سمعته يسألها:
- إلى أين أنت ذاهبة يا فتاة؟
فهمت كلماته كأنها اللغة العربية.. لكنها كانت تدرك كذلك أنه تحدث بالرومانية.. وقد اعتادت هذا على كل حال فلم تندهش له،، كما أنها لم تندهش حين جاء الرد حاضرا على شفتيها:
- أنا ذاهبة إلى المرتفع، حيث يقود الطريق إلى قلعة الكونت..
حك الرجل رأسه.. بدا كأنما لا يجد ما يقوله.. ثم هتف:
- نحن ذاهبون إلى (بوكوفينا).. وسنمر بالنقطة التي تريدينها..
ولكن هل أنت حقا راغبة في ذلك؟
كان محتما أن تقول نعم.. فلو لم تقلها لما كانت هناك مغامرة أصلا وهي تعرف من القصة أن الجميع سينذرها ويحاول دفعها للبقاء معهم، والذهاب إلى (بوكوفينا)..
- أنا أرغب في ذلك!

- إذن اركبي ..
وصعدت (عبير) إلى داخل العربة المظلم..
ولم يفتها - حين تأملت طرف ثوبها - أن تدرك أنها ترتدي ثيابا غريبة.. هي أقرب لثياب تلك الفرقة الشعبية المجرية، التي رأتها في التليفزيون منذ شهرين.
وأدركت أن (دى - جى - ٢) قد زودها بالثياب الملائمة للقصة كعهده دائما.. شكرا لك أيها الجهاز الأمين..
شرعت تتأمل الجالسين حولها في الغربة.. بعض الرجال المتأنقين الذين بدا عليهم القلق لسبب لا تدرية، وامرأتين ترخيان قبعتيهما على وجهيهما.. كان الظلام داخل العربة دامسا، إلا من انعكاسات غامضة من المصباحين المعلقين بالخارج.. ولا صوت هنالك سوى قرقعة حوافر الخيول فوق الأرض.. لكنها أدركت دون جهد أن كل من بالعربة يتأملها في فضول..
بعد وقت ليس بالقصير، شعرت بالعربة تتوقف وسمعت الحوذى يصيح مناديا إياها:
- وصلنا يا فتاة.. هيا انزلى...
غادرت (عبير) العربة.. واتجهت نحو السائق..
كان في يدها الآن كيس نقود لم تدر من أين جاء...
لكنها مدت يدها فيه، تريد أن تنقده أجره.. لكنه صاح:
- لا أريد مالا.. فقط اذكرينا بالخير عند من أنت ذاهبة إليه..
ورسم علامة الصليب على صدره، وأردف:
- ولكن.. هل أنت حقا غير راغبة في البقاء معنا..؟ بحق جميع القديسين أرجوك أن تفعلى اذهبي إلى (بوكوفينا) معنا.. ليس لدي الكونت ما يثير شغف فتاة شابة مثلك.
ثم بصق على الأرض وجرع جرعة من الزجاجة:
- يا للشيطان!.. إنه لخمر رديء.. هيا يا حلوتي..
ته الى معنا إلى حيث الأمان.. إن...
وكف عن الكلام حين رأى العربة السوداء بجيادها السود واقفة في الظلام، على بعد أمتار من عربته.. متى جاءت هذه العربة؟.. لم تلحظ (عبير) ذلك قط ولا السائق على ما يبدو..
وسمعت صوتا باردا قاسيا يأتي من حوذي العربة السوداء:
- إنك تتكلم كثيرا يا رجل.. إن الانسة لعلى عجلة..
لم يفه الحوذي الأول بكلمة.. جذب اعنة خيوله. فانطلقت عربته لا تلوى على شيء وذابت في الظلام..
وللمرة الأولى شعرت (عبير) بالرهبة..
قشعريرة باردة تمشت في عمودها الفقري، حين ألقت نفسها واقفة وحيدة بين هذه الغابات المظلمة، أمام تلك العربة السوداء - كعربات الجنائز – وسائقها الذي لم تتبين وجهه، لكنها لم ترغب في ذلك قط..
متى ينتهي هذا الحلم الغريب؟...
للأسف لا توجد طريقة معينة لذلك.. ولن ينتهي إلا حين يوقف (شريف) عمل الجهاز، أو يرى (المرشد) أنها نالت كفايتها من هذه المغامرة..
تذكرت موقفا مشابها في طفولتها، حين أخذها خالها الشاب الطائش إلى السينما.. جلس بجانبها بعض الوقت، ثم طلب منها أن تظل في مكانها ولا تتحرك حتى يعود لها؛ لأن لديه شينا يجب أن يقوم به..

وهكذا جلست في السينما وحيدة - وهي طفلة في السابعة من عمرها تشاهد فيلما فيه كثير من الخيول.. وطلقات الرصاص.. ورجال يحملون فئوساً.. و..
فجأة لم تعد تريد المزيد.. تريد العودة لدارها.. لكن كيف؟.. لقد ذهب خالها ولم يعد بعد.. هي لا تعرف كيف تغادر هذا المكان المروع.. هي وحيدة تماماً
والخلاص هو في يد خالها وحده..
شعرت بأن هناك من خذلها.. خالها..
شرعت تبكي.. لكن البكاء لم يعدها لأمها.. البكاء لم ينه الفيلم.. البكاء لم يجئ بخالها..
لم يعد هذا الأخرق، إلا وقد أضيئت الأنوار، وبدأ الناس يغادرون السينما....
الآن فقط تتذكر هذا الموقف المقيت.. وترتجف.. يجب أن تظل في مقعدها بلا حراك حتى يعود خالها.. هذه هى القاعدة..
لهذا - وفي تؤدة - اتجهت للعربة الواقفة كالكابوس بين الأشجار وركبتها..
سمعت صوت السوط يهوى فوق أعناق الجياد..
واندفعت العربة في رحلتها الرهيبة..
نحو قلعة الكونت (دراكيولا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - الكونت

اندفعت العربة بسرعة جنونية بين الأشجار..
وأحست (عبير) أن عظامهما قد وضعت في خلاط أسمنت يحاول تحويلها إلى مستحلب دقيق..
حاولت أن تنادي الحوذى، لكن صوتها الرفيع الرقيق ضاع في ضوضاء حوافر الخيل وارتطام أجزاء العربة ببعضها..
وسمعت من بعيد عواء الذئاب..
نعم.. هذا متوقع كما بالقصة الأصلية.. الذئاب العملاقة التي تطارد العربة، وتحيط بها طيلة الطريق إلى قلعة الكونت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعند بوابة القلعة العملاقة وقفت تنتظر.. صوت الذئاب العميق الطويل المفعم بالشجن يتردد من بعيد.. فيوشك قلبها أن ينخلع..
سمعت صوت خطوات.. ثم انفتح الباب ببطء عن رجل يمسك بشمعة في يده..
وتأملته (عبير) في اهتمام..

لقد قام كثيرون بأداء دور (دراكيولا) في السينما، من عهد (لون شانى) و (فنسنت برايسي)، مرورا ب (كريستوفرلى)، وانتهاء ب (توم كروز)..

لكنها لم تر سوى فيلم واحد من أفلام (دراكيولا) في السينما، قام ببطولته (كريستوفرلي) - الذي لم تكن تعرف اسمه - لهذا ظل وجهه الوسيم المميز هو وجه (دراكيولا) بالنسبة لها..
وكان طبيعياً أن يكون هذا هو الوجه الذي ستراه الآن..
كهل وسيم بادى الرقي.. متأنق.. فارع القامة.. أقرب إلى الحزن في عينيه.. أشيب الفودين.. يعانى نحولاً في الشعر على جانبي رأسه..
وكان يرتدي عباءة سوداء مبطنة بالمخمل الأحمر.. أبتسم لها في مودة، ودعاها إلى الدخول.. وحياها.. بالتحية الرومانية الشهيرة:
- أهلا بك في دارى.. إليها تدخلين حرة ومنها ترحلين سالمة.. فقط بعد رحيلك أتركي لنا بعضا من كل هذه السعادة.. ثم صافحها بيد باردة معروقة.
- أنا الكونت (دراكيولا)..
كادت تولي الأدبار إذ سمعت عبارته الأخيرة.. ثم قالت لنفسها إنه لا مبرر للذعر.. أنت تشاهدين فينما سينمائيا يا (عبير)، ومن المستحيل أن يؤذيك.. كل ما هنالك هو أنك جزء من هذا الفيلم.. ومن الحمق أن تغادرى دار السينما قبل انتهاء الفيلم؛ لمجرد أنك جبانة أكثر من اللازم؟
إلى الداخل دعاها.. إلى قاعة بها مدفأة ومساندة عليها أصناف عدة من الطعام الشهي.. فأجلسها عند طرف المائدة..
واختار مقعدا جلس عليه أمامها.. وقال في رزانة:
- كنت بانتظار موثق عقود يدعى (جوناثان هاركر).. وهو انجليزي.. لكنه لم يأت، وجئت أنت بدلا منه.. أعتقد أن العشاء سيكون من نصيبك..
كانت تعرف أنها تمر الآن بكل ما كان (هاركر) سيمر به في الرواية الأصلية التي كتبها (ستوكر). تعرف أنها ستظل حبيسة قلعة الكونت فترة زمنية طويلة، ترى فيها أهوالا عدة.. ثم تعود إلى (انجلترا) التقابل خطيبتها (لوسي)..
خطيبتها؟.. صعب هذا الجزء.. من المؤكد أن (دى - جى - ٢) سيجد حلا آخر لأنه من المستحيل - على الأرجح - أن تكون لها خطيبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألته وهي تلتهم الطعام:
- إذن أنت الكونت (دراكيولا) مصاص الدماء؟
ابتسم في رقة واعتدل في جلسته:
- مرحي.. أرى أنك تعرفين الكثير، وهذا يريحني من عناء التظاهر بالبراءة.. نعم أنا مصاص دماء..
- هل حقا يوجد مصاصو دماء؟
هرش في عنقه وغمغم:
- بالنسبة لي أنا، يوجد قدر لا بأس به من الحقيقة، فأنا بطل روماني قديم، حارب الأتراك بضراوة.. كنت أدعى (فلاد).. واستطعت تحرير إقليم (والاشيا) من قبضتهم تماما..
صحيح أنني كنت قاسيا.. صحيح أنني كنت أضع رءوس أعدائي على مائدة الإفطار: لأنعم بالموت في عيونهم.. لكني لم أمتص دماء أحد.. إنها الأسطورة التي أشاعها الناس عني.. والاسم اللعين الذي ألصقوه بي: (الشيطاني).. وفي (المجر) أطلقوا على اسم (نوسفير اتو).. أي (الذي لا يفنى).. هي مجرد سمعة سيئة سرعان ما تحولت إلى أسطورة خالدة..، لكننا الان نعيش

بمعطيات ومقاييس هذه الأسطورة.. لهذا يمكنك أن تتأكدي من أنني مصاص دماء، أنام النهار في تابوت، وأصحو ليلا لأمتص دماء عابرى السبيل..
تساءلت في قلق:
- وهل تنوي امتصاص دمى؟
- أنا أرحب بدماء الحسناوات مثلك دائما!
ظنته يمزح.. ثم تذكرت أنها في (فانتازيا).. و (عبير) في (فانتازيا) تصير أكثر جمالا وأحذ ذكاء بما لا يقاس..
وهنا أردف الكونت:
- يمكنني أن أنهض الآن وأكبل حركتك، وأمتص دماءك فورا.. لكن بذلك أنهي الأسطورة في ثوان... وأنا مكلف بأن أجعلك تعيشين مغامرة شيقة لا بأس بطولها.. هل فهمت؟.. لا بد من أحداث وإلا كان البرنامج مثيرا للإحباط..
- إذن ماذا تنتوي؟
- سآخذك إلى القبو وأقيدك هناك!
- وهل تظنني لن أقاوم؟
ابتسم في ثقة.. وأحست (عبير) بأن هناك بقعا ما على وجهه.. على الصورة كلها.. على العالم كله في الواقع..
كان ستارا
من الشاش الطبي يغلف كل شيء من حولها.
وأدركت أن وعيها ينسحب ببطء منها..
وسمعت صوت الكونت:
- أرجو أن تسامحيني على وضع مخدر في طعامك. إنها الطريقة المثلى لنقلك إلى هناك دون مقاومة.
كيانها يذوب ببطء.. وعيها يتسرب.. إدراكها أنها هي.. وفهمها لمعطيات الواقع.. كل هذا يتحول إلى ضباب رمادى تراه يبتعد عن مرمى بصرها..
إنها تغيب عن ال...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الان تصحو (عبير) فلا تجد أمام عينيها سوى الظلام..
رائحة الرطوبة والعطن قادمة من لا مكان.. والإحساس بأنها عاجزة عن الحركة تماما.. لكنها واقفة.
ثمة شيء يمنع ذراعيها من التدلي إلى جانبها.. شيء له برودة الفولاذ وصلابة الفولاذ وقسوة الفولاذ..
لا تحتاج إلى الضوء كى تدرك أنها مكبلة إلى الجدار بسلاسل فولاذية في وضع الوقوف..
الان تعتاد عيناها الظلام إلى حد ما.. فترى حدود الموجودات حولها، مغلفة بلون رمادي شاحب..
إنه قبو - كما هو واضح - فسيح.. تزحف الرطوبة على جدرانه المتأكلة.. وفي كل أرجائه صناديق خشبية ضخمة، بينما الفئران تلهو هنا وهناك.. اللعنة!.. إنها لا تطيق الفئران..
ابتلعت ريقها ورفعت عينيها لأعلى، فرأت سقفا مدعما بالقوائم الخشبية المتآكلة، تتدلى منها

خطاطيف كالتي يعلق الجزار عليها لحومه... ثم.. توقفت عيناها على أشياء صغيرة متدلية هنا وهناك من أحد العروق الخشبية..
فئران؟.. لا.. مستحيل أن تكون فترانا، وإلا فلماذا هي متدلية ورءوسها لأسفل؟.. وما سر هذا الغشاء الأسود المطبق على الجسد؟
إنها أشياء أقرب إلى فئرانا مجنحة كبيرة الأذان، تتدلى متعلقة من أقدامها..
وطاويط!.. هذا واضح ولا يحتاج إلى أن تكون عبقريا..
شعرت بقشعريرة تسري في عمودها الفقري.. يبدو أنها كانت مخطئة حين اختارت هذا المكان بالذات.. وهذا الحلم بالذات..، إن كل ما فيه بشع قاتم كنيب. يبعث القشعريرة في كل كيانها.. والخطأ خطؤها ولا مراء..
فحينما قررت أن ترعب نفسها حتى الموت، كان عليها أن تتوقع وجود فئران ووطاويط وأقبية مظلمة.. لأن قصص مصاصي الدماء لا تكتمل دون هذا كله..
ولكن.. ماذا عليها أن تنتظره الآن؟.. إن الوقت يمضي ببطء شديد وذراعاها يؤلمانها إلى حد غير عادي..
صوت صرير في ركن القاعة..
بصعوبة تحاول أن تتبين ما هنالك وسط الظلام.. خيل إليها أن غطاء صندوق من تلكم الصناديق الخشبية ينفتح..
بالفعل هو كذلك!.. الصندوق ليس سوى تابوت.. تابوت يرتفع غطاؤه ببطء شديد.. وهي ترى يدا تخرج منه تحاول عبثا أن تمسك بشيء ما..
ثم.. انفتح صندوق ثان.. فثالث..
ومن الصندوق الأول ترى ظلا ينهض.. ظلاله شعر منتشر كالنيران حول وجهه.. وترى الظل يمد ذراعيه على امتداد هما.. وتسمع صوت فتاة متحشرجاً مبحوحا يقول وكأنه يتثاءب: - أخيرا جاء الليل واستعدنا قوانا! ثم تراها تنهض من الصندوق.. مغلفة بالظلام.
تنهض مترنحة وتمشي بضع خطوات نحوها..!
الآن تستطيع (عبير) أن تدرك كنه هذا (الشيء).. فتاة هي.. شقراء مبعثرة الشعر على شيء من الحسن، قبل أن تتحول إلى هذا المسخ الذي صارته..
عيناها حمراوان كأقداح الدم.. وفمها المبهور الأنفاس - تنحدر على ركنه قطرات من الدم الجاف وبرغم الظلام الدامس، أدركت (عبير) أن للفتاة تابين أبيضين يلتمعان كنصال الخناجر..
نحوها تمشي ببطء، وهي تحرك أناملها أمام صدرها بأسلوب غريب، ذكر (عبير) بعشرة من الثعابين تزحف في وقت واحد، نحو فريسة مذعورة معدومة الحيلة...
ومن طرف عينها، أدركت (عبير) أن فتيات أخريات يغادرن صناديقهن الان متجهات نحوها الآن صار الموقف كالتالي:
(عبير) مكبلة إلى الجدار عاجزة عن الحركة. بينما حولها تلتف ست من مصاصات الدماء، اللواتي غادرن صناديقهن - (شريف)!.. أنقذني... أنه هذه القصة حالا! صرخت وهي تحاول التملص من قيودها:
المفترض أن هذا المعتوه - (شريف) – يراها ويسمعها، ومن المفترض أن يدلي لها بتعليماته أو ينقذها.. هل يوجد وقت أجدر بذلك من هذه اللحظة؟..
"لا داعي لدخول القلعة يا (عبير).. هل تسمعين؟"
دوي هذا الصوت الهادئ في أرجاء عقلها الباطن فدهشت لحظة، ثم أدركت أن هذا هو

(شريف) يدلى بتعليماته لها كما وعد.. ولكن ما معنى أن يمنعها من دخول القلعة؟.. لقد دخلتها بالفعل منذ ساعات أو أيام لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى).. لماذا ينصحها الآن بذلك؟
وهنا فهمت.. أن (شريف) متأخر في متابعة الأحداث؛ لأنه يعتمد على إبطاء الصورة.. وهكذا يراها الان على شاشة الكمبيوتر، وهي مازالت واقفة أمام باب قلعة (دراكيولا).. ولهذا ينصحها بعدم الدخول، غير عالم - الأحمق - أنها دخلتها منذ زمن.. وأنها الأن واقعة في شراك جيش من مصاصات الدماء!..
قطعت تدفق خواطرها، حين أحست أن الفتاة الأولى - الشقراء - قد دنت منها تماما.. حتى أن (عبير) لتشم ريح أنفاسها المقزز..
أنفاس لها رائحة الموت.. وتسمع فحيحها الشبيه بفحيح الأفاعي..
ورأت النابين الحادين، تكشف عنهما شفتان متقرحتان ترسمان أوقح وأبشع ضحكة رأتها في حياتها..
انتهى الأمر.. إن هي إلا ثوان حتى.....
وفي اللحظة التالية، رأت الفتاة ترتفع إلى أعلى ثم تطير في الهواء.. لتصطدم بالجدار.. فتسقط على الأرض متكومة تئن..
رفعت عينيها لتجد الكونت (دراكيولا) بقامته الفارعة، يقف – وقد بدا عليه الغضب - ينظر إلى الفتيات..
وصاح بصوت جهورى مدو:
- إن الفتاة ليست لكن!.. عدن إلى توابيتكن الأن!
تراجعت الفتيات في خيبة أمل إلى الوراء، ككلاب تبصبص بذيولها بعد أن طردها صاحبها من داره...
ودنا الكونت من (عبير). وقرب وجهه من وجهها... عيناه الرماديتان شديدتا التأثير في روحها.. لقد أنقذ حياتها.. ولكن لأنه يختص نفسه بمتعة امتصاص دمها.. كانت قد رأت أشياء عديدة من هذا النوع، في الفيلم اليتيم عن (دراكولا) الذي رأته.. مصاصات الدماء اللواتي يستحوذ عليهن الكونت (دراكيولا) في قبوه، مانعا إياهن من امتصاص دم ضحيته الأثيرة إلى نفسه.. وهي ستكون هذه الضحية، فأي شرف وأي فخار!
وشعرت بأنفاسه تدنو من عنقها..
وسمعته يهمس وهو يلف عباءته حولها:
- إن الخلود يحتاج إلى تضحيات.. وهذه هي التضحية الأولى!
حاولت أن تقاوم فلم تستطع..
الوهن يزحف إلى أطرافها..
النابان الحادان يغوصان في وريد رقبتها..
ثم.. لا شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- غير ميتة..!

(غير ميتة).. هي كلمة تختلف كثيرا عن كلمة (حية).. وليست مرادفا لها بحال.. مصاصو الدماء فقط يعرفون الفارق اللغوي الحساس بين اللفظتين..

و (عبير) لم تصر مصاصة دماء بعد.. لكنها وضعت قدمها بثبات على أول درجة من السلم الذي يقود إلى أن تصير (غير ميتة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شمس حارقة تغمر جسدها وتحرق جفنيها..

فتحت ببطء عينيها، لترى آلاف الشموس مرتسمة على شبكتيها.

وبصعوبة تمكنت من أن تدرك أنها ممددة في العراء، جوار شجرة غليظة الجذع.. وأن الريف الروماني باهر الجمال، يمتد أمام عينيها إلى حيث حدود الأفق..

رأت من بعيد مجموعة من الرجال والنساء، في ثياب غريبة مزركشة، يركبون بعض عربات تجرها الخيول.. وبعضهم راجل.. كثير منهم كان يربط رأسه بعصابة مرقطة.. وبعضهم يحمل كمانا صغيرا..



رأت من بعيد مجموعة من الرجال والنساء، في ثياب غريبة مزركشة، يركبون بعض عربات تجرها الخيول..

هرعت - مترنحة - إلى قافلتهم.. فتوقف بعضهم يرمقها في فضول ودهشة.. ودنا منها عجوز كث الشاربين، له عين عوراء ليسألها:

- من أين جئت يا فتاة؟
- من أنتم؟
ضحك ضحكة مجلجلة سرعان ما استحالت إلى سعال يهتز به صدر الشيخ.. كأنما هو صندوق يحوى دستة من البلى..
- ها ها ها ا ا هـ !.. ها ها كح كوح كح!.. إنك - ولا شك - غريبة يا فتاة حتي تجهلى غجر (التسجائى).. ملوك غابات رومانيا وسادة سهولها..
كح كح!
ورأت شابا أسمر مفتول العضلات، له شاربان عملاقان يدنو منها.. كانت ملامحه تعكس شراسة غير عادية.. وسألها:
- من أين جئت؟.. هلا أجبت السؤال؟
تراجعت بظهرها خطوة للوراء إزاء مسلكه العدواني
وفي وجل قالت:
- من.. قلعة الكونت!
- كونت (دراكيولا)؟
- نعم..
خرجت سيدة تربط رأسها بعصابة حمراء من وسط الجمع، وعلى كتفها رضيع غاف.. كانت حافية القدمين متنمرة تماما..
- واحدة أخرى منهم!.. هلم يا (فيتور) دعها وشأنها.. دعنا نواصل رحلتنا قبل أن يحل الظلام ونحن في هذه الأرض المشئومة..
عم تتحدث هذه المرأة؟.. واحدة من من؟...
كل ما تعرفه (عبير) هو أنها كانت عند (دراكيولا)، وأنه كان على وشك امتصاص دمها، ثم من الواضح أنها نقلت إلى هذا المكان وهى فاقدة الوعي..
لهذا هتفت في إلحاح:
- عم تتحدثون؟.. ماذا قد حدث لى؟.. أرجوكم أن تتكلموا!
في الحاح أعنف صاحت المرأة:
- هلم يا (فيتور) وأنت يا (دراجوزانى).. إننا الان نسير في أملاك الكويت.. ومعنى هذا...
أوقفها العجوز بإشارة حاسمة من يده. وفهمت (عبير) أنه هو قائد هذه المجموعة من الغجر وبالتأكيد اسمه (دراجوزانى). أما الفتى حاد الطباع فهو (فيتور)...
قال العجوز بلهجة من لا يقبل النقاش:
- سنصحبها معنا إلى (بوكوفينا)..
- ولكن.
- إن البائسة لا تعرف ما حل بها.. لربما كان خلاصها ممكنا...
وهكذا.. وجدت (عبير) نفسها جالسة في عربة مسافرين، تهتز بها أماما وخلفا.. ويمينا ويسارا، بينما القافلة تمضي إلى وجهتها في (بوكوفينا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل تحبين موسيقا (البلالايكا)؟
سألها ذلك الشاب الشرس، وهو جالس جوارها في الجزء الخلفي من العربة، ودون أن ينتظر

جوابها. رفع إلى ذقنه آلة وترية تشبه الكمان إلا أنها على شكل ما.. ومد قدمه التي يغطيها حذاء ذو رقبة؛ ليريحها على المسند الخشبي أمامه، وأراح هذه (البلالايكا) ما بين ذقنه و عنقه.. ثم شرع يحرك القوس على الأوتار بسرعة لا تصدق، فتبعث ألحانا غاية في المرح والانطلاق..
وسمعت العجوز الذي يقود العربية من خلف مقعده (يدندن) نغمات تتماشى مع هذه الألحان الرشيقة، بصوت أجش مبحوح..
وكذا تمضي العربات ببطء خارجة من أرض (دراكيولا)..
(عبير).. لا تشربي ولا تأكلي شيئا.. يخيل لي أن الكونت (دراكيولا) قد دس لك مخدرا ما..!
هكذا دوى صوت (شريف) في ذهنها. عليك اللعنة!.. تنذرني بعد خراب (مالطة) كما يقولون أعتقد يا (شريف) أن معاونتك الصوتية لن تكون ذات نفع لى.. كل تعليماتك تجيء بعد فوات الأوان فلربما كان الأفضل لك ولى لو التزمت الصمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (فيتور) مرحا.. برغم حدة طباعة الواضحة، وسرعة ثورته، وجدته (عبير) رفيق سفر طيبا سألته عن سر خوف الغجر منها.. فقال:
- إنهم وجدوك غافية في أملاك (دراكيولا).. ونحن لا نعرف عن هذا الكونت سوى أنه يسمح لنا بالمرور في أرضه..، لكن الأسرار الشريرة تحوم حول هذه القلعة.. أشياء ملعونة تحدث من حين لآخر.. أحيانا يجدون عابري سبيل راقدين على الأرض، وليس في عروقهم قطرة دم واحدة.. أطفالنا يختفون ليلا ولا نجدهم ثانية.. لهذا نحرص على عبور هذه الضياع بسرعة وفي ضوء النهار.. ونحافظ على أطفالنا..
- هل تعني أنها قلعة مصاصي دماء؟
- أعني ذلك وأكثر..
ثم تلفت حوله كمن يخشى أن يسمعه أحد.. وقال:
- يقولون إن هناك عالما موازيا لنا، هو عالم مصاصي الدماء.. توجد ثغرة أو ممر.. بين ذلك العالم وعالمنا.. وهذه الثغرة تقع في (والاشيا) أو (ترانسلفانيا[1])..
ومن حين لآخر ينجح مصاص دماء في اجتياز هذه الثغرة؛ ليجد نفسه في عالمنا.،، ربما كان هناك شيء من الصدق في هذا وإلا لماذا يزخر هذا البلد بأساطير مصاصي الدماء؟
قضمت (عبير) قضمة من الأجاصة التي أعطاها إياها.. وتساءلت:
- وهل تعرف شيئا عنهم؟
بصق على الأرض من فوق حاجز العربة.. وقال:
- كل الغجر يعرفون الكثير عن مصاصي الدماء..
غير الموتى.. في النهار ينامون في تابوت، ويخرجون ليلا بحثا عن فريسة مناسبة.. إنهم لا يطيقون الشمس ولا الصلوات ولا الماء المقدس ولا رائحة الثوم..
نظرت (عبير) إلى حزم الثوم المعلقة على جوانب العربة، ولم تر داعيا لمزيد من الأسئلة عن سبب وجودها هنالك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء الليل..
توقفت القافلة القضاء ليلتها في هذا المكان، الذي هو عبارة عن مساحة خالية من الأشجار قريبة من قرية (هالماجيو)..

أوقدوا النيران وجلسوا يلتهمون العشاء.. بينما جلس عدد منهم يعزفون على الكمان بألحان مجنونة، تصاحبها دقات على الدفوف والفتيات بتنوراتهن المزركشات يرقصن حول الجالسين..
أشار العجوز نحو جبل بعيد وقال ل (عبير):
- هذا هو جبل (زاراندولى) يا فتاة هية!.. هل تحسنين الرقص؟.. غريب هذا!.. إن قدميك الصغيرتين خلقنا كى تنقليهما فوق الأرض على أنغام (البلالايكا).. وأنت يا (دمتريو) أيها الفتى الشجاع.. قل لأولئك النسوة ألا يذهبن بعيدا.. إن هذا الإقليم يعج بالمذؤوبين، والقمر الليلة بدر مكتمل..
مذءوبين؟.. بدر؟..
ما هذا الكلام الغريب؟
تذكرت أنها حين رحلت كانت بداية الشهر العربى. وما زال هناك أسبوعان على اكتمال القمر..
ثم ما دخل المذؤوبين في الموضوع بالضبط؟
وهنا فقط عادت تتذكر أن كل هذا حلم..
إن (دى - جى - ٢) يحاول أن يقدم لها كل ما تريد من تسلية في مرة واحدة.. مصاص دماء، ومذؤوب. ورحلات مع الغجر، و.. و.. ولا بأس من أن يصير القمر بدرا في غير موعده؛ لمجرد أن تكون هناك فرصة لمزيد من الإثارة..
ذكرها هذا بمنطق الأفلام اله دية: ثلاث ساعات من الغناء والرقص، والحب، والجريمة، والعنف والمطاردات البوليسية، وأزمات العواطف.. حتى لا يفلت مشاهد واحد - مهما كان ذوقه - من دائرة الفيلم..
إن (دى - جى - ٢) يتصرف بذات المنطق إذن سألت العجوز على سبيل الثرثرة لا أكثر:
- وماذا جاء بالمذوبين هنا؟
سعل الرجل وبصق في النيران.. وأعاد حشو غليونه الطويل بالطباق.. وقال:
- مذءوبين؟.. يا للشيطان!.. إن (رومانيا) تعج بهم أكثر مما يعج البحر بالأسماك.. رجال كثيرون يا فتاة، يتحولون إلى ذئاب حين يكتمل القمر... لا أعنى بذلك المعنى المجازى.. فلتأخذنى داهية إن كنت أعنى ذلك.. كل الرجال ذئاب هذا حق.. ولكن انظري!.. هناك رجال يصيرون ذئابا حقيقية.. ذئابا لها مخالب وأنياب.. هاك.. إن كنت لا تعرفين..
- فهمت
وجلست تتأمل النار المتراقصة، وتقاوم القشعريرة الزاحفة على طول عمودها الفقري....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين نامت مع النساء في مؤخرة العربات؛ كان الرجال يفترشون الكلأ.. وقد ظل أحدهم ساهرا يحرس القافلة من الغريب أنها كانت تحلم وهي غافية بحياتها الأخرى.. بالمدرسة.. بالزقاق.. بعملها في مكتب ألعاب الكمبيوتر...
هذا منطقى - خطر لها وهي نائمة - أن تحلم في أثناء الحلم بالواقع..... كما أن نفي النفي إثبات
خيل إليها أنها تسمع صوتا ما جوار رأسها... صوتا هو أقرب إلى مخالب تخدش جانب العربة صوت لهاث.. وزئير مكتوم..
وثب قلبها إلى فيها، ومدت يدا متوترة تهز (ناديا) الفتاة الغجرية النائمة جوارها.. وشعرت بها تتحرك في الظلام متسائلة:
- ماذا دهاك؟

- هل تسمعين؟
أصاخت الفتاة السمع بضع ثوان.. ثم هتفت:
- وحق (مريم العذراء.. إنه لصوت المذءوب!
وقبل أن تسألها (عبير) عما ستفعلانه فوجئتا - وباقي النسوة - بجانب العربة القماشي يتمزق وفي ضوء القمر الفضي برز خيال عملاق.. شيء ضخم أشعث خيل ل (عبير) أنه إنسان يرتدي قناع ذنب.. ثم أدركت في هلع أن هذا هو شكل رأسه الحقيقي...!
هو ذا يعتلى جانب العربة. متشبثا بالقماش الممزق.. يدس رأسه في الفتحة، فتفعم رائحة أنفاسه الكريهة صدور النساء..
ثم - بعينين متقدتين في الظلام - يكمل وثبته إلى الداخل.. ويصدر زيرا منتصرا..



هو ذا يعتلي جانب العربة، متشبثًا بالقماش الممزق.. يدسّ رأسه في الفتحة، فتفعم رائحة أنفاسه الكريهة صدور النساء..

حتى هذه اللحظة، لم تتبين (عبير) وجهه في الظلام، لكنها ترى (السيلويت) المميز له، وبريق عينيه وقطرات اللعاب اللامعة إذ تتساقط من فيه..

وفي اللحظة التالية، كانت النسوة يصرخن – كأنما هناك من ينتزع عيونهن - ويثبن من العربية واحدة تلو الأخرى..
للأسف ليست (عبير) بهذه الخفة، وليست ممهدة القفزات بطولية كهذه، هي حتى لا تجيد فن الصراخ..
ها هي ذي إذن على أرضية العربية جاثية على ركبتيها، تحاول أن تقول أو تفعل شينا.. بينما ذلك المسخ يقف عند رأسها، فاتحا ذراعيه ومخالبه كمروحتين، آتيا بحركات غريبة أشبه بوحش يتلمظ..
هو ذا يعتلي جانب العرية، متشبثا بالقماش الممزق.. يدس رأسه في الفتحة، فتفعم رائحة أنفاسه الكريهة صدور النساء..
إنها النهاية إذن..
دنا منها المذءوب أكثر.. فأكثر..
وفجأة رأت جسده كله يرتجف في اللحظة التالية، أطلق عواء حزينا طويلا، كعواء ذنب جريح، تم استدار.. ووثب من مؤخرة العربية مطلق ساقيه للريح..
سمعت جلبة.. وصوت طلقات رصاص من بنادق الغجر البدائية..
وحين نجحت أخيرا في أن تزحف إلى مؤخرة العربة، وجدت قافلة الغجر كلها تقريبا، تحمل المشاعل وتطارد المذءوب بين الأشجار.. بقعة لهب تغوص في بحر الظلام..
فقط كان هناك شيء ما ملقى على الأرض.. وجواره ركع العجوز زعيم المجموعة يربت عليه وينتحب..
دنت أكثر لترى ما هنالك، فأدركت أن الشيء هو جثة ممزقة ملوثة بالدماء.. طبعا جثة الغجري الذي سهر يحرس القافلة في أثناء نومها.. لقد بدأ المذءوب به..
كان العجوز يولول مرددا دون كلل:
- ابنى (ديمتريو).. كان جميل الصورة.. كان جميلا سليم الجسد كمزمار.. انظري إلام صار!
ورفع عينه نحوها.. وفوجئت به يقول:
- لقد كنت شؤما علينا.. حتى المذءوب رأي وصمة (دراكيولا) على جسدك، وخاف أن يلمسك!.. ألم تفهمي هذا بعد؟!..

6- البارون..

في هذه المرة تمشي (عبير) إلى (بوكوفينا) قاصدة لا مكان..
لقد تخلى عنها الغجر؛ لأنهم صاروا مؤمنين بأنها شؤم على رحلتهم..
وبكل إلحاح توسلت إليهم أن يسمحوا لها بقضاء الليل معهم، فسمحوا لها على أن تفارقهم عندما يبزغ الفجر والآن تمشين يا (عبير) تحت الشمس الحارقة، مقتفية آثار العجلات على الأرض الترابية..
لماذا (بوكوفينا) بالذات؟
لا تدرين.. أنت لا تعرفين اسم مدينة واحدة في (رومانيا) سوى (بوخارست) التي تبدو بعيدة جدا لهذا تقصدين أول مدينة تعرفين اسمها..
لكن الطريق طويل.. والحر شديد.. والظمأ منهك فمن الطبيعي أن تسقطى فاقدة الوعي....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

« اهربي يا (عبير)!.. المذءوب يحاول اقتحام العربة! »
أفاقت من إغماءتها، على صوت (شريف) يتردد في ذهنها كالعادة بعد فوات الأوان.. أو كما يقول التعبير العامي (بعد الهنا بسنة)..
فابتسمت في إنهاك.. وفتحت عينيها..
كانت في فراش نظيف مريح..
النافذة مغطاة بستائر من المخمل مزركشة.. وإلى جوار الفراش شمعدان صغير على (كomod) خشبي.. وكانت ترتدي قميص نوم حريريا سابغا...
أدركت كل هذا بعد ثانيتين من التأمل السريع..
والأهم، هو أنها أدركت أن رجلا أشيب الشعر يجلس جوار فراشها، يحدجها بنظرة هي للحنان أقرب..
أصابها الهلع وغطت كتفيها بالملاءة، فلم يسبق أن رآها رجل بقميص النوم حتى في الخيال..
لكن شيئا ما في مظهره جعلها تدرك أنه طبيب..
هاتان العينان المنهكتان، اللتان لم يعد يثير دهشتهما شيء.. والابتسامة الحزينة الشاحبة.. والتجاعيد على ركنى الفم.. والمنظار المتدلى على قصبة الأنف
لا يمكن - ولا يجوز - لصاحب هذه الملامح أن يكون شيئا سوى طبيب..
كانت تحاول ألا تكون تقليدية مملة، لكنها لم تستطع...
السؤال الخالد يتردد على شفتيها:
- أين أنا؟
- أنت في خان ب (جالاتز) على نهر (الدانوب)..
وكان صوته حين تكلم رخيما رقيقا.. ولم تكن (عبير) تفقه حرفا من أية لغة أجنبية.. لكنها أدركت أن الرجل يتحدث الألمانية بلهجة أجنبية إلى حد ما.. وبالطبع وجدت نفسها تفهم الألمانية وتتكلمها بطلاقة..
سألته وهي تفرك عينيها:
- ومن أنت؟

- طبيب هولندي.. البارون (فان هلسنج)؟
وابتسم كأنما يأمل أن يذكرها الاسم بشيء.. لكن سدى..
- هولندي؟.. وماذا جاء بك إلى (رومانيا)؟
- تنسين دوما يا ملاكي أنك في (فانتازيا).. ولو أن المغامرة تحتاج إلى خبير في علوم الذرة من (الإسكيمو)، لوجدته أمامك قبل أن يرتد إليك طرفك..
ثم هز رأسه باسما في ثقة:
- أنا أستاذ في جامعة (أمستردام)
- وماذا جاء بي هاهنا؟
- كنت ماشيا في الطريق حين وجدتك ملقاة هناك فاقدة الرشد.. وتعاونت مع بعض الفلاحين الرومانيين حتى وضعناك على عربة حرش، وجئنا بك هاهنا..
إنني أقيم في ذات الخان.. وأعتقد أن الإقامة به تناسبك..
- لكن نقودي...
- أوه!.. حاولي أن تنسى ذلك يا فتاتي..
وفوجئت به يرفع الملاءة لتغطى ذقنها.. ثم يقول في حنان وهو ينهض:
- أعتقد أنك بحاجة إلى مزيد من النوم لتستعيدي قواك..
وفي الصباح نتحدث عن موضوع معين.. وهكذا وجدت (عبير) نفسها راقدة في الغرفة وحدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضوء القمر يغمر الغرفة قادما - في حياء. من خلف الستائر.. و (عبير) راقدة في عالم آخر من الأحلام، التي لا ندري كنهها في الواقع.. صدرها يعلو ويهبط... بينما ذراعها مثنية إلى أسفل الوسادة.. والذراع الأخرى ممددة جوار جسدها في استرخاء..
يمكننا أن نزعم أن الوقت يدنو من الثالثة بعد منتصف الليل..
لكن.. ترى لماذا تتقلب (عبير) بهذه الكثرة؟
لماذا تحرك وأنها ذات اليمين وذات اليسار؟
ما هو الحلم الذي تراه ويجعلها قلقة إلى هذا الحد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البارون (فان هلسنج) جالس في قاعة الجلوس بالخان، يحسو قدحا من الشراب، ويثرثر مع صاحب الخان البدين (من يمسكو)..
يقول صاحب الخان للبارون:
- تبدو قلقا يا سيدى
فيقول (فان هلسنج) وهو يشعل غليونه:
- الواقع.. نعم يا (ميخائيل).. هذه الفتاة.. تحيرني..
- ولماذا؟
ثم يبتسم في وقاحة ويضيف:
- آه!.. ربما هو الحب يا بارون.. إنني أفضل البدينات..
- لا ترفع الكلفة يا صديقي.. إن هذا قد يكلفك الكثير.. ما أريد قوله هو أن أسرارا ما تحيط بها مثلا أجدها بطريق الصدفة مغشيا عليها في الطريق، ولا أعرف تفسير هذا.. ثم أجد هذا الجرح

غريب الشكل في رقبتها.. هنا..
ومد إصبعا يشير به إلى جذور عنقه.. حيث الشريان السباتي..
فاتسعت عينا صاحب الخان فهما.. وهتف:
- أوه!.. أرى ما ترمي إليه.. وحق العذراء المقدسة أنا أرى ما ترمي إليه..
في برود غمغم البارون وهو يدق غليونه فوق طبقه ليفرغه:
- أما أنا فلا أفهم شيئا على الإطلاق..
- أوه يا بارون.. أنت في (رومانيا).. و (رومانيا)
تختلف عن (هولندا) كثيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالفعل (رومانيا) تختلف عن (هولندا) كثيرا.. بل تختلف عن أي بلد أوروبي آخر..
قل لي، في أي بلد أوروبي تحلق الوطاويط وراء النوافذ المغلقة، ضاربة الزجاج بأجنحتها كأنما تنادي؟....
هو ذا وطواط صغير يحلق خارج النافذة مرارا وتكرارا.. ثم..
(عبير) تزداد قلقا في نومها..
زجاج النافذة يتحول إلى قطع دقيقة، تتساقط واحدة تلو الأخرى.. والريح تقتحم الغرفة كأنما كانت تنتظر هذه اللحظة..
الستائر تتطاير داخل فراغ الغرفة متراقصة..
والغيوم تتكاثف أمام صفحة القمر، رمادية كئيبة. غامضة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رشف البارون جرعة أخرى من شرابه.. وتساءل:
- أنت - إذن - تتحدث عن مصاصي الدماء يا (ميخائيل)..
- حتما يا بارون.. أنت رجل متعلم وكثير الأسفار ولا تخفى عليك أشياء كهذه.. إن (رومانيا) بهم..
ضيق البارون عينيه، وراح يتأمل النيران المشتعلة في المدفأة، وظلالها تتراقص على جدران الخان الذي لم يعد به أحد ساهرا سوى اثنين من المخبولين..
نعم هو يعرف أشياء كهذه..
يعرفها جيدا وأكثر من غيره..
كان ذلك منذ أعوام.. حين رأي صراع أبيه البروفسور (إيجور) مع مصاص الدماء العجوز (هانسن).. كان واقفا فوق سور الكنيسة، يراقب المشهد المروع في الظلام..
يرى أباه ملتحما بين الأشجار.. يحاول أن يغرس الوتد الخشبي في صدر مصاص الدماء.. كان يسمع اللهاث الرجلين.. أحدهما كان لهاث أبيه الملهوف المذعور.. والآخر لهاث مصاص الدماء الحيواني الوحشي المليء بالشهوة وحب الشر..
كان يصرخ.. يتمنى أن يستطيع النزول من مكانه، لكنه - بعجز طفل في العاشرة من عمره لم يستطع سوى أن يضرب القرميد بمجمع قبضته.. ويضغط على أسنانه أكثر..
ثم سمع الحشرجة..
رهيبة كانت.. مروعة كانت وفي الظلام رأي شبحا ينهض مترنحا.. ويتحرك مبتعدا..

عرف على الفور أن هذا الشيح لم يكن أباه، وإلا عاد كي ينزله من برج الكنيسة...
عرف بأن أباه صار جثة فارغة من الدماء، تحملق في السماء بعين خاوية من الفهم..، وعرف أن (هانسن) قد عاد يواصل رحلته الشريرة، بحثا عن الرعب والهلاك..
لقد وقعت مسئولية قتل مصاص الدماء على عاتق الطفل ذي العشر السنوات.. وقد عرف كيف يقوم بها خير قيام في ذات يوم بعد عشر سنوات أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد دخل الوطواط غرفة (عبير) الآن..
راح يحوم حول وجهها عدة دورات متصلة.. ثم ما هذا الدخان الذي يتكاثف حول هذا الحيوان الثديي المقيت؟!..
إن الدخان يملا هواء الحجرة...
ثم ببطء ينقشع كاشفا عن (سلويت) رجل..
رجل فارع القامة، يرتدي حرملة طويلة ترفرف - كجناحي وطواط - في الريح الغضبى التي تتسلل إلى المكان...
هو ذا يدنو من الفراش.. ببطء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومنذ ذلك اليوم قتل العديد منهم..

الوتد، وقطع الرأس بالفأس، ثم الصلاة..
طقوس مارسها مراراً..
وفي كل مرة يرى وجه أبيه يبتسم.. ويغمغم:
- لا تأخذك بهم شفقة أي بني!
ويشعر الرجل بالرضا. ويواصل بحثه الذي لا ينتهي عنهم.. ولهذا جاء إلى (رومانيا)؛ لأنه يعرف - أكثر من سواه - ما تحويه (رومانيا).. خاصة ذلك المسخ الذي يسمونه (فلاد الوالاشي)..
يقول صاحب الخان البدين وهو يجفف عرقه:
- إذن فهذا سر قلقك يا بارون؟
الواقع أن هذا ليس السبب الوحيد..
إن تعامل (فان هلسنج) مع مصاصي الدماء، قد جعله يكتسب نوعا ما من الحاسة السادسة تجاه وجودهم.
واليوم هو يشعر بقرب واحد منهم.. يشعر به تحت جلده..
ولكن لماذا؟...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين فتحت (عبير) عينيها، كانت أنفاس الكونت (دراكيولا) تلفح عنقها.. أنفاسه الباردة التي لها رائحة الموت..
لم تكد تتساءل عن الكيفية التي جاء بها؛ لأنها شعرت بوخزة النابين الحادين يغوصان في وريدها الودجى..
قاومت لحظة، ثم خارت قواها واستسلمت لما سيكون..
وفي هذه اللحظة انفتح الباب فجأة..
ودخل البارون (فان هلسنج)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- التحول..

- تحية يا بارون!
هتف (دراكيولا) بهذه العبارة بلهجة من بري صديقا قديما طال اشتياقه إليه.. ونهض من جوار الفراش ليواجه (فان هلسنج).
ورأى الأخير خيط الدم ينساب على ذقنه، فأدرك ما كان دون جهد..
- الكونت (دراكيولا) !
قالها بصوت كالفحيح وهو يتراجع بظهره خطوتين..
غمغم الكونت وهو يتقدم نحوه لاها، كأنما كان يركض في سباق طويل (إن مصر السماء منهك كما هو واضح):
- هو بعينه!.. يا له من زمن!.. منذ حاولت قتلى في تلك الليلة فوق ثلوج الترانسفال.. لقد نجوت منك بصعوبة فقط لأغدو أكثر بأسا وأكثر لياقة..
- إن قتل مصاصي الدماء هو مهنتي.
- لقد صار وقت تقاعدك دانا يا بارون.
وفتح فاه عن آخره، كاشفا عن صفين بشعين من الأسنان الحادة كأسنان الضواري.. ومن حلقه صدر فحيح مكتوم..
تراجع (فان هلسنج) إلى الوراء.. ومد يده إلى جيب سترته، فتناول مسدسا صغيرا عتيقا صوبه نحو الكونت..
- هذا المسدس محشو يا كونت..
- وهل حسبت لحظة أنني...؟
- إنه محشو بالرصاص الفضي كما تعلم، وكما لك أن تتوقع..
- وأنت واثق من مفعوله معي؟
- إذا كان كافيا لقتل المذؤوبين، فلم لا يصلح معك..؟
- لا تصدق كل ما تقرؤه يا بارون..
وابتسم ابتسامة وقحة كريهة..
وحين فتحت (عبير) عينيها المنهكتين، كان جسدها أقرب إلى خرقة تم تلميع زجاج نافذة بها.. وشعرت أنها لا تتحكم في أصغر عضلة من عضلاتها.. لكنها تغلبت على وهنها؛ لتتمكن من متابعة هذه المحادثة العجيبة، التي هي أقرب لحديث سيدين مهذبين، منها إلى مواجهة بين مصاص دماء وقاتل مصاصي دماء..
خطر لها - برغم تشوش ذهنها - أن مصاصي الدماء في القصص، يكونون أدنى إلى الرق وأساليب السادة المهذبين من المذؤوبين مثلا.. إن أحدا من الأخيرين لم ينل شرف أن يلقب ب (كونت) مثلا.. كلهم أشخاص من الحثالة أو من حضيض السلم الطبقي..
كان (دراكيولا) في هذه اللحظة يقول ل (فان هلسنج):
- سأتركك الآن يا كونت تتساءل عن فعالية سلاحك هذا.. ولكن حذار!.. إن اللقاء القادم لا يحتمل أخطاء !!
وقبل أن يرد البارون، كان (دراكيولا) قد تلاشى وسط سحابة من دخان أزرق مريب الشكل..
هل ترون هذا الوطواط الصغير الذي يرفرف خارجا من النافذة المهشمة؟.. أراهن على أنه هو

(دراكيولا) وهنا سمعت (عبير) في أروقة ذهنها صوت (شريف) يتردد:
- (عبير)!.. استيقظي سريعا!.. إن (دراكيولا) في غرفتك الأن!.. هل تسمعين؟.. (عبير)!
.............!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا - في شمس النهار البهيجة - مشى (فان هلسنج) مع (عبير) في شوارع المدينة، يتأملان العربات ذات الخيول والمارة..
كان يثرثر دون انقطاع، حين أشارت له بيدها أن انتظر قليلا..
اتجهت إلى نافذة متجر تنعكس على زجاجها صورة الطريق بما فيه.. هي الآن ترى انعكاس وجهها بوضوح تام.
حقا لم تكن (عبير) على شيء من الجمال، لكنها لم تعهد في وجهها قط هاته الهالات السمراء حول عينيها وثغرها.. لم تعهد هذا اللون الرمادي الكئيب لم تعهد هاتين الشفتين الشاحبتين الميتتين.. أتراه لون الزجاج ذاته؟.. لا..
إنها ترى وجه (فان هلسنج) محتفظا بألوانها العادية تملكتها الرجفة.. وتساءلت:
- ماذا دهانى يا " بارون؟
ابتلع ريقه.. ثم قال في كياسة:
- الحق أنك تفقدين دماءك سريعا يا آنسة.. ولكن الأمر أخطر من مجرد فقد دماء.. إن (دراكيولا) كان قادرا على أن يستنزف دماءك من أول لحظة، لكنه للأسف لم يفعل.. للأسف؟!
- نعم.. إن مصاصي الدماء إما أن يفرغوا دماء ضحيتهم فورا فتموت وهذا لحسن حظها وحظنا وإما أن يفرغوا كميات محدودة على أيام متوالية.. وهذه تجربة مريرة تنتهي بالموت.. أعني: تنتهي بما يبدو لنا موتا.. لكن هذه هي البداية.. إذ سرعان ما يتم التحول إلى مصاص الدم داخل القبر، وتغادر الضحية عالم الأحياء التدخل في عالم (اللاموتى)..
- وأنا أمر بالنوع الثاني من المعاملات؟
- بالتأكيد.. لا بد أنك قد رقت لبه كثيرا.. أو ربما هو يريد أن يجعل مغامرتك في (فانتازيا) مثيرة حقا..
- اللعنة على هذا النوع من التسلية! نظر لها.. والتمع التصميم في عينيه الرماديتين المنهكتين.
- يجب أن نمنعه من التمادي، لربما كانت الليلة هي الأخيرة!
- بارون (فان هلسنج).. كيف تجد الوقت الكافي العمل أي شيء سوى قتل مصاصي الدماء؟!
- أوه!.. إنني أستمتع حقا بتعليق الأيقونات ودق الأوتاد في صدور مصاصي الدماء وفتح التوابيت.. إن الكل إنسان هواية.. وهوايتى هي نوع من......
- مثل جمع الفراشات؟!
- نعم.. بالضبط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حقا إن هذا الرجل موهوب..!
شرعت (عبير) نرمق جهود (فان هلسنج) الدءوب - في تعليق حزم الثوم.. وتثبيت الصلبان والأيقونات ورش الماء المقدس في أرجاء الحجرة.. ثم بعد أن اطمأن لكل شيء - شرع يحشو مسدسه، وجلس على مقعد جوار الفراش ينتظر..

اقترب الليل لكن (عبير) لم تنم..
كيف تنام وهي تعرف ما ينتظرها؟.. ثم كيف تنام وهناك من يجلس جوار الفراش يراقبها كالصقر؟!
الثانية عشرة مساء..
الآن تدرك حقيقة نسيتها منذ البداية:
إن (فان هلسنج) سلحفاة عجوز عاجزة عن السهر.. لقد شرع البارون يهوم برأسه ذات اليمين وذات اليسار، ثم رأت رأسه يهوى فوق صدره و خخخخ!..
هل توقظه؟.. حرام!.. يبدو مرهقا..
ومن المؤسف أنه يعانى من الغطيط في أثناء النوم..
ترى هل هو متزوج؟..
مستحيل أن تتحمل أية امرأة هذا (الموتور) الذي يعمل بالديزل في غرفة نومها..
جلست على الفراش وشرعت ترمقه في غيظ..
وفجأة سمعت النداء..
النداء يسري في أعماقها ويدعوها إلى مغادرة هذه الغرفة..
لا تدري من صاحبه.. لكنها مضطرة لأن تطيع هي تعرف ما سيؤدي إليه هذا.. لكنها عاجزة عن المقاومة..
في خفة - حافية القدمين - تثب من الفراش.. تفتح باب الغرفة.. تهبط في الدرج.. لا أحد بالطابق السفلي..
تخرج إلى الشارع المظلم إلا من ضوء القمر الفضي البارد.
تقف هناك..... وتنتظر..
ها هو ذا أت من أجلها.. قادما من آخر الشارع..
قامته الفارعة، وحرملته السابغة، والثقة الزائدة بالنفس..
إنه هو إذن..
لا جدوى من المقاومة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تدر (عبير) سوى بالظلام الدامس يحيطها تماما.. ولم تفهم ما كان يمر بها إلا مؤخرا..
لا تعرف سوى أنها كانت جائعة.. جائعة كوطواط.
الحاجة إلى الطعام تدفعها دفعا إلى الخروج والبحث عن شيء يؤكل.
ولكن لماذا هي ممددة في هذا الصندوق؟..
لماذا لا توجد نسمة هواء من حولها؟.. والأغرب هو لماذا لا تختنق؟..
أسئلة لا جواب عنها.. لكنها - على كل حال – مدت يدها. وشرعت تهشم طبقة الخشب فوق رأسها ببطء وثقة.
ثم.. التربة تهوى فوق وجهها.. تملأ عينيها.. تربة رطبة ندية مخلخلة.. تزيحها بأظفارها إلى أن تتمكن من أن تخرج رأسها إلى سطح الأرض...
غريب هذا!.. الظلام يسود المكان.. وعواء الذئاب يتردد من بعيد، لكنها غير خائفة شعورها كأنها كانت تقف أمام فوهة المسدس، فصارت هي الممسكة به الآن!.. توحدت مع الظلام والذئاب لتصير كلا واحدا... هذا هو عالمها الذي تعرفه وتفهمه...



غريب هذا!.. الظلام يسود المكان.. وعواء الذئاب يتردد من بعيد، لكنها غير خائفة..

تمشي بين شواهد القبور شاعرة بالألفة.. لم يعد هذا غريبا عنها الآن.. إلى أين؟.. إلى حيث يوجد الطعام...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان الطعام هناك...
عابر سبيل ثمل يترنح ويتني بعض الأغاني السخيفة..
لو كان قد قابلها منذ يومين لماتت رعبا.. أما الآن فهي تقف في طريقه.. وتبتسم برقة..
يتوقف عن السير ويشرق وجهه كاشفا عن أسنان نخرة:
- هيه!.. أيتها الحسناء.. إن مثلك لا يجب أن يمشي جوار المقابر.. لماذا لا تأتين معي إلى حيث..
ثم يتصلب.. تموت الضحكة على شفتيه..
تموت، بينما تبعث الضحكة على شفتي (عبير)...
ضحكة لها نابان طويلان وعينان تشتعلان دما..
وفي اللحظة التالية، تقبض على معصمه بأصابع كأنما هي من فولاذ وتجذبه إليها.. وتنقض على عنقه انقضاض الصقر على أرنب وديع غافل.. وتبدأ عملية الامتصاص التي استغرقت عشر دقائق لقد كان كل هذا لذيذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما هي عائدة إلى المقابر، خطر لها أن (دى - جى - ٢) يبالغ في تسليتها حقا..
أولا: جعلها تعيش مع مصاصي الدماء والمذؤوبين..
ثانيا: يحاول الآن جعلها تعيش خبرة أكثر إثارة وأكثر تفردا..
ما هي مشاعر وأفكار مصاص الدماء؟.. إن هذا لم يخطر لأحد من قبل.. لكنها الآن تعيش التجربة كاملة..
من يمكنه أن يشكو من ملل الواقع بعد اليوم؟..
المهم الآن أن تجد مكانا مظلما ورطبا قبل أن تشرق الشمس.. غزيرة البقاء الوليدة لديها تحفزها على من الحكمة أن تعود إلى المقبرة في الوقت الحالي إلى أن تجد مكانا أكثر أمنا غدا..
في ذات اللحظات كان (شريف) يعيش أسود لحظات حياته على الإطلاق..
فمن مكانه خلف شاشة الكمبيوتر، كان يرى كل هذه التفاصيل المريعة بالتفصيل الممل.. ولم يكن المسكين ممن يطيقون أفلام الرعب.. ولم يكن يعرف عن (دراكيولا) سوى أنه ذلك الشخص الذي يكفي وضع اسمه ضمن عنوان الفيلم، كي يصير الفيلم ممنوعا الأقل من ستة عشر عاما، ويعزف (شريف) عن مشاهدته..
أما الآن وهو يرى هذا الكابوس، فقد قف شعر رأسه منتصبا وجف ريقه.. إن هذا الذي يراه هو حتما جزء من ثقافة هذه الفتاة وخيالها.. ويا لها من ثقافة....
كيف يحب بعض الناس هذه الأشياء الرهيبة؟..
وكيف يقضى آخرون حياتهم في تأليف هذه الخيالات المريضة؟!...
وكان قد أدرك منذ ساعة، أن صوته لا يصل للفتاة أو - على الأقل لا يصلها في الوقت المناسب أبدا. لهذا قرر أن يريح د نه ويكتفي بالمشاهدة..
دعها تستمتع بهذا الشيء المقزز، إذا كانت تستمتع.. لقد أوشك أن يوقف البرنامج عدة مرات كلما رأي خطراً داهما يحيق بها.. لكنها تبدو له مستمتعة
بكل هذا، فلماذا يفسد متعتها هذه..؟
لكنه ذهب إلى الحمام ذات مرة.. ثم عرج على المطبخ ليد قدحا من الشاي لنفسه، وحين عاد إلى الشاشة، رأي أشياء مريعة حقا..

رأي (عبير) تنبش قبرا لتخرج منه.. وتهيم في الظلام، وتمتص دماء عابر سبيل أوقعه حظه العاثر في طريقها!..
يا لها من تسلية!.. المشكلة أنه صار يشعر بذعر حقيقى من (عبير) الجالسة أمام الشاشة مغمضة العينين، والأقطاب على رأسها..
مستحيل أن تكون هذه الفتاة بحال طبيعية كما عرفها حين تنهض من غفوتها هذه..
وفي تعاسة لم يراقب ما يدور على الشاشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه الليل..
و من جديد الجوع يمزق أحشاءها..
تنهض باحثة عن فريسة جديدة، وهي تفكر.. إنها " الأن تعرف البرنامج اليومي لمصاصي الدماء..
النوم حتى العاشرة مساء.. الجولة الليلية الافتراس.. العودة إلى النوم في تمام الرابعة صباحا..
حياة منتظمة.. يمكن أن تكون رتيبة بعد أعوام أما الآن فكل شيء يبدو غريبا طريفا..
وفي الظلام سمعت خوارا.. فاستدارت لترى..
رأت رجلا يهجم عليها.. المشكلة الوحيدة هنا، هى أن الرجل كان له رأس ذنب.. إنه مذؤوب..
غريب هذا!.. المفترض أن القمر ليس بدرا.. لكن كل شيء متوقع في (فانتازيا)..
لكنها الآن لا تخاف المذءوبين.. إنهم بالنسبة لها دعابة سخيفة.. أشبه بالأطفال حين يرتدون أقنعة مخيفة رديئة الصنع، ويحاولون إفزاعك.. أما هي..
هي الفزع ذاته..
ودون أن تتكلم أو تنفعل، وثبت بين ذراعيه المنتهيتين بمخالب وأنشبت أنيابها في عنقه..
صرخ المذؤوب.. تلوى ألما.. حاول أن يتملص منها، لكنها كانت متعلقة بعنقه كما يتعلق الوطواط مصاص الدماء بساق دابة..
وفي النهاية خارت قوى الوحش وتهاوي أرضا..
لم يتوقع مفاجأة كهذه في حياته المهنية..
عندما يموت المذءوب يعود إلى طبيعته الآدمية، والآن تستطيع (عبير) أن ترى وجه ضحيتها الشاحب..
هذا الوجه ذا الشارب الكث.. والمنديل المحلاوي العملاق الساقط على الأرض جواره. إنه (سعيد)!.. خطيبها السابق أو الحالي.. لا تدري بالضبط.. ماذا جاء به إلى (رومانيا)؟..
متى صار مذءوباً؟
أسئلة بلا جواب..
لكنها سعيدة للغاية بأنها خلصت البشرية من شره ومن حبه للسباكة..
إن (عبير) ليست مخبولة ولا بلهاء.. وتعرف جيدا أن (دى - جى ٢) وجد صورة الرجل الذي تمقته داخل ذاكرتها، من ثم جعله مذؤوبا يموت على يدها، لمجرد أن يعطيها لذة كهذه.. أي أن ظهور (سعيد) هو مجرد مجاملة رقيقة من (دى - جى - ٢)..
لكنها قد استمتعت بهذه المجاملة أيما استمتاع..
والآن حان وقت النوم..
عادت إلى موضع القبر عازمة على الهبوط إليه..
لكنها وجدت حزمة من الثوم تغطى التربة كلها.

- من الذي؟
تساءلت في وحشية، ورفعت عينيها لتجد البارون (فان هلسنج) واقفا جوار شاهد القبر وكان في يده وتد خشبي مسنون....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - الذي يجب أن يموت..

- بارون!.. مرحبا بك.. ادن مني أكثر!
هتفت منادية الرجل.. وهالها أن صوتها خرج إلى الفحيح أقرب..
أما هو فتراجع إلى الوراء وفوجئت به يهتف بصوت صارم:
- ابتعدي عنى بحق السماء!
ارتج كيانها كله من عبارته.. لم تدر سر ما أصاب نفسها من عبارة عادية كهذه.. ثم فطنت إلى أنها - وقد صارت مصاصة دماء - لم تعد تحتمل أية عبارات ذات رمز دينى..
أصابها الرعب. للمرة الأولى تدرك أي درك قد انحدرت إليه..
لقد صارت حقاً مص..
- بارون.. أرجوك أن تساعدني!
قالتها وانفجرت باكية..
كان منظرا غير مألوف أن تراها تبكي.. وقد برز ناباها المروعان، وسال خيط من الدم الجاف على مهن ذقتها.. الرعب الحزين إذا صح هذا التعبير..
حزن لا يثير أي شفقة في النفس من أي نوع..
لكن (فان هلسنج) كان على استعداد لكي يفهمها لقد أحضر الوتد والمطرقة والفأس، بغرض القضاء عليها، فور عودتها من جولتها الليلية..
كان - بعد دفنها - يعرف أنها لم تمت حقا.. إنما هي في طور التحور، وكأن تابوتها نوع من الشرانق التي تتحول فيها دودة القز إلى فراشة.. بالمثل تتحول هي من إنسان إلى خفاش آدمى..
لهذا انتظر ثلاثة أيام، ثم جاء لينهي مهمته الشاقة، التي لم يحبها قط هذه المرة.. لكنه كان مضطرا..
لكنه في هذه اللحظة - يرى أنه من الممكن مساعدة هذه البائسة..
ولم لا؟..
إن الأوان لم يفت تماما..
أمسك بيدها الباردة كالثلج.. وقال في حزم:
- أنا ميال إلى ته ديق هذه الدموع..
وأخرج مه سه وصوبه إلى رأسها.. وأردف:
سأفجر رأسك دون تردد برصاصاتي الفضية، لو حاولت أن تخدعيني.. اسمعيني.. ما زال بإمكاني أن أساعدك ما دمت في بداية مرحلة التحول.. بعد يومين سيأتي الكونت (دراكيولا) ليأخذك إلى قلعته لتعيشي هناك أبدا، وعندئذ تكونين قد خرجت من دائرة الأمل إلى الأبد.. لهذا يجب أن نمنع ذلك وبأسرع وقت ممكن...
والتمع التصميم في عينيه:
- كونت (دراكيولا) يجب أن يموت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلعة (دراكيولا) من جديد...
الشمس تعتلي عرش السماء معلنة ملكوت الظهيرة، ومن بعيد تتحرك بعض قوافل الغجر

قاصدة وجهة ما..
وبين الأشجار وقف (فان هلسنج) و (عبير) يومقان القلعة التي لم تعد مرعبة إلى هذا الحد في ضوء النهار..
كانت (عبير) مدثرة بالكامل - حتى وجهها وعينيها - بثياب سوداء ثقيلة، تمنع أشعة الشمس من الوصول إلى جلدها.. جلد مصاصة الدماء الحساس سريع الاحتراق.. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكنها من رؤية النهار..، صحيح أن النعاس يقتلها ويغالبها، لكنها تقاومه بإرادة فولاذية؛ لأنها – حقا راغبة في الخلاص..
قال لها (فان هلسنج) وهو يقودها بين الأشجار:
- الآن ندخل.. فرصتنا الوحيدة لقتل الكونت هي الان، بينما هو نائم في تابوته، وفي أوهن حالاته.. كل ما أريده منك، هو أن تساعديني على تثبيت الوتد في صدره.. هذا لن يكون سهلا دون عونك.. فهل تخذلينني؟
- لا.. أعتقد لا..
وبأناملها تحسست الحقيبة الهائلة التي يحملها.. هي تعرف ما تحويه هذه الحقيبة دون جهد كبير..
الوتد والمطرقة وزجاجة الماء المقدس والثوم وكتاب الصلوات..
يحملها هذا الرجل العجيب في استمتاع، كأنه ذاهب اللعب التنس في النادي..
إن (غدة مصاصي الدماء) هذه، صارت مألوفة لها كما يحمل السباك عدته ويحمل الكهربائي عدته..
معا يقتربان أكثر فأكثر من القلعة.. أعني - بالطبع - أنه هو من كان يقترب.. فالفتاة لا ترى شيئا خلف الحجب الثقيلة المسدلة على عينيها ووجهها كما قلنا آنفا.
سمعت صرير الباب إذ ينفتح ببطء.. وعرفت أنه غير موصد من الداخل.. غريب هذا.. كأنما ترك الكونت الباب مفتوحا لغرض في نفس (يعقوب).. لكنها ابتلعت هذا الخاطر ولم تفض به للبارون ما دام ويعرف ما ينبغي عمله..
إنهما في الداخل الآن.. تسمع الباب يوصد.. ثم يقول لها البارون في صوت كالفحيح:
- انزعي الغطاء الآن لترى..
تنزع الغطاء.. فترى ذات - القاعة والمائدة العملاقة والمدفأة..
كل شيء كما هو بستائره السوداء الممزقة وخيوط العنكبوت..
وعلى الجدار يتراقص بندول ساعة حائط، معلنا أنها الخامسة عصرا..
لماذا جرى الوقت بهذه السرعة؟
ثم تذكرت أن النهار يكون سريعا جدا في قصص (دراكيولا).. الليل يحل بسرعة جنونية، ثم يجثم كالكابوس على النفوس كأنه أبدى.. لأن الأحداث المثيرة تحدث في الليل فقط.
قال لها (فان هلسنج) وهو يخرج محتويات حقيبته:
مازالت ثلاث ساعات تفصلنا عن الظلام.. إن قتل (دراكيولا) لا يستغرق سوى دقيقة.. المهم هو أن نجده أولا..
وفجأة تصلب ونظر إلى ركن القاعة المظلم وهتف:
- هناك شخص يتحرك!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخرج مسدسه وصوبه نحو الظل المتحرك القادم من أعماق الظلام.. وفي لهجة منذرة صاح:
- أيا ما كنت.. إن هذا المسدس محشو برصاصات الفضة.. أي أنه قادر على قتل البشر والأشباح سواء!
صوت سعلة وكثير جدا من الدخان.. ثم رأيا رجلا ناحلاً زال شعر رأسه من مقدمته.. يرتدي ثيابا.. عصرية بالنسبة ل (عبير)، ومنظارا سميكا..
تقدم الرجل منهما وهز ذراعه محييا:
- تحية لكما..



ثم رأيا رجلًا ناحلًا زال شعر رأسه من مقدمته - يرتدي ثيابًا عصرية بالنسبة لـ (عبير)..

ثم رما لفافة التبغ التي كانت تصدر كل هذا الدخان دى الأرض.. وتناول (جاكت) بذلة ملقى على المائدة في تداه..

هتفت (عبير) وهي ترى ملامحه المألوفة لها:
- هل.. هل أنت د. (رفعت إسماعيل)؟
- للأسف أنا هو يا آنسة.. معذرة على مقاطعة مغامرتكما.. فقد كانت لي مغامرتي الخاصة هنا في حنق صاح (فان هلسنج):
- المفترض - حسب البرنامج - أن يكون القصر خاليا.. كانت لديك الفرصة للقيام بما تريد أمس بطوله.. إن وقتي ضيق كما تعلم..
هز (رفعت) يده في رزانة.. وغمغم:
- حسن.. معذرة على سهوي حدث خلط في المواعيد - لا عليك - لسوف أترك لكما المكان بأكمله بالمناسبة: إن (دراكيولا) ينام في تابوت بالطابق الثاني.. ثالث غرفة على اليسار.. حظا سعيدا..
وأسرعا لأن الليل قد اقترب..
واتجه لباب القلعة.. فما إن فتحه حتى صاحت (عبير):
- أية مغامرة تقوم بها الآن يا د. (رفعت)؟؟
- أسطورة دماء (دراكيولا).. والآن وداعا
يا صغيرتي.
وانغلق الباب وراءه..
- هؤلاء الهواة السخفاء.. ينبغي صدور قرار بمنعهم من التدخل في أعمال المحترفين.. إنهم يزيدون الحياة سوءاً!
كذا هتف (فان هلسنج) مشمئزا، وهو ينظر في اتجاه (رفعت).. ثم دعا الفتاة المبهورة کی تصحبه إلى الطابق الثاني.
ولم ينس أن يخرج مشعلا من حقيبته يوقده بعود ثقاب..
.. فلابد أن الظلام دامس هناك..
ومعا شرعا يصعدان في درجات السلم الخشبية..
ببطء.. ببطء..
إنهما الآن عند الدرجة السادسة... و... كريييبيك... كراش!..
لقد تهشمت الدرجة من تحت أقدامهما..
شعرا بأنهما يهويان في الظلام للحظة..
ثم فتحا عينيهما، فوجدا أنهما راقدان على أرض ترابية في مكان حالك الظلمة..
أشعل (فان هلسنج) المشعل وهو بعد على حاله من السقوط..
وعلى ضوء اللهب المتراقص، عرفا أنهما في قبو ضيق صغير. كان أسفل درجات السلم المهشمة، التي صارت الآن فوق راسيه..
في ركن القبو كانت هناك عظام آدمية بالية، وفأر أو فاران يهرعان فارين من ضوء المشعل الذي لم يريا مثله من قبل..
- لا بأس..
هتفت (عبير) وهي تنهض وتنفض التراب عن ثيابها.. وأردفت:
- دعنا نصعد إلى السطح ثانية ونجد الكونت..
ابتسم (فان هلسنج) ابتسامة مريرة.. وغمغم:
- هذا عسير يا ملاكي.. أعتقد أنني قد كسرت ساق

حين سقطت في هذه الحفرة.. ألم تلاحظي ذلك بعد؟!
................!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9 - المأزق..

في قلق تساءلت (عبير) عن معنى هذا.. وفي توتر أجابها البارون أن معنى هذا أنهما مكبلان ها هنا.. في هل سألته عما هما فاعلان.. وفي ضيق أخبرها أنهما لن يفعلا شيئاً.
ثم نظر لها نظرة ذات معنى.. وقال:
- من الواضح أن المسئولية ستقع عليك أنت؟
- أية مسئولية؟
- مسئولية قتل الكونت طبعا..
وشرع يشرح لها ما ستقوم به بعد مغادرة هذا القبو..
أولاً: العثور على التابوت..
ثانياً: فتحه..
ثالثاً: غرس الوتد الخشبي في قلب مصاص الدماء النائم، باستعمال المطرقة.
رابعاً: تلاوة صلاة قصيرة..
خامساً: قطع الرأس بالفأس وحشو الفم بالثوم
- يا للهول!.. أتظنني قادرة على عمل هذا كله؟...
- أنا نفسي كنت سأمارس معك ذات الطقوس أمس لو لم تفعلى، لصرت مصاصة دماء للأبد.. ولجاء من يفعل معك ذات الشىء يوما ما..
– لكن.. أعصابي لا..
- (عبير)!.. أنا أريد أن تفعلى هذا..
وهكذا وجدت (عبير) نفسها تحاول التسلق إلى أعلى القبو.. كان الارتفاع منخفضا، لكنها لاقت أيما عسر في محاولاتها هذه، خاصة والحقيبة الثقيلة متدلية من ذراعها..
وأمكنها أن تفهم سر حماس (فان هلسنج).. فهو إلى حد ما غير مرتاح إلى البقاء معها في القبو حين يسود الظلام..
لم لا؟.. ألم يرها أمس عائدة والدم الجاف على شفتيها؟
ألم ير نابيها الحادين، اللذين تحاول ألا تظهر هما الآن، عن طريق الكلام بفم مطبق؟
لقد تمكن من التعامل معها بسهولة.. ولكن ألم يكن ذلك لأنها لم تكن جائعة بعد وجبة أمس؟..
كيف سيكون الحال حين يحل الظلام، ويعود إليها الجوع الحيواني الذي لا يشبع؟
إنها لا تلومه.. بل هي ذاتها لا تدري في الواقع ما قد ترتكبه إذا حل الظلام، وشعرت بالحاجة إلى الدماء الساخنة تصحو في جوفها..
وأخيرا استطاعت أن تصل إلى الفتحة، وتمر بجسدها النحيل من خلالها.. ونظرت له حيث رقد أسفلها..
كان ينظر إلى ساعة جيب أخرجها من صداره على ضوء المشعل..
سألته (عبير) وقد ثنت جسدها فوق درجات السلم:
- كم بقي من الوقت؟
رفع وجهه نحوها، وأدركت أنه يخفي قلقه..
قال لها محاولا الابتسام:

- بقى ما يكفي.. ولكن لا تتركني أرجوك!
إذن.. فالوقت لم يعد كافياً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضوء الغروب الأرجواني ينساب من نافذة قديمة تهشم " مصراعها..
و (عبير) تحبس أنفاسها وتصعد في الدرجات اثنتين.. اثنتين..
هي نفسها تشعر بأن قواها تزداد، وعزيمتها تقوى.... لكنها في الوقت ذاته صارت أقل رغبة في إنهاء مهمتها..
إن السبب واضح طبعاً..
هي نفسها قد بدأت تكتمل كمصاصة دماء.. وصارت أقرب إلى أن تهبط إلى (فان هلسنج) في القبو لتمتص دمة، من أن تقتل سيدها والمسئول عن تحولها هذا..
لكنها واصلت الصعود..
ترى ماذا قال هذا المأفون (رفعت إسماعيل)؟.. الطابق الثاني.. رابع غرفة على اليسار.. أم لعلها الثالثة؟...
أعتقد أنه قال الرابعة..
بالتأكيد هو كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحت الغرفة ملهوفة..
رائحة العطن تفعم المكان.. وعلى السقف تحرك خفاشان متدليان، أثارت هذه الضوضاء ضيقهما..
تهرع إلى النافذة فتفتحها.. ضوء الغروب الدامي ينسل ليغمر أرجاء الغرفة بذلك اللون الذي لا يوصف..
كانت هناك ثلاثة توابيت محكمة الإغلاق.. ترى أيها؟. اتجهت إلى الأول واستجمعت شجاعتها، فأزاحت الغطاء، ثم شهقت ووثبت مترا إلى الوراء..
كان فارغا..
الضوء يبرد ببطء متجها إلى نطاق الأزرق..
اتجهت إلى التابوت الثاني وفتحته.. وفي الضوء الأزرق رأت فتاة نائمة.. فتاة شاحبة يبرز نابان من فمها ضاغطين على شفتها السفلى.. كأنما شيطان يحلم..
لم يكن ثمة وقت تضيعه في تأمل تلك الفتاة..
اتجهت إلى التابوت الثالث، وأزاحت الغطاء الثقيل..
كان فارغاً..
إذن كان الكونت في الحجرة الثالثة.. لعنت ضعف ذاكرتها.. وهرعت خارجة من الحجرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد صارت مذعورة.. خائفة..
لكن الذعر لن يجدي.. وهذا الكابوس لن ينتهي إلا حين ينتهى..
يجب أن تظل في مقعدها بالسينما حتى يعود خالها!.. هكذا تعلمت منذ أعوام طوال..

يجب أن تستمر في هذه المسرحية وإلا.. يبدو أنها توشك على الموت ذعرا.. قلبها الشاب يوشك على.. التوقف.. وهي تذكر جيدا كلمات (شريف):
« لو حدث أن هلكت في أثناء الحلم، ستهلكين في الواقع في ذات اللحظة!!
لماذا؟.. لأن النظام الطرفي يسيطر على النخاع المستطيل.. و.. لم تفهم حرفا.. لكن المعنى العام للكلام مفهوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغرفة الثالثة بها تابوت واحد فاخر الشكل..
يبدو جديرا ومناسبا لسيد الدياجير..
أزاحت غطاء التابوت.. يا لثقله!.. هيا!.. أسرعي!.. يجب أن تتمكني من إزاحته قبل أن..
للأسف صار الظلام هو الملك.. وبصعوبة يمكنك أن ترى تفاصيل التابوت وما فيه.. لكن الفرصة لم تضع بعد..
هو ذا الكونت (دراكيولا) يرقد في التابوت، وقد عقد ذراعاه على صدره، وعلى شفتيه ابتسامة واهنة شريرة..
أخرجت الوتد الخشبي من جعبتها.. ثم المطرقة. وبيد مرتجفة ثبتت الطرف المدبب على قلب الرجل. ترى هل تستطيع ذلك؟.. لا بد.. لا يوجد مخرج آخر..
رفعت المطرقة واستعدت لتهوي بها..
كان ذلك حين فتحت الجثة الراقدة عينيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن هذا العواء هو غناء أبناء الليل.. ما أعذب موسيقاهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعين قلقة، راقب (شريف) التوترات السريعة التي تمر بجسد (عبير)، الجالس أمام شاشة الكمبيوتر والأقطاب على رأسه..
كان رأسها يهوم يمينا ويسارا.. وشفتاها ترتجفان.. وثمة خيط من اللعاب يسيل من ثغرها إلى صدرها..
لم يكن ذا خبرة طبية، لكنه مد يده وتحسس معصمها.. إن النبض بطيء جدا.. وهذا - على قدر علمه - يعني أن هناك صدمة عصبية تمر بها الفتاة.. هل يوقف البرنامج؟.. إنه لا يضمن نتائج تصرف كهذا قد يكون هو الخرق بعينه.. ليدعه يستمر إذن... وليحقن الفتاة في معصمها بحقنة (أتروبين)، فهو يعرف أن هذا كفيل بالقضاء على الصدمة، أو – بمعنى أدق - حماية القلب من أثرها..
الحسن الحظ أن عنده صيدلية لا بأس بها.. وخبرة معقولة في إعطاء الحقن الوريدية.. ولكن ليسرع... ها هي ذي الإبرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت (عبير) بالعضة في معصمها، فصرخت وتراجعت للوراء..
لقد تأخرت كثيرا إلى أن نهض الكابوس..

لماذا يحرق الشعور بالظمأ جوفها؟.. لماذا تشعر أن الدم يتسارع إلى وجنتيها؟ (هي لا تعرف أن هذا هو تأثير الأتروبين)...
(دراكيولا) ينهض من التابوت..
طويلا مهينا مريعًا.. يتقدم نحوها ببطء... هى تتراجع إلى الوراء والوتد في يدها...
قال سيد الدياجير وهو يرخي عباءته على كتفيه:
- إذن تحاولين قتلى!.. تحاولين قتل من جعلك جاريته الأثيرة.. الذي اختار لك الخلود..
ثم ابتسم ابتسامته الكريهة المقيتة:
- أين (قان هلسنج)؟.. إنه هو من أغراك بهذا العمل الأخرق.. أليس كذلك؟!.. أين هو؟
ولما رآها خرساء كالأسماك لا تفعل شيئا سوى الرجفة؛ قال:
- حسن.. إنه في القلعة.. أعرف هذا وأشعر به.
ولسوف أجده أولا.. بعدها أعني بك!
وبيد كأنها كلابات حديدية جذبها.. وساقها متجهاً نحو الباب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذات اللحظة تقريبا كان (شريف) يتأمل على شاشة الكمبيوتر ذلك المأزق الذي تواجهه (عبير) حينما سقطت مع (فان هلسنج) في القبو المظلم..
أدرك أنها تواجه مأزقا مريعا.. ولم يكن يدرى أبعاد هذا المأزق، ولن يدركها إلا بعد خمس دقائق أخرى..
هل يوقظ الفتاة؟.. مرة أخرى هو لا يجرؤ.. لربما كانت صدمة شبيهة بصدمة إيقاظ الماشي في أثناء نومه.. يحتاج إلى أن تكون أكثر هدوءاً واستقراراً ليوقظها..
ربما كان هناك حل..
إن كل كوابيس مصاصي الدماء تنتهي في أشعة الشمس..
وهو يعرف أن ما تراه (عبير) يتم في وقت الغروب.. إذن فيقدم لها شمسا.. شمسا دفيئة بهيجة تقتل أو هامها قتلا..
إنها العاشرة صباحا في دنيا الواقع..
فتح النافذة فانسل منها شعاع الشمس الدافئ الجميل ليفترش أرض الحجرة.. لكن هذا لا يكفي..
هرع إلى الحمام فأحضر مرآة الحلاقة.. وشرع يعكس بها أشعة الشمس لتسقط على وجه (عبير) الغافية..
وصاح محاولا تنبيهها:
- إنها الشمس يا (عبير)..... الشمس!.. هل تشعرين بها؟..
ها هي ذي تلمس بشرتك.. تلمس جفنيك.. صلاة صامتة تصليها بشرتك لخالق هذا النور.. هل تشعرين؟.. إنها تحرق.. الدم يحتشد في جلدك.. أنت تشعرين بها الآن.. إنه النهار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالفعل..
شعاع الشمس يخترق أستار النافذة الممزقة..
أجفل (دراكيولا) وترك معصم (عبير)، وأشاح بوجهه بعيدا.. ومن بين أنيابه هتف:
- يا للشيطان!.. شمس في الليل؟!

لكن (عبير) كانت قادرة على الفهم.. إنها في (فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. إنها تشعر بجلدها يتسلخ ويحترق هي الأخرى، لكنها تراجعت إلى الوراء.. وثبت نحو النافذة وفتحتها على مصراعيها ومزقت الستائر السوداء...

صرخ (دراكيولا) أشنع صرخة سمعتها في حياتها..

راح يتحسس طريقه نحو الباب، مغطيا وجهه بعباءته.. لكنها جرت وأغلقت الباب قبل أن يصل إليه.. هو ذا عاجز عن الوصول إلى المقبض..

يحاول العودة إلى التابوت..
فتحدها حقيبتها وأخرجت حزمة من الثوم، وألقت بها داخل النت المفتوح.. لتمنعه من دخوله..
أطلق زئيراً كزئير الضواري وشرع يتلوى..
مريع هو مشهد الموت هذا..
كأنه وحش كاسر يتألم.. والويل لمن يقف في طريق ألمه..
- سيكون انتقامى مر و.....
قالها وهو يغطى وجهه..
لكنها الآن تدرك أن الدخان يتصاعد منه.. وأنه يحترق.. تراه يتفحم ببطء أمام عينيها...
هي أيضا تحترق.. ليس مثله لكن الدخان ينبعث ببطء من مسامها، وبشرتها تلسعها كأن مئات الدبابيس غرست فيها..
هرعت إلى الباب، وقد أدركت أنه لن يستطيع اللحاق بها إلى هناك.. روح الشر.. روح الشر تحترق..
المهم الآن أن تهبط لتخبر (فان هلسنج) بالأمر ثم..
إنها تشعر بأن بشرتها تتحسن.. إنها أفضل حالا..
هذا طبيعي.. لقد مات (دراكيولا) وتحررت من ربقته للأبد..
فلتجر إذن وتخبر (فان هلسنج) بكل شيء..
ثمة شخص ينتظرها في الممر..!.. ألن ينتهي هذا الكابوس؟..
دنت منه أكثر وهي تستعد للمقاومة.. فإذا به (المرشد)...
ببذلته السوداء، والقلم ذي (السوستة) ينتظرها وعلى وجهه ابتسامة ماكرة.. وقفت أمامه تلهث تريد أن تقول شيئا، لكنها لا تقدر.. قال لها ليوفر عليها العناء:
- تحية يا آنسة!.. يالها من فوضى!.. أعتقد أن مغامرتك كانت شيقة...! قالت لاهثة وهي تعب أطنانا من الهواء: - لقد قت.. قتلته.. الشمس.. احترق تماما.. قتا - نعم.. نعم.. تك تتك!.. والان هيا بنا.. فقد حان وقت العودة..
أراحت رأسها على الجدار خلفها.. وهتفت:
- لكن البارون (فان هلسنج).. إنه في القبو..
مكس.. مكسور القدم.. لابد.. أن...
ابتسم مهدئا إياها.. وتأبط ذراعها برفق:
- أعرف هذا كله.. ولكن دعك منه.. لسوف يعرف كيف يتصرف.. والآن هلا رحلنا؟.
- وال.. الكونت؟
قال في لا مبالاة وهو يلوك شيئا في فمه:
- آه!.. إن هذا الوغد سيعود حتما!
- كيف؟.. لقد احترق تماما..
- دائما ما يكون هناك شيء ما.. خاتمه.. قلادته لا بد من نقطة يبدأ العودة منها كما تعلمين، وإلا أفلست ستديوهات (هامر) البريطانية[2]..
أثارت غيظها تلك اللامبالاة التي يتعامل بها.. إنه مجرد موظف حكومي يتقاضى مرتبا من إدارة (فانتازيا)، ويريد إنهاء هذه (الشغلانة) سريعا..
لكنها لم تجد بدا من الرحيل معه..

معا خرجا من القصر المشئوم، وضوء النهار البهيج يغمر العالم بألف حلم وألف أمل..
ومن بعيد رأت قطار (فانتازيا) قادما..
- هل سأركب معك من جديد؟
- ليس في هذه المرة يا (عبير).. هناك مرات قادمة لا حصر لها.. والآن...
وحين نظرت إلى قدميها، أدركت أن ثياب (مصاصى الدماء) إياها الممزقة المغبرة قد تلاشت..
وعادت في ثياب القرن العشرين التي جاءت بها...
وحين رفعت عينيها رأت شاشة الكمبيوتر أمامها ورأت وجه (شريف) يبتسم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة..

لم تستغرق الرحلة سوى ساعة بالنسبة لمقاييس الواقع...
لكنها - في عالم الخيال - استغرقت أسبوعا أو أقل قليلا، وهو شيء لم تستطع (عبير) فهمه..
لكن (شريف) قال لها:
- في قصة - كثلاثية نجيب محفوظ – تقرئين وتعيشين أحداثا مدتها أربعون عاما.. لكنك تطالعينها في أسبوع أو أقل، إذا ما كنت سريعة القراءة..، هذه هي نسبية الخيال..
- « فهمت »..
لكنها في الواقع لم تفهم شيئا على الإطلاق.. ولم يعنها أن تفهم..
كفاها أنها تهيم حباب (فانتازيا) أرض الأحلام الساحرة..
قال لها (شريف) وهو يناولها زجاجة مياه غازية:
- اشربي هذه.. إن (الأتروبين) يسبب ظمأ شديدا.. نقد كاد قلبك يتوقف حقيقة لا خيالاً..
تناولت الزجاجة ومسحت فوهتها بمنديلها الورقي كعادتها.. ثم غمغمت وهي ترمق الأفق من النافذة المفتوحة:
- غريب أنك نجحت في أن تجعل الشمس تشرق في حلمي..
- هذا منطقي.. كثيرة هي المؤثرات التي نقدمها في أحلامنا، لأن العقل الباطن لا يجد وقتا لتحليلها.. حلمت وأنا طفل أنني طيار شجاع يقود طائرة نفاثة.. ثم سقطت الطائرة في المحيط.. وشعرت ببرودة الماء تحيطني.. واستيقظت فزعا..
- ثم ماذا؟
احمرت أذناه خجلا.. وغمغم:
- صحوت لأجد الفراش مبللا.. لم يجد عقلي الباطن تفسيرا للإحساس بالبلل سوي أن يقحمه في الحلم!
ضحكت ثم كتمت ضحكتها بالمنديل الورقي.. لا بد أن مياه المحيط كانت دافئة إذن!.. لكنها لن تقول هذا التعليق..
المدة ساعتين جلسا يشاهدان عرضا سريعا لذلك الكابوس الذي عاشته.. للمرة الأولى ترى كابوسا كاملا مفصلا على الشاشة.. والجديد هنا أن أحدا لم يوقظها..
لا (شريف) ولا (المرشد).
الآن حان وقت العودة إلى الواقع الكئيب..
- سأعود لداري بعد أن أمر على الخياطة سريعا..
- وبماذا تفسرين هذه الساعات الثلاث؟
- سأقول إنني قابلت (دراكيولا) على باب الخياطة!
ثم وضعت زجاجة المياه الغازية.. ونهضت:
- أشكرك على كل شيء.. ستكون هذه المغامرة هي بنزين حياتي حتى...
- حتى ماذا؟
- حتى المرة القادمة!
- لن تكون هناك مرة قادمة.. ألم قل لك هذا مرارا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكننا نعرف أن هناك مرة قادمة.. بل مرات قادمة..
لقد صارت (عبير) ضيفة دائمة في (فانتازيا)، و (شريف) يعرف أكثر من غيره أنها تنتمي لهناك أكثر مما تنتمي لعالمنا..
ليس له الحق في منعها من زيارة عالمها الحقيقي... وفي القصة القادمة سيدرك عجزه عن منعها أكثر فأكثر..
ولسوف تقابل (عبير) رجلا يدعي بالعميل (007).. وهو اسم قد يكون مألوفا لبعضنا.. أما الاسم الذي نعرفه جميعا فهو (بوند).. (جيمس بوند)..

[تمت بحمد الله]

حكايات من والاشيا

يقولون في الأساطير الرومانية إن هناك ثغرة يمر عبرها مصاصو الدماء والمذءوبون من عالمهم الرهيب إلى عالمنا.. وبالتحدي في إقليم (والاشيا). وفي (داشبا). وفي (مولدافيا).. هكذا يزعمون.. ولم تكن (عبير) تعرف شيئا من هذا كله حين دخلت قلعة (فلاد) الذي يعرفه العالم باسم الكون (دراكيولا).. فماذا رأت وماذا سمعت؟!

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

مقولة شهيرة بالفعل

[←2]
اشتهرت استديوهات (هامر) البريطانية بأطول سلسلة من أفلام (دراكيولا) رخيصة التكاليف، وكان يقوم ببطولتها غالباً (كيرستوفرلي) مع (بيتر كوشنج)

روايات مصرية

3

فانتازيا

صفر صفر سبعة



د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (03)

صفر.. صفر.. سبعة

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) . . .
لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا)..
وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع...!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أدغال الواقع....

شهران انقضيا على (عبير)..
شهران انقضيا على مغامرتها الأخيرة في (فانتازيا)، مع كونت (دراكيولا) والبارون (فان هلسنج) ومصاصي الدماء..
شهران انقضيا على تحولها هي نفسها إلى مصاص الدماء..
كانت مغامرة رهيبة..
لكنها كانت تحمل في ثناياها ذلك المذاق الحريّف المحبب.. مذاق الفرار من الواقع، وإطلاق العنان لأكثر الخيالات جموحا.. وأكثر الأحلام لا معقولية..
والآن تعود (عبير) من جديد إلى أدغال الواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (عبير).. هل تفضلين ثوب الزفاف هذا أم ذا؟
ثوبان رخيصا الثمن فجا الذوق، والأسوأ أنها ستستأجر الثوب الذي تختاره.. ولها أن تتصور كل العرق والبراغيث والأوبئة الجلدية التي تركتها العروس السابقة في هذا الثوب..
في الروايات دائما لا يشكل شراء ثوب العرس مشكلة.. لأن الفقر لا وجود له في دنيا الخيال..
لا فقر.. لا عرق.. لا براغيث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الآونة راحت تطالع بنهم كل ما يقع في يدها.
ذهبت إلى بائع الكتب العتيقة الذي افترشت كتبه ومجلداته الرصيف، لولا أنه قد يسخر منها. ومن المؤكد أنه سيفعل لقالت له:
- أعطني أحلاما بجنيهين.. ولكن توص بي!
هذا هو عالم الكتب الساحر.. الكتب التي تحملها عبر الزمان والمكان بعيدا عن هذا الواقع المرير..
إن (عبير) لم تكن مثقفة هي قارئة نهمة لكنها غير مثقفة.. لهذا لم تدر أن الواقع في حد ذاته قد يلهم الأديب أروع أعماله.. ومثالنا على هذا (ماكسيم جوركي) أو (الطيب صالح) وسواهما من الأدباء الذين عبروا عن بؤس الواقع خير تعبير.. فكان أن أجادوا وصنعوا عالمهم الخاص..
- لكن (عبير) لم تكن تهتم كثيرا بهذا الطراز من الأدب التعس.. (الواقعية الاشتراكية) كما يحلو للنقاد أن يسموه أحيانا..
كانت تصبو إلى القصص التي تتكلم عن عوالم أخرى، وأشخاص آخرين.. فهي لا تقرأ كي تعيش تعاستها مرتين..
وبخمسين قرشا كانت تبتاع بعض الروايات ذات العناوين المسلية.. روايات تآكلت أطرافها واتسخت أغلفتها وبليت أوراقها..
وفي الصفحة الأولى تجد دائما اسم أحدهم.. على غرار: «سيد عبد الرحيم بسيوني - دبلوم صنائع».
ثم عبارة من ذلك النوع المبتذل الذي يحسبه العامة أدبا على غرار: «الذكري ناقوس يدق في

عالم النسيان».
ولا بأس من أبيات شعر ركيك كتبت بقلم رصاص على بطن الغلاف.. لأن: «الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان» كالعادة!
كل هذا كان يثير حنينها إلى حد لا يوصف.
وفي الآونة الأخيرة ابتاعت بعض روايات (جيمس بوند) الكاتب يدعى (إيان فلمنج).. وكانت تكره (جيمس بوند) منذ قرأت قصة واحدة له في صباها، ولم تتحمل فكرة الرجل الذي يجيد كل شيء ويفعل كل شيء.
لكنها كانت بحاجة إلى زيادة مخزونها من الخيالات، حتى إذا ما مرت ثانية بتجربة (دي - جي - ٢)، كانت الاختيارات أوسع..
ابتاعت كذلك قصتي خيال علمي، من النوع الذي يبدو على غلافه رجال خضر من المريخ يلوحون ببنادق الليزر.. على حين تحلق فوق رءوسهم مركبة معقدة غريبة الشكل..
وبأخر ما تبقى معها ابتاعت إحدى روايات (أرسين لوبين)، وهي لم تكن قد قرأت شيئا لهذا المدعو (موريس لب...).. إن الاسم عسير عليها أن تتذكره [1].. لا يهم المهم أنه معها..
وبينما هي عائدة للدار تتنهد في حرقة.. وتهمس لنفسها:
. أين أنت يا (شريف)؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و (شريف) لم يكن بعيدا..
ها هو ذا في شقته الأنيقة يقف بقميص قصير الأكمام وربطة العنق، يلوح بيديه في عصبية..
وعلى الأريكة يجلس (صفوت) يلوك - كالعادة - شيئا ما يأخذه من قرطاس ورقي، وقد بدت على وجهه ملامح الرفض.
ماذا يقولان؟ وما سر هذه العصبية؟
دعونا نقترب منها لنعرف أكثر..
يقول (شريف):
- هذا هو قرار الذي لن أتزحزح عنه..
ويقول (صفوت) وهو يداعب كرشه البدين بحنان:
- أنت مخبول يا صديقي.. أعرف أن العبقرية يخالطها دوما شيء من خبال.. لكن الأمر مقبول إذا لم يتعد الخبال نوعا من غرابة الأطوار.. أما والحال كهذا.. فأنا أقول لك: لا
يقول (شريف) وهو يلقي ببعض حبات النعناع في فمه «كان يشعل لفافة تبغ كلما توتر.. أما اليوم فلن يسمح لنفسه سوى بالنعناع»:
- قلت لك.. أنا حر..
- والتكافؤ الاجتماعي والطبقي والفكري؟
- لا أبالي بكل هذا.. ما دام التكافؤ الروحي قائما..
تنهد (صفوت).. وفك حزامه ليعطي كرشه مزيدا من الاسترخاء، وقال في قنوط:
- أنت أذكى مني يا (شريف).. وتعلم أن الأمر لا يزيد على عقدة ذنب مفرطة تجاهها..
ثم مط شفتيه في اشمئزاز..
- أو لنقل إنها عقدة (بجماليون) [2].. أنت صنعت هذه الفتاة وخضعت لك في تجاربك.. لهذا همت بها حبا.. لا أكثر ولا أقل.. إنه افتتان المعلم بتلميذته الذكية

قال (شريف) وهو يفتح جهاز التليفزيون، دون مبرر سوى الحاجة لأن ينفث عن عصبيته:
- هذا هراء.. أنا أفهم نفسي جيدا..
- إذن يبقى لنا المنطق (البرجماتي) النفعي.. أنت تريد ذلك لتضمن أن تظل إلى الأبد طوع بنانك.. فأر تجارب أبديا رخيصا في مختبرك..
ثم فرد أصابعه ليعد عليها..
- أولا: هي لا تملك جمالا من أي نوع.. لا أدري فكرتك عن الجمال، لكن تلك الفتاة لا تتمشي مع أية مقاييس للجمال في العالم حتى في (نيام نيام)..
ثانيا: هي لا تملك مالا..
ثالثا: ليست أسرتها بأرقي أو أعرق الأسر في هذا البلد..
رابعا: هي ليست ذكية..
خامسا:.........................

وتوقف عند الإصبع الخامس باحثا عن صفة خامسة لا تملكها (عبير).. فلم يجد.. من ثم عاد يلتهم ما بداخل الكيس في عصبية..
قال (شريف) وهو يغلق التليفزيون، دون مبرر سوى الحاجة لأن يفعل شيئا ما:
- أراك تحدثت عن كل شيء ولم تذكر روحها.. إنها هي ملكة جمال الأرواح في العالم.. طاهرة بريئة شامخة.. شغوف بالأحلام.. إنها تنتمي إلى عالم آخر.. ومشكلتها أن روحها اختارت جسدا غير مناسب، في زمن غير مناسب، في مكان غير مناسب..
لهنيهة ظل (صفوت) يرمقه في غل عاجزا عن إضافة شيء.. ثم قال في ضجر:
- ليكن.. إذا كنت تريد ذلك.. اذهب وتزوجها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكذب (شريف) خيرا..
لو كان فهم النفس هينا إلى هذا الحد لفهم نفسه، لكنه يعرف على الأقل أن الأسود والأبيض لا وجود لهما في النفس البشرية وإنما (الرمادي العظيم)..
في النفس البشرية لا يوجد عامل واحد، ولكن عدة عوامل..
كانت رغبته في أن يتزوج (عبير) هي خليط من كل ما قاله (صفوت) وكل ما قاله هو
ا- يريد أن يتزوجها لأنه يشعر بعقدة الذنب نحوها.
٢ - يريد ذلك لأنه يشعر نحوها بعقدة (بجماليون).
٣ - يريد أن يتزوجها لأنها ستكون خامة دائمة لتجاربه، وهذه هي الوسيلة الوحيدة ليضمن ألا تفلت.
4- يريد ذلك لأنها روح صافية عذبة.
5 - يريد أن يتزوجها لأنه يحب ابتسامتها ووجهها المريح.
6- بريد ذلك لأن هذا سيسعدها حتما.. وهو راغب حقا في إسعاد هذه الروح التي تعيش حياة قحلة بائسة.
٧ - يريد ذلك لأنها بالتأكيد أقل إزعاجا وثرثرة وميلا للتحكم من زوجته السابقة، وواحدة مثل (عبير) تعرف حتما كيف تحترم رجلها وتتبعه.. تتبعه ولا تصر على أن يتبعها هو.. تطيعه دون أن تصر على أن يطيعها هو..
الأسباب كثيرة كما ترون ومعقدة..

وكما قلنا آنفا.. المجد للرمادي العظيم.. إن نفس (شريف) تحوي - مثلنا جميعا - أسمى طاقات العطاء وأبشع نزعات الأنانية والنفعية..
لهذا دعونا من الثرثرة التي لا طائل من ورائها، وتعالوا معي إلى حيث يجلس مع شقيق (عبير) في الصالون الصغير الرث.. الذي هو صالون وغرفة نوم ومعيشة في آن واحد..
كانت المفاجأة مذهلة لشقيق (عبير).. واحتاج بعض الوقت كي يستوعب أن هذا المهندس الوسيم الثري يريد أن يناسبه.. وفي من؟ " في (عبير) بالذات..
لكن الريبة استبدت بنفسه، وشعر أن هناك ألعوبة ما يمارسها هذا (الأفندي). المتحذلق المتأنق كالفتيات..
برغم هذا بدا متحفظا أقرب إلى التهذيب.. ووعد (شريف) بالرد عليه قريبا.. ثم اختلى بالأم يناقش معها هذا التغير غير المحسوب في مجرى الأمور.
لكن الحقائق تنتصر في النهاية..
والحقيقة التي لا تدحض هنا هي أن (شريف) عريس لا يرفض بكل المقاييس، دعك من أن الفتاة تكاد أن تجن فرحا.. ومن المؤكد أن (شريف) لا غبار عليه فيما عدا ما كان من أمر زيجته السابقة، وتجربته التي كادت تودي بحياة الفتاة يوما ما..
المشكلة الأولى الآن هي أن الفتاة نصف مرتبطة بصديق عزيز لأخيها..، بل إن استعدادات الزفاف قد بدأت..
فكيف يمكن هدم كل هذا من أجل مهندس مدلل يريد أن يتزوج؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كل هذا يدور ويُناقَش، حين قرعت (عبير) باب (شريف) في ذلك المساء..
وفتح (شريف) الباب ليجدها أمامه..
- (عبير).. أنا..
- أعرف ما تريد قوله..
ودون كلمة أخرى مشت عبر الردهة قاصدة الغرفة التي وضع فيها الجهاز، وبصوت لا تعبير فيه قالت:
- أريد أن أعود لهناك
- ليكن.. ولكن ماذا عن أخيك و..؟
- إنه يفكر.. يفكر طيلة الوقت، لكنه لم يقل شيئا بعد.
قالتها وهي تجلس على المقعد، وتضع الأقطاب على جمجمتها.. ثم تردف وهي تسترخي إلى الوراء:
- والآن.. أعطني حلما جديدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت هذه - كالعادة - هي البداية الحقيقية لقصتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 – صفر.. صفر.. سبعة..

(شريف) يداعب أزرار الجهاز بأنامله.. ومن بعيد - من جهاز الستريو - ينبعث صوت أغنية كان يسمعها حين جاءت (عبير)..
الأغنية ل (جانيس جوبلن) التي كانوا في الستينات يسمونها (راهبة البوب).. تقول كلماتها:
«حين تطول لياليك، وتقفز أيامك..
حين تحسب الحب حقا للأقوياء والمحظوظين فقط.
عندئذ تذكر..
أنه في الشتاء.. وتحت الثلوج المريرة..
ترقد البذرة التي - مع عناية الشمس-
تصبح زهرة في الربيع»
نعم يا (عبير).. لو أنك فهمت كلمات هذه الأغنية لعرفت أن الحب ليس حكرا على الأقوياء والمحظوظين.. الضعفاء والتعساء ومعدومو الجمال يمكنهم أيضا أن يُحِبوا ويُحَبوا..
عندئذ تغدو البذرة زهرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (المرشد) ل (عبير) وهو يركب القطار جوارها، ومشاهد (فانتازيا) تتوالى على الجانبين:
- والان يا فتاة.. تك تتك! هل لديك اختيار معين؟
صمتت (عبير) وراحت تتأمل المشاهد حولها..
من بعيد ترى بطًّا يتكلم ويمشي على قدمين وفئرانا ترتدي السراويل، وعالمنا غريبا كأنما هو مرسوم بالكاريكاتير..



قال (المرشد) وهو يداعب قلمه كالعادة:

- تك تتك تك!.. هذا هو عالم (ديزني) الرائع..

مدينة البط.. (ميكي ماوس).. (دونالد دك).. العم (سكروج)..
- (سكروج)؟
- نعم.. في (فرنسا) يسمونه العم (بيكسو)..
وفي مصر تسمونه عم (دهب).
- حتى هؤلاء في (فانتازيا)؟
- ولم لا؟.. كل الشخصيات والأماكن التي في خيالك لها وجود مادي هنا.. تك تتك!
لكنها لم ترغب في رؤية عالم (ديزني).. ليس اليوم.. ربما بعد أن تفرغ من الرؤى الأكثر إلحاحا بالنسبة لها..، وفجأة تذكرت شيئا.. هي لم تسمع قط كلمة (سكروج) أو (بيكسو).. فكيف يعرفهما (المرشد) برغم أنه هو نفسه وليد خيالها وخبراتها؟
سألته عن تفسير ذلك، فقال دون اكتراث:
- بالتأكيد أنت تعرفين هذه المعلومة.. لكنك نسيت.
- هذا غريب.
وفجأة رأت ذلك المشهد..
حاملة طائرات عملاقة تحلق - بما عليها فوق الصحراء.. مبتعدة تجاه الأفق الغربي..، ولم تجد وقتا لتفهم كيف تطير هذه الأعجوبة..
- ما هذا أيها (المرشد)؟
- آه!.. هذا المستر (بوند) في إحدى مغامراته.. قلت إنك لا تميلين إليه كثيرا..
في هذه المرة صاحت (عبير):
- نعم.. أنا أمقته.. لكني لا أمانع في أن أعيش مغامرة معه..
- ليكن.. إن أحلامك أوامر يا صغيرة..
ومد يده يجذب حبل إيقاف القطار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة وجدت (عبير) أمامها سيارة (سبورت) حمراء.
وسمعت (المرشد) يقول لها وهو يداعب القلم:
- هيا.. اتخذى مكانك خلف المقود.. قصتك تبدأ ها هنا..
- لكني لا أعرف كيف..
- ألن تتعلمي الدرس أبدا؟.. كل شئ ممكن في (فانتازيا).. أنت الآن العميلة السوفييتية (ناتاليا أولجانوفا) التي أرسلها جهاز المخابرات (كي - جي. بي) إلى هنا لمهمة شديدة التعقيد..
صعدت (عبير) إلى السيارة وأمسكت بعجلة القيادة..
هذا غريب!.. إنها تعرف كيف تقود.. وبمهارة غير عادية.. نظرت إلى جسدها فأدركت أنها ترتدي ثوبا ضيقا.. وحذاء عالي الكعبين.. وأدركت من تطاير خصلات شعرها أمام عينيها أنها شقراء!
نظرت في مرآة السيارة لترى وجها بارع الحسن وعينين زرقاوين غامضتين.. كما أدركت كذلك أن هناك من يلاحقها!
الطريق الذي تندفع فيه السيارة هو طريق منعزل تحفه الأشجار من الجانبين.. متعرج بشكل مروع.. لكن براعتها في القيادة مروعة هي الأخرى..
الفرامل تئن.. السيارة التي تتبعها سوداء من نوع (الشيفروليه) ذات زجاج قاتم فلا ترى من

يقودها..
لكن الإجابة على تساؤلها كانت سريعة جدا.. إذ سرعان ما برز رجل ضخم الجثة أصلع الرأس من فتحة التهوية في سقف العربة، وهو يحمل مدفعا هائل الحجم.. و.. بووووم!
انفجرت القذيفة على بعد متر من يمين السيارة. ياللعنة!.. إنهم يحاولون قتلى.. من هم؟ وماذا! يريدون؟
للأسف لا يسمح الوقت بالإجابة عن هذه الأسئلة، لأن قذيفة أخرى تنفجر أمام السيارة.. العجلات تئن..
يدا (عبير) تتقلصان على عجلة القيادة، ومن حين لآخر تمسك بذراع السرعات.. بووووم! هذه ثالثة!
الجديد هنا هو وابل من طلقات الرصاص ينهمر آتيا من خلفها.. تحاول التملص.. تسير في خط متعرج..
بووووم! لم يزل هذا الأخ المتحمس يواصل (قصفها) بمدفعيته.. اللعنة.. لابد من مخرج.
وهنا - وقبل أن تفهم شيئا - وجدت من يثب على السيارة من أعلى ليتربع على المقعد جوارها..
أجفلت.. والتفتت لترى من هو.. فوجدته رجلا وسيما يرتدي ثياب السهرة كاملة، ويضع ربطة عنق (بابيون)..
- م.. من أنت؟
في هدوء - برغم القذائف المنهمرة من حولهما - أخرج علبة سجائر ذهبية وقداحة ثمينة.. وأشعل لفافة تبغ.. ثم قال:
- اسمي هو (بوند).. (جيمس بوند)..
وغمز لها بعينه وأصلح من ربطة عنقه.. وأردف:
- في خدمتك يا آنستي!
صاحت في هستيريا وهي ترى قذيفة أخرى تهوي جوار السيارة:
- هلا فعلت شيئا؟ إننا سنموووووت!
- أوه! صبرا يا آنسة.. لا داعي للعجلة.. إنني أرى وراء هذا المدفع خصمنا الروماني العتيد (تاركوفسكي).. ومن حسن حظنا أنه لا يجيد التصويب.. والآن لنر ما يمكن عمله!
- من هو (تاركوفسكي) هذا؟
- أوه.. إنه قاتل أجير يعمل لدى خصومي.... أعتقد أنهم سيقضون علينا لا محالة.
ثم أمسك بيد (عبير) في قوة.. وهتف:
- تشبثي جيدا يا آنسة.. فلسوف نذهب في رحلة قصيرة.
وقبل أن تفهم ما يحدث كان قد أدار مقود السيارة بعنف إلى اليسار..، فصارت السيارة تسد الطريق بالعرض أمام سيارة المطاردين..
وشعرت بأنها ترتفع.. ترتفع ببطء لأعلى..
وحين نظرت إلى قدميه أدركت أن كعبي حذاءيه تحولا إلى محركين نفاثين يقذفان اللهب، وبالتالي أمكنه أن يحلق فوق السيارة، وهو يجذبها خلفه متدلية من معصمه..
ودار بها نصف دورة في الهواء.. في اللحظة التي ارتطمت بها سيارة المطاردين بالسيارة (السبورت) الحمراء..
وانفجرت السيارتان، وتناثرت الشظايا الملتهبة في كل مكان وفوق دائرة الدخان الأسود المربعة حلق بها (بوند)، حتى إذا ابتعدا قليلا.. ضغط على زر في حزامه فشرع يهبط أرضنا ببطء

شديد.. حتى استقرت قدماه على الكلأ..
وقفت تنظر إلى عينيه، ولم تقل شيئا..
بالضبط كما تخيلته وهي تقرأ قصص (إيان فلمنج)، الذي كان هو نفسه عميلا للمخابرات البريطانية..
وسيم إلى حد مذهل - (جيمس بوند) لا (فلمنج) - تنسكب خصلات شعره الأسود القادم على جبينه الوضاء
تجعيدتان على ركن فيه توحيان بالمرح.. وتوحيان كذلك بالقسوة
ذقن صلبة مشقوقة، تنم عن قوة شكيمته، وعينان زرقاوان فيهما سخرية.. وفيهما توحش..
أدركت أن صاحب هاتين العينين هو - برغم تظاهره باللطف - وحش لا يرحم، سواء أعداءه أو النساء.. فهو يعبث بعواطف الأخيرات عبثا.. ويتودد إليهن.. لا عن إعجاب أو حب.. بل من منطلق غريزة أشبه بغريزة الصيد..!
قال لها وقد لاحظ أنها أطالت تأمله:
- أرى أن سحر (بوند) الطبيعي قد بدأ يعمل!
- لك أن تراهن على ذلك!
وهنا شعرت بدهشة.. إن هذا التعبير «لك أن تراهن على ذلك» ليس من التعبيرات المعتادة على لسانها، ثم أدركت أنها هنا تلعب دور المرأة الغامضة اللعوب.. وكلهن يقلن عبارات كهذه في القصص التي كانت تقرؤها في عالم الواقع..
إن (دي - چي - ٢) يكيف لسانها ليلائم الموقف.
تأمل (بوند) حطام العربتين، وسحابة الدخان الأسود التي بدأت تتصاعد إلى عنان السماء.. وقال في حسرة:
- من المؤسف أن (تاركوفسكي) قد تفحم.. لقد كان خصما عنيدا يلائمنى تماما..
ثم جذبها من ذراعها برقة، ليقودها بين الأشجار قائلا:
- والآن.. تعالي نركب سيارتي.. إن خير ما يناسبني للحديث عن هذه الأمور هو كأس من (الشمبانيا) وشطيرة (كافيار)..
في عصبية قالت:
- أنا لا أشرب هذا (الهباب).
نظر لها في رقة.. وقال وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:
- آه... معذرة.. نسيت أن العميلة الروسية الحسناء (أولجانوفا) لا تشرب حتما سوى (الفودكا).. هل حقا يجهل رجال (كي جي بي) أنني أفضل (الفودكا) مع الصودا.. التي تم هزها ولم يتم خلطها؟
تذكرت على الفور هذه الجملة في كل قصص (بوند).. فهذا الرجل أشبه بخنزير لا يكف عن الإيقاع بالنساء.. واحتساء (الفودكا) مع الصودا التي تم هزها، ولم يتم خلطها..
إنها تكرهه وتشمئز منه.. وفي نفسها تعرف أن الرجال على شاكلته لا يحبون سوى شهواتهم، ولا يمكن أن يعطوا إخلاصنا أو حنانا من أي نوع..
لكنه - لا ننكر ذلك - مسل إلى حد غير عادي..
إن ثقته المفرطة بنفسه لتوشك أن تصير فكاهية، وعلى كل حال هي ستترك المغامرة تمضي إلى نهايتها كما هي العادة دائما.
سارت معه إلى سيارته..، سيارة بيضاء رشيقة أشبه بالبجعة هي.. وإن كانت تبرز منها أجزاء لا

داعي لها على الإطلاق..
قال وهو يفتح لها باب السيارة لتجلس:
- تفضلي يا مس (أولجانوفا).. هذا هو الطراز الأخير من السيارة (م- ١٧).. لابد أن رجال (كي جي بي) يعرفون كل تفاصيل هذا التصميم.. لقد حصلت عليه بعد أن تهشمت (م - 16) في (المكسيك) حين واجهت دبابات ذلك الوغد (رودلفو شافيز).
قالت بعصبية وهي تركب السيارة وتغلق الباب:
- أنا لا أعرف أحدا من ال (كي - جي - بي).. وليس اسمي (ناتاليا).. أنا أدعى..
ابتسم ابتسامة ثعلب، وهو يدور حول السيارة ليركب خلف عجلة القيادة.. وقال:
- لاحظي أنني لم أذكر اسم (ناتاليا) قط.. أنت ذكرته!
ثم الدفع بالسيارة في لمح البصر.. غريب شان هذه السيارة! لا يوجد أي تسارع تدريجي في الانطلاق..
فجأة هي واقفة، وفجأة هي تتحرك بسرعة ١٨٠ ميلا في الساعة، ولا يوجد وضع وسط!
قال (بوند) وهو يدير زرا صغيرا في لوحة المفاتيح:
- ها هي ذي شاشة (المسح الأيوني)...
وعلى الشاشة المذكورة رأت شيئا يشبه أشعة (الرادار) التي تمسح الأفق..، وقال (بوند):
- فيما فهمت.. فإن (الإصبع الذهبي) قد عاد وهو الآن يتسلى بسرقة حاملات الطائرات بعد فشل محاولته لنهب (فورت نوكس) [3].. و.. لحظة!
وأخرج مسدسه وصوبه خارج النافذة ثم ضغط الزناد.. فسمعت صرخة، أدارت رأسها للخلف، فرأت رجلا يهوى من فوق شجرة.. ليسقط أرضا ويتهشم..
- معذرة لمقاطعة الكلام!
قال (بوند) وهو ينفخ الدخان المتصاعد من ماسورة المسدس
- كنت أقول إن (الإصبع الذهبي) هو المسئول عن سرقة ثلاث حاملات طائرات تخصنا.. وحاملتين سوفييتيتين..
قالت وهي ترمق خارج النافذة:
= كنت أحسبه هلك غارقا في الذهب السائل..

- كثيرون حسبوا الشيء ذاته.. لكنه نجا.. كلهم ينجون في النهاية.. هذا محتم لكي تستمر السلسلة.. و.. معذرة!.. هذا واحد آخر..
وأخرج المسدس من النافذة وأطلق رصاصة أخرى..
فرأت (عبير) اثنين يهويان من فوق شجرتين تساءلت في حيرة:
- اثنان بطلقة واحدة؟!
قال وهو يرفع زجاج السيارة:
- إن هذا يوفر الطلقات.. ألا ترين ذلك؟
ثم أضاف:
- إنهم سيفعلون أي شيء لاسترداد (الميكروفيلم)!
- هل هناك (ميكروفيلم) في الموضوع؟
- حتما.. دائما هناك واحد.. أنا أعرف أنك تخفينه في حشو ضرسك.. إنها فكرة جيدة!
- ح.. حشو ض.. ضرسي؟ من قال هذا الهراء؟
- لن أكشف عن مصدر معلوماتي.. المهم أنهم هم أيضا يعلمون ذلك.. ولن يتورعوا عن اقتلاع

أسنانك واحدة فواحدة وأنت حية.. إن هذا ديدنهم!!
وفجأة ارتفعت من أسفل المنحني الذي كانا يصعدانه طائرة (هليكوبتر).. بدت كأنها طائر أسطوري مرعب يرتفع من أعلى أمام عيونهما ليحلق فوق رأسيهما..
وفي اللحظة التالية انهمر وابل من الطلقات الحارقة فوق السيارة..



∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الرجل الذي يعرف الكثير..

بدت الأرض كأنها ثقوب مصفاة.. وحول السيارة تناثر الغبار في كل مكان.. شرعت العجلات تئن بينما (بوند) يدير عجلة القيادة يمينا ويسارا محاولا التملص.. على حين ابتعدت الطائرة..
ثم إنه قال ل. (عبير) من بين أسنانه:
- لو أن هذا الوغد يمر فوق رأسنا لحظة واحدة!
وكأنما سمعه المهاجم.. سمعت (عبير) هدير الطائرة إذ تعود لتفرغ عليهما دفعة أخرى من الرصاص.
وفي ذات اللحظة رأت على لوحة القيادة أمام (بوند) شاشة صغيرة عليها ذلك الصليب الفوسفوري الخاص بالتصويب.. ورأت أن الشاشة تعكس الصورة واضحة نقية للسماء فوق السيارة..
وبعد ثانية رأت صورة الهليكوبتر - من أسفل – وهي تعبر الشاشة.. عندئذ قال (بوند) في ثقة:
- حان الوقت!
وضغط زر (الكاسيت).. الذي لم يكن زر (كاسيت) في الواقع..
في اللحظة التالية ارتفع جانب من السيارة، وبرزت فوهة مدفع مصوبة نحو السماء.. ورأت (عبير) خيطا من الدخان الأسود ينبعث من الفوهة متجها لأعلى.. لأعلى.. نحو الهليكوبتر..
بووووووووم!.. كان الانفجار مريعا مفعما بألوان مبهرة حمراء وصفراء.. وطار شيء في الهواء جوار عيني (عبير).. لكن (بوند) مد يده والتقطه في خفة قبل أن يلمسها:
- لا تقلقي..!.. قد حصلت عليه..
وتأمله في كفه.. وتنهد حسرة:
- إنه إصبع قدم الطيار.. يا لها من مأساة!
ثم طوح بالإصبع خارج العربة.. وأردف فخورا:
- إن الصواريخ (تي - ٢) أرض – جو تعمل بكفاءة حقيقية.. ألست من رأيي؟
تنهدت في غيظ وقالت:
- سيارة بصواريخ!.. ألا تجد في هذا نوعا من (الاستخفاف بالعقول)؟!
- وما المشكلة في ذلك؟.. إنه خيال المؤلف الخصب.
- نعم.. ولكن.. هذا يجعل المغامرة خالية من المشاكل.. يوجد زر لكل شيء وأداة سرية لكل غرض.. ما هي المخاطرة إذن؟
- لكن هذه الابتكارات مبهرة في ذاتها..
قالت في حنق:
- إن لي رأيا قد لا يريحك كثيرا يا مستر (بوند).. لهذا أنوي أن أخرس.
قال وهو يضغط على زر إرجاع شريط (الكاسيت)، من ثم عاد المدفع الصاروخي إلى مكمنه:
- لا بأس.. والآن يمكننا أن نغادر (ألبانيا)..
- (ألبانيا)؟
- طبعا يا ملاكي.. نحن في (تيرانا) الآن.. وقد انتهت مهمتنا هنا.. يجب أن نتعاون وإلا فلن نقضي على (الإصبع الذهبي).. أنت تملكين (الميكروفيلم) الذي يظهر تفاصيل القاعدة.. وأنا أملك إمكانياتي وخبرتي..، يمكنني أن أحصل على (الميكروفيلم) بأن أنتزع ضرسك من فمك، لكنني لا

أحب العنف مع حسناء مثلك.
وأردف قبل أن تتمكن من الرد:
- ستعودين إلى الفندق، وتعدين حقائبك.. بعد هذا نرحل إلى (الهند).. حيث تنتظرنا مهام أخرى.
نظرت له (عبير) في صمت، ولم تنبس ببنت شفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مطار (بومباي)..
لماذا (الهند) بالذات.. لا تدري.. إن (دي - جي - ٢) يحاول أن يهبها أمتع الخيالات.. فينقلها إلى هذا البلد المفعم بالأسرار والبخور والثعابين كما يحلو لكتاب القصص الغربيين أن يتخيلوه..
في هذه المرة تهبط درجات الطائرة مع (بوند) ٠٠ جواز السفر يقول إنها مستر ومسز (كيرتس).. مستر (كيرتس) صحفي يكتب كتابا عن الأديان الشرقية، وهي حرمه المنبهرة بكل شيء..
يقول لها (بوند) وهما يخرجان من الجوازات، ورائحة الجو الرطب الخانق تنعم خياشيمهما:
- والآن.. علينا أن نجد المدعو (موهاندا راي)..
- ومن هو؟
- إنه رجلنا ها هنا..
وخارج المطار تري (عبير) الفقراء الهنود الذين ينامون على أسرة من الأشواك، والحواة الذين يعزفون المزمار الثعابين (الكوبرا)، وفقيرا هنديا يصعد إلى السماء متعلقا بحبل.
تسأل (بوند) في دهشة:
- كل هؤلاء أمام المطار؟.. من المفروض أن السلطات لا تسمح بذلك.
قال لها وهو ينقد الحمال حفنة من الروبيات:
- أنت في (فانتازيا).. خيالك لا يتصور (الهند) إلا مقرونة بهذه الأشياء.. لهذا من الطبيعي – وأنت تتخيلين - أن تجدي الحواة أول ما ترين في (الهند).
أوقفهما أحد الحواة وهو يمسك بمزمار.. وأمامه سلة يبرز منها رأس ثعبان (كوبرا) بذلك المنظار الأسود المنقوش على مؤخرة عنقه..
كان الحاوي نفسه رجلا شبه عار، يضع على رأسه عمامة عالية، وينحني في تعلق قائلا بإنجليزية (هندية) رديئة:
- هيه يا سيد... هلا ناولتني روبية أو اثنتين، ولسوف ترقص لك ثعابيني حتى المساء؟
دنا منه (بوند) ونزع منظاره الأسود.. وهمس:
- أين؟
تغير أسلوب الرجل ليتحدث في جدية وخطورة هامسا:
- شارع (رانجانا).. رقم (43).. التاسعة مساء..
نظرت (عبير) إلى ما يحدث في غيظ.. لو أراد هذان عدم جذب الأنظار، لاختارا وسيلة أقل استعراضية.
أن يهمس سائح أمريكي بكلمات ما في أذن فقير هندي لأمر يثير الفضول..
على أن ساحر الثعابين رفع المزمار إلى فمه وشرع يعزف.. ويتمايل.. فنقده (بوند) روبيتين، ثم جذب ذراع (عبير) ليرحلا..

ما إن ابتعدا بضعة أمتار حتى دوي الانفجار المروع.
قال (بوند) دون أن يلتفت وراءه:
- قنبلة موقوتة.. هذا واضح.. وهناك من دسها له في السلة مع الثعابين.. وهي لا تنفجر إلا حين يعزف المزمار بجانبها..، عرفت قنبلة من هذا الطراز في (الهند الصينية) لم تكن تنفجر إلا حين تقال جوارها لفظة (بوند)..
- وكيف نجوت منها؟
- حين دسها الأعداء في غرفتي قال واحد منهم للآخر: هذه كافية لنسف (بوند)! وكان هذا كافيا لتفجيرهما هما؟
- ومن الذي وضع القنبلة للساحر الهندي؟
حتما هو واحد لا يريدنا أن نصل إلى (موهاندا راي).. إن (موهاندا راي) يعرف الكثير بالتأكيد.. هيه!.. تاكسي!
توقف التاكسي أمامهما، وكان سائقه عملاقا ملتحيا من طائفة (السيخ)، يضع - كعادتهم - لحيته في شبكة، وقد دس في خده خنجرا حادا يدخل من الجانب الأيمن ليخرج من الأيسر!..

قال له (بوند) وهو يفتح السيارة ل (عبير):
- شارع (رانجانا) يا صديقي.. ولك مكافأة لو وصلت هناك قبل التاسعة مساء.
- أملك يا شيدي!..
جلس (بوند) جوار (عبير) يشرح لها كيف أن (السيخ) يدسون هذا الخنجر في خدهم كنوع من النذر الديني، وكيف أن هذا الخنجر يعوق الرجل عن الكلام بالتأكيد.. صارحته أنها لا ترتاح كثيرا إلى هذا الرجل.. فنظراته إليهما غير مطمئنة.. لكنه بدا واثقا بنفسه كالعادة..
قال السائق وهو يستدير بكل جسده ليرمقها بعينيه المرعبتين، ولحيته تتدلى على المقعد:
- هل تجوران شديقا.. أنتما شائحان على ما أظن.
- حتما - قال (بوند) - أنا أدرس الأديان الشرقية، وبلدكم مليء بالأديان..
- إن بلدنا مليء بالأديان.. وكل ما يمت إلى العالم الأخر..!.. نياها ها ها ها ها ها ها هاه
مالت (عبير) على أذن (بوند)، وهمست في قلق:
- لا أدري لماذا أشم رائحة التهديد في كلماته هذه!
قال في استهتار:
- إنها الطريقة المحلية في المزاح..
التاسعة مساء.. شارع (تاغور)..
قالت (عبير) ل (بوند) وهي تقرأ اسم الشارع المكتوب بالإنجليزية والأوردية:
- لكن هذا ليس شارع (رانجانا)..
قال (بوند) وهو ينقد الرجل أجره.. ويغادر السيارة:
- لا يهم.. أنت في (فانتازيا).. ما يهم هو أن مغامرة تنتظرنا هنا بصرف النظر عن اسم الشارع، أنت تعرفين كما أعرف أنا أنه - في الغالب - لا يوجد شارع باسم (تاغور) ولا (رانجانا) في (بومباي)..
لقد استعمل خيالك أول اسمين ذوي طابع هندي تبادرا إلى ذهنك.. مثلما الفرنسي اسمه (جان) أو (بيير) في كل القصص، والإيطالي اسمه (كارلو)، والألماني اسمه (هانز).. ما علينا.. ولكن.. أرى أن هذا هو البيت رقم (43).. يمكننا أن.. لكن لحظة!.. لماذا أرى الباب مفتوحا والأنوار كلها مضاءة؟!

- د.. دعنا لا ندخل..
- يا ملاكي.. ليس (بوند) من الذين يبالون بهذه السفاسف.. وامتشق مسدسه، وخلفه دخلت (عبير) وهي ترتجف كورقة.. حتى بدا شكلها كأحد ملصقات أفلام (جيمس بوند) الشهيرة.. (007) يمتشق مسدسه في ثقة بينما تقف خلفه فتاة مذعورة.. تحتمي بقامته القارعة من خطر داهم.:
لا يوجد أحد.. الصمت كما خلق..
ولكن حين صعدا الدرج - وجدا امرأة هندية ترتدي الساري مقتولة بالسكين والذعر على وجهها..، وعلى أريكة في ركن القاعة وجدا رجلا بدينا يرتدي (الشيلوار) الهندي الشهير.. وفي عنقه انغرس سكين حتى النصل..



مال (بوند) وانتزع السكين كان نصله متعرجا كالثعبان.. تأمله لحظة ثم قال:
- تحفة فنية لكنها تلوثت بالدماء.. دماء (موهاندا راي) طبعا..
وهنا أصدر (موهاندا) صوتا كأنما يريد قول شيء.

صاحت (عبير) وقد التصقت بالجدار هلعا:
- إن.. إنه حي.. مستحيل!
انحنى (بوند) راكعا جوار الرجل.. وقال في لامبالاة:
- بالعكس.. لابد أن يقول كلمة ما قبل أن يموت، ومهما كانت درجة إصابته هذا هو (البروتوكول) يا صغيرتي في هذا الطراز من القصص.. والآن.. ماذا تقول يا عزيزي؟
أصدر الرجل فحيحا وعيناه تكادان تفارقان محجريها:
- (كندا).. المفاعل.. (أونتاريو).. لا يجب أن...
نظر (بوند) إلى (عبير) وابتسم منتصرا:
- أرأيت؟.. يقول كلامنا يبدو غامضا.. ثم يتضح لنا أنه جوهري لحل اللغز.. بعد هذا يموت طبعا!
ونهض يرمق جثة الرجل في اشمئزاز:
- أنا لا أطيق الخاسرين!.. كيف يسمح إنسان لنفسه بأن يموت بهذه السهولة؟!
- أنت وحش!
رد في هدوء وهو يتفقد المكان شاهرا مسدسه:
- لو لم أكن وحشا لما ظللت حيا حتى هذه اللحظة إن أخلاق الرجل التقليدي لا تناسب أمثالي حتما..
كانت تقول شيئا حين وجدته يمر أمام ستار معلق جوار الشرفة..، وفجأة رأت يدا تبرز من وراء الستار حاملة هراوة عملاقة.. ثم إذا بالهراوة تهوى فوق مؤخرة رأسه..
بدا لها (بوند) كبالون فرغ منه الهواء.. ارتخى تماما ثم تهاوى ببطء إلى الأرض..
وامتدت يد ممسكة بمنديل تحيط بأنفها فلم تجد الوقت كي تصرخ.. ويد أخرى تكبل حركتها..
كان المنديل مبتلا.. حاولت ألا تتنفس لكن سُدى..
وإلى أنفها تسربت رائحة شبيهة برائحة (الأسيتون) الذي كانت تزيل به الطلاء من على أظفارها في عالم الواقع.
ولم تكن تعرف أن هذه هي رائحة (الكلوروفورم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - المصيدة.

إنها مقيدة.. بالتأكيد هي كذلك..
صوت يتردد في ذهنها باستمرار:
احترسي يا (عبير)!.. خلفك!
تساءلت - وهي تفتح عينيها في تراخ - عن مصدر هذا الصوت، ثم تذكرت.. لابد أنه (شريف) يواصل الإدلاء بمعلوماته التي تصل متأخرة دائما.. ليته يكف عن ذلك.
ضوء ساطع يحرق جفونها..
تفتح عينيها بصعوبة.. لتدرك أنها مكبلة في مقعد جلدي عالي الظهر، وأن كشافا مسلطا على وجهها على بعد سنتيمترات منها، وأن هناك آلات أكثر من اللازم على منضدة جوارها.. وإذ تحرك عينيها أكثر ترى رجلا هنديا يرتدي العوينات ومعطفا أبيض، ينحني عليها ويتأمل وجهها في اهتمام..
وسمعته يقول برصانة:
- هأنتذي قد أفقت.. والآن هلا رأينا فمك يا صغيرة؟
فتحت فمها منهكة غير فاهمة لما يريد..
- ها هو ذا!.. أرى أن عنايتك بأسنانك شبه معدومة..
وهنا فهمت ما يحدث..
إنها مقيدة إلى كرسي طبيب أسنان.. ولكن لماذا؟.. آه!.. بالتأكيد لأن هؤلاء الأوغاد يريدون الميكروفيلم من فمها.. من حشو ضرسها!..
قال الرجل وهو يمسك بالمثقاب ويديره:
- والآن يا مس (أولجانوفا) أطلب منك أكبر قدر من التعاون، لأن ما سيحدث سيكون مؤلما حقا.
صاحت في هلع:
- لا..!.. أرجوك... أنا أخشى أطباء الأسنان!
ابتسم في رقة:
- أنت مررت بتجربة سابقة في (موسكو) حين خبا رجال (كي - جي - بي) هذا الميكروفيلم في ضرسك.
لماذا تهينين الطب الهندي بافتراض أننا أقل براعة من السوفييت؟!
صاحت وهي تحاول التحرر من المقعد:
- لكن.. لكنني لا أعرف أي ضرس هو!
- لديك أربعة ضروس محشوة.. سنجربها جميعا.. وأرجو أن يحالفك الحظ فيكون الضرس المعني هو الأول أو الثاني!
صاحت في هستيريا وهي تؤرجح رأسها:
- لن أفتح فمي!
- كذا ديدن الأطفال!.. لكننا نعرف كيف نعالج هذا..
ومد يده ليتناول أداة تفتح ببطء كلما أدار مسمارا محويّا بها، ودسها بين شفتيها.. ثم أدار المسمار ببطء فشرع فمها يتفتح وقد تدلى منه خيط لعاب سال على صدرها.. ذكرها هذا

بأدوات الطب البيطري التي تستخدم لإرغام الأبقار على فتح فيها..
سال الدمع من عينيها، وقد تحول فمها إلى مغارة صالحة للتنقيب عن الذهب بها وبطرف عينها رأت رجلا ملتحيا يدخل القاعة ليقف خلف الطبيب.. كان هو سائق التاكسي العملاق الذي ركبت معه و (بوند) حين قصدا دار (موهاندا)... كانت محقة حين ارتابت به إذن.
كان العلاق يرمقها في وحشية.. ثم قال للطبيب:
- دكتور (رام).. ألا ترى أنك تضيع وقتك في هذا الهراء؟.. كنا شنقطع رأشها ونقتلع ضروشها كلها مرة واحدة!
قال د. (رام) وهو يمسك بمسبر صغير:
- هدوءًا يا عزيزي (راجا).. إن العنف قد يتلف الميكروفيلم.. ثم ماذا يكون الموقف لو قطعت رأسها لتجدوا أن الميكروفيلم ليس هناك!.. من سيخبركم وقتها بمكانه الجديد؟
وشرع يعبث بالمسير هنا وهناك.. وسمعت أصواتا تثير الغثيان من داخل فمها..
ثم رأته يرفع المثقب ويديره.. ويبتسم:
- حان الوقت يا صغيرة.. أرجو ألا تتألمي كثيرا!
وصرخت (عبير) من فمها المفتوح..
واختلط صراخها بصوت هدير المثقب وهو يشق طريقه في ضروسها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المكان مظلما..
الألم الجنوني يعصف برأسها، وتشعر أن فمها كان حقل تجارب نووية.. بلسانها تكتشف عشرات الثقوب بداخل الضروس.. لقد كان الوغد دقيقا في عمله، ومن المؤسف أن ضرس الميكروفيلم كان هو آخر ضرس.. لقد اعتادت هذا منذ الطفولة.. كراستها هي آخر كراسة في كومة الكراسات التي تستردها التلميذات.. اسمها هو آخر اسم في قائمة الأسماء التي تنادى.. فإذا حاولت أن تتذاكى وتبدأ بحثها بآخر كراسة.. اتضح لها أن كراستها هي الأولى......
حتى في (فانتازيا) كان الضرس المعنى هو آخر الضروس.!..
أخيرا تتعود عيناها الظلام.. وتدرك أنها في قبو مظلم..، وترى (جيمس بوند) ملقى على الأرض بجوارها.
وثبت لتجلس جواره، وتربت على خديه محاولة جعله ينهض..
واضح - حمدا لله - أنه لم يدخل قوائم وفيات هذا العام بعد.. ها هو ذا يفتح عينيه في إنهاك.. ثم يقول لها:
- (بوند) في خدمتك أيتها الحسناء.. (جيمس بوند)..!
وينهض مبتسما ليمرر أنامله في خصلات شعره، ويعيد إغلاق أزرار بدلته.. ثم ينظر لها في تساؤل:
- الميكروفيلم؟
أشارت إلى فمها، إشارة بليغة جذا لا تحتاج إلى تفسير.. فهتف:
- اللعنة!
ثم مد يده إلى جيبه فأشعل بقداحته الذهبية لفافة تبغ وقال:
- لقد ذهب مجهود العميل السوفييتي (كودولوف) هباء.. فهو قد تمكن من تصوير قاعدة (الإصبع الذهبي) بالكامل.. ثم قام بتسليم الميكروفيلم للجنرال (تازييف)، وكان أن دفع ثمنه من

حياته..
لقد ألقوا ب. (كودولوف) لأسماك (البيرانها) في(بيرو).. تصوري هذا!.. سافروا به من (موسكو) إلى (بيرو) خصيصنا ليرموا به في حوض أسماك (البيرانها).. التي التهمته فلم تبق سوى أسنانه الذهبية..، ولكن الميكروفيلم ظل مع رجال (كي - جي - بي).. وعرفت أنت أن (تازييف) خائن يعمل لحساب (الإصبع الذهبي)، فسرقت الميكروفيلم وأخفيته في أسنانك.. وفررت إلى (ألبانيا) حيث أنقذتك.. كل هذا هباء..
لم تفهم شيئا من كل هذه القصة.. لكنها تظاهرت بالفهم.. المفروض أن هذه هي ذكرياتها وهي تعرفها جيدا..
تساءلت وهي تداري خدها بكفها:
- وماذا تفعل الآن؟
- بالطبع نغادر (الهند) إلى (كندا).. هذا هو آخر ما قاله (موهاندا) قبل أن يذهب إلى الجحيم.
وهنا سمعا ضحكة عالية:
- نيا ها ها ها ها ها ها
- هذه الضحكة مألوفة!
نظرا لأعلى فوجدا كوة مفتوحة يتسرب منها شعاع من الضوء، يطل منها رأس يأتي الضوء من خلفه فلا يتبينان ملامحه جيدا.. لكن الضوء يتخلل شعيرات اللحية إلى حد ما.. إنه السائق الذي جاء بهما إلى دار (موهاندا).. والذي عرفت الفتاة أن اسمه هو (راجا) رجل (السيخ) ذو الخنجر الذي يخترق خديه..

قال (راجا) في لهجة منتصرة:
- والان يا مشتر (بوند) - وقد حصلنا على (الميكروفيلم) - أرجو أن تجدا (الهند) بلدا مسليا.. نيا ها ها ها ها!
ثم أغلق الكوة..
- ماذا يقصد؟
تساءلت (عبير) في وجل.. لكن (بوند) كان - كالعادة - يعرف ما ينتظرهما.. من ثم مشى في حذر إلى ركن القاعة حيث مجموعة من الصناديق الخشبية العتيقة، وأشعل قداحته ليري..
وفي اللحظة التالية، برز رأس وعنق ثعبان الكوبرا وهو يحدج (بوند) بعينية الشريرتين الجشعتين..
تراجع (برند) بحذر للوراء، فإذا بثعبان آخر يبرز من وراء صندوق.. ثم ثعبان ثالث.. فرابع..
عشرات.. بل مئات الثعابين تبرز من كل صوب قاصدة هذين الأسيرين البائسين..، لم تصرخ (عبير)..
تحركت فيها (فوبيا الثعابين) الكامنة في نفوس البشر جميعا، فاحتبس الصراع في حلقها.. وراحت ببلاهة – تبكي كالأطفال.
قال (بوند) وهو يطفئ قداحته:
- يا لها من زواحف مقززة..!
تساءلت (عبير) وهي ترتجف:
- ألم يكن من الأفضل لهم ولنا أن يقتلونا بالرصاص وينتهي الأمر؟
- هذا حل سخيف.. يجب في هذه القصص أن يكون أسلوب القتل طويل المدى، وإلا من أين يأتي التشويق؟!

ومن أين تجيء فرصتنا للفرار؟
- و.. وماذا ستفعل؟
- إن قتل هذه الزواحف ركلا بالأحذية غير عملي فضلا عن أنه مستحيل ربما لو حاولنا تسلق هذا الجدار للخروج من الكوة.. ولكن يجب أولا أن نشل زحفها غير المقدس نحونا..
ومد إصبعين إلى زر في سوار قميصه فانتزعه وضغط جزءا منه ثم رماه على بعد متر من مكانه و (عبير)..، وعلى الفور لاحظت (عبير) أن الثعابين تتراجع ببطء إلى الوراء..
قال (بوند) وهو يلقي لفافة تبغه:
- هذا (هـ- 4).. طارد الثعابين.. تطوير لجهاز كان مصمما للاستعمال في (فيتنام) بوساطة الأمريكيين ويصدر ذبذبات تضايق هذه الزواحف إلى حد غير عادي.. المشكلة هنا هي أن عمله لا يدوم أكثر من عشر دقائق، ولهذا يجب أن تتسلق هذا الجدار خلال عشر دقائق لا أكثر..
وتمدد على الأرض، ورفع قدميه إلى أعلى.. ثم ضغط على جزء في حزامه، وفي اللحظة التالية انطلق كعب حذائه الأيمن كالقذيفة ليصطدم بالجدار
وينغرس به.. ووراءه تدلي حبل طويل سميك ينتهي عند الجزء الباقي من حذاء (بوند)..
- هذا هو.. يمكننا الآن تسلق هذا الحبل.
وساعد (عبير) على أن تلف قدميها على الحبل وتستعمل يديها للتسلق.. ثم راح يراقبها وهي ترتفع لأعلى ببطء.. ببطء.. حتى وصلت إلى مستوى الكوة.
صاح بها:
- حاولى فتحها.. والتسلل بجسدك من خلالها.
- إنها لا تنفتح.
- إذن تعلقي بالقرميد البارز من الجداري وانتظري حتى ألحق بك.. لابد أن هناك طريقة ما..
وخلع سترته، وربطها في طرف الحبل الأسفل حتى يستردها فيما بعد إذا وصل الأعلى..
ثم بدأ يتهيأ للصعود، حين سمع (عبير) تصرخ في هلع:
. الثعابين.. إنها تعاود الهجوم!
نظر (بوند) من وراء كتفه..
ورأى أنها كانت صادقة فيما قالته..
صادقة تماما..



ثم بدأ يتهيأ للصعود، حين سمع (عبير) تصرخ في هلع:

- الثعابين!.. إنها تعاود الهجوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - القيادة

أسرع (بوند) يتسلق الحبل بأقصى ما أوتي من قوة.
وبصعوبة نجا من لدغة قاتلة وجهها له ثعبان متحمس.. ثم شرع يرتفع، وعيناه لا تفارقان العشرة الثعابين المنتظرة على الأرض من أجله..
وكذا وصل إلى (عبير) التي ألصقت جسدها المرتجف بالقرميد والتصق بها.. ثم إنه مد يده يرفع الحبل لأعلى ليسترد سترته..
في تؤدة ارتداها، وأحكم تثبيت الأزرار.
راقبته (عبير) في اشمئزاز.. إنها ترى في حرصه المبالغ فيه على الأناقة نوعا من التخنث..، كأن هذا الأحمق لا يطيق أن يبدو مشعثا ربع ثانية تكفيه لفتح الكوة..
راح يتأمل الكوة في اهتمام.. ووجه لها ضربتين بقبضته.. من ثم تأكد من أنها موصدة بإحكام..
قال ل. (عبير) وهو ينتزع زرا من سترة قميصه:
- ابتعدي بوجهك قليلا وبشريط (بلاستر) لاصق أحكم تثبيت الزر في غطاء الكوة.. ثم أخرج قداحته وقربها من الزر:
- إن أزرار (النيتروجلسرين) مفيدة دائما!
- نيترو........ هل تمزح؟
وهنا كان قد أبعد وجهه، ودوي الانفجار السريع
ليتناثر غطاء الكوة ويتسرب منها ضوء الغسق الخافت البارد..
قال لها وهو يتأمل المشهد:
- أنا لا أمزح أبدا في أثناء الهرب..!
في حنق ممزوج بالرضا غمغمت:
- كل هذه الأزرار؟ لا أدري كيف تتذكرها.. ولا من البائسة التي تخيطها لك بعد عودتك من العمل..
- أوه!.. إن هناك خياطات كثيرات في مقر المخابرات البريطانية
ومدة جسده ليضع كفه على حافة الكوة.. ثم جذب جذعه ليمر من خلالها.. ودعا (عبير) إلى أن تحذو حذوه..
وخارج القبو وقفا يرمقان المشهد من علٍ في ضوء الغسق.
كانا يقفان على إفريز معبد هندي تزدان جدرانه بالوجوه الحجرية، و (كالا) ذات الستة أذرع، وعرفا أنهما خرجا من إحدى القباب العتيقة المتناثرة هنا وهناك.
كانت هناك درجات حجرية تقود إلى أسفل، فتقدم (بوند) (عبير) نازلا هذه الدرجات وهو يتلفت حوله في حذر.. أخيرا صارا على الأرض..
أشار لها كي تتبعه.. واندفعا يجريان حتى وصلا إلى الشارع الرئيسي، فأوقف (بوند) إحدى سيارات التاكسي «ولم ينس طبعا أن يتأكد من شخصية السائق الذي كان - هذه المرة - شابا تعسًا مريضا بفقر الدم»..
وقال له:
- إلى معبد (شيفا) يا صديقي.. بأسرع وقت..
واندفعت السيارة تشق طريقها عبر الدروب المتعرجة الضيقة، المزدحمة بالمتسولين والحواة

والأطفال العراة الذين يرمقون السيارة في فضول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معبد (شيفا) وقد حل الظلام..
عند مدخل المعبد يجلس على درجات السلم الرخامية بعض الهنود العراة يعزفون على آلة وترية تشبه (البانجو)، وعلى آلة تشبه (القانون)، تلك الموسيقا الهندية الملتاعة المليئة بالشجن.. كأنها نياط فؤاد يتمزق..
وأمامهم ترقص فتاتان ترتديان الساري الهندي وهما تحركان أناملهما بحركات معقدة كأنها لغة الصم والبكم.
اجتاز (بوند) و (عبير) هذا الزحام.. ولم يفت (عبير) أن تلاحظ ما يفعله (دي جي - ٢) من أجلها.. يحاول أن يريها الهند كلها في سلة واحدة.
وتصديقا على هذا الظن، نظرت إلى الميدان فوجدت فيلا أبيض عملاقا على ظهره هودج.. وفي الهودج يتأرجح مهراجا يمينا ويسارا..!..
إن (دي جي - ٢) يستخف بعقلها حقا....
دخل (بوند) المعبد.. ومشي بثقة بين الشموع المضاءة والأصنام، حتى وصل إلى تمثال ل (شيفا) جالسة على عرشها، الذي لو تحركت عنه لثارت الزلازل وهاجت البراكين..
مد (برند) إصبعه إلى القلادة التي علي جيد التمثال.. وشرع يضغط الأحجار الكريمة بترتيب معين.. ثم توقف محاولا أن يتذكر..
أخرج ورقة من جيبه وأعاد قراءتها:
- ياقوت - زمرد - ياقوت - زبرجد. ثم ياقوت - ياقوت.. كدت أنسى!..
وعاد يضغط الأحجار الكريمة (الشفرة) بذات الترتيب
وعلى الفور - ما إن ضغط على الياقوت – حتى مادت الأرض تحت قدميها.. ووجدت (عبير) نفسها تهوى صارخة إلى أسفل ومعها (بوند)..
وحين استردت أنفاسها أخيرا، وجدت أنها غارقة في بركة - أو حوض سباحة - وقد ابتلت حتى النخاع بالماء البارد.. تذكرت ذلك الكتكوت الذي سقط في وعاء شرب الدجاج فوق سطح دارهم في دنيا الواقع.. لم يكن أسوأ حالا منها.
صعدت إلى خارج الماء وهي تسعل وتبصق الماء.. في حين تبعها (بوند) وهو راض عن سير الأمور..
وجذبها من يدها لتقف معه تحت (سيشوار) عملاق متدل من السقف ينبعث منه الهواء الجاف الساخن..
- عليهم اللعنة!
قالت في حنق:
- ألم تكن هناك طريقة أكثر بساطة لتخفيف السقطة؟!
- بلى.. الشبكة أو الوسادات الهوائية.. لكن مندوب المخابرات البريطانية هنا رأى خفض التكاليف.. إن الماء أرخص من سواه!
كانا قد جفا تماما.. وإن شعرت أن خصلات شعرها تحولت إلى كتلة من (الزغب) تتطاير في كل اتجاه
وتقدمها (بوند) عبر ممر طويل أشبه بممر في مدينة الملاهي.. حبال على اليمين واليسار يتدلى

منها هنود عُراة وقد دسوا الخناجر ما بين أسنانهم واثنان يتسليان بخنق بعضهما، على حين يتسلى واحد ثالث بقذف الخناجر على فتاة تقف باسمة بمحاذاة الجدار..
- أين نحن؟
قال (برند) وهو مستمر في التقدم:
- هذا هو مركز التدريب لعمليات المخابرات.. إن ما ترينه لمكان بالغ السرية، وأرجو أن يكون مجهولا لدى ال (كي - جي - بي) ..
وهنا انقض عملاق ملتح عاري الجذع على (بوند) ملوحا بسيف عملاق، وهو يطلق صرخات مرعبة..
غمز (بوند) ل (عبير) بعينه اليسرى، ثم انتحى جانبا ليمر العملاق بجواره.. ومد طرف حذاله أمام ساق المهاجم
وسرعان ما تدحرج هذا أرضنا..
أخرج (بوند) قلمه الحير وصوبه نحو العملاق..
وقال في تشف:
- رديء يا (رامو).. رديء جدا.. والآن يمكنني بكل سهولة أن أمزق أحشاءك بسلاح (الليزر).
جلس العملاق في خزي.. ومسح لحيته وقال:
- مستر (بوند).. ما زلت سريع الاستجابة.. إن (الجنرال) ينتظرك منذ ساعتين..
- ليكن..
هرعت (عبير) تلحق ب (بوند)، بينما هو يشق طريقه بين صف من الرجال الملثمين منهمكين في خنق تماثيل - تمثال لكل واحد - بالحبال الغليظة..
قالت له وهي تلهث محاولة اللحاق بخطوته:
- إذن فهذا هو مركز قيادتكم؟
- في (الهند).. نعم.
- ولكم مركز مماثل في كل بقعة من العالم؟
- حتما.. حتى في (أنتاركتيكا)..
- أجدها فكرة حمقاء.. ألم تجدوا مكانا أقل ازدحاما وإثارة للريبة من هذا المعبد؟
- كلما كان المكان غير صالح للعمل السري، كلما كان أفضل للعمل السري!.. إن قاعدتنا في (الاتحاد السوفييتي) تقع في (الكرملين) تحت غرفة نوم
(بريجنيف) مباشرة... وفي (كوبا) توجد قاعدتنا فوق دورة مياه (كاسترو).. إن الرجل يعاني من إمساك مزمن وهذا يقلل فرص اكتشافه أمرنا!
قالت وهي تلتقط أنفاسها بعد لأي:
- قال العملاق إن الجنرال ينتظرك.. هه هه.. منذ ساعتين.. هه هه.. هل هو يعلم أنك هنا؟
- حتما.. إن الجنرال (بلوفيلد) ينتظرني دوما وفي كل مكان من العالم..
وفجأة صرخ:
- انحني!!
فارتمت أرضنا جواره، لتسمع صوت صفير.. ثم انفجار مدو شعرت بحرارته تلفح وجهها.. وحين رفعت عينيها وجدت جزءا من الممر وقد تلاشى.. تحول إلى رماد يتصاعد الدخان منه..
ومن بعيد أقبل رجل هندي يحمل مدفعا على كتفه.. وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة مريعة.. قال (بوند)

وهو ينهض:
- عمت مساء يا (كريم).. طلقة غير صائبة
قال الرجل في شيء من حياء:
- أردت أن أمازحك يا مستر (بوند).. فأصيب لفافة التبغ في فمك دون أن أوذيك!
- ليس بالبازوكا يا (كريم).. إنها تكون دعابة ثقيلة نوعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجنرال (بلوفيلد) جالسا في مكتبه، على حين تتناثر على الجدران الخرائط الحربية التي غرست بها الدبابيس الحمراء والخضراء، وكانت هناك سكرتيرة شمطاء جالسة تدك شيئا ما على آلة اختزال.. في حين كان هناك ثلاثة رجال منهمكين في إجراء الاتصالات الهاتفية.
صاحت السكرتيرة في مرح وأصابعها مستمرة:
- مستر (بوند)!.. يا لها من مفاجأة!...
وقالت ل (عبير) باكتئاب:
- لا تصدقيه في حرف يا صغيرة.. لقد وعدني بالزواج منذ كنت في سنك، وحتى اللحظة لم يفِ بما وعد قال (بوند) وهو ينزع سترته، ويلقيها على مكتب السكرتيرة:
- إنني ضعيف الذاكرة يا عزيزتي (هيلين).. بالمناسبة.. أرجو أن تعيدي تثبيت أزرار هذه السترة قد استعملت زر (الثعابين) وزر (النيتروجلسرين) اليوم.. واستعملت كذلك كعب الحذاء قاذف السهام..
قال الجنرال وهو يصف أوراقه ويرتدي عويناته:
- إذن كان أول يوم لك في (الهند) صاخبا يا (بوند)؟
- هو كذلك يا سيدي.. لقد وجدت (موهاندا) قتيلا.. وسرقوا الميكروفيلم من (ناتاليا).. لكننا تبينّا بضع كلمات من فم (موهاندا) المحتضر: (كندا).. المفاعل.. (أونتاريو)..، ولعمري هذا هو ديدن المحتضرين السخيف.. يكتفون بالمبتدأ دون الخبر..
- على الأقل الخيط يبدأ في (كندا)..
ثم عقد أنامله تحت ذقنه متسائلا:
- متى سترحل إذن؟
قال (بوند) وهو يمشط شعره بخنجر وجده على مكتب الجنرال:
- غدا.. فأنا بحاجة إلى الراحة وبعض (الفودكا) مع الصودا، تم هزها ولم يتم خلطها
- (بوند)!
قالها الجنرال محذرا، وضرب المكتب بقبضته:
- هل تريد أن أعطى العملية إلى (٠٠٨) أو (٠٠٩) أو (046)؟..
إنهم جميعا في الصف ينتظرون.. دعك من العميل (345674289) الذي ينتظر فشلك في شغف..
- لا يا جنرال.. سأذهب الآن.. حفظ الله جلالة الملكة.
ثم أشار ل (عبير) في إحباط كي تتبعه إلى الخارج، سأله الجنرال بينما هما في طريقهما للرحيل:
- من هي هذه الآنسة يا (بوند)؟
قال (بوند) في لامبالاة وهو يرتدي سترته برغم احتجاج السكرتيرة:
- إنها جاسوسة روسية.

- إذن لماذا لا تقتلها؟!
هز (بوند) رأسه في إنهاك.. وقال:
- لا أستطيع.. لا يوجد نساء في هذه المغامرة سواها و (بوند) لا يستطيع العمل دون امرأة مذعورة تحتمي به، وتزيد متاعبه..
- لا بأس.. ولكن كن حذرا.
وهنا دق جرس الهاتف.. فرفع الجنرال السماعة الحمراء، وطفق يصغى بعض الوقت وقد أشار بيده إلى (بوند) ألا ينصرف.. بدأت علامات القلق ترتسم على وجهه.. وكانت المحادثة بليغة حقا:
- همم.. هم؟.. ههم.. هم م م م!.. هم؟ هم م م م؟ هم!
ووضع السماعة.. ثم رفع عينين خطرتين إلى (بوند).. عينين أدركتا أن الأمر لا عبث فيه.. وقال بلهجة مسرحية:
- كان هذا هو الرئيس الأمريكي ذاته!
- (كلينتون)؟
- بل (نيكسون) يا أحمق.. لا تنس أن أحداث القصة تقع في السبعينات.. إن (نيكسون) قلق لأن الأسطول السادس فقد حاملتي الطائرات (ساراتوجا) و(إنتربرايس) وبنفس الأسلوب.. فجأة طارت حاملتا الطائرات في السماء، وطاردتهما المقاتلات (الفانتوم).. لكن محركاتها توقفت عن العمل.. كان ذلك في بقعة ما من المحيط الهادي.. ويقال إن الطائرات الست قد سقطت فوق (الهن. ٠٠٠٠٠٠).
ودوى الانفجار المروع.. وسمع الرجال صراخا آتيا من الخارج.. ثم اقتحم الغرفة رجل هندي يصرخ في هستيريا، والدخان يتصاعد من شعره:
- لقد سقطت ست طائرات (فانتوم) فرق مركز القيادة!
قال الجنرال وهو يشعل غليونه دون أن يحرك ساكنا:
- أوف!.. يا له من حظ سيئ..، هكذا ترى يا (بوند) أن مهمتك حساسة إلى حد غير عادي..
هناك من يحسب حاملات طائراتنا سيارات يسرقها ويبيعها.. أو
يسرقها ويفككها.. أو يسرقها ليتنزه بها..
وأشار بقوة إلى (بوند):
- الآن يا (برند).. اذهب واقبض عليه!!



∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الموت للإصبع..

في تمام الثامنة مساء بتوقيت (بومباي)، والواحدة فجرا بتوقيت (كوالا لامبور)، ومنتصف النهار بتوقيت (نيويورك)... أو أي توقيت يخطر ببالك.. لأن هذه (فانتازيا)..، ظهر على شاشات التليفزيون في أرجاء الكون ذلك الوجه القبيح المميز للإصبع الذهبي..

- لقد اكتمل انتصاري..

أصيب الناس بالهلع.. خاصة وأن كلام الرجل كان مترجما إلى العربية والإسبانية والروسية والبنغالية و.. و..

- هنا الإصبع الذهبي الذي سيطر على كل الأقمار الصناعية يخاطبكم.. إلى كل حكومات العالم.. إن ألف قذيفة نووية موجهة الآن إلى ألف مدينة هامة في العالم..

كانت (عبير) تشاهد هذا على شاشة (التليفزيون) في ذلك الفندق في (أونتاريو)، وقد جلس جوارها (بوند)، يحسو (الفودكا) بالصودا التي تم هزها ولم يتم تقليبها.. ويغمز بعينه لموظفة الاستقبال بالفندق التي راحت تختلس إليه النظر..

هتفت (عبير) في هلع:

- يا للهول!.. ماذا ستفعل؟

- صبرا يا ملاكي.. إنها - لعمري - التيمة الأبدية لقصصي.. الثري المجنون الذي يسيطر على العالم، ويرغمه على الاختيار بين الدفع أو التدمير.. لابد أنه يهدد باستعمال (س - 14)..

كانت تعرف الاستمارة (س - 14) بحكم دراستها التجارية.. فتساءلت:

- تعني استمارة (الوكلاء الوحيدون) التجارية؟

نظر لها في غيظ.. وغمغم:

- إن (س - 14) هو دائما قنبلة هيدروجينية، أو صاروخ نووي، أو فيروس جديد مرعب.. المهم أن اسمه دائما (س = 14)!

ولكن لنر ما يقول هذا المعتوه..

كان الإصبع الذهبي يواصل ثرثرته على الشاشة:

-... دون تردد.. ويمكن للحكومات أن تحول دون ذلك لو أنها أرسلت إلى الفضاء قمرا صناعيا به 126 مليار دولار.. أوراقا جديدة غير معلمة.. وذلك خلال 48 ساعة من الآن..!

ثم ابتسم في رقة.. وهتف وهو يشعل سيجارا:

- هنا الإصبع الذهبي يحييكم من مكان ما في هذا الكوكب!

وانتهى الإرسال الطفيلي ليعود الإرسال الأصلي..

وفي قاعة الفندق راح الناس يتبادلون صرخات الهلع.. وأخشى على بعض النسوة.. وأصابت إحداهن آلام الوضع، على حين أخرج أحد المتحمسين مسدسا من جيبه وأفرغ في رأسه أربع طلقات.. خر على إثرها يتضرج في دمائه..

أربع طلقات... هتف (بوند) في إعجاب وهو يشعل لفافة تبغ:

- هذا جديد.. في العادة يموت المنتحر بعد الطلقة الأولى.. هذا هو التجديد الحق!

ثم اكتسي وجهه بعالم الجدية.. وقال للفتاة هامسا:

- هل لاحظت الخلفية وراء الإصبع الذهبي؟.. توجد لوحة على الجدار ل (ديجا).. هذه اللوحة لا توجد إلا في مكانين بالعالم: (سيبريا) و (زيمبابوي).. كانت هناك لوحة ثالثة عند دكتور (نو)

لكنه احترق بها.. والآن هل لاحظت المدفأة الموجودة جواره؟ هذا يعني أنه لا يمكن أن يكون في (زيمبابوي).. إنه في (سيبريا)..
- أنت عبقري!
- هذا ليس جديدا.. ثم.. هذا السيجار الذي أشعله لا يوجد هذا النوع من السيجار إلا في (أومسك)..
إذن هو في (أومسك) ب (سيبريا) دون جدال..
قالت له مرتابة:
- لكن الهندي (موهاندا) قال لنا لفظة (أونتاريو).
حك ذقنه في إنهاك، وجرع جرعة من الكأس:
- هذا حق.. لا يمكن أن يكون (موهاندا) قد كذب علينا.. إن (شكسبير) يقول: اصغوا لكلمات المحتضرين.. لأنه حين تغدو الكلمات قليلة يندر أن تقال بلا جدوى
ثم وضع ساقا على ساق، وأردف:
- لكن استنتاجاتي لا تخطئ.. من يدري.. ربما تعمد (الإصبع الذهبي) أن يضع في كادر الصورة ما يوحي بأنه في (أومسك) بينما هو في (كندا)؟
كان يعرف أن أجهزة الاستخبارات ستمسح العالم بحثا عنه، وستعيد تأمل كل سنتيمتر في اللقطة التي يتكلم فيها.. ربما.. لكن هذا يضعنا في مفترق طرق، وعلينا أن نختار..
ثم إنه تثاب، ودعا (عبير) إلى أن تصعد إلى حجرتها لتنال قسطا من النوم.. فإن غدا ليوم شاق..
هزت رأسها أن نعم.. وصعدت الدرج..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن دخلت حجرتها حتى أحست بأن هناك شخصا ما بالداخل.. هذا واضح..
هناك من عبث بحشية الفراش، وفتح الدولاب وأخرج أدراج الكومود من مكانها.. إنه - والحق يقال - باحث أخرق..
كادت تغادر الغرفة لولا أنها وجدت من يقف جوار الباب قاطعا الطريق عليها..
رجل ناحل الجسد.. أصلع الرأس.. له عينان زرقاوان سامتان.. وفي فمه لقافة تبغ موضوعة في ميسم ذهبي، وكان أنيقا إلى حد الأنوثة..
أما الأهم من هذا كله فهو أنه كان يحمل عصا أبنوسية مزدانة بالنقوش والزخارف، وقد انتزع طرفها، فبدا لها نصل مدبب يلتمع في ضوء الغرفة الخافت..
صاحت في هلع:
- جنرال (تازييف)!
قالتها وشعرت بدهشة
هي لم تره من قبل ولا تعرف اسمه.. لكن (دي - جي - ٢) جعلها تعرفه منذ زمن.. وهذا منطقي لأن العميلة الروسية (ناتاليا) تعرن جنرال (تازييف).. وتتحاشاه.. وترهبه كالموت ذاته.
- تحية أيها الرفيقة (أولجانوفا)!
قالها بلهجة إنجليزية ركيكة
وتساءلت عن سبب ذلك.. هو روسي وهي روسية ولا أحد سواهما هنا.. من المفروض أن يتحدثا الروسية، ثم تذكرت أن الإنجليزية الركيكة هي لغة الحوار الرسمية بين الروس في قصص (جيمس بوند).. وحتى في اجتماعاتهم الخاصة

قالت بلهجة مماثلة:
- كـ.. كيف عرفت أنني هنا؟
ابتسم ابتسامة مقيتة.. وهو يشعل لفافة تبغه:
- إن رجال المخابرات يعلمون - أو يجب أن يعلموا- أشياء كثيرة.. خاصة ما يتعلق بأعداء الحزب..
قالها وهو يتقدم منها ببطء:
- حلفاء الإمبريالية..
قالها وهي تتراجع بظهرها للوراء:
- الذين يقضون الوقت مع عميل بريطاني
حاولت أن تثبت مكانها.. وبحنق قالت:
- أنت تعرف من هو عدو الحزب الحقيقي.. تعرف من هو سارق الميكروفيلم.. ومن أراد أن يسلمه للإصبع الذهبي..
ضحك (تازييف) في استمتاع، وغمغم:
- يا صغيرة.. أنا لست مبتدئا..
وفرد كفه ليعد على أصابعها:
- لقد عملت في (الكي - جي – بي).. وصرت عميلا مزدوجا مما سهل لى العمل في (السافاك).. ثم (الموساد).. ثم (المكتب الثاني).. ثم (سي آي إيه) و (إف بي آي)..، دعك من تعاوني القذر مع (الجشتابو) في زمن الحرب ([4])..
وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه في شهقة طويلة.. ثم أضاف:
- وهذا يعني أنه لا أحد يخدع (هارون تازييف) ويظل حيا ([5])..
ثم أشار إلى صدره بفخر:
- إنني لوغد منحل بلا خلاق.. إنني أشر الناس طرا.. إنني أملك كل مثالب ذئب مسعور دون فضائله..
ثم في ملل:
- والان.. إلى بهذا الميكروفيلم!
ولوح بالنصل في وجهها.. فصاحت وقد احتبس الكلام:
- لكن.. لكنهم سرقوه.. في (الهند).. صدقني.
وفتحت فاها عن آخره ليلقي نظرة للداخل:
- هل ترى؟.. انتزعوا كل حشو أسناني بحثا عنه.
مشى (تازييف) في تؤدة إلى وسط الغرفة، وعيناه لا تفارقان (عبير).. وداعب طرف الملاءة بالنصل الذي في يده.. كان يفكر في أشياء عديدة في اللحظة ذاتها.
ثم إنه رفع عينيه نحو (عبير) وقال بسأم:
- هل رأيت في حياتك عملية تنخيع ضفدعة؟
- جلوب !..لا..!
- حسن.. إنهم يغرسون إبرة التشريح في مؤخرة العنق عندئذ تتشنج الضفدعة وتتصلب أطرافها.. ثم تفرغ مثانتها، وتموت..
- لـ.. لماذا تحكي لي ذلك؟
- إنني أتساءل عن شعور الآدمي الذي يخوض تجربة كهذه!

- الميكروفيلم ليس معي..
قالتها بصوت مبحوح، والبكاء على الباب ينتظر من يسمح له بالخروج.. هكذا الجنرالات السوفييت في هذا النوع من القصص.. كلهم مرضى نفسيون.. مولعون بالسادية والتعذيب.. معقدون إلى حد مروع، في الغالب، لأن الجماهير متعطشة إلى قراءة أشياء كهذه ربما على سبيل الدعاية ضد المعسكر الأحمر..
هتفت (عبير) والعبرات تغزر عينيها:
- هل لك أن تقول لى.. إذا كنتم أنتم من سرق الميكروفيلم فكيف تسألني عنه؟!
- أنا من يسأل هذا السؤال.. لو كانوا قد سرقوا الميكروفيلم منك لكنت أنا أول من يعلم..
ثم لوح بالنصل معلنا أن صبره نفد.. ما زال مطلوبا منه قتل خمسة آخرين قبل أن يذهب لينام.. وغدا يوم آخر..
قالت له:
- أنت لن تنجو بفعلتك هذه في المخابرات..
مط شفتيه في اشمئزاز.. وغمغم:
- ولم؟ أنت تعملين مع البريطانيين، ولهذا سرقت الميكروفيلم مني.. لحقت بك.. وصفيتك جسديا إنني لجدير بوسام مكافأة لي على هذا الحماس..
وهنا قررت (عبير) أن تفر.. لكن الوغد مد يده ليقبض على شعرها الأشقر - شعر (ناتاليا) - ويرغمها على الركوع أرضا.. ثم شرع يعتصر خصلات الشعر يلفها حول قبضته، وهو يضغط على أسنانه باستمرار..

صرخت (عبير) مرارا دون جدوى.. لا أحد يسمع..
وقال لها (تازييف) وهو يواصل اعتصار شعرها بغلّ:

- لا جدوى.. لقد قمت باستئجار غرفتين فوق غرفتك.. وغرفتين تحتها.. وغرفتين على يمينها. وغرفتين على يسارها..... ثمان غرف كاملة حتى لا يصغي أحد لمحادثتنا.. وقمت بقطع خطوط الهاتف وجرس الخدمة والتلكس والفاكس والتليفزيون وقتلت الساقي وخادمة الغرف والحمالين..
ثم غمغم والفخر يكاد يعصف به:
- إنني لرجل أؤدي واجبي كما ينبغي..
ثم - في مرح - رفع خصلات الشعر عن مؤخرة عنقها:
- الان نبدأ تجربة التنخيع..!
- لا!
- بل نعم..
- لا..
- بل نعم..
وشعرت (عبير) بالنصل ينغرس في أعلى قذالها يجب أن تفعل شيئا.. إنها لم تنس كلمات (شريف):
لو أنها قضت تحبها في (فانتازيا) لماتت كذلك في دنيا الواقع..
وخطر لها هنا أن (ناتاليا أولجانوفا) عميلة (كي - جي - بي) مستحيل أن تكون بلهاء معدومة الحيلة إلى هذا الحد.. تكتفي بالهلع والصراخ.. لابد وأنها تعرف كيف تدافع عن نفسها..
رفعت قدمها إلى أعلى فوجدتها تطاوعها بخفة واندفاع غريبين.. وفي اللحظة التالية هشم كعب حذائها أنف (تازييف)..
أطلق سبة روسية بذيئة.. وقال وهو يتحسس أنفه:
- هأنتذي تلعبين بقذارة!. لا أحب الخيانة أبدا.. أوه... بحق (اللجنة المركزية للحزب).. لقد سال الدم من أنفي!
كانت ضربة بحد اليد فوق عنقه هي الخيانة الثانية.. ثم جاءت ركلة في أسفل بطنه لتكون الثالثة..
أما الخيانة العظمى فكانت ركلة - بعد الطيران في الهواء - إلى فم معدته، فخرج الهواء من فيه..
هتف وهو يترنح والدم يغطى ذقنه:
- (ناتاليا أولجانوقا)!.. لقد استحققت اللحظات التالية!
كادت تواصل الهجوم مستمتعة به.. لقد صارت سادية هي الأخرى وعدوى التوحش تنتشر سريعا، لكنها فوجئت به يعتصر بطنه في شك وألم.. ثم هتف وهو يستند إلى الجدار:
- (ناتاليا)!.. هناك دقات ساعة في أمعائي!
- تراك ابتلعت ساعة؟
- بالطبع لا.. لكن..
ثم هتف ضاربا جبهته بيده:
- الأوغاد!.. الإصبع الذهبي قرر التخلص مني.
لهذا لم يخبروني أنهم استردوا الميكروفيلم منك..، إن في بطني الآن قنبلة زمنية!
- وكيف؟.. كيف وضعوها هناك؟
- لابد أنهم دسوها لي في كبسولات الفيتامين التي أتعاطاها ليلا.. هذه الكبسولة بالذات كانت ضخمة وخيل لي أن شيئا يدق بها.. لكني - برغم ذلك - ابتلعتها.. يا للهول!.. إنني لرجل ميت!

ثم رفع يده محييا في هستيريا:
- تحياتي إلى الرفيق (كالينوف) والرفيق (سيرجي سيمانوف) والرفيق (ميكائلوف) وكل أعضاء المخابرات.. وتحياتي إلى أمي التي أرادت أن أكون راقص باليه في (البولشوي)..
- ومتي تنفجر هذه القتيلة.. ربما ما زال الوقت مبكرا؟
- ربما تنفجر بعد ساعات.. وربما تتفجر الآ...
وتناثرت شظايا الانفجار في أرجاء الحجرة، قبل أن يكمل حرق (النون) في لفظة (الآن).......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الرنجة الحمراء..

اقتحم (بوند) الحجرة ليجد (عبير) واقفة تتأمل الرفات في بلاهة.. كانت أجزاء الجنرال تلطخ كل شيء في الحجرة، والدخان الأسود الكثيف يجعل الرؤية متعذرة.. لكنها كانت تعرف - بوضوح تام – اسم كل جزء تراه، وأين كان بالضبط في الجنرال الفقيد..
سعل (بوند) مرارا، ثم سألها:
- كح كح!.. هل كنت تدخنين سرا؟!
لم تجب لأن الكلام احتبس في حلقها.. لو فتحت فاها لتتكلم لخرجت صرخة وحشية مروعة كفيلة بإيقاظ الموتى..
لكن (بوند) لم يحتج تفسيرات أكثر.. لقد فهم كل شيء دون عناء..
قال لها وهو يمد يده في الرماد ليلتقط مبسم الجنرال الذهبي:
- كان هذا (تازييف).. أليس كذلك؟.. وأظن أن (الإصبع الذهبي) قرر التخلص منه حين لم يعد ذا نفع له.. وعلى كل.. أنا مسرور لأنه لم يؤذك.. أنت الآن تعرفين - مثلما أعرف - أن (تازييف) يجيد التنخيع.
إنه واحد من ثلاثة في العالم هم أساتذة هذا الفن أعني أنه كان واحدا منهم والتقط حذاء محترقا من الأرض، وقربه من لفافة تبغه ليشعلها.. ثم طوح الحذاء بعيدا ودس يديه في جيبي سترته، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا..



ثم إنه قال لها بعد تفكير:

- أعتقد أننا سنلجأ لأسلوب ال (رد هرينج) الإنجليزي العتيق..

أخيرا وجدت صوتها.. فتساءلت:
- (رد هرينج)؟
- نعم.. (الرنجة الحمراء) التي يلقونها في طريق كلاب الصيد لتضليلها.. سنكون أنا وأنت الرنجة الحمراء التي لن يجرؤ (الإصبع الذهبي) على رفضها..
- ماذا تعني بالضبط؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت سيارة (بوند) تشق أمواج المحيط وخلف عجلة القيادة جلس (بوند) مستمتعا يدندن أحد ألحان البحرية الإنجليزية.. في حين جلست (عبير) مكتئبة جواره ترمق الأمواج التي تشقها السيارة إلى نصفين.. وتتوقع الشر..
- ما رأيك في (م- ١٨)؟.. سيارتي البرمائية؟ إن ضغطة واحدة على الزر كافية لأن تختفي العجلات داخل جسم السيارة وتبرز محركات هيدروليكية.. والجديد هنا هو أن سرعة السيارة ثابتة.. أي أنها أسرع من أسرع مركبة بحرية عرفها الناس..
نظرت إلى لوحة القيادة.. فوجدت أن عداد السرعة قد استحال إلى بوصلة ملاحية، بينما غدت عجلة القيادة أشبه بالعجلة الخاصة بالسفن..
معا يشقان طريقهما عبر أموج المحيط قاصدين حاملة الطائرات الأمريكية (كونستيتيوشن) التي تمخر في هذه اللحظة مياه المحيط الأطلنطي، قرب سواحل (كندا)..
كانت هناك أسراب من طائرات (الفانتوم) تحلق فوق رأسيهما من حين لآخر.. وهذا يعني أنها يقتربان..
- (الفانتوم) هي نورس الأسطول السادس..
قال لها (بوند):
- وحين ترين طائرات (فانتوم) تعرفين أن هناك حاملة طائرات، قريبة، مثلما يعرفك النورس أن الأرض دانية.
ووراء السيارة - التي تحولت إلى يخت - شرع سربا من الدرافيل يتواثب هنا وهناك..، و(عبير) لم تعد تعرف ما تشعر به.. من فرط انبهار عصف بأحاسيسها..
بصعوبة تصدق أنها حقا هنا.. وسط كل هذا السحر..
أخرج (بوند) جهازا دقيقا يشبه (الراديو)، وشرع يدير أزراره في براعة.. وهنا رأت (عبير) الدرافيل تكون بأجسادها تشكيلات غير عادية.. مرة ترسم شكل النجمة.. ومرة تؤدي نوعا من باليه الماء.. ومرة تقف جميعا على ذيولها
قال (بوند) وهل يغلق الجهاز:
- هذا هو (ت - ١٧).. الذي يخاطب الدرافيل بلغتها غير المسموعة لآذاننا.. من ثم يرغمها على أداء تشكيلات نختارها نحن..
قالت (عبير) وهي تدلى أصابعها في الماء:
- هل كل اختراعاتكم عبارة عن حرف لا معنى لها ورقم سخيف؟.. منذ بدأت هذه القصة وأنا أسمع (ت - ١٧) و (د - ٢٠) و (س - 14)..
- هذا هو البروتوكول..
وفجأة فارت المياه..
ورأت (عبير) شيئا عملاقا يخرج منها قاصدا أناملها التي تدلت في الماء.. وفي اللحظة التالية رأت

رأس سمكة قرش عملاقة يخرج من بين الأمواج مكشرا عن أنيابه.. ثم يهبط إلى البحر ثانية وسط الرذاذ الذي تطاير في كل صوب..
نظرت نحو (بوند) وقد عقد الرعب لسانها..
قال وهو يرسم ابتسامة اعتذار على شفتيه:
- أرى أننا أخطأنا.. دخلنا نطاق قصص (بيتر بنشلي) البحرية.. هذا هو القرش الأبيض العظيم في قصة (الفك المفترس)، يبدو أن (كوينت) و (هوبر) يطاردانه الآن..، ما كان يجب أن أدخل هذا القطاع.. فاغفري لي رعونتي..
- لا عليك.. أنا نفسي أحب هذا الجو.. وأعتقد أنني سأختاره يوما ما..
وعاد الصمت الذي لا يقطعه سوى صوت ارتطام الموج.. ومن بعيد لاح لهما الهيكل المهيب لحاملة الطائرات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على متن الحاملة استقبلهما (الميجور جنرال) (لى هارفي أندرسون)، وهو نموذج رائع للعسكري الأمريكي كما تراه (عبير) في السينما.. نحيل ممشوق القوام حاد النظرات.. يبدو الشعر الأشيب الملتصق بجمجمته على جانبي رأسه تحت (الكاسكيت)..
قال وهو يصافح (بوند) بيد ككلابات الحديد:
- (بوند) مستر (جيمس بوند).. سمعت عنك الكثير..
ثم غمغم من بين أسنانه:
- أعرف أنك جئت لمساعدتنا في الإيقاع بابن ال (....) هذا.. لكن دعني أؤكد لك يا مستر (بوند) أننا في غير حاجة لتدخل البريطانيين - أولاد ال (.....) - في عملنا.. ماذا يعرف عميل بريطاني عن حاملات الطائرات؟.. أعتقد يا مستر (بوند) أنك تضيع وقتك، ولو لم تكن عندي أوامر صريحة من (البنتاجون) كي أرحب بك لسرني بكل تأكيد أن ألقي بك في البحر مع زميلتك الحسناء!
ابتسم (بوند) ورد التحية بألعن منها:
- سيدي.. حين كان أسطول (بريطانيا) يمخر عباب البحر، ويحكم العالم.. كان أجدادك يرقصون حول النيران حاملين الرماح.. وعلى كل حال نحن لم نأت هنا لمناقشة أينا أسوأ من الآخر.. بل هناك ضرورات يجب أن تكون في أولوياتنا..
ودعاهما القبطان إلى النزول في المصعد.. إلى غرفة محكمة الغلق مظلمة، لا يضيء بها سوى انعكاس الضوء المنبعث من الشاشات على الوجوه الصارمة، وعلى سلم خشبي صغير وقت ضابط شاب يحمل مؤشرا.. وقد عكف يلصق على خريطة مرسومة على لوح زجاجي قطعا صغيرة من البلاستيك وترمز إلى قطع الأسطول السادس..
هتف القبطان في الرجال دون حماس:
- هلموا يا شباب.. حيوا (بوند)!
تعالت الأصوات في حمام حقيقي هذه المرة:
- عليه اللعنة!
همس (بوند) في أذن (عبير)؛ وهو يقابل النظرات العدائية بلا مبالاة أنجلوسكسونية صميمة:
- إن العداء بين (الإنجليز) و (الأمريكان) لن ينتهي إلا يوم الدين.. نحن نراهم مجموعة من المعتوهين الأثرياء.. وهم يروننا مجموعة من ضيقي الأفق ثقيلي الظل..
- لابد أن مجيئك لمساعدتهم قد جرح كبرياءهم..

- حتما..
وهنا قطع همسهما صياح القبطان يهيب بالضابط الواقف على السلم، كي يبدأ في سرد الخطة
قال الضابط بلهجة تقريرية باردة سريعة المقاطع:
- إن السفينة حاملة الطائرات (كونستيتيوشن) تتحرك على خط عرض (كذا) وطول (كذا).. بسرعة (كذا) عقدة في الساعة.. اتجاه الريح (كذا)..
والجديد هنا هو أن (كونستيتيوشن) تلتزم سياسة (ثرثرة لاسلكية) تامة..
في حيرة تساءلت (عبير):
- تعني صمتا لاسلكيا؟
- بل ثرثرة لاسلكية.. نحن نذيع اتجاهاتنا وإحداثياتنا على كل الموجات المعروفة وبعشر لغات..، بل وإن كل وكالات الإعلام قد أبلغت بمسارنا.. وكل الموانئ أخطرت به.. يمكن القول أن لا أحد على وجه البسيطة يجهل أن (كونستيتيوشن) المزودة بمحرك نووي توجد الآن قرب سواحل (كندا)..
قال (القبطان) وقد عقد كفيه خلف ظهره، وبدا عليه الرضا:
- هذا هو الطعم الذي لا يمكن مقاومته..
تساءلت (عبير) بقلق:
- وهل سيلتقطه (الإصبع الذهبي) حقا..
- لو لم يفعل لكان مخبولا.
نظر (بوند) في ساعته بقلق:
- عشر ساعات وتنتهي المهلة.. أرجو أن يسرع بالهجوم..
ومن بعيد - عبر الأفق الشرقي - رأت (عبير) سربا من طائرات (الفانتوم) يحلق فوق أمواج المحيط المتلاطمة.. كانت الشمس تدنو من الغرب لتأخذ حمامها المسائي الدائم.. لهذا بدت الطائرات مجرد نقط سوداء فوق خلفية زرقاء داكنة، ومن حين لآخر تلتمع في وجه الشمس المحتضر..
ثم دنت الطائرات، ورأت (عبير) أولها تهبط فوق حاملة الطائرات ليتصاعد دخان الاحتكاك، وهي تقطع الممر إلى نهايته.. فتتفتح المظلة المعلقة في مؤخرتها وتبطئ سرعتها حتى تقف أخيرا وبعدها تأتي الطائرة الثانية.. فالثالثة..
وحوش أسطورية مجنحة تكف عن التحليق لتستريح قليلا.
وشعرت (عبير) بالفخر.. وقشعريرة تغزو جلدها.. كل هذا العالم العملات والتجهيزات.. وكل هؤلاء الجنود.. إنما هو جزء صغير من خيالها الذي اتسع للمحيط كل ما فيه من بوارج وأسماك قرش وجبال عائمة
إنها هي من صنع هذا العالم بكل تفاصيله أليس الخيال معجزة؟.. أليس هو هبة الرحمن العظمى لنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يطل الانتظار كثيرا..
إن مهلة الإصبع الذهبي تنتهي في الخامسة صباحا وهذا يعني أن ثمانية أعشار سكان هذا الكوكب لن يروا السادسة صباحا بتوقيت (مونتريال)..
إلا أنه - في منتصف الليل - فوجئ طاقم حاملة الطائرات بشيء غير عادي..

إنهم يرتفعون الأعلى...
وغادر ركاب الحاملة قمراتهم مذعورين.. منهم من يرتدي منامته ومنهم من قام بالفانلة الداخلية، واحد فقط وهو (بوند) - غادر قمرته مرتديا ثياب السهرة وربطة العنق وقد امتشق مسدسه.. وغادرت (عبير) قمرتها وهي تحكم غلق (الروب) حول خصرها ورأت (بوند) فأصابتها الدهشة..
لا يبدو لها هذا الرجل ينام أو يرهق أو يصاب بالإسهال كما يحدث لكل خلق الله.. دائما هو متحفز متوفز.. حاد الذكاء لا يفوته شيء.. ودائما متأنق كما لو أنه في حفل زفافه الخاص..
هرعا إلى حاجز السفينة، فوجدا أن الماء يبتعد.. يبتعد.. والسماء تقترب.. تقترب..
راح البحارة يتصايحون في هلع..، وجاء القبطان من قمرته يرتدي منامة رسم عليها (ميكي ماوس)، فهو لم يجد وقتا لاستبدال ثيابه، ورآه الرجال فوقفوا انتباها متخشبين..
قال القبطان للضابط الأول في صرامة:
- سلهم ماذا يحدث هنا؟
نظر الضابط الأول للضابط الثاني.. وسأله:
- ماذا يحدث هنا؟
وتوالت الأسئلة (ماذا يحدث هنا؟) متدرجة حسب التسلسل الوظيفي للرتب.. حتى انتهى الأمر بأصغر بحار..
- ماذا يحدث هنا؟
- لا أدري!.. يبدو أن حاملة الطائرات قد فقدت وزنها!.
ومشى (بوند) جوار حاجز السفينة يرمق البحر من أسفل. كان الظلام يغمر صفحة المياه.. لكنه أمر بتسليط كشافات ال. (سبوت لايت) التي تتميز بأن ضوءها لا يتبدد مهما بعدت المسافة.. أمر بتسليطها لمسح صفحة الماء..
وعبر شعاع الضوء المتلألئ فوق الأمواج، رأى الرجال زورقا يبتعد على عجل وكأن من فيه قد قاموا بمهمتهم
- أطلقوا النيران على هذا الزورق!
وشرعت كل أنواع المدفعية تهدر فوق حاملة الطائرات، امتثالا لأوامر القبطان.. لكن الزورق كان قد ابتعد كثيرا
وهم أيضا كانوا قد ابتعدوا كثيرا
- فلتلحق به طائرات المطاردة!
لكن (بوند) أوقفه بحركة صارمة من بيده..: وقال وهو يشعل لفافة تبغ بقداحته الذهبية:
- لا داعي لذلك. لقد ابتلع (الإصبع الذهبي) سمكة (الرنجة الحمراء).. ونحن - يقينا. نعرف أننا ذاهبون إلى رأس الأفعى.. فلم نضيع وقتنا مع الذيول؟
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - القاعدة..

ها هي ذي حاملة الطائرات (كونستيتيوشن) تحلق في أجواء الفضاء..
لا داعي لأن أحدثكم عن عبثية الموقف وسخفه بالنسبة ل. (عبير).. إن كل شيء متوقع في مغامرة تبدأ بسيارة تقذف صواريخ (أرض - جو).. وحذاء نفاث.. وسيارة تسبح في الماء.. إذن ليس غريبا أن ترى حاملة طائرات تحلق الآن فوق صحراء شمال إفريقيا..
كانت الحياة معطلة تماما على ظهر الحاملة..

وبعد الثرثرة اللاسلكية بدأ (الخرس السلكي) التام..، ماتت كل أجهزة الاتصال المعقدة على متن السفينة..، وحين حاول الطيارون أن يحلقوا بطائراتهم بحثا عن نجدة أو عن هدف يقصفونه؛

وجدوا أن طائراتهم قد تحولت لقطع خردة جميلة المنظر..
لقد عُزلوا تماما عن العالم الخارجي..
لم يعودوا يرون سوى بعض رجال الطوارق يرمقونهم في دهشة من أسفل.. أو هاوي غرائب يلتقط لهم في حماس بعض الصور..، ثم إن حاملة الطائرات عبرت البحر المتوسط بسرعة غير معقولة لتحلق فوق
(أوربا).. ثم (آسيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (بوند) مستندا إلى حاجز الحاملة - إن كان لحاملات الطائرات حاجز - يتأمل البحر.. والمرتفعات في استمتاع..
ثم إنه نظر إلى (عبير) المتكئة إلى جواره.. وقال لها وقد عاد يرمق المحيط:
- (ناتاليا).. أنا مندهش..
- مم؟
- من كونك لم تقعي صريعة غرامي بعد.. أنت أول أنثى - في عالم الإنسان والحيوان - تقاوم سحر (بوند) كل هذا الوقت..
- هذا لأنني لا أثق بك البتة أي مستر (بوند)... وإنني لأعتبرك خنزيرا جميلا لا أكثر..
حدق في وجهها.. وابتسم ابتسامته الواثقة.. وغمغم:
- هل تعرفين السبب؟
- ليتك تخبرني
- لأنك لا تثقين بنفسك.. ولهذا لا تصدقين أن يعجب بك (بوند).. إذن فالاحتمال الوحيد هو أنه يعبث بك ولهذا تفضلين أن يعجب بك رجل متراخ هادئ متوسط الجاذبية.. فأنت قادرة على الثقة بهذا الأخير على الأقل.. ويمكنك أن تصدقيه.. إن عقلك يشعر بأنه لا يستحق مثلي.. لهذا يشمئز مني.. ويعتبرني وغدا!
الواقع أن في كلمات هذا الأحمق شيئا من صواب.. إن (عبير) لم تكن ممن يثقون بأنفسهم في أية لحظة من حياتها..
لكنها لم تصارحه بشيء.. وعادت ترمق الأمواج المتلاطمة...
بعد هنيهة سألته في لا مبالاة:
- إلى أين تظننا ذاهبين أيها الفيلسوف؟
نظر إلى ساعته.. وغمغم:
- بالطبع إلى (سيبريا).. لقد كان حدس صائبا فيما يتعلق بمقر الإصبع الذهبي.. ولكم أكره أن أكون على صواب طيلة الوقت، فأنا بطبعي خجول.. لكنها الحقيقة!..
- إذن (موهاندا) كان.. وكلمات المحتضرين و(شكسبير)؟
- إن (شكسبير) لم يلق (الإصبع الذهبي).. وعلى كل حال أراهن على أن (الإصبع) ضلل (موهاندا) بشكل ما.. أو أن (موهاندا) كان عميلا مزدوجا يكره أن يموت دون أن تكون آخر كلماته كذبا.. من يدري؟..
لكن لماذا نستبق الأحداث؟
ونظر إلى بعيد.. وهتف:
- إنها نهايتك أيها (الإصبع)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البرد يتزايد..
في البدء كان الأمر محتملا.. لكن مع الوقت بدأ الجليد يتكاثف على جدران وحوائط حاملة الطائرات، وشرع هواء الزفير يتحول إلى ندف من ثلج على الشوارب واللحى، وازرقت الشفاه وحلمات الأذان وأطراف الأنوف..
ولم تدرك (عبير) مدى تدهور الأحوال الجوية، إلا حين رأت خمسة رجال عاكفين على تكسير الجليد الذي غلف قبطانهم تماما.. بدءوا أولا بفتح ثغرة ليحرروا فمه.. من ثم صار بوسعهم أن يسمعوا أوامره وشتائمه.. وإبداعات لسانه السليط، وهو يوجههم إلى ما يفعلون:
- هلموا حرروا يدي يا أبناء الأبالسة!.. يا حثالة!.. يا روث الخنازير وقيء الوطاويط!!..
شرعت ترتجف.. فمد (بوند) يده ليضع علي رأسها قلنسوة من الفراء وعلى كتفيها معطفا من (الإستراخان).. ثم ناولها مشروبا ساخنا يتصاعد الدخان منه..
سألته في دهشة وهي تحتضن الكوب بكفيها:
- من أين لك بالقلنسوة والمعطف والمشروب الساخن؟
- أوه!.. إن (بوند) يجيد هذه الأشياء.. وليس بوسعك أبدا أن تعرفي من أين جاء بها..
رشفت رشفة من الكوب، وأحست بالسائل الساخن يذيب ثلج جوفها.. ثم قالت في حنان:
- وأنت؟.. ماذا ترتدي؟
- إن (بوند) معتاد على هذه الأجواء.. كنت أسبح في نهر (الفولجا) في (ديسمبر) هاربا من رجالكم..
ثم قال لها مبتسما كأنه يحدث طفلا:
- لا تنسى أنك ستكملين المغامرة بالمايوه!.. هذه هي تقاليد قصصي التي يجب أن تحترمها بطلاتي.. المشهد الأخير بالمايوه في أثناء تفجير القاعدة!
- عليك اللعنة!!
صرخت في غل.. وكادت تقذف المشروب في وجهه..
- أولا: لست من بطلاتك ولا أريد أن أكون
ثانيا: كيف بلغت بك الوقاحة أن تقول لي شيئا كهذا؟
ثالثا: لابد أنك مخبول كي تتحدث عن مايوه في (سيبريا)!
هز رأسه في إحباط.. وأشعل لفافة تبغ:
- يا للخسارة!.. كما تريدين.. لكن هذا كان سيحقق نجاحا جماهيريا عظيما.. إن هذه الأشياء تروق للشباب..
- الشباب المنحل...
- ليكن.. ولكن.. ماذا أرى؟.. هل ترين ما أراه؟!
نظرت (عبير) إلى ما يشير إليه (بوند)..
وغمغمت:
- للأسف.. أراه بوضوح تام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجبل الجليدي الذي تحلق فوقه حاملة الطائرات ينفتح ببطء شديد.. كأنه بوابة.. أو وحش أسطوري يفغر فاه ليلتهم فريسة واهنة بائسة..

وفي هذه اللحظة بدأت الحاملة تنزلق لأسفل على مراحل متتابعة قاصدة داخل هذا الفم المفتوح..
شرع البحارة يولولون ويركضون هنا وهناك.. وعمت الفوضى.. أما القبطان فدنا من (بوند) ليقول له في حسم:
- يبدو أن الحين قد حان.. إنها قاعدته..
- بالتأكيد.. جبل جليدي من البلاستيك الأبيض.. يا لها من فكرة جهنمية تصمد أمام أي مسح جوي محتمل...
والآن أيها القبطان.. أريد و (ناتاليا) أن تجدوا لنا بذلتين من ثياب البحارة.. إن اختفاء فتاة ورجل يرتدي بذلة السهرة وسط هذا الجمع الأمر عسير حقا..
وهكذا..
أسرع (بوند) و (ناتاليا) بارتداء ثياب البحارة..، وعقصت (ناتاليا) - أعني (عبير) - شعرها الأشقر تحت البيريه.. ثم إن (بوند) أخرج من جيبه شاربا أشقر كثا ألصقه فوق شفتها العليا.. لم تر داعيا لأن تسأله عن سبب حمله لشارب في جيبه..
ثم إنه أخرج أنبوب دهان كتب عليه (شعر قصير 80% - دهون 20٪)، ومسح به خديها وذقنها، فما إن جف الدهان حتى صار وجهها مليئا بشعر قصير خشن، يوحي بأن ذقنها لم تحلق منذ أسبوع..
أما (بوند) فأخرج من جيبه جرحا يلصق بأسلوب (الستيكر)، وقام بتثبيته على خده الأيسر.. ودس غليونا في فمه.. وراح يترنم بأغاني البحارة البذيئة.
- ألا ترى أنك تبالغ في التنكر نوعا؟!
- إنني متنكر كبحار يبالغ نوعا..
وفي هذه اللحظات كانت الحاملة تنحدر لأسفل إلى داخل الجبل الجليدي، الذي بدأ سقفه يلتئم ببطء مداريا أية فتحات.. ومن الدخل رأي الرجال عالما أسطوريا..
كان هناك بحر مترامي الأطراف، وملايين الكشافات التي أحالت الظلام نهارا، ومئات السقالات الفولاذية والأسلاك والمواسير الصقيلة اللامعة..
ورفع (بوند) عينيه فرأى صفوفا من الرجال يرتدون جميعا زيا موحدا، وكل منهم يحمل مدفعا غريب الشكل مصوبا إلى حاملة الطائرات وحين نظر إلى الأفق رأي عددا لا بأس به من حاملات الطائرات تقف متلاصقة، كلها في هذا المحيط الصناعي..
همست (عبير) في أذنه وهي تداعب شاربها:
- كيف، ومتى بني هذه القاعدة التي تسع كل هذه المدن العائمة؟
قال (بوند) وهو يضع عدستين ملتصقتين سوداوين على مقلتيه:
- كلهم يفعلون هذا في قصصي.. ولا أحد يتحدث أبدا عن كيفية الحصول على المعدات، والمال، والرجال لبناء مكان كهذا.. كل ما يمكن قوله هو أن المكان موجود.. وقد بناه الإصبع الذهبي داخل هذا الجبل المزيف
- ماذا يفعل بهذه الحاملات؟
أجاب وهو يقتلع ثلاثة من أسنانه إمعانا في التخفي:
لا أدري.. لكن الملاحظ أن جميعها يعمل بمحرك ذري.. ربما هو يستخدم وقودها الغرض ما...
- وكيف طرنا؟
قال وهو يضع قرطا في أذنه:

- هذا هو ما أتوق لمعرفته.. والان كفي عن الأسئلة لنرى..
أخيرا تهبط الحاملة إلى الماء، وترتفع الأمواج من حولها، على حين يردد صوت في المكبر:
- حاصروها تماما.. أريد رجالا في الجهات الأربع..
وعلى الفور راح الرجال ذوي الزي الموحد ينتشرون فوق السقالات الفولاذية موجهين مدافعهم نحو الحاملة..
- البسوا أقنعة الغاز!.
رفع كل رجل إلى أنفه قناع غاز يتدلى منه خرطوم إلى خزان على ظهره.. فبدوا كغزاة المريخ
ثم دوى الصوت من جديد:
- إلى قبطان (كونستيتيوشن).. قل لرجالك أن يستسلموا دون قيد ولا شرط، فإن هذه الأسلحة ترش (غاز السارين) السام، ولن نحتاج إلى وقت طويل قبل إبادتكم جميعا..
نظر القبطان إلى ضباطه، وفي حنق هتف:
- اسمعوا ما يقول ابن ال (.....) هذا...
من جديد دوي الصوت:
- لا بذاءات يا قبطان وإلا أثرت حنقي!
في ذهول تلفت القبطان حوله.. ثم التفت نحو (بوند):
- ل.. لقد سمعني!
- بالتأكيد هو يتابع الموقف من دائرة تليفزيونية مغلقة.. كن حذرا إذن فيما تقول وإلا سمعك ابن ال (....) هذا كما تقول!
مرة أخرى دوي الصوت:
- والآن بنظام.. ستخلون حاملة الطائرات.. لا نريد متخلفين عليها، لأننا سنقوم بتفتيشها بدقة، وسنزيل آثار من نجده بها..
ورأى (بوند) و (عبير) جسرا فولاذيا ينحدر من أعلى ليسير عليه الطاقم والبحارة، ليقودهم إلى فتحة في الجدار يحرسها رجال مدججون بالسلاح..
وبدأت المسيرة تتحرك.. عرض الطابور ثلاثة رجال في كل مرة.. أحيانا كان أحد الأسري يحتج أو يقاوم آسريه، من ثم تنهال على رأسه الضربات ب (دبشكات) البنادق.. وفي مرة أو مرتين دو صوت طلقات نارية يليها صوت جسم يسقط في الماء.. وعلى صفحته ينتشر اللون الأحمر القاني.
كان (بوند) يضغط على أسنانه في صبر..
هكذا ديدن أبطال القصص.. لا يخافون ولكن (يغضبون) فقط..
أما (عبير) فلم تكن بطلة، وكانت ساقاها ترتجفان تحتها كالجيلى.. ورأت أنها إن نظرت إلى آسريها ستلفت نظرهم، وإن تحاشت النظر إليهم ستثير ريبتهم.
وهنا
- نياهاهاهاهاهاها...
دوت الضجة المروعة.. وخيل إلى (عبير) أنها سمعتها من قبل، ولكن أين؟
نقد خطر نفس الشيء ل (بوند) لأنه رفع وجهه الأعلى بحثا عن صاحب هذه الضحكة..
وكان واقفا هناك.. بلحيته المشعثة، والخنجر الذي يخترق خديه، وعمامته العالية، والنظرة المنذرة بقطع الرقاب في عينيه.. يرمقهم بها حيث وقف فوق رافدة معدنية..
كان هذا هو (راجا) سائق التاكسي المزيف!....

ارتعدت فرائص (عبير)، ونظرت نحو (بوند) مستنجدة.. لكنه همس لها في حزم:
- ثقي بتنكرنا.. أنت لم تعودي امرأة وأنا لم أعد أنا..
إنه يحتاج إلى فراسة غير عادية كي...
وهنا دوى صوت (راجا) الغليظ قادما من عل:
- هاتوا لى هذا الرجل حالا!
في اللحظة التالية رآه (بوند) يشير باتجاه (عبير)..
لكنه لم يكن واثقا تماما من ذلك.. فأشار إلى نفسه:
- هل تعنيني أنا؟!
- لا... أيها الأحمق.. هذا الرجل.. هذا!
أشار رجل آخر إلى نفسه:
- انا؟
- لا...
- إذن أنا؟
- لا..
ثم إن (راجا) صاح وقد نفد صبره:
- شآتي به أنا من أذنيه.. وشأطيل لقَبَتَه بشيفي!
ووثب كالقرد متعلقا بالشقالات - معذرة أعني السقالات - حتى وصل إلى الجسر حيث وقف (بوند) و (عبير)..
وامتشق سيفه العملاق المرعب ورفعه في الهواء، وباليد الأخرى أمسك بتلابيب (عبير) صائحا:
- «إنه أنت ولا أحد شواك.. أنت يا حُمال!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- دقائق..

لم تكن (عبير) قد فقدت بصيرتها تماما.. فما دام هذا البولدوزر يخاطبها بصيغة المذكر؛ فمن المؤكد أنه لم يكشف سرها بعد.. لهذا تظاهرت بالغباء وأظهرت الرعب..، راحت تتطوح يمينا ويسارا مع ذراعه القوية قاتلة بصوت رجولي:
- ماذا هناك يا رجل؟.. أنا لم آت شرا..
لو أنه أطار البيريه من فوق رأسها لانكشف كل شيء.
قال (راجا) وهو يضغط على أسنانه:
- لماذا تنظر لي بهذا الفضول يا رجل.. إنني إنشان خجول!.. النظرات تشير ارتباكي..
ثم لوح بالسيف.. وهتف:
- إنني لرجل مرهف الحش!
وهنا حاولت (عبير) التملص.. فطار (البيريه) من فوق شعرها الأشقر..، وفي اللحظة التالية كان (راجا) قد مد يده لينتزع الشارب ويرمقها في ذهول..
- إذن فأنت..؟
ثم نقل عينية المتوحشتين نحو (بوند).. وهتف:
- وإذن.. فأنت..؟
انتزع (بوند) أثر الجرح من خده... وهز رأسه محييا:
- (بوند).. (جيمس بوند) في خدمتك يا صديقي!
إلى الخلف تراجع الرجل.. تراجع.. وصاح في الرجال المحيطين به:
- احملوهما إلى الرئيش.. إنه شيلتهمهما طازجين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبر أروقة هذا الوكر السري مشوا محاطين بالحراس..
كانت هناك دهاليز عديدة، وأبواب تفتح بالبصمات الحرارية، وكاميرات تليفزيونية للمراقبة، ومصاعد.. وما إلى ذلك من هذا الهراء الذي يملا مخ (عبير)..
قالت وهي تتأمل الحراس بزيهم الأزرق الموحد، وخوذاتهم، وأحذيتهم المطاطية، ورمز الإصبع الذهبي على صدورهم:
- من أين يجيء هؤلاء؟ وكيف يتم تنظيمهم بهذا الأسلوب الذي يفوق نظام أكفأ الجيوش؟ هل لهم أمير؟ ومتى يحصلون على إجازاتهم؟
قال (بوند) وهو يمشط شعره بمشط صغير، ماشيا جوارها:
لا تسألي عنهم.. فهم في كل قصصي.. تشعرين أنهم ولدوا في هذا المكان.. وكلهم بلا مشاعر ولا عواطف... على كل حال توجد قاعدة هامة.. كلما ارتدي رجال العصابة زيا موحدا مطاطيا كلما كان القضاء عليهم أسهل كقتل البعوض..
ثم نظر إلى ساعته في سأم..
- يجب إنهاء هذه القصة ونسف القاعدة سريعا.. إن لدي مهام أخرى في (ميامي)..
- كم بقي من وقت على المهلة؟
- ساعتان.. لا أكثر..

وهنا انفتح أمامها باب في الجدار.. وقادها الحراس إلى قاعة ذهبية الجدران يتوسطها تمثال عملاق لإصبع مذهب يشير إلى السقف.. في كبرياء..
وكانت هناك بركة صغيرة تحيط بالإصبع المذهب تسبح بها زعانف سوداء مدببة الأسماك قرش.. تلك الزعانف المثلثة التي ارتبطت بالرعب في الأذهان، وكانت المياه نفسها حمراء اللون تغلي ويتصاعد منها الدخان..
قال (بوند) وهو يشعل لفافة تبغ:
- (ماجما) وحمم!.. إن هذا الرجل لا يمزح.
- وكيف تظل أسماك القرش حية تسبح في الحمم؟!
نظر لها (بوند) هنيهة.. ثم نفث الدخان وقال:
- فاتني هذا.. هو خطا من المؤلف دون شك.. لكنه ليس خطأ فادحا.. وفي الأغلب لن يلاحظ القراء هذا..
في ركن القاعة توجد مائدة عملاقة.. وعلى الجدار خريطة هائلة الحجم للعالم.. بينما جلس عند طرف المائدة رجل ضئيل الحجم، قصير شعر الرأس.. أقرب إلى الطفولة في ملامحه.. وخلفه رأت (عبير) لوحة (ديجا) إياها.. والمدفأة..
كان هذا هو الإصبع الذهبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لفترة لا بأس بها راح الرجلان يسترجعان – في حنين - ذكرياتهما المشتركة.. كيف منع (بوند) خصمه من الغش في لعب الورق عن طريق سماع رسالة لاسلكية تصف أوراق خصمه.. وكيف كاد الإصبع يشطر (بوند) بأشعة (الليزر).. وكيف غرق الإصبع في الذهب المصهر.. وكيف.. وكيف.
حتى أوشكت (عبير) أن تصاب بجنون هستيري..
وهنا قال (برند) لخصمه وهو يجلس إلى المائدة:
- لقد كانت أياما مجيدة أيها الإصبع!
قال الإصبع وهو يضغط على زر ليخرج له بار صغير من الجدار:
- إن كل أيامي مجيدة يا مستر (بوند).. ماذا تشرب؟ فودكا بالصودا.. تم هزها ولم تخلط..
آه.. نسيت.. وماذا تشرب عميلتنا السوفييتية الحسناء؟
ضحكت (عبير) في رقة:
- عصير (مانجو) لو سمحت..
قال وهو يصب المشروبين في كأسين ذهبيتين:
- اختيار طيب.. إن (المانجو) والبرتقال لهما لون الذهب.. وأنا أعشق الذهب.. ولأنني كذلك عدت لنشاطي من أجل جمع بعض (الفكة).. الابتزاز هو مشروعي للمستقبل وللحاضر.. ووسيلتي لذلك هي التهديد باستعمال..
- (س - 14)..
قالها (بوند) في ملل..
نظر له الإصبع في ذهول.. وهتف وهو يسد الزجاجات
- كيف عرفت؟ لا أحد يعرف بأمر (س - 14)..
يبدو لي أنكم تعرفون أكثر مما ظننت..

ابتسم (بوند) في غموض.. أما (عبير) فكانت تذكر كلماته.. السلاح السري الذي يهدد العالم اسمه دوما هو (س - 14) سواء كان صاروخا نوويا أو قنبلة نيوترونية أو فيروسا..
واصل الإصبع كلامه:
- إن (س - ١4) هو نظام نووي متقدم صنعه لى علماء كثيرون من (روسيا) و (أمريكا).. وهذا النظام قادر على تفجير نصف الكرة الأرضية وتشويه نصفها الآخر خلال عشر ثوان من استعماله.. لكن كانت هناك مشكلة دائمة..
- (البلوتونيوم)
قالها (بوند) ملحًا - كالعادة - على كونه يعرف كل شيء..
في توقير رفع (الإصبع الذهبي) كأسه.. وهتف:
- هذا هو (برند) العظيم.. نعم.. (البلوتونيوم).. تلك هي المشكلة الحقيقية..، ولم تكن ثمة وسيلة للحصول عليه سوى سرقة حاملات الطائرات ذات المحركات النووية.. إن كل حاملة تضيف إلى قوتي أطنانا من (البلوتونيوم)..
مالت (عبير) على أذن (بوند) وهمست:
- هل حاملات الطائرات مصدر غني ب. (البلوتونيوم) حقا؟
همس (بوند) بدوره:
- لا عليك.. إن الدقة العلمية لم تكن قط من صفات (إيان فلمنج) حتى (هتشكوك) نفسه في أحد أفلامه جعل العصابة تهرب (اليورانيوم) في علب الطعام المحفوظ رغم علمه أن هذا مستحيل؛ لكنه من أجل التشويق تجاهل هذا عمدا..
- فيم تتهامسان يا مستر (بوند)..
تساءل الإصبع في هدوء.. فأجابه (بوند) بثقة:
- في القضاء عليك طبعا.
- إذن أحلما كما تريدان.. فلا ضريبة على الأحلام.
ثم عاد يواصل تفاخره:
- أما عن أسلوب الاختطاف فبسيط جدا.. إذ يتسلل أحد زوارقي ليلا ليلصق بجسم حاملة الطائرات جهازا كهذا..
ومد يده يريهما جهازا في حجم الراديو الترانزستور.
- وهذا الجهاز يلغي تأثير الجاذبية على حاملة الطائرات، فترتفع لأعلى.. ثم يبدأ الجهاز في إطلاق دفقات هوائية واهنة لكنها كافية لتوجيه الحاملة إلى حيث أريد أنا.. حين يفقد الجبل وزنه يمكن لطفل رضيع أن ينقله إلى أي مكان..
كادت (عبير) تصرخ.. إن المسألة (واسعة شوية)، ثم رأت أن كلا الرجلين سيطالبها بإلغاء عقلها لأنها في (فانتازيا).. لهذا آثرت الصمت...
ونظر الإصبع الذهبي إلى ساعته.. وهتف:
- لم يستجب الحمقى لأوامري.. ولم يرسلوا ال. 126 مليارا إلى الفضاء الخارجي، وهذا معناه أن الوقت قد حان لتنفيذ تهديدي..
لقد بقيت لهم عشر دقائق على كل حال، ويمكننا الاستفادة منها في التخلص من ضيوف غير مرغوب فيهم..
وأشار إلى الحراس.. ثم إلى (بوند) إشارة ذات معنى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة وجد (بوند) نفسه يتدلى معلقا بحبل..
والحبل معلق فوق النافورة إياها الملأى بأسماك القرش والحمم..

وكانت هناك آليات شديدة التعقيد تحيط به في كل مكان.. وجاء الإصبع الذهبي يشير بمؤشر إلى أجزاء هذا النظام المركب، وقد بدا عليه الطرب من موهبته الابتكارية:
- في البداية يا مستر (بوند) ستحترق هذه الشمعة عن آخرها.. وعندئذ يخف وزنها فترتفع، هكذا.. من ثم ترتفع كفة الميزان التي ثبتت عليها.. تلمس الكفة هذا الزر فينسكب الحمض على هذا الملح القلوي.. يتصاعد غاز (ثاني أكسيد الكبريت) ليملأ هذا البالون.. عندئذ يتمدد البالون ويجذب هذا الحبل.. هل تراه؟
عندئذ يجذب الحبل بدوره زناد البندقية.. تخرج من البندقية رصاصة لتضرب هذا الملف الكهربي.. بالتالي - وهذا طبيعي - تقطع الكهرباء في الدائرة ويتعطل المغناطيس الذي يرفع هذا الثقل..، ويهوي الثقل فوق زجاجة تحوي فلز (الصوديوم).. إن هذا الفلز يحترق عند ملامسة الهواء.. فما إن يحترق حتى يحرق بدوره ذيل هذا الفار الصغير.. سيثب الفأر لأعلى فتتدحرج كرة من فوق هذا المنحدر لتضرب هذا الزنبرك.. وقتها يتحرى وتر السهم.. وينطلق السهم ليمزق الحبل الذي أنت معلق به.. لتسقط في هذه البركة..
وتوقف ليلتقط أنفاسه المبهورة.. ثم أردف:
.. وتموت يا مستر (بوند)!!
تنحنح (بوند) وهو معلق كالثريا في طرف الحبل - معذرة.. هل مات كثيرون بهذا الأسلوب من قبل؟
- عشرات ماتوا به.. وإن كان أكثرهم قد ماتوا بفعل الملل أو الشيخوخة.. لكني أضفت بعض الإضافات من أجلك خصيصا..
سأله (عبير) محنقة:
- لماذا لا تطلق الرصاص عليه وينتهي الأمر؟.. إنه يفلت دائما من أساليب الموت البطيء هذه.
- لا يمكن.. إن القتل السريع فظ لا يثير الخيال لابد من التوتر.. التوتر الذي يجعل القارئ يجلس على طرف مقعده..
تثاءبت.. وقالت:
- لقد بدأ الملل يقتلني حقا..
مد يده يمسك بمعصمها، وقال لها بلهجة إغراء:
- ستعرفين الآن أنه لا ملل في حياتي..
ورفع عقيرته صائحا ليسمعه (بوند):
والآن يا مستر (بوند).. وداعا.. أراك في الجحيم!
وبيد لا تهتز أشعل الشمعة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - دقائق أقل..

ما إن ابتعد (الإصبع الذهبي) وأسيرته حتى قادها إلى غرفة صغيرة بها مائدة.. عليها شمعدان من ذهب وكأسان.. ودلو به زجاجة.. وفي جو الغرفة ذات الإضاءة الخافتة راحت موسيقا رقيقة تعزف.. ودنا ذلك الهندي الملتحي – (راجا) - من المائدة ليقف جوارها يعزف ألحانا شاعرية على كمان صغير ألصقه بذقنه..

نظرت (عبير) في وجل إلى كل هذا.. وإلى العازف الذي يقف جوارهما يرمقها بنظرات نارية.. وتساءلت:

- ما هذا الذي يجري؟

أمسك (الإصبع الذهبي) بأناملها ولثمها:

- إنني إنسان شاعري رومانسي في الحقيقة يا مس (أولجانوفا).. ولا تدعي نفسك تنخدعين بالسمعة التي يطلقونها حولي.. أنا لست بالقسوة التي يزعمونها.

ثم رفع عينيه بصرامة نحو (راجا):

- هذه النغمة نشاز يا (راجا)!

ارتجف العملاق.. وقال متلعثما:

- م.. معذرة يا شيدي.. حشبت ل... لحيتي وترا!

ابتسم (الإصبع الذهبي) وصب شيئا في الكأسين، وهو لا يرفع عينيه عن (عبير).. ثم غمغم برقة:

- حتى (راجا) هو إنسان رقيق خجول إلى حد لا يوصف.. وكدأب الخجولين يحاول أن ينهمك في عمل ما لينسى حياءه المفرط.. مثلا (راجا) يقطع الرقاب ليتغلب على خجله الممض هذا.

ثم انحنى فوق المائدة ليدنو منها أكثر.. وقال:

- والآن - يا مس (أولجانوفا) - أعتقد أننا سنحقق الكثير بتعاوننا.. إن عميلة ال (كي، جي، بي) الجميلة الذكية تعرف متى وكيف يكون القتال غير ذي جدوى.. عليك أن تختاري المعسكر الأقوى، واعلمي أنه لا حلول وسطا مع (الإصبع الذهبي).. من ليس معي هو ضدي.. فماذا تقولين؟

كانت إجابتها بليغة جدا ومختصرة رفعت الكاس الذي ناولها إياه - وكان يحوي مادة بيضاء غامضة - وقذفت محتواه في وجهه..

حنا هي تخشاه كثيرا.. لكن أسلوبه الثعباني في إغرائها جعلها أقرب إلى الغضب منها إلى الخوف..

أخرج منديلا حريريا مسح به وجهه في تؤدة..

ثم قال، وهو ينظر إلى (راجا):

- أخشى أن أوان التعاون قد فات.. لقد وصلني ردك كاملا غير منقوص.. ولم يعد أمامي حل سوى (راجا)..

رمي العملاق الكمان أرضا.. وأخرج سيفه الهندي البتار.. حين رأته (عبير) أدركت لماذا كان شعراء العرب الغابرون يصفون السيف ب. (المهند) أو (الهندي) أو (أبيض الهند)..

من الواضح أن لهؤلاء الهنود باعا طويلا في صنع السيوف.. هذا السيف لا يحتاج لقوة من أي نوع كي يطير الرقاب، ولو أن بعوضة حطت على حده لانشطرت إلى نصفين.. حتى لو كانت بعوضة مصابة بالهزال

وهنا ظهر (بوند) حاملا مدفعه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مستحيل هذا!.. أنت ميت!
قال (بوند)، وهو يشير ل (عبير) كي تلحق به، وتحتمي وراءه كما يحدث في كل أفلامه، ويرفع بيده الحرة الكأس التي كانت على المائدة:
- إن الأشباح لا تحمل المدافع يا إصبع
- وكيف تخلصت من أسرك؟
- ولماذا أخبرك.. لعلك مكرر الغلطة مرتين..
والآن.. هيا أوقف عمل (س - 14) هذا حالا..
- مستحيل!
واندفع جاريا مغادرا الغرفة.. فأطلق (بوند) طلقتين تحذيريتين اصطدمتا بحلق الباب.. ثم جذب الفتاة من يدها وهرع يحاول اللحاق بعدوه غير عابئ بالهندي الذي لوح بسيفه وخرج وراءهما..
وهنا دوي صوت آلي بارد:
- ثلاث دقائق على الكارثة!
خرج (بوند) ملهوفا إلى القاعة التي كان مقيدا بها من ثوان، فوجد (الإصبع الذهبي) عاكفا على ضغط مجموعة من الأزرار على الجدار.. وشرعت نقاط حمراء تضيء على الخريطة العملاقة: (موسكو - واشنجتون - لندن - باريس - القاهرة - إسلام آباد – ماناجوا - ليما - بوخارست).. إلخ.
- دقيقتان على الكارثة!...
أطلق (بوند) دفعة من سلاحه على النقاط الحمراء، وعلى الأزرار، وعلى كل شيء تقريبا.. فانفجر كل هذا وتصاعد الدخان واللهب.. لكن (الإصبع الذهبي) صاح:
- يا لك من أحمق!.. كانت هذه الأزرار هي أملك الأخير لوقف ما يحدث.. أما الآن.. فلا جدوى!
وانفجر يضحك.. يضحك..
دون كلمة أخرى هرع (بوند) إلى الرجل، ورفعه من ياقة بدلته.. واتجه به إلى.. إلى بركة الحمم..
صاح (الإصبع الذهبي)، وهو يحاول التملص:
- إنك لن تستطيع أن.. لا يمكن...
- قل لي سببا واحدا يمنعني من ذلك!
وألقى به في البركة.. ففار الماء.. وارتفعت زعانف أسماك القرش.. ودوت صرخة مروعة.. ثم خرج رأس (الإصبع الذهبي) من الماء ليقول في غل:
- سنلتقي ثانية يا (بوند)!.. لا تصدق الظواهر..
أشعل (بوند) لفافة تبغ.. وانحنى ليضعها في فم (الإصبع الذهبي) بمودة.. وأشعل لفافة أخرى لنفسية، وقال:
- أعرف أنك ستعود.. يعلم الله كيف ستنجو من القروش ومن الحمم.. لكنك حتما عائد..
ثم إنه ركل الرأس.. فصرخ هذا صرخة أخيرة، وهوى إلى الأعماق..
....
في اللحظة ذاتها اقتحم (راجا) الحجرة، وقد سمع صرخة سيده فتوترت ملامحه.. ورفع السيف وراح يدور به حول رأسه في دورات سريعة.. وعلى وجهه أمارات الجنون
- شتدفعان الشمن حالا!

قال (برند) د (عبير)، وهو يناولها سلاحه:
هذا هو البروتوكول.. الحارس الشخصي للزعيم يكون أكثر ضراوة من الزعيم نفسه.. والآن انتظريني هنا حتى أفرغ منه.. لا داعي للسلاح فأنا بحاجة للتمرين!..
وهرع نحو العملاق الهندي، فتحاشي بضع ضربات قاتلة بالسيف عن طريق الانحناء.. والتمرغ في الأرض.. ثم ركل العملاق في قصبة ساقه، فأن هذا ألما.
واصل (بوند) قتال الرجل.. لكن الرجل لم يكن خصما هينا.. وطال الأمر أكثر من اللازم..
- دقيقة على الكارثة! سيبدأ العد من الآن بالثانية!
في النهاية أمسك (راجا) عنق (بوند) بيد واحدة ورفعه إلى أعلى، وقد ارتسمت الوحشية السعيدة على ثم مد ذراعه للوراء كي يكسب السيف قوة اندفاع عظمى..
صرخت (عبير).. وتوتر (بوند).. وضحك (راجا)..
لكن (بوند) مد يده وانتزع الخنجر - خنجر (السيخ) إياه - من خدي (راجا).. وقابضنا على الخنجر أولجه في عنق الرجل..
تراخت يد الرجل وترك (بوند) يسقط أرضا.. ثم ترنح، وهوى على الأرض في بركة من دماء..
لكنه كالعادة كان يملك ما يقوله قبل الوفاة:
- أشرعا.. غرفة التوليد.. الزر (شين - ١١)..وداعا!
نهض (بوند) وتأمل الجثة في فخر باعتبار ما قام به كان عملا خلاقا.. ثم نظر ل (عبير)، وصاح:
. هلمي إلى غرفة التوليد!
= ولكن أين هي؟
يا له من سؤال!.. غرفة التوليد تقع دائما في نهاية الممر الموجود بالطابق السفلي.. هكذا القصص دائما!
وانطلقا عبر الممرات باحثين عن سلالم يرقيانها أو ينزلان فيها إلى أسفل..
بالطبع اعترض طريقهما مئات الحراس ذوي الزي الموحد.
لكن هؤلاء كانوا بالفعل إلى البعوض أقرب.. بضع ركلات من (عبير)، أو رصاصة واحدة من (بوند) كانت في الغالب كافية لقتل خمسين حارسا في المرة..

وعرفت (عبير) سر قوة (بوند).. إنه الرجل الذي إذا أطلق طلقة واحدة صرع عشرين رجلا.. أما إذا حاول عشرون رجلا أن يفرغوا بنادقهم فيه، فإنه لا تصيبه طلقة واحدة..
وصوت القنبلة يتردد:
- خمسون ثانية على الكارثة.. أربعون ثانية على الكارثة!.
أخرج (بوند) شيئا من جيبه.. كان هذا هو الكأس التي كان (الإصبع الذهبي) يشرب منها..، وممر قلمه على زجاج الكأس لحظة، وفي الحال خرج قفاز مطاطي ملفوف على نفسه من مؤخرة القلم..
ارتداه (بوند) على عجل:
- هذا هو (هـ - ١٢).. اختراعنا السرقة بصمات اليد.. إن هذا القفاز هو نسخة من كف (الإصبع الذهبي)..
أخيرا كان هناك باب موصد كتب عليه (غرفة التوليد)..
وجوار الباب قفل إشعاعي يعمل ببصمات اليد..
وضع (بوند) كفه على شاشة القفل، فعبرها شعاع يمسح بالطول كف الرجل.. ثم دوى صوت إلكتروني..

- البصمات متطابقة.. الشفرة لو سمحت!
دون تردد قال (بوند):
- نمر.. نمر...
في الحال انفتح الباب.. ودخلا..
سألته (عبير) في حيرة:
- البصمات فهمناها.. ولكن كيف عرفت الشقرة؟
كل الشفرات تتشابه، دائما تكون: نمر.. نمر..، أو: بكاء الكمان في الخريف يثير الشجن في قلبي، أو: ماري عندها حمل صغير!.. لا يوجد تنوع كثير في هذا النوع من القصص.. وعلى كل حال لا يحتمل الموقف أن أضيع الوقت في استنتاج الشفرة...
كانت هناك مئات الأزرار.. وعلى الشاشات رأت (عبير) مدفعا مرعب الشكل موجها للسماء.. واضح أن هذا هو (س = 14) الرهيب..
- ثلاثون ثانية على الكارثة.. عشرين ثانية على الكارثة!
جلس (بوند) مسترخيا.. وأشعل لفافة تبغ وراح يتأمل المفاتيح في هدوء..
صرخت (عبير) بجنون:
- لا وقت لهذا!.. افعل شيئا!...
- مازالت أمامنا فسحة من الوقت.. يجب أن أنقذ الموقف في الثانية الأخيرة حتى أشوق القراء..، يسمون هذا ب. (أسلوب جريفث في الإنقاذ على آخر لحظة!) (*)
ودوي الصوت من جديد:
- عشر ثوان على الكارثة!
وضع (بوند) لفافة التبغ في فمه.. وغمغم في ملل:
- حان الوقت إذن.
ومد أصابعه يعابث أزرار الأجهزة بسرعة لا معقولة.
- خمس ثوان على الكارثة!
- هكذا.. نغلق هذا الصمام.. ونقطع هذه الدائرة.. وتفتح هذه المضخة.. وهو ذا الزر (س- ١١) ليس (ش) بل (س)!
- ثانيتان على الكارثة!
- والان.. تضغط هذا الزر!
ودوي الصوت من جديد:
تم إجهاض الكارثة!..
نظر (بوند) إلى (عبير) وابتسم.. وهي أيضا للمرة الأولى شعرت بأنها لا تستطيع أن تكرهه إلى هذا الحد.
وفجأة دوى صوت صراخ وانفجارات في الخارج.. وارتجت القاعة..
قال (بوند)، وهو يلثم أناملها:
- الانفجار النهائي.. هذا حتمي في نهاية قصصي..
ينفجر كل شيء وتزول القاعدة من على وجه الأرض..
- إذن.. تفر الآن!
نظر وراء كتفها.. وهز رأسه في إحباط:
- سأفعل ذلك وحدي.. لأن هناك من جاء يصحبك.. لقد انتهت مغامرتك..

نظرت إلى الوراء فوجدت (المرشد) واقفا يداعب قلمه الجاف.. ويبتسم.. وفي كياسة قال لها:
- ودعي المستر (بوند) ولنرحل قبل أن تنفجر القاعدة كلها!
نظرت إلى (بوند).. وابتسمت ابتسامة ذات معنى..
قال لها، وهو ينهض ليقف أمامها:
- في العادة تنتهي قصصي بقبلة للبطلة.. لكني أعرف تحفظك وتربيتك الشرقية.. لهذا أكتفي بالمصافحة، وأقول لك إني استمتعت بكل لحظة من هذه المغامرة.. وأرجو أن تعودي لي من جديد في مغامرة غير مسبوقة..
- وداعا مستر (بوند)..
- وداعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ خرجت مع (المرشد) إلى الهواء الطلق متجهين إلى قطار (فانتازيا): أدركت أنها عادت إلى ثيابها القديمة وقبحها المعهود.. فتنهدت.. هذا هو الواقع وعليها أن تقبله..
وغفت بشيء.. فسألها (المرشد):
- هل تحدثين نفسك؟
- لا.. كنت أود لو سألته عن الطريقة التي حرر بها نفسه من شرك (الإصبع الذهبي).. لكن لا يهم.. بالتأكيد سيقول لى إنه استعمل (ر - ٨) أو (ع - ٣)
أو أي شيء من هذا القبيل....
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة..

حين عادت (عبير) إلى عالم الواقع، أدركت أن الحلم قد استغرق ساعتين وكالعادة شاهدت مع (شريف) عرضا بالفيديو لمغامرتها هذه، وقالت له، وهي تتأمل (بوند) على الشاشة:
- الحق أنه ظريف.. وليس من السهل مقاومة سحره.
- لا تدعيني أغار من بطل قصصي..
ثم أردف، وهو يغلق (الفيديو):
- كل مغامرات (بوند) فائقة التسلية.. إلا أنها خبيثة وبها نزعة عنصرية لا تخفى على أحد.. وفيها تمجيد أسطوري للمخابرات البريطانية، ولعب على عواطف الرجل العادي الذي لا تعجب به النساء.. ولا مغامرات في حياته سوي ركوب الحافلة ذاهبا إلى عمله..
قالت باسمة:
- إن ركوب الحافلة لمغامرة مريعة حقا!
أضاف (شريف):
- كذلك تفتقر قصص (بوند) إلى (الدافع السردي)..
لا توجد سوى قصة واهية تحاول ربط عدد من المشاهد المثيرة لمطاردات وصراعات ومأزق.. لا تشعرين أن كل هذا ضروري يمليه الحدث، لكنها مشاهد شائقة تم اختراع قصة لها..
قالت له وهي ترتدي حذاءها الذي خلعته قبل الجلوس إلى (دي - جي - ٢):
- لاحظت كذلك لمسة من التهكم والسخرية في كل شيء..
قال لها، وهو يغلق الأجهزة:
- هذه هي سمة هذا النوع من القصص.. المبالغة التي تصل إلى حد القول إن كل هذا غير حقيقي تماما..
وهي سمة عامة كذلك في كل القصص المصورة.. لهذا يسمونها (كوميكس) أي (هزليات)..، يجب أن يكون هناك جو عام من الاستخفاف في القصة..
ثم أضاف:
- تجدين هذه السمة - وإن كانت أقل جاذبية – في قصص (القديس) ل. (لسلي تشارتريس) و (ديابوليك) وربما (روكامبول)..
- لا أعرف كل هذه الأسماء.. كل ما يعنيني أن تكون ممتعة..
نظر لساعته.. وغمغم:
- والآن حان ميعاد الرحيل
- والمرة القادمة؟
- لن تكون هناك مرة قادمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن (عبير) تعرف - كما نعرف نحن - أن هناك مرارا قادمة، و (جالا كيتكا) كانت تنتظر.. بمكوكاتها وسفن فضائها، وكائناتها المروعة.. (جالا كيتكا) حيث (الليزر) هو القانون.. وحيث الموت هو اسم اللعبة..

[تمت بحمد الله]

صفر.. صفر
اسمه هو (بوند)، (جيمس بوند)..
إنه يسحقهم.. يقتلهم.. يدمرهم..
صحيح أنه مستفز.. صحيح أنه غير معقول..
صحيح أنه يعرف كل شيء، لكنه مسلٍّ ولا أحد ينكر ذلك..، واليوم نخوض مغامرة جديدة تحمل الطابع الذي لا يمحى للعميل البريطاني (007).. فلا تدعوها تفتكم..

د. أحمد خالد توفيق

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link



لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1] (*) موريس لبلان

[←2]
(*) (بجماليون) -في الأساطير الإغريقية -هو مثال صنع تمثالا ثم هام به حبا إلى درجة المرض.

[←3]

(*) فورت نوكس: القلعة الحصينة التي تحوي كل مخزون الولايات المتحدة من الذهب

[←4]

(*) لمن يهمه الأمر: في هذه الأسماء بالترتيب هي: المخابرات السوفيتية.. الإيرانية.. الإسرائيلية.. الفرنسية.. الأمريكية.. المباحث الفيدرالية.. المخابرات النازية!

[←5]

(**) للأسف (هارون تازييف) هو اسم علم من ألمع علماء البراكين السوفييت. لكن (عبير) لم تجد له اسما ذا طابع روسي تسمي به العميل سوى هذا.

روايات مصرية

4

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

إمبراطورية النجوم

فريق
متميزون



E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (04)

إمبراطورية النجوم

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير)...
لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبًا من أي شيء وكل شيء...
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كى تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوًا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالًا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يومًا ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كى ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم...
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- زفــاف!

تعالوا.. تعالوا..
وليبلغ الحاضر منكم الغائب، وليبلغ المستيقظ منكم النائم، وليبلغ المنتبه منكم الغافل..
يتم اليوم في السابعة مساء زفاف ربة الصون والعفاف الآنسة (عبير عبد الرحمن) إلى المهندس (شريف إبراهيم)..
تعالوا.. تعالوا..
لقد كانت حربًا حقيقية.. ومحاولات إقناع لا تنتهي.. مع إلحاح.. فرفض.. فإلحاح فتردّد.. فإلحاح فقبول..
وفي النهاية هو ذا الكروان يردد تحت غطاء الغروب الأزرق، أن فلانًا كان لفلانة منذ الأزل.. وفلانة كانت لفلان منذ الأزل.. كذا كُتب في اللوح المسطور..
تعالوا.. تعالوا..
لا تحضروا طعامكم معكم فالطعام يكفي الجميع.. فقط هاتوا زهورًا.. وهاتوا مرحًا وحبورًا.. وهاتوا جذلًا وسرورًا..
ولا تنسوا يا سادة الميعاد...

∞∞∞∞∞

أخيرًا تم زفاف الحالمة إلى صانع أحلامها..
وكان ما ساعد على إتمام هذا الزفاف، هو أن خطيبها السابق - الذي هو صديق أخيها - ارتكب خطأً معينًا اعتبره أخو (عبير) قاتلًا.. ونحن نرجح أن الخطأ لم يكن فادحًا، وكان يمكن التجاوز عنه لو في ظروف أخرى..
لكن أخا (عبير) كان يبحث لنفسه عن مبرر..
ولقد وجد واحدًا..
وفي الساعة السابعة مساء من ذلك اليوم الصيفي البهيج.. تزوجا.. ولم تكن هناك ضوضاء كثيرة، ولم يتم الزفاف في ناد أو ملهى.. بل في دار العروس الضيقة، حيث راحت الجارات تزغردن، وقد حملت كل منهن رضيعها على كتفها، وجاءت لترى ما يحدث هنالك..
وتطوع رعاع الحارة بضرب الطبول والتصفيق والرقص والغناء بأغاني الزواج المبتذلة السخيفة..
بل وتطوع أحدهم كي يقف، ليتلوى بقميصه المشجر الذي انتفخ بالهواء.. وراح يحرك ذراعيه في الهواء، وقد فرد إصبعيه السبابتين، ورسم على وجهه تعبيرًا من النشوة واللوعة
خطر لـ (شريف) أنه لا يفهم حقًّا، لماذا يكون رقص الشباب في هذه الأيام أقرب إلى حركات الولولة، وندب الموتى، منه إلى أي رقص عرفه في حياته؟
وتطوعت فتاة فخلعت حذاءها كاشفة عن قدمين ترابيتين، ولفت خصرها بإيشارب.. وراحت تتلوى أمام العريسين
كان كل هذا متبذلًا يثير الغمّ والشفقة..
لكن (عبير) أصرّت على أن يكون الزفاف هنا، حتى لا يظهر عالمها في مكان لا يليق به مثل فنادق الخمسة نجوم وغيرها.. وهي لا تتخيل أن ترى (أم باتعة) تدخل إلى (الشيراتون) وهي تزغرد.. أو ترى هناك أحد هؤلاء الفتية من حملة المطاوى..

ثم إنها لم تكن تريد زفافًا حالمًا أو متفردًا..
كل ما تريد هو أن يكون (شريف) - هذا الوسيم الرقيق - لها، وأن تملك مفتاحها الخاص إلى (فانتازيا)..
أما (شريف) فجلس برمق كل هذا في تواضع جميل..
وبشجاعة تلقى مئات القبلات الغارقة في العرق، واللعاب على خديه، من المهنئين المتحمسين..
لم يكن يعنيه من كل هذا الهراء سوى أن روح (عبير) الفاتنة - روحها لا هى - صارت ملكه للأبد..
جاء (صفوت) وقد رسم ابتسامة مصطنعة على وجهه.. وعانقه وصافح العروس، ثم انصرف على الفور معلنًا احتجاجه الصامت على كل هذا..
ليذهب التكافؤ الاجتماعي إلى الجحيم..
أنت لى يا صغيرة.. وأنا لك..
إذن فلتزأر العاصفة..

∞∞∞∞∞∞

استقرا في شقة (شريف) الفاخرة، وسافرا إلى (الغردقة) أسبوعًا على سبيل شهر العسل..
لقد بدأت تغيرات غير مسبوقة تطرأ على (عبير).. صارت أكثر جمالًا وجاذبية، وكأن السعادة قد لمستها بفرشاتها السحرية لتجعل قبسًا من جمال روحها ينعكس على وجهها..
وأحس (شريف) بأنه سعيد.. فخور بها..
وكذا هي.. لم يخدعها (شريف) لحظة.. فهو ذلك الأرستقراطي النبيل الذي زاده الثراء تواضعًا وبساطة..
إن المرأة لا تنخدع أبدًا في شعور رجلها نحوها.. وكانت هي تعلم الآن يقينًا أن (شريف) يحبها..
لقد غدت الحياة حلمًا جميلًا هي ذاتها..
لكن (عبير) - ولا تدري لمه - أحست أنها بحاجة إلى (فانتازيا) من جديد..

∞∞∞∞∞∞

صارحت (شريف) بهذا.. فقال في شيء من الإحباط:
- حسبتني أغنيك عن (فانتازيا) هذه..
- أنت و (فانتازيا) شيء واحد..
قالتها.. ولم تضف أكثر..
ولو أن (عبير) تجيد الثرثرة ككاتب هذه السطور، لعرفت ولاستطاعت أن تقول: إن الواقع هو الواقع.. باسمًا كان أو كئيبًا.. بهيجًا كان أو قائمًا.. لا يتبدل ولا يتغير.. وهى قد أدمنت التغير.. وعشقت التبدل..
يقول بعض الممثلين: إنهم عشقوا التمثيل؛ لأنه يعطيهم تجددًا لا ينتهي.. مرة يلعبون دور القراصنة.. ومرة دور مطاريد الجبل.. ومرة دور رجال شرطة.. ومرة دور علماء.. وهكذا..

و (عبير) لم تجد مكانًا آخر مثل (فانتازيا)، التى لعبت فيها مرة دور الآنسة الإنجليزية الباحثة عن (شيرلوك هولمز)، ومرة دور الجاسوسية الحسناء.. بل وحتى دور مصاص الدماء!..
كانت بحاجة إلى رحلة إلى (فانتازيا)..

وكان على (شريف) أن يوافق.
ولِمَ لا؟.. إن هذا سيسعدها أولًا.. ثم هو استمرار لتجاربه التي لم تنته بعد.. ولن تنتهي إلا حين يصير (دى - جى - 2) متاحًا للجميع، وليس لـ (عبير) فقط...

∞∞∞∞∞∞

2 - مجرة أخرى..

كان الانتقال سلسًا في هذه المرّة..
لم تغرق (عبير) في بحيرة قيء الخواطر والذكريات، التي تجد نفسها فيها كلما اخترقت حاجز الواقع مع (دى ـ جى - 2)..
وأدركت أن عقلها الباطن صار أكثر مناعة وحنكة بما لا يقاس.. حتى كف عن هذه الهستيريا الشنيعة التي كان يغرق فيها، كلما واجه التجربة غير العادية..
في لحظة كانت جالسة على المقعد، والأقطاب على رأسها..
وفي اللحظة التالية وجدت نفسها واقفة في الوادي إياه، والريح (تمضغ معطفها) على رأي شاعرنا (نزار قباني)..

∞∞∞∞∞∞

انحنى (المرشد) في رقة، وأعانها على ركوب قطار الأحلام إياه.. وجلس جوارها وهو يداعب قلمه الجاف..
- لم نرك منذ وقت طويل..
ابتسمت وراحت ترمق معالم الطريق التي لم ترها في أية مرة سابقة.. وقالت:
- كنت مشغولة أيها (المرشد).. كنت أتزوج!.
- آها... إذن سنراك كثيرًا من الآن فصاعدًا!.. لسوف تكونين في أمس الحاجة إلى الهرب من الواقع بعد زواجك!
- هذا ما لا أتمناه!.
كانت ترى حقولًا، وعمال تراحيل، وامرأة غارقة في الدماء تجري وتصرخ في هستيريا:
- «جدر البطاطة يا ضنايا!».
ورأت جنازة غاضبة تمشي على ضوء المشاعل قاصدة بيتًا تحيطه أسوار عالية..، ورأت فتاة مذعورة تمشي بين حشد من العجائز المتشككات لابسات السواد.. كما رأت فرسانًا (هجانة).. وضابطًا يجر فلاحًا مربوطًا من قدميه خلف جواده الذي يهرول فوق حقول القطن..
نظرت ل. (المرشد) متسائلة عن كل هذا.. فقال:
- « تك تتك »!.. هذا هو عالم الريف في الرواية المصرية.. مشاهد من قصة (الحرام) ل. (يوسف إدريس)، و (حادثة شرف) لنفس الكاتب..، ومشاهد من (شيء من الخوف) ل. (ثروت أباظة) و (الأرض) ل. (عبد الرحمن الشرقاوي)..
ثم سألها في ترغيب:
- هل تريدين النزول هنا؟
هزت رأسها أن لا.. وغمغمت:
- إن قصصهم واقعية.. واقعية مفعمة بالقسوة والحزن.. وأنا أريد أن أرى في أحلامي شيئًا مختلفًا الواقع.. أريد مغامرات مثيرة وأحلامنا مبهرة الألوان..
هزَّ رأسه في فهم.. وقال:
- هي روايات تحتاج إلى درجة أعلى من النضج.. ولسوف تطلبين أن تريها يومًا ما حين تملين اللهو والمغامرة.. أما الآن فدعينا نبحث عن الإثارة غير المشروطة!

- (عليك نور)! - قالها في مرح - الإثارة غير المشروطة هي ما أريده الآن.. وحين أشيخ أنا ستشيخ أحلامي.. وسأرغب في أن أفهم الحياة أكثر.. أما الآن فدعنا نعش سنوات عمري المعدودة..
ثم إنها راحت تتأمل المشاهد على جانب الطريق..
المقدم (ممدوح عبد الوهاب) يتعلق في سيارة مندفعة بأقصى سرعة، ويلوي جذعه؛ ليثب إلى داخلها فيركل السائق في وجهه، ويمسك بعجلة القيادة.. ويرفع يده محييًا..
قال (المرشد):
- هذا هو عالم (المكتب رق....)
- نعم.. (المكتب رقم ١٩).. هذا هو (ممدوح عبد الوهاب.. يبدو بالضبط كما رسمه الفنان (إسماعيل دياب)..
بعد قليل رأيا عالمًا يسوده الظلام..
لم يك هناك سوى سفينة فضاء عملاقة تعبر الأفق.. ومنها خرجت إشعاعات لامعة حادة، كنصل الموسى.. وراحت تصطدم بأشياء ما فتنفجر..
- ما هذا أيها (المرشد)؟
- هذا عالم الفضاء يا فتاة.. عالم المكوكات، وسفن الفضاء، وسيوف الليزر.. هذا العالم نُسج من قصص (برادبورى) و (أزيموف) و (كريشتون) و (نهاد شريف) و (رءوف وصفى)..
قالت له في انبهار:
- هل يمكنني أن أجربه هذه المرة؟
- لم لا؟ أنت سيدة القرار في (فانتازيا).
ومدّ يده يجذب الحبل..
فتوقف القطار..

∞∞∞∞∞∞

مشت بضع خطوات على أرض زرقاء اللون، تتحرك ذرات الغبار تحت قدميها باستمرار..
وعلى قدميها رأت حذاءين معدنيين براقين، وأدركت أن جسدها صار مغلفًا بمادة أقرب إلى (فويل) الألومنيوم الذي تستعمله نساء التليفزيون في الواقع، لطهي الطعام..
رفعت رأسها إلى أعلى؛ لتدرك أين هي..
السماء سوداء تمامًا تتوسطها أقمار عشرة ترسل ضوءًا غامضًا مكبوتًا، وثمة ما يحلق في اتجاه الش... لا.. ليس الشرق.. بل هي لا تدري كنهه.. كيف يمكن معرفة الاتجاه في عالم به عشرة أقمار ولا شمس؟!

واصلت المسير، ونظرت وراءها فوجدت (المرشد) يلوّح بيده مودعًا.. فصاحت به بلهفة:
- من أنا؟ ألن تضعني على بداية الخيط؟!

ابتسم وهو يصعد إلى القطار:
- بلى.. أنت الأميرة (كارا) وريثة عرش (آستوريا).. أنت تجيدين أشياء كثيرة من بينها القدرة على تنفس (النتروجين)!.. فكهذا خلقت الكائنات الآستورية!
- (نتروجين)؟ هل تمزح؟
- ولماذا أمزح؟ إن المازحين، هم من لا يملكون سبيلًا آخر لمواجهة الواقع.. أما (فانتازيا) فلا تحوي سوى الحالمين.. ها ها هاه!.
وراح القطار يبتعد، بينما ضحكته تدوي في مسمعها:
- الحالمين يا فتاة.. الحالمين.. هاهاه!.
أخيرًا ابتعد (المرشد)..
لن يكف هذا الرجل عن إثارة دهشتها.. فتارة هو مرح إلى حد السفه، وتارة هو جادّ متحفظ إلى حدّ ثقل الدم..
لو كان لها سيطرة على جواد خيالها الجامح، لطلبت تعيين مرشد آخر أظرف قليلًا.. أما وهي مجبرة على تحمله فلا بأس.. طالما هو مفتاحها إلى هذا العالم الساحر..

∞∞∞∞∞∞

أنا (كارا) وريثة عرش (أستوريا)..
(كارا) وريثة (أستوريا)..
راحت تردد لنفسها هذه العبارة حتى لا تنساها.. بينما تمشى بصعوبة فوق الغيار الأزرق السميك..
(كارا) و (أستوريا).. اسمان لهما رنين (فضائى) حق.. لا تدري سبب ذلك.. كأن كل كتاب الخيال العلمي اجتمعوا يومًا ما على أن الأسماء الفضائية لن تخرج عن دائرة عشرة أسماء، منها: (زولتار) - (تيا) - (مايا) - (جالاكتيكا) - (ألفا) - (دلتا) - (كارا) - (أستوريا) – (تيتانيا) – (زيروكس)..
ويُعاقب من يخالف هذا بالسجن فترة لا تزيد عن خمسة أعوام، وغرامة لا تتجاوز ألف جنيه!..
جالت هذه الخواطر في ذهنها - بشكل أكثر تسطيحًا طبعًا - بينما هي تمشي غير عالمية إلى أين..
وفجأة رأت حشودًا تملأ الأفق..
حشودًا من رجال يرتدون دروعًا متباينة الأشكال.. بعضهم عمالقة زنوج.. وبعضهم أقزام صفر.. منهم من يحمل سيفًا عملاقًا، ومن يحمل بندقية غريبة المنظر، ومن يركب حصانًا ذا أنياب يتصاعد اللهب من منخريه..
توقفت محاولة البحث عن وسيلة للفرار..
لكن الرجال هللوا في صوت واحد متحمس:
- الأميرة (كارا)!.. لقد عادت!!.. هو رررررراه!.
ورأت عملاقًا مريعًا ذا ستة أذرع يهرع نحوه.. ثم ينحني على قدميها هاتفًا، وقد جعله الإنحناء يصير في مستوى رأسها:
- أنت حية يا أميرة..!.. حية!
فاندلعت طلقات الليزر من البنادق إلى عنان السماء.. وراح الجميع يردد اسمها دون كلل:
- (كارا).. (كارا)!.
- كيف فررت من (زولتار)؟

إذن فهناك - كالعادة - شرير ما يُدعى (زولتار).. وواضح أنه قد قبض عليها.. ارتجفت هلعًا حين أدركتْ أن هؤلاء هم (رجالها).. أي هم الأخيار!
كيف يبدو الأشرار إذن؟!
سألها العملاق الأصلع بصوته الشبيه ببالوعة تفرغ مياهها:
- لقد خطفك (الحكام) إلى (زولتار) في السفينة الأم.. وحسبنا أننا لن نراك ثانية.. فكيف نجوت؟!
لم تدر ما تقول.. فصاحت في حماس:
- نجوت لأننا على حق!
- هو ررررراه!.
مزيد من طاقات الليزر يتصاعد إلى عنان السماء.. ولم تدر (عبير) إلا وهي محمولة فوق الأكتاف – أكتاف غريبة في الواقع - وسط تهليل القوم، وصياحهم..
ورأت جزءًا من الأرض ينفتح.. ثم درجات سلم تقود إلى أسفل.. أما عن هذا (الأسفل) فقد عرفت وهي تهبط بتؤدة أنها تنحدر إلى نفق عملاق مبطن بالمعدن..
إضاءة غير معتادة تأتي من لا مكان..
ورجال أشداء على الجانبين يلوحون بسلاحهم، ويطلقون صيحات صاخبة..
إن الأمر - خطر لها - أقرب إلى معسكر ثوار من نوع ما.. وهذه الحثالة من المخلوقات هي الثوار.. واضح أنهم شديدو الفظاظة، يعيشون حياة لا توصف في قسوتها..
وأدركت أن إيمانهم بشخصها يوشك أن يكون مطلقًا.. الحب والود يكسوان الوجوه المريعة ذات الأعين الست والأفواه السبع.. وثمّة وحش ذو نابين طويلين يمزقان شفته السفلي يرمقها في حنان غريب!..
تبًّا ل (دى - جى - 2) من (كمبيوتر) مريض نفسيًّا مشوش الخيال!
وفي نهاية الممر رأت مقعدًا عاليًا عن الأرض، لا يقف على قوائم.. ولكن على نفاثات أربع ترفعه إلى أعلى طيلة الوقت..
وأدركت أن هذا نوع من العروش، عليها أن تعتليه لتصدر من فوقه أوامرها إلى هذا الجمع..
دنت منه.. فهبط منحدرًا ببطء إلى الأرض.. جلست بتؤدة عليه، وشعرت بنفسها ترتفع ببطء.. ببطء..
راحت ترمق الجميع عاجزة عن تقرير الخطوة التالية..
وهنا دنا منها الرجل إياه ذو الأذرع الستة.. وبصوته البالوعى هتف:
- أما وقد عادت الأميرة لقيادتنا، فلم تعد هناك سلطة ما ل (كوزموس).. والطاعة كل الطاعة لأميرتنا..
من هو (كوزموس) هذا؟
لم تنتظر طويلًا لتعرف، لأنها رأت رجلًا فارع الطول يرتدي عباءة سوداء، وله أذنا وطواط، وعينا نمر..
كان يقترب من مكانها في تؤدة.. ثم مدّ يده ليجرد شيئًا من نطاقه.. شيئاً له شكل السيف، ووهج شعاع الليزر.. كان سيف ليزر بالفعل..
- قد عدت يا أميرة.. فمرحبًا بك..
ودار بالسيف نصف دورة في الهواء.. وأردف:
- إلا أن الأمور لم تعد كما كانت.. فأنا قد صرت زعيم الثوار.. وهم قد ارتضونى زعيمًا.. ولن أترك

موضعي من أجل الأميرة (كارا) إلا حين أعرف يقينًا أنها الأميرة (كارا)!.
تصاعدت أصوات الرجال المندهشة:
- ماذا تعني؟ ماذا تعني؟
ابتسم ابتسامة شيطانية، ولوح بالسيف:
- أعني أن (زولتار) قد يرسل لنا نسخة مزيفة من الأميرة.. ودليلي على هذا شئ واحد.. هو أن أحدًا لم ينج يومًا من قبضة (زولتار).. والثقوب السوداء تعجّ بجثث ضحاياه..
قال الرجل مسدس الأذرع:
- حقًا تقول.. إن قاموس المتعاملين مع (زولتار) لا يحوي لفظة (عائد) ولا (ناج) و (فارّ)..
قال رجل هلامي الشكل، وقد بدت الحيرة على ملامحه (إذا كنت رأيت طبق جيللى يشعر بالحيرة):
- هل تعني أنها (أندرويد)[1]؟
- لا..
- إذن هي صورة هولوجرافية[2]؟
- لا..
- ربما هي (روبوت) كامل؟
- لا...
ثم إن (كوزموس) استدار ليرمق الأميرة - (عبير) - في خبث.. وغمغم بكلمات متباطئة:
- إن (زولتار) يجيد صنع ال (كلون)[3].. يكفيه أن يحصل على قطرة من دم الأميرة يحلل كروموسوماتها بالكمبيوتر.. ثم بوساطة الهندسة الوراثية ينقل صفاتها إلى جنين.. ويعجل نمو الجنين خلال أسبوع؛ ليصير فتاة بالغة رشيدة كهذه، يمكنها خداع الجميع!
- الويل!
تساءل العملاق مسدس الأذرع وهو يحكّ رأسه:
- وكيف نتأكد؟
دنا (كوزموس) من الأميرة أكثر، وبأدب مصطنع قال:
- اغفري لنا حذرنا يا أميرة.. إن التعامل مع (زولتار) يحتاج إلى ما هو أكثر من الحذر.. سأسألك سؤالًا يحدد لنا حقيقتك.. فإن أجبته ضمنت ولاءنا.. وإن فشلت..
وصمت.. لكن صمته كان بليغًا أكثر من اللازم..
ثم رفع رأسه في تؤدة.. وسألها:
- ما هي الجروح الموجودة في جسدي.. ومتى أصبت بها؟!

∞∞∞∞∞∞∞

3- غارة!..

- ما هذا السؤال السخيف يا (كوزموس)؟
صاح ذو الأذرع الستة في غضب، وهو يبصق على الأرض.. التفت له (كوزموس) وابتسم نفس البسمة السمجة من جديد:
- بالعكس يا أخي (ميجا).. لو أن (زولتار) قبض على الأميرة لانتزع منها عشرات الأسرار بخصوصنا.. لكنه بالتأكيد لن يسألها عن شيء تافه كهذا.. شيء تصفه أنت نفسك بالسخف...
ومطّ عنقه كعنق ثعبان.. وغمغم:
- أما الأميرة (كارا) الحقيقية فقاتلت معنا.. وتعرف كيف وأين، ومتى جرح كل رجل من رجالها.. ولن تعجز عن إجابة سؤال كذا...
والتقت عشرات العيون فوق وجه (عبير) الممتقع، على حين أردف (كوزموس) سائلًا:
- هلا أجبت سؤالي يا أميرة؟!

∞∞∞∞∞

يا له من مأزق!..

∞∞∞∞∞

بعد ثوان من صمت، بدت كقرون، قالت (عبير) بصوت ثابت:
- إنك لتلجّ لجاجة لا أحمدها يا (كوزموس).. ولا أخالك إلا متحملًا جزاء وقاحتك لو أثبتّ أنني الأميرة الحقيقية..
هزَّ رأسه في تحد:
- أقبل عواقب إصرارى...
بنفس الصوت الثابت قالت:
- إذن أنت لا تحمل في جسدك جروحًا.. إن جسدك ناعم، كجسد طفل؛ لأنك جبان يا (كوزموس).. جبان!

∞∞∞∞∞

كيف حدث هذا؟
لا تعرف بالضبط.. لكن شيئًا ما أوحي لها بالإجابة الصحيحة.. كأن صوتًا دوى في عقلها يخبرها بالإجابة.. وهو – حتمًا - ليس صوت (شريف) الذي اعتاد مخاطبتها بعد (الهنا بسنة) كما يقولون..
إن لها - في هذا العالم الشاذّ - ملاكًا حارسًا دون شك.. وأفاقت من خواطرها على صراخ (كوزموس) إذ انقض عليه الرجال يمزقون ثيابه؛ ليقف شبه عار وسطهم، وقد فقد كبرياءه أو أكثرها.. وراحوا يبحثون عن الجروح، أو الندوب في جسده فلم يجدوا.. اللهم إلا جرحًا صغيرًا في أعلى عنقه..
صاح (كوزموس) محاولًا التملص:
- هل رأيتم؟ هو ذا جرح في عنقي لم تعرف هي شيئًا عنه!!

تأمل الرجل الهلام الجرح.. وهتف:
- إنه (يبلف) يا إخوان.. هذا الجرح ناتج من موسى الحلاقة!
قال رجل آخر:
- حقًّا.. ف. (كوزموس) من قبيلة رفضت حرق شعيرات الوجه بالليزر كما نفعل نحن، حتى لا تنمو لحانا ثانية.. إنه يحلق ذقنه كل صباح بطريقة بدائية..
هنا صاحت (عبير) وقد حركها الإلهام ثانية:
- ترون يا إخوان.. الرجل كان يتوقع أنني لن أعود.. فلماذا؟ لأن سادته، أكدوا له أن الأميرة (كارا) لن تعود.. وصار هو سيد مصيركم يحرككم كما يريد (الحكام)..
إلى (كوزموس) تقدم الرجل سداسي الأذرع.. ورفعه إلى أعلى بذراع.. وسلط سيف الليزر على عنقه بذراع.. وكبل ذراعيه بذراع.. وفتش نطاقه بذراع.. ولكمه في أنفه بذراع.. وبالذراع السادس راح يحك قفاه هو نفسه.. وقال:
- أهذا صحيح يا (كوزموس)؟!
لم يردّ (كوزموس).. فواصل لكمه في أنفه:
- أهذا صحيح؟
- آى!.. نعم.. صحيح!..
ومسح الدم الذي سال من أنفه.. وأردف:
- إن (جالاكتيكا) تعرف كل شيء عنكم.. كل رجل هنا له ملف إلكتروني كامل هناك.. بل إنهم دربوا ألف جهاز كمبيوتر، ليفكر مثلكم، ويتصرف مثلكم.. ولهذا يعرفون نواياكم قبل أن تفكروا فيها.. يا إخوان.. إن (جالاكتيكا) لا تقهر.. ولسوف تمتد سيطرتها إلى أطراف الكون جميعًا.. ويومها سيُصلب كل واحد منكم فوق شهاب، ولسوف يرتجف المسافرين في الفضاء حين يرون ما سيصيرين إليه، كلما مرّ شهاب جوار نوافذ مكوكاتهم..، ولسوف ينتزعون قلوب أحفادكم وأحفاد أحفادكم.. ولسوف...
كان هذا كافيًا؛ لأن سداسي الأذرع طوح ب. (كوزموس) في الهواء.. وقبل أن يصل إلى الأرض استقبله بطعنة من سيف الليزر.. وكان التأثير عجيبًا يوشك أن يكون فاتنًا..
فجأة تحول لون (كوزموس) إلى الأزرق، ثم راح يضيء من الداخل كمصباح (النيون).. ثم مال إلى الانطفاء وهوى أرضًا.. ليتحول إلى كومة من الغبار الأسود الذي يلتمع بعضه.. بعدها خبا كل شيء...

هتفت (عبير) في انبهار:
- رائع!.. مبهر!

ثم تذكرت أنها يجب أن تلقى الموت بشيء من الاحترام الواجب له، وأن الأميرة (كارا) المفترض أنها قد تعودت رؤية هذه الأشياء.. من ثَمْ عادت إلى وقارها...
وهنا دوّى صوت في مكبر الصوت آتٍ من مكان ما:
- طائرات (جالاكتيكية).. طائرات (جالاكتيكية) تدخل نطاق المجرة.. انتبهوا..!
تصايح الرجال وهرعوا إلى جوانب الممر..
ومن السقف تدلت كشافات تشبه (السبوت لايت) التي كانت تراها في واجهات المحلات في عالمنا، ورأت شعاعًا ما ينبعث من تلك الكشافات..
في اللحظة التالية رأت سفن فضاء صغيرة الحجم.. سفنًا مجسمة تمامًا؛ حتى إنك تستطيع لمسها، وَهذه السفن كانت تطير في تشكيل مثلث في قضاء القاعة مخترقة سحبًا من الغبار الكوني..
أدركت أنها ترى صورة رادار مجسمة للطائرات المغيرة.. كلها طائرات - أو سفن فضاء - سوداء ذات منظر غير مبهج على الإطلاق..
ودنا خمسة من الرجال من مسرح الرادار، وراحوا يتجادلون حول مواقع الطائرات وسرعاتها..
وأخرج أحدهم قلمًا مضيئًا صوبه نحو إحدى الطائرات فتألقت بضوء فوسفوري..
قال محدثًا شخصًا ما بالطابق العلوي:
- إنها من طراز (إف- 1600).. السرعة 500 سنة ضوئية في الدقيقة.. محرك بيولوجي.. قنابل (ماكسيما)..
دوّى الصوت من أعلى:
- إذن هلموا.. يا للكارثة..!.. محرك بيولوجي؟ إننا لم نتعامل إلا مع محركات هيدروجينية.. ثم قنابل (ماكسيما) سينفجر كل هذا الكوكب إلى الداخل ويتحول إلى ثقب أسود معدوم الكتلة!
كانت (عبير) ترمق كل هذا في حيرة.. تشعر بأن عليها أن تقول أو تفعل شيئًا لكنها لم تدر ما هو..
ورأت الرجال يركضون نحوها، وقد ارتدوا ثيابًا شبيهة بثياب الطيارين.. خوذة وقناع الأوكسجين – بل (النتروجين) - وبذلة معدنية..، ورأت أولهم يدنو منها.. فيجثو على ركبتيه ويحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار.. ثم ينقلب على ظهره، ليحرك رجليه في الهواء كذبابة تحتضر.. وهو يردد:
- القلب لـ (كارا).. والروح لـ (كارا).. سيدة الأقمار العشرة..!
ثم يأتي بعده واحد آخر.. ويكرر ما فعله..
أدركت أن هذا نوع من (طلب البركات) أو التفاؤل..
نوع من الطقوس الروحية تؤهل المقاتلين للفداء.. لكن الوقت ضيق بالنسبة إلى هذا الكلام الفارغ.. يا للسخف!..
حين تمرغ الطيار الأخير أمامها كان نصف ساعة قد مرّ..، وهرع المقاتلون إلى الفتحات الجانبية، وسمعت هديرًا..
وعلى مسرح الرادار المجسم، رأت طائرات زرقاء تشبه الأزرار.. تنطلق في تشكيل طولي؛ لتعترض طريق الطائرات السوداء.. مشهد غير عادى!.. كأنها مجموعة من طائرات الأطفال تتقاتل في سماء القاعة.. لكنها كانت تدرك أن هذا المشهد يتكرر على نطاق هائل في الفضاء المحيط بالكوكب..
من الطائرات السوداء تنطلق خطوط مضيئة تهاجم الأزرار الزرق.. فيدوي انفجار.. ويتناثر

اللهب في كل مكان..
صورة مجسمة إلى حدّ لا يصدق.. لدرجة أن شظية مشتعلة هوت فوق يدها فلسعتها..!.. إذن هي ليست مجرد صورة مجسمة..
رفعت عينيها ترمق ما يدور.. وأدركت أن كفة الثوار ليست هي الراجحة.. فالطائرات السوداء تقاتل كالشياطين..
كانت القاعة شبه خاوية الآن إلا من عشرة رجال يراقبون المعركة.. ويشيرون بالقلم المضيء إلى طائرات ما..، على حين راح الصوت يهدر من أعلى:
- (ألفافيل).. خذ الحذر.. هناك (إف - 1600) عند مؤخرتك.. عند الساعة السابعة.. أحمق!.. لقد أنذرتك.. مت بجهلك إذن.. (ألفازد).. حاول التملص من هذا الوغد.. لا تقترف خطأ (ألفافيل)..
نظر الرجل ذو الأذرع الستة نحوها.. وغمغم:
- إن (زيروكس) يؤدي عمله.. لكنه بطيء الاستجابة للمؤثرات..
- (زيروكس)؟
- نعم.. جهاز الكمبيوتر الخاص بالتنبؤ بنتائج المعارك.. لكن ذاكرته قد صارت مكتظة وبالتالي بطيئة.. لقد تجاوزنا 256 ميجا بايت.
كانت تذكر شيئًا عن هذا، منذ كانت تعمل في مكتب كمبيوتر.. لهذا سألته وهي ترمق المعركة:
- لماذا لم تزيدوا سعة الذاكرة؟
- إن هذا يكلف مالًا كما تعلمين.. وقد تجاوزنا فترة الضمان!
- فهمت.
وهنا ازدادت المعركة حدة.. وبدأت كفتها ترجح، ليس الصالح الثوار طبعًا..
وسمعت (عبير) ذا الأذرع الستة يغمغم وهو يتأمل الشاشة:
- غريب هذا.!. لقد عبروا من ثقب حزام الطاقة.. الحزام الذي فتحناه، لنسمح لمكوكك بالدخول..
وهنا اقتحم رجل - يشبه الخرتيت - الغرفة، وحسبته (عبير) يهم بمهاجمتها، ثم أدركت أنه (حليف) إذ صاح:
- يا أميرة.. نحن لم نعد نضمن سلامتك.. وأرى أن تغادري الكوكب حالًا؛ لأن نتيجة المعركة لا تبشر بخير..
- ولكن....
- هيا.. لا وقت للتردد..
وجذبها من ذراعها، وراح يركض وهي تركض خلفه.. بينما راحت الأرض تهتز، والانفجارات الزرقاء والحمراء تتناثر حولهما..
وأخيرًا - في قبو منحدر - وجدت (عبير) مكوكًا في حجم السيارة، وعرفت أن عليها أن تدخله وتغلقه عليها.. ثم تنطلق.. إلى أين؟ لا يهم الآن.. المهم أن تبتعد قبل أن...
فهاااااام!.. انفجر الرجل فتناثرت أشلاؤه الإلكترونية في المكان.. من ثمّ وثبت (عبير) إلى المكوك.. جذبت المقبض فانفتح.. دخلته فانغلق الغطاء وراءها..
كيف يتحرك هذا الشيء؟
قنبلة تنفجر على يمين المكوك...
المفترض أن تجد نفسها تجيد القيادة، كما حدث حين كانت جاسوسة..

قنبلة أخرى على اليسار.. تبًّا.!.
مئات الأزرار تتراص في غباء أمامها ككتلة من غموض..
اللعنة..!.. ألن......؟
هي ذي ضربة مباشرة أمامها...
والضربة التالية كانت أكثر قربًا......

∞∞∞∞∞∞

4- جالاكتيكا..

كان العرق البارد يغمر وجهها، ويسيل على عنقها..
مستحيل أن يكون كل هذا وهمًا...
إنها توشك أن تموت رعبًا.. ولو ماتت لانتهى كل شيء..

∞∞∞∞∞∞

وهنا رأت على الشاشة الصغيرة الموجودة على التابلوه أمامها وجه فتاة.. فتاة حسناء، لكنها باردة ثقيلة الظل ميتة العينين.. وسمعت صوتها.. وأدركت أنها تكلمها هي.. فليست مذيعة تلفزيون إذن.. لنر ما تقول:

- مرحبًا يا أميرة.. أنا (أوميجا ـ 3) الملاح الخاص بك..
- ل.. لكنك فتاة..
- آه!.. هذا هو الشكل الذي اختارته (وحدة الفيديو الرقمية) لمخاطبتك.. والآن لنر ما هنالك.. يبدو لي أنك في ورطة معينة..
- نعم.. نعم.. لم يخنك حدسك يا آنسة (أوميجا)..
- جميل.. أرى أن نسارع بالإقلاع إذن.. ثم نثرثر بعد ذلك..
- قرار صائب..

وفي اللحظة التالية مال المكوك، لترتفع مقدمته إلى أعلى.. وهدرت محركاته.. ورأت (عبير) السقف ينفتح كاشفًا عن سماء سوداء تحلق فيها أجسام سوداء تبعث اللهب حولها...
ثم انطلق المكوك كالقذيفة عبر الفتحة...

∞∞∞∞∞∞

ومن وراء الزجاج رأت (عبير) الطائرات السوداء التي كانت تراها بالرادار المجسم.. ولكن بالحجم الطبيعي هذه المرة، فقد كانت الأخت (أوميجا- 3) تمرّ بينها الآن..
وارتجفت إذ ترى ثلاثًا منها تدور في منحني غير معقول هندسيًّا ولا فيزيائيًّا، ثم تلحق بها مكونة شكل رأس الحربة..

- (أوميجا)!.. افعلي شيييييئًا!

بنفس البرود قالت (أوميجا) وهي تبتسم:

- إنه التشكيل المحبب لدى مقاتلي (جالاكتيكا).. ثلاث طائرات.. ثلاث قذائف تتلاقى جميعًا عند الهدف.. إن هذا يجعل نسبة الإصابة 99.9934 %..
- وهل هذا يثير بهجتك؟
- أنا كمبيوتر.. ولا شيء يبهر الكمبيوتر سوى الدقة.. وعلى كل حال أرى أنهم يكتفون بملاحقتنا ولا يطلقون شيئًا..
- هذا مريب..
- حقًّا.. لكنه إيجابي لمتوسطات العمر..

من الزجاج ترى (عبير) أن الأعداد المحيطة بها من الطائرات تتزايد بشكل مطرد.. حوالي ثلاثين طائرة تحيط بالمكوك الآن، والأمر لم يعد مطاردة قدر ما صار موكبًا..
نظرت إلى الشاشة باحثة عن إجابة لدى الكمبيوتر:

- (أوميجا).. لماذا يفعلون ذلك؟
وفجأة تلاشت صورة الفتاة، لتحل مكانها صورة لوجه رجل مشعث ملتح، في عينيه شراسة واضحة، لكن حركته المتقطعة غير السلسة أكدت لها أن هذا كمبيوتر آخر..
- مرحبا يا أميرة.. أنا (إبسلون) الكمبيوتر المكلف بالسيطرة على هذا المكوك لأصحبك إلى (جالاكتيكا)..!
(جالاكتيكا)؟ يا للمصيبة!.. إذن هي في قبضتهم ثانية!
- ولكن...
ابتسم الوجه في ثقة.. وغمغم:
- لا مشاكل هنالك.. إن كتيبة المقاتلات (إف - 1600) تحمينا؛ حتى نصل إلى هناك، وحتى أكسر الملل سأعرض عليك نتائج حملتنا الموفقة على كوكب المتمردين..
المتمردين؟ بالطبع.. دائمًا هناك حكام وثوار.. الثوار يسمون الحكام ب. (الطغاة).. والحكام يسمون الثوار ب. (المتمردين).. وعلى الشاشة راحت - في هلع - ترقب خرابًا كخراب (سدوم).. الأرض نفسها تحولت إلى حفرة كبيرة.. واختلط الغبار الأزرق بأسنان وأنامل من كانوا ثوارًا منذ نصف ساعة.. ورأت كتلة مشتعلة لها ذراعان وساقان تتلوى باحثة عن مفر..
الجديد أنها قرأت شعار CNN عند ركن الشاشة الأيسر..
- إنها لمجزرة!
- بل هي جراحة ضرورية لاستئصال ورم خبيث..
ومن النافذة ترى (عبير) كوكبًا يتألق في ضوء النجوم.. كوكبًا من المعدن كله، حوله، ومنه، وإليه تحلق السفن، والصواريخ، والمكوكات..، وكان هناك كوكب صغير يشبه الكشاف يدور حوله متألقًا لامعًا.. أدركت أنه نوع من الشمس الصناعية صنعها (الحكام) لتدور حول كوكبهم التخليقى..
قال الكمبيوتر:
- مرحبًا بك في (جالاكتيكا).. إمبراطورية المجرات..
ثم راح كمضيف طائرة يقرأ لها درجة حرارة الجو.. والرطوبة.. إلخ:
- لا تنسي الحذاء الممغنط.. إن (جالاكتيكا) بلا قوة جاذبية كما تعلمين.. وكذلك قناع (النتروجين).. ف. (جالاكتيكا) لا تملك غلافًا جويًّا.. وعلى كل زائر أن يحمل معه (غازه)..!
- غازه؟
- حتمًا.. أنت والجميع تتنفسون (النتروجين).. كائنات (بلغور) لا تتنفس إلا (الميثان).. كائنات (كاليا) تتنفس (الزينون).. كائنات (فيدرا) لا تتنفس أساسًا.. بل إن هناك - تصوري هذا - كائنات فوق كوكب الأرض تتنفس (الأكسجين)!!
- يا لشذوذ الذوق!
- لكن هذا يمنح الكون القدرة على الاستمرار.. ولولا غازات البطن التي تخرج من سكان (بلغور) لما وجد سكان الأرض أكسجينًا؛ ليتنفسوه..!.. والآن.. هيا.. ستجدين كل شئ تحت تابلوه القيادة..
- وكيف عرفت؟
- أسئلتك غريبة.. بالطبع؛ لأن كل هذه المكوكات تحوي ذات الأشياء.. هيا.. ارتدي ثيابك..
- لن أفعل هذا أمامك!
- غريب!.. قلت لك: إنني صورة كمبيوتر.. ربما أبدو وقحًا أو سمجًا لكن لا ذنب لي في ذلك..

وعلى كل حال سأظلم الشاشة لمدة دقيقتين تستعدين فيهما..
وأظلمت الشاشة فمدت (عبير) يدها باحثة تحت التابلوه، حتى وجدت خزانة بداخلها بذلة ذات ملمس كملمس تعبان.. وحذاءان غريبا الشكل، وخزانة عملاقة تثبت على الكتفين تخرج منها خوذة من البلاستيك الشفاف المرن..
بحذر راحت ترتدي هذا كله، ووجدت في نطاق البذلة عدة صمامات كُتب على كل منها اسم غاز: (نتروجين) - (أوكسجين) - (أول أوكسيد الكربون) - (ميثان) – (زينون) - (هليوم).



بحذر راحت ترتدي هذا كله، ووجدت في نطاق البذلة عدة صمامات..

فضغطت على زر (النتروجين) كما علمها (المرشد).

هنا عاد وجه (إبسلون) الوقح على الشاشة:

- هل فرغت يا (أميرة)؟ رائع!.. والآن نحن ندخل مجال (جالاكتيكا) الثالث..

∞∞∞∞∞∞

كل شئ معدنى.. البنايات.. الشوارع.. الناس..
وها هي ذي تنحدر إلى أسفل، والدخان يتصاعد حول المكوك، ليستقر ببطء فوق رقعة مرسومة على الأرض باللون الأبيض.. ورأت رجلًا يدنو منها حاملًا قطعة قماش في يده:
- هل ستتأخرين يا آنسة.. غسيل؟![4].
هزت رأسها أن لا وهي تمدد جسدها خارجة من المكوك.. وكان هناك رجل يحمل دفترًا ويخاطب رجلًا آخر في مكوك أنيق الشكل:
- هذه الرخصة لم تجدّد.. أنت في مشكلة يا صديقي!
ورأت رجلًا يتلفت حوله، ثم يهشم زجاج أحد المكوكات الواقفة وينتزع من داخله شاشة الكمبيوتر، ثم يولي الأدبار حاملًا غنيمته..!..
وفجأة وجدت ستة رجال يحملون البنادق، ويرتدون خوذات، يبدو من مظهرها أنهم رجال شرطة..
دنوا منها.. وقال لها أولهم بلهجة رسمية:
- الأميرة (كارا).. إن (زولتار) ينتظرك!!
يا للهول..!.. (زولتار) شخصيًّا ينتظرها..
ابتلعت ريقها ولم تدر ما تقول.. إن الفرار من هذا العالم لهو محاولة انتحار.. كيف فرت أول مرة؟ يبدو أن ذلك الوغد (كوزموس) كان على شيء من صواب..
في صمت مشت بين صفوفهم عبر الشارع المعدني..
ورأت شيئًا يشبه كابينة الهاتف - لكنه أكبر حجمًا – في نهاية الطريق.. وانفتح الباب فدخلت مع حراسها..
ضغط أحدهم بعض الأزرار، وفي اللحظة التالية تلاشى الشارع المعدني والكابينة من حولها..
وأدركت أن هذا هو جهاز (الناقل) الذي ينقل الجزيئات عبر المسافات.. كل روايات الخيال العلمي جعلته يبدو ككابينة الهاتف.. ويبدو أن لهذا قوة القانون..

∞∞∞∞∞∞

قاعة طويلة رهيبة تتوسطها مائدة عملاقة..
على المائدة يجلس عشرة أشخاص يرتدون السواد..
وعيونهم تلتمع حدة وتشككًا.. وجميعهم ينظرون نحوها..
وعند طرف المائدة يقف رجل فارع القامة، على وجهه قناع عبارة عن تراكيب معقدة من الخراطيم، وأجهزة التهوية والكشافات الصغيرة..
وأدركت أن هذا هو (زولتار)..
قال الرجل بصوت عميق رنان آلي إلى حدّ ما:
- مرحبًا يا (ليا).. تقدمي.. إن الحكام العشرة ينتظرونك.. انزعي قناعك فالجو يغص بالنتروجين..
(ليا)؟ هذا غريب!.. هل هي (كارا) أم (ليا)؟ على كل حال ليس أمامها سوى أن تصدع بالأمر..
نزعت قناعها، وهزت رأسها يمينًا ويسارًا؛ ليتساقط شعرها على الجانبين.. ثم تقدمت في وجل من المائدة، ووقفت جوارها..

قال (زولتار):
- عمل مجيد هو ما قمت به يا (ليا).. لقد خدعت المتمردين وجعلتهم يتوهمون أنك أميرتهم (كارا) التي قتلناها منذ أسبوع.. لقد أجدت لعبتك.. ولكن حماقة (كوزموس) الذي رغب في الحكم كادت تفضح أمرك.. لولا أن لقنك جهاز الكمبيوتر (يونيفرس) الإجابات الصحيحة، ولقد نسي المتمردون حزام القوة مفتوحًا بضع دقائق.. لكنها كانت كافية، كي تتسلل مقاتلاتنا منه..
وأشار إلى خريطة على الجدار، وقال:
- صحيح أننا لم نبدهم تمامًا، فقد تمكن بعضهم من الفرار.. لكن هذه ضربة قاصمة لهم.. وسيحتاجون إلى وقت ثمين؛ ليحشدوا قواهم..
ابتلعت (عبير) ريقها.. إذن فهذه هي الحقيقة.. لم تكن أميرة الثوار.. بل جاسوسة الحكام، وكانت مخلب قط طيلة الوقت.. وهي المسئولة بالكامل عن هذه المذبحة..
لهذا اكتفت المقاتلات بحراستها ولم تهاجمها..
يا للعار!.. يا للخزي..!
وهنا رفع أحد الجالسين يده إلى أعلى وكور قبضتها.. وعوى كالذئاب..، فقال (زولتار):
- الحاكم (بنتا) يطلب الكلمة.. قل ما عندك..
نهض (بنتا) وضم عباءته إلى جسده.. وهتف:
- المجد لك أيا (زولتار).. إن حكمتك لأوسع من فهم الحكام.. لكن هذه الفتاة لم تؤد لك تحية الإمبراطورية..
التفتت العيون كلها إلى (عبير)، ونظر (زولتار) نحوها برهة.. ثم إنه غمغم في شرود:
- حقًّا؟ ما كانت (ليا) لتنسى هذا!!
في تعصب هتف (بنتا):
- أخال المتمردين قد كشفوا مؤامرتنا القذرة، وأرسلوا لنا نسخة مزيفة من (ليا) لتجسس علينا.. ربما كانت (أندرويد). فالمتمردون يجيدون عمله.. يجب أن تثبت شخصيتها!
نظر (زولتار) إلى (عبير).. وبهدوء قال:
- هذا ليس عسيرًا.. إن (ليا) تعرف عدد أسناني المسوّسة.. فهل لك أن تذكرى لى عددها يا (ليا)؟!

∞∞∞∞∞∞∞

5- السجن - المثقب - وأشياء أخرى..

في هذه المرة لن تكون هناك إيحاءات خفية قادمة من مكان ما.. ما دام (زولتار) هو صاحب هذه الإيحاءات..
يا له من مأزق عسير..!

∞∞∞∞∞∞

رفعت عينيها ببطء نحو (زولتار).. وقالت:
- ضرسان مسوّسان!
- فقط؟
- ضرسان وناب؟
- ربما أربعة؟
- لا.. ولكن.. نعم.. أربعة.. ضرسان ونابان..
راح الرجل يضحك.. يقهقه.. ومعه قهقه الحكام العشرة الجالسون.. وأدركت (عبير) أن الإجابة خطأ..
قال (زولتار) حين استعاد تنفسه:
- الواقع يا صغيرة أنني لا أملك أسنانًا مسوسة.. لا أملك أسنانًا على الإطلاق.. بل أنا بدون رأس أساسًا.. هذا القناع يؤدى لى ما يؤديه الرأس.. أما (زولتار) فكتلة من طاقة..
وأردف وهو يضغط زرًا أمامه:
- الآن نعرف يقينًا أنك لست (ليا).. أنا كنت أحب (ليا) كثيرًا.. ولسوف تفسرين لنا ما حدث لها.. بعدها نقوم بتهشيم جسدك لمعرفة هل أنت (أندرويد) أم (روبوت) أم (كلون)؟
- ودخل القاعة عشرة رجال مدججين بالسلاح، وعلى وجوههم خوذات، وأقنعة الشرطة، فأشار لهم أن يصحبوها:
- خذوها إلى حجرة الأكسجين..
ووجدت (عبير) نفسها تمشي بين الحراس مغادرة القاعة، ولم تنظر وراءها، لترى جلاديها..

∞∞∞∞∞∞

كانت حجرة الأكسجين حجرة معدنية ملساء ملأي بالصمامات، وعلى الجدار وجدت (عبير) عبارات من نوع:
الموت ل (زولتار)..
تسقط (جالاكتيكا)..
فلتحيي الثورة..
وواحد أكثر ميلًا للثرثرة كتب على الجدار المعدنى:
- إنني أختنق.. الموت للحكام ول (زولتار).. ولكم جميعًا!
جلست على الأرض، وراحت تنتظر..
بعد هنيهة أدركت أنها موشكة على الاختناق..
بالتأكيد..!.. ألم يقل (زولتار): إن هذه هي حجرة (الأكسجين)؟

ألم يقل (المرشد): إنها صارت كائنًا نتروجينيًّا؟
إن هذه الغرفة - إذن - هي البديل الفضائي لحجرة الغاز الشهيرة.. ويبدو أن مغامرتها تدنو من نهايتها..
وفي وسط الغرفة وقف (زولتار) يرمقها في حدة، عاقدًا ذراعيه على صدره.. وبصوت عميق سألها:
- ماذا حدث ل. (ليا)؟
جاهدت كى تتنفس، وبصعوبة استطاعت أن تسأل:
- ك.. كيف تتنفس أنت؟
- أنا لست (زولتار).. أنا صورة هولوجرافية مكلفة بالاستجواب.. ولا داعي لمزيد من العنف.. إن الأكسجين سيذوب في دمك.. ويتحول إلى فقاقيع كماء يغل.. عندئذ تنزف شبكيتك وكليتك وتنسد شرايين فمك..
ورفع أصبعه السبابة منذرًا:
- كل هذا لو لم تصارحيني: أين (ليا)؟
- لا.. لا..أء.. أعرف....
- إن هذه هي الإجابة الخطأ..
تكذب؟.. لم لا؟.. إن هذا لن يضاعف عذابها..، إن نهايتها محددة على كل حال..
- ل. (ليا) الآن في كوكب المتمردين...!
- ولماذا لم يجدها رجالي؟
- ل. لأن.. لأنهم داروها في أعماق الك.. الكوكب بعيدًا عن هجوم.. إفت.. افتراضي..
هزَّ رأسه في شك..
مدّ يده إلى نطاقه وأخرج شيئًا يشبه القلم.. ذا رأس متألق، وصوبه عليها بضع ثوان..
ثم غمغم وهو يعيده لنطاقه:
- غريب!.. أنت تتألقين بلون أخضر.. جهاز كشف الكذب يقول: إنك صادقة.. ولعمري هذا يخالف اعتقادى.. يخيل إليّ أن جهاز كشف الكذب هو الآخر كاذب.. لكني سأنقلك الآن إلى معمل الفحص.. لن أتعجل تشريحك قبل أن يفتش رجالي كوكب المتمردين بعناية.. من يدري؟ لربما احتجنا استجوابًا آخر..
وفي اللحظة التالية تلاشت الصورة الهولوجرافية..
كانت قد قرأت لفظة (هولوجرافي) في مكان ما، لا تذكر ما هو، ولكم تمنت لو تذكرت أين ومتي.. على كل حال هي تعرف أن اللفظة تعني (شيئًا ما).. لا يهم كنه هذا الشئ.. إنها تتنفس وكفى..
ولكن - يا لمواهبها الخفية، - كيف خدعت كاشف الكذب هذا؟ هي التي لم تعرف أصلًا أنه كاشف كذب...
لقد كان (زولتار) هو ذاته ملاكها الحارس في معسكر الثوار.. فمن هو ملاكها الحارس هنا؟

∞∞∞∞∞∞

تبًّا لمعمل الفحص هذا!..
كان هناك روبوت سمج عبارة عن رأس مزود بكاميرا، ويدين طويلتين ذاتى كلابات.. حملها وكبلها إلى منضدة تشبه مناضد التشريح..

ثم راحت عدسات الكاميرا تتأملها عن كثب، على حين ازدحمت عشر شاشات حولها بصور لهيكلها العظمى.. وصور لأحشائها إذ تعمل.. ورأت - مذعورة – مخها يتألق بضوء فوسفوري أخضر على إحدى الشاشات.. ثم سمعت الصوت الميكانيكي البارد يدوي:
- النوع أنثي.. نمط التشريح الأوّلى يدلّ على أصول من درب التبانة..، دوائر متكاملة، رقائق بيولوجية:
سلبى،.. دم حار خلوى.. نبضات مخية.. النتيجة:
سلبي للأندرويد..
سلبي للروبوت.. ربما هي (كلون)..
لم تعتد (عبير) أن تعامل بهذه القسوة..
كأنها سيارة، يتم تقييم كفاءة الموتور الخاص بها بالكمبيوتر..
على حين عاد الصوت الآلى يردد:
- الرقم البيولوجي للحمض النووي هو (5481794).. نكرر.. الرقم البيولوجي هو (5481794)..
هنا دوّى صوت شبه آدمي يتساءل:
- غريب هذا يا (يونيفرس)!.. إن هذ الرقم عتيق جدًّا.. لم تعد هناك أرقام بيولوجية مماثلة إلا في مومياوات الأرضيين..
- أنا لا أخطئ يا (زيرا).. هذا الكائن منقرض أساسًا.. وعلى كل حال هو لا يمت بصلة لـ (ليا).. لقد كان الرقم البيولوجي لهذه الأخيرة هو (04736543689).
- هذا قريب من الصواب.. فـ (ليا) من كوكبة (القنطورس).. وكل سكان (القنطورس) يحملون الرقم البيولوجي البادئ بـ (047)...
هنا تصاعد الدم إلى رأس (عبير)..
في حنق صاحت محاولة تحرير نفسها:
- تبًّا لكم... هل تتكلمون عن بشر أم عن كود النداء الآلي لسنترال (كفر الشيخ)؟! ألن ينتهي هذا الهراء؟
دوّي صوت الآدمي إياه يسأل الكمبيوتر غير عابئ باحتجاجها:
- قل لى يا (يونيفرس).. نحن بحاجة إلى جزء من المخ!
- سمعًا وطاعة يا (زيرا)!
صاحت (عبير) وقد فقدت التحكم في أعصابها:
- مخ؟!.. عم تتكلمون أيها الحمقى؟
وهنا رأت ذلك الشيء الشبيه بمثقب طبيب الأسنان، يتقدم ببطء قاصدًا فتحة أنفها!..
نعم.. هي تعرف أن هذا الطريق يؤدي إلى المخ.. عن طريق الصفيحة المثقبة التي يخرج منها عصب الشمّ..



وهنا رأت ذلك الشيء الشبيه بمثقب طبيب الأسنان يتقدم ببطء قاصدًا فتحة أنفها!..

لكن إذا أراد أحد الدخول إلى مخها، فلن يكون ذلك وهي متيقظة.. وحتمًا لن يكون عن طريق هذه الآلة الحمقاء..

- أيها الملاعين!..
لم يكن هناك ما يتحرك سوى رأسها، فراحت تطوحه يمينًا ويسارًا؛ لتعقد الأمر على (يونيفرس)..
- الكائن يقاوم.. انتقل إلى التثبيت..
وفوق رأسها نزلت خوذة ضيقة.. ضيقة وثابتة في موضعها، بحيث غدا تحريك الرأس مستحيلًا..
المثقب يدنو من أنفها أكثر.. فأكثر..
وفي سرها دعت الله أن يكون المهندس الذي صنع هذا الشيء يعرف ما يفعله..
لو أن هناك ملليمترًا واحدًا خطأ.. فلسوف...
وشعرت بالشيء يدخل أنفها.. تبًّا... يا له من شعور مقيت!.. تريد أن.. أن تعطس..!.. آآآآ تشووووه!..
وهنا كف المثقاب عن الحركة..
نظرت حولها فوجدت الظلام يسود القاعة، وكل الشاشات مطفأة.. ولم تعد هناك ضوضاء ولا أحاديث إلكترونية..
إذن فهذا العصر يعتمد على الكهرباء!
لقد انقطع التيار الكهربي، كما كان يحدث في دارها في (غمرة)..
وانقطع في أسخف اللحظات وأسوئها..
كيف تتحرر من هذا المثقب إذن؟!

∞∞∞∞∞∞



6- الجوّال..

سمعتْ صوتًا غريبًا أقرب ما يكون إلى صوت أسلاك يحرقها ماس كهربائي، وأدركت أن شيئًا ما يحدث.. لكن ما هو؟

إن هذا الشيء في أنفها يمنعها من الحركة..

سمعت أصوات جلبة.. أصوات التحامات.. صوت من يصرخ، كأنما ينتزعون لسانه..

في اللحظة التالية اقتحم المكان رجل يرتدي لثامًا، وثيابًا مبعثرة غير مهندمة..

ورأته ينحني؛ ليفرغ شحنة أخرى من طلقات الليزر صوب الباب.. أصوات صراخ.. ضوء الليزر الأزرق الساطع يغمر المكان لربع ثانية.. ثم رائحة الماس الكهربى إياها..

يدنو منها.. عيناه الحادتان من فوق اللثام ترمقانها.. ثم:

- لا تهابى شيئًا.. سأحررك حالًا!

وصوب السلاح نحو الكلابات المتدلية، ويضغط الزناد..

تناثرت الشظايا الملتهبة في كل مكان، وعلى المنضدة سالت قطرات من معدن مصهور..

إن المقتحم ينزع المثقب من أنفها.. ويرميه جانبًا.. بعزم ينهضها.. بثقة يناولها سلاحًا.. آمرًا يشير نحو الباب.. الرسالة لا تحتاج إلى ترجمة..

هناك من يحاول اقتحام الباب.. بالطبع (منهم) وليس (منا).. وإن كانت لا تعرف بعد من هؤلاء ال. (منا)..

ضغطت على أسنانها والزناد في ذات اللحظة..

كان الزناد منزلقًا مرنًا.. ورأت الضوء الأزرق الساطع ينبعث من الفوهة.. وسمعت ال. (ززززززززز) المميزة لبنادق الليزر (وهو اتفاق آخر بين كتاب الخيال العلمي أن تصدر بنادق الليزر صوت أزيز)..

في اللحظة التالية تألقت الأجساد المحتشدة على الباب كأنما بفعل البرق.. وشمت رائحة الماس الكهربائى..

ثم ساد السكون.. وتناثر الغبار على الأرض..

ما أسهل القتل التكنولوجي!.. لا ماء ولا صراع ولا ألم.. فجأة ينضغط زرّ فيشطب اسم رجل أو اثنين من قائمة الأحياء.. والأمر بعد ذلك مسلّ كلعبة (فيديو) من التي كان الصبية يلعبونها في مكتب (صفوت)..

- أسرعى!.. إن مكوكى مختبئ في فتحة الصرف!

قالها وهو يجدّ السير عبر الممر..

أسرعت باللحاق به، شاعرة باستمتاع حقيقى..

ها هي ذي قد صارت بطلة من بطلات قصص الفضاء، تركض بين ممرات كوكب غريب حاملة سلاح (ليزر).. دززززززز!.. المزيد من الأوغاد..!.. أطلق في هذا الاتجاه.. ززززززز..!.. إن هذا الغريب سريع الانعكاسات دقيق التصويب حقًّا.. دززززز..!.. لقد بدأت أجيد استعماله..!

وأخيرًا وصلا إلى فتحة التهوية - أم لعله الصرف؟ فمدّ الغريب يده وانتزع جزءًا من الجدار المعدني، ودفعها إلى الداخل.. ثم لحق بها.. وأطلق طلقة (ليزر) تحذيرية..

كان المكوك يقبع في الظلام وسط بركة من القاذورات عفنة الرائحة.. مدّ يده يبحث في جيبه وأطلق سبّة:

- اللعنة!.. نسيت مفاتيحى بالداخل!
- داخل المكوك؟!
- نعم.. هذا يحدث لي دائمًا..
- إذن.. هشّم الزجاج..
- هل تمزحين؟ أهشم زجاج مكوك سيعبر الفضاء؟ ثم إنه صلب جدًّا..
كان صوت طفل يصرخ يدوي في الأجواء..
وأدركت (عبير) أن هذا هو صوت صفارة إنذار جالاكتيكية، وحتمًا سيهرع إلى المكان عدد لا بأس به من الرجال المعدنيين.. وسيصير الأمر شديد التعقيد..
- ماذا ستفعل؟!
تساءلت شاعرة بحنق شديد.. فهي لم تتصور الأمور في الفضاء بهذا السخف.. ليس المكوك شيئًا يعامل معاملة سيارة (سيات) نسيت مفاتيحها، وعليك أن تجد الميكانيكي الذي يستطيع فتح بابها..
صوت صفارة الإنذار يتردد..
وهنا صاح الغريب وهو يضرب رأسه بقبضته:
- بالتأكيد لم أنسها بالداخل.. لقد سقطت منى هنا..!
- وسط هذه القذارة؟
- حتمًا.. تعالي وساعديني في البحث..
ووجدت (عبير) تفسها راكعة على ركبتيها وسط السائل الأخضر المقيت، عفن الرائحة، تفتش بأناملها عن شئ صلب معدني..
تساءلت وهي تكتم أنفاسها:
- هل هذا مرحاض؟!
- لا.. - وهو يلهث - أنت تعرفين ذلك الإفراز الذي يخرج من أنوف وآذان رجال (جالاكتيكا).. لابد من التخلص منه في هذا الأنبوب، ثم يقذف الأنبوب كله إلى الفضاء..!
- يع!.. إن هذا لا يثير شهيتى..!
وفجأة سحبت يدها في هلع هستيري من السائل:
- ثمة ثعبان هنا!.. لقد شعرت بجسده..!
مدّ الغريب يده حتى المرفق؛ يفتش في المكان الذي كانت تبحث فيه.. وقال في رضا:
- ليس ثعبانًا يا صغيرة.. بل هو المفتاح!
وبعين ذاهلة رأت (عبير) يده تقبض على شيء طرى لا يختلف في شكله عن الثعبان.. والمادة الخضراء تسيل منه..
ورأته يقربه من قفل الباب، فإذا بالثعبان يتلوى ويدسّ نفسه في القفل حتى غاب داخله.. وسمعت التكة المطمئنة.
- حسن.. لنركب!
وثبت جواره داخل المكوك.. وانغلق الباب..
وضغط على زر القيادة، فاندفع المكوك كالسهم عبر جدران الأنبوب..، تحول الجدار إلى خطوط سرعة براقة على الجانبين.. تأتي من مكان ما؛ لتختفي في مكان ما..
- سنغادر الأنبوب والكوكب بعد ثانية.. أنا بحاجة إلى (إكس) في هذا الجزء..
وضغط زرًّا آخر، فظهرت على الشاشة التي أمامه صورة فتاة شقراء حسناء، وإن بدا واضحًا أنها

إلكترونية هي الأخرى.. قالت بصوت آلي كئيب:
- التحية أيها الجوّال.. سأحاول تحطيم البعد الخامس وإلا فلا أمل لنا في اختراق الحصار حول الكوكب..
- يجب أن تفعلى يا (إكس).. لقد فعلت هذا في أثناء مجيئنا..
- قلت: إنني سأحاول.. لكن لا تنس أنهم الآن يقظون كالموركا.
استنتجت (عبير) الآن عدة نقاط:
1- الرجل يدعى الجوّال.
2- أهل هذا الكوكب قد حطموا البعد الخامس.
3- الموركا - حتمًا - حيوان يُضرب به المثل في اليقظة.
4- اللحظات التالية تحمل خطرًا داهمًا عليهما.
وفي اللحظة التالية ازدادت سرعة انزلاق الجدران على الجانبين.. اللون الأبيض اللامع يستحيل إلى الأحمر فالأزرق.. وعندئذ رأت الفضاء الأسود الفسيح بنجومه ونيازكه ومجراته..
وأطلق الجوّال صرخة فرح عارمة:
- يا هوووووه!.. لقد نجحنا..!.
قالت (إكس) في رزانة:
- أي وقت أيها الجوّال.. أي وقت!.
قال الجوّال وهو يسترخي في جلسته:
- والآن يا (إكس).. يمكنك أن تتولى أنت القيادة.. لا توجد مشاكل في طريقنا إلى الأرض..
- ليكن يا جوّال.. هل تريد برنامجًا ترفيهيًّا؟
- نعم.. موسيقا.. أغنية (صباح) الأخيرة.. ومباراة كرة القدم بين الأهلي والزمالك.. إنها تدور الآن في الأرض..
ودوّي صوت الأغنية.. أما على الشاشة فرأت (عبير) القاتلات الحمراء والبيضاء المميزة.. لكنها أدركت أن لعبة كرة القدم قد تبدلت قليلًا.. عدد اللاعبين ثلاثون من كلا الفريقين.. والكرة عبارة عن كتلة مشعة من الطاقة عليهم تجنبها بأي ثمن، لأن من تلمسه الكتلة يتفحم فورًا..! وتكمن المهارة هنا في مراوغة الكرة إلى أن تسقط سجينة في مفاعل نووي صغير على الجانبين هو المرمى..
أما حكم المباراة فجهاز (كمبيوتر) يحلق على ارتفاع ستة أمتار، يرقب ما يدور.. ويطلق شعاع الليزر ليحرق أصحاب (الفاولات)..
وبرغم هذا كان هناك الكثير من الاحتجاج على الحكم، وكاد أحد اللاعبين يضربه.. لكن الحكم أحرقه دون نقاش..
- رياضة عنيفة حقًّا هي كرة القدم..
قال الجوّال وهو يمدّ يده في جيبه:
- إن الجماهير متعطشة للدماء كما تعلمين.. هل لك في بعض أقراص النعناع؟
نعناع؟!.. هاهي ذي تنظر إليه في اهتمام.. الآن تفهم سر الشعور بالألفة الذي ينتابها كلما سمعت صوته..
برغم القناع الذي يغطي وجهه، تدرك الآن أن هذا هو (شريف)!.. (شريف) زوجها.. لقد ظهر في أحلامها للمرة الأولى، لينقذها.. واسمه هنا هو (الجوّال)..، ولكنه بالتأكيد لا يعرفها الآن.. لقد استخدم (دى - جى - 2) وجهه فحسب..، ومن المؤكد الآن أن الجوّال هو عنصر الخير الوحيد

في هذا العالم المريـع..
سألته دون أن تبعد عينيها عنه:
- لماذا لا تنزع هذا القناع؟
- تنسين دومًا يا (ميرا) أنني أتنفس الأكسجين.. أنا أرضى، ولا أستطيع تنفس (النتروجين) مثلك..
وفجأة هلل في حبور:
- هدف ممتاز لـ (الخطيب - الرابع عشر)!.. هل رأيته؟
سألته دون أن تنظر إلى الشاشة.
- كيف ولماذا أنقذتنى؟
قال وهو يعيد ضبط الصورة:
- حين تابعت الأحداث بجهاز (المراقبة المتجاهية)، عرفت أن (زولتار) قد اكتشف أمرك.. وعرف أنك لست (ليا).. حاولت أن أحميك بتزييف شعاع جهاز كشف الكذب، لكنهم اقتادوك إلى غرفة الفحص ولم يعد أمامي مناص من الهجوم المباشر، وإلا مزّق الكمبيوتر مخك، قمت بقطع التيار الكهربي عن الغرفة.. وتمكنت بالتالي من تحطيم الباب دون أن تهاجمنى الروبوتات.. والباقي معروف..
- إذن أنا لست (ليا)!
- ماذا دهاك يا ملاكي؟ طبعًا لست (ليا).. أنت (ميرا) عميلة الأرض التي احتلّت مكان (ليا) الجاسوسة الأثيرة عند (زولتار).. ثم إنه أرسلك إلى الثوار؛ لتلعبى دور (كارا) الأميرة..، لقد خدعنا (زولتار) والثوار معًا.. ولولا أنك نسيت تأدية التحية لهذا الوغد لما شك في أمرك، ولظللت تتجسسين عليه للأبد..
- و.. وأين (زولتار) الآن؟
- بالتأكيد يبحث عن (ليا) في قلب كوكب الثوار.. وحتمًا لن يجدها.. وسيعرف أنه كان حمارًا!
اختلطت الأمور في ذهن (عبير).. هل هي (كارا) أم (ميرا) أم (ليا)؟ وما هو المعسكر الذي نال ولاءها؟!



اختلطت الأمور في ذهن (عبير).. هل هي (كارا) أم (ميرا) أم (ليا)؟ وما هو المعسكر الذي نال ولاءها؟!

وما هو دور الأرض في الأمر؟.. ومن هو الجوّال؟

- وأين (ليا)؟

- (ليا) كما تعلمين ترقد الآن في أحشاء (الموركا).. وفجأة رأته ينظر لها في ثبات.. نظرة أثارت رجفتها.. ثم انحنى إلى الأمام وأطفأ الشاشة وخفض صوت الأغنية.. ونظر إلى عينيها مغمغمًا:
- إن أسئلتك كثيرة.. أسئلة لا يمكن أن تسألها (ميرا).. وإنني لأسائل نفسي عما إذا كانت هذه خدعة من (زولتار).. إنه يجيد صنع (الكلون).. ولربما كنت أنت...
- لن نعود لهذا.. إن الملل...
وجدت مسدس الليزر مصوبًا على رأسها.. وسمعته يغمغم:
- إن الطريقة الوحيدة؛ للتأكد هي أن تجيبي عن سؤالى:
ما هو اسم زوجتي السابقة.. ولماذا هجرتْني؟!

∞∞∞∞∞



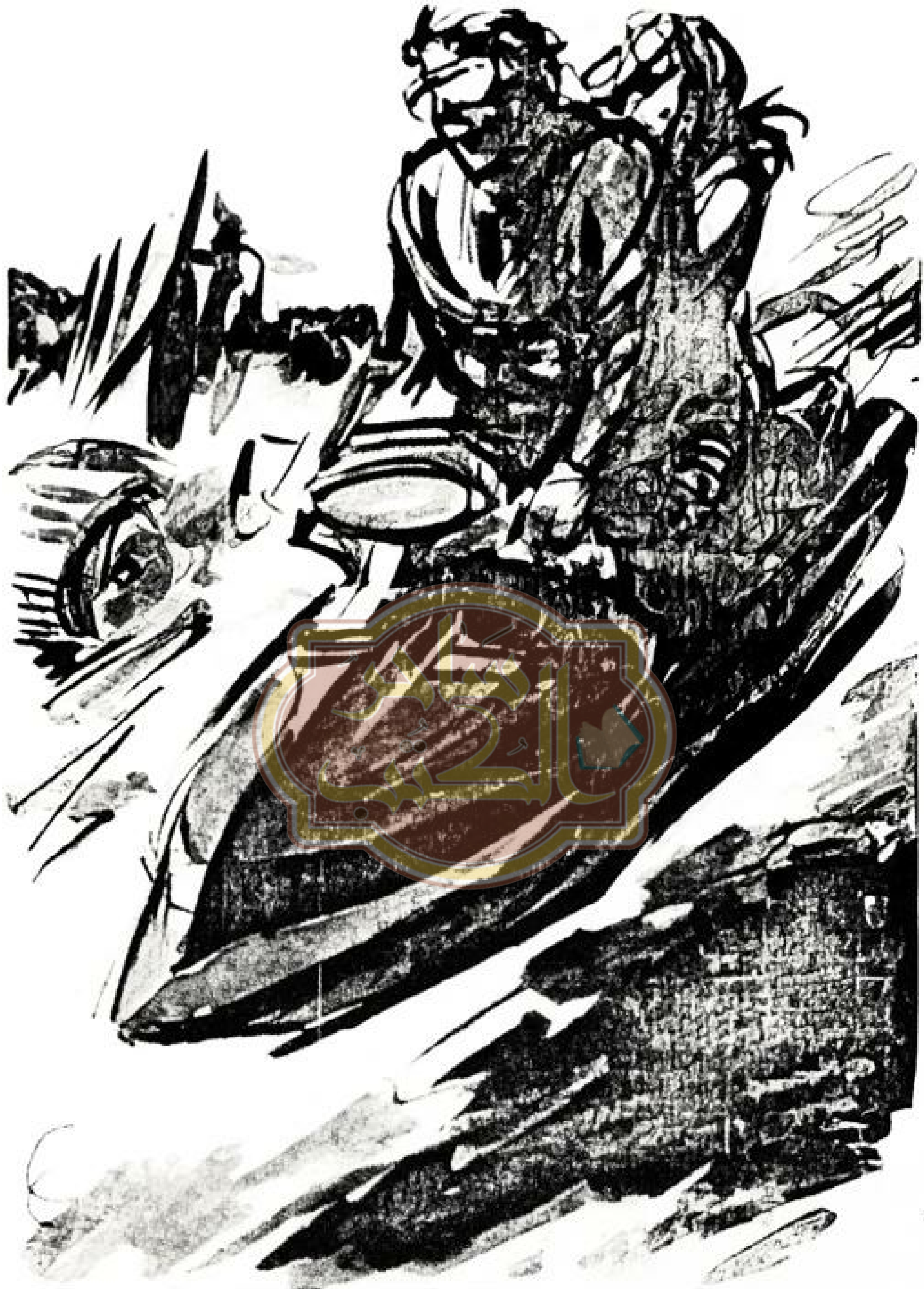
7- الأرض.. ولكن..

هذه المرة (عبير) تعرف الإجابة..
هذه المرة تقولها في ثقة:
- كان اسمها (إيناس).. وقد هجرتك؛ لأنك لا تصلح كي تكون زوجًا أو أبًا.. فأنت إنسان أناني..!
- صدقت!.. أنت (ميرا) حقًّا وإنني لأطلب مغفرتك..!
ومدّ يده يفتح الشاشة، ليواصل مشاهدة المباراة..

∞∞∞∞∞∞∞

من النافذة ترى (عبير) مشهدًا مألوفًا..
ها هي ذي الشمس تسكب ضياءها في الأرجاء، وحولها تدور كواكب المجموعة الشمسية.. عرفتها من ذلك الكوكب الذي تحيط به حلقة متألقة.. (زحل).. بالتأكيد هو..
ثم ترى كوكب الأرض.. هو بعينه.. كما يبدو في أول صفحة من الأطلس الذي أعطوه لها في المدرسة.. كانت هناك عبارة (وزارة التربية والتعليم) على الصفحة اليمني.. ثم صورة المجموعة الشمسية على الصفحة اليسرى.. وصورة لكوكب الأرض ككل..
إنها تميز الجمجمة الإفريقية العملاقة.. والحذاء الإيطالي المتدلّي في البحر المتوسط..
إنهما يهبطان إلى مكان ما في إفريقيا.. ربما في الشمال.. لا تدري بالضبط.. فقط تري الخطوط الزرقاء تتحول إلى أنهار.. والكتل البنية تتحول إلى جبال ووديان..
وتظهر (إكس) على الشاشة؛ لتقول في إنهاك:
- قد وصلنا يا جوّال.. هل من شيء آخر؟
مدّ يده إلى الخزانة أسفل التابلوه.. وغمغم:
- شكرًا يا (إكس).. فقط أريد بذلة (نتروجين) لـ(ميرا).. ويمكنك أن تأخذي قناعى هذا..
ثم تساءل في قلق:
- هل أصبت؟
قالت (إكس) وهي تبتسم ابتسامة مريرة خيل لـ(عبير) أن الصورة شاحبة قليلًا:
- لا شيء.. بعض طلقات الليزر في مضخة (الرادون).. وطلقة (سيجما) في خزان (البلوتنيوم)..
- هذا مؤسف..
- لا عليك.. سأذهب الآن إلى (بيومى) الميكانيكى ليرى ما هنالك، ولا أعتقد أن هذا سيستغرق وقتًا..
- إنه لصّ.. ربما كان (عباس) أفضل[5]:
- (عباس) لا يفهم شيئًا في مضخات (الرادون).
وفي سلاسة ارتفعت مقدمة المكوك إلى أعلى.. ثم راح هذا الأخير يهبط فوق الرمال ببطء.. والرمال تتناثر في كل اتجاه، بعدها عاد المكوك إلى الوضع الأفقى، وانفتح بابه..
وثب الجوّال إلى الخارج.. وصاح في (عبير):
- ارتدى بذلة وقناع النتروجين الآن يا (ميرا)..
ثم دق على جسم المكوك صائحًا:
- وأنت يا (إكس).. يمكنك الذهاب للإصلاح، وأرجو ألا تتحولي إلى خردة..

فرغت (عبير) من ارتداء ثيابها، فوثبت إلى الأرض لتنغرس قدماها في الرمال الناعمة..
ورأت المكوك يغلق بابه.. ثم ينطلق لأعلى.. ثم أفقيًا.. ليغيب وراء الهضاب الصحراوية بعيدًا..
نظرت له للمرة الأولى وقد نزع قناعه..
كان هو (شريف) بعينه..
كان هو (شريف) لو أن هذا الأخير لوحته الشمس، وتشعث شعره، واختلط بالغبار.. وترك لحيته دون حلاقة أربعة أيام..
كان أقرب إلى واحد من رعاة البقر في أفلام (الوسترن) الإيطالية التي يسمونها (سباجتي).. البطل في هذه الأفلام غير مهندم.. مشعث.. غير حليق.. وينقصه التهذيب دومًا..
نظر لها الجوّال في حيرة:
- تحدقين فيّ كأنها المرة الأولى..
- تذكرني بشخص أعرفه..
- لا أعتقد أن هناك من يشبه الجوّال.. إنك غريبة الأطوار اليوم يا عزيزتي..
كانت الشمس حارقة.. وكلما نظرت إلى مكان، وجدت ألوفًا منها تطاردك في كل حدب..
أخرج الجوّال من مكان ما في ثيابه عودًا من قش، ودسّه بين ضروسه يلوكه كعادة الرعاع.. وراح ينتظر..
ضيقت (عبير) عينيها لتتفادي وهج الشمس.. وقالت:
- هل.. أعني هل نحن ذاهبان إلى مكان ما؟
- لا أفهم..
- أعنى.. هل توجد بيوت هنا؟ أي مكان ظليل؟
- إننا ننتظر (هـ)..
- آه.. فهمت!
وفي سرها أطلقت سبّة، لاعنة (دي - جى - 2) وكل هذا العذاب الذي يقدمه لها بدعوى التسلية..
وهنا رأت شيئًا يدنو منهما.. شيئًا أقرب إلى دراجة بخارية، لكنها بدون عجلات.. بل هي تحلق فوق الرمال بمحركات نفاثة.. وأدركت أن هذه هي (هـ)..
ودنا الشيء منهما، ثم توقف على ارتفاع نصف متر فوق الرمال..
- هيا بنا.. لقد أرسلت (إكس) إشارة لـ (هـ) كى يصطحبنا..
وصعد فوق مقعد الدراجة وأشار لها؛ كى تركب وراءه.. لم لا؟ كانت تركب الدراجة البخارية وراء خالها عندما يكون مزاجه رائقًا، أو غير مشغول بإصلاحات كهربائية عند زبون.. كان خالها يجيد القيادة.. ولم تدر قط لماذا يصرّ على تسمية دراجته بكلمة (مكنة)..
ركبت وراء الجوّال.. وأحاطت خصره بيديها.. ليس هذا عيبًا.. فهو زوجها حتى ولو لم يكن يعرف هذا..!..



ركبت وراء الجوّال.. وأحاطت خصره بيديها..

ودوّى المحرك.. واندفعت الدراجة بسرعة البرق فوق الرمال من دون عجلات.. فقط تشعر (عبير) بلفح الوقود النفاث يلمع ظهرها.. يا لها من تجربة مثيرة..

وارتفعت الدراجة فوق حائط الجبال البعيد، ثم عادت تهبط.. وهنا رأت (عبير) مجموعة من الأكواخ البدائية..
غريب هذا..!.. مع كل هذا التقدم؟
وراحت تنظر يمينًا ويسارًا.. كانت هناك دبابات متفحمة ذكرتها بصور رمال سيناء بعد حرب أكتوبر.. وكانت هناك سيارات صدئة جديرة بأن يسيل لها لعاب كل تجار وكالة البلح.. وكانت هناك أشياء شبيهة ب.(متربليوزات) مصوبة إلى السماء..
قال لها الجوّال وهو يواصل التحليق.. ويدس يده في فتحة في تابلوه الدراجة:
- هل تسمعين شيئًا؟ لديّ بعض أغان جيدة من القرن الماضي.. هل تحبين (عمرو دياب)؟!
-.........!!
مدّ يده ودسّ شريط كاسيت في فتحة ما، ودوّى صوت (عمرو دياب) الملتاع يتوسل إلى حبيبته ألا تتكلم في الماضي.. الماضي الذي كان مليئًا بالجراح.. خاصة وهو راض بحبها..
وراح الجوّال يصاحب الأغنية بصوته، أما هي فازدادت حيرتها وعدم فهمها.. ما هذا الزمن؟ وماذا يحدث هنا؟

∞∞∞∞∞∞∞

كان الجوّال يعيش في أحد الأكواخ المنعزلة.. توجد بئر صغيرة جوار الكوخ.. وكلب أصفر هزيل لا يكف عن النباح..
قادها إلى الداخل.. وكانت تضع قناع (النتروجين) إياه مما جعل حركتها ثقيلة نوعًا.. كان الكوخ من الداخل كأي كوخ آخر بنفس المزايا والعيوب..
حشية للنوم على الأرض.. وجتيار معلق على مسمار.. وعدة بنادق ليزر.. وموقد صغير عليه إناء طهى به مادة صفراء مقززة..
دعاها للجلوس على الحشية.. ثم نزع حذاءيه.. وأخرج قنينة ماء من تحت خرقة من قماش مبتل.. وجرع جرعة كبيرة، ثم قذفها إليها.. فحذت حذوه..
أخيرًا وجدت القدرة على أن تتكلم:
- يا جوّال.. أعتقد أنني فقدت الذاكرة.. لذا أريد منك أن تحكي لي كل شيء عن هذا العالم.. عالم (جالاكتيكا) والثوار و (عمرو دياب) والصحراء والدراجات البخارية بدون عجلات..
نظر لها مليًّا.. ثم غمغم:
- هل كانت خبراتك قاسية إلى هذا الحدّ؟ هل عذبوك بقسوة يا صغيرة؟
- ربما..
وضع الزجاجة جانبًا.. وراح يحكي لها كل شيء..

∞∞∞∞∞∞∞

قال الجوّال:
- إن القصة التي تعيشينها الآن من نوع القصص التي يسمونها (قصص ما بعد المحرقة).. أنت تعرفين أن كل كتاب الخيال العلمي يجمعون على أن كوكب الأرض يسير نحو كارثة بيولوجية، أو نووية، أو بيئية.. المهم أنهم واثقون أن القرن الواحد والعشرين لن يبدأ على خير..، وكل قصص (ما بعد المحرقة) تتكلم عن هذا.. عن حال كوكب الأرض بعد هذه الكارثة..، لقد نشبت حرب نووية على كوكبنا أفنت الحضارة تمامًا.. لم تعد هناك سوى حفنة من قبائل الرحّل

يعيشون كرعاة الأبقار في الصحارى والوديان.. وهم يحاولون باستمرار أن يستعيدوا المذاق الحميم للماضي.. مازالت هناك أغان وكتب لم تُدمّر بعد، مازالت هناك سيارات صدئة ومركبات فضائية هي إلى الخردة أقرب..، لكننا أقرب إلى إنسان الغاب.. والبقاء هنا للأقوى فقط.. من يطلق الليزر أسرع من الآخرين.. ومن يجري بخفة أكثر.. ومن يجيد الاختباء..

- وهل أنت مصرى؟ وأين أمريكا وروسيا؟

- لم تعد هناك دول.. توجد قبائل.. قبائل (اليانكى) وقبائل (التتر) وقبائل (البربر) وعرب شمال إفريقيا وعرب الجزيرة.. إلخ..

- و (جالاكتيكا)؟ والثوار؟

- إن (جالاكتيكا) هي أمة من مجرة نائية طورت علومها وأسلحتها.. ومدت قبضتها على مجرتها.. ثم المجرات الأخرى تحت زعامة (زولتار) والحكام العشرة..، يمكن القول إنهم عمليًّا يحتلون الكون بأسره..، ومادام هناك طغاة فهناك ثوار.. كل مكان في المجرة يضم ثوارًا، ومن هؤلاء الأميرة (كارا) وريثة (أستوريا) التي انعزلت في كوكب مهجور مع رجالها وراحت تشن الغارات على (جالاكتيكا).. هذا كلام فارغ.. نوع من رجفة أجنحة الذبابة قبل أن تموت.. وعلى كل حال لقد حصدهم (زولتار) حصدًا..

- وأنتم - الأرضيين - مع من؟

- أقول عن نفسي: إنني غير منتم.. لست متحمسًا لأي طرف.. كلهم مخطئون.. وأنا أومن بأن ثوار اليوم هم طغاة الغد..!.. الضحية تصير جلادًا متى منحها أحدهم سوطًا.. أنا لا أطيق حكم (جالاكتيكا)، لكني لا أرحب لحظة بحكم (أستوريا) أو (أنجوريا).. لهذا أعيش وحدي هنا أحارب (جالاكتيكا) على طريقتي.. من المستحيل أن أخضع لنظام، أو قانون.. لهذا يسموننى (جوّال الفضاء).. لأنني مجرد راعي بقر فظ مشاغب يتسلى بمضايقة (زولتار).. لكني لن أسمح لسواه بالسيطرة..

- ومن يحكمكم على هذا الكوكب إذن؟

- لا أحد.. كل إنسان يفعل ما يروق له.. والليزر هو القانون الأوحد.. إن القبور تزخر بالضعفاء وبطيئى الانعكاسات.. وهكذا نصل اليوم إلى وضع ليس (حكومة) لكنه نوع من (التوزان) بين أفراد متساوى القوة..، وجاري لا يهاجمني إلا لسبب واحد، هو أن احتمالات قتله لى تساوى احتمالات قتلي له، ولو كانت احتمالات قتله لى، أعلى قليلًا، لوجدته هنا الآن ملوحًا بسلاحه..

- تبًّا!.. أي مجتمع هذا؟

- صدقيني ليست (جالاكتيكا) أسوأ من هذا.. إنها تنظم الحياة، وتفرض نوعًا من الحكومة على الشعوب..، والحكومة هي الأمل الوحيد للضعفاء الذين لن ينالوا حقوقهم إلا بها.. إن (جالاكتيكا) هي الحضارة، وليست شريرة إلى هذا الحدّ.. لكننا - نحن الرُحّل - اعتدنا حياة الحرية، ولن نقبل فقدانها..

- ألم تحاول (جالاكتيكا) فرض سلطتها هنا؟

- بلى.. ولهم عاصمة حضرية اسمها (جالاكتيفيل).. ألم تشاهدي معي اليوم مباراة الأهلى والزمالك؟ أين تظنينها قد أقيمت؟ لكن (جالاكتيكا) لا تحاول فرض سيطرتها على الصحاري لأنها غير ذات نفع لها..

ابتلعت (عبير) ريقها.. وفي حيرة سألته:

- ومن أنا؟

- أنت حبيبتى (ميرا) من كوكب (بلوتو).. حيث أقيم عالم صناعي نشأ عليه جيل من الأطفال

متنفسي (النتروجين).. كانت (جالاكتيكا) بحاجة ماسة إلى من يتنفسون (النتروجين) ليحاربوا لها في كوكبة الدجاجة.. وكنت أنت من هؤلاء..، لكنك فررت وجئت إلى الأرض.. والتقينا...
- إذن أنا محاربة..
- طبعًا.. ومحاربة شرسة لا ترحم.. لكن شيئًا إنسانيًّا تحرك فيك.. وبعد ما صرت زوجتي قررنا أن تذهبي إلى (جالاكتيكا) لتحلي محل جاسوستهم (ليا) التي تشبهك كثيرًا جدًّا..
- ولماذا؟ لماذا تحارب (جالاكتيكا) ما دامت ليست سيئة إلى هذا الحدّ كما تقول؟
ابتلع ريقه.. ونظر إلى نقطة ما في فراغ الحجرة..
وبهدوء همس:
- لأن (جالاكتيكا) تنوي إزالة الأرض من الوجود!

∞∞∞∞∞∞

8- أنقذوها..

تحاول (عبير) أن تغفو فوق الحشية، والقناع على وجهها..
بينما - خارج الكوخ - تسمع صوت دندنة الأوتار.. إن الجوال جالس على الرمال يتأمل الظلام.. ويعزف لنفسه لحنًا ما..
الكلب يصاحب اللحن بعواء طويل حزين..

∞∞∞∞∞

إن (جالاكتيكا) تحاول تدمير الأرض يا (ميرا)..
لماذا؟ لأن الأرض صارت مركز تلوث دائمًا في الكون، بكل ما عليها من إشعاعات وعوادم مركبات..
إن الأرض تؤثر سلبًا على جيرانها (المريخ - الزهرة).. وهاته الجارات أكثر أهمية لـ (جالاكتيكا) من الأرض..
ومتى سيتم التدمير؟ سيتم حين ينتهي إخلاء العاصمة من كل ما بها من أجهزة حكومية.. عندئذ لن يساوى كوكب الأرض أكثر من ثمن الورقة التي يكتب عليها اسمه، وسيكون حفلًا كونيًّا رائعًا يبين للناس مدى عظمة وعنفوان (جالاكتيكا)..
ولسوف يرتجف الثوار في كل أرجاء الكون، حين يعرفون أن كوكبًا كاملًا أبيد بما عليه من أحياء..
ولماذا لا تفرون جميعًا.؟.. بعضنا فعل.. وبعضنا بقى لأن الأرض هي المكان الذي يتمنى أن يدفن فيه.. وبعضنا بقى؛ لأنه لا يعرف مكانًا آخر في الكون يذهب إليه..
لهذا ذهبت إلى (زولتار) يا (ميرا) لتعرفي خططه، وتحاولي إحباطها في المهد.. لكن الأمر لم يتضح بعد..

∞∞∞∞∞

في الصباح صحتْ من النوم شاعرة بتوعك، وتقيأت مرتين على الرمال.. ثم دارت القيء وغادرت الكوخ..
كان الجوّال جالسًا أمام النار يقلى بعض اللحم في مقلاة.. والكلب يقف أمامه ينتظر مدليًّا لسانه في شغف..
- شموس عديدة يا (ميرا)..
أدركت أن هذه هي تحية الصباح عندهم.. فغمغمت:
- شموس عديدة..
- لا تبدين على ما يرام.. هيه!.. لحظة!.. اقتربي منى.. دعيني أر عنقك.. هذه الانتفاخات لم تكن هنا أمس..
تحسست عنقها فشعرت بأجسام صلبة عديدة كدرنات البطاطس تحت جلدها.. ماذا حدث؟
قال الجوال وهو ينهض؛ ليتحسس عنقها بأنامله:
- هذه عقد لمفاوية.. إنه تأثير التلوث النووي.. هذا سرطان!
- ماذا؟.. سرطان؟!

ابتسم برقة وهو يعبث في جيبه، ليخرج علبة صغيرة:
- السرطان مرض بسيط.. لكن المهم أن نعالجه مبكرًا.
وناولها قرصين، وأمرها أن تبتلعهما:
- عندي علبة (أونكوستاتين) وعلبة (ساركولايسين).. انتهى ما عندي من ال. (كارسيكيور).. لا يهم.. سيؤدى هذا الغرض.
ابتلعت القرصين غير مصدقة.. وغمغمت:
- إذن أنتم حللتم مشكلة السرطان؟
- حللنا كل مشاكل المرض قبل المحرقة.. لكن للأسف لم نعد نحصل على الدواء إلا من العاصمة.. وبطريقة أقرب إلى السرقة..، والآن تناولي إفطارك سريعًا – إنه لحم (السيكادا) - وتعالى لنقابل ذا الحجا..
جلست (عبير) تلتهم الإفطار.. كان شهيًا فلم ترد إفساد لذته بالسؤال عن (السيكادا) هذه..، وسرّها أن لاحظت أن عقدها اللمفاوية قد تلاشت تمامًا..
ثم ركبت الدراجة البخارية خلف الجوّال قاصدين ذا الحجا..

∞∞∞∞∞∞∞

- من هو ذو الحجا؟
- إنه عجوز تجاوز القرن من العمر.. وكلنا نلجأ إليه؛ طلبًا لرأيه..
- ظننت مجتمعكم لا يقيم وزنًا لكبار السن..
- حقًّا.. نحن نطعم كبار السن لكلابنا.. لكن ذا الحجا رجل فريد من نوعه.. استطاع بحكمته أن يظل حيًّا ويهزم كل خصومه و لهذا يظل رأيه ذا قيمة استشارية عالية..
- إذن تقتلون الشيوخ؟!
- حتمًا.. والمرضى.. بل إننا نطلق على هؤلاء اسم (السيكادا).. و.......
وهنا تذكرت طعام الإفطار..
- (ميرا)!.. ماذا دهاك؟ لماذا تتقيئين؟ لابد أن لحم (السيكادا) كان غير طازج.. تبًّا للجزار اللص!
∞∞∞∞∞∞∞

كان ذو الحجا عجوزًا أصلع الرأس تمامًا، تغطى لحيته صدره وأعلى بطنه.. وكان يجلس على الأرض أمام كوخه.. يحيط به عدد كبير من الرجال والنساء الذين يرشفون كلماته رشفًا..
رأى الجوّال و (عبير) يدنوان.. فتحركت عيناه الذابلتان نحوهما.. وارتجفت لحيته بكلمات مبحوحة:
- هانتذا قد عدت أيها الجوّال.. ادن وقل ما عندك..
افترش الجوّال الأرض.. وأشار إلى (عبير) لتحذو حذوه.. ثم قال وهو يداعب بندقية الليزر:
- يا ذا الحجا.. قد افتضح أمر (ميرا) لدى (زولتار).. وبصعوبة أنقذتها من التعذيب والقتل.. والآن لم يعد لدينا ما نعتمد عليه لكشف نوايا (زولتار)..
سعل ذو الحجا وبصق:
- تف!.. كح كح!.. لكن المرأة قد تمكنت من التقاط فيلم هولوجرافي للكوكب.. دعنا نره فلربما شككنا في شيء ما..
في تؤدة أخرج الجوّال من جيبه شيئًا يشبه العملة المعدنية، ودسّه في جهاز صدئ متآكل يشبه علبة السجائر المعدنية، وله ذات حجمها..

وعلى الفور رأت (عبير) في الهواء صورة مجسمة للكوكب الصناعي الذي كانت عليه؛ حين كانت تدعى (ليا)..
أخرج الجوّال مؤشرًا ضوئيًا، وراح يشير به إلى تضاريس الكوكب شارحًا:
- المطار.. مراقبة الأجواء.. محركات الكوكب التي تسمح له بالانضمام إلى أية مجموعة شمسية.. صرف الإفرازات.. (يونيفرس) الكمبيوتر الذي يشغل مساحة ألف هكتار.. وحدة العلاج الإلكتروني.. وحدة التخصيب.. ثم هنا...
وأشار إلى نتوء في جسم الكوكب:
- كهف (زولتار) والحكام العشرة الصناعى.. تستحيل مهاجمته؛ لأنه محاط بقنابل (ماكسيما) وإشعاع (سيجما)..
ثم نظر متسائلًا تجاه ذي الحجا:
- هل تظنهم ينوون تدمير الأرض بقنبلة (ماكسيما)؟
سعل ذو الحجا وبصق المزيد.. ثم قال موهنًا:
- حتمًا لا.. إن هذا يحول الأرض إلى ثقب أسود.. وقد يبتلع الكواكب المهمة المجاورة.. إن (زولتار) لن يجازف بفقد المريخ مهما حدث..
ثم أردف وهو ينهض على قدميه الواهنتين:
- لا سبيل أمامه سوى (المعجّل).. سيزيد سرعة ذرات الأرض، من ثم تفقد كتلتها وتتحول إلى طاقة.. ط = ك × ع^2.. هذا من البديهيات..
قال أحد الجالسين في حماس:
- معادلة (فرانكنشتاين)!
- بل (آينشتاين) يا أبله.. (آينشتاين)..
ثم وقف يتأمل النموذج المعلق فوق الهامات بعض الوقت.. وغمغم كأنما يكلم نفسه:
- يحتاج (المعجّل) إلى فراغ محيط به.. وأن يرتكز فوق الزئبق.. وأن يكون فقده الحراري متوسطًا..



يحتاج (المعجل) إلى فراغ محيط به.. وأن يرتكز فوق الزئبق..

وأشار إلى الكرة المعلقة:

- هنا يا (جوّال).. لابد أن يكون (المعجّل) هنا جوار وحدة التخصيب.. وإلا فلا مكان له فوق

(جالاكتيكا)..
- هذا صحيح.. ربما لا يكون هناك أصلًا..
- احتمال واه.. إن سلاحًا كهذا لا يُترك بعيدًا في حماية حراس قد يُخدعون وقد يرتشون وقد يُقتلون.. لابد أن (زولتار) يحتفظ بالسلاح دانيًا منه..
وهنا هبّ الجوّال متحمسًا:
- يا الله!.. قد حزرت أيها العجوز..!.. لابد أن (المعجّل) هناك.. ويمكننا أن نتسلل إلى (جالاكتيكا) وندمره.. إن هذا ليس عسيرًا خاصة، وحراس (زولتار) أغبياء دومًا..
في شك تأمّل الجوّال هنيهة.. ثم غمغم:
- لا تنس يا جوّال أن القوم يقظون.. ولن يكون البعد الخامس سهلًا.. إن ما ستقوم به هذه المرة يتجاوز التسلل الصبياني الذي اعتدت أن تمارسه..
قال الجوّال وهو يخرج بعض أقراص النعناع من جيبه:
- لن ألجأ إلى حيل.. سأذهب إليهم متخفيًا.. إن (جالاكتيكا) هي مركز الإشعاع الحضاري في الكون، وكل الجنسيات تقصدها.. إنها تشبه (برج بابل) هذا العصر.. ولن أعدم حيلة للوصول إليها.. واقتحام (المعجّل)..
- صه!
قالها ذو الحجا في غضب، وهزَّ إصبعه محذرًا الجوّال.
وأردف مفسرًا وهو ينظر إلى الجالسين حوله:
- جميعكم ناضج يفهم الحياة جيدًا.. لهذا لن يرى إهانة في أن أقول: إن بعض الجالسين هنا جواسيس لـ (جالاكتيكا) هذا شيء مفهوم و متوقع.. وإلى أن نعرف أمر هؤلاء الخونة، أنصحك يا جوّال أن تبقى مشاريعك لنفسك، ولا تصارح بها أحدًا حتى أنا..
وعاد إلى الجلوس القرفصاء.. ونظر إلى النموذج المعلق:
- كم من الرجال تحتاج إليهم؟
- وحدي.. سيكون أيسر..
- إذن خذ (ميرا) معك على الأقل.. فهي تعرف كل تفاصيل الكوكب، ولها خبرة لا بأس بها بنظم (زولتار) الأمنية..
أرادت (عبير) أن تعلن أنها لا تمثل أي نوع من العون بل العكس.. ثم آثرت الصمت..
إن (دى - جى - 2) لم يعد يمثل لها مصدر تسلية.. بل هو ازعاج دائم..
- ومتي تتحرك؟
- الليلة لو أن....
- أيها المعتوه!.. للمرة الثانية تعلن أشياء ما كان ينبغي أن تغادر ضميرك.. عليك أن تتحرك في أي موعد غير الليلة.. ولا تخبر أحدًا بشىء، وإلا وجدت جيش (جالاكتيكا) ينتظرك كله ساعة الوصول..
ثم خفض عينيه.. وغمغم:
- انصرف الآن، ولك أرجو شموسًا عديدة..
- شموسًا عديدة يا ذا الحجا..

∞∞∞∞∞∞

في الكوخ راح الجوّال يعدّ لوازم العملية القادمة.. ويضع الطعام لكلبه.. سألته (عبير) وهي تتأمل

بنادق الليزر المعلقة:
- هل ستأخذ معك أسلحة؟.. كم عددها..
- لا أسلحة.. إن المراقبة البوزتيرونية للوافدين على الكوكب تكشف كل سلاح..
- ولا قنابل؟
- لنفس الأسباب..
- إذن ماذا تنتوي أن تفعله؟ تضع زلطة في المعجّل؟!
- سنرتجل يا فتاة.. سنرتجل..
وشاعت على وجهه ابتسامة قلقة.. وأردف:
- إن الخطط المحكمة تفشل دومًا.. آمل أن يعيننا الحظ في العثور على (كعب أخيل) لهذا النظام المحكم.. ولو لم يعنا فعندئذ سنتمنى لو أن أنابيب الاختبار التي تكوّنا فيها قد تهشمت!..

∞∞∞∞∞∞

9- جالاكتيكا مرة ثانية..

مرة أخرى ينطلق مكوك الجوّال نحو الكوكب الصناعي (جالاكتيكا).. (عبير) جالسة جواره تتوقع الخراب.. و (إكس) على الشاشة لا تكف عن الثرثرة..
قالت (إكس):
- لو تأخرت يومًا آخر يا (جوّال) لانتقل الكوكب إلى القطاع (زيتا)..
- أعرف يا (إكس)..
تساءلت (عبير) وهي تصلح وضع القناع على وجهها:
- ماذا تعنيه بالضبط؟
قال الجوّال وهو يسترخي في مقعده:
- ألم أقل لك: إن كوكب (جالاكتيكا) يتحرك بين المجرات؟ أشبه شيء بمدير نشط يهوى القيادة.. ويفاجئ مرءوسيه بالمرور عليهم في كل لحظة..، ولـ (جالاكتيكا) القدرة على أن تدخل أية مجموعة شمسية تريد؛ لتدور في مدارها، وبعد فترة تغادرها؛ لتدخل مجموعة أخرى..
- وكيف تتنقلون بين المجرات بهذه السرعة والبساطة؟
- لقد قهرنا سرعة الضوء من زمن.. لا أدري كيف تنسين حقائق كهذه يا ملاكي.. تبدين لى آتية من القرون الوسطى.. كالقرن الخامس عشر..
حكّت (عبير) شعرها، وراحت ترمق النجوم التي تتدافع في هستيريا قادمة من لا مكان؛ لتذهب إلى لا مكان..
لم تستطع قط أن تتخيل حياتها في هذا العالم..
لم تستطع.. ولم تحب..
هذا العالم البارد الخالي من أية حياة..
العالم المتحذلق الذي يفوح بالادعاء..
متى يصاب هؤلاء بالصداع أو الإسهال؟.. وكيف يحبون؟ ومتى تنتابهم لحظات ضعف؟..
من المستحيل أن يظل إنسان هكذا طيلة حياته، يحدث أجهزة الكمبيوتر.. ويلوح ببنادق الليزر.. ويحاول تفجير شيء ما..
وتذكرت أنها قرأت الكثير من الخيال العلمي، ولاحظت أن رواياته تنقسم إلى جزأين:
(أ) العلم المدمر: حيث يصير العلم - في يد عالم مجنون - هو السبيل لخلق مشكلة مروعة تجعل الحياة أسوأ.
(ب) علم الإمبراطورية: علم سيوف الليزر والروبوتات والأطباق الطائرة.. وهنا يصير العلم مجرد قشرة، تغلف الأحداث التي هي أقرب إلى قصص رعاة البقر.
لكنها لم تقرأ قط المعنى الحق للخيال العلمي، وهي أقل ذكاء من أن تعرف أن الخيال العلمي الحقيقي يقوم على محاولة تطبيق نظرية علمية، وتخيل ما يحدث لو تحققت..
كانت غارقة في هذه الأفكار؛ حين سمعت صوت (إكس) يعلن أنهما يقتربان من (جالاكتيكا)، وأن الوقت قد حان؛ كي يلبس الجوّال قناع الأكسجين..
نظرت (عبير) إلى الجوّال.. وتساءلت:
- إذن لن يرى أحدنا الآخر دون قناع أبدًا؟.. لابد من قناع على وجهك، أو وجهي أو الاثنين معًا؟

- طبعًا يا ملاكي..
- أية حياة زوجية هذه؟!
- لأن عالمينا يختلفان يا (ميرا).. لابد من دفع الثمن.. أعرف صديقًا لي، تزوج فتاة من كوكب (نمسيس) الناري؛ حيث يشرب القوم النار، ويستحمون فيها.. تخيلي حياتهما معًا!.. الزوجة تعيش في قفص يضخ النار حولها طيلة الوقت.. وتنام في الفرن.. إننا أسعد حظًا من سوانا..
ثم إنه نظر إلى الشاشة، ليقول لـ (إكس):
- والآن يا (إكس).. إجراءات التخفي..
في الحال بدأت زوائد عدة تبرز من جوانب المكوك..
بعد دقائق غدا أقرب إلى القنفذ منه إلى المكوك، وراح لهب أزرق يتصاعد من مؤخرته..
- ماذا فعلت؟
- إن كمبيوترات (جالاكتيكا) تنكر مواصفات المكوك، وتذكر رقمه الأيوني من المرة الأخيرة.. لن يمكننا الدخول إلا لو صرنا آخرين!
ثم استدار يخاطب (إكس):
- والآن يا (إكس).. التنكر الخاص بنا.. والبطاقات الكونية..
- ليكن يا جوّال..
وانفتح باب تحت (التابلوه).. فأخرج الجوّال منه بذلتين من المعدن المغطى بقشور كقشور الأسماك..
وارتدي واحدة فوق ثيابه، وناول الأخرى لـ (عبير) كي ترتديها.. ثم مدّ يده إلى الخزانة فأخرج بطاقتين معدنيتين لامعتين..
سألته (عبير) وهي تغلق أزرار بذلتها:
- ما هذا؟.. هل هو كارنيه؟
- لا أفهم معنى (كارنيه).. إنها بطاقات كونية تصنعها (جالاكتيكا) لكل رعاياها.. ولكل مخلوق رقم مميز..
- تعني الرقم البيولوجي للحمض النووي كالذي وجدوه عندي؟
ابتسم في تهكم:
- بالطبع لا.. أكثر كائنات الكون لا تملك حمضًا نوويًا.. بعضها يعتمد على الـ (أورجانا) شفرة الحياة الكونية، وبعضها لا يعتمد على أية شفرة.. الرقم المذكور في هذه البطاقة يدل على نوعنا وكوكبنا وانتماءاتنا السياسية..، يمكن القول دون مبالغة إن (يونيفرس) الكمبيوتر العظيم المهيمن على (جالاكتيكا)، يعرف كل شيء عن كل مخلوق في نطاق سيطرة (جالاكتيكا).. وهو يعرف عن عواطفك، وأسرارك الخاصة أكثر مما تعرفين أنت نفسك.. لأن هذه البطاقات اللعينة جواسيس، تعرف كل شئ عنك وترسله إليه؛ ليضيفه إلى ذاكرته..
- يا للهول!.. إذن تخلصوا من هذه البطاقات..
- مجرد التخلص منها يضعك في قائمة الثوار، أو غير المنتمين.. وعليك قضاء حياتك في الهرب والصراع..
- وهذا ما فعلناه..
- طبعًا.. ولهذا ندفع الثمن.. ونحيا كالفئران في الصحراء..
- وهاتان البطاقتان؟ مزورتان طبعًا؟
ناولها بطاقتها.. وغمغم:

- لايمكن تزوير البطاقات الكونية؛ لأنها مصنوعة من معدن غامض تحتكره (جالاكتيكا).. لقد سرقت هاتين البطاقتين من سائحين (كاليوزيين).. كانا يزوران الأرض منذ شهور..
- وما مصيرهما؟
- وجدا أنهما صارا ثائرين على الرغم منهما! وفرا إلى (أرمانا)..
- لكن هاتين البطاقتين تنقلان كل خططنا إلى (يونيفرس) الآن.
- ليس تمامًا.. إن (إكس) تضللهما طيلة الوقت.. وتنقل لهما معلومات خاطئة.. لكننا سنكون حذرين بمجرد مغادرة المكوك، لأنهما ستعُدان أنفاسنا!
- تبًا!
كوكب (جالاكتيكا) يظهر بوضوح من النافذة، وحوله حركة المرور الصاخبة إياها..
قال لها الجوّال وهو يأخذ شهيقًا عميقًا:
- الآن يجب أن تعرفي كل شيء عنا.. أنا تاجر (كركانيل) ثرى من (كاليوزيا) وأنت زوجتي.. يجب أن تسترجعي كل خبراتك عن تجارة (الكركانيل)[6]!
- سأ.. سأحاول.. أنا لم أبع (كركانيل) منذ أعوام!
- تذكرى كذلك أن (كاليوزيا) كوكب مائى.. لهذا ستملأ (إكس) المكوك بالماء الآن.. وسيسمح لنا بالهبوط في المطار المائي المخصص لذلك..!
- مطا... مائ...!.. ليكن!
- إن هذا سيسهل المهمة.. لن يكون علينا الكلام باللغة الكاليوزية، بل سيقوم المترجم بذلك.. ولن يعرفوا أبدًا أن المترجم هو من يخاطبهم..
وفي الخارج بدأت معالم الكوكب تزداد تجسيمًا..
- (إكس).. أبدئي ملء المكوك..
- اللعنة!.. جلوب!!
إذ من أربعة مواضع راحت المياه الباردة تتدفق، وترتفع لتحيط ب. (عبير) والجوّال حيث جلسا.. كانت ثيابهما محكمة، وكذلك القناعان، فلم يصر الغرق حقيقة.. لكن (عبير) لم تشعر بأية راحة من لعب دور سمك الزينة هذا.. شعور سمج أن تجلس في كرة زجاجية يملؤها الماء.. الآن صار الكلام مستحيلًا بين الاثنين..
مدّ يده إلى التابلوه، فتناول جهازًا صغيرًا ثبته جوار أذنه.. وناولها واحدًا مماثلًا ثبتته جوار أذنها.. وعلى الشاشة اختفى وجه (إكس) القسيم، لتظهر بدلًا منه عبارة مكتوبة بخط واضح:
- يقولك الجوّال: إن التخاطر سيكون وسيلة الإتصال، وأنا سأكتب أفكار كل منكما على الشاشة..
ثم ظهرت هذه السطور:
- كعادة سكان (كاليوزيا).. هم يفكرون.. ويتم التخاطر بينهم، لكنهم لا يتفاهمون مع العالم الخارجي إلا عن طريق جهاز يترجم الفكر إلى أصوات..
ثم:
- أنا أتلقي الآن طلب تعريف يا (جوّال).. فماذا أقول لهم؟
ظهرت بعدها على الشاشة السطور التالية:
- حسن.. أنت تتهمني بالغباء.. آسفة.. لقد أبلغتهم حالًا أنك التاجر (بليك - بليك) من (كاليوزيا)، ومعك زوجتك، وأنكما جئتما؛ طلبًا لبركات (يونيفرس)..، وقد سمحوا لك بدخول المطار المائي، لكنهم يريدون البطاقات..

عبر ستار الماء المحيط بها، تري (عبير) شارعًا معدنيًا.. وعشرة روبوتات مسلحة تحيط بالمكوك حيث استقر على الأرض، وترى الجوّال يضع البطاقتين في فتحة بالتابلوه.. بعدها رأت ذراعًا آليًا يخرج من المكوك ليقدم البطاقتين لأحد الروبوتات..
راحت البطاقة تتوهج بلون قرمزي في يد الروبوت.. ثم أعادها إلى الذراع، وفحص الثانية..
بعدها هزَّ رأسه بمعنى أنه لا غبار عليهما.. يمكنهما المرور إذن.. حمدًا لله!..
وعادت البطاقتان تنزلقان من الفتحة إلى داخل المكوك، وعلى الشاشة كتبت (إكس):
- أوف!.. لقد مررنا!..
وأحست (عبير) أنها تهبط.. تهبط.. لقد فتحت الأرض تحت المكوك، ليهوى لأسفل.. ويرتطم بالماء..
لقد كانت هناك بحيرة تحت الأرض إذن!..
ورأت (عبير) شيئين يشبهان كبسولتين واقفتين بحجم الإنسان العادي، يدنوان من المكوك، ليقفا جواره..
لم تفهم كنه هذا الشيء.. فنظرت إلى الشاشة لتقرأ تعليق (إكس):
- إن (ميرا) لا تفهم نفع هاتين الكبسولتين.
ثم كتبت على الشاشة:
- الجوّال يقول لك: إن الكبسولتين ستكونان لتنقّلنا على سطح الأرض، فما دمنا من كوكب مائى.. يعدو عسيرًا أن نغادر الماء ثانية واحدة.. وهذه الكبسولات تجعل كلًا منا يمشي داخل حوض سباحة متنقل؛ ليقابل غير المائيين ويعيش بينهم..
كلام غريب!.. تبًا لعالم المجانين هذا..
المهم أن (عبير) والجوّال خرجا من المكوك، ودس كل منهما جسده في كبسولة زجاجية يسمح حجمها بدخول إنسان واقف.. وعلى الفور انغلقت على كل منهما..
ووجدت (عبير) نفسها ترتفع لأعلى.. لأعلى.. إلى سطح الماء..
ولم تكن المهزلة قد انتهت بعد..
وجدت ذراعين آليتين تخرجان من جانبي الكبسولة، وقدمين آليتين تخرجان من أسفلها.. بحيث تحولت إلى عملاق واقف حُبست (عبير) في بطنه..
وفوجئت بالشيء يمشي على قدميه في بطء..
إذن هذا الشيء هو وسيلة تنقلها على هذا الكوكب.. حبيسة بداخله وسط الماء البارد..
ورأت الجوّال يمشي جوارها حبيسًا في شيء مماثل..
كانا يمشيان بغير إرادة منهما فوق ممر طويل، يقود حتمًا إلى الخروج من هذا المطار المائى..
وبالفعل.. شعرا بالأرض تعلو بهما..
وحين رأيا الضوء الشمسي الصناعي، كان هناك حشد من الروبوت يحيط بهما شاهرًا بنادق الليزر..
وكان هناك أحد ضباط (جالاكتيكا) ينتظرهما جوار شاشة كبيرة من الكريستال السائل..
تكلم الجوّال في حيرة، فخرجت كلماته باللغة الكاليوزية:
- تيهاه **! شندء، + *%؛! #
وعلى الشاشة ظهر ما يريد الضابط قوله؛ متألقًا بحروف خضراء زمردية على أرضية سوداء.. وقرآه معًا بوضوح، برغم جدار الماء الذي يحيط بهما:
- والآن.. من أنتما حقًّا؟!

- ء س!؟؟ + / * #$، تيهاه!
وعلى الشاشة ظهرت الكلمات القاسية:
- لا داعي للاستمرار في هذه المهزلة.. نحن نعرف أنكما لستما سائحين من (كاليوزيا).. فمن أنتما؟

∞∞∞∞∞

10- مع (يونيفرس)

برغم خطورة الموقف، أحست (عبير) بالسرور لأنها تخلصت أخيرًا من كبسولة المخابيل هذه.. أخيرًا تقف على الأرض مرتدية ثيابها العادية، وتتخلص من البلل الذي كاد نخاع عظامها يتعفن منه..

قال الضابط في ثقة وهو يداعب سلاحه:

- هيّا.. ألن تسألاني عن كيفية معرفة سركما؟

كان فارع الطول له ثلاثة أذرع.. وفم في مقدمة صدره..

لكنه كان يرتدي القناع كما يفعل الجميع..

قال الجوّال في ضيق وهو يبصق الماء:

- لسنا فضوليين.. لقد وقعنا في أيديكم وكفى..

بدا الضيق في صوت الضابط.. فهو كان شغوفًا بالثرثرة؛ ليظهر لهم مدى عبقريته، ولم يعتد أن يلقى غير الفضوليين مثل هذين.. على أنه تكلم على كل حال:

- لقد قتلنا صاحبي هاتين البطاقتين على كوكب (بلغور) منذ عامين.. و (يونيفرس) يعرف هذا جيدًا، لهذا صُدم حين وجدهما حيين يرزقان، ويطلبان مقابلته.

- هذا لا يعنينا في شيء.. إنها مشكلاتكم الداخلية..

صاح الضابط في مرح وهو يشير للآليين:

- هلموا يا شباب.. سنعرضهما على (يونيفرس) ليعرف من أين جاءا.. وماذا يبغيان..

∞∞∞∞∞∞

مرة أخرى تجد (عبير) نفسها مقيدة إلى المنضدة -ذات المنضدة - تتأملها الرأس المزودة بكاميرا – ذات الرأس - وصورة أحشائها على الشاشات..

الصوت الميكانيكي البارد يردد:

- النوع أنثى.. نمط التشريح الأولى، يدلّ على أصول من درب التبانة..!

لقد غدا هذا مملًا....

من جديد يردد الصوت الآلى برتابة:

- الرقم البيولوجي للحمض النووي هو (5481794).. نكرر.. الرقم البيولوجي هو (5481794).

وفجأة صاح الصوت في ذهول إلكتروني مُحبب للنفس:

- ولكن.. لقد صادفني هذا الرقم من قبل!.. آه!.. إنها تلك الفتاة التي زعمت أنها (ليا) ولم تكن هي.. إن الأمر أخطر من محاولة تسلل.. يجب إبلاغ (زولتار) والحكماء حالًا.. أعطني إشارة (أومجا)..

ولم تكن الإشارة (أومجا) مسموعة ولا مرئية..

كل ما هنالك أن (عبير) رأت بابًا ينفتح في ركن القاعة، ويدلف منه (زولتار) بقامته الفارعة وعباءته السوداء وقناعه المليء بالخراطيم.. وكل كشافاته تضيء (بالتأكيد كناية عن الاهتمام)..

- إذن هو أنت من جديد!

ووقف يتأملها هنيهة حيث رقدت على المنضدة، ورفع رأسه ينادى شيئًا ما:

- يا (زيبرا).. هل تعلم من الفتاة التي خدعتنا، وقضت على جاسوستنا (ليا)؟
جاء الصوت الآدمي من أعلى.
- من هي يا (زولتار)؟
- هذه هي.. وهل تعرف من ضللتنا وجعلتنا ننبش كوكب الثوار بحثًا عن (ليا)؟
- من هي يا (زولتار)؟
- هذه هي.. وهذه المرة لم تأت وحدها.. بل معها متشرد فضائى.. بالتأكيد ليس لغرض خيّر..
ثم صاح بغيظ فيها.
- ماذا تريدين منا بالضبط؟ لماذا لا تتركينا وشأننا؟ إن تحدي (جالاكتيكا) لهو نوع من ضرب الرأس بالصخور.. ولم يحدث في التاريخ كله أن تحطمت الصخور..
دوّى صوت (يونيفرس) البارد من أعلى:
- هل نبدأ الاستجواب يا (زولتار)؟
- كلا.. لقد سلمت كل هذا.. تخلص منهما يا (يونيفرس) بشرط ألا تبقى خلية واحدة منهما..
- ألن تحاول معرفة ما وراءهما؟
- مانفع هذا؟ بالتأكيد يريدان نسف شيء، أو سرقة شيء، أو التآمر على شيء.. وأنا لا أملك الوقت ولا المزاج الرائق لسماع كل الهراء من هذا النوع.. خلصني منهما الآن..
واستدار؛ ليغادر القاعة..
لكنه لم ينس أن يستدير ليكرر:
- الآن!

∞∞∞∞∞

بعد رحيله ساد الصمت.. وأغمضت (عبير) عينيها في انتظار الشيء الذي سيقتلها، والذي لن يخرج عن كهرباء تصعقها، أو ليزر يحرقها، أو صدمة تهشمها، أو رصاصة تخترقها..
لكن المدى طال نوعًا.. وأدركت أن ربع ساعة قد مرّ دون أن يحدث فيه شيء..
هل نام هذا الكمبيوتر الأحمق؟
بعد ثوان دوّى صوته - (يونيفرس) - يقول في تردد:
- الواقع أن الأمر عسير نوعًا..
- ماذا تعني؟
قال بصوته الرتيب:
- هل تعرفين من أنا؟
- أنت (يونيفرس)..
- أنا أضخم كمبيوتر في الكون.. أنا المصبّ الذي تنتهي عنده كل معلومة كونية من مدار مذنب (هالى) وحتى عدد الصراصير الذي سحقته قدم قاسية في شمال إفريقيا..، كل التفاصيل تنتهي عندي.. وعليّ قياس أنماط الشعور والتنبؤ بمسارات الأشياء..، أعرف عن ثوار (بلوتو) في كهوفهم الجليدية كل شيء.. وأعرف عن محاربي (زوندا) الكثير..، إن ذكائى الصناعي لمعجزة.. وسرعة قياسى للأمور يفوق أي خيال..، لكني - برغم هذا - وحيد تمامًا..
وتهدّج الصوت الإلكتروني قليلًا:
- لقد غرسوا في وحداتي البيولوجية ذكاء غير عادى.. ذكاء يوشك أن يكون عاطفة.. ودعيني أصارحك إذن بأن حياة الحاسبات العملاقة تدعو للسأم.. لا شيء سوى هدير شرائط التخزين،

وتواثب الشحنات من موضع لآخر في الذاكرة.. أما أنت فتملكين حياتك، وتملكين كل حيوية كائن من لحم ودم، يستطيع أن يضحك ويبكي ويموت..
وأصدر صوت تنهد صك أذنيها المذهولتين.. وغمغم:
- أنت أول كائن يحمل هذا الرقم البيولوجي الذي يشي بجمال الماضي وأصالته.. لهذا سأتحدي (زولتار) للمرة الأولى في حياتي وأطلق سراحك!
وصدق وعده حقًّا.. إذ شعرت بالقيود ترتخي حول معصميها ورسغي قدميها..، وهنا دوي الصوت الآدمي:
- هل جننت يا (يونيفرس)؟ إن (زولتار) سوف....
قاطعه الصوت الآلي في فتور:
- اخرس يا (زيبرا)! صحيح أن (زولتار) جعل منك ضميرًا إلكترونيًّا يراقب أفعالي طيلة الوقت، لكني لا أرى لك أي حق في مراجعتي.. سأطلق سراح هذين..
صاحت (عبير) في لهفة وهي تثب من فوق المنضدة:
- شكرا يا (يونيفرس)!.. أنت كمبيوتر شهم..!
- ووسيم كذلك يا صغيرتي!.. أنا أجمل كمبيوتر في الكون حتى هذه اللحظة.. والآن هوذا فارسك.. افعلا ما يحلو لكما في هذا الكوكب اللعين.. ثم غادراه.. وأنا سأعمل على عدم اكتشافكما.. لأن كل شيء في هذا الكوكب يعتمد عليّ..
وهنا رأت الجوّال يدنو منها، وملامح وجهه تقول: إنه حائر تمامًا.. وإنه - على الأقل - كان سيفهم أكثر لو أن (يونيفرس) قام بحرقهما حيين..
نظر إلى (عبير) سريعًا.. ثم هتف:
- إذن هيا نفرّ.. واضح أنك بخير..



نظر إلى (عبير) سريعًا.. ثم هتف:

- إذن هيا نفرّ.. واضح أنك بخير..

وبضيق غمغم:

- إن هذا الكمبيوتر لا يحترم المُثل.. كنا سنغدو شهيدين.. أما الآن فعلينا أن نواجه المزيد من

المشاكل..
قالت له لاهثة:
- ماذا نفعل الآن؟
- يا له من سؤال!.. نفتش عن وحدة التخصيب حالًا..
وهرع - ومعه الفتاة - يجتازان الممرات الصناعية الخانقة.. وهاجمهما روبوت متحمس يحمل سلاح ليزر، وانطلقت الطلقات تئز جوارهما مبعثرة الشرر الكهربى الأزرق..
فانبطح الجوّال أرضًا وأسقط (عبير) بدفعة من يده..
ومن حزامه أخرج جسمًا مضيئًا يشبه القداحة..
لشدة دهشتها رأت (عبير) الروبوت يستدير منصرفًا فى تؤدة.. فاستدار الجوّال يفسر لها ما حدث:
- إن الروبوت يعتمد على قياس الأشعة تحت الحمراء الصادرة عن الجسم؛ ليعرف هل أصيب أم لا.. وقد خدعته أنا بإطلاق نفس الطول الموجي للأجسام المختصرة.. إنه يحسبنا قد هلكنا.. لكنه سيعرف مدى حماقته الآن..
وهرع ليلحق بالروبوت، ثم وثب على ظهره متعلقًا به بساقيه، ومدّ يده إلى قفاه، لينتزع سلكًا ما.. وعلى الفور توقف الوحش الذي يبلغ طوله ثلاثة أمتار عن الحركة.. لابد أن هذا هو (الفيوز) وقد انتزعه الجوّال..
كانت اليد الآلية متقلصة على السلاح، لكن الجوّال نجح في انتزاعه دون مشاكل، وفي الوقت المناسب ليطلق دفعة من الليزر على حشد من الروبوت ظهروا على مرمي البصر.. وكانت ضربة موفقة حتمًا..
رائحة الماس الكهربي والدخان تملأ المكان..
وأجساد ستة من الروبوت تتكوم على الأرض، ومزيد من بنادق الليزر لكل من المتسللين..
صفقت (عبير) بكفيها في مرح..
كل شيء يحدث كما تخيلته في أحلامها مرارًا.. والآن هي انتحارية فضائية تقاتل بالليزر وسط غابة من الروبوت الحانقين.. يا له من سحر!..
قال الجوّال وهو يضع بندقيتين على كتفه:
- لم ينته المزاح بعد.. يجب أن نجد وسيلة تنقّل نصل بها إلى المعجّل..
وراحا يجريان عبر الممرات.. بضع معارك مختصرة.. ثم وجدا سائحًا من (أورانوس) يقف جوار سيارته النفاثة التي تحمل أرقام (فردى نفاث - أورانوس - 48169)..
لا داعي إذن لأن أقول: إن الجوّال ركل السائح في ذقنه المتدلية ما بين ساقيه.. ولكمه في أنفه الذي يتوسط بطنه.. ثم ركله من جديد في ثلاث من عيونه العشر..
ووثب إلى السيارة مع (عبير).. بينما تهاوي السائح جوار السيارة كصنم مهشم..
وانطلق المحرك النفاث..
- من القسوة أن تضرب بريئًا.
قالتها في كياسة محاولة ألا تثير غضبه.. فقال في تهكم:
- لا يبدو بريئًا جدًّا.. قليلون هم الأبرياء الذين يملكون عشر عيون..، وعلى كل حال سكان (أورانوس) جميعًا أوغاد باستثناء من مات منهم!
راحت الممرات تتدافع؛ لتمر جوار السيارة.. ولم تجرؤ على سؤاله عن كيفية معرفته الطريق..
كان ذلك حين دوي الصوت الآلى مجلجلًا:

- هنا (يونيفرس).. إلى جهات الحراسة قاطبة.. لقد فرّ الأسيران، وهما يقصدان المعجّل لتفجيره..! ارفعوا حالة الاستعداد إلى (630).. أطلقوا الغازات.. وستار التدمير النيوتروني حالًا!

∞∞∞∞∞

11- دمار..

- يا للخنزير!
قالها الجوّال في اشمئزاز وهو يواصل القيادة.. وأردف وهو يتخذ منحنى خطرًا:
- لقد خاننا!
قالت وهي ترمق الطريق مذهولة:
- ولماذا؟ كان بوسعه أن يدمرنا من البداية!
- كنت أشك في هذا.. لابد أن فيروس كمبيوتر قد تسلل إلى ذاكراته، وجعله يمرّ بلحظة الحنان العابرة هذه.. أما الآن فقد عاد إلى طبيعته المؤذية الواشية..
- والعمل..؟
- لا عمل.. سنواصل السير إلى أن نصطدم بستار تدمير لا نراه.. بعدها نتحوّل إلى رقائق مشعة..
وفجأة هتف وهو يشير إلى مجموعة من الأبواب المغلقة التي كتبت عليها إشارات بلغة غير مفهومة:
- لحظة!.. هل ترين هذه الأبواب؟.. المفترض أننا نمشي الآن وسط وحدات ذاكرة (يونيفرس).. لابد أن هذه الأبواب تقود إلى داخل المعالج المركزي..
وأوقف السيارة النفاثة وساعد (عبير) على النزول منها، ثم هرع يتفقد الأبواب المعدنية وقال:
- إنها موصدة بأقفال إلكترونية محكمة.. لكنني أعتقد أنها لن تتحمل إلى ما لا نهاية..
ووقف خارج السيارة، ووجه مقدمتها نحو الأبواب.. ثم ضغط زرّ التشغيل..
- انتحى جانبًا..!
واندفعت السيارة كالقذيفة، لترتطم بالباب فتهشمه.. وتناثرت الأشلاء والشظايا في كل مكان..
وحين هدأت الضوضاء أخيرًا..
وحين انقشع الدخان..
وحين عثرت (عبير) على أطرافها المبعثرة..
كانت هناك فجوة هائلة الحجم في الباب، وبالداخل اختلط حطام السيارة بالدخان بالأسلاك والرقائق والدوائر المهشمة.. وأدركت أن مشكلة دبلوماسية ستنشأ بين الأرض وكوكب (أورانوس) حتمًا..
- هتف الجوّال وهو يقتحم المكان:
- هلمي يا فتاة.. دمرى كل ما ترين.. إن هذا هو القلب النابض لـ (يونيفرس).. و (يونيفرس) هو القلب النابض للكوكب كله!
وراحت طلقات الليزر تنهمر لتدمر؛ وتحرق وتذيب..
في حياتها لم تدرك أنها تحب الدمار إلى هذا الحدّ..
الجوّال يسعل لكنه لا يكف عن إطلاق الليزر.. ترى هل هي تحلم أم أنها تسمع صوت أنين آتيًا من بين هذه الأسلاك؟ لا يعقل أن يكون (يونيفرس) حيًّا إلى هذا الحدّ..
- كفى يا (ميرا).. إن هذا لن يكفي لتدمير (يونيفرس).. لكنه سيكفي لشلله يومين أو أكثر..
وهنا دوى صوت (يونيفرس) الآلي قادمًا من لا مكان:
- فليهرع الفنيون إلى القطاع (هكسا).. إنني أموت أيها الحمقى.. أموت!

نظر لها الجوّال.. وهتف:
- إذن فلنسرع!

∞∞∞∞∞

كان ما قاله ذو الحجا صائبًا..
لأن المعجّل كان - حقًّا - جوار وحدة التخصيب.. وقد كتب عليه بخط كبير واضح أنه هو المعجّل..
لكنه كان جدارًا مصمتًا لا يوحى أبدًا باحتمال فتحة.. ووقف الجوّال حائرًا يتأمله..
ثم قال لـ (عبير) في تردد:
- أنا الآن بحاجة لدخول الحمام.. بعدها ربما استطعت التفكير بذهن صاف!
حمام؟ فوجئت بكلامه.. ها هي ذي أول بادرة إنسانية في هذا العالم الذي يعيش بالموصلات المؤكسدة.. حتى إنها ظنت قضاء الحاجة قد صار (موضة) قديمة..
قالت له في لباقة:
- حسن.. اذهب أنت وسأراقب المكان..
- المشكلة أن دورات المياه النيوترونية لا تناسبني كثيرًا.. ولكن ما باليد حيلة..
وتركها واختفي خلف الجدار..، مرت دقائق، وهي تتأمل الجدار، والتعليمات الموجودة عليه، حين سمعت صوت عواء..
رأت الجوّال يبرز لها وقد بدا عليه الرعب:
- يا اللعنة!.. لقد أرسلوا الكلاب الآلية وراءنا.. إن هذه الكلاب قادرة على شمّ رائحتنا في جزء من ألف مليون.. وهم سيجدوننا حتمًا..
صوت العواء يدنو أكثر..
لابد من حلّ سريع..
لابد من مقبض ما لهذا الجدار، يتحول معه إلى باب!..
وهنا فعلت (عبير) شيئًا ما بدون تفكير.. قرعت الجدار بقبضتها.. وهنا سمعت صوتًا يتساءل من الداخل:
- من؟!
ونظر لها الجوّال في ذهول.. ونظرت له بنفس الذهول.. إن أبسط الحلول قد يكون هو الصحيح..
وتذكرت قصة عن رجل متمرد سجنه الملك (لويس الرابع عشر) في زنزانة، ووعده إن هو خرج من زنزانته أن يعفو عنه وإلا حكم عليه بالإعدام.. وقضى الرجل ثلاثة أيام سوداء يفتش الزنزانة، ويكتشف أبوابًا سرية لا تقوده إلى أي شيء، إلى أن جاء اليوم الموعود: يوم الإعدام.. عندئذ عرف من الملك (لويس) أن الحل الصحيح كان في يده من البداية.. فباب الزنزانة لم يكن موصدًا!
قطع عليها هذا الخاطر تحرّك الجدار، وظهور رجل قصير له شعر رأس أزرق، وعينان حمراوان واسعتان.. وكان الرجل ما زال يتساءل ببراءة عن الطارق؛ حين باغته الجوّال ببضع طلقات، تهاوى بعدها كومة من الرماد الساخن المشعّ..
واقتحما المعجّل.. وهرع الجوّال يغلق الباب بإحكام، ثم راح يركض بين الشاشات؛ محاولًا فهم هذه التقنيات المعقدة.. ما الذي ينبغي تدميره؟.. وكيف؟..

كان هناك بعض الأقزام المذعورين بادرتهم (عبير) بدفعة طلقات قضت على ذعرهم..
ودنا الجوّال من إحدى الشاشات، وراح يتأمل المكتوب عليها.. ثم غمغم ونباح الكلاب بالخارج يتزايد:
- كيف ندمر هذا الشيء الجهنمى؟.. بالتأكيد هو أعقد من بضع طلقات على الأجهزة...
وهنا ظهرت على الشاشات عبارة متألقة مقروءة ومسموعة:
- مرحبًا.. أنا الكمبيوتر (نيفا) ابن عم (يونيفرس).. قدراتي أقل، لكني قادر على حل مشاكلك..
كان صوته ودودًا كأنه طفل يرغب في بعض اللهو.. فسأله الجوّال وهو يصرّ على أسنانه:
- قل لي كيف أدمرك وأدمر هذا المكان اللعين؟
- هاها!.. سؤال غير تقليدي.. لكنني أصارحك أنني قابل للتدمير فقط لو وضعتني في مشكلة بلا حلّ..
تبادل الجوّال و (عبير) النظرات.. ثم غمغم برضا:
- هذا لن يكون صعبًا..
ثم نظر إلى الشاشة.. وسأل:
- كم عدد ذرات الرمل في الكون؟
على الشاشة كتب السؤال.. ثم تحته كتبت الإجابة:
- 60000 جوجول و 400 أركاديون وذرتان.. هذا ليس عسيرًا، ولو كنت في شك يمكنك أن تعدّ بنفسك.. هى هي!
- الوغد!.. أراهن على أنه يعبث بنا..!..
صوت قرعات على الباب.. لابد أنهم الآن وجدوا رماد القزم الأول.. حتمًا هم يعرفون الآن..
مال الجوّال على الشاشة وسأل سؤالًا آخر:
- من الذي يعبر البحر ولا يبتلّ؟..
- كل من يركب غواصة أو سفينة.. وكل سكان (ليموريا).. ولدىّ إجابة عتيقة من القرن العشرين تقول: إنه (العجل في بطن أمه).. لكنها غير سارية الآن..
- إنك لواسع العلم..
وهنا هتفت (عبير):
- قل لى.. هناك فيلسوف من (كريت) أعلن أن كل سكان (كريت) كذابون.. فهل مقولته صحيحة؟
- لحظة.. إنني..
وراحت أصوات غريبة تصدر من (نيفا).. وأرقام لا حصر لها تتوالى على شاشته.. وطالت الفترة أكثر من اللازم..
سألها الجوّال عن معنى هذا.. فقالت:
- إنها مسألة منطقية قديمة.. نوع من العبارات الثعبانية التي تلتهم نفسها.. كل أهل (كريت) كذابون.. والرجل من (كريت).. إذن هو كاذب.. إذن أهل (كريت) صادقين.. إذن عبارته صادقة.. وهكذا.. إلى الأبد...
- يا للعجب!..
وراح يتأمل الأرقام التي تتوالى على الشاشات غير مصدق.. وغمغم:
- لقد وقع في الشرك.. لن يحلّ هذه المعضلة أبدًا.. وبدأ الدخان الأسود يفعم الحجرة.. إن المحولات تحترق من فرط العبء الملقى على الذاكرة..

في نفس اللحظة اقتحم (زولتار) الغرفة تحيط به الروبوتات والكلاب الآلية.. ولدهشة (عبير) لم تكن هذه كلابًا على الإطلاق، بل أشياء قريبة من المكانس الكهربية، لكنها تصدر عواء متصلًا..!
صاح (زولتار) في جنون:
- أيها السفاحان!.. لو انفجر (المعجّل) لتلاشت حضارتنا من الوجود.. وأنتما معها!
قال الجوّال وهو يلقى سلاحه أرضًا:
- إن حياة أمثالنا لا تؤسي كثيرًا عند فقدانها يا (زولتار).. لكن تذكر حين تتحول ذراتك إلى طاقة أننا لم نهدف إلى تدميركم.. كل ما أردناه هو نجاة كوكبنا..!
ثم فتح صدره، ليكشف عن فانلة داخلية ملأي بالرقاع:
- أطلق نيرانك يا (زولتار) ولننه كل هذا..
نظر (زولتار) إلى من حوله.. ثم صاح في حزم:
- سيف الليزر يا (بنتا)..
وتناول المقبض من يد معاونه.. وقذفه إلى الجوّال.. ثم تناول مقبضًا آخر.. واتخذ وضع الهجوم هاتفًا:
- رجل لرجل أيها المحارب.. لن يتدخل أحد في تصفية الحساب هذه.. ولئن قتلتك سأموت راضيًا.. أو قتلتنى فلن أرى نهاية حضارتنا..
أعتقد أن القراء قد اعتادوا مشهد مبارزات سيوف الليزر الممل من فيلم حرب النجوم بأجزائه الثلاثة..، لهذا لن أعيد وصف تصادم النصال المتألقة كالبرق.. التي ما أن تتصادم؛ حتى يضيء المكان بوهج أزرق مريع..، لقد نجح خبير المؤثرات الخاصة (جون دكسترا) في أن يجعل هذا المشهد كلاسيكيًا..
(عبير) ترمق ما يحدث في ذهول..، الدخان يتزايد أكثر فأكثر، والمكان يرتجّ باستمرار..
الجوّال يجيد القتال.. لكن (زولتار) ليس خصمًا هينًا..
وهنا......
شعرت بيد (المرشد) توضع على كتفها.. فقد حان وقت الرحيل!...
- لكن.. لكني لم أعرف نهاية المبارزة بعد يا (مرشد)!
قال لها في رفق، وهو يبعد الواقفين عن الباب، ليفسحوا لهما مكانًا:
- المنتصر لا يهم.. فالكوكب كله سيتلاشى بعد ثوان.. يجب أن نرحل سريعًا وإلا صرنا في مأزق..
- و... الجوال؟
- آها!.. إنه فتى شجاع.. ولسوف يموت شهيدًا في الحالتين سواء مات بالسيف أو بالمعجّل.. لقد ضحى بحياته، لينقذ الأرض..
معًا يمشيان عبر ممرات (جالاكتيكا)..
و (عبير) ما زالت تنظر للوراء، وتحاول التملص..
إلى أن رأت قطار (فانتازيا) ينتظر... وأدركت أنها لم تعد تلبس ثياب الفضاء....

∞∞∞∞∞∞

خاتمة..

ظلت تبكى ساعات طويلة على كتفي (شريف)، لأنها لم تستطع أن تنسى الجوّال الذي سيلقي حتفه من أجل سكان الأرض جميعًا.. لقد آثر الموت؛ ليحرر الكون من (جالاكتيكا)..

وأسقط في يد (شريف)..
حاول مرارًا أن يذكرها بأن كل هذا كلام فارغ.. نوع من الهلوسة و (هرش المخ) - إذا سمحتم لي – خلقه خيالها الحاد اليقظ كحيوان (الموركا)..
قالت له حين هدأت قليلًا:
- أبدًا لن أصدق أنه كان حلمًا.. كل شيء كان مجسدًا ملموسًا له رائحة وسحر.. وكنت أنت ثائرًا على كل شئ، وقحًا إلى حد ما، لكنك جرى جذاب.. وإنني لأصدم كلما قارنتك الآن بما كنت عليه!..
قال في مرارة وكبرياء:
- شكرًا..!
- لم أقصد جرح شعورك..
- لكنك فعلت..
- أردت القول إن الخيال هو الواقع كما يجب أن يكون.. وللمرة الألف أقول: إن عنواني هو هناك..
ثم جففت دموعها.. وتمخطت.. وسألته:
- لم تقل لي قط: إنك تجيد المبارزة بسيوف الليزر!
-..............!

∞∞∞∞∞

ولهذا.. وحتى تشفى (عبير) من داء الفضاء الذي كاد يودي بعقلها، كان على الجوّال - معذرة أعلى (شريف) - أن يدعوها إلى تجربة أخرى في (فانتازيا)..
في القصة القادمة تجد (عبير) نفسها وسط معمعة الهنود الحمر المولولين، ووعاظ الغرب المزيفين، وجنود الجيش الزرق، والمتبارزين بالسلاح في شمس الظهيرة..
إنه الغرب الأمريكي كما كان دائمًا في خيال الرواة.

(تمت بحمد الله)

إمبراطورية النجوم
عالم المكوكات الفضائية، وسيوف الليزر، والروبوتات الثرثارة، والثقوب السوداء.. سيكون علينا أن نواجه كل هذا تارة مع (جالاكتيكا)، وتارة مع من ثاروا على (جالاكتيكا)، وتارة مع من هم ضد الاثنين..، اليوم يغدو الليزر هو القانون.. ويصير الموت هو اسم اللعبة....



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

شبيه الإنسان.

[←2]

صورة ثلاثية الأبعاد.

[←3]

نسخة جينية.

[←4]

ملحوظة: في كوكب دون غلاف جوى لا يمكن انتقال الصوت، لكننا في (فانتازيا) حيث كل شيء ممكن، أو كما يقول التعبير العامي: «هي جت على دي؟».

[←5]

أي تشابه مع شخصيات في عالم الواقع هو من قبيل المصادفة.

[←6]

الكركانيل هو شيء ما لا أدري كنهه!

روايات مصرية

5

فانتازيا

ذات مرة في الغرب

فريق متميزون E-BOOK

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (05)

ذات مرة في الغرب

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) ... لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- صحاري أوكلاهوما..

لأنها تنتمي إلى هناك!
هذا هو السبب الوحيد - فيما أرى - الذي يجعل (شريف) يخضع بهذه البساطة لرغبة (عبير) العارمة في العودة إلى (فانتازيا)..
لأنها تنتمي إلى هناك..!
ليس (شريف) ضعيف الشخصية.. وليس أحمق.. لهذا أرجح أن هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يقبل..
إنها تنتمي إلى هناك..!
ربما قلنا: إن الاكتئاب داهمها بعد فراق الجوال..
ربما قلنا إن رتابة الحياة الزوجية تضايقها أحيانا..
ربما قلنا إنها خيالية واهنة في مواجهة الواقع..
لا يهم.. فكل هذه كلمات.. وما أسهل الكلام.. أما الحقائق فتقول بكل وضوح:
إنها تنتمي إلى هناك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد تقف (عبير) فوق الهضبة ترمق (فانتازيا) تمتد أمامها إلى ما لا نهاية..
جاء (المرشد) في رفق من ورائها.. عرفت قدومه من صوت ال (تتك - تتك) المميز للقلم الذي يحمله..
قال لها وهو يضع يده في جيبه:
- «مرحبا بك يا (أليس)!»
«(أليس)؟»
= «طبعا.. (أليس) في بلاد العجائب.. أنت أقرب ما يكون إلى شخصيتها.. ألا ترين ذلك.. أنت ضيفتنا في أرض (أبدا - أبدا) كما يقول الإنجليز ([1])..»
- «فليكن اسمها (أبدا - أبدا) أو (هريدى)...لا يهم.. المهم أنني أحبها هكذا..»
- لم تتأخري كثيرا في العودة.. ألم أقل لك: إن زياراتك ستزداد بعد الزواج؟
أزاحت شعرها إلى جانب.. وهمست:
- «بلى.. قلت لي.. لكني - أقسم - لست تعيسة أبدا في زواجي.. إن (شريف) ملاك حقيقي، ولم أكن لأحلم بمثله خاصة في ظروفي.. أنا التي لا أملك شيئا ولا أتمتع بأية موهبة..»
داعب القلم وثبت عينيه في عينيها:
- «ولكن...؟»
- «ولكن لا أجد طعم (فانتازيا) الساحر في أي شيء.. ثم إن (شريف) صار أكثر انشغالا.. وأنا أحتل في عالمه ركنا صغيرا جدا جوار عالم (الكمبيوتر)، وعالم الإلكترونيات..»
- «تك تتك!»
وابتسم في خبث.. وأردف:
د «خذي الحذر.. فلربما كان يراقب حديثنا هذا الآن على شاشة الكمبيوتر الخاص به!»
- ليته يفعل..

قال لها وهو يرمق الوادي البعيد:
- هل ترغبين في زيارة عقلك الباطن؟.. إن له مكانا هنا.. لكني أحذرك من أنك لن تحبي كل ما ترين هناك.. إن هذا المكان يحوي أبشع أحقادك ورغباتك وكل ما فشلت فيه، وكل ما تخشين..، يقولون إن أفظع الوحوش هي نحن.. وأسوأ اللحظات هي حين تلقين نفسك دون ستار..
تنهدت وقالت في ملل:
- كأن هذا ينقصني! لا وحياتك.. دعني أجهل عن نفسي كل ما لا أرغب في معرفته..
- إذن هلمي تركب قطار الأحلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر القطار جوار قلعة (دراكيولا) والبرق يضربها.. فتتبدى معالمها المرعبة لثوان.. ثم يعود الظلام..
تنهدت (عبير) إذ تذكرت رحلتها المروعة داخل هذه القلعة.. ومع البارون (هلسنج)..
سألت (المرشد) في شرود:
- هل أستطيع أن أعود لذات المكان مرة أخرى؟
واصل ضغط القلم.. وغمغم:
- سؤال غريب.. بالطبع تستطيعين.. لكن هل أنت حقا في ذلك راغبة؟.. نحن لم نر واحدا في الألف من (فانتازيا) بعد.. فلماذا تضيعين وقتك؟
- لا شيء.. كنت أتساءل فحسب..
كانت تحلم بالعودة لتموت مع الجوال.. أو تخوض مغامرة أخرى مع (007).. أو تعرض مشكلة أخرى على (هولمز)..
لكنها لم تنس بعد ما قاله لها (المرشد): إن (فانتازيا) تتبدل باستمرار.. وليس حتميا أن تجد القصص حيث تركتها..
كان هذا حين رأت واديا متراميا تحرق الشمس أرضه المتشققة.. نباتات الصبار في كل صوب.. وأنشودة الوحشة تتردد دون كلل..
- أين نحن يا (مرشد)؟
- هذه صحراء في الغرب الأمريكي.. إنه عالم قصص (الوسترن).. هل قرأت شيئا منها؟
- ليس تماما.. إن (فانتازيا) تحوي خبرات كثيرة استمددتها من جهاز (التلفزيون) أو السينما
- إن الخيال هو الخيال.. لكن السينما تسلبك متعة (التخيل) وهي المتعة الكبرى التي تهبك إياها القراءة
قالت وهي تشهق لتتخلص من الشعور بالحرارة:
- هذا صحيح.. إن السينما تضع خيالاتي في قالب معد مسبقا قد لا يروقني كثيرا.. ولكم من مرة رأيت فيلما عن رواية شهيرة ثم زلزلني الشعور بأن (الأمور لم تكن هكذا في خيالي)..
ثم نظرت خارج القطار وهتفت:
- دعنا نجرب هذا العالم أيها (المرشد)..
- إن أحلامك حقائق يا (أليس)..
- (عبير)!
- يا (عبير)!
وجذب الحبل؛ ليوقف القطار.

ساعدها على النزول، وكانت هناك جمجمة لثور بري فوق الرمال تحاشتها (عبير).. ونظرت إلى الأفق:
- هل سيحدث شيء ما؟
قال لها وهو يبتسم كأنما يخاطب طفلا:
- طبعا.. ليس من مصلحة أحد شيك حية في هذا الجحيم.. لو أنك هلكت ستزول (فانتازيا) من الوجود.. وسأجد نفسي دون عمل..
لم تضحك.. وسألته بصيغة رسمية:
- لا من أنا هذه المرة؟
تأملها في اهتمام.. ثم غمغم:
- لنر.. إن ملامحك لا تصلح لتكوني مهاجرة أمريكية من الشرق.. أو خادمة صينية..، إذن ستكونين (صخرة الماء).. لك أصل هندي وأب أمريكي..
- (صخرة الماء؟) - ومطت شفتيها مفكرة - لا بأس به.. فيه شاعرية فظة.. كانت أمي تدللني أحيانا ب (طوبة).. لكن ذلك كان في أوقات الرضا بشكل خاص..
- من يدري..؟.. لعل (صخرة الماء) تكرار للاسم ذاته من عقلك الباطن
وحين نظرت (عبير) إلى قدميها؛ عرفت أنها ترتدي حذاء من جلد الجاموس.. وثوبا طويلا من ذات الجلد.. وعرفت أن هناك ضفيرتين جميلتين على كتفيها.. وخنجرا في نطاقها.. كما عرفت أن ساعديها امتلأ بالحلي والأساور..
أما آخر ما عرفته، فهو أن (المرشد) رحل كالعادة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - إخوان الدم..

الشمس تنحدر غربا، وقد بلغ حجم قرصها حدا غير معقول.. حمراء بلون الدم تخضب الرمال بدمائها لقد وجدت (أمريكا) لأن بعض سكان الشرق صمموا على أن يطاردوا هذا القرص الأحمر في رحلته المحمومة نحو الغرب.. وأن يلحقوا به قبل أن يذوب للأبد في مياه المحيط السرمدية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ضوء الغروب الأرجواني تتقدم ستة أفراس في تؤدة.. يقطع عليها الطريق فرس سابع..
و(عبير) لا ترى وجوه الراكبين، لكنها - بوضوح - ترى ظلالهم.. وتعرف أنهم يرتدون قبعات واسعة، وعباءات تتطاير أطرافها كلما تحركت الخيول..
الأفراس تقف صفا واحدا كأنما هي بانتظار شيء ما.
بعد دقائق يدوي صوت راكب الفرس السابع، وقد وقف أمامهم كأنما سيلقي عليهم محاضرة:
- ماذا تبتغون؟
- الدم!
يدوي الصوت جماعيا رهيبا صادرا من ست حناجر غاضبة.. ويعود الأول يسألهم:
- وماذا جاء بكم؟
- الدم!
- كم تدفعون لأجله؟
- أرواحنا!
- متى تكفون؟
- حين نرتوي!
- لا ومتي ترتوون؟
- حين يسود العدل، وتنام الحملان جوار السباع!
- إخوان؟
- إخوان الدم!
وعاد السكون ينسج عشه ببطء فوق الرمال، بعد ما مزقته الصيحات.. وعرفت (عبير) أن ما جرى هو نوع من الطقوس تمارسها جماعة ما.. نوع من ترديد ميثاق العهد
ولكن من هؤلاء.. وماذا يريدون غير الدم؟!..
هي - عموما - غير راغبة في تقديم نفسها إلى هؤلاء السادة ذوي الميول الدموية..
ولمحت خيولهم تتصرف من موضعها، حيث رقدت على بطنها فوق الرمال ترمق ما يحدث فوق مرتفع..
سبعة ظلال مهيبة تبتعد نحو الغرب.. نحو قرص الشمس الهائل ذاته، كأنما لتذوب فيه..



سبعة ظلال مهيبة تبتعد نحو الغرب.. نحو قرص الشمس
الهائل ذاته كأنما لتذوب فيه..

وحين رحلوا - أخيرا - راحت تهبط المرتفع.
يا لرشاقتها.. إنها تشعر بأنها أخف من أرنب صغير.. وهي تجيد الانزلاق على الرمال، كأنما تفعل

هذا منذ صغرها.
سمعت صوت همهمة.
لم يكن هذا سوى جواد.. جواد رشيق بارع الجمال يقف بانتظارها وقد راح يعابث الرمال بحافره..
وأدركت أن هذا هو جوادها بالذات..
دنت منه وربتت على منخره مداعبة.. هي لم تلمس جوادا في حياتها، لكنها تحب الجياد بجنون.. إن العلاقة بين المرأة والجواد لعلاقة أزلية أسطورية تحتاج إلى خبير في علم النفس ليفسرها.. ما هو أول حلم تراه فتاة مراهقة؟
دائما هو حلم الفارس الذي يختطفها فوق حصان أبيض
إن الحصان هو معادل لروح الأنثى القلقة الراغبة في الفرار.. بعيدا.. بعيدا
ولم يكن الحصان مسرجا.. لكنها أدركت أنها قادرة حتما على ركوبه.. لم لا.. أليست هندية..؟...
أليست هذه (فانتازيا)؟
وبالفعل..
وثبت دون جهد إلى ظهره، ولفت ساقيها حول جذعه.. ثم ضربت عنقه براحتها، فانطلق يركض فوق الرمال..
إلى أين؟.. لا تدري..
بالتأكيد هو يعرف.. أما هي فقد ذابت في هذا الحلم الذي لا يوصف.. إنها تركب جوادا ينطلق بها نحو قرص الشمس الغارب.
الموجودات تبرد واللون الأرجواني يدخل نطاق الأزرق..
وحرارة الجو تقل تدريجيا..
ومن بعيد ترى أشجارا.. ونارا.. وبشرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المشهد معتادا إلى حد غير عادي، ولم تحسب قط أن كل هذا ممكن.. وأن خيالها بهذه الخصوبة..
معسكر هندي كامل متكامل.. بخيامه المزركشة.. وخيوله.. وأطفاله العراة.. وكلابه.. ونسائه اللواتي ينشرن اللحم المقدد على حبال كحبال الغسيل.. ورجاله الجالسين حول النار والطوطم الواقف في منتصف المكان.. عمود طويل من الخشب نقشت عليه وجوه مخيفة مجسة.
وقفت مشدوهة ترمق كل هذا، وتصلبت أناملها حول عنق الجواد.. بالتأكيد هي تنتمي إلى هنا...
رأت رجلا عاري الجذع قد حلق أكثر شعر رأسه تاركا خصلة في المنتصف، كما يفعل شباب هذه الأيام بموضة (البانك).. رأته يتقدم منها وعلى وجهه علامات التساؤل فيساعدها - بيد فولاذية
- على النزول من فوق ظهر الجواد..
ثم يسألها بصوت خشن:
- ماذا وجدت (صخرة الماء)؟
كان يتحدث بلغة غريبة مليئة بالهاءات والواوات لكنها تفهمه تماما.. كما هي العادة في (فانتازيا) حيث لم تعد اللغة تمثل مشكلة من أي نوع..
قالت بصوت مماثل في الخشونة، وبذات اللغة:
- (صخرة الماء) وجدت وجوها شاحبة.. سبعة

- وماذا كانوا يبتغون؟
- تحدثوا عن الدم.. قسم الدم..
- آه!
حتى تعبيراتها صارت مختلفة.. شاعرية قليلا كما تعود الهنود الحمر أن يتكلموا في كل الأفلام التي رأتها..
قادها الرجل إلى مجلس النار..، فرأت حوالي خمسين رجلا جالسين حول عجوز متهدم.. وإن بدا أنه يمثل ثقل الزعامة هنا.. له عينان ذابلتان زجاجيتان وفم جعلته التجاعيد كثمرة طماطم نسيتها شهرين في ثلاجتك..
وكان يدخن من ذلك الغليون الطويل المعلق به ريش، والذي يدخنونه دوما.
جلست جوار الرجل الأول بقرب العجوز.. وانتظرت أن يحدث شيء ما.. لكن شيئا لم يحدث!..
ربع ساعة كامل من الصمت الذي له رائحة التبغ!
متى يتكلم هؤلاء الحمقى إذن...
بعد ربع ساعة آخر بصق العجوز في النار.. وناول غليونه للجالس جواره..، وهنا قال له الأول:

- يا خمسة نمور.. إن (صخرة الماء) قد عادت من جولتها..
- هووووورم!
- تقول: إن هناك وجوها شاحبة..
- هووووم!
- من المحظور عليهم دخول أرض (السيوكس).
- هووووم!
-إن (ذو الدمامل) يرى - بوصفه ابن (خمسة نمور) - أن هذا خرق للهدنة لن يمر دون عقاب..
- هووووم!
ونهض الفتي - الذي عرفنا أنه (ذو الدمامل) – وأخرج فأسا صغيرا من نطاقه.. ولوح به عاليا:
- الموت للوجوه الشاحبة... إن الطيب فيهم هو الميت!
فتعالى صراخ الرجال رفيعا كسحلية مصابة بالبواسير:
- هى ى ى ى ى! الموت لهم! هى ى ى ى!
جلست (عبير) ممتقعة الوجه ترمق هذا الذي يحدث..
كل شيء يبدو واقعيا مخيفا مريعا
إن هذا الجو الوحشي الوثني لا يناسبها حتما.. خاصة أنها - للمرة الثانية - تدرك أنها تلعب دور المخبر أو الجاسوس..
في المرة الأولى مع (جالاكتينا) في مجرة أخرى.. والآن مع (السيوكس) هاهنا..
شحب وجهها.. ثم تذكرت أنها تجازف بحياتها لو صارت وجها شاحبا.. من ثم اكتفت بأن يمتقع وجهها!
للمرة الأولى تسمع صوت الزعيم يقول شيئا آخر غير ال (هوووم)..
وكان صوتا واهنا فيه برد الشتاء ومرارته:
- إنني أنتظر اللحاق بأجدادي في أية لحظة.. لكني أكره أن أترك أبنائي الثمانية يتخبطون في الدماء..، إن الوجوه الشاحبة أقوياء ولديهم مدافع.. لهذا أرى أنه من الشجاعة أن نتريث ونعرف نواياهم.. قد يكون من رأتهم (صخرة الماء) عابري سبيل ضلوا الطريق.. الحروب يا أبنائي لا تبدأ من استفزاز غير مقصود.. وأرى أن الصواب يقتضي أن نعرف المزيد عنهم وعن نواياهم، و

(صخرة الماء) خير من يفعل.. لأنها تعرف لغتهم ولأنها منهم من ناحية الأب.. ولأن (خمسة نمور) يعرف أنها هندية تماما برغم ما لوث دمها من دماء الوجوه الشاحبة.
ومد يده يتناول الغليون.. وأردف:
- لقد قال (خمسة نمور) كلمته!
عندئذ ساد الصمت
وعرفت (عبير) أن مهمتها قد تحددت..
ولا مجال للنقاش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- مهمة سرية..

دخلت (عبير) إلى الخيمة التي فهمت أنها دارها.. داخل الخيمة مظلم لكنه رطيب منعش..
وكانت هناك جلود عديدة معلقة، ومفروشة على الأرض، وعجوز جالسة تلتهم شيئا ما في طبق فما إن رأت (عبير) داخلة حتى هتفت:
عندك بعض القديد.. يمكن أن تأكليه..
تحسست (عبير) المكان في حذر.. وجلست جوار المرأة وتأملتها.. هذا ما توقعته منذ سمعت الصوت.. إنها أمها.. في الواقع وفي الخيال.. هي ذاتها..
لشد ما أبدى (دى - جى - ٢) براعة مذهلة في وضع اللمسات المتممة لوجه العجوز الطيب.....
لقد ضفر خصلات شعرها الأشيب.. وجعلها ترتدي ثوبا من جلد الثيران.. وأضاف بعض تجاعيد (هندية) على ركني فمها.
طبعا لن تحدثها (عبير) عن (غمرة) وعن حياتهما.. بل ستحدثها باعتبارها عجوز (السيوكس).. أمها.
قالت (عبير) وهي تلتهم ما بطبقها:
- الزعيم يريد أن تذهب (صخرة الماء) إلى الوجوه الشاحية..
- حسنا رأي.. وماذا قال أخوك؟
- أخي؟
- نعم.. (ذو الدمامل).. كيف يرى ذهابك؟
إن (ذو الدمامل) هو أخوها.. ولكن كيف؟.. لابد أن أمها تزوجت مرتين..، ولكن معنى هذا أن الزعيم الهندي تزوج من مطلقة الرجل الأبيض.. فكيف؟..
قالت الأم وهي تلوك شيئا:
- أنت شجاعة كأبيك.. كان خير من يضرج الثيران بالدماء، ولكم من مرة رمي بنفسه إلى أحضان دب ثائر؛ ليمزقه بمديته..
وحين قال لي (أحبك يا بصقة الجاموس).. لم أستطع أن أرد.. جريت إلى خيمتي وتركته واقفا جوار الينبوع غير فاهم لشيء..، كان يتردد علينا كثيرا ليبيع لنا التبغ والبنادق.. الجميع كان يحبه وخاصة أنا، لكن قوانين (السيوكس) صارمة.. لا يمكن لذي وجه شاحب أن يتزوج فتاة هندية..، وفررت معه في ليلة صيف باسمة.. مضينا إلى الوديان البعيدة وبنينا كوخا عشنا فيه، وتزوجنا.. ورزقنا بك..، كانت تلك أياما مجيدة..!
قالت (عبير) محاولة أن تبدو عليمة بالأمر؛
- أظن أن قتل الهنود له كان أليما؟
- لم يقتله الهنود.. بل ذوو الوجوه الشاحبة..
كيف نسيت ذلك؟.. وعدت بك إلى هنا.. فوافق الزعيم على أن نعود للانضمام إلى القبيلة.. بل وزوجني ابنه (خمسة نمور) لأنه كان يحبني منذ زمن بعيد...
وهأنذا اليوم زوجة الزعيم وأم أولاده (ذو الدمامل)، و (الماشي للخلف) و (الكلب السعران) و (السنجاب الأجرب)..، وأمك!
هكذا فهمت (عبير) العلاقات الأسرية المعقدة المحيطة بها، وإن لم تستسغ قط أسماء إخوتها من الأب.. فهي أسماء غير مشرفة ولا توحي بالثقة عموما..

ودعتها المرأة إلى النوم، فمددت جسدها المنهك فوق الحشية شاعرة بقسوة الأرض وخشونتها..
وأغمضت عينيها.. وراحت تحلم..
تحلم بالمدرسة.. ومكتب (الكمبيوتر).. و (شريف)..
كما قلنا آنفا.. من الطبيعي في الحلم أن تحلم بالواقع.. كما أن نفي النفي إثبات

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحت من النوم شاعرة بشعور ألف لص ركلتهم أحذية ألف شرطي فظ، إذ قبض عليهم متلبسين بالنشل في الزحام..
وأدركت أن هناك من يهزها.. كما أدركت أن الديك يصيح ثلاثا.. وأدركت أن الظلام مخيم بالخارج..
عادت تواصل النوم.. لكن الهزات صارت أكثر عنفا
وسمعت من يقول لها:
- هيا.... قد تأخر الوقت!
صاحت في حنق:
- ما الذي تأخر؟.. مازال الظلام دامسا!
- إنه الفجر يا (صخرة الماء).. وقد صاح الديك ثلاثا..
نهضت مفككة الأوصال منحرفة المزاج.. فوجدت جوارها طبقا مليئا بالقديد.. دست في فمها حفنتين منه.
وخرجت من الخيمة لترى الظلام في كل مكان، ورأت فتيات يحملن بعض الجرار الفخارية..
خطر لها أن المرأة - في كل مكان - يكون عليها أن تحمل جرة فخارية في الفجر ذاهبة إلى النهر.. هذا هو قدرها.
حملت جرتها على رأسها ومشت وراءهن، وهي تسب وتلعن في سرها.. كل شيء.. الصباح والديك والنهر.. كل هذا يمكنه أن ينتظر قليلا ريثما تنال قسطا من النوم..
راحت الفتيات يمازحنها.. وعند النهر قذفت إحداهن وجهها براحتين مليلتين بالماء وأدركت (عبير) أنها مصدر تسلية وسخرية دائمتين للفتيات لأنها (خلاسية).. ولأن منبتها ليس هنديا نقيا تماما.. حتى ولو كان الزعيم هو زوج أمها.
جلست على حافة الماء وراحت تملأ جرتها وترمق في الماء صورتها التى راقت لها كثيرا..
فجأة دوي صوت الخرير..
إن صوت الدببة ليس خريرا فحسب.. بل هو مزيج من هدير وزئير وخوار وعواء وغطيط.. لا يمكن للقطة واحدة أن تصفه..
خطر لها هذا وهي تسمع الصوت.. وتسمع صراخ الفتيات.. ثم تدير رأسها لترى ذلك الجبل الأشهب العملاق المكسو بالفراء ويبرز من وراء الأشجار في ضوء القمر الأرجواني البكر..
ورأته يهرع نحوهن فوق أربع.. دب أشهب من النوع الذي يسميه ذوو الوجوه الشاحبة (جريزلى)..
كانت سرعته لا تصدق.. لم تتخيل قط أنه قادر على هذا الانقضاض..
وحين وقف على قدميه الخلفيتين، ووجه ضربة بيده المخلبية إلى الفتاة الأولى.. سمعت (عبير) فقرات عنق الفتاة وهي تتهشم.. وسقطت الفتاة أرضا.. فقضم عنقها.. ثم عاد يهرول قاصدا

حشد الفتيات اللواتي ولولن.. ورمين الجرار أرضا ورحن يجرين هنا وهناك..
إنه قادم لي..!؟
كانت تعرف هذا وتؤمن به.
لن يتركها.. سيختارها هي بالذات.. دون الأخريات.
بالفعل رأته يركض نحوها على أربع.. واللعاب مع الدم يتطاير من فيه.. السنام العملاق بين كتفيه يهتز.. والغضب الجشع يلتع في عينيه.. و...
لم تحاول الهرب.. ألصقت ظهرها بشجرة وانتظرت.
وهنا تصلب الدب.. كفّ عن التضخم في عينيها..
وقف على قدميه الخلفيتين، وأطلق صرخة مدوية عاتية ارتجت لها الأرجاء.. وفرت الطيور من أعشاشها.. تلك الطيور التي لم تعتد الاستيقاظ مبكرا.
وهوى الجسد العملاق فوق الكلأ يتحشرج..
ثم همدت حركته تماما..
وحين فتحت عينيها وكانت أصداء طلقة الرصاص تتردد في الأجواء.. ورأت فارسا بركب جوادا وقد أمسكت ببندقية يعيد حشوها بالرصاص..
كان يرتدي قبعة.. ولثاما.. وعلى كتفيه عباءة تتطاير أطرافها في الهواء.. والدخان ما زال ينبعث من فوهة سلاحه..
وقف ثانيتين ليرى ما إذا كان الدب ما زال حيا ثم جذب لجام فرسه، فانطلق، ليختفي بين الأشجار..



كان يرتدي قبعة.. ولثامًا.. وعلى كتفيه عباءة تتطاير أطرافها في الهواء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إخوان الدم!..
حتما هو منهم.. يلبس مثلهم.. ويبدو مثلهم..
وقد أنقذ حياتها في اللحظة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد قال لها (ذو الدمامل):
- لا عليك.. إن مهاجمة الدب للنسوة عند النهر جزء تقليدي في أية قصة تدور عند الهنود لابد من دب.. لكن المشكلة تكمن في الرصاصة.. من صاحب هذه الرصاصة التي أنقذت حياة (صخرة الماء)..؟
قالت له للمرة الرابعة:
- لم أره.. جاءت الرصاصة من بين الأشجار.
قال وهو يبري رأس السهم الذي يمسكه:
- لقد مشط رجالنا وكشافونا الأشجار.. ووصلوا حتى وادي الهلاك.. لكنهم لم يجدوا له أثرا..
ثم أردف وهو يضع السهم في قرابه:
- يجب أن تذهبي غدا إلى الوجوه الشاحبة؛ لتعرفي نواياهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكيف ذلك يا (ذو الدمامل)؟
إن الأمر ليس يسيرا.. فلن تذهب (صخرة الماء) إليهم كامرأة نصف هندية.. إن الوجوه الشاحبة لصوص وأوغاد.. ولن يرحموها..، سيكون عليها أن تتنكر، ترتدي ثياب النساء هناك.. وتضع طلاء شاحبا على بشرتها من دهن الجاموس.. وتثبت شعرا أشقر على شعرها..
الملابس أمرها هين.. فلدينا ثياب امرأة بيضاء كنا قد هاجمنا عربة المسافرين التي تقلها منذ عام.. صحيح أنها ملوثة بالدماء لكن النسوة سوف يغسلنها جيدا.
الشعر كذلك هين.. فلدينا فروة رأس ذات المرأة..
وكنا قد سلخناها لحسن الحظ.. إن (الآباش) الحمقى لا يحيون سلخ الرءوس، وهذا يقلل حصيلتهم من الشعر المستعار..
أما عن اللغة.. فأنت تجيدينها تماما..
يبقى المبرر لقدومك..
وهذا سهل.. سنهاجم عربة مسافرين وندمرها...
بعد هذا تقفين جوارها تبكين.. إلى أن تمر عربة أخري.. عندئذ تدعين أن الهنود هاجموا العربة التي كنت بها، وأنك نجوت بمعجزة.. وتطلبين توصيلك إلى المدينة..
وفي المدينة نريد منك أن تفتحي عينيك وأذنيك كقط بري يتسلل.. ما هي نواياهم؟ من أولئك المتسللون قرب حدودنا؟ هل توجد حاميات للجنود الزرق؟
وحين تنتهين.. تفرين في جنح الظلام عائدة لنا..
لا تنسى أن تأخذي هذه التعويذة.. ضعيها حول عنقك كي تحميك.. وخذي هذه أيضا.. إن الوجوه الشاحبة تستعملها في اقتناء الأشياء.. يسمونها (دولارات) فهم متخلفون لا يحبون نظام المقايضة..، بل هم لا يرون أهمية للملح ولا التبغ ولا الحلى الزجاجية الملونة.. إنني لأسائل نفسي عما إذا كان هناك حد للغباء البشري!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا..
ترون (عبير) الآن وقد تبدلت تماما.. هي الآن أمريكية شقراء ترتدي تنورة واسعة مزركشة وقميصا أبيض.. وقد تبعثرت خصلات الشعر الذهبي على كتفيها.. وبدا عليها الإعياء ووعثاء السفر..
تقف جوار حطام محترق لعربة مسافرين يتصاعد
منها الدخان، وقد امتلأ جدارها بالسهام الهندية ذات الريش.. وهي سهام من النوع الذي يستعمله (الآباش) طبعا وليس (السيوكس).. وثمة بلطة ملقاة على الأرض.. ورجلان تم سلخ فروة رأسيهما.. وتمرغ وجهاهما الميتان في الرمال..
الطريق يمتد إلى بعيد في الصحراء.. والقيظ يحرق بشرتها.. فتمد يدها إلى قربة الماء تجرع منها عدة جرعات..
والآن ترى غبارا في الأفق.
وترى عربة تجرها أربعة جياد.. يلهب ظهرها بالسوط حوذي بدين يضع زجاجة خمر في جيبه..
العربة تدنو أكثر.. والآن يراها الحوذي فيشد اللجام بعنف وتنغرس الحوافر في الرمال..
- أو هيه!.. فتاة هاهنا؟
فتدنو منه (عبير) لتقول لاهثة:
- (الآباش)! هاجموا العربة.. نجوت بأعجوبة!
هرش الرجل عنقه ورأسه.. وتجشأ.. وقال:
- تبا لهؤلاء الوثنيين.. إن الهندي الطيب هو الذي مات..!.. إن الجنرال (سكوت) يعرف حقا كيف يعامل هؤلاء..
كان ثملا.. عرفت هذا من أنفه المحمر الغارق في العرق..
هذه هي قواعد قصص (الوسترن).. الحوذي لابد أن يكون بدينا ثملا.. كما أن قواعد القصص الروسية تحتم أن يكون الإسكافي (ثملا) وأحمر الأنف كسرطان البحر المسلوق)..
قال لها وهو ينزع قبعته؛ ليبدو راقيا:
- من أنت يا سيدتي؟
- أنا.. أنا (شارون ستون).. من (أوهايو)
لم تجد اسما أمريكيا آخر في ذهنها سوى اسم هذه الممثلة التي ترى صورتها أحيانا في صفحة السينما بالجريدة..، من العسير أن تجد اسما حين تبحث عنه..، وعلى كل حال واضح أن الحوذي لا يتابع السينما العالمية لحسن الحظ..
- إذن.. اركبي.. نحن ذاهبون إلى (هيل تاون ([2])
برشاقة دارت (عبير) وفتحت باب العربة الخشبي.. وصعدت لتدس جسدها بين الركاب..
وبدأت العربية تتأرجح ببطء نحو المدينة..
لقد انتهى الجزء الأول من الخطة..
دون مشاكل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - إلى (هيل تاون)..

راحت (عبير) في حذر تتأمل الجالسين معها في العربة..
أما هذا البدين المتأنق الذي استرخي كرشه أمامه واسترخت كفاه متشابكتين على كرشه، وأرجع رأسه للوراء غارقا في غطيط عال.. فهو نمط.. نمط الثرى الاستغلالي الجبان إلى حد ما..، إنه من أنماط البشر التي لا تحتاج لمزيد من التعمق.. كما أنك لست في حاجة لشرب كوب العصير كله؛ لتعرف أنه حامض..
أما هذه المرأة التي ترخي نقابا على وجهها، تبدو من ورائه عيناها النفاذتان اللتان ترمتان (عبير) كغراب.. فلا يمكن التكهن بشخصيتها.
بعد هذا يوجد كهل يرتدي السواد، وقبعة سوداء على رأسه.. ويمسك الكتاب المقدس يطالعه في اهتمام.. إنه واعظ من الوعاظ الذين يجوبون الغرب بلا شك..
ثم - أخيرا - الشاب المتأنق ذو الشارب الرفيع الجميل، الذي يقول: إن صاحبه يعاني حالة هيام مفرط بذاته.. ولم ينفك يتأملها باعتبار هذا واجبه القدرى نحو أية فتاة شابة.
بعد ثوان انحنت المرأة؛ لتتناول من حقيبتها القماشية شيئا ما.. وناولته ل (عبير)..
كان هذا الشيء شطيرة.. وقالت ل (عبير) في صرامة:
- لابد أنك جائعة..
قضمت (عبير) قضمة، وبفم مليء بالطعام غمغمت:
- فعلا.. أشكرك..
- إن شكلك مروع..!
- لقد هاجمتي (الآباش) منذ دقائق..
- هذا ليس مبررا.. - ومطت شفتيها مشمئزة - المرأة الأنيقة تظل أنيقة حتى وهي في معدة حوت!
- ربما..
- ولماذا تسافرين وحدك؟
- أوه.. كنت مع زوجي.. لكن (الآباش)...
- هذا ليس عذرا.. - ثم قالت في تأفف:
- .. المرأة الطاهرة تفضل الموت مع زوجها على أن تسافر وحدها!
هنا فهمت (عبير) ما يحدث.. إن هذه المرأة هي نموذج للعانس التي تمقت الكون والناس؛ ونتيجة لهذا تغدو من غلاة المتطهرين.. وطليعة المدافعين عن الفضائل.. وهي تجد ذاتها في لوم الآخرين وانتقادهم.
وهنا اهتزت العربة فطارت المرأة لأعلى؛ ليصطدم رأسها بسقف العربة.. وسقطت على مقعدها منهكة تغمغم:
- إن هذه المطبات..
في اشمئزاز عميق قالت (عبير):
هذا ليس مبررا.. المرأة الوقور لا يصطدم رأسها بسقف العربة أبدا..!
- هذا حق.. سامحيني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحني الشاب في رقة، ونزع قبعته.. وسلط عينيه البنيتين - اللتين يظن أنهما تتمتعان بتأثير فتاك – على (عبير) وقال:
- لابد أنها كانت تجربة قاسية يا سيدة؟
- (ستون).. (شارون ستون)..
قال في مزيد من التملق:
- أنا (جيف جولدبلوم).. محاسب.. أما الآنسة فهي مس (بلومر).. (إماليا بلومر) ([3]) وهي في زيارة لشقيقتها في (هيل تاون) أما هذا..
وأشار إلى الرجل الغافي
-.. فهو مستر (فيك جانك).. تاجر من كبار التجار في الشرق... أما الأب..
وأشار إلى صاحب الثياب السوداء:
- فهو الأب (جيمس كاتريل) ...
هز الرجل رأسه في وقار.. وابتسم بركن فيه.. ثم واصل القراءة في اهتمام..
- واعظ من الشرق يريد أن يعيد كل هؤلاء الخطاة إلى جادة الصواب..
وهنا صاح الحوذي من مقعده، وهو يجذب اللجام:
- يا للعنة!.. عصابة ال (بانديتس)!
- ماذا؟
بدا الذعر على الجالسين بالعربية، وتوتر الجميع..
ونظرت (عبير) من النافذة لترى أربعة رجال على ظهور خيولهم يقفون ليسدوا طريق العربية، وكان هناك جذع شجرة غليظ ساقط بالعرض؛ ليزيد صعوبة الفرار.. لا تدري من أين جاءوا به هنا..
صاحت العانس في غل:
- لابد أنك نحس!.. أولا هاجمك الهنود والآن هؤلاء الأوغاد..
كادت (عبير) تحتج بأن هجوم الهنود كان أكذوبة.. لكنها لم تستطع أن تقول هذا بالطبع وراحت تراقب ما يحدث في قلق..
سمعت أحد الرجال يحدث السائق بلغة فظة:
- هيه.. أنت يا قربة الدهن.. ابق حيث أنت؛ لأن ثقبا في رأسك لن يزيدك جمالا..
ثم هتف في تهذيب ساخر:
- فلينزل السادة الركاب..
أطلق الوسيم سبة، ثم فتح باب العربة ووثب منها ولم ينس أن يساعد المرأتين على النزول..
بعد هذا نزل الواعظ والتاجر الذي لم يفهم بعد ما يحدث هاهنا.. لابد أن كل هذا كابوس..
وقفت (عبير) ترمق قطاع الطرق هؤلاء كان قائدهم ملتحيا قذر الثياب.. يلوك عودا من القش وقد ثبت سلاحه على عنق الجواد.. سلاحا عجيبا هو مزيج من البندقية ذات الأربعة أفواه، والمسدس ذي الساقية..
أما زملائه الثلاثة فلم يكونوا أفضل حالا، تتبدى الوحشية في عيونهم الزرقاء.. ولحاهم مشعثه غير حليقة.. وكان أحدهم يحمل مدفعا صغير الحجم فوق السرج.. وقد أعد عود ثقاب لإشعال الفتيل لو اقتضاه الأمر..
نزع القائد قبعته في تهذيب.. وقال:
- أرجو أن تسامحني السيدتان على ما في مسلكي.. لكننا نعاني - أنا ورفاقي - حاجة مزمنة للحلي،

والذهب، والساعات، والدولارات.. وأعتقد أن معاناة الجميع ستنتهي بمجرد أن تفرغوا جيوبكم، وتعطونا هذا الصندوق من فوق العربة..
في هلع صاح التاجر وقد احمر لغده كعرف ديك:
- لا!.. إن كل ثروتي في هذا الصندوق!
- إنها أنباء طيبة.. وإنني لأكرر عرضي بحماس أكثر..
- انت لن تجرؤ..
- أنا لن أجرؤ؟ ما رأيك يا (بيلي القذر)؟
- انفجر (بيلي القذر) - وهو يستحق هذا الاسم حقا ـ يضحك كاشفا عن أسنان نخرة متسوسة، وبدا من الغريب ل. (عبير) أن بقايا السيجار الذي كان في فمه لم تسقط برغم أنه فتح فاه بالكامل، ومعه ضحك الاثنان الآخران حتى أدمعت عيونهما
وهنا قال القائد:
- هلموا يا شباب.. ولننه هذا الهراء..
في حماس راح الركاب – بالطبع ما عدا (عبير) - ينزعون كل شيء ثمين يلبسونه أو في جيوبهم، وكان أكثرهم حماسة هو الفتى الوسيم (جيف)..، وترجل أحد اللصوص؛ ليجمع كل شيء في منديل قذر ثم تسلق جانب العربة؛ ليأخذ الصندوق...
فما إن وضعه على سرج جواده وسط دموع التاجر؛ حتى قال القائد في تهذيب مفتعل:
- والان يا سادة.. اغفروا لنا وقاحتنا.. فنحن مضطرون لقتلكم!
ـ لكنك نلت ما تريد..
- إن (هاري السفاح) لا يترك شهودا..
وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله، فصدرت قعقعة من الأسلحة تعلن استعدادها.. وحك حامل المدفع عود الثقاب في السرج فاشتعل.. ولم ينس أن يشعل سيجاره منه.. ثم راح يرمق الركاب المذعورين في استمتاع.



وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله، فصدرت قعقعة من الأسلحة تعلن استعدادها..

- اتلوا صلواتكم الأخيرة..

هنا كان الفتى الوسيم قد بلغ نهاية تحكمه في أعصابه..

وأدركت (عبير) أن قطرات الماء التي تبلل سرواله لم تأت من المطر حتما.. ورأته يصيح في هستيريا:
- يا.. يا سيد (هاري).. نحن لم.. نحن لم.. لا تقتلونا.. إن.. إن هذه الفتاة.. وبفظاظة جذب (عبير) المذهولة من ذراعها
- هذه الفتاة هي السبب.. يمكنكم أن تقت.. تقتلوها فقط..
في غباء تساءل القائد:
- السبب في ماذا؟
- ل.. لا أد.. أدري.. ظننتكم تريدون ضد ضحية ما..
نظرت (عبير) إليه في اشمئزاز.. الخنزير...
كلهم يتصرفون بنفس الكيفية.. يكونون عشاقا لا يشق لهم غبار، وعند بادرة الخطر الأولى يضحون بالحبيبة عند أول لحظة.. وتذكرت مقطعا من الشعر العامي الساخر لشاعر مجهول يقول: (يموت حبيبي ولا استهواش)! قد يبدو غريبة ومضحكا.. لكنه حقيقي.
قال القائد في سأم، وقد أثار هذا العرض الأخير قنوطه:
- هيا يا شباب.. انتهوا سريعا..
وهنا صاح الواعظ رافعا يده:
- لحظة يا أخي.. أنت لن تقبل أن تقتلنا قبل أن نصلي من أجل خلاص أرواحنا..
- ليكن أيها الأب.. ومن يدري؟ لربما سألت الله أن يغفر لنا حين تلقاه في العالم الآخر..
اتجه الواعظ في تؤدة ليواجه الركاب، وأخرج الكتاب المقدس.. ورسم بيده علامة البركة في الهواء.. وقال بصوت هادئ وقور:
- توبوا يا أبنائي.. فأنتم ستلقون خالقكم بعد ثوان..
لا شيء سوى بكاء العانس.. واصطكاك أسنان الفتى.. وولولة التاجر على ماله.. ولهاث (عبير) المنفعل..
.. لهذا تذكروا أن الرب دعانا لأن..
وفي الثانية التالية: لم تر (عبير) سوي رجلين من اللصوص يصرخان ويسقطان من فوق صهوتي جواديهما، وعندئذ عرفت أن الواعظ كان يخفي مسدسا في كتابه.. وأنه قد حفر الصفحات؛ ليجعل منها صندوقا يداريه فيه..
عرفت كذلك أن عليها أن تنحني وتتمرغ في الرمال.. تسمع صوت الصراخ.. وصوت الطلقات..، وحين رفعت عينيها رأت الواعظ ممرغا في الرمال والدماء.. ورأت قائد اللصوص يطلق الرصاص كوحش مسعور في كل اتجاه، ومعه حامل المدفع الذي أشعل عود ثقاب آخر.. لقد مات اثنان من اللصوص إذن.
ورأت العانس تزحف على ركبتيها، والتاجر يحتمي بالعربة، وشعرت أن هناك من يجذبها إليه بقوة.
فنظرت للوراء لتجد الوسيم يرقد وراءها متخذا جسدها كدرع..!
- يا لك من خنزير.. ألن تكف عن هذا؟!
ثم رأت حوافر الحصان تقترب.. وتقترب..
رفعت رأسها لترى منظورا من أسفل لزعيم اللصوص فوق صهوة جواده.. كان يرمقها من عل وقد تألقت الشمس وراء ظهره.. ورأته يصوب مدفعه تجاهها ويقول:
- اثنان بطلقة واحدة؟ إن إغراء هذا لشديد..؟

وحين ضغط الزناد..
كان آخر ما تمنته (عبير) أن يكفي هذا لإعادتها لعالمنا..
وتمنت أن يكون الموت هينا في (فانتازيا)..
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - (هيل تاون) نفسها

كما يحدث دائما لم تنطلق الرصاصة من السلاح المصوب نحوها، بل جاءت من الوراء.. لتصطدم برأس قائد اللصوص.. ويتناثر الدم وشظايا المخ في كل صوب..
والطلقة الثانية اصطدمت برأس حامل المدفع، الذي توقف هنيهة وعود الثقاب ما زال بين أنامله.. قال شيئا ما عن النحس الذي يطارده.. ثم هو كالصخرة من فوق صهوة جواده..
هتف التاجر مشيرا إلى الأفق:
- انظروا!
إذ - في الأفق - يقف ذلك الفارس راكبا جواده.. على رأسه قبعة، وأطراف عباءته تتطاير في الهواء كان يعيد حشو سلاحه الذي يتصاعد الدخان من فوهته..
ثم جذب لجام جواده.. وانطلق مبتعدا..
هتفت العانس في حيرة وهي تنفض الغبار عن ثوبها:
- لقد أنقذنا.. ولكن من هو؟.. هل الفارس المقنع؟
قال التاجر وهو يضع كفه على عينيه ليتقي الشمس:
- كلا.. الفارس المقنع لابد أن يصيح في حصانه، قائلا: فلنبتعد يا (سيلفر)!، أما هذا فلم يقل شيئا..
لكن (عبير) كانت تعرف الإجابة..
إخوان الدم
واحد منهم قتل الدب.. وقتل اللصين..
واحد منهم يلعب دور ملاكها الحارس.. فمن هو؟
ولماذا؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(هيل تاون) أخيرا.
برغم كونه وقت الغروب؛ يمكننا يا رفاق أن نتأمل معالم هذه المدينة.. مجرد واحدة من عشرات المدن المماثلة في الغرب الأمريكي.. ذات الطرقات الترابية..
دائما هناك فندق وحانة وحانوتي ومكتب (الشريف)، ومصرف وحداد لتركيب حدوات الخيل..
ثمة راعي بقر يجلس في وضع غير مريح على مربط الجياد أمام الحانة، وقد أسدل قبعته على وجهه وراح يعزف لحنا ما على جيتار عتيق..
ثمة متسول ضرير.. وبعض عربات تجرها الخيول وبعض المتأنقين ذوي القبعات العالية يمشون مع نساء ذوات قبعات أكثر علوا.
ومن حين لآخر تخرج طلقة رصاص من الحانة، أو يصطدم أحدهم ببابها الدوار ليقذف إلى الخارج، ويسقط في حوض سقاء الخيل..
الخلاصة أنها بلدة عادية جدا لا يميزها شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) تفكر في هذا كله حين راحت العربة تخترق شوارع المدينة الترابية، وكان الحوذي ثرثارا بما يكفي لدرجة أنه لم ينتظر توقف العربة..
بل راح يولول حاكيا ما حدث للجميع..
وعند مكتب (الشريف) توقف أخيرا.. جذب أعنة الجياد وراح يولول من جديد..
وتجمع الرجال.. فتحوا باب العربة: لينزلوا جثة الواعظ الذي اخترمه الموت - بالمعنى الحرفي للكلمة - ومددوها على الأرض..
ورأت (عبير) المأمور يخرج من مكتبه في تؤدة، وقد دس إبهاميه في نطاقه، وراح يلوك لفافة تبغ بين أسنانه..
كان بدينا يوحي مظهره بالاسترخاء..، وقد ثبت نجمة المأمور الشهيرة باستهتار على صدره.. وإن نزع قبعته على سبيل احترام الموت..
ركل الجثة بطرق حذائه.. وهتف:
- هذا (وايلد بوي هيكوك).. القاتل المحترف وأخطر رماة (فيرجينيا).. إن عدد الوعاظ المزيفين في هذا الغرب يفوق عدد الخطاة الذين يعظونهم..
وبصق طرف لفافة التبغ.. وأردف:
- لقد كان قطاع الطرق محظوظين حقا.. فلا أحد يظهر مسدسا في حضرة (وايلد بوى) ويظل حيا.
- لكنهم ماتوا..
- الموت بأي سبب غير (وايلد بوى) يكون رحيما..
قال التاجر وهو يجفف العرق على جبينه، وأسفل عنقه
- ليس هذا كل شيء.. لقد هاجم (الأباش) هذه السيدة وقتلوا زوجها.. كان هذا قبل أن تركب معنا..
أغمض المأمور عينا وفتح عينا.. وتأمل (عبير) في اهتمام وهو يلوك لفافة التبغ.. حتى بدا لها كبقرة عجوز ترعى
وغمغم في لا مبالاة:
- (أباش).. هوووم!.. غريب!.. لا يوجد (آباش) هنا..
صاحت (عبير) في حماس:
- بل (آباش).. لقد سلخوا رأس زوجي..
- لابد أنهم (سيوكس).. (الأباش) لا يسلخون الرءوس يا سيدتي..
وعلى كل حال لا أظنك خبيرة ب.(موديلات) هؤلاء الهنود.. إن الخلط بين أنواعهم لهين.. كلهم يقذفون السهام ويقتفون الأثر ويرقصون بالرماح حول النار.
شعرت (عبير) بالحنق.. إنها غلطة (ذو الدمامل) الذي حاول أن يسبك التمثيلية بسلخ رأسى الرجلين.. لكنه أفسدها..
والآن يتجه إصبع الاتهام نحو (السيوكس)..
رجل يرتدي ثيابا زرقاء، وعلى رأسه قبعة رسم فوقها سيفان متقاطعان.. ووجهه يزدان بلحية بيضاء مهيبة.. كل ما فيه يوحي بأنه عسكري.. وأنه يقود.
دنا منهم.. فأفسح له الرجال مكانا.. وقال أحدهم:
- إنه الجنرال (سكوت).. قد جاء من الحصن. وقف الجنرال يتأمل الموقف.. ثم هتف بصوت مهيب مجلجل:

- من كان موجودا حين هجم الهنود؟
- هذه.. السيدة..
دنا منها.. وبعينين نافذتين تأملها.. وتساءل:
- هل رأيت ما حدث يا بنيتي؟
- ن.. نعم...
- أنت واثقة من أنهم كانوا (سيوكس)
- أ.. أحسبهم كانوا... (آباش)..
- لا يوجد (آباش) هنا.. إذن هم (سيوكس) وقد خرقوا الهدنة
صاح أحد الرجال في هستيريا:
- ويل لهم يا (جنرال).. إن الهندي الطيب هو الذي مات!
تزايدت صيحات الحماس الدموي، فقال المأمور في حنق:
- يا (جنرال).. إن مسئوليتك هي عن الهنود.. أما أنا فأحقق في أمر اللصوص.. إن لكل منا مجال تخصصه.. فدعنا لا نفسد عمل بعضنا..
قال (الجنرال) وهو ينقل نظراته النافذة إليه:
- أنا لا أطيق المدنيين كما تعلم
- وأنا لا أتحمل العسكريين..
- إذن ستكون لي لقاءات عدة مع هذه السيدة ولسوف أجرد حملة تأديبية للقصاص غدا..
وانصرف (الجنرال) في شيء من عصبية..
فأشار المأمور ل. (عبير) إلى الفندق، قائلا لها: إنه مريح ولا بأس به.. وإنه سيعود إليها في الصباح ليرى ما تملكه من معلومات عن الحادثين..
- إن (هيل تاون) مدينة قذرة.. لكنها أنظف من سواها.
وعلى باب الفندق حيتها العانس في فتور.. فهي ذاهبة؛ لتقيم لدى شقيقتها..، وعرفت (عبير) أن التاجر والوسيم سيكونان معها في الفندق..
إن مهمتها محددة.. ولكن كيف تبدأ؟
هل تذهب إلى (الجنرال) لتسأله عن نواياه بهذه البساطة؟
إن عمل الجواسيس يبدو سهلا في السينما.. لكنه معقد في.. في الحلم إلى درجة لا توصف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرعات على باب الحجرة.
ذهبت تفتحه في حذر حاملة الشمعة؛ لتجد الفتى الوسيم واقفا وقد نزع قبعته، وراح يبتسم في أدب:
- مساء الخير يا مسز (ستون)..
- مساء الخير..
ابتلع ريقه.. او غنم:
- كنت.. أتساءل عما إذا كان من الممكن أن تقبلي دعوتي إلى.. أ.. لنقل سهرة في المطعم..
- لا..
قالتها في صرامة، ودفعت الباب لتغلقه، لكنها وجدت حذاءه محشورا في فتحة الباب وعلى وجهه اللزج اللحوح ارتسمت بسمة مقيتة:


قالتها في صرامة، ودفعت الباب لتغلقه، لكنها وجدت حذاءه محشورًا في فتحة الباب..

- لا تدرين ما سيفوتك..
- ليس عشاء مع الإسكندر المقدوني على كل حال..

ثم فكرت.. لم لا؟...
إن هذا سيمنحها فرصة الاندماج مع القوم في هذه المدينة، ولسوف تعرف من كلامهم الكثير..
ولكن كيف تخرج بهذه الثياب؟.. ثياب المرأة التي سلخ (السيوكس) رأسها منذ عام، ثم زادتها أحداث اليوم سوءا..
وكأنما قرأ الفتى ما يجول بذهنها.. فانحنى على الأرض والتقط كيسا ورقيا به شيء ما.. وقدمه لها وابتسم..
نظرت داخل الكيس فوجدت ثوبا جديدا.. يبدو أنه..
-.. من المتجر.. ابتعته لك الآن.. أعرف أنك فقدت حقيبتك إثر غارة الهنود..
- لكني لن..
- أرجوك..
لم تدر ما تقول.. فهي لا ترغب في قبول هدايا من هذا النذل.. وهي تنفر دوما من الرجال الشجعان وقت السلام.. الجبناء إبان الخطر.، ثم قالت لنفسها: إن الأمر كله حلم.. حتى المتجر ذاته هو من نسيج أحلامها.. فأي ضير هناك من أن تفعل في الحلم شيئا تأباه في الواقع؟
تناولت الكيس شاكرة، وهمت بغلق الباب في وجهه حين سمعته يقول في لطف:
- لم يكلفني سوى عشرين دولارا وعشرة سنتات.. يمكنك أن تدفعيها لى فيما بعد!
أغلقت الباب في غل.. إن حقارته وخسته لا تقفان عند حد.. لكن هذا أفضل.. إن معها دولارات (ذو الدمامل).. وليعلم هذا الوغد - الوسيم - أنه لن يستطيع شراءها بشيء دفعت ثمنه بالكامل..
وحين فتحت الباب - في ذروة أناقتها الأنثوية – كان أول ما فعلته هو أن دست النقود في جيبه..
زاده هذا سعادة.. وانحنى ليطبع على أناملها قبلة لزجة زادها شاربه خشونة.. ذكرتها بملمس أقدام دودة القز ذوات الممصات..
كانت تربي هذه الديدان كطقس من طقوس الربيع..
مشيا في الشارع بضع خطوات..
ثم رأته يفتح باب الحانة ويدخل معها..
كان الجو غير راق للأسف..
الدخان يعبق الجو كأنما توقف هناك إلى يوم الدين..
ونغمات نشاز تتصاعد من بيانو عتيق يجلس إليه عازف زنجي مخمور..
الرجال جالسون إلى موائدهم يلعبون الورق ويحتسون الشراب، ومجموعة من صيادي الفراء يلعبون ال (برادى فير).. لعبة الأذرع القوية، وكان هناك مكسيكيون يرتدون (البانشو) - الحرملة المكسيكية الشهيرة - و (السومبريرو) - القبعة المكسيكية الأكثر شهرة - يحتسون (التاكيلا) - المشروب المكسيكى ساحق الشهرة..
تساءلت (عبير) في حيرة:
- كيف يجتمع مكسيكيون - وهم موجودون في الجنوب - مع صيادي فراء - وهم موجودون في الشمال قرب (كندا) - في مكان واحد؟
قال (جيف) بلا مبالاة وهو يشق الزحام:
- " هذه (فانتازيا) كما تعلمين.. وفي (فانتازيا) يفسح علم الجغرافيا مكانا للخيال..
- كما أفسح علم الفلك مكانا في (جالاكتينا).. وأفسح علم الفيزياء مكانا في (٠٠٧)..
- تماما..

ضحكة خليعة من إحدى فتيات الحالة، ولكمة في فك أحدهم.. ورصاصة تنطلق من مكان ما إلى مكان ما...
جلس (جيف) مع (عبير) إلى مائدة.. ونادى الساقي وهو يبتسم لها محاولا أن يفتنها وهنا شعرت (عبير) أن الظلام قد حل.
رفعت رأسها؛ لتجد عملاقا يشبه الجبل حجما وموضوعا..
عملاقا أشعث نامي اللحية قد فتح أزرار قميصه حتى البطن، كاشفا عن صدر مشعر كغوريلا...
وكان هناك جرح قديم في خده.. وخنجر عملاق يتدلى من نطاقه.
كان يقول شيئا ما:
- هيه يا أصفر! نحن لا نخدم الآنسات هنا![4]
استشاط (جيف) غضبا ووقف.. كان مستوى رأسه عند بطن العملاق بالضبط (هذا لأن العملاق كان منحنيا).
وصاح في حنق:
- إنني أطالبك أن تكون أكثر أدبا يا..
- تطالب من؟..
وانهالت لكمتان على وجه الوسيم فلم يعد كذلك.. لكمة ثالثة أطارته مترين إلى الوراء.. ثم لكمة رابعة جعلته يختفي من الحانة (وربما من العالم) إلى الأبد.
وأمام عيني (عبير) المذعورتين، رأت العملاق يجلس إلى المائدة.. وينحني ليقول لها في حنان:
- هيا يا فتاة - لقد حان الوقت كي يكون لك رجل حقيقي..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الفارس الوحيد

كانت (عبير) تعرف جيدا مشاغبي الحانات هؤلاء.. لكنها لم تجد فكرة للهرب من هذا الوحش..، فلو نهضت لجذبها إليه.. ولو صرخت فلن يعبأ بها أحد.. ماذا تفعل؟
ومر أحد رواد الحانة جوار المائدة فصاح في مرح:
- هاى!.. يبدو أن (أجلى جو) قد وجد صديقا
- اخرس!
قالها بنبرة حاسمة عميقة.. وعاد يبتسم ل (عبير).
يا له من مأزق...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انفتح باب الحانة الدوار.. ورأت (عبير) راعي بقر يدخل منه.. كان يضع خرجا على ظهره.. وثيابه في أسوأ حال.
لم تر وجهه لأن القبعة تميل: لتغطي أكثره.. لكنها رأت أنه يحمل مسدسين في نطاقه، وكانا موضوعين بحيث يشير مقبضهما إلى الأمام لا الخلف
رأته يمشي بتؤدة نحو البار..
يضع الخراج على المنضدة.. ويريح ساقيه – اللتين دفنهما في حذاءين ذوي رقبة عالي الكعب - على مقعد خشبي مرتفع..
جاءه الساقي البدين ذو الشارب الكث..، فقال له شيئا ما دون أن ينظر إليه..
سمعت الساقي يسأله في فضول:
- هل نفق جوادك يا راعي البقر؟
هز الرجل رأسه أن نعم.. وتناول الكوب المكسو بالرغاوى من الساقي.. وأفرغه في فيه مرة واحدة..
قال الساقي وهو يجفف بعض الأكواب
- إن الغبار يسبب الظمأ، ولابد أنك ابتلعت الكثير منه..
- لم يرد راعي البقر.. ومد يده يطلب المزيد..
ثم ألقى قطعة عملة على المنضدة..
هنا صرخت (عبير) لأن الوحش الذي يجلس أمامها ضربها على يدها، ليجذب انتباهها إلى دعاباته.
رأت راعي البقر ينهض من مكانه في تؤدة، القبعة تغطي أكثر وجهه لأنه ينظر لقدميه طيلة الوقت..
في بطء يسير نحو مائدتها..
يقف أمام العملاق الجالس.. ويقول بصوت منهك:
- دعلها تنصرف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحول وجه (أجلي جو) إلى لون الطماطم.. ومد يده إلى الخنجر العملاق في خصره، وهو يسب

بعنف:
- يا خيال الماتة.. ستندم على لعب دور الرجل القوي!
لكنه توقف..
كان تصل المسدس البارد ينغرس في لحم عنقه.. وأصدر الزناد صوت ال (كليك) يوحي بأن المسدس وحش يحاول التملص من سيطرة من يمسك به..
متى أخرج راعي البقر المسدس؟ لم يره أحد يفعل ذلك.. كانت سرعته لا توصف..
وبكلمات باردة قال لخصمه الذي فقد حماسه:
- أرى أننا بدأنا نتفاهم.. والآن اغرب عن وجهي..
ستندم يا راعي البقر!
- ريما.. ولكن ليس على طردي لك..
نهض العملاق متثاقلا فلو أن النظرات تقتل لتحول راعي البقر إلى غبار تذروه الريح.. وببطء غادر المكان الذي ساده الصمت..
وحتى صوت الأنفاس لم يعد هناك..
وللمرة الأولى تري (عبير) ملامح راعي البقر كان - مرة أخرى - هو (شريف) ذاته!.. وإن بدا وجهه متعبا صارما لم يبتسم قط في حياته.. لحيته طويلة.. وشفتاه متشققتان.. وأظفاره مستطيلة سوداء، لقد لوحت الشمس بشرته إلى حد الاحتراق.. واختلط الغبار بالعرق في تجاعيده وعلى شعر حاجبيه.
لكنه ظل هو..
لم يكلمها.. فقط أدار المسدس في الهواء بحركة بهلوانية قصيرة، فعاد السلاح إلى قرابه..
وعاد إلى البار ليواصل احتساء مشروبه..
- مرحى!
دوى الصوت من مكان ما..
ورأت (عبير) رجلا متأنقا - إلى حد الاشمئزاز - يرتدي بدلة كاملة، وسلاسل ذهبية ثقيلة تتدلي من صدارها، رأت هذا الرجل ينهض قاصدا راعي البقر.. وفي مودة يربت على كتفه:
- أنت شجاع يا راعي البقر.. قليلون هم من جرءوا على تحدي (أجلي جو)..
لم يرد الرجل.. وواصل تأمله في صت بليغ..
- تعال إلى مائدتنا.. نحن نلعب (البوكر).. هل تعرفها؟
لم يرد الرجل.. لكن صمته كان يملك الردود كلها..
فتارة يصمت بمعنى (نعم).. وتارة بمعنى (لا).. وتارة بمعنى (شكرا)..
هذه المرة كان صمته يقول: نعم
وفي ذات التؤدة نهض ماشيا وراء الرجل
قاده هذا إلى مائدة انتشرت عليها أوراق اللعب، وعليها يجلس ثلاثة رجال لا توحي نظراتهم بالراحة.. كانوا يتأملون القادم الجديد في انتقاد..
لكنه جذب مقعدا وجلس..
قال أحدهم وهو (يخلط) الأوراق:
- نحن نلعب ومسدساتنا على المنضدة يا راعي البقر..
أخرج الرجل مسدسيه ووضعهما على المنضدة.. ثم أمسك بمجموعة أوراقه وبدأ اللعب
لن أحدثكم هنا عن تفاصيل ما حدث؛ لأنني لا أعرف شيئا عن لعبة (البوكر).. و (عبير) كذلك

لا تعرف.
لكنني أعرف أن الفتى راهن على مسدسيه، مقابل واحد من جياد هؤلاء السادة المربوطة خارج الحانة..
سأله المتأنق ذو البذلة:
- هل تريد توزيع الورق؟
- ناب!
- وهل تريد مزيدا منه؟
- ياب!
إنه يستخدم ال (ياب) بمعنى (نعم) وال (ناب) بمعنى (لا) كديدن رعاة البقر.. ومنذ أن استعمل (جاري كوبر) هاتين اللفظتين في أفلامه غدا محتما على الفرسان الوحيدين أن يستعملوهما..، جميعهم بدءا ب (بافالوبيل) وانتهاء ب (لاكى لوك)..
دعونا نر الآن ما تم في اللعبة..
إن الفتى يخسر باستمرار.. ومجرى الحظ يمشي في صالح المتأنق دون تردد
ابتسامة ثقة كريهة تترقرق على شفتي المتأنق.. بينما يواصل الكسب وابتسامة غامضة تتلاعب على شفتي الجالس جواره..
راحت (عبير) تدور ببصرها في أرجاء الحانة
ثم أزمعت أن تغادر المكان قبل أن تتعرض لمضايقة
أخرى.. فالمكان - حتما - لا يناسب الآنسات الرقيقات مثلها
نهضت لتتصرف.. حين سمعت صوت راعي البقر يقول في اشمئزاز ضاغطا على حروفه:
- هذا هو كل شيء.. إن الحظ يكون رائعا إذا تسلح بقليل من الغش!
ومن كم المتأنق رأت (عبير) عددا من أوراق اللعب تتساقط..
كلها (آسات)
وفي اللحظة التالية رأت المتأنق يخرج من سوار قميصه مسدسا دقيقا جدا بحجم صفارة تحكيم المباريات، ورأته يصوبه نحو رأس راعي البقر..
إن مسدسات المقامرين المحترفين هذه شديدة الفتك.. برغم كونها لا تحوي سوي رصاصة واحدة دائما.
- أنت ذكي يا راعي البقر.. لكنه ذكاء لا يطيل العمر..
في اللحظة التالية ركل راعي البقر المذكور أعلاه المنضدة.. فانقلبت على الرجال الثلاثة.. ودوت طلقة في الهواء..



في اللحظة التالية ركل راعي البقر المذكور أعلاه المنضدة.. فانقلبت على الرجال الثلاثة..

ثم وثب على الرجال الواقعين على الأرض.. وراح يوجه اللكمات يمينا ويسارا كما يحلو له..
إن الركلات لا تستعمل في مشاجرات الغرب أبدا، ولكن طريقة القتال هي (اللكمات القوية في

الفك)..
وأخيرا انتهى الحفل، فنهض راعي البقر.. استرد مسدسيه وأعادهما إلى حزامه بحركة بهلوانية سريعة.. وأصلح من وضع قبعته..
هنا وصل المأمور (ربما هو ال (شريف)، فانا لا أعرف فارقا بينهما في الواقع).
جاء يهز كرشه البدين، ولفافة التبغ بين أسنانه كالعادة..
وبنظرة خبيرة قيم الموقف.. ثم سأل:
- من أنت يا راعي البقر؟
رفع راعي البقر المذكور قبعته لأعلى قليلا.. وغمغمة
- يسمونني الجوّال!
بهتت (عبير).. في كل مرة تري فيها (شريف)
يكون اسمه (الجوال).. ويكون مشعثا متمردا على كل شيء..
إن في هذا تكرارا لا يخلو من إملال..
قال المأمور وهو يبصق طرف اللفافة:
- أرى أنك أحدثت قدرا لا بأس به من الشغب.. هل جئت إلى هذه المدينة لتبقى؟
- أظن ذلك..
إذن دعني أصارحك بأنني لا أحب من هم على شاكلتك في مدينتي..
دعني أسمع عن حادث آخر.. ولتجدن نفسك مطرودا من البلدة مكسوا بالريش والقطران!
- ياب!
أدركت (عبير) أن المأمور متراخ.. يقبل شرور بلدته كما هي ولا يطيق أن يجيء من الخارج من يعكر صفو هذا الصفاء..
إنه يقبل الفساد ما دام فسادا صامتا..
ولا يطيق من يرغمه على اتخاذ رد فعل ما..
نهضت لتنصرف لكن (الجوال) ناداها..
- يا آنسة!
استدارت نحوه غير فاهمة.. فدنا منها.. وقال في
الدرر:
- أنا خارج.. دعيني أوصلك إلى حيث تقطنين
- أ.....
وخرجت معه من الحانة على حين عادت نغمات العزف تتردد.. وضحكات الفتيات.. وطلقات الرصاص
وفي الخارج كان الظلام دامسا سألته وهي تمشي جواره ملاحقة خطواته:
- هل تنوي البقاء هنا طويلا؟
- ياب!
- هل أنت هارب من العدالة؟
- ناب!
- ألا تقول شيئا سوى (ياب) و (ناب)؟
- ناب!
إنه لا يحب الثرثرة - فكرت (عبير) - وإن كان لا يجيد قواعد اللغة... المفروض أن تكون عنده

لفظة مماثلة ل (بلي) يرد بها على السؤال المنفي بدلا من (ناب) بمعنى (لا)..
كانت الآن عند باب الفندق.. بالطبع لن تدعوه إلى الدخول..
ابتسمت له في حرج.. وهنا لاحظت أنه يحدق في عنقها بإصرار واهتمام شديدين.. أتراه يفكر في خنقها؟ لن يدهشها ذلك..
بعد ثانية أدركت أنه يرمق القلادة التي تلبسها..
قال لها وهو يرفع قبعته عن عينيه:
- قلادة جميلة..
- ش.. شكرا
- لا يملكها سوى ابن زعيم (السيوكس)!
- ....
- ولو كنت مكانك لحجبتها بعيدا عن العيون!
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الخروج من (هيل تاون)..

كانت الضوضاء تصم الآذان تحت نافذتها بالفندق في هذه الساعة المبكرة من الصباح..
نهضت لتري ما هنالك، فوجدت حركة غير عادية في الشارع.. ورأت حشدا أكثر من اللازم للون الأزرق.
كان هناك عجوز رث الثياب ممددا على الأرض، يفسر الموقف لرجل يقف إلى جواره:
- إنهم (هك!) جنود الحامية (هك!) ذاهبون لتدمير معسكر ال (هك!) سيوكس!
- حسنا يفعلون!
تراجعت (عبير) إلى الداخل
يا لها من مصيبة! لقد جلبت الوبال على (السيوكس) الذين هم قومها، وأمها بينهم.. ماذا تقول وماذا تفعل؟ لابد من مخرج ما..
هرعت إلى المرآة فارتدت الشعر المستعار، وأعادت طلاء بشرتها بالدهان الشاحب إياه.. ثم ارتدت ثيابها.. وراحت تجول في الحجرة يمينا ويسارا.. حتما لابد من إبلاغ قومها.. ولكن كيف تفعل ذلك؟ كيف تصل إليهم؟
لا مفر من أن تسرق حصانا وتغادر البلدة الآن حالا.
نزلت في الدرج ببطء.. وهنا سمعت من يناديها:
- سيدة (ستون)!.. ماذا تعملين؟..
أجفلت ونظرت للوراء.. فوجدت الفتى الوسيم (جيف) واقفا بجلباب النوم جوار باب غرفته، وقد بدا عليه عدم الفهم..
يا له من وغد... المفترض أن يعتزل الوجود تماما بعد العار الذي حل به ليلة أمس..
قالت له في حنق:
- شعرت بحاجة لاستنشاق الهواء..
- في هذه الساعة؟
- هي رئتيّ لا رئتيك..
وواصلت الهبوط في الدرج؛ حتى غادرت الفندق.. وابتعدت بضع خطوات.. حيث كان الجواد الذي تريده واقفا قرب الباب يعب الماء عبا من حوض السقاء
ولم يكن امتطاؤه عسيرا على من هي ذات أصل هندي.. صوت الحوافر يمزق هدوء الفجر.. ولا أحد جوار الفندق ليرى ما يحدث.. لأن الزحام كله كان ناحية المصرف الآن
ولكن.. في أي اتجاه تمضي؟
المفترض أن الهنود يجيدون هذه الأمور.. وإنهم ليشمون الأثر شما.. لكنها ليست هندية تماما..
أو - لمزيد من الدقة - هندية مظهرا مصرية عقلا ووجدانا.
الصحراء الناعسة من أثر النوم تتمطي في كسل أمامها..
والجواد يلهث..
صوت الحوافر الرتيب يدوي دون انقطاع..
والنعاس يتسلل إلى عينيها.. لكنها تقاوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من نومه صحا الجوال..
كانت عظامه كلها تؤلمه، لأنه لم يعتد النوم على الأسرة قط.. إن هذه الاختراعات اللعينة تنبعج تحت جسدك، ولا تلقى عظامك بتلك اليد الصارمة الحانية التي تلقاك بها الأرض.. لهذا - يمكننا فهم هذا – كان جسده كتلة من الألم المتحرك.. لكنه كان بحاجة للنهوض..
لماذا؟.. لأنه سمع صوت الحوافر الراكضة، وأي راعي بقر يعرف معنى سماع حوافر في الفجر..
إنها الفتاة حتما..
كيف عرف؟.. لا أدري بالضبط.. لكن هذا النوع من رعاة البقر يعرف هذه الأمور بسهولة
نهض إلى المرآة.. وأخرج الموسى؛ ليحلق ذقنه بالطريقة الجافة كما اعتاد.. وهي عملية غير مثمرة لأن ذقنه تظل طويلة كما كانت..
ثم يرتدى قميصه.. وبالطبع كل رعاة البقر الوحيدين ينامون بالسروال والحذاء.. والمسدسان في نطاقهما المعلق عند رأس الفراش ثم إنه يثب من النافذة بحركة رشيقة تقذف به فوق ظهر جواده نصف النائم.. إنها ل..
طش ش ش ش!.. لا يوجد جواد!.. فقط مياه السقاء.. هناك من سرق الجواد ولسوف يدفع الثمن..
وسكير يمر مترنحا بقربه يقول له:
- (هك!) يا راعي البقر (هك!) إن هذا ليس حوض استحمام!
فيخرج من الحوض محنقا.. لو كانت هذه قصة مصورة لرسم الرسام سحابة من الدخان الأسود تخرج من رأسه.. لكن الجوال اكتفى بأن يشعل لفافة تبغ يلوكها تحت ضروسه.. ويزمجر..
إذن الفتاة قد فرت..
وبالتأكيد فرت راكبة حصانه..
يا له من حصان خائن!.. صحيح أنه صار صاحبه منذ ست ساعات فقط بعد ما ربح لعبة (البوكر) لانسحاب خصمه.. لكن هذا لا يعني أن يفر مع أول لصة حسناء تمتطيه..
إن الخيول لم تعد كعهده بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الأثناء تمر لحظات سوداء ب (عبير)..
فالحصان لا يطيعها بتاتا.. بل هو مصر على السير بطريقته الخاصة في مسار محدد له مسبقا..
كأنما ينقذ برنامجا متفقا عليه من قبل..
الحصان الذي ينحرف يمينا.. ثم يسارا.. ثم يمينا ويعبر جدولين.. ويدور حول جبل.. هذا الحصان يعرف ما يفعله بالتأكيد ولا يركض اعتباطا..
شرعت تسبه وتلعنه لكن اللعين ظل مصرا..
أخيرا ترى (عبير) مجموعة من الكهوف.. وترى الحصان يتمهل في ركضه.. ثم يمشي بتؤدة داخلا أحدها.
كان الظلام دامسا بالداخل.. لكن الوغد يعرف إلى أين هو ذاهب..
ثمة تيار هواء بارد آت من مكان ما.. واقشعرت إذ شعرت به يلمس وجهها..
خيل لها أنها ترى ضوءا خافتا يدنو من طرف المكان من وراء الصخور فكتمت صرخة، وجذبت لجام الجواد لتوقفه عن التقدم.. في اللحظة التالية رأت شابا
يحمل كشافا في يده وفأسا يدنو منها ويتأملها ذاهلا ومن وراء كتفه رأت عجوزا أشيب وعملاقا

أشقر
كلهم يتأملونها ذاهلين:
- من أنت؟
- ربما كان على أن أسأل ذات السؤال..
- نحن أبطال (جول فيرن) نقوم برحلة إلى مركز الأرض.. ومن المفترض أن تكون هذه الكهوف خالية.
- وأنا (عبير) أقوم بمغامرة من مغامرات الغرب ..
صاح العجوز في نفاد صبر:
- هيا يا (أكسل).. دعك من هذه المتطفلة ولتواصل رحلتنا!
قال (أكسل):
- إن إدارة (فانتازيا) غير دقيقة في مواعيدها
كان المفترض أن يرتبوا لها وقتا آخر لمغامرتها هذه..
هيا بنا يا (هانز)
وأمام عينيها الذاهلتين اختفوا في الظلام..!
من جديد عاد الظلام يسود المكان.. وعاد الجواد يتقدم ببطء عبر الممرات الوعرة.. في النهاية توقف في جيب كهفي صغير..
وعلى الجدار تبينت (عبير) وجود مشعل
وجواره عدد من أعواد الثقاب فتناولت عودا وحكته في السرج - كما تراهم يفعلون - ثم أشعلت المشعل..
وراحت تستكشف المكان على الضوء الذهبي المتراقص..
وطاويط!.. تبا لهذه الكائنات السريعة المشئومة تتدلى من جدار الكهف العلوي.. وعيونها العمياء تحدق في القادم الجديد.
ثمة خيط ماء يتسرب من مكان ما فوق رأسها..
ثم.. الحصان يتوقف كأنما أنهى الحد المسموح به له كي يتقدم.. تنزل (عبير) من فوقه وبرفق تربت على منخره وتواصل السير لترى ما وراء هذه الفجوة الصخرية..
ويتجمد الدم في عروقها..
إنها قاعة.. كأنها قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة هائلة الحجم عليها (شمعدانات) عملاقة.. وحولها مقاعد.



اثنا عشر مقعدا على وجه التحديد..
أي مكان هذا؟..

وفجأة سمعت صوت أقدام.. فهرعت تتوارى في الفسحة خارج الكهف تحاول أن ترى ولا ترى..
وبيد مرتجفة ربتت على منخر الحصان تتوسل إليه أن يلزم الصمت.. وأطفأت المشعل..
الضوء يتزايد في القاعة مما يشي بأن الشمعدانات تشتعل.. ثم ترى أشباحا تتحرك بالداخل..
وبصعوبة كتمت صرخة تريد أن تغادر حلقها.. إنها
أشباح حقيقية لا مجازية.. كل منها يضع عباءة سوداء على كتفيه.. ويحجب وجهه بلثام أسود..
وعلى رأسه قبعة سوداء..
ورأت عددهم يتزايد حتى بلغ أحد عشر شبحا.. اتخذ كل منهم مقعدا على المائدة في حين جلس
واحد في الصدارة، ليوحي بالزعامة.. وقال بصوت رخيم عميق:
- أين (هيل تاون)؟
تبادل الرجال النظرات.. ثم عادوا للصمت.
- ألم تصله رسالتي؟
- بلى.. لقد وصلت إلى (أوكلاهوما) وإلى (شيكاغو).. المفترض أنها وصلته.
قالها أحدهم، وعاد إلى الصمت.
- إذن سنبدأ الاجتماع دون انتظار.. لكن على أن أعرف شخصياتكم أولا..
ثم نظر تجاه أولهم وسأله:
- كم ريشة في جسد السنونو؟
- ثلاثمائة..
نظر الثاني متسائلا:
- كم شعرة في لحية العم (سام)؟
- ألف..
وهكذا.. وأدركت (عبير) أن هذه الإجابات يحفظها
كل من الرجال على انفراد في نهاية الاجتماع ليجيب عنها في الاجتماع التالي، وهي طريقة لا بأس
بها للتأكد من أنه نفس الرجل الذي حضر الاجتماعين دون كشف وجهه..
ومن البديهي أن الأسئلة تتغير في كل مرة.
بعد هذا هتف الزعيم:
- ماذا تبتغون؟
- الدم!
- وماذا جاء بكم؟
- الدم!
- كم تدفعون لأجله؟
- أرواحنا!
إلى آخر هذا الديالوج الممل الذي يذكره من قرءوا الفصل الثاني..
وأدركت (عبير) أن هذا هو ملتقى «إخوان الدم» الذين اصطدمت بهم عدة مرات.. وراحت
تستنتج العلاقات التالية:
الحصان قادها لهنا.. إذن هو حصان عضوا (هيل تاون).. الحصان يخص الجوال، لكنه لم يكن
كذلك ليلة أمس.. كان يخص المقامر المحترف المتأنق..
إذن هو (هيل تاون) ذاته
وإذن المقامر مجرد شخصية وهمية يلعبها.. أما الحقيقة فهي أنه - مثل (زورو) - يتحول ليلا

إلى عضو في هذه الجمعية السرية..
جمعية (إخوان الدم)..
أما لماذا تخلى عن حصانه بسهولة برغم كون الحصان يعرف أكثر مما يجب: فلأن حالته بعد مشادة الحانة لم تعد تسمح له بالمقاومة..
إذن لا خوف هنالك.. لقد أنقذها «إخوان الدم من الموت مرارا.. إنهم أخيار برغم مظهرهم المرعب، وغموضهم المخيف..
وها هي ذي تسمع هذه المحادثة:
- ما هي إنجازات الأسبوع يا سادة؟
قال أحدهم في حماس:
- لقد أحرقت ثلاثة زنوج أحياء!
- مرحى!.. فلنحيه!
راح الرجال يقرعون المائدة بكعوب مسدساتهم في تناغم إيقاعي لا بأس به أبدا.. كلاك.. كلاك!
ثم سأل الزعيم ثانيهم عن إنجازاته:
- لقد سلخت فروة رأس امرأة هندية:
- مرحى!.. كلاك.. كلاك!
ثم أشار إلى آخر:
- وأنت يا (تكساس)
- لقد أرغمت رجلا صينيا على غسل حصاني بلسانه!
كلاك.. كلاك!..
- وأنت يا (أوهايو)؟
- حولت عيون أسرة زنجية إلى كرات تنس ولعبت بها!
هنا كان شعر (عبير) قد تصلب على جذوره، كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة، وراحت أسنانها تصطك..
من هؤلاء؟ إنهم أشر وأحط سفاحين عرفتهم في حياتها..
إذن كيف أنقذوها؟ ولماذا؟ وما هو هدفهم من هذه الجمعية المريعة؟
أسئلة كثيرة احتشدت في ذهنها، ولم تجد لها إجابة.
ومن المؤكد أنها لن تجد، لأن الحصان مط عنقه - حيث وقف جوارها في الظلام - وأطلق صهيلا طويلا..!
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- من أنت؟

(وقال زعيم اللصوص لرجاله):
- من الذي عطس يا رجال؟
- ليس أنا
- ولا أنا..
- إذن.. هناك غريب بيننا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاولت جاهدة أن تخرس الحصان.. وأتاها صوت الزعيم من داخل قاعة الاجتماعات السوداء هذه يقول:
أسمعتم؟
- سمعنا!
- هلموا.. اقبضوا عليه وأحضروه حيا والأفضل ميتا!
- سمعنا وأطعنا!
وانطلق الرجال نحو مصدر الصوت..
وحاولت (عبير) أن تتسلق ظهر الحصان، لكن الارتباك جعلها تنسي ما ينبغي عمله بالضبط..
تركت الحصان وراحت تركض..
تركض عالمة أنها لن تصل لشيء.. عالمة أنها ستتعثر في الظلام حتما.. عالمة أنهم حتما واجدوها.
يا للكارثة!.. يجب أن..
كان ذلك حين شعرت باليد القوية الحازمة تسد فمها.
وشمت تلك الرائحة المميزة: رائحة العرق المختلط بالتبغ وحساء الفاصوليا والبازلاء
إنها رائحة الجوال.. نعم.. هو كذلك!.. الآن ترى وجهه في الضوء الخافت وترى البسمة الغامضة على شفتيه..
وبصوت كالهمس وإن كان أكثر انخفاضا يقول لها:
- صمتا!.. ودعيني أخرجك من هنا!
لم لا؟.. وهكذا تترك له يدها؛ كي يقودها عبر ممرات مظلمة لا أول لها ولا آخر..
وطاويط عديدة حلقت فوق الرءوس.. وصخور كثيرة تعثرت فيها الأقدام.. لكنها - في النهاية – ترى النور.. وتعرف أنهما غادرا حزام الكهوف هذا إلى العراء..
هناك ينتظرهما حصان أبيض رشيق يتطاير الشعر من معرفته.. وتلتمع عضلاته الجميلة المبللة بالعرق في ضوء الشمس..
ساعدها الجوال على الركوب.. ووثب ليركب خلفها وأمسك باللجام..، وانطلق بالحصان لا يلوى على شيء.
دوت طلقتا رصاص أو ثلاث لكنها كانت تعرف أنهما ابتعدا مسافة كافية..
سألته على صوت الحوافر المتزايد:

- كيف عرفت مكاني؟
قال وهو يلوك لفافة تبغ (لا تعرف من أين جاء بها ويداه ممسكتان باللجام):
- إنها قصة طويلة..
وعاد يلوك اللفافة.. كان يثير دهشتها دوما أن رعاة البقر يتعاملون مع السجائر باعتبارها أشياء تمضغ ولا تدخّن..
- إذن احكها لي..
- حين نغدو في مأمن سأحكي لك كل شيء..
- والحصان؟
- سرقته.. إن الحصان في الغرب شبيه بجريدة في قطار يقرؤها الجميع على التوالي.. والنتيجة هي أن أحدا لا يشعر لحظة بحرمانه منها..، وبالتأكيد صاحب هذا الحصان المسروق يبحث الآن عن حصان آخر يسرقه.
لا يا لها من مثل..
- إنها عدالة توزيع من نوع خاص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الليل قد حل.. وأخيرا يعود الجوال إلى جذوره.
ينزع قميصه.، ويغسله في الجدول، ثم يعلقه فوق غصن شجرة، ويفرش غطاء وكيس نوم على الكلأ..
ثم إنه يتشمم الجو بعض الوقت.. ويشعل نارا في مجموعة من جذوع الأشجار.. ويضع ثلاثة أحجار كبيرة - أثافي كما يقول الأعراب - يضع فوقها إناء صغيرا.
يفتح علبة طعام محفوظ بخنجر.. ويفرغ ما فيها في الإناء..
وبعد ثوان تتصاعد رائحة الطعام..
يضع بندقية (ونشستر) ذات مقبض مزخرف في متناول (عبير).. ثم يصب الطعام في علبتين من الصفيح يقدم لها واحدة وله واحدة..
- ما هذا؟
سألته وهي تتشمم علبتها في اشمئزاز.. فقال:
- بازلاء..
كادت تنفجر حنقا.. الوجوه الشاحبة لا يأكلون إلا البازلاء.. والهنود لا يأكلون إلا القديد.. أية حياة هذه؟ وفي أية ظروف يمكنها أن تأكل صحنا من الملوخية إذن؟
وكأنما سمع أفكارها؛ قال في ضيق:
- البروتوكول يحتم هذا النوع من الطعام..
ثم بدأ يعد القهوة في وعاء صدئ آخر..
سألته (عبير) وهي تتأمل تراقص اللهب:
وكيف عثرت عليّ؟
قال دون أن ينظر إليها:
- الأمر هو نقش معين على حوافر الحصان.. حصاني الذي سرقته صباح اليوم.. هذا النقش يعني أن صاحب الحصان هو من إخوان الدم..، إذن من المؤكد أن الحصان قد جاء بك هاهنا
- وكيف عرفت مقر اجتماعهم؟

- هذا هين..
ورفع وعاء القهوة من فوق النار.. وأردف:
- لأنني واحد من إخوان الدم..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سقطت علبة الطعام من يد (عبير)، وبحركة لا إرادية شعرت بيدها تتسلل لتقبض على ال (ونشستر).
- أنت؟ إذن كنت تخدعني كي...؟
أخرج من داخل خرجه قدحين معدنيين يشبهان أقداح البيرة.. وصب القهوة فيهما. وقال بلا مبالاة:
- ليس الأمر كما تظنين.. كنت واحدا من إخوان الدم.. هل تعرفين (الكوكلوكس كلان).. تلك الجمعية السرية العنصرية التي تدعو لإبادة الملونين جميعا؟ إخوان الدم يدعون إلى الشيء ذاته.. ويقتلون الصفر والسود والحمر دون تمييز..، ويؤمنون بأن هذا هو السبيل الوحيد؛ ليسود العدل الكون..
ونقر على صدره في فخر..
- كنت أنا العضو (أوهايو) بين أفراد الجمعية.. وقمت بأعمال مجيدة حقا.. إلى أن وجدتك ذات يوم بين أفراد قبيلة (السيوكس).. ورحت أراقبك من بعيد.. شعرت بأنني لست شريرا إلى هذا الحد.. والهنود ليسوا سيئين إلى هذه الدرجة.. فتاة رقيقة لطيفة مثلك.. رحت أغازلها بعيني، وكان لى فضل إنقاذك من الدب عند الجدول.. ثم إنقاذك من قطاع الطرق هل تذكرين؟
وضحك في انتصار:
- هاها!.. نعم.. تنكرك لم يخدعني لحظة عرفت أنهم يدبرون شيئا وأنهم أرسلوك بالذات لتراقبي الموقف في (هيل تاون).. قررت أن أخلع قناعي وألعب دور الفارس الوحيد.. وأنقذتك مرة ثالثة في الحانة، لكنك حاولت الفرار.. وأنا لا أعرف ممثل (هيل تاون) بين «أخوان الدم» لأننا لا نرى وجوه بعضنا أبدا.. لكني تأكدت - حين رأيت آثار الحوافر - من أنه هو المقامر الذي كاد يغشني في لعبة (البوكر)..
وعرفت أنك الآن في كهف الاجتماعات.
ولهذا لحقت بك لأنقذك للمرة الرابعة..
ظلت ترمقه شاردة.. ثم سألته بعد دقائق:
- ول.. لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا يعذبون الملونين؟
ناولها قدح قهوة يخرج البخار الساخن منه.. وقال:
- إن هذه البلاد قامت على أكتاف مجموعة من المغامرين.. ومبدأ الحياة اليومي هنا هو (عش ودع الآخرين يموتون).. إما أنا وإما هم..، إن هذه هي أرض الهنود.. ونحن نريدها منهم.. لهذا لا يوجد حل وسط.. نحن أوهم..، الغالبية تؤمن بالخداع كوسيلة للحصول على الأرض.. أما بعض المتطرفين فيؤمنون بالدم..، إن إخوان الدم يعبرون عن النمط النفسي الأمريكي بشكل أكثر صراحة وأكثر فجاجة، لكنها الحقيقة.
- وما هو مكانك الآن؟
- أوه.. لقد تخليت عن موقعي ودوري حين أنقذت حياة فتاة ملونة.. ولم أعد أطيع الأوامر التي تصلنا بالحمام الزاجل.. لهذا أنا المرشح رقم واحد للقتل الآن.. وأراهن على أن اجتماع اليوم كان

مخصصا لى.
الآن يوجد ثلاثة ماريشالات للولايات المتحدة يبحثون عني واثنا عشر قاتلا.. إن شعبيتي تزداد حقا..
وأخرج من جيبه (هارمونيكا) صغيرة راح يصفر عليها.. ثم - بصوت أجش خفيض - راح يغني:
- أنا مطلوب حيا أو ميتا..
لهذا سأرحل يا صغيرتي..
ولكن من سيبكي من أجلي؟ من سيصلى على روحي؟
حين أتدلى من حبل المشنقة؟! [5]
ثم ازداد صوته رخامة:
أنا راعي بقر مسكين وحيد..
وموطني بعيد.. بعيد..
ثم بدا عليه الارتباك.. وغمغم:
- معذرة.. هذا المقطع ليس من تأليفي.. إنه خاص بالزميل (لاكى لوك).. وقد اختلط عليّ الأمر.
- لا عليك.. ولكن قل اي: هل ارتكبت مذابح كثيرة؟
- آلاف منها! به - هتف في حماس -.. لقد سرت على خطى أبي العزيز.. وفي سن السابعة من عمري رأيته يقتحم كوخ صياد فراء أبيض ويفجر رأسه بالرصاص، لأنه تزوج هندية وأنجب منها!
تصلبت (عبير).. وسألته:
- هل.. هل أنجبا بنتا؟
- أظن هذا.. كانت من نفس سني!
- وتذكر اسم الهندية؟
أظن هذا أيضا.. لأن الصياد صاح حين رأى أبي: (لقد نالوا منا يا بصقة الجاموس!).. تصوري هذا!.. بصقة الجاموس؟..
«إن لديكم - معشر الهنود - أسماء لا تصدق!..»
في اللحظة التالية وجد نفسه يحدق في فوهة البندقية
وسمع (عبير) تقول في قسوة:
- إن أباك هو قاتل أبي.. ومن الواضح أننا سنتعادل الآن!



∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- لا وقت للضغائن

- ألست خائفا؟
- ناب!
- ألاحظ أنك عدت لل. (ناب) وال. (ياب) وكنت قد نسيتهما فترة لا بأس بها..
- إنها طريقة لإظهار اللامبالاة.. نوع من لعب دور (البارد).. ولا حاجة بي لذلك مع طفلة مثلك..
- هذه الطفلة ستفجر رأسك حتما..
- سيكون قرارا خاطئا.
قالها وجرع جرعة كبيرة من القهوة:
- إن حامية الجنرال (سكوت) متجهة الآن لتأديب (السيوكس).. وعليك أن تصلي هناك قبل الحامية لتنذري قومك.. من دون عوني لك يصير هذا مستحيلا.
وخلع قبته وحك خصلات شعره البنى الذي لم يعرف الماء منذ قرون!
- ثم إنك لن تقتليني لأنني أروق لك..!
- مغرور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذه هي الحقيقة.. فنمطى لا يقاوم.. النساء يعشقن من ولدوا خاسرين.. أولئك المشاغبين الذين لا يمكن ترويضهم..، وأنا قد أنقذت حياتك مرارا.. ولا أظن أنك تقتلينني من أجل ما قارفه أبي..، وهكذا ترين صعوبة الموقف، فارس وسيم يعرف الطريق إلى معسكر (السيوكس) أنقذك من الموت أربع مرات.. فهل يموت؟
- ناب!
قالتها وهي تخفض فوهة البندقية في تردد..
الواقع أنها لم تكن تنوي شيئا.. هو فهم هذا دون جهد، خاصة أنها لم تلق هذا الذي يقولون: إنه أبوها قط.. فكيف تنتقم له؟ كل ما هنالك أنها وجدت من واجبها أن تفعل شيئا ما..
قالت في سأم:
- إنني لا...
- ششش
قاطعها وهو يضع سبابته أمام شفتيه.. ورأت مسدسيه في يديه.. لا تدري متى ولا كيف أخرجها من نطاقه.
وراح يرمق الأشجار المظلمة في تحفز.
بعد ثانية تحركت غصون الأشجار، وبرز وجه مغطى بالشعر الأبيض حتى إن (عبير) حسبته ذنبا عجوزا.
ثم أدركت أنه جندي.. جندي نامي اللحية.. يرتدي بذلة رمادية اللون وعلى رأسه (كاسكيت).. وقد بدا في حال مزرية..
هتف الجندي وهو يرفع يديه:
- لا تطلق النار يا راعي البقر..
وتربع على الأرض.. وراح يزحف نحو النار ببطء.

أعاد الجوال مسدسيه إلى قرابها.. وسأل وهو يعود للجلوس:
- منذ متى؟
- ثلاثة..
- آخرون؟
- ماتوا..
أخرج الجوال رغيفا من الخبز الجاف.. ونهض إلى الجواد فتناول من سرجه زجاجة صغيرة.، قذفها نحو الجندي..
فراح هذا يلتهم الخبز ويجرع من الزجاجة ككلب جائع.
لم تفهم هي شيئا.. لكنها أدركت أن الجوال يفهم كل شيء كعادة رعاة البقر الوحيدين.. لم يكن هناك كثير من الكلام لأنه لا داعي له.. إنها لغة قوم يفهم بعضهم البعض بوضوح.
مالت عليه تسأله هامسة عما هنالك.. فقال لها بلا مبالاة:
- الأمر واضح.. هذا جندي من جيش الجنوب فر من فرقته مع آخرين منذ ثلاثة أيام.. مات الآخرون على يد الجنود الاتحاديين ونجا هو..
- تعني الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب؟
- طبعا.. ليس التزامن دقيقا.. لكنك في (فانتازيا) حيث يتواجد كل شيء في وقت واحد..
- وما هذه اللغة المختصرة؟
- هي لغة أناس سئموا الكلام..
كان الجندي قد فرغ من الأكل.. فقذف له الجوال لفافة تبغ أشعلها هذا من النار.. وسأله الجوال:
- كيف؟
- الدخان.. إن رائحته قوية..
- فرسان؟
- لا.. (شيين).. أربعة أميال..
- إذن نطفئ..
وتناول دلو الماء وسكبه على النار فساد الظلام إلا من رائحة الدخان المحتضر.. كان الظلام دامسا ثم عادت (عبير) ترى النجوم تزداد وضوحا وتألقا وعادت تتبين قسمات الوجوه..
قال الجندي وهو يهرش لحيته:
- نرحل فجرا.. هل أبدأ أنا الحراسة؟
- ناب!
- إذن أنا بعدك..
- ياب!
وتمدد الجندي على الكلأ وبعد ثوان تعالي صوت غطيطه..
أشار الجوال إلى كيس النوم لتدخل (عبير) فيه، وأشعل لفافة تبغ.. وجلس ووضع ال (ونشستر) على ركبتيه..
قالت له وهي تلهث شاعرة بالبرد:
- هل حقا ستنام وهو متيقظ؟. أنا لا أثق به.
- أنا كذلك.. لهذا سأتولى الحراسة طيلة الليل ولن أوقظه!
- يمكنني أن أتبادل معك..

- ناب!.. غدا يوم عصيب..
- تصبح على خير..
- أوه ييه..
وأغمضت (عبير) عينيها..
شعور ممتع هو أن تغفو في أحضان الطبيعة، بينما يسهر هذا الفارس الوسيم القوي على حراستها.. لماذا لا ترى أمثال هذا الجوال في دنيا الواقع؟ كل من تراهم من رجال لهم كرش كبير.. ويعودون لديارهم منهكين غارقين في العرق.. يحملون الجريدة باليد اليسرى والبطيخة باليد اليمنى، وكل مغامراتهم في الحياة هي ركوب الحافلة أو نيل علاوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذلك عندما تبين الخيط الأول من الفجر..
وصحت (عبير) من النوم شاعرة بأن هناك شيئا ما على غير ما يرام..، وحين فتحت عينيها أكثر رات التالي:
١- جندي الجنوب لم يعد راقدا.
٢- الجوال يقف رافعا يديه إلى أعلى.
٣- لا توجد بندقية معه.
4- أربعة من (إخوان الدم) يقفون شاهرين مسدساتهم في وجه الجوال.
ظلت راقدة ترقب الموقف..
كان أحد الرجال الملثمين يضحك.. ويتكلم بصوت مألوف تذكرت عبير أنها سمعته في الكهف:
- والآن يا (أوهايو) ينتهي سفرك الأبدي!
تراجع الجوال خطوة للوراء.. وفي ضيق تساءل:
- كيف وجدتمونا؟
- تنسي دوما أن حوافر خيولنا مميزة.. كان من السهل أن نجد آثار الحدوات خارج الكهف، وكانت تقود إلى هنا.. ثم شممنا رائحة الدخان.. أنت الفارس الوحيد في العالم الذي ينسى اتجاه الريح حين يتناول عشاءه..
قال الجوال وهو يشعل لفافة تبغ غير عابئ بإثارة توترهم:
- إذن فلننه هذه اللعبة سريعا..
هتف أحدهم في زميله:
- اتلُ قرار الإعدام..
أخرج هذا الأخير قطعة من الورق.. وفتحها وراح يقرأ بصوت مسموع:
- إنه في 8 مارس عام ١٧٩٨ تقرر إعدام العضو (أوهايو) لخيانته العظمى، وخروجه من جمعية (إخوان الدم) بعد ما أقسم قسم الدم.. وليكن في دمه عبرة لكل خائن..
صاح الجوال مقاطعا..
- لحظة يا شباب.. كيف عرفتم أنه أنا؟.. إن أحدا لم ير وجهي سوى (الأخ الأكبر)..
- كلنا نعرف سماتك منه... ونعرف عاداتك..
ثم ارتفعت المسدسات نحو الجوال.. وأردف الرجل:
- هلا تلوت صلاتك الأخيرة يا (أوهايو)؟
في اللحظة التالية دوت أربع طلقات ارتج لها سكون الغابة..

وحلقت الطيور في الهواء محنقة لإزعاجها مبكرا..
وعلى الكلأ تكومت أربع جثث ملثمة والدم ينز من أجسادها..
رفع الجوال رأسه مدهوشا ليرى ماذا حدث..
رأى الجندي يبرز من وراء الأشجار حاملا مسدسيه.. مسدسا في كل يد.. والدخان ينبعث من الفوهتين..
قال الجندي وهو يقذف بالمسدسين نحو الجوال:
- هاك!.. معذرة..
تساءل الجوال وهو يعيد المسدسين إلى نطاقه:
- لماذا..
- لم أرغب فحسب
هنا بدأت (عبير) تفهم.. لابد أن النوم غلب الجوال، وحاول الجندي سرقة المسدسين والحصان والفرار.. لكنه سمع هذه المحادثة ولم يطاوعه قلبه على ترك منقذه في موقف كهذا.
لذا أفرغ مسدسيه في صدر المعتدين.. وعاد ليصارح الجوال بأسفه لما حدث..
قال الجندي وهو يجذب الحصان إلى مقربة:
- (الشيين).. سمعوا حتما..
- إذن نرحل الآن..
- خيولهم؟
وأشار إلى الجثث الأربع.. فهز الجوال رأسه موافقا
هذه المرة حصل كل منهم على حصان.. وتركوا
حصانين في الغابة عالمين أن (الشيين) سيجدونهما حالا..
دوي صوت صراخ الهنود الهجومي.. فصاح الجوال وهو يركل خاصرة حصانه:
- إنهم لا يضيعون وقتا.. فلنهرب!
وانطلق الفرسان الثلاثة يشقون طريقهم وسط الأشجار.. بينما سهام الهنود تتطاير حولهم في كل صوب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 – المخدوعون..

النهار البكر يتنفس في كسل فوق الربا..
وثلاثة فرسان يقطعون السهول على ظهور خيولهم قاصدين معسكر (السيوكس)، بعدما فروا من (الشيين)..
ولاح المعسكر من بعيد.. ودوت صرخات الكشافة تعلن للقوم أن ثلاثة فرسان يدنون من المعسكر..
ورأت (عبير) عشرة خيول تدنو منهم يمتطيها (ذو الدمامل) وآخرون معه.. كانوا مدججين بالسلاح متأهبين للقتل في أية لحظة..
فما إن رآها (ذو الدمامل) حتى رفع ذراعه الأيمن بالرمح؛ ليوقف الرجال المتحمسين عن يمينه..
صاحت (عبير) بصوت متهدج:
- (صخرة الماء) تحيي أخاها (ذو الدمامل)
قال بصوت مرتاب:
- أرى وجهين شاحبين إلى جوار (صخرة الماء)
- هما صديقان..
ثم أردفت وهي تنتزع شعرها الأشقر المستعار:
- إن الحامية قادمة لتهاجم (السيوكس)..
- يا لغضبة (أوجاما)... فليتخذ المقاتلون أهبتهم إذن.. ولنقم بإبعاد النساء والأطفال..
هنا رفع الجوال يده طالبا الكلمة.. ونظر نحو الفتاة طالبا منها أن تعاونه في الترجمة:
- فليسمح لي المحارب بالكلام..
قالت (عبير) بلغة (السيوكس):
- « آجو.. وا.. تشي.. سوها »
- إن ما يحدث هنا هو نتيجة لعبة قذرة يمارسها بعض البيض.. وهؤلاء البيض يهمهم دوما أن تنشب الحروب بين الهنود والجنود..
- آما.. جي.. شاكا.
نظر الجوال إلى (عبير) في حيرة.. وبشك سألها:
- هل هذه ترجمة كل ما قلت الآن؟!
- إن لغة (السيوكس) بليغة حقا..
ثم إن الجوال أردف بصوت عال:
- لا تقاتلوا البيض.. كل ما أرجوه هو أن تبتعدوا بمعسكركم عدة أميال، إن أي صدام مع الحامية ستكون نتائجه وبيلة.
- بونجا.. آيا.. هاه..!
صاح (ذو الدمامل) في حنق وهو يلوح برمحه في الهواء:
- (السيوكس) لا يخافون الوجوه الشاحبة.. إنهم شجعان مثل النمور الجريحة.. ولا يبالون بالموت..
ترجمت (عبير) ما قاله في تعاسة.. فرد الجوال:
- أنا أعرف جرأة (السيوكس).. لكن البيض يملكون بنادق ومدافع.. والمدفع يساوي عشرة رجال

برماحهم ..
الخلاصة أن هذه المناقشة طالت بعض الوقت.
وفي النهاية اقتنع (ذو الدمامل) بأن يرحل مع عشيرته إلى واد بعيد..، على أن يترك ل. (عبير) و(الجوال) مهمة إقناع الوجوه الشاحية بالسلام..
ولم تجرؤ (عبير) على إخباره بأن ما حدث كان نتيجة حتمية لحماقته، وأن الجنرال (سكوت) - الدموي - لم يخدع لحظة، وحسب الاعتداء من طرف (السيوكس)..
والآن ينطلق الجوال ورفيقاه إلى الشرق باحثين عن حامية الجنرال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بعيد تبدو أعلام الحامية وعرباتها..
قال الجندي وهو يجذب لجام جواده:
- إلى هنا تنتهي رحلتي يا راعي البقر.. أنا لن أدع هؤلاء (اليانكي)[6] كي يضعوا يدهم عليّ..
- ياب!
وتبادل الرجلان تحية ودودا مليئة بالمحبة.. تتلخص في أن كلا منهما ضرب بقبضته كتف الآخر.. ثم أدار الجندي جواده في الاتجاه العكسي وراح ينهب الأرض نها.
قالت (عبير):
- يا له من فراق مؤثر! إنك لرجل مرهف الحس يا جوال..
قال وهو يلوك لفافة التبغ:
- حيلة لي في رقة مشاعري..
ثم جذب لجام الجواد وانطلق - وهي وراءه - قاصدين معسكر الحامية، ومن اللحظة الأولى أدركت (عبير) أن شيئا ليس على ما يرام.. ليس من المعتاد أن يحتشد الناس بهذه الطريقة حول شيء ما.. وليس من المعتاد أن يكون هذا الشيء ممددا بلا حراك.. وأن يبرز سهم هندي ذو ريش من بين لوحي كتفيه.
كان الموقف كالتالي: أحد الجنود قد لقي حتفه بسهم هندي في ظهره.. وكان ممددا على الأرض في غباء، على حين وقف الجنود حوله يتبادلون السباب والعبارات الغضبى
وكان الجنرال جاثيا على ركبة واحدة جوار الجثة يتفحص السهم بأنامله، ويدخن السيجار مفكرا..
وهنا رأى القوم (عبير) والجوال.. فصاح صائح منهم:
- إنها هندية.. هندية من (السيوكس)
في اللحظة التالية رأت (عبير) عشرات - لا بل مئات - البنادق تصوب نحوها.. وسمعت الصيحة المعتادة:
- اقتلوها يا شباب!.. إن الهندي الطيب هو الذي مات!
هبّ الجنرال رافعا يده اليمنى صائحا:
- توقفوا يا أبنائي!.. يكفي القتل والدماء!
ثم هتف وهو يلوك سيجاره:
- ادخروا قواكم الذبح هؤلاء المتوحشين في معسكرهم..!
- إن الجنرال إنسان حقا..
في هذه الآونة كان الجوال قد ترجل بدوره، وراح يتفحص الجثة في فضول.. ثم إنه أعاد تثبيت

القبعة على رأسه.. وقال للجنرال وهو يشير للسهم:
- هذا السهم لم يطلقه هندي يا جنرال.. بل أطلقه رجل أبيض.. رجل يهمه أن يستفز الجيش.
- ماذا تعني يا بني..
- أعني أن أثر الوتر غير ظاهر على مؤخرة السهم.. لقد انطلق هذا من قاذفة سهام وليس من قوس.. وأراهن على أن «إخوان الدم» هم من فعل ذلك..
- إخوان ماذا..
- إخوان الدم.. تنظيم من البيض يسعى لإبادة الهنود
- يبدو لي تنظيمنا خيّرا!
- ربما.. لكن وظيفتك تحتم عليك التظاهر بالحياد.. توجد معاهدة بينك وبين (السيوكس) عليك أن تحترمها ما لم يثبت العكس..
- لقد ثبت العكس بالفعل!
- لم يثبت شيء.. سهم هندي مزيف.. وامرأة حمقاء تزعم أن (الشيين) هاجموا عربتها.. ولقد فرت هذه المرأة من فندقها صباح اليوم.
- حقا فرت؟
- ياب!
وقف الجنرال عاجزا عن اتخاذ قرار صائب..
في اللحظة التالية تعالى غبار الخيول في الأفق..
وهتف هاتف إن مجموعة من الفرسان البيض قادمة..
واستطاع الجوال أن يرى رَكْب الفرسان.. كانوا مجموعة من رجال (هيل تاون) يتقدمهم الشريف ومساعده، والمقامر المحترف.. وبلطجي الحانة..
وكان بعض الرجال مسلحين بالفئوس وبعضهم بالحبال..
وعلى مسافة أمتار توقف الركب.. وتقدم الشريف بضع خطوات إلى الأمام بجواده.. وهتف في الجنرال:
- جئنا يا جنرال لتعاونكم في تأديب هؤلاء المتوحشين..
وقال آخر وهو يجذب لجام جواده:
- إن الجيش والقوات المدنية مرغمون على التكاتف.. فكلنا نعمل من أجل (أمريكا).. ولا تهم اليد التي تذبح أطفال (السيوكس) طالما هي يد أمريكية مباركة!
- مرحى!
- بالرب نؤمن..
تقدم الجوال بضع خطوات من جواد الشريف..
وتأمل الأرض.. ثم رفع عينيه لتلتقيا بعيني الرجل وفي شيء من السخرية تساءل:
- لم أرك متحمسا إلى هذا الحد من قبل يا شريف.
- لأنني أهوى العدل يا راعي البقر.
انحنى الجوال على ركبته.. وتفحص آثار أقدام الجواد على الرمال.. ثم صاح في الشريف:
- من أين تجيء بهذه الحدوات الجميلة لجوادك؟
- عم تتساءل بالضبط؟
- إن هذه النقوش على الحدوات تذكرني بشيء ما.. ألا ترى هذا معي؟
هنا كانت (عبير) قد فهمت

كان هناك حصان يحمل هذه الحدوات في (هيل تاون).. وقد فرت هي به.. معنى وجود حصان آخر أن هناك اثنين من (إخوان الدم) في البلدة.. هذا
مستحيل إلا لو كان الشريف هو . . . .
- زعيم جماعة (إخوان الدم)!
قالها الجوال وهو يشير إلى النقوش على الرمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الشريف وهو يجفف العرق على وجهه، ويرفع السروال الذي تساقط عن كرشة العملاق:
إخوان ماذا؟.. بم تهرف يا راعي البقر؟
قال الجوال بينما الصمت الرهيب يغمر الجميع:
- أنت تعرف أنني محق.. كنت تتظاهر بالكسل والتراخي.. ومعنا كنت تغير نبرات صوتك فلم أستطع - ولم يستطع عضو (هيل تاون) نفسه - أن يتعرفك لكنك ظللت متشبثا بالبروتوكول الأخرق الذي يحتم أن تضع هذه الحدوات على حوافر حصانك.. لكنك تعرفني جيدا.. كنت تراني طيلة الوقت.. وأنت من جندتني تلك الليلة في (أوهايو).. سيكون سهلا على أن أكشف جرائمك للعدالة.. والمشنقة هي العلاج الناجع لكل الأمراض العنصرية..
- أنت غدوت ثرثارا يا راعي البقر..
قالها الشريف وهو يداعب لجام جواده.. ويردف:
- لقد كانت شيمتك الصمت.. وهذه هي مشكلة أمثالك.. يظلون بصحة طيبة طالما حافظوا على صمتهم.. لكنهم ما إن يتخلوا عن هذا الصمت حتى تحين نهايتهم المريرة!
اللجام ينطلق كالرصاصة في وجه الجوال الذي كان لا يزال راكعا على الأرض قرب حوافر الحصان..
وصرخ هذا وهوى فوق الرمال.. لابد أن الألم كان مريعا.. ولكن الجواد لم ينو تركه لحال سبيله..
راح يعابثه بحوافره ويخلطه بينها دون رحمة أو نية عطف..
هتف الجنرال وقد أحنقه ما يحدث:
- توقف أيها الشريف حتى تفهم ما يحدث!
لكن الشريف لم ينتظر.. سرعان ما أدار مقود جواده وانطلق لا يلوي على شيء مبتعدا عن حشد الجنود.. وحاول أحد الجنود أن يوقعه بجذب اللجام..
لكنه تلقى ركلة في وجهه أطارت الأسنان الثلاث الباقية في فمه..
- هاجمووووا!
كذا صاح الجنرال ملوحا بسيفه.. وعلى الفور اتخذ الرجال أوضاع التصويب نحو الفارس المنطلق بجواده ليختفي في الأفق..
- لا!.. دعوه!.. إنه لي..!
صاح الجوال بوجه غارق في الدماء والرمال ونهض على ركبتيه.. وهرع إلى جواده وامتطاه..
وجذب اللجام.. فلم تر (عبير) مفرا من امتطاء جوادها للحاق به.. فهي لا تريد أن يهلك هذا المعتوه..



صاح الجوّال بوجه غارق في الدماء والرمال.. ونهض على ركبتيه.. وهرع إلى جواده وامتطاه..

يجب أن تكون جواره لتمنع هذا..

صاح الجنرال في رجاله:

- لا تطلقوا النار يا رجال.. دعوا هؤلاء المعتوهين يسوون مشاكلهم مع بعضهم..
ثم إذ رأي بعضهم مازال مصرا على التصويب:
- كفي!.. سأحول أول من يعصي أمري إلى محاكمة عسكرية!
فخفض الرجال بنادقهم آسفين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بين الأشجار الكثيفة توقف الشريف..
من جعبته أخرج شيئا ما.. هذا الشيء هو عباءة ولثام.. وضعها على رأسه فغدا من إخوان الدم..
سيكون الانتقام رهيا.. ولن يقتصر على الحمر والصفر والسمر، بل سيشمل البيض الذين يعاونون هؤلاء.. أولئك الذين لا يفهمون فلسفة هذا المجتمع الخالصة..
ولكن يجب أولا أن يجد مكانا آخر للاجتماعات، ثم يرسل الحمام الزاجل إلى من بقي من رجاله.. وعندئذ يبدأ المرح.. سيكون عليه أيضا أن يجد أعضاء جديدين ل (هيل تاون) وسواها من المدن..
أما عن أعقد ما في الأمر فهو البحث عن شخصية جديدة في بلد جديد.. ربما صار صاحب حانة أو مارشالا جائلا.. من يدري؟ للأسف لا توجد مهن كثيرة في الغرب للاختيار فيما بينها..
وفجأة لم يدر بنفسه إلا وهو يطير من فوق صهوة الحصان؛ ليتمرغ أرضنا، وتتهشم كل عظامه..
أدرك أن هناك حبلا يحيط بجسده، وأن هناك من رماه بأنشوطته من مكان ما..
بالفعل.. يرى قدمين أنثويتين وقدمين ذكريتين ترتديان حذاء الركوب ذا المهمازين.
قال وهو يعتدل في جلسته ويزيح لثامه عن وجهه:
- أنت بارع يا جوال..
- ياب!
قالها الجوال ودس لفافة تبغ مشتعلة في قم غريمه..
قال الشريف وهو يلوك اللفافة:
- والآن.. فلتنه هذه المسرحية.
صاحت (عبير) في لهفة:
- نعم.. نعم.. أطلق النار على رأسه يا جوال.
ثم شعرت بالخجل من دمويتها..
قال الجوال وهو يرفع الأنشوطة عن خصمه، ويلف الحبل حول ساعده:
- أريد تسوية عادلة.. رجلا لرجل.. الآن!
لاحظت (عبير) أن وجه الجوال خال من الجروح.. كيف زال أثر اللجام من عليه؟
- على الفور - ظهرت الندبة على الخد..
وأدركت (عبير) أن (دى - چى - ٢) قد سها قليلا ثم تدارك السهو!
الآن يفك الزعيم بقايا الحبل عن صدره وينهض ببطء:
- أنت تريدها تسوية يا جوال.. هذا يروق لي..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يسود الصمت الغابة..
حتى الطيور كفت عن تبادل السباب.. والأشجار كفت عن الاهتزاز.. والهواء كف عن الصفير بين الأغصان..
إنها أرهب اللحظات في قصص الغرب طرا.
المواجهة بين فارسين..
فسحة خالية من الأشجار يقف الفارسان فيها متواجهين، وبينهما مسافة عشرة أمتار تقريبا..
يد كل منهما تحوم جوار مسدسه الموضوع في نطاقه.. وعيناه لا تفارقان وجه غريمه..
قالت (عبير)، في هلع وهي تتوارى خلف جذع شجرة:
- كنت أظنكما ستمشيان بضع خطوات وظهر كل منكما للآخر ثم تستديران وتطلقان..
قال الجوال وهو يرمق خصمه في ثبات:
- ناب..!.. هذه هي الطريقة الإنجليزية.. طريقة السادة.. أما نحن - الرعاع - فنتقاتل هكذا معتمدين على سرعة الإطلاق ودقة التصويب..
ثم تركها وراح يسير في تؤدة تجاه خصمه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء سوى صوت الكعبين فوق الأرض..
صوت رنين المهمازين..
صوت الأنفاس الثقيلة المتوجسة..
صوت الصمت..
وهنا رجلان يوشك أحدهما - ولا أدري من – على إفناء الآخر بعد ثوان
النصر للأسرع والأدق تصويبا والأقوى أعصابا..
لا شيء سوى ال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- حان وقت العودة يا فتاة..
استدارت لترى من........ فوجدت (المرشد) واقفا يضغط نهاية قلمه كعادته وابتسامة مزعجة علت شفتيه.
في احتجاج صرخت:
- لكننا لم تنته بعد..!
- بالعكس.. لقد عدل الجيش عن الهجوم، وانتهى
(إخوان الدم).. وساد السلام.. إن نتيجة هذه
المبارزة تحصيل حاصل
لم يدر متى ولا كيف هوت اللكمة على وجهه.. ثم
غاصت الركلة في أسفل بطنه، فأطلق أنة وتهاوى راكعا على ركبتيه:
- أواااااه!.. أنت صرت شرسة يا فتاة.. إن تأثير هذه القصص العنيفة على أخلاقك ليثير... أووووه!.. قلقي!
- كل ما أعرفه أنني لن أتركك تبعدني عن هنا - كما في كل مرة - دون أن أعرف ما حدث للجوال حقا.

وهنا سمعت صوت الطلقة..
- رأت الجوال يسقط أرضنا والدم يملأ أعلى ذراعه صرخت في هلع.. لم تصدق ما يحدث.. هرعت إليه ووسدت رأسه على صدرها.. وبوجه مفعم بالمقت
نظرت إلى الزعيم:
و أنت أيها ال...... »
كان واقفا يرمقها بلا تعبير.. المسدس في يده ينبعث الدخان من فوهته.. و..
ثم سقط على وجهه كحجر..
عندئذ تحرك الجوال.. وفهمت (عبير).. لقد انطلقت الرصاصتان في ثانية واحدة.. وكانت رصاصة الجوال هي الفاتكة..
همست في أذنه:
- أنت جريح!
قال لاهثا:
- هذه هي تقاليد القصة.. كل ما هنالك هو أنني سأمزق قميص الوغد، وأصنع جبيرة.. في قصص (الوسترن) لا يصير الرصاص مشكلة.. فقط في المساء أحاول انتزاع الرصاصة بخنجر محمى.. و...
من هذا؟
وأشار نحو (المرشد) الذي وقف على بعد خطوات ينتظر حتى تنتهي (عبير) من الاطمئنان..
ولم ينتظر الجوال الإجابة.. بل أردف يجيب عن سؤاله:
- أنت (المرشد) أليس كذلك؟
- بلى.. في خدمتك
نهض الجوال لاهثا.. وقال وهو يمسك ذراعه:
- أبلغ الإدارة في (فانتازيا) أنني لم أتقاض راتبي منذ شهرين.. كما أنني طلبت مسدسين جديدين فلم يعبأ بي أحد..
- إنه التضخم كما تعلم.
- لطيف أن أعرفك يا زميل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الغروب يلقي بعباءته الأرجوانية فوق الوجود، حين ودع الجوال (عبير) و(المرشد) وابتعد بجواده نحو الأفق الغربي.. فهو جوال.. وحياته هي أن يجول حتى يموت..
دمعة انحدرت على خد (عبير) وهي تسمعه يترنم من بعيد:
«أنا مطلوب حيا أو ميتا.»
لهذا سأرحل يا صغيرتي
ولكن من سيبكي من أجلي؟
من سيصلى على روحي؟
حين أتدلى من حبل المشنقة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في قصتنا القادمة نذهب مع (عبير) إلى أرض الفراعنة، ونركب عربة (رمسيس) الحربية لنواجه (الحيثيين) في (قادش)..
سيكون هناك الكثير من الغبار والخيول الثائرة والدماء
لكن هناك أيضا متسعا للخيال.. متسعا لـ (فانتازيا).

[تمت بحمد الله]

ذات مرة في الغرب
حين تأخذنا (عبير) إلى الغرب..
نعرف أننا سنواجه كل شيء.. الهنود الحمر الثائرين.. والوعاظ المزيفين والدببة الشهباء الغاضبة والجمعيات السرية التي شعارها الدم.. والأوغاد المتحرشين بكل قادم في الحانات... كل هذا وأكثر نلقاه في مرة.. ذات مرة في الغرب..
د. أحمد خالد توفيق

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

Never - never land ()

[←2]

() مدينة الجحيم.

[←3]

() (إماليا يلوي) هي المجاهدة التي منحت المرأة الأمريكية حق الانتخاب.. يا لها من مصادفة!

[←4]

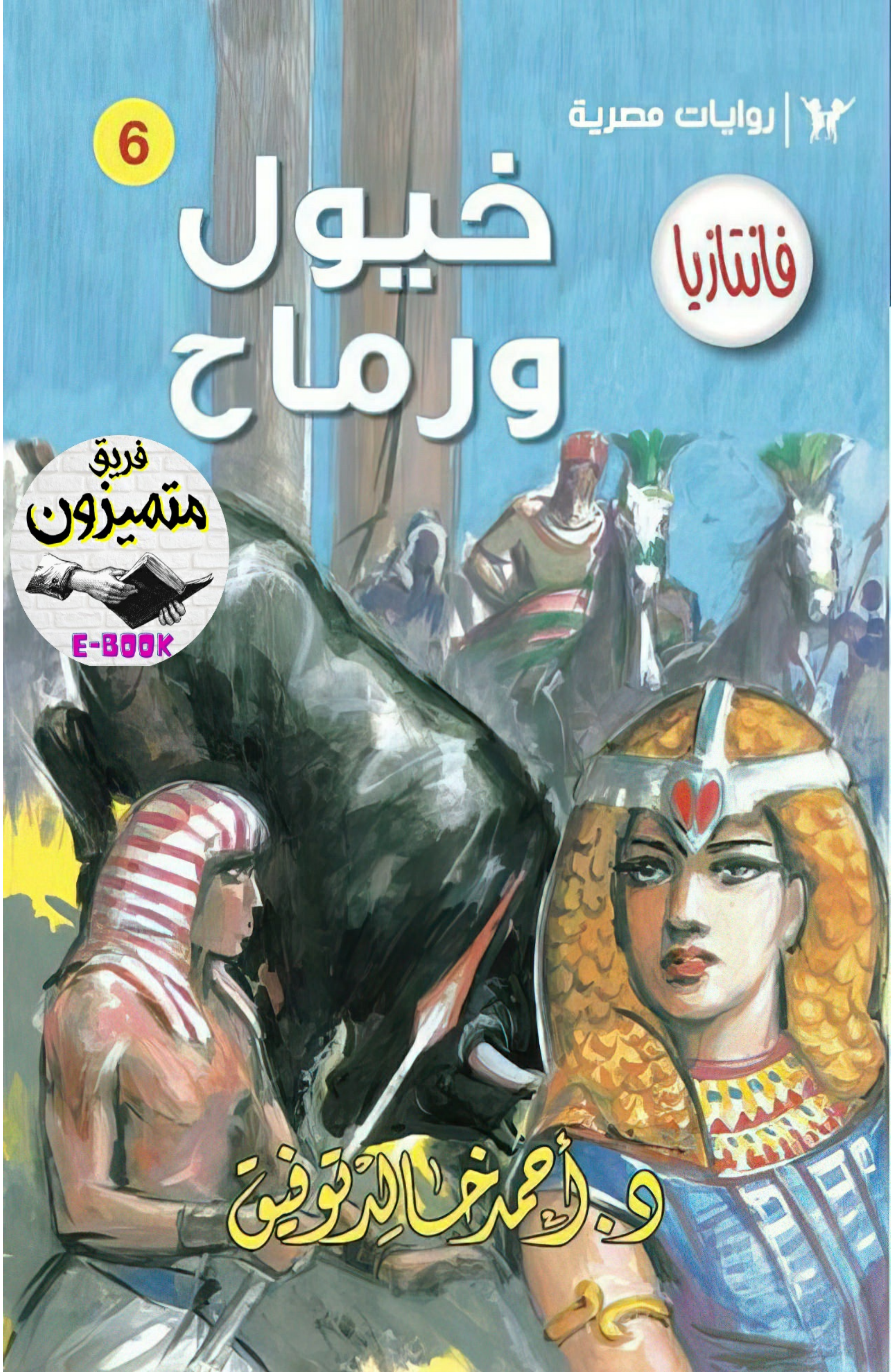
() أصفر تعني جبانا بلغة الغرب.

[←5]

() أغنية حقيقية من أغاني الغرب.

[←6]

() فرسان الشمال.


روايات مصرية
6
خيول ورماح
فانتازيا
فريق
متميزون
E-BOOK
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (06)

خيـول ورمـــاح

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) ... لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- قراءات جديدة..

لقد مر شهران على عودة (عبير) إلى أرض الواقع.. وطيلة هذين الشهرين لم تشعر بحاجة ماسة إلى الفرار من جديد.. لقد منحها (شريف) كثيرا من وقته، واستطاع - بمعجزة ما- أن يصبح مسليا.
صحيح أنه لم يتعلم المبارزة بسيوف الليزر، ولم يتعلم الرماية بمسدسين مقلوبين في جرابيهما، ولم يملك قط سيارة برمائية.. بمعنى أدق: لم يصر واحدا من (الآخرين).. الآخرين الذين تلقاهم في (فانتازيا) ولا يكفون عن إثارة شغفها في كل ثانية..
لكنه بدأ يهدأ فيما يتعلق بعالم الكمبيوتر..
لم يعد ذلك العاشق المجنون، ولم يعد يفاجئ نفسه كل ثانية بفكرة جديدة ومفهوم جديد..
أخذها في رحلة إلى (الأقصر) و (أسوان).. واصطحبها إلى (الإسكندرية).. وثرثر معها حول كل شيء (عدا الكمبيوتر بالطبع).. بل إنه – صدق أو لا تصدق - زار أسرته مرتين بصحبتها.. ويبدو أن أسرته بدأت تقبل وجودها تدريجيا وترى أنها ليست بهذا السوء..
الأرستقراطية المصرية العتيدة تتمثل في هذه الأسرة الأرستقراطية التي لا تتحذلق ولا تدعي ولا تتظاهر..
لهذا يتمتع أصحابها بتحفظ ممزوج بالكبرياء يفصلهم عن الآخرين، وفي طباعهم بساطة لا ترى غضاضة في الجلوس على الأرض أو التهام شطيرة (طعمية) في تلذذ لو دعوتهم إليها.. صحيح أنهم سيمرضون أسبوعا بعد هذه الشطيرة، لكنهم لن يذكروا لك هذا.
ولهذا - أيضا يمكن أن تجد ثيابهم بسيطة غير مبهرجة.. ربما تحتاج للكواء.. لكنها تناسبهم تماما.
إن (شريف) واحد من هذه الطبقة.
وفي تعاملاته مع العالم الخارجي يتمتع بسذاجة وبساطة (لورد) إنجليزي وجد نفسه في الأدغال فجأة..
لهذا أحبت (عبير) أسرته.. لكنها لم تجد نفسها بينهم، ولم تنس أن أمثال هؤلاء حين كانوا يتنزهون في أوروبا لتزجية وقتهم؛ كان جدها (يتنزه) هو الآخر في حارة (الجعايدة) حاملا قربة السقاء على ظهره.
لم تكن تريد منهم سوى (شريف).. وقد حصلت عليه، ولم ترد أن تضايقه بمضايقة أسرته.. لهذا كانت معهم ألطف من عصفور صغير وأرق من نسمة مساء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن (عبير) لم تكن تنتمي لأسرتها هي ولا حارتها..
إن (عبير) مواطنة من مواطني (فانتازيا).. أو هي تعتبر نفسها كذلك.
إنها تشاهد الحياة بنصف عين وربع انتباه، كأنما تقرأ كتابا تدور فيه هذه الأحداث..
وخيالها كله هناك.. مع (المرشد) و (فان هلسنج) وإخوان الدم و (زولتار) وثوار (جالاكتيكا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الآونة الأخيرة ابتاعت عددا لا بأس به من الروايات والكتب.. وقرأت كثيرا جدا في الفترات التي

يكون (شريف) فيها في عمله..
إن خيال الإنسان لن يتوقف أبدا.. كل هؤلاء يجاهدون من أجل توسيع رقعة (فانتازيا) كما يجاهد الهولنديون ضد البحر لتوسيع رقعة بلادهم..
واحد يدعى (وليم بيتر بلاتى) أضاف إلى (فانتازيا) أرضا جديدة، هي أرض الأرواح الشريرة.. وطقوس طردها.. ذلك العلم الذي يسمونه (إكسورسيزم)..
واحد يدعى (مايك كرشتون) أضاف أرضا تحوي قصص الديناصورات والفيروسات الفضائية الغامضة.
مجاهد عجوز يدعى (بوريس باسترناك) حرك مشاعرها بقصة طويلة مرهقة عن (روسيا) بعد ثورة (أكتوبر)، حيث يواجه الدكتور (جيفاجو) تحولات المجتمع..
دعك من المجاهدين (جمال الغيطاني) و (القعيد) و (صنع الله إبراهيم) بإبداعاتهم التي لا تنسى..
على أن أكثر ما أحدث تأثيرا في نفسها هو قراءاتها النهمة للتاريخ الفرعوني، في كتب (قصة الحضارة) وفي قصص (نجيب محفوظ) وحتى في قصص (أجاثا كرستى) البوليسية الفرعونية!..
لم تكن قد رأت (الأقصر) ولا (أسوان) إلا مع (شريف).. وقد احتبست أنفاسها إذ عرفت أن هذه الأشياء المذهلة موجودة على أرض (مصر).. وأنها كان من الممكن أن تموت دون أن تراها.
هي لم تكن - على أقل الاحتمالات - قد رأت المتحف المصري.. وإن كانت على الأقل تعرف أنه هناك في ميدان (التحرير).. ولكن لم يخطر ببالها قط أن هناك من يدخلونه ليشاهدوا ما به.. وكأنه محظور على غير السياح.. وكأنهم سيطردونها أو يطلقون عليها الرصاص لو حاولت الدخول ببشرتها السمراء..
وحين رأته - مع (شريف) طبعا - أدركت أن هناك عالما كاملا لم تتصور وجوده.. وأدركت أن هناك أشياء لا حصر لها لم ترها بعد.. وستموت دون أن تراها..
هذا عن (مصر) فقط.. فماذا عن ثلوج (ألاسكا).. وشلالات (نياجرا).. ومتحف مدام (توسو).. وحدائق (أوغندا) المفتوحة.. وشمس منتصف الليل؟!
إنها لن ترى هذه الأماكن أبدا في الواقع.
لكنها ستراها وترى ما هو أروع منها في (فانتازيا)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجالسة على المقعد، والأقطاب مثبتة على جمجمتها؛ نظرت إلى (شريف) فوجدته يعد البرنامج على الشاشة ساهما كاسف البال..
أدارت رأسها نحوه.. وتساءلت:
- «(شريف)؟.. هل ثمة خطأ ما؟»
قال وهو يداعب المفاتيح دون حماس:
- «لا يوجد شيء صحيح من البداية..»
- «لماذا؟»
قال بابتسامة باهتة:
- أنت تحاولين الفرار مني.. دائما تقف (فانتازيا) اللعينة هذه بيننا
- ولكن
- في كل مرة تطلبين فيها الرحيل؛ أشعر أنني جزء من واقعك الكئيب الذي تشتهين الفرار منه..

وأنا لم أقارف ذنبا ما.
- أعلم.. لكني أعرف كذلك أنك عاكف على تطوير الجهاز.. وأن كلينا مستفيد من هذه الجلسات ..
نظر لها.. وتنهد.. ودس قرص نعناع في فمه:
- أنت تعرفين أنني كففت عن العبث بهذا الجهاز منذ زمن.. إن (دى - جى - ٢) ليست له فائدة اقتصادية مرتقبة.. إنه جهاز لا يصلح إلا لفرد واحد هو أنت!
- (شريف).. كفاك سخفا!
- نعم.. لن أفسد عليك متعة رحلتك..
وعاد يضغط الأزرار دون حماس..
إنه يجد في كل هذا إهانة من نوع ما.. لكنه لا يريد أن يبدو قاسيا.. بل هو لا يستطيع أن يبدو قاسيا..
وحين ضغط زر الإدخال..
بدأ الحلم دون مقدمات في ذهن (عبير).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - في مصر القديمة..

من جديد في قطار (فانتازيا)..
قال (المرشد) ل (عبير) وهو يداعب سلسلة مفاتيح:
- هل لديك برنامج معين يا (أليس)؟
نظرت إلى السلسلة وغمغمت
- أين القلم إياه؟
- لقد ضاع.. إن عادة اقتراض الأقلام وعدم إرجاعها موجودة حتى في (فانتازيا).. لم تجيبي عن سؤالي بعد
راحت تتأمل المشاهد التي تمر بنافذة القطار..
بعضها غدا مألوفا وبعضها لم تره من قبل..
كانت هناك أصنام هندية ذات ستة أذرع.. وكان (جلجاميش) يبدأ ملحمته الرهيبة من أجل صديقه (أنجيدو). ورأت (سيف بن ذي يزن) يبارز أعداءه.
لكن أشد ما أثار فضولها هو أنها رأت ثلوجا..
وعمالا سوفييت يلوحون بالمشاعل في غضب.. وأمَّا ملهوفة تحمل رضيعها وتحاول اللحاق بقطار يتحرك..
بانبهار هتفت:
- أيها (المرشد).. أهذه مشاهد من د. (جيفاجو) رواية (باسترناك)؟
أخرج رأسه من النافذة يتأمل المشهد دون اكتراث..
ثم قال وهو يعود للاسترخاء:
- لا بد أنها كذلك..
- لقد قرأت الرواية منذ أسبوعين.. أبهذه السرعة صارت من معالم (فانتازيا)؟
- لم لا؟.. في الخيال لا تحتاجين نقودا لإنشاء ديكور أو شراء ثياب للممثلين.. ولا تبحثين عن (كومبارس).. لقد أنشأ خيالك عالما متكاملا بمجرد فراغك من قراءة القصة..
ورأت (عبير) من النافذة معابد فرعونية وتماثيل هائلة الحجم.. وجنودا يلوحون برماحهم، لم تحتج للسؤال هذه المرة.. هذا هو عالم الفراعنة
هنا.. حصيلة أسبوع من القراءات الجائعة لكل ما كتب عنهم.
- هنا يا (مرشد)
- ليكن يا فتاة..
وجذب حبل القطار فتوقف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان النيل يمتد أمام عينيها.. مياهه حمراء اللون.. نيل يختلف كثيرا عن الذي كانت تراه حين تمشي على (الكورنيش) مع (غادة) تلتهمان حبات الترمس وتحلمان، وتتظاهران بأنهما لا تسمعان تعليقات الشباب العابرة.. وهي تعليقات تعرفت (عبير) يقينا أنها غير موجهة لها.. بل لصديقتها..

هذا النيل الذي تراه الآن هو نيل بكر.. نيل لم يروض بعد ولم يضع أحدهم اللجام فوق ظهره.. حصان هائج ثائر تتطاير خصلات معرفته في الهواء.. وتبعثر حوافره الغبار..
وبسهولة تبينت أن هناك ظهورا لعدد لا بأس به من التماسيح، ترقد في كسل على الضفتين بانتظار الحمقى من البشر أو أفراس النهر..
سألت (المرشد) وهي تجفف العرق عن وجهها:
- «من أنا في هذه المرة؟»
تأملها في شرود.. وغمغم:
- لن تكوني فتاة عادية طبعا.. إن هذا يعني حياة مملة بلا جديد.. الزواج.. الإنجاب.. العجين.. الخبيز.. عصر النبيذ.. ثم تموتين وتدفنين في تابوت من طين..، كلا.. لن يكون هذا.. سأجعلك واحدة من بنات الفرعون.. الأميرة (إرمنحات)..
- إر...... ما معناها؟
- كيف لي أن أعرف؟ فيما بعد سيقول علماء المصريات.. إن معناها: (الجميلة تتأود).. أو: (سيدة دارها).. أو: (سعيدة هي حياة (رع)).. أي شيء من هذا.. والآن..
وفي اللحظة التالية اختفي من أمامها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشت (عبير) أو (إرمنحات) - فوق الأرض الطينية الزلقة.. وقد أدركت أنها ترتدي ثوبا طويلا من الكتان.. وفي قدميها صندلان ذهبيان.. كما أدركت أنها صارت رشيقة معتدلة القامة، وأن الأساور الذهبية تطوق ساعديها حتى المرفقين..
كان هذا سوقا..
ورأت أطفالا عرايا - كما ولدتهم أمهاتهم – يلعبون ويتصايحون هنا وهناك، على حين جلس الباعة أمام سلالهم بما فيها من خضر وآنية فخارية وطيور وأرانب، ومن حين لآخر يتوقف أحد المارة ليقايض البائع على بضاعته..
رأت فتاة فارعة القامة تحمل بطة في يد.. وتضع سلة كبيرة على رأسها؛ تقايض بائعة على دستة من الحمائم..
أين رأتها من قبل؟.. آه!.. إن تمثالها موجود في المتحف المصري بذات الثوب..
وفجأة سمعت صوت صراخ وعويل..
ثمة كارثة ما حدثت أو تحدث..
في الثانية التالية تبينت أن المارة يركضون بأقدامهم العارية فارين من وجه شيء ما.. شيء ما يبعثر الغبار في كل مكان.. شيء ما يصدر خوارا وله قرنان طويلان..
قرنان طويلان؟!.. إنه ثور!..
ثور هائج يشق طريقه بين صفوف القوم.. يدوس هذا حتى تنفجر أحشاؤه وتتهشم عظامه.. ويطعن ذاك حتى يخترق صدره.. وفي كل الأحوال لا أحد يجرؤ على التصدي له..
قررت أن تفر.. لكنها مرت بتلك اللحظة الكهربية الشهيرة.. لحظة انعدام التوصيل بين المخ والأطراف.
هي تعرف - يقينا - أن الثور سيهاجمها هي بالذات.. لماذا؟ لأنها بطلة الأحداث..
لكن أين وكيف تفر؟ ومتى تطاوعها قدماها؟
وهنا سمعت من يصرخ في الجمع:

- افسحوا الدرب!
طبعا قالها بلهجة ولغة غريبة زاخرة بالحاء والعين الكنها فهمتها.. أدركت أنه يتكلم (الديموطيقية) لغة عامة الشعب..
يرفع الرمح في يده - كان يحمل رمحا – ويطوح ذراعا أسمر مزدانا بالعضلات تجاه جبل اللحم الذي يركض نحوها..



رمح ينغرس في العنق.. لعاب رغوي يتناثر من الفم.. الغبار.. الصراخ.. الثور يغير اتجاهه.. الفتى الأسمر يطير في الهواء ويداه متشبثتان بالرمح..

مقاومة.. الرمح ينغرس أكثر.. لعاب أكثر.. غبار أكثر.. صراخ أعلى..
الجسد العملاق الأسود يكافح.. ترتخي أقدامه يهوى على قدميه الخلفيتين.. خوار.. محاولة للنهوض..
ثم.. الموت النهائي لكتلة العضلات الهائلة التي ملأت الدنيا هلعا منذ ثوان.. فيما عدا انتفاضات نهائية.
وتهرع (عبير) مع الهارعين نحو الجسد الأسمر الممرغ في الغبار..
كان راقدا هناك.. شاب أسمر هادئ الملامح، مريح التقاطيع.. لكن الألم يكسو سحنته.. وخيطا من الدم يتدلى من فتحة منخره إلى الأرض..
لقد أنقذها ببسالة.. هشم عظامه لينقذها.. فهو شهم.. بل هو كذلك أشجع الشجعان، لأن من يقف في طريق جبل لحمي مثل هذا لا يمكن أن يكون آدميا يخاف ويجزع..
كادت تنحني لتريح رأسه على ركبتيها.. لكنها سمعت همسات تقول لها: إنها ترتكب خطأ ما..
ومن أذنها دنت امرأة لتهمس:
- «التحية أيتها الأميرة يا ابنة (آمون).. لقد قام الجندي بواجبه.. فدعيه..»
أدركت (عبير) أن الناس يخشون لمسها.. واضح أنها ممنوعة من اللمس باعتبارها ابنة الفرعون (آمون) شخصيا..
رأت رجالا ضخام الجثة يحملون رماحا وكل ما يوحي به منظرهم أنهم رجال شرطة.. كانوا يمسكون بفلاح بائس هزيل أصلع الرأس من قفاه.. ويقتادونه نحوها:
- تحية يا ابنة (آمون)
قالها كبيرهم وانحنى حتى لامست جبهته التراب تقريبا.. وأردف:
- هذا هو صاحب الثور.. يزعم أن الثور هاج وفر منه بسبب الزحام..
هتف الرجل متوسلا، وهو يحاول التملص من جلاديه:
- تلك هي الحقيقة بحق (بتاح)..
صفعة هوت على قفاه.. وسبة من رئيس العسس:
- صه أيها المعتوه..!.. قل لي من كلفك من (الحيثيين) بقتل الأميرة؟ إن أركان المؤامرة تتضح لنا الآن.. سنأخذك إلى (إدارة مكافحة الاغتيالات).
وهناك سنعرف كل شيء بما فيه اسم زوجة خالك!
- اسمها (سح).. وأنا لا أعرف حتى كيف أنطق اسم هؤلاء الحيث.. الحيثون..
- «ششش!»
قالها رئيس العسس.. وأخرج من حزامه جهازا لاسلكيا (ووكى - توكى).. وأطال الإريال الخاص به.. ليتكلم محدثا جهة ما:
- «أرسلوا عربة.. لدينا عميل فائق الأهمية هنا».
أحست (عبير) بأن هناك شيئا ما في غير موضعه.. نعم.. جهاز اللاسلكي الفرعوني هذا.. صحيح أن الفراعنة كانوا عباقرة، لكن ليس إلى هذا الحد.. إنها في (فانتازيا) حيث كل شيء مسموح به..
اقتادوا الفلاح إلى العربة، بينما هو يقاوم.. ويصرخ:
- «قلت لكم: إن زوجة خالي اسمها (سح).. ماذا تريدون بعد هذا؟ ثم أن الثور فر منى.. آى!.. إن ضرباتك قوية حقا يا سيدي.. آه..... وورائي كوم من الأفواه التى يجب إطعامها.. و..»
قال رئيس العسس:
- «الأفواه الوحيدة التي ستطعم هي أفواه التماسيح بعد ما ننتهي من استجوابك..!..

نياهاهاهاهاهاه!»
كانت ضحكاته مستمرة بينما العربة تتحرك بفريستها إلى (إدارة مكافحة الاغتيالات)..
فما إن ابتعدت حتى كف عن الضحكات.. ونظر إلى (عبير) باحترام قائلا:
- «والآن يا أميرة.. اسمحي لي بإعادتك إلى القصر..»
هتفت (عبير) في لهفة وهي تشير إلى الجندي الممرغ في التراب مهشم الأوصال:
- «وهذا؟»
مط شفتيه في اشمئزاز:
- هذا لا شيء.. واحد من العامة قام بواجبه نحو أميرته..
بغضب هتفت:
- ولماذا لم يقم أحدكم بهذا الواجب؟ كل هذا الحشد لم يتحرك منه سوى رجل واحد.
- قمنا يا أميرة بواجبنا.. والخائن في قبضتنا ولسوف ينال جزاءه حالا..
- كلكم على فلاح بائس عاثر الحظ.. بينما فررتم كالأرانب من وجه الثور
- كنا ننتظر اللحظة المناسبة.. لقد تراجعنا لفحش الوثبة!
ثم التفت إلى رجاله صائحا بلهجة لا تناقش:
- «هاتوا الجندي إلى القصر.. لقد عفت عنه الأميرة!»
صاحت في حنق:
- «عفوت عن ماذا؟»
- «عن إعاقته لحراسك طبقا! إن هؤلاء الهواة..»
وكتمت (عبير) غيظها..
وفي صمت ركبت عربة يجرها جوادان.. ووقفت إلى جوار رئيس العسس الذي أمسك باللجام..
وهوى فوق ظهري الجوادين بسوطه فانطلقت تنهب الأرض قاصدة القصر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أبي (رمسيس)..

كان العبيد العمالقة سود البشرة يملئون ردهات القصر.. وكان هناك بعض الجنود شاكي السلاح يرتدون جلود النمور لسبب لا تفهمه..
كل شيء غاية في الضخامة والفخامة والإبهار..
الجدران المنقوشة برسوم أنيقة..، والأعمدة ذات الطابع الفرعونى المحبب للنفس..، والأرضية المزخرفة بزهر اللوتس...
خطر لـ (عبير) وهي تمشي مع حارسها مدى رقي ذوق هؤلاء الفراعنة.. كل شيء متناسق ولا يوجد خطأ واحد في الألوان ولا في الطراز.. المباني تنسجم مع الرسوم ومع التماثيل ومع الثياب ومع أقداح الشراب في تناغم جميل..
كان هذا هو البلاط..
وفي صدر المكان على مقعد مهيب شامخ، يجلس عملاق لا يقل هيبة ولا شموخا.. على رأسه تلك القبعة أو غطاء الرأس ذو اللونين الذي يرمز لتوحيد القطرين.
إن هذا هو الفرعون.. أبوها..
كان يحسو الشراب من قدح ذهبي كبير.. على حين يقف وراءه عبد زنجي هائل الحجم، عاري الجذع، يلعب دور مروحة السقف، مستعملا مروحة ريشية هائلة الحجم..
وأمام الملك كانت هناك مجموعة من الفتيات الرقيقات تؤدين نوعا من (الباليه) الإيقاعي على نغمات تنبعث من (هارب) ضخم تمسك به حسناء رقيقة أخرى..
هنا رأي الفرعون (عبير) وقائد العسس..
رفع ذراعه في صرامة ليوقف الحفل الترفيهي، ثم أشار إلى الرجل كي يدنو منه..
واستطاعت (عبير) أن تتبين ملامح الرجل - أبيها - في جلاء أكثر.. كان وسيما دقيق الملامح، أسمر اللون طبعا.. فكل هؤلاء الفراعنة يبدون كأنما شكلوا لتوهم من طمي النيل
وكان الفرعون صارما آمرا يوحي بأنه اعتاد أن يأمر فيطاع دون جدل من أي نوع..
ركع كبير العسس على ركبتيه.. وهتف في تبجيل:
- تحية يا طويل الخطا.. هذا كبير العسس المستحق لعطفك يخبرك أنه قد تم إحباط مؤامرة حيثية لاغتيال ابنتك.
جرع الفرعون جرعة من الشراب.. وقطب.. ونظر باتجاه (عبير) غير فاهم بعد لمعنى ما حدث..
ثم تساءل بصوت جهوري:
- ابنتي؟ غريب! أنا لا أذكر وجه هذه.. من هي؟
- هي الأميرة (إرمنحات) أيها الملك.. رقم 58 .. الأم أسيرة حبشية من بلاد (بونت)
- «أهاه..!..»
وهنا تذكرت (عبير) أن (رمسيس الثاني) كان هو الملك الذي أنجب أطفالا لا يعرف أحد عددهم.. وإن كان أكثر التقديرات تواضعا يقول: إنهم تسعون ابنا!...
ظريف أن يكوّن المرء قبيلة كاملة تحمل صفاته الوراثية.. لكن هذا يعني أنها غير ذات أهمية كبرى مجرد فرد في جيش تعداده يفوق الحصر.. ومن الواضح أن أباها ذاته لم يرها سوى مرة أو مرتين.. ربما لم يرها قط
لم يبد (رمسيس) شديد الاهتمام - وهذا طبيعي - وهز رأسه في ملل مغمغما:

- حسن.. ألق بالمتآمرين إلى التماسيح
- حتما يا مولاي.. وهناك جندي ضحي بحياته كي..
- ألق به التماسيح هو الآخر!
- لكنه أنقذ حياة الأميرة..
- إذن أحسنوا وفادته.. واجلبوا له طبيبي الخاص.. والآن خذها وانصرف.. فأنا - كما تريان - مشغول ..
بالطبع لم تجد الوقت ولا شجاعة كافية لتسأله عن سر انشغاله، مادام لم يكن يفعل شيئا حين دخلا ومشت وراء حارسها.. الذي سلمها لعبد سلمها لعبد.. سلمها ل (قهرمانة).. أخذتها إلى (الحريم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اللقاء الأول مع أبيها محبطا..
هي لم تتوقع أن يقف على يديه ويهلل لنجاتها، لكنها لم تتوقع كذلك كل هذا الجحود والنكران..
قالت لها أمها الحبشية حيث جلست تضفر خصلات شعرها، وتغسلها بزيت الزيتون والنبيذ:
- إن أباك رجل عظيم.. أعباء الدولة تحاصره.. والإمبراطورية تتسع.. لهذا ليس لديه الوقت الكافي ليكون حنونا..
سألتها (عبير) وهي تلقي ببعض حبات العنب إلى فمها:
- «وماذا عن الجندي الذي أنقذني؟»
- «يمكنك أن تريه.. إن الجواري يعنين به الآن»
أتراه بهذه السهولة؟
واضح أن تعقيدات (الحريم) الشهيرة في خدرهن لم تصل بعد إلى الفراعنة.. لو كان هذا بلاط (هارون الرشيد) لاحتاجت إلى توصيل رسالة إلى جارية توصلها إلى عبد يوصلها إلى عبد يوصلها إلى خصي يوصلها إلى الجندي..
وهكذا مشت مع جاريتها إلى إحدى القاعات الصغيرة، وكان أول ما أثار دهشتها كل هذا الدخان المتصاعد في الجو.. ثم أدركت أنهم يحرقون أعشابا ما..
أثار دهشتها كذلك ذلك الكاهن أصلع الرأس الذي يضع جلد نمر على كتفه، وقد راح يحرق أشياء صغيرة..، ويدسها في دم المريض مستعملا إبرة مدببة.. وفي أركان القاعة تناثرت تماثيل.. (إيزيس)
ترضع صغيرها.. أو (إيزيس) دون أن ترضع صغيرها، أو (إيزيس) دون صغيرها.. أما الكاهن فراح يردد أدعية معينة ذات طابع علاجي وقائي فعال:
- «شوح عشتار آمون.. حشروت نافتيس سخمت»
دنت منه وتأملت المريض..
كان في حال سيئة - هذا واضح - يرتجف ويهلوس والعرق البارد يحتشد في حبيبات على جبينه..
جلست جوار الكاهن ساعلة من الدخان الكثيف وقالت محاولة أن تجاري ثقافته الوثنية الضحلة:
- «هل هي الأرواح؟.. هل آذته؟»
نظر لها في دهشة كأنما يريد أن يصارحها بجهلها لولا الأدب تجاه منصبها الملكي.. وقال في

كياسة:
- بل هي الصدمة العصبية يا أميرة.. مع اشتباه وجود كسور في الحوض وتمزق في الطحال.. إن نبضه سريع وضغط دمه منخفض..
- «ضغط دمه؟ ك.. كيف؟»
- «آه.. هذه التفاصيل التقنية مشروحة في بردية (إيبرز).. وهي لا تعني غير الأطباء..»
ورفع رأسه نحو إحدى الجواري الواقفات قربه:
«أريد خمسمائة مقدار من (آمون رع)... وقربتين من محلول (حورس).. أخشى أن تفقد هذا المريض الآن»
ناولته الجارية - يبدو أنها جدة ممرضات اليوم - جرة ملأى بسائل.. ومعها أنبوب نحاسي صغير..
وهنا وجدت (عبير) ألا جدوى هنالك من مشاهدة ما يحدث.. خاصة وهذا الرجل يعرف ما يفعله كما هو واضح.. إن الطب المصري القديم لم يكن متخلفا كما حسبته.. ولو كانت ذات خبرة طبية لاستنتجت أن (آمون - رع) هو جد (الأدرينالين).. وأن محلول (حورس) هو جد (الدكستروز).. وأن هذا الكاهن هو أستاذ طب الطوارئ بجامعة (منف)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جالسة على أريكة في الحريم، مستمتعة بالأنسام التي تحركها مروحة من ريش الطاووس تمسك بها فتاة سمراء باسمة..، راحت (عبير) تعرف أكثر عن (رمسيس الثاني) وعن هذه الفترة التاريخية..



محدثتها هي الحسناء (ميحور) التي هي – وهذا متوقع - أختها من الأب..
صحيح أنها في (فانتازيا)، وصحيح أن الخيال هو سيد اللعبة ها هنا؛ إلا أن ما قرأته عن

(رمسيس الثاني) كان دقيقا ووافيا.. لهذا لا توجد تلفيقات هاهنا.. ويمكن للقارئ أن يطمئن إلى المعلومات التالية:
- (رمسيس الثاني) - تقول (ميحور) وهي تقذف حبات العنب إلى فمها الدقيق - هو ابن الملك (سيتي الأول).. وكلاهما ينتميان إلى أسرة (الرعامسة).. بالمناسبة إن النطق الصحيح هو (رعمسيس) لا (رمسيس)..، وهي أسرة لم يعرف علماء الآثار بعد كيفية نشأتها!
هنا أصاب (عبير) الذهول.. كيف تتحدث (ميحور) عن أبيها وجدها قائلة إن أحدا لم يعرف كيفية ظهورهما؟
ثم تذكرت أن (ميحور) لا تقول إلا ما تعرفه (عبير).. أو ما تعرفه وظنت أنها نسيته..
قالت (ميحور) وهي تتمطى وتريح رأسها على ركبة (عبير):
- فيما بعد سيسمون هذه الفترة (الدولة الحديثة).. وسيقولون: إننا من الأسرة التاسعة عشرة.. أنت تعرفين أن الأسر عديدة في تاريخ الملوك الفراعنة..
وهنا توقفت عن الكلام.. ونظرت تجاه الباب..
كان هناك عملاق زنجي يقف في أدب منتظرا السماح له بالكلام
هزت (ميحور) رأسها تدعوه للدخول فالكلام..
قال العملاق وهو يطرق للأرض حياء:
- أبلغني الكاهن (كاه) أن أبلغ الأميرة أن الجندي الجريح قد..
- قد؟
- تعافى واجتاز مرحلة الخطر..
ابتسمت (ميحور) بخبث، ونظرت إلى (عبير) نظرة معناها: أرأيت ألا داعي لكل هذا القلق؟ ثم عادت إلى جلستها المسترخية..
شعرت (عبير) بارتباك.. فهي لم تعتد قط أن تمارس حياتها أمام العيون، فكيف تضطجع هذه وتسترخي أمام هذا الثور الواقف لا يبرح المكان؟
ثم فطنت إلى أن (ميحور) لا تعتبره بشرا أساسا فضلا عن كونه رجلا.. كأنه قطعة أثاث موجودة هناك من البداية.. إن المرأة لا تخجل إلا من رجل في مستواها أو أرفع منه.. أما علاقة الملكة بعبدها فهي علاقة شبيهة بعلاقتها بقطها السيامي المدلل أو كلبها..
وهي - والحق يقال - ذروة التعالى الطبقي، والإهانة لآدمية هؤلاء الذين هم بشر مثلنا..
وفي سرها تساءلت: كيف يفكر هذا العبد، وما الذي يخطر له؟ في الغالب هو لا يفكر في شيء، لأن سني العبودية جعلت خلايا مخه تضمر.. الرأي صار عضوا أثريا رمزيا يذكره أنه كان حرا يومنا ما في إحراش إفريقيا، والفتيات يخجلن منه.. أما الآن فهو لا شيء.. مجرد (دكتافون) آدمي هائل الحجم..
في سأم أزاحت هذه الخواطر جانبا ونهضت لترى الجندي الجريح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان راقدا في ذات الخيمة..
لكن عينيه هذه المرة كانتا مفتوحتين تلمعان بالحياة.. وأدركت أن الطبيب قد أتى بمعجزة لا شك فيها..
نظر لها نظرة صافية كالينبوع، وابتسم..
حقا ليس الكلام سهلا إلى هذا الحد.. ليس مجرد تحريك للشفتين واللسان خاصة حين يكون

عليك أن تشكر من ضحى بحياته ليبقيك حيا..
- أميرتي.. أنا.. آى ى!
كان هو البادئ بالكلام.. لكنها لم تجد جملة مفيدة فيما يقوله لها.. ماذا يقصد بأنه آى ى؟
ثم أدركت أنه يتأوه ألما خاصة حين حاول النهوض ليعلن عن تقديسه الكامل لها..
ربتت على ذراعه المضمد تدعوه ألا يتحرك..
نظرة الهيام في العينين تتجاوز نظرة جندي لابنة مليكه إلى آفاق أرحب.. إن هذا المعتوه يحبها.. لا شك في هذا.. فقط الحب هو ما يدفع إنسانا إلى الوقوف في وجه ثور هائج..
الحب أو الإيمان الديني هما ما يقودان لهذا.. لكن الإخلاص للملك لا يصل أبدا إلى هذا الحد.. والدليل كون الحراس لم يجرءوا على التدخل إلا بعد زوال الخطر.
نعم.. هو يحبها..
والغريب أنها لا ترفض ذلك، بل وترحب به.
.. ش.. ش.. شكرا..
تقولها وهي تمسك بكفه القوية الخشنة.. لم تشعر قط أن كفها - التي دمرتها براثن الغسيل وسلك التنظيف في المطبخ - يمكن أن تكون صغيرة رقيقة هشة إلى هذا الحد..
قال لها هامسا:
- اشكريني.. آى... على ما أنا مخير بصدده.. أما هنا فأنا مسيّر.. لم يكن.. آهاه... أمامي عمل آخر سوى هذا.. وبالتالي.. أو ااه!.. لا مجال لشكري..
هنا دخلت إحدى الإماء الخيمة.. وانحنت على أذن (عبير) هامسة:
- اغفري لي يا أميرة.. فنحن في سلسلة (فانتازيا).. وأنت توشكين على تحويلها إلى سلسلة زهور الرومانسية..، إن المدير حانق ويريد بعض الدماء وإلا استشاط غضبا!
في ارتباك هتفت (عبير):
- معذرة.. لم أرد أن.. أردت أن أشكره فقط..
- وقد فعلت.. والآن هيا بنا
برفق تناولت يدها لتنهضها.. نظرة أخيرة حاولت أن تفعمها بالامتنان وجهتها نحوه ونهضت وراء الجارية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولكن من أين أتى بالدماء؟
تسأل الجارية وهما تسيران عبر ردهات القصر جوار الأعمدة الهائلة التي بناها (رمسيس) لتبقى..
تقول الجارية:
- هناك الكثير منها.. أولا هناك مؤامرات الكهنة
- مؤامرات كهنة؟
- دائما هناك مؤامرات.. ثانيا: سترحلين مع الملك لقتال الحيثيين في (قادش)..
- فتاة تحارب؟
- طبعا.. وإلا من أين تأتي المغامرة؟ لن تظلي هنا أبدا تدهنين شعرك بالزيوت وتطربين لغناء القيان..
- هل النسوة يحاربن في عهد الفراعنة؟
- بالطبع لا.. لكن (دى - جى - ٢) سيجد لك حلا..

وهنا رأت (عبير) طفلا مشاكسا تبدو عليه سمات الإجرام عاكفنا على تشوية الجدران بمدية..
صاحت الجارية في حنق:
- أيها الأمير (مربتاح).. كفة عن هذا! وإلا ضربك الملك على مؤخرتك النبيلة!
أخرج الأمير لسانه لها وأطلق سبة ديموطيقية بذيئة ثم راح يركض مبتعدا.
- شيطان! المصيبة هي أنه سيخلف أباه في
الحكم.. هل سمعت عنه؟ (مربتاح) أو (منفتاح).. سيظهر من يزعم أنه فرعون سيدنا (موسى) الذي غرق في البحر الأحمر.. لكن هذه جميعا ستظل مجرد تكهنات..
وتنهدت في مرارة:
- سيكون عهده من أسوأ العهود حتما!
ثم همست في أذن (عبير):
- كل ما قلته لك سر.. أرجوك!
- هذا لا شك فيه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي استراحة النساء عادت (عبير) إلى الأريكة الوثيرة التي كانت ترقد عليها غريب أمر هاته النسوة!..
كل ما يفعلنه هو فك ضفائرهن ثم إعادة تضفيرها هكذا إلى الأبد!.. والعازفات لا تكففن عن العزف والغناء.. والراقصات لا تتوقفن عن الباليه الفرعونى..
إنها لحياة رتيبة مملة.. خاصة إذا ما أضفنا إلى هذا داء النساء الأزلي: النميمة والثرثرة.. وكم أن هذه الفتاة قبيحة وهذه منحلة وهذه كاذبة و... و...
ولم تكن (عبير) في حياتها من هواة الثرثرة كلاما ولا سماعا..
كانت تتوق إلى أن تقرأ.. وسرعان ما تحقق أملها حين وجدت جدارا هائلا من الجرانيت الأسود حفرت عليه نقوش هيروغليفية لا أول لها ولا آخر.. مئات الصقور والعيون والأيدي المقبوضة والمفتوحة والموجات المتكسرة..



قالت لها (ميحور) في افتتان:

- إنها قصة عاطفية للحكيم (حتب - رع).. لا أكاد أمل قراءتها.. وفي كل مرة تدمع عيناي كأنها

المرة الأولى...
ببلاهة نظرت عبير إلى الجدار:
- هذه قصة عاطفية؟!
- نعم.. مؤثرة جدا..
- وكيف تقرءونها؟
- إن العبيد يحملونك على أكتافهم لقراءة الفصول الأولى منها
- إذن القراءة على الفراش مستحيلة..
- للأسف لم يدونها أحد على أوراق البردي بعد..
وفجأة تصايحت القيان: إن الملكة (نفرتارى) قادمة.
تكهرب الجو.. وعلى الركبتين جثا الجميع في احترام.. فحذت (عبير) حذوهن..
ولم تعرف أن الملكة تريدها شخصيا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مؤامرات.. دسائس.. وما إلى ذلك..

لا شك أن الملكة (نفرتاري) تملك شخصية كاسحة.. كل إيماءاتها ونظراتها هي إيماءات ونظرات ملكة لم تكن شيئا آخر طيلة حياتها..
وحتى صوتها - حين تكلمت - كان هادئا منسابا آمرا لا تردد فيه، ولا عبارة استدراك أو لحظة لعثمة..
جديرة هي بأن تكون رفيقة عمر (رمسيس) التي تزوجها وهو غض غرير في الرابعة عشرة من عمره، بناء على أمر صارم من أبيه (سيتي الأول).. إن الرابعة عشرة سن صغيرة بالنسبة للزواج.. لكن ليس مع (رمسيس) الذي كان يبدو في العاشرة وكأنه في الثلاثين من عمره.. لابد أن مظهره كان كفيلا بخداع أي طبيب وحدة ريفية مطالب بتسنينه..
قالت (نفرتاري) وهي تجيل بصرها بين الفتيات:
- أين (إرمنحات)؟
تبادلت الفتيات النظرات.. ولم تتحرك إحداهن
- أين (إرمنحات)؟ هل أصابكن الصمم؟
شعرت (عبير) - التي نسيت اسمها الفرعوني لثوان - بأيد تدفعها من الخلف.. مع همسات ملهوفة:
- أنت!.. أجيبي!.. »
نهضت (عبير) ممتقعة الوجه لتقف مفككة الساقين أمام الملكة، وهنا لاحظت الشبه القوي بينها وبين ناظرة المدرسة الإعدادية التي كانت فيها في دنيا الواقع.
وتوقعت أن تقول لها كالعادة:
- « هاتي ولى أمرك غدا! »
لكن الملكة قالت في حزم:
- «غادرن المكان.. أريد أن أكلم الأميرة على انفراد..»
يا للكارثة!.. ماذا تبغي هذه المرأة منك؟
ها هي ذي (نفرتارى) تتجه إلى الأريكة لتتكئ عليها وتقذف في فمها - كالعادة - حبة عنب..
قالت الملكة بذات النبرة الهادئة:
- «(إرمنحات).. أنا لست أمك الحقيقية.. لكني أرى من واجبي أن ألفت نظرك إلى بعض ما لم يرقني من تصرفاتك..
واقفة منكسة الرأس في ذلة، استعدت (عبير) للتوبيخ الذي لا تعرف فحواه...
- هذا الجندي
قالتها الملكة في تعال ملكي أصيل:
- الجريح الذي يزعمون أنه أنقذ حياتك
- ما له يا مولاتي؟
- إنك لتظهرين اهتماما غير حميد به.. أنت تعرفين كيف تسري الهمسات في البلاط.. أستطيع أن أؤكد لك أنهن يتحدثن عن الأمر في كل مرة تديرين
رأسك فيها..، الأميرات يجب أن يكن حريصات.. حتى بصقة الأميرة لها مغزى سياسي.. ولو أنك حككت ذراعك على الملا لانتشرت الشائعات.. ولقال أعداؤنا إن الأسرة المالكة تعاني الجرب..،

وهذا الجندي
يا بنيتي ليس سوى واحد من العامة لم ولن يلعب دورا في حياتك، لهذا أرى أن الوقت قد حان لإنهاء عبث طال..
الدموع تتدافع إلى عينيها متجمدة:
- لكن يا مولاتي.. أقسم.. لم يحدث..
أوقفتها اليد الملكية الصارمة
- صمتا... أعرف أن شيئا لم يحدث.. وهذا مناسب تماما لأن تنتهي القصة حالا.. قبل أن يحدث شيء..
وتناولت فخذ دجاجة من على المائدة جوارها (كيف تأكل هذه المرأة دجاج مع العنب؟ كل الملوك يفعلون ذلك ولا تفهم (عبير) كيف).. وقالت:
- إن الجندي سيغادر القصر اليوم ليخدم في جيش الفرعون..
- بصرامة قالتها بحزم قالتها.. فلم تترك لـ (عبير) أية فرصة للاعتراض أو إبداء الرأي..
فقط هزت ذراعيها في عجز.. وغمغمت:
- م.. ك.. م.. س.. أ.. أ..
قالت الملكة وهي تنهض شامخة الرأس:
- مسرورة أنا لأنك توافقين على رأيي..
وبحركة رشيقة غادرت المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اليوم يوم غير عادي يا سادة..
إنه السابع من شهر الفيضان الأول عام 1294 قبل المسيح.. أحقا لا تعرفون معنى هذا؟..
إنه عيد ميلاد الفرعون (رمسيس الثاني).. والذي تحمل بطاقته الشخصية اسم (أوسر معات رع).. الاسم الأصلي له.. لكننا نفضل اسم الشهرة (رعمسيس).
وفي أنحاء عاصمة البلاد الشرقية (بررعمسيس) راح الناس يهللون ويتصايحون.. وتصاعدت أناشيد الكهنة.. ورقصت الفتيات بارعات الحسن في الطرقات وفي السماء رفرفت إوزات أربع تحمل النبأ السعيد - كما يظنون - إلى الآلهة في أرجاء السماء جميعا
كم يبلغ عمر الفرعون اليوم؟..
إن هذه الضوضاء تقول: إن هذا الفرعون المهيب في الثانية والعشرين من عمره!.. فلا ننس هنا أنه تولى الحكم في العشرين من عمره..
أما عن كيفية إنجابه لفتاة في سن (عبير) فسؤال لا داعي له، لأنه لا منطق للأمور في (فانتازيا).
يا نجوم السماء ويا أسماك البحار.. لا يكفن لسانكن عن ترديد اسم الفرعون العظيم.. ابن (آمون).
الذي جاء المخاض أمه (ثويا) فأنجبته في لحظة طهور.. بينما جاءت (إيزيس) و (نفتيس) و (مسخنت) - حبيبة كل أم تلد – ليساعدنها ويتصاعد المزيد من البخور ويحلق في الأجواء مزيد من أناشيد الكهنة والحمائم
ألم أقل لكم: إن اليوم يوم غير عادي؟!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أن شيئا ما عكر صفو هذا الحفل..
عربة حربية تخترق الجموع.. مغبرة.. مهشمة..
انغرست فيها عشرات السهام... وخلف اللجام يقف جندى مراسلة منهك ملطخ بالدماء يجذب أعنة الخيول الثلاثة المنهكة بدورها.. ويصرخ فى الحشود أن أفسحوا الطريق
ويصل الجندي إلى القصر فيهرع طالبا لقاء (رعمسيس).. ويشق طريقه إلى قاعة العرش تاركا من خلفه خيطا طويلا من الدماء
فما إن يرى الملك حتى يهوى على ركبتيه:
- «(موتالى) يا مولاي!»
ثم يسقط على ذراعيه المفرودتين..
قال (رعمسيس) في تؤدة وهو يرفع عصاه في الهواء:
- «أيها الجندي.. هذا هو المبتدأ.. فأين الخبر؟ إن هذه جملة ناقصة غير مفيدة..»
قال أحد الكهنة الصلع الواقفين خلف (رمسيس):
- «بالتأكيد يريد القول إن (موتالى) قد تمادى أو بالغ في طغيانه.. أي خبر سيئ من هذا القبيل..»
- هذا صحيح.. قال الجندي وهو يبتلع ريقه - «إن (موتالى) يحشد عشرين ألف جندي في (قادش).. وهو ينوي الزحف على مصر..
- «تبا له!»
صاح (رمسيس) في عصبية.. ثم أشار إلى الحرس المحيطين به أن يقبضوا على جندي المراسلة:
- «ألقوا بنذير الشؤم هذا إلى التماسيح!»
قال الكاهن الواقف وراءه:
- للأسف يا مولاي.. إن التماسيح كلها مصابة بتخمة شديدة.. وقد مات أكثرها.. إننا نطعمها أكثر من اللازم في الفترة الأخيرة
- «إذن ألقوه في غياهب الجب..»
قال الجندي في إرهاق:
- «أنا الناجي الوحيد من كتيبة الاستشعار عن بعد التي أرسلها الفرعون العظيم إلى (سوريا).. والآن يكون السجن جزائي على ما جئت به من أنباء سيئة؟»
فكر الفرعون هنيهة ثم غمغم:
- هذا ليس عدلا فعلا.. قدموا البيرة لهذا الجندي الشجاع.. ومعها خبز (أوزوريس)..
ثم نظر إلى من حوله نظرة ثاقبة أرغمتهم على خفض عيونهم.. وهتف:
- «إذن هي الحرب من جديد.. سئمت هذا الوغد (موتالي) الذي لم يحترم عهدا ولم يصدق في حرف واحد.. ولقد حان الوقت ليعرف أن (مصر) ليست لقمة سائغة..»
كان الجندي المغبر عاكفا على شرب البيرة.. صحيح أنها كانت تخرج من ستة ثقوب في عنقه وبطنه، حتى بدا كأنه (دش) آدمي كبير.. لكنه كان سعيدا.
هنا جاء الكاتب المصري الجالس القرفصاء بناء على استدعاء الفرعون له....
جاء محمولا من ذراعيه، لأن ساقيه وفخذيه تصلبوا في وضع القرفصاء إلى الأبد.. فصار عاجزا عن السير، كما أنه ظل يحتفظ بتلك النظرة الجامدة لأعلى كأنما ينتظر ما يملي عليه وضعوه جوار الفرعون.. فمال هذا الأخير عليه وصاح بصوت جهوري:
- اكتب.. اترك مسافة.. مسافة أخرى.. أنا (رعمسيس الثاني) ملك (مصر) وابن (آمون).. قررنا ما

هو آت: يتم تشكيل أربع فرق من أجزاء البلاد المختلفة مهمتها الزحف على (قادش)، وسلخ جلد المدعو (موتالى) ملك الحيثيين عدونا العتيد..



وانتظر حتى انتهى الكاتب من تدوين ما قيل.. ثم واصل الكلام:
- الفرقة الأولى من (طيبة).. سيكون اسمها (آمون) وستكون تحت قيادتنا شخصيا..، الفرقة الثانية اسمها (بتاح) وستكون من (منف)..، فرقة (رع) يتم تشكيلها من سكان (هليوبوليس).. الفرقة الرابعة هي فرقة (ست) وسيتم تشكيلها من سكان (تانيس)..
وللسادة غير الملمين بالمدن الفرعونية نقول: إن (طيبة) هي (الأقصر) الحالية، و (تانيس) هي محافظة الشرقية الحالية..
أردف (رمسيس) وهو يستريح في جلسته:
- الهدف: تدمير قوة العدو الهجومية ومعنويات جنوده.. جزاءات: لا يكن.. أوامر: لا يكن..، بتاريخ شهر الفيضان الأول من عام 1294 قبل المسيح.. انتهى..
كيف عرف أن المسيح قادم بعد 1294 سنة؟ لا يهم.. فلسنا في دعابة من دعابات العملة المزورة التي كتب عليها ٣٠٠ ق. م.، إنما نحن في (فانتازيا).
ثم إن (رمسيس) قال - وهم يحملون الكاتب الجالس القرفصاء - لمن حوله:
- «أبلغوا الحفارين لعمل ألف نسخة من هذا التوجيه المعنوي.. وليتم استدعاء الاحتياطي وتنظيم الصفوف»
تساءل أحد الواقفين في حيرة:
- ومتى يبدأ الزحف يا مولاي؟
- بعد أسبوعين
- ومن أين يبدأ؟
- من (ثارو)
ثم نظر إلى من حوله.. وغمغم:
- تراني نسيت شيئا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5-ضغائن.. أحقاد.. وما إلى ذلك..

ما دمنا هاهنا بصدد الكلام عن بلاط ضخم مثل بلاط (رعمسيس)؛ فلنا أن نتصور أنه عالم كامل متكامل يزخر بالأحداث التي يمكن أن تزخر بها قطرة ماء تحت مجهر..
في البدء انتشرت أنباء الحملة القادمة.. وتهامس الجند والحراس أن في الأمور أمورا..
وعلمت (عبير) بما كان في الاجتماع الذي عقده (رمسيس) مع قادته، وبالطبع قرأت المنشور إياه
وهو أمر طبيعي بالنسبة لمنشور من البازلت الأسود يزن طنين وارتفاعه ثلاثة أمتار..
وبدأت عملية استدعاء الاحتياطي من القرى والنجوع في نواحي المعمورة، ولحسن الحظ كان هذا هو موسم الفيضان الذي يلي ظهور النجم الأكبر.. عندما لا يكون على الفلاح سوى أن يقبع في داره وينتظر.. ينتظر أن تنحسر المياه عن الحقول التي غمرتها ليبدأ - بالتالي - غرس البذور..
وكان الفلاح يتجه لإجراء الكشف الطبي، وعمل التحاليل اللازمة.. عندئذ قد يجدونه لائقا أو يجدونه مصابا ب. (عاع)، من ثم يتم استبعاده..
و (عاع) - لمن يهمه الأمر - هو أول أسماء لعنة مجاري المياه في (مصر): البلهارسيا.. تلك الآفة المقيتة التي أصابت المؤرخ اليوناني (هيرودوت) بالذهول حين جاء إلى (مصر) أول مرة، وقال قولته الشهيرة: رأيت في (مصر) رجالا يحبلون ويحيضون!
وحبل الرجال هو الاستسقاء.. وحيض الرجال هو البول الدموي..
الخلاصة: أن الأمور لم تعد قط كما كانت.. وخيم جو من التوتر على الجميع الذين أيقنوا أن هذه المرة ليست كباقي المرات.. وأن الأمر يتجاوز حملات التأديب القديمة المختصرة إلى حرب حقيقية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(ميحور) هرعت إلى (عبير) تخبرها بالنبأ..
- (حشت - آمون).. يا أختاه..
هتفت (عبير) في حيرة وهي تتأمل ذعر شقيقتها:
- (حشت) ماذا؟
- (حشت - آمون) في مأزق..
بدا الغباء على (عبير).. وواصلت التساؤل

- من هو هذا الد (حشت - آمون)؟
- ومن سواه؟.. الجندي الشهم الذي أنقذك يا بلهاء.. إن (وحدة الاستخبارات) قد اعتقلته ويقولون: إنه جاسوس من الحيثيين
- تبا للحمقى!.. وأين هذه ال... الاستخبارات؟
قادتها (ميحور) في لهفة إلى ممر طويل في نهاية الممر يوجد باب جواره مشعل معلق... ودرجات حجرية تقود لأسفل، بينما يقف تمثالان ل. (ست) إله الشر على جانبي الباب كأنما يحرسانه..

في صمت أشارت (ميحور) إلى المدخل، وهزت رأسها بمعنى أنها لن تجرؤ على النزول أكثر..
سألتها (عبير) في رهبة وهي ترمق المدخل:
- ما هو أساس ادعائهم؟
- بالطبع هو الوغد (ساكا).. هذا واضح.
كانت (عبير) تشعر بخيبة أمل.. حبيبها الرقيق المرهف اسمه (حشت)! وهي الفتاة الناعمة الرقيقة تحب من يدعى (حشت)..
بالإضافة لهذا هناك وغد.. والأسوأ أن اسمه (ساكا).. ليس الوقت موائما للأسئلة على العموم.. فلتنزل الدرجات سريعا وترى ما هنالك...
وقبل أن تنزل سألت (ميحور):
- هل مسموح لي بالدخول؟
- لا أحد يجرؤ على منعك من أي شيء.
- تبدين خائفة
- لأن.. لأن..
وابتلعت ريقها ثم هزت رأسها الجميل، دون كلمة أخرى فرت مبتعدة..
لم تجد (عبير) بدا من تناول المشعل.. والنزول في الدرج الصخري نحو القبو الذي يشكل (دائرة الاستخبارات)...
في البدء رأت مجموعة مشاعل وعشرة رجال يقفون حولها.. ثم رأت ما يشبه تابوتا خشبيا في الوسط..
بتدقيق النظر أكثر عرفت أن هذا ليس تابوتا.. بل هما قاربان خشبيان وضع أحدهما مقلوبا فوق الآخر.. وقد ثقب القارب السفلى، ليخرج منه رأس وذراعا إنسان.
كان هذا هو عقاب القارب البابلي الشهير الذي قرأت عنه من قبل.. فالسجين يعيش حياته كلها كقطعة جبن بين شطيرتي خبز، بينما يتم إطعامه بإفراط.. وبالتالي تتراكم فضلاته وقاذوراته حول جسده السجين، وتتلوث قروحه، ويعاني آلاما لا توصف.. وهي من أشنع العقوبات البابلية - بعد سلخ الجلد حيا - التي حفظها لنا التاريخ [1]
لا داعي للقول طبعا أن السجين كان هو.. ماذا كان اسمه؟ آه.. (حشت - آمون) هذا.
كان السجين يصرخ مولولا:
- سأعترف لكم! أعترف بالتآمر مع الحيثيين.. أعترف بقتل (رمسيس الثاني) لو أردتم!
قال أحد الجلادين في هدوء وهو يستند على التابوت:
- (رمسيس) لم يزل حيا يرزق يا فتى. فلا تبعث بنا..
صاح السجين في هستيريا:
- سأعترف بتسميم (نابليون).. باغتيال أرشيدوق النمسا.. بأي شيء تطلبون.. فقط أخرجوني من هنا!
تبادل الرجال النظرات الراضية..
قال أحدهم وهو ينظف أسنانه بنصل خنجره:
- هل ترون؟ لقد أصبح عاقلا..

وقال آخر أصلع الرأس شرس الملامح:
- إن رحلتي إلى (بابل) لدراسة أحدث تقنيات التعذيب قد آتت أكلها
- أحسنت يا ناع..

ورأت (عبير) عملاقين زنجيين يفتحان القاربين ليخرجا السجين من داخلهما.. رائحة عفنة تغمر المكان.. قدماه لم تعودا قادرتين على حمله، فهما تنثنيان تحته كعودين من المكرونة المسلوقة. لكنهما حملاه إلى لوح أسود عملاق من البازلت امتلأ بكتابة هيروغليفية جميلة المنظر..، وقدم له الرجل الأصلع إزميلا ومطرقة، وبلهجة آمرة صاح به:

- هلم.. أمهر لنا هذا الاعتراف بتوقيعك!

- ولكن

- يبدو أنك اشتقت إلى القاربين!

ثم أضاف مبتسما في خبث:

- لقد أرحناك من حفر كل هذا الاعتراف وقام حفارونا بهذا.. كل ما عليك هو التوقيع

- كفي!!

كانت هذه صيحة (عبير) الغضبى، إذ رأت ما يكفي من القسوة وازدراء الآلام البشرية..

- كان الغضب عصا ساحر أكسبتها قوة شخصية وتأثيرا كاسحا أرغم كل الواقفين على أن يتصلبوا.. ثم يجثوا على ركبهم في تقديس مذهول

- التحية يا ابنة (آمون)

تقدمت بضع خطوات بينهم.. ثم هتفت:

- أين المسئول هنا؟

كان المسئول هنا هو الرجل الأصلع.. الذي هرع نحو (عبير) وانحنى عند قدميها.. ثمة وريد أزرق مقيت يعبر رأسه الصلعاء اللامعة كحذاء جنتلمان..

- أنا المسئول يا أميرة.. هي هي!

- لماذا تعذبون هذا الخائن؟

- لأنه خائن يا أميرة.. هي هي!

- وقد حصلتم على اعتراف كامل..

- إننا لا نضيع وقتنا..

- وبعد هذا؟

- بعدها نحمل الاعترافات إلى مولاي الملك.. هناك أكثر من مائة عبد معدين لنقل هذه الاعترافات إلى الملك.. وحتما سوف يصدر الأمر بإعدام هذا الجاسوس رميا للتماسيح.. هذا بالطبع - بعد أن تشفي هذه الأخيرة من التخمة..

قال واحد من الزبانية المحيطين به:

- يجب تطوير هذه الطريقة.. في روما يرمون المساجين إلى الأسود.. وفي بلاد الإزتك يعلقون السجين لتنهش النسور جسده..

- المهم يا أخي (ست - حتب) أن السجناء يلقي بهم لشيء ما.. هذه هي فلسفة العقاب ..

في حزم رفعت (عبير) ذراعها لتوقف هذه الثرثرة.. وتساءلت وهي تتأمل الأصلع مشمئزة:

- ما هو الدور الذي لعبة مع الحيثيين؟

قال الرجل في سرور:

- هذا هو (التاكتيك) المعقد الذي رسمه لنفسه..

أولا: الثور الذي يهاجم الأميرة.. التظاهر بإنقاذك..

ثانيا: دخول القصر لمعرفة خطط الأسد من داخل عرينه..

ثالثا: إحم.....

وتنحنح في حرج.. ثم أردف وهو يتحاشى عينيها:
- إحم.. محاولة استمالة الأميرة.. إحم.. لتكون في صفه!
- استمالة؟!
صاحت بصوت جهوري (وكانت قد دخلت في دور الأميرات حقا):
- استمالة؟ هذا الرجل كان خرقة صالحة لتلميع الأثاث وكاد يلفظ أنفاسه لولا براعة طبيب القصر.. وتتحدث عن التآمر ومحاولات الاستمالة؟ يا لها من مؤامرة عبقرية تلك التي تبدأ بأن يلقى نفسه فوق قرني ثور!
مرتبكا قال وهو يتراجع للوراء:
- يا أميرة.. ل.. لم أكن أنا صاحب هذا الرأي بل.. هو.. الأمير (ساكا)..
هنا تذكرت ما قالته لها (ميحور).. إن (ساكا) وغد لا يترك فرصة كهذه.. ولكن من هو (ساكا) هذا؟
قالت في اشمئزاز وهي توليه ظهرها:
- أطلقوا سراح هذا الرجل فورا.. وكفاكم سخفا.
إن عادة تلفيق الاعترافات قديمة - فيما يبدو – قدم الكلام ذاته.. لكني أنصحكم: لا تجعلوا هذا الشجاع يندم على إنقاذ حياتي وإلا ندمتم بدوركم على جعله يندم!
نظر الرجل لمن حوله.. وتنهد في استسلام:
- قد سمعتم ما قالته الأميرة يا مخابيل.. أطلقوا سراح الخائن!
- في حنق هتفت (عبير):
- بل هو مواطن شريف!
أطلقوا سراح المواطن الخائن الشريف..
وغمغم وهو ينظر للسقف:
- ولتحمنا (إيزيس) من غضبة (ساكا)!
من هو (ساكا) هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(ساكا) - تقول (ميحور) - هو الرجل القوى الثاني في بلاط (رمسيس).. وهو ذئب في صورة رجل.. صحيح أنه أمير إلا أن له أخلاق اللصوص.. أحط أنواعهم..، ومن نافل القول أن أقول: إنه يهيم بك حبا ويريد الزواج منك..
- يتزوجني؟ أنا؟
- طبعا.. إنه مفتون ببشرتك السمراء وشعرك المجعد وصفار أسنانك وعينيك.. وبالطبع هو دبر الأمر كله من منطلق الغيرة.. إن اهتمامك بالجندي لا يخفى على أحد
- لكنني لن أستطيع الزواج من الجندي أبدا..
- لكنك تستطيعين أن تحبيه ولن يستطيع أحد أن يمنعك عن ذلك.. وهذا هو ما يثير حنقه.. إنه يريد أن يريك من هو الأقوى هنا..
- وأبي؟ ما رأيه في كل هذا؟
- أه.. إن الملك العظيم تنتهي علاقته بأبنائه بمجرد أن يسمع خطوات المولدة خارجة من مخدع زوجته..
ثم همست في أذنها.. والرعب في عينيها:

- صه!.. إن الوغد قادم!
- وغد؟ تعنين (ساكا)؟
- لا يوجد أوغاد كثيرون في البلاط.
وجذبتها لتتوارى معها وراء ستار..
وفي ضوء الممر الشاحب رأت (عبير) للمرة الأولى كيف يبدو (ساكا)..
وأدركت للمرة الأولى أنه يحمل رمحا.. وأن الشر في عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - تهديدات.. تحرشات.. وما إلى ذلك..

كان وسيما.. له تقاطيع دقيقة منتظمة.. وكان قوي البنية والشخصية معا.. لكنه جمال النمر المتحفز الواقف يتربص بك فوق غصن شجرة.. جمال ثعبان الأصلة وهي تزحف في بطء نحوك؛ لتهشم كل عظمة من عظامك جمال قنينة سم على مائدة نبيل إيطالي من أسرة (بورجيا)..

وأدركت (عبير) أنه شخص مرعب، وأنها لن تستريح إليه لحظة واحدة

صاح في غضب وهو يلوح برمحه في الهواء:

- أخرجي من مكمنك أيا (إرمنحات) فقد رأيتك تختفين.. وأنت أيها البلهاء (ميحور).. معها..

ابتلعت (عبير) ريقها وخرجت من وراء الستار.. وتبعتها الأخرى.. ووقفتا متوترتين أمام هذا النمر أو ثعبان الأصلة أو قنينة السم الإيطالية.

- أنت يا (إرمنحات) يا أخت روحي جرؤت على إهانة أوامري لدى رجالي..

قالها في نوع من اللوم.. وأردف بعصبية أكثر:

- ومن أجل من؟.. من أجل جاسوس..

- ليس جاسوسا يا (ساكا).. وأنت تعلم ذلك..

- اعترف بذنبه.

- التعذيب قد يرغم الأسد على أن يموء كالهر والاعتراف تحت التعذيب لا قيمة له..

مد يده - يدا قوية في الواقع - ولف بعض خصلات شعرها حول قبضته.. وجذبها نحوه..



لاحظت (عبير) أنه يضع ماكياجا كاملا: كحلا وطلاء شفاه وظلال عين..، بل إن الشعر الجميل على رأسه لم يكن سوى جمة مضفرة..

هذه هي عادة نبلاء الفراعنة من الذكور وليست هواية خاصة بالأخ (ساكا).
كان يلهث وقد قرب وجهه من وجهها.. يلهث انفعالا ويلهث غضبا.. ويلهث كي يكون مرعبا؛ لأن اللاهثين يوحون لمن يسمعهم أنهم أقرب إلى الوحوش:
- اسمعي يا (إرمنحات).. ثمة رجل واحد في حياتك.. هذا الواحد لن يكون هناك قبله ولا بعده.. لا مفر ولا مخرج.. هذا الرجل يدعى (ساكا).. أحب أبناء. (رعمسيس) إلى قلبه وأقواهم.. وأجملهم ومن عادتي أنني لا أترك العقارب حية تحت قدمي.. بل أطؤها فورا.. هل فهمت؟
احتشدت الدموع في عينيها.. لكنها لم تجد ما تقول طيلة عمرها لم تستطع الرد على الهجوم.. فلو أن هذا الوغد أعطاها بضع دقائق لردت عليه ردا قاسيا.. مشكلة الأشرار دوما هي أنهم أكثر إيجابية وأسرع بديهة من الأخيار
ابتسم.. وداعب خدها بطرف الرمح المدبب في رقة:
- إن العشاق يكونون قساة أحيانا كثيرة يا أميرة ثم نظر نظرة رهيبة إلى (ميحور).. وابتعد في تؤدة..
- يا للخنزير!
قالتها (ميحور) من بين أسنانها في تقزز.
أما (عبير) فظلت تنهنه حينا.. إلى أن تمالكت أعصابها، فقالت وهي تتمخط في الستارة:
- بففففت!.
- كيف يكون هذا الخنزير ابن (رعمسيس)؟
- أنت تعرفين يا (إرمنحات) أنه كذلك...
- إذن أنا أخته...
- نعم.. هو كذلك..
- ويريد أن يتزوجني؟!
قالت (ميحور) في ملل وهي تربت على ذراع (عبير):
- سئمت جهلك بكل شيء يا أختاه.. لولا أن.. (دى - جى - ٢) كلفني بأن أفسر لك كل ما يعتم عليك لما باليت بأن أضيع وقتي معك.. أنت تعرفين أن زواج الإخوة كان سائدا بين ملوك الفراعنة، وهذا حتى لا يتسرب الدم الملكي خارج الأسرة.. هذه بديهية يا ملاكي
- لكن هذا.. ح.. حرام
- بالطبع.. لكنه كان يحدث..
قالت (عبير) وهي تصلح خصلات شعرها:
- هذا حافز قوي حقا كي لا أتزوج هذا الخنزير..
- ثقي بأن هذا لن يحدث لأن خيالك لن يصل لهذا الحد.. لكن المشكلة أنه سيجعل إقامتك في القصر جحيما..
التمع التصميم في عيني (عبير):
- لن يكون هذا.. سأتصرف.. وليسمعن (ساكا) عني ما يثير حفيظته وحنقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غاضبة حانقة إيجابية مستفزَّة ثائرة مصممة عاتية؛ تقتحم (عبير) قاعة العرش لتجد (رعمسيس) أباها جالسا مقطب الجبين.. بينما يقف أمامه مجموعة من القواد ملتفين حول نموذج مجسم ل (قادش) وضعوه على الأرض الرخامية.. كان يناقش معهم خطة الهجوم..

هنا تقدمت (عبير) حتى وقفت أمامه.. وبعصبية صاحت وهي تزيح قائدا بدينا ضخم البطن من أمامها:
- أبي.. ألن تفعل شيئا بخصوص المدعو (ساكا)؟!
قال له أحد الواقفين جواره:
- هي الأميرة (إرمنحات) يا مولاي.. رقم 58.. الأم أسيرة حبشية من بلاد (بونت).
نظر لها (رمسيس) غير فاهم لما يحدث.. ثم تساءل:
- ومن هو (ساكا)؟
- هو الأمير (ساكا) يا مولاي.. رقم ٣٧.. الأم هي الملكة (نفرتاري) شخصيا..
- آه.. فهمت
ثم نظر لمن حوله في حنق
- كيف تدعونها تدخل؟ لا وقت عندي لمشاجرات الأطفال من نوع: هو أخذ كرتي.. بل هو أخذ دميتي أين المربيات؟ أين القيان؟ يبدو أنني أطعم الجميع على سبيل الزكاة!
صاحت (عبير) محاولة أن تجتاز إعصار غضبه المدوي.. وتأثير شخصيته الكاسحة:
- (ساكا) يهدد بذبحي ما لم أتزوجه
- يا له من رجل دافق العاطفة!.. هكذا يكون الرجال
- ويلفق التهم للأبرياء..
- إنما هذه شيم الحكام الأقوياء..
وتلاعب في ملل مردفا:
- كما ترين يا طفلتي أنا مشغول.. حاولي أن
تلجئي إلى الملكة كي تحل مشاكلك..
«الملكة (نفرتارى)؟ أمه؟!»
هنا تلون وجهه بلون الحنق الأحمر.. وصاح بصوت ارتجت له جدران القصر:
- إنها ملكتك.. وملكة مصر كلها..... والآن انصرفي قبل أن يعيل صبري..
وهكذا لكم أن تراهنوا يا رفاق على أن (عبير) غادرت المكان مولولة باكية دامعة محطمة يائسة منهارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السجان (سحت) جالسنا على الأرض جوار باب الزنزانة يترنم بأغنية فظة سمعها.. ونظرا لأنها فظة فإنها الأغنية الوحيدة التي استطاعت أن تنفذ إلى روحه الحيوانية بكلماتها الرديئة وألحانها الأسوأ
- كوز المحبة انخرم..
إديله بنطة لحام..
وشرع يعبث في أصابع قدميه مستشعرا تلك اللذة التي يحسها الرجال جميعا حين يداعبون أقدامهم في فخر وانتشاء..
هنا سمع حفيفا.. ورأى ظلا يدنو منه.. فهب مذعورا ببحث عن رمحه
- م.. من هناك؟
رفعت الجارية الحسناء إصبعها إلى فمها تدعوه للصمت، وفي عينيها الساحرتين التمع ضوء المشعل:

- صه يا (سحت).. أنا (بت)
- (بت)؟ وماذا تريدين هنا؟
قالت وهي تلوح بقلة من الفخار في يدها:
- قد جئتك ببعض من دماء (أوزوريس).. شقّ على أن أتصور جلستك وحيدا طيلة الليل دون تسلية..
إن هذا الشراب معتق.. ربما منذ عهد الأسرة الرابعة وعندما تشربه ستعرف حقا قدر نفسك..
وقربت القلة منه أكثر:
- يا للخسارة! رجل قوي مثلك
- جلوك جلوك!.. هذا صحيح بحق (آمون) إنه لشراب قوي.. جلوك جلوك!.. إن رأسي يتراقص من فرط النشوة.. لم أعتد هذه الأنواع الجيدة..
- يا مسكين!.. ماذا كنت تشرب قبل هذا؟
- كنا نشرب عصير الباذنجان المختمر!.. إن هذا ليفوق قدراتي..
ثم هوى فوق الأرض كجلمود حطه السيل من عل، على رأي (امرئ القيس)..، ومن فوق كتفها نادت الجارية (عبير) كي تلحق بها.. جاءت هذه تلهث.. وبصعوبة مرت من فوق جسد الوحش النائم.. وأمسكت بكفي الجارية وراحت ترتجف.
- ك.. كيف صدقك بهذه البساطة؟
- هكذا يحدث في القصص دائما.. كل الحراس حمقى.. وحيلة الخمر الممزوجة بالمنوم لا تفشل أبدا. سينام كالأطفال لمدة ساعتين ثم يصحو ناسيا كل شيء عني.. لن يعرف سوى أن السجين قد فر..
وشرعت تنقب في نطاقه بحثا عن مفتاح الزنزانة..
فشرع هذا يضحك في نومه.. لابد أن هناك من يدغدغه في المنام..
كان نطاقه يحوي أشياء عجيبة.. أصابع مقطوعة لأعدائه.. يبدو أنه يستعملها كميداليات.. خنجر حُفر عليه اسم حبيبته (حاح).. ثم... المفتاح..
هنا همست الجارية ل (عبير) وهي تلثم خدها:
- إلى هنا وقد غدا انسحابي واجبا يا أميرة.
أرجو لك حظا سعيدا..
- شكرا جزيلا يا (بت).. سأدعو لك كثيرا بعد أن يرموك للتماسيح عقابا على فعلتك هذه.. ....
- أية خدمة يا أميرة.. إنها المرة السابعة التي أفعل فيها نفس الشيء مع نفس السجان!
- ....؟!!
. وحين وجدت (عبير) نفسها وحيدة، راحت في هستيريا تولج المفتاح في قفل الباب الخشبي العملاق هوذا يستجيب.. ينفتح بصرير مروع..
في الداخل لا شيء سوى الظلام
استعانت بالمشعل لتشق طريقها إلى الداخل.. ثمة جسد متكوم في الركن جوار طبق من فخار وحزمة من الخس.. لقد أنهى البائس عشاءه ونام..
دنت منه ببطء.. ونادته بصوت رفيق:
- (حشت)!
- هم م م!
- أنا هنا.. (إرمنحات) حبيبتك.. جئت لأنقذك..

- م م م م!
برفق راحت تهزه.. إن نومه الثقيل حقا.. هو ذا يفتح عينيه.. يدير وجهه نحوها ببطء.. ولكن..
- أنت لست (حشت)!
قال (ساكا) وهو ينهض ضاحكا بوحشية:
- ومن زعم غير هذا؟!!
....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- زمن الرجال..

كان ضخما كثور.. عنيفا كنمر.. سمجا كسحلية (الورل).. ورأته (عبير) يتجه نحوها ببطء ليحاصرها في ركن الزنزانة.. وبرفق - أقرب للحنان - انتزع المشعل من يدها.. وهنا خطر لها للمرة الأولى أنها كانت تستطيع قذف المشعل في وجهه، لكنها تذكرت هذا بعد فوات الأوان طبعا.. وهي الآن ترى رقصة الظلال على سحنته..
تساءلت وهي تتراجع للوراء:
- «ك.. كيف جئت ها.. هنا؟»
- إن (بت) واشية.. وهي تمارس هوايتها هذه مع كل الأطراف.. لهذا انتظرت هنا حتى أراك متلبسة.. فقد أخبرتني بكل نواياك..
- و.. والجندي السجين؟
- آه.. لم يمت بعد.. لكنه ينتظر ذلك في مكان.. أخر
- والسجان؟.. كان يتظاهر ب....؟
- بل هو نائم بالفعل.. أنا أردت ذلك..
وابتسم في قسوة.. وهمس:
- الآن أنا وأنت سجينان ها هنا.. لا مفر لك مني ولا مفر لي منك.. أليس هذا رائعا؟!
أحست بالجدار الحجري البارد يلمس ظهرها فأدركت أنها فقدت ترف التراجع للوراء.. الترف الذي كان يمنحها فسحة لا بأس بها من الوقت..
وخطر لها في هذه اللحظة الرهيبة أن هذا الزمن هو زمن الرجال.. لا مكان لامرأة فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا حدث شيء لا يصدق شعرت (عبير) بأن قامتها تزداد طولا.
شعرت بقوة غير عادية تسري في عروقها..
رأت معصمها - في ضوء المشعل - يتضخم بالعضلات ثم يكسوه الشعر..
شعرت بالعضلات تزدحم في صدرها..



وشعرت بالخوف ينزاح من قلبها ليحل الغضب محله..
إنها تتحول.. ولكن لأي شيء؟
ذكرها ما يحدث ب (العملاق الذي لا يصدق) أو الرجل الأخضر الذي كانت تراه في التلفزيون في

عالم الواقع
الفارق هنا هو أنها لم تتحول لعملاق..
إنها تتحول لرجل..
لقد فاق (دى - جى - ٢) كل حدود الخيال..
أراد أن يجعلها تواصل المغامرة، وأن يمنحها
إمكانات الاستمرار.. من ثم غير جنسها بالكامل ليحل
المشكلة.. وهي الآن تشعر بأنها لم تعد كما كانت قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدي الذهول المرعوب على وجه (ساكا)... وارتجفت شفتاه وهو يردد في هلع:
- بحق (بتاح)!.. أنت رجل!
ثم ازدادت عيناه جحوظا.. وهو يستدرك:
- بل أنت (بتاح) ذاته!.. لابد أنك كذلك.. إنه هو سيد المتحولين!
- سأجعلك تندم على أنني لست (بتاح)!
قالها (عبير) - وأرجو ألا يصحح مراجعنا اللغوي الفعل؛ لأن (عبير) الآن رجل - وغرس أظفاره في وجه (ساكا).. في نفس اللحظة ركله في أسفل بطنه.
وهنا تذكر (عبير) أنه لا داعي لأساليب النساء هذه في الدفاع عن النفس: خمش الوجه وركل البطن.. يمكن أن يقاتل كالرجال بتوجيه اللكمات إلى الفك والالتحام الجسدي ومحاولة الخنق وقد كان..
من الذي قال إن (ساكا) قوى؟ لقد تكفلت بضع لكمات حديدية إلى وجهه بتهشيم أسنانه وسال الدم على الأرض..
ثم إن (عبير) وثب فوقه ليثبت جسده أرضنا.. ثمة فأر يحاول الهرب من هذه الفوضى.. أنامل (عبير) تعتصر عنق (ساكا) في غل.. يحاول هذا التملص لكن الأنامل تزداد شراسة
(عبير) يهز رأس (ساكا) ويضربه في الأرض مرارا.. ثم ينهض (عبير) واقفا ويثب فوق ضلوع خصمه بكل ثقله ليسمع صوت ال (كراش) المحبب للنفس..
قال (ساكا) شيئا ما، ثم مال رأسه إلى جانب وسال خيط دموي من أنفه وفمه..
وقف (عبير) يلهث.. ثم خطا فوق جثة خصمه الهامدة واتجه نحو الباب.. فتحه وخرج مترنحا.
حين يجدون جثة (ساكا) غدا سيجد الحارس نفسه في مأزق حقيقي..، والأسوأ هو أن الأميرة (إرمنحات) سوف تختفي من الحريم..
أما الآن فعلى (عبير) أن يفر من قصر (رمسيس) ليفتش عن بداية جديدة.. كرجل في هذه المرة..
لابد أن حياة الرجال ستكون أسهل وأهنأ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت من القصر بعد ما ارتدت ثياب (ساكا)، ووضعت جمته على رأسها لتبدو كالنبلاء.. وبعد ما أخذت سلاحه.. فلم يكن منظر رجل يرتدي ثوبا أنثويا ليمر دون ملاحظة حتى في (فانتازيا)..
لم يضايقها أحد، ولم يعبأ بها أحد..
وكذا خرجت تمشي في شوارع (بر رعمسيس) مستمتعة برجولتها.. منذ قديم كانت تحسد

الصبية في شارعها.. فهم أقوياء وكل ألعابهم مثيرة مسلية.. وفي استطاعة أي منهم أن يعود للدار بعد العاشرة مساء دون أن يصنع.. ولا أحد يسأل أين ذهبوا ولا من أين جاءوا..
اليوم هي صبي.. لا.. بل رجل بالغ..
ربما كان هذا مسليا إلى حين.. إن مغامرة واحدة كرجل لن تضر أحدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما هو الاسم الذي يتخذه الرجل المستجد؟ إن اسم (ناع) يبدو جيدا وذا رنين موسيقى جميل..
مشى (ناع) بين الطرقات يرمق الناس.. وأدرك في رضا أنه رجل وسيم.. بالتأكيد هو كذلك.. فكم من مرة ضبط نظرة ناعسة معجبة في عين مكتحلة لفتاة تمر به، فما إن تلتقي العينان حتى تخفض عينيها وتتظاهر بأنها لم تره قط كما لاحظ (ناع) أن قامته تفوق أكثر الرجال حوله.. وأن ضعاف الأجساد منهم يحرصون على اجتنابه وعدم الاحتكاك به..
وهكذا كان طبيعيا أن يمر بحشد من الرجال، فيبرز له رجل عملاق مفتول العضلات يحمل سوطا
فيشير إليه سائلا:
- هيه.. أنت أيها القوي.. هل جئت من (منف)؟
قال (ناع) في ثبات: (الواقع أنه كاد يبتعد أولا لأنه - كفتاة محترمة - لا يخاطب الغرباء أبدا.. ثم تذكر أن حاجز الأنوثة قد زال من حياته):
- لا.. أنا (ناع) النبيل من (طيبة)..
راح الرجل يزنه بعينيه.. ثم صاح في رجل يتدلى بالحبال أمام لوح عملاق من البازلت:
- هل لديك اسم (ناع) في فرقة (آمون)؟
راح الرجل يراجع أسماء اللوح:
- (ناف).. (ناف).. (نيحاس).. (ناحور).. كلا.. لا (ناع) عندي..
قال الرجل الأول وهو يربت على عضلات (ناع):
- لم لا تلتحق بالجيش؟ إن (رمسيس) يناديك.. مزايا هائلة.. نسبة خمسة أثمان الغنائم لك.. مغامرة مثيرة.. تغذية جيدة..
هنا فهم (ناع) الأمر
لم يكن التحول إلى ذكر غرضه الفرار من (ساكا) فحسب.. بل كان هو الطريقة الوحيدة التي وجدها (دى - جى - ٢) ليسمح ل (عبير) بالمشاركة في الحرب.. إنها فتاة والفتيات لا يسمح لهن بالقتال أساسا.. فما معنى أن تزور زمن (رمسيس) ولا ترى معركة (قادش) أهم معارك هذا الملك العظيم؟ كأنها زارت عهد (تحتمس الثالث) ولم تر معركة (مجدو)..
أو كأنها عاشت عصر (صلاح الدين الأيوبي) ولم تحضر (حطين).. واضح إذن أنها ستقبل.. لأن (دى - جى - ٢) يريد لها أن تقبل
وهكذا وجد (ناع) نفسه واحدا من فرقة (آمون)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء يوم الزحف..
وتحرك الجيش من (ثارو)..
قاصدا أرض المعركة الختامية في (قادش)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - الزحف..

مهيب هو الزحف مثير للقشعريرة هو مشهد الحشود التي تتقدم عبر سهول (فلسطين).. وراياتها وحرابها تحيل الأرض إلى قنفذ عملاق يتقدم نحوك..
تتردد الأناشيد الديموطيقية التي تحدو الركب فترددها آلاف الحناجر.. وترتج الأرض..
يقول قائد الكتيبة بصوت جهوري منغم:
- مليكنا (رمسيس)..
فيرد المشاة بنفس النغمة:
- يهشم الروس!
- و(موتالى) اللعين؟
- يموت في (نرين)..!
وتستمر الأغنية المتوعدة، وتعربد خمر الحرب في الرءوس ويضغط الجميع على النواجذ.. لقد قال (شكسبير) عبارات رائعة مناسبة للموقف في مسرحية (هنري الرابع)، لكني لا أذكرها للأسف، لأن هناك من اقترضها ولم يعدها لي..
ما علينا...
تعالوا نبحث عن (ناع) صديقنا الجديد الذي كان منذ أسبوع واحد فتاة سمراء رقيقة تدعى (عبير)..
أين هو؟.. مستحيل أن تجد أحدا وسط هذا الحشد..
يبدو أننا فقدنا بطلنا للأسف قبل أن نبدأ..
ولكن هو ذا! يا له من شيطان!.. إنه يقف إلى جوار (رمسيس) شخصيا في عربته الحربية!.. إنه هو من يمسك بلجام الحصانين المطهمين اللذين علت الزينات رأسيهما..!.. كيف وصل (ناع) إلى هذه المرتبة؟ سائق عربة الملك شخصيا؟
واضح أنه أظهر شجاعة غير عادية وبراعة لا توصف خلال التدريبات، وبالتأكيد نال ثقة الملك سريعا...
عربة (رمسيس) تتقدم الحشود، ووراءها عدد من العربات المماثلة يقف في كل منها سائق ونبيل من النبلاء..
الغبار يتصاعد إلى عنان السماء..، والفلاحون الفلسطينيون البسطاء يقفون يرمقون المشهد في انبهار.. ويهللون لمحرريهم المصريين.
الخلاصة أنها حملة توحي بالتفاؤل....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يضايق (ناع) طيلة الرحلة سوى نظرات (رمسيس) المتأنية له.. من حين لآخر
أدرك (ناع) أن شكله يذكر (رمسيس) ب (شيء ما).. بالطبع يذكره بوجه ابنته (إرمنحات) التي اختفت من القصر في ظروف غير عادية، وفي نفس ليلة اغتيال (ساكا) ابنه القوى الشرس.
فيما عدا ذلك كان (رمسيس) قائدا صارما، لكنه يغلف ذلك بقفاز من مخمل.. وكان يحنو على جنوده الذين يمشون على أقدامهم ويثني عليهم.. لم يكن ذلك الطاغية الذي حسبته (عبير).. وكانت ثقة الجنود بهذا العملاق الأسمر لا توصف.. كأنه من المستحيل أن يهزم أو حتى يموت،

وكما ذكرنا آنفا يقود (رمسيس) بنفسه فرقة (آمون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسار الحشد بمحاذاة شواطئ (فينيقيا)..
مد (رمسيس) يده إلى تابلوه العربة الحربية، وأخرج مكبر الصوت الخاص بالاتصال بقواده..
وعلى أنفه وضع منظارا شمسيا يقيه وهج الشمس..
طبعا كلها من فلتات (فانتنازيا) التي لا تنتهي
لكنه بدا ل. (ناع) كأنه (روميل) في تلك الصورة الشهيرة من على برج دبابته في (العلمين).. الفارق الوحيد هو أن (روميل) خسر معركته، بينما (رمسيس) سيكسبها حتما.. ما لم تكن هناك دعابة قاسية من (دى - جى - ٢) الذي لا يحب الالتزام التاريخي
صاح (رمسيس) في مكبر الصوت:
- قائد (بتاح).. تعال إلى عربة القيادة فورا.. حول
دوي صوت القائد المعدني من السماعة:
- أمرك يا مولاي.. حول..
- انتهى..
ووضع السماعة وراح يتأمل الأفق في قلق..
بعد دقائق دنت من عربته العربة الخاصة بقائد فرقة (بتاح) وعليها أعلامها
- هل لاحظتم أي جواسيس من عند (موتالى)؟
- لا يا مولاي
-هذا غير متوقع ويثير قلقي.. إن هذا الوغد يعرف حتما موعد قدومنا.. من المفروض أن نرى رعاة مريبي الشكل أو بحارة يتظاهرون بأنهم كذلك..
لكني أرى الطريق خاليا تماما أمامنا.. معنى هذا أنه يعرف ما يكفيه ولا يريد المزيد..
وأدار وجهه يتأمل أمواج البحر المتلاطمة.. وأردف
- أرسل بعض الجواسيس لمعرفة أين ذهب جواسيسه..
- ليكن يا مولاي
وعادت عربة القائد تجد السير مبتعدة..
ونظر (رمسيس) إلى قرص الشمس المنحدر نحو الغرب.
وقال ل. (ناع):
- إن (رع) يريد أن نتوقف هاهنا.. مر الرجال بإعداد المخيمات

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحول النيران جلس الرجال يصطلون..
إن الجنود القادمين من (طيبة) ليسوا بالتأكيد معدين لتحمل هواء الليل البارد في لبنان..
كان (رمسيس) يمشي ببطء بين صفوف جنوده فيرونه وينهض بعضهم لينحني له، لكنه يشير لهم أن يبقوا كما هم.. ويواصل التفقد..
وإذ وجد (ناع) ألا عمل له الآن.. اتجه إلى أحد التجمعات حول النار، وجلس بين عدد من الجنود الأشداء الذين جلسوا بدورهم يثرثرون..

- من أين الجندي؟
- أنا (ناع) من (طيبة)..
لحسن الحظ كان الجنود جميعا من (تانيس)، فلم يسأله أحد أسئلة محرجة..
كانوا يتسلون بلعبة بسيطة هي محاولة تهشيم صخرة في حجم قبضة اليد ما بين العضد والساعد..
وقد راح كل منهم يجرب حظه دون جدوى..
- لم لا تجرب أيها الجندي؟
ويتناول (ناع) الصخرة.. يدسها في ثنية ذراعه.. ثم يثني الذراع بكل قوته.. ويضغط.. يضغط.. يكز على أسنانه بكل كبرياء الرجولة الوليد لديه.. إن الرجال هم أطفال كبار عاجزون تماما عن الاعتراف بالفشل أو عدم القدرة أو عدم العلم...
وكراااش!.. تفتتت الصخرة تحت تأثير إرادة العضلات الكاسحة.. وتصاعدت صيحات المرح من الجالسين



- مرحي أيها الجندي.. لم لا تجرب حظك يا (حشت)؟
(حشت)؟..
ورفع (ناع) عينيه فأحس وجيبا في قلبه.. هو ذا (حشت - آمون) الجندي الذي أنقذ حياة (عبير)

من الثور يوما ما.. إنه حي يرزق وفي أحسن حال.. كان يرمق (ناع) في اهتمام.. ثم جلس جواره وربت على عضلاته القوية:

- إن لك قوة (بتاح) وشجاعة (سخمت).. دعني أجرب مثلك..

بالطبع لم يتعرف (عبير) في صورتها الجديدة..

وتناول صخرة مماثلة دسها بين ساعده وعضده وراح يضغط.. يضغط.. أخيرا استسلمت الصخرة..

تعالت صيحات الحبور والتهاني:

- أنتما أخوان.. لقد رزق كل منكما بذراع قوية..

جلس الرجلان متينا البنيان حول النار، وقد جعلهما هذا الحادث صديقين عتيدين حقا..

قال (حشت):

- يخيل إلى أنني رأيتك من قبل أيها الجندي..

قال (ناع) في حذر:

- أنا أعمل في قصر الملك.. هل كنت هناك من قبل؟

بدا التردد لحظة على وجه (حشت).. ثم غمغم:

- لا.. ولكن.. سيان.. أنا.. لنقل إنني جندي مصري أولا.. لا يهمني أمر الحاكم.. أنا أدافع عن قومي البسطاء.. ثم إن ٠٠٠... قد انتهى الأمر... أدرك (ناع) القصة كلها دون جهد لقد فر (حشت) من القصر بعد الضجة التي أحدثها موت (ساكا).. لكنه لم يذهب بعيدا.. لماذا؟ لأنه جندي أولا وأخيرا.. لا يتحمل أن يترك إخوانه يحاربون ويموتون في (قادش) بينما هو فار في أحراش الجنوب.. إن هذا يفوق تحمله.

لقد عاد ليندس بين أفراد فرقة (رع) على أمل أن أحدا لن يلاحظ وجوده وسط هذه الضوضاء.

في هذه المرة تجرب (عبير) مشاعر صداقة الرجل.. بعد ما عرفت مشاعر حبه.

لكنها لن تجرؤ أبدا على مصارحة (حشت) بالحقيقة، ولا حتى بما حدث مع (ساكا) في الزنزانة... كل ما تستطيعه - كرجل - هو أن تكون صديقا جم الإخلاص ل (حشت).. وأن تحاول حمايته إذا ما جدت أمور تستوجب هذه الحماية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويتجدد الزحف..

الآن يعبر الجيش المصري العظيم نهر (الأورنط) قرب (ربلة)...

الخيول تعبر النهر والماء يتساقط من أجسادها.. خلفها الجنود.. وقد رفعوا راياتهم ورماحهم..

لقد دنونا من (قادش) جدا...

هنا دوى صوت جهاز اللاسلكي في عربة القيادة، فرفع (رمسيس) مكبر الصوت إلى فمه:

- (آمون - ١).. حول

- (بتاح - ١).. قد قبض جنود الاستطلاع على رجلين من البدو.. أرى أن يقابلهما الملك.. حول

- إليّ بهما.. انتهى..

بعد دقائق رأى (ناع) الجنود يقتادون رجلين ملتحيين طويلي الشعر، وقد تغطي جسداهما بفراء الخراف وأمسك كل منهما بعصا خشبية عملاقة...

أشار (رمسيس) للجنود كي يدنوا بالرجلين..

ودون أن ينظر إليهما سألهما وهو يعيد مكبر الصوت إلى تابلوه العربة:

- ماذا وراءكما؟
- سيدي.. نحن . . . . . .
- إن الوقت ضيق.. أسرعا...!
قال أول الرجلين وهو جاث على ركبتيه، يحاول أن يحتفظ بمسافة بينه وبين سنابك خيول عربة (رمسيس).. الخيول الهائجة التي تبعثر الغبار في كل صوب..
- يا ملك مصر العظيم.. نحن رجلان فقيران من البدو لا نملك سوى الأمل في..
- أف!..- صاح (رمسيس) في نفاد صبر -«أنا لم أطلب منك إلقاء قصيدة شعرية.. أريد حقائق وفورا.. أين (موتالى)؟»
- لقد انسحب شمالا يا مولاي.. نحو (حلب)
- الوغد!
- ما إن سمع بقدومكم حتى بلل سراويله.. وجمع جنوده وفر
- اللعين!
ثم إن (رمسيس) صاح في الجند من حوله:
- سأتبع الوغد.. أما عن هذين فألقوا بهما إلى التماسيح.
اعترض أحد الجنود في كياسة:
- مولاي.. نحن قد ابتعدنا كثيرا عن التماسيح والنيل..
- إذن ما الذي يوجد هنا ويفترس؟
- لا شيء يا مولاي.. ربما النسور؟
مط شفتيه في اشمئزاز:
- ليس أسلوبا محببا.. إذن أطلقوا سراحهما...
ولم يصدق الرجلان أذنيهما فأطلقا ساقيهما للريح.
على حين نظر (رمسيس) إلى حرسه الخاص وهتف:
- سنطارد (موتالى) نحو (حلب)..
هنا أصدر جهاز اللاسلكي أزيزا فتناوله:
- (آمون - 1).. حول..
- هنا (ست - 1).. قبضنا على جاسوسين من البدو.. حول
- إننا قبضنا عليهما قبلكم.. وأطلقنا سراحهما.. حول..
وقبل أن يواصل إصدار أوامره أزّ الجهاز من جديد:
- (رع - ١).. قبضنا على جاسوسين من البدو.. حول
صرخ في جنون حتى إن صوته لم يحتج إلى مكبر صوت:
- إنهما نفس الرجلين يا حمقى!.. لن أقضي بقية عمري أتلقى بلاغات عن القبض عليهما..
قال أحد القواد الواقفين حوله:
- هذه هي مزية الإعدام الفورى إنها تلغي الخطأ البيروقراطي الذي يؤدي إلى اعتقال الشخص مرارا..
- هذا حق
ثم نظر إلى حرسة الخاص....
- والان.. إلى (موتالى)!
وهكذا!

انفصل عدد محدود من العربات والجند.. تتقدمهم عربة (رمسيس) متجهين إلى الشمال للحاق بفلول جيش (موتالى).
تذكر (ناع) هذا الموقف
لقد قرأ عنه في كتب التاريخ بالتأكيد، إن هذين البدويين جاسوسان من (موتالى) جاءا يحملان أخبارا مضللة.. والنتيجة هي استخفاف (رمسيس) بقوة خصمه، والاتجاه - دون حراسة كافية - إلى فم الأسد..
تذكر (ناع) كل هذا وأزمع أن ينذر الملك
- مولاي
- ششششش..!
أصدر (رمسيس) هذا الصوت ليخرس سائقه، وراح يعبئ سهما في قوسه
عاود (ناع) الإلحاح:
- مولاي.. هذان البدويان هما..
- حين أريد رأيك يا (ناع) سأطلبه.. أما الآن فأنت سائق عربة الفرعون العظيم.. لا أكثر ولا أقل..
إنه مصر إذن
وراه (ناع) يرفع ذراعه القوى ملوحا بقوسه:
- إلى (حلب).. وبأقصى سرعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مصيدة حيثية..

إذا لم يكن من الموت بد......
راح (ناع) يردد بيت الشعر هذا وهو يقود الجياد إلى الاتجاه الذي حدده (رمسيس).. (ناع) يعرف ما سيحدث.. ويتوقع كارثة أكيدة..
لكن كيف يمكن إقناع الملك العظيم متصلب الرأي بهذا؟
بل إن (رمسيس) تمادى.. واندفع بحرسه الخاص لا أكثر تاركا وراءه فرقة (آمون) لتتبعه على مهل.. وراح - بصرخات حرى - يستحث الجياد ويثير حماسها للمزيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنها الظهيرة..
الشمس عمودية تتوسط السماء، وتسكب النيران على رءوس المصريين.. لقد وصلنا أخيرا إلى (قادش)..
في صمت يمشي الجنود في شوارع المدينة الخاوية من المارة.. لا صوت سوي قعقعة السلاح ولهاث الأنفاس وحوافر الخيول.. ربما صهل بعضها أحيانا..
قال (رمسيس) متأملا المشهد:
- تبدو لي مدينة موتى..
قال (ناع) بصوت خافت دعا الله ألا يسمعه (رمسيس):
- تبدو لي مصيدة..
بالطبع لم يكن (ناع) يذكر - ولم يكن (رمسيس) يعرف - أن (موتالى) ينتظر بجيشه كاملا شمالي غرب المدينة.. وأن قواته الآن توشك على إتمام حصارها للقوة المصرية الصغيرة...
هنا صاح صائح أن فرقة (آمون) قد وصلت

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح أفراد فرقة (آمون) ينصبون خيامهم، ويضعون الاستحكامات العسكرية..
شعر (ناع) بشيء من الاطمئنان.. لكنه ظل شعورا ناقصا.. المشكلة أن المرء لا يذكر التفاصيل الحربية أبدا حين يقرؤها في كتب التاريخ.. وما أشد حاجة (ناع) الآن إلى كتاب تاريخ يتذكر منه ما حدث حقا..
كان الجنود على وشك تناول طعام الغداء المكون من الخبز والجعة والجبن المملح والخس؛ حين أزّ جهاز اللاسلكي في عربة القيادة.
اتجه (رمسيس) - بفم مليء بالبصل والجبن - ليتناول مكبر الصوت..
- (آمون - 1).. حول..
- هنا استطلاع الفرقة الملازم (حور - رع) يا مولاي.. لقد قبضنا على اثنين من البدو في..
- عليكم اللعنة!
صاح (رمسيس) في هستيريا وتطاير الطعام من فيه:
- أيها الحمقى!.. هل ستظلون تقبضون على هذين البدويين للأبد؟ يا أغبياء! حول..
دوى صوت الملازم من مكبر الصوت:

- إنهما اثنان آخران يا مولاي.. ولديهما أخبار مثيرة للاهتمام.. هل أرسلهما لكم؟ حول..
- ليكن.. حول
بعد دقائق جاء البدويان مقيدين بالحبال الغلاظ.. فما إن رآهما (رمسيس) حتى صاح:
- أنتما من جديد؟ إنني محاط بالمخابيل.....
معذرة على قدومكما في وقت الغداء، فليس لدى ما أقدمه لكما سوى ساعات عصيبة..!
قالها وراح يلوك عودا من الخس..
قال أحد الرجلين وهو يجثو على الأرض
- سامحنا أيها الملك العظيم.. لقد خدعناك وتلاعبنا بك كما يلهو الطفل بدميته..
قال الآخر في خجل:
- بل جعلنا منك أحمق!
- كفي!!
صاح (رمسيس) في جنون وقد أوشكت أوردته على الانفجار.. وتقدم حتى وقف أمام الرجلين الساجدين.. وصاح بصوت زلزل جنوب غرب آسيا:
- عم تتحدثان؟
- (موتالى) لم يفر يا مولاي إنه مختبئ في شمال المدينة ينتظر إكمال حصاره لكم.. إن الحرب خدعة، وقد كان هذا تاكتيكا موفقا منه.. نوعا من أساليب الخداع الاستراتيجي قائم على..
- إلى التماسيح!
فقال أحد الضباط في كياسة إنه لا توجد تماسيح.
صاح (رمسيس) بأنه يريد أن يرسلوا له ستة تماسيح جائعة من النيل في أقرب فرصة.. وأردف:
- إن حكم البلاد دون تماسيح لأمر غير آدمي.
وبعد ما أخذوا البدويين بعيدا.. التفت إلى ضباطه وقد بدا أكثر ليونة وقبولا للرأي الآخر...
وضع يديه في خاصرته.. وتساءل وهو يسير مطرقا:
- والآن.. ماذا ترون؟
قال أحد الضباط:
- يجب الإسراع بإحضار فيلقي (بتاح) و (رع)...
إن فيلق (ست) بعيد جدا.. ولن يصل في الوقت المناسب أبدا..
- هذا حق.. نفذ فورا..
وركل الغبار بقدمه.. وغمغم في حنق
- لقد كنت ساذجا.. ساذجا
همس الضابط في أذنه:
- سيدي.. إن المدير يذكرك بأن هذه العبارة خاصة بالدكتور (رفعت إسماعيل).. فلا داعي لاستعمالها حتى لا يتهمنا القراء بالإفلاس الفكري..
- حسن.. لقد كنت أحمق.. هل هذا مرض؟
لم يستطع (ناع) أن يبدي تشفيا.. أو يعلن في مرح أنه صاحب فكرة الكمين منذ البداية..
إن الوقت غير مناسب للحديث عن عبقريته واحترم صمت مليكه، فمشى جواره مطرق الرأس...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا دوت الصرخات..
نظر (رمسيس) إلى مصدرها..
وللوهلة الأولى لم يفهم أحد ما حدث..
كان هناك جنود من كل صوب يركضون.. بعضهم امتلأ جسده بالجروح.. وبعضهم. فقد ذراعا أو ذراعين.. كلهم في أسوأ حال.. يركضون كدجاج دخل ابن عرس إلى بيته.. أو كنمل فوجئ بقدم طفل بين أسرابه.. كان هؤلاء هم أفراد فرقة (رع)..
لقد قابلهم (موتالي) حينما لم يكونوا مستعدين لقدومه، وحاصرهم ودمر صفوفهم بعرباته وخيوله بينما كان أكثرهم من المشاة..
كانت هزيمة نكراء.. وبعبارة أوقع: لم تعد هناك فرقة اسمها (رع)..
وصاح صائح منهم برغم السهم الذي انغرس في عنقه:
- إنهم.. ورا.. وراءنا..!
ثم سقط فوق الغبار ميتا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأي (ناع) عربات الحيثيين الحربية تدنو منهم مبعثرة الغبار في كل صوب، وركابها من الرعاة الآسيويين - يلوحون بهراواتهم.. وامتلأ الجو بالسهام.
كان الأوغاد يحاولون إقفال الدائرة حول فرقة (آمون)، وبالتأكيد سينجحون في هذا...
ولكن.. من هو هذا الجندي الذي امتلأ جسده القوي بثقوب الرماح والسهام.. وبرغم هذا لم يزل يلوح برمجه يمينا ويسارا كأسد هصور؟
إن أمر هذا الجندي لن يطول..
ثمة ثلاث عربات حيثية تحيط به وعرف (ناع) على الفور أن هذا هو (حشت) الذي يخوض آخر معاركه الباسلة.. لقد كان من جنود فيلق (رع)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الثور يبعثر الغبار في كل اتجاه حين...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع (ناع) كالمجنون.. لا يدري كيف وثب إلى العربة الحربية الأولى، فلكم سائقها لكمة أطاحت به إلى الأرض.. واندفع بالعربة ليرتطم بالعربة الثانية فيقلبها..
يا للارتطام!.. صوت صراخ.. رائحة الغبار ممزوجا بالدماء.. رائحة الموت ذاتها وصوته.....
وينطلق الرمح من ذراع (ناع) لينغرس في صدر سائق العربة الثالثة..
كانت العربة مستمرة في الركض برغم هلاك أحد حصانيها.. حين وثب (ناع) منها..
وبين سحب الغبار هرع إلى (حشت) وجذبه إليه أحقا أنت؟ لا تخف.. إني معك.. شكرا لك أيها الصديق.. فلولاك..
عبارات كاملة تم قولها في نظرة عابرة تبادلها الصديقان.. ثم راح (ناع) يجرجر (حشت) مبتعدا عن الجموع.. حتى وجد صخرة عملاقة أراح رأسه إليها.. وابتسم له مشجعا
- ستنتظرني هنا.. ولكن عدني ألا تموت.. هه؟

قال (حشت) من بين شفتين بدأت قشور اللعاب الجافة تلصقهما ببعضها.. والعرق البارد يغمره:
- ل.. لماذا.. أ.. أموت؟
- كل الجنود يموتون حين يريحون رأسهم على صخرة.. هذه هي تقاليد السينما
- ل.. لا.. أفهم.. ل.. لكني.. سأ.. أظل حيا..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مطمئنا إلى أنه بعيد عن السهام وسنابك الخيل، فارقه (ناع) باحثا عن (رمسيس)..
إن الهزيمة دانية.. لكن لنمت بشرف..
الجبان يموت ألف مرة.. أما الشجاع فمرة واحدة..
و (ناع) كان شجاعا.. على الأقل في هذه اللحظة.. ولكن أين (رمسيس)؟
ها هو ذا؟ إنه يعتلي عربته الحربية ويعبئ قوسه بالسهم.. يفرد قامته في كبرياء، ثم يصرخ مناديا (ناع) كأنه أسد يزأر:
- (ناع).. أين كنت؟
- كنت أ
- هيا.. فلتقد العربة حالا..
- لكن
- هيا!.. توجد ثغرة في صفوف هؤلاء الأسيويين.. ولسوف نجتازها..
وما إن أمسك (ناع) باللجام.. حتى أطلق (رمسيس) صرخة عاتية ارتجت لها (قادش) بأسرها ومفاصل الجنود..
لقد ثار الأسد.. وعلى من أثاره أن يدفع الثمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كأنه حلم.....!
وسط السهام التي تنطلق حوله فلا يعبأ بها كأنها أسراب من ذباب؛ تندفع عربة (رمسيس) بين صفوف الأعداء..
صرخاته تدوي.. وسهامه تطير في كل صوب فلا يكف واحد منها إلا في صدر واحد من الحيثيين..
- إليّ يا جنود مصر.. إن أمكم (إيزيس) تناديكم إليها!
فإذا ما فرغ من سهامه، أخرج رمحه وشرع يضرب به يمينا ويسارا.. بمقدمته وبقناته..
الحيثيون يصرخون...
العربات الحيثية تنقلب في النهر.. النهر الذي صار من دم كله
لا أحد يستطيع إيقاف هذا الشلال الهادر..
هذا السيل العرِم.. لا أحد..
طعنة يمينا.. ضربة يسارا.. سهم للخلف.. سهم للأمام.. ثم ركلة في وجه هذا..
الخيول تمزق من يسقط تحت سنابكها..
العربة الثلاثون للأعداء تهوى في مياه النهر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرف (ناع) عندئذ أنه لم يعرف (رمسيس) بعد..
هذا الرجل كان ملكا.. وملكا وطنيا، أحب وطنه وشعبه وعرف كيف يكون ليثا حين تحتاج الأمور ليثا..
هذا التمثال الواقف اليوم في تعاسة وسط الميدان أمام محطة القطار.. تلك المومياء البائسة التي لم يكفوا عن علاجها بالإشعاع منذ قرون حتى لا تتحلل..
كانت هي هذا الرجل.. هذا الإعصار الحى...
- إلى يا أبناء مصر.. ألا ترون أنهم يندحرون؟ إن (آمون) فخور بكم..
مزيد من الجثث تتبعثر هنا وهناك..
وعربة (رمسيس) - وحولها عربات قواده - تواصل دورتها في ميدان المعركة..
الغبار.. الصراخ.. صهيل الخيل.. الدماء..
سهام عديدة وجدت مكانها إلى جسد (رمسيس) لكنه لم يبال بها كأنما هي لدغات بعوض..
رمحه ينغرس في صدر عملاق آسيوي وبيد من حديد يرفعه (رمسيس) ليطوح به في الهواء..
صوت جسد ثقيل يهوى في النهر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم دامت الملحمة؟.. ثلاث ساعات لا أكثر لكنها بدت ل (ناع) كأنها دهر..

وهنا سمعوا صياحا.. ونظر (رمسيس) إلى الوراء ليرى ما يحدث، فوجد أعلام فرقة (بتاح) قادمة من بعيد..!
لقد وصلت النجدة.. ولو لم تصل لكان (رمسيس) قادرا على قتال الأعداء إلى يوم يبعثون..
لكن فرقة (بتاح) وصلت أخيرا.. بجنودها شاكي السلاح الذين لم تنهكهم الحرب بعد.. جنود كاملو العدة والقوة..
وبوصولها تكون هزيمة (موتالى) أمرا منتهيا
وفي عيون الأعداء رأي (ناع) نظرة الفأر المحاصر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - سلام الأقوياء..

على ضوء الغروب الأرجواني والشمس تلفظ آخر أنفاسها؛ كانت هناك أشباح زرقاء تصطرع وتتبادل الطعنات.. وجند (موتالى) قد وقعوا بين شقي الرحى.. ما بين فيلق (آمون) وفيلق (بتاح)..
رجال (طيبة) ورجال (منف)......
وأخيرا صاح صائح: الانسحاب.. الانسحاب..
وفر الحيثيون الباقون يلملمون جراحهم تاركين النهر طافحا بجثث قتلاهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ضوء القمر الحزين الشاحب يغمر المكان..
ومشى (رمسيس) فى تؤدة جوار (ناع).. الجراح تملأ كل شبر من جسده.. والدماء تلطخ وجهه.. ثمة جفن تمزق فصار لا ينفتح وهوى كبوابة ثقيلة على عينه اليسرى..
إن نصر الشجعان لم يكن غير ذي ثمن..
الأرض مزاج غريب من الوحل والدم.. وجثث الرجال الذين تعجز الآن عن تبين جنسيتهم..
كان (رمسيس) يلهث لكنه لم يكن يملك ترف الأنين.. أو الحق في الإغماء.. إنه ملك.. ولأنه ملك فهو آخر من يستريح.
قال لـ (ناع) وهو يتأمل المشهد:
- قمنا بعمل جميل.. أليس كذلك؟
ابتلع (ناع) ريقه وغمغم:
- ن.. نعم..
- ولسوف نلحق بهم إلى عقر دارهم..
قال (ناع) في كياسة:
- ربما كان الأوفق أن نعود لرأب صفوفنا في مصر.. إن حالة جنودنا لا تسمح بمزيد من عراك... خاصة ونحن على أرضهم وقرب ديارهم..
نظر له (رمسيس) هنيهة مفكرا.. ثم غمغم:
- هل تعرف؟ لست أحمق يا (ناع) إلى الحد الذي تبدو به..
ثم صاح مناديا قواده:
- أريد حصر القتلى.. ونقل الجرحى حالا..
ورفع ذراعه الجريح إلى أعلى:
- إننا عائدون إلى مصر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد سيلحق (رمسيس) بالحيثيين ليهزمهم في (نرين) وحصن (داجود)..، ولسوف تدوم الحرب بينه وبينهم خمسة عشر عاما حتى يموت (موتالى) اللعين..
عندئذ سيبدي خلفه (خاتوسيل) استعدادا للسلام، ولسوف يقبل عمل معاهدة صلح يتم تدوينها باللغة المسمارية على لوح من فضة.. ربما هي أول معاهدة صلح في التاريخ..

ولسوف يترنم الشعراء بيوم (قادش)، وتملأ صور وتماثيل (رمسيس) البلاد..
وفي سن الستين تموت الملكة (نفرتاري) رفيقة درب (رمسيس)، ولسوف يرسل ملك الحيثيين ابنته إلى (رمسيس) ليتزوجها..
ستمنح الفتاة - العروس الشابة - اسم (ماعت نفرورع).. وتصير زوجة طيبة للملك الشيخ.. الذي سيعيش حتى سن التسعين..
وحين يموت سيدفن في طيبة جوار ملوك مصر الآخرين في وادي الملوك..
ويظل اسم (رمسيس الثاني) خالدا، يحكي قصة بطل مصري منح وطنه الخلود بدوره....
كل هذا سيحدث فيما بعد..
أما الآن فقد انتهت مغامرة (ناع) أو (عبير) بمجرد العودة من (قادش)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما (ناع) يتأهب ليركب عربة (رمسيس) الحربية.. رأى من يتقدم منه ببطء في الظلام..
كانت الظلال تنسكب في كل صوب، وضوء القمر الشاحب يقول ما تعجز عنه الكلمات.. لهذا لم يدر من هو القادم.. ثم تبين أنه يرتدي ثيابا عصرية.. وأنه يحمل في يده اليسرى سلسلة مفاتيح يطوح بها يمينا ويسارا:
- تحية أيها الجندي.. هل كانت مغامرة شائقة؟ أرى من الدماء على وجهك أنك رأيت الكثير..
تنهد (ناع) ومسح وجهه بكفه:
- هل حان الوقت أيها (المرشد)؟
- طبعا.. لم يبق شيء هنا..
- ولكن
وهنا أحس (ناع) أنه يتضاءل.. ينكمش.. جسده يصير لينا والشعر يستطيل على كتفيه ونظر لقدميه فأدرك أنه يرتدي حذاء أنثويا.. وثياب (عبير) حين بدأت القصة..
لقد عادت (عبير) إلى الوجود
تنهدت (عبير) في حسرة، فسألها (المرشد)
- علام تتنهدين؟
- على الرجولة.. لقد كانت متعة حقيقية
قال في تهكم.. وهو يسير معها بين الجثث الملقاة على الأرض محاشيا أن يتلوث سرواله بالدم:
- رجولة الأقوياء.. أنت عشت تجربة الرجل القوي الذي يحقق بعضلاته ما يريد.. هناك رجال أكثر ضعفا منك وأنت فتاة.. هؤلاء لا يستمتعون برجولتهم إلى هذا الحد حين يكون عليهم تحمل مسئوليات رجولتهم هذه
- لقد أعجبت ب (ناع).. يا له من رجل!
ثم هتفت في جزع وقد تذكرت:
- الجندي.. (حشت)!.. نسيت أمره تماما..
يجب أن أراه قبل الرحيل
في سأم غمغم وهو يتأمل سهما انغرس في شجرة:
- ليكن.. ولكن بسرعة
هرعت (عبير) تركض إلى أن وجدت الصخرة إياها..
دارت حولها فرأت (حشت) راقدا بينما بعض الرجال يضمدون جراحه.. فما إن رآها حتى هتف:

- الأميرة (إرمنحات) هنا؟ ثم تأوه.. وعاد إلى استرخاء رقدته.. فقالت:
- للمرة الثانية أراك في هذا الموقف..
- لقد صارت عادة
ثم همس وهو يتكئ على كتف جندي:
- أعترف لك أنني أحببتك أكثر من كل شيء..
لكني أريد معرفة مصير جندي من فيلق (آمون).. اسمه (ناع).. إنه يشبهك في كل شيء..
- هو بخير يا (حشت).. أنا واثقة أنه بخير..
قالتها وابتسمت.. لم ير ابتسامتها بسبب الظلام.. لكنه أحس بها.. وابتسم بدوره وإن لم يفهم كيف عرفت الأميرة بوجود هذا ال (ناع)..
وهنا همس لها (المرشد):
- هيا بنا الآن
- هيا بنا يا (مرشد).........

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة..

استغرقت الرحلة ساعتين..
وحين عادت (عبير) إلى دنيا الواقع، وشعرت بالأقطاب على رأسها؛ راحت تفتش عن (شريف).
لم يكن بالغرفة.. كان في الصالة يرشف قدحا من الشاي المعطر ويطالع الجريدة بانتظار استيقاظها..
نادته ليفك كل هذه الأسلاك..
فجاء يحمل قدح الشاي، وراح يحررها دون كلام.. كان متضايقا منها حقا ولم يبد أية حماسة لسؤالها عن موضوع رحلتها..
منذ فترة طويلة - تذكرت (عبير) - كف عن تسجيل أحلامها على شرائط الفيديو..
على أنه توقف لحظة عن العمل.. وتأمل طرف كمها في اهتمام.. ثم تساءل:
- لا أذكر أنك جرحت!
- عم تتحدث؟
أشار إلى طرف الكم.. إلى بقعة من الدم هناك.. بقعة حمراء طرية طازجة.. وسألها في مزيد من حذر:
- حقا لم يجرح معصمك؟
- لا.. حتما لا.. لماذا؟
قال في قلق وهو يثبت عينيه في عينيها:
- إن هذا الغريب.. غريب حقا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دعونا من هذا الآن.. ولنتذكر أنه في الحلم القادم ستأخذنا (عبير) إلى عالم لا يُنسى.. عالم الأساطير الإغريقية حيث (السيكلوب) و (الكراكون) و (هرقل) و (برسيوس) و(أطلس) وغيرهم كثير..
إن عالم الأساطير الإغريقية لهو أمتع بلدان (فانتازيا) وأكثرها تشويقا.

[تمت بحمد الله]

خيول ورماح

هناك طرق عديدة للموت في الحروب القديمة.. أن تموت بطعنة رمح، أو تموت تحت سنابك الخيل، أو غرقا في النهر.. العامل الوحيد الذي يحدد مصيرك هو موقعك من رمسيس العظيم.. هل أنت واقف وراءه؟.. أم أنك - لسوء حظك – في مواجهته؟

أحمد خالد توفيق

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) حقيقة.

روايات مصرية

7

فانتازيا

ألعاب إغريقية

د. أحمد خالد توفيق



فريق متميزون

E-BOOK

) كلمه مهمة (:
هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.
مع تحيات:
فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (07)

ألعاب إغريقية
تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير)...
لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبًا من أي شيء وكل شيء...
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوًا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالًا يسع المحيط بكل ما فيه...
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يومًا ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال....
ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم...
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞∞∞∞∞

1- إلى أين؟

أيام قد مرّت، و (شريف) مازال على تحفظه وميله إلى الصمت..
وفي ظلام غرفته كنت تراه جالسًا ساهمًا يحملق في شاشة (الكمبيوتر) التي ينعكس ضوؤها على تقاطيعه، صانعًا (سلويتًا) شديد الأناقة أقرب إلى مفكر (رودان) في شروده السرمديّ[1]..
- «ثمة شيء ما خطأ..»
يقولها ويداعب أزرار الجهاز من جديد.. أو يضغط زرّ (الفأرة) الأيسر.. وعلى الشاشة يقيء الجهاز المزيد من أسراره التي لا يمنحها إلا لمن هو أهل للثقة..
- «ثمة شيء ما خطأ..»
أحيانًا تقتحم (عبير) الغرفة اقتحامًا رفيقًا، حاملة قدحًا من القهوة وكوبًا من الماء المثلج.. فلا ينتبه إلى وجودها إلا حين يشم عبير القهوة الساحر يخترق خياشيمه.. عندئذ يرفع إلى وجهها عينين منهكتين حمراوين ويهمس:
- «ثمة شيء ما خطأ..»
ويفتش بيد لا تري عن عويناته التي خلعها في موضع ما أمامه.. فتلتقطها (عبير) له وتقول باسمة:
- «هاك يا ذا العيون الأربع!»
لكنه لا يبتسم.. لا يضحك.. لا يفعل أي شيء سوى المزيد من التركيز على الشاشة.. ثم يدرك أن العوينات لن تضيف لفهمه شيئًا.. فيخلعها ويرشف رشفة من القهوة.. ويغمغم:
«ثمة شيء ما خطأ..»

∞∞∞∞∞∞

كان (شريف) قلقًا..
ولئن كانت (عبير) قد نسيت فهو لم ينس بعد..
كان مصدر قلقه هو جرح بسيط في معصمها..
لم يكن الجرح بالغًا، ولم يكن خطرًا.. المشكلة الوحيدة هي أنها اكتسبته وهي تحلم!
لقد كان معصمها سليمًا كدورق زجاجي حين ارتحلت إلى (فانتازيا) لتخوض مغامرتها مع (رعمسيس) والإخوة الحيثيين.. حلمت بمعركة (قادش) في سهول الشام.. لكنها حين عادت إلى الواقع عادت بمعصم دام!
تمامًا كالشاعر الإنجليزي الذي نام فحلم بالفردوس، ثم صحا ليجد جواره على الوسادة زهرة!
ما معنى هذا؟ ما خطره؟
هذا هو ما يحاول فهمه منذ أيام..
(عبير) أيضًا لا تفهم سر قلقه المبالغ فيه:
- «وماذا في هذا كله؟»
- «لو أنك لا تجدين ما يثير القلق في هذا كله، فأنت في ورطة!»
- «لعلى جرحت معصمي في أثناء الحلم..»
- «أنا لم أفارقك لحظة.. ولم أفعلها أنا على ما أذكر..»
ثم نظر إلى عينيها نظرة يحفزها بها على أخذ الأمور بجدية:

«أنتِ جرحت في (قادش) وعدتِ بهذا الجرح إلى هنا!»
- «هذا هراء.. الأحلام لا.....»
قاطعها في نفاد صبر:
- «الأحلام لا تُحدث أثرًا ماديًّا.. هذا صحيح.. هذا هو المفترض.. حين تعضني الكلاب في مؤخرتي في الحلم، لا ينبغي أن أصحو من النوم لأجد الدماء تغرق سروالي.. هذه هي طبيعة الأمور..»
ثم أمسك برأسه.. وصاح في جنون:
- «لهذا أوشك على فقدان عقلي! كل هذا يفوق فهمي!»
ابتلعت ريقها.. وجلست لتساعده على الاسترخاء وهي تضع يدها على كتفه في رفق:
- «لكنك بالتأكيد تملك تفسيرًا أوليًّا سخيفًا؟»
قال لها وهو يستجمع أعصابه:
- «بالتأكيد.. أعتقد أنك تفقدين ماديتك.. إن جزيئاتك تسافر بنفسها إلى (فانتازيا) وتمرّ بذات التجربة التي يمرّ بها عقلك الباطن!»
لم تفهم ما يقول لكنها أدركت أنه - حتمًا – شيء خطير..
قال لها مستطردًا:
- «إن تصور هذا عسير على الفهم لكنه مؤكد.. لقد كان رحيل عقلك الباطن إلى (فانتازيا) هو الخطوة الأولى.. بعد هذا غدت جزيئاتك قادرة على الرحيل بدورها..»
- «لكني كنت طيلة الوقت على المقعد أمامك..»
- «هذا حق.. ومعنى هذا أن تناسخًا من جسدك.. كتلة من (الإكتوبلازم) أو (الجبلّة الخارجية) - كما يسميها الروحانيون - تنفصل لتخوض المغامرة كاملة..»
لم تفهم من جديد.. هذه المصطلحات اللعينة سواء كانت عربية أو لاتينية تضايقها دومًا.. لهذا سألته:
- «وهل هذا سيئ؟ ما دمت أعود في كل مرة..»
ابتسم مشفقًا من سذاجتها:
- «تعودين؟ بعد أن تتلقى رصاصات الخارجين على القانون، وتنغرس أنياب (دراكيولا) في عنقك، وينفجر مكوك الفضاء بك، وتصيبك سهام الحيثيين..
كل هذا في جسدك المادي.. ثم بعد هذا تتحدثين عن العودة؟ إنني لأنحني إحترامًا لبراعتك هذه!»
- «لا تسخر مني يا (شريف).. أنا لم أتلق تعليمًا في الجامعة الأمريكية مثلك، لكني لست بلهاء..»
ابتسم من جديد مشفقًا:
- «لم أقصد إهانة يا ملاكي.. ولو كان البلهاء هم فقط الذين لم يتخرجوا في الجامعة الأمريكية، لكنا في وضع طيب حقًّا! ما أردت قوله هو أن ذهابك إلى (فانتازيا) مخاطرة حقيقية على حياتك.. ولن أكررها ما لم أعرف حقًّا أبعاد الخطر وأسبابه.. وهكذا يمكنك أن تعتبري (فانتازيا) ذاتها حلمًا مرّ بك وانتهى.. حلمًا لن يعود.....»
في صوت متحشرج غمغمتْ:
- «حقًّا؟»
- «حقًّا»
- «ألن تكررها ثانية؟»

- «نعم.. لن أكررها.. لقد كان الجرح في معصمك هو إنذار السماء لي بأننا قد جاوزنا الحدّ في اللهو.. وأننا خرقنا قوانين الطبيعة إلى حدّ الخطر.. وقد حان الوقت كي نقول: وداعًا (دي جي - 2)»
ثم ابتسم متلطفًا ونظر إلى بطنها:
- «ثم إن (عادل) الصغير يحتاج إلى جزء أكبر من اهتماماتنا.. ألم يقل الطبيب ذلك؟!»

∞∞∞∞∞∞

بلى.. قال الطبيب ذلك وأكثر..
لكنها لن تصدق أبدًا أن تلك المتعة الحريفة التي تقدمها لها (فانتازيا) هي من الخطورة بمكان..
إن (شريف) لم يعد يحب جهازه.. كفّ عن حبه منذ فترة طويلة.. بل صار يرى فيه منافسًا شديد الخطر يحول بينه وبين (عبير) التي صار يحبها حقًّا..
هي تفهم هذا.. لهذا لن تصدق حرفًا مما قال..
لهذا ستغادر الفراش ليلًا بعد أن تنتظم أنفاس (شريف)، لتمشي حافية القدمين إلى غرفة (الكمبيوتر)..
لهذا ستضغط زرّ التشغيل وترقب الرسائل الروتينية التي يعلن بها الجهاز عن تحميل نظام تشغيله.. وهدير القرص الصلب إذ يصحو من النوم..
ثم أمام علامة المحثّ ستكتب بثقة:
C: \ > DG - 2
هكذا كان (شريف) يفعل مرارًا.. صحيح أنه كان يمارس أشياء أخرى عديدة لا تذكرها.. لكنها بالتأكيد تتعلق بكاميرا الفيديو وما إلى ذلك.. وهي ليست بحاجة لكاميرا فيديو..
ستسافر إلى (فانتازيا) وتعود سالمة لتقول له:
إنه كان يغالي في التظاهر بالخطورة.. كذا الرجال دائمًا..
في هدوء تضع الأقطاب حول رأسها، وتزيح الكابل في ضجر بعيدًا عن عنقها.. ثم تتأكد من أنها لم تنس شيئًا..
وداعًا عالم الواقع الذي لا يتغير.....
وداعًا لكل من يحملون وجوههم الكالحة في بقاع الأرض بحثًا عن مكسب جديد..
وداعًا أيتها الشاشة المتألقة في ظلام الحجرة..
وفي ثقة ضغطت زرّ الإدخال..

∞∞∞∞∞∞

الهضبة الحبيبة.. والريح تداعب قميص نومها.. على حين يدنو منها (المرشد) وعلى وجهه ابتسامة من افتقد صديقًا دهرًا طويلًا ثم رآه..
- «التحية يا (أليس)! تك تتك تك!»
القلم الجاف مازال في كفه لم يختف.. وهو يداعبه بذات الأسلوب الذي كان مثيرًا لأعصابها.. فغدا مملًّا.. فغدا ضروريًّا.. ومن لوازم حياتها..
- «جئتِ منفردة هذه المرة!!»
- «لابد للطفل من أن يعود من المدرسة وحيدًا يومًا ما..»
- «هذا حق.. إلى أين هذه المرة؟»

رفعت ذراعها وطوحتها في الهواء:
- «لا أدري.. إن الملل يقتلني.. أرني ما لديك..»
ركبا القطار.. قطار (فانتازيا) الشبيه بقطارات مدن الملاهي.. وراحت (عبير) تتأمل العالم حولها.. (سوبرمان).. عالم (ديزني).. صراعات الأسود على ضفاف بحيرة (تانا).. رعاة البقر يقذفون قبعاتهم في الهواء.. (نابليون) وجيشه يزحفون فوق ثلوج (روسيا).. ثم.....
فجأة رأت نفسها! رأت نفسها في ثوب المدرسة تخرج من قلب حارة بائسة والدجاج يركض مذعورًا مبتعدًا عنها.. ورأت (شريف) يتقدّم منها ليأخذ بيدها.. و.. راح القطار يبتعد عن المنظر..
- «(مرشد)! ما معنى هذا؟!»
نظر لها في لا مبالاة وتساءل بأدب:
- «معنى أي شيء؟»
- «لقد لمحت نفسي.. لمحت شذرات من واقعي!»
- «آه! إنه عقلك الباطن يا فتاة.. ذكرياتك في كل مكان، وليس من الغريب أن تقابلي نفسك..»
- «لكن الماضي ليس قصة يُخصص لها مكان في (فانتازيا).. أنا لم أر هذا المكان قط فهل لديك تفسير؟»
- «لا تفسير..»
قالها ليسكتها.. وعاد (يتكتك) قلمه..
أما هي فقد أصابها هذا بحيرة غير عادية..
ماضيها هو أسطورة أخرى من أساطير (فانتازيا) يمكنها أن ترتادها إذا أرادت.. فما معنى هذا؟
أتكون حياتها السابقة كلها (المدرسة – البيت - شريف) وهمًا عاشته في (فانتازيا)؟ مستحيل؟
ثم قرّرت ألا داعي للاسترسال في هذه الخواطر المبلبلة..
فلتنعم الآن برحلتها الثمينة هذه..
ومن بعيد رأت كهلًا وطفلًا يرفرفان بأجنحة من شمع في السماء.. ورأت مملكة مظلمة سوداء يفصلها عن قطار (فانتازيا) نهر كئيب ساكن.. ورأت عملاقًا يصارع وحشًا ذا ستة رءوس..
قال لها (المرشد):

- «تك تتك! هذا هو عالم الميثولوجيا الإغريقية[2].. فهل ترغبين أن..؟»
التمعت عيناها حماسًا.. وهمستْ:
- «يمكنك أن تراهن على هذا!»

∞∞∞∞∞∞∞

2- ألعاب إغريقية...

في اللحظة التالية - وكما هو عهدها ب (فانتازيا) - شعرت بأنها لا ترتدي ما كان عليها من ثياب.. أدركت أنها ترتدي ثوبًا إغريقيًّا أبيض يكشف عن أحد ذراعيها، وفي قدميها رأت صندلًا إغريقيًّا ذا شرائط تلتف على ساقيها..، ولو كانت تملك مرآة لأدركت أن شعرها صار مصففًا مرفوعًا إلى أعلى، وإن تدلّى على جانبي رأسها كقرني كبش.. هذا هو الطابع (الهلليني) الذي - وإن كانت لا تعرف اسمه - فهي تميّزه ككلّ ويبدو لها مألوفًا..

كان هناك نهر رقراق تتناثر زهور النرجس على جانبيه، وكانت هناك بعض الغيد يرقصن، وقد دست كل منهن زهرة خلف أذنها - كما تفعل بنات (هاواي) - على أنغام مزمار مكون من قصبات متلاصقة يمسك به أحد الرعاة..

كانت الأداة مألوفة لها، كالتي كان الأخ (زامفير) يعزف عليها مقطوعة (الراعي الوحيد) في عالم الواقع..

قالت في انبهار للمرشد..

- «هذه الأداة.. إنني رأيتها مرارًا على الشاشة الصغيرة..»

قال دون حماس:

- «هذا هو ال (بان فلوت).. نسبة إلى (بان) إله المراعي عند الإغريق ولسوف ترينه مرارًا..»

سألته وهي تنقل قدميها فوق الكلأ النضير:

- «هل يمكنني أن أخوض حرب (طروادة) مع الخائضين؟»

- «تك تك! كلا.. إن (الإلياذة) و (الأوديسة) تُحفتيّ الشاعر الضرير (هوميروس) هما عملان كثيفان ضخمان، وقد خصصنا لهما قطاعًا خاصًا من (فانتازيا).. أما هنا.. فلسوف تمرين بالمغامرات الخيالية التي ليس لها سند تاريخي..»

- «وهل يمكنني أن أقابل (ميدوسا) و (المينوتور)؟»

- «بالطبع.. لكنني لا أوصيك بهذا.. فقد تحدث عنهما زميلك في المؤسسة د. (رفعت إسماعيل) بشيء من التفصيل.. وأخشى أن يثير هذا ملل القراء..»

- «لا بأس.. والآن قل لي: من أنا في هذا العالم؟»

قال لها متثائبًا:

- «لا أهمية لهذا.. فالحسان في الأساطير الإغريقية حسان وكفى.. مثلهنّ مثل حسناوات ألف ليلة وليلة.. إنهن شخصيات أحادية البعد بلا أعماق.. فقط هنّ جميلات، مما يجعل الرجال يحبونهنّ أو يخطفونهنّ أو يتقاتلون من أجلهنّ.. وليكن اسمك (هيلين) أو (دافني) أو (أندروميدا) أو (برسفوني) أو (إيكو).. لا يهم..»

- «ولكن....»

في اللحظة التالية أدركت (عبير) أن (المرشد) قد رحل بعيدًا، وأن عليها أن تحتل موضعها في هذا الكون.....

∞∞∞∞∞∞

تدنو من النهر أكثر..

كل هذا الجمال الذي لا يوصف، وضياء الشمس الباهر ينعكس على صفحة الماء باعثًا ألف

ألف شمس..
هذا المشهد الذي داعب خيال الشعراء دهورًا لكنهم لم يروه قط بهذه الروعة..
رسم الإنجليز ذات المشهد مئات المرات؛ لكن رساميهم شديدي الرصانة لم يروه قط.. كانت هناك مدرسة (أخوة ما قبل رافائيل) وكان هناك الكلاسيكيون ورسامو (الروكوكو) الفرنسيون.. كلهم ظلوا يرسمون بغباء أنهارًا تستحم الحسان على ضفافها، لكن في عالم الواقع لا يوجد مشهد مماثل، والنتيجة هي أنهم جميعًا رسموا السخف والتكلف بعينه..
وتذكرت (عبير) عبارة لا تذكر قائلها: إن أجمل الأشعار الرعوية التي تتغنى بالريف، وبالراعي الجالس تحت شجرة يعزف على الناي، ويغازل حبيبته، هذه الأشعار قالها ساكنو المدن الذين لم يروا الريف قط!
ما علينا....
نعود إذن إلى (عبير) التي تدنو من النهر أكثر لترى مشهدًا غريبًا بعض الشيء..
ثمة شاب رائع الجمال يجثو على ركبتيه جوار الماء، ويحدث انعكاس وجهه في صفحته!
كان يقول بصوت دامع ملهوف:
- «إيه يا عروس البحر الحسناء القاسية! ألن تقبلي وصال قلب أدماه غرامك وأضناه هواك؟»
ثم رأته (عبير) ينحني ليلمس بشفتيه صفحة الماء!
بالطبع تعكر الماء وتبعثر انعكاس الفتى إلى ألف ألف وجه.. فرأته (عبير) يرفع وجهه، ويبصق الماء الذي ابتلعه.. ويقول:
- «تبًّا لك من قاسية! تضنين على عاشقك المكلوم بقبلة؟»
لم تفهم (عبير) ما شأن هذا المعتوه..
ثم تذكَّرت على الفور.. هذا هو (نركيسوس) - أو (نرجس) - الفتى الجميل الذي عشق انعكاس وجهه في الماء.. وحسبه وجه عروس بحر فاتنة.. لهذا التصقت لفظة (النرجسية) بحب الذات الشديد..



الفتى يحاول جاهدًا.. وفي كل مرة يلامس الماء بشفتيه؛ لكن الماء يتعكر.. من ثمَّ يحسب هذا تدللا من عروس البحر الحسناء..

دنت (عبير) منه، وقد شعرت بالشفقة على هذا البائس.. ربما كان بوسعها أن تعيده إلى رشده..
قالت له في رفق وهي تربّت على كتفه:
- «إحم! يا سيد (نركيسوس)!»
أجفل ورفع عينيه الجميلتين ليراها واقفة جواره..
- «م.. من؟»
- «أنا..أ.. صديقة يهمني أمرك.. و...»
- «لا أحد يستطيع أن يعينني.. لا أحد..»
وقبل أن تلفظ بكلمة أخرى، أخرج من ثيابه خنجرًا.. وبحرفنة وأستاذية أوْلَجَهُ حتى المقبض في بطنه.. انتحر المجنون قبل أن يفهم.. انتحر بسبب قنوطه في الحب..
وسرعان ما تهاوى جسده ليختلط ماء الغدير بالدم، وهمد الذي كان مفعمًا بالحيوية منذ ثوان.....
صرخت (عبير) في هلع:
- «(نركيسووووس)! لقد تأخرت عليك أكثر من اللازم!»
وعند قدميها رأت الجسد يرتجف رجفة أخيرة، ثم يهمد تمامًا..
ومن الماء برز رأسان لعروسي بحر.. وتأملته إحداهما في حسرة ثم غمغمت:
- «يا للخسارة! شاب جميل كهذا..»
- «هلمي إذن نحرق جثته!»
هتفت (عبير) في جزع وهي ترى العروسين تجمعان الأعشاب الجافة لتضعاها فوق جسد الفتى الممدد على ضفة النهر:
- «ولكن.. حرام أن تحرقاه!»
قالت إحداهنّ في لا مبالاة:
- «هذه هي التقاليد يا حبيبتي.. ومن الطبيعي أن تنبت من رماده زهرة (نرجس).. هكذا تحتم الأسطورة..»
وشاعرة بالاشمئزاز من رائحة اللحم المحترق، راحت (عبير) تبتعد ببطء مختلسة من حين لآخر نظرة إلى الوراء لترمق المشهد الأليم.. لكنها لم تستطع إنكار روعة الأسطورة وعبقرية وشاعرية مبتكرها..
ألقت بنظرها إلى صفحة الماء لترى مشهدًا غريبًا آخر..
كان هناك شاب وسيم آخر - يبدو أن هذه البلاد تزخر بالشبان والفتيات بارعي الجمال - يستحم في النهر..، ورأته يسبح إلى الضفة البعيدة حيث توجد ثيابه..
هنا رأت امرأة حسناء تقف بانتظاره وعلى شفتيها ابتسامة واثقة.. أطلق الفتى صرخة حياء وعاد يسبح في الماء قاصدًا الضفة الأخرى..
من الغريب أن المرأة كانت تنتظره بذات الثبات والثقة قبل أن يصل إلى البرّ!
ويتكرر المشهد..
الفتى يسبح إلى ضفة ليجد أن معذبته تنتظره فوقها.. فيهرع إلى الضفة الأخرى ليجد الشيء ذاته!..
كانت هناك فتاة تقف جوار (عبير) تتأمل المشهد في غيظ.. ثم إنها قالت، وهي تبصق في الماء:
- «أترين ألاعيب هذه المرأة؟ إن هذا لا يليق بها.. هذا التهافت المشين على من كان في عمر أطفالها!»

ومصمصت بشفتيها:
- «تبًّا للنساء! أحيانًا أخجل لكوني منهنّ!»
سألتها (عبير) دون أن تفهم شيئًا:
- «مَنْ هو ومَنْ هي؟»
قالت الفتاة في دهشة:
- «أحقًّا لا تعرفين؟ هو الصياد (أدونيس) وهي (فينوس).. لقد أعجبت به كثيرًا لكنه سيصدّها..»
- «حقًّا؟ وماذا سيكون ردّ فعلها؟»
- «لن تؤذيه.. لكنها ستنقذ حياته بعد ما تمزقه الحلاليف البرية بأنيابها.. عندئذ يقرر أن يحبها!»
- «آه! فهمت!»
وهنا تسمع (عبير) صراخًا مجنونًا..
وترى حسناء أخرى - إنهنّ كالليمون عددًا في الأساطير الإغريقية - تركض في المروج وهي تولول كما تولول (أم هشام) كلما مات زوج لها في عالم الواقع.. غير أن (أم هشام) لا تملك هذا الشعر الذهبي وهذا الجمال النوراني.. بالإضافة إلى أن الفتاة لا تعرف كلمات (سبعي) و (جملي).. وبالتأكيد يوجد في شعرها عدد أقل من القمل..
أما سبب صراخها - الفتاة وليس (أم هشام) - فهو أن هناك من يطاردها.. وهو لا يكف عن الصراخ في افتتان:
- «أحبك! أحبك!»
- «لا ااااه!» - تصرخ الفتاة..
- «ابتعد أيها الشيطان عني!»
- «(دافني)! أنا أهواك.. أقسم على هذا..»
لكن الفتاة رفعت صخرة هائلة الحجم وهوت بها على أم رأسه.. ثم واصلت الركض والولولة..
لحسن الحظ لم ينفجر رأس الفتى.. بل تحسس رأسه وغمغم مفتونًا بما معناه أن (ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب).. وواصل المطاردة..
قالت (عبير) لزميلتها وهي ترمق المشهد:
- «لا يبدو شريرًا.. إنه يحبها بجنون لا أكثر..»
- «هذه هي مأساة الحب من طرف واحد.. طرف لا يطيق الحياة دون أن يرى الآخر.. وطرف لا يطيق الحياة إذا رأى الآخر!»
ثم همست وهي تشير إلى شيء يتحرّك في الهواء:
«هذه خدعة خبيثة من (كيوبيد) اللعين..»
(كيوبيد)؟ أحقًّا؟!
هي ذي تراه.. كما تخيلته تمامًا..
الطفل العاري (الملظلظ) وعلى ظهره جراب السهام، وفي يده القوس، وجناحاه يرفرفان ليحملاه في الأجواء بسلاسة لا تُصدق.. كنحلة كبيرة لعوب تطير هنا وهناك..
(كيوبيد) أو (إيروس) ابن (فينوس)، الذي أسند له الإغريق مهمة إلقاء الحبّ في القلوب..
ولكن ما الخدعة الخبيثة يا أخت (ميلينا)؟ [هذا هو اسم الفتاة التي تقف جوار (عبير)]..
تقول (ميلينا):

- «كان الأمر كله تحديًّا بين (أبوللو) و (كيوبيد).. لقد استهان (أبوللو) بشأن (كيوبيد) ووصفه بأنه طفل ضعيف.. لهذا صمم (كيوبيد) على الانتقام.. وأي انتقام! تخيلي هذا يا أختاه! في البدء انتظر حتى مرّت الحسناء (دافني) أمام (أبوللو).. وصوّب سهمًا ذهبيًّا إلى قلب الأخير.. أنت تعرفين ما يحدث بفعل تلك السهام.. هوب! هام (أبوللو) حبًّا ب. (دافني) من أول نظرة، وراح يطاردها ليخطب ودّها.. هنا انتهز (كيوبيد) الفرصة وصوب سهمًا رصاصيًّا إلى صدر الفتاة.. وهوب! لم تعد الفتاة تطيق رؤية (أبوللو).. صارت تراه وحشًا كاسرًا يريد التهامها.. وها هي ذي النتيجة: (أبوللو) – بكل سلطانه - يركض وراء فتاة أرضية يتوسل إليها كي تقبل حبه.. تبًّا ل. (كيوبيد) من شيطان صغير!»

(دافني) تواصل الركض حتى حافة النهر..

تجثو على ركبتيها تتوسل للنهر كي ينقذها من مطاردة ذلك الوغد الذي لا تتحمل رؤيته..

وقورًا هادئًا يقبل النهر أن يحررها، ويحتضنها ليداريها عن عيني مطاردها!

وترى (عبير) (أبوللو) يجثو على ركبتيه ذاهلًا.. يتأمل الماء..

وكان يبكي في لوعة، بكاء يمزق نياط القلوب..

- «(دافني ي ي ي ي)! عودي إليّ أيا ملاكي!» لكن لا جواب..

همست (عبير) وقد رق قلبها:

- «إن ضفاف هذا النهر هي مأوى كل من تحطمت قلوبهم.. مثله مثل (فندق تحطيم القلوب) في الأغنية الشهيرة..»

رأت (كيوبيد) يحوم حول المشهد مرارًا، ثم ينفجر في الضحك:

- «نياهاهاهاه!.. أرأيت قدراتي يا ابن (حيرا)؟ لن تدعوني ضعيفًا بعد الآن!»

استنشق (أبوللو) دمعة كادت تسيل من أنفه.. وهمس:

- «سنيف! أنا أعتذر لك يا بن (فينوس).. ولكن - رحماك - خلصني مما أنا فيه من عذاب..»

- «ولن تكررها؟»

- «أقسم لك..»

وانطلق السهم الرصاصي ليستقر في صدر (أبوللو).. وعلى الفور شفي من غرامة الممضّ وتعالت ضحكاته..

لقد نسي!..

- «أتعرفين يا أختاه؟»

قالتها (عبير) وهي تدسّ زهرة بين خصلات شعرها:

- «.. أظن أنني سأستمتع حقًّا في هذا العالم..»

وكانت مخطئة..

مخطئة إلى حدّ كبير..

∞∞∞∞∞∞

3- هيدز..

كان جبل (الأوليمب) يقف شامخًا في الأفق، يخترق الرباب([3]) بقمته الشاهقة، وحوله يحلّق ألف حلم وحلم.....
راحت (عبير) ترمقه في انبهار..
وهنا رأت (هليوكوبتر) تحلق حول القمة في دورات منتظمة.. وقد أثار هذا دهشتها، ثم تذكَّرت - للمرة الألف - أنها في (فانتازيا) حيث يزول الحدّ الفاصل بين ما هو ممكن وما هو مستحيل.. ويمتزج الماضي بالحاضر بالمستقبل..
لكن لا مانع من سؤال (ميلينا) عن معنى هذا..
قالت (ميلينا) وهي تمضغ قطعة من تفاحة:
- «إنها الدورة الأوليمبية كما تعلمين.. وشبكة (CNN) تقوم بالتصوير.. إن الأولمبياد عادة إغريقية يزعمون أن آلهة الأوليمب كانت تمارسها.. ونحن الأرضيين نمارس ألعابًا مماثلة تبركًا بهم.. بما في ذلك تقليد حمل الشعلة وما إلى ذلك..»
- «فهمت..!»
وهنا سمعت صراخًا.....
نظرت إلى الوراء لتجد الغيد يركضن في كل اتجاه صارخات مذعورات.. وبعضهنّ وثبن في الماء مفضلات الغرق على...... على ماذا؟
هذه هي مشكلة (عبير) في كل العوالم.. دائمًا يحدث خطر ما.. ويفرّ الجميع، أما هي فتتأخر قليلًا لعدم فهمها ما يحدث.. عندها يكون الخطر من نصيبها وحدها.. مرة انفرد المذءوب بها.. ومرة هاجمها الدبّ عند النهر.. ومرة انقضّ ثورٌ هائج عليها، والآن يداهمها...... من بالضبط؟!
كان المشهد مخيفًا..
شيخ يرتدي عباءة سوداء، وفي يده عصا تنتهي بجمجمة طفل..، وكان وجهه مشوهًا لدرجة غير عادية..
وإلى جوار الشيخ كان هناك هيكل عظمي يرتدي ما يشبه مسوح الرهبان، وفي يده منجل عملاق، أقرب ما يكون إلى الصورة الشائعة للموت في الأذهان..
وكان هناك - إن الدعابة لم تنته بعد - كلب مسعور ذو رأسين، يتطاير الزبد من بين أشداقه الأربع وأنيابه الحادة.. وكان هذا الكلب يركض في كل صوب مطاردًا الفتيات الصارخات..
وسمعت (عبير) الشيخ يهتف في نشوة:
- «هيا! أريد واحدة من هاته الغيد.. أريد أجملهنّ زوجة لي! نياهاهاهاه!»
ثم تحسس صدره في هيام:
- «إنني لأشعر بالحسد.. ما أجمل مملكة أخي (زيوس) هذه وما أروعها! ضوء الشمس في كل مكان بدلًا من الظلام والبرد اللذين أصابني بالروماتيزم..»
كان هذا كافيًّا كي تقرر (عبير) الفرار بدورها.. لا داعي لانتظار مزيد من التفسيرات..
ولكن.. ما أصعب الركض بهذا الصندل الإغريقي! ثم إنها كانت تعرف مقدمًا ألا جدوى من الهرب.. إن (دي جي - 2) لن يترك الفرصة.. وبالتأكيد ستكون هي أجمل الموجودات، والبائسة التي سيختارها هذا الشيخ المفزع..

وقد كان.....
سمعت قرقعة العظام وراءها فلم تجرؤ على النظر خلفها.. راحت تعدو وتصرخ.. تصرخ وتعدو.. تعدو وتصرخ.. تص.....
ثم ارتفعت عن الأرض وأيقنت أن الهيكل العظمي قد أمسكها..! راحت تولول وتركل بقدميها لكن الوغد كان قويًّا..



ثم ارتفعت عن الأرض وأيقنت أن الهيكل العظمي قد أمسكها..

وأحست به يركض حاملًا إياها عائدًا إلى سيده..
نظرة مريعة التمعت في عيني الشيخ المخيف وهو يتأملها.. ثم مدّ إصبعين مخلبيين متآكلين

يمسك بهما ذقنها.. وغمغم:
- «بحق أمي الأرض (جي).. إنها لفتاة مليحة..»
ثم صاح بلهجة آمرة فيمن معه:
- «(شارون)! أنت ورجالك! هلموا بنا نعد إلى بلدنا المظلم.. إلى (هيدز)!»
صاح (شارون) في عصابته بصوت (عظمىّ):
- «هلموا يا شباب! إلى (هيدز)!»
- «يا هوووووووه!»
وجدت (عبير) نفسها تُقاد إلى أطراف الغابة، محمولة على أعناق تلك الأشباح المفزعة..
كانت ثمة مساحة مترامية خالية من الأشجار، وكان الأفق يصطبغ بلون الدم، وينحدر إلى نقطة لا تدري من أين ينتهي عندها ويبدأ النهر.. النهر الراكد الذي انعكس فيه الضوء الأحمر، فبدا كبركة دماء أخرى..
وكان هناك طوف خشبي ينتظر هناك..
فصعد الشيخ المخيف أولًا.. تلاه المدعو (شارون) فالكلب الذي عرفت (عبير) أن اسمه (سيربيروس)..
ثم ثلاثة من هؤلاء الأوغاد..
وأمسك (شارون) المجداف بيدي الهيكل العظمي، وراح يجدف في كآبة وبطء.. لا يجاوبه سوى صوت الماء، إذ ينشطر تحت المجداف، ولهاث (عبير) وهي تتساءل عن مصيرها..
وحين ابتعد الطوف عن الشاطئ لمحت امرأة تتقدم من النهر في حذر.. كان في يدها طفل رضيع لا يكف عن الصراخ..
في حنكة تنزع المرأة عن الطفل ثيابه ليصير عاريًّا كما ولدته هي - واضح أنها أمه - ثم تمسك بكعبيه لتدلي به مقلوبًا في الماء.. مرارًا وتكرارًا.. بعدها ترفعه وتجفف جسده الصغير..
هنا تذكرت (عبير) ما قرأته عن هذه القصة..
هذا الرضيع هو (أخيل) الذي غطسته أمه في نهر (ستيكس) ليصير منيعًا ضد سهام الأعداء..
(أخيل) بطل حرب (طروادة) الذي سيعيش حياته لا يُقهر.. تتهشم النصال والسهام على جسده، لكن مناعته ينقصها شيء واحد.. إن كعبيه لم يمسا الماء قط!
وتكون هذه هي نقطة ضعفه.. ولهذا ينجح (أجا ممنون) عدوه في أن يسدد سهمًا سامًّا إلى كعب رجله.. ومات (أخيل).. وعاشت لفظة (كعب أخيل) كناية عن نقطة الضعف في أي نظام دفاعي مُحكم..
إذن هذا هو (أخيل)، وهذا هو نهر (ستيكس)..
إن نهر (ستيكس) هو الحد الفاصل بين الحياة والموت في أساطير الإغريق.. ما بين مملكة الأحياء التي يحكمها (زيوس) ومملكة الموت التي يحكمها أخوه (بلوتو)..
ولهذا اكتسب نهر (ستيكس) تلك السمعة عن مياهه التي تقي من الموت..
لكن ما معنى هذا؟
معناه أن خاطفها - الشيخ المخيف - هو (بلوتو) صاحب مملكة الموت.. ومعناه أن الدور الذي تلعبه هو دور الحسناء (برسفوني) في الأساطير الإغريقية..
ومعناه أنها تعبر - في هذه اللحظة بالذات – الحد الفاصل بين الحياة والموت!!

∞∞∞∞∞∞

4 - في مملكة الموت..

والآن دعونا نصف لكم (هيدز) مملكة الموت الرهيبة، التي يحكمها (بلوتو) في سخط وعدم رضا..
مسكين (بلوتو)! حتى حين خلد العلم اسمه أطلقه على أبعد وأبرد وأكثر كواكب المجموعة الشمسية إظلامًا..
كان (بلوتو) يردد دومًا:

- «لقد كان حظي سيئًا دومًا.. وكان أبواى (جي) و (أورانوس)[4] يفضلان (زيوس) عليَّ في كل شيء.. والآن صار نصيبي من العالم هذه المملكة الكئيبة المظلمة..»
ظل يردّد هذا حتى جاء اليوم الذي أزمع فيه أن يخرج إلى العالم الخارجي، ويحصل على زوجة بأي ثمن.. زوجة تنسيه صراخ الأشباح وعواء الأرواح وسحنة (شارون) - تلميذ الجحيم - الكالحة، التي تفزعه هو نفسه......
وقد كان..
وهو ذا اليوم راض أي رضا..
ولِمَ لا؟ وقد عاد إلى عالمه بزهرة يانعة هي (برسفوني) ابنة (دمتير).. زهرة انتزعها من مروج أخيه (زيوس) ليضعها في أصيص صغير ينعش به روحه..
هكذا فكر.. واسترخي في عرشه الذي ازدان بالجماجم الآدمية والتفت الأفاعي حول قوائمه..
وعلى كتفه حطّ نسر مخيف يطلق صرخات مروعة.. بينما تدلت الوطاويط من غصن شجرة فوقه.. وعند قدميه تمددت الضباع مسترخية تحلم بالوجبة التالية من لحم الموتى..
أما (عبير) البائسة التي لم تتصور وجود هذا الكابوس، فقد ارتمت جوار العرش على ركبتيها تنشج وتولول..
نظر لها في رقة مرعبة وتساءل:
- «وبعد؟ ألن تأكلي شيئا؟»
- «..........!»
- «لسوف تموتين جوعًا وظمأً !»
- «..........!»
- «إن هذا لن ينجيك مني.. فحتى لو مت ستعودين إلى هنا! أنا هو الشخص الوحيد الذي لن ينقذك الموت منه!»
- «..........!»
كانت دموعها تسيل مدرارًا على الأرض، وفجأة رأت شبحين شفافين يحومان حولها، ثم يهويان إلى الأرض ليلعقا الدموع التي سالت منها..



كانت دموعها تسيل مدرارًا على الأرض، وفجأة رأت شبحين شفافين يحومان حولها..

هل هي تتخيل؟ لا.. فجأة لم يعد الشبحان شفافين.. بل غدا لهما كيان مادي ملموس.. صارا أقرب إلى البشر الطبيعيين.. وسمعت أحدهما يقول لها في صوت رقيق:

- «التحية يابنة (دمتير).. أنا التاجر (هوراس) من صقلية.. لقد اختطفنى (شارون) من بين عائلتى صباح اليوم..»
همست في حذر حتى لا يسمعها (بلوتو):
- «لماذا لعقت الدمع؟»
- «نحن الأشباح نحتاج إلى سوائل الأحياء لأنها تجعلنا نملك كيانًا ماديًّا قادرًا على التفكير والكلام، ولو بشكل مؤقت..»
- «وكيف حال العالم؟»
- «أوه!.. إن الخراب يعمّ كل شيء.. وقد جفت السهول، ويبست حقول الحنطة، وضمرت بهيمة الأرض، ونشر الجوع ألوية الخراب..»
- «لماذا؟»
- «إن أمك (دمتير) غاضبة تنقب عنك في كل صوب.. و................»
هنا هوت عصا (بلوتو) على رأس الشبح، ففرّ هذا موليًّا الأدبار يعول ككلب تلقى ركلة.. وصاح (بلوتو) في حنق:
- «ابتعد يا (هوراس) عن زوجتي! ما جدوى أن تستردّ القدرة على الكلام مادمت ستفقدها؟! لا يضايقني سوى الشبح الذي يرفض فكرة كونه شبحًا..»
ثم استدار إلى (عبير) ليرمقها في شك:
- «عمّ كنتما تتحدثان؟»
قالت وهي تتحاشى نظراته القوية:
- «كـ.. كنا نثرثر عن الطقس..»
- «طقس؟ هنا؟!»
وهنا قطع عليه الحديث صوت صراخ وعويل، فقال لـ (عبير) وهو يساعدها على النهوض (أو يرغمها عليه في الواقع):
- «هذا (شارون).. لقد أحضر زبائن جددًا.. هلمى أرِك هذا المشهد فهو جدير برؤيته..»
واقتادها - كما يقتاد خطيب خطيبته في متنزه - ليقودها إلى ضفة النهر.. كانت هناك عشرات الحفر التي تنبعث منها النيران المتأججة حمراء اللون، وكانت العقارب تفرّ هنا وهناك من موطئ قدميهما..
وعلى ضفة النهر وقفت (عبير) ترمق ذلك المشهد المروع.. كان طوف (شارون) قادمًا وملّاحه - الهيكل العظمي - منتصب القامة يمسك المجداف ويرمق الأفق في لامبالاة..
وعلى ظهر الطوف احتشد عدد من الرجال والنساء المذعورين يولولون ويحاولون الوثب في الماء..
لكن المياه الثائرة حمراء اللون لم تكن مما يسرّ الناظرين.. وكان الوثب فيها أكثر صعوبة من عدم الوثب.. لكن (شارون) كان يرفع مجدافه من حين لآخر ليهوي به فوق الرءوس، مما يدفع القوم إلى التزام الهدوء..
ويصل الطوف إلى الشط، فيخرج (شارون) من عباءته بوقًا قديمًا ينفخ فيه - دون رئتين؟! – فيصدر صوتًا موحشًا عميقًا يتردد في الربوع، كصوت وعل عملاق ينادي أنثاه..
وضربة مجداف تدفع المحتشدين إلى مغادرة الطوف.. والفرار في كسل صوب لكنهم يفاجئون بالكلب المسعور (سير بيروس) يعترض طريقهم وهو ينبح نباحًا متوعدًا..
من ثَمَّ يقفون صفًّا بانتظار النداء بأسمائهم..

خطر لـ (عبير) هنا مدى سخف ولا منطقية الديانات الإغريقية القديمة.. فعند الإغريق يغدو الموت في حدّ ذاته عقابًا! يعني هؤلاء الموتى يرون الأهوال سواء كانوا أخيارًا أم أشرارًا في عالمنا..
لقد كان الفراعنة متعددي الآلهة في أغلب تاريخهم، لكنهم كانوا يؤمنون بوجود حساب في العالم الآخر يلقى فيه الطيب جزاءه والمسيء عقابه..
أما هنا ـ عند الإغريق - فالموت شيء مريع، وعقاب في حد ذاته للأخيار والأشرار معًا.. والمنتصر الوحيد هو من يؤجل لحظة موته إلى آخر وقت ممكن!
وقفت (عبير) جوار (بلوتو) ترمق هؤلاء البؤساء يغادرون الطوف، ويقفون صفًّا بانتظار مصيرهم المظلم بعد (التمام)..
- «الجندي (ماركوس تيبريوس)..»
- «أفندم!»
- «المغنية (هيلانة هيفايستوس)»
- «أفندم!»
وانتهى (التمام) فاتّجه (شارون) إلى (بلوتو) ليناوله لفافة جلدية كُتب عليها باللاتينية.. وقال:
- «تمام يا سيِّدي.. الأربعون اسمًا كلها موجودة.. والآن هلا وقعت لي ها هنا؟»
- «حسن يا كالح الوجه.. الروتين دائمًا.. الروتين.. ولكن قُل لي.. ما هي الأخبار عند أخي (زيوس)؟»
قال (شارون) وهو يعيد طيّ اللفافة:
- «أوه يا سيدي.. إن العالم مقلوب رأسًا على عقب.. لقد ملأت (دمتير) الأرض صراخًا وعويلًا.. وأشعلت شعلة عملاقة تضيء لها أغوار الكهوف ودياجير الغابات بحثًا عن ابنتها.. لقد توجه الناس إلى المعابد كي يسترضوها لكنها لم تهدأ بالًا.. من ثَمَّ هجر الربيع الأرض، وهلك الزرع، وجف الضرع، ونفقت الماشية..»
بدا نوع من القلق على (بلوتو)، وتصلبت كفه على ذراع (عبير) وهو يسأل:
- «وماذا عن (زيوس)؟ ما رأيه في كل هذا؟»
- «إنه حزين على ما أصاب رعاياه.. وقد طالب (دمتير) بأن تتغلب على أحزانها الشخصية.. لكن الأم المكلومة تأبى إلا أن يجوع الجميع ما دامت (برسفوني) ابنتها الحبيبة غائبة..»
- «ولم يعرف أحد بعد أنها هاهنا؟»
- «يبدو أن بعض عرائس البحر وجدن نطاقها الأبيض قرب ضفة (ستيكس).. ولديهن نوع من الشك الذي يوشك أن يغدو يقينًا أن (برسفوني) هنا..»
تفكّر (بلوتو) برهة من الوقت.. ثم غمغم:
- «لا بأس.. دعهم يتساءلون.. دعهم يجدون مكانها.. فلن يستطيعوا انتزاعها منى أبدًا..»
- «إن (زيوس) لن يترك العالم دون ربيع..»
- «هذه مشكلة (زيوس) لا مشكلتي..»
ثم سحب (عبير) سحبًا عائدًا إلى العرش الرهيب..

∞∞∞∞∞∞

حاول أن يسرّي عنها، فراح يريها عجائب مملكته: وادي العقارب السامة، سهول الأشباح.. كهوف الثعابين.. آبار الخطاة..
ولم يدر أنه بذلك يزيد ذعر المسكينة ونفورها منه..

كانت أيامها تزداد سوادًا وجهامة، وتدريجيًا أضربت عن الطعام تمامًا.. وراحت تذبل..
آخ! إن المسكينة لم تدر أنها لن تفيد بهذا شيئًا.. فطالما سبق لها أن طعمت من ثمرات (هيدز) فقد غدا مصيرها أن تنتمي إلى هذه المملكة أبدًا..
كان هذا حالها حين جاء (أورفيوس)..

∞∞∞∞∞∞

في ذلك اليوم سمعت بوق (شارون) الكئيب العميق المشئوم، يعلن وصول طوفه وعليه (شحنة) أخرى من الهالكين..
وفي تؤدة مشت إلى ضفة نهر (ستيكس) لتبصر ما هنالك..
كان (شارون) يحرّك المجداف، وإلى جواره وقف شاب وسيم باسم المحيا يمسك في يده قيثارًا، وقد بدا عليه نوع من الحياء..
- «وصلنا يا (أورفيوس)!»
قالها (شارون) وهو يثب من الطوف، ويحكم ربطه بحبل - هو ثعبان طويل - إلى الضفة..
وفي هدوء رزين نزل (أورفيوس) إلى البر وقيثاره لا يفارق يده..
وهنا دوي نباح الكلب (سيربيروس) ذي الرأسين، محاولًا أن يلقن الضيف الجديد أول دروس الطاعة في (هيدز)..
لكن الفتى لم يرتدع، وبحنان ثابت أمسك بقيثاره.. وراحت أنامله الرقيقة تداعب الأوتار، فتبعث ألحانًا هي.....
هذه ليست ألحانًا! إن هذه الروعة لا يمكن أن تكون مجرّد موجات طولية ناجمة عن تذبذب الأوتار..
إنها السحر بعينه.. إنها الفن ذاته لو استطاع أن يعزف.. إنها الجمال ذاته لو استطاع أن يُسمع..
الكلب يصدر أنينًا حانيًا أقرب إلى المواء.. ويخرّ على أقدامه يرهف السمع.. لقد روضته موسيقا (أورفيوس)!
حتى (شارون) ذاته.. لم يبدُ مندهشًا.. بل رسم على وجهه العظميّ أمارات الاستمتاع..
كان هذا حين جاء (بلوتو) كغراب البين..
- «ماذا يحدث هنا؟»
توقفت الموسيقا، ووقف (شارون) وقفة شبه عسكرية أمام سيده.. أما الكلب فتلقى ركلة لا بأس بها أبدًا في مؤخرته..
قال (شارون) في ارتباك:
«إنه (أورفيوس) الموسيقيّ يا سيدي!»
- «يا للعجب! تشرفنا! وأنت ملك البلهاء..»
ثم هرش لحيته في ملل.. وتساءل:
- «من هذا ال (أورفيوس)؟»
- «إنه موسيقيّ يا سيدي..»
- «أعلم يا أحمق.. ما هي مهنة رجل يمسك قيثارًا ويعزف عليه؟! بالتأكيد ليس سبّاكًا.. أريد أن أفهم سر جلبه إلى هنا وهو مازال حيًّا!»
قال (شارون) في ارتباك (كان موقفه سيئًا حقًّا):
- «لقد أصرّ يا سيدي.. أصرّ!»

«أصرّ على ماذا؟»
- «على أن يرى زوجته!»
هنا تدخل (أورفيوس) على اعتبار أنه خير من يتحدث عن نفسه.. فخرّ على ركبتيه في تبجيل.. وهتف:
- «مولاي (بلوتو).. إن كل ما كنت أملكه في دنيا الأحياء هو قيثاري.. وزوجتي الحبيبة (يوريديس)..»
- «تعني أن (يوريديس) هذه قد ماتت؟»
- «نعم يا مولاي.. كانت البائسة قد خرجت لتجمع لي صحبة من الزنابق وزهور السوسن، حين لدغتها أفعى سامة أودت بحياتها..»
نظر (بلوتو) إلى (شارون) في شك:
- «(يوريديس)؟ هل هذا الاسم عندنا؟»
قال (شارون) في لهجة روتينية:
- «نعم يا مولاي.. جاءت منذ شهر..»
- «هم م.. وقد استطاع هذا البشري أن يروض قلبك الغليظ بموسيقاه.. ونجح في إقناعك بإحضاره إلى هنا ليسترد زوجته الحبيبة؟!»
أطرق (شارون) في خجل وغمغم:
- «نعم يا سيدي.. وتحمل الرحلة في شجاعة وإصرار.. عبرت به نهر العدم (أشيرون).. ونهر النسيان (ليث).. ونهر الآلام (كوكيتوس).. وحتى نهر اللهب (فيلجتون).. لكنه لم يجبن.. إنه يحب زوجته حبًا غير مبرر على الإطلاق.. لابد أنه معتوه أو ما هو أسوأ..»
- «هووووم! أرى ذلك.. ولكنك تطلب محالًا يا فتى..»
واتسعت عيناه لترسلا بريقًا وحشيًا:
- «لا أحد يعود من (هيدز) أبدًا.. لا أحد.. حتى أنت!!»

∞∞∞∞∞∞

5 - دعونا نغادر (هيدز)..

راحت أنامل (أورفيوس) تداعب أوتار القيثار، كأنها تداعب أوتار فؤاد (عبير) ذاتها..



راحت أنامل (أورفيوس) تداعب أوتار القيثار، كأنها تداعب أوتار فؤاد (عبير) ذاتها..

وفي عيني (بلوتو) الغائمتين لمحت نظرة رفق وحنو.. إذن (بلوتو) ليس شرًا كله.. إنه يرقّ أحيانًا..
هنا وجدت أن دورها حان لتؤدي عملًا نافعًا..

دنت من أذنه العملاقة الشبيهة بأذن سحلية (الإجوانا) - لو كان لهذه السحلية أذن – وفي رقة همست:
- «(بلوتو)! (بلوتوتي)!»
نظر لها في شك، فهو لم يعتد منها هذا اللطف.. فأردفت:
- «دعه يأخذ زوجته ويرحل!»
- «هه؟ مستحيل يا ملاكي.. إنها ستكون سابقة خطيرة..»
- «ماذا يضير لو نقص عدد الأشباح هنا واحدًا؟ على الأقل سوف يردّد هذا الفتى أناشيد تمجيدك في دنيا الأحياء.. وسيعرف البشر أن (بلوتو) قوي.. لكنه يحلّى قوته بالكرم..»
- «ولكن.........»
- «هذا هو مطلبي الأول والأخير يا (بلوتوتي)..»
بعد طول تفكير قال (بلوتو) مغالبًا غصة في حلقه:
- «ليكن.. ستعود بزوجتك يا (أورفيوس) إلى دنيا الأحياء.. لقد تغلب كرمي الطبيعي.. ولكن عليك ألا تنظر للوراء أبدًا.. فهي تتبعك طيلة الوقت ولو نظرت للوراء فلن تستردها..»
- «سمعًا وطاعة يا مولاي..»
قالها الفتى وهو يكاد يجنّ فرحًا..
إنه أول بشري ينجح في استعادة زوجته من (هيدز).. وفي الأغلب سيكون هو الأخير......
وجاءت (يوريديس).. جميلة كما وصفها وأكثر.. ويبدو أن الموت قد ناسب صحتها وزادها رقة وشفافية..
لكن الفتى لم ينظر إليها كما أمره (بلوتو)..
وفي صمت مشي ليركب الطوف جوار (شارون).. وصعدت الفتاة بدورها دون أن تنبس ببنت شفة.. وبدأ الطوف يبتعد عن الشاطئ ببطء ليغيب في الضباب..
هتفت (عبير) في مرح:
- «أنت لطيف يا (بلوتوتي)!»
قال (بلوتو) وقد استعاد عبوسه القديم:
- «نعم.. لكن من يتصور هذا؟ والآن لنعد إلى جولاتنا الممتعة.. لسوف أريك الآن حفرة النتن.. مصدر كل الروائح الكريهة في العالم!»
فما كادا يستديران حتى سمعت صوت المجداف من جديد..
كان (شارون) عائدًا بالطوف.. لكن الطوف لم يكن خاليًا.. كانت (يوريديس) تقف فوقه دامعة باكية!
هتف (شارون) وهو يربط الطوف إلى الشطّ:
- «الأحمق! كما هو متوقع لم يطق صبرًا.. أدار وجهه بشكل تلقائي كي يتأكّد من أن (يوريديس) تتبعه.. وفي الحال وجد نفسه ملقى جوار نهر (ستيكس) في عالم الأحياء، وعدت أنا بالمرأة إلى (هيدز) من جديد!»
هزّ (بلوتو) كتفه في لا مبالاة:
- «لقد قمت بالمطلوب مني.. ولست مسئولًا عن حماقته..»
يا للوعة! لقد فقد الفتى حبيبته للمرة الثانية برغم كونه قد استعادها أو كاد.. البشريّ الوحيد الذي استرد زوجته من عالم الموت.. والوحيد الذي فقدها بعد ذلك..
لكن المأساة لم تطل كثيرًا..

فحين عاد (شارون) من رحلته التالية كان (أورفيوس) بين راكبي الطوف.. وغادره هاشًّا باشًّا كأنما اشتاق (هيدز) كثيرًا!
سألته (عبير) في حيرة:
- «كيف عدت؟ هل تسللت مرة أخرى؟»
- «أوه! لا.. هذه المرة أنا هنا بشكل رسميّ.. لقد مُتّ! لم أتحمل الحياة بعد (يوريديس) وقتلني الوجد.. والآن.. بعد إذنك.. أين أنت يا (يوريديس)؟»
- «(أورفيووووس)!»
- «(يوريديييييس)!»
كانا يركضان نحو بعضهما على ضفة نهر (ستيكس) كما يركض (أحمد) نحو (مني) في الأفلام العربية الرديئة.. وتعانقا فتعالت صيحات الإعجاب والفرحة من حناجر الموتى.. وسالت دمعة تأثّر من عيني (شارون) أو - بعبارة أدق – من مجحريه الفارغين..
قال (بلوتو) وهو يرمق المشهد:
- «مؤثّر! إن (شارون) لمرهف الحسّ برغم شكله المخيف.. إن له قلب طفل»
قالت (عبير) متهانفة للبكاء:
- «سنيف! إن الحب لا يموت.. ما أجملها أسطورة!»
لكنها لم تكن تبكي تأثرًا فحسب.. كانت تبكي حالها.. متى ينتهي هذا الجزء المريع من حلمها؟ ومتى يعفو (دي - جي - 2) عنها؟

∞∞∞∞∞∞

كانت النجدة في الطريق..
ففي هذه اللحظات كانت الأم المكلومة (ديمترا) تقلب الأرض بحثًا عن صغيرتها (برسفونى) التي هي (عبير)..
وإلى قصر (زيوس) في جبل (الأوليمب) اتجهت، فلم تقرع الباب ولم تستأذن.. ودخلت في حزم إلى حيث كان (زيوس) متكئًا على مضطجع وثير، وجواره تجلس زوجته الأريبة كاسحة الشخصية (حيرا) تداعب طاووسها الأثير..
كانت (حيرا) قد فقدت وحشها العزيز (آرجوس) ذا العيون المائة منذ فترة، وعلى سبيل الحداد قامت بانتزاع عيونه ورشقها عينًا فعينًا في ريش طاووسها.. وهذا هو التفسير الذي وجده الإغريق للعيون المرسومة على ريش الطاووس في مؤخرة جسده..
قال (زيوس) في لطف:
- «مرحبًا (ديمترا).. تعالي واجلسي..»
هتفت (ديمترا) في حنق
- «لا سلام ولا كلام.. لقد عرفت مكان (برسفوني) أخيرًا..»
حك ذقنه الكثة المتشابكة.. وغمغم:
- «أحقًّا؟ أين؟»
- «عند أخيك (بلوتو) في (هيدز)! كان الوغد يبحث عن سلوى.. وقد وجدها!»
تبادل (زيوس) النظر وامرأته.. ثم قال في حيرة:
- «هذا يعقد الأمور.. لا أستطيع استردادها دون صدام مع أخي.. وأنا لن أخسر أخي من أجل......»

- «لكنها ابنتي!»
صاحت (ديمترا) في تنمر:
«ومن أجلها سوف أهدم العالم على من فيه..»
قالت (حيرا) في نعومة وهي ترسم على وجهها تعبير الاهتمام:
- «أنت على حق يا حبيبتي.. إن قلبي معك!»
- «لا أريد قلبك.. أريد عونك!»
قال (زيوس) في تؤدة:
- «دعينا نتعقل يا (دمتيرا).. إن أحدًا لم يعد من (هيدز) قط.. ولو أن (برسفوني) أكلت شيئًا من ثمرات هذا العالم فلن تغدو منا بعد اليوم.. وهي بالقطع أكلت..»
قالت (حيرا) متكئة على ساعدها:
- «اسمع يا (جوبتر).. أنت.....»
قاطعها:
- «لا تدعيني (جوبتر).. أنا أمقت هذا الاسم..»
- «ليكن يا (زيوس).. لِمَ لا تحاول الكلام مع أخيك؟»
- «سأحاول لكنه لن يقبل..»
كان من نوعية هؤلاء الرجال المسالمين ذوي الطبع البسيط، الذين ظفروا بزوجة قوية الشخصية ترغمهم طيلة الوقت على الشجار مع الآخرين، والتظاهر بحزم ليس من طبيعتهم.. كانت (حيرا) من طراز الزوجات اللائي لا يتدخلن في الصراع.. لكنهنّ يجبرن أزواجهن عليه إجبارًا، ويصارحنهم طيلة الوقت بأنهم يجب أن يتعاملوا بصلابة أكثر من هذه.....
قالت (ديمترا) مهددة:
- «لن يكون هناك ربيع إلى الأبد! دع عبيدك يموتون جوعًا وظمأ..»
هتفت (حيرا) في عصبية بصوت قوي النبرات:
- «أتهددينا؟ نحن لا نُهدّد يا حبيبتي! لو كان لك زوج قويّ الشخصية لعرف كيف يعلمك الأدب!!»
كاد الأمر يستفحل حين تدخل (زيوس) مهادنًا رافعًا يده:
- «لحظة.. لحظة.. لم لا تستعينين بأحد الأبطال لينقذها لك؟»
تساءلت (ديمترا):
- «بطل مثل مَنْ؟»
- «أي بطل إغريقي.. إنهم - ولله الحمد - يفوقون نجوم السماء عددًا.. هكذا لن أظهر أنا في الصورة.. لِمَ لا تستعينين ب. (ثيذيوس)؟»
هزّت (ديمترا) كتفها في قنوط:
- «إنه في المتاهة يبحث عن (المينوتور)..»
- «إذن عليك ب. (أطلس)..»
- «ومن يحمل الكرة الأرضية إذن؟»
- «و (برسيوس) و (هرقل)؟»
- «الأول يبحث عن (ميدوسا) الآن.. والثاني مشغول في تنظيف حظائر الملك (أوجياس)..»
- «يا للنحس! إذن من يصلح لهذا الغرض؟»
- «أنا يا مولاي!»

كان قائل هذا رجلًا فارع القامة يقف على مدخل القاعة.. كان برونزي اللون عاري الجذع يكشف عن أضخم عضلات رآها (زيوس) في حياته السرمدية.. وكان في يده درع نحاسية ضخمة وفي اليد الأخرى سيف هائل الحجم، وعلى رأسه خوذة طروادية من النوع الذي تخرج فرشاة من مؤخرته..

- «من أنت؟»

انحنى الرجل لتلمس ركبتاه الأرض.. وهتف:

- «أنا المحارب (بيرياسوس) من (كريت)..»

نظر (زيوس) إلى المرأتين في حيرة.. ثم غمغم:

- «لا أذكر أن هذا الاسم ورد في الأساطير الإغريقية.. على كل حال أيها المحارب.. هل تجد لديك الرغبة والقدرة في الذهاب إلى (هيدز) لإنقاذ (برسفوني)؟»

- «نعم يا سيدي.. سأعود بها سالمة معافاة..»

- «إن أحدًا لم يعد من (هيدز) قط..»

- «لأنهم لم يكونوا أنا!!»

مال (زيوس) على أذن زوجته (حيرا) وهمس:

- «ما رأيك؟ إن هذا المعتوه يبدو متحفزًا للقتال.. ربما كان قادرًا على ما يزعم عمله..»

- «على كل حال هو يبدو كالآخرين..»

رفع (زيوس) صوته مخاطبًا المحارب:

- «ولكن.. ما الذي يدفعك إلى هذه المخاطرة يا (بيرياسوس)؟»

احمرّ وجه المحارب تحت خوذته التي تغطي نصف وجهه.. وقال:

«إنني رأيت (برسفوني) في المرج مع صاحباتها.. وقد... أحببتها.. خطر لي أنني لو أنقذتها فلربما.... ربما.......»

- «تزوجتك؟»

ضحك المحارب في بلاهة خجول:

- «هئ.. هئ.. هئ.. ربما.......»

تأملته (دمتيرا) في ارتياب.. ثم تنهدت:

- «لا بأس.. إن زواجها منك لن يكون أسوأ من الموت.. إنني مستعدة لأن أزوّج ابنتي برغوثًا مقابل أن تعود إليّ..»

رفع المحارب سيفه العملاق في الهواء معلنًا تمام الاتفاق....

∞∞∞∞∞∞

6- التحدي..

كان الموتى واقفين على ضفة نهر (ستيكس) يندبون حالهم ويبكون، وهم ينتظرون قدوم الطوف الذي يقوده (شارون) النوتي تلميذ الجحيم..
امرأة شابة لا تكف عن العويل ولطم الخدين:
- «يا للحسرة! يا شبابي الذي ضاع هدرًا.. ليتك كنت هنا مكاني يا زوجي العزيز (أوركريس)!»
قال لها المحارب ضخم الجثة الواقف بجوارها:
- «تعنين ليته كان هنا معك؟»
- «بل ليته كان هنا مكاني!»
تفكر هنيهة في كلامها.. ثم غمغم في سأم:
- «إنك تحدثين ضوضاء توتّر أعصابي..لا أدري لماذا تملئين الكون ضجيجًا من أجل شيء تافه كهذا؟»
تأملت ثيابه الغارقة في الدماء.. وتساءلت:
- «هل قتلت في الحرب؟»
- «بل وأنا أقطف الزهور! طبعًا قتلت في الحرب..»
هنا كان الطوف قد وصل.. ويا له من مشهد رهيب!
(شارون) يقف - بابتسامة الموت الكريهة – على ظهر الطوف بينما الأمواج الدامية تهبط وتعلو.. ويهتف في القوم:
- «هلموا يا حمقى! فليصعد كل من أنادي اسمه..»
- «الويل!»
وراح يتلو أسماء القوم من قائمة يحملها.. فكلما سمع أحدهم اسمه صعد إلى ظهر الطوف الرهيب..
أخيرًا بقي الجندي وحده..
صاح الجندي في حيرة:
- «وأنا يا سيد (شارون)؟ لم تنادِ اسمي..»
نظر له (شارون) في حيرة بدوره، وأعاد تفحص القائمة.. أخرج عوينات من جيبه ثبتها على أنفه المجدوع وغمغم:
- «ما اسمك؟»
- «أنا المحارب (بيرياسوس) ابن (هيلانة) من (كريت)»
- «هم م.. هذا غريب!.. ليس اسمك هنا.. هل أنت واثق بكونك ميتًا؟!»
صاح (بيرياسوس) في حنق:
- «وهل أنا معتاد على المزاح معك؟ لقد اخترقت جسدي ستة رماح كاملة، ثم ربطوا جثتي إلى الخيول وجروها ميلين فوق الحصى.. أنا ميت جدًّا إذا صحّ التعبير..»
حاول (شارون) أن يعترض، لكن المحارب كان حانقًا غاضبًا يشعر بأنه قد تم التلاعب به.. هذه مشكلتكم لا مشكلتي.. لقد مُتّ والآن تأبى أن تأخذني إلى (هيدز).. ولا أحد يستطيع إعادتي إلى دنيا الأحياء.. أين أذهب إذن؟ أنا (لا مُنْتمٍ)..
- «ولكن.......»

- «ثم هل رأيت من قبل من يرغب في الذهاب إلى (هيدز) على سبيل السياحة؟ قد يفرّ المرء من عندكم لكنه بالتأكيد لا يفرّ إليكم..»
وهكذا لم يجد (شارون) البائس مفرًّا من إركاب هذا الميت المزيف على ظهر الطوف.. ما الضرر؟ هو لن يعود على أي حال..
وراح الموكب الحزين يتوارى وسط الضباب حيث لم يعد باديًا للعيان..

∞∞∞∞∞∞

كانت (عبير) هي أول من أدرك أن هذا المحارب العملاق، الذي لا يترك رائحة عفنة وراءه، له ظل على الأرض على نقيض الموتى الآخرين؛ هو كائن حيّ يرزق مثلها..



كانت (عبير) هي أول من أدرك أن هذا المحارب العملاق، الذي لا يترك رائحة عفنة وراءه، له ظل على الأرض على نقيض الموتى الآخرين..

أدركت كذلك أنه يحمل وجه (شريف) زوجها!

هذا يعني أن مغامرتها ستكون معه.. لقد عودها (دي جي - 2) على ذلك في قصتها مع غزاة

الفضاء ومع رعاة البقر..
ودنت منه خلسة لتعرف قصته..
فما إن رآها حتى تورد وجهه، وهتف بصوت واجف؟
- «(برسفوني)!»
- «لا تقل إن اسمك هو (الجوّال)..»
- «لا.. أنا (بيرياسوس) أشجع محاربي (كريت)..»
- «إن القبور تغصّ بالشجعان..»
- «لكني لست ميتًا..»
وتلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يصغي لما يُقال.. ثم أردف:
- «أرسلني (زيوس) لإنقاذك..»
قالت في مرارة:
- «سيكون هذا رائعًا لو أوضحت لى كيف..»
- «سنأخذ الطوف ونعود به..»
- «ألم تفهم بعد؟ لا أحد يمكنه عبور نهر (ستيكس) سوى (شارون).. وهو لن يفعل هذا لجمال منظرك..»
- «(بيرياسوس)!»
دوّي صوت (بلوتو) الجهوري الرهيب، فأجفل (بيرياسوس) واستدار ليرى الشيخ العملاق يقف عاقدًا ذراعيه على صدره في تحدّ.. ابتلع الفتي ريقه ووقف ينتظر كارثة ما..
قال (بلوتو) في هدوء منذر بالويل:
- «لقد تحققت من الأمر.. لا توجد حروب في (كريت).. ولم يمت المحارب (بيرياسوس) قط.. أنت متسلل! جاسوس أرسله (زيوس) أخي لخطف (برسفوني).. إن (شارون) الأحمق يشيخ ويزداد غباء.. تارة يحضر لى (أورفيوس) وتارة يحضر لى (بيرياسوس)..»
تصلب جسد المحارب، وقد أدرك أنه ضائع لا محالة.. من ثَمَّ أزمع أن يكون تحديه كاملًا:
- «يا سيد الظلام.. جئت هنا كي آخذ (برسفوني).. ولن تقدر على منعي..»
اتسعت عينا (بلوتو) المخيفتان ولم يدر ما يقول.. حين يتضاءل حجم من يتحدّاك إلى حدّ لا يوصف، يرتج عليك القول وتعجز عن الردّ عليه.. كذلك المشهد الذي أداه (محمد صبحي) باقتدار وهو يواجه القزم الذي يردّد: (ماتقدرش!)..
حين استطاع - أخيرًا - أن يتكلم.. قال في حنق:
- «ألم تفهم بعد أنك ضائع أيها البشري؟»
- «لكني أتحدّاك..»
هنا برز (شارون) وحوله رهط من الزبانية يحملون السياط والمناجل الحديدية.. وراح الكلب (سيربيروس) ينبح فيتساقط الزبد من أشداقه الأربعة ليحرق الأرض.. وقال (شارون) وهو يشمر عن ساعديه العظميين:
- «هل نحوله إلى (كفتة) الآن يا ريس؟!»
احتضن المحارب (برسفوني) ليحميها.. وشهر سيفه..
هنا صاح (بلوتو) رافعًا ذراعه:
- «لحظة يا شباب.. لقد بدأ هذا المعتوه يروق لى.. إنني أحب هذه الرومانسية البلهاء.. المحارب الجسور يخوض الوغى من أجل حبيبته.. هل تظن حقًّا يا (بيرياسوس) أنك قادر على

حمايتها؟»
- «بالتأكيد.. أو أموت دونها..»
انفجر (بلوتو) يضحك.. يضحك فتهتز أشجار الثعابين.. يضحك فتندلع النيران من آبار التعذيب..
يضحك فتتعالى صرخات الأشباح..
- «إنه يحسب.. هاهاهاه! يا له من سااااا.. هاهاهاه.. ذج!.. هي هي هي! عنفوان الشباااا.. هه هه هه!»
أخيرًا مسح دموع الضحك من عينيه.. وقال بصوت حادّ:
- «حسن.. إنني أمنحك فرصة..»
- «وما هي؟»
- «ستعود إلى دار الأحياء مع (برسفوني)! لكنك - قبل هذا - ستمّر بها عبر أهوال لا تصدق.. عشرة أهوال هي أبشع ما ورد في الميثولوجيا الإغريقية..»
- «(ميثولو.....) ماذا؟»
- «ميثولوجيا.. لا عليك.. هذا هو ما سيسمون ما نحن فيه بعد قرون.. والآن سيكون عليك تخرج من كل هذه المآزق حيًّا ومعك (برسفوني) حية هي الأخرى.. وأنا أراهنك على أنك ستفقدها وستعود إليّ لأنها ملكي..»
بدا الرضا على (بيرياسوس) فخفض سيفه.. وتبادل نظرة مع (عبير).. ثم تساءل:
- «وإذا ظلت حية واجتزنا كل شيء؟»
- «عندئذ تكون لك إلى الأبد..»
- «لا بأس.. أنا موافق...»
قال (بلوتو) وهو يفرك كفيه متلذذًا:
- «أنت تحسب الموت قابلًا لأن تتحدّاه.. وتحسب الحبّ لا يموت.. وتحسب أن حبيبتك ستنجو لأنك تريد هذا.. كل هذا الهراء الذي ملأ به شعراؤنا (فرجيل) و (هوميروس) رأسك.. لكنك ستزداد حكمة يا عزيزي (بيرياسوس).. أعدك أن تزداد حكمة!»
قال (بيرياسوس):
- «وإذا ساعدني (زيوس) أو أحد سادة (الأوليمب)؟»
- «آه.. لا بأس لا بأس.. هذا سيزيد متعة المشاهدة..»
ونظر إلى (شارون) وصاح في ضيق:
- «ماذا تنتظر يا كالح الوجه؟ خذ هذين العزيزين إلى طوفك!»
لم يبد (شارون) على استعداد لقبول هذه التحولات، لكنه صدع بالأمر.. وسأل (بلوتو) قبل أن يرحل:
- «أآخذهما إلى دنيا الأحياء؟»
«كلا يا أحمق.. خذهما إلى (أنتيوس) أولًا!»
وكان هذا مخيفًا..
في الصفحات القادمة نعرف من هو (أنتيوس) هذا.....

∞∞∞∞∞∞

7- من أجل (برسفوني)..

أوصلهما (شارون) إلى الشطّ، وتمنى لهما حظًّا سعيدًا، وليته ما تمنى؛ لأن أمنيات وجهه الكالح تغدو كوارث على الفور..
وسرعان ما غاب الطوف في الضباب..
وفي وجدانها خطر لـ(عبير) أنه مهما بلغ من وعورة ما سيلقيان، فهو خير من (هيدز) المقيتة..
ثم إنها لم تكن تشعر بغربة ولا خوف مع (بيرياسوس)، كتلة العضلات وسلاح الدمار الشامل هذا..
إن وجهه القسيم الذي اقتبسه من وجه (شريف) زوجها ليبعث الألفة والرضا في روحها.. ففي هذا العالم تغدو المشكلة أن القادرين على حمايتك من الخطر؛ هم خطرون في حدّ ذاتهم.. لكن هذا المحارب الكريتي يحبها حقًّا.. ويجلّها حقًّا.. ولن يؤذيها حتمًا..
لله ما أروع الأحلام!
هي ذي تلعب لعبة جديدة شائقة.. اليوم هي أميرة إغريقية يهيم بها أحد أبطال الأساطير غرامًا، ويدافع عنها بسيفه مستعدًّا للموت مقابل بسمة منها..
في عالم الواقع لن يحدث أبدًا أن يقبل أي صعلوك الإصابة بالزكام مقابل حمايتها من الموت......
إن هذا... كلاب!.. كلاب !.. كلاب !..
صوت حوافر جواد...
والتفتت هي ورجلها نحو مصدر الصوت، ليسمعا - قبل أن يريا - صوت وحش يزأر..
وحين رأت مصدر الصوت أدركت أنه كائن غريب.. رجل في نصفه العلوي له ملامح وجه مشوهة، وشعر أشقر خشن يغمر وجهه كأنما غطى رأسه بحزمة كتان..
أما نصفه السفلي أو الخلفي فكان على شكل جسد حصان.. حصان كامل يركض على حوافر أربعة..
ولكنه بدون رأس..
كان النصف العلوي مكتنزًا بالعضلات، ويحمل رمحًا يقذفه في وضع رياضي على مجموعة من الأيل المذعورة..
واستقر الرمح في خاصرة إحداها، فهوت أرضًا تتشحط في دمها.. وضرب الكائن المفزع صدره بقبضتيه كالغوريللا.. وأطلق زئير انتصار مريعًا، دوّى في الآفاق:
- «هياااااااااااه !!»



واستقر الرمح في خاصرة إحداها، فهوت أرضًا تتشحط في دمها..

هتفت (عبير) وهي تمسك بذراع (بيرياسوس):

«(بيرياسوس)! لا أعرف كنه هذا الشيء.. لكن قلبي يحدثني بوجوب الفرار من هنا..»

قال لها في لا مبالاة باسمة:
- «هل هذا يثير فزعك؟ إنه (شيرون)!»
- «تعني (شارون)؟»
- «بل (شيرون).. (السنتور) أو (القنطورس) كما يحلو لبعض المترجمين العرب أن يسموه..»
ثم نقر على صدره في فخر:
- «إنه من علّم كل الأبطال الإغريق فنون السيف.. علّم (هرقل) و (أخيل) وسواهم.. وبالطبع علّمني.. إنه ليوم سعد! على كل حال، معنى هذا أننا في شمال غرب إفريقيا.. قرب جبل (طارق) كما سيسمونه بعد فتوح العرب..»
ثم أطلق صيحة داوية ينادي بها (السنتور):
- «أو هييه! (شيرون)! أنا (بيرياسوس)!»
اندفع الوحش يخبّ بحوافر الحصان على الكلأ، قاصدًا (عبير) والمحارب..، وعلى وجهه – الشبيه بوجه الحرباء - ارتسمت علامات الإعجاب واللهفة..
شيء ما شبيه بهما.....
وارتمى (بيرياسوس) في حضن (السنتور) كريه الرائحة يعانقه.. ويربّت على كفله.. وراح الحافر الأمامي يضرب الأرض في فرحة..
- «أوهيااااه هووووه هووااااه!»
- «نعم نعم.. وأنا كذلك يا عزيزي.. ولكن هل سمعت عن عملاق يُدعى (أنتيوس)؟»
- «أوهاااه هيوووهااااااه!»
- «آه! خطر إلى هذا الحدّ؟ لقد جئت كي أقتله!»
- «نياهاهاهاهاهاه!.. هي هي هي!»
- «ربما أنا كما تقول.. لكني مصمم على المحاولة.. أنت تعرفني..»
- «هيااااااااه.. واه واه.. هي ي ي!»
التفت (بيرياسوس) إلى (عبير) ليفسر لها هذه الكلمات:
- «يقول إن (أنتيوس) هو مارد أجير لدى قوم من الأقزام.. وهو يأخذ راتبًا لا بأس به من أجل حمايتهم..»
- «آهي آهاه!»
- «يقول كذلك: إن المفترض أن (هرقل) هو من سيقتله.. لكن الاختيار وقع علينا نحن..»
وهنا اهتزت الأرض تحت خطوات عملاق يدنو، وأطلق (شيرون) عنانه موليًّا الأدبار..، وأيقنت (عبير) أن القادم هو (أنتيوس).. ولم يعد لديها شك الآن حين رأت رأسه الرهيب العملاق يبرز في الأفق..
كان قادمًا من أجلهما.......
- «(بيرياسوس).. دعنا نهرب!»
- «وتعودين لـ (بلوتو)؟ هذا لن يكون!»
في اللحظة التالية هوت كفّ (أنتيوس) على الأرض جوارهما، لتهشم الصخور التي عليها يقفان.. وارتمى الكائنان الضئيلان جانبًا ليتفاديا محاولة أخرى..
قال (بيرياسوس) لاهثًا:
- «المشكلة هي أن (هرقل) يماثله في الحجم.. أما نحن فنملتان بالنسبة له..!»
راح الاثنان يتسلقان الجبل محاولين الفرار من يد هذا الـ (أنتيوس).. لكن المحاولة لن تكون

سوى إطالة للنهاية.. فلن يلبث أن يصعد وراءهما.. وعندئذ.....
بالفعل تشبث (أنتيوس) بالصخور بكلتا قبضتيه، ورفع قدميه عن الأرض وهو يزأر كالبركان، لكن صرخات (عبير) كانت أقوى! وفجأة وهنت قبضته وتراخت.. وسقط..
هتف (بيرياسوس):
- «هل فهمت؟ إنه يستمد قوته من أمه الأرض (جي).. وحين يرفع قدميه عنها يضعف.. إنه يكون في كامل عنفوانه حين تلامس قدماه الأرض.. وهذا معناه أن خلاصنا ممكن!»
كانت هناك حبال غليظة.. من أين جاءت؟ لا يهم.. المهم أنها كانت هناك.. وسرعان ما راح (بيرياسوس) يربط أطراف حبلين غليظين إلى الصخور.. ثم صنع أنشوطتين من الطرفين الحرّين للحبلين.. وأمسك واحدة وناول الأخرى ل (عبير):
- «هيا.. إن التزامن مهم جدًّا.. سأصوب الأنشوطة إلى معصمه الأيمن حين يمده نحونا.. وأنت عليك بالمعصم الأيسر..»
وارتفعت يد (أنتيوس) نحوهما تحاول الظفر بواحد منهما أو كليهما معًا.. لكن أنشوطة (بيرياسوس) انطلقت لتلتف حول معصم العملاق.. اهتزت الأرض وارتجت لكن المعصم ظلّ معلقًا.، وفي اللحظة التالية طارت أنشوطة (عبير) لتلتف حول المعصم الأيسر..
لقد حوصر العملاق! هو ذا يتدلى من معصميه مربوطًا إلى قمة الجبل.. وقد ابتعدت قدماه عن الأرض..
راح يطلق صرخات رهيبة.. تزداد وهنًا.. فوهنًا.. حتى خرس تمامًا..
عندها استجمع (بيرياسوس) شجاعته، وهبط في الصخور حتى وصل إلى مستوى عنق العملاق.. وأولج سيفه في عروق رقبته النافرة.. وفي الوادي احتشد نهر من الدماء الحمراء القانية..
كان هذا هو الخطر الأول من أخطار (بلوتو)..
لقد اجتازاه بنجاح..

∞∞∞∞∞

كان هناك جبل شامخ يحجب البحر عنهما – لكنه كان مليئًا بالفجوات الضخمة التي تفصلها أعمدة يعلو بعضها بعضًا..
بدا المشهد غريبا ل (عبير)، فقال لها (بيرياسوس):
- «هذا هو ما نسميه أعمدة (هرقل).. وستسمونه أنتم - يومًا ما - (بوغاز جبل طارق).. كان (هرقل) يحاول الوصول إلى (أطلس).. لكن هذا الجبل كان يعترض طريقه.. من ثم استشاط غضبًا وراح يضربه بمجمع قبضتيه حتى فتح هذه الفجوات فيه.. وهي التي سنعبر منها..»
وعبرا أعمدة (هرقل) التي وصفها كل الجغرافيين العرب في الماضي؛ لكنهم لم يحكوا قصتها.. كان العرب يتعاملون بحذر مع التراث الإغريقي، ولم يترجموا منه إلا أقل القليل.. لأنه تراث وثني قائم على تعدد الآلهة إلى حدّ كبير..
على الناحية الأخرى من الأعمدة كان هناك مشهد مألوف إلى حدّ ما برغم غرابته..
العملاق المليء بالعضلات، والذي يقف حاملًا الكرة الأرضية وقد تقوس ظهره، وأوشكت الدماء أن تنفجر من شرايينه..
- «هذا هو (أطلس)!»
فتحت (عبير) فاها في ذهول، وبللت شفتيها الجافتين بلسانها.. وبصوت مبحوح قالت:

- «مشهد رهيب! ولكن - إذا كان ما يحمله هو الكرة الأرضية - ما الذي نقف عليه إذن؟!»
قال (بيرياسوس) في لامبالاة:
- «المفترض أن (أطلس) لا يحمل الكرة الأرضية.. عمله أساسًا هو حمل السماء حتى لا تسقط فوق رءوسنا.. لكن خيال الشعراء والمثالين والنحاتين رأى أن يحمل (أطلس) الكرة الأرضية.. هذا خطأ شائع.. لكنه صار عسير التصحيح..»
ثم دنا من العملاق.. وأقرأه السلام:
- «سلام يا (أطلس).. أنا (بيرياسوس) المحارب ومعي (برسفوني) ابنة (دميترا).. نحن عائدان من (هيدز)..»
نظر (أطلس) نحوهما دون أن يجرؤ على إدارة عنقه.. اكتفي باستعمال عينيه.. وقال بعد هنيهة:
- «أنباء مثيرة.. لكنها لا تعنيني..»
ثم - كأنما تذكر - هتف في اهتمام:
- «عائدان من (هيدز)؟ إذن أنتما المعتوهان اللذان....؟ إن لدي رسالة لكما من (شارون).. يقول لكما إن عليكما تحرير أخي الحبيب (بروميثوس)..»
- «(بروميثوس)؟ لكنه في (القوقاز).. ونحن هنا في شمال إفريقيا..»
قال (أطلس) وهو يشير بعينية إلى الوراء:
- «لهذا جلب لكما (بيجاسوس)!»
(بيجاسوس)؟ ونظرت (عبير) إلى الوراء لتراه.. الجواد الأبيض المجنح رائع الجمال.. يرفع عنقه في شمم ويحفر الأرض بحافر قدمه الأمامية.. ويصهل.....
قال (أطلس) وهو يصلح وضع الكرة الأرضية فوق كتفيه:
- «يمكنكما استعماله للذهاب حيثما تريدان.. ولكن قل لي أيها الزميل.. هل معك لفافة تبغ؟؟»
- «معذرة.. فهي لم تخترع بعد..»
- «اللعنة! إنني أنتظرها منذ أربعة قرون.. ولا أستطيع ترك الكرة الأرضية، وإلا بدأت الزلازل والفيضانات.. حسن.. يمكنكما الرحيل الآن.. وأبلغا تحياتي إلى أخي..!»
- «لك هذا يا (أطلس)..»
واتجه (بيرياسوس) إلى الحصان.. فوثب فوق ظهره دون جهد.. وإن راح الجناحان الأبيضان يهتزان في توتر..، ودعا (عبير) إلى أن تصعد خلفه.. لم يكن هذا عسيرًا عليها؛ لأنها وقعت في غرام الحصان من النظرة الأولى..
- «هيا يا (برسفوني).. تشبثي بظهري..»
كانت حاملًا في شهورها الأولى.. لكن هذا في أرض الواقع.. بالتأكيد لا يوجد إجهاض في (فانتازيا) حتى لو ركبت الحامل صهوة حصان.. وحصان مجنح كذلك!!
لوّح (بيرياسوس) بسيفه في الهواء، وبدا (عبير) تتشبثان بخصره، فبدا كأفيش أحد أفلام الأساطير.. وصاح بصوت زلزل أعمدة (هرقل):
- «إلى القوقااااااااز..!»

∞∞∞∞∞



لوّح (بيرياسوس) بسيفه في الهواء، ويدا (عبير) تتشبثان بخصره..

8- (برومثيوس).. (سيزيف)..

وأشياء أخرى أكثر من أن أتذكرها!

رائع هو مشهد (إفريقيا) وقد تحولت إلى سجادة عند قدميك.. ثم جنوب (آسيا).. فشمالها.. ثم القوقاز..

الجبال الشامخة في كل مكان، والجوّ يزداد برودة..

تلتصق (عبير) بظهر فارسها، وتسأله وأسنانها تصطك:

- «بررررر ! م.. من هو (برررررميثوس)؟.. بررر! ول.. لماذا هو سسسسسسجيييين؟!»

وتساءلت في سرها: كيف يحتمل (بيرياسوس) أن يظل عاري الصدر في هذا الطقس؟ لكنها كانت تعلم أن الأبطال الإغريق لا يصابون بالالتهاب الرئوي أبدًا.. يواجهون العواصف والسيول بعضلاتهم العارية.. ولم يحدث أن شكا أحدهم من الزكام.. لو حدث هذا لحكاه (هوميروس)..

قال لها (بيرياسوس):

- «إن (برومثيوس) هو نموذج البطل اللامعقول.. البطل العبثي مثله مثل (سيزيف) الذي سيكتب (ألبير كامي) كتابًا كاملًا عنه.. هناك قصيدة عن (برومثيوس) كتبها شاعركم التونسي العظيم (أبو القاسم الشابي).. هل قرأتها..»

- «رررر.. ريبببماااااا..»

- «لقد كان (برومثيوس بن يابتوس) عملاقًا أحب البشر.. لهذا قرر أن يهدي البشر أعظم اختراع عرفوه: النار.. ولم يكن هؤلاء يعرفون النار كانت حكرًا على آلهة (الأوليمب).. لكن (برومثيوس) سرقها.. ووضعها في معبد (دلفي) حيث تحافظ عليها العذارى.. وعلى كل من يريد قبسًا من النار أن يجلب وعاء إلى المعبد ليأخذ فيه بعضها..»

- «ع.. ع..ع.. عمل.. خيّيّيّيّر !»

- «لم ير (زيوس) رأيك هذا.. لقد جُنّ غضبًا وقرر أن يعاقب (برومثيوس) عقابًا أبديًا خالدًا.. أحضروه له مكبلًا بالأصفاد، فأمر أن يعلقوه بين جبلين من جبال القوقاز..، ثم سلط عليه رخًا عظيمًا ينوشه، ويمزق كبده ثم يلتهمه، ويفارقه إلى غد.. وفي الليل تلتئم جراح (برومثيوس) وينبت له كبد جديد..، ويعود الرّخ في الصباح ليواصل مهمته المشئومة ويتكرر المشهد أحقابًا فأحقابًا دون توقف!»

- «عقااااااب ب.. شنيييييع!»

ضحك (بيرياسوس) في مرح، وهتف:

- «إنه ليس أسوأ عقاب في الأساطير الإغريقية.. خذي عندك - على سبيل المثال - عقاب (ميدوسا) التي مسخها (زيوس) إلى وحش مريع شعره أفاع ونظرته تحيل البشر أحجارًا..»

ثم أشار لها إلى الوادي الذي فوقه يطيران:

- «انظري! هو ذا عقاب آخر..»

كان هناك رجل يقف عند سفح أحد الجبال، ومعه صخرة عملاقة.. ورأت (عبير) الرجل يبذل جهدًا جهيدًا لدحرجة الصخرة إلى قمة الجبل، بعد لأي استطاع أن يصل إلى هناك، وهنا انزلقت الصخرة لتهوي من فوق القمة إلى أسفل..، وعاد الرجل - البائس - يهبط الجبل ليبدأ

مهمته الكئيبة من جديد..
- «إنه (سيزيف)!»
قال (بيرياسوس) في استمتاع:
- «يمرّ بالتعذيب المروع الأبدي الذي أجبره عليه (زيوس).. هذا هو البطل العبثي الحق.. البطل اللامعقول.. إنه يقوم بمهمة لا جدوى منها أبدًا لكنه يمارسها دون كلل.. كل هذا الكفاح لن يُكلّل بالفوز وهو يعلم ذلك لكنه يكافح.. لقد كتب الفيلسوف الفرنسي (ألبير كامي) كتابًا كاملًا بعنوان (أسطورة سيزيف).. يقول فيه إننا جميعا نحارب في الحياة بلا جدوى كلنا (سيزيف)..»
ارتفع الحصان المجنح لأعلى.. ثم عاد يهبط قرب مجرى أحد الأنهار، وبالتالي استطاعت (عبير) أن ترى الرجل الذي يحاول أن يشرب من النهر.. لكن الماء يتراجع مبتعدًا عنه، يحاول نفس الرجل أن يقتطف ثمرة من غصن شجرة.. لكن الغصن يرتفع بعيدًا عن متناول يده..
- «هذا فنّ آخر من فنون التعذيب الإغريقي..»
قالها (بيرياسوس) مواصلًا الشرح:
- «هذا البائس هو (تنتالوس) ملك (فريجيا) الذي عاقبه (زيوس) بهذه الطريقة الفريدة.. إن عذابه لعبقري، ولسوف يتذكر أحد الكيميائيين السويديين هذا العذاب يومًا ما - عام 1802 م – وهو يحاول استخلاص أحد الفلزات الجديدة من أكسيدها..

5

لهذا سيسمي الفلز باسم (تنتالوم) لأنه تعذّب بسببه كثيرًا !»
فما إن أنهي جملته؛ حتى دوي الصدي يردّد آخر لفظة قالها:
- «كثيرًا.. ران.. ران.. ران.. ران!»
قال لـ (عبير) وهو يشير إلى بقرة تمشي في الوادي تحتهما:
- «هذه البقرة كانت فتاة حسناء أحبها (زيوس) وأثارت غيرة (حيرا) زوجته..»
- «زوجته.. ته.. ته.. ته.. ته!»
- «لهذا مسختها بقرة.. وحكمت عليها بأن تردّد آخر كلمة من أي كلام تسمعه.. وأطلقت عليها اسم (إيكو).. ومن يومها والصدي معناه (إيكو) في أغلب اللغات اللاتينية..»
- «لاتينية.. يّه.. يّه.. يّه!»
قالت (عبير) من بين أسنانها:
- «إنننك واسسسسع العععملم.. للكن ههلا وجدتتت.. هذا الـ (برومثيروس) الآآن قبل أن أتتتجمد؟..»
- «لك هذا يا ملاكي.. لقد وصلنا بالفعل!»
ومن بعيد تبدي المشهد المروع..
كان هناك عملاق يقف، وقد تدلّى جسده من ذراعيه.. والذراعان مربوطتان بجنازير حديدية غليظة إلى قمتي جبلين..
والعملاق يحاول التملص من أسره دون جدوى..
كوااااااااااك!
ارتجت الجبال من صيحة الطائر الرفيعة المدوية الشريرة، وسرعان ما رأيا الرّخ.. أشبه بنسر عملاق تبدو عليه الشراسة والإجرام، كان قادمًا من وراء القمم النائية..
ورأياه - في ذعر - ينقض على (برومثيوس)، وراح بمنقاره العملاق يمزق جدار بطنه.. الدم ينتثر في كل صوب.. صرخات البطل تدوي.. الرّخ يمد منقاره لينتزع كبد (بروميثيوس)..

يرفع رأسه إلى السماء ليحسن الازدراد.. ثم يطلق صرخة مريعة.. ويفرد جناحيه ليحلق مبتعدًا..
كانت (عبير) على وشك التقيؤ من هول المشهد..
أما (بيرياسوس) فقد ألقي دعابة على سبيل تخفيف التوتر العام:
- «بواه! إن هذا المشهد كفيل بجعلك تكرهين شطائر الكبد طيلة حياتك!»
لكنها لم تبتسم..
قال لها وهو يمتشق حسامه، ويجذب لجام (بيجاسوس) كي يهبط إلى الأرض بعد رحلته الطويلة:
- «مهمتنا الحالية هي تحرير (برومثيوس)..»
أرجل الحصان الأربعة تلامس الأرض، يطلق صهلة أخيرة ثم يطوي جناحيه إلى جانبيه، يهبط البطلان الذكر والأنثى مترجلين.. ويمشيان إلى حيث يقف (برومثيوس) التعس بين الجبلين..
عملاق هو.. حتى إن إصبع قدمه الكبير كاد يقارب طول (بيرياسوس).. لكنه كان يتأملهما من علٍ معدوم الحول والقوة، وقد أغمض عينيه وتدلّى رأسه على صدره في إنهاك..
هتف (بيرياسوس) في مرح:
- «هيه يا (برومثيوس)!.. كيف حالك؟»
سمع العملاق الصوت ففتح عينًا واحدة يرى بها من هنالك.. ثم رأي ألا أهمية للأمر فأغمضها ثانية..
وغمغم:
- «كيف ترى حالي يا أحمق؟ إن الكبد الممزق لا يجلب كثيرًا من السعادة لصاحبه على ما أظن..»
- «جئنا لنحررك..»
- «نية حميدة.. ولكن كيف؟»
- «قد رحل الرخّ ويمكننا أن نتدبر الأمر..»
- «لن يلبث أن يعود.. يحتاج إلى فترة لهضم كبدي.. هذا هو كل شيء..»
- «على كل حال لدينا وقت كاف..»
واتجه إلى سرج الجواد فأخرج قربة من الجلد ملأى بسائل.. ثم اعتلى صهوة الفرس، ولكزه بكعبيه، فارتفع الحصان في الهواء وهو يرفرف بجناحيه.. حتى دنا من وجه العملاق (برومثيوس).. فتح (بيرياسوس) القربة، ودنا بها من فم (برومثيوس)..
- «هذا السائل هو كحول نقي.. سأصبه في فمك لكن لا تبتلعه.. عليك أن تحتفظ به هناك وتبصقه حين أقول لك..»
- «ولكن.. جلوك جلوك!»
حاول (برومثيوس) الاعتراض.. لكنه إذ فتح فاه وجد عشرات الجالونات من الكحول تملؤه..
فراح يحاول الاعتراض بعينيه.. فقلبه..
وشرح له (بيرياسوس) تفاصيل الخطة.. فهزّ هذا رأسه موافقًا..
بعد دقائق كان الوضع مستق......
كوااااااااك!..
لقد عاد الرخّ.. عاد ليواصل مهمته الشنيعة..
وفي ثانيتين كان هناك عند بطن (برومثيوس) الدامية.. يوشك أن ينتزع بمنقاره المزيد من لحم الكبد..

- «الآن!»
صرخ (بيرياسوس) بأعلى صوته، فسمعه (برومثيوس).. وفتح فاه ليبصق الكحول كله على الرخّ، الذي ابتل ريشه كفرخ صغير تلوث بالمحّ وهو يغادر بيضته..
في اللحظة التالية انطلق (بيرياسوس).. بحصانه المجنح، حاملًا شعلة عملاقة في يده؛ انطلق نحو الرخّ، وحام حوله.. ثم أحكم التصويب ورماه بالشعلة.. ويالهول المنظر!
ليتكم كنتم هناك لتوفروا عليّ عناء الوصف..
لقد استحال الرخّ إلى كتلة عملاقة من النيران، وارتفع إلى عنان السماء بينما قذائفه وشظاياه تطير في كل حدب وصوب.. لقد غدا القوقاز جزءًا من جهنم.. حفلًا لألعاب نارية يديرها مخرج مجنون.. وارتفعت الشعلة إلى السماء ثم هوت بسرعة جنونية لتصدم الأرض، وراح الدخان يتصاعد منها.. وهمدت تمامًا.....
لقد هلك الرخّ!
لوح (بيرياسوس) بسيفه وأطلق صيحة نصر داوية، راحت تتردد في أرجاء القوقاز..
ثم هبط بجواده.. وأشار إلى (عبير) كي تلحق به فوق صهوة (بيجاسوس)، وجذب العنان ليرتفع الحصان إلى أعلى..
صاح (برومثيوس) في فرح:
- «أحسنت صنعًا أيها المحارب.. أنت إذن مخلصي.. ولكن هلا فككت هذه الأصفاد عن معصمي؟»
هتف (بيرياسوس) وهو يدور بجواده حول رأس البطل الأسير:
- «هي قيود صبها (هيفايستوس) ذاته يا (برومثيوس).. وبالتالي أنا عاجز عن خدشها.. ربما كان الأوفق أن تنتظر حتى يأتي (هرقل) ليحررك.. فهو قادر على انتزاع الجبلين من مكانهما لو شاء!»
- «لكن.......»
- «أنت الآن في مأمن من الرخّ.. لن تعاني آلام تمزق الكبد ثانية.. هذا كان بالنسبة لى..»
كان يصيح بعبارته الأخيرة، بينما (بيجاسوس) يبتعد في الأفق عن مسرح الحادث، ودخان الرخّ المحترق يحجب المرئيات عن عيني (برومثيوس) الذي صار آمنًا لكنه لم يصر حرًّا بعد........

∞∞∞∞∞∞

قالت (عبير) وهي تتأمل قمم الجبال تركض تحتها:
- «إذن نجا (برومثيوس) بفعلته..»
قال لها وهو يداعب عنق الجواد الجميل:
- «ليس تمامًا.. سيجد له (زيوس) عقابًا أسوأ فيما بعد.. سيرسل له امرأة.. امرأة تحوي جمال الزهور ومكر الثعالب.. اسمها (بندورا).. وهي التي ستعرف كيف تذيقه الأهوال.. إن المرأة هي أشنع وأقسى ألوان التعذيب طرًّا!»
ثم صمت هنيهة مفكرًا قبل أن يقول:
- «والآن.. ماذا يريد (بلوتو) منا هذه المرة؟»

∞∞∞∞∞∞

في هذه اللحظة في مستنقعات (ليرنا)..
كانت هناك حركة غير مريحة..

الرجل الذي يحمل مصباحًا في يده، ويمشي في حذر محاولًا ألا يغوص في الوحل فتكون نهايته..
كان يبحث عن شيء ما..
وهنا توقف وقد شعر بأن الماء يتحرك بجواره..
تصلب واستدار يتفقد المكان بمصباحه.. لا شيء سوى الطحالب على صفحة المياه تلتمع في دائرة الضوء الأصفر الشاحب..
واصل السير لحظات.. بعدها سمع الصوت ذاته..
استدار رافعًا المصباح ليزيد من دائرة الضوء..
الماء ينشق.. وشيء يخرج منه.. شيء جدير بعالم الكوابيس التى تصحو منها تلهث، والعرق يغمر وجهك..
فما إن رأى الرجل المشهد حتى رمي المصباح، وصرخ:
- «رحماك يا أبي (أورانوس)! إنه (هيدرا)!»
كان الرجل محقًّا للأسف......
بالفعل هذا هو (هيدرا).....

∞∞∞∞∞∞∞



فما إن رأى الرجل المشهد حتى رمي المصباح، وصرخ:
- « رحماك يا أبي (أورانوس)! إنه (هيدرا)! »

9- (هيدرا) وما إلى ذلك!

في ضوء الشفق سرى الموكب الكئيب..
كلهم متجهم الوجه مكفهرّه.. شاخص البصر.. ذاهل النظرات، بعضهم تلوث بالدم.. وبعضهم تلوث بالمرض، بعضهم يرتدي أفخر الحرائر، وبعضهم يرتدي أسمالًا مهلهلة.....
لكنهم جميعا موتى..
وفي المقدمة يمشي (شارون) كقائد كتيبة يتقدم جنده، وقد راح يلوح بعصا، هي عظمة فخذ، زيّنها ونقش عليها حروفًا لاتينية..
الموكب يتقدّم..، ولقد لمحه بعض الفلاحين العائدين من حقولهم فأشاحوا عنه ببصرهم وقد خشوا أن يأخذ (شارون) أحدهم، ولمحه طفل يلعب فصاح مذعورًا وهرع إلى أمه يسألها عما رآه، ولمحته بعض الغيد اللواتي خرجن لرؤية الشفق.. فأطلقن الصرخات ورحن يركضن بين الحقول مبتعدات..
ولمحه (بيرياسوس) وهو فوق صهوة جواده المجنح و (عبير) خلفه.. فجذب عنان الجواد ليهبط قليلًا.. ويحوم فوق الموكب الرهيب.. ثم يصيح بأعلى صوته:
- «هيه! (شارون)! قد أنجزت عملين من أعمال مولاك»
قال (شارون) دون أن ينظر لأعلى:
- «أعرف هذا يا (بيرياسوس).. أعرفه.. هل تظننا نلهو في (هيدز) أو ننام على آذاننا؟ إنك تحقق نجاحًا معقولًا.. لكن (بلوتو) يريد منك أن تقصد مستنقعات (ليرنا) لتقتل الـ(هيدرا)..»
- «هذا لن يكون عسيرًا..»
- «بالعكس.. إن هذا الطابور الذي أتقدمه هو من ضحايا الـ(هيدرا)!»
ثم واصل المسير، وهو يردّد في صوت رتيب:
- «أتمنى لك حظًا سعيدًا.. نحن بانتظارك في (هيدز) بفارغ الصبر أنت وفتاتك!»
- «ومن قال إنني أنوي الذهاب هناك؟»
- «الكل يذهب هناك حتى ولو بلغ الجبال طولًا..»
وارتفع (بيجاسوس) براكبيه مبتعدًا عن الوادي الدامي..
- «إلى (ليرنا) أيها الحصان الوفيّ.. هيّا!»
ودنت (عبير) من أذن (بيرياسوس) لتسأله في قلق:
- «ما هو الـ(هيدرا) هذا؟»
- «ألم تدرسي (الجوفمعويات) في المدرسة؟»
- «نعم لم أدرسها.. أنا حاصلة على دبلوم تجارة..»
- «بالتأكيد سمعت عنها وإلا ما دار هذا الحوار بيننا.. (الهيدرا) هو - في الأساطير الإغريقية - أفعوان أرقم هائل الحجم.. وله سبعة رءوس، لقد أطلق العلماء ذات الاسم على أحد الحيوانات البحرية من رتبة الجوفمعويات.. لأن له أقدامًا كثيرة تبدو كرءوس..»
- «إن أساطيركم تُستخدم كثيرًا في مجال العلوم..»
- «هذا حق.. لسوف تسمعين في كتب التشريح عن (هيرما فروديت) ورأس (ميدوسا).. وفي كتب علم الحيوان عن (هيدرا) و (سيكلوب).. وفي كتب علم الطبيعة عن (إيكو) و (إلكترون) خادم (أبوللو).. ولسوف تجدين (تنتالوس) في كتب الكيمياء.. لا أستطيع حصر كل الأمثلة..»
- «ولكن كيف تنوي قتل (هيدرا) هذا؟»

- «لا أدري.. إنني أومن بالارتجال.. حين نصل هناك سنجد حلًا..»
مالت برأسها على كتفه.. وفي رقة همست:
- «هل تفعل كل هذا من أجلي؟»
- «بالطبع لا!»
ثم أردف وقد أدرك أنه خيب آمالها، وهوى برومانسيتها من فوق السحاب إلى وحل مستنقعات (ليرنا):
- «أعنى أن البطولة قيمة في حدّ ذاتها.. ولا تهم المبررات التي من أجلها جاءت البطولة.. لكنني أحبك بالطبع..»
«شكرًا..»
قالتها بكبرياء، وراحت ترمق الأرض من علٍ تركض تحت ناظريها.. وأدركت الحقيقة المروعة: الرجال لا يقومون بعظائم الأعمال من أجل الحب، بل من أجل أنفسهم..

∞∞∞∞∞∞

إنها المستنقعات..
كان (بيجاسوس) واقفًا ينقب بخطمه في الماء عن شيء يؤكل..
أما (عبير) و (بيرياسوس) فيمشيان في حذر بين الأوحال..
كان لهاث (بيرياسوس) عاليًّا، وأدركت (عبير) أن التوتر قد بلغ مداه لديه.. قالت بصوت هامس:
- «(بيرياسوس).. أنا........»
- «هاآآآه!»
صاح وهو يثب مترين إلى الهواء، ثم عاد إلى رشده وأدرك أن هذه (عبير).. فقال لها وهو يتنهّد:
- «عذرًا.. قد أوصلني توتر أعصابي إلى درجة التحول إلى زُنبرك.. فأنا أعرف جيدًا ما هو (هيدرا)!»
ثم أمسك سيفه بمجمع قبضتيه، وراح – منحني الظهر متحفزًا - يخطو بحذر، متلفتًا حوله من حين لآخر..
ثم توقف.. وأخرج من حاجياته التي على ظهر (بيجاسوس) مشعلًا عملاقًا.. وبعود ثقاب جعله يتوهج في الظلام..
قال لـ (عبير):
- «لن تسأليني طبعًا عن كيفية حصولي على ثقاب في هذا الزمن..»
قالت في سأم:
«بالطبع لا.. كل شيء جائز في (فانتازيا)..»
وهنا......
فوق صفحة المياه التي تغمرها أوراق اللوتس العريضة المختمرة؛ استطاع (بيرياسوس) أن يرى ما يشبه جسد ثعبان عملاق يزحف في صمت، وقد غاصت أجزاء عدة من جسده..
مدّ (بيرياسوس) يده إلى قوسه وسهامه، فأطلق سهمًا راح يصفر في الهواء قبل أن يستقر في الجسد غريب الشكل..
كان هذا كافيًّا لاستفزاز الوحش..
سرعان ما خرج (هيدرا) الفظيع من الماء، وهو يقلب رءوسه العديدة، وراح يصدر فحيحًا يجمد الدماء في العروق..

فما إن رأته (عبير) حتى هتفت في دهشة:
- «إذن هو أنت؟!»
لم تعن بذلك أنها رأته رأي العين من قبل..
أرادت القول إنه مألوف إلى حد كبير.. إن صورة (هيدرا) تقليدية جدًّا ويعرفها الجميع.. وقد رأته على الشاشة الصغيرة مرارًا، لكنها لم تعرف أنه نموذج يتحرّك بطريقة (ديناميش) التي ابتكرها الفنان الأمريكي (راي هاري هاوزن) في فيلم (جيسون والبحارة)..
الفحيح الرهيب يصمّ الآذان.. والرءوس السبعة تهاجم بطريقة منسقة.. فينقض ثلاثة منها مكشرة عن أنيابها، ويتراجع ثلاثة، على حين يقبع السابع متحرشًا.. ثم يهجم اثنان.. ويتراجع أربعة..
ومن كل فم كان لسان مشقوق طوله كطول رجل، يتلوى باحثًا في الهواء المحيط به عن حياة يدمرها..
كانت المهمة شاقة..
وللمرة الأولى تسرب الرعب إلى فؤاد (عبير)..
كان (بيرياسوس) واقفًا في الأوحال التي غمرته حتى خصره، يلوح بسيفه كلما دنا رأس أكثر من اللازم منه.. وتكفل الظلام والأرض الزلقة بتحويل المشهد إلى جحيم..
ودنا أحد الرءوس من (بيرياسوس)، في حين دنا آخر من (عبير).. وطار السيف في الهواء.. وتناثر رذاذ الدم على ثيابها ووجهها.. لكنها حين استطاعت أن ترى وجدت هولًا..
كانت سبعة رءوس أخرى قد نمت مكان الرأس المقطوع!
بثلاثة عشر رأسًا يواصل (هيدرا) هجماته الكاسحة.. ودفاع (بيرياسوس) عن نفسه وعنها هو مسألة وقت..

∞∞∞∞∞∞

وسط هذا الكابوس سمعت (بيرياسوس) يصرخ فيها:
- «(برسفوني)! هاتي المشعل حالًا!»
بالفعل سمعت.. لكنها لم تفهم حرفًا..
- «(برسفوني)! المشعل!»
أخيرًا بدأت تفهم معنى كلماته..
هرعت بالمشعل لتقف جواره، بينما (هيدرا) العملاق يناورهما باحثًا عن ثغرة ما..
صاح (بيرياسوس) كي يغلب صوته الفحيح:
- «سأقطع رأسًا من الرءوس.. فإذا ما......»
س س س س س س س س س !
«فإذا ما نجحت.. عليك بكيّ موضعه حتى لا...»
س س س س س س س س س !
«تنبت رءوس جديدة هل سمعتِ؟»
- «ن.. نعم..»
وعلى الفور وثب (بيرياسوس) في الهواء ليطيح سيفه بأحد الرءوس.. وتفجرت نافورة من الدماء مازجت الأوحال..
وفي اللحظة ذاتها وثبت (عبير) لتدفن المشعل في موضع الرأس المقطوع.. وتصاعد الدخان..

رائحة اللحم المحترق.. رائحة الرماد..
وحين أفاقت.. كانت ساقطة في الطين، و (بيرياسوس) يحاول أن يطير رأسًا جديدًا..، لكن شيئًا لم ينبت في موضع العنق المبتور..
- «هلمي يا (برسفوني)! استردي المشعل..»
وعنق آخر طار في الهواء.. وسرعان ما كان المشعل يكوى موضعه.. وامتلأ الجو بالدخان مقيت الرائحة..
- «أحسنتِ.. إن هذه الوحوش الإغريقية تموت بسرعة.. والآن.. هان! الرأس الثالث! بقيت ثمانية رءوس..»
قالت وهي تحرق موضع الرأس:
- «عشرة.. كان عنده سبعة رءوس.. طار واحد ونبت مكانه سبعة.. ثم أطرت أنت ثلاثة.. هذا يجعل العدد.....»
- «لا وقت لأبطال الإغريق كي يجيدوا الحساب.. هان! الرابع!»
كان العمل مرهقًا..
خاصة و (هيدرا) لم يضعف لحظة واحدة.. كان شرسًا كما كان وربما أكثر..
ولابد أن (عبير) فقدت حذرها لثانيتين، حين وجدت نفسها ترتفع في الهواء.. وأدركت أن أنيابًا حادة تنغرس في خاصرتها.. وأدركت أن (هيدرا) قد أطبق على جسدها بواحد من رءوسه التسعة الباقية!

∞∞∞∞∞∞

صاح (بيرياسوس) في هلع:
- «(برسفوني)! لأ!»
وحاول الوصول إليها لكن أربعة رءوس سدّت عليه الطريق.. ولم يكن المشعل معه لهذا لم يجرؤ على ضربها بسيفه حتى لا يجد نفسه أمام ثمانية وعشرين رأسًا!
أما عن الشعور بجسدك في أنياب (هيدرا) فيمكنك أن تسأل عنه (عبير)..
كان الوحش يهزّ رأسه ليفقد (عبير) وعيها، ويزيد من تغلغل أسنانه في لحمها..، وراح يطوّح رأسه يمينًا ويسارًا مرارًا..
عندئذ أيقنت بالموت..
لقد كان (بلوتو) محقًّا أكثر من اللازم..
لم يستطع الحب أن يحميها من...............

∞∞∞∞∞∞

10 - (ديدالوس) و.... ألن ينتهي هذا؟!

كان المشعل في يدها..
كيف نسيت ذلك؟
استجمعت قواها الخائرة النازفة، ورفعت ذراعها وحرّكت المشعل نحو عين الوحش الزجاجية معدومة الرحمة..
كان الألم شديدًا.. وهذا معناه الصراخ.. وحتى (هيدرا) لا يستطيع الصراخ بفم مغلق.. لقد فتحت الرءوس التسعة أفواهها صارخة في ذات اللحظة، وتدحرجت (عبير) البائسة إلى الوحل..
وأخيرًا استعادت حريتها فهرعت تقف خلف (بيرياسوس) الذي استعاد حماسه القديم بدوره..
وتطاير المزيد من الرءوس إلى مياه المستنقع المباركة..
إن النصر حليفهما.....
الأفعوان الرهيب (هيدرا) لن يلتهم أحدًا بعد اليوم..

∞∞∞∞∞∞

كانا يقفان لاهثين يعبّان الهواء إلى صدريهما في جشع.. وقد اختفت ملامحهما خلف طبقة كثيفة من الوحل والدماء..
وتخلت ساقا (عبير) عنها فهوت إلى الماء الآسن.. وهوى جوارها (بيرياسوس).. وبصعوبة استطاع أن يخلص السيف من أنامله التي تقلصت على مقبضه..
كم مرّ عليهما من وقت راقدين وسط الأوحال يلهثان، ويصغيان لصوت حشرجة (هيدرا) الأخيرة؟
ربما دقائق.. ربما ساعات.. لكنهما على كل حال كانا سعيدين.. وإن عكر سعادتهما التساؤل حول كنه المشكلات السبع التالية التي أعدها لهما (بلوتو)..
بعد قليل نهضا باحثين عن (بيجاسوس) الذي كان واقفًا جوار خميلة من الأشجار، يبحث بفمه عن شيء ما..
ركباه.. ولكزه (بيرياسوس) كي يفرد جناحيه ويحلق مبتعدًا عن أرض الكوابيس هذه..
وحين حلق (بيجاسوس) في الهواء، استطاعا أن يريا عربة (أبوللو) بجيادها البيض تمرق عَبْر السماء، و (أبوللو) يلوح بمشعله في الهواء ليُولّد ضوء النهار..
كان هذا هو الفجر..

∞∞∞∞∞∞

مياه بحر الروم تلتمع بخيوط الذهب، وهما يحلقان فوقها.. وأحيانًا يرتفعان ليخترقا أجواز السحاب.. السحاب الذي طالما حسبته (عبير) قطعًا من القطن الأبيض، وتمنت لو تجمعه في يوم صيف، لتغزل منه ثوبًا لم ترتده أنثى سواها..
قطع عليها خواطرها صوت رفرفة جناحين..
نظرت إلى مصدر الصوت لترى مشهدًا غريبًا.. مشهد العجوز الذي يرتدي جناحين من الريش المغموس في الشمع، وجواره طفل على أبواب المراهقة يرفرف بجناحين مماثلين..

كانا يطيران ببراعة وكفاءة كما تفعل أية بجعة محترمة..
ولمحهما (بيرياسوس) بدوره.. فرفع ذراعه صائحًا في مرح:
- «(ديدالوس) أيها الشيخ.. أما زلت حيًّا؟»
صاح الشيخ وهو يلهثْ من جراء جهد التحليق:
- «بلى يا (بيرياسوس).. إن الطيران يطيل العمر.. وأنت تعرف أنه حلمي منذ كنت في سنك..»
ثم صاح في الطفل بحزم:
- «تمهل يا (إيكاروس) ولا تبتعد عني كثيرًا!»
ثم عاد يوجه الكلام إلى (بيرياسوس):
- «أرى أنكما في أسوأ حال بعد مواجهة (الهيدرا).. لكنكما حيّان على كل حال، ولدي رسالة عاجلة من (شارون) لكما..»
- «إن له لوسائل غريبة في إبلاغ تعليماته.. هاتها..»
- «يقول لكما أن تتجها إلى (نيميا).. فهناك أسد ضرغام يقطع الطريق على المارة.. وعليكما قتله..»
- «لك هذا.....»
ثم أرخى عنان (بيجاسوس) ليزيد سرعته.. وبدأ يبتعد عن الشيخ المجنح وولده..
على حين ظلت (عبير) ترمق المشهد العجيب عاجزة عن الفهم..
وجاءها الجواب بعد ثوان.. حين رأت الطفل يرتفع لأعلى لأعلى.. دانيًّا من قرص الشمس - (رع) الفراعنة و (أبوللو) الإغريق - برغم تحذيرات أبيه المتكررة..
ثم رأته يأتي بحركات متشنجة.. وانفصل الجناحان عن جسده.. ورأته يهوي بسرعة جنونية من علٍ..
وأبوه يرمقه عاجزًا عن عمل شيء..
صاحت في (بيرياسوس) بهلع:
- «عُدْ بالحصان.. يجب إنقاذ الصبي!»
قال (بيرياسوس) دون أن يدير وجهه:
- «لا جدوى.. إن تسارع سقوطه يفوق سرعة (بيجاسوس).. إن أي طالب يدرس الفيزياء يمكنه إخبارك بهذا!»
نظرت للوراء دامعة العينين وغرست أظفارها في كتفه:
- «لكن.. إنها لمأساة!»
- «حقًّا.. لكن كان على (إيكاروس) أن يطيع أباه ولا يدنو من قرص الشمس.. لقد ذاب الشمع الذي صنع الجناح منه.. وهوى هو أرضًا..»
- «البائس!»
- «لكن هناك فكرة فلسفية لا بأس بها وراء هذه القصة.. إن شوق الإنسان إلى المعرفة يقوده إلى الهلاك.. (إيكاروس) هو الإنسان الذي مات لأنه عرف أكثر مما ينبغي.. لأنه دنا من الشمس – أي الحقيقة - أكثر مما يُسمح له..»
ثم تنهَّد.. ونظر إلى الأفق:
«الآن نواجه الخطر الرابع..»
- «عسى ألا يكون الأخير!»
وغمغم في ضيق:

- «أسد؟ بعد كل هذا العمر والخبرات يطلب مني أن أقتل أسدًا؟.. أي استهتار ومضيعة للوقت!»

∞∞∞∞∞

فرغ (زيوس) من مشاهدة بطولات (بيرياسوس) وهو على متكئه، يداعب شعيرات لحيته البيضاء الملتفة، ويلتهم بعض التفاح الذهبي المقدس..
كان يراقب المشهد على شاشة كبيرة تحتل جدارًا كاملًا من الغرفة، فلما انتهى مدّ يده إلى جهاز ال. (ريموت كونترول) يستعيد لقطات صراع (بيرياسوس) مع (الهيدرا).. وراح يوقف الكادر عند بعض لقطات..
مالت (حيرا) عليه وسألته وهي تلف شعرها:
- «ما رأيك؟»
- «رائع.. إنه بطل إغريقي حقّ لا يختلف عن أبنائي (برسيوس) و (هرقل) وسواهم..»
- «هل سينجح؟»
- «آه.. الوقت مبكر جدًّا على التنبؤ..»
- «ألن يكتفي (بلوتو) بهذا؟»
- «نعم.. إن قانون الأساطير صارم جدًّا.. لابد للبطل من أن يواجه الهول في أرجاء الأرض»
ثم ضحك وداعب لحيته من جديد:
- «إنه لعرض شائق.. ومن المؤكد أننا سنستمتع حقًّا.. لكنى أؤكد لك أن (بلوتو) ليس سهلًا.. بالتأكيد سيوقع بهما ويستعيد (برسفوني) في أقرب فرصة!»
- «لكنه لا يريدها ميتة»
- «بالطبع لا يريدها ميتة.. يكفيه موت (بيرياسوس) الجسور فحسب!»

∞∞∞∞∞

تلوح غابات (نيميا) من بعيد..
ويتردّد الزئير المروّع الذي يجمد الدماء في العروق..
- «إنه هنا..»
قالها (بيرياسوس) بصوت مبحوح قليلًا يشي بتوتره.. بالتأكيد لن يكون سبعًا عاديًّا من يصدر هذا الزئير..
وأجفل الحصان قليلًا، ورفع ساقيه الأماميتين في الهواء، فقال (بيرياسوس) وهو يربّت على عنقه:
- «هلم اهدأ يا صغيري.. إن (بيجاسوس) لم يعد على ما يرام، وأخشى أننا لا نجرؤ على الاعتماد عليه في الفترة القادمة، فهو حصان.. والخيل - حتى المجنحة منها - تهاب السباع كالموت..»
همست (عبير):
- «إذن نهبط به هنا ونترجل..»
- «هذا حكيم..»
وبين الأشجار لمست أقدام (بيجاسوس) الأرض، ربطه الفتى إلى شجرة شامخة.. وامتشق حزامه ودعا (عبير) إلى أن تمشي جواره.....
إن مهمة البحث عن أسد ليست صعبة جدًّا..

في الغالب يجدك هو قبل أن تجده......

∞∞∞∞∞

كان المشهد مروعًا لا يمكن تصديقه..
لقد كان الخطر الرابع يفوق الأخطار السابقة بمراحل.. (أنتيوس) كان غبيًّا.. والرخّ كان بطيء الحركة.. و (الهيدرا) كانت مرعبة أكثر منها خطيرة..
أما هذه المرة فلا.....
وحين مدّ (بيرياسوس) يده إلى حسامه لم يكن هناك.. اختفى في ظروف غير مفهومة!
غمغم من بين أسنانه:
- «(بلوتو) العجوز يمارس الغش في اللعب!»
ووقف يتأمل الخطر الداني منهما..

∞∞∞∞∞

في الكتيب القادم نعرف ما حدث وما سيحدث، ولنتذكر أن (عبير) ستدرك حقيقة مخيفة عن (فانتازيا) في المرة القادمة.. ولسوف تواجه الحلم - أو الكابوس - بأكمله عاجزة عن الاستيقاظ..
عالمة أن موتها في الحلم كموتها في الواقع..
كلاهما بلا رجعة!

[تم الجزء الأول بحمد الله]



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

تمثال المفكر للمثال الفرنسي العظيم (أوجست رودان)..

[←2]

علم الأساطير.

[←3]

الرباب: هو السحاب الأبيض.

[←4]

السماء والأرض.

[←5]

الكيميائي السويدي (إكبرج).

روايات مصرية

8

فانتازيا

مملكة الموتى



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (08)

مملكة الموتى

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) ... لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- نقاط على حروف..

ذكرنا آنفا - في الكتيب السابق - كيف أن (شريف) زوج (عبير) استشعر القلق، فجهاز (دي - جي - 2) لا يعمل على ما يرام.. ويوجد ما يدعوه إلى الاعتقاد أن أحلام (عبير) لم تعد مجرد أحلام.. ثم أثر مادي لا شك فيه ينجم عن كل حلم تمر به..
لكن (عبير) تصمم على تجربة الجهاز مرة أخيرة بعدما نام زوجها.. وتعود إلى (فانتازيا)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل شيء روتيني كما اعتدناه.. لكن المؤلف أخبرنا بنقطة صغيرة لا تبدو ذات أهمية: (عبير) تجد حياتها السابقة جزءا من معالم (فانتازيا).. وهو ما لم تره من قبل في رحلاتها الست السابقة.
هذه النقطة سنعرف أهميتها فيما بعد؛ أما الآن ف. (عبير) راغبة في استكشاف عالم الأساطير الإغريقية
وعلى الفور تصير (عبير) هي (برسفوني) الحسناء؛ التي تلهو في المرج مع أترابها، وتقطف الزهور لتصنع منها تاجا..
وعلى الفور - كذلك - نتعرف أطرافا من هذا العالم الساحر، مثل قصة (نركيسوس) الذي هام حبا بصورته في النهر.. و (أدونيس) الذي راحت (فينوس) تطارده حتى استسلم لغرامها.. والتحدي الرهيب بين (أبوللو) و (كيوبيد).. مما دفع الأخير إلى إيقاع الأول في حب حسناء لا تطيق رؤيته، هي (دافني).
كل شيء كان يشي بعالم ساحر هو كالحلم أو أرق...
لكن قدوم (بلوتو) مع زبانيته يفسد الأمور..
لقد جاء الشيخ من مملكته (هيدز) – مملكة الموتى - ليبحث عن عروس شابة تؤنس وحدته الأبدية
ومن تظنونه قد اختار؟
بالطبع وقع اختياره على (برسفوني) الحسناء، أعني بالطبع بطلتنا (عبير)..
وبرغم صراخها يحملها (شارون) الرهيب – تلميذ الجحيم - إلى الطوف ليعبر بها أنهار الآخرة المظلمة، خاصة نهر (ستيكس)، قاصدا مملكة الموتى (هيدز)..
إن أياما مريرة قاسية تنتظرها هناك، دون أن يعزيها أن تعرف أن (دمتير) أمها قد قلبت الأرض بحثا عنها، وحرمت البشر من رونق الربيع عقابا ل. (زيوس) على خطف ابنتها..
مغامرة قصيرة رقيقة خاضتها مع عازف القيثار المفنّ (أورفيوس) الذي جاء (هيدز) بحثا عن زوجته الحبيبة التي اخترمها الموت..
إنها أسطورة جميلة لكنها لا تخدم سياق القصة كثيرا.. لهذا يمكننا أن نمر عليها مرّ الكرام..
يهمنا هنا أن (دمتير) قصدت قصر (زيوس) وزوجته الأريبة (حيرا) لتطالبهما بالبحث عن حل.. فهي الآن واثقة من وجود ابنتها عند (بلوتو) في مملكته المظلمة...
والحل؟ لا حل لأنه لا يوجد بطل إغريقي متفرغ في الوقت الحالي..
وهنا يظهر (بيرياسوس) الفارس الكريتي الوسيم مفتول العضلات.. عارضا خدماته لأنه يحب (برسفوني).
وتقبل الأم لأنه - على حد قولها - سيكون أفضل لها من الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خدعة بارعة يتسلل بها (بيرياسوس) إلى (هيدز) منتهزا فرصة خطأ روتيني وقع فيه (شارون) المنهمك دوما..
لكن أمره يفتضح على كل حال، ويوشك رجال (بلوتو) أن يفتكوا به..
وهنا تتدخل ثقة (بلوتو) بنفسه.. وباستحالة الفرار من قبضته، ويجد نفسه مدفوعا إلى تقديم عرض للفتى - الذي بدأ يروق له - يتلخص في مواجهة عشرة أخطار إغريقية من التي تزخر بها كتب الأساطير..
فلو ظل والفتاة حيين بعد هذا كان له أن يسترد الفتاة..
بالطبع قبل (بيرياسوس).. فليست الخيارات وافرة أمامه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1) المارد (أنتيوس):

بعد لقاء قصير مع (السنتور) معلم الأبطال الذي له نصف رجل ونصف حصان، يعرفان من هو (أنتيوس) هذا..
ويبدأ صراع غير متكافئ بين المارد وبطلينا.. يوشك أن يكون حاسما لولا أن لاحظ (بيرياسوس) أن المارد يعتمد على ثبات قدميه فوق الأرض، أمّه التي يستمد قواه منها
وبحيلة بسيطة ينجحان في رفع قدميه عن الأرض لتخور قواه، ويقضى نحبه حالا..
ويذهبان إلى أعمدة (هرقل) ليقابلا (أطلس) المنهمك في حمل الأرض فوق كتفيه.. وهناك يخبرهما أن مهمتهما التالية هي تحرير أخيه (بروميثيوس)..
ويقدم لهما الحصان المجنح (بيجاسوس) ليحملهما إلى القوقاز...

(2) تحرير (بروميثيوس):

(بروميثيوس) المربوط إلى جبلين عقابا له على سرقة النار من (الأوليمب) كي يهديها للبشر..
مشكلة هذا العقاب هي أن الرخ يأتي يوميا ليمزق كبد البطل ثم ينصرف.. وفي الليل ينبت له كبد جديد وتتكرر المأساة..
لكن (بيرياسوس) ينجح في حرق الرخ حيا بحيلة ماكرة..
ويجيء دور العمل البطولي الثالث

(3) الهيدرا:

هذه المرة يخبرهما (شارون) وهو يمشي مع حشد من الموتى أن مهمتهم هي القضاء على (الهيدرا)؛ الأفعوان الأرقم برءوسه السبعة والذي يعيش في المستنقعات..
تبا! إن قتل (الهيدرا) مشكلة لأن كل رأس من رءوسها ينبت سبعة رءوس بدوره إذا قطع!
لكن (بيرياسوس) يجد الجواب.. والجواب هو كيّ منبت كل رأس بعد بترها بالنار
لقد كانت لحظات رهيبة، وكدنا نفقد بطلتنا (عبير) بين أنياب ذلكم الوحش الكابوسي..
لكنهما نجحا في القضاء عليه برغم كل شيء..
وفي طريق العودة يلقاهما (ديدالوس) محلقا مع ولده بأجنحة من شمع، ويخبرهما أن مهمتهما التالية هي القضاء على سبع (نيميا) الرهيب..

ونترك بطلينا في لحظة المواجهة العصيبة مع السبع، وقد أيقن (بيرياسوس) أن حسامه ليس معه.. اختفى بالقدرة التي عادا بها من (هيدز)..
فماذا عساه أن يفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنتم تعرفون الآن ما أعرفه بالضبط عن هذه القصة، ولا أرى ما يمنعنا من البدء في استكمال الأحداث حالا..
اقلبوا الصفحة وكونوا حذرين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- أبو أسامة!

أرجو هنا ألا أثير حنق آباء الفتية المدعوين (أسامة).. فأنا لا أتحدث عنهم لكني أتحدث عن الأسد.. إن للأسد أسماء عديدة في لغتنا الجميلة، ويقولون إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى..
يحضرني منها: الليث - الغضنفر - أسامة – السبع- القسورة – الضرغام.......... إلخ.
نحن الآن في ضيافة سبع (نيميا) الرهيب..
بالطبع كان هذا الوحش يختلف عما عداه من الوحوش، فقد كان ضخم الحجم إلى حد مروع يفوق أضخم الأفيال..
وكان الشرر ينبعث من حدقتيه الحمراوين، وبين أنيابه ترقد المنون، وزئيره يدوي في الغابة كبركان يقذف حممه..
ووجد (بيرياسوس) نفسه يتراجع إلى أن سدت الطريق عليه وعلى (عبير) شجرة عملاقة..
إن الإغماء لرحمة في هذه الأمور.. إغماءة بسيطة بعدها ينتهي كل شيء دون ألم ولا تمزيق لحم..
لكن الإغماء ظل عزيز المنال للأسف.. كل شيء ظل واقعا مريرا قاسيا..
صاح فيها وهو يزيحها بذراعة القوية
- تراجعي! سأتولى أمره
- تعني: يتولى هو أمرك!
- اصغي لما أقول..
كان أعزلا تماما بعدما اختفى سيفه في ظروف غامضة.. ولم تكن مواجهة حائط العضلات والأنياب والمخالب هذا ممكنة بيد عارية..
الوحش يتقدم في تؤدة مصدرا هذا الزئير الواثق المنذر بالويل.. لا داعي للسرعة.. كل شيء سيتم بسهولة تامة...
ووثب الأسد....
لكن (بيرياسوس) رمى بنفسه على الأرض..
وشعر بالدبابة الحية تطير فوق مستوى رأسه.. فنهض على قدميه يتأهب للهجمة التالية..
كان هناك جذع شجرة مدبب على الأرض على بعد خطوات منه.. لو كان باستطاعته فقط أن..

الوثبة التالية! لكن (بيرياسوس) التقط الجذع ودسّ الطرف المدبب حتى نهايته في فم الأسد..
شعر باللحم يتمزق داخل حلق الوحش وحول كفيه هو.. لكنه تشبث بعناية بالجذع..
ثار الأسد ورفع الجذع - و (بيرياسوس) يتعلق به - وراح يطوح به ذات اليمين وذات اليسار..
لكنه كان يزيد توغله في حلقة في نفس الوقت.. وراحت الدماء تسيل..
كان (بيرياسوس) يعرف أن لحظة خروج الجذع من فم الأسد هي لحظة النهاية.. ستكون غضبة الوحش كغضبة الطبيعة ذاتها.. كالإعصار أو السيل تودي بالجميع ويستحيل إيقافها..
لهذا راح يزحف فوق الجذع حتى وصل إلى رأس الليث.. وبوثبة واحدة ركب فوق رأسه.. وتشبث بالشعر الكث الخشن المكون للبدته..
كان هياج سبع (نيميا) مروعا.. زئيره المخنوق يدوي في أرجاء الكون.. ورأسه يهتز في تشنج يمينا ويسارا محاولا إسقاط راكبه.. كتلة العضلات الحية ترقص رقصة الجنون..

مد (بيرياسوس) جسده ليمتطي رأس الحيوان.. ردفاه ما بين العينين الناريتين.. وبأنامله تشبث بالفك العلوي للأسد من الناحيتين.. وراح يجذب.. يجذب.
لقد استعمل (هرقل) ذات الأسلوب.. لكن حجم (هرقل) يسمح بهذا.. أما ها هنا فالأمر مرهون بقوة (بيرياسوس) وصلابته وعدوانيته..
عضلات ساعديه توشك على التمزق لكنه يقاوم..
يحاول أن يفتح الفك العلوي إلى أقصى حد ممكن.
وفي النهاية أحس بالفك يستجيب. وسمع صوت تمزق اللحم والعضلات.. ومن فم أسد (نيميا) سال شلال من الدماء..
وثب (بيرياسوس) من فوق الرأس إلى الأرض.
واحتضن الجذع بكل عضلة في جسده محاولا إيلاجه أعمق وأعمق داخل حلق الوحش..
لا داعي - إذن - لوصف رقصة الموت التي رقصها أسامة.. ولا لوصف زئيره المروع.. والأشجار التي اصطدم بها فأسقطها.. والدماء التي سالت منه فأغرقت الأرض..
إن هذا المشهد لا يمكن وصفه إلا باستعمال الخيال أو كاميرا فنان..
الخلاصة أن أسد (نيميا) تخاذل، وهوى أرضا..
وانتفض ثلاث أو أربع مرات ثم همد نهائيا..



الخلاصة أن أسد (نيميا) تخاذل، وهوى أرضًا..

وتهرع (عبير) إلى (بيرياسوس) الذي وقف يلهث، والدماء تغرقه لا تدري - ولا يدري هو نفسه - هل هي دماؤه أم دماء الأسد.. للمرة الرابعة ينتصر (بيرياسوس) العظيم..

(بيرياسوس) الذي لا يملك السحر ولا هو عملاق مثل (هرقل) ولا تؤازره آلهة الأوليمب مثل (بيرسيوس)..
إنه بطل أبطال الإغريق دون مراء..
- أنت رائع يا (بيرياسوس)؟
- رائع فحسب؟ أنا مذهل.. أسطوري!
- ومتواضع كذلك..
- إنني قدوة للشباب عبر العصور..
ثم تحسس نطاقه.. وابتسم..
- ماذا هنالك؟
- لا شيء.. لقد عاد سيفي إلى مكانه! إن (بلوتو) يعترف لي بهذا النصر..
ثم تنهد في إنهاك:
- إنه النصر الخامس..
- الرابع! أنت معتوه فيما يتعلق بالأرقام..
الرجال نوعان: عضلات بلا عقل.. وعقل بلا عضلات.. ولو كنت بحاجة إلى النوع الأخير فعليك باصطحاب د. (رفعت إسماعيل) بدلا مني!
- آه! إنني أفضل أن أكون معك حتما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فترة طويلة مرت منذ مغادرتهما لغابة (نيميا)؛ وهما يتوقعان في كل لحظة أن يتصل بهما الأخ (بلوتو) بشكل ما لإبلاغهما بمهمتهما الجديدة..
بدأ (بيرياسوس) يشعر بالملل.. وكذلك هي ورفعت رأسها إلى السماء ترمق الأفق المتلألئ بين ذوائب الأشجار..
سرب من الطيور يعبر الفرجة قاصدا مأواه..
مشهد طبيعي رائع، ولكم تمنت لو ترى شيئا واحدا طبيعيا في هذا العالم..
لكن شيئا ما في تلكم الطيور أثار دهشة (عبير).
أثار دهشتها.. فتوجسها.. فذعرها الصريح..
إن هذه الطيور اللطيفة لها رءوس آدمية كاملة التكوين!
ورأت طيرا منها يهبط أكثر فأكثر.. ويحوم حول رأسيهما وهو يرمقهما بعينين فضوليتين وضحكة وقحة.. كأنما أحد الرعاع يتحرش بها في الزقاق الذي تسكنه في عالم الواقع
أمسكت بذراع (بيرياسوس) العضلية.. وفي ذعر هتفت:
- الويل! ما هذا المسخ؟!
قال بلا مبالاة وهو يتأمل السرب:
- آه.. هذه هي (الهاربيز).. ألعن وأخبث طيور في الأساطير الإغريقية.. كانت تعيش في (تراقيا).. ومهمتها تنغيص عيش ملك أعمى يدعى (فنيوس).. كلما حاول أن يلتهم شيئا من الطعام اختطفته منه.. حتى كاد الملك يقضى جوعا وظمأ..
ثم إن (جاسون) البطل العظيم استطاع أن يكسر شوكة هذه المخلوقات، ويجندل منها عددا لا بأس به..
ومن يومها فرت الطيور إلى جزيرة (ستروفيد) ..

كان الطائر الوغد يدنو أكثر فأكثر من الموكب
وسمعته (عبير) يقول بصوت مشروخ مبحوح:
- تحية يا (بيرياسوس) العظيم..
قال (بيرياسوس) في سماجة:
تحية أيها الطير الدنيء..
قال ال (هاربيز) وهو يواصل الطيران حولهما:
- إن (بلوتو) يرسل لك تحياته وتهانيه..
ويقول لك: إن مهمتك الخامسة هي الحصول على نطاق (هيبوليت)..
اللعنة! إن خيال الرجل لخصب..
قال الى (هاربيز) في تملق مقرف:
- كلها مهام تليق بالبطل (بيرياسوس).. هي هي هي!
ثم دار دورة أخيرة في الهواء.. ولحق بالسرب الذي يحلق فيه إخوانه.. وما لبث أن غاب عن العيون....
- ما المشكلة في هذا النطاق؟
- نطاق (هيبوليت).. إنه أمر شديد التعقيد..
ثم إن (بيرياسوس) جلس على صخرة.. وراح يعبث بطرف سيفه في الرمال شاردا.. وقال:
- إن (بلوتو) يكلفني بكافة الأعمال التي كلف بها (هرقل).. المشكلة هي أن حجم (هرقل) كان يسمح بكل هذا.. أما أنا..
ثم أعاد السيف إلى غمده.. وقال:
- إذن.. هيا بنا إلى (الأمازون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الشرسات..

الآن يحلق (بيجاسوس) فاردا جناحيه فوق الأمواج المتلاطمة لبحر الروم.. قطعة فريدة من الجمال والخيال..
الهواء يصفر في أذني (عبير).. لكنها تميل على أذن (بيرياسوس) هاتفة بأعلى صوتها:
كنت أظن (الأمازون) على ضفاف نهر (الأمازون)..
- أ.. آزون.. آف.. إيكا.. آنوبية؟
- ماذا تقول؟ لا أسمع حرفا..
رفع صوته ليزداد وضوحا:
- أقول: تعنين نهر (الأمازون) في أمريكا الجنوبية؟
- نعم
- لا.. لقد سمى النهر نسبة إلى البلاد التي نقصدها..
كانت جزر المحيط الأطلسي قد بدأت تلوح لهما ومن بينها جزيرة تحيط الأشجار بها على طول محيطها.. ودون أن تسأل (عبير) أدركت أن هذه هي الجزيرة المقصودة.. مثلما يمكنك أن تعرف من هو بطل الفيلم حتى لو كان الفيلم بلغة لا تعرفها.. إنه ذلك الشيء الذي لا يوصف والذي

يسمونه أحيانا (كاريزما).. هذه الجزيرة تتمتع بقدر هائل من (الكاريزما) ولا مراء..
وراح (بيجاسوس) ينحدر برشاقة فوق نطاق الأشجار.. ليلمس التربة الرملية قليلا.. ثم راح يصهل ويصدر تلك الأصوات (الأنفية) التي تحب الخيول إصدارها دون مبرر.. على حين ترجل (بيرياسوس) وساعد (برسفوني) - (عبير) سابقا - على الترجل..
راحا يمشيان بين الأشجار يرمقان الساحل والأمواج تنتشر لتبلل وجهيهما من حين لآخر.. وصوت النوارس يدوي في مسمعيهما مكررا أن الأرض قريبة.. بعد فوات أوان هذه المعلومة طبعا.
سألته (عبير) وهي تتأمل المكان:
- ما هو الخطر من هذه الجنة؟
وقبل أن يرد عليها؛ كان هناك سهم غريب الشكل ينغرس في جذع الشجرة.. على بعد سنتيمترين من عنقها!
قال لها وهو يتأمل السهم، بريش الببغاوات الملون الذي ثبت فيه لحفظ توازنه:
هأنتذي قد تلقيت الإجابة! لو كانت إجابات الأسئلة بهذه السرعة لما أحس الناس بذرة حيرة!
ثم انتزع السهم وراح يديره في كفه، يتأمل دقة صنعه..
صاحت (عبير) في هستيريا وهي تجثو على ركبتيها:
- معنى هذا أن هناك من يريد قتلنا!
- حتما!
- وهو يراقبنا الآن!
- بالتأكيد!
- إذن لماذا لا نتوارى؟
تنهد في صبر.. وأعاد تثبيت السهم في جذع الشجرة.. وغمغم:
- نعم.. المفترض أن نتوارى.. ولكن أين؟ من الممكن أن يكون عدونا في أي مكان.. ومن المؤكد أنه يبغى أسرنا أولا وإلا كان في وسعه أن يقتلنا في أية لحظة الآن.. إنه يداعبنا فحسب..
تساءلت وهي تتلفت حولها، متوقعة انغراس السهم التالي في عنقها في أية ثانية:
- هـ.. هل (هيبوليت) هذا.. ش.. شرير؟
- ليس (هو) بل (هي).. وإذا كنت تجدين في سلخ جلود البشر أحياء، وفي سمل عيونهم وجدع أنوفهم شرا.. فيمكنك اعتبار (هيبوليت) شريرة إلى حد ما!
- ويحي!
في اللحظة التالية أيقنت (عبير) أن شيئا ما يهوى فوق رأسيهما.. شيئا له ألياف مجدولة ويشبه الشبكة عموما..
إنها شبكة | شبكة صيد ثقيلة ألقيت عليهما ليتخبطا فيها كوحشين كاسرين تم أسرهما..
راح (بيرياسوس) يطوح بسيفه يمينا ويسارا في عشوائية مقيتة محاولا تمزيق هذا الشرك..
وراحت (عبير) تتلمس الأطراف، محاولة أن تجد نهاية لهذه الشبكة اللانهائية.. لكن سدى... في اللحظة التالية أدركت أن هناك عشرات الرماح مسددة نحوهما.. وأن عددا هائلا من المحاربين يحاصرهما كانوا يرتدون خوذات عالية لها شكل رءوس الحيوانات، وتغطى رءوسهم بالكامل..، وقد ذكرها منظرهم بمحاربي (إسبرطة) القديمة الذين كانت تراهم في الصور..
- اللعنة! - قال (بيرياسوس) ساخطا - لقد صرنا تحت رحمتهم تماما!
دنا واحد من هؤلاء المحاربين منهما..

كان يحمل مذراة ثلاثية مدببة، يوجهها نحوهما..
وعلى رأسه رأت (عبير) أضخم الخوذات وأكثرها أناقة.. إذن هو القائد..
خلع المحارب خوذته.. ولهث في طلب الهواء..
إنه ليس محاربا.. بل محاربة! امرأة بارعة الجمال ذات شعر أسود فاحم يغطى كتفيها.. وقد راحت تطوحه يمينا ويسارا لتحرره..
ثم بصوت آمر واثق من نفسه صاحت:
- لا جدوى من المقاومة.. أنا الضابطة (إينياس) من جيش (الأمازون) العظيم آمركما بالاستسلام حقنا للدماء..
وبإشارة حازمة ارتفعت الشبكة عن الأسيرين اللذين وجدا نفسيهما يقفان في مركز أربعين رمحا..
وحتى (بيرياسوس) لن يستطيع مقاومة هذا الحشد..
ربما احتاج الأمر إلى بطل أحد أفلام (الكونج فو) الذين يقتلون وحدهم ثمانين مهاجما دون مشكلة..
وتقدم المحاربون ليربطوا يدي (عبير) وراء ظهرها.. وكادوا يفعلون مع (بيرياسوس) لكن الأخ - أعني الأخت - (إينياس) رفعت يدها في سأم وبلهجة عملية قالت:
- لا.. ليس هذا.. استعملوا دعامة خشبية!
وهكذا.. يجد (بيرياسوس) نفسه مربوطا بطريقة فريدة تشبه أسلوب (الفلكة).. فرأسه وقبضتاه تخرج من ثلاث فتحات في لوح خشبي سميك يحمله على كتفيه.. وقد ربط اللوح إلى ساقية بسلاسل حديدية غلاظ.. ولمسة من حد السيف إلى مؤخرته تجبره على السير وسط هذا الحشد الفريد من نوعه..



وهكذا.. يجد (بيرياسوس) نفسه مربوطا بطريقة فريدة تشبه أسلوب (الفلكة)..

تساءلت (عبير) في قلق وهي تمشي جواره

- من هم؟ وإلى أين نذهب؟

قال (بيرياسوس) وهو يئن من ثقل الخشب:
- هن نساء الأمازون.. المحاربات اللواتي نبذن الرجال وأنشأن مجتمعا قويا لا رحمة فيه ولا مكان لرجل، ومن حين لآخر يقمن بغزو البلدان المجاورة وسلبها وذبح رجالها..
- وما معنى (أمازون)؟
احمر وجهه حياء.. وحاول تغيير الموضوع
لكنها أصرت.. فقال لها:
(أمازون) تعني (امرأة بلا صدر).. كانت نساء هذا المجتمع يزلن صدورهن حتى لا تعوقهن عن رمي السهام.. لم يعد هذا يحدث لكن التسمية باقية..
احمر وجهها بدورها.. وصاحت في حنق:
- كيف تجرؤ على هذا الكلام أمامي؟!
- أنت أصررت على معرفة ما لا تسرك معرفته..
- ولكن.. ليكن.. من هي (هيبوليت) هذه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(هيبوليت) ملكة (الأمازون)، وقائدة جيوش النساء..
(هيبوليت) التي تجلس على عرش شامخ تحيط به المشاعل، في ظل سنديانة عملاقة عجوز..
(هيبوليت) التي تحكم هذا المجتمع حيث البقاء للأقوى.. لهذا لنا أن نعرف أن حاكمته هي أقوى النساء وأذكاهن وأجملهن..
كانت تجلس على عرشها بثقة واستهتار معلنة عن قوة لا تحتاج إلى اختبار..
وكانت جميلة ذلك الجمال المرهق الجمال الذي يغدو النظر إليه كالنظر إلى الشمس اللاهبة.. مؤذ للعينين ومنهك..
وفي قبضتها كانت هناك هراوة ضخمة تنذر بتهشيم الرءوس.. وهي تستعملها في الكلام بسلاسة كما نستعمل نحن قلما أو لفافة تبغ في محادثاتنا....
وكان ذراعاها محاطين بالحلي الذهبية الغليظة بعضها على شكل أفاع.. وبعضها على شكل تماسيح..
وفي يدها الأخرى كانت هناك قطعة كبيرة من اللحم النيئ - فخذ حيوان بري غالبا - تتسلى بقضم قطع منها في أثناء الحديث.. فكان الدم يسيل على شفتيها وعنقها طيلة الوقت!
راحت (عبير) ترمق هذا المعسكر المريع، وهي تشعر بشعر رأسها ينتصب من هول وغرابة المكان.
ومن حولها راحت المحاربات ينتزعن خوذاتهن كاشفات عن وجوه لا تقل جمالا عن وجه الضابطة (إينياس).. لكن نظراتهن كانت جامدة ميتة.. وفي وجوههن قسوة وفتور لا يمكن وصفهما...
وكن يتأبطن الخوذات إلى خصورهن كما يفعل أبطال سباق الدراجات البخارية قبل بدء السباق...
موسيقا آتية من مكان ما.. وحول النار يرقص رجلان بدت التعاسة على وجهيهما!
نعم.. ففي مجتمع النساء القويات هذا يفعل الرجل ما تفعله المرأة في مجتمع الرجال الأقوياء!
أشارت (هيبوليت) بإصبع واحد إلى الأسيرين كي يدنوا..
وفي لهجة تقريرية رسمية قالت الضابطة وهي ترفع كفها

- تحية يا (هيبوليت).. هذان متسللان وجدناهما على الشاطئ.. وقد لمحهما (الناضورجي) الخاص بالساحل الغربي..
- مرحي يا (إينياس).. مرحي..
ثم تأملت الأسيرين.. وغمغمت:
- هذا رجل قوي.. رجل خطر.. أما الفتاة فضحية بائسة أخرى لطغيان الرجال.. دعينا نر..
يمكنني أن أتخذ الفتاة جارية لي وهذا لأنني أستبعد أن يصلح جسدها الهش لتعلم القتال.. أما الرجل فأرى أن نقطع رأسه حالا!
في كبرياء نفش (بيرياسوس) صدره العريض وهتف:
- أنا المحارب (بيرياسوس) من (كريت)..
جئت ها هنا كي اتحداك يا (هيبوليت).. فلا تجلبي سخطي!
مالت (هيبوليت) في دهشة يمازجها الاستمتاع لترتكز بمرفقها على فخذها تتأمل الأسير بفضول ثم قالت ضاحكة:
- وكيف لا أجلب سخطك؟
- أنا مكلف من (بلوتو) شخصيا بالحصول على منطقتك!
- منطقتي؟
ولا شعوريا مرت بيدها على منطقتها.. منطقتها التي ازدانت بالحلي والمجوهرات، وفي وسطها نقش جميل لطاووس ينفش ذيله..
قالت بنفس اللهجة:
- أصاب (بلوتو).. فهي منطقة بديعة حقا.. ولكن.. لنفترض لحظة أنني لن أعطيها لك، فماذا يكون؟
قال أمام نظرات (عبير) المذعورة:
- عندئذ هي الحرب.. الحرب الضروس التي لا تذر..
انفجرت تضحك في توحش.. ومعها ضحكت محارباتها.. مرة أخري يتكرر موقف (ماتقدرش) الشهير الذي جعل (بلوتو) عاجزا عن التصرف مع (بيرياسوس) من قبل... استحال ضحكها سعالا فهرعت إحدى المحاريات تقدم لها كأسا ذهبية.
جرعتها وتجشأت..
ثم قالت وهي تعود إلى الاسترخاء:
- اربطوه إلى عمود.. وارفعوه عاليا وأحرقوه..
- أريد أن يضيء لنا هذه الليلة البديعة. - صاحت (عبير) في هلع وهي تستعطف الضابطة:
- اسمعي يا (إيناس) يا أختي.. أنا....
- اسمي (إينياس)..
- إن لي ابنة عم تدعى (إيناس) وتشبهك كثيرا.. نحن..
لم تكمل عبارتها لأن (بيرياسوس) هوى بلوح الخشب الذي على كتفيه فوق عنق الضابطة.. ثم مال يسارا ليهوي فوق عنق حارسة أخرى.. و.. انطلق كالطوفان بركل هذه ويضرب هذه.. كل هذا ويداه مكبلتان إلى لوح الخشب حول عنقه...
بعد ثوان تكومت أجساد - ربما جثث - عشرين من المحاربات.. وكاد (بيرياسوس) يواصل الحرب..
لولا أن عشرات الأقواس والسهام سددت نحوه من الجهات الست..

وفي حزم هتفت الملكة:
- توقف يا (بيرياسوس) وإلا تحولت زميلتك إلى شبكة الصيد الأسماك العملاقة!
عندها تصلب الإعصار البشري (بيرياسوس) يلهث.. كان العرق ينحدر على عضلاته فتلتمع في ضوء المشاعل.. الكمال الجسدي الرجولي كما ينبغي أن يكون.. لكنه عاجز عن التحرر..
قالت الملكة في رصانة:
- إن هذا المحارب شجاع.. لم يرتجف هلا ويبلل سرواله ككل أسرانا من الرجال.. خذوه إلى القفص الحديدي إذن.
ومشى (بيرياسوس) كأسد حبيس، والنبال مصوبة إلى جسده.. بينما انبرت الملكة إلى (عبير) قائلة
- أما أنت يا بائسة.. قلت لي ما اسمك؟
(بيرسفونى)
- لا بأس.. سيفكون قيودك.. ويأخذونك إلى خيمتي ..
ثم أشارت إلى الراقصين الرجلين اللذين فقدا الوعي ذعرا:
- خذا هذين الجبانين إلى خيمة الإماء.. إن رقصهما رديء جدا.. ما هي مهنتهما؟
- إنهما ينظفان حظائر الثيران يا (هيبوليت)!
قالتها إحدى المحاربات وهي تركل جسديهما في اشمئزاز..
قالت (هيبوليت) بنفس الاشمئزاز:
- هذا طبيعي.. إنهما يرقصان كأنما يواصلان تنظيف الحظائر..
ثم قضمت قطعة أخرى من اللحم النيئ.. وقالت وهي تنهض:
- والآن سأعود إلى خيمتي..
- والمحارب يا (هيبوليت)؟ هل نفقأ عينيه؟
- أوه لا.. سأفكر له في عقاب أكثر إيلاما..
وغادرت المجلس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 – المفترسات..

بدأت (عبير) تعتاد حياتها الجديدة كجارية لدى ملكة (الأمازون)..
كان عليها أن تمشط شعر (هيبوليت) وتغسل قدميها - ويا له من عمل! – وتعدّ لها السلاح والثياب، وتعد حمامها - الذي تستعمله نادرا – وتقدم لها الشراب، وتذوق الطعام قبل أن تذوقه هي حتى لا تتسمم وتغني لها ليلا.. و.... بعد هذا كان الوقت كله ملكها!
رأت (عبير) لمحات من هذا المجتمع..
إن (الأمازون) تضم كل النساء والفتيات الهاربات من طغيان الرجال، يفعمهن الحقد والمقت..
وكانت النسوة يحملن حين يتزوجن الرجال الأسري.. فإذا جاءت الذرية ذكورا أخذنهم إلى النهر حيث يتبناهم فلاحو القرى المجاورة.. وإذا جاءت الذرية إناثا أبقينهن في القبيلة..
وتخضع الفتيات لتربية صارمة على يد العجائز..
ليل نهار تحدثهن العجائز عن قبح الرجال وظلم الرجال.. وأنانية الرجال.. وتوحش الرجال.. وقذارة الرجال.. وسماجة الرجال.. وجبن الرجال.. وغباء الرجال.. وأي شيء مشين يمكن نسبته للرجال.
بعد هذا يأتي دور المحاربات اللواتي يعلمن الفتيات أصول القتال.. ويتخذن نموذجا هو واحدة منهن تضع لحية وشاربا.. وكذلك الدمى التي صممت لتبدو كرجال أقرب إلى الخنازير..
وتعيش الفتيات حياة من القسوة والعنف ويخضن أعنف التدريبات.. وتتم تغذيتهن بوجبات منتقاة من اللحم واللبن وغذاء ملكات النحل..
بعد هذا تتحول الفتاة إلى آلة لتدمير الرجال..
آلة بلا مشاعر سوى الحقد والمقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (بيرياسوس) يمضي الأيام في قفصه كوحش كاسر.. يقدم له الطعام والشراب؛ وتأتي النساء لرؤيته باعتباره من الطرائف..
ولم تكن الملكة مسرورة من هذا.. ف (بيرياسوس) بوسامته ووجهه القسيم ليس هو النموذج الأمثل الذي تتعلم النسوة به مقت الرجال.. لم تعد تدري ما ينبغي أن تفعل به..
فهو خطر ولا يمكن إطلاق سراحه تحت أية ظروف.
وثمة شيء في موضع من فؤادها يمنعها من قتله في الحال..
هل تتركه إلى الأبد ها هنا؟ هذا عسير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت صداقة من نوع ما تنمو بين (عبير) والنساء.. وقد أدركت أن المرأة هي المرأة، حتى لو كانت تقطع الرقاب عندما تشعر بالملل.. وقد سألتها النسوة عن ثوبها.. من أين جاءت بهذا (البليسيه)، ومن أين حصلت على هذه الزهور المطرزة؟
وسألتهن (عبير) عن جمال بشرتهن وسبل العناية بشعرهن.. وعلمتهن كيف يطهين الدجاج المتبل بالبصل.. وعلمنها كيف تعد حساء الثعابين وكيف تخرج أحشاء القنفذ قبل سلقه..
علمنها - كذلك - الرماية بالسهام.. حتى صار بوسعها أن تصيب عين حدأة تحلق في السماء على

ارتفاع مائة متر..
وتعلمت أساليب المصارعة العجيبة التي يجدنها.. ففي وسع محاربة (الأمازون) أن تهشم أعناق ثلاثة رجال يهاجمونها في آن واحد.. رجال عاديين طبعا لا من عينة (بيرياسوس)!
وتلقت - في الأمسيات الهادئة - دروسها الأولى في كراهية الرجال.. وسمعت من القصص المريعة ما يفوق ما سمعه قاض في محكمة الأحوال الشخصية في زماننا..
قلن لها: كل الرجال أشرار أنانيون شهوانيون قذرون مستغلون متطرفون مدعون منافقون كاذبون.
تحركت في نفسها النزعة العنصرية إياها، وبدأت تتذكر كيف كان يحق لأخيها الذكر كل شيء يخرج متى يشاء ويعود متى يشاء ويأمر بما يشاء.. وبعد كل هذا يأخذ قطعة أكبر من قطعتها من اللحم في يوم الخميس..
لماذا؟ لأنه ولد!
وفي أيام التنظيف وأيام الغسيل وأيام صنع الكعك، كانت تغرق في العمل كالعبيد مع باقي نساء الأسرة، على حين يخرج هو للنزهة مع رفاقه...
لماذا؟ لأنه ولد!
كانت (عبير) ستغفر له الكثير لو عرفت حجم الجهد والمعاناة اللذين بذلهما من أجل أن يخلق ولدا.
لكنه لم يبذل شيئا.. اختارت له الأقدار هذا الشرف في مجتمع لا يغفر للمرأة كونها امرأة..
كان كلامهن يلقى أرضا خصبة معدة للحقد في روحها..
وكان دمها يغلي تدريجيا..
ثم تتذكر (شريف) الوديع الرقيق الذي لم يؤذها قط.. عندما كانت تتراجع قليلا، وتردد وقد أدركت أنها بالغت نوعا:
- ليسوا جميعا أوغادا النقل إن 99.9999٪
منهم أوغاد.. فالباقون لا خلاق لهم لكنهم ليسوا أوغادا!
وهكذا تمضي أيامها في (الأمازون)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغت (هيبوليت) من تعبدها أمام تمثال (هيرا)، فعادت إلى فراشها وقشرت إصبعا من الموز قذفت به عبر قضبان السجن إلى الأسير (بيرياسوس).. وقشرت واحدا لنفسها..
سألها (بيرياسوس) غير عابئ بما ألقته له:
- أنتم تتعبدون ل. (هيرا) بالذات؟
قالت وهي تريح حربتها إلى الجدار، وتفك نطاقها:
- لم لا؟ المرأة قوية الشخصية، التي تسيطر سيطرة تامة على زوجها (زيوس).. إنها تستحق احترامنا وعرفائنا.
ثم اتجهت إلى القفص وتأملت أسيرها مليا:
- (بيرياسوس).. أنا مستعدة لإطلاق سراحك فأسير نبيل مثلك لا ينبغي أن يعامل كالببغاوات المتكلمة.. ولكنني سآخذ منك وعدا بألا تهرب وألا تحاول سرقة منطقتي..



ثم اتجهت إلى القفص وتأملت أسيرها مليا:
- (بيرياسوس).. أنا مستعدة لإطلاق سراحك..

قال في سأم:

- للمرة الثالثة تكررين العرض وأقول إنني لن أعد بشيء..

صمتت قليلا مفكرة..
ثم قالت وهي تريح رأسها على قضبان القفص:
- حقا أنت خصم شريف.. يمكنك أن تنجو بالكذب لكنك لا تفعل لهذا يتغلب كرمي الطبيعي وأجدني مدفوعة إلى أن أمنحك فرصة أخيرة..
- قدمي عرضك يا (هيبوليت)..
قالت وهي تتفحص سيفها المعلق على الجدار:
- عراك بيننا.. الحياة أو الموت.. أنا وأنت فقط.. فإن ظللت حيا أخذت فتاتك البلهاء والمنطقة.. وإن مت عدت إلى (بلوتو) وحدك..
قال محنقا:
- أتحسبين (بيرياسوس) يوافق على قتال امرأة؟
في كبرياء الملكات شمخت بأنفها:
- لست امرأة عادية.. أنا (هيبوليت) ملكة (الأمازون) وهذه إرادتي.. فإن لم ترضخ ذبحنا فتاتك المذعورة البلهاء كالخراف..
صمت (بيرياسوس) برهة.. ثم غمغم في استسلام:
ليكن.. سأوافق إذن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(هيبوليت)! (هيبوليت)!
ترددت الصيحات النسائية الغليظة من الحناجر..
كان اعتياد هؤلاء النسوة على الصوت الخشن قد جعل حناجرهن بارزة، على ذلك النمط المميز للرجال والمدعو (تفاحة آدم)..
وطارت الرماح في الهواء.. وبأقدامهن راحت النسوة يضربن الأرض مرارا وتكرارا..
الملكة تتقدم من تمثال (هيرا) تدعو للنصر.. ثم تضمخ وجهها وعنقها بأصباغ حمراء من دهن الخنزير.. وتشرب من وعاء يحوي لبن الماعز المختمر..
حول النار ترقص بعض الفتيات ملوحات بالرماح، وهن يصرخن كالهنود الحمر..
الكاهنة تتقدم من الملكة لتتلو عليها بعض العبارات بلغة غير مفهومة.. ثم تهتف بشعار (الأمازون):
- الموت للشوارب!
- الموت للشوارب!
- الويل للتستوستيرون والمجد للأستروجين!
- الويل للتستوستيرون والمجد للأستروجين!
والأول - إن كنت لا تعلم - هو هرمون الذكورة..
والثاني هو هرمون الأنوثة.. أما عن معرفة هؤلاء
المحاربات البدائيات بفسيولوجيا الغدد الصماء فأمر يمكن فهمه.. ألسنا في (فانتازيا)؟!
ومن وراء الصفوف وقفت (عبير) متوترة تقضم أصابعها - لأن أظفارها قد انتهت - ترمق هذا المشهد الرهيب على ضوء المشاعل.. وعيناها على (بيرياسوس) الذي وقف يحاول الابتسام وسط إعصار الكراهية هذا..
ورأت (عبير) الملكة تتقدم منه لتقف أمامه وتقول في ثبات وهي تناوله سيفا بتارا:

- يؤسفني أن أراك ميتا بعد عشر دقائق أيها المحارب الشجاع.. لكن هذا هو واجبي نحو شعبي..
وصمتت قليلا وأبعدت عينها عنه.. وهمست:
- .. ونحو نفسي!
لم تفت هذه العبارة (عبير) التي بدأت تدرك مدى حماقتها..
أليست هي نفسها امرأة؟ ألا تعرف أن مقت المرأة أحيانا يعبر عن أعمق درجات الحب؟!
إن الملكة تهيم ب. (بيرياسوس).. هذا واضح ومن لا تلاحظه فهي معتوهة مثل (عبير).. ولأنها ملكة فإنها ترى إنهاء سبب ضعفها هذا بأقصى سرعة وحسم.. ولكنها لن تترك فتاة أخرى تقتل (بيرياسوس).. ستقتله هي بنفسها لأنها تحبه!
إن نفسية المرأة - خاصة ذات الكبرياء - هي غابة متشابكة الأغصان يستحيل فهمها والتنبؤ بمساراتها.
(فرويد) وحده - عالم النفس الأشهر – يمكنه تفسير كل هذه الدوافع المعقدة.. لكن (عبير) بالطبع لم تقرأ (فرويد).. ولو قرأته لما فهمت حرفا.. لهذا أعفتنا من إقحام الرجل في هذا الموقف ولم يكن لديها متسع سوى عاطفة واحدة...
الغيرة!
نعم الغيرة! برغم خطورة الموقف أدركت أن (هيبوليت) امرأة فاتنة قل أن يوجد مثلها.. حتى في صورة (عبير) الساحرة ك. (برسفوني) ليست لديها أدنى فرصة في المنافسة..
والآن اختارت (هيبوليت) (بيرياسوس) لتحبه.. فما هي فرصة (عبير) الآن؟ صفر.
صعد الدم إلى رأسها.. وتمنت أن يوفق الله أحد المتصارعين لقتل الآخر.. فلو ماتت المرأة لعاد (بيرياسوس) مِلْكا لها.. ولو مات الرجل لتساوى وضعها مع الملكة.. كلاهما يفقد حبيبه إلى الأبد، وهذا نوع من التساوي في الظلم الذي لا يمكن أن ننكر أنه نوع خاص جدا من العدل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دنت أكثر من مسرح المذبحة القادمة.. وهي غارقة في هذه الخواطر واستطاعت أن ترى أن هناك رقعة خالية من الأشجار مساحتها ستة أمتار في ستة أمتار تقريبا..
ورأت أن محيط الرقعة يلتهب بالنيران.. لقد نثرت المحاربات الأعشاب الجافة وأشعلنها.... حلبة مصارعة تحيطها ألسنة اللهب عوضا عن الحبال..
ثم أدركت أن تقاليد المصارعة أكثر تعقيدا.. فكلا المتصارعين يتم ربطه إلى خصمه بجنزير حديدي طوله خمسة أمتار.. بهذا يحد من قدرة كل منهما على الفرار أو التملص..
ووقف (بيرياسوس) و (هيبوليت) يتبادلان النظرات..
كانت عينا (هيبوليت) تلتمعان توحشا.. وساعد بريق النيران على جعلها كنمر آدمي غاضب..
كل النساء ذوات العيون الخضراء يعرفن كيف يظهرن كنمر حينما يغضبن..
لكن هذا زادها جمالا على جمال..
تناولت المذراة.. والفأس.. وسألته عما إذا كان يرغب في سلاح آخر غير السيف فقال لها: لا..
تكونت دائرة كاملة حول المتصارعين..
ووقفت الكاهنة رافعة ذراعها بما يشبه المنشة...
منشة مصنوعة من ريش ملون..
- والآآآآآآآن..
قالتها ماطةً مقطع كلمتها منذرة بالبدء عند نطق حرف النون..

ثم أنزلت منشتها في حركة مفاجئة:
- تقاتلا!
وأردفت وهي تتراجع إلى الوراء:
- أريد قتالا قذرا! قتالا حتى الموت! القاعدة الأساسية هي: لا قواعد.. فلتبلل الدماء هذه الأرض!
وقد كان
لكنها لم تكن دماء (هيبوليت)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- بعض العنف..

نظرا لكثرة العنف في هذا الفصل؛ نوصي ذوي القلوب الرهيفة بأن يقفزوا إلى الفصل السادس مباشرة.
سيكون هناك كثير من الدماء بلا مبرر.. وكثير من الصراخ.. والهتاف الوحشي.. وحتى كاتب هذه السطور لا يحب كثيرا ما سيكتبه بعد ثوان.. لكنه مضطر.. فلن يقنع القارئ بعبارة (ودار قتال وحشي انتهي بكذا) للأسف.. ثم إن كاتب هذه السطور لا يعرف بتاتا كيف سينتهي هذا القتال.. فهو حائر بين قتل (هيبوليت) ونجاة (بيرياسوس) - لكنها نهاية تقليدية يتوقعها الجميع - وبين قتل (بيرياسوس)، مع ما في ذلك من تجديد وفتح أبواب لا حصر لها بالنسبة لسياق القصة
إذن من سيربح؟
الرجل أم المرأة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن بدأ القتال حتى فهمت (عبير) لإبعاد هذه الترتيبات الشيطانية
أولا: التراجع مستحيل لأن نطاق النيران المحيط بالمتصارعين يحاصرهما تماما..
ثانيا: الجنزير الذي يربط الخصمين يجعل الكرّ والفر مستحيلا..
ثالثا: لا تحاول جذب خصمك لأنه قد يستسلم فجأة..
من ثم تسقط أنت بقوانين القصور الذاتي - تبا له - لتقع في النيران..
كانت (هيبوليت) تلف الجنزير حول ذراعها في حنكة.. لتقترب من (بيرياسوس) أكثر فأكثر بالطبع لم يكن بوسعها أن تجذبه إليها..
وفي يدها اليمنى كان الفأس.. الفأس الذي راحت تطوح به في الهواء جاعلة الدنو منها مستحيلا..
راح (بيرياسوس) يحاول الابتعاد عن الفأس الذي ذكر (عبير) بمروحة الطائرات العمودية..
كان يبحث عن ثغرة تتيح له إغماد سيفه في جسد (هيبوليت) لكن المذراة كانت هناك.. وانغرست هذه في ساعده.. ثم سرعان ما هوى الفأس ليمزق عضده...
أي ي ي! كانت الصرخة كافية لإعلان من هو الطرف الأقوى في هذا الصراع..
واضح أن (هيبوليت) خاضت هذا الصراع مرارا... وتعرف ما ينبغي عمله..
جذبها (بيرياسوس) إليه بقوة.. من ثم تراجعت هي وثبتت قدميها في الأرض.. آه.. إن هذه المرأة قوية حقا.. (بيرياسوس) العظيم عاجز عن جرها إليه..
وفجأة تخلت عن جذب الجنزير.. فهوى (بيرياسوس) - وقد فقد توازنه - ساقطا وسط ألسنة اللهب.. وأطلق صرخة أخرى وهو ينهض..
صيحات الحماس الوحشي من المحاربات:
- هووووه
- شرحيه يا (هيبوليت)!
- الموت للتستوستيرون!
جن جنون (بيرياسوس) وانطلق نحوها وهو يزأر كالأسود.. بثقة تراجعت للوراء - كأنما تصارع

ثورا - ووضعت ساقها في طريقه.. فهوى متعثرا على الأرض عند قدميها..



ووضعت ساقها في طريقه.. فهوى متعثرا على الأرض..

وفي اللحظة التالية كانت أشواك المذراة تنغرس في ظهره المحترق ثم تراجعت (هيبوليت)

خطوة.. وهتفت باسمة:
هيا انهض.. إن شعبي لم يستمتع بعد كما يجب!
نهض (بيرياسوس) لاهثا.. العرق يبلل عضلاته ويحرق عينيه.. لكن الغضب ينسيه ألمه..
طوح بسيفه قاصدا رأسها.. لكنها وثبت إلى الوراء برشاقة.. وهوت بالفأس على ذؤابة السيف فتصاعد الشرر وتهشم النصل إلى جزأين..
لم ينس (بيرياسوس) أن يقذف الجزء الباقي من السيف عليها.. فارتطم بصدرها ثم هوي على الأرض
- لقد بدأت تثور أيها المحارب!
هنا اندفعت (عبير) تتشبث بكتفي الضابطة متوسلة:
- أستحلفك بالله يا (إيناس) يا ح....
- اسمي (إينياس)..
- يا (إينياس).. فلتنته هذه المذبحة!
- ليست مذبحة.. إنها مباراة متكافئة..
- إذن.. فلتعطه سيفا آخر..
في حسم قالت الضابطة:
- حتما لا.. قواعد المباراة تحدد سلاحا واحدا..
- إذن قد انتهى أمره..!
- بالتأكيد.. ما لم تصب (هيبوليت) بنوبة قلبية الآن..
وفي حلبة المصارعة كان الموقف يسوع باستمرار.
(هيبوليت) تجذب المحارب نحوها - أو تنجذب هي له. وهي تلوح بفأسها في كل اتجاه..
وجهها يزداد جمالا وسحرا مع كل التوحش الذي يغزو ملامحها..
وأيقن (بيرياسوس) أنه إنسان ميت..
إلا إذا......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نترك هذا المشهد لنرى مشهدا أكثر أهمية..
هو ذا (زيوس) جالس على أريكته يتابع المباراة على شاشته العملاقة، وجهاز (الريموت كونترول) في يده.. بينما (هيرا) متربعة على الأرض تهتف لـ (هيبوليت) في حماس...
قالت (ديمتير) في ذعر حيث وقفت ترمق المشهد:
- (هيرا)! إن المرأة مسعورة.. توشك على افتراس الفتي
ولن تكتب النجاة ل (برسفوني)
قالت (هيرا) دون أن تفارق عيناها الشاشة:
- هذا مؤكد.. إنهن لفتيات رائعات!
ثم وجهت كلامها ل (زيوس):
هلا رفعت الصوت قليلا؟
قال لها وهو يداعب الأزرار:
- ثمة عيب في سماعات (الستريو).. إن الضوضاء تبدأ عندما يرتفع الصوت.. إنه ذلك المهندس النصاب الذي....

- افعلي شيئا!
كانت هذه من (ديمتير) التي فقدت أعصابها، فصرخت في (هيرا)..
ثم أردفت
- إنهن صنيعتك.. ولسوف ينفذن أوامرك..
نظرت (هيرا) إليها هنيهة.. ثم مدت يدها إلى صدرها فتناولت جهازا يشبه اللاسلكي.. وبفتور قالت:
- (هيرا) تنادي (هيبوليت). (هيرا) تنادي (هيبوليت).. خففي الوطء عن الفتي.. فأمره يهمنا هنا.. لا داعي لقتله.. كفاك تلقينه درسا ساخنا..
ثم أعادت الجهاز إلى صدرها.. وقالت:
- لا بد أن يفي هذا الغرض
وصل الهاتف إلى (هيبوليت) وهي في ذروة القتال.. فتوقفت قليلا كي تحسن الإنصات..
وكان هذا ما يبتغيه (بيرياسوس) تماما..
دار حولها بسرعة ولف الجنزير حول عنقها..
وفي اللحظة التالية كان يقف وراءها.. وشد الجنزير.. ثم ثبت قدمه في أسفل ظهرها ليحكم الخنق
أووووغ! راحت تطوح بالفأس في اتجاهات عشوائية محاولة أن تطيح برأسه، لكنه كان بعيدا عن متناولها..
راح يضغط بأسنانه على شفتيه حتى أدماهما محاولا أن يزيد من قوة الضغط.. أووووغ!
ولم تعد (هيبوليت) حسناء..
لقد جحظت عيناها وبرز لسانها خارج فمها واحتقن وجهها
وللمرة الأولى وجمت المحاربات وكففن عن الهتاف مد (بيرياسوس) يده الحرة إلى منطقتها وعالج قفلها.. ثم انتزعها ورفعها في الهواء تلتمع في ضوء اللهب...
وفي اللحظة التالية تخلى عن الجنزير ليلقي بضحيته المتوحشة إلى الأرض..
ولوح بيده حاملة المنطقة في الهواء.. وصاح:
- يا محاربات (الأمازون).. لقد قاتلت وفزت إن منطقة (هيبوليت) ملكي الآن!
ومن موضعها حيث تمرغت في التراب.. هتفت (هيبوليت) من بين أسنانها وهي تحرر عنقها من الجنزير:
- هيا! انته مني! هو ذا الفأس ملقى بجواري...
لن تحتاج إلا إلى ضربة هينة..
قال لها لاهثا وهو يتراجع إلى الوراء:
أنا لا أقتل النساء.. حتى لو كن مسعورات!
وتقدم يشق طريقه بين صفوف المحاربات، اللواتي ألجمتهن الدهشة لهزيمة مليكتهن فرحن يتراجعن مفسحات طريقه..
ولقي (عبير).. فوضع ذراعه حول كتفيها واتجها إلى الشاطئ..
- (بيرياسوس)!
النداء يستوقفه فيلتفت إلى الوراء..
كانت (هيبوليت) هي من ناداه، وهي جاثية على ركبتيها وقد تلوث وجهها بالغبار.. وعيناها تتوسلان له..

كانت تبكي بحرقة..
لماذا تبكي؟ هناك أسباب كثيرة لذلك، لكن لا وقت لدي (بيرياسوس) كي يتساءل..
إن (بلوتو) ينتظر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- اقتل (ميدوسا)!

(بيجاسوس) الوفي يحلق فوق مياه المحيط..
و (بيرياسوس) يردد في إنهاك:
- فرغنا من خمسة أخطار وبقيت خمسة!
- كثير.. كثير جدا..!
الواقع أن (عبير) - التي لا تثق بنفسها أبدا -راحت تتساءل عما إذا كانت تستحق كل هذا العناء.. كل هذا الكفاح من أجلها هي؟! أية سخافة! ثم قالت لنفسها: إنها تعرف جيدا أن هذا الكفاح ليس من أجلها.. (بيرياسوس) يكافح من أجل قيم البطولة في حد ذاتها لا من أجل فتاة مهما عظم شأنها..
قابلهما (شارون) في وسط المحيط، في قارب صغير ينقل إليه الغرقى من ركاب سفينة فينيقية مالت على جانبها..
كان الغرقى يولولون ويتوسلون إليه – بلغة فينيقية ممتازة - كي يتركهم.. من الغريب هنا أن ركوب قارب (شارون) يعني الهلاك، بينما تركهم وسط الأمواج معناه النجاة!
لكن (شارون) كان حازما:
- أنا لم آت لأمزح معكم.. فليركب الجميع الآن!
وتكوم البؤساء في القارب يندبون الحياة الجميلة التي فارقوها إلى أهوال (هيدز) مملكة الظلام ورأى (شارون) الحصان المجنح براكبيه.. فلوح بعصاه في الهواء وصاح كاشفا أسنانه النخرة:
- مرحي يا (بيرياسوس)! استغرقت وقتا طويلا هذه المرة.. يبدو أنك أعجبت بحسان (الأمازون)
صاح (بيرياسوس) بدوره:
- تبا لك ولسيدك! لقد كانت لحظات كئيبة حقا..
ثم أخرج المنطقة من حزامه.. وطوحها ليتلقاها تلميذ الجحيم:
- خذ! ماذا سيفعل مولاك بها؟ أيربط رأسه بها اتقاء للصداع؟
- هذا شأنه يا صديقي..
ثم إن (شارون) دس المنطقة بين طيات ردائه الأسود.. وقال وهو يهشم رأس أحد الغرقى كثيري الصخب:
- صه! والآن يا (بيرياسوس).. هي ذي مهمتك السادسة.. عليك أن تقتل (ميدوسا)!
- لكن (برسيوس) سيفعل هذا.. إن لم يكن قد..
- لقد أعيد توزيع الأدوار.. والآن.. هيا!
وابتعد الحصان المجنح براكبيه.. وغدا (شارون) وقاربه بقعة سوداء في الأفق..
قالت (عبير) في قلق:
- كان المفترض أن أتحاشى (ميدوسا) و (المينوتور).. لقد جابههما الدكتور (رفعت إسماعيل) من قبل.. ولسوف يكون في هذا تكرار لا يخلو من إملال..
غمغم (بيرياسوس) في شرود:
- على كل حال هو لم يوجههما حقا.. كانت خدعة محكمة... ومن المستحيل أن ينسي (بلوتو) (ميدوسا) ما دام ينوي خراب بيوتنا..
ثم في حنق:

- إنني أتساءل عما بقي من أعمال عظيمة ل (هرقل) و (بيرسيوس) وسواهم.. لقد صاروا مجموعة من الكسالى خاملي الذكر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين توجد (ميدوسا)؟
يقولون أحيانا إنها تعيش في جزيرة في بحر (إيجة).. ويقال إنها تعيش في شمال (ليبيا) مع شقيقتيها الجرجونتين..
كيف يمكن العثور على وحش في هذا الكون اللانهائي؟
في العادة يستحيل العثور على وحش.. الوحوش هي التي تعثر عليك دائما..
قالت (عبير) محاولة أن تكون مفيدة:
- في الأسطورة عثر (بيرسيوس) على (ميدوسا) بعد ما سأل (السيكلوب) عن مكانها،
إن (السيكلوب) هي الكائنات ذوات العين الواحدة التي... و
- أعلم.. أعلم.- قاطعها في سأم – ولكن من نسأل لنعرف مكان (السيكلوب)؟!
صمتت مفحمة، وراحت تبحث عن جواب آخر..
هنا دوت الإجابة في ذهنيهما في ذات الوقت:
(ميدوسا) في بحر (إيجة).. الجزيرة عند خط عرض (كذا) وطول (كذا).
- ما هذا؟
قال لها مبتسما وهو يلوي عنان الجواد شرقا:
رسالة لاسلكية.. حتما أرسلها لنا (زيوس) أو (هيرا) أو ربما (بلوتو) نفسه.. إن سادة الأوليمب سريعو الملل.. يكرهون أن تؤخر متعتهم بإضاعة ساعات ثمينة في البحث..
وتحسس نطاقه وأردف في مرح:
- هذا دليل آخر. إنهم منحوني سيفا بتارا جديدا بدلا من ذلك الذي حطمته (هيبوليت).. ما كنت لأواجه (ميدوسا) دون سيف..
بقلق تساءلت (عبير):
- والدرع البراق؟ لقد كان شديد الأهمية ل (بيرسيوس)
- إن (هرمز) ليس هنا ليهدينا واحدا.. علينا أن نترجل إذن..
ومد يده إلى جيبه فأخرج الإسطرلاب وآلة السدس وبوصلة.. وراح يجمع ويطرح ويقسم.. ثم صاح:
- هنا! هذه هي جزيرتنا إذن!
كانت جزيرة صخرية شريرة الشكل لا توحي بالثقة.. تقف وسط أمواج البحر كأنما تتحداها وكأنما الأمواج تتمنى تفتيتها بلا جدوى..
وبدأ (بيجاسوس) ينحدر معه فؤاد (عبير) هلعا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تماثيل متقنة تنتشر على الساحل
تماثيل تحكي - في بلاغة - حكاية العذاب البشري.
فمن تمثال لرجل يركع على ركبتيه صارخا، حاجبا بكفي عينيه.. إلى تمثال لرجل يسقط على الأرض وقد رفع كفه مذعورا يتقي خطرا ما.. إلى تمثال لعجوز ملتح يشيح بوجهه..



تماثيل تحكي – في بلاغة – حكاية العذاب البشري..

مشت (عبير) بين التماثيل جوار (بيرياسوس)، وقد ملأها التوجس والذعر من هذا الجو الجنائزي المقيت..

قالت له هامسة حتى لا تسمعها التماثيل:
- ما قصة هذه التماثيل؟
قال لها هامسا بدوره وهو يمتشق حسامه ويتقدمها:
إن (ميدوسا) كانت امرأة عادية حتى أحنقت (زيوس) لسبب لا أذكره.. لهذا سحرها وشقيقتيها (ماجيرا) و (نييرا) إلى مسوخ.. إن كفي (ميدوسا) من النحاس وشعرها من الأفاعي التي لا تكف عن الفحيح!
- مرحى!
- ليس هذا كل شيء.. إن عيني (ميدوسا) قادرتان على تحويل من تراه إلى حجر..
- جميل!
- هذا يفسر لك ما أصاب هؤلاء القوم البؤساء..
إنهم غالبا من البحارة الذين رماهم سوء طالعهم إلى هذا المكان دون سواه...
كان هناك تمثال تكاد الحياة تدب فيه.. تمثال لرجل لحظة الانكفاء على وجهه بعد ما رأى المسخ..
تساءلت (عبير) وهي تنقل قدميها في هلع:
- وكيف تقتل ما لا يسمح لك برؤيته؟
- هذه هي المسألة كما سيقول (هاملت) يوما ما..
تمثال لرجل تمدد على الأرض محاولا الزحف.. وقد استند بيده اليمنى إلى الغبار ورفع اليسرى متوسلا..
تسأل (عبير) بطلها:
- وهل (ميدوسا) موجودة في العراء؟ من السهل أن نلقاها إذن في أية لحظة..
مط (بيرياسوس) شفتيه في اشمئزاز إغريقي:
- أستبعد هذا.. إن المرأة لها طباع ثعبان آدمي وأعتقد أنها تفضل الاختباء في الخرائب حين تكون الشمس ساطعة.. مثلما هي الآن..
أشارت بإصبعها السبابة إلى المدى.. وتساءلت:
- خرائب مثل هذه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دارا حول المعبد المتهالك الذي تساقطت أكثر جدرانه.. وما بقي منها اكتسى بالطحالب الخضراء والعفن..
ثمة سحلية تفر هنا.. وأفعى تزحف هناك.. وأشياء أخرى لا تدري كنهها لكنها حية ترزق!
قال (بيرياسوس) لاهثا من فرط انفعال:
- والآن لنتفق على كل شيء.. سأدخل وحدي... فإن أنا لم أعد فعليك الفرار ب. (بيجاسوس).. ولسوف يجدك (بلوتو) وتغدين في أمان في (هيدز)! أي جحيم هو أفضل من هذا المكان..
تذكري.. تنتظرين حتى الغروب فقط.. فلا أريدها أن تغادر خباءها لتجدك!
- ولكن...
- من حقك أن تصمتي تماما.. لكني لا أريد اقتراحات بلهاء..
وهنا تصلبت..
هناك من يتحرك ببطء خلف ظهرها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 - لماذا لم تقتلها بعد؟!

كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة؛ شعرت (عبير) بأن شعر رأسها يقف على أطرافه مشعًا في كل اتجاه.. كأنها أشواك قنفذ...
واستدارت تلقائيا لترى كنه القادم؛ لكن (بيرياسوس) صاح بها في عصبية:
لا تنظري يا حمقاء! تبيني من هو أولا!
وأطرق برأسه وأطرقت.. حين سمعا صوتا يترنم:
- بحق عجول (ديونيزوس).. بحق (الهسبراد).. وقوس أبوللو الذي يضرم اللهب في سواد الدياجير..
صوت شيخ هو.. مصحوبا بنغمة ما كنغمة القيثار..
هنا التفتا إلى الوراء..
ورأت (عبير) شيخا يرتدي أسما بالية، وقد أمسك قيثارًا يعزف عليه مصاحبا أشعاره، وكان ضريرا كخفاش..
قال (بيرياسوس) متنفسا الصعداء:
- ووووه! (هوميروس)! أيها الضرير الثرثار.. حسبتك هي.
واصل الرجل الترنم:
- أواه ل (بيرياسوس) ابن (هيلانة).. أواه للبطل الذي تحدوه أنغام الهلاك وأهازيج المنية.. لك التحية يا بن (زيوس) الذي لم ينجبه!
قال (بيرياسوس) في مرح:
- (هوميروس).. الشاعر المكفوف الذي خلد ملاحم البطولة الإغريقية.. وصاحب (الإلياذة) و (الأوديسة).. هل قرأت له شيئا؟
غمغمت (عبير):
- قصتيه الأخيرتين فحسب.. هل تحب أشعاره؟
- ليس تماما.. أفضل قصائد (فرجيل) المسماة بالأكلوجات.. ولكنه هنا على كل حال..
- ولماذا جاء؟
- بالطبع كي يصف هلاكنا على يدي (ميدوسا)..
إنه - كما تقولون في العامية المصرية - يبغى جنازة يشبع فيها لطما
وهنا انتابت الحماسة (هوميروس) فواصل الإنشاد:
أواه يا (بيرياسوس)! يا من ذهبت للقاء الجرجونة دون أن تشرب من خمر (باخوس).. أواه يا بطل الأبطال.. يا بن (جي).. ويا أخا (مينرفا) ربة الحكمة..
قال لها (بيرياسوس) في حنق:
- أتسمعين؟ ينظم أبيات رثائي وأنا حي أرزق.. لهذا أنا أمقت الشعراء.. ولا أثق إلا بالسيف..
يوما ما سيقول أحد شعراء العرب نفس الكلمات تقريبا [1].
وهنا التمعت فكرة في ذهن (بيرياسوس)..
إن (هوميروس) ضرير.. أليس كذلك؟ معني هذا أن سمعه مرهف وإحساسه بالمكان على أتم ما يكون.. لم لا يكون (هوميروس) هو مرشده داخل هذا المعبد الخرب؟
على الأقل يكون هذا الشاعر النصاب قد قام بشيء عملي واحد في حياته.. ومارس البطولة بدلا

من الاكتفاء بمدحها..
أخرج (بيرياسوس) عصابة لفها حول عينيه بحيث لم يعد يرى شيئا..
وتأبط ذراع العجوز.. وقال في مرح:
- والآن يا جدي.. سندخل هذه الخرائب بحثا عن (ميدوسا).. وعليك أن تكون عيني وأذني عندما نلقاها تنذرني بهذا..
اعترض الشيخ:
- لكني شاعر ولا أصلح ل..
- بل تصلح لأنك الوحيد الذي يجرؤ على فتح عينية في حضرة هذه الشيطانة..
ودون كلمة أخرى شد الشيخ من ذراعه...
قاصدين الباب الوحيد الذي وجداه..
الباب إلى عالم (ميدوسا) الرهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا رأى (بيرياسوس) بالداخل؟
طبعا لا شيء سوى الظلام...
فقط هو يشعر بعضد (هوميروس) الواهن المرتجف.. ويسمع اصطكاك ما تبقى لديه من أسنان..
هنالك - أيضا - صوت الأنفاس اللاهثة.. وحفيف الأقدام فوق أرض من رخام مغطى بالغبار..
يقول (هوميروس) في تؤدة:
- نحن نصعد في درجات سلم
ثم يقول في مزيد من التؤدة:
- هذا رواق طويل..
وتتحرك عصاه يمينا ويسارا.. ويغمغم
- تماثيل.. تماثيل هنا وهناك.. بعض من ضحايا الشيطانة..
ثم..
- نحن نهبط في درجات سلم.. نخرج من باب و.... لحظة! هذا جسد امرأة.. امرأة حية! إنها هي! اضرب يا (بيرياسوس) بحق (زيوس)!
ورفع (بيرياسوس) سيفه ليهوي به أمامه حين سمع صراخ (عبير):
- توقاااف! هذه أنا.. (عب...) أ.. (برسفونى)!
نزع (بيرياسوس) العصابة عن عينيه ليجد أنهما خارج المعبد.. في نفس المكان الذي بدآ منه!
لقد دار الشيخ الأحمق دورة حول نفسه داخل المعبد وخرج من حيث دخل!
- تبًّا - قالها في حنق - وأنا الذي ظننت حاسة الاتجاه عند العميان لا تخطئ.. كدت أطير عنق هذه البائسة!
- إنني أحتج.. إن الممرات معقدة جدا بالداخل مما ي..
- حسن.. دعنا نكرر المحاولة والويل لك لو ضللت الطريق ثانية..
وكذا.. يستمر البحث.. ويواصل (هوميروس) الإدلاء بمعلوماته لبطلنا معصوب العينين..
- هناك بئر أو حفرة عميقة أمامك.. إن صوت خطواتنا يدل على ذلك.. خذ الحذر..
صوت فحيح أقاع يتعالى من بعيد..

توترت ذراع (هوميروس) وتحول صوته إلى فحيح مماثل:
- هي هنا! هل سمعت؟ إنها أمامنا جهة اليسار!
الصوت يدنو أكثر.. ثم سمعا صوتا متحشرجا يهتف في لزوجة:
- من؟ من؟
ويتعالى الصوت أكثر.. إن صاحبته تدنو.. تدنو..
- من الأحمق الذي تجاسر على إيقاظ (ميدوسا)؟
يهمس (بيرياسوس) في أذن الشاعر المذعور:
- حين تقترب المسافة مترين.. ارم بي عليها..
- ل.. ليكن!
صوت الفحيح والخطوات يتعالى أكثر..
ثم يلقي (هوميروس) ب (بيرياسوس) إلى الأمام تجاه اليسار، ويجد (بيرياسوس) نفسه يصطدم بما يشبه جسد امرأة، لكنها امرأة قوية كخرتيت.. لها رائحة حظائر الخنازير لو أن الخنازير مصابة بغازات البطن..
وشعر بيدين ثقيلتين معدنيتين - من نحاس بالتأكيد - تعتصران عنقه، وثمة يد ترتفع في فظاظة إلى وجهه محاولة إزالة العصابية.. لا!
رفع السيف إلى أعلى وهوي به - بكل قوة – على ما يفترض أنه الرأس.. ضربات عشوائية في الهواء ثم.. الضربة الماحقة الساحقة تضرب جذور الرقبة.
وثمة شيء ساخن مقزز يبلل وجهه.. إنه دمها! دم (ميدوسا)..
الجسد يتخاذل.. يهوى أرضا.. صوت فحيح الأفاعي يتعالى ثم يهمد تماما.. يفتش (بيرياسوس) بيد لا تري عن الرأس..
هو ذا! رأس (ميدوسا) في قبضته الآن.. يشعر بالحركة المتقلصة للأفاعي المحتضرة.. والثقل غير العادي للرأس كله
ينزع (بيرياسوس) عباءته عن كاهليه، ويلف فيها الشيء المشئوم، ثم يقول ل.(هوميروس) لاهثا:
- انتهى الأمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (بيرياسوس) العظيم الذي رضع الجسارة من ثدي أمه (جي)..
إنه قد خلب لب سادة الأوليمب.. وارتج له فؤاد (هيرا).. وفي الفيافي، وفوق الأثباج ترنم المسافرون بالاسم..
كان هذا (هوميروس) ينشد أبيات الشعر الحماسي، بينما يتقدم قاصدا الخروج من المعبد
قال له (بيرياسوس) في حنق:
- هلا خرست قليلا؟ لا نريد أن تجدنا الأختان الآن
- فهما لن تكرما وفادتنا ونحن نحمل رأس أختهما..
أحسن (بيرياسوس) بالهواء النقي، فنزع العصابة عن عينيه..
كانت (عبير) تنتظر في الخارج مذعورة، فرفع رداءه بما فيه ملوحا بما معناه: قد فعلتها!
تنفست (عبير) الصعداء.. وهتفت:
- هو ذا (بيرياسوس) الذي لا يقهر.. (بيرياسوس) الذي لا يجهل شيئا في العالم سوي مرارة الفشل!

بكبرياء ابتسم:
- لقد أصابتك العدوى من (هوميروس).. والآن هيا بنا.. لقد أنهينا العملية السادسة..
واتجها باحثين عن (بيجاسوس) الذي كان يرعي لا شيء في الواقع..
ولحق بهما (هوميروس) مترنحا.. وصاح:
- ألن تأخذاني معكما يا (بيرياسوس)؟
- رد (بيرياسوس) وهو يساعد (عبير) على الركوب:
- نعم لن نفعل.. إن (بيجاسوس) لن يحمل راكبين.. ستعود من هنا بنفس الطريقة التي جئت بها، والتي لا يعلمها سوى الله..
- لكن الليل قادم.. والأختان ستخرجان لي..
- هذه ستكون خبرة شعرية عظيمة، فكر في الأبيات الرائعة التي ستنظمها!
قالها وهو يمتطي صهوة الحصان بدوره
هنا صاح (هوميروس) محنقا:
- عليك اللعنة إذن يا (بيرياسوس).. يا أنذل أبطال (هيلاس)!



هنا صاح (هوميروس) محنقا:
- عليك اللعنة إذن يا (بيرياسوس)..

كان (بيجاسوس) قد رفرف بجناحيه محلقا..
وتساءلت (عبير) وهي ترمق (هوميروس)

يصغر ويصغر.. وهو ما زال يلوح بعصاه مستمطرا اللعنات:
ما معنى (هيلاس)؟..
- (هيلاس) هي اليونان.. ولا تأخذنك شفقة بهذا الشاعر المدعي.. إنه يحاول خلق موقف درامي لا أكثر.. فكما جاء سيرحل..
- لهذا لم يرد اسمك في الأساطير الإغريقية..
- هذا حق.. إن (هوميروس) أشبه بالصحفي النصاب الذي يستغل منصبه، فمن أسدي له خدمة كتب عنه.. ومن تجاهله تجاهله هو بدوره.. أو كتب مقالات يسبه فيها..
كانت أمواج البحر تمتد إلى ما لا نهاية..
ومعها التساؤل الدائم: ما هو الخطر القادم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطر القادم كان خطرا.. وقادما.. ومريعا..
هذا هو ما أستطيع قوله في الوقت الحالي..
لماذا لا تقرأ الفصل القادم لتعرف أكثر؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - عربة الهلاك..

كانا يطيران الآن فوق (قبرص)... (عبير) تعرف هذه الجزيرة، وتذكر اسمها من (الأطلس) الذي أعطوها إياه في المدرسة.. أواه! لكم تأملته وعانقت كل جزء فيه.. ولكم سافرت - بخيالها - من تلك النقطة إلى تلك.. وهبطت إلى القطب الجنوبي حيث ترمقها الدببة والبطاريق في ملل.. وارتحلت إلى (أستراليا) حيث تواثبت الكناغر فارة منها وطاردتها قبائل (البوشمن) بأسلحتهم المرتدة المعقوفة (البوميرانج).. ولكم.......

هي ذي تعيش في الخيال.. لكنه خيال مختلف، له طعم، ولون، ورائحة، وملمس.. خيال قادر على أن يدمي أو يسرّ..

قال لها (بيرياسوس) رافعا صوته:

- هذه - على الشاطئ الجنوبي - هي بلدة (أماذيس)..

وهنا رأت (عبير) رجلا يقف في شرفة منزل..

كان يمسك بالمعاول والأزاميل عاكفا على كتلة من الحجر أمامه.. ومن الواضح أن هذا الرجل مثّال.. ومثال موهوب.. لأنه قد أحال كتلة الحجر إلى امرأة بارعة الحسن تقف في خيلاء.. وتوشك على أن تتحرك لولا أن هذا مستحيل....

لشدة دهشتها رأت الرجل يلقي بالمعاول والأزاميل أرضا، ثم ينقض على قدمي التمثال يغسلهما بدموعه مولولا.. ثم رأته يشعل البخور عند قدمي المرأة ويخاطبها بانكسار غريب...

همست (عبير) في أذن فارسها:

- إنه مجنون..

- بل عاشق.. كل عاشق مجنون في حقيقته

- يحب تمثالا؟

- لا؟ إنه (بجماليون) الذي تفنن في صنع تمثال ل (فينوس)، وكانت النتيجة هي أنه هام به حبا.. وراح يتمنى لو دبت الحياة في هذا الحجر الأصم.. إن عقدة (بجماليون) معروفة وتحدث كثيرا للمدرسين الذين يهيمون حبا بتلميذتهم الذكية..

كما أن أديبكم (برنارد شو) قدمها في مسرحية شهيرة هي (سيدتي الجميلة)..

هتفت وقد تذكرت تمصير هذه المسرحية:

- إنها أسطورة رومانسية والحق يقال.. لماذا لا نقترب أكثر؟

- هذا من حقك

وراح (بيجاسوس) برفرف حول الشرفة، فأفاق (بجماليون) من هيامه.. ودنا - دامع العينين سائل الأنف - من حاجز الشرفة، ولم تبد عليه الدهشة.. إن الخيول المجنحة ليست شيئا يدعو للذهول في بلاد الإغريق..

هتف في اهتمام وهو يكفكف دمعه:

هل أنت (بيرياسوس)؟

- نعم..

- كدت أنتحر صباح اليوم من فرط الوله.. لكن (شارون) رفض أن يأخذني إلى (هيدز).. وكلفني بأن أبلغك رسالة..

- تبا ل (شارون)! إنه لا يضيع وقته.. ماذا يريد؟

يقول لك أن تقود عربة الشمس بدلا من (أبوللو)..
- هذا ليس عسيرا.. إذن وداعا يا (بجماليون)... وأنصحك ألا تحاول الانتحار.. إن (فينوس) سترق لك حتما.. ولسوف تدب الحياة في التمثال ويصير
فتاة حسناء اسمها (جالاتيا)!
- ه. هل أنت واثق؟
كاد (بجماليون) يشب من الشرفة ليعتصر المزيد من المعلومات من (بيرياسوس).. لكن هذا الأخير لم يكن ليضيف أكثر من هذا.. وسرعان ما لوح بذراعه مودعا وارتفع بحصانه نحو السماء..
وصارت (قبرص) من جديد بقعة في أطلس مَدرَسيّ حي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى أين؟
- إلى أقصى نقطة شرقية حتما..
وهناك عند الساحل الشرقي لـ (آسيا) حيث تتناثر
جزر (اليابان) و (الفلبين) و (الملايو).. هناك حيث الجو الاستوائي يخنق الأنفاس برطوبته وبعوضه؛ كان الموعد المرتقب..
إنه الظلام والليل يلفظ آخر أنفاسه..
كانت هناك حاملة طائرات عليها الحروف الأولى من (أسطول الولايات المتحدة).. وقارب يقف في المياه الضحلة به عدة بحارة.. ينتظرون جنرالا يبدو عليه الهم، وفي يده حقيبة..
قال له أحد البحارة وهو يسلط كشافا في يده على المشهد:
- هو ذا قاربك يا جنرال..
رد الرجل في همّ متصل:
- سأصدع بالأوامر لكني سأعود.. وسأطرد هؤلاء الـ (جابس) [2]
لم يفهم (بيرياسوس) ما يحدث، لكن (عبير) - خرقا للعادة - عرفت على الفور أن هذا هو الجنرال الأمريكي (ماك آرثر) يغادر (الفلبين).. معلنا سيطرة اليابانيين المطلقة على المحيط الهادي..
تساءل (بيرياسوس) ممتعضا:
وما دخل هذا بالأساطير الإغريقية؟
- لا دخل. إنه خلط يحدث كثيرا في (فانتازيا).. وقد اعتدته!
وهنا دوت الطلقات.. إنهم يطلقون رصاص (الفيكرز) من فوق ظهر الحاملة على (بيجاسوس) حاسبين - البلهاء - أنه طائرة يابانية.. وكان على (بيرياسوس) أن يرتفع أكثر فأكثر..
وأخيرا يدنوان من السحاب..
وهناك كان (أبوللو) ينتظر جوار عربة الشمس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(أبوللو) الجمال المجسد بشعره الذهبي الأشقر والتاج المتألق فوق رأسه.. وقوامه الرشيق الغض..
كان ينتظرهما وقد بدا عليه شيء من الملال..

العربة أنيقة تحفها الزخارف.. وأمامها وقفت ستة خيول بيضاء مطهمة يتصاعد الدخان الأبيض من مناخرها.. وحوافرها تركل السحب في عصبية مبعثرة إياها في كل صوب..
وأمامها كانت سلال العلف المقدس..
نظرت (عبير) في انبهار إلى (أبوللو) العظيم..
إذن هو أنت! وباسمك أطلق الأمريكيون أول سفينة فضاء إلى القمر.. وباسمك الآخر (فيبوس) سموا القمر الذي يدور حول المريخ..
قال (أبوللو) وهو يداعب عنق أحد الجياد:
- تأخرتما كثيرا.. لقد فرغت (أورورا) من (عملية الفجر).. فبعثرت الأقسام، ورشت الندى فوق الزهور، وأيقظت الطيور.. حان الوقت إذن..
في خجل قال (بيرياسوس) مترجلا من فوق حصانه:
- معذرة.. كاد الأمريكيون يقتلوننا.. حسبونا طائرة يابانية..
ترجلت (عبير).. ولم يفتها أن تتساءل بحيرة عن كنه الأرض التي تقف فوقها.. المفترض أنها سحاب ولا شيء سواه.. فكيف لا تسقط من حالق؟!
على كل حال تجربة المشي فوق السحاب ليست مملة أبدا
نظرت إلى (أبوللو) بانبهار.. وتساءلت:
- هل لك علاقة ما ب. (آمون) و (رع)؟
- أوه.. كلنا نفس الشخص.. ولكن المصريين يتسمون بالدقة.. لهذا جعلوا ثلاثة أفراد مسئولين عن أطوار الشمس.. المشرقة.. الغاربة.. ثم في وسط السماء..
ثم إنه التفت إلى (بيرياسوس) ليقول له بلهجة تقريرية باردة:
أنت تعرف يا (بيرياسوس) أن عربة الشمس تقوم برحلتها اليومية من الشرق إلى الغرب، باعثة الضياء في أقطار الأرض.. مهمة حساسة كما تري وتحتاج إلى خبرة كبيرة.. ولولا أن لدى أمر تكليف من (بلوتو) ما كنت قبلت أن أعطيك عربتي..
ثم أشار إلى الجزء الخلفي من العربة:
- من هنا - من هاتين الفتحتين. يخرج اللهب المريع الذي ينير الكون.. يمكن التحكم في كميته بالضغط على الدواسة اليسرى..
ثم أخرج منشفة يجفف فيها يده من الشحم.. وأردف:
- مشكلة أخرى هي الفرامل.. إن (تيلها) ليس على ما يرام.. كما أن (الكبالن) في الموتور بحاجة إلى استبدال من فترة.. نقل السرعات إلى الثالث قد يؤدي إلى توقف العربية!
ثم تنهد.. وناول السوط إلى (بيرياسوس) قائلا:
- يمكنك البدء.. هل من سؤال آخر؟
- ن.. نعم.. الاتجاهات؟
- أوه.. لا تشغل بالك بها.. إن الخيول تعرفها جيدا.. لكن عليك أن تلزم خط الاستواء لا تبرحه وأنت تدور حول الأرض.. لا تحاول الانحدار إلى مدار الجدي أو مدار العقرب.. ولا تحاول أن تهبط إلى ما تحت مستوى السحائب حتى لا تحترق قمم الأشجار والغابات.. أو كاي؟
- أو.. أو كاي..
ثم إن (أبوللو) ناول (بيرياسوس) و (عبير) دهان الشمس المقدس، الذي يحمي الجلد من الاحتراق.. وقطر في عينيهما من الماء الذي يحمي العين من العمى بسبب الضوء الشديد
- خذا الحذر.. إن هذه الخيول شرسة حقا..

وحتى أنا أشعر بفؤادي يرتجف وأنا أدنو منها.. إن كلا منها هو إعصار في صورة حصان.. والتحكم فيها كالتحكم في شلال..
وتمنى لهما حظا سعيدا.. ثم ارتدي عويناته السوداء ودس في فمه قطعة من العلكة.. ولوح بذراعه:
- سي يو!
وهنا ألهب (بيرياسوس) ظهور الخيل بسوطه.. فانطلقت لا تلوى على شيء نحو السماء..
ثم نحو الغرب



وهنا ألهب (بيرياسوس) ظهور الخيل بسوطه.. فانطلقت لا تلوى على شيء نحو السماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- ملحمة الأبطال

من عل تري (عبير) جبال آسيا.. وترى معجزة الظلام الذي كان يكتنفها وهو يستحيل إلى لون أرجواني.. ثم يغدو ضياء ساطعا.. ترى الرعاة يغادرون أكواخهم، وترى الصينيين يصحون من النوم، وتسمع أغنيات النهار من أفواه القوقاز..
ويشد (بيرياسوس) عنان الخيول.. ثم يجلد ظهورها بسوطه.. فتصدر صهيلا مروعا وتسرع الخطى أكثر..
يضغط على الدواسة اليسرى فتندلع النيران من مؤخرة العربة أكثر.. فأكثر.. وتتحول العربة إلى كوكب من نار يمخر عباب السماء..
وتري (عبير) شبه الجزيرة العربية.. فالبحر الأحمر.. فمصر وطنها الحبيب.. وتسمع الديكة تتصايح.. وغناء القرويات إذ يصحون من النوم ليملأن جرارهن من النيل.
عربة (أبوللو) تعبر السماء..
ثمة رجل نحيل له كرش ضخم، يقف رافعا يده اليمني.. وبتبتل فرعوني عتيد يقول:
- تحية لك يا (أتون) من ابنك المخلص..
عندها ينقض عليه حشد من الكهنة صلع الرءوس ليوسعوه ضربا وركلا..
- من هذا يا (بيرياسوس)
قال لها وهو يلهب ظهور الخيل:
- هذا (أخناتون).. (أمنحتب الرابع) الذي دعا إلى توحيد الآلهة في صورة إله الشمس (آتون)..
إن هذا لم يرق لكهنة (آمون) طبعا لأنه يجعلهم مجموعة من النصابين..
تحلق العربة فوق (ليبيا).. ثم (الجزائر)..
وحشد من فرسان الطوارق يخرجون ليتمطوا خيولهم وينطلقوا في الصحراء مبعثرين الرمال في كل صوب..
(المغرب).. ثم البحر الممتد بلا نهاية.. المحيط الأطلسي الرهيب ومياهه تلتمع بضياء الشمس البكر..
إن التحكم في الخيول عسير حقا.. لهذا برزت عضلات (بيرياسوس) حتى كادت تمزق جلده.. والتمع العرق على صدره الذي بدت ألياف عضلاته ليفة ليفة..
العروق توشك على الانفجار من فوديه.. و (عبير) تتشبث بظهره في استماتة..
تهبط العربة حتى لتلامس الأمواج.. وترتفع حتى لتخرق السحاب.. لكنها. حيثما ذهبت - تترك الضياء خلفها..
همست (عبير) في افتتان:
- ما أخصب خيال هؤلاء الإغريق!
- ماذا قلت؟
لن يفهم ما تقول أبدا.. لذا صاحت:
- لا عليك.. كنت أكلم نفسي بصوت مسموع..
ومن بعيد تتراءى جزر الهند الغربية.. الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية.. قطعان الخيل البرية - يسمونها (الموستانج) - تركض عبر السهول احتفالا بالنهار، وقطعان الثيران البرية - - يسمونها (البافالو) - تفر من غارة مبكرة شنها الهنود الحمر عليهم.. عربات المهاجرين إلى الغرب تتحرك

مع الشروق.
لم يكن هناك أي نوع من التزامن الصحيح فالهجرة إلى الغرب حدثت بعد زمن الأساطير الإغريقية بعشرين قرنا أو أكثر.. لكن هذه هي (فانتازيا) حيث لا وجود للزمن..
الساحل الغربي للولايات المتحدة.. الشروق هو الوقت المناسبة لكل المبارزات بين رعاة البقر..
بوم بوم! ثم يسقط واحد غارقا في دمائه.. مشهد يتكرر آلاف المرات.
المحيط الهادي يلتمع في ضوء الشمس..
نظرت (عبير) إلى الوراء لترى أن الظلام قد زحف على إفريقيا من جديد.. لقد نام الأفارقة في الوقت الذي صحا فيه الأمريكان من نومهم
التفت لها (بيرياسوس) في مرح.. وهتف:
- نحن نوشك على الانتهاء من رحلتنا.. عدنا إلى نفس النقطة التي بدأنا من عندها تقريبا.. لقد أثبتنا فرض (ماجلان) الخاص بأنك تعود إلى ذات النقطة لو ارتحلت غربا..
ويبدو أنه تسرع في الحكم..
كانا يطيران فوق جزر الهند الصينية.. وكانت أشجار النخيل تتزاحم من تحتهما.. وما كان ينبغي له أن ينسى ما قال (أبوللو).. لقد وقع في خطأ جسيم.. انحدر لأسفل أكثر من اللازم..
وفي الحال اشتعلت قمم الأشجار.. وسرت النيران من شجرة لأخري كفتيل قنبلة.. أو كالتفاعل المتسلسل الذي بُحّ صوت مدرسي الفيزياء كي يشرحوا لنا ماهيته فلم نفهم..
استحالت الغابات جحيما.. وراحت الأوراق الملتهبة تهوي لتحرق أكواخ الفيتناميين المصنوعة من قش...
تعالت الصرخات وخرجوا من أكواخهم غير فاهمين..
وصاح أحدهم بفيتنامية فهمتها (عبير)
- الشمس تهوي فوق رءوسنا!
بالطبع يبدو هذا عجيبا.. الشمس تشرق عليهم كل صباح.. وتمر مر الكرام ولم يحدث قط أنها اصطدمت بنخيلهم.. فكيف؟
ويحاول (بيرياسوس) أن يرتفع بالعربة لكن هذا زاد الأمر سوءا لأن نفاثات المؤخرة - قاذفة اللهب - صارت مسلطة على القرى بشكل مباشر..
وتعالت الحرائق..
مياه المحيط الهادي من جديد..
لكن الأمر لم يكن هينا.. فالنار قد أمسكت بعربة الشمس.. والخيول أحست بلسعة النار من خلفها فازدادت جموحا...
وراحت تتلوى يمينا ويسارا.. لأعلى وأسفل..
قارب من البامبو يحترق بإصابة مباشرة..
صرخ (بير باسوس) في (عبير):
- لا جدوى! قد جنت الخيول تماما... اقفزي!
نظرت للمياه الهائجة من تحتها.. وعادت تنظر إليه
- قلت لك: اقفزي!
- ل.. لكن.. هـ.. هناك ال.. المحيط..
- إما الغرق وإما الاحتراق.. اقفزي!
وقد كان..

وثبت (عبير) إلى الماء صارخة.. واستغرقت وقتا
طويلا حتى شعرت بالماء البارد يتسرب إلى رئتيها هذه المرة لا مزاح هنالك.. إنها تموت حقا
إنها تموو....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هناك على الشاطئ راقدة وسط الرمال... الحر قائظ والبعوض ينز من حولها.. والعرق يغمرها..
وعلى بعد أمتار - ونصفه مغمور في الماء – كان (بيرياسوس) راقدا على بطنه بلا حراك..
ثمة حركة من جهة الماء..
نظرت فرأت عجبا.. كانت هناك فتاة حسناء شقراء الشعر تهدل شعرها ليغطي كتفيها وأكثر صدرها وظهرها.. وكانت تسبح فوق الأمواج بسلاسة مخرجة نصفها العلوي كله فوق السطح..
أهذه زعنفة سمكة تتحرك خلفها؟!
- مرحبا يا (برسفوني)!
إنها تتكلم بصوت عذب رقراق.. تتكلم وتقول:
أنا (الأوسيانيدة مينار).. لقد قمت مع عرائس البحر بإنقاذكما بناء على تعليمات مولانا ملك البحار (نبتون).. انتشلناكما من قاع المحيط وجئنا بكما إلى هنا..
همست (عبير) وهي تجلس:
- أ.. أين نحن؟
غطست الفتاة بلا مبرر في الواقع.. ثم برزت من جديد لتقول:
- أنتما على شاطئ (الفليبين).. كدتما تلقيان نهايتكما.. لكن مولانا - الذي يمقت (بلوتو) بشدة - أصر على أن تنجوا..
- و.. والعربة؟
- أنقذناها بخيولها.. وأعدناها لـ (أبوللو).. إنه حانق على ما حدث لها.. ويصر على إرسال فاتورة الإصلاحات إلى (بلوتو) إنها بحاجة الآن إلى (عمرة) كاملة.. والأدهى أن هذا يجب أن يتم حالا.. وإلا لن تشرق الشمس غدا.. تصوري هذا؟
- و.. ولكن.. هل أنت راحلة؟
لوحت (الأوسيانيدة) بذراعها في مرح.. وهتفت:
- طبعا يا حبيبتي.. فمن المفترض ألا يرانا فارسك القوي هذا.. الرجال لا يرون عرائس البحر إلا مصادفة ووسط الموج.. لهذا - ترين – يستحيل عليهم أن يتأكدوا من وجودنا..
وقبل أن تكمل (عبير) كلامها غاصت (الأوسيانيدة) لتختفي وسط الأمواج والزبد..
وبدأ (بيرياسوس) يئن.. ويتحرك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسح رأسه المترنح.. ثم اتجه إلى البحر فغسل وجهه بالماء المالح، وسعل وبصق مرارا.. ثم سألها دون أن ينظر نحوها:
- أنجحنا أم..؟
قالت وهي تقف جواره، ومياه الموج تغسل الرمال عن أصابع قدميها:
- نجحنا.. لكن الفضل ليس لنا.. الفضل لـ (نبتون).

- الكرة أهداف وليست لعبا.. كفانا أننا ربحنا.. ولم يبق لنا سوى ثلاثة مطالب..
ثم نهض.. وهز رأسه ليسقط الماء عنه:
- ترى ما هو المطلب الثامن؟
- (الكراكون) يا (بيرياسوس)!
ولم تكن (عبير) هي من تكلمت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - مهمة عسيرة..

كان هذا هو (شارون) الذي وقف عاقدا ذراعيه على صدره.. ثم إنه أشار إلى الأفق وأردف:
- ستقتل (الكراكون) وتنقذ (برسفوني)..
- لكن هذا عسير..
- إن (بلوتو) محنق عليك بسبب تدمير عربة (أبوللو).. دعك من احتراق (فيتنام) كلها بسبب حماقتك.. لن يجد الأمريكان ما يحرقونه حين يجيئون في الستينات..
وهنا ارتفع صوت صهيل.. فأشار (شارون) إلى القادم.. وقال وهو يبتعد:
- هو ذا (بيجاسوس) مازال حيا يرزق.. لقد احتفظ به (أبوللو) على سبيل (الرهن)..
والآن يمكنك البدء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق لمواجهة (الكراكون) حكي (بيرياسوس) ل (عبير) قصة هذا الخطر كاملة..
تبدأ القصة بحسناء أريبة في منتصف العمر اسمها (كاسيوبيا).. غادة اشتهرت بجمالها وغرورها الذي فاق الوصف.. وكل الجميلات في الأساطير الإغريقية جميلات جدا.. وكل الأبطال أبطال جدا.
المهم - دعنا من الاستطراد عادتي السمجة - أثارت (كاسيوبيا) هذه حنق سادة (الأوليمب) وغيرتهم..
ومن ثم سلطوا على جزيرتها تنينا مريعا – وكل التنانين في الأساطير الإغريقية مريعة - كي يفتك بأهلها ويلتهم عشرات منهم يوميا وحار القوم فيما يفعلون مع هذا (الكراكون) – اسم التنين - فقال لهم ذوو العلم: إن الحل هو تقديم الحسناء (أندروميدا) ابنة (كاسيوبيا) قربانا للتنين.. وكذا يتم استرضاء سادة (الأوليمب) المحنقين دائما..
ويتم تقييد الحسناء إلى صخرة تشرف على البحر..
ثم يدعون التنين بوساطة النفير كي يخرج من وكره لالتهامها..
هذا هو الموقف العسير الذي وجده (بيرسيوس) عندما وصل إلى الجزيرة وهذا هو ما دفعه إلى قتل الوحش.
هذه المرة لن يكون هناك (بيرسيوس) بل (بيرياسوس)..
فماذا يفعل الأخير؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن وضع (بيجاسوس) قدميه الأماميتين على الأرض؟ وما إن ترجلت (برسفوني) حتى هاج القوم.. وانقض رهط منهم على الفتاة التي وجدت نفسها محمولة فوق الأعناق، تصرخ وتولول وتحاول الإفلات.. لكن هياج المجاميع من هياج السيول.. لا يمكن إيقافه أو تهدئته..
وحاول (بيرياسوس) إنقاذها.. طوح رجلين أو ثلاثة في الهواء.. وهشم رأس أربعة أو خمسة.. وركل معدة ستة أو سبعة.. لكنهم كانوا كالبراغيث أو النمل.. لا نهاية لهم..
في النهاية وجد نفسه مثبتا على الأرض، وقد ارتمي فوق أطرافه القوية عشرة من هؤلاء الثائرين.
أما (عبير) - أو (برسفوني) - فكانت محمولة كنعش في جنازة.. ومن بعيد دنت امرأة في الأربعين

من عمرها، لكن الحسن لم يفارق وجهها.. كل ثيابها وإيماءاتها تمت للملكات..
إنها (كاسيوبيا) دون شك..
قالت بصوت أنفي عميق كأنما هي مصابة بزكام:
- من أنت أيها الفارس القوى؟
رد من محبسه على الأرض:
- أنا (بيرياسوس).. أرسلني (بلوتو) لقتل (الكراكون)..
في أرستقراطية دست إصبعها في أذنها تسلكها لتحسن السمع:
(بيرياسوس)؟ نحن بانتظار (بيرسيوس) ليخلصنا.. يبدو لي أنك تلفيق للأصلي.. مثلما تلفق (تايوان) الأجهزة الإلكترونية اليابانية وتطلق عليها اسما شبيها!
- لا حيلة لي في اسمي..
تأملت (كاسيوبيا) المشهد هنيهة.. ثم عادت تتساءل:
- هل تقدر على هذا حقا؟
- ولم لا؟ جربي ذلك..
قال أحد الرجال المتحمسين بلهجة واثقة، واللعاب يتطاير من فيه:
- إنه (يبلف) يا مولاتي.. إنه..
- اصمت يا (سكبتيس) - قالت الملكة باشمئزاز- «.. إن هذا الفتى يبدو لي كبطل إغريقي.. كلهم يبدون هكذا.. لماذا لا نعطيه فرصة؟ لن نخسر سوي حياته..»
- وحياة (أندروميدا)؟
قالت في كبرياء وهي تشير إلى (عبير) المحمولة
فوق الرءوس:
- لن أعرّض (أندروميدا) للخطر.. سأعرض هذه!
صرخ (بيرياسوس) وهو يحاول إزاحة جبل البشر الجاثم فوقه:
- (برسفوني)!! لن نعرضها لخطر كهذا..
إن الأسطورة تحتم أن يتم إنقاذ (أندروميدا)..
- هراء! (الكراكون) سيلتهم من يراه..
ولو فشلت أنت فسوف نقدم (أندروميدا) في المرة القادمة..
ثم أشارت إلى شعبها الحانق الذي ينتظر أمرا واحدا منها كي يمزق (بيرياسوس) و (عبير) وكاتب هذه السطور إلى أشلاء..
وقالت بنفس الكبرياء الإغريقية
- اربطوها إلى الصخرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويربطون (عبير) إلى الصخرة المطلة علي البحر، في وضع الصلب، والجنازير تقيدها إلى مسامير غائرة في الحجر، فلا تملك حراكا سوي التلوى بجسدها.. كأنما هي يمامة تحاول التملص من قبضة معذبها.. ويمسك ممسك منهم بالنفير فيقربه إلى شفتيه..
كئيبا رتيبا يدوّي الصوت كأنما هو نفير (شارون) ذاته.. ثم يتوارى القوم وراء أسوار مدينتهم خائفين
تقول (كاسيوبيا) ل (بيرياسوس) وهي تودعه:

- الآن حان دورك أيها الفارس.. أرني ما يمكنك عمله.. تذكر أن فرصة مواجهة (الكراكون) لا تتكرر كثيرا في حياة المرء..
ويمتطي (بيرياسوس) صهوة حصانه المجنح (بيجاسوس).. ويلوح بسيفه في الهواء صائحا كعادته:
- الموت لل. (كراكون)!
- هذا هو الحماس!
ورفرف الحصان بجناحيه.. فانطلق يدور دورة حول الرءوس ثم هبط قليلا.. وعاد يرتفع مبتعدا نحو الأمواج..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء سوي الصمت..
النوارس تفر مبتعدة كأنما تشعر بدنو الكارثة.. والأمواج تزداد هياجا والرذاذ يصطدم بحائط الصخور المهيب..
(عبير) تشعر بالرهبة وشيء من التلذذ..
لقد جربت كل شيء في (فانتازيا) هذه.. حتى دور العذراء ضحية القرابين الخالدة.. هي ذي تُجرّبه الآن بنجاح مطلق.. إن هذا يدعو للفخر حقا أن تموت بنفس الكيفية التي تموت بها (أندروميدا) و (إيفجينا) وفتاة (كينج كونج) و... و...
لكنه شيء مريع..!
والكون ساكن كما هو ينتظر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(بيرياسوس) يبحث في سرج الجواد عن كيس قماشي.. ذلك الكيس الذي داري فيه رأس (ميدوسا) بعد قطعه.. حين كان في المعبد العتيق مع الأخ (هوميروس)..
بالتأكيد يصلح هذا الرأس لقتل (الكراكون).. لم لا؟
إن (الكراكون) تنين.. لكنه تنين حي له روح ويمكن أن يؤثر فيه هذا الرأس
ولكن أين هو؟ أيكون (شارون) قد سرقه؟ من الجائز أن يكون هذا هو ال.. آه! هو ذا.. المهم الآن أن تتشبث به يا (بيرياسوس).. وألا تراه.. وألا تدع (عبير) - أعني (برسفوني) – تراه..
تبا لهذا الصمت.. الصمت الثقيل..
من أية بقعة سيخرج هذا (الكراكون) الرهيب ليزيد الحياة تعقيدا؟!
وهنا رأي (بيرياسوس) ما جعله يتمنى أن يعود الصمت من جديد وأن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الأعماق يخرج (الكراكون)...
تنين هائل الحجم له أنياب لا يمكن حصرها.. ورأس عملاق يماثل الصخرة التي ربطت (عبير) إليها...
يخرج من الأعماق والماء يتساقط من أجزائه.. وبيدين دقيقتين لهما أظفار وسلاميات يتشبث بالشاطئ رافعا جسده أكثر فأكثر.. وإن ظل نصف هذا الجسد تحت الماء كما تفعل عرائس البحر..

وووووووووه!
تصاعدت الصرخة المذعورة من آلاف الحناجر، فبدت كصرخة كونية غير بشرية.. كلحن تصويري مخيف يصاحب تفاصيل المشهد..
وكأنما يؤكد وجودة؛ رفع (الكراكون) رأسه إلى السماء.. وأطلق زئيرا مريعا بدا أقرب إلى هدير البراكين..
إن (الكراكون) وحش.. وكل الوحوش تنظر إلى السماء وتزأر.. ولا أدري سر تفشي هذه العادة السخيفة بينها..
رددت (عبير) زئيرا مماثلا.. لكن مصدره هو الذعر طبعا.. الذعر حين رأت هذا الجبل الحي يطفو خارجا من الأعماق ليواجهها مهددا.. لقد جاء من أجلى.. من أجلي أنا ولا مجال لسوء الفهم أو السهو أو الخطأ.
ولكن أين (بيرياسوس)؟
كل هؤلاء الأبطال الإغريق لا يأتون أبدا حين تريدهم.. لو كان هذا هو (سوبرمان) مثلا لظهر في الوقت المناسب..
أطلقت صرخة أخرى..
لكن (بيرياسوس) كان هنا هذه المرة..
رأت الحصان الأبيض الجميل يرفرف بجناحيه.. وعلى صهوته (بيرياسوس).. وكانا يدنوان منها محلقين..
الحصان يقوم بدورة ثم اثنتين حول رأس الوحش..
ثم يعالج (بيرياسوس) الكيس ليخرج منه رأس (ميدوسا).



الحصان يقوم بدورة ثم اثنتين حول رأس الوحش..

حقا إنها لفكرة جيدة.. صحيح أنها مسروقة من فيلم (صراع الجبابرة) حيث يقوم (بيرياسوس) بقتل (الكراكون) مستعملا طريقة لم ترد في الأسطورة الأصلية.. لكن هذا لا يمنع من براعة

مبتكرها..
ومن بعيد ترى الرأس في ذراع (بيرياسوس) المفرودة.
لكن الوحش لا ينظر نحو البطل أساسا.. إنه ينظر نحوها هي...
يواصل (بيرياسوس) التحليق حوله محاولا استفزازه..
عينا التنين تلتمعان.. ويبدأ في الزئير وهنا وقع (بيرياسوس) في خطأ صغير..
لقد نظر في عيني الوحش الحدقتين السوداوين اللامعتين تعملان كمرآة من أفضل نوع.. وفي المرآة انعكس الرأس البشع بثعابينه المتلوية.. ورآه (بيرياسوس)..
لم تدر (عبير) متى ولا كيف حدث هذا لكنه حدث..
صرخة داويه مروعة مفزعة رهيبة مهيبة كاسحة مزلزلة رنانة متحشرجة مبحوحة طويلة.. ثم رأت أن (بيرياسوس) يبيض.. يشحب.. يتحول إلى رخام!
تغيرات مماثلة تحدث للحصان وتمثال لفارس فوق حصان مجنح يطير كالقذيفة
ليصطدم بحاجز الصخور.. ويتهشم إلى ألف قطعة وتهوى القطع إلى مياه البحر لتختفي نهائيا....
أما (الكراكون) فقد اتضح الأمر.. إنه فوق لعنة (ميدوسا) ولا يتأثر بها..
لا تبكي يا (عبير)..
ستحتاجين إلى ساعات طويلة كي تفهمي حقيقة ما حدث.. كي تعرفي أن (بيرياسوس) قد مات!
لكن (الكراكون) لن يمنحك فرصة كهذه إنه يواصل تقدمه منك..
لا يهم.. سألحق ب (بيرياسوس) في (هيدز)..
وعندئذ لن يفرقنا شيء.. هلم أيها المسخ أنه عملك المقيت.. هلم.. هلم.. لن يكون هناك سوى ألم حاد سريع حين يلتقي صفا الأنياب حول صدري.. ثم لا شيء.. لا ألم..
لن يترك لها الاحتضار فرصة لاسترجاع المشهد.. لحظة أن هلك (بيرياسوس) وهو لا يعرف أنه هلك..
هلم.. هلم..
وهنا شعرت بأنها تتحرر..
وأن هناك من يحلق بها بعيدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - مملكة الموتى..

عبر أمواج (ستيكس) عرفت (عبير) الحقيقة..
إنها عائدة إلى (بلوتو) الذي ينتظرها على أحر من الجمر في (هيدز)
- ولماذا لم تتركني ليلتهمني (الكراكون)؟
- لأن (بلوتو) بريدك حية.. عنده ملايين الحسناوات الميتات في مملكته فما الذي يميزك عنهن؟
ثم إن (شارون) ابتسم ابتسامة مقيتة وقال:
- لقد صدق (بلوتو) العهد.. لكن بطلك المغوار لم يستطع استكمال المطالب العشرة..
- تبا لك.. ول (بلوتو)..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك كان (بلوتو) ينتظرها وقد بدت أشنع تعبيرات الرقة على وجهه المريع..
- (برسفوني) يا دودتي الحبيبة!
تراجعت باشمئزاز للوراء:
- أنا لست دودتك الحبيبة.
أحاط كتفيها بذراعه الثقيلة.. واشتمت ريح الموت من إبطه وهو يقودها في تؤدة عبر غابات الأشباح..
قال لها بصوته الجليدي:
- كان رهانا وخسره فارسك.. لقد أبلى بلاء حسنا.. لكنه لم يبلغ النهاية.. والعبرة في كرة القدم بالأهداف لا اللعب..
ثم أشار لها إلى الأفق.. حيث كان حشد من الموتى يسري تحت ضربات أسواط الزبانية. وقال لها:
- هو ذا (بيرياسوس) قد اتخذ مكانه كشبح إلى الأبد.. هل تميزته؟ إنه الرابع من الأمام..
ثم صاح أمرا:
- (بيرياسوس)! تعال هنا...
سمعت (عبير) أحد الزبانية يأمر من في الحشد:
- هلموا.. فليغادر الحشد من يدعي (بيرياسوس).. إن (بلوتو) لا يتمتع بالصبر.. الرجل حانق اليوم...
ورأته (عبير) يخرج من الحشد..
كان منحنى الكتفين متثاقل الخطوات.. كأنما الموت لا يناسب صحته.. فهو ذا قد شاخ ثلاثين عاما بعد الموت!
كان يتحاشى نظراتهما.. وأدركت (عبير) أن العار يجلله.. فالأبطال الإغريق يعتبرون الموت عارا.. الأسوأ والأضعف فقط هو من يموت..
قال لها (بلوتو) وهو يناولها قدحا فارغا:
- حاولي أن تبكي.. أريد بعض القطرات هنا!
وهو ما لم تكن بحاجة للنصح كي تفعله..
ذرفت بضع قطرات من الدمع.. من ثم أشار لها (بلوتو) كي تكف.. وناول القدح إلى (بيرياسوس)

ليشرب منه..
إنها - مرة أخرى - سوائل الأحياء التي تعيد القدرة على الكلام والتفكير إلى الأشباح..
فلما أن فرغ (بيرياسوس) سأله (بلوتو) في غرور:
- هل تقبلت هزيمتك أخيرا؟
- ن.. نعم..
لقد أنذرتك لكنك ركبت رأسك.. ولولا عنادك لكنت حيا ترزق تستمتع بحساء والدتك..
هنا لم تستطع (عبير) أن تصبر أكثر.. فصاحت:
- هذا ليس عدلا!
التهبت عينا (بلوتو).. ونظر لها مدققا:
- ما هو (الذي ليس عدلا)؟
قالت وقد قررت أن تصل المدى الأخير:
- المفترض أن يكون جزاء البطولة هو النصر..
كل هذا الكفاح وسبع (نيميا) و (الهيدرا) وقتل الرخ و... و. كل هذا انتهى بمجرد أن فشل (بيرياسوس) مرة.. لن يخلد التاريخ اسمه ولن ينال حبيبة قلبه.. أليس هذا ظلما مبينا؟!
- التاريخ لا يخلد الفاشلين ولا المهزومين يا دودتي العزيزة.. كم من بطل مصري أظهر الشجاعة في موقعة (إكتيوما).. لكن المنتصر كان هو (أوكتافيوس).. وبالتالي لا تعرفين اسم واحد منهم..
- إذن هذا عبث.. عبث كدحرجة (سيزيف) للحجر..
- ربما.. إن انقهار الإنسان أمام القوى العظمي تيمة محببة في (الميثولوجيا) الإغريقية
- والعبرة الأخلاقية؟ ما هي العبرة الأخلاقية التي يتم استخلاصها من قصة كهذه؟ أين تمجيد البطولة؟
قال (بلوتو) وهو يحك رأسه في إنهاك:
- إن النهايات السعيدة توجد في الأفلام العربية فقط.. ويبدو لي أنك أدمنتها..
هنا قال (بيرياسوس) في حرج:
- لو سمحتما لي.. إحم.. هناك قيمة مهمة هي قيمة الكفاح في حد ذاته.. ليس على النجاح لكني مطالب بالكفاح طالما أنا حي.. لست نادما على شيء.. ولو كان على أن أفعل ذات الشيء لفعلته..
ثم نظر بعينين دامعتين إلى (عبير).. وغمغم:
- سامحيني.. لقد أحببتك حقا..
وبذات العينين ابتعد ليلحق بطابور الراحلين..
- رجل شجاع..
قالها (بلوتو) وهو يطوق كتفي (عبير) من جديد..
وأردف وهو يبتعد بها:
- لكنه مجرد رجل.. رجل تجاوز حدوده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (المرشد) واقفا هناك جوار نهر (ستيكس) يداعب قلمه، ويتبادل لفافات التبغ مع (شارون) الذي بدا في قمة الانبساط.. ويبدو أن (المرشد) قد حكى له نكتة من النكات إياها مما جعل (شارون) يفقد وقاره تماما..

فما إن رأى (شارون) (بلوتو) أمامه حتى كف عن الضحك، ورمي لفافة التبغ، وانتصب في وضع انتباه عسكري.. وهتف:
- لقد جاء (المرشد) ليأخذها يا ريس..
أضاف (المرشد) وهو يداعب قلمه الزنبركي:
- تك تتك! يؤسفني أن أحرمك منها لكن الوقت قد حان.. وقد طالت هذه المغامرة كثيرا..
هرش (بلوتو) لحيته في شرود.. وقال مفكرا:
- هبني رفضت..
لا مستحيل.. لأن قوانين (فانتازيا) أقوى منا جميعا..
هرعت (عبير) لتقف جوار (المرشد) منقذها.. وتشبثت بذراعه في حنين:
- حسبتك لن تأتي أبدا
قال (المرشد) وهو يهز رأسه محييا (بلوتو) الممتقع:
- وداعا يا سيد (هيدز).. وشكرا لحسن ضيافتك.. والآن قل لتلميذ الجحيم أن يوصلنا إلى عالم الأحياء عبر نهر (ستيكس).
غمغم (بلوتو) بشيء ما، وهو يدير ظهره مبتعدا..
- كان هذا كافيا ليحمل معنى الأمر ل (شارون)..
لكن (المرشد) همس في أذن (عبير) وهما يركبان الطوف:
- لقد أحبك حقا.. ومن دونك تغدو مملكته.. مملكة الموتى!
....
لقد كانت كذلك قبل قدوم (عبير).. وستبقى كذلك بعد رحيلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة غير متوقعة إلى حد ما
وإن كان الأذكياء قد خمنوها

كان قطار (فانتازيا) ينتظر!
ونظرت (عبير) إلى ثيابها فوجدت أنها ترتدي ثيابا محايدة غريبة الشكل، أقرب إلى غلالة حريرية..
كان (المرشد) متجها إلى القطار ليركبه في روتينية عذبة.. فهتفت (عبير) مندهشة:
- ما معنى هذا يا (مرشد)؟
- تك تتك.. معنى ماذا؟
- لم يحدث في نهاية أية قصة أنني وجدت القطار ينتظرني.. بل كنت أصحو من الحلم مباشرة، وفي كل مرة كنت أجد ذات الثياب التي كنت أرتديها قبل بدء القصة: ثياب (عبير)..
وثب إلى عربة القطار.. ثم مد يده يعينها على اللحاق به، وقال في لا مبالاة:
- تك تتك! لا أدري ماذا تريدين بالضبط.. نحن ذاهبان إلى حلم جديد كما في كل مرة!
- والعودة؟
- العودة إلى ماذا؟ إلى (شيرلوك هولمز) أم (٠٠٧) أم رعاة البقر أم (رمسيس)؟!
- بل إلى (عبير عبد الرحمن)..
- تك تتك! (عبير عبد الرحمن) محطة من المحطات.. يمكنك اختيارها لو أردت.. مجرد حلم من الأحلام! تك تتك!
- عم تتحدث؟ عن واقعي؟
- من أدراك - تلك تتك! - أن هذا ليس واقعك؟
وأن حياتك التي تتحدثين عنها حلم آخر لا وجود له إلا في خيالك؟
صاحت في هستيريا والذعر يخنقها:
هل تعني أن الحارة وزواجي و (شريف) وكل ذكرياتي هي حلم من الأحلام في (فانتازيا)؟!
- تك تتك! أظن هذا..
دامعة العينين راحت ترمق معالم (فانتازيا) تجري من نافذة القطار.. وفي رأسها ألف سؤال..
لقد قال لها (شريف) إن وجودها المادي ينسحب
بالتدريج ليدخل (فانتازيا).. فهل هذا حق؟ هل هي حقا ضائعة إلى الأبد في عالم صنعه خيالها؟
ماذا حدث إذن لجسدها الجالس في شقتها أمام (دي ـ - جي - 2)؟ هل تلاشي؟ أم هي غيبوبة دائمة كما حدث لها أول مرة؟
أم أن (المرشد) على صواب؟ وعندها تكون هي ذاتها حلما من أحلام (فانتازيا) ولا حياة لها سوى هذه.. وتكون حياتها السابقة كلها وهما عاشته في إحدى رحلاتها!
رباه..! ما هو الجواب الصحيح؟
الذعر والجنون يتصارعان على امتلاك عرش عقلها.. وشعور بالاختناق يجثم على صدرها...
رباه! دعني أصحُ من هذا الكابوس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة نواصل هذا الصراع مع (عبير).
ونواجه شعبا غريبا ودينا من أغرب الأديان التي تخبط فيها الوثنيون..

تحسس عنقك حالا..
فأنت في حضرة الخناقين!

(تمت بحمد الله)

مملكة الموتى
معا نواصل مغامرتنا الشائقة عبر صفحات كتاب الأساطير الإغريقية..
هو ذا (بلوتو) يواصل تحدياته.. هي ذي (عبير) تكمل حلمها.. هو ذا (بيرياسوس) يواصل قهر الأسود والوحوش الكاسرة.. كل شيء معد ولم يبق إلا أن نفتح الكتاب كي نغوص - حتى أعناقنا - في هذا العالم الساحر المفزع إلى حد ما.. الممتع دائما..
د. أحمد خالد توفيق



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

[←2]

(*) جابس Japs هو اختصار كلمة Japanese، وهو اسم التدليل الذي كان الأمريكيون يطلقونه على اليابانيين إبان الحرب..

روايات مصرية

9

فانتازيا

الخنّاقون

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف.انت.ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (09)

الخنَّـاقون

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير) ... لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبا من أي شيء وكل شيء..
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسا بالجمال ورفقا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا).. وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوي، والبخار يتصاعد حول قاطرته..
هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مغامرة جديدة..

قطار (فانتازيا) يهدر بين معالم هذه الأرض التي غفل عنها الزمن.. أرض لا حياة لها سوى أفكار ملايين المفكرين والرسامين والمولعين بالحلم.. رسموا حدودها.. وأوجدوا سكانها.. وشكلوا جبالها وسهولها وبحارها..

و (عبير) في القطار جوار (المرشد) تتأمل المشهد من النافذة، وكدأبها ترى عشرات الاحتمالات للحظات من الحلم..

هل تصطاد الأسود مع قبائل (الزولو)؟ أم تصطاد الفقمة مع رجال (الإسكيمو)؟ أم تتعذب مع (آنا كارنينا)؟ أم تحارب الكائنات الغريبة القادمة من المريخ في حرب العوالم؟ أم تتسلل إلى قصر الدوق مع (أرسين لوبين)؟ أم تكون هي (سانتي) في عالم (يوسف إدريس)؟ أم.... أم؟

(المرشد) صامت جوارها، بوجهة الشبيه بقناع الموت.. لا يفعل أي شيء سوى مداعبة قلمه الزنبركي الشهير:

- تك تتك تك! تك تتك تك!

مالت برأسها لتتأمله.. وبعد هنيهة سألته:

- (مرشد)؟!

- تك تتك! هم م؟

- ماذا أفعل حين ينتهي كل هذا؟ حين يصل قطار (فانتازيا) إلى نهاية حدود المملكة؟

مط شفتيه بمعنى أنه يستبعد هذا.. وقال:

- مستحيل.. لا توجد حدود للإبداع البشري.. وبالتالي لا حدود لهذه الأرض إلا حين تفنى الحياة من الكون..

- لكني لا أقرأ! أنا حبيسة في عالم الأطياف هذا.. لا جديد على عقلي الباطن.. ولا بد أن يجيء اليوم الذي ألتهم فيه نفسي.. وينقض خيال على نفسه

- هذا كلام سليم نظريا.. لكنه عمليا مستحيل.. لقد كتب (هـ. ج. ج. ويلز) رائعته (آلة الزمن).. لكني أسألك عن عدد المعالجات التي تضمنت فكرة آلة الزمن؟ آلاف! وبالتالي لن تكون زيارتك لعالم آلة الزمن هي الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع..

من العدل أن نقول: إن (عبير) لم تشعر بأدنى ذعر من وضعها الغريب.. لقد كانت تنتمي ل (فانتازيا).. بطاقتها الشخصية الحقيقية تحمل الجنسية الفانتازية.. وها هي ذي مرغمة على الحياة على الأرض التي أحبتها كثيرا.. هل من إرغام أفضل من هذا؟

إنها قد سئمت حياة الواقع حقا.. وعرفت أنها عاجزة عن السعادة فيها.. هي لا تملك (معدات) الحياة في عالم الواقع، ويبدو أنها قد أُعدت لعالم لا وجود له، ككائن من (أورانوس) ولد على الأرض.. وظل الناس يلومونه ليلا ونهارا: ألن تتأقلم يا أحمق؟

الواقع أنه لن يتأقلم..

الواقع أنه غير معد للحياة بيننا..

الواقع أن المكان الوحيد الملائم له هو (أورانوس)..

وها هي ذي (عبير) قد ارتحلت إلى (أورانوس)..

بل هي مرغمة على البقاء فيه.. أليس هذا فاتنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن ما الذي حدث ل (عبير) في عالم الواقع؟
ما موقف (شريف) مما حدث لزوجته (كانت قد كفت عن أن تكون فأر تجاربه منذ زمن)؟ ما مصير الطفل في أحشائها؟
هذه الأسئلة لن نجيب عنها الآن..
سنترك الأحداث تجرفنا معها.. وإن اصطدمنا بصخرة الواقع يوما فسوف نتحدث عن هذا بشيء من التفصيل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعود الآن إلى (عبير) الغارقة - كالعادة – في نشوتها، وهي تتأمل آلاف الاحتمالات في (فانتازيا)..
هي ذي أسطورة (جلجامش) الفارسية.
وملحمة (الشهنامة).. وهو ذا (سيف بن ذي يزن) و (أبو زيد الهلالي).. ومن بعيد ترى مدينة (كامي) الجزائرية التي اجتاحها الطاعون.. وتري المغامرين الخمسة وكلبهم، بينما الشاويش (فرقع) يطاردهم حانقا..
ثم - أخيرا - ترى مدينة هندية...
من السهل دائما تبين معالم مدينة هندية في (فانتازيا).. لأن (دي - جي - ٢) يضع كل البيض في سلة واحدة.. أفيال وأبقار، وحواة، وفقراء هنود، وراقصات..
كانت قد خبرت هذا المناخ بشكل عابر مع (جيمس بوند) في إحدى مغامراته التي لا تصدق..
الحق أنه لجو ساحر ويحرك الخيال..
لكنها فقط لا ترتاح كثيرا للإصابة بالكوليرا والملاريا والجذام ومرض الفيل والنزلات المعوية.. وما أوفرها هنا..
كأنما قرأ (المرشد) ما يدور بذهنها.. قال:
- لا تخافي.. المرض هنا يخدم الخيال ولا يؤذيه.. لن تصابي بداء الفيل دونما سبب كما يحدث في الواقع.. بل ستصابين به لو كانت هناك ضرورة درامية ملحة لذلك!
- هذا مطمئن..
- هل أوقف القطار؟
نظرت له في شرود.. ثم هزت كتفيها.. موافقة..
وتوقف قطار (فانتازيا) عند محطته الجديدة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها (المرشد) وهو يعينها على النزول:
- إنها هند القرن التاسع عشر.. فيها كثير من الأسرار التي لا يمكن التعبير عنها بكلمات..
يقولون: إن الهند هي البلد الوحيد في العالم الذي لم يكتشف بعد..
قالت وهي ترفع ثوبها لتتحاشي بقعة من الوحل:
- لكني بالتأكيد قرأت عن القصة التالية..
- حتما.. لكني سأتركك كي تكتشفيها بنفسك..
- ومن أنا اليوم؟

تأملها في اهتمام من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. كأنما يراها للمرة الأولى.. واكتسي وجهه الجامد بقناع التفكير:
فلنر.. يمكنني أن أجعلك امرأة هندية ترتدي الساري.. أو فتاة إنجليزية.. أنت تعلمين أن إنجلترا كانت تسيطر على الهند في هذا الوقت.. يوجد هنا الكثير من الإنجليز: جنرالات وجنود، ومعلمون، وقساوسة، ومهندسون..
قالت له وهي ترمق الأفق:
- إذن.. لأكن امرأة هندية.
- لا.. هذا لن يفيد سياق القصة التي أعدت لك.. ستكونين...
وهنا نظرت (عبير) إلى ثيابها لتجد أنها تحمل مظلة رقيقة.. وترتدي قبعة تعلوها الزهور وتايورا أنيقا فتح صدره ليكشف عن قميص أبيض وربطة عنق كربطات الرجال..
ووجدت أن يديها صارتا بيضاوين بلون الثلج.. ولىّ اللون الخمري المحبب المميز لها..
على حين استكمل (المرشد) عبارته:
- .. مس (ملدريد هولرويد).. المدرسة الشابة التي تعلم اللغة الإنجليزية لأطفال المستعمرات..
في حنق صاحت:
- أنا أدرس الإنجليزية؟ هل جننت؟ إن كل ما أعرفه من الإنجليزية هو كلمة (How is Farid?)
وكان كتاب المدرسة يحتم أن يكون الرد هو: (He is fine Too!)
قال لها وقد بدا كمن أهين:
- من جديد تنسين أنك في (فانتازيا) حيث لا مشاكل لغوية من أي نوع.. ألم تجيدي اليونانية والديموطيقية والروسية في مغامرات سابقة؟
وقبل أن تخرج لفظة (بلي) من فيها؛ كان قد اختفى كالعادة.. وأدركت أن الوقت قد حان للاندماج في عالمها الجديد..
ولكن حذار يا (عبير).. حذار!
إن المغامرة القادمة خطيرة إلى حد ما...
لقد كان اختيارك غير موفق للأسف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- معلمة الإمبراطورية..

لأيام بدأت (عبير) تستشعر تلك اللذة غير المسبوقة: لذة التدريس.. أن يكون عليها أن تجلس إلى وجوه الأطفال السمراء النضرة، تنقل إليهم بعض ما تعرف.. ويكون في يقينها أنهم سيغادرون قاعة الدرس وهم يعرفون أكثر.. حتى ولو كان تعبيرا جديدا أو لفظة..
ما أجمل عيونهم! العيون السوداء المتسعة التي تحرسها غابة كثيفة من الأهداب الناعمة.. عيون حساسة ذكية.. جعلتها تنسي أجسادهم الهزيلة العارية التي تشي بسوء التغذية والفقر..
إن الذكاء الفطري للأطفال حقيقة - خطر لها - وهذا يجعل منهم مخلوقات لا يمكن مقاومتها..
كان هناك طفلان إنجليزيان لكنهما - لشدة الغرابة - كانا أكثر غباء وثقل ظل من كل الهنود الذين جلسوا حولها..
كانت هذه هي (دلهي) في العام 1843..
لم تكن الحقائق التاريخية دقيقة تماما.. فالأمر كله يعتمد على ما تعرفه (عبير) عن الهند في هذه الحقبة.. وبطبيعة الحال لم يكن كثيرا.. وكان مصدره الأوحد هو فيلم قديم رأته في التلفزيون هو (ممر إلى الهند)..
لكنها كانت ترى الجنود الإنجليز في كل صوب بثيابهم الاستعمارية المميزة، وكانت ترى الجنود (السيخ) بلحاهم الكثيفة، وكانت تعرف أن مدير المدرسة إنجليزي هو المستر (إيمرسون)..، وكان هناك قس بروتستانتي هو الأب (ماكنزي) بثوبه الأسود الطويل المميز وياقته البيضاء الناصعة.. والمونوكل الذي يعلقه على عينه..
ولو كانت (عبير) واسعة الثقافة لعرفت أن (دلهي) اختيرت لتكون عاصمة الهند مرتين في تاريخها، وذلك لتوسط موقعها واعتدال مناخها.. المرة الأولى كانت في عهد إمبراطورية المغول والمرة الثانية عام ١٩١٢.. وقبل هذا التاريخ كانت (كلكتا) هي العاصمة..
إن (دلهي) مدينة قديمة حقا، ويبدو أنها كانت دوما هناك منذ دخل الإسكندر الهند.. وغدت عاصمة لدولة هندوسية إلى أن أغار عليها (محمد الغور) سنة ١١٩١م.. وبنى بها السلطان (قطب الدين أيبك) حيا إسلاما يعرف ب (مدينة قطب)..
ولقد دمرت (دلهي) حين هاجمها (تيمور لنك) لكن السلطان (أكبر) جددها وشهدت دولة المغول المسلمين حتى عام 1857.
لقد جعل (شاه جهان) من (دلهي) تحفة فنية إسلامية زاخرة بالمساجد والمآذن الدقيقة.. وبنى بها واحدا من أكبر مساجد الدنيا - إن لم يكن أكبرها - هو المسجد الجامع.
هل تسألون عن (تاج محل)؟ كلا يا رفاق.. إن (شاه جهان) هو باني (تاج محل) حقا.. لكنه بناه في (أجرا) وليس (دلهي)... هناك حيث تثوي رفات زوجته المحبوبة (ممتاز محل)..
الواقع أن تاريخ الهند العريق كان دائما باسما مفعما بالمجد.. حتى جاء الإنجليز!
دائما هناك الإنجليز بسفنهم ومدافعهم يأتون ليفسدوا كل شيء.. جاءوا أولا مرتدين ثياب التجار تحت اسم (شركة الهند الإنجليزية).. ثم تحولت التجارة إلى حكم استعماري سافر عام 176 وظل الهنود يرزحون تحت سيطرة (جون بول) القادم من شمال أوروبا.. حتى عام 1947م. حين استقلت الهند وباكستان..
وهذه قصة طويلة أشبه بأساطير هذا البلد العجيب.. ترى فيها شيخا متهالكا اسمه (غاندي) وشابا متحمسا اسمه (نهرو) ورجلا حويطا اسمه (محمد علي جناح)..

لكن ليس هذا هو الموضع المناسب لسرد تلك الأحداث..
نحن في (فانتازيا) حيث الخيال هو الحقيقة الوحيدة المعترف بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك اليوم استدعاها المستر (إمرسون) إلى مكتبه.. ولم يكن من المعتاد أن يفعل ذلك.. لهذا أدركت على الفور أن الأمر يتعلق بكارثة محققة في الطريق..
بقلب واجف يوشك على التوقف أو السقوط في ضلوعها؛ اجتازت المدخل الضيق لتدلف إلى المكتب.. ثمة خريطة عملاقة للعالم على الجدار أشبه بالتي كان يعلقها (هتلر) في مقره بـ (الرايخستاج).. ونموذج للكرة الأرضية على المكتب.. جواره علم بريطانيا بألوانه الاستعمارية المميزة..
للمرة الأولى تري مستر (إمرسون) عن كثب إلى هذا الحد.. بدا لها كدُبّ حديقة الحيوان حينما تراه على الطبيعة أول مرة.. بحاجبيه الكثين غزيري الشعر اللذين يوشكان على حجب عينيه.. وسالفيه الكثين المشعثين كسالفي قرد (البابون).. والغليون المشتعل في يده لا يكاد يدسه بين شفتيه أبدا..
كان رهيبا.. وأدركت أن ما يقوله سيكون رهيبا كذلك..
- أوه.. مس (هولرويد)! كنت أريدك..
دنت منه في هيبة محاولة ألا تتعثر في تنورتها..
رائحة التبغ تفعم أنفها فتوشك على السعال.. لكن السعال ليس مستحبا جدا في حضرة الرؤساء..
وارتفع الحاجبان الكثان ليكشفا عن عينين زرقاوين شديدتي النفاذ والتأثير.. كأنهما سلاحان فتاكان يضعهما في غمدهما لحين الحاجة إلى استعمالهما..
أردف الرجل بنفس اللهجة الإنجليزية الممتازة:
- إن لدى تقارير عدة عن تجاوزات معينة في الصف الخاص بك..
خرج صوتها مبحوحا كأنما لم تستعمله قط:
- ت.. تجاوزات؟
- نعم.. يقال إنك تدللين الأطفال الهنود أكثر من اللازم..
لم تدر ما تقول.. فهي تهمة لا تنكرها وشرف لا تدعيه.. بعد هنيهة قالت وهي تبتلع ريقها:



لم تدر ما تقول.. فهي تهمة لا تنكرها وشرف لا تدعيه.. بعد هنيهة قالت وهي تبتلع ريقها: – وماذا في ذلك؟

- وماذا في ذلك؟ إنهم أطفال على كل حال..

- أطفال المستعمرات لا يمكن اعتبارهم أطفالا..
ثم ضيق عينيه باحثا عن تعبير موفق:
-.. إنهم أعداء صغار السن.. وعلينا أن نربيهم بطريقة تلغي خطرهم حينما يكبرون.. ترين أن الأمر شبيه بالإشراف على مجموعة من الثعابين الوليدة..
هنا فهمت (عبير) شخصية المستر (إمرسون) بوضوح تام..
إنه هو (جون بول) ذاته.. الإنجليزي الاستعماري العتيد الذي كانت تراه في الرسوم الكاريكاتورية..
باحتقاره الدائم لشعوب الأرض غير الإنجليزية، ونهمه الذي لا ينتهي إلى المستعمرات..
من الصعب الجدال مع رجل كهذا.. رجل يؤمن بأنه على صواب وأن الباقين حثالة..
هزت رأسها في استسلام قائلة:
- سأحاول يا مستر (إمرسون).
- لا أريد المحاولات، بل التنفيذ... الطفل الهندي ملوم دائما.. على خطأ طيلة الوقت.. ويجب

أن تغرسي فيه الشعور بالدونية!
- س.. سأحاول.. بل سأفعل..
- ولتكفي عن تعاطفك مع أهل هؤلاء الصبية.. نحن لسنا في (لندن) كي تصادقي أمهات تلاميذك.. فضلا عن أن نصف هؤلاء الهنديات مصابات بالجذام..
ثم هز رأسه في رضا.. وغمغم وهو يعيد عينيه إلى غمدهما:
- حسن.. والآن عودي لعملك واحرصي على أن يكون من مسلكك مفخرة للتاج ولوطنك..
كانت هذه هي نهاية المقابلة، وغادرت (عبير) المكتب شاعرة بالخزي.. ولم تكن قوية الشخصية إلى حد الشعور بالخزي من كونها لم تجابهه بصراحة.. كما أنها لم تكن شريرة إلى حد الشعور بالخزي لأنها لم تكن جديرة بالتاج البريطاني.. فقط شعرت بخزي لا تدري تفسيرا واضحا له..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأب (ماكنزي) عاكفا على تعليم الصبية بعض الأناشيد الدينية.. وفي تأدب طلبت منه (عبير) أن ينسحب ليتحدثا على انفراد..
ضم طرفي عباءته السوداء وأشار إلى أنجب التلاميذ كي يقف مكانه ليقود زملاءه في الإنشاد:
- ها لل- لل- يو - يااااه!
وفي تؤدة تبعها إلى خارج الغرفة، بينما الحناجر الصغيرة مستمرة في الغناء الذي بدا لها رخيما حقا..
سألته وهي تتأمل عينيه الزرقاوين الصافيتين:
- ألسنا متساوين؟
سألها بدوره في كياسة:
- طبعا.. إن الرب لا يعرف الفوارق التي نضعها بيننا..
هتفت في ارتياح:
- إذن.. فالأطفال الهنود هم كالأطفال الإنجليز في كل شيء!
هنا تدارك خطأه.. فقال في عجلة:
- كنت أتحدث عن الإنجليز.. إنهم جميعا سواسية..
- والهنود؟
- بعض الناس متساوون أكثر من سواهم!
- هل يعني هذا أننا خير منهم.. حتى لو كانوا على ديننا؟
قال الأب في حكمة ورصانة:
- إن قواعد الدين لا تنطبق على أبناء المستعمرات.. لا ينبغي أن نكف عن لعب دور السادة مع هؤلاء.. نعلمهم كل شيء.. الدين.. اللغة.. الحضارة.. والتلميذ لا يسبق أستاذه أبدا.. سيظلون مدينين لنا أبدا.. وسيظلون في مرتبة أدني منا مهما حدث..
ثم أردف وهو يثبت عينيه في وجهها:
- تسألين أسئلة خطيرة.. أرجو أن تتوقفي عنها في الوقت المناسب..
واستدار ليعود إلى غرفة الدرس.. وهو يدمدم؛ - فليهدك الرب إلى اليقين يا بنيتي.. وقفت (عبير) هنيهة بادية البلاهة.. عاجزة عن اتخاذ رأي بخصوص كل هذا.. ثم وصلت إلى الحقيقة المريرة.. وهي أن (انجلترا) لا توظف الدين لهداية الهنود وإنقاذهم من الهندوكية.. بل لجعلهم

يخضعون لها عن يقين.. يخضعون عن إيمان..
حتى الدين يعمل موظفا لدى الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس..
وفي سرها تساءلت عن المغامرة التي تنتظرها في هذا المكان الكئيب.. على حين تصاعد صوت الصبية من قاعة الدرس المغلقة:
- ها لل. - لل. - يو يااا - ااه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- نزهة ليلية..

يجب أن تفر.. يجب..
ولكن إلى أين؟
إن الهند بمساحتها الشاسعة تبدو الآن أضيق من غرفتها في عالم الواقع وهي - كالعادة - لا تعرف أين تتوارى أو تقضي ليلتها..
لسوف يجدونها دون عناء..
وعندها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن.. كيف وجدت نفسها في هذا المأزق؟
السبب معروف.. وهو ما يسمونه بلهجة العصابات (أنها عرفت أكثر مما ينبغي)..
فما هو هذا ال (أكثر مما ينبغي) الذي عرفته؟ وكيف عرفته؟
إنها لقصة طويلة تحتاج إلى العودة بضعة أيام إلى الوراء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالتأكيد يمكننا بدء السرد من السوق.. لا توجد أحداث تذكر قبل هذا اليوم الذي كان - ما لم تخنها الذاكرة - يوم أربعاء..
كانت تجول في أحد أسواق (دلهي).. معها خادمتها الهندية.. والحمّال (رامو) الذي يجمع بين مهنة الحمال والحارس الخاص لها.. وهو من طائفة (السيخ) التي حاولت أن تقرب بين الإسلام والهندوكية، ولهم شكل مميز لا تخطئه العين بعماماتهم الشامخة ولحاهم الكثة التي يضعونها في شبكة، كالتي تلف النساء فيها شعورهن..
كانت (عبير) متأنقة كما يجدر بها أن تكون.. وعلى رأسها قبعة محلاة بالزهور.. وفي يدها مظلة رقيقة أنيقة..، وشرع الشحاذون يطاردونها في إلحاح.. وبعضهم راح يعرض عاهته عليها على أمل جعل قلبها يرق قليلا.
- هيه أيتها الآنسة الإنجليزية.. إن ساقي لم تعد..
ثم يكشف عن ساقه التي أحالها داء الفيل إلى جذع شجرة مجعد مترهل.. فتطلق (عبير) آهة وتشيح بوجهها.. عندئذ يثب (رامو) إلى الشحاذ ليزيحه جانبا ويسبه بعبارات من قبيل:
راندرانات براهاه مهان هاراه راجا!
وهي شتائم مقذعة جدا بالتأكيد لأن وجه الخادمة يحمر حياء.. ولحسن حظ (عبير) أنها لا تفهم سوى الإنجليزية في هذه المغامرة.. إن دورها هنا يتطلب الجهل التام باللغة (الأوردية) التي يستعملونها بكثرة حولها.. دعك طبقا من لغات (التاميل) و (المالايام) و (جوجاراتي) و (ماراتي).
إن الهند - ولله الحمد - تتكلم مائتي لغة مختلفة حتى إن المتعلمين يتحدثون فيما بينهم بالإنجليزية تحاشيا لحواجز اللغة!
نعود لما كنا نقول.....
(عبير) تشق طريقها في زحام السوق، لاعبة ببراعة دور المعلمة الإنجليزية الحسناء المس (ملدريد هولرويد)..

ابتاعت بعض الموز والمانجو.. وببغاء جميل الشكل في قفص أنيق.. وراحت تتسلى بمراقبة النسانيس الصغيرة وهي تسرق الموز من وراء ظهر الباعة، ثم تفر لتلتهمه فوق أسطح الخيام..
كان هناك واحد من (السيخ) قد علق نفسه في الهواء بوساطة خطاطيف تتشبث بلحمه.. وبرغم هذا المشهد الرهيب لم يبد مباليا بالألم على الإطلاق..
سألت (رامو) في حيرة عن معنى هذا العمل الأبله.. فقال لها وهو يضم كفيه إلى بعضهما أمام صدره في وضع الابتهال الذي يتخذه مليون مرة في الساعة:
- إنه نذر يا آنسة!
- يا سلام؟! وما جدوى أن يعذب نفسه إلى هذا الحد!
- لا نذر دون ألم..
قالها، وكأن الحماس قد انتقل إليه.. استل خنجرا متعرج النصل وأولجه في خده الأيمن ليخرج من خده الأيسر.. إنه نذر آخر من نذور هؤلاء (السيخ)!
رأت (عبير) فقيرا هنديا ينام فوق فراش من المسامير.. ورأت حاويا يخرج النار من فيه.. ورأت ثالثا ينفخ المزمار أمام سلة تطل منها حفنة من ثعابين الكوبرا (ذات المنظار).. ويسمونها بهذا الاسم لأن هناك رسم منظار على ظهورها..
وكانت الثعابين تتمايل يمينا ويسارا مع اللحن.. فتذكرت (عبير) ما قرأته يوما من أن الحاوي يتمايل بجسده فيرغم الثعابين على متابعته بذات الكيفية وبالتالي تعطي انطباع الرقص لمن يراها..
كل الهند كانت موجودة في هذه السوق، وبأسلوب (دي - جي - ٢) المعتاد في تقديم كل شيء على خشبة مسرح واحدة..
لكن شيئا واحدا أثار شغفها أكثر من سواه..
كان هناك شاب هندي يرتدي ما يشبه منامة بيضاء، وعلى رأسه عمامة وردية اللون.. شاب أسمر وسيم الملامح.. لكنها لم تجد صعوبة في تمييز التشابه الواضح بينه وبين (شريف).
إن هذا هو قدرها إذن!
سيكون رفيقها في هذه المغامرة التي لا تدري عنها شيئا.
وهنا لم تعد قادرة على أن تقرر.. هل تذهب إليه؟ تذهب إلى قدرها مباشرة؟ أم تنتظر أن يجدها قدرها بنفسه؟
لكن الأحداث لم تترك لها فرصة للحيرة.. لأنها وجدت الفتى يخرج مزمارا ويبدأ في العزف.. وفي اللحظة التالية رأت حبلا.. حبلا عاديا جدا يرتفع ببطء إلى السماء!
إذن فالفتي ساحر هندي من سحرة الحبال إياهم..
كان المشهد مبهرا حقا فالحبل يرتفع إلى علو عشرة أمتار تقريبا.. ثم إذا بفتاة هندية حسناء تدنو منه فتتسلقه بتؤدة وثقة إلى منتصفه.. وتتشبث بيد وقدم واحدة بالحبل لتلوح باليد الحرة في الهواء كلاعبة (ترابيز) في السيرك..
الصفير يتعالى.. وروبلات كثيرة تسقط في سلة الحاوي..
وقفت - كالمنومة مغناطيسيا - تتأمل المشهد غير فاهمة ولا مصدقة.. وبعين حذرة راحت تبحث عن حيلة خبيثة ما.. فالأمور لا يمكن أن تسير على هذا المنوال أبدا، لكن الأمر كان حقيقيا.. حقيقيا إلى حد يثير الغيظ في النفس..
هنا رأت الفتى يبادلها النظرات..
دنت أكثر من المشهد ومن عيني الفتى.. العينين المغناطيسيتين اللتين تنجحان - بشكل ما - في

جعلك لا تلاحظ شيئا مما يحيط بهما.. أي أنك تنسى كل شيء عن وجه صاحبهما كأنما لم يكن في وجهه سوى عينين فوق عنق!
سمعت صوته من بعيد يخاطبها:
- هل راق لك المشهد يا آنستي؟
بتلك اللهجة الهندية التي (تبهدل) اللغة الإنجليزية، و(تبهدل) حروف الدال والجيم لتحيلها إلى أشلاء.
لم تدر كيف ترد.. فهو - على كل حال – مجرد حاو في سوق كالذين يمشون عراة الصدور في أسواقنا ويصعدون إلى الحافلات ليضربوا صدورهم بصخرة هاتفين.. اتفرج يا مؤمن!
قالت في كبرياء محاولة أن تبدو قليلة الاهتمام:
- إنه.. جيد..
يبدو أنه كان قد أطال الحديث أكثر من اللازم، وأنه قد نسي استعمال المزمار لتذكير الحبل بأن يظل شامخا.. لأن صوت الصراخ دوى تلاه صوت سقطة مروعة من على ارتفاع خمسة أمتار..
قالت (عبير) بذات الكبرياء:
- أوه.. معذرة! يبدو أن زميلتك قد تهشم رأسها..
- لا عليك.. إنها أشياء تحدث.. لا أحد يموت بسهولة في الهند إلا بالكوليرا..
ثم أردف وعيناه السوداوان تواصلان اقتحام برودها:
- هل أنت منبهرة؟
. يصعب أن اتظاهر بالعكس..
- أنا (قسمت).. هل يذكرك الاسم بشيء؟
مطت شفتيها في لا مبالاة.. وغمغمت:
- هل هذا مفترض؟
- كل (دلهي) تعرف (قسمت).. أفضل مشعوذ في المدينة وربما في العالم كله..
- ربما ليس ذنبي أن اسمك لم يعبر البحار بعد..
- إن (قسمت) مشعوذ موهوب.. يجيد كل شيء.. (قسمت) ذو القلب الشهم والأنامل الذهبية.. (قسمت) الذي يفعل كل شيء ويقنعك بأنه قادر على فعل الباقي.. (قسمت) أظرف الظرفاء وأذكى الأذكياء وأقوي الأقوياء..
كان يتحدث في حماس وهو يلوح بيديه في الهواء آتيا بحركات تمثيلية تجسم كل معنى من المعاني.. عيناه اليقظتان في محجريهما، وحماسه المعدي الذي لو ألقي في نهر الموت للوثه ولجعل الموتى يرقصون طربا في قبورهم..
حركات ساقيه وهو يتكلم.. كأنما ليرقص رقصة خاصة غير عادية.. وكأن لكلماته لحنا وإيقاعا خاصين ليس يسمعهما سواه.. وهو يتوسل إليك كي تشعر بهذا الإيقاع معه..
(قسمت)! من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟
ولم تقع (عبير) في هواه كلا.. من التسرع أن نزعم هذا..
لكن يمكننا أن نقول دون مبالغة كبيرة إنها شعرت بميل شديد إليه، وبدا لها طريفا إلى أقصى حد ممكن...
لقد بذر البذرة في روحها.. تلك البذرة التي لو تعهدها أكثر لأورقت وأزهرت وأثمرت.. إن الحب - مثله مثل كل شيء آخر - يحتاج إلى جهد وموالاة مستمرين، خاصة حين يكون عليه أن يزلزل مشاعر هذه الآنسة الإنجليزية الاستعمارية..

- لقد تأخرنا يا آنسة.. هلا شرعنا في العودة؟
تقولها الخادمة في كياسة ويقول (رامو) في فظاظة..
- فلتكف يا رجل عن مضايقة الأنسة..
ويلوح بقبضته العملاقة التي تقارب في حجمها رأس الرجل ذاته.. فتقول (عبير) وهي تستدير وعيناها لا تفارقان المشعوذ:
- دعه يا (رامو).. إن ما يقدمه لمسلّ حقا.. مسل.. ومثير..
ويغيب ثلاثتهم وسط زحام الوجوه القاتمة.. والروائح الشرقية التي تسبب الدوار..
لكن (عبير) تنظر إلى الوراء لترى ذلك الحبل يرتفع فوق الرءوس.. وتسمع أنين المزمار الذي يمزج بين الأنين والمرح بشكل غير مسبوق.. وتعرف أنها ليست بحال طبيعية..
من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل ترغب الآنسة في نزهة ليلية؟
كانت (عبير) - أو (ملدريد) - قد فرغت من تناول العشاء في مسكنها الصغير المريح الذي تعيش فيه مع أربع فتيات إنجليزيات أخريات - أعني فتاتين وعانسين - كلهن يعملن في التدريس.. وكان المسكن مريحا حقا لولا حرارة الجو الرطب المرهقة للأعصاب.. ولولا الأمطار الاستوائية التي لا تنقطع طيلة اليوم.. ولكم بدا لـ (عبير) غريبا أن تشعر بكل هذه الحرارة تحت الأمطار.. فهو شعور لم تألفه في مصر حيث المطر والبرد مترادفان.. لكنها في الهند عرفت معنى الأمطار الساخنة.. الأمطار الممتزجة بالعرق والرطوبة كأنما أنت دجاجة يتم سلقها بأسلوب مبتكر..
في مناخ مقيت كهذا يصعب عليك أن تقضي أمسياتك في الدار.. فالحر يجثم على روحك كأنه من علامات الساعة..
لهذا بدا لها هذا العرض الذي قدمته الخادمة (جوتسنا) بعد العشاء مغريا إلى حد كبير..
صاحت زميلتها (سوزان) معترضة وهي تلتهم شرائح المانجو:
- إن (رامو) ليس هنا.. ومن العسير أن تخرجي دون صحبة رجل..
- ربما كان المستر (جونز)..
- أعني رجلا حقيقيا.. رجلا هنديا لا واحدا من الإنجليز.. إن هؤلاء إلى النساء أقرب..
كانت (سوزان) فتاة شقراء في الثلاثين من عمرها، لكن وجهها المليء بالنمش كان يجعلها أقرب إلى طفلة خرقاء وكانت تؤمن أن الرجل الحقيقي يجب أن يكون كتلة فظة من الشعر والعضلات والسباب.. وأن اختلاف الرجل عن الأنثى يجب أن يكون واضحا كل الوضوح..
قالت (عبير) وهي ترشف القهوة:
- إن القمر مكتمل هذه الليلة.. هذا يضفي رومانسية محببة على نزهتنا.. ثم إن الهنود لا يأكلون لحم البشر..
- لكنهم يمقتون الإنجليز..
لكن (عبير) كانت تعرف..
لا أحد يمقتها في (دلهي).. فهي لم تؤذ أحدا ولم تتعال على أحد.. إنها تحبهم ولهذا لا تجد سببا واحدا يمنعهم من حبها..
لهذا حزمت أمرها.. وارتدت ثيابا خفيفة مناسبة للخروج ليلا.. ولفت الخادمة الساري حول خصرها العاري.. هنا وجدت (سوزان) أن خير ما تفعله هو الخروج مع الفتاتين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أروع الليل الاستوائي!
إنه حار خانق مليء بالشجن والإحساس بالتوجس.. هل يوجد ليل أجمل من هذا؟ والفتيات الثلاث يمشين تحت الأمطار الخفيفة الحانية متمهلات.. و(جوتسنا) ترفع مظلة عملاقة تحاول أن تحمي بها ثلاثتهن من البلل..
الأوحال قد بدأت تعوق سيرهن، لكن افتتانهن بالمناخ الساحر جعلهن لا يبالين بكل هذا..
التماثيل على المعابد الهندية تلتمع بذلك الضوء الأزرق الغامض.. ضوء القمر إذ يسقط على البلل، ورائحة الجو الرطبة تشي بالخصوبة ونداء غامض عبر الأجيال يدعوك أن.. أن ماذا؟ لا تدري بالضبط لكنك في حاجة ماسة لأن تفعله..
لا بد أن التماسيح تتقلب الآن في نهر (الجانج)، ولا بد أن حكيما بوذيا يجلس أمام كوخه يترنم ب. (البهاجافادجيتا) وهو يرمق المطر المنهمر، ولا بد أن الأطفال العراة يلعبون في الوحل..
نعم.. هناك طفل.. لكنه لا يلعب.. بل هو يركض مذعورا وعلى وجهه أعتي علامات الرعب.. جاء خارجا من طيات الظلام..
(سوزان) كانت أول من رآه.. ولفتت انتباه الفتاتين الأخريين إليه.. كان صغير السن في الثامنة من عمره أو أقل قليلا.. وكان يركض في اتجاهين وهو ينظر إلى الوراء كأن الشيطان يطارده..
لهذا لم يرهن..
ولهذا اصطدم بهن حتى كاد يوقع (عبير) في الوحل..
وحين تبينت وجهه الذي مسخه الرعب عرفت أنه (سابور).. إنه من تلاميذ صفها.. بل هو واحد من أنجبهم وأكثرهم ذكاء..
- (سابور)؟ ما الذي؟
كان الرعب قد خلط حروفه ببعضها فأحالها نوعا من (سلطة) الكلمات التي يستحيل أن تستخرج منها مقطعا مفيدا
- النجدة! يا آنسة.. هم خلفي.. يريدون أن..
وقبل أن تفهم المزيد كان قد أطلق لساقية العنان، متواريا في الليل الاستوائي الثقيل.....



وقبل أن تفهم المزيد كان قد أطلق لساقية العنان، متواريًا في الليل الاستوائي الثقيل.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - شيء ما يحدث..

نظرات بلهاء يتبادلونها فيما بينهم بلا نيّة للإجابة..
إذن عليها أن تكرر سؤالها من جديد:
- أين (سابور)؟
الصمت من جديد.. لكنه الصمت الذي يتكلم ويثرثر ويقول الكثير جدا..
يقول - بوضوح - إن مكان (سابور) سر لا يجوز البوح به..
جذبت (عبير) شهيقا عميقا إلى رئتيها وعادت تكرر السؤال:

- أين (سابور)؟ لقد رأيته البارحة عند منتصف الليل.. وكان يفر مذعورا من خطر ما.. واليوم لا أراه في الصف.. فهل لدى أحدكم فكرة عن مصيره!
لم يرد أحد وتشاغل بعض التلاميذ بالتقليب في صفحات كراساتهم.. من ثم أيقنت أنهم يعرفون.
كلهم - هؤلاء الشياطين - يعرفون.. لكنهم غير راغبين في إقحام الأجانب في الموضوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين (سابور)؟
لم تستطع قط أن تنسى نظرة الهلع في عيني الصبي وهو يركض.. ولم تستطع أن تنسى ما هو أقسى: لقد طلب عونها لكنه فر قبل أن تقدمه له!
لم يكن لديه وقت لتبين قدرتها على معاونته..
كانت تفكر في أشياء كهذه حين قرعت الباب بقبضتها:
- ها لل. - للو - يا - اااه -!
صوت الإنشاد ينبعث من الداخل كعادته عذبا رقراقا كنهر (الجانج).. ثم ينفتح الباب ويبرز وجه الأب (ماكنزي) وهو يعيد تثبيت (والمونوكل) في محجر عينه اليسرى.. وينظر لها في دهشة..
مشكلتها هي أنها تحاول جادة أن تجعله صديقها، لكنه يأبى إلا أن يعتبر (بعض البشر متساوين أكثر من سواهم)، ولا يكف عن إحباطها من حين لآخر..
فهو يؤمن أن دور رجل الدين في المستعمرات هو تبرير الاحتلال لا أكثر ولا أقل..
لهذا أصغى لكلامها في اهتمام.. وسفه أفكارها في اهتمام أكبر.. وقال لها: إن هؤلاء الهنود لهم مشاكلهم الخاصة وعاداتهم التي يجدر بكل إنجليزي يحترم نفسه أن ينأى عنها..
- إن من يتحاشى النظر في المرحاض يوفر على نفسه اشمئزازا كثيرا
هذه هي حكمة اليوم التي أخذتها منه.. فشكرته دون حماس.. وانسحبت تاركة إياه يعود إلى الغرفة التي يتردد من داخلها الإنشاد:
- هال. - لل. - لل. - يواااه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين (سابور)؟
مضى يومان ولم يظهر الصغير ذو العينين اللوزيتين اللامعتين اللتين لا تهمدان في محجريهما..
ومن الغريب أن أحدا لم يقلق أو يتساءل أو يبحث عنه.. ثمة مؤامرة صامتة اشترك فيها الجميع لإنكار وجود كائن حي مفعم بالنشاط والذكاء
وحين جاء المساء دعتها الخادمة إلى جولة ليلية أخرى في (دلهي).. فتحمست (عبير) وتحمست (سوزان) إلى حد ما.. فالمشهد كان مثيرا للخيال دون شك في تلك الأمسية..
إن (جوتسنا) فتاة لطيفة المعشر.. هندية مائة بالمائة.. ولأنها هندية فهي صموت تكتفي بالابتسام مع رفع الحاجبين، ولا تقول شيئا على الإطلاق إلا ما هو ضروري..
لكم أحبتها (عبير)! ربما لأنها مثلها في عالم الواقع.. تفتقر للجمال.. تعسة.. معدومة الحيلة.. باهتة لا تعلق بالذاكرة..
لكن (جوتسنا) كانت تعرف الهند.. كانت تعرف بلدها كما يعرف سائق التاكسي وسط القاهرة

عندنا.. تعرفها كواحد من (أبناء البلد) القدامى يعرف كل زقاق وكل شارع في باب اللوق..
ومشت الفتيات الثلاث في الشوارع الفقيرة يصغين إلى صوت أحذيتهن إذ تضرب الأرض.. وقد بقي شيء من ضوء القمر الشاحب الذي كان في قمة رونقه منذ يومين..
سألت (عبير) خادمتها في كياسة
- لم يظهر أثر لهذا الصبي بعد؟
قالت (جوتسنا) وهي حريصة كدأبها على أن تتبع (عبير) بخطوتين:
- لا تقلقي عليه يا آنسة.. إنهم يظهرون دائما..
- من هم؟
- المختفون.. دائما يعودون لكن بعد زمن..
لم تفهم (عبير) حرفا لهذا آثرت ألا تسأل أكثر..
صوت نعيق بومة يتردد في الأجواء..
هووووووووه!
قالت (سوزان) في مرح:
- إنما هذا نحن أيتها البومة!
كانت دعابة إنجليزية سمجة.. فالإنجليز يعتقدون أن البومة تتساءل (who ?) (من؟) مثلما نعتقد نحن أن الخراف تطلب الماء.. لهذا لم يضحك أحد واحمرت أذناها خجلا إذ شعرت بسخفها..
هووووووووووه!
صوت بومة آخر يجاوب من جهة أخرى..
- هذا غريب.. لم أظن أن الهند تحوي كل هذا البوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- جي بوهواني!! [1]
دوي الصوت من مكان ما من الغرب..
لم يكن صوت واحد ولا اثنان ولا ثلاثة.. بل هو صوت جماعي عات له ألف لسان وألف حنجرة..
لهذا كان طبيعيا أن تجفل (سوزان) وأن تثب (عبير) مترين في الهواء.. وحين هبطت كان أول ما قالته للخادمة هو:
- ماذا يحدث؟
لكن الخادمة كانت في أسوأ حال.. كانت ترتجف كورقة وقد شحب وجهها فصار بلون القمر ذاته.. وحين استطاعت أن تتمالك روعها أخيرا قالت وهي تقبض بمخالها على معصم (عبير):
إنهم دانون! دانوووون!
- من هم؟
ارتجفت (جوتسنا) وفتحت فاها لتفسر.. لكن قلبها الواهن تخلى عنها للأسف.. وهوت كزكيبة القمح على الأرض
انحنت (سوزان) تجس عنق الفتاة فوجدتها حية لحسن الحظ، لكنها فاقدة الرشد..
- لقد فقدت الوعي.. يا لها من بلهاء!
في توجس غمغمت (عبير) وهي تتشمم الهواء حولها:

- ربما هي تملك سببا قويا لهذا.. إنني لا أحب هذا الجو..
ومن جديد يدوي الصياح:
- جي بوهواني!!
قالت (سوزان) وهي تشير نحو الغرب:
- إن الصوت قادم من هنا..
- ثم نظرت إلى الفتاة فاقدة الوعي وغمغمت
وعيناها تشتعلان حماسا:
- إن مكروها لن يصيبها.. لم لا نذهب لنرى
ما هناك؟
قالت (عبير) وهي تحاول ألا تبدو جبانة أكثر من اللازم:
- ألا تعلمين أن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفضول قتل القط.. كلهم قالوا هذا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-.. القط؟
كان صدر (سوزان) يعلو ويهبط.. وجمرتان من الحماس اشتعلتا على خديها:
- نحن لسنا قطتين.. إن الأمر يستأهل الفهم..
وراحت تزحف ببطء و (عبير) خلفها متجهة نحو مصدر الصياح.. كان ضوء القمر يسمح بعدم التعثر.. لكنهما كانتا تسيران في أرض وعرة حقا وكان هناك منحدر صخري يهبط لأسفل..
عسير هو الهبوط بهذه الثياب المتأنقة.. إن التنورات تشتبك بالصخور فيكون أمامك خياران: تمزيق التنورة أو تحطيم العنق..
الأكثر إبهاجا هو مجموعة من الخرائب تبدو في الأفق.. في ضوء القمر.. كأنها نذير بألعن كارثة يمكن أن تصيب كائنا حيا..
إن كل هذا لا يروق ل (عبير)..
لكنها مدفوعة بالحماس تواصل اقتفاء خطوات صاحبتها
«إن بطولات التاريخ قام بها أشخاص خشوا أن يبدوا جبناء أمام الآخرين..» من قائل هذه الجملة؟
غالبا هو الشيخ (رفعت إسماعيل) في إحدى قصصه..
إنه يتمتع برأي صائب حقا..
سألت (سوزان)
- هل الصوت حقا أتي من هذه الخرائب؟
قالت (سوزان) وهي تلهث:
- حتما.. يوجد حشد من المتحمسين في هذا المكان.
- وماذا يفعلون هنا؟
- يا له من سؤال.. يتحمسون طبعا!
- لأي شيء؟

قالت (سوزان) في سأم وهي تواصل التقدم:
- صدقيني لو كنت أعرف لعدت لغرفتي ونمت قريرة العين..
قالت (عبير) في توجس:
- أنا لا أحب هذا.. لا تنسى أن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفضول قتل القط.. جميعنا يعرف هذه الحقيقة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ... القط...
- هراء.. دعينا من قططك هذه وتعالى ندنُ في صمت.. إن الصمت يحتاج إلى ترك الحديث عن القطط الفضولية قليلا..
كان هناك دخان يتصاعد من موضع وسط الخرائب..
وراحت الفتاتان الإنجليزيتان تتسللان كقطتين فضوليتين، وقد صار تبين موضع قدميهما مستحيلا..
كانتا حذرتين كالقطط.. مشدودتين.. إلى حد أن صرخة (سوزان) الحادة القصيرة جعلت (عبير) تشب للوراء مترين وأحست أنها - حقا – كوّرت ظهرها وأبرزت أنيابها ومخالبها..
- لقد لدغني!
قالتها (سوزان) في هستيريا وهي تفترش الأرض كاشفة عن ساقها..
- يا للمصيبة! ما هو؟
- ثعبان طبعا يا حمقاء.. وقد زحف بعيدا على الفور.. هذه هي لعنة السير في الخرائب.. هناك في كل موضع فار أو عقرب أو ثعبان ينتظر أن..
وراحت ترتجف..

علمته
كانت (عبير) تعرف ما ينبغي عمله جيدا فقد رأته في أفلام سينمائية كثيرة.. لهذا راحت تبحث في شعرها عن دبوس.. وانحنت لتشرط موضع أسنان الثعبان على ساق صديقتها (وهذا خطأ جسيم علمته السينما للناس).. ثم ألصقت شفتيها بالجرح وراحت تمتص الدماء وتبصقها (خطأ جسيم آخر).. وقد ذكرها طعمها الصدئ المميز بمغامرتها القديمة في (والاشيا).. بعد هذا فكت حزامها وربطت ساق الفتاة به لتمنع صعود السم إلى القلب (وهذا هو الشيء الوحيد الصائب في كل هذا الهراء)
- هل يمكنك السير عليها؟
- أعتقد ذلك..
- إذن لنعد.. إن طبيب الحامية يجب أن يرى جرحك..
وهنا سمعت صوت البومة يتردد من جديد..
وعلى الفور ترددت الصيحة التي صارت مملة:
- جي بوهواني!
قالت (سوزان) وهي تحاول تحريك ساقها برغم ما فيها من خدر وألم:

- هل هم مجموعة من عبدة البوم؟
- كل شيء جائز في الهند..
- هيا نعد قبل أن يجدونا..

وتحاملت لتستند إلى كتف (عبير).. وكلاهما تفكر في كيفية العودة واتجاهها.. لقد كان الأمر عسيرا وهما بكامل لياقتهما فكيف تتمكنان من اجتياز كل هذه الصخور الوعرة الآن؟

لم تطل حيرتهما لأنهما رأيا من يسد عليهما الطريق..

كان يلوح بعصا في يده

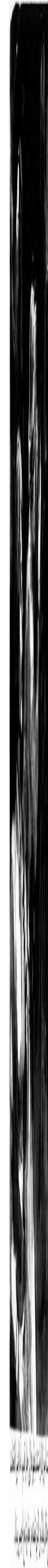
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الملتقى

و(عبير) تواصل الفرار جامعة تنورتها الطويلة بمجمع قبضتيها كي تتلافى العثرات.. وألم حاد يمزق صدرها من فرط الجوع إلى الهواء..
لكنها لا تجد وقتا كافيا كي تدلل رئتيها إلى هذا الحد..
إنهم وراءها.. بالحق وراءها..
وهم يجيدون الركض إجادتهم للقتل.. ويفكرون مثلما يحقدون.. بإصرار وصبر وأناة...
لكن عقلها المنهك لا يكف عن استعادة الأحداث التي قادتها إلى ما هي فيه الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثلا لم تنس الذعر الذي أصابها حين رأت و(سوزان) ذلك الظل الملوح بعصاه يسد عليهما طريق العودة
شهقت (سوزان) واستندت بظهرها إلى جدار متهدم لمعبد قديم.. أما (عبير) فاتخذت وضع قتال يابانيا من الذي تعلمته من مغامرتها مع (جيمس بوند).. واستعدت كي تركل المهاجم في عظمة ساقه لو كان يملك واحدة..



لكن الشبح تكلم.. وكان صوته صوت أنثى:
- لا تخشيا شيئا أيتها الآنستان.. أنا (جوتسنا)!
لقد أفاقت الحمقاء من إغماءتها إذن! وتنهدت الفتاتان الصعداء واسترخت (عبير) قليلا..
قالت (جوتسنا) معاتبة:

- تركتماني فاقدة الوعي.
- إنما أردنا أن نعرف سر إغشائك
ثم إن (عبير) أشارت إلى ساق (سوزان) وأردفت هامسة:
- لقد لدغها ثعبان.. إنه لمأزق مخيف.. وعلينا أن نعود سريعا ليراها طبيب الحملة..
قالت (جوتسنا) وهي تركع على ساق واحدة لتتفقد الجرح:
- لا وجود للثعابين هنا.. لكن توجد أفاع..
. يا سلام.. فارق كبير حقا..
- بالفعل.. لكن لدغة الأفعى تحدث نزفا شديدا وتورما في مكانها.. وهذا ليس الحال هنا.. أعني أن الأفعى لم تحقن سمها..
وفي ثقة فكت الحزام المحيط بساق (سوزان).. وعلى الفور بدت علامات الارتياح والخلاص على هذه الأخيرة..
قالت (عبير) في توجس:
- آمل ألا ننقاد وراء سعة علمك هذه، ثم نفاجأ ب.(سوزان) تقول لنا كلمة وداع وتموت!
- هذا مستحيل يا آنسة.. - قالت الخادمة في ثقة:
- .. إن الهنود يعرفون عن الأفاعي قدر ما يعرفه المصريون عن التماسيح!
- هذا يطمئنني حقا!
وخطر ل.(عبير) أن العالم كله يظن التماسيح تملأ النيل.. فلا يتصور أحد أنها لم تر تمساحا في حياتها إلا على شاشة التلفزيون..
تساءلت (سوزان) وهي تستريح فوق إحدى الصخور:
- لم نعرف بعد سبب فقدانك لوعيك يا (جوتسنا)..
قالت الخادمة وقد زايلها قناع الثقة.. وراحت ترتجف:
- حين سمعت (جي بوهواني).. عرفت أنهم قريبون.. وأن الليلة ليلتهم.. وكان هذا أقوى مني ..
- من هم..؟
- لا وقت للشرح.. هلما نعد إلى الدار حالا..
هنا أشارت (عبير) إلى الخرائب..
كان الدخان يتصاعد من بينها إلى عنان السماء أزرق كثيفا كئيبا.. كان هناك من يشعل النيران وسط هذه الأطلال
وكالمسحورات دنت الفتيات الثلاث أكثر.. فأكثر..
كن يزحفن على بطونهن الآن كالجند في الخنادق.. وعرفن أنهن فوق بقايا سور قديم متهدم يطل على ساحة واسعة.. يبدو أن هذه الساحة هي فناء معبد قديم من معابد (كالا) أو (شيفا).. لا ندري بالضبط.. إن الهند مفعمة بأوثان النساء على كل حال.. وكلهن يملكن ستة أذرع.
كان ضوء القمر يغمر الساحة بضوء أزرق غامض، كأنها إضاءة تسقط فوق مسرح رائع الجمال والإخراج.. أو كضوء القمر حين كان يضيء دراما إغريقية بارعة في (الكولوزيوم)..
لكن الروعة والرهبة صنوان!
قشعريرة باردة، بل ثلاث قشعريرات باردة زحفت على الأعمدة الفقرية للفتيات الثلاث وهن يرمقن المشهد المهيب..
كان هناك حشد من الهنود يلتفون حول هندي شيخ شابت لحيته التي استطالت حتى غطت صدره..

كان جالسا القرفصاء فوق ملاءة بيضاء، بينما أحد الهنود يتقدم منه زاحفا على ركبتيه وقد حني ظهره.. في يده اليمنى منديل أبيض وفأس.. ويده اليسرى مضمومة إلى صدره كأنما يقسم قسما معينا لا يمكن الحنث به [2]..
يقول الهندي ذو اللحية كلاما كثيرا لا أول له ولا آخر باللغة الأوردية التي لا تفهم (عبير) - وبالتالي نحن - حرفا منها..
- راندرات بوهواني جي رادهاه إي راه راندرات مانهار!
فتميل (عبير) على أذن خادمتها تسألها هامسة:
- ما معنى كل حروف الراء هذه؟
- صه.. سأفسر لك كل شيء حين نبتعد....
- صه؟!
قالتها (عبير) في استنكار.. إن للعلم مكانة اجتماعية حقيقية.. ولولا معرفة الخادمة باللغة لما سمحت لها (عبير) أن تقول لها (صه!) هذه.. لكن العلم - تلقائيا - أعاد الترتيب الطبقي لهذا الثالوث، بحيث صارت الخادمة هي الأفضل والأقوى شخصية.. ولم يعد لدي (ملدريد) و (سوزان) سوي أن تخرسا
هوووووه!
صوت البومة يدوي من جديد..
وكما توقعت (عبير) دوي صراخ الحشد للمرة الألف تقريبا:
- جي بوهواني!
ولكنها الآن تسمع الصراخ عن كثب، وتري علامات البشر والسرور على الوجوه.. فتعرف يقينا - أن هؤلاء القوم على نقيض البشر جميعا يتفاءلون بصوت البومة!
رأت هذه المرة الشيخ ذا اللحية ينهي محاضرته الطويلة، فيتقدم الهندي الشاب الذي قررت أن تسميه (الحالف) ليقسم أن يفعل شيئا ما ثمة قطعة من سكر أحمر في يد الشيخ (متلقي القسم) يناولها لتلميذه (الحالف).. ثم يتناول قطعة مماثلة يرميها في حفرة أرضية..
وتتصاعد صيحات القوم.. إما أنه نوع من الدعاء أو نوع من السباب.. فكلا العملين يمارسان بذات الحماس حين يتعلق الأمر بآلهة وثنية!
وعلى القوم تدور الكئوس.. كؤوس هندية غريبة الشكل يبدو من لونها أنها لا تحوي سوى الماء القراح.
أما آخر وأغرب ما يحدث فهو أن يخرج الرئيس أو (متلقي القسم) حبلا من جعبته.. حبلا غليظا أنيق الشكل يقدمه لـ (الحالف) الذي يتلقفه كأنما يتلقف نفحة سماوية عذبة..
ويسود المرح فيما عدا صيحات تتردد من بعض المتحمسين الذين لا ينسون بسهولة
- جي بوهواني!
هنا همست الخادمة للفتاتين المذهولتين كأرنبتين:
. إن ما رأيناه مذهل.. ولا يراه المرء إلا مرة في حياته لو حالفه الحظ.. هلما نعد قبل أن يشعروا بنا..
تساءلت (سوزان) في حماس وصدرها يعلو ويهبط:
- هل.. هل هم خطرون؟
قالت (عبير) محنقة:
- لا يبدون لي لطيفي المعشر كالأطفال.. إن

الطقوس الغامضة تعني الشؤم دائما
- رائع!!
كانت الشجاعة قد بدأت تفارق الخادمة من جديد.. وعاودها ذعرها الأبله السابق.. وكان تفسير ذلك واضحا.. لقد كان الفضول أقوى منها.. أقوى من أي ذعر أو توجس أو تطير..
أما الآن فقد رأت ما يكفي.
ولم تعد تريد سوى الفرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن الأمور لا تسير بهذه السلاسة في حياتنا.. وإلا ما قتل الفضول القط كما يقول الجميع..
الواقع أن الأمر بدأ كنوع من الهاجس العام وسط الجمع.. ثم إن بعضهم راح يشير في شك مستريب نحو الأطلال..
وبدأت أصوات الاحتجاج والحنق تتصاعد من الحناجر..
وازدادت الأصابع التي تشير في اتجاه بطلاتنا الثلاث..
- ويلي! إنهم يشيرون نحونا!
قالتها (سوزان) وهي تتراجع للوراء دون أن تبعد عينيها عن الجمع الذي بدأ يزداد ثورة.. كأنه عش زنابير مددت يدك فيه..
قالت الخادمة وهي تقف متصلبة وشفتاها ترتجفان:
- إنه ظلنا! لقد رأوا ظلنا!
- هذا حق.. إن القمر خلفنا.. وقد ارتسم ظلنا واضحا على أرض الساحة.. كيف لم نلحظ هذا؟
لأننا حمقاوات يا عزيزتي (سوزان).. لأننا حمقاوات..
أجابتها (عبير) في سرها لأنها لم تجد الوقت الكافي لتحويل الأفكار إلى كلمات..
إنهم قادمون
قادمون ولا ريب....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- إنهم يعرفون..

الفرار.. الفرار!
تهرع الفتيات راكضات بين الخرائب، واثبات حيث ينبغي السير.. سائرات حيث ينبغي الوثب..
ثلاثة أرانب مذعورة اقتحم الصياد خدرها.. أو ثلاث هرّات خائفة يعوي كلب الحي في إثرها..
ولم يعد هناك مجال للتعقل، بل الذعر غير الممنطق..
وراءهن يعوي طوفان البشر الحانق الغاضب الذي دنسن مقدساته بشكل ما.. طوفان سيمزق ويدوس ويذبح..
تقول (سوزان) شيئا ما عن عدم قدرة هؤلاء القوم على إيذاء مواطنتين من رعايا التاج فترد عليها (عبير) لاهثة بأنها تتساءل عما إذا كان هؤلاء القوم قد سمعوا عن التاج البريطاني أصلا..
احترسي من هذه الصخرة يا (سوزان)!
شكرا.. احترسي يا (ملدريد) بدورك من هذا الجدار.. إنه جزء من سور عال وراءه هاوية!
هل احترست؟ لا؟ يا للكارثة!
لقد كانت ساقاك أسرع من سمعك وكان سمعك أسرع من تفكيرك.. للأسف!
هأنتذي تسقطين وراء هذا السور صارخة.. صرخاتك أعلى من صرخات هؤلاء القوم الغاضبين الذين نجهل كل شيء عنهم.. و (سوزان) تتراجع في هلع لترمق الهاوية باحثة عن جثة صاحبتها المهشمة في ضوء القمر.. فلا تجدها
أين هي؟
ها هي ذي (ملدريد) - أو (عبير) – تتعلق بالحافة بكلتا يديها، وهي تبحث جاهدة عن جذور سحلية في شجرة أجدادها كي تعينها الغريزة على التشبث بمكانها..
همست (سوزان) وهي تركع على الحافة:
- تشبثي جيدا! إنني سوف..
سوف ماذا؟ هي لا تعرف ما ينبغي عمله
أولا ينبغي أن تثب عائدة إلى الناحية الأخرى من الهاوية.. ثم تدلي بحبل إلى مستوى صاحبتها.. ثم تبدأ في جذبها
طبعا لا يوجد حبل.. ثم هي لا تملك - ولا (عبير) تملك - القدرة على جذب حبل كهذا
إنه لمأزق.. مأزق بحق..
الصخب يتعالى من الحشد الذي يبحث عن الفتيات وسط هذه الخرائب..
هوووووووه!
صوت البومة يدوي في الأرجاء.. لكن واحدا من القادمين لم يصح (جي بوهواني) لأنهم كانوا منهمكين في الصراخ الغاضب..
يدا (عبير) تنزلقان عن الحافة ببطء..
(سوزان) تنظر وراءها ثم أمامها.. وتبكي في عجز..
هووووه!
صوت القوم يدنو أكثر.. سيبدءون بإنقاذ (عبير) ثم يفتكون بالفتاتين أو الفتيات الثلاث إذا ما كانوا قد وجدوا (جوتسنا) لحسن حظهم..
يدا (عبير) لم تعودا تتشبثان تقريبا بشيء.. هنا اتخذت (سوزان) الحل الوحيد الذي وجدته

صائبا.. الحل الجدير بأنسة من الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس..
أطلقت ساقيها للريح!
مهلا! لو أعدنا تأمل هذا القرار دون تعصب لوجدناه معقولا إلى حد ما.. إن (عبير) مقضي عليها.. فما جدوى الموت معها؟! ولو كان البقاء جوارها يفيدها لجاز لنا الحكم على هذا التصرف أخلاقيا.. لكن ما من قوة يمكنها إنقاذ (عبير).. ولربما كان من الصواب أن نحفظ روحا إنجليزية ما دمنا عجزنا عن إنقاذ روحين.. تفكير عملي صائب.. وبتفكير كهذا استطاعت انجلترا أن تحكم نصف العالم في يوم من تلك الأيام..
تعود ل (عبير) المعلقة في وضعها اليائس
لا جدوى من المحاولة..
لا جدوى من الأمل..
هوووووووه!
هنا نتحدث عن تقنية فنية رديئة نوعا، ينوي المؤلف أن يستعملها هنا للأسف لأنه لا يوجد سواها:
تقنية (الإله من الآلة) التي تعلمناها من المسرح اليوناني القديم [3]
إن المقام لا يناسب شرحها بالتفصيل.. لكنها قائمة على إيجاد الحل المعضلة فجأة وبلا تمهيد له..
وللمولعين بالمصطلحات نقول إن الرواة يسمون هذه الطريقة (طريقة المظلة تحت المقعد)..
ويسميها السينمائيون (أسلوب جريفث في الإنقاذ على آخر لحظة)
لهذا.. اسمحوا لي أن أقحم يدين قويتين في المشهد..
نعم.. يدان قويتان أمسكتا بمعصمي (عبير) في اللحظة الأخيرة.. وشعرت بأنها ترتفع لأعلى ببطء ثم تهبط على الحافة سالمة..
وحين استجمعت أنفاسها اللاهثة في ضوء القمر وجدت أنها ترمق وجها مألوفا.. وجها رأته بوضوح منذ أيام
إنه (قمست)...
المشعوذ الذي بهرها بألعاب الحبل في السوق... لقد أنقذها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيناه السوداوان بارعتا الجمال تلتمعان في ضوء القمر البارد.. لكن لا علامة على الرقة أو الهزل في وجهه.. وجه جاد خطر.. يقول لها وهو يتلفت حوله متوترا:
- هلمي! اختفى!
تقول له وهي تحاول الوقوف على قدمين رخوتين:
. لكن.. من هؤلاء ومن أنت؟
من جديد يهتف فيها بذلك الصوت الهامس الصارخ الغريب:
- لا وقت للشرح.. أنت لم تريني سأعتمد على وعد شرف منك أن تغفلي ذكري من أي سرد لقصة.. هيا!
وتطلق (عبير) ساقيها للريح
في أي اتجاه بالضبط؟ إلى أين؟
إنها قد ضلت الطريق

لكنها تسمع صفير (قمست) الهامس (غريب أمر هذا الهمس الذي يسمعه الجميع).. وتراه مدثّرا بالظلام يشير إلى اتجاه ما:

- وس س س س! من هنا!

من جديد يعاود إنقاذها

لكن لا وقت لتوجيه عبارات الشكر له على كل حال..

تنطلق (عبير) سابقة ظلها على الأرض، وتتعثر مرارا وتسقط مرارا في حفر لا نهاية لها.. وبقايا تماثيل..



إن إمبراطورية المغول في الهند لم تكف عن نثر آثارها في طريق الهرب الخاص بها..
لكنها الآن تشعر بالأمان.. وتشعر أنها تمشي في قطاع مألوف من (دلهي).. هذه الشوارع القذرة الضيقة.. والأوحال.. وحتى لدغات البعوض التي ألفتها.. كلها أشياء تشعرها أنها قد عادت إلى عالمها الذي تعرفه حقا..

كانت في حالة مزرية من القذارة والذعر والتبعثر حين وصلت إلى مسكن المعلمات.. وهناك كانت (سوزان) والخادمة جالستين في الضوء المتراقص لمصباح، وهما لا تقلان سوء حال ولا تشعُّثا عنها.
وكانت (سوزان) قد كشفت الثوب عن ساقها الملدوغة، وأراحتها على مقعد أمامها على حين راحت (جوتسنا) تغسل الجرح بالماء والصابون فما إن رأت (سوزان) صاحبتها حتى هتفت في لهفة:
- شكرا للسماء! أنت بخير يا (ملدريد)!
قالت (عبير) وهي تجرجر جسدها المنهك إلى الأريكة:
نعم.. لسوء الحظ.. كي لا أخفي رأيي فيك!
رأوه! لو كنت مكاني لفعلت ذات الشيء.. إن موتي معك ما كان ليفيد التاج في شيء..
ثم استرخت من جديد في جلستها وتساءلت:
- لكن كيف نجوت؟ لقد بدا لي الموقف منتهيا..
- نعم.. كنهاية الفيلم السينمائي حين يغادر الناس القاعة قبل ظهور كلمة (النهاية)
- عم تتحدثين؟ (سينمائي) ماذا؟
هزت (عبير) رأسها وهي تطوح بحذائيها في ركني الغرفة:
- لا عليك.. إنني أهرف بما لا أعلم..
من الصعب إفهامها معني (فيلم سينمائي) قبل اختراعه بقرن أو أكثر.. المهم الآن أن نفهم مغزى هذا الذي رأيناه..
عاودت (سوزان) السؤال في إلحاح ممل:
- كيف نجوت؟
- أوه.. لقد أقسمت أن ألتزم الصمت ولا أنوي الحنث بذلك.. والآن أريد منك شرحا تفصيليا وافيا أي (جوتسنا) الوفية.. من هؤلاء؟ وهل كانوا يريدون إيذاءنا حقا؟
هنا تدخلت (سوزان) طالبة المزيد من الإجابات:
- وماذا كانوا يقولون؟
بدا التردد على (جوتسنا)..
وأدركت الفتاتان أن خوف الهندية من الكلام يفوق الخوف العادي.. حتى غدا نوعا من التطير يغدو معه الحديث - مجرد الحديث - مكروها.. كما كان الأوربيون يسمون الدرن باسم (المرض ذو الاسم الكريه).. ونسمي نحن السرطان (المرض الذي لا يسمى)
حاولي أن توضحي يا (جوتسنا).. فنحن في الظلام..
قالت (جوتسنا) بصوت كالفحيح وهي تحدق في لهب الفانوس المتراقص:
إن ما سأتحدث عنه هو الظلام ذاته!
وبدأت تتكلم بصوتها الرتيب الهادئ...
وكان ما قالته غريبا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الخناقون...

(عبير) لم تكف عن الركض
ولم تكف عن استعادة شريط الأحداث المروع الذي قادها إلى هذه اللحظة.. وهي راغبة حقا في معرفة عدد من يقتفون أثرها لكنها لا تجرؤ على النظر للوراء.. إنها أذكى من ذلك..
إن من ينظرون للوراء في أثناء مطاردتهم يتعثرون دوما.. يتعثرون أو يتلبسهم الهلع الحيواني الذي يشل قواهم
وفي سرها تساءلت: متى ينتهي هذا الكابوس؟
متى تفلت من قبضة الى......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الخناقون!
قالتها (جوتسنا) بلهجة من يقرر حقيقية لا جدال حولها
تساءلت الفتاتان في حيرة عن مغزى الكلمة:
- الخناقون؟
- نعم الذين يخنقون الناس..
- وهل هذه مهنة أو هواية تميز قطاعا من البشر؟
- نعم.. إن الخناق الذي يحترم نفسه يخنق في العادة حوالي مائة رجل طيلة حياته!
. فهمت.. وهل يفعل هذا ليشعر بالسرور؟
- لا.. إنه مذهب ديني مذهب خاص بالهند..
وفي صبر راحت (جوتسنا) تحكي للفتاتين الإنجليزيتين المبهورتين كل شيء عن هذه الحقيقة التي يعرفها كل هندي..
(الخناقون) - قالت - هم طائفة دينية تمارس عقائدها سرا.. وإن كان الناس جميعا يعرفون أمرها..
تقول الأسطورة الهندية الوثنية إن الحياة تنازعها إلهان.. واحد مسئول عن الحياة واسمه (فشنو).. وواحد مسئول عن الدمار اسمه (سيوا).. وهما - على ما يبدو - مماثلان ل (أوزيريس) و (ست) عندنا نحن المصريين..
كاد الأخ (فشنو) يقهر خصمه (سيوا) لولا أن تدخلت مدام (سيوا) الشهيرة لدى الهنود باسم (كالي)..
قامت السيدة الفاضلة بالهبوط إلى الأرض وصنعت لنفسها صنما ثم أوصت من يعبدون هذا الصنم بأن ينتشروا في الأرض ويخنقوا كل من يقابلونه!
جدير بالذكر أن (كالي) هي نفسها (بوهواني) كما يدللها الخناقون من عبدتها.. وجدير بالذكر كذلك
أن هذا الصنم ل (كالي) موجود اليوم في (دلهي).. في المتحف.. بالطبع لم تقل (جوتنا) هذا لكننا نذكره للمهتمين بهذا الكلام الفارغ..
لماذا تخنق الناس؟
يؤمن الخناقون أن الحياة شقاء وشر.. وأن الموت هو الباب الملكي إلى السعادة السرمدية

والخنق له مزية مهمة هي عدم إسالة الدماء.. فمشكلة الذبح والطعن هي أنهما يتركان الضحية غارقة في بركة من السائل الأحمر.. وهذا يجعل عودتها - الضحية - إلى الحياة حتمية.. مما ينتفي معه الهدف الجليل من الخنق أساسا..
والخناقون قوم يؤمنون بالتطير.. لهذا يتفاءلون عند سماع صوت البوم - كما حدث في ليلتنا هذه - ويتشاءمون من صوت بنات آوى.. وهم على عكس العرب في الجاهلية يتفاءلون إذا طار الطائر إلى اليسار باعتباره (طيرا سائحا)..
ولما كانت (كالي) معبودتهم أنثى فهم يعفون النساء من الخنق.. ويعفون - لأسباب معقدة في أذهانهم - بعض الطوائف من الخنق مثل الشحاذين والغسالين والموسيقيين وبائعي الزيت والحدادين ومرضى البرص..
- لهذا يميل الهنود في (دلهي).. – تقول (جوتسنا) -.. إلى ممارسة هذه المهن أكثر من سواها.. لأنها تعطيهم حصانة ضد الخنق..
قالت (عبير) وعيناها تلتمعان بالانبهار:
- إذن لن يجد الخناقون من يخنقونه..
قالت (جوتسنا) في نبرة هادئة:
- لكن هذا يحرم الناس من وجود طبيب أو جندي أو تاجر.. لا يمكن أن تقوم مدينة على أكتاف الشحاذين وبائعي الزيت وحدهم
- فهمت.. أكملي..
قالت (جوتسنا) وضوء المصباح المتراقص يكسب ملامحها سحرا لم يكن هنالك وقت الصباح:
- بقي أن أقول يا آنستي إننا دنونا – بطريق الخطأ - من اجتماع مهم لهم.. اجتماع يتم تنصيب عضو جديد فيه..
تثاءبت (سوزان) فقد انتهى الهزيع الثاني من الليل وسألت وهي تتخذ وضعا على الأريكة هو للنوم أقرب:
- حسن.. ماذا كان ذلك الشيخ يقوله بالأوردية؟
قالت (جوتسنا):
- كان يوصي المريد الجديد بأن يخنق الناس وألا يذبحهم.. ثم كان يطلب علامات الرضا من (بوهواني)..
- أي صوت صياح البومة؟
- نعم.. إن هذا يدل على أن (بوهواني) قد قبلت العضو الجديد بعد هذا أقسم العضو الجديد نفسه على أن يمنح حياته كلها من أجل (بوهواني)..
ومنحه الرئيس حبلا مبللا بالزيت والماء المقدس كي يبدأ ممارسة الخنق!
- حبل بالزيت؟ ليس أي حبل صالحا إذن؟
- إن التقاليد هي ما يجعل الحياة محترمة..
استندت (عبير) بخدها على قبضتها وتساءلت:
- إذن هي المرة الأولى التي ترين فيها هذه الطقوس؟
- حتما.. إن أحدا لم يظل حيا بعد مشاهدتها إلا من هو عضو في الجماعة.. أنا أعرف أنهم يجتمعون غربا في مكان ما وسط تلك الخرائب.. لكن هنديا لا يجرؤ على الذهاب إلى هناك مهما بلغ به الفضول..
تساءلت (عبير) من جديد:

- لكن الخطر لم يتهددنا بالتأكيد..
- لا أدري ما يجعلك واثقة من هذا..
- ألسنا نساء؟ قلت إنهم لا يقتلون النساء..
ابتسمت الخادمة في مودة.. وقالت:
- نعم.. لا يقتلونهم خنقا! وعلى كل حال لقد كان تدنيسنا لمقدساتهم سببا كافيا كي يخرقوا هذه العادة.. وإنني لمسرورة حقا لأننا أحياء في هذه اللحظة..
- عادت (سوزان) ترمق (عبير) في شك.. وكررت سؤالها:
- ألن تخبريني كيف نجوت؟
- هذا سؤال أرجو إعفائي من إجابته..
هنا قاطعتهما (جوتسنا) في حماس وقد تذكرت شيئا:
- إن أعضاء هذه الجماعة بيننا.. وسطنا.. لكنهم يبدون كالآخرين ويمارسون حياة عادية إلى أن يجد أحدهم الفرصة سانحة كي يخنق ضحية أخرى.. يقال إنهم ألف في (دلهي).. وآلاف في (حيدر آباد).. منهم المعلمون والأطباء ورجال الشرطة..
قالت (عبير) شاردة الذهن وهي تتأمل اللهب:
- والمشعوذون في الأسواق!
- أحقا؟ هل تعرفت أحدا؟
- كلا.. كنت أضرب مثلا لا أكثر..
ثم رفعت عينيها المذعورتين إلى (جوتسنا) وسألتها ضاغطة على كل حرف من حروف سؤالها
- والآن ما رأيك؟ هل سيجدوننا؟!
....

8- خطر..

لا.. لا أعتقد ذلك..
إن احتمال أن يكون الخناقون قد تعرفونا – دعك من أن يجدونا - هو احتمال شبه معدوم.. لقد كان الظلام دامسا والمسافة بعيدة وهروبنا سريعا.. هم رأوا ثلاث فتيات منهن اثنتان أوروبيتان.. فكم إنجليزية في (دلهي) اليوم حتى يعرفوا شخصياتنا؟
قالت (عبير) وهي غير مرتاحة لهذا التسطيح:
- لكنني و (سوزان) معلمتان.. وشهيرتان إلى حد ما.. أنا لا أمشي في شارع إلا وألقي ثلاثة أو أربعة من تلاميذي..
قالت (جوتسنا) في ثقة
- الإنجليزيات يتشابهن لدى الهنود.. كلهن يرتدين ثوبا طويلا وقبعة وكلهن شقراوات الشعر ثقيلات الظل!
لم تجد (عبير) وقتا للإجابة على هذه الإهانة..
ولم تجد حافزا كافيا؛ لأنها لا تعتبر نفسها إنجليزية حقا لهذا سألت سؤالا جديدا:
- هل نبلغ السلطات الإنجليزية بما حدث؟
- الاختيار لكما.. لكنى أؤكد لك يا آنسة أن الإنجليز يعلمون كل شيء.. وهم يؤثرون الابتعاد عن الأمر كله باعتباره مجلبة للمتاعب لا أكثر.. لن يهتموا بالموضوع إلا يوم يموت أول جندي

بريطاني.. عندها ستقوم الدنيا ولن تقعد حتى يتم إعدام آخر خناق رميا بالرصاص في ميدان (ممتاز آباد)..
- وبعد تردد أضافت:
- ثم إن الكلام سيجلب علينا انتقام الجماعة..
- إذن نخرس؟
في أدب أمنت (جوتسنا) على كلامها:
- نعم يا سيدتي.. نخرس إذا سمحت لي..
هنا تدخلت (سوزان) وقد تذكرت شيئا:
- إن لهذه الجماعة دورا في اختفاء ذلك الصبي الهندي.. لقد نسيت اسمه..
- (سابور).. إن الخناقين لا يقتلون الأطفال..
لكنهم يخطفونهم ويعلمونهم كيف يكونون مثلهم!
كان لون الفجر الوردي قد بدأ يتسرب من وراء الستائر وانصرف البعوض ليهجع ويهضم كل ما في أحشائه من الملاريا وداء الفيل..
تثاءبت (سوزان) حتى بدا وجهها كوجه فرس نهر يغفو عند منابع النيل.. وقالت وهي تحاول النهوض:
لا جدوى من محاولة النوم.. إن يوما دراسيا شاقا ينتظرنا!
- هذا غير رحيم!
لكن التذمر لا يجدي
إن الأعذار هي آخر ما يمكن أن يقال لمستر (إيمرسون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا...
راحت (عبير) تحكى للأطفال الهنود حكاية إنجليزية طويلة عن عظمة (بريطانيا).. ومجد (بريطانيا).. ونبل (بريطانيا)..
كان النعاس والإرهاق يقتلانها، وأضاف سخف الكلام إلى تعاستها تعاسة توشك أن تتحول إلى غثيان صريح...
- كان هذا حين طرق الباب.. فصاحت في حزم
- ادخل!
كان الطارق صبيا هنديا رقيقا عاري الجذع إلا من مئزر صغير، وعلى رأسه عمامة عالية.. تقدم منها في ثقة وناولها قصاصة من الورق ثم رحل قبل أن تفهم المزيد منه..



في توجس فتحت القصاصة.. بالتأكيد يوجد بها ما يتعلق بمغامرة البارحة.. هذا حدسها.. وقد تعلمت منذ زمن أن تعامل حدسها معاملة اليقين.. كانت الكلمات مسطرة بحروف لاتينية ساذجة كأنها بخط تلميذ من تلاميذها.. لكنها مقروءة:

- خذي الحذر.. إنهم يعرفون..

ثم بخط أكثر رداءة عبارة لم تجد لها في البداية
معني:
- رَجْمتُك!
وتحت العبارة وضع الكاتب عدة خطوط ليدلل على أهميتها.. استنتجت - دون وعي - أنه كتب لفظة حزام belt مستعملا حرف الياء الثقيل Pelt بمعني
(رجمة)..
هذا خطأ لا يقع فيه إنجليزي.. لكن المصريين - والهنود طبعا - وسواهم يرتكبونه كثيرا... إذن كاتب الخطاب هندي..
ما معنى هذا الكلام عن الحزام؟
هل هناك حزام في الموضوع؟
هل.......؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ثقة فكت الحزام المحيط بساق (سوزان)..
وعلى الفور بدت علامات الارتياح والخلاص على هذه الأخيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم.. إنها تتذكر الآن..
الحزام الذي نسيته وسط الخرائب في تلك الليلة الرهيبة..
لقد كان الحزام أنيقا ومميزا جدا.. إن أي حزام يحمل حرفي (م. هـ) - وهما أول حرفين في اسمها - لهو حزام مميز جدا.
بقليل من الجهد يمكن معرفة الإنجليزية التي يبدأ اسمها بحرف (ميم).. ويمكن معرفة أية فتاتين من نساء الحامية البريطانية لم تبيتا في المسكن البارحة..
كل هذا سهل..
ويتحول المشهد.. الصف.. وجوه التلاميذ إلى صورة رقراقه كانعكاس وجوهنا في نهر ألقي فيه حجر ثقيل..
معنى هذا أن الخطر دانٍ حقا.. وأن هؤلاء الوثنيين - عبدة (كالي) - قادرون على الوصول إليها..
وفي رعب غمغمت:
- (دي - جي - ٢).. أنا لا أحب هذه المغامرة كثيرا.. لم لا ننهيها الآن؟ أنا أعرف أن مغادرة القاعة في أثناء العرض مستحيلة.. لكنني أطلب استثناء واحدا..
لكن (دي - جي - ٢) لم يكن ممن يتهادنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرعت (عبير) إلى مكتب المستر (إيمرسون)..
طرقت الباب ودخلت قبل أن تدعي إلى الدخول..
وكان الرجل واقفا وظهره إلى الباب يرمق الخريطة العملاقة على الجدار.. وغليونه في يده لا يمسه كالعادة..

وحين تنحنحت في كياسة.. همهم هو في وقار دون أن يستدير..
- ثمة ما أريد إبلاغك به يا سيدي ..
- ليس الوقت ملائما يا مس (هولرويد).. فأنا.. أتأمل..
- إنه لأمر عاجل يستأهل مناقشته فورا..
وهكذا راحت (عبير) تحكي ما حدث للرجل..
لم يقاطعها لكنه - مرة أو مرتين - جرد عينيه الزرقاوين النفاذتين من غمدهما ليتأملها باهتمام.. ثم أعادهما إلى ما تحت حاجبيه الكثين.. وحين فرغت من الكلام كان أول ما قال هو:
- حماقة!
وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا في عصبية مرددا:
حماقة!
وتوقف ليشعل غليونه قائلا بصوت رصين:
. أنت وصاحبتك.. قلت لي ما اسمها؟
- (سوزان).. أ.. مس (أونيل)..
- مس (أونيل) هذه.. لقد قارفتما جريمة التدخل في معتقدات الوطنيين الدينية.. وهذا هو أول خطأ ينبغي على الإمبرياليين ألا يرتكبوه..
- لكنها لم تكن مقصودة يا سيدي..
- النتيجة واحدة وهي جرح الشعور الوطني.. وهذا يجعل أبناء المستعمرات يجنون حقا ويفعلون أي شيء.. لقد تعلم جنودنا منذ زمن معني ذبح بقرة في حي هندوسي.. أو إطلاق الرصاص على جدران مسجد في حي إسلامي.. لا بد من شغب يتبع هذا الخطأ..
- لكن الخناقين ليسوا دينا وطنيا.. إنهم أقرب إلى عصابة من السفاحين..
- إن عش الدبابير يجب أن يترك وشأنه..
ثم غمغم وهو يعاود إشعال غليونه:
- سأرى ما يمكن عمله مع الجنرال (كينزبورو).. سأتأكد من أن حماية خاصة لكما قد تم ترتيبها:
تأملت (عبير) الغليون في دهشة.. إنها لا تفهم بعد كيف يدخن الناس الغلايين.. فهي لا تراهم إلا في محاولات لا تنتهي لإشعالها أو تنظيفها.. ولم تر أحدا يدخنها حتى هذه اللحظة..

لكنها لم تتماد في هذه الخواطر لأنها عرفت أن المقابلة قد انتهت.. وأن الرجل عاد يمارس أحلامه الاستعمارية أمام الخريطة..
كان الظهر قد ولى حين عادت إلى حجرتها، وكان الحر خانقا كما هي العادة.. هذا الحر الهندي الغريب.. حين تشعر بأنك تحولت إلى كتلة من الهلام الساخن اللزج المثير للاشمئزاز..
جرعت عدة أكواب من الماء الذي غلته الخادمة وعصرت عليه بعض الليمون (وهي الطريقة المضمونة حتى اليوم للنجاة من الكوليرا).. ثم غاصت في فراشها تحلم.. تحلم بالقطب الشمالي وجبال الجليد، والدببة البيضاء التي تنتظر جوار البحيرات الذائبة حتى تخرج الفقمة رأسها عندئذ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين فتحت عينيها كان ضوء الغروب الأرجواني يملأ المكان وعلى الفراش المجاور رقدت (سوزان) والإنهاك باد على أطرافها المبعثرة في كل صوب.. لقد كانت ليلة قاسية ونهارا شاقا على كلتيهما

- (سوزان).. إنه الليل..
البعوض قد بدأ يمارس واجباته الشرسة في أرجاء الحجرة.. صحيح أن هناك (ناموسية) فوق فراشها لكنها ملأى بالثقوب..
سمعت (سوزان) تهمهم في وهن.. فنهضت لتزعجها أكثر..
وأخيرا فتحت الفتاة عينيها وتأملت الكون في غباء..
- أين نحن؟
- إنها غرفتنا.. لقد نمنا خمس ساعات متواصلة!
- إذن مازلنا نحتاج إلى ثلاث ساعات أخرى!
قالتها وواصلت النوم مع صوت شخير محبب للنفس..
الحمقاء! سيكون عليها أن تواجه ليلة أرق مضنية، بعدها يبدأ يوم آخر شاق.. إن يوم الأحد - الأحد الجميل - يوم الإجازة مازال بعيدا جدا.. ربما بعد شهر أو شهرين.. ربما أكثر وهكذا لم تجد (عبير) مندوحة من مغادرة الفراش.. والخروج إلى الردهة حيث اتجهت إلى قاعة الطعام..
كان على المائدة بعض الموز والمانجو.. إنها تحب المانجو لكنها تعتبره ورطة حقيقية.. وليس الوقت مناسبا للغرق في بركة من السائل الأصفر اللزج الحلو.. إذن الموز أفضل..
بدأت التهام موزة.. حين
أو غ غ غ غ! غررررررر؟
صوت غريب حقا.. شبيه بصوت الغرغرة...
هناك من يتغرغر.. ولكن لماذا؟ وما سر هذا الحماس المفاجئ؟
واصلت التهام الموز كقرد جائع، وحين سمعت الصوت من جديد
غ غ غ غ غ! إرررغ.. أوغ غ غ!
إن الصوت آت من ناحية المطبخ هناك من يستمتع بالغرغرة الحلقية هناك لسبب غير مفهوم..
أسرعت - في الضوء الأرجواني الخافت. لتلقي نظرة..
وهناك جوار الموقد الذي يعمل بالكيروسين كان هناك شيء ما..
شيء أحمر اللون متكوم على الأرض..
شيء له يدان وقدمان.. شيء له شعر طويل أسود.. شيء له لسان أحمر يتدلى من فمه
شيء له عينان جاحظتان مخيفتان..
شيء يشبه (جوتسنا) - الخادمة - في كل شيء فيما عدا شيئين:
أولا: يوجد حبل غليظ يلتف حول العنق
ثانيا: لا يبدو أثر للحياة في الجسد بأكمله!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الذبابة والعنكبوت

و(عبير) تواصل الفرار وقد أوشك قلبها على التوقف..
إن قلبها يتوسل إليها أن تستسلم.. فهو لم يعد قادرا على الاستمرار بهذه المعدلات الجهنمية..
إنه يوشك على أن تختلط عليه الأمور فيفتح الصمامات حيث يجب أن تغلق.. وينقبض حيث ينبغي أن ينبسط..
هي أيضا بدأت ترى الاستسلام فكرة معقولة إلى حد ما...
لكن عقلها لم يكف عن استرجاع الأحداث التي قادتها إلى هذه الورطة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خذ عندك مثلا لحظة العثور على جثة (جوتسنا)..
لم تكن (عبير) بحاجة إلى عبقرية خاصة لتعرف أن الخادمة اختنقت.. ومن خنقها بالذات؟
طبعا جماعة الخناقين..
في اللحظة ذاتها رأت أن الستار المغطى لنافذة المطبخ يتأرجح كأنما هناك من يقف وراءه.. وينتظر!
كانت سكين المطبخ هناك.. على الموقد.. وكان الإغراء شديدا..
لقد تعلمت من (شكسبير) - في مسرحية (هاملت) - أن توجيه الطعنات من وراء ستار لا تعني دائما إصابة عدو.. (هاملت) حاول وخسر صديقا، بل وأبا حبيبته..
لكن هذه ليست مسرحية (شكسبير).. الأصدقاء لا يختبئون في العادة وراء ستار.. ثم إنها لو انتظرت وتدبرت ربما لن تفعل شيئا أبدا كلا.. إن عليها أن تتصرف برد فعل حيواني سريـع
و (هوب)! اندفعت نحو الستار شاهرة السكين وبأعنف ما استطاعت راحت تغرس النصل مرارا لا حصر لها في الجسد الواقف وراء الستار، والذي عجز عن التملص
سمعت صرخة.. فأنّة.. فحشرجة ثم تهاوي الجسد.. ومعه تهاوي الستار ممزقا
ولم تر كثيرا من الدماء على عكس ما توقعت.
أخيرا ترى الوجه..
كان هنديا شرس المحيا.. وقد مات إلى أقصى درجات الموت التي يمكن وصفها.. فقط ظلت عيناه الجاحظتان ترمقانها في غلّ..
هنا فقط عادت إلى وعيها وأدركت أنها قتلت رجلا.. الأسوأ من هذا أن الرجل كان ينتظر لقتلها..
وخطر لها هنا أن الخناقين لا يخنقون ضحاياهم في أثناء النوم.. ربما لأن (كالي) ليست رحيمة إلى هذا الحد.. لقد كان الوغد يريدها متيقظة..
راحت ترتجف كمطرقة جرس كهربي.. وزايلتها أية شجاعة وقتية..
هرعت ذاهلة الجنان لتوقظ (سوزان).. أين ذهبت الأخريات؟
شرعت تهزها في جنون حتى فتحت عينيها بعد لأي:
- هيه.. هل هناك فيضان؟
- أسوأ.. إنهم وراءنا.. لقد خنقوا (جوتسنا)!
فركت (سوزان) عليها ثم تأملت وجه (عبير) في دهشة:
. إن فمك مليء بالموز.. هل تمزحين؟

هنا فطنت (عبير) إلى أن الذعر أنساها ابتلاع الموز المتكوم بين خديها.. فازدرته وعادت تحكي ما كان..
- كان هناك واحد في المطبخ.. وقد قتلتُه!
- أنت قتلته؟
- نعم.. بالسكين.. والآن.. يجب أن نفر من هنا..
- وأين الأخريات؟
- لا أحد سوانا هنا..
احمر وجه (سوزان) والتمعت عيناها حماسا:
- إن هذا مثير! أخيرا بعض الإثارة في هذا البلد الممل!
نظرت (عبير) إلى عينيها في حنق وغمغمت:
- إن هؤلاء القوم خطرين بعض الشيء لو كنت قد لاحظت.. لا أرى كثيرا من الإثارة في أن أختنق..
وارتدت الفتاتان ثيابهما كالمحمومتين.. ولم تنس (عبير) أن تنظف نصل سكين المطبخ من الدماء ثم تدسها في نطاقها. إنها - في قبضتهم - لن تكون أكثر من قط صغير وسط كلاب شرسة.. لكن القط المذعور يكون خطرا جسيما أحيانا..
كان الليل قد أعلن سيطرته على (دلهي)،
وراحت جيوشه تجوب الشوارع ملوحة بسيوفها السوداء..، حين غادرت الفتاتان المسكن..
كان هناك رجل عملاق يقف في فناء الدار.. وكان يرمقهما في صلابة.. فأجفلت الفتاتان..
لكنهما تعرفتاه في ضوء النجوم الشاحب..
(رامو) الحمال والحارس الخاص لهما..
(رامو) كتلة العضلات التي لا يمكن النيل منها أبدا إلا لو أمكن النيل من الخراتيت..
في لهفة صاحت (سوزان):
- (رامو)! هذا أنت!
هتف بإنجليزيته الشنيعة:
- هل أنتما خارجتان أيتها الأنستان؟
كادت (سوزان) تخبره بكل شيء لكن (عبير) لكزتها في خاصرتها محذرة.. ثم قالت:
- نحن ذاهبتان للنزهة.. فهلا مشيت معنا؟
- لا أرى ما يمنع..
وهكذا - شاعرتين بالاطمئنان إلى حد ما – مشت الفتاتان إلى جوار حارسهما العملاق.. في شوارع (دلهي) التي غطاها الظلام.. وتلقائيا اتجهتا نحو الثكنات العسكرية التي يتمركز فيها البريطانيون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للمرة الأولى تشعر (عبير) بالاطمئنان لرؤية العلم البريطاني..
وقد سألها الميجور (آيفوري) وهو يصب لها قدحا من الشاي.. ويوشك أن يضيف إليه بعض (البراندي) لولا أن منعته إشارة من يدها:
- هل تعرفتما أحدا من المجتمعين؟
قالت (عبير) كاذبة بالطبع:

- لا.. لكنهم يفترضون أننا صرنا عليمتين بكل أفراد التنظيم السري.. وأعتقد أنهم لن يستريحوا حتى يتخلصوا منا..
- موقف عسير
قالها الميجور وهو يشعل مصباحا آخر ليزيد تألق الضوء وأردف:
- إن هذه الجماعة رسميا لا وجود لها.. لا كيان لها.. أي أننا نبحث عن شيء هلامي يمكن أن يكون أي شخص خناقا في أية لحظة وإثبات هذا مستحيل.. أعتقد أن الحل الصائب هو أن تغادرا (دلهي)
- نغادر (دلهي)؟
- و (الهند) كلها.. لم لا؟
وتبادلت الفتاتان النظرات
بالنسبة ل (عبير) لم تكن هناك مشكلة ما.. فكل ما هنالك هو أن المغامرة ستنتهي.. وسيحضر المرشد ليحملها إلى مغامرة جديدة؛ أما بالنسبة ل. (سوزان) فهي بائسة حقا.. لقد رتبت البائسة حياتها كلها على الحياة في (الهند).. بل هو نوع من الرهبنة الاختيارية التي أزمعت أن تعيش فيها حتى تموت..
كيف تعود إلى (بريطانيا)؟ كيف؟
قال لها الميجور وكأنما قرأ ما يدور في ذهنها:
- إن مستعمراتنا لا حصر لها.. يمكنك الذهاب إلى (عدن) أو (القاهرة) أو (العالم الجديد) أو (أستراليا)..
قالت مبتسمة في إنهاك:
. لا مشكلة.. كل ما هناك هو أنني سئمت البدايات الجديدة.. أنا لم أكف عن البدء من جديد منذ عشر سنوات..
قال الميجور وهو يجرع ما بقي في قدحه من شاي:
- ستبيتان في الثكنات ها هنا إلى أن نجد وسيلة لترحيلكما.. يجب أن نتصل برئيس الشرطة والمندوب السامي.. وإجراءات أخرى كثيرة..
ثم غادر المكان ليصدر تعليماته للجنود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ضوء اللهب كان الجنود البريطانيون يثرثرون.
واستطاعت (عبير) أن تتذكر زيهم المميز بغطاء رأسهم وسراويلهم القصيرة.. وكان هناك بعض جنود هنود يضعون العمائم على رءوسهم ويرتدون ذات الثياب التي يرتديها البريطانيون..
وكان (رامو) ينتظر جوار الخيمة وقد وقف جواره جندي بريطاني يحرسه.. فأمره الميجور أن ينصرف..
وكانت الخيمة التي اختارها لها للنوم خيمة أخرى لا يميزها شيء، بها فراش أرضي غير مريح، ومصباح يتدلى من أعلى في حبل، وإن امتازت الخيمة بأنها محكمة الإغلاق مما يعطيها نوعا من الخصوصية.. وقد تمنى لهما ليلة طيبة وغادر المكان.
- هكذا فقط؟ وأين يمكننا تناول العشاء؟
تساءلت (سوزان) فهزت (عبير) كتفيها:
- لا أدري

- وأين يقضي المرء حاجته؟
- لا أدري
- أنا لن أنام لحظة واحدة في حديقة البق هذه..
لكنها كانت تعرف أنها ستنام.. حتما ستنام.. إن حديقة البق خير من القبر على كل حال..
وحين أطفأت (عبير) المصباح.. استطاعت أن ترى السيلويت المميز لجندي الحراسة بقبعته والبندقية ذات السونكي على كتفه.. كان يقف خارج الخيمة يقظا يبعث الاطمئنان في النفس..
الآن فقط يمكنها أن تنام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين فتحت عينيها في الظلام لم تكن تعرف الوقت جيدا..
لكن أثار اهتمامها أن هناك من يتغرغر في الخيمة بقربها!
أر غ غ! أو غ غ غ! غ و و وه!
حقا إنه لحماس صحي مبالغ فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - الهند الضيقة جدا..

مازلنا إذن مع (عبير) في ركضها المحموم فارة من مطارديها..
وكما يحدث في الأفلام الرديئة يطول (الفلاش باك) إلى حد مبالغ فيه، بحيث نرى كل القصة في الدقائق المعدودة التي استغرقتها في الفرار..
لكن الفرار لن يطول لأن هناك معبدا متهدما يسد الطريق..
وعلى جدار المعبد تري نقشا بارزا لـ (كالي)!
إنها إذن هنا.. في مملكة (كالي) ذاتها.. وهو ما يشبه فرار فأر إلى داخل المصيدة..
الفرار لن يطول لأنها ترى عشرة منهم يقفون فوق سقف المعبد.. ترى عمائمهم وأجسادهم السمراء النحيلة.. وبرغم أن قرص الشمس وراءهم – مما يجعل الرؤية متعثرة - إلا أنها تميز حبلا بين قبضتي كل منهم..
ترى هل الخنق أليم إلى هذا الحد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صحت على صوت الغرغرة إياه احتاجت إلى بضع دقائق لتفهم.. وأخيرا بدأت عيناها تألفان الظلام..
وكان ما رأته هو جسد (سوزان) ينتفض، وثمة عملاق هندي يجثم فوق ظهرها وقد أرغمها على الانثناء للأمام.. ولف حبلا حول عنقها من الخلف وراح يضيق ويضيق!
لم تتمكن من الصراخ أو الوثب عليه لأنها رأت من يدنو نحوها في الظلام بذات الحبل.. ولهؤلاء القوم عادة في حمل الحبال بين الكفين المفتوحتين فلا يستخدمون أسلوب الأنشوطة أو المشنقة..
كان القادم نحوها نحيلا.. ولم تر وجهه في الظلام لكنها أدركت أنه لم ير وجهها كذلك ولم يعرف أنها صحت من نومها..
وفهمت أنهم أيقظوا (سوزان) قبل خنقها حرصا على مشاعر السيدة (كالي) التي تحرم الخنق في أثناء النوم.. وبالتأكيد ينوى مهاجم (عبير) أن يوقظها أولا قبل أن ينفذ مهمته المقدسة..
قررت أن تتظاهر بالنوم الثقيل لتكسب وقتا..
وجاء الرجل وراح يهزها في رفق.. أسلوبه مهذب جدا وأقرب إلى الرقي:
- ميث! ميث!



عرفت أنه يعني (ميس) أي (آنسة).. وهي الكلمة الإنجليزية الوحيدة في جعبته.. ثم ازداد عنفا..
وراح يهزها في حماس أكبر:
- ميث! ميث!

وبرطم بالأوردية بضع كلمات لم تفهمها..
هنا حان وقت العمل.. فهي تعرف ما يقولونه للفتيات في محاولات الاعتداء في عالم الواقع.. إصبعين في العينين.. لكمة في الحنجرة.. ركلة في قصبة الساق.. وكان الحل الأول هو الأقرب للصواب..
وصرخ المهاجم بعنف حين انغرس ظفرا (عبير) في عينيه..
وكان الوقت يسمح بلكمة في حنجرته.. ثم الوثب من الفراش الأرضي..
فالركض نحو ما تذكر أنه موضع باب الخيمة..
يا للظلام! كيف يمكن تبين دربها وسط هذا السواد المتجانس؟
تعثرت مرتين.. وارتطمت بقماش الخيمة السميك ثلاث مرات، لكنها في النهاية وجدت فرجة ما..
استطاعت أن تنفذ منها..
وتعثرت في جسد ممدد على الأرض فسقطت..
وفي الظلام استطاعت أن تميز أن هذا جسد يرتدي ثيابا عسكرية، وعلى رأسه خوذة، وجواره بندقية.
إنه جسد جندي.. الجندي الذي كان يحرس الخيمة لقد تسللوا إلى الثكنات وقتلوه.. لقد...
لم يتسع الوقت لفهم أكثر لأنها رأت اثنين من ذوي العمامات هؤلاء يخرجون من داخل الخيمة راكضين..
كان بالخيمة أكثر من اثنين إذن.. هي ما زالت راكعة على ركبتيها تتفحص الجثة..
وبرد فعل غريزي ارتفع السونكي في الهواء بزاوية حادة وفي اللحظة التي دنا فيها أكثر المهاجمين حماسا وسرعة.. وبحماس مماثل انغرس النصل بالكامل في بطنه..
ترى ماذا قال؟ وبم شعر؟ الواقع أنه لم يقل شيئا قط؛ لأنه طار في الهواء وتكوم على الأرض كجوال من البصل قادم من الصعيد.. وقبل أن تفهم (عبير) أنها قتلت واحدا كانت قد سحبت السونكي من بطنه وسددت الفوهة نحو الآخر وضغطت الزناد..
بوم! رائحة البارود.. ودوي الطلقة.. يبدو أن هذه البنادق العتيقة كانت تحدث ضوضاء أكثر من بنادقنا المعاصرة..
وحاولت ضغط الزناد ثانية لكن البندقية كانت تحوي طلقة واحدة.. وتذكرت على الفور أن أسلوب البريطانيين في حروب (الهند) كان يستعيض عن هذه النقطة بالقتال بصفين.. صف يطلق الرصاص ثم يتراجع للوراء ويعيد حشو سلاحه راكعا.. بينما الصف الثاني يطلق الرصاص ثم يتراجع للوراء بدوره.. ويعاود الصف الأول الكرّة..
على كل حال لا داعي لطلقات أخرى لأن مهاجمها قد مات.
وانطلقت كالمجنونة وسط الخيام والبندقية الفارغة في يدها.. لن تنتظر حتى يأتي من سمعوا الطلقة من الجنود.. إنها لا تعلم مدى سيطرة الخناقين على المكان.. ثم هي لن تنسى أن عددا لا بأس به من الجنود الهنود موجودون هنا.. فكم منهم من الخناقين يا ترى؟
وعند البوابة الخارجية لم تجد أحدا من الجنود..
فقط حين دققت النظر أدركت أن هناك حذاءين عسكريين يبرزان من وراء شجرة ضخمة على بعد عشرة أمتار من البوابة.. وعندها فقط عرفت حجم الهجوم.. هجوم معسكرات تقليدي يبدأ بقتل حارس البوابة ثم حارس الخيمة.. يمكن أن يكون هناك عشرون خناقا في المعسكر الآن.. ومن حسن الطالع أنها تنبهت.. وأنها لم تبحث عن نجدة..

وبيد عصبية رفعت أطراف تنورتها لتجعل الركض سهلا.. وراحت تسابق الريح في الشوارع المظلمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الآن عند الميناء..
القوارب البدائية المحملة بالغلال والفاكهة تشق طريقها ببطء في مياه نهر (جمنا).. والمشاعل ترسم لوحة لا توصف من اللون الذهبي فوق صفحة الفضة.. وثمة من يترنم بلحن حزين مفعم بالشجن إلى أين تذهب؟ ماذا تفعل؟ فيمن تثق؟
هنا شعرت بيد رقيقة تجذب تنورتها:
- مس (هولرويد)؟
- (سابور)!
كان الصبي الحبيب إلى نفسها يقف خلفها، وهو يتلفت حوله في توتر.. ولم يبال بدهشتها أو مئات الأسئلة التي تريد توجيهها له..
قال لها بلهجة عملية وهو ينتزع البندقية من يدها، ويلقيها جانبا:
من الخطأ أن تمشي هنا..
- إنني.. هناك من ...
قال بلهجة أكبر من سنه بكثير:
- أعرف كل شيء.. وعليك أن تتواري حالا..
وفي حزم راح يركض مبتعدا عن النهر.. فلم تجد مفرا من أن تركض وراءه.. بعض المتسولين يفكرون في الإلحاح عليها ثم يحجمون حين يرون وجهها الممتقع.. وها هي ذي تجتاز عشرات الأزقة الضيقة المظلمة..
وفي النهاية يفتح (سابور) بابا خشبيا ثقيلا.. ويقودها إلى حجرة ضيقة تنتشر الطحالب والرطوبة على جدرانها.. ويشعل شمعة صغيرة يثبتها إلى حجر بارز من الجدار تسأله (عبير) وهي تلتقط أنفاسها:
- هلا شرحت لي؟ وأين كنت أنت؟
يقول (سابور) وهو يتجه إلى الباب:
- كل ما أجرؤ على قوله هو أننا في مأزق مخيف.. عليك أن تبقى هنا.. ولسوف أحضر بعض الجنود حالا.. الجنود البريطانيين..
- ولكن
- أعرف.. الوطاويط! لكنها لا تؤذي يا مس (هولرويد).. إنها تأكل الفئران لهذا نربيها في ديارنا.. ولنفس السبب احتفظنا بثعبان الخنزير الذي يجول في الغرفة الآن.. إن هذا هو جحره!
- وطاو ... ثعب....!
لكن الصبي كان قد رحل.. أوصد الباب خلفه وتركها وحيدة..
ونظرت إلى السقف فرأت عشرات من تلك الثدييات المجنحة لعينة المنظر.. اللعنة! من قال إن الوطاويط أرحم من الفئران؟ إنها نشأت في حارة ولا تضايقها الفئران كثيرا.. ولو ألف منها فلا يمكن مقارنتها بوطواط واحد.. ثم الثعبان...
كلا.. يجب أن تغادر المكان حالا..
ومدت يدها إلى الباب.. تحاول فتحه..

لكنه كان موصدا.. وعرفت من صوت حركته أن هناك مزلاجا في الجانب الآخر! لماذا يوصد (سابور) الباب بمزلاج؟ إن أحدا لا يعرف أنها هنا.. معني هذا أن المزلاج ليس لحمايتها، بل لحصارها..
إن (سابور) قد صار منهم حقا..
ومعنى هذا أنها تركته يقودها إلى الشرك كالبلهاء..
لقد كان مقنعا في لهفته وفي ذعره حتى إنه لم يدع لها فرصة للتساؤل.. ثم هي عاجزة عن تصديق وجود الشر في الأطفال.. إن إيمانها المطلق ببراءتهم غير قابل للتزعزع إلا بمعجزة..... كهذه!
والآن ماذا تفعل؟
هناك فرجة في السقف الخشبي للحجرة.. لكن الوطاويط! إنها لن تجازف بالصعود هناك وإثارة غضب هذه الفئران المجنحة أبدا..
أتنتظر مصيرها إذن؟
لم تدم حيرتها أكثر من ربع ساعة لأنها شعرت بشيء يسقط من الفجوة، ويتكوم عند قدميها..
كان هذا الشيء حبلا.. حبلا سميكا من الليف المشبع بالزيت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورفعت عينيها لأعلى..
كان هناك رأس ذو عمامة يطل عليها من عل.. من الفرجة..
وسمعت صوتا مألوفا يصيح فيها:
- هه! يا آنسة! أنا (قسمت)!
ومن ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟
- هل تستطيعين التسلق؟
قالت بذلك الهمس الشبيه بالصراخ:
- ربما استطعت لو كان الحبل متدليا من شيء لماذا لم تربطه عندك؟
. إن هذه الأساليب البدائية لا تناسب (قسمت).
وبعد ثانية رأت المزمار في فمه.. وسمعت اللحن المميز الحزين المليء بالمرح برغم ذلك.. وفي هذه المرة تم الأمر أمام عينيها.. الحبل عند قدميها يتحرك ببطء ثم يرتفع لأعلى بتؤدة.. لأعلى.. لأعلى.. حتى يبرز طرفه من فرجة السقف..
لم يكن (قسمت) قادرا على شرح ما يريده منها.. لكنها فهمت دون عناء.. وعلى الفور لفت ذراعيها وساقيها حول الحبل وشرعت تتسلق لأعلى.. آه لو كانت هناك عقد في الحبل! لكن (قسمت) اقتصادي ـ التفكير لا يريد أن يفقد شيئا من طول الحبل..
على كل حال يمكن القول إنها تمكنت من الوصول إلى الفرجة..
كان الهواء على السطح منعشا.. وكان (قسمت) وسيما كما لم تره من قبل.. وكادت تبدأ الكلام معبرة عن انبهارها بهذا الملاك الحارس.. لكنه هتف همسا وهو يشير إلى أسفل ويربط الحبل في قطعة خشب:
- صه.. لقد جاءوا!
وحقا رأت الصبي (سابور) - ذلك الخائن – يركض ما بين الجدران المتلاصقة وراءه ثلاثة من هؤلاء الرجال حاملي الحبال ولسان حال الصبي يقول:

هأنذا قد فعلتها.. ألستم فخورين بي؟
قال (قسمت) وهو يناول كفّا قوية ل. (عبير):
- هلمي.. سأساعدك على النزول ثم تولى الأدبار..
وهوب.. انزلقت (عبير) إلى الأرض وتلاها مشعوذها.. ومن داخل الغرفة سمعت صيحة غاضبة.. لقد عرفوا أنها فرت..
راحت تركض لاهثة بسرعة لم تعهدها في نفسها.. لكن ذراع (قسمت) القوية كانت تجرها جرا فلم يعد أمامها خيار سوى الجري بذات سرعته.. أو السقوط أرضا والخضوع للجر ككلب ميت..
قال لها وهو لا يكف عن الجري:
- لهذا قمت بربط الحبل.. إن عثورهم عليه غير مربوط إلى شيء يشير إلى شخصي بوضوح لكنهم الآن سيجدون احتمالات كثيرة.. هه.. هه
- هه هه! فهمت.. هه هه!
وبعد قرون من الركض وجدت (عبير) نفسها في كوخ خشبي حقير.. وعرفت دون سؤال أن (قسمت) يعيش هنا.. يعيش مع أصدقاء غريبي الشكل نوعا..
توجد سلة ملأي – حتما - بثعابين الكوبرا.. ويوجد قرد من (موديل) غير معروف.. ربما هو (البابون).. ويوجد وحش عجيب أقرب إلى تنين صغير أو سحلية ابتلعت بطيخة.. عرفت (عبير) فيما بعد أنه سحلية (الورل)..
وعلى الجدار كانت هناك مجموعة من الحبال تثير حسد أي هاو لجمع الحبال في العالم، لو كان هناك من يجمعها حقا..
كان منها في إضاءة بعض الشموع، وسط الرائحة الخبيثة التي تحدثها حديقة الحيوان هذه..
حين سألته (عبير):
- هل كل هذه الحبال للخنق؟
قال لها في لا مبالاة:
- بعضها.. وبعضها لألعاب الحواة.. وبعضها للزينة.. لماذا تظنين أنني أهوى الخنق؟
قالت وهي تجلس على حشية على الأرض:
- ألست خناقا؟
- بلى.. وأبي كان خناقا.. وأبوه كان خناقا
- إذن أنت تلعب دور المنشق على الجماعة؟
قال وهو يداعب القرد.. ثم يقشر ثمرة موز، فيلتهم نصفها ويدس في فم القرد نصفها الآخر
- ليس انشقاقا.. لنقل إنه خلاف على المسميات..
ثم أردف باسما:
- ما كنت لأستطيع أن أقتلك.. ليس لأنك أنثى، بل لأنني همت بك حبا منذ التقينا في السوق.. إن الأسطورة الهندية تقول إننا جزيئات من جسد (كريشنا) الكبير لا تلبث أن تصير ذكرا وأنثى.. وحين يلتقي اثنان من نفس الجزيء فإنهما يتعرفان بعضهما.. وأنا أشعر أنني كنت معك في جسد (كريشنا) منذ زمن سحيق.. ألم تشعري بذات الشيء؟
- بلى.. أعترف..
- هذا هو بيت القصيد..
قالت له محاولة تغيير الموضوع لأن هذا الكلام يصيبها بأورتيكاريا شديدة هي مزيج من

الاستحسان له والنفور منه:
- من أنت؟ حقا
- يا له من سؤال! أنا (قسمت).. من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟
- أعنى (قسمت) الخناق..
قال في فخر وهو يتحسس الحبال في حنان:
- أنا (جورو)..
- (جورو)؟
- نعم.. أي رئيس فرقة.. وتحت إشرافي عشرة خناقين.. كلنا نمشي في سلك الترقيات من أسفله.. وأسفله عندنا هو (اللوجا).. أي حفار القبور الذي يعد القبر للضحية قبل خنقها.. إن دفن الضحية عندنا ذو أهمية قصوى.. وأعتقد أن هناك من دفن خادمتك وصديقتك الآن [4]
- هل يعود هذا لأسباب أمنية؟
- لا.. تقول الأسطورة إن (كالي) ضبطت خناقا يتجسس عليها لمعرفة ما تفعله بالجثة.. من ثم قررت معاقبته ومعاقبة الخناقين جميعا بإرغامهم على دفن جثة من يخنقون.. إن هذا لمجهود شاق حقا إذا عرفت أن كلا منا يخنق نحو مائة شخص في حياته! أي مائة قبر!
- إنها لمهنة شاقة حثا..
- هكذا الحياة..
بدأت القصة تروق ل (عبير).. فواصلت أسئلتها:
- وماذا بعد ال (لوجا)؟
- آه.. هنا تأتي مرتبة ال (سوتا).. أي المرشد.. وهو مسئول عن استدراج الضحايا ويجمع عنهم المعلومات متخفيا.. إن (رامو) حارسك الخاص هو (سوتا) بارع في عمله.. وهو من وجدك وصديقتيك!
اتسعت عيناها في ذهول وانتصبت واقفة
- (رامو)؟ لكنه من السيخ المتعصبين!
أخرج تنهيدة قنوط.. وقال وهو يرمق القرد:
- كذا الناس جميعا لا يصدقون إلا ما يريدون تصديقه.. هل تريدين من الخناق أن يمشي في الطريق والحبل في يديه؟ من الطبيعي أن يبدو الخناق أقرب ما يكون إلى المسلم المتدين أو الهندوسي المتعصب.. يبدو تاجرا محترما أو شيئا جليلا..
- غريب.. وكنت أحسب الوغد يحميني..
- ما كان ليخنقك على كل حال فهذا غير مسموح له.. بعد.. ثم تجيء مرتبة ال (شوشيا).. الذي يشتت انتباه الضحية إلى أن يتولى الخناق العمل..
إنه يشبه من يقوم ب (التقفيل) لدى نشاليكم.. ثم يترق ال (شوشيا) ليغدو (جورو).. وهي أعلى
مرتبة في الخناقين.. وأكثر ال (جورو) يخنقون وحدهم دون مساعدين
- لكن لكل كبير كبيرا.
- طبعا.. رئيس الجماعة هو الرأس المهيمن على كل شيء.. وهو على اتصال مباشر ب (كالي)... أو هكذا يزعم..
- وكيف نشأت جماعتكم هذه؟
- لا أحد يدري.. يقال إن لها علاقة بمذهب (الحشاشين) القديم في العراق.. لكننا لسنا

متأكدين..
ساد الصمت برهة
لا صوت سوى صوت السحلية (لا أذكر في الواقع هل هو نقيق، أم خرير، أم ثغاء، أم ماذا)
بعد قليل سألت (عبير):
- وهل أنا نقطة الخلاف الوحيدة بينك وبينهم؟
- بالطبع لا.. كنت أحاول دوما إقناعهم بأن عصر التطوير لنشاطنا يجب أن يبدأ.. وإلا فاتنا قطار التقدم.. وانقرضنا [5]
- تعني الخنق عن طريق الغازات؟
التمعت عيناه حماسا ورفع عينية إلى الأفق حالا:
- لا.. نحن نبدد جهودنا فيما لا طائل من ورائه..
لماذا لا نرحم أبناء وطننا قليلا ونبدأ في خنق الإنجليز؟! إن هذا يوجه نشاط الجماعة إلى الطريق الصائب..
. وماذا قالوا لك؟
- قالوا إن الخنق ليس تعذيبا للبشر، بل هو رحمة لهم.. وهو شرف لا يستحقه الإنجليز الكلاب..
- هذا منطقي
- لكنني لم أجرؤ على إعلان رأيي.. وهو أنني أشك أساسا في مبدأ وجود الجماعة.. أشك في وجود (كالي).. وأعتقد أنني لو عبدت إلها.. لعبدت إله المسلمين والمسيحيين.. إلها واحدا قديرا رحيما بعباده.. ولهذا كله أرى أن الخناقين بلهاء لكن تنظيمهم السري المحكم يصلح نواة لمحاربة عدو حقيقي.. هو الإنجليز..
- ووصلت إلى هذا وحدك؟
- كان هناك تأجر عربي قد بذر بذرة هذه الأفكار في روحي.. لكن الخناقين يرون أننى مخبول..
وأنني أبشر بأفكار ملحدة خالية من الصواب
- أنت فيلسوف سبق عصره..
- إن (الهند) هي موطن الفلسفة ومهدها.. لكنها فلسفة غالية ثمنها الوحيد هو الموت..
وفجأة نظر إلى (عبير) في شك ومد يده إلى أحد الحبال:
- كيف تؤيدين رأيي هذا وأنت إنجليزية؟ هل تحاولين خداعي بشكل ما؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - عند مفترق الطرق..

بماذا ردت عليه؟

لم تعد (عبير) تذكر جيدا.. لكنها بالتأكيد لم تقل إنها مصرية.. قالت كلاما كثيرا عن كراهيتها الإنجليز وعدم شعورها بالانتماء لهم، لأنها لا تؤمن بالاستعمار في أية صورة له..

لا بد أنها استغرقت بعض الوقت حتى تخلت يداه عن الحبل، ولانت قناته قليلا.. وأخيرا قال لها:

هذا غريب.. لو أصغيت لقومي لخنقتك لأنك عرفت الكثير عنا.. ولو أصغيت لنفسي لخنقتك لأنك إنجليزية.. لكن صوت قلبي أعلى من الصوتين ولا أجد سوى الخضوع له..

وفجأة تصلب..

كان هناك من يتحدث بأوردية غاضبة خارج الدار:

- آرام جوهار أردهار ماندرانات إنجليس!

- لاكين ها موشكيل آتشا! رابرادات شونكار.. هاه!

صاح همسا وهو ينهض مذعورا - إنهم من الخناقين.. لقد تعرفوا الحبل في محبسك الذي فررت منه ورجحوا أنه يخصني ويبدو أن هناك من رآنا ندخل هنا..

- يا للكارثة!

وانهمرت قرعات غاضبة على الباب:

- (قسمت)! (قسمت)!

قرعات تكاد تنتزع الباب من مفصلتيه..

كانت هـ



ناك نافذة موصدة أسرع (قسمت) بفتحها..

وأشار ل (عبير) بالخروج منها.. ثم عاد فأخذ سحلية (الورل) فلفها حول عنقه ولحق بالفتاة وانطلقا يركضان في الشوارع المظلمة.

سألته (عبير) وهي تلهث:
- هه هه! هل هذه السحلية من المتاع المهم إلى هذا الحد
- هه هه! طبعا.. إن الحياة دون سحلية مستحيلة.. وأنا لا أفهم كيف يمارس الإنجليز حياتهم دون سحال!
ثم أردف بلهجة جدية:
د ستعرفين أهميتها حالا..
كان هناك سور عال يسد الطريق.. وأدركت (عبير) أن التسلق مستحيل.. والتراجع مستحيل كذلك.. فما الحل؟
هنا رأت (قسمت) يخرج من مئزره حبلا...
ويربط الحبل في جسد (الورل) بإحكام.. ثم يترك (الورل) على الجدار
فماذا فعل (الورل)؟ بالطبع تسلق الجدار
مستعملا ممصاته حتى وصل إلى أعلاه.. وتشبث بمكائه وهو يخرج لسانه المشقوق في جشع جذب (قسمت) الطرف الحر من الحبل ليتأكد من كونه محكما.. ثم دعا (عبير) إلى التسلق فصرخت:
- أتسلق حبلا مربوطا في سحلية؟! هل جننت؟!
- بالعكس.. إنه أسلوب هندي قديم يمارسه اللصوص.. إن تمسك (الورل) بالجدار يجعل الحبل قادرا على تحمل رجلين ([6])
- كنت تستطيع رفع الحبل بمزمارك أو تدرب القرد على ذلك..
- المزمار سيجذب (دلهي) كلها إلى هنا.. والقرد لن يحسن تثبيت الحبل مهما حاولنا.. والآن هيا! لن نقضي الليل في جدال..
وفي توتر راحت (عبير) تتسلق الحبل غير مصدقة أنه سيتحملها وحين وصلت لقمة الجدار
وجدت (الورل) لم يتزحزح شعرة.. وإن راح يصدر هسيسا مخيفا.. ولسانه المشقوق يتحسس شفتيه الحرشفيتين بحركات عصبية سريعة..
ولحق بها (قسمت).. فأدلى بالحبل إلى الجانب الآخر من السور.. وانزلق عليه لأسفل.. وتلته (عبير)
بعدها أصدر هسيسا خاصا.. فتخلت السحلية عن مكانها.. وانزلقت على السور نازلة إليه
سألته (عبير) وهما يواصلان الركض:
أين تعلمت كل هذا؟
- نسيت أن أقول لك إنني كنت لص بيوت قبل أن أغدو (لوجا).. هه هه؟..
واصلت الركض.. وبعد هنيهة سألته السؤال المحتم:
- إلى أين؟
- إلى أحد معسكراتكم.. لن أصطحبك هناك.. بل سأتركك تتفاهمين معهم.. وأعتقد أنه من الخير أن تتركي (الهند)..
- هذا ما أراه
في تردد سألته
- وأنت؟ يبدو أنني أفسدت عيشك في (الهند) للأبد.. كيف ستعود إلى هؤلاء وهم يعرفون أنك منشق؟
- لن أعود.. - قالها وهو يربت على عنق السحلية -.. سأرحل إلى (مدراس) أو (بومباي).. وأبدأ

من جديد..
- ولم لا ترحل إلى (انجلترا)؟
- لا مكان لى هناك.. إن لنا جالية كبرى في جنوب (إفريقيا) ولربما فكرت في اللحاق بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا وجدت (عبير) صفا من الهنود يقفون سادين طريق الهرب أمامهما.. ولم يكن أحدهم يحمل كارنيه نقابة (الخناقين).. لكن لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير ذكاء لمعرفة أنهم منهم صاحت في هلع وهي تثبت كعبيها في الأرض كالفرامل:
- ك.. كيف وجدونا؟
قال وهو يفرمل بالمثل:
- سؤال جيد.. لكني لا أعرف إجابته..
ثم ضغط على أسنانه.. وأحكم لف السحلية حول عنقه كالبردة.. وقال:
- إنها (لحظة الحقيقة) كما تقولون معشر الإنجليز.. وقد حان الوقت لنفترق.. سأحاول تعطيلهم برهة..
هتفت في ذعر وهي ترى القوم يخرجون حبالهم ويتقدمون:
- ل.. لكن.. إنهم سيدمرونك..
- بالتأكيد
ـ لماذا لا تفر معي؟
لا بد من أن ينتظر أحد من أجل الآخر.. إن اتجاهك سيكون شرقا.. حاولي الاحتماء بجدران المنازل.. ولا تثقي بالشيوخ المكفوفين ولا الأطفال الأبرياء.. وداعا.. وليحفظك الله..
ولم تجد وقتا لتفهم..
فقط وجدت نفسها تركض في الاتجاه الذي حدده.. والتفتت فوق كتفها لترى عجبا من الذي لا يعرف (قسمت)؟
إن (قسمت) يدور في الهواء.. يتدحرج على الأرض.. يلقي بسحليته في وجه أقرب الخصوم له فيصرخ ويداري وجهه.. ثم يثب وينتزع السحلية التي غرست ممصاتها في لحم الوجه.. ويقذفها نحو مهاجم آخر..
ويرفع الأول في الهواء ليقذفه فوق مهاجمين آخرين..
وتري (عبير) عشرات من القوم ينقضون - كالقرود - آتين من حيث لا تعلم.. يقفزون من فوق سطوح المنازل، وهم يعوون كالذئاب والحبال في أيديهم..
(قسمت)! من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟
هو ذا يأتي بحركات راقصة يروغ بها من بين صفوف المهاجمين، ثم يركل هذا.. ويضرب ذاك في عنقه.. ويلوي ذراع هذا..
وساعد ثوبه الأبيض - الشيلوار - في جعله يبدو كملاك وسط شياطين عارية الجسد لا تكف عن العواء وطلب الدم..
(قسمت).. من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟
وهنا فطنت (عبير) إلى أنها أضاعت وقتا ثمينا.. فراحت تركض كما علمها..
وتدحرجت دمعة على وجنتيها وهي تدرك أنها غالبا لن تراه ثانية.. لكن ماذا بوسعها أن تفعل؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وها هي ذي - كما رأيناها عبر فصول القصة - تواصل الركض وتنورتها بين كفيها.. وقد حنت ظهرها لتقلل احتكاك الهواء بها كما يفعل المتسابقون بالدراجات..
ورأيناها واقفة أمام معبد (كالي) ترمق في هلع هؤلاء الواقفين فوق الجدران.. وخلفها.. والحبال في أيديهم..
إن هذه نهاية السباق حتما
(قسمت)!
همست بها متوقعة أن يظهر كعادته في آخر لحظة لينقذها من المذبحة.. لكن - حتى في (فانتازيا) - يغدو هذا مستحيلا الآن..
وهنا وجدت أن للمعبد بابا..
إن للمعبد بابا ثقيلا.. ويمكن بشيء من الجهد أن..
أطلقت ساقيها للريح قاصدة الباب..
لو كان منهم من ينتظرها بالداخل فسوف..
سمعتهم يتصايحون بالتأكيد عن الأجنبية التي ستدنس المعبد.. بقدميها الأنجلوساكسونيتين القذرتين.. أو أي شيء من هذا القبيل..
ولكنها وجدت الوقت الكافي كي تدلف إلى المذبح كان هناك مشعل واحد يضيء المكان.. واستطاعت أن ترى الجدار العملاق يزدان بتمثال هائل يبرز منه.. يمثل (كالي) بأذرعها الستة وهي جالسة على عرشها الذي لو تزحزحت عنه لاجتاحت الزلازل العالم..
لكن التمثال كان يختلف عن تماثيل الهندوس..
فالملامح قاسية شرسة وثمة حبل في كل كف من أكفها.. إنها (كالي) حقا لكن بعد أن صارت (بوهواني).. وبعد أن طلاها الخناقون بصبغتهم..
ونظرت (عبير) حولها..
كان الخناقون قد دخلوا المعبد.. ورأتهم يتصايحون ويتبادلون كلمات منزعجة.. وبرغم حنقهم ظلوا عاجزين عن الدنو من التمثال.. لا بد أنهم يهابون الدنو من هذا الشيء..
إنها فرصتها إذن..
تسلقت التمثال المخيف.. فتصاعدت الصرخات..
لا بد أنهم يتوقعون أن تنطبق السماء على الأرض أمام كل هذا التجديف الإلحادي الخارق للعادة..
جلست (عبير) كالرضيع في حجر (كالي).. وتذكرت هنا شيئا.. إن كل هذه الأصنام تكون لها - في القصص - فتحة ما تقود إلى نفق سري..
وبالتأكيد لن يترك (دي - جي - ٢) فرصة كهذه..
بالفعل هناك فتحة..
بعبارة أدق يوجد باب سري له مقبض بارز.. فلو أمكن أن
وجذبت المقبض.. وعلى الفور انفتح الباب.. ورأت من مكانها بئرا عميقة مظلمة تنتظرها.. إلام تقود؟ لا تدري..
لكنها لن تظل محتمية ب (كالي) للأبد.. فالهنود يتمتعون بالصبر ولن يضيرهم في شيء أن يعيشوا حول التمثال أعواما - وعلى سبيل التبرك - إلى أن تقرر (عبير) الابتعاد عن (كالي)..
وهكذا..
مددت جسدها.. وانزلقت عبر الفتحة إلى أسفل.. إلى أسفل.. إلى أسفل.. إلى أسفل البئر

منحدرة كألعاب الملاهي..
والممر وعر مليء بالانحناءات.. لكن جسدها لا يكف عن الانزلاق..
وبدأت تتساءل في الظلام عما إذا كانت هناك نهاية لكل هذا.. هل ستخرج في المحيط الأطلنطي أم ماذا؟
لكنها تواصل الانحدار.. وهي تشعر بأن النار ستندلع من ردفيها من شدة الاحتكاك..
وبعد قليل رأت النور.. و...



هوب! قذفت في الهواء.. وتمددت على الأرض وسط الأشجار مهشمة الأوصال والعظام..
لقد غادرت النفق.. لكن أين هي الآن؟
يوجد جدار به فتحة هي التي سقطت منها.. فهل هذا الجدار جزء من المعبد؟

هنا سمعت زئيرا
وتذكرت حقيقة بسيطة: إنها في الغابة.. والنمور تعيش في الغابات..
وبالتحديد الببر الهندي.. العملاق الشرس رائع الجمال..
الأشجار المتشابكة تمتد أمامها إلى مالا نهاية والأعشاب تجعل الرؤية مستحيلة.. وفي مكان ما ينتظر هذا القاتل..
وقفت متصلبة عاجزة عن اتخاذ قرار سليم..
وهنا سمعت من يتنحنح أن الصوت مألوف..
إنه (قسمت)!
هرعت لتعانقه في حنين وهي تغالب دموعها.. إنه حي.. أنساها الفرح تحفظها.. لكنه لم ينس تحفظه.. فتقبل عناقها في سلبية متصلبا كالتمثال وأصدر أنة حين لامست ضلوعه..
لم يكن هو (قسمت) الذي عرفته.. بل ما تبقى منه
الكدمات تملأ وجهه.. والجروح تفعم جسده.. ومن الواضح أن لديه ضلعا أو اثنتين قد تهشمتا..
وحين ابتسم أدركت أنه لن يأكل الخبز المحمص ثانية في حياته..
- لكنك حي . .
قال محاولا أن يكون مرحا:
- لا أحد يموت بسهولة في الهند إلا بالكوليرا... هل نسيت؟
- وكيف فررت منهم؟
- حين قررت أن الشجاعة ليست مرادفا للانتحار.. عندئذ أطلقت ساقي للريح.. وسمعتهم عند المعبد يتصايحون: إن الإنجليزية الكلبة قد..
- كلبة؟!
- هذا ما قالوه.. إن الإنجليزية الكلبة قد اختفت داخل (كالي).. عندها هرعت إلى هنا لأجدك..
- لكنهم يعرفون المكان مثلك..
- يعرفون.. لكن أحدهم لا يجرؤ على الدنو من (كالي).. ولن يستطيعوا الخروج من باب المعبد لأنني أوصدت الباب من الخارج بإحكام.. إنهم محاصرون بالداخل.. أكثر من خمسين خناقا..
هتفت في حماس:
- رائع! والآن نبلغ الشرطة؟
قال وهو يتجه نحو فتحة البئر
- إن لدي حلولا أكثر جذرية.. دعينا نسد هذه الفتحة أولا..
هنا تعالى الزئير من جديد.. فصاحت:
- هذا الببر.. ألن؟
- لا عليك.. إنها أدغال الهند حيث لا نبالي بكل زئير ببر نسمعه وإلا ما وجدنا وقتا لشيء آخر..
وفي حنكة شرع يسد الفتحة مستعملا الصخور وأغصان الشجر..
ثم جذبها من يدها.. وانطلقا يدوران حول الجدار..
عندها فهمت (عبير) أن هذا هو الجدار الخلفي للمعبد.. وفهمت أن شبكة المنحنيات التي دخلتها جعلت المسافة أطول مما هي عليه على سطح الأرض...
هو ذا المدخل الرئيسي للمعبد وقد أوصده (قسمت).. وقام بتثبيت الباب بحبل غليظ وغصن شجرة وأشياء أخرى وجدها.. وكلها تجعل الأمر عسيرا حقا..
لكن أحدا لم يدفع الباب من الداخل.. كانوا منهمكين في مراقبة فتحة البئر.. ويبدو أنهم لم

يفطنوا بعد إلى أنهم سجناء
ورأت (عبير) (قسمت) يعمد إلى جرار فخارية مسدودة بخرق من القماش.. فيسكب ما بها حول الباب..
ويدور حول المعبد متثاقلا يواصل سكب محتوي الأواني..
- هل ستحرقهم أحياء؟
قال وهو مستمر في السكب:
- طبعا.. لا خلاص من (المانجوست) إلا بحرق وكره..
- لكن الشرطة...
- لو استدعينا الشرطة لجازفنا بأن يصل أحد الخناقين ليفتح الباب لزملائه..
ورأته (عبير) يرفع كفه في الهواء..
في اللحظة التالية اشتعلت فيها النار.. ثم لامس بكفه السائل..
وفي ثانية التهب كل النطاق حول المعبد..
وإذا ب. (قسمت) يطوح ما تبقى من جرار إلى سقف المعبد ليزيد النار نارا ثم ابتعد و (عبير) برمقان المشهد المهيب..
النار تتصاعد والدخان الكثيف يأكلان مملكة (بوهواني) الدموية..
وسمعا صرخات من الداخل.. وصوت دقات على الباب الثقيل.. لكن النار بدأت تتوهج في الخشب العتيق..
وتخيلت (عبير) الجحيم الدائر بالداخل:
لكنها – لدهشتها - لم تشعر بشفقة من أي نوع..
سألته وهي ترمق الدخان الأسود في السماء:
- والباقون؟
- مازال كثيرون منهم هناك.. خاصة في (حيدر آباد).. لكنهم سينقرضون حتما حين تقوي شوكة الحكومة..
- وهل يأتي خناقو (دلهي) الآن؟
- حتما.. سيعرف الجميع أن معبد (كالي) يحترق.. وأعتقد أن الفرار هو خير ما نفعله الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفجأة من بين الأعشاب رأت (عبير) شبحا مألوفا يدنو وهو يداعب قلما جافا بين أنامله:
- تك تتك تك! تحية يا فتاة
هتفت في دهشة:
- (المرشد)! ظننتك لن تعود..
أنا أعود دوما حين أشعر أنك نلت وطرك من القصة.. ولا أعتقد أن هناك شيئا شائقا يمكن جعلك تمرين به في قصة الخناقين بعد كل ما رأيت..
- ولكن.. ماذا عن..
- (قسمت)؟ من ذا الذي لا يعرف (قسمت)؟ إنه فتى شجاع وأعتقد أنه سيفر إلى جنوب إفريقيا كما أراد..
قال (قسمت) وهو يلملم أطراف ثيابه الممزقة:
- هل أنت (المرشد)؟ سعيد بمعرفتك يا أخي..

وأنا.. سرني أنكم أمتعتم مس (هولرويد) أو (عبير)..
- هذا هو الغرض من وجودنا جميعا.. نحن هنا منذ قرأت عنا.. بانتظار أن تزورنا وتخوض مغامرة معنا..
كان الدخان الأسود مستمرا في التصاعد
وتهاوى الجدار الخلفي للمعبد محدثا ضوضاء غير عادية
قال (المرشد)
- تك تك تك! هيا يا (عبير) ودعي فارسك لأننا راحلان..
فدنت (عبير) من (قسمت) وقالت عيناها كلمات كثيرة لم يجرؤ لسانها على التلفظ بها.. دائما هو ينقذها.. سواء كان الجوال أو (شريف) أو البطل الإغريقي (بيرياسوس) أو المشعوذ (قسمت):.
قال لها كلمات صامتة مماثلة..
وحين تحرك لسانها كان آخر ما قالته هو بالمناسبة.. (حزام) تكتب belt وليس pelt كما كتبتها!
هز رأسه في خجل.. وغمغم:
- سأتذكر هذا في المرة القادمة..
وعندها.. جذب (المرشد) ذراعها في رفق وابتعدا عن المعبد المحترق.. وعن (قسمت)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تدخل (عبير) عالما متشابكا متكاملا هو قطاع كامل من (فانتازيا).. عالم دسائس الملوك والأمراء المترددين والأرواح الهائمة والبنات العاقات واليهود المتعنتين..
عالم خرج من رأس عبقري يدعى (وليام شكسبير)..
إن الكتيب العاشر سيكون فريدا من نوعه حقا

[تمت بحمد الله]

الخناقون

في هذه القصة نتعرف الخنق كوسيلة محببة للتعبير عن النفس!

إن الخنق يحرر البشر، ويقوي الروابط الاجتماعية والأسرية، ويزيد من جمال الحياة ورونقها.. اليوم نجد أنفسنا وسط عشيرة الخناقين.. ومعهم سنتعلم روعة الخنق.. حتى لو غدونا نحن أول الضحايا!..

أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) تعيش (بوهواني) باللغة الأوردية..

[←2]

(*) ما ذكر هنا عن الخناقين صحيح تماما.. راجع كتاب (مذاهب غريبة) للأستاذ (كامل زهيري) - كتب للجميع (١٢٩).

[←3]

(*) الإله من الألة: كان من دأب المؤلفين اليونانيين القدامى حين تتعقد أحداث المسرحية ويصعب إيجاد حل لها، أن يضعوا ممثلا في سلة متحركة آلية يهبط من السماء ليحل عقدة المسرحية كأنه إله، والتعبير يعني (الحل المتعسف للعقدة)

[<-4]

(*) من جديد نكرر المعلومات المذكورة هنا عن الخناقين دقيقة تماما

[←5]

(*) للأسف لم يصغ أحد لكلمات (قسمت).. وقد أبيدت الجماعة في نهاية القرن التاسع عشر لأنها لم تلحق بركب التقدم..

[←6]

(*) حقيقة

روايات مصرية

10

فانتازيا

الاسم شكسبير





د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة



سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (10)

الإسم شكسبير

تأليف: د. أحمد خالد توفيق



مقدمة..

اسمها (عبير)...
لم يكن لها نصيب من اسمها... فهي تفتقر إلى الجمال الذي يوحي به الاسم.. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين، باردة الأطراف.. ترتجف رعبًا من أي شيء وكل شيء...
إنها حتى غير مثقفة.. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كي تكون بطلتنا.. أو بطلة أي شخص سوانا..
هي لا تلعب التنس، ولا تعرف السباحة، ولا تقود سيارات (الرالي)، وليست عضوًا في فريق لمكافحة الجاسوسية، أو مقاومة التهريب..
لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها في حياتي.. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات.. وتملك مع كل هذا خيالًا يسع المحيط بكل ما فيه..
لهذا أري أن (عبير) هي ملكة جمال الأرواح، إذا وُجِد لقب كهذا يوما ما..
ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة...
ستكون بطلتنا الدائمة.. ولسوف نتعلّم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه....
ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم.. ولأنها تختزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية، وآلاف الأحداث التي خلقها إبداع الأدباء عبر العصور..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا)..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهي..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن.. وكل حلم متاح..
(فانتازيا) جنة عاشقي الخيال..
ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير).. سنضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى (فانتازيا)..
وهناك سنتعلم كيف نحلم..
إن صفير القطار يدوّي، والبخار يتصاعد حول قاطرته.. هو ذا جرس المحطة يدق.. إذن فلنسرع..!..
لقد حان موعدنا مع الأحلام في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- من هنا نبدأ..

القطار الصغير المضحك يبتعد متأرجحًا عن مملكة الخنّاقين.. عالم الهند الغامض الذي هو مزيج من روائع التوابل والعطور الثمينة والعرق والبخور ورطوبة الجو.. مع رائحة روث الأبقار المقدسة إياها...
ويصفو الهواء ببطء، فتخرج (عبير) رأسها الصغير من النافذة، تتأمل الأحلام التي ستراها أو التي رأتها من قبل..
عالم (ديزني) الرائع ببطّه الثرثار وفئرانه الذكية وغزلانه الرشيقة، ولابد من حسناء ما حافية القدمين تغني في الغابة.. فتهرع الأرانب والسناجب تلاحقها.. وترفرف طيور السنونو حول رأسها..
يسألها (المرشد) وقد أراح ظهره للوراء:
- «هل تجربين هذا؟»
- «لا.. ليس بعد.. لا أرغب في أن أكون (سنووايت) اليوم..»
ثم تظهر دنيا (المافيا).. وترى (عبير) رجالًا يرتدون أحذية بيضاء يقاتلون بالمدافع الرشاشة رجالًا يرتدون مثلهم، ويتوارون خلف سيارات عتيقة تعود إلى الثلاثينات.. إنه عالم (شيكاغو) إبان حظر الخمور.. ومن المحتم أن ترى (كابوني) أو (إليوت نس) في أية لحظة...
- «ما رأيك؟»
- «تؤ..»
هكذا تتوالى آلاف الاحتمالات.. مقاتلو (النينجا) يلوحون بسيوفهم العملاقة.. رجال (الساموراى) يتبارزون بالرماح.. (سندريلا) تهبط الدرج مسرعة وقد جاء منتصف الليل.. رعاة بقر آخرون..
ثم ترى (عبير) سورًا عاليًّا.. هذا غريب! إنها لم تر أسوارًا في (فانتازيا) من قبل..
- «ماذا وراء هذا السور يا (مرشد)؟»
قال لها وهو يداعب زنبرك قلمه الجاف الكريه:
- «تك تترك! من المعتاد أن نبني سورًا حول أعمال الفنانين الذين خلقوا عالمًا كاملًا متكاملًا.. وبهذا نمنع أفكارهم من أن تختلط بأفكار الآخرين..»
ثم أردف في فخر:
- «من المفهوم أنهم - جميعًا – عباقرة.. وغزيرو الإنتاج.. وكلهم قد نجح في تغيير مفهوم الأدب.. فلم يعد الأمر بعدهم كما كان قبلهم..»
- «مثل (نجيب محفوظ)؟»
- «طبعًا.. و (الحكيم) و (يوسف إدريس).. و (هـ. ج ويلز) (وشكسبير).. و (جابرييل جارسيا ماركيز).. إلخ..»
نظرت إلى السور الذي يتحرك ببطء جوار نافذة القطار.. بدا لها الأمر مثيرًا.. كما أن بيت الزواحف نسيج وحده وسط حديقة الحيوان.. هذا نوع من التفرّد خليق بأن يدير الرءوس..
سألت (المرشد) وهي تطلّ من النافذة أكثر:
- «ومن يخصّ هذا القطاع؟»
- «إنه عالم (شكسبير)..»

- «وأين عالم (نجيب محفوظ)؟»
- «لا أدري.. تك تترك!» - وتثاءب - «الجغرافيا شيء لا وجود له في (فانتازيا).. اليوم قد يكون هنا.. وغدًا قد يكون هناك.. لهذا لم تقابليه قط.. لكنه موجود..»
عادت تتأمل السور في تقزز.. وغمغمت:
- «أنا أكره (شكسبير)!»
- «لست أول من قال هذا.. (برنارد شو) قالها مرارًا.. ولكن أسبابه تختلف عنك بالتأكيد.. لماذا تكرهينه؟»
- «لأنه.. لأنه مملّ..»
قال بلهجة التعاطف:
- «ربما.. لكن الجميع يستطيع قراءة (شكسبير) والاستمتاع به.. تلاميذ المدارس الابتدائية يقرءون قصصه فيجدونها شائقة ملأى بالأشباح والقتلى.. وأساتذة الأدب الإنجليزي من عينة د. (لويس عوض) يقرءون (شكسبير) فيجدون فيه منهلًا ثريًّا لهذه اللغة.. إن كمّ ما قيل وكُتب عن (شكسبير) يفوق بالتأكيد ما قيل عن ابتسامة (الموناليزا)..»
ثم أضاف باسمًا:
- «وكم من فنانين ألهمتهم أعمال (شكسبير).. بل إنني أشعر بأن فيلم (الملك الأسد) – تحفة (ديزني) - ليس سوى مسرحية (هاملت) بعد أن صار أبطالها أسودًا!»
ومدّ يده إلى الحبل في إغراء واضح.. وقال:
- «هل نتوقف؟ تذكري أنك سترين عالمه بمفردات وقواعد (فانتازيا).. فلا أحد سوى الله يعلم ما قد تجدين..»
نظرت له بشكّ.. ثم قالت محنقة:
- «تحاول توريطي في أي مغامرة كي تستريح مني!»
- «إن سوء الظن هذا...»
- «نحن نسمّي هذا (تدبيس)..»
- «تبًّا لهذه الألفاظ السوقية التي تحيل اللغة إلى سُخف.. أنا لست راغبًا في (تدبيسك) على كل حال.. لكني نصحتك وكفى..»
- «حسن.. إذن لنقف ها هنا.. والويل لك إن لم أستمتع بوقتي..»
قال وهو يجذب الحبل مطلقًا تنهيدة الخلاص:
- «إن أحلامك أوامر يا (أليس)..»

∞∞∞∞∞∞∞

وتترجل (عبير) وتتجه في تردد إلى إحدى البوابات المتناثرة على طول السور.. وراحت تقرأ المكتوب على اللافتة: (دراما)..

التفتت إلى (المرشد) الذي كان يمشي جوارها، ويداه في جيبي بنطاله، ورأته يزيل بعض خيوط العناكب المتشبثة بهذه اللافتة.. فسألته:
- «دراما؟ أنا لا أحب الأحزان..»
تنهد في صبر.. وقال وكأنه ينصح طفلًا معتوهًا:
- «هذا هو الخطأ الشائع.. (الدراما) لا تعني الحزن والمآسي.. (الدراما) هي كل عمل فني يُؤدّى على المسرح.. أما ما تتحدثين عنه فهو (التراجيديا) أو المأساة..»

- «يا سلام! هل تعني أن (مدرسة المشاغبين) مثلًا عمل درامي؟»
- «بالقطع!» - قالها في نفاد صبر - «إنها (دراما) تنتمي إلى النوع الكوميدي.. والأحمق ليس هو من لا يعرف.. الأحمق هو من لا يريد أن يعرف أو يأبى تصديق ما يعرف..»
- «شكرًا..»
وعادت تتأمل اللافتة في فضول كهرة صغيرة عابثة..
ثم عادت تسأل:
- «هذه البوابة تقودنا إذن إلى كل عمل فني يُؤدّى على المسرح، وكتبه الأخ (شكسبير).. فما هو العمل المختار إذن؟»
- «وكيف لي أن أعرف؟ إن (شكسبير) قد كتب (هاملت) و (ماكبث) و (الملك لير) و (عطيل) و (يوليوس قيصر) و (ترويض النمرة) و (كما تحبها) و....» - وتوقف حتى يأخذ شهيقًا طويلًا يناسب ما سيقول.. ثم أردف - «.. و (تاجر البندقية) و (العاصفة) و (حلم ليلة صيف).. و.. الله يعلم ما قد أكون نسيته..»
- «إذن لن أعرف إلا بالداخل؟»
- «حتمًا..»
- «وهل ستنصرف الآن؟»
- «ليس قبل أن أعرف مكانك.. فلا أريد أن أتركك في قلب كارثة ما..»
ومدّ يده ليقرع مطرقة على شكل قبضة اليد.. قرعها ثلاثًا كما يحدث في المسرح.. فانفتح الباب ببطء، وبرز لها وجه مرعب..
كان شيخًا أشيب الشعر طويل اللحية، يتدلى شعر حاجبيه على عينيه، ويرتدي ما هو أقرب إلى الأسمال... فما إن رآها حتى صاح متهللًا:
- «المجد للسماء! (ميراندا)! لقد قلب (إيريال) الجزيرة بحثًا عنك!»
نظرت في شكّ إلى الرجل الذي هو أدنى إلى المجاذيب.. وهمست سائلة:
- «(ميراندا)؟ (إيريال)؟ هل أنت واثق من أن هذه ليست فقرة إعلانية؟ هل كان (شكسبير) في ورطة مادية ما حين....»؟
ضحك (المرشد) ضحكته السمجة.. وقال وهو يدفعها إلى الداخل:
- «اطمئني.. أنت في قلب مسرحية (العاصفة).. ويؤسفني أن هذا هو (بروسبرو) العظيم.. أبوك!»
- «أبي؟!»
وهنا عرفت أن (المرشد) قد اختفى..

∞∞∞∞∞∞∞

2 – شخصيات.. شخصيات..

جزيرة معزولة عن العالم، حولها بحر عجاج تلاطمت أمواجه.. هذا هو عالمها.. والأسوأ أنها مرغمة على الحياة مع هذا الشيخ غريب الأطوار، ووسط كل هذه الأرواح التي تخدمه، وتملأ كل صوب بالجزيرة..
إن أباها (بروسبرو) هو أحد أساتذة السحر العالميين، ويبدو أنه استطاع أن يحرر كل الأرواح التي سجنتها الساحرة الشمطاء (سيكوراكس) في جذوع الأشجار.. لهذا تحبه الأرواح وتخدمه بإخلاص..
كان أظرف الأرواح طرًّا وأكثرها ميلًا للدعابة هو (إيريال).. الروح اللطيفة الشفافة التي تلعب دور ذراع (بروسبرو) اليمنى ها هنا...
يوجد كذلك مخلوق مريع شبيه بالغوريللا هو (كاليبان).. وهو ابن الساحرة (سيكوراكس).. وهو يملك إخلاص الذئب وظرف العقرب وذكاء الخرتيت.. لهذا لم تره (عبير) يفعل شيئًا ذا قيمة سوى الأعمال الشاقة، كقطع الخشب وتحطيم الصخور..
لم يكن لطيف المعشر.. وكانت (عبير) تهابه حقًّا..
أما عن (عبير) نفسها.. فلشد ما أحبت ثوبها الجديد.. إنها ها هنا الحسناء الرقيقة (ميرندا) ذات الستة عشر ربيعًا.. ملأى بالحيوية وحب الحياة، وقد بدأت تحب أباها الساحر العجوز.. فهي لم تر رجالًا غيره في هذا العالم..
لكنها لم تدرك - لصغر سنها- أن هناك مشكلة شنيعة تؤرق الرجل.. إن ابنته تنمو.. ولا يوجد عرسان صالحون في هذه الجزيرة اللعينة.. وحتى أعظم السحرة لا يستطيع أن يوجد عريسًا لابنته، ولا يستطيع أن ينقذها من لقب (عانس) الذي ستستحقه بجدارة بعد أعوام..
إنها ورطة.. لكنه سيجد لها مخرجًا..

∞∞∞∞∞∞

وفي ليلة أخبرها بقصة حياته الغريبة..
إن أباها - الذي يبدو كمجذوب - كان منذ أعوام دوق (ميلانو) شخصيًّا، وكانت هي أميرة (ميلانو)..
وكان يهوى السحر، واستعان بأكبر مراجعه ليغدو حجة في هذا الفن.. في الوقت الذي ترك فيه شئون المملكة الدنيوية لأخيه النذل (أنطونيو)..
- «ولماذا تركت الأمور له؟»
- «لم يكن نذلًا وقتها.. أو هكذا بدا لي..»
ونجح الأخ النذل - بمعونة ملك (نابولي) الذي كان وغدًا - في التخلص من أخيه (بروسبيرو).. ألقى به في قارب بلا مجاديف ولا دقّة.. وأرسله إلى البحر.. لكن رجلًا شجاعًا يدعى (جونزالو) أخفى بعض الطعام والماء في القارب، وبهذا تمكن (بروسبيرو) وطفلته من البقاء حيين حتى وصلا إلى هذه الجزيرة.. لقد لعب العجوز لابنته دور الأب والأم.. ولو لم يكن القارب حاويًا لكتب السحر لمات الرجل سأمًا.. لكنه وجد ما يسليه..
راحت (عبير) تفكر بعض الوقت..
لقد بدأت تتذكر أحداث المسرحية إلى حد ما.. لكن أين هي العاصفة بالضبط؟ بالتأكيد هناك

واحدة..
ولم يخب ظنها طويلًا..
ففي ذات صباح مشرق باسم، قرر (بروسبيرو) أن يفسد الجوّ قليلًا:
ووقف يردّد بعض التعاويذ السحرية الخاصة بإحداث
عواصف..
وعلى الفور تحول الهواء إلى لون رمادي كئيب.. واحتشدت الغمائم منذرة بالويل.. ثم شق السماء سوط البرق ليلهب ظهر الأمواج.. وانهمر الغيث هتونًا مدرارًا...
وقفت (عبير) / (ميراندا) ترمق المشهد عاجزة عن فهم هذا المزاج السوداوى لدى أبيها.. ما هي المتعة في تحويل صباح بهيج إلى جحيم؟
لكنها أدركت أن الأمر أسوأ مما تظن..
ففي الأفق تري سفينة تصارع العباب..
كأنها دمية في يد طفل مخبول.. تارة يرمي بها إلى السماء وتارة يخسف بها الأرض، والجبال تعلو من حولها ثم تعلو من تحتها.





لكنها أدركت أن الأمر أسوأ مما تظن .. ففي الأفق تري سفينة تصارع العباب ..

إن هناك بشرًا على تلك السفينة.. وهم يعيشون الآن أسود لحظاتهم..

- «أبي..»

- «همم م م؟»
سألها في لامبالاة ساحر تسبب من فوره في كارثة بيئية.. فقالت:
- «هؤلاء القوم.. هل ستدعهم يغرقون؟»
- «حتمًا!»
- «وهل هذا مسلّ حقًّا كما يبدو لي؟»
- «ليس تمامًا.. لكني أفعل كل هذا لأجلك!»
- «وهل قال لك أحد إنني مريضة بالسادية، أكره أن أنام قبل أن أرى طاقم سفينة كاملًا يغرق أمام عيني؟»
- «صه يا (ميراندا)! أنت لا تفهمين»
قالها في غموض وهو يرمق السفينة تنقلب في الأفق بمن عليها وما عليها.. والسماء تستحيل إلى اللون الأسود.. كأنما الظلام قد جاء قبل الميعاد.

∞∞∞∞∞∞∞

وهنا تنظر (عبير) إلى ما وراء كتفها لترى..
كان هناك رجلان يشقان الطريق وسط العواصف.. العواصف التي تلتهم ثيابهما وتبعثر شعريهما وتبللهما كالأسماك..
الرجل الذي يتقدم المسير لا يعبأ - كما هو واضح - بالعاصفة ولا البرق، بل هو يرفع ذراعيه إلى السماء كأنما يستمطرها اللعنات، ويصيح صياحًا لا تميزه جيدًا على هذه المسافة..
أما تابعه فهو متردد خائف، يحاول إقناع الأول بالعودة..
نظرت في غير فهم إلى أبيها (بروسبيرو).. فهي لا تعرف هذا الجزء من القصة لكنه قال لها وهو يناولها عباءة تتقي بها السيول:
- «هذا هو الملك (لير) وتابعه مهرج البلاط.. ما كان (شكسبير) ليفوّت فرصة هذه العاصفة التي تمنح أبطاله مجالًا لا بأس به للصراخ.. إن مشهدًا كهذا لهو عماد المسرح المأساوى..»
- «هل.. هل تعني أن هذه مسرحية أخرى؟»
- «طبعًا.. ألست في عالم (شكسبير) الثرى؟»
ثم أشار لها نحو الرجلين..
- «هيا الحقى بهما.. وعيشي مع (لير) بعض الوقت..»
نظرت (عبير) له في حيرة..
ثم إنها لفت العباءة حول رأسها وعنقها.. وراحت تخطو بحذر فوق الأوحال التي بدأت تزداد سريعًا.. ياللأرض الزلقة.. ويا للأمطار التي تنهمر بلا توقف كأنما صنابير السحاب جميعًا قد تلفت..
وبين ثانية وأخرى تتألق الأرض بلونها الأزرق الكهربائي الساطع فيستحيل الليل نهارًا.. ثم.. برووووم! جلاميد الصخر تصطدم في أجواز السماء.. يا لها من عاصفة! عاصفة جديرة بمآسي (شكسبير) الزاعقة حقًّا..
وها هي ذي تدنو أكثر فأكثر من الرجلين..
لم يكن الملك (لير) يهاب العاصفة.. من العسير أن تصدق أنه ملك بكل الأسمال التي يرتديها، ونظرة الخبال المطبق في عينيه.. لكنه يشبه (بروسبرو) بالشعر الأشيب واللحية التي تتدلى حتى خصره..
كان لا يرى أحدًا.. يكتفي بالنظر إلى السماء، وترديد لعنات لا تنتهي على ابنتيه الجاحدتين..

أما تابعه - مهرج البلاط - فكان مذعورًا متهيبًا لا يعرف ما ينبغي عمله.. وكان يحاول إقناعه بالبحث عن مأوى، لكنه كان كمن يؤذن في (مالطة)، أو يشرح معنى اللون الأزرق لرجل كفيف..
رآها المهرج بصعوبة وسط كل هذه السيول فهتف وهو يزيح عن عينيه الكرات التي تتدلى من قلنسوته، والتي جعلته يشبه مهرج أوراق اللعب:
- «هيه يا سيدتي! هلا ساعدتني في السيطرة عليه؟ لقد أصابه الخبال تمامًا.. بل هو مجنون..»
وهنا هوى لسان برق ليصدم شجرة سامقة، فاشتعلت بالنار وهوت.. إن الجحيم يفغر فاه.. ومن الغريب أنه جحيم مائي خال من النيران تقريبًا.. مدّت (عبير) يدها لتجذب ذراع الشيخ قائلة شيئًا مثل:
- «انتظر يا والدي.. إن صحتك.....»
ولم تكمل العبارة لأن معصم الرجل هوى كجذع الشجرة على وجهها المبتلّ.. ووجدت نفسها تطير لتسقط وسط الأوحال..
راحت تبصق ما بلعته من طين.. ونهضت غير عارفة هل ما يبلل وجهها هو المطر أم الدمع.. إن هذا الأخ قوي حقًّا..
أما (لير) فراح يهلل وهو يرفع وجهه إلى السماء:
- «هلمي يا سماء.. أمطرى.. أغرقى ابنتىّ لا بل ذئبتيّ!! ها ها هاه!»
هنا رأت رجلًا يهرع إليهم وسط السيول المنهمرة..
كان ضخم البنيان يوحي بالثقة.. وكان مدثرًا بثياب ثقيلة.. رأته يدنو من الشيخ المجنون هاتفًا:
«سيدي الكريم! حتى المخلوقات التي تعشق الليل لا تجرؤ على الخروج في ليلة كهذه.. وما كان لطبيعة البشر أن تتحمل عاصفة مثل التي تحاصرنا..»
ثم أمسك ذراعه بقوة فلم يستطع الشيخ مقاومته..
واقتادهم إلى بقايا كوخ وجده على بعد أمتار من هذا الموضع..
أشعل النار.. ثم نضا عنه عباءته وأجلس الشيخ قربها ليصطلي.. كذا فعلت (عبير) والمهرج.. حسنًا فعلت.. فهي لم تعد تشعر بقدميها...
أين (بروسبرو) و (إيريال) من كل هذا؟ واضح أن جزءًا آخر مختلفًا تمامًا من عالم (شكسبير) قد بدأ.. لقد صار (بروسبرو) وقصته عن دوق (ميلانو) شيئًا بعيدًا جدًّا.. ذكري من الماضي..
قال الرجل الذي لا تعرفه، وهو يهمس في أذنها:
- «أنا (كايوس).. إيرل (كنت).. لكنه لن يعرفني بهذا التنكر.. أردت أن أكون بجواره لأحميه..»
سألته وهي تفتح كفيها تريد أن تعانق اللهب:
- «ما هي المشكلة بالضبط؟»
- «أحقًّا لا تعرفين يا (كورديليا)؟»
إذن اسمها هو (كورديليا) من الآن فصاعدا.. ولكن من هي (كورديليا)؟
قال لها الرجل قبل أن تسأله:
- «على كل حال سأشرح لك كل شيء.. إذ سيكون عليك البدء من هذه اللحظة في دور (كورديليا)..»
كان الظلّ يتراقص على وجهه وهو يحكي لها كيف بدأ كل شيء..

∞∞∞∞∞∞

الملك (لير) هو ملك بريطانيا.. ولديه ثلاث بنات هن: (ريجان) و (جونريل) و (كورديليا).. طبعًا

الأخيرة هي (عبير) بعد ما صارت في جمال وأناقة أميرة..
قرر الملك أن يقسم المملكة على بناته الثلاث.. فقد أرهقته أعباء الحكم والتهام الخنازير البرية.. لكنه أراد أولًا - وعلى طريقة آباء القصص - أن يعرف مدى حب كل بنت من بناته له..
ولهذا - في ذلك اليوم الأسود - نادي الفتيات الثلاث، وأمام البلاط سأل كبراهن (جونريل) عن مدى حبها له.
إن الكلمات سهلة.. ومن الممكن أن تقول إنها تحبه أكثر من الحياة ذاتها.. بل أكثر من كل كلمات يمكن قولها..
وهكذا فعلتْ لأنها تتمتع بتفكير عملي لا بأس به..
الأخت الوسطى (ريجان) لم تجد صعوبة هي الأخرى في اصطناع الكلمات.. وقالت أشياء مماثلة جيدة..
وكان الملك طفلًا كبيرًا أشيب الشعر، يحب أن يسمع الإطراء.. لهذا - دون تردد - وهب كلًّا من الفتاتين ثلث المملكة..
ويأتي دور (عبير) التي صارت (كورديليا).. أصغر بنات الملك وأجملهن.. وأقربهن إلى قلب أبيها..
لكن (كورديليا) كانت صريحة جدًّا، لا تبالغ ولا تنافق، ربما كان هذا عن إيمان منها بأهمية الكلمات (أو هو إيمان بعدم أهميتها؟)..
لهذا قالت في لهجة هادئة متزنة:
- «أنت أبي.. لقد ربيتني وعنيت بي.. ولهذا أنا ممتنة.. ولهذا أحبك وأطيعك كما ينبغي على كل فتاة نحو أبيها.. لكني لا أزعم أن حبي لك لن يتبدّل.. ويوم أن أتزوج سيكون جلّ حبي لزوجي!»
طبعًا هو قول أحمق.. لكن ما حيلة (كورديليا) وقد أرغمها (شكسبير) على هذه الكلمات التي تشي بقلة الذوق، حيث أرادها أن تشي بالصراحة وكراهية التملق؟
وكانت ثورة الملك مبررة جدًّا في رأيي:
- «طفلة عاقه قاسية! أنت لم تعودي ابنتى.. لا شيء يأتي من لا شيء.. ونصيبك في المملكة سيكون لأختيك!»
وخرجت (كورديليا) البائسة مغضوبًا عليها، تدارى دموعها..
على حين أزمع الملك أن يحتفظ بمائة فارس فحسب، وأن يعيش ضيفًا على قصرى ابنتيه الحبيبتين..
كان كل ذي عينين في المملكة يعرف أن الملك مخدوع، وأن ابنتيه تلاعبتا به..
لكن ما من أحمق يجرؤ على مصارحته برأيه في هذه القسمة الضيظى.. هناك أحمق واحد لحسن الحظ هو....
- «أنا.. إيرل (كنت).. لقد أبديت له رأيي في حماقته..»
ويبتسم إيرل (كنت) في مرارة.. ويردف:
- «كنت أكثر منه حمقًا.. لأنه طردني من المملكة.. نفاني جزاء لى على صراحتي.. إن الصدق غير منجّ في هذا البلاط على ما يبدو..»
ويتقدم إلى (كورديليا) عريسان.. أحدهما ملك فرنسا.. ويبدو أنه كان من الطراز الجاهز الذي يريدها بحقيبة ثيابها.. فقد كان من المحتوم أن تقدم العروس دوطة لزوجها - في ذلك الزمن السعيد – ولم تكن (كورديليا) قادرة على دفع مليم..
وأعطاها أبوها لملك فرنسا غير آسف عليها.. إنها قليلة الأدب طويلة اللسان، ولن يسبب فقدها ألمًا لأحد...

وكانت (كورديليا) تعرف أن أختيها ستعاملان أباهما أسوأ معاملة.. لكن ماذا بوسعها أن تعمل؟

∞∞∞∞∞

3- نفس عنوان الفصل السابق.. فهو يبدو مناسبًا..

ويواصل إيرل (كنت) سرد القصة، وهو يضيف مزيدًا من الحطب إلى النار:
- «صحّ ما توقعه الجميع.. وتم هذا بسرعة غير عادية..»

∞∞∞∞∞

ففي قصر (جونزيل) وزوجها دوق (ألباني)، بدأت المعاملة السيئة للملك.. كل الخدم يعاملونه بإهمال ولا يطيعونه.. والابنة اللعينة لا تكف عن لومه، وتأمره بعدم إعطاء الأوامر لأن هذا ليس قصره..
واستطاع إيرل (كنت) - متنكرًا - أن يلتحق بخدمة مليكه.. فقد أراد أن يكون معه دومًا ليذود عنه ما يتوقعه من أذى..
وبالنسبة للملك الشيخ كان لا يعرف لإيرل (كنت) اسمًا غير (كايوس).. كان هناك أيضًا مهرج البلاط..
وهو مخلص للملك حقًّا.. لكنه ككل مهرجي المسرحيات - يتلفظ بالحِكَم العظمى، ولا يكف عن التفلسف مدعيًّا أنه يتلفظ بمزاح أبله لا أكثر...
يقول للملك وهو يضحك:
- «قديمًا كان الآباء يطلبون أبناء مطيعين، واليوم يطلب الأبناء آباء مطيعين! إن العربة هي التي تجرّ الحصان الآن!»
ويحاول تسلية الملك بدعاباته السخيفة.. دون جدوى.. فمزاج الملك صار صالحًا لتعكير نهر (التيمز) نفسه..

∞∞∞∞∞

وتتمادى (جونريل) في تعذيب أبيها الشيخ..
في ذات صباح رائع طردت خمسين فارسًا من أتباعه.. لأنهم كثيرون ويسببون فوضى في القصر.
هنا ثار الملك ودعا عليها بعقوق الأبناء لو رزقت بهم، أو بالعقم أساسًا.. وغادر قصرها ليقيم عند ابنته الثانية (ريجان)..
لكن (ريجان) لم تكن ملاكًا إذا قورنت بأختها..
عاملت أباها معاملة كريهة، وأعلنت أنها لن تسمح سوى بخمسة وعشرين فارسًا في قصرها..
كان هذا فوق قدرة الملك على الاحتمال.. لهذا غادر قصر ابنته حانقًا يغلى غضبًا.. وقد بدا لمهرجه المخلص أن عقله قد تلاشى شعاعًا..
عندها بدأت العاصفة.. العاصفة التي بدأها الشيخ (بروسبرو) في مسرحيته الخاصة.. والتي لم تثر فزع الملك لأنه كان يحوي إعصارًا داخله..
وكان هذا اللقاء...
سألت (كورديليا) إيرل (كنت) حيث جلسا حول النار:
- «والعمل؟»

- «ستعودين إلى فرنسا طبعًا لتخبري زوجك بالأمر..»
- «وأبي؟»
- «سيكون في أمان في قصري حتى تعودى...»
- «أعود بماذا؟»
- «يا له من سؤال! طبعًا بجيش عرمرم أوله في (ألباني) وآخره في فرنسا.. يجب أن نحارب هاتين الذئبتين ونسترد ما ورثتاه..»
تأملت الشيخ العجوز الذي غالبه النوم، فنام جوار النار.. ورق قلبها الشيخوخته.. في سن كهذه ما كان له أن يرقد في العراء بلا ثياب، مبتلًا جائعًا خائفًا...
سيكون الانتقام مريعًا....

∞∞∞∞∞∞

وفي الصباح عبرت (المانش) إلى فرنسا.. وتوجهت إلى قصر زوجها الحبيب.. إن الناس يحبونها ها هنا على كل حال..
كان زوجها وسيمًا.. أحد نبلاء القرون الوسطى حقًّا.. وكان يمزج فرنسيته بالإنجليزية ليجعل كلامه مفهومًا لها..
رأته يتقدم منها في حماس بقامته الرشيقة..
وفتح ذراعيه صائحًا:
- «حمدًا لله على سلامتك واحبيبتى (كورديليا)..»
الكلاب تتواثب حولها فرحة، والوصيفات يلتففن حولها في حماس.. وسمعت زوجها يسألها:
- «تبدين مرهقة.. هل هناك شيء ما؟»
هنا سمعت أناسًا يتكلمون بلغة غريبة.. ليست الإنجليزية ولا الفرنسية.. وتكفل شيء في ذهنها بجعلها تعرف أنها اللغة الدانماركية.. والتفتت لتري في ردهة القصر شابًّا ناحلًا يروح ويجيء ممسكًا بخنجر.. وقد بدا في حالة عصبية بالغة..
وسمعته يهتف كأنما يخاطب نفسه:
- «أكون أولا أكون.. تلك هى المسألة!»
بدا الضيق على ملك فرنسا.. وصاح بالفرنسية في الشاب:
- «يا أمير (هاملت).. هلا خرست قليلًا؟ إننا نناقش مصيبة والد (كورديليا) الذي يوشك على الهلاك..»
غمغم (هاملت) وهو يتأمل خنجره باسمًا:
- «وأنا أناقش مصيبة والدي الذي مات بالفعل.. إن لكل منا همومه ومشاكله.. لكن مسرحيتي أنا هي أهم مسرحيات (شكسبير) بشهادة الجميع.. ومن حقي أن أتكلم كما أريد..»
- «مسرحية عن شخص متردد؟»
- «هي أفضل من مسرحية عن أب عقته بناته..»
كاد الحراس حول ملك فرنسا يفتكون ب. (هاملت).. لكن هذا الأخير فرد ذراعيه في استسلام ليمنحهم صدره:
- «هلموا.. إنكم ستريحونني من كل هذا العناء!»
هتف ملك فرنسا في رجاله أن توقفوا..
- «سنترك المكان لهذا المخبول..»

ورأته (عبير)/ (كورديليا) يبتعدّ.. فصاحت في قلق:
- «ألن نكمل كلامنا؟»
- «فيما بعد يا ملاكي.. فيما بعد.. إن اسمك الآن هو (أوفيليا).. وعليك أن تمرحي قليلًا مع هذا البدين..»
- «بدين؟»
- «(شكسبير) قال في المسرحية إنه بدين.. لكن هذا مستحيل مع طبيعته العصبية هذه.. والآن وداعًا.»
وابتعد عن عينيها مع حراسه وكلابه..
وأدركت (عبير) أن القصر يبدو مختلفًا عما كان الآن..
إنه قصر ملك (الدانمارك) العظيم...

∞∞∞∞∞

- ويواصل (هاملت) تأملاته:
- «أكون أو لا أكون.. تلكم هي المسألة..
أترى الأنبل في العقل أن أتحمل نبال القدر..
أو أشهر سلاحي في وجه خضمّ من المتاعب..
من ثَمَّ أضع حدًّا لها؟
أموت.. أنام.. ثم لا شيء...»
جلست (عبير) - التي صارت (أوفيليا) – على مقعد تصغي لهذه الأبيات - الأشهر من نار على علم - وأدركت أن الفتى غارق في بحر ذاته بحيث لا يراها ولا يشعر بوجودها..



جلست (عبير) – التي صارت (أوفيليا) – على مقعد تصغي لهذه الأبيات..

فتحت فاها لتقول شيئًا.. لكنه عاد يصيح في جنون:

- «وإلا فمن ذا الذي يتحمل سياط وسخرية الزمن.. وظلم الظالم.. وكبرياء المغترّ.. وعذاب

الحبّ المهين..
وبطء العدالة.. وما يلقاه ذوو الكرامة على يد التافهين.
وهو يستطيع أن ينهي كل هذا بطعنة من خنجر مسلول؟»
وهنا رآها فابتسم.. وعاد إلى عالمنا..
نظر لها كأنما يطلب رأيها فيما قاله.. فقالت في تردّد:
- «حسن.. لم أفهم كل شيء.. أعرف أنك تقول هذا.. لكن ربما لو حاولت ترجمته إلى العربية لكان من الممكن أن...»
مستنكرًا هتف وهو يرمقها:
- «إنه بالعربية! هذا (المونولوج) الذي سال له لعاب الممثلين في كل الأجيال.. وأداه (لورانس أوليفييه) و (بن كنجسلى) و(محمد صبحي) و(يوسف شاهين).. إنه قطعة من الفن الرفيع!»
صاحت مبهوتة:
- «رفيع.. ربما.. لكني لا أفهم حرفًا منه..»
- «هذا غريب يا (أوفيليا).. من الطبيعي أن أبطال المسرحية يفهمون جيدًا لغة المسرحية.. أنا - في هذه الأبيات - أتساءل عما إذا كان على المرء أن ينتحر أم لا.. لعلّ الانتحار يحل مشاكل عديدة.. لكني خائف مما بعد الموت..»
- «ولماذا لا تقول ذلك وينتهي الأمر؟»
- «إن هذا تهريج!»
كذا صاح واحمرّ وجهه، واحتقنت أوردة عنقه.. وأردف:
- «هذا هو ما يجعل (شكسبير) (شكسبير).. اللغة الفخمة المتقعرة.. والاستطراد.. إن أي بطل لـ (شكسبير) لا يقدر على طلب كوب من الماء، إلا إذا ألقي ربع ساعة من الشعر..»
ثم راح يسألها في تهكم وقد عاد إلى جو المسرحية:
- «أجميلة أنت؟ إذا كنت شريفة جميلة فإن شرفك ينبغي أن يحفظ جمالك من الابتذال..»
واستطرد وهو يمسك بمعصمها:
- «إذا كان لا بد أن تتزوجي، فلتتزوجي رجلًا أحمق.. فعقلاء الرجال يتحولون على أيديكن إلى خراف.. وداعًا!»
وجدت (عبير) نفسها تندمج في الجو.. فقالت بذات اللهجة المسرحية الفخيمة:
- «آه.. يا لهذا العقل النبيل الضائع! لسان أمير وبصر عالم وسيف محارب.. أينتهي إلى هذا الحضيض؟ هذا الحضيض؟»
وهنا انزاح الستار وبرز رجلان.. ما إن غادر (هاملت) المكان..
كان أحدهما الملك والآخر (بولونيوس) أباها.. وكانا يسمعان الحوار وهما مختبئان خلف الستار كما يحدث في كل المسرحيات..
قال الملك في ضيق:
- «إن حديثه مضطرب لكنه ليس مجنونًا.. إن الكآبة تعشش في روحه، وأخشى أن تفرخ وتفقس شيئًا خطيرًا..
أرى أن يسافر (هاملت) إلى انجلترا.. فلعل البحر يصرف عنه ما كاد يستقر في فؤاده..»
قال (بولونيوس):
- «لا بأس بها فكرة يا مولاي.. لكن إن رأيت من المناسب فسل أمه الملكة أن ترجوه بعد الحفل، كي يكشف لها عن سر حزنه.. ولتكن معه حازمة.. ولسوف أتوارى أنا خلف ستار لأسمع

ما يقولان..»
- «إن جنون العظماء لا يمر دون مراقبة..»

∞∞∞∞∞

بدأت (عبير) تسترجع مسرحية (هاملت) إلى حدّ ما..
من الذي لا يذكر أحداثها أو سمع عنها بشكل أو بآخر؟
(هاملت) أمير (الدانمارك) الذي توفي أبوه بشكل غامض.. وعلى الفور تزوجت الأم أخ القتيل.. عم (هاملت).. (كلوديوس)..
وصار (كلوديوس) هو ملك (الدانمارك)..
كان هذا محزنًا للفتى.. لكن الأسوأ هو شك خالطه في أن يكون عمه هو قاتل أبيه.. وكاد هذا الشك يقتله..
وهنا يخبره (هوراشيو) صديق (هاملت) – بقصة غريبة..
إن الحراس في القلعة يرون شبح الملك الأب كل ليلة، أو كذا يزعمون..
ويصمم (هاملت) على مقابلة الشبح.. ويكون له ما أراد.. ويتم اللقاء في القلعة عند منتصف الليل، وعلى مرأى من (هوراشيو) وأحد الحراس..
قال له الشبح أخبارًا غريبة حقًّا:
- «أي (هاملت).. أصغ إليّ.. لقد قيل للناس إن حية لدغتني وأنا نائم في بستان القصر.. ولكن - فاعلم - إن الحية التي لدغتني تلبس الآن تاجى!»
فصاح (هاملت) مذعورًا:
- «يا لروحي المتنبئة! أعمى هو الذي...؟»
- «نعم.. فبينما أنا نائم في البستان، تسلل عمك إليّ بزجاجة من سمّ (الهيبونا) اللعين.. فصب في أذنيّ تلك القطرات القاتلة التي تسري سريعًا كالزئبق في فتحات الجسد.. وهكذا انتزعت من الحياة وأنا مازلت بخطاياي.. لم أتطهر أو ألتمس الغفران.. بل أرسلت إلى الحساب..»
بالطبع راح (هاملت) يتلوى.. ويسدّ أذنيه.. ويأتي بتلك الحركات المسرحية التي تدلّ على شدة الألم.. على حين واصل الشبح تعذيبه:
- «إن كانت فيك نخوة فلا تسكت على قاتلى.. ولكن لا تدبرّ أي مكروه لأمك.. دعها للندم ولأشواك الألم.. والآن وداعًا..
وداعًا.. لا تنسنى يا (هاملت)!»
ويختفي الشبح، فيجد (هاملت) فرصة رائعة لإظهار براعته في التمثيل.. فيظهر صدمته وكراهيته لعمه.. ثم ينادي (هوراشيو) والحارس يخبرهما بما سمع.. ويجعلهما يقسمان على الطريقة اللاتينية (هِك إيوبيك) - أي هنا وفي كل مكان - على ألا يذيعا السرّ..
ويصمم على أن ينتظرليري.. ويلعب دور المجنون الذي يتيح له أن يقول كل شيء في أية لحظة..
لماذا لم يقتل عمه فورًا مادام قد تأكد من خيانته؟ يرى كثير من النقاد أن (شكسبير) لو فعل هذا لانتهت المسرحية بعد عشر دقائق ولخُرب بيته.. لهذا اضطر (هاملت) إلى أن يبقى على شكه وتردده خمسة فصول كاملة.. وهذه هي نقطة ضعف المسرحية وسبب ترهلها الدرامي في رأى البعض..
ما علينا..
بدأ (هاملت) يمارس كل طقوس الجنون، حتى أثار دهشة كل رجال البلاط.. وظن (بولونيوس)

الحكيم -- أبو (أوفيليا) - أن الحب هو سبب ما أصاب الفتى.. إن الأمير يحب ابنته بجنون وهذا هو تفسير كل شيء..
وكما رأينا (هاملت) في البداية، يهيم الأمير على وجهه في أرجاء البلاط، يقرض الشعر، ويحلم بالانتحار.. لكنه لا يفعل شيئًا على الإطلاق..
والجميع يتساءل: ماذا دها الأمير الشاب؟

∞∞∞∞∞∞

هنا جاء دور (المسرحية داخل مسرحية)..
لقد صمّم (هاملت) على أن ينصب كمينًا لعمه يعرف به ما إذا كان الشبح صادقًا، أم هو شيطان يتلاعب به..
يقرر دعوة فرقة مسرحية لتلعب في البلاط مسرحية قديمة اسمها (اغتيال جونزاجو).. وقصة المسرحية تبدو مألوفة بعض الشيء..
إنها تحكي عن دوق يقتله ابن عمه ويتزوج أرملته..
هذا هو الكمين! سيراقب وجهي الملك والملكة - أمه - في أثناء العرض، ولسوف يعرف ما إذا كانا آثمين أم لا..

وجاء اليوم الموعود..
وجلس البلاط كله حول الممثلين المسرحيين، وبدأ العرض.. لكن (هاملت) لم ير ما كان ينتظر رؤيته.. ولم يتعرف ما يسمعه من حوار..
إن المسرحية تحوي قتلًا.. لكنه ليس القتل المتوقع..
ويهمس بغيظ في أذن مدير الفرقة:
- «هذه ليست مسرحية (اغتيال جونزاجو)..»
بخجل قال الرجل:
- «للأسف يا سيدي الأمير.. لم نجد الممثلين مستعدين لها.. فقررنا أن نلعب مسرحية أخرى بها خيانة وقتل أيضًا!»
- «يا فرحتى؛ وما اسم هذه المسرحية؟»
- «اسمها.. اسمها (عطيل) يا سيدى!»

∞∞∞∞∞∞

راحت (عبير) / (أوفيليا) ترمق الممثلين؛ حيث جلست جوار (هاملت) الحانق، الذي أفسد غباء الممثلين خطته المحكمة...
على المسرح ظهر (عطيل).. عملاق أسمر أقرب إلى الزنوج.. شديد المراس حارّ الدماء قصير الفتيل.. ما إن تشعله حتى ينفجر فيك..
(عطيل) - كما سنعلم - هو بدوى مغربى نزح إلى (فينيسيا) - البندقية - وخدم في جيشها، حتى ترقّى وصار قائدًا عظيم الشأن..
ومازال المترجمون حائرين في الترجمة المثلى لاسم (أوتيللو) الذي صاغه (شكسبير) لبطله؛ فمنهم من رأى أن يُترجم ب. (عطاء الله)، ومنهم من رأى أن يُترجم ب. (عطيل).. وهو الاسم الذي شاع واشتهر..

إن مسرحية (عطيل) هي دراسة نفسية شائقة لانعدام الثقة بالنفس ف.(عطيل) أسود البشرة في الأربعين من عمره، لهذا لا يجد في نفسه من الصفات ما يؤهله للاحتفاظ بحب حسناء بيضاء هى (ديدمونة)..

وشعرت (عبير) بيد (هاملت) تنهضها.. فعرفت أنها ستكون هي (ديدمونة) أمام هذا الوحش الإفريقي الكاسر (عطيل)..

كان (عطيل) في هذه اللحظة بالذات يصغي إلى (ياجو)..

وبئس ما يقول (ياجو)!

∞∞∞∞∞∞

4 - شخصيات.. شخصيات.. (ولا علاقة لهذا بالفصل الثاني)

يقول (ياجو) حامل علم (عطيل):
- «لقد وجدت المنديل مع (كاسيو).. ماذا تصنع لو قلت إنني سمعته يتحدث عن (ديدمونة) يقول كذا وكذا.. كما يفعل مرضى النفوس الذين ما إن يظفروا بمعشوقاتهم لا يملكون الكتمان..»
يسأله (عطيل) مهمومًا:
- «وماذا قال؟»
- «إنه.. إنه كان بقربها.. معها»
يصرخ (عطيل) في هلع:
- «بقربها! معها! المنديل! ليعترف ثم ليُشنق.. بل ليشنق ثم ليعترف.. إنني أرتجف لمجرد تصوري تلك الخيانة.. لعنة الله عليهما!»
- «حسن.. إن (كاسيو) قادم.. أريد منك أن تتوارى.. واسمع ما سيقول (كاسيو)..»
ويختبئ (عطيل).. وهنا يدخل (كاسيو) البريء المسرح.. هذا هو ما يحدث في المسرحيات دومًا.. كان بوسعه أن يرى (عطيل) يختبئ، وكان بوسعه أن يسمع ما قيل ويدافع عن نفسه.. لكن الناس صمّ في المسرح دائمًا لا يسمعون إلا ما يريد المؤلف أن يسمعوه...
وبهذا المنطق ذاته.. صاح (ياجو) والمفترض أنه يكلّم نفسه:
- «الآن سأسأل (كاسيو) عن فتاته (بيانكا) اللعوب.. سيجيب بالتبسّم والإشارات.. ولسوف يجنّ (عطيل) وهو يرى ويسمع..»
ويدخل (كاسيو).. فيقول له (ياجو) بخبث:
- «حاول التماس الشفاعة من (ديدمونة)..» - ثم يهمس حتى لا يسمعه (عطيل) - «لكن (بيانكا) ستحقق لك ما تريد..»
طبعًا يقع (كاسيو) في الشرك، فيبدأ في الكلام عن (بيانكا) ضاحكًا:
- مسكينة هي! إنها تحبني بجنون.. لقد جاءت لشاطئ البحر منذ أيام وأنا وسط القوم، فأحاطت عنقي بيديها وراحت تتأرجح وتبكي.. هاهاها!»
(عطيل) في مكمنه يوشك على الجنون.. والأخ (كاسيو) لا يخطئ مرة واحدة، فيذكر اسم (بيانكا)..
هكذا يريد (شكسبير)..
وانصرف (كاسيو) فخرج (عطيل) من مكمنه يولول ويعدّد محاسن الخائنة (ديدمونة) التي خانته مع هذا الوغد (كاسيو)..
إن (ياجو) يتلاعب بقائده.. يوحى إليه بأن امرأته تخونه، بينما هي الشرف والطهر ذاتهما..
والنتيجة هي أن (عطيل) يقرر خنق محبوبته هذه الليلة..
وها هي ذي (عبير) في مخدعها في دور (ديدمونة)..
إنها مذعورة.. فهي تعلم جيدًا أن (عطيل) سيقتلها وهي بريئة.. لكن ما جدوى محاولة التغيير؟
إن أملها الوحيد هو أن تنتهي المغامرة سريعًا قبل أن...

يدخل (عطيل) متظاهرًا بالرقة.. لكنها ترى الشر في عينيه.. فتغمض عينيها..



وها هي ذي (عبير) في مخدعها في دور (ديدمونة)..
إنها مذعورة.. فهي تعلم جيدًا أن (عطيل) سيقتلها وهي بريئة..

قال وهو يتأملها في أثناء نومها والمصباح جوار فراشها:

- «لنطفئ المصباح.. إن أطفأتك يا وزير النور يمكنني أن أشعلك من جديد.. لكني متى أطفأت نارك يا أبدع مثال للجمال، فلا نيران تقدر على أن تعيد إليك هذا النور والبهاء.. (يلثم شعرها).. يا للعطر الزكي الذي يغرى العدل بتحطيم سيفه!»
تفتح (عبير) عينيها تتأمل هذا الثور الأسمر الذي يرمقها في حنان مرعب، وتتساءل.. هل سيفعلها الآن حقًّا؟
قال لها في هدوء صارم:
- «هل صلّيت الليلة يا (ديدمونة)؟»
- «نعم سيدي..»
«استغفرى الله لذنوبك.. فأنا لا أريد قتل نفس خاطئة.. سأجول قليلًا حتى تفرغى..»
- «أتذكر القتل؟»
- «أذكره..»
- «إذن لترحمني السماء!»
- «آمين.. أقولها من قلبي..»
ونهض قليلًا مبتعدًا ريثما تفرغ من صلاتها...
وهنا انطفأ المصباح وساد الظلام..
نهضت (عبير) من الفراش مذعورة، فالأسود العظيم المتجانس يجثم على أنفاسها.. راحت تتلمس المكان حولها متوقعة طعنة (عطيل) النجلاء في صدرها.. في أية لحظة..
لكنها بهذا تنسى شيئين.. أولًا: (ديدمونة) ستموت مخنوقة لا طعنًا.. ثانيًا: لا أحد يموت بهذه السهولة في مسرح (شكسبير).. لا بد من خطبة طويلة عصماء توشك أن تزهق أرواح المتفرجين قبل روح القتيل..
إن الظلام يعدّ المخدع لجريمة قتل...
لكنها ليست جريمة قتلها هي..
هى ذى ترى - إذ تعتاد عيناها الظلام – جسد إنسان يغفو في المخدع حيث كانت تنام..
وقبل أن تفهم أو يصيبها الذعر من جديد، رأت من ينسل في خفة من باب المخدع.. هل هو (عطيل)؟ لا.. إنه أصغر حجمًا.. ثم إنه يتصرف كالمتآمرين، و(عطيل) كان يتصرف بثقة رب الدار...
ورأت المتسلل المتّشح بالظلام يستل خنجرًا... ثم - دون تردد - يولج السلاح المميت في صدر النائم...
قال النائم شيئًا ما ثم واصل نومه إلى الأبد..
كاد الهلع يفتك بها.. هرعت إلى باب المخدع وجرت.. ما هذا؟ ما معنى ما يحدث؟
كان الظلام سائدًا بالخارج فيما عدا ضوء المشاعل، وأدركت أنها لم تعد في قصر البندقية الفخيم، بل هي في قلعة بدائية من قلاع القرون الوسطى.. إنها مسرحية أخرى ولا ريب... لكن ما هي؟
الغريب كذلك أنها صارت أقل رعبًا وأقوى شخصية وثباتًا.. لنقل إنها خائفة.. لكنها خائفة على حامل الخنجر لا منه!
وسمعت صوت القادم.. كان يحمل الخنجر الملوث بالدم.. وهامسًا قال لها:
- «قضى الأمر.. ألم تسمعي شيئًا؟»
- «لا شيء سوى البوم وصراصير الليل..»

قالتها غير عالمة لم قالتها.. ورأته يرمق يديه الدمويتين في استبشاع:
- «هذا منظر شنيع..»
- «من الحمق أن تقول ذلك..»
- «كلا.. لقد سمعت صارخًا يصيح بي: لن تنام يا قاتل الرقاد.. (جلاميس) - (كوندور) - (ماكبث) لن ينام!»
آهاه! إذن هي مسرحية (ماكبث).. وهي تلعب دور (ليدي ماكبث) الزوجة التي أغواها الطموح.. فجعلت زوجها يقتل..
تقول له في قسوة وثبات:
- «اذهب والتمس بعض الماء تغسل به آثار الدم.. لا تنس أن تلوث الحارسين النائمين ببعض الدم كي تلصق بهما التهمة..»
رأته ينظر ليديه غير مصدق.. يداه ترتجفان بقوة:
- «دم! لو اجتمعت بحار العالم جميعًا كي تغسل هذا الدم ما استطاعت..»
قالت في قسوة لم تتبدل:
- «هاتان يداى بلون يديك.. لكني أخجل أن يكون لى قلب جبان كقلبك..»
ودون تردد عادت إلى المخدع لتملأ كفيها ببعض من دم القتيل..
ثم عادت لتسكبه على الحارسين...
فما إن فرغت حتى دعت زوجها المذعور إلى غرفتهما.. فما ينبغي أن يراهما أحد ها هنا....

∞∞∞∞∞∞

اسمه (ماكبث).. القائد الأسكتلندي الكبير.. الذي يعمل تحت إمرة الملك طيب القلب (دنكان)..
بدأت متاعبه حين قابل العرافات الثلاث في الفلاة.. فحيينه.. وقلن له إنه سيكون سيد (جلاميس) و(كودور).. بل وملك أسكتلندا ذاتها..
أما عن صديقه (دنكان) فتنبأن له بأنه سينجب ملوكًا، لكنه لن يغدو ملكًا! وحين عاد (ماكبث) إلى داره، أخبر زوجته (عبير) - معذرة.. أعني ليدي (ماكبث) - بنبوءة العرافات..
وسرعان ما تحقق أول شقين من النبوءة.. فماذا يمنع من تحقق الشقّ الثالث؟ وتلعب (عبير) دور (إبليس) بالنسبة له.. وتروح ليلًا نهارًا تزين له الأمل.. لِمَ لا يكون أكثر جرأة؟ لِمَ لا يكون أكثر إيجابية؟ إن الطموح لا يتحقق لنفس ضعيفة.. و(فاز باللذة الجسور) و (وما نيل المطالب بالتمني، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا)..
راحت تغريه بقتل الملك (دنكان) حتى يخلو له العرش..
وجاءت الكارثة حين قرر الملك العادل أن يزور قلعة (ماكبث) ضيفًا على قائده الباسل..
رتبت ليدي (ماكبث) كل شيء.. سوف تخدّر حارس الملك، ثم يتسلل الأخ (ماكبث) إلى مخدع الأخير ليذبحه..
وقد تمّ كل شيء.. وترك ابنا الملك أسكتلندا مكتئبين.. فلم يعرف أحد قط أن (ماكبث) هو القاتل..
وصار (ماكبث) ملك أسكتلندا..

∞∞∞∞∞∞

لكنه لم يشعر بالراحة على الإطلاق..
فهو ما زال يذكر نبوءة العرافات.. ويذكر أنهن بشرن (بانكو) صاحبه بأنه سينجب ملوكًا.. معنى هذا أن أولاد (بانكو) سيرثون ما قتل (ماكبث) الملك لأجله.. وإذن هو قد كافح من أجل أبناء صديقه!
وراح يردد في مرارة:
- «صار التاج على رأسي عقيمًا.. ولن يخلفنى طفل من صلبي.. ليست العبرة في أن تكون ملكًا العبرة أن تكون آمنًا..»
وسرعان ما تقرر ليدي (ماكبث) أن تقنع زوجها بقتل صديقه (بانكو) وولده..
ولهذا دعت أشراف أسكتلندا ونبلاءها إلى مأدبة كبرى..
وكانت الخطة ناضجة.. والخيانة قد أثمرت...
فقط عليهما أن يجنيا ثمارها.....

∞∞∞∞∞∞

5- اجتماع الإدارة..

كانت (عبير) منهمكة في سعادة في الإعداد لمقتل (بانكو)، وكان (ماكبث) متحمسًا لهذا الجزء بشدة.. فهو قد بدأ يستسيغ الأمر بعد ما كان مترددًا تجاه اغتيال الملك (دنكان)..
لكن (ماكبث) تلقى رسالة حملها إليه أحد الفرسان المغبرين، قرأها فامتقع وجهه.. وقال لها وهو يطوي الورقة:
- «هناك اجتماع مهم الليلة في مسرح (جلوب).. إن (شكسبير) يريدنا!»
كادت تقول إنها لا تفهم.. ثم تذكرت أن هذه هي (فانتازيا) حيث لا مستحيل ولا حدود لزمان أو مكان..

∞∞∞∞∞∞

المكان: مسرح (جلوب).. في مقاعد الصالة..
الحدث: (ويليام شكسبير) يلتقي بأبطاله للحديث عن مشكلة طارئة..
في فضول راحت (عبير) تتأمل (شكسبير) الذي قالوا إنه أعظم من كتب للمسرح.. أروع من كتب بالإنجليزية.. أفضل من عبّر عن نفس الإنسان قبل عبقرى روسيا (دستويفسكي)..
كان أصلع الرأس.. وكأنما يعوض ذلك بإطالة الشعر على جانبي رأسه كي يغطى عنقه، وكانت له نظرة ثقيلة سمجة لا توحي بالعبقرية، وشارب رفيع كالذي يهوى الأوغاد تربيته.. الخلاصة أنه بدا لها مخيبًا للآمال.. ثم تذكرت أنها تراه كما رسموه لا كما هو في الواقع..
كل أبطال قصصه يرمقونه في انبهار وتقديس.. إنه أبوهم الذي أوجدهم في العالم، وخلّد ذكراهم، ما ظلّ طلبة كلية الآداب يتحدثون عن (العاصفة)، وما ظلّ كل عاشق يُسمّى بـ (روميو)، وما ظلّ طلبة المستوى الرفيع مطالبين باستذكار (هاملت)، وما ظلّ هناك مسرح كلاسي في العالم كله..
ها هم أولاء جميعًا: (هاملت) و(عطيل) و(ماكبث) و(الملك لير) و(روميو) و(بروسبرو) و(تاجر البندقية) و(يوليوس قيصر) و(أورلاندو) و(بتروشيو) و... و....
جلس (شكسبير) على منصة المسرح، وسط المشاعل التي ترمي ظلالها في كل صوب.. وتجعله كرسم تأثيري قديم...
وبصوت رخيم قال:
- «يسرّني أنكم جميعًا ها هنا.. حتى أنت يا (ماكبث).. لقد ناديتك وأنت منهمك في التدبير لاغتيال (بانكو)..»
قال (ماكبث) من مقعده في الصالة بصوت متهدج قليلًا:
- إن أوامرك لا تُردّ يا سيدي..»
ابتسم (شكسبير) في حزن.. وقال:
- «إنني أتذكر مسرحيتك جيدًا.. كنت قد كتبتها عام 1603 عندما تولى (جيمس الأول) حكم البلاد.. لكنها لم تُطبَع إلا عام 1623، بعد وفاتي بسبع سنوات، وكانت في مجلد واحد مع (هاملت) و(يوليوس قيصر).. إنها قصة واقعية استمددتها من قراءاتي في جريدة تاريخية.. وسمحت لنفسي أن أغير بعض الشيء في حقائق التاريخ.. فمثلًا لم يكن (دنكان) بالملك الشهم العادل الذي وصفته.. بل كان وضيعًا جبانًا..»

ثم مسح جبينه وقال مستدركًا:
- «ما علينا.. تصوروا أن أجري عن هذه المسرحية لم يتجاوز مائة جنيه؟! لكنني - حقًا - كنت ثريًا وكنت أملك أسهمًا في مسرحين.. واعتدت أن أقرض الناس بالربا..»
دعونا الآن نتوقف قليلًا لنعرف شيئًا أو شيئين عن هذا المؤلف العظيم.. إن (عبير) لا تعرف ولا يهمها أن تعرف ما سنقول الآن..
إن (ويليام شكسبير) أديب انجلترا العظيم، هو قروي ولد في قرية (ستراتفورد فون آفون) عام 1564..
كثير من النقاد يشك في وجود (شكسبير).. البعض يقول إنه أكذوبة كبري اخترعها أديب آخر هو (فرنسيس بيكون)، الذي كان يخجل من أن يعرف أحد أنه يكتب للمسرح.. ويقولون إن اللقب الخاص ب. (بيكون) هو (الذي يهزّ رمح الملك) أي Shake Spear..
وهذا ما أوحي له بالاسم..
هناك من زعم أن (شكسبير) هو رجل عربى اسمه (الشيخ زبير)..
ولا أعرف - بأمانة - أساس هذا الزعم..
لكن أكثر علماء اللغة يؤكدون أن (شكسبير) هو (شكسبير)..
عاش (شكسبير) حياته ما بين (لندن) وقريته.. كان يجد نفسه حقًا في المسرح.. وكل مسرحياته العبقرية هذه إنما كتبها على سبيل (أكل العيش).. وهذا ما يجعل النقاد في ذهول من ظاهرة (العبقرية حسب الطلب) هذه.. والأكثر غرابة أنه لم يكن يكتب مسودات أو يشطب.. فكل مسرحية لدينا هي الصياغة الأولى من قلمه... كما هي!
لكن مأساته الحقيقية كانت هي زواجه الفاشل من امرأة تكبره بثمانية أعوام هي (آن هاثاواى).. فقد نغّصت حياته وأرهقته.. ويقول النقاد المدققون إنها ألهمته بأفظع مسرحياته: (هاملت) عبقرية التردد.. و(ماكبث) عبقرية الطمع والخيانة.. و(عطيل) عبقرية الخداع والغيرة.. و (لير) عبقرية الجحود والعقوق.. ويا له من إلهام!
أنتج (شكسبير) أربعًا وثلاثين مسرحية، ومائة وأربعًا وخمسين قصيدة.. ثم مات في أبريل عام 1616 عن عمر يناهز اثنين وخمسين عامًا..
لكن الأدب الإنجليزي - والعالمي - لم يعد بعده كما كان قبله...
فحق له الخلود.. وحق له هذا الموضوع المتميز في (فانتازيا)..

∞∞∞∞∞∞

جلس (شكسبير) يتأمل في رضا أبطال قصصه..
كل هؤلاء بمن فيهم من ملوك ومرابين وشحاذين وحفارى قبور.. ومنهم من هو دانماركى أو بريطاني.. أو إيطالي.. كلهم من بنات أفكاره..
راح يطمئن على أحوالهم في رقة:
- «(هاملت).. أما زلت مترددًا بشأن الانتحار أو قتل (كلوديوس)؟
وأنت يا (شايلوك).. لا تحاول استرداد دينك أرجوك.. هل تحسنت صحتك أيها الملك (لير)؟
قلت لك يا (بروتوس) ألا تترك الفرصة ل. (أنطونيو) كى يواجه الجماهير من بعدك..»
ثم نظر إلى (عبير) وابتسم:
- «وأنت.. بطلتنا الأنثوية الدائمة.. أنت (أوفيليا) و(جولييت) و(كاترين) و(ميراندا) و(ديدمونة) وليدى (ماكبث).. الحق أنك تعيشين خبرات لا حصر..»

قالت (عبير) في كياسة:
- «إن هذا يشعرني بالدوار.. فلا قصة تكتمل.. كلما بدأت أعيش أحداث قصة أجدني مطالبة بالبدء من جديد..»
ضحك متفهمًا وقال:
- «لا يثيرن هذا حفيظتك.. إن كل الممثلات في التاريخ تمنين أن يخضن هذه التجربة التي تخوضينها الآن..»
قال له (هاملت) وقد بدأت طبيعته المتوترة الملول تتحرك:
- «إن جلوسنا معك ها هنا ليسعد النفس يا ريّس..
لكني أظن أن هناك أمرًا جللًا دعاك لجمعنا..»
قال (شكسبير) لـ (هاملت) بتلك الابتسامة الرفيقة:
- «مهلًا يا بني.. أعرف أنك مشتاق لرؤية تأثير مسرحيتك على الملكة وعلى عمك.. لكن دعوتكم بالفعل لأمر جلل..»
وأجال نظره في الموجودين.. وغمغم مردفًا:
- «الحقيقة أن عالمنا يتآكل..»
لم يبد الفهم على أي من الجالسين..
ونهض (عطيل) العملاق الأسود ليقول في عصبية:
- «عالمنا يتآكل؟ كيف؟»
- «هذه هي الحقيقة.. نحن نتلاشى..»
- «كيف؟»
قال (شكسبير) وهو يجيل عينيه في الحضور، وقد استحوذ على اهتمامهم بالكامل:
- «لا أدري.. لكن قطاعات هائلة من هذه المملكة تختفي يومًا تلو الآخر.. أمس بحثت عن أبطال مسرحية (كما تحبها) - (أورلاندو) و(روزاليند) - فلم أجدهم.. بحثت عن الغابة التي تجرى فيها الأحداث فلم أجدها.. كل شيء كتبته لم يعد هناك..»
قال (ماكبث) في قلق:
- «لهذا لم يأت أحد منهم ها هنا..»
- «ولم يكن هذا كل شيء.. فمنذ أسبوع لم أجد أبطال مسرحية (حلم ليلة صيف).. ومن المؤسف أنني نسيت نصها ولم يعد بوسعي أن أكتبها من جديد..»
ورفع عينيه إلى السقف، مقطبًا في خطورة:
- «إن عالم (شكسبير) في (فانتازيا) يضيق يومًا بعد يوم.. وأعتقد أننا نواجه خطرًا داهمًا.. فلو تلاشيتم أنتم لتلاشيت أنا كذلك.. ولغاب ذكري..»



ورفع عينيه إلى السقف، مقطبًا في خطورة:
- « إن عالم (شكسبير) في (فانتازيا) يضيق يومًا بعد يوم..

أشار (هاملت) إلى (ماكبث) فى عصبية وباتهام قال له:
- «أنت السبب دون شك..»

- «هل جننت؟»
- «إن جرائمك التى لا تنتهي قد جعلتنا جديرين باللعن.. فأنت أشرّ أبطال (شكسبير) طرًا.. والوحيد الذي قتل دون مبرر كاف..»
احمرّ وجه (ماكبث)، وهتف ولعاب الحماسة يتطاير من فمه:
- «يا سلام! ألم يقتل (عطيل) فتاة طاهرة بريئة؟ ألم تقتل أنت عمك؟»
- «بلى.. لكن (عطيل) كان ضحية مؤامرة جعلته يجنّ غيرة.. وأنا قتلت قاتل أبي.. أما أنت فكنت تقتل.. تقتل لماذا؟ من أجل الطموح لا أكثر ولا أقل..»
- هنا مدّ (ماكبث) يده لينتزع السيف من قرابة، ويصيح في (هاملت):
- «كفاك إهانات! فلنسوّ الأمر إذن رجلًا لرجل.. والويل لمن يصرخ أولًا: توقف!»
- «كفي يا أبنائى!»
كذا صاح (شكسبير) في حزم.. فالجو بدأ يتكهرب، ويبدو أن أفضل بطلين لقصصه يوشكان على أن يفتكا ببعضهما.
لم يقتصر الأمر على هذا... فقد اشتبك العجوزان (بروسبرو) والملك (لير) في شجار يليق بسنّهما، وراحا يجذبان اللحى ويتبادلان اللكمات.. فتدخل (عطيل) ليمسك برقبة كل منهما - كالدجاجة - ويبعدهما عن بعضهما..
- «كفى يا أبنائى!»
عاد (شكسبير) يكرر تحذيره.. فتوقف الجميع عن القتال، وأرهفوا السمع إلى ما سيقول..
- «ليس الخطأ خطأ واحد منكم.. إنما هي مجموعة أسباب أدت لما يحدث.. وأعتقد أن عندي فكرة معقولة عنها..»
وفتح أنامل يده اليسرى ليعدّ عليها بيده اليمنى..
أولًا: لم يعد هناك من يهوى القراءة.. من يقرأ لا يفهم.. ومن يفهم لا يتذكر.. ومن يتذكر لا يفعل شيئًا بهذا الذي يتذكره..
ثانيًا: التلفزيون يحرز خطوات سبق لا يمكن مجاراتها.. وهو لا يهتم كثيرًا بعالم (شكسبير).. أو يقدمه بسطحية بالغة..
ثالثًا: السوقية تزحف وتنتصر.. ومن الذي يبالى بأحزان الملك (لير) في عصر (كوز المحبة انخرم)؟
رابعًا: السطحية تتفشى كالوباء.. إن هموم (هاملت) المعقدة لا تناسب مشاهدي تمثيلية الساعة السابعة، الذين اعتادوا المعاني القريبة الواضحة.. الفرح هو الفرح.. الحزن هو الحزن.. التعالي هو التعالي.. لكن لا شيء اسمه المزيج الخافت بين العواطف.. لا شيء اسمه اللون الرمادي..
إن الزمن الذي مات فيه (عبد الحليم حافظ)، وكسدت دواوين الشعر، وتلخّص الفن التشكيلي في صورة المرأة التي تلثم الثعبان إياها؛ هو - حتمًا - ليس زمنًا مناسبًا لـ (شكسبير) وأبطاله...
هنا نهض (أنطونيو) للمرة الأولى.. وقال لـ (شكسبير) بلهجة خطابية:
- «وما العمل يا ريس؟ هل نقبل الموت طواعية أم نحارب من أجل حياتنا؟ لقد حاربت طيلة حياتي كما تعلم.. ولن تضيرني حرب أخيرة ضروس..»
وهتف (هاملت) بدوره:
- «نكون أو لا نكون.. تلك هي المسألة..»
ابتسم (شكسبير) في رضا.. وقال:

- «هذا هو ما توقعته منكم.. ومازلت يا لورد (أنطونيو) قادرًا على تهييج الجموع منذ خطبت خطبتك العصماء في أهل (روما).. هل تذكر تلك الخطبة الرائعة؟ وأنت يا (هاملت) تبدو لي قادرًا على التخلص من ترددك حين يتطلب الأمر ذلك..»
قال (بروسبرو) بلهجة عقلانية تناسب لحيته الشهباء:
- «حسن.. كلنا معك.. ولكن ما هو الطريق؟»
- «سؤال جيد..»
قالها (شكسبير) في تؤدة، ثم مدّ يده إلى لفافة من ورق كانت أمامه على المنضدة، وفردها أمام العيون..
رأت (عبير) أنها أقرب إلى خارطة.. كأنها موقع عسكري يتم التخطيط لغزوه.. ماذا يريد قوله بالضبط؟
مدّ (شكسبير) يده فالتقط بعض دبابيس الضغط، وقام بتثبيت الخارطة على الجدار من أطرافها الأربعة..
- «هذا رسم كروكي لمملكة (شكسبير) في (فانتازيا)..»
وأشار إلى رقعتين على أطراف الخارطة:
- «هنا كانت (كما تحبها).. وهنا كانت (حلم ليلة صيف).. وكما ترون: يبدو الخطر دانيًا جدًّا من مسرحيتى (الملك لير) و (العاصفة).. أعتقد أننا سنفقدهما قريبًا جدًّا..»
ونظر حوله ليتيقن من أن العيون كلها ترمق الخارطة باهتمام.. ثم أردف وهو يشير إلى نقطة على الرسم:
- «كل الدلائل تشير إلى أن التآكل يبدأ من هنا.. من الشمال.. يوجد شيء ما هنا، هو المسئول عن اختفاء مسرحياتي..»
قال (ماكبث) في ثقة:
- «أعرف هذا الموضع.. إن الساحرات الثلاث قابلنني هناك»
- «ربما.. إن الحدس عسير بالنسبة لرسم مبسّط كهذا..»
ثم قال بلهجة عملية كأنه قائد عمليات خاصة، قد فرغ من شرح الموقف لرجاله، وهو الآن يدعوهم للتحرك:
- «مهمتكم هي التحرك إلى هناك.. ومعرفة عدونا المحتمل.. وتدميره..»
سأله (ماكبث) في لهفة:
- «وبعدها يمكننا الاستمرار في ممارسة حياتنا؟»
- «طبعًا.. إن بقي بعضكم حيًّا بعد كل هذا..»
ثم تنهد ورفع عينيه ليرمق الجميع بنظرة نافذة.. وسألهم:
- «هل من أسئلة؟»

∞∞∞∞∞∞

6 - ساعة الصفر..

الآن يبدأ التحرك نحو الهدف..
الهدف هو معرفة المسئول عما حلّ بعالم (شكسبير) الساحر..
وفي ضوء الفجر وقفت الخيول تصهل، وتبعثر الغبار بسنابكها، وتقذف الدخان من مناخرها..
على حين راح الأبطال يحتشدون للحركة..
(هاملت) يستعد لركوب حصانه الأبيض، شاعرًا بأهميته كبطل (شكسبير) الأول.. ولربما ابنه البارّ..
(عطيل) فوق حصانه، عملاق أسمر يطوح بسيف هائل الحجم يمينًا ويسارًا.. فهو أستاذ في الكرّ والفرّ.. ومكسب حقيقي لأي جيش يضمه في صفوفه...
الملك (لير) المتهالك، و (بروسبرو) السقيم على جواديهما.. لن يكون لهما دور كبير، لكن إجادة الأخير للسحر قد يكون لها دور مهم..
(ماكبث) الطموح يتأكد من أن سيفه على ما يرام.. بينما (بتروشيو) بطل مسرحية (ترويض النمرة) يتحدث بالإيطالية إلى تابعه، ويتأكد من أن سرج جواده يحوي كل ما يحتاج إليه..
حتى (روميو) العاشق الإيطالي الرقيق لحق بهم، وراح يستعد للركوب في هذه الحملة الفريدة من نوعها..
راحت (عبير) تجوّل بينهم.. وتقول لكل منهم كلمة تشجيع.. فتارة تتحول إلى (ديدمونة) حين تحدث (عطيل)، وتارة هي (أوفيليا) حين تحدث (هاملت)، وتارة هي (كاترين) حين تحدث (بتروشيو)..
هنا خطر لها أن الحملة تبدو مبعثرة أكثر من اللازم..
لابد من قائد.. وإلا تحوّل الأمر إلى مستعمرة من النمل ركلت جحرها قدم عابثة.. ولتناثر الأبطال في كل صوب يفعل كل منهم ما يشاء..
دنت من (بروسبرو) أكبرهم سنًّا لتسأله في كياسة:
- « أ... هل استقر أمركم على قائد؟»
نظر لها العجوز مفكرًا.. ثم قال دون تردد:
- «يا له من سؤال؟ أنا طبعًا.. فأنا أكبرهم سنًّا..»
هنا صاح الملك (لير) في حنق:
- «أي سخف! أنا أقاربك في السن.. ثم إنني ملك!»
هنا صاح (هاملت) في لهجة من انتهى من دراسة الموضوع:
- «كلاكما شيخ متهالك.. أنا أمير (الدانمارك) وأهم شخصية كتبها (شكسبير) بشهادة النقاد جميعًا.. أعتقد أن الأمر مهيأ لي كي أتولى قيادة هذا الرهط..»
قال (ماكبث) وعلى وجهه أمارات الاشمئزاز:
- «تفو! أنت متردد.. والجميع يعرف بطأك في اتخاذ القرارات، أما هذه الحملة فتحتاج إلى رجل طموح.. رجل يعرف ما ينبغي عمله.. وأنا - (ماكبث) - هو ذلك الرجل..»
- «كأن هذا القاتل كان ينقصنا..»
قال (عطيل) في ثقة:
- «أنا قدت جيوشًا حقيقية يا سادة.. وأعرف تمامًا كيف أقود حفنة من المترددين البائسين

مثلكم..»
هنا قاطعه (أنطونيو) مزدريًا:
- «هه! لكنك لم تصنع أمجاد (روما) مثلي.. لم تدخل المدن المفتوحة مكللًا بالغار، وحولك أعضاء مجلس الشيوخ، وأمامك اثنا عشر (لكتورًا) يحملون الفئوس.. يا سادة إنني اعتدت النصر حتى صار طبيعة ثانية لي.. وأعتقد أنني قادر على قيادة هذه الحملة..»
تفكر الملك (لير) قليلًا.. ثم قال:
- «هل تريدون رأيي؟»
- «لا!»
- «إنه رأى شيخ حكيم..»
- «إننا نعرف الكثير عن قراراتك الحكيمة هذه.. ألم تعط (انجلترا) كلها لطفلتين عاقتين شريرتين؟»
تجاهل (لير) الملحوظة الأخيرة.. فلم يكن الوقت مناسبًا للشجار..
وقال وهو يشير إلى (عبير):
- «ستكون هذه قائدتنا.. (كورديليا) الحبيبة..»
تصاعدت الأصوات غير مصدقة
- «(أوفيليا)؟»
- «(جولييت)؟
- «(ديدمونة)؟»
- «(كاترين)؟»
- «(ميراندا)؟»
- «إن هذا سخف!»
وأضاف (ماكبث) في لهجة متعقلة:
- «ما أتعس قومًا جعلوا امرأة قائدتهم! إن مأساتي كلها هي أنني خضعت لزوجتي التي كانت أقوى شخصية، وأنفذ تأثيرًا..»
قال (لير) بنفس اللهجة المتعقلة:
- «لكن (كورديليا) - أو كما يسميها كل منكم - تختلف.. إننا سنجعلها رمزًا لوحدتنا كما يخضع البريطانيون لملكتهم، لكنهم لا يطيعونها، ولا يدعونها تدس أنفها في كل شيء! إن الشورى هي أساس تحركنا.. لكننا لن نتحرك إلا بناءً على أمرها هي، وبعد تمحيص وتبادل آراء..»
قال (هاملت) في رضا:
- «لا بأس.. على الأقل سيلغى هذا عنصر التنافس بيننا.. فما كنت لأنضم لحملة تحت قيادة ذلك الوغد (ماكبث)..»
قال (ماكبث) ليردّ التحية بألعن منها:
- «وأنا أفضل السير وراء ظربان على السير خلفك يا عزيزي..»
- «شعور متبادل..»
صاح (لير) في حزم رافعًا يديه للسماء:
- «أما وقد هدأت مشاعرنا، وأحببنا بعضنا.. فلنبتهل إلى الربّ أن يزلل لنا صعاب هذه الرحلة..»
رفع الجميع وجوههم إلى السماء، وراحوا يرددون الأدعية الإيطالية، والإنجليزية، والدانماركية،

والعربية..
أما (أنطونيو) فراح يبتهل لـ (زيوس) و (هيرا) ودزينة كاملة من آلهة (الأولمب) الوثنية..
أما (عبير) فلم تدر كيف ترفض أو ماذا تقول..
إنها لم تقد قطة في حياتها.. فكيف تطالب باكتساب مواهب القيادة فجأة؟ وتقود من؟ تقود أسوأ مجموعة من السادة ضخام الأجساد معقدي النفوس عرفها التاريخ!
ثم إنها لا تعرف المطلوب منها بالضبط....
لقد قال (شكسبير) إن مملكته تتآكل بسبب التلفزيون والسطحية والسوقية ومقت القراءة..
فهل ستجد هذه الأشياء واقفة تكشر عن أنيابها، وتمزق كل من تسوّل له نفسه أن يدنو منها؟
عندها ستكون مشكلة.. فكيف يمكن قتل السطحية؟ إن (عبير) لا تذكر أنها قتلت أي شيء سطحي في حياتها.. إلا تلك الحشرات التي تدخل حجرتها من النافذة ليلًا، لتملأ المكان صخبًا، ولا تموت إلا بالشبشب البلاستيكي الأحمر وبعد عناء.. فهل قتل السطحية عسير كقتل هذه الحشرات؟
كأنما قرأ (بروسبرو) أفكارها.. قال لها:
- «أراهن على أن (برنارد شو) هو المسئول عن كل هذا!»
- «من؟»
- «(برنارد شو) الأديب الإيرلندي الساخر.. فهو يكره (شكسبير) ويرى أن مسرحه ميلودرامي رديء لا يناسب صفوة المثقفين..»
ثم نظر إلى السماء.. فرأى قرص الشمس يعلو أكثر..
قال لها وهو يملأ رئتيه بالهواء:
- «هلمي أعطينا إشارة البدء أي (ميراندا) الشجاعة..»
ركبت حصانها.. لم يكن الأمر عسيرًا كما هي العادة في (فانتازيا).. وهنا تذكرت أنها لا تعرف ما ينبغي قوله.. فهمست في أذنه:
- «ماذا أقول؟»



ركبت حصانها.. لم يكن الأمر عسيرًا كما هي العادة في (فانتازيا)..

- «قولي: إلى الشمال! وتعمدى إطالة حرف (الألف) في (الشمال)!»
- «حسن..»

ورفعت عقيرتها صائحة في حسم:
- «إلى الشماااااااااال!»

∞∞∞∞∞

عَبْر الغابات يمضي الموكب..
تتقدم (عبير) الباقين على حصانها، وهي ترمق الطبيعة في انبهار.. فهو عالم غريب يجمع – في ثلاث كيلومترات - مياه (البندقية) وغابات (انجلترا) وضبابها.. وثلوج (الدانمارك).. وفيه الجزر والجبال.. عالم هو مزيج غريب من عشرة بلدان على الأقل...
صوت (روميو) قادم من خلف يترنم بأغنية إيطالية ملأى بحروف (الراء) يقولها بصوت (تينور) عميق..
أما (هاملت) فهو عاكف على إلقاء مونولوجاته الدنماركية الحيري.. على حين يتسلى الملك (لير) بالدعاء على ابنتيه الشريرتين...
نهر.. أشجار.. أعشاب.. سنجاب يفرّ من هنا لهناك.. طائر يولّى ذعرًا إذ سمع صوت سنابك الخيل..
خور صغير على جانب الطريق.. الصخور مغطاة بالطحالب.. مسقط مياه صغير.. فلاحة عاكفة على حلب بقرتها في سطل خشبي، فما إن ترى الموكب حتى تتوقف لترمقه في فضول..
راع يعزف على الناي تحت شجرة، وحوله خرافه الشبيهة بندف من قطن أبيض بعثرته يد عابثة على الكلأ..
يتوقف عن العزف ليرمق الموكب.. ثم يسأل بلكنة إنجليزية عتيقة الطراز:
- «هل أنتم ذاهبون للقتال يا سيدى؟»
يجبه الملك (لير) وهو مستمر في السير:
- «نعم.. نحاول إنقاذ مسرحيات (شكسبير)..»
ثم يغمغم بصوت مسموع:
- «حتى هذا الراعي وخرافه سيتلاشون تمامًا لو فشلنا في مهمتنا..»
- «لن نفشل..»
يقولها (عطيل) وهو يتحسس سيفه في غمده..
وتستمر المسيرة الصامتة.....

∞∞∞∞∞

وجاء الليل.. وصار المشي عسيرًا..
الظلام يغلف الأشجار.. ويرمي عباءته على الكلأ كأنما يريد حمايته من البرد حتى الصباح..
قال (بروسبرو) لـ (عبير):
- «قد حان الوقت لنخيم ها هنا.. أصدرى أوامرك إذن..»
- «وماذا أقول؟»
تنهد في نفاد صبر.. وقال بتؤدة:
- «قولي: سنخيم ها هنا.. واضغطي على مقطع (هنا)..»
صاحت كما قال..
فترجل الرجال جميعًا، وشرعوا يربطون جيادهم، ويريحونها من السروج..

قال (هاملت) وهو يتفقد المكان:
- «نحتاج إلى نار.. ولكن كيف نشعلها؟»
قال الملك (لير) وهو يتشمم الهواء:
- «صبرًا.. لا بد من عاصفة رعدية، ولسان برق يشعل النار في أحد جذوع الأشجار.. إن هذا وارد في كل مسرحياتى..»
ثم أردف بعد هنيهة:
- «ولو أنه لا يوجد ما يبشر بهذا..»
- «هذا لحسن حظنا.. فليس من المستحب أن نمرّ بعاصفة رعدية، ونحن في العراء بهذا الشكل..»
هنا قال (بروسبرو) وهو يجلس القرفصاء:
- «صبرًا.. ليست هذه بمشكلة على ساحر عظيم مثلي..»
وأخرج من كمه لفافة صغيرة.. فتحها فإذا ما بها مسحوق أصفر.. التقط بعضًا منه بين سبابته وإبهامه، وتمتم عليه بعبارات غامضة.. ثم ألقى به فوق جذع خشبي ملقى على الأرض..
وسرعان ما تعالت ألسنة اللهب...
أحيانًا يكون وجود السحرة مفيدًا..
وحول النار جلسوا يتسامرون.. وعاد لهم (ماكبث) من وسط الأشجار بأرنب بريّ.. فراحوا يشوونه على النار ويصطلون..
جلست (عبير) ترمقهم خلسة في ضوضائهم..
وجوه خشنة.. ووجوه ناعمة.. شباب وشيوخ.. لكن أجملهم - والحق يقال - كان هو (روميو).. العاشق الإيطالي الرقيق.. الذي أحب (جولييت) وتحديا بحبهما صراع الأسرتين المستحكم..
ولكن.. أين (روميو)؟ إنها لم تره منذ حلّ الظلام.. و....
وهنا سمعت الصرخة قادمة من قلب الغابة المظلمة....

∞∞∞∞∞∞

7- الخطر دان..

هبّ الرجال جميعًا كأنما سرت الكهرباء في أجسادهم..
التمعت السيوف في وهج النار..
ومع السيوف التمعت عيونهم تحفزًا..
كان هناك سؤالان ينتظران إجابة فورية:
أولًا: من صرخ؟ ثانيًا: من أين جاء الصراخ؟
قالت (عبير) وهي مازالت جالسة كما هي، وقد أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة:
- «لا داعي للتساؤل.. إنه (روميو).. لقد ظفروا به!»
تبادلوا النظرات، وأدركوا للمرة الأولى أن الفتى غير موجود معهم.. والتمعت عينا (عطيل) في وجهه الأسود.. وهتف:
- «الصبي الإيطالي الرقيع! هذا حق.. لقد اختفى ومنذ متى؟ وكيف لم نشعر إلا الآن؟»
وتساءل (هاملت) وعيناه تدوران في محجريهما بجنون:
- «من هم الذين ظفروا به؟»
قالت (عبير) بنفس اللهجة الفاترة الحزينة:
- «وكيف لي أن أعرف؟ إنهم أعداؤنا وكفى.. أعتقد أن مسرحية (روميو وجولييت) قد اختفت من مملكة (شكسبير) بدورها..»
قال (أنطونيو) وهو يدور حول النار:
- «هذا حق.. لقد كان الفتى يمشي في نهاية الموكب يترنم بالغناء وقد سكت صوته منذ فترة لكننا لم نلحظ..»
أما (هاملت) فقال في ضيق:
- «إذن.. فالخطر ليس أمامنا.. بل هو خلفنا..»
- «إنها قاعدة حربية رومانية قديمة.. حين يطاردك العدو اختف.. وانتظر حتى يمرّ.. ثم هاجم مؤخرة جيشه..»
- «يا لها من خسارة!»
صاح (ماكبث) في عصبية:
- «لم تصر خسارة بعد.. يمكننا دخول الغابة والظفر بمهاجمه.. أو ربما أنقذناه هو..»
قال (هاملت) واضعًا ذؤابة سيفه في اللهب:
- «ليست فكرة جيدة.. إن اتحادنا قوة.. وليس من الحكمة أن نعطى مهاجمنا فرصة الظفر بنا متفرقين..»
- «أنت جبان كالعادة..»
- «وأنت وقح كالعادة..»
قال (عطيل) ووجهه يلتمع كقناع من الأبنوس في وهج النار:
- «على كل حال لن يكون فقد الإيطالي الرقيع خسارة فادحة لنا.. فأمثاله يفسدون في الأرض، وكم كنت أغار على (ديدمونة) منهم!»
حانقًا صاح (بتروشيو):
- «دعك وشأن الإيطاليين أيها الزنجي.. أتمنى أن يأتي دورك سريعًا!»

همست (عبير) في أذن (بروسبرو) الذي افترش الكلأ جوارها:
- «إنهم لا يطيقون بعضهم.. خاصة (هاملت) و(ماكبث)...»
هزّ الشيخ رأسه في حكمة.. وهمس بدوره:
- «هذا طبيعي.. إنهما بطلا أشهر مسرحيتين لـ (شكسبير).. ولو لم يغر أحدهما من الآخر لبدا لى
أنني جاهل بطبائع البشر..»
رأت (عبير) أن الوقت قد حان لإنهاء هذا السخف.. فصاحت من مكانها:
- «كفي! لا مزيد من المهاترات.. لن يدخل أحد الدغل للبحث عن (روميو).. ومنذ الآن لن نتحرك إلا جماعة..»
- «لكن......»
- «لا لكن.. لقد أغلق باب المناقشة..»
وساد الصمت.. ثم عاد الرجال لجلستهم حول النيران..
أما هي فراحت تلهث.. شأنها شأن السلبيين الذين يعانون لإخراج شحنة من الإيجابية من أعماق صدورهم..
وشعرت بوجهها يلتهب انفعالًا.. لقد فعلتْها.. فعلتْها ببراعة!

∞∞∞∞∞∞

أراح الشيخ (بروسبرو) رأسها على صدره العجوز، وراح يرمق النجوم..
وسمعت صوت أنفاسه التي تدخل وتخرج بمشقة.. تذكّرت من جديد أنها ليست (عبير).. بل ابنته الشابة (ميراندا)..
وسمعته يغمغم:
- «أرجو ألا يطول هذا البحث..»
مغمضة العينين سألته:
- «لِمَ؟ هل هناك ما يشغلك؟»
- «بالطبع.. لقد كان كل شيء ممهدًا كى أجد لك عريسًا.. لكن القصة توقفت في ذروتها.. ولا أدري متى ستستمر..»
- «هل يمكنني أن أعرف ما سيحدث بعدها؟ ماذا بعد العاصفة؟»
تنهّد.. وقال بصوت جعل النعاس يسرع إلى عينيها:
- «إن العاصفة هي كمين أعددته لأخي وابنه (فردناندو).. كان مركبهما سيغرق جوار الجزيرة، وتحملهما الأمواج إلينا.. كنت قد اخترت (فردناندو) ليكون عريسًا لك..»
- «تزوج ابنتك لابن عدوك؟»
- «ولِمَ لا؟ إنه شاب طيب ولا ذنب له..»
وتثاءب قبل أن يقول في شرود:
- «ترى ماذا يفعل (إيريال) العزيز؟ أتمنى ألا يكف عن مراقبة (كاليبان).. فالوغد شرس الطباع ويمكن أن يسبب كارثة..»
- «هم م م م م!»
قالتها وهي تغيب في عالم الأثير..

∞∞∞∞∞∞

استيقظت على برودة الفجر..
وفي البدء حسبت أنها في دارها ب. (غمرة) تستعد للخروج، وفتح مكتب (الكمبيوتر)، وشراء شطيرتين من الفول من المحل على الناصية.. ثم العودة لانتظار أول الزبائن.. روتين كل صباح..
ثم فطنت إلى أنها تعيش الواقع الآن.. وواقعها هو خيال لا أول له ولا آخر.. خيال غرسه (دى - جى - 2) في عقلها.. خيال يحوي عالمًا اسمه (فانتازيا).. و(فانتازيا) هذه تضمّ مملكة (شكسبير)..
وها هي ذي في مملكة (شكسبير) تستعد مع أبطاله لخوض حرب غريبة من نوعها..
هو ذا (عطيل) يغسل وجهه في مياه جدول قريب.. و(هاملت) يضع السرج على صهوة حصانه..
أما الملك (لير) فهو ما زال راقدًا على العشب، وهو يغط بصوت كفيل بإيقاظ الموتى..
أمس كان (روميو) الوسيم بينهم.. لكنه اختفى في ظروف غامضة..
ماذا كان دور (روميو) في مسرحيته؟ لم تعد تذكر.. نست الحبكة برمتها.. هذا طبيعي.. لقد تلاشت مسرحية (روميو وجولييت) من عالمها تمامًا.. ولو لم يتم عمل شيء ما فلسوف تتلاشى المسرحيات الباقية كلها..
دعتهم إلى التحرّك.. وببطء تعالت أصوات حوافر الجياد، وهي تتقدم نحو الشمال.. وجهتهم الغامضة..

∞∞∞∞∞∞

كان حصانها يمشي جوار حصان (مارك أنطونيو)..
تذكرت أنها لم تعرف بعد دورها مع (أنطونيو)..
هل هي (كليوباترا)؟ ولماذا لم يلتقيا بعد في عمل مشترك؟
كان وسيمًا.. يرتدى الدروع.. وقد نفش صدره كبرياء وغرورًا فوق صهوة جواد أشدّ منه غرورًا وجلالًا..
قائد روماني لا يعرف الهزيمة، ولن يعرفها..
سألته في كياسة:
- «مرحبًا يا لورد (أنطونيو)..»
نظر لها نظرة عابرة ثم قال في كياسة
- «التحية يا (بورشيا) الجميلة..»
إذن اسمها (بورشيا) هاهنا.. عادت تسأله محاولة أن تعرف أكثر:
- «هل عطلتك هذه الحملة كثيرًا؟»
- «بالطبع.. كنا قد حددنا اليوم لقتل (يوليوس قيصر)..»
وفهمت (عبير) الأمر.. إن هذه ليست مسرحية (أنطونيو وكليوباترا) بل مسرحية (يوليوس قيصر).. إن (أنطونيو) اسم يتكرّر في المسرحيتين.. ولكن لماذا لا يكون (قيصر) هو ممثل نفسه في هذه المسرحية؟ إن المسرحية تحمل اسمه على كل حال..
قال لها (أنطونيو) مفسرًا:
- «المشكلة هي أن دوري هو الأهم والأكثر دسامة في المسرحية.. كما أن (قيصر) يُقتل في وقت مبكر جدًّا منها.. ويكون الصراع الأساسي بيني وبين
زوجك (بروتوس)..»
- «فهمت..»

وبدأت تتذكر خيوط المسرحية إذ يحكيها لها..
إن المسرحية ترينا (يوليوس قيصر) – القائد الروماني العظيم - في أسوأ حالاته.. فهو مزيج من الغرور والتعجرف والجبن..
أما الشخصية الإيجابية الملأى بالشجاعة والنبل، فهي شخصية (بروتوس) ربيب (قيصر).. ونعرف أن (بروتوس) يتآمر مع آخرين لاغتيال (قيصر) لأنه يوشك أن يودى ب. (روما) إلى الدمار.. ولأنه طموح.. وطموحه مهلك سقيم..
ويتلقى (قيصر) عددًا من الإنذارات المخيفة من أحد العرافين.. خذ الحذر يوم 15 مارس.. لكن (قيصر) يؤمن أن (السيف أصدق أنباء من الكتب)، ويأبى أن يعير أذنه للعراف.
لكن النذر تتوالى: عاصفة تمطر نيرانًا - أسد أمام دار الحكومة - بوم ينعق في السوق ظهرًا..
وتتوسل زوجة (قيصر) لزوجها ألا يذهب إلى الديوان في ذلك اليوم.. لكنه يصمم على الذهاب.. فهو لا يريد الظهور كمن يهاب الخزعبلات..
ويتوجه إلى الديوان حيث ينتظره المتآمرون – وفيهم (بروتس) و (أنطونيو) - عازمين على تمزيق جسده بخناجرهم..
سألت (عبير) (أنطونيو):
- «إذن اليوم هو يوم الذبح عندكم؟»
- «طبعًا.. لكننا اضطررنا إلى إرجاء الأمر..»
- «وهل تنوي المشاركة في القتل؟»
- «لا.. لكني سأنتظر حتى أجني الثمار..»
- «كيف؟»
- «هذا سرّي الخاص.. ولسوف تعرفينه فيما بعد.. مع تحرك الأحداث.. لكن دعينا نفرغ من هذه العملية أولًا..»
وضرب على عنق حصانه ليجدّ السير أسرع..

∞∞∞∞∞

في هذه المرة وجدت نفسها جوار (بتروشيو)..
ابتسم لها ابتسامة جانبية وهو يجذب لجام حصانه:
- «مرحبًا يا (كاترين)..»
هزّت رأسها له في عصبية.. فقال:
- «ما زلت سيئة الطباع كما أنتِ..»
- «أنا؟»
- «طبعًا.. لهذا تسميك (بادوا) كلها باسم (كاترين النمرة).. إن (بابتستا) أباك سعيد بما أفعله لترويضك..»
تذكرت هنا أن (بتروشيو) هو بطل مسرحية (ترويض النمرة).. وهي (كاترين) الفتاة المدللة سليطة اللسان العصبية.....
لقد صمم (بتروشيو) على أن يظفر بهذه الفتاة الشرسة زوجة له.. تقدّم لخطبتها واحتمل كل شراستها، حتى إذا ما تحدّد موعد الزواج جاءها وسط المدعوين مرتديًّا ثياب شحاذ.. وراح يلعب دوره المجنون حتى أثار هلع الفتاة للمرة الأولى في حياتها..
ثم اصطحبها إلى داره الفقيرة، حيث راح يعاملها أسوأ معاملة.. ويمارس معها سياسة التجويع..

كان بحاجة لأن يحطم كبرياءها.. كبرياءها السقيم..
قالت له في غل:
- «لقد جعلت منى حمقاء أمام الجميع..»
- «أحقًّا يا ملاكي؟ لا أظن هذا.. فأنت زوجتي الحبيبة الرقيقة ذات اللسان المعسول..»
وتنهّدت (كاترين) / (عبير).. على الأقل هذه المسرحية هادئة لا قتلى فيها ولا مآس.. إنها كوميديا خفيفة مثلها مثل (كما تحبها) و(حلم ليلة صيف).. المسرحيتين اللتين نسيت كل شيء عنهما الآن..
ثم بدأت شراستها تهدأ قليلًا..
كان السبب هو أنها بدأت تبتعد عن (بتروشيو) بجوادها، لتصير إلى جوار الملك (لير).....

∞∞∞∞∞∞

بدأت السماء تكفهر..
ثم إن ألسنة البرق راحت تشق الظلام، وانهمر المطر مدرارًا من ثقوب السقف الأسود العظيم المسمى سماء..
راحت الأرض تتحول إلى أوحال.. وتبدّل المشهد الجميل المشرق فى ثوان، ليغدو جزءًا من لوحة كئيبة عن مملكة الموتى..
راح كل من الراكبين يضع أغطية على ظهر جواده.. وفوق رأسه.. وشعرت (عبير) بأناملها تتجمّد..
هتفت (عبير) بصوتها الرفيع والمطر يبلل حاجبيها، ويسيل على عينيها:
- «هل من مأوى؟ نريد مأوى..»
تبادلوا النظرات.. لا شيء حولهم سوى سهل فسيح ممتد.. ومن بعيد يبدو حزام من الجبال يلتمع بالبرق من حين لآخر..
- «إذن.. أسرعوا.. ربما وجدنا مغارة هناك..» وشرعوا يجدّون السير.. لكن الأرض كانت زلقة.. والخيول هائجة.. لهذا لم تدهش كثيرًا حين سمعت صهيل جواد.. ونظرت وراءها لتجد (هاملت) في الوحل، وحصانه إلى جواره يحاول الارتكاز على قائمتيه الأماميتين لينهض..
- «توقفوا! إن الأمير (هاملت).....»
هنا رأت في الظلام خيالات سوداء تشق طريقها نحو الفتى الراقد في الوحل.. فجذبت لجام حصانها ليتوقف.. وصرخت:
- «(هاملت)! احترس!»



هنا رأت في الظلام خيالات سوداء تشق طريقها نحو الفتى الراقد في الوحل..

لم تكن كلابًا برية ولا ذئابًا.. كانت أطيافًا سوداء في حجم الإنسان.. ولها مشية تدل على أنه من غير المستحب أن ترى وجوهها..

وسمعت صرخة (هاملت) وقد رأى ما يدنو منه..
فصرخت بدورها.....

∞∞∞∞∞∞

8- لا يوجد شيء آمن..

بدا الأمر كالجحيم.....
فالسيل ينهمر بغزارة جاعلًا الرؤية مستحيلة..
والبرق يضرب أي شيء وكل شيء.. والخيول هائجة كالمحيط.. والرعد يصمّ الآذان.. والوحل يجعل الحركة بطيئة كما في الكوابيس.. فلا شيء يتم بسهولة..
ولا يوجد شيء آمن..
لكنها استطاعت - على ضوء البرق - أن تدرك أن هذه الأشياء السوداء تحتشد حول (هاملت).. وأن أحدها يجره من ساقيه مبتعدًا عن المكان..
لكن (ماكبث) صرخ صرخة مرعبة، ورأته (عبير) - ومعه (عطيل) - يهرعان ملوحين بسيفيهما..
ورأت السيوف تطير هنا وهناك، وسمعت صيحات غير آدمية تنبعث من تلك المخلوقات السوداء وانطلق (أنطونيو) بدوره ملوحًا بسيفه ليلحق بالمشهد..
وأخيرًا رأت (ماكبث) على ركبتيه يساعد أمير (الدانمارك) الشاب على الجلوس، ولم تعد ترى تلكم الخيالات المبهمة..
دنت بجوادها أكثر.. ونظرت من فوق صهوته إلى (هاملت)، الذي امتلأ وجهه بالقروح والكدمات.. وفي بشرته شحوب الموت..
أما شعره فقد امتلأ بالأوحال..
سألته بصوت عال:
- «هل رأيت ما هاجمك؟»
قال لاهثًا وهو يحاول النهوض على قدميه:
- «لا أدري.. مسوخ! كل المسوخ تتشابه في أنه لا يمكن وصفها..»
ثم نظر إلى (ماكبث) وابتسم:
- «أنت شجاع حقًا يا زميل..»
قال (ماكبث) في ثقة، وعيناه الزرقاوان تلتمعان:
- «إن (ماكبث) لا يمكن قتله إلا حين تتحرّك الأشجار في الغابة، وعلى يدي رجل لم تلده أمه.. هل نسيت نبوءة العرافات؟ معنى هذا – عمليًا – أنني خالد.. ولا يمكن أن تصف بالشجاعة إنسانًا يعرف أنه لن يموت..»
تذكّرت (عبير) هذا المقطع من مسرحية (ماكبث).. وتذكّرت أن (ماكبث) - الأحمق - قد تصرّف بحرية على أساس هذه النبوءة..
لكن (شكسبير) لم يدعه ينعم بالخلود المنشود..
أولًا: جعل أعداءه يزحفون إلى قلعته، متوارين وراء أشجار الغابة المقطوعة.. وهكذا تحركت الأشجار..
ثانيًا: جعل عدوه (مكدوف) إنسانًا لم تلده أمه.. بل شقوا بطنها ليخرجوه فيما يشبه الولادة القيصرية..
وهكذا صار له الحق في أن يقتل (ماكبث)..
إن (شكسبير) يعرف كيف يخدع أبطاله بالتلاعب بالألفاظ..
لكن (ماكبث) لا يعلم.. فدعنا لا نفسد عليه حبوره، وثقته بنفسه..

وتعاون (عطيل) و(ماكبث) على إعادة (هاملت) إلى سرج جواده، والجو يزداد سوءًا بشكل غير مسبوق..
صاح (عطيل) وهو يضع قدمه على الركاب:
- «كان حمقًا منهم أن يهاجمونا ونحن مجتمعون..»
قالت (عبير) بصراخ مماثل:
- «هذا حق.. لكنهم أرادوا استغلال العاصفة..»
قال (ماكبث) بصراخ أعلى:
- «إنها لعاصفة جديرة بالملك (لير).. كان سيستمتع بالكثير من الصراخ والعويل لو كان هنا..»
- «هذا صحيح..»
هنا هتفت (عبير) في دهشة:
- «ولماذا هو ليس هنا؟ لقد كان بيننا..»
هنا تبادل الجميع النظرات.. لم يروا شيوخًا حولهم سوى (بروسبرو) العجوز على صهوة حصانه، وهو يرمق كل هذا في رعب.. تحت الأمطار..
- «لقد اختفى (لير)!»
- «يا للهول!»
وهنا صاح (هاملت) وقد أدرك الأمر برمته:
- «كان هذا هو ترتيبهم.. جعلونا جميعًا ننشغل بالهجوم عليّ.. وكان (لير) في المقدمة.. لهذا حين تراجعنا صار هو في المؤخرة.. وحيدًا.. وبالتأكيد لم يكن الأمر عسيرًا على الإطلاق..»
قال (أنطونيو) والسيل ينهمر من خوذته، وكأنما صنبور صغير هناك:
- «هذا يوضح الأمر.. إنها استراتيجية رومانية قديمة لعزل المقدمة عن باقي الجيش.. لقد رأيت مثلها في (بومبي)..»
إن هذا الرجل لا يكف عن إبداء الحكمة بأثر رجعي..
كلما حدثت كارثة اتضح أنه كان يتوقعها من البداية.. فلماذا لا يمنعها إذن؟!
نظرت (عبير) إلى السهل الممتدّ أمامها يستحم في الغيث، حتى كاد يموت غرقًا.. وخيل إليها أنه يمدّ يده لها طالبًا العون..
قالت وهي تتأمل وجوههم تلتمع في البرق:
- «لقد خسرنا (روميو) وخسرنا الملك (لير) في يومنا الأول.. ماذا ترون؟ هل نستمرّ؟»
- «نكون أو لا نكون..»
كانت هذه - بالطبع - من (هاملت).. الذي أردف:
- «إن الخطر قادم في كل الأحوال.. فلنمت إذن بإرادتنا وشروطنا لا بشروطه هو..»
وراح يبحث بعينيه في الأوحال عن سيف ملقى.. عن دماء.. عن حذاء مخلوع.. لا شيء.. لقد تلاشى الشيخ كأنما لم يكن.....
وفي صمت واصلوا مسيرتهم تحت المطر.....

∞∞∞∞∞

- «إنني مندهش.. من أين يأتي كل هذا الماء؟»
قال (ماكبث) في حيرة:
- «تصوروا أن هناك قومًا في هذه الأرض يعانون من الجفاف؟! كيف والسماء بها كل هذه

المحيطات؟»
- «كما أن هناك أناسًا يموتون من القيظ.. تصوروا هذا!»
قالها (هاملت) وهو يرخي الغطاء على رأسه أكثر..
أما (عبير) فهتفت من بين أسنانها:
- «المشكلة أنني مبللة كالإسفنج.. حتى نخاع عظامي صار مشبعًا بالرطوبة.. إنني أتجمّد!»
ثم التفتت نحو (بروسبرو) قائلة في غلّ:
- «وأنت يا والدي.. ألن تفعل شيئًا؟ أم أن قدرتك السحرية لا تتجاوز بدء العواصف ولا تتضمن إنهاءها؟»
مرتجفًا قال (بروسبرو):
- «للأسف هذا صحيح.. ليست كتب السحر معي.. وإنهاء العواصف يحتاج إلى التلفظ بمقطع سرياني مكون من ثلاثين كلمة.. لا أذكرها..»
هنا رأوا الضوء..
ضوء مصباح يلتمع شاحبًا خجلًا في مكان ما وسط السهل..
وبشيء من الجهد أدركوا أنه يلتمع في نافذة كوخ..
هتفت (عبير) في حماس:
- «كوخ! مأوى!»
ثم بصوت آمر:
- «اتجهوا إلى الكوووووخ!»
قال (بتروشيو) في مرارة:
- «لو لم تأمرينا بذلك لفعلناه على كل حال..»
وبعد ثوان كانوا يقفون خارج الكوخ.. ترجل (أنطونيو) عن جواده وراح يشق طريقه وسط الأوحال التي صارت عند ركبتيه.. وراح يقرع الباب بمجمع قبضته.. وهو يتأمل الجذوع التي صُنع منها هذا الملجأ:
- «افتح باسم (السناتو)[1]!»
لم يردّ أحد.. فعاد يقرع بعنف أكثر:
- «نحن بحاجة إلى المأوى..»
أضاف أحدهم:
- «والطعام!»
- «بحق (زيوس).. هلا فتحت الباب قبل أن.....» انفتح الباب ببطء.. ورأى (أنطونيو) عينين مرهقتين تتأملانه على ضوء المصباح الواهن.. ثم سمع صوت امرأة عجوز تقول:
- «تفضلوا يا أبنائي.. إن العاصفة شديدة..»
ترجل الباقون وقد تفاءلوا خيرا..
والخيول المسكينة؟ لا مشكلة هنالك لأن المرأة أخرجت لهم قطعًا من المشمع ليضعوها على ظهورها..
مشمع في عصر (شكسبير)؟ خطر هذا لـ (عبير) لحظة ثم تجاهلته لأن الجواب معروف لكل قرائنا..
وانسلّ الغارقون جميعًا إلى كوخ العجوز..
كان ضيقًا.. حتى شعرت (عبير) أنها في أوتوبيس (305) ظهرًا.. الكل يدفع بعضه.. وكوع

(ماكبث) يدخل في معدة (هاملت).. وركبة (عطيل) الهائلة تكاد أن تمزق ظهرها.. بينما هي تحطم ظهر (ماكبث)..
لكن المكان كان دافئًا وهذا كاف..
توجد نار.. ويوجد قدر معلق فوق النار.. يغلي ما به من حساء شهيّ الرائحة.. دائمًا يكون هؤلاء المنقذون قد أعدوا كمية هائلة من الحساء تكفي الجميع.. لماذا؟ لا أحد يدري.. لكن القصص تحتم هذا.. ولو لم يكونوا قد جاءوا لالتهمت العجوز كل ما بالقدر وحدها..
وراحت المرأة توزع الحساء في آنية من الفخار، فراحوا يرشفون ويجرعون ويلتهمون ويأكلون ويزدردون ويلوكون..
كيف لو عرفت المرأة كم دوقًا وإمبراطورًا وملكًا اجتمعوا في كوخها الحقير الآن؟
وراحت (عبير) وقد عاد الدم لأطرافها تتأمل العجوز..
كانت عجوزًا كأي عجوز أخرى.. لا أسنان.. ظهر مقوس.. شعر أشيب يبرز من تحت غطاء رأسها.. وشعيرات بيضاء في ذقنها..
ذلك النوع من الشيخوخة الذي يجعل صاحبته أقرب إلى ساحرة شمطاء.. ولا ينقص الأمر سوى بعض أجنحة الوطاويط في الحساء..
هل هذا ممكن؟
ممكن.....
لكن البديل الوحيد هو الخروج للعاصفة.. وعدم احتساء هذا الحساء الساخن شهي المذاق..
وارتجفت (عبير) حين تذكرت ما كانت تمرّ به منذ عشر دقائق.. لا.. هي لن تجرؤ على تكرار ذلك.. فليكن ما يكون هنا.. في هذا الكوخ الدافئ..
وما ذنب العجوز في كونها تبدو كساحرة شمطاء؟
إنها كريمة النفس مضيافة.. ويكفيها أنها جازفت باستضافة كتيبة هائلة من الغرباء، الذين لا يبدو عليهم أي نبل بعد كل ما مروا به.. ويكفيها أنها تتحمل كل هؤلاء الذين يأكلون عشاءها.. ويفعمون الجو بأنفاسهم الثقيلة.. ورائحة جواربهم بعد ما مرّ يوم طويل لم يخلعوا فيه أحذيتهم..
كان (عطيل) بحاجة إلى مزيد من الحساء لإطعام جسده العملاق..
وراح يردّد:
- «زيديني.. زيديني..»
والحساء يبلل لحيته التي خطها الشيب..
أما (بروسبرو) فقد بدأت عيناه تنعسان بالفعل من فرط الدفء والشبع.. وبدا أنه يجد صعوبة في رفع رأسه عموديًّا..
هل يوجد سمّ او مخدر في الحساء؟
لا يمكن التكهن بهذا.. والغالب أنه لا يوجد.. وإلا لمات (عطيل) قبل الجميع بعد ما انتهى من طبقه الخامس.. وتجشأ في رضا..
راح (هاملت) يترنم بعبارات الشك الشهيرة، و(ماكبث) يحلم بأن يغدو ملكًا، و(بتروشيو) يتوعد (عبير) بسوء المعاملة..
أما العجوز فجلست في ركن الكوخ القرفصاء، وراحت ترمقهم في رضا.. وبعد قليل غلب النوم الجميع..
كانت (عبير) هي آخر من أغمض عينيه..

ولكنها فتحتها بعد قليل لترى شيئًا رهيبًا.....

∞∞∞∞∞

9- مأزق جديد..

كان حافزًا خفيًا - لعله حاسة النساء السادسة أو السابعة - قد جعلها تفتح عينيها المنهكتين بعد ثوان من الغفوة.. ثوان حلمت أثناءها بالفعل.. ثم فتحت عينيها وقد أراحت رأسها على فخذ (بروسبرو) العجوز لترى..
لتري في ضوء اللهب، ووسط الأجساد النائمة التي تبعث غطيطًا كمحركات طائرات رش المبيدات؛ ترى العجوز تتحول إلى ذئب!

∞∞∞∞∞

كانت المرأة في ذات الوضع السابق، جالسة القرفصاء جوار الجدار الخشبي..
لكن أنفها راح يستطيل حتى غدا خطم ذئب..
وانتفش الشعر على جانبي رأسها.. واستطالت أذناها..
أما يداها فاكتسيتا بالشعر.. وبعد ثوان تحولت إلى ذئب عملاق - يفوق حجم المرأة بكثير - جالس على قائمتيه الخلفيتين، ويرمق النائمين في جشع..
ولعق شفتيه بلسان خشن.. فتساقط اللعاب من بينهما.. وغير مصدقة ولا فاهمة، رأته (عبير) يمدّ رأسه للأمام.. ليطبق على قماش سروال (بتروشيو) ويشرع في جرّه نحوه..
تململ الفتى النائم.. ولم يستيقظ..
إنه مخدّر! - فهمت (عبير) الأمر بصعوبة وهي ترمق المشهد بعينين نصف مغمضتين - وأنا كذلك مخدرة وإلا لأطلقت صرخة عاتية.. الفارق الوحيد بيني وبينهم هو أنني التهمت نصف طبق الطعام الذي قدمته المرأة لي.. بينما الرجال جميعًا صالوا وجالوا في أطباقهم..
ربّاه! (عطيل) لن يفيق من غيبوبته أبدًا!
ورأت (عبير) على ضوء اللهب المتراقص الذئب العملاق يتشمم جسد الإيطالي النائم.. ثم يفتح فاه ويطبق على ساعده وهو يصدر زمجرة مريعة..
لا بد من عمل شيء..
ها هو ذا الخطر الذي فروا منه ينتظرهم ها هنا..
وكالعادة ينتظرهم في المكان الوحيد الآمن الذي حسبوه كذلك..
إن هذا المسخ - الذي يجيد التنكر في صورة آدمي - لن يجد صعوبة الآن في افتراسهم واحدًا تلو الآخر..
إنه واحد من أعداء (شكسبير).. وجزء من الشيء الذي يؤدي لتآكل المملكة يومًا بعد يوم..
عليها أن تستجمع إرادتها..
عليها أن تمدّ يدها إلى.. سيف (ماكبث) الملقي على الأرض بجواره.. ما أعسر ذلك! ها هو ذا..
أطبقت أناملها عليه على صوت القضم والمضغ المحطم للأعصاب..
لو عاش (بتروشيو) فمن المؤكد أنه سيعيش أكتع..
عليها أن ترفع السيف.. لكن ما أثقله! كل ما استطاعت عمله هو أن زحزحت نصله قليلًا ليغوص وسط النيران المشتعلة..
فلنحاول ثانية!
ولكن.. صبرًا.. إن نصل السيف يلتهب بالنيران.. يتأجج.. يحمرّ لونه أكثر فأكثر.. لحسن الحظ

أن مقبضه عازل للحرارة..
إذن كل ما عليها هو أن ترفعه هكذا.. وهوب! تهوى به هكذا.. على ردفى الذئب الذي كان على بعد قليل منها..
وشمّت رائحة شعر يحترق..
لكن ما شمّته أكثر كان هو العواء.. نعم.. شمّت العواء..
عواء له صوت الحريق ورائحة الحريق.. عواء لم ولن تسمعه السهول بعد هذه المرة..
وفي الثانية التالية رأت الذئب يزيح باب الكوخ بخطمه ومخالبه.. ثم ينطلق إلى الليل المظلم بالخارج لا يلوي على شيء وصرخاته تثقب سمعيها..
لقد فعلتها.. فعلت.... ها!!!
ونامت من جديد بضع دقائق..
وحين فتحت عينيها؛ أدركت أن رذاذ المطر يدخل الكوخ، والريح تسبقه، وأن الباب ينفتح وينغلق في جنون، وأن النار مهددة بأن تنطفئ..
لهذا تحاملت على نفسها حتى زحفت إلى الباب.. واستخدمت سيف (ماكبث) بعد ما غرسته في الأرض وراء الباب، كمزلاج يمنعه من الانفتاح..
ثم تذكّرت ذراع (بتروشيو)..
زحفت إلى مكانه، وتأملته في فضول..
كان الذراع ممزقًا متهتكًا غارقًا في بركة من الدماء.. هذا متوقع..



ثم تذكّرت ذراع (بتروشيو).. زحفت إلى مكانه، وتأملته في فضول..

المشكلة هي أن (بتروشيو) نفسه لم يكن متصلًا بذراعه.. بل لم يكن في الكوخ أصلًا! متى حدث هذا؟

لا بد أن شيئًا ما دخل الكوخ في الدقائق التي غفت فيها، وأخذ (بتروشيو) معه.. لأين؟ لا أحد يعرف.. للمكان الذي ذهب إليه كل المختفين السابقين: (روميو) و(لير)..
وأسندت رأسها للباب، وواصلت نومها العميق..

∞∞∞∞∞∞

في الصباح شعرت بيد عنيفة تهزها مرارًا..
- «استيقظى! يا لكسلك الشديد!»
فتحت عينيها فوجدت (عطيل) يرمقها في ضيق.. وعيناه الصفراوان تلتمعان وسط وجهه الأبنوسى..
وسمعت (هاملت) يقول وهو يتثاءب:
- «أرجو ألا تخبرها بفقد (بتروشيو).. فهذا سيسبب توترها!»
قال (ماكبث):
- «بل هي تعلم.. فها هي ذي نائمة جوار الباب، ويبدو أنها استعملت سيفي في تثبيت الباب.. ولكن أين العجوز؟»
نهضت (عبير) وتمطّت.. ثم سألت:
- «هل توقفت العاصفة؟»
- «نعم.. ماذا تعرفين عما حدث؟»
- «كل شيء..»
وحكت لهم تفاصيل الليلة الرهيبة.. الذئب.. والذراع.. إلخ..
قال (أنطونيو) وهو يذرع الكوخ جيئة وذهابًا:
- «اللعنة! إن (شكسبير) سيخرب بيوتنا..»
- «يجب أن يجدنا أحياء ليفعل ذلك.. من الواضح أن أحدنا لن يعود من هذه الرحلة..»
جلست (عبير) جوار (هاملت).. وقالت:
- «ما يضايقني هو أنني لن أعرف أبدًا ما كان (بتروشيو) سيفعله في باقي المسرحية.. لقد نسيت قصتها تمامًا..»
قال (هاملت) بابتسامة مريرة:
- «جميل أنك مرهفة الحسّ إلى هذه الدرجة.. على كل حال لم يكن الكثير سيحدث.. كان سيواصل تحطيم كبريائك حتى تصيري أكثر الزوجات طاعة في (بادوا)..»
- «هكذا فقط؟ إن قصتها لا تختلف عن فيلم (آه من حواء) إذن..»
- «ومن قال العكس؟»
سألته وهي تتأمل الرجال يدفنون ذراع (بتروشيو) في أرضية الكوخ، وهم يرددون بعض الصلوات:
- «وماذا عن الملك (لير)؟ ما هي بقية القصة؟»
قال لها وهو يمسح وجهه:
- «إنها مأساة حقيقية.. ربما هي من أقسى مآسي (شكسبير) حيث تنهزم البراءة والطهارة والصراحة هزيمة مدوية.. ولحسن الحظ أن هذه المسرحية الدامية قد تلاشت من عقلك..»
- «لكني أريد أن أعرف..»
- «حسن.. متى توقفت القصة بالنسبة لك؟»

- «عندما ذهبت (كورديليا) لتطلب من زوجها - ملك
فرنسا - أن يخرج جيشًا لقتال أختيها اللعينتين..»
قال (هاملت) غير ناس أن يلتهم قطعة من القديد كطعام إفطار:
- «هم م م.. توجهت (كورديليا) مع جيشها الفرنسي إلى (دوفر).. وذهبت لترى أباها.. فكان ما أثار حزنها ولوعتها أن الأب لم يتعرفها.. لقد أودي الخبال والمعاملة القاسية بعقله..
لشد ما كانت لحظات أليمة من البكاء والعويل المتبادل!
لكن الشريرتين سمعتا بقدوم أختهما.. واستعد زوجاهما بجيش إنجليزي قوي..
وتم الصدام بين الجيشين.. صدام ليس من صالح الفرنسيين.. وسرعان ما تم أسر (كورديليا) الطيبة وأبيها..
وماتت (كورديليا) في السجن.. قتلوها.. وراح العجوز يبكي جوار جثتها.. يا لها من مأساة!
لكن الأفاعي ماتت بسموم العقارب.. فقد دبّ الخلاف بين الأختين الشريرتين.. ودست (جونريل) السمّ لأختها (ريجان)..
ثم إن زوج (جونريل) عرف أنها تخونه مع إيرل (جلوسستر).. ورمى بها في السجن حيث قتلت نفسها!»
- «يا للهول! إن (شكسبير) قد عامل هذه الأسرة أسوأ معاملة..»
- «حقًّا.. لكن المأساة تنتهي نهاية سعيدة بأن يحكم دوق (ألبانى) (بريطانيا).. ويستعين بمستشاره إيرل (كنت).. ويعم العدل والسلام الربوع..»
- «بعد هذه المذبحة؟»
- «نعم..»
- «ليست قصة عبقرية جدًّا..»
ابتسم، ومسح أنامله في خرقة قماشية.. وقال:
- «ليس المهم بالنسبة لقصص (شكسبير) ماذا يحدث؟ المهم هو كيف يحدث؟ أكثرها قصص تقليدية مطروقة.. لكنه يثريها إثراءً شديدًا بحواره الفخم، وحكمه العميقة، وفهمه للنفس البشرية.. إن تلخيص أية قصة لـ (شكسبير) يعني تدميرها تدميرًا..»
ثم قال وهو ينهض:
- «هلمي.. يجب أن تأمرينا بالتحرّك..»
هكذا أمرها بإصدار الأوامر! ولم تجد شيئًا آخر تفعله سوى أن تطالب الجالسين بالتحرّك..
فقد حان الوقت..
اتجه (عطيل) للباب الخشبي وحاول فتحه..
استغرق لحظة أطول من اللازم.. ثم غمغم في عدم فهم:
- «إنه موصد!»
هرعت (عبير) غير فاهمة لتقف جواره تتحسس الباب:
- «كيف؟ لقد كان مفتوحًا والعاصفة تقتحمه.. حتى اضطررت إلى أن أسدّه بسيف (ماكبث)..»
- «لكنه موصد..»
وقطب جبينه الأسود مفكرًا:
- «هناك من وضع شيئًا وراءه.. صخرة مثلًا..»
- «ولكن لماذا؟»
- «لأنه يدبر لنا مصيبة بالتأكيد..»

وراح يدفع الباب بعضلاته القوية حتى نفرت أوردته، دون جدوى..
القرط في أذنه يهتزّ باستمرار.. وعصبيته تزداد..
قال (هاملت) مرتجفًا:
- «سيحرقون الكوخ حتمًا!»
قالت (عبير) وهي تنظر لأعلى:
- «لا أظن.. إن خيالي أكثر خصوبة من هذا.. والنار أسلوب تقليدى مملّ..»
- «إذن ما هو الأسلوب الذي تفكرين فيه؟»
- «هذا الأسلوب مثلًا؟»
قالتها وهي تشير إلى فتحة المدخنة..
فمن الفتحة انساب ما بدا لهم للحظة كابوس أسود عملاق..
ثم أدركوا - وسط هلعهم - أن هذا جيش من الوطاويط..

∞∞∞∞∞∞

10 – إننا نقترب..

- «وا روحَ أبي! إنهم يهاجمون!»
- «وحق (زيوس).. يا لشراستهم!»
- «اضرب يا (هاملت).. واللعنة على من يصرخ أولًا: كفي!»
- «مام ماميا!»

شرع كل منهم يصرخ، ويستغيث على طريقته الخاصة.. وهو يطوح بذراعيه يمينًا ويسارًا محاولًا إبعاد هذه المخلوقات الشنيعة..
لم تكن وطاويط.. فهي تبصر جيدًا.. والوطاويط ضريرة..
لم تكن وطاويط.. فحجمها أكبر وطباعها أشرس..
لم تكن وطاويط.. فسلوكها الجماعي مربك..
وتتحرك في جماعة متزاحمة كأنها جسم واحد أسود غليظ..
شرعت تعض الآذان، وتغرس مخالبها في العيون، وتلوك الشفاه..
بينما الكل يصرخ هلعًا وألمًا..
والأسوأ أن (عطيل) – القوة الغاشمة – راح يطوح بسيفه وذراعه ذات اليمين وذات اليسار..
والويل لمن يقف في طريقه من زملائه البائسين..
تمرّغت (عبير) على الأرض، وغطت رأسها بساعديها..
كيف يمكن الفرار من هذه المصيدة؟
لم تدر متى انفتح باب الكوخ، ولا متى خرج سرب الرعب من فتحته.. لكنه هذه المرة لم يخرج وحيدًا..
كان يحمل بين مخالبه جسدى (عطيل) و(بروسبرو).. برغم صراخهما ومحاولتهما الفرار..
وكان كل مشغولًا بنفسه.. فلم يجرؤ أحد على التصدي..

∞∞∞∞∞∞

وحين هدأت المعمعة..
وحين استلقي الأبطال على الأرض يلهثون، ويبحث كل منهم في جسده عن بعض الأطراف السليمة التي يمكن النهوض عليها..
وحين أدركت (عبير) أن هذا الذي يسيل من جبهتها ليس عصير طماطم، بل دم.. دم حارّ مالح المذاق..
عندها أدركوا أنهم خسروا المعركة.. وربما الحرب..

- «لا جدوى!»

قالها (هاملت) وهو يبصق دمًا.. وأردف:

- «إننا نواجه عدوًّا أقوى منا بكثير.. عدوًّا له قوة الطبيعة وشراسة الأعاصير ومضيّ الشهب.. عدوًّا لا شكل له ولا مكان..»
- «اخرس!»

هذه كانت من (ماكبث) الذي تحامل على نصل سيفه لينهض.. وقال:

- «كفي تبديدًا للمعنويات..»

- «معنويات؟ سمعت عنها لكني لا أعرف ما هي..»
نظرت (عبير) حولها فلم تر سوى (هاملت) و(ماكبث) و(أنطونيو).. لم تبق سوى ثلاث مسرحيات لـ (شكسبير) في هذه المملكة..
هل هذا عدد كاف؟ لقد فقدوا (عطيل) الثور الآدمي الذي كان قادرًا على انتزاع جبل من مكانه..
وفقدوا (بروسبرو) الذي كان يملك السحر.. وهو سلاح ماض في مملكة السحر هذه..
فهل توجد فرصة للمقاومة حقًّا؟ هل يوجد أمل؟
قالت من بين أسنانها الدامية:
- «من هؤلاء؟ ماذا يريدون منا؟»
ثم عادت إلى طبيعتها الطفولية.. وغمغمت:
- «لا أريد الاستمرار في هذه القصة اللعينة.. أريد قصة أخرى..»
قال (ماكبث) في سخرية:
- «لا حلّ أمامك سوى الاستمرار.. وحتى يأتي (المرشد) ليصطحبك.. إلا إذا أردت البقاء هنا للأبد..»
نظرت حولها.. ووجدت أن كلامه ليس خاليًا من المنطق إلى هذا الحدّ.. فهزّت رأسها.. وتحاملت على نفسها لتنهض شاعرة أنها كومة من البلى بعثرها صبى..
قالت وهي تلملم أشلاء ثوبها:
- «ناولني عباءتك يا (هاملت)..»
- «لِمَ؟ لابد لـ (هاملت) من عباءة مبطنة يطوحها يمينًا ويسارًا على المسرح، بينما هو غارق في حيرته السرمدية..»
صاحت في عصبية:
- «فليكن عندك بعض الذوق! ألا ترى حال ثيابى؟!»
بدا عليه الحرج من حماقته.. فخلع عباءته ووضعها على كتفيها.. مغمغمًا بكلمات غير مفهومة..
وضمت (عبير) العباءة على صدرها، مبتسمة لرؤية (هاملت) هكذا دون عباءته.. كأنه دجاجة تم انتزاع ريشها..
ثم إنها نظرت للباب المفتوح.. وهمست:
- «ماذا تنتظرون؟ هيا بنا..»

∞∞∞∞∞

بالطبع لم تكن الخيول موجودة..
فرّت في العاصفة، لأنها خيول ذكية تعرف ما ينبغي عمله..
كان الوحل في كل مكان.. لكن الأمطار توقفت..
وبدأت الشمس تسطع على حياء، محاولة في جهد أن تجعل الأرض أرضًا من جديد..
وتمضي المسيرة البائسة..
كان (هاملت) قريبًا من نفسها إلى حدّ ما..
صحيح أنه غامض.. معقد.. كثير الشرود.. لكنه كان لطيف المعشر إلى حدّ ما.. لا يخلو من الدعابة.. و(جنتلمانًا) حقيقيًّا..
إن (ماكبث) عصبى مغرور.. ثم إنه قاتل.. لن تنسي هذا..

و(أنطونيو) شبيه بطاووس آدمى غير ودود على الإطلاق..
لهذا مشت جوار أمير (الدانمارك) المتردّد.. وسألته:
- «هل لي أن أعرف كيف كان (عطيل) سينهي مسرحيته؟»
- «كان سيقتلك طبعًا..»
- «وأنا بريئة؟»
- «هذا يحدث كل يوم.. إن مسرحية (عطيل) تحكي عن الشك وخيانة الصديق الحسود.. لقد أحبك (ياجو) وحسد (عطيل) على امتلاكه إياك.. لهذا دقّ هذا (الإسفين) بينكما..»
صمتت بعض الوقت مفكرة.. ثم سألته:
- «وماذا عن مسرحية (بروسبرو)؟»
- «تعنين (العاصفة)؟ إنها مسرحية باسمة حقًّا.. كان (بروسبرو) البائس يسعى إلى العثور على عريس لك.. ووقع اختياره على ابن أخيه.. لهذا أثار تلك العاصفة التي تسببت في غرق مركب أخيه جوار الجزيرة.. وبهذا يرتب لك أن تلتقي بالشاب ويقع كل منكما في غرام الآخر..
ثم يصل الأخ الخائن (أنطونيو) إلى الجزيرة، مبتلًا منهكًا..
ويتعرف أخاه.. فيجزع.. لكن (بروسبرو) يطيب خاطره، ويسامحه على خطاياه.. وتعم السعادة الجميع..»
- «هذا غريب! لا قتلى ولا صرعى؟»
- «كان (شكسبير) متعكر المزاج حين كتبها على ما يبدو..»
ثم تصلّب وهو ينظر إلى الأفق.. وهتف:
- «لحظة.. هل ترين هذا؟»
وتوقف الحشد ورفعوا عيونهم إلى أعلى حيث أشار (هاملت)..
- «هذا هو.....»
- «بالتأكيد..»
فهناك - على بعد كيلو متر أو اثنين - رأوا القصر.. القصر الشامخ الذي يشق عنان السماء، خنجر بتار يمزق السحب وثمة برج عال يبدو كأنه يجتذب ألسنة البرق إليه.. وغابة تحيط بقاعدته..
همست (عبير) وهي تبلل بلسانها شفتيها:
- «هل هذا القصر من عوالم (شكسبير)؟ هل رآه أحدكم من قبل؟»
- «لا......»
قالها (ماكبث) وهو يتحسس مقبض سيفه..
- «بالتأكيد لا..»

∞∞∞∞∞

- «أعوذ بالله!»
قالتها (عبير) وأردفت:
- «يبدو كقلعة (فرانكنشتاين).. أو كقلاع الساحرات في القصص..»
قال (أنطونيو) وهو يشمخ برأسه:
- «لا أعرف هذا الدكتور (فرانكتايوس).. لكنى أفهم ما تعنين..»
ثم أردف.. وقد عاد إلى طبيعة المحارب:

- «إن هذه المرتفعات تعزلنا عن القصر.. يجب أن نحاول اجتيازها قبل أن يجنّ الليل.. سنمزق الأوغاد سريعًا ثم نعود لمواصلة أعمالنا.. إن (ماكبث) متلهف على قتل (بانكو).. و (هاملت) يريد إثبات الجرم على عمه.. وأنا في أمس حاجة للتواجد لحظة اغتيال (قيصر)..»
تنهّد (هاملت) في يأس:
- «أعتقد أننا لن نعيش لنرى هذه الأحداث لكننا على الأقل نحاول.. نحاول..»
(ماكبث) قال في ثقة وهو يشير إلى صدره بإبهامه:
- «أنا لن أموت.. هذا مفروغ منه..»
- «وحتى تتحرك أشجار الغابة.. سئمنا هذه النبوءة..»
قالت (عبير) وهي تشير إلى قاعدة القصر:
- «بمناسبة هذه الأشجار.. هناك.. هل ترونها؟»
ضيق (ماكبث) عينيه، وسألها بنفس الثقة:
- «ماذا بها؟»
- «إنها تتحرك!»

∞∞∞∞∞∞

بدءوا في تسلق الصخور الوعرة التي تشكل حزامًا حول القصر..
كان مجهودًا مضنيًا ممزقًا للأكف والأقدام..
فالصخور لم تكن ترتفع إلى أعلى باستمرار.. ولم تكن تهبط لأسفل بانتظام.. بل هي أقرب إلى حفنة من الخناجر مغروسة في الأرض ونصالها لأعلى..
كان (ماكبث) في حالة نفسية غاية في السوء، يولول كالثكالى وقد أدرك أن نهايته دانية حتمًا..
وقالت له (عبير) مواسية:
- «لا تقلق.. إن خداع النظر يحدث للجميع..»
- «لم يكن خداع نظر.. كلنا رأيناه.. كانت رسالة موجهة لى بوضوح تام.. نوعًا من التلويح بالسبابة للتوعد..»
واستطرد قائلًا:
- «إنني ميت.. فلتغفر لى السماء خطاياي.. لقد كنت أنت السبب في كل هذا.. لقد جعلت فكرة الملك طموحًا دائمًا مسيطرًا على كل جوارحي.. وكنت على استعداد لعمل كل شيء.. لقد أحببتك حقًّا ولم أكن أبغى أن تريني في ثوب الفاشل الضعيف..»
- «كل هذا من أجل أشجار تتحرّك؟»
- «بل من أجل نبوءة تتحقق..»
أخيرًا فرغوا من اجتياز حزام الصخور..
لكنهم لم يفرغوا من الوصول إلى القصر..
كان هناك حزام رهيب من المستنقعات يمتد إلى حيث لا ترى العيون، وشعرت (عبير) بغصة في حلقها وهي تتأمل هذا المشهد..
- «هذا ما كان ينقصنا..» - قال (هاملت) في قنوط - «هذه المستنقعات اللعينة صالحة تمامًا لابتلاع اثنين أو ثلاثة منا..»
- «أرى أن نعود لـ (شكسبير)..»
قالها (ماكبث) في وجوم، وهو ينظر للأرض..

- «إن العودة ستكون أخطر من التقدم..»
في تصميم قال (أنطونيو):
- «لا عودة.. سندور حول هذه المستنقعات.. ولا بد من شريط من الأرض الثابتة يمكننا اجتيازه..»
وراحوا يدورون حول الموضع الرهيب..
كان هذا خطرًا.. فالأرض زلقة تمامًا.. والظلام قد بدأ يحلّ..
ومن بعيد سمعوا عواء ذئاب..

∞∞∞∞∞∞∞

كان الليل قد كسب المعركة، حين وقفوا على حافة الهاوية يرمقون القصر الواقف مسربلًا في الظلام.. وقد بدأت بعض الأنوار المبهمة تلتمع من خلال نوافذه..



كان الليل قد كسب المعركة، حين وقفوا على حافة الهاوية
يرمقون القصر الواقف مسربلًا في الظلام..

ثمة من يعيش هناك.. أم الأصح لغويًا أن نقول (ثمة ما يعيش هناك)؟ لا يهمّ..
بدا القصر كوحش غاف ينتظر من يوقظه..

الظلام دامس.. لكنهم يرون الهاوية تحت أقدامهم.. هاوية لا آخر لها ولا قرار.. كأنها فم الوحش الغافي ذاته..
لا شعوريًّا مدت (عبير) يديها تمسك بمعصمي كل من (هاملت) و (أنطونيو).. وتقلصت أناملها هناك..
إن (ماكبث)..... ولكن..... أين (ماكبث)؟
إنها لم تره منذ بدءوا الدوران حول المستنقعات..
التمع السؤال في عينيها، وفهمه (هاملت) فقال بتؤدة:
- «لا تنظري للوراء.. لقد فقدنا (ماكبث) في المستنقعات منذ ساعة.. لم يكن ممكنًا عمل شيء..»
- «بهذه البساطة؟»
- «كان سيفعل نفس الشيء لو كنت مكانه.. ثم إنه قد تهيأ للموت كما لم يتهيأ أحد.. لقد رأي الأشجار تتحرّك فكأنه رأى ملاك الموت..»
قال (أنطونيو) وهو ينظر إلى قدميه:
- «كيف نعبر هذه الهاوية؟»
وكأنه كابوس؛ أشار (هاملت) إلى الجواب..
كان هناك جذع شجرة موضوعًا على حافتى الهاوية، كأنه جسر.. جسر طويل جدًّا.. من أين جاءوا بشجرة بهذا الطول؟ شجرة طولها لا يقل عن عشرين مترًا..
هتفت بلهجة تقريرية نهائية:
- «هذا لن يكون.. لن أعبر هذه!»
- «ولكن يا (أوفيليا)..»
- «لن يكون.. إن الدوار يصيبني على سطح دارنا.. فما بالك ب...؟»
- «يمكنك أن تغمضي عينيك!»
- «قلت لا! أأعبر هذه الهاوية مغمضة العينين؟!»
لكن الجواب كان سريعا جدًّا، وكان مقنعًا..
إذ رأوا جمرات متقدة تبرز من الظلام خلفهم لتحيط بهم.. جمرات حمراء موزعة على شكل أزواج متقاربة.. وسمعوا ذلك الصوت المميز..
وووووووووه!
- «ذئاب!»
- «لقد تقرر الأمر..»
- «إن التراجع مستحيل..»
- «معنى هذا أن صاحب الذئاب يريد منا أن ندخل القصر
- «ولكن.. الظلام.....»
وووووووووه!
كان هذا أكثر إقناعًا..
وعلى الفور وضعت (عبير) قدمها على جذع الشجرة.. لم يكن الأمر سيئًا إلى هذا الحدّ.. وسرعان ما وضعت القدم الأخرى..
وبحذر بدأت المشي فوقه، محاذرة من السقوط في الهاوية.. متهيبة من النظر لها.. حبست أنفاسها وراحت تتقدم..

ووراءها سمعت خطوات (هاملت).. ثم خطوات (أنطونيو) الثقيلة..
رفعت ذراعيها بمحاذاة جسدها، وواصلت السير..
- «إن الذئاب تتقدّم!»
قالها (هاملت) وهو ينظر إلى الوراء..
إذ رأى جمرتين حمراوين تتقدمان فوق جذع الشجرة باتجاه (أنطونيو).. لكن الذئب حافظ على المسافة..
ولم يحاول أن يدنو أكثر..
وتواصل (عبير) تقدمها الحذر..
لقد اجتازت ثلث المسافة الآن، وهي ذي تري القصر المخيف كأوضح ما يمكن.. لقد صارت في أحضانه حقًّا..
تواصل المزيد من التحرّك..
صوت صرخة.. صرخة عالية مذعورة، تتلاشى تدريجيًّا لتذوب في الأبدية.. وتمتزج بالصدى..
- «ما هذا؟»
قال (هاملت):
- «لا تنظري للوراء.. إنه (أنطونيو)! لقد هاجمه الذئب ووثب إلى الهاوية معه!!»
يا للكابوس المريع! المشكلة أنها لا تستطيع أن تتحرّك بشكل أسرع.. وهي تعرف أن ذئبًا آخر يخطو فوق الجسر الآن..
- «(هاملت).. إنه سيهاجمك!»
- «ليس بعد.. استمري في الحركة.. استمري...»
واصلت التقدم، وقلبها يخفق كالطبل..
سمعت صوت زئير.. فنظرت للوراء..
وكان ما رأته متوقعًا.. الأمير (هاملت) يحاول التماسك، بينما ذئب يقف على قدميه الخلفيتين منشبًا أنيابه في صدره..
كان الذئب عملاقًا يفوقه في الطول..
أحست بالهلع.. وبعجز مريع..
إن الجسر لا يتسع للعودة للوراء.. ولا يتسع سوي لواحد فقط.. أي أنها لا تستطيع التراجع..
يمكنها أن تقفز لأسفل.. ولكن لأية غاية؟
هو ذا (هاملت) يطلق صرخاته الحرّى..
يحاول التشبث بمكانه..
لكن الذئب كان شرسًا.. وكان انتحاريًّا.. كأنه ياباني من (الكاميكاز) الذين كانوا يركبون على الطوربيد، ويقتحمون به السفن الأمريكية في الحرب العالمية..
وسرعان ما هوي الاثنان إلى أسفل ليبتلعهما الظلام..
وخطر لـ(عبير) لحظتها خاطر واحد سخيف..
إن (هاملت) لم يصرخ عندما هوى لأسفل..

∞∞∞∞∞∞

11 - الواقع.. ومن معه..

نظرت للوراء فلم تجد المزيد من الجمرات المتقدة..
إن الذئاب لن تتولى أمرها بدورها..
كان عليها أن تقطع الربع الباقي من جذع الشجرة، في الظلام وبساقين صنعتا من (السباجيتي)..
لكنها فعلتها.. دامعة العينين.. مفككة الأوصال..
أخيرًا استقرت قدماها على الناحية الأخرى للهاوية، وللمرة الأولى تقف تحت جدران القصر ترنو لأعلى..
إنه أضخم وأرهب مما تصورت..
سارت بمحاذاة الجدار.. الجدار المصنوع من قطع هائلة من الحجارة، كما تقضى تقاليد القرون الوسطى العتيدة..
كانت هناك بوابة معلق عليها مشعل..
وجوار البوابة كان ينتظرها حارس من نوع فريد..
لم يكن آدميًّا بالتأكيد.. فله ذيل.. وله شعر منتفش على جانبي الرأس.. وله عينان متقدتان.. وله زئير مرعب.. ويمشي على أربع..
يمكن القول - دون خطأ كبير - إن هذا ذئب..
تراجعت إلى الوراء خطوة..
لكن ثبات الوحش ونظرته الثابتة لها جعلاها تعرف أنه ينتظرها.. ويريد أن يقودها إلى الداخل..
دنت منه بحذر.. بحذر..
فرأته يبعد عنها مشعليه الأحمرين، ويتجه بخطمه إلى الداخل حيث تنبعث رائحة العطن والعفن..
ثم سبقها ببضع خطوات..
بصعوبة نقلت قدميها لتلحق به..
لن يكون بالداخل ما هو أسوأ على كل حال..

∞∞∞∞∞∞

هذا الممر الطويل المقبض..
الممر الذي تراه في كل أفلام الرعب، حتى حسبت أنها لقطة واحدة يستنسخها الجميع..
مشاعل على الجانبين.. ومضيفها ذو الفراء يتقدمها في تؤدة وثقة.. وهي تتبعه في بلاهة وتوجس..
تثق فى ذئب! غريب هذا حقًّا.. إن المرأة قد تعجب بذئب وقد تميل إليه.. لكنها لا تمنحه ثقتها أبدًا..
أما هنا ف.(عبير) لا تملك ترف الاختيار..
وبصوت حلقي مرور غمغمت:
- «أيها (المرشد)! تعال وخلصني من هذه القصة.. لا أريد الاستمرار.. عليك اللعنة..»
لكن قواعد اللعبة معروفة..
إنها لا تنتهي إلا حين تنتهي.. وليس مسموحًا لها بالتململ قبل ذلك..

وجدت درجات سلم حجرية.. ووجدت الذئب قد وقف متصلبًا.. كأنه يقول لها: اغفري لي.. لا أملك سلطة الاستمرار بعد هذا..
- «حسن.. أنت ذئب لطيف..»
توهجت عيناه الشرستان، ولم يردّ.....
راحت ترقى الدرجات وهي تلهث انفعالًا ورعبًا..
وكان هناك مدخل كبير.. يقود إلى قاعة كبيرة بدورها..

∞∞∞∞∞∞

كان هناك حشد من الناس يرمقونها في فضول..
كلهم جالس إلى مائدة عملاقة في وسط المكان..
وكانت هناك مشاعل في كل مكان.. ورماح يمسك بها حراس أشداء مفتولو العضلات كسيّافي ألف ليلة وليلة..
أدركت أن عليها أن تمشى إلى وسط المكان..
كان هناك مقعد.. فجذبته - كأنما في حلم - وجلست عليه..
سمعت صوت ضحكة مجلجلة تدوي في المكان..
ثم رأت رجلًا ضخم الجثة - هو صاحب الضحكة - يجلس في صدر القاعة، كأنه ملك يطلّ على بلاطه..
«هاهاهاه! أنت تتصرفين كأنك تعرفين ما أنت بصدده يا آنسة!»
لم ترد.. كانت جائعة.. وكانت مرهقة.. وفي يقينها كانت تعلم أن لقمتين من الطعام وضجعة طويلة هي كل ما يهمها في الحياة الآن.. وبعدها ليكن ما يكون..
هل سيقتلونها؟ لقد مات من هم خير منها..
هل سيعذبونها؟ من الصعب أن يوجد عذاب يفوق عذابها؛ فوق جذع الشجرة تشعر بأنفاس الذئاب من ورائها..
وكأنما كانوا يفهمون، وجدت أمامها دجاجة محمرة، ورغيفًا من الخبز، وتفاحة.. ومدية لتأكل بها..
فهم لا يعرفون الشوك ولا الملاعق..
راحت تأكل غير مبالية بهذا الحشد الذي يرمقها، ولم ترفع عينيها نحو صاحب الضحكة الخبيثة ثانية..
وحين انتهت رأت عبدًا يحمل دورقًا به بعض الماء.. فغسلت يديها.. ثم رفعت عينيها الحمراوين إلى صاحب الصوت..
كان ضخمًا مهيبًا.. له عينان لامعتان.. وكان الشعر في وجهه أكثر من اللازم مما ذكرها بوجوه المذءوبين..
وحين رفع يده أدركت أن أظفاره أطول من اللازم.. أقرب إلى المخالب.. وأن جلد يديه أسود.. أسود كيوم بلا أمل..
وإلى جواره رأت شابًّا.. شابًّا يرتدي ثيابًا مزركشة الألوان، منفرة الذوق.. كان يلوك قطعة من اللادن، ووجهه غير حليق، وله كرش لا بأس بحجمه يتدلى في استرخاء أمامه..
وفي قدميه الغليظتين رأت شبشبًا مبتذل المنظر تطلّ منه أظفار مشوّهة.. الحق أنه كان أكثر من رأت في حياتها إثارة للاشمئزاز..

على جانب الجالس الآخر كانت هناك فتاة.. فتاة ملطخة بالأصباغ ترتدي ثوبًا ضيقًا.. وقد وضعت سماعتى جهاز (ووكمان) على أذنيها، وراحت تهتزّ مع الإيقاع..
رفعت رأسها لأعلى فرأت – لدهشتها – شاشة تلفزيون كبيرة، تعرض مشاهد متتابعة من مواقف عاطفية.. وكانت الشاشة معلقة فوق الرءوس بحيث لا يفلت منها أحد..
أين هي؟
ما هذا المكان؟ ومن هؤلاء القوم؟
قال الجالس على العرش بصوت مجلجل واثق من نفسه:
- «اسمحوا لي أن أقدم لكم ملهمة هذا العالم.. ومالكة هذه الأرض.. الآنسة (عبير) صاحبة الخيال الخصب الذي لا يكف عن التوالد.. كأرنبة برية يستحيل منعها من أي شيء..»
هتفت (عبير) في هستيريا:
- «ومن أنت؟ من أنتم؟»
قال بذات اللهجة الواقعية:
- «لنكن واقعيين.. أنت في قبضتنا وليس من حقك إلقاء الأسئلة..»
في رقاعة قالت الفتاة، وهي تتمايل على النغم:
- «إنها بلهاء.. تحسب أن الأسئلة لا بد أن تحظى بإجابات..»
وقال الفتى ماضغ اللادن:
- «وهي قبيحة كذلك.. و(مخها لاسع)..»
عادت (عبير) تكرّر في حنق هذه المرة:
- «يبدو أن بالكم رائق ها هنا..»
قال الفتى في رضا:
- «إنها مسألة (دماغ) كما ترين..»
وتوقف ليرمق الشاشة المعلقة فوق الرءوس، في اهتمام شديد..
- «إنها ستعود لزوجها.. لقد تخلى عشيقها عنها..»
قالتها الفتاة وهي تتابع أحداث المسلسل المعروض على الشاشة، والذي يُظهر بطلة ما تتحدّث إلى بطل ما.. في مشهد ما..
- «لكنها ستتركه بدورها وتهرب مع رجل آخر.. أما هو فسوف يحبّ زوجة هذا الآخر.. إن (ريدج) يعرف ما يفعله حقًّا.. ولد (مِخَلّص) حقيقي..»
قالها الفتى بدوره دون أن يكف عن متابعة الشاشة بعينيه..
هنا انبرى الرجل الجالس على العرش يقول لـ (عبير):
- «على كل حال.. أعتقد أننا مدينون لك بتفسير ما.. قبل أن نزيلك من الوجود.. هذه هي الحقيقة المريرة.. أنت في الواقع لا شيء يا (عبير).. مجرّد فتاة قبيحة فقيرة تهوي أحلام اليقظة.. وقد بنيت عالمًا كاملًا من هذه الأحلام.. واعتدتِ أن تجعلي منه مهربًا سحريًّا من واقع المرير.. لكننا ها هنا كي نضع النقاط على الحروف..»
وأشار بمخالبه إلى صدره.. وقال:
- «لنقل إني أنا الواقع ذاته.. بقسوته.. بشراسته.. بمخالبه.. ليس هذا كلامًا فلسفيًّا أو رمزيًّا، بل هي الحقيقة كلها.. ولا شيء سواها..
إن سلطاني يتضخم كل يوم هاهنا.. أنا الذي التهمت هذه المملكة كلها.. التهمت (هاملت) و(روميو) و(ليام) و(ماكبث) و... و... كلهم لا مكان لهم في عالمى.. إنهم خيالات صنعها حالم

مثلك اسمه (وليم شكسبير).. وأنا لا أطيق الأحلام ولا أحتمل الخيال..»
والتمعت عيناه أكثر فأكثر.. وهتف:
- «لقد التهمت مملكة (شكسبير) بأسرها.. وغدًا أزحف إلى قطاع آخر في (فانتازيا).. وبعد أيام لن تكون هناك (فانتازيا).. لن يكون هناك سوى واقع مرير قاس.. وسيتعلم الناس كيف يعيشون بلا أحلام..»
لم تستطع (عبير) الكلام من فرط هلعها.. فواصل هو ثرثرته:
- «إن الحيوانات لا تحلم.. إنها سعيدة بلحظتها الحاضرة راضية بها.. فلماذا يحاول الإنسان أن يتحذلق؟»
هنا وجدت (عبير) أحرفًا تقولها.. فسألته مرتجفة:
- « و.. ومن هؤلاء؟»
- «إنهم جندي المخلصون..»
وأشار إلى الفتى ماضع اللادن.. قائلُا:
- «إن (شكسبير) العظيم لم يبتعد كثيرًا عن الحقيقة.. فهذا هو (الابتذال) أخلص حلفائى.. إنه مقزز فخور بما هو عليه.. أما هذه..»
وأشار إلى الفتاة:
- «فهي (السطحية) إذا أردت أن تسميها كذا.. عقل أجوف.. تبرج صارخ.. فهم مسطح لكل أمور الحياة..»
ثم أشار إلى الجلوس حول المنضدة:
- «هذا هو (القبح)..»
كشر (القبح) عن أسنان صفراء نخرة، وهرش رأسه المليء بالدمامل في تلذذ.. وعاد يتابع التلفزيون..
- «وهذا هو (الحمق).. و (العدمية) و.... و....»
ثم أشار إلى الشاشة فوق رأسه، وأردف:
«وبالطبع لا تنسى التلفزيون وكل الوسائل المرئية.. إنها تجعل الناس في غيبوبة دائمة، عاجزين عن الحلم.. أكثر كسلًا من أن يقرءوا أو يفكروا.. وبهذا يكتمل انتصارى..»
وفرك كفيه في سرور:
- «إنني أرى اليوم الذي يفترس فيه الواقع الناس طيلة اليوم، يفترسهم في زحام المواصلات.. في العمل.. في لقمة العيش.. ثم يعودون إلى ديارهم الضيقة ليشاهدوا التلفزيون في بلاهة فاغري الفم.. ثم ينامون.. وينجبون أطفالًا أكثر منهم تعاسة.. يحمل كل طفل منهم حمق وحول عيني أبويه..»
من بين أسنانها قالت:
- «لقد كنت متوحشًا في تخلصك من أبطال (شكسبير)..»
- «لا بد من التوحش مع السرطان يا عزيزتي.. إننا نقطعه بالمبضع ونحرقه بالإشعاع.. فلو تركناه لأفلت الأمر من أيدينا..»
هتف الفتى ماضغ اللادن في تظرف:
- «إدّيله ماتريحوش!»
سألت (عبير) وهي تحكم وضع عباءة (هاملت) على كتفيها:
- «حسن.. أنا الآن في قبضتكم.. فماذا تريدون مني؟»

انفجروا يضحكون.. مما أثار حنقها.. فصاحت:
- «تريدون مني أن أكف عن القراءة؟»
- «بالعكس.. نريد منك أن تكفي عن الحياة!»
وفي اللحظة التالية مدّ الفتى المبتذل يده إلى جيبه.. وأخرج مطواة زنبركية فتحها.. وشهرها في وجهها.. إن المطواة تلائم طابعه على كل حال..
قالت وهي تتراجع إلى الوراء:
- «لن تستطيعوا إيذائى..»
- «أعطينا سببًا وجيهًا واحدًا يا (عسل)..»
- «لأنكم.. لأنكم جزء من الحلم.. أنا المسئولة عن صنعكم.. والحلم لا يقتل الحالم به..»
قال الواقع من على عرشه في صوت رصين:
- «أنت نفسك حلم.. هل نسيتِ؟ إن موتك سيجعل (فانتازيا) بلا وجود..»
- «سيحلم كثيرون غيري.. حتى لو مت أنا..»
- «ربما.. لكن جنودى يعرفون ما ينبغي عمله.. إن الواقع يزداد مرارة.. والحلم يزداد عسرًا.. وسيأتي يوم يكون فيه الخيال بضريبة باهظة..»
ومن أبواب القاعة الجانبية، برزت عشرة ذئاب مكشرة عن أنيابها، واستلّ الحراس سيوفهم..
وعرفت (عبير) أنها ستتحول إلى طبق من الكفتة بعد قليل ما لم تجد حلًّا..
قالت الفتاة السطحية وهي تتمايل على النغم:
- «سيكون منظرًا بشعًا.. أنا لا أطيق الدماء!»
ثم نسيت الأمر برمته.. وعادت تتابع المسلسل على الشاشة..
نظرت (عبير) إلى ما يحدث حولها.. وراح شىء ما يصرخ في عقلها بجنون: احلمى يا (عبير).. احلمي! إنهم لا يطيقون الحلم..
ولكن كيف تحلم بينما الذئاب تحيط بها..
والسيوف مشرعة في وجهها؟
أغمضت عينيها وراحت تتخيل..

∞∞∞∞∞∞

إنها تملك جناحين.. ترفرف بهما وسط المروج..
تعلو فوق الحارة التي كانت تعيش بها.. تدنو من السحب..
وترنو لأسفل فترى البشر كالنمل.. الشوارع كشقوق في قطعة (سيراميك).. السيارات كما تبدو في لعبة فيديو هائلة الحجم..
إنها تحلم بالدنو من القمر.. ترفرف حوله.. يرمقها الوجه الضاحك في شغف.. وتحلق.. تحلق.. تحلق.....

∞∞∞∞∞∞

ملامح الانزعاج في وجوههم.. أكثرهم تراجع إلى الوراء..
بعضهم ملقى جوار الجدار يتلوى ألمًا.. و (الواقع) يهتف من فوق عرشه في عصبية:
- «امنعوها يا حمقى! لا تدعوها تركز تفكيرها!»
هنا قررت أن تواصل خطتها الناجحة..

∞∞∞∞∞∞

في بلاط الملك (لويس الرابع عشر).. المتآمرون يخرجون سيوفهم من قرابها.. ويحيطون بالعاهل المذعور الذي لم يفهم بعد..
ولكن.. يتهشم زجاج النافذة.. ويدخل القاعة ذلك الفارس الرشيق الملثم.. يبارز المتمردين واحدًا واحدًا.. يطعن هذا.. ويهشم سيف ذاك.. ويركل ذين.. ثم يسقط اللثام عن وجهه.. فيهتف الملك في ذهول.. إنها فتاة! نعم هي فتاة.. و (عبير) على وجه الدقة..
شعرها ينسدل على كتفيها وهي تبارز.. تبارز.. تبارز..

∞∞∞∞∞∞

الضربات تنهال عليها.. لكنها دفنت وجهها في كفيها، ولم تكف عن الحلم.. وتسمع صراخهم.. وسقوطهم.. ومحاولتهم لمنعها..
وهوي سيف إلى جوار رأسها حيث ركعت على الأرض..
مدّت يدها إليه.. كانت تعرف ما ينبغي عمله..
أمسكته كالرمح، وأحكمت التصويب.. ثم رمت به.. فطار في الهواء ليستقر في شاشة التلفزيون المعلقة فوق رأس (الواقع)..
كر ا ش ش ش!
تحولت الشاشة إلى شظايا.. وسمعت الصراخ:
- «لقد دمرته! حطمت التلفزيون!»
- «امنعوها من مزيد من التخ.....»

∞∞∞∞∞∞

هي في الأدغال.. ترتدي قميصًا وحذاءً ذا رقبة.. وفي يدها بندقية.. الخرتيت ينقض عليها.. إنه مصمم على تدميرها.. تحبس أنفاسها.. وتضغط الزناد.. بوم! لكن الوحش مستمر في اندفاعه.. بوم أخرى! رأسه ينفجر بالدماء لكنه مستمر في الركض نحوها..
تثب إلى أعلى لتتعلق بجذع الشجرة، فيمر الوحش ما بين ساقيها.. و.....

∞∞∞∞∞∞

كان هدفها واضحًا هذه المرة..
سيف آخر في قبضتها.. أمسكته وهرعت نحو كرسى العرش..
نظر لها شاغر المقعد في غباء عاجزًا عن التملص.. فقط سألها:
- «م.. ماذا ستفعلين؟»
- «سؤال سخيف..»
وبكل قوتها أولجت السيف في صدره، فأصدر عواءً مريعًا.. عواءً يحوي كل صراخ القتلى في الحروب، وآلام الجرحى، وهدير الحافلات، وغبار المصانع، وسباب الرعاع، ونباح الكلاب المسعورة..
كل ما هو ردى ء ومقيت..
وانفجر الدم من فمه.. وتحسس بطنه.. ثم هوى أرضًا..

تدحرج جسده على درجات السلم.. ثم همد تمامًا..
عندها بدأ القصر كله يهتزّ.. وراحوا يصرخون.. قطع حجارة عملاقة تهوي من السقف لتهشم من تهشم.. وتطحن من تطحن..
لكنها لم تخش شيئًا.. القصر ينهار بعد وفاة صاحبه..
ابتسامة قاسية ارتسمت على ثغرها وهي ترمق هذا كله..
ووسط الفوضى والغبار رأته قادمًا نحوها في تؤدة..
القلم في يده.. واليد الأخرى في جيبه.. وقد بدا كأنه لا يبالي بكل هذا الهراء والصخب من حوله..
- «مرحبًا يا فتاة..»
- «مرحبًا يا (مرشد).. لقد حان الوقت..»
- «كانت مغامرة جيدة.. وأردت أن أعطيك وقتًا.. لا بد أنك تفهمين هذا..»
واصطحبها إلى خارج القصر بينما أصوات الانهيارات تصمّ أذنيها.. وقال لها وهو يتأبط ذراعها:
- «يمكن القول إنك - حرفيًّا - استطعت بالخيال أن تصرعى الواقع.. وأن تحطمى الابتذال والسطحية والقبح!»
سألته:
- «وماذا عن عالم (شكسبير)؟»
- «سيعود كما كان.. لقد أنقذته وأنقذت (فانتازيا) كلها من خطر داهم.. ولكن أبطال (شكسبير) لم يموتوا.. كانوا أسرى في هذا القصر..»
- «وماذا لو عاد الخطر من جديد؟»
ابتسم وقال وهو يرمق الأفق:
- «سنفعل ما نفعله دائمًا..»
وهتف في لهجة تقريرية:
- «سنغمض عيوننا.. ونحلم!»

∞∞∞∞∞∞

لقد انتصرت (عبير) على الابتذال والسوقية إلى حين..
أما الآن فلسوف نخوض معها مغامرة لها طابع خاص وسط الأدغال حيث القردة الثائرة وأكلة البشر والأسود والنمور والتماسيح والثيران البرية.. وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة قاسية..
لكن (عبير) لن تكون وحدها.. بل سيكون معها - بالإضافة لنا ـ قرد أبيض وسيم قوي.. اصطلح الناس على تسميته (طرزان)..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

مجلس الشيوخ..

روايات مصرية للجيب

11

فانتازيا

نداء الأدغال



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف۔انت۔ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (11)

نداء الأدغال

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبرمان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- نداء الأدغال..

تحرك.. تحرك.. يا قطار (فانتازيا) الصغير المضحك تحرك.. تحرك.. يا رسول الأحلام، وبشرى الخيال..
تحرك.. تحرك.. ولا تكف عن الانسياب وسط عوالم المبدعين، التى جعلوا منها حقائق واقعة على مر العصور..
لقد ضحك الملايين من دعابات (الجاحظ)، وبكى الملايين مع مآسي (شكسبير)، وارتجف الملايين وهم يقرءون ل. (لافكرافت)، واهتم الكثيرون بأسلوب (بوارو) الممنطق في التفكير، وحلمت مراهقات عديدات مع سطور (يوسف السباعي) الحالمة..
تحرك.. تحرك.. يا قطار (فانتازيا) كثير الصخب.
تحرك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت ل. (المرشد) وهي تنظر خارج النافذة:
- .. وهكذا تجدني قضيت أسود ساعاتي في مملكة (شكسبير) هذه..
داعب قلمه الزنبركي، وأراح ظهره إلى الوراء قائلا:
- تك تتك! أردت أن أثبت لك أنه يمكن قضاء ساعات مثيرة حتى مع (شكسبير) الذي قلت إنه ممل.. ما هو أكثر الأشياء إملالا في العالم بالنسبة لك؟
- يا له من سؤال! حصة الرياضيات طبعا..
- من يدري؟ ربما وضعتك في قصة شديدة الإثارة تدور أحداثها في كتاب رياضيات.. وسيكون (فيثاغورس) معك طيلة الوقت..
- إنك تثير شغفي حقا!
قالتها وتثاءبت.. وراحت ترمق معالم (فانتازيا) من النافذة.
كان رعاة البقر منهمكين في شنق أحد لصوص الجياد على جذع شجرة، و (أوليس) يحاول خداع المارد ذي العين الواحدة، والدخان يتصاعد من جذوع الأشجار الملقاة عند قدمي (جان دارك) المقيدة إلى جذع شجرة أغلظ..
ومن شارع جانبي برزت خمس دراجات يركض خلفها كلب أسود
وكان راكب دراجة المقدمة صبيا بادنا عليه مخايل الذكاء.. لم تحتج إلى سؤال (المرشد) كي تعرف أن هؤلاء هم المغامرون الخمسة يتقدمهم (تختخ).. وأن هذه هي شوارع (المعادي) كما تبدو في (فانتازيا)..
شارة الرجل الوطواط تسقط على الغيوم في (جوثام سيتي)، بينما يتسلق الرجل العنكبوت جدران ناطحة السحاب، وفي مكان ما تجري تجربة (كواترماس) الرهيبة، بينما البحث عن (كنوز الملك سليمان) لا يتوقف..
قال لها (المرشد):
- هل ترغبين في النزول في مكان ما؟
- دعنا نر المزيد من الاحتمالات..
أشار لها إلى بناية مظلمة كئيبة.. وغمغم

- مثلا هذه البناية.. أنت لا تعرفين أن طفل (روز ماري) سيولد فيها.. إن البناية ملأى بممارسي السحر الأسود وأكلة لحوم البشر.. هل ترغبين في تجربة هذا الكابوس؟.
- لا..
ثم بدا عليها أنها تتذكر.. فسألته والقلق على وجهها:
- يا (مرشد)!
- هم م؟
- ماذا يحدث لي في عالم الواقع؟
نظر لها غير فاهم.. وأعاد القلم إلى جيبة.. وبكياسة سألها:
- لماذا تسألين؟
- لا أدري.. لقد مر دهر طويل نسيت فيه كل شيء عن (عبير) وعن (شريف) وعن طفلي الذي تركته في أحشائي هناك.. ماذا حدث لي بعدها؟
قال لها:
- قلت لك إنه من الممكن أن يكون كل هذا حلما آخر من أحلام (فانتازيا).. ألم أقل لك إنك فقط حلمت بذلك؟ ربما لم يكن هناك (شريف) ولا طفل ولا كمبيوتر اسمه (دي - جي -٢)!
- لا تتحامق معي.. أنا أعرف جيدا أن ما نحن فيه حلم.. وأن ما هناك حقيقة.. فلا تحاول خلط الأمور
- إن الحلم والحقيقة أشياء نسبية..
ومد يده فلدغ ساعدها بإبهامه وسبابته.. فتأوهت..
قال لها وعلى وجهه علامة رضا:
- أرأيت؟ لقد اعتدنا أن نلدغ أنفسنا في اللحظات المبهرة، لنعرف ما إذا كان هذا حلما أم خيالا.. معني أنك تتألمين أن هذا هو الواقع بعينه.. دون زخارف ولا تعقيدات!
- يا سلام! هذا قياس خاطئ.. فنحن في الأحلام نشعر بالألم حقا.. نأكل التفاح ونستمتع بمذاقه حقا..
لكننا - في جميع الأحوال - لا نخلط بين الحلم والحقيقة..
قال لها وهو يحاول إنهاء المحادثة:
- حسن.. يمكننا أن نزور عالم (عبير عبد الرحمن)، لنرى ما إذا كنت على حق.. أم أنها مجرد حلم آخر من أحلام (فانتازيا)..
- إن هذا سيصيبني بالخبال حتما..
وارتعشت يداها.. واتسعت عيناها وهي تضيف:
- هل تفهمني؟ أنا أحب الأحلام.. ولكن لا بد من نقطة ارتكاز.. لا بد من أرض صلبة أقف عليها قبل أن أحلم.. ولكن لا تقل لي إنني حلم يأتي من حلم ويذهب إلى حلم.. قل هذا ل (ديكارت) أو (أرسطو)..
لكن لا تقله لي أنا..
- أفهم ما تعنين.. يمكن للمرء أن يكون مسافرا أبديا له يوم في كل بلد.. لكن لا بد من وطن.. لا بد من مصب تنتهي عنده الرحلة..
- أحيانا أتوهم أنك ذكي..
ابتسم ابتسامته السمجة.. وقال:
- حسن.. هل ننتظر إذن حتى يلوح عالم (عبير) التقليدي؟

نظرت إلى خارج النافذة لترمق معالم (فانتازيا)..
كانت الأحراش تحيط بالقطار.. وثمة نهر ملئ بالتماسيح.. وأسد يدنو من الماء بحذر ليروي ظمأه.. وأيائل تهرع في الأفق خوفا من خطر ما..
وفوق الأشجار سمعت صوت مشاجرات القردة وسبابها الشرس..
وسمعت طلقات رصاص كأنما أحدهم يتسلى بالصيد..
سألت (المرشد) وهي تسند رأسها إلى إطار النافذة:
- عالم الأدغال هنا.. أليس كذلك؟
- بلى.. إنه عالم حافل بالمتعة دون شك سألته ورأسها يصطدم برفق بإطار النافذة (وكانت تحب هذا الشعور في طفولتها حين كانت تركب القطار مع أبيها لتزور قريته):
- هنا ألقي (طرزان)؟
- ربما.. وهنا يجول الغوريلا العملاق (كنج كونج).. وهنا يتسلل (الشبح) بقناعه المميز.. وهنا يبحث المغامرون عن كنوز الملك سليمان وتطارد الغوريلا البيضاء فريق الإنقاذ في رواية (الكونغو).. وهنا تدور بعض أحداث رواية (هي) أو (عائشة).. إن الغابة حلم كبير في حد ذاتها.. لهذا كتب عنها حالمون كثيرون..
- إذن دعني أنزل هنا!..
- حقا؟ وعالم (عبير)؟
- دعه للمرة القادمة..
- ليكن ما يكون..
وجذب الحبل ليوقف القطار..
فلم تكن (عبير) هي أول ولا آخر من لبى نداء الأدغال....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 – الحملة..

ما إن غادرت القطار حتى توقعت أن تجد نفسها قردا، أو ترتدي فراء نمر، أو تجد أن لها أنيابا..
لكن التحول الذي طرأ على ثيابها كان غريبا جدا.. فقط ازدادت أناقة وجمالا.. وأدركت من الشعر المنسدل على كتفيها أنها شقراء - فاتنة غالبا – وأدركت كذلك أنها ترتدي ثوبا طويلا فكتوري الطراز (هي لم تكن تفهم معنى كلمة فكتوري.. لكنها تتصور أنها تعني كثيرا من الدانتيلا والزخارف).. لم تكن ترتدي غطاء رأس ولا حذاء.. مما دلها على أن الشخصية التي تلعبها عوملت أسوأ معاملة..
كانت الرمال في كل مكان.. ومياه البحر ترتطم بالشاطئ، فتتوغل حتى تبلل قدميها وتغطيهما بالزبد ثم تنحسر.. تاركة رمالا مبتلة لامعة..
قالت للمرشد وهي ترمق قدميها المبتلتين:
- قبل أن ترحل عني كبعوضة: أرجو أن تتكرم بتوضيح من أنا..
.. قال لها وهو يخرج القلم اللعين من جيب بذلته:
- أنت (جين).. (جين دودزويرث).. فتاة إنجليزية حسناء..
- وماذا أفعل هنا؟
- سؤال غريب.. بالطبع أنت هنا كي تنالي جزاءك!
- أي جزاء؟
- جزاء كونك ابنة ذلك الهرطيق (بول دودزويرث)!
- يا سلام! لم أعرف أن أبي هرطيق..
- إنه كذلك.. بل هو من ألعنهم.. والآن وداعا!
وقبل أن تقول كلمة أخرى كان قد رحل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى الشاطئ راحت تنظر حولها، والريح تداعب أطراف ثوبها.. وشعرها الأشقر يتطاير كأجنحة عصفور ذهبي مغرد..
وعلى يمينها، وعلى بعد خطوات، رأت ذلك العجوز الذي يرتدي قميصا ممزقا على اللحم.. وقد انفتح عنقه كاشفا عن صدره المزدان بشعر أشيب كندف القطن.. كان يبكي ويلوح بذراعيه محاولا أن يجد الكلمات..
أما في البحر فكان هناك قارب صغير.. قارب به خمسة رجال يرتدون ثياب البحارة.. هذا لو كانت الكنزة المخططة بالعرض هي من ثياب البحارة..
وكان أكثرهم شراسة - فكلهم شرسو المنظر - يقف ممسكا بغدّارة..
والغدّارة هي جد المسدس كما قلنا آنفا..
وكان هناك رجلان يمسكان بمجدافين، وينتظران الأمر بالتحرك
وسمعت العجوز يقول بصوت حلقي مبحوح:
- للمرة الأخيرة أتوسل إليك يا (جون)!
لكن الرجل الشرس كان - والحق يقال – شرسا.. وسمعته يقول في غلظة:
- لقد أغلق باب الرحمة يا دكتور (دودزويرث)..

- إذن ارحموا ابنتي.. فلا ذنب لها..
- ذنبها أنها تحمل اسمك..
ثم التفت إلى من حوله.. وهتف:
فلنعد!
- وسمعت أحد الجالسين في القارب يترنم وهو يدفع المجداف:
- «كانوا عددا من البحارة
جلسوا فوق نعش الرجل الميت
ها ها ها! معهم زجاجة نبيذ..»
أغنية البحارة الثملين الشهيرة.. وأدركت (عبير)أن هؤلاء السادة لا يبدو أنهم قابلون للتعاطف أو تغيير الرأي..
القارب يبتعد بالسرعة التي تسمح بها مجاديفه، عائدا إلى السفينة التي تنتظر دون شك في خليج قريب، وفي مقدمته يقف الشرس ملوحا بغدارته حتى لا يحاول المنبوذان - في لحظة يأس - اللحاق بالقارب أو التشبث به..
والتفتت (عبير) إلى أبيها الشيخ، الذي ركع على ركبتيه يردد دونما كلل أو ملل..
- الأوغاد! لا توجد قسوة كهذه في الكون.. إنني آبي تصديق هذا..
قالت له بصوت رقيق أدهشها أنه لها:
- لا عليك يا أبي.. إنهم لم ينجحوا بعد.. فما زلنا حيين...
لم يكن الرجل في حالة معنوية تسمح بالتفاؤل.. فقال:
- ليتهما قتلانا.. إن هذا أرحم من الموت جوعا وظمأ
التفتت إلى الأفق.. حيث بدا نطاق الأشجار الاستوائية كجنة من اللون الأخضر على مرمى البصر.. كلا.. لن يكون الموت جوعا وظمأ هينا ها هنا.. ليس مع كل هذه الخضرة وعلى خط عرض كهذا..
إن الأدغال تقتل بأساليب أخرى على كل حال..
مدت يدها لتساعده على النهوض.. فتوكأ على ساعدها مرتجفا
قالت له بلهجة اللوم:
لو كنت فقط كففت عن هرطقتك هذه..



مدت يدها لتساعده على النهوض.. فتوكأ على ساعدها مرتجفًا..

بدا عليه الحنق:

- هل جننت حتى تقولى ما يقولون؟ أنت تعرفين أنهم عاجزون عن فهم تجاربي في علم التطور..

ما زال أمامهم قرنان من الزمن حتى يفهموا نصف ما أقول..
وكنت أحمق بما يكفي كي أحدثهم عن ذلك في السفينة.. لهذا ثاروا علينا.. وقرر القبطان عقابنا بالنفي إلى هذه البقعة التي لا يعلمها سوى الله..
- وهل يملكون حق محاكمتنا وعقابنا؟
- إن سلطة القبطان مطلقة على سفينته.. ثم إنهم يملكون حق القوة.. وهو حق بليغ دامغ يسمح لمن يشاء بعمل ما يشاء..
سألته وهي تحاول تذكر التواريخ:
- هل تعني أنك شبيه ب.. ب. (داروين)؟
قال في ملل:
- لا أعرف هذا ال. (داروين).. كل ما أعرفه هو أننى عبقري.. ويبدو أن أحدا لن يعرف هذا سواي..
ثم نظر إلى الأشجار البعيدة.. وأردف:
علينا أن نتحرك.. فلربما وجدنا مأوي ما..
قالت وهي تتشمم الهواء:
- هل هي جزيرة؟
- لا.. بل هو الساحل الغربي ل. (إفريقيا).
ويبدو أننا ملامسون لخط الاستواء أو دانون من ذلك..
- هذا يفسر حرارة الجو..
وشرعا يمشيان فوق الرمال الحارقة..
هو يجر قدميه فوق الرمل جرا.. وهي تحاول ألا تحرقها الذرات الساخنة تحت قدميها العاريتين..
ثمة رائحة ما للجو.. رائحة فيها بكارة وفيها خصوبة.. وفي سرها اعترفت أن التجربة تروق لها، لكنها لم تستطع إعلان ذلك بصوت عال..
دخلا حزام الأشجار الذي سيزداد كثافة كلما توغلا فيه..
أشكال عجيبة حقا لجذوع الشجر، لم تخطر لها ببال في أكثر خيالاتها جمودا.. دعك من الشجرة الملتوية إلى الخلف، والشجرة التي تبدو كرجل يتكئ على مرفقه، والشجرة التي فتحت ذراعيها كمصارعي (السومو) اليابانيين ولاحظ هذه الشجرة التي تبدو كشخص سقط على الأرض، ويحاول النهوض في عناء.. أليس ثقيلا كشجرة؟
قال لها الأب وهو يزداد تشبثا بساعدها:
- هل تريدين رأيي؟ أشعر أن الإقامة هنا لن تكون فردوسا!
- غريب.. ولماذا أشعر أنا بالعكس؟
- لأنك غريرة بلا خبرة..
أمامهما تمتد الأشجار في كثافة لا بأس بها..
لكن (عبير) تتمكن من رؤية فرجة خالية منها على مرمى البصر.. وهذه الفرجة تحوي شيئا ما.. شيئا له معالم الكوخ..
- هذا كوخ!
- لا بد أنك بدأت الهلوسة..
تقدمته في السير وكلها فضول كي تعرف..

نعم.. لا هلوسة هنالك.. هو ذا كوخ خشبي بدائي أقيم في هذه المساحة الخالية من الشجر طبعا لأن الأخشاب التي صنع منها اقتطعت من هنا.. وقد تم ربط أجزائه إلى بعضها بحبال غليظة مهترئة..
وتأملت طراز الكوخ..
كلا ليس من الأكواخ البدائية التي تراها في السينما..
بل هو محاولة بلهاء لتقليد كوخ كامل من الريف الإنجليزي.. السقف منحدر.. وتوجد مدخنة من الطين الجاف..
إن من صنع هذا الكوخ هو أوروبي أو شخص يتصرف كالأوروبيين..
اتجهت إلى الباب فقرعته مرارا.. لا أحد يرد قال أبوها وهو يلحق بها لاهثا - خذي الحذر.. إن آكلي لحوم البشر موجودون في هذا العالم.. وليسوا كـ (البعبع) الذي كنت أخيفك به في طفولتك..
لكنها لم تكن خائفة.. وواصلت قرع الباب في إصرار..
ثم إنها تأملته باهتمام.. لم يكن موصدا بعناية.. مجرد قطعة من الألياف تم لفها حول مسمارين بارزين وعقدها؛ على سبيل المزلاج..
- هل معك سكين؟
مد يده في جيب سرواله الممزق.. ثم أخرج مدية صغيرة:
- ها هي ذي.. سرقتها من السفينة.. كنت أنوي ذبحهم وإنقاذنا..
- تذبح عشرين بحارا غاضبا بمبرد الأظفار هذا؟
سألته دون أن تنتظر إجابة.. ومدت يدها تحاول قطع الألياف.. لم يكن الأمر سهلا لكنها فعلته على كل حال..
وانفتح الباب..
وككل باب من أبواب القصص كان يحدث صريرا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإلى الداخل المظلم تسللا..
رائحة عطن ورائحة عضوية ما.. رائحة لم تستطع (عبير) تمييزها لكنها لم ترتح لها..
كانت النافذة بقربها.. فمدت يدها وفتحتها بعد أن قطعت مزلاجا آخر من الألياف المجدولة..
وسرعان ما تسرب نور النهار إلى الداخل ليجيب عن عشرات الأسئلة المعلقة حتى الآن..
أولا: هذا الشيء الذي يعلو إطار النافذة ليس شيئا..
إنه ثعبان غليظ من نوع (البوا) أو (الأناكوندا) - فهي ليست خبيرة بالثعابين العاصرة للأسف – يرقد هناك في ملل..
ثانيا: الكوخ خاو.. فلا توجد به فخاخ، ولا قاطعو روس، ولا شاربو دماء..
ثالثا: من الواضح أن الكوخ مهجور من زمن.. فالعناكب تلقي نسيجها الكسول على كل شيء..
رابعا: يبدو أن هناك فوضى لا بأس بها في أرجاء المكان.. توجد حشية بدائية مصنوعة بيد غير خبيرة، وقد قلبتها أيد غير رفيقة.. وتوجد منضدة خشبية تهشمت إلى نصفين، وزجاجات مكسورة:
(ثور في معرض الخزف الصيني).. تعبير قديم جال بذهن (عبير) ولم تقدر على إخراجه من ذاكرتها طيلة الوقت..

(ثور في معرض الخزف الصينى).. كناية عن الفوضى والدمار.
كان هنا معرض خرف صيني.. وكان هنا ثور ذو خوار
خامسا: إن الهيكل العظمي الذي تبعثرت أجزاؤه على الأرض؛ يعلن أشياء جد خطيرة..
لاحظت هذا.. ولم تعلق...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أحدهم كان هنا.

كان الهيكل مبعثرا.. لكن هناك من اجتهد ليضع أجزاءه معا.. ورأت (عبير) أباها - عالم الفسيولوجي والتشريح المقارن - ينحني ليلتقط عظام الساعد.. ثم يمسك بالجمجمة ويتأملها بعد قليل قال وهو يضعها جانبا:

- إنها امرأة.. امرأة شابة..

- وكيف عرفت؟

- لهذا أنا عالم.. ولهذا أنت فتاة عادية..

ابتلعت التلميع الساخر في هذه العبارة.. إنه أبوها على كل حال.. ومن حقه أن يسلقها بلسانه أو بحزامه الجلدي متى شاء..

لكنه عاد يواصل استنتاجاته الفذة:

- لقد ماتت بعد تهشيم عنقها!

قالها وهو يفرك قطعة من العظم اللامي المهشم بين أنامله.. فسألته وعيناها تتسعان هلعا:

- من؟

- كيف لي أن أعرف؟

- ومتى؟

- منذ فترة طويلة.. ربما ربع قرن أو أكثر!

راحت (عبير) تتأمل الكوخ من جديد.. إن اللغز يزداد غموضا.. هناك من قتل أحدهم في هذا المكان منذ ربع قرن.. وبعد هذا جمع عظامه معا وأغلق الكوخ في إحكام.. سلوك غريب بعض الشيء.. كل القتلة يحاولون دفن ضحاياهم منذ تعلم (قابيل) الدرس من الغراب وحتى اليوم..

قال الأب وهو يضع عويناته على قصبة أنفه دون أن يرتديها:

- ثمة شيء آخر.. هذه المرأة بيضاء.. إنهم لم يخترعوا الطب الشرعي بعد.. لكني أعرف جيدا ما أتكلم عنه..

- إذن هي جاءت مثلنا ها هنا..

- حتما.. وبالتأكيد قتلها نفس الشيء الذي سيقتلنا!

- إن هذا يثير البهجة في نفسي..

في النهار التالي راحت (عبير) تعد الكوخ للسكني كانت وأبوها قد قضيا ليلة نابغية في العراء، لأن أحدهما لم يجرؤ على إزعاج السيد (ثعبان) النائم فوق إطار النافذة.. وكان حجمه لا بأس به، يسمح له بأن يلتف حول رقبة المرء فيغلق حنجرته تماما..

في الصباح استطاعت أن تقنعه بالالتفاف حول غصن شجرة.. لف رأسه المثلث الصغير حول طرفه ثم راح جسده ينساب في نعومة حول باقي الغصن وكان هذا كافيا..

سرعان ما غادرت الكوخ ركضا، وطوحت بالغصن إلى أبعد ما يمكن.. داعية الله ألا تكون لدى الثعبان حاسبة الاتجاه.. وأن يضل طريق العودة..

ثم بدأت في إخراج الحشية والمنضدة، وجمعت العظام الآدمية في خرقة.. ثم أخذتها وأبوها إلى بقعة بعيدة، حيث تعاونا على دفنها والصلاة عليها..

رحمك الله أيتها الشابة البائسة.. ترى هل كنت حسناء أم قبيحة؟ طيبة أن شريرة؟ رشيقة أم بدينة؟

لا يهم.. إن العظام كلها تتشابه في النهاية حتى ولو كان علماء التشريح لهم رأي آخر..
بعد التهوية والتنظيف صار الكوخ مناسبا.. صحيح أن أحدا لن يحسبه (هيلتون) المنطقة.. لكنه مأوى وهذا كاف..
ثم إنها أعادت الحشية إلى داخل الكوخ.. إن تعريضها للشمس طيلة النهار كافي لطرد الحشرات بالتأكيد..
هنا لاحظ أبوها أن القماش ممزق في جزء منها..
مد أنامله المدببة - الشبيهة بالمبضع - ليلتقط شيئا يبرز بالداخل.. كان شيئا مستطيلا له أطراف حادة مذهبة..
وحين تمكن من إخراجه تبين لهما أنه صورة امرأة مع طفلها
امرأة شابة جميلة حقا.. على كتفيها غلام رضيع عار تماما.. ومكتنز بشدة.. وبالطبع كانت الصورة تحمل طابع الأبيض والأسود العتيق الخشن حين كان التصوير يتم على ألواح زجاجية.. والكاميرا اسمها (فوتوغرافيا)
بالتأكيد هي..
- حرام! إنها جميلة كيوم صاف..
- والطفل؟
- لا تقلقي على الطفل
قالها أبوها في سأم.. وأردف:
- بالنسبة لوحوش الغاب لا بد أن هذا الرضيع
كان نوعا من الحلوى يؤكل دون مضغ ولا طهي.. أراهن على أنه لم يتألم لحظة..
- أبي لا تقل هذا.. ربما لم يكن الطفل معها.. كانت يداه تعبثان في ثقب الحشية.. حين اصطدم بشيء آخر.. هذه المرة كان شيئا له حواف.. وله سمك.. وله غطاء جلدي.. كأنه..
- مفكرة.. إن هذه الحشية أشبه بجراب الحاوي.. ولن أندهش لحظة لو وجدت بداخلها رجل شرطة..
وأخرج المفكرة المهترئة التي انثنت أطرافها كأذني كلب..
وفتحها على الصفات الأخيرة.. وقرأ بصوت مسرحي:
- 20 أبريل 1765
إنهم لم يرحمونا.. المكيدة القذرة التي دبرها
(ماكميلان) للخلاص مني والحصول على ميراث ابني؟
قد أتت أكلها:
لا أري أملا دانيا في الخروج من هنا.. ولم تمر سفينة طيلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة.. لحسن الحظ أن الماء والفاكهة متوافران، ولولا هذا لجف لبني وما قدرت على إرضاع (جراي)...
إنني عاكفة على قراءة (الإنجيل) والصلاة.. إن نجاتنا هنا تحتاج إلى معجزة من معجزات الأنبياء.. لكني - إن هلكت - أدعو الله أن يرحم ولدي وأن يرسل عواصف انتقامه على الوغد (ماكميلان)..
ثم إن الأب قلب صحفة أخرى.. وسأل (عبير) دون أن يرفع عينيه:
- ماذا نستنتج من هذا؟
- نستنتج أن (ماكميلان) وغد
لم يعلق وراح يقرأ سطورا أخرى:

- 22 أبريل 1765:
أربعة أسابيع لى ها هنا.. وما كانت لتطول إلى هذا الحد لولا أن رجال (ماكميلان) قد بنوا لي هذا الكوخ قبل التخلص مني.. حتى الذئاب قد تحوي بصيصا من الرحمة برغم كل شيء..
ربما كان الأحكم والأصوب أن أحاول اجتياز الغابة لمعرفة ما يوجد هناك.. لكني لا أملك الجرأة كي أفعل هذا.
إن أصوات الطبول الآتية من بعيد، وأصوات زئير وحوش لا أعرف اسمها، كل هذا يجعلني غير متحمسة على الإطلاق لمعرفة المجهول.. فمن المؤكد يقينا أنه أسوأ..
ثم إن ذلك الزئير الليلي.. الزئير الذي أسمعه يوميا منذ أسبوع.. ويتعالى أكثر فأكثر؛ يقول لى أن ألزم داري..
كلما نظرت إلى (جراي) احتشدت الدموع في عيني، فهو لم يُبتل بفقد الأب وهو ما زال رضيعا فحسب، بل ابتلي بخيانة العم الشرس.. كل هذا من أجل ميراثه.. ألا تبا للمال وللأثرياء وللفقراء الراغبين في الثراء؟
انتهت السطور، فرفع الأب عينيه إلى (عبير) وقال:
- هكذا اتضحت القصة تماما..
جففت دمعة سالت من عينيها إلى خديها وغمغمت:
- البائسة! لقد عاشت ساعات سوداء..
- ساعات أخيرة سوداء.. فالمذكرات تنتهي هنا..
وأعاد المفكرة إلى.. موضعها في الحشية.. وقال:
- هذا يفسر كذلك الاختفاء المحير لأرملة وابن لورد (ستوك) كانا في رحلة بحرية ثم اختفيا.. ويزعم رفاق الرحلة أنهما سقطا في الماء، ربما لأن المرأة - فريسة الاكتئاب - قررت الانتحار..
- أنت تعرف الموضوع؟
- حتما.. إن (لندن) كلها تعرفه.. ويبدو أن هذه الرقعة من القارة السوداء موعودة بالمنبوذين سواء لثرائهم أو لاتهامهم بالهرطقة... ويبدو أن جميعهم يموت..
- لم نمت بعد..
- لن يطول الأمر على كل حال..
وتثاءب.. ثم أعلن أن الوقت قد حان للحصول على مزيد من الثمار والماء للغداء.. فالموزتان اللتان التهمهما في الإفطار لم تسدا رمقه..
تبعته وسط الأشجار فقط لتتأكد أنه لن يموت وحده..
وكان هناك دلو صدئ متآكل وجداه في الكوخ.. ووجدا أنه صالح لملئه بالماء..
وكان الماء متاحا.. ثمة نهر قريب تتدلى الغصون في مياهه.. وأمكنهما البارحة أن يريا غزالة تروى ظمأها هناك وقت الغروب..
كان كلاهما يعلم أن الأسود تروي ظمأها ليلا..
ولكن أحدهما لم يقل هذا للآخر.. كما أنهما كانا يعلمان يقينا أن الأخشاب المزخرفة الملقاة في النهر ليست سوي ظهور تماسيح.. لكنهما تظاهرا بالغباء..
فلم يكن مستحبا أن يفكرا في أن الماء الذي يشربانه هو ماء استحمام التماسيح

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الغابة تحرك الشيء...

رأي الضوء يلتمع في نافذة الكوخ.. وعرف أن هناك بشرا..
الحيوانات لا تستطيع الإضاءة لنفسها.. كما أنها جميعا تعلم أن الكوخ محرم عليها.. البشر وحدهم يقدرون على ذلك..
والتمعت أسنانه البيضاء في زمجرة غضب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المصباح يعمل بشكل لا بأس به..
صحيح أنه ظل مدفونا لزمن طويل.. إلا أنه لم يتلف.. ولم يقتض الأمر سوى تلميع زجاجه وغسله..
إنه يشتعل بوقود من شحم الخنزير.. ولم يكن هذا متاحا.. لكن الأب استخدم بعض الكحول من زجاجة يحملها في جيبه..
أما عن إشعال النار بوساطة الأحجار فليس أمرا عسيرا على عبقري مثله..
هكذا نام في رضا
وراحت (عبير) - (جين) تطالع مذكرات الأم البائسة على وهج المصباح المتراقص.. وتصغي لشخير أبيها المموسق
الكوخ آمن.. موصد بعناية..
فلماذا تشعر بهذا التوتر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - هناك من يراقبنا!!

دار حول الكوخ وهو يكتم زئيره الحيواني الغاضب..
الشعر ينتصب على مؤخرة عنقه.. وعضلاته تزداد توترا..
الصق أنفه بخشب الكوخ، وراح يحاول التلصص بين الشقوق - وما أكثرها - ليرى من هم هؤلاء المتطفلون
كان هناك وجه يترقرق في الضوء..
وجه حسناء شقراء يوحي بسلام لا يصدق..
الحسناء تمسك بشيء ما في يدها.. تتأمله في اهتمام..
إنها المفكرة! ولكن كيف تقدر؟ يبدو أنها تفهم حقا تلك النقوش غير العادية على صفحات هذا الشيء..
إنه السحر!
لكن لا بد من تدمير هؤلاء الدخلاء حالا..
اعتصرت قبضته الخنجر، وازدادت الأوردة على ذراعيه بروزا واحتقانا.. إنهما اثنان.. ولا يبدو عليهما أنهما خطران.. رائحة رجل عجوز.. ورائحة هذه الأنثى.. على كل حال هو لا يعبأ بالخطر..
ولكن.. ثمة شيء في وجهها جعله يتصلب..
لن يتحمل أن يرى على صفحة هذا الوجه الدهشة فالرعب.. فالألم.. فالخواء النهائي للمخلوقات التي كفّ قلبها عن الخفق..
وهناك.. ظل وقتا طويلا يرمق المشهد..
ثم أدار جسده على عقبيه.. وانصرف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح فتحت (عبير) الكوخ..
كان هناك شيء على بعد خطوات من الباب..
شيء ملوث بالدماء له فراء كث.. لم تكن قد رأت خنزيرا بريا في حياتها.. وبدا لها هذا الحيوان مزيجا من الكلب والفيل مبتور الخرطوم..
لكن الأب قال في دهشة، وهو يضع العوينات على عينيه:
- هذا.. خنزير بري..
ثم أشار إلى العنق المذبوح.. وأردف:
- وهو لم يمت بسرطان القولون بكل تأكيد اقشعر جسدها وهي تتأمل الجثة.. كأنه نوع من التهديد الواضح.. مثلما يذبحون القط ليلة الزفاف في الريف لإرهاب الزوجة المقبلة
- إذن فهناك بشر..
- وهم يهددوننا..
هرش الرجل رأسه الأشيب.. وفكر لهنيهة ثم قال:
- أدري حقا.. أعتقد أن مشقة تهديدنا لا تستأهل هذا.. يكفيهم أن يطلقوا صرخة عالية ونحن نيام..

كان القلق يعتصرها.. فسألته:
- وماذا سنفعله؟
- لا أعتقد أننا سنفعل شيئا.. لا يوجد مكان آخر يمكننا اللجوء إليه فلننتظر ما تأتي به الأمور..
وراحا - في صمت - يرمقان جثة الخنزير البري، ورأساهما مفعمان بالأفكار التي لا داعي للكلام عنها ها هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي فتحت (عبير) الباب:
وحين نظرت عند قدميها أدركت أنها حمقاء..
حمقاء حين لم تفهم أن الأصوات التي سمعتها ليلا لم تكن بفعل رطوبة الخشب..
هناك خنزير بري آخر، مذبوح بنفس الطريقة، ينتظرها على باب الكوخ في ذات الموضع..
صرخت ونادت أباها:
- خنزير آخر!



هناك خنزير بري آخر، مذبوح بنفس الطريقة، ينتظرها على باب الكوخ في ذات الموضع..

برز لها من داخل الكوخ مذعورا.. وراح يرمق الجثة بالغباء المناسب..

- هل أنت واثقة؟

- طبعا.. ألم نقم بدفن الخنزير الأول أمس؟
ثم نظرت له في ثبات.. وسألته:
- ما رأيك في كل هذا؟
- لا رأي لى سوى أن هؤلاء القوم سيتسببون في انقراض الحلاليف، في هذه الغاية.. لن نفهم مرادهم قبل هذا للأسف..
على الأقل كانا واثقين أن من يهددهما بشر.. بشر قادر على استعمال سكين ومقابلة إبهامه ببنصره..
وبالتأكيد يمشي على قدمين..
من المؤكد أن هناك خطرا.. وخطرا داهما.
أتراه هو الخطر ذاته الذي تهدد المرأة وطفلها منذ ربع قرن؟
إن المرأة لم تر خنازير ذبيحة لكنها سمعت زئيرا مريبا في ظلام الليل.. فهل هو الشيء ذاته؟
حاول الرجل أن يتذكر أسماء القبائل الموجودة ها هنا.. فيما يسمى الآن (غانا) أو (نيجريا) أو (الجابون)..
لكنه عجز عن ذلك..
على كل حال إن القبائل أكلة لحم البشر توجد في وسط إفريقيا، ولا توجد على الساحل.. هذا هو ما يذكره.. ويأمله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعند الظهر - بعد وجبة شهية من الفاكهة والفاكهة والفاكهة - تمدد العالم العجوز جوار الكوخ،
وقد تثاقل جفناه بفعل (تأثير التهبيط) الشهير والذي يعرفه كل من يملأ بطنه بسرعة..
تصاعد صوت شخيره هناك إذ نام في الهواء الطلق..
جلست (عبير) جواره بعض الوقت.. تتأمل وجهه المجعد الطيب المنهك.. وشعره الأشيب الذي ينساب ليغطى أعلى وجهه....
كانت هناك ذبابة تطن هنا وهناك..
حرارة الجو ورتابة الصوت تغريان بالنوم.. لكنها لم تنم إنها تشعر الآن يمدي سخفها وجبنها..
أن تمر عليهما أربعة أيام وهما بعد في هذا الكوخ لا يفكران لحظة في تركه..
من يدري؟ ربما على بعد خطوات من الغابة، توجد مدينة مأهولة، أو حامية انجليزية أو فرنسية أو هولندية
لقد اتخذا وجودهما هنا في (مرفأ الأمان وسط بحر الأخطار) قضية مسلمة ولكن من أدراهما أن هذا المرفأ مرفأ حقا؟
ليس أهون - عندما يجد الجد - من تحطيم أخشاب الكوخ، أو حرقها.. وعندئذ يعدو موقفهما في غاية الضعف..
فتاة رقيقة مثلها - نعم.. فهي الآن جميلة رقيقة - وشيخ، مزودان بسلاح هو مبرد أظفار.. يا لها غنيمة باردة!
إن عليها أن تحزم أمرها
عليها أن تنتهز الفرصة - نوم أبيها – وتحاول التوغل في الدغل قليلا.. إن المغامرة لن تكون مريعة إلى هذا الحد لأن الأدغال - حتما - ليست كما تظهر في السينما..

بحثت عن بعض الألياف كالتي أغلق بها الكوخ، ولفتها حول قدميها العاريتين على سبيل الحذاء البدائي.. إن دخول أشواك في القدم لن يكون مستحبا ها هنا بالتأكيد، مع عدم وجود مصل للكزاز (التيتانوس)..
تأكدت من أن شعرها منسق.. وثوبها مهندم..
باختصار رتبت كل احتياطاتها لعملية اكتشاف الأدغال هذه..
ونهضت.. وكالمسحورة راحت تبتعد عن الكوخ وعن أبيها النائم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن الأدغال مفزعة حقا لمن لا يعرفها..
فهناك أشياء تتحرك تحت قدميك، وفوق رأسك، وخارج مجال إبصارك.. كل غصن شجرة قد يلتف حوله ثعبان وقد لا يكون.. كل بقعة رطبة جوار الماء قد يكون بها تمساح أو لا يكون..
وخلف ظهرك قد يكون الأسد يتحفز للوثوب وقد لا يكون.
السماء تختفي وسط أغصان الأشجار المتشابكة.. ورائحة التخمر تخنق خياشيمك.. وطريقك مسدود بأوراق النباتات.. هنا فقط يمكنك أن تعرف فائدة الدليل الذي يتقدم المستكشفين في السينما، وفائدة السيف الذي يحمله ليحش به النباتات ويفتح الطريق..
لكنها تواصل التقدم.. ببطء وحذر..
رفعت رأسها لأعلى فوجدت أن هناك حشدا من المخلوقات، فقط كلها تعرف كيف تبدو كجزء من الأشجار..
ثمة عناكب هائلة الحجم تتدلى - بخيط واحد – من أعلى.. وثمة ثعابين تتثاءب في كسل فوق غصون الأشجار..
وصوت قدميها على الأعشاب الجافة!
كرراش.. شرااك!
يا له من صوت! كأن هناك قبيلة كاملة تقتفي أثرها في كل خطوة، تخطوها.. وكلهم يتصلبون عندما تتصلب!

شرررراك! كراااش!
الأشجار تتزايد كثافة.. ليست معها ساعة لكنها بالتأكيد قد توغلت في هذا الدغل ساعتين أو أكثر ولا جدوى.. لا بصيص من أمل..
لا شك أن ساعتين أخريين ستكفيان لجعل الظلام يحل.. وعندها لن تعود أبدا.. في حين يمكنها الآن أن تعود إذا تتبعت آثار قدميها على العشب المهشم.. العقل زينة.. قالتها لنفسها وتنهدت..
وقفت بعض الوقت تفكر وتصغى لأنفاسها حين شرررراك! كراااااش! كرونش!
هذا صحيح! هناك من يتحرك وراءها في هذا الدغل.. لم يكن الأمر مجرد صدى لصوت خطواتها إذن!
وكف قلبها عن الخفقان.. هذا أكيد..
ولكن أين؟ أين يقف؟ ولو عادت في نفس الطريق هل ستقابله؟
ومتى سيهاجم؟ هل تفر إلى الأمام؟ لا.. الفرار سيجعله ينقض أسرع.. أين؟ كيف؟ ماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- المنقذ الذي لا وجه له..

(إن التراجع في ظروف كهذه أخطر من التقدم)
شرااك.. كرررراش!
يا قلبي لا تتوقف.. القدمان حين تستحيلان إلى عودين من (السباجتى).. الإغماء يأتي في ظروف غير طبيعية.. وغير مناسبة..
خذ عندك مثلا خالها السباك الذي كان معلقا بالحبال، يحاول فك (جِلْبة) ماسورة صرف من الحديد الزهر.. حين غاب عن الوعي.. و.. وهوى ى.. ما.. ما الذي ذكرها بهذا الآن؟
ليس الوقت مناسبا كي..
وهنا أحست أن صدرها يضيق.. وأن قطارا من قطارات الصعيد يلتف حول خصرها.. وأن فمها ينغرس في غابة من الشعر.. وأن قوة كاسحة لا تصدق تحملها لأعلى.. وأن زئيرا حيوانيا يثقب مسمعيها
وهنا جاءت لحظة الإغماء.. وكانت مناسبة جدا.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

. كان هو هناك رآها - ذلك الكائن الأشقر الجميل - تدخل الدغل في حماقة.. وكان يعرف ما سيحدث حتما..
إنه يعرف أن هذه القرود البيضاء تسعي لحتفها دائما دون سبب.. ربما كان هو الفضول المدمر.. ربما شجاعة الجهل.. لا يدري..
كل ما يعرفه هو أن دخول الأحراش دون سلاح.. ولا استعداد.. ولا رفاق معناه الهلاك المحتم..
لم يكن يريد أن يتأذى هذا الكائن الجميل..
شيء ما في وجهه يذكره.. بماذا؟ لا يدري..
ربما يبدو مثل المرأة التي توجد في الكوخ مع رضيعها.. وهو يحب تلك المرأة.. لا يدري سببا لذلك.. لكنه حب من نوع خاص كالذي كان يشعر به تجاه القردة (كالا) وهي تلقمه ثديها رضيعا..
لم يكن يعرف أن المرأة الشقراء التي رأي صورتها في الكوخ هي المرحومة أمه.. وأنه لهذا أحبها بالسليقة.. بالفطرة..
ولأسباب مماثلة شعر بميل ما نحو تلك الفتاة الشقراء التي تحتل الكوخ.. ولحسن الحظ لم يكونوا قد اخترعوا عقدة (أوديب) بعد كي تفسد الأمر كله..
بالنسبة لنا لا يوجد تشابه بين الأم و (عبير).. لكن بالنسبة له تتشابه كل القرود الشقراء الإناث إلى حد مدهش..
وكان يعرف ما سيحدث في الدغل..
ها هي ذي القردة الشقراء تمشي في حماقة وخرق..
إنها تمشي تحت شجرة الثعبان (كا) دون أن تأخذ حذرها.. لحسن الحظ أن (كا) كان متخما..
ودون حيطة داست على أوراق (أونجا) السامة..
ولم تخف أن تمر قرب (شيتا) الذي يغفو فوق غصن شجرته..

وهنا بدأ يشم الرائحة المميزة.. رائحة الموت القادم..
هذا لن يكون غريبا.. فتلك هي منطقته.. وما كان ليحب أن يدخلها لولا أن الضرورات تبيح المحظورات..
(كورشاك) ذكر الغوريلا الضخم.. والذي احترق وسط لهيب النيران الذي سببته إحدى الصواعق، ولم يمت.. لكنه صار مجنونا كالجنون ذاته.. ولم يعد أحد يجسر على الدنو من منطقته..
وعرف أن (كورشاك) قد شم رائحة الفتاة...
لن يحاول التهامها بالتأكيد.. فهو يعرف (كورشاك)..
سيكتفي بتحطيم ظهرها إلى نصفين.. ثم يتسلى بضرب الجسد المشلول في جذوع الأشجار..
وبعدها سيبدو منظرها أقرب إلى عجينة الموز المختمر منها إلى أي شيء آخر..
وفي اللحظة التالية حدث الهجوم..
كجبل من العضلات الغاضبة وثب (كورشاك) من فوق غصون الأشجار... وهو يزأر زئيره المريع الذي مات بسببه مغامران منذ عامين..
وعلى الفور امتد الذراع الحديدي المشعر ليحيط بخصر الفتاة..
وكشر الفم عن عدد من الخناجر نسميها - مجازا - بالأسنان..
من الواضح أن القردة الشقراء قد فقدت وعيها.. كلهم يفعلون ذلك..
وهنا حان الوقت الحاسم.. إن (كورشاك) يمسك بالفتاة مشدودة بين ذراعيه المفرودتين، وهي الخطوة التي يليها - حتما - تحطيم سلسلة الظهر إلى نصفين كما نفعل نحن - لو كنا مفتولي العضلات - بعود من قصب السكر. إنه الوقت المناسب للتدخل..
يثب من فوق غصن الشجرة الذي يقف عليه، متعلقا بحبل من النباتات المتسلقة يتحكم فيه بعناية، ويقذف بنفسه أمام الوحش..
ومن حلقه تنبعث صرخة لا يمكن لحلق آدمي أن يخرجها:
- كريغهاه هـ هـ هـ!
يتصلب الوحش.. يلقي بضحيته أرضا..
الشعر على عنقه ينتصب.. حناجره تزداد بروزا..
يطلق زمجرة أخرى أشد.. ونصف جسده المحترق المشوه يرتجف بالغضب.. وكعادة الغوريلا يكور قبضتيه ويلكم صدره مرارا، محدثا صوت الطبول الإفريقية.. بوم بوم بوم!
لكن صاحبنا لا يتراجع..
إن الدرس الأول الذي تتعلمه في الأدغال هو:
لا تفر أبدا من غوريلا غاضبة.. عليك أن تثبت وتبادلها نظرات الغضب..
ولا بأس بلكمات مماثلة على الصدر. - كريغاه.. طرازان.. بوندولو.. يا پيك!
أصوات القردة هذه يفهمها (كورشاك) لكن الغوريلا يبدو مصمما على القتال..
لقد خرق القرد الأبيض المعاهدة التي تنص على ألا يحاول الدنو من هنا.. ولن يكون هناك مجال للتسامح..
وينقض الوحش على القرد الأبيض..
وينقض القرد الأبيض على الوحش..
ومن إزاره المصنوع من جلد الفهود، ينتزع خنجرا مربع الشكل.. ويولجه في بطن الغوريلا.. لكن الوحوش لا تموت بهذه البساطة..

حسن.. كان قتالا مريعا لا يمكن وصفه..
هنا تظهر فائدة التصوير السينمائي فهو يوفر الوقت، بدلا من إضاعة خمس صفحات في وصف ممل على غرار: ضربه في فكه.. فعضه في أذنه فطعنه في صدره.. إلخ.
المهم أن المشهد انتهى بالنهاية الخالدة..
الغوريلا صريع على الأرض يعالج سكرات الموت، والقرد الأبيض يضع قدما على صدره المشعر ويرفع عقيرته للسماء مرددا:
- ها هاه هاهاه هاهاه


الغوريلا صريع على الأرض يعالج سكرات الموت، والقرد الأبيض يضع قدمًا على صدره المشعر ويرفع عقيرته للسماء مرددًا: – ها هاه

إنها لوحة خالدة محفورة في ذهن كل من قرأ رواية ل (إدجار رايس بوروز).. أو رأى فيلما من بطولة (جوني ويسمولر)..

وحين انتهى القرد الأبيض من طقوس النصر؛ انحنى ليرفع الفتاة إلى كتفه.. ويغادر المكان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفاقت (عبير) من نومها لتجد نفسها راقدة جوار أبيها خارج الكوخ وكان الغروب يغلف العالم بلونه الأرجواني..
هل حقا نامت كل هذا؟
فجأة تذكرت.. لم يكن حلما.. إن ما حدث حدث حقا.. وهذه الخدوش في معصمها والتمزقات في قميصها تدل حقا على ما كان..
لقد هاجمها وحش ما.. ويبدو أنها فقدت الوعي..
ولكن هناك من حملها إلى هنا.. ومن المؤكد أنها لم تمت بعد..
(أين؟ ومن؟ وكيف إذن؟) على رأي شاعرنا الكبير (كامل الشناوي).. هل لها ملاك حارس ما؟
كان أبوها - لحسن الحظ - حيا يرزق، لكن نومه أثقل من نوم أهل الكهف، فلا بد أن زئير الوحش كان قادرا على هز الكوخ ذاته..
هزته ليصحو.. فأصدر همهمة ولاك شيئا ما في فيه..
وتساءلت: هل تخبره بما حدث؟
بالطبع لا.. فهو لن يصدق.. وسيلومها على تهورها لو صدق.. ثم إنها لا تملك أية معلومات عن أي شيء.. مجرد رؤيا مختلطة..
وبزغ شيء مستدير أبيض في الأفق..
احتاجت لوقت لا بأس به كي تتذكر أن هذا هو البدر
إنها لم تره منذ شهرين..
حنين ملح انتابها وهي ترمقه، شاعرة باشتياق إلى هذا الشيء الوحيد الباقي من عالمها القديم.. على الأقل هو معها ويعرف أين هي..
القمر صديق قديم ودود تلقاه فجأة في مكان غريب فتشعر للحظة بالأمان والحاجة إلى أن تظل بقربه أبدا..
كان أبوها قد صحا.. وبصوت خمول قال:
- حلمت أنك تصرخين!
ربتت برفق على كتفه العظمى.. وهمست:
- كنت أصرخ لأنني حلمت أنك تصرخ!
- لا بد أن هناك شيئا مضحكا في هذه القصة لكن عقلي ملبد الآن ولا يستطيع فهمها..
وتثاءب وهو ينهض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا انطفأ المصباح في الكوخ..
ومن مكانه بين الغصون، راح يرمق الملجأ المظلم بمن فيه من نائمين..
كان بحاجة ماسة إلى دخول الكوخ.. فهو يفعل ذلك بانتظام منذ نعومة أظفاره.. يدخله ويلمس كل شيء ويتشمم كل شيء.
إن القصة مبهمة في ذهنه..
لكنه يعرف جيدا أنه ينتمي إلى هذا المكان..

حين فتح عينيه على العالم لم يعرف له أما سوى القردة طيبة القلب (كالا).. كانت تركبه على ظهرها.. وتلتقط الحشرات من شعره لتلتهمها في شغف وتطعمه وتسقيه..
كانت طيبة القلب حقا.. ومنها تعلم كيف يزأر.. وكيف يتنقل بين الأشجار بحرية تامة مع إخوانه من قرده العشيرة..
لكنه كان يعرف أنه مختلف..
يداه وقدماه لا يغطيهما الشعر.. ولا توجد له أنياب حادة في فمه.. كما أنه من ناحية العضلات كان أضعف بمراحل من أترابه..
لكن ذكاءه كان واضحا.. وأبسط المعضلات التي تحير الآخرين كانت بالنسبة له أمرا مفروغا منه..
لهذا اعتبر القرد الصغير نفسه (طفرة وراثية) غير مبررة..
وفي يوم أخذته (كالا) - وهو غض غرير – إلى الشاطئ لتريه البحر.. لم يكن قد رآه قط.. وحسبه جدولا.. الفارق الوحيد بينه وبين الجدول هو أنه لا توجد له ضفة أخرى.. وأن مياهه تثور وتعربد طيلة الوقت كأنما تسكنها روح مجنونة.. ثم إن لها مذاقا غريبا كمذاق الدم أو الدموع..
لكن ما أثار فضوله حقا هو هذا الشيء المصنوع من الأخشاب؛ الواقف هناك في فرجة من الأشجار قرب الشاطئ..
لم يفهم ما هو قط.. لكن (كالا) حملته على كتفها، ودخلت به إلى المكان.. وفي الداخل كانت رائحة الموت تفعم الأنوف.. إنه يعرفها ويألفها جيدا
كلما وجد حيوانا ميتا في الغابة..
كانت هناك عظام قرد عارية من اللحم.. كلا ليس قردا.. لأن عظامه رقيقة خفيفة الوزن..
ومن الأم فهم أن (كورشاك) العجوز كان هنا..
وأنه هو من فعل هذا.. إن (كورشاك) مجنون تماما - وهو بالمناسبة أبو (كورشاك) الذي قتله منذ ساعات - وله أنياب حادة.. ويبدو أنه اقتحم الكوخ ذات مساء ليفاجئ القرد الرقيق ويقتله.. ويبعثر كل شيء في الكوخ في كل صوب..
أما الشيء الآخر العجيب الذي أخبرته به (كالا) فهو أنه جاء من هنا! من هذا المكان!
إذن هو ليس قردا حقيقيا.. لم يكن له أب من القردة.. لقد وجدته (كالا) وحيدا في الكوخ يعول ويبكي جوعا جوار جثة القردة التي قتلها (كورشاك)..
وكان (كورشاك) قد رحل..
ويبدو أن قلب (كالا) قد رق له.. فحملته على ظهرها.. وغادرت المكان لتلحق بالعشيرة.. التي لم تجد عُسرا في قبوله بينها.
وترعرع الطفل وسط أهله الجدد...
عاريا كقرد.. قويا كقرد.. سريع الحركة كقرد..
يعرف كل شبر وكل معلومة عن الغابة.. ويعرف اسم وعادات كل حيوان هنا..
اكتسب حاسة شم الحيوانات الحادة.. واستطاع أن يروض حنجرته على إصدار صرخاتها.. وكلها ذات معنى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء اليوم الذي عاد فيه إلى الكوخ..
دخله.. وراح يتفقد كل شيء فيه.. كانت هناك قطعة ما من خامة لم يستطع فهمها.. وكانت

محشوة بأشياء بيضاء لذيذة المذاق (بالطبع نحن نتحدث عن الحشية وما فيها من قطن)..
وكان بها كائنان صغيران لا يتحركان.. أحدهما قرد طويل الشعر أشقره.. والآخر قرد صغير عار..
ولم يحتج إلى ذكاء كثير كي يعرف أن القرد الأول هو صاحب هذه العظام
وهنا خطر له خاطر ملح..
هل تكون علاقته هو بهذا القرد كعلاقة باقي القردة الصغيرة بأمهاتها؟ إنه لم يأت حتما من بطن (كالا).. هذا أكيد.. فهل جاء من بطن هذا القرد جميل الشكل؟
إن التشابه قوي بينهما.. فكلاهما أبيض البشرة غير مكسو بالشعر..
عندئذ يكون هذا القرد هو أمه.. ويكون (كورشاك) العجوز هو قاتلها.. وراح يجمع العظام المبعثرة في الكوخ في مكان واحد.. ثم أحكم غلق الباب.. وتبول جوار الجدار على سبيل إثبات الملكية.. فهذا هو قانون الرائحة الذي تحترمه الحيوانات ولا تخرقه أبدا.. ومن هذه اللحظة لن يجرؤ حيوان واحد على محاولة التسلل إلى هنا..
اللهم إلا الحيوانات التي لا تملك حاسة الشم أصلا مثل هذين الدخيلين اللذين شفع لهما هذا قليلا.. وكان على استعداد لأن يسامحهما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومرت الأيام بهذا الفتى..
ازداد قوة وحيلة وبراعة.. واضطرت القردة إلى أن تعلن عن خنوعها له فهو يجيد كل ما تعمله ويعمل ما لا تجيد عمله..
لو كان يعرف العد لعرف أن له ثلاثين ربيعا ها هنا.. وكان قد ازداد خبرة بما حول الغابة.. وزار بعض القرى المحيطة بهم.. وعرف الكثير عن هؤلاء القوم سود البشرة الذين يكونون مجتمعات خاصة بهم، كما عقد علاقات حميمة مع بعضهم..
كانت لغتهم غير مفهومة بالنسبة له.. اللهم إلا من بعض عبارات وجمل يفهم منها المعنى العام للكلام..
على كل حال هو يدرك أنهم يسمونه (الرجل القرد)..
أو - كما في بعض الأنحاء - يسمونه (طرزان)..
لا يدري سبب هذه التسمية.. لكنها راقت له..
ولقد عرف أن البشر مثلهم مثل القرود.. لكنهم قرود تفكر وتقدر على البناء والقتال بالرماح..
إن الإنسان لا يملك حاسة الشم الحادة، لهذا امتلك الكلاب..
وهو بلا مخالب ولا أنياب لهذا أبتكر الخناجر والرماح.. وهو رقيق الجلد لهذا أمسك بالدروع..
وهو بطيء في عدوه لهذا استأنس (الظليم) - ذكر النعامة – ليركب فوق ظهره، ويسبق (شيتا) ذاته إن الإنسان هش تماما.. لهذا بنى المنازل والحصون ليتوارى فيها..
ولولا عقله لكان أول مخلوق ينقرض من على وجه البسيطة..
وكما أن الإنسان يعرف الخير، كان لا بد أن يعرف الشر..
كالقرود يتقاتل ويقتل ويتلف الزرع.. ويحرق الديار
كان (طرزان) يعرف أنه إنسان.. وأن هؤلاء هم قومه الدائمون..
لكنه كان يعود دوما إلى القردة حيث يكون على راحته
وحيث يستطيع أن يلبي نداء الأدغال...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - أخطار.. أخطار..

غول يخرج من الأدغال.. يلتهمها ثم يصنع من الطين تمثالا يشبهها.. التمثال يعود إلى الكوخ ويعيش حياتها.. وأبوها لا يلاحظ الفارق..
يا للهول! إذن هي التمثال لا (عبير).. نداء الأدغال يدوي.. الطبول.. أبوها مقيد في قدر على النار بينما قبائل (الزولو) ترقص حوله بالرماح، بانتظار ساعة انتهاء الطهي.. العرق.. العرق سيتلف الحساء ويجعله مالحا أكثر من اللازم.. طبق الملوخية كان مالحا ولم تستطع أمها أن تذوقه..
والرمح يخترق عنقها هي.. لكنها لم تمت.. لا يجب أن تعلن هذا.. و..
وصحت من النوم والعرق يبللها..
كانت ليلة رهيبة.. ولديها الأسباب التي تبرر ذلك..
وحين فتحت باب الكوخ، عرفت أنها ستجد الخنزير البري ذاته، في الموضع ذاته.. وربما بقطع ذات الوريد في العنق..
وهنا فهمت الأمر برمته..
إن هذا الخنزير هدية.. لا أحد يريد إرهابها.. لكنه يقدم لها هذا الخنزير على بابها كل صباح لتأكله.. وهو بهذا يعلن عن مودته وحسن نواياه..
إن منقذها الغامض يكلف نفسه كل ليلة بإعداد وجبة الغد.. وبالتأكيد هي تجرح شعوره كل يوم حين تتخلص من هذا الحلوف البري.. لكن لا حيلة لها في هذا.. ومن جديد عاودها شعور الدفء الأنثوي والرضا عن النفس، ذات الشعور الذي أحسته حين راح (الجوال) يدافع عنها في الغرب الأمريكي.. إن فكرة الفارس الغامض الساهر على حمايتها ليثلج صدرها..
ودون تعقيدات كثيرة يمكن استنتاج أن الشخص ذاته هو من أنقذها أمس..
نظرت إلى الأحراش.. وتساءلت:
ترى أين أنت؟ ترى من أنت؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء المساء..
واستقر القمر - ببسمته الهادئة الرزينة – فوق السحب يتأمل الأدغال..
وجلست (عبير) في الكوخ تطالع مفكرة المرأة إياها..
كان ذلك حين سمعت طبولا بعيدة.
طبول؟ إذن هناك بشر ها هنا.. ولكن من؟
كان الفضول هو الذي قتل القط.. والرضا هو الذي أرجعه.. لهذا أغلقت المفكرة، واختلست نظرة نحو أبيها النائم.. ثم اطفأت المصباح..
وفي الخارج بدت الأشجار والطبيعة كأنها لوحة تأثيرية استخدم فيها طن من اللون الأزرق السماوي.. واللون الفضي..
كل شيء أزرق.. لكنه واضح جلي..
من أين جاءت الطبول؟ من هنا؟ من الشرق؟
راحت تمشي في حذر وخفة.. كثعبان يزحف نحو يمامة نائمة..
وأدركت أنها تدنو من البحر أكثر فأكثر..

والآن تستطيع أن ترى رقصة المشاعل.. وترى الأجساد السوداء المتراقصة تلتمع في وهج النار..
وعرفت أنهم حوالي مائة رجل...
كيف جاءوا؟ إن الإجابة هناك.. في البحر.. حيث يوجد عدد من القوارب البدائية من النوع الذي يسمونه (كانو) وقدرت أن القارب يمكنه حمل عشرة رجال..
تمددت على بطنها فوق الأعشاب، وراحت ترمق ما يحدث..
كان هناك ساحر.. بالتأكيد هناك واحد.. القناع الملون الوحشي على رأسه.. والنقوش على جسده العاري.. وحركاته المجنونة هي الأكثر حماسا بين الموجودين..
وكان هناك ضحايا.. أربعة أو خمسة رجال يبدو عليهم الذعر والقنوط.. وواضح أنهم أسرى في معركة ما.. واضح كذلك أنهم مركز اهتمام الحفل..
وأدركت أن الدائرة تضيق حول هؤلاء..
ثم أعطى الساحر إشارة ما.. فتقدم أربعة رجال فحملوا أول الأسرى حملا من ذراعيه وقدميه وأجبروا رأسه على الاستلقاء على صخرة..
حسن.. لن أطيل وصف المشهد لأن هناك آنسات رقيقات ها هنا.. ويمكن لأي شخص ذي خيال أن يتصور
ما حدث بدقة.. فكلنا رأي عملية ذبح الدجاج طبعا
وتكرر المشهد خمس مرات..
أما (عبير) فظلت ترمق ما يحدث لسبب واحد: الذعر جعلها لا تملك عضلات تتحرك بها.. أو عضلات تغلق بها جفنيها.
ثم بدأت وليمة صاخبة..
مرة أخرى لن أطيل الوصف من أجل الآنسات الرقيقات.. لكننا جميعا نعرف دون شك حفلات أكل لحم البشر النيئ هذه..
وأدركت (عبير) - بعد ما استعادت فهمها للعالم - أن هذا الذي يحدث يتكرر كثيرا.. إنهم يجلبون أسراهم في الحرب إلى هذا الموضع ليأكلوهم دون أن تظل الأرواح باقية تضايقهم، وهو ما كان سيحدث لو أكلوهم في قريتهم الأصلية..
إنها عادة بدائية قديمة لم تندثر تماما كما هو واضح..
الآن انتهى أوان المشاهدة، وحان أوان التراجع..
حان أوان العودة للأب لإخباره بأنهما اختاره العن موقع في إفريقيا كي يحتميا فيه.. وأن الغابة بما فيها ومن فيها لن تكون أسوأ من هنا..
بدأت تزحف للخلف.. ببطء.. ببطء....
وأخيرا وجدت فرصة في العشب تسمح لها بأن تقف على قدميها وتعود ركضا إلى الكوخ.. منحنية نعم.. لكن ليس على ركبتيها:
لكنها أدارت رأسها لتجد أنها تنظر مباشرة في وجه مغطى بالأصباغ كمهرج سيرك.. وأن هناك رمحا مصوبا إلى عنقها
لقد كان واحدا منهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(الأسامبارا) قد قبضوا عليها!
استطاع أن يرى هذا من موضعه بين صخور الشاطئ

لقد رأى المشهد من البداية.. وكان بوسعه أن ينقض ليجندل من هاجمها، لولا أن رجلين لحقا به..



استطاع أن يرى هذا من موضعه بين صخور الشاطئ..

و (طرزان) يعرف (الأسامبارا) جيدا.. فهم أقوياء جدا.. ومن العسير حقا أن تقهر ثلاثة منها حتى لو كنت (طرزان).. ثم إنهم يحملون رماحا.. والرماح تتيح القتل دون التحام جسدي..
إن قرية (الأسامبارا) تقع على بعد ثلاثة أيام.
من هنا.. وهو قد زارها وسرق منها الزهرة الحمراء (جوا) - ما نسميه نحن النار - أكثر من مرة واستطاع أن يعرف الكثير عنهم إنهم قساة شديدو العنف والغلظة، يعبدون صنما قبيحا يتوسط قريتهم وهم شديدو التطير يؤمنون بكل حرف قيل عن الأرواح الشريرة والخيرة.. لهذا يأكلون البشر كطقس ديني مهم في عقيدتهم..
كل الزنوج يهابون (الأسامبارا).. وإغارتهم على قرية معناها إهلاك الحرث والنسل فيها..
على أنهم اعتادوا أن ينتقلوا بالقوارب إلى هذا الموضع على الشاطئ، كلما اكتمل القمر، ليأكلوا حصيلة الشهر من البشر..
وعرف (طرزان) أن عليه أن يتجنبهم حتى يفرغوا من (صلاتهم) هذه.. فيعودوا بقواربهم إلى قريتهم ويمر الشهر في سلام..
لكن القردة الشقراء الحمقاء وقعت في خطر جسيم..
من الأحمق الذي يقرر السير على الشاطئ ها هنا والقمر بدر تمام؟
هل يمكنه إنقاذها؟ لا يدري.. لكنه بالتأكيد سيموت قبلها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أوها جالاه!
- أوها جالاه!
ثم مزيد من قرع الطبول
و (عبير) تشق الطريق وسط هذه الوجوه
الشنيعة التي ما زالت أفواهها ملوثة بالدماء.. وكل
واحد يمسك بشعرها مندهشا..
إنها تشكل لهم ظاهرة طبيعية غير مسبوقة: امرأة بيضاء وشعرها أصفر.. يعني بشرتها بلون أسنانهم وشعرها بلون بياض عيونهم.
- أوها جالاه!
- أو مبا ماما لا رومبا باتامبو!
يتناقلون عبارات الدهشة والانبهار.. لا بد أنهم يتساءلون عن مذاقها.. وهي ذي في نفس مسرح المذبحة التي رأتها.. لشد ما يبدو الأمر مريعا من قريب.. والرمال لم تتشرب بعد الدماء كلها.. والبطون لم تلتهم اللحم كله بعد..
الساحر يدنو منها.. يتفحصها.. وكالعادة يجذب قبضة من شعرها.. هذا هو أكثر ما يثير حيرتهم ثم يعلن قراره الحاسم:
- أونجا لالا.. أونجا!
- أوها جالاه!
وهم يقتادونها إلى قواربهم.. وقد أرغموها على أن تخوض المياه حتى ركبتيها؛ عرفت (عبير) أن (أوجا لالا) معناها (خذوها للقوارب) أو (سوف نعود بها) أو (أبقوا على حياتها الآن).. أي شيء يقول هذا المعنى..
ما كانت تحب هذا..

كانت تفضل الموت الفوري بدلا من الأهوال التي تنتظرها هناك.. وتذكرت أباها.. فعضت يد أحدهم صائحة:
- عاااان! دعني أيها الحيوان!
لكنه اكتفى بإصدار ضحكة بدائية مزمجرة.. ضحكة (أسامبارا) واثق من نفسه..
ووجدت نفسها تلقي كجوال البطاطس في القارب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى الشاطئ الملوث بالدماء؛ وقف (طرزان) في ضوء القمر.. بعد ما لم يعد مبرر للاختباء..
وقف يرقب القوارب المبتعدة.. عشرة مشاعل عملاقة تنعكس في ماء البحر..
وأدرك أن الفتاة في مأزق..
حقيقي لن يخلصها منه أحد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- أسامبارا!

إنه لكابوس!
حتى و (عبير) تفكر في (دي - جي - ٢) وحماسته غير المسبوقة في خلق أجواء الرعب؛ تشعر بأن كل هذا ليس وهما..
إن مشهد القوارب التي تتحرك فوق صحفة الماء، وانعكاس المشاعل الذي يذكرها برحلة الموتى الرهيبة إلى (هيدز) في الأساطير الإغريقية، والصمت الرهيب فيما عدا صوت المجاديف، والرمح الملامس لعنقها، والوجوه الكالحة المحيطة بها..
كل هذا يجعلها تتمنى لو كان حلما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(أسامبارا)! (أسامبارا)!
من الذي لا يهاب الـ(أسامبارا) في الساحل الغربي كله؟
إنهم يرقصون كالشياطين حول النار.. ويقاتلون كالذئاب المسعورة.. ويركضون أسرع من الريح..
ويقدر الواحد منهم على قتل رجلين دون عناء كبير..
ويكرهون بعضهم لكنهم يكرهون الأغراب أكثر..
أوها جالاه.. أوها جالاه!
من ذا الذي لا يهاب الـ(أسامبارا)؟
ها هي ذي القرية كلها تنتظرهم بالمشاعل.. فقد عاد المحاربون بعد ما التهموا الأعداء، وهكذا لن تعود أرواحهم لتزعج القرية..
أوها جالاه! أوها جالاه!
حين يأكل المحارب ذراع محارب آخر يكتسب قوته.. وحين يأكل مخه يعرف ما يعرف.. وحين يأكل فخده يكتسب سرعته
فلتكن لأذرعكم قوة البراكين وسرعة البرق ومضاء الشهب
أنتم الأفضل والأقوى والأشجع.. أما الباقون فهم حملان موجودة لتوفر لكم الغذاء السمين..
وتدنو القوارب من الشاطئ..
وينزل الرجال يقتادون (عبير) البائسة بين صفوفهم.. فتحظى بمزيد من جذب الشعر والكدمات..
كان الذهول على الوجوه جميعا من بشرتها البيضاء وشعرها الأشقر.. لسان حالهم يقول إنهم لم يتوقعوا أن تصل الأمور إلى هذا الحد.. إنها (مسخرة) حقيقية..
وتتقدم (عبير) وسطهم تحاول ألا ترى أكثر من اللازم من وجوههم الملطخة بالأصباغ.. والعظام المغروسة في نوفهم وفي شحمات آذانهم..
ووسط القرية كان هناك صنم كبير.. (طوطم) إذا أردنا الدقة.. وكان له وجه أكثر شراسة من وجوههم..
وعند قاعدته، غرست عظام كثيرة في التربة على سبيل التحذير من الدنو أكثر..
نساء كثيرات يخرجن ليرمقنها في فضول.. نساء لا يميزهن عن الرجال سوى الشوارب.. فالرجال كانوا حليقي الوجوه طبعا!

ثم أفسح القوم مكانا بينهم ليظهر الزعيم.. نعم هو الزعيم بالتأكيد.. لأنه بدين جدا له كرش يتدلى فوق مئزره.. والرجال جميعا كانوا رشيقي الأجساد..
وله شعر أشيب متجعد كأنه وضع على رأسه (كيلو جرام) من القطن غير الطبي.. قطن التنجيد المغبر القذر.. ثم إنه عجوز..
تقدم منها وتأملها في اهتمام..
وكالعادة - لقد صار هذا مملا - جمش جمشة من شعرها الأشقر.. وتأملها في اهتمام أشد
- هووووم! هوجا!
قالها معلنا عن حكمة عميقة.. وفهم غير عادي للعالم
- بونجا.. باجا.. آهونجا!
هنا ارتفع ثلاثمائة رمح في الهواء بحركة واحدة، مع صيحة واحدة، جعلت (عبير) أقرب إلى الموتى..
عم يتحدثون؟ لا بد أنهم يقررون ما يجب عمله..
هل سيقتلونها ثم يأكلونها؟ أم يأكلونها ثم يقتلونها؟
لا يوجد فارق كبير يستحق كل هذا الجدل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(طرزان) أيضا في أسوأ لحظاته الآن..
إن الفتاة الآن في قرية (الأسامبارا).. وبالتأكيد يتم الاحتفال بها على أعلى مستوى..
لم يكن غارقا في هواها إلى الحد الذي يدفعه إلى دخول تلك القرية - حيث الجحيم ذاته- لكنه كان يكره أن يرى الأبرياء يموتون.. و (عبير) كانت بريئة هو يعرف هذا جيدا كان عليه أن يتحرك سريعا الآن..
عليه أن يأخذ العجوز في الكوخ إلى مكان آمن، فاحتمال عودة ال (أسامبارا) لا بأس به، ثم إن العجوز سيجن حين يصحو ليفتقد ابنته، لهذا أسرع إلى الكوخ وفتح بابه..
عيناه عينا قط يمكنهما الرؤية في الظلام جيدا..
هو ذا العجوز نسائم يغط في نومه، فاتحا فاه، وصدره يعلو ويهبط.. مثل كل الشيوخ ينتظر لحظة أن تكف مضخة الهواء هذه عن العمل..
مد يدا قوية، وهزه..
فتح العجوز عينيه بصعوبة.. لكنه سرعان ما فتحهما على أكبر اتساع لهما.. وقد رأى هذا العملاق الأبيض يقف جوار فراشه.. هب من رقاده.. ووقف على الفراش صائحا:
- م.. م.. من أنت؟
ثم - وقد تذكر – أردف:
- ابنتي! أين ابنتي أيها المتوحش؟
وثارت حميته، فراح يوجه اللكمة تلو اللكمة إلى صدر العملاق الأبيض:
- انتظر أيها الوغد.. سأصرعك! طاخ! هان! هان!
كل لكمة تحطم عظام قبضتيه.. والعملاق لا يتزحزح.. ولا يبدو أنه يشعر بشيء على الإطلاق..
فقط حاول أن ينصحه بالتمهل.. حتى لا يؤذي نفسه.. لكن الكلمات لم تسعفه..
لم يجد حلا آخر سوى أن يحمل الرجل – كجوال القمح - على كتفه، والعجوز يركله ويضربه ويصرخ..

وسرعان ما خرج إلى العراء بحمله..
ودون مزيد من الكلمات، أمسك بأحد الغصون المتدلية لنبات متسلق.. وسرعان ما ارتفع لأعلى ليبدأ الكابوس..
هاااااااه! هو ذا يترك هذا الغصن ليطير في الهواء بضعة أمتار.. وهوب! يمسك في اللحظة المناسبة بغصن أخر
ويتوالى السباق المجنون...
- والعجوز - كجوال القمح - معدوم الحيلة.. يرقب كل هذا في ذعر صارخ.. ثم ذعر صامت.. ثم استسلام نهائي.. نوع من صمت الحملان..



هو ذا يترك هذا الغصن ليطير في الهواء بضعة أمتار..
وهوب! يمسك في اللحظة المناسبة بغصن أخر..

من هو هذا الرجل؟ من أين أتى؟ من أين له بكل هذه القدرات؟ ترى إنسان هو أم قرد؟
والسؤال الأهم: ماذا يريد به؟ هل اختطف (جين) قبله أم أنها فرت حين رأته؟ وأين هي الآن؟

أسئلة عديدة لم تجد لها جوابا حتى لاحت القرية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل القرى الإفريقية تتشابه.. لكن هذه القرية لا تشبه قرية (الأسامبارا) في شيء.. إنهم أصدقاء يتمتعون برقة حاشية وتحضر لا بأس بهما.. كل معالم المكان تقول إنهم أناس طيبون يأكلون رزقهم يوما فيوما..
وحين نزل (طرزان) من على غصن اللبلاب الأخير - دائما هناك واحد في قصص (طرزان) – كان الوطنيون ينتظرونه بالترحاب..
مئات الأسنان البيضاء في الوجوه السوداء تضحك في مودة.
لم يفهم الأب المتهالك كلامهم.. لكنها اللغة السواحيلية بالتأكيد.. كما فهم أن هذا القرد الأبيض ليس قردا.. إنه يجيد لغتهم إلى حد ما..
سمع لفظة تتكرر باستمرار هي (طرزان).. (طرزان).. فأدرك أن هذا هو اسم الرجل..
كل هذا جميل.. لكن ما مصيره هو وسط كل هذا؟
وكانت الإجابة آتية.. آتية في شكل رجل أسود له ملامح دقيقة رقيقة.. يرتدي جلبابا إفريقيا ذا ألوان زاهية مزعجة من التي تسبب الغثيان.. دنا منه وبلهجة إنجليزية فظيعة قال:
- مرحبا.. كيف حالك؟ إن إثمي (مامادو)..
برغم طريقة نطقه الإفريقية المميزة التي تستبدل بالسين ثاء وبالزاي ذالا، بسبب خروج اللسان حيث لا ينبغي أن يخرج؛ فإن البروفسور (دودزويرث) سره كثيرا أن هناك من يتحدث الإنجليزية في هذا العالم القاسي..
- مرحبا.. - قالها بوقار إنجليزي عتيد -.. إن اسمي هو (دودزويرث).. البروفسور (دودزويرث)..
ثم مط فمه في تساؤل:
- كيف عرفت أنني إنجليزي؟
- آه.. إن الإنجليذ لا يمكن الخطأ فيهم.. لا يوجد مخلوق آخر له هذا الانطباع المتعالي (الثمج)!
- شكرا!
ثم بعد هنيهة تفكير عاد يسأل
- تقول إن اسمك؟
- (مامادو).. إنه التحريف الإفريقي لاسم (محمد).. مثله مثل (آمادو) بدلا من (أحمد)
و (سيكوتوري) بدلا من (شيخ طريقة).. إن للعرب تأثيرا هائلا في إفريقيا.. لكني تعلمت الإنجليزية من (ذملائك المثتعمرين)..
سأتجاوز إذن عن طريقة كتابة نطق الأخ (مامادو) حتى أجعل الكلام مفهوما.. فقط أرجو أن يتذكر القارئ طريقة نطقه ليعيش في جو القصة..
سأله العجوز وهو يتأمل القرية:
- ما هي هذه القرية؟
- إنها قرية الـ وازيري.. أنت تعرف أن اللغة السواحيلية قريبة جدا من العربية.. كل ما هنالك هو أننا نضيف حرفي ياء في آخر الكلمة.. لهذا يغدو (الوزير) (وازيري).. و (السواحل) سواحيلي
.. هنا كان الغضب قد استبد بالدكتور (دودزويرث):
- هلا كففنا لحظة عن إجراء البحوث اللغوية وبدأنا في معرفة ماذا يحدث هنا؟ من هذا

العملاق الأبيض؟ ولماذا أنا عندكم؟ وماذا دها ابنتي؟
استدار (مامادو) إلى (طرزان).. وراح يتكلم بضع دقائق بلسان لا يعرف الكلل أو التعثر.. بينما العملاق الأبيض ينقل عينيه الزرقاوين بين (مامادو) والدكتور.. ويصدر همهمات متتابعة..
ثم إن (مامادو) راح يترجم ما قيل:
- يقول (طرزان) إنك هنا من أجل سلامتك.. وإن ابنتك مخطوفة بوساطة (الأسامبارا).. وقد أخذوها لقريتهم.. ويقول إنه لم يستطع عمل شيء لكنه سيحاول.. ويقول إنك في مأمن هنا لأننا طيبون كالموز..
- هو قال كل هذا؟ بليغة حقا هي لغتكم.. ولكن من هو (طرزان)؟
- إنه الاسم الذي أطلقته القبائل على من تسمونه أنتم ب (لورد جراي ستوك)!
قالها وهو ينظر إلى (طرزان) الذي جذب الاسم الأخير انتباهه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك عشاء من لحم الجاموس المشوي..
وكانت هناك الكثير من الثرثرة، والأنباء المتبادلة.. حيث جلس (مامادو) جوار العجوز يحكي له كل شيء عن القبيلة.. وعن (طرزان).
واتسعت عينا الدكتور (دودزورث) وهو يصغي إلى أغرب قصة سمعها في حياته.. ولو كان في ظروف أفضل لوصفها بأنها مسلية..
لكنه كان قلقا.. ولم يكف عن التساؤل عن مصير (جين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- ربيب القردة..

كانت (جين) / (عبير) في أسوأ ساعاتها..
وبرغم سوء الأحوال كانت تشعر بدهشة عارمة من خصوبة خيال (دي - جي - ٢).. فكلما حسبت أنها جربت أشنع وضع ممكن، وجدت أن هناك أسوأ منه..
كلا.. لم تكن في قدر ماء يغلي.. ولم تكن مربوطة في شواية لحم.. ولم تكن حبيسة في جب مع ضبع جائع.. لا.. بل هو أسوأ من ذلك..
كانوا يعدونها لتكون زوجة للزعيم!
لقد راق شعرها الأشقر لجلالته.. ويبدو أن بعض مشاعر الرقة تحركت في روحه وسط كل اللحم البشري الذي التهمه.. لقد أحس بحاجة لأن تكون هذه الأعجوبة زوجته..
وشرعت (عبير) في رعب - وقد فهمت – تمر بتجارب مروعة، من رسم النقوش على وجهها، وتعليق أقراط من عظام الحيوان في أذنيها، ودهان قدميها بالطين.. في محاولة يائسة لجعلها تبدو حسناء بمقاييس (الأسامبارا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أتعني أن هذا ابن اللورد (ستوك)؟
كذا تساءل دكتور (دودزورث) في ذهول وهو يتأمل (طرزان)، الجالس أمام النار يفكر مقطب الجبين..
قال (مامادو) وهو يعرق اللحم من قطعة شواء:
- نعم.. وبالتالى هو لورد (جراي ستوك)..
تأمله الدكتور العجوز من جديد غير مصدق.. وهنا تجشأ (طرزان) بصوت عال.. فقال الدكتور وهو يهز رأسه في حسرة:
- لا يبدو أنه أحرز الكثير من التقدم في مجال التحضر!
قال (مامادو) في تفلسف:
- نحن السود نحب (طرزان) ونثق به.. هكذا أرادنا المؤلف (إدجار رايس بوروز).. وقصته لا تخلو من النعرة العنصرية التي أذكاها كثيرون في الغرب ومنهم (كيبلنج).. وبها مهدوا لاحتلالهم الاستعماري لنا.
إن (طرزان) هو الرجل الأبيض الذي ابتعد عن الحضارة.. فصار هو سيد الأدغال وحاكمها والقوة العظمى فيها..
حتى في هذا تفوق علينا نحن أبناء الغابة الأصليين.. لهذا تراه في القصص شجاعا، بينما نحن جبناء.. حكيما بينما نحن قرود غبية.. عادلا بينما نحن ظالمون متوحشون.. جميلا بينما نحن أقبح من الخنافس..
إن (طرزان) يحكم الغابة رمزا لسيطرة الرجل الأبيض على (إفريقيا) كلها بحكمته وذكائه وليس على الزنوج العقلاء سوى الخضوع له..
لهذا تجد الزنوج - في القصص - يستغيثون به ويقبلون حكمه.. حتى حيوانات (إفريقيا) تخضع له وتطيعه..
إن (إدجار رايس بوروز) يرسخ في قصصه مبدأ اللون الأبيض المتفوق.. فالخير والعدل لا يمكن

إلا أن يكونا أبيضين.. أما الشر والحمق فلونهما أسود بالتأكيد..
وتنهد في استسلام.. وأردف:
- لكننا مرغمون على القبول بهذا لأننا في عالم (إدجار رايس بوروز).. وعلينا اللعب بشروطه..
أنا فقط أسجل اعتراضي لا أكثر..
قال (دودزويرث) وهو مشوق إلى انتهاء هذه المحادثة:
- لا أرى (طرزان) رديئا إلى هذا الحد.. إنه خير كما فهمت..
- خير بشروط الرجل الأبيض.. وإلا – بالله عليك - لماذا لم يؤلفوا قصة عن (طرزان) زنجي من قبيلة (الزولو)؟
تنهد (دودزويرث) ونظر نحو (طرزان).. وقال بعد هنيهة:
- هل تعرف لماذا؟ لأن البيض يملكون الأدب والفن لهذا من حقهم أن يجعلوا بطلهم إنجليزيا أبيض.. ومن حقكم - يوم تكتبون أدبكم الخاص – أن تجعلوا أبطالكم سودا بلون الليل..
بمرارة ابتسم (مامادو) وقال:
- ومتى يكون ذلك؟ متى يتركنا الأبيض وشأننا؟
حتى مسلسلات (طرزان) المصورة ستكرس ذات الفكرة يوما ما.. وأفلام (طرزان) التي سيلعب بطولتها حشد من النجوم.. بدءا ب. (جوني ويسمولر) بطل السباحة الشهير.. ومرورا ب (لكس باركر) وانتهاء ب. (كاسبر فان دين).. كلها جاءت لتقول لنا كم أن الزنجي سيئ.. وكم أن الأبيض رائع..
- لا عليك يا (مامادو).. دعنا الآن نتحدث عن ابنتي
نظر (مامادو) إلى (طرزان) وتنهد.. وقال كأنما يسمّع حوارا محفوظا:
- (طرزان) سيد الأدغال سيفعل!
كان (طرزان) واضحا في قراره.. أصدر عددا من الأصوات المخيفة.. وتكلم بعدة مقاطع من السواحيلية.. فأدرك (مامادو) أنه سيهاجم قرية (الأسامبارا) وحده وليكن ما يكون.. واضح أن اهتمامه ب. (جين) يتجاوز واجبه الأمني كرجل الشرطة الوحيد في (إفريقيا)...
ودون كلمة أخرى وثب إلى الشجرة التي فوق رأسه..
وعلى الفور اختفى عن العيون، ما عدا صرخته المدوية الشهيرة:
- هاهاه هاااااااه!
تساءل الأب وهو ينظر إلى قمم الأشجار الخاوية المتلألئة في ضوء القمر:
- هل تظن أنه سيفعلها؟
قال (مامادو) وهو ينظر إلى الشيء ذاته:
- لو كنت تعرف (طرزان) فلن تسأل هذا السؤال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا هو المكان الذي اعتاد أن يرتاده ليلا..
الجدول الهادئ والسكون وانعكاس القمر على الصفحة الفضية..
هناك أسدان يشربان.. إنهما غريبان عن المنطقة.. لكن (طرزان) يعرف جيدا نظرة الشبع في عيني أسد، ويعرف أنه يمكنك وقتها النوم جواره، وتوسد فخذه إذا أردت
رفع عقيرته للسماء، وأطلق صرخته المعتادة:
هاااا ها هـ هـ هاااااه

ليست نفس الصرخة إذا لاح.. فالمقطع الثاني يقول (ها هـ هـ هـ) لا (ها هاه) وهو فارق عظيم لا تفهمه سوي الأسود..
غريب هذا! أين (جاد - بال - جا) العجوز؟ كان من المحتم أن يلبي النداء لأنه يرتوي في هذا الوقت بالذات..
عاود الصراخ بنبرة أعلى.. لكن لا مجيب..
ثمة متاعب هاهنا.. راح يخف السير حول الجدول باحثا عن أثر لصديقه.. لكن لا أثر هناك..
ثم.. سمع صوت الأنين..
وعند النهر رأي مشهد الصراع الدامي..
(جاد - بال - جا) يطبق بفمه الضخم على جسد - أو جثة - ظبي، تعاونه زوجته الحبيبة؛ بينما الطرف الآخر من الجثة بين فكي تمساح..
تمساح إفريقي عملاق أخرج رأسه من الجدول وراح جاهدا يحاول انتزاع الفريسة من الأسدين..
كان (طرزان) يعرف أن التمساح هو الأقوى، وهو الذي يلعب على أرضه وبشروطه، ولو جاء زملاؤه للعون فلسوف يجد الأسدان نفسيهما في مأزق..



كان (طرزان) يعرف أن التمساح هو الأقوى، وهو الذي يلعب على أرضه وبشروطه..

لم يتردد
مد يده إلى نطاقه وانتزع خنجره العملاق.. ثم وثب إلى الجدول البارد.. وهناك - محاذرا من

ضربة الذيل - تمكن من شق طريقه إلى البطن اللين للزاحف البشع، وأولج الخنجر حتى قبضته..
استحالت البحيرة جحيما داميا.. وتناثر الماء الأحمر في كل صوب.. إن ضربة من ذيل التمساح يمكن أن تشطر رجلا إلى نصفين..
لهذا غاص مبتعدا.. ووثب إلى الضفة..
في اللحظة ذاتها تحركت عشرات من جذوع الأشجار - ظهور تماسيح في الواقع - نحو التمساح الجريح.. وفارت المياه كبركان..
ابتعد (جاد - بال - جا) مع زوجته وهو يزأر في امتنان، دون أن يتخلى عن فريسته.. فدنا منه (طرزان) ولف ذراعه حول عنقه، وضم لبدته الضخمة الفاخرة إلى صدره.. فراح الأسد يصدر صوتا حلقيا كهرير القط..
إنه اليوم بحاجة حقيقية لعون هذا الحليف القوي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (جاد - بال - جا) أسدا يافعا أقرب إلى الشبل، حين أنقذه (طرزان) من حفرة صيد الأسود التي أعدها بعض الصيادين البيض له..
لقد صنع رافعة بدائية تتمتع بذراع قوة هائل إذا قورن بذراع المقاومة.. ونزل إلى الحفرة ليربط الحبال حول الأسد الثائر؛ وهكذا تمكن من رفعه إلى أعلى..
لقد كان البيض سيتسلون بقتل الأسد ببنادقهم، ثم يعلقون رأسه على حائط ما في أحد أندية (لندن).. هذا مؤكد..
ومن يومها - كما حدث لـ (أندروكليس) يوما ما ـ لم يكف الأسد عن رد الجميل لـ (طرزان) كلما احتاج إليه..
لهذا - حين وثب (طرزان) إلى الأشجار؛ كان (جاد - بال - جا) على أتم استعداد لترك عشائه والركض وراءه بطريقة (التقريب) التي خلدها (إمرؤ القيس) في معلقته الشهيرة..
وكذا راحت الأميال تقصر نحو قرية (الأساميارا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد أميال عدة توقف (طرزان)..
رفع عقيرته.. وصاح صيحة أخرى مدوية
هوووه.. هااااه.. هااااه!
كلا.. ليست السابقة طبعا لو كنتم تجيدون الملاحظة.. إن أي خبير أصوات يستطيع أن يحدد ثلاث صرخات لـ (طرزان)
١- هاهاه هاهاه هاااااااه!: وهي خاصة ببدء العمليات..
٢ - هاهاه هاااااه هااااه!: خاصة باستدعاء الأسود..
٣- هوووه هاااه هاااااه!: خاصة بـ.. بالأفيال طبعا!
إن (تونتو) صديق قديم ل (طرزان)..
(تونتو) الفيل العملاق الذي ترتج الغابة كلها لخطواته.. هو وعشيرته.. وكان (طرزان) كالعادة - قد أنقذه، يوم انتزع سهما مسموما من أذنه الضخمة.. إن أذان الأفيال الإفريقية ضخمة حقا وتختلف عن آذان الأفيال الهندية.. لهذا تكون إصابتها مؤلمة..

انتزع (طرزان) السهم وداوي الجرح بالأعشاب- وهو يعرف كل أسرارها أفضل من أي عطار عتيد - وهكذا صار الفيل رهن إشارته..
هوووه.. هاااه.. هاااه!
كان هذا كافيا
فقد راحت الغابة ترتج.. وتعالت أصوات الأغصان تتهشم تحت الأقدام.. وحلقت الطيور مذعورة.. والقردة خائفة..
إن عشيرة أفيال كاملة تدنو من (طرزان)..
وعلى الفور تعلق (طرزان) بغصن شجرة.. وتأرجح به ليهوى فوق عنق الفيل القائد (تونتو)..
أحس الفيل ب (طرزان) فرفع خرطومه محييا..
داعبه الرجل.. ثم أشار إلى الاتجاه الذي يريده..
لم يكن يحب اللجوء إلى (تونتو) لأن ضرر هذه الأفيال أكثر من نفعها، ولأنها ستحدث مجزرة غير ضرورية..
لكن ما باليد حيلة.. وعساه ينقذ الفتاة قبل أن تفنى القرية كلها..
وهكذا راح الموكب الغريب يتقدم نحو قرية (الأسامبارا) في ضوء الفجر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و(عبير) في كوخها الطينى.. تقاوم عبراتها تدخل النساء حاملات جرارا طينية بها سائل مثير للاشمئزاز.. تفهم أن عليها شربة.. ما هذا؟ هل هو خمر أم أمخاخ قرود تم ضربها في الخلاط؟
لم تفهم لكنها شربته مرغمة على كل حال.. صبوه صبا في حلقها..
ثم قادوها خارج الكوخ إلى ساحة القرية..
كان الفجر يغمر المكان بلونه الدموي.. والطيور تغرد وهي تحلق ذقونها قبل التوجه للعمل..
وكان (عريسها) يقف ملطخا بالطين - في أبهى صوره - وهو يلوك شيئا ما في فمه.. عندها راح الجميع يرقصون كالملبوسين..
وعرفت أن هؤلاء القوم يحتفلون بالزفاف وقت الفجر..
لم تتحمل أكثر.. وقررت أن الوقت قد حان كي..
تركل حارسها في بطنه.. وتستدير للهرب و...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مذبحة ضرورية..

لا بد أنها لم تجر سبع خطوات..
كان هذا حين لحقوا بها.. وسقطت على الأرض الموحلة.. وشعرت بحد السكين على عنقها ويبدو أنها قارفت خطأ دينا جسيما لأنها رأت الغضب في كل العيون.. وخاصة في عيني (عريسها) الذي أشار نحوها وراح يردد دون كلل:
- أونجا هاه!
- أوها جالاه!
لم تفهم.. لكن من الواضح أن هرب العروس يوم زفافها هو جريمة لدى كل المجتمعات.. خاصة أن هذا دليل على أنها تحب شخصا آخر..
لكن الجريمة كانت فيما يبدو - أخطر مما تصورت..
لأنها رأتهم جميعا يجردون خناجرهم ورماحهم..
ووجدت أنها تقاد من شعرها الذهبي إلى قدمي الصنم - لو كان للأصنام أقدام - وجذبوا شعرها بقوة للوراء.. ليظهر جيدها واضحا للنصال.
إنهم جادون! مستحيل أن يكون هذا! ولكن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهنا - على طريقة (جريفث) في الإنقاذ في آخر لحظة - سمعتهم يتصايحون ويتكلمون.. ثم وجدت أنها ملقاة على الأرض وحدها مهملة تماما..
ورأت الحشد يهرع إلى ناحية الأشجار..
ماذا حدث؟ هل من طقوسهم الدينية أن يهددوا العروس الهاربة من الزفاف، ثم يتركوها ويواجهوا الأشجار؟ ديانة غريبة حقا!
وهنا وجدت الأشجار تنزاح جانبا..
بل تتهشم..
ورأت أول ما رأت جسدا أسود عملاقا.. فيلا على وجه الدقة.. على ظهره ما بدا لها كرجل أبيض مكتنز بالعضلات..
في اللحظة التالية سمعت صراخا مريعا..
نظرت لليسار لترى رجلا من (الأسامبارا) يتلوى على الأرض.. بينما أسد عملاق يجثم فوق صدره لينهش عنقه.
ورجل آخر يحاول تسديد رمح إلى الأسد.. لكن هذا الأخير يثب وثبة لا بأس بها أبدا.. ويبقر بطنه بمخالبه..
كان (جاد - بال - جا) يقوم بعدة أعمال مجيدة في آن واحد.. وأدركت (عبير) - التي لا تعرفه أن دورها آت لا محالة..
سمعت الصراخ من ورائها.. فالتفتت لترى هذه المرة كان الصراخ يختلف.. فالرجل الذي يفترسه أسد لا يصرخ بذات الأسلوب الذي يصرخ به رجل تهرسه قدم فيل..
عشيرة الأفيال تتقدم.. ببطء وثقة.. بينما الفيل في المقدمة يمد خرطومه ويلتقط رجلا من على الأرض.. ويطوحه في الهواء إلى آخر مدي ممكن.. ويرتطم الرجل بحاجز الأشجار فيسقط

أرضا..
العملاق الأبيض الذي كان يركب الفيل يثب إلى الأرض دون معونة، ويعمل بخنجره وساقيه عملا لا بأس به في صفوف (الأسامبارا).. الذين تفرقت جموعهم.. وتصاعدت صرخاتهم..
وبدوا وهم جاثون على ركبهم يحاولون حجب الهول القادم عن عيونهم؛ كأنهم في إحدى لوحات (ديلاكروا) الشهيرة عن المذابح..
الحق أن بعضهم قذف رمحا أو اثنين.. لكن ما جدوى هذه الإبر في حائط اللحم الذي سد عليهم المنافذ كلها؟
ومن حاول التراجع منهم كان يصطدم ب (جاد – بال - جا) الذي كان يقوم بعمل عشرة أسود.. وحوله تكومت ثلاثون جثة بعضها قضى نحبه وبعضها ينتظر..
وأحست (عبير) بخرطوم فيل يلتف حول خصرها.. فتلت الشهادتين وهي ترتفع إلى عنان السماء، وانتظرت لحظة الطيران كصخرة المقلاع لتصطدم بشجرة ما هنا أو هناك..
لكن.. غريب هذا! إنها تُحمل في رفق إلى ظهر فيل آخر.. وتجد أنها في وضع الجالسة تشاهد هذه المذبحة من عل..
ضمت فخذيها حول عنق الفيل كي لا تسقط.. إنها لم تركب فيلا قط.. لكن الأمر ليس عسيرا مع ثقل حركته وضخامة ظهره..
وهنا وجدت أن الحيوان العملاق يستدير مبتعدا...
نظرت إلى الوراء فوجدت أن المذبحة قد انتهت تقريبا.
لقد فر (الأسامبارا) الباقون تاركين جرحاهم وقتلاهم.. واستطاعت أن ترى فيلا يرفع قدمه الغليظة من فوق صدر ملكهم بعد ما هشمه..
وبدأ الفيل يشق طريقه عائدا ومن حوله قطيع الأفيال.. لقد كانت مهمة محددة تماما.. إنقاذها..
ولم تكن الإبادة هي هدف هذا الهجوم لقد قتلوا فقط العدد الضروري لإنجاز مهمتهم.. وهم الآن عاندون بها ولكن إلى أين؟
شعور غير عادي هو أن تركب فيلا.. وحدك وسط الأدغال.. بينما عشيرة كاملة من الأفيال تمشي حولك..
وهنا تذكرت العملاق الأبيض.. من هو؟ من الواضح أنه مدبر هذا الهجوم الناجح.. فمن هو الإنسان القادر على حكم هذه الوحوش؟ وكيف ولماذا أنقذها؟
لم تحتج إلى مزيد من التساؤلات لأن العملاق المذكور هوي من السماء.. متعلقا بغصن نبات متسلق تدحرج من أعلى ليسقط فوق ظهر الفيل الذي يمشي جوارها.. لقد فرغ بدوره من آخر تفاصيل المعركة، وعاد ليلحق بها.



لم تحتج إلى مزيد من التساؤلات لأن العملاق المذكور هوى من السماء.. متعلقًا بغصن نبات متسلق تدحرج من أعلى ليسقط فوق ظهر الفيل!

وللمرة الأولى تراه عن كثب..
كان أبيض البشرة.. أوروبيا بالتأكيد.. له عينان زرقاوان.. وشعر أسود طويل يغطي مؤخرة عنقه

وأعلى ظهره.. في وجهه صرامة نبيلة.. ونظرة حادة باعتباره شخصا لا يفهم المزاح أبدا..
كان عاري الجذع باستثناء مئزر من جلد النمر حول خصره.. يتدلى من جانبه خنجر هائل الحجم.. وكانت عضلاته مكتملة ذكرتها بالرجال الذين كانت تراهم في مسابقات كمال الأجسام، ويبدون أقرب إلى مجموعة من الكرات الحديدية الملتحمة ببعضها منهم إلى البشر العاديين.. وكان هذا يضحكها كثيرا..
لم تكن تميل إلى الرجال ذوي العضلات، وتعتبرهم يحاولون جاهدين أن ينتزعوا من حياتهم آلاف الأعوام التي قطعها التحضر منذ رجل الكهف حتى يومنا هذا..
لكنها لم تمنع نفسها من الاعتراف بأن عضلات هذا الأخ متناسقة، أقرب إلى الجمال كما رسمه الفنانون في كل العصور..
من هو؟ من أين جاء؟ ماذا يريد؟
قررت أن تقول شيئا.. فتنحنحت.. وقالت:
- أ... أشكرك على إنقاذي..
لم يجب.. وظل ينظر أمامه مقطب الجبين..
- م.. من أنت؟
نظر لها في شرود.. ثم عاد ينظر أمامه..
- هل تفهم الإنجليزية؟
نظر لها من جديد.. ثم أشار إلى الفيل الذي تركبه وقال:
- (تونتو)!
ثم انفجر في الضحك.. هاهاهاه!
رمقته بغباء في البداية، ثم أصابها الإشعاع (السايكوفيزيائي) فوجدت نفسها تضحك بدورها دون أن تدري لذلك سببا.. إنه بدائي.. هذا واضح والبدائيون يضحكون ضحكا جماعيا سطحيا أسبابه تافهة تماما.. لكنها على كل حال ليست متضايقة.. يبدو هذا البدائي موحيا بالثقة، والتواجد معه أفضل حتما - من لعب دور العروس مع (الأسامبارا)
سمعت صوت زئير الأسد من جديد، فارتجفت فرقا..
رأته يجرى جنبا جوارهما.. وهنا رأت العملاق الأبيض يثب - بسهولة تامة - من فوق ظهر الفيل إلى الأرض.. ورأته يقف أمام الأسد.. ينحني ليضم رأسه إلى صدره.. ويداعب لبدته الكثة..
وهنا فهمت أن هناك دماء.. دماء قانية تنساب من جرح في كتف الأسد.. واضح أن أحد رجال (الأسامبارا) كان يجيد التصويب
سمعت البدائي الأبيض يكلم الأسد بصوت عميق:
(جاد - بال - جا).. (طرزان) بوندولو پاييك!
ما هذه اللغة؟ إنها ليست لغة.. بل هي أقرب إلى صيحات حلقية.. صيحات التي تسمعها من القردة فوق الأشجار..
قردة؟ لم تكفّ الفكرة عن التجوال في ردهات عقلها..
هذا الرجل يصيح كالقردة..
ومن مكانها فوق ظهر الفيل رأت الرجل يخرج من مئزره بعض أوراق الشجر، ومنها يخرج بعض المساحيق يعالج بها جرح الأسد.. بينما ملك الغابة يقف مستسلما مصدرا أنينا مكتوما من حبال حنجرته القوية..
من هذا الرجل؟

رجل يجمع صفات مدرب الأسود ومدرب الأفيال وبطل كمال الأجسام والطبيب البيطري.. كل هذا في آن واحد!
وهنا تذكرت.. لقد ذكر اسمه وهو يتحدث إلى الأسد.. لكنها لم تفهم..
هذا هو (طرزان)! بالتأكيد هو! كانت تعرف أن مغامرتها ستدور في الأدغال.. لكنها لم تربط بين هذا وبين ربيب القرود الشهير..
بعينين مبهورتين راحت ترمقه وهو يصرف الأسد، بعد ما غطى الجرح بأوراق الشجر.. ثم يصعد على خرطوم الفيل الذي كان يمتطيه.. ويعتلي عنقه ويصدر صيحة حلقية أخرى تأمر الموكب بالتحرك..
هتفت في دهشة:
(طرزان)؟
أثار دهشته أنها تعرف الاسم.. فأشار بدوره إلى صدره وهتف:
- (طرزان)..
أشارت إلى صدرها.. وقالت:
- (جين)..
هز رأسه بمعنى أنه يعرف.. ورفع ذراعه القوية الشبيهة بالهراوة.. ليشير إلى الأفق.. وهتف وهو يرمقها في ثقة
- (دوثورث).. (دوثورث)!
اتسعت عيناها أكثر.. (دوثورث)! لا بد أنه يقصد (دودزويرث).. أباها.. لكن هذا أجمل من أن يكون حقيقيا.. أبي؟
- أنت تأخذني إلى أبي؟
- (وازيري).. (مامادو)..
لم تفهم هذا الجزء.. لكنها لم تحاول الاستفسار أكثر.. وراحت تقاوم لهفتها التي توشك أن توقف قلبها.. سيكون قاسيا جدا أن تعرف أن (دوثورث) هذا هو - فعلا - شخص يدعى (دوثورث).. أو أنها لفظة أخرى من لغة القرود التي يجيدها هذا المأفون..
لكن قرية (الوازيرى) لاحت من بعيد..
وشعرت (عبير) بخرطوم رفيق يحيط بخصرها، لينزلها إلى الأرض

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبلات كثيرة طبعتها على خدي أبيها ويديه وعينيه ثم أراحت رأسها على صدره العجوز المنهك، شاعرة أن الحياة لن تكون أجمل مما هي عليه أبدا لثم الأب كفيها بدوره.. ومسح عبرة على عينيه وغمغم:
- هل اختطفك (الأسامبارا)؟
- بل وجدوني في طريقهم.. حاولت أن ألعب دور المستكشفة في أثناء نومك.. ويبدو أنني كنت حمقاء على ما أظن..
- أنت معتوهة.. تذكرينني بالمرحومة أمك في عنادها..
وفى فخر أشارت إلى (طرزان)؛ الذي وقف عاقدا ذراعيه على صدره.. وعلى وجهه تعبير خاو من المعنى كالتماثيل الرومانية:
- لقد أنقذني (طرزان)! ومن أجلي قاد كتيبة أفيال وأسدا!

نظر له الأب في امتنان.. وغمغم:
- أنتما متعارفان؟ إن لورد (جراي ستوك) شخص نادر الوجود.. كل من يستطيع العثور على فتاة ضائعة في أدغال (إفريقيا)، ويعود بها خلال أربع وعشرين ساعة لهو إنسان نادر الوجود..
ثم نظر إلى (مامادو) الذي وقف يرقب المشهد وهو يضحك كاشفا عن أسنان بيضاء كعاج الفيلة وقال:
- هلا شكرت لنا اللورد (جراي ستوك) على كل ما فعل؟
- إن (طرزان) لا يحب عبارات الشكر.. فهو عملي جدا..
ثم فرك يديه في حرج.. وقال:
- وهو يسألك عن الوقت المناسب ليأخذ الآنسة معه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - زوجى (طرزان)!

بدت الدهشة غير الفاهمة على وجه الأب.. ونقل عينيه بين (طرزان) وبين (مامادو) عدة مرات قبل أن يسأل:
يأخذها معه؟ لماذا؟
فرك (مامادو) أنفه في مزيد من الحرج.. وقال:
- لماذا؟ لتكون زوجته طبعا!
عاد الأب يمرر نظراته على الجميع.. قبل أن تتوقف على (طرزان).. وهتف في ازدراء:
- هذا البدائي؟ هذا القرد المروّض يتزوج ابنة الدكتور (دودزويرث) أعظم علماء القرن؟
قال (مامادو) في كياسة:
- يقول إنكم قبلتم الزواج به.. لقد أكلتم الخنازير البرية التي كان يضعها على عتبة الكوخ كل ليلة.. وهذا في عرف قبيلتنا قبول صريح لا شك فيه بالزواج..
- أكلناها؟ - قالها الأب وهو يضرب كفا بكف - لم يحدث.. كنا ندفنها كل صباح.. ولم يجل بخاطرنا أن سعادته هو من يجلب كل هذه الحلاليف إلى بابنا.. ولو علمنا لما تغير الأمر.. نحن لم نقبل الهدية..
- يقول إنه يميل إليها..
- وهل هذا مبرر كاف لى كى أقبل؟ أنا أهوى ممثلة مسرح حسناء.. لكن هذا لا يجعلها مرغمة على الموافقة عليّ عريسا.. حتى ولو كنت أضع خنزيرا بريا أمام غرفة الماكياج كل ليلة..
هنا تدخلت (عبير) لتقول، وهي تعلم أن أباها سينفجر غضبا لكلامها:
- إنه لورد يا أبت.. وهل توجد فرصة لى كي أتزوج من لورد في حياتي؟ إن الفرصة معدومة في (بريطانيا).. فما بالك بها هنا في هذا الركن المعزول من العالم؟
تأمل أبوها (طرزان) من جديد.. وصاح في جنون:
- لورد عار؟! لورد لا يرتدى سوي جلد نمر حول خصره؟
قالت في مزيد من الخبث:
- إن دراساتك عن التطور تجعلك أكثر تفتحا فأنت تعلم أن الفارق بين البدائي والمتحضر ضئيل جدا.. ألست ترانا جميعا أحفاد قردة؟!
صاح وأوردته توشك على الانفجار:
- هناك قردة.. وهناك قردة.. أراهن على أن هذا المخبول لا يجيد لعب (البريدج).. ولا يقرأ (التيمز)
قالت في كياسة وهي ترمق (طرزان) الذي لا يتحرك:
- ثم إننا لو رفضنا.. لصرنا في خطر داهم فهذا الرجل قادر على الحصول على ما يريد
- إلا هذا إلا هذا!
قالها (مامادو) ملوحا بكفيه بمعنى النفي المطلق.
وأردف:
- .. إلا هذا.. إن (طرزان) مهذب جدا ولا يفرض نفسه على أحد.. كل ما في الأمر أنه يشعر بالوحدة ويحتاج إلى رفيقة من جنسه.. لها نفس لون بشرته..
وقد راقت له الآنسة.. لكن كلمة (لا) محترمة ها هنا مثل أي مكان آخر.. وأعتقد أن إجابتنا قد

وصلت إليه دون ترجمة.. ...
قال (طرزان) شيئا ما.. ثم أصدر صوتا كصوت السحلية التي يلتهمها قط.. وأدار ظهره القوي مبتعدا..
فانبرى (مامادو) يفسر:
- يقول إنه حزين..
- معه كل الحق..
- ويقول إنه سيعتكف في الدغل أياما ليبكي..
- هذا لحسن حظنا!
قالها الأب وهو يستدير مبتعدا
أما (عبير) فراحت ترمق (طرزان) وهو يتعلق بأحد الأغصان المتدلية، ثم يذوب وسط الأشجار.. وشعرت بفؤادها يتمزق..
إنها لم تقبل عرضه.. مستحيل أن تقبله.. فقط كانت تداعب أباها دعابة قاسية.. لكن مشهد هذا العملاق طيب القلب إذ يبتعد كسير الفؤاد؛ جعلها تشعر بغصة في حلقها..
هذا العملاق يملك من القوة ما يتيح له أن يختطفها - ولن يجرؤ أحد على منعه - لكنه في أعماقه (جنتلمان) حقيقي.. يفضل أن يعيش ويموت وحيدا على أن يرغم فتاة على شيء لا تريده
كانت هذه أول بذرة غرسها (طرزان) في قلبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علم (بريطانيا) يرفرف في الهواء الساخن..
ألوانه الاستعمارية تعيد لها ذكرياتها المريرة مع بناة الإمبراطورية في (الهند).. حين واجهت عشيرة الخناقين بحبالهم المطلية بالزيت..
حياها (مامادو) ملوحا بذراعه ثم ولى الأدبار واقتادهما هي وأباها - ذلك الجندي الزنجي الواقف على الباب إلى خيمة الجنرال (بلاكمور) قائد الحامية..
كان الجنرال جنرالا حقا.. له شارب أشقر كث وسحنة عسكرية صارمة، وبدا متشككا في القصة كلها.. لكن دكتور (دودزويرث) العجوز راح يحدثه حديثا مستفيضا عن (لندن) وآخر فضائحها، وآخر مشاكلها السياسية، وعن اللعبة القذرة التي يحاول حزب المحافظين لعبها في البرلمان..
وسرعان ما صار الرجلان صديقين..
وعدهما جنرال (بلاكمور) بتدبير السبيل لعودتهما إلى الوطن.. ومحاكمة هؤلاء البحارة الذين أصدروا على الأب تهمة الهرطقة
ثم إن الأب سأله وهو ينتقي كلماته: - هل تعرف شينا عن لورد (جراي ستوك)؟ أشعل الجنرال سيجارة ولوح بعود الثقاب ليطفئه ثم غمغم:
- (جراي ستوك)؟ هل تعنيان (طرزان)؟
- نعم..
مط الجنرال شفتيه في اشمئزاز.. وقال:
- إنها أكذوبة.. أنتم تعرفون خرافات الوطنيين وأقاويلهم التي لا تنتهي.. إن لى عشرة أعوام ها هنا يا دكتور (دودزويرث).. ودعني أؤكد لك..
وهز إصبعه السبابة ليؤكد كلماته:
- .. دعني أؤكد لك أنه لا يوجد من يدعي طرزان).. ثم إنه مواطن بريطاني ولو كان له وجود لكنا

أول من نعلم..
تبادل الأب النظرات مع (عبير).. مواطن بريطاني؟ إن هذا لم يخطر لهما ببال من قبل برغم أنه صحيح..
قال الجنرال وهو ينهض معلنا انتهاء المحادثة:
- سأدبر سبيل نقلكما بالبحر إلى (بريطانيا) العظمي.. لكني أرى أنك تستحق مجاملة أخرى يا دكتور.. إن بعض رعاية صاحبة الجلالة ينوون تنظيم رحلة صيد (سافاري) بعد يومين.. وأنت مدعو إليها مع ابنتك الحسناء.. اتفقنا؟
- اتفقنا..
وتصافح الرجلان.. ثم غادر الأب المعسكر مع (عبير) راضيا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا تفعل يا سيدي أرجوك!
قالها (مامادو) وهو يرقب دكتور (دودزويرث) وهو يفرغ جعبته، مخرجا كل الأشياء التي قدمها له الجنرال، باعتباره من رعاية صاحبة الجلالة..
كانت هناك ثياب نظيفة.. وكان هناك حذاء وبندقية صيد.. وموسى حلاقة.. وبعض الزجاجات الملأى بسائل أحمر
تساءل الأب العجوز، وهو يتأمل كل هذه الكنوز:
- ما الذي لا ينبغي أن أفعله؟
- الاشتراك في الصيد
عاد يسأله بوقار إنجليزي عتيد:
- هل تتكرم بذكر الأسباب التي تمنعني من ذلك؟
كان (مامادو) مذعورا.. يروح ويجيء في الكوخ الطيني.. عيناه تلمعان في محجريهما، كأنما يرى عملا إلحاديا رهيبا..
وأخيرا قال:
- لا تقتل الحيوانات.. ستكون طريقة غريبة لرد جميل (طرزان)..
قال الأب في عدم فهم:
- أنا لم أصطد دودة في حياتي.. أنا رجل علم لا يعرف سوى كتبه.. كل ما هنالك أنها تجربة جديرة بالمشاهدة.. وستكون آخر ذكرى لي من (إفريقيا).. ستدفئ برد شيخوختي في الأعوام الباقية لي في الحياة..
- أحقا ستتركنا؟
ربت الأب على ذراعه.. وغمغم
- يا بني.. هذه بلادكم.. أما أنا فلى بلد آخر يملؤه الضباب.. ويصعب أن ترى فيه أسدا يشرب من النهر.. لكني أنتمي إليه..
كان (مامادو) حائرا..
لقد أحب العجوز وابنته حين كانا خائفين وحيدين ضعيفين.. أما وقد قادهما إلى الحامية.. حامية البلد الذي جاءا منه.. فهو يشعر أنهما صارا غريبين عنه.. ثمة نبرة تعال واضحة.. وثقة بالنفس ممقوتة في كل ما يقولان..
لقد تسرب بخار الاستعمار إلى رأسيهما..

ثم موضوع الصيد هذا..
لقد رأى حملتي صيد في حياته.. ورأى ما فعله (طرزان) بأفرادها.. وهو لم يكن راغبا في رؤية نفس الشيء مع هذين..
وهنا دخلت (عبير) الكوخ
كانت ترتدي قميصا نظيفا.. وسروالا انتفخ جانباه مما يرتديه الأجانب في رحلات الصيد.. وقد دست قدميها في حذاءين لهما رقبة عالية، وعلى رأسها الأشقر كانت قبعة أنيقة..
كانت جميلة.. لكنها لم تكن أجمل مما كانت حين رآها أول مرة.. حين كانت ترتدي ثوبا أبيض مهلهلا متسخا.. وقدماها حافيتان.. وشعرها ثائر كالنار حول رأسها.. وطين (الأسامبارا) يلطخ وجهها.
كانت آنئذ مختلفة.. أما الآن فقد غدت (منهم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللورد (هنري فتزجيرالد) والسير (جيمس ماكماهون) هما رجلان رياضيان.. ولأنهما رياضيان فهما فخوران بعضلاتهما القوية، وبشرتيهما الملوحتين بالشمس، وشاربيهما المدببين من النوع الذي (يقف عليه الصقر) كما نقول نحن..
ونظرت (عبير) إلى المشهد فحسبت أنها تري منظرا ضخما من فيلم سينمائي.. هي لم تر فيلم (ثلوج كلمنجارو) لكنها متأكدة من أن مشهدا كهذا كان فيه..
هناك صف من الحمالين الإفريقيين الذين تبدو عليهم التعاسة، ينوءون بما حملوا على أكتافهم..
وهناك مرشد إفريقي يرتدي جلبابا واسعا أبيض ويتحدث الإنجليزية بشيء من الطلاقة..
وهناك عدد هائل من السادة الإنجليز يرتدون ثياب الصيد، ويحملون بنادق مهيبة الشكل، ويدخنون الغلايين..
أما اللورد المذكور، والسير آنف الذكر فهما منظما هذه الحملة تحت رعاية السيد الحاكم العسكري ورعاية صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا شخصيا..
كان الموكب المهيب قد مر بالقرية لاصطحابهما كما وعد الحاكم.. فما إن رأي اللورد (فتزجيرالد) (عبير) حتى هرع إليها.. وبرشاقة تناول يدها وانحنى ليلثمها في تملق. وقال وهو يخلع قبعته:
- آنستي.. إنني أحيي هذا الجمال النادر أن نراه في المستعمرات..
وهز رأسه في وقار للأب:
- دكتور..
وكانت هناك بغلة جميلة الشكل، رأت الخدم يقودونها لتركبها.. فما من (جنتلمان) سره أن يري آنسة جميلة تمشى كل هذه المسافة..
صعدت (عبير) على ظهر البغلة وأمسكت بما يشبه اللجام..
وبدأت الحملة المهيبة تتحرك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن رجلا كان يرقب ما يحدث من بين أغصان الدغل..

ولم يكن راضيا عن كل هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - الغضب..

مشي لورد (هنري) جوار بغلتها في خطوات رياضية نشيطة..
كان هناك سهل ممتد إلى ما لا نهاية من الأعشاب الشامخة.. وفي المقدمة يمشي رجال (الزولو) حاملين رماحهم ودروعهم البيضاوية.. بينما يتقدم السادة المكتشفون خلفهم بمسافة آمنة..
سألها لورد (هنري) في تهذيب:
- أهذه رحلة (السافاري) الأولى لك؟
- هي أول مرة أرى فيها (إفريقيا) أساسا..
- لن تعرفي مافاتك قبل أن ترى صيد اليوم..
سألته وهي تحدو دابتها برفق.. عن طريق الطرق على عنقها:
- هل أنتم ذاهبون لصيد معين؟
- نحن لا نلهو بالصيد.. بل نحاول الجمع بين الصيد والمنفعة العامة.. هناك أسد عجوز في هذه الأرجاء.. ولأنه عجوز لم يعد قادرا على مطاردة الحمير الوحشية والظباء.. لهذا - كما هي العادة -
اكتشف مصدرا جديدا للحم الطازج الطري المتاح في أي وقت: الإنسان!
اتسعت عيناها.. وعادت تسأله:
- الإنسان؟
قال وقد سره أن أثار رعبها (وهي عادة صبيانية سخيفة):
- نعم.. لقد اختطف امرأتين وطفلا.. وهنا لا يجد الوطنيون حلا سوى اللجوء إلينا.. وهكذا نجمع نحن بين لذة الصيد ولذة تحقيق الأمن..
كان هذا كافيا
ففي أعماقها بدأت تخبو تلك الجمرة المزعجة التي كانت تؤرقها.. جمرة الشعور بوخز الضمير.. فهي لم تكن تدري ما هم ذاهبون لصيده.. وخطر لها أنهم ذاهبون لقتل الغزلان الوديعة والزرافات المسالمة..
لكن هذا الرجل قد أعطاها مبررا أخلاقيا للقيام بما تنوي عمله
إن الأسد شرس.. وخطر داهم.. وقتله ليس أكثر قسوة من قتل ثعبان سام أو إبادة قواقع البلهارسيا..
راحت تهش الذباب المحتشد حولها في ضيق..
فقال لها لورد (هنري):
- لحظة.. لا تتحركي!
في اللحظة التالية هوت صفعة على جانب عنقها فنظرت له مذهولة والدمع في عينيها، فرأته يرفع ذبابة ميتة بين أنامله:
معذرة.. إنها ذبابة (تسي تسي).. لم يكن هناك وقت لأحذرك!
تحسست موضع الصفعة في لوم.. وقالت:
- كانت (هش) واحدة كفيلة بإنهاء المشكلة..

- (هش) لا تصلح مع هذه الذبابة لأنها سمجة ولدعتها كفيلة بإصابتك بمرض النوم.. غيبوبة طويلة لا تفيقين منها أبدا.. يجب على المرء أن يكون حذرا في الأدغال..
هنيهة تفكير.. ثم هوت على خده بصفعة جعلت الهواء يخرج من أذنيه..
وقبل أن يسألها هتفت في لهجة الخطورة:
- معذرة.. إنها ذبابة أخرى كادت تلدغك على خدك.. إن هذه الأدغال - كما قلت أنت – خطرة جدا!
تأملها بخد محمر كالنار.. وتساءل عما إذا كانت قد خدعته.. لا جدوى.. لن يعرف الحقيقة أبدا.. ثم إنه خير من يعرف أن ذباب (تسي تسي) لا يوجد هنا!
وهكذا واصل السير في صمت ودمه يغلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاح السير (جيمس) ذلك الصياح الهامس:
- توقفوا!
ورأته (عبير) يجثم على ركبتيه بين الأعشاب وحوله رقد رجال الحملة على بطونهم.. وشعرت بيد اللورد (هنري) تساعدها على الترجل عن دابتها.. ثم ربت على منخر البغل كي يظل هادئا..
شرعت تزحف على بطنها وسطهم.. ورأت أباها يزحف بدوره.. وتلاقت عيناهما فابتسم في سرور.. كأنما يقول لها: هذا هو المرح قد بدأ!
صوت صفعة دوى في الأرجاء.. فعاد سير (جيمس) يصيح همسا:
- قلت صمتا!
تحسس لورد (هنري) قفاه ليهدي موضع الصفعة.. ونظر إلى (عبير) في استسلام ولوم..
قالت هامسة وهي تدس رأسها بين الأعشاب:
- ذبابة أخرى! إنها الذبابة رقم (47) منذ وجهت انتباهي إلى هذا!
تحسس قفاه من جديد وشعر به ينبض دما.. لكنه قال لها هامسا:
- شكرا على اهتمامك بصحتي.. لكن كنت أفضل لو تنسيني قليلا..
- يجب على المرء أن يكون حذرا في الأدغال..
- نعم.. ولكن ذباب (تسي تسي)
- ششششش!
قالتها رافعة سبابتها إلى شفتيها وألصقت وجهها بالعشب أكثر لترى ما يحدث هناك..
وهناك - عبر السهل الممتد - كان الفيلان.. فيلان يتسليان بالتقاط أوراق الشجر من على الغصون بخرطوميهما
ورأت سير (جيمس) يحكم تصويب بندقيته ويكتم أنفاسه..
ما هذا؟ إنه ينوي
صاحت وهي تنهض على مرفقيها:
- لكن هذا ليس أسدا! إن الأفيال لا تدخل في نطاق الـ...
بوم!
ارتجت الغابة لصوت الطلقة
وحلقت الطيور هاربة من حيث لا تدري أين كانت.. وتصاعدت صيحات القردة وهي تفر من فوق أشجارها مذعورة.

وفي الأفق لم يعد هناك سوى فيل واحد يتحسس بخرطومه رفيقته، المسجاة على العشب وقد كفت عن الحركة.. كفت عن الحياة..



وفي الأفق لم يعد هناك سوى فيل واحد يتحسس بخرطومه رفيقته، المسجاة على العشب وقد كفت عن الحركة..

رفع خرطومه إلى السماء وأطلق صيحة داويه.. هوووووه! ولم تكن (عبير) قد سمعت صوت الفيل من قبل.. لكنها أدركت أن هذه صيحة التياع وجزع.. صيحة روح تتمزق
ولم يطل سير (جيمس) ألام الفيل الباقي..
بوم!
دوت الطلقة التالية.. وبعدها لم تعد هناك أفيال..
فقط جثتان ضخمتان يعبث حولهما الذباب.. ورائحة البارود
نهض الرجل وعلى وجهه علامات الرضا وأخذ رجال (الزولو) يتصايحون فرحا.. على حين راح الإنجليز يصافحون الرجل مهنئين
أما هي فقد ظلت ترمق كل هذا في غباء
كان هناك كلام كثير عن أسد عجوز سفاح وعن تحقيق الأمن.. إلخ
فما هي علاقة الفيلين بكل هذا؟ إذن ليست هذه حملة صيد شجاعة.. بل مجرد مجموعة من السفاحين يلهون.. مجرد أوغاد..
دنا منها لورد (هنري).. رأي وجهها الشاحب وعينيها الزجاجيتين.. وأدرك ما كان يجول في ذهنها فقال بصوت عميق:
- الصيد هو الصيد.. إن العاج يساوى كثيرا على الصعيد المعنوي والمادي.. ولربما أهديناك رأس جاموس بري أو سن فيل يذكرك بأحلى أيام حياتك.. إن الذكرى لشيء مهم لسيدة تحيا وحدها في (لندن) بعد ما يتزوج أبناؤها.. .....
وصمت.. بينما رجال (الزولو) عاكفون على انتزاع أنياب الفيلين لكن عينيها جعلتاه يشعر بالذعر..
عيناها تقولان لهم بكل صراحة: أيها القتلة! أيها القتلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحة الموت تصاعدت إلى أنف (شيتا) قبل أن يشمها (طرزان).. الشمبانزي لطيف المعشر يصدر أصواتا رفيعة تنم عن غاية الذعر.. ويشير إلى السهل مرارا وتكرارا.
هنا بدأ (طرزان) يشم الرائحة بدوره..
ولم يكن هناك أحد.. لهذا هبط من فوق الشجرة وأشار إلى الشمبانزي كي يلحق به.. لكنه آثر السلامة..
ومشى ربيب القردة رويدا إلى مكان الرائحة..
هذا (شاك).. ذكر الغوريلا العجوز المسالم الذي كان يهوى التهام أوراق الشجر وثمار المانجو..
جثته ممددة في ضوء القمر نصف المكتمل بلا حراك..
انحنى (طرزان) على ركبتيه وتفحص رأس القرد العجوز..
ثقب قبيح الشكل في جبهته.. وثقب آخر في صدره.. و (طرزان) يعرف من أين تأتي هذه الثقوب.. الرجال بيض البشرة يصنعونها في أجساد الحيوان بعصي معدنية يحملونها.. عصي تحدث صوتا كالرعد
وحين نظر لأسفل أكثر رأى أن كفي الغوريلا مقطوعتان..
كان قد رأى أشياء كثيرة كهذه، ولم يفهم قط السر في ذلك..
ولو كان (طرزان) ذا خبرة بالسوق العرف أنهم يبيعون أكف الغوريلا للبيض، كي يستعملوها كمطفأة سجائر.. وأن الكف الواحدة تساوي ثروة في أسواق (أوروبا) و(أمريكا).. ثروة تستحق أن

يموت من أجلها هذا الحيوان المسالم الضخم أشنع ميتة [1]
وقطب جبينه في ضوء القمر الشاحب..
ما كان (شاك) العجوز يستحق ميتة كهذه.. فقد أحبته كل حيوانات الغابة.. إن (طرزان) قد مر بلحظات عديدة كهذه.. كلما جاء الرجل الأبيض لينشر الموت والهلاك في كل صوب..
وفي كل مرة كان (طرزان) يتحاشاه.. لأنه يعرف أنه ينتمي بشكل ما له.. وأن هؤلاء القوم سيقبضون عليه حتما ويعيدونه إلى وطنه الذي لم يره قط.. وسيرغمونه على ارتداء الثياب مثلهم.. وعلى الحياة مثلهم..
لم يكن الصدام في صالحه..
فالرجل الأبيض أقوى وأشرس من كل حيوانات الدغل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند الفجر سمعت (عبير) صوت الضجيج..
وسمعت (الزولو) يتكلمون بلغتهم الغريبة..
غادرت خيمتها مسرعة.. فوجدت لورد (هنري) يهرع ممسكا ببندقيته.. وما إن رآها حتى صاح:
- إنه هنا!
- من هو؟
- الأسد طبعا.. لقد جاء يطلب الماعز التي ربطناها قرب المعسكر! واختفى بين الأشجار..
وسمعت (عبير) صوت الطلقات فوجف قلبها.. صوت زئير.. رائحة البارود
مزيدا من الطلقات.. صياح:
- عليك به يا (جيمس)!
- أسرع يا (هنري) قبل أن..
صوت صرخة مدوية.. زئير.. ثم.. الصمت..
عندما عاد الإنجليزيان كانا منهكين والدخان يتصاعد من فوهتي بندقيتيهما..
وابتسم لورد (هنري) في ثقة برغم وجهه المتعب:
- قد ظفرنا به!
- مرحي!
وبعد قليل رأت رجال (الزولو) عائدين..
كانوا يحملون شيئا بين أيديهم.. وأدركت (عبير) أن هذا أحدهم.. لقد مزقه السبع تماما.. ومن الواضح لكل ذي عينين أنه قد انتهى..
ورأت مجموعة أخرى تجذب الأسد الميت بصعوبة بالغة..
كان ضخما.. ذا لبدة هائلة الحجم.. وكان جسده مفعما بالطلقات..
قال لورد (هنري) وهو يجلس على العشب مسترخيا:
- كان شرسا.. وكاد يفتك بنا جميعا..
- لكنه وقع في الفخ على كل حال..
دنت (عبير) لتتأمل هذا المخلوق العظيم الذي لن يفترس بعد الآن.. تأملت عضلاته.. وأنيابه البارزة.. و..
وهنا توقفت عند شيء ما جعلها تدرك أن هذا الأسد لم يكن عجوزا.. وبالتأكيد لم يكن هو

مفترس النساء والأطفال..
كان هناك جرح في كتف الأسد جرح قطعي أحدثته حربة.. أحدثته منذ أيام في قرية (الأسامبارا)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الظهيرة وجده (طرزان)..
لم يكن بحاجة إلى رؤية جرح الكتف ليعرف من هو..
إنه يعرف كل شعرة في لبدته.. وكل ناب في فم (جاد - بال - جا)..
مرغ وجهه في عنقه.. وراح يعتصر فراءه الكث يبلله بالدموع..
وإلى السماء رفع عقيرته وأطلق صرخة ألم..
صرخة اهتزت لها أرجاء الغابة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ما كان هذا؟ تصلب الرجال في أثناء سيرهم وقد أثارت الصرخة هلعهم وعرفت (عبير) أن (طرزان) قد وجد صديق عمره مقتولا.. وعرفت أن غضبة سيكون كالبراكين.. كاسحا مروعا لا يمكن التصدي له..
قالت وهي تبتسم في تشف:
- هذا (طرزان)!
- هل تمزحين؟ ما من بشر يمكنه إصدار صيحة كهذه..
- (طرزان) يمكنه..
- ولماذا يصيح؟
- لأننا قتلنا صديقه الأسد.. صديقه الذي لم يقترف شيئا.. فقط جاء فجر اليوم ليظفر بالماعز لعشائه.. ولم يدر أن هذا كمين..
تأمل بعضهم البعض في عدم فهم..
لكنها كانت تفهم.. واستعدت لنيل جزائها..
وحتى حين راحت الأرض تهتز تحت أقدامهم.. وحين ألصق أحد رجال (الزولو) أذنه بالأرض ثم نهض صارخا.. وحين ساد الارتباك الجميع.. لم تشعر بذعر.. بل استعدت للعدالة.. عدالة الأدغال..
صاح لورد (هنري):
- قطيع من الجاموس البري! في هذا السهل!
يا لها من كارثة!
وأطلق ساقيه للريح ومعه جرى الرجال.. كانوا يحاولون اللحاق بالأشجار التي بدت لهم بعيدة جدا.. نائية جدا
جرى الباقون.. لكنها مشت بتؤدة.. لم تكن تتعجل شيئا..
وفي الأفق لاحت سحابة الغبار.. ثم ظهر القطيع الثائر الذي لا يمكن الوقوف في وجهه مهما كنت تملك من شجاعة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يلحق الجميع بالأشجار..

وبين الحوافر تلاشي جسد عدد لا بأس به من أفراد الحملة..
الهول الأسود يزحف كالطوفان.. يأخذ بالنواصي والأقدام..
لم تكن هناك صرخات.. فالضوضاء لا تسمح بشيء.. ولربما أطلق أحد الرجال رمحا أو طلقة بندقية.. لكنها كانت تضيع وسط الأمواج.. فلا ترى لها أي تأثير..
لكن (عبير) وأباها كانا في مأمن لقد وجدت نفسها بين ذراعين قويتين، وعملاق أبيض يجرها جرا بأسرع ما يمكن إلى جذع شجرة ملقى على الأرض.. وحمى جسدها به.. ثم هرع يحمل الأب إلى الموضع ذاته.. ثم يتوارى معهما..
واحتضنت (عبير) أباها.. وكمشا جسديهما قدر الإمكان.. بينما حوافر الموت تشب من فوقهما، والهدير مستمر إلى يوم الدين..
كان الجذع قويا.. وشكل عقبة لا بأس بها أمام القطيع.. من ثم راح أفراده يثبون فوقه..
وأخيرا هدأت الضوضاء.. ورفعت (عبير) وجهها لترى الغبار الذي خلفه هؤلاء الجثث الممزقة في كل صوب عبر الوادي..
ومن بعيد ترى الشيء الذي أثار هلع هذا القطيع.. أسرة كاملة من الأسود بحالة صحية جيدة تلحق بمؤخرة الركب.. وترغمه على الركض المجنون..
لكن الأسود لم تواصل مسيرتها..
رأتها (عبير) تقف في السهل وترفع عيونها متسائلة..
نهض (طرزان) من مخبئه.. لم ينظر لها ولا لأبيها..
يشق الغبار بجسده الفارع ماشيا نحو الأسود.. وفي صمت أشار إلى الأشجار البعيدة.. أمر صامت أصدره بعينيه..
الأسود تهرع نحو ما أشار إليه.. تقف هناك وترفع رءوسها لأعلى وتزار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهض الأب ينفض الغبار عن ثيابه.. شعره وحاجباه صاروا بيضا تماما.. وكان منهكا يترنح من الإنهاك العصبي والجسدي..
راح يرمق المشهد غير فاهم.. ثم سأل (عبير):
- هل أنت بخير؟
- وأنت؟
- بخير.. لقد أحسن (طرزان) هذا اختيار وسيلة الفرار لنا..
- وأحسن الانتقام!
نظر لها في غباء.. غير فاهم ما تريد قوله.. واصل نفض قميصه ثم عاد يسألها وهو يعرج على قدم التوت:
- هل تعنين أنه هو الذي؟
- بالتأكيد.. إن هذه الأسود هي أسرة (جاد - بال - جا) الذي قتلوه.. قتلوه فجر اليوم عندها قرر (طرزان) أن ينتقم.. وكان انتقامه مريعا، لا يبقى ولا يذر..
نظر لبعيد مستخدما كفه ليقي عينيه وهج الشمس وقال:
- لكن هناك أحياء فوق هذه الأشجار.. لورد (هنري) وسير (جيمس) وبعض (الزولو)..
- هذا حق.. لهذا تنتظر الأسود!
- لن ينزلوا إلى الأرض أبدا

- ربما.. لو قرروا أن يعيشوا فوق الأشجار إلى يوم الدينونة فهذا شأنهم.. لكن الأسود لن تمل الانتظار.. ومن يحاول النزول يكن جزاؤه مريعا.. هذا عادل بكل المقاييس..
قال لها في استخفاف:
- أراهن على أن لورد (هنري) سيتسلى بالتصويب على هذه الأسرة أسدا أسدا.. وبعد نصف ساعة يمكنه أن ينزل..
- لا أظن يا أبي.. فإن أحدا لم يعن بحمل بندقيته في أثناء التسلق.. ثم إنها تعوق صعود الشجرة..
انظر! هي ذي بنادقهم في يد (طرزان)!
كان (طرزان) عائدا من عند الأشجار، حاملا أربع بنادق في يده.. ورأته (عبير) يمسك بها واحدة واحدة.. فيهشمها على ركبته كما نهشم نحن أعواد القصب في شم النسيم..
وبازدراء ألقى بالحطام جانبا.. ورفع عينيه لينظر لهما..
نظرة خالية من المعنى.. لكنها تقول الكثير..
تقول: لقد أخطأتما لكني غير قادر على معاقبتكما لأنني أحبها.. والآن يمكنكما الانصراف ولا تهابا أسودي..
همست (عبير) وعيناها تدمعان:
- أبي..
- ماذا؟
- أنا ذاهبة معه!
- هل جننتِ؟!
دون كلمة واحدة تقدمت نحو (طرزان).. نظر لها لحظة في حيرة.. ثم مد يده العملاقة وأراحها على كتفها..
كان يلهث تعبا.. ويلهث إرهاقا.. ويلهث غضبا لكن ابتسامة بدأت تتلاعب على وجهه الصخري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا سمعت (عبير) من يناديها.. ولم يكن أباها:
- هيه! (جين) أو (عبير)!
نظرت للوراء لترى (المرشد) ببذلته السوداء، والقلم الجاف في يده، وقد بدا متعجلا للانتهاء من كل هذا..
- (المرشد)؟
- هو بعينه.. جئت لإنهاء هذه القصة.. إن قطار (فانتازيا) ينتظر..
صاحت في حنق وهي ترفع ساعد (طرزان) عن كتفها..
- هذا ليس عدلا.. من المفترض أن تتزوج (جين) (طرزان) وتعيش معه إلى الأبد وتصير مثله في كل شيء
ابتسم ابتسامته اللزجة.. وقال:
- يصلح هذا لمغامرة أخرى.. لكن وقت هذه قد انتهي..
- لكن الموقف لم ينته بعد..
- بالعكس..
ونظر إلى الأشجار التي تنتظر الأسود تحتها..

وأردف:
- قد نال الأشرار جزاءهم.. وانتقم (طرزان)..
وصرت أنت زوجة (طرزان).. هل بعد ذلك بعد؟
رأي حسرتها.. فقال محاولا التخفيف عنها:
- على كل حال.. تذكري ما قال (مامادو)..
إن قصص (طرزان) عنصرية خبيثة جدا.. مهمتها.
تمجيد الرجل الأبيض القوى العادل.. المؤهل ليحكم (إفريقيا) كلها.. وفي كل قصص (طرزان) تجدين تجار الرقيق من العرب الذين يفسدون في الأرض ويعذبون الزنوج.. وهي محاولة رخيصة لدق (إسفين) ما بين العربي والإفريقي.. وطبعا كلنا نعرف أن تاجر الرقيق كان هو الرجل الأبيض، كما حكى (أليكس هيلي) في رواية (جذور).. ولمزيد من الخداع تجدين (طرزان) يعاقب البيض الأشرار في قصصه..
الحق أن قصص (طرزان) كلها سيئة النية.. لكنها مسلية جدا..
- مثلها مثل قصص (جيمس بوند)..
- بالضبط.. والآن ودعي قردك الأبيض.. فأمامنا رحلة أخرى..
نظرت إلى عيني (طرزان) الصريحتين ولم تجد ما تقول..
وفي صمت لحقت ب (المرشد) دون أن تنظر إلى الوراء.

(تمت بحمد الله)

نداء الأدغال
إنها الأدغال الإفريقية، حيث لا صوت يعلو فوق صوت الزئير والعواء والخوار..
ولا قانون يعلو فوق قانون الغاب..، ولا حلم يعلو فوق البقاء حيا ساعة أخرى..
لكن واحدا فقط عرف كيف يخلق قانونه الخاص..
كان هذا الواحد يدعي لورد (جراي ستوك).. والذي نسميه نحن طرزان..
د. أحمد خالد توفيق

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) حقيقة.

روايات مصرية للجيب

12

فانتازيا

بين عالمين

فريق

متميزون



E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (12)

بين عالمين

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأيّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- من أنا؟

تتسلى (عبير) بقراءة العبارات التي تدلّ على البلدان، التي تراها من نافذة قطار (فانتازيا) الذي يمشي بتؤدة.
تسأل (المرشد) وهي تسترخي في مقعدها:
- « فكرة جيدة.. ولكني لم أرها من قبل.. »
- « إنها إحدي تحديات إدارة (فانتازيا).. والغرض هو المزيد من راحتك يا (أليس).. »
- « قلت لك لا تدعُنى (أليس).. »
فيبتسم ويواصل الضغط على قلمه.. تك تتك تك!
وتروح هي تواصل تأمّل اللافتات..
أرض الخيال العلمي.. أرض العباقرة.. عالم القراصنة.. عالم (ديزنى).. عالم (هانز أندرش).. أرض رعاة البقر.. دراما النفس.. أرض البحار.. ثم.....
- « دراما النفس؟ لم أر هذا الجزء من قبل..»
قال بلا مبالاة بغيضة:
- « إنه المكان الذي يتحدث عن الدراما النفسية.. ظننت هذا واضحًا.. »
- « نعم.. كمن يفسر الماء بالماء.. هذا واضح بالفعل.. »
ثم انحنت إلى الأمام لترى أكبر مساحة ممكنة.. وتساءلت:
- « هل لي أن أنزل في هذا المكان؟ »
- « إن أحلامك أوامر.. ولكني لا أرى ما هو معرفي..... »
لكنها كانت تعرف...
فها هي ذي ترى شارعًا مألوفًا.. وترى زقاقًا صغيرًا ضيقًا يقف على أوله بعض الشباب العاطل يتبادلون المزاح البذيء والصفعات، ومن آن لآن يبصق أحدهم على التراب على سبيل الدعابة..
كل هذا يبدو مألوفًا.. مألوفًا أكثر من اللازم..
في الحلم السابق قالت له إنها راغبة في زيارة عالمها في (فانتازيا).. لقد قال لها (المرشد) مرارًا إنها حلم.. كل حياتها السابقة حلم.. والحقيقة الوحيدة التي تحياها هي أن تكون هنا.. في (فانتازيا).. تستقل القطار وتنظر من نافذته ثم تنتقي مغامرة ما..
أي أنها - عمليًا - تحيا في الفراغ بلا نقطة ارتكاز.. قدماها لا تلمسان أرضًا، بل هما معلقتان للأبد..
كأنه عقاب إغريقي مرير كالذي رأته في مملكة الموتى..
الآن هي راغبة في زيارة عالمها القديم الذي تحوّل - بمعجزة ما - إلى محطة أخرى من محطات الأحلام في (فانتازيا)..
إنها لا تصدق أن هذا هو مصيرها..
صحيح أنها لم تعد قط إلى عالم الواقع، منذ زارت مملكة الموتى، لكنها لاتصدق أن الأمور يمكن أن تكون بهذا السوء..
إن الخيال جميل.. لكن بشرط أن يكون هناك واقع..
إن الفرار جميل.. لكن لا بد أن يكون من زنزانة لا من فرار آخر..
إن الموسيقا جميلة.. لكن لا بد من أن نملك معها الحق في الكلام والقدرة عليه..

لهذا لم تتردد كثيرًا..
قالت (للمرشد):
- « أرغب في النزول ها هنا.. »
- « في أرض (دراما النفس).. ليكن.. »
وجذب الحبل الذي يوقف القطار..

∞∞∞∞∞∞∞

قال لها وهو يساعدها على الترجل من القطار:
- « ها هو ذا دورك الجديد: (عبير عبد الرحمن).. فتاة سمراء لا يميزها شيء.. حاصلة على مؤهل متوسط وفقيرة جدًّا.. ثم وجد فيها خبير الكمبيوتر الوسيم (شريف إبراهيم) ضالته.. ويبدو أنها حركت ذكرى عاطفية ما في روحه فتزوّجها.. »
قالت بلهجة دهشة تمثيلية:
- « أحقًّا؟ يا للغرابة! كل ما تقوله جديد عليّ! »
عاد يداعب قلمه محدثًا الصوت البغيض.. تك تتك تك!
ثم واصل الكلام:
- « لقد اخترع (شريف) جهازًا غريبًا لصنع الأحلام اسمه (دى - جى - ٢).. وعن طريقه عاشت (عبير) في عالم معقد متشعب من الأحلام التي خرجت كلها من صفحات الأدب، الذي قرأت منه الكثير.. وقد أورثها هذا الجهاز نوعًا شاذًا من الإدمان.. إدمان الحلم.. »
هنا صاحت (عبير) وقد نفد صبرها:
- « أنت تحدثني عن أشياء أعرفها عن ظهر قلب.. لأنها أنا! »
مطّ شفته السفلى في لا مبالاة.. وقال:
- « بل لأنك جربتها من قبل في أحلامك.. »
- « اسمعني أيها المعتوه.... »
طقطق بلسانه محذرًا.. ورفع أصبعه السبَّابة:
- « دون طول لسان من فضلك.. »
أردفت بنفس العصبية:
- « أنا قد عشت عشرة أحلام[1].. ولو كان كلامك صحيحًا لكنت قد عشت أحد عشر حلمًا.. ثم.. أين كنت أنا قبل الحلم الأول؟ »
- « هذا سؤال شبيه بالسؤال عما كان في الكون قبل خلقه.. »
ثم أعاد القلم إلى جيبه، وقال:
- « على كل حال.. هذا الجدل لن يقود لشيء.. تعالي معي.. »

∞∞∞∞∞∞∞

ووجدت (عبير) نفسها تدخل غرفة شبه مظلمة.. متى دخلتها وكيف؟
لقد كانت في الشارع منذ ثوان.. لا يهم...
وعلى منضدة أنيقة أمامها كانت شاشة الكمبيوتر تتألق، وفي الطرف السفلي من الشاشة وجدت علامة المحثّ المألوفة تعلن لها:

C: \ > DG - 2 terminated

كل هذا مألوف ومعهود.. لقد انتهى البرنامج من فوره..
وهو ذا (المرشد) يجذب المقعد للوراء، ثم يشير لها بأن تجلس.. فانصاعت دون تردّد...
وفى الضوء الخافت المتألق من الشاشة، رأته يتناول أقطاب جهاز رسم المخّ فيثبتها بعناية حول رأسها..



رأته يتناول أقطاب جهاز رسم المخ فيثبتها بعناية حول رأسها ..

سألته:
- « هل ترسلني إلى حلم جديد؟ »
- « نعم.. لكنه يبدأ بانتهاء حلم سابق! »
لم تفهم.. من منا يفهم؟
قال لها وهو يتراجع خطوتين إلى الوراء:
- « والآن وداعًا.. ألقاك بعد مغامرة لا بأس بها.. »

سألته وهي ترمق الشاشة:
- « لكنني قد عدت تمامًا.. لن ألقاك إلا إذا قمت بتشغيل البرنامج من جديد.. أليس كذلك؟ »
لكنه كان قد اختفى كالعادة..
وظلت وحدها في الظلام..

∞∞∞∞∞

2- حياة عادية.. ولكن..

في اللحظة التالية انفتح باب الحجرة، وشمت رائحة (لوسيون) الحلاقة المميز ل. (شريف)، وكان يسبقه كالعادة بثلاث ثوان..
وسمعت صوته الحبيب يهتف:
- « (عبير)! ماذا تفعلين؟ »
ثم رأي الأقطاب على رأسها ففهم.. هرع نحوها فأطفأ الجهاز، ثم أضاء نور الغرفة، وعاد ينزع عنها الأقطاب وهو يردّد:
- « مجنونة! أنت مجنونة! »
وأنهضها وهو يتحسس وجهها في قلق:
- « هل أنت بخير؟ كيف جرؤت على تشغيل الجهاز بمفردك؟ كل هذا لأنني لم اسمح لك بتجربة أخرى؟ يا للسماء!
هل نسيت ما حدث لك أول مرة؟ »
كانت هي ترمقه ذاهلة..
الوجه وجهه.. مسام الوجه مسامه.. اللحية الحليقة التي ظلت بها جذور الشعر خضراء عنيدة تتحدى الموسى.. حتى الشعرة التي تخرج من طاقة الأنف اليسرى..
إنه هو.. حتمًا هو.. (شريف) زوجها..
إنها لا تحلم
لقد عادت.. بالحقيقة عادت..

∞∞∞∞∞∞

وبعد دقائق من الحوار، عرفت ما كانت تتوقعه..
لقد دخلا الفراش ليناما، وحين صحا (شريف) فجأة ليلًا لم يجدها بجواره.. وهرع إلى غرفة (الكمبيوتر) ليجدها تصحو بعد حلم جديد..
- « بل أربعة أحلام! »
- « مرة واحدة؟ »
قالها في دهشة.. فمن المؤكد أن تجربتها لم تستغرق أكثر من ساعتين.. لكن الجواب حاضر في كل مرة حتى غدا مملًا: لا وجود للزمن في العقل الباطن.. قالها (فرويد) وصارت مسلّمة تتحقق في كل مرة..
ساعتان لا أكثر! اجتازت خلالهما عالم الأساطير الإغريقية، ثم فرّت من خناقي الهند المعاتيه، وقاتلت مع أبطال (شكسبير)، ووقعت في هوى طرزان).. يا للغرابة!
وكان أول ما فعلته هو أن تثاءبت، ثم أعلنت أنها بحاجة إلى النوم.. ونومها - منذ عرفت (فانتازيا) - كان خاليًا من الأحلام تقريبًا.. كأنما تنهي رصيدها كله مع (دى - جى - ٢)..

∞∞∞∞∞∞

الصباح.. طقوس إعداد الافطار..
(شريف) يجلس أمام المائدة يطالع الجريدة، وهو يرتدي قميصًا أنيقًا، وربطة عنق أكثر أناقة،

ليبدو ككل مهندسى (الكمبيوتر).. و (عبير) لا تفهم أبدًا سرّ الاتفاق الخفي الذي جعل هذا هو الزىّ الرسمي لمحاسبي البنوك ومهندسى (الكمبيوتر)..
يحسو جرعة من عصير البرتقال.. يقلب البيض المقلى بشوكته.. يقضم قطعة من الخبز المقدد.. ثم ينظر لساعته معلنًا أنه تأخّر..
يلثمها على جبينها ويحمل حقيبته، ويهرع مغادرًا الدار.. وبعد ثوان تسمع هدير محرك سيارته، إذ تصحو من نومها الطويل.. وبعد دقائق من (التسخين) تسمع صوت تحرك السيارة..
يوم كأي يوم من أيام حياتها الجديدة.. تلعب دور الزوجة في فيلم أجنبي، من التي كانت تراها على شاشة التلفزيون في الماضي..
هو يوم كأي يوم آخر..
لكنها تشعر في قرارة نفسها أن الأمر يختلف.. ثمة اختلاف طفيف..
لكن ما هو؟

∞∞∞∞∞∞∞

دخلت إلى غرفة الكمبيوتر..
كان كل شيء كما هو أمس.. الأقطاب المتناثرة على المنضدة.. وجهاز الكمبيوتر الغافي..
جلست على المقعد ثم مدّت يدًا ملولًا إلى زرّ التشغيل.. وعلى الفور بدأ هدير القرص الصلب، والرسائل المتوالية على الشاشة التي لا تفهم منها شيئًا..
كان الكمبيوتر يعطيها إحساسًا دائمًا بوجود فرد ثالث في حياتها مع (شريف).. فرد له حياة خاصة به.. ولم تكن تعرف شيئًا عن أجهزة الحاسب الآلي العملاقة التي لا تغلق أبدًا، والتي لا تنفك تتعلم من أخطائها.. وما كانت تتصور وجودها..
بالواقع كان هذا الجهاز هو أول وآخر جهاز كمبيوتر تراه في دنيا الواقع.. وبالنسبة لها كان مفزعًا بما يكفي..
وعلى الشاشة ظهرت علامة المحثّ..

C:\>

مدّت أصبعًا خائفًا إلى الحروف.. وكتبت:

C:\> DG-2

وضغطت زرّ الإدخال..
لم تكن تريد اجتياز حلم جديد الآن.. فقط كانت تريد الاستمتاع بمشاهدة الأرقام تجري على الشاشة، ولهذا لم تضع الأقطاب على رأسها..
لكن لم تر أية أرقام.. فقط رأت عبارة تقول:

C:\ > File not found

لم تكن تجيد الإنجليزية.. لكنها تعرف شكل الحروف التي تعني شيئًا ما..
وكانت تعرف أن رسم هذه العبارة معناه أن شيئًا ليس على ما يُرام.. البرنامج الذي تريده غير موجود..
غريب هذا! الملف كان يعمل حتى صباح اليوم..
هل تلاشي تلقائيًا دون إنذار؟ إنها تعرف أن شيئًا كهذا لا يحدث.. عاودت المحاولة دون جدوى، من ثم أغلقت الجهاز ونهضت..
من المؤكد أن (شريف) قد عبث بشيء ما في أثناء نومها.. أزال البرنامج أو غيّر اسمه ليمنعها من

إعادة المحاولة في غيابه..
لقد أخذ مفتاح الكرار معه ليتأكد من أنها لن تعبث..
تبًّا! لكن من يلومه على ذلك؟
هى كذلك لن تسأله.. ستتظاهر بالبراءة وبأنها لم تدخل حجرة الكمبيوتر قط..
إلى أن يجيء اليوم الذي تشعر فيه برغبة نهمة في الحلم.. عندها لن تكون هناك مشكلة.. ستعرف كيف تقنعه بإعادة البرنامج..
وكانت تفهم (شريف).. إنه يمقت (دى - جى -٢) لكنه فخور به.. ولن يجرؤ أبدًا على التخلص منه نهائيًّا.. مثله مثل الأب الذي - مهما بلغ ضيقه من ابنه الشقى - لا يجرؤ على إلقائه من الشرفة، برغم أن هذا حلّ فعّال لمشاكله..
يومًا ما ستحتاج إلى عالم الأحلام من جديد..
وعندها....

∞∞∞∞∞∞

سيعود (شريف) عصرًا كعادته...
قررت أن تنزل لتزور دارها القديمة.. إن هي إلا بضع ساعات ثم تعود قبل ميعاد الغداء، ولحسن الحظ أن (شريف) لا يحبّ التعقيدات في مطعمه.. ستسلق له بعض (المكرونة)، وبعض قطع من الدجاج تحمرها كيفما اتفق.. هذا لن يستغرق وقتًا...
وبعد ساعة كانت تدخل الحارة الضيقة، تجتاز بركة الماء الآسن الأبدية.. وتزجر أحد الأطفال الذين يتشاجرون على الباب، لأنه يوشك على قذف حجر في عينها..
الشقة الضيقة كما هي.. والمطبخ الشبيه بقبر (أيّاح حتب) لو أن هذا الأخير كان ضيقًا إلى هذا الحدّ..
العناق الحارّ التقليدي مع أمها، وألف سؤال عن (شريف) وعن حياتها وعن.. عن حملها..
يا للهول! لقد نسيت (عبير) تمامًا أنها حامل..
لقد غرقت في بحر الأساطير الإغريقية المتشعّب، وعاشت مع الخنّاقين الهنود، وراحت تحاول الحفاظ على بنات أفكار (شكسبير).. كل هذا أنساها تلك الحقيقة التي لا تصدق: أن هناك كائنًا حيًّا ينمو ببطء في مكان ما من أحشائها!
بدا لها الأمر غريبًا.. كأنه يحدث في إحدى روايات الخيال العلمي، حين يتسلل كائن فضائي إلى داخلك، ويترعرع هناك حتى يستولي على وجودك كله[2].
وتساءلت عن السبب الذي يجعل كل النساء في العالم لا يندهشن لأمر مذهل كهذا.. لماذا يقبلنه كأمر مسلم به؟!
نعم.. هي حامل.. وطفلها سيكون اسمه (عادل) لو أراد الله أن يأتي للكون حيًّا وذكرًا.. (عادل شريف) اسم سخيف نوعًا يبدو أقرب إلى أسماء أبطال القصص.. لكن (شريف) اختار الاسم ولا رادّ لاختياره..
قالت لأمها بصوت مبحوح:
« بخير يا أماه.. بخير.. »
قالت أمها وهي تدسّ في فمها بعض حبّات العنب:
- « كلى.. كلى.. لا تنسى أنك مسئولة عن إطعام اثنين.. »
حقًّا.. إن عاطفة الأمومة شيء طبيعي في كل أنثي.. لكنها - (عبير) - تختلف عن كل أنثى.. كل ما تشعر به هو الدهشة والذعر..

تغلبت على خواطرها الرهيبة، ومن جيب حقيبتها أخرجت حفنة من الأوراق المالية ناولتها لأمها، فتراجعت هذه في كبرياء صائحة:
- « لكن.. ما الذي جعلك تظنين أن؟ لا »
لكن (عبير) تملك ألف سبب للظنّ.. دائمًا هناك ألف سبب..
وهي تعرف أن أمها ستأخذ المال دائمًا.. إن ورطة هذه الأسرة لن تنتهي إلا بالموت، وأخوها لم يعُد يعمل.. وتكاليف مدارس إخوتها بعد اختراع هذا الشيء الجديد اللعين المُسمّى (الدروس الخصوصية)..
وتقول الأم ل (عبير) أن تضع لها الأوراق المالية في صدر ثوبها؛ لأن يديها ملوثتان بالطعام الذي تعدّه.. ثم تدعو لها ولزوجها بسعة الرزق.. الحق أن (عبير) محظوظة جدًّا.. فتاة في ظروفها المالية والجمالية والعلمية لا يمكن أن تظفر ب (شريف)، إلا على شاشة السينما.. إن (عبير) تعرف جيدًا أن (شريف) لم يبدأ بحبها.. بل بدأ بالإعجاب بعقلها المجرد من الذكاء.. ثم تسلل إلى حياتهما ذلك الشيء السحري الذي يسمونه الحبّ..
لهذا لم يُرض زواجها من (شريف) كبرياءها كأنثى قط.. لكن من قال إن المرء يجب أن يظفر بكل شيء في الحياة؟
- « أين أخواتي؟ لقد تأخرن في المدرسة.. »
قالت الأم وهي تمسح أنفها بمعصمها إثر رائحة البصل:
- « لم يأت موعدهن بعد.. لقد جئت مبكرة اليوم.. »
نظرت (عبير) لساعتها، ووجدت أنها الثانية عشرة.. لقد حان وقت الانصراف.. لثمت خدّ أمها وقالت إنها تتمنى لو ساعدتها لكن الوقت قد حان..
- « ألن تشربي القهوة معي؟ لحظة حتى أعدّ (السبرتاية) و (الكنكة).. »
- « لا وقت يا أماه.. أبلغي تحياتي لأخواتى.. »
وهرعت تنزل في الدرج المتآكل عائدة إلى عالمها الآخر..

∞∞∞∞∞

دخلت إلى شقتها الفاخرة في (العجوزة)، فطوّحت بحقيبتها وحذاءيها.. واستعدت لدخول المطبخ كي تبدأ (عبء الأنوثة) كما تسمى هي الطهي..
لكن شيئًا ما أثار ريبتها..
بالأحرى أثار ريبتها صوت ما..
صوت قادم من غرفة الكمبيوتر....

∞∞∞∞∞

3- إنهم هنا!

الأحلام قد تجعل أيامك جحيمًا...

∞∞∞∞∞∞

بالواقع كان هناك من يقف في غرفة الكمبيوتر.. وكان يتأمل الجهاز في فضول.. حتى قبل أن ترى (عبير) وجهه - لأن ظهره كان لها - أدركت أنه مرعب..
كان فارع القامة مسربلًا بالسواد.. وبدا لها مألوفًا إلى حدّ ما.. أين رأيت هذه الثياب العجيبة من قبل؟



استدار نحوها.. وهنا رأت القناع الغريب الأسود الذي تتدلى منه الخراطيم وتشعّ منه الأضواء..

شهقت وهي تتراجع للوراء:
« (زولتار)[3]! »
- « نعم (زولتار) الشرير الذي كان يسيطر على الإمبراطورية في حلمها القديم الفضائي.. لقد واجهت (زولتار) في (إمبراطورية النجوم).. ولم تستطع أن تسحقه، لكنها ظلت حية على الأقل..
قال وهو يستدير نحوها بالكامل، وصوته الرنّان يدوّي في أرجاء شقتها:
- « (ليا).. هكذا أوثر أن أناديك.. ما زلت لا أفهم سرّ هذا الاستقبال الخالي من الحفاوة.. »
صاحت متراجعة للوراء أكثر:

- « هذا لن يكون.. أنت وهم! »
ازداد توهج أضوائه وهو يضحك.. وقال:
- « وهم! دعيني أسأل ضميرك بصراحة: هل أبدو وهمًا؟ »
بصراحة: لا..
إنه حقيقى.. له ثقل وهيبة ورهبة كل ما هو حقيقى..
ولكن كيف؟ أين؟ ولماذا؟
صاحت متراجعة أكثر فأكثر (واضح أنها ستخرج من الشقة بعد قليل):
- « أنت.. حلم.. لا وجود لك إلا في عقلى.. أنا التي أوجدتك وجعلتك تمرّ بمغامرة كاملة معي.. هذا كل شيء.. »
أخرج من ثيابه ما يشبه مقبض سيف دون نصل، ولوح به في الهواء، عندها تذكرت هي كنه هذا الشيء: سيف (الليزر)..
قال وهو يضغط المقبض ليخرج الشعاع الفوسفوري المتألق، الذي يقصر ويطول حسب اتجاه المقبض:
- « دعيني أبرهن لك على أنني لست حلمًا! »
ثم تردّد هنيهة ونظر إلى السيف.. وغمغم:
- « لكني لا أستطيع قتلك يا (ليا).. ليس قبل أن أظفر به! »
- « هو؟ »
- « من غيره؟ (الجوّال) طبعًا! »
كان يقف الآن في الصالة.. ورأت (عبير) أن حذاءه العملاق كان ملوثًا بالوحل الأحمر، وأنه ترك آثارًا قذرة على (الموكيت)..
جعل هذا جنونها يجنّ.. فهي تمقت الأوهام التي تلوّث شقتها، خاصة بعد ما نظفتها بعناية أمس..
قالت في عصبية:
- « اسمع.. تستطيع أن تقتلني كما تشاء.. لكني لن أسمح لك بأن تلوث (الموكيت) النظيف! »
نظر إلى حذائه، وقال في كياسة وهو يغلق السيف:
- « آسف.. لكني قادم فورًا من كوكب (سلايم) حيث المستنقعات في كل مكان.. وعلى كل حال لا تنسى أنني شرير.. شرير مطلق من الذين يدخنون ويشربون الخمر ويركلون الكلاب ويلوثون السجاجيد.. إن هذا لا يتجزأ كما تعلمين.. »
جلست على الأريكة، ووضعت ساقًا على ساق محاولة أن تهدأ..
إن كل هذه هلاوس.. هلاوس مريعة لا أكثر..
ربما كان الحمل هو الذي؟
قالت وهي تتنفس بعمق:
- « حسن.. أنت تريد (الجوّال) عدوك العتيد.. يمكنك أن ترى أنه ليس هنا.. »
- « بل هو هنا.. واسمه الحالي (شريف).. إنه زوجك الآن! »
- « م.. من قال هذا؟ »
- « أشياء كهذه لا تخفى على (يونيفرس).. جهاز الكومبيوتر العملاق في (جالاكتيكا).. »
نعم.. هذا منطقي.. ففي حلمها كانت تلعب دور (ليا)، وكان (شريف) هو (جوّال الفضاء) الذي لا يُقهر..

من الطبيعي أن يرغب شرير الحلم في قتل (شريف)..
تنهدت وعقدت يديها على صدرها، وفي نفاد صبر قالت:
- « اسمع.. أنا أريد الخلاص منك.. قل لي ما ينبغي عمله.. »
- « لا شيء.. سأنتظر هنا حتى يعود زوجك.. ثم.....»
- إن الأوهام لا تقتل حتى لو كانت ملوثة القدمين مثلك.. »
- « فلنر.. إنني انتظره يقظًا كحيوان (الموركا).. »
ووقف كالتمثال في منتصف الصالة ينتظر..

∞∞∞∞∞

إن الأحلام قد تكون سمجة جدًّا..

∞∞∞∞∞

سمعت صوت المفتاح يولج في الباب..
لقد عاد (شريف) إذن...
توتر (زولتار) وأخرج مقبض سيفه من جديد..
لكنها لم تشعر بخوف.. لقد كان يقينها بأن كل هذا وهم كافيًّا..
كل خوفها هو أن يظلّ هذا الشيء ماثلًا أمام عينيها طيلة الوقت..
سمعت صوت خطوات.. وظهر لها القادم..
لم يكن (شريف)..
كان رجلًا وسيمًا فارع القامة، يرتدي بذلة السهرة، وفي يده اليمنى مسدس، وفي اليسرى قداحة ذهبية يشعل بها لفافة تبغ.. ويبتسم في ثقة..
صاح (زولتار) محنقًا:
- « ومن أنت أيها الأراجوز؟ »
قال الوافد الجديد في ثقة:
- « إنني أدعى (بوند).. (جيمس بوند)! »
وانطلقت رصاصة من المسدس جعلت الشقة ترتج بصوت الرعد، وعلى الفور رأت (عبير) دخانًا أزرق يخرج كثيفًا من جزء في قناع (زولتار)..
يبدو أن الرصاصة قد نسفت صمامًا ما..
صرخ (زولتار) وهو يحاول أن يسدّ التسرب:
- « يا أحمق! لقد هشمت الصمام (358 – 22 - أ).. لقد توقف إمداد (النتروجين)! »
نفخ (بوند) فوهة مسدسه، ثم قال بنفس أسلوبه الواثق:
- « الرصاصة التالية ستكون ذات أثر مؤسٍ.. لذا أقترح أن ترحل حالًا.. ولتجد سباكًا جيدًا..»
- « عليك اللعنة! »
قالها (زولتار) وهو يهرع مغادرًا الشقة تاركًا وراءه خيطًا من الدخان الأزرق..
أما (عبير) فكانت في أسوأ حال..
رفعت ساقيها إلى الأريكة ودفنت وجهها في كفيها، وراحت تولول:
- « لقد جننت! كنت أعرف هذا.. لقد حذرني (شريف) مرارًا من تجربة (فانتازيا) هذه! »
قال (بوند) في رقة وهو يربّت على كتفها:

- « لا أرى ما يدعو لكل هذا العويل يا (ناتاليا أولجانوفا).. »
ضربت يده في هستيريا.. وصاحت:
- « اسمي هو (عبير)! »
- « ليكن.. (عبير).. (ناتاليا).. إن أسماء العملاء السريين لا تَهُمَ لأنهم لا يكفون عن تغييرها.. »
- « لست عميلة سرية.. أنا مجرد زوجة، انتظر عودة زوجي.. وعليّ أن أعدّ له الغداء.. »
- « لا أرى ما يضير في هذا.. »
ونظر حوله متسائلًا:
- « لكن هل يوجد مانع من أن أتناول كأسًا من (الفودكا) التي تَمّ هزّها ولم يتم خلطها؟ »
- « لا يوجد لدينا أي نوع من (الهباب).. »
ثم رفعت عينيها نحوه متوسلة.. وهمست:
- « أرجوك أن ترحل.. أنت تعرف كما أعرف أنك وهم.. مثلك مثل ذلك التيس الأسود الذي كان يقف هنا منذ دقائق.. »
- « الأوهام لا تطلق الرصاص.. »
ثم أعاد تنسيق سترته، وأطفأ لفافة تبغه في المطفأة الزجاجية، وانحنى في فروسية ليلثم يدها، وبطريقة مسرحية قال:
- « العميل (007) في خدمتك يا سيدتي.. حفظ الله الملكة.. »
وفي تؤدة اتجه إلى باب الشقة.. وسمعت (عبير) انغلاق القفل..
أخيرًا انتهى هذا (المورستان)....
مؤقتًا!

∞∞∞∞∞

4- رحلوا .. ولكن...

- « ولكن المجانين لا يعرفون أنهم كذلك.. »
كانت الصلصة قد بدأت تنضج وانفصل عنها الدسم..
فأطفأت الموقد وراحت تقطع الدجاجة إلى أرباع متساوية توطئة لأن..
غثيان! أووع! اللحم.. يا له من شيء مقزز.. طرى ولزج ومقزّز!
هرعت إلى الحمام وأفرغت ما بجوفها، ثم غسلت وجهها بالماء البارد.. لا بأس.. إنها تتحسن نوعًا برغم الدوار..
نظرت إلى اليمين فرأت شيئًا أثار اهتمامها...
إن ستارة الحمام تتحرك!
الستارة شفافة تسمح بأن ترى ظلال الواقف وراءها.. والظلال التي رأتها لم تكن مريحة أبدًا..
كأنه رجل واقف يمسك بين يديه حبلًا، وقد انحنى للأمام يرهف السمع!
لقد رأت هذا المشهد مرارًا من قبل..
ودون أن تتحرك أكثر من اللازم مدّت يدها إلى الخرطوم البلاستيكي الذي يملأ الغسالة الصغيرة بالماء الساخن.. كانت مصرّة على أن يبتاع لها (شريف) هذا الخرطوم، لكنه لم يفعل كالعادة..
قال لها إنه لا يملك أدنى فكرة عن المكان الذي يبتاع منه الناس الخراطيم..
اعتصرت طرف الخرطوم بيد، ووضعت يدها الأخرى على صمام الماء الساخن.. وراحت تنتظر حابسة أنفاسها..
وبعد ثوان انفتحت الستارة، وبرز الرجل عارى الجذع، ذو العمامة، الذي تغطي لحيته صدره، والذي يصرخ كالمجنون وهو يثب من حوض الغسيل نحوها.
إنه خنّاق.. خنّاق كالمئات الذين قابلتهم في الهند يوم كانت هناك في أحلامها..
وعلى الفور أدارت يدها صمام الماء..
انطلق الماء الساخن كالنافورة في وجه المهاجم..
وشمت (عبير) رائحة البخار مختلطًا برائحة أخرى.. ربما اللحم المسلوق مثلًا..
صرخ الرجل صرخة من يقع في بئر الجحيم وغطى وجهه، ناسيًا أن له بطنًا وساعدين يمكن حرقها بشيء من الجهد..
كانت الجرعة كافية، فسرعان ما أطلق ساقيه للريح فارًّا من الحمام وهو يعوى كالكلاب..
وتعثرت قدماه المبتلتان في (السيراميك) فهوى أرضًا، لكنه استعاد اتزانه وواصل الهرب..
وأخيرًا استطاعت (عبير) إغلاق الصنبور..
وأخيرًا استعادت أنفاسها الهاربة..
تبًّا! وهم آخر من أوهامها.. ولو كانت أقوى أعصابًا لسخرت منه، لكنه بدا لها حقيقيًّا أكثر من اللازم..
إن الأمر خطير حقًّا...

∞∞∞∞∞∞

أخيرًا جاء (شريف)، وهي تتهيأ لتنظيف الشقة..
إنه - ذلك الأحمق - لا يجيء أبدًا في الوقت المناسب..

وأقسمت أن تركله لو أنه قال لها الجملة السخيفة المعتادة: يا لشحوبك! كأنك قد رأيت شبحًا!
فالحقيقة هي أنها رأت أشباحًا كثيرة..
سألها عن أحوالها.. فقالت له إنها تقيأت.. وحاولت أن تبدو متماسكة.. فالهلاوس - عامة - ليست من الأشياء التي تُذكر علانية..
قال لها وهو يربّت على شعرها:
- « يا لشحوبك! أشعر كأنك قد رأيت شيئًا! »
تحركت ركبتها - تلقائيًا - لأعلى.. ثم تراجعت وقررت أن تحنث بقسمها.. فقد بدا لها ركل زوجها أمرًا غير معتاد نوعًا..
ثم راح يجوّل بعينيه في المكان.. إن (شريف) ذكى قوى الملاحظة..
لهذا سيكون هو الفيصل في حقيقة ما رأته..
انحنى يتفحص (الموكيت) ثم سألها في حيرة:
- « ما كل هذا الوحل الأحمر؟ »
ثم نظر إلى آثار الأقدام المبتلة الحافية، وبدا مرتابًا:
- « ما هذه الفوضى؟ »
قالت وهي تكنس الوحل الذي كان قد جفّ تمامًا:
- « لا شيء.. إنه السبّاك.. السبّاك.. نعم »
- « لا بد أنه كان يعمل في جهنم حين استدعيته.. »
- « حذاءاه متسخان.. نعم.. إنه ذلك الخلّاط اللعين في الحمام.. زوجة البواب أحضرته لي.. لا.. لا.. نزلت وأحضرته بنفسي.. السبّاك لا الخلاط طبعًا.. وحل أحمر كثير.. »
كانت تتحاشى نظراته مما زاد الأمر سوءًا..
ورأته يدنو من المطفأة الزجاجية فيلتقط عقب لفافة التبغ منها.. فيتأمله في اهتمام، ثم يقول مفكرًا:
- « (بنسون آند هدجز).. يا له من سباك راقى الذوق! في صباى كان السباكون لا يدخنون سوى (الجوزة)..»
ثم أردف وهو يدسّ العقب في جيبه لسبب لا تدريه:
- « كان خطأ أن تسمحي له بالدخول وأنت وحيدة ها هنا.. إن هذه القصص تنتهي دومًا على منضدة التشريح.. »
- « فأل الله ولا فألك.. »
وفكرت: كان يجب أن أحكي له كل شيء حتى لا يشك فيما لا ينبغي أن يشك فيه..
أما هو ففكر: خيانة؟! لا.. (عبير) ليست من هذا الطراز.. إنها تخفي شيئًا.. في الغالب زيارة من أخيها العاطل يقترض منها مالًا.. أو ذكرى ما مشينة من ماضيها.. لكن لا شيء سوى هذا..
أنا لا أحب أن أخدع.. لكني سأحترم رغبتها في الصمت ما دمت أعرف جيدًا أنها لا تخونني..

∞∞∞∞∞∞

- « (عبيير)! تعالى ها هنا.. »
بلغتها الصيحة العصبية في المطبخ، فتلكأت قليلًا ريثما تصبّ له القهوة في القدح بحذر، كي لا يتلاشى (الوش).. ثم هرعت إلى غرفة الكمبيوتر حاملة القهوة وكأسًا من الماء البارد..
كان (شريف) جالسًا أمام شاشة الكمبيوتر، وهو يحرّك (الفأرة) في جنون باحثًا في الملفات

جميعًا..
فما إن رآها حتى هتف في ضيق:
- « ماذا فعلت بالجهاز أمس في أثناء مغامرتك الحمقاء؟ »
وضعت القهوة جواره، ومالت على المنضدة تتأمل الشاشة وقالت:
- « لا شيء.. طلبت برنامج (دى - جى - 2) لا أكثر.. »
- « ولم تعبثى هنا وهناك؟ »
- « أنا لا أفهم حرفًا من هذا الهراء على الشاشة.. »
رشف رشفة من القهوة.. وقال مهمومًا:
- « لا أثر له.. (دى - جى - 2) غير موجود في الذاكرة.. »
غريب هذا! إما أن هذا صحيح وإما أن (شريف) يحاول التملص من مسئولية إزالة برنامجه..
- « أليست لديك نسخة أخرى منه؟ »
حكّ رأسه في توتر.. وقال:
- « نعم.. كانت لديّ نسخة أخرى لكنها على أقراص مرنة.. والحق أنني لا أذكر أين وضعتها.. »
- « وماذا عن محاولة استعادته؟ »
- « تعنين الأمر Undelete؟ للأسف هو لا يعمل في كل الأحوال.. وعلى الخصوص الآن.. ومعنى هذا أن البرنامج فُقد فيزيائيًّا.. »
لم تجد مبررًا للجدال فصمتت..
لكنها في قرارة نفسها اعتبرته ممثلًا كبيرًا..
ولامته على أنه يحاول حرمانها من (فانتازيا)..

∞∞∞∞∞∞

وجاء الليل...
جلسا في الفراش يتابعان سهرة منوعات سخيفة في التلفزيون، وتناولا عشاء من الشطائر.. ثم أعلن (شريف) أن جفنيه أثقل من الجلاميد.. لذا مدّت (عبير) يدها إلى الأباجورة فأطفأتها.. وإلى جهاز الـ (ريموت) فأغلقت التلفزيون، ثم دفنت رأسها في الوسادة شاعرة بالحسد لـ (شريف)..
إن ضميره صاف تمامًا.. وصفاء الضمير يتناسب مع ارتفاع الشخير وسرعة ابتدائه..
وفي الظلام راحت (عبير) تفكر في أحداث يومها..
الأكيد أنها جنت أو فقدت عقلها..
الأكيد أنها على حافة انهيار عصبى..
إن الحمل يحدث تغيرات نفسية كثيرة.. لكنها لم تسمع قط عن حامل قابلت (جيمس بوند) في صالة دارها..
هذا هو الخبال بعينه..
الخبال الذي نراه في كل روايات (دستويفسكي) حين يلقي البطل أشخاصًا لا وجود لهم، بما فيهم نفسه..
والأكثر مدعاة للغيظ ذلك الشخص الذي يتحرك الآن في الصالة..
تصوروا أنه يقف الآن على باب غرفة النوم يتهيأ للدخول؟
يا للهلوسة!

∞∞∞∞∞

5- أيام بلا حلم..

تحرك الظل دانيًّا من الفراش..
من الناحية التي ينام فيها (شريف)، وهو مستمر في غطيطه المنتظم.

∞∞∞∞∞

لقد كانت أمسية يوم شاق..
ظللت أعمل فيه كالكلب..
لقد كانت أمسية يوم شاق..
وكان لا بد أن أنام كلوح الخشب..
لكن ما إن أعود لدارى، وأرى ماصنعته لأجلي..
حتى أشعر بأنني على ما يُرام..
[أغنية قديمة لفريق الخنافس تعلمتها من (شريف)]

∞∞∞∞∞

مألوف هو بعباءته السوداء المبطنة بالأحمر..
ومألوف بخطواته المتلصصة الشبيهة بخطوات وطواط.. لو أن الوطاويط تمشي..
وطواط؟
وهبت (عبير) جالسة كالملسوعة، وأضاءت الأباجورة بجوارها، فلم يزد (شريف) على أن زمّ عينيه بقوة وقد آلمه الوهج.. لكنه ظل نائمًا..
أما صاحب الظلّ فتراجع للوراء، ورفع الذراع المغطّاة بالعباءة ليحجب الضوء عن عينيه..



أما صاحب الظلّ فتراجع للوراء ، ورفع الذراع المغطّاة بالعباءة ليحجب الضوء عن عينيه . .

ثم كشف عن وجهه ببطء.. وتذكرت (عبير) على الفور أصدقاءها القدامى في (والاشيا).. خاصة الوطواط الآدمى المعروف باسم (دراكولا).. والذي استضافها في قصره في ليلة سوداء..

جلستّ في الفراش، وسألته في سأم وبصوت هامس:

- « هذا أنت يا كونت؟ كنت أنتظرك.. »

قال بصوته الهادي الذي يضغط على مقاطعه:

- « وماذا جعلك تنتظرين يا فتاة؟ »

- « لأن هناك الكثير من الهراء في يومي هذا.. »

- « أنت تهينين سيد الديجور بهذا الكلام.. »

- « وماذا تريد يا سيد الديجور؟ »

- « ما يريده أي مصاص دماء من فتاة شابة طازجة الدماء مثلك.. »
قالت في ضيق:
- « حسن.. ليكن بسرعة وفي صمت لأنني لا أريد أن يصحو (شريف).. »
إنه حلم آخر.. وككل أحلام يومها يبدو حقيقيًّا تمامًا..
أحلام تلوث الأرض بالوحل الأحمر، وتترك أعقاب سجائر..
لكنها أحلام.. أحلام (هيلة) كما يسميها علماء النفس، تترك رعبًا وجزعًا في النفس.. لكنها لن تفسد حياتها..
نهضت بثبات من الفراش، ومشت في تؤدة نحو الرجل فارع القامة المسربل بالسواد.. وفكت شريط الياقة كاشفة عن عنقها النحيل الزاخر بالأوردة.. وأشارت إليه بسبابتها..
لا بد أن هذا السلوك المرحب أثار دهشة مصاص الدماء بل وقلقه.. إلى درجة أنه تراجع إلى الوراء خطوتين.. ثم سألها:
- « ألست خائفة؟ »
- « أنا أعلم أنك لا تسعد إلا بضحية مذعورة.. ويؤسفني أن أخيب أملك.. لكني - أعرف - أشعر أنني أشاهد فيلمًا مرعبًا لا أكثر.. »
هزَّ رأسه في ضيق.. ثم دنا منها..
رائحة الموت المميزة في أنفاسه، والتي اعتادت أن تشمها في الماضي.. عباءته تحيط بها و..
الظلام..
وهنا خطر لها للحظة خاطر مروع: ماذا لو لم تكن تهلوس؟!
لكن الوقت صار متأخرًا جدًّا لأن....

∞∞∞∞∞∞

ثم سمعته يشهق في ذعر...
وانزاحت العباءة عنها.. ورأته يتراجع..
كان يرمق الباب في جزع.. وتابعت عيناها ما يراه فوجدت رجلًا أشيب ذا عينين منهكتين، وعوينات تتدلى على أنفه..
كان يرفع يده اليمني.. وفيها رأت (عبير) صليبًا ذهبيًّا يتوهج في ضوء الأباجورة.. وكان هذا كافيًا لتفهم..
قال الكونت وهو يتراجع للوراء:
- « بارون (فان هلسنج).. إن الفتاة لى منذ الأزل.. »
قال البارون بلغته الألمانية المضحكة:
- « قاعدة تحتاج إلى إثبات.. »
وأشار إلى الباب بإبهامه.. وقال:
- « والآن أرجو أن ترحل قبل أن يجيء دور الأوتاد في القلوب.. »
- « ستندم يا (بارون)! »
وفي اللحظة التالية لم يعد (دراكولا) في الغرفة.. وطواط صغير دار دورة واحدة في الهواء.. ثم حلق طائرًا من الباب.. وكان هذا كافيًا.. فقد رأينا هذا المشهد مرارًا..
قال لها (البارون) وهو يتجه نحو الباب بدوره:
- « حذار يا فتاة.. حذار.. لقد خرج (سيد الديجور) ليفوز بك.. وهو لا يقنط بسهولة.. »

ثم غادر الغرفة.. ووجدت (عبير) نفسها تنظر إلى الباب المفتوح في بلاهة..
نظرت إلى (شريف) النائم كضمير سفّاح، وتساءلت عن شعوره لو علم بأن هذا السيرك يقدم عروضه في داره.. بل وفي غرفة نومه..
هل تصدّق ما تراه أم لا؟
لقد كان يومًا طويلًا أسود..
لكن الغد قد بدأ منذ ساعة.. ولربما لو ظفرت ببعض النوم بدورها لأفاقت واجدة أن الأمور أفضل وأكثر استقرارًا..
وهكذا أغلقت باب الحجرة بعناية، ثم اندست في الفراش وأطفأت الأباجورة، وغرقت في نعاس طويل..

∞∞∞∞∞∞∞

لكن الصباح لم يكن أفضل حالًا...
لقد بدأت يومها بالقيء في الحمام.. وهو نشاط يومي لم يرق بعد لأن يكون عادة محبّبة..
وهو ذا (شريف) جالس إلى مائدة الإفطار، يقرأ الجريدة ويلتهم البيض والجبن.. ثم يقول لها – وقد رأي وجهها المكفهر - إنها تبدو له كمومياء، وإن عليهما الذهاب إلى الطبيب اليوم لمتابعة حملها..
وعند الظهيرة يأخذها بسيارته إلى عيادة الطبيب، الذي يضع كريمًا ما على بطنها ثم يلصق سماعة جهاز - باردة جدًّا - ليجعلها تسمع صوت ال (تيك تاك المميز لقلب الجنين..
عندها ارتجف فؤادها رعبًا..
ومع الرعب شعرت بشيء غامض يتلاعب في روحها: الحنين.. الحبّ لهذا القلب الصغير الذي يخفق كساعة في مكان ما من أحشائها..
وهمست في سرّها:
- « ربّاه.. إن هذا البرىء الصغير لا يستحق أمًّا مجنونة.. رباه لا تدع هذا يحدث.. أمتني أو أمته قبل أن أفقد عقلى تمامًا.. »
كان الطبيب مطمئنًّا.. وقال لها إن الدوار والقيء هما ضريبة الأمومة، وعليها أن تتحملهما كما يفعل الرجال.. أعنى النساء..
وموعد الولادة بعد ستة أشهر..
بدت ل (عبير) فترة لا بأس بها أبدًا.. كأنها إجازة طويلة قبل الألم والصراخ.. من يدري ما قد يحدث في ستة أشهر؟ لربما نشبت الحرب النووية أو قامت القيامة أو ماتت هي...
أن تحتفظ بالأمل في حدوث شيء...

∞∞∞∞∞∞∞

لكن الأيام تمضي..
أيام لا حصر لها قضتها كالعادة في القيء أو الدوار أو إعداد الطعام أو تنظيف البيت - بحذر طبعًا – أو زيارة أمها، أو زيارة أهل زوجها..
اعتادت الشعور بركلات الصغير في بطنها.. وتخلت عن ثيابها القديمة لتستبدل بها ثياب الحمل المضحكة الشبيهة بالأجولة..
وتورمت قدماها كثيرًا كأنما هما قربتان مليئتان بالماء.. وصار ظهرها يؤلمها كأنما تم كسره في

ظروف غامضة..
إن الحمل مغامرة من نوع خاص.. مغامرة رهيبة.. لكنه لا يخلو من بهجة الترقب...
وفي تلك الفترة قرأت أطنانًا من المجلات والروايات.. وأدركت أنها لو استطاعت العودة إلى (فانتازيا) ستخوض مغامرات لا تصدق ولا يمكن حصرها..
لكن كيف السبيل إلى (فانتازيا) وقد ضاعت تذكرة السفر؟!

∞∞∞∞∞∞

نسيت أن أقول إن أحدًا من الإخوة أبطال أحلامها لم يزرها قط طيلة هذه الفترة..
لم تفتقد أحدًا منهم.. وبدأت تدرك أن ما مرّ بها كان هلوسة منبعها الإرهاق في ذلك اليوم..
لا بد أن (دى - جى - 2) لم يكن يؤدي عمله جيدًا.. في البدء أقحمها في أربع مغامرات مرة واحدة، ثم جعلها تمرّ بنوع من أحلام اليقظة..
لكن كل شيء على ما يُرام الآن...
على ما يُرام إلى درجة مملة حقًّا!

∞∞∞∞∞∞

6- إخوان الدم..

وحدث كل شيء في الرابعة صباحًا في يوم حارّ من (يوليو)..
يقولون إن الولادات تحدث دائمًا في الليل.. والحقيقة أن الولادة تستغرق وقتًا طويلًا، لهذا لا بد أن يحدث جزء منها في الليل: بدايتها أو نهايتها.. لكن أطفال النهار موجودون حولنا في كل مكان.. و (عبير) نفسها كانت من أطفال النهار..
إنها لا تذكر الكثير سوى الألم الممض، والرحلة بسيارة (شريف) إلى المستشفى، وتجربة مشاهدة الكون كله في وضع راقد حيث السقف المرصع بالنيون هو أرضية العالم..
ألم ثم ألم ثم ألم ثم عواء الرضيع.. ووجوه باسمة ملوثة بالعرق تخبرها أنها رزقت ببنت.. حمدًا لله.. لن تضطر إلى استعمال اسم (عادل شريف) الذي كانت تخشاه..
وكان (شريف) يؤدي واجبه كأى أب مخلص: يلتهم المزيد من أقراص النعناع، عوضًا عن التبغ، ويبكي بحرقة..
وحين لثم يدها بعد خروجها من غرفة التوليد، سألته منهكة:
- « بِمَ نسميها؟ »
كان في حالة من التفتح الروحي.. فقال لها
- « نُسميها (عبير) طبعًا.. »
- « لا... !»
لم تكن تريد (عبير) أخرى تعاني ما عانته هي.. ستكون الطفلة هي كل شيء لم تكنة هى.. لهذا ستطلق عليها اسمًا مختلفًا..
- « فلنسمها (فانتازيا)! »
- « كفاك سخفًا! »
حقًّا هو اسم سخيف لفتاة.. إذن فلنسمها...
- « (شذى).. إنه اسم جميل عطر.. »
- « فليكن.. (شذي شريف).. لا بأس بموسيقاه أبدًا.. تبدو لي كشاعرة شابة أو صحفية نشطة.. »
- « هذا حق ...»
مغامرة غريبة هي..
العودة من المستشفى وقد صار المرء اثنين..
أحدهما يحمل الآخر على صدره.. بينما الصغير يعول وينبح ويمارس كل هذه الأشياء العجيبة التي يهوى الرضع ممارستها..
وتجيء أمها.. وتجيء أم (شريف).. وتبدأ صداقة ما بين المرأتين القادمتين من عالمين مختلفين..
كل هذا غير حقيقي..
إنه أقرب إلى حلم من أحلام (فانتازيا)..

∞∞∞∞∞∞∞

ولم يزرها (إخوان الدم) إلا بعد شهر تقريبًا..
كانت وحدها في المنزل، تغسل صحون الإفطار في المطبخ؛ وقد فتحت جهاز الراديو لتسمع

برنامجها السري المفضل (غنوة وحدوتة) وهو البرنامج الذي لم تعتد أن تعتبر النهار نهارًا من دونه.. لكنها لم تجرؤ قط على إعلان ذلك، لتتقي سخرية الساخرين..
كانت (شذى) نائمة أخيرًا بعد صراخ الليل بطوله - كالعادة - وقد أعدت (عبير) لنفسها قدحًا من الشاي، راحت تسرق منه جرعات بيد ملوثة بصابون الغسيل..
حينما سمعت القسم يتردد في أرجاء المنزل..
- « ماذا تبتغون؟ »
- « الدم! »
- « كم تدفعون لأجله؟ »
- « أرواحنا! »
- « متى تكفون؟ »
- « حين نرتوي! »
ولم تنتظر حتى تسمع بقية القسم الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب.. فهرعت - وفؤادها يتواثب - إلى غرفة الطفلة..
وهناك رأتهم يقفون حول مهد الصغيرة..



وهناك رأتهم يقفون حول مهد الصغيرة ..

عرفتهم بثيابهم السود ووجوههم الملثّمة التي لا يبدو منها سوى فتحات العيون.. وعرفتهم بالمُدّى التي يحملونها..
صرخت في هستيريا وهي تنساب بين صفوفهم، وهي تقدّر أن عددهم حوالي عشرة.. ورفعت صغيرتها إلى صدرها، وتساءلت:
- « ماذا تريدون؟ »
- « الدم! »
- « دعكم من هذا السخف.. أعني ماذا تريدون حقًّا؟»
قال كبيرهم وهو يرفع قبعته السوداء عن عينيه..
- « لا شأن لنا بك يا (صخرة الماء).. نحن نريد الطفلة »

- « ولأي غرض؟ »
- « إنها ابنة (الجوّال).. أي أنها منا.. لكن دمها ملوّث بالدم الهندي، وعلينا أن نعمدّها بعماد إخوان الدم لنطهرها من الدنس.. »
إن هذا لكثير..
تحولت (عبير) إلى هرّة أخذوا أطفالها منها - وهو مشهد مرعب لمن رآه - فاحتضنت الطفلة أكثر، وقالت بصوت متحشرج من بين أسنانها:
« حذار أن يدنو دان من هنا.. أعرف أنكم وهم.. لكني سأريكم كيف تمزق أسناني الأوهام! »
مدّ نحوها يده المغطاة بقفاز جلدىّ أسود.. وقال بتؤدة:
- « أنت تجعلين الأمر عسيرًا علينا.. إننا لن نفعل سوى رسم النجمة الخماسية بحدّ السكين على صدر - الطفلة... و.. »
- « فقط؟!! »
واندفعت قدمها في ركلة عنيفة إلى بطنه.. تلتها بأن أنشبت أسنانها في ذراع آخر.. وقبل أن يفهم الثالث ما حدث كانت قد غرست أظفارها في تجويف العينين في قناعه..
كل هذا بينما ذراعها الأيسر يحتضن الصغيرة في حنان صارم..
لكن الكثرة تغلب الشجاعة.
وبشكل ما تمكن الباقون من الإمساك بهذه النمرة الشرسة.. وبشكل ما تمكنوا من تسميرها إلى الأرض.. واقتضاهم هذا أن يفعلوه بستة منهم..
أخيرًا نهض كبيرهم على قدميه، وهو يعتصر بطنه.. وقال وهو يستند إلى الحائط:
- « عليك اللعنة أيتها الهندية المتوحشة! لعلك مزقت طحالى بهذه الركلة.. »
- « ابتعدت سنتيمترين للأسف! »
- « ما علينا.. لنواصل مهمتنا.. »
ورفع المدية في يده.. ثم أمر أحدهم أن يضع الطفلة على المهد وأن يكشف الثوب عنها..
صرخت (عبير) في جنون وهي توشك على التملص من آسريها:
- « أيها الحيوان! أنت وهم.. لا أكثر! آمرك أن تنصرف.. »
لم يرد عليها، كأنه جرّاح يوشك على إجراء جراحة في المخ، ولا وقت لديه لهذا الهراء..
هنا دوّت طلقة رصاص، وصرخت الطفلة في ذعر.
الإنقاذ في آخر لحظة.. هذا هو الأسلوب الذي اعتادته (عبير) في (فانتازيا).. وكانت تتوقع شيئًا كهذا..
هو ذا (الجوّال) يقتحم الغرفة وفي يده ما يشبه المدفع الرشاش البدائي.. كان هو (الجوّال) الذي عاشت معه مغامرتها في الغرب الأمريكي.. الرجل الذي يحمل كل ملامح (شريف) زوجها..
قال كبير (إخوان الدم):
- « (جوّال)! أنت صرت مصدر إزعاج دائم لنا.. »
قال (الجوال) وهو يثب فوق منضدة جوار الباب:
- « دع الطفلة يا زعيم.. ومُر رجالك بالخروج من هنا.. لا أريد أن تنزعج الصغيرة من كل الدماء التي ستراها لو أنني ضغطت زنادى.. »
في اللحظة التالية حدثت أشياء كثيرة..
أخرج أحد الملثمين مسدسه.. وأطلق (الجوّال) رصاصة.. ووثبت (عبير) على المهد تحمى الطفلة بجسدها.. وتلوّي رجلان وسقطا على الأرض في بركة دماء..

ثم انهمر الرصاص من عدة جهات..
ولم تجرؤ (عبير) على فتح عينيها.. ثم إن ولولة الصغيرة جعلتها لا تسمع شيئًا مما يُقال ما بين الطلقات..
لكنها عرفت أخيرًا أن المتحاربين غادروا الغرفة، وأن رائحة البارود تفعم المكان، وأن دماء كثيرة تلوث البساط والجدران، وأن الجثتين لم تعودا هنالك.. لقد أخذهما الملثمون معهم..
نهضت واحتضنت الطفلة محاولة تهدئتها..
وفي أذنها همست:
- « لو كان بوسعك الكلام لقلت لي ما إذا كنت مخبولة أم لا.. ».
لكن الصغيرة لا تتكلم.. ولماذا تتكلم وهناك عشرات الدلائل في كل مكان من الغرفة؟ الدماء في كل مكان.. ثقوب الطلقات في الجدران وخدوش الأثاث..
قبل ذلك رأت الطين الأحمر وأعقاب السجائر لكنها لم تجد تفسيرًا..
وقالت إن هناك أوهامًا - ربما - تترك آثارًا ملموسة...
لكنها - هذه المرة - لن تصمت قبل أن تعرف الحقيقة..

∞∞∞∞∞∞

7- المصحّة..

سألها د. (صلاح) وهو ينتقي قرصًا يحوي موسيقا هادئة، ويضعه في جهاز ال. (هاى - فاى):
- « هل الموسيقا تريحك نوعًا؟ »
هزّت رأسها في حيرة.. وقالت:
- « لا أدري.. لست ممن يهتمون بها عامة.. أعتقد أنني لا ألاحظها.. »
أغلق الباب، وضغط زرًا فانبعثت النغمات الحالمة في أرجاء العيادة، وأغمض عينيه في نشوة..
ثم سألها:
- « أظن أن المهندس (شريف) لا يعرف بوجودك هنا.. »
في عصبية قالت:
- « ولا أريده أن يعرف.. حذار من أن يفلت لسانك حين تلقاه في النادي هذا المساء.. »
- « ولِمَه؟ إن العلاج النفسي من حق كل إنسان.. مثله مثل الكشف الدوري على الأسنان.. إن النفس آلة معقدة، وتروسها تتلف كثيرًا.. »
- « إلا هذا! »
قالتها في عصبية وأردفت:
- « في بيئتي الأصلية يعالج الطبيب النفسي المجانين فقط.. »
ابتسم فأضاء وجهه الوسيم.. وقال:
- « نعم.. ولا بأس من أن ينال الطبيب النفسي جزءًا من هذا الجنون.. فإن من عاشر القوم أربعين يومًا غدا منهم.. أليس كذلك؟ »
- « بلى.. وآسفة على وقاحتي.. »
- « حسن.. لن أخبره.. والآن ما هي المشكلة؟ »
ابتلعت ريقها وراحت تعبث في المطفأة الزجاجية التي على المكتب أمامه، وراحت تحكي كل شيء..
كل شئ..

∞∞∞∞∞∞

قال لها بعد ما انتهت من قصتها الغريبة:
- « المشكلة - كما ترين – هى أنك عشت مع الأحلام أكثر من اللازم.. وقد أدى هذا لتآكل الحاجز الفاصل بين الحلم والحقيقة.. بدأتِ أنت بعبور الحاجز إلى الحلم.. ثم بدأ الحلم يعبر الحاجز إليكِ.. هذا شيء طبيعي ومعتاد جدًّا.. »
« إن هناك مثالًا شهيرًا لذلك.. في فيلم (الأرنب روجرز) كان على بطل الفيلم أن يمثل دوره مع حشد من شخصيات الرسوم المتحركة.. ولهذا كان يقضي عشر ساعات يوميًّا يتحدث إلى فراغ به مجموعة من الأسلاك.. ثم كان الفنيون يضيفون الرسوم المتحركة.. »
« بعد انتهاء تصوير الفيلم ظل شهورًا يشعر بأنه محاط بشخصيات الفيلم.. وكان يتحدّث إلى لا أحد.. ويضحك من نكات لا يسمعها سواه.. وقد احتاج إلى علاج نفسي مكثف بعدها.. »
« نحن لا نقول هنا إنه جُنّ.. لكن الحاجز بين الحلم والحقيقة قد تهاوي.. وبدأت الضلالات تغزو عالمه..»

قالت وهي تخفي وجهها في كفيها:
- « كل هذا منطقي وجميل.. ولكن الأوهام لا تترك آثار رصاص في الجدران، ولا تلطخ الأرض بالدماء.. »
قال لها بكياسة:
- « ومن قال إنك لم تفعلى هذا في أثناء غيبوبة (الإيوفوريا)؟ من الممكن دومًا أن ترشى دماء دجاجة على الجدران.. وتطلقي بعض رصاصات من مسدس (شريف) على الحائط.. »
- « وعقب السيجارة؟ »
- « يا سلام! هذا أسهل جزء ممكن.. »
ثم عقد كفيه تحت ذقنه.. وسألها:
- « ماذا قال (شريف) عندما عاد ليجد ما حدث في حجرة النوم؟ وماذا قلتِ له؟ »
قالت متنهدة:
- « كما لك أن تتوقع.. نظر لي في ذعر.. ثم أعلن أن تجارب (دى - جى - 2) قد أصابتني بالخبال التام.. وغادر المنزل غير قادر على إضافة حرف.. »
وابتسمت متسائلة في خبث:
- « بالتأكيد زارك طالبًا رأيك.. أليس كذلك؟ »
زاغ من عينيها - بمعنى أن بلى - وقال متهربًا:
- « لا تتوقعي إجابات واضحة من طبيب نفسي.. مثله مثل قسّ الاعتراف.. قد يملك أسرار الزوج والزوجة والأبن.. لكنه يظلّ على صمته كالقبر.. »
- « لكني ظفرت بإجابتي حقًّا! »
قال لها بعد صمت طال:
- « أرى أن نخبر (شريف) بكل شيء.. إن (شريف) سيفهم.. فالخطأ خطؤه هو.. ثم سأدخلك المصحة التي أملكها في (الدقي).. »
هبّت صارخة محتجة:
- « مصحة؟! هل وصلنا إلى هذا الحدّ؟ »
لم ينهض بدوره.. وقال بذات البرود:
- « نعم وصلنا إلى هذا الحدّ.. لكني أرجوك أن تغيري رأيك عن الطب النفسي.. إن الإقامة في فيلا أنيقة لها حديقة تزهو بالخضرة، والحياة بلا هموم ولا أعباء، هي كل ما أريده بهذا الطلب.. إن فنانين كثيرين يأتون للإقامة عندي بدعوى هذا العرض المترف: الإرهاق.. ولا أحد يسميهم مجانين.. »
- « وطفلتى؟ »
- « ستكون بخير عند أمك أو أم (شريف).. »
نظرت له متوسلة.. بضع دقائق صامتة ثم همستْ:
- « إنك ستقنع (شريف).. أليس كذلك؟ »
- « بلى.. بلى.. »

∞∞∞∞∞∞

وراحت (عبير) تمضي وقتها ما بين الجلوس في الشرفة المشمسة تتأمل الحديقة الغنّاء في شمس الخريف.. أو مشاهدة التلفزيون ومكتبة (الفيديو) المنتقاة بعناية بحيث تخلو من كل ما يثير الخيال من أي نوع..

أحيانًا تلعب الشطرنج مع مدام (حفيظة) العجوز الشمطاء التي وهن سمعها، فأصابها جنون الاضطهاد ككل العجائز حين يضعف سمعهن، ويعتقدن أن كل كلام الآخرين سخرية أو ذمّ فيهن..
كانت مدام (حفيظة) أرستقراطية ثرية.. وهذا طبيعي لأن أحدًا لا يمكنه دفع الفواتير الفلكية لهذه المصحة سوى (قارون) ذاته..
وبرغم المجاملات الكثيرة في الحساب؛ إلا أن (عبير) كانت تتمزق حزنًا لدى التفكير في الجنيهات التي تتسرب من (شريف) في كل ثانية.. وكان (شريف) يقول لها كلما زارها حاملًا الزهور:
- « لا عليك يا (عبير).. المهم أن تشعرى بصفاء تامّ.. هذه هي مزية الزواج من رجل ثرى.. »
فتنظر له بامتنان.. وتقول
- « لا حرمني الله منك.. وكيف حال (شذى)؟ »
- « لقد بدأ شعرها ينمو أخيرًا.. ويبدو أنها ورثت جمالك وذكاءك معًا! »
- « يا للكارثة! »
- « إن أمي تقول إن الحياة بدونها مستحيلة.. المشكلة بالنسبة لي هي توفير اللبن الصناعي لها.. فهذا النوع شحيح في الصيدليات.. »
وهنا تقول مدام (حفيظة) بلهجة لا تقبل النقاش:
- « يجب ألا ترضع (عبير) طفلتها أبدًا.. فهى - (عبير) - ضعيفة واهنة.. والرضاعة ستقتلها حتمًا! »
- « أمرك يا مدام.. »
و هكذا تمرّ الأيام..
ويبدو أن هذا العلاج ناجع بالفعل.. لأن أحدًا لم يزر (عبير) طيلة هذه الفترة..
كم مرّ عليها في المصحة؟ يبدو أنها قضت ثلاثة أسابيع.. وكانت على وشك الخروج.. عندما.....

∞∞∞∞∞∞

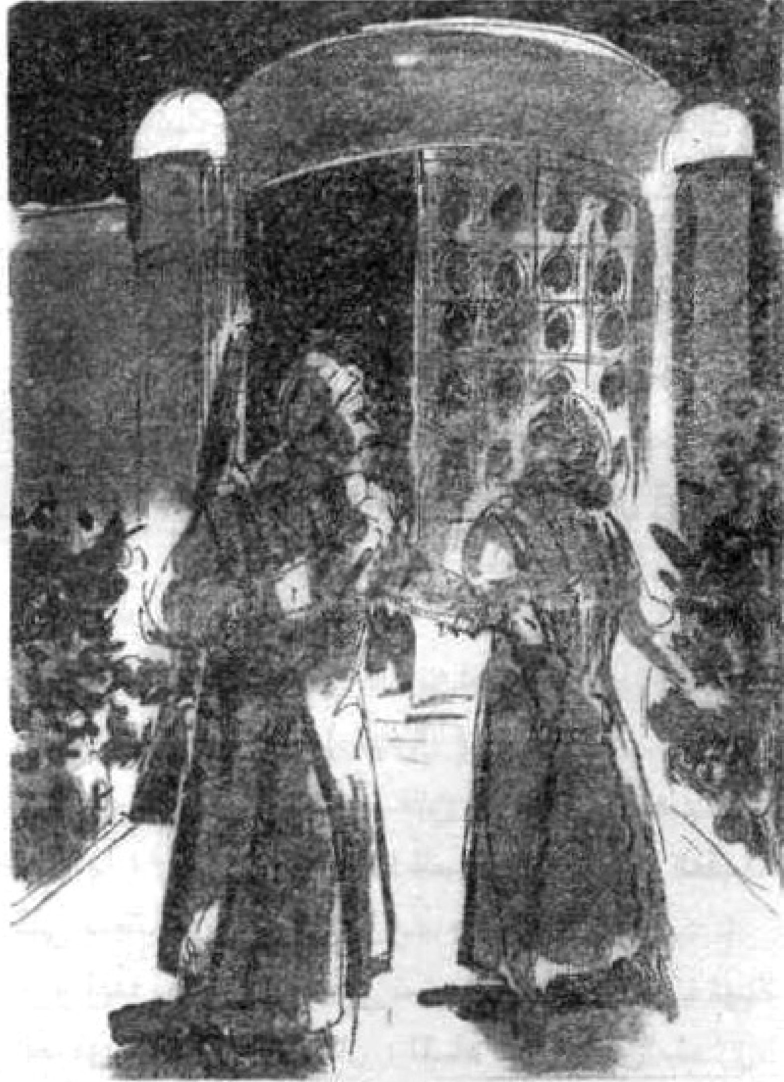
جلس (شريف) أمام جهاز الكمبيوتر يداعب الأزرار، باحثًا عن شيء ما..
الحق أن ابتعاد (عبير) والطفلة قد منحاه وقتًا هادئًا لا بأس به، وجعله يتفرغ لعمله أكثر فأكثر..
لكنه - منطلقًا من ضمير حيّ - لم يجرؤ قط على الاعتراف لنفسه بذلك..
والحقيقة أن (شريف) ليس قاسيًا.. بل هذه هي طبيعة الرجال جميعًا.. فالرجل يضع أولوية مطلقة لعمله.. أما الأنثى فتضع أولوية مطلقة لأسرتها..
ثم إن الرجل لا يحبّ أطفاله في البداية.. لا بد من أن يعاشرهم وأن يعتادهم، ومن ثم يحبهم..
أما المرأة فهي تشعر بأن الأطفال قطعة من روحها من لحظة ولادتهم.. لذا تهيم بهم حبًّا بعد ثلاث دقائق من إنجابهم..
كان (شريف) جالسًا في هذه الساعة المتأخرة أمام شاشة الكمبيوتر، يحاول إيجاد مساحة كافية من الذاكرة العشوائية تتسع لبرنامج جديد يعتمد على الرسوم.. هنا وجد رسالة خاصة به وصلته بالبريد الإلكتروني.. فحرّك (الفأرة) طالبًا فتحها لقراءتها..
كان ما وجده غريبًا.. بل ورهيبًا..
وأحس بالشعر يتصلب على ساعديه..

∞∞∞∞∞∞

8- الفرار.. الفرار!

في الشرفة تجلس (عبير) ترمق الحديقة المظلمة التي بدأ شيء من البرد يتسلل إليها.. برد جميل حزين له نفس إيقاع لفظة (شجن)..
لكنها ارتجفت حقًّا حين رأت الشكل المسربل بالسواد الذي يمشي في الحديقة متقدمًا منها.. كان يرتدي السواد.. وخطر لها أن كل أعدائها تقريبًا يرتدون ثيابًا سوداء.. إذن هو عدوها..
همّت بالصراخ.. ووثبت في وضع دفاعي ممسكة بسكين الفاكهة..
لكنها سمعت صوت زنبرك القلم المميز (تك تتك تك!).. وميزت صوت (المرشد) الرصين البارد نوعًا..
- « مساء الخير يا فتاة.. دعي هذه المدية.. »
ألقت بالمدية أرضًا.. ولهثت.. تلفتت حولها لتتأكد من أنها وحيدة.. ثم قالت شاعرة بحماقتها:
- « (مرشد).. أنت وهم.. وأرجو ألا تكون نسيت هذا.. »
- « أنا وهم في دنيا الواقع.. لكنى واقع في دنيا الأوهام.. تك تك! لا أدري كيف أشرح هذا.. »
- « إذن أنت وهم! »
- « بل أنا واقع.. لأنك تعيشين مغامرة أخرى في (فانتازيا).. هل نسيت؟ لقد جاء الوقت كى أصطحبك!»
هتفت في غضب وهي تتراجع للوراء:
- « مرة أخرى؟ لماذا تصرّ على أن هذا ليس هو واقعي؟ أنا (عبير) الزوجة والأم.. صحيح أنني أحلم أحيانًا لكن هناك واقعًا أنطلق منه في كل مرة.. »
قال بلا مبالاة:
- « معلوماتي الوحيدة هي أنك تمرين بحلم آخر من أحلام (فانتازيا).. حلم اسمه (تجربة الولادة - مواجهة الأحلام السابقة).. وسينتهي هذا الحلم كأي حلم آخر، لنذهب إلى قصة أخرى.. هذا هو كل شيء.. »
- « هذا كذب!! »
قالتها ورفعت ساقها لتركله في قصبة ساقه ركلة عاتية.. صرخ ألمًا.. وراح يتواثب كاللقلق على ساق واحدة..
وأخيرًا استطاع الكلام.. فقال لها:
« أوووه! أنت تزدادين شراسة يومًا بعد يوم.. »
- « وأنت تزداد حمقًا.. تريد القول إنني لم أنجب (شذى)؟ »
- « نعم.. إن الحمل والولادة جزءان من المغامرة التى أعدّها لك (دى - جى - 2).. فقد جرّبت أشياء كثيرة في (فانتازيا) سواهما.. وخطر له أنه من الممتع أن..... »
- « أحمق!! »
وركلت ساقه السليمة، فتدحرج على الأرض متأوهًا..
- « آى ى! كفي! إنهم لن يدفعوا لك أجرًا على تحويلي إلى عاجز.. استعدي للرحيل الآن.. »
- « هذا لن يكون.. إن هذا عالمي الأصلي! »
قال لها وهو يرتكز على ركبتيه:
- « إذن جربي.. لو استطعتِ الرحيل معي فمعنى هذا أنك تعيشين في حلم آخر من (فانتازيا).. »

سألته وهي تستجمع أنفاسها:
- « حسن.. لنفترض أنك صادق - ولو على سبيل الجدل - فلماذا جئت مبكرًا لي هذه المرة؟ إن ذروة الحلم لم تأتِ بعد.. »
- « لأن هذا الحلم خطير.. وليس مستحبًّا أن نستمر فيه أكثر من هذا.. »
- « وكيف نرحل وقد زال برنامج (دى - جى - 2) من الوجود؟ »
ابتسم في ثقة.. وقال:
- « إن البرنامج لم يزل في عالم الواقع.. أنت - فقط - في حلم ليس فيه هذا البرنامج.. أؤكد لك أن (دى - جى - 2) يعمل بكفاءة تامة في هذه اللحظة.. ولولاه ما كنا هنا أنت وأنا.. »
- « (مرشد).. أنت توشك على إنهاء عقلي.. »
- « الأمر ليس بهذا التعقيد.. امشي معي بضع خطوات ولسوف تجدين قطار (فانتازيا) ينتظرنا خارج المصحّة.. »
نهضت متخاذلة.. ساقاها لينتان كعودى مكرونة..
الدوار يكاد يفتك برأسها المسكين لكنها تقاوم..
وتقول:
- « سأطيعك.. فقط لأثبتْ لنفسي أنك وهم.. »
- « هذه فتاتي الطيبة... »
ونزلت بضع درجات تقودها نحو الحديقة.. الحديقة الصامتة الغافية في الظلام، ما عدا مصباحًا أو اثنين يرسلان ضوءًا ناعسًا شاحبًا وراحت تنقل خطاها عبر الممر..
وسمعت من يناديها في توتر:
- « إلى أين يا مدام؟ »
لم تردّ.. وواصلت سيرها نحو البوّابة..
- « توقفى يا مدام! »
وفي اللحظة التالية كان الخفير يمسك بمعصمها بيد من حديد.. ويقتادها إلى داخل الفيلا صائحًا:


وفى اللحظة التالية كان الخفير يمسك بمعصمها بيد من حديد .. ويقتادها إلى داخل الفيلا ..

- « إلى أين يا مدام؟ هل تريدين الفرار وخراب بيتي؟ إن د. (صلاح) أمرنا بعدم خروجك إلا بإذنه..»

- « دعني يا أحمق.. أريد أن أبرهن على أن هذا عالمى! »
ضرب كفًّا بكف.. واستغفر الله وحوقل.. وقال:
- « عالمى عالمك.. لا يهم.. المهم أنك (عُهدة).. وأن خراب بيتى مرهون بخروجك من هذه البوابة.. »
قالت وعيناها تلتمعان بشكل مرعب:
- « سأثبت له أنه لا يوجد قطار خارج البوابة! »
- « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم! ومن - الأحمق - الذي قال إن هناك قطارًا خارج البوابة؟! قطار في (الدقي)؟ هل سمع أحد بشيء كهذا؟ »

طال الصراع والجدال، لكن كل شيء انتهي سريعًا..

∞∞∞∞∞∞

كانت الرسالة التي قرأها (شريف) على الشاشة تقول:
- « أيها (الجوّال).. »
« لا نعرف الاسم الذي اخترته لنفسك في هذا العالم.. لكننا جميعا آثرنا اسم (الجوال).. »
« إن بعضنا يحمل لك ضغائن لا يمكن تجاهلها أو نسيانها، وفي كل محاولاتنا للسيطرة كنت أنت العقبة التي منعتنا من ازدراد الكون - الأرض - البلاد.. »
« لهذا نحن راغبون في تسوية.. وقد اخترنا لها الأسلوب الجدير بالرجال: لقاء في مكان منعزل لإنهاء الأمر كما يفعل الرجال.. »
« نحن نعلم أنك لن تقبل.. لكنك في الساعات التالية ستتلقى عرضًا لا يمكن رفضه، ولتجدن نفسك مرغمًا على القبول.. لأن الأمر يتعلق بحياة أنثى يهمك أمرها.. »
« عندما تقبل - ونحن نعرف أنك ستقبل – اترك ردّك في العنوان التالي من البريد الإلكتروني، وذكر العنوان.. »
ثم التوقيع: « خصومك الدائمون »
انتهى (شريف) من قراءة هذا الكلام الفارغ، وأحس بقلق غريب.. إن التهديد واضح لا مراء فيه.. لكن من كتبه؟
لا أحد يدخل هذه الغرفة سوى (عبير).. لا أحد يعلم رقم هاتفه وبريده الإلكتروني سوى بعض شركات جادّة في الخارج، لا يمكن أن تعبث هذا العبث..
(عبير) لا تعرف ما هو البريد الإلكتروني.. بل هي تعرف كيفية فتح هذا الجهاز بصعوبة.. فكيف تترك رسالة كاملة؟
ثم ما معنى هذا الهراء المكتوب؟
إن (شريف) ليس له أعداء، اللهم إلا مطلقته السابقة، وهي ليست من الطراز الذي يترك تهديدات بشكل ما، يشعر أن هذا المكتوب على الشاشة جزء من كل السخف والأشياء غير المعقولة التي اجتاحت عالمه، منذ سمحت (عبير) لسبّاك يدخن (بنسون أند هدجز) بأن يدخل الشقة بحذاء ملوث بطين أحمر..
« أنثى يهمك أمرها.. »
لا توجد سوى ثلاث إناث يهمه أمرهن.. هن (عبير) و(شذى) وأمه.. فمن المقصودة؟
بشكل ما أدرك أن الأمر يتعلق ب. (شذى).. هذا منطقي.. فالأوغاد يهددون بقتل الأطفال دومًا.. هذه هي التقاليد..
(شذى) الآن نائمة مع أمه في دارها ب. (الدقى)..
إنه ليشعر بحيرة بالغة.. لا بأس من أن يتأكد..
مدّ يده إلى سماعة الهاتف وطلب رقمًا.....

∞∞∞∞∞∞

لم تجد (عبير) صعوبة في تعرف أولئك الذين غرسوا رماحهم في صدر الخفير، فدار حول نفسه نصف دورة ثم سقط في بركة من الدم.. إنها تلك اللحية المجدولة.. وغطاء الرأس والدرع الغريب.. لقد رأت ذات المشهد مرارًا في (قادش)، حين خاضت موقعة (قادش) مع (رعمسيس

الثاني)..
إنهم - ببساطة شديدة - الحيثيون.. عشرة منهم على وجه الدقة..
كيف جاء الحيثيون إلى (الدقى) في نهاية القرن العشرين؟ هذا سؤال لا يهمّ، ولا تجدي إجابته..
لقد صارت الغرائب أكثر من اللازم في هذا العصر.. وتحاشت (عبير) رمحًا اتجه إلى عنقها، ثم راحت تركض في الحديقة.. بينما الرعاة الآسيويون لا يكفون عن الصراخ، ويرددون كلمات بلغتهم الغريبة التي لم تفهمها قط..
وثبت فوق حوض نباتات.. تعثرت.. وثبت فوق جثة أحد الكلبين اللذين كانا يحرسان حديقة المصحة ليلًا..
أخيرًا.. السور الحديدي..
راحت تتسلقه.. ولم تنظر للوراء..
هي تعرف أنهم دانون.. تعرف أنهم يصوبون رماحهم إلى ظهرها.. تعرف أنها هدف سهل..
لكن هذا لا يهم..
إنهم أوهام.. كل هذا وهم.. لكنها راغبة حقًّا في الفرار منه..
وأخيرًا وثبت إلى الشارع المظلم إلا من مصابيح خافتة.. وبضع سيارات غافية اكتست بطبقة من أوراق الخريف..
راحت تركض كالمجنونة دون أن تنظر للوراء..
الحيثيون قد هاجموا المصحة وقتلوا الخفير..
يا للغرابة! يا للجنون!
ولو عاشت لتقابل د. (صلاح) لاتهمها بأنها قتلت الخفير في لحظة جنون.. لماذا؟ لأن الحيثيين لا يهاجمون المصحات ليلًا ليقتلوا الناس.. هذه طبائع الأشياء أيتها البلهاء..
كانت تركض لاهثة حين شعرت بأن سيارة تلاحقها.. ورأت ظلها يطول على الأرض.. يطول.. ثم يقصر تدريجيًّا.. عندها نظرت جوارها، فرأته خلف عجلة قيادة السيارة المكشوفة..
كان يدخن لفافة تبغه الشهيرة ويقول لها وهو يبتسم:
- « (ناتاليا أولجانوفا).. هلا ركبتِ بحق السماء؟ إن قدميك لم تُخلقا لكل هذا الركض.. »
قالت وهي تثب لتجلس جواره:
- « (بوند)! ألا تنام أبدًا؟ »
- « إن هذا لحسن حظك.. »
وضغط دواسة البنزين فاندفعت السيارة في شوارع (الدقى) بسرعة مائة وعشرين كيلومترًا في الساعة..
صرخت وهي تتشبث بمقعدها:
- « تمهّل.. نحن في وسط العمران! »
- « (بوند) لا يعرف سرعة أقل من الثمانين في الساعة.. »
وبرزت سيارة عرضية، فضغط فرملته، التي أصدرت نواحًا مجنونًا، ودارت السيارة مائة وثمانين درجة حول محورها.. ثم واصل الهرب في اتجاه عكسي تمامًا..
سألته (عبير):
- « ممن تهرب؟ إن الحيثيين لا يملكون سيارات.. »
قال وهو يلقي بلفافة تبغه:
- « من الجميع.. من خيول الحيثيين وإخوان الدم.. ومن مكوكات (زولتار) ووطاويط

(دراكيولا).. إن الجميع قد خرج للفوز بك يا فتاة.. ويبدو أن شعبيتك تزداد حقًّا! »
ثم أردف في صبر:
- « ألم يأتك (المرشد) المخبول بعد؟ لماذا لم تفرّى معه؟ »
- « لم يعطوني الفرصة لذلك.. »
ثم في تحدّ أردفت:
- « هذا هو عالمي الأصلي.. ولن أترك أحدًا يطردنى منه.. »
- « مسألة نسبية.. على كل حال أنصحك بالحذر.. فالأمور لم تعد كما كانت فيما يتعلق بالخيال والواقع..»
فجأة هتفت (عبير) وقد تذكّرت شيئًا..
- « (بوند).. هل تذكر السيارة التى كدت تصطدم بها في أثناء فرارنا؟ إنها سيارة (شريف)! »

∞∞∞∞∞

9- (شريف) وأوقات سيئة..

الأوهام قد تقتل..

∞∞∞∞∞∞

في ذلك الوقت كان (شريف) يمرّ بأسود لحظاته طُرًّا..
كان قد اتصل بأمه ليطمئن على أن الأمور على ما يُرام.. وكان ما سمعه في الهاتف بليغًا جدًّا: صوت رنين الهاتف ولا شيء..
وهكذا كان عليه أن يرتدي ثيابه والقلق يعتصره، ثم يهرع إلى جراج البناية ليخرج سيارته.. بالطبع كانت محشورة بين أربعين سيارة بحيث يحتاج الأمر إلى ساحر لا سائق بارع كي يخرجها من مكانها..
وصحا البواب (حمدان) ليعاونه في شق ثغرة وسط علبة السردين هذه، وكان يسعل ويبصق مؤكدًا دهشته من هذا الشاب الرقيع، المتحمس للهو في هذه الساعة المتأخرة.. فبالنسبة ل (حمدان) كان (شريف) رقيعًا بالتأكيد.. فهو وسيم أولًا.. ثم هو بدون شارب.. وهذا أخطر اتهام لرجولته في عُرف (حمدان)..
وأين يذهب شاب رقيع في وقت كهذا إن لم يكن بحثًا عن مزيد من الرقاعة؟!
لم يكن (شريف) في حالة نفسية تسمح له بالاحتجاج على رأي البواب السري فيه..
إذ سرعان ما انطلق ينهب الطرقات قاصدًا بيت أمه في (الدقي)..
وصعد في الدرج مسرعًا ليوسع الباب ركلًا ولكمًا.. في النهاية تذكّر أن المفتاح معه.. مدّ يده وأولجه في القفل..
ولحسن الحظ لم يكن المزلاج مغلقًا..

∞∞∞∞∞∞

كانت الردهة الملأى بالتحف هادئة كالعادة..
وفي الضوء الخافت لم يكن بوسعك أن تتبين شيئًا..
لكن رائحة (الأسيتون) - منظف الأظفار – كانت تملأ المكان وتزكم أنفه.. وبعبارة أخرى كانت رائحة أحد المذيبات العضوية.. وكان (شريف) من سعة الخيال بحيث يعرف أن هذا المذيب لن يكون سوى (الكلوروفورم).. فأمه لن تنثر (الأسيتون) على البساط ما لم تكن قد جُنّت..
ومعنى هذا أن.. آه! بالضبط كما توقّع..
هو ذا الخادم النوبي العجوز مكوّمًا على البساط.. وهي ذي المربية الفلبينية التي جلبتها أمه للطفلة مغشيًّا عليها على الأريكة..
ثم هي ذي أمه - (نسل شاه هانم) - ساقطة قرب الدرج الذي يقود إلى غرفة الطفلة..
الأوغاد! هرع لأمه وجسّ نبضها.. كانت حيّة تمامًا.. لكن هناك من قام بتخديرها وتخدير الخدم.. لماذا؟ ليخطف الطفلة طبعًا..
في نصف الساعة التالي بذل مجهودًا عنيفًا كي يحمل كل هذه الأجساد ويريحها على الأرائك.. ثم يغسل وجوههم بالماء البارد مع بعض الصفعات للخدم..
وكان تأثير كل هذا فعالًا..

فتحت الأم عينيها الزرقاوين أخيرًا، وصرخت في هلع:
- « (شذى)! مون ديو (رباه بالفرنسية)! لقد خطفها المجرمون.. لقد خدرونا.. »
- « من هم يا أماه؟ »
بدا كأنما تسترجع ذكرى تبخرت.. وأخيرًا قالت بعد لأي:
- « لا أدري.. كانوا مخابيل.. حقًّا مخابيل.. يرتدون مثل أبطال الروايات.. »
- « كل أبطال الروايات يرتدون ثيابًا يا أماه.. »
- « ماى نو.. كانوا يرتدون ثياب أبطال تلك الروايات.. الروايات السخيفة التي تحوي كواكب ومكوكات فضاء و....! »

∞∞∞∞∞

من جديد تنطلق سيارة (شريف) في الشوارع..
إن المصحة على بعد شارعين.. و (عبير) هناك..
عليه أن يتأكد.. لربما آذى الأوغاد أنثى أخرى من أسرته..
ثم إنه يشعر أن لـ (عبير) دورًا ما في كل هذا..
وكان يعبر أحد التقاطعات شارد الذهن، حين فوجئ بالكارثة قادمة لا رادّ لها.. سيارة ساطعة الأنوار تندفع نحوه بسرعة جهنمية كالكابوس وبشكل لا يمكن تفاديه..
لكن سائق السيارة كان يقظًا.. وسرعان ما.. إى ى ى ى! دوت الفرملة الصارخة التي جعلت السيارة تدور دورة كاملة حول محورها.. وأمكنه - حين ابتعد النور عن عينيه - أن يرى السائق.. إنه رجل متأنق يرتدي سترة السهرة ويضع قرنفلة في عروتها.. وجواره فتاة ممتقعة شاحبة كالبورص..
كانت سيارة مكشوفة رياضية من طراز شبابى جدًّا، ولم يستطع تمييز طرازها، لأنها ابتعدت بسرعة البرق..
لكنه لم يعجز عن تمييز ملامح الفتاة الشاحبة.. لو أردنا الدقة لقلنا إنها تشبه (عبير) إلى حد كبير..
لكن ماذا تفعله (عبير) في سيارة رياضية ومع شاب متأنق؟
- « يخلق من الشبه أربعين.. »
قالها وواصل قيادة سيارته نحو المصحة..

∞∞∞∞∞

وكان ما رآه في المصحة مرعبًا..
لقد احتاج إلى أن يقرع الجرس ست مرّات، ثم اضطر إلى أن يجتاز الباب الحديدي المفتوح، لأنه لم ير ما يدلّ على وجود حياة آدمية في المكان بأكمله.. في البدء تعثر - كالعادة - في جثة الكلب إياها.. ثم في جثة الخفير.. ثم في جثة مريض أو مريضين..
وكان من السهل أن تعرف أن هذه الجثث تم تمزيقها برمح حادّ أو أداة تشبه الرمح..
كان المشهد مريعًا.. وقد احتاج (شريف) - الذي لم ير جثة في حياته - إلى بضع دقائق كى يخرج من حالة البله التي حلت به.. وأن يصدّق أن كل هذا حقيقى..
كان (شريف) قد اعتاد - كلما رأى مشهدًا لا يصدق - أن يراه ذا بعدين اثنين لا ثلاثة.. كما يحدث في السينما.. وكأنه يرى فيلمًا سينمائيًّا ملونًا لا حظّ له من الحقيقة..
لقد زار شلالات (نياجرا) منذ أعوام.. ولم يستطع تصديق أنه حقًّا هناك أمام هذا المشهد

المهيب، لذا تكفل عقله الباطن بحلّ المشكلة بطريقة بسيطة: جعله يرى المشهد دون بعد ثالث.. دون تجسيم..
كأنها مجرّد صورة عملاقة من التي كان يراها مئات المرات..
هذا الشعور يتكرّر الآن..
لهذا لم يكن الذعر هو ما اجتاح عقل (شريف) الآن.. بل الدهشة.. وفي ذهنه راح سؤال مقلق يتردّد:
- « (عبير) ليست هنا.. إذن أين هي؟ أين هي؟ »
وجاءته الإجابة من مركز الذاكرة.. وكان واضحًا جليًّا ما سمعه:
- « (عبير) في السيارة التي كادت تصطدم بك! »

∞∞∞∞∞∞

10 - المواجهة: الاستعدادات..

سيارة (شريف) تنهب الشوارع بحثًا عن (عبير)..
أين ذهبت؟ هل اختطفها أحد؟ بالتأكيد هذا هو التفسير الوحيد.. اختطفها من صنع هذه المذبحة في المصحّة..
ولكن من هو؟ وماذا يريد؟
لم يكن (شريف) ممن يستعملون القوة، ولم يكن يتصوّر نفسه (يطلق الرصاص ثم يتلوى كالثعبان متواريًا وراء جدار).. لكنه - على كل حال – كان يضع مسدسه في (تابلوه) السيارة.. وكان على أتم استعداد لإطلاق طلقة أو طلقتين قبل أن يُقبض عليه..
وبالفعل لم يطل بحثه طويلًا..
رأي السيارة إياها قادمة في الاتجاه العكسي نحوه، وأضواؤها ساطعة كنصال مشرعة تحجب الرؤية عن عينيه.. فزاد إضاءة كشافاته تلقائيًا.. وأوقف سيارته وأخذ السلاح من (التابلوه)..
وبقدمين من (الجيللى) غادرها، ومشي بضع خطوات تجاه السيارة الأخرى، التي وقفت كوحش شرير مضيء العينين يهدر دون انقطاع..
واستطاع - حين خرج من مجال المصباح – أن يرى (عبير) جوار السائق، الذي كان هو ذات الشاب الوسيم بسترة السهرة السوداء..
- « (عبير)! »
قالها بصوت مرتجف، ورفع المسدس..
لكن الآخر لم يبد مهتمًا.. أشعل لفافة تبغ بقداحة ذهبية، وظلّ جالسًا باسترخاء في مقعده..
أما (عبير) فوثبت من السيارة دون أن تفتح الباب، وهرعت كى ترتمي في أحضان (شريف)، وبدأت تنهنه..



أما (عبير) فوثبت من السيارة دون أن تفتح الباب ، وهرعت كى ترتمى فى أحضان (شريف) . .

قال لها وعيناه لا تفارقان السيارة الأخرى:

- « من هو؟ صديق؟ »

- « نعم.. إنه صديق.. الصديق الوحيد لي الآن.. تعال أقدمك له.. »

وكان الأخ إياه جالسًا بنفس الثبات، مع مسحة (غلاثة) لا تبعث الحبّ في النفس..

وحيّا (شريف) بهزّ رأسه.. على حين قالت (عبير):

- « أقدم لك مستر (بوند).. (جيمس بوند)! »

- « إذن أنا (ميكى ماوس).. »

- « أنا لا أمزح يا (شريف).. »

وقال (بوند) مبتسمًا بنفس السماجة، وبإنجليزية راقية جدًّا:

- « مساء الخير.. لا بد أنك (الجوّال).. أرجو أن تعيد هذا السلاح إلى جيبك.. فلا يبدو لي أنك

ممن يتعاملون معه بارتياح.. »
- « ما هذا الهراء؟! »
قالها (شريف) محتجًا.. وتراجع للوراء..
الحقيقة - التي لم يجرؤ على الاعتراف بها – هي أن هذا الرجل يشبه (جيمس بوند) بشدة، كما جسّده (شين كونرى) ببراعة في سلسلة أفلامه الشهيرة، بل وطريقة النطق! حتى حرف (السين) الذي يمزجه مزجًا بحرف (الشين).. و... كل شيء..
قالت (عبير) للرجل:
- « أرجو أن تنصرف الآن.. أنا بأمان الآن مع (شريف).. سأشرح له كل شيء.. »
- « ليكن.. عمت مساء.. »
وعوت عجلات السيارة مع الفرملة العنيفة التي أطلقها.. وبعد ثانية كان يسابق الريح في الشوارع بسرعة لا يمكن تصورها..
سألها (شريف) وهو يرمق السيارة المبتعدة:
- « من هذا المخبول حقًّا؟ »
- « قلت لك إنه (جيمس بوند).. »
- « أنت جننت تمامًّا.. »
- « ربما.. لكنه الجنون الوحيد الذي يرى فيه المحيطون بالمجنون نفس ما يراه هو! »
وحكت له كل شيء.. وحكى لها كل شيء.. طبعًا لم يصدق حرفًا من كلامها.. وعلى كل حال لم تكن في حاجة لذلك، لأن خبر اختفاء (شذى) أطار برجين أو ثلاثة من مخها..
صرخت في جنون وهي تجذبه من تلابيبه:
- « الأوغاد! أنت لا تعرفهم.. إنهم سيقتلونها! »
- « أعتقد أن الشرطة تعرف كيف..... »
- « شرطة؟! تذهب إلى الشرطة لتحكي لهم قصة لطيفة، عن غزاة الفضاء ورعاة البقر، الذين اختطفوا ابنتك؟! صدقني يا (شريف).. أنا أعرف ما أتكلم عنه.. لا أحد يستطيع إنقاذ (شذى) سوانا.. »
- « ولكن كيف؟ »
- « لنركب سيارتك ونعُد إلى الدار أولًا.. »

∞∞∞∞∞∞

فرغت (عبير) من قراءة الرسالة التي أرسلوها لها على البريد الإلكتروني، ثم ابتلعت ريقها.. وقالت:
- « هكذا يتضح الأمر.. إن (شذى) هي الطعم الذي سيجذبوننا به جميعًا إلى الشرك.. »
- « ومن هم؟ »
- « إنهم كل أشرار (فانتازيا) الذين قابلتهم حتى الآن.. »
- « كفّي عن هذا الهراء! »
نظرت له في جدية، وقالت:
- « اصغ لى يا (شريف).. لقد تهدمت – لسبب ما - كل حواجز المنطق، وغدت علاقة الواقع بالخيال علاقة مبهمة غامضة.. إن (فانتازيا) معنا هنا في عالمنا.. وعلينا أن نواجهها.. »
- « أشعر بأنني مجنون لو تحملت جنونك هذا.. »

- « ربما.. لكن لا سبيل أمامك سوى أن تصدقني.. لا تحاول خداعي أو الاتصال ب. د. (صلاح).. إن أمامنا وقت كاف لاستعادة الطفلة قبل أن يأتوا ليفهموا منا ما جرى في المصحة.. »
وأرجعت رأسها للوراء مفكرة.. وقالت:
- « حدّد لهم مكان اللقاء فجرًا.. على سطح هذه البناية.. »
- « هل جننت؟ »
لم تردّ وأكملت بنفس اللهجة العملية:
- « قل لهم إنك تريد أن ترى الطفلة قبل أن تفعل أي شيء.. »
راح (شريف) يطبع الرسالة التي كلفته بها، ثم حرك (الفأرة) كي يرسلها..
وغمغم وهو يتأمل الشاشة:
- « ألديهم جهاز كومبيوتر؟ إنهم متطوّرون.. »
قالت (عبير):
- « بالطبع.. ولا بد أن عليه نسخة من (دى - جى - ٢).. فهم يستمدون وجودهم منه.. والآن هيا بنا.. إن لديك عملًا كثيرًا لهذه الليلة.. »
- « أي عمل؟ »
- « ستجد لنا نسخة من (دى - جى - ٢).. وتعدّلها.. »

∞∞∞∞∞∞

راحت (عبير) تناوله قرصًا مرنًا تلو الآخر من علب الأقراص التي لديه.. والواقع أن عددها كان يفوق المائة قرص..
على حين راح (شريف) يستعرض محتويات كل قرص.. بعضها كان فاسدًا لا يعمل.. وبعضها كان يحوي كلامًا فارغًا.. بعض المهملات أو العناوين التي لا تدلّ على شيء..
كان (شريف) يسمى ملفاته بأسماء غريبة لا معنى لها على غرار XYZ و Tozz و ABC.. وكان من المستحيل عليه تذكر ما يحويه كل ملفّ.. لذا كان مرغمًا على فتحه ليرى ما به.. الأمر الذي لم يوفّر الوقت قط..
قالت (عبير) في غلّ:
- « يا لك من أحمق! حتى أنا التي لا تفقه شيئًا في الكمبيوتر أعرف أن اسم الملف يجب أن يوحي بمحتواه.. أعتقد أنني قابلت عشرة برامج تحمل اسم Tozz.. »
قال في خجل:
- « أي (طُزّ).. إنها تعلن مللى الشديد من برنامج ما..»
ناولته قرصًا آخر.. وقالت وهي تجلس القرفصاء على الأرض:
- « أنا الآن أعرف أن أحدهم تسلل إلى الحجرة ونحن نيام في ذلك اليوم، وأزال البرنامج بعد ما أخذ منه نسخة لنفسه.. إنهم يعرفون أهمية البرنامج.. وأملنا الوحيد هو استعادته.. »
واصل استعراض الملفات في تعاسة.. وفجأة التمعت عيناه، وهتف وهو يقف:
- « (دى - ج - صفر)! ها هو ذا الجدّ القريب للبرنامج! حمدًا لله.. »
صرخت بنفس الحماس:
- « أخيرًا.. انسخْه قبل أن يحدث شيء ما.. »
مدّ يده يداعب الأزرار.. وسرعان ما استطاع أن يصنع ثلاث نسخ من البرنامج العتيق المنسي..
- « وماذا بعد؟ »

قالت (عبير) في هدوء وهي تجمع الأقراص من على (الموكيت):
- « ستجرى بعض التعديلات المهمة على هذا البرنامج.. »
- « ليكن.. ولكني بحاجة لقدح من القهوة المركزة.. »
ونظر إلى ساعة الحائط..
كانت الواحدة بعد منتصف الليل..

∞∞∞∞∞∞

راح يعمل كالمحموم..
الإرهاق يغزو تفكيره، وعقله يحتجّ مطالبًا بحقه في النعاس..
لكن (شريف) لم يكن ممن يدللون عقولهم إلى هذا الحدّ..
إن عقله هو أملهما الوحيد في هذا الصراع..

∞∞∞∞∞∞

11- المواجهة: صراع الأفكار..

- وانقطع التيار الكهربي في الرابعة صباحًا!

صرخ (شريف) في جنون حين ساد اللون الأسود المخملى كل شيء من حوله.. وكان راقي التفكير لا يملك حصيلة من الشتائم، لهذا راح يردّد في سخط:

- « اللعنة! يا للكارثة! اللعنة! »

هرعت (عبير) قادمة من الصالة حاملة كشاف الطوارئ، وتساءلت في جزع:

- « هل ضاع كل ما قمت به؟ »

- « لا.. لقد سجلته أولًا فأولًا.. المشكلة أنني لن أستطيع استكماله.. »

وبقلق أردف:

- « ولا تطبيقه.. فالفجر دان بعد دقائق! »

راحا يتأملان الغرفة في ضوء (النيون) الأبيض المزرقّ البارد من كشاف الطوارئ.. ظلال كثيرة على الجدران تصلح - أفضل ما يكون - للتعبير عن توترهما الداخلي..

وتذكّرت (عبير) ألعاب التيار الكهربي السخيفة، حين كان لا ينقطع إلا في حفلات الزفاف وليالي الامتحانات..

فلتعد سريعًا يا أحمق.. فلتعد!

∞∞∞∞∞



راحا يتأملان الغرفة فى ضوء (النيون) الأبيض المزرقّ البارد من كشاف الطوارئ ..

وعاد الأحمق بعد نصف ساعة..

وكان هذا كافيًا كي يهرع (شريف) يواصل عمله بسرعة محمومة.. لقد كان عبقريًا.. وعليه أن يثبت هذا.. فقط العباقرة يستطيعون أن يؤلفوا برنامجًا بلغة التجميع - شديدة التعقيد - ودون تخطيط مسبق، وفي فترة زمنية قصيرة كهذه، ومع كل هذه التوترات..

صاح في (عبير) وهو لا يكف عن قرع الأزرار:

- « أحضري جهاز مسح الصور (سكانر).. »

وكانت هي قد أعدّت بعض الصور المنتقاة من المجلات.. سرعان ما راح يمرّر الجهاز عليها كى يدخلها ذاكرة الكمبيوتر..

بيد مرتجفة يمرّر الجهاز الصغير الذي هو في حجم فرشاة الشعر على أجزاء الصور.. عندها كانت (عبير) تراها على الشاشة تتكون ببطء..

وكانت الصور التي اقترحتها (عبير) كما يلى:

1- صورة بندقية آلية.
2 - صورة سلاح (ليزر) من إحدى مجلات الخيال العلمي + درع (ليزر).
3 - صورة سيف عملاق.
4 - صورة قنبلة يدوية.
- صورة وحش لا يمكن معرفة كنهه.. شيء مريع ظهر في أحد الأفلام الفضائية.. وكانت المقالة تتحدّث عن الفيلم بالتفصيل.
انتهى (شريف) من وضع الصور في ذاكرة الكمبيوتر.. ثم أجرى التعديلات الأخيرة في سطور البرنامج.
سألته ملهوفة:
- « هل سيعمل؟ »
- المفترض أن يحدث هذا.. لكن لا ضمانات.. لا توجد طريقة واحدة للتأكد إلا بالمواجهة ذاتها.. السبيل الوحيد لاختبار قدرتك على السباحة هو نزول الماء.. »
ثم أشار لها كي تجلس.. وغمغم متسائلًا:
- « مستعدة »
- « بالتأكيد.. »
قام بتثبيت الأقطاب على رأسها، كأنها تستعد للسفر من جديد إلى (فانتازيا).. وقال لها:
- « أرجو أن تكوني سريعة البديهة بما يكفي.. »
ثم كتب على الشاشة اسم البرنامج أمام علامة المحثّ.

c: \ > Killer

أي (القاتل).. وضغط زرّ الإدخال..

∞∞∞∞∞∞

قال (المرشد) ل (عبير) وهو يداعب زنبرك قلمه:
- « مرحبًا يا (أليس).. لماذا لم تصغي لكلامي وتفرى قبل أن تتطوّر الأمور لما هو أسوأ؟ »
قالت وهي تتشمم الهواء حولها:
- « لم يعطوني فرصة.. وعلى كل حال.. أعتقد أن رحيلي إلى (فانتازيا) الآن يعني أنني لم أكن فيها.. »
- « سيطول شرح هذا.. والآن أين أنت ذاهبة؟ »
- « يا له من سؤال! إلى سطح البيت طبعًا.. »
- « مطلب غريب.. لا أعتقد أنك متحمسة للانتحار إلى هذا الحدّ.. »
- « فقط خذْني هناك.. »
وراحت تصعد في الدرج، بينما مرشدها الصامت يتبعها كما يقضى (الإتيكيت).. فما إن وصلا وفتحا الباب الخشبي الصغير حتى شهق (المرشد) غير مصدق..

∞∞∞∞∞∞

ضوء الفجر الأرجواني يغمر المكان..
الجو بارد كما ينبغي أن يكون..
لكن - في الغبشة - يمكنك أن ترى الهول ذاته..

صفوف من جنود الحيثيين، شاكي السلاح بدروعهم.. وعشرات من رعاة البقر الملثمين، يتحسسون مسدساتهم فى عصبية.. وصفوف من القبائل الزنجية، آكلة لحوم البشر.. وصفوف من جنود الفضاء يتقدمهم (زولتار) بثيابه السوداء وقناعه المعقد..
قال لها (المرشد) بصوت مبحوح:
- « كيف جاء هذا السيرك إلى سطح البناية؟ »
قالت (عبير):
- « إنهم خيالات.. لكنها خيالات تؤذي.. »
- « كلهم هاهنا.. ولكن أين الكونت (دراكيولا)؟ »
- « إنه الفجر.. لقد رحل لينام في تابوته.. وهذا لحسن حظنا.. لقد نقص القتلة واحدًا.. »
- « لا أظن هذا سيحدث فارقًا كبيرًا.. »
لم يكد ينهي عبارته حتى سمعت (عبير) صوت خطوات (شريف) وهو يرقى الدرج إلى السطح..
انفتح الباب الخشبي الصغير - جناح الخفاش كما يسمونه - ليظهر (شريف) وحده أمام هذه الحشود.
كان شاحب الوجه - وهذا حقه - يرتجف قليلًا.. لكن غريزة إزالة البعد الثالث جعلته أشجع.. ففي هذه اللحظة كان يشعر بأنه يواجه كابوسًا ملونًا لا أكثر..
وقف في المساحة الوحيدة الخالية.. وهتف بصوت متحشرج:
- « من كبيركم؟ إلى من أتحدّث؟ »
بعد هنيهة تقدّم (زولتار) خطوتين إلى الأمام، وقال:
- « إلىّ يا (جوّال).. إنني أكبرهم قامة وعلمًا.. »
قال (شريف) وعيناه تتفقدان الصفوف:
- « أين الطفلة؟ »
- « هي في مهدها الآن.. منذ أغلقت أنت باب دارك..»
- « وماذا تريدون مني؟ »
- « الانتقام! »
- « كان ذلك بوسعكم في أية لحظة.. »
- « بل نبغي المواجهة.. »
ابتلع (شريف) ريقه ونظر للأرض وقال:
- « أنت تعرف أنني سأموت مع أول هجمة على يدي أول مهاجم منكم.. لن يكون بوسعي أن أمنح قطعة من الكعكة لكل واحد من هذه الحشود.. »
- « لهذا سنبارزك بالترتيب.. »
ورفع (زولتار) رأسه مخاطبًا جنده الفضائيين:
- « تقدموا يا جند الإمبراطورية.. فأنتم أول من يبدأ..»
وعلى الفور تقدم الجنود المدرعون ملوحين ببنادقهم الفضائية غريبة الشكل.. واتخذوا وضعًا هجوميًّا حول (شريف)..

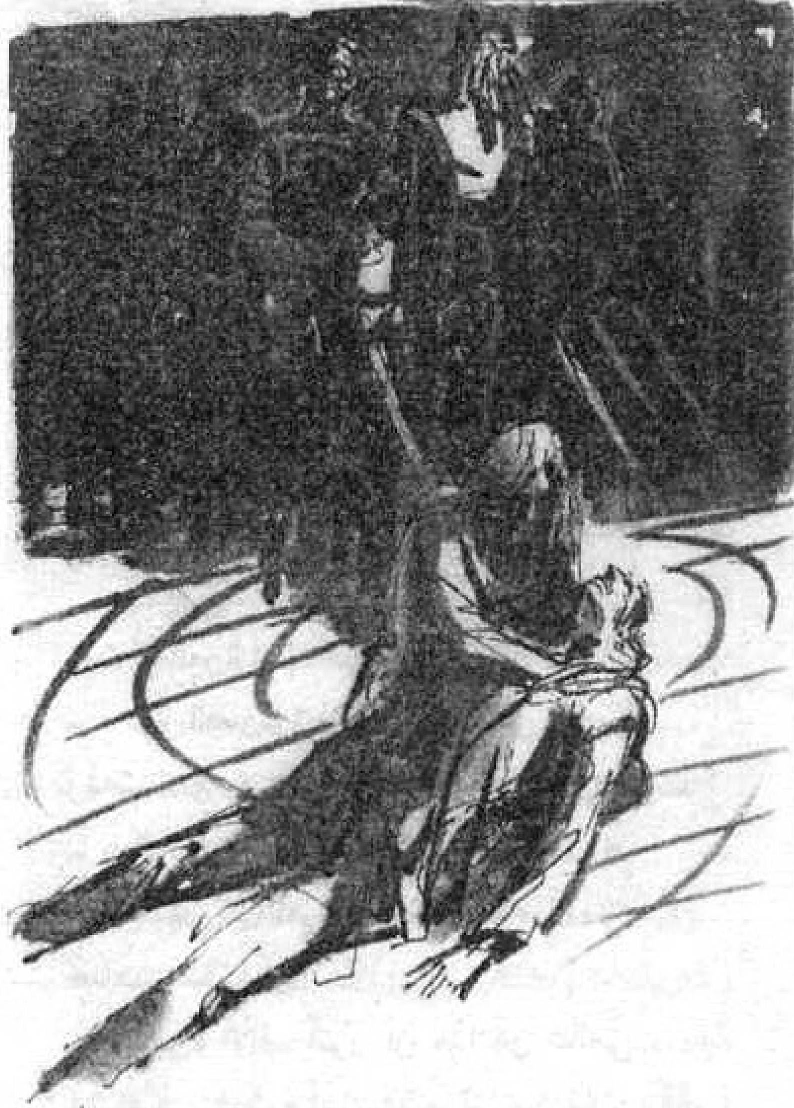
∞∞∞∞∞∞

(عبير) بجسدها المادي في غرفة الكمبيوتر.. تهوم برأسها.. وهي وحدها في الظلام أمام الشاشة.. ترسل وجدانها كى تقاتل المعركة دفاعًا عن زوجها..

∞∞∞∞∞∞

« المواجهة الأولى: بين جند الإمبراطورية العظام و(الجوّال).. »
وتقدّم الجند في أوضاع هجومية مدروسة نحو (شريف)..
صرخت (عبير) بأعلى صوتها وهي تقذف لـ (شريف) شيئًا:
- « (شريف)! خذا هذا! »
وألقت بالمقبض في الهواء، فرفع (شريف) يده ليتلقفه.. وما إن ضغط عليه حتى برز شعاع الليزر ذو الأزيز.. وامتلأ الهواء برائحة الكهرباء الإستاتيكية..
إن برنامج (القاتل) يعمل بشكل جيد..
لقد حرص (شريف) على أن يزوّد ذاكرة (عبير) بصور الأسلحة المختلفة التي قد يحتاج إليها في صراعه مع هذه الرؤي..
والآن (عبير) - في صورتها الطيفية - تقف معه على السطح، وتملك القدرة على استحضار أي سلاح تريد من خيالها..
كان سيف (الليزر) قويًا.. وقد أدّى عمله بشكل جيد..
فما إن يلمس واحدًا من الجنود حتى يضيء هذا بلون (النيون) ثم يتصاعد الدخان من ثقب في صدره أو بطنه.. ويهوي أرضًا..
- « لا تنس هذا! »
وألقت إليه بدرع (الليزر).. وهو شيء يشبه المكواة الكهربية.. فما إن ضغط (شريف) عليه حتى برز ستار دائري من شعاع (الليزر) يحميه من المهاجمين..
- « أطلقوا بنادقكم! »
كذا صرخ (زولتار).. وعلى الفور ركع بعض الجنود على ركبهم في صف أمامي.. ووقف الباقون خلفهم في صفّ خلفي..
انهمرت الطلقات.. لكنها راحت تصطدم بالدرع.. وراح الشرر يتناثر في كل صوب..
كان (شريف) يناور كأفضل ما يكون.. وشهقت (عبير) وهي ترى أن (الجوّال) قد عاد يسحق خصومه كما اعتادت..
مرّت عشر دقائق تساقط فيها كثير من جنود الإمبراطورية، وأبلى فيها (شريف) خير بلاء، كأنما يفعل هذا طيلة حياته..
هنا وقف (زولتار) ناصبًا هامته.. وصاح:
- « فليتراجع الجنود! »
ثم نظر للوراء وهتف بلهجة حاسمة:
- « المواجهة الثانية: بين إخوان الدم و (الجوّال).. »
وقف (شريف) وحده أمام رعاة البقر الملثمين الذين يتقدمون نحوه في تؤدة وحذر..
لاهثًا طوّح بسلاحه ودرعه.. فقد كان يعرف جيدًا أن ما يصلح لمعركة لا يصلح لأخرى.. هذه هي التقاليد..
صاحت (عبير) حيث وقفت:
- « خُذْ يا (شريف)! »
وطوّحت بالبندقية الآلية نحوه، فتلقفها ملهوفًا، وسرعان ما أطلق سيلًا من الطلقات على إخوان الدم الذين لم يجدوا الوقت الكافي كي يخرجوا مسدساتهم..
تصاعدت رائحة البارود، وسالت الدماء على الأرض..

همست (عبير) في أذن (المرشد):
- « كل هذه الطلقات ولم يأت أحد من الجيران؟ »
- « إن الأمر كله حلم كبير.. »
قالها منبهرًا وهو لا يكفّ عن مداعبة زنبرك قلمه..
كان (شريف) قد انتهى من القضاء على خصومه..
ووقف يلهث.. يلتقط أنفاسه.. وبيد مرهقة طوّح بالبندقية الآلية بعيدًا، وراح ينتظر ما سيقوله (زولتار)..
قال (زولتار) وهو يمشي بتؤدة بين الجثث:
- « إنك شجاع حقًّا يا (جوّال).. لكنك بحاجة إلى مزيد من الحظّ كي تواجه جيش الحيثيين.. »
وبصوت عال هتف:
- « المواجهة الثالثة: بين الحيثيين و (الجوّال).. »
صاحت (عبير) بدورها:
- « امسك يا (شريف)! »
وطوّحت بالسيف البتار في الهواء ليتلقفه (شريف)..
كان هناك خطأ ما.. لقد نسيا - هي و (شريف) - أن يعطياه درعًا يناسب هذا الطراز من الحروب..
ولا بد أن (شريف) قد تذكّر هذا بعد فوات الأوان، حين وجد عشرة من الحيثيين يهاجمون برماحهم الطويلة المشرعة..
ما الحل؟ السيف لا يستطيع أن يطول هؤلاء..
وعشرة نصال مدببة تشق طريقها إلى صدره..
صاح في (عبير) وهو يتراجع للوراء:
- « (عبير)! أعيدي لي البندقية الآلية! »
لكنها لم تستطع.. فقوانين البرنامج الصارمة تحتم على (شريف) أن يقاتل بالسيف..
وفي اللحظة التالية انغرست عشرة نصال في صدر (شريف) وبطنه.. يبدو أنه قال شيئًا ما.. يبدو أنه تأوّه..
وفي اللحظة التالية هوى على الأرض والدم يتفجّر منه..
صرخت (عبير) في هستيريا.. بينما انفجرت ضحكات (زولتار) الوحشية المفعمة بالسادية..
هرعت تركض نحو زوجها.. جثت على ركبتيها بجواره.. رفعت رأسه واحتضنتها.. حاولت أن تجعله يقول شيئًا أي شيء.. لكن الحياة كانت قد فرغت منه، كلعبة أطفال انتزعت بطارياتها..



جثت على ركبتيها بجواره . . رفعت رأسه واحتضنتها . .
حاولت أن تجعله يقول شيئًا . .

راحت تهزّه.. تتوسل إليه..
دون جدوى..
والأدهى أنها لم تصدّق لحظة أن هذا حقيقى..

∞∞∞∞∞∞

ربّت (المرشد) على كتفها وقال:
- « لقد انصرفوا يا فتاة.. هلمى بنا.. »
رفعت نحوه وجهها الملطخ بالدم.. وهمست:
- « إلى أين؟ لقد انتهى كل شيء.. »

- « انتهى كل شيء في هذه القصة.. »
صاحت محتجة:
- « للمرة الألف أكرّر أن هذا هو عالمى.. »
ابتسم في خبث وأعاد القلم إلى سترته، وقال:
- « يمكنك التمسك بهذا العالم الذي هلك فيه زوجك.. لكني لا أنصح بهذا.. إنني أقدم لك عرضًا سخيًّا: كل هذا مجرّد كابوس لا أكثر.. »
نظرت له ببعض الأمل.. وهمست:
- « هل تعني؟ »
- « نعم أعنى.. كل هذا مجرّد محطة من محطات (فانتازيا) يمكنك مغادرتها متى أردتِ.. لقد عشت مغامرة في دور (عبير عبد الرحمن).. وكانت نهايتها أليمة.. لكنها انتهت على كل حال.. »
وأردف وهو يمسك بيدها لينهضها:
- « لقد بحّ صوتى كى أجعلك تفهمين بديهية كهذه.. »
نهضت متردّدة.. وتمنت أن يكون على صواب..
مشت بجواره، وألقت نظرة إلى السطح الذي بللت الدماء أرضه..
لم تكن هناك سوى جثة (شريف)، وقد بدأت الشمس تنزع النقاب عن وجهها الصبوح..
لن يكون هذا حقيقة..
من المستحيل أن يكون حقيقة..

∞∞∞∞∞∞∞

خاتمة

حين فتحت عينيها، لم تستطع أن تعرف مكانها جيدًا.. لم تستطع أن تعرف من هي..
وأخيرًا عرفت حدود جهاز الكمبيوتر والمكتب، وعرفت أن الأقطاب على رأسها، وأن هناك من ينحنى على الجهاز يضغط أزراره وهو يراقب الشاشة..
أصدرت أنينًا.. وهمست:
- « (شريف).. لا تمت أرجوك! »
التفت لها المنحنى على الشاشة، وابتسم في رضا..
كان هو (شريف) ذاته، وقد تساقطت خصلة من شعره على جبينه تشي بإرهاق عنيف..
هتفت في لهفة:
- « (شريف)! أنت حيّ! »
- « بودّي أن أقول نفس الشيء عنك! »
وراح ينزع الأقطاب عن رأسها..
قال لها معاتبًا:
- « خالفت أوامرى.. وقمت بتجربة الجهاز وحدك.. وبما أنك حمقاء؛ فإنك لم تعلمى أنني أحدّد عدد الأحلام للبرنامج في كل مرة.. حلم واحد فقط.. في حالتك هذه لم تفعلي ذلك.. ودخل الجهاز في حلقة مفرغة دائمة من الأحلام.. أعتقد أنك عشتِ خمسة أحلام في ساعتين.. »
أرجعت رأسها للوراء.. وغمغمت:
- « حقًّا.. خمسة.. كان أبشعها الخامس.. »
- « وماذا رأيت فيه؟ »
- « رأيت شيئًا شنيعًا: نفسي! »
- « يا للبشاعة! وماذا أيضًا؟ »
- « كان الحيثيون يقتلونك برماحهم وما إلى ذلك.. يبدو أنك أوقفت البرنامج في هذه اللحظة.. »
- « بالفعل.. فقد كان مظهرك غير مريح.. »
شهقت وغطت وجهها بيديها.. وقالت:
- « و... و (شذى)؟ »
نظر لها في غباء:
- « من هي (شذى)؟ »
ابتسمتْ.. أحقًّا لم توجد (شذى) قط؟ أحقًّا ما زالت بالداخل تنتظر لحظة النور؟ هذا غريب..
لقد كان (المرشد) صادقًا إذن طيلة الوقت..
كانت (عبير) لكنها لم تكن هي.. بل كانت تلعب دورها في قصة غريبة حقًّا..
هذا هو عالمها الحقيقي إذن..
هذا هو (شريف) الحقيقي.. كما خلقه الله (سبحانه وتعالى) لا كما اخترعه خيالها..
ربّاه! إنها سعيدة حقًّا..
قالت له في دلال وهي تنهض مترنحة:
- « متى تكون ولادتي؟ »

- « بعد خمسة أشهر.. لماذا تسألين؟ »
- « لأنني خضت تجربة الولادة بالكامل في هذا الحلم.. »
ثم عادت تسأله:
- « ومن أنا؟ »
- « أنت (عبير عبد الرحمن).. زوجتي.. وأكبر حمقاء في العالم.. »
- « وتحبني؟ »
- « نعم.. كما أحبّ عيوبي الذاتية كلها.. لأنها عيوبى أنا.. »

∞∞∞∞∞

أخيرًا عادت (عبير) إلى عالمها الواقعي.. طائرة ضالة وجدت طريقها إلى مطارها الذي اعتادت الإقلاع منه..
ستكون هناك رحلات جديدة إلى أراض أخرى..
لكنها - دومًا - تعرف أن حياتها الأصلية تنتظرها..
وفي الكتيب القادم تتعرف (عبير) رجلًا يبدو كالبشر.. لكنه ليس بشريًّا تمامًا؛ لأنه آت من كوكب يدعى (كريبتون)..
وفي عرفنا اصطلحنا على تسمية هذا الرجل باسم (سوبر مان).

(تمت بحمد الله)

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

المغامرة السابقة كانت من جزأين..

[←2]

للأسف لم تر (عبير) فيلم (الغريب) الذي أخرجه (ريدلي سكوت)..

[←3]

أقترح - لو كان عندك وقت - أن تراجع الأعداد السابقة كلها.. فلسوف نتحدث عنها كثيرًا..

روايات مصرية للجيب

13

فانتازيا

رجل من كريبتون



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (13)

رجل من كريبتون

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- عودة إلى (فانتازيا)..

تحرك يا قطار (فانتازيا) المضحك.. تحرك..
(عبير) تجلس في مقعدها الأثير ترمق الموجودات بالخارج وتبتسم.. إن (فانتازيا) اختراع مروع لا يمكن الاستغناء عنه أبدا..

وهي.. هي المحظوظة الوحيدة التي كتب لها أن تستمتع بهذا العالم، وهي - على قدر علمي – أول سائح في التاريخ يتاح له أن يرتحل وسط الأحلام ينتقي منها ما يشاء..
كان (المرشد) - كالعادة - يجلس جوارها
صامتا يداعب قلمه الزنبركي العتيد، مصدرا أصوات (التكتكة) الرتيبة المعتادة.. وينتظر قرارها..
وهي تريح رأسها للوراء:
- قل لى يا (مرشد).. ما سر هذا القلم الذي تتمسك به؟
- إنه يعطيني طابعا خاصا.. هذه التفاصيل تجعلنا متميزين.. وعلى كل حال أعتقد أنك منحتني إياه، لأن مدرس اللغة العربية الذي كنت تحبينه في طفولتك كان يداعب قلمه طيلة الوقت بذات الأسلوب الممل.. ثم سألها - كيف عدت؟ ظننت الأمر مستحيلا بالنسبة لك؟ لعلك قد قمت بتشغيل الجهاز سرا؟
- لا وحياتك..
ثم أردفت وهي تبتسم:
- لا تنس أنني امرأة.. ربما قبيحة لكنني امرأة..
ولا توجد امرأة لا تستطيع إرغام الرجل على فعل ما تريد هي.. هذه هي قوة (حواء) الحقيقية.. بلا عضلات.. بلا صراخ.. لكنها تستطيع أن تجعل الرجل يفعل ما لا يريد في حبّ وكأنه كان يريده منذ زمن..
ابتسم بدوره في غباء وقال
- المرأة لا تملك سوى طريقتين للإقناع.. الدموع أو الدلال.. ثمة طريقة ثالثة هي (النكد الأزلي) لكنها غير فعالة دائما..
قالت ضاحكة:
إن دموعي لا تؤثر في النفس.. ودلالي لا يقنع أحدا.. لكني استخدمت أسلوبا عقلانيا هادئا جعل (شريف) يوافق بحرارة على إرسالي إلى (فانتازيا) من جديد..
- قلت له إنك نسيت مفاتيحك في (فانتازيا) مثلا؟
- لا.. قلت له إن عودتي لـ (فانتازيا) مهمة لتوازني النفسي بعد كل ارتباك المرة السابقة.. ومن دون ذلك سأجن..
- والحمل؟
- ما زلت في الشهر السادس.. برغم أنني - في المغامرة السابقة - رزقت بـ (شذى).. ومن الغريب أن أعرف أنها كانت حلما..
وتنهدت في أسى:
عليّ أن أعاني الولادة مرتين لطفل واحد..
- إن الحياة قاسية أحيانا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قطار (فانتازيا) يمر الآن وسط مشاهد من حرب (ووترلو) حيث يقضى (ولنجتون) على أسطورة (نابليون بونابرت)، ويخرج منها إلى عوالم (تولستوي) حيث يقف الفلاحون الروس خلف محاريثهم يلوحون للقطار، ويشربون (الفودكا) صاخبين..
ثم رأت (عبير) مدينة حديثة تملؤها ناطحات السحاب.. وفي السماء رأت خطا أزرق وخطا أحمر - كأنما يخرجان من عادم نفاثة - يدوران ويدوران بلا توقف..

قال (المرشد):
- هذا هو عالم..
- لحظة.. دعني أخمن.. إنه عالم (سوبرمان).. أليس كذلك؟
- بلى.. هل تذكرينه؟
داعبت شعرها مفكرة وقالت:
- بالتأكيد.. كنت اشتري مجلات (سوبرمان) المترجمة في لبنان، من بائع في (الأزبكية).. كان يبيعها قديما.. ربع جنيه للمجلة..
وبرغم هذا كانت رهقا على ميزانيتي..
ثم أضافت وقد تذكرت:
- هناك فيلم باسم (سوبرمان) رأيته على الشاشة الصغيرة.. لقد كان جيدا. لكنه محبط إلى حد ما كعادة الأفلام حين تقارنها بالأدب..
قال (المرشد) وهو يداعب قلمه:
- لم يكن فيلما واحدا.. بل ثلاثة أفلام.. وقد صوروا ثالثها بطريقة (الأبعاد الثلاثية).. وكان البطل دائما هو الوسيم (كرستوفر ريف)..
كان هذا قبل أن يهوى من فوق جواد فيتهشم ظهره.. للأسف هو الآن مشلول تماما فيما تحت صدره..
سألته في جزع محدقة في وجهه:
أحقا؟ يا للمأساة! لم أعرف هذا قط..
- بل تعرفين حتما لكنك نسيت.. إن الممثل الذي أدى دور أقوى رجل في العالم هو الآن عاجز معوق.. يا للمفارقة!
- ما أغرب الزمن!
ابتسم كعالم ببواطن الأمور وقال:
- الزمن! ماذا تعرفين عن الزمن؟ هل تعلمين أن (ليوناردو دافينشي) كان عاكفا على رسم لوحته - الشهيرة (العشاء الأخير)، وكان بحاجة إلى وجه صادق صريح وسيم ليكون هو المسيح في لوحته.. وقد وجد شخصا مناسبا تماما فرسمه.. بعد أعوام جاء دور (يهوذا) في اللوحة.. وراح (دافينشي) يبحث عن وجه آثم مرهق يعذبه ضميره.. ووجد ضالته في الشارع فاصطحبه إلى المرسم ليرسم وجهه.. هنا اتضحت له حقيقة مروعة: إن من رسمه منذ أعوام ليكون المسيح، هو ذاته من ينوي رسمه الآن ليكون (يهوذا).. لقد تغير الرجل إلى النقيض في غضون أعوام معدودة [1]
ثم تنهد كأنما يعتذر عن هذا الاستطراد وقال:
- هل تزورين (سوبرمان)؟
- حتما.. إن مزاجي رائق اليوم..
وعلى الفور جذب (المرشد) حبل التوقف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- (سوبرمان)..

الآن هي ترتدي ثيابا عصرية أنيقة، تقف في الطريق العام، بينما السيارات تنطلق كالأسهم من حولها.. وكان الليل قد غمر الكون..
سألت (المرشد) وهي تنسق ثيابها.. وتأخذ شهيقا عميقا:
- من أنا؟
- أنت (لورا).. حبيبة (سوبرمان) ومصدر إزعاجه الدائم..
ثم أشار إلى بناية عملاقة عبر الشارع، يلتمع فوقها كوكب مضيء تحيط به حلقة.. كأنه كوكب (أورانوس).
- هذا هو مقر عملك.. جريدة (ديلي بلانيت) أو (الكوكب اليومي) يمكنك تسلم عملك ولسوف تدور عجلة الحوادث تلقائيا..
سألته غير فاهمة:
- أتسلم هكذا؟ دون مسوغات تعيين ولا شيء مماثل؟
- بل أنت - كالعادة - تواصلين دورا، ولا تبدئين من جديد..
أضاءت إشارة المرور لتسمح بعبور المشاة..
فما إن لمست قدمها اليمنى أرض الشارع لتعبر؛ حتى أدركت أن (المرشد) قد اختفى..
- ما إن اجتازت باب الجريدة حتى أدركت أنها جميلة جدا - فالكل يرمقها بإعجاب، نشيطة جدا – فخطواتها رياضية سريعة -، وحازمة لأنها نظرت نظرة حادة إلى شاب حاول أن يتظرف..
ودخلت إلى مكتبها، حيث الآلة الكاتبة تنتظرها وعليها ثلث صفحة من مقال لم تفرغ منه بعد..
نزعت سترتها فعلقتها على المشجب، ثم جلست إلى الآلة الكاتبة.. كانت المقالة تتحدث عن تخفيض ضريبة الدخل، ولم يكن لديها أي علم مسبق بكيفية إتمام هذا الكلام المفترض أنه في ذهنها وأنه على وشك الانسكاب على الورق.. لكن كيف؟
وجدت (بلوك نوت) مفتوحا جوارها.. وبه بعض نقاط بالقلم الرصاص.. ربما يمكن الاستفادة منها بشكل ما... راحت تطبع.. وسرها أنها صارت سريعة جدا في الطباعة كما لم تكن قط في المدرسة.. بل إنها تطبع بالإنجليزية وتستعمل كل أصابعها، هي التي كانت تطبع الإنجليزية بإصبعين، وبسرعة خمسة حروف في الدقيقة..
هنا دخل الغرفة شاب يرتدي سترة أنيقة، ويضع العوينات.. حياها في رزانة ثم جلس إلى مكتب مقابل لها..
تأملته في فضول.. إنه وسيم إلى حد ما.. لكن عويناته لا تناسب وجهه.. ربما هي أكبر من اللازم..
ثم إنه خجول جدا - واضح من أسلوبه في الكلام والمشي - دعك من احمرار أذنيه كأنما الدم يوشك أن ينفجر منهما...
سألها وهو يفتح درج مكتبه
- هل سأل المدير عنى في غيابي؟
كادت تقول له: كيف أعرف؟ لقد جئت منذ خمس دقائق.. لكنها تمالكت نفسها وقالت:
- لا.. لحسن حظك..
ابتلع ريقه.. وأخرج ملفا سميكا راح يفتش فيه ثم قال:
- كان على أن أجد مطعما.. لم أظفر بشيء من الطعام منذ السابعة صباحا..

وهنا اقتحم الغرفة رجل ضخم الجثة، يعتصر سيجارا غليظا بين ضروسه، وقد ارتدى كمين أسودين على قميصه الأبيض كديدن رؤساء التحرير.. كان فيه كل اندفاع وعدوانية صحفي ناجح..
تذكرته (عبير) على الفور من المجلات.. كانوا يترجمون اسمه ب (وهيب ج..) ولم تستطع على الإطلاق فهم سر هذه ال (ج).. إنه رئيس التحرير الطاغية لجريدة (ديلي بلانت).. بعبع المحررين الذي يصر على أن المستحيل ممكن، والمستحيل فعلا هو إقناعه بعكس ذلك..
قال لهما بلهجة عدوانية:
أحقا لم تذهبا لتغطية الخبر الجديد؟
- أي خبر يا سيدي؟
- هذه - لعمري - هي مشكلة المحررين محدودي الموهبة واعتصر سيجاره بعنف... وقال:
- لقد حدث شرخ في سد المدينة.. والمذياع لا يكف عن إنذار الناس بالكارثة الجديدة.. وإن كان من الواضح أن أحدا لن يجد الوقت الكافي للفرار..
سألته (عبير) دون أن تبدل من وضع جلستها:
- وهل نجد نحن الوقت الكافي للكتابة عن الكارثة، وطبعها في ملحق؟
- هكذا الصحفي.. يعمل حتى لحظة احتضاره.. ومن أدرانا؟ ربما كان حظنا سيئا إلى درجة أن ننجو.. عندها يسبقنا المنافسون ويغدو موقفنا فريدا في سوئه..
نهض زميلها الخجول سريعا، وزرر سترته.. ومن على المشجب تناول قبعة ألقاها على رأسه، وهتف:
- سنذهب حالا يا سيدي..
- حسن.. خذا (الهليكوبتر) فقد تتحول الشوارع إلى بحار بعد قليل..
نهضت (عبير) بدورها، فوضعت السترة على كتفيها، وهرعت تلحق بزميلها الذي غادر الغرفة جاريا نحو المصعد.
(هليكوبتر)؟ نعم.. فجريدة (ديلي بلانت) تملك واحدة.. تنتظر دوما على سطح البناية..
كان محرك الطائرة قد بدأ يهدر.. ومروحتها العمودية تدور.. وحش واقف في الظلام ينتظر التحليق..
كان الخجول يركض ركضا نحو الطائرة.. ثم توقف بغتة..
التفت إلى (عبير) وشفتاه ترتعشان.. ويداه ترتجفان.. وبصوت مهزوز مزعزع قال لها:
- (لورا).. أنت تعرفين كم.. كم أخاف ركوب الطائرات العمودية.. لكني.. لكني لم أجسر على الاعتذار للمدير..
نظرت له غير فاهمة.. فاستطرد يقول:



نظرت له غير فاهمة .. فاستطرد يقول :
ـ « إن .. إننى سألحق بك بالسيارة .. » ..

- إن.. إنني سألحق بك بالسيارة..

- لكن هذا غير آمن..
- على الأقل هو أكثر أمنا من ركوب قطعة الحديد هذه، التي لا يبقيها في الجو سوي قانون واه جدا من قوانين الطبيعة..
- ولكن...
- أرجوك يا (لورا).. لا تطيلى الجدال..
وقبل أن تطيل الجدال حقا كان قد مر من أمامها ليختفي في ظلام السطح.. وسمعت الطيار يصيح بها من باب الطائرة:
- هيه يا آنسة! هل ننتظر هنا طيلة الليل؟
لم تجد ما تقول سوى أن تتجه للطائرة وتركبها واندفعت قطعة الحديد في الجو.. متحدية كل قوانين الجاذبية المعروفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه ليس خجولا فحسب.. إنه جبان كذلك!

فكرت - بحنق - في هذا وهي ترمق أضواء المدينة المبعثرة تحتها، كلآلئ فوق بساط أسود..
لقد تخلى عنها.. وهي لا تملك أدنى فكرة عن كيفية البدء ومن شبه المستحيل أن تجده وسط الفوضى التي تعرف أنها ستجدها..
وبعد خمس دقائق أشار لها الطيار إلى أسفل وقال شيئا ما..

كانت الكشافات تغمر المشهد.. ولم تحتج إلى ذكاء كثير كي تدرك أنها تطير الآن فوق سد المدينة كانت سيارات البوليس والدفاع المدني والإطفاء تملأ المكان.. وكان هناك أناس كثيرون يفعلون أشياء أكثر.. بعضهم يصرخ وبعضهم يتزاحم في فضول محاولا اختراق (الكوردون) الأمني، وبعضهم يفر..
قال الطيار بصوت عال كي يقهر صخب المحرك:
- كما ترين.. لم ينتشر الخبر بعد إلا في رقعة محدودة.. لكن بعد عشر دقائق سترين طابورا طويلا من السيارات يحاول الفرار من المدينة.. ولسوف تمتلئ الشوارع بالقتلى الذين داستهم الأقدام المذعورة.. وبعد ساعة ستزيل المياه الثائرة كل هذا لتتحول المدينة إلى مستعمرة أسماك..
قالت وقد تذكرت حكاية مماثلة:
- إنه شبيه بالذعر الذي أحدثته تمثيلية (أورسون ويلز) الإذاعية الشهيرة (حرب العوالم)..
- تماما.. لكن الأمر ها هنا لا يتعلق بتمثيلية.. إنها الحقيقة القاسية..
ثم راح يهبط بطائرته تدريجيا وسط مساحة خالية من الناس وقد أحدثت مروحته فوضى بالغة.. تطاير التراب في العيون، وطارت قبعات الرجال وشعور النساء المستعارة..
قالت (عبير) وهي تشعر بصدمة الأرض الرفيقة لجسم الطائرة:
- كيف ابدأ؟
- نظر لها في حدة باحثا عن رد مفحم ولما لم بجد قال:
- ابدئي كما يبدأ أي صحفي يحترم نفسه..
ولا تنسى الكاميرا.. إنها على المقعد المجاور لك..
امتدت يدها تتحسس الكاميرا.. إنها لا تعرف حتى كيفية الإمساك بها في وضع صحيح.. لذا سألته من جديد:
- لمَ لمْ نحضر معنا مصورا محترفا؟
- تسألين أسئلة غريبة.. أنت تعرفين أن المدير يحاول ضغط النفقات.. والآن أسرعي قبل أن يسبقك الفيضان..
وترجلت (عبير) على قدمين رخوتين أشعرتاها بأنها تنتمي إلى رتبة (الرأسقدميات) الشهيرة في علم الحيوان.. وراحت تشق طريقها وسط الزحام يدفعها هذا ويضربها ذاك..
دنت من (كوردون) الشرطة، فرفع شرطي ضخم الجثة ذراعه يمنعها.. ثم نظر إلى سترتها وغمغم:
- آه! يمكنك المرور.
اختلست بدورها نظرة إلى سترتها، فوجدت شارة الصحافة (Press) مثبتة على العروة.. لا بأس..
ومشت في تؤدة فوق جسم السد الخرساني، ترمق الأضواء المبهرة، ومذيعة (الراديو) التي تمسك بالميكرفون وتصرخ في هستيريا:
- إن المهندسين لعاجزون عن عمل شيء.. هل هو تخريب؟ لم يقل أحد ذلك.. هل هو عيب في

التصميم؟ لن نعرف هذا إلا بعد تحقيق طويل..
ثم قربت (الميكرفون) من رجل أصلع ملتح أقرب إلى عالم في قصة مصورة للأطفال.. وسألته:
بروفسور (آرثر جيلبرت) أستاذ الخرسانة ما هو في رأيك سبب هذا الشرخ؟
قال الرجل كلاما فارغا كثيرا يحوي (ربما) و (من الممكن) و (توجد نظريات تقول).. إلخ.. إجابة علمية محترمة جدا..
سألته المذيعة وقد بدا أنها لم تفهم حرفا:
- وماذا ينجم عن هذا الشرخ؟
- ينجم عنه أن السد سينهار في أية لحظة الآن.. ولسوف تُغرق ملايين الأطنان من الماء حضارتنا
- أماه! وهل يوجد ما يمكن عمله؟
- يمكننا الدعاء طبعا
وفي اللحظة التالية صرخت المذيعة وهي تنظر للسماء..
- أماه! ماذا أرى؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- (سوبر مان) و (كنت)..

نظر الجميع إلى السماء..
وارتفعت الكشافات إلى أعلى لتجعل الرؤية أوضح..
ووسط الضوء الساطع، رأى القوم طائرا أزرق يحمل علما أحمر هائل الحجم..
فما إن اتضحت الرؤية أكثر حتى أدركوا أنهم يرون (سوبرمان).. الرجل الخارق يحلق في السماء حاملا قطعة قماش عملاقة..
هذا (سوبرمان)!
- لقد نجونا!
في اللحظة التالية رأت (عبير) الرجل يندفع كالنفاثة إلى جسم السد.. ورأته يثبت قطعة القماش العملاقة - التي يبلغ طولها عشرة كيلومترات على الأقل - إلى جانبي السد.. ويحكم بها إغلاق الشرخ..
ورأته يحلق في الهواء كأنما يتفقد عمله.. ثم يهبط.. يهبط إلى وسط الجماهير التي أصابها جنون الحماس..
هرعت (عبير) والمذيعة نحو البطل الذي وقف يبتسم مطمئنا..
صاحت المذيعة محاولة جعل صوتها مسموعا وسط الصخب:
- (سوبرمان)! هل لك أن تفسر لنا ما قمت به؟
بصوت هادي قوي النبرات، مسموع دون حاجة للصياح، قال:
- إنه حل وقتى إلى أن يجد المهندسون الوقت الكافي لعمل إصلاحهم وترميماتهم.. لقد غلفت السد بفضلة قماش كانت عندي من (كريبتون).. وهو قماش لا ينفذ الماء ولا يتمزق.. ويتمدد بصورة لا تصدق..
ثم نظر إلى (عبير).. وقال باسما:
(لورا)! إن (ديلي بلانت) لا يفوتها شيء حقا.. هل التقطت صورة ما قمت به؟
ارتجفت حين وجدته يخاطبها.. إذن هو يعرفها جيدا..
كان فارع الطول وسيما إلى حد لا يصدق.. له تلك الملامح التي اصطلح الرسامون على اختيارها كلما رسموا رجلا وسيما.. ذقنه مربعة مشقوقة وخصلة شعر مجعدة تنحدر على جبينه الوضاء..
كان يرتدي زيه الشهير بحرملته الحمراء، وحرف (S) اللاتيني على صدره.. باختصار كان نسخة من (سوبرمان) الذي كانت ترى صورته في المجلات، لكن - كالعادة - كان قد اكتسب شيئا ما من (شريف) زوجها قالت مدارية شعورها بالارتباك و (الخيبة):
- ل.. لم ألتقط أية صورة.. لقد تم كل هذا بسرعة..
قال في مرح وهو يرتفع عن الأرض (وهو مشهد لا يمكن أن تصدقه حتى تراه):
. إذن أعدي الكاميرا.. سأقدم هذه اللقطة لك ولك وحدك!
ومن جديد رفرفت حرملته في الهواء... وانطلق نحو السد.. ورأته (عبير) يمسك بقطعة القماش العملاقة إياها في وضع تمثيلي ثابت، كأنه منهمك في العمل...
وأدركت أنه ينتظرها حتى تلتقط الصورة..
- رفعت الكاميرا إلى عينها.. وهي مرتبكة لا تدري ما يجب عمله حقا.. وسمعت صوت المذيعة

الجاف يقول لها:
- استعملى (الفلاش) يا حبيبتي.. يبدو أن تفكيرك بطيء نوعا..
وفي نفاد صبر مدت يدها لتثبت لها (الفلاش)..
وضغطت (عبير) على الزر الوحيد الذي وجدته، فالتمع الضوء الساطع لعشر ثانية.. ثم ساد الظلام
رفعت عينها عن (الكاميرا) فوجدت (سوبرمان) يلوح لها بذراعه. وهو يحلق إلى أجواز الفضاء مستعدا..
نظرت إلى المذيعة فأدركت - لشدة دهشتها – أنها تكرهها حقا.. وهي كراهية أنجبها الحسد.. الغيرة..
إنه شعور طبيعي لا تلومها عليه.. فكم فتاة يمكن أن تتفاخر بأن (سوبرمان) ناداها باسمها.. وطار ليتخذ وضعا تمثيليا فقط ليسمح لها بالتقاط صورة فاتتها؟
لم تتصور (عبير) قط مدى أهميتها إلا في لحظة كهذه.. رأت العيون من حولها تظهر الحسد أو الفضول..
لم تجد لنفسها مكانا وسط بحيرة العيون هذه..
(فرويد) كان عبقريا حين وضع العيون والأسماك في سلة واحدة.. لذا آثرت الفرار بحملها الثمين كي تلحق بالطائرة
يجب أن يصدر ملحق خلال ساعتين من الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين لمست قدماها سطح البناية، كانت قد فرغت من كتابة وصفها لما حدث.. صحيح أنه بخط رديء مليء باهتزازات الطائرة، لكن عمال المطبعة سيعرفون كيف يقرءونه.
وسرعان ما كانت تستقل المصعد إلى مكتب المدير لتناوله المقال والفيلم.. لاهثة الأنفاس من فرط انفعال ومجهود..
فما إن غادرت مكتبه حتى وجدت زميلها الخجول على الباب..
قال لها وهو يبتلع ريقه مداريا ارتباكه:
- ماذا فعلت؟
- قمت بكل شيء.. وأنت ماذا فعلت؟
- لا شيء.. كان الزحام مرعبا فلم أستطع الوصول إلى مكان الحادث.. فما إن تحررت سيارتي حتى عدت إلى هنا..
مطت شفتيها في ازدراء.. وقالت:
- كان (سوبرمان) هناك.. لقد أنقذنا.
- إنه دائما موجود لينقذنا..
وهنا دخل محرر شباب الغرفة، ليقول في كثير من الاندفاع وهو يلوح بجهاز مذياع صغير في يده:
- هل سمعتما الأخبار؟ لقد أنقذنا (سوبرمان)!
قالت وهي تعود لمقعدها:
- لا بل كنا هناك...
تذكرته من النمش على وجهه.. إنه ذلك الصحفي الشباب الطائش لكنها نسيت اسمه للأسف

سمعته يسأل زميلها الخجول:
- هل كان المشهد باهرا يا (كلارك)؟
قال (كلارك) وهو يصلح من وضع عويناته:
- لم أره للأسف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد فات (عبير) أن تدرك معنى الاسم..
لما كانت قواعد اللعبة تحتم أن تكون هي (لورا) في كل شيء، فقد غدا محتوما عليها أن تنسى حقيقة (كلارك كنت) التي يعرفها كل قراء (سوبرمان)..
الحقيقة هي أن (سوبرمان) البطل الجبار له - ككل الأبطال الجبابرة - شخصية سرية يتوارى خلفها، وتتيح له حياة إنسانية شبه طبيعية..
هذه الشخصية بالنسبة ل (سوبرمان) هي شخصية الصحفي الخجول مزعزع الشخصية (كلارك كنت)..
إن (كنت) هو آخر من يمكنك الاشتباه في كونه (سوبرمان).. فهو خجول جدا.. أقرب إلى الجبن..
وعامة هو نموذج جيد لل (دهولة) كما نعرفها تماما..
لكن (كلارك كنت) - حين تضطره الظروف - يتوارى عن الأعين، وينزع ثيابه كاشفا عن ثياب(سوبرمان) وعضلاته وقواه الهائلة.. إنه هي إلا لحظات ينقذ فيها العالم من خطر جديد، ثم يرتدي ثياب (كلارك كنت) مرة أخرى، ويبرز للناس متسائلا في غباء عما حدث...
الحقيقة أن هذه الازدواجية تسبب حيرة ومعاناة هائلة ل (سوبرمان).. فهو أسد مرغم على الحياة في ثياب حمل.. هو إعصار مرغم على التنكر في زي الأنسام الوديعة.
وفي كل دقيقة كان يبتلع السخرية والإهانات الموجهة ل (كلارك كنت).. عالما أن هؤلاء الساخرين سيموتون هلعا لو عرفوا أنهم يسخرون من (سوبرمان)..
بل إنه - وهذا متوقع - يبدأ في تكوين مركب نقص من نوع خاص.. (كنت) يغار كثيرا من (سوبرمان) القوى الشجاع.. و (سوبرمان) يضيق بهذه الشخصية الخانعة التي يحيا في أسرها، لكن الوقت غدا متأخرا جدا على اختيار شخصية أخرى..
لا أحد يمكن أن يشك في (كنت).. لا أحد..
ربما لو استثنينا واحدة فقط..
واحدة تملك الذكاء العافي كي ترتاب.. وتتساءل:
لماذا لم تر (سوبرمان) و (كنت) معا قط؟ لماذا - كلما ظهر (سوبرمان) - توارى (كنت) بعذر غير مقنع؟
ثم إن ملامحهما متقاربة جدا.. ونبرات الصوت توشك أن تكون واحدة
وكانت هذه الواحدة المرتابة هي (لورا)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ثم إن ملامحهما متقاربة جدًا .. ونبرات الصوت توشك أن تكون واحدة ..

والحقيقة إن شخصية (سوبرمان) هي نفسها وليدة عقدة قديمة لدى مؤلف القصة ورسامها.. وهما (جيروم سيجل) و (جوشستر)..

لقد كانا غلامين خجولين ضعيفين في المدرسة..

والمدرسة هي مكان جيد لممارسة شريعة الغاب، حيث البقاء للأقوى والأجمل..

عاش الصديقان مغمورين مقهورين، يكتمان حبهما لفاتنة الصف، التي تفضل - حتما - أولادا أقوي وأكثر وسامة..

وبعد تخرجهما فكر الصديقان في ابتكار شخصية (سوبرمان)، الذي يتوارى وراء شخصية باهتة يقتحمها البصر هي (كنت)..

كان هذا هو انتقامهما.. فلم لا يكون وراء مظهر (سيجل) و (شستر) الخامل (سوبرمان) آخر تتقاتل النساء من أجل نظرة منه؟

نوع من أحلام اليقظة.. لكنه لاقى نجاحا ساحقا والأطرف من هذا أنهما جعلا (لورا) – صديقة (سوبرمان) - نسخة أخرى من فاتنة الصف التي أدمتهما في صباهما!

هكذا العباقرة.. يحولون عقدهم الذاتية إلى فن..
فن قادر على أن يسحر الملايين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تكن (عبير) / (لورا) تدرك شيئا من هذا الآن..
لم تكن كذلك قادرة على رؤية ما يحدث في هذه اللحظة في أجواز الفضاء النائية..
كان الظلام يسود كل شيء على بعد آلاف الأميال الضوئية، ما عدا وهجا من شهاب محترق يعبر السماء لثانية..
كان هناك ثقب أسود هائل الحجم..
في اللحظة التالية بدأ الثقب يتوهج ويتوهج.. يحمر
وتبدي ظل.. لا.. بلا ثلاثة ظلال لثلاثة أشخاص فلو أننا أمعنا النظر لأدركنا أنهم يخرجون من الثقب الأحمر..
لا شيء يمكن أن يخرج من ثقب أسود، لأن جاذبية هذه الثقوب هائلة تصل إلى درجة امتصاص كل ما يمر بقربها... وتتحول الكتلة إلى صفر..
معني ما نراه. إذن - أن الأمر يفوق قوانين الفيزياء..
معناه أن ثقبا قد حدث في (منطقة الأشباح)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- منطقة الأشباح..

كوكب (سيركيوس) في كوكبة (القنطورس)..
علماء الفلك يعرفون كوكبة (القنطورس)..
لكنهم - طبعا - لم يعرفوا أن حول إحدى شموسها يدور كوكب (سيركيوس)، والذي يسميه سكان الكوكبة باسم (كوكب الأشباح)
لماذا؟ لأن كل الكتل تتحول إلى صفر على هذا الكوكب.. لا توجد مادة.. فقط توجد حزم من طاقة..
وبعد ما نزلت الحزم الثلاث القادمة من الثقب الأسود؛ لحقت بها حزمة جديدة تتوهج باستمرار فوق أرض الكوكب التي لم تعد أرضا..
دوي صوت الحزمة الرابعة يتساءل:
- ماذا تريدون؟
بصوت واحد رددت الحزم الثلاث الأولى:
- الانتقام طبعا!
- ممن؟
- من ابن (جور - آل)
- هل تعرفون مكانه؟
- إنه على كوكب يدعى (الأرض).. ويسمونه (سوبرمان)..
- وماذا جلبتم لي؟
- شهاب من (كريبتون)!
- (كريبتونايت)!!
قالها في جشع.. قالها في شهوانية.. ثم عاد يسأل:
- ومن أنتم؟
قالت الحزمة الأولى:
- أنا جنرال (ثورن) الخائن.
وقالت الحزمة الثانية:
- وأنا (بادر) السفاح..
وقالت الثالثة:
- وأنا (بيجال) الذي أحرق برلمان (كريبتون)..
قالت الحزمة الرابعة:
- رائع! أنتم مبدعون يا رفاق ويؤسفني أن لقاءنا مستحيل على الأرض.. لا توجد طريقة أخرى سوى أن نلتقي كحزم من طاقة على ظهر (سيركيوس).. لكن هذا - على الأقل - يتيح لنا التفاهم.
قالت حزمة طاقة:
- أنت عبقري كعادتك يا (لوثر).. فمنذ أربعين عاما لم نستطع الاتصال بكائن خارج (منطقة الأشباح)..
إلى أن وجدت أنت فكرة (معجل الذرات) هذه..
وسألته حزمة أخرى:

هل نلتقي ثانية؟
قالت الحزمة الرابعة وهي تتوهج تصميما:
- ليس قبل أشهر.. فأمامي عمل كثير بشهابكم هذا.. والآن وداعا يا (بادر) ويا (بيجال) ويا جنرال..
- وداعا يا (لوثر)!
وعلى الفور ارتفعت حزم الطاقة لتتلاشى في أجواز الفضاء.. عادت ليمتصها الثقب الأسود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي معمله المبطن بالرصاص؛ فرغ (لكس لوثر) من تجربته الرهيبة فغادر الغرفة الزجاجية التي كان بها.. والتي يتدلى من سقفها كشاف (ليزر) هائل الحجم، تفوح منه رائحة (الأوزون).
لقد فعلها! تخلص لعشر دقائق من كيانه المادي، وتحول إلى طاقة تجتاز الفضاء بأضعاف أضعاف سرعة الضوء، واستطاع أن يلتقي بمجرمي (منطقة الأشباح) في مجرة أخرى..
وتحسس رأسه الأصلع في رضا..
إن ثقته بعبقريته لا حد لها.. منذ أعوام طويلة كان (لوثر) هو المخترع الشاب الوسيم الواعد صديق (سوبرمان) الشاب.. ثم نشب حريق مروع في معمله كاد يودي بحياته.. تدخل (سوبرمان) وأطفأ اللهب بنفخة جبارة من صدره.. لكن النتيجة كانت مروعة حقا..
لقد احترق شعر (لوثر) تماما وسط ألسنة اللهب التي سببتها نفخة (سوبرمان)، والأدهى أن أبحاثه حول مادة نيزكية جديدة احترقت بدورها..
ولم يغفر (لوثر) ل (سوبرمان) ما تسبب فيه.. بل إنه لم يقبل اعتذاره، ولم تشفع له محاولة إنقاذه..
ومن يومها صار (لوثر) هو العالم المجرم المخبول نوعا، عدو (سوبرمان) رقم واحد.. الذي لا يخرج من السجن - هاربا غالبا - إلا ليعود إليه بتهمة أشنع..
وبرغم هذا كان يعتبر (سوبرمان) هو المسئول عما صار إليه..
اليوم أعد (لوثر) انتقاما محكما من (سوبرمان)..
ولكن لننتظر قليلا كي نفهم أكثر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يدخل (سوبرمان) قلعته التي شيدها وسط ثلوج القطب الشمالي، حيث لا يجرؤ - ولا يستطيع – مخلوق على التواجد..
يقوم بنشاطه اليومي المعهود؛ فيجري عملية تزييت (الروبوتات) التي تشبهه، ويتفقد مدينة (كوندور) المحبوسة في زجاجة يتدفق إليها (الأوكسجين)، وهي المدينة الوحيدة الباقية من وطنه (كريبتون)
ثم يجلس أمام أجهزة الحاسب الآلي يستعرض مصائب اليوم التي دونها الجهاز على شاشته:
* فيضان في (بنجلاديش): هذا ليس جديدا يوشك أن يكون خبرا يوميا..
* مذابح في (كوستاريكا): يا له من شيء ممل!
* سرقة مصرف في (أوهايو)..
* سفاح نساء في (نوتنجهام).
وهكذا - من دون استعمال قلم ولا مفكرة – راح يدون في ذاكرته الفوتوغرافية قائمة أشغال

الغد..
ضغط على زر معين كي يرى أحداث الفضاء الخارجي:
* شهاب يسقط فوق (عطارد)
* النجم رقم (أ- 34007) يهوي بعد ما تحول إلى عملاق أحمر.
* غزو من كوكب (بلغور) لكوكب (سيلفانيا)..
* شرخ مؤقت في جدار منطقة الأشباح
تصلبت أنامله.. واتسعت عيناه قلقا..
هذا الخبر الأخير بالذات يستحق التأكد منه..
طلب مزيدا من المعلومات، فظهرت شاشة جديدة تقول:
في الساعة 8:15 م. حدث شرخ في جدار منطقة الأشباح، تسرب إشعاعي محدود تلا ذلك، استمرت الظاهرة نصف ساعة بتوقيت الأرض ثم انغلقت الفتحة، المرجح أن أحدا لم يستطع الفرار من المنطقة لأن التعداد صحيح..

لكن هذا الخبر يستحق كثيرا من التمحيص وبإصبع قلقة ضغط على الزر الذي كتب عليه (تعداد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويعود (سوبرمان) بذاكرته إلى الماضي إلى أيام لم يعشها لكنه عرف كل شيء عنها من الأسطوانة المرئية التي كانت معه في الصاروخ إياه..
كوكب (كريبتون) الذي يبعد آلاف الأعوام الضوئية هو وطنه..
هناك ولد ل. (جور - آل).. أبيه.. أعظم علماء (كريبتون).. قلما سطعت شمس هذا الكوكب الحمراء على رأس أكثر ذكاء من رأس (جور - آل)..
ولأن (جور - آل) عبقري، كان هو صاحب فكرة منطقة الأشباح..
كان يرى دوما أن عقوبة الإعدام بالتجميد قاسية.. قاسية، حتى بالنسبة للسفاحين الذين تنفذ فيهم..
ابتكر (جور - آل) جهازا خاصا يقذف المحكوم عليهم بالإعدام إلى منطقة من الطاقة.. منطقة يختفي فيها الشخص.. لكنه لا يموت بل يظل سجينا للأبد غير قادر على مضايقة الماديين مثلنا..
ووافق برلمان (كربتون) - قبل أن يحرقه (بيجال) على تطبيق أسلوب (منطقة الأشباح) على كل المحكوم عليهم بالإعدام..
والحق أن هذا الأسلوب لم يكن رحيما كما يبدو..
إن السجن المؤبد عقاب أقسى من الإعدام بكثير إذا ما تمعنا في الأمر.. فما بالك بسجن مؤبد تتحول فيه إلى طاقة بلا كيان؟ والأدهى أنك قادر على رؤية كل شيء.. كل تفاصيل عالم الأحياء بل ورؤية جلاديك وهم ينعمون بحياتهم غافلين!
ثم انفجر كوكب (كريبتون)..
وفي اللحظة الأخيرة للكوكب استطاع (جور - آل) أن يقذف رضيعه في صاروخ إلى الأرض وهكذا لم يعد حيا من الكوكب كله سوى الرضيع - الذي سيغدو (سوبرمان) - ومجرمي (منطقة الأشباح) الذين يهيمون كالأرواح في عالمهم الأثيري.
وسرعان ما كبر (سوبرمان).. وعرف سر هؤلاء المساجين الذين لو استطاعوا الفرار من

محبسهم، لاهتز الكون لهول انتقامهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راحت وجوه المساجين تظهر على شاشة الحاسب الآلي.. ها هو ذا جنرال (ثورن) الذي أسلم أسرار (كربتون) العسكرية لل. (جالاكتورين).. وهو ذا (مورد) الذي نشر وباء (x) الرهيب في (كريبتون).. ثم (بادر) السفاح الذي قطع رقاب ستين رجلا.. و (بيجال) الذي أحرق البرلمان و (بيكسو) الذي لوث نهر (كريبتون) البلوري... إلخ.. كلهم هنا.. الخمسون سجينا موجودون جميعا لم ينقص أحد..
إذن ما هو سبب ذلك الشرخ في جدار المنطقة؟!
لقد حاول أحدهم الدخول أو الخروج.. فمن هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإجابة كانت في ذهن (لوثر)..
هو وحده يعرف الهدية التي أرسلها له مجرمو (منطقة الأشباح) - وهم أصدقاء أفاضل - كي يدمر بها (سوبرمان)..
كل ما عليه الآن هو أن يسافر إلى تلك النقطة في صحراء (كاليفورنيا) ليجد تلك الهدية، وينتفع بها..
وهكذا - في الصباح - كان يستقل طائرة إلى (كاليفورنيا)، وقد تنكر بشكل متقن جدا
ولم يكن عسيرا العثور على الشهاب الذي لم يحترق إذ اجتاز غلاف الأرض الجوي، وانغرس في الرمال حتى أوشك أن يتلاشى فيها وكجيولوجي محترف استطاع (لوثر) أن يهشم قطعا كبيرة لا بأس بها من الجسم الصخري.. قطعا مضيئة بعضها أحمر كجمرة متقدة، وبعضها أخضر كالزمرد..
وحين فرغ من مهمته كان قد ملأ ثلاث حقائب كبيرة..
إن ما بقي لن يكون عسيرا كذلك..
شكرا لمجرمي منطقة الأشباح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وكچيولوچى محترف استطاع (لوثر) أن يهشم قطعًا كبيرة
لا بأس بها من الجسم الصخرى ..

5- الحفل..

ركبت سيارتها وفتحت الباب الجانبي ل. (كنت) كي يجلس..
ف. (كنت) لم يكن يملك سيارة.. ليس هذا بسبب عوز مادي، فكل فقراء أمريكا يمكنهم شراء سيارة نصف عمر.. لكن بسبب أنه يخشى القيادة، وقد فشل في عشرة امتحانات قيادة من قبل، فهو يرتبك دوما في الوقت غير المناسب..
كانا ذاهبين إلى الحفل الخيري الذي تنظمه جريدة (ديلي بلانت)، والذي يخصص ريعه لأيتام المدينة، والمفترض أن (سوبرمان) سيكون هناك لإحياء الحفل..
ظل صامتا في الظلام يرمق أضواء الطريق (كنت وليس سوبرمان طبعا) فسألته دون أن تفارق عيناها الطريق:
ما بك؟ تبدو مهموما!
- هم م م م!
- والسبب؟
- لا سبب مجرد انحراف مزاجي..
لكنها كانت تعرف جيدا..
تعرف أن ما يعانيه هو داء قديم لا علاج له، وصفة (ابن سينا) ببراعة، وكتب عنه شعراء كثيرون.. الداء الذي لا دواء له إلا أصل الداء..
وهذه العلة لها اسم قصير جميل من حرفين..
كان (كنت) يحبها بجنون.. وبلا أمل..
إن أجهزة استشعار المرأة لا تخطئ في هذه الأمور.. لكنها تدعي الغباء إذا كانت غير راغبة في الخطوة التالية..
بالطبع لم تكن ترغب في خطوة تالية معه أو سواه.. ولم تكن تريد أن تصارحه بعيوبه فهو لن يتغير أبدا.. كما أنها - حتى لو تغير - لم تكن لتحب سوي(سوبرمان)..
سألها في ذلة:
- أنت مسرورة لأن (سوبرمان) في الحفل أليس كذلك؟
عادت إلى سياسة (الأستهبال) إياها وقالت:
- بلى.. إنه صديق عزيز.. ألست مسرورا بدورك؟
- ب.. بلى..
وابتلع عشرات الكلمات الإضافية التي يريد قولها.. فسرور لقاء صديق عزيز يختلف حتما عن سرور لقاء حبيب..
ووصلت السيارة إلى الحفل..
ترجلا وهما يشقان طريقهما بين عدد لا بأس به من القوم ذوي السترات المنشاة، والمجوهرات التي ترتدي نسوة (وليس ثمة خطأ مطبعي ها هنا).
وسمعت (عبير) (كنت) يتمتم ببضع عبارات عن خجلة وعدم ارتياحه لهذا الجو.. فسألته في خبث:
- هل ستنسحب كما أتوقع؟
لماذا تتوقعين ذلك؟

لأن (سوبرمان) ضيف الحفل.. ويسرني أن أراكما في مكان واحد..
هتف مغتاظا:
- أحقا لن تكفي عن هذا الهراء؟
حين تكف أنت عن إثارة شكوكي..
لكنه لم ينسحب.. ودخل معها قاعة الاحتفال حيث كان هناك ما يشبه المسرح، تقف عليه فرقة موسيقية تعزف (فالس) هادئا.. وكان القوم يرقصون هنا وهناك..
تناول خادم زنجي معطفها وقفازيها الطويلين، ثم راحت تشق طريقها وسط الزحام تحيي هذا وتلوح لذاك..
الحق أنها كانت جميلة جدا..
إنها لا ترى نفسها من الخارج.. لكنها تري العيون كلها، وتدرك أن كل رجل في المكان نسي رفيقته تماما.. وفي نفسها شعرت بامتنان ل (دي جي - ٢) الذي جعلها تجرب مشاعر الأنثى الجميلة مرارا، وهي مشاعر ما كانت لتعرفها أبدا في عالم الواقع
وفجأة توقفت الموسيقا.. ودنا عازف (الساكس) الزنجي من مكبر الصوت ليقول بصوت مبحوح غليظ:
- انتبهوا سيداتي سادتي
وكانت قد عرفت من السينما أن كل عازفي (الساكس) يحرصون على أن يعرقوا بكثرة، ويكون لهم صوت أجش غليظ على سبيل تقليد (لويس أرمسترونج) ملك (الساكس) الأمريكي قال الرجل:
- هو ذا (سوبرمان) يلحق بحفلنا..
صفق الجميع.. ونظرت هي جوارها فوجدت (كنت) يصفق بدوره في حماس! غريب هذا! إن حدسها الذي لا يخطئ قد أخطأ أخيرا..
وهبط الرجل الجبار من مكان ما فوق المنصة، وراح يلوح بيده محييا الجماهير، ولم ينس أن يهز رأسه لها بتحية خاصة..
ثم قال بصوته الرنان الهادئ:
- نبدأ الآن مزادنا العلني المخصص للأيتام..
ولوح بأول نفيسة من نفائسه:
- ها هي ذي الشمعة التي لا يمكن إطفاؤها.. جاءت من كوكب (نميسيس) حيث النار لا تنطفئ أبدا.. هل أسمع مائة دولار؟
- مائة!
- مائتان!
وهكذا راحت الأصوات تتلاحق محاولة الظفر بهذا التذكار النادر من (سوبرمان).. لكن (عبير) لم تجد فائدة ما لشمعة لا تنطفئ.. إن الشمع كثير وأعواد الثقاب أكثر.. لكن ثمن الشمعة بلغ تسعمائة دولار على كل حال، واشتراها تاجر ثرى أصلع الرأس..
- هو ذا كتاب بمؤثرات الرائحة.. تقرأ فقرة عن فطائر الجدة فتشم رائحتها.. تقرأ فقرة عن الحظيرة فتشم روث الأبقار.. إنه كان ملكا لساحرة من القرن السادس عشر.. هل أسمع خمسين دولارا؟
وهكذا استمر المزاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والحقيقة هنا هي أن (سوبرمان) بسرعته الخارقة، قادر بلا عناء على اجتياز حاجز الزمن والسفر للماضي والمستقبل
لهذا كان سهلا عليه أن يحصل على هذا الكتاب من الساحرة مباشرة.. ومن المعروف أن (سوبرمان) لا يثرثر أبدا بما رآه في الماضي ولا المستقبل.. لأن
هذا يمكن أن يبلبل حياة الناس.
بالإضافة لهذا تعلم (سوبرمان) درسا قاسيا:
الماضى لا يمكن تغييره أبدا.. لا يمكن إنقاذ شيء أو إحياء من مات..
لهذا كف عن المحاولة من زمن سحيق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- انتهى المزاد.. فرأته (عبير) يهبط من المنصة، ويدنو منها.. تجمدت عاجزة عن الحركة أو التفكير..
مد يده القوية نحوها.. وقال لها:
- فهمت سر ضعف الإضاءة الكهربية ها هنا إنهم يكتفون بك!
لم ترد لأن الذعر كان هو العاطفة الوحيدة التي تحركها.. مع رغبة هائلة في الفرار كالأرانب..
مشت معه إلى الشرفة المظلمة.. بعيدا عن صخب الموسيقا والقوم.. تعرفون بالطبع هذا التأثير الرومانسي الساحر حين تقف في الظلام، بينما حفل صاخب ملتهب بالأضواء يدور وراء ظهرك..
قال لها وهو يرفع عباءته:
- أريدك في جولة سريعة.. لدي ما أقوله لك..
ولم تفهم حتى وجدته يلفها بالعباءة الحمراء ويحملها بين ذراعيه..
وفي اللحظة التالية عرفت أنها تطير.. تطير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلام والنجوم.. أضواء المدينة من علٍ..
البرد ودفء العباءة..
حلم الطيران الذي حلمت به كل فتاة.. إنه يتحقق.. هي ذي خفيفة كالطيور تلامس السحاب..
تعلو.. تعلو.. حتى ينقطع الهواء عن رئتيها.. ثم.. ثم تهبط حتى ترى السيارات في الشوارع..
متى طارت في (فانتازيا)؟
طارت على الحصان المجنح (بيجاسوس).. وطارت في مركبة (أبوللو) تلعب دور الشمس..
وفي كل مرة كانت تعيش الحلم بكل تفاصيله..
هو ذا المحيط.. الأمواج.. السفن.. الدرافيل تشق طريقها في ضوء القمر.. ثم هما الآن في (النرويج) جالسان على الشاطئ يتمليان بحر الشمال الرهيب.. بينما شمس منتصف الليل تلون الأفق بضوئها الأرجواني الغامض.. نعم..
فمع (سوبرمان) يمكنك أن ترى الكون كله في ربع ساعة إذا أردت..
ظل صامتا بضع دقائق لا تسمع سوى صوت تنفسه، وهدير الأمواج.. بعد قليل قال لها:
- لقد أحضرتك إلى هنا لنكون بعيدين عن العالم كله.. لأنني أردت أن أقول..

قالت محاولة أن تخفف ارتباكه:
- أعرف.. أعرف.. أنا أيضا أشعر بالشي ذاته..
- إذن أنت تفهمين؟
- بالتأكيد.. ولكن.. لا معنى لهذا كله دون أن نتزوج..
نظر لها في عدم فهم.. وقال:
- زواج؟ من تحدث عنه؟
صعد الدم إلى رأسها وقالت محنقة:
. طبعا.. لا أخالك تحسبنا سنبقى هكذا للأبد..
- لكن (سوبرمان) لا يتزوج.. فلو فعل لصارت زوجته فريسة سهلة لأعدائه.. ولصار الضغط عليه متاحا لكل من يستطيع اختطاف زوجته أو أطفاله..
إن قوة (سوبرمان) الحقيقية هي في تفرده في عزلته.. في قدرته على الحياة دون أبوين ولا زوجة ولا أبناء.. مثلما كان فرسان (النينجا) قديما: قوة الفارس مرهونة بعزوبته، فإذا تزوج خسر كل شيء..
نهضت محنقة حتى كادت تتعثر وتهوى في بحر الشمال.. وصاحت:
- يا سلام! إذن لماذا جئت بي ها هنا؟ لتبهرني! والإبهار دون نية الزواج يعني نوايا شريرة..
إنها فتاة مصرية.. وقد علمتها حواديت ألف ليلة وليلة، والأفلام العربية أن النهاية المثلى هي: (تزوجا وعاشا في تبات ونبات.. وأنجبا أولادا وبنات)..
ولم تكن قادرة على رؤية النهايات السعيدة في أي ضوء آخر..
إن الرجل الذي يعلن للفتاة أنه لن يتزوجها مهما حدث؛ لهو إنسان وقح.. وقح حتى لو كان (سوبرمان) ذاته..
لكن (سوبرمان) قال لها دون أن ينهض من جلسته:
- أنت لم تفهمي بعد.. لقد جئت بك إلى هنا طالبا عونك..
عونها؟ هذا غريب.. كيف تعين (سوبرمان) دون أن تزيد متاعبه؟ وفيم يحتاج إلى العون؟
قال لها بذات الهدوء:
- أعرف أنني سأموت قريبا جدا.. وأريد منك أن تعرفي ما أنتظره منك بعد موتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لكن (سوبر مان) قال لها دون أن ينهض من جلسته :

ـ « أنت لم تفهمي بعد .. لقد جئت بك هنا طالبًا عونك .. » ..

6- خطة لا بديل لها..

للمرة الأولى يفضي (سوبرمان) لواحد من الأرضيين بشيء رآه في المستقبل.
كان يستعرض شاشة الراصد الذي يعكس له المعطيات القادمة؛ حين رأى مشهدا مريعا: رأي نفسه ميتا وقد اكتسى بذلك اللون الأخضر الرهيب.. لون (الكربتونيت).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كوكب (كريبتون) قبل انفجاره ذا شمس حمراء..
ولم يكن الأمر غير معتاد بالنسبة لسكانه فالشمس الصفراء والحمراء والخضراء أشياء تتعود عليها بالتدريج
وكانت حسابات العالم العظيم (جور - آل) دقيقة جدا.. وكانت نظريته محكمة: لو استطعنا إرسال رجل من (كريبتون) إلى كوكب ذي شمس صفراء، فإنه سيكتسب قوى خارقة: سيطير.. سيصمد جسده لطلقات الرصاص.. سيكون أسرع من الصوت والضوء.. سيري عبر الجدران.. سيسمع دبيب النملة..
وكان أول مخلوق من (كريبتون) يرسل إلى كوكب شمسه صفراء هو (سوبرمان) الصغير.. والكوكب - طبعا - هو الأرض..
وانفجر كوكب (كريبتون).. وتطايرت شظاياه في أرجاء الكون.. لكن هذه الشظايا تحت الشمس الصفراء تتحول - هي الأخرى - إلى أجسام غريبة:
(الكريبتونيت)
و (الكريبتونيت) ثلاثة أنواع كلها مشعة:
(الكربتونيت الأحمر): وهو يفقد (سوبرمان) قواه.. ربما للأبد..
(الكربتونيت الأخضر): ويقتل (سوبرمان) بلا مناقشة..
(الكريتونيت الذهبي): وهو يجعل (سوبرمان) يتصرف بأسلوب شاذ..
لا.. لن نذكر (الكربتونيت الأبيض) فهو مختص بالحيوانات..
وكان (سوبرمان) يعرف خطر (الكربتونيت)..
ومن حسن حظه أن هذه الشهب كانت تزور الأرض نادرا.. فلربما ظفر مجرم بقطعة منها.. عندها كان (سوبرمان) يقضي أياما سوداء حتى يتم التخلص من القطعة بإلقائها في أعماق المحيط غالبا، وكان يضعها أولا في صندوق رصاصي..
وهو المادة الوحيدة القادرة على حجب هذا الإشعاع اللعين..
فيما عدا (الكربتونيت) يمكن القول إن القضاء على (سوبرمان) من رابع المستحيلات...
هكذا عرف (سوبرمان) أنه سيموت بال (كربتونيت) قريبا جدا..
من سيفعلها؟ للأسف لم يكن هذا واضحا بالنسبة لراصد الغد.. وما كان (سوبرمان) يحب زيارة المستقبل القريب الذي سيرى نفسه فيه.. فإن خللا زمنيا محتما سيحدث لو اجتمع (سوبرمانان) في زمن واحد.. ربما يؤدي لإفناء أحدهما..
وكالعادة في قصص الزمن هذه.. لو مات (سوبرمان) الحالى لمات (سوبرمان) الغد..
ولو مات (سوبرمان) الغد فمعنى هذا أن (سوبرمان) الحالى لا غد له.. أي أنه لن يعيش طويلا!
إن هذه المسائل الجدلية مربكة دائما.. ولربما كان من الخير عدم إطالة التفكير فيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها وهما في قلعته الجليدية، وقد أحكم لفها بعباءته كي يقيها خطر التجمد:
- هذا هو بيت القصيد.. أحدهم يملك كمية هائلة من (الكربتونيت).. ولسوف يستخدمها بنجاح ضدي..
راحت ترمق الشاشة حيرى..
هي تعرف أن التنبؤ كلام فارغ.. لكن هل هو كذلك في (فانتازيا)؟ وماذا يريد منها (سوبرمان) عموما؟
قال لها (سوبرمان):
- يوجد حل سهل هو أن أغادر الأرض لمدة شهور..
هتفت في انتصار:
- حقا! يمكنك أن تغادر الأرض لمدة شهور
- ليس حلا.. لن أترك الأرض للأخطار.. ثم إنني لا أعرف ما إذا كانت نهايتي على الأرض أم خارجها؟ تذكرين قصة (موعد فى سمارة) لـ (سومرست موم).. لقد رأى التاجر الموت في (بغداد) ينظر له بدهشة، من ثم صمم على الفرار إلى (سمارة).. وانطلق التاجر إلى تلك المدينة النائية لا يلوي على شيء وهنا يسأل أحد أهالي (بغداد) الموت عن سبب دهشته فيقول الموت: لقد دهشت لأنه كان من المفترض أن آخذ روح هذا التاجر في (سمارة) هذه الليلة.. وإذا بي أفاجأ به في (بغداد)!
- هذا جميل.. ولكن ما الحل؟
- هذا سهل.. سأرتب موتى العلني!
نظرت له في دهشة.. ما معنى هذا؟ قال باسما وهو يطفئ شاشة الراصد:
سأتظاهر بالموت أمام الناس.. وهكذا سيظهر لنا صاحب (الكربتونيت) نفسه وقد تخلى عن حذره..
لن يطاردني لأنه سيعتبرني هلكت.. عندها أظهر أنا وأدمره
- ولكن كيف تتمكن من.....؟
وفي اللحظة التالية سمعت صخبا عاليا، كأنما باب يفتح في جدار القلعة الجليدي.. ثم رأت مخلوقا يهبط من أعلى في تؤدة.. كان يطير كـ (سوبرمان) لكنه كان يرتدي بزة السهرة..
وسرعان ما تعرفته.. إنه (كلارك كنت)!
لو أن هذا الأخير يطير طبعا
هتف (سوبرمان) من بين أسنانه مغتاظا:
- يا للأحمق!!
هنا قال (كنت) وهو يقف على الأرض مع شيء من الترنح:
- انتهى الحفل يا سيدي.. قمت بما أمرتني به!
نهض (سوبرمان) ليدور حول (كنت).. ثم رأته (عبير) يرفع سترته من الخلف ليدس يده في ظهره، الأمر الذي بدا لها غريبا..
وهنا كف (كنت) عن الكلام والحركة..
- ما معنى هذا؟
قال (سوبرمان) في فتور:

- لا شيء.. لقد أوقفت هذا المعتوه عن العمل!
أوقفته؟ تعني أنه.....؟
- آلة! نعم.. إنه (الروبوت) رقم (1 – ج – 910)
- (روبوت)؟
ونظرت له بحذر متسائلة
- معنى هذا أنه؟
قال في ملل:
معناه أنه كان يلعب دور (كنت) في الحفل لأن (كنت) لم يكن هناك..
- معنى هذا أن.....؟
بمزيد من الملل قال:
- نعم.. معناه أننا نفس الشخص.. إن حدسك صائب..
وهذا (الروبوت) يقوم بدور (كنت) في المرات التي ينبغي عليكما أن تظهرا معا فيها.. هذا يفسر كل شيء.. لهذا كان صموتا هادئا هذه الليلة..
- يجب أن يقلل كلماته حتى يقلل زلات لسانه.. فهو - مهما كان متقنا - لن يتصرف مثلى أبدا..
- تبا لك من ممثل بارع!
- هأنتذى تعرفين سري كله.. وأنا لم أصارحك به قط، لا لقلة ثقتي بك.. بل لثقتى فى شيطانية أعدائي.. إن كونك تعرفين السر يجعل حياتك في خطر داهم..
- فقط لو عرفوا أنني أعرف..
تنهد وقال مستسلما:
- دعينا من هذا ولنرتب خطتنا القادمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت إلى بناية ال (ديلي بلانت) مبهورة الأنفاس دامعة العينين.. فجرت إلى مكتب المدير واقتحمته..
- (سوبرمان) قد مات!!
هرع المحررون و (كنت) من بينهم على صوت صراخها.. واحتشدوا في الردهة.. على حين صاح المدير فرحا
- رائع! هل لديك ما يثبت ذلك؟
ثم تذكر أنه قد بالغ في سلوكه العملي.. بالغ إلى درجة قلة الذوق وانعدام الكياسة، فرسم الذهول الحزين على وجهه وسألها:
- ك.. كيف عرفت بهذه الكارثة؟
ناولته شريط (فيديو) صغيرا من حقيبتها.. شريطا من النوع الذي يتم به التسجيل في كاميرات (الفيديو) للهواة.. وانهارت على أقرب مقعد.. وبطرف عينها رأت (كلارك كنت) / (سوبرمان) وهو يرتجف ذعرا وتوترا.. يا له من ممثل!
دس المدير الشريط في جهاز (الفيديو)، وفتح التلفزيون.. وعلى الشاشة ظهر مشهد مروع يدور وسط الثلوج
وحش له هيئة تمساح ذي ستة أذرع، يقف جوار سفينة فضائية، وقد راح يطلق على (سوبرمان) إشعاعات ملونة من بندقية غريبة الشكل.. وكان (سوبرمان) يحاول التملص

فالهجوم.. لكن الوحش كان سريعا أكثر من اللازم..
أصابت طلقة (سوبرمان) فتوهج باللون الأحمر والأخضر ثم هوي أرضا.. على حين تصاعدت شهقات المحررين حسرة..
وفي اللحظة التالية حمل الوحش (سوبرمان) بين ذراعين من أذرعه.. وركب سفينته.. وانطلقت المركبة بعيدا نحو الفضاء..



وفى اللحظة التالية حمل الوحش (سوبرمان) بين ذراعين من أذرعه . .

كتمت (عبير) ابتسامة خبيثة.. فهي و (سوبرمان) قاما بإخراج هذا المشهد منذ ثلاث ساعات في (ألاسكا)..
أما الوحش فهو إنسان الى تم عمل بعض (المكياج) له.. إن المشهد برمته لقمة في عالم الخدع السينمائية، لكنه لا يساوي بصلة في عالم الواقع..
صاح المحررون في جزع معبرين عن حسرتهم، بينما سألها المدير:
- رائع! أعنى فظيع! كيف حصلت على هذه الصور؟
- كنت هناك مع (سوبرمان) في (ألاسكا)...

فجأة هاجمه هذا الصياد الفضائي.. وانتهى كل شيء في دقائق..
وكيف عدت بعدها؟
يا للأسئلة السخيفة! هذا سؤال لم تتوقعه قط..
أخيرا قالت:
- بالطائرة طبعا.. لم يكن (سوبرمان) هنالك ليعيدني..
مضغ المدير السيجار في توحش.. وعاد يرمق
الشاشة ثم سأل محررا:
- هل يمكنكم استخراج صور صالحة من هذا الشريط؟
بالتأكيد يا سيدي.. ستكون مهزوزة نوعا لكنها صالحة
- إذن افعلوا الآن.. أريد ملحقا بعد ساعتين من الآن.. وإياكم والثرثرة حتى لا يفسد رجال التلفزيون سبقنا الصحفي
ثم نظر إلى (عبير) متظاهرا بالحنان.. وقال: - وأنت يا ملاكي.. هل تجدين في نفسك القدرة على كتابة ما حدث؟
- سأ.. سأحاول.. إن نداء الواجب..
صاح في عصبية:
إذن هيا ولا تضيعى وقتنا!
ومضغ السيجار أكثر.. وقال وعيناه تتألقان بالحلم:
- سنعلن للعالم نبأ وفاة (سوبرمان)!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- عالم بلا (سوبرمان)..

(سوبرمان) قد مات!
اهتز العالم لسماع هذا النبأ
أما (أمريكا) فقد ذهب الحزن بصوابها.. لقد فقدت بطلها القومي الذي صار رمزا لها مثل رموز أخرى كثيرة: (ميكي ماوس).. (الهامبورجر) (البيبسي كولا).. ولونا عباءته وثيابه هما لون العلم الأمريكي [2]..
كان الأمريكان يشعرون دوما أن (سوبرمان) رجلهم.. ربما يسدي العون للعالم لكنه - في النهاية - مواطن أمريكي؛ يغني معهم ذات النشيد القومي أمام ذات العلم..
وبفقده شعروا أنهم أيتام وحيدون أمام عالم قاس لا يرحم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مواكب الحزن تملأ شوارع (نيويورك)، بينما التلفزيون يعرض فيلم الوفاة إياه مرارا وتكرارا..
وفي (واشنجتون) نُكّست الأعلام، وأعلن الرئيس الأمريكي الحداد على بطل أبطال أمريكا..
ثم بدأت الفوضى خلال أسبوع واحد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البدء قام اللصوص بالسطو على عشرة مصارف، ولم يستطع رجال الشرطة القبض عليهم..
ثم هوي قطار من فوق أحد الجسور ليهلك من فيه، وشب حريق مدمر في غابات (الويومنج) فلم
يستطع أحد إطفاءه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال العم (مكماهون) العجوز وهو يدس يديه في جيبي سرواله (الجينز):
- أشياء كهذه لم تكن لتحدث منذ ثلاثة أعوام أنا رأيت (سوبرمان) في حريق (الويومنج) السابق.. لقد طار فوق الغابة المحترقة.. ثم عاد بعد قليل حاملا رقعة هائلة من الجليد.. يبدو أنه اقتطعها من القطب الشمالي.. نعم! جليد!.. ورأيناه – أنا و (تومي) الأحول - يقف فوق الغابة حاملا قطعة الجليد الهائلة هذه.. رأيناها تذوب وينهمر ماؤها فوق الحريق الذي انطفأ خلال ثوان.. تالله! لقد كان مشهدا لا يراه المرء مرتين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانقلبت عربة السيرك وفرت منها ثلاثة أسود وفيل.. ولم يستطع رجال الشرطة السيطرة على هذه الحيوانات.. من ثم اضطروا إلى الاستعانة بطائرة (هليكوبتر) تقفو أثر الوحوش في الأحراش، ثم أطلقوا عليها الرصاص فأبادوها جميعا..
قال الملازم (دانييل كليفلاند):
- أنا رأيت (سوبرمان) في موقف مماثل.. لقد نصب شركا عملاقا بالشباك.. ثم راح – بأنفاسه

الجبارة - يطير الوحوش دون أن يؤذيها حتى استقرت في الشبكة..
عندها طار بالشبكة هائلة الحجم نحو حديقة الحيوان.. وما كان ليسمح بإيذاء حيوان واحد..
لأن (سوبرمان) قد أقسم في بدء حياته على ألا يقتل كائنا حيا مهما بلغ خطره...
الحق أن الحياة بدون (سوبرمان) تختلف كثيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أن الجميع لم يكن حزينا.. فقد احتفل (مجرمو القرن الثلاثين) بالذكرى رقم ١٢٠ لوفاة عدوهم اللدود.. وكانوا يعرفون أنهم سيقابلونه في حياتهم كثيرا، لأنه قام برحلات عديدة إلى المستقبل حين كان حيا..
لكن - على الأقل - ستقل المرات التي يتدخل فيها في أمورهم.. الحق أنها لذكرى مباركة تستحق الاحتفال..
وفي السجون جميعا قرع المساجين كئوس الخمور المهربة، وهنأ بعضهم البعض على زوال ألد عدو لهم..
- وكانوا - في هذا الوقت بالذات - قد أعدوا خططا بارعة للهرب؛ أدقها تلك التي رسمها سجناء (سنج سنج) الرهيب..
إلا أن (لكس لوثر) - كما لنا أن نتوقع - لم يكن جم السعادة للخلاص من (سوبرمان).. فقد كان يحيا لهدف واحد هو أن يموت (سوبرمان) بيده لا بيد (عمرو) أو (زيد) أو سواهما..
لقد أعد كل شيء لصيد السمكة.. لكن السمكة ماتت قبل أن يلقى بصنارته إلى الماء..
الحق أنها لخيبة أمل.. تبا ل (سوبرمان) من خائن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لن أتحمل أكثر!
قالها (كلارك) ل (عبير) وهو يطالع كل المصائب الخارجة من جهاز (التيكرز).. المصائب التي بدا أنها كانت تنتظر موت (سوبرمان) لتظهر..
- يجب أن أظهر.. إن العالم في ورطة بدوني!
قالت له وهي تفهم ما يعانيه:
- صبرا.. ستظفر بكل أعدائك مرة واحدة..
همس وهو يجرع القهوة:
- من أدراني أن صاحب (الكريبتونيت) سيظهر الآن؟
- سيفعل.. فهو لص بعد كل شيء.. واللص لا بد أن يسرق ما لم يكن لصا خائبا.. وسرقة لص كصاحب (الكريبتونيت) هذا لا بد أن تكون سرقة عملاقة تدير الرءوس..
- أرجو ألا يكون لصا تافها ممن يسرقون حقائب الأرامل..
- لا أعتقد
نظر إلى شريط (التيكرز) بشيء من الأمل وقال:
- إن (الوطواط) يمارس عمله خارج (جوثام سيتي).. هذا يقلل الخسائر نوعا..
نعم.. ففي هذا العالم تغدو الحياة مستحيلة دون (سوبرمان) وزملائه: (الوطواط) و (فلاش) و (الرجل العنكبوت) و (الرجل الخفي).. حتى إنني لأتساءل: كيف نستطيع نحن الحياة في دنيا الواقع دون هؤلاء؟

وكل أبطال القصص المصورة هذه لهم شخصيات سرية.. وكلهم - ما عدا (الوطواط) - اكتسب قواه الخارقة إثر حادث غريب..
وقد قام مؤلفو هذه السلاسل بجمع هؤلاء الأبطال معا في فريق اسمه (رابطة العدل)، رمزا لكل ذوي القوى الخارقة الذين يقيمون العدل بأنفسهم.. بل وتطلب منهم الشرطة ذلك..
(الوطواط) يحاول أن يسد الثغرة التي تركها (سوبرمان).. لكن هيهات.. ف. (الوطواط) – مهما كان - هو مجرد رجل قوي..
كانت روح (سوبرمان) تتعذب..
أتراه كان محقا حين تخلى عن الأرض كي ينقذ ذاته؟
لكن وفاته لن تفيد الأرض بدورها.. بل العكس.. ماذا عساه يفعل؟ ينتظر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له وهما يجلسان في الحديقة العامة وقت الغروب:
- احك لي عن طفولتك..
كان تقاربها مع (كنت) ملحوظا إلى حد كبير في الآونة الأخيرة، وأثار دهشة معارفهما لأنها ما كانت لتطيقه قبل ذلك.. بالطبع لم يكن أحد يعرف السبب..
السبب هو أنها تجلس الآن مع (سوبرمان) وليس (كنت)..
قال لها وهو يتأمل الشمس الغاربة:
- لا أذكر بالطبع أنني قذفت بصاروخ من (كريبتون) إلى الأرض.. كنت رضيعا آنئذ.. سقط الصاروخ في مزرعة ب. (فرجينيا) يملكها زوجان كهلان.. وكان أن وجدا رضيعا جميلا في الحطام وهما لم ينجبا بعد.. إذن لماذا لا يتبنياني؟
وسرعان ما أدرك الزوجان أنني أختلف عن الأطفال الآخرين.. فأنا أطير.. ولا أفني حين تدوس الحافلة على جسدي.. ويستطيع بصري العثور على اللعبة المختفية بسهولة مطلقة..
كان هذا هو ما جعلهما يقرران أن يحفظا سري.. كانا قد أحباني ولم يرغبا في أن أنتزع منهما لمصلحة العلم..
منهما تعلمت كل شيء.. تعلمت أن أخفي قواي.. وأن أتحين الفرصة لدرء الأخطار عن الآخرين..
وحين غدوت شابا يافعا خاطت لى أمي بذلتي الأولى من قماش ملون وجدته في الصاروخ معي..
ووجدت في ذات الصاروخ تفاصيل قصتي كلها..
ومن يومها صرت (سوبرمان).. أو (كلارك كنت) كما عرفت في بلدتي..
سألته منبهرة بقصته التي تسمعها للمرة الأولى:
ولماذا اخترت الصحافة مهنة؟
حين أزمعت بدء العمل العام.. فكرت في أن أعمل شرطيا أو مذيعا أو صحفيا.. فهذه المهن الثلاث تعرف بالخطر قبل الآخرين.. وقررت أن أكون صحفيا خجولا ضعيفا.. فبهذا لن يعرف أحد سري أبدا..
. وما الذي.....؟
وتوقفت عن استكمال سؤالها لأنها فوجئت بعملاقين يحمل أحدهما مسدسا.. وكان يصوبه نحو رأسها هي..
وسمعت حامل المسدس يقول في صوت خشن:
- والآن لا داعي للتهور يا سيد حتى لا تفقد رفيقتك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- حوادث!! حوادث!!

على الفور نهض (كنت) متحفزا..
ومن دون جهد دخل في دوره المألوف.. راح يرتجف.. ويصلح من وضع عويناته.. ويقول هراء كثيرا على غرار نحن لن نشاغب يا سيدي.. لا نريد متاعب!
تبادل أحد العملاقين نظرة فاهمة مع صديقه وقال باسما:
- إنه فأر حقيقي! الطراز الذي أفضله يا (جيم)..
مد (كنت) يده ليخرج حافظته، وكل جسده يرتجف.. وقال ملهوفا:
- هي ذي حافظتي.. خذاها.. إنها مترعة بالمال..
هتفت (عبير) في حنق وقد شعرت بشخصية (لورا) القوية تحركها:
- (كلارك)! لا تعطهما شيئا وإلا كررا ذات اللعبة مع سواك.. إن هذا (الأراجوز) لن يطلق رصاصا
نظر لها حامل المسدس مغتاظا.. وقال من بين أسنانه المسوسة:
- سنرى يا آنسة.. سنرى.. أكون شاكرا لو أفرغت حقيبتك بدورها..
مدت يدها في حقيبتها لكنها - حين أخرجتها. لم تكن تمسك بالمال.. كانت تمسك بأنبوب من (السبراي).. وهو (سبراي) مسيل للدموع تعلمت الفتيات في المدينة أن يحملنه معهن..
وأحكمت التصويب وضغطت الزر.. لكن..
لا شيء.. إن الأنبوب فارغ..
هتف حامل المسدس بسبة بذيئة.. وصاح:
إذن فاللعبة هكذا.. سأريك أنا لعبتي بدوري!
وصوب المسدس نحو رأسها.. وتحرك إصبعه نحو الزناد..


وصوّب المسدس نحو رأسها .. وتحرّك إصبعه نحو الزناد ..
فجأة صرخ .. صرخ كمن يحترق حيًا ..

فجأة صرخ.. صرخ كمن يحترق حيا......
طار المسدس بعيدا.. وسقط الرجل على الأرض وهو يعتصر كفه.. كفه الذي احمر كالطماطم وتصاعد منه دخان أبيض..
ورأت (عبير) أن الأكثر احمرارا كان هو المسدس.. المسدس الملقى على العشب يتوهج كقطعة فحم مشتعلة
قال لها (كنت) وهو يعتصر ساعدها:
- هلمي نبتعد
وابتعدا أمام اللص الآخر الذي راح يرمقهما في غباء.. ويرمق زميله في بلاهة.. ويرمق المسدس في عدم فهم..
كان مشغولا بالذهول إلى حد أنه تركهما يغيبان عن عينيه.. وبعدها انحنى ليرى ما أصاب صديقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت (سوبرمان) وهي تدير محرك سيارتها:
- ألن تطلب الشرطة؟
- نعم.. لا نريد أسئلة مريبة..
عادت تسأله والسيارة تتحرك خارجة من ساحة الانتظار:
- ماذا حدث بالضبط؟
- قمت بتسخين المسدس في يده إلى مائتي درجة مئوية.. هل نسيت أشعة نظري الحرارية؟
- ولماذا لم تستخدم العنف؟
- أنا لن أقتلهما.. وبالتالي سيكونان شاهدين فيما بعد على أن شخصا له قدرات (سوبرمان) قد قبض عليهما.. لكنهما لن يعرفا أبدا ما حدث الآن..
- فكرت في كل هذا في الثانية التي رفع مسدسه فيها؟
- إن سرعة التفكير الخارقة هي من قواي العديدة..
- إن عدد قدراتك هذه لن ينتهي أبدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم التالي، حدث شيء آخر..
كان (كلارك كنت) في غرفة البروفات مع أحد المحررين، حين سمع صراخا رهيبا..
خرج ركضا من الغرفة ليجد حشدا من المحررين ينظرون خارج النافذة العملاقة التي تحتل جدارا كاملا في هذا الطابق..
وسمع من يقول في هلع:
- إنه لا يستطيع السيطرة!
وآخر يقول:
- حتما سيصطدم بنا!
وكان (كنت) قد وصل إلى النافذة، ونظر لأعلى رأى ما حسبه أولا كتلة من اللهب معلقة في الهواء.. ثم أدرك أنها طائرة.. طائرة محترقة تهوي من عل.. لكنها لا تكف عن الدوران والتلوى من حلاوة الروح..
استعمل نظره التلسكوبي المقرب.. فلم ير خلف نافذة الطائرة طيارا.. إنها طائرة موجهة دون شك..
لا بد أنها خاصة بالتدريب حين اشتعلت وغدا التحكم فيها مستحيلا..
والجديد هنا هو أنها ستصدم مبنى الجريدة حتما.. هذا لا مفر منه.. فهو يستطيع حساب زوايا الانحدار والسقوط جيدا
كان الجميع ينظرون إلى الطائرة.. ووجد الوقت مناسبا كي يتصرف..
كور شفتيه.. وراح ينفخ نفخا رفيقا في اتجاهها نفخا يبدو رفيقا لكنه كان كافيا ليرفع الطائرة لأعلى
الأعلى.. ثم يوجهها بعيدا عن البناية..
وتمت المعجزة بكفاءة وسرعة غير معقولتين..
حتى إن الواقفين ظنوا أن الطيار استعاد التحكم في طائرته وذهب ليموت بعيدا
وتنفس (كلارك كنت) الصعداء..

لقد أوشك على إفساد كل شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء حدث مأزق آخر
لقد صارت الحوادث تجري أكثر من اللازم في هذه المدينة
كان هناك صوت طلقات، وفرامل سيارات.. إلخ
وكان (كنت) عائدا إلى داره بعد يوم شاق وكانت (لورا) تتأبط ذراعه وتثرثر دون انقطاع حين قاطعها بيده..
ورأوا تلك السيارة ال (فان) المصفحة تشق طريقها عبر الشوارع والمارة الصارخين، بينما نصف دستة على الأقل من سيارات الشرطة المولولة تطاردها..
وفوق السيارة - من فتحة السقف - ظهر جذع رجل يمسك ب (مترليوز)، ويطلق منه الرصاص بسخاء تام..
كان مجنونا.. هذا واضح من ضحكاته وكمية الرصاص التي يطلقها..
انبطح (كنت) أرضا وجذب الفتاة كي تنبطح جواره.
وأرهف السمع كي يعرف ما يقال في سيارة الشرطة بالمقدمة:
- هنا (سي - ٨).. إن عربة المساجين تشق الشارع الخامس.. لكنهم يطلقون الرصاص بغزارة.. لا نستطيع الدنو منهم
مساجين فارون! هذا يوضح الأمر..
لا بد أن العربة ال (فان) تحوي خمسة أو ستة من هؤلاء..
وكان الموقف خطرا.. فهم يطلقون الرصاص كأنهم في عيد الاستقلال.. ولا بد أن يؤذوا عددا لا بأس به من المارة..
لم يكن هناك حل سوي..
سوى حرق خزان الوقود بحرارة نظره..
وكانت العربة المجنونة قد ابتعدت عنه بمسافة كافية، حين دوي الانفجار وتصاعدت ألسنة اللهب، وتطاير المارقون لمسافة لا بأس بها.. وقد اشتعلت ثيابهم وعلت صرخاتهم..
كان الشارع قد تحول إلى ميدان حرب.. وسيارة محترقة يتصاعد منها الدخان الأسود، ولصوص يصرخون ألما، ورجال شرطة يحاصرون كل هؤلاء بأسلحتهم..
عندها فقط نهض وابتسم ل (عبير) / (لورا) بسمة ذات معني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم جاء دور الفتاة المنتحرة..
كان رجال الإطفاء يديرون سلمهم العملاق ليرتفع لأعلى ببطء.. بينما أحد ملازمين الشرطة يمسك بمكبر صوت، ويقول أشياء على غرار:
- لا تتهوري يا (جين).. إن الكثيرين يحبونك!
بينما يحاول رجال الإطفاء أن يضعوا مرتبة عند موضع سقوطها.. وهو أمر عسير إذا عرفنا أنها تقف في الطابق العاشر من البناية..
تقف - طبعا - على حافة المبنى البارزة وظهرها للجدار.
الهواء يطير أطراف ثوبها وشعرها.. ويداها مفرودتان في محاولة منها لتقليد العناكب، كأنما

تتشبث بالجدار بممصات وهمية
كانت تردد بصوتها الرفيع الذي تمضغه الرياح:
- ابتعدوا عني! لا أريد أن أسقط فوق أحدكم!
- نريد منك أن تتعقلى يا (جين)!
- الانتحار هو التعقل الوحيد
هذا هو ما كان ينقصنا!
فتاة منتحرة تضع (سوبرمان) في موقف عسير
- حيث وقف وسط المارة الفضوليين - بين الكشف عن سره، وبين مشاهدتها تنتحر دون أن يحرك ساكنا..
هذه الحمقاء.. لماذا لا تنتحر في هدوء وتخلصنا من كل هذا؟ مشكلة هؤلاء المنتحرين هي ولعهم بالاستعراض.. وهكذا صارت مسئولية (سوبرمان) أن ينقذها.. ولكن كيف؟
- الوداااع!
كذا صاحت الفتاة وهوت من حالق..
استغرق الأمر جزءا من ألف من الثانية، كي يطير (كنت) بأسرع ما يستطيع إليها.. يحملها بين ذراعيه يعيدها إلى الأرض وسط رجال الشرطة..
يعود إلى موضعه وسط الزحام في الوقت المناسب كي يطلق شهقة الرعب مع الناس، ويغطي عينيه بكفه..
جزء من ألف من الثانية! لهذا لم ير أحد ما حدث فقط رأوا الفتاة تسقط من أعلى.. ثم اختفت فجأة ليروها واقفة وسطهم!
- إنها معجزة!
- لم يصبها خدش!
أما الفتاة فراحت تتأمل جسدها غير مصدقة.. إنها سالمة تماما
هل هذا حلم؟ ربما هي تعيش الآن ما بعد الموت؟
وحين رأت رجال الشرطة صاحت في هستيريا:
- ماذا فعلتم؟ لماذا لم أمت؟
لم يدروا ما يقولون
كان التفسير الوحيد هو أن معجزة ما قد حدثت..
وقالت الفتاة إنها شعرت بيدين قويتين تحيطان بها، لكنها لم تستطع قط رؤية ما حدث..
ووسط الزحام انصرف (كلارك كنت) وهو يداري ابتسامته
لقد أحسن التصرف
لكن الحظ لن يكون حليفه في كل مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي مقره المبطن بالرصاص استدعى (لكس لوثر) العالم الشرير مساعدته الحسناء (هارلوت)..
دخلت عليه فوجدته جالسا أمام شاشة التلفزيون يتأملها في شرود.. فما إن رآها حتى مسح على صلعته وقال:
- تعالى يا (هارلوت)
سألته وهي تتخذ مقعدا جواره، وتتأمل الشاشة:

- هل ثمة مصيبة ما؟
- إنني أشم فأرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- رائحة فار..

- كيف تشم فأرا.. إني أرتدي فراء (المنك) حقا لكني متضمخة بأحدث عطر باريسي سرقته لى..
قال لها في ضيق:
- يا ملاكي أنا لا أتحدث عن الفئران.. بل أستخدم تعبيرا إنجليزيا شائعا كناية عن الارتياب.. بعبارة أخرى: أنا مرتاب..
- مرتاب لماذا؟
أراح ساقية على مقعد أمامه.. وراح يدير كأس الشراب بين راحتيه، وهو يتأمل معمله الذي أفعمه لون أحمر شيطاني يريحه نفسيا..
وقال لها:
- مجرمو (منطقة الأشباح).. لقد اتصلت بهم...
وهم يؤكدون أن صاروخا لم يدخل مجال الأرض منذ شهر.. أي أن أحدا لم يأت للأرض كي يقتل (سوبرمان) كما يزعمون..
هتفت غير مصدقة:
- أحقا؟ وما معنى ذلك؟
- لا أدري..
ثم عاد يتأمل الشاشة التي ثبت عليها إطارا ثابتا يعرض سقوط (سوبرمان) بإشعاعات الصياد الفضائي.. وقال:
- كان لا بد من أن أتأكد أولا من أن (سوبرمان) غير موجود.. كي أنفذ مخططى.. لهذا قمت بإرسال بعض الطعوم في أرجاء العالم، وهذه المدينة بشكل خاص.. كنت أراهن على أن (سوبرمان) - لو كان متواريا لغرض في نفسه - لن يتحمل درجة معينة من الاستفزاز..
وجرع جرعة من الشراب.. وأردف:
- الوغدان (جيم) و (كالاهان) عادا لممارسة السطو المسلح.. لقد هددا رجلا وامرأة في الحديقة العامة.. ويقسم (كالاهان) على أن المسدس تحول إلى قطعة من الفحم المشتعل في يده.. إن هذه الأشياء لا تحدث لمجرد أن (كالاهان) يستحق ذلك، لا بد من تفسير مادي واضح
وبعد برهة صمت أردف:
- تذكرين أنني طلبت منك أن توجهي طائرة التجارب (س - ٢٣).. وأشعلنا فيها النار ثم جعلناها تندفع نحو بناية (ديلي بلانت) حيث أكثر أصدقاء (سوبرمان).. حسن.. لقد غيرت الطائرة اتجاهها دون تفسير.. ومن جديد أقول إن الطائرات المحترقة لا تغير اتجاهها دون سبب، ولمجرد أن احتراقها شنيع..
- هذا منطقي
- بعد هذا جاء حادث المساجين الهاربين لقد انفجرت سيارتهم.. والسيارات لا تنفجر هكذا.. لم يكن لى دور في هذا الحادث، لكنه أفادني إلى حد كبير..
- ثم جاء دور (جين)..

- نعم.. إن (جين) هددت بالانتحار حسب أوامرى.. لكنها كانت تلف حول خصرها المادة (ب - ع) المضادة للجاذبية.. فلم تكن السقطة لتؤذيها.. لكنها وثبت فلم تسقط.. ولا تفسير لديها..
ثم أشار إلى الشاشة التي ظهر عليها الكادر المتجمد.. وقال:
- وهذا الفيلم.. إنه أكثر وضوحا من اللازم..
تصوري أنك مع (سوبرمان) تتحدثان، وفجأة هبط صاروخ خرج منه وحش مريع كهذا ليقتل (سوبرمان)..
كيف تجدين ثبات الأعصاب وهدوءها كي تلتقطي هذا الفيلم الواضح الثابت الذي يراعى توزيع الضوء وكل شيء؟ إن أفلام شهود الحوادث تكون دائما مهزوزة
لا تثبت فيها الصورة على أية تفاصيل، ويستحيل فهم ما يحدث إلا باستعراض الكادرات الثابتة.. أكاد أقسم إن هذه الكاميرا كانت موضوعة على حامل ثلاثي.. ثم.. هل تساءل أحد هؤلاء الحمقى عن كيفية رجوع فتاة وحيدة من الصحاري الجليدية في (ألاسكا)؟
اتسعت عيناها اهتماما.. وسألته:
- أنت عبقري حقا.. لكن لماذا يفعل (سوبرمان) هذا؟
- ليخدعنا طبعا.. يريدنا أن نطمئن إلى غيابه لنتحرك..
ثم ضغط على زر (الكمبيوتر) ليعرض ملفا ما على الفتاة وعلى الشاشة ظهرت وجوه ما لا يقل عن ستين من محرري جريدة (ديلي بلانت) كلهم يضعون العوينات.. وقال وهو يحرك (الفأرة) على الشاشة:
- قال (كالاهان) الأحمق إن الرجل الذي هاجماه في الحديقة كان يضع العوينات.. والمرأة التي كانت معه محررة معروفة في (ديلي بلانت).. أي أننا - غالبا - نبحث عن محرر ذي عوينات..
سألته المساعدة في عدم فهم:
- إذن لماذا لا تعرض هذه الصور على (كالاهان)؟
- إن الغبي - وزميله - عديما الملاحظة.. وقد اختارا ثلاثين وجها مؤكدين في كل مرة أن صاحب هذا الوجه هو رجلهما.. إنني لا أثق البتة بهؤلاء المجرمين معدومي الثقافة
ثم ضغط زرا فظهرت مجموعة أخرى من الوجوه الصارخة، تنظر إلى اتجاهنا.. كأنما يقفون في نافذة عملاقة
قال (لوثر):
- هذه هي الصورة التي التقطتها الطائرة المحترقة بالكاميرا المثبتة في مقدمتها.. وتظهر شهود الحادث إذ وقفوا في نافذة البناية..
ثم ضغط زرا ثالثا.. فظهرت صورة أخرى بها وجوه تنظر إلى أعلى وقال:
- هذه هي وجوه المحتشدين في الشارع عندما هددت (جين) بالانتحار.. وقد التقطتها (جين) بالكاميرا المثبتة في طرف حذائها..
ثم ضغط زرا رابعا.. فعادت صورة وجوه محرري (ديلي بلانت).. وفي هذه المرة كان هناك مستطيل يحيط بأحد الوجوه.
قال لها:
- لقد أجرى (الكمبيوتر) عملية طرح.. فوجد أن هذا الوجه هو العامل المشترك في كل الصور..
هذا الرجل كان هناك دائما.. ومقاييس وجهة ملائمة تماما لمقاييس وجه (سوبرمان)..
وضاقت عيناه الخبيثتان.. وأردف:
- صحفى يدعى (كلارك كنت).. وديع مسالم.. وهو ما أتوقعه.. ف (سوبرمان) سيختار أضعف

شخصية ممكنة بالتأكيد..
- أنت عبقري.. حقا عبقري!
في تواضع هز رأسه:
- إن الصلع دائما هكذا..
- لقد حددت شخصية (سوبرمان) السرية.. وعرفت أنه حي يرزق.. كل هذا وأنت جالس ها هنا..
- والأهم.. عرفت كيف أقضي عليه..
ثم أغلق جهاز الكمبيوتر وعاد يسترخي في مقعده، وقال:
- إن خطتنا ستمضي كما هي.. أريد أن تستدعي مجموعة (ألفا) فلدى مهمة عاجلة لهم..
وابتسم ابتسامة ذئب لو أن الذئاب تبتسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - الضباب الأحمر

كانوا جالسين في جريدة ال. (ديلي بلانت) يعدون لإصدار الغد..
العناوين الرئيسية تتحدث عن الكوارث العديدة التي تحاصر المدينة.. بعضها حدث نتيجة لقانون الكوارث الطبيعية، وبعضها حدث نتيجة كمائن (لكس لوثر)..
لكن أحدا لم يعرف هذا طبعا..
وكان (كلارك كنت) ينظف زجاج عويناته، و (لورا) / (عبير) تراجع مقالا كتبته لكنه لم يلحق بدوره في النشر
هنا بدأ الضباب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظه المدير أولا في غرفته ذات النافذة المفتوحة، ثم لاحظه آخرون.. وأدركوا - في حيرة - أن هناك ضبابا أحمر يتزايد بشكل غير معهود..
خرج المدير من مكتبه ليلوم المخطئ.. نعم.. فلا بد أن أحدا ما قد أخطأ وترك شيئا ما يحترق أو يعمل أكثر من اللازم..
لكنه وجد الضباب الأحمر يملأ الردهة.. ضبابا بلا رائحة.. ورأى أشباح المحررين يركضون هنا وهناك وقد استبد بهم الهلع..
تعثر في مقعد تركه أحدهم هناك.. فسقط وهو يطلق اللعنات.. الواقع أن الأمر كان يزداد سوءا من آن لآخر..
وبدأ الضباب يستحيل إلى حائط.. حائط سميك متماسك..
صاح مخاطبا لا أحد
ألن تكفوا عن هذا ال.....؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما (كنت) فقد شعر بالخطر قبل سواه..
كان الضباب الأحمر يتسرب إلى الغرفة.. وأحست (عبير) بشيء من قلق يتسرب إلى روحها..
تساءل أحد المحررين:
- ما هذا الذي يحدث؟
قالت وهي ترمق وجه (كنت) الشاحب:

- ربما هي حملة لإبادة الذئاب؟!
- (د.د.ت) أحمر وبلا رائحة؟
هنا قرب (سوبرمان) فمه من أذنها وقال هامسا:
- هذا ليس (د.د.ت).. إنه (كربتونيت) أحمر.. شخص ما يعفّر المبنى بال (كربتونيت) الأحمر!
اتسعت عيناها هلعا.. وهمست بدورها:
- اللعنة! لكن من؟
شخص يعرف أنني حي وموجود هنا..

ثم بدأت شفته السفلى ترتجف دون انقطاع وفجأة أطلق شهقة عالية ونهض مترنحا..
كانت الرؤية أكثر عسيرا مما جعل أحدا لا يلاحظ نهوضه.. بل بدأ البعض يفتح النوافذ ليرى مصدر هذا الضباب
قال لها وهو يجذبها من معصمها:
- تعالي معي!
ومشت وراءه إلى الردهة.. ثم إلى حجرتهما المشتركة.. كان الشحوب قد صار هو القاعدة، وكان العرق ينهمر من جبينه، والرجفة لا تفارق يديه.. أما عويناته فانزلقت تماما عن أنفه..
قال لها وهو يعالج ربطة عنقه:
- إنني سأفقد ق.. قواي حالا أو أم.. أموت..
ساعديني على نزع ث.. ثيابي..
مدت يدها تفك أول زر في قميصه.. كان يرتدي بذلة (سوبرمان) كاملة تحت ثيابه..



مدّت يدها تفك أول زرّ فى قميصه .. كان يرتدى بذلة (سوبر مان) كاملة تحت ثيابه ..

وسرعان ما تحول بمعاونتها إلى (سوبرمان)..
قال لها وهو يستند إلى الجدار:
- ل.. لو حدث شيء.. لا.. لا أريد أن يروني في ثياب (كلارك كنت).. إن.. إن أحدا لن..
كان الضباب يزداد كثافة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- والآن.. سأحاول اله.. الهرب..
وقبل أن يضيف شيئا رأته يركض مترنحا نحو الباب
وهرعت إلى النافذة لترى ما يحدث..

بين أبخرة الضباب الحمراء أمكنها أن تميز الناس واقفين.. كلهم ينظر لأعلى في حيرة.. إذن فالضباب
الأحمر مقصور على بناية (ديلي بلانت) وحدها ولكن كيف؟
سمعت ضوضاء بالخارج.. فجرت إلى الباب..
كان هناك رجال ملثمون يملئون الردهة.. يرتدون زيا موحدا من المطاط الأزرق.. وكل منهم يحمل على ظهره جهازا ضخما يخرج منه خرطوم.. ذكرها بصورة الجنود الذين يحملون قاذفات اللهب.. لكن ما يخرج من الخراطيم لم يكن لهبا بل هو ضباب أحمر..
دنا منها أحد الرجال.. فأشار لها بحزم كي تعود للغرفة.. وقال بغلظة:
عودي للداخل يا آنسة.. فلست من نريد..
لحظة لكنها كانت كافية كي تري على صدر بزته رمز (ألفا) اللاتيني.. ثم حرفي (LL).. بعدها عادت إلى الداخل..
إذن هم تنظيم ما.. تنظيم قوي قادر على احتلال جريدة..
ثم ما معنى (L.L) هذه؟
هنا أدركت الجواب دون جهد.. (LL) هو اختصار اسم (لكس لوثر).. فهؤلاء القوم يعملون معه إذن..
(لوثر) العالم الشرير عدو (سوبرمان) اللدود خارق الذكاء.. هو الوحيد القادر على صنع أجهزة تبخير (كربتونيت)
لكن ما مصير (سوبرمان) وسط كل هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بغريزتها هرعت إلى سطح البناية..
خمنت أن (سوبرمان) سيكون هناك.. كل الهاربين يتجهون للسطح.. ولا تفسير لذلك..
وحين وصلت إلى هناك كان المكان خاليا إلا من طائرة هليكوبتر عملاقة، ليست هي طائرة (ديلي بلانت) طبعا.. وكانت مروحتها الرأسية تدور متأهبة للإقلاع..
ثم رأت (سوبرمان) يركض في الركن القصي.. ووثب ليعتلى السور الحجري، ويتأهب للتحليق..
هنا برز ثلاثة من هؤلاء الرجال المطاطيين يحملون قاذفات ضبابهم..
وصرخ أحدهم وهو يرفع ذراعه محذرا:
- لا تحاول يا (سوبرمان) لقد فقدت قواك.. نحن نريدك حيا يا أحمق! توقف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والواقع أن (سوبرمان) نفسه أحس بأن شيئا لم يعد على ما يرام.. وقف على الحافة مترددا.. هل يثب أم لا..
ورأت أحد الرجال يهرع للمكان حاملا كاميرا (فيديو) يلتقط بها صور ما يحدث.. لم يكن يريد أن يفوته شي ء..
فكر (سوبرمان) قليلا حيث وقف..
ثم ارتفعت ساقه في ركلة عاتية لوجه أقرب الرجال إليه، ووثب إلى داخل السطح ثانية ليلطم واحدا آخر في معدته، ثم يركل الثالث في خصره.. وراح يركض مبتعدا..
لكن حامل الكاميرا ظل يركض وراءه دون أن يفوت لحظة واحدة..
وبرز رجلان آخران ل. (سوبرمان) فتعلق في قطعة خشب بارزة، وبتلك الحركة البهلوانية

التقليدية رفع قدميه ليركلهما معا.. ثم وثب فوق جسديهما قاصدا السلم الموجود على جانب البناية..
هنا ظهر رجل جديد.. وفي هذه المرة هوى على رأس (سوبرمان) بأداة حديدية تشبه (العتلة)، فصرخ هذا الأخير ثم سقط أرضا دون مزيد من المقاومة..
وارتجفت (عبير) وادمعت عيناها..
لقد كان هذا هو أول قتال يخوضه (سوبرمان) كرجل عادي.. وقد أبلى فيه بلاء حسنا.. لكن مباريات الكرة تقيم بأهدافها لا بما بذله اللاعبون من جهد..
وكضباع ظفرت بفريستها، احتشد الرجال حول فريستهم، ورأتهم (عبير) يحملون (سوبرمان) حملا إلى طائرتهم..
أيها الأنذال!
صرخت وهي تجري نحو الطائرة لكن صرختها ضاعت وسط هدير المحركات.. ولو تمكنت من اللحاق بهم لمزقتهم - العشرين رجلا – بيديها ولهشمت طائرتهم.. إنها الآن تشعر بأنها قادرة على ذلك.. لن تجد عسرا في هذا..
- أيها الفئران!
دوت صرختها بينما الطائرة ترتفع ببطء مسلطة كشافاتها الباهرة على كل شيء.. ثم دارت مائة وثمانين درجة وابتعدت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) جاثية على ركبتيها تنشج..
لا بد أن ساعة كاملة قد انقضت منذ ارتفعت الطائرة...
وبدأ الضباب الأحمر ينقشع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - الإعدام

وفي معمله المبطن بالرصاص، دخلت (هارلوت) - مشرقة الوجه - لتلقي (لكس لوثر) الذي كان يتابع الأحداث على الشاشات العديدة أمامه.. وقالت في انتصار:
- هو هنا..
- هل أفاق؟
- ليس بعد.. إنه لم يعتد أن يضرب قط لهذا يتأثر أكثر..
- إذن أعدوا كل شيء الآن..
كانت نشوة النصر تتدفق في دمه حارة.. لكنه حرص على أن يحتفظ بوقاره.. لقد قدم له (سوبرمان) الفرصة الكاملة لاصطياده، ولو لم يحدث ذلك لكان عليه أن يدبر له كمينا في مكان مغلق..
لكن (سوبرمان) لا يقع في الكمائن أبدا.. إن حاسة الشك لديه مرهفة ككل حواسه الأخرى
لكن كل العناء قد انتهى الآن.. ولم يبق سوي جمع العسل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما رجال الشرطة فقد غمرتهم الحيرة..
ثمة أشخاص - لا يعرف سوى الله - من هم اقتحموا الجريدة لدقائق ورشوها ببخار أحمر.. بخار لا يبدو أنه سام لأي بشري.. وتقول تلك المحررة إنهم اختطفوا (سوبرمان)..
كيف يختطفونه وقد مات منذ فترة لا بأس بها؟
ما معنى هذا الذي حدث؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد دقائق بدأ البث الإعلامي..
برز جهاز عملاق يشبه (الرادار) من وكر (لوثر).. وانطلقت منه موجات كهرومغناطيسية تعبر الأثير..
ومن فضل القول أن نقول إنها كانت أقوى من أي إرسال مرئي أو مسموع، تبثه أية محطة في الولايات المتحدة.
وعلى شاشات التلفزيون في أنحاء البلاد، ظهرت العبارة التالية:

- «(لكس لوثر) الحاكم العام يتحدث إلى الأمة بعد قليل!»
لم يكن هناك حاكم عام بهذا الاسم فقط يوجد لص شهير
وراح الناس يرمقون شاشات التلفزيون في قلق، وقد تقلصت أحشاؤهم توترا.. شاعرين أن اللحظات القادمة ستغير مصائرهم لسنين طويلة..
وهنا برز وجه (لوثر) الأصلع القبيح على الشاشات
قال في تؤدة وعيناه تلتمعان جشعا:
- أيها الشعب الأمريكي العظيم.. (لكس لوثر) يتحدث إليكم.. إن هذه الأمة تعيش الآن لحظات من المجد غير مسبوقة..

لقد تمكنت من أسر (سوبرمان).. وهو الآن سجين لديّ ينتظر جزاءه المحتوم.. لم يعد هناك من يقدر - أو يجرؤ - على معارضة مشيئتي..
إنني أعلن - من اليوم - انتهاء صلاحيات رئيس البلاد، وتعيين نفسي حاكما عاما عسكريا.. وهي خطوة أولى قبل أن أغدو زعيم العالم كله.. لا بأس من الاعتراض فأنا بطبعي ديموقراطي.. لكن كل شيء سيتم كما أريد له بالضبط!
تعالت صرخات القوم.. وأغمي على بعض النساء..
على حين واصل (لوثر) كلامه المسموم:
- إنني سأعدم (سوبرمان) بعد ساعتين من الآن.. والسبب هو إعطاء الفرصة لجميع الناس كي يشاهدوا هذا في ديارهم، وأمام شاشات التلفزيون.. لا تنسوا (الفيشار) و (الكولا) طبعا
- بعد هذا أطلب إخلاء البيت الأبيض خلال أربع وعشرين ساعة.. لأنني سأتسلم كل شيء في هذا الوقت..
إنها عملية ابتزاز عادية جدا.. إما أن تقبلوا أو..... أو ماذا؟ تابعوا الإرسال يا سادة فلسوف تعلمون وسيلة الضغط الفعالة التي ابتكرها لكم العبقري (لكس لوثر) خصيصا..
واختفت صورته ثم عاد الإرسال العادي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدثت - كما نتوقع - ضجة غير مسبوقة بعد هذا الحديث القصير..
(لكس لوثر) يهدد.. ولكن ما أداة تهديده؟
(سوبرمان) حى.. لكنه - وهذا غريب – على وشك الموت.. ما معنى هذا الخلط؟
بعد دقائق انقطع الإرسال من جديد..
وهذه المرة لم يظهر (لوثر) على الشاشات؛ بل ظهر (سوبرمان)..
كان الصراع واضحا على وجهه.. بالواقع لم يره أحد من قبل في هذه الحالة المشينة من (البهدلة) والاستسلام..



كان جالسًا على مقعد ، وقد قيدت يداه وقدماه . . وانحنى رأسه فى استسلام الخراف المقبلة على الذبح . .

كان جالسنا على مقعد، وقد قيدت يداه وقدماه وانحني رأسه في استسلام الخراف المقبلة على الذبح..

صورة تدمي القلوب أبدا.. وعند قدميه كان صندوق معدني كبير..
وعاد صوت (لوثر) يقول:
- هو ذا بطل الأمة.. بانتظار أن نفتح هذا الصندوق الرصاصي.. والصندوق يحوي قطعة كبيرة من (الكربتونيت) الأخضر.. المادة الوحيدة التي يمكنها إبادة (سوبرمان).. ستفتح الصندوق في الموعد يا سادة.. ولسوف نلتذ جميعا بمشاهدة الإعدام..
ومن جديد انقطع الإرسال..

- لاااه!
صرخت (عبير) وهي ترمق الشاشة..
لم تتصور أن الأمور بهذا السوء..
عليها أن تفعل شيئا.. لكن ما هو؟
لا شيء سوى الانتظار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد دقائق رهيبة ظهر وجه (لوثر) القبيح على الشاشة.. لكنه في هذه المرة كان يحمل أنبوب اختبار صغيرا..
قال وهو يستمتع بفكرة الملايين الذين يكرهونه الآن:
- هذا هو تهديدي يا سادة.. الفيروس (114 - س - 28) الذي قمت بتطويره في معاملي..
فيروس.. أي أن المضادات الحيوية عاجزة أمامه تماما.. لكن مهلا.. أنا لن أنشر أوبئة.. لا أريد أن أصير حاكما لأمة من المرضى..
إن الفيروس الذي ابتكرته قادر على تفتيت المعادن.. تفتيت كل مادة غير عضوية.. بمعنى آخر لن تكون هناك مبان ولا سيارات ولا طائرات في مجتمعنا.. لا مدنية..
أي أننا سنعود بفضله إلى العصر الحجري دون إبطاء..
ولإثبات كلامي.. اخترت أن أريكم نموذجا مصغرا.. أنتم طبعا تعرفون برج (إيفيل).. أرجو أن توجهوا عدساتكم إليه خلال ثلاث ساعات من الآن.. إن المشهد يستحق الرؤية!
كان الجنون قد بلغ مبلغه وسط القوم..
وظهر الرئيس في نشرة الأخبار يقول في صرامة:
- لا مساومة.. نحن لن نقبل الابتزاز..
وظهر سيناتور ما يقول:
- لن نضحي بكل ما فعلناه من أجل معتوه..
وظهر عالم ما يقول في ثقة
- هذا الفيروس لم ولن يوجد..
ثم انقطع الإرسال من جديد وظهر (لوثر) يبتسم في ثقة..
قال أحد المحررين محنقا وهو يرمق المشهد على شاشة التلفزيون في مبنى (ديلي بلانت):
- إن هذا الوغد يهوى الاستعراض
كان المشهد على الشاشة يظهر (سوبرمان) المقيد إلى مقعده عاجزا.. وأدرك الناس أن ميعاد الإعدام قد جاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانفتح الصندوق.. ورأى الجميع ضوءا أخضر يخرج منه..
انعكس الإشعاع على وجه (سوبرمان).. راح يتلوى ويحاول التملص أمام عيون الناس المفتوحة وأناملهم في أفواههم يعضون عليها جزعا.. ويئنون..
هو الآخر كان يئن.. يتلوى..
ولدهشتهم أدركوا أن لونه يستحيل أخضر..
طال المشهد المروع ثلاث دقائق.. بعدها أطلق تنهيدة طويلة وهتف كأنما يعذب في جهنم:

- ملعون أنت يا (لكس لوثر): أتمنى أن أعود شبحا كي أحيل حياتك إلى جحيييييم!
وخمدت حركته نهائيا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي أرجاء العالم ساد الصمت الواجم
أيقن الجميع أن هذا ليس حلما.. إنه حقيقة..
كتلة اللحم خضراء اللون قد فرغت منها الحياة لقد أتم (لوثر) انتقامه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم ظهر وجه (لوثر) على شاشات التلفزيون:
- سنقوم بتعليق جثة (سوبرمان) في (سنترال بارك) كي يرى الناس أننا لا نمزح..
هأنتم أولاء رأيتم جزاء من يقف في طريقي.. ودعوني أؤكد لكم أن الضحية القادمة لن تكلفنى كل هذا العناء..
والآن ننتقل إلى برج (إيفل)..
وعلى الشاشة ظهر المشهد المهيب لـ (برج إيفل)..
البرج الذي بناه (جوستاف إيفل) المهندس الفرنسي.. والذي صار رمزا لـ (فرنسا) مثله مثل قوس النصر..
وحبس الناس أنفاسهم..
مرت دقائق ثم رأوا كأن الصورة تهتز.. تهتز باستمرار عندها عرفوا أن البرج يتحول إلى ذرات رماد وسرعان ما بدأ يذوب.
يتحول إلى جبل من الرماد تذروه الريح..
وانطلقت الشهقات..
وراح البعض يؤكد أن هذه حيلة تلفزيونية ما، لكن شيئا في الأعماق كان يقول: هذه حقيقة..
ثم جاءت الأنباء المحايدة تؤكد أن هذا حدث فعلا لقد تلاشي برج (إيفل) في ثوان..
ومن جديد ظهر وجه (لوثر) الدميم يقول:
- لقد رأيتم كل شيء يا سادة.. إنني أعتذر لحكومة (فرنسا) على ما أصاب أثرهم العظيم.. لكني كنت بحاجة إلى الإقناع.. وأصارحكم القول إن قلبي لم يطاوعني كي أضرب مثلا (الهرم الأكبر) أو برج (بيزا) المائل أو (تمثال الحرية)..
لقد كنت أمقت اللغة الفرنسية منذ تعلمتها في المدرسة حتى اليوم.. وهذا هو انتقامي الذي أجده عادلا..
والآن أنا أنتظر إخلاء العاصمة، وتسليمي (البيت الأبيض) في الموعد المقرر..
وكشر عن أنيابه.. وأردف:
لن تكون هناك أمثلة أخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن القصة لم تنته بعد..
لا بد من إجابات على الأسئلة التالية:
١- هل حقا مات (سوبرمان)؟

٢ - هل تستسلم البلاد لهذا الطاغية المجنون؟
3 - ما هو دور (عبير) في لعبة تفوق قدراتها بالتأكيد؟
4 - هل ينتشر الفيروس حقا؟
5 - متى ينتهي كل هذا السخف؟
لا تغادروا مقاعدكم.. فالجزء الثاني من القصة آت لا محالة، وفيه سنواجه كابوسا مريعا اسمه: ما بعد (سوبرمان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله)

رجل من كريبتون
هل هو طائر أم طائرة؟ لا.. إنه
(سوبر مان).. الرجل الخارق الذي
صار بطلا قوما أمريكيا، والذي
جاء من (كريبتون) ليلقي ذات
متاعبنا. اليوم نكون ضيوف
(سوبر مان) في (فانتازيا).. ونعرف
عنه ما هو أكثر
د. أحمد خالد توفيق

[تمت بحمد الله]

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) قصة حقيقية.

[←2]

(*) قد يبدو هذا مضحكا، لكن الصين - في عهد الثورة الثقافية - منعت دخول (دونالد داك) أو (بطوط) باعتباره عميلا للإمبريالية الأمريكية!

روايات مصرية للجيب

14

فانتازيا

مِنْ بَعْد سوبر مان



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (14)

من بعد سوبرمان

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مراجعة عامة لما سبق!

كلما حاولت أن أتخلى عن عادة تكرار ما سبق في القصص ذات الجزأين، وجدت أن عددا لا بأس به ن القراء لم يجد الجزء الأول، أو وجده وأضاعه أو وجده ونسي ما به، وهو ما يهدد بجعل الجزء الثاني غير ذي معنى، كنصف الجنيه الذي كانوا يعطونه القرويين في الانتخابات مشترطين عليهم انتخاب (فلان) ليظفروا بالنصف الآخر.
لن يكون ملخصا طويلا.. أعدكم بهذا.
لقد ارتحلت (عبير) إلى (فانتازيا) من جديد..
وفي هذه المرة اختارت عالم (سوبرمان) كما صوره الفنانان الأمريكيان (جوشستر) و(سيجل)..
وكما هي العادة في (فانتازيا)؛ وجدت ذاتها تلعب دور (لارا) الصحفية الحسناء في جريدة (ديلي بلانت).. وزميلها في العمل الذي لا تعرف إنه هو (سوبرمان) هو الصحفى الخجول (كلارك كنت)..
إن قواعد اللعبة هي البساطة ذاتها: (سوبرمان) هو ضيف فضائي من كوكب (كربتون) ذي الشمس الحمراء.. أبوه هو (جور - آل) أعظم علماء (كربتون) والذي اخترع طريقة منطقة الأشباح لنفي المجرمين الخطرين.. وبالتالي يحقد كل هؤلاء عليه وعلى ابنه.
ينفجر كوكب (كربتون) تحت وطأة التجارب الذرية الخرقاء، فلا يجد (جور - آل) سوى أن ينقذ ابنه بأن يرسله إلى كوكب الأرض في صاروخ..
وكان يعلم أن شمسنا الصفراء ستجعل منه بطلا جبارا يطير ولا يخترق الرصاص جسده إلخ..
لكن كل نيزك من بقايا (كربتون) كان كارثة في حد ذاته.. لأنه يحمل مادة (الكربتونيت) التي تضعف (سوبرمان) أو تقتله..
ويشب (سوبرمان) على أرضنا.. يكافح الجريمة ويمنع الكوارث ويظفر بحقد ومقت أكثر الأوغاد..
وبالطبع كان على (سوبرمان) أن يجد شخصية سرية يتوارى وراءها.. وكانت هذه الشخصية في حالتنا هي شخصية (كلارك كنت) الصحفى الوديع الخجول، الذي يحاول الظفر بحب (لارا) فلا ينال سوي عطفها..
وهنا جاء دور (لكس لوثر)..
(ولكس لوثر) - كما عرفنا - هو ألد أعداء (سوبرمان) طرا.. وهو عالم شرير يملك ذكاء الثعالب وشر العقارب...
ينجح (لوثر) فى الحصول على قطع من نيزك يحوي (الكربتونيت) النقي وهذا - طبعا بمعونة مجرمي منطقة الأشباح..
ويشعر (سوبرمان) بذلك فيدبر مع (لارا) - التي تعرف شخصيته السرية الآن - مكيدة لا بأس بها: سيتظاهر بأنه مات.. وبالتالي يتخلى خصومه عن حذرهم ويكشفون عن أنفسهم.
لكن (لوثر) العبقري يحسن المراقبة واستخلاص النتائج.. بالتالى يعلم أن (سوبرمان) حي يرزق وأنه هو (كلارك كنت)، وتجري عملية اقتحام جريئة لدار (ديلي بلانت)، حيث يقوم رجال (لوثر) بتعفير المكان بغبار (الكربتونيت).. بالتالي يفقد (سوبرمان) قواه ويخطفونه.
وأمام العالم كله يعرض (لوثر) عملية إعدام (سوبرمان) مستخدما (الكربتونيت) الأخضر.
ثم يعلن خبرا باسما جديدا: إنه يعين نفسه حاكما عسكريا للولايات المتحدة، وما لم يقبلوا هذا

سيكون انتقامه مروعا باستخدام الفيروس الذي ابتكره، القادر على إذابة المواد الجامدة..
إنها لطعنة عاتية لحضارتنا التي تعتمد على المواد الجامدة في كل شيء.. وعلى سبيل الاقناع يعرض (لوثر) عملية إذابة برج (إيفل) في باريس..
وهنا تتركنا القصة إلى لقاء آخر..
لقاء نعرف فيه ما يحدث في عالم من دون (سوبرمان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- عصر الرعب

جرى كل شيء كما يحدث في الكوابيس..
في البدء ظهرت على شاشات التلفزيون تلك اللافتة التي تقول: سيلقى الرئيس بيانا مهما للمواطنين الأمريكيين، وكانت الخلفية هى موسيقا السلام الوطني الأمريكي (علم النجوم اللامعة) بلحنها الحزين الرهيب، مما جعل عيون المشاهدين تدمع تأثرا وهم يشعرون برهبة ما ستجلبه الدقائق التالية..
بل إن بعض النسوة تقيأن من فرط الانفعال.
ثم ظهر وجه الرئيس والعلم وراء ظهره.. كان مهزوما حزينا كما توقع الجميع وبصوت محشور في حلقه قال:
- إن الساعات الأخيرة جعلتنا نعيد تقويم الموقف..
من الواضح أن خطرا داهما يتهدد حضارتنا.. وهذا يدفعنا إلى القبول بترك البيت الأبيض للسيد (لوثر).. ونحن نعرف حكمة الشعب الأمريكي وقدرته على فهم الموقف..
- إن المقاومة شيء جميل.. ولربما قاومنا لو كان الأمر يتعلق بفناء بضعة آلاف أو ملايين.. لكن حضارتنا هي ميراث يجب أن ننقله سالما إلى أبنائنا.. وهو أهم بالتأكيد من أية كبرياء شخصية أو تعصبات ذاتية
إن أحفادنا لن يعيشوا في الكهوف، حتى لو كان الثمن هو سيطرة (لوثر) على هذه البلاد
والأشجار التي تنحني للعواصف يصعب اقتلاعها.. وما دامت لم تقتلع فالأمل ما زال قائما في أن تنتهي العاصفة وتستقيم جذوعها من جديد..
واختفت صورته الكئيبة من على الشاشة..
في نفس اللحظة دوت صرخات الهلع والاستنكار.. انتحر كل من لم ينتحروا بعد.. وصرخت النسوة.. وبكي الرجال غلاظ القلوب وهم لا يصدقون ما حدث..
بعد لحظات ظهر وجه (لوثر) الدميم، وصلعته تلتمع نشوة:
أيها المواطنون الكرام.. لقد بدأ عصر المجد.. انتظروا ما يلي من بيانات مهمة..
وأمام شاشة التلفزيون جلست (عبير) تعض أناملها حتى أدمتها.. فقد كانت هذه أسوأ ساعات حياتها طرا..
لم تستطع أن تصدق أن كل هذا حقيقي.. نعم هي تعرف أنه ليس حقيقيا.. لكنه - بمنطق الحلم – واقع لا ريب فيه.. حين يموت بطل الفيلم السينمائي لا يحدث هذا في الواقع للممثل.. لكنه يموت بلا ريب بالنسبة لأبطال الفيلم الآخرين..
بعينين دامعتين ذاهلتين ترقب الجسد العملاق الذي كان فيه قلب يحبها.. جثة (سوبرمان) يحملها أربعة من رجال (لوثر).. ثم يعلقونها بالحبال من قوس نصر أقاموه في (سنترال بارك) والكاميرا تدور حول الجثمان مرارا.. ترينا بشرته التي كساها
اللون الأخضر.. وترينا الكدمات والسحجات التي ما كان مخلوق يجسر على إحداثها ب. (سوبرمان) وهو حي..
وتحت الجثمان جلست حثالة من الأوغاد، يجرعون الخمر ويرقصون ويضحكون.. إنه انتصارهم الذي لا شك فيه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وراحت سيارات تتجه إلى (واشنجتون - دي سي) بينما عربات أخرى ترحل عنها.. سيارات يبدو على راكبيها السرور وسيارات يبدو على راكبيها الهم أما السيارات الأولى فهي كل رعاع وأوغاد ولصوص وسفاحي ومارقي وخونة ومعتدى الولايات المتحدة.. أما السيارات الثانية فتضم أفراد الحكومة - بمن فيهم الرئيس - والمواطنين الأبرياء، الذين لم يريدوا أن يبقوا في وكر الأفاعي الذي ستتحول إليه العاصمة
والآن دعونا ندن مع كاميرا التلفزيون لننقل لكم صورة حية لوفود القادمين.. وهي وفود غريبة الشكل نوعا..
السيارة الأولى بها حشد من الرجال لا يوحي منظرهم بالثقة، كلهم يدخنون - بل يمضغون السيجار - وذقونهم غير حليقة.. ويلوحون بالبنادق الآلية ويقهقهون في جشع..
تدنو منهم المذيعة حاملة مكبر الصوت:
- أ.. مرحبا يا شباب..
يتقدم منها أشرس الرجال وأضخمهم.. والوحيد الذي يضع عصابة سوداء على عينه.. ويقول وهو يتجشأ بفعل ما شربه من جعة:
- مرحبا أيتها الحسناء..
تبعد الأبخرة الكريهة عن أنفها، وتقول:
- يبدو لي أنكم ذاهبون إلى العاصمة؟
- هذا حق.. ذاهبون إلى (المدعوقة) كي (نخربها ونقعد على تلها) نياها ها ها ها ها هـ!
ومع ال (نيا ها ها هـ) يقهقه كل الرجال، ويصدر أحدهم صرخة (بيبي) كالتي كان يطلقها رعاة البقر..
ويقول زعيمهم وهو ينقر على صدره المتسخ:
- أنا (جو القذر).. ومعي حفنة من الأحباب كلهم جاء من سجن (سنج سنج) نيا ها ها ها هاه!
- أحقا؟ هاربون؟ ولماذا لم تعتقلكم الشرطة؟
- من تحدث عن الهرب هنا يا قطة؟ لقد أصدر الحاكم العام أمرا بالعفو عن كل نزلاء (سنج سنج)..
ألم تسمعي هذا؟!
وينشد أنشودة بذيئة ويركب السيارة.. ويتحرك الموكب الرهيب.. السيارة الثانية بها رجل احترق نصف وجهه.. وقد استبدل بيده من أسفل المعصم كلابات حديدية..

- أ.. مرحبا.. هل لنا أن نتعرفك؟
- أنا (قنبلة).. أخصائي المفرقعات الأول في البلاد.. ونزيل سابق في مصحة (جيفرسون) العقلية.. بسبب جنون الحرائق!
- ما شاء الله.. وما سر ذهابك للعاصمة؟
- لقد طلبني الحاكم العام.. يقال إن هناك كثيرا من المرح مع القنابل الهيدروجينية!
- نرجو لك المزيد من الاستمتاع.
ونظرت نحو الكاميرا وأخذت شهيقا عميقا.. كانت تكافح كي لا تغيب عن الوعي..
قالت وهي ترتجف:
كما ترون يا سادة.. يبدو أن الذاهبين إلى (واشنجتون) يختلفون نوعا عن الطراز الذي اعتدناه.. لكنهم سادة مهذبون برغم كل شيء وإننا لنأمل في....

هنا كادت سيارة رياضية حمراء أن تدهمها من الخلف..
استدارت لترى شابا يرتدي قميصا مشجرا زاهي اللون مفتوح الأزرار حتى أسفل بطنه.. وكان يدخن سيجارا غليظا وقد فتح (كاسيت) السيارة على أعلى صوت ممكن، لألعن موسيقا (روك) يمكن وصفها..
هنا فقط فهمت لماذا يسمون هذه الموسيقا باسم (المعادن الثقيلة).
- وأنت؟ ذاهب إلى (واشنجتون) أيضا؟
- نعم يا دمية! أنا (مجنون).. ثلاثون مخالفة سرعة.. خمس حوادث قتل بسبب السرعة.. حادثا قتل لرجلي شرطة المرور اللذين نهوني عن السرعة..
- ممتاز؟ ولماذا (واشنجتون)؟
- الحياة تتغير يا دمية.. يقال إن (لوثر) الحاكم العام سيعاقب كل من يقود سيارته بسرعة أقل من مائة ميل في الساعة!
وقبل أن تعلق كان قد اختفى بسيارته وسط الزحام...
همست وهي ترمق الكاميرا:
- فليرحمنا الله! إن الله وحده هو من سيخلصنا من هذا المأزق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل (لكس لوثر) البيت الأبيض، فمشى في تؤدة إلى المكتب البيضاوي الذي يتخذ فيه الرئيس الأمريكي قراراته..
كان متأنقا على غير العادة، يرتدي بذلة خضراء اللون، وربطة عنق حمراء، فوق قميص بني اللون..
وسرعان ما جلس ليضع قدميه على المكتب في وجه المراسلين الصحفيين والسفراء..
هذه المرة لم يكن بحاجة إلى حلف اليمين أمام قاض.. فهو قد أعلنها دكتاتورية مطلقة، وليس عليه إثبات شيء..
قال للسفراء:
- هل تريدون شيئا يا شباب؟
قال سفير (السويد) في رصانة:
- إن (البرتوكول) يا سيدي......
- دعنا من هذا الهراء..
قالها وبصق طرف سيجار ضخم دسه بين أسنانه وفرقع بإصبعين فامتدت يد السكرتير - الوحيد الذي بقي بين رجال الرئيس السابق - ليشعله له بقداحته
ثم أردف:
- اذهبوا وقولوا لرؤساء دولكم أن يعلنوا استسلامهم غير المشروط لنظامي العالمي الجديد.. وإلا هو الفيروس من جديد.. ولربما الحرب النووية
الشاملة!
نظروا له للحظات غير فاهمين.. ثم انسحبوا في غير نظام..
كاد المراسلون يلحقون بهم، لكنه أشار لهم كي يبقوا.. وقال:
- لحظة.. لم تتلقوا تعليماتي بعد..
ثم أشار إلى السكرتير كي يتلو من ورقة صغيرة:

واجب الصحافة الأول هو تمجيد (لوثر) وتبرير أفعاله.. لا يسمح بأي نوع من الانتقاد تحت طائلة الإعدام.. يجب الإكثار من التفاهات والمواضيع الخليعة كي ينشغل الناس عن التفكير في أي شيء ذي جدوى..
قال أحد المحررين في عصبية:
- سيدي.. لكن الدستور يقول...
- لقد تم إلغاء الدستور.. إن صديقي (ماكس) عاكف على إعداد (إعلان لوثر)..
- هل هو خبير في القانون المدني؟
بل هو لص.. وقد قضى عشرة أعوام في السجن يقرأ في المكتبة.. إنه يعرف كل ما يلزم..
ودار بعينيه بين صفوفهم..
وفجأة توقفت عيناه على وجه.. وجه لم ينسه قط.. هتف وقد أخرج السيجار من بين أسنانه
- هووم! أنت تلك الفتاة من (ديلي بلانت)!
ارتجفت (عبير) كورقة.. ونظرت وراءها بحثا عن فتاة أخرى تصلح لكنها لم تر سواها..
قالت وهي تحاول أن تبعد عنقها للوراء لتنأى عنه:
- ن.. نعم.. أنا..
- (لارا) هو الاسم على ما أظن؟
- ن.. نعم..)
- أنت صديقة (سوبرمان)؟
- ن.. نعم..
- ربما زوجته كذلك لو امتد به العمر؟
- ر.. ربما
اتسعت عيناه.. ورأت (عبير) فيهما أسوأ نظرة رقة يمكن وصفها.. رقة الأسد وهو يفتح فاه لينشب أنيابه في بطن الحمار الوحشي..
وبنفس الرقة قال لها:
- تعالى.. اجلسي بجواري ها هنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وبنفس الرقة قال لها :

- « تعالى .. اجلسى بجوارى ها هنا ! »

2- ألعاب السُلطة..

دنت من المكتب العملاق، فاتخذت مقعدا مزجر الكلب - كما يقول أجدادنا العرب - من (لوثر) متوقعة الأسوأ في كل لحظة..
قال لها وهو ينفث السيجار في وجهها:
لاتهابي شيئا سترين كيف يحكم (لوثر) البلاد بعدل..
ثم التفت إلى الصحفيين وقال:
- ستكون هذه الآنسة هي المتحدثة الرسمية عن البيت الأبيض..
وبالمناسبة.. أنا أمقت الجمود.. منذ عهد (جورج واشنجتون) وهذا البيت أبيض كالعادة..
لهذا قررت أن يتم دهانه باللون الأحمر الجميل.. أحمر كالجحيم.. كستائر مصاصي الدماء.. كدماء خصومي.. وستتحدثون عنه باعتباره البيت الأحمر..
قال أحد الصحفيين في تهذيب مداهن:
- لكن - سيدي - هذا سيوحي للعالم أن حكومتكم ذات ميول شيوعية..
- حين أحكم العالم سيكون لون الشيوعية هو ال (سيمون).. إنه أنيق ويناسب الموضة..
ثم قلب بعض الأوراق أمامه.. وقال:
- آه! الآن موضوع الوزراء.. دعهم يدخلون يا (جيري)..
وانفتح باب جانبي لتدخل منه أشياء ما..
مجموعة من النفايات الآدمية التي تخلص منها مصنع المجتمع لأنها معيبة..
كانوا يضحكون ويتبادلون الكلمات والسباب
وراح أحدهم يرسم على وجهه تعبيرات مخيفة ليلتقطها المصورون بعدساتهم..
قال (لوثر) وهو يشير إلى أولهم..
(مجنون) سيكون هو قائد المرور.. إن خبرته في حوادث السيارات تتيح له هذا المنصب..
نظر الشاب إلى الصحفيين متحديا.. وغمغم:
سأحدث تغييرات جوهرية في السرعات المسموح بها.. إن أربعين ميلا في الساعة داخل المدينة لرقم مهين!
وأشار (لوثر) إلى الرجل ذي الوجه المحترق وقال:
- (قنبلة) هو وزير الدفاع إنه يعرف عن المتفجرات ما يعرفه أي وزير دفاع يحترم نفسه..
ثم أشار إلى ثالث بدا عليه الإرهاق، واحمر أنفه سكرا..
- (توماس) هو وزير الصحة.. إنه مدمن مخدرات وسيروق له أن يسيطر على مخزون البلاد من (المورفين) و (البتيدين)..
وأردف وهو يعقد يديه على صدره:
(ماكس) هو وزير العدل.. و (هربرت) هو مدير المخابرات.. لقد أفلت من مراقبة الشرطة ثلاث مرات لأنه واسع الحيلة.. ثم إنه سيتعاون مع الجاسوس (سام برادفورد) الذي كان يقضي عقوبة السجن مدى الحياة، بتهمة تهريب وثائق سرية للسوفييت.. إن (برادفورد) يعرف مكان كل وثيقة لدى المخابرات المركزية..
ثم أشار لصدره وهتف:
- هل فهمتم؟ أنا أحاول استعادة هؤلاء المنبوذين إلى المجتمع كمواطنين صالحين.. إنهم

يملكون الموهبة.. الموهبة التي يستغربها المجتمع وينفر منها غير عالم أنها ستفيده حتما..
ولقد قال أجدادنا الحكماء صادقين: الأمر يقتضي لصا للظفر بلص..
قالت (عبير) في غير حماس حيث جلست جواره:
- يقول العرب: لا يفل الحديد إلا الحديد..
- كما تقولين.. إن ثقافات العالم تتشابه حقا..
والآن يأتي دور الأمن.. إن الأمن الداخلي سيقع على عاتق (جو القذر) وفريقه الممتاز من نزلاء (سنج سنج).. سيقوم (جو) بتنظيم كل شيء.. وستنتشر دوريات الفهد ..أ.. الأمن في أرجاء البلاد لإنهاء حالة الفوضى التي تلت موت (سوبرمان)..
صاح (جو القذر) ملوحا ببندقيته الآلية:
- يا هووووه! سأفجر رأس من يخالف القانون!
فتعالت صيحات الى (ياهووه) من حفنة الأوباش حوله..
ثم نظر (لوثر) إلى الصحفيين المرتاعين الواقفين أمامه.. وقال:
- هل ثمة أسئلة؟ لا؟ حسن.. اذهبوا يا شباب واكتبوا كل هذا.. ولا تنسوا أن الصحافة هي ضمير الأمة.. وهذا الضمير يجب أن يأتمر بأمري أنا فحسب..
خرج القوم يحبسون خواطرهم الخاصة، ولا أحد منهم يجرؤ على التصريح بمئات التعليقات المناسبة للموقف..
لقد بدأ عهد جديد رهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في غرفة عمليات سرية تحت الأرض:
يقف جنرالات جيش الولايات المتحدة يرمقون في مقت وانبهار ذلك المجنون الذي صار رئيسهم..
راح (لوثر) و (عبير) جواره - يرمق الخارطة العملاقة المضيئة التي تمثل العالم.. والنقاط الحمراء التي تمثل أماكن الأسطول السوفيتي في المحيطين الأطلنطى والهادي.. والنقاط الزرقاء التي تمثل مواضع الصواريخ النووية السوفيتية..
- أين القنابل الهيدروجينية؟
أشار الجنرال إلى صف من الأزرار الحمراء..
بهذه البساطة؟ كنت أحسب في الأمر بطاقات إلكترونية وبصمات صوتية وما إلى ذلك..
- إن الحياة تزداد بساطة يا سيدي..
حك (لوثر) صلعته مفكرا.. ثم قال:
- ما رأيك يا (قنبلة)؟
ابتسم جانب الوجه السليم لدى (قنبلة).. أما الجانب المحروق فتقلص بشكل بشع تعبيرا عن استحسان الفكرة، وقال:
- إن (كلاباتي) تأكلني يا سيدي الحاكم العسكري..
- إذن - جنرال (قادر) - فجر لنا قنبلة هيدروجينية.. ولكن.. اجعلها اثنتين..
سأله الجنرال في أدب كأنه (بارمان) راق أو ساق في كافتيريا:
- ليكن يا سيدي.. ولكن أين؟
- أين؟ ليكن ذلك في (هيروشيما) و (نجازاكي)

- لكننا فجرناهما يا سيدي في الحرب الأخيرة..
- كانتا قنبلتين نوويتين.. دعهم يجربوا الهيدروجينية على سبيل التجديد.. هذا سيجعل المقارنة سهلة بغرض الإحصاء العلمي..
- لكن هذا يا سيدي سيجعل الحرب العالمية الثالثة حتمية..
- أوه لا.. لن يحدث.. إن الروس لن يبدءوها من أجل اليابان.. سيحتجون ويدينون ويشجبون لا أكثر..
ثم أشار إلى (قنبلة) في حزم.. وقال بلهجة لا تقبل النقاش:
- جنرال (قنبلة).. نفذ أوامر الحاكم العام..
ضغط قنبلة على أول زرين وجدهما على يمينه فدوى صوت الحاسب الآلى يقول برتابة:
- تم إطلاق صاروخين برأسين نوويين على (ستوكهولم) و (أديس أبابا)!
صاح الجنرال وهو يوشك على الجنون:
- كنت أفضل أن تختار هدفين سوفييتيين!
- إن الفرص كثيرة يا جنرال.. كثيرة جدا!
ومرت دقائق ثم ظهرت بقعتان حمراوان على الشاشة في مكان العاصمتين المذكورتين.. وعاد الصوت الآلي البارد كالموت يقول:

- (ستوكهولم) نسبة ٨٠ ٪ تدمير.. (أديس أبابا) إبادة تامة
- هذا جيد!
- يا هووووه!
تأبط (لوثر) ذراع (عبير) التي كانت ترتجف فرقا واشمئزازا.. وقال لها وهو يمسح العرق عن جبينه:
- معذرة يا ملاكي هذا هو قدر المرأة التي تصادق رجلا مشغولا مثلي غارقا في أعباء الحكم..
إنني لا أجد وقتا كافيا لأتنفس!
ثم اقتادها خارجين من الغرفة، ولم ينس أن يلتفت إلى الوراء ليقول ل (قنبلة):
- أنا راض عن أدائكم يا جنرال.. أريد مناورات مستمرة لحلف شمال الأطلنطي.. كما أريد أن أقدم للجيش بعض القنابل الجديدة من ابتكارى، مثل قنبلة (إبسلون) التي تصيب بالعمى والصمم لكنها لا تقتل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ذئب مجنون.. هذا أنت..
- قالتها له في مقت، فبدا عليه الانتشاء وعاد يسألها:
- هل هذا كل شيء؟
- ومريض اجتماعيا..
(سايكوباث).. هذا هو المصطلح الذي تريدين قوله.. ليس في هذا جديد يا ملاكي.. فأنا أعرف هذا جيدا.. والحلم الأعظم الذي أحتفظ به للعالم هو كتلة من النيران، ونساء صارخات، ورجال جرحي يتوسلون من أجل حياتهم..
- إن الناس جميعا يمقتونك..
- هذا حق.. لكنهم يحترموننى كذلك.. إن قوة المرء تقاس بعدد أعدائه.. ولكن دعينا من هذا

الهراء ولنتكلم فيما هو أهم..
كانت تخشى ذلك..
فهو لم يأت بها إلى شرفة البيت الأبيض الذي سيصير أحمر، في الظلام ورائحة الورود التي زرعتها السيدة الأولى سابقا في الحديقة، بينما يقف عازف كمان زنجي تحت الشرفة يصدر ألحانا شجية.. هو لم يفعل كل هذا ليحدثها عن (الشخصية السايكوباثية)
قال لها وهو يشعل سيجاره:

- هل تعلمين ما هو أهم؟
- نعم.. أراهن على أنك تهيم بي حبا!
توقف لحظة.. وراح يرمقها دون أن يطفئ عود الثقاب حتى أحرق أنامله، فرماه متأوها وقال:
- حسن.. لن أقول إنني أهيم بك.. لنقل - للدقة - إنني أميل إليك نوعا.. منذ أن رأيت صورتك وعرفت أنك حبيبة (سوبرمان).. لنقل إنه ميل قديم في نفسي تجاه من تحمل هذه الملامح.. إن (فرويد) يقول إن الحب من أول نظرة هو ذكرى ملامح ما عرفتها في طفولتي.. ربما قريبة لى أو خادمة كانت تعنى بي..
. شكرا لأنني ذكرتك بخادمة..
- دعينا من هذا الهراء.. أنا لا أجيد التعبير عن نفسي.. لكن كل فتاة تعرف جيدا ما أتحدث عنه.. مالم تكن رجلا يضع جمة على رأسه.. والآن ما رأيك؟
في تحد نظرت له وثبتت عينيها، وتساءلت:
- في أي شيء؟ أنا لم أتلق عرضا حتى اللحظة..
- في أن تكوني السيدة الأولى لهذا البلد!
- كانت. لحسن الحظ - قد أعدت ردا مطولا هو أقرب إلى (الردح)، كما كانت تسمعه من الجارات في حارتها.. ولو لم تعده مسبقا لارتج عليها وما وجدت ما تقوله.. وقد أسمعته هذا الرد كاملا غير منقوص، وبأداء بارع حقا.. وانهت كلامها قائلة:
- أنت - أيها البائس - لا تحبني ولا تعرف كيف..
كل ما في الأمر أن طبيعتك المريضة تتوق إلى إيذاء (سوبرمان) في حبيبته حتى بعد ما مات. ودعني يا أحمق - أؤكد لك أن الموت خير لي من قبول توددك الكريه.. وإنني حين أقارنك ب. (سوبرمان) لا أجد تعبيرا أفضل من (الأنصاص قامت والقوالب نامت).. فهل أبلغت؟ إذن فافعل ما يتبدى لعقلك المريض..
أربكه أداؤها البارع.. ثم إنه أرجع رأسه للوراء وراح يقهقه تلك القهقهة المجلجلة المفتعلة التي يجيدها الأشرار في التلفزيون.. كان يداري ارتباكه حتما.. ثم قال لها:
- ها ها ها! كلا يا صغيرتي.. لن أربطك بالسلاسل وأنزع أظفارك كي أرغمك على أن تحبيني..
إن الحب شيء يأتي بالتعود والمعاشرة.. لهذا سأرغمك على شيء واحد: على أن تكوني المتحدثة الرسمية لي.. وبعد عام سآتي بك ها هنا لأقدم نفس العرض.. وأعتقد أن الإجابة ستختلف..
- سأهرب!
- لا تستطيع ذبابة الهرب من القارة كلها دون علمي.. لا تنسى أن جهاز الاستخبارات ومكتب التحريات والشرطة كلها تحت إمرتي.. ثم إنني لا أحب كثيرا أن أرى (جو القذر) ورجاله يبحثون عنك.. هذا يشبه أن ترسل قطيع ذئاب للبحث عن دجاجة ضاعت منك!
نهضت.. وفي هذه اللحظة كانت قد قررت قرارا لا رجعة فيه:
ستقتله.. حتما ستقتله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن كيف؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- احتلال العالم

في الأيام التالية، اهتز العالم لأنباء تدمير (ساوباولو) البائسة.. لتغدو المدينة الثالثة بعد (ستوكهولم) و (أديس أبابا) في الألعاب النووية..
وكما توقع (لوثر) فإن (موسكو) ظلت عاجزة عن الفعل، مترددة نحو ما ينبغي عمله.. فإن تحركها للفعل الإيجابي لا يعني سوى إطلاق صواريخها النووية على الولايات المتحدة، وعندئذ هي الحرب العالمية الثالثة.. ومخزون الدولتين من السلاح النووي يكفي لتدمير العالم سبعين مرة..
مشكلة السلاح النووي هي أنه يقيد يد صاحبه أكثر من اللازم، كرجل يجلس فوق صندوق (ديناميت) ويتحمل صفعات الأطفال الشرسين على قفاه، والحجارة التي يرمونها عليه.. لكنه لا يجرؤ على تفجير (الديناميت) الذي يجلس فوقه... لذا يكتفي بالتهديد والجعجعة.. وحقا كان هناك الكثير من الجعجعة..
ودعت (بريطانيا) إلى مؤتمر حضرته القوي العظمى كلها... كما أن أعضاء الأمم المتحدة الذين طردهم (لوثر) من الولايات المتحدة لحقوا بالمؤتمر..
لكن المؤتمر لم يسفر سوى عن الشجب والإدانة واللوم.. وفيما بعد قال أحد الأشخاص المهمين في السلك الدبلوماسي الأوروبي:
- كان موقفنا أشبه بموقف أوروبا في الحرب العالمية الثانية.. لا أحد يعرف ما ينبغي عمله.. كلنا نتجه إلى كارثة، لكننا لا ندري كيف نوقفها.. إن المدارس السياسية كلها لم تقدم لنا أسلوب التعامل الأمثل مع المجانين..
وزاد الطين بلة ظهور (لوثر) على شاشات التلفزيون في أرجاء الأرض..
كان بيانه واضحا وموجها لمؤتمر القوى العظمي:
- كيف حالكم أيها الحمقى؟
أراكم تأخرتم كثيرا في إعلان الاستسلام والاعتراف بي حاكما أوحد للعالم.. ولا أدري كم قنبلة هيدروجينية تحتاجون إليها كي تصدقوني؟
إنني بحاجة إلى إنهاء إجراءات الاستسلام خلال ثلاثة أيام، بعدها تحرق كل عاصمة متمردة، أو تتآكل بفيروسي المتميز.. وإنني لأهيب بالسادة المؤتمرين المتآمرين في (لندن) أن ينهوا اجتماعهم خلال ساعتين، ويعودوا ليلتهموا الفطائر التي تخبزها أمهاتهم، وإلا فإنني سأحرق (لندن) خلال ثلاث ساعات.. صحيح أنني أحب متحف مدام (توسو) لكن ليس إلى حد منعي من تدميره..
وتلاشت صورته من على الشاشة
وكان هذا كافيا كي يجمع رؤساء الدول أوراقهم وهم يسبون (لوثر) بالإنجليزية والفرنسية والصينية والروسية، ويركبون طائراتهم فورا عائدين إلى بلادهم..
إن (لوثر) - بالتأكيد - ليس ممن يطلقون التهديدات جزافا..
وخلال أسبوع واحد كانت أكثر دول العالم قد أعلنت الاستسلام ل (لوثر).. صحيح أن هذا لم يتم قبل تدمير (مونتريال) و (أثينا)، وإلقاء قنبلة فيروسية على مواقع الصواريخ الروسية قرب (تركيا) مما جعلها تتحول إلى غبار..
وفي النهاية جاء وفد إلى (لوثر) يعلن القبول بشروطه حقنا لدماء الشعوب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووقفت (عبير) أمام عدسات الكاميرا تبتلع ريقها الجاف.. وتحاول أن تقول شيئا.. فقط لو قالت كلمتين لتلاشت تلك الرجفة في زاوية فمها اليسرى...
أخيرا تقدم صحفي من مكبر الصوت.. وسألها بطريقة رسمية:
(جون كويمان) من (هيرالد تريبيون)..
والتمعت عشرات من أضواء الفلاش عليها على حين أردف:
- مس (هارفي).. يقولون إن إجراءات إعلان العالم منطقة عسكرية قد تمت.. هل هذا صحيح..
كان هذا هو ما تريده.. لذا قالت إجابتها السهلة:
- نعم.. هذا صحيح..
وأخيرا زالت الرجفة، وبدأ صوتها يتحسن.. على حين عاد (كويمان) يسألها:
- وهل هذا لفترة محدودة؟
بل هو للأبد.. إن الكرة الأرضية كلها تحت الحكم العسكري، تحت قيادة الحاكم (لكس لوثر)..
هنا دوى صوت طلقة رصاص، وصرخ (جو القذر) ملوحا بمسدسه:
- تصفيق حاد يا حمقى!
دوي صوت التصفيق الآلي.. فالجميع رأى ما حدث لمراسل (سي إن إن) منذ عشر دقائق..
ونهض صحفي آخر يسألها
- مس (هارفي).. ما معنى هذا القرار؟
- معناه أن مستر (لوثر) قد ألغي سفارات الدول وأسماءها وأعلامها.. لقد تحول العالم إلى ولاية (إفريقيا) وولاية (أسيا) وولاية (أوروبا) وولاية (أمريكا الجنوبية).. مع بعض الجزر و(الأقيانوسية) طبعا.. ولكل ولاية حاكم عام يخضع لمستر (لوثر)..
- وهل هناك انتخابات؟
- لا انتخابات.. مستر (لوثر) يعرف صالح الشعوب جيدا..
- وهل هناك جيوش؟
- لا جيوش.. لقد صار العالم قرية واحدة ولا توجد قرى أخرى نخافها.. ولقد تحولت الجيوش إلى قوات شرطة تعمل تحت إمرة سيد مهذب هو المستر (جو القذر)..
وهل ستكون هناك قوميات وأعلام؟
- ابتسمت لسذاجته وقالت:
- هناك علم واحد يحمل صورة مستر (لوثر).
وقد تم توزيع صورته على وفود الدول.. أما القوميات فقد تم إلغاؤها.. وقد قام شاعرنا العظيم (ماكس) بتأليف نشيد قومى للكرة الأرضية كلها تقول كلماته:
(لوثر) هو الذي علمنا كيف نكون بشرا..
(لوثر) هو الذي حررنا من القوميات..
اترك التفكير يا صديقي واتبعني..
إن (لوثر) سيفكر بدلا مني ومنك..
- نهض صحفي متحمس وقال في حنق:
- لكن هذا يعني نظاما شموليا قمعيا.. ويعني إضاعة كل ما حققته الديموقراطية.. و....
بوم!
كانت هذه هي الإجابة..

وما إن زال دخان البارود، وكف صدي الطلقة الدوي في الأذان، وكفت النسوة عن الصراخ، حتى دخل الغرفة رجلان بمحفة فحملا جثمان الصحفي وخرجا...
استجمعت (عبير) أنفاسها.. وبصوت مبحوح قالت:
- أنا مكلفة بإبلاغكم.. لا أكثر ولا أقل.. أما من يريد جدالا فعليه أن يكلم المستر (لوثر) نفسه.. وأنا أراهن - من كل ما نراه - على أنه سيبدي تفهما واضحا..
وانتهى المؤتمر الصحفى الواجم..
لو كان هذا في بلد واحد لهاجر الناس جميعا لاجئين سياسيين إلى أرض الله.. أما والحال كهذا فإلى أين يهاجرون؟ إلى الفضاء؟
الخلاصة: أن حوادث الانتحار ازدادت بشكل غير مسبوق..
لقد قرر البعض الهجرة إلى عالم آخر.. عالم بلا (لكس لوثر)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت جريدة (ديلي بلانت) كدأبها متوقعة أن تلقى استقبالا حارا من رفاقها القدامى..
لكنها - في العيون - لم تر إلا المداهنة أو المقت الأخرس أو الخوف.. وهرع رئيس التحرير الطاغية يلقاها وقد حنى ظهره تبجيلا، وعرق الرهبة يغرق وجهه..
قال لها وهو يمشي بين يديها
- أرجو يا آنستي أن نكون عند حسن ظن الحاكم..
- لم تتكلم بهذا الأسلوب؟
قال وهو يطفئ سيجاره احتراما لها:
- أعني أن قدومك ها هنا للتفتيش بالتأكيد؟
تمالكت أعصابها.. وأخذت شهيقا عميقا ثم قالت:
- اسمع يا سيدي.. أنا لم أتغير.. ما زلت المحررة التي تعمل تحت قيادتك.. كل ما هناك أنني في وضع لم اختره..
- ولكن كونك..
هنا تدخل المحرر الشاب ذو النمش، وقال وهو يرمقها بمقت واضح:
- لا تفتح قلبك يا سيدي.. فكل حرف ستقوله سيعرفه الحاكم!
- هذه هي مشكلة التعاون مع الأعداء.. لا أحد يقبل أعذارا أو يفترض للحظة أنك مرغم مكره خائف والحقيقة أنها لم تكن واثقة بنفسها إلى هذا الحد من أدراها أن (لوثر) لم يلغم ثيابها بأجهزة التصنت؟
ربما هي - بالفعل - كارثة تمشي على قدمين..
تنهدت.. وقالت:
- أين البروفسور (هاكل هان)؟
والبروفسور - لمن لا يعلم - هو أهم مصدر علمي للجريدة.. وهو عالم مجنون أصلع الرأس من الذين تزخر بهم القصص المصورة.. لكنه - على الأقل طيب القلب لا يؤذي ذبابة..
هتف المدير في حماس:
- حالا.. حالا.. هلموا يا شباب.. استدعوا البروفسور!
بعد هنيهة جاءها المذكور يرتجف، يقدم رجلا ويؤخر رجلا.. فما إن رأته حتى قالت بلهجة آمرة لا بأس بها:

- أريد أن أتفرد به..
صاح المدير
- ليكن ذلك في مكتبي...
- بل في معمله..
ودون كلمة أخرى تأبطت ذراع البروفسور المذعور ومشت معه إلى معمله الذي يقع في الطابق ذاته..
فما إن دخلا حتى أغلقت الباب.. وسألت الرجل:
- بروفسور.. كنت أريد أن أعرف آخر أبحاثك بصدد إعادة الشباب.. إن هذه التجاعيد..
نظر لها في ذهول.. لكنها كانت تثرثر دون انقطاع وهي تفتح حقيبتها.. تخرج منها قلما وورقة..
تخط على الورقة بضعة أسطر ثم ترفعها تحت أنفه
وتواصل الكلام:
- إن الفتاة منا تفقد كل شيء حين تفقد جمالها..
- ثبت العوينات على أنفه ليري أوضح.. وقرأ الكلمات المكتوبة:
- تكلم في أي شيء وكن طبيعيا..
- أعتقد أنني - في الغالب - أحمل جهاز تصنت.. لا تخش شيئا..
أريد التأكد من وجود جهاز كهذا من عدمه..
فهل هذا ممكن؟!.
....



كانت تثرثر دون انقطاع وهى تفتح حقيبتها ..
تخرج منها قلمًا وورقة .. تخط على الورقة بضعة أسطر ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مطلوب (سوبرمان)..

- للأسف يا (لارا) إن الخلايا التي تموت لا تعود لما كانت عليه أبدا.. كل ما يقال غير هذا هراء..
كان يتكلم وهو يمرر على جسدها جهازا إلكترونيا يتصل بسلك.. ورأت (عبير) (لارا) الضوء الأحمر يتوهج من الجهاز.. فنظرت له نظرة معناها: (هل كان ظني صادقا؟) فنظر لها نظرة معناها: (نعم إنك ذكية حقا!).. ثم أشار إلى حذائها..
قالت وهي تأخذ شهيقا عميقا كي لا تفقد الوعي:
- يا للأسف.. ظننت أنني سأتخلص من تلكم التجاعيد اللعينة ولكن يبدو أن على أن أقنع بها..
ثم أمسكت بالقلم وخطت على الورق التالي:
- لن أتخلص من الجهاز كي لا أثير شكوكهم إنني بحاجة إلى اصطحابك إلى القطب الشمالي..
أريد أن استعين بك لتشغيل مجموعة (الروبوت) التي كان (سوبرمان) يحتفظ بها في قلعته..
سنحاول إقناع هذه العصابة أن (سوبرمان) عاد إلى الحياة..
صاح في رعب:
- ولكنها رحلة طويلة!
ثم تمالك لسانه.. فأضاف:
- تلك التي يحتاج إليها جمالك كي يشيخ..
ثم - بأذنين محمرتين خجلا - خط على الورق:
- إن القطب الشمالي ليس قرية مجاورة.. والوصول هناك عسير حقا.. ثم إذا فرضنا أننا وصلنا هناك - وهو ما أراه مستحيلا - فإنني أشك في قدرتي على تشغيل هذه الأجهزة، التي هي بالتأكيد معقدة جدا.
- ظلت صامتة بعض الوقت، ثم تناولت القلم وخطت على الورق الكلمات التالية:
- سأجد حلا لهذا
حاول أن تبقى على اتصال بي..
ثم إنها اتجهت إلى موقد (بنزن) المشتعل فوق المنضدة، فقربت الورق منه حتى التهب بالنار وألقته في الحوض.
- شكرا يا بروفسور.. إلى لقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت بحاجة إلى تكوين مجموعة ممن تثق بهم من ذوي الميول المشتركة.. ثم يعاونونها في القضاء على (لوثر)..
إنها تمقته حقا.. تمقته إلى تلك الدرجة المقدسة إنها لا تبالي بفقد حياتها ما دام هذا سيحررها منه..
وهي تلك الدرجة من المقت التي شعر بها كل شهداء التاريخ وهم يلقون بأنفسهم فوق المدافع.. فوق أنصال السيوف.. فوق النيران..
النصر أو الموت الكريم..
هذا هو شعارها.. وعليها أن تجد من يعتنقه مثلها..
لكن من يمكن أن يثق بها؟ من؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جالسة في جناحها تشاهد التلفزيون، حين دخل (لوثر) دون استئذان كعادته، وقد دس يديه في جيبي (الروب) الأحمر الذي يرتديه، والذي يشعر أنه يجعله فاتنا..
استرخي على أريكة.. وأراح ساقية على مسند أمامه.. وقال:
- كيف كان يومك؟
- لا شيء.. ذهبت إلى (ديلي بلانت)..
- وكيف حالهم هناك؟
- لا يرسلون تحياتهم!
نظر لها مليا.. وتنهد ثم قال:
- ما زلت لا أشعر أن في وجهك تجاعيد!
إذن هو يفصح عن تصنته عليها!
هذا غريب.. المفترض أن يتكتم هذا.. معنى هذا أنه لم يجد النفع المرجو من مراقبته لها..
قالت متظاهرة بالغباء:
- إذن أنت قابلت البروفسور..
- ليس بالضرورة.. إنني أعرف كل شيء من مكاني هنا..
ثم شاعت في محياه القبيح بسمة حزينة.. وأرجع رأسه للوراء.. وقال ضاغطا على حروفه:
- إذن أنت تعبثين في الجوار يا (لارا)..
- ماذا تعني؟
لم يبدل من جلسته، وقال:
- هل تعرفين مكان قلعة (سوبرمان) هذه؟..

- نظرت له في ذهول.. إذن قد تكلم البروفسور لا شك في هذا هتفت من بين أسنانها:
- (هاكل هان) القذر!
- لا تسبيه يا (لارا) من فضلك.. إن المسكين يمر الآن بلحظات غير سارة على الاطلاق في مكتب الاستخبارات الفيدرالي.. صدقيني.. فأنا قد أعدت أساليب (الجستابو) الشنيعة في التعذيب.. وليس المشهد جميلا بحال..
- ماذا تعني؟
ابتسم من جديد، ولم يبادلها النظرات.. قال:
- إن رجالي الذين قاموا بتفريغ جلسة التصنت لاحظوا صوت (خرفشة) الورق.. وهم – بآذانهم المدربة - يعرفون جيدا معنى هذا.. معناه أن الحوار وهمي بينما الحوار المهم يجري على الورق..
وهنا يجيء دور القلم الذي وضعته في حقيبتك.. إننا نسميه (القلم النمام) وهو من أفضل اختراعاتي..
بمجرد انتهاء الجلسة قمت بالحصول على القلم.. وتفريغ ذاكرته من الاهتزازات العالقة بها...
ثم بمعونة الحاسب الآلي نحصل على صورة كاملة من كل ما قمت بكتابته على مدى يوم كامل!
إن هذا سهل وليس مستحيلا كما ترين.. ومن حسن الحظ أن هذا القلم هو ما كتبت به رسالتك، وإلا لصار من المستحيل أن أعرف..

اتسعت عيناها هلعا.. لقد انتهى أمرها بالتأكيد لكنه قال لها وفي عينيه رفق قاتل:
- لا تخافي.. لن أنتزع أظفارك وأربطك بالسلاسل عقابا لك على التآمر.. إنني أقوى من هذا.. فقط أردت أن أجعلك تعرفين أنك ذبابة في شباك عنكبوت هائل أصلع!
- عليك اللعنة!
كان الوغد ذكيا بالتأكيد.. ذكيا كالثعالب وأكثر منها حذرا.. لكنها - حتما - ستعرف كيف تسحقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الظلام تسللوا..
(سنترال بارك) تتحول إلى وكر للرذائل والآثام والموبقات والجرائم كلما حان الليل.. كان هذا هو حالها حينما كان (سوبرمان) حيا.. وكان الرجل الفولاذي ينقض كالصاعقة من السماء على الخاطئين فيحملهم بسرعة الصاعقة إلى الشرطة..
الغريب أنه بعد ما مات (سوبرمان) - لم يعد لـ (سنترال بارك) ذات البريق القديم المثير.. فتحت حكم (لوثر) وعصابة المجرمين والقتلة التي تمثل سلطته التشريعية؛ صارت الجريمة هي القانون والقتل هو القاعدة.. وبالتالى غدا على من يحب مخالفة القانون أن يصير شريفا!
بمعنى آخر: إن الممنوع مرغوب دائما.. وقد صارت الجريمة حقا للجميع.. وبالتالى قل من يرغبون فيها.. ويمكن القول - دون خطأ كبير – أن حكم (لوثر) كان كارثة على الشرفاء والمجرمين معا.. فقد الأولون معنى الأمان وفقد الأخيرون لذة المخالفة..
أقول إنهم في الظلام تسللوا..
من هم؟ لا أدري.. إن الظلام دامس كما ترون..
والحراس حمقى.. خاصة حين يطول بهم السهر ويدغدغ الأمان الزائف أعصابهم داعيا إياهم إلى النعاس....
ولم تطل المأساة
ثلاث طعنات في العنق كانت كافية ليعم السلام المكان.. ويصعد أحد المتسللين فوق السارية التي علق منها جسد (سوبرمان).. الجسد العملاق المتدلي من قدميه كما كانوا يفعلون في المذابح القديمة.. وبشيء من الجهد ينجحون في فك الجنازير المربوطة بالقدمين.. ويسقط الجسد على الأرض محدثا دويا..
سيارة مظلمة الأضواء تدنو من المكان وتتوقف بفرملة عنيفة باسلة..
الرجال يحملون الجسد الثقيل - كتلة العضلات – التي كانت - نحو السيارة، ويحشرون أنفسهم بأية كيفية داخلها...
فرملة ثانية لا داعي لها.. ثم تنطلق السيارة مبتعدة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- محاولة جريئة حقا..

جلست تتأمل الغرفة كئيبة المنظر التي جلست فيها.. كانت الجدران عارية تماما، وثمة باب صغير يفضي إلى قاعة مجاورة لا يعلم سوي الله ما يوجد فيها..
ورفعت رأسها ترمق الأربعة المحيطين بها.. كلهم استطالت لحاهم وبدت الخطورة في نظراتهم.. باختصار بدوا كالذئاب الحذرة المرهقة.. وكانت (عبير) تعرف أن المجرمين لهم نظرات الذئاب، لكن الثوار لهم كذلك نظرات الذئاب، خاصة إذا ما كانوا يواجهون خطرا مريعا
قال لها أولهم وأكبرهم شأنا:
- لا تقلقي.. لم نختطفك إلا من رقابة (لوثر) الصارمة.. كان لا بد أن نلجأ لهذا الأسلوب غير التقليدي.. سيارة تمر بجوارك ثم يخرج (توم) و (جيري) ويلقيان بك في المقعد الخلفي..
وقال آخر يضع عوينات سميكة:
- إننا نمثل جزءا من جبهة الثائرين ضد (لوثر)..
وقال ثالث له شعر بني أشعث طويل جدا:
- وقد اتفقنا على أن (لوثغ) أقوى منا بكثيغ.. لا يمكن مواجهته دون (سوبغمان)..
ابتسمت في لطف وسألته:
- هل أنت فرنسي؟
- نعم.. اسمي الحغكي هو (تان تان).. أقول إن (سوبغمان) هو السبيل الأوحد لمواجهة (لوثغ) الذي قهغ العالم..
قال الأول كبير الشأن:
- لهذا أتينا بك هنا لأننا نعرف أنك تعرفين كل شيء عن (سوبرمان)..
قالت وهي تدفن في كفيها وجهها..
أنتم مجموعة من الحمقى..
ربما.. ولكن لم؟
- إن كل ما أفعله وأقوله معروف لدى (لوثر).. إنني ملغمة بأجهزة التصنت.. ولن تمر خمس دقائق حتى يكون رجال (جو القذر) هنا كي يتولوا تحويلكم إلى (كفتة).
قال لها ذو العوينات الغليظة:
- لا تقلقي من هذا.. فقد قمنا بتلغيمك بجهاز يدعى (الكتوم).. وهو يحجب كل إرسال لأجهزة التصنت في دائرتك.
- (لوثر) لن ينخدع بهذا.. إنه ذكي كالثعالب..
وتوقف الإرسال هو رسالة واضحة جدا لها خطرها.. سيعرف أنني أتلاعب به..
- هناك جهاز آخر اسمه (الكاذب) تحمله في السوق الآن فتاة تشبهك وترتدي ثيابك.. وبالطبع هي قادرة على إقناع من يراها بأنها أنت.. بل إنها ترسل نفس الذبذبات..
هزت رأسها مستكثرة كل هذا السخف
- (نمام) - (كاذب) - (كتوم).. إنني محاطة بأجهزة غريبة حقا.. وكيف عرفتم تردد ذبذبات (لوثر)؟
- هذا سرنا الخاص.. إن لنا مصادرنا.. و (لوثر) ليس هو العالم الوحيد على وجه الأرض
نظرت لهم باسمة وسألت:

- حسن يا شباب.. هل لي أن أتعرفكم؟
قال أكبرهم شأنا:
. هذا شرف لنا.. لكننا لا نستعمل سوي أسماء حركية.. أنا (كنج كونج) زعيم هذه المجموعة.. وهذا الذي يرتدي العوينات هو (توم).. إنه ذكي كالقط، ويعتبر هو العالم لهذه المجموعة.. أما الآخر ضئيل الجسد فيشبه الفأر (جيري).. ثم أنت قد عرفت الفرنسي (تان تان)
ضحكت في مرارة.. وسألت:
- وأين (ميكي)؟
- لقد قتله رجال (جو القذر) منذ شهرين..
لقد كان من خيرة رجالنا، ولم يتكلم حتى وهم ينزعون أظفاره..
- يا للهول! إن أظفارا أكثر من اللازم تنتزع هذه الأيام..
ثم رفعت عينيها إلى كبيرهم متسائلة:
- والآن.. ماذا تريدون مني بالضبط؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنت ترين هذه الآلة وتتساءلين عن كنهها.. ليس في الأمر لغز ما.. إن روايات الخيال العلمي كلها اتفقت على أن آلة الزمن لا بد أن تشبه كرسي طبيب الأسنان.. وستكون هذه أول آلة زمن في التاريخ تشبه كرة الأعماق..
أنت تحسبين أننا واهمون أو مخرفون.. الواقع أن الأمر يبدو كذلك.. لكن عالمنا العظيم د. (هاوسمان)
قد جربها مرارا ووجد أنها فعالة.. لقد زار (كليوباترا) في قاربها.. وحضر حوار (هانيبال) التاريخي مع (سكيبيو) الإفريقي.. وتأكد من أن (هتلر) لم ينتحر كما حسب السوفييت..
الأمر سهل كما ترين.. ستجلسين داخل الكرة في هذا المقعد.. ثم تديرين قرص الساعات – قرص الأيام - قرص الشهور - قرص الأعوام.. وتضغطين الزر الأحمر المكتوب عليه (ابدأ).
عندها تنتقلين برحلة سهلة إلى الساعة التي تريدينها في الماضي.. ويمكنك مغادرة الكرة للتفاعل مع الأحداث..
فما إن تنتهي مهمتك حتى تعودي إلى الكرة، وتختاري تاريخ اليوم والساعة.. إن هذا سهل ويستطيع أي طفل أن يقوم به..
الدكتور (هاوسمان)؟ إنه ليس بيننا للأسف.. لقد قبض عليه رجال (جو القذر) وانتزعوا أظفاره..
لكنه ترك لنا تعليمات دقيقة واضحة عن كل شيء.. وصيانة هذا الجهاز ليست عسيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا جاء دور السؤال الوحيد المنطقي وسط هذا كله..
سألت (عبير) وهي تدور حول الكرة:
- وما جدوى الرجوع للماضي؟



سألت (عبير) وهى تدور حول الكرة :
- « وما جدوى الرجوع للماضى ؟ » . .

- يا له من سؤال! طبعا كي تغيري مسار الأحداث الدامي الذي جعلنا نفقد (سوبرمان)..
واصلت الدوران حول الكرة..
كانت بارتفاع قامة الإنسان، وقد صنع هيكلها من مادة بوليمرية أقرب إلى البلاستيك اللين، واختار لها العالم اللون الأحمر.. مما جعلها أقرب إلى لعبة بلاستيكية جميلة صنع (تايوان)، ولم يبق سوى أن تباع في كيس من (النايلون) مع تعليمات بأن بها أجزاء قابلة للابتلاع، وممنوع اللعب بها للأطفال أقل من ثلاث سنوات..
كيف تقدر هذه اللعبة الجميلة على اختراق الزمن؟
عاد (كنج كونج) يسألها وهو يرمق عدم التصديق على وجهها:

- هل تقدرين؟
فكرت حينا.. ثم قالت:
- ربما أستطيع المحاولة.. لكن ما الذي جعلكم تثقون بي؟
. لأننا لا نملك خيارا آخر..
- كل أصدقائي يقولون إننى جاسوسة ل (لوثر).. وإنني قد أسلمته البروفسور (هاكل هان)..
- مصادرنا في البيت الأبيض تقول إنك مُكرهة..
كان هذا لحسن حظها..
في تاريخ الثورات كان المتعاونون مع الأعداء يلقون أشنع الجزاء على أيدي المقاومة السرية.
وكان من الأعمال اليومية لرجال المقاومة الفرنسية - في الحرب العالمية الثانية - قتل النساء اللواتي يتعاملن مع الألمان.. وفي أعقاب الحملة الفرنسية على (مصر) (قصفت) رقاب كل البنات اللواتي تعاملن مع جند (صاري عسكر)، كما يؤكد (الجبرتي)...
لهذا خطر ل (عبير) عندما اختطفوها أن هذا هو جزاؤها على ما يحسبونه خيانة منها...
لحسن الحظ أنهم يعرفون أكثر مما توقعت

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست أمام قرص الأعوام.. واختارت العام الحالي..
ثم أخذت شهيقا عميقا على سبيل الاسترخاء، وراحت تفكر..
ما هي الساعة المثلى التي كان يمكن منع القضاء فيها؟
إنها الساعة التي سبقت اقتحام رجال (لكس لوثر) لجريدة (ديلي بلانت) وقيامهم برش (الكريبتونيت) الأحمر هناك..
إنها الساعة الرابعة عصرا.. ثم اختارت الشهر واليوم..
هل تضغط الزر؟ لم لا؟
إن هذه (فانتازيا) على كل حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الانتقال سلسا والحق يقال..
لم تدخل تلك الدوامة الحلزونية التي تراها في السينما، ولم تر أوراق النتيجة تعود لتغطيها، أو حتى قيء الخواطر والذكريات المختلط الذي كانت تراه كلما سافرت إلى (فانتازيا)..
لا شيء من هذا..
فقط كان الثوار حولها في لحظة.. ثم لم يعودوا هناك..
فتحت باب الكرة.. وخرجت.. وأدركت أن جسم الكرة ساخن حقا كما يحدث لمحرك السيارة بعد رحلة طويلة؛ بل إن الجدار بدأ يلين قليلا..
أين هي؟ بالتأكيد في وكر الثوار الذي ستدخله أول مرة بعد أيام.. وهو يقع خارج المدينة..
مشت إلى الخارج لترى ضوء الشمس يغمر المروج..
ثمة أرنب مذعور فر حين رآها.. وصبي على دراجة يمر من بعيد.. رفعت عينيها للسماء كأنما بحافز خفي
رأت خطين من أزرق وأحمر يعبران الفضاء بسرعة
أغرورقت عيناها تأثرا حين أدركت معنى هذا..
كان هذا هو (سوبرمان)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راحت تركض في شوارع المدينة كالمحمومة..
لم يكن معها مال تستقل به سيارة أجرة..
ووسط أنفاسها اللاهثة سرها أن ترى الناس الآمنين الذين لا يعرفون ما يداريه لهم الغد..
وسرها أكثر أنها لا ترى الملصق القبيح ولا العلم الذي عليه رأس (لوثر) الأصلع، وتحته شعاره الشهير (أترك التفكير يا صديقي واتبعنى.. إن (لوثر) سيفكر بدلا مني ومنك)..
سيارات الشرطة العادية تمر بها فلا ترتجف.. بعد ثلاثة أشهر ستثير هذه السيارات رعب الجميع لأنها تعني قدوم (جو القذر) ورجاله، المستعدين للمشاغبة والتحرش أربعة وعشرين ساعة يوميا.
أخيرا ترى بناية (ديلي بلانت) ...
تنظر في ساعتها وتدرك أن أمامها ساعتين..
تستقل المصعد وتضغط رقم الطابق
وهنا - عند الطابق الثاني - تدرك الحقيقة المروعة.
لقد تعطل المصعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- ومازالت المحاولة مستمرة!

كلوستروفوبيا: (كلوستروم: مزلاج + فوبيا: خوف).. خوف غير طبيعي لدى التواجد في أماكن مغلقة أو ضيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن (الكلوستروفوبيا) لم تكن هي جل ذعر (عبير) في هذه اللحظة.. بل كان هناك ذلك الخوف المتوقع من فوات الفرصة..
دقت الجرس مرارا بإصبع متوترة..
صوت أشخاص يقرعون الباب.. أشخاص يطلبون منها أن تتجلد.. محاولات لفتح الباب..
اللعنة! إن الوقت يمضي..
لا جدوى.. سنطلب رجال الإطفاء.. نصف ساعة آخر!
هؤلاء الحمقى لا يعرفون أن (سوبرمان) نفسه موجود معهم في البناية.. لهذا صاحت وقد ألصقت فمها بالباب:
- نادوا (كلارك كنت)!
- ماذا تقولين؟
- نادوا (كلارك كنت)!
- (جاك فلنت)؟ لقد توفي منذ عام يا آنسة!
- ك - ل - ا- ر - ك - ك – ن - ت يا حمقى!
صوت الجدال.. ألن ينتهي هذا أبدا؟ ثم حمدا لله!
إن المصعد يعود إلى التحرك كوحش مريض شفي فجأة..

هو ذا الطابق.. ينفتح الباب كأنه يتمنى ألا ينفتح وجوه عدة تلقاها وهي تهرع إلى الخارج، وصديقة تسألها:
- هل كان هذا رهيبا؟ (لارا)! لماذا تجرين؟
ترد وكعبا حذائها يقعقعان فوق أرضية الردهة:
- أجرى من المصعد.. إنه يمثل لي ذكري أليمة!
وتصل إلى غرفة (المونتاج) فتجده جالسا على مقعده الأثير.. بعويناته وبذلته الزرقاء التي لا يستبدلها إلا لماما: (كلارك كنت) الذي هو (سوبرمان).. إنه ما زال حيا..
- تجذب مقعدا وتجلس جواره..
- مرحبا (لارا).. يبدو عليك الذعر..
حتى في (فانتازيا) يصعب عليها أن تصدق أنها تجلس جوار شخص ميت منذ ثلاثة أشهر.. قالت له وهي تعب الهواء في جشع:
- (سوبرمان)! يجب أن تفر الآن..
- هذا طلب غير معتاد.. وما السبب؟
(لوثر).. إنه سيقتلك خلال ساعة.. رجاله (كربتونيت) أحمر.. إنه يعلم.. (لوثر)..
إن التنفس عادة سيئة لا يمكن التخلي عنها.. حتى لو كانت الكلمات أكثر أهمية من الأنفاس.. لكنه تلقي الرسالة على كل حال، واتسعت عيناه رعبا وعاد يسألها هامسا:
- من قال لك هذا؟
- كف عن الأسئلة المملة.. و.. نفذ.. نفذ ما أقول.. هناك متسع من الوقت فيما.. فيما...
أغلق الملف الذي أمامه ونهض.. لقد نجا!
نظر لها نظرة لم تفهم معناها، ثم هرع يتوارى في الردهة خارج الغرفة..
هنا سمعت الصراخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك دخان.. لكنه لم يكن أحمر..
كان هناك حريق.. حريق عادي جدا.. وثمة أشخاص يصرخون ويركضون في الممر.. وعبارة تتردد (حريق في المطبعة)..
لا بأس.. هذه مشكلة عادية تحدث في كل مكان..
- إن (جاك) محاصر وسط ألسنة اللهب!
- (ريتشارد) كذلك!
- هل رجال الإطفاء؟
- لقد رحلوا! وجدوا أن المصعد قد تحرك و....
خرجت إلى الردهة التي يملؤها الدخان، وتمنت ألا يسمع (سوبرمان) أو يشم شيئا من هذا..
- (كلارك كنت) بالداخل أيضا!
سمعت العبارة فتصلبت في هلع هذا هو (سوبرمان).. بالطبع لن يترك اثنين من الأبرياء يحترقان دون أن يتدخل حتى لو كانت حياته الخاصة مهددة..
لكن الوقت يمر.. يمر بسرعة جنونية
واستطاعت أن ترى الدخان يفعم الردهة، وتري أشباحا تتحرك هنا وهناك.. ثم أدركت أن الضباب ينقشع.. ينقشع بمعجزة ما.. حتى صارت الرؤية واضحة تماما.. كأنه فيلم يدور بصورة عكسية حيث يخرج الأشخاص طائرين من الماء، وتتجمع شظايا الزجاج لتصنع كوبا أنيقا..

في اللحظة التالية برز (كلارك).. كان يترنح لكنه يجر وراءه (ريتشارد) من سترته.. ثم تركه على الأرض وعاد إلى داخل المطبعة.. وسرعان ما ظهر وهو يجر (جاك)..
ورأته يهرع إلى النافذة، فيتأكد من أن أحدا لا يراه.. يتظاهر بأخذ شهيق عميق ثم يصدر زفيرا هائلا فتخرج من صدره سحابة من الدخان الأسود الكثيف.
لقد استنشق النيران والدخان في رئتيه! هذه هي الطريقة التي قرر أن ينقذ الموقف بها دون أن يفضح سره..
ويعود إلى الردهة حيث احتشد المحررون حول (جاك) و (ريتشارد).. فيتأكد من أن التنفس الصناعي يجري بنجاح..
يقول له أحد المحررين وهو يمسح رأسه:
- كان هذا حظا سعيدا يا (كلارك)..
فيقول (كلارك) وهو يتظاهر بالارتباك.. يمثل دور رجل جبان فوجئ بكارثة لم يتوقعها:
- لقد انطفأت النار فجأة.. لا أدري السبب.. لا بد أنه العرق الذي سال مني!
فيقهقه الرجال في مرح.. ويقول أحدهم:
- لكنك أنقذت الرجلين.. صحيح أنك فعلت هذا بعد ما انتهى الحريق لكنه عمل لا بأس به..
- إن المواقف الحرجة تظهر الرجال..
هنا تدنو هي منه.. فتجذبه من ذراعه منتحية جانبا.. وتقول هامسة:
. كان هذا رائعا.. والآن جاء دورك كي تنجو بنفسك...
- حالا.. حالا
وتنظر إلى ساعتها.. قد ضاع وقت كثير.. لم يعد باقيا له سوى دقائق.. ربما لو أخبرته بكيفية اغتياله لأحسن الاحتياط.. ربما لو نصحته بأن..
هنا صاح أحد المحررين وهو يشير لنهاية الردهة
- هناك دخان آخر.. لكنه.. لكنه دخان أحمر!
ينظر الجميع نحو موضع إشارته.. وتهمس هي ل (سوبرمان):
- هذا هو.. أسرع بالهرب أرجوك!
فيتركها ويركض نحو غرفة جانبية ليستبدل ثيابه تلحق به هناك لتجده واقفا أمام النافذة يرمق الضباب الأحمر الذي يتسرب منها.. والذي بدأ يفعم الحجرة..
كان بثياب (سوبرمان) الكاملة.. وما إن سمعها تدخل حتى هتف:
- هذا الضباب.. إنهم يعفرون الجريدة ب (الكربتونيت)!
كاد يغمى عليهما حين تذكرت هذا الموقف..
لقد عاشته للمرة الثانية..
والآن كانت تعرف أنها ستعيش الماضي – ذات الماضي - بكل تفاصيله.. إن كل ما في الماضي من قسوة يتكرر..
هرعت إلى قمة البناية متوقعة تغييرا ما..
لكنها رأت ذات المشهد.. الصراع.. اللص الذي يحمل الكاميرا.. سقوط (سوبرمان) فاقدا لقواه.. الطائرة تقلع به.. بكاؤها جاثية على ركبتيها
وأخيرا - منهوكة القوي - نزلت في الدرج لتغادر الجريدة.. إن الماضي لا يمكن تغييره.. ولا يمكن إحياء من مات..
لقد عرف هذا الدرس (سوبرمان) منذ زمن..

واليوم جاء دورها كي تعرفه بطريقة عملية مريرة..
كانت سيارتها في المرآب فاستقلتها هذه المرة لتخرج بها من المدينة قاصدة وكر الثوار إياه..
وفي الطريق كانت تسمع الأخبار وتسمع القوم يتكلمون عن ظهور (لوثر) على شاشات التلفزيون..
دخلت آلة الزمن.. وكادت تضغط الأزرار التي تعود بها إلى اللحظة التي جاءت منها
ثم خطر لها أن تجرب من جديد..
أدارت القرص ليعود بها إلى ما قبل مصرع (سوبرمان) بعشر ساعات.. يبدو هذا مناسبا لأنه سيكون معها في المكتب في هذا الوقت بالذات
ستحذره بكلمات سريعة هستيرية، ولسوف يتغير كل شيء حتما
ضغطت الزر وراحت تنتظر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبعا سيكون مملا أن أعيد وصف المشهد للمرة الثالثة..
نعم.. ففي هذه المرة لم يكن هناك حريق في جريدة (ديلي بلانت).. لكن هناك زلزالا رهيبا في (اليابان).. زلزالا شريرا من النوع الذي يقتل الأطفال ويغوص بالأمهات ويقذف الأحجار على رءوس الشيوخ.. إن (اليابان) لن تتخلى كما يبدو عن هذه العادة الذميمة: عادة الزلازل.. وما كان (سوبرمان) ليستطيع ألا يتدخل حتى لو كان في هذا افتضاح سره..
الحق أن عملية الإنقاذ استغرقت عشر ساعات إلا قليلا، وحين عاد ليسأل (عبير) عن الموضوع المهم الذي تبغي مفاتحته فيه؛ كان الضباب الأحمر يفعم الردهة
و... تكرر المشهد الدامي من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كفت (عبير) عن المحاولة..
فهي - مهما كان غباؤها - أذكى من سلحفاة الصحراء التي تمضي يوما كاملا تنطح صخرة في طريقها، دون أن يخطر ببالها الدوران من حولها..
لقد أدركت أن تحدي الصخر وهم..
الماضي لا يمكن تغييره.. ولفظة (لو) مضيعة للوقت إلى جانب فتحها بابا للشيطان.. إنها - كالدموع - لا تنقذ شيئا..
لهذا أدارت المؤشرات لتعود إلى الحاضر..
وضغطت الزر الأحمر في آلة الزمن، وهي تلعن مخترعها واللحظة التي اخترعها فيها.. فالأمل الكاذب قاس حقا..
لا بد من ممارسة اللعبة بقواعد الحاضر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- محاولة جريئة أخرى..

- سألها (كينج كونج) غير مصدق:
- إذن.. فالماضي لا يمكن تغييره..
قالت وهي تنظر لساعتها:
- قالها (سوبرمان) مرارا.. لكن لا بد من أن تجرب لترى بنفسك..
وأثار دهشتها أنها لم تتأخر في الماضي سوى خمس دقائق بمقاييس الحاضر هذا طبيعي.. لقد اختارت ذات اللحظة التي بدأت السفر فيها..
قال (تان تان) وهو يمسح بيده على شعره البنى المشعث:
- وهذا الجهاز بلا قيمة إذن؟
- يمكنك أن تستخدمه للتحقق من الغاز التاريخ إنه يصلح للدراسة.. لكنك لن تستطيع تغيير أي شيء..
ثم توقفت عيناها على المدعو (توم)..
إنه يرتدي العوينات.. وله قامة وملامح تشبه (كنت) إلى حد ما.. خطرت لها فكرة لا بأس بها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت مركبة (جو القذر) في شوارع المدينة يملؤها أوغاد يبحثون عن فرصة ما: وهي لحظات يعرفها أهل المدينة، ويعرفون أنه من الخطر الداهم أن يرى هؤلاء عجوزا واهنا، أو حسناء رشيقة، أو ثريا يوشك على ركوب سيارته الفارهة..
كانوا يشربون علب الجعة بغزارة، ويطلقون الرصاص في الهواء بغزارة أكثر..
وفجأة ضغط السائق على الفرملة.. ي ي ي ي!
فاصطدمت وجوه الأوغاد بالمقاعد التي أمامهم وأطلق أحدهم سبة على حين صاح (جو القذر) وهو يبصق سيجاره، ويصلح من وضع عصابة عينه السوداء:
- ماذا دهاك أيها الجحش؟ هل جننت؟
قال السائق مذعورا وهو يشير لأعلى:
- معذرة يا سيدي مدير الأمن.. لقد رأيت هذا!
رفعوا عيونهم إلى الاتجاه ذاته فرأوه..
كان هو (سوبرمان) بشحمه ولحمه.. يقف على بناية منخفضة تعلو حانوتا صغيرا، وقد وضع قبضتيه في وسطه، وعباءته تتطاير مع الريح وخصلات شعره تنحدر في شمم على جبينه.. الحق أنه بدا كملصق لأحد أفلام (سوبرمان) أكثر منه حقيقة واقعة..



كان هو (سوبرمان) بشحمه ولحمه .. يقف على بناية منخفضة تعلو حانوتًا صغيرًا ..

هتف (جو القذر) في توحش
- مهرج! أي أحمق يستطيع شراء هذه البزة من تجار الأشياء الممنوعة!
ثم أشار إلى الأمام في صرامة
- أطلقوا الرصاص يا شباب! تخيلوا أنه عيد الاستقلال!
- يا هوووووه!
وانطلقت الرصاصات نحو الرجل الواقف.. لكنه ظل كما هو: رجلا واقفا.. ابتسامة مستخفة على شفتيه، بل إنه تثاءب للحظة فغطى فاه بظهر كفه كأنما يعتذر عن نومه في أثناء المحادثة.
بوم.. طاخ.. راتاتاتاتا! بوم! فلام!
مهرجان من الطلقات لم ينته إلا حين أحس القوم أن الأمر لا مزاح فيه.. هذا الرجل لا يخترق الرصاص جسده حقا..

قال في مرح بصوته المجلجل:
- انتهى دوركم يا شباب وجاء دوري!
واتسعت عيناه..
على الفور شعر اللصوص في السيارة بأن شيئا ليس على ما يرام.. إن أسلحتهم تسخن إلى حد غير معق.. لا.. ليس هذا وهما.. إن الأسلحة تلتهب في أيديهم نارا.. هذا حق!
وصرخوا وهم يرمونها بعيدا.. وكان الوقت كافيا قبل أن تنفجر بما فيها من ذخائر على قارعة الطريق..
صاح (سوبرمان) ملوحا بقبضته:
- اذهبوا ل (لوثر) وقولوا له إن عهده انتهى..
فقط في اللحظة التي أحددها أنا..
وأمام عيونهم المذهولة ارتفع محلقا في السماء، وهو لا يكف عن القهقهة.. ضحكة انتصار واثق..
إن وجوه رجال (جو القذر) لتعبر عن البلاهة خير تعبير...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الكوخ الذي اتخذه الثوار الأربعة مقرا لهم جلست (لارا) تتأمل تنكر (توم) الذي لم يكن أسطوريا لكن لا بأس به.. كان قد خلع عويناته وارتدي ثياب (سوبرمان) كاملة، طبعا كانت هناك عدة ألعاب تكنولوجية خاصة بالبروفسور (هاوسمان) قبل أن ينتزعوا أظفاره..
فمثلا هناك شعاع الليزر الحراري الذي يصوب من حزام البذلة ليحرق الأسلحة، والجهاز المضاد للجاذبية الذي يتيح تحليقا حرا لمدة خمس دقائق..
بعض الابتكارات فكرت فيها (لارا) / (عبير) في وقتها.. مثل الزجاج الواقي للرصاص الذي ثبتوا حاجزا منه فوق البناية، ووقف (سوبرمان) المزعوم خلفه وهو يتكلم..
إن اللصوص الأغبياء يكونون - والحق يقال - أغبياء.. ولو كان أحدهم قوى الملاحظة لرأي علامات الرصاص الشبيهة بالدوامات على الزجاج..
وكان هذا سيفسر كل شيء..
لكن الخدعة كانت كافية، والآن يركض اللصوص مولولين نحو (لوثر) - كما تفعل الكلاب الصغيرة بعد ركلها - ليقولوا له إن (سوبرمان) عاد للحياة..
لحسن الحظ أننا سرقنا جثة (سوبرمان) من مكانها.. سيعطينا هذا مصداقية أكبر..
قال (كنج كونج) وهو يشعل سيجارا:
- هكذا تكون الأمور.. (سوبرمان) يظهر في عدة مواضع وتكثر الأقاويل ويرتجف اللصوص..
أضافت (عبير):
-.. ولن يصدق (لوثر) حرفا لأنه أذكي من هذا..
قال (توم) وهو ينزع عباءته ويلتقط أنفاسه:
- إن كل هذا الذي نقوم به عبث.. فهو لن يحرر الأرض ولن يقتل (الوثر).. مجرد جعل حياة (لوثر) مريرة لا أكثر..
قالت (عبير) وهي تجرب العباءة على كتفيها:
- هذا حق.. لكنه سيجعل عصابات (لوثر) أقل حرية، ولسوف يتعذبون في كل لحظة يمارسون جرائمهم فيها.. متوقعين أن يثب عليهم (سوبرمان) من السماء..

وتنهدت وقالت نصف شاردة الذهن:
- هذا طبعا - توطئة لأن أغتال (لوثر).
فأنا الوحيدة القادرة على ذلك..
- ولماذا لا تفعلين؟
- إنه الخوف.. الجبن كما تعلمون.. لكنى سأهزمه لا محالة..
ونظرت إلى (توم) باسمة، وسألته - هل كنت خائفا؟
- فقط بمقدار الخوف الذي يشعر به أي امرئ يرى ست بنادق آلية مصوبة نحوه.. خاصة وهو لا يثق بموضوع الزجاج المصفح هذا..
ضحكت وقالت:
- هذا حسن لأنك ستظهر ثانية مساء الغد.. في نفس الدور
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
كان موكب (لوثر) يشق شوارع العاصمة، تتقدمه الدراجات البخارية التي يطلق راكبوها الرصاص على كل من لا ينحنى احتراما..
وفي المقعد الخلفي لسيارته (المرسيدس) السوداء التي أهداها له حاكم ولاية (ألمانيا)؛ جلس (لوثر) يشرب الشمبانيا.. وجواره (لارا) المتحدثة الرسمية باسمه.. كان غاضبا بعض الشيء يقول والرغاوي البيضاء تحتشد على ركني فمه:
- (سوبرمان) عاد للحياة؟ أي هراء! الموتى لا يعودون للحياة حتى ولو كانوا من (كربتون).. فقط (الزومبيون) في قصص الرعب يفعلون ذلك..
قالت (لارا) وهي تراجع الأوراق التي تحملها:
- ربما.. لكن هذا الهراء يطير ولا يقتله الرصاص..
- إن هذه الحيل بسيطة جدا.. ولا تخدعني..
ثم أردف وهو يصب مزيدا من الشراب في كأسه:
- لماذا لم يفعل كما يفعل (سوبرمان) دائما؟
لماذا لم يحلق في الهواء ويقلب عربة (جو القذر) بمن فيها، ثم يهشم الأسلحة فوق رءوسهم؟
لأنه - هذا ال (سوبرمان) المزعوم - كان أقرب إلى ممثل المسرح الذي يجب أن يبقى بعيدا عن الجمهور؛ حتى لا يفتضح (الماكياج) البدائي الذي يضعه..
ابتلعت كلماتها.، ومن جديد شعرت برهبة..
إن مشكلة هذا الوغد هي ذكاؤه.. ذكاؤه الخطر.. ذكاؤه المبالغ فيه
كان المطر ينهمر فى غزارة، وغدت الطرقات أقرب إلى بركة زلقة تلتمع عليها كشافات السيارات عديدة الألوان..
وفجأة توقف الموكب..
دنا أحد الحرس الشخصيين للحاكم العام، فانحني جوار زجاج النافذة.. ضغط (لوثر) الزر ليهبط الزجاج ببطء..
قال الحارس وهو يخرج السماعة من أذنه:
معذرة سيدي.. ظننا أنك ترغب في رؤية هذا..
وأشار لأعلى..
الحق أن المشهد كان يستحق الرؤية.. مشهد (سوبرمان) الذي يحلق فوق الرءوس وهو يلوح للجماهير التي احتشدت برغمها تحت الأمطار..

إنه هو! هل هو طائر أم طائرة؟ لا.. إنه (سوبرمان)! وتعالى هتاف الجماهير.. الكل يرفع وجهه وسط خيوط الماء المنهمرة من مظلته أو قبعته ويصرخ في فرح.. إلى أين أنت ذاهب؟ تعال وخلصنا مما نحن فيه...
في جنون صاح (لوثر):
- المهرج السافل!
ووثب من العربة.. وصرخ في حارسه الخاص:
- هات هذه!
وانتزع المدفع (العوزي) من يد الحارس، وصوبه للسماء وراح يضغط الزناد في جنون لتدوي الطلقات في كل صوب:
- خذ هذه وهذه! سأريكم أنه يموت كأي كلب ضال!
لكن (سوبرمان) واصل تحليقه مبتعدا..
هنا كان الحراس الآخرون قد تحمسوا، فراحوا يطلقون الرصاص بدورهم على الهدف الطائر..
رائحة البارود والأمطار والرؤية العسيرة..
دنا الحارس الأول من (لوثر) وهمس في أذنه:
- سيدي.. هلا ركبت السيارة حالا..
- لمه؟
- إن الجماهير تثور.. يبدو أن شغبا سوف....
كان ذلك حين هوى قالب من القرميد على رأس الحارس، فهوى على الأرض لتختلط الدماء بالأوحال..
نظرت (عبير) إلى المشهد فشعرت بأن (جهنم) تتحقق على الأرض.. مئات - بل آلاف - البشر يجلجلون في غضب، ويتقدمون من الموكب، وتطايرت قوالب القرميد التي يكفي عددها لبناء هرم رابع..
ركب (لوثر) السيارة وهو يصدر اللعنات، وأمر السائق بالتحرك.. على حين راح حراسة يفرغون طلقاتهم في كل من له صدر أو بطن من الثائرين..
نظرت (عبير) إلى الوراء عبر الزجاج المبتل، وأحست أنها ترى كابوسا ممطرا.. وفي الآن نفسه أدركت أن أمر الحراس قد انتهى.. فالجمهور سيمزقهم إربا ما إن تنتهي طلقاتهم واختلست نظرة إلى (لوثر) الذي كان يردد دون كلل:
- الأوغاد! الدهماء! سأريهم!
ثم رفع سماعة الهاتف طالبا الاتصال بالجنرال (قنبلة) قائد الجيش.. فما إن جاءه صوته حتى صاح:
(قنبلة)! أريد بعض طائرات (إف -16) لتقصف وسط العاصمة! أريد كثيرا من الدماء والرماد..
- لكن هذا يا سيدي
- اخرس! أريد أن تكرر ما فعله (هتلر) ب (وارسو)..
- لكن (هتلر) لم يقصف مدينة ألمانية.. ولكن حسن يا سيدي.. الأمر ما تقول..
وابتعدت السيارة، ولوت (عبير) عنقها لترى الانفجارات والدخان يتصاعد إلى عنان السماء..
كان (لوثر) هو أول دكتاتور يحرق عاصمته منذ عهد (نيرون)، إن لم تكن معلوماتي التاريخية قد خانتني..
ومثل (نيرون) كانت نهايته دانية..

كانت موقنة بهذا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



8- كندور..

اترك التفكير يا صديقي واتبعني..
إن (لوثر) سيفكر بدلا مني ومنك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضغطت على زر جهاز (الكتوم) ثم قادت سيارتها خارجة من المدينة، قاصدة ملتقى الثوار..
كانت - في كل مرة - تخشى أن يعرف ذكاء (لوثر) الرهيب حيلتها، لكنها كانت مطمئنة هذه المرة..
فهو في حالة نفسية سيئة.. إن تأثير غضب الجماهير عليه كان ساحقا، وهو - ككل الطغاة – يثير جنونه أن يرى قدرة الناس على إظهار حنقها بعد ما حسب أنه روضهم تماما.. إنه دكتاتور لا يتظاهر بالديموقراطية، وهو لا يتوقع أن يهيم به الناس حبا..
لكنه لم يتخيل للحظة واحدة أنهم يمكن أن يظهروا عداءهم له بهذا الوضوح وهذه الجرأة.. وإلى حد تمزيق حراسة.
«الويل لي لو وقعت في أيديهم!».. هكذا كان يفكر ليل نهار.. وهكذا صار أقل ميلا لمغادرة البيت الأبيض.. وصار أكثر عدائية.. لكن - نشهد له بهذا - لم يصدق قط موضوع (سوبرمان) المزعوم هذا...
رجاله صدقوا.. وصاروا أقل حماسا في إظهار شرهم.. وكما قال (جو القذر) ذاته همسا:
- لو أن (سوبرمان) حي فما زالت أمامنا الفرصة كي نظفر بالسجن المؤبد بدلا من الكرسي الكهربي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان هذا شعور رجاله جميعا..
وقد منحهم (لوثر) مجاملة يستحقونها، هي أنه وزع عليهم قنابل (الكريبتونيت).. يكفي الواحد منهم أن يقذفها على (سوبرمان) كي تنتهي مشاكله للأبد..
كان (لوثر) مضطرا لهذا الحل وإلا تمرد رجاله عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت (عبير) المقر الذي تلقى فيه (كنج كونج) ورجاله..
وقالت لها الوجوه الواجمة إن كارثة ما قد حدثت..
طبعا حدثت كارثة.. وإلا من يخص هذا الجسد المغطى بملاءة بيضاء انتشرت عليها البقع الحمراء الدامية؟
نظرت للوجوه.. (كنج كونج).. (جيري).. (تان تان).. من ينقص هذه المجموعة؟
سألت عيناها (كنج كونج): إذن فقد أصابوه؟
قالت عيناه الدامعتان: نعم.. لكنه استطاع أن يطير إلى هنا..
سألته عيناها المغرورقتان: «كم طلقة أصابته؟»
قال وهو يدفن وجهه في راحتيه:

- كففنا عن العد بعد الطلقة الخمسين!
- إذن كان (لوثر) ورجاله يطلقون الرصاص على جثة طائرة؟
- نعم.. لكنهم لم يعرفوا هذا لحسن الحظ..
انفجرت في البكاء وتهاوت جوار الجثة الدامية:
- هذا ذنبي أنا.. لقد اقترحت عليه أن يطير فوق موكب (لوثر) ليعطي تأثيرا قويا.. وما كان بوسعه أن يحتمي بالزجاج المضاد للرصاص مسكين يا (توم)!
قال (كنج كونج) في أسى:
- لقد كان يرتدي درعه المضاد للرصاص
لكن الرصاص يخترق الرءوس أيضا..
- لا حل سوى أن نعتمد على أنفسنا في الثوغة!
كانت هذه من الفرنسي طبعا.. لكن (عبير) قالت في وهن:
- إن هذا سيكلفنا دماء كثيرة.. وما زلت أعتقد أننا نستطيع أن نستغل (سوبرمان) أكثر..
- ماذا تعنين؟
- سأشرح لكم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخرجوا جسد (سوبرمان) من عربة الإسعاف، بينما عدد من المسلحين يقف ليراقب الطريق.. لحسن الحظ لم يكن هناك واحد من زبانية (جو القذر)..
كان الجسد بحالة جيدة إذا ما تجاوزنا عن اللون الأخضر الذي يصبغ البشرة كلها.. وقد استنتجت (عبير) أن لأبخرة (الكربتونيت) خاصية حافظة تمنع تعفن النسيج العضوي..
انطلقت عربة الإسعاف مبتعدة، على حين حملوا الجسد العملاق إلى الداخل، وقد أضفى وجوده رهبة صامتة على الموجودين سألها (كنج كونج) وهو يريح الجسد على الأريكة:
- ستفشل هذه المحاولة بدورها.. فلم لا نختصر الجهد؟
قالت وهي تتحاشى النظر إلى وجه المتوفي:
- إن هذا يستحق المحاولة



ثم إن (عبير) خطت فوقها لتتبوأ مقعدها أمام أقراص التشغيل ..

وتعاونوا على حمل الجسد إلى القاعة الجانبية حيث تنتظر آلة الزمن الكروية إياها.. وكانوا قد أعدوا الفراء والطعام..
فتحوا الباب وحشروا الجثة داخل الكرة حشرا.. ثم إن (عبير) خطت فوقها لتتبوأ مقعدها أمام أقراص التشغيل..

قال لها (جيري) وهو يغلق الباب وراءها
- عودي لنا حية.. إن فقدك سيجلب لنا الدمار..
- الأهم أن أعود مظفرة..
انسحبوا من القاعة.. فأخذت شهيقا عميقا وتأملت الأقراص.. إن آلة الزمن تتحرك في الزمن جيئة وذهابا بسرعة البرق المطلوب في هذه المرة أن تتحرك آلة الزمن في المكان كذلك بنفس السرعة وهو ما أنجزه الثوار خلال أسبوع..
في الماضي كان الوصول للقطب الشمالى يحتاج إلى رحلة شاقة بالطائرة ثم بالزحافات التي تجرها كلاب (الهكسي).. أما اليوم فهي تستعمل تكنولوجيا د. (هاوسمان) التي طورها تلاميذه..
أدارت القرص في اتجاه الشمال، ثم ضغطت الزر الأحمر..

الآن تشعر بأنها في فقاعة هوائية تحلق في الأجواء..
فقط هي واثقة من أن الفقاعة لن تنفجر..
هي ذي (ألاسكا).. ثم مضيق (ماكلور).. ثم الجليد.. الجليد في كل مكان.. أبيض لا نهاية له وارتجفت لمجرد رؤية المشهد..
مدت يدها إلى معطف الفراء ذي القلنسوة فارتدته، ودست يديها في القفازين السميكين، واختلست نظرة إلى الجثة ذات الوجه الأخضر التي ترمق السقف بعينين لا تريان..
ارتجفت أكثر فأكثر..
والآن ترى القطب الشمالي الرهيب من أعلى جبال الجليد حيث تجمد مئات المستكشفين..
والوديان المتجمدة حيث تزأر الدببة القطبية بانتظار أن تطل الفقمات من فتحاتها..
راحت تداعب القرص بخفة وعيناها تفتشان عن قلعة (سوبرمان) السرية.. القلعة التي زارتها معه في تلك الليلة..
إنها لم تنس منظر الجبل الذي تغفو القلعة فوقه..
استغرق البحث عشر دقائق حتى وجدتها تعلم أن الفتحة في الباب العملاق تسمح بدخول كرتها
لقد وصلت إلى هدفها أخيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت القلعة مضاءة من الداخل بوهج فوسفوري ينبعث من الماسات التي جلبها (سوبرمان) كوكب (سيركاس)..
الجدران الجليدية تشع برودتها القاتلة في مسام جلدها.. مكان لا يستطيع سوى (سوبرمان) أن يعيش به..
قالت للقلعة بصوت حاولت أن يكون ودودا:
- صبرا يا صغيرتي.. إن سيدك عائد قريبا . .
ومشت بين الأجهزة التي تفعم المكان..
ها هي ذي ضالتها.. الزجاجة العملاقة التي تغفو بداخلها مدينة (كندور).. جهاز التدفئة وجهاز الأكسجين يعملان بكفاءة تامة في إمداد المدينة باحتياجاتها..
وتذكرت ما حكاه لها (سوبرمان) عن المدينة..
لقد تعرضت لإشعاع تقليص سلطه عليها مجرم فضائي، وكان إثر هذا أن صارت المدينة العملاقة في حجم رقعة الشطرنج.. وكان (جور - آل) أبو (سوبرمان) هو الذي وضعها في هذه الزجاجة على أمل أن يجد طريقة لاستعادة حجمها الأصلي.. لكن القدر لم يمهله، وانفجر (كريبتون) بمن عليه.. واضطر (جور - آل) إلى إرسال الزجاجة إلى الأرض في نفس الصاروخ الذي أرسل ابنه الرضيع عليه..
ومن يومها تعيش (كندور) في قلعة (سوبرمان) بلا أمل....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان جهاز الإشعاع يقف جوار المنضدة التي وضعت عليها (كندور).. جهاز إشعاع للتقليص، استطاع به (سوبرمان) مرارا أن يدخل الزجاجة ليزور أهل (كندور)..
كيف كان يستعيد حجمه بعدها؟ لا تدري.. ربما تعرف من أهل (كندور) أنفسهم..
المهم الآن أن هناك حقيقة واحدة: هذه الزجاجة تحوي الأحياء الوحيدين الباقين من

(كريبتون)..
ولو خرج أحدهم منها لصار (سوبرمان) الجديد..
بل إنه. وهذا أفضل - من المحتمل أنهم يعرفون كيفية إعادة (سوبرمان) إلى الحياة..
لاهثة راحت تجر جسد (سوبرمان) العملاق إلى مجال جهاز الأشعة.. سال العرق من جسدها وعلى جبينها، وتجمدت القطرات على أهدابها وحاجبيها لكنها تماسكت..
وأخيرا ألقته إلقاء على المنضدة، وسقطت فوقه وهي تغمغم:
- عليك اللعنة! إنك ثقيل كالخرتيت...
وبيد منهكة ضغطت زر الجهاز، وتركت الإشعاع يغمرها دون أن تحاول التحرك
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
لم يحدث شيء..
ما زال (سوبرمان) ممددا تحتها وهو ينظر لسقف القلعة الجليدي في غباء.. وما زال..
لحظة! هذا الجبل الجليدي لم يكن بجوارها.. وهنا تذكرت أن هذه كانت مجرد قطعة جليد صغيرة بحجم ظفر اليد.. كانت هنالك على المنضدة جوارها حين بدأت التجربة..
ورفعت عينا مذهولة لترمق القلعة.. القلعة التي تحولت إلى كون شاسع بالنسبة لها.. إذن فهو يعمل! لقد قلصها الإشعاع هي و (سوبرمان) حقيقة.. والأرض الخشبية الخشنة التي تقف فوقها هي ذات المنضدة التي كانت تراها ملساء..
سيكون لديها وقت كاف لتندهش لهذا الشعور فيما بعد؛ أما الآن فواجبها أن تتسلق لأعلى حاملة جثة (سوبرمان) إلى أن تجد فتحة تسمح بدخول الزجاجة. كلا.. لن تقدر.. على (سوبرمان) أن يبقى هنا..
كانت الزجاجة العملاقة - التي صارت الآن في حجم يسمح بأن يستوعب مدينة كاملة - على جانبها.. واستطاعت (عبير) أن ترى خرطوما هائلا في حجم
أضخم خط أنابيب بترول يمكن تصوره، يدخل من قطعة الفلين التي تسد عنق الزجاجة.. هذا هو خط الأكسجين الذي يسمح للمدينة بالتنفس..
كانت هناك فتحة عملاقة أخري واضح أنها لخروج الهواء من المدينة.. كما كان هناك خرطوم عملاق آخر يخرج من جانب الزجاجة يبدو أنه يلعب دور الصرف الصحي للمدينة.
قررت أن أنسب الفتحات هي فتحة خروج الهواء..
بدأت تتسلق خرطوم الأوكسجين العملاق.. كان غليظا لدرجة أن المشي فوقه كان هينا وبالطبع كان عليها أن تترك الجثة بالخارج.. ووصلت إلى
عنق الزجاجة فدخلت فتحة الخروج، التي كان حجمها يفوق (بوابة المتولي) عشر مرات..
إنها تمشي الآن في عنق الزجاجة حرفيا..
ثم جاء الجزء المنزلق لأسفل فتركت نفسها تنحدر.
الحق أن فارق الحجم كان مروعا لأنها ظلت تتدحرج حول نفسها لمدة ربع ساعة..
في النهاية وجدت أنها ممددة على الكلأ.. وعلى مرمى البصر تقف مدينة (كندور) تنتظر، غارقة في الشمس الصناعية الحمراء التي تعكسها مصابيح هائلة الحجم تضيء نهارا وتنطفئ ليلا..
نظرت لأعلى وأدركت أن العودة عسيرة حقا..
إن الهبوط على سطح منحدر من الزجاج لهو أهون بالتأكيد من تسلقه.. يجب أن يزودها أحد بممصات كالرجل العنكبوت كي تنجح في العودة..
لكنها - برغم غرابة الموقف - كانت مستمتعة بكل شيء.. فما دام الهدف من (فانتازيا) هو أن

تحلم فبوسعها أن تستمتع بكل هذا..
وأخيرا رأتهم واقفين يرمقونها في ذهول.. ستة من أهل (كندور).. كانوا يشبهون أهل الأرض تماما.. لكن ثيابهم مختلفة أقرب إلى ثياب لاعبي
(الكونج فو) أو (الجيدو) في عالمنا..
ووجف قلبها وهي تذكر نفسها بأن هؤلاء مخلوقات من الفضاء.. آخر الناجين من (كريبتون)..
دنا منهم أحدهم.. وبصوت رخيم سألها سؤالا حاسما:
-!؟ يا # $!؟؟ ذذ؟
آه! لقد نسيت حاجز اللغة.. طبعا هنا يصعب أن تتوقع إجادة هؤلاء القوم الإنجليزية أو الفرنسية، ومن الوارد أنهم لا يستعملون ذات إشاراتنا الإيمائية على الأرض..
قالت محاولة أن تبدو واضحة:
(سوبرمان).. هل تعرفونه؟ ابن (جور - آل).. إنه في مأزق.. كنت أريد العون..
تبادلوا النظرات.. كانت قسماتهم دقيقة جدا وأقرب إلى الجمال المثالي بالنسبة لنا نحن سكان الأرض..
أخيرا قال أحدهم بصوت رخيم هادئ:
- إننا نعرف هذه اللغة يا امرأة.. لقد تعلمناها من مراقبة (سوبرمان) على شاشة الراصد..
ثم انحني نحوها يتأملها في اهتمام:
- تقولين إنه في ورطة.. هل تعنين أنه جريح؟
في حرج قالت:
- بل أسوأ.. أعتقد أنه.. احم.. ميت!..
اتسعت عينا الرجل ذهولا، واستدار لينقل الخبر للآخرين بلهجة ملهوفة، فتصاعدت الكثير من الآهات وال (أوه) وال (ياه).. على حين عاد الرجل يسألها وقد اتخذ سيماء من يعرف ما ينبغي عمله:
- أين هو؟
أشارت لأعلى وغمغمت:
- خارج الزجاجة.. (كريتونيت)..
. حسن.. الحقي بنا إلى المدينة.. وسنرسل
نحن طائرة حلقية كي تجلبه ها هنا..
وهتف آمرا امرأة تقف بقربه:
- (كليا).. اطلبي مجلس الحكماء حالا!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الصفقة..

يتكون مجلس الحكماء في (كندور) من ثلاثين شيخا ممن تجاوزوا الأربعمائة عام في السن.. فهذا السن يعني بلوغ ذروة الحكمة بالنسبة لأهل (كريبتون)، خاصة وأن تقدم الطب جعل كلمة (خرف الشيخوخة) لفظة من تراث الماضي..
وكان أعضاء المجلس يضعون خوذات التخاطر ويفكرون جميعا في حل أية مشكلة تعرض عليهم، وتصب الخوذات جميعا في جهاز حاسب آلى يقوم بترشيح الإجابات واختيار أفضلها.. ثم ينطق بإجابة وحيدة وافية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تكن (عبير) بالخارج لترى ذلك المشهد الذي لا يصدق.. مشهد الطائرة الحلقية - وتشبه مقعدا فوقه ضفيرة حلزونية لا تكف عن الدوران – وهي ترتفع لأعلى لتغادر الزجاجة.. ثم يلتقط طيارها جسد (سوبرمان) ليضعه على ركبتيه، ويرتفع من جديد عائدا إلى الزجاجة..
لم تر هذا المشهد، ولو رأته لتساءلت: ما دام أهل (كندور) يغادرون زجاجتهم بهذه السهولة، فما هي المشكلة في خروجهم إلى العالم الخارجي؟
كانت الإجابة ستكون: إن إشعاع التكبير لا توجد منه سوى جرعات معدودة لا تكفي إلا لرحلات (سوبرمان) من وإلى الزجاجة، ولو غادر أحد سكان (كندور) زجاجته لصار خارق القوي، لكنه سيظل بحجم نملة.. مجرد نملة خارقة..
ثم إن هواء الأرض المفعم بالنتروجين لا يناسب رئات سكان (كندور)، الذين اعتادوا على استنشاق تركيز مائة بالمائة من الأوكسجين..
لهذا رضى هؤلاء القوم بحياة النمل التي يعيشونها في زجاجتهم، واعتبروا (سوبرمان) - ابن كوكبهم - أبا وراعيا لهم..
وكانوا يعرفون أنه لن يتخلى عنهم أبدا..
لهذا كانت صدمة وفاته أقرب إلى صدمة وفاة أب للجميع.. وأول ما يفعله المصدوم هو تصرف بسيط جدا: لا يصدق..
لم يصدقوا ما حدث
فقط حين تمدد الجثمان الأخضر أمام مجمع الحكماء، أدركوا الحقيقة.. فهم كانوا يموتون في (كندور) ويشيخون، لكنهم كانوا يعرفون الخواص المنيعة للشمس الصفراء، ويتوقعون أن يعيش (سوبرمان) بعدهم جميعا..
يا للكلمات التي قيلت.. والأشعار التي ألقيت على الجثمان إلقاء! لقد نجحوا فقط في جعل (عبير) تسكب لترين من الدموع، وكانت تتوقع أن يقدموا لها حلولا باترة..
أخيرا صدر صوت الحكمة من الحاسب الآلي الذي يمحص الآراء.. قال بصوت الى رتيب:
- لقد هلك (سوبرمان) جزاء شجاعته..
نظرت (عبير) إلى صفوف الشيوخ الذين جلسوا كما في مدرجات الكرة، والخوذات على رءوسهم فبدوا كقردة عجوز تنظر من فوق غصون الأشجار إلى وافد جديد..
قالت في حنق
- هل هذا هو كل ما لديكم؟..
قال الصوت برتابة:

- نحن نسير قدما إلى المخطط الذي وضعه (سوبرمان) بنفسه.. المباريات الأوليمبية بين شباب (كندور) من أجل اختيار أفضل شبابنا وأقواهم..
هذا الشاب سيرتدي ثياب (سوبرمان) ويخرج من الزجاجة، ثم ينال واحدة من الجرعات الخمس الباقية من أشعة التكبير.. وهكذا يولد (سوبرمان) جديد!
بدت الفكرة جيدة بالنسبة ل (عبير).. على الأقل هي تعيد السلام إلى الأرض بعد طول غياب، وإن لم تعد لها (سوبرمان) الأصلي الذي أحبته
قالت في شيء من حماس:
- لا بأس.. متى يبدأ هذا؟
- بمجرد أن تنتهي إجراءات الدفن..
هنا نهض أحد المواطنين من مقعده، ولوح بيده:
- المواطن (جيربال) يطلب الكلمة..
كان هذا المواطن (جيربال) عجوزا، محنى القامة، له رأس عملاق، أصلع، احتقن بالأوردة.. وتساءلت (عبير) عن سبب عدم انضمامه إلى مجلس الحكماء ما دام تجاوز - بالتأكيد - ألف عام من العمر..
قال (جيربال) بصوت يناسب مظهره:
سادتي الحكماء.. قبل أن ندفن ابن (جور - آل) العظيم أرى أن نجرب شيئا.. اختراعا ابتكرته منذ أعوام وعرضته على (سوبرمان)..
لكنه رأى فيه خطرا أي خطر.. إن هذا الجهاز يدعي (كربتوكلير).. وهو قادر على تصفية (الكريبتونيت) من دم ضحاياه..
- فليوضح لنا المواطن وجهة نظره أكثر..
نهض (جيربال).. وتقدم بخطا متعثرة كليلة ليقف أمام المجلس.. وأمام جثمان (سوبرمان)..



نهض (جيربال) .. وتقدم بخطا متعثرة كليلة ليقف أمام المجلس .. وأمام جثمان (سوبر مان) ..

تذكرت (عبير) لوحة (درس في التشريح) التي رأتها لرسام نسيت اسمه [1].. كان المشهد شبيها بهذا إلى حد ما..
قال (جيربال) بصوته الواهن الرقراق:
- تلاحظون يا سادة أن جسد (سوبرمان) لم يتعفن.. وهذا يخالف كل قوانين الطبيعة التي تنطبق على أهل الأرض وأهل (كربتون) سواء.. الحقيقة أنه لم يمت.. إنه في حالة (إحياء مؤقت) بفعل (الكريبتونيت).. تسمم هو كأي تسمم آخر.. دوي صوت الحاسب الآلى يسأله والمطلوب لإزالة هذا السم؟
إنه (الكريبتوكلير) يا سادة.. ظننت أنني أوضحت هذه النقطة.. لكن هذا الاقتراح ليس هينا..
إن (الكريبتوكلير) يحتاج إلى إجراء دورة تبادلية مع شخص آخر سليم.. بمعنى أننا سنأخذ دم (سوبرمان).. ونحقنه في دم المتطوع.. ثم نسحب دم المتطوع وننقيه ونعيده إلى جسد

(سوبرمان)..
لم تكن (عبير) تعرف أن هذا التطبيق يتم استخدامه مع مرضى الفشل الكبدي منذ زمن بعيد..
لكن مشكلته الدائمة هي السؤال الأخلاقي: لماذا نقتل واحدا لنحيي آخر؟
وكان هذا هو الوضع مع ال (كربتوكلير)..
فحسب ما قاله الأخ (جيربال)، فإن المتطوع الذي سيستبدل بدمه دماء (سوبرمان) لا بد أن يهلك.. إن (الكربتونيت) سام لكل أهالى (كريبتون) أقوياء كانوا أو عاديين..
صاحت (عبير) صادقة:
- ولماذا يكون المتطوع من (كريبتون)؟ أنا مستعدة تماما..
قال (جيربال) بصوت ساخر واهن:
- يا صغيرتي.. نحن لا نعرف أي شيء عن دم الأرضيين.. إننا نتشابه في المظهر حقا.. لكن دمينا قد لا يتطابقان إلى هذا الحد.. قد يكون خلط الدمين خطرا..
- إذن من يتطوع؟
اهتز رأس (جيربال) الأصلع.. وغمغم:
- يسرني أن أسدى هذه الخدمة الأخيرة لابن (جور - آل)..
- لا يا (جيربال).. أنت.....
- أنا ماذا؟ لقد رأيت كل شيء وجربت كل شيء.. والمزيد من الحياة لا يعني لي سوى المزيد من الملل..
وإلى مجلس الحكماء استدار ليقول في تؤدة:
- إنني أضع نفسي تحت تصرف المجلس الموقر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح الجهاز غريب الشكل يهدر.. تنبعث منه أنوار حمراء وزرقاء كأنه لعبة أطفال جميلة الشكل..
وعلى إحدى المنضدتين تمدد جسد (سوبرمان) وعلى الأخرى تمدد (جيربال) كقرد عجوز ضامر..
قال (جيربال) لمساعده الذي وقف جوار الجهاز..
- الآن يا (نمسيس)..
جذب المساعد مقبضا، فراحت الأنوار تتوهج وصدر صوت أزيز غريب كحشرجة الموت لدى فرس النهر (ويعلم الله أنني لا أعرف كيف يكون).
وساد الصمت هنيهة..
بعدها أدركت (عبير) أن شيئا حقيقيا يحدث..
كان اللون الأخضر يزول من على قسمات (سوبرمان) ببطء.. ببطء.. وخيل ل (عبير) أن ركن فمه الأيمن اختلج لحظة.. ثم سمع الجميع أنينا..
نظروا ل (جيربال) فوجدوا وجهه أخضر.. وعينيه شاخصتين إلى السماء.. ثم سمعوا الأنين من جديد..
هذه المرة كان صادرا من (سوبرمان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

في حفل مهيب واروا جثمان (جيربال) التراب.. إن أهل (كريبتون) كانوا يدفنون موتاهم مثلنا، وكان المشهد بحق مؤثرا خاصة حين انطلقت أبخرة ال. (سورجا) معلنة أن الفقيد هو من أبطال (كريبتون) الخالدين..

طوق (سوبرمان) كتف (عبير) بيد قوية، وقال للرجال:

- لا أدري ما أقول.. إن (كندور) قد غمرتني بكرمها.. أكثر مما تقدر الكلمات والأفعال على التعبير

قال له زعيم (كندور):

- لا داعي للكلمات.. عليك بأن تعود إلى الأرض الآن..

نظر ل. (عبير) ثم أمسك بيدها.. ومن أعلى هبطت الطائرة الحلزونية كي تحملهما إلى خارج الزجاجة.. حيث أشعة التكبير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة لم تشعر بالبرد ولا بالخوف كانت ملتفة كقطعة صغيرة في عباءته المنيعة، وهو يحلق بها بسرعة البرق فوق القطب الشمالي نحو الجنوب..

قالت له همسا:

- عدت للماضي كي أحاول إنقاذك..

ابتسم.. وغمغم:

- لماذا؟ حسبتك وعيت الدرس جيدا.. لا يمكن تغيير الماضي..

- لا تصدق حتى ترى..

ثم أردفت

- وأرسلت ممثلا يلعب دورك.. لكنهم قتلوه..

قال لها وهو يتحفز:

- يبدو أن لديك ذكريات جميلة حقا عن فترة غيابي.. لكن دعينا من هذا الآن.. إننا ندنو من البيت الأبيض..

همست في توتر وهي ترى أضواء (واشنجتون) من بعيد:

- خذ الحذر.. فهم جميعا يحملون قنابل (الكربتونيت) الآن

- من هم؟

- لا أدري إن كنت تعرفهم.. هي ألعن مجموعة من شذاذ الآفاق.. منهم (مجنون) و(قنبلة) و (جو القذر)..

آهاه.. أعرفهم جميعا.. كلهم أعدائي كما يقول.. كما يقول..

- كما يقول (رجائي عليش) ([2])

- حسن.. والآن أريد منك أن تبقى ها هنا، وتستعدي لكتابة أروع مقال كتبته في حياتك..

وهبط بها فوق قمة ناطحة سحاب..

فك عنها عباءته، وسألها في رفق:

- هل تشعرين ببرد؟

- لا.. لكن عُد سريعا..
ووقفت ترمقه وهو يحلق مبتعدا، ليختفي في الظلام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (لوثر) جالسا في المكتب البيضاوي يملي على سكرتيره آخر أوامره.. ثورة في (الصين)؟ أريد صاروخا برأس نووي هناك.. زيدوا الضرائب على ولاية (المكسيك) وولاية (موزامبيق).. اطردوا مليون موظف من أعمالهم في أنحاء العالم أنا لا أطعم الكسالى..
هنا رأى الحذاء المطاطي الأحمر يخطو بتؤدة فوق البساط الإيراني الفاخر.. كان الظل يغمر وجه وجذع القادم فلم يتعرفه..
قال له في ضيق:
- من أنت؟ هل تريد شيئا؟
ثم تميز ملامح الوجه.. والشعار على الصدر
- أ (سوبرمان)؟
ابتسم (سوبرمان) ساخرا، ولم ينطق بشيء..
هتف (لوثر) وهو يمد يده في درج مكتبه:
- صبرا أيها المهرج! سنعرف حالا ما إذا كنت...
وانتزع بندقية آلية مرعبة الشكل، وصوبها إلى الرجل الواقف أمامه وأفرغ خزينة كاملة من الطلقات لم ينس التصويب على الرأس ليتأكد من أنه لا يرتدي درعا مقاوما للرصاص.. إن أشياء كهذه لا تفوت (لوثر)..
في النهاية ألقي البندقية جانبا.. وأكمل عبارته:
... مهرجا أم لا...
كان دخان الطلقات يفعم هواء الحجرة.. وبدا (سوبرمان) كأنما يقف في فوهة بركان مشتعل.. وظهر رجال يهرعون من كل صوب علي صوت الطلقات..
أخيرا همس (لوثر) وهو يتراجع:
- هذا سخف.. أنت ميت!
- إن من يرفض الواقع هو خاسر رديء يا (لوثر)..



كان (سوبرمان) قد وثب فوقه ليحتضنه – كأم حنون – بين ذراعيه ، ثم يكسر الزجاج ليحلق به فى الفضاء . .

وقبل أن يفهم (لوثر) ما يحدث، كان (سوبرمان) قد وثب فوقه ليحتضنه - كأم حنون - بين ذراعيه، ثم يكسر الزجاج ليحلق به في الفضاء المظلم..

ولم ينس (سوبرمان) أن يقول بصوت عال:
- لا تنصرفوا يا رجال.. سأعود فورا!
تبادل رجال (لوثر) النظرات، وابتلعوا ريقهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنت لن تقتلنى يا (سوبرمان).. إن قسمك يمنعك من قتل ذبابة!
قالها (لوثر) في غل وهو يوشك على قضم وريد عنق (سوبرمان) الملامس لفمه.. لولا – بالطبع - أن هذا سيهشم أسنانه..
قال (سوبرمان) باسما وهو يزيد من سرعة طيرانه:
- كنت أتمنى هذا لكنه مستحيل..
- إذن إلى أين؟
- إلى ما هو أسوأ من الموت!

ازدادت سرعة الطيران وبدأت حلقات من اللون الأسود والفوسفوري تحيط بهما، فيخترقها (سوبرمان) دون تردد..
- (سوبرمان).. أنت تخترق حاجز الزمن!
قالها (لوثر) وقد بدأ يفهم.. فقال (سوبرمان):
- لقد فهمت..
- ولكن لماذا؟
سترى حالا..
كان هناك مستنقع وغابة من (السرخس).. وبركان قصي يتصاعد منه بخار أسود كثيف.. وفي السماء تحلق طيور غريبة المنظر..
هناك توقف (سوبرمان) وأنزل فريسته..
صاح (لوثر) وهو يرمق ما حوله:
- أين نحن بحق السماء؟
- نحن في الحقبة (الباليوزية) من عصور ما قبل التاريخ.. وهي السجن الذي اخترته لك!
- هل تمزح؟ إنني هنا سأكون فريسة باردة لكل العظايا، ما لم يقتلني بخار الكبريت هذا رفع (سوبرمان) صدره ونظر للسماء، وغمغم:
- جرب استعمال ذكائك.. من يدري؟ لربما اخترعت آلة زمن من لحاء الأشجار وعظام طيور (التيروداكتيل)..
وبدأ يرتفع في السماء محلقا، فصاح (لوثر) في جزع وهو يلوح بقبضته، غير قادر على تصديق أن هذا حقيقي:
- قاتل! أنت تعرف أن ما فعلته هو القتل البطيء!
- ليس قتلا يا (لوثر).. فكر في الذين احترقوا بقنابلك في قلب (واشنجتون)، واحمد الله على أنني لم أعاملك بالمثل..
قال (لوثر) شيئا.. لكنه كان قد صار بعيدا جدا.. جدا..
أشبه بعظمة ديناصور ملقاة بجوار المستنقع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استسلم لصوص (لوثر) على الفور فلم تعد منهم مشكلة..
وبدأت حكومات العالم تستعيد استقلالها، وعاد الرئيس الأمريكي إلى البيت الأحمر ليعيد طلاءه بالبلاستيك الأبيض من جديد.. وجلست (لارا) / (عبير) جوار (سوبرمان) فوق تمثال (لنكولن) بهضبة (راشمور)، يصغيان لأغنية الصمت..
قال لها وهو يتأمل الوادي المترامي أمامه:
- الحق أن (لوثر) حقق لأمريكا حلما قديما: أن تكون هي حاكمة العالم..
- وهل كنت تتمنى هذا؟
- بالطبع لا.. إن واجبي هو أن تحافظ الشعوب على استقلالها وحريتها وتفردها.. أحيانا أحلم بعالم موحد بلا حدود ولا حروب ولا جوازات سفر.. لكن دون أن تسيطر عليه دولة واحدة..
ثم قرب رأسه من رأسها وقال:
- هل تعرفين؟ لقد بدأت أفكر من جديد في موضوع إضرابي عن الزواج هذا..
- وهل تعرف؟ إنني..
كليك كليك!...

نظرا للوراء فوجدا الشكل الذي تعارفنا على تسميته (المرشد).. كان يداعب قلمه الزنبركي في صبر، وعلى وجهه ابتسامة سمجة..
- قد حان الوقت يا (سوبرمان).. سأعود بالآنسة حالا!.
قال (سوبرمان) بصوت مبحوح:
- لكننا كنا نتحدث عن الزواج..
إن هذا سيحبط كل قارئات قصصك.. أقترح أن ننهي هذه المغامرة حالا ما دام الجميع بخير..
نظر لها (سوبرمان) نظرة مقدر للأمور وغمغم:
- إن قوانين (فانتازيا) أقوى من (سوبرمان) نفسه يا (لارا).. وأرى أن تطيعي هذا الأحمق..
لحظة صمت طالت.. ثم نهضت متثاقلة.. وهمست:
- وداعا يا (سوبرمان).. ربما أعود يوما..
- وداعا يا (لارا)..
واستدارت لتلحق ب. (المرشد)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تعيش (عبير) حلم أن تكون زوجة ملك.. وملك (بريطانيا) بالذات..
لكن - كما نتوقع - سيكون هذا الملك هو (هنري الثامن) قاتل زوجاته، وتكون هي (آن بولين) أشهر ضحاياه!

(تمت بحمد الله)

من بعد سوبرمان

في الجزء الثاني من لقائنا مع (سوبرمان)، نواجه عالما كابوسيا سيطر فيه السفاحون والأوغاد والقتلة على الأرض.. والأدهى أن علينا أن نواجه هذا كله بدون (سوبرمان).. باختصار: يشبه الجزء الثاني واقعنا الحالي تماما.. ولكن بقواعد (فانتازيا)!

د. أحمد خالد توفيق

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) (رمبرانت).. رسام هولندي

[←2]

(*) أديب مصري موهوب كتب روايتي (لا تولد قبيحا) و (كلهم أعدائي)، ثم انتحر بسبب تجاهل النقاد لموهبته

روايات مصرية للجيب

15

فانتازيا

إعدام فى البرج



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (15)

إعدام في البرج

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأيّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أيٍّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- جسر (لندن) يهوي..

يتقدم قطار (فانتازيا) العجيب وسط مشاهد تلكم المملكة التي لم يرها مخلوق سوى في خياله، فيما عدا واحدة محظوظة اسمها (عبير)..
وترمق (عبير) معالم المملكة من النافذة..
تتذكر بعض الأماكن فتتوق إليها أو تكرهها.. ولا تتذكر أنها رأت أماكن أخرى فتتمنى لو تجرب..
ويواصل القطار مسيرته، ويواصل المرشد مداعبة زنبرك قلمه، كأنما هو عميل متعجل في مصرف يريد التوقيع سريعًا للحصول على ماله.
ترى (عبير) لافتة كبيرة تقول: ألعاب تاريخية..
فتسأل المرشد وهى - تقريبًا - تعرف الإجابة:
- « ما هذا الجزء من (فانتازيا)؟ »
فيقول لها دون أن ينظر للخارج:
- « إن اللافتة جديدة لكن المكان قديم.. لقد زرته من قبل في (خيول ورماح) و (الخنّاقون).. »
- « وماذا يميز هذا المكان؟ »
- « إنه ليس خيالًا كله.. هو يعتمد في أساسه على حقيقة تاريخية صلبة، لكن مع بعض التحوير الذى يسمح باندماجك فيه.. في قصة (رعمسيس) لا يوجد مرجع تاريخي يقول إن له ابنة اسمها (إرمنحات)، وبالطبع لا أحد يعرف دورًا لمعلمة إنجليزية شابة في قهر الخناقين.. »
شهقت وقد فهمت:
- « آه؛ العسل في السم أو العكس.. إدخال بعض الخيال على الحقيقة.. »
- « هو كذلك.. هل تريدين أن تجرّبي؟ »
- « بالتأكيد!! »
وهكذا شدّ المرشد الحبل في صرامة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمشيان في الحديقة المتسعة التي تقود إلى.. إلام؟ الحق أنني لا أدري.. فهي حديقة لا يبدو لها آخر، والآن لم يعد يبدو لها أول..
فقط كانت هناك أسهم تشير في كل صوب:
« بطولات عربية »..
« عصر النهضة الأوروبي »..
« حروب صليبية »..
« الثورة الفرنسية »..
« شجرة الدر »...... إلخ...
قالت للمرشد وهي تتأمل كل هذا:
- « كنت ضعيفة جدًّا في التاريخ، وأعتبره نوعًا من النميمة المهذبة»
قال لها في ملل وهو يتقدمها:
- « المشكلة أنني - منذ عرفتك - لم أسمع عن علم واحد لم تكوني ضعيفة فيه.. إنها لمعجزة أنك اجتزت المرحلة الابتدائية.. لكن هذا ديدن الحالمين.. عقلهم حصان جامح يأبى أن يضع

سرج الدراسة فوق ظهره.. إنه ير كل.. يرفس.. ثم ينطلق لا يلوي على شيء في سهول الشرود.. »
- « لتنس لومى لحظة وقل لي: هل أنا بحاجة إلى خلفية تاريخية ما لأجتاز هذه المغامرة.. »
- « أنت قرأت عنها من ...... »
ثم قطع كلامه ليسدّ الطريق عليها بجسده، وفي اللحظة التالية رأت ستة جياد تركض مبعثرة الغبار في كل صوب، وفوق ظهورها ستة فرسان لا يبعث منظرهم الراحة في النفس.. كانوا سمر الوجوه، لكن عيونهم ضيقة كعيون ال.....
- « التتار! هؤلاء من جنود (كتبغا) ذاهبون للقتل أو عائدون منه.. »
قالها وهو يرمق الجياد تبتعد.. ثم عاد يقول وقد استرد الخيط:
- « كل هذه الذكريات لم تفارق ذهنك، لكنك نسيت أنك لم تنسى.. ولسوف تندمجين في أحداث أية قصة تدخلينها على الفور.. هل تعرفين لماذا لم نجد لافتة (معركة الأردين) هنا؟ »
- « لا أعرف.. »
- « لأنك لم تسمعي عنها قط! نيانياهاهاهاه! »
وراح يضحك تلك الضحكة السمجة، التي ما إن تسمعها حتى تحمد الله على أنها حدث نادر.. لحسن الحظ أن المرشد لا يملك روح الدعابة، وإلا كانت كارثة..
رأت (عبير) لافتة كبيرة تقول: إنجلترا - هنرى.. الثامن..
فسألت المرشد:
- « هل أنت واثق من أنني قرأت هذا الموضوع يومًا؟ »
- « إذن من أين جاء؟ أنا لم آت به هنا.. عقلك الباطن هو ما فعل »
- « إذن دعنا نجرب هذا... »
نظر لها نصف منذر، وسألها و هو يعيد القلم إلى جيب سترته:
- « ولا ندم بعد ذلك؟ »
- « لا ندم.. لقد رأيت الأسوأ »
- « هذا ما يقوله الجميع.. لكن هناك دائمًا ما هو أسوأ من الأسوأ.. »
« كفي فلسفة وخذني إلى هناك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى الفور تحوّل المشهد إلى حقل يتلألأ في ضوء الشمس عاكسًا ألف درجة من اللون الأخضر.. ثمة نهير صغير يترقرق، وراع يعزف الناي لحبيبته، وأغنام هي قطع من السحب غدت لها أرجل..
ومن بعيد كانت طاحونة هوائية يلهو حولها الغلمان..
لو كانت (عبير) تفهم في هذه الأمور، لحسبت أنها ترى إحدى لوحات (رينولدز) أو (كونستابل) أو (جينسبورو).. لكنها أدركت أن المكان جميل فحسب..
قالت للمرشد:
- « ما الخطر الذي يمكن أن.....؟ »
هذه المرة لم يصطدم صوتها بجسده، و فهمت على الفور أنه رحل.. رحل قبل أن يخبرها من هي...
لا يهم.. ستعرف بنفسها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك حشد من الخيول المطهمة، يركبها رجال أدركت أنهم في ذروة أناقتهم برغم طراز الثياب العتيق..
الحصان الأول يركبه ثور آدمى هائل الحجم عظيم البطن، زاد نفسه ضخامة على ضخامة بكتفي حلته العريضين..
وفوق رأسه كانت قبعة هائلة الحجم مزدانة بالريش.. وعلى صدره تنساب قلادة عملاقة.. كل شيء فيه كان ضخمًا أو غليظًا أو فخيمًا بشكل مستفز..
وسمعت من يقول لها:
- « لقد عاد الملك (هنري الثامن) من رحلة الصيد..»
إذن هو أنت..
ونظرت للعتل الصفيق في كثير من رهبة، ولم تحتج إلى ذكاء كثير كي تعرف أنه يتجه بحصانه نحوها.....
هي بالذات...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- مأدبة ودرس في التاريـخ..

ترجل من فوق حصانه في رشاقة ندر أن تراها مع حجم كهذا، ودنا منها فتوقعت أن يلثم يدها.. لكنه - بدلًا من ذلك - فرد صدره ومدّ لها يده الملأى بالخواتم الذهبية...
آه! إنه يريدها هي أن تلثم يده، و هو - نظرًا لكونه ملكًا - شرف عظيم لها..
ترجل أحد تابعي الملك عن جواده، وكان نحيلًا بارز العظام له عينا ثعلب.. رجل من النوع الذي لا يثق به إلا أحمق..
قال لها ضاحكًا في رياء وهو يرمق المشهد:
- « هلمي يا فتاة.. الثمي يد الملك واستمتعى بفرصة العمر! »
نظرت له في غلّ، وودت لو تصارحه برأيها في فرصة العمر هذه، التي لا تجد في نفسها أدنى ميل لاغتنامها.. لماذا تلثم هذه اليد المشعرة المكتنزة دون أن تطلب هذا؟
قال الملك (هنري) وهو ينتظر الفرج:
- « إنها خجلى يا (أوليفر).. وهذا ما يزيدها سحرًا! »
قررت ألا تعقد الأمور.. فانحنت في رشاقة – أو هكذا حسبت - وطبعت قبلة على اليد..
قال (أوليفر) وهو يتأملها في رضا:
- « اسمها (آن) يا سيدي.. (آن بولين).. »
التقط (هنرى) ذقنها بين إبهامه وباقي أطراف أنامله، وكأنما يمسك ببيضة على مائدة الإفطار، وقال:
- « (آن بولين)! جميل! جميل! »
ثم مدّ ذراعه لها داعيًا إياها كي تتأبطه..
أخذت نفسًا عميقًا ودست ذراعها في الفتحة الضيقة، فمضى يمشي بها وسط المروج بتؤدة..
وفي هذه المرة أدركت بحق مبلغ ضخامته.. تشعر أنها تمشي جوار دبّ أشهب ثرثار.
قال لها:
- « هل تحبين أشعارى؟ »
إذن هو شاعر.. ولكن هل هو شاعر جيد؟ دعونا نر..
كان يتكلم بالإنجليزية العتيقة - إنجليزية القرن السادس عشر - الملأى بالـ thy والـ thou والـ thine، فلم تفهم شيئًا برغم كونها في (فانتازيا)، لكنها أدركت من إيقاع الشعر أنه رديء..
وكالعادة أبدي الثعلب الناحل - عرفت أن اسمه (أوليفر كرومويل) - انبهاره الشديد بفصاحة (هنرى الثامن) وعظمة شعره..
هنا رأت رجلًا عجوزًا يبدو عليه الإنهاك وبعض الملل، يقف جوار حصانه كأنما ليس له شأن في هذه المهزلة..
كان نبيل السمات تحمل عيناه طيبة واضحة، وصراحة لا تُدارى... نظرت له في إعجاب لحظة، فابتسم حين لاحظ عينيها، وهزَّ رأسه قائلًا بنبرة راقية:
- « كذا شأن الملك (هنرى).. إنه لا يتعب من الصيد والقنص.. يبدأ رياضته في الرابعة صباحًا ويستمر حتى الليل، حتى ليعتبر رفاقه في الصيد أنفسهم شهداء.. هذا الرجل لا تنهكه الرياضة أبدًا.. »

شعرت بارتياح فورى له، فدنت منه سائلة:
- « لكنه بدين كال.. كال.... »
هزَّ رأسه كأنما يعفيها من اختيار اللفظ، وقال:
- « الرياضة وحدها غير كافية.. فهو يأكل كأنما سيموت غدًا.. وشراهته مضرب الأمثال في أوروبا كلها.. »
- « من أنت أيها النبيل؟ »
نزع قبعته المزدانة بالريش، والتي بدت متواضعة برغم هذا:
- « محسوبك سير (توماس مور).. رجل قانون يحاول أن يكون شريفًا.. »



نزع قبعته المزدانة بالريش ، والتى بدت متواضعة برغم هذا :
ـ محسوبك سير «توماس مور» . .

ثم صمت إذ رأي (هنري الثامن) يدنو..

قال هذا الأخير في حماسة بلهجة من لا يقبل مناقشة:
- « الآنسة (آن) ستلحق بنا الليلة.. فهي مدعوة إلى العشاء.. »
قالت (عبير) في خجل:
- « كنت أرغب في أن.... »
- « ششش! »
قالها (كروموبل) همسًا، ولكزها في خصرها بقوة لا بأس بها:
- « المرء لا يرفض دعوة الملك على العشاء أبدًا ما لم يكن سيئ الأدب.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العشاء في البلاد الإنجليزي في القرن السادس عشر:
كانت النسوة جميعًا يرتدين ما يشبه (الطرحة) على رءوسهن، وإن كانت (الديكولتيهات) أكثر اتساعًا من المعتاد.. أما الرجال فكانوا يعتمرون القبعات ذات ريش النعام.. وهي قبعات تتراوح في بهرجتها بين المتواضعة و المتعالية الشبيهة بالطاووس، وكلهم كانوا يرتدون عباءات تجعل الأكتاف أكثر عرضًا، بينما السيقان لا يسترها سوى جورب طويل ملتصق بها كال. (سترتش).. مما يعطي تناقضًا بين نصف الرجل الأعلى الضخم، ونصفه الأسفل النحيل..
كانوا يرقصون.. ورقصهم نوع من المشي المنمق.. صف تقف به النساء وصف يقف به الرجال، ثم يتقارب الصفان فيمسك كل رجل بيد رفيقته في الرقص، ويمشي بها في بطء.. هكذا! لا أكثر ولا أقل.. حتى إنك لتتساءل عن متعة هذا الرقص..
وفي صدر المأدبة، ضخمًا كالكابوس، يجلس (هنري الثامن) مزدانًا بالذهب والفضة.. يمسك كأسًا من ذهب في يده اليسرى، وفخذ عجل صغير في يده اليمني.. واللحم المفَتّت يتناثر على لحيته..
وكعادة النبلاء في تلك العصور كان يستعمل الخنجر في كل شيء..
يستعمله كسكين وكشوكة وكملعقة، فإذا قرر استعمال يديه غرس الخنجر في المائدة أمامه وضحك كالوحوش..
- « ها ها ها هاه! المزيد من الشراب أيها الساقي! »
ثم يتجشأ دون حيطة..
جواره كانت تجلس امرأة متأنقة متقدمة في السن، تبتسم في وقار.. لكن عينيها تنطقان بألم وحزن لا شك فيهما.. نظرة كسيرة تحاول التظاهر بأنها ليست كذلك...
تساءلت (عبير) في سرها:
- « حسن.. أنا أذكر طيفًا عن هذه القصة.. أنا (آن بولين) التي سيتزوجها الملك هنري الثامن).. لكن من هذه المرأة التي تجلس بجواره؟ »
هنا فوجئت بالمرأة تناديها بإيماءة وقور...
مشت (عبير) نحوها غير فاهمة، فقربت أذنها من فم المرأة كي تسمع ما تقول وسط الصخب..
قالت المرأة في امتعاض:
- أريد بعض العطر يا (آن).. فالرائحة لا تُطاق! »
إذن فالمرأة تملك حق إعطائها الأوامر، ماذا يحدث هنا؟ وما هي وظيفة (آن) فعلا؟
تدخل (هنري الثامن) وكان يتابع المحادثة من طرف:
- « لا تعطيها أوامر يا (كاترين)! »

- « لا تنس أنها وصيفتى يا (هنري).. »
- « ولا تنسي أنها.. أنها.... »
ولم يجد ما يُقال.. فانقض على فخذ العجل يزدردها على ثلاث مرات متوالية... ثم جرع الكأس على مرة واحدة..
هنا قررت (آن) / (عبير) أن تحضر العطر.. من أين؟ من المكان الذي يحضرون منه العطور طبعًا....
غادرت القاعة، ووجدت وصيفة ما تقف في الردهة، فهرعت نحوها وسألتها:
- « قولى لى يا (حبيبتي).. إن السيدة (كاترين) تريد عطرًا و.... »
اتسعت عينا الوصيفة الشقراء، وهزّت رأسها مستهينة وقالت:
- « دعي هذا جانبًا.. لا أحد يهتم بأمرها الآن.. لقد صارت أسهمها في الحضيض منذ سئمها الملك.. ولو كانت تريد عطرًا فلتات به لنفسها.. »
- « وما اسمك؟ »
- « (كلاريس).. إنه لاسم جميل لكنه لا يحظى لدى الملك بأهمية اسمك! »
هكذا إذن؟
حين اختارت (عبير) هذا الزمن، كانت تطمح إلى دور أرقى من دور الخادمة التي يترك الملك زوجته من أجلها.. وبدا لها هذا الدور مبتذلًا مهينًا وعلى قدر من السخف..
ضمت (عبير) أناملها في شكل القمع، ورفعتها في وجه الوصيفة:
- « لحظة من فضلك.. هذا البدين يحوم حولى.. أليس كذلك؟ »
- « بلي يا ملاكي.. الكل لاحظ هذا.. »
- « وأنا وصيفة زوجته؟ »
- « تتحدثين بحمق.. الكل يعرف الشيء ذاته.. »
هنا رأت من يمشي عبر الرواق المظلم دانيًا منهما، كان وجهه في الظلام.. لكنها رأت القلم ذا الزنبرك في يده، يواصل لعبته المقيتة.. لقد كان هذا هو المرشد.. وكان من النادر أن يظهر في المغامرة..
حيّاها بهزة رأس، ثم وضع يده على كتف (كلاريس) قائلًا برفق:
- « اسمعي أيتها الحسناء.. لسوف يسرّني لأسباب كثيرة أن تجيبي عن أسئلة (آن بولين) التي قد تبدو لك غبية أو بديهية.. علينا أن نضعها في جو القصة كما تعلمين، وأنا أراهن على أنها لا تعرف شيئًا عن (كاترين) و (هنري الثامن).. »
هزّت (كلاريس) رأسها في رهبة..
واستدار المرشد نحو (عبير)، وبلهجة تقريرية قال:
- « ستدخلين معها إلى المخدع، وتصغين جيدًا لما تقول.. »
وهزَّ رأسه على سبيل التحية.. وابتعد ليذوب في الظلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المخدع - على ضوء الشموع الحارّ – راحت (كلاريس) تجفف قطرات العرق، التي احتشدت على أرنبة أنفها الملأى بالنمش، وحكت لـ (عبير) كل شيء عن ذلك الفصل الرهيب من تاريخ (انجلترا)..
قالت:

- ما إن استولى الزوجان الأسبانيان (فردناند وإيزابللا) على (غرناطة) آخر معاقل العرب في الأندلس[1]، حتى فكرا في أن يصاهرا الأسرة المالكة الإنجليزية لتكون جبهة موحدة ضد (فرنسا)..
« العروس كانت (كاترين) ابنة الزوجين.. والعريس كان (آرثر) ولى عهد (انجلترا) الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره.. »
« جاءت العروس إلى (إنجلترا)، وكانت احتفالات الزواج جديرة بألف ليلة وليلة حقًّا.. وقد أحب الإنجليز ملكتهم الأسبانية على الفور، لجمالها ورقتها وتواضعها.. »
« وفجأة مات العريس بعلة مجهولة - وكل العلل في ذلك الزمن مجهولة - فلم يجد الملك سوى أن يزوج الأرملة الشابة ابنه الأصغر (هنرى).. برغم فارق السنّ بينهما.. »
« وفي عام 1509 مات الملك الأب، ونودى ب. (هنري الثامن) ملكًا لإنجلترا، وكان في الثامنة عشرة وقتها.... »
قالت (كلاريس) وهي ترى الاهتمام في عيني (عبير):
- « الحق أن حفل التتويج كان أسطوريًّا.. لقد كان الملك (هنرى) وسيمًا، جميل المحيا، رشيقًا كالحلم، وقد ركب جوادًا مطهمًا عظيمًا في طريقه من قلعة لندن إلى كنيسة (وستمنستر)، حيث كان ينتظره أسقف (كانتربورى) ليمسح على رأسه بالزيت المقدس من ملعقة ذهبية..
أما الملكة (كاترين) فجاءت لترى حفل التتويج على محفة، ترتدي ثوبًا من الحرير ناصع البياض.. »
« وراح أهل (لندن) يهتفون، ويلقون بالزهور والرياحين على المشهد، والغريب أنه من الأيام القليلة التي لم يكفهر فيها جو (لندن) اللعين.. »
« لم يخطر ببال أحد أنهم يرون أتعس زوجين في التاريخ، وأقلهم اتفاقًا في الطبائع.. أنت رأيت الملكة (كاترين).. إنها إنسانة متدينة مهذبة بها نزوع إلى التقشف، لا تكف عن صيام يومي الجمعة والسبت، ولا عن قراءة سير القديسين.. »
« أما (هنرى) فهو من أشد الناس حبًّا للحياة، ولاستغلال نفوذه والاستمتاع بكل المتع مشروعة كانت أم محرّمة.. »
« وفي نهاية العام الأول من الزواج وضعت (كاترين) طفلها الأول، الذي انعقدت عليه آمال (هنرى) في وريث للعرش.. »
« لكنها ارتكبت غلطتين: أولًا: كان المولود أنثى.. ثانيًا: كان المولود ميتًا.. ومن العسير نوعًا أن تتولى عرش إنجلترا أنثى ميتة لو أنك طلبت رأيي.. »
« و بعد هذا حاولت (كاترين) مرتين.. المرة الأولى ظفرت منها بوليد ذكر لكنه ميت.. والمرة الثانية ظفرت منها بوليدة ميتة.. »
« فيما بعد عرف التاريخ أن (هنرى) لم يكن ملعونًا، لكنه كان مصابًا بمرض عضال في دمه يقضي على ذريته أولًا فأولا.. »
سألتها (عبير):
- « إذن لا بد أنه نغّص حياة (كاترين) تمامًا.. »
تنهدت (كلاريس) ناظرة للسقف، وقالت:
- « كما لك أن تتصورى.. كان يعايرها بأنها أقل شأنًا من الحيوانات، التي تلد بسهولة مواليد أصحاء طيلة الوقت.. وقال: إنه من حقه أن يتخلص منها.. لقد كنا نسمع هذا الكلام بوضوح تام دون مكبّر صوت؛ لأن (هنري الثامن) لم يسمع عن اختراع اسمه الهمس.. »
« لكنه لم يتخلص منها بالسرعة التي وعد بها، لأنه كان بحاجة إلى سلطان وقوة أبيها ملك

أسبانيا، وذلك تحت حكم البابا (ليو العاشر) الذي جعل من (إنجلترا) و (أسبانيا) حلفًا ضد فرنسا.. »
« على كل حال.. رزقت (كاترين) في عام 1516 بطفل سليم حيّ لكنه أنثى هي الأميرة (مارى).. »
« وكانت هذه هي النهاية بالنسبة لعلاقتها مع (هنري الثامن).. وبدأ الرجل يفتش عن طريقة للخلاص منها، ويفتش عن أخرى..
« وأنت هى الأخري يا عزيزتي! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الزواج.. الطلاق.. الزواج..

كانت الأمور تزداد سوءًا باستمرار بالنسبة لـ (عبير)..
فالمصيبة هي أن (هنري الثامن) متيّم بهواها..
كانت (آن بولين) غادة حسناء في التاسعة عشرة من عمرها، نصفها - النصف الأيمن غالبًا – فرنسي من ناحية الأب؛ والنصف الثاني ينتمي لأسرة إنجليزية عريقة حقًّا..
إن كلمة وصيفة تختلف عن كلمة خادمة بالتأكيد، بل هي وضع اجتماعى لا بأس به.. وسرعان ما برز دور (آن بولين) واضحًا متألقًا في البلاط الإنجليزي..
ويقول من عرف (آن بولين) إنها لم تكن جميلة.. لكنها تمتاز بالرشاقة، وخفة الحركة مع الأناقة والجاذبية، وهو نفس ما قالوه عن (كليوباترا) و عن (ماتاهارى) وسواهن..
وكان (هنري الثامن) يزور زوجته في غرفتها، فيري عندها تلك الوصيفة الساحرة جالسة على الأرض، وقد نثرت ثوبها حولها حتى بدت كأنما تخرج جذعها من زهرة طافية على الماء..
وكان يصغي في اهتمام مبالغ فيه إلى كلمات الوصيفة..
كانت المشكلة هنا هي: لو قادته خطواته إلى تطليق الملكة (كاترين) والزواج من الوصيفة، فمعنى هذا أن يفتح على نفسه بوابات الجحيم..
أولًا: سيصطدم مع أهل (كاترين) الأقوياء، وهم ليسوا بلطجية أو قطاع طريق بل أسوأ.. إنهم ملوك أسبانيا أقوى دولة في العالم وقتها..
ثانيًا: سيصطدم بالبابا في (روما).. أعلى سلطة في العالم المسيحي.. لكن (هنري الثامن) كان من الطراز الذي إذا انتوى عمل شيء فإنه يفعله مهما كان الثمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست (عبير) ترمق الحفل بعقل نصف واع..
كانت في مقصورة الملكة، لا يغيب عنها العذاب المقيم الذي تشعر به تلك الجالسة وراءها..
وأمامها في الحلبة كان استعراض من استعراضات المبارزة، التي كان (هنري الثامن) يهيم بها حبًّا..
على حصان أبيض مدرع مخيف الشكل، يركب (هنرى) وضخامته تفوق ضخامة الحصان الذي يكاد يلفظ أنفاسه إرهاقًا..
والحقيقة هي أن (هنرى) كان يستبدل ثلاثة أو أربعة خيول في كل مرة.. واللعبة هنا هي أن يصطدم فارسان بأعنف قوة ممكنة، ويحاول كل منهما أن يوقع الآخر على الأرض..
وكان حجم (هنرى) كفيلًا بأن يجعل هذا نوعًا من الانتحار.. ولا غرابة في أنه كان يكسب هذه المبارزة باستمرار..
هتفت (كلاريس) مفتونة وهي تحرّك مروحتها:
- « تأملى! ما أجمله وما ألطفه! »
سألتها (عبير) في شيء من الغباء:
- « عم تتحدثين؟ عن الحصان؟ »
- « بل (هنري الثامن) يا حمقاء.. »
أعادت (عبير) تأمله باحثة عن شيء واحد جميل أو لطيف فلم تجد.. ربّما كانت (كلاريس)

بلهاء، وربما كانت هذه هي مقاييس الجمال في هذا القرن، وربما كانت هالة الحكم تضفي هيبتها على الرجل..
في ذات الوقت - في الحلبة - دوّت أصوات الصدام.. جبلان من اللحم يصطدمان بأعتى قوة..
وفي اللحظة التالية طار منافس (هنرى) - السير شيء ما - في الهواء، ليسقط كجوال البطاطس على الأرض..
قالت (كلاريس) وقد ازدادت سرعة مروحتها:
- « هل ترين؟ إنه ملك ألعاب الفروسية.. أنت لم تريه منذ أعوام حين كان في ذروة جماله وأناقته.. »
وكانت (عبير) تعرف ولع (هنري الثامن) بالتأنق في الثياب، وارتداء الذهب والمجوهرات، والتضمخ بالعطور الفاغمة القوية، التي تسبقه قبل أن يصل بميل وتتقهقر بعده بميل..
لكن الداء العضال الذي أصابه كان داء بلا علاج.. وقد أدى هذا إلى قروح شديدة في ساقه اليمنى، لم تكن رائحتها مما يسرّ النفوس..
كما أن داء النقرس - داء الإفراط في اللذات – قد هاجمه بشراسة وقسوة، وكان يصرخ أحيانًا مولولًا من ألم ساقه أو ذلك الانفجار في إصبع قدمه..
أورثه المرض خلجة في جفونه، جعلته لا يستطيع تثبيت عينه في عينك، كما أورثه مزاجًا عصبيًّا ناريًّا، ينفجر في أية لحظة في أي واحد..
لكن (هنرى) - برغم هذا - كان قويًّا مليئًا بالحيوية.. وها هو ذا الدليل في الحلبة التي صرع فيها ثلاثة فرسان..
ورأته (عبير) يترجل من فوق حصانه الرابع.. فيمشي في تؤدة نحو المقصورة ودروعه تصدر رنينًا..
وأمام المقصورة صاح بصوته الشبيه بالخوار:
- « أنا (هنري الثامن) ملك (إنجلترا) قد قهرت كل خصومي، وإنني لأعلن نفسي فارس (إنجلترا) الأول.. »
تعالى الهتاف والتصفيق..
وكان أكثر المتحمسين (كرومويل) و (كلاريس) طبعًا.. فمن يجرؤ على إبداء معارضته ها هنا؟
ثم - دون حيطة - تقدّم أمام (عبير)، فانحنى وعيناه لا تكفّان عن الاختلاج، وقال:
- « أهدي هذا النصر للجميلة (آن بولين)! »
كان هذا وقحًا خاصة أمام (كاترين).. لكن - كالعادة - تعالى الهتاف والتصفيق و (مرحى).. ورأت (عبير) أن النساء جميعًا يكرهنها كالطاعون.. هذا طبيعي..
الآن صار البلاط الإنجليزي كله على علم بأن (هنرى الثامن) قد اختار (آن بولين) لتكون زوجته الثانية..
ولكن كيف يتخلص من (كاترين)؟
لم تكن هناك مشكلة.. كل ما عليه هو أن يطلقها وأن يجد النصّ القانوني والديني الملائم لهذا، ثم ينفيها إلى دار نائية سحيقة في العاصمة.. ثم إلى دار ثانية فثالثة..
في النهاية مرضت (كاترين) مرضًا عضالًا.. وماتت كسيرة الفؤاد محطمة الروح..
ومن المؤرخين من يزعم أن (هنري الثامن) أرسل من يدسّ لها السم.. وهي تخرصات، لكننا مستعدون لتصديقها..
وفي اليوم التالى لوفاة (كاترين)؛ كان (هنرى الثامن) يطلب يد (آن بولين) للزواج....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند منتصف الليل، سمعت دقات على باب مخدعها.. فحملت الشمعة ووقفت وراء الباب تصغى، ثم تساءلت:

- « من؟ »

جاءها صوته الملول المميز يقول:

- « من سواي؟ المرشد طبعًا.. »

تنهدت الصعداء و أزاحت مزلاج الباب، وتذكرت وقتها ما تقوله (فيروز) حين نصحتها أمها بعدم فتح الباب لأحد: « إنت مش حدا ولا إنت العدا.. » بالفعل ليس المرشد أحدًا.. إنه وليد خيالها الصاخب الذي لا يهمد أبدًا..

دخل المرشد الغرفة.. فقال وهو يداعب قلمه:

- « تك تتك! كيف حال الملكة القادمة لإنجلترا »

في سأم قالت:

- « على جثتى! »

وأردفت متقززة:

- « كيف يحتملون رائحة هذا الـ (هنرى)، وكيف يطيقون شراهته في الطعام؟ إن فرسان الأحلام غريبو المظهر نوعًا في هذا العصر.. »

ابتسم وقال وهو يتناول إجّاصة ليلوكها:

- « كرراش! إن الرجل مصاب بقروح لا تشفي.. هذا هو سر الرائحة.. ولهذا يسكب على نفسه زجاجتي عطر كل يوم.. على كل حال الرجل برجولته وجيبه.. وفي مصر يقولون (ظلّ رجل ولا ظلّ حائط).. »

أضافت لتنهى كلامه:.

- « نعم.. نعم.. وأمي كانت تقول الشيء ذاته.. لكني لم أطلب الزواج قط... »

- « للأسف أنت مرغمة عليه.. كرانش! »

وألقى بما تبقى من ثمرة الكمثرى في الطبق، وقال:



وألقى بما تبقى من ثمرة الكمثرى فى الطبق ، وقال :
ـ لا يمكنك الهرب من الكاردينال (ولسى) و(كرومويل) .

- « لا يمكنك الهرب من الكاردينال (ولسى) و(كرومويل)، وكل من لا يريدون سوى رضا عظمته.. »

« وهنا يجب أن أقول شيئًا: التاريخ نفسه يقول: إن (آن بولين) كانت أول الساعين لهذه الزيجة، وقد نصبت حبالها حول (هنري الثامن) من اللحظة الأولى.. وسرعان ما سقط الأحمق في الفخ.. »
« سيقول الإنجليز فيما بعد أن بركات الملكة البائسة (كاترين) هي التي ستجعل نهايتك بهذه الشناعة! »
شفاعة؟ عم يتحدّث هذا المرشد بالضبط؟
سألته وقد بدأت تهتمّ:
- « لحظة ما هي تلك النهاية الشنيعة؟ »
تثاءب وقال وهو يعيد القلم إلى جيب سترته:
- « اعدامك طبعًا! سيقطع الملك رقبتك في برج (لندن) في حفل شعبي بهيج! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- رجل لكل العصور..

مذعورة هبّت.. كان الظلام كثيفًا من الطراز الذي يشعرك بالحرّ والاختناق، ثم جاءت الشمعة لتزيد الأمر سوءًا، ثم جاءت كلمات الرجل لتجعل الأمر أقرب للكابوس..
جاهدت حتى التقطت أنفاسها، ثم هتفت:
- « لحظة.. إن الرجل يوشك على الجنون ما لم يتزوجنى.. »
- « ولسوف يوشك على الجنون ما لم يقتلك بعد ذلك.. »
- « وما هي جريرتي؟ »
- « الخيانة الزوجية طبعًا! »
أشارت إلى صدرها بسبابتها غير مصدّقة:
- « أنا؟ أخون؟ زوجي؟ »
قال في بروده المعهود المحطم للأعصاب:
- « لن تفعلي طبعًا، ولم تفعلها (آن بولين) كذلك.. لكنها الحجة الوحيدة التي وجدها (هنرى الثامن).. ما كان ليجد طريقة أفضل للخلاص من الزوجة التي ملّها سوى هذه، وبالطبع كانت الآنسة (جين سيمور) بانتظاره لتكون زوجته الثالثة.. »
- « ثالثة؟ »
- « بل ورابعة.. وخامسة وسادسة.. هذا الرجل هو - دون تزويق - (شهريار) الإنجليز الذي يتزوج كل فتاة ليلة واحدة، ثم يقطع (مسرور) رأسها بسيفه في الصباح.. »
- « وأنت تريدني أن أجتاز هذه المغامرة؟ »
- « لم لا؟ إنها مغامرة على كل حال.. حاولي أن تفرّى بعنقك من سيفه.. »
- « وكيف؟ »
- « حاولي ألا يملّك! »
ثم هزَّ رأسه في شك:
- « وإن كان هذا عسيرًا! »
- « لأنني مملة بطبعى.. »
- « بل لأن طبيعة هذا الرجل متقلّبة بشكل لا يصدّق، وقد أورثه المرض عدم استقرار شديد في نفسيته.. لكن حاولى.. »
وكالعادة هزّ رأسه محييًا، واتجه إلى الباب..
- « هل سأراك ثانية »
- طبعًا.. في نهاية القصة.. لكن قطع الرأس بالسيف تجربة غير محبّبة، ولربما أودت بحياتك فعلًا.. حياة (عبير) لا حياة (آن بولين).. »
برغم كل شيء سرّها أنه كفّ عن اعتبار (عبير) لا وجود لها؛ مجرد قصة أخرى من قصص (فانتازيا)..
قالت له ملوّحة بيدها:
- « إلى لقاء إذن.. »
وأغلقت الرتاج من ورائه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف النبلاء الإنجليز في البلاط يتهامسون، حين برز الكاردينال (ولسي) - أخطر الساسة في هذا العصر - فساد صمت رهيب..
قال (ولسي) بصوت حاول أن يكون مؤثرًا دراميًّا:
- « مرحبًا بكم يا سادة (إنجلترا) ونبلاءها في البلاط.. الموضوع كما تعلمون أن عاهل (إنجلترا) قد قرر أن يتزوج.. كلكم تعرفون هذا.. ولا شك أنكم ترحبون به..
تعالت أصوات المعرفة وأصوات الترحيب.. لكن الرجل لم يكن ممن ينخدعون بسهولة بالنفاق السطحي.. كان بحاجة لنفاق عملي..
عاد يقول ضاغطًا على كلماته:
- « ثمة إشاعات تزعم أن هناك إشاعات تزعم أن هناك إشاعات تزعم أن هناك من لا يرحبون بهذا الزواج.. تصوروا هذا! »
تبادل النبلاء النظرات الذاهلة، وتحسس بعضهم صدره في جزع كأنما يسمع هرطقة مريعة، وشهق آخرون غير مصدقين...
- « نعم.. بل ويُقال - كذلك - إن هذه الزيجة غير شرعية، والطلاق الذي تمّ بين الملك وزوجته السابقة هو طلاق غير صحيح، ويقال - كذلك – إن البابا غير موافق.. »
- « يا للافتراء! »
- « أية وقاحة! »
هزّ الكاردينال رأسه بما معناه (لن تلعبوها عليّ) وقال:
- « لهذا جلبناكم هنا حتى تقسموا بالولاء للملك (هنرى)، ولهذا الزواج المبارك.. »
من شرفة عالية متوارية جلست (عبير) ترمق المشهد جوار (هنرى)، وكانت الستائر تحول دون أن يراهما الموجودون في القاعة..
وكانت تسمع أنفاس (هنرى) المتلاحقة، وصوت قضمه لأسنانه..
إن الرجل خائف! هذا غريب حقًّا! حتى هذا الدكتاتور الطاغية يهمه رأي الناس فيه.. لو كانت أكثر حكمة لفكرت في أن الشرّ ليس بالقوة التي يبدو عليها، وحتى رأي الذبابة يعمل له الطغاة حسابًا..
وفي الردهة أسفلها واصل الكاردينال (ولسي) استقصاء الأراء، فكان الواحد من النبلاء أو رجال الحكومة يقف أمامه، فيسأله بحروف واضحة:
- « هل توافق على زواج (هنري الثامن) ملكنا من الآنسة (آن بولين)، وتباركه وتعضده؟ »
فيقول النبيل وهو يتحاشى نظرات الكاردينال القوية:
- « أنا أفعل.. و أقسم على هذا بالكتاب المقدس.. »
ويجيء دور التالي..
عملية مملة جدًّا، وقد بدأت (عبير) تتثاءب بعد ربع ساعة من التكرار الرتيب.. نعم هي ملول جدًّا، ولو كانت أقل مللًا لتفوقت في المدرسة ونبغت في كل شيء.
هنا حدث شيء حطم هذه الرتابة..
كان الدور قد جاء على الكهل الذي عرفنا أن اسمه السير (توماس مور).. مهيبًا في وقار كهولته أنيقًا في عباءته.. رافعًا رأسه في شموخ كنسر يقف على صخرة في الصحراء.. ينتظر دوره في القسم.
سأله الكاردينال بنفس اللهجة:

- « هل توافق على زواج (هنري الثامن) ملكنا من الآنسة (آن بولين)، وتباركه وتعضده؟ »
تحاشى الرجل نظرات الكاردينال، ومطّ قامته أكثر وقال:
- « إنني أدين بالولاء والطاعة لمليكي (هنرى الثامن) ملك إنجلترا.. الله.. الملك.. الوطن.. »
بدا الارتباك على الكاردينال، وتبادل النظرات مع من حوله، ثم عاد يسأل:
- « سير (توماس).. هذه ليست الإجابة التي أريد.. »
في (استعباط) صريح عاد سير (توماس) يقول:
- « هل تعترض يا سيدي الكاردينال على خضوعي للملك؟ »
- « نعم يا سيدي.. هذا صواب.. لكنه حقّ في غير موضعه.. كأنني أطلب منك مالًا فتقول لي: الشمس تشرق من الشرق.. هذا صواب.. لا أحد ينكره.. ولكن ما دوره ها هنا؟ »
- « هذا هو القسم الذي أستطيع منحك إياه يا سيدى الكاردينال.. »
- « الخسيس! »
هذه الأخيرة كانت من (هنري الثامن) نفسه في مخبئه، إذ كوّر قبضته ووجّه لكمة عاتية آلمت الجدار ألمًا شديدًا.. لم يكن يحتمل المعارضة أو الجدال..



كوّر قبضته ووجّه لكمة عاتية آلمت الجدار ألمًا شديدًا ..

كان يحب (توماس مور) ويعتبره من ألمع عقول إنجلترا و أنزه رجالها.. لكنه كان يعرف مدى ولع - ذلك الخسيس - بالألعاب اللفظية المنطقية التي تحيل الحياة جحيمًا..
وكانت المناقشة قد انتهت في الرواق؛ لأن الكلّ سمع صرخة الملك الحانقة، فتجمّد الجميع حيث كانوا، وقد فطنوا للحقيقة المرعبة: إن الملك كان يتابع الأحاديث من بدايتها..
وفي اللحظة التالية وثب (هنري الثامن) من الشرفة، ليهبط برشاقة التياتل على الدرج.. وراح يتدحرج فيه، وكرشه الفخيم يهتز مع كل خطوة.. عيناه تقذفان قنابل (المورتار) على الجميع..
صاح ملوحًا بذراعيه:
- « فلتتنته هذه المهزلة! انصراف! »
كان هذا ما تمنوا.. فلو أن لهم ذيولًا لوضعوها بين أفخاذهم وفرّوا.. ودون أن يرفع عينيه لملم السير (توماس مور) عباءته لينصرف معهم، لكن (هنرى الثامن) صاح بصوت نارىّ:

- « سير (توماس)! ما معنى رفضك لهذه الزيجة؟ »
ابتلع الكهل ريقه، وللمرة الأولى رفع عينيه الصادقتين نحو الملك:
- « أنا لم أرفضها يا مولاي.. أنا استعمل حقي في الصمت.. »
- « الصمت معناه الرفض.. »
- « ولعل معناه القبول يا سيدى.. »
ثم تسلل في بطء مهذب كى يفرّ من هذا المكان الخطر.
ولم يحاول (هنرى) استبقاءه أكثر..
ويهرع الثعلب (كرومويل) يهدئ من خاطر مولاه، ويقول له أشياء على غرار (لو أمرت لفتحنا كرشه أو انتزعنا عينيه)..
فينظر (هنرى) إلى الكهل الذي يبتعد، ويقول:
- « لا.. ليس سير (توماس).. إنه رجل شريف.. »
وهي كلمة واضحة المعني.. فهو يعرف جيدًا أن الآخرين ليسوا شرفاء.. المشكلة هي أنه يعرف ما اقترفه في حق (كاترين).. لكنه بحاجة إلى من يقول له: مرحي! لقد فعلت الصواب بعينه.. وهذا لن يكون كافيًا لإسكات ضميره الناعس وسط تلافيف مخه المكتنز..
لكن - يا للكارثة - ها هو ذا ضمير آخر يمشي على قدمين يقول له: إنه ليس محقًّا.. إنه ظالم.. وهذا الضمير هو- يا للكارثة الأخرى - سير (توماس مور) الرجل الذي لا يكذب ولا ينافق..
قال لـ (كرومويل) و هو يستدير منصرفًا:
- « تأكد من مغادرته لـ (لندن) بعض الوقت.. إنه بحاجة إلى بضعة أيام يقضيها في أملاكه الريفية.. »
لم يكن يريد ضمائر في فترة الزواج على الأقل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتمّ الزواج الأسطوري..
هتافات العامة في الشوارع، والمآدب التى سال فيها الدم - دم الطيور طبعًا - و الخمر آنهارًا.. ودقات أجراس الكاتدرائية..
إن (عبير) جربت أشياء كثيرة في (فانتازيا) لكنها لم تكن قط ملكة، وقد أنساها الانبهار الذي يصل لاحتباس الأنفاس، أنها تتزوج هذا الشيء البدين ناري المزاج المدعو (هنري الثامن)..
في السماء اشتعلت الألعاب النارية..
وفي مقر البابا كانت هناك ألعاب نارية من نوع آخر.. فقد ثار ثورة عارمة ولعن (هنرى) ودعا عليه بالعقم والخراب..
وفي أسبانيا كانت الألعاب النارية أكثر حدة..
لا بد أن الملكة (إيزابلا) ضربت بكفها على صدرها، وصاحت:
- يا ندامة! يطلق ابنتي ويتزوج وصيفتها! أي أمان للرجال بعد هذا؟ »
- أما (فردناند) الأب المكلوم، فلا بد أنه راح يطلق السباب الأسباني المموسق، ثم لوّح بسيفه وقال:
- « ليدفعن الوغد وزوجته الجديدة الثمن.. لن يحب كثيرًا الجيش الذي سأجرده لاحتلال (إنجلترا)! »
كانت الدوائر تضيق حول (عبير)..
لكن الخطر الرئيسي كان من زوجها نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- رجل لكل العصور..

(كعادتنا في تكرار أسماء الفصول)

زوجان سعيدان ينعمان بلحظات رومانسية..
خطر لها هذا وهي تتأمل الموقف.. المشكلة هنا هى أن أحد الزوجين بدين كوحيد القرن والآخر نحيل كالسحلية..
لكن كل شيء يوحي بالسعادة، بينما المركب يشقّ طريقه ببطء في النهر، والمشاعل في كل صوب تغمر صفحة الماء بضوئها، وفوق ظهر المركب يوجد مكان لمجلس عامر يجلس فيه عازفو الموسيقا، والمطربات ومهرج البلاط..
بقعة من الحلم تشقّ الظلام راسمة انعكاس ألف حلم آخر..
ويمسك (هنرى) بلفافة ورق طولها - في الغالب ـ عشرون مترًا، وهي قصيدته الأخيرة.. ويبدأ في تلاوة مقاطعها، و هو يطوّح رأسه يمينًا ويسارًا انتشاء..
- « هو ذا ترنيم سادة (الأوليمب)..
في عليائهم يرمقون (أوليسيوس) في إعجاب..
ممزوج بشيء من حسد.. »
هنا يصدر أحد العازفين نغمة قصيرة على معزفه..
كاد النعاس والملل يغلقان عينيها غلقًا، لكنها تحاملت ورسمت أمارات الانتشاء على وجهها..
مشكلة الشعراء الخالدة هي أنهم كالديناميت.. تكفى لمسة للواحد منهم حتى ينفجر ويستحيل منعه..
هنا أحست أن حركة التجديف قد تباطأت نوعًا، وأن القارب يوشك على التوقف..
ها هم الخدم أولاء يلقون بحبالهم، وها هو ذا القارب يدنو من الشاطئ ليرسو..
سألها (هنرى) و هو يطوي معلّقته إياها:
- « ما رأيك؟ إنها (بالاد) جميلة لكنها أرق لغة.. »
ابتسمت في فتور، فلم يكن رأيها جديرًا بمصارحة الملوك به..
وضعوا (معدية) خشبية صغيرة كي تسمح لها بالنزول إلى الشاطئ دون أن تبتل قدماها الصغيرتان، وتبعها (هنرى).. بالتأكيد فعل لأنها سمعت صوت الخشب ينذر بتهشمه..
وعلى الشاطئ وقف ذلك الخيال المميز لكهل وقور يرتدي عباءة، وجواره كان كلب صغير يتواثب، وامرأتان يبدو أن إحداهما امرأته والأخرى ابنته.. وكالعادة ثنت كل منهما ساقيها في رشاقة جديرة بزيارة الملك لهذا المنزل الريفي.
تقدّم السير (توماس مور) في أدب نحو الملك، فانحنى محييًا وقال كلمات عن الرضا السامي الذي جعل منزله المتواضع أهلًا لاستضافة الملوك..
هزّ الملك يده في ضجر أن كُفّ عن هذا الهراء، ثم سأل بصوته الجهوري وطريقته النارية:
- « هل لديك شراب هنا يا سير (توماس)؟ »
- « إن كل ما ...... »
فلم يتركه يستكمل كلامه، وشقّ طريقه كالإعصار إلى المنزل الريفي الجميل.. وعوي الكلب في

إثره فاكتفى بتوجيه ركلة جانبية صائبة إلى مؤخرته..
لم ينس سير (توماس) أن يلثم يد (آن)/ (عبير) في رشاقة.. ثم رفع كفها بين أنامله يصطحبها إلى المنزل، بحركة أقرب إلى رقص البالية..
- « أما زلت رافضًا لفكرة وجودى؟ »
سألته وهي تمشي جواره فقال في كياسة:
- « ليس لوجودك يا سيدتي.. بل للظروف.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الطعام شهيًّا والمأدبة تنمّ عن كرم حاتمى لو كان هؤلاء الإنجليز يعرفون (حاتم الطائى)..
وراق ل. (عبير) الجو الخالي من التكلف، ونشاط نساء الدار وبراعتهن، وعدم اكتفائهن باصدار الأوامر للخدم..
أما (هنرى) فقد كان على طبيعته أكثر من اللازم: أكل كالثيران، ثم تثاءب ونام كالدببة في ذات الموضع..
تأملته (عبير) في رهبة وقد تدلّى رأسه العملاق على صدره، وراح شخيره يتعالى..
من الواضح أنه لن يسمع ما سيُقال..
مالت على سير (توماس) وسألته:
- « و الآن.. هل لي أن أظفر بتفسير؟ »
- « لأي شيء؟ »
- « لكراهيتك لي.. »
قال في كياسة و هو يتناول السكين وتفاحة:
- « أنا رجل قانون يا سيدتي، ورجل القانون لا يكره الناس لأسباب شخصية.. فلا شيء يضايقه سوى مخالفة الشريعة، ولا شيء يسعده سوى الالتزام بها.. أنا لا أحمل ضدك ضغائن ما.. »
تأملت النائم في حذر، وعادت تسأل:
- « إذن لماذا ترفض هذا الزواج؟ »
كان قد انتهى من تقشير التفاحة، فوضعها في طبق أمامها، ثم تناول تفاحة أخرى.. قناع الحكمة التي تأبي مزيدًا من الكلام على وجهه، قال لها وهو يقشر التفاحة:
- « لم أرفضه ولم أقبله.. إنني صامت.. كلى تفاحتك!»
- « شكرًا.. كرونش كرونش! لكن الجميع يعرف معنى صمتك.. »
- « هذه مشكلتهم لا مشكلتى.. »
- « ولكن.. كرونش كرونش.. لماذا لا تريد الزواج صراحة؟ »
ارتفعت نحوها عيناه الرماديتان الباردتان النبيلتان اللتان تتهمان دون كلمات، وقال في رزانة:
- « لأنه غير صحيح قانونًا.. وطلاقه من (كاترين) غير صحيح.. لقد لوي الملك عنق القانون على غرار ذلك الإغريقي القديم (بروكر ستيز) الذي كان يملك سريرًا خشبيًّا، فكان يعمد إلى قطع أرجل ضيوفه أو مطّ أجسادهم حتى تلائم السرير[2].. لكني لن أعلن رأيي ما دام أحد لم يطلب مني ذلك.. »
وقدّم لها التفاحة الثانية، فالتهمتها في جشع جعله يبتسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين صحا (هنري الثامن) من نومه، كان الشبع والراحة قد منحاه عزيمة لا تتراجع..
قال لـ (توماس مور) و هو يمدّ يده ليقشر إصبع موز:
- « سير (توماس).. كان الهدف الأول لي من هذه الزيارة هو أن أجعلك تعلن عن رأيك في زواجي ..»
في غموض ابتسم سير (توماس) وقال:
- « إن (إنجلترا) كلّها تؤيدك يا مولاي.. فما أهمية رأى عبد فقير مثلي؟ »
- « لأنك رجل شريف.. ورأيك جوهرى بالنسبة لى..»
هزّ (توماس مور) رأسه، وقال:
- « حقًّا أفضّل أن أظل صامتًا.. »
- « ستندم! »
- « بل أنا واثق من عدالتكم.. »
نظر له (هنرى) بعينين ناريتين، وبدا أنه يمنع نفسه من الانفجار، ثم نهض دون كلمة مغادرًا قاعة الطعام..
مناشدة همست (عبير) في أذن (توماس مور):
- « ما سرّ تصلب الرأي هذا؟ إن هي إلا كلمات.. كذبة بيضاء تنقذ بها نفسك من غضبة مجنونة.. »
ازدادت التجاعيد في وجهه، وغمغم:
- « كلمات! الكون نفسه مخلوق بالكلمة.. إن الكلمة لها ثمن غال أو هكذا ينبغي أن تكون.. الإنسان كلمة، فلو استعملها كما يستعمل حذاءه لما تبقى له شيء من إنسانيته.. ربّما لم يبال الآخرون بأهمية الكلمة، لكن سير (توماس) لن يفعل مثلهم.. »
ومطّ عنقه لأعلى في كبرياء قائلًا:
- « أنا أرفض أن أعلن شيئًا لا أعتقد به.. »
هنا دوّى زئير (هنري الثامن) من الخارج يدعو (آن) للحاق به.. وبدا واضحًا أن الملك لن يبيت ليلته في دار السير (توماس)..
وفي الخارج على ضوء المشاعل المنعكسة على صفحة الماء، بدأ القارب يستعد للرحيل..
على حين وقف سير (توماس) مع زوجته وابنته يرمق المشهد، ورفع يده مودعًا الملك.. لكن هذا استفزّ (هنرى) أكثر...
- « هذا الرجل يجب أن يموت! »
قالها (هنرى) من بين أسنانه..
ارتجفت (عبير) للفكرة، وقالت:
- « دعه وشأنه.. رأيه لن يقدم أو يؤخر.. »
- « أنا أمقت المعارضة! »
قالها في غلّ حتى إن الخدم جميعًا أجفلوا، و أردف:
- « .. أمقت أية طاعة غير عمياء.. إنني شخصية غير ناضجة متصلبة الرأي.. شخصية فمّية كما سيصفنى علماء النفس يومًا ما.. وهذا الـ (مور) يقتلني قتلًا! »
ثم صرخ في الخدم المتصلبين:
- « ماذا تنتظرون يا حمقى؟ نحن عائدون إلى (لندن)! »
وبدأت المجاديف تتحرك.. صوت ضرباتها الرفيق للماء يتعالى..

وسمعته (عبير) يهمس من بين أسنانه:
- « (كروموبل)! يا له من ذئب! سيجد ما يدين (مور) حتمًا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- حاكموه وأعدموه..

فيما بعد تم اعتقال سير (توماس مور) بتهمة التمرد ضد الملك..
وفي التحقيق السريع الذي أجراه معه (كرومويل)، ظلّ (مور) محتفظًا بصمته وإصراره على عدم إعلان رأيه في الزيجة..
يقول له (كرومويل) بلهجة ذات معنى:
- « إن لدينا وسائل تجعلك تتكلّم.. »
فيقول (مور) في كبرياء أرستقراطي:
- « هأنتذا تهدد كسكير على رصيف ميناء! »
- « إذن قل لي كيف أهددك؟ »
- « هددنى كمدع عام للدولة.. هددني بالقانون! »
- « حسن.. وأنا أهددك بالقانون.. »
فيقول (مور) في راحة:
- « إذن فلا شيء يهددني! »
وهكذا - وعلى هذا المنوال المحطم للأعصاب - يواصل سير (توماس) ألعابه اللفظية المنطقية مع المحققين.. وكان دائمًا قادرًا على أن يفحمهم، ويعود بهم من النهر ظمآنين لو صحّ التعبير..
لكن أوامر (هنري الثامن) غير قابلة للمناقشة..
- « حاكموه وأعدموه! »
فيتساءل سائل أحمق:
- « إذن لماذا نحاكمه أصلًا؟ »
- لأن العدالة يجب أن تأخذ مجراها يا أبله! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتجيء الزوجة إلى السجن تتوسل كى يعدل سير (توماس) عن عناده.. كفاه بضع كلمات يلفظها عن غير اقتناع..



وتجيء الزوجة إلى السجن تتوسل كي يعدل سير (توماس) عن عناده ..

ثم إنه صديق (هنري الثامن)، و (هنري) يتمنى لو يعطيه فرصة كي يتراجع.. كي لا يفعل ما ينبغي أن يفعله..

ومرارًا تقول له:

- « سيأتي يوم أكرهك فيه من صميم قلبي على ما تفعله اليوم، حين أكون أرملة أجلس وحدى جوار المدفأة، سأتذكر عنادك اليوم وألعنك! »

فيحتضنها مداعبًا.. ويردّد:

- « يا للوحش الذي تزوجته! يا للوحش! »

لكنها تعرف أفضل من أي واحدة أخرى حقيقة الرجل الذي قد تزوجته.. رجل يؤمن أن الكلمة أهم من الحياة، والمبدأ أهم من الرفاهية.. لهذا لن يتراجع.. لن يتراجع أبدًا..

يا للجنون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الوقت من أوائل عام 1533؛ ولم تكن (عبير) / (آن) على ما يُرام.. فها هي ذي للمرة الثانية تخوض تلك التجربة الرهيبة: الحمل..
صار مزاجها كالبحر وقت العاصفة، وأحيانًا أكثر هدوءًا من بقعة الزيت فوق ماء نهر.. وصارت تشمئز من كل ما يؤكل ويُشرب ويُشمّ ويُلمس.. ثم بدأت تعاني شوق الحمل المجنون لشيء ما..
ثم تبلور هذا (الوحم) في صورته النهائية، فصار شوقًا غامرًا إلى التفاح.. ولم يكن هذا مطلبًا عسيرًا بالنسبة لملك..
وهنا تذكرت ابتسامة سير (توماس مور) الغامضة حين لاحظ أنها نسفت التفاحتين في ثوان.. لقد فهم..
وفي الآن نفسه، لم يكن (هنري الثامن) يخفى فخره الشديد بمولوده المرتقب.. وقد قابل فى فرنسا السفير الأسباني الذي كان مغتاظًا لما حدث لابنة ملكه (كاترين)..
قال السفير ل. (هنرى) معتمدًا على حصانته الدبلوماسية:
- « اتق الله يا سيدي، وراع شريعته.. »
كاد (هنرى) يفترس الرجل افتراسًا، لكنه لم يستطع بالضبط أن يفعل ذلك في بلد أجنبي ومع سفير..
لذا كوّر صدره للأمام، وقال:
- « إن الله وضميري يقرّان ما أفعل.. »
وهي عبارة فخور جدًّا تذكرنا على الفور بكلمة (روكفلر) المليونير الأمريكي الشهيرة (إن رصيدى في البنك لخير دليل على أن الله راض عما أفعله)!
كتم السفير الأسباني ردوده البليغة، وابتلع غيظه..
أما بالنسبة ل. (آن) فقد كانت تلك أجمل أيام حياتها، وهي تلعب دور الزوجة المدللة التي تجاب لها كل صغيرة وكبيرة بلا إبطاء.. صحيح أن الحمل تجربة قاسية، لكن التدليل تجربة جميلة حقًّا....
وتلتهم المزيد من التفاح، وتنتظر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت الولادة في أكتوبر..
ومن جديد تعيش (عبير) أوجاع الولادة، مع تجربة أخرى هي الولادة في القرن السادس عشر حيث كل شيء متسخ وملوّث بالباكتريا، وحيث يغسل الأطباء أيديهم بعد الجراحة لا قبلها، وحيث تعتبر الولادة نشاطًا استشهاديًّا لا تنجو بعده سوى قليلات..
وفيما بعد ستعرف (عبير) أن خليفتها على العرش (جين سيمور) ستقضى نحبها، لأن (هنري) سيرغمها على المشاركة في حفلاته الصاخبة وهى بعد في حمى النفاس..
المهم أن الولادة تمت..
لكن المولود كان أنثى!
أنثى اختاروا لها الاسم (اليزابث)..
وفي هذه المرة تقبل (هنرى) الخبر في اكتئاب وصمت عميقين..
هذا هو ما يثير الذعر في النفس..

الصمت بدلًا من الصراخ، والاكتئاب بدلًا من الغضب..
وال.. لا أدري بالضبط.. بدلًا من ال..... لا أدرى كيف أعبر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت ذاته يواجه سير (توماس مور) محاكمته الشهيرة، والتي خلّدها كثيرون في أعمال أدبية، وقدمها (بول سكوفيلد) ببراعة في فيلم (رجل لكل العصور) من إخراج (فريد زينمان)....
كان الرجل العظيم واهنًا مفكك الأوصال، و هو يدخل مصحوبًا بحراسة، مكبلًا بالسلاسل الحديدية.. ليمثل أمام هيئة القضاء الرهيبة، بشعورها المستعارة وأروابها ونظراتها النارية..
كان غير قادر على الوقوف، لذا سمحوا له بالجلوس، وهو استثناء لو تعلمون عظيم..
فخورًا كالطاووس متربصًا كالصقر يتقدم (كروموبل) كى يواجه السيادة القضاة..
بعد ما حيّاهم قال:
- « الأمر يتعلق برجل شريف.. أديب ومفكر هو مفخرة لإنجلترا.. لكنه - في أمر مهم حيوي – يصرّ على الصمت.. »
وبلهجة مسرحية كرّر آخر مقطع:
- « الصمت! »
ثم عقد كفيه وراء ردفيه، وراح يذرع القاعة جيئة وذهابًا كأنما يكلم نفسه:
- « الصمت! إن الصمت أنواع.. تأمل الجثة الهامدة في ركن الغرفة وقد استقرّ مقبض الخنجر في صدرها.. أصغ لهذه الجثة.. ماذا تسمع؟ الصمت! »
ومن جديد نظر للسقف وكرّرها:
- « الصمت! »
ثم أردف و هو يعود لذرع القاعة:
- « .. ولكن دعنا نر مثالًا آخر.. ماذا عن الشاهد الذي رأي القاتل لكنه يصرّ على الصمت؟ إن الصمت قد يتكلم أحيانًا كما ترون... »
وأشار إلى السير (توماس) الذي جلس يرمقه في هدوء دون أدنى انفعال:
- « هو ذا سير (توماس) يصرّ على الصمت فيما يخصّ زواج ملكنا (هنري الثامن) من السيدة (آن).. لكن.. هل يوجد شخص في (إنجلترا) كلها لا يعرف أو لا يعتقد أنه يعرف رأى سير (توماس) في الموضوع كله؟ »
في برود قال (توماس مور):
- « لو اعتقد الجميع فعلى هذه المحكمة أن تأخذ بالحقائق.. فقط بالحقائق.. »
ضربة أخرى لا بأس بها..
هنا استدار (كروموبيل) محنقًا نحو سير (توماس) وقال:
- « نحن في لحظة الحقيقة.. يمكن للسير (توماس) أن يطلعنا على رأيه النهائي في هذا الزواج، أمام عدالة المحكمة.. »
ساد صمت رهيب..
صمت من النوع الذي يتكلم كما قال (كروموبل)..
أخيرًا دوّى صوت (توماس مور) الو اهن المرتعش من المرض يقول:
- « يعلم الله أنني حاولت التزام الصمت قدر وسعى، ولم أعلن قط عن محتوى ضميرى، حتى أرغمونى على الكلام.. »

« لقد طلبت مني المحكمة الموقرة أن أختصر.. ومختصرًا سأكون.. »
« إن رأيي في هذه الزيجة هي أنها... »
وساد مزيد من الصمت كأنما هذا ممكن.. بينما الرجل يفرغ جعبة أسراره:
- «.. هي أنها عمل يناقض كل الشرائع القانونية والسماوية.. فطلاق الملكة (كاترين) غير صحيح.. ودين السيدة (آن) لا يسمح لها بالزواج من ملك (إنجلترا)، حتى لو ركز السلطة الدينية في يده..
« لقد جعلونا نقسم على ولائنا لخطيئة..
« وفي لحظة كهذه يصير الصمت والرفض بالقلب هو أحكم سياسة، أما إذا أرغمونا على الكلام فلن نقول إلا صدقًا..
« إنني رجل ميِّت.. أعرف أن كل شيء قد أعدّ لإعدامى.. لكنني أقول كلمتى الأخيرة التي لن أتراجع عنها: زواج (هنري الثامن) من (آن بولين) باطل! »
كان هذا أكثر من كاف..
وابتسم (كروموبل) مذهولًا، فهو لم يتوقع أن يكون الأمر بهذه البساطة.. كان ينتظر مراوغة أكثر وألعابًا لفظية أكثر.. لكن الرجل قدّم ببساطة أروع اعتراف ممكن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- إعدام في البرج..

وقف القضاة غير مصدقين هول ما يسمعون... استحال ذهولهم غضبًا إزاء كل هذه الوقاحة الانتحارية..
في النهاية استطاع كبيرهم الكلام، فقال لاهثًا:
- « سير (توماس)! إنك قد قارفت الخيانة العظمى، ولسوف تعدم غدًا في البرج عند الشروق.. »
وانصرفوا دون كلمة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهرع (عبير) ملهوفة إلى برج (لندن) وهي تلملم أطراف ثوبها كي لا تتعثر.. ودموعها تعمى عينيها تمامًا..
يوقفها السجان الفظُّ برمحه الذي سدّ به الطريق، لكنها تكشف النقاب عن وجهها في صرامة:
- « هل تعرف من أنا؟ »
بالطبع لم يكن يعرفها.. ففي زمن لا يوجد به تلفزيون ولا صحف يستحيل على الشعب معرفة شكل ملكته، ما لم يرها في موكب ما..
أسقط في يدها لولا أن سمعت صوتًا هادئًا يقول:
- « إنها ملكتك أيها المغفّل! »
استدارت لتجد الكاردينال (ولسي) يبتسم في خبث، فأجفلت..
قال لها بلهجته التي تمط الكلمات:
- « دعيني أخمن يا مولاتي.. لقد جئت لزيارة سير (توماس) على سبيل طلب المغفرة.. »
هزَّت رأسها، فلم يكن هذا سرًّا على كل حال..
عاد يسألها:
- « وهل هذا بموافقة الملك؟ »
- « وما أهمية هذا؟ »
طقطق بشفتيه كأنما يكلم طفلًا شقيًا، وقال بطريقته الناعسة المائعة قليلًا:
- « هذا ليس سؤالًا تسأله الملكة.. قد يستتبع هذا نتائج خطيرة لها أبعد الأثر.. »
شعرت بتقزز من أسلوبه الأفعواني الأملس، فقالت:
- « إن الرجل سيفقد عنقه على كل حال بعد ساعات..»
- « وامرأته؟ و ابنته؟ إنهما بالداخل معه.. »
هنا قررت أن تستعمل سلطتها بجدية:
- « كاردينال.. مُرّ هذا الثور أن يفتح الباب.. »
- « ليكن.. افتح الباب يا ثور.. »
وفتح الثور الباب الضخم، فدخلت متهيبة..
كان (مور) جالسًا على منضدة خشبية، أمامه شمعة، يلتهم بعض فطائر (الزنجبيل)، وكانت ابنته جالسة عند قدميه تعتصر ساقه بذراعيها.. أما المرأة فكانت جالسة على المنضدة في مواجهته تقرأ له من الكتاب المقدس..
فما إن رأت (آن) حتى اتسعت عيناها، وبرزت لها أنياب كما يحدث في أفلام مصاصي الدماء:

- « أنتِ؟!! »
هنا ربّت (مور) على ذراعها مهدئًا، وتساقط فتات من فمه وهو يقول:
- « صبرًا يا (إلستري).. إن الطفلة لا ذنب لها في هذا.. »
دنت (آن) منه محاذرة أن تدنو أكثر من مخالب المرأة، وقالت له وهي تتحشرج بالدموع:
- « سير (توماس).. إنني آسفة.. »
- « أولًا: لست أراك جلادًا بل ضحية.. ثانيًا: ليس الخلاص من بلد كهذا وزمن كهذا بالشيء الذي تعتذرين لى عنه.. إنها لخدمة عظمى حقًّا.. »
ثم مدّ يده لها بواحدة من الفطائر:
- « كلى.. إن الولادة قد أنهكت قواك كما أرى.. »
- « شكرًا.. تشومب تشومب! لماذا تأكل برغم أن إعدامك بعد ساعات؟ »
- « إن زوجتي تصرّ على أن أكون بصحة جيدة لحظتها.. وعلى كل حال ليس لدي البائسة شيء آخر تقدمه لى.. »
ثم - بتهذيب - سألها:
- « لا ضغائن.. هل ثمة شيء يمكنني تقديمه لك؟ »
- « لا شيء سوى المغفرة.. »
وتحاشت نظرات الأنثيين، وتراجعت إلى الباب فقرعته.. وبعد دقائق كانت عائدة بصحبة الكاردينال (ولسي) إلى دارها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن (هنري الثامن) موجودًا ساعة الإعدام..
كعادته كان يقوم برحلة صيد؛ كي يتحاشى أن يكون في (لندن) في لحظات مؤسية كهذه..
على أنه سمع صوت طلقات المدفع، فعرف أن الأمر تمّ بنجاح..
لقد انتهى من استئصال ضميره اليقظ دون متاعب..
ويمكنه الآن العودة إلى زوجته (آن)، فقد فقد رغبته في المزيد من الصيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول من رأوا المشهد إنه كان مهيبًا..
لقد صعد سير (توماس مور) إلى البرج، وبنظرة سريعة رأي المشهد المألوف الخالد.. النطع الخشبي.. الجلاد الملثم.. السيف.. القس.. الكاردينال (ولسي)..



نظر للسماء ليرى الشروق للمرة الأخيرة ..
وسماء نهار الإعدام تكون جميلة دائمًا ..

نظر للسماء ليرى الشروق للمرة الأخيرة.. وسماء نهار الإعدام تكون جميلة دائمًا، حتى يشعر المحكوم عليه بمزيد من الحسرة..

تقدّم من النطع، وقال للجلّاد الملثم:
- « لا تتوتْر.. إنك ترسلني إلى خالقى.. »
ثم وضع رأسه على الخشب المبتل الذي غسله الندى، ومن جيبه تناول قطعة ذهبية عليها رأس (هنرى الثامن) فدسّها في كف الجلاد على سبيل البقشيش!
يقولون إن سير (توماس مور) هو أول وآخر من أعطى بقشيشًا لجلاده في التاريخ.. لكن الحقيقة هي أن هذه كانت العادة في ذلك الزمن..
لا بد من إعطاء الحلوان للجلاد؛ كي يعدمك بشكل سريع نظيف..
وارتفع في الهواء السيف..
ثم هوى..
ومعه انتهت إحدى أكثر الشخصيات مثالية وطهرًا في تاريخ (أوروبا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي المساء لم تكن دموع (عبير) قد جفّت بعد..

من العسير أن يلقى المرء هذا الطراز النادر من الناس.. الطراز الذي يموت من أجل كلمته.. فما إن تلقاه حتى تجده قد مات بالفعل!
مدّت لها وصيفتها يدها بمنديل حريرى معطّر، فتناولته (عبير) لتفرغ أنفها.. وهنا لاحظت أنها لم تر هذه الوصيفة الشقراء من قبل..
- « ما اسمك؟ »
- « أنا (جين) يا مولاتي.. (جين سيمور).. »
ترى أين سمعت هذا الاسم من قبل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- يجب أن تهربي يا مولاتي!

كان (هنري) يتردّد على غرفتها أكثر من اللازم في الآونة الأخيرة..
يجلس جوارها على الأريكة وسط الطنافس، ويصغى للأشعار التي تتلوها (جين سيمور) بصوتها الرقيق المرتجف قليلًا..
كانت (جين) شقراء جميلة، لها عينان واسعتان كزهرتين متفتحتين.. وكانت تنم عن براءة وسذاجة وطفولة..
لا يجب أن تكون عبقريًا في التاريخ، كي تتذكّر أن هذه الوصيفة ستكون زوجة (هنري) الثالثة.. يكفيك أن تكون أنثى..
وكانت (عبير) أنثى، وقد فهمت على الفور هذا الاهتمام المبالغ فيه من (هنري الثامن) بأمر وصيفتها..
ثم إن المشهد مكرّر على كل حال، وقد لعبت هي ذات الدور مرارًا حين كانت وصيفة الملكة (كاترين)..
تبًا للرجال! هل يحسبها حمقاء إلى هذا الحد؟
وبرغم أنها لم تشعر قط بأى ميل نحوه، إلا أن غريزة الأنثى جعلتها تشعر بغيرة حارقة عمياء.. كالطفل الذي يأخذون منه لعبة لا يحبها ولا تمثل له أية أهمية، عندها يجنّ جنونه ويتمسك بها..
ودون قصد منها وجدت نفسها تعامل (جين) أسوا معاملة ممكنة، وراحت تتكلم عن رغبتها في الخلاص منها..
لكن (كرومويل) أفهمها - في غموض - أن (جين سيمور) موجودة حسب رغبة الملك شخصيًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد فترة رزقت (آن) / (عبير) بطفل ذكر..
هو خبر طيب لولا عيب صغير هو أنه ولد ميتًا..
وجن جنون (هنرى) حين عرف هذا، وراح يردّد وهو لا يكف عن ضرب رأسه بالجدار حتي حطمه - الجدار طبعًا -:
- « إننى ملعون! لا وريث لهذه المملكة التعسة! »
والحق أنه كان يخشى ذلك من البداية..
فقد كان ميلاد الذكور موتي يذكره بما يقال عن مرضه العضال الذي سيحرمه من الإنجاب.. كما كان يذكّره باللعنة التي أطلقها أبو (كاترين) على رأسه، حين دعا عليه بالحرمان من الذرية للأبد..
وحين دخل (كرومويل) على الملك وجده في أسوأ حال ممكن.. كان يغلي غيظًا، وقد صار وجهه كسرطان البحر المسلوق، وراح يردّد كلامًا من المعتاد في هذه الظروف على غرار: كل هذا الملك وما من ذكر من صلبى، و... عجزت النساء عن إعطائي وريثًا..
ثم - بلهجة كحدّ السيف البارد - قال:
- « تلك الحمقاء عجزت عن إنقاذ مخلصها! »
اتسعت عينا (كرومويل) الضيقتان، وقد فهم الرسالة على الفور..
سيكون عليه الخلاص من الملكة.. لكن ليس بالطلاق هذه المرة.. فأسلوب الطلاق مع (كاترين)

جلب الوبال عليهم..
إن الموت أسلوب أكثر رشاقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سهرة صاخبة هي من سهرات الملك (هنرى الثامن)..
كانت الموسيقا العجيبة - موسيقا القرن السادس عشر - تدوّي بينما رجل يرتدي ما يشبه ثياب المهرجين، يترنم ب. (بالادات) من مؤلفات (هنري الثامن) الرديئة..
الحق أن أي نوع من الشعر غير ما كتبه (هنرى) كان محرمًا في البلاط.. وأي نوع من الغناء لا يروق له ممنوع تمامًا..
وكانت النساء يرتدين الأقنعة على وجوههن، أقنعة رشيقة لها مقابض للإمساك بها، يستعملنها كأنها المراوح..
وقد راحوا - الرجال والنساء - يرقصون ذلك الرقص الشبيه بالمشي الموقّع.. فتعجب، ما سرّ شغفهم بنشاط مملّ كهذا؟
مشت (آن) ساهمة فيما بينهم، حين وقعت عيناها صدفة على أحد العازفين في الفرقة الموسيقية..
واصلت رحلة عينيها ثم تذكّرت شيئًا، فعادت تنظر إليه في حيرة.. هذه الملامح الوسيمة.. هذا الشعر.. إنه هو..
(شريف).. (شريف) زوجها في عالم الواقع..
أخيرًا ظهر.. وظهر أين؟ في بلاط (هنري الثامن) الطاغية الإنجليزي الذي لا يكفّ عن التهام الطعام والزواج والقتل..
معنى هذا أن لهذا العازف شأنًا في القصة..
إنه سينقذها.. أو سيحاول إنقاذها..
كان ينظر لها نظرات حيرى كمن يريد أن يقول شيئًا، وسرّه أن الملكة تبادله نظرات مماثلة.. ماذا يريد قوله؟
ودون كلمة واحدة رأته يضع أداة العزف الخاصة به على الأرض، ثم ينسحب في خفة متجهًا إلى الشرفة..
نظرت حولها فلم تر أحدًا يلاحظ أي شيء بصدد أحد.. الكل صاخب غارق في الضوضاء والمرح..
لذا - بخفة - تسللت إلى الشرفة لتلحق به..
هناك في الظلام كان واقفًا يلهث انفعالًا، وكان الأسود يغلف سماته، لكنها كانت تعرف موضع كل شعرة وكل ندبة.. أليس هو (شريف)؟
قال لها في تهذيب وهو يجثو على ركبة واحدة:
- « اغفري لي وقاحتى يا مولاتي.. »
- « لا وقاحة هناك.. لقد دخلت الشرفة حين أردت أن أدخلها.. لا دور لك في الأمر.. ثم إنني لم أعرف بعد من أنت؟ »
طبعًا لم يقل: أنا (شريف).. إنما قال:
- « محسوبك (مارك سمتون).. معلم الموسيقا والرقص في البلاط.. إنها المرة الأولى التي أعزف فيها أمام جلالتك.. »

حرّكت مروحتها في ملل، وسألته ناظرة للحديقة:
- « حسن يا (مارك).. ماذا تريد؟ »
- « أريد إنذارك يا مولاتي.. »
تنهَّد كأنما يجد عسرًا عظيما في استكمال كلماته، وقال:
- « من (هنري الثامن).. إن الأقاويل تتناثر في البلاط.. ويمكن القول إنه سيتخلص منك قريبًا جدًّا.. من أجل.. من أجل.. »
في ملل أكثر سألته:
- « من أجل (جين سيمور) طبعًا؟ »
- « أنت واسعة العلم يا مولاتى.. »
- « والحلّ؟ »
نهض على قدميه ليظهر انفعاله، وصاح:
- « يجب أن تفرّى.. إن (أسبانيا) بلد مناسب جدًّا.. »
لم تكن تفهم في السياسة.. لكنها كانت تعرف ما يكفي:
- « (أسبانيا)؟ من الممتع تصور ما سيفعله (فردناند) حين تأتيه ضرّة ابنته لاجئة تطلب العون.. »
لم يكن قد فكّر في هذا.. لقد افترض أن (أسبانيا) عدوة (هنرى) هي - بالضرورة - صديقة أعدائه..
قال لها بعد تفكير:
- « إذن.. فكّري في (الدنمارك).. فكّرى في أى شيء.. ولكن بسرعة.. »
ثم خرق حاجز الإيهام كعادتهم في (فانتازيا)، وقال:
- « إن (آن بولين) قد ماتت.. لكن لم يضع الوقت بالنسبة لك.. ما زال من الممكن تغيير التاريخ.. »
وهنا صمتت الموسيقا، وعلا صوت القوم بالداخل وقد عادوا إلى إيقاع حياتهم العادي.. فصاح وهو يهرع إلى القاعة:
- « سأعود قبل أن يصير اختفائى ظاهرًا للعيان.. »
ووقفت وحدها في الشرفة تفكّر..
الحقّ إنه لمأزق.. وهي لا تستطيع أن تأمل في ظهور المرشد.. فقد عوّدها على أنه لا يظهر إلا حين يظهر.. والقصة لا تنتهي إلا حين تنتهي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح كانت في الحديقة مع (هنرى) تلعب لعبة عتيقة قريبة من التنس، ولعلها الجدّ الأول لهذه اللعبة..
كان (هنرى) متعكر المزاج كديدنه في هذه الأيام، وكان صموتًا محتقن الوجه.. حتى قروحه كانت تصدر رائحة أسوأ، نوعًا مما يدلك على حالته النفسية المتدهورة..
وحين ركض ليصدّ كرتها أدركت أنه يعرج نوعًا.. لقد عاوده النقرس، ومن الواضح أن ليلته كانت أسود من شعر لحية (كرومويل)..
أخيرًا ألقي بمطرحة العجين التى يمسك بها – وهى الجدّ الأول لمضرب التنس - معلنًا أنه ليس في مزاج للعب اليوم..

وانصرف محنقًا.. هنا دنا منها شابان من شباب البلاط المهذبين هما (هارى نوريس) و (وليام بريرتون)، وصاحا يستأذنان الملك:
- « هل لنا أن نرفه عن جلالتها؟ »
صاح دون أن ينظر للوراء:
- « رفّها عنها أو هشما رأسها.. لا يهمّ! »
احمّر وجهها لهذه الإهانة أمام هذين.. لكن (هنرى) كان يزداد فظاظة معها يومًا بعد يوم، حتى لم يعد يبالي كثيرًا بإخفاء فظاظته هذه أمام الآخرين..
وإخفاء الخلافات أمام الناس أمر يتعلق بالكرامة الشخصية أكثر منه بالرقة.. لكن (هنرى) كان قد اجتاز نقطة اللاعودة..
تظاهر الشابان بأنهما لم يسمعا شيئًا وبدآ يتخذان أوضاع اللعب..
وكان (بريرتون) هو أقرب واحد إلى موضعها، فسمعته يهمس دون أن ينظر نحوها:
- « يجب أن تهربي يا مولاتي يجب! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- تحقيق.. تعذيب..

وكل هراء من هذا النوع..

هزّت (عبير) رأسها وافتعلت ابتسامة، وقالت:
- « إنني أسمع هذا التحذير أكثر من اللازم هذه الأيام.. »
قال لها وهو (ينطّق) الكرة على مضربه:
- « إنها الشمس التي يبصرها الجميع.. »
وبأدب أردف:
- « فيما عدا العميان طبعًا.. »
هنا تدخل (نوريس) في الكلام، وقد بدا واضحًا أنه يعرف كل شيء:
- « .. إن كل ما يفكّر فيه الملك الآن هو كيفية الخلاص منك.. وهو لن يطلقك بالتأكيد، لأن طلاق زوجتين متتاليتين لأمر لن تحتمله أية كنيسة.. عليك بالهرب.. »
- « أهرب.. ولكن لأين؟ وكيف؟ »
قال (بريرتون) وهو يتراجع ليبدأ اللعب:
- « ثمة طريقة نعرفها.. عبر النهر.. فقط قولى إنك موافقة، ولسوف نرتب لك كل شيء.. »
وبدأ اللعب..
لكن بأي مزاج وأي عقل يمكنها متابعة ما يحدث؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغرقت ثلاثة أيام في اتخاذ قرارها..
كان عليها أن ترتب كل شيء.. ثيابها وابنتها وحقائبها.. كيف يمكن الهرب مع وجود طفلة رضيعة؟ بل - الأسوأ - كيف يمكن ترتيب هذا كله خلسة دون أن تشعر بها جاسوسات البلاط وخاصة (جين سيمور)؟ بالتأكيد تريدها (جين) أن تفرّ.. لكن إحباط محاولة فرارها سيضيف لها نقاطًا لا بأس بها عند (هنرى)..
هكذا راحت ترتب ما لا يمكن ترتيبه، مستعينة طبعًا بصديقين وثقت فيهما هما (نوريس) و(بريرتون) اللذين شعرت أنهما يفهمان في هذه الأمور..
لكن لحظة اتخاذ القرار تكون متأخرة دائمًا.. كاللحظة التي يشعر فيها الخروف بأن شيئا ما ليس على ما يُرام، ويكون هذا بينما الجزّار يفتح باب سطح البناية صبيحة عيد الأضحى..
وهكذا وجدت (آن) ثلاثة من جند (هنري الثامن) الأشدّاء ذوى اللحى الكثة والنظرات النارية، ومعهم وصيفة عجوز مولولة لا تكف عن البكاء واللطم..
وفي تهذيب يوشك أن يكون سبابًا، قال أكبرهم:
- « بأمر الملك (هنري الثامن) سيتم اعتقالك يا مولاتي.. »
شدّت قامتها كملكة حقيقية، وتساءلت
- « بأية تهمة؟ »
- « هذا هو ما ستقرّره اللجنة! »

ولم تجد مناصًا من القبول.. إن المقاومة لن تعني سوى مزيد من (البهدلة) و (الفضيحة)، ولعل الأمر يتضح بعد حين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت لجنة رهيبة تلك التي شكلها (هنري الثامن).. كان أعضاؤها من أصحاب المناصب العليا وذوي النفوذ، بها دوقات وكونتات واللورد حامل أختام الدولة، وعشرة من حاملي لقب فارس منهم سبعة قضاة..
كان المجلس قد انعقد لدراسة مسالة سياسية مهمة:
هل خانت الملكة زوجها أم لا؟
هذه هي المفاجأة الباسمة التي أعدّها (هنري) لزوجته بمناسبة مرور ثلاث سنوات على زواجها منه..
بالطبع كان الأمر شديد الحساسية وخصوصيًا جدًّا، لهذا استعملت اللجنة الألفاظ اللاتينية في تحقيقاتها..
وكان الشاهد الأول أمام اللجنة هو عازف موسيقا في الفرقة التي تحيي حفلات (هنري الثامن)..
- « ما الذي أثار شكوكك؟ »
يقول وعيناه تلتمعان تلذذًا بأهميته:
- « لقد رأيتها تتسلل إلى الشرفة في أثناء الحفل، وتلحق بذلك المدعو (مارك سمتون) حيث وقفت معه فترة لا بأس بها.. أعتقد يا سيدي أن هنالك علاقة عاطفية ما بينهما.. »
سأله رئيس اللجنة شأن من يضيق الحبل حول فريسته:
- « هل كان يبدو عليهما سمت العاشقين؟ »
ضحك الشاهد في خبث:
- « هيء هيء.. إن من يقف مع حسناء فى مكان مظلم في ضوء القمر لا يحدثها عن قوانين (أرسطو) يا سيدي.. هيء هيء.. »
الشاهد الثاني:
هو المسئول عن رعاية الحديقة الملكية..
- « ما الذي رأيت وأثار ريبتك يا رجل؟ »
يحتضن الرجل قبعته في عصبية، ويقول:
- « ما إن انصرف مولانا عن لعب الكرة؛ حتى دنا المدعوان (هارى نوريس) و (وليام بريرتون) ليقفا مع جلالتها.. وكانوا يتهامسون وإن تظاهروا بأنهم لا يتبادلون الحديث أصلًا.. »
- « يا رجل.. كيف تعرف أشياء كهذه؟ »
ضحك الشاهد كاشفًا عن أسنانه النخرة، وقال:
- « سيدي.. إنني لست أخضر غير ذي خبرة... إن لي تجاربي مع بنات حواء، وأعرف حديث العشاق حين أراه.. »
تبادل القضاة النظرات..
كان هذا أكثر من كاف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « أنا أخونه مع ثلاثة؟! »

كذا صاحت (عبير) في سجنها ببرج (لندن)، حين أبلغتها الوصيفة العجوز بما عرفته من الحراس..



- «أنا أخونه مع ثلاثة ؟!»
كذا صاحت (عبير) فى سجنها ببرج (لندن) . .

كانت قد حاولت أن تجمل زنزانتها قليلًا، فقامت بتثبيت ستائر على قضبان النافذة، ووضعت مزهرية على المنضدة، مع شموع وأغطية حريرية للفراش..
الحق إنها كانت تُعامل معاملة حسنة للغاية جديرة بملكة.. لكن من قال إن السجن المهذب يناسب الملكات؟
وحين نقلت لها الوصيفة أخبار المحاكمة، أدركت أن تحذير المرشد كان دقيقًا حقًّا..
والنتيجة: ثلاث محادثات بريئة اعتبرتها اللجنة دليلًا - غير قابل للدحض - على خيانتها..
والغريب أن المتهمين الثلاثة كانوا يحذرونها مما ستتسبب حماقتهم في توريطها فيه!

صاحت غاضبة:
- « أي رجل (هنرى) هذا؟ يسيء لشرفي وشرفه لمجرّد الخلاص مني؟ كان بوسعه أن يدس لي سمًّا أو يضرب عنقي.. »
في حنان قالت الوصيفة:
- « سيفعل هذا يا حبيبتي.. ولكن بالقانون! »
عادت (عبير) تفكّر وهي تقضم أظفارها، ثم تساءلت:
- « ولكن (هنرى) ليس بالرجل الذي يرسم خططًا بهذا التعقيد.. إنه ناري المزاج لا يستطيع أن يخطط، أو يلعب أوراقه في صمت.. إنه يفرح فيقهقه أو يغضب فيصرخ.. ترى من رسم له هذه الخطط؟ »
قالت الوصيفة:
- « (كرومويل) يا مولاتي هو الذي رسم هذه الخطة كلها.. والآن بقى استجواب المتهمين الثلاثة.. »
- « سيسخرون منه.. »
في حنان متزايد ضحكت الوصيفة:
- « بل سيعترفون يا مولاتي.. أعدك أنهم سيعترفون! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (كرومويل) مشغولًا بحق..
ففي ذلك القبو من برج (لندن)، حيث لا يعرف المكان سوى قلة من الأحياء؛ كان يقف وأمامه (وليام بريرتون).. وكان هذا الأخير مكبلًا بالسلاسل الحديدية كأنه دبّ شرس سيؤدى عرضًا في شوارع (لندن)..
كان عاري الجذع لم يبق سنتيمتر من جسده دون جراح ولا كدمات..
وجواره وقف ذلك العملاق الذي يرتدي قميصًا يكشف عن ذراعين بحجم الفخذين، وصدر بحجم نطعى إعدام.. وعلى رأسه كان هناك غطاء يستر كل شيء عدا عينيه..
تأمل (كرومويل) أسيره في استمتاع ثم قال
- « ترى هل حطموا كبرياءك بعد؟ »
صاح الجلّاد بصوت كالخوار:
- « لا يا سيدى.. لكننا سنفعل.. »
لم يردّ (كرومويل) وإن اغتاظ لمقاطعته، وعاد يسأل (بريرتون):
- « ألن تعترف بقصة الحب بينك وبين الملكة؟ »
- « سأعترف بشيء واحد.. »
قالها (بريرتون) وهو يرفع رأسه في صعوبة..
لكن (كرومويل) كان قد عذّب أناسًا كثيرين، وكان يعرف أن هذا الأسير لن يقول سوي شيء على غرار: أعترف أنك وغد.. أو:
أعترف أن رائحتك كريهة.. فالموقف دائمًا هكذا..
- « سأعترف بأن رائحتك كريهة! »
بدا الملل على وجه (كرومويل).. كل هؤلاء الأبطال يتصرفون بذات الطريقة المملة، ويقولون ذات الأشياء.. كأنهم يمثلون دورًا مرسومًا في مسرحية لن يراها أحد.. أو يحاولون أن يضيفوا ما

سيقولونه إلى الكتب الدراسية للأجيال القادمة..
- « إن هذا يثير مللى.. كنت أحسبك أذكى من هذا..»
وأشار إلى الجلاد كى يبدأ استعمال أدوات التعذيب..
وكانت هذه الأدوات من أفضل ما تم استيراده من محاكم التفتيش الأسبانية.. وتمثل جزءًا مهمًّا عزيزًا من تراث القضاء في (إنجلترا)..
الأداة الأولى عبارة عن ملزمة تحيط بالرأس، ثم يبدأ الجلاد في تحريك مقبض صغير يجعل الملزمة تطبق على الرأس أكثر فأكثر حتى ليوشك على الانفجار..
إن فعاليتها كاملة برغم أنها تقتل السجناء أحيانًا قبل أن يتكلموا..
ثبت الجلاد أداته حول الرأس، ثم راح يبكى..
- « ماذا دهاك يا أحمق؟ »
- « إنها دموع الفرح يا سيدي.. إنني شديد الحساسية، يرتجف قلبي طربًا في ضلوعي كلما عذبت أحدًا.. »
- « إذن حاول التماسك.. »
وهكذا راح الرجل يدير المقبض ببطء حول رأس (بريرتون)..
النتيجة سريعة حاسمة.. هو ذا الوجه يحتقن وعروقه توشك على الانفجار.. يحاول التماسك في كل لحظة حاسبًا أنه مرّ بأسوأ شيء..
لكن هناك ما هو أسوأ..
في النهاية:
- « توقففووووووااااااااا ! »
دنا (كرومويل) منه في تؤدة وانحنى ليسمع:
- « هه؟ أنا في الانتظار.. »
- « سأعترف بأي شيء.. »
- « ستقول إنك والملكة متحابان؟ »
- « سأقول إنني أحب (ميدوسا) لو أردتم.. فقط لا ت.... »
- « فكّ أداتك.. »
هذه الأخيرة كانت موجهة للجلّاد، الذي شعر بخيبة أمل.. كان قد بدأ يتحمس لتوه، وكان يطمع في المزيد..
ثم استدار (كرومويل) إلى أحد الحرس الواقفين:
- « هات المدعو (مارك سمتون).. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن (مارك) أفضل حالًا..
ولما رأى ما أصاب رفيقه امتقع وجهه، ثم ازداد احتقانًا وبدا أنه لو كان أقوى والسلاسل أوهي لمزقها على الفور..
سأله (كروموبل) وهو ينظر من النافذة التي تطل على النهر:
- « هل ستعترف؟ »
- « نعم.. سأعترف بشيء واحد.. »
- « هو أن رائحتى كريهة أليس كذلك؟ » -
- « ب.. بلى.. كيف عرفت؟ »

- « كلهم يقولون الشيء ذاته.. هلم يا جلاد أدّ عملك..»
عادت الدموع تطفر من عيني الجلّاد وهو يثبت الملزمة حول رأس (مارك).. واستعد ليبدأ عملية التعذيب الشيطانية..
هنا قال (مارك):
- « هل تعرف يا مستر (كروموبل) ما كنت أعمله في الريف قبل أن أتخذ الموسيقا حرفة؟ »
- « كنت لصًّا؟ »
- « بل حاويًّا! كانوا يربطونني بالسلاسل الحديدية أمام القرويين، وبعد ثوان كنت أتحرّر.. مثل.. هذا! »
وقبل أن يستوعبوا جملته كان قد حرّر بيديه، وهوى على رأس الجلّاد بالملزمة الحديدية، وبوثبتين كان عند النافذة.. و......
كما يقول الحواة هناك: الآن تراه.. الآن لا تراه! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- إنني رجل مائت..

برغم كل شيء يمكن للمحاكمة أن تستمر..
لقد كان الرجل شيطانًا، ويمكن فيما بعد إصدار مرسوم يقضي بلعنه باعتباره على اتصال ب (لوسيفر).. والمشكلة الأدهى كانت غضبة (هنري الثامن) التي لا تبقي ولا تذر..
- « يهرب أمام عيونكم، ومن برج (لندن) ذاته؟ إنكم مجموعة من العاجزين! »
والأدهى بما لا يقاس هو موقف الشعب حين يمجّد البطل (مارك سمتون) الذي خدع جند (كرومويل)، ووثب في النهر هاربًا برأسه من حد السيف..
لكن هناك أشياء أكثر أهمية في الوقت الحالي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأمام المجلس الموقّر وقف (بريرتون) خافضًا عينيه بادى الذلّة، وكان - لهول الموقف - (هنرى الثامن) يجلس في طرف القاعة يتابع ما يحدث بعيني صقر..
يسأل (كرومويل) المتهم وهو يحوم حوله كعادة وكلاء النيابة وممثلي الادعاء منذ فجر التاريخ:
- « هل تعترف إذن بقصة الحب التي نشأت بينك وبين الملكة »
- « نعم يا سيدي.. »
- « وهل كانت الملكة تحبك بنفس القدر؟ »
- « لا بل أكثر يا سيدي.. كانت تغمرني بالهدايا والمال، وتقول لي إنني أجمل رجل في الكون.. »
ابتسم (كرومويل) ابتسامة جانبية كأنما يقول للقضاة: ماذا تريدون بعد هذا؟ لقد انتهت مهمتى إذن..
كان هذا الكلام يساوي الموت بلا مناقشة..
لكن (بريرتون) كان قد وصل لمرحلة تجعل الموت مطلبًا ثمينًا عزيزًا.. الموت لا التعذيب في برج (لندن)..
كاد الموقف ينتهى، حين دوّت صرخة يعرفونها جميعًا:
- « انتظروا! »
ونظروا ليروا (هنري الثامن) يتقدّم ببطنه البدين نحو منصة الشهود، فينحني ليشد المتهم من طرف لحيته..
- « قل الحقيقة أيها الحيوان! هل حقًّا أحبتك الملكة؟!»
ارتجف المتهم البائس لهول العينين الناريتين والغضبة العاتية للملك، ابتلع ريقه وقال وهو يهتز كله:
- « ن.. نعم يا سيدي! »
- « قل الحقيقة! إنك ميت في جميع الظروف.. تكلمت أم لم تتكلم.. فقل لي: هل عذبك (كرومويل)؟!»
هنا سالت الدموع من عيني المتهم، وهمس:
- « ن.. نعم.. ك.. كثيرًا.. »
- « ووعدك بالإفراج عنك لو قلت هذا الكلام الفارغ؟»
- « ن.. نعم! »

أطلق سراح لحيته، ونظر إلى (كرومويل):
- « كنت أعرف هذا.. »
بادله (كرومويل) نظرة من نوع (ألم - نتفق – على -هذا؟).. و آثر الصمت..
قال الملك وهو ينصرف:
- « تأكدوا من إعدام هذا البرىء الأحمق.. وأريد سرعة أكثر في هذه المحاكمة.. »
- « ليكن يا سيدى.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غريب أمر هذا ال (هنرى)! وما أكثر تناقضاته!
لقد اتفق مع (كرومويل) على تلفيق تهمة الخيانة ل (آن بولين).. وها هو ذا يحطم التمثيلية ويفسدها بنفسه..
لماذا يفعل ذلك؟ لأن (بريرتون) كان أفضل مما ينبغي.. كان هو الصدق بعينه وهو يتكلم، مما زعزع ثقة (هنرى) في نفسه..
للحظة حسب أن هذا ممكن..
ثم إن كبرياءه لم يتحمل أن يُقال هذا عن زوجته أمامه، حتى لو كان هو مدبّر المكيدة من اللحظة الأولى..
وهكذا - في لحظة - ينعكس منطقه، ويغدو مستعدًّا لنسف من يقول كلمة إفك عن زوجته..
لكن المحاكمة استمرّت على كل حال..
وأخيرًا جاء دور (آن بولين) لتقف شامخة أمام قضاتها، تعلن في كبرياء أنها لم ولن تلوث اسم زوجها..
- « لكن جميعهم اعترف عليك.. »
تبتسم ابتسامة تهكمية، وتقول:
- « كلكم يعرف قيمة الاعترافات التي تأتي من برج (لندن).. ولو كان جسد واحد من هؤلاء خاليًّا من الكدمات لأصغيت لاعترافه باهتمام أكبر.. »
لكنها كانت تعرف..
لقد حكم عليها (هنري الثامن) بالاعدام، ولا رادّ لهذا الحكم.. وكل ما يدور هنا هو تحصيل حاصل.. (إنني رجل مائت).. قالها سير (توماس مور) منذ شهور في المكان ذاته، لهذا لم يمت قبل أن يقول كل ما داراه بين أضلعه..
هل تتكلم؟
لا جدوى من هذا.. فليس حولها سوى (كرومويل) و(ولسي) ومن هو أسوأ منهما لو كان شيء كهذا ممكنًا..
- « لقد وجدناك مذنبة أيتها الملكة (آن)، وعليك حكمنا بالإعدام بالسيف في برج (لندن).. »
كانت تنتظر هذه العبارة، وتمنت أن تصغي إليها بابتسامة سخرية واثقة، لكن لماذا تخلى وعيها وقدماها عنها؟
اللعنة! لماذا سقطت على الأرض أمام عيني (كرومويل) الثعلبيتين الضاحكتين؟
لن تغفر لنفسها هذا طيلة الأسبوع الباقي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لماذا سقطت على الأرض أمام عينى (كروميل) الثعلبيتين الضاحكتين ؟

مشاعر المحكوم عليه بالإعدام..
لقد لخصها (فكتور هوجو) ببراعة في رواية (مذكرات محكوم عليه بالإعدام) كما مرّ عليها (دستويفسكي) سريعًا في (رسائل من بيت الموتى)..
لم تقرأ (عبير) القصتين.. لكنها كانت تعيش التجربة للمرة الأولى في (فانتازيا)، وبدا لها الأمر حقيقيًّا أكثر من اللازم..
الصباح الباكر من يوم 19 مايو عام 1936..
بالتأكيد سيكون (هنرى) وقتها في (وستمنستر) يزجي وقته بانتظار سماع طلقة المدفع، عندها يعرف أن زوجته الحبيبة فقدت رأسها..
بعدها بعشرة أيام سيعلن زواجه من (جين سيمور)..
وفي هذه المرة لن يتوجّها، ولن يرسل بالخبر السعيد إلى (فرنسا) و(أسبانيا).. كل ما سيفعله هو

استبدال حرف J بحرف A، أول حرف من اسم (آن) في كل أنحاء البلاد..
ولسوف تنجب له (جين) الذكر من الأبناء، وهو الأمير (إدوارد).. لكن اضطراب (هنرى) وجنونه سيتزايد ويتفاقم.. ولسوف يتزوج سواها فسواها فسواها.. يطلّق البعض ويقتل البعض.. ثم يموت ككلب عقور تتخذه (إنجلترا) رمزًا للجنون..
إن نهاية الطغاة لشيء جميل.. لكننا - للأسف - لا نعيش غالبًا حتى نراها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- إعدام في البرج..

(كررنا اسم الفصل لأنه الوسيلة الوحيدة للتعبير عن عملية الإعدام في البرج)

لشدّ ما جاء التاسع عشر من مايو ببطء!
كانت (عبير) تتوقّع أن يأتي بسرعة جنونية، لكنها تنسى طبائع الأشياء.. فالأسبوع السابق للإعدام ليس مليئًا بالأفراح والمباهج، بل هو أسبوع مفعم بالألم والترقب والدموع والتوترات..
وككل عاطفة مريرة في الكون لا بد أن يمرّ ببطء السلحفاة..
وعند الفجر سمعت صوت الأقفال تنزاح..
الباب ينفتح.. صوت الأقدام الثقيلة.. لماذا تكون فرقة الإعدام دائمًا من أصحاب الأقدام الثقيلة التي تهزّ الأرض هزًّا؟
الوجوه الجادة الصارمة.. وجه القس المتعاطف.. وجه (ولسي) الذي يتظاهر بالرحمة بينما يرقص فؤاده طربًا..
- « قد حان الوقت يا سيِّدتي.. »
حاولت أن تقول شيئًا لكن الكلمات انحشرت في حلقها..
قال لها الكاردينال (ولسي) في تهذيب:
- « أرجو أن تقومي بجمع شعرك في إيشارب أو غطاء رأس.. إن هذا سيريح الجلّاد كما تعلمين.. »
نهضت الوصيفة مولولة تسيل الدموع من عينيها وأنفها، وراحت تؤدي هذه المهمة الأخيرة لسيدتها..
ثم اتجهت (عبير) لتنضم إلى حراسها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ما انتهت من صعود الدرج - بساقين من عجين -استطاعت أخيرًا أن ترى النور وتشم هواء الفجر..
(مايو).. الشهر الذي يتحسس قدميه ما بين الربيع والصيف..
طيور تحلق في السماء لا تدري ما يدور تحتها..
لقد كان لقاؤهما الأول - هي و(هنري) – في شهر (مايو).. تذكر ذلك اليوم بشيء من الحنين..
إنها لم تحبه قط.. لكنها أحبت الجو العام لكل هذا.. وملاحقة ملك (إنجلترا) لها..
ثم خفضت عينيها فرأت..
كانوا هناك جميعًا: النطع والجلّاد والكاردينال (ولسي)..
وصيفتها لا تكفّ عن البكاء والعويل.. ليت هذه البلهاء تصمت.. إنها تنزع عن اللحظة شاعريتها الحزينة..
سرّها أنها لم تفقد الوعي ثانية..

بعد موتها سيقولون إنها عرفت كيف تموت كملكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأت الطبول تدق في إيقاع متسارع، كما تفعل في السيرك حين يوشك لاعب (الترابيز) على أداء فقرة الموت.. سينتهي هذا الإيقاع المتسارع فجأة.. الفارق هو أنه في السيرك سيتعالى تصفيق الناس، بينما هنا ستدوى طلقات المدفعية..

سيسمعها الملك في (وستمنستر)، وسيأمر ركبه بالاتجاه فورًا إلى مسز (سيمور)..

قيدوا يدها وراء ظهرها..

وفي بطء اتجهت إلى النطع.. ربما كان يحمل بعد آثارًا من دماء سير (توماس مور).. وضعت عنقها عليه..

إنه بارد مبتلّ قليلًا بفعل الندي..

لا بأس يا (عبير).. هذه ميتة بلا ألم.. ميتة من طراز (نور - ظلام) كأن هناك من أغلق زرّ الكهرباء فجأة..

ترى هل يتألم من تُقطع رأسهم؟

إيقاع الطبول يتعالى ويتزايد إنه (الكريشندو) الموحى بدنو النهاية..

هيّا يا......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت بأنها تطير..

ولثانية واحدة غابت عن الوعي، ثم استردته لتفهم أن الجلاد ملقى على الأرض.. والدم ينزف من رأسه..

ورأت الكاردينال يصرخ ويقول شيئًا ما.. الحرس يصخبون.. ثم ها هي ذي تطير من جديد مبتعدة عن برج (لندن)..

أخيرًا تدرك أن هناك من يحيط خصرها بذراعه.. للحظة تذكّرت (طرزان) في الأدغال ومغامرتها معه..

ثم وجدت أنهما يدنوان من حافة (إفريز) بناية تقع على بعد مائتي متر من البرج، ومن هذا الموضع ترى البرج عند قدميها، وتسمع صراخ الكاردينال وهو يشير للحرس نحوهما..

ثمة أسهم تنطلق..

يقول لها وهو يساعدها على المشي جواره:

- « بسرعة! إنهم مجانين ولن يتورعوا عن إطلاق المدافع.. »

وعند ركن البناية توقف. ..

همس لها وهو يعتصر معصمها:

« أغمضي عينيك.. ثقي بي! »

فعلت كما قال.. وفي اللحظة التالية أدركت أنها تسقط.. تسقط بلا توقف.. ثم شعرت بالقش يملأ فمها وشعرها..

لقد قفز بها فوق عربة ملأى بالقش يجرها حصانان عجوزان..

صاح في الفلاح العجوز الجالس وراء المقود:

- « هلم يا (جاك).. أحسن تغطيتنا! »

ودون كلمة أخرى غاص بها تحت طبقات القش..
الظلام ورائحة العطن الخفيفة والرطوبة الحارة..
ثم شعرت أنهما يتحركان..
أخيرًا استطاعت تذكّر من هو:
- « (مارك سمتون)! حسبناك غادرت (إنجلترا)! »
- « ما كنت لأفعل هذا بدونك.. »
ثم همس وهو يبصق القش من فمه:
- « ما رأيك في هذه الطريقة؟ أطلقت سهمًا على الجلاد.. ثم وثبت من سطح بناية متدليًّا بحبل، وانتشلتك ثم واصلت رحلتي إلى بناية أخرى.. لقد قمت بشدّ الحبل ليلًا.. لكن الحمقى لم يلاحظوه.. كل واحد ظنّ الآخر قد علقه لغرض ما.. تفو تفو!..
متلاحقة الأنفاس سألته:
- « هذه فرصة لم تتح ل. (آن بولين) البائسة.. »
- « إن المصائر تختلف.. »
- « وماذا عن مصيرنا؟ هل ستغادر (إنجلترا) بعربة القش هذه؟ »
ضحك وبصق بعض القش ثم قال:
- « يا عزيزتي.. مهما بلغ من غباء حارس الحدود فهو يعرف أن عليه أن ينخس أية عربة قش برمح كي يتأكّد من سلامتها.. وطبعًا ستنقلب (إنجلترا) كلها بحثًا عنك الآن.. إن (هنرى) لم يسمع صوت المدفع.. تفو تفو!.. هذا يجعل الخروج عن طريق الحدود مستحيلًا.. »
- « إذن ما الحل؟ »
- « سنظل في (لندن).. سنعمل كمتسولين بعد تغيير مظهرنا.. ولسوف تمرّ أعوام طويلة قبل أن نفكّر في الهرب.. »
- « أنا أتسول؟ »
- « إنها المهنة الوحيدة التي تسمح للمرء بأن يلطخ وجهه بالقذارة ويغطى وجهه بلثام، ولا يثير الريبة..»
هنا توقفت العربة..
وسمعا من يعبث بالقش فوق رأسيهما..
صاحت (عبير) في هلع:
- « لقد كشفونا! »
« بأسرع مما توقعت.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنها استطاعت أن ترى وجه المرشد وابتسامته اللزجة، وقد وقف فوق رأسيهما يرمقهما من خلال ثغرة صنعها في القش، بعد ما تسلق لظهر العربة طبعًا..
قال لهما وهو يداعب قلمه:
- « كانت مغامرة جيدة ومحاولة مشكورة من الأخ (سمتون)..
لكنني أخشى أنها انتهت الآن، فلا داعي لقضاء حياتك في التسول يا (عبير).. »
قال (مارك) وهو يجلس نافضًا القش عن شعره:
- « لكني سأ.. سأتزوجها! »

ابتسم المرشد في سماجة:
- « بأية صفة؟ إنها لم تُطلّق من زوجها ولم تمت.. لقد غيرت مجرى التاريخ يا فتى، وليجدن (هنرى) صعوبة بالغة في الزواج من (جين سيمور).. »
جلست (عبير) وراحت تبصق ما بلعته من قش، كانا في مكان ما وسط الريف كأنما بدأت قصتها في الموضع ذاته..
قالت وهي تنهض وتحاول الوثب من العربة:
- « هذا صحيح.. أنا لا أخون زوجي أبدًا حتى لو كان (هنري الثامن).. ثم إنني اكتفيت من (إنجلترا) القرن السادس عشر.. »
قال (مارك) في حزن وهو يتمدّد وسط القش:
- « ليكن.. وداعًا أيتها السيدة الحسناء.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تخوض (عبير) مغامرة الأحراش من جديد.. لا مع (طرزان) ولكن مع من يشبه (طرزان)..
اسمه الشبح.. وصديقه (الشيطان).. وحياته هي مزيج من الرعب والغموض وسحر القبائل المهيب..

(تمت بحمد الله)



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

العام 1492 م.. وهو عام حزين بالنسبة للعرب..

[←2]

يستعملون لفظ ال. (بروكرستيزية) للدلالة على لى عنق الحقائق أو تجاهلها.

روايات مصرية للجيب

16

فانتازيا
شبح وشيطان ..!



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (16)

شبح وشيطان

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أدغال من جديد؟

الظلام.. ثمة أنواع شتى من الظلام منها ما هو حالك، وما هو كثيف، وما هو مدلهم.. لكنها لم تخبر قط هذا الظلام العجيب المتجانس الأسود، الشبيه بفراء سميك يطبق على روحها.. وكأنها لو مدت يدها للأمام لاصطدمت به أو أبعدته عن وجهها قليلا..

مدت يدها فإذا بها تلمس الخشب... حركت ساقيها فاصطدمت بالخشب وانغرس رأس مسمار في ربلتها..

الآن تدرك الحقيقة، وإن لم تجسر على الاعتراف بها..

إنها مدفونة حية!

مدفونة في تابوت مغلق فوقه طن من التربة!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتعود (عبير) بذاكرتها إلى البداية:

لقد تهادي قطار (فانتازيا) في رحلته التي لا تنتهي ما دامت هي حية، ومادام - وهذا مهم – لدى المبدعين خيال..

جوارها في القطار يجلس (المرشد) يداعب قلمه الزنبركي الكريه بذلك الصوت القاتل: تك تتك تك!

وتثاءب منتظرا قرارها لمغامرة اليوم..

سألته وهي ترمق المشاهد المتوالية:

- (مرشد).. هل يمكنني أن أواجه مغامرة عربية؟

- هذا من حقك يا فتاة.. إن عالم ألف ليلة وليلة يستأهل زيارة بالطبع، دعك من حشد الأساطير العربية على غرار الغيلان والعنقاء ووادي (عبقر)..

يمكنك أن تقابلي (أدهم صبري) أو (نور الدين) أو (المغامرين الخمسة) أو (الشياطين الـ١٣)..

للأسف لا يحضرني نموذج معاصر يقدم لك الإثارة التي تريدينها إلا في هذه الأمثلة.. إن أدب المغامرة ليس شائقا في العالم العربي في هذا العصر، بل ولربما اعتبره النقاد أدبا من الدرجة الثانية..

- لكن هذا غير صحيح..

- هو صحيح وغير صحيح معا.. لا أحد ينكر مكانة وموهبة (آرثر كونان دويل) في الأدب الإنجليزي.. لكن لا أحد يجرؤ على مقارنته بـ (جيمس جويس) مثلا.. إن ما يحكيه العجوز (رفعت إسماعيل) مسل، لكن لا يمكن مقارنته بأدب (يوسف إدريس).. هل كل ما كتبته (أجاثا كريستى) يقارن بمسرحية واحدة لـ (شكسبير)؟

- إذن هو صحيح؟

- لا.. لقد كان (توفيق الحكيم) يحب المواويل الشعبية، ويحب الموسيقا الكلاسية، ويستمتع بكلا النوعين.. يقول في تفسير هذا إنه كان يستمتع بكل فن بمقاييسه الخاصة، كصياد يستعمل شبكة معينة للظفر بالأسماك الصغيرة، وشبكة أخرى للظفر بالأسماك الكبيرة.. يقول (الحكيم): «فلو استعملت شبكة واحدة لنوعي الأسماك لأفلتت مني أنواع كثيرة.. لكني تذوقت كل فن بمقاييسه هو لا بمقاييس الفنون الأخرى..»

يجب أن تنظري لأدب المغامرة كما هو.. باعتباره أدب مغامرة، وتنظري للأدب الواقعي والاجتماعي كما هو.. باعتباره أدبا واقعيا واجتماعيا.. لا تتهمي.. (أجاثا كرستي) بأنها سطحية.. ولا تتهمي (جيمس جويس) بأنه ممل.. كلاهما يكتب.. نوعا خاصا من الفن له مقاييسه المتفردة.. إن الملوخية ليست كئيبة عند مقارنتها بالبرتقال، بل كلاهما يؤدي وظيفة محددة.. فهذه خضر وهذا فاكهة..

- أفادكم الله.

قالتها وتثاءبت..

إن (المرشد) العجوز يبغى بعض التفلسف اليوم، وهي لا تفهم جل كلامه، لكنه يريحها.. على الأقل يخبرها بأنها ليست آثمة جدا حين تحب أدب المغامرة..

من جديد سألها:

- هل تريدين تجربة ألف ليلة وليلة اليوم؟

. لا.. دعنا ننتظر قليلا.. سأجربها حين تكون معنوياتي في الحضيض..

وألقت نظرة من نافذة القطار..

كانت ترى الأدغال.. الأشجار المتشابكة والقردة تتواثب فوق الغصون مطلقة صرخاتها القصيرة الحادة..

لم تكن كأدغال (طرزان) التي رأتها من قبل، ولكن لها طابع غير معتاد.. حقا إن الأدغال تتباين فيما بينها بطريقة لا يتوقعها المرء، كما أن البحار تتباين والشلالات تتباين..

ثمة شيء في داخلها أشعرها بأنها ترى أدغالا آسيوية.. ربما في (الملايو) ربما في (فيتنام) المهم أنها أدغال شيء ما في جنوب شرق آسيا، فلا ينقص المشهد سوى حقول أرز، أو طائرة هليكوبتر أمريكية تحلق فوق كل هذا لتحرقه..

قالت له في حيرة:

- هل توجد أدغال أخرى في القصص غير أدغال (إفريقيا)؟

ابتسم كأنما يسمع حماقة مرعبة:

- بالطبع.. كم من قصص حدثت في (الأمازون)، وكم من قصص حدثت في (جنوب شرق آسيا).. ليست قصص (طرزان) وروايات (رايدار هجارد) هي المصدر الوحيد للأدغال..

- وما القصة الجارية هنا؟

فكر قليلا.. نظر من النافذة، ثم أخرج كتيبا صغيرا من جيبه استطاعت (عبير) أن تقرأ عليه (دليل فانتازيا).. تصفحه، وقد بدا مهموما مرتبكا..

في النهاية قال:

- حقا لست متأكدا.. يبدو أنهم نسوا طباعة هذا الجزء..

- إذن توقف هنا!

- ولكن ليس عندي أدنى فكرة عن..

- قلت: توقف!

وجذبت الحبل لتوقف القطار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محتجا قال وهو يدس الكتيب في جيبه:

- لكن هذه مخاطرة.. ربما كانوا يقطعون رءوس الضيوف هنا بلا مناقشة.. كما إنني لا أعرف

نقطة البدء..
- هذا يجعل السحر مضاعفا.. لذة الاستكشاف ولذة الخيال معا.. قد يكون في هذه البقعة أي شيء!
- أي شيء مفزع..
- لا عليك..
وترجلت من القطار لتغوص قدماها في العشب الطويل البري الذي يوشك أن يصل لأعلى ساقيها..
وقف (المرشد) على باب القطار مترددا ما بين البقاء والوثب..
- تريثي.. إن هذه الأعشاب خير مأوى للثعابين..
- ليس عليك أن تهبط.. المهم أن تجيء في الوقت المناسب لأخذي..
- لا تعتمدي على هذا.. لكني سأحاول!
وتحرك القطار في بطء سرعان ما استحال إلى سرعة
ووقفت وحدها ترمق الدغل القصي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- عالم مجنون وكنز وما إلى ذلك..

سعلت (عبير).. شهقت في عمق لتزيح الظلام المرعب عن روحها.. لقد قرأت كثيرا من قصص الدفن حيا ل (إدجار آلان بو)، وتعرف جيدا أن الرعب لن يفيد.. الهلع هو الحل الوحيد!
صرخت وراحت تلكم الخشب فى جنون، تلك اللكمات ذات الصوت المصمت الكئيب الذي يخبرها بأنها لن تتحرر أبدا.. لن تهشم الخشب..
لكنها كانت تدرك أنه سيجيئ وسيحررها.. حتما سيحررها.. من المستحيل أن تكون هذه هي النهاية..
الفرج يأتي دائما في آخر لحظة.. هذه هي القواعد التي استنها (جريفث) في أفلامه السينمائية الأولى، التي حذا حذوها الجميع فيما بعد.. الإنقاذ في آخر لحظة.. المظلة تحت مقعد الطائرة.. كلها أسماء لا تعني سوى شيء واحد: لا بد أنها ستنجو قبل أن ينتهي (الأوكسجين) في هذا التابوت الخشبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغريب هو أن (عبير) حين غادرت القطار، وبينما هي تتحسس موطئ قدميها على العشب، أدركت فجأة أن هذا ليس دغلا على الإطلاق.. إنه أسفلت! والأغرب أنها في شارع عصري مزدحم بالسيارات.. وأنها ترتدي ثيابا شبيهة بثياب الثلاثينات من قرننا هذا، وعلى رأسها قبعة حمراء لا بد أنها كانت أنيقة وقتها..
- لا بد أن هناك خطأ ما..
هل هذا حلم أدغال، أم هو حلم مدينة؟
حقا هي لا تفهم شيئا.. لا بد أن (دي جي - ٢) يعاني من فيروس ما، أو أن هناك قطاعات تالفة بالقرص الصلب..
كان كل شيء يشدها إلى البناية التي تقف أمامها ورأت على الباب لافتة تقول إن هذه جريدة (لوس أنجليس) اليومية.. هذا غريب! كل شيء – مرة أخرى - يذكرها ببداية قصتها مع (سوبرمان)..
هل تتكرر القصة ثانية؟
دفعت قدميها دفعا إلى الدخول من الباب، فركوب المصعد إلى الطابق الرابع.. وأدركت دون جهد أنها تخوض مغامرة تمت في ثلاثينات هذا القرن، وبالتحديد في (لوس أنجليس) التي يصر الجميع على تسميتها (لوس أنجلوس)..
الآن تعرف جيدا أنها صحفية جميلة.. وبالتحديد اسمها (ديانا بالمر)، وتعرف أن هذه الجريدة هي مقر عملها.. لكن ما دورها بالضبط؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن دور الصحفية يتكرر كثيرا في القصص المصورة، فهناك دور صديقة (سوبرمان) العتيدة الجريئة التي يوقعها حظها وفضولها في أسوأ المشاكل، وهناك (أبريل) الصحفية صديقة سلاحف (النينجا)، وهناك (ديانا) التي سنعرف الآن صديقة من هي..

لكن هذا الدور يتخذ دائما بعدا واحدا لا يتغير.. فتاة جميلة متحمسة فضولية، جريئة جدا تهوي الوقوع في شتى أنواع المتاعب.. ودائما ما يحبها البطل ويميل إليها ويحميها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت غرفة التحرير، فجلست إلى مكتبها وراحت تكتب على الآلة الكاتبة.. لقد تعلمت من مغامرتها مع (سوبرمان) شيئا لا بأس به عن عمل الصحفي..
وبعينها اختلست نظرة عابرة إلى الحجرة.. كل شيء له مذاق الثلاثينات حقا.. سحابة دخان التبغ.. القبعات والمعاطف المعلقة على المشاجب.. أكثر الصحفيين شمروا أكمام قمصانهم أو لبسوا الأكمام السوداء الواقية فوقها، وأرخوا ربطات أعناقهم وهم يعملون.. وبالطبع كان كل منهم يضع الكاسكيت الأسود الذي يحمي العينين من النور، وراح يمضغ - ولا يدخن - لفافة تبغ في نهم..
كانت قد بدأت تتساءل عن كنه المغامرة، حين دخل البروفسور (شميرتز) حاملا أوراقه..
ولمن لا يعرفون البروفسور (شميرتز) نقول إنه عالم مجنون..
وككل العلماء المجانين لا بد أن يكون نحيلا محني القامة، له شعر أشعث أشيب، ويرتدي معطفا متسخا حال لونه، وعلى أنفه عوينات سميكة صغيرة تم لحامها بالحرارة مرارا..
كان يقصد مكتبها
وأدركت (عبير) أن المغامرة ستكون ممتعة حقا..
كل المغامرات التي بها علماء مجانين تكون ممتعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع الأوراق على مكتبها، وبصوت مرتجف هتف:
- أنا البروفسور (هانز شميرتز).. واحد من أعظم عباقرة التاريخ في (فيينا).. حجة في علم الآثار.. خبير لغات ميتة..
ما كان بحاجة لأن يعلن عن موطنه، لأنه – حتي ل. (عبير) - كان يتحدث بتلك اللكنة الإنجليزية المضحكة التي يتحدث بها النازيون في الأفلام.. أما عن مديحه لنفسه، فكل هؤلاء العلماء المجانين عباقرة دائما..
صافحته في فتور، وكانت يده عظمية باردة وبرغم هذا مبللة بالعرق، ودعته ليجلس..
- بم يمكنني مساعدتك يا بروفسور؟
نظر حوله في حذر، ثم قرب رأسه منها ليهمس:
- هل يوجد مكان بعيد عن الأسماع؟
نظرت حولها بدورها.. كان الصخب هائلا.. الجميع يصرخ.. ولا أحد يصغي لحرف مما يقوله الآخر، وفي ثقة قالت:
- ثق أن أحدا لن يسمعك هنا.. إنه أكثر أمنا من غرفة تحت الأرض!
مد يده المرتجفة ليفتح رزمة الأوراق التي يحملها، وتناول ورقة مطوية ومصفرة من نوع (الكلك) الشفاف، وفتحها في رفق:
- ها هي ذي خريطة الكنز!
- فهمت!
- انظري إذ أضعها على خارطة (الملايو) ولسوف تفهمين..

- إنني أتحرق شوقا..



وتناول ورقة مطوية ومصفرّة من نوع (الكلك) الشفاف ، وفتحها فى رفق :

- «ها هى ذى خريطة الكنز !» . .

وبيد لا تكف عن الرجفة؛ رأت (عبير) الرجل يفتح خارطة تمثل مجموعة من الجزر.. لم تكن قط بارعة في (الجغرافيا) لكنها استطاعت أن تميز (أستراليا) في الطرف السفلى للخارطة.. ورأت مجموعة جزر قدرت أنها (إندونيسيا).. متى رأت هذا المشهد آخر مرة؟

ربما في الشهادة الإعدادية.. في كتاب الوزارة. كانت الورقة الشفافة تحمل مجموعة من النقاط، وسرعان ما استقرت هذه فوق الجزر.. أما النقطة الحمراء فلم تكن تنطبق على أية جزيرة.. بل على البحر الأزرق قاتم اللون..

استطاعت أن تقرأ أسماء الجزر: (بالي)..

(جاوه).. (سومطرة).. (بورنيو).. أما النقطة الحمراء التي لا جزيرة تحتها فكانت تحمل اسم (بنجلا)..

هتف البروفسور المخبول في حماس:

- هل ترين؟ كل شيء يشير إلى هذه الجزيرة: (بنجلا)

- لا أرى أية جزيرة!
برطم الرجل بالألمانية - غالبا كان يسبها أو يبدي حنقه من غبائها - وهتف بالإنجليزية:
- لأنك - ككل الناس - تثقين بالخرائط أكثر من اللازم.. هذه الجزيرة لم يرسمها جغرافي من قبل ولم يرها أحد..
- فيما عداك؟
- طبعا.. وهأنتذي تعلمين جل ما أعلمه..
ابتلعت ريقها.. من المستحيل أن تطرده.. إن (دي جي - ٢) بالتأكيد قد وضعه في طريقها لأنه مفتاح المغامرة القادمة..
مالت على المكتب، وفي حزم قالت:
- هلا حكيت لى الموضوع من البداية يا بروفسور؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال البروفسور:
- «الجزيرة التي أتكلم عنها هاهنا لم ترسم في أية خارطة، ولم يرها أي جغرافي.. ربما رآها بعض الملاحين وحسبوها من الجزر المحيطة ب (بالي).. لقد حبا الله تلك الجزيرة كل ما يجعلها خفية عسيرة على الباحثين.. حولها صخور عالية قمينة بتحطيم أية سفينة إلى فتات، وتحيط بها أمواج عاتية لا تصدقينها ما لم تريها، كما أن هناك مساحة شاسعة من أكثف ضباب يمكن تخيله.. إن من يبلغ جزيرة كهذه لا يبلغها إلا جثة غارقة أو ناجيا بأعجوبة من الغرق..»
«من الواضح أن هناك سفينة هولندية غرقت قربها في القرن السابع عشر، وقد استطاع ثلاثة رجال أن يبلغوا الشاطئ..»
«عاش هؤلاء على ظهر الجزيرة يمارسون حياة شبيهة بحياة (روبنسون كروزو)، إلى أن أدركوا أن هذه الجزيرة تداري كنزا مذهلا يبدو أن القراصنة - وهم كثير هنا - قد واروه هناك..»
«وأقسم الرجال الثلاثة على أن يعودوا للجزيرة يوما ما - لو كتبت لهم النجاة - لينقلوا هذا الكنز بطريقة لا تثير الريبة..»
«يمكن القول إنهم - بشكل ما استطاعوا أن يصنعوا طوفا، وغادروا نطاق الأمواج والصخور والضباب المحيط بالجزيرة ليصلوا إلى (سومطرة)، حيث ابتاعوا سفينة قديمة.. وأبحروا من جديد عائدين إلى جزيرتهم.. عازمين على ملء السفينة بكنوز القراصنة..»
وبدا الأسف على وجهه، وهو ينظف عويناته بمنديل متسخ، ثم أردف:
- طبعا لا داعي لذكر أنهم لم يصلوا قط....
لقد أسهموا - دون إرادتهم - في تحسين الثروة السمكية لتلك المياه، ومن المؤكد أن أجزاء عديدة من حطام سفينتهم قد ظهر طافيا أمام السفن المبحرة في تلك المنطقة..
السؤال هنا هو: هل حدث هذا قبل أم بعد استرداد الكنز؟
- حقا قبل أم بعد؟
- قبل!
قالها في فخر، وجمع أوراقه ليضعها في الملف كأنه انتهى من إثبات نظريته، ثم رأى أن يفيض في الشرح:
- «لماذا افترضت أن هذا حدث قبل؟ لأن سجلات شركة الملاحة الهولندية تقول إن العاصفة – التي بالتأكيد كانت سبب غرقهم - بدأت بعد رحيلهم بساعات، وما كانوا ليجدوا الوقت الكافي

لبلوغ الجزيرة.. وقد استمرت العاصفة فترة قصيرة جدا ثم هدأت.. معنى هذا أن فرصتهم في الغرق كانت محدودة جدا.. كلا يا آنسة (بالمر).. لا بد أن هؤلاء القوم غرقوا قبل الوصول لهدفهم..»
- وماذا عن القراصنة؟ ألم يعودوا لاسترداد كنزهم؟
- سؤال جيد!
قالها في استحسان، وكور إصبعيه السبابة والإبهام في دائرة تعني أنها أجادت وأصابت في هذا السؤال.
- سؤال جيد! وأنا أحب الأسئلة الجيدة..
كررها من جديد، وقد مد يده للملف يخرج وريقة متسخة:
- هذا هو التقرير الذي كتب عن إغراق آخر سفينة للقراصنة في تلك البقعة.. واضح من التاريخ أنه يسبق هذه الأحداث بعشرين عاما.. هل تفهمين معنى هذا؟ عندما وجد الهولنديون الكنز كان آخر قرصان قد شنق أو غرق منذ عشرين عاما.. ومعني هذا - ببساطة - هو أن الكنز ما زال ينتظر..
في شك سألته، وهي لا تجرؤ على تدوين ملاحظاتها على الورق:
- وكيف عرفت أن هذا كله؟
- عن طريق تحضير الأرواح طبعا!
وابتسم إذ رأي دهشتها:
- إنني أهوى تحضير أرواح الغرقى لاستجوابهم، وقد استطاع الوسيط أن يرسم لي هذه الخارطة وهو نائم.. ومن الواضح أنها دقيقة جدا جغرافيا، ولها مقياس رسم ثابت.. لا تفسير لهذا سوى أن الرسالة صحيحة ويمكن تصديقها..
تحضير أرواح؟ إن الأمر يتجاوز الخبال إذن..
وهذا هو دليله الوحيد على صحة ما قال.. كانت تتوقع حقائق أقوي..
سألته وقد بدأ النعاس يراودها:
- وما المطلوب مني إذن؟
- لقد قرأت مقالاتك عن جزيرة (بالي) يا مس (بالمر)، وأدركت أنك من الطراز الذي يستطيع أن يؤدي لنجاح رحلة كهذه.. إنك تعرفين البلاد، وتملكين حماستك.. وشبابك..
- أنا كتبت مقالات عن جزيرة (بالي)؟
سألته في حيرة.. لا بأس بمعلومة كهذه، فهي مازالت بحاجة إلى معرفة مس (بالمر) هذه بشكل أفضل.. إذن هي من ذلك الطراز.. الصحفية التي تهوى الترحال ولا تهابه..
عادت تسأله وهي تتثاءب:
- ما زلت لا أفهم المطلوب مني.. للمرة الثالثة تمخط في المنديل، ثم راح يلمع به زجاج عويناته.. فمن المؤكد أنه لا يرى شيئا على الإطلاق بزجاج كهذا
قال لها:
- أنا لا أملك المال اللازم لتمويل حملة كهذه.. أنت تملكين المال أو تملكين الطريقة للحصول عليه..
- وما هو المقابل؟
- المقابل جزء من الكنز لك طبقا.. وجزء لهذه الجريدة.. وجزء للأعمال الخيرية.. والباقي لي.. دعك من السبق الصحفي المثير..

- ما زلت بحاجة لفهم ما هو مطلوب مني!
- عليك برئيس التحرير.. لا بد أن يقتنع..
وضاقت عيناه وازدادت لهجته رداءة وألمانية:
- عندها تكون حملتنا معا.. أنا وأنت!....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الكابتن (هورتون)..

توقعت أن رئيس التحرير سينهرها أو يطردها لكن الرجل بدا متحمسا لهذه الترهات الصادرة من عالم مخبول..
كانت هذه هي الثلاثينات؛ حيث أخذت الأزمة الاقتصادية وانهيار الأسهم في البورصة بخناق العالم..
عصابة (المافيا) منهمكة في تهريب الخمور وإطلاق الرصاص في شوارع (شيكاغو)، وعبر البحر يتمطى النسر الألماني مستعدا لغزو العالم، ليحيط الكرة الأرضية كلها بعلامة الصليب المعقوف..
كان الناس خائفين متوترين، وكان توزيع صحيفته في الحضيض، لهذا أدرك - بغريزة التاجر البارع - أن الناس بحاجة إلى الإثارة.. إلى الخيال يهربون به من حصار الحياة اليومية الخانقة، وسلسلة مقالات من طراز (البحث عن كنز) ستنجح نجاحا باهرا..
لم يكن لديه قيد أو شرط.. سيمول الرحلة..
ستسافر (ديانا) / (عبير) بالطائرة إلى (جاكرتا)، ومن هناك يمكنها البحث عن سفينة، ثم الإبحار إلى الجزيرة.. ماذا كان اسمها؟
نسيت للأسف!

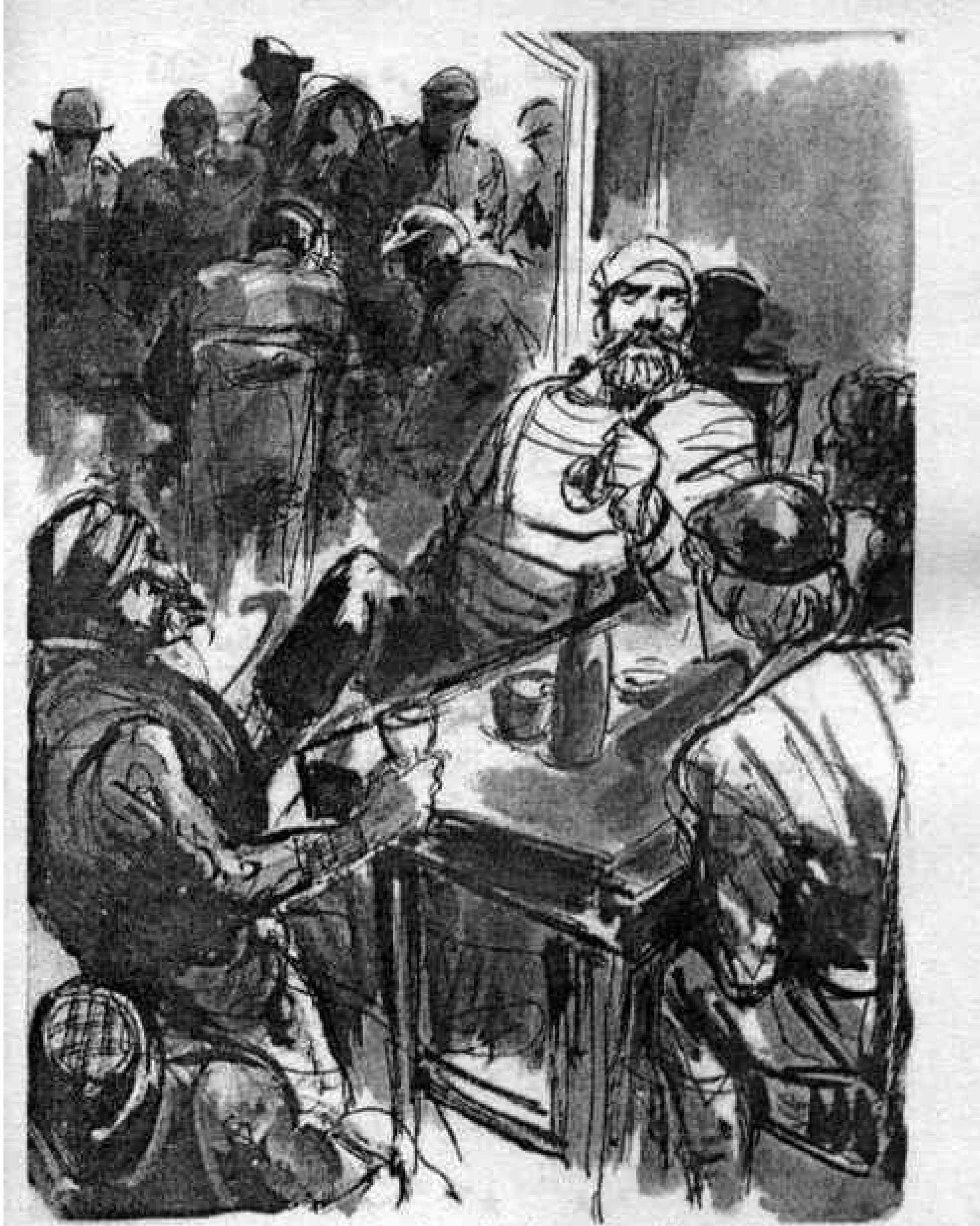
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في (جاكرتا) بدأت استعدادات الإبحار بحثا عن سفينة صالحة..
المشكلة هي أنها لا تفقه شيئا عن البحر، وكذلك البروفسور.. إنه يشير إلى اتجاهات الخارطة ب. (يمين) و (يسار)، وليس (شرق) (غرب) كما تقضي الضرورة، ومعلوماته عن الإبحار بدائية تماما تتلخص في أن الإبحار هو فن (الإبقاء على السفينة في البحر أطول مدة ممكنة).
ولما كانت (بالمر) قد قامت برحلة مماثلة من قبل؛ كان عليها أكبر العبء في البحث عن سفينة مناسبة وبحارتها..
ولكن كيف؟
هناك دائما في كل ميناء حانة يحتشد فيها البحارة، يتبادلون الشجار ويهشمون الزجاجات على رءوس بعضهم..
وهداها الحظ إلى حانة كهذه دخلتها مع البروفسور المخبول..
كان البحارة منهمكين في الشجار كالعادة.. ورأت الكثير من الأجساد الطائرة في الهواء، و (الفياسكات) المحطمة التي تنتظر أن تنغرس في عنق هذا أو صدر هذا..
أنظروا يا شباب!
أطلقها أحدهم، ثم ساد صمت بليغ تقطعه أصوات الصفير من الأفواه.. فهذه الحالة هي أقذر وكر يمكن تصوره في المدينة، وحتى الصراصير تشمئز من دخولها.. والآن يجدون أمامهم هذا الشيء الجميل الأنيق المدعو (ديانا بالمر).. صفير.. صفير!
كانت فرائصها ترتعد - وهذا أقل ما نتوقعه – لكنها حاولت أن تعطي صوتها قوة ما، وصاحت:
- مرحبا.. أ.. أنا أبحث عمن يقود سفينة إلى إحدى الجزر القريبة من (بالي)
سألها ثور فظ يحك صدره في استمتاع:

- أية جزيرة يا أنصة؟
كادت تنطق الاسم، ثم رأت أن السرية لن تضر أحدا....
- أ.. جزيرة غير معروفة هي.. هنا صاح أحدهم:
- مكالمة لك يا قابطن (هورطون)!
ورأت رجلا ملتحيا ينهض ليدنو منها.. كان من طراز (ذئاب البحر) كما يسمونهم في القصص.. غليون.. لحيته بيضاء.. كاسكيت.. كنزة صوفية بها خطوط عرضية سميكة.. ولاحظت أن له أذنا مثقوبة الشحمة يتدلى منها قرط صغير..
برغم منظره بدا لها الرجل موحيا بالثقة..
مد القبطان يده مصافحا.. يد خشنة قوية توحي بثقة أكبر.. وهز رأسه:
أنا الكابتن (هورتون) يا آنسة؟
. (بالمر).. (ديانا بالمر).. أمريكية..
- وأنا إنجليزي..
هنا صاح أحد البحارة الثملين في مرح وقح:
- لقد وجد القبطان هدفا لحياته أخيرا!
كان رد الفعل سريعا وقاسيا حتى إن (عبير) لم تستطع فهمه إلا بكثير من العسر.. يمكنها أن تقسم إن القبطان قلب المائدة على رأس البحار.. ربما وجه لكمة في معدته، وربما لكمة في ذقنه، وربما - لكنها غير متأكدة - اعتصر ذراعه خلف ظهره ليلويها كي يسقط المدية.. كل شيء تم بسرعة جديرة بتسجيلها بكاميرا ذات سرعة غير عادية، المهم أن المشهد انتهى بالبحار وقد تحول إلى عجين..
عاد لها القبطان معتذرا..
- معذرة.. كانت هناك مناقشة لا بد من إنهائها مع هذا الزميل.. والآن كيف أستطيع مساعدتك يا مس (بالمر)؟
- كنت أفضل لو تحدثنا على انفراد..
نظر حوله، ثم هز يده:
- بالعكس.. هذا هو أكثر الأماكن أمنا وحفاظا على السرية.. فلو انفجرت هنا قنبلة لما لاحظ ذلك أحد.. يمكنك الصراخ مجاهرة بسرك فلن يفهم أحد حرفا!
كان منطقه لا بأس به.. نفس منطقها الذي قالته للبروفسور في الجريدة..
لهذا أشارت إلى منضدة يرقد عليها بحار.. ودون كلمة أخرى اتجه القبطان إليها وركل البحار فاقد الوعي بعيدا، ثم جذب لها مقعدا لتجلس، ومقعدا آخر للبروفسور الذي أصابه خرس الأسماك من هول الجو الصاخب، ثم جلس بدوره وراح يطلق سحابات كثيفة من دخان غليونه ويصغي..
قالت (عبير):
- سأحاول أن أثق بك يا كابتن لأنك تبدو جديرا بالثقة.. لكن ما سأقوله لك سيظل سرا..
قرب أذنه منها:
- معذرة.. ماذا تقولين؟
ما أقوله سيظل سرا!
هز رأسه علامة الفهم فالقبول:
- نعم.. نعم.. سر.. موافق..

- نحن نريد الوصول لجزيرة (بنجلا)
- جزيرة ماذا؟
- جزيرة (بنجلا)!
هنا ضاقت عيناه، ونفث كمية هائلة من الدخان تعكس ما يجول بخلده من أفكار.. وأدركت (عبير) أنه يعرف الجزيرة.. عليها أن تطلق قذيفة اختبار لتعرف إن كان سيكذب عليها.
- هل تعرفها؟
أغمض عينيه بمعنى أن نعم.. وسرها هذا.. لو كان قد كذب عليها فمعنى هذا أنه غير جدير بالثقة..
انتظر بقية كلامها، لكنها قالت منهية العرض:
- خذنا إلى هناك.. هذا كل شيء!
نظر لها في حيرة، ونفث مزيدا من الدخان:
- وماذا تريد آنسة مثلك من تلك الجزيرة؟
- إنني صحفية وهناك ما يهمني بها..
- لكنها جزيرة لعينة حقا.. لا يوجد بها سوى الثعابين وعدد لا بأس به من الأقزام الشرسين..
- هذا.. عملي..
نظر إلى البروفسور، وغمغم مفكرا:
- وهذا الأستاذ معنا أيضا؟
هز الأخير رأسه في عصبية..
قال القبطان:
- ليكن.. إنني..
هنا سقط بحار فوق المائدة قادما من مشاجرة في مكان ما، فأمسكه القبطان من مؤخرة عنقه ووجه له صفعتين ولكمة في الأنف، ثم طوح به بعيدا ليدخله في مشاجرة أخرى..
قالت (عبير) وهي ترمق المشهد:
- لديكم كثير من العنف هاهنا.. وجه ركلة بحذائه الثقيل إلى بطن بحار يوشك على الارتطام بالمائدة، وقال وهو ينظف غليونه:
- إنهم بحارة مفعمون بالحيوية، ولا بد من شيء يسليهم إذا ما لم يجدوا عملا.. إن البحار دون بحر إنسان خطر دائما.. لهذا أدع رجالي يستمتعون بالمشاجرات.. إنها تبدد طاقاتهم الزائدة..
ثم عاد إلى الحديث الجدي:
- ليكن يا آنسة.. إن الأزمة الاقتصادية جعلت العمل شحيحا، وليس من عملى أن أوجه أسئلة.. لك ما طلبت لكني أنذرك أنني وسفينتي وطاقمي نكلف كثيرا جدا..
- هل سفينتك بحالة جيدة؟
- كل البحارة يعرفون أن (المصيبة) - سفينتي - هي أفضل سفينة في (الملايو) كلها!
ومد يده ليصافحها علامة الاتفاق النهائي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وجه ركلة بحذائه الثقيل إلى بطن بحار يوشك على الارتطام بالمائدة ..

4- إلى (بنجلا)..

وكما توقعت؛ سمعت صوت الدقات من فوق رأسها.. أرادت أن تصرخ طالبة الغوث لكن لم يعد هناك ما يكفي من الهواء.. تذكرت اللعبة التي كانت تمارسها في طفولتها حين كانت تدس رأسها في كيس من البلاستيك لدقيقة، شاعرة بالهواء يزداد ثقلا وعسرا حتى لا يعود هناك شيء على الإطلاق.. عندها تنزع الكيس شاعرة بلذة (الأوكسجين).. اللذة التي ننعم بها في كل ثانية حتى إننا لا نلاحظها..
لقد صفعتها أمها حين ضبطتها تمارس هذه اللعبة الخطرة يوما، ومن يومها لم تجرؤ على المحاولة ثانية.. فيما بعد صاروا يكتبون على الأكياس كلها (هذا الكيس ليس لعبة.. خطر الاختناق). ومن يومها صارت هذه اللعبة خطرة بحق! كأنما لم يكن الاختناق ممكنا قبل كتابة هذه العبارة صوت رفش.. صوت غبار ينزاح..
لقد وجدوها..
وها هو ذا صوت الكلب المخيف (ديفل) وهو ينبش الغبار بلا هوادة..
إذن هو من شم رائحتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتتذكر (عبير) وهي بين الوعي الكامل والهلوسة؛ تلك المرحلة التي راحت فيها جوهرة سفن الملايو (المصيبة) تمخر عباب البحر، متجهة إلى جزيرة ما رسمها أحد على أية خارطة.. فقط يعرف البحارة أنها هناك..
سألت البروفسور وهما واقفان على السطح يرمقان الأمواج تتصارع أيها يعلو برأسه أكثر:
- بروفسور.. ما هي الخطوة التالية لدى وصولنا للجزيرة؟
أشار إلى جيبه في اعتزاز وارتعش انفعالا:
- كل شيء لدي هنا.. لقد أخبرتك باسم الجزيرة، أما مكان الكنز على الجزيرة فسر أبقيه للحظة الأخيرة..
- وكيف ننقله من هناك وسط هؤلاء البحارة؟
- سنأخذ عدة صناديق.. نضع الكنز في قاعها، ثم نغطيها بآثار وتذكارات لا قيمة لها مما تزخر به جزيرة كهذه..
- وهل يصدقوننا؟
- إنهم يرون حتما كثيرا من العلماء المخابيل..
باسمة فكرت في أنه على الأقل لم يفقد القدرة على الحكم الصحيح.. وإن ظلت متشككة في تلك الأرواح التي تجيد تحديد الإحداثيات، وباللغة الهولندية دون سواها!
وراحت - في تعاسة - ترمق سفن الصيد البدائية التي يقودها الإندونيسيون، وهي تتسول حول سفينتهم؛ اللحم المقدد والعصير مقابل كل ما تحمله السفينة من سمك..
كان البحر مزدحما كأي شارع في وسط (القاهرة) في الثانية بعد الظهر.. وجاء القبطان وهو لا يكف عن الصراخ في رجاله، وإطلاق الشتائم البحرية شديدة التعقيد، التي لا يمكنك فهم أنها شتائم إلا من صراخه وتعبيرات وجهه وهو يقولها..
قال للبروفسور وهو يلكمه بين لوحي كتفيه:

- هلم يا أستاذ! غدا نرى (بنجلا)!
- بهذه السرعة؟
- طبعا.. لكن هذا هو أعقد جزء في الرحلة كلها.. ولو لم تحترس (مصيبة) لحدثت لنا مصيبة!
هي هي هي هيا هيا هاها!
وأعجبته الدعابة فراح يضحك لنصف ساعة أو أكثر، حتى أدمعت عيناه واحمر وجهه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فما إن أشرقت شمس الصباح، حتى رأت (عبير) سحابة بيضاء من سحب السماء تسبح فوق مياه البحر..
فهمت من البروفسور أن هذه جزيرة (بنجلا) التي يحيط بها الضباب، إلى حد يجعل المرء عاجزا عن التصفيق لو أراد..
وأدركت (عبير) أن قمم الجبال التي تحيط بالجزيرة ليست سوى أمواج عاتية غضبي لا تهمد..
إنها الجحيم إذن..
والمصيبة أن الوصول إلى هذا الجحيم عسير حقا..
حبست أنفاسها واستعدت للأسوأ، بينما القبطان يزأر بأوامره للرجال.. أنزلوا القلوع يا حمقى.. تشبثوا.. ثم رآها والبروفسور يقفان على حاجز السفينة يتأملان كل هذا بلا مبالاة، فعاد يزأر:
- أيهذان الأحمقان! أتحسبان الأمواج لن تقذف بكما لأنكما سائحان، ولأنكما تستحقان معاملة أرق؟
ثم أشار لهما إلى أسفل بإصبع غليظة:
- تحت! وتشبثا بقطع الأثاث قدر الإمكان..
هرعت (عبير) والبروفسور لأسفل، وهما يرتجفان رعبا حتى إن الرجل تعثر مرتين أو ثلاثا وأدمي أنفه.. كان يشعر أن هذه إهانة لمن هو في مستواه العقلي والعلمي..
وفي قمرتها جلست (عبير) على الفراش، واحتضنت الدعامات الخشبية في جنون.. المشكلة هي أن دوار البحر بدأ متأخرا جدا، وها هي ذي تشعر أن سقف فمها يسبح فوق بركة من القيء كل شيء يخضر، وبدا لها أن الأرض الخشبية:
أولا: مرتفعة أكثر من اللازم..
ثانيا: لينة أكثر من اللازم...
وأدركت أن الحجرة تميل وتميل.. في كل لحظة تحسب الأمر انتهى، ثم يتضح أن هناك آفاقا أسوأ وأسوأ..
مرت ساعة، وأدركت على الفور أن الأمر يفوق ما توقعته.. إنها كالمربوطة في أرجوحة مجنونة تتمسك بطرف واحد فقط.. هي معجزة فيزيائية ألا تنقلب هذه السفينة.. المحيط الهادي كله ضدها و (المصيبة) العجوز مصرة على المقاومة..
لكن إلى متى؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا انفتح الباب وبرز لها أحد البحارة:
القبطان يدعوك للاستعداد!
- لماذا؟

- للنزول إلى الشاطئ!
- لكننا لم نصل بعد..
هز البحار رأسه في احترام:
معذرة يا (آنصة).. لكن الدنو أكثر معناه أن تتحول السفينة إلى نشارة خشب.. إن قاربا سينقلك والبروفسور إلى اليابسة..
تقلصت أمعاؤها رعبا، وراحت - مترنحة - تعد حقائبها.. اثنتان ستكونان كافيتين غالبا ثم خرجت من القمرة، فلم يعرض البحّار حمل واحدة منهما وهنا عرفت الفرق بين البحّار وإنسان اليابسة..
كان الرجل يسبقها مستقيم القامة ثابت الخطى، بينما هي تطير ذات اليمين وذات اليسار وتصطدم بالجدران..
إن قوانين الفيزياء لتتوارى خجلا حين تتعامل مع واحد من (ذئاب البحر) هؤلاء..
وعلى ظهر السفينة خيل إليها أنها ترى مشهدا لقرية ابتليت بالسيول.. الرؤية مستحيلة والرذاذ في كل مكان، والقبطان يرتدي معطفا جلديا أسود وقد اعتصر الكاسكيت بيده ليمنعه من الطيران..
يصرخ كي تسمعه:
- هيا يا آنسة! ستنزلان الآن!
صاحت بأعلى صوتها:
- ألن ننتظر حتى تهدأ هذه العاصفة؟
- لن تهدأ! يمكن القول إن هذا أحسن مناخ يمكن زيارة (بنجلا) فيه!
ولشدة هلعها رأت قاربا مربوطا بالحبال، وقد ركبه بحّاران، وركب البروفسور فيه وقد التمعت عيناه حماسة:
- لن أنزل!
لا إرغام هناك يا آنسة.. يمكنك انتظار البروفسور هنا حتى يعود..
ثم تذكرت أن عليها أن ترى كل شيء، وإلا لن تكون هناك قصة، ولن يجد المدير - لو عادت – سببا يبرر كل ما تم إنفاقه من مال..
إن العمر، واحد، والرب، واحد.. ثم إن هذه (فانتازيا).. نوع من ممارسة الخيال بشكل عملي..
بماذا نصف من يدخل الملاهي ثم يأبى ركوب الأرجوحة العمودية الدوارة لأنها تصيبه بالدوار؟
إنه أحمق.. وإلا لماذا جاء للملاهي أصلا؟
وهكذا وضعت قدميها في القارب، ودعت الله أن تكون نهايتها سريعة بلا ألم.
- أنزلوا القارب!
هذه من القبطان
- آي آي يا سيدي!..
(آي آي) يعنى (نعم) بلغة البحارة، وكانت من كبير الضباط أو الضابط الأول أو ذراع القبطان الأيمن..
وراح القارب ينحدر.. ينحدر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و.. بالطبع قطعوا الحبال..

عندها بدأ الجحيم الفعلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - في (بنجلا)..

وكما هي العادة في هذه القصص؛ لم تدر ما حدث لها..
فقط صحت من الإغماءة لتجد أن فمها مليء بالرمال.. وأن شعرها وثيابها ليسا أفضل حالا..
كانت الشمس الاستوائية الحارقة تغمر جسدها بألف سوط وألف لهب..
نهضت مترنحة.. وساءها أنها فقدت حذائيها طبعا.. لحسن الحظ أنها لم تفقد حياتها ذاتها..
كان البروفسور قادما من بعيد.. لقد فقد عويناته ومن الجلى أنه لا يرى شيئا على الإطلاق.. كان في أتعس حال..
ترى أين ذهب البحاران إذن؟ سرعان ما رأت النحيل فيهما قادما من أعماق الجزيرة ذاتها، أما البدين فكان قادما من جهة المحيط..
صاحت في مرح:
- الحمد لله! لم يمت أحد!
قال البحار البدين وهو يحكم ربط منديل رأسه:
- ولماذا يا آنسة؟ لم نفقد أحدا على سواحل هذه الجزيرة منذ عشرة أعوام!
- وهل أنتم معتادون على هذا؟
- طبعا.. وفي كل مرة يحدث الشيء ذاته.. لو لم يتحطم قاربنا على الصخور لشعرنا بدهشة بالغة!
- فقدت عويناتي ي ي ي ي ي!
تعالى صوت نواح البروفسور.. واضح أنه كان يفضل الموت على فقد عويناته.. ولم يبد مستعدا لسماع عبارات العزاء على شاكلة (إن حياتك أهم) أو (فلتذهب العوينات للجحيم)..
سألت البروفسور في قلق هامسة كي لا يسمعها البحاران:
- هل سيمكنك العثور على الكنز من دون العوينات؟
- طبعا مستحيل!
- ولو عن طريق الوصف؟
- لا بد من أن أرى الرسوم بعيني..
إن الأمور تسوء دون انقطاع..
سألت البحّارين:
- وماذا عن سفينة (المصيبة)؟ قال النحيل وهو يتثاءب:
هاااااه.. إنها تدور حول الجزيرة على أساس أن تعود لذات النقطة غدا.. سيكون علينا وقتها أن نجتاز نطاق الصخور سباحة.. من العسير أن نصنع قاربا بهذه السرعة..
سألها البدين وهو يفترش الرمال:
- ماذا تريدان من هذه الجزيرة؟ إن جولاتنا فيها لم تتجاوز خمسين مترا فقط.. يقال إنها مسكونة وأن بها أشر قبائل الأقزام.. حقا لا يوجد ما يغري..
قالت (عبير) في ضيق وهي ترمق حاجز الأشجار:
لن يطالبكما أحد بالتوغل هاهنا.. ستبقيان حيث أنتما، بينما أدخل أنا والبروفسور..
مد النحيل يده في فتحة قميصه، عندها عرفت (عبير) أن ما حسبته كرشا صغيرا لم يكن سوى بعض أصابع الموز، وبعض ثمرات.. يبدو أنه لم يضع وقته حين كانت فاقدة الوعي..

طوح لها إصبعا.. وللبروفسور إصبعا.. بالطبع ارتطم الأخير بصدر البروفسور وهوى عند قدميه..
قالت (عبير) وهي تقشر الإصبع الخاص بها:
- هذا مطمئن.. مم م م! إنه بلا مذاق!
اس كل فواكه المنطقة الاستوائية بلا مذاق.. إن الحرارة الشديدة تقضي على النكهة تماما..
- لكنه يقضي على الجوع على كل حال..
ونظرت إلى البروفسور متسائلة:
- هل نذهب إذن يا بروفسور؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبعا نذهب..
الآن يخترقان نطاق الأشجار الكثيف..
تنظر للوراء لترى البحارين متربعين على الرمال يلتهمان الموز.. يبدو أنهما سيقضيان وقتا طيبا حتى الغد بعيدا عن أنياب القبطان (هورتون) الرهيب..
لم تكن (عبير) تفهم في النباتات، لكنها اندهشت لرؤية الأشجار الراقدة على جذورها الطويلة الممتدة كأنما رجال يرقدون على جنوبهم مسترخين، إنها أشجار (المنجروف) التي تترعرع جذورها في التربة التي غمرها المد.. ولها لون أحمر قائم كأنها خشب (الماهوجني)..
أما الأوراق الخارجة من الطين، فهي - في الواقع - خارجة من سوق قصيرة جدا.. والنبات كله يدعى (نخيل نيبا)، ويوجد قرب الشواطئ حيث توجد أشجار (المنجروف)..
إن الأدغال هنا معرض لكل أنواع أشجار النخيل لو كانت (عبير) أكثر علما لعرفت أشجار الكافور، وشجرة (وارانجن) التي يقدسها القوم في هذه الأصقاع.. لكنها كانت تعتقد أن كل هذه الأنواع تندرج تحت اسم واحد كبير: النخيل.. أما ما عدا هذا فنوع من أنواع الحذلقة..
راحا يمشيان فوق الأعشاب، وصوت لهاث البروفسور يتعالى مختلطا بنحيبه.. فهو لم ينس عويناته الثمينة بعد..
فجأة شعرت بأنها تجد صعوبة معينة في السير..
كان هناك شيء شبيه بنهر على مرمى البصر والأرض مكسوة بأوراق الشجر..
واصلت المشي.. لكنها الآن تأكدت دون ريبة من أن قدميها حقا ملتصقتان بالأرض.. ملتصقتان بشكل لا يمكن وصفه فضلا عن الفرار منه..
نظرت إلى البروفسور، فوجدته في حالة أسوأ.
كان ينظر لقدمين لا يراهما، لكنه عاجز عن تحريكهما..
ما هذا المكان؟ ما هذه الأرض؟
كان هذا حين سمعت صوت زئير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورأته قادما من بعيد..
لم يكن يركض أو يرمح أو يثب.. حقا لم يكن بحاجة لأن يتعجل شيئا.. لماذا يفعل؟ إنهما واقفان كذبابتين في شباك عنكبوت؛ عاجزين عن الحركة أو التملص..
هو ذا يدنو منهما في تؤدة..

النمر الآسيوي بجسده المكتنز الرجراج قليلا، تلتمع في ضوء الشمس خطوطه النحاسية والسوداء وفراؤه الجميل يشي بصحة جيدة وتغذية أجود..
عيناه اللتان يمكن أن تقتلا بمجرد النظر إليهما..
هو ذا يدنو في تؤدة
صوت الحشرجة الدسم من حباله الصوتية القوية صوت اللهاث الوحشي.. خطوات الواثق من قوته ومن فوزه..
لم تجد (عبير) في صدرها من الهواء ما يكفي للصراخ..
وفي اللحظة التالية فقد النمر وقاره.. لقد مشي فوق أوراق الشجر مثلهما، وسرعان ما بدا أنه يعاني المشكلة ذاتها.. لقد التصقت أقدامه بالأرض وراح يحاول التملص.. انتزع قائمته الأمامية وحركها أمام وجهه، وكان هذا كافيا كي يزيد الأمور سوءا.. لا بد أن المادة اللاصقة قد أعمته نهائيا..
هنا فقط راح يزأر.. وكأن زئيره مريعا يقترن بصوت عميق كأنه المواء.. مواء قط عملاق في مازق..


انتزع قائمته الأمامية وحركها أمام وجهه ، وكان هذا كافيًا كى يزيد الأمور سوءاً ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشهد الآن غريب بعض الشيء:
(عبير) والبروفسور يقفان مترنحين، يحاولان جاهدين ألا يسقط أحدهما فتلتصق يداه بالأرض وتلك المادة الكريهة.
وعلى بعد عشرة أمتار يقف العملاق الثائر يحاول التملص دون حذر، ومن الواضح أنه يزداد تورطا في كل لحظة
هنا تذكرت (عبير) هذا المشهد.. لقد قرأت شيئا مماثلا من قبل..
هتفت للبروفسور المذعور:

هذا فخ للنمور! لقد وقعنا في فخ للنمور!
قال في غباء وهو يمد ذراعيه طلبا للاتزان:
- فخ نمور؟ لا توجد حفرة ولا رماح ولا شيء من هذا القبيل! أنت تمزحين!
- بل هو فخ نمور! النوع السائد في (الملايو)..
إنهم ينثرون (الدبق) اللزج الذي يستخرجونه من الأشجار، في طريق النمور في أثناء اتجاهها إلى الماء لتشرب.. فلا يبقى أمام الحيوان سوى أن ينتظر نهايته بالرماح..
- إذن سيجدنا أحدهم ويحررنا..
روررررررررر!
كانت هذه صيحة نمر نجح في التحرر، ووثب وثبة عاتية نحوهما....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- شبح..

بالطبع لم يستطع النمر الوصول إليهما، لكنه سقط على بعد مترين من موضعهما، وراح يتلوى وسط الصمغ أو الدبق.. إنه متحمس، ووثبته التالية لن تحرره، لكنه سيصل لمكانهما، وسيكون من السهل عليه أن يقضم جزءا ما من أحدهما!
إن عضلاته القوية وشراسته تتيح له بعض القدرة على التحرر، أما هما فغير قادرين على الحركة ولو بضع سنتيمترات..
هنا سمعت (عبير) حوافر الفرس..
فرس أبيض بالطبع.. هكذا يكون صوت حوافر الفرس الأبيض..
نظرت للوراء فرأت المشهد الذي بدا لها مألوفا إلى حد لا يصدق، وإن لم تستطع تذكر أين رأته من قبل.
كان الحصان الأبيض يرمح حول الرقعة التي عرفا أنها فخ للنمور..
أما راكب الحصان نفسه فيستحق وقفة.. كان ملثما.. لا كلثام الطوارق، ولكن يرتدي بزة مطاطية كاملة من رأسه حتى قدميه.. بزة من الطراز الذي يرتديه أبطال القصص المصورة، لونها ظلّ ما بين البنفسجي والأزرق.. رأسه مغطى حتى العينين بالقناع، وتصميم القناع كله رهيب يذكرك بالجمجمة..
الشبح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين قرأت أول وآخر قصة له؟ ربما في إحدى المجلات المصورة التي كانت تطبع بغزارة في (بيروت).. وهي - بالطبع - مجلة مترجمة.. لم يبق في ذاكرتها من القصة سوى صورته التي تراها الآن..
إنه حارس الأدغال مثله مثل (طرزان).. لكنه يحرس أدغال (الملايو) لا أدغال (إفريقيا)، ويحرسها لغرض واحد هو الانتقام..
هو قريب - من وجهة نظر أخرى - إلى الرجل الوطواط (باتمان).. فهو مثله يرتدي بزة لا تظهر ملامحه، ومثله قوي العضلات شديد المراس خارق الذكاء.
وككل أبطال القصص المصورة الخارقين؛ له شخصية سرية لا يعرفها أحد سواه وخادمه الأمين..
حقا لا تذكر أية تفاصيل أخرى، لكننا نذكر الكثير لقد ابتكر (لي فالك) شخصية (الشبح) في فترة الأزمة الاقتصادية؛ وهي ذات الفترة التي خرجت فيها للوجود شخصيات مثل (سوبرمان) و (باتمان) وسواهما.. لكنها لم تظفر قط بذات نجاح هاتين الشخصيتين..
الآن يبدو أن (الشبح) هو بطل هذه القصة..
ولد (لي فالك) في ولاية (ميسوري) ب. (الولايات المتحدة) عام ١٩١٢.. وفي سن العشرين عمل بالصحافة في مجال غريب بعض الشيء: تأليف القصص المصورة (الستريبس) للصحف اليومية..
إن (ماندريك) الساحر شخصية لم نعرفها في (مصر)، لكنها حققت شهرة كبيرة في (الولايات المتحدة).. شخصية تجمع بين الدهاء والغموض، وتلتقي عندها خيوط عديدة من (أرسين لوبين) و (شيرلوك هولمز)..

ثم ولد (الشبح) في 7 فبراير عام 1936، وكان المؤلف في الرابعة والعشرين من عمره وقتها، ونال نجاحا لا بأس به بتلك الشخصية التي رسمها الفنان (راي مور) في حلقات مسلسلة يومية..
التصور الأصلي لشخصية (الشبح) جعله هو (جيمي ويلز).. الثري العابث الذي يرتدي قناعا في الليل، ويخرج ليحارب الجريمة..
لو بقي (الشبح) هكذا لما ميزه شيء عن شخصية (باتمان) أو الرجل الوطواط.. لكن (لى فالك) قرر - فجأة - أن ينقل (الشبح) إلى الأدغال في مغامرات ذات طابع خاص تماما، وفي هذه المرة تلاقت في (الشبح) خيوط عدة من (كتاب الأدغال) ل. (كيبلنج)، و (طرزان) ل. (بوروز).. وكلاهما محبب أثير لدى (فالك)..
يجب أن نقول هنا إن (فالك) لم يثق قط بقدرة (الشبح) على الاستمرار أكثر من عام أو عامين، وراح يؤمن مستقبله عن طريق إخراج المسرحيات..
لكن (الشبح) عاش طويلا جدا.. ربما ليس بشهرة زملائه في المهنة (سوبرمان) و (الوطواط)، لكن هناك الكثيرين ممن يجدونه جديرا بحق أن ينضم إلى (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتردد (الشبح) كثيرا.
رفع يده اليمنى، والتمع المسدس في ضوء الشمس..
ثم.. بوم! اهتز جسد النمر للحظة، ثم هوي يتشحط في دمائه.. ومن جديد عاد (الشبح) يدور بحصانه حول الأسيرين، وعرفت (عبير) أنه يفكر في الطريقة المثلى لإنقاذهما..
سألها البروفسور وهو لا يكاد يبصر شيئا:
- ماذا يحدث؟ هل يطلقون علينا الرصاص؟
لم ترد وراحت تفكر بدورها في طريقة لمساعدة الرجل..
أخيرا وثب مترجلا، واتجه إلى الشجيرات الكثيفة في الجوار، وراح يخصف من أوراقها فيبعثرها علي الأرض مرارا، صانعا مما يمكن المشي فوقه دون أن يلتصق الدبق بحذائه..
دنا منها، فمد يدا قوية فولاذية وجذبها.. جاهدت لتحرر نفسها حتى استطاعت أن تضع قدمها العارية على الممر الذي صنعه..
ثم عاون البروفسور على الشيء ذاته..
هرعت (عبير) تركض خارجة من تلك المصيدة الكريهة، وأدركت أن قدمها صارت تزن طنا من كثرة ما التصق بها من أوراق شجر..
- لا تقلقي..
قال لها بصوت بارد صارم لا انفعال فيه.. وأردف:
- بعض الماء الساخن سيحل المشكلة..
وأخيرا وقفت (عبير) والبروفسور يلهثان
قال (الشبح) وهو يغادر المنطقة الخطرة بدوره:
- إنها مصيدة نمور صنعها أقزام (الباندار) ببراعة.. ولا بد أن من يمشي فيها كل هذه المسافة أحمق، أو يجهل كل شيء عن أدغال (الملايو)..
- نحن الاثنان معا..
ومدت يدها تصافحه:
- (ديانا بالمر) صحفية.. (لوس أنجلوس)..

لكنه لم يمد يده.. ظل يرمقها بوجه صلب كالصخر من وراء قناعه الذي يداري انفعالاته، ومن دون كلمة أخرى وثب ليمتطي حصانه الأبيض، ووكزه بحذائه:
- هيا يا (هيرو)!
فانطلق الحصان يسابق الريح مبتعدا..
سألها البروفسور:
- ماذا حدث؟ من هذا؟
ظلت ترمق الجهة التي توارى فيها الرجل، وغمغمت في شرود:
- لا أدري.. لقد جاء ورحل كأنه.. كأنه شبح!

7- وشيطان..

كانت ضربات الرفش الآن تعمل في طبقة الغبار الملامسة لغطاء التابوت مباشرة، وأحست أنها تحررت من كل ما كان يجثم فوق روحها.. ثم سمعت صوت شيء يحاول انتزاع المسامير..
كأنه خنجر مغروس بين الغطاء والتابوت نفسه يحاول تهشيم الغطاء، أو إرغامه على الانفتاح عنوة..
راحت تعاونه بتوجيه ركلات بمشط قدمها إلى الغطاء..
أخيرا استطاعت أن ترى الشمس، وأن تسمح للهواء الشهي بأن يملأ رئتيها.. واستعدت لترى مخلصها..
لكن الوجه الذي كان منحنيا على التابوت لم يكن وجهه.. كان وجه (كابي سنج) نفسه!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتعود بذاكرتها إلى ما حدث بعد ما رحل (الشبح).. قال لها البروفسور وهو يتمطى:
- أحتاج إلى النوم بعض الوقت..
في غيظ هتفت:
- لا وحياة والدك.. إن هذه الجزيرة خطرة حقا، وأعتقد أن علينا البحث عن كنزك هذا بأسرع ما يمكن، ثم نعود أدراجنا..
- جميل.. لكن كيف؟
- أعطني ورقك، وسنحاول معا..
مد يده في صدر قميصه، فأخرج لفافة من الجلد يبدو أنها مثبتة برباط حول جسده، ومنها أخرج بعض الأوراق البهيجة؛ منها المتآكل ومنها المصفر، ومنها المحترق..
ودون كلمة أخرى ناولها ل (عبير)..
قالت وهي تجاهد كي لا تتفتت الأوراق بين أناملها:
- كل هذا جميل.. لكني لا أفهم حرفا من الهولندية..
- حاولي أن تتهجى الحروف لي.. وعلى كل حال ستجدين كثيرا من الرسوم ها هنا.. صفيها لي..
راحت تتأمل الأوراق، وفي شرود قالت:
- هذه هي خارطة (الملايو) والبقعة الحمراء التي تشير للجزيرة.. وأظن هذه هي خارطة الجزيرة نفسها.. هو ذا نطاق الأشجار الذي عبرناه.. ثم..
غريب هذا! أرى نهرا صغيرا.. لا بد أنه النهر الذي قصده النمر ليشرب.. ثم.. هذا شيء يشبه وجه إنسان عملاق..
- بل جمجمة يا آنسة.. كهف بشبه الجمجمة..
- ربما كما تقول.. أما هذا فشيء يشبه الشلال وعدد من علامات (x) لا حصر له.. ثم.. علامة P8..
قال وقد بدأ يتذكر:
- نعم.. نعم.. P8 هي الرمز القديم للمال ومنها جاء رمز الدولار المعاصر، أما ال (x) فهي خطوات.. طبعا غير صحيح أنه لا حصر لها.. بالتأكيد لها حصر.. تأكدي من هذا..
مدت سبابتها تعد.. عشرة.. عشرون.. خمسون..

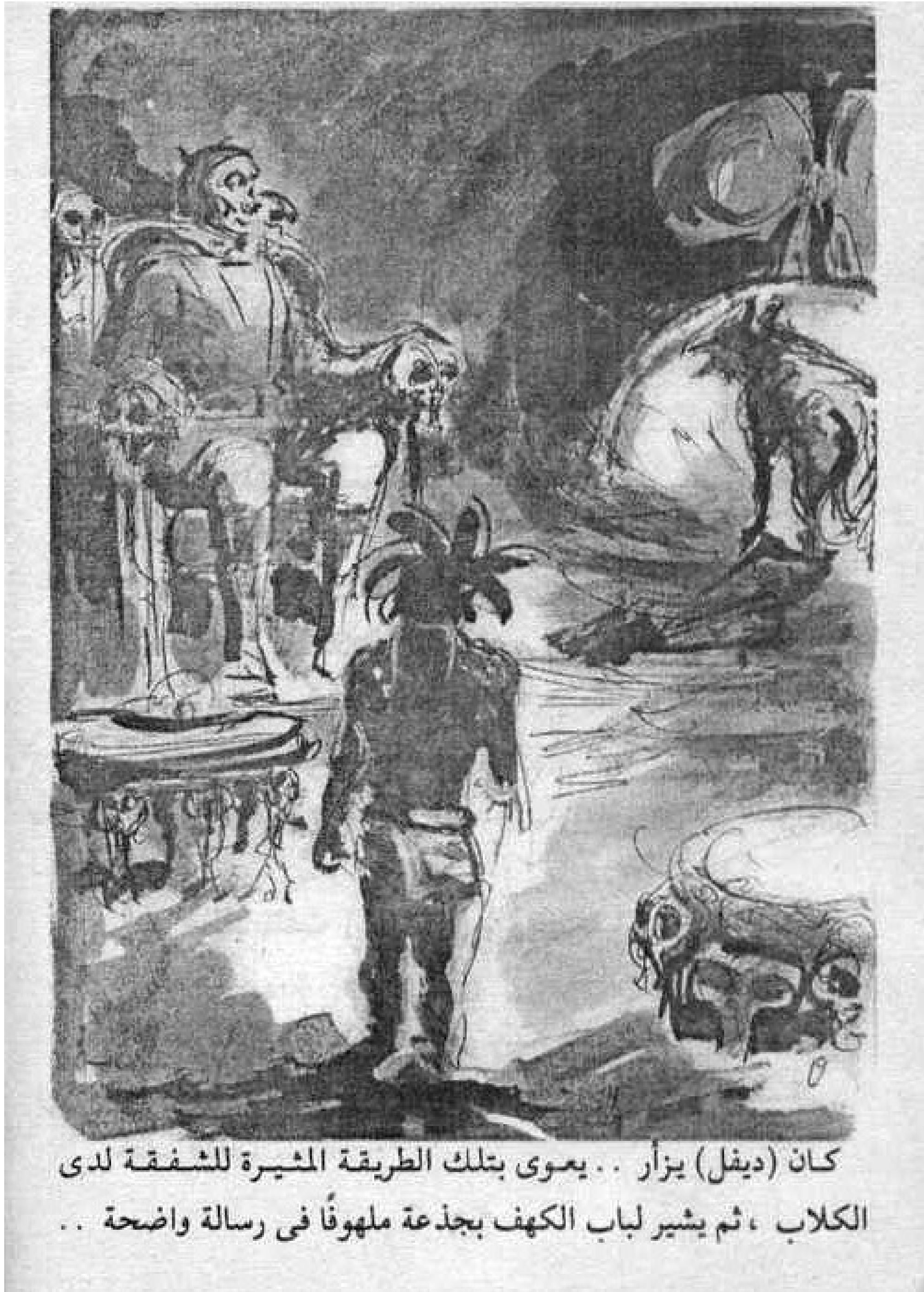
ثم أعلنت:
- مائتا خطوة للشمال.. ولكن لماذا ترسم الروح التي استحضرتها هذه الخريطة الملغزة؟ كان بإمكانها أن تنصحنا بالمشي مائتي خطوة للشمال وينتهي الأمر!
- هي ليست طريقة مثلى لرسم أماكن الكنوز...
الكنز يوجد دائما عند علامة (x).. لا بد من اتجاهات أصلية، ولا بد من كهف، ومن شجرة عملاقة.. هذه هي التقاليد.. وحتى الروح إذ أملت الخارطة على الوسيط لم تجرؤ على مخالفة القواعد!
قالت وهي تدس الأوراق في ثيابها:
- حسن.. البداية إذن هي الشلال.. هل يوجد شلال هنا؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبعا يوجد شلال
من قال إن هذه الجزيرة غير متقدمة إلى حد ألّا يوجد بها شلال؟
وعلى الجرف العالي راحت (عبير) والبروفسور يرمقان المياه الهادرة من تحتهما.. كوحش عملاق ثائر..
هدير المياه من أسفل يصم الآذان.. يقول باعلى صوته لمن يحاول النزول ها هنا:
- الويل لك!
ابتل شعرها وابتلت ثيابها.. لكنها احتفظت بشيء من وضوح الرؤية كي تدرك أن علامات (x) على الخارطة بدأت بعد الشلال لا قبله..
وللبروفسور الذي لا يرى شيئا قالت صارخة:
- بروفسور.. لا بد من عبور هذا الشلال!
- مستحيل! لكن الهولنديين عبروه يوما
- ربما لم يكن شلال هنا في القرن السابع عشر..
صاح في غيظ كأنما يسمع إلحادا مخيفا:
- بلهاء! لا يمكن أن يخلق شلال في قرنين..
إن تغيرات جيولوجية كهذه تحتاج إلى ملايين السنين..
- حقا.. ربما..
ثم رأت الجسر العملاق المعلق فوق الشلال..
كان - ككل هذه الجسور - مصنوعا من حبال ليفية مجدولة.. يشبه في مقطعه حرف (٧) اللاتيني
حيث يمكنك المشي فوقه واضعا قدمك على الزاوية السفلى لحرف (v)، بينما ترتكز يداك على ما يشبه (الترابزين) يصنعه الطرفان الآخران للحرف..
الخلاصة أنه كان يبدو مرعبا جدا، هشا جدا، والحماقة ذاتها في صورة جسر..
ابتلعت ريقها وهمست عالمة أنه لن يسمعها:
- يوجد حل.. لكنه عسير حقا..
ترى هل تعبر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في كهف الجمجمة جلس (الشبح) وسط المشاعل العملاقة المحيطة به، يتصفح مجلدا ضخما مغبرا من مجلداته الهائلة..
المكان رهيب تلعب فيه الظلال المتراقصة لعبتها المخيفة.. وفي كل مكان تجد جمجمة ما: شعار الجمجمة على صدر بزته.. شعار الجمجمة على حذائه وفي حزامه.. جماجم عديدة وضعت شموع في محاجرها مما جعلها تبدو كأن الشرر ينبعث منها..
الجمجمة.. رمز الموت الرهيب.. الضحكة العابثة المستهترة التي تسخر منا لأنها رأت السر الذي لم نره نحن..
دخل خادمه (جوران) الأمين.. زعيم أقزام (الباندار) الذي لم يفارقه لحظة منذ أن قرر أن يمارس مهنته الغريبة.. قليل من الناس يختار مهنة (الشبح)، والأسوأ أنه لا يمكن تعليمها في المدارس أو قراءتها في الكتب.. على كل شبح أن يعلم نفسه بنفسه..
قدم له الشراب، طبعا في كوب خزفي على شكل جمجمة.. فرشف (الشبح) جرعة كبيرة منه، وتنهد:
- شكرا يا (جوران)..
ثم أردف:
- أحمقان آخران في الجزيرة يبحثان عن كنز القراصنة..
- وهل يعرفان مكانه؟
- لا أدري، ولم أنصحهما بشيء.. لكني رأيتهما في مأزق وأنقذتهما منه.. واضح أنهما يجهلان كل شيء عن أدغال (الملايو)، ومن العسير أن يعيشا حتى المساء..
- ولم لم تنذرهما يا سيدي؟
تنهد (الشبح) في سأم:
- لو أنذرت كل أحمق لما بقى لدي وقت أفعل فيه شيئا آخر..
هنا دوى صوت زئير.. واقتحم المكان ذئب أبيض عملاق كث الفراء، له منظر مهيب مخيف فاخر..
- ماذا وراءك يا (ديفل)؟
كان (ديفل) - ومعناها الشيطان - ذئبا رضيعا حين قتل أحد الصيادين أمه.. وبعدها أخذ (الشبح) الرضيع وتولى تربيته حتى شب ذئبا مهيبا له احترامه..
وبالطبع كان (ديفل) كلبا مخلصا وديعا مع صاحبه، لكنه بالنسبة للآخرين ذئب قادر على قطع الرقاب بأنيابه..
كان (ديفل) يزأر.. يعوي بتلك الطريقة المثيرة للشفقة لدى الكلاب، ثم يشير لباب الكهف بجذعه ملهوفا في رسالة واضحة..



كان (ديفل) يزأر .. يعوى بتلك الطريقة المثيرة للشفقة لدى الكلاب ، ثم يشير لباب الكهف بجذعة ملهوفًا فى رسالة واضحة ..

- إنهما في مشكلة..
قالها (الشبح) وهو ينهض، ويغلق حزامة حول خصره
- لقد كلفت (ديفل) بمراقبتهما حتى إذا وقعا في متاعب.....
وفي الثانية التالية كان يثب إلى ظهر حصانه الأبيض (هيرو)، ويجذبه من لجامه كي ينطلق خلف الذئب..
صاح (جوران) وهو على باب الكهف:
- لكنه ميعاد الغداء.. ستبرد السحالي المسلوقة!
- إنني اليوم أشتهيها باردة!
وسرعان ما توارى وسط الأشجار، وحصانه يحاول أن يلحق بالذئب الأبيض المتحمس..

حين تلاشي صوت الحوافر هز (جوران) كتفيه، ولعق شفتيه:
- ليكن يا صاحبي.. لكني لن أنتظرك على كل حال.. إن معدتي تتلوى!

8- أحمقان!

كان المشهد بهيجا حقا هو ذا (كابي سنج) البدين المغطى بالشعر والوشم والجروح، يقف أمامها يتأملها بعينه الوحيدة السليمة، بينما العصابة السوداء على العين الأخرى تختلج طربا..
حوله رجاله من الأوغاد.. منهم من يحمل تحت المعصم خطافا، ومنهم من يستخدم طرف خنجره لتسليك أسنانه، ومنهم من يحشو مسدسه عتيق الطراز (غارته)، أو يعيد ربط منديل رأسه المرقط..
كان (كابي سنج) - ككل القراصنة - عاري الجذع إلا من حزامي رصاص يتقاطعان فوق صدره، وعلى رأسه قبعة القبطان التي تحمل صورة الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين..
ولكن.. لقد سمعت صوت (ديفل) يعوي؟
ونظرت إلى الوراء فأدركت أن العواء لم يكن لـ (ديفل).. إنه الكلب الأسود الخاص بـ (كابي سنج)، والذي يتفاءل به رجاله كتميمة حظ لقد فرت من المقلاة إلى النار، ولن تكون لحظاتها ممتعة مع هؤلاء السادة أبدا..
قال لها (كابي سنج) وهو يبصق السعوط الذي كان يمضغه:
- لقد عانينا كثيرا حتى وجدنا قبرك يا (آنصة)..
إن (ساتان) كلبي الأثير قد هدانا لموضعك..
ثم لف خصلات شعرها حول قبضته..
- الآن أنت مدينة لنا بحياتك!
- حقا! الحق ما قال.. هي هي هي!
دوت صيحات الاستحسان مصحوبة بضحكات خبيثة..
قال (كابي سنج):
- إن (جو الخطاف) معجب بك جدا، وكان يرجو أن يرقص معك لثلاث دقائق.. لست ميالا لهذا لأن الوغد يحمل خطافين حادين بدلا من اليدين، ومعنى رقصه معك هو تحويلك إلى شرائط رقيقة.. لكني لن أحتفظ بحماستي هذه للأبد..
في حماس قرع (جو الخطاف) خطافيه معا، محدثا رنة معدنية:
- أرجوك ألا تمانع كثيرا يا قبطان!
تراجعت للوراء مذعورة، وتساءلت:
- ما هو المقابل الذي تريده لتبعد هذا الحيوان عني؟
- يا له من سؤال!
ونظر للرجال حوله، وانفجر ضاحكا:
- هو هو هو هو! (الأنصة) تسأل عن المقابل يا شباب!
- هو هو هو هو هو!
شرع الرجال يقهقهون كأنها دعابة أقوى مما تتحمل أنفاسهم، وفي النهاية حين استطاع (كابي سنج) الكلام قال لها:
- نريد الكنز طبعا.. كنز آبائنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعادت (عبير) برغمها تتذكر ما حدث لها والبروفسور عندما قررا عبور الجسر المعلق فوق الشلال..
تقدمت هي أولا لأن البروفسور لا يرى.. إنه حظها العاثر.. المفترض في هذه القصص أن يكون الرجل أقوى وأحكم، وأن يحميها.. لكن الرجل هاهنا يزيد متاعبها فقط
مدت يدها له حتى وضع قدمه اليمنى على الحبل وتشبثت يداه بالجانبين ثم حررت يدها، وراحت تتحسس الحبل الغليظ الذي تضع قدمها عليه.. كان أضيق من أن يسمح إلا بقدم في كل مرة..
تتقدم ببطء، وترتجف..
ومع رجفتها يزداد اهتزاز الحبل بشكل مروع..
كانت تعلم أن ما يقومان به هو الغباء بعينه..
المفترض أن يتقدم أحدهما وينتظر الآخر على الحافة تحسبا لحدوث شيء، وليمكنه إنقاذ الآخر.. لكن البروفسور لا يصلح للانتظار، ولا يصلح للتقدم وحده..
فلتأمل فقط أن يكون صانع هذا الجسر يعرف ما يفعله..
ونظرت لأسفل لتري الهول ذاته..
الشلال الغاضب الثائر من تحت قدميها، ينتظر سقوطها ويتلمظ شوقا.. ويبدو أنها لن تخيب أمله..
الآن هما في منتصف المسافة بالضبط..
لقد صار تقوس الجسر لأسفل تحت وطأة ثقلهما مريعا جدا.. لا بد أنهما انحدرا لأسفل عشرة أمتار كاملة.. سيكون الأمر أكثر عسرا كي يصلا للطرف الأخر..
وهنا رأت لدهشتها شيئا يقف عند طرف الجسر القصي..
بعينها الحادة رمشت مرارا لتدرك أنه قرد.. قرد من نوع إنسان الغابة كالذي رأته في حديقة حيوان (الجيزة) يوما ما.. وكان في يده شيء يلمع صاحت وهي ترتجف:
- قرد عملاق! إنسان غابة!
اصطدم البروفسور بظهرها، فتذمر بالألمانية، ثم قال بلهجته المضحكة:
- (أورانج أوتان) ([1]).. وماذا في ذلك؟ إنه يعيش في هذه الجزر، وإن كان لم يوصف قط خارج (بورنيو) و (سومطرة).. إنه قوي لكنه ليس مولعا بالإيذاء..

- هذا القرد لا يعرف هذه الحقيقة العلمية!
- لماذا؟
- لأنه يحمل سيفا عملاقا، وينوي قطع الحبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحق نقول كان الحبل صلبا وسميكا للغاية واحتاج القرد إلى خمس ضربات بالسيف كي يقطعه..
خمس ضربات لا يقطعها سوى صراخ (عبير) عديم المفعول من طراز:
- توقاف! يا أحماااااق! ستقتنااااا!
انقطع الحبل الذي يمشيان عليه، ثم وجه القرد ضربتين مدروستين للحبلين اللذين يتشبثان بهما وفي اللحظة التالية هوى الجسر بمن عليه ليتدلى في الهاوية، فوق الشلال.. ثم يصطدم

بالطرف الآخر الذي جاءا منه..
ونظرت (عبير) فوق رأسها إلى حيث يفترض أن يكون البروفسور فلم تجده..
كانت معلقة وحدها من الحبال التي تتدلى فوق المياه الهادرة.. إنه الموقف الشهير الخاص بالجسور المعلقة، والذي يذكره جيدا كل من رأى (إنديانا جونس والمعبد الملعون) حيث اعتصر (سبيلبرج) كل إمكانيات هذه الفكرة العتيقة، الساحرة برغم ذلك..
لكن ليس من رأى كمن عاش الموقف!
- النجدااااااه!
صاحت وهي تنظر لأعلى.. من العسير أن تتسلق الحبل، حتى لو أرادت.. ولربما ظلت هاهنا إلى يوم يبعثون مالم تقرر التخلي عن الحبال..
وجاءت النجدة في آخر لحظة، وكانت لها صورة غريبة بعض الشيء..
قرد عملاق آخر يحمل سيفا!
وفي هذه المرة كان مهتما بطرف الحبل الذي تتدلى منه..
- النجداااااه!
لكنه بدأ يوجه ضرباته للحبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت رصاصة واحدة..
بعدها هوي الجسد العملاق المشعر ليمر على بعد أمتار منها، ولم تحاول أن تنظر لأسفل لترى الوقت الطويل الذي سيستغرقه في السقوط..
من أطلق عليه الرصاص؟
رفعت رأسها لأعلى فرأت الرأس الشبيه بالجمجمة إياه، وكان عاكفا على تمزيق الحبل بدوره..
تبا! لقد صارت هذه هواية الجميع في الآونة الأخيرة.
صرخت بصوت مبحوح:
- كف يا مخبول! إنك ستقتلني!
اكتفي بأن قال وهو يربط أشياء بأشياء:
- تشبثي جيدا يا (آنسة)!
وفي اللحظة التالية أدركت أنها ترتفع وترتفع وترتفع..
أخيرا رقدت على الأرض تلهث، عاجزة عن ترك الحبل فقد تقلصت يدها عليه، وحين استطاعت رفع عينيها؛ رأت (الشبح) واقفا وجواره ذئب أبيض مخيف يلهث بلا انقطاع، وأدركت أن الحبل مربوط حول عنق الحصان الأبيض..
هو الذي جرها ليخرجها من الهاوية..
سألها وهو يعينها على النهوض بيد فولاذية:
- أين البروفسور؟
أشارت لأسفل بعبارة بليغة جدا.
ثم.. من قال لك إنه بروفسور؟ أنا لم أناده أمامك قط..
قالتها بفكرها دون لسانها.. لأنها في هذه اللحظة كانت تقوم بالعمل الذي تجيده أية أنثى تم إنقاذها من السقوط في شلال..
فقدت الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- في كهف الجمجمة..

عندما ساد الظلام؛ قام (الشبح) بالعمل الذي يمارسه مرارا في كل شهر..
اتجه إلى الشاطئ حيث لم يكف البحر لحظة عن الهدير، وحيث بدت الأمواج السوداء كأنها أشباح ترقص في معاطفها السود، بانتظار المخبول الذي يشاركها رقصها..
كان الحبل الغليظ مثبتا بخطاف إلى صخرة عالية..
وفي ثوان تعلق به بأطرافه الأربعة، وراح يزحف زحفا مبتعدا عن الشاطئ مرتفعا عن المياه قدر الإمكان.. صحيح أن الموج كان عاتيا.. صحيح أن المياه كانت ترتطم كالجلاميد بجسده في كل ثانية مهددة باقتلاعه من الحبل.. صحيح أن ميلا كان يفصله عن نقطة اللقاء..
لكنه كان يعرف كيف يظل حيا.. ربما لهذا صار اسمه (الشبح)، وربما لهذا صار بطلا للقصص المصورة..
يا لها من ملحمة رائعة! صراع الطبيعة مع العضلات.. صراع الأمواج مع إرادة عاتية وشجاعة لا تصدق..
كان يعرف الجزيرة جيدا.. يعرف أن اختراق حاجز الصخور والأمواج مستحيل إلا بهذه الطريقة..
لا أحد يصل إلى (بنجلا) إلا غريقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا وصل إلى الطرف الثاني القصى للحبل..
كان مثبتا بدوره إلى صخرة شامخة تشبه جبلا صغيرا
هناك كانت جزيرة صغيرة تقف وسط المياه التي بدأت تصفو وتهدأ.. لقد ابتعدنا ميلا عن الجزيرة..
وثب ليهبط من فوق الصخرة، ونظر حوله..


وثب ليهبط من فوق الصخرة ، ونظر حوله .. كان شبح السفينة يقف مسربلاً بالظلام فى أحد الخلجان ..

كان شبح السفينة يقف مسربلا بالظلام في أحد الخلجان، بينما على الجزيرة الصغيرة نار تتراقص في جنون لكنها لا تنطفئ أبدا..

دنا أكثر من النار ليرى الكابتن (هورتون) جالسا يصطلي، وكان وحيدا كما هو في كل مرة..

منبهرا قال الكابتن:

- يا لها من طريقة لمغادرة ودخول الجزيرة!

لن اعتادها أبدا مهما رأيتك تفعلها!

والحقيقة هي أن مد ذلك الحبل كان مستحيلا دون معونة كابتن (هورتون)، فهو الذي ثبت طرفه إلى هذه الصخرة، بعد ما استطاع (الشبح) بمعجزة ما اجتياز الأمواج والصخور ليثبت الطرف الآخر في الجزيرة..

ومن يومها صار (الشبح) قادرا على مغادرة الجزيرة والعودة لها متى شاء.. وأحيانا كان يذهب إلى المدينة ليمارس حياته كصحفي يدعى (دك ووكر).. لكن هذه المغامرة غير مذكورة هنا..

قال (الشبح) وهو يجلس قرب النار جلسة (الاحتباء) التي تعلمها من أقزام (الباندار):

- لقد مات البروفسور اليوم..
- حقا؟ يا للمخبول البائس! والفتاة؟
- نائمة في كهف الجمجمة الآن..
ساد الصمت هنيهة إلا من هدير الأمواج، ثم تساءل القبطان وهو يشعل غليونه في كثير من العسر:
- هل وجدت معها خارطة الكنز؟..
- لا.. ولست مهتما بالأمر.. إنه ذهب ملوث ومن الخير له أن يبقى حيث هو.. كل ما أريده هو إقناعها بالرحيل حالا..
ثم بلهجة لا تقبل المناقشة؛ قال:
- أريد منك أن تستعد للعودة غدا معها..
- ليكن.. ولكن.. لا أرى ما يمنع من أن تجرب ما لديها..
لوح (الشبح) بإصبعه في وجه القبطان:
- كابتن (هورتون).. أنت تعرف أنني لا أبالي بالكنز.. وأعرف أنك مثلي.. لهذا اخترتك صديقي الوحيد.. فلا تغير وجهة نظري هذه..
هز القبطان لحيته نافيا بإصرار:
- لا.. لا.. حاشا لله! لكن (كابي سنج) لن يتركها وشأنها ما دام يحسبها تعرف..
- تلك مهمتك أنت.. أن تعيدها سالمة إلى (لوس إنجليس)
إن هذين الأحمقين لم يتصرفا بحذر.. تكلما بصوت عال في الحانة وسمعهما الكثيرون من البحارة..
أخبار كهذه لا بد أن تصل ل (كابي سنج) سريعا جدا...
وأصارحك القول إنني لهذا مسرور!
ابتسم القبطان ونفث الكثير من دخان غليونه:
- سيفقد الحيوان حذره!
- سيجيئ هنا مسعورا نهما.. وعندها يكون اللقاء الذي أتحرق شوقا إليه منذ خمسة وعشرين عاما..
ونهض على قدميه في تحفز:
- أنا له! فقط احرص على إبعاد الفتاة.. إنها بريئة وليس من مصلحتها أن تقف بين الدب والأسد في أثناء عراكهما..
- لك هذا..
ودون كلمة أخرى تسلق (الشبح) الصخرة، واحتضن الحبل بأطرافه الأربعة وراح ينزلق عائدا إلى الجزيرة..
عبر حاجز الأمواج الرهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت ذاته كانت (عبير) تعيش أحلك ساعاتها..
لقد صحت من النوم العميق لتجد نفسها في أغرب مكان جال بخاطرها.. للحظة حسبت أنها ماتت وأن هذه هي جهنم، ثم فطنت إلى أنها حية
هذا كهف.. كهف مظلم تضيئه مشاعل رهيبة لا تزيده إضاءة.. وفي كل صوب جماجم تتألق

عيونها بالنار! هناك مقعد عال شبيه بكرسي عرش، لكن رأسه يزدان بجمجمتين مهولتين.. وأمام المقعد منضدة عليها مجلد عملاق مفتوح..
ثمة شخص قادم، يتوهج لحظيا في رقصة النيران..
اعتدلت جالسة في توجس..
إنه قزم.. قزم بدائي يرتدي قبعة من الريش كالهنود الحمر، يحمل لها صحفة عليها كوب لبن كبير، ورغيف خبز منتفخ، وكتلة مرعبة مشوهة من اللحم..
أجفلت.. لكن وجهه قال إنه لا خطر منه..
- أين أنا؟
لم يرد.. فقط وضع الصحفة على الأرض أمامها وانصرف..
هرعت وراءه لتجذب ذراعه.. هنا سمعت زئيرا غير محبب للنفس.. نظرت عند قدميها فوجدت أن كتلة الفراء البيضاء هذه، لم تكن سوى ذئب عملاق نصف غاف، وإن كان يرفع رأسه نحوها مكشرا عن أنيابه في إنذار واضح جدا، حركة أخرى وينتهي أمرك!
للوراء تراجعت في ذعر:
- م.. من أنت؟ م.. ما أنت؟
لم يرد طبعا.. فالذئاب لا ترد على الأسئلة الغبية..
ربما لو استطاعت تشتيت انتباهه..
مدت يدها إلى الطعام الذي جلبه القزم، وانتزعت ملء قبضتها من قطعة اللحم.. كوّرتها.. ثم قذفتها جواره..
لكن الذئب - ذلك الوغد - لم يبد أي اهتمام بما ألقى إليه..
صاحت متحببة:
- كلب لطيف.. بوبي.. بوبي.. لحم شهي.. مم مم!
هنا سمعت صوتا عميقا رزينا يقول:
- لا تتعبي نفسك.. إن (ديفل) لا يحب لحم القرود أصلا!
ونظرت للوراء مجفلة إلى الشخص فارع القامة الواقف عند مدخل الكهف، في ضوء المشاعل.. كان هو (الشبح)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس في وضع (الاحتباء)، وأراح رأس الذئب على فخذه القوى؛ وشرع يحك عنقه وأذنيه بتلك الطريقة العنيفة التي تحبها الكلاب.. بينما (عبير) ترمقه في رهبة.. لم تره من قبل دانيا إلى هذا الحد..
كان قويا بحق.. عضلاته ضخمة إلى حد جعل رأسه يبدو غير متناسب مع عنقه وكتفيه.. أما ما ظهر من وجهه فكأنما قد من صخر..
وكان مخيفا.. من العسير أن تصدق أنه كائن حي يرزق..
سألته في ارتباك:
- أين أنا؟
- أنت في كهف الجمجمة..
- سجينة؟
- بل ضيفة.. أحيانا نسجن الحمل لمنع الذئب من افتراسه..

- أنت تعيش هنا؟
- نعم.. ولا أحد يعرف هذا الكهف سوى أقزام (الباندار) أصدقائي المخلصين.. أعتقد أنك قابلت (جوران) زعيمهم.
ثبتت (عبير) عينيها على وجهه الصلب، وتساءلت:
- وأنت.. من أنت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- هكذا تكلم الشبح..

قال لها:
- إن القصة تعود لزمن بعيد.. بعيد.. أحيانا أحسبها من قبل أن تنفصل القارات عن بعضها، وقبل أن تولد النجوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طفل مع أبيه على ظهر سفينة في مياه (الملايو)..
إنجليزيان هما.. الأب تاجر مسالم طيب القلب..
وفي ذلك اليوم كانا واقفين على ظهر السفينة يرمقان البحر الشاسع الممتد إلى ما لا نهاية، وكانت وجهتهما جزيرة (سومطرة)..
البحارة يغنون، ويشدون حبال القلاع، والدنيا لم تكن قط بهذا الجمال وهذه البهجة.. بمعنى آخر:
لا بد من مصيبة قادمة..
ضاحكا أشار الصبي إلى البحر:
- ثمة سفينة تقترب..
وينظر الأب إلى حيث أشار الصبي.. في الأفق الغربي يبدو طرف صار، وثمة علم يطل برأسه ببطء من تحت المياه.. أعني طبعا من تحت مستوى المياه
عند الأفق..
تناول الأب (التلسكوب) وثبته على عينه، وراح يتملى..
- لم أر علمها بعد.. إن جنسيتها صينية على الأرجح.. إنها تدنو أكثر.. لحظة.. هأنذا أتبين.. إنها.....
كان المشهد المرسوم على العلم مألوفا بعض الشيء، ونراه كثيرا جدا على زجاجات الدواء التي تستعمل من الظاهر، ونراه حول مولدات الضغط العالي.. جمجمة تضحك ضحكة الموت المستهترة، وعظمتان تتقاطعان تحتها..
معنى هذا أن....
- أنها سفينة قراصنة!
كذا صاح الأب وهو يتراجع مذعورا
ساخرا قال القيطان وهو يدنو ليرمق البحر:
لم يعد قراصنة في هذا الزمن، ومنذ القرن السابع عشر..
- هؤلاء لم يعرفوا هذا بعد!
ويتناول القبطان المرتاب (التلسكوب)، ويمعن النظر مليا، ثم يأمر البحارة بزيادة سرعة الإبحار وتحويل الدفة إلى الشرق..
- إن هذا غريب.. لكنى أوثر الابتعاد على كل حال..
وتنطلق السفينة مبتعدة..
لكنها في ابتعادها تشبه حوت (الكبريت) العملاق إذ يفر من الحيتان القاتلة (أوركا) التي هي أصغر منه بمراحل.. سفينة ثقيلة بطيئة تفر من سفينة صغيرة لها سرعة الريح وإصرارها..

أخيرا يرون السفينة ويعرفون أنها غير مريحة المظهر على الإطلاق، وسرعان ما قبلوا الحقيقة: سفينة قراصنة في أوائل القرن العشرين لا تكف عن مطاردتهم.
وتم الأمر بسرعة..
خطاف يقذف من فوق السفينة المطارِدة – بكسر الراء - ليتشبث بالسفينة المطارَدة - بفتح الراء - وهكذا تدنو الأولى أكثر فأكثر.. ويتم وضع (الخشب على الخشب) كما يسميه البحارة...
وعلى الفور انفتح باب الجحيم ليتدفق منه الأبالسة. أشنع مجموعة من الرعاع والأفاقين والسفاحين؛ بعصاباتهم وخطاطيفهم وغداراتهم وسيوفهم وسبابهم وقسوتهم ورائحتهم الكريهة..
كل هؤلاء وثبوا إلى ظهر السفينة الضحية وأعملوا القتل والذبح في طاقمها..
الطفل يرمق كل هذا الصراخ من مكانه وراء قارب نجاة.. يرى كل هذه الدماء.. تتسع عيناه فرقا..
أما المشهد الذي حفر في ذهنه للأبد؛ فهو مشهد زعيمهم.. زعيمهم البدين ذو الجسد المغطى بشعر ووشم، وعصابة سوداء على عينيه..
كان يلوح بسيف بتار غليظ ويتقدم مطيرا عددا لا بأس به من الرءوس على الجانبين..
وفي اللحظة التالية طار عنق أبي الصبي، فلم يجد هذا - لحسن الحظ - وقتا كافيا كي يتألم..
الألم كان من نصيب الصبي، وهو يرى المشهد الذي سيُحفر في ذهنه إلى يوم النشور، ولسوف يصحو في الليالي كلها صارخا غارقا في العرق، لأن (كابي سنج) - زعيم القراصنة - قد قتل أباه ملايين المرات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعرف الصبي أن الدور القادم دوره..
لم يكن راغبا في مزيد من الحياة التي يطير فيها رأس أبيه، لكن غريزة البقاء أمسكت بالزمام، وجعلته يثب في الماء وسط الأمواج المتلاطمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يجيد السباحة..
لكنه احتاج لما هو أكثر من السباحة كي يصل إلى شاطئ (بنجلا).. كان هناك التوفيق الإلهي والحظ وحقيقة أن أجله لم يحن بعد..
لقد كُتب لهذا الصبي أن يعيش...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين فرغ من التقاط أشلاء روحه على ساحل الجزيرة؛ كانوا يحيطون به.. رفع عينيه ليرى أجسادهم العملاقة المدهونة باللون الأسود ووجوههم التي امتزج فيها اللون الأسود بالأبيض لتعطي إيحاء الجماجم، والرءوس المنكمشة التي تتدلى من نطاق كل منهم..
عرف الحقيقة على الفور: هؤلاء أكلة لحوم البشر..
صاح رعبا وفقد الوعي من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنه لم يمت..
لسبب ما أحتفظ به رجال القبيلة، وعلموه أسرارهم..
إن أفراد قبيلة (توجاندا) هم رعب الجزيرة وكابوسها المقيم..
يوجد هاهنا بعض الأقزام الشرسين كذلك ويسمونهم (باندار) فيما عدا ذلك لا تحوي الجزيرة سوي عدد هائل من الحيوانات البرية الشرسة غالبا..
إن شعار (توجاندا) هو الجمجمة.. يتفاءلون بها ويرسمونها على كل شيء، وقد تعلم هو أن يحب الجماجم..
ويمر الزمان، وتصب شلالات الرجولة مياهها في عضلاته وفي جسده وفي فكره، لكن فكرة الانتقام كانت تنمو وتزدهر كذلك.
وعرف أنه سيكون الشبح الذي سيعود لينغص على (كابي سنج) حياته، ويؤرقه، ويحرمه لحظة سكينة واحدة..
سيكون الشبح الغامض الذي يعرف أسرار (توجاندا) كلها، ويعيش وسط الجماجم.. يهابه الجميع.. لكنه لا يعمل إلا لصالح الضعفاء والمقهورين..
سيكون (الشبح)..
الشبح (الذي يمشي ليلا) كما سماه أقزام (الباندار)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - الكل يريد الشيء ذاته..

بعينين مغرورقتين من فرط التأثر؛ غمغمت:
- أنت هو ذلك الطفل؟
- أنا هو ذلك الطفل..
وتقلص وجهة المنحوت من صخر وراء القناع وغمغم:
- الآن تعرفين حكايتي، وتعرفين أنني لا أريد مزيدا من المشاكل على هذه الجزيرة.. سترحلين في الصباح مع الكابتن (هورتون) صديقي.. لقد سمع كثيرون بأمر هذا الكنز؛ ولسوف يزدحم ساحلنا عما قريب بسفن القراصنة..
- هل تعني أن (كابي سنج) ما زال حيا؟
- ويزداد حيوية ونشاطا في كل يوم.. إن اللقاء آت لا محالة، ولسوف تهتز الأفلاك لهول ما سيحدث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح قدم لها (جوران) إفطارا شهيا سن ذيول السحالي، لكنها اعتذرت شاكرة لأنها لا تتناول طعام الإفطار أبدا. اتجه (الشبح) لباب الكهف، وأشار إلى الشرق.. - هو ذا طريقك يا (آنسة).. لو اتبعته لوصلت إلى الشاطئ حيث ينتظر البحاران.. لقد جلب لهما الأقزام قاربا صغيرا، وهما لم يعرفا بعد كيف ظهر هذا القارب.. يمكنك إذن اجتياز الأمواج بلا خوف، فهما يعرفان كيف يعودان..
نظرت له باحثة عن كلمات شكر فلم تجد..
بدا واضحا أنه لا يرغب في سماع شيء سوى خطواتها المبتعدة..
هزت رأسها واتجهت في الطريق الذي وصفه لها..
هنا تذكرت شيئا استدارت صائحة:
- وقرود (أورانج أوتان)؟ من أين جاءت؟
قال بصوته الصخري الثابت:
- إن حراس المعبد يحمونه من المدنسين.. لقد علم الأقزام هذه القرود كيف تحمي المعبد ليلا ونهارا.....
لاحظي أن المعبد يقع في الناحية الأخرى من الشلال وكل من يحاول عبور الشلال إذن معتد أثيم..
- لكني لم أقصد المعبد.. قصدت الكنز على الخارطة..
- ال (أورانج أوتان) لا يملك هذه القدرة على التمييز.. والآن وداعا قبل أن يفوت الأوان..
ومن جديد راحت تجد السير عائدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تدري متى شعرت بوجودهم..
فقط - من بين حاجز الأشجار - رأتهم.. كانوا ستة من الرجال يلتفون حول نار، وشمت رائحة

السمك المشوي العذبة، فتقلصت أحشاؤها.. هي التي لم تذق طعاما من دهر، خاصة بعد تجربتها في كهف السحالي إياه..
تأملت وجوههم، وسرعان ما عرفت البحارين اللذين جاءت معهما إلى هذه الجزيرة.. لا خطر هنالك إذن.. هؤلاء من طاقم (المصيبة) بلا شك.. لهذا خطت نحوهم هاتفة:
- مرحبا يا رجال..
أجفلوا للحظة، ثم رأوها فهدئوا.. وواصل أحدهم الشي.. بينما نهض الباقون وقد بشت وجوههم..
سألها النحيل:
- أين البروفسور؟
- مات..
- ك.. كيف؟
- سقط في الشلال على الأرجح..
- وأنت؟
- لم أمت على ما أظن..
عادوا يجلسون، وانتزع البدين سمكة مشوية من اللهب، ولوح بها لها:
- هلمي! لا بد أنك تتضورين جوعا..
- أنت سريع البديهة..
تبا.. هي لا تستطيع ابتلاع السمك المشوى دون أرز ودون سلاطة؛ لكن الضرورات تبيح المحظورات..
التهمت السمكة حتى الذيل، وكانت شهية بحق..
كان معصمها مكشوفا للأعين، وقد انحدر عنه كم ثوبها.. لم تلحظ العلامة العجيبة المنقوشة عليه، والتي تمثل دائرة بها صليب من حروف (P)..
لم تلحظها، ولم تلحظ نظرات المحيطين بها إلى هذه العلامة
كانت هذه هي العلامة التى يميز بها (الشبح) المشمولين بحمايته، ويرسمها بخاتمة الذي يضعه في اليد اليسرى، ولم تكن هي ولا من يحيطون بها يعرفون هذا.. وإلا لترددوا ألف مرة قبل أن.......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الخارطة! أين الخارطة؟
تردد السؤال للمرة الرابعة من البحارة المحيطين بها.. كانوا يعرفون كل شيء إذن، ولمحت أمارات الفظاظة والتوحش في وجوههم.. لقد انتهى عهد المزاح والتهام السمك المشوي، وبدا واضحا أن هؤلاء السادة لن يدللوها دقيقة أخرى..
مدت يدها في ثيابها لتخرج الأوراق إياها، فلم تكن راغبة في لعب دور الأبطال.. ولماذا تلعبه؟ هذه الأوراق لا تشكل قيمة معنوية أو رمزا متعلقا بالكرامة..
لن تنقذ طفلا من الجوع ولا مريضا من الاحتضار..
خذوها إذن.. فمن يبالي بها؟
في جشع التفوا حول الأوراق يمحصونها، وبالطبع..
لم يفهموا حرفا من الهراء الذي كتبه البروفسور المرحوم..

- ما معنى هذا؟
تراجعت للوراء.. وبرغم سذاجتها فإنها لم تفقد البصيرة الصائبة.. هؤلاء القوم سيقتلونها بمجرد أن يعرفوا كل شيء..
إنها تملك ورقة واحدة؛ هي فهمها لموضع الكنز، وهذه الورقة ستمنحها الحماية اللازمة، وتعطيها وقتا لا بأس به إلى أن تجد طريقة للاتصال ب. (الشبح)..
تراجعت للوراء أكثر، وبصوت مرتجف صاحت:
- هذا هو الضمان الوحيد لسلامتي..
تقدم منها أحد البحارة.. وسيم نوعا، لكن له ذراعا قرد مشعرتان خلقتا للخنق ولا تصلحان لشيء آخر.
- قال لها من بين أسنانه، وهو يفتح أنامله ويطويها:
- ستتكلمين.. وإلا جربت مصير تلك الأسماك التي شويناها منذ قليل!
للوراء تراجعت أكثر، وهتفت:
- هذا من حقكم.. لكن الأسماك المشوية لا تتكلم..
ورفعت إصبعا منذرا:
- إنني - فاعلموا - هشة جدا، لا أتحمل أي لون من التعذيب.. ومعنى هذا أنكم ستفقدون دليلكم الوحيد إذ يصاب بسكتة قلبية!
تبادلوا النظرات.. الحق أن هذه أقوى حجة قيلت في هذا اليوم.. إن الفتاة لم تتكلم كالأبطال قائلة إن التعذيب لن يزحزحها، بل قالت إنه سيقتلها، وما كانوا ليجرءوا على التجربة
- ليكن يا (آنصة)!
قالها البحار الذي يخنق.. وأردف:
- لا تعذيب.. سترينا مكان الكنز بمنتهى الأدب والرصانة، وبعدها أنت حرة كالنوارس من تحاول خداعه يا أحمق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كالعادة كانت المشكلة هي عبور الشلال..
لكنهم - الأبالسة - كانوا يملكون أفكارا لا بأس بها أبدا.. والفكرة التي استعملوها قريبة من تلك التي عبر بها (الشبح) نطاق الأمواج حول الجزيرة مساء أمس..
أطلقوا بندقية من نوع (القرابينة)، وبدلا من الرصاص كان هناك خطاف عملاق مربوط إلى حبل وطار الخطاف عبر الهاوية ليتشبث بشيء ما شيء لا نعرف ما هو لكنه صلب ويتحمل الحبل جيدا بعدها ثبتوا الطرف الآخر للحبل إلى شجرة غليظة..
وسرعان ما راح أولهم يعبر الهاوية فوق المياه الثائرة، متعلقا بالحبل بأطرافه الأربعة..
صاحت (عبير) أي هلع:
- لكن.. القرود.. إنها..
- لا قرود إلا نحن يا (آنصة).. فاصمتي..
وكانوا حذرين، فراحوا ينتظرون حتى يصل من يعبر الهاوية إلى وجهته، قبل أن يبدأ من بعده..
وكان من يعبر يقف ببندقيته على الجانب الآخر تحسبا للمفاجآت..
- دورك يا (أنصة)!
صاحت في ذعر

- أنا أعبر هذا الشلال؟ وعلى حبل كما في السيرك؟
لكنهم لم يتركوا لها الخيار.. كانوا بحاجة إليها....
على الجانب الآخر، وكالعادة كانت ابتكاراتهم لا تنتهي.. برغم العض وركلاتها وخمشاتها تمكنوا من ربطها في عقدة - أنشوطة - يمكن أن تنزلق على الحبل.. وهي تقنية تماثل (التلفريك) ولا تقل عنه إفزاعا..



برغم العض وركلاتها وخمشاتها تمكنوا من ربطها فى عقدة .. (أنشوطة) .. يمكن أن تنزلق على الحبل ..

استغرق الأمر نصف ساعة، في نهايته وجدت نفسها على الجانب الآخر من الشلال تلهث وتبكي وقد أدمت القيود معصميها وساقيها..
تطوع البحار البدين - وكل البحارة اسمهم (جاك) بفك قيودها، وهو يعتذر لها دون رقة:
- معذرة يا (آنصة).. فلسنا ذوي خلق دمث!

- أنتم حيوانات!
- ربما.. لكننا نحاول أن نصير حيوانات ثرية..
كانوا الآن يقفون وسط طريق شبه ممهد بين أشجار الكافور هذا الطريق لم تمهده الطبيعة.. يمكنها أن تقسم على ذلك..
قالت وهي تتفحص الخرائط:
- مائتا خطوة للشمال من هنا..
كانوا بحارة، وما كان تحديد الاتجاهات مشكلة بالنسبة لهم.. إن البحار لا يحتاج إلى رؤية وعاء الدب الأكبر ليحدد جهة الشمال، بل هو يعرف الشمال بالغريزة، بالسليقة
وهكذا بدءوا يمشون مائتا خطوة! ما اتساع خطوة البحار الهولندي حقا؟
ربما كان ضئيل البنية قصير القامة، وربما كان عملاقا.. لكن الخرائط كلها تصر على استعمال الخطوات.. ولهذا قوة القانون كما يبدو..
لكن لم يحتج الأمر لشك كثير.. لأن شجرة التين
الهائلة التي كانت تسد الطريق، قالت في وضوح: الكنز هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشجرة ذات مظهر عجيب حقا.. فالحقيقة هي أن بذور هذا النوع من الأشجار ينمو على الفروع العالية، ثم تخرج جذور غليظة تتدلى لأسفل حتى تغرس نفسها في التربة، وتزداد كثافة حتى إن الشجرة تغدو محاطة بشبكة من خشب..
وسرعان ما تختنق الشجرة الأم تحت الحصار وتموت.. وهكذا يغدو المنظر أقرب إلى منزل خشبي ضخم مجوف..
لهذا يسميها الأهلون ب (شجرة التين الخانقة)..
إن هذه الشجرة قد خلقت كي تحتوي الكنز بداخلها، وقد تلقى البحارة الرسالة سريعا، وراحوا يركضون نحوها وهم يتصايحون..
جوارها كان صندوق خشبي مهترئ عتيق..
تساءل النحيل عن كنهه، فرد الوسيم:
- في الغالب هو الصندوق الذي نقلوا الكنز فيه..
وتناول بلطة صغيرة راح يهشم بها بعض الجذور حتى اصطنع فتحة تسمح بدخول رجل.. وإلى أصغرهم حجما أشار:
- (جاك).. دورك!
انحنى (جاك) ودس جسده الدقيق في الفتحة..
إن هي إلا بضع دقائق حتى برز رأسه من جديد، وهتف:
- لا يوجد شيء يا شباب! صندوق مدفون على الأرجح
- هورررررراه!
تعالت صيحاتهم حماسة، وراحوا يلكمون بعضهم على سبيل التهنئة، بل إن أحدهم بصق على الأرض فرحا..
هتفت (عبير) وقد أدركت أن دورها انتهى:
- الآن هلا تفضل أحدكم بإعادتي للشاطئ؟
قال البحار الوسيم بعد أن استعد لمواصلة الحفر:

- صبرا يا (أنصة).. نحن لم نتأكد بعد..
هنا تدخل النحيل:
- بل تأكدنا يا (جاك)، ويمكننا أن نودع (الأنصة)..
وقبل أن تقول (عبير) شيئا، هوت ضربة قوية على مؤخرة عنقها فانتهى الحاضر بالنسبة لها وغرق الضوء في ظلام مكين..
نظر البحار الوسيم إلى الجسد المكوم على الأرض، ثم إلى الصندوق الخشبي..
وكانت العلاقة واضحة جدا وقوية جدا..
دون أن ينظر مرة أخرى، أمر الآخرين:
- ضعوها في الصندوق وادفنوها!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- مرح مع القراصنة..

هكذا إذن دارت الأحداث لنعود إلى الموقف الذي بدأنا به قصتنا.. وأعتقد أننا جميعا رأينا (عبير) / (بالمر) مدفونة في الصندوق الخشبي تحت التراب..
ثم رأينا أن شخصا كريما أنقذها فقط ليتضح أنه (كابي سنج) وعصابته من الأوغاد، بمعونة كلبه (ساتان) طبعا.. وعرفنا أنها مخيرة بين إرشاده إلى الكنز وبين الرقص مع (جو الخطاف)..
يمكننا الآن أن نعود لقصتنا...
كان خطافا (جو) الجميلان يلتمعان في الشمس حين صاحت (عبير) في هستيريا وهي تنكمش على نفسها:
- أي كنز؟ لقد وجده البحارة!
بصق (كابي سنج) معلنا عن رفضه لإجابتها، وغمغم:
البحارة؟ لم يعد هناك بحارة..
ومرر سبابته على حنجرته بإشارات ذات معنى وقال:
- لم نفعل هذا للأسف.. لقد وجدناهم مقتولين جوار شجرة التين الخانقة، وكانت على وجوههم علامة الجمجمة.. لم يكن شيء بجوارهم ولا بقربهم.. ولا علامات تدل على جر أو حفر.. إن هؤلاء لم يظفروا بشيء..
- لكنهم وجدوا الكنز داخل الشجرة..
- لا كنز داخل الشجرة.. ثمة صندوق لكنه مليء بالمستندات والأوراق.. التي أبلاها الدهر.. أنا لم أتعلم ولم أدخل مدرسة.. لكني لا أعتقد أن هذا هو شكل الذهب، في القرن السابع عشر.. ولو قال لي أحد ذلك لاتهمته بالكذب..
رفعت يديها إلى وجهها، وصاحت وهي توشك على البكاء:
. هذا هو كل ما أعرفه عن الموضوع.. صدقني!
هنا رأى الرجال جميعا تلك العلامة على معصمها إذ انحسر الكم عنه.. وتراجعوا في رهبة..
هتف (جو الخطاف): - هذه العلامة يا قبطان.. صليب من حروف (P) وسط دائرة.. إنها علامة (الشبح)..
تنهد القرصان في ملل، ولوح بذراعه ليبعد هذا السخف:
- ألن نكف عن هذا؟
- إنها الحقيقة يا قبطان.. هذه العلامة يصنعها بخاتم في يده اليسرى ومعناها أنه يحمي هذه الفتاة المخبولة شخصيا.. أما خاتم يده اليمنى فيرسم به علامة الجمجمة على وجه أعدائه المقضي عليهم..
لقد ترك علامة الموت على وجوه البحارة..
- هراء!
- أقترح أن نترك الفتاة وشأنها..
في ابتسامة قرصانية لزجة تأملها (كابي سنج)، وغمغم:
- نحن لن نؤذيها.. إنها آخر من يعلم كل شيء ولو كانت هذه هي جزيرة (الشبح) حقا فأنا (كابي سنج).. وحيثما يمشي (كابي سنج) يكن بيته....
ثم عاد ينظر إلى (عبير) وضحكة شيطان تتلاعب على شفتيه:

- قولي لنا الآن ما نريد معرفته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنزل (الشبح) عدسة التلسكوب عن عينيه، وداعب منخر الكلب الذئب وربت على عنقه ليهدأ..
إذن الفتاة حية.. لقد جاء هاهنا منذ ساعتين أو أقل ليجد البحارة الستة منهمكين في إهالة التراب فوق قبرها..
كان يعرف أنهم من بحارة الكابتن (هورتون)..
لكن هذا لم يعد يهم بعد ما فعلوه أو ما ظن أنهم فعلوه..
الحق إنه لم يتمالك نفسه لدى الغضب، وغضبة (الشبح) ليست من الذكريات المحببة للنفس لمن يراها..
كان الستة مشغولين حين وجدوا (الشبح) وذئبه يهبطان عليهم من عل، فينطلق الرصاص وتتطاير المدى وتتلاقى الأنياب.. كانت مجزرة حقيقية لا داعي لها.. لكنها تمت....
وفي النهاية وُضِعت علامة الجمجمة على الجثث..
لقد عاد لكهفه حزينا نادما على أنه لم يصحب الفتاة إلى أن يطمئن عليها، لكن لم يمر أكثر من نصف ساعة حتى فوجئ ب (جوران) يخبره بنبأ مذهل:
سفينة قراصنة دانية!
نهض كالمجنون ليرتدي ثياب (الشبح) كلها، ويحشو مسدسه بالرصاص ثم يمتطى صهوة حصانه (هيرو) ينهب الأرض نحو الشاطئ..
وبعدسة التلسكوب، استطاع أن يرى القارب الذي يخترق الضباب والأمواج ببراعة غير عادية..
إن من يقود هذا القارب يعرف (بنجلا) جيدا.. لا شك في هذا..
وتم كل شيء بسرعة.. النزول بالرجال إلى الشاطئ.. اقتفاء آثار الأقدام العديدة.. عبور الهاوية فوق الشلال باستعمال الحبل ذاته، ثم البحث بدقة حتى العثور على الجثث الست..
هنا راح كلبهم ينبح وينبش الأرض حيث كان القبر الحديث..
ورأى الرجال يحفرون ويزيحون التراب، وإذا بالفتاة سالمة تماما فيما عدا الذعر الشديد إذ رأتهم هؤلاء يعرفون كل شيء، ويعلمون جيدا ما يبحثون عنه..
ومن جديد عاد يتأمل وجوههم وخاصة وجه من بدا كقائدهم..
الوجه الفظ.. العصابة على العين.. الجسد المشعر كجسد قرد..
وتوتر جسد (الشبح) كقط غاضب..
(كابي سنج)!....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتشد أقزام (الباندار) حول (الشبح) يعدّون حرابهم وأقواس سهامهم.. قال لهم وهو يتأكد من حشو مسدسه:
- الآن أريد القرود معي!
قال (جوران) مرتبكا:
- هذه القرود لا يؤمن جانبها.. ولقد قتلت أنت واحدا منها أمس..
- لكنها تثير الرهبة يا (جوران) تثيرها..
وهذا ما أريده..

واتجه قزم وهو يرتجف إلى القفص الخشبي العملاق، فعالج الجنزير الحديدي الملتف حول بابه..
كلينج كلانج
قال (الشبح) وهو يحكم تثبيت قناعه:
- كما اتفقنا.. ستمرحون كما تريدون لكن الرجل ذا العصابة على عينه ليس ضمن الصفقة.. إنه لي وحدي..
وفي خلفية المشهد يتعالى صوت القردة الغاضبة..
قردة قادرة على انتزاع أطراف من تهاجمه دون مناقشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- انظروا!
- انظروا!
تصايح القراصنة المحيطون ب. (كابي سنج) وهم ينظرون إلى الأفق.. كان هناك حصان أبيض شامخ وعلى ظهره رجل مقنع له وجه جمجمة، وكان يضع يديه في خاصرته والتحدي على سحنته..
- (الشبح) الذي يمشي ليلا!
اغتاظ (كابي سنج) للأمر.. فأطلق ذراع (عبير) وصاح في غلّ:
- يا حمقى! إنه رجل مثلي ومثلكم، ويموت بنفس الطريقة! هلموا الحقوا به.. وانتزع غدارته من حزامه، وأطلق رصاصة باتجاه راكب الحصان..
في اللحظة التالية توارى الحصان براكبه، وانفتحت أبواب الجحيم.. إن أقزام (الباندار) شرسون للغاية ولا يمزحون.. وسرعان ما انطلقت الحراب والسهام نحو القراصنة المساكين..
أما (ديفل) فانساب بين أقدامهم ينشب أنيابه في تعساء الحظ.. وأنياب (ديفل) هي أنياب ذئب كما تعلمون..
أما التأثير النفسي الأعظم فكان لثلاثة قرود عملاقة من نوع (أورانج أوتان)، هوت من فوق الأشجار وراحت تمزق الرجال تمزيقا..
أطلق بعض الرجال رصاصاتهم، ولوح بعضهم بالسيوف لكن المعركة كانت محسومة من اللحظة الأولى..
كان الموج يتصادم حول (عبير) المذهولة، لكنه لا يصدمها أبدا.. كل شيء يبدأ وينتهي عند حدود دائرة لا تتجاوز مترا من حولها..
فقط حين بدأ تبادل الطلقات؛ صاح بها (جوران):
- تمرغي في التراب يا (آنسة)! توارى في مكان آمن! إن الطلقات لا تختار هدفها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما (كابي سنج) فكان يعرف هدفه..
الفرار أولا بعيدا عن هذا السيرك المليء بالقردة والأقزام، ثم الانتقام ثانيا ممن أفقده خير رجاله..
حنى قامته وراح يركض في عزم.. في غلّ.. نحو الاتجاه الذي توارى فيه (الشبح).. لولا أن العيون الحاقدة لا تقذف دما؛ لأقسمنا أن الدم يسيل من عينيه الحاقدتين..

كان هناك حاجز من الأشجار.. لا بد أن راكب الحصان وراءه بشكل ما.. ولكن أين؟
في اللحظة التالية انهالت لكمة على فكه.. لكمة عنيدة باليد اليمنى.. وكان في اليد خاتم معدني أدمى ذقنه..
لو استطاع (كابي سنج) أن يرى وجهه؛ لرأى علامة الجمجمة على فكه، ولعرف أنه صار (معلما) بعلامة الموت....
كان (الشبح) يركض على حصانه الأبيض مبتعدا.. استل (كابي سنج) سيفه البتار وأزمع أن يمارس علم التشريح قليلا.. فقط لو ينتظر هذا الأحمق دقيقتين..


كان (الشبح) يركض على حصانه الأبيض مبتعداً ..
استل (كابى سنج) سيفه البتار وأزمع أن يمارس علم التشريح قليلاً ..

وفي اللحظة التالية تشبث (الشبح) بغصن شجرة متدل - على طريقة (طرزان) - ووثب من فوق ظهر حصانه، ليعبر فرجة خالية من الأشجار فيهبط على فرع شجرة بعيد..

- الويل لك!
- بل الويل لك أنت!
قالها (كابي سنج) وهو يرغي ويزبد، وراح يركض صوب خصمه الذي وقف ينتظره كأن الأمر لا يعنيه..
مشت قدما القرصان فوق الأرض، وهنا..
هنا فهم السر الذي جعل (الشبح) يعبر هذه المساحة وثبا..
لقد كانت الأرض مغطاة بالدبق الذي يجعل المشي مستحيلا..
وسُدىً راح يركل ويحاول تحريك قدميه.. لكنهما كانتا تزدادان تورطا والتصاقا.....
وابتسم (الشبح) في تشف وهو يرمق المشهد:
- إنها حيلة قديمة لصيد النمور يا (كابي سنج)، غير أننا قادرون على اصطياد الخنازير البرية بها كذلك!
ثم - برشاقة - وثب من فوق غصن الشجرة ليقف على مسافة آمنة من الأرض اللزجة..
- لقد أعطتني الآنسة (بالمر) - دون قصد منها - بعض الأفكار الصالحة! ما كان على سوى استدراجك ها هنا..
- صاح (كابي سنج) في حنق وهو يحاول التملص:
- حسن.. لقد ظفرت بي فتعال حررني..
- لن أفعل؟ ولماذا أفعل؟ إنه الموت البطيء المعذب الذي طالما تمنيته لك.. ستموت هنا ببطء، كذبابة في خيوط عنكبوت هجر بيته.. ولن يمد لك أحد يد العون أبدا..
وحك رأسه مفكرا وأردف
- ستموت بعد يوم؟ ربما ثلاثة أيام؟ ربما أسبوع؟ الله وحده يعلم......
من بين أسنانه أطلق (كابي سنج) سبة، وراح يواصل محاولاته عديمة الجدوى:
أنت.. أنت.. لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟
يمكنك قتلى الآن وإنهاء هذا الضجيج..
ابتسم (الشبح) وهو يدور حول الفرجة مبتعدا:
- لماذا أكرهك؟ هذه قصة يطول شرحها يا (سنج)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المجزرة قد انتهت تماما حين خرج (الشبح) إلى رجاله الأقزام.. الأرض مغطاة بجثث دامية صارخة مولولة معذبة.. وقد مات قزمان وقرد بطلقات الرصاص..
ركضت (عبير) نحو (الشبح) مولولة:
- لقد أنقذتني.. كان على أن أفهم هذا!
اتخذ وضع الاحتباء ليداعب عنق ذئبه العزيز الذي أرهقه الافتراس، وقال لها:
- تركت (كابي سنج) في ورطة بلا حل.. ولسوف أجيء ليلا كي أستمتع برؤية عذابه قبل أن أنام.. لقد ساد العدل الكون وانتهت الكوابيس.
راحت تنفض الغبار عن ثيابها، وسألته:
- والكنز؟
- في كهف الجمجمة منذ زمن سحيق.. أنا وجدته وأخذته هناك عندما جئت الجزيرة..
- ولماذا تحتفظ بكنز؟ ظننتك لا تبالي بهذه العروض الزائلة..

- كي لا يجده أحد آخر.. هذا سبب كاف فيما أظن.. إنه ذهب ملوث، ولسوف يجده أحدهم لو ظل في مكانه.. الذهب الملوث يطفو على السطح دوما...
هنا صدرت ضجة من الأقزام، ولوحوا برماحهم منذرين..
كان هناك غريب يشق طريقه في تؤدة عبر صفوفهم، غير مبال بتوترهم كأنما كل هذا هراء لا يهمه..
وسمعت (عبير) صوت (التكتكة) المميز..
حسن يا فتاة.. لقد انتهت قصتك ها هنا..
ليكن يا (مرشد).. ولكن دعني أودع مخلصي..
ونظرت إلى (الشبح) في امتنان، وغمغمت:
- شكرا على كل شيء.. شيء من رقة شاع في وجهه الصخري، وقال:
- عندما تعودين يا مس (بالمر)؛ سنتزوج.. وسيكون لنا طفل جميل يدعى (كيت)!
- أحقا؟ إذن أنا جزء مهم في مغامراتك؟
بالتأكيد.. لقد زوجنا (لى فالك) في السبعينات من هذا القرن.. ولربما كان لنا لقاء آخر..
وابتسم من جديد، واستدار يأمر الأقزام بالرحيل..
قال (المرشد) ل (عبير):
- هل كانت مغامرة طيبة؟
- لا بأس بها.. لكنها تذكرني بمغامرتي مع (طرزان).
- (لى فالك) لم ينكر لحظة تأثره بقصص (إدجار رايس بوروز) خالق (طرزان).. إن (الشبح) مزيج من (طرزان) و (باتمان) معا..
وتنهد وهو يثني ذراعه لتتأبطه:
- هلمي بنا الآن.. وليساعدنا الله على اجتياز حاجز الضباب والأمواج المحيطين بهذه الجزيرة..
- هيا بنا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي القصة القادمة تلقى (عبير) شذرات من عالم (ديزني) الرائع.. العم (بيكسو) و(ميكي ماوس) والبطة الثرثارة (دونالد داك) التي نسميها نحن (بطوط)..
وهناك تعرف أن الرعب قد يوجد حتى في عالم يسوده البط والفئران الذكية..

(تمت بحمد الله)

شبح وشيطان..!
جزيرة غامضة لم ترسمها الخرائط..
جماجم مشتعلة.. كلب كان ذئبا..
مصيدة نمور.. أقزام.. كنز مطمور..
عالم مخبول.. شخصية مهيبة تجمع ما بين شخصيتي (طرزان) و (باتمان)..
جسر معلق سرعان ما يتمزق.. صحفية شابة في ورطة.. قراصنة.. ترى هل نسيت شيئا!
د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) بلغة (الملايو) معانها (إنسان الغابات).

روايات مصرية للجيب

17

فانتازيا

اقتلوا بطّوط ..!



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم الى الجروب]

[انضم الى القناة]

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (17)

اقتلوا بطّوط

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة أو ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبرمان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أرض الأحلام..

(عالم ديزنى الرائع)..
ترى (عبير) اللافتة والأسوار العملاقة، وهي التى لم تر الأسوار قط في (فانتازيا) إلا عندما رأت عالم (شكسبير)، ولم تكن حمقاء أو بطيئة الفهم – على الأقل بالنسبة لهذا العالم الذي تهواه - لذا تذكّرت كلمات (المرشد) إذ قال لها: إننا نبنى الأسوار حول أفكار المفكرين والفنانين الذين خلقوا عالمًا متكاملًا منفردًا، وبالتالي نمنع أفكارهم من الاختلاط بأفكار الآخرين.
المفكرون الذين لم يعد العالم بعدهم كما كان قبلهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد قال لها (المرشد) مسترخيًا في مقعده:
- « هو ذا قطاع (ديزنى) هاهنا.. وإن (فانتازيا) لتفخر به كثيرًا.. حقًا قد أضاف الكثير، وجعل العالم أكثر جمالًا بما لا يقاس.. »
سألته وعيناها لا تفارقان النافذة:
- « أهناك عالم (ديزنى) مماثل في دنيا الواقع؟ »
- « بل يوجد عالمان: واحد في (أمريكا) وواحد في (أوربا).. (ديزني لاند) هو الاسم الذي اختاروه.. هل رأيت أحد العالمين؟ »
ابتسمت في مرارة:
- « رأيته؟ إن أروع نزهة قمت بها في حياتي هي زيارتى ل. (الدلجمون) مسقط رأس أمي.. ولم يكن هناك كثير من السياح على كل حال.. »
قال وهو يمدّ يده في سترته ليخرج قلمه:
- « لقد جعل (ديزنى) أحلامه مجسدة في مدينة حقيقية، وهي فرصة لا تتاح لكثيرين.. إنه الحالم الأعظم الذي لم يكتف بالحلم.. بل جاهد ليجعله حقيقة.. واليوم يصعب أن يقول المرء إنه زار (الولايات المتحدة)، ما لم يعد معه بصورة أو اثنتين مع (ميكى ماوس) أو الأميرة (سنوهوايت)، ثم يعرضهما على أصدقائه وهو يهزّ رأسه في حكمة مرددًا: كان كل هذا رائعًا.. رائعًا بحق.. »
سألته:
- « وكيف اجتمع الفنان البارع ورجل الأعمال الماهر في (ديزني)؟ المفترض أنهما كالماء والنار.. لا يجتمعان أبدًا مالم يقض أحدهما على الآخر.. »
تك تتك! راح يمارس هوايته الكريهة، وقال:
- « الحقيقة أن (ديزنى) لم يكن فنانًا عبقريًا إلى هذا الحد، ورسومه تفضح فقر موهبته باعترافه هو نفسه.. لكنه كان يملك ذخيرة لا تنفد من الأفكار الجديدة الجيدة، وقدرة لا تنتهي على إدارة الأعمال، ومخزونًا لا يتدنى من الرسامين فائقى الموهبة، الذين كان يستغلهم أسوأ استغلال وبقسوة في أحيان كثيرة..»
- « غريب هذا! كنت أعتبره ملاكًا.. »
- « بل هذا ليس غريبًا.. لا يجب أن يكون صانع الحلوى لطيفًا حلو المعشر لمجرد أنه يصنع الحلوى.. و(بتهوفن) صانع الأحلام لم يكن كيانًا شفافًا نورانيًا، بل كان كهلًا فظًا كريه الرائحة

نادر الاستحمام.. هذا هو ما قالوه عنه.. »
هنا وجدت (عبير) لدهشتها أن السور قارب على الانتهاء، بينما هما غارقان في هذا الجدل البيزنطى.. صاحت في ذعر:
- « لحظة! لِمَ لا تتوقف هنا؟ »
- « أنتِ لم تطلبي.. حسبتك راغبة في تجربة أرض أكلة لحوم البشر، التي تبدأ بعد عالم (ديزنى).. »
شدّت الحبل المتدلي على كتفه، وهتفت:
- « أعوذ بالله! لا أذكر كم مرة كادوا يلتهمونني أو يقطعون رأسي في (فانتازيا) هذه.. دعنا نجرّب هذا العالم النقي المرهف.. »
وكان ذلك حين توقف القطار مع صوت صرير..
نهضت وسوّت تنورتها، مستعدة للهبوط، فقال لها في لا مبالاة كعهده دائمًا:
- « هل هذا هو قرارك الأخير؟ »
- « لسنا بصدد قرار الحرب النووية على كل حال..»
- « لكني أحذرك.. أحيانًا تكون هذه الأماكن البهيجة خطيرة جدًّا.. »
- « هل تمزح؟ »
ووثبت من القطار الصغير المضحك..
كان العالم الممتد أمامها حلمًا كامل التفاصيل.. فقط هو مجسّد.. سماء زرقاء بارعة اللون يحلق فيها فيل وردى له أذنان كجناحين.. (بيتربان) ببذلته الخضراء يدور حول برج (لندن) ويحلق بعيدًا.. أرانب صغيرة تلهو في المرج، وساحرات يمتطين مكانسهن، وبرغم هذا هن لطيفات جدًّا.. كلاب وقطط تتكلم، وبط يرقص، وخيول تمزح..
نظرت إلى ثيابها فوجدته - كالعادة - أنها ترتدى مريولة سوداء، وثوبًا مرحًا يذكرك على الفور بثياب (سنوهوايت).. تحسست شعرها فوجدته ضفيرتين خفيفتي الظل على جانبي رأسها..
ضاحكة هتفت وهي تطوح برأسها يمينًا ويسارًا:
- « لقد تم التغير سريعًا! »
- « طبعًا يا فتاة.. تك تتك تك.. ليس من اللطيف أن تدخلى عالم (ديزنى) الرائع، وأنت محتفظة بثيابك التقليدية.. إن الجمال والبراءة هما اسم اللعبة من الآن فصاعدًا.. »
- « حقًّا لم أكن جميلة ولا بريئة.. شكرًا على ذوقك المجامل.. قل لي من أكون إذن؟ الأميرة النائمة (سنوهوايت)؟ (سندريللا) الجميلة والوحش؟ »
تثاءب ومدّ كفه، فهبطت فوقها فراشة زاهية الألوان دونما وجل، وراحت ترفرف بجناحيها، بينما دقائق من نور - كأنها الدقيق - تتناثر هنا وهناك.. قال (المرشد) وهو يتأمل الفراشة:
- « إن لنا مغامرة طويلة مع كل عوالم (ديزنى)، ولسوف تعيشينها بالكامل يومًا ما، مثلما احتشد كل أبطال (شكسبير) معك في قصة كاملة.. لكن مهمتك محددة اليوم.. عليك التوجه إلى منزل (دونالد داك) في (داك فيل) لإنقاذه! »
وضعت كفها على أذنها لتحسن السمع:
- « منزل من؟ في ماذا؟ »
طارت الفراشة مبتعدة، بينما قال (المرشد) بطريقته العملية المتعجلة:
- « هذه هي مشكلة الترجمة للأسماء.. إن (دونالد) هو ما تعرفينه أنت، باسم (بطوط)، و(داك فيل) هي مدينة البط طبعًا.. وليس هذا غريبًا لأن كل شعب في الأرض يعرف البطة (دونالد)

باسم مختلف يناسب ثقافته.. إن اسم (دونالد) غريب ثقيل الوطء بالنسبة للأذن العربية، كما أن اسم (بطوط) سخيف بالنسبة للأذن الغربية.. والآن دعينا لا نضيع مزيدًا من الوقت.. هل تريدين البدء أم لا؟ »

- « سؤال سخيف طبعًا.. »

في اللحظة التالية تلاشي (المرشد)، ووجدت نفسها في شوارع (داك فيل)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - العجوز يريدك..

في هذه المرة بلغتُ هلوسة (دى - جي 2) ذروتها، وقد شعرت (عبير) بأنها صورة فوتوغرافية تم إقحامها في فيلم رسوم متحركة.. كل شيء من حولها مرسوم بعناية وكامل التجسيم، لكنه يحمل اللمحة الكاريكاتورية التي تخبرها أن كل هذا ليس حقيقيًّا..
وكل (داك فيل) بيوت من طابق واحد، لها حدائق صغيرة، والشوارع ضيقة تمشي فيها سيارات مضحكة مكشوفة غالبًا.. سيارات لا طراز لها، يركبها خليط غريب من الكلاب والبطّ والفئران..
وأخيرًا تجد الحديقة الصغيرة غير المهندمة، التي علقت فيها أرجوحة ما بين شجرتين، وثمة صندوق بريد مضحك كتب عليه (دونالد داك).. وإذ تتبين وتدقق بنظرها أكثر، ترى البطة الخالدة تغفو في كسل على الأرجوحة.. أكسل بطة عرفها العالم وأكثرها غرورًا و إزعاجًا..
دنت منه أكثر، وكان غافيًّا بعمق.. احتاجت إلى أن تهزّه مرتين حتى صحا مطلقًا فيضًا من (البطبطة) الصاخبة ثم:
- « من أنتِ؟ »
لم تدر كيف تردّ.. فهي حقًّا لا تعرف لها اسمًا في هذه القصة بعد..
قالت في صوت مبحوح:
- « أنا واحدة من المعجبين بك.. لا أكثر.. »
تنهَّد في راحة وعاد إلى استرخاء رقدته على الأرجوحة:
- « حسبتك من الدائنين.. لا أذكر أنني استدنت مالًا منك على الأقل في الشهر الماضي.. »
- « كلا لم تستدن مني قط.. »
- « هذا يجعل الإغراء أقوى مني.. إنني بحاجة لبعض المال.. »
وفي هذه اللحظة دوى رنين جرس الهاتف من داخل المنزل، وإن هي إلا ثوان حتى برز أطفال البط الثلاثة (هيوى) و(ديوى) و(لوي)، وهم من نعرفهم نحن باسم (سوسو) و (لولو) و (توتو).. كانوا يتواثبون كالقرود، وقد اتسعت عيونهم ذعرًا:
- « أيها العم (دونالد)! إن العم (سكروج) يريدك حالًا! »
- « الويل! »
وراح ينتفض ذعرًا كورقة، ثم وثب إلى الأرض وقد بدا كمن يقتادونه إلى منصة الإعدام، وراح يغمغم في حنق:
- « لماذا لا تقولون له إنني غير موجود؟ لماذا لا تفعلونها بشكل صائب مرة واحدة؟ »
- « لأنه يعرف كل شيء، ولسوف يجدك حتمًا! »
ودخل (دونالد) البائس إلى المنزل، وراحت (عبير) ترمق السقف يتطاير والأبواب تنفتح والنوافذ تنخلع من مكانها، إثر المكالمة العاتية في الهاتف.. إنها تقاليد القصص المصورة الخالدة..
سألها أحد الأطفال الثلاثة:
- « من أنتِ؟ يا لك من حسناء! »
- « أنا معجبة لا أكثر.. وشكرًا على المجاملة.. »
ثم أشارت إلى المنزل الذي يهتزّ بالصراخ، وتساءلت:
- « من هو العم (سكروج)؟ »
بدا الذهول على الطفل:

- « ألا تعرفين (سكروج ماك داك) أغنى رجل في العالم.. والأكثر بخلًا؟ »
هنا تذكّرت الاسم.. ها هنا في (مصر) يسمونه (العم دهب).. أما اسم (سكروج) الأصلى فهو مشتق من البخيل بطل قصة (ديكنز)، و (ماك داك) تعطى للاسم رنينًا أسكتلنديًّا، مع ما عُرف عن الاسكتلنديين من بخل شديد.. في (فرنسا) يسمونه (العم بيسكو) والحقيقة إنني لا أعرف معنى هذا الاسم.
إن هي إلا لحظة حتى برز (دونالد) مذعورًا، وقبعته تطير خلفه في الهواء، وخطوط السرعة تحدّد مساره كما هي تقاليد (ديزنى)، وفي عجلة هتف:
- « العجوز البخيل يريدني حالًا! »
- « لقد سبق أن قلنا هذا.. »
- « يريدني في مكتبه! »
وأشار إلى الأولاد في عصبية:
- « وأنتم معي طبعًا! »
ورأت (عبير) (دونالد) يثب إلى سيارته الكاريكاتورية المضحكة، فيجلس خلف مقودها، بينما يتراص ثلاثة الأطفال في حقيبتها المفتوحة، وتنطلق السيارة تنهب الطريق إلى حيث المليونير الحانق دومًا..
بالطبع ما كان بوسعها اللحاق به، فما هي صفتها في الموضوع؟ إن اللياقة هي اللياقة حتى لو كانت مع مجموعة من البط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن (عبير) تذكر الأسماء والتواريخ جيدًا، ولو فعلت لعرفت أن (دونالد داك) - أو (بطوط) - هو أشهر نجوم (هوليوود)، وقد رشح تسع مرات لجائزة أوسكار، ونالها بالفعل مرة واحدة..
إن ل. (دونالد) مائة مجلة مصورة في العالم، تصدر في ثلاث وخمسين لغة.. بل إنه ظهر على طوابع بريدية لجمهوريات لا علاقة لها بالموضوع بتاتًا، مثل (سان مارينو) و(بوتان) و(المالديف) و(جرانادا)..
لقد صار رمزًا دوليًّا تخطى حاجز القوميات واللغات.. مثله مثل (شارلي شابلن)..
ولد (دونالد داك) عام 1934 في فيلم (الدجاجة الصغيرة الذكية) الذي أنتجه وأخرجه (ديزنى)..
صحيح أن عمره الآن قد دنا من السبعين، إلا أنه - ككل أبطال القصص المصورة - لا يشيخ أبدًا.. فقط كان وقتها أكثر نحولًا، وله منقار مدبب حادّ كالخناجر، ثم زادته الأعوام والثروة أناقة وجمالًا..
كانت مشكلة (دونالد) في البداية هي أنه ظهر في ذروة مجد نجم ذى شهرة داوية هو (ميكى) الفأر الصغير.. إلا أن نجوميته تصاعدت سريعًا، وسرعان ما فاقت رسائل المعجبين به - التي تصل إلى استوديوهات (ديزنى) - عدد الرسائل المعجبة ب. (ميكى)..
لقد كانت المنافسة بين (دونالد) و (ميكى) قوية ساحقة منذ البداية، من النوع الذي يسميه الإنجليز ب. (منافسة قاطعة للرقاب).. إلا أن عدد المعجبين ب. (دونالد) تزايد باستمرار، وهناك من يعتقد اليوم أن (ديزنى) لو لم يبتكر (دونالد)، لما عاش في ذاكرة الناس طويلًا..
يعود الجانب الأكبر من نجاح (دونالد) إلى الصوت.. الصوت المبطبط العصبي الذي لا تصدقه ما لم تسمعه، والذي اختصّ به الممثل العجوز (كلارنس ناش)، والذى ظلّ هو حنجرة (دونالد) منذ عام 1934 وحتى اليوم، ومنذ نطق بأول عبارة ل. (دونالد) فى فيلم سينمائي: أنا أشعر بألم في معدتى..

واليوم - في سن الثمانين - يعيش (ناش) حياة مزدوجة معقدة نفسيًا مع (دونالد)، ويدور بينه وبين الأخير جدل صاخب لا ينتهي حول أيهما الأكثر أهمية.. وحتى في المناسبات التي تستدعي وقارًا يحدث أحيانًا أن يفلت عيار (دونالد)، ويصيح بلغة البطبطة الشهيرة وتحدث فضيحة!
من الظلم أن نطالب (عبير) بأن تعرف هذا كله، لذا قطعنا قصتنا قليلًا لنضع النقاط على الحروف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت خمس دقائق قد مرّت، وهي واقفة على مدخل حديقة (دونالد) تتساءل عما تفعله في الدقائق الخمس التالية:
- « سيارة قادمة من بعيد تثير الغبار في شوارع (داك فيل).. »
شيء ما في مظهر السيارة جعلها ترفع التوازى خلف شجرة على الجانب الآخر من الطريق.. إن سيارة ذات سمات واقعية في هذا العالم الكاريكاتورى لأمر غريب حقًا.. سيارة سوداء عادية جدًا وإن لم تكن في حالة رائعة..
ثم ركابها!
ركاب السيارة الذين ترجلوا الآن أمام المنزل، هم أشخاص ذوو سمات واقعية تمامًا، وإن لم توح بالثقة ولا الأمان.. بشيء من الخيال يمكن القول إنهم رجال عصابات..
ها هم ثلاثة يترجَّلون مِنَ السيارة، أحدهم يرتدي معطفًا أسود طويلًا من الطراز الذي يكنس الأرض حولك.. والآخر له شعر معقوص في ذيل حصان خلف رأسه، أما الثالث فكان أصلع الرأس تمامًا، وفي يده مدفع ذو خزينة على شكل قرص.. يبدو أن هذا هو (الكلاشنكوف) إن لم تخنها الذاكرة..
ها هم أولاء يدخلون الحديقة الكاريكاتورية المضحكة، يدورون في أرجائها.. يتقدم أحدهم نحو الباب الأمامي وآخر نحو الباب الخلفي.. يتفاهمون بالنظرات لا أكثر، وكلهم يعرف ما ينبغي عمله..
سائق السيارة ينطلق بها مبتعدًا..
وفي اللحظة التالية يسود صمت مريب.. صمت سمعى و بصرى..
إنهم الآن داخل المنزل.. بالطبع لم يجدوا أحدًا..
وبالطبع هم ينتظرون....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3 - اقتلوا (بطوط!)

في هذه المرة على الأقل عرفت أن عليها مهمة بالغة الخطورة..
هؤلاء القوم ينتظرون (دونالد) في داره، ومن الواضح أنهم لم يجيئوا لتحسين العلاقات الاجتماعية أو للعب الشطرنج.. لماذا؟.. وماذا يريدون؟ ليس هذا الوقت المناسب.. عليها أن تهرع لتنذر (دونالد) حالًا..
كانت هناك سيارة أجرة يقودها كلب.. هذه هي القوانين هنا وتوزيع المهن يتم حسب النوع.. القاضي بومة دومًا.. وسائقوا سيارات الأجرة ورجال الشرطة كلاب.. والمدرس ببغاء.. وهكذا..
فتحت الباب لتثب إلى داخل السيارة، وهي تقول لاهثة:
- « إلى مكتب العم (سكر.....) »
قاطعها السائق في ملل:
- « تعنين خزينة المليونير (سكروج)؟ لا بد أنك تمزحين! »
- « أنا أمزح؟ ولماذا؟ »
لم يعلق وثني ذراع العدّاد، ثم انطلق ينهب الطرقات نحو الإجابة على سؤالها..
وكانت الإجابة واضحة جدًّا ولا تحتاج إلى كلمات، لأن خزانة العم (سكروج) - التي تشبه مكعبًا خرسانيًّا عملاقًا - كانت في فضاء شاسع تحيط به المستنقعات والأسلاك الشائكة، ومئات اللافتات من طراز (ابتعد) و(الويل لك) و(لا أحد يرحب بك)..



وكانت الإجابة واضحة جدًا ولا تحتاج إلى كلمات ، لأن خزانة العم (سكروج)ـ التى تشبه مكعبًا خرسانيًا عملاقًا ـ كانت فى فضاء شاسع تحيط به المستنقعات والأسلاك الشائكة . .

تذكّرت أنها رأت هذا المشهد مرارًا، فسألت السائق:

- « هذا العجوز لا يرحّب بالزوار كما أظن؟ »

- « لا يرحّب بهم البتة! »

وأوقف السيارة على مسافة آمنة، وأردف:

- « إن الآخرين بالنسبة له لصوص أو دائنون أو محصلوا ضرائب.. وكلهم حشرات تستأهل القتل.. والآن وداعًا يا آنسة! »

بحثت في جيب مريولتها عن نقود تعرف أنها لن تجدها بالتأكيد.. فمن قال إن (سنوهوايت) تحتاج إلى نقود؟ لكن السائق رفع يده يطلب منها ألا تفتش:
- « لا داعي.. فلست مغرمًا بجمع نقود الموتى! »
وابتعد بالسيارة قبل أن تفهم عبارته هذه جيدًا..
ببطء كالماشية في جنازة، راحت تنقل قدميها عبر الأرض الوعرة باحثة عن طريقة ما للدنو..
كان هناك خندق عملاق على جانبه القصى بوابة متحركة عملاقة كبوابات القلاع، والخندق - طبعًا – ملىء بالتماسيح شديدة الشراهة..
- « من أنت؟ »
دوّى الصوت المتحشرج من عدة مكبرات صوت، ولم تدرك أن عشر كاميرات تنقل صورتها التلفزيونية إلى داخل الخزانة..
رفعت عقيرتها التي تحشرجت فيها الكلمات:
- « جئت للسيد (دونالد داك).. ثمة رسالة مهمة يجب إبلاغها له »
كانت هناك ثلاثة مدافع عملاقة على منصات متحركة، توجه جميعًا فوهاتها نحوها، وهي مدافع طفولية جدًّا تذكرك بمدفع الإفطار عندنا، لكن أثرها الضار لا يخفى على أحد..
بعد دقائق من الصمت، عاد الصوت يسألها:
- « هل رسالتك مجانية؟ »
- « بالتأكيد.. »
وكان هذا كافيًّا كي يتحمس، وجاء صوته هادئًا نوعًا هذه المرة:
- « يمكنك الدخول عندما يهبط الجسر، لكن تذكري أننا نراقب كل حركة من حركاتك.. »
وبدأ الجسر المتحرك يهبط ليسمح لها بعبور الهاوية..
وفي النهاية هي ذي تقف في خزانة العم (سكروج) الحصينة المدرعة.. إن (عبير) لا تعرف شيئًا عن (فورت نوكس) التي يخزنون فيها ثروة (الولايات المتحدة) من الذهب، ولو عرفتها لوجدت أن تحصينها واهٍ جدًّا بالنسبة إلى تحصين هذه الخزانة.. تجتاز ممرًّا تتناثر الألغام والمسامير والقنابل المشتعلة على جانبيه، وتخلص قدميها من ممر فُرِش بشريط لاصق كما يفعلون في مصايد الذباب..
وفي النهاية تجد نفسها أمام العجوز البخيل (سكروج)، وهو نسخة أخرى من (دونالد)، لكنه - بلمسات بسيطة من الرسّام - يملك شعرًا أشيب على جانبي الرأس، ويرتدي بذلة حمراء من طراز (الريدنجوت)، على حين لم يستبدل (دونالد داك) ثياب البحار التي يرتديها من عام 1934 حتى اليوم..
لم يكن (سكروج) رائق البال كما هو واضح.. يقول من يعرفونه جيدًا: إنه لا يكون رائق البال أبدًا.. دعنا نفترض إذن أنه كان في حالة أسوأ من المعتاد نوعًا، وكان يمسك بساقيّ (دونالد)، ويستعمل رأسه كمطرقة يضرب بها الحائط..
فما إن رآها حتى توقف عن عمله المسلّي، وتخلص من ضحيته..
- « هل بوسعي أن أقدم لك خدمة ما؟ »
والحقيقة هي أن (عبير) كانت - كالعادة – قد صارت بارعة الحسن.. بارعة الحسن إلى الحدّ الذي يجعل أغلظ القلوب ترق لها، وأشرّ الناس يترددون مرتين قبل أن يكلموها بخشونة، وبسبب جمالها المكتسب هذا كانت (عبير) تجرؤ في (فانتازيا) على الإقدام على أمور ما كانت لتقدم عليها في دنيا الواقع، وبالطبع كانت الأبواب تفتح لها دومًا في حين كانت تنغلق كقاعدة

في دنيا الواقع..
قالت في كياسة وهي تتأمل المكان الفقير الذي لم تتوقعه:
- « يبدو أن السيد (دونالد) يواجه بعض المتاعب.. »
بأسنان مهشمة ولسان ملتو غمغم (دونالد) المكوّم على الأرض:
- « لا توجد متاعب أفظع مما ألقاه هنا.. »
من بين أسنانه المفترسة زأر (سكروج):
- « جرررر! إن عقابك لم يبدأ بعد أيها الساذج! »
قالت وهي تحاول أن تبدو رصينة:
- « ثمة رجال مسلحون ينتظرون في دار (دونالد) الآن، ومن الواضح أنهم يرتقبون عودته.. »
هنا لانت أسارير العجوز قليلًا، وغمغم:
- « إنه أجمل خبر سمعته منذ أعوام.. وأعتقد أن هذا الكسول راغب الآن في تنفيذ مهمتي التي كلفته بها..»
في هذه اللحظة دخل الغرفة خادم متخشب يرتدى الفراك، وبنبرة صارمة أعلن:
- « معذرة لمقاطعة سيدي، لكن ميعاد حمامه اليومي قد حان.. »
في استسلام مُرهق نهض (سكروج):
- « هذا صحيح.. إن كل هذه الأعباء على كاهلى تجعل الحياة معقدة.. عجوز مثلي يجب أن ينعم ببعض الاسترخاء.. »
ودون لياقة انتزع ثيابه ليرتدي (برنس) الاستحمام، وهو ما لم تجده (عبير) مخجلًا إلى هذا الحدّ، فالأمر بعد كل شيء يتعلق ببطة لا أكثر!
- « تعالوا معي نتكلم في الحمام.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن جاذبية شخصيات (ديزنى) تنبع من كونها تجريدية مطلقة أكثر من اللازم، لهذا نجد أن (سكروج) ثرى بخيل.. كيف يمكن التعبير عن ثريّ بخيل بطريقة أفضل من هذه؟ إن العجوز يملك خزانة هائلة ارتفاعها مئات الأمتار ملأها بقطع العملة، وهو يعرف موضع كل قرش وكل مليم في هذه الخزانة، ويقضي وقته في تلميع قطع العملة وعدّها وتنظيفها وتخليلها وطهوها وتصنيفها وشمِّها..
أما عن حمامه اليومي فبسيط جدًّا..
إنه يثب إلى الخزانة من فوق منطّ، ليغطس وسط قطع العملة ويسبح.. صورة ساخرة لكنها معبّرة جدًّا، وبليغة جدًّا.. وتناسب فكرتنا الطفولية القديمة عن الثراء.. غرفة كبيرة جدًّا مليئة بقطع العملة والأوراق المالية..
فرغ العجوز من حمامه العجيب، فارتقى درجات سلم تشبه تلك الموجودة في حمامات السباحة، وجفف جسده ثم ارتدي ثيابه لاهثًا..
كان (دونالد) في أسوأ حال من الذعر، يرتجف كورقة:
- « إنهم يريدون قتلى يا عم (سكروج).. »
في برود تساءل (سكروج):
- « هم؟ من هم؟ »
- « لا أعرف.. لكنهم يريدون قتلى.. هذا يكفي لتعرفهم! »

- « لهذا تجد أن ما أطلبه منك لذو ميزتين.. أولًا: الفرار بعيدًا عن كل هؤلاء الراغبين في قتلك. ثانيًا: النجاة من أنيابي.. إن الراغبين في قتلك سيزدادون واحدًا ما لم تفعل كما آمرك! »
نظرت (عبير) إلى الأطفال الثلاثة (هيوى) و(ديوى) و(لوي)، وكانت تذكر من المجلات التي قرأتها أنهم يمثلون عنصر التعقل والحكمة الوحيد في عالم البط هذا.. للمرة الأولى في القصص المصوّرة يتصرف الكبار بحماقة وتخبط بينما يعرف الأطفال جيدًا ما ينبغي عمله، وهم يستعملون شيئًا كليّ المعرفة اسمه (دليل الكشافة) هو مزيج من دائرة المعارف وكتاب (نيكرو مونيكون) الذي يحوي أسرار الكون في قصص (لافكرافت)..
الخلاصة هى أنه ما من سؤال فى العالم لا توجد إجابته في دليل الكشافة هذا..
سألتهم (عبير) همسًا:
- « ما الذي يريده العم من (دونالد)؟ »
- « لا شيء.. فقط يطالبه بطرد الأشباح من قلعة أجداده في (أسكتلندا) والعثور على كنز عتيق! »
- « وما هو المقابل؟ »
- « لا شيء.. إن العم (دونالد) مدين بعشرة قروش لـ (سكروج).. وهذا كاف كى يمتلك روحه! »
الواقع أن (سكروج) هو دراسة بارعة لشخصيات البخلاء في الأدب والتاريخ، وبه لمسات قوية من (شايلوك) تاجر البندقية اليهودي، ولربما ازداد ثراءً لو أن (ديزنى) قرأ (البخلاء) للجاحظ..
لم يكن (سكروج) من أبناء (ديزنى) الأصليين، بل هو وليد عبقرية الفنان (كارل باركس) الذي ابتكر الشخصية وكتب لها ورسمها، وقدمها عام 1947 للمرة الأولى في قصة مصوّرة هي (كريسماس على هضبة الدببة)..
وتدريجيًّا بدأت النواحي فائقة السحر للشخصية تتبلور.. وفي كل قصة كان القراء يعرفون شيئًا جديدًا عن (سكروج): أجداده.. قرش الحظ الذي كان أول ما كسب في حياته.. شبابه الذي أفناه في التنقيب عن الذهب.. خزانته التي رآها القراء أول مرة عام 1951..
وسرعان ما عثر (ديزنى) - النهم في البحث عن المواهب الجديدة - على (كارل باركس)، وضمه إلى عالمه مع سواه من الرسامين البارعين من عينة (أوب أيوركس) الهولندي العبقري و(رومانو سكاربا) و(جلادستون).. ونحن نسمع بأسمائهم للمرة الأولى، لكننا رأينا رسومهم مرارًا، وفي كل مرة نحسب أن (والت ديزنى) هو المبدع العظيم..
ومع شركة (ديزنى) استطاع العم (سكروج) أن يمثل فيلمه الأول للسينما، وكان هذا في عام 19 لقد صار (سكروج) من أعلام (داك فيل) وجزءًا لا يمكن تجزئته عن عالم (ديزنى).. وقد جاء ليبقى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

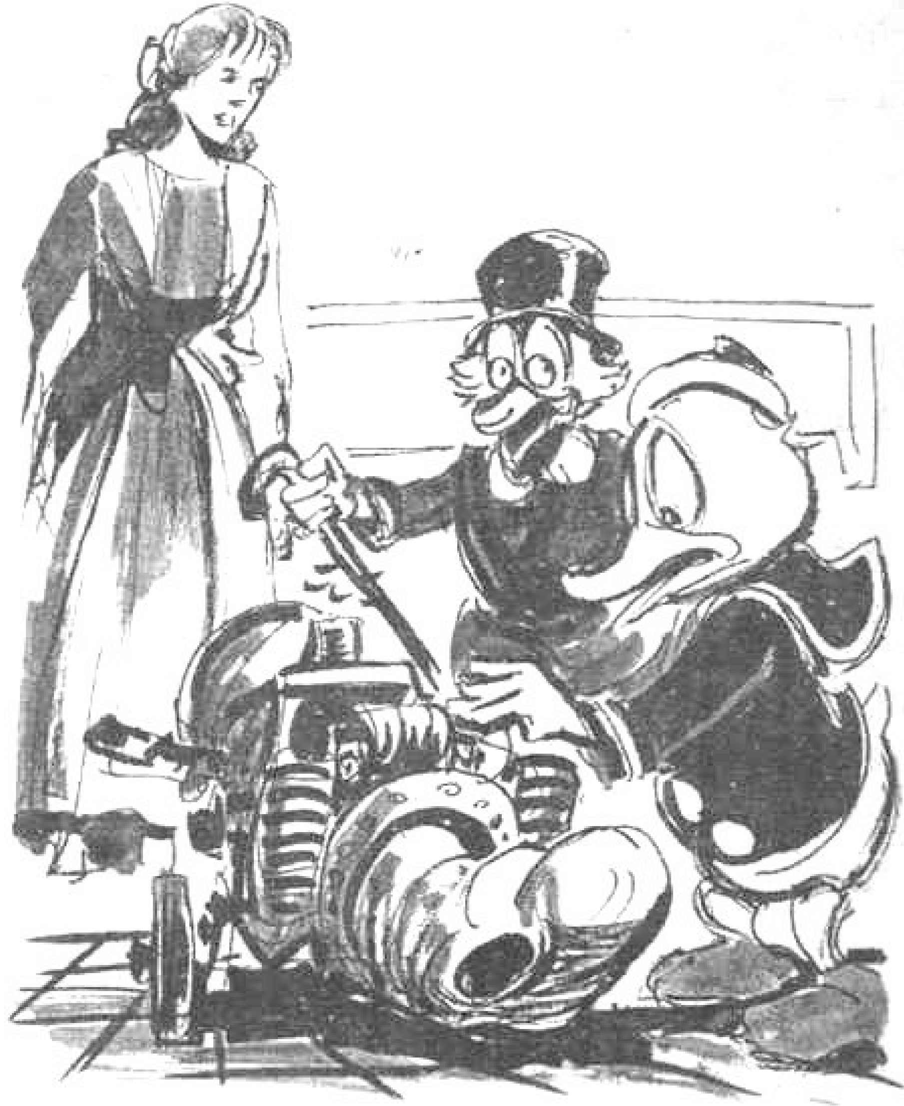
قال (سكروج) وهو يحيط بذراعه كتف ابن أخيه:
- « كما ترى يا ابن أخي، قد حان وقت الرحيل إلى (أسكتلندا).. فعلى الأقل لن تجد قتلة هناك.. »
- « ليكن.. ولكن كيف أطرد أشباح القلعة؟ »
- « هذا سهل.. في البداية سيكون علينا أن نزور (جيو) في معمله.. »
وفي سرّها تساءلت (عبير): (جيو)؟ من هو (جيو)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - عند (جيو)..

التجريد دائمًا.. التجريد..
فكما يمثل (سكروج) الثراء المطلق، وتمثل (ديزى) الأنوثة المطلقة، يمثل (جيو) العبقرية المطلقة.. إنه مخترع له رأس أصلع يحيطه بشعر مستعار عجيب الشكل، يعيش في بيت خرب مزدحم بالأوراق والاختراعات غير المكتملة.. ولديه حلّ عاجل في مدى خمس دقائق لأية مشكلة إنسانية أو بيطرية..
فما إن رأته (عبير) وهو يفتح باب داره، حتى تذكّرت اسمه العربي على الفور: (عبقرينو).
كان الموكب رهيبًا يتكون من (سكروج) شخصيًّا، وقبعته السوداء العالية على رأسه والعصا في يده، و(دونالد) المذعور، والأطفال المتشككين، وهي نفسها.. وكان تأثير هذا على (جَيو) مرعبًا..
دعاهم إلى الدخول، فصدعوا بالأمر، وراحوا يتحاشون الأشياء المبعثرة على الأرض، وحيوانه الأليف الصغير، الذي هو عبارة عن لعبة إليكترونية على شكل إنسان، وإن حمل مصباحًا بدلًا من الرأس.
- « أ.. مرحبًا يا سيد (سكروج) في معملى ى ى! »
كان (سكروج) صارمًا، وعلى جبينه تقطيبة تنذر بالويل.. هكذا يكون رجال الأعمال الناجحين عديمى الشفقة..
- « دعنا من المجاملات السخيفة وقل لي: إلام وصلت في جهاز طرد الأشباح الأسكتلندية؟ »
- « وصلت لنتائج رائعة.. يا سيدي سترى حالًا.. »
ووثب وثبًا ليعبث في كومة هائلة من المهملات، والاختراعات التي لم تتم، أو تمت ونسي الغرض منها..
في النهاية يخرج جهازًا معقدًا من تلك التي نراها دومًا في معمله.. شاشة وجهاز أشعة وذراع معدنية ترتدي القفاز، وحذاء مثقوب ورجل أرنب، ونفير سيارة قديمة.. كل هذا في كيان واحد..
يقول (سكروج) في اهتمام:
- « يبدو فعّالًا.. ولكن كيف يعمل؟ »
أحضر (جيو) قفصًا مليئًا بالأشباح الخضراء المكشرة عن أنيابها، ووضعه أمام الجهاز، وتراجع في حذر حتى وقف وراء الفوهة الواسعة، وضغط زرًّا.
على شاشة صغيرة ظهرت قائمة عليه الاختيار منها: الأشباح الجوَّالة.. الأشباح الأسكتلندية.. العفاريت.. إلخ.
اختار الأشباح الأسكتلندية وضغط الزرّ، وعلى الفور بدأت أعنف ضوضاء يمكن وصفها، وتطايرت مسامير الجهاز في كل صوب، وتصاعد دخان أسود كثيف..
وبعد دقيقة واحدة كان القفص خاليًا من الأشباح الخضراء وغير الخضراء..
- « تجربة مقنعة حقًّا.. هذه الضوضاء كان بوسعها طرد أرواحنا ذاتها، ولكن هل تستعمل الليزر؟ »
- « بل أستعمل الثوم.. إنه صالح لطرد مصاصى الدماء، فلا بد أنه يصلح هنا! »
أشار (سكروج) إلى (دونالد):
- « هل فهمت كيفية عمله؟.. أنا لن أسمح بأخطاء.. »
تأمل (دونالد) الجهاز في رهبة:

- « لا بأس.. كل الأجهزة التي تعمل بضغطة زرّ لا تخيفني.. »
ثم إن (سكروج) أشار إلى (جيو) كي يواصل تقديمه:
- « وأين جهاز الكشف عن الكنوز؟ »
- « إنه الجهاز ذاته يا سيدي.. لقد صارت الأجهزة أميل إلى الشمولية وتعدد الأغراض.. »
وأدار الجهاز ليصوّب ناحيته الأخرى نحو (دونالد)..
- « والآن نضغط هذا الزرّ.. »
وضغط زرًّا رسمت عليه علامة الدولار.. الفور راح الجهاز الكاريكاتوري يهدر، وبرز له أنف عملاق يتشمم هناك.. وهناك: سنيف سنيف! وعلى الفور راح يركض فوق القدمين بحذائهما المثقوب، وامتدت اليدّ ذات القفاز في جيب (دونالد) الصارخ المولول لتخرج حاملة قطعة عملة..



على الفور راح الجهاز الكاريكاتورى يهدر ،
وبرز له أنف عملاق يتشمم هناك . .

في حنان تأملها (سكروج) ثم دسها في جيبه:
- « هذا المخادع المنحلّ كان يحمل عشرين قرشًا، وبرغم هذا يأبي تسديد ديونه.. »
صاح (دونالد) وهو يستجمع أنفاسه:
- « حسن.. قد استرددت ديونك أيها العجوز.. يمكنني الرحيل إلى داري إذن.. »
- « كما تشاء.. إن القتلة سينعمون بفكرتك هذه، وأنا كذلك! »
قالها وهو يدوّن بقلمه الحبر شيئًا في لفافة ورقية عملاقة..
- « ماذا تفعل؟ »
- « أشطب اسمك من وصيتى طبعًا! »
- « كلاااااااااا! لا تفعل! سأذهب إلى القطب الشمالي لو أردت.. ولسوف أنظف فراء الدببة من

البراغيث..»
تأمله (سكروج) في صرامة بضع دقائق حتي خلع مفاصله، ثم استدار إلى (جيو) يسأله سؤالًا جديدًا:
- « لسوف أسافر مع هذا الأحمق.. لكني أريد الاطمئنان على أموالى.. أكره فكرة تركها لـ (بيجل بويز).. ما رأيك يا (جيو)؟ هل قمت بالجزء الثالث من العمل؟ »
فرك (جيو) كفيه في مرح:
- « طبعًا يا سيدي.. ولكن يمكنك الاطمئنان أولًا إلى أنهم في السجن الآن.. ها هي ذي عدسة القمر الصناعي تريك سجن (داك فيل)..
وضغط على زرّ جهاز تلفزيون أمامه، فظهر على الشاشة أربعة مساجين هم من تعرفتهم (عبير) على الفور: عصابة القناع الأسود كما نسميها في (مصر).. أربعة لصوص متشابهون تمامًا، كلهم يملكون لحية نصف نامية، وقناعًا أسود على العينين لا يمكن انتزاعه أبدًا، ولا يمكن التفرقة بينهم إلا برقم على صدر كل منهم.. إنهم الرعب الأبدي لـ (سكروج) ومصدر التهديد الدائم لثروته.. الكارثة أنهم أذكياء مثابرون، والكارثة أنهم لا يفعلون شيئًا في الحياة سوى محاولة سرقته كأنه المصدر الوحيد للمال في العالم..
كانوا في الزنزانة على شاشة التلفزيون، يتسلون جميعًا بمضغ أعواد القش بين أسنانهم.. إنهم أشرار لكنهم ظرفاء ككل شيء في عالم (ديزنى) حيث الشر ليس بهذه الدرجة من الشرّ.. إن قواعد (ديزني) التي استنها لها قوة القانون: الشر ليس مخيفًا، لكنه كريه بما يكفي.. لا يوجد موت.. لا يوجد قتل.. كل الجمادات حية، لها مشاعر ولغة خاصة بها.. ومن يومها ألفنا منظر البطل الذي يهوى من علٍ على الأسفلت فيتحول إلى ما يشبه الورقة، ثم ينهض متمالكًا نفسه شاعرًا بدوار بسيط.. طلقات الرصاص تخترق صدر القط فيتحول إلى غربال، ويخرج الشراب من بطنه كالدوش، لكنه لا يموت..
نعود لقصتنا آسفين على هذه الاستطرادات التي لا تنتهي..
تأمل (سكروج) منظر العصابة على الشاشة مدققًا، وقرب العوينات من عينيه أكثر كأنما يرتاب.. ثم هزّ رأسه:
- « لا بأس.. أنا متأكد من أنهم في السجن (الآن).. فماذا عنهم بعد أيام؟ »
في اللحظة التالية رأت (عبير) (سكروج) آخر يدخل الغرفة.. هو (سكروج) في كل شيء ما عدا بعض التصلب والحركة المتخشبية، تلك الحركة التي أدركت على الفور سببها حين بدأ الدخان يتصاعد من أنفه وشرر كهربى ينبعث من أذنيه..
- « (جيو)! أنت لم تفعل كما طلبت! »
صاح (جيو) في رعب، وهو يفتح ظهر (سكروج) الآلى ليعالج بعض الأسلاك:
- « بل هو متقن الأداء يا سيدي.. كل ما هناك هو أنني قمت بتوصيل الدائرة (116 - ب) مع الدائرة (127 - د) على التوازي، وهذا من شأنه إحداث ماس كهربي.. »
- « لن يكون محببًا أن يتكرر هذا وهو في خزانتي!»
- « لن يتكرر.. إن الأخطاء تحدث على كلّ حال..»
كان إنسانًا آليًّا متقن الصنع، قادرًا على خداع الحمقى، والعالم مليء بالحمقى من دون شك..
دنا منه (سكروج) وفي شك سأله:
- « سيد (سكروج).. هلا أقرضتني جنيهًا للأعمال الخيرية؟ »
دون تردّد أجاب (سكروج) الآلى:

- « بالتأكيد يا سيدي.. »
كان هذا أقوى مما يحتمل (سكروج).. طار في الهواء وانفجر غضبًا:
- « هل جننت يا أحمق؟! أنت تقودني إلى الخراب العاجل! »
من جديد عاد (جيو) يعالج الدوائر الكهربية بيدين ترتجفان:
- « هذا سهل.. سأقلل الجهد الكهربي في دائرة (11- ز) حتى يكون النموذج أقل كرمًا وأكثر شحًّا! »
- « أريده أن يكون وغدًا عجوزًا مثلي! »
- « لك هذا يا سيدي لو أن ذلك ممكن.. »
وفي النهاية، دنا (سكروج) من نموذجه وكرّر طلبه.. هذه المرّة انفجر النموذج غضبًا حتى طارت قبعة (سكروج) الأصلي:
- « من تحسبني أيها المتلاف؟ مدير مصلحة سك العملة؟! »
- « لا بأس.. إنني أحب طريقته.. »
في الوقت ذاته كان أحد الأطفال - لعله (هيوي) - يرمق الشاشة في اهتمام، حيث ظهر رجال العصابة أو (بيجل بويز)..
بعد قليل قال:
- « عم (دونالد).. ثمة شيء غريب هنا.. رجال العصابة لم يغيروا وضعهم أو يتبادلوا كلمة منذ نصف الساعة.. »
قال (دونالد) فى لا مبالاة وهو يغلق زرّ التلفزيون:
- « هراء.. كل المساجين قليلوا الكلام.. »
- « ولكن...... »
- « دعنا لا نضيع وقتنا في تفاهات الأطفال هذه.. »
ولو انتظر (دونالد) - المغرور الأحمق كعادته - بضع ثوان، لاستطاع أن يرى الدخان يتصاعد من مناخر رجال العصابة.. إن الدائرة (116 -ب) لا يجب توصيلها على التوازي مع (127 - د).. هذا هو رأيي الخاص، لكن أحدًا لم يعد يهتم بذلك في الآونة الأخيرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الساعة التالية نقلوا (سكروج) المزيف إلى مكتب العم (سكروج) ليمارس مهام عمله المحددة: لا تعط مالًا لأحد.
وتنكر (سكروج) الأصلي حتى لا ينتشر خبر مغادرته للمدينة، ثم اتجه الجميع إلى المطار، حيث كانت طائرته تهدر مستعدة للتحليق إلى (أسكتلندا) موطن أجداده..
توقعت (عبير) أن يمنعها من مصاحبتهم، لكنه لم يفعل.. هذا طبيعي في (فانتازيا)، لأنها - ببساطة - لو لم تسافر معهم لكانت قصة مملة حقًّا..
والآن تهدر المحركات، وتنطلق الطائرة إلى فصل جديد من القصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - قلعة الجدود..

جوار النافذة ترقب (عبير) المحيط، وتفكر في غرابة مغامرتها هذه..
للمرة الأولى تجابه عالمًا كاريكاتوريًّا بالكامل، له ذات قواعد ومعطيات أفلام الرسوم المتحركة، ومع من؟ مع البطة (دونالد) والعم (سكروج)..
ربما لو كان (ميكى ماوس) هنا أيضًا ل......
لكن الخبر جاء بجهاز اللاسلكي، وأبلغه الطيار للعم (سكروج):
- « لقد أطلق مجهولون الرصاص على (ميكى ماوس)! »
- « يا للهول! وهل مات؟ »
- « يقولون إنه في حالة خطرة.. »
أصابها الذعر.. إذن هناك من يُجرح ويموت في هذا العالم، بل - والأدهى - هناك مجهولون يطلقون الرصاص.. كل ما هربت منه في عالمنا، وكل ما اعتادت سماعه في نشرة أخبار التاسعة، موجود هنا بعنف..
قال لها أحد الصغار - ولعله (لوى) - إذ رأى توترها: - « بالطبع جاء المعتدون من خارج عالم (ديزنى)..»
- « ومن الذي يخطر له قتل (ميكى ماوس)؟ إنه رمز عالمي للمرح والبراءة، وليس له أعداء أبدًا.. مثله مثل (سندريللا) و (شارلي شابلن)! »
- « أنت مخطئة.. ف. (سندريللا) كانت زوجة أبيها تكرهها، وكل رجال الشرطة في الأفلام الصامتة يتمنون تهشيم رأس (شابلن)! »
- « لا أفهم.. »
- « أريد القول إن كل إنسان له أعداء.. وكل شيء جميل لا بد أن يوجد من يتمنى تشويهه.. »
- « ولكن من يتمنى تشويه (ميكى ماوس)؟ »
قال الصبي الذي لعله (ديوى):
- « لقد ولد (ميكى) عام 1928.. ومن يومها صار أشهر فأر في التاريخ، ورمزًا للثقافة الأمريكية لدى الشعوب.. لقد صار (ميكى) و(الكولا) و(الهامبرجر) رموز العصر، ورموز (أمريكا) في أي بلد..
« تدريجيًّا انحسر التأثير البريطاني والفرنسى.. وحل (الهامبرجر) محل (شاي الساعة الخامسة)، وحلّ الأسطول السادس محل (أسطول صاحبة الجلالة)..
« كان الفيل (بابار) رمز الثقافة الفرنسية، وكان (تان تان) رمز الثقافة البلجيكية، و(طرزان) رمز الثقافة الإنجليزية.. سرعان ما تراجع هؤلاء أمام الضربات القوية ل. (سوبرمان) و(باتمان)، ثم وجه لهم الضربة القاضية فأر صغير يُدعى (ميكى ماوس)..
« في (فرنسا) اليوم يسمون (ميكى) باسم (ميشيل سورى)، وفي (إيطاليا) يسمونه (توبولينو)، وفي (اليابان) هو (ميكى ماوسو) وفي (فنلندا) هو (ميكى هيرى)، وفي (أسبانيا) (ميجيل رونتسيتو).. لكنه دائمًا أمريكي الطابع أمريكي الثقافة، مهما تكلم بلغة بلدك.. »
« بعض الدول أدركت هذا مبكرًا، ومنعت دخول (ميكى ماوس) نهائيًّا إلى حدودها.. دول أخرى منعت دخول العم (دونالد) واعتبرته عميلًا للمخابرات الأمريكية.. حتى في (مصر) تم منع دخول (سوبرمان) في أوائل السبعينات للأسباب ذاتها.. »

قالت (عبير) وهي تستعيد كلماته:
- « أنت واسع العلم! ألا تجد هذا الكلام أعقد مما يسمح به سنك؟ »
ابتسم في فخر:
- « هكذا صاغ (ديزنى) شخصياتنا.. إننا أكثر حكمة وحصافة من كل الكبار المحيطين بنا.. »
عادت (عبير) تسأله:
- « معنى هذا.. معناه أن من يطاردون عمك (دونالد) هم؟ »
- « هم من أطلقوا الرصاص على (ميكى).. بالضبط.. عملاء دولة يهمهم ألا تنتشر ثقافة (ديزنى) في العالم.. »
- « وأنت تؤيد هذا الرأي؟ »
- « بالطبع لا؛ لأنه يقضي على وجودنا ذاته، لكني أستطيع فهم أسبابهم وأراها وجيهة إلى حدّ ما.. إن (ديزنى) وحش كاسر يفترس كل شيء، ولقد قضى تقريبًا على فن الرسوم المتحركة في (أوربا)، فلم ينهض هذا الفن ثانية إلا عندما ذهب (ديزنى) إلى (أوربا).. المشكلة هي أن فن (ديزنى) محكم جدًّا وجميل جدًّا، بحيث يحرق كل عمل آخر بنيران المقارنة.. »
صفّرت بفمها منبهرة:
- « وووه! ربّاه! الآن فهمت لماذا يطلق أعداؤكم الرصاص.. »
- « الغزو الثقافي.. إنه أقوى بمراحل من الغزو العسكري، ولا ألوم من يتنبه إلى هذا الخطر.. لكني ألوم من يحاول قتلنا! »
ومن نافذة الطائرة، ترى (عبير) مرتفعات (أسكتلندا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما في القصص المصورة، لا يوجد في (أسكتلندا) إلا قلاع غامضة، وكل القلاع الغامضة تملؤها الأشباح، وكل القلاع تقود لها طرق جبلية متعرجة شديدة الخطر.. هذه هي القواعد، ومن نحن حتى نشذّ عن القواعد؟
السيارة بحمولتها من أشخاص وحقائب تشق طريقها بمعجزة ما عبر طريق جبلى خطر.. ومن شدة تعرجه يخيل لـ (عبير) في كل لحظة أن القلعة دانية، لكنها ما زالت بعيدة كالقمر..
في افتتان يهتف العم (سكروج):
- « قلعة أجدادي! التي ابتناها السير (أرشيبالد ماك داك) في عام 1337! كان رجلًا عظيمًا! »
سأله (دونالد) وهو يرتجف هلعًا وتوجسًا:
- « هل كان بخيلًا؟ »
- « هو؟ إنه المادة الخام للبخل.. يقولون إنه بتر قدميه حتى لا يضطر إلى شراء أحذية، وإنه مات متجمدًا في شهر (ديسمبر) لأنه لم يشتر وقودًا للنيران بالمدفأة.. لقد كان رجلًا نادر الطراز! »
دارى الأولاد ضحكتهم، وتبادلوا غمزات العيون، على حين سألت (عبير) عجوزنا البخيل:
- « لا بد أنه كان كنزًا عظيمًا.. »
- « ليس ما أبحث عنه كنز (أرشيبالد ماك داك)، بل كنز الملك.. لقد كان الملك ذاهبًا لقتال أعدائه، وخشي أن يترك أمواله تحت رحمة السارقين، لذا نقل حمولة عشرة بغال من الذهب إلى هذه القلعة، وأوصى جدّى البخيل بأن يواريه في مكان آمن.. كان يعرف أنه لا أحد يفوقه في فن إخفاء الأموال.. »

« وانتهت الحرب بوفاة ملك (أسكتلندا)، ثم تجمّد جدّي من البرد في العام نفسه.. وهكذا تجمّد السرّ معه.. »
« لقد حاول وريث جدّى مع الملك الجديد العثور على الكنز مرارًا، ولم يتركوا حجرًا على حجر، بلا جدوى.. لم يجد الكنز أحد منذ عام 1337 حتى هذه اللحظة.. وكانت النتيجة الطبيعية هي اتهام جدّى المرحوم بتبديد الكنز، ولاحقت التهمة المشينة ورثته لعدة أجيال، وظل العار يلطخ اسم (ماك داك).. »
ثم أصلح من وضع قبعته، وبكبرياء قال:
- « ليس ما يضايقني هو اتهامنا بالسرقة، لكن اتهامنا بالتبذير! قد أبتلع التهمة الأولى بشىء من المرارة، لكني لا أتحمّل الثانية أبدًا! »
ابتسموا بجوانب أفواههم، وقد خشوا أن يظهروا استمتاعهم، فأردف:
- « منذ عشرين عامًا حاول عمى السير (جيفرى ماك داك) أن يجد الكنز باستعمال الأشعة السينية.. لكنه منى بالفشل، والأدهى أنه أدرك أن القصر يعجّ بالأشباح.. وقد توقف قلبه من الفزع.. لكن آخر ما قاله هو: (أخبروا العجوز المنحط في « داك – فيل » أن شرف الأسرة أمانة في عنقه).. ثم مات بالطبع.. هذه عادة المحتضرين أن يقولوا آخر كلماتهم، ثم يموتون دون مزيد من التفسيرات.. »
منحنى خطر آخر.. ما دامت السيارة لم تسقط فيه.. فلن تسقط أبدًا..
هنا تساءل (دونالد):
- « إذن كرامة الأسرة هي سبب قدومنا؟ »
- « كن عمليًّا يا (دونالد).. إن كرامة أسرتنا لا تكفي لسداد نفقات الرحلة، لكني قد تأكّدت قانونيًّا من أن حقوق الكنز قد سقطت بالتقادم، وهو ملك من يجده الآن.. وأنا طبعًا سأجده! »
- « وما دوري في كل هذا؟ »
- « أنت آخر فرد في سلالة (ماك داك) العظيمة.. ألا تثير كرامة الأسرة حماسك؟ »
« بلى.. ولكنى.. خائف بعض الشيء كما تعلم.. »
- « البط لا يخاف، خاصة حين يتعلق الأمر بالنقود! »
هنا كانت السيارة تنحدر في طريق ممهد نوعًا نحو القلعة الرهيبة الملأى بالعناكب والفئران والأشباح والآمال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و(أندرو) يقف على الباب بانتظارهم..
إن (أندرو) خادم مناسب جدًّا لهذا النوع من القصور.. كئيب أشيب الشعر مجعَّده، يرتدي (الكلتية) الأسكتلندية ذات القماش الكاروهات إياه، وعلى رأسه كاسكيت خلعه بالطبع لدى رؤية سيد القلعة الجديد، وهو - ككل خدم القصور - بارد جدًّا وقور جدًّا، لا يمكن لشيء أن يجعله يقهقه أو يصرخ..
- « سيدى.. لقد وصلتني برقيتك.. »
وبدأ يرفع الحقائب عن ظهر السيارة ويدخلها..
قالت (عبير) وهي ترتجف رعبًا وبردًا:
- « بررررر! لو لم يكن (دراكيولا) يعيش هنا لكنت حمقاء.. »
قال (سكروج) ملوّحًا بعصاه:

- « لا تخافي يا فتاة.. إن الأشباح الأسكتلندية لا تفعل شيئًا سوى إطلاق الصراخ والظهور في الممرات المظلمة! »
- « حقًّا؟ ولماذا مات آخر وريث للأسرة؟ »
- « مات رعبًا.. المشكلة الوحيدة هي أن شبحه انضم سريعًا لمجموعة الأشباح هاهنا! لقد صارت هذه القلعة مزدحمة حقًّا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- دعونا نجده!

كانت للقلعة ذات المزايا والعيوب التي تجدها في أية قلعة أسكتلندية أخرى.. المساحات الهائلة.. الظلام.. الأنفاق التحتية الغامضة.. الفئران.. الرطوبة.. خيوط العنكبوت.. و.. بالطبع بالطبع الأشباح..

والآن تجتاز أسرة البط و(عبير) دهليزًا طويلًا رطبًا، على جانبيه الدروع المعدنية التي كان الأجداد يلبسونها.

بالطبع كان للدروع والخوذات تصميم خاص يناسب البطّ..

الخادم الوقور ثقيل الظلّ (أندرو) يتقدمهم حاملًا شمعدانًا، فينبعث النور في دائرة صغيرة كئيبة متحركة، ويزيد هذا الظلال سوءًا، حتى بدا كأن الجدار كله أشباح تتحفّز وتتراقص..

تساءلت (عبير) مرتجفة وهي تجدّ السير حتى لا تتأخر:

- « ما سبب استعمال الشموع هنا؟ نحن في عصر الكهرباء، إلا لو كان المطلوب إضفاء جو مخيف على المكان.. »

في استمتاع قال (سكروج):

- « لا سبب سوى أن هذا قصر أجدادي.. وهم حثالة البخلاء في تاريخ أسكتلندا.. لو وافق أحدهم على دفع فاتورة الكهرباء لما استحق اسم (ماك داك).. »

ومدّ عصاه يقرع على صدر بذلة معدنية لفارس مدرع يقف على جانب الدهليز، وفي اللحظة التالية تهاوت أجزاء البذلة إلى الأرض محدثة دويًا هائلًا، وراحت الفئران تتواثب من حيث لم يرها أحد..



ومدّ عصاه يقرع على صدر بذلة معدنية لفارس مدرّع يقف على جانب الدهليز . .

الغريب أن (أندرو) لم يلتفت للوراء قط..
قال (أندرو) وهو يواصل المسيرة:
- « يمكن لسيدي في أية لحظة أن ينزل إلى القبو لزيارة مقابر جدود سيدي.. إنها فرصة جيدة للاستمتاع! »
طار شعر (دونالد) - أو ريشه - في الهواء ذعرًا، وتساءل:
- « مق..؟ هل هم مدفونون هنا؟ »
- « طبعًا يا سيدي.. كلهم في القبو منذ عام 1317 وهم موضوعون على رفوف حجرية منحوتة في الجدار، وقد تم ترتيبهم حسب عام الوفاة.. لقد كان هذا مجهودًا عظيمًا قمت به وحدي في

العامين الماضين! »
اقشعر (دونالد)، وزحف الثلج على عموده الفقري كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة، أما (عبير) فلم تر الأمر مرعبًا إلى هذا الحدّ.. إنها عظام وبقايا بط على كل حال، كالتي كانت تلقيها للدجاج على سطح دارها في عالم الواقع قبل أن تتزوج..
سأل (سكروج) الخادم، وقد بدا أنه مستمتع بكل هذا:
- « وأين سنقضي نحن ليلتنا؟ »
أجاب الخادم وهو يشير إلى الحجرات على الجانبين:
- « هذه هي حجرات نوم أسرة سيدي.. »
وبدأ يشرح بمزيد من التفصيل:
- « في هذه الحجرة توفي السير (أرشيبالد ماك داك) متجمدًا.. أما هذه الغرفة فقد توفي فيها السير (أندرو ماك داك) وهو يصرخ هلعًا ولم يفهم أحد سر هلعه.. أما هذه الغرفة فقد شنق فيها السير (آرثر ماك داك) نفسه، لأنه لم يعد يتحمل كل ما يراه من رؤى.. هذه الغرفة وجد فيها السير (ماك داك ماك داك) وقد التوى عنقه للوراء بطريقة عجيبة.. أما هذه الغرفة..... »
وأخذ شهيقًا عميقًا يستجمع به أنفاسه:
- «.. فسوف تنام بها يا سيدى! »
بدا السرور على (سكروج):
- « هذا جميل.. أنا أحب الأماكن التي تعبق برائحة التاريخ! »
صاح (دونالد) وهو يجدّ الركض نحو الاتجاه العكسى:
- « أما أنا فلا أحبها! هذا المكان يعبق برائحة الجثث ولا شيء آخر! »
أوقفه عكاز (سكروج) إذ التف حول عنقه، وفي اشمئزاز قال العجوز:
- « لا تكن أحمق يا (دونالد)! هذه القلعة تعود للقرن الرابع عشر، فلابد أن جدرانها شهدت وفاة اثني عشر جيلًا على الأقل.. هذا طبيعى.. »
أشار الخادم إلى غرفة أخرى:
- « هذه الغرفة تناسب الآنسة، فقد أحبتها الليدى (ماك داك) من أجل ستائرها الأرجوانية، وقد وجدوها ميتة وراء الستائر ذاتها عام 1747.. لكنها كانت تبتسم! »
وهكذا تمّ تقسيم المجموعة إلى قسمين: البطّ في الغرفة الأولى، والفتاة في الغرفة الثانية..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا دخلت (عبير) غرفتها ذات الستائر الأرجوانية، والتي تعبق برائحة الليدي (ماك داك)، قبل أن تموت مبتسمة..
لقد أخبرها الخادم أن الغرفة لم فتح منذ عام 1747، ومنذ وجدت الليدي ميتة فيها، ولنا أن نتوقع أن هذا لم يزد الأمور بهجة..
أفرغت حقائبها في الخزانة الكبيرة على ضوء الشموع، وارتدت ثيابًا خفيفة تستعد بها للعشاء..
ثم اختلست نظرة للفراش.. كل هذه القصور لها أسرة ذات أعمدة نحاسية تحيط بها الستائر..
وهذا يجعل السؤال دائمًا: ما الذي يمكن أن نراه لو أزحنا هذه الستائر؟!
في الواقع هي لم تحبّ أن تجرب، وشعرت بحسد للبط الذي سيتزاحم حتمًا في غرفة واحدة، وتمنت لو لم تكن فتاة..
كانت عاكفة على تأمل الشمعة التي تحركت بضعة سنتيمترات إلى اليمين.. بالتأكيد تحركت؛ لأن بقايا الشمع على الخوان تشي بموضع الشمعة السابق.

ما معنى هذا؟ معناه - ببساطة - أن القصر مسكون حقًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مائدة الطعام تمتدّ إلى ما لا نهاية، وقد تراصت عليها الصحاف الفضية والشمعدانات وأدوات المائدة، ثم دخل (أندرو) القاعة حاملًا إناء مغطى.. وبوقار غير مفتعل وضعه على المائدة وكشفه.. وبالطبع لم يكن ما فيه سوى أربع أو خمس شطائر من الجبن..

- « كل هذا من أجل خمس شطائر من الجبن؟ »

كذا تساءل (دونالد) في خيبة أمل:

- « هي تقاليد القصر يا سيدى.. وكذا تربّي أجداد أجداد أجدادي.. أحيانًا نضيف البيض يوم الأحد! »

قال (سكروج) في استمتاع وهو يقضم شطيرته:

- « هكذا يكون البخل وإلا فلا.. لقد عاش أجدادى حياة البعوض وإنني لفخور بانتمائي لهم.. »

فرغت (عبير) من شطيرتها بعد قضمتين، فراحت في تعاسة تبحث عن شيء آخر يؤكل.. طبعًا لا يوجد..

تساءل (هيوي) الصغير:

- « هل من أخبار عن (ميكى ماوس)؟ »

- « لا أخبار.. لكنه لم يمت غالبًا.. »

- « وما هي خطة عملنا هنا؟ »

قال (سكروج) وهو يلتقط الفُتَات المتناثر في طبقه:

- « بعد العشاء ننزل إلى المقبرة ونبدأ طرد الأشباح.. »

- « هل هذا شيء لا يمكن عمله صباحًا؟ »

- « أفضل وقت لطرد الأشباح هو وقت خروجها.. »

ثم رفع عينًا حازمة نحو (دونالد):

- « مستعد يا بن أخي؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 - طاردوا الأشباح..

حاملين الشموع يتقدم الجميع نحو القبو..
يهبطون مئات الدرجات الصخرية المهشمة، فى درج عمودى بلا حواجز على الجانبين، ويرتجفون..
وثب فأر عملاق من مكان ما، فجرى فوق قدم (عبير) التي فعلت ما تفعله أية أنثى يركض على قدمها فأر: صرخت وولولت، وكادت توقعهم جميعًا..
قال لها (سكروج) محنقًا:
- « نحن لا نخاف الفئران ها هنا في عالم (ديزنى)!»
وأضاف (ديوى):
- « يقول (ديزنى).. لقد بدأ كل شيء بفأر! كان رسامًا مغمورًا في (أركنساس) يجلس في مرآب بحثًا عن فكرة، حين رأى فأرًا صغيرًا يتسلل، وخطر له أن يرسمه.. فيما بعد اقترحت زوجته (ليليان) أن يسمى الفأر باسم (مورتيمر)، لكن (ديزنى) قرر أن يسميه باسم (ميكى).. وكانت هذه هي بداية عالم كامل من العبقرية.. »
قالت (عبير) في ضيق:
- « ربما.. لكن هذا لن يجعلني أهيم بالفئران حبًا.. »
- « الفئران أفضل من الأشباح على كل حال.. »
لا بد أنهم نزلوا مائة درجة أو أكثر، حتى شعرت (عبير) بأنهم في مركز الأرض حتمًا، حين انتهت الرحلة بقبو هائل الحجم مظلم كالقبر.. ربما لأنه بالفعل قبر..
على الجدران توجد أرفف حجرية، وعلى كل رفّ تابوت خشبي عليه اسم الراقد فيه للأبد..
شهق (سكروج).. وقد بدأ الرعب يتسلل إلى نفسه، ثم أمر (دونالد) أن يستعد..
كان (دونالد) يحمل الجهاز المضحك، وقد وجه فوهته نحو التوابيت على الجدران، وبيد ترتجف اختار (الأشباح الأسكتلندية) ثم ضغط الزرّ، وسرعان ما بدأت الضوضاء..
- « انظروا هناك! »
كان هناك شبحان لهما لون أزرق جميل، يتواثبان محاولين الفرار، وقد سدّا أذنيهما من فرط الجلبة..
- « جرّب هذا الركن يا (دونالد).. »
سلّط (دونالد) جهازه نحو ركن يحوي كومة من صناديق خشبية مهشمة، وسرعان ما حلّقت ثلاثة أشباح مبتعدة وهى تصرخ كطيور (الهاربى) الإغريقية..
أما المشهد الأكثر إفزاعًا فهو الجدار الأزرق الذي كانوا يقفون جواره..
لقد دبت فيه الحياة فجأة.. فإذا هو مجموعة من الأشباح المتلاحمة التي فردت أجنحتها وحلقت هاربة..
- « إن المكان يعجّ بهم! »
وكان (دونالد) قد بدأ يستمتع بالمهمة، فصوّب بضع طلقات إلى السقف الخشبي العتيق.. لكن هذا جعل الغبار يتساقط بوفرة..
بعد دقائق بات واضحًا أن القبو قد صار نظيفًا..
قال (سكروج).. وهو يشعل شمعة أخرى:

- « الآن نمشط القصر بانتظام.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راحوا يواصلون المهمة في ردهات القصر وغرفه، وقد استغرقت العملية عدة ساعات، حتى بدا أن الشبح الوحيد الذي قد يوجد هنا هو شبح أصمّ..
قال (سكروج) في رضا:
- « لا بأس.. لسوء حظ جدّي لم يكن التقدم التكنولوجي عظيمًا حين قتله الخوف من الأشباح.. »
ونظر إلى ساعته.. كانت الثالثة بعد منتصف الليل.. قال في حماس:
- « حسن.. يمكننا الآن البدء في البحث عن الكنز! »
صاح (دونالد) مذعورًا:
- « عم (سكروج)! ما زالت الحياة ممتدة أمامنا، ولو متنا الليلة فلا حاجة لنا إلى الكنوز! »
وكذا تثاءب الصغار مرهقين، فلم يجد الطاغية العجوز ما يقوله سوى أن يتمنى لهم ليلة طيبة..
وكان (أندرو) يقف بالشمعدان أمام غرفتي النوم المختارتين للمبيت، وكان يتثاءب من طرف فمه تأدبًا..
- « نومًا طيبًا يا سادة.. »
ونظرت (عبير) إلى الجانب لتستوثق من أن البطّ فتحوا غرفتهم، في الآن ذاته الذي فتحت غرفتها فيه.. ثم دلفت إلى الداخل والشمعة في يدها..
وقررت أن تخوض تجربة فريدة من نوعها: تزيح ستائر الفراش، لتنام فيه، بصرف النظر عما يمكن أن تراه هناك.. إنها مُرهَقة وهذا لحسن حظها بعد ليلة الأشباح هذه.. إن المرهقين يخافون بصعوبة..
أزاحت الستائر ونظرت إلى الفراش على ضوء الشمعة..



لكن ما رأته لم يدعها إلى الاطمئنان . . إنها قنبلة !

كلا.. لم تكن هناك مومياء فاتحة عينيها، ولم تكن هناك أفعى غليظة تلتف حول نفسها، ولم يكن - بالتأكيد - كلب أحمر العينين من كلاب جهنم.. لكن ما رأته لم يدعها إلى الاطمئنان..

إنها قنبلة! قنبلة كاريكاتورية من قنابل (ديزنى) السوداء اللامعة التي يشتعل فتيلها.. لكنها قنبلة على كل حال..
كان تفكيرها سريعًا.. حملت القنبلة سريعًا نحو النافذة لتلقيها إلى الخارج.. أزاحت الستائر فقط لتدرك أن النافذة موصدة، وأن عوامل القدم قد عبثت بها عبثًا، حتى صار فتحها مستحيلًا في هذا الوقت الوجيز..
لهذا عادت للفراش ووضعت القنبلة برفق حيث كانت، ثم ركضت على أطراف أصابع قدميها نحو الباب في الوقت المناسب..
في اللحظة التالية دوّى الانفجار المروّع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتشدت أسرة البطّ خارج الغرفة، وهم لا يكفون عن البطبطة، وقد ارتدوا جلابيب النوم.. وامتلأ الممر بالدخان الأسود..
- « هل أنت بخير؟ »
- في الغالب نعم.. »
- « ماذا حدث؟ هل وجدت فأرًا في الغرفة؟ »
- « لا والحمد لله.. لم أجد سوى قنبلة على الفراش..»
هنا جاء (أندرو) من نهاية الممر.. الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، وهو ما زال محتفظًا بوقاره وكبريائه وشمعدانه..
- « هل من خدمة يا سيدى! »
قال (سكروج) في لا مبالاة:
« كانت هناك قنبلة في غرفة الآنسة.. »
- « حسن يا سيدى.. »
- « عليك أن تجد لها غرفة أخرى.. »
- « بالطبع يا سيدى.. »
ثم اتجه في كبرياء إلى غرفة مجاورة للغرفة التي انفجرت، وقال:
- « بالمناسبة يا سيدي، لقد أخطأت الآنسة غرفتها.. ليست هذه هي غرفة الليدي (ماك داك).. »
- « هذا غريب! إذن غرفة من هذه؟ »
- « الغرفة التي كانت بها القنبلة هي غرفتكم يا سيدى.. لقد أخطأ الجميع اختيار غرفهم.. »
ثم فتح الغرفة البديلة، وانهمك في إعدادها لمبيت (عبير)..
قال (سكروج) في غضب، وهو يتأمل الأبواب:
- « ما معنى هذا؟ من الغريب أن نخطئ جميعًا.. وحتى (أندرو) نفسه.. »
قالت (عبير):
- « إن غرف هذه القصور تتشابه.. كلها مرعبة كئيبة على كل حال.. لكن معنى هذا هو أنكم المقصودون بهذه القنبلة! »
- « كاك! »
كذا صاح (دونالد) رعبًا، وابتلع ريقه بصوت مسموع:
- « .. و .. ومن وضعها؟ »
- « لا أدري.. يحتاج الأمر إلى تحقيق طويل من طراز (من فعلها؟).. لكن الفاعل غالبًا هو من أطلق الرصاص على (ميكى ماوس)! »
- « ويلى! »
وهو من الفريق الذي انتظرك بالبنادق الآلية في دارك قبل سفرنا! »
- « ولكن من هو؟ »
قال (سكروج) وهو يدق بطرف عصاه على الحائط:
- « الأمر واضح.. لو كان لدينا مائة مشتبه فيه لكان الأمر عسيرًا، لكننا حاليًا لا نملك سوى (أندرو).. »
- « (أندرو)؟ ولماذا يفعلها؟ »
- « لأن الخادم هو من يفعلها دائمًا في قصص القصور هذه.. »

ثم تثاءب، وأعلن أن أوان النوم قد حان..
دخلت (عبير) غرفتها الجديدة التي تفوح برائحة العطن والقدم، والتي اكتست ستائرها بالغبار كغرفة عُرس الآنسة (هافينشام) في قصة (توقعات عظيمة) ل. (ديكنز)..
لا بأس.. ستنتهي الليلة سريعًا..
في هذه المرة لم تكن على الفراش قنابل، وبدا لها أن ليلة لا بأس بها تنتظرها، حين تغوص في الملاءات ويؤرجحها النعاس..

لكنها صحت من النوم بعد ساعة..
كان هذا لأنها سمعت صوت الخطوات المعدنية بالخارج..

8- مهمة صعبة..

عيب النساء التقليدي هو الفضول..
وكانت (عبير) أنثى، وقليلات هن النساء اللائي يسمعن خطوات معدنية في الردهة، فلا يحملن شمعدانًا ويهرعن لرؤية من هنالك..
كان بالشمعدان بقايا شموع أشعلت اثنتين منها، وهرعت حافية القدمين إلى الباب، واسترقت السمع، وبصوت مبحوح نادت:
- « (أندرو)! أهذا أنت؟ »
بالطبع لا إجابة.. هكذا فتحت الباب بحركة أرادتها مفاجئة..
وعلى ضوء الشموع المتراقص رأته..
كان ذلك الفارس في درعه المعدنى البراق، يحمل سيفًا في يده ويمشي في الردهة بتؤدة مطأطئًا رأسه، محدثًا ضجيجًا يكفي لإقلاق منام أمة من النيام.....
كان يبتعد، لكنها لم تلحق به هذه المرّة..
أغلقت بابها وتوارت تحت الأغطية ترتجف ذعرًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح على مائدة الإفطار كانوا جميعًا مرهقين، لكنها كانت أسوأهم حالًا، وبدا لها أن جفنيها يزنان أطنانًا ويسقطان أميالًا..
- « القصر لم ينظف بعد! »
قالتها لأسرة البطّ حولها، وراحت ترشف القهوة..
- « هذا ليس جديدًا علينا.. »
قالها (سكروج) وأردف:
- « لقد قضينا الليل كله نتساءل عن سر حركة عيني السير (ماك داك) في الصورة المعلقة على الحائط، وعن القدم التي تخرج من المدفأة، وعن صوت السلاسل تحت الفراش.. لكن الإجابة واضحة على كل حال.. إما أن اختراع (جيو) غير فعّال، ويكتفى بطرد الأشباح من مكان إلى آخر، وإما أن هناك من يتلاعب بنا.. »
- « مثل من؟ »
نظر بحقد إلى ركن القاعة، وغمغم:
- « مثل (أندرو) طبعًا.. »
والآن انتهى الإفطار ورشفوا القهوة عديمة المذاق - إن تقاليد الأسرة تحتم ألا يضاف بُنٌّ إلى القهوة إلا على سبيل الرمز - ثم أعلن (سكروج) أن الوقت قد حان للبحث عن الكنز المخبوء..
نهضوا وحمل (دونالد) جهازه الشهير بعد ما قلب اتجاهه، ثم ضغط على زرّ الدولارات، وعلى الفور برز الأنف العملاق الذي لا يكفّ عن الشمّ ويركض نحو المال ركضًا..
- « ابتعدوا! هذا الجهاز جشع حقًّا! »
وراح (دونالد) يركض محاولًا اللحاق بجهازه، ولحق به الخمسة الآخرون جريًا عبر الممرات المعقدة التي يتكون منها القصر..
- « هل نبدأ بالخندق؟ »

- لا تكن أحمق يا (دونالد).. لقد نزحوا هذا الخندق مئات المرات طيلة قرون.. »
- « ماذا عن القبور بالقبو؟ »
- « هذا أول ما يفكر فيه كل أحمق محدود الخيال.. »
- « إذن أين؟ »
- « لا بد من سعة الخيال، وبما أنها تنقصنا فلا مفر من تجربة الجهاز في كل بقعة بالقصر.. »
- « لكن هذا يحتاج إلى قرنين.. »
- « على الأقل ستجد ما تمنحه لورثتك! »
وكذا واصلوا البحث..
كانت هناك بوابة صغيرة تقود إلى ما يشبه الجسر بين برجين أو طابيتين من طوابي القصر..
ووجدوا أنفسهم يدخلون طابية ضيقة، مفتوحة تظهر سماء (أسكتلندا) الغائمة المدلهمة في هذا الصباح الكريه..
راح (دونالد) يسلط جهازه على الأرض الحجرية، على حين خطر ل. (عبير) أن تعود عبر الجسر لتلقى نظرة أخرى إلى المكان الذي كانت فيه..
كان شيء ما يثير ريبتها.. شيء ما لم تدر ما هو.. لكنه يدفعها دفعًا إلى العودة لتفقد المكان..
لقد هطلت الأمطار ليلًا، وسال الماء عبر الجسر الصغير إلى الطابية الأولى، وكان المفترض أن يكون وضع الماء أسوأ.. لكنها تجد أن الماء يتسرب من مكان ما في حجارة الأرضية.. هذا المكان يحوى فتحة ما بالتأكيد.. هذا اكتشاف قيّم لا شك فيه..
- « يا عم (سكروو... »
ولم تجد وقتًا كافيًا لتكمل عبارتها.. لأن بابًا غليظًا انغلق ليعزل الطابية الثانية.. وبالتالي صارت أسرة البط معزولة عن باقي القلعة، أو صارت (عبير) معزولة وحدها في العالم الواسع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعت صوت القرعات على الباب.. صوت عكاز (سكروج) الغاضب.. صوت بطبطة (دونالد)، وصياح الأطفال الرفيع الحادّ.. جرت إلى الباب الغليظ وبحثت عن أي مقبض أو فتحة فيه بلا جدوى.. إنه كبوابة (المتولى) لا يمكن فهم كيفية فتحه..
هنا سمعت الضحكة الساخرة الغليظة القاسية.. كانت من الناحية الأخرى للباب، ومعها سمعت ال. (كاك) المميزة للبط المذعور، وصاح صائح من الصبية:
- « (بيجل بويز)! »
- « ألستم في السجن؟ »
جاء الصوت الساخر يقول:
- « نحن في السجن كما أنكم في (داك فيل) الآن! لقد صارت المدينة ملأى بالروبوتات التي يجهل كل منها أن الآخرين روبوتات! »
- « هى هى ى ى ى ى! »
وجاء صوت ساخر من طبقة أخرى يقول:
- « لقد ذهبنا لنلقى (سكروج)، لكنه أصيب بماس كهربي، مما جعلنا نعرف أنه استخدم نفس خدعتنا!»
- « وكان سهلًا أن نعرف وجهتكم! وجئنا هاهنا فجرًا.. »
صوت (سكروج) يوجه ضربات عاتية بعكازه، لكنها عديمة التأثير طبعًا، وتدعو إلى نوع من الألم

الباسم كما يحدث حين يركلك طفل..
- « أيها القتلة!! سأسلخ جلودكم! ماذا أصاب خزانتي؟! »
- « هي هي! اصبر أيها العجوز واهدأ قليلًا! لقد كان بوسعنا أن نسطو على خزانتك فورًا، لكننا وجدنا هذا في وسعنا في أي وقت، بينما سرّ قدومك هاهنا لا يحتمل الانتظار! »
وقال آخر (واضح من درجات الأصوات أنهم أربعة):
- « لماذا يترك (سكروج) أعماله ويسافر إلى (أسكتلندا)؟ »
- « ولماذا (أسكتلندا) بالذات؟ »
- « الأمر واضح إذن: هناك كنز خاصّ بالأجداد هنا!»
- « كنز يفوق محتويات خزائنك أو يماثلها! »
- « وبعد الظفر به نعود لنفرغ خزائنك على مهل! »
- « أيها السفاحون! يا بذور البازلاء الفاسدة! يا أحفاد القردة، وحدائق البراغيث! »
هذه الأخيرة كانت من (سكروج) وهو يوجه لهم الضربات، دون فعالية حقيقية طبعًا.. وفي النهاية سمعت (عبير) صوت الـ (بوم) المميز لضربة قوية على رأس الملياردير تقلل من حماسه بعض الشيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد ذهن (عبير) إلى الثغرة التي تسرّب عبرها الماء..
كل القلاع الاسكتلندية بها أنفاق وسراديب سرية، ولكن ها هو ذا نفق سرّي يبدو أنه لم يخطر ببال (سكروج) وأصحابه.. فماذا عساه يكون هناك؟
بالتأكيد هي لن تفعل ذلك بمعونة الآلة، لأن الآلة في الجهة الأخرى من الباب، واقعة في اليد الخطأ.. عليها أن تجتهد في البحث..
ترى هل تستعين بـ (أندرو)؟ لا.. هي تخافه كثيرًا، ثم إن شكوك (سكروج) دارت كلها حوله، و(سكروج) ليس بالأحمق.. إنه رجل يعرف بالضبط ما ينبغي عمله..
هكذا جثت على ركبتيها، وراحت تتحسس الأرض.. لا بد من مقبض في مكان ما.. لا بد من رافعة.. لا بد من.....
ثم تصلبت عيناها.. على شعار أسرة (ماك داك) على الجدار..
كان يمثل درعًا عتيقًا عليه أسد ما، وقد تناثرت حوله قطع من ذهب، مع شعار الأسرة الشهير (أصابعنا في كل شيء)..
وتحت الدرع كان سيفان متقاطعان عتيقان تآكلا من الصدأ.. مدّت يدها في حذر وانتزعت واحدًا.. لم يحدث شيء.. انتزعت الآخر فلم يحدث شيء أيضًا..
مدّت يدها إلى الدرع ونزعته من مكانه.. كان مغطى بالغبار، وقد تراكمت وراءه طبقة كثيفة من العجين الناجم عن اختلاط خيوط العنكبوت بالقذارة عبر القرون.. وحتى الحشرات التي توارت وراء الدرع قد تحولت إلى مومياوات.. لكنها وجدت حبلًا ملفوفًا بإحكام وراء الدرع بحيث لا يبين منه شيء..
فكته ببطء فوجدت أن طرفه مربوط إلى المسمار الذي علق عليه الدرع، أما الطرف الآخر فحرّ.. حرّ تمامًا، والحبل يبلغ طوله نحو عشرة أمتار.. هكذا يمكن تحريك الطرف الحرّ في عدة اتجاهات حتى تصل لوضع يلمس فيه هذا الحبل الجدار المقابل..
يلمسه عند مسمار محويّ صدئ لا يثير البهجة في النفس..

مجرّد مسمار في جدار عتيق من القرميد..
لكنه يتحرك! حقًّا يتحرك.. يمكن جذبه بكثير من العسر إلى أن يغادر الجدار قليلًا..
ثم بدأت الآليات البارعة التي تمّ تصميمها عام 1337 تعمل بكفاءة تامة، إن تجاوزنا طبعًا عن الصرير وأصوات الحديد المرهق الذي أسقمه الصدأ والنسيان..



رأت (عبير) الأرضية تنفتح ببطء ، لينزل جزء مربع منها لأسفل كمصاعد البضائع . .

رأت (عبير) الأرضية تنفتح ببطء، لينزل جزء مربع منها لأسفل كمصاعد البضائع.. والآن تجد أنها تقف أعلى بئر مظلم تقودها لأسفله درجات حجرية..

ماذا بقي لها غير النزول؟
وابتلعت ريقها في توجس.. المشكلة هنا هي أن هذه الأبواب السرية في القصص تنغلق دومًا، ما إن تحاول أنت النزول.. وثمة احتمال لا بأس في ألا توجد وسيلة للخروج ثانية.. ربما كان هذا المخبأ السرّي يحتاج إلى رجلين، أحدهما ينتظر الآخر بالخارج ليعيد فتح الباب له..

لم يكن لديها خيار، لأن صوت (بيجل بويز) يقترب، وهم يضحكون ويصخبون عائدين بغنيمتهم من البط الخائف....
توكلت على الله، ونزلت على الدرجات المظلمة، وكما توقعت بالفعل، هدرت الآليات إذ ارتفعت المنصة سريعًا لتعزلها عن العالم من جديد..
لقد صرتِ يا (عبير) سجينة هذا الجبّ – القبو - السرداب.. ولا أمل لديك إلا أن يكون مهندسوا السير (أرشيبالد ماك داك) يعرفون ما يفعلونه حقًّا..
حتى لو كان هذا صحيحًا، فما جدواه ما دام الظلام دامسًا هنا، إلى حدّ أنها لا ترى يدها نفسها؟
سيقتلها الظلام ولكن بعد ما يقتلها الذعر أولًا..
هذا هو مصيرها الباسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- القتلة..

لم تستغرق طويلًا في الحيرة..
سمعت هدير الآلات، ثم بدأ السقف ينزل ببطء، واستطاعت أن ترى الضوء يتسرب، فهرعت إلى الحائط تلصق ظهرها به كي لا تهشمها المنصة إياها..
أخيرًا ترى الكشافات في وجهها، وتسمع فتية (بيجل بويز) يتصايحون في مرح:
- « هذا هو المكان بالتأكيد! »
كان معهم (دونالد) الذي يرتجف هلعًا، و(سكروج) الحانق والصبية المتوجسون.. وإن كان عدد أفراد العصابة اثنين فقط.. طبعًا.. فمن الذكاء أن يتركوا نصفهم بعيدًا للتحكم في هذه المنصة..
صفّر رجل العصابة من وراء قناعه:
- « فيووووه! يا لك من حسناء! أنا رقم (64124568)، وقد عرفنا أنك هنا مع العجوز البخيل.. ويبدو أنك أهديت إلينا هذا الجب السرّى.. لقد فتحنا الباب في اللحظة المناسبة لنرى اختفاءك! »
في شمم قالت:
- « ليس اسمه العجوز البخيل.. اسمه الملياردير (سكروج)! »
ضحك حتى استطاعت عدّ ضروسه النخرة:
- « إن معلوماتك خاطئة بعض الشيء.. هذا الرجل يُدعى (سكوازيليونير) أي أنه يملك سكوازيليونًا كاملًا، والسكوازيليون - إن لم أكن مخطئًا- هو الواحد الذي أمامه مليون مليون صفر! »
وقال رقم (7619455):
- « اثنا عشر صفرًا! نحن نحاول تقليلها إلى تسعة أصفار، وهذا لا يُعدّ طمعًا مبالغًا فيه! »
وثب (سكروج) في الهواء من الغضب:
- « هلموا يا قتلة! دعونا ننته من هذه المحادثة الغبية! ماذا تريدون عمله هاهنا؟ »
- « يا له من سؤال! نبحث عن كنز جدّك البخيل طبعًا.. »
وأشار أحدهم إلى (دونالد) بطرف مسدسه:
- « أنت تجيد استخدام هذا الجهاز.. هلم! »
حمل (دونالد) كاشف الكنوز، وهو يرتجف ذعرًا كعادته.. وراح يمسح الجدران المتآكلة الحجرية في هذا السرداب.. لا شيء.. ببطء بدأ يتحرّك فى الممر المظلم ووراءه الجميع..
كانت هناك درجات صاعدة، فبدأ يعتليها.. كان الدرج شديد الانحدار لأسفل ضيقًا كصدر (سكروج)، لذا كانت مهمة عسيرة حقًّا.. إلا أنهم وجدوا في نهايته بابًا من قضبان حديدية صدئة.. بابًا موصدًا بإحكام..
- « يجب أن نعود.. »
- « لا.. أبعدوا وجوهكم! »
وانطلقت ستّ طلقات نحو (كالون) الباب فتهشم بعد ما تناثر منه الشرر والغبار في كل مكان.. وأزاح (64124568) الباب جانبًا.. فانفتح دون جهد..
الآن فقط راح الجهاز يعوى كالكلاب (الوولف)، ويتشمم في جشع، ثم راحت القدمان تركضان بينما (دونالد) يحاول اللحاق بهما، فيسقط ثم ينهض.. وهو لا يكفّ عن البطبطة.. وصاح رجل

من العصابة:
- « استعدوا! إنه كنز هائل الحجم! »
في اللحظة التالية انقض الجهاز على أحد رجلىّ العصابة اللذين كانا ينتظران خارج النفق، ومدّ يده ذات القفاز في صدره لينتزع كيسًا مليئًا بالعملات الذهبية..
- « يا للكارثة! لقد عدنا من حيث بدأنا! »
قالها (64124568).. وهو يدرك الحقيقة المروعة: النفق السرى لم تكن له أية مهمة سوى إضاعة الوقت..
وصفع زميله المذعور في غيظ:
- « من أين جئت بالمال أيها اللص؟! »
- « سرقتها منكم قبل السفر.. ألسنا لصوصًا؟! »
صفعه من جديد:
- « السرقة عيب وحرام.. حاول أن تسرقني ثانية ولسوف ألعب (البولنج) بجمجمتك بعد انتزاع العينين! »
ثم وجه لكمة إلى وجه (سكروج):
- « هذه من أجل خبث أجدادك! »
صاحت (عبير) في حنق:
- « فقط الأنذال يضربون الشيوخ! »
- « ولهذا ضربته.. إنها مهمة تناسبني تمامًا! »
ومن جديد راحوا يواصلون المهمة العسيرة..
أين (أندرو) بالضبط؟ أحقًا لم يسمع كل هذه الضوضاء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلى سمعها.. وفي الثانية عشرة ظهرًا جاء بمشيته المتخشبة نحو المجموعة الغريبة المكونة من اللصوص وأسراهم، وفي وقار قال:
- « إن وجبة الغداء جاهزة يا سيدي.. »
ثم نظر إلى رجال العصابة:
- « لقد أعددت أطباقًا للسادة الأربعة أيضًا! »
قال (سكروج) في هلع:
- « (أندرو).. إنهم لصوص.. بل حثالة اللصوص! »
هزّ (أندرو) رأسه في تهذيب:
- « حسن يا سيدى.. »
ودون كلمة أخرى - وأمام العيون المذهولة – اتجه إلى قاعة الطعام..
وهكذا جلسوا يلتهمون شطائر الجبن كما هي تعليمات مُلاك القصر السابقين، وقد استبد بهم الإنهاك والحيرة..
بعد دقيقة جاء (أندرو) حاملًا طبقًا عليه تسع بيضات، ووضعه على المنضدة أمامهم:
- « اليوم الأحد يا سيدى! »
ثم انصرف، ولم يحاول واحد من أصدقائنا تفسير الأمر للصوص، فلا يوجد قدر من المودة يجعل هذا واجبًا..

قالت (عبير) هامسة ل. (هيوى) الصغير:
- « هل تعتقد أن (أندرو) دسّ للعصابة سُمًّا؟ »
- « لا أعتقد.. فهو نموذج للخادم الأنجلو ساكسونى القحّ.. مجرّد آلة بلا آراء ولا تفكير ولا ابتكار.. كلنا بالنسبة له مجموعة من السادة المهذبين الجائعين.. لا شيء عدا هذا.. »
فرغ (64124568) من غدائه، فأخرج مسدسه وصاح:
- « أكره إفساد شهيتكم، لكن الوقت قد حان لاستكمال البحث! »
وعلى الفور نهض الجميع.. البعض كان ما زال جائعًا فدسّ بيضة كاملة فى فمه ليتسلى بأكلها فى أثناء العملية..
ومن جديد حمل (دونالد) الجهاز وتقدّم الموكب الغريب..
ولاحظت (عبير) أنه يمشي نائمًا - بل ويغطّ - متمتعًا بسلام نفسي غير مسبوق..
قال لها (سكروج) وهو يواصل المشى:
- « أحمق.. هذا هو ابن أخي ببساطة.. »
- « لكنه شخصية ثرية جدًّا.. »
- « إنه أعقد شخصيات (ديزنى) وأقربها إلى عوالم الأدب.. فعلى حين لم يزد (ميكى) على فأر ظريف، ولم أزد أنا على ثرى بخيل، ولم يزد (جيو) على عبقرى؛ فإن (دونالد) يحمل كثيرًا من المتناقضات والمزايا والعيوب.. وهو مغرور غيور كسول مرهف الحس جبان مرح طيب القلب باختصار هو أقربنا إلى الواقعية.. »
هنا توقف (64124568) - الذي بدا واضحًا أنه القائد - وداعب ذقنه غير الحليقة مفكرًا، ثم تساءل:
- « ما الذي يوجد في القبو؟ »
- « جثث وهياكل عظمية.. »
- « هل قمتم بتمشيطه؟ »
- « طردنا الأشباح منه، لكننا لم نفتش عن الكنز.. »
- « إذن حان الوقت لهذا.. »
ونظر إلى الوراء لينادى (دونالد)، لكن هذا كان قد توارى في ممر جانبى مظلم، وبدا واضحًا أنه لم يعرف قط أن المسيرة توقفت.. لقد كان نائمًا يحلم بحبيبته البطة (ديزى)..
- « هاتوا الأحمق حالًا! »
واندفع رجال العصابة يطاردون البطة الناعسة، وعرجوا على الممر الجانبي، فقط ليروا طلقات البنادق الآلية تلتمع في الظلام، مع.....
بوم! راتاتاتاتا! بوم!
- « الويل! هذا كمين يا شباب! تراجعوووا! »
وتراجعوووا بالفعل دون نظام، بينما الطلقات تصفّر في كل صوب، بعضها يحرق وبعضها ينفجر وبعضها يتلاشى في لهب أزرق، وبعضها يدوّى كالقنابل وبعضها صامت..
راح البط يركض دون أن يتبين وجهة لهربه..
وصاح أحد الأطفال لعله (لوى):
- « أين العم (دونالد)؟! »
لكن أحدًا لم يجرؤ على مصارحته بأن الهروب من هذا السيل عسير حقًّا.. لا بد أن (دونالد) تلاشى أو تبخّر حالًا..

ومن نهاية الممر سمعوا صوتًا غليظًا يأمر رجاله:
- « اقتلوا بطوط! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- هل مات؟

هم يركضون الآن في أقبية القصر وممراته.. بينما الرصاص يدوّي في كل صوب، وشيء يخبرها بأن الأمر يفوق حدود الخيال.. إنه خطر واقعي ملموس يتهدّد الجميع..
وجدت أنهم الآن في القاعة الصغيرة التي يوجد السرداب السرّى تحتها، وسمعت (سكروج) يصرخ:
- « قفوا جميعًا على المنضدة.. سأجذب المسمار حالًا! »
وفعل كما قال، وسرعان ما راحت الآلات تهدر للمرة الثالثة في هذا اليوم - بعد ما نامت قرونًا - وبدأت الأرض تهبط حاملة معها (عبير) و(سكروج) والصغار الثلاثة..
فما إن وثبوا إلى قاع الجب حتى ارتفعت المنصة من جديد، والتأم جرح الأرضية ليداري مكانهم..
سألت في الظلام:
- « أين رجال العصابة؟ »
- « ماتوا على الأرجح.. »
- « ومن هؤلاء؟ »
- « غالبًا هم من رأيتهم في دار (دونالد)، والذين أطلقوا الرصاص على (ميكى)، وربما هم من دسّ لنا القنبلة أمس! »
شهقت غير مصدقة.. إن هذا لكثير.. أشباح الأجداد، ثم (بيجل بويز)، ثم هؤلاء الأوغاد الذين يتكلمون بالرصاص..
- « هذا أكثر قصر مهجور ازدحامًا.. لقد احتشد سكان الكوكب جميعًا بين هذه الجدران! »
- « الأشباح تعيش في دارها.. هذا حقها.. وال (بيجل بويز) جاءوا من أجلي.. والقتلة جاءوا من أجل (دونالد) هذا سهل.. »
- « وماذا عن (دونالد)؟ »
- « اختفى.. وربما مات وإن كنت لا أرجح هذا.. ما دام هؤلاء يبحثون بهذا الحماس فلابد أنهم لم يجدوا جثته بعد.. »
ثم تنهد في حسرة:
- « المشكلة هي أن الأحمق اختفى بالجهاز النفيس.. يوجد احتمال لا بأس به أن يكون الجهاز قد تلقى عدة رصاصات! »
لم تجد مبررًا للجدال، فقالت وهي تنظر لنهاية الممر:
- « لكنهم سيفتحون الباب ذا القضبان الحديدية حتمًا.. ويجيئون إلى هنا.. »
- « بالتأكيد.. وعندها سنفهم على الأقل قبل أن نموت ما يريدونه منا.. إنني أكره الموت دون أن أفهم.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما توقع بالضبط، سمعوا صوت خطوات، ثم برز لهم رجلان مسلحان تعرفتهما (عبير) دون جهد كبير، وكانا يحملان كشّافًا..
أحدهما يرتدي معطفًا أسود من الطراز الذي يكنس الأرض، والآخر أصلع الرأس في يده مدفع

ذو خزينة على شكل قرص..
هذان من الرجال الذين اقتحموا دار (دونالد) ليقتلوه، عندما قرر الأخير أن يتوارى في (أسكتلندا)..
راح ذو المعطف الأسود يلوك قطعة من اللادن، ويتأملهم في برود، بينما عيناه تطوفان بالقبو، ثم تساءل:
- « أين هو؟ »
ولم تكن لهجته الإنجليزية ممتازة، بالأحرى كان أجنبيًّا.. ربما من (أوربا الشرقية) أو غيرها.. إن (عبير) ليست بارعة في هذه الأمور.
قال (سكروج) وهو يدارى الصبية وراء ظهره:
- « أنتما أدري منا بذلك.. »
ثم - بشجاعة لا تجدها إلا لدى بطة - قال:
- « أنتما في ملكية خاصة، ولو لم ترحلا في تهذيب فسوف..... »
لم يبد على ذي المعطف أنه سمع شيئًا.. فقط واصل تفحص السرداب في فضول ومسدسه في يده يزداد قلقًا..
ثم هزّ رأسه معلنًا حيرته:
- « حقًّا هو ليس هنا يا (همفرى).. »
سأله (همفرى) وهو يصنع شيئًا ما بسلاحه:
- « وهؤلاء؟ »
- « يا له من سؤال! نقتلهم طبعًا.. لم نأت كل هذه المسافة لنفتح قلوبنا ونتسامح.. »
هنا - في غيظ - تساءل (سكروج):
- « لحظة.. من حقنا أن نعرف سبب هذه الضوضاء.. »
أخرج ذو المعطف سيجارًا غليظًا من جيبه، فقضم طرفه وبصقه، ثم أشعله، وقال:
- « هذا من حقكم طبعًا.. إن الأوامر التي صدرت لنا هي تدمير عالم (والتر ديزنى) بالكامل واغتيال شخصياته.. »
- « ولماذا؟ أوامر ممن؟ »
راح يجوّل في المكان صانعًا دائرة صغيرة، وهو يقول بشرود:
- « لقد كان هناك شك دائم في (دونالد) باعتباره رمزًا للغزو الفكري الأمريكي.. لم يكن هذا واضحًا بشدة لأن قصصه خالية من التوجهات السياسية، لكن في الآونة الأخيرة ومع مدّ العولمة الذي يجتاح العالم؛ بدا أن نمط الحياة الأمريكي يغزو كل شيء، وبدأت تيارات (الكوكلة) و (الكنتكة) و (المكدلة) في كل مكان.. »
« في عام 1971 صدر كتاب في (شيلى) اسمه (كيف تقرأ دونالد داك)، اتهم فيه صراحة بأنه عميل للمخابرات الأمريكية هو و(ميكى) و(جوفى) وسواهم.. وما زالت (الصين) تعتبر (دونالد) تهديدًا لدولتها، وتمنع دخوله[1].. »
« وفي عام 1978 في (فنلندا) حاول أحد أعضاء لجنة الشباب منع دخول (دونالد) باعتباره بطة بلهاء غير مثقفة.. »
« وفي عام 1974 نشرت مجلة (بريميير) البريطانية مقالًا للناقد (إيد سيكوف) يتهم (ديزنى) و(دونالد) بإفساد طفولة الأطفال، وتقديم صورة كاذبة عن العالم لهم.. ويرى أن (دونالد) ترك ندوبًا لا تلتئم في نفوس أجيال كاملة.. »

« لقد دافع كثيرون عن (دونالد)، وعلى رأسهم أستاذ الرياضيات الألماني (هانس فون ستورش) الذي كوّن نادي (أصدقاء دونالد داك في أوربا الغربية)، والذي كتب كثيرًا عن أن (دونالد هو أكثر بطة تهذيبًا في التاريخ)، بل وطالب سفير (فنلندا) بإقناع حكومته بالعدول عن هذا الموقف المتشدّد.. »
« لكن أعداء (دونالد) كثيرون، وهناك دول كثيرة تتمنى قطع رقبته بالتأكيد، ولن يهدأ لها بال حتى يتم هذا! »
وسحب شيئًا ما في مسدسه ليجعله جاهزًا، وأردف:
- « الآن تفهمون لماذا تموتون.. بقي أن تموتوا فعلًا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن قبل أن تنطلق رصاصات التصفية الجسدية هذه، سمعوا صوتًا معدنيًا، ومن الظلام برز ثلاثة فرسان في دروعهم البراقة التي لا تتيح لك رؤية وجوههم، وكانوا يلوحون بالسيوف..
صاح (همفرى) في ذعر:
- « أشباح! »
مشمئزًا غمغم ذو المعطف:
- « بل صبية يلعبون.. أطلق الرصاص ثمّ تكلم.. »
وانهمر وابل من الرصاص يصمّ الآذان في ظلام القبو علي الفرسان الثلاثة، لكن حينما انقشع الدخان، وكفت الآذان عن الدوى، وصارت الرؤية أفضل استطاع الجميع أن يروا الدروع تتقدم في إصرار..
- « أطلق على الرأس! »
وانهمرت الطلقات على الرءوس التي تداريها الخوذات، ومن جديد حين انقشع الدخان استطاعوا أن يروا أجسادًا بلا رءوس تتقدم في تؤدة.. لقد كان الأمر يفوق التفسيرات التقليدية..
ومن أول الأشباح صدر الصوت العميق المهيب:
- « أنت يا من تزعج أرواح (ماك داك) إنسان مقضى عليه وعليك تنهال اللعنات، ولك تنفتح أبواب الجحيم.. »
ركض (همفرى) نحو المخرج، عازمًا على صعود الدرجات نحو الباب الحديدي، لكنه تعثر..
وفي اللحظة التالية هوى سيف على عنقه، فلم يستطع مجرد الاستغاثة أو طلب الرحمة..
تراجع ذو المعطف الطويل للوراء، وهو يقول كلامًا على غرار:
- « انتظروا! يمكننا التفاهم! »
وحاول التملص، لكن فارسين مدرّعين حاصراه، وانغمد السيفان في صدره وبطنه في الآن ذاته..
لكنهما على الأقل - منحاه الفرصة ليقول: آخ خ!
ثم انتهى كل شئ..



وحاول التملص ، لكن فارسين مدرّعين حاصراه ، وانغمر السيفان فى صدره وبطنه فى الآن ذاته . .

صاح (سكروج) وهو يدارى الأطفال وراء ظهره:

- « لا تخافوا يا أولاد! لو كانت هذه أشباح أجدادي فلن يؤذوني أو يؤذوا أحفادي! »

صاحت (عبير) مذعورة:

- « وأنا؟ »

- « كنت أتمنى أن أقدم لك وعدًا بالسلامة، لكني لست للأسف صاحب القرار هاهنا! »

على أن الخطر لم يطل، لأن الهياكل راحت تهتز مرارًا، ورنين المعدن يتعالى، ثم هوّت الدروع الثلاثة إلى الأرض وتفككتْ..

كانت خالية بالفعل..
لقد أنقذت أرواح الجدود حفيدها، وأدّت مهمتها جيدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- عودة إلى القبو..

سألته (عبير) لاهثة:

- « لماذا دافعوا عنا ولم يؤذونا؟ »

- « هذا طبيعي.. لا سبب لديهم يدفعهم لإيذاء آخر وريث لأسرة (ماك داك).. إن الحمقى الذين ماتوا ذعرًا أساءوا الفهم لا أكثر.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركوا الجثتين الممزقتين في الجبّ وخرجوا....

هاهم أولاء يمشون وسط عالم يتناقض تمامًا مع معطيات (ديزنى)..

هناك كثير من الجثث التي اخترقتها رصاصات القاتلين.. لقد مات (بيجل بويز) فورًا.. كانوا بارعين لكنهم ليسوا على ذات الدرجة من الاحتراف والشراسة..

ولكن أين (دونالد)؟

قال (سكروج) في اشمئزاز:

- « مستحيل أن يكون الأحمق قد تبخّر، ولو حدث هذا لوجدنا ريشة أو ريشتين على الأقل.. »

قال (هيوى) عالمًا أنه سيثير جنون العم الطاغية:

- « المشكلة هي أن كل اختراعات (جيو) فشلت بجدارة.. لم نجد كنزًا.. ومن الواضح أن الأشباح بخير حال.. »

طار (سكروج) في الهواء ملوِّحًا بعصاه، حتى كاد يهشمها نصفين، وصاح:

- « النصاب ذو العوينات! هذا الجاهل غير قادر على اختراع ليمونة حامضة! لسوف نعود إلى وطننا، ولسوف أسلخ جلده بعد ما أنتف ريشه! »

أما (عبير) فراحت تتأمل الموقف الغريب:

أولًا وقعوا في قبضة ال. (بيجل بويز)، ثم جاء القاتلان الأجيران ليقتلا ال. (بيجل بويز) وربما (دونالد)، بعدها جاءت الأشباح لتفتك بالقاتلين..

هذا يذكرها بلقطة عبقرية شاهدتها ل. (دونالد) ذاته، إذ راح يصطاد السمك فألقي له بدودة، سرعان ما التهمتها سمكة صغيرة بدورها، وهنا التهمت السمكة سمكة أكبر فأكبر، حتى انتهى الأمر بحوت عملاق كاد يفتك به هو نفسه..

(أندرو) قادم بوقاره المعهود من نهاية الممر، فيلقي نظرة على الجثث المتناثرة، وبذات الوقار يقول:

- « معذرة للفوضى يا سيدى.. سأنظف المكان حالًا..»

تبادل (سكروج) النظرات مع من معه، ولم يجد ما يقول.. ثم سأل (أندرو):

- « هل سمعت صوت طلقات الرصاص؟ »

- « هل كانت تلك طلقات يا سيدى؟ حسبتها إحدى تسالى السادة.. »

- « بل كان هناك قتلة يطلقون علينا الرصاص.. »

- « حسن يا سيدى.. »

ثم انصرف ليجلب أدوات التنظيف، وقال وهو يجدّ في السير:

- « إن السيد الآخر - مستر (داك) - قد تحسن يا سيدى! »

- « الآخر؟ »
ومن جديد نظر إلى المحيطين به في حيرة، ثم هتف:
- « تعني (دونالد)؟ أين هو؟ »
- « هو في غرفة التدخين يا سيدي.. »
« وكيف جاء هناك؟ »
- « معذرة يا سيدي.. لكنني وجدت السيد في مخزن المشروبات.. لقد تعثر في إحدى الفتحات السرية وسقط هناك.. »
وابتعد تاركًا عشرات الأسئلة بلا إجابة..
قال (هيوى) وهو يتواثب في الهواء مرحًا:
- « لقد نجا العم (دونالد)! »
وقال (سكروج) ممعنًا التفكير:
- « لقد انفتح ممر سري تحت قدمي الأحمق، في اللحظة التي أطلق القاتلان الرصاص عليه، وبسبب الدخان بدا أنه اختفى دون تفسير من أمام عينيهما.. »
أضاف (ديوى) متحمسًا:
- « مثل الجبّ التقليدي الذي كان السحرة على المسارح يستعملونه للاختفاء عن عيون النظارة.. »
- « هلموا بنا نر ما أصاب الآلة! »
ثم فطن (سكروج) إلى خشونته، فاستدرك:
- «.. لقد اطمأننا على (دونالد) بالفعل.. ألم يتم هذا؟ »
وراحوا يركضون نحو قاعة التدخين، التي يصعب العثور عليها في قصر كهذا.. ولولا رائحة التبغ العالقة بجوّها لما وجدوها.. إن هذه الغرفة تُلوّث بالدخان منذ قرون كما هو واضح..
تساءلت (عبير) وهي تركض لاهثة:
- « كيف يجد الخادم طريقه في هذا القصر؟ لا أحد يعرف من أين يأتي ولا لأين يذهب.. هو فقط يظهر دائمًا حين لا تتوقعه.. »
- « كذا خدم القصور جميعًا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي قاعة التدخين كان (دونالد) جالسًا وقد ضمد أحدهم جسده كله، وعصب رأسه، ووضع أطرافه الأربعة في جبائر.. وجواره كانت الآلة سالمة..
صاح (سكروج) في حنق:
« تبًّا لك من أحمق! لقد أضعت وقتًا ثمينًا بسبب قلة احتراسك! »
ابتلع (دونالد) ريقه، لكن هذا كان مؤلمًا في حدّ ذاته، وقال:
- « آى! أعدك حين يُطلق عليّ الرصاص في المرة القادمة ألا أحاول التحرك.. »
قال (ديوى) وهو يحتضن عمه:
- « لقد كان هذا حظًا سعيدًا.. »
- « الحقيقة » - قالت (عبير) - « هي أن هناك حظًا سعيدًا أكثر من اللازم هذه الأيام.. مستحيل أن تكون هذه جميعًا مصادفات.. إن لنا ملاكًا حارسًا فمن هو؟»
- « بالطبع أشباح أجدادى.. »

قالها (سكروج) ونقر على صدره في فخر..
من مكان ما برز (أندرو) حاملًا الشاي.. فصاح (سكروج):
- « شاى؟ هذا تبذير ومضيعة للوقت! »
- « إنه شاي الساعة الخامسة يا سيدى، ولا مناص من شربه ما دمت في شبه الجزيرة.. »
- « حسن.. دعونا نشربه سريعًا.. »
ثم حكّ رأسه مفكرًا:
- « ماذا كنا على وشك عمله حين ظهر القتلة؟ »
قال أحد الصغار لعلة (ليوى):
- « كنا سننزل لتمشيط القبو.. »
- « حسن.. هذه المهمة ستقع على عاتق (أندرو)، ما دامت البطة الغبية قد تحولت إلى عجينة.. »
ثم بكبرياء أصدر أمره لـ (أندرو)، وهو يضع قدح الشاى:
- « (أندرو).. هل تعرف كيف تستعمل هذا الجهاز؟»
قال (أندرو) بوقار:
- « لا بد أن هذا في وسعى يا سيدي.. »
- « هناك زرّ ستضغط عليه، ويقوم الجهاز بالبحث عن الكنز.. »
- « هذا يبدو سهلًا يا سيدى.. »
- « إذن هلم.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للمرة الثانية ينزلون الدرج غير المتناهى الذي يقودهم إلى القبو، هذه المرة يتقدمهم (أندرو) حاملًا الجهاز المضحك، بينما الصبية يحملون الشموع، وقد تركوا (دونالد) وحده في غرفة التدخين...
أخيرًا يرون الرفوف التي تحمل بقايا البطّ..
والفئران التي تعاود الفرار، حاملة عيونها الحمراء معها بعيدًا...
شهق (سكروج) ثم لوَّح بعصاه:
- « إبدأ يا (أندرو).. »
وجه (أندرو) الجهاز نحو اتساع القبو، وضغط الزرّ، وعلى الفور بدأت أصوات الضوضاء الشهيرة، ونظر الجميع إلى الجهاز متوقعين أن يبدأ عملية البحث عن الكنز....
لكن شيئًا غريبًا حدث...
ببساطة، ودون مبالغة في الوصف؛ أطلق (أندرو) صرخة داوية ثم لم يعد هناك...
رأى الجميع أن رأسه لم يعد في مكانه، وأن ثيابه راحت تهتز كأنما خلت من محتواها، ثم سقط الجهاز على الأرض، ومعه هوت الثياب لتتكدس في كومة غريبة..
كان فهم ما حدث عسيرًا لدقائق، ثم بدأ يتضح..
إن الصراخ والتلاشى لشيئان لا يناسبان وقار الخادم الأنجلو ساكسوني المعهود، إن لم يكن فيهما إساءة أدب بشكل ما؛ لكن من قال إن (أندرو) خادم حقيقى؟
قال (هيوى) وهو يتأمل الكومة في جزع:
- « رباه! لقد كان شبحًا! »

- « وكان يحرس القصر منذ قرون متظاهرًا بأنه خادم أمين.. »
- « وعندما بحث عن الكنز، ضغط زرّ البحث عن الأشباح وطردها، غير عالم بذلك، وغير عالم بأن الجهاز مسلط عليه هو نفسه! »
- « هذه فائدة اختراعات (جيو) ذات الأغراض المتعددة.. »
رفع (سكروج) عصاه في كبرياء:
- « لحظة! لم ينته كل شيء بعد.. »
- « ولماذا؟ »
- « هذا الجهاز لا يقضى على الأشباح كما رأينا، بل يفرّق شملها ويرسلها إلى مواضع أخرى.. كلنا رأيناه يطرد أشباح القبو فقط ليدفعها إلى الجبّ حيث أنقذتنا.. »
- « ومعنى هذا؟ »
« معناه أن (أندرو) في مكان آخر بالقصر.. هذا لو كان اسمه (أندرو) حقًّا.. »
ثم أشار إلى (ديوى) كي يبدأ العمل:
- « احمل الجهاز وابدأ عملية تمشيط القبو.. »
تناول (ديوى) الجهاز وسلطه على القبور، في ضوء الشموع، ثم ضغط الزرّ..
ومن جديد دوَّت صرخة الرعب المخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 - هكذا فعلوا!

حين تصلَّب الجميع ذعرًا، وقفت شعورهم توجسًا؛ عندها فقط انفجر (ديوى) الصغير ضاحكًا:
- « لقد أردت أن أمازحكم لا أكثر! ماذا يكون شعوركم لو اتضح أنني شبح آخر؟! »
- « يا للصبي السخيف! »
كانت هذه دعابة ثقيلة، أثقل بالتأكيد من تحمل روح الدعابة لديهم، وابتلعوا غيظهم، وراحوا يراقبون نتيجة التنقيب المتواصل..
كان الجهاز يمرّ بحالة غير متوقعة، فهو يتشمم باستمرار، ويركض ذات اليمين واليسار، ثم يدنو من الأرفف التي دفن فوقها آل (ماك داك) القدامى، ثم يدور حول نفسه..
كل هذا والصبي متعلق به، يصرخ رعبًا..
- « افعلوا شيئًاااااا! »
راح (سكروج) يرمق المشهد في اهتمام وشرود، ثم قال في هدوء:
- « يجب أن نبحث في التوابيت ذاتها! »
صاح الأطفال في رعب:
- « لا! كله إلا نبش الموتى! »
- « صمتًا يا بلهاء! »
وطلب من (عبير) - أقواهم أعصابًا - أن تقوم هي بهذه المهمة الرهيبة، ولم تكن (عبير) لتجدها رهيبة على الإطلاق ما دام الأمر يتعلق بعظام بط...
فتحت أول تابوت.. لم يكن به شيء سوى هيكل عظمى لبطة ترتدي ثيابًا عتيقة وتحتضن سيفًا إلى صدرها....
الغريب هنا أن الجهاز جُنّ جنونه تمامًا، وراح يتشمم الهيكل ككلاب الوولف، وخيل ل. (عبير) أنه يلطم خديه باحثًا عن طريقة يتكلم بها..
في خيبة أمل تساءل (سكروج):
- « لا ذهب؟ »
- « لا ذهب.. »
- « ولا أحجار كريمة؟ »
- « ولا حجر.. »
- « إذن ماذا أصاب ذلك المخبول؟ »
قالت (عبير) وهي تفتح تابوتًا آخر:
- « لقد اتفقنا على أن كل اختراعات (جيو) الأخيرة فاشلة بلا استثناء، وهذا لا يغير القاعدة.. »
فكّر (سكروج) قليلًا وراح يتأمل المشهد.. ثم غمغم:
- « لحظة.. لقد قرأت أن عظام أجدادي كلها مدفونة في فناء الكنيسة.. فهل أخرجوها ليدفنوها ها هنا؟! »
ثم سألها وهو يداعب بعصاه الهيكل الراقد في التابوت:
- « ما هو التاريخ المكتوب على التابوت؟ »



ثم سألها وهو يداعب بعصاه الهيكل الراقد فى التابوت :
ـ « ما هو التاريخ المكتوب على التابوت ؟ »

تأملت على ضوء الشمعة، ثم غمغمت:
- « 1261 م.. إن الكتابة متآكلة لكنها مقروءة »
- « وهذا التابوت؟ »
- « 1116 م.. »
بدا عليه السرور، والتمعت نظرة وحشية في عينيه:
- « هكذا! كل هذه التوابيت يرجع تاريخها إلى ما قبل العام 1337.. أي قبل بناء القلعة، وقبل أن يؤتمن جدي على الذهب.. »
وبحركة درامية هوى بعصاه على جمجمة الهيكل العظمى فهشمها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصايح الأطفال و(عبير) رعبًا...
وحتى بالنسبة لـ (عبير) بدا لها هذا انتهاكًا لحرمة بطة ميتة.. لكن ما أثار دهشتها هو صوت

التهشم المعدني، وقطع العظام التي تناثرت وكلها لها لون الذهب تلتمع في ضوء الشموع..
- « ما معنى هذا؟ »
- « معناه ببساطة أن هؤلاء الجدود هم الكنز الحقيقي! هذه هي الحيلة التي دبرها (أرشيبالد ماك داك) ببراعة..
لقد كلف صياغه بتذويب الذهب كله، وتحويله إلى هياكل بط ميت.. وقام بطلاء الذهب ليبدو كالعظام..
« لقد أعدّ مقبرة وهمية لهذه التماثيل الذهبية، وأطلق على كل منها اسم أحد أجداده، وبالطبع ما كان اللصوص ليفكرون في هذا، وليست الجثث المتحللة مما يغرى بالسرقة..
ومات جَدّي والسر معه.. وجاءت أجيال بحثت كلها عن الكنز بلا جدوى.. ما كان بوسع أحد أن يفكر في تهشيم هيكل من هذه الهياكل كي يجد ما تحت طبقة الطلاء..
« وسرعان ما انضم الموتى الحقيقيين من أجدادى إلى هؤلاء الموتى المزيفين، وصار التمييز بين الفريقين عسيرًا.. لكن كل أجدادي الذين ماتوا قبل عام 1337 مدفونون في الكنيسة.. أنا متأكد من هذا!»
ونظر إلى الأرفف، وبحنين قال:
- « آه ه! ما أجملها من مقبرة، وما أشدّ بهجتها! أن يموت المرء ويدفن بين هذه التماثيل الذهبية.. لو أنني مت فادفنوا معي سبيكة من ذهب أو ادفنوني هنا! »
واستدار إلى الصبية:
- « هلموا! سنقوم بتفكيك هذه الهياكل الذهبية بما يسمح بوضعها في حقائبنا.. ولسوف نذوبها في وطننا.. حاذروا من أن تؤذوا ميتًا حقيقيًا في أثناء هذه العملية! »
وأشعل شمعة أخرى، ونظر إلى القبو في حبّ:
- « (أرشيبالد ماك داك)! أيها العجوز البخيل موفور الذكاء.. إننا لا نساوي قلامة أظفارك، لكننا نحاول! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتعود الطائرة إلى الوطن حاملة كنزًا هائلًا تحمله عشرة بغال بكثير من العُسر.. صحيح أنه يبدو مرعبًا لأول وهلة، لكنك سرعان ما تدرك أنه عمل فني متقن صنعه أبرع الصياغ طرًّا..
وفي الخزينة ب. (داك فيل) يبحث (سكروج) عن شبيهه الآلى، فيجده وقد احترق رأسه بفعل ماس كهربي.. والغريب أن هذا جعل أداءه أفضل، وحقق رواجًا عاليًا للأسهم وأرباح إمبراطورية (سكروج)..
قال (دونالد) وهو يتوائب على عكازيه محاولًا اللحاق بهم:
- « الجميل هو أن (بيجل بويز) قد ماتوا.. »
هزَّ (سكروج) رأسه:
- « سرعان ما يعودون! لا أحد يموت في عالم (ديزنى) طبقًا لقواعده الصارمة.. »
قال (دونالد) في ذلة:
- « هناك أجري كما اتفقنا.. وهو خمسة قروش في الساعة.. إن معنى هذا هو.... »
طار (سكروج) في الهواء غضبًا:
- « أيها النصاب! تريد خرابي التام؟ لقد قضيت نصف الرحلة نائمًا أو مهشمًا! لتكن شاكرًا لى أننى لم أطالبك بثمن تذاكر السفر لك وأولاد أخيك.. »

- « هذا كرم منك أيها البخيل.. »
هنا فوجئ الجميع بالقادم، الذي لم يعرفوه لأول وهلة..
لكن (عبير) عرفته، ونهضت تسوي ثيابها الجميلة استعدادًا للرحيل..
فقد جاء (المرشد) بسماجته وقلمه وابتسامته الفاترة...
صاح (دونالد) ببطبطته المألوفة:
- « كاك! لكنها لم تر سوي ركن ضئيل في عالم (ديزنى)؟ »
قال (المرشد) في هدوء:
- « إنها ستعود حتمًا في مغامرات أخرى لكنها ستكون أكثر جدية من ألاعيب البط هذه.. »
قالت (عبير) وهي تلحق به محاولة ألا تتعثر في زكائب المال:
- « سنعود حتمًا يا (مرشد).. أليس كذلك؟ »
- « بلى.. ما لم ينجحوا في نسف عالم (ديزنى) هذا..»
- « وهل سيكون هناك آخرون يحاولون الشيء ذاته؟»
- « بالتأكيد.. وأنت تعرفين الأسباب.. لكن الأفكار لا يمكن محاربتها بالسلاح، والفنّ لا يموت بالرصاص.. السبيل الوحيد لمحاربة الفكر هو بفكر آخر.. ومحاربة الفنّ تتم بفنّ أفضل وأجود.. »
- « وهل هذا ممكن؟ »
- « في الوقت الحالي ما زال فنّ (ديزنى) هو الأرقى والأفضل، لكن الحياة لن تتوقف، ولسوف يخلق فنان آخر في مكان آخر فنًا قادرًا على منافسة عالم (ديزنى) وربما هزيمته.. »
وكان قطار (فانتازيا) ينتظر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي القصة القادمة تدخل (عبير) عالمًا آخر من نوع جديد، وإن كان عالمًا أمريكيًّا تمامًا بدوره... نهر (المسيسبي)، وصبية حفاة يصطادون السمك، وقارب بخارى، ومدرسة، وعمات غاضبات، وصبي شيطان يُدعى (توم صوير)...
إنه عالم (مارك توين) الساحر..

(تمَّت بحمد الله)

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

كل ما في هذه الصفحة حقائق.

روايات مصرية للجيب

18

فانتازيا

توم ومن معه !



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (18)

توم ومن معه

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- حادث صغير..

وضعت (عبير) طفلتها (شذى) ذات مساء حار من شهر (يوليو)..
لماذا اختارت لها اسم (شذى)؟ ربما لأنها استعملت هذا الاسم من قبل في مغامرتها (بين عالمين)؟ وظل الاسم عالقا في ذهنها منذ ذلك الحين..
لقد كان (شريف) زوجها يتمنى لو رزق بطفل أن يسميه (عادل)، لكن رنين اسم (عادل شريف) بدا لها ملفقا مفتعلا إلى حد ما، كأحد أسماء القصص وسرها أن رزقت بأنثى؛ لأن هذا أعفاها من المجادلة، وبدا لها اسم (شذى شريف) اسما موسيقيا لا بأس به، يناسب شاعرة لامعة، أو صحفية متحمسة ناشطة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حقا لم تكن تجربة الولادة قاسية كما عرفتها في عالم الخيال.. والغريب أنها انتهت قبل أن تحسبها قد بدأت.. تذكر الحر والعرق، وتذكر الكشافات الحارقة المسلطة عليها في غرفة لها رائحة المطهرات.. رائحة المرض كما تخيلت دائما.. وتذكر وجه الممرضة الأسمر وهي تردد لها مرارا عبارات التشجيع، وصوت الكائن الصغير الذي يعوي كالشياطين، محتجا على مغادرته الظلام الناعس الدافئ، الذي كان يسبح فيه مائتين وثمانين يوما.. تذكر الابتسامات وعبارات التهاني، وتذكر الألم الممض الذي جاء سريعا وخبا سريعا..
وأخيرا يضعون الكائن الصغير الأحمر كالطماطم جوارها في الفراش، ويقولون إنها طفلة جميلة.. كيف عرفوا هذا؟ كل الأطفال حديثي الولادة لهم وجوه السلاحف، وينامون ثلاثين ساعة في اليوم..
(شريف) يجلس جوارها مؤديا واجبه كما ينبغي، فترتجف زاوية فمه وتدمع عيناه، ويلثم أناملها، ثم يربت على الرضيعة بحذر؛ لأنه من الآباء الذين يهابون الأطفال، ويخشون أن يتفكك الرأس ليسقط على الأرض لو حاولوا حمل رضيعهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويحتشد أهلها وأهله في مكان واحد، ويا له من مشهد!
يحاول أهله أن يكونوا على طبيعتهم، بينما يحاول أهلها أن يكونوا أكثر رقيا، لكنهم بالتأكيد سيقترفون بعض (الأشياء البلدي) كما ستصفها حماتها (نسل شاه هانم) لصديقاتها فيما بعد:
- «سي ترو! كال سوفاج!»
لكنها - كالعادة - ستبدو مجاملة جدا رقيقة جدا، من أجل (شريف) طبعا، لأنها - الآن فقط - تعرف أنه يحب زوجته حقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويجلس (شريف) جوارها على طرف الفراش يتأملها وهي تستبدل الكافولة المتسخة لرضيعتها ويبتسم.. إن دفء الأسرة قد تلاعب برأسه المنهك..
وللمرة الأولى يشعر بقسط من السعادة والرضا..

- سرني أنك انهمكت بالأمومة..
- المرأة تتنفس الأمومة دون إرادة منها، فلا خيار لها
ابتسم، وقال شاردا:
- قد لاحظ الدكتور (سبوك) هذا مرارا.. إن الأولاد يلهون بالمسدسات والعربات منذ البداية، بينما الفتيات يعبثن بالدمى كأنهن يتدربن لا شعوريا على الأمومة.. وهذا غريب حقا.. المفترض أن الهرمونات الجنسية لا تعمل في سن الطفولة.. المفترض أن الأولاد والبنات كائنات متماثلة هرمونا، وبرغم هذا يوجد شيء لا نعرف كنهه، يجعل البنات يتصرفن كالنساء، والأولاد يتصرفون كالرجال..
بادلت بابتسامته ابتسامة مماثلة، وقالت:
- لا أفهم جل ما تقول، لكني أعرف شيئا واحدا:
أنا خادمة هذه الطفلة، وحياتي لا تساوي قلامة ظفرها..
ولثمت قدمها الصغيرة المكتنزة في نهم
اضطجع (شريف) على الفراش، وسألها في خبث:
- هل تحبينها أكثر من (فانتازيا)؟
- طبعا.. ولكن ما الذي جعل هناك اختيارا بين الاثنين؟ من قال إن على الاحتفاظ ب. (شذى) أو (فانتازيا)؟!
- إن (فانتازيا) تبعدك عنها..
نظرت لعينيه نظرة صادقة، وقالت:
- ساعة واحدة من الحلم كل أسبوعين ليست بالشيء الكثير.. أنت تعرف ما تمثله لى (فانتازيا).. كأنها زيارة إلى بيت أسرتي حيث أنتمي، وأنت لن تحرمني من زيارة أسرتي أبدا..
- لم يعد (دي - جي - ٢) اختراعا ذا نفع تسويقي
- لكنه ذو نفع لى.. إنه يبقيني آدمية وحية حتى الأسبوع التالي..
ثم صفرت بشفتيها وهي تنظر للطفلة.
- يا خبيثة! لقد فعلتها ثانية في الكافولة الجديدة!
وبدأت تفك الشريط اللاصق، وهي تكمل كلامها:
- لقد أتاحت لى (فانتازيا) فرصة لم ولن تسنح لإنسان آخر في التاريخ.. وما زلت أنت تحاول منعي من اغتنام هذه الفرصة؟!
- إنها الطريق الممهد للإصابة بالخبال..
- لكني لم أصب به بعد.. ولم أضع كسرولة على رأسي أو أسكب علبة السمن على شعري.. هذا يطمئنك إلى حد ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا تجدوننا في الغرفة الشهيرة أمام المشهد ذاته..
(عبير) والأقطاب على رأسها تغمض عينيها، وتأخذ شهيقا عميقا، بينما (شريف) يضغط على زر الإدخال على شاشة الحاسب الآلى..
لقد نامت الطفلة، واستقرت أمور الدار، واختفت الصحون المتسخة من حوض المطبخ، وقمصان (شريف) المكوية قد تراصت في خزانة الثياب، فما المانع من.....؟!
لا مانع

فلتبدأ الرحلة الجديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- على ضفاف المسيسبي..

في كل مرة يزداد الانتقال سلاسة ويسرا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقال لها (المرشد) وهو يداعب قلمه الزنبركي:
- تك تتك تك! من هنا يمكنك البدء.. سلام!
جذبته من كم سترته في رعب، وصاحت:
- لحظة! أنت لا تعطي أية تفاصيل!
نظر إلى النهر الممتد أمامهما، والذي تتلوى ضفافه كالأفعى، والذي يلتمع في ضوء شمس الظهيرة الحار، بينما قارب بخاري عملاق له رفاصان جانبيان كبيران، يتحرك ببطء في الأفق..
قال لها وهو يدس القلم في سترته:
- الأمر سهل.. هذا هو نهر (المسيسبي)، وهذه هي قرية (هانيبال).. ولا أظنك تجهلين أنها موطن الأديب الأمريكي العظيم (مارك توين) هه؟
لا أظنك بهذا الجهل......
ضربت كفا بكف في غيظ، وصغرت خدها..
- أقسم بالله إنني أسمع هذه المعلومات للمرة الأولى في حياتي.. من تحسبني حتى أتذكر القرية التي ولد فيها كل أديب عالمي؟
- هذه القرية تختلف.. لقد كتب الرجل عنها وعن (المسيسبي) كثيرا جدا.. وبالتأكيد أنت قرأت شيئا عن هذا.. لكنك نسيت.. وهو ذا عقلك الباطن يتولى القيادة كعادته..
ثم لوح بيده متعجلا:
- وداعا إذن!
- لحظة! ما الأخطار المتوقعة هنا؟
- لا أدري خطرا.. إنها قرية هادئة ساكنة كالخيار!
- لكنك أوجدت لي الأخطار حتى في عالم (ديزني)، ووسط البط..
- لو لم يوجد خطر فلا مغامرة.. نحن لا نقوم بالسياحة هنا.. لا بد من مشاكل ما.. ومن ثم تولد التجربة المثيرة....
وفي هذه المرة لم يودعها، كي لا تستبقيه أكثر..
ببساطة تلاشي من أمامها..
الآن بوسعها أن تلقى نظرة أوسع على النهر، فائق الجمال، الذي اشتهر بغرابة مجراه.
لقد خلد الأديب الأمريكي (مارك توين) هذا النهر في كتاباته، وخاصة في كتابه الشهير (الحياة على المسيسبي)، ووصف لنا كيف يتلوى النهر بجنون كأفعى، حتى إنك - في بعض المواضع - يمكن أن تغادر قاربك وتمشي على الأرض تاركا القارب للنهر، ولسوف يمر القارب أمامك خمس أو ست مرات، ويمكنك أن تثب لتركيبة بعد كيلومترين!
لفظة (مسيسبي) في ذاتها تعني (النهر الكبير) بلغة هنود الشمال، وهو نهر يناسب هذا النعت حقا طوله ٣٧٧٩ كيلومترا، وينبع في (منيسوتا) من بحيرة (إيتاسكا). ويستقبل أنهار (ميسوري) و(رد) و(أوهايو) و(أركنساس)، ويمر بولاية (إيلينوي)

حيث توجد مدينة (القاهرة)، وهي قاهرة أخرى غير قاهرتنا النيلية طبعا..... و.........
لماذا أحكى هذه التفاصيل؟ لا بد أنني جننت إذن..
إن (عبير) لا تعرفها، وما لا تعرفه (عبير) لا يهمنا في شيء.. لأن هذه هي (فانتازيا) حيث كل شيء من صنع (عبير) ومن بنات أفكارها، وحدائق مخيلتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان راقدا هناك على ضفة النهر، واضعا ساقا على ساق، مضطجعا على ظهره، تمسك أصابع قدمه الحافية بغصن شجرة ربط خيطا إلى طرفه على سبيل الصنارة، وتدلي باقي الخيط في الماء بحثا عن سمكة لا وجود لها.. بالطبع ما كان ليمسك الصنارة بيديه لأنه لا يريد إفساد استرخائه، والاسترخاء يحتاج إلى يدين تحت رأسه على سبيل الوسادة كما تعلمون..
جواره كان صبي أكبر سنا يلتهم أجاصة مسروقة، ويضع على رأسه قبعة من القش..



جواره كان صبى أكبر سنًا يلتهم أجاصة مسروقة ، ويضع على رأسه قبعة من القش ..

يقول ذو القبعة لصاحبه:

- لم لا نهرب يا (توم) للعمل قراصنة؟ إن حياتهم كلها مغامرات..

يرد (توم) وهو يتثاءب:

- إن ملابسي لا تصلح للقرصنة، ثم إن عينى سليمتان للأسف..

وعلى الفور تذكرت (عبير) هذا المشهد الخالد: (توم صوير) الصبى المشاكس وصاحبه (هاكلبري فان) [1].. هذان من شخصيات الأدب الخالدة، وربما أهم شخصيتين في الأدب الأمريكي بأسره، وكما أن الأدب الروسي كله خرج من عباءة (جوجول) فإن الأدب الأمريكي خرج من عباءة (مارك توين).. هذا هو ما قاله أدباء أمريكيون لهم ثقلهم..

لاحظت (عبير) وهي تقف عن كثب من الغلامين أنها صارت أقصر قامة، وأنها ترتدي قبعة

مزركشة الحواف بالدانتيل، وأن ثيابها صارت ملائمة للعصر - الذي هو أواخر القرن التاسع عشر - وإن كانت أقرب إلى المريولة.. وكانت قدماها دقيقتين محشورتين في حذاء أنيق..
هذه هي الحقيقة: إنها أصغر سنا.. لا بد أن عمرها الآن عشرة أعوام أو أكثر قليلا..
ترى من أنا؟ وما اسمي؟ سؤالان بريئان لكنهما عسيرا الإجابة، ومن السخف توجيههما على كل حال.. إن (المرشد) الأحمق ينسي كثيرا في الآونة الأخيرة..
لكن (توم) - شكرا له - أنقذ الموقف، إذ وثب على قدميه صائحا:
- (بيكي تاتشر) هنا؟! يا لها من مفاجأة!
هنا وجدت الكلمات تنساب على شفتيها:
- (توم صوير)! أيها الفاسد المتلاف! سأخبر المعلم أنك تصطاد السمك هنا مع (هاكلبري فان)!
بدا الرعب على وجه (توم)، والخجل على وجه (هاك).
فالحقيقة هي أن قرية (هانيبال) كلها كانت تعتبر (هاكلبري فان) إثما يمشي على قدمين، ولو أمكن إعدامه لكان هذا أنسب.. إن أباه هو سكّير القرية، وهو لا يهتم بإرساله إلى المدرسة أو الكنيسة، ولا يعرف أبدا لأين يذهب ابنه، ولا يسأله عن وجهته، والصبي الوحيد في (هانيبال) الذي يملك الحق في عدم انتعال حذاء هو (هاكلبري فان)..
باختصار: كان الصبي يملك كل ما يدعو الصبية الآخرين لحسده والإعجاب به، وكل ما يدعو الآباء لكراهيته والرغبة في خنقه..
ولهذا كانت تهمة اللعب مع (هاكلبري فان) جريمة شنعاء.. جريمة تستحق الإعدام دون محاكمة..
صاح (توم) في هلع محاولا اللحاق بها:
- (بيكي)! لا تفعلي! إن عندى فارا ميتا مربوطا في خيط، ولسوف أعطيك إياه..
في شمم هزت كتفيها:
- بل سأفعل!
- سأفك أربطة يدي لأريك إبهامي المتقرح.. هذا مشهد لا يجب أن يفوتك!
- لقد رأيت ما هو أفضل.. والآن وداعا!

وفي كبرياء ابتعدت، عالمة أن (توم) يهيم بها حبا، ولن يخنقها كي تصمت بالتأكيد.. إن (بيكي) هي نقطة الضعف الوحيدة في حياة (توم).. المحبوبة القاسية المتعالية، التي لا تمنحه لحظة رضا نفسي واحدة..
والأمر الذي كانت تعرفه جيدا بدورها، هو أنها لن تخبر أحدا.. لماذا؟ لأنها تميل بدورها إلى (توم)..
هل يحتاج هذا إلى ذكاء؟
حب الأطفال! يا له من شيء قاس! يا له من شيء عذب! يا له من ألم حارق لذيذ! قليلون كتبوا عنه برقة وشفافية (مارك توين) وهو يتحدث عن حب (توم) ل (بيكي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان ذلك الرجل أشيب الشعر، كث الشارب، ذو النظرات الحادة ينتظرها في طريق العودة لدارها..
يرتدي بذلة بيضاء، ويدس يديه في جيبه، ويدخن السيجار، وعلى شفتيه تتلاعب ابتسامة مشاكسة نوعا..

- مرحبا يا فتاة!
قالت في كبرياء رافعة رأسها:
- معذرة.. ولكن أمي قالت لى ألا أكلم الغرباء، وأعتقد أنك غريب يا سيدي.. لهذا اسمح لي..
بدا واثقا من نفسه، غير راغب في التراجع..
- أنا لست غريبا.. هي قريتي، وهذا هو عالمي.. يمكن القول دون حذر إنني هو (توم صوير) نفسه.. باختصار أنت ضيفة لدى ومن أبسط قواعد اللياقة أن تردي على..
للحظة نظرت إليه في شك، ثم تذكرت شكله:
- أنت؟ أنت؟
- (مارك توين)! أنا هو شخصيا..
- تبدو لي أكثر قبحا مما تصورت..
وضع يده على كتفها في بساطة، ومشى الهوينى جوارها:
- لأن الأحداث الجسام تركت ندوبها في وجهي..
لقد كنت في الماضي وسيما، حتى إن النساء كن لا يعرفنني إذ يحسبنني نهارا مشمسا!
ثم شهدت موت شقيقتي وابني وابنتيّ وزوجتي لقد شاب شعر رأسي في دقائق، وأنا أرى احتراق القارب الذي كان شقيقي على ظهره.. بعد هذا كله أعتقد أن جمال الشكل ترف لا أستأهله..
- وبرغم هذا لم تكف عن السخرية؟
- بل من أجل هذا لم أكف عن السخرية..
وسعل قليلا، ثم أردف
- إنني أضحك كي لا أنتحر كما يقول (فولتير)..
وقد صار مملا أن نعرف في كل مرة أن أعظم الساخرين كان يحمل حزن الأكوان في قلبه.. وحين تغزر الدموع قد تتجمد الشفتان في ابتسامة مريرة..
سألته وقد رقت لكلماته:
- إن لك اسما طويلا معقدا على ما أذكر؟
- اسمي الأصلي هو (صمويل لانجهورن كليمنز)..
لكن (مارك توين) هو اسم اخترته لكتاباتي الساخرة، وهو مصطلح من مصطلحات الإبحار في المسيسبي معناه (علّم على اثنين).. ربما لا تعرفين أنني قضيت صباي مرشدا على ظهر قارب بخاري في (المسيسبي)، ولقد عشقت هذا النهر وأحببته كما أحببت كف يدي.. وإن كان تعلم تضاريسه شديدة التعقيد أمرا شديد العسر في بدايته [2]..
كانت قد وصلت إلى منزل عتيق - لكنه فاخر - أدركت دون جهد أنه منزلها.. قال لها (مارك توين):
- هذا هو منزل القاضي (تاتشر) أبيك.. إنه رجل مهم، لكنه بالنسبة لـ (توم صوير) أعظم رجل في الكون.. ألم ينجبك؟ هذا إنجاز مذهل قائم بذاته..
سألته وهي تتحرر من يده على كتفها:
- لماذا ظهرت لي الآن؟
بصق على الأرض بعد ما سعل.. (وكان مارك توين من هواة السعال والبصاق كما وصفه معاصروه) وقال:
- أردت أن أخرجك من حيرة وجدتك فيها، وأن تبتعدي عن الإسباني (أنجان جو) فهو يحب إخراج أحشاء أعدائه بمطواة صدئة!

بدا لها الأمر مخيفا.. فهناك أسباني يخرج أحشاء ضحاياه بمطواة - وهذا الأسوأ - صدئة.. لا تذكر أنه كان في القصة شيء كهذا..

لكن (توين) ابتسم، وقال:

- بل كان فيها شيء كهذا.. لكنك نسيت..

مشكلة قصصي الدائمة هي افتقارها للدافع السردي ووحدة الموضوع، حتى بدت لبعض النقاد كأنها مجموعة من المشاهد تم جمعها في كتاب واحد.. هذا رأيهم ولا ألومهم عليه.. إن كتبي سلسلة من الملاحظات الساخرة التي تسمو لمرتبة الشعر، لكنها خالدة وستظل كذلك متحدية أي إطار أدبي.

لم تفهم أكثر كلماته، فهى بلهاء كالنعامة، ثم إنها الآن أقرب إلى سن الطفولة، لهذا حيته تحية المساء وهرعت إلى دارها..

إن الأحداث ستفصح عن نفسها، وما سيكون سيكون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- شاهدان ..

من هو (أنجان جو)؟
في الحقيقة لا بد أن نعود للوراء بضع ساعات كي نعرف القصة كلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إلى أين ذهب (توم) و (هاك) عند منتصف الليل؟
- طبعا ذهبا إلى المقابر..
- لماذا ذهبا ما دامت هذه ليست قصة رعب؟
يا له من سؤال! طبعا ذهبا للتخلص من السنط!
- هل يوجد لدي (توم) سنط؟
- طبعا.. فهو يلعب بالضفادع كثيرا!
- لماذا حملا قطة ميتة معهما؟
- يا له من سؤال! كيف يمكنك التخلص من السنط ما لم تكن معك قطة ميتة؟!
حسب القواعد الطبية لقرية (هانيبال) توجد عدة طرق للتخلص من السنط في اليدين:
(أ) الماء الباقي بعد المطر: يمكنك أن تغمس يدك
في جذع شجرة قد تجمع فيه ماء المطر.. تلصق ظهرك بجذع الشجرة وتدس يدك فيه، ثم تمشي إحدى عشرة خطوة مغلق العينين، ولا تكلم أحدا، حتى تعود إلى دارك..
(ب) طريقة حبة الفول: هنا يمكنك تقسيم حبة الفول إلى فلقتين، ثم تلطخ الفلقة الأولى بالدم المتخلف من السنطة.. عند منتصف الليل ادفن الفلقة في مكان يتقاطع فيه طريقان، واحرق الفلقة الأخرى.. الفكرة هنا هي أن إحدى الفلقتين تحاول اللحاق بالأخرى وبالتالي تزول السنطة
- لا أدري كيف في الواقع..
(ج) طريقة القطة الميتة: تذهب للمقابر ومعك قطة ميتة.. بشرط أن يكون مجرم قد دفن في اليوم السابق.. انتظر حتى منتصف الليل حين يجيء الزبانية ليأخذوا جثة المجرم، عندها تقذف القطة في إثرهم وصحْ: يا شياطين اتبعوا الجثة.. يا قطة اتبعي الشياطين.. يا سنطة اتبعي القطة!
ويقال إن هذا علاج ناجع جدا..
وكما قلنا آنفا كان (توم) يملك الكثير من السنط في يديه، ولديه هدية ثمينة هي قطة ميتة متصلبة، وهناك شرير دفن اليوم بعد شنقه هو (هوس ولیامز)..
كان الإغراء قويا، وبرغم أن الغلامين كانا يرتجفان رعبا من زيارة المقابر عند منتصف الليل، لكن أحدهما لم يجرؤ على الاعتراف بهذا.. إن أشجع الشجعان في التاريخ هم - ببساطة - أناس خافوا أن يبدوا جبناء..
الآن نعرف لماذا اتجه (توم) و (هاك) إلى المقابر في تلك الليلة السوداء كقلب كافر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الظلام دامسا، وكان حفيف الأشجار مع الريح شبيها بهمس الموتى.. لكن الغلامين تماسكا، وشقا طريقهما ليتواريا خلف شجرة عملاقة..

قال (توم) وهو ينتفض:
- لا أحب هذا كثيرا.. لو أن (هوس وليامز) رفع رأسه الآن من التراب وقال شيئا ما!
صاح (هاك) وهو يتصور الفكرة، فيوشك شعره على أن يشيب:
- أوه يا (توم)! لا تقل هذا أرجوك.. ولا تدعُ الرجل إلا مسبوقا بلقب (السيد).. قد يثير هذا جنونه!
وطفق الغلامان ينتظران.. رؤية المشهد الرهيب القادم..
وعند منتصف الليل بدقة؛ برزت لهما ثلاثة أطياف تتقدم في إصرار نحو قبر (هوس).. كان أحد الأطياف يحمل مصباحا يستهدي به.
وهنا غدا من العصير منع (هاك) من الصراخ أو الجري..
- (تووم)! لقد جاءوااااااا!
- اصمد يا أحمق لا تثر حنقهم!
ثم دقق النظر أكثر فأدرك أن القادمين بشر.. بشر عاديون مثلي ومثلك.. وبالتحديد هم (إنجان جو) الإسباني الشرس الذي وفد إلى القرية منذ عام، و (روبنسون) طبيب القرية، و (ماف بوتر) العجوز، وهو رجل طيب لا يقل نفقا ولا يزيد ضررا على كرسي المطبخ..
ساد الصمت إلا من الأنفاس الثقيلة للصبيين ثم إن (توم) فهم ما يحدث.. إن (إنجان جو) يقوم بنبش قبر الشرير، الذي دفن هاهنا اليوم والغرض معروف.. كل الأطباء يحتاجون إلى جثث لسبب غير مفهوم.



ثم إن (توم) فهم ما يحدث . . إن (إنجان جو) يقوم بنبش قبر الشرير ، الذى دفن ها هنا اليوم . .

هنا حدثت مشادة بين الطبيب والإسباني الشرس..
مشادة حول الأجر.. لو لم يدفع الطبيب المزيد من الدولارات فإن الجثة ستبقى حيث هي..
وسرعان ما تتطور المشادة إلى معركة حقيقية بالأيدي، يحاول (ماف بورتر) في أثنائها التدخل، لكن الطبيب يوجه له لكمة بارعة تفقده الوعي.. وتسقط مدية (بورتر) من جيبة إلى الأرض
وفي اللحظة التالية يدرك الطبيب مدى حماقته.. قليلون هم من يجرءون على استفزاز (إنجان جو) ثم لا ينالون طعنة بمديته الصدئة في قلوبهم، ولم يكن الطبيب ممن يشذون عن القواعد..
اخترقت المدية صدر الطبيب... فقال شيئا ما لا معنى له، ثم سقط إلى الغبار، ولفظ أنفاسه..
وقف (إنجان جو) يرمق نتيجة عمله، ويفكر.. ثم قر قراره، ففتح كف (ماف بورتر) ودس المدية بها..

ثم ساعد البائس على الإفاقة..
فتح (بورتر) عينيه ليجد مشهدا مخيفا حقا، وتساءلت عيناه فأجابه (بورتر) أن نعم:
- نعم.. لقد قتلت الطبيب يا صديقي دون أن تشعر!
راح (بورتر) يرتجف ويبكي كالأطفال:
- أنا لم أرد هذا قط.. الطبيب رجل طيب وأنا أطيب منه.. (إنجان) يا صاحبي.. قل لي إن هذا غير صحيح!
- بل هو صحيح وحدث..
- أنت لن تخبر به أحدا.. هه؟..
وجثا على ركبتيه عند قدمي الرجل، وراح يلثم أطراف سرواله القذر متوسلا:
- أنت ملاك، ولسوف تبقي سري هذا..
في غطرسة ساعده الإسباني على النهوض، وبتسامح وعده أنه لن يفشي السر، ثم طلب منه أن يفر..
طبعا فر (بورتر) على الفور، وكعادة الحمقى ترك مديته جوار الجثة واختفى..
وبعد دقائق ساد الصمت الرهيب.. لم يعد من شهود على هذه المأساة إلا ضوء القمر الأزرق البارد الأرستقراطي..
هذه كانت البداية لكنها لم تكن النهاية قط..
لنا الآن أن نتصور الصبيين يهربان مذعورين عبر الحقول المظلمة نحو قرية (هانيبال) الهادئة الآمنة..
كاد قلباهما يحلقان بلا أجنحة، وبدا لهما كم أن أقدامهما عديمة النفع بطيئة جدا.
وأخيرا حين استطاعا التوقف؛ كانا يلهثان كمصاصي الدماء، ويجرعان الهواء كغواص نفد الأوكسجين منه.
قال (توم) أخيرا:
- يجب أن نصمت كقبرين.. إن (إنجان جو) قد رتب الأمر كي يتهم (ماف بورتر)، ولو عرف أن هناك شاهدين فلسوف تكون نهايتنا، ولن ينقذنا شيء.
يجب أن نقسم قسم الصمت! يجب أن نكتب بالدم عهدا على أن نظل صامتين!
وكذا ثقب (توم) إصبعه بدبوس - لم يستعمل النحاس؛ حتى لا يتسمم كما قال - وكتب تعهدا على لوح من خشب، يقسم فيه أن يمسك لسانه عن الثرثرة..
لم يكن (هاك) يعرف كيف يكتب أول حرف من اسمه، لكن (توم) علمه سريعا كتابة الـ (H) والـ (v)
وطبقا لهذا القسم يسقط ميتا أول من يتكلم منهما..
وكان أن نبح كلب ضال قربهما في هذه اللحظة فارتجفا ذعرا، فإن معنى هذا في (هانيبال) لا يتغير:
الموت القريب لمن يسمع نباح الكلب..
قال (هاك) وهو في أسوأ حالات الذعر:
- يقال إن كلبا غريبا نبح عند بيت (جوني ميلر) منذ أسبوعين، فهل تعرف ما حدث بعدها؟
- تصور أن أحدا لم يمت هناك؟!
هز (توم) رأسه في حكمة، وقال:
- هذا لا يدل على شيء.. إن (جوني ميلر) سيموت حتما ولا مفر أمامه.. هذا ما يقوله الزنوج،

وهم يفهمون في هذه الأمور يا (هاك)..
ويلاحظ القارئ دائما أن (توم) يلعب دور أستاذ الجامعة المثقف بالنسبة ل. (هاكلبري فان)، بينما يلعب الأخير دور كل شيء آخر بالنسبة ل. (توم)!
إن (هاك) يمثل ل. (توم) كل أحلام الحرية والشيطنة والهروب من المدرسة والخفاء.. بينما يمثل (توم) ل. (هاك) المثقف الغامض العليم بكل شيء..
والخلاصة هي أن علاقتهما لا تنفصم أبدا ولن تتكرر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لنا الآن أن نتصور ما أصاب القرية الهادئة حين وجدت جثة (روبنسون) الطبيب في المقابر، وهو حادث لا يقع إلا كل 476 سنة في العادة، وصار حديث الساعة وكل ساعة، وسلوى النساء، ولعب الأطفال، وهمس الكهول إذ يحتشدون في الحانة.. حتى إن ناظر المدرسة اضطر لاعتبار يوم اكتشاف الجثة إجازة رسمية!
طبعا كانت مدية (ماف بوتر) جوار الجثة، وكان هذا كافيا كي يصدر الحكم العام عليه بالإدانة..
وأخيرا جاء دور (بورتر) ليجيء به رجال العمدة، باكيا مولولا ككلب يقتادونه إلى الرمي بالرصاص، وراح يردد:
- لم أقتله يا رفاق! أقسم بشرفي إنني لم أقتله!
هنا تساءل أحد الواقفين في ذكاء:
- وهل اتهمك أحد بقتله؟!
وبدا للجميع أن هذه الرمية موفقة أصابت مقتلا..
- إذن اسألوا (إنجان جو) عما حدث!
وفي ثقة وهدوء يثيران الإعجاب راح (جو) يحكي قصته الزائفة، وهي كذلك فعلا بالنسبة لصديقينا فحسب.. لشد ما أثار ذهول الصبيين أن يحكى امرؤ قصة كاذبة بهذه الثقة، وتوقعا أن تهبط صاعقة من السماء لتقتل الإسباني لكن هذا لم يحدث..
ما هبط بالفعل على الصبيين كان شعورا قاتلا بتأنيب الضمير.. إن تزوير الشهادة إثم، لكن كتمانها لا يقل إثما..
وفي الليل قضي (توم) ليلة نابغية حقا، وراح يتقلب ويعوي ويعرق، وتقول العمة (بولي) مربية (توم) إنه راح يردد:
- دم! دم!
هكذا وجد (توم) نفسه في مأزق، فلم يكن يعرف أنه يتكلم في أثناء النوم، وكان يحسب هذا مقصورا على الفتيات!
في الصباح التالى زعم أن أسنانه تؤلمه، وربط فكيه بشدة برباط محكم، واعتاد أن ينام بعد ما يتأكد من أنه عاجز عن التثاؤب..
لكن (سيدني) الصغير المشاكس الذي ينام معه، اعتاد أن يفك الرباط قليلا؛ ليسمع ما يقول (توم) من كلام مخلوط..
وحتى هذه اللحظة لا يعلم أحد حقيقة ما سمعه (سيدني) ليلا..
كان (توم) يزداد تعاسة، ومقتا للحياة حتى دنا يوم المحاكمة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- شاهد واحد..

في ليلة المحاكمة، ذهب (توم) مع (هاك) إلى السجن، وقد حملا بعض التبغ وأعواد الثقاب ل (ماف بورتر) البائس..
كان (بورتر) كما قلنا لطيفا ككرسي الحمام، وديعا كفرشاة الأسنان، وقد شكرهما كثيرا، ومع كل عبارة شكر كان خنجر ينغرس في ضمير الغلامين..
قال (هاك) للرجل:
- أنت رجل طيب، وقد أعطيتني نصف سمكة ذات مرة..
في أسى قال (بورتر) وهو يريح ذقنه الشحمية على إطار النافذة:
- لقد كنتما شديدي العطف عليّ، كنتما الصديقين الوحيدين ل (بورتر) التعس الذي اعتاد أن يعين صبية القرية على صيد السمك، ويصلح لهم ما فسد من ألعابهم.. واليوم تجاهلني الجميع ما عداكما.. هلما!
أدخلا أيديكما الصغيرة النظيفة التي لم تتلوث عبر قضبان النافذة، علنى ألمسها وألثمها وأمنحها عرفاني.. قربا وجهيكما من النافذة كي أراهما، وأعرف آخر صديقين لى على ظهر الأرض!
الخلاصة أن كلماته كانت منتقاة بعناية، لتجعل الصبيين في أتعس حال.. وشعر كل منهما بأنه جدير بأن يدخل التاريخ مع كل الجبناء والرعاديد والخونة..
حتما سيكون لهما موضع متميز هناك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح تحتشد القرية كلها عند المحكمة..
جاءوا ب (بورتر) مكبلا بالأغلال، فراح كل المحظوظين الذين استطاعوا دخول المحكمة يرمقونه في فضول.. ومن بينهم (إنجان جو) طبعا..
ثم جاء القاضي فأمر باستدعاء الشهود..
الشاهد الأول رأي (جو) يغتسل عند النهر صبيحة الجريمة..
- هل يريد محامي (بورتر) استجواب الشاهد؟
في وقار قال المحامي:
- لا يا سيدي..
الشاهد الثاني رأي مدية (جو) جوار الجثة
- هل يريد المحامي استجواب الشاهد؟
- لا يا سيدي!
الشاهد الثالث رأى (بورتر) يخرج ليلة الجريمة ومعه مديته..
هل يريد المحامي سؤال الشاهد؟
- لا يا سيدي!
هنا علت الهمهمات.. هذا المحامي تنقصه الحماسة، أو ربما هو متحمس جدا لإعدام موكله..
حتى القاضي رمقه في شيء من اللوم..
هنا نهض المحامي - أخيرا – وقال:
- اليوم يا سيدي القاضي لن ندافع عن (بورتر)

باعتباره كان ثملا حين ارتكب الجريمة، بل سندافع عنه باعتباره لم يفعلها أصلا، وإني لأرجو استدعاء (توماس سوير)!
امتلأت القاعة بالدهشة، حتى لم يعد فيها موطئ
القدم، ودخل (توم) مع الحاجب وساقاه توشكان على التخلي عنه..
- أين كنت يا (توماس) في منتصف ليلة 17 يونيو؟
- في المقبرة!
- من كان معك؟
- (هاكلبري فان)!
- وماذا كان معك؟
- ق.. قطة ميتة!..
هنا تعالت الضحكات، بينما بدت ضحكة متوحشة على شفتي (إنجان جو).. وكالعادة قرع القاضي المنضدة مرارا؛ ليعم الهدوء الجلسة..
وانطلق لسان الصبي، فراح يحكي القصة كلها كيف أغشي على (بورتر)، ثم انتهز (جو) الفرصة ليولج مدية (بورتر) في صدر الطبيب.. و.....
كانت الدقيقة التالية مثيرة جدا، لأن (إنجان) وثب ليهشم زجاج النافذة، ويختفي ركضا مبتعدا عن المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا وصلت القصة إلى ذروتها..
لقد نال (توم صوير) كثيرا من الشهرة والمجد، لكنه نال كذلك قدرا لا بأس به من الرعب..
فالإسبان حاروا الدماء مولعون بالانتقام.. (إنجان جو) إسباني وحر طليق.. وهذا يعني...
ولقد آمن كثيرون - ومنهم (مارك توين) المؤلف نفسه كما رأينا - أن (توم) قد صار بطة ميتة..
صار تاريخا كما تقول التعبيرات الأمريكية، التي تحمل جميعها المعنى ذاته..
كانت هذه هي الظروف التي لا بد من إيضاحها قبل أن تسترسل في قصتنا هذه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (بيكي تاتشر) / (عبير) على علم بكل هذه الأحداث، وكان أبوها هو القاضي الذي حاكم (بورتر).. لهذا بدا لها (توم) شخصا أسطوريا لا يمكن أن تصدق وجوده ما لم تره.. إنه بطل جسور لا يهاب المقابر ليلا، وينقذ الأبرياء من حبل المشنقة الملتف حول أعناقهم..
لكن أباها قال لها على مائدة العشاء:
- إن (توم) بطة ميتة..
وأردف مفسرا وهو يلتهم باقي الخبز:
- (إنجان جو) مختف.. وقد جاءنا من المدينة رجل بارع في هذه الأمور، ممن يحملون عدسة مكبرة، ويبحثون عن (دليل ما).. لكنه فشل في العثور على الإسباني.. لقد صار (توم) بطة ميتة..
وكانت هي تسمع هذا التعبير أكثر من اللازم هذه الأيام..
ازداد قلقها على (توم).. لكنها في الآن ذاته ازدادت تعلقا به

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت ذاته كان (توم) يلعب لعبة مختلفة معها في المدرسة بدأ يتجاهلها، وينصب شباكه حول طفلة أخرى، تدعى (آمي لورانس).. ومن أجل (آمي) هذه كان يتمرغ في الوحل، ويغرس الدبابيس في ظهور التلاميذ الجالسين أمامه، ويأتي بحركات مضحكة بعضلات وجهه.. كان يستعمل كل سحره الرجولي ليبهر (آمي)..
أثار هذا حنق (بيكي) وصممت أن تنتقم..
كانت (بيكي) الآن تشعر بكل مشاعر الأنثى البالغة التي تخلى عنها حبيبها، بمجرد أن نجح في الحياة، وهو نفس شعور المرأة البسيطة الفقيرة التي تتزوج من طالب، وتعينه على التفوق والنجاح، فإذا ما صار عضوا فعالا في المجتمع بدأ يفتش عن زوجة أخرى تليق به، وتناسب مكانته الاجتماعية الجديدة..
صممت (عبير) / (بيكي) على الانتقام، وكانت تلك المدرسة من المدارس التي يترك فيها التلاميذ كتبهم عند الانصراف لمنازلهم..
لذا توجهت في ساعة مبكرة إلى الصف، حيث لم يكن من شهود عليها سوى ضميرها، وفتحت كتاب (توم) وأفرغت عليه زجاجة مداد كاملة! إن ضمير المرأة التي جرحت كبرياؤها ينام غالبا..
الآن تم عقاب (توم).. وحان وقت الاستمتاع ما دامت وحدها..
كان المدرس - مستر (دوبينز) - من الذين تمنوا أن يكونوا أطباء، لكنهم فشلوا.. لهذا كان يحتفظ بعدة كتب طبية في صوانه، ولم يكن أحد يطلع عليها أبدا، وكان يحرص على ألا يراه أحد وهو يطالعها؛ باعتبار هذا هو سره الصغير..
اليوم جاءتها الفرصة على طبق من فضة..
تسللت إلى صوان الرجل ومدت يدها مرتجفة إلى أحد هذه الكتب، وفتحته
كان مطبوعا بألوان بهيجة على ورق مصقول.. واستطاعت أن ترى رسوما تشريحية جميلة حقا لجسم الإنسان....



هنا شعرت بمن يدنو منها فأجفلت : وكانت الكارثة ؛ لأن
صفحة الكتاب التى كانت تمسك بها تمزقت

هنا شعرت بمن يدنو منها فأجفلت..

وكانت الكارثة؛ لأن صفحة الكتاب التي كانت تمسك بها تمزقت..
كان القادم هو (توم صوير) ذاته..
أعادت الكتاب إلى الصوان وانفجرت باكية:
- يا لك من نذل يا (توم صوير)! كيف تسمح لنفسك بالتسلل لاستراق النظر إلى ما أفعله؟
هز يديه في حيرة:
- وكيف كان لي أن أعرف أنك هنا؟ وأنك تفعلين هذا؟
في عنف ضربت الأرض بقدميها:
- أنا أكرهك كالجحيم! أعرف أنك ستشي بأمري،
وتخبر المدرس بسري.. رباه! سأتلقى علقة رهيبة..
أنا التي لم أضرب من قبل في المدرسة! افعل ما تريد، واعلم أنني أكرهك بشدة.. أكرهك! أكرهك!
وفارقت المكان غاضبة..

شعر (توم) أولا بالذنب.. فقد نجحت الفتاة بمعجزة ما في جعله يبدو بمظهر الآثم الوحيد في الموضوع، بينما لا ذنب لها..
بعد قليل شعر بحيرة.. يا لحماقة الفتيات! ما الذي يخجلها من أن تضرب في المدرسة؟ أي مجد في ألا يتلقى الإنسان علقة من المدرس أبدا؟ عسير أن يفهم هذا..
لكنها ستتكلم.. بالتأكيد ستتكلم.. الفتيات لا يستطعن إخفاء سر.. وستكون هي الواشية لا (توم).
وتمنى لو كان هو المسئول عن الموقف، فهو اعتاد هذه الأمور ويعرف كيف يعالجها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت اللحظات التالية رهيبة حقا..
لقد جاء المعلم متعكر المزاج كعادته، وبدأ التفتيش على الكتب.. كان كتاب (توم) الملوث بالحبر هو بداية الغيث في هذا اليوم.. ولقد تلقى علقة شنيعة عقابا له (كالعادة في الواقع)..
لكن (توم) لم يشعر بأنه مظلوم.. لقد أنكر.. لكن هذا لم يكن عن إيمان، بل على سبيل التعود، وبينه وبين نفسه لم يستبعد أن يكون قد سكب المداد على كتابه دون أن يفطن لذلك..
الآن يجلس المدرس إلى منضدته.. يستدير ليفتح صوانه، ثم يمد يده يختار كتابا يطالعه، بينما التلاميذ يكتبون دروسهم..
يده تقع على الكتاب الطبي إياه.. لا بد من هذا..
لحظة.. ثم ارتفعت يده حاملة الورقة الممزقة..
وتحولت عيناه إلى عيني مذءوب أتم التحول من فوره.. عينان ترغمان أيا من كان على إرخاء عينيه..
- من فعل هذا؟!
ساد صمت رهيب
- من فعل هذا؟
لا أحد يرد طبعا.. لكن وجه (عبير) كان يصرخ بوضوح: أنا فعلتها.. أنا فعلتها!
- هل فعلت هذا يا (جاك هاربر)؟
هز الصبي رأسه في رعب أن لا..
- هل فعلت هذا يا (بنيامين روجر)؟
- ل.. لا يا سيدي!
وببطء مضى الدور المخيف
(ربيكا تاتشر).. هل فعلت هذا؟
الآن صار الهلع سافرا على وجه الفتاة، وراحت ترتجف من رأسها إلى أصابع قدميها.. لم يكن ينقصها سوي تكرار السؤال حتى تتكلم..
(ربيكا تاتشر).. هل فعلت هذا؟ أجيبي وأنت تنظرين لعيني!
في الثانية التالية، وقبل أن تحدث الكارثة وتتكلم..
وثب (توم) صائحا:
- أنا الذي مزقت الكتاب يا سيدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- حب وحرب...

كان العقاب جديرا بسرده في قصص الأساطير ليتخذ مكانه بجدارة إلى جوار عقاب (تانتالوس) و (سيزيف) و (برومثيوس)، وأرجو ممن لا يذكرون هذه الأسماء أن يراجعوا الكتيب السابع، لأن شرح هذه الأمور يطول..
لكننا - كما نتوقع - نعرف أن (توم) كان سعيدا راضيا، وكان العقاب المرير يزيد عذوبة الساعات القادمة، حين يلقى (بيكي) على انفراد، وتخبره كم هو نبيل نادر الطراز حقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حبهما ينمو.. ربما لأن (عبير) في الحقيقة أكثر عاطفية من (بيكي تاتشر)، وهي برغم تصرفاتها وصغر سنها تحمل قلب فتاة في العقد الثالث من العمر..
والبداية واحدة دائما:
يدخل (توم) الصف متأخرا، فيسأله المدرس في فظاظة:
. أين كنت يا صبي؟!
فيرد (توم) في ثبات:
- كنت مع (هاكلبري فان)!
فتتسع عينا المدرس لهول الاعتراف:
- أنت تمزح يا صبي.. هلا كررت ما قلت؟
- كنت مع (هاكلبري فان)!!
وهو الاعتراف الذي يأبى المدرس تصديقه.. ربما لو قال (توم) إنه كان مع القراصنة يذبحون طاقم سفينة تجارية، أو لو قال إنه كان يرقص حول النار مع قبائل (الزولو)، لكان المدرس على استعداد للتصديق أو التسامح، لكن (هاك فان) هو أسوأ من يمكن تمضية الوقت معه في القرية، وليكونن العقاب حاسما:
اذهب لتجلس مع البنات!
والمقعد الوحيد الخالى عند البنات هو المقعد المجاور ل (عبير)، وهكذا يهرع الغلام مسرورا منتشيا ليمضى اليوم مع محبوبته الشقراء..
رباه! يا لها من ساعات تمضي كالحلم، وهما يعيشان في عالم رومانسي:
يلاعبان (قرادة) حية تزحف على خط بالطبشور رسماه على المنضدة أمامهما.. يتكلمان عن الفئران الميتة، التي يربطون ذيولها بالخيوط ويديرونها حول رءوسهم.. يتحدثان عن الضفادع والأسنان المخلوعة، وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة أكثر بهجة..
في أحيان معينة يشعر (توم) بشيء كفكي حوت يطبق على أذنه، ويرغمه على الوقوف.. عندها يدرك أن المدرس تسلل من خلفهما ليرقب لعبهما بالقرادة، وذلك دون أن يشعرا طبعا..
ويكتم التلاميذ ضحكاتهم، بينما المدرس يرمق (توم) بنظرات سفاكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (توم) في عالم خيالي من النشوة، ولكم دار حول البيت الجميل، عند أطراف القرية أملا في

أن يراها ولو شبحا من بعيد..
أحيانا كان رأس أشقر يتبدى في النافذة، ثم تسقط وردة حمراء هناك جوار السور..
كان (توم) يتظاهر بأنه يلعب ألعابا بهلوانية، ثم يمد أصابع قدمه العارية ليلتقط الزهرة، ويتواثب مبتعدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اليوم هو يوم الأحد..
والأحد إجازة بالطبع هناك، لكن الأطفال يذهبون المدارس الأحد، ومشكلة (توم) الدائمة هي حفظ (موعظة الجبل) لأن عقله كان يهيم في آفاق الفكر الإنساني بأسره..
المشكلة الثانية: هي اضطراره لغسل وجهه.. وكانت طريقته الفعالة هي أن يدخل الغرفة المعدة للاغتسال، فيشمر عن ساعديه ثم - دون تأنيب ضمير – يسكب الماء على الأرض..
ويعود ليجفف وجهه بالمنشفة لاهثا.. لكن (ماري) سرعان ما تكتشف هذا وتأمره بالاغتسال جديًّا..
يغسل وجهه على عدة مرات.. وفي كل مرة يفتضح الأمر؛ لأن الأجزاء القذرة من وجهه تبدو أكثر وضوحا..
المشكلة الثالثة: هي قيام (ماري) بتصفيف شعره، وكان (توم) يمقت الشعر المصفف ويجده سببا لتعاسة لا تنتهي، فهو علامة لا ريب فيها على الأنوثة.
المشكلة الرابعة: هي ارتداء الحذاء.. ولم يكن (توم) يرتدي الحذاء إلا يوم الأحد.. وكان يؤمن بأن الأحذية أجهزة تعذيب لا أكثر..
وهكذا، متأنقا كعريس، يخرج (توم) إلى مدارس الأحد..
كان في هذا الصباح يدبر مؤامرة صغيرة ترفعه درجات في عيني (بيكى) الحسناء..
وإليك التفاصيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المدرس في مدرسة الأحد قد وضع سياسة مقايضة لجعل تلاميذه يحفظون عددا أكبر من آيات الإنجيل.. كل من يحفظ آيتين ينال بطاقة زرقاء.. عشر بطاقات زرقاء تتيح لك الحصول على بطاقة حمراء عشر بطاقات حمراء تتيح لك بطاقة صفراء.. عشر بطاقات صفراء معناها الحصول على نسخة أنيقة مجلدة بعناية من الإنجيل..
كان معنى هذا أن الحصول على هذه الجائزة يحتاج إلى حفظ ألفي آية من الإنجيل، وهو ما لم ينجح فيه سوي (ماري) وصبي من أصل ألماني.
لكن (توم) في هذا الصباح.. كان يملك خطة محكمة..
وقبل أن تبدأ المدرسة، راح يجرى بعض المقايضات مع الصبية:
- هل تعطيني بطاقة زرقاء مقابل شص صنارة؟!
- هل لديك بطاقة صفراء، مقابل قرادة حية؟
وراح الصبية بسذاجة يقبلون هذه العروض السخية، دون أن يفكروا لحظة في مغزى هذه المبادلات..
وبدأ درس الأحد، وتراص الصبية في مقاعدهم..
بينما جاء المرشد المستر (والترز)، وهو رجل أمين مهيب الطلعة لكن (مارك توين) لا يتركه في

حاله كالعادة، فيقول إن (ياقته صلبة تصل لأذنيه، مما يرغمه إلى النظر للأمام دوما، والدوران بجسده كلما التفت إلى شخص ما، ثم إن مقدم حذائه مقوس لأعلى حسب قواعد الأناقة في ذلك العصر) ....
لقد راح يلقي موعظته، وهو يحاول تهدئة الضجة الناجمة عن المشاحنات بين الصبية.
لكن مدرسة الأحد اليوم تختلف..
هناك ضيف فوق العادة، هو القاضي (تاتشر)، أبو (بيكي) شخصيا.. وربما حمو (توم) فيما بعد لو سارت الأمور كما لن تسير أبدا..
حقا لم يصدق جل التلاميذ أنهم يرون رأي العين رجلا بهذه الفخامة والهيبة، وحبسوا أنفاسهم.. تمني كثير منهم أن يزأر كما يفعل في المحكمة، لكنهم عدلوا عن هذا خوفا.. إنه رجل مهيب عظيم كثير الأسفار..
لقد رأى العالم (والعالم بالنسبة لهؤلاء الأطفال هو المدينة التي تبعد عشرة كيلومترات)، وباختصار هو إنسان يجل عن الوصف..
راح المشرفون يركضون هنا وهناك، وتسريت المشرفات بين صفوف الأطفال يوجهن لهم الكلمات خلسة.. وبالأخص كانت هناك حالة حذر شديدة من (توم).. إنه كفيل بإفساد كل شي..
كان المستر (والترز) مستعدا لدفع أي ثمن مقابل أن يجد الصبي الألماني الذي فاز بعشر بطاقات صفراء..
وفي هذه اللحظة ظهر (توم) حاملا تسع بطاقات صفراء وتسعا حمراء وعشرا زرقاء!
وارتجف المستر (والترز) وفكر:
- مستحيل! عقل هذا الصبي عاجز عن حفظ ثلاث آيات من الإنجيل.. قد يطير النعام وقد يبيض الفيل، لكن (توم) هذا لن يستطيع حفظ ألفي آية! ثمة سر في الموضوع!
السر كان أصحاب (توم) يعرفونه جيدا..
والآن عرفوا مدى سذاجتهم وحمقهم..
وهو ذا (توم) يتألق كنجم.. يلتمع كمياه نهر في الشمس.. يتقدم في مهابة ليصافح سعادة القاضي المحترم..
وكل هذا أمام عيني (عبير) الفخور.. (عبير) التي لا تعرف شيئا عن حيل (توم) وأساليبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي وقار جدير بقاض ربت الرجل على رأس الصبي الذكي، وابتسم:
- يا لك من رجل لطيف.. ما اسمك؟
تلعثم الصبي، وأحس أنه موشك على الإغماء:
- (ت.. توم)!
- أظن أن هذا ليس اسمك كاملا.. إن اسمك هو؟
- (ت.. توماس صوير)..
ابتسم القاضي في وقار وجلال، وقال:
- أنت لن تشعر بأسف على هذا الجهد الجهيد إن المعرفة شيء لا يقدر بمال، وهي التي تصوغ عظماء الرجال.. والآن يا (توم) أنت لن تبخل علينا بمعرفة تعلمتها.. إنك تعرف أسماء الحواريين، فهلا ذكرت لنا اسمي أول اثنين منهما؟

هنا بدت نظرة الغباء على وجه (توم)، وأحس مستر (والترز) بأن قلبه قد كف عن العمل للأبد..
ليت الأرض تنشق وتبلعنا.. إن (توم) – ببساطة لا يستطيع الإجابة عن سؤال كهذا..
قال (والترز) مرغما على الكلام:
. هلم يا (توم).. أنت لن تتركنا ننتظر..
أخيرا تكلم (توم):
- (داود) و (جوليات)!
وهي إجابة رائعة.. لكن المشكلة هي أنها لا علاقة لها بالموضوع البتة..
وكانت الكارثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- دعنا نبتعد..

كانت الأمور تسوء باستمرار بالنسبة ل (توم)..
فهو لم ينس قط هذه المهانة التي لاقاها أمام أبي (بيكي)، باعتباره نصابا أفاقا.. أما عن وضعه في المدرسة فيزداد سوءا باضطراد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح شعر بأنه غير راغب في الذهاب إلى المدرسة.
هذا شعور طبيعي ينتاب كل تلميذ أحيانا، لكنه ينتاب (توم) دائما، وللمرة الأولى شعر بأنه يفضل البقاء في الفراش على رؤية (بيكي).
إنه يتمنى لو وجد مرضا ما في نفسه.. راح ينقب عن مرض صالح فلم يجد.. ثمة آلام مغص خفيفة قد يستطيع بشيء من التركيز أن يزيد منها.. لكن بعد قليل تلاشى الألم تماما..
الأسنان؟ لا.. لا! إن العمة (بولي) تعالج الأسنان ببراعة.. إصبع قدمه المتقرح؟ لم لا..
بدأ يئن.. ويئن.. لكن (سيدني) الصغير النائم معه في الحجرة لم يسمع..
زاد (توم) من صوت أنينه.. والآن فقط أدرك أنه يتألم حقا لا تمثيلا.. راح يهز (سيدني) بقدمه فأفاق هذا مذعورا
- (سيدني)! (سيدني ي ي ي!)..
نهض (سيدني) ووثب ليتفحص جسد المعذب الصغير..
- ماذا بك يا (توم)؟
- إنني موشك على الموت.. إنني أتألم!
في لهفة صاح (سيدني):
- لا تخف يا (توم)! لن تموت! دعني أناد العمة (بولي)..
- فات الأوان.. فات الأوان! قل لها إنني سامحتها.. وسامحت الجميع.. قل لها إنني آي ي ي ي ي!!
هنا هرع الغلام طيب القلب مولولا لينادي العمة..
جاءت هذه مذعورة، وقد صدقت التمثيلية أولا، ثم بشيء من التدقيق أدركت أن كل هذا تمثيل بارع فحسب..



جاءت هذه مذعورة ، وقد صدقت التمثيلية أولاً ، ثم بشيء من التدقيق أدركت أن كل هذا تمثيل بارع فحسب ..

- هيا.. انهض يا غلام!

هنا أيضا كف (توم) عن الأنين.. وغمغم:

- لقد كان ألما لا يطاق.. ألما أنساني ألم أسناني!

وكانت هذه هي زلة اللسان، التي ما كان لها أن تحدث.. وعلى الفور أرغمته العمة على فتح فيه.. حقا كان هناك شيء ملخلخ هناك..

- هات الخيط وقطعة فحم مشتعلة يا (سيدني)!

صاح (توم) محتجا وهو يحاول الفرار:

- أرجوك يا عمتي لا تخلعيها! هذا قد يمنعني من الذهاب للمدرسة!

- لن يمنعك!
وعلى الفور بدأت ممارسة طب الأسنان بقواعد قرية (هانيبال)..
أولا: ربطت الخيط إلى السن، ثم ربطت الطرف الآخر إلى عامود السرير، بحيث صار الخيط مشدودا..
وفجأة قربت قطعة الفحم من وجه (توم) فتراجع للوراء، وعلى الفور سقطت السن متدلية من طرف الخيط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صار (توم) نجم المدرسة لهذا اليوم، لأن فجوة السن في فمه جعلت منه أستاذا بارعا في البصق..
وكان يبصق بطريقة جعلت الصبية جميعا يغبطونه!
جاءت (بيكي) / (عبير) لتهنئه على أسلوبه المتميز في البصاق، ثم همست وهي تمشي إلى جواره:
- إن أبي لا يطيقك.. ولو عرف أنني أتكلم معك لقطع رقبتي!..
والحقيقة هي أن (توم) صار منبوذا آخر.. ليس إلى درجة (هاكلبري فان) الذي كانت الأمهات يمقتن حروف اسمه، لكنه صار خطرا داهما على تربية أي طفل..
قال لها (توم):
- (بيكي).. إن جل ما أصبو إليه هو أن يأسف الناس من أجلي، لأنهم لم يحبوني حين كان هذا بوسعهم.. آه لو كان بوسع المرء أن يموت بعض الوقت!
التمعت عيناها نشوة..
فمن منا لم يفكر في حلم الموت المؤقت هذا؟ كانت (عبير) تقضي الساعات تتخيل نفسها على فراش الموت، بينما يحتشد كل معذبيها حولها.. كل مدرسيها وأخوها وعمها.. كلهم يتوسلون إليها ألا تموت، وأن تسامحهم.. لكنها تدير وجهها للجدار وتلفظ أنفاسها دون كلمة واحدة...
..
يا للروعة! لسوف يقتلهم الندم بعد فوات الأوان، ولسوف يعتصر الأسى قلوبهم على الجوهرة التي امتلكوها، فتركوها تسقط في الوحل..
كانت ككل الناس تعتقد أنها مظلومة، وأنها لم تنل حقها في الحياة، وكانت حين تكتب لا تخط إلا عبارات مسطحة، توحي بالعذاب والمعاناة على غرار (أنا ناقوس يدق في عالم النسيان) و (في قلبي جرح لا يندمل)..
لهذا.. بدت لها فكرة الموت أو الاختفاء رائعة بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد ساعات الدراسة التقى المعذبون الثلاثة:
(توم) و (بيكي) و (جوهاربر)..
كل منهم كان يحمل قروح المجتمع الذي لم يفهمه قط..
(توم) هو ما نعرفه عنه.. و (بيكي) ضربها أبوها لأنها تلعب مع (توم)، أما (جوهاربر) فقد ضربته أمه؛ لأنه شرب قشدة اللبن كلها، وقال (جو) إنه يأمل أن تندم أمه على أنها عاملته بهذه القسوة؛ حين تدرك أنها قذفته إلى خضم الحياة ليتعذب ويتحطم قلبه ويموت!
وانفجر الثلاثة دامعين كان (توم) قد قرر أن يغدو قرصانا وأن يثير الرعب في البحار، ثم يعود

يوما إلى (هانيبال) ليوقف معذبيه النادمين الباكين جنبا إلى جنب.. ويعفو عنهم!
لكن (جو) كان راغبا في أن يصير ناسكا في كهف سحيق، يموت من شدة البرد والحرمان والجوع..
قالت (عبير):
- أما أنا فأفضل أن أموت بداء صدريّ، وأن أسعل كثيرا جدا وأتعذب!
هنا قال (توم) وقد حزم أمره:
- الفرار! لا سبيل إلا الفرار....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى أين؟
إن جزيرة (جاكسوب) - الواقعة على بعد ثلاثة أميال - وسط نهر (المسيسبي) - تصلح بالتأكيد.
إنها مغطاة بالغابات، ويمكن أن يضموا إليهم (هاكلبري فان) الشريد، فلا فارق لديه بين مكان وآخر..
الموعد؟
منتصف الليل طبعا.. سيلتقي الجميع هنا، وينطلقون إلى مأواهم الجديد.. ولكن بعد أن يتزود كل منهم ببعض المؤن من داره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منتصف الليل..
يقف (توم) على المرتفع يرمق مكان اللقاء..
كان يخشى ألا تجيء (بيكي)، فلئن كان المجيء عسيرا على الغلمان فهو بالنسبة لفتاة مستحيل..
لكن ها هو ذا يتبين (عبير) بثيابها الأنيقة المميزة آتية، تحمل كيستا من الخبز واللحم المقددين..
(هاك) قادم.. ثم (جو)..
وأخيرا يتجهون إلى طوف خشبي مربوط إلى جانب النهر.. قال (توم) وهو يتحسس خنجرا لا وجود له:
لو تكلم أحد أصحاب الطوف، فاغرسوا النصال حتى المقابض، لأن الموتى لا يتكلمون!
جلس الأصدقاء الأربعة على الطوف، فتولى اثنان التجديف على حين وقف (توم) عاقدا ذراعيه إلى صدره شامخا، والهواء يطير خصلات شعره، وشعر (بيكي) الجالسة عند قدميه..
وفوق الرءوس تلتمع النجوم، واضحة كما لم يرها أحد منذ العصر الجليدي وحتى اليوم..
الطوف ينساب ببطء، قرب القرية الغافلة..
لو أنهم يروننا! لو أنهم يعرفون أننا ذاهبون لحتفنا وعلى ثغورنا ابتسامة مريرة..
أخيرا تدنو الجزيرة..
ويمكنهم بدء الفصل الجديد من حياتهم هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربطوا الطوف إلى الشاطئ، وبحثوا في الظلام حتى وجدوا شراعا يصلح لتغطية طعامهم..
- أشعلوا نارا والتهموا عشاء من اللحم، وأقسموا على أن يبقوا ها هنا أبدا..

وقال (هاك) وهو يلتهم قطعة لحم أخرى:
- إنني لم آكل ما يكفيني.. لهذا أحسب هذه الجزيرة جنتي، وكفاني أن أحدا لن يجيء ها هنا ليطاردني..
قال (توم) وهو يأمل في الظفر بإعجاب (بيكي):
- الآن نضع خطتنا للاستيلاء على السفن وحرقها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- غريق؟؟

ما الذي يفعله القراصنة كواجب؟
- أوه.. لا شيء سوى العربدة، يستولون على السفن، ويسرقون كنوزها ويدفنونها في جزر مخيفة، ثم يقتلون كل من على ظهر السفن..
- والنساء؟
- لا يقتلون النساء أبدا.. لأن القراصنة نبلاء غاية النبل، والنساء يكن جميلات دائما!
- وماذا عن ثياب القراصنة؟
- أوه.. إنهم يرتدون ثيابا فاخرة مزدانة بالماس والذهب..
وتأمل (هاك) ثيابه في بؤس.. القبعة المهشمة على رأسه، والسروال ذا الحمالات الذي يتمسك بحمالة واحدة لا أكثر، بينما يتدلى طرفا السروال ليكنسا الأرض من الغبار.. وقدماه متسختان دائما..
قال في هم:
سأحاول أن أبدأ القرصنة بثياب عادية، ثم أتأنق بعدما نصير أثرياء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نام الجميع، لكن (بيكي) كانت تبكي في صمت: أولا: هي كانت خائفة من الظلام، وقد بدا لها أن هؤلاء الثلاثة لا يشعرون به على الإطلاق..
ثانيا: هي كانت تشعر بتأنيب الضمير.. فالهرب من دارها لم يبدُ لها فكرة محببة إلى هذا الحد..
كما أنها استعارت بعض الطعام من مطبخ أسرتها، والاستعارة تعبير مهذب للدلالة على السرقة..
لقد جلب الصبية بدورهم بعض الحلوى والخبز من بيوتهم.. لكن السرقة تتعلق عامة بالأشياء الثمينة كاللحم لا الحلوى، وهي قد سرقت لحما لذا هي تستحق الجلد..
وخطر لها أن هذه كلها مغامرة من مغامرات (فانتازيا)؛ لكنها قالت لنفسها إنها تعيشها، بكل تفاصيلها، فلا مهادنة هنالك..
إن من يسرق في (فانتازيا) يسرق في أي مكان آخر..
ولا تدري متى غلبها الهم فنامت..
لكنها راحت تأمل أن يكون النهار أكثر إبهاجا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان النهار أكثر إبهاجا بالفعل..
صحت على الندي يغمر الكلأ، وهواء نقي نظيف يتسابق إلى رئتيها، فتنشقه في جشع..
اليوم لن تكون هناك مدرسة، ولا مدرس، ولا غسيل وجه بالماء البارد..
الفراش يحط على أوراق الشجر والزهور، فيما يتصايح طائر في مكان فيرد عليه آخر، ويمارس نقار الخشب عمله في نشاط، ودودة تزحف ببطء فوق غصن شجرة بادئة يومها في كسل..
صحا الصبية جميعا، وهرعوا إلى النهر، وإنهم ليصخبون صخبا مريعا في مرحهم، ولا يكفون عن سكب المياه على بعضهم، ومحاولة إغراق بعضهم للبعض.. ولم تطفئ حماستهم حقيقة أن

الطوف قد رحل!
في هذا الوقت انهمكت (عبير) باسمة في إعداد الإفطار لهم، ثم راحت معهم إلى النهر تمارس حظها في صيد السمك..
في الحقيقة؛ لم تكن هذه الجزيرة في حجم (أستراليا).. بل هي أبعد الأشياء عن ذلك.. إن هي إلا مساحة ضيقة تقارب ثلاثة أرباع الميل المربع، ولم تبعد عن الساحل سوى بضعة أمتار.. لكنهم - كالعادة - تصوروا أنهم يرتادون الأرض التي غفل عنها الزمن..
قضوا اليوم ما بين استكشاف للجزيرة، ووثب فوق كتل الخشب العطنة، وصيد سمك، وركض..
وفي المساء جلسوا يتسامرون حول النيران..
الحق أنهم بدءوا يتساءلون: هل هذا كل شيء؟
واستشعروا بعض السأم من هذه الحياة، التي استنفدت أسرارها في يوم واحد..
كان هناك.. كذلك شعور ممض.. شعور كاسح بالحنين إلى ديارهم.. لكن العهد الصامت الذي أبرموه منع كلا منهم من التذمر أو إعلان هذا.. خجلوا من إعلانه..
تبا لمن يقول هذا أول مرة!
كان هذا هو العهد.. ولقد بروا به حقا..
بوم! بوم!
لم يدركوا وجود هذا الصوت إلا متأخرا، وفهموا أنهم كانوا يسمعونه من فترة طويلة دون أن يتنبهوا.
- ما هذا؟
- كأنه الرعد.....
- بل كأنه مدفع ينطلق..
وهرعوا إلى الشاطئ الذي يمكنهم منه تبين القرية.. كان الظلام قد أرخى سدوله، لكنهم يرون زحاما من القوارب في النهر، ويرون الكثير من القوم، ويرون سحابة دخان تنبعث من طرف يتأرجح هناك..
لقد غرق أحدهم في القرية..
وكان البحث عن غريق في القرية له أسلوبان مؤكدان:
الأول: إطلاق المدفع على الماء، ليعين الجثة على الخروج..
الثاني: ملء بضعة أرغفة من الخبز بالزئبق وإلقاؤها في الماء.. الفكرة العلمية هنا هي أن الزئبق يحب جثث الغرقى، وسرعان ما تحتشد الأرغفة حول جثة الغريق!
تساءلت (عبير) التي كانت تسمع الموضوع لأول مرة:
- ولكن.. كيف يعرف الخبز الجاهل مكان الغريق؟
في ثقة قال (توم):
- لا بد من أن تخبريه بشيء معين قبل أن تلقيه في الماء! إن الخبز لا يستطيع التصرف وحده دون تعليمات..!
وساد الصمت:
كل منهم يفكر في اسم الغريق الذي فقدته القرية.
لكن (توم) عرفه ببساطة، وفي فخر قال:
الغريق يا شباب.. هو نحن!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لشد ما شعر الأطفال بفخر وحبور!
لقد تحققت أمنياتهم، وظفروا بالحلم الذي اشتهوه طويلا.. إن القرية قد وجدت الطوف، وسرعان ما بدأ الهم والغم وانهمرت الدموع من أجل الأبرياء الثلاثة.. بل الأربعة إذا ما عددنا (هاكلبري فان) بريئا..
الآن تبكي العمة (بولي)، وتدمع عينا المدرس، ويرتجف القاضي (تاتشر)، وتولول أم (جو)!
وكلهم يود لو عاد الملائكة الصغار مرة أخرى!
وجلس الصبية حول النار شاردين يصطلون.. وأعدت لهم (عبير) بعض السمك المشوي..
الحق أن الحنين إلى الوطن، ومعرفة ما يفعله الأهل ظل يتلاعب في النفوس، ولكن كلا منهم كتم مشاعره...
إن حياة القرصنة طويلة شاقة.. فكيف يكون الحال لو سئموها بعد يوم واحد؟
وبعد قليل نام الجميع..
ولم يعرفوا أن (توم) كانت لديه مشاريع معينة لهذه الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- دعنا نعد..

تحت أستار الظلام ينطلق (توم) عائدا إلى القرية..
يسبح كما هو جدير بقرصان شجاع له قلب أسد متجها إلى الشاطئ الذي خلا من القوم، بعد ما قنطوا من العثور عليه..



فيتسلل كالثعبان إلى الداخل .. ثمة شمعة مضاءة .. والنافذة الصغيرة المطلة على غرفة نوم العمة تسمح له باختلاس النظر ..

ها هو ذا يصل لداره، فيتسلل كالثعبان إلى الداخل..

ثمة شمعة مضاءة.. والنافذة الصغيرة المطلة على غرفة نوم العمة تسمح له باختلاس النظر؛ لمعرفة سر الاجتماع الصغير المنعقد..
نعم.. كان هناك اجتماع ما بين العمة و (ماري) وأم (جو)...

وأصاخ السمع ليعرف ما يقال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقول العمة (بولي):
- لم يكن (توم) شريرا.. كان شقيا طائشا كأي طفل...
وتقول أم (جوهاربر):
- تصوري! لقد ضربت (جو) أمس؛ لأنه شرب القشدة! فليرحمنى الله على ما عاملته به من قسوة!
لقد كان ملاكا، وأنا كنت سأتخلص من القشدة على كل حال!
ثم انفجرت في البكاء، وصاحت من بين عبراتها:
- لو أن الزمن عاد لاحتضنته، وباركته على ما فعل.. لكننا حمقى لا نعرف متى ولا كيف سنفقد من نحب!
قالت العمة بدورها:
- منذ أسبوع أمسك (توم) القطة، وسكب دواءه المر في حلقها، وحين لمته على ذلك قال لي:
إن القطة لا عمة لها! وكان يعني أن الدواء الذي يؤلم القطة لا بد أن يؤلم طفلا مثله.. لقد قرصت أذنه بعنف وقتها، ويحي من عجوز قاسية القلب! فلم يسمع البائس مني إلا تأنيبا ولوما..
وانفجرت في بكاء حار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

.. كان (توم) هنا قد وصل لذروة التأثر..
ولم يكن مصدر التأثر إلا شعوره بالأسى والشفقة على نفسه، وعلى القسوة التي عومل بها، حتى كاد ينفجر باكيا..
تماسك وراح يصغي لكلمات (ماري):
- لقد أدرك القوم حين وجدوا الطوف أن الأطفال غرقوا.. وأن البحث عن الجثث يعتبر جهدا لا طائل من ورائه.. لهذا انتهت عمليات البحث.. وقد اقترح القس أن تعقد صلاة الجنازة لهم يوم الأحد القادم، لأن معني هذا مرور أربعة أيام على اختفائهم..
انتحبت العمة والأم لدى سماع هذا، بينما ارتجف (توم) رهبة.
وبعد قليل انصرفت (ماري) وأم (جوهاربر)....
وبقيت العمة وحدها صامتة.. إن هي إلا بضع كلمات ترددها من آن لآخر تعبر عن شوقها وحبها الشديد للفقيد..
وأخيرا رقدت في فراشها، وراحت تتنهد بقوة..
سكنت حركتها، واستطاع أن يدنو منها..
بحذر انحنى ولثمها على جبينها العجوز المنهك، ثم تسلل بهدوء مغادرا الغرفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان الليل يلفظ آخر أنفاسه، حين بلغ (توم) معسكرهم على الجزيرة، وكان الصبية نائمين..
وكذلك (بيكي)..

جلس لاهثا يرمقهم شاعرا بمدى بطولته وشجاعته..
إن لديه الكثير مما يحكيه في الصباح، أما الآن فالنوم هو خير ما يستطيع عمله..
ونام نوما هانئا بلا أحلام....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صحا كان الصبية يتحدثون عن بيض السلاحف البحرية المدفون في الرمال.. وكان العدد يتراوح من خمسين إلى ستين بيضة في كل حفرة، وبيض السلحفاة البحرية صغير، أصغر حجما من (عين الجمل)، لكنه شهي المذاق للغاية..
دنا منهم (توم) وأخبرهم بكل شيء سمعه أمس، وبالطبع أضاف كثيرا من التوابل إلى مغامرة أمس، حتى بدت كأنها عمل خارق من أعمال الشجاعة لا يجسر عليه أحد..
لم يصدق الأطفال الثلاثة كل هذا.. إنهم قد صاروا غرقى، وكل القرية تبكي عليهم حزنا، بل - الأروع - ستقام صلاة جنازتهم بعد أيام!
راحوا يركضون فوق الرمال ويتواثبون، ثم يركضون في الماء الضحل ويتقاذفون برذاذ المياه.. وسرعان ما تغسل المياه الرمال البيضاء الدافئة عن أجسادهم فيعودون للشاطئ ليتزودوا بمزيد منها..
وعندما جاءت الظهيرة صنعوا سيركا صغيرا، وراحوا يمارسون فيه ألعابهم البهلوانية.
جاء العصر، وبدا أنهم استنفدوا كل ما لديهم من حيل وألعاب، وارتجفت (عبير) وهي ترمق النهر..
كلا.. ستقاوم هذا الحنين.. لن تكون أول من يضعف.. وقتها سيقول الجميع.. هذا هو ديدن الفتيات..
إن علامات الضعف موجودة.. على كل حال، ويمكنها أن تجدها بسهولة لدى (جو هاربر).. سيكون هو أول المهزومين، وقتها سيكون حلم الجميع العلني هو العودة..
كان (توم) يحاول جاهدا أن يثير حماس الأصدقاء للبقاء هاهنا أكثر، فكان يخبرهم عن كنوز القراصنة التي تعج بها الجزيرة، لكن هذا لم يثر حماستهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما توقعت (عبير) كان (جو) أول من جأر بالشكوى:
- فلنعد لبيوتنا! كفانا هذا!
في خيبة أمل صاح (توم):
- البيت معناه أنك لن تستطيع السباحة..
- أنا لا أهتم بالسباحة.. إنكم فقط ترغمونني على هذا..
هنا قرر (توم) أن يستخدم المادة (ب) من كتاب (استثارة حماس الأطفال) غير المكتوب:
- اذهب يا (جو).. فأنت مجرد طفل يشتاق لأمه! لكن (جو) لم ينخدع، ولم ينكر ذلك لحظة:
- نعم مشتاق لأمي.. أما أنت فلا تفهم هذا؛ لأنه لا أم لك!
وفي إصرار قلما شاهده (توم)، رآه الأخير يرتدي ثيابه غير مكترث بإلحاح أحد..
وأثار رعب (توم) كذلك أن (هاك) كان صامتا..
كان يرمق (جو) في حسد ووله.. فقرر أن يحمسه قليلا:
- لقد قرر الطفل العودة لأمه.. ليكن! أما نحن فقرصانان شجاعان وسنبقى هنا أبدا مع (بيكي)!

لكن (هاك) كان صامتا، وصمته لا يبشر بخير..
بعد هنيهة قال متحاشيا نظرات (توم):
- الحق أن الوحدة هنا لا تطاق يا (توم).. دعنا تلحق ب.(جو)!
صاح (توم) في عصبية
- وأنت أيضا؟ يا لك من طفل! حسن! يمكنك أن ترحل.. يمكنكم الرحيل جميعا.. إن هذه الجزيرة تناسب (توم صوير) وتناسب (بيكي).. ولسوف أعود لكم يوما ما، وقد صرت من زعماء الهنود الحمر..
سأدخل القرية مرتديا كامل ثيابي، ولسوف أطلق صرخة الحرب فيرتجف أعدائي ذعرا، ويندم أمثالكما!
دون كلمة أخرى ارتدي (هاك) ثيابه، وابتعد..
فقط قال دون أن ينظر للوراء:
- لسوف تلحق بنا سريعا يا (توم)!
- لن يحدث!
دنت (عبير) / (بيكي) من (توم)، واعتصرت ذراعه بيدها.. ومرتجفة همست وهي تنظر للأفق..
- فلنعد يا (توم).. معهما حق!
نظر لها معاتبا، ثم غمغم:
- أنت لا تفهمين.. هل يمكنك العودة بعد ما كان؟
ماذا سيفعل بك القاضي العظيم (تاتشر) لدى العودة؟
لن يجلب لك الحلوى بكل تأكيد!
ارتجفت للفكرة.. إنه نفس شعور جند (طارق بن زياد) حين أحرق سفنهم، وأخبرهم أنه لا مناص من الاستمرار، فقد انقطعت سبل العودة..
همست وأسنانها تصطك:
- ماذا سيحدث لنا؟:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس ما ينتظرهما بهيجا بالتأكيد..
فما إن انصرف (هاك) حتى تكون الهواء بلون رمادي منذر بالخطر، وشعر بثقل أنفاسهما مع شيء من التوتر..
كأنما في الجو كهربية استاتيكية تفعم روحيهما اضطرابا..
وبالفعل ومض نور لحظي ثم تلاشي.. وبعد ثوان ومض بشكل أقوى.. ثم جلجل هزيم الرعد كأنها الطبول ترتطم في أجواز السحب، وارتجف الطفلان هلعا..
لم يعد الأمر نذير عاصفة..
إنها بالفعل عاصفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- فرار الى فرار..

الغيث! الغيث!
لكم تختلف الشخصية الغربية عن العربية في حبها للمطر والبرد.. إن العربي اشتق اسم (الغيث) من لفظة (الغوث)، وحين يستريح يشعر بأن شيئا قد (أثلج صدره)؛ بينما لا يحب الغربي المطر إلى هذا الحد، بسبب اختلاف طبيعة الطقس في بلادهم.. إن المطر هناك كارثة حقيقية كاسحة جارفة.
لشد ما ارتجف الطفلان هلعا، وهما يركضان بحثا عن مأوى في جزيرة لم تصمم لذلك أصلا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يدوي هزيم الرعد.. ثم تبرق السماء معلنة قدوم رعد آخر..
وانهمر السيل مدرارا حتى ليبلل عظامهما نفسها حتى الشراع الذي داروا به المؤن طار مبتعدا إلى النهر، وراحا يرتجفان ويحاولان التماسك..
ترى إلى أي حد تستطيع الأشجار التماسك، وهي تميل بجذوعها مهددة بأن تقتلع؟
ترى كيف - وبأية معجزة - يمكن إشعال نار يصطليان بها؟
يا لها من ليلة! يا لها من ليلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الصباح هدأت العاصفة، وعاد السلام والصمت إلى الجزيرة.. صحيح أن أشجارا كثيرة قد هوت، وصحيح أن المعسكر قد صار تاريخا، لكنهما- على الأقل - ما زالا حيين..
همس (توم) وهو يفتش تحت كتلة خشبية ساقطة:
- النار! هل يمكن أن؟
وبالفعل.. استطاع بمعجزة أن يجد نارا خافتة حية تحت الكتلة، حيث كانت نار معسكرهم..
بحث و (عبير) عن بعض قطع الخشب الجافة، واستطاعا أن يعيدا الحياة إلى الزهرة الحمراء..
الآن فقط صار بوسعهما أن يجففا ثيابهما، وأن يظفرا ببعض الدفء
وقالت (عبير) وهي تحاول شي قطعة لحم:
- لن نستطيع البقاء هنا أبدا يا (توم)..
- هراء! سنستطيع..
كانا مرغمين على البقاء جالسين، لأن الوحل كان في كل مكان، وما من مكان جاف يمكن النوم فيه..
لكن الطعام والدفء أشعرهما ببعض التحسن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورأته (عبير) قادما من جهة البحر، وقد دس يديه في جيبي سرواله.. وشعره الأشيب المنكوش يتطاير في الهواء البارد..
وشممت رائحة التبغ القوية..

وثب (توم) مذعورا فالتقط غصن شجرة مدببا، وصوبه نحو القادم، وصاح:



وثب (توم) مذعوراً فالتقط غصن شجرة مدبباً ، وصوبه نحو القادم ، وصاح : « قف مكانك ! من أنت ؟ » . .

- قف مكانك! من أنت؟

وضعت (عبير) يدها على ذراعه مهدئة:
- مهلا يا (توم).. مهلا! إنه السيد (صمويل لانجهورن كليمنز)!
لم يثر هذا أية علامة اطمئنان، وقال:
- وما معنى هذا؟
- (مارك توين).. إنه صاحب هذا العالم ذاته!
نفض (مارك توين) بعض رماد السيجار، وقال في هدوء:
- بل وأكثر من هذا يا (توم).. أنت هو أنا في طفولتى! كل مغامرات (توم صوير) هي أحداث طفولتي، وما (هاكلبري فان) إلا (توم بلانكشيت) ابن سكير قريتنا.. ومثلك نشأت يتيما فقيرا، لكني أحوي شيطانا صغيرا تحت جلدي!
- ومن أين جئت؟
ابتسم (مارك توين) من وراء شاربه الكث.

- كله إلا هذا.. من حق مؤلف القصة أن يزور أبطاله متى شاء، ويتنقل في الأماكن بحريته.. لا أحد يطلب مالا من صاحب الفندق إذا أمضي ليلته في أية غرفة أو جناح من فندقه.. قالت (عبير) في كياسة:
- هلا تفضلت بالجلوس يا مستر (توين)؟
- بكل سرور يا صغيرتي، وإن كنت لا أجد موضعا مناسبا للجلوس..
إن هذه البذلة البيضاء مشكلة كما تعلمين..
وبعد لحظة تفكير أخرج مندية عملاقا، وفرشه على الأرض المبتلة ثم جلس ببساطة فوقه..
قال (توم) وهو يسترخي جوار النار:
- معك منديل؟ أنا لم أحظ قط بمنديل، لهذا اعتبرت المناديل علامة على الغطرسة!
- أنا قد صرت ثريا يا (توم).. لن أظل كما أنا للأبد.. لقد صرت أهم كتاب الولايات المتحدة، وهناك دول عديدة تطلبني في جلسات قراءة.. أي أن الجمهور يدفع ما لمجرد أن يدخل مسرحا كبيرا، أجلس أنا على منصته وأقرأ كتبي الشهيرة!
ثم أضاف في مرارة:
- لكن لا أنكر أنني مت فقيرا مدينا.. يبدو أن أمثالي لم يخلقوا للثراء، وقد أضعت مالي في مشاريع لا طائل من ورائها.. واختراعات خيالية اشتريتها..
صاح (توم) في مرارة بدوره (وإن اختلفت الأسباب):
- إذن لم تصر قرصانا ولا لصا عظيما!
- للأسف لا يا بني.. لكن - من ناحية السفر أنا قد رأيت العالم، ولم أكف عن الترحال..
وابتسم ابتسامته الساخرة المألوفة:
- من ناحية القرصنة؛ لم أصر قرصانا بعد لكني صرت أكبر مشاغب عرفه العالم، وسخريتي لا تنتهي من كل ما هو سخيف أو ممل في الحياة..
ويقول كثيرون: إن إسكاتي معجزة..
الحقيقة يا (توم) أنك أنت مشكلة حياتي..
لقد كبرت ونضجت، لكن الصغير المشاغب (توم صوير) ظل هو المسيطر على شخصيتي.. رافضا الخضوع لقيود المجتمع، رافضا الاستسلام لسلطة الآخرين.. وكانت هذه هي مشكلتي الدائمة..
الحقيقة هي أنني كنت دوما أكتب مقالين: أنشر واحدا على الملاء، وأخفى الثاني في درجي.. والثاني دائما ما يضم آرائي الصريحة الصادقة، التي لن يبتلعها أحد..
في شبابي كتبت: لقد عملت مخبرا في المجلس التشريعي وفي مجلس الشيوخ، وهكذا تعرفت أصغر العقول التي خلقها الله، وأكثر النفوس أنانية، وأشد القلوب جبنا!
وفي عام 1861 انضممت إلى الجيش في أثناء الحرب الأهلية، وسرعان ما أثارت فكرة الحرب اشمئزازي، وكتبت أقول: إن تاريخ البشرية هو تاريخ موجز لسفك دماء البشر..
وكتبت (دماء الجندي) الذي أقول فيه:
رب أعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا لتصير أجسادهم شرائح ملوثة بالدماء.. أعنا على أن تغطي حقولهم الباسمة أشلاء قتلاهم، ولنغرق قصف المدافع في طوفان صرخات جرحاهم المتلوين ألما.. ولنخرب بيوتهم بأعاصير من نار، ونحرمهم المأوى، حتي يهيموا على وجوههم وسط الخراب، مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق!
وكتبت ذات مرة أقول:

إن الفساد لم يعم المجتمع.. يوجد فاسد واحد بين خمسين صالحا.. لكن الفاسدين يتحدون دوما فيكون لاتحادهم قوة، تمكنهم من تحقيق أحلامهم..
وهكذا كان من الطبيعي أن أطرد من كل صحيفة عملت بها..
ومن لحظتها قررت أن أتحول إلى آلة لجمع المال، وتزوجت ابنة مليونير، ورحت أكتب لمجرد الكسب..
لكن (توم) الصغير الساخر المشاكس ظل حيا في داخلي، ولم يكف قط عن جعل لساني ينزلق..
كتبت ذات مرة أقول:
الفارق بين الكلب والإنسان، هو أنك لو التقطت كلبا جائعا فأطعمته فلن يعضك أبدا!
لقد كانت حياتي كلها صراعا بين المجتمع وبين (توم صوير) الصغير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألته (عبير) وقد راقت لها كلماته:
- تقول إنك اشتريت اختراعات فاشلة؟ أية اختراعات؟
ابتسم في مرارة، وبصق في النار وقال:
- كل شيء وأي شيء.. لقد خدعني كل المخترعين بسبب طيبة قلبي، ربما ماعدا واحدا لم يستطع خداعي..
- حقا؟ ومن هو ذلك الأحمق؟
- إنه أسكتلندي يدعى (ألكسندر جراهام بل).. كان يريد أن أشاركه ببعض المال من أجل اختراع ينقل الصوت عبر الأسلاك! تصوروا هذا السخف! قلت له إنه يمزح، وإنني لن أبدد مالي على ضوضاء في أسلاك!
- أنت رفضت المشاركة في اختراع الهاتف؟!
- هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تصرفت فيها بحذر.. ولو لم أفعل لصرت مليارديرا..
ثم أطفأ سيجاره، وقال بعد ما سعل مرتين:
- الآن يجب أن نعالج المأزق الذي أنتما فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- مكان آخر..

تساءلت (عبير) وقد عادت لعالم الخيال:
- أي مأزق نحن فيه؟ إن الأمور على ما يرام...
نهض (مارك توين) وأصلح من ثيابه، وقال:
- بالعكس.. إن الأمور سيئة حقا.. والسبب أنت.. لو لم تلحقى ب. (توم) إلى هذه الجزيرة لمضت الأحداث كما رسمتها لها..
كان (توم) سيجيئ إلى الجزيرة مع رفاقه، ثم يظهر في نفس اللحظة التي يتم فيها مأتم دفنه؛ ليحدث انبهارا عميقا، ويغدو الكل مستعدين للتسامح إزاء فرحة كهذه..
أما وقد جعل الحب (توم) يبقى هنا، وجعلك تفرين من آلك..
أما وقد عاد (هاك) و (جو بورتر) إلى القرية؛
فلا بد أن النار مشتعلة هناك، والغضب عامّ عليكما....
لابد أنهم ينتظرون هدوء العاصفة؛ كي يأتوا إلى هذه الجزيرة كي يقبضوا عليكما.. وهو ما يحدث الآن بالتأكيد..
تخيلي ما سيحل بكما من هول، وأي انتقام ينتظركما.. لن يكون الجلد بالسياط هو جل ما سيحدث كما تعلمان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه المرة تقلص وجه (توم)، وبدا واهنا ضعيفا خائر القوي، عاجزا عن الاختيار الصائب..
رباه! وماذا نفعل يا مستر (توين)؟
- اتركاني أفكر.. عليّ البحث عن مخرج آخر..
وراح يذرع المكان أمام عينيهما، وأشعل سيجارا آخر بحثا عن إلهام قصصي مناسب..
في النهاية توقف، وقال:
- لا حل سوى لعب دور (روميو) و (جولييت) إلى النهاية.. سيكون عليكما الهرب إلى مكان آخر..
صاحت (عبير) في رعب موشكة على البكاء:
- مكان آخر؟ أين؟
- حاولي أن تهدئي.. فلم أكن أنا سبب ما حدث..
ثم أردف، وهو يشير إلى الأفق باتجاه لم يتبيناه:
- هناك جزيرة في المحيط يمكنني نقلكما إليها وهناك تنموان معا وتمارسان حياة كحياة (روبنسون كروزو)..
قالت (عبير) في شك:
- لكن هذا يجنح بالقصة إلى شواطئ (البحيرة الزرقاء)!
- لا مفر لى الآن سوى الاقتباس من زميلي في المهنة (ستاكبول).. هل أنتما موافقان؟..
- ما دام لا مفر سوى هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اللحظة التالية كانا يقفان على شاطئ جزيرة وسط المحيط، تتعالى الأمواج من حولها، وتحلق النوارس متصايحة.
كانت هناك بقايا سفينة محطمة.. وكوخ خشبي مصنوع دون براعة، وهيكل عظمي يرتدي ثياب بحار ملقى على الرمال..
قال (مارك توين) وشعره الأشعث يتطاير في الهواء:
- من هنا يمكنكما البدء من جديد.. هل ثمة أسئلة؟
صاح (توم) مذعورا:
- ولكن ماذا سنفعل هنا؟
- يا له من سؤال! تحييان! أنتما أردتما هذا من زمن، وهذه هي الحرية التي يطمح إليها كل طفل.. أنت يا (توم) قد ظفرت بما لم أظفر أنا به قط، وما عشت حياتي كلها أشتهيه، فحاول أن تستمتع بهذه الهبة..
صاحت (عبير) في جزع:
- وما هو مستقبلنا؟
- مستقبلكما هو أن تكبرا هاهنا، وتتعلما كل شيء.. ثم تتزوجا وتنجبا يوما ما..
- ومن يزوجنا؟
ابتسم من وراء شاربه الأشعث، وقال:
- لا مشكلة هنا لك.. ما زال الوقت مبكرا على أسئلة كهذه، ويوما ما سأعود وأجلب لكما رجل دين يزوجكما.. والآن وداعا!
- هل ستعود يا مستر (توين)؟
نظر للسماء الزرقاء في استرخاء، وقال:
بالتأكيد سأعود.. من العسير أن يموت مؤلف في (فانتازيا) كما تعلمون.. أما في دنيا الواقع فقد انتهت حياتي من زمن سحيق..
لقد ولدت عام 1835 عندما كان مذنب (هالى) يعبر الفضاء، وتمنيت دوما ألا أموت، حتى يعود مذنب (هالي).. وبالفعل توفيت عام 1910 في نفس يوم ظهوره!
لقد كانت حياتي كهذا المذنب.. أضاءت وأحرقت ثم انطفأت، لكن روحي تظل معلقة به أبدا
سأعود لكما أيها الطفلان العزيزان بالتأكيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واستدار متجها للبحر..
وقال وهو مستمر في مسيرته:
ثمة مفاجأة صغيرة أحضرتها معكما إلى هذه الجزيرة..
صاح (توم) في حبور:
- حقا؟ هذا لطف منك يا سيدي..
كان (توين) يشق الماء الآن، وقد وصل إلى خصره، وطفت سترته البيضاء على صفحته، بينما هو يواصل الكلام:
- أنتما تعرفان قواعد القصة: لا تترك خيوطا من أي نوع معلقة..
لابد من إغلاق الأبواب كلها؛ حتى لا يحبط القارئ..
هتفت (عبير) محاولة أن تقهر صوت الأمواج:

- ما أعظم لطفك يا سيدي! ما هي هذه المفاجأة؟
الآن وصل الماء إلى رأسه، وهو يصيح:
- إن ما يجعل المفاجأة تستحق اسم مفاجأة، هو كونها مفاجأة!
والآن أختفي كلية تحت صفحة الماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (عبير) في مرح، وهي ترمق الماء الذي التأم على الرجل:
- رجل لطيف حقا!
قال (توم) في لا مبالاة:
- لكنه ليس قرصانا. ولو كان يمثل مستقبلي حقا فأنا غير راغب في الحياة ساعة أخرى! أنا لم أضح بكل هذا كي أصير كاتبا شهيرا.. إن حياة اللصوصية هي ما أتوق إليه!
- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.
- وارتجفت وهي ترمق الماء، وسالت دمعة من عينيها:
- ما كنت أحسب أن نترك وراءنا كل شيء بهذه البساطة.. كل شيء.. قريتنا.. أبي وعمتك والمدرسة و... و.....
- لم يكن لنا خيار.. لقد قررنا أن نفر ولم يعد التراجع ممكنا..
عضت على أناملها في حسرة، وقالت:
- لو أننا عدنا.. فربما تحملنا العقاب ثم يعود كل شيء إلى..
- هل تمزحين؟ إن عقابنا هذه المرة لن يمر دون دماء!
قالت وهي ترمق البحر مفكرة:
- ما هي المفاجأة التي أعدها لنا؟
والمفاجأة كانت - في هذه اللحظة بالذات – تزحف خلفهما حاملة خنجرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- اثنان وقاتل..

إنه ذلك الحافز الخفي، الذي يجعلك تشعر بأن هناك من يطيل النظر إلى ظهرك، فتستدير..
حافز كهذا هو ما جعلهما يستديران، وفي اللحظة التالية رأياه.. (إنجان جو) الإسباني بشحمه ولحمه الشريرين..



كان فى يده خنجر مقوّس شرس المظهر ، وفى عينيه احمرار نيران جهنم . .

كان في يده خنجر مقوس شرس المظهر، وفي عينيه احمرار نيران جهنم، وبين أسنانه النخرة يفخ ثعبان الانتقام.

- (بيكي)! ابتعدي!
وراحا يجريان دون أن ينظرا للوراء..
كان الوغد حافي القدمين، سريعا كالأرانب، لكنك تحتاج إلى لياقة أكثر من اللازم كي تلحق بطفلين في العاشرة من عمرهما، وقد راحا يركضان فوق الرمال الساخنة في سبل متعرجة، حتى

وجدا جرفا صخريا تواريا وراءه، وراحا يلهثان كحيتين..
هتف (توم) ورئتاه توشكان على الانفجار:
- ال.. الإسباني! ماذا جاء ب.. به إلى هـ.. هنا؟
مثله هتفت:
- إن.. إنها المف.. المفاجأة التي أع.. أعدها لنا مستر (توين)!
- و.. ولماذا يحاول (توين) قتلنا؟ إن أول ما سيفعله هذا ال. (جو) هو قطع رقبتي، باعتباري الشاهد ضده في المحكمة..
استردت أنفاسها أخيرا، فقالت:
- إغلاق الدفاتر! إن (توين) بحاجة إلى إغلاق دفاتره ما دام مسار القصة قد تبدل.. لا يمكنه ترك هذا الخيط معلقا.. كل القراء يعرفون أن (جو) سيلاحقك مطالبا بالانتقام.. وهم يرغبون بشدة في معرفة نتيجة اللقاء.. يسمون هذه ب. (نقطة الإشباع)، ولو لم ترد في القصة لسقطت سقوطا ذريعا..
- لكن (توين) يعرف أن هذه نهايتي..
- إن الأديب فيه أقوى من الرجل الشهم..
ونظر (توم) حوله في خيبة أمل:
- أي أمل لنا هنا؟ جزيرة جرداء بلا مخابئ، ولسوف يجدنا (جو) خلال ربع ساعة لو طال عمرنا قليلا..
واستطاعت من مخبئها أن تراه يجول في الجزيرة هائجا كذئب مسعور، لا يكف عن التلويح بخنجره، وطعن خصوم وهميين في الهواء..
لن يمر وقت طويل.. قبل أن يستكشف حاجز الصخور.. وعندها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت حولها مفكرة..
كان حاجز الصخور ينحدر نحو ما يشبه فتحة أحاطت بها النباتات، ولم يكن هذا مخبأ ممتازا.. لكنه يصلح مؤقتا..
قالت ل. (توم):
- هذا كهف.. هل تراه؟
- أراه.. ويبدو أنه مناسب للغاية..
وأمسك بيدها يعينها على نزول الصخور، وبعد دقائق وقفا أمام الفتحة المظلمة يفكران: هل ندخل؟
كانت الرائحة كريهة بالداخل حقا، ولم يجد (توم) سببا يمنع من أن يكون هذا وكرا للثعابين.. لكنه لم يجد مهربا ولا حلا آخر.
في صرامة اعتصر يدها، وشهق.. وبعد ثوان اعتادت عيناهما الظلام، فمشيا يتحسسان خطواتهما وهذه الأشياء التي تحوم حولك، وتوشك على الاصطدام بوجهك، ليست بالتأكيد سوي.....
وطاويط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن خطر الوطاويط في كونها وطاويط..
الخطر في أنها بدت واضحة للعيان، كعمود من دخان أسود يتصاعد كثيفا من فتحة الكهف، وكان لا بد أن تكون ضريرا كي لا تراه.
وبالطبع رآه (إنجان) وترجم الإشارة الدخانية فورا..
تقلصت كفه على الخنجر..
وتلاعبت على وجهه ضحكة متوحشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الظلام همس (توم):
- (بيكي).. ماذا سيحدث؟
- في موقفنا هذا؟
بل في القصة الأصلية.. أنت تعرفينها جيدا..
فكرت في الظلام هنيهة، ثم قالت بذلك الهمس الشبيه بالفحيح:
- كان هناك كهف.. لكننا كنا في نزهة مدرسية وضللنا طريقنا في الظلام، وقابلنا (جو) هناك.. لكننا تمكنا من الخروج، وبعدها قامت القرية بتثبيت باب حديدي على مدخل الكهف.. لم يعرفوا لحظتها أن (إيجان جو) بالداخل.. وحين عدنا إلى الكهف معهم وجدنا البائس ميتا وقد تشبث بالقضبان، ناظرا إلى العالم الخارجي.. لقد حاول البقاء حيا عن طريق أكل الشموع، والتهام بعض الوطاويط التى لم يبق منها
إلا مخالبها، لكنه في النهاية مات جوعا وعطشا..
نهاية دامية تليق به حقا..
فكر (توم) قليلا، ثم قال:
- لقد أعطتني هذه النهاية فكرة.. هل تظنين لهذا الكهف مخرجا آخر؟
- لا.. إنه ضيق ومظلم كقبر..
- وهناك صخرة فوق مدخله.. هل رأيتها؟
- أظن هذا..
- إذن تعالي نخرج الآن سريعا..
وبصرامة جذب يدها حتى كاد يخلعها، وخرجا إلى العراء.. لحسن الحظ كان (إنجان جو) بعيدا يدور
حول حاجز الصخور.
وثب (توم) فوق مدخل الكهف، وأعان (عبير) على الوثب إلى جواره، ثم رقد الطفلان حابسين أنفاسهما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(إيجان جو) يدنو من الكهف، شرسا كثور بري حذرا كأفعى..
نظر لأعلى وتشمم الهواء.. ولوح بخنجره.
ربع ثانية لكنها جمدت الدم في عروق الطفلين..
وسرعان ما دخل إلى الكهف..
- الآن يا (بيكي)!

وتشبثا بالصخور، وبكل ما في ساقيهما من قوة ركلا الصخرة التي فوق قمة الكهف.. تدحرجت الصخرة الثقيلة، ثم هوت في المكان الصحيح تماما..
استقرت على الباب تاركة فجوة صغيرة، تسمح بمرور طفل رضيع لا أكثر..
تعالى صوت الزئير والسباب الإسباني من الداخل..
لقد انفجر البركان الشرس..
- وهمست (عبير) دون أن تعرف لماذا تهمس:
- سيتمكن من زحزحة الصخرة..
- لا
قالها (توم) بثقة، ووقف يرمق المدخل من علٍ:
- لن يستطيع.. إن الصخرة لم تسقط إلا اعتمادا على ثقلها.. أما في وضعها الحالي، فمن العسير على رجل أن يزحزحها..
- سيفتتها بخنجره..
- يحتاج إلى أيام لو كان هذا ممكنا.. وربما يقضي جوعا قبل أن يتمكن من هذا..
أمسكت بيده في رهبة، وهمست:
- أي أننا آمنون!
- أظن هذا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كانا آمنين فمن هذا الرجل ذو البذلة السوداء، القادم من بعيد في تؤدة وثقة، وهو يداعب قلما زنبركيا لا يكف عن (التكتكة)؟
صاح (توم):
- واحد ثالث! هذه أكثر الجزر المهجورة ازدحاما في العالم!
قالت (عبير) وهي تثب إلى الأرض في رشاقة:
- لا عليك! هذا جاء معي!
دنا (المرشد) منهما وتأمل المشهد، ثم قال في رضا:
- لا بأس.. لا بأس.. لقد ذهبت إلى (هانيبال) لأصطحبك يا فتاة، فعلمت أنك في المحيط على جزيرة، في مغامرة شبيهة بقصة البحيرة الزرقاء..
- هو تعديل اضطر إليه المستر (توين)..
بسماجته المعهودة ضحك، وركل صخرة صغيرة:
- لا بأس.. لا بأس.. هاها! والآن هيا بنا!
صاحت في ذعر متراجعة:
- لا! لن أترك (توم) وحده، خاصة لو تحرر هذا الوحش..
ابتسم من جديد:
- تك تتك! أولا: هذا الوحش لن يتحرر.. سيأكل وطواطا أو اثنين ثم يموت جوعا.. ثانيا: (توم) لن يبقى هنا.. لن أترك أهم شخصية في الأدب الأمريكي على هذه الجزيرة القاحلة.. إن (توم) يستمد وجوده من (المسيسبي) ومن قرية (هانيبال)، ولو ابتعد عنهما فلن يعود هو (توم صوير)..
وثنى ذراعه كي تتأبطه (عبير):

- هيا بنا!
مشت معه بضع خطوات فوق الرمال الساخنة، ثم استدار ليقول لـ (توم):
- سآتي لأعيدك بمجرد أن أتخلص من هذه الآنسة!
كان هذا حين أفاقت (عبير) من رحلتها..
وسمعت صوت بكاء ابنتها التي شعرت بالجوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت القصة..
لكن (عبير) لم تمل (فانتازيا) ولسوف تزورها مرارا.
وزيارتها القادمة ستكون لمكان دان جدا: (المعادي).. حيث تنطلق دراجات خمسة أصدقاء ومعهم كلب أسود لطيف..
هل تعرفون من هم؟

(تمت بحمد الله)

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب](#)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) جاءا إلى الوجود في عامي 1876 و1844 على الترتيب....

[←2]

(*) لهواة الأرقام: ولد (مارك توين) عام 1835 وتوفي عام 1910

روايات مصرية للجيب

19

فانتازيا

خمسة منهم !



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (19)

خمسة منهم

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقرى.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوى.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- فانتازيا من جديد..

من جديد سافرت (عبير) إلى أرض (فانتازيا) التي لم تعرف سواها وطنًا ولا أرضًا.. من جديد جلست إلى الجهاز، بعد ما اطمأنت إلى أن الوليد قد نام، والأمور هادئة، ولم يعد ما يمنعها من الاستمتاع بجرعة أخرى من عالم الخيال المترامي؛ الذي هو حق لكل من يعرف كيف يحلم..
كالعادة في الآونة الأخيرة، كان الانتقال سلسًا سهلًا، ولم تدخل في دوامة أضغاث الأحلام الهستيرية، وتصادم أمواج الذكريات..
في لحظة كانت هنا، وفي الثانية كانت هناك..
وها هو ذا (المرشد) يقف بجوار قطار (فانتازيا) المضحك الصغير كألعاب الأطفال، يبتسم في سماجة كعادته، ويداعب زنبرك قلمه دون انقطاع..
كان واقفًا يثرثر مع كهل ملتح مخيف النظرات، ويرتدي بذلة سوداء لا تمت لعصرنا بصلة، وأدركت (عبير) أن الكهل كان يتكلم الروسية.. حيته في فتور من لا يعرف من يكلمه، فهزّ رأسه بدوره وابتسم..
أشار لها (المرشد) كي تدنو أكثر، وقال:
- « تتك تك تك! هذا هو جسبادين (دستويفسكي).. إنه.. »
قاطعته غير فاهمة:
- « جسبادين؟ حسبت اسمه (فيودور) أو.. »
- « جسبادين معناها (السيد) بالروسية.. كما نستعمل ألقاب (مستر) و(مسيو) و(هر) في اللغات الأخرى.. كنت أقول إن السيد (دستويفسكي) يدعونا لزيارة عالمه في القصة القادمة.. »
- « وهل هذا مغر؟ »
« تتك تك تك! من الناحية الأدبية هو مغر، لكن من الناحية الترفيهية هو عرض لا معنى له.. هذا الرجل يدعونا إلى عالم من العقد النفسية والصرع والعلاقات الأسرية المتفسخة، ويتوقع منك أن تستمتعي بهذا كله.. »
- « أعوذ بالله! كأن هذا ينقصني »
- « لكنه يقدمه ببراعة قلما قرأناها لدى أديب آخر.. إن (دستويفسكي) ببساطة هو الأعظم.. مرهق حقًّا قاتم حقًّا، لكنه عبقرى.. فهل تقبلين العرض؟ »
- « طبعًا لا.. يوم أعمل في رسالة دكتوراه في كلية الآداب؛ سأخبرك بهذا.. »
استدار (المرشد) نحو الكاتب العظيم، وبكياسة اعتذر له وشكره:
- « سيباسيبا تافاريش.. »
فهزّ (دستويفسكي) رأسه في خيبة أمل، وابتسم وابتعد ليفسح لهما مجالًا لركوب القطار.. لاحظت (عبير) أن طرف فمه يرجف بلا انقطاع.. ولم تدر سبب هذا..
قال (المرشد) وهو يعينها على الركوب:
- « أنت تعرفين أنه مصاب بالصرع.. وكل انفعال قد يبدأ النوبة »
- « يا حرام؟ دعنا نقبل عرضه! »
- « ليس الآن.. ربما في طريق العودة »
لأن قطار (فانتازيا) كان قد بدأ رحلته الطويلة عبر مملكة الأحلام.
كان القطار يتهادى وسط عوالم لم ترها من قبل، فيها مخلوقات فضائية غريبة تلتهم بشرًا

صارخين، وسحرة من (بيرو) يطلقون تعاويذهم أمام نار موقدة لا تكف عن التراقص، والغوريلا العملاق (كنج كونج) يحمل فتاة صارخة في يده، كأنما هي دمية.. ربما هي (فاى راى) في الماضي أو (جيسيكا لانج) فى الأفلام الحديثة..
أسندت (عبير) مرفقها إلى النافذة، وقالت:
- « لاحظت يا (مرشد) أنك تكاد تقصر مغامراتى هنا على الأعمال الغربية.. أنا أعيش هنا في عالم من الأدب المُترجم، ما بين (جاك) و(هانز) و(توم).. هل يوجد لديك عالم يحوى (عباس) و(شحته) وسواهم؟ أم أن نزعة العولمة تسربت لك أنت أيضًا؟ »
ابتسم وأعاد قلمه إلى جيبه، وقال:
- « يوجد الكثير.. لكنك راغبة في ارتياد عالم المغامرات.. واضح أنك تنفرين من الأدب الاجتماعي، وهذا يجعل خياراتنا محدودة، لأن أدب المغامرة المكتوب للعربية خصيصًا قليل جدًّا.. هل لديك في العربية شخصيات مثل (هولمز) أو (بوارو) أو (بيري ميسون) أو (جيمس بوند) أو (القديس) أو (دراكيولا)؟ توجد نماذج نادرة جدًّا، ولهذا أجد نفسي مضطرًّا لاصطحابك إلى العوالم الغربية.. »
لكن المنظر من نافذة القطار كان يقول أشياء أخرى..
كانت ترى الآن شارعًا هادئًا تتناثر الفيلّات على جانبيه، وللجو رائحة عطرة غافية، ثم تقدم القطار أكثر فرأت بقالًا على ناصية الشارع، وكشكًا لبيع الصحف والمجلات.. هذه مصر.. لا ريب في هذا.. ربما القاهرة كذلك.. في مصر يغدو كل شيء مصريًّا حتى لون الجو وشكل الظلال ولون الغبار.. لا يمكن الخطأ في هذا..
في فضول سألته:
- « وهذا المكان؟ هل يتعلق بماضٍ أم هو من عوالم (يوسف إدريس) أو (نجيب محفوظ)؟ »
ابتسم وهزّ رأسه أن لا:
- « حقًّا هناك نماذج نادرة لأدب المغامرة في العربية، ونحن نمر الآن بالصدفة بنموذج منها.. هذه هي المعادي.. معادي أوائل السبعينيات، فهل تذكرت شيئًا؟ »
- « حقًّا لا أذكر.. هل (أدهم صبري) يعيش في المعادى؟ أم؟ »
ثم ابتلعت لسانها إذ رأت خمس دراجات تخرج من شارع جانبى، يركبها خمسة أطفال أعمارهم ما بين الثامنة والثالثة عشرة.. أكبرهم سنًّا يتقدم الموكب، وهو أكثرهم بدانة.. كتلة شحم تترجرج فوق الدراجة، وقد احتقن وجهه من فرط الجهد.. وبعد ثانيتين رأت كلبًا أسود صغيرًا يلحق بالموكب وهو يهز ذيله في مرح..
أنتم هنا! حقًّا لقد نسيت ونسي (المرشد) الأحمق أن هناك عالمًا عربيًّا ساحرًا للمغامرات، يقوده صبى بدين له كل سحر وجاذبية (بوارو) و(هولمز)، وهذا العالم قد خلّد (المعادي) للأبد في أذهان كل من قرءوه، حتى لو لم يروها قط..
قالت للمرشد، وهي تسبقه إلى مد يدها إلى الحبل لتوقف القطار:
- « أنزلني هنا.. لقد سئمت سماع أسماء (توم) و(ديك) و(هارى)، وسماع الكلام بلغة غير العربية.. إن هذه المغامرة تثير شغفى.. »
- « كما تريدين يا (أليس) »
- « اسمي (عبير).. أكررها للمرة الألف.. »
وتوقف القطار، فترجلت.. وكالعادة وجدت نفسها وقد تغيرت شكلًا وملبسًا لتتواءم مع المغامرة الجديدة.. كانت تلبس الآن ثوبًا متسع، التنورة من طراز يناسب أوائل السبعينيات، وقد

عقصت شعرها إلى أعلى، وارتدت حذاءً مدبب الطرف، كما أدركت أنها صارت أصغر سنًّا.. صارت على أعتاب المراهقة الأولى الخجول..
كانت تركب - ببراعة لم تكن لديها - دراجة من دراجات البنات، وتمشى وسط ذلك الموكب الخماسى الذي رأته منذ قليل..
لقد بدأت المغامرة إذن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



كانت تركب ـ ببراعة لم تكن لديها ـ دراجة من دراجات البنات ، وتمشى وسط ذلك الموكب الخماسى الذى رأته منذ قليل . .

2- خمسة منهم..

كما هي العادة بدأت الأحداث في إجازة منتصف العام.. وكما هي العادة كانوا في الحديقة الخاصة بدار الفتى البدين.. كان هذا زمنًا سعيدًا لا تعرف (المعادي) فيه الأبراج والبنايات الشاهقة.. كانت مجموعة من الفيلات المعتني بحدائقها، مما جعل المكان أقرب إلى عالم سحرى لم يتلوث..

وهناك يجلس الخمسة في شمس الشتاء فائقة الدفء، كأنما هي كل ما في الطبيعة من عطاء.. جاءت خادمة تحمل صحفة عليها أقداح الشيكولاتة الساخنة، فمدّ الأصدقاء أيديهم فى رضا عن الكون بأسره..

وكما هي العادة قال أحدهم (وهو أكثرهم نحولًا):

- « هي ذي الإجازة تنتهي، وما من مغامرة واحدة ولا لغز.. الحق أنها كانت إجازة مملة.. »

قال البدين فيهم وهو يتثاءب:

- « من أدراك؟ نفسى تحدثني بأن مغامرة عظيمة في الطريق لنا.. وما زال في إجازتنا ثلاثة أيام.. قد يحدث الكثير في ثلاثة أيام.. »

وهنا توقفت سيارة سوداء مهيبة الشكل أمام الفيلا، وانفتح الباب لينزل رجل قوي البنيان غامض، يضع عوينات سوداء، ويذكرك بصور مراكز القوى كما نراهم في أفلام السبعينيات.. لكن هذا لم يخف أنه مرهق قانط يحتاج إلى عون سريع..

- « هل رأيتم كم أنا مصيب دومًا؟ هذا هو المفتش (سامي)! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل استطعت تعرف هؤلاء؟

طبعًا.. كل من بدأ - منذ بداية السبعينيات – يكتشف ذلك الاختراع السحري المدعو الكتاب يعرفهم.. إنهم طبعًا المغامرون الخمسة.. مجموعة الأصدقاء الذين وحدتهم (المعادي) ووحدهم الاهتمام بالجرائم الغامضة، فكونوا فريقًا متكاملًا وأطلقوا على أنفسهم (المغامرون الخمسة)..

في القصة الأولى (لغز الكوخ المحترق) التقوا معًا، واتخذوا أسماء حركية أو أسماء شهرة، حفظها القارئ عن ظهر قلب.. (تختخ) الصبي البدين الذى امتلأ دهنًا وذكاء، والذي يمثل المحرك والعقل المفكر للمجموعة.. إنه - كما سنقول مرارًا - عقل خالص، فيه كل ما ينفر شكليًا ويجذب عقليًا، ومعه عرف الطفل العربي للمرة الأولى معنى (أنتيهيرو) أو نقيض البطل.. وما لا تدركه (عبير) هو مدى عمق وتجسيم هذه الشخصية، والذي تم بناؤه ببطء عبر عشرات الكتيبات.. إنها شخصية ثلاثية الأبعاد، لا يجد القارى صعوبة في أن يحبها فيدمنها..

وبعده بمسافة لا بأس بها يأتي (عاطف) وهو يمثل إلى حدّ ما القوة الخالية من الذكاء.. ثم يجيء (محب) النحيل كثير الحركة.. أما الفتيات فاثنتان لا أكثر: (نوسة) وهي على أعتاب المراهقة، و (لوزة) وهي طفلة في كل شيء إلا في ذكائها الخارق.. إنها أضعف وأصغر أعضاء الفريق، لكنها نموذج ل (يضع سره في أضعف خلقه)..

ربما يذكر القارئ كذلك أن (نوسة) هي شقيقة (محب)، و(لوزة) شقيقة (عاطف)..

ولقد لعبت صورة الشخصيات التي رسمها الفنان سمير ثابت) على الغلاف الأخير، دورًا لا بأس

به في تثبيت هذه الصور للأبد: (تختخ) بذقنه المزدوجة المكتنزة، و(محب) بوجهه المثلث العصبى، و(لوزة) بضفيرتيها الطائرتين في الهواء كجهازى استقبال..
أما المفتش (سامي) فهو ضابط ذو رتبة عالية، ربما في المباحث الجنائية أو شيء من هذا القبيل.. ثقته عمياء في الأصدقاء، ولربما بدا من العسير تصور أن يتجه المفتش إلى دار طفل يدعى (تختخ)، ليقول له في كل مرة: نحن نعتمد عليك يا (تختخ).. ويجلس في نهاية القصة ليصغي في تواضع لنتائج تحقيقاته واستنتاجاته، ثم يعتقل الجاني دون مناقشة..
بل وفي (لغز القفاز الأخضر) يطلعه على أسرار مهمة من أسرار أمن الدولة، لكننا نقبل هذا ونصدقه كجزء من الصفقة الشهيرة بين الكاتب والقارئ: دعني أنخدع - دعني أخدعك..
لقد طبعت هذه القصص كل المطبوعات الأخرى بطابعها، وخرجت من عباءتها سلاسل عديدة، ويكفي أن القارئ العربي - حتى اليوم - يسمّى أي كتاب من نفس القطع وله ذات الغلاف الصقيل باسم (لغز).. لقد اتسع لفظ (لغز) ليشمل نوعًا بأكمله من المطبوعات، حتى لو لم يكن محتواه بوليسيًّا..
بقي - قبل أن نعود لقصتنا - أن نقول ما لا بد أن القارئ خمّنه منذ دهر: (عبير) قد وجدت نفسها هنا فى شخصية (نوسه)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التف الأصدقاء - بشوارب من الشيكولاتة فوق شفاههم العليا - حول المفتش، ورحبوا به في حرارة، فسألهم بصوته الرنان القوى:
- « كيف حالكم؟ هل من ألغاز في الجو؟ »
قلب (تختخ) كفه لأعلى بمعنى أنه لا يوجد شيء، وقال:
- « كنا نأمل أن تقدم لنا شيئًا يا سيدي.. »
قال المفتش وهو يتناول قدح القهوة الذي جلبته له الخادمة:
- « حقًّا لدي شيء.. وإن كنت لا أتوقع أن تنجحوا في حلّه في الفترة الباقية على الإجازة.. »
كانت كل الجرائم وكل التحقيقات - لأسباب تربوية - تتمّ دائمًا في الإجازتين: إجازة الصيف وإجازة منتصف العام.. ومن الغريب أن الحل كان يأتي دومًا في آخر لحظة قبل انتهاء الإجازة، بعد هذا يتوارى المغامرون الخمسة تمامًا حتى العطلة التالية.. وهكذا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة محيرة لرجال علم الإجرام: الجريمة لا تحدث في (المعادي) إلا في يناير وفى أشهر الصيف..
استطرد المفتش بعد ال (سليرب) المميزة لأول رشفات من القهوة:
- « الأمر يتعلق هذه المرة بجريمة قتل.. أو هذا هو الاحتمال الغالب لدينا حتى الآن.. »
شهق الجميع وتبادلوا النظرات.. وتذكرت (عبير) أن الألغاز ظلّت خالية من جرائم القتل بأنواعها، ولنفس الأسباب التربوية.. حقًّا قد غصت بالسرقات وجرائم التزوير، لكن لا قتل.. لا عنف من أى نوع.. سيكون هذا لغزًا فريدًا من نوعه إذن..
قال المفتش وهو يضع قدح القهوة على المنضدة:
- « الأمر يتعلق بالمحاسب (حسين أبو شادى).. لقد اختفى منذ أسبوع، ولا يوجد أي دليل على المكان الذى اختفى فيه.. »
مندهشًا هتف (محب):
- « المحاسب (حسين أبو شادى) اختفى؟! إنه صديق أبي.. كيف لم نعرف هذا؟ »

- « كان صديق أبيك.. هذه نقطة.. النقطة الثانية هي أن المحيطين به يحسبونه سافر إلى النمسا في مؤتمر دولى.. هذا ما قيل.. »
سألت (عبير) وقد بدأت تندمج في جو القصة:
- « هذا ما قيل؟ لا أفهم.. ألم يصل إلى هناك؟ »
- « نعم.. أبرقت إدارة المؤتمر تتساءل عن عدم وصوله.. أصاب الزوجة الذعر، واتصلت بالمطار لتعرف أن الرجل لم يغادر البلاد عن طريق المطار قط.. لقد اختفى الرجل تمامًا.. »
- « وبالطبع حاولتم أنتم البحث بأساليب الشرطة المحكمة»
- « بالطبع.. لا أثر للرجل في المستشفيات ولا المشارح.. لم يره أحد.. لم يتعرف صورته أحد.. باختصار: لقد تلاشى تمامًا.. تبخرت جزيئاته.. »..
في مرح قالت (عبير) / (نوسة):
- « تسامى! أي تحول من الحالة الصلبة إلى الغازية دون مرور بالحالة السائلة! هذا ما تعلمناه في الكيمياء.. »
قال المفتش في فتور:
- « من يدري؟ ربما بالحالة السائلة.. إن التذويب في الحمض احتمال لم أعد أندهش له الآن! »
سأله (تختخ) بلهجة عملية، كأنما يريد إنهاء الأحاديث الجانبية:
- « هل هناك مستفيدون من اختفائه؟ »
- « لا أحد.. الزوجة ستنال مبلغ تأمين لابأس به، لكنها ليست من هذا الطراز على قدر ما نعلم.. »
- « هل الانتحار وارد؟ إن جثث المنتحرين قد توجد في أماكن غريبة، لا يمكن العثور عليها.. »
- « من العسير أن ينتحر وهو المتحدث الرئيسي للمؤتمر وضيفه، وحالته المالية في تحسن مطرد، وعلاقته بزوجته محل حسد الكثيرين، وصحته على ما يرام، فلم يخبره الأطباء أنه مصاب بسرطان المخ لو كان هذا ما تعنيه.. »
- « وماذا عن الاختطاف؟ »
- « مستبعد لنفس الأسباب.. لا أعداء للرجل.. ولم يطلب الخاطف فدية، فمن العسير أن يختطفه أحد لتربيته في الفناء الخلفي ».
- « وفقدان الذاكرة؟ أليس واردًا؟ ربما كان الآن يجول في أحياء القاهرة المحيطة بالحسين – واللعاب يسيل من شدقيه - يتسول »
- « لا تكن سخيفًا.. هذا الرجل هو عقل إلكتروني آدمى.. لا ينسى شيئًا أبدًا ».
عقل إلكتروني؟ ثم تذكرت (عبير) أن القصة تدور في عصر لم يكن أحد فيه يستعمل لفظة (كمبيوتر) أو (حاسوب)..
قال (عاطف) وهو يتمطى:
- « يبدو لغزًا صعبًا بحق.. لا توجد نقطة ارتكاز نبدأ منها.. »
- « لهذا جئت أطلب رأيكم.. »
ثم نهض المفتش، وقال وهو يغادر الحديقة:
- « هناك من سيجلب لكم ملفات التحقيقات بعد ساعة من الآن.. أريد منكم أن تفتحوا عيونكم وتبحثوا جيدًا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- حسين أبوشادى..

- « لغز! سنذهب لنبحث عن ذليل! »
كذا صاحت (لوزة) في مرح كعادتها، فهي قد قضت عشرات الألغاز دون أن تتمكن من أن تنطق (دليل) بدلًا من (ذليل).
قالت (عبير) / (نوسة) في توجس:
- « أخشى أن الأمر هذه المرة أكبر منا.. »
- « لا شيء أكبر منا سوى الموت.. »
قالها (تختخ) في ثقة وابتسم لها.. كان صوته قد اكتسب تلك الخشونة الوليدة المصاحبة للمراهقة، لذا صارت له عدة نغمات، وكان يعطيك دومًا الانطباع بالمعاناة كأنما نبرات الصوت تخرج من قلبه لا حنجرته.. أما عن الزغب المتراكم فوق شفته العليا فحدث ولا حرج.. والحقيقة هي أن (تختخ) قد جرب حلاقة مشروع الذقن هذا منذ أسبوعين.. تسلل للحمام فجرًا واستعمل موسى أبيه، وحاول أن يزيل الشعيرات الناعمة على خديه، فقط ليشعر بالرجولة الوليدة، لكن الأمر كان أعسر مما توقع، وكاد يحش أذنه اليسرى بالموسى.
لقد كبر (تختخ) حقًّا، وإن سبقه (عاطف) و(محب) في شعر الوجه وخشونة الصوت..
سأل (تختخ) (محب):
- « قلت إن (حسين أبو شادي) صديق أبيك.. فماذا تعرف عنه بالضبط؟ »
نظر (محب) إلى الأرض مفكرًا وقال:
- « لا شيء.. هو رجل عادي من الذين تراهم في كل مكان؛ في الخمسين من العمر.. أصلع.. عوينات سميكة.. مرح لطيف المعشر مهذب.. لديه ابنان هما (علاء) و(كمال).. مهندس وطبيب بالترتيب، وكلاهما لا يقيم في مصر.. »
- « وزوجته؟ »
- « مدام (سلوى).. سيدة مجتمع فاضلة ومهذبة.. وهي صديقة أمي بالمناسبة.. يبدو أنها - الزوجة لا أمى - عضو في أحد تلك الأندية النسائية التي يصعب تذكر اسمها، والتي تنظم الحفلات الخيرية، وتشرف على بيع المفارش اليدوية، وتبيع اليانصيب، وما إلى ذلك.. وبالمناسبة مدام (سلوى) قد تأثرت كثيرًا باختفاء زوجها؛ حتى إنها كفت تمامًا عن دورها الاجتماعي وعن لقاء الصديقات.. »
نظر (تختخ) إلى (عبير) وقال:
- « هل تعرفينه يا (نوسة)؟ »
بالطبع وجدت (عبير) نفسها فجأة تعرف كل شيء عن الرجل، فقالت وهي تنظر إلى أخيها كي يصحح أخطاءها:
- « طبعًا.. وهو رجل تقليدى ممل.. ليس من الطراز الذي يهرب أو يختطف.. كل ما هنالك أن لشركته نشاطًا دوليًّا، وهو كثير الأسفار لهذا السبب.. »
حك (تختخ) ذقنه التي لم يقدر على حلاقتها، وقال:
- « حسن.. سيكون عليك و(نوسة) زيارة المرأة - التي أرجو ألا تكون أرملة الآن - لتحققا في الأمر بدقة، أما أنا فسأقوم بالتنكر في شكل متسول.. »
سألته (عبير):

- « كل هذا جميل، ولكن لماذا تتنكر في هذا الزي؟ »
- « لا أدري بعد.. لا بد من التنكر في كل مغامرة.. هذه هي التقاليد ».
وتفرق الأصدقاء على أن يلتقوا في المساء لتبادل وجهات النظر في الأمر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راكبة الدراجة في شوارع المعادى الهادئة مع أخيها (محب)؛ خطر ل. (نوسة) أن الضاحية لم تكن قط بالجمال الباهر، الذي رسمها بها المؤلف (محمود سالم).. ها هما ذان يتجهان إلى الشارع الجانبي الضيق الذي تحفه الخضرة من الجانبين، والذي يقيم فيه الأستاذ المختفي (حسين أبو شادي)..
قال لها (محب) دون أن ينظر لها، وهو يلهث من مجهود القيادة:
- « (نوسة).. لا أدري كيف يمكنني البدء في أن أقول ما أريد قوله.. »
قالت له متوجسة:
- « الأمر ليس بهذا التعقيد.. أعتقد أن هذه بداية جيدة بالفعل ».
واصل السير، وعضلاته النحيلة تتوتر أكثر على مقود الدراجة، وتحركت حنجرته (تفاحة آدم) في عصبية، مما يدل على عسر يلاقيه في الكلام:
- « الأمر يتعلق ب. (تختخ).. ألاحظ أن اهتمامه بك قد بدأ يتزايد.. ولا أدري كيف أعبر لكن كل هذا يضايقني، ولسوف أكون شاكرًا لو أخبرتني بأي جديد يطرأ، لأني لن أسمح لأحد بمضايقة أختى.. »
غريب هذا! لم يجل ذاك بخاطرها قط، ولم تضعه في الحسبان وهي تقرأ قصص الأصدقاء الخمسة.. لكن الزمن يتطور، والأجسام تنمو، ومن كان طفلًا صار مراهقًا توطئة لأن يصير شابًّا.. هذا طبيعي ولا بد أن يحدث..
هي فقط كانت تطالع القصص بمفهوم القصص التقليدي.. كلهم لا يشيخ ولا ينمو.. (جيمس بوند) لم يشخ قط منذ الستينات وحتى اليوم.. أبطال أفلامه هم الذين كانوا يشيخون فيتم استبدالهم، وهكذا تحول (شون كونري) إلى (بيرس بروسنان) مرورًا ب. (روجر مور) و(تيموثى دالتون).. الآن فقط تدرك أن المغامرين الخمسة يكبرون، ومع نموهم تنمو علاقات لم تدر بذهنها قط..
قالت لأخيها كي تغلق الموضوع:
- « (تختخ) مخلص كأخ.. ولو ضايقني ستكون أنت أول من يعلم.. »
- « هذه أختى العاقلة.. »
قالها (محب) وهو يترجل عن دراجته أمام باب الفيلّا، ويخرج الجنزير والقفل ليربطها إلى السور الحديدي، فحذت حذوه..
كان البواب النوبي على الباب يشرب الشاي الثقيل الأسود، ويدخن المعسل، فلما أبصرهما تعرف (محب) على الفور وحيّاه وسعل، وبصق على الأرض من فرط الحماس..
اجتازا الحديقة واختلسا نظرة إلى النباتات المزروعة بعناية على الجانبين، مع الإضاءة الموزعة بدقة، هما لم يريا المكان ليلًا لكن لا بد أنه يغدو حلمًا.. كانت هناك أنواع من الزهور لم تعرفها (عبير) جيدًا.. فهي لم تتعلم قط كيف تحترم هذه الكائنات الجميلة.. كأن أقصى ما تدركه هو أن هناك زهورًا حمراء وصفراء وبنفسجية.. لكنها لاحظت أن هناك مساحة لا بأس بها ظلت زهورها في حالة نمو متوسط، يتناقض مع النمو المزدهر المحيط بها..

بعد دقائق فتحت لهما الباب السيدة (سلوى)، وهي امرأة مهذبة في الأربعين، ليست من الطراز الذي يقتل زوجه.. لم تكن تعرف (محب) و (نوسة) لكنها سمحت لهما بالدخول في مودة، وتكفلت بضع كلمات بإجراء التعارف.. كانت حزينة كاسفة البال لكنها احتفظت بأسلوبها الودود المرحب.. أسلوب من اعتادت المجتمعات والحفلات، واعتادت أن تبش في وجه من لا تطيق..

بعد المجاملات المعتادة - في صالون فاخر يغص بالعاديات والتحف - وبعد التهام (الجاتوه) وشرب الشاي، وبعد السؤال عن صحة أمهما، وبعد إطراء جمال (نوسة) / (عبير) وتحولها إلى عروس بالغة الحسن، هي التي لم ترها منذ زمن بعيد؛ بعد هذا كله بدأت تبكي..

نظرت (عبير) لـ (محب) حائرة، ثم نهضت وجلست جوار المرأة المتحمسة، ووضعت يدًا مترددة على كتفها المهتزة، وقالت:

- « اهدئي يا طانط.. لا عليك.. »

راحت السيدة الفاضلة تمخط وتشهق، ثم أخرجت منديلًا محلاويًا عملاقًا و (بفففففف!) أفرغت أنفها، ثم قالت:

- « لو أنهم جلبوا جثته لى، لكان هذا أرحم من حالة الجهل المخيف التي أمر بها.. من أبسط حقوق الزوجة أن تعرف ما حل بزوجها.. هل أنا أرملة الآن أم أن زوجي مخطوف أم هارب أم؟؟ »

سألها (محب) بطريقة عابرة:

- « كيف حدث كل شيء؟ »

قالت وهي تنظر خارج النافذة إلى الحديقة:

- « بدأ كل شيء يوم الاثنين من أسبوعين.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تضف الزوجة جديدًا إلى ما حكاه المفتش (سامي).. المؤتمر الاقتصادى الآري يدعو الزوج - وهو حاصل على دكتوراه في العلوم الاقتصادية - والزوج يقبل الدعوة.. ليست هذه أول مرة.. يعد حقائبه وينطلق بسيارته إلى المطار، ويؤكد أنه سيعود بعد ثلاثة أيام.

في المساء تنتظر الزوجة في قلق مكالمة زوجها.. لم يتصل..

في الواحدة بعد منتصف الليل تأتيها مكالمة من النمسا.. الملحق الاقتصادي المصري يسألها عن سبب تأخر الأستاذ في الحضور.. تدرك الحقيقة المروعة: الزوج لم يصل إلى النمسا قط.. تتصل بالمطار هنا لتجد أنه لم يركب الطائرة أصلًا..

هنا فقط بدأت تتحرك إيجابيًا.. اتصلت بالشرطة، وهؤلاء بدءوا البحث بحماس.. فقد اختفى الرجل منذ أربع وعشرين ساعة..

النتيجة سلبية فيما يتعلق بالمطار.. سيارته غير موجودة في دائرة المطار، وكل الأماكن التي يمكن أن يترك المرء فيها سيارته ثلاثة أيام..

اتصلوا بأقاربه.. بأصدقائه.. فقط تجنبوا الاتصال بولديه المقيمين بالخارج كي لا يُجَنّا.. لم يتركوا حجرًا لم يقلبوه - كما يقول الإنجليز - دون جدوى..

لقد تلاشى الرجل تمامًا من على وجه البسيطة كأنما لم يكن قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مغامرة ليلية..

عندما التقوا في المساء؛ كانت لدى (تختخ) قصة مسلية عما قام به اليوم، وقد حكاها بعدما سمع تفاصيل ما قاموا به..

لقد انتظر حتى بدأ الليل يهبط، وهو يهبط مبكرًا لأنهم في شهر يناير، ثم صعد إلى حجرته في الطابق الثاني، والتي تحوي كل كنوزه من أدوات التنكر والثياب التي جمعها بعناية على مدى أعوام وألغاز متعددة..

لقد شاهدنا (تختخ) في ثياب القرداتي وثياب المهراجا والنشال.. ومن الغريب دائمًا أن تنكره يجعله يبدو أكبر سنًّا حتى ليخدع عتاة المجرمين..

دائمًا ما يكون تنكر (تختخ) فقرة ثابتة في كل لغز.. وهو هنا أيضًا لا ينوي تخييب أمل القراء..

كان التنكر الذي اختاره هذه المرة هو ثياب متسول.. ربط إحدى عينيه بعصابة، وارتدي جمة الشعر المنكوش المتسخ، وارتدي ثيابًا مبقعة ممزقة..

ثم كعادته تسلق على الشجرة التي تطل غصونها جوار نافذته، هابطًا إلى الحديقة، حيث هدأ من روع كلبه الأسود (زنجر).. لا داعي للضوضاء أيها الكلب العزيز.. لا تخف..

ومشى في شوارع المعادي التي غمرها الظلام قاصدًا بيت الأستاذ (حسين أبو شادي) الذي اختفى دون سبب واضح..

لم تكن هناك خطة محددة في ذهنه لما يجب عمله، لكنه قرر أن يلقي نظرة على الفيلّا وأن يقول شيئًا للبواب.. في الغالب سينتهي الأمر بالطرد الغليظ، لكنه فكّر في أن وجه البواب سيمنحه فكرة ما..

وقف في الليل البارد قرب الفيلّا التي راحت تتوهج في أضوائها الكهربية، كأنما الحديقة بحر من نور في حلم جميل.. وراح يردد بصوت مبحوح مشروخ دام:

- « للّه يا محسنين.. للّه »

قالها ست مرات ثم شعر بالملل..

« الحقيقة » - قال (تختخ) للأصدقاء - « هي أن المتسولين يستحقون - إلى حدّ ما - ما ينالونه، فهم يملكون فضيلة المثابرة وعدم الملل.. وهي – كأية موهبة أخرى - لها ثمنها من دون شك! »

نعود لموضوعنا...

قلنا إذن إنه راح يردد عبارات التسول حتى شعر بسأم حقيقى، فقرر أن يدنو من الفيلّا.. كان هذا حين استلفت نظره متسول آخر يحمل عصا خشبية ويقف على الجانب الآخر من الطريق، في ضوء مصباح عمومى.. كان يربط رأسه بعصابة عليها بقعة حمراء، وله شارب كث غليظ.. أما الأهم فهو أن الرجل كان يرمقه بإصرار وفضول..

هذا طبيعي.. فكر (تختخ).. متسول ومتسول هما زميلا مهنة، ولابد أن الآخر يتساءل عن اسمه ومنطقة عمله.. ثم إنها صدفة غريبة أن يتواجد متسولان في هذا الحي الراقي ليلًا...

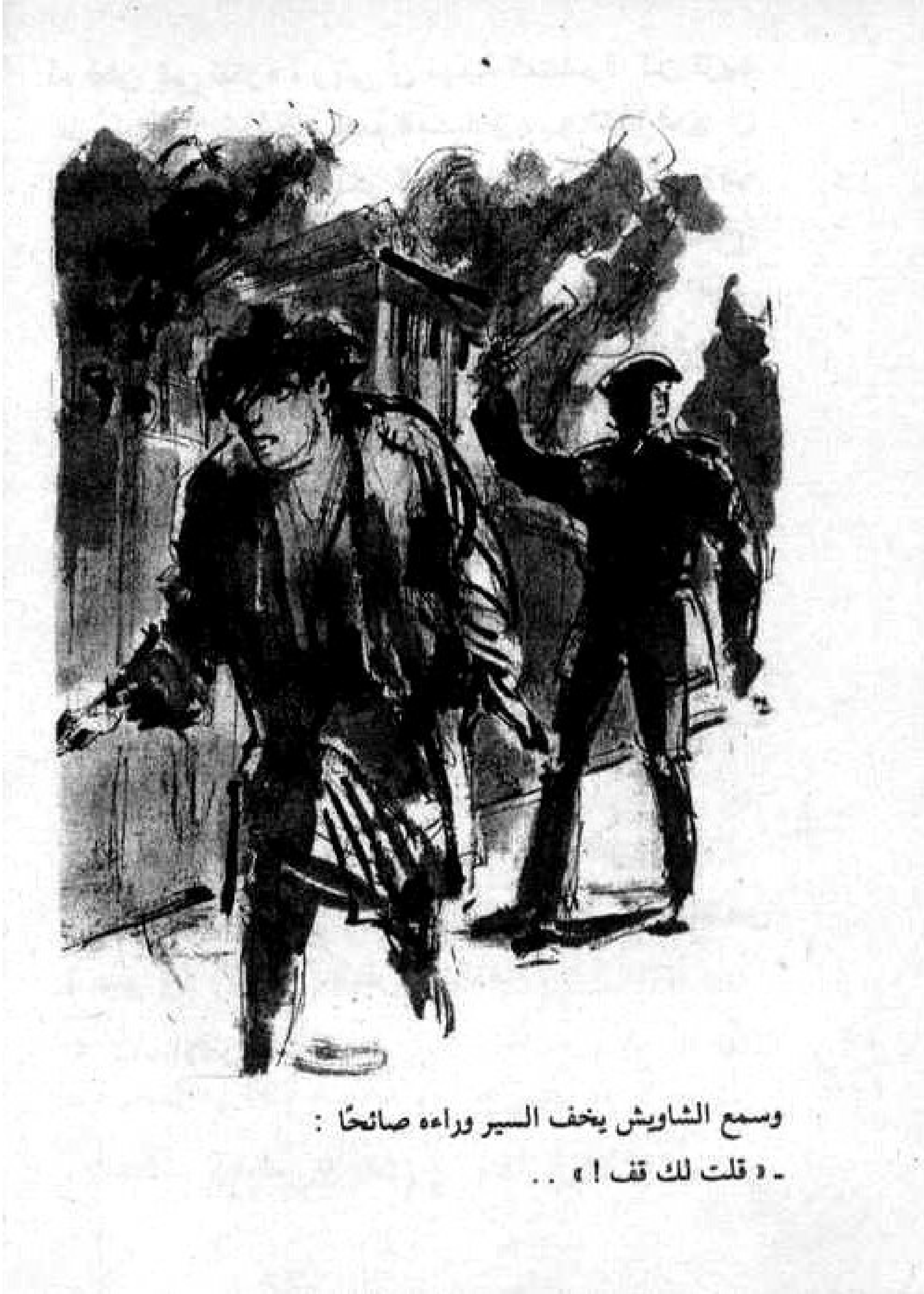
ودون كلمة أخرى عبر المتسول الآخر الشارع، وبخطى ثابتة اتجه نحو (تختخ)، واعتصر ذراعه في قسوة، بينما عيناه تشعان نارًا:

- « من أنت وماذا تفعل هنا؟ هذه منطقتي وأدفع أرضيتها ل. (سيد فورمايكا).. هل يعرف (سيد) أنك هنا؟ »

كان قلب (تختخ) يتواثب هلعًا لكنه تماسك، وخطر له أن من يملك هذه القوة الجسدية لا يمكن أن يتسول.. لقد ضل هذا الرجل طريقه إلى عالم قطع الطريق الرحب..
استجمع ما في حنجرته من صوت غليظ وقال:
- « إنها مسألة أرزاق.. لا أحد يسرق رزق الآخر.. وهذا الحي ثرى ويتسع للجميع ».
- « أما أنا فأقول لك (يا واخد قوتي.. يا ناوي على موتي).. لا مزاح هنا.. والطعن بالمدى ليس أبسط ما يحدث لأمثالك.. هيا! انصرف وأرني عرض كتفيك! »
كان (تختخ) قد وصل الآن إلى رأى صائب لا شكّ فيه: هذا ليس متسولًا حقيقيًّا.. إنه يجيد تمثيل دوره، لكن لهجته وانفعالاته كلها توحي بالتصنع..
هذا الرجل يبذل مجهودًا كالذي يبذله (تختخ) ليبدو مقنعًا..
أما القرار الصائب فهو الابتعاد..
وهكذا تراجع (تختخ) فى وجل لم يتكلفه، لأنه كان بحق خائفًا.. بالواقع لم يبتعد تمامًا، إنما توارى في شارع جانبي، ثم من جديد عاد يختلس نظرات فضولية إلى الفيلّا، وفي هذه المرة كان ما رآه غريبًا..
رأي المتسول المزيف يتقدم بخطى ثابتة إلى باب الفيلّا فيفتحه، ثم يدلف إلى الداخل، فلم يأت البواب برد فعل ما.. وفي اللحظة التالية رآه يغيب في الحديقة..
قرر (تختخ) أن ينتظر ليرى متى وكيف يخرج المتسول من الفيلّا في المرة القادمة، وظل حيث هو بضع دقائق.. كان بطبعه ملولًا، وهاله أن مهنًا كثيرة جدًّا تتطلب الصبر، ومنها مهنة المخبر ومهنة المتسول.. يبدو أنه لا يصلح لكلتيهما..
- « قف حيث أنت! »
كان هذا هو الصوت الذي باغته من الخلف، فالتفت ليرى الهول ذاته ممثلًا في الشاويش (على) أو الشاويش (فرقع) كما يسمونه..
إن الشاويش (فرقع) هو - عن جدارة - سادس المغامرين الخمسة، ووجوده أمر لا يمكن الاستغناء عنه، كما لا يمكن أن تتم مغامرات (توم) من دون (جيرى)، أو نرى (لوريل) من دون (هاردى)، أو نفهم معنى الأرض من دون سماء.. دائمًا هو هناك، وهو عاجز تمامًا عن النظر بصورة جدية إلى المغامرين.. مجرد أطفال هواة يعرقلون عمله.. هذا هو رأيه فيهم.. ولهذا يرفض وجودهم دومًا وبقوة السلطة التنفيذية التي يمثلها. لكنه كالعادة يفشل دائمًا.. وفي كل مرة يزداد غضبًا وحنقًا.. ونجده لا يتعلم أبدًا – بعد عشرات الألغاز - أن هؤلاء الصبية بارعون حقًّا..
بقي أن نقول إن الشاويش (فرقع) هو الاسم الذي اختاره الأصدقاء سرًا للرجل، لأنه لا يكف عن طردهم من كل مكان مرددًا: فرقع من هنا منك له! يقولها بلهجته الريفية حتى صارت علامته التجارية المميزة..
كاد (تختخ) يتكلم مع الشاويش مفسرًا ما يحدث، ثم فطن إلى تنكره، وإلى أن نهاية المغامرة لن تزيد على ليلة في تخشيبة قسم المعادي.. وهكذا قرر أن يركض.. إن الظليم (ذكر النعامة) الذي ضربوا به المثل في السرعة، لن يملك إلا أن يحسد (تختخ) على سرعة جريه، وهو يحاول الاختفاء عن عيني الرجل، وسمع الشاويش يخف السير وراءه صائحًا:
- « قلت لك قف! »
لكن من ذا الذي يطيع أمرًا كهذا؟
شوارع متلوية يعبرها، وصوت حذائي الشاويش الثقيلين يلاحقانه، وفي النهاية لم يعد يسمع

شيئًا فواصل الركض إلى داره وقلبه يوشك على الانفجار.. لو كان (محب) مكانه لأدي العمل بشكل أفضل.. أما مع بدانة (تختخ) هذه...
وأخيرًا استطاع اللحاق بالاجتماع الحالى..
وفي النهاية سأل (تختخ) الأصدقاء، وإن اختصّ (عبير) / (نوسة) بنظراته بالذات:
- « الاقتراحات؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وسمع الشاويش يخفف السير وراءه صائحًا :
ـ « قلت لك قف ! » . .

5- فلنتسلل..

صمت الجميع، وراح كل يبحث عن تفسير مقنع لما سمعه.. المشكلة في الجلسات من هذا النوع هى حاجتك إلى أن تقدم آراء طازجة جيدة، حتى لا تبدو أحمق.. وأحيانًا تطغى رغبة التميز على جودة الفكرة ومنطقها..
لأسباب كهذه قال (عاطف):
- « الأمر واضح.. المتسول هو الأستاذ (حسين أبو شادي) ذاته.. لقد غير من شخصيته لسبب لا يعلمه إلا الله ثم هو وزوجته، واعتاد العودة إلى الفيلا ليلًا لسبب مجهول آخر.. »
لم يعلق (تختخ) واستدار إلى الآخرين، وسأل:
- « ما رأيكم أنتم؟ »
قالت (عبير):
- « يبدو لي هذا مقنعًا.. لعل الرجل هارب من الدائنين أو خطر ما.. ولهذا قام بما في وسعه كى يتلاشى (حسين أبو شادى) تمامًا.. »
نظر (تختخ) إلى (لوزة) الصغيرة التي كانت آراؤها تروق له دومًا:
- « وأنت؟ »
ابتلعت ريقها في حماس شأن الأطفال حين تواتيهم الفرصة لإثبات أنهم ليسوا كذلك، وقالت:
- « أرى أنه من المستحيل أن يعود (حسين أبو شادى) إلى الفيلّا في هذا الوقت بالذات.. لابد أنها مراقبة بإحكام.. وهذا يضعنا أمام الاحتمال الثاني: المتسول رجل من رجال المباحث يراقب الفيلّا ومعروف للبواب والزوجة..»
من جديد لم يعلق (تختخ) ونظر إلى آخر المغامرين الخمسة، وقال:
- « (محب): هل من رأي آخر؟ »
قال (محب) في توتر كأنه في امتحان:
- « لا أدري.. هذان الرأيان يبدوان متعادلى القوة، لكني أتساءل: قد يكون المتسول متسولًا حقيقيًا وانعقدت صداقة بينه وبين البواب، بما أن هذه منطقة عمله.. لعل البواب يسمح له بالدخول، وربما احتساء بعض الشاي أو تدخين المعسل.. »
هنا نظرت (عبير) إلى (تختخ) وتساءلت:
- « وما رأيك أنت يا (تختخ)؟ »
انفجر (تختخ) يضحك في استمتاع حتى أثار غيظهم إلى حدّ ما، وبين ضحكاته قال:
- « أرى أن أشياء بالغة الوضوح تفوتكم في هذه الأيام! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اسمه (توفيق خليل توفيق خربوطلي)، ولهذا اختاروا له الحروف الأولى من اسمه الطويل ليكون (تختخ)..
منذ طفولته عانى (تختخ) ما يعانيه أي صبي بدين مكتنز.. لقد دأبت السينما في قسوة على تصوير البدين في صورة الأكول النهم الداعي إلى الاستخفاف والتهكم، وصار من واجب الأطفال المقدس أن يجعلوا حياة البدينين جحيمًا..
لقد تلقى (تختخ) عبارات السخرية، وتحرش به الجميع، غير متصورين أنه يدارى تحت طبقات

الشحم الكثيفة هذه روحًا مرهفة شفافة.. وهكذا ازداد انكماشًا وتقوقعًا على عالمه الخاص.. عالمه شديد الثراء..
في ملعب العقل استطاع (تختخ) أن يتميز ويمتاز، وغدا قادرًا على إبهار الآخرين والفوز باحترامهم.. المشكلة هي أنه كان دومًا متعطشًا إلى التميز وتقديم الجديد.. ومع كل لغز يحله كان يصعد درجة في نظر نفسه، لكن اللغز التالي كان يثير رعبه وقلقه، خشية أن يسبقه إلى حلّه أحد..
ويمكننا بسهولة من القصص أن ندرك أن (تختخ) كان يحتفظ بالمهام الأساسية لنفسه، ويكتم ما يعرفه حتى لحظة الإبهار الأخيرة، التي يكشف فيها كل شيء أمام عيون المندهشين وإعجاب المفتش (سامي) الثمين به.. وهذا داء أصيب به كل مخبرى القصص بدءًا من (شيرلوك هولمز) ومرورًا ب. (هيركيول بوارو) والمفتش (ميجريه)..
المشكلة الآن هي أن (تختخ) لم يعد (تختخ) القديم.. لقد تدخلت عواصف المراهقة لتزعزع عبقريته، وفي ذهنه وفؤاده كانت تصطرع ألف عاطفة وعاطفة لتشتت تفكيره تمامًا.. كان يحلم بالحب ويدرك أنه في الحقيقة يستحقه، لكن تفصله عن الحب عدة كيلوجرامات من الشحم يستحيل التخلص منها..
وهكذا وقع (تختخ) الفطين في الشرك المعروف: أن يحب الحب لا يحب شخصًا بذاته، ولم يكن هناك شخص مناسب سوى (نوسة) يسمح بتركيب هذه العواطف الجاهزة عليه.. وصارت (نوسة) بالتالي تحتل المسافة بين القلم والورقة.. بين أظفاره وأطراف أنامله.. بين عضلة قلبه والشغاف الذي يغطيها..
وهكذا لم يعد يملك وضوح التفكير السابق، وغدا من العسير عليه أن يجد حلًّا لهذه القضية في الوقت الحالى، لكنه شعر بأن من واجبه أن يكون غامضًا، لذا قال ما قاله دون أن تكون عنده أدنى فكرة عن الجواب الصحيح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتساءل الجميع في دهشة:
- « ما هي هذه الأشياء التي فاتتنا.. »
فقال في غموض مضيقًا عينيه:
- « لم يكن الحل هذا ولا ذاك.. الحل هو... ولكني أفضل الانتظار حتى تكتمل القضية.. »
في ضيق هتف (محب)، وكان قد بدأ يمل (تختخ) هذه الأيام:
- « إما أننا نعمل معًا أم لا.. يجب أن تصارحنا بما تفكر فيه.. »
- « لأن هذه الاستنتاجات لم ترق إلى مستوى الحقائق بعد.. ليس أبسط من هذا.. »
ثم نظر إلى (نوسة) وقال مبتسمًا:
- « لقد لاحظت (نوسة) نقطة مهمة في حديقة الأستاذ (حسين أبو شادي) ولم تلفت نظر أحد، لكني أجدها هي مفتاح اللغز الأساسي.. هل تذكرون ما قالته عن النباتات في الحديقة؟ كانت هناك رقعة لم تنم بها الزهور كما ينبغي.. لماذا؟ »
تبادلوا النظرات ولم يعلق أحد، فأردف:
- « لأن تراب الحديقة تم تقليبه حديثًا، ثم تمّ غرس هذه الزهور على عجل.. هل تعلمون لماذا تم تقليب تراب الحديقة؟ »
هتفت (نوسة) في رعب:

- « لا.. لا تقل.. »
وقال (عاطف) في حيرة:
- « تعني أن هناك من قتله ودفنه في الحديقة؟ »
- « هذا مجرد احتمال.. لكنه يستحق البحث.. »
ثم التفت إلى (عاطف) وقال:
- « هذه مهمة الأقوياء جسديًّا.. الليلة نتسلل إلى الحديقة ونحاول البحث فيها عن الشيء المدفون هناك.. هل أكون مبالغًا لو طلبت منك أن تجلب الرفش من حديقتكم؟ أنا سأجلب رفشى كذلك.. (محب) سيأتي معنا لكنه لن يدخل.. سيكتفي بالمراقبة وإطلاق صوت البومة لو رأى ما يريب.. »
كانت هذه من تقاليد القصص الدائمة.. لا بد من صوت البومة كأن هذا طبيعي في المعادي وكانت (عبير) قد نشأت في أحياء فقيرة معدمة كما نعلم، لكنها لم تسمع قط صوت هذه البومة إلا في التلفزيون..
قال (محب) متوترًا:
- « أعتقد أنها مخاطرة.. التسلل إلى ملكية خاصة، خاصة وأن منزل الرجل مراقب حتمًا.. »
- « سنكون حذرين.. في النهاية سنتظاهر بأننا أطفال متطفلون.. هذه هي الميزة الوحيدة لأن يكون المرء طفلًا.. »
ثم نهض، وأعلن أن على الفتيان الاستعداد خلال نصف ساعة، أما الفتيات فعليهن العودة إلى ديارهن والدعاء...

وبينما (نوسة) راحلة، دس خلسة ورقة مطوية في كفها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطر.. المطر!..
المطر القادر على قهر الجيوش، ونسف أكثر المخططات إحكامًا.. هو ذا يعلن عن مقدمه بلطف في البداية ثم بعناد، ثم بشراسة لا تنم عن تهذيب كبير.. لقد جاء ليبقى وليخرس الشاكون..
ووقف (محب) يرتجف وينقل ساقيه طلبًا للدفء، وهو يركن إلى دراجته، وقال بأسنان تصطك:
- « يبدو أن المشروع قد صار جديرًا بالتأجيل.. لن نجد ليلة أسوأ من هذه.. »
بإصرار قال (تختخ) وهو يرفع الرفش:
- « بالعكس.. هذه ليلة مناسبة جدًّا لأن الجميع سيلزم داره.. ستتحول المعادي إلى ضاحية أشباح، ولن تكون هناك أسئلة سخيفة. »
كانوا قد أوقفوا الدراجات في شارع جانبي، وكان الماء المنهمر يجعل فتح العينين عملية بطولية، ومن جديد أصدر (تختخ) تعليماته إلى (محب):
- « لا تنس.. صيحة البومة.. هه؟ »
- « بمجرد أن أجد مكانًا لا تملأ المياه عيني فيه سأنذركم.. »
واتجه (تختخ) و (عاطف) نحو الفيلّا، وقد حمل كل منهما كشافًا صغيرًا، ونظر الأول إلى ساعته فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل.. لا بأس.. إن الطقس يزداد سوءًا وهذا يطرد المتطفلين، كما قال (جين كيللي) في أغنيته الشهيرة (الغناء تحت المطر)..

- « دع السحب الداكنة تطرد الجميع من المكان.. عندها أمشي في الزقاق مرددًا لحنًا مرحًا.. الشمس في قلبي ومتأهب للحب.. »
دارا حول سور الفيلّا، ثم أشار (تختخ) إلى بقعة صالحة للتسلق.. كانت هناك على السور الغارق بالماء بضع قطع من زجاج مهشم، هي رمز لا أكثر لطرد اللصوص، لكن فعاليتها - كالعادة – صفر..
وتسلق الصديقان المكان بكثير من العسر، وكان على (عاطف) أن يصعد أولًا، فيعتلى السور، ثم يمد يده ليتناول الرفشين ويطوح بهما من عَل إلى الحديقة، بعدها يتبعه (تختخ)..
تم هذا خلال عشر دقائق.. بعدها وثبا إلى الحديقة ليسقطا في بركة من الطين الزلق، وأعلن (عاطف) رأيه في الموضوع حالًا:
- « تبًّا!! »
- « ششششش! يجب أن نعرف مكان البواب أولًا.. »
ولم يكن هذا عسيرًا لأن غرفة الرجل الصغيرة كانت مغلقة، والنور يلتمع وراء زجاج النافذة، وبرغم هدير المطر المستمر؛ كان صوت الغناء يتسلل إلى أذنيهما، مما يدل على أن الرجل يستمع للمذياع، وفي الغالب هو مصاب بصمم خفيف..
- « يا له من مهمل! الزوجة وحدها في الدار وهو حمايتها الوحيدة، وبرغم هذا يترك أمثالنا يمرون.. كيف يكون الحال لو لم نكن نحن المتسللين؟! »
في غيظ همس (تختخ) وهو يتقدم المسيرة:
- « فيما بعد يمكن أن نشكوه إلى الإدارة، أما الآن فهذا في صالحنا.. لو كان أكثر يقظة لرمانا بالرصاص.. »
وتحرك الصديقان وسط الأوحال عبر الحديقة المظلمة، ولم يكن هناك ما يهديهما إلا الشعاع المنبعث من الكشافين..
مسح (تختخ) الزهور بالكشاف، ثم غمغم والماء يسيل من حاجبيه كثيفًا:
- « كان علينا أن نصحب (نوسة) هنا.. أين الزهور المختلفة التي وصفتها يا ترى؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - ليمون وما إلى ذلك..

(عبير) التي صارت (نوسة) في غرفتها تفكر..
عقدت رباط قميص النوم حول عنقها، ثم دنت من المرآة لتتأمل وجهها.. الحق أنها لم تكن جميلة في هذه المغامرة.. كان لها وجه عظمى نحيل بارز الوجنتين؛ ربما هو من أقبح الوجوه التي حملتها منذ عرفت (فانتازيا).. ثمة نوع من الرقة الرهيفة في ملامح الوجه، لكن لا شيء سوى هذا.. بالواقع كانت أقرب إلى (محب) لو أن شعره استطال قليلًا..
وتساءلت في حيرة:
- « هل يحبنى حقًّا؟ لا أظن.. هو فقط يحب الحب كما يفعل المراهقون جميعًا، ولم تكن هناك واحدة تصلح سواى، لأن (لوزة) مجرد طفلة.. »
وتأملت المطر المنهمر الذي يسيل دون انقطاع على زجاج النافذة، وارتجفت.. أخوها (محب) هناك تحت هذه السيول والبرد القارص.. أخوها و(عاطف) و(تختخ)..
لماذا لم يعودوا، ولماذا لم يلغ (تختخ) خطته؟ لأنه عنيد لا يتراجع أبدًا.. لأنه أحمق.. لأنه يمقت أن يكون مخطئًا..
وتذكرت الورقة التي أعطاها إياها خلسة.. ترى ماذا فيها؟ كانت تعرف بالتقريب، لذا آثرت أن تؤجل هذه اللحظة، لأن قراءة الخطاب ستلقى بمسئولية لا بأس بها على كاهلها: أن تخبر (محب) أو تقول لـ (تختخ) أن يكف عن هذا الهراء..
تناولت الورقة وفتحتها في حذر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مليئة بأشياء لا علاقة لها بالحب.. مجموعة من الاستنتاجات المرتبة على طريقة (تختخ) وبخطه:
المرء يختفي لثلاثة أسباب لا رابع لها:
1- الموت: سواء عن طريق القتل أو الانتحار أو في حادث. هنا يجب وجود دافع أو وجود جثة أو كليهما. يظل هذا الاحتمال الأرجح ويضع أمامنا مشكلة هي العثور على الجثة. يمكن لمن يموت أن يختار أماكن عجيبة لجثته، مثل قاع النيل و الصحراء. هذه مشكلة لا بأس بها.
2- الاختطاف: هنا لا بد من جهة ما تعلن مسئوليتها وتطالب بفدية. حتى هذه اللحظة يظل هذا أضعف الاحتمالات ما دام أحد لم يعلن دوره.
3- الهرب: الهرب من الديون أو من تهديد معين. يظل هذا واردًا بشدة. وعلينا أن ننفي هذا الاحتمال قبل أي شيء آخر.
وخطة العمل كما أراها تتلخص في النقاط التالية:
1- التأكد من أن الفقيد لم يدفن في الحديقة.
2 - ترتيب عمل دوريات تمسح طريق المطار بحثًا عن جثث ملقاة حيث لا يراها أحد، هذا بالطبع يحتاج لمعونة المفتش (سامي).
3- التأكد من الحالة المالية للفقيد قبل اختفائه.
4- عمل طعم معين لاجتذاب الفقيد لو كان حيًّا.

(توفيق خليل)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرأت (عبير) السطور، ووجدت أن كل هذا قيل من قبل.. هو فقط مرتب بطريقة منسقة جميلة.. وهو فن تحويل الآراء المبعثرة إلى منهج متكامل محكم.. يبدو أن (تختخ) لم يرد بهذه الورقة إلا إعطاءها انطباع الانبهار بذكائه وترتيب أفكاره..
تأملت الورقة بضع دقائق، ثم لاحظت أنه وقعها باسم (توفيق).. هذا غريب وليس من عاداته، ومن النادر أن يفعلها إلا ليلفت النظر إلى شيء غريب في محتويات الخطاب...
كان قد فعلها من قبل حين أسره (كمال) في (لغز الشبح الأسود)، وأرغمه على كتابة خطاب يستدرج به أصدقاءه إلى القصر المهجور.. وكانت (لوزة) هي التي لاحظتها وشمت من الخطاب رائحة ال...
الليمون! هذا الخطاب يفوح برائحة الليمون..
كان معنى هذا واضحًا وسهلًا.. ثمة خطاب آخر مكتوب بحبر سرى فوق هذا الخطاب المكتوب بحبر عادى..
غادرت غرفتها واتجهت إلى غرفة الغسيل في الفيلا حيث تحتفظ والدتها بالمكواة الكهربية..
كان الوالدان نائمين في عمق، وهما يحسبان أن (محب) نائم في غرفته.. كيف لو عرفا أنه ينبش حديقة جار في المعادي تحت الأمطار وفي الظلام!
وضعت الفيشة في القابس فتوهج المصباح الأحمر، وراحت في صبر تنظر أن ينظفئ لتبدأ تسخين الخطاب...
كان الليمون هو أول حبر سري تسمع عنه، ثم عرفت بعدها عصير البصل، وأخيرًا عرفت (كلوريد الكوبالت) الذي يمكنها الحصول عليه من معمل المدرسة.. كلها تستجيب للحرارة ثم يزول الحبر حين تبرد الورقة ما لم تحترق...
هنا - لشدة غيظها - انقطع التيار الكهربي تمامًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الحديقة لاحظ (عاطف) أن النور الكهربي قد تلاشى من نافذة البواب، فقال (تختخ) وهو يواصل البحث بالكشاف:
- « لقد انقطع التيار الكهربي.. هذا ماس كهربى.. لا مشكلة هناك.. هذا يحدث كثيرًا.. »
وأشار إلى جزء من النباتات لا يبدو على ما يرام، وقال:
- « هل ترى؟ أعتقد أن هذا هو ما عنته حين تكلمت عن اختلاف النباتات.. إن (نوسة) دقيقة الملاحظة ولا تفوتها أشياء كهذه.. »
ابتسم (عاطف) بخبث.. فهو يدرك جيدًا أن (تختخ) لم يعد يجد مزايا إلا لدي (نوسة) في الآونة الأخيرة.. فيما مضى - حين كان شخصًا طبيعيًا – لم يكف عن إطراء (لوزة).. لكن (لوزة) الآن أصغر وأكثر طفولة مما ينبغي.. لحسن الحظ كان الظلام دامسًا والمطر كثيفًا فلم يتبين (تختخ) ابتسامة السخرية هذه..
وبدأ الصديقان الحفر في الطين، وهو بطبعه حفر سهل بالفعل..
حفر سهل لكنه قذر!
وبصقا الكثير من الطين حتى أن (تختخ) شعر بما شعر به (مكبث) بعد قتل (دنكان): لو اجتمعت بحار العالم كى تغسل هذا الدم - الطين في حالتنا هذه - ما استطاعت..
بعد دقائق بدآ يتبينان شيئًا ما...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وبدأ الصديقان الحفر فى الطين ، وهو بطبعه حفر سهل
بالفعل . . حفر سهل لكنه قذر !

7- هابيوس كوربوس..

بيد مرتجفة مررت (عبير) المكواة الحديدية على الخطاب عدة مرات، بعد ما عاد التيار الكهربي، وبدأت الحروف البرتقالية الباهتة تكشف عن نفسها على استحياء:
- عزيزتي (نوسة):
« هذا أول خطاب أكتبه لك في حياتي، وإن كنت قد شممت رائحة الليمون، كما أتوقع، فإنني فخور بك كما أنا دائمًا.. »
« الموضوع هو ببساطة أنني لم أعد أحمل لك مشاعر الصديق ولا الأخ ولا الزميل.. إنني أحمل مشاعر من نوع مختلف، أعتقد أنه يمكنك تخمينها دون أن أقولها.. »
« الأمر الآن متروك لك والخطوة التالية بيدك.. لن أصدع رأسك بالكلام عن السهاد الذي أعانيه، ولا احتراق ولهًا وشوقًا.. سأقول فقط إنني سأكون سعيدًا لو قبلت حبي، وهو حب لم يكن وليد اللحظة بل هو نتاج سنوات طويلة ومغامرات لا حصر لها واجهناها معًا.. لقد عانينا معًا وفرحنا معًا، ولم يعد تتويج هذه الخبرة بما هي جديرة به إثمًا أو حماقة..
« أنا بانتظار ردك.. ولن يكفيني خطاب واحد لأنني لا أيئس.. فقط ستكون كلمة الرفض القاطع النهائي هي نقطة التوقف لى، فلا تقوليها أرجوك إلا بعد تفكير ممحص، لأنك ستقتلين بها ملايين الأشياء الرائعة التي أدخرها - كبخلاء الجاحظ - لك..
تختخ »
انتهت من قراءة الخطاب، وكانت السطور الأولى قد بردت بعد التهابها السابق.. بردت عاطفيًّا وبردت فيزيائيًّا، مما جعلها تتلاشى ببطء.. وفي روح (عبير) بدأ صراع العواطف الشرس...
في البدء كانت عاطفة الغضب: من يظن نفسه هذا الأحمق كى يغازلني؟! ألاعيب المراهقة تلك.. يحاول تركيب عواطفه على أية فتاة.. أنا أكبر منه وأكثر نضجًا وأفهم ما يأبي الاعتراف به لنفسه..
ثم بدأت عاصفة الإعجاب تفصح عن نفسها: أفكاره متماسكة ويعبر عن نفسه ببراعة لا تناسب سنه.. ربما لأنه صبى مختلف في كل شيء.. برغم كل شيء هناك الكثير من التحضر والنضج في الخطاب..
بعدها بدأت سيطرة الشفقة: هذا البائس يحتاج بشدة إلى حب..
ثم الفخر الأنثوي: كم من فتاة في سني تلقت خطابًا كهذا ومن عبقرى مثل (تختخ)؟ بالطبع في عالم الواقع لم تتلق (عبير) أي خطاب عاطفى أو غير عاطفى..
ثم عاطفة النفور تسود: أنا لا أريد.. ككل فتاة كان ل. (نوسة) فارس أحلام، وبالتأكيد لم يكن بادنًا شحيمًا له ذقن مزدوجة..
الخلاصة هي أن (نوسة) - ككل فتاة مراهقة – لم تعرف حقًّا ما تريده، ولم تدر كيف تشعر.. فقط أجهشت بالبكاء الحار وهمست:
- « يا إلهي.. يا إلهي! »
وراحت تفكر في الحل الأفضل.. طبعًا ليس واردًا أن يرى (محب) بعصبيته الشهيرة هذا الخطاب.. لن تفسد بحماقتها تلك الصداقة التي دامت أعوامًا..
أما عن ردها على (تختخ) فالأمر هين.. ستتظاهر بأنها أكثر غباء مما ظنّ، ولسوف تزعم أنها لم

تر شيئًا ولم تقرأ الخطاب بالحبر السري.. وكذا طوت الورقة بين صفحات كتاب العلوم، ووقفت ترمق الحديقة التي ما زالت تستحم بالغيث في الظلام.. تفكر في الرجال الغائبين، والجنود الذين لم يعودوا من الجبهة بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان الجنديان الرئيسيان في هذه اللحظة عاكفين - وقد توقفت الأمطار - على فحص ما وجداه، ولم يكن مثيرًا للبهجة..
في البدء أخرج (تختخ) أجزاء من روب منزلي ممزق، وعلى ضوء الكشاف رأيا بقعًا من دماء عليه.. ثم وجدا أجزاء من منامة ممزقة بدورها.. ثم خفًا منزليًا مما ينتعله الرجال.. كل هذا كان معجونًا بالأوحال لكن من السهل تبين كنهه..
تبادلا النظرات، واتسعت عينا (عاطف) رعبًا.. هذا ما كانا يتوقعانه دون زيادة ولا نقصان.. المهم هنا أنهما لم يجدا الجمجمة المفزعة إياها ترمقهما بضحكة الموت الرهيبة..
قال (تختخ) وهو يكوم الأشياء تحت إبطه:
- « هذا كاف الآن.. تعال نعد »
وهرعا إلى السور يتسلقانه.. فجأة هتف (عاطف) وهو يشير إلى المنزل الجاثم عبر الحديقة:
- « (تختخ).. إن الباب قد فتح لثانية وكان هناك من يقف وراءه! »
- « هذا لن يغير خطتنا بصدد الفرار.. هيا بنا! »
وتسلق الاثنان السور بكثير من الجهد، بسبب أنه صار زلقًا كالزجاج، بعد كل هذه الأمطار.. وأخيرًا اعتليا السور، وقذفا بالرفشين من علٍ، ثم وثبا إلى الأرض، لتنزلق قدماهما على الأسفلت المبتل.. كانت سقطة عنيفة بحق..
أسرعا إلى الشارع الجانبي ركضًا حيث كان (محب) البائس مازال بالانتظار، تعسًا مبتلًا كالدجاجة التي سقطت في ماء شربها..
- « تبدوان كديدان الأرض حين تخرج من الطي... »
هنا دوت صرخة عاتية آمرة من حيث الفيلّا:
- « قف مكانك! »
لم ينتظروا للتفاهم، وقبل أن يصل القادم ليراهم ركب الأصدقاء الثلاثة دراجاتهم، واندفعوا يسابقون الريح وسط الشوارع المبتلة غير الموحلة.. فشوارع المعادي لا تعرف الأوحال.. وهو مشهد يذكرنا نحن بمطاردة الدراجات في المشهد النهائي لفيلم (إي تي) الذي لم يكن قد جاء للوجود في تلك الأيام..
بعد ثوان كانوا قد ابتعدوا عن مطاردهم، ووصلوا لديارهم..
قال (تختخ) وهو ينفصل قاصدًا داره:
- « هذه الليلة حمام دافئ ونوم.. في الصباح نلتقي عند (محب) لدراسة ما توصلنا إليه »
واتجه للحديقة كي يبدأ تسلق الشجرة إياها إلى حجرته.. بينما انفصل الأصدقاء كلٌّ عائد إلى داره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح يحتشد الكل في حديقة بيت (محب).. من الغريب أن تكون الشمس ما زالت حية وقادرة على كل هذا الدفء، بعد الليلة الرهيبة الفائتة.. شمس الشتاء بارعة الحسن التي يفور

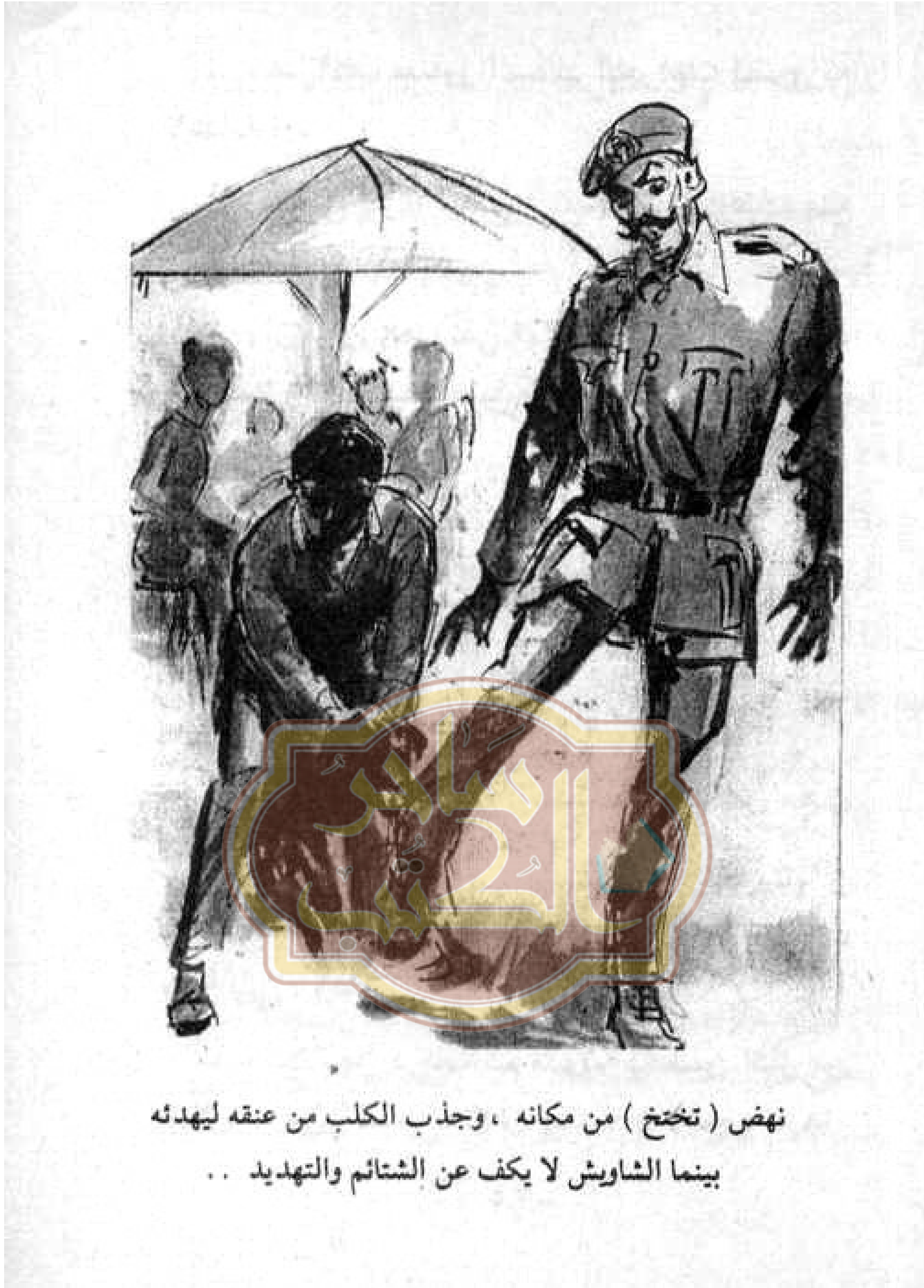
الدم منها في العروق.. الوجوه المنتعشة الخارجة من ياقات (البول أوفرات) ترشف الشيكولاتة الساخنة وتتكلم بحماس عما كان أمس.. ثلاثة منهم بدأت أنوفهم تسيل لأسباب لا تخفى على أحد..
فوق المنضدة التي تتوسط المكان توجد جريدة مفتوحة.. والجريدة تحوي أشياء غريبة: أجزاء من روب منزلي ممزق، وبقع من دماء عليه، وأجزاء من منامة ممزقة بدورها.. ثم خف منزلي مما ينتعله الرجال..
كان لهذه الأشياء رهبة حقيقية، كأنما هي جثة محنطة ترمقهم بعينين شاخصتين.. وقال (تختخ) وهو يتأمل المشهد:
- « هذا هو كل شيء.. لقد غسلت الأوحال بالطبع.. »
وعلى طريقة المغامرين الخمسة، بدأ تبادل الحوار كما في المسرحيات، وهو فن يجيدونه بصفة خاصة..
لوزة: لكنك قد أزلت البصمات بهذه الطريقة..
تختخ: لا أحد يتكلم عن البصمات بالنسبة لأشياء مدفونة في الطين منذ أسابيع.
عاطف: من المؤكد أنها تخص الأستاذ (حسين أبو شادى).. لا جدال في هذا.
محب: لقد صار من واجبنا إبلاغ المفتش سامى.
نوسة: لكن هذا دليل على أننا تسللنا إلى ملكية لا تخصنا، وهذا أمر غير قانونى.
عاطف: هذا ليس مبررًا لإخفاء آثار مهمة كهذه. إن الضرورات تبيح المحظورات، وما كان لنا أن نجد دليلًا مهمًّا كهذا دون تسلل.
تختخ: في الغالب لن يعاقبنا المفتش سامي على تسللنا، لكنه سيجنّ غضبًا لو كتمنا سر ما وجدناه.
نوسة: هل تسمحون لي بخدمة؟
تختخ: أي شيء.
نوسة: هلا توقفنا قليلًا عن طريقة الحوار المسرحية هذه فأنا لم أعتدها.
تختخ: ليكن.
تنهدت (نوسة) الصعداء وشعرت براحة حين صار بوسعها الكلام بطريقة عادية، وصار كلامها مسبوقًا بشرطة ومحاطًا بعلامتي التنصيص.. قالت:
- « هل تعتقدون أن هذا يقودنا إلى الجثة الكاملة؟ »
- « في الغالب نعم.. وهذا يضيق دائرة البحث لتقتصر على البواب النوبي والزوجة.. »
- « ولماذا تقتله الزوجة؟ »
- « للحصول على مبلغ التأمين. ألا تقرئين قصصًا بوليسية؟ »
فكرت قليلًا ثم قالت دون اقتناع:
- « هل تحصل على التأمين من دون جثة؟ »
كانت هناك قاعدة رومانية قديمة اسمها (هابيوس كوربوس)[1] أي (أظهروا الجثة)، ومن دونها يغدو اتهام القاتل بالقتل ظلمًا بينًا.. ويصير إطلاق سراحه حتميًّا..
(هابيوس كوربوس).. من دونها يصعب اتهام الزوجة، ومن دونها يصير حصولها على مبلغ التأمين مستحيلًا..
هنا هتف (تختخ) في توتر وهو يلف أطراف الجريدة على ما وجدوه:
- « الشاويش (على) قادم.. خذوا الحذر! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


ساحر الكتب

8- الأرملة تهرب..

ساد صمت رهيب بينما هم يتأملون الشاويش وهو يدخل إلى الحديقة.. بشكل ما كانوا يعرفون موضوع المناقشة وربما اللوم..
رأوه يقف عند المدخل حيث ربطوا دراجاتهم، فيتأملها في اهتمام، ثم ينحني ليتفحص الإطارات، وكان معنى هذا جليًّا..
هنا استيقظ (زنجر) - كلبهم - من قيلولته الممتعة في الشمس، وقرر أن يمارس هوايته المحببة في عض ساقي الشاويش.. انقض عليه نابحًا فراح الشاويش يصرخ ويركل بساقيه مرددًا بلهجته الريفية:
- « فرقع من هنا أيها الكلب الأحمق! »
نهض (تختخ) من مكانه، وجذب الكلب من عنقه ليهدئه بينما الشاويش لا يكف عن الشتائم والتهديد، وقد احمّر وجهه كالطماطم:
- « هذا الكلب مسعور! سأتخذ الإجراءات الضرورية لإعدامه! »
قال (تختخ) وهو يحتضن كلبه، بثبات اعتاده مع الشاويش:
- « لن يجرؤ أحد على إيذاء كلبي.. كل ما هنالك هو أنه رآك تقتحم الحديقة بلا استئذان يا حضرة الشاويش! »
هنا ابتسم الشاويش بخبث وتأمل وجوههم:
- « هل حقًّا أنا أول من يقتحم الحدائق بلا استئذان؟ »
في ثبات سأله (تختخ):
- « أنت أولهم.. هل تتحدث عن شخص معين يا حضرة الشاويش؟ »
قال الشاويش وهو يتأمل وجوههم بحثًا عن أول وجه يلين، وقال:
- « ثلاث من دراجاتكم ملوثة بالطين أكثر من اللازم.. من المستحيل أن يحدث هذا اليوم.. هل كان ثلاثة منكم في مكان ما ليلة أمس، في أثناء العاصفة إياها؟ »
لم يكن الأصدقاء ممن يكذبون.. هنا تصير للصمت قيمته.. لذا قال (تختخ) وهو يعود لمقعده:
- « لسنا مطالبين بالإجابة.. إن اتساخ الدراجات ليس تهمة يعاقب عليها القانون »
- « لكن التسلل لديار الآخرين تهمة عقابها السجن.. هل كان أحدكم في حديقة الأستاذ (حسين أبو شادى) أمس؟ أنا كنت في الحي ورأيت ثلاثة يثبون على السور خارجين من الفيلّا.. وبرغم الظلام بدا لي منظرهم مألوفًا.. »
لم ير بوضوح.. هكذا فكر (تختخ).. لقد وثب اثنان ليلحقا بالثالث.. على كل حال كان هذا حظًّا سيئًا، لكن الإنكار ما زال واردًا..



نهض (تختخ) من مكانه ، وجذب الكلب من عنقه ليهدئه
بينما الشاويش لا يكف عن الشتائم والتهديد ..

قال (تختخ) في برود:
- « بدلًا من التحرش بنا يا شاويش، لم لا تبذل بعض الجهد لتنظيف المعادي من اللصوص؟ هل سرق شيء من فيلا الأستاذ (حسين أبو شادى)؟ »
- « لا.. بالواقع لم تتقدم زوجته بالشكوى، وأصرّت على أن كل شيء على ما يرام.. أصررت على الدخول وتفقد الحديقة.. كانت هناك آثار حفر واضحة في الوحل.. لا أدري عم كانوا يبحثون، لكن يبدو لي أنهم وجدوه.. »
ثم ثبتت عيناه على الجريدة الموضوعة مطوية فوق المنضدة.. لو أن للنظرات قوة الفعل لاستطاع تمزيقها ليرى ما بها..
كانت (عبير) هي الجالسة عند طرف المنضدة البعيد عنه، لذا - دون كلمة واحدة - فتحت

اللفافة بدون أن تكشف ما بها، وتظاهرت باقتطاع شىء ثم أخرجت يدها ودستها في فمها، وراحت تمضغ ببطء.. تذكرت على الفور ما فعلته الطفلة (فاتن حمامة) في أول أفلامها (يوم سعيد)، وكان عليها أن تلتهم اللفت في أثناء أحد المشاهد.. فرغ ما بطبقها سريعًا لكنها ببراعة واصلت الأكل والمضغ حتى لا يفسد المشهد.. كانت (فاتن حمامة) في السابعة من عمرها وقتئذ، لكنها ابتكرت فن (البانتومايم) قبل أن تسمع عنه..
الحقيقة هنا أن (عبير) اكتشفت أنها عبقرية في فن التمثيل الإيمائي هذا، وقالت للشاويش بفم مليء:
- « بسم الله! إنه إفطارى.. هلم مد يدك »
- « سبقتك.. شكرًا »
ثم بحث عن شيء يضيفه فلم يجد.. هنا قرر (تختخ) أن يحول الموضوع باتجاه آخر:
- « ما هي أخبار زوجة الأستاذ حسين)؟ »
قال الشاويش في ملل، وهو يرمق شهية (عبير) الفائقة:
- « ماذا يهمكم في الأمر؟ على كل حال هي قد يئست تمامًا من العثور على بعلها، وتنوي ترك البلاد هذا الأسبوع.. »
تبادل الجميع نظرات مندهشة.. أبهذه السرعة إذن؟ لو كانت الزوجة هي من ارتكب الجريمة، فنحن دانون مما يوشك أن يكون الجريمة الكاملة، ويجب أن يعرف المفتش (سامي) كل شيء سريعًا..
- « هل ستلحق بأحد ولديها المقيمين في الخارج؟ »
- « لا ندري.. هذا شأنها على كل حال.. »
تساءل (تختخ):
- « وماذا عن الفيلّا؟ وماذا عن مبلغ التأمي... ماذا عن حقوقها المالية ومعاش زوجها وما إلى ذلك؟ »
قال الشاويش:
- « إن محاميها مفوض بالقيام بكل شيء.. يمكنه تولى الأمور خيرًا بالتأكيد من هذه البائسة التي لا تفقه شيئًا.. »
ثم تذكر ما جاء من أجله من جديد:
- « الويل لمن أراه منكم قرب فيلّا الأستاذ (حسين أبو شادى).. نحن لا نمزح.. والقضية كبيرة لا تتعلق باختفاء قطعة جاتوه من الثلاجة، فلا تحاولوا لعب تلك الألعاب السخيفة التي تلعبونها.. »
وانصرف في غضب كعادته.. نادرة هي المرات التي لا ينصرف فيها الشاويش غاضبًا لأي سبب..
بعد ما رحل ساد الصمت لبرهة، وقال (تختخ) في إعجاب موجهًا كلامه لـ (نوسة):
- « سرعة بديهة تحسدين عليها.. لم تكن إلا ثانية، ويسألنا بعدها عن محتوى اللفافة، وهذا أمر بالغ الحرج.. »
وفي ذهنه همس: ليتها تقبل.. ليتها! إنني أراها أجمل الفتيات لكنها أذكاهن أيضًا..
قال (محب) في عصبية:
- « الطير يوشك على الفرار.. »
- « هذا حق.. وقد صار إبلاغ المفتش (سامي) واجبًا.. »
بعد لحظة صمت قال (تختخ) شاردًا:

- « ما زال هناك جزء ناقص من الصورة.. لماذا لم تتدخل الزوجة لمنعنا أمس إذا كانت قد رأتنا من فرجة الباب؟ »
قال (عاطف) في نفاد صبر:
- « الأمر واضح.. لم تكن بحاجة إلى شوشرة.. ولنفس السبب لم تقدم شكوى ما للشاويش.. »
عاد (تختخ) يفكر بصوت عال:
- « هل تجدان من الطبيعي أن تقتل الزوجة زوجها إذا كانت من الطراز الذي تصفانه؟ سيدة مجتمع فاضلة يحبها الجميع، ولا توجد خلافات بينها وبين زوجها؟ »
قالت (نوسة) / (عبير):
- « اسمع يا (تختخ).. يصعب القول إننا نعرف الكثير عن تلك الأسرة.. والدي يعرف الرجل جيدًا، لكن لا أمي ولا أنا ولا (محب) نعرف المرأة جيدًا، وأنا لم أرها منذ أعوام.. قد يحدث أي شيء وقد يستجد ما لا تعلم.. »
وقال (عاطف):
- « نحن عمليًّا نجهل كل شيء عن الخلافات التي تحدث تحت سقف ذلك البيت.. أبي يتشاجر وأمي كثيرًا، ثم يلقيان الضيوف بوجه باسم وروح دعابة وتفاهم عاطفي كامل.. »
وأضافت (نوسة) / (عبير) وهي أكبر الخمسة ثقافة:
- « كما يقول (ألفريد هتشكوك) دائمًا: كل إنسان قد يقتل في لحظة ما.. لا يجب أن يمشي القاتل بيننا ملوثًا بالدماء وفي يده خنجر.. القاتل قد يكون سيدة مجتمع فاضلة يحبها الجميع، ولا توجد خلافات بينها وبين زوجها كما تقول »
قال (تختخ) بعد صمت طال:
- « يجب أن نزور الفيلّا جميعا ونجلس مع هذه السيدة..»
- « والهدف ؟ »
- « إن الجلوس معها سيخبرنا ما إذا كانت فعلتها أم لا.. نظراتها ستعترف.. أضف لهذا أن علينا معرفة ما إذا كانت ستميزنى و(عاطف) أم لا.. »
- « هذه مخاطرة.. »
- « لكنها ضرورية إن كان لنا أن نمنح المفتش (سامي) ما هو أكثر من الشكوك.. »
- « وحجة الزيارة؟ »
- « علمنا بدنو سفرها.. هذا مبرر كاف.. »
ونهض الجميع إيذانًا بالانطلاق، وتأخرت (نوسة) قليلًا فدنا منها (تختخ) ليكلمها، لكنها ناولته الورقة التي أعطاها إياها أمس - قبل أن يفتح فاه - وقالت:
- « استنتاجات لا بأس بها يا (تختخ).. »
بخيبة أمل تأمل الورقة في يدها، وقال وهو يقربها من أنفه:
- « ألم يلفت نظرك شيء ما فيها؟ »
- « بلى.. لقد غيرت شكل كتابتك لحرف التاء.. هذه التغييرات تحدث في سن المراهقة كثيرًا! »
ودون كلمة أخرى ركبت دراجتها، وانطلقت لتلحق بالأصدقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- في دار الأرملة..

أدخلهم البواب النوبي وهو يتساءل في سره ونظراته عن سبب هذا الزحام.. كان يعرف (محب) و(نوسة) وهذا جعله لا يتساءل أكثر..
دخلوا إلى الحديقة، وكانت ما زالت موحلة من جراء أمطار أمس، فهمست (عبير) في حدة:
- « انزعوا الأحذية على الباب إذا أردتم ألا يلقي بكم خارجًا! »
قرعوا الجرس ونزعوا الأحذية.. ها هي ذي السيدة (سلوى) قادمة.. تفتح الباب وتندهش لرؤيتهم، ثم تقرر أن تسمح لهم بالدخول..
لم ير (تختخ) ما يريب في وجهها، فقد كان يحمل بقايا جمال ذبل، ولم يكن يحمل شكوكًا فيه أو في (عاطف)..
في الداخل كان المكان ينم عن ذوق لا بأس به، لكن الإهمال بدأ يتسرب إلى كل شيء.. كانت هناك قطع ثياب ملقاة في الصالة، وحذاء أنثوي ملقى بإهمال جوار البيانو، وفي الصالون وجدوا بقايا وجبة إفطار على المنضدة الرخامية السوداء الموجودة في المركز..
هذا طبيعي.. فالمرأة لا تملك خدمًا، ولا بد أن مزاجها لم يعد رائقًا سواء قتلت زوجها أو فقدته..
في تهذيب سألت (محب) عن مرافقيه، فقدمهم لها.. إنهم أصدقاء قدامى ونحن لم نفترق قط منذ سنوات عديدة..
وسألها (محب) في تهذيب:
- « هل صحيح أنك تنوين الرحيل قريبًا؟ »
مدت يدها إلى منديلها.. وبدا واضحًا أنها تحاول التماسك، لكن الدمعة تسللت إلى وجهها الصلب فسالت على خدها:
- « الواقع أن هذا صحيح.. لقد فهمت أنني لن أرى زوجي ثانية.. هذا واضح ومن الحمق أن أزعم سوى هذا.. لقد صار البيت أضيق مما تحتمل ذكرياتي، لكنه أوسع مما تحتمل وحدتي.. لقد حان أوان الرحيل.. »
أدموع تماسيح هي؟ هذا هو الخاطر الذي جال برأس الجميع.. لو كانت هي القاتلة فهي بارعة في التمثيل حقًا.. ولكن من يستطيع التأكد؟ لا سبيل إلا المفتش (سامي) وقدرته على الضغط...
جلس (تختخ) يتأمل القاعة، وكانت هناك صورة على الجدار، يبدو فيها رجل يبتسم ببلاهة، وله شعر طويل.. سألها في رفق:
- « هل هذا هو الأستاذ (حسين أبو شادى)؟ »
ابتسمت وقالت في حزن:
- « من سواه؟ »
- « ظننته أصلع الرأس كما قالوا.. »
- « لا أحد يولد أصلع يا بني.. هذه صورته في الثلاثينيات حين كان محتفظًا بشعره، وكانت الموضة وقتها تقضي بإطالة شعر رأس الرجال ثم لصقه بالبريانتين.. أنت ترى أفلام (أنور وجدي) القديمة حين كان ينفعل فيستطيل شعر رأسه فجأة، ويسقط على عينيه!»
وراق لها الموضوع فنهضت إلى مكتبة جدارية فتناولت ما بدا لهم كألبوم صور من الطراز

القديم الذي كانت الصور تلصق على صفحاته، وجلست ودعتهم للجلوس حولها ليروا تلكم الصور العتيقة.. كلها كانت بذلك الطابع البني الزيتوني الخشن المميز لأيام كانت الكاميرا فيها تسمى (فوتوغرافيا)..

- « هذه في حفل تخرجه.. وهذه صورة زفافنا.. هذه في نزهة في القناطر.. »

إلى آخر هذا الهراء المعتاد.. لكن الأصدقاء أدركوا أنها كانت فاتنة بحق في شبابها.. صورتها أقرب إلى صور (ريتا هيوارث) و(إستر وليامز) وغيرهما من نجمات (هوليوود) القديمات.. وكانت هناك عدة صفحات خلت من الصور عمدًا، لأن علامات لصق الصور كانت موجودة، ثم توقفت عند صورة تمثل مجموعة من الشباب - بعضهم مطربش وبعضهم عاري الرأس - يتضاحكون وأحدهم يلقى بالآخر على منضدة متظاهرًا بخنقه، وسألت (محب):

- « هذه في احتفال تخرجنا في المدرسة السعيدية.. هل تعرف من هذا الذي يخنقونه؟ »

تأمل الصورة في اهتمام ثم غمغم:

- « لا أعرف.. كل الشباب يلتقطون صورة كهذه.. »

- « هذا أبوك في شبابه! »

قالتها في استمتاع، فبدا الذهول على (محب) و(نوسة).. إذن أبوهما الصارم كان يعرف كيف يمزح، ولم يولد مقطبًا كما يحلو له أن يظهر أمامهما.. وكانت هناك عدة صفحات أخرى خالية ثم بدأت صور الطفلين تملأ الساحة.. بعض الصور كانت متناثرة لم تلصق، لذا راحت تضعها في حجر ثوبها حتى تفرغ من تصفح الألبوم..

كانت هناك أوراق عتيقة ما بين الصفحات.. توقفت عندها قليلًا ثم ارتجفت شفتها السفلى، وغمغمت:

- « لم يعد يهم الآن! »

ثم مدت يدها لتتناول عود ثقاب من علبة على المنضدة، وأشعلته، وأمام عيون الأصدقاء المذهولة أحرقت طرف الأوراق..

تساءل (عاطف) في دهشة:

- « ماذا تحرقين يا سيدتي؟ »

راحت تتأمل الجذوة المتزايدة التي تأتي على الأوراق شيئًا فشيئًا، وهمست في شرود:

- « أوراق خاصة لم تعد لها أهمية.. »



أخيرًا دنت النار من أناملها فوضعت الكومة الملتهبة فى مطفأة تبغ معدنية أمامها ..

أخيرًا دنت النار من أناملها فوضعت الكومة الملتهبة في مطفأة تبغ معدنية أمامها، وراحت مفتونة ترمق النار حتى انتهت، ثم نهضت لتفتح النافذة لتزيل الدخان المتراكم..

- « أضحي بذراعى كى أعرف ما كان محتوى الأوراق! »
قالها (تختخ) همسًا ل.(عبير)، فهمست بدورها:
- « لن نعرف أبدًا.. يمكنك الاحتفاظ بذراعك! »
أخيرًا ساد الهدوء، فقال (تختخ) وقد أحس بحرج الصمت:
- « الآن يا سيدتي نرجوك أن تأذني لنا بالانصراف.. ونشكرك على حسن استقبالنا.. »
هزت رأسها وابتسمت ونهضت، وهي تغمغم:
- « لكنكم لم تشربوا شيئًا.. »
- « كفانا الحفاوة وألبوم الذكريات هذا.. »
وفي سره همس: كان بوسعك أن تقدمى لنا شيئًا لو أردت.. فلا تتظاهري بالعكس..

قالت السيدة ل. (محب):
- « المعروف الوحيد الذي أطلبه منكم هو ألا تخبروا أحدًا بقرب رحيلي.. لا تخبر والدتك فأنا قد كففت عن مقابلة معارفي جميعًا.. لا تجعلوا الأمور أصعب عليّ »
وخرجوا من الفيلّا، فأمسك كل منهم بدراجته يمشي جوارها، وراحوا يتبادلون الآراء عن هذه الزيارة..
قال (محب):
- « كما ترون هي سيدة لطيفة.. وإن كنت أتساءل عن سبب مقابلتها لنا ما دامت اعتزلت الحياة؟ »
قال (تختخ) في ثقة:
- « لم تكن هذه الزيارة إلا محاولة لطرد بعض الأفكار من أذهاننا.. وأؤكد لك أنها تعرفتنى و(عاطف)، وقد دعتنا إلى الداخل كى ترينا أنها حزينة مخلصة حقًّا لو فكرنا في شيء ما.. »
- « وحرق الأوراق أمامنا؟ كان بوسعها أن تؤجل هذه الخطوة إلى ما بعد رحيلنا.. »
- « لن نعرف أبدًا، لأننا لا نعرف محتوي هذه الأوراق..»
وبعد صمت أردف وهو يركب دراجته:
- « لا بد من الاتصال بالمفتش (سامي) الآن.. ليس من سلطتنا منع المرأة من السفر.. »
وقبل أن يرحل همس ل. (نوسة):
- « افتحي نافذة حجرتك في الثامنة مساءً.. لا تنسى هذا!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



10- اختطاف أم..

في الرابعة بعد الظهر توقفت سيارة المفتش (سامي) أمام بيت (تختخ)، وكان (تختخ) ينتظر الرجل، وقد أعدّ جلسة في الفناء الخلفي، وأعد - بالطبع - الكيس الذي وضع فيه ما وجده في الحديقة..

قال المفتش:

- « كالعادة يا (تختخ) أنت تسبقنا أو تتحرك معنا بنفس السرعة.. »

وأفرغ محتويات الكيس على المنضدة، وراح يتأملها في اهتمام، ثم قال بصوته العميق النفاذ:

- « هذا لا يدل على شيء.. أنتم لم تجدوا إصبع قدم الرجل ولا أنفه بعد.. »

قال (تختخ) في حماسة:

- « لا أحد يدفن روبًا أو منامة ملوثين بالدم في حديقته بدون سبب وجيه.. »

- « أنا معك.. لكن القاعدة هي أن نجد الجثة.. لسوف أستصدر أمرًا من النيابة بتفتيش البيت ونبش الحديقة.. لكني أعرف جيدًا أنه لا مشكلة هناك.. لن نجد شيئًا، ولن نوجه اتهامًا للزوجة.. »

- « ولماذا؟ »

أشعل المفتش لفافة تبغ، وقال في خطورة:

- « الرجل اختطف.. نحن الآن واثقون من هذا.. كما أننا واثقون من أن مختطفيه قتلوه! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذهول تساءل (تختخ) وهو يشعر بوهن بالغ:

- « قلت إنه ما من جهة أعلنت مسئوليتها.. »

- « حقًّا كنا نحسب هذا.. لكن الزوجة كانت قد تلقت تهديدًا بقتل زوجها لو أبلغت الشرطة.. بعد الاختفاء بيومين جاءتها المكالمة التقليدية التي تطالب بعشرين ألف جنيه، توضع في مكان معين من الحديقة اليابانية، وإلا...»

« أصابها الهلع لأنها لم تكن تملك مليمًا، ولم تعرف ما تفعله، ثم قررت أن تقترض المال من مصدر معين، واتجهت في حماقة لتضعه حيث طُلب منها في الهاتف.. ولم تنتظر لتعرف مصير المال.. »

« طبعًا لم يعد زوجها ولم يظهر المال.. وفي النهاية اضطرت لإبلاغنا منذ يومين بما حدث، وقد راقبنا جهاز الهاتف الخاص بها، وبالفعل تلقت أمس مكالمة فشلنا في تتبعها يقول صاحبها: لقد أبلغت الشرطة، ويمكنك أن تشتري ما يلزم من القهوة السادة لزوم العزاء في الفقيد.. ستجدين جثته بعد أيام حيث وضعت المال! »

« كانت المكالمة سريعة وفي الغالب كان مصدرها هاتفًا عموميًّا.. وكان صوت المتكلم خشنًا جديرًا برجال العصابات.. هكذا يمكن القول إن الموضوع منته ولا دخل للزوجة فيه.. »

« هذا هو السبب في كونها تتعجل الرحيل.. إنها خائفة ولم يعد شيء يربطها بهذا البلد.. »

هتف (تختخ) في خيبة أمل:

- « ولماذا لم تخبرني بهذا؟ كان هذا سيوفر المغامرة الليلية الرهيبة ووابل المطر الذي تلقيته..

»
- « أولًا: لم أحسبك مجنونًا لتفعلها.. ثانيًا: نحن لا نملك أي دليل على براءة الزوجة إلا هذه المكالمة، ومن الممكن دائمًا أن تتفق مع أحدهم ليتصل بها في منزلها ويؤدي سطور التمثيلية..
»
- « إذن أنت لا تصدق.. »
- «.. ولا أكذب.. أنا متعادل.. والفيصل هو نبش الحديقة بحثًا عن جثة الزوج.. »
- « وهل هذا دليل على كون الزوجة قتلته؟ »
- « غالبًا هو كذلك.. لا تنس أن المختطف وعد بأن تظهر الجثة في الحديقة اليابانية لا حديقة الفقيد.. »
- « وهل تراقبون الحديقة اليابانية؟ »
ابتسم المفتش في ثقة وقال:
- « أشياء كهذه لا تفوت رجال المباحث.. هذا عملنا.. وإن كنت أتمنى معرفة الطريقة العبقرية التي سيدخلون بها جثة إلى هذا المكان.. »
ثم لفّ الكيس على محتوياته وقال:
- « سنقوم بتحليل الدم الموجود على هذه الثياب.. إننا لا نملك قطرات من دم الفقيد، لكننا على الأقل نعرف فصيلته من صورة البطاقة الضوئية.. لو لم تكن هذه القطرات من الفصيلة A يمكننا أن ننسى أمر هذه الثياب تمامًا.. »
وابتسم ودعا (تختخ) ألا يفقد حماسه.. إن الحل قد بدأ يدنو...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) / (نوسة) تعود إلى دارها مرهقة جائعة..
ما إن تدخل الدار حتى تجد جوًّا من (النكد) المميز والذي لا يخطئه المرء أبدًا.. وتسألها أمها في عصبية وجفاف أدنى إلى القسوة:
- « أين كنت؟ »
قالت وهي تنزع حذاءيها:
- « كنا نحقق في لغز ما.. موضوع اختفاء الأستاذ (حسين أبو شادى).. »
- « كنت مع (تختخ) و(عاطف)؟ »
- « طبعًا يا أماه.. و(محب) أخي و(لوزة) كذلك.. ماذا ترمين إليه؟ »
قالت الأم وهي تبدأ وضع الأطباق على مائدة الطعام:
- « اسمعي يا (نوسة).. إن هناك أشياء لابد أن توضع في نصابها، ومن الخير أن أتكلم أنا وليس أباك.. لقد كبرت كثيرًا، ومعنى أنك كبرت أن هناك نوعًا معينًا من القيود والمسئوليات، التي يرغمنا المجتمع عليها.. وهذه القيود تتضمن نوعًا من... لنقل التحديد بدلًا من المنع.. إن هناك حدًّا للقاءاتك بهذين الولدين: (تختخ) و(عاطف).. »
تحشرج صوتها شأن من بوغت باتهام لم يتوقعه، وغمغمت:
- « لكننا نلتقي دائمًا معًا.. كلنا.. (لوزة) و(محب) أخي.. ودائمًا ما يكون اللقاء في دار أحدنا وأمام والديه.. »
بعصبية وضعت الأم الطبق الذي تحمله على المائدة في نوع من الاحتجاج الصاخب، وقالت:
- « أنت كبرت يا حمقاء! كيف أشرح لك؟ لقد كبرت وعليك أن تطيعي كلامي حتى لا... حتى لا..

»
ثم وجدت العبارة المناسبة، فصاحت:
- « حتى لا أهشم ضلوعك! »
دخلت (نوسة) / (عبير) إلى حجرتها وهي تشعر بارتباك بالغ.. الأمور تزداد تعقيدًا بحق.. المشكلة هي أنها تعرف أن أمها محقة تمامًا.. لو لم يكن (تختخ) يلعب لعبة (قيس بن الملوح) لأمكنها الجدال بحماس أكبر، لكنها أول من يعرف أن الأمور لم تعد كما كانت ولن تعود..
إن جدران السجن تضيق علينا أكثر كلما كبرنا.. وهي مستعدة دون شكّ للتخلي عن أنوثتها وانضمامها لعالم النساء مقابل احتفاظها بصداقة الخمسة.. لكن (تختخ) وربما (عاطف) لن يتخليا عن رجولتهما.. لا يمكنها عقد مؤتمر صلح تدعو فيه الآخرين إلى تجاهل ضرورات الفسيولوجيا وتغيرات النمو.. لقد صاروا رجالًا وصارت امرأة، ولم يعد شيء كما كان..
يومًا ما ستنتهي هذه الصداقة، وسينضم الفتية إلى معسكر الأعداء، بينما تدخل هي إلى خدرها مع النساء الأخريات بانتظار العريس..
تبًّا! ليس النمو بهذا الجمال كما تحسبه..
وبعد الغداء أخلدت إلى نوم متقطع لم تصح منه إلا في السابعة مساءً مع شعور بالذنب.. الأيام الأخيرة للإجازة تلفظ أنفاسها بسرعة هائلة، ثم تجيء المدرسة من جديد.. لماذا تضيع كل هذا الوقت في النوم بدلًا من عمل شيء مسل؟
وفي الثامنة مساءً طارت قطعة حجر ملفوفة بالورق، لتدخل من نافذة غرفتها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



11- أكبر منا..

فتحت الورقة فوجدت الأبيات التالية من الشعر:

« تذكرت ليلى والسنين الخواليا
وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
أحبّ من الأسماء ما وافق اسمها
أو شابهه أو كان منه مدانيا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وأنت التي إن شئت أنعمت باليا
خليليّ إن ضنوا بليلى فقرّبا
لى النعش والأكفان واستغفرا ليا »

هذا الشعر يحوى اسم (ليلى) فمن الواضح أنه يخص (قيس بن الملوح)، وهو عاشق لحوح آخر ممن لا يهمدون لحظة أو يملون ما يعملون..

تبًّا! هو ذا (تختخ) يلعب لعبة المراهقة كاملة، ومن العسير التخلص منه الآن.. إن الأبيات رقيقة بحق، لكنه لم يكتبها.. والمشكلة هنا هي أنها لا تستطيع أن تزعم أنها لم تقرأها.. لا بد من مواجهة الأمور بصراحة وحكمة..

وبشكل لا يهدم أواصر الصداقة، أو يفتت الفريق الخماسي..

رباه! لماذا أنا بالذات؟ لماذا؟ لم لا يحب أية ممثلة حسناء كدأب المراهقين ويتركني وشأني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يصر هؤلاء الشعراء القدامى على مخاطبة صديقين فقط؟ (متى أضع العمامة تعرفانى).. (قف نبك من..).. (خليليّ قربا..).. إلخ..

لا بد أن تسأل عن هذا الموضوع فيما بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعاد (تختخ) إلى داره بعد ما أتم مهمته العاطفية، بالمقلاع الصغير الذي كان يقذف به الجيران بالطوب في طفولته.. طريقة مراهقة لكن من قال إنه ليس مراهقًا؟ ثانيًا هو لا يستطيع الانفراد ب.(نوسة) و(محب) ملتصق بها كالذبابة..

وكان بانتظاره هاتف من المفتش (سامي) يخبره بأن:

- « الدم من نفس فصيلة الأستاذ (حسين أبو شادى).. هذا لا يدل على أنه هو، لكن الأمر جدير بالاهتمام.. »

- « عظيم.. هل ستقومون بنبش الحديقة؟ »

- « في الصباح على الأرجح.. »

وودع (تختخ) المفتش وتمنى له ليلة طيبة.. ثم استلقي في فراشه وراح يعيد نسج خيوط هذه القصة بحثًا عن شيء فاته...

منامة ملوثة بالدم في الحديقة.. لو لم تكن هذه في القصة لكان كل شيء على ما يرام متسقًا مع نظرية الاختطاف..
كل هذا غريب.. غريبييبي..
وغاب في نعاس عميق أيقظه منه صوت الهاتف بعد ساعة تقريبًا..
رفع السماعة ليسمع صوت (نوسة) الهادئ، فتواثب قلبه في ضلوعه..
- « مساء الخير.. هل نمت؟ »
- « ل.. ل.. لا.. »
- « لقد قرأت رسالتك.. »
- « وكيف عرفت أنها رسالتى؟ »
لم تقع في الفخ، ولم تعترف بأنها قرأت رسالة الحبر السري، بل قالت في هدوء:
- « أنت من طلب مني فتح النافذة في الثامنة مساءً.. هل تذكر هذا؟ »
- « أتمنى ألا تكون قطعة الطوب قد هشمت شيئًا ثمينًا..»
- « نعم.. قد هشمت سلامي النفسي، وإنني لأسألك سؤالًا واحدًا: طلباتك؟ »
ارتبك وتحشرج صوته.. واضح أن المعركة خاسرة.. لهجتها تقول كل شيء.. قال بعد ما ابتلع ريقه:
- « هل بعد ذلك بعد.. أو قبل ذلك قبل؟ »
- « هل أنا مطالبة بشيء ما؟ »
- « مطالبة بأن تحبينى، فإن لم تستطيعي دعيني أحبك..»
قالت في لهجة حاولت أن تنزع منها أية غلظة:
- « يمكنك أن تحبني إذا أردت، مادام هذا لن يجعل حياتي جحيمًا.. وما دمت لن تطالبني بشيء.. »
- « هل ستكونين لي أبدًا، ويومًا ما تقبلين الزواج منى؟ »
قالت في كياسة:
- « (تختخ).. يوم نبدأ الكلام عن الزواج؛ سيكون هذا بعد عشرة أعوام من الآن على الأقل.. من يدري؟ ربما تكون القيامة قد قامت أو الحرب النووية قد نشبت، وهذا يجعل كلامنا غير ذى موضوع.. »
كانت أكبر منه سنًّا (بما أنها عبير) وكانت تعرف الحقيقة بجلاء:
- « لسوف تلقي من هن أجمل مني وأذكى منى.. ستعرف طبيبات.. مبرمجات للعقول الإلكترونية.. رسامات.. دبلوماسيات تحت التمرين.. ستكون فتاتك واحدة منهن، ولسوف تندهش كيف أنك أحببت مثلي يومًا ما.. صدقني.. هناك (نوسات) كثيرات في هذا العالم. »
- « لكن لا توجد (أنت) أخرى.. »
- « بل لا توجد (أنا) أخرى في الوقت الحالي، وهذا ما يجعل وجودى نوعًا من العرج في حارة المكسحين.. أنت تمر بحالة من (إذا لم تجد ما تحب فحب ما تجد)، أو (إذا لم أكن قرب الفتاة التي أحبها سأحب الفتاة التي أنا بقربها).. والآن وداعًا.. اشرب كوبًا من اللبن الدافئ ونم، وحاول أن تفكر في لغز الزوج المختفى قبل أن تهزمك الأحلام.. »
ووضعت السماعة قبل أن يرد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند منتصف اليوم التالي اجتمعوا في حديقة (عاطف)، وحكى لهم (تختخ) كل ما حدث أمس

(طبعًا لم يحك موضوع الرسالة)، ولاحظت (نوسة) أنه لم يعد يوجه لها الكلام.. من الواضح أنه أعقل مما حسبت..
وأنهى (تختخ) كلامه قائلًا:
- «.. وقد اتصل بي المفتش (سامي) من نصف ساعة ليخبرني أن نبش الحديقة لم يسفر عن شيء.. سوي نوبة بكاء هستيرى أصابت الزوجة التي فوجئت بكل هذا.. لقد أُتلفت الحديقة تمامًا، لكن هذا كان ضروريًّا.. والآن ما تعليقاتكم؟ (لوزة)؟ »
قالت (لوزة) وقد احمّر وجهها حماسة:
- « هذا يجعل قصة الاختطاف هي الأرجح، وأعتقد أن دورنا انتهي وستظهر الجثة حتمًا، لكننا لن نجد اللص.. »
قال (عاطف) في جدية:
- « بالعكس.. لم يستجد شيء يلغي احتمال قتل الزوجة له.. يمكنها دومًا أن تقتله في مكان غير الفيلا.. »
وقال (محب):
- «... ولربما تبقت بعض آثار لعملية القتل، فكان عليها أن تداريها في الحديقة.. »
قال (تختخ) في قنوط:
- « على كل حال لم تعد هناك مشكلة.. سينتهى كل شيء غدًا.. إجازتنا واللغز.. الزوجة ستسافر للخارج غدًا.. يقول المفتش (سامي) إنه لا اتهامات ضدها، ومن ثم من حقها السفر متى شاءت.. لا أعرف وجهتها لكني لن أندهش لو كانت مسافرة إلى بلد لا تربطنا به معاهدة تسليم المتهمين، أو بلد لا ينتمي إلى (الإنتربول).. »
صاحت (نوسة) في هلع:
- « لكننا نعرف الحل دومًا في اللحظة الأخيرة قبل انتهاء الإجازة.. هذه هي التقاليد.. لا يمكن مخالفتها.. »
- « للأسف كان هذا اللغز أكبر منّا، وكان معقدًا في كل شيء من اللحظة الأولى.. لقد كنت محقة في البداية حين قلت: أخشى أن الأمر هذه المرة أكبر منا.. »
وساد الصمت، ثم قال (محب) بعد تفكير:
- « هل تعتقد أن المتسول الذي قابلته ليلًا يمت بصلة لرجال الشرطة؟ لو لم يمتّ لهم فمن المؤكد أن له علاقة بالخطف، وهذا يضع البواب النوبي في قائمة الاشتباه.. »
حكّ (تختخ) رأسه وقال:
- « هذا حقّ.. لقد فاتني هذا فعلًا.. »
ثم حكّ رأسه في عنف أكثر، وأردف:
- « هل تريدون رأيي؟ هذه القصة لن تحل إلا إذا دخلت البيت نفسه اليوم! »
بدا الجزع على وجوه الجميع، وكانت (نوسة) / (عبير) أول من تكلم:
- « لا تفعل يا (تختخ).. هذه مخاطرة لا يبررها شيء، وأنت تعرف أن رجال الشرطة فتشوا المكان جيدًا »
- « نعم.. لكنهم رأوا ما يمكن أن يحدث في وجودهم.. ترى ماذا يمكن أن يحدث في غيابهم؟ هذا هو ما أنوي أن أراه! »
- « لا نفهم.. »
- « أحب أن أرى ما تفعله الزوجة الآن وما تعده لتضعه في حقائبها.. ما هي الأوراق التي تنوى

إعدامها أو حرقها؟ ما المكالمات التي ستجريها؟ ماذا يفعل البواب النوبي الآن؟ هل البواب النوبى هو الأستاذ (حسين أبو شادي) نفسه؟ »
كانت دهشتهم بالغة حتى إنهم عادوا لطريقتهم في الكلام بأسلوب المسرح.. وكانت (عبير) / (نوسة) أول من استعمله برغم أنها تمقت هذا الأسلوب.
نوسة: هل جننت؟ البواب النوبي هو (حسين أبو شادى)؟ كيف، ولماذا؟
تختخ: من ناحية (كيف) هذا سهل.. أي شخص يدهن وجهة بمسحوق الفللين المحروق يغدو نوبيًا، واللهجة يسهل افتعالها ما دام لن يلقى نوبيًا آخر.. إن (على الكسار) قد علّم الجميع كيف يتظاهرون بأنهم نوبيون..
أما بخصوص (لماذا) فهناك عدة إغراءات منها الهرب من ديون أو مسئوليات تلاحقه، والظفر بمبلغ التأمين على حياته هو..
لوزة: والمكالمة التي هددت الزوجة بقتل زوجها؟
تختخ: نحن لم نسمع شيئًا منها، والمكالمة الوحيدة التي سمعها المفتش (سامي) قد تكون ملفقة، وهذا ليس عسيرًا.. ربما كان الزوج نفسه هو المتكلم.
محب: لكنك قلت إنه لا بد من ظهور الجثة.. (هابيوس كوربوس)..
تختخ: ربما كان بوسع الزوج التحايل على القانون أو رفع قضية يكسبها على الشركة، ويرغمها على دفع مبلغ التأمين للزوجة، وهكذا يكون قد نال ثمن وفاته وهو حي، وسرعان ما تهاجر الزوجة ويلحق هو بها بعد قليل..
نوسة: هذا تفكير بالغ التعقيد بالنسبة للرجل..
تختخ: لكنه وارد، ولا أجد وسيلة للتأكد منه إلا بدخول الفيلّا.. هذه الليلة!



∞∞∞∞∞

12- مغامرة ليلية..

(لقد صار هذا العنوان مملًا)

وفي المساء دخل (تختخ) غرفته وأغلقها عليه، ثم جلس أمام المرآة التي ثبت المصابيح على إطارها الخارجي كغرف الماكياج في المسارح، وبدأ يتخذ معالم تنكره الجديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أي شخص يدهن وجهه بمسحوق الفللين يغدو نوبيًّا، واللهجة يسهل افتعالها ما دام لن يلقى نوبيًّا آخر.. إن (على الكسار) قد علّم الجميع كيف يتظاهرون بأنهم نوبيون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد خطرت له الفكرة وهو يتكلم مع الأصدقاء، ومن حينها قرر أن يكون هو البواب النوبي.. لم لا؟ هذا قد يتيح له الكلام مع الزوجة.. صحيح أن لسانها لن ينزلق لأنه من المستحيل أن يكون تنكره بارعًا إلى هذا الحدّ، لكنه - على أضعف احتمال - يتيح له أن يدخل الفيلّا دون أن يثير الشكوك.. وثبت العمامة على رأسه وتأمل وجهه في المرآة.. لا بأس على الإطلاق، ثم تلفظ بعبارة بلهجة نوبية:

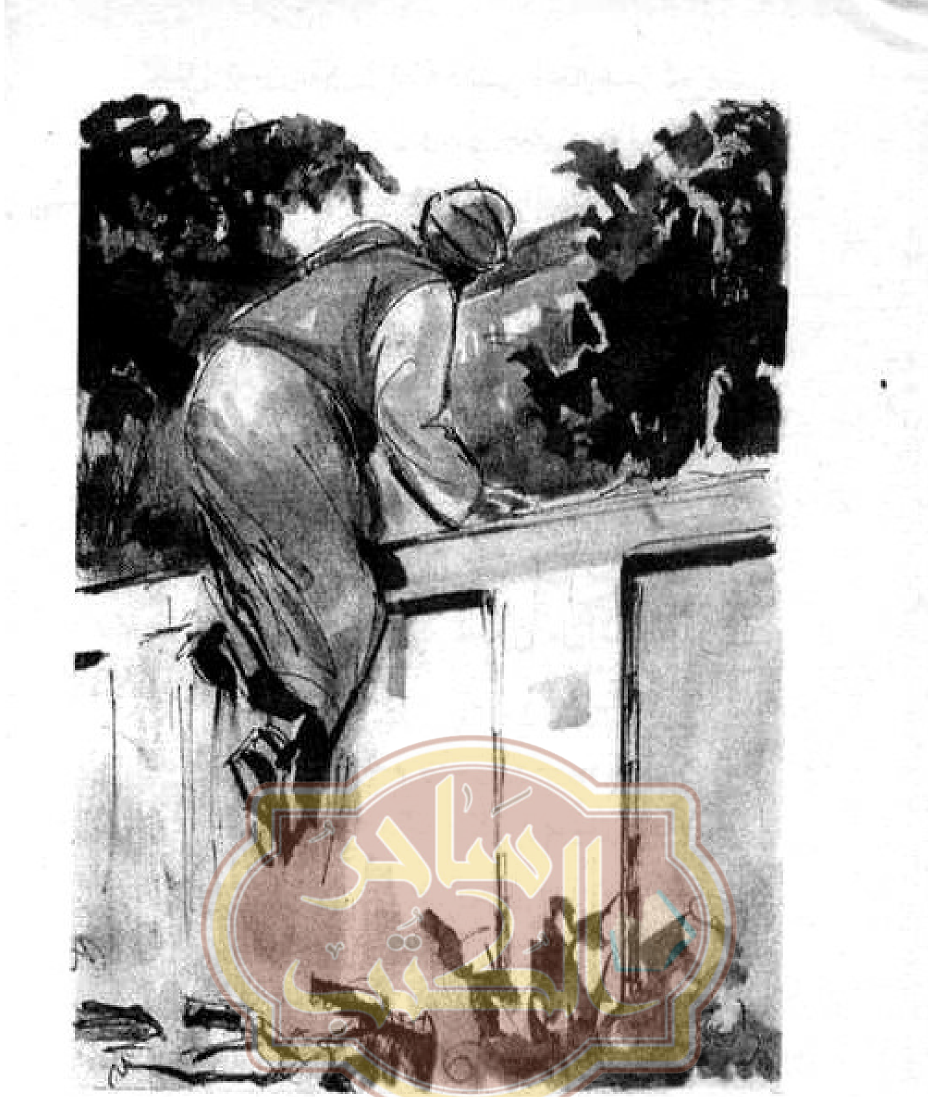
- « المندو كورو ماتوا سنبلة.. أه سورى إهواني! »[2]

كان هذا جيدًا ورضي عن نفسه كثيرًا، وكان في أشد الحاجة لهذا لأن موقف (نوسة) منه هز ثقته الداخلية.. كان يحبها بحق، أو هكذا حسب وما ظنّ أنها سترفضه.. لم يعترف لنفسه بأنها رفضته لأنه أصغر من اللازم أو أبدن من اللازم مثلًا.. قال لنفسه: إنها رفضته لأنه لم يأت بجديد في هذا اللغز، ولم يبهرها بعقله كما اعتادت..

الليلة سيكون هناك جديد، ولسوف تبحث عنه في الصباح مفتونة مبهورة..

فرغ من التنكر فغادر من فوق الشجرة إياها كعادته، وركب دراجته قاصدًا فيلّا الأستاذ المختفي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تسلق السور من النقطة التى اعتادها ، ثم مشى فى الممر ما بين الأشجار وهو يتلفت حوله خائفاً ..

تسلق السور من النقطة التي اعتادها، ثم مشى في الممر ما بين الأشجار وهو يتلفت حوله خائفًا.. كانت الأنوار مطفأة كلها كما كانت أمس، وواضح هنا أن الزوجة لم تعد تهتم بأن تبدو الفيلّا بهيجة.. كما أن آثار الحفر والتنقيب أحالت المكان إلى إحدى غابات الأمازون، ولم تعد له علاقة بالحديقة الأنيقة المعهودة..

أخيرًا وصل إلى البيت، فبدأ يدور من حوله. ثمة نافذة مواربة يمكن الدخول منها مع ارتفاعها الخفيض.. سكان هذا البيت يعانون من انطباع زائف بالأمان..
يتسلق الحافة، ثم يلقي بجسده البدين إلى الداخل.. كان في قاعة مظلمة تفوح منها رائحة رطوبة قوية مما يشي ببدروم أو شيء من هذا القبيل.. أطلق شعاعًا رفيعًا فرأى على ضوئه أنه لم يكن مخطئًا.. هذه غرفة كرار بها مخلفات عديدة، وحقائب قديمة فارغة، مع صفين من قوالب القرميد، وقصعة أسمنت.. وبعض أدوات البناء ولوازم السباكة..
فئران! ياللهول! إنه يهابها برغم بدانته وضخامته.. لم لا؟ الفيل يهاب الفئران بشدة لأنها قادرة

على قرض أقدامه.. و(تختخ) كان فيلًا آدميًّا يخاف كل ما تخافه الأفيال.. ضرب بقدمه على الأرض ليثير فزع تلك القوارض المريعة، ثم واصل رحلته الاستكشافية..
الآن هو في الخارج.. يوجد سلم صاعد إلى أعلى يقود إلى الطابق الأول.. يصعده في حذر وهو يتوقع مفاجأة قاسية في أية لحظة.. المفاجآت هنا من نوع: قف مكانك!! من أنت؟
الآن يقف وراء الباب.. يفتحه وقلبه يتواثب.. يرى البواب النوبي الحقيقي يتقدم في ثقة وسرعة صاعدًا الدرج الآخر الذي يقود للطابق الثاني، وكان يحمل حقيبة كبيرة..
هذا غريب! كيف يتحرك البواب بهذه الحرية في بيت سيدته؟ الأمر واضح إذن.. هذا هو الزوج متنكرًا كما خمن (تختخ) تمامًا..
خرج (تختخ) بخفة من موضعه.. اتجه إلى الدرج، وتحركت فيه غريزة المخاطرة الشهيرة التي تتحرك لدى كل أبطال أفلام الرعب، وتجعل المشاهد يشد شعره.. لماذا تدخل هذه الحمقاء القبو المليء بتوابيت مصاصي الدماء وحدها؟ ما الذي تحاول إثباته؟
ما الذي تحاول إثباته يا (تختخ) أيها المتهور؟ لماذا تصعد هنا فوق نفس الدرجات التي كان البواب يمشي عليها منذ ثوان؟ لن يلبث أن يقابلك هنا، وعندها لن تستطيع التظاهر بأنك انعكاس صورته في المرآة..
كان (تختخ) يمشي في حذر.. وجد غرفة مفتوحة في نهاية الممر والضوء يتسرب منها ليفترش الأرضية.. كل شيء يدل على أن البواب هنا.. دنا أكثر واختلس نظرة من حيث لا يراه أحد.. لأنه في الظلام..
كانت الزوجة هناك أمام المرآة تصلح زينتها على ما يبدو، والبواب يقف جوارها يتكلم.. لم يسمع شيئًا من الحديث، لكن الدهشة أصابته.. هذه هي غرفة مدام (سلوى) إذن.. فكيف تسمح للبواب بدخولها؟ من البداية كيف تسمح له بدخول الفيلّا؟
لو كان هو الزوج متنكرًا، فإن الأمر يستحق الدنو أكثر لسماع ما يقال، ولكن كيف؟
كانت هناك غرفة ملاصقة لهذه، بابها موارب، وهي أقرب له من الناحية الأخرى، وقدر (تختخ) أنها صالحة للتنصت على ما يقال..
هكذا تسلل إلى الباب ففتحه، ودخل إلى الغرفة المظلمة.. أطلق شعاع الكشاف مرة ليعرف أين هو، فوجد أنها غرفة جلوس، لكن أكثر أثاثها قد تمت تغطيته بالأغطية، شأن من يتأهب لسفر طويل، كما أن الأرض كانت عارية، وقد تم طيّ السجاد.. بالتأكيد حول لفافات من الفلفل كما هي العادة لطرد العثة.. وحتى النجفة في السقف تم لفها لمنع الغبار من التسلل لها..
كان هناك باب موصد، واضح بالطبع أنه يفصل الغرفة عن غرفة النوم، وهكذا دنا (تختخ) بحذر من الباب ليلصق أذن..
بومب!
توقف قلبه، وسقط على الأرض مع الوسادة التي سقطت.. كان لسقطتها صوت مكتوم رهيب، وتجمد (تختخ) بضع دقائق وهو يدعو الله ألا يحدث ما يجب أن يحدث..
بالفعل لم يحدث!
- ومن جديد - وقد عاد قلبه ينبض - دنا من الباب وألصق أذنه.. صار بوسعه أن يميز المحادثة.. لا بد أنها كانت تدور على بعد مترين لا أكثر..
وكان أول ما تكوّن لديه من انطباع هو أن البواب النوبي بالفعل بواب نوبى.. لهجته واضحة تمامًا، ولو كان هو الزوج لما احتاج إلى افتعال اللهجة بينما لا أحد يراقبه..
هذا البواب ليس هو الزوج إذن..

أما الانطباع الثاني فهو أن...
يا للغرابة! مستحيل أن يكون هذا! أية حماقة هى وأي غباء!
اضطر (تختخ) المذهول إلى أن ينحني ليختلس نظرة من ثقب المفتاح.. لم يكن هذا مما يتماشى مع أخلاقه، ولم يكن من هواة التجسس أو التلصص، لكن القتلة أيضًا لا يناسبون أخلاقه.. كل شيء جائز في الحرب..
كان بحاجة ماسة إلى أن يرى الحقيقة، وهكذا انحني أكثر وركز بصره، لكنه لم ير سوى ظل أبيض وراء الباب..
ما معنى هذا؟ هذا جلباب النوبي طبعًا..
يراه بهذا القرب لأن النوبي كان يدنو من الباب في هذه اللحظة، وفي اللحظة التالية لهذه انفتح الباب ليقذف ب. (تختخ) إلى الوراء، ورآه (تختخ) يقف أمامه وعيناه البضاوان تتسعان في وجهه الأبنوسى الأسود ذهولًا..
لابد أنه حسب هناك خطأ ما.. من العسير أن يضبط المرء نفسه يتنصت من وراء باب، ثم تغلب على ذهوله اللحظي وعاد للواقع، وصاح:
- « من أنت؟ من أنت؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



13 - أين هو..

للمرة العاشرة مرّ (محب) بدراجته أمام نافذة (تختخ) ليجد النور منطفئًا، ولا توجد علامة واحدة على وجود الفتي السمين..
بالطبع ما كان ليجرؤ على السؤال عنه مباشرة أو هاتفيًا، لأن والدى (تختخ) يحسبان ابنهما في غرفته الآن..
عاد لداره حيث كانت (نوسة) تنتظر في قلق، وقال لها:
- « الثانية بعد منتصف الليل.. لست مستريحًا لهذا التأخير.. »
- « والحل؟ »
- « لا أدري إن كنا قد بلغنا الخط الأحمر الذي نبلغ عنده المفتش (سامي) أم لا.. لكني أرى أن الإسراع واجب.. »
- « أخشى أن نفسد شيئًا.. لطالما تأخر (تختخ) وهذه ليست أول مرة.. »
- « لا أدري.. هذه هي أول مرة لي بالنسبة لهذا القلق.. »
والحقيقة هي أنها كانت أكثر قلقًا، وإن حرصت على ألا تظهر ما ينم عن هذا.. ليس فقط كي يهدأ (محب)، ولكن أيضًا كي لا تعترف لنفسها بأنها تميل إلى الفتى..
شيء طبيعي.. كذا قالت لنفسها.. أنا أقلق على (عاطف) وعلى (لوزة) كذلك.. لا ينبغي أن ينبع كل قلق من حب كالذي يتكلم عنه (تختخ).. ربما ينبع من ألفة أو صداقة أو مودة.. نحن أصدقاء وسنظل كذلك..
جلبت دفتر أرقام الهاتف، وبحثت عن رقم الأستاذ (حسين أبو شادى)، ثم أدارت الأرقام على القرص، لاشيء.. صوت الرنين يتردد ولا أحد يرد.. هذا غريب..
- « إما أنها نامت أو تركت الدار.. »..
- « من يدري؟ لربما قبضوا على (تختخ) وشعروا بضرورة الفرار.. »
هنا - وفي لحظة لم تتوقعها- ارتفعت سماعة الهاتف، وقال الطرف الآخر بصوت أنثوي مرهق:
- « آلو؟ »
توترت يد (نوسة) على السماعة، وللحظة لم تدر ما تقول، ثم هتفت بصوت مبحوح:
- « أنا (نوسة) يا طنط.. هل أيقظتك من نومك؟ »
ضحكت المرأة قليلًا ضحكة منهكة، ثم قالت:
- « ماذا تتوقعين أنني كنت أفعل في الثانية بعد منتصف الليل يا بنيتي؟ بالتأكيد لم أكن أكتب سيمفونيتي السابعة..»
- « إذن أنا آسفة.. في الحقيقة.. أردت أن أطمئن على أنك لم تسافري.. »
- « سأسافر غدًا عند الظهر إن شاء الله.. هل تريدين شيئًا آخر؟ »
- « لا.. وآسفة على الإزعاج.. »
- « تحياتي لوالدتك إذن.. »
ووضعت السماعة بشيء من الصرامة والضيق..
قال (محب) في توتر:
- « ما رأيك؟ هل تبدو صادقة؟ »

مطت شفتيها وغمغمت:
- « لا أدري.. كلما تقدمت في العمر كلما أدركت أنه من المستحيل تمييز الكذب.. ربما لهذا اخترعوا جهاز كشف الكذب.. ربما هي صادقة و(تختخ) في مكان ما من الفيلّا يمارس مهام تجسسية.. »
- « المفتش ولا أحد سواه!! »
قالها (محب) وهو يرفع سماعة الهاتف.. لكن يد (نوسة) أوقفته، وهمست:
- « لا تفعل.. سننتظر حتى الصباح.. قد يغدو موقفنا غاية في الحرج لو كان (تختخ) بخير، ولن تتنازل المرأة عن حقها القانوني، لو عرفت من المفتش أن الفتى تسلل لدارها.. إنها المرة الثالثة تقريبًا ما لم تخني الذاكرة.. »
ابتلع ريقه، ووضع السماعة، وغمغم في شرود وقد أدرك أن كلامها صحيح للأسف:
- « حسن.. دعينا نحاول النوم.. »
- « نحاول نعم.. لكن من يستطيع حقًّا؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الصباح الباكر بدا واضحًا أن (تختخ) لن يعود.. لقد اتصلوا بداره فقالت الأم المذعورة إنه ليس في غرفته.. لا تدري إن كان خرج مبكرًا أم لم يمض ليلته بها من الأصل...
هكذا اتجه (محب) و(عاطف) إلى الفيلّا ودارا بدراجتيهما حولها دورتين فلم يريا أثرًا لشيء.. كان البواب النوبى جالسًا أمام المدخل يدخن المعسل، ولم يبد أنه لاحظ وجودهما..
اتجها إلى أقرب هاتف وطلبا المفتش (سامي).. أخيرًا دوى صوت الرجل المفعم بالثقة والقوة، فلما سمعاه شعرا بطمأنينة كأن (تختخ) عاد بالفعل.. وحكى له (محب) القصة كلها في كلمات سريعة، فقال في غيظ:
- « كالعادة يتصرف (تختخ) بحماقة، ويضعنا في مواقف سخيفة.. سأجرد قوة تقوم بتفتيش الفيلّا الآن.. »
ومن مكانهما راح الصديقان ينتظران، حتى رأيا عربة المفتش (سامي) تصل إلى الفيلّا والبواب النوبي يلقي القادمين مندهشًا، كان يلوح بذراعيه بحركات توحي بالنفي، ثم جاءت عربة كبيرة بها قوة من رجال الشرطة، وسرعان ما أفرغت أحشاءها ليغيب عدد من الجنود داخل الفيلّا..
مرّت نصف ساعة، ثم خرج الجميع.. واضح طبعًا أن المفتش لم يجد شيئًا.. كان متضايقًا كما هو واضح.. حتى من وراء عويناته السوداء بدا متعكر المزاج، وجال بنظره حوله فأدركا أنه يبحث عنهما، كما لو كان متأكدًا من أنهما دانيان..
مشى كل منهما جوار دراجته ودنيا منه متوترين، فقال حين رآهما:
- « لا شيء.. ومن الواضح أنني كنت مخطئًا حين عهدت لمجموعة أطفال بهذه المهمة.. لقد اختفى (تختخ) ولم يره أحد أمس، وهذه مشكلة أخرى تضاف لمشاكلى التي لا تنتهي.. لقد اعتذرنا لمدام (سلوى)، لكنها مازالت غاضبة وتشكر الظروف التي ستجعلها ترحل اليوم بالذات.. »
ودون كلمة أخرى ركب سيارته، وانطلقت السرينة، بينما العربتان تبتعدان تاركتين الصديقين في حيرة لا توصف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- الحل يتضح..

في دار (محب) جلسوا مهمومين يفكرون في هذه الكارثة..
رجال المفتش (سامي) يمشطون المعادي بحثًا عن الفتى البدين ودراجته دون جدوى.. لقد صار عدد من يختفون دون أثر أكثر من اللازم في المعادي هذه الأيام..
قالت (نوسة) وهي تنظر إلى ساعتها:
- « منتصف النهار دان.. بعد قليل ترحل المرأة مع سرها إلى الأبد.. »
- « يا للكارثة! »
راحت تفكر شاردة في نواحي هذا اللغز.. نظرية الخطف.. نظرية الزوجة القاتلة.. نظرية الزوج المتنكر.. كل هذا.. هنا وجدت من يدخل الغرفة فيحييهم ويجلس دون استئذان.. عرفته من صوت قلمه قبل أن تعرفه من وجهه:
- « (المرشد)؟ أية ريح شؤم جاءت بك؟ »
قال وهو يداعب زنبرك القلم:
- « هذا ترحيب مبالغ فيه يا (أليس).. جئت لأصطحبك لأن موعد الرحيل قد جاء! »
صاحت في عصبية:
- « كف عن هذا الاستخفاف بي! القصة لم تنته بعد، ولا قيمة لها لو رحلت الآن.. لا تعاملني بمنطق مخرجي التلفزيون الذين يقطعون البرنامج قبل نهايته بربع ساعة ليقدموا إعلانًا! »
- « ليكن.. أنت تقليدية تحبين النهايات التقليدية، وتمقتين النهايات المفتوحة.. لكن هل لم تصلي للحل بعد؟ أراك تنسين الكثير مما قرأته.. »
- « ماذا تعني؟ »
قالتها في شكّ وتوتر، فقال:
- « تذكري ما قرأته.. لقد كنا مع (مارك توين) في الكتيب السابق، وهذا يذكرني بموقف (هاكلبرى فان) مع المرأة العجوز التي كشفت حقيقته.. هل تذكرينه؟ »
قدحت زناد ذهنها بعض الوقت ثم هتفت:
- « يا إلهي.. هل حقًّا تعتقد هذا؟ »
- « أنا متأكد.. »
واسترخي في مقعده، وراح يقضم الجلد المحيط بأظفاره في استرخاء، وقال لها:
- « حاولى استعمال هذا الخيط.. سأغفو قليلًا حتى ينتهي اللغز.. »
سألها (محب) وهو يرمق الرجل في شك:
- « من هذا؟ إنني أعرفه.. هذا هو (المرشد).. أليس كذلك؟ »
قالت وهي ترمقه وقد غاب في نعاس عميق:
- « بلى.. إنه يؤدي دور (بلاسير) السينما بالنسبة لهذا العالم.. هو من يقودني إلى مقعدي في الظلام في كل مرة.. والآن دعنا منه وتعال نسأل أبي عن الأستاذ (حسين أبو شادى).. »
كان أبوها جالسًا في غرفة الجلوس يطالع الجريدة، فاليوم إجازة.. دنت منه وطوّقت عنقه بذراعها الأيمن فابتسم مجاملًا كما يفعل الرجال حين تكون الجريدة أحب إليهم في لحظة بعينها..
سألته في رفق:

- « أبي.. أنت كنت صديقًا للأستاذ (حسين أبو شادي) كما أعلم.. »
- « بالتأكيد.. وأعتقد أنه مرحوم الآن.. »
- « هل تذكر حفل التخرج من المدرسة السعيدية؟ لقد رأيناك في الصور في أثناء قيامهم بخنقك! »
احمّر وجهه حياء وغيظًا وغمغم:
- « المفترض ألا يسمح لكم برؤية صور كهذه.. ما علينا.. نعم أذكر الحفل طبعًا.. أعتقد أن (حسين أبو شادى) قد أخفى عنكم بعض الصور هو الآخر! لقد ظللنا نغيظه أعوامًا طويلة.. »
تذكرت (عبير) الصفحات الخالية من الألبوم، وقالت:
- « هذا هو ما أسأل عنه.. ماذا حدث في هذا الحفل بالضبط؟ »
ابتسم الأب في مكر لطيف وقال:
- « لا شيء.. لقد تنكر في شكل امرأة على سبيل الدعابة.. وكان تنكره متقنًا بطريقة غير عادية حتى إن بعضنا أعجب بها، ثم اتضح لنا أن صديقنا كان من عباقرة التنكر.. بل وكان يغير صوته بالكامل.. طبعًا لم يكن ذيوع هذه الدعابة شيئًا مستحبًا وقتها، وقد حرص على أن يشتري كل ما التقط من صور تظهره في ثياب النساء.. لكنها دعابة لم ينسها أحد.. »
تبادلت (عبير) و(محب) النظرات ثم نهضت وعادت إلى الأصدقاء، وقالت متقطعة الأنفاس من الانفعال:
- « ما كنت لأشك في هذا لو لم يلفت (المرشد) الأحمق نظري إلى قصة (هاكلبرى فان) لـ (مارك توين).. لقد لاحظت أشياء كثيرة لكنها لم تثر شكوكى.. »
سألها (عاطف) في غباء:
- « ماذا تعنين؟ »
- « في البدء لاحظت أن المرأة وضعت الصور في حجرها.. الرجال حين يفعلون هذا يباعدون بين أرجلهم ليحولوا حجر الجلباب إلى سلة حاوية.. أما النساء فيضممن أرجلهن.. طبيعي أن يتصرف الرجل لابس الفستان كما يتصرف لابس الجلباب.. بعد هذا لاحظت طريقتها في إشعال الثقاب موجهة الشعلة نحوها عند الاحتكاك، كما يفعل أي مدخن ذكر محترف، بينما تشعل النساء الأعواد مبعدات الشعلة عنهن.. لقد اكتشفت العجوز في رواية (مارك توين) تنكر (هاكلبرى فان) في صورة فتاة بأخطاء صغيرة كهذه.. كل هذا هين..
« لكن أبي يتكلم عن موهبة الأستاذ (حسين أبو شادي) في التنكر والتصرف كالنساء.. ألا يضع هذا بعض علامات استفهام هنا؟
« بعد هذا نجد أن السيدة (سلوى) اعتزلت المجتمع تمامًا وكانت من نجماته.. ترفض لقاء كل صديقاتها، ولا تسمح لأحد بلقائها إلا من لا يعرفها أو لا يذكرها.. إنها مقنعة كامرأة لكنها غير مقنعة كمدام (سلوى) ذاتها.. وعند أقرب فرصة تبادر بالفرار خارج البلاد حيث لن يجدها أحد..
« ما أعنيه هو أن الأستاذ (حسين أبو شادي) لم يمت ولم يختف.. من ماتت هي زوجته مدام (سلوى)!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15 - الخاتمة..

قال (عاطف) في عدائية:
- « كل هذه فروض سخيفة.. وماذا عن مكالمات التهديد؟»
- « نحن لا نعرف سوى مكالمة واحدة، وفي الغالب كان صاحبها البواب.. لا شك في أنه يعرف كل شيء وتعاون مع الأستاذ (حسين) بالكامل.. »
- « والثياب في الحديقة؟ »
- « خطة لإقناعنا أن (حسين أبو شادي) قد مات. أعتقد أن الدم دمه بالفعل.. ما كان ليجد عسرًا في جرح يده أو ساقه وتلويث الثياب به.. كان يأمل في أن يفكر أحدهم في اختلاف شكل النباتات وينبش الحديقة.. عندها كانت فكرة موت (حسين أبو شادى) ستتأكد لكن الاتهام لن يكفي لاعتقال الزوجة... أعتقد أنه رأى عملية الحفر التي قمت بها مع (تختخ) من بدايتها، وآثر الصمت.. »
- « والدافع؟ »
- « يا له من سؤال! مبلغ التأمين طبعًا.. سيحصل (حسين أبو شادى) على قيمة التأمين على حياته كاملة، ويتخلص من زوجته التي لا بد أن هناك أسبابًا لكراهيتها.. بعدها يسافر إلى الخارج ويبدأ حياة جديدة، بينما يقوم محاميه هنا ببيع شركته والفيلّا.. إنها الجريمة الكاملة التي ربما كانت لتنجح لو أجاد إشعال الثقاب للخارج! »
- « والمتسول الذي رآه (تختخ) يدخل الفيلّا؟ »
- « رجل شرطة سرية على الأرجح انعقدت بينه وبين البواب صداقة.. نحن في الشتاء، وكوب من الشاي قد يكون مستحبًا. في أثناء ساعات الخدمة الطويلة »
ضاقت عينا (محب) وسألها:
- « يبقي موضوع (هابيوس كوربوس) الشهير.. أين جثة الزوجة؟ »
ابتلعت ريقها وقالت:
- « هذا أعقد سؤال أسمعه اليوم.. بالطبع جثة الزوجة في ذات المكان الذي يوجد به (تختخ) الآن! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتصلوا بالمفتش (سامي) الذي لم يكن على استعداد لسماع أي كلام عن (تختخ)، ولا عن الأستاذ المفقود، ولا أي شيء في العالم.. وقالت له (عبير) متوسلة:
- « أرجوك يا سيادة المفتش.. قد يكون (تختخ) في خطر الآن.. ربما هو دان من الموت.. إن مجريات الأمور تغريهم بالانتهاء منه سريعًا.. أعطنا فرصة واحدة أخرى.. »

قال المفتش في ضيق:
- « سأعطيك الفرصة التي تريدين، وإن كنت لا أدري ما تتوقعين مني ما دمت لن أتدخل.. »
- « فقط كن على مقربة منا لترى المشهد.. فإن كنت مخطئة تلقيت الإهانات وحدي، وإن كنت مصيبة تدخلت أنت لحمايتى.. »
- « ليكن.. أين تتكلمين؟ »

- « من دارنا.. »
- « ستأتي عربة شرطة تقلك إلى دار (حسين أبو شادى) حالًا.. سأكون دانيًا، لكني لن أتدخل حتى أقتنع.. »
ووضع السماعة..
بعد عشر دقائق توقفت سيارة الشرطة المذكورة أمام البيت، فهرع الأصدقاء يركبونها، وانطلقت العربية تنهب الطريق نحو بيت الفقيد، الذي يبدو أنه لم يعد فقيدًا..
وكان المشهد أمام البيت كافيًا لتلخيص الموقف.. هو ذا البواب يحمل الحقائب، وثمة سيارة تقف وقد انفتحت حقيبتها الخلفية، يبدو أنها سيارة استأجرتها السيدة هاتفيًا، وكانت هي واقفة تتأكد من وضع متاعها، وقد وضعت عوينات سوداء تخفي بها وجهها وعينيها، حتى بدت كامرأة حزينة أخرى تنهي فصلًا من حياتها..
ترجل الأصدقاء ووقفوا مترددين بصدد الخطوة التالية.. قالت (عبير) ل (عاطف):
- « هلم.. دورك! »
فصاح محتجًا:
- « يا سلام! أنت صاحبة الفكرة وعليك التنفيذ.. »
لم تناقش واتجهت في ثبات نحو المرأة.. لم يكن ما تخشاه أن تكون مصيبة ويؤذيها الرجل.. كان الأكثر رعبًا أن تكون مخطئة..
وابتسمت السيدة في مرارة حين رأتها وكادت تقول شيئًا..
هنا مدت (عبير) يدها، ودون إنذار انتزعت الشعر المتدلي على وجه السيدة.. رباه! إنه ملتصق ثابت! لكن لا.. الحمد لله! كانت هذه أطول لحظة في التاريخ بالنسبة لها، لكن كل شيء على ما يرام وها هي ذي الجمة تطير في الهواء كاشفة عن الرأس الأصلع اللامع للأستاذ (حسين أبو شادى).. كانت عويناته قد طارت بدورها، فبدا وجهه عاريًا مضحكًا بالأصباغ التي وضعها وأحمر الشفاه..



هنا مدت (عبير) يدها ، ودون إنذار انتزعت الشعر المتدلى على وجه السيدة ..

رجل أصلع يرتدي فستانًا ويصرخ من فرط الصدمة..
هوّت يده الثقيلة على وجه (عبير) / (نوسة)، وصاح في غلّ وهو يستعيد جمته:
« أيتها السافلة! سوف.. »
لكن المفتش ظهر في هذه اللحظة لا تدري من أين.. كان المشهد في حد ذاته جديرًا بالمشاهدة يثير الشكوك، وبلهجة سينمائية خالصة صاح:
- « لا تتحرك يا أستاذ (حسين).. أنت رجل مثقف ولا ينبغي أن تعامل بالعنف.. لو لم نتهمك بتهمة القتل لاتهمناك بتهمة التشبه بالنساء.. وهي تهمة لا تمر على خير في أي بلد حتى الولايات المتحدة، مع ما يحملون من تساهل نحو الحريات الشخصية.. »
تنهد (حسين أبو شادى) في استسلام، وترك الجمة تسقط ثم قال بخنوع:

- « حسن.. لكن اسمح لي أن أرتدي ثيابًا لائقة قبل أن نتكلم.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي البدروم وجدوا (تختخ).. كان مكمم الفم مقيد اليدين تحت كومة من قوالب القرميد تم وضعها بعناية لتوحي بأنه ما من شيء تحتها.. كان منهكًا خائر القوى، لكنه سُرَّ إذ رآهم، وأراد أن يفاجئهم بما يعرف، لكن المفتش أشار إلى الرجل الملطخ بالأصباغ وقال:
- « أقدم لك الأستاذ (حسين).. لقد عرفت (نوسة) الحقيقة بالتفكير المنطقي دون مواجهات.. »
أما عن جثة الزوجة فقد كانت وراء جدار صناعى قام الرجل ببنائه مستعملًا معدات البناء التي جلبها البناءون والمرممون إلى قبو داره.. كانت هناك ماسورة مياه مكسورة، وقد ظل العمال يعملون هنا ثلاثة أسابيع..
ببساطة وضع الرجل جثة امرأته جوار الحائط، ثم بني جدارًا أمامها.. أي أنه صنع لها قبرًا بسيطًا في بدروم داره..
أما ما رآه (تختخ) في ليلة أمس فهو مشهد السيدة (سلوى) تنزع جمتها، فإذا ما تحتها رأس أصلع كالزجاج. كان هذا حين وجده البواب وأحضره هنا..
وما لم يعرفه (تختخ) هو أن قبرًا آخر كان ينتظره في الجدار إلى جوار الزوجة.. فلم يكن هناك من حل آخر لدى الرجلين.. فقط كان على الزوج أن يلحق بالطائرة ويتولى البواب كل شيء..
لم يكن (حسين أبو شادي) باللطف الذي تكلم عنه من عرفوه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما هم في لحظات مرحهم بعد الانتصار، رأت (عبير) من يدنو كغراب البين منها وهو يداعب قلمه الزنبركي في استمتاع، وقال لها وهو يتثاءب:
- « حسن.. لقد انتهى كل شيء وساد العدل الأرض.. هلا انصرفنا الآن؟ »
قالت له متوسلة:
- « ألن تتركني معهم بعض الوقت؟ »
- « يمكنك العودة يومًا ما.. لكن البقاء هنا يعرضك لتودد (تختخ) العاطفي، ويهدد الفريق كله بالانقسام؛ لأن (محب) سيتشاجر معه حتمًا.. ربما كان أجمل شيء الانسحاب الآن.. في ذروة النجاح.. »
هكذا صافحتهم دامعة العينين واحدًا تلو الآخر..
طالت مصافحة (تختخ) لها بعض الشئ، ودمعت عيناه إذ قال:
- « لقد أنقذت حياتي! »
- « هدفنا إسعادكم! »
وهتفت وهي تبتعد ويدها في يد (المرشد):
- « تذكر يا (تختخ).. أن الحياة كلها أمامك لا تحب ما تجد بل أوجد ما تحب.. »
- « سأتذكر هذا.. »
واتجهت مع المرشد إلى قطار (فانتازيا)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة لن تترك (عبير) عوالم القصص البوليسية تمامًا.. بل ستخوض عالمًا كاملًا من طراز الروايات التي يسميها الإنجليز باسم .. whodunit's أي (من فعلها؟).. وبالمناسبة لا خطأ هناك في تهجي اللفظة الإنجليزية.. إنهم يكتبونها هكذا كما ينطقونها..
سيكون كتيبًا ذا مذاق خاص، لو أعطانا الله الأجل حتى نكتبه ونقرأه ونعيشه..

[تمت بحمد الله]

خمسة منهم..

خمسة لا أكثر لكنهم يعرفون أسرار الجريمة كلها،ويعرفون كيف يكافحونها،وكيف يبحثون عن الادله و يستجوبون الشهود..خمسة منهم لكنهم يملكون مواهب(بوارو) و (هولمز) و (مس ماربل) وكل مخبر أثار إنبهرنا بذكائه الخارق ..

خمسة منهم..فجرب ان تكون سادسهم..

د. أحمد خالد توفيق

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

ذكرها الكاتب الكبير (محمود السعدني) على لسان الدكتور (لويس عوض).. والواقعة مذكورة في كتاب (الطريق إلى زمش)..

[←2]

يبدو أن اقتباساتنا من الأستاذ (محمود السعدني) كثيرة اليوم.. العبارة معناها بالنوبية (لقد مات أهل الشمال دون مقابل.. كم أن هذا مؤسف يا إخواني!)

روايات مصرية للجيب

20

فانتازيا

من فعلها ؟




فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (20)

من فعلها؟

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أيام قاسية..

في سبتمبر من العام ذاته أصيب (شريف) بنوبته القلبية الأولى.. والحقيقة هي أنها الثالثة، لكنه في المرتين السابقتين كابر وضغط على أعصابه، وفسر الألم الممض في صدره بأنه إرهاق أو برد.. هذه المرة كان الألم ساحقا ماحقا.. وهو ألم يستحقه بجدارة مع إفراطه في التدخين بعدما أقلع عن.....
أقراص النعناع..
لقد احتاج الأمر إلى إرادة حديدية للإقلاع عن التدخين وإدمان النعناع؛ ثم احتاج الأمر إلى إرادة أقوي للإقلاع عن النعناع والعودة إلى التبغ والقهوة.. ثم التوتر..
كل مصممي البرامج والمبرمجين متوترون دوما..
كل رجال المصارف والأدباء أعصابهم شعلة من النار الحارقة، لهذا يصابون بارتفاع ضغط الدم والقرحة والأزمات القلبية أكثر من سواهم..
سيقولون: إنه صغير السن.. حرام!
لكن (شريف) لم يعد صغير السن.. لقد جعل التفكير المتواصل والتوتر الدائم قلبه يشيخ ثلاثين عاما..
(شريف) نفسه لم يندهش حين عرف أن الألم سببه أزمة قلبية، بل اندهش أكثر لأن قلبه ظل يحتمله طيلة هذه الأعوام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي العناية المركزة بكت (عبير) كثيرا جد، وراحت تحتضن (شذى) - الرضيعة التي تجهل كل شيء عما يحدث - إلى صدرها.. هو ذا النحس المعتاد في حياتك يا (عبير) يعود معلنا عن وجوده في حزم.. هو ذا أبو طفلتك على شفا الهاوية، والطفلة لم تخط على الأرض خطوة واحدة بعد..
الحسن الحظ لم يكن (شريف) من هواة التمارض ولا هواة تعذيب الآخرين، فلم يداعبها تلك المداعبات القاسية أو يقول لها كلمات مخيفة على غرار (تشجعي) أو (شدي حيلك) وهو يسبل عينيه، والحقيقة هي أنه كان أنضج من تلك الألعاب الصبيانية..
كان يبتسم لها مشجعا ويؤكد أنه على ما يرام..
ها هو ذا عالمها الواقعي القاسي الذي لا يكف عن توجيه اللكمات لها.. لو مات (شريف) فهي ضائعة تماما.. كطفل أضاع أمه في زحام السوق.. لا تعرف من أين تبدأ الحياة..
الطفلة تضرب يدها وتصدر أصوات لهو مرحة.. إنها لا تفهم..
المشكلة أنها لا تفهم..
قال لها (شريف) بصوت منهك:
- «(عبير).. ثمة أشياء يجب أن تعرفيها.. إن حساب المصرف قد..»
هنا أخرسته بكف حازمة على شفتيه..
كأنني أنقصك أنت أيضا! كانت قد أقسمت أن تحطم أنفه.. لو بدأ الكلام عن (حساب المصرف) و (النقود الموضوعة في المزهرية الثقيلة في قاعة الجلوس)..
- «ستستعيد صحتك حالا.. كف عن الهراء..»

- «بعض الاحتياط لن يضرّ أحدا..»
- «بل هو يضرني نفسيا.. اخرسي يا بلهاء!»
كذا صاحت في الطفلة التي بدأت تعوي، ذلك العواء المحطم للأعصاب الذي يصدرونه كأنما يتعمدونه..
هذه الطفلة قادرة على البكاء ثلاث ساعات دون توقف لو قررت هذا..
وهنا جاءت الممرضة الحازمة تخبرها أن موعد الزيارة قد انتهى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتذهب (عبير) لزيارة أمها في الموعد المعتاد: الثانية عشرة ظهرا، وتتحمل نصائحها التي لا تنتهي بصدد العناية ب. (شذى)..
- «الحفاضات» - تقول الأم - «اختراع مؤذ لجلد الأطفال.. في شبابنا لم نسمع قط عن هذه الأشياء.. كنا نلف الطفل في بطانية طيلة الليل حتى يظل دافئا!»
وعند أمها يغدو الهدف الوحيد الأسمى للحياة هو أن يكون الطفل دافئا.. دافئا إلى درجة خنقه وإصابته بالإجهاد الحراري الذي يصيب من ضلوا طريقهم في الصحراء..
كل المصائب تأتي من تيارات الهواء، بدءا بالسعال وانتهاء بسرطان الشبكية.. هكذا تؤمن..
تسألها عن صحة زوجها، فتهز (عبير) رأسها:
- «يتحسن.. كنت عنده الآن..»
فتمصمص الأم شفتيها مؤكدة أن الحسد هو سبب كل ما يحدث..
وهي تعرف بالذات أن (أم بلبل) الشمطاء هي مصدر الحسد..
- ثم تسألها في حذر:
- «كيف تقيمين وحدك في هذا البيت يا (ضنايا)؟
أقترح أن تأتي وابنتك للإقامة هنا حتى يشفي زوجك..»
فتقول (عبير) للمرة الألف:
- «من العسير أن أترك بيتي يا أمي.. وعلى كل حال هو مجاور للمستشفى ويمنحنى سهولة الحركة..»
- «لكني لا أطمئن عليك لحظة في وكر الأفاعي هذا.. خاصة أن الشمطاء المتعالية.. هذه المرأة لا تطيقك.. لكنها لا تظهر هذا..»
فتوشك (عبير) على سد أذنيها كي لا تسمع المزيد من هذا الكلام..
هل هذا وقته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فإذا واتاها الحظ وكان أخوها موجودا، جلس يفرك لفافة التبغ (السوبر) بين أنامله، ومعصمه المضمد بالشاش دائما لسبب مجهول.. ثم يقول لها وهو يشعل الثقاب:
- «ثمة أمور مهمة يا (عبير) خاصة في زيجات غير متكافئة كهذه.. مثلا لمن كتبت الشقة؟ هل لك حساب في المصرف؟ هل لديك مصاغ؟»
تبدي احتجاجا على أسئلة كهذه، فيقول:
- «الأعمار بيد الله.. لكن كل شيء في حياتك مربوط الآن بزوجك.. وزوجك.. الأعمار بيد الله..
أنت حمقاء كدأبك ولا تفهمين حرفا عن الحياة الخارجية.. ولم تحاولى لحظة أن تضمني مستقبلك ومستقبل هذه الطفلة..

تقول في غيظ:
- «(شريف) يعرف ويفعل كل شيء..»
- «و (شريف) الآن مريض وربما في خطر فما هو الحل؟»
ويشعل اللفافة من عود الثقاب الذي أحرق أنامله، ثم يسحب الدخان بطريقته الشهيرة عن طريق كفه المضمومة على طرف اللفافة.. ويسعل مرتين..
- «يجب أن تكبري وتفهمي الحياة..»
وتقول أمها وهي تسكب له القهوة في كوب زجاجي صغير:
- «قل لها يا بني! قل لها!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قلقة..
لكنها كانت تعرف أن الأمور ليست بهذا السوء.. سيعود (شريف) إلى صحته المعهودة ببساطة لأنه لن يموت.. وعلى كل حال هي آخر من يبالي بهذا الهراء.. حساب مصرفي.. بيت.. إلخ..
إنها لم تفهم المال قط طيلة حياتها.. كانت تعرف أنها لا تملك ما يكفي منه، لكنها لم تشعر قط أن هذا يجعل الحياة أعقد.. وحتى حين تزوجت لم تلحظ قط أن زوجها ثرى.. فقط لاحظت أن الحياة صارت أنعم وأسهل وأكثر رغدا، لكنها لم تربط بين هذا وبين المال.. ربطت بينه وبين (شريف) فقط..
كانت حمقاء فيما يتعلق بالمال، وكان منظرها وهي تعد مائة جنيه جديرا بالمشاهدة.. تمسك الأوراق كأنها (كوتشينة) وترتبك وتسقط ثلاثين جنيها على الأقل على الأرض.. لم تتعلم قط كيف يعد (الماديون) المال بخبرة وسرعة وثقة..
إنها خيالية، وقليلون هم الخياليون الذين يهتمون بالمال..
يعطيك هذا فكرة أفضل عن المأزق الذي ستجد نفسها فيه لو حدث شيء ما.. إنها عمليا لا تعرف شيئا على الإطلاق عن الحياة الخارجية سوى أنها تهابها وتمقتها..
وفي المساء عادت من العناية المركزة مجهدة شاعرة أن الأمور لم تكن على ما يرام.. كان (شريف) منهكا بحق، وكانت تلك الخطوط الخضراء على الشاشة تتواثب في جنون.. لم تكن تفهم ما تراه لكنها رأت طابورا من الجمال ذات السنام، وقد تعلمت أن تتوقع الشر كلما رأت هذه الجمال..
فرغت من العناية بالطفلة، وأرضعتها وأبدلت لها الحفاضة، وهزتها حتى نامت..
ثم إنها نهضت وراحت تذرع الشقة في قلق..
غرفة الكمبيوتر مواربة لكنها ترى في الضوء الخافت الجهاز الغافي والأقطاب بجواره..
- «وهل هذا وقته يا بلهاء؟»
كان الإغراء قويا.. بالفعل كان هذا وقته..
إن ساعة واحدة في (فانتازيا) لن تضر أحدا، وسوف تساعدها على احتمال الواقع القاسي المرير و - قبل كل شيء - المنذر بالخطر.. لم لا؟
ساعة واحدة بعدها تغدو أفضل وأقدر على تحمل ما يحدث حولها.. وهي قد جربت أكثر من مرة أن تشغل (دي - جي - ٢) وحدها، وفي كل مرة لم يحدث شيء مخيف..
ساعة واحدة..
لم لا؟
وها هي ذي تجلس أمام المقعد وتضع الأقطاب على رأسها، وتأخذ نفسا عميقا، ثم أمام علامة

المحثّ تكتب اسم البرنامج...
C:\>DG-2
وتضغط زر الإدخال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - من فعلها؟

جلس (المرشد) جوارها في قطار (فانتازيا) الصغير الشبيه بقطار في مدينة ملاه.. وقال وهو يخرج القلم الزنبركي من جيبه:

- «هل في ذهنك شيء معين؟»

هزت رأسها على عنقها الرفيع، وقالت:

- «أريد أكبر قدر من التسلية.. أكبر قدر من النسيان..»

ابتسم في مرارة وهو يدق بعصا على السقف مرتين كي يتحرك القطار:

- «تبدين في حالة سيئة..»

- «أسوأ مما تتصور..»

راح يصدر صوت (تكتكة) القلم إياها، بينما القطار يتأرجح وسط مملكة الخيال هذه، وكان ديناصور من طراز (تيرانو سوروس) يلتهم ديناصورا من طراز (ترايسيراتوبس) وهو يزوم في جشع واستمتاع.. بدا لها صوت تمزيق اللحم بشعا للغاية..

قالت له في اشمئزاز:

- «يا له من مشهد تستقبلون به الزوار المتوترين المرهقين!»

- «كنت أود أن أعتذر، لكننا هنا داخل عقلك ذاته.. وعلى كل حال هذا هو مسلك الطعام العادي لدى (تيرانوسوروس - إكس) أو (تي - ركس) كما يدللونه..»

- «لا أفهم في موديلات الديناصورات، فلا تقل لي إن هذا هو الطراز المعدل منه.. دعنا نر شيئا آخر..

ودارا حول مدينة من مدن المستقبل، تحلق فيها العربات الهوائية والدراجات البخارية الطائرة، ثم انعطفا نحو مدينة من مدن (الإزتك) الذهبية التي ينهبها جنود (كورتيز) بدروعهم الحديدية مطيرين رقاب البدائيين البؤساء..

ويهبط القطار إلى واد عميق بين الجبال امتلأ بالعميان، ثم يصعد إلى حيث الثلوج تكلل قمم الجبال، ورجل الجليد (المي - جي) يعوي بلا انقطاع فتتساقط الثلوج من فوق أبراج كهنة (التبت)..

قال لها (المرشد):

- «كل هذا لم يرق لك؟ إنك في حال سيئة حقا!»

ثم يمر القطار بقطار آخر مماثل يمشي على قضيب مواز، وفيه يركب (مرشد) آخر، وفتاة سمراء نحيلة كاسفة البال.

صاحت (عبير) مذهولة:

- «ما معنى هذا؟ أراني وأراك!»

قال ضاحك:

- «إن (فانتازيا) قصة خيالية كأية قصة أخرى، لهذا احتلت مكانها في مملكة الخيال هذه.. إن الفتاة (عبير) تخوض الآن مغامرة اسمها (من فعلها؟).. هل تريدين اللحاق بها؟

- «بالطبع لا!»

وأردفت في عصبية:

- «جئت هنا لأهرب من ذاتي.. وها هي ذي ذاتي تلاحقني..»

- «رضينا بالهم.. والهم لا يرضى بنا!»
وابتعد قطارهما عن قطارهما، وراحت معالم أخرى تتبدى لعينيها المكتئبتين..
هذا سور عملاق شامخ كالذي اعتادت أن تراه يحيط بإبداعات مفكر معين، مثل (شكسبير) أو (تشيكوف) أو (نجيب محفوظ).. الذين خلقوا عالما كاملا متشابكا يختلف عن الآخرين..
قالت له:
- «عالم من هذا؟»
هنا رأت اللافتة العملاقة التي تقول (من فعلها؟)..
من فعلها؟ يا له من مصطلح غريب! فعل ماذا بالضبط؟ وتداعت إلى ذهنها بعض الخواطر البيولوجية المتعلقة بالجهاز الهضمي، والتي أرجو إعفائي من ذكرها في هذا الكتيب المهذب
قال (المرشد) وهو يداعب قلمه:
- «تك تتك! ليس هذا عالم كاتب بعينه، بل هو عالم نوع معين من الكتابات.. (من فعلها؟) أو (whodunit's) هو مصطلح يشير إلى القصص البوليسية ذات الطابع الواحد المميز: جريمة قتل - التحقيق في جريمة القتل - إماطة اللثام عن القاتل في النهاية، وهو دائما آخر من يمكن الاشتباه فيه..
قالت في سأم:
- «لقد مررت بقصة مماثلة في أولى زياراتي لـ (فانتازيا).. كان لي لقاء مع (شيرلوك هولمز) و (هيركيول بوارو) في قصة واحدة..»
قال باسما:
- «لا شيء يماثل شيئا في (فانتازيا).. في هذه المرة يمكنك مقابلة هؤلاء ومس (ماربل) و (سولار بونز) و (إيرلي كوين) والمفتش (ميجريه).. كلهم في مكان واحد..»..
- «ولكن لا شيء يحدث في تلك القصص سوي التحقيقات، ومزيد من التحقيقات، وكثير من التحقيقات، وملايين التفاصيل الكثيرة المرهقة عن آثار الأقدام في الحديقة قبل وبعد هطول المطر، والساعات التي تحطمت وعقاربها تشير لساعة القتل، وعقب السيجارة الملوث بأحمر الشفاه... و... و... كل هذا مرهق جدا، وفي النهاية يتضح أن القاتل هو لورد (إيمري).. وما دخلي بكل هذا؟»
ابتسم في تهكم كعادته واسترخي في مقعده، وقال:
- «لا ألومك كثيرا.. (هتشكوك) إنه يفضل (التشويق) على (الغموض) لهذا - في أكثر أفلامه - نعرف القاتل من اللحظات الأولى للقصة.. ثم ننتظر في رعب ما عساه يفعله..»
«يقول (هتشكوك) إن لذة هذه القصص تنته لو اختلس القارئ نظرة إلى آخر صفحة.. وقد حدث أن محطة تلفزيون أمريكية كانت تذيع مسلسلا من هذا الطراز، فقامت محطة منافسة بتقديم خبر في نشرات أخبارها: القاتل هو الخادم! هكذا مات المسلسل قبل أن ينتهي!»
«لقد قدمت (أجاثا كريستى) مسرحية (المصيدة) عن قصتها (ثلاثة فئران عمياء)، والتي ظلت تعرض عدة عقود في (لندن).. وكان بطل المسرحية يخرج للناس في نهاية العرض يرجوهم ويتوسل إليهم أن يكتموا السر، ولا يخبروا به أصحابهم عندما يعودون إلى ديارهم.. طبعا حفظ الإنجليز السر لأنهم اعتبروه من مقومات كرامتهم الشخصية، لكن القصة كلها تعكس نقطة ضعف هذا النوع من القصص..
«وعلى فكرة - دون إهانة لأحد - القاتل هو ضابط الشرطة في مسرحية (المصيدة)!»
ابتسمت (عبير) للمرة الأولى، وبدا لها العرض مغريا إلى حد ما.. قالت للمرشد وهي تسوي

ثيابها:
- «ليكن.. دعنا نر عالم (من فعلها؟) هذا.. ولكن عِدني أن تكون قصة شائقة تختلف عن الطابع الممل المعروف..»
- «على أن أسعى ولكن ليس على إدراك النجاح..»
وجذب الحبل ليوقف القطار..
وبدأت قصتنا اليوم من هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- إنجلترا من جديد..

إنجلترا الثلاثينات من هذا القرن..
عرفت المكان وخمنت الزمان، وأثبت غلاف (التايمز) حدسها حين رأته عند باعة الصحف..
كانت ترتدي تايورا وردا أنيقا وعلى رأسها قبعة أكثر أناقة، وأدركت أنها شقراء رشيقة كالحلم..
لكنها - ككل مرة - لم تدر ما المطلوب منها، ولا كيف تبدأ..
مرت عليها ساعتان في الطرقات تتأمل جرس قصر (بكنجهام).. وتمشي في ميدان (ترافلجار) – الطرف الأغر - تتأمل الناس أو تجلس إلى مقعد لتطعم الحمام..
بدأت في قلق تتساءل: هل نسيها (دي - جي - ٢)؟
إن الملل يحدث في (فانتازيا) كأي مكان آخر، وهي لم تأت هنا كي تلعب دور السائحة الفرنسية أو الأمريكية.. لا بد من شيء يحدث.. لا بد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كاد المساء يدنو حين جاءها حيث جلست في الحديقة، وصاح في سرور:
- «(ملدريد)! لن تتصوري مدى سروري برؤيتك!»
- «ليس إلى مدى سروري.. كنت أموت سأما!»
وتأملته.. كان شابا متأنقا بادي الثراء، أشقر الشعر له خصلة طويلة تهبط على عينه اليمنى من آن لآخر، والملامح هي ملامح (شريف) ذاتها بعد إضفاء طابع إنجليزي عريق عليها..



كاد المساء يدنو حين جاءها حيث جلست فى الحديقة ، وصاح فى سرور : « (ملدريد) ! لن تتصورى مدى سرورى برؤيتك ! »

كم أن (شريف) زوجها وسيم وملامحه مناسبة لأي غرض! لقد رأته محاربا إغريقيا ورأته حاويا هنديا ورأته راعي بقر فظا، وفي كل مرة كان مقنعا بشدة...

اليوم لم تدر قط كم أن ملامحه مناسبة لدور شاب إنجليزي تلوح عليه آثار النعمة..

قال لها وعيناه تلتمعان سرورا وانفعالا في الآن ذاته..

- «لن يكن ما قاله أبي ذا بال، وما كان لك أن تتركي (جارفيلد هاوس) بهذه البساطة بمجرد أن لمح أنه يرفض حبنا..»

هنا بدأت تجمع الخيوط، وتفهم نقطة البداية:

(١) اسمها (ملدريد).

(ب) هذا الفتى هو وريث قصر يدعى (جارفيلد هاوس).

(ج) واضح أنهما متحابان.
(د) الأب القاسي يرفض هذه العلاقة.
(هـ) واضح أن سبب رفض العلاقة هو عدم التناسب الاجتماعي..
إذن هي من طبقة أكثر فقرا.
(و) يبدو أنها تركت القصر غضبي، وراحت تجوب الشوارع بلا أمل، ولعلها كانت منتحرة في (التيمز) لو لم يجدها الفتى.
وكما يحدث في (فانتازيا) في كل مرة، وجدت
نفسها وقد اندمجت في الحدث ببساطة، وصارت تملك ماضي الشخصية وحاضرها وغدها.
لهذا أشاحت بوجهها وقالت:
- «لقد لمح اللورد (فريوورد) إلى أن كل ما يهمني هو الميراث، وأنا لن أنتظر نتيجة هذا الاختبار المهين.. إما أن يصدق أو الوداع لـ (جارفيلد هاوس)..»
جلس جوارها وأمسك يدها في رفق، وترقرق الحنان في عينيه:
- «أنا أعرف أن هذا غير صحيح.. ألا يكفي رأيي؟
- «لن يكون الحرمان من الإرث أقل ما يعاقبك به..»
- «ليست الأمور بهذا السوء.. ثم إنني - إذا جد الجد - غير راغب في مليم من إرثي..»
ونظرت لوجهه الهائم المتيم، وعلى الفور فهمت أنه من النوع الذي يطير الحب صوابه، والذي يعتبره من هم أكبر سنا وأكثر تقديرا للمال؛ يعتبرونه مستهترا تافها.. هذا طراز من الرجال يضعون فؤادهم في مرتبة أعلى بكثير من عقولهم.. طراز لا يحب ولكن (يندلق) إذا سمحتم لي بتعبير كهذا..
طبعا في دنيا الواقع لم تلق شابا من هذا النوع قط، لكن (غادة) صديقتها الحسناء قابلت كثيرين، وكان كل منهم على استعداد للنوم فوق شريط ترام (النزهة) لو طلبت (غادة) منه ذلك..
ولقد تعلمت (عبير) أن تميز هذا الطراز من الرجال بمجرد النظر..
كان مصرا كالخرتيت، وهكذا وجدت نفسها تلحق به إلى عربته العتيقة - الجديدة في هذا العصر – وجلست جواره صامتة، بينما هو يقودها إلى ضواحي (لندن)..
إلى حيث (جارفيلد هاوس)..
كان قصرا يماثل فكرتها الانطباعية عن قصور اللوردات.. ذات الحديقة المهندمة والممر الطويل بين الأشجار، والبستاني الذي يشبه أحد اللوردات بدوره، والكلاب الإلزاسية تتريض، بينما جيش من السيارات يقف أمام المداخل، وجيش من الخدم يتحرك هنا وهناك.. وكانت هناك نافورة تحيط بها تماثيل عرائس البحر يأتين بأشياء لا تدري ما هي.. حركات الأيدي المفتعلة المميزة لـ (إخوة ما قبل رافائيل) في لوحاتهم وتماثيلهم.. طبعا لم تفهم هذا لكنني أقوله!
وعلى الباب قابلهما رئيس الخدم الشبيه بأساتذة الجامعة:
- «آه.. قد عاد سيدي مع الآنسة.. مرحبا..»
قال الفتى (فريوورد):
- «شكرا يا (هنري).. إن الانسة (ملدريد) قد ضلت طريقها في (لندن)، فهي لم تعتد شوارعها بعد..»
رفع الرجل حاجبيه في وقار، وغمغم:
- «أوه.. أرى..»

كانت اللغة الإنجليزية المستعملة هي أرقى لغة إنجليزية يمكن سماعها في العالم كله.. الإنجليزية الأوكسفوردية كما يقولون، والتي تعني كل العناية بالصوتيات ومخارج الحروف.. وتشبه الفصحى عندنا إذا ما دققت في الإعراب وراعيت القلقلة وخلافه..
نظرت (عبير) حولها في شك حتما ستحدث جريمة قتل هنا.. هذه هي التقاليد.
تتجه الشبهات إليها أو إلى الوريث لأن القتيل سيكون اللورد ذاته.. لا بد أنه سيقتل في غرفة مكتبه أو يقدم له أحدهم عشاء مليئا بالزرنيخ، ثم يتخلص من المسدس / قارورة السم في النافورة.. بعد هذا يجيء رجال (سكوتلانديارد) ليحققوا في الجريمة الغامضة ويعلنوا عجزهم التام.. ثم يتم استدعاء (بوارو) أو (إيلري كوين) أو (هولمز) للتحقيق أمامها إلى أن تدور عجلة الأحداث حشد لا ينتهي من الواجبات الاجتماعية والعواطف المملة..
متى ينتهي كل هذا إذن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والآن دعنا نتعرف شخصيات الرواية على الطريقة القديمة:
* لورد (آرثر فريوورد): صاحب كل هذا العز.. وهو - كالعادة - محارب متقاعد كانت له صولات في (الهند) وفي (جنوب إفريقيا) مع الأخ (شاكا زولو) زعيم قبائل (الزولو) الأسطوري، وفي النهاية استقر في هذا القصر، وظفر بكل تلك الأمراض التي يعانيها الآن.. ليس عجوزا إلى هذا الحد لكنه مريض جدا، ومزاجه كمزاج الشيوخ الذين لم تهبهم السنون حكمة بل نفاد صبر وضيق خلق.
* ليدي (فريوورد): زوجته طبعا، وهي حسناء برغم أنها في الأربعين من عمرها، ويقال إنها من طبقة متدنية لكن اللورد تزوجها لأنه أحمق.. تحب زوجها كأية زوجة، يكبرها زوجها المليونير بعشرين عاما، ودون ذكاء كبير نقول إنها لا تفكر إلا في الميراث صباحا ومساء، وتعني بزوجها عناية جمة لكنها لم تدس له الزرنيخ في كوب اللبن بعد.
* (سارة ماكلارين): ابنة أخت ليدى (فريوورد) وتقيم معها هنا، وهي حسناء بدورها لكنها ثعبان حقيقي أملس، وبالطبع كان الجميع يتوقع أن تتزوج من ابن اللورد.. هذه هي طبائع الأشياء حتى إن الأب بدأ يميل بفؤاده في اتجاه غريب بعض الشيء.
* (مايكل فريوورد): عرفناه حين قابل (عبير) في بداية القصة، وهو فتى رقيق مرهف الحس خيالي، ويعتبره أبوه أحمق أهوج معتوها، وبالطبع ازداد اقتناعا بهذا بعد ما عرف أن ابنه يهوى المربية الرقيقة (ملدريد).. لهذا كانت تهديداته صريحة بالحرمان من الميراث.. طبعا (مايكل) هو ابن الورد من زوجته الأولى.
* (جون فريوورد): طفل في الثانية عشرة من عمره، هو الذي تتكفل (ملدريد) بتربيته، وهو ابن اللورد من زوجته الثانية.. يهيم ب. (ملدريد) حبا مازجا تعلق الأطفال بالمعلمة بحب المراهقة الدامي الملتهب الأليم.. (ملدريد) تجده فتي لطيفا مهذبا وتتساءل كيف خرج من رحم تلك الأفعى المسماة ليدي (فريوورد).
* (هنري): رئيس الخدم في القصر، وهو خادم إنجليزي قح بوقاره وكبريائه وأناقته، ولم نذكره هنا إلا لأن الخدم يقتلون اللورد دائما في قصص (من فعلها؟) هذه.. إنه المتهم الرئيسي.. صحيح أنه لم تحدث جريمة بعد لكن الاحتياط واجب.
• (ملدريد) / (عبير): المربية الرقيقة التي يحبها كل من لا يكرهها.. والتي أحدثت انقلابا في (جارفيلد هاوس) من الواضح أنها غيرت خطط الوريث بصدد الزواج من (سارة)، ومن الواضح

أن (سارة) تكرهها كالشيطان، ومن الواضح أن (سارة) جعلت خالتها تكرهها بدورها، ومن الجلى الخالة جعلت أن زوجها يكرهها.
ستحدث جريمة قتل إذن..
لكن من هي الضحية؟ هذا طراز جديد من القصص يمكن تسميته (من القتيل؟) أطالب بحق الأداء العلني له..
اللورد مرشح بشدة ليكون القتيل، وأنتم توافقونني على هذا..
(مايكل) مرشح لأنه الوريث، ولأن (سارة) تكرهه..
(عبير) مرشحة لأن ثلاثة أطراف تكرهها كالجحيم..
لكن القتيل لم يكن من هؤلاء لشدة الغرابة..
كان القتيل هو الليدي (فريوورد) ذاتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - بداية لغز..

هذا - ترون - سبق جديد في القصص من هذا النوع، فمن المعتاد أن يكون القاتل هو آخر شخص تتجه له الشبهات، لكن في حالتنا هذه صار القتيل هو آخر شخص يمكن أن يصير قتيلا..
ولنحك القصة من بدايتها:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) جالسة في غرفة (جون) تؤدي دورها في تربيته..
أحضرت كتاب أغاني الأطفال وراحت تدندن له، بينما هو في الفراش ينظر للسقف مصغيا..
كانت العاشرة مساء والهدوء يعم المكان ما عدا صوتها الرقيق، والحقيقة أن (جون) قد كبر كثيرا على هذه الأغاني لكنه كان يصر على سماعها، وبرغم أنه لا ينام من دونها، والسبب - كما لم يقل - هو أنه يستمتع بصوت (عبير) / (ملدريد) الهامس الرقيق الذي ينقله إلى عوالم الحلم..
كان كتابا صقيلا سميك الغلاف، امتلأ برسوم ملونة جذابة تترجم حرفيا كل أغنية، وفي هذه اللحظة بالذات كانت تقرأ له:
«أنا أرى القمر والقمر يراني
الله يرعى القمر والله يرعاني»
وتساءلت في سرها عن سر حماس هذا الشاب الصغير الذي أوشك شاربه على الظهور، لهذه الأغاني الطفولية البسيطة..
دوي صوت الطلقة النارية التي ارتجت لها الدار كلها، فوثبت (عبير) في الهواء، ثم أشارت بيدها إلى الفتي كي يظل حيث هو وينام.. كأن من السهل أن يسمع المرء طلقة رصاص ويتجاهلها ويواصل النوم..
غادرت الغرفة جرا.. إن الطلقات المنفردة تبدو أصخب وأعلى صوتا من الطلقات المحتشدة التي تنطلق من بندقية آلية مثلا..
كان كل الخدم يتبادلون النظرات متسائلين، وقد تفرقوا على درجات السلم في أوضاع جديرة بمسارح الأقاليم..
وظهر (مايكل) من مكان ما، وهرع إلى أعلى.. على الأقل ليس هو القاتل ولا القتيل.. هذا مطمئن لحد ما..
ثم ظهرت (سارة) وجرت إلى أعلى كالعادة وهنا قررت (عبير) أن الوقت قد حان لتلحق بهؤلاء جميعا..
في تردد صعدت الدرجات وقدماها ترتجفان.. كساقي الضفدعة التي كان (جلفاني) سيطبخها لزوجته، ثم عدل عن ذلك ليكتشف الكهرباء المجلفنة..
ومن عل رأت رئيس الخدم يواصل قرع الباب:
- «ليدي (فريوورد).. لآخر مرة أسألك أن تفتحي الباب..»
وصاحت (سارة) متوترة بصدد خالتها:
- «هشم الباب يا (هنري).. أرجوك..»

بتحفظه المعتاد غمغم:
- «سيكون سلوكا غير حضاري أن أقتحم مخدع
الليدي.. لو كانت حية لكان تفسير عملي عسيرا..»
ثم ناول المفتاح ل (سارة):
- «يمكن البدء بهذا يا آنستي.. على الأقل لن يكون دخولنا اقتحاما لو سمحت لي بقول هذا..»
- «أرى..»
ومدت يدها وأولجت المفتاح في الباب.. طبعا كان موصدا من الداخل، لهذا لم يعد مناص من أن يدعو (هنري) البستاني والسائق - وكلاهما ثور ضخم الجثة - كي يهشما الباب بكتفيهما..
تم الاقتحام، وانتظرت (عبير) في ملل سماع صرخة (سارة) حين تجد جثة خالتها.. إن كل هذه القصص تتشابه..
- «آآآآآآآآه ! خالتي ي ي ي!»
ببطء بدأ الواقفون على الباب يدخلون الغرفة، وقد شعروا بشكل ما أن هذا لم يعد (خدر السيدة) بل هو (مسرح جريمة) وسيطرت الرهبة عليهم..
الآن يتزاحم الجميع على باب الحمام الملحق بغرفة النوم، والكل يحاول أن يدس برأسه في الفتحة الضيقة ليري....
كانت جالسة - ليدي (فريوورد) - في البانيو بكامل ثيابها، والبانيو ممتلئ بالمياه لنصفه، بينما في جبهتها ثقب أحمر ينز دما استطاع أن ينثر الدماء على الحائط خلفها..



كانت جالسة ـ ليدى (فريوورد) ـ فى البانيو بكامل ثيابها ،
والبانيو ممتلئ بالمياه لنصفه ، بينما فى جبهتها ثقب أحمر ينز دمًا
استطاع أن ينثر الدماء على الحائط خلفها . .

كانت تبدو أكثر جمالا ورقة في هذه الحالة.. كأن الموت إذ أفقدها شراستها وتسلطها جعلها أجمل.. (الموت يليق بها).. عنوان فيلم أمريكي شهير بدا أنه يصف الموقف بدقة..
صرخت (سارة) وقد تحولت إلى ذئب شرس، فجرّها (مايكل) إلى الخارج مندهشا من فقدانها لوقارها البريطاني العتيد.. الفتاة التي تملأ الدنيا صراخا لأن خالتها ماتت برصاصة في رأسها، هي فتاة ليست من أصل راق تماما.. فتاة غير جديرة بالدماء الأنجلوساكسونية..
وقال (هنري) في وقار:
- «يا إلهي العلي القدير! أعتقد أن سيدتي الليدي (فريوورد) لن تحضر العشاء هذه الليلة.. وأعتقد كذلك - لو سمحتم لى يا سادة - أن وقت استدعاء الشرطة قد حان..

وخرج الجميع من الغرفة، حين جاء الورد العجوز من غرفته يتوكأ على عصاه ليرى ما هنالك، بسرعة تناسب حالته الصحية..
تساءل وهو يقلب عينيه الزرقاوين في الوجوه:
- «ماذا حدث يا (هنري)؟»
- «لو سمح لى سيدي (اللورد)؛ فأنا أخشى أن سيدتى قد توفيت برصاصة في الرأس..»
- «هذا مؤسف يا (هنري).. سأسمح لنفسي ببعض (البورتو) على سبيل الحداد.. أرجو أن تقوم بترتيبات الجنازة..
- «هذا يسرني يا سيدي..»
وبدأ الموجودون يتفرقون، واتجه (هنري) إلى جهاز الهاتف العتيق على الحائط فطلب الشرطة بينما جلس اللورد على مقعد وضعوه له جوار الباب، وراح يرشف (البورتو) في وقار حزين..»
- «إنه حادث مؤسف يا (هنري)..»
- «هو كذلك حقا يا سيدي اللورد..»
- «أرجو أن تلغي اشتراكها في جريدة (صنداي تلجراف) يا (هنري)..»
- «سأرى أن هذا قد تم يا سيدي اللورد..»
كان اللورد نموذجا للنبيل الإنجليزي من بناة الإمبراطورية.. له شارب كث عسكري أشيب، والشعر خفيف على جانبي رأسه على طريقة (كابوريا)، لكنه كان الآن يرتدي ال. (روب دي شامبر) طبعا، وخفين من الصوف..
ووقفت (عبير) على بعد أمتار منه، لا تدري لأين تذهب.. لكنها واثقة من شيء واحد: لو رآها لزجرها.. فهو لا يطيق ظلها على الأرض على طريقة (من بغض طلعته يمشي على كبدي)..
وأنقذها من حيرتها سماع جرس الباب..
لقد بدأ الغيث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانوا أربعة من رجال (سكوتلانديارد) بقبعاتهم وبملابسهم ومعاطفهم الخاكية، ومعهم رجل شرطة أسود البذلة والأفكار..
أكبر الرجال هو المفتش (بلاكفيلد) والذي تولى عملية التحقيق وفحص الجثة.. كان أول سؤال سأله هو لرجل قصير القامة يضع عوينات بلا إطار ويحمل حقيبة صغيرة:
- «ما رأيك يا دكتور (درايفوس)؟»
قال الدكتور (درايفوس) وهو يجفف عرقه:
- «الوفاة طبيعية.. لا بد أنها نوبة قلبية..»
أعاد المفتش تأمل الطبيب في حيرة، ثم بتهذيب غمغم:
- «حاشا لله أن أتدخل في دورك الفني، ولكن ماذا عن ثقب الرصاصة في جبهة القتيلة، وكل هذه الدماء؟»
ضرب الطبيب جبهته كمن فاته تفصيل بسيط، وصاح:
- «أوه! إنني لم أول هذا اهتماما.. ظننته موجودا من البداية.. إن للنساء هوايات غريبة..»
- «إذن أكون شاكرا لو أعدت فحص الجثة واضعا في الاعتبار شكوكي..»
- «لك هذا يا سيدي المفتش..»
ودخل الغرفة من جديد.. الغرفة التي لا بد أنها صارت الآن مزدحمة كميدان (العتبة) عندنا،

وبعد دقائق عاد ليؤكد:
- «إن شكوكك في محلها يا سيدي.. ثمة جريمة هنالك.. الرصاصة أطلقت من مسدس ذي ساقية تسع ثمان طلقات.. تم الإطلاق على بعد ثلاثة أمتار.. حرارة الجثة تؤكد أن الجريمة تمت في العاشرة وعشر دقائق بالضبط.. القاتل له ساق أقصر من الأخرى ومصاب ب. (لا نقطية) (أستجماتزم) شديد في عينيه، وفي الغالب هو متقدم في السن..
نظرت له (عبير) بإعجاب.. هذا الرجل يؤدي عمله جيدا.. وبسهولة انتقل من عدم الاكتراث والإهمال إلى الدقة المَرَضيّة.
ابتسم المفتش في رضا، ثم أمر بتصوير كل شيء ورفع البصمات قبل نقل الجثة إلى المشرحة..
وكعادة مفتشي القصص بدأ في استدعاء الشهود واحدا تلو آخر، وسؤاله عن عمله وعلاقته بالقتيلة وأين كان بالضبط في العاشرة وعشر دقائق..
كانت (عبير) قد قرأت الكثير جدا من قصص (أجاثا كريستى)، وكانت تعرف بالضبط هذا الطراز من الأحداث.. سيكون هناك الكثير جدا من الكلام وفي النهاية - بعد جهد مضن - يتضح أن قاتل الليدي هو آخر المشتبه فيهم.. آخر من يتجه إليه إصبع الاتهام.. لقد بالغ الكتاب الإنجليز في هذه النقطة، حتى إن أحدهم كتب قصة بوليسية - على سبيل الدعابة - يتضح في آخرها أن القاتل ليس في الكتاب أصلا!
توشك قصص (من فعلها؟) على أن تكون قصصا إنجليزية تماما.. لا تعيش أبدا خارج جو القصور واللوردات ورجال (سكوتلانديارد) الذين يملكون المثابرة والإمكانات.. لكنهم يفتقرون إلى الخيال..
ولقد توقع أحد النقاد الإنجليز أنه لو سارت الأمور على ما هي عليه؛ فلسوف تتحول الجزر البريطانية إلى مجموعة من الحمقى يقرأ كل منهم ما كتبه الآخر من قصص بوليسية.. فقط ستتباين القصص في شخصية القاتل: إنه الساقي في هذه القصة، وهو الخادمة الفرنسية في تلك، وهو الوريث في هذه، وهو رجل الشرطة في قصة أخرى..
بعد قليل دق جرس الباب..
كان القادم هذه المرة مفتشا من رجال (سكوتلانديارد) يدعى المفتش (جاب)، ولم يأت وحده فقد كان معه رجلان..
قال (جاب) لاهثا
- «لقد كان المسيو (بوارو) يمر قرب الدار فدعوته ليحضر معنا هذا التحقيق..
وتأملت (عبير) ذلك الرجل القصير الأصلع، ذا الشارب الضخم اللامع المعتني به.. إنها تعرفه جيدا..
لقد قابلته من قبل..
وها هي ذي تقابله للمرة الثانية لتتذوق عبقريته من جديد..
(هيركيول بوارو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

فلننعش خلايانا الرمادية!

يقوم بالتحقيق
(هيركيول بوارو)

5- (بوارو) يبدأ..

قال (بوارو) بعد ما تم التعارف:
- «كما قال (شكسبير) يا سادة: إن دراسة مسرح الجريمة توضح كل شيء وأنا سأدرس مسرح الجريمة..»
تبادل رجال (سكوتلانديارد) نظرات الدهشة، التي تحولت في الحال إلى ضحكات مكتومة.. فلا أحد قرأ ل (شكسبير) كلمات كهذه، وفي الغالب لم يقلها قط لأنه لم تكن هناك مسارح جريمة في زمنه، لكن (بوارو) كان دائم الاقتباس لعبارات لا وجود لها في الأدب الإنجليزي..
كانت إنجليزية (بوارو) مضحكة جدا، جديرة بأصله البلجيكي، لكن الغريب هو أنه مصر على أنه من أعلام اللغة وفصحائها..
قال المفتش (بلاكفيلد) بعدما سيطر على نوبة الضحك:
- «الغريب يا سيدي هو أن الغرفة موصدة بإحكام من الداخل، وكذا نوافذها ونوافذ الحمام..»
- «إنها دائما كذلك في القصص..»
ودخل إلى الحمام المليء بالدماء والذي لم تعد به جثة.. بالطبع لم تر (عبير) باقي ما حدث لأنها كانت واقفة مع المحتشدين على باب الحجرة، ولم يكن من حقها الدخول ما لم يناد‌ها أحد..
بعد دقائق خرج (بوارو) وهو يجفف وجهه بمنديل، فسأله رجل (سكوتلانديارد) وهو يشعل غليونه:
- «هل ثمة شيء أثار انتباهك؟»
قال (بوارو) وهو يبرم شاربية:
- «لا يا سيدي.. كنت ألبي نداء الطبيعة.. هذا حقي على ما أظن.. حتى لو كان الحمام مسرح جريمة..»
تنفس الجميع الصعداء، بينما تساءل (هاستنجز) تابع (بوارو) المخلص الشبيه بكلب أمين:
- «لماذا لا يكون هذا انتحارا؟»
«لأن المنتحرين لا يطلقون الرصاص على جباههم
ثم يفتحون النافذة ويتخلصون من سلاح الجريمة، ثم
يغلقونها ويموتون يا (هاستنجز).. هذا عسير كما تري...»
قال المفتش (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «أضف لهذا أنه لا أحد ينتحر بإطلاق الرصاص على منتصف جبهته.. إن صدغيه يكونان أسهل عندئذ..»
قال (هاستنجز) وهو يشعل غليونه:
- «وكيف يغلق القاتل الأبواب والنوافذ من الداخل؟»
قال (بوارو) في فخر:
- «لهذا طلبوا رأى (بوارو) أعظم مخبر بوليسي في القارة وربما في العالم.. ولكن القاتل لم يكن بارعا كما تعتقدون..»
في غباء تساءل المفتش (جاب) وهو يشعل غليونه:
- «ك.. كيف؟»
قال (بوارو) وهو يخرج من جيبه شيئا معدنيا صغيرا أقرب إلى مزلاج نافذة:

- «هذا هو المزلاج المثبت على النافذة.. لقد فككت مسمارية بهذا بينما كنت في الحمام ومن جيبه الآخر أخرج مفكا صغيرا، وأردف:
- «لقد لاحظت أنه جديد لامع أكثر من اللازم وبفحصه أدركت أنه صنع خصيصا ليشبه المزاليج العادية رخيصة الثمن.. الحقيقة يا سادة هي أنه مزلاج من نوع (لاتش)، وبه (زنبرك) صغير.. هكذا يمكن إغلاق النافذة من الخارج، فيعود اللسان إلى موضعه ويبدو الأمر كأنما النافذة مغلقة من الداخل!»..
في ذهول هتف (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «حفظ الله الملكة! يا له من قاتل شيطاني بارع! ومعنى هذا أنه خرج من نافذة الحمام بعد إطلاق الرصاص!»
- «بالتأكيد يا عزيزي.. ولو لم ألحظ البريق في المزلاج لقضينا ساعات طويلة نلقى الاتهام على شبح..»
هرع المفتش إلى داخل الحمام، وبعد دقائق عاد وقال وهو يشعل غليونه:
- «النافذة على ارتفاع طابقين.. حوالي ثمانية أمتار.. توجد شجرة ملاصقة لها يمكن استعمالها الهبوط إلى أسفل..»
قال (بوارو) في ثقة:
- «هكذا يتضح الأمر أكثر.. لقد أطلق القاتل رصاصته، ثم وثب من النافذة، ودار حول القصر ليدخل من الباب الرئيسي مذعورا يتساءل عن مصدر الصوت مع الآخرين، وهذا يلقى بالشك على جميع الموجودين دون استثناء..»
وأخذ شهيقا عميقا، وقال وهو يدخل الحجرة:
- «الآن تريد لقاء المشبوهين جميعا..»
نظر المفتش (بلاكفيلد) حوله، ثم وقعت عيناه على (عبير) التي كانت واقفة ترقب كل هذا في استمتاع.. قال لها وهو يشعل غليونه:
- «فلنبدأ بك يا آنسة..»
وتدخل (عبير) غرفة النوم حيث جلس (بوارو) على (أنتريه) أنيق في ركن المكان جوار مرآة الزينة، وراح يمشط شاربه في دقة وعناية..
قال لها في مرح وهو يشير لمقعد:
- «اجلسي أيتها الحسناء.. دعيني أر وجهك الجميل عن قرب..»
وغمز لها بعينه اليمنى، وأردف:
- «صدقيني لست عجوزا كما أبدو.. إنني أحمل قلبا بلجيكيا لا يشيخ أبدا مهما شاخت ملامحي..»
جلست (عبير) في رهبة أمامه، وعلى الفور تذكرت الصورة الخالدة التي رسمتها له (أجاثا كريستي)، والتي جعلت القراء يهيمون به حبا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (بوارو) لاجئا بلجيكا فر من بلاده وقت الحرب العالمية الأولى ليعمل في (انجلترا) وكان مفتشا بارعا في بلاده، وقد نقل هذه البراعة معه ليصير أشهر رجل شرطة في القارة والجزيرة..
من القصص يمكننا معرفة أبعاد شخصية (بوارو) كأية شخصية ناجحة ثلاثية الأبعاد بل ورباعيتها كذلك..

من ناحية الشكل عرفنا أن (بوارو) أصلع قصير القامة له شارب عملاق مما يقف عليه صقران لو أرادا.. مفرط في الأناقة هو يعتبر ذرة غبار على بدلته كارثة قومية..
من ناحية الطباع يمكن اعتبار (بوارو) أكثر المخبرين غرورا وتعاليا ومدحا لذاته، لكنه يفعلها بطريقة تدعو للابتسام..
فلا تستطيع أن تكرهه لذلك..
شديد التمسك بالنظام والنظافة، شديد الإعجاب بالأشكال الهندسية حتى إنه كان يتمنى لو خلق البيض على شكل مكعب.
مع (بوارو) لا بد أن تجد ظله الكابتن (هاستنجز)، وهو شاب شديد الإخلاص شديد الانبهار ب (بوارو)..
لقد ود (هاستنجز) يوما ما لو كان مخبرا، ثم قابل (بوارو) فعرف - ببساطة - أن عليه أن يصمت ويتعلم، ويلعب دور الراوي..
إن (بوارو) يعامل (هاستنجز) كصديق، لكن معاملته لا تخلو من التعالى، وهو يستغله في مهمة محددة: كيف يريد القاتل أن يعتقد الرجل العادي؟ لقد دمر القاتل بذكائه كل شيء كي يخدع الحمقى و (هاستنجز) أحمق، لذا يمكن عن طريقه فهم ما ينبغي عدم التفكير فيه! ولو توصل ذكاء (هاستنجز) إلى أن القاتل هو (زيد)؛ كان هذا دليلا قويا على أن (زيد) بريء!
ولقد حكى (هاستنجز) كل قصص (بوارو) ماعدا قصة مصرع (روجر أكرويد) التي حكاها طبيب الأسرة، والسبب طبعا هو أن الطبيب نفسه كان هو قاتل (روجر أكرويد) في تلك القصة!!
نعود لقصتنا..
سألها (بوارو) عن علاقتها بالأسرة، وعما إذا كانت قد رأت ما يريب، ثم سألها:
- «هل لي أن أفترض أن ليدي (فريوورد) كانت تتمنى لك الموت؟»
دون حذر قالت:
«بالتأكيد.. هي لا تطيق ظلى على الأرض..»
وندمت على ما قالت، لذا أضافت بسرعة:
- «لكني لم أبادلها هذا الشعور، وبالمناسبة كنت في العاشرة وعشر دقائق مع (جون فريوورد) أحكي له قصة أطفال..
هز رأسه الأصلع باسما، وقال:
- «يبدو أنك تعانين حالة مزمنة من الإجابة على أسئلة لم تطرح أصلا..»
ومد يده إلى كتاب ذي غلاف ضئيل على المنضدة، وقال:
- «ما رأيك في هذا الكتاب؟ إنه مخصص لأغاني المهد للأطفال Nursery Rhymes، ويبدو لي أن الليدي كانت مهتمة به..»
تأملت (عبير) الكتاب.. إنه هو ذاته الذي يجعلها (جون) تغني منه قبل أن ينام.. قالت دون حذر:
- «هذا هو الكتاب ذاته..»
ابتسم (بوارو) وبرم شاربه:
- «لا أظن هذا.. من مصلحتك ألا يكون كذلك لأنه كان جوار الجثة في الحمام.. ولو كان الكتاب ذاته كانت قصتك كاذبة بصدد التواجد جوار (جون)..»
وقلب صفحاته في استمتاع مرددا كأنما يحلم:
. «أغاني مهد ما أجملها! كانت لدينا أغان جميلة كهذه في (بلجيكا) لكني نسيتها.. بالمناسبة لقد

وجدنا الكتاب مفتوحا على أغنية منها، وقد سقطت قطرات دم على الصفحة.. هذا دليل كاف على أن الكتاب كان مفتوحا لحظة ارتكاب الجريمة..»
ورفع الكتاب في الهواء أمام وجهه، وبصوت عال قرأ:
- «كان هناك رجل صغير..
لديه بندقية صغيرة..
وطلقاته مصنوعة من الرصاص.. رصاص.. رصاص..
رأي بطة صغيرة..
في بركة صغيرة..
فأطلق الرصاص على الرأس.. رأس.. رأس..» (1)
وابتسم في استمتاع، وأغلق الكتاب، وقال:
- «جميل.. ألا ترين هذا؟ فقط لاحظت وجود تشابه مريب بين طريقة القتل في الأغنية وعالم الواقع..»
هنا تدخل المفتش (بلاكفيلد) ليقول وهو يشعل غليونه:
- «قال اللورد إنه كان يدلل امرأته باسم (البطة الصغيرة)!»
قال (بوارو) وهو ينظر لـ (عبير) بحنان غريب:
- «هل فهمت يا صغيرتي المأزق الذي أنت فيه؟»
وثبت من مكانها مذعورة، وصاحت:
- «أي مأزق؟»
قال (بوارو) بعد ما تبادل نظرة جانبية مع (هاستنجز):
- «إن (هاستنجز) يملك كل الأسباب كي يرتاب فيك الآن.. لديك الدافع، وقد استوحيت فكرة الجريمة من أغاني الأطفال.. هذا الكتاب لا يشير لأحد في الدار سواك!»
كانت تعرف أن (أجاثا كرستى) تهوي استعمال أغاني الأطفال في قصص الجريمة على غرار (عشرة صبية هنود) و (ثلاثة فئران عمياء) و (خمسة خنازير صغيرة).. لكن هذا كثير..
قبل أن تشتم (بوارو) على حماقته، قال بهدوء:
- «هذا ما يريد القاتل أن يعتقده الرجل العادي محدود الذكاء، لكن بالنسبة لـ (بوارو) يغدو الأمر أكثر تعقيدا.. دعونا ننعش خلايانا الرمادية لنفكر..»
- «الليدي في الحمام بكامل ثيابها.. لماذا يجلس إنسان في البانيو بكامل ثيابه؟ لو كانت قد دخلت الحمام وتهيأت للاستحمام لكان الوضع مختلفا.. الاحتمال التالى هو أنها قتلت في مكان آخر ونقلها القاتل ميتة إلى البانيو.. ولكن لماذا تلوث الدماء كل شيء إذن؟ الاستنتاج الوحيد: لقد أرغمها القاتل على الجلوس في البانيو قبل أن يطلق الرصاصة على الجبهة.. فلماذا؟»
ونهض ليجوب الغرفة، ويداه معقودتان وراء ظهره:
قال (هاستنجز) في حياء:
- «لا بد أنه لم يرد أن تلوث دماؤها الغرفة..»
- «هذا قاتل فريد من نوعه.. قاتل حريص على النظافة..»
قال (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «يقول الطبيب إن القاتل عجوز أعرج مصاب باللا نقطية.. لا أدري كيف يعرفون كل هذا، لكن هؤلاء الأطباء بارعون حقا..»
- قال (بوارو) في لهجة مسرحية:

- «وهذا يلقى الأضواء على اللورد.. إنه يملك الدافع ويهمه ألا تتلوث غرفة من قصره بالدماء..
كل هذا جميل.. لكن كيف يستطيع اللورد أن يثب من نافذة الحمام بعد ارتكاب جريمته؟ هذا لو افترضنا أنه أعرج مصاب باللا نقطية..
- «قال (هاستنجز):
- «ليس أعرج.. لقد رأيته في الردهة، ولم يكن يعرج أكثر مني..»
قال (بوارو):
- «تلك نقطة مهمة.. لو لم يكن طبيبكم أحمق - ولسوف أتبين هذا - فإن اللورد خارج نطاق الاتهام تماما، وهذا يضيق الدائرة أكثر.. إن اللورد لم يفعلها، والقتيلة لم تفعلها، و (ملدريد) الحسناء لم تفعلها..
احتج (هاستنجز) وهو يشير إلى (عبير)
- «من قال إن هذه لم تفعلها؟»
- «لأنك تشتبه في (ملدريد) يا عزيزي (هاستنجز) صار هذا دليلا قاطعا على براءتها!»
هنا ضيق المفتش (بلاكفيلد) عينيه، وتساءل وهو يشعل غليونه:
- «إذن بحق السماء.. من فعلها؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثانى

بديهي يا عزيزي (واطسون)!

يقوم بالتحقيق
شيرلوك هولمز

6- ضحية جديدة..

طالت التحقيقات حتى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.. هذه هي مشكلة بدء الجرائم في العاشرة مساء..

لكن (عبير) لم تحضر استجواب اللورد و (سارة) و (مايكل) والخدم؛ لأنهم صرفوها شاكرين بعدما عرفوا ما تعرف..

كان موقفها سيئا بحق، وعلاقتها المتوترة مع ليدي (فريوورد) يعرفها الجميع، لكنها ظلت تأمل في أن عدم وجود بصمات سيبرئها..

- «لا بصمات..» - قالها (بوارو) في لطف - «إن كل قاتلي هذه القصص يعرفون اختراعا اسمه القفازات.. لكن غرفة السيدة بالتأكيد ملاي ببصمات (سارة) واللورد.. هذا لن يضيف شيئا..»

هكذا لم يعد هناك ما يدينها، لكن لم يعد كذلك ما يبرئها.

مهمومة اتجهت إلى غرفتها، وتناولت قرصا منوما.. ثم أطفأت النور وبدأت تحلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السادسة صباحا كانت هناك حركة غير عادية في القصر..

فتحت جفنيها شاعرة أنهما يزنان طنين، وشعرت بفزع من الستار السميك المسدل على الكون حولها، ثم بدأت تفيق ببطء.. إن القرص المنوم يمارس ذروة سلطانه الآن..

مترنحة نهضت إلى الباب وفتحته..

رأت أناسا يجرون.. جعلها النعاس تشعر بأنهم بلا وزن، وأن أقدامهم لا تحدث صوتا على الأرض وسمعت من يقول:

- «(سارة).. (سارة)!»

وخرجت من غرفتها، ومشت مع الماشين، وأدركت أنهم متجهون إلى الطابق العلوي حيث غرفة (سارة ماكلارين)..

كان الباب مفتوحا وقد وقف الخدم يتكلمون بصوت عال؛ وعلى الفراش رأت ما يشبه الجسد المسجى، على حين كانت مس (إميلي) الوصيفة - وهي امرأة ضخمة صارمة - تقول في هستيريا:

- «لقد كانت بخير حال، وطلبت أن أوقظها في السادسة صباحا لأنها ستسافر إلى (ديفون).. طرقت الباب مرارا لكنها لم ترد وفي النهاية تجاسرت وفتحته.. وكان ما ترون......»..


كان الباب مفتوحًا وقد وقف الخدم يتكلمون بصوت عال ، وعلى الفراش رأت ما يشبه الجسد المسجى ..

قال (هنري) رئيس الخدم:
- «ميتتان في ليلة واحدة! هذا لا يليق بقصر محترم..»
وأشار إلى خادمة فرنسية حسناء:
- «هلا طلبت الشرطة يا (مادلين)؟ هل أيقظ أحدكم سيدي اللورد؟»
قال السائق في فخر:
- «أنا فعلت..»
- «يا لك من متسرع أخرق! بحق السماء لقد أمر سيدي اللورد بألا يزعجه أحد حتى العاشرة صباحا!»

- «حتى لو حدثت جريمة قتل في قصره؟»
- «حتى لو سقط السقف ذاته.. أشياء كهذه هي التي تحدد كبرياء الجنس الأنجلو ساكسوني وتميزنا عن الهمج..»
ثم بحزم أمر الخدم الآخرين:
«أعدوا لسيدي قدحا من القهوة السوداء وجريدة (التايمز) لسوف يسأل عنهما أول شيء..»
هنا جاء صوت اللورد العجوز المرهق:
- «ماذا حدث يا (هنري)؟»
يبدو أن الآنسة (ماكلارين) قد توفيت يا سيدي اللورد
- «هذا مؤسف يا (هنري).. هل تأكدتم من الوفاة؟»
«الطبيب في الطريق يا سيدي، لكننا متأكدون كل التأكد»
- «هذا مؤسف بحق، أحضر لي قدحا من القهوة وجريدة (التايمز)..»
- «هما جاهزان يا سيدي..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ربع ساعة جاء رجال (سكوتلانديارد)..
كانوا محمري العيون متذمرين ومعهم حق.. لقد تركوا القصر منذ ساعتين ليناموا قليلا، وقبل أن يدخلوا مرحلة النوم الأرثوذكسي (الهادئ المنتظم) وجدوا أن جريمة أخرى حدثت..» ([2])
قال المفتش (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «لو مرت ثلاث ساعات دون جريمة في هذا القصر لبدا لى الأمر شاذا..»
وبعد عشر دقائق جاء (بوارو) مع (هاستنجز)، وكان منتعشا كما لو نام سبع ساعات متواصلة، لكنه كان مندهشا من سرعة الأحداث، وقال بعد ما تثاءب:
- «لقد تحرك القاتل بسرعة، لكنه على الأقل ضيق مجال البحث..»
قال (هاستنجز) في حياء:
- «من قال إن الفتاة قتلت؟»
هنا بدا الحماس على (بوارو)، وصاح:
- «هذا حق.. من قال إنها قتلت؟ لقد افترضنا جميعا أنه ما دمنا في قصة بوليسية فلا بد أن تكون مقتولة..»
ثم تنهد، وأشار للغرفة:
- «هلموا معي نر الجثة..»
كان (مايكل) واقفا دامع العينين معدوم الحيلة كطفل، فدنت منه (عبير) ولمست ذراعه مشجعة:
- «أنا آسفة.. يبدو أنك كنت تحبها حقا!»
انتفض لسماع صوتها، وهتف:
- «أنا أحبها؟ بالطبع لا!»
ثم انتبه إلى المحيطين حوله، فهمس بحدة:
- «بالطبع لم أحبها.. لكني لست بحاجة إلى أن أهيم بشخص كي أبكى لوفاته.. لقد كانت شابة حسناء.. هذا كل شيء..»
ثم بلهجة متآمرة هامسة، قال:

- «بالمناسبة.. إن هذا الحديث الهامس سيجلب علينا شكوكا لا داعي لها..»
قالت وهي تبتعد:
- «إن موقفنا في غاية السوء بالفعل، ولولا ثقتي من أنك وأنني لم نقتل المرأتين لشككت في الأمر..»
- «بحق السماء.. من قال إن (سارة) قتلت؟»
- «لأن هذه قصة بوليسية، فلا بد أنها قتلت..»
بعد دقائق خرج (بوارو) مع الطبيب من الغرفة وكان (پوارو) يحمل كتابا صقيلا مألوف الشكل في يده، وقال:
- «الطبيب قال إنها وفاة طبيعية.. نوبة قلبية..»
تنفس الجميع الصعداء، لكن (بوارو) لوح بالكتاب وهتف:
- «أما أنا فرأيت هذا الكتاب الجميل، وكان مفتوحا جوار الجثة على الكومود، وحين قرأت الأغنية التي فتح عليها؛ بحثت بدقة حتى وجدت موضع اللدغة هنا.. في العنق!»
وأشار إلى عنقه المكتنز ليوضح كلامه..
ارتجف الجميع وساد مناخ من التوتر، على حين راح يتلو أغنية الأطفال المقصودة:
- «الآنسة (موفت) الصغيرة جلست على أرومة..
تأكل اللبن الرائب..
عندئذ جاء عنكبوت..
فهربت الآنسة (موفت) بعيدا.
وأغلق الكتاب بطريقة مسرحية، وقال:
- «يوجد عدد كبير من نسخ هذا الكتاب هنا، ومن الواضح أن القاتل ينوي التقيد به حرفيا..»
ولوح الطبيب بمرطبان زجاجي، استطاعوا أن يميزوا بداخله جسما أسود بشعا مغطى بالشعر، وقال:
- هذا هو الفاعل.. عنكبوت استوائي من طراز (تارانتولا).. لقد نامت وهو معها في الفراش، وأظن أنها لم تتألم.. كثيرا!»
اقشعرت (عبير) لبشاعة الفكرة..
هي كانت معتادة العناكب ولا تخافها.. ربما تحبها نوعا.. لكن هذا العنكبوت بالذات كان أقرب إلى شيطان أسود صغير حبيس في قمقم.. ولم تكن قبلاته محببة أبدا..
قال (بوارو) وهو يرمق (عبير):
- «أرجو أن تكون حجة غيابك Alibi قوية هذه المرة يا آنسة حتى تقنع هؤلاء الحمقى..»
تراجعت (عبير) للوراء في عصبية، وصاحت:
- «حجة غياب؟ كنت نائمة كالقتيل بفعل دواء منوم، ولم يرني أحد أفعل ذلك..»
قال المفتش (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «باسم صاحبة الجلالة، أجد نفسي مضطرا إلى اصطحابك إلى الإدارة يا آنسة.. لم أوجه لك اتهاما رسميا بعد، لكني أحاول حماية باقي الورثة هنا..»
وأشار إلى رجل الشرطة الواقف جواره:
- «كونستابل (ماكجزو هيل).. أرجو أن تؤدي عملك!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- (هولمز) يواصل..

ثلاثة.. ستة.. تسعة
شربت القطة جعة
والقرد دخن الطباق في عربة الترام..
تحطم القضيب..
وشرق القرد بما دخّن..
وصعدوا جميعا إلى السماء بقارب ذي مجدافين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان توتر الموقف يتزايد؛ حين دق جرس الباب..
وسمعت (عبير) صوت صهيل حصانين، وصوت عربة مما تجرها الخيول.. لكنها استبعدت هذا في عصر السيارات..
لكن (هنري) جاء في أدب، ووجه كلامه إلى المفتش (بلاكفيلد)..
- «معذرة يا سيدي المفتش، لكن من يدعي مستر (شيرلوك هولمز) يطلب الإذن بالدخول..»
(هولمز)؟ في هذا العصر؟ لا بأس.. لقد جربت خلط الأزمنة هذا في (فانتازيا) من قبل، وبالذات في أول مرة تدخل (فانتازيا) فيها، لكن القتيل وقتها كان اللورد.. ماذا كان اسمه؟ آه! (ثاكري)..
ترى هل يضيف (هولمز) شيئا إلى موقف غامض بطبيعته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي إعجاب رأت الرجل الذي خلد اسم (إنجلترا) وخلد شارع (بيكر)، وما زالت أساليبه تدرس في كليات الشرطة بالعالم كله:
(شيرلوك هولمز) [3]..
إن (هولمز) كهل وقور وسيم الملامح، لكن له أنفا كمنقار صقر، وهو فارع القامة ككابوس، ويرتدي معطفا طويلا من قماش (الكاروهات) الاسكتلندي، بينما حرملة أنيقة على كتفيه، وهو - عادة - سيد مهذب راق أقرب إلى أستاذ جامعة منه إلى مخبر خاص يتبعه د. (واطسون) وهو طبيب يعيش معه في داره، ويلعب معه ذات دور (هاستنجز) مع (بوارو)..
الصديق المخلص محدود الذكاء المنبهر دائما، وراوي القصص غالبا..
لوح (هولمز) بعصاه محييا الموجودين، وقال لاهثا:
- «لقد أعطيت سائق العربة جنيها كاملا كي يجلبنا إلى هنا بأسرع ما يستطيع وسط ضباب (لندن).. إن الوقت مبكر جدا..»
في ضيق، وقد احمر وجهه كسرطان البحر المسلوق، قال (بوارو):
«ما كان لك أن تتجشم هذا العناء يا صاحبي..»
- «أنا لم آت إلا لأن المفتش (بلاكفيلد) طلب رأيي؛ لأن رأيين خير من رأى واحد..»
ثم أشار بعصاه إلى (عبير)، وتساءل:
- «لماذا قبضتم على هذه الحسناء؟»
- «لم نقبض.. لكننا لا نجد ما يؤذي في مراقبتها..»

و «إذن دعوني أعرف لماذا تراقبونها؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الساعة التالية عرف (هولمز) كل شيء عن القضية كما حكاها (بلاكفيلد)، وقد راق له بالذات الجزء الخاص بالقتل بال. (تارانتولا)؛ لأن هذا النوع من القتل أقرب إلى أساليب قصصه.. إن قتلى (أجاثا كرستي) يموتون غالبا بالسم أو الرصاص.. لكن لدغات الحيوان والحشرات أقرب إلى عالم (هولمز)، وكان قد فرغ من التحقيق في قصة (العصابة الرقطاء) حيث يتم القتل عن طريق ثعبان سام يتسلل من فتحات التهوية، لهذا شعر بأن الدار داره..
تفحص د. (واطسون) المرطبان الذي حفظوا فيه العنكبوت القاتل، ثم صاح في دهشة:
- «ليرحم الله روحي! هذا العنكبوت ليس (تارانتولا) يا (هولمز)، بل هو (لاترودیكتاس).. وهو من أشد العناكب السامة فتكا، لكنك لا تجده إلا في (إفريقيا) و (الشرق الأوسط)..
ابتسم (هولمز) في ثقة وأشعل غليونه، وقال:
- «كما ترون.. ما كان لهذه الآنسة الرقيقة أن تجد عنكبوتا كهذا حتى لو قصدت أكبر متاجر (لندن)..



ابتسم (هولمز) فى ثقة وأشعل غليونه ، وقال : « كما ترون !! »
ما كان لهذه الآنسة الرقيقة أن تجد عنكبوتاً كهذا حتى لو قصدت
أكبر متاجر (لندن)

تخيلوا أنها تسأل البائع عن عنكبوت سام من نوع (لاترودیکتاس)!»
ثم تأمل (عبير) في إعجاب، وقال:
- «يبدو لي يا آنسة أن لك أقارب في (ويلز)، وأن خالك قد حارب في (الهند) فترة لا بأس بها، وأنك تعاطيت قرصا منوما كي تتمكني من النوم بعد الجريمة الأولى، ويبدو أنك درست اللغة اللاتينية لفترة ثلاث سنوات..»
كانت هذه هي طريقته المعتادة في إبهار سامعيه، والتي تعلمها (دويل) المؤلف من أستاذه في كلية الطب، الذي كان يستعمل عينيه بطريقة تفوق التصور[4]..
تساءل المفتش (جاب) في انبهار:
- «وكيف عرفت كل هذا؟»

- «هذا بديهي يا عزيزي المفتش.. بديهي.. من الواضح أن...»
هنا قال (بوارو) بعصبية إنه لا وقت يضيع في ألعاب الحواة هذه..
ومستمتعة لاحظت (عبير) كم أن صاحبي المهنة الواحدة قد لعب التنافس بينهما.. إن (هولمز) يغار من (بوارو) لأن الأخير يفهم في السموم جيدا كأي طبيب شرعي، والسبب هو أن (أجاثا كرستي) عملت فترة في قسم السموم بالمستشفى في أثناء الحرب العالمية
الأولى.. لكن (بوارو) يغار من (هولمز) لطريقته الشبيهة بالسحر في الاستنتاج، ولكونه إنجليزيا يلعب في ملعبه الخاص..
وعلى المستوى الشخصي نجد أن (هولمز) أقرب للكسل.. مهمل جدا إلى درجة أنه يتسلى بإطلاق الرصاص على الحائط ليكتب حروف اسمه بالثقوب!
بينما (بوارو) هو النظام والدقة مجسدين، بالإضافة إلى حيويته الكهربائية الدافقة..
قال (هولمز) وهو يشعل غليونه المصنوع من الكهرمان:
- «الرجل الذي نبحث عنه هو شخص سافر إلى (إفريقيا)، ويعرف شيئا عن العناكب السامة.. وهو كذلك شخص قادر على دخول مخدع ليدي (فريوورد) وإقناعها بالجلوس في البانيو على سبيل الدعابة، ثم إفراغ طلقة في رأسها.. وهو شخص يملك الدافع كي يتخلص من زوجة مستغلة، وابنة أختها التي يمنعني التهذيب كمواطن بريطاني من اعتبارها أفعي ثم هو شخص يعرف أن (البطة الصغيرة) هو اسم التدليل لليدي (فريوورد)!
في ضيق قال (بوارو):
- «قديمة.. أنت تتهم اللورد وكذلك فكرنا نحن لكن أتمنى لو أخبرني المخبر العبقري (هولمز) بالكيفية التي هبط بها العجوز على الشجرة بعد إتمام جريمته..»
قال (هولمز) في كبرياء دون أن ينظر إليه:
- «الرجل متمارض.. هذا واضح تماما من مشيته وطريقته في الكلام.. إنه ينسى حالته التمثيلية عندما يندمج في الكلام.. لقد قابلته وأنا في طريقي إليكم، وأؤكد لكم أن هذا الرجل قادر على الهبوط من نافذة..»
صاح (واطسون) في انبهار:
- «لقد فعلتها يا (هولمز)!»
- «بديهي يا عزيزي (واطسون).. بديهي..»
- «لا أدري ما هو البديهي في الأمر.. كيف تسلل الرجل إلى غرفة (سارة) ومتى، بينما هو ظل جالسا طيلة التحقيق الأول؟»
هذه طبعا كانت من (بوارو)..
قال (هولمز):
- «الأمر هين.. يطلق الرصاص على الزوجة، ثم يخرج من النافذة، ويدور حول القصر ويدخل إلى غرفة الآنسة (سارة)، بينما كل الموجودين في الطابق العلوي يتساءلون عن مصدر صوت الطلقة.. يضع العنكبوت في فراشها، ثم يخرج إلى الردهة متسائلا عن صوت الرصاص..»
نظر المفتش (بلاكفيلد) إلى (بوارو)، وقال وهو يشعل غليونه:
- «يبدو هذا منطقيا يا مسيو (بوارو).. العنكبوت كان بوسعه الانتظار..»
هز (بوارو) رأسه في ضيق، وغمغم و
- «لا أبتلع هذا التفسير.. خلايا مخي الرمادية تأباه..»
فرغ (هولمز) من ارتداء قفازيه، ووضع (الكاسكيت) على رأسه متأهبا للرحيل، وقال:

- «لقد أشرقت الشمس تماما، وحان موعد الإفطار.. إن بعض الشاي مع الخبز المقدد والزبد يناسبني حتما.. هل تلحق بي يا (واطسون)؟»
هنا قاطعه (بلاكفيلد)، وقال وهو يشعل غليونه:
- «لحظة.. ما المطلوب منا بالضبط؟»
- «اعتقل اللورد يا سيدي المفتش، ولسوف تظفر باعتراف كامل ٠٠»
في خبث، قال (بوارو) وهو يمشط شاربه:
- «وأين اللورد؟»
- «لا بد أنه عاد إلى حجرته»
في أدب تدخل (هنري) رئيس الخدم، وهز رأسه:
. «ليغفر لى سيدي.. لكن سيدي اللورد لا يرد..»
قالت (عبير) وقد بدأت تفهم:
- «هل.. هل؟ هل مات؟»..
«أخشى أن هذا صحيح يا آنستي.. إنه في حجرته مفتوح العينين لا يرى برغم عينيه المفتوحتين، وفي يده سيجار كان يدخنه وقت الوفاة.. والأدهى أن جواره على الأريكة كتاب.. كتاب أطفال..»
في هلع وثبت (عبير) وصرخت:
- «من جديد؟ وما الأغنية في هذه المرة؟»
بوقار ترنم رئيس الخدم:
- «ثلاثة.. ستة.. تسعة
شربت القطة جعة
والقرد دخن الطباق في عربة الترام
تحطم القضيب، وشرق القرد بما دخن
وصعدوا جميعا إلى السماء بقارب ذي مجدافين!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثالث

يا سيدي القوميسير

يقوم بالتحقيق
المفتش (ميجريه)

8- المفتش (ميجريه)..

انتزع (بوارو) السيجار من بين أصابع اللورد المتقلصة، ورفعه إلى أنفه يشمه، ثم غمغم:
- «سيانيد! لقد حشا له أحدهم السيجار بالسيانيد [5]!»
هتف (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «يا إله السماوات! (القرد دخن الطباق وشرق القرد بما دخنه).. إن القاتل المخبول يتمسك بأغاني الأطفال حرفيا..
وقال (هنري) مذعورا وقد بدأ يفقد وقاره:
- «إن اللورد يبدأ يومه بتدخين سيجار أثناء قراءة (التايمز)، وبعد شرب القهوة.. هذه عادته، وأنا من يختار له السيجار ويضعه فى صحن من الكريستال جوار القهوة!»

قال (هولمز) وهو ينزع قفازيه:
- «سيكون موقفك عسيرا يا صاحبي.. عليك أن تثبت لنا أنك لم تضع هذا السيجار بالذات..»
ونظر في غل إلى (بوارو).. كان يشعر بعدم ارتياح تجاه السموم عامة، وبصعوبة كان يميز الزرنيخ من السيانيد.. لقد انتقل اللعب إلى ملعب آخر غير ملعبه، بالإضافة إلى أن براءة اللورد قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك.. بعد فوات الأوان طبعا..
لمرة واحدة أخطأ (هولمز) العظيم..
قال (بوارو) وهو يناول السيجار إلى المفتش:
- «أعتقد أن علينا أنا و (هولمز) أن نقيم لفترة في هذا القصر، وحتى نجد حلا لهذه الجريمة المستغلقة..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا عاش (بوارو) و (هولمز) بين جدران القصر..
هذه هي مزية التقاعد والفراغ.. ولكم ودت (عبير) لو تنعم بهذا الوضع، لكنها كانت متهمة بعنف ومتورطة حتى الأذنين؛ حتى ليختلف الوضع تماما عن مغامرتها الأولى حين كانت مجرد (شاهدة ملك) على جرائم الآخرين..
خرجت إلى الحديقة تتنسم نور الشمس.. حين يغيب نور الشمس طويلا - كما في عاصمة الضباب (لندن) - يمكنك حين تراه أن تشمه وتذوقه وتلمسه وتحسه..
لم تبد لها الحديقة بالحسن السابق.. مجرد فناء سجن في موعد النزهة اليومية، بانتظار سماع الصفارة التي تدعو القوم للعودة إلى الزنزانة..
كان (مايكل) واقفا جوار حوض من زهور البنفسج، يدخن غليونا - كل الناس هنا يدخنون الغلايين – شاردا في خواطره الخاصة، فدنت منه وهزت رأسها محيية..
قال لها في شيء من الضيق:
«(ملدريد).. قلت لك مرارا ألا داعي لإظهار مودتنا المتبادلة أمام كل هؤلاء المرتابين..»..
- «وقلت لك مرارا إننا لن نضيف جديدا لسوء موقفنا..»
هز رأسه، ونفث المزيد من الدخان، وأصلح من شارة الحداد السوداء على ذراعه، فقالت:
- «لم أعزك بعد على وفاة الوالد..»

ابتسم في مرارة:

. «يؤنبني ضميري على ما كان مني نحوه.. لقد صار الطريق مفتوحا أمامنا الآن كي أرث (جارفيلد هاوس) وأتزوجك، لكني لا أشعر بأي نوع من الفرح..

ابتلعت الإهانة المضمنة في الكلام، وقالت:

- «قبل هذا يجب أن تفلت من المشنقة، وتتجاوز شكوك اثنين من عتاة المخبرين..»

- «بل ثلاثة!»

وقفا أمام النافورة يرمقان مياهها المتدفقة فوق أجساد النسوة الإغريقيات، وسألته:

- «ثلاثة؟»



وقفا أمام النافورة يرمقان مياهها المتدفقة فوق أجساد النسوة الإغريقيات ، وسألته : « ثلاثة ؟ » !

- «نعم.. لقد جاء المفتش (ميجريه) من (باريس) هذا الصباح.. هل تعرفينه؟»
- «قرأت له قصتين،، من أحضره؟»
- «رجال (سكوتلانديارد)،، يبدو أن كل مخبر شهير في العالم قادم إلى هنا بغرض تسليتك، ويا لها من تسلية!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تعرف المفتش (ميجريه)، لكنها لم تستطع قط أن تحبه كما أحبت (بوارو) و (هولمز)..
إن المفتش (ميجريه) رجل عجوز صارم هو رئيس إدارة البوليس في (باريس)، وله مجموعة هائلة من القصص التي كتبها (جورج سيمنون) لتحرز نجاحا فائقا..
لقد أحب الناس جو قصص (ميجريه) لأنه جو باريسي بشدة.. وبالذات جو (باريس) ما بعد الحرب العالمية الثانية.. المدينة المرهقة الجريحة التي تهدمت أكثر أحيائها وبرغم هذا لا تموت..
قصص لها بالضبط نفس مذاق صوت (إديت بياف) التي بكت (أوربا) كلها حين سمعت صوتها العميق الأليم يقول: الحياة زهرة [6]..
لقد عاش المؤلف (جورج سيمنون) في (سويسرا) لكنه بلجيكي الأصل، وسافر مهاجرا عام 19 إلى (نيويورك) بالولايات المتحدة حيث قدم شخصية مفتشه الفرنسي!، ويا له من خليط من الجنسيات يثير الارتباك!
المفتش (ميجريه) هو - على قدر علمي – المخبر الوحيد المتزوج في قصص (من فعلها؟) هذه، وحياته مستقرة باسمة، وزوجته سيدة فرنسية فاضلة، وعمله الرسمي هو في إدارة الأمن العام ب. (باريس)..
قصصه لاقت عاصفة من الإعجاب في كل مكان، لكن (عبير) لم تحبها قط، وأعترف أنني – كاتب هذه السطور - عجزت تماما عن فهم سر نجاحها..
إنها قصص مملة.. مملة.. مملة..
هل نسيت شيئا؟
آه! لقد ولد (ميجريه) عام ١٩٣٠ بقصته الأولى (مصرع مسيو جاليه)، ومن وقتها كتب (سيمنون) أكثر من ٣٠٠ رواية يقوم (ميجريه) ببطولة مائة منها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ المفتش (ميجريه) تحقيقاته فور وصوله..
استدعوا (عبير) لتقابله فدخلت، وقد صممت على أن تكون فظة سمجة.. لا مزيد من التلميحات السخيفة بعد اليوم..
كان المفتش الفرنسي جالسا أمام منضدة واضح أنه تناول إفطاره عليها.. قهوة.. كرواسان.. إفطار فرنسي جدا..
كان يرتدي قبعة سخيفة، وله شارب كث أشيب ووجهه مرهق متعب كأي موظف إداري أرهقته الأعباء..
سألها السؤال المعتاد:
- «ماذا تعرفين عن مسلسل الجرائم في هذا القصر؟»
تكفل مترجمة المعتمد - (جوزيف) الذي يرافقه في كل القصص - بأن ينقل لها سؤاله إلى الإنجليزية..
وهو مجهود لا داعي له لأن اللغات ليست مشكلة في (فانتازيا)..
حكت للمرة الألف قصتها كاملة، وأضافت:
«هناك شهود على أنني كنت موجودة في أثناء مقتل الليدي (فريوورد) واللورد (فريوورد).. لو استطعت اتهامي بشيء فليكن مصرع (سارة ماكلارين)..»
ابتسم ابتسامة متعبة من وراء شاربه الكث، وقال:

- «من يدري؟ ربما لا أنوي اتهامك بشيء.. إن الجاني لا بد من أن يكون هو الجاني.. الشخص الذي أتيح له الاختفاء في الجرائم الثلاثة يا مدموازيل..»
في حماس قال (جوزيف):
- «هو كذلك أيها القومسيير..»
قال (ميجريه) وهو يقلب الأوراق أمامه في تؤدة:
- «هناك كثير من الخدم تنطبق عليهم المواصفات لكن يبقى هذا بدون دافع.. لا بد من (دافع للجريمة + سلاح جريمة + جثة) كي تكتمل جوانب الدعوي ٠٠»
«ثمة شخص آخر يمكن أن تنطبق عليه كل الشروط»
- ومن هو أيها القومسيير؟»
دندن لحنا فرنسيا حزينا وهو يغلق الملف أمامه، وقال:
- «(مايكل فريوورد).. لم يره أحد وقت سماع الرصاصة، وبعدها شوهد يصعد للحجرة.. لم يره أحد في أثناء موت (سارة)، ولم يكن هنا حين قتل اللورد!»
حقا لقد اختفى (مايكل) تماما بعد الحديث الهامس الذي دار بينهما بعد مقتل (سارة).. ما معنى هذا؟
التحقيقات جارية بينما ينسحب هو ليضع للّورد سيجارا مسموما.. و....
قال (ميجرية) في هدوء:
- «لاحظي أن آخر جريمتين كانتا من النوع الذي لا يحتاج إلى قاتل لحظة القتل.. ضعي عنكبوتا ساما في فراش (سارة)، وسيجارا مسموما في متناول (هنري) الخادم ليدخنه اللورد.. بهذا كان بوسع (مايكل) أن يحضر التحقيق، بينما يقوم العنكبوت والسيجار بعملهما..»
- «الكلام ذاته ينطبق على أنا..»
- «لاحظي أنك لم ترتكبي أول جريمة.. لا يوجد سبب يدفعك للقيام بالثانية أو الثالثة..»
شهقت في رعب.. لا، ليس (مايكل).. إنها تعرفه وتفهمه، ومن المستحيل أن يقتل، بل - الأدهى – يقتل من أجلها.. (شريف) لن يفعل هذا أبدا! (ميجريه) يتعامل بغباء إداري بيروقراطي مع الأمر..
لكن المشكلة الحقيقية هي أن (مايكل) يملك أقوى دافع للقتل.. كيف لم تفطن لهذا من قبل؟
قال (ميجريه) في هدوئه الممل:
- «استدع السيدين (بوارو) و (هولمز) يا (جوزيف)..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد دقائق دخل الغرفة (هولمز) وتابعه و (بوارو) وتابعه.. كان (هولمز) متضايقا بحق، وقال في كبرياء:
- «سيدي.. أنت لست في إدارة الأمن العام كي تصدر الأمر بإحضارنا.. بل أنت أساسا ضيف على صاحبة الجلالة، ولولا الظروف لما سمحنا لفرنسي بأن يحقق مع واحدة من رعايا صاحبة الجلالة..»
دون انفعال قال (ميجرية):
- «هل هناك ما يعيب الفرنسي؟»
- «كلكم همج واسمح لي بهذا.. أمة من أكلة الضفادع!»
- «وماذا تريد إذن؟»

قال (هولمز) وهو يكور قبضته:
- «لولا سنك ومركزك لدعوتك إلى مباراة ملاكمة.. أنا كما تعرف بطل ملاكمة..»
هنا تدخل (بوارو) وقد راق له أن (ميجريه) مواطن له بشكل ما..
- «دعك منه يا (ميجريه) العزيز.. كلانا نتحدث الفرنسية ونتذوق الضفادع، ونعرف أن الإنجليز هم أسمج شعب في الأرض.. لماذا طلبت منا المجيء!»
قال (ميجريه) وهو يصب مزيدا من القهوة:
«لقد انتهيت من حل القضية قبل أن تبرد قهوتي.. إن الفتى (مايكل فريوورد) هو من فعلها..»
- «والدليل؟»
- «الاستبعاد..»
قال (هولمز) وهو يجلس ويشعل غليونه:
- «لقد فكرنا قبلك بقرون في هذا الاحتمال.. لكن (مايكل) كان مع (سارة) في الحديقة في العاشرة وعشر دقائق، وما كان بوسعه أن يفرغ الرصاص في رأس الليدي (فريوورد)؛ ثم إنه ما كان ليستطيع دخول مخدعها لأنها لا تثق به في الفترة الأخيرة..
تساءل (ميجرية):
- «رباه! وهل أكدت (سارة) أنه كان معها في الحديقة؟»
- «نعم.. في التحقيق الأول الذي حضره مواطنك (بوارو)..»
- «هي كاذبة.. كانت تحاول حمايته..»
- «ليس لديها مبرر للكذب خاصة أنها لم تعد تطيقه..»
تنفست (عبير) الصعداء.. ها هي ذي ضربة.. ضربة محسوسة حقا كما يقول (شكسبير)..
قال (ميجرية) وقد تضايق من هذه الاعتراضات:
«الأمر بسيط.. لو استبعدنا (مايكل) و (ملدريد) من الاتهام؛ فلن يبقى أمامنا مشبوه واحد..»
اتجه (بوارو) إلى النافذة، وراح يرمق الحديقة التي استحمت في ضوء الشمس وهي لحظات نادرة حقا في بلد الضباب هذا..
قال دون أن يلتفت للوراء:
- «الخيط الذي يربط بين اللورد وزوجته وابنة أخيها.. هذا هو الخيط الذي يساوي آلاف الجنيهات..
هب أنني خادم وأن أبي قد أوصاني قبل أن أموت بالانتقام من اللورد وأسرته، وهب أنني فعلت ذلك.. كيف يمكن الاستدلال علي؟»
قال (هولمز):
- «هكذا يضيع أساس بحثنا تماما.. نحن بحاجة إلى أرض ثابتة نقف عليها يا سيدي، وأنت تجعل أي شيء ممكنا.. ما رأيك أيها القومسيير؟»
قال (ميجرية) بطريقته الباردة المتراخية:
- «(مايكل فريوورد) هو من فعلها، ولا أحد سواه.. سأجد التفسير المنطقي لما قالته (سارة) حالا..»

- «أنت أحمق يا سيدي لو سمحت لي بهذا..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الرابعة عصرا بالضبط..

في الرابعة عصرا حدث الحريق في غرفة (مايكل فريوورد)، ولا داعي لذكر أن (مايكل) كان بالغرفة..
وواحد أخر يعض التراب، كما يقول الإنجليز..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الرابع

بلا عنوان

يقوم بالتحقيق
إيلري كوين

9- رجل من نيويورك..

تذكر (عبير) الصراخ المتواصل من أكثر من حنجرة:
- «هاتوا الماء!» -
- «بحق السماء ساعدني يا (واطسون)!»
- «هشم الباب يا (هاستنجز)..»
- «(مااااااايكل)!»
- «حفظ الله الملكة.. إنه لحريق مخيف!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تصرخ، وحاولت مائة مرة أن تفلت من أيديهم لتلقى بنفسها في فم الوحش البرتقالي الرهيب الذي يتنفس لها ويزفر دخانا أسود.. (مايكل) بالداخل.. هي واثقة من هذا..
الخدم يجرون حاملين دلاء الماء التي ينسكب نصفها على البساط، ويبدو أنها فقدت الوعي مرتين أو أكثر، لأن تسلسل الأحداث لم يكن دقيقا كما يحدث حين ينقطع شريط الفيلم السينمائي..
أخيرا كانت راقدة على أريكة في الصالة الرئيسية بينما الدخان يملأ المكان، والدكتور (واطسون) يسقيها شيئا في كوب، أدركت أنه مشروب من تلك المشروبات لهذا أبعدت يده سريعا..
- «أنت بحاجة إلى جرعة منشطة..»
- «أنا نشيطة ولله الحمد..»
ثم صرخت بأعلى عقيرتها:
- «(مااااايكل)!»
كما تولول أم (شيحة) في الحارة كلما مات زوجها وهو قد مات سبع مرات بالمناسبة!
قال (هاستنجز) وهو يرش وجهها بالماء:
- «لقد تفحم تماما.. لا بد أنه مات قبل اشتعال النار لأنه لم يغادر مكانه على الفراش..»

بعد دقائق ظهر أحد رجال الإطفاء ملوث الوجه بالرماد، بادي الإرهاق، ولوح بلفافة:
- «وجدنا هذه معلقة جوار باب الحجرة.. لقد تم لفها بمادة (الإسبنوس) كي لا يحترق محتواها!»
دون أن ينتظر مد (بوارو) يده ليفتح اللفافة فصاح (ميجريه):
- «البصمات!»
بنفاد صبر قال (بوارو):
- «لا بصمات في هذه القصص.. كلهم يستعمل القفازات..»
ولوح بالكتاب ذي الغلاف السميك الذي اعتاده الجميع هنا.. كتاب أغاني الأطفال الذي صار رهيبا كئيبا.. كانت هناك قصاصة تخرج منه مشيرة إلى صفحة بعينها، ففتح الصفحة وقرأ بصوت عال:
- «لا بد من أغنية عن النار.. آه! ها هي ذي..
«يا خنفسة.. يا خنفسة

اجري إلى بيتك فقد احترق
مات كل أطفالك ماعدا واحدة..
اسمها (آن)، وقد اختبأت تحت المقلاة..»
في استمتاع قال (هولمز) وهو يردد لحن الأغنية:
- «هذا حق.. كنا نغنيها في طفولتنا كلما قابلنا خنفسة من نوع (أبو عيد).. كانوا يقولون إن هذه الخنفسة تصدق كل ما يقال عن الحرائق! آه! ألا ليت الشباب..»
قال (ميجريه) في غيظ:
- «لقد وجه لنا القاتل ضربة أخرى قوية.. وبينما نحن جميعا ها هنا..»
- «واضح تماما أن نظريتك بصدد (مايكل) خاطئة..»
- «قال (بوارو) وهو يتصفح الكتاب:
- «لقد صار من واجبنا دراسة كل أساليب الموت في هذا الكتاب، لنمنع الجريمة التالية.
- «من قال إن هناك جريمة تالية؟»
- «ومن قال إنه ليست هناك جريمة تالية؟»
هنا دخل المكان المفتش (بلاكفيلد)، رجل (سكوتلانديارد) الذي لم يفعل أي شيء منذ بداية القصة سوى إشعال غليونه، وقال وهو يشعل غليونه:
- «القضية تزداد عسرا، وتتحدى ذكاء المستر (هولمز) والمسيو (بوارو) و (ميجريه).. لهذا وجهت الدعوة لمفتش بارع من (نيويورك) وولده.. إن الولد هو الأكثر شهرة.. إنه المستر (إيلري كوين)..»
صاح (بوارو) في غيظ:
- «لقد صار هذا القصر مزدحما كعلبة السردين من قال إنني بحاجة إلى هؤلاء جميعا ليساعدوني؟»
لكن (عبير) كانت تعرف الإجابة.. ليس اللغز هو المهم.. المهم أن يجتمع هؤلاء في مكان واحد لتسليتها.. ويا لها من وضعية مستحيلة يحتشد فيها أشخاص متباينون في الجنسية والفترة الزمنية فلا يجمع بينهم سوى سؤال واحد: من فعلها؟
مالت تسأل (بوارو) همسا:
- «من هو مؤلف قصص (إيلري كوين)؟»
- «إنه (إيرلي كوين) نفسه!»
- «هل المؤلف هو بطل القصة؟ ولا ترى في هذا أية غرابة..»
«نعم.. وأظنه المؤلف الوحيد الذي فعل ذلك.. والقصة بعد هذا ملأى بعبارات المديح لذكاء (إيلري كوين) وشجاعته ووسامته وانبهار النساء به! إن المستر (كوين) مؤلف لا يتخلق بالتواضع!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والحقيقة هي أن الأمر ليس بهذا السوء.
إن المؤلف المدعو (إيلري كوين) شخصية وهمية.. اسم مستعار يتوارى وراءه الأمريكي (فردريك داناي) وابن عمه (مانفريد لى)، وعامة يقوم الأول بابتكار الفكرة، بينما يقوم الثاني بالعمل الكتابي كله، وفي النهاية يوقعان القصة باسم (إيلري كوين)..
(إيلري كوين) المخبر، هو من أكثر مخبرى القصص منطقية وبراعة في تحليل الحدث.. إنه

شاب أرستقراطي ولد لأب مفتش في الشرطة النيويوركية هو (ريتشارد كوين)، والابن وسيم متأنق يناسب تماما صورة النجم السينمائي، بالإضافة إلى نفوذ أبيه الذي يسهل له دخول مسارح الحوادث واستقاء الأخبار من الشرطة مباشرة..
ولد (إيلري كوين) عام ١٩٢٩ في قصة (لغز القبعة الرومانية) وبعدها توالت قصصه الناجحة العديدة، وتحول إلى رمز لمؤسسة كاملة تتعاطى الروايات البوليسية، ويمتاز (إيلري كوين) المؤلف بأنه استطاع تقديم سلسلة شائقة من الحلقات الإذاعية، كما أصدر مجلة بوليسية تحمل اسمه..
ويختلف (إيلري كوين) عن (أجاثا كرستي) في نقطة مهمة: إن (أجاثا) تهتم بالشخصيات وخلفياتها بينما يهتم (كوين) بالجريمة ذاتها ويستخلص منها كل شيء بدقة..
وإمعانا في استعراض براعته أكثر، اعتاد (كوين) أن يقدم نهايتين مختلفتين لكل قصة من قصصه، مع تقديم المبررات الكافية التي تقنع القارئ في كل مرة بأن هذه النهاية المثلى ومن عباءة (كوين) خرج كاتب بوليسي شديد الأهمية هو (جون ديكنسون كار)، وقد قلد (كوين) في كل شيء حتى اختلط الأمر على القراء أكثر من مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) في أسوأ حال، فلم تتحمل أن تري الأخ (إيلري كوين) القادم مع أبيه ليوجه المزيد من الأسئلة.. لقد حكت هذه القصة مليون مرة، وما من شاعر ربابة عجوز في الصعيد حكى السيرة الهلالية هذا العدد من المرات..
- «كنت مع (جورج فريوورد) في العاشرة وعشر دقائق أغنى.... ثم شممت الحريق ولم أدر ما حدث بعدها..»
ثم شهقت إذ رأت رجلى الإسعاف يحملان النقالة، وعليها شيء يتصاعد الدخان منه.. هذا هو (مايكل) وقد تحول إلى قطعة فحم.. لها شكل بشري..
بكت وغطت وجهها.. فقال (كوين) في تهذيب:
«معذرة.. لا بد أن هذا المشهد أليم بالنسبة لك..»
ثم نهض ودس لفافة تبغ غريبة المنظر فى فمه أشعلها بقداحة ذهبية، وتأمل المخبرين الآخرين، (هولمز) و (بوارو) و (ميجرية)، ثم قال في تعال:
- «أرى أنكم بطيئوا الفهم يا سادة.. هذه مشكلة ألا يكون المرء أمريكا.. كم رجلا مسلحا تركتم لحراسة (جون فريوورد) الصغير؟!»
توتر (ميجريه) ووثب من مقعده:
- «ماذا؟ لم نترك أي واحد!»
نظر (كوين) إلى أبيه، وتبادلا نظرة من طراز (ألم - نتوقع - هذا؟) وابتسما..
هنا صاح (بوارو):
- «هل تشك في..
- «أنا لا أشك بل هو يقين كامل.. إن عملية إبادة ورثة (فريوورد) مستمرة بفعل فاعل معين.. وأعتقد أن آخر الورثة هو (جون فريوورد).. أين هو الآن؟»
- «إنه معتكف في غرفته.. لقد رأى أسرته تتأكل في غضون يومين.. فقد أباه وأمه وابنة خالته وابن أبيه.. عسير على من كان في سنه أن يتحمل هذا..»
- «إذن أرجو أن يذهب رجلا شرطة للإقامة معه حالا..
تأخر كثيرا جدا فيما يبدو

لأن صرخة الصبي دوت فاهتز لها القصر بأكمله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- عناكب وستركنين وسيانيد..

«إنني أكرهك يا دكتور (فيل)
والسبب لا أستطيع أن أخبرك به
لكنى واثق من شيء واحد
أنا أكرهك يا دكتور (فيل)..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرع الجميع إلى مصدر الصرخة، وهو مشهد مسل بحق لو رأيته..
(بوارو) البدين يهز شحم بطنه، و (هولمز) يركض في وقار إنجليزي صميم، بينما (ميجرية) يسعل حتى ليوشك على الإصابة بأزمة قلبية، و (إيلري كوين) محافظ على وسامته كأنما يمثل فيلما سينمائيا..
هرعوا إلى غرفة الصبي، وبطبيعة الحال كانت (عبير) هي أول من فتح الباب لأنها لم تتحمل فكرة أن يموت (جون) بدوره..
كان واقفا جوار الفراش - حيا لحسن الحظ – منكوش الشعر دامع العينين حافي القدمين محمر الأذنين مرتجف اليدين..
وعند قدميه كان الكلب (الجريفون) الذي اعتاد أن ينام ويصحو معه.. كان الكلب ميتا كقطعة من العجين صاح الطفل في هلع:
- «(ماكسمليان) العزيز! لقد مات!»



وعند قدميه كان الكلب (الجريفون) الذى اعتاد أن ينام ويصحو معه ..
كان الكلب ميتًا كقطعة من العجين .. صاح الطفل فى هلع :
ـ « (ماكسمليان) العزيز ! لقد مات ! » ..

كانت (عبير) تجد غرابة في تسمية كلب باسم (ماكسميليان)، ثم أدركت أن هذا الاسم الألماني طبيعي جدا على كلب في هذه السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى.. لقد كان الألمان عدو أوربا رقم واحد بين عامي 1911 و 1945.

قال (هولمز) وهو ينحني ليجس نبض عنق الكلب..

- «أخشى يا بني أنه مات حقا.. ما هو السبب؟»

نظر (بوارو) حوله.. وعلى الكومود وجد كتاب أغاني الأطفال إياه مفتوحا على صفحة معينة.. رفعه وبصوت مسموع قرأ:

- «إنني أكرهك يا دكتور (فيل)

والسبب لا أستطيع أن أخبرك به..

لكني واثق من شيء واحد

أنا أكرهك يا دكتور (فيل)»
قال (هولمز) وهو يلهث لينهض واقفا:
- «هذه أغنية أطفال شهيرة.. تعكس خوف الأطفال الدائم من الأطباء، فهؤلاء يفعلون كل ما هو مؤذ.. دواء مر.. كبسولات تنحشر في الحلوق.. حقن مؤلمة..»
مال (بوارو) على الصبي، وربت على كتفه:
- «طبعا أنت جعلت الكلب يشرب دواءك المهدئ الذي أحضره لك طبيب الأسرة..»
- «ن.. نعم..»
- «هل لي في رؤية الزجاجة؟»
بيد مرتجفة أشار الصبي إلى زجاجة على المنضدة المجاورة للفراش، فتناولها (بوارو). وشمها.. ثم غمغم:
- «لا غرابة في موت الكلب.. إن هذا (ستر كنين)..»
هنا صاحت (عبير):
- «هل لل. (ستركنين) رائحة مميزة؟»
- لا.. لكن جثة الكلب المتصلبة المتشنجة تدل على ذلك..»
«إذن لماذا شممت الزجاجة؟»
غمغم بارتباك:
- «هذه هي التقاليد..»
قال (كوين) بلهجة تقريرية عملية:
- «الأمر واضح وكما توقعته.. جريمة قتل مدبرة لم ينج منها الصبي إلا لأنه يمقت مذاق الدواء.. لقد جعل الكلب يشربه على سبيل التهرب من المسئولية، ولأنه لم يتحمل أن يسكبه في المرحاض..»
ول. (هنري) الخادم وجه السؤال التالي:
- «من وأين طبيب الأسرة؟» ا
كان (هنري) واقفا في كبرياء يرقب الأحداث، فرد:
- «دكتور (جاك فيل).. لقد ضايقته حالة سيدي الصغير الصحية، لذا كتب له بعض المقويات وشرابا مهدئا.. إنه في عيادته بشارع (هارلي) الآن»
- «فليستدعه رجال الشرطة..»
ثم سأل (هنري) مضيقا عينيه:
- «هل لك أن تصف لي هذا الطبيب؟»
- «لو سمح لي سيدي، فإنني أقول إنه ليس جميلا، وقد كان سيدي اللورد يصفه بالقرد.. هذا لو سمح لى سيدي بقول هذا»
واحمر وجهه، فقهقه (كوين) عاليا:
- «لا عليك أيها الرجل الطيب.. إن الأمور تتحسن..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخل الدكتور (فيل) المكان مع الكونستابل؛ كتم الجميع ضحكاتهم لأن منظره كان أقرب شيء لكلام الخادم.. لا بد أن (داروين) رآه حين ألف كتابه (أصل الأنواع) وألهمه بموضوع القردة هذا..

قرد غاضب.. هذا هو الدكتور (فيل) حين دخل المكان، وقال واللعاب يتناثر من فمه مما لم يجعله أكثر جمالا:
- «(ستركنين)! أنا لا أخطئ يا سادة ولا أدس السم لمرضاي.. بوسع أي إنسان أن يسكب سما في زجاجة الدواء بعد ما أكتبها، وهذه ليست مسئوليتي..»
في غموض قال (كوين):
- «ماذا تعرف عن (آن)؟»
بدا الذهول والدهشة على وجه الطبيب.. وفي غباء غمغم:
- «(آن)؟ إنه اسم شائع.. بالتأكيد عرفت مائة(آن) في حياتي، فأية واحدة تقصد؟»
هز (كوين) رأسه، والتفت إلى (هولمز):
- «فلنجرب موهبتك في الفراسة يا مستر (هولمز)..
من أين جاء هذا السيد ومن هي أسرته؟»
برغم غرابة الطلب تأمل (هولمز) الطبيب، ثم غمغم:
- «لقد عاش في الهند فترة لا بأس بها، ويبدو أن له جذورا هندية ما ربما من ناحية الأم.. من المؤكد أن الأب إنجليزي وواضح أن الطبيب جاء إلى هذه الناحية من فترة قريبة لا تتجاوز العشر سنوات..»
ابتسم (إيلري كوين) ونظر إلى (بوارو) وغمغم
- «ما رأيك أنت؟»
قال (بوارو) في ضيق ممشطا شاربه:
- لا أرى ما ترمي إليه..»
نظر (كوين) في ثقة إلى الكونستابل وقال له بلهجة آمرة:
- «أريد أن تسأل صيدلي المقاطعة عن مبيعات السيانيد والستركنين في الفترة الأخيرة.. من اشتري ماذا ومتى؟»
وسأل الطبيب:
- «هل أنت مولع بالعناكب السامة؟»
- «سيدي.. اسمح لي أن أنعتك بالمخرف الكبير. كل ما تقول يعوزه الترابط.. وكل هذا الهراء عن الهند..
قال (هولمز) في كبرياء:
. «إن فراستي لا تخطئ..»
هز الطبيب كتفيه في إرهاق، وغمغم:
«ليكن.. أنا مولود في الهند.. لكن هذا لا يعني..»
قال (كوين) وهو يجوب القاعة في زهو:
- «اجلسوا وسأشرح لكم كل شيء..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (كوين) بعدما أشعل لفافة تبغ:
- «لقد استجوبت كل الموجودين، ولاحظت نقطة ربما لم يلحظها أحدكم من قبل.. عندما ماتت (سارة) وقف الكل مذهولين أمام غرفتها، لكن السائق قال:
حتى لو حدثت جريمة قتل..

«إن الأسلوب عتيق لكن مازال فعالا.. كيف عرف أن هذه جريمة قتل وليست ميتة عادية؟ لقد سألته عن هذه النقطة بالذات فقال إن الخادمة (آن) أخبرته أن الآنسة (سارة) قتلت..
«كيف عرفت (آن) هذا؟ لقد استجوبتها بدورها فقالت إن الجو العام يوحي بالقتل.. لا بأس.. سأقبل هذا التفسير.. لكن (آن) لم تكن مع أحد عندما ماتت ليدي (فريوورد).. لا أحد يعلم أين هي.. (آن) قادرة على دخول أية غرفة لتضع عنكبوتا أو سيجارا ساما، أو تشعل حريقا أو تضع سما في زجاجة دواء..
«والآن تذكروا أغنية الخنفسة التي احترق بيتها..»
«مات كل أطفالك ما عدا واحدة..
اسمها (آن)، وقد اختبأت تحت المقلاة..»
«إذن هناك واحدة تدعى (آن) هي الوحيدة التي نجت من الحريق..
من هي (آن) هذه؟»
ودار ببصره على الجالسين مستمتعا بحيرتهم، وقال:
- «بعد هذا يوجد طبيب يشبه القرد متهم بدس السم أو كتابته.. متى حدث من قبل أن صادفنا قردا في القصة؟»
هتفت (عبير) في انبهار:
- «القرد دخن الطباق!»
أشار لها بإصبعه السبابة بمعنى (لقد وجدتها!)، واستطرد:
- «إن انتقاء كلمات الأغاني دقيق جدا كما ترون.. هناك قرد هو اللورد.. وقرد آخر هو الطبيب.. ما معنى هذا؟ معناه أن هناك وريثا لا نعرفه للورد (فريوورد)، في الغالب رزق به حين كان في الهند، وعاد الوريث متخفيا ليلعب دور طبيب الضيعة، ويرتب خطته الجهنمية مع زوجته التي عملت هنا كخادمة اسمها (آن).. كانت خطته استئصال الورثة جميعا، وفي الوقت المناسب يظهر ليعلن أنه ابن اللورد من زوجة سابقة، ويطالب بإرثه!
صاح المفتش العجوز (رتشارد كوين) منبهرا:
- «أحسنت يا بني! لقد حللت اللغز في ساعات معدودة!»
هب الطبيب بدوره، ولم يكن منبهرا بالمرة.. قال مبهوتا:
- «أي حل؟ كل هذا هراء في هراء.. لا يمكنك أن تجد دليلا على حرف مما تقول..»
قال (كوين) دون أن يتزحزح لحظة:
- «إن بضع مكالمات هاتفية تضع النقاط على الحروف.. وطبعا لا بد أنك جئت معك ببضع عناكب سوداء من أسفارك..»
هنا دق جرس الهاتف، فرد (هنري)، ثم نادي (كوين) كي يتلقى المكالمة.. وقف المخبر الأمريكي يصغى لمحدثه مصدرا أصواتا من طراز (همم؟ هم! أوه آه).. كانت الأخبار سيئة.. بدا هذا على وجهه، خاصة حين عانق السماعة بذقنه ومد يده يتلمس علبة التبغ.. وأشعل لنفسه واحدة مهموما..
وضع السماعة وقال وهو يتحاشى نظراتهم:
- «الصيدلي قال بالفعل إن هناك من اشترى منه بعض السيانيد (لقتل عش دبابير)، وإن الشخص ذاته اشترى دواء فاتحا للشهية..»
تساءل (هولمز) الذي يجهل كل شيء عن السموم.
- «وما دخل فاتح الشهية هنا؟ لو سمحت لى بقول هذا...»

- «لو لم ترج الزجاجة جيدا لترسبت في قاعها جرعة جيدة جدا من الستركنين..»[7]
كان آخر المتكلمين هو (هركيول بوارو) طبعا..
تساءل (هولمز) من جديد:
. «ومن كان هذا الشخص يا سيدي؟».
ودارت عينا (كوين) بين الموجودين:
- «إنه (مايكل فريوورد) نفسه..»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الخامس

حدث مثل هذا في قريتي

تقوم بالتحقيق
(مس ماربل)

11- عانس لطيفة..

فيما مضى وضع (سومرست موم) الأديب الإنجليزي العظيم قواعد صارمة للقصة البوليسية من طراز (من فعلها؟).. وليس السبب هو أن (سومرست موم) يكتب هذه القصص لا سمح الله، ولكن السبب أنه من أهم عشاقها، ولم يكن ينام دون قراءة واحدة منها..
لهذا تمني (موم) لو يجد القصة البوليسية التي تلتزم بهذه القواعد:
١- لاتقتل أكثر من واحد في القصة.
٢ - يجب أن تكون للقصة بداية واضحة كقواعد الدراما الأرسطوطالية، وبعبارة أخرى: لا تبدأ بجثة هامدة.
3 - يجب أن تعطي القارئ فرصة ليعرف ويحب القتيل قبل موته، لأنه لن يتعاطف مع من يلقاه للمرة الأولى ميتا.
وبمقاييس (موم) من الواضح أنه لن يحب هذه القصة كثيرا، لأننا غارقون في بحر من الجثث، ولأننا لم نتعرف أحدا باستثناء (مايكل) بدرجة تسمح لنا بحبه..
لم تكن هذه الخواطر في ذهن (عبير) وهي ترمق حيرة (كوين) وارتباكه.. لقد هوى المخبر الأمريكي العظيم من عليائه أمام علامات الاستفهام العديدة..
هذا يجعل (ميجريه) هو الأقرب إلى الصواب..
كل هذا من تدبير (مايكل).. لكن (مايكل) مات فهل يكفي هذا لتبرئته؟
كلا بالطبع.. إن القتلة يحترقون مثل سواهم، ولربما نام (مايكل) ولفافة تبغ مشتعلة بين أنامله تسقط على الملاءة.. بوم!
إنها مصادفة نادرة.. لكنها هي التفسير الوحيد..
وسالت دموعها وهي تفكر في المحب الذي فقدته.. قاتل ربما، لكنه فعل هذا من أجلها على كل حال.. إن هذا يمس غرور امرأة حتى وإن أعلنت رفضها لكل هذا.. (مايكل) قاتل.. (مايكل) وغد.. (مايكل) أحبها بصدق.. ثلاثة نقاط.. لا تجد بينها أي تعارض.. تخاف القاتل.. تكره الوغد.. تبكي مرارة من أجل من أحبها..
وفي الصباح - صباح (لندن) الشبيه بليلنا – خرجت إلى الحديقة، ووقفت جوار نافورة الماء تتذكر كلمات (مايكل) الرقيقة لها.. نظرت المياه النافورة الرقراقة، ورأت شيئين كانت تتوقعهما.. مسدس هناك في القاع.. وزجاجة دواء.. غالبا هو فاتح للشهية كذلك..
هذه هي التقاليد في هذه القصص، ومن الغريب أن أحدا لم يفكر في إلقاء نظرة على هذه المياه..
مدت يدها برفق وأخرجت الشيئين.. بصمات؟ لا قيمة للبصمات تحت الماء، وحتى لو كانت لها قيمة سيقول (بوارو) إنه لا بصمات لأن الجميع يلبس قفازات..
وقفت تتأملهما، ثم فكرت في العودة إلى القصر حين رأت (جون) قادما.. كان يترنح في سيره كعادته في الآونة الأخيرة.. لقد تلقي الصبي بضع صدمات أذهبت صوابه.. قال لها وعينه اليمني ترتجف:
(ملدريد).. كلهم رحل.. أنت لن تتخلى عني أبدا.. قوليها!»
- «لن أفعل يا (جون)..»
ورق قلبها حتى لأوشكت أن تحتضن رأسه الصغير وتربت على كتفه، لكن الصبي لم يعد طفلا..
إنه واقف الآن على باب المراهقة، وصار من الواجب معاملته بتحفظ..

قال لها وهو يمسك بيديها المبتلتين:
- «أنا أحبك يا (ملدريد).. بعد تسع سنوات سأكبر ويمكننا أن نتزوج!»
ضحكت للفكرة، كأن الأمور ستعود لنصابها بعد تسع سنوات، فقط على (ملدريد) أن تنتظر ولا تكبر أكثر..
قالت وهي تداعب شعره الأشقر:
- «أولا لا تنادني من دون لقب آنسة.. ثانيا: أنا عجوز جدا بالنسبة لك يا صغيري.. إن (ملدريدك) تنتظرك الآن في مكان ما.. ربما تلعب (الاستغماية) مع أترابها أو تثب بالحبل..
لكن ثق يا صغيري من أنني لن أتركك وحدك، حتى أطمئن إلى أنك صرت قادرا على تحمل حياتك ومواجهتها..»
ونظرت بطرف عينها، فوجدت أن الفتى ليس وحيدا حقا، هناك كونستابل يقف بعيدا يرقبه بعيني صقر، وهناك رجل شرطة يرمقهما من نافذة بمنظار مقرب.. هذا طبيعي، لو كان الإرث هو سبب مسلسل الجرائم، فما زال الصبي في خطر داهم..
هنا رأت (هنري) رئيس الخدم يدنو منها حيث وقفت، ولم يكن وحده.. كانت معه سيدة عجوز ذات شعر كالثلج، تضع على كتفيها (بول أوفر) أزرق بسيطا مريحا، وتحمل حقيبة عتيقة..
كان لها وجه عجوز لكن عينيها كانتا تتواثبان حيوية ومرحا، كأن طفلا يلهو تحت هذه التجاعيد..
قال (هنري) في تهذيب:
«معذرة يا آنسة.. لكن المس (ماربل) ترغب في لقائك..»
مس (ماربل)؟ هنا؟
هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وقد أوشك القصر على أن يتحول إلى (أوتوبيس) من (أوتوبيساتنا)
توترت ذراع (عبير) على كتف الصبي، وتذكرت أن الإنجليز يقبلون المصافحة عند أول تعارف فقط، وبالطبع لا قبلات على الخدين من قبلات العرب وحوض البحر المتوسط..
صافحتها، وأتم (هنرى) التعارف، ثم سألتها:
- «هل كنت مارة بالمصادفة؟»
- «بل أبرق الى المفتش (بلاكفيلد) طالبا رأيي.. يا له من قصر جميل! كنت أعرف قريبا ل (إيميلي فريوورد) من قبل.. يا لها من خسارة أن نفقد شابة جميلة مثلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مس (ماربل) واحدة من أهم الشخصيات التي أوجدتها (أجاثا كرستى)، واحتلت بجدارة مكانها إلى جوار مخبري (أجاثا كرستي) المعروفين: (هركيول بوارو) و (باركر باين)..
إنها عانس عجوز لطيفة خجول محافظة جدا، ومن نواح عديدة تشبه (أجاثا كرستي) كثيرا..
تستخدم دوما أسلوب (لقد حدث شيء كهذا في قريتي)، وقريتها هي (ماري سانت ميد) التي تلخص العالم كله...
تفترض (أجاثا كرستي) أن كل الجرائم في الكون حدث مثلها في (ماري سانت ميد) القرية الصغيرة، وبما أن الإنسان هو الإنسان في كل مكان؛ فإن ما حدث في القرية حدث في المدينة..
وتعتمد مس (ماربل) على ذاكرتها الحديدية ومعرفتها لكل أسرار قريتها ومشاكلها.. صحيح أنك تجد أحيانا افتعالا واضحا وتعنتا في إيجاد وجه تشابه بين خبراتها وما تحقق فيه من جرائم،

لكنك تقبل هذا من مبدأ (دعني أنخدع – دعني أخدعك).
بقي أن نقول إن مس (ماربل) تكشف كل قتلة قصصها، وهي جالسة إلى مقعدها المفضل تنسج (التريكو) من خيوط الصوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمعت الأسرة البوليسية كلها في قاعة المعيشة، بينما راحت مس (ماربل) تنسج التريكو، ومن حين لآخر تهرش أذنها بطرف الإبرة غير المدبب قال (هولمز) وهو يشعل غليونه الكهرماني:
- «لا أنوي أن أكون فظا وأطرد الآنسة (ماربل)؛ لكني أرى أنها لن تضيف شيئا إلى غموض هذه القضية..»
ابتسم (بوارو) وقال:
- «بالعكس.. إنها صنيعة (أجاثا كرستي) التي كتبت شخصيتي.. وأنا أعرف بالضبط إمكاناتها العقلية.. إن الآنسة (ماربل) تملك خلايا رمادية تعمل جيدا..
هنا دخل القاعة المفتش (بلاكفيلد)، وتأمل المكان وغمغم بما معناه (ما شاء الله) أو (العدد في الليمون)، ثم قال:
- «إليكم أخر الأخبار.. ثمة خادم مختف منذ يومين.. لا أثر له على الإطلاق..»
- «غريب.. وما اسمه؟»
- «اسمه (لورانس)، وهو شاب أسكتلندي وديع ولا غبار عليه، ولا يمت بصلة قربي للورد..»
ثم نظر إلى (عبير) وأشعل غليونه، وقال:
- «بالمناسبة.. هل كنت مخطوبة لـ (مايكل فريوورد)؟»
بهتت (عبير) للسؤال.. بالطبع لا..
- «لا..»
- «أعني هل تبادلتما خاتمين أو أي شيء مما يفعله العشاق؟»
قالت بإصرار:
- «لا..»
نفث الدخان بكثافة أكثر، وقال: - «بعبارة أخرى.. هل كان (مايكل) يلبس أية خواتم في يديه، وهل كان له ضرس محشو؟
هزت رأسها:
- «أنا واثقة من إجابة السؤال الأول: لا: أما عن السؤال الثاني فمهما كانت علاقتنا حميمة لا أظن أن تتضمن مرافقته إلى طبيب الأسنان..»
مط شفته السفلى، وغمغم وهو يشعل غليونه:
- طبيب الأسنان ينفي تماما أنه رأى فم (مايكل) من الداخل.. لكن الجثة المتفحمة التي لدينا لها ضرس محشو، وفي يدها اليمنى خاتم..»
قال (بوارو) وهو يضغط على حروف كلماته:
- «يمكن القول إذن إن الجثة التي لديكم ليست جثة (مايكل فريوورد)!»
- «إذن لمن تكون؟»
قال (هولمز) في ثبات، وبلهجة مسرحية:
- «واضح لكل عقل راجح أنها جثة (لورانس) الخادم المختفي!»

12 - قصة مماثلة..

وساد صمت رهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد دقائق قطع (ميجريه) الصمت قائلا:
- «وما معنى هذا؟ ولماذا يحرق أحدهم جثة (لورانس)؟»
قالت مس (ماربل) بصوتها الرفيع المرتعش:
- «لقد حدثت قصة كهذه في قرية (ماري سانت ميد)»
بملل مهذب تساءل (إيلاري كوين):
- حقا؟ يا للطرافة!»
لم تهتم مس (ماربل) بما قال وواصلت الحياكة:
- «كانت (إلسي پامير) وريثة ثرية تعيش في قصر منيف بالقرية.. وكان في القصر أربعة ورثة لها هم زوجها وابنة عمتها وابنها وأختها. وفي يوم بدأت سلسلة من جرائم القتل في القصر بدأت بابنة العم ثم الزوج ثم الابن ثم (إلسي بامير) نفسها..
«تنوعت أساليب القتل بين السم والرصاص لكن ابنة العم قد احترقت في غرفتها حتى تفحمت..
«وكان من الطبيعي أن تحوم الشبهات حول الأخت - أخر وريث - واعتقد المفتش (بلوفيلد) أنه قد قبض على العصفور..
«لكن المشكلة بالنسبة له كانت هي: لماذا تجعل الأخت موقفها بهذا الضعف؟ لم يوجد قط قاتل بهذا الحمق منذ عُرف القتل..
كان التردد خطأ جسيما، لأن الأخت قتلت بعد يومين إذ سقطت من الشرفة.. أعني أن هناك من دفعها طبعا..
وبدا لرجال الشرطة أن الجريمة بلا حل، ما دام كل المستفيدين منها قد هلكوا، وشاع في قريتنا أن الشيطان ينتقم من هذه الأسرة، وأن قوى خارقة هي التي قتلت هؤلاء..
بعد هذا بعامين ظهرت ابنة العم لتطالب بإرثها..
قالت إنها لم تمت وإنها لم تكن في القصر أصلا في ذلك اليوم.. إن التي احترقت حتى تفحمت هي خادمة في القصر
حاول رجال الشرطة إثبات الجرم على ابنة العم..
لكن المشكلة هي أن القضية قد أغلقت، وتم التخلص من أكثر أحرازها، ومات شاهدان.. باختصار صار مستحيلا إعادة التحقيق لإثبات أن ابنة العم هي القاتلة..
«وبحكم من القضاء البريطاني حصلت ابنة العم على كل ما كانت (إلسي) تملكه.. والغريب أن الكل كان واثقا من أنها قتلت ثلاثة أو أربعة أبرياء، لكن ما باليد حيلة..
سألها (ميجريه) مندهشا:
- «وظفرت بالجريمة الكاملة؟»
ابتسمت مس (ماربل)، وداعبت أرنبة أنفها بالإبرة:
- «ليس بالضبط.. ثمة نوع آخر من العدالة لا تقيده القوانين.. لقد ماتت بسرطان المعدة بعد عام واحد!»

- حمدا لله!
هنا نهض (بوارو) وسألها:
- هل تعتقدين بحق أن هذا ينطبق على ما حدث هنا؟»
«أنا واثقة من ذلك.. لقد فر (مايكل) بعد إنهاء جرائمه، وبعد ما دس الستركنين في زجاجة دواء أخيه.. لكنه سيعود حتما بعد عام أو اثنين أو ثلاثة ليعلن أنه لم يمت.. (من قال إنني مت يا حضرة المفتش؟ وبأية جريرة تحرمونني من الإرث لمجرد أن هناك من احترق في غرفتي؟)
تأملتها (عبير) في فضول.. كانت دائما تجد لونا من الافتعال في طريقة مس (ماربل) في التحقيق..
لو أن قنبلة هيدروجينية سقطت من السماء لتحرق ذيل الكلب، فيثب ليسقط في طبق الحساء، ليموت اللورد (هارتفورد) بسبب الإشعاع لو حدث هذا لأكدت مس (ماربل) أنها عاشت قصة مماثلة في قريتها (ماري سانت ميد)..
تساءل (كوين) وهو يضع ساقا على ساق:
- «وكيف نثبت هذا؟ وما هي الخطوة التالية؟»
قالت مس (ماربل) في رقة:
- «أولا: يتم فحص الجثة المتفحمة بعناية كي يمكن الشهادة في المحكمة على أن (مايكل) لم يمت..
ثانيا: يستطيع رجال (سكوتلانديارد) البحث عن (مايكل)، ومن المؤكد أنه دان منا لأن (جون) آخر الورثة ما زال حيا يرزق..»
- هذا معقول..
وجلس الجميع صامتين..
من الواضح أن العانس العجوز قد حلت اللغز الذي أرهق أعظم مخبرى القصص.. لم تبق سوى خطوة بوليسية واحدة هي نصب كمين لـ (مايكل)...
وكان أول من أعلن ضيقه هو (بوارو)، جلس إلى أريكة في طرف المكان، ودفن وجهه في يده، وانطفأ بريقه الوهاج..
دنا منه (هاستنجز) ولمس كتفه مشجعا، فغمغم (بوارو).
- «فجأة وجدت الحياة مملة لا تطاق.. لم أعد أرغب في مزيد من الحياة.. إنني عجوز.. إنني عجوز.. عجوز..»
نهضت (عبير) وربتت بدورها على عنقه وهمست:
- «أنت رجل ذكي لكنك طفل.. طفل لا يقبل الخسارة ولا يفهمها، وهذه من علامات عدم النضج..
- «لقد نسيت الفشل منذ زمن بعيد.. لم أعد أذكر أن مذاقه بهذه المرارة.. رباه!»
قالت له همسا وهي تشير للآخرين:
لقد فشل (كوين) و (هولمز) و (ميجريه) وكل رجال (سكوتلانديارد).، وهذا يعزيك بعض الشيء..»
- «إنهم مجموعة من الحمقى.. فشلي هو الفشل الوحيد المؤسي ذو الأهمية وسط كل هؤلاء!»
هزت رأسها.
حتى وهو فاشل لا يكف عن الغرور المستفز..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال المفتش (ميجريه) بلهجته الفرنسية الملتوية:
- «الآن يعرف كل منكم دوره..»
قال (بلاكفيلد) وهو يشعل غليونه:
- «لو ترك (مايكل هذه الفرصة لكان أحمق!»
تساءل (كوين) وهو يحشو مسدسه:
- «وماذا لو استعمل بندقية صيد أو بندقية تليسكوبية؟»
- «لن يفعل.. كل سلاح في هذه القرية معروف وموجود في حوزتنا الآن.. هذه ليست (نيويورك) بلدك يا عزيزي، حيث يمكن شراء (مترليوز) من أول محل بقالة..
ابتلع (كوين) العبارة الساخرة، وراح يصغي إلى التعليمات التي يوجهها (هولمز) ل (عبير)
- «معا - أنت و (جون) - تصعدان إلى التل وحدكما.. ستكون معك حقيبة بها لوازم النزهة والطعام.. وسوف تمضيان الوقت هناك في العراء معرضين لأي شيء..»
قالت (عبير) في تهذيب:
- «مناورة غريبة بعض الشيء..»
ابتسم (هولمز) وأخرج مسدسه العتيق، وأعاد حشوه:
- «سنكون جميعا متوارين وراء الصخور ننتظر ظهور (مايكل) الذي لن يفوت فرصة كهذه لقتل أخيه..
ثم أخرج كتاب أغاني الأطفال، وأشار إلى صفحة منه:
- «(جاك) و (جيل)..
تسلقا التل..
كي يملآ دلوا من الماء..
سقط (جاك) وهشم التاج على رأسه..
وبعده تدحرجت (جيل)..»
وابتسم وهو يضع الكتاب في حقيبتها:
«هكذا! جريمة رائعة محكمة جاهزة للتنفيذ.. (جون) هو (جاك) وأنت (جيل) طبعا..»
- «وكيف سنسقط؟»
- «لا أدري.. سيجد (مايكل) طريقة ما..»
= «ربنا يستر!»
ومدت يدها تمسك بيد (جون)، ورفعت رأسها لتجد الجميع يبتسم لها مشجعا..
ابتسمت بدورها، وحملت الحقيبة، وغادرت القصر متجهة إلى التل..
كان الصعود عسيرا، لكنها تحاملت على نفسها وراحت تعين (جون) الصغير على التسلق
لو فوت (مايكل) فرصة كهذه لكان أحمق..
لكنها لم تصدق لحظة أن (مايكل) فعل كل هذا..
(مايكل) لا يصلح إلا ضحية.. من الواضح أن فهمها للناس ما زال في بدايته، وما زال بوسعها أن تخدع أكثر من مرة..
جلسا بضع دقائق، لكن نظرات (جون) المفتونة لها ضايقتها.. هذا الصبي متيم بها حقا، فلو كان أكبر سنا لخنقته واستراحت..
في النهاية وقفا يلهثان على القمة، وهناك - للمصادفة السعيدة - كان بئر ماء من آبار القصص ذات الحبل والبكرة والدلو..

بعد دقائق قال لها:
- «هل أنت سعيدة معى هنا؟ في الهواء الطلق؟»
- «بالتأكيد..»
وأضافت في حذق
- «حين يكون المرء مع أخ صغير مثلك!»
صمت هنيهة، ثم فجأة اتسعت عيناه، وصاح:
- «هل يمكنك اللحاق بي بين هذه الصخور؟»
- «بالطبع.. لا.....»
لم تجد الوقت الكافي للكلام؛ لأن الصبي راح يركض بين الصخور.. هذا الأحمق! إن النهاية واضحة دون جهد كبير.. سيهشم عنقه..
- «انتظر أيها المعتوه!»



وراحت تركض وراءه . . الحقيبة فى يد واليد الأخرى تمسك بقبعتها كى لا تطير . . ونظرت للوراء ، ثم وجدت أن أحوط الحلول هو اللحاق به . .

وراحت تركض وراءه.. الحقيبة في يد واليد الأخرى تمسك بقبعتها كي لا تطير.. ونظرت للوراء ثم

وجدت أن أحوط الحلول هو اللحاق به..

«تبا لهؤلاء الصبية!»
المشكلة أن السادة المتوارين وراء الصخور، بكروشهم وأمراض شرايينهم لن يتمكنوا من اللحاق بهما..
تبا للصبية!
أخيرا لحقت به، وكان واقفا على جرف عال، والجرف يطل على منزل ريفي صغير له مدخنة عملاقة.. منزل من تلك المنازل التي يرسمونها في قصص الأطفال بسقفها المنحدر على شكل رقم (٨).
هرعت تقف بجواره، واحتبس تنفسها فلم تستطع أن تلومه..
من هنا كان المشهد جميلا بحق، لكن المدخنة البارزة عند قدميها كانت تذكرها بفم الموت المفتوح..
قالت له وهي تجلس:
- «كن فخورا بعملك.. لقد فقدنا أصدقاءنا جميعا..»
قال لها وهو يجلس بدوره:
«أردت ألا يرانا أحد.. لن أستمتع بصحبتك بينما كل مخبرى العالم يراقبوننا.. والآن أريد سماع أغنية أخرى من الكتاب..»
ابتسمت وأصلحت من شأن ثوبها، ثم مدت يدها في الحقيبة وأخرجت زجاجة عصير العنب فجرعت بعضه،
ثم فتحت الكتاب.. كانت هناك قصاصة ورق موضوعة لتميز صفحة بعينها، ففتحتها وقرأت الأغنية في سرها:
- «(هيبر - بيبر).. منظف المداخن
تزوج امرأة ولم يستطع إبقاءها معه..
تزوج أخرى لكنه لم يحبها
لذا دفعها من فتحة المدخنة!»
نظرت من أعلى الجرف إلى المدخنة، وارتجفت..
لماذا هذه الأغنية بالذات الآن يا (جون)؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورفعت عينيها نحوه وهتفت:
- «إنه أنت من البداية.. أليس كذلك؟»
- «عم تتحدثين؟»
- «الجريمة كلها كانت تحمل طابع أغاني الأطفال، وكان هذا يشير إليك.. لكننا تجاهلناه لأن الأطفال أبرياء دائما.. لا يُتصور أبدا أنهم سفاحون..»
نظر لها في عدم فهم، وتقلص فمه.. فسألته:
- «لماذا نويت قتلى أنا الأخرى؟»
مد يده في الحقيبة، وأخرج سكينا هائلة الحجم، وهذه المرة لم يحاول أن يدعي البراءة.. قال بصوت متحشرج:
- «كنت أكره الكبار جميعا، وأردت أن أتخلص منهم كي يخلو لي الجو وأظفر بالميراث وحدي

حين أكبر.. إنني أحمل جذور وطباع أمي، ولم يصف أحد أمي باللطف قط! لم أحب في الكون سواك، وتمنيت كثيرا أن أتزوجك لكنك رفضت حبي ببساطة واتهمتني بأنني طفل أخرق.. حسن! لقد جاءت ساعة العقاب! والعقاب هو أن تثبي إلى المدخنة كما تقول الأغنية، بعدها أعود باكيا صارخا لأخبرهم بأنك هلكت.. إن من يحب بقوة يكره بقوة وإلى درجة القتل!»
وأشار لها إلى المدخنة إشارة بليغة جدا..
سألته مرتجفة وهي تنهض في حذر:
- «ك.. كيف حصلت على السيانيد، وكيف وجدت العنكبوت، وكيف حصلت على المسدس والستركنين؟ مستحيل أن يتاح هذا الصبي مثلك؟»
- «بل هو متاح لأنني صبي!» - ولوح بالسكين في وجهها -
«لا أحد يأخذ حذره من الصبية.. (مايكل) الأحمق اشتري السيانيد لعش دبابير.. هذا حق.. أبي كان يملك مجموعة عناكب سامة يحفظها في حوض زجاجي ويربي سلالاتها.. أنا أعرف أنه بوسع المرء الحصول على الستركنين من أي فاتح للشهية، وقد قمت بإرغام الكلب على تذوقه.. كان هذا أعقد جزء في الموضوع!»
تساءلت وهي تتراجع أكثر نحو الحافة:
- «و... وكلام الطبيب عن القاتل العجوز الأعرج؟ وجثة (مايكل) التي ترتدي خاتما؟»
- «الطبيب كان أحمق.. هذا يحدث كثيرا، و (مايكل) كان يرتدي خاتما بالفعل.. هذا يحدث كثيرا أيضا.. وكان له ضرس محشو.. حشاه في ليفربول) حين كان هناك..
تساءلت محاولة كسب الوقت:
- «ولماذا جلست الليدي في البانيو بثيابها؟ ومن قام باستبدال قفل نافذة الحمام؟»
«أنا استبدلت القفل.. هذا ليس صعبا.. والليدي جلست في البانيو بثيابها لأنني هددتها بالمسدس كي تفعل هذا!»
- «أنت مجنون!»
- «هذا لا يحتاج إلى استنتاجات كثيرة يا عزيزتي والآن هيا بنا!»
ولم تدر متى سمعت الطلقة، ولا متي طارت السكينة من يد الصبي، لكنها نظرت للوراء لترى (هولمز) والمسدس في يده والدخان يتصاعد منه، بينما (بوارو) جواره يقول:
- «حين رأيت القصاصة تطل من كتاب الأغاني وقرأت أغنية المدخنة هذه، عرفت أين أجدكما..
وابتسم في ثقة:
- «هو ذا (بوارو) يستعيد لقبه كأفضل مخبر في العالم!»
الآن جاء (المرشد) لاهثا من عناء تسلق الصخور ليخبرها بأن القصة قد انتهت، وأن عليها توديع أصدقائها الجدد..
قال لها وهو يداعب قلمه:
- «ها هي ذي قصة من طراز (من فعلها؟) مناسبة جدا، وكالعادة كان الجاني هو أخر من تتوقعين..»
صافحتهم جميعا مودعة، فقال لها (كوين) وهو يلثم يدها:
- «عودي في أي وقت لتجدى لغزا غامضا ينتظرك.. أما نحن فسنواصل مهمتنا في قتل الغموض حيث وجد..»
لم تقل شيئا
فقط ابتسمت ولحقت ب. (المرشد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصحت من رحلتها لتجد أن ساعة واحدة قد مرت بها..

حان موعد النوم.. نوم بلا أحلام الآن أحلامها استهلكت كلها في (فانتازيا).. سيكون الغد عسيرا، ووحش الواقع يزوم منتظرا القرابين البشرية..

المستشفى.. (شريف).. الطفلة.. الحماة..

لكنها على الأقل تملك حلما جميلا تواجه به غابة الحياة هذه..

وفي القصة التالية تفر (عبير) إلى غابة أخرى اسمها (شيروود) لا يحق لأي غريب أن يعبرها..

كان هناك رجل يتوارى بين الأشجار.. اسمه (إيرل لوكسلي).. لكن لنا أن نعرفه باسم (روبين هود)..

(تمت بحمد الله)

تحتل قصص (من فعلها؟) موضعا بارزا في أدب المغامرة، خاصة حين يكثر القتلى وتتزاحم علامات الاستفهام.. لكن أن يجتمع لحل اللغز كل من (بوارو) البلجيكي و (هولمز) البريطاني و(ميجريه) الفرنسي و (كوين) امريكي؛ فهذا وضع فريد لا يحدث إلا في (فانتازيا)..

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

---

12 - قصة مماثلة..

الملاحظات

[←1]

(*) كل أغاني الأطفال المذكورة هنا حقيقية

[←2]

(*) يبدأ النوم بمرحلة النوم البارادوكسي (المتناقض)، ثم يدخل مرحلة (الأرثوذكسي) الهادئة.

[←3]

(*) منعا للتكرار؛ راجع الكتيب الأول صفحة ٨٨

[←4]

(*) د. (جوزيف بل) الذي اقتبس منه (دويل) كل ملامح شخصية (هولمز).

[←5]

(*) للسيانيد رائحة مميزة هي رائحة اللوز المر

[←6]

(*) (إديت بياف) هي (أم كلثوم) (فرنسا).. بلا مزيد من الشرح!

[←7]

(*) حقيقة

روايات مصرية للجيب

21

فانتازيا

لاتدخلوا شيروود!




فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (21)

لا تدخلوا شيرود

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- عودة إلى الواقع..

إن الأمور تتحسن يا (عبير)..
هذا ديدن الحياة، تقتم حينا حتى يحسب المرء أن السعادة لفظة لا وجود لها.. كائن ديناصوري انقرض أو لم يوجد قط، وتشرق حينا حتى يخال المرء أن الحزن ضيف غير مرغوب فيه، عاجز عن اختراق الأسوار الحصينة التي أحطنا بها سعادتنا..
غادر (شريف) المستشفى، وكان أحسن حالا..
إن أية حال أفضل من الموت على كل حال، و (شريف) لم يمت..
لكن نصائح الأطباء كانت تحاصره في كل صوب، وكان يعرف أن عليه ألا يحزن أو يفرح أو يأكل أو يشرب أو يدخن أو يجهد نفسه أو يسهر أو يسافر أو يتنفس أو يقرأ.. فيما عدا هذا يمكنه أن يفعل أي شيء يشتهيه..
كان من الأشخاص ذوي الكبرياء الذين يمقتون أن يمرضوا.. يمقتون أن يشفقوا على أنفسهم أو يروا الشفقة في عيون الآخرين.. ثم إنه كان ملولا لا يطيق سماع نفس العبارات عن إجهاد النفس، وعن ادخار صحته لأسرته.. إلخ.
ثمة شرخ حدث في حياة (شريف)، ومن الواضح أن كل ما في السوق من أنابيب لاصقة عاجز عن إصلاح هذا الشرخ..
قال لنفسه في ضيق، وهو يداعب أزرار الكمبيوتر:
- ليكن.. كانت لى حياة.. وها هي ذي توشك على الانتهاء.. ليس هذا حدثا فريدا.. نفس الشيء حدث لكل من سبقوني، ولسوف يحدث لكل من تلوني..
كأن حياته كانت طبقا مليئا بحبات الفول السوداني أعطوه إياه ثم قالوا: انته منه على مهلك، ولنلتق بعد هذا..
ولدهشتهم فوجئوا بأنه فرغ من التهام كل ما في الطبق خلال دقيقتين ولربما قبل أن يديروا ظهورهم.
لقد فرغ كل الطبق..
لكنه لن يصارح أحدا بهذا



وفتحت (عبير) الباب، لتجد (صفوت) صديق (شريف) الأثير البدين الذي يهوى الكمبيوتر والدُهن والذي كان رئيسها في العمل قبل أن تتزوج، ومازال لا يشعر بارتياح كبير لهذه الزيجة..
كان يلهث، ويجفف العرق على جبينه، وسألها:
- مساء الخير يا (ع...) يا مدام (عبير)..
هل (شريف) متيقظ؟
ابتسمت في إنهاك، ودعته إلى الدخول، وأشارت برأسها أن نعم.
- وهل هو أحسن حالا؟
- اكتئاب.. لا أكثر.
وكان (صفوت) يعرف هذا ويتوقعه.. كل الناجين من جلطة تاجية أو مخية يمرون بحالة اكتئاب شديدة..

هكذا قال الأطباء..
ودخل الشقة عطرة الرائحة، التي تحمل لمسات أنثوية لا شك فيها، وخطر له أن (عبير) زوجة على كل حال.. زوجة تعرف المطلوب من الزوجة وتؤديه جيدا.
وكان (شريف) في غرفة الكمبيوتر عاكفا على تعديل سطور برنامج ما، وكان عصبيا يخطئ كثيرا، وهو يشعر أن قناة أفكاره لم تلن بعد.
حياه (صفوت) وجلس جواره يتأمل الشاشة، وكان البرنامج مكتوبا بلغة التجميع شديدة التعقيد، ويكفي خطأ واحد فيها كي ينهار كل شيء ويضطر المرء للبدء من جديد..
- أي برنامج هذا؟
- أحاول إجراء تعديلات معينة في (دي – جي -2)..
- مثل؟
- مثل القدرة على وضع مواصفات الحلم قبل البدء فيه.. مثل اختيار موضوع الحلم نفسه والمشاركين فيه..
في نفاد صبر، صاح (صفوت):
- مرة أخرى؟ معلوماتي هي أن (دي - جي – ٢) هذا بلا مستقبل، ولن يكون له عائد تجاري.. ثم إنك لم تعد متحمسا له.. حسبت أن ما يبقيك هنا برغم مرضك أمر ذو شأن كبير..
وأخرج من جيبه قطعة من الشوكولاتة، طوّحها إلى فمه، وقال:
- كنت قد طلبت منك برنامجا مهما، وقلت إنني قادر على تسويقه بسعر لا تحلم به.. طبعا مع عمولة لا بأس بها لي.. إن السمسار يكسب في جميع الظروف، فماذا فعلت به؟
ابتسم (شريف) في مرارة، وقال:
- متى؟ لقد كنت موشكا على الموت منذ أسبوع..
- وأنت الآن بحالة تسمح لك بتعديل البرامج، فماذا عني؟
- سأحاول أن أبدأ غدا..

وساد الصمت برهة، ثم حاول (صفوت) أن يقطعه بسؤال:
- هل المدام ما زالت مولعة بهذا؟
- إلى حد الإدمان.. توجد مملكة سحرية اسمها (فانتازيا) خلقها الجهاز في عقلها الباطن، وهي لم تستطع قط أن تقبل حقيقة أن عالمنا هو عالمها الحقيقي وليس (فانتازيا) هذه.
- ولم يحدث شيء مؤس؟ أعنى.. أما زلت مطمئنا إلى كون هذا الاختراع مأمونا لا يمس الحالة العقلية؟!
تأمل (شريف) البرنامج قليلا، ثم قام بتسجيله والخروج منه، وقال:
- حتى هذه اللحظة لا شيء.. ما زالت (عبير) تعرف الفارق بين الواقع والخيال، ومازالت تمارس حياتها باتزان معقول.. لكن لو كان الإدمان أثرا جانبيا لهذا الاختراع، فقد تأذت (عبير) بالفعل..
نظر (صفوت) إلى منضدة في ركن الغرفة تكدست فوقها الكتب، وعلى الكعوب استطاع أن يلمح عبارات مثل (مجلد الوطواط - ٨).. (سيف بن ذي يزن).. (جلجاميش).. (أرخص ليالي).. (عطيل يعود).. (زنيت).. إلخ
قال في تهكم:
- يبدو أنك صرت مثقفا فجأة.
هز (شريف) كتفيه:
- لست أنا بل (عبير).. هي لا تكف عن القراءة، وقد بدأت تستعير الكتب من المكتبة العامة لأن

ما لديها لم يعد يكفي..
- لكنها تقرأ خليطا غير متجانس من الكتب.
لا أدري ما يجمع بين (الوطواط) و (عطيل يعود)..
- أولا: ما يجمع هذه الكتب بادية الاختلاف هو أنها جميعا تندرج تحت فن (الرواية - الأقصوصة - القصة القصيرة - المسرحية - القصة المصورة)..
- ثانيا: لا تنس أن الخيال هو محور كل عمل أدبي، و (عبير) تفتش عن الخيال كما يفتش عالم ذري عن (البلوتونيوم).. لو لم تجد خيالا لتوقف المفاعل عن العمل... أخرج (صفوت) كيسا من البطاطس المقلية، وراح يطوح بالرقائق إلى فمه.. والواقع أن شراهته تتضاعف يوما بعد يوم..
سأل (شريف):
- كراك كراااتش.. أعترف.. كراااش.. أنني أحسدها على كل العوالم الساحرة التي عاشت فيها هل قابلت (طرزان) و (جيمس بوند) و.؟
- مرارا! وفي الرحلة الأخيرة كان (هولمز) و (بوارو) ومس (ماربل) و (ميجرية) و (إيلري كوين) كلهم في قصة واحدة، يبحثون عن سبب مصرع الليدي.. لا أذكر اسمها.. هذا ما قالته لي..
- وهل قابلت (روبين هود)؟
نظر له (شريف) هنيهة.. ثم قال وهو يطفئ الجهاز:
- في الحقيقة لست متأكدا.. لقد صارت قادرة على تشغيل الجهاز وحدها ولا بد أنها رأت ما يفوق كل ما حكته لي..
- إذن جرب أن تريها (روبين هود).. هذا امتحان بسيط لقدرات جهازك هذا.. ألم تقل إنك ستحدد الحلم سلفا؟
فكر (شريف)، ثم قال:
- لا بد من أن تكون قد قرأت عنه أولا.. ثانيا: لا بد أن أجد موجة مخية مميزة لـ (روبين هود)، وأحددها.. سيكون هذا هو الاسم الكهربائي له، والذي سيبدأ الحلم كله..



وكان (شريف) بارعا..
ربما أكثر مما ظن بنفسه..
وجاءت الأمسية التي دعا فيها (عبير) بإلحاح شديد كي تربط أقطاب الجهاز إلى رأسها، وتغمض عينيها..
قالت له محتجة:
- لكني لم أهو قصص (روبين هود) كثيرا..
قال لها في حماس:
لكنك قرأت عددا كافيا منها، ولدى الآن ما يلزم لبدء الحلم..
ثم أخذ شهيقا عميقا، وأردف:
- فليكن غرضك التجربة لا الاستمتاع إذن..
تنهدت مستسلمة، فلم تكن راغبة في إثارة غيظه.. ليس بحالة قلبه الراهنة، وأغمضت عينيها..
وسمعت صوت الضغط على الزر، ثم لم تعد هنا.
صارت هناك..

☆ ☆ ☆

1- لا تدخلوا شيروود!

وقال لها (المرشد) وهو يساعدها على اجتياز أجمة كثيفة من الشجيرات:
- من هنا يبدأ المرح.. هذه الغابة هناك.. هل ترينها؟
نظرت إلى الأفق، حيث كان صفّ من الأشجار يسد الطريق.. أشجار تفصلها أشجار، وتعلوها أفنان متخمة بالأوراق، وتحتها أخشاب كثيفة خضراء، وباختصار.. كان ما تراه هو اللون الأخضر ولا شيء سواه.. لكنه اللون الأخضر الذي يتخذ ستين درجة مختلفة.. أخضر زرعي يلتحم بأخضر فاتح، وأخضر باهت وأخضر إلى السواد أقرب، وأخضر فوسفوري، وأخضر مائع كلون المشروبات المزيفة التي تباع في الموالد، وأخضر مزرق، وأخضر شبيه باللون الأخضر.. إنها غابة.. غابة جدا لو صح التعبير..
قالت له وهي تنشق الهواء الأخضر في انتعاش:
- وكيف لا أراها؟
قال ببرود وهو يعيد قلمه إلى جيب بذلته السوداء:
- المفترض على الإنسان العاقل الحريص على حياته ألا يجتازها.. وكل طفل في (نوتنجهام) يعرف أن عليه أن يغسل قدميه قبل النوم، وألا يختار غابة (شيروود).. لكن لو لم تدخليها لما حدثت مغامرة أصلا..
- ما شاء الله.. وماذا يوجد في (شيروود)؟
- كل عصابات الخارجين على القانون تعيش هنا.. وعلى رأسهم طبعا الأخ (روبين هود)..
وجدت صخرة، فآثرت أن تجلس عليها لتريح ساقيها، وسألته:
- من هو هذا الـ (روبين هود)؟ ومن مؤلف القصة؟
قال في استياء وهو ينظر لساعته:
- للأسف لن أفعل شيئا سوى أن أفسد الأمور.. يمكنك أن تجيبي عن السؤال الأول بعد انتهاء المغامرة، أما السؤال الثاني فلا إجابة له!
صاحت مندهشة:
- لا مؤلف للقصة؟
- ليس هذا غريبا.. إن (روبين هود) خليط من مجموعة من الأساطير الشعبية، بعضها حقيقي وبعضها خيالي.. فقط قام المؤرخون الإنجليز بجمعها وإعطائها شكل قصة طويلة متناسقة..
- غريب هذا.. كنت أحسبها من تأليف سير (والتر سكوت).
- بل هو أحد من جمعوا شتات الأسطورة، وقد فعل هذا مع فارس أسطوري آخر هو (إيفانهو).. لا عجب في هذا.. هل يمكنك معرفة مؤلف (أبو زيد الهلالي) أو (ألف ليلة وليلة)؟ هل يعرف الفرس مؤلف (الشاهنامة)؟ ثمة قصص تولد من الوجدان الجمعي لشعب بأسره، ولا يمكن أبدا العثور على طرف الخيط..
ونظر إلى السماء حيث كانت بعض الغربان تحوم وأردف:
- إن (انجلترا) تملك (روبين هود) و (إيفانهو)، بينما تملك (إيرلندا) (روب روي)، وتملك (أسكتلندا) (ويليام والاس).. وتجدين أن قسط الحقيقة ضئيل جدا وسط هذه القصص، لكننا

لا ننكر أنهم وجدوا فعلا..
سألته وهي تطوح قدميها لاهية:
- والزمن؟
- آه..
وأخرج الدليل الذي يستخدمه من حين لآخر للاهتداء إلى معالم (فانتازيا)، وقال:
- نحن في القرن الميلادي الحادي عشر.. في ذروة الصراع بين النورمان - القادمين من (فرنسا) - والسكسونيين سكان (انجلترا) الأصليين.. إن النورمان قد كونوا عصبة حاكمة وأرستقراطية خاصة بهم، وهم يسومون السكسونيين الخسف، ويعاملونهم أسوأ معاملة.
- إن (روبين هود) هي - ببساطة - قصة كفاح الإنجليز الأبطال ضد الفرنسيين الأوغاد.. هذا قبل أن تكون (انجلترا) انجلترا.. وتكون (فرنسا) فرنسا..
ثم أعاد الدليل إلى جيبه، وسألها:
- أية استفسارات؟
- لا أظن..
وهنا صفر شيء بجوار رأس الرجل، وانغرس في الشجرة التي وقف جوارها.. كان هذا سهما جيد الصنع، راح طرفه الحر يهتز كأنه مثبت إلى ياي، حتى همدت حركته تماما..
- آه! يبدو أن أوان الرحي قد حان!
قالها (المرشد)، وراح يثب بين الأشجار متواريا..
وللمرة العشرين تجد (عبير) نفسها وحيدة، عليها أن تتولى أمر نفسها من الآن فصاعدا، وهي لحظة تهابها دوما في كل قصة.



في تؤدة تمشى وسط الأشجار، تحني رأسها للأغصان المتشابكة، ثم ترفعه ثانية وهي تصغي لشجار الطيور.. هذه غابة إنجليزية تختلف بالتأكيد عن غابات (طرزان) الإفريقية، وغابات الشبح في (الملايو).. غابة وحوشها هي الغزلان.. والطيور نقارة الخشب.. والسناجب..
سرها هذا الشعور، وللحظة تخيلت أنها (سنو هوايت) في أحد أفلام (ديزني) البهيجة، تحلق العصافير حول رأسها، وتتواثب الأرانب الصغيرة محاولة اللحاق بها..
لكن منعها من ذلك شيئان:
أولا: كانت تشعر بقلق حقيقي مما يختبئ لها بين هذه الأشجار..
ثانيا: كانت ترتدي ثياب الرجال..
نعم.. إنها متخفية في ثياب رجل لسبب لا تدرية.. إن (دي - جي - ٢) يعلم بالتأكيد.. هي ترتدي ثياب تاجر ثرى.. متأنقة مزخرفة كطاووس، وفي نطاقها يتدلى كيس واضح من ملمسه ورنينه أن ما به ذهب..
هذه علامة غير سارة.. تعرفها من القصص جيدا وتعرف أن معناها هو أن (الناضورجية) قد لمحوها وأحسوا بها.
كان الإغراء شديدا للفتك بها.. ما كانت لتطلب إغراء أكثر لقطاع الطرق، وهو لغز لم تستطع فهمه.. لكنها ستترك للأحداث التالية أن تفسره..
وأخيرا دوى صوت النفير:
وبعد ثانيتين.. وثب شبح أخضر عظيم الحجم من فوق شجرة، ليقطع الطريق عليها..



وبعد ثانيتين.. وثب شبح أخضر عظيم الحجم من فوق شجرة، ليقطع الطريق عليها..

لم لا؟ أليسوا قطاع طريق؟!
كان مشعرا كقرد، ولحيته الطويلة ذهبية اللون المتصلة بشاربيه، تعطيه طابعا أسطوريا كأنه

أسد.. أما ثيابه وقلنسوته فكانت خضراء اللون.. كذا كان حذاءاه.. وكذا كانت عيناه..
وفي يده الغليظة كان يحمل سيفا لا بأس بحجمه أبدا..
قال لها وهو يطوح السيف من يد ليد ببراعة:
- مكانك أيها التاجر الثري الذي اقتادته قدماه إلى (شيروود).. إن ما نسألك إياه ليس بالكثير.. ماذا عن هذا الكيس المعلق في نطاقك؟
تدافعت الكلمات إلى لسان (عبير) دون أن تقدر على السيطرة عليها، وهي لم تحب قط ما قالته، لكنه وجد السبيل إلى لسانها:
إذن أنتم تلكم العصابة التي لا عمل لها إلا ترويع الشرفاء الأبرياء.. من السهل أن تكون شجاعا وأنت تحمل هذا السيف!
وكان ما قالته بصوت رجولى حاولت أن يخشوشن، فكانت أفضل نتيجة هي أن خرج كصوت غلام مراهق..
كادت تلطم الخدين بسبب حماقتها.. أهذه كلمات تقولها ضحية لمن يهددها سيف؟ كانت تفضل أن تقول كلمات أقل شجاعة وتحديا، لكن ما باليد حيلة.. (دي - جي - ٢) الأحمق يرغمها على أن تقول هذا..
نظر لها.. كأنما يرى مجنونا، وحك ذقنه في.. حيرة..
ثم عاد يكرر الأمر بنفاد صبر:
- نقودك أو حياتك أيها التاجر الثري!
في شمم بصوتها المراهق.. قالت:
- لا هذا ولا ذاك أيها اللص!
بدت عليه الحيرة.. فهو لم يعتد هذه الشجاعة من التجار البرجوازيين الذين يجري الجبن والشحم في عروقهم مجرى الدماء، وهو لا يمضى أسبوعا دون أن يقابل التاجر الذي يموت هلعا بمجرد رؤيته، أو الذي يفقد التحكم في جهازية البولي والهضمي..
نظر إلى أعلى، وصاح بصوته الغليظ:
- تعالوا يا رفاق.. توجد مشكلة ها هنا..
ولم تدر (عبير) متى رأت الأشجار تتهاوى من حولهما.. لم تكن هذه أشجارا، بل عددا آخر من قطاع الطرق الخضر..
مجموعة غريبة بحق من الرجال.. منهم الهزيل كالقملة والضخم كالثور، وبادي الوداعة كالحمل وشديد الشراسة كالنمر، والأغرب أن الوحيد الذي لم يرتد الأخضر بينهم كان رجلا أصلع الرأس، حلق شعره ليترك دائرة كاملة حول مركزها، وكان يرتدي ثوبا بنيا خشنا عقد حول خصره حزاما هو حبل غليظ..
كانت على قدر لا بأس به من المعرفة كي تعرف أن هذا راهب.. لكن أي راهب هذا الذي يحمل (شومة) غليظة، ويعيش مع قطاع الطريق؟
التف الرجال حولها يرمقونها في دهشة عدائية، وراح أحدهم يسلك أسنانه بخنجره منتظرا نهاية المحادثة ليبقر بطنها.. ولاحظت أن العامل المشترك الأكبر بين هؤلاء جميعا هو جعبة السهام على الكتف، والقوس المتدلي من ذراع واحدة..
قالت لهم في ثبات:
- أريد أن ألقي زعيمكم (روبين هود)..
- هذا مطلب غريب أيها التاجر الثرى..

أريد أن أواجهه رجلا لرجل!
من جديد تبادلوا النظرات، ورسم أحدهم علامة الجنون على صدغه، وقال:
- ليس لدي (روبين هود) وقت لهذا المزاح إنه يلتهم خمسة من أمثالك قبل الإفطار..
من جديد كررت بلهجة آمرة:
- وأنا أطالب بهذا كي أتأكد من أنكم لستم بالجبن الذي أظنه.. بحق الملك (ريكرودس) قلب الأسد أطالبكم بهذا..
تبادل الرجال النظرات:
- إن التاجر الغريب يتصرف بثقة غير طبيعية..
ثقة توح بأنه (مسنود) بشكل ما.. ثم هو يذكر اسم (ريكرودس) وهو اسم له قدسيته، خاصة لدى هؤلاء الرجال..
ولا شعوريا انفتحت صفوفهم لتسمح لها بالمرور، وإن لم يكفوا عن النظر الحاد والتحدي.
وقال الراهب:
- أين (روبين)؟
- إنه في الكوخ.. يستريح قليلا..
- إذن فلير هذا الغريب، وليحكم بما يريد.
وتجتاز (عبير) الصفوف.. إن عددهم لا يقل عن المائة بالتأكيد.. رجال أشداء حقا لم يأكلوا اللحم إلا من الغزلان التي يقتنصونها، ولا يشربون الماء إلا من الينابيع.. ولا يعرفون لحافا إلا السماء الصافية.. من الطبيعي أن يكونوا أقرب إلى وحوش البرية.
والكوخ الذي تحدثوا عنه لم يكن كوخا في الواقع.. كان سنديانة غليظة وارفة، مساحة جذعها أدنى لمساحة كوخ صغير، وكانت في الجذع فتحة تسمح بالدخول والخروج..
وصاح صائح مناديا (روبين هود) كي يخرج.
وفي اللحظة التالية رأت نفسها أمام (روبن هود) العظيم..

☆ ☆ ☆

3- (روجر) القبيح..

لم يكن (روبين هود) كما رأته وسيما..
لم يكن قويا..
بالأحرى لم يكن شابا على الإطلاق..
كان رجلا في الخمسين من عمره، زحف الصلع على منتصف رأسه، وغزا الشيب النصف الباقي..
كان تكوينه العضلى قويا يشي بأنه كان محاربا لا يشق له غبار يوما ما من عشرين سنة.
أما الآن فهو يشبه المرحوم أباها في كل شيء، فلم يبق إلا أن يحمل البطيخة الشهيرة تحت إبطه والجريدة الخالدة تحت إبطه الآخر..
وكان له كرش صغير لا بأس به أبدا.. يعلو ساقين ناحلتين مشعرتين كما تظهران من تحت التنورة التي يرتديها
باختصار: أصابها مرأى البطل بخيبة أمل لا حد لها..
فرك عينيه اللتين احمرتا من فرط النوم، وحك صدره ثم تساءل عن سر كل هذا الضجيج.
- هذا التاجر الثرى يتحدى (روبين هود) شخصيا
- هووووم.. غريب هذا..
وتأملها في اهتمام.. شعرت بارتباك شديد، ودعت الله أن يكون تنكرها متقنا.. إن المرأة لا تستطيع أبدا أن تبرع في التنكر كرجل، بينما يسهل على الرجال - حتى (إسماعيل يس) نفسه - أن يتنكروا في صورة امرأة..
قال (روبين هود) بصوت مرهق:
- لماذا لم تنتهوا منه بدلا من إيقاظي؟ يصعب على أن أقبل كل التحديات التي تواجهني من أشخاص متحمسين.
في شجاعة ليست لها صاحت (عبير):
- برهن لي أنك لست الجبان الذي يتوارى وراء رجاله..
ابتسم وتحولت الابتسامة إلى ضحكة، والضحكة تحولت إلى سعلة (خشخش) بها صدره قبل أن يبصقها.
- هيه هيه هيه! أنت جسور أيها الفتى.. لكني بالفعل لست بالجبان الذي يتوارى وراء رجاله.. لقد قضيت حياتي كلها أثبت فيها أنني لست كذلك.. إن عدد الندوب في جسدي تفوق ما في وجهك الأملس من شعر:
- ما زلت مصرا على أن أدافع عن مالي..
نظر (روبن هود) حوله، ثم صاح بالرجل كثيف الشعر الذي كان أول من قابلته (عبير) بين هؤلاء القوم:
- (جونز) الصغير.. عصاك!
ما شاء الله.. إن (جونز) الصغير هذا هو أضخم وغد رأته في حياتها، وهي تسمية لم يرد بها إلا الدعابة..
طوح (جونز) عصاه في الهواء، فتلقفها (روبن) وأدارها كمروحة حول نفسها، ثم اتخذ وضع قتالٍ بارعا..
- هات عصاك أيها الراهب (تاك)..

طوح (تاك) بعصاه في الهواء نحو (عبير) فتلقفتها وإن شعرت بأنها تتلقف قطارا لا عصا.. كيف يحملون هذا الشيء؟
- والآن اصنعوا دائرة يا رفاق..
وتراجع الرجال صانعين دائرة واسعة ليقف المتقاتلان في وسطها.. رجل عجوز قوي وفتاة متنكرة.. هذا قتال يصعب معرفة الفائز فيه.
وبدأت المعركة..



كما هي العادة أشعر بحاجة ماسة إلى أن أقدم مجموعة من الصور توضح سير القتال.. إن هذا أكثر بلاغة واختصارا، لأن هناك شيئين لا يمكن للقلم أن يعبر عنهما أبدا: القتال والرقص..
لكني سأحاول على كل حال..
سأحاول أن أسمعك لهاث الغريمين.. صوت ضربات العصي التي تصطدم تارة بمثيلتها فتحدث صوت ارتطام الخشب المهيب، أو تصطدم تارة بلحم أحدهما فيكون لها صوت مكتوم كئيب..
سأحاول أن أصف لك العرق المنحدر على الجباه، والأسنان البادية من بين الشفاه المتشققة، والنظرات الشرسة المتحفزة..
سأحاول أن أصف لك رقصة الأقدام على الكلأ، تتراجع وتتقدم، وتكر وتفر..
الحق أن (روبين هود) لم يكن خصما سهلا، لكن (عبير) كذلك كانت تملك قوة جسدية غير معقولة، ولم تدر سببها قط.
تطير عصا (روبين هود) في الهواء راسمة نصف قوس، فتنحني كي تتفاداها ثم تكيل له ضربة بعصاها بين الضلوع.. كراش!
يتوقف (روبين) عن القتال ويقهقه:
- الحق أنها ضربة جميلة.. ولكن ماذا تقول عن هذه؟
ويهوى بعصاه على كتف (عبير) فيدوي صوت العظام الموشكة على التفتت.. لكن (عبير) تتحسس كتفها في رضا، وتقول ضاحكة:
- إنها رائعة.. أنت تجيد استخدام العصا بحق..
وتهوى على رأسه بالعصا، لكنه يتفاداها بعصاه..
لقد دام القتال ساعة كاملة
بدأ الملل يتسرب إلى نفوس الواقفين، وقد شعروا أن هذه المعركة لن تنتهي إلا يوم القيامة.. تثاءب البعض وراح آخرون يتسلون بالعبث في آذانهم أو أنوفهم..
هنا فقط توقف (روبين هود) بحركة درامية..
طوح بعصاه إلى (جونز) الصغير، وفرد ذراعيه إلى جانبه وصاح:
- كفى أيها التاجر الثرى.. أشهد أنك رجل قوي حقا..
كان التعب قد حل بجسد (عبير) تماما.. لهذا طوحت بعصاها بدورها نحو الراهب (تاك)، وفي اللحظة التالية سقط الاثنان على الكلأ يلهثان وقد غمرهما العرق تماما، وراحا يلهثان كحوتين قذفهما المحيط إلى الشط.. واحتاج الأمر إلى ربع ساعة وكثير جدا من العصير الذي قدم لهما في إناءين من فخار، حتى استطاعا أن ينهضا مترنحين..
بيد كقبضة الموت صافحها، ولكنهما بين لوحي كتفها.
- أنت رجل شجاع.. والشجاع - على الأرجح -شريف..

ثم:
- ما اسمك أيها الفارس الشريف؟
- أنا.. أنا (روجر ويليام)..
كان هذا هو الاسم الذي تداعي إلى لسانها، وبدا لها مقبولا غير مفتعل.. هنا قال الراهب (تاك) في شك:
- هذا اسم له رنين (ساكسوني).. إنك منا إذن أيها التاجر ولست منهم.. فلماذا جئتنا على رياح التحدي؟
- لأنني تمنيت أن أكون منكم بحق..
وفي حركة أريحية فتحت (عبير) كيس الذهب الذي تحمله في نطاقها وبعثرت القطع في الهواء، فالتمعت في ضوء الشمس الغاربة وهي تهوى كمطر براق فوق الرءوس..
من الغريب أن أحدا لم يهتم بالتقاط قطعة واحدة من المعدن البراق.. إن هذه الطريقة تبدد الفتور دوما لكنها - في هذه المرة - لم تكن ذات تأثير على الإطلاق.
وقال (روبين هود):
- لا أحد هنا يبالي بالذهب أيها التاجر الشجاع..
- سبحان الله! لقد كنتم تحشون رقبتي منذ قليل من أجل هذا الكيس.. أنتم إذن لا تحبون إلا الذهب المسروق..
قال الراهب (تاك) ضاحكا:
- نحن نحب الذهب، ولكن كي نمنحه للفقراء.
هذا هو أسلوبنا هنا: نسرق الأثرياء ونعطى الفقراء..
وقال (جونز) الصغير:
- إن الأثرياء دائما من النورمان، والفقراء دائما من السكسونيين.. وهكذا تجد لعملنا طابعا وطنيا لا بأس به..
تساءلت وهي تنظر حولها:
- وكيف تعيشون إذن؟
- ماذا يريد المرء إلا أن يأكل إذا جاع، ويرتوي إذا عطش، ويجد المأوى إذا احتاج إليه؟ نحن ننال هنا كل ما يمنحه الذهب من دون ذهب..
وتحمس القوم فأنشدوا أحد (البالادات) القديمة التي يستحيل فهم معناها إلا لأساتذة اللغة الإنجليزية..
و (البالاد) هو نوع من المواويل ذات الإيقاع السهل السريع، يمتاز ببساطة لغته، وامتلائها بالأحزان والشجن والنكد الأزلي.
لوح (روبين هود) بعصاه ليخرس القوم.. ثم هتف:
- هل من جاحد ووغد زنيم هنا لا يقبل انضمام (روجر ويليام) إلى إخوان الغابة؟
وكان هذا سؤالا من الطراز الذي لا يمكن الإجابة عنه ب. (نعم).. إن من يجب ب. (نعم) هو - ببساطة - يعترف بكونه وغدا زنيما جاحدا.
قال الراهب (تاك)
- فلندعه باسم مناسب..
- نعم.. (روجر) القبيح.. كذا صاح أحدهم، فوافقه آخر:
- نعم.. إنه قبيح كالأبالسة.. فليكن هذا اسمه!

ودوت الصيحات هاتفة:
- القبيح.. القبيح!
قبيح؟ لم تستطع (عبير) هضم هذا اللقب قط..
إنها أنثى متنكرة في ثياب رجل، ومن الطبيعي أن تثير الريبة لأنها أجمل من اللازم، أو أنعم وأرق من اللازم، لكن هؤلاء الإخوة يجدون أنها قبيحة حتى بالنسبة لسحناتهم المربعة.
لكنها ابتلعت خواطرها، وشاركت الجموع في الاحتفال المرح..

☆ ☆ ☆

وحين أخلدت الشمس إلى النعاس أخيرا بعد يوم مرهق، لم ينم فيه قطاع الطريق..
لقد أشعلوا نارا عظيمة، وراحوا يقومون بالشيء الطبيعي الذي يفعله الناس حول النار.. راحوا يشوون وعلا ضخما ينز الدهن بلا انقطاع، فيتطاير الشرر في فرقعات متتالية..
الشيء الثاني هو بعض الرقصات الخشنة الجديرة بقطاع الطرق.. رجل يرتدي الفراء ليبدو شبيها بالحلوف البري، بينما رجل آخر يحاول قتله في بسالة..
كان (روبين هود) جالسا جوارها يلتهم (ريشة) مكسوة باللحم هي أول ما خرج من شواء.. هذا طبيعي.. إن الزعيم ينال أول قطعة ناضجة من اللحم في كل مكان
قالت له:
- ما هو برنامجكم اليومي هنا؟ أعني ماذا تفعلون غير انتظار الحمقى الذين لم يسمعوا عن (شيروود)؟!
جرد ما بقي من لحم على قطعة العظم، ثم طوح بالعظمة كي يلتقطها كلب أسود عملاق كان هناك، وقال:
- نضايق المأمور.. ونهاجم رجاله..
كانت تفكر طيلة الوقت..
لماذا تنكرت بثياب الرجال؟ ولماذا جاءت هنا؟ من أسوأ الأمور في هذه الحياة.. أن نفعل أشياء لا ندري لماذا نفعلها.. للمرة الأولى تصل إلى هذا الجزء المتقدم من المغامرة.. دون أن تفهم حقيقة وضعها..
وقررت أن تنتظر حتى الصباح لتفهم أكثر..

☆ ☆ ☆

4- هكذا بدأ كل شيء..

عند الفجر مشت وحدها مبتعدة عن الرجال الذين كانوا يغطون في نوم عميق، كله شخير وتثاؤب والتهام لطعام النيام الخفي..
مجموعة من الحمقى - قالت لنفسها - إذ يثقون بها بعد معرفة ليلة واحدة.. لو كان (روجر) القبيح يحمل نية في قبح وجهه؛ إذن لكانت نهاية هؤلاء القوم.. من حسن حظهم، أنها هي وليست سواها..
مشت بين الأشجار شاعرة بالغريزة، أن هناك غديرا قريبا لا بد من واحد..
أخيرا وجدته، قطعة من الجمال الصافي الساكن كما يرسمه فنانو (ما قبل رافائيل) الإنجليز.. هذا كلامي أنا وليس كلامها طبعا..
يمكنها أن تغتسل.. لكن لا.. سيحدث ما يحدث دائما في هذه القصص، ويصحو أحدهم ليدرك حقيقة الأخ (روجر) القبيح.. كلا.. ستكتفي بغسل وجهها ويديها، ومن الواضح على كل حال أن هؤلاء القوم لا تزيد علاقتهم بالماء على هذا...
خاضت في الماء حتى ركبتيها، من ثم شمرت السروال الضيق كي لا يبتل.. هنا راعها أن ساقيها مكتنزتان بالعضلات أكثر من اللازم.. مشعرتان كساقي ماعز.. غريب هذا!
كانت مياه الغدير تعكس وجهها.. وللمرة الأولى تدرك أنها بحق قبيحة كالأبالسة.. لم تكن (عبير) ملكة جمال.. لكن كان لها وجه مريح يختلف عن هذا الذي تراه.. ثم إنها اعتادت أن تؤدي كل قصة لها بوجه يختلف عن وجهها، وهو في العادة وجه مليح..
كان ما تراه هو وجه رجل فظ، طال سالفاه المشعثان، وبرزا من جانبي رأسه كالغيلان.. وكانت له لحية شنيعة..



كان ما تراه هو وجه رجل فظ، طال سالفاه المشعثان، وبرزا من جانبي رأسه كالغيلان.. وكانت له لحية شنيعة..

بالمناسبة: هل هذه اللحية مثبتة بالصمغ أم ب...؟

مستحيل! إنها ثابتة تماما.. إنها لحية حقيقية لا شك فيها..

وارتجفت لهول الاكتشاف..
إنها هنا لا تلعب دور الرجل..
الحقيقة هي أنها رجل بالفعل!
وبدأت تفهم..
لهذا كانت بهذه القوة في صراعها مع (روبين هود) أمس، وهكذا تحملت ضرباته.. لم تكن هذه المرة الأولى التي تجرب فيها مشاعر وتكوين الرجال العضلي، فقد سبق لها أن كانت جنديا قويا في جيش (رعمسيس)، وذلك حين لم يجد (دي - جي - ٢) حيلة أفضل لجعلها تشترك في (قادش).. لكن ما مبرره اليوم؟
شيء ما يخبرها أن قصتها أكثر تعقيدا من هذا..
أكثر تعقيدا من تاجر متحمس للانضمام إلى عصابة (روبين هود)..
على كل حال، غسلت وجهها كما أرادت، وعادت إلى حيث الرجال الذين أنهكهم الطعام والرقص والسهر..



صحا الراهب (تاك) فاتجه إلى حيث غسل وجهه بالماء البارد، ثم عاد ليجلس جوارها، وهو لا يكف عن التثاؤب..
سألته (عبير) بصوتها الرجولى الجديد:
- لماذا يسمونك باسم (تاك)؟ اسم غريب لراهب..
- ليس اسما بل نعتا.. إنني أجيد الضرب بالعصا الثقيلة على الرءوس التي آذاها الصداع، حتي لا يسمعوا مني إلا صوت (تاك).. (تاك)
ولماذا؟ أعني كيف أن (روبين هود) عجوز متداع إلى هذا الحد؟ إن سمعته الرهيبة توحي بشاب أكثر فتوة من كل شباب (انجلترا)..
ضحك في شفقة، وقال:
- لقد كان كذلك قبل أن يذهب للحرب.. إن عشرين عاما تغير الكثير.. لكن سمعة المرء لا تموت بسهولة..
سألته وهي تستريح في جلستها:
- هلا كلمتني أكثر عن (روبين هود)؟
في الربع ساعة التالية - بينما الرجال نيام – حكي لها الراهب (تاك) كل شيء عن هذا المغامر الجسور غريب الأطوار..
قال لها:
- أنت تعرف يا (روجر) القبيح كيف أن (النورمان) يعاملوننا نحن (الساكسون) بغطرسة وتجبر.. لقد عبروا (المانش) وأخضعوا (انجلترا) العزيزة للحكم المستبد الذي يمارسه أمراؤهم وكان أبو (روبين هود) - وهو السير (ألفريد هنتنجتون) - يعيش في (شيروود)، يمارس حياة مسالمة مهادنة.. لم يكن يحاول الاصطدام بسادة (النورمان)، كما أنه لم يحاول أن يظفر برضاهم أو يستميلهم إليه، فقط كان يتمنى أن يمنح الفرصة كي يربي ولديه الحبيبين (روبين) و (ماريان)..
وشعاره في الحياة: عش ودع سواك يعيش..
لكن الشر لا يعتنق هذا الشعار أبدا.. ابق في بلدك ولسوف يجيء الشر إليك حتما.. انعزل في أرضك ولسوف يطلبها الشر.. أغلق عليك دارك ولسوف يأتيك الشر قارعا الباب، مطالبا بحق

الأجداد فيها..
وكان مأمور (نوتنجهام) النورماني المتغطرس - ونعرف أن اسمه (روجر) كاسمك - يلعب لعبة ملتوية خبيثة، غرضها أن يزيح ملك البلاد المحبوب (ريكرودس) قلب الأسد، ويتولى أخوه (جونز) الحكم بدلا منه..
وكان الملك (ريكرودس) خارج البلاد في تلك الآونة، ولم يدر بما يدبر من وراء ظهره، وبسهولة تم شراء ولاء الأمراء واحدا واحدا..
المشكلة الوحيدة بالنسبة ل. (روجر) كانت هي السير (ألفريد).. كان بحاجة إلى شراء ولائه بأي ثمن.. لماذا؟ لأن للسير (ألفريد) مكانته وهيبته تجعلان من قبوله شديد الأهمية..
وفي ذلك اليوم المشئوم - من خمسة وعشرين عاما - اتجه المأمور (روجر) مع رجاله إلى قصر السير (ألفريد)، ولم يكن (روبين) وقتها هناك..
عرض (روجر) على السير أن ينضم إليه، فكان الأخير مهذبا كالعادة يحاول أن يسوس أموره، وقال كلاما كثيرا على غرار (أنت ضيفي المحترم والملك ريكرودس مليكي).. لكن المأمور لم يكن ليقبل بشيء غير الخضوع التام وإعلان الولاء كان لا بد أن تتصادم الإرادتان في اللحظة التي حاول سير (ألفريد) أن يؤجلها قدر الإمكان..
وفي النهاية قال في ثبات:
- سيدي.. لقد آليت أن أطيع الأسد لا الذئب!
ولا يمكن فهم هذه العبارة إلا إذا تذكرنا أن (روجر) كان يلقب بالذئب، وذلك لغلظته وشراسته وتوحشه التام!
كانت تلك هي نقطة الختام، وسرعان ما استدار المأمور راحلا، لكنه عزم على أن يعود عندما يتوغل الليل، وفي هذه المرة لم يكن وحده.. كان معه خمسون من رجاله بكامل سلاحهم، وكان يبغي الانتقام..
لاحقا كانت معركة عنيفة استبسل فيها آل (هنتنجتون)، لكن الكثرة تغلب الشجاعة كالعادة، واستطاع المأمور أن يقتل السير (ألفريد) ويخطف (ماريان)، ويفر إلى قلعته الحصينة.. نعم.. هو الذي فر وليس (روبين).. لكن بعد ما حرق قصر السير (ألفريد).
أما عن (روبين) البائس الذي فقد أهله في دقائق فقد دخل غابة (شيروود).. تعلم درسا قاسيا هو أن الغلبة للقوة، والقوي هو صاحب الحق دائما..
كانت الغابة أكثر رفقا ب. (روبين) من كل أكف البشر الممدودة، وهناك عرف أن الطبيعة أمه، وبلونها المختار يتدثر.. كان شعاره اللون الأخضر الذي يواريه بين الأغصان ولم تلبث غابة (شيروود) أن صارت مأوي الهاربين من الطغيان في كل أنحاء (انجلترا).. كل من فقد كل شيء.. يحمل متاعه على عصا فوق كتفه، ويقصد (شيروود) طالبا الانضمام إلى (روبين) الذي صار اسمه (روبين هود)..

وببطء نمت العصابة الفريدة من نوعها.. عصابة لا هم لها سوى إحالة حياة المأمور إلى جحيم.. السطو على الأثرياء، وتوزيع حصيلة السطو على الفقراء..
وفي كل يوم كانت قرى بأكملها ترسل خيرة شبابها، كي ينضموا إلى ثائر الغابة الشجاع، الذي اشتهر ببسالته وبراعته المطلقة في الرماية بالسهام.
جرد (روجر) المأمور حملات عديدة لتطهير الغابة، لكن الأمر كان أكبر منه..
إن إخوان الغابة كانوا كالأشباح أو الشياطين، لا تراهم ولا تسمع لهم صوتا، وفجأة تنطلق السهام من كل صوب لتنغرس في الحناجر، فإن بقيت حيا وثبوا من فوق الأشجار ليمزقوا

أحشاءك.. ثم إنهم يملكون نظاما متقدما للإنذار المبكر والاستشعار عن بعد، كفيلا بجعلهم يعرفون كم أرنبا بريا عبر الغابة في يوم بعينه..
تساءلت (عبير) وهي تتأمل الثوار النائمين الذين لا يبدون خطرين إلى هذا الحد:
- وهل قضوا عشرين عاما في هذا الهراء؟ إن عشرين عاما تكفي للاستيلاء على حكم قارة كاملة وليس (انجلترا) فحسب..
ابتسم الراهب (تاك):
- لم يكن (روبين هود) إلا مجرد ثائر شجاع ولم يكن قادرا على تنظيم ثورة، ثم إن ولاءه لم يتزعزع نحو الملك (ريكرودس) قلب الأسد الملك الذي كان يجهل كل شيء عن ألاعيب المأمور..
- ولم يعرف الملك شيئا طيلة عشرين عاما؟
- بل عرف.. وجاء إلى الغابة في ثياب تاجر ثرى مثلك.. كل من يحاول التنكر هذه الأيام يضع ثياب تاجر ثرى.. وتحرشنا به، لكنه أعلن عن حقيقته، وكافأنا على ولائنا، وأعاد ل (روبين هود) أملاكه واعتباره، وهكذا عم السلام!
نظرت (عبير) إليه في غباء وقالت:
- و (توتة توتة فرغت الحدوتة).. ماذا نفعل نحن إذن وأين نحن؟ نعيش أحداث قصة انتهت منذ عشرين سنة؟ نمارس الأحداث التي ظهرت بعد كلمة (النهاية)؟
قال الراهب وهو يحفر بعصاه خطوطا على الأرض:
- بالطبع لا.. نحن نعيش نفس الأحداث من جديد، لأن الزمن يكرر نفسه، لأن الحمقى لم ينتبهوا في المرة الأولى.
لقد رحل (روبين هود) مع الملك للحرب، وعاش بعضنا هنا وعاد البعض إلى قريته.. وخلال غياب (روبين هود) عاد المأمور الوغد يمارس سلطاته، واستولى على جل ما كان يملكه قبل أن يصحح الملك (ريكرودس) الأوضاع، وهكذا عاد (روبين هود) من غزواته، ليجد أن الوضع لم يتغير كثيرا عما كان قبل رحيله.. مازال المأمور طاغية متجبرا، وما زلنا نحن نقطع الطريق ونتوارى في الغابة، ومازال السلام عزيز المنال...
الفارق الوحيد هنا هو أن (روبين) قد شاخ وكذلك فعل المأمور.. لكن الأول شاخ من أهوال الحروب، والثاني شاخ من الملذات والطعام الدسم..
- وأنتم كذلك شختم طبعا.
- بالتأكيد.. لكن حياة الغابة جعلت السنين أكثر رفقا بنا..
ساد الصمت برهة، ثم سألته:
- وماذا عن (ماريان)؟
- إنها الآن عجوز شمطاء، لكن المأمور مازال يحتفظ بها في سجن بقلعته وهو يعتقد أنها ورقة ضغط لا بأس بها على (روبين هود).
- وسبب لاستمرار الحرب ما دام الرجلان حيين..
بها أو بدونها لن يتغير شيء.. إن (روبين) والمأمور شبيهان بالقط والفأر بالنار والماء بالقيظ والقر.. والحرب بينهما لن تنتهي أبدا إلا بوفاة واحد منهما.
في إشفاق نظرت إلى (روبين هود) الغارق في النعاس، والذي فتح فاه إنهاكا فسال منه خيط من لعاب.
غريب حقا أن يكون هذا هو بطل السكسونيين وأملهم في الخلاص.. فلو رآه الشعراء الشعبيون

لترددوا ألف مرة قبل تأليف (بالاد) جديد يصف بطولاته.

☆ ☆ ☆

سألت الراهب وهي تضغط على بطنها:
- ما هو طعام إفطاركم هنا؟
أشار إلى الغابة بحركة أريحية، وقال:
- كل شيء.. لو اصطدت أرنبا فبالهناء والشفاء.. لو وجدت ثمارا على شجرة فبها ورحبت..
كادت تصارحه أنها تصاب بالإسهال لو أكلت فاكهة على الريق، وأنها تمقت الأرانب لأنها تذكرها بالفئران، ثم آثرت الصمت..
نظرت حولها ثم سألته:
- هل لي من جواد؟
- بالطبع.. لدينا عدد كبير من الجياد المسروقة ولكن.. أين؟
- سأبحث عن طعام يصلح في (نوتنجهام)..
- خذ الحذر.. إن رجال المأمور في كل مكان وهم لا يمزحون... ابتسمت وأشارت إلى ثيابها..
كانت هي الكائن الوحيد الذي لا يلبس اللون الأخضر هنا، ثم إن منظرها يختلف عنهم بكثير.. منظر التاجر الثرى المتأنق الذي يغرى بالاحترام أو بالطمع أو بالحسد أو بالازدراء، لكنه لا يغرى بالشك أبدا..
واقتادها إلى خميلة تقف جوارها بعض الخيول الإسكتلندية ترعى العشب، فانتقت حصانا ووضعت السرج على ظهره.
وبوثبتين كانت هناك.. ليس ركوب الخيول مشكلة في (فانتازيا) طبعا..
- خذ الحذر يا (روجر) القبيح.. ليكن الشك ميثاقك!
لا تخف أيها الراهب..
وانطلقت بالحصان خارجا من غابة (شيروود)..

☆ ☆ ☆

5- شيء مريب..

لماذا قررت أن تذهب إلى (نوتنجهام)؟
لا أعرف وهي لا تعرف.. هل يعرف أحدكم؟



تمشي بحصانها وسط الأسواق المزدحمة المفعمة بالفقراء والرعاع والشحاذين، يتشاجرون من أجل هذا أو ذاك.. عربات خشبية مغطاة بالقش يقف فوقها البائعون ببضاعتهم، يبيعون القرع والبطيخ والعنب والدجاج..
ووسط هذا الزحام يمشي العسكر.. دائما لهم ذات المظهر المهيب المقلق.. في هذا العصر يرتدي كل منهم ما يشبه غطاء الرأس المتصل بحرملة تغطى الكتفين، وهي من السلاسل الحديدية المجدولة، وفي يد كل منهم رمح، وعلى صدر سترته شعار من شعارات القرون الوسطى، يمثل ذئبا يفتح شدقيه عن آخرهما..
يمشون في كل مكان.. يركلون هذه السلة أو تلك بحجة أن بائعها يسد الطريق، ولا بأس من التقاط تفاحة من هذا البائع أو ذاك على سبيل الرشوة، ولا بأس من مغازلة تلك البائعة الحسناء، أو هاته.
تنظر (عبير) للأفق لترى القلعة.. القلعة الشامخة التي تطل على هذا كله.. وفوق برجها يرفرف العلم الذي يحمل ذات شعار الذئب.
تهيب بجوادها كي يتقدم نحوها.
لماذا؟ لا تدري.. كان هذا نوعا من النداء الغامض الذي هو أقوى منها.. إن مسار القصة هو ما يحركها، وليست إرادتها الخاصة.



وتصل إلى القلعة حيث الخندق العملاق، والجسر الخشبي الهابط، والذي يرفعونه وقت الحصار..
لم يعترض الحراس الكثيرون دخولها، بل إن بعضهم لوح بذراعه محييا.. هوووم! غريب هذا!
ثم رأت واحدا من الحرس تنم ثيابه، وتنم سنه على أنه أرفع مقاما من الآخرين.. ربما هو ضابط أو قائد للحرس يمد يده لمقود جوادها ليوقفه، ويقول بلهجة تقريرية:
- هلم يا (باتريك).. إن الذئب ينتظرك منذ الفجر! الذئب ينتظرني؟ ألم أقل لكم إن هذا كله غريب؟
وتترجل (عبير) وتشق طريقها إلى داخل القلعة..
قلعة عصور وسطي معتادة بقذارتها وكلابها الضالة، والمشاعل على الجدران، ودوريات الحرس في كل مكان.
ثم تبرز فتاة حسناء تضع طرطورا على رأسها - يبدو أن هذه من سمات الأناقة في هذا العصر - فتهرع نحو (باتريك) في لهفة، وبكفيها تحتضن خديه، وتهتف ملهوفة:
- (باتريك) أيها الحبيب! كدت أموت خوفا!
طبعا لم تستطع (عبير) بعد أن تتخلص من مشاعر الأنثى، وقد شعرت بارتباك حقيقي من هذا

الاستقبال العاطفي المشبوب، لكن لسانها لم يتركها في هذا المأزق:
(بياتريس) أيتها الحسناء.. تذكري أن الرجال من حولنا!
- وهم يعرفون كذلك أنك خطيبي!
إذن ف. (عبير) الآن تدعى (باتريك)، وهذا الأخ (باتريك) هو خطيب هذه الحسناء المتحمسة.. منذ متى تزف الصقور إلى الحمائم؟
لقد رأت (عبير) وجهها في الغدير هذا الصباح وتعرف أن لها وجه غول لو أن الغيلان كانت أقبح..
فما سر افتتان هذه اليمامة بغول؟ ومن هي (بياتريس) أصلا؟
تملصت (عبير) من خطيبتها المتحمسة، ومشت مع الرجال إلى ممر طويل.. واضح أنه سجن من سجون العصور الوسطى، لأن القضبان الحديدية كانت على الجانبين، وبالداخل مخلوقات تعسة تذكرها بالكلاب التي تنتظر الإعدام في (الشفخانة).
لقد كان كل سجين مربوطا بالسلاسل من أطرافه الخمسة.. نعم خمسة لأن سوارا حديديا كان يحيط بالعنق.. وكانت حالته الصحية غاية في السوء، والرائحة تنم عن أن الاستحمام عادة لم توجد بعد هنا.. كتلة شعر متسخة مكبلة بالأصفاد، ترمقها بعيون هي مزيج من التوحش والشقاء، والألم الذي اختلط بالجنون..
عند نهاية الممر كانت قاعة هائلة..
عرفت الذئب من النظرة الأولى..
لقد كان بحق ذئبا، ولولا المبالغة لرفع عقيرته إلى السماء وأطلق عواء طويلا حزينا.. وأدركت أن عينيه تلمعان في الظلام.. لا تدري كيف، لكن هاتين العينين تصلحان بالتأكيد.
كان واقفا جوار المدفأة وقبضتاه في خصره، وهو يرمقها بنظراته النارية التي تنبعث من تحت حاجبيه الكثين..
وأدركت أنه في عمر (روبين هود) تقريبا، لكن صحته أفضل وعزيمته أقوى.. لا بد أنه كان مرعبا كالموت منذ عشرين عاما، لكنه الآن مخيف فقط....
- ادخل يا (باتريك)، وقل لى ما أحرزت من نصر!
قالها بصوت غليظ آمر..
هنا بدأت (عبير) تشعر بأن الأمر مريب..
تقدمت إلى المدفأة، ونظرت إلى قدميها في تبجيل، وقالت الكلمات التي كانت تخشى أن تقولها:
- تحية يا بارون (روجر).. لقد تم الأمر كما أردت ولم يرتابوا في شيء!

☆ ☆ ☆

6- صراع الواجب والعاطفة.. [عنوان مبتذل لكنه صالح جدا]

بعينين توشكان على الانفجار بالدموع، وبقلب مثقل، راحت (عبير) تقدم تقريرها للذئب عن أحداث يومها الصاخب في غابة (شيروود)..
كان هذا يسمعها دون أن يطفئ كشافية القويين - عينيه - لحظة واحدة، ومن حين لآخر يقتطع شريحة من اللحم النيئ من فخذ يسيل منها الدم على المنضدة أمامه، فيدسها بطرف السكين بين أسنانه ويمضغ طبعا.. هذا مزاج كمزاج الوحوش لا يستطيع الحياة دقيقتين دون لحم..
إن المهانة تغمرها، والخزي يغلفها بطيلسانه..
هذا إذن دورها في هذه القصة.. لقد كانت من البداية في معسكر الشر لا الخير، وكان ما فعلته لدى (روبين هود) مجرد خدعة.. خدعة حقيرة للاندساس في صفوف المقاتلين الشرفاء، الذين لا يملكون سوي حياتهم.. ومن الواضح أن هذا ال (باتريك) مقرب جدا لدى المأمور إنه كذلك خطيب ابنته.. كيف عرفت أن (بياتريس) ابنته؟ لأنه قال:
- إن ابنتي (بياتريس) كانت تشعر بقلق عارم عليك.
ثم إن المأمور تساءل وهو يجوب القاعة كما يفعل (نابليون) عشية موقعة (أوستر ليتز):
الآن ما هي انطباعاتك عن استعدادات هؤلاء الأمنية؟
قالت (عبير) / (باتريك) وهي تتمنى لو تخرس:
- ليسوا بهذه اليقظة، ولولا أنني لم أتلق أوامر صريحة لقمت بذبحهم وهم نيام..
بدا البشر على المأمور، واقتطع شريحة لحم أخرى:
- ما كنت تجد الوقت الكافي لذبح كل هؤلاء يا بني.. لكنك كنت تقدر على قطع رأس الأفعى..
ثم عقد يديه وقال:
- هذه هي أهم خطوة قمنا بها.. رجل من رجالنا - بل وخطيب ابنتي - قد صار فردا من عصابة (روبين هود).. كانت خطتي بارعة من البداية يا (باتريك).. إن أحدا لا يعرف وجهك في (نوتنجهام) كلها، ولست (محروقا) ككل رجالي البلهاء، كما أنك لست غبيا، وبراعتك في القتال التي اكتسبتها مع الإيرلنديين جعلتك إغراء لا يقاوم.. إن هؤلاء اللصوص في (شيروود) يثقون تماما بكل من يقف ندا لهم في القتال.. شعارهم هو (القوة معناها الشرف)، وهو شعار أحمق بالتأكيد ينم عن طفولة بالغة، إن الخنزير البري خصم قوي مخيف لكن أحدا لن يتهمه بالشرف قط.
كانت (عبير) تسمع هذا كله، وتمتلئ خجلا، لكنها لا تجرؤ على الكلام.. الأمر بعد كل شيء لم يتم باختيارها.. (دي - جي ٢) الأحمق اختار لها دور رجل.. بل ورجل خائن..
قال لها المأمور، وهو يقطع شريحة لحم جديدة:
- الآن يا (باتريك) أنصحك ألا تجيء هنا مرة أخرى.. إن السوق يعج برجال (روبين هود)، وإذا لم يروك تدخل القلعة اليوم فلربما يرونك غدا..
حتى لو كنت متنكرا بثياب تاجر ثرى فلا مشكلة هنالك.. كل الرجال اليوم يتنكرون بثياب تجار أثرياء..
ثم أخرج من جيبه قارورة صغيرة، وطوحها في الهواء صوب (عبير).. بمعجزة ما نجحت في التقاطها برغم أنها لم تفلح في ذلك قط.. إن ل (باتريك) قدرات غير عادية..
قال المأمور:

- هذه هدية من آل (بورجيا) في (فلورنسا).. أنت تعرف ولعهم بالسم إلى حد أن زجاجة السم توضع على مائدة الطعام جوار الملاحة.. أنت تعرف الباقي..[1]
وكانت (عبير) تعرف تاريخ آل (بورجيا) الذي لا يعدو سلسلة طويلة من حوادث التسمم.. كما كانت تعرف أنها لن تستعمل هذه الزجاجة أبدا.. لكنها أخذتها ودستها في جيبها.
قال المأمور برضا:
- إنهم بالطبع يطهون طعامهم في قدر كبير..
بعدها تعلن أنك متوعك ولن تشاركهم العشاء.. كل هذا سهل هين..
ثم تقدم نحو (عبير) / (باتريك) ووضع يده الثقيلة المشعرة على كتفه، وقال:
إن مكافأتين تنتظرانك يا (باتريك) يوم تخلصني من هؤلاء..
لم تسأل (عبير) عن المكافأة الأولى، فهي بالتأكيد مبلغ مالي أو أن تصير هي المأمور إذ يترقى هذا.
أما المكافأة الثانية فهي حتما الزواج بابنة الرجل.. وكلا المكافأتين لا تناسبانها أبدا.. إنها في ذلك زاهدة أشد الزهد.. لكنها بالطبع قالت:
- اعتمد على يا سيدي المأمور..
وانحنت في أدب، ولملمت عباءتها واتجهت للباب، شاعرة بالنظرات الحادة للذئب العجوز مسلطة على ظهرها، حتى لتحرق عباءتها حرقا.. هذا الرجل قضى حياته في الشكوك حتى لم يعد قادرا على النظرات الودود.
وخرجت إلى ساحة القلعة، فأمسك أحد الحراس بلجام حصانها، على حين وثبت إلى ظهره، وانطلقت تركض عبر السوق..
كانت تعرف أن جواسيس (روبين) كثيرون هنا بالتأكيد.. هكذا تعلمت من القصص، وتعرف أن المتسولين الذين تراهم حولها ليسوا كذلك.. لكن لتأمل ألا يلاحظ أحدهم وجهها..
وبعد قليل.. كانت قد غادرت المدينة، وراحت تركض في الخلاء بين الأشجار متجهة إلى (شيروود)..



في الطريق كانت غصة شديدة في حلقها..
إن المأمور - برغم شره - يثق بها ثقة غالية ومن العسير أن تخونه، لأن الخيانة هي الخيانة
و (روبين هود) مطمئن إليها، ومن العسير أن تدس له السم..
إذن ما هو الصواب؟ الصواب هو أن تتخلص من قنينة
السم وتنسى الأمر برمته، الصواب أن تتخذ جانب (روبين هود) لأنه الخير.. أو من الواضح أنه الخير..
وحين دخلت الغابة، ماشية بين الأشجار المتدلية، قاصدة تلك السنديانة العجوز، كانت قد اتخذت قرارها..



وكان الرجال جالسين يلتهمون طعام الإفطار، المكون من الحليب والعسل واللحم.. خليط غريب بعض الشيء..
جلست جوار (جونز) الصغير الذي ابيضّ شارباه من الحليب، وسألته:

- هل هناك أبقار هنا؟
- وما أهمية الأبقار؟
- الحليب.. أنتم لا تحصلون عليه من السناجب على ما أظن؟
- آه كلا.. نحن نحصل عليه من الفلاحين.. نبيعهم ما نسرقه مقابل الحليب والعسل..
- آه فهمت..
وخطر لها أن (روبين هود) يملك حقا عددا هائلا من المعجبين في ربوع (انجلترا).. إنها جاذبية الخارجين على القانون الشهيرة، خاصة إذا كان خروجا على سلطة شمولية ظالمة.. في (مصر) نجد (أدهم الشرقاوي)، وفي (انجلترا) نجد (روب روي) و (روبين هود) وفي (أستراليا) نجد (نيد كيللي)، وفي (أمريكا) نجد (وايلد بيل هيكوك).. دائما هناك البطل المتفرد الخارج على قيود السلطة، ودائما هناك الفلاحون الذين يساندونه سرا، ويعجبون به، وينظمون الأغاني في مدحه، ودائما هناك السلطة الغبية الفظة الطائشة التي تبحث عنه في كل مكان، بينهما هو كالشبح لا يمكن الإمساك به.. إلى أن تجيء اللحظة..
لا بد من اللحظة النهائية التي يتم فيها القبض على البطل، وإعدامه غالبا.. وهي اللمسة الأخيرة المطلوبة لتحويل قصته إلى ملحمة ينشدها الشعراء حول النار ليلا.. اللمسة التي تعطي القصة طابعا مأساويا محببا
سألها الراهب (تاك) قاطعا حبل أفكارها:
- هل وجدت ما تريد في (نوتنجهام)؟.
ارتبكت (عبير) حين بوغتت بالسؤال، وتحسست رأسها بحثا عن بطحة وهمية، ثم قالت:
- إ.. ليس تماما.. ابتعت بعض الخبز وأكلته هناك..
وابتلعت ريقها لتتفادى نظرات الرجال النارية
قال (روبين هود) بصوته العجوز الواهن:
- إن مهمتنا اليوم محددة يا رفاق.. إن (ويليام) زميلنا سيشنق في (نوتنجهام) اليوم عندما تتوسط الشمس السماء.
فتعالت أصوات الـ (أوه) والـ (آه) و (آخ)..
وقال الراهب (تاك)
- لحظة.. ألم نقل إنه سيشنق يوم الأحد القادم؟!
- كان هذا تمويها من المأمور.. لكنه سيشنقه اليوم.. هذا مؤكد، وقد تم إعداد منصة الإعدام والحبل.. وكل التفاصيل المبهجة إياها..
- وما هي خطتنا..
أشار (روبين) إلى (جونز) الصغير، وقال:
- نفس الروتين.. سنتجه إلى هناك بثياب المتسولين.. وعلى الراهب (تاك) أن يتولى الصلاة على المحكوم عليه كما هي العادة..
هنا تساءلت (عبير) في غباء:
- نفس الروتين؟ هل تنفذون الخطة ذاتها في كل مرة؟
- بحذافيرها..
- وفي كل مرة لا يأخذون حذرهم؟
- إنهم حمقى، وهذا لحسن حظنا..
وأضاف الراهب (تاك):

- ليس هناك سوى رجل واحد خطر في رجال المأمور.. إنه المأمور نفسه.. فهو شديد الذكاء سريع البديهة.. يقال إن خطيب ابنته القادم من (إيرلندا) أشد خطرا ودهاء، لكننا لم نتعامل معه ولا نعرف شكله..
ابتلعت (عبير) ريقها، وتظاهرت بأنها ليست خطيب ابنة المأمور القادم من (إيرلندا)، لكن تظاهرها لم يكن بالمستوى المطلوب.
عاد (روبين هود) يشرح خطته:
- سنتجمع هناك الآن.. ونبدأ في التسول.. (روجر).. أقترح أن تتبعنا مرتديا ثياب متسول آخر.. لا بد من أن تدرس أساليبنا في العمل..
هزت رأسها أن نعم، وإن شعرت بارتباك بالغ هل يتوقع منها المأمور أن تنذره؟ هبها لم تفعل.. من المفروض أن تنذره.. سيكون غضبه شديدا..
لكنها تشعر الآن بارتباط قوي برجال (روبين هود).. إن المرء لا يفكر مرتين قبل أن ينحاز إلى الخير..
في الغالب سيعرف المأمور اختيارها هذا سريعا جدا.. وليكونن غضبه مرعبا..



وبعد ساعة ازداد عدد المتسولين في سوق (نوتنجهام) نحو خمسين متسولا جديدا..
تفرقوا في كل صوب، وراحوا يضايقون كل من يبدو ثراؤه للعيان، ولا بأس من نشل كيس ذهبه إذا كان في موضع مكشوف..
وكانت الأخبار التي وصلت إلى (روبين هود) صحيحة.. ها هي ذي الراية السوداء ترتفع فوق القلعة، وها هم أولاء النجارون يتأكدون من سلامة المنصة المخصصة للشنق، وارتفاع الطبلية.. إلخ.
ثم توسطت الشمس الأفق..



- ٧جولة بارعة..

بدأت الطبول تدق، وخرج من القلعة صفان من الجنود ذوي أغطية الرأس المصنوعة من السلاسل إياها، وبين الصفين كان شيء مقيد يتعثر.. أقول شيء، لأنه لم يكن يمت للبشر بصلة.. كائن أشعث مغبر متورم الوجه من فرط الضرب، يسيل الدم من أنفه، وفي عينيه نظرة حيوان جريح.. وبالطبع كان مقيدا بالحبال..
وتعالت صيحات الدهماء من فرط الحماس.. شنق! يا للبهجة!
خطر لـ (عبير) كم أن هؤلاء حمقى.. إن المشنوق واحد منهم.. واحد من المدافعين عنهم، يشنقه أعداؤهم ومستغلوهم.. لكن الجماهير لا عقل لها كما سيقول (أحمد شوقي) بك يوما ما في مسرحية (كليوباترا)، وكما سيعرف (جوبلز) وزير دعاية (هتلر) يقينا..
إن الدهماء يتصايحون ويتدافعون، والأمهات يرفعن أطفالهن فوق الرءوس ليروا هذا المشهد المسلي المناسب لبراءة الطفولة..
وعلى المنصة يقف السجين مع جنديين، ومع رجل يرتدي طرطورا غريب الشكل لا بد أنه يدل على رفعة المكانة..
فتح ذو الطرطور لفافة ورقية لها مقبضان من خشب في أعلاها وأسفلها، وصاح بصوت أخرس الجماهير:
- هييري... هييري! بما أن جرائمه وخيانته ثبتت بما لا يدع مجالا للشك، وبما أن انضمامه لعصابة (روبين هود) الخارج على القانون أمر له مرتبة اليقين لدينا، نحن (روجر ملتاون) مأمور (نوتنجهام)، فإننا - بضمير مستريح - حكمنا عليه بالإعدام شنقا حتى الموت..
وأغلق الرجل اللفافة وتنهد في رضا..
جاء الجلاد الملثم، وبدأ يُعدّ الحبل الغليظ ليحيط به عنق الرجل، على حين سأله أحد الضباط:
- (ويليام).. يمكنك طلب الرأفة الآن.. لربما كان قلب العدالة رحيما..
قال السجين شيئا ما:
- شاشا شيع.. شناني شاشاشرت شلها!!
- ماذا تقول؟
قال الرجل ذو الطرطور:
- يقول إنه لن يستطيع يا سيدي.. لقد تهشمت أسنانه كلها..
هذا مؤسف.. يمكننا البدء إذن..
هنا صاح صوت من وسط الجماهير:
- توقف! لن يموت هذا الرجل دون رجل دين بجواره!
نظر الضابط حوله، فلم يجد رجل دين.. قال في سأم:
- هذا مطلب عادل.. لكن أين القس؟
بالطبع لم يكن القس هنا، لأن إبعاده تم منذ ساعة في هدوء تام.. وبالتالي خلت الساحة أمام الراهب (تاك) الذي لوح بذراعه وسط الحشود، وصاح:
- أنا مستعد يا سيدي..
تقدم إذن أيها الراهب..
وصعد (تاك) إلى منصة الإعدام، وأدركت (عبير) أنه تخفى بطريقة بسيطة جدا.. جعل قلنسوته

تنزلق لتغطي رأسه تقريبا، لكن هذا لم يخفه تماما..
وسمعت مواطنا يقول لصديقه:
- تبا! لن يكون هناك شنق! لقد رأيت هذا المشهد عشر مرات من قبل.. سينقذون السجين ويهشمون رءوس الحراس..
وكان الراهب (تاك) واقفا خلف السجين، يهمس بكلمات الصلاة في أذنه، ثم تراجع إلى الوراء وهبط على درجات المنصة، وهو يقول في قنوط:
- يمكنكم البدء يا سادة..
وهكذا رفع الضابط يده ليعطي إشارة البدء للجلاد..
دقات الطبول... ثم..



وكما توقعت (عبير) انطلق السهم يصفر فوق الرءوس، ليستقر في يد الضابط المرفوعة في السماء..
صرخ هذا من فرط الألم، وحاول انتزاع السهم.
وفي ذات اللحظة تقريبا غرس السجين – الذي مزق الراهب قيوده - مدية حتى مقبضها في صدر الجلاد العريض..
ومن عدة أماكن في الزحام انطلقت السهام لتستقر في بطون الحراس، أو وجوههم، باعتبار أنه لا توجد دروع ها هنا..
وحانت نظرة عابرة من (عبير) إلى (روبين هود)، فرأته يحاول التصويب بالقوس والسهم بيد مرتعشة راجفة، وفي لحظة الانطلاق رأت (جونز) الصغير يطلق سهما آخر من وراء كتف (روبين هود)،
وبالطبع كان من الواضح أن السهم الذي أصاب الضابط كان سهم (جونز)، لكن (روبين هود) لوح بالقوس في رضا
التقت عيناها بعيني (جونز) المتوحشتين، فالتمعت في عينيه نظرة من طراز (النبق - ما - رأيت - سرا)..
وعلى المنصة ساد الهرج، لأن الجنود راحوا يتراجعون دون نظام، وبرز أحد رجال (روبين هود) على صهوة جواد، وبيد من حديد ساعد السجين على أن يركب أمامه فوق السرج.. ثم لوح بسيفه في الهواء صائحا:
- لقد انتصر من على حق! الموت للمأمور!
ولم يحتج الجمهور إلى تفسيرات أخرى، إذ راح يهلل بدوره..
وتعالت صيحات الهتاف لـ (روبين هود) والدعاء على المأمور، حتى كادت (عبير) تجن غيظا..
لقد تحول موقف العامة خلال ثانية من المطالبة برقبة السجين إلى المطالبة برقبة السجان! ماذا تقول عنهم؟ دهماء!
وقد قرأت موقفا مماثلا لتحول آراء الجماهير مائة وثمانين درجة في مشهد المواجهة الشهير بين (أنطونيوس) و (بروتوس) في رائعة شكسبير (يوليوس قيصر).. إنه يلخص كل شيء..
ها هو ذا الحصان يشق طريقه وسط الجموع، وقد صار اللحاق به عسيرا لأن الجماهير صنعت حاجزا يحول دون الحراس والوصول إليه، وفي سلاسة ولطف راح رجال (روبين هود) يتسللون الواحد تلو الآخر.

إن الجياد تنتظر عند الطرف الجنوبي للسوق..
أما (روبين هود) فذاب وسط الزحام، لكنها أدركت من الهتاف أن القوم حسبوه هو راكب الحصان..
حماقة أخرى من الحماقات.. فكيف يحتفظ الرجل بشبابه وفتوته عشرين عاما كاملا؟ إنما يحسب العامة أن أبطالهم لا يشيخون.. ولا يهرمون ولا يموتون..
وسرعان ما وجدت (عبير) نفسها تلحق بالرجال..

☆ ☆ ☆

وانطلق الموكب - موكب الخارجين على القانون - في الطريق إلى (شيروود) لا يلوي على شيء..
إن الوصول هناك يعني زوال الخطر تماما.. لأن رجال المأمور لا يجسرون على دخول الغابة..
لكن هناك نحو خمسين منهم يركبون خيولا سريعة، ويركضون كما تركض الفهود وراء موكب الشجعان...
نظرت للوراء وأدركت أن الفرار مستحيل حقا..
إن المسافة تضيق.. وتضيق..
- توقفوا!
كذا صاح (جونز) الصغير، وشدة لجام حصانه المسرع، فوقف الحصان على ساقية الخلفيتين صاهلا بذلك المنظر المألوف لحصان تتم (فرملته)، وكذا فعل الباقون..
أصيب رجال المأمور بالدهشة، وهم يرون المطاردين يقفون بلا حراك بانتظارهم، وكان تفكيرهم – الجنود - بطيئا نوعا..
في الثانية التالية هوت شجرة غليظة أمامهم أثارت هلع الخيول واهتزت الأرض لدويها..
ثم هوت شجرة أخرى من خلفهم، وتكرر المشهد..
- كمييين!
كذا صاح أحدهم وهو يلوح بسيفه..
متأخرا طبعا كالعادة لأن السهام انطلقت من الأشجار كسرب من جراد نحو الجنود وخيولهم، وكل ما يمت لهم بصلة.
كانت مجزرة حقيقية شارك فيها رجال (روبين هود) الذين كانت بينهم، وراح الجنود يثبون بخيولهم فوق الشجرة الغليظة التي سدت عليهم سبيل التراجع.. لكن قليلين فقط هم الذين أفلحوا، وقد أفلحوا فقط بفضل دعاء الوالدين.. وليس لبراعة خاصة لديهم..
استمر سيل السهام القادم من الأشجار نحو دقيقة، لكنه كان كافيا كي يحيل رجال العمدة إلى بطاقات مثقبة صالحة للحاسب الآلي، وقال (روبين هود) لرجاله في رضا:
- فلنواصل الانسحاب..
نظرت له (عبير) منبهرة:
مازال هذا العجوز بارعا قادرا على التخطيط بدقة.. لقد رسم كل شيء وتحسب للمطاردة، لذا ترك بعض رجاله فوق الأشجار بقسيّهم وشجرتين مقطوعتين مربوطتين بالحبال تنتظران لحظة مرور رجال المأمور..
حقا إنه لبارع..

☆ ☆ ☆

وفي (شيروود) كان الاحتفال مبهرا..
المزيد من لحم الغزلان المشوي والرقص.. حتى قدرت (عبير) أن حياة هؤلاء القوم هي سلسلة لا تنتهي من القتل بالسهام ثم الاحتفال ثم القتل بالسهام بعد الأكل واصل (روبين هود) نومه الطويل، على حين التف الرجال حول (ويليام) يسألونه عن سجن المأمور.
قال لهم في حماس:
شاشيء.. لم أشيئا شوى الشرب وشيد من الشرب..
فسر لهم الراهب (تاك) الأمر:
- إن أسنانه محطمة لهذا صارت الأبجدية كلها حرفا واحدا هو (الشين).. لكنه يقول إنه لم ير في السجن شيئا.. لقد كان يضرب طيلة الوقت فلم يجد متسعا من الفراغ للملاحظة..
جلست (عبير) جوار الراهب (تاك).. وسألته همسا:
- هل (روبين هود) هو صاحب هذه الترتيبات؟
قال بهمس مماثل:
- بالطبع لا.. أنا و (جونز) الصغير نقود المجموعة فعلا في هذه الآونة الكئيبة..
ثم هتف وكأنما يصحح خطأ جسيما:
- لا أعني بهذا أن (روبين هود) العظيم قد انتهى.. لكن للسن أحكامها، ولنقل إن مقدرته على التخطيط لم تعد كما كانت، لكننا نستهدي بالخطوط العريضة التي رسمها لنا..
قالت وقد تذكرت مشاجرة أمس:
- كان قويا.. لم يكن خصما سهلا بحال..
- بالطبع.. إن (روبين هود) لم ينته.. لنقل إن بريقه تدني قليلا.. لهذا نحرص على ألا يراه الناس بحالته هذه.. لا بد أن يروه براقا لامعا متألقا في كل لحظة..
- لهذا حسبه الناس (جونز) الصغير
- تلك هي الصورة التي تحاول تدعيمها.. إن (جونز) نموذج للقوة العاتية الرجولية، وهو الشكل الذي نتمنى أن يرى الفلاحون (روبين هود) عليه..
ثم نهض الراهب (تاك) وصاح في قطاع الطريق:
- استراحة! فليفعل كل ما يروق له، ولكن أريد ثلاثة ناضورجية يقظين..
وهكذا تفرق الرجال وقد انتهى برنامج اليوم، وحتى (ويليام) الهارب من السجن ذهب ليستحم، ويرتدي الأخضر..



عند الغروب صاح الناضورجية أن فارسا يدنو من الغابة، ودوي صوت النفير إياه، وهرع الجميع إلى غصون الأشجار يراقبون الطريق القادم من الغابة..
كان القادم فارسا مدرعا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكانت عيناه تتواريان وراء خوذة عجيبة من خوذات القرون الوسطى الشبيهة برأس ديناصور، وكان يحمل رمحا بالغ الطول يصلح ليطعن به القمر ذاته، وقد تدلت منه بعض الأعلام المثلثة..
هنا قال الراهب (تاك) في اطمئنان:
- لا تقلقوا.. إنه زميل آخر..
ورفع يده محييا، وصاح وقد صار مرئيا للفارس:
- مرحبا يا (إيفانهو).. تفضل!

اكتفي (ايفانهو) بأن لوح برمحه محييا، وواصل رحلته بحثا عن المتاعب.. عن أشرار يجعل حياتهم جحيما أو أبرار ينقذهم..
قالت (عبير) وهي تسترخي موجهة كلامها للراهب:
لديكم كثير من وقت الفراغ في العصور الوسطى هذه..
لم يفهم طبعا.. فكيف يعرف من يعيش في العصور الوسطى أنه في العصور الوسطى؟ وكيف يعرف من ولد عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أنه قبل الميلاد؟ لكنه قال وقد فهم جزءا من تلميحها:
- إن الفروسية هي القيمة العظمى هنا.. إن الفارس يتلقى تعليما جيدا خلقيا وبدنيا، ثم يتم تعيينه فارسا.. في الغالب تكون له حبيبة حسناء يقسم على أن يحقق لها الأمجاد، ثم ينطلق بلا هدف بحثا عن المتاعب عن لصوص يهشم رءوسهم أو تنين يصارعه.. فيما بعد سيكتب الإسباني (سرفانتس) قصة ممتازة عن فارس من هؤلاء.. أو واحد حسب نفسه فارسا من هؤلاء..
- قالت في لهجة من يعرف كل شيء:
(دون كيشوت) طبعا.. لقد صار رمزا عالميا لتحدي المستحيل، وشعراء الحداثة مولعون به بشكل خاص..
وبدأ الرجال ينسحبون من جديد إلى مواقعهم في الغابة، وأدركت (عبير) أن جدول أعمال اليوم انتهى..



كان الليل قد جاء، واشتعلت النار التي التف حولها الرجال يشوون طعامهم.. إن الليل ساعة خطرة لأن
المأمور يحب القيام بغاراته في هذا الوقت بالذات.. كما قلنا هو يملك طبائع الذئاب..
لهذا كان عدد الناضورجية يزداد أكثر من اللازم حول أطراف الغابة.. كما أن الكلاب كانت لها أهمية خاصة في هذا المضمار حين تكون للرائحة أهمية الحياة ذاتها..
كلاب؟ أين الكلاب؟
من وراء الأشجار جاء رجلان ضخما الجثة أصلعا الرأس، يحملان بين أيديهما شيئا أسود ضخما بدوره..
ألقياه على الأرض فأدركت (عبير) أنه كلب ميت..
ساد الصمت.. لا شيء سوى الفرقعة الخافتة للأغصان المحترقة، وضوء اللهب الراقص يلقي بعلامات استفهام على الوجوه..
دنا (روبين هود) من الجثة تأملها في اهتمام ثم رفع وجهه!

سأل بصوت آمر برغم شيخوخته:
- من فعل هذا؟

قال أحد الرجال وهو قصير القامة، حلق شعره بالموسى على جانبي الرأس فبدا مضحكا:
- أنا فعلت يا (روبين).. كان لا بد أن أعرف..
- أحمق! تضيع علينا كلبا ثمينا لمجرد التجربة..
قال (جونز) الصغير وهو يرتجف انفعالا:
- ربما كان الأسلوب أحمق.. لكن النتيجة واضحة.. إن القارورة التي وجدناها كانت تحوي سما زعافا!
قارورة! أية قارورة؟
وتحسست (عبير) جيبها خلسة، فأدركت أن القارورة التي أعطاها إياها المأمور صباح اليوم لم تعد هناك..
يا لها من بلهاء! لقد سقطت منها ووجدها أحدهم ولأنهم حذرون فقد قرروا أن يختبروا المادة الموجودة بها، وأطعموا الكلب قطعة شواء سكبوا عليها قطرات منها.. بالطبع لم يجد الكلب ما يريب من ناحية الرائحة ولا الطعم.. إنها سموم آل (بورجيا)، وهم لم يكسبوا شهرتهم لأنهم هواة أو يحبون المزاح..
تساءل (روبين هود):
- أين تقولون إنكم وجدتم هذه القارورة؟
جوار السنديانة العجوز..
راح يحك لحيته التي وخطها الشيب، وقال:
- قارورة سم في غابة (شيروود).. هذا لا يمكن أن يحدث بالصدفة.. هناك من جاء بها إلى هنا، وهو بالطبع واحد منا.. فما الذي يبتغيه من جلبها؟
صاح (جونز) الصغير وعيناه تشعان نارا:
- بالطبع يبغى أن يسممنا! لا توجد دبابير هنا يحاول الخلاص منها..
- ومعنى هذا أن..
- معناه أن هناك خائنا بيننا!
وازدادت النيران توهجا..
ومعها ازدادت العيون والقلوب اشتعالا...

☆ ☆ ☆

- 8أنت لم تعُد منا..

خائن بيننا؟ خائن بيننا؟
صاح (روبين هود):
- ولكن من؟ مَن مِن إخوان الغابة يقبل أن يسمم إخوانه؟
تحسس (جونز) الصغير مقبض سيفه، واشتعلت عيناه نارا، ونظر إلى (عبير) وقال:
- إن الشك بالضرورة يتجه إلى أحدث المنضمين إلى العصابة!
وفي ثانيتين كان أكثر الرجال قد جردوا خناجرهم وسيوفهم، أو صوبوا سهامهم ورماحهم نحو الأخ (روجر) القبيح الذي هو (عبير)..
رفع (روبين هود) يده معترضا وقال:
- هذا ليس دليلا كافيا، ولا تقبل به أية محكمة.. حتى محكمة الذئب ذاته..
في غل صاح (جونز) ملوحا بذؤابة سيفه:
- الحق أننا تسرعنا في ضم هذا الرجل إلينا.. لم نعرفه بالقدر الكافي، ولم نتشاور بشأنه..
- لكنه عرف خطتنا اليوم لإنقاذ (ويليام)، ومن الواضح أن المأمور لم يحط بها علما..
- لأنه لم يجد الوقت الكافي للوشاية، أو لأن قتلنا كان هو الهدف الأول الذي أمروه ألا يشتت تفكيره بسواه...
قال الراهب (تاك) ملوحا بعصاه في الهواء:
- الحق أنه أكثر من الأسئلة والاستفسار عن كل شيء.. يمكننا أن نحطم رأسه الآن لكن يجب أن نتأكد أولا
- بل نقتله ثم نشأ له أولا اااا ن!
كان قائل هذا هو (ويليام).. السجين الهارب الذي برز من مكان ما، وقد انحنى ظهره حتى كاد يمشي على أربع، واندفع كالقذيفة ناطحا برأسه بطن (روجر) / (عبير)....
واضح أن حساسيته مفرطة، ومقته للمأمور جهنمي، خاصة بعد ما لاقاه في سجن (نوتنجهام) من حفاوة بالغة.. هو لم يتحمل ذكر كلمة (المأمور) أمامه..
سقطت (عبير) على الأرض و (ويليام) فوقها، وهو يحاول أن ينشب أظفاره وأسنانه في حنجرة (عبير)..
كان - برغم شراسته - ضعيفا واهنا، فلم تجد صعوبة في أن تطبق كفيها على عنقه، وتقلبه على الأرض تحت ثقلها، ثم تضرب الأرض برأسه مرارا حتى تهدئ حماسه المبالغ فيه..
في النهاية نهضت لاهثة، وقالت وهي تنظر في عيني (روبين):
- هو ذا رجلك يا (روبين).. حي يرزق لكنه مفكك الأوصال.. والآن الحكم حكمك.. لو كنتم تشكون فيّ فلتنتهوا من أمري حالا دون مزيد من التخرصات، أما إن كنتم تعتبرونني منكم فلتعودوا لطعامكم..
تبادل الرجال النظرات ومن جديد ساد الصمت..
أخيرا قال (روبين هود) بصوت هادئ:
- هل تقسم لنا إنك بريء؟
كان هذا مأزقا حقيقيا.. ف.(عبير) لم تعتد أن تقسم كذبا لتنجو.. إن معايير كهذه هي ما يحفظ لنا احترامنا لأنفسنا حتى لو كنا قليلي الثقة بها.. لكنها وجدت الحل على كل حال..

رفعت يدها اليمني في الهواء، وقالت:
أقسم بالله العظيم إن (روجر ويليام) – أو (روجر القبيح) - بريء، ولم يجلب هذا السم إلى الغابة..
- أحسنت..
وكان هذا التلاعب اللفظي هو مخرجها.. الحقيقة هي أن (باتريك) هو من جلب السم من المأمور..
أما (روجر ويليام) فلا وجود له..
ومن الغريب أن هذه الصيغة في القسم لم تثر ريبة أحدهم..
نظر (روبين هود) إلى رجاله وصاح:
- هل من أحد يشك في هذا القسم؟
قال (جونز) معيدا السيف إلى غمده:
- أنا أشك كثيرا.. ولو كنت أنا جاسوسا للمأمور لما ترددت لحظة في أن أقسم قسما باطلا.. إن هؤلاء الأنذال لا يعرفون للشرف معنى..
أوقفه (روبين) بيده في حزم، وقال:
- هذا بعينه هو السبب الذي يجعلني أهب (روجر) القبيح حياته، لكن عضويته في جماعتنا قد انتهت..
يؤسفني هذا كثيرا خاصة لو كان بريئا، لكن الحكمة تقتضي أن يرحل..
ثم أشار إلى اتجاه الرحيل، وقال ل. (عبير):
- انصرف ولا تعد يا (روجر) القبيح.. نحن لم نلوث أيدينا بدمك، لكننا لا نقبل زمالة سلاحك..
ودون مزيد من كلمات أدارت (عبير) ظهرها للمجموعة
واتجهت إلى حيث حدود غابة (شيروود)..

☆ ☆ ☆

- 9سياحة في عالم المأمور..

بالطبع كانت ليلة سوداء كما لنا أن نتوقع..

☆ ☆ ☆

لم يكن الأخ (روجر القبيح) قد تخلص من مشاعر الأنثى، وبالنسبة للأنثى كانت الغابة مظلمة جدا، مخيفة جدا، ملأى بأشياء تزوم وتشع عيونها في الظلام..
لن تخشى الفئران.. إن البوم يلتهمها دوما، لكن ماذا عن اليوم ذاته؟
هكذا ظلت تمشي في أرض لا تراها، قاصدة أرضا لا تعرفها، هاربة من أرض لم تعد تبصرها..
ولا تدري متى ولا كيف أعلن الفجر عن قدومه.. فجر كسول متباطئ يفتقر إلى الحماس، وهو - بالتأكيد- غير الفجر الذي كان يجيء يوم الامتحان.. ذلك الفجر العجول المتلهف، الذي يتوق إلى أن يمزق الليل، ويلوث السماء بدمائه الحمراء..
كانت هناك عربة يجرها حصانان عجوزان، وكل الأحصنة هنا من تلك التي يحيط بسيقانها شعر كث يجعلها كأنها ترتدي بنطالا من نوع (الشارلستون).. لست واثقا بصراحة من نوعها لكن يبدو أن اسمها (الكاليسيد) أو شيء من هذا القبيل.
فوق العربة كان فلاح عجوز بدوره، ينشد (بالادات) متحشرجة عن بطولات (روبين هود).. ويجلس فوق بضاعته من اللفت.
فلما رأى (روجر القبيح) توجس خيفة، وتوتر قليلًا


فلما رأى (روجر القبيح) توجس خيفة، وتوتر قليلاً..

صاحت (عبير) (روجر).

. لا تخف أيها الرجل الطيب.. أنا ذاهب إلى (نوتنجهام)، فهل لديك مكان لي؟

قال العجوز بلسان ملتو:
- أنا لا أخاف إلا الله يا فتى.. ليس لفقير عجوز مثلى أن يخاف قطاع الطرق أو العفاريت.. يمكنك أن تركب مع اللفت إن لم يكن هذا يضايقك..
-البتة..
ووثبت إلى العربة في أثناء سيرها، وجلست وسط الثمار المستديرة تدير في رأسها ما ينبغي عمله..
بالطبع ستعود إلى المأمور.. هذا حتمي.
فهي لا تعرف في انجلترا هذا العصر سوي مكانين:
قلعة المأمور، وغابة (شيروود)..
ولكن هل يسامحها المأمور على الفشل؟
لن تعرف إلا إذا جربت..



وكان النهار قد بسط ملكوته على (نوتنجهام) حين دخلت عربة اللفت المدينة، وكانت الضجة قد بدأت والزحام قد كثر.
اتجه (روجر) القبيح إلى قلعة الذئب، وكما هي العادة فتح له الحراس الأبواب باحترام، وقد تحول اسمه إلى (باتريك).. صهر المأمور القادم.
استقبلها المأمور في القاعة إياها، وقد دهشت لأنه يصحو في هذا الوقت المبكر على غير عادة أمثاله، لكنها تذكرت أنه ذئب.. له طباع الذئب وتحفزه ويقظته..
في الغالب هو لا ينام إلا حين يصحو كل حراسه.
كانت دهشة المأمور واضحة تماما:
- ألم أقل لك يا (باتريك) إن حضورك غير مرغوب فيه حاليا؟
إن جواسيس (روبين هود) من الكثرة بحيث يفوق تعداد المدينة ذاتها..
قال (باتريك) في شيء من الخزي:
- لا أسرار الآن يا سيدي.. لقد كشفوا أمري!
التمعت عينا المأمور بالنار للحظة، ثم انطفأ وهجهما..
وقال وهو يقتطع شريحة من اللحم النيئ كالعادة:
- هووووم! وتركوك حيا؟
- لقد خسرت ثقتهم لكني لم أكسب اتهامهم الكامل لى.. إنهم لا يريدونني هناك معهم..
- والقنينة؟
- وجدوها وعرفوا محتواها..
وقف المأمور يتأمل مشهد المدينة كما يراه من نافذة عملاقة هناك، تغطيها القضبان الحديدية، وقال بعد هنيهة:
- الحق أنك تحيرنى يا (باتريك).. انضممت لهم أمس بسهولة لم تكن في أكثر أحلامي جموا، ثم انكشف أمرك في اليوم التالي..
لم يجد (باتريك) ما يقول؛ فهز رأسه ووقف ينتظر ما تسفر عنه الأمور.
أخيرا قال المأمور وهو يضع قبضته في خصره:
- انصرف الآن.. ولسوف أتدبر الأمر وأري ما ينبغي عمله..

وغادر (باتريك) القاعة حائرا
كيف يمضي يومه الطويل هنا؟ إن قلعة الذئب مملة بالتأكيد إذا قورنت بغابة (شيروود)..

☆ ☆ ☆

لكن القلعة لم تكن مملة على الإطلاق.
أولا نزل (باتريك) إلى القبو، وقد شده صوت الصراخ الشنيع هناك، وكان المكان مظلما عفن الرائحة، وعلى الجانبين تجد المساجين في زنازين مظلمة مكبلين بالسلاسل، وثمة جلاد ضخم يضع على رأسه لثاما أسود، ويقوم بتسخين قطع من الحديد على الفحم.
ثمة جو عام شبيه بورش الحدادة بنيرانها وحرها والسواد الذي يغلف كل شيء.
يقوم الجلاد بإعداد الكماشات الحادة ذات الأسنان ليعتصر بها أعناق المذنبين، كما يتولى – بنفس مرحة - عملية الجلد..
كلا.. لا انتزاع أظفار من الأصابع لأن طرق التعذيب الشرقية هذه لم تكن قد بلغت انجلترا.. هذه هي مزية وسائل الاتصال الحديثة وتكامل الثقافات.
سألت (عبير) الجلاد المنهمك في خنق أحد السجناء:
- ماذا فعل هذا؟ كم امرأة وطفلا قتل؟
قال لها والعرق يسيل على جبينه:
- لم يفعل شيئا من هذا.. إنه – الكاذب ابن الكاذب - يزعم أنه عاجز عن دفع الضرائب..
- آه! وهل الضرائب كثيرة؟
له من فرط المعاناة، وقال:
- ضرائب على الحبوب.. على الأطفال.. على الزوجة.. على الهواء.. على النيران التي يوقدها في كوخه.. ضرائب مقابل تحصيل الضرائب.. إن تحصيل الضرائب خدمة حكومية لا بد من دفع ثمنها..
قالت (عبير) في ملل:
إنهم جميعا نفس الشيء.. يعتبر الواحد منهم نفسه أحمق إذا دفع الضريبة دون تعذيب
قال الجلاد وهو يهشم رأس السجين بهراوة:
- ليست الضريبة هي ما يهم.. المبدأ هو المبدأ.. لا بد من العبرة والموعظة للآخرين..
شكرته (عبير) وهنأته على جهوده، وواصلت تفقد السجون..
كان جسدها قد اقشعر بما يكفي لما تراه، لكنها لم تنس لحظة ما يجب أن يقوله أو يفعله (باتريك) خطيب ابنة المأمور.. فبالنسبة لشخص كهذا يعتبر صراخ المعذبين موسيقا يعجز (بيتهوفن) عن كتابتها، ولذة قدسية قلما شعر بها بشر..

☆ ☆ ☆

صعدت إلى البرج مرتقية عددا لا بأس به من السلالم المنحوتة في الحجر.. وكان الحراس يلقونها فيحيونها باحترام بالغ.
عبرت (الطابية) لتجد بابا موصدا بإحكام من الخارج، وأمامه حارسان متوتران لا تكف عيناهما عن الرقص في المحاجر.
رآها الحارسان فوقفا في احترام وإجلال ينتظران ما ستأمر به، وكان ما طلبته منطقيا جدا: افتحا لي هذا الباب.
تبادل الرجلان النظرات.. إن هذا المطلب له خطورة خاصة، لكنه جاء ممن لا ترد له المطالب.

وبيد مترددة عالج أحدهما المزلاج، ثم أولج مفتاحا في القفل، وهكذا صارت الغرفة مفتوحة.
في ثقة - كأنما تعرف ما بالداخل - دلفت (عبير)..
وكان الظلام تاما، وزاد الأمور سوءا أن الشمس التي غمرت الطابية أصرت على أن تلاحقها داخل الغرفة بمئات الشموس الملونة.
وقبل أن تفهم ما يحدث حتى.. آي! تلقت ضربة عنيفة على رأسها بإناء معدني.. ثم.. آي! تلقت ركلة شرسة في بطنها.
وآي ي! أسنان حديدية تطبق على ذراعها مع عدد لا بأس به من الخمشات.
وقبل أن تتساءل عن سبب احتفاظ المأمور بأسد جبلى هنا، بدأت عيناها تعتادان الظلام، واستطاعت أن تدرك أن من يهاجمها امرأة.. امرأة عجوز شاب شعرها وتجعدت أساريرها، لكن على وجهها مسحة لا تخفي من جمال قديم.
- خذ هذه أيها الوغد!
تفادت (عبير) المزيد من الضربات بساعديها، شاعرة بذلك الارتباك الشهير الذي يشعر به الرجل حين تهاجمه امرأة شرسة، وهو عاجز عن معاملتها بالمثل.. لكنها عرفت على الفور اسم هذه.. إنها (ماريان) بالطبع.. (ماريان) التي يحتفظ بها المأمور هنا طيلة هذه السنين.. (ماريان) أحد أسباب اشتعال هذه الحرب وأهمها

☆ ☆ ☆

10- لماذا لم تخبرني؟

- اهدئي بالله عليك أيتها الفتاة الشرسة!
وأخيرا تمكنت من الإمساك بساعديها واقتيادها إلى منضدة خشبية هناك، وأجلستها قسرا، وبصعوبة قالت لها:
- أنا لم أؤذك ولست راغبا في إيذائك.
صاحت (ماريان) ببعض عبارات السباب الساكسوني الأصيل الذي لا توجد في أي قاموس، ولا يمكن فهم أنه سباب إلا من تعبيرات وجهها، ثم قالت:
- ألست أنت السفاح خطيب (بياتريس)؟
- بلى.. لكن هذا لا يعني شيئا.
- إن (بياتريس) يمامة بريئة.. يمامة أبوها ذئب وزوجها المقبل خنزير.. إنها لفتاة تعسة!
قالت (عبير) بنفس اللهجة المترفقة:
- فهمت.. لا بد أنها تأتي إليك كثيرا لترعاك وتثرثر معك.. لكن لا بد أنها قالت لك إنها تحبني فلماذا تحب اليمامة خنزيرا؟
- لأنها حمقاء!
كذلك صرخت في جنون، وأردفت:
- لأنها بلهاء! كل الفتيات في سنها يعشقن الفرسان، خاصة إذا كانوا شديدى المراس.. أنت تلعب لعبة غير عادلة..
قالت (عبير) وهي تنهض:
- آنستي.. أنا لن أحاول تبديل وجهة نظرك في شخصي حتى لو كنت أرى في هذا ظلما فادحا.. ولكن لى سؤالا واحدا.. هل أنت أخت (روبين هود) أم حبيبته؟
في اشمئزاز قالت (ماريان) دون أن تنظر لها:
- أنا أخته.. لكن الأساطير المنسوجة حول (روبين هود) تتحدث عني أحيانا باعتباري حبيبته التي خطفها الذئب.
- وما زلت متحمسة توجهين اللكمات لكل من يدخل حجرتك بعد كل هذه السنين؟
- لقد أضاع الذئب الوغد عمري في هذه الزنزانة المظلمة، وقد دخلتها في سن (بياتريس)، وهأنذا الآن أبدو كأمها أو جدتها.. إن حقدي عليه يفوق أحقاد البشر مجتمعين!
قالت (عبير) وهي تتجه إلى الباب:
- بالمناسبة.. (روبين) أخوك بخير.. لقد كنت معه أمس.. وهو ما زال يحلم باقتحام القلعة وإنقاذك!
وخرجت من الباب قبل أن تتلقى المزيد من الأسئلة....



جاء يوم مباريات الرماية..
كان هذا احتفالا سنويا يقيمه المأمور في (نوتنجهام)، ويدعو إليه الشباب من كل صوب كي يجربوا حظهم في الرماية، والجائزة هي جعبة سهام مذهبة جميلة الشكل..
كان يحب مشاهدة. هذه المباريات، وقد اعتاد في الماضي أن يشارك فيها لكن يديه لم تعودا

ثابتتين كالعهد بهما، وكان (روبين هود) يهوى المجيء متخفيا لإثارة المتاعب، لكنه بدوره لم يعد كما كان، ومنذ خمسة أعوام لم تقع أحداث مزعجة في هذا اليوم..
جالسا في مقعده العالي الشبيه بالعرش، و (بياتريس) عن يمينه، راح يرقب الجماهير الصاخبة نافشًا صدره كالديكة، كان يرتدي قميصا مدرعا تحسبا لسهم طائش، وأسهم هذا في جعله يبدو أضخم وأقوى.
وعلى بعد خطوات وقف (باتريك) أو (عبير) - يرمق المشهد الخيالي في سرور.. مباراة رماية من القرون الوسطى.. هذا مشهد لا يراه المرء مرتين في حياته..
والهدف الذي تتم التصفية عليه هو قرص من أقراص التصويب ذات الدوائر المتداخلة، لكن كان على المتبارين أن يبتعدوا عنه في كل مرة نحو خمسة أمتار، ويعيدوا التصويب.. والتصفية النهائية طبعا ستتم بعد تعليق القرص من حبل متأرجح.
كان هناك الآن ثلاثة رماة.. بعد ما فشل الباقون، وكان أحدهم يرتدي قلنسوة تغطي أكثر وجهه وكل رأسه
ودققت (عبير) في ملامحه جيدا حين كانت تتبدي صدفة.. لم يكن هناك شك في شخصية هذا.. (جونز) الصغير.. ودارت بعينيها وسط الجماهير حتى استطاعت أن ترى الراهب (تاك) متنكرا.. وطبعا (روبين هود).. ثم نحو عشرة من إخوان الغابة...
مناورة أخرى يقوم بها رجال (شيروود)..
هل تخبر المأمور؟ هل تشي بهم؟ بالطبع لا..
ستظل صامتة.. لكنهم الآن عرفوا بالتأكيد من هي وفي أي معسكر تقف.
إن (روجر) القبيح ليس سوى (باتريك) الصهر المستقبلي للمأمور.
لقد كانوا على حق في شكوكهم.



- جاء رجل غريب المظهر ملتح، يضع على رأسه (بيريه) تخرج منه ريشة، ويحمل أداة لرمي السهام تشبه البندقية، وطلب - بلهجة أجنبية صريحة – أن يشارك في البطولة.
ثم أخرج من جيبه تفاحة وعرض أن يصيبها على رأس أي واحد يختاره المأمور.
قال المأمور في غيظ وهو يطرد الرجل بسبابته:
- لا مجال للسويسريين في هذه البطولة يا (ويليام تل).. إن مكانك في بلادك مع زميلي..
الطاغية (جسلر).. إنه رجل عبقري فرض على الناس أن يركعوا أمام قبعته المعلقة على عمود في الميدان.. جرب براعتك في الرماية هناك.. حين يختار ابنك ليكون حامل التفاحة!
بدا الأسف على (ويليام تل)، وقال شيئا ما بالألمانية ثم ابتعد.
وعادت المباريات إلى حماسها السابق..



أخيرا أصاب أحد المتنافسين قلب الهدف المتأرجح بسهمه، ورفع قوسه في الهواء يهلل فرحا.
لكن (جونز) الصغير رفع قوسه بدوره، وأحكم التصويب، وسرعان ما طار سهمه ليستقر فوق ذات السهم السابق، فيشقه إلى نصفين متساويين!
كانت هذه هي الشرارة التي ألهبت حماس الجماهير وجعلتهم يتصايحون.. إنها لبراعة لا تصدق، وقد صار الفائز بالبطولة معروفا دون حاجة للمزيد..

ويتقدم (جونز) الصغير المتنكر إلى المنصة.
ليصافح المأمور من موضع منخفض طبعا.. حبست (عبير) أنفاسها متوقعة المدية التي ستمزق عنق المأمور، لكن هذا لم يحدث.. كان الهدف من كل هذا دعائيا لا أكثر.. نوعا من الحرب النفسية التي تحقق أهدافا أقوى من القتل..
لقد أخذ (جونز) جعبة السهام، ولوح بها في الهواء ليراها الناس، ثم هتف بصوت كالرعد:
- إن السيد المأمور يشمل بعنايته رجال (روبين هود) وزعيمهم!

وفي اللحظة التالية وثب من فوق المنصة إلى زحام الجماهير، ومن مكان ما جاء حصان مسرج سرعان ما اعتلى ظهره، وشق طريقه ملوحا بالجعبة.. الغنيمة الثمينة التي أعطاها إياه المأمور

بكامل إرادته..
صاح المأمور بالغضب المعتاد:
- اقبضوا عليه! لا تدعوه يهرب!
لكن الكلام هين، وسرعان ما اندمل الصدع الذي أحدثه انطلاق الحصان من جديد، وراحت الجماهير تهلل:
- دعوه! لقد استحق الجائزة! كفاكم هذا!
حتى ابتعد (جونز) عن عيون مطارديه، وفي صمت وسرية تواري رجال (روبين هود) المندسون في الزحام.
لقد قاموا بمهمتهم، وسفهوا المأمور علانية..
كان هذا الأخير قد تحول إلى ثمرة طماطم، لو أن الطماطم قادرة على كل هذا الصراخ.. راح يرغي ويزبد ويتهم حراسه بالخيانة أو البلاهة..
ثم إنه صاح في (باتريك) / (عبير):
وأنت! تعال معي إلى القلعة الآن!



في القاعة المعتادة، ومع مزيد من شرائح اللحم النيئ.. راح المأمور يجوب المكان، ولسانه لا يكف عن إطلاق السباب، والتهديد.. الحق أنه كان يفضل أن يقتله (جونز) الصغير على أن يؤذي مهابته بهذا الشكل المخزي..
أخيرا قال ل (باتريك) / (عبير):
- أنت تعرفهم جميعا، وكان بوسعك أن تراهم وأن تتعرف هذا الرامي.. وكان من السهل أن تنذرنا!
قالت (عبير) في جزع:
- كان متنكرا يا سيدي.. لم أتعرفه إلا..
- هراء.. أنا لا أصدق حرفا
وأشار بسبابته الغليظة إلى (عبير) بمزيج من الاتهام والتهديد:
- الحق أن ولاءك لي صار في موضع حرج..
عدت من عند هؤلاء اللصوص خائبا تزعم أنهم كشفوا أمرك.. زرت (ماريان) أخت (روبين) في سجنها لغرض مجهول.. أخفيت عني أن هؤلاء الرجال الذين اشتركوا في المسابقة أعضاء في عصابة (روبين)..
أعتقد يا عزيزي (باتريك) أن قلبك الرقيق قد بدأ يميل تجاه الخير..
صاحت (عبير) وهي ترفع كفيها نافية كل هذا:
- وكيف؟ ألسنا نحن الخير يا سيدي؟
- بل نحن الشر الخالص يا عزيزي.. دعك من كل هذا النفاق.. أنت تعرف أننا مجموعة من الذئاب تحاول التهام أكبر قدر من اللحم.. لا يجب أن يكون الحق بجانبنا لمجرد أننا نحن.. نحن أوغاد ولا مشكلة هناك، لكن عليك أن تبرهن لي على أنك مازلت وغدا..
صاحت في حماس:
- أنا وغد يا سيدي.. ثق بهذا..
- يمكنك أن تبرهن لى..

وبدقة لا تصدق، أخرج من نطاقه خنجرا قذفه في الهواء ليستقر على بعد خمس سنتيمترات من رأس (عبير)، وقال:
- البرهان الذي أريده هو أن تأخذ هذا الخنجر الآن، وتذبح (ماريان) أخت (روبين هود)!

☆ ☆ ☆

أقتل أخت (روبين)؟
مستحيل يا سيدي.. أنا لم أقتل دجاجة من قبل، ثم إن (روبين) لن يرحمني.. لا داعي لكل هذه المبالغة.
لم تقل (عبير) شيئا من هذا وهي تتحسس..
الخنجر بأناملها، لكن عينيها قالتا الكثير، وقالت عينا المأمور أكثر.
- الآن يا (باتريك) أو تموت اليوم بالذات.
وجاء جندي إلى القاعة، لم تدر متى ولا كيف استدعاه المأمور.
قال له المأمور دون أن يبعد عينيه الناريتين عن (عبير):
- خذ (باتريك) إلى محبس (ماريان)، وتأكد من أنه سيقتلها بوحشية وبرود تامين!

☆ ☆ ☆

11- تسوية الحساب..

وعلى باب الزنزانة هرعت (بياتريس) - دامعة العينين - تعترض طريق (باتريك) بكفيها، وصاحت:
- لا تلمسها! أنت لن تلمسها!
لقد بلغها الخبر، ومن الجلى أنها تحسبه متحمسا لأداء هذه المهمة.. لكن (باتريك) لم يكن بحاجة إلى من يطالبه بعدم لمس (ماريان)، لأنه لن يلمسها بالتأكيد، ولا يدري كيف يخرج من هذا المأزق.
بعد لحظة تفكير، اتخذت (عبير) قرارها..
ألقت بالخنجر على الأرض، والتفتت إلى الجندي:
- يمكنك إبلاغ المأمور أن (باتريك) لم يجسر على قتل امرأة عجوز بلا سلاح.. فليتخذ ما يريد من إجراءات..
شهقت (بياتريس)، وضربت صدرها بكفها.. إنها لم تتوقع هذا.. لم تكن تريد قتل (ماريان).. لكنها كذلك لا تريد أن يعارض (باتريك) أباها.. إن معنى هذا أن قصته قد انتهت.. ولم يعد هناك غد..
قال الجندي في صرامة مهذبة، وهو يسدد رمحه إلى صدر (باتريك):
- في هذه الحالة يا سيدي، أرجو أن تسمح لى بأن تكون سجيني.. سنقابل المأمور معا!
- كما تحب
ودون أن ينتظر مال على أذن (بياتريس) ليهمس لها:
- لو شئت نجاتي، فعليك أن تتأكدي من إبلاغ (روبين هود)..
وأدار ظهره مبتعدا مع الحارس.
كانت عواطف المأمور متعادلة هادئة حين أبلغه الحارس بما كان من (باتريك).. لقد كان الرجل كما هو واضح يتوقع هذا..
قال لها وهو يقتطع شريحة أخرى من اللحم النيئ، ويدسها في فمه:
- إذن يا (باتريك) قد انتهى الأمر.. سوف نقطع رقبتك عصر اليوم.. سيكون هناك بعض التعذيب أولا لأن هذا سيبهج الجماهير، ثم إنه سيساعدنا على معرفة ما لديك بالضبط..
وفي الحال دخل الغرفة أربعة حراس شاكي السلاح، ومهمتهم المحددة هي اصطحاب (عبير) إلى مكان التعذيب فالقتل.
قال المأمور دون أن ينظر لـ (عبير):
- وداعا يا (باتريك).. إن (بياتريس) ستتغلب على آلامها..
وأشار إلى الحراس..



قاموا بربط (عبير) إلى منصة عليها عمود خشبي، تشبه تلك المخصصة لحرق (جان دارك) في الصور..
إنها تجربة مثيرة لـ (عبير) حقا.. لقد جربت الإعدام من قبل في برج (لندن) في عهد (هنري الثامن).. الآن تجرب التعذيب ثم الإعدام في القرن الحادي عشر.. وأمام المأمور شخصيا..

واحتشد المارة الدهماء وقد بدا الاستمتاع على وجوههم.. وبعضهم راح يطالب بقتلها في كراهية بالغة، برغم أنه لا يعرف على الإطلاق جرمها أو شخصيتها..
من جديد يتكرر مسلسل غباء العامة وتوحشهم السادي بلا مبرر..
ومن جديد وقف الرجل ذو الطرطور يقرأ من اللفافة الكبيرة - التي لا أدري متى كتبوا فيها كل هذا – قرار إدانة (باتريك) بتهمة الخيانة والتآمر و... و...
ثم جاء الجلاد ليبدأ عمله الشاق..
كان الجزء الأول من البرنامج يتضمن الحرق بالحديد الساخن، وعلى الفحم استقرت ثلاثة أسياخ حديدية تسخن حتى تحمر، وتتصاعد رائحتها المستفزة الكريهة..
حتى هذه اللحظة كانت (عبير) تتوقع أن الأمر غير حقيقي.. هذه خيالات من عالم (فانتازيا) المتشابك.
لكن هذا خيال له رائحة وله درجة حرارة تلسع.. ما الفارق بينه وبين الواقع إذن؟
إن كل الفلاسفة الذين يتحدثون عن كون هذا العالم وهما، وعن كون الألم وهما، سيكفون عن تفلسفهم عند أول لسعة من طرف لفافة تبغ مشتعلة لأيديهم، أو انغلاق أول باب على أصابع أقدامهم.
وبالنسبة ل. (عبير) لم يكن يهمها إلا أن الألم قادم فعلا.. سواء بفعل النار أو بفعل بعض (البايتات) في ذاكرة الكمبيوتر العشوائية..
قالت من بين أسنانها وهي ترمق حماس الجلاد:
- (دي - جي - ٢).. كف عن المزاح من فضلك!
.. وحين حبس الجمهور أنفاسه لسماع صرخة السجين..
وحين رفع الجلاد يده بالسيخ الحديدي الموشك على الانصهار..
عندها فقط طار السهم في الهواء ليثقب عنق الجلاد، ويتهاوى هذا على الأرض بعد ما دار حول نفسه..
وصاح صائح من الجمهور:

- كما في كل مرة! من المستحيل أن تكتمل عملية تعذيب أو إعدام في هذه المدينة المشئومة!
الواقع أن شعوره يشابه شعورنا حين تحذف الرقابة جزءا من فيلم شائق لأنه يحوي قدرا زائدا من العنف..
والطريف في الموضوع أن السهم لم يأت من بين الجماهير كما لاحظتم.. لقد جاء من القلعة نفسها..



كان أول من فهم اتجاه السهم هو المأمور استدار إلى القلعة ليرى ما هنالك، ولم يكن ما رآه محببا.. لقد كانت أسوار القلعة كلها مدججة باللون الأخضر.. بعبارة أدق: كان عدد هائل من رجال (روبين هود) يقفون هناك، وحتى على طابية الحراسة.
وكلهم يصوب سهامه إلى الخارج.. نحو رجال المأمور الذين وقفوا يرقبون عملية التعذيب، ونحو المأمور ذاته.
صاح المأمور:
- تبا! كيف فعلوها ومتى؟:
لكن أحدا لم يملك إجابة.. إن القلعة كانت مليئة بالحراس، وحولها الخندق المليء بالماء، حتى

لتعجز الطيور نفسها عن اقتحامها.. فمتى تم هذا؟
ومن أعلى الطابية تدحرج جسد أخضر عملاق يتدلى بحبل على طريقة (طرزان) الشهيرة.. تأرجح حتى صار إلى جوار (عبير) على المنصة، فمزق قيودها بخنجر، ثم واصل رحلته ليهبط وسط الجماهير..
كان هذا هو (جونز) الصغير.
تلفت المأمور حوله في حقد.. لم يستطع أن يصدق أو يفهم، وعجز عقله عن الوصول إلى حل.. للمرة الأولى يجد نفسه في العراء بينما قلعته الحصينة محتلة..
من أعلى السور ظهر الراهب (تاك) ملوحا بعصاه، وصاح:
- كما ترى يا سيدي المأمور.. أنت ورجالك في وضع غير محبب على الإطلاق، وإننا لنطلب منك الاستسلام حقنا للدماء..
تحول وجه الذئب إلى وجه شيطان، وتلفت حوله كالمسعور..
كان هناك واحد من رجاله يركب فرسا ويرمق ما يحدث في غباء..
وثب عليه فأسقطه من على المسرح، ثم امتطى الفرس بدلا منه، وهرع يشق زحام الناس بقوة الفيضان ومضى الشهب..
ومن جديد راح الدهماء يهللون له مشجعين..
ورفع أحد الرماة قوسه يبغي إصابته من عل؛ لكن الراهب (تاك) أوقفه في حزم واضعا يده على معصمه:
- دعه! إن نهايته يجب أن تكون على يد (روبين)!
وفي الآن ذاته هبطت (عبير) من على المنضدة.. لقد تصلبت مفاصلها لكنها راغبة بحق في الرحيل..
لم يكن أحد رائق البال كي يوقفها، وحتى الجماهير الحمقاء راحت تهلل لها.. الجماهير التي كانت تطالب برأسها منذ خمس دقائق..
وجاء (جونز) الصغير على جواد أبيض مدجج بالدروع، وقال لها وهو يعينها على الركوب أمامه:
- هلم يا (روجر) أو (باتريك) - يعلم الله اسمه الحقيقي... فإن هناك مبارزة لا بد أن تراها..
- وهل يتحملنا الجواد نحن الاثنين؟
- لا بد أن يفعل.. لا وقت لدينا كي نبحث عن جواد آخر..
وهكذا انطلق الرجلان بجوادهما عاثر الحظ..
نحو غابة (شيروود)..

☆ ☆ ☆

وهناك عند حدود الغابة، وقفا فوق مرتفع يرمقان الطريق الوحيد الخروج من (نوتنجهام) والذي يمر قرب الغابة المسكونة بقطاع الطريق.
ترجلا عن الحصان الذي أوشكت سيقانه أن تتهشم، ووقفا يرمقان الطريق.. لم تكن هناك حوافر خيل حديثة، ولا سحابة غبار في الأفق.
تساءلت (عبير):
- ألم يمر المأمور من هنا بعد؟
- نعم.. في الغالب.. لا بد أنه قام بدورة بغرض تضليل مطارديه...
تحسست آثار الحبال الغليظة على معصميها..

وسألت (جونز):
- كيف احتللتم القلعة بهذه السرعة؟
- ليس من دون معاونة خارجية.. إن تلك الفتاة (بياتريس) تهيم بك حبا، وقد أرسلت لنا وصيفتها برسالة منذ ثلاث ساعات.. إن الرسالة تقول لنا إن حراس القلعة سينامون جميعا بفعل المخدر الذي ستدسه لهم في الشراب، وهكذا يمكننا عبور الخندق من الجهة الأخرى والسيطرة على المكان.. أكدت لنا الرسالة أن المأمور حريص على حضور تعذيبك بنفسه وأن زنازين المساجين رفاقنا ستفتح جميعا..
- وصدقتموها يا حمقى؟
- إن الفتاة (بياتريس) تختلف عن أبيها.. وكان شرطها الوحيد هو ألا نؤذى الرجل.. كانت تريد إنقاذك بأي ثمن.. وكذلك نحن..
- أنتم؟
بالتأكيد.. لقد رأيناك ورأيتنا اليوم في أثناء مباراة الرماية.. كان بوسعك الكلام لكنك آثرت الصمت، ثم عرفنا عن طريق الحمام الزاجل أنك ستعدم لأنك رفضت أن تذبح (ماريان).. لقد صرت منا.. لا ندري إن كنت ضدنا فيما سبق أم لا، لكنك اليوم قد صرت منا..
واهتزت (عبير) من هذه المعلومات
لقد انتصر الحب في قلب (ماريان) على عاطفة الأبوة.. لا.. ليس هكذا بالضبط.. لقد انتصر الخير على الشر حتى لو كان هذا الشر هو أبوها..
لم تدر (عبير) من قبل.. كم أن (باتريك) هذا ساحر للنساء، وتساءلت عما تراه هاته الحمقاوات في سحنته المخيفة الفظة.. لكن الحب أعمى على كل حال، وهو (ماكيير) بارع يجيد إخفاء التجاعيد والعيوب الجسدية والروائح..
سألت (جونز) وهي تمتشق حساما ناولها إياه:
- لماذا ننتظر المأمور إذن؟ لقد وعدتم الفتاة بألا تؤذوه
- نحن لن نؤذيه.. هو الذي سيؤذي نفسه..
لم تفهم، لكنها آثرت الصمت ولم توجه أسئلة أكثر.
قال (جونز) وهو يعد السهام في جعبته:
- إن المأمور يحاول الفرار إلى مقاطعة أخرى يحكمها أصدقاؤه النورمان، ومن هناك يعود بجيش جرار لاسترداد قلعته..
- وتحاولون منعة؟
- لن نمنعه.. هو سيمنع نفسه..
وابتسم في خبث:
- ولم تجد الوقت الكافي للتساؤل، لأن سحابة غبار بدأت تتعالى في الأفق، ثم ظهر جواد المأمور.. كان راكبه متعجلا متوترا كثير الالتفات للوراء..
أخرج (جونز) الصغير البوق من نطاقه، ونفخ فيه.
توووووووت!
دوى الصوت الحزين المرير عبر السهوب، ورجّعت الوديان لحنه العميق، فأجفل المأمور وجواده..
ومن بين الأشجار خرج (روبين هود)..
كان يحمل رمحا طويلا ويمتطي حصانا شامخا كخيول الأساطير، وعلى وجهه نظرة حزينة

مريرة.. لكنها مفعمة بالتصميم..
ووقف الحصانان على مسافة عشرة أمتار، يتبادل راكباهما النظرات..
أخيرا ـ - بعد ثلاثمائة عام - نطق (روبين هود):
- الآن أنا وأنت وحدنا أيها المأمور، ومن دون رجالنا..
صاح المأمور بصوت مرتجف:
- حقا أيها الخارج على القانون..
- وعداوة عشرات الأعوام تنتظر الدماء لترتوي..
- أحسنت القول أيها الخارج على القانون.
- لقد وعدنا ابنتك بعدم المساس بك.. فلو أردت أن تمر دون قتال، أضمن لك هذا.. لن يتعرض لك أحد.. أما لو أردت تسوية ما بيننا من حساب ثقيل، فالوقت وقت ذلك..
- بالتأكيد أرغب في تسوية الحساب!
- إذن أشهر سلاحك، واستعد!
قال لها (جونز):
- هل رأيت يا (باتريك)؟ قد منحنا الرجل كامل حريته، لكنه لن يترك فرصة الانتقام من (روبين هود) تمر..
- وهل يتصارعان؟ إنه أقوى من (روبين) بمراحل...
- لكن (روبين) يمقته عشرات المرات أكثر مما يمقت هو (روبين)..
- أشك في هذا.. إن (روبين) قد هدم أحلامه في حكم البلاد، وسقه كبرياءه، وأهانه مرارا.. إن الرجل يملك ألف سبب كي يكره (روبين) كما يكره الأتقياء جهنم..
- إذن يكون الأقوى هو الأفضل..



في الخلاء الملاصق للغابة، بدأت المعركة عينا الرجلين متجاذبتان كمغناطيس، وقد شهر (روبين) رمحا وشهر المأمور سيفا، وراح الجوادان يدوران حول بعضهما في تؤدة.



في الخلاء الملاصق للغابة، بدأت المعركة عينا الرجلين متجاذبتان كمغناطيس، وقد شهر (روبين) رمحًا وشهر المأمور سيفًا..

يقول المأمور من بين أسنانه:

- لقد أرهقتني كثيرا جدا يا (روبين).. كنت كابوس حياتي..

ويقول (روبين) في مقت:
- قتلت أبي وخطفت أختى، وعذبت قومي.. لم أمقت أفعى وجدتها في فراشي مقتي لك..
وينقض (روبين) بالرمح، لكن المأمور يراوغه، ثم يهوى على قناة الرمح بسيفه فيسقط من كف (روبين).
- رديء جدا يا (روبين).. لم أدر كم تقدمت أنا في السن إلا حين رأيت وجهك وكنت قد نسيته..
- لست رديئا إلى هذا الحد..
يقولها (روبين) ويمتشق سيفا من نطاقه، وينقض على الرجل فيبدأ الطعان.. الحديد يرتطم بالحديد..
لولا أن (عبير) تفهم خداع البصر، لحسبت أن السيوف تومض لحظة ارتطامها، لكن هذا التأثير مقصور على فيلم (حرب الكواكب)، وعلى سيوف الليزر بالذات..
طعنات.. طعنات..
ثم يهوي السيف ليمزق كتف (روبين) الأيسر..
يتأمل (روبين) جرحه.. يتذوق الدم بطرف لسانه ثم يبصقه ويهتف:
- تالله إنها لضربة جميلة! ولكن ما قولك في هذه؟ ..
ويدير السيف في نصف قوس ليهوي على خد المأمور، فيجرحه جرحا بالغا، لكنه غير خطير..
- أحسنت أيها العجوز! أرني المزيد!
وتتوالى الضربات
ضربات.. ضربات.. تفادي.. كر.. فر..
الشمس تنحدر نحو الغرب بسرعة فائقة، وقد بدأ الرجلان يتحولان إلي رسمين بالسلويت الأزرق المختلط بالحمرة..
يكبو جواد المأمور فيسقط حمله على الأرض..
يحاول هذا أن يضرب سيقان جواد (روبين) ليسقط، لكن (روبين) رحمة بالجواد يترجل، ويبدأ فاصل جديد من العراك على الأرض هذه المر..
طعنات.. طعنات
لا بد أن الأمر استغرق نحو ساعة..
وشعرت (عبير) بالملل الشديد، لكنها كانت تدرك أن المأمور هو الأقوى وكفته الأدنى إلى الفوز..
لقد شاخ الرجلان حقا..
ها هي ذي خطواتهما أقرب إلى خطوات الثملين، وقد صارت ضرباتهما تفتقر إلى التركيز، وازدادت لحظات الالتحام الجسدي بينهما أكثر من اللازم، كأن كلا منهما يحاول أن يلتقط أنفاسه بضع ثوان على جسد خصمه..
وأدركت من أنفاس (جونز) الثقيلة أنه بدأ يقلق بصدد النتيجة..

☆ ☆ ☆

وانقض (روبين) بسيفه على المأمور مزمعا طعنة قوية مزلزلة، لكن هذا كان حذرا.. إن طباع الذئاب لم تفارقه..
إذ سرعان ما ركع على ركبة واحدة، ورفع سيفه في الهواء، وسرعان ما غاص هذا حتى منتصفه في بطن (روبين)..
لا تدري من صرخ؟ هي أم (جونز) أم (روبين)؟

ربما صرخ الجميع، وشعرت بساقيها تحملانها جريا إلى حيث تدور المعركة..
لا تدري أيضا متي نهض المأمور وركب حصانه، ثم همزه كي ينطلق مبتعدا بأقصى سرعة.. ومن فرط الإجهاد نام على ظهر الحصان، جاعلا وجهه على معرفته..
وتوارى عن العيون..
وتوسد (روبين) فخذ (جونز) الصغير، وهو يلهث، وقد غمر العرق جبينه.. وبركة من الدماء تتجمع حوله
صاح (جونز) بلهجة كالبكاء:
- أنت بخير يا (روبين)!
قال (روبين) بصوت كفحيح الثعابين:
- حقا بخير.. ما دمت أموت وعيناي على (شيروود) أنا بخير..
- لن تموت..
- صه! لا داعي لإضاعة الوقت.. أين قوسك؟
ناوله (جونز) القوس والسهم، فأمسكهما بيد ترتجف دون انقطاع، وصوب السهم إلى السماء فوق الغابة..
- سأطلق السهم الآن.. وعليك أن تجده في الغابة، وحيثما تجده مغروسا يكن قبري..
لم يعارض (جونز) أكثر، فالرجل ميت حقا.. لا داعي للمكابرة إذن.. ولا داعي لإضاعة هذه الثواني الثمينة في عبارات من نوع: (أنت بخير - يا رجل لا تقل هذا - ستعيش حتى توارينا التراب جميعا).
تشاك!
وانطلق السهم في السماء فوق ذوائب الأشجار ثم هوي..
كان الظلام قد غمر الكون الآن، لكن قمرا حزينا كان يضيء وجه قاطع الطريق العجوز..
- سيعود الذئب، وعليكم أن تستعدوا من جديد..
- ليكن يا (روبين)..
- اعتنوا ب. (ماريان) و (بياتريس)..)
- ليكن يا (روبين)..
ثم أغمض البطل العجوز عينيه، وخمد السر الذي يبقينا أحياء مدركين لكينونتنا، وبدأت (عبير) تنهنه من المشهد الأليم..



هنا شعرت بيد تجذب كمها في كياسة...
نظرت للوراء لتجد (المرشد) يبتسم، وهو يداعب قلمه بتوتر:
- هل حان الوقت يا (مرشد)؟
- طبعا.. لقد انتهى (روبين هود)، فماذا تنتظرين؟
- قالت في غيظ، وهي تنهض لتواجهه:
- كانت معلوماتي هي أن (روبين هود) هو المنتصر الأخير.. حسبت أن الخير سيفوز بالمعركة..
قال بطريقته الباردة اللامبالية:
- إن المعارك مستمرة للأبد بين الخير والشر..
السؤال هو من يكسب الحرب لا المعركة، ثم إننا لسنا في السينما حيث النصر للخير دوما.. ولو

فكرت في الأمر بعقلانية محضة لوجدت أن المأمور أقوى وأكثر عافية.. من الطبيعي أن يربح المعركة أمام خصم أنهكته السنون والصراع..
إن الحرب لم تنته.. ولسوف يعود قطاع الطريق للعمل في غابة (شيروود) تحت زعامة (جونز) الصغير، وتستمر أسطورة (روبين هود) الذي لا يقهر يرددها الفلاحون حول النيران ليلا..
تساءلت نافضة يديها من دم وهمي:
- ولماذا؟ وماذا كنتم ستخسرون لو مات المأمور؟
- لا بد للشر من أن يوجد.. هكذا يجيء أبطال من طراز (روبين هود) و (روب روي) ليكافحوه لولا الشر لما كان الخير، ولولا الظلام لما عرفنا معنى الضياء.. هذه أمور بديهية قتلها الفلاسفة بحثا، حتى لم يعد ذكرها سوى نوع من الابتذال المجاني..
ثم نظر ل. (جونز) الدامع الذاهل، وقال:
- بعد إذنك.. إن الأخ (باتريك) راحل معي الآن..
واتجه مع (عبير) مبتعدين عن المشهد الدامي، وعن غابة (شيروود) التى ارتوت أشجارها بدماء عاشقها..
قالت (عبير) راجفة:
- على كل حال.. تظل النهاية مؤثرة بحق.. أن يطلق السهم في الهواء، ويطلب أن يدفنوه حيث يسقط..
- ليس بالضبط.. إنه لن ينال ما تمناه للأسف..
ومن جيبه أخرج السهم.. السهم الذي أطلقه (روبين) في السماء، وقال:
- لقد سقط فوقي! انغرس في حذائي وكاد يمزق إصبع قدمي! لكني كنت حسن الحظ..
وألقي بالسهم على الأرض، وقال:
- من الخطر اللعب بأشياء كهذه!

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة تدخل (عبير) عالما مخيفا تسافر إلى (إيران) لتعرف فرق (الفداوية) والسفاحين الذين ذهب المخدر بألبابهم، وتقابل (عمر الخيام) في عالم لا يمكنك النوم فيه دون أن تُقتل..

(تمت بحمد الله)

لا تدخلوا شيروود!

لكم يا سادة أقدم نصيحة غالية لن تعرفوا قيمتها إلا فيما بعد: لا تدخلوا (شيروود)... لا تدخلوها خاصة إذا ما كنتم من رجال المأمور، أو تجارا أثرياء، أو
من أكلة مال اليتامى. أما إن كنتم رقيقي الحال كارهين للظلم فمرحبا بكم...

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

-

الفهرس:

الملاحظات

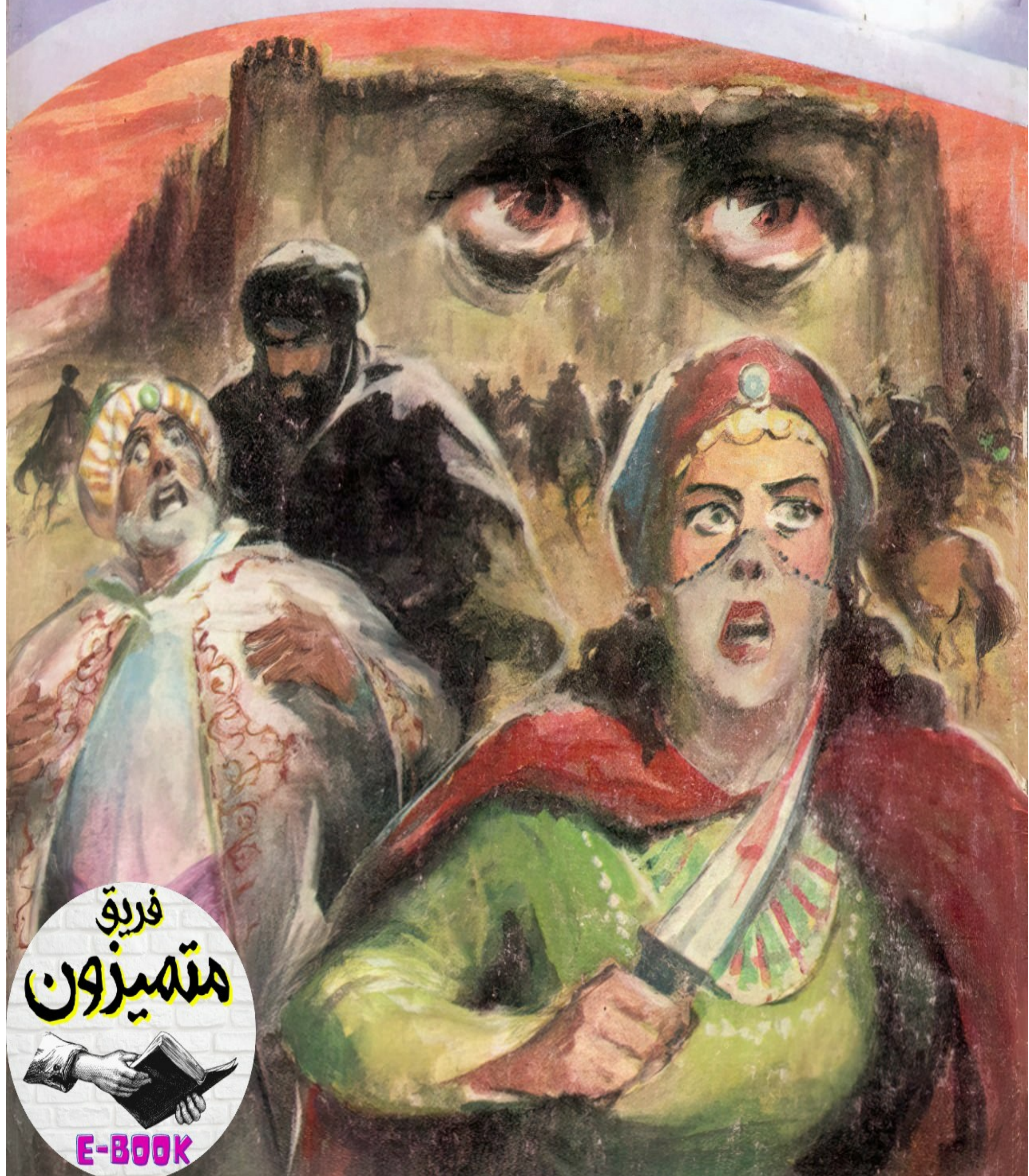
[←1] (*) هنا يوجد خلط تاريخي كالذي اعتدناه في (فانتازيا).. فلم يتزامن آل (بورجيا) مع عصر (روبين هود)!

روايات مصرية للجيب

22

فانتازيا

قلعة السفاحين




فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم الى الجروب]

[انضم الى القناة]

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (22)

قلعة السفاحين

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأيّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أيَّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوى.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أخبار من نيسابور..

ملثمة متشحة بالسواد تترجل من فوق جوادها...
شامخة عاتية تتقدّم، ويدها لا تفارق الخنجر المتدلى من نطاقها..
الطقس حارّ ينذر بالويل، والهواء ثقيل على الأنفاس له رائحة الصحراء وجفافها وقسوتها..
ثمة عقرب يفرّ هاربًا من بين قدميها، وثعبان يتوارى وراء صحراء.. ومن بعيد ترى القلعة وسط الغبار..
إنها ليست قلعة بالضبط كما نتخيلها وكما تخيلتها هى، لكنها أقرب إلى مجموعة من الجدران الحجرية العملاقة..
الأسوار مدججة بالرجال المتشحين بالسواد، والذين تدججوا بدورهم بكل وأحدث أنواع السلاح لهذا العصر..
وعلى الباب يقف حارس له لحية مشعثة مجنونة، وفى عينيه نظرة أكثر جنونًا.. ويسألها في غلظة:
- «كلمة السرّ؟ «
- «خوداه حافظ.. »
فيفتح لها الباب المعدنى العملاق، وتدخل في ثبات إلى الداخل حيث تنتظرها قلعة الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنها (عبير) صديقتنا الدائمة، المذعورة كقطة صغيرة، الحالمة كأنسام ليلة صيف، الخيالية ك.. ك.. ك. (عبير عبد الرحمن) ذاتها...
ما الذي أرسلها إلى هنا؟ بالطبع نعرف الإجابة.. إنه (دى جى - 2).. جهاز الأحلام الذي اخترعه زوجها، والذى أدمنت استخدامه حتى النخاع..
لماذا جاءت هنا؟ هي لم تختر ذلك ولم تطلبه.. لقد حدث خلل ما في الجهاز، وبالذات في التعديل الذي أضافه (شريف) مؤخرًا.. التعديل الذي يسمح له بأن يختار الحلم مسبقًا..
طبعًا طلبت من (شريف) أن يختار لها حلمًا مناسبًا، وكانت تتوق إلى تجربة إحدى قصص ألف ليلة وليلة.. ربما عالم ألف ليلة وليلة بأسره.. كانت منبهرة بذلك العالم خاصة وأنه - تقريبًا - عالم المغامرات الوحيد الذي يحمل طابعًا عربيًّا أو شرقيًّا.. من العسير على المرء أن يجد قصة بوليسية أو قصة أشباح أو قصة (بيكاريسك) في الأدب العربى، ربما باستثناء ما قرأته للمغامرين الخمسة ورجل المستحيل.. إلخ.. طبعًا كان هناك أكثر من هذا لكنه لم يصل لعلمها..
قام (شريف) ببرمجة الجهاز لينقلها إلى عوالم ألف ليلة وليلة، لكنه فيما يبدو أخطأ.. لقد نقلها إلى عالم شبيه بها.. عالم يدور حول (بغداد) و(خراسان) و(نيسابور)، وفيه مآذن وخلفاء وقضاة وعسس..
المشكلة الوحيدة كانت أنه عالم قاس متوحش، وأنه عالم حقيقى من طراز (حدث بالفعل) يعود للقرن الحادي عشر..
وحين فطنت إلى المأزق الذي وقعت فيه؛ كان أوان التراجع قد تأخر كثيرًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقال لها (المرشد) وهو يقتادها عبر أسوار (نيسابور):

- « غريب أن تعودى إلى قطاع (الألعاب التاريخية).. حسبت أنك زهدته بعد قصتك مع (هنرى الثامن) حين كادوا يقطعون رقبتك في برج (لندن).. لم تجدى الكثير من المرح في تلكم التجربة.. »
قالت له وهي تتأمل الباعة من حولها:
- « لم أختر هذا المكان.. المفترض أنني في عالم (ألف ليلة وليلة).. »
- « إذن لماذا تركت (بغداد) وجئت هنا؟ أنت يا صغيرتى في عصر الدولة الفاطمية.. ونحن فى (إيران) الآن حيث يحكم الملوك السلاجقة البلاد.. »
- « ليس عندي أدنى تصوّر لهذه القصة.. »
- « بالتأكيد قرأتها في مكان ما يومًا ما، ربما فى كتاب أصفر عتيق اشتريته من بائع على الرصيف ببضعة قروش.. ربما في جريدة ممزقة كانت تلتف حول رغيفين من الخبز.. لا يهم أين قرأتها.. المهم أنها ظلت هنالك تحت صفحة لا وعيك تنتظر اللحظة المناسبة، وقد جاءت للأسف ! »
- « للأسف؟ »
- « نعم.. إنها فترة خطرة مليئة بالقلاقل، ويُقال إن الرجل لو تأخر في العودة إلى داره حتى صلاة العصر؛ يمكن لأهله أن يقيموا عزاءه، ولن يكونوا مخطئين في الغالب!»
- « حسن.. وما دورى أنا؟ »
أخرج من جيبه الكتيب الإرشادي لـ (فانتازيا)، وراح يراجع كلّ الصفحات، ثم قال:
- « عليك التوجه إلى سوق القوارير، ومن هناك ستعرفين ما يجب عمله.. إن مهمتك ليست سهلة جدًّا.. »
- « لا أعتقد ذلك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونعود إلى (عبير) التي تجتاز ممرات القلعة التي - ككل القلاع - تنيرها المشاعل الرهيبة على الجانبين، وتمرح الكلاب الضالة هنا وهناك..
من حين لآخر يبرز رمح جانبي يقطع طريقها، ويتكرر السؤال:
- « كلمة السرّ؟ »
- « خوداه حافظ.. »
فيرتفع الرمح، وتواصل مسيرتها الطويلة.. رائحة المكان كريهة كالشياطين، وفي كل صوب ترى الرجال الأشداء في تمرينات عسيرة على الفهم..
ثلاثة رجال في مباراة مصارعة إيرانية عنيفة مما يسمونها (زورخانة)، حيث تتلاحم الأذرع والسيقان والأفخاذ، فلا تعرف أي عضو يخص من بالضبط من الرجال..
رجلان يتسليان بقذف الخناجر على بعضهما، وقد وقفا متباعدين، وراح كل منهما يحاول الانحناء في اللحظة التي يصله الخنجر فيها..
رجل يحاول تهشيم كومة عالية من الخشب على طريقة الأخ (بروس لى)، وآخر يحاول بسيفه البتار أن يقطع جذع شجرة يتأرجح من حبل..
وثمة ثلاثة يتسلقون الجدار الحجري باستعمال أظفارهم فقط..
هل هو سيرك أم ماذا؟
في النهاية وجدت ساحة واسعة قليلًا، لا تضيئها إلا المشاعل التي لم تجعل الرؤية رائعة الوضوح.. ذلك الضوء الرقراق الذهبي الذي يجسّد الظلال، ويلقي الرهبة في القلوب..

وهناك كان جالسًا في صدر المكان على بساط سميك، وكان منهمكًا في الكتابة بريشة طاووس على لفافة من رق الغزال..
كان رهيبًا، وأضاف إلى رهبته ذلك الرداء الأسود الذي يكسو كتفيه ويتدلى للأرض ليحيطه ببقعة سوداء مهيبة، ثم إن حاجبيه الفارسيين المتصلين كانا يضفيان على عينية القويتين مسحة شبة شيطانية..
عينان قويتان.. قويتان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا)..
دنت منه بضع خطوات، ثم دفعها حافز خفى إلى أن تدنو على ركبتيها.. لقد فهمتْ أن هذه هي التقاليد هنا..
قال أحد الواقفين حوله:
- « إنه جاسوسك (أرسلان) قادم من (نيسابور) »
كانوا يتكلمون اللغة الفارسية القديمة، ولم تجد (عبير) صعوبة في فهمها كما هي العادة.. دنت أكثر فأكثر، ومن جديد انحنت، وقالت:
- « التحية لك أيها المعلم.. هناك أخبار عن (عمر الخيام).. »
بدا الاهتمام على (المعلم)، فرفع رأسه للمرة الأولى بدلًا من عينيه، وراح يتأمل وجهها في شك..
ثم سألها من جديد:
- « قلت ما اسمك يا بنيّ؟ »
- « خادمك (أرسلان) أيها المعلم.. »
طوى ما كان يكتب فيه، وبتؤدة قال:
- « لا أدري ما تحاول اثباته يابني.. لكنك لست (أرسلان).. »
وهنا خرجت عشرة سيوف من قرابها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2داهيتان وشاعر..

وتعود الذاكرة ب. (عبير) إلى الوراء.. إلى بداية مغامرتها في (فانتازيا) بعدما ألقاها (المرشد) في شوارع (نيسابور)..
كانت في تلك المرة ترتدي ثيابًا نسائية.. ثيابًا أنيقة جميلة، لكنها بالطبع تعود إلى هذا العصر.. لا بد أنهن كن يلبسن ثيابًا كهذه في القرن الحادى عشر..
كانت شوارع (نيسابور) تماثل بالضبط تخيلها لها: لم تكن تتخيلها على الإطلاق، ولم يدر بذهنها أن تراها يومًا ما.. أما الآن وهي تمشي فيها، فقد بدت لها أقرب إلى مدن الشرق كما يتخيلها الغرب..
بيوت من طابق واحد.. جمال.. نساء منقبات.. باعة.. جنود.. مساجد.. فرسان على خيولهم.. بستان يحيط بدار تنبعث منها نغمات ساحرة على العود.. قرود تؤدي ألعاب الحواة..
ولاحظت أن السلعة الوحيدة التي تباع وتشترى على جانبي الطريق هي القوارير.. قوارير وكئوس وأكواب من كل الأشكال والألوان والأنواع.. هذا إذن هو سوق القوارير الذي تكلم عنه (المرشد)..
مشت في تؤدة وهي تتأمل كل شيء.. ما أجمله من عالم يطير الألباب، خاصة رائحة الجو التي هى مزيج لا يمكن وصفه، من روائح الريحان وماء الورد والمرّ والبخور.. لو كانت سائحة غربية لجنت فرحًا، لكنها مجرد فتاة من (نيسابور) تمشي وسط بيئتها الطبيعية كما هو مفترض..
وكما يحدث دائمًا في كل قصة ل. (عبير) فى بدايتها؛ تعرضت لخطر داهم.. خطر من النوع الذى يفرّ منه المارّة جميعًا ما عداها..
كان الخطر في هذه المرة كلبًا متحمسًا، يركض واللعاب يتطاير من بين شدقيه، وفي عينيه نظرة مشتعلة مجنونة..
كلب مسعور ! هذا واضح..
وبعد ثانية كان ما توقعته قد حدث.. لقد خلا الطريق، وفتح أحدهم البالوعة لتمتص كل الزحام، فلم يعد سواها والكلب على بعد أمتار..
صرخت ووثبت إلى جانب الطريق، لتسقط - طبعًا - على عشرات القوارير المتراصة على الأرض.. و...



صرخت ووثبت إلى جانب الطريق، لتسقط – طبعًا – على عشرات القوارير المتراصة على الأرض.. و...

كراش ش ش ! كروش ش ش ! فلانك ! بش ش ش ش ! لكنها لم تهب شيئًا من هذا..
كانت تفكر في ألم العضة القادمة وخطرها، في زمن لا يوجد فيه لقاح HDCV أو لقاح الإحدى

وعشرين حقنة إياه..
لكن الكلب لم يفعل.. واصل انطلاقه للأمام بعينين زائغتين لا تريان، وأدركت أن المرض وصل به لمرحلة متقدمة من الجنون.. حين يشتهى الإيذاء ولا يقدر على تركيز جهوده..
وابتعد الكلب عنها..
الآن تنهض، وفي هذه المرة تدرك أن عشرات الخناجر الصغيرة مغروسة في كل ملليمتر من جسدها.. الزجاج المهشم في كل صوب..
كانت تنزف لكن شرايين عنقها سليمة ولله الحمد..
هنا فوجئت برجل فظ يثب من حيث لا تدري ليلوى ذراعها بقسوة، وصاح فسال اللعاب كشلال ليغرق لحيته:
- «لحظة يا حبيبتي ! إلى أين أنت ذاهبة؟ من يدفع لى ثمن كل هذه القوارير والكئوس الجميلة؟ »
حاولت التملص لكن كفه كانت كفكى سمكة القرش؛ فصاحت:
- « يا له من سؤال ! لقد كنت على وشك الموت وأنت.. »
- « كنت على وشك الموت، والآن أنت سليمة كالجرس.. أما قواريرى الجميلة.. أجمل قوارير في (نيسابور) لم تعد كذلك.. »
وازدادت قبضته شراسة، وبدأ يرجها رجًّا..
- « ادفعي ثمن القوارير حالًا !»
- « لكنى... »
- « هذه هي البداية المعتادة! »
- « توقف يا صانع الزجاج! »
هذه لم تكن منها، ولكن من رجل ذي قبضة قوية صارمة وضعها على كتف التاجر المفترس، فاستدار هذا أحمر العينين، عازمًا على بدء مذبحة..
قال الرجل في تؤدة:
- « إنها لم تتعمد هذا.. عسير على المرء أن يتفادي كلبًا مسعورًا ويتفادى زجاجك في الآن ذاته.. هلم.. أحسَبُ هذا كافيًا.. »
وطوّح بصرّة صغيرة تحوي مالًا.. هكذا كان المال يحفظ في هذا الزمن.. وكانت للتاجر خبرة لا بأس بها.. التقط الصرّة من الهواء، ووزنها بكفه، ثم بدا عليه بعض الرضا، وسرعان ما أطلق ذراع (عبير)..
- « طاب يومك.. إنه كاف.. »
ثم انحنى في خنوع وتملق، وأشار إلى متجره:
- « أنا كما ترون يا سيدى (نظام الدين).. تاجر فقير يعيش من اليد إلى الفم.. لكني أرحب في أية لحظة بأن تزوروني لتروا.. »
ورفع عقيرته كأنما ينادي على بضاعته:
- « أفخم وأجمل قوارير في (نيسابور) كلها! »
- « لا عليك أيها النصاب.. سنعود حتمًا.. »
وقفت (عبير) لاهثة تنظر إلى منقذيها، فوجدتهم ثلاثة فتية ظاهرى الوسامة والقوة، وفي عيونهم علامات ذكاء لا شك فيه..
قال منقذها الذي عرفنا أن اسمه (نظام الدين)، وكان أكثر الثلاثة سلطة كما يبدو:

- « لا عليك يا حسناء.. إن التاجر تاجر حتى لو غارت (نيسابور) في الأرض.. اغفري لهذا التيس فظاظته.. »
في سرور غمغم التيس:
- « هى هى هى هى! »
وهنا قال ثاني الفتية، وهو شاب نحيل أسمر له نظرة زائغة غريبة، وصوت رخيم هادئ:
- « زخارف الدنيا أساس الألمْ
وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خليّ البال من أمرها
فكل ما فيها شقاء وهم[1] »
لم تفهم معنى البيتين جدًّا، فهي لم تكن ممن يفهمون الشعر، لكنها على الأقل أدركت أنه يعزيها كى لا تحزن بشكل ما.. فقالت له:
- « شكرًا.. »
أما ثالث الفتية، فكان من الطراز الذي يبقى أفكاره لنفسه.. هو فقط يواجه العالم الخارجى بابتسامة دبلوماسية لزجة ثقيلة الوطء.. كان له الحاجبان الفارسيان المتصلان، والعينان الثاقبتان اللتان تعطيانه طابعًا شبه شيطاني.. عينان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا)..
قال لها في تهذيب قاس صارم:
- « ما اسم الحسناء؟ »
لم ترتح إليه لحظة، لكنها أجابت وقد عرفت دورها بوضوح:
- « (شورانكيز).. »
أشار إلى صدره بثقة وقال:
- « أنا (الحسن بن الصباح).. هذان زميلاى (نظام الدين).. »
وأشار إلى أول الفتية الذي أنقذها.. وأردف:
- « .. و(عمر الخيام).. »
وأشار إلى الثاني الذي أنشد بيتى الشعر..
هنا دارت الأرض بها.. إنها تعرف (عمر الخيام) طبعًا، لكنها تذكر شيئًا غامضًا عن هذا ال (نظام الدين) وصاحبه.. شيئًا غامضًا لكنه رهيب.. ترى ما هو؟
ومن جديد تساءلت: هل حقًّا كان الثلاثة في زمن واحد، أم أن هذا أسلوب من أساليب (فانتازيا) المعتادة، حيث يجتمع (هولمز) و (بوارو) و (ميجريه) في مكان واحد؟
الحقيقة - نقولها لأنفسنا لا لها - أن الثلاثة كانوا أصدقاء حميمين فعلًا، وكانوا في هذه الآونة يتلقون العلم في (نيسابور) في المدارس النظامية.. وهى ما يعادل الأزهر في ذلك الوقت.. الأزهر الذي كان الفاطميون يباهون به، ويستقطبون إليه طلاب العلم من كل صوب..
كان مقدرًا لكل من هؤلاء الثلاثة أن يكون ذا شأن كبير..
ولسوف تعرف (عبير) هذا بنفسها بعد قليل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3مع (الخيّام)..

فيما بعد عرفت (عبير) أنه لا أسرة لها.. إنها جارية جاءت من مكان ما في (آسيا الصغرى)، وهي تعمل لدى أحد التجار الأثرياء في (نيسابور).. رجل طيب القلب أبيض الشعر والنوايا، كان يعاملها كابنته فعلًا..
واعتادت أن تذهب إلى السوق من حين لآخر، أو إلى ساحة المدارس[2] حيث يقف الطلاب يناقشون ما تعلموه، ومناهج (أرسطو)، والعقيدة وما إلى ذلك، فكانت في الغالب تلقى الفتية الثلاثة إياهم.. إنهم لا ينفصلون كأنهم إطارات دراجة ثلاثية من دراجات الأطفال، أو قوائم حامل ثلاثي، أو الأثافي التي كان العرب يطهون طعامهم عليها..
الأول كان يعاملها بتحفظ ووقار.. الثاني الشاعر كان فيلسوفًا شاردًا، لكنه كعادة الشعراء كان مستعدًا للوقوع في هواها بسهولة.. أما الثالث فكان يعاملها بخبث شديد.. كذئب في ثوب حمل.. يتظاهر بالتهذيب لكنه يعرف أن المسألة مسألة وقت لا أكثر، قبل أن تقع في حبائله..
مالت نفسها إلى (عمر الخيام) نوعًا.. ولكنها أدركت أنه يعاني من اضطراب شديد في عواطفه، مع ميل للاكتئاب يتأرجح مع ابتهاج خارق للعادة.. فلو كانت تفهم الطب النفسى لقالت إنه مصاب ب. (ذُهان اكتئابى انبساطى).. كان متشككًا يحتقر الحياة لكنه ينغمس فيها بعنف، راغبًا في الموت لكنه يخشاه، مولعًا بتعذيب نفسه كلما رأى الجمال أو استشعر السعادة.. هذا رجل يرى فتاة حسناء بعينه لكن مهجته ترى جمجمتها وهيكلها العظمى الذى تعبث به الديدان، تحت أطنان من التراب.. يرى الرضيع الضاحك فيتخيل جنازته..
هذا المزاج الأسود الذي كان يميز (بودلير) و (إدجار آلان بو) و(عبد الحميد الديب) و(أبوالعلاء) وكل شاعر عظيم في الواقع؛ لم يمنع (عمر الخيام) من أن يكون طبيبًا بارعًا، وفلكيًا حصيفًا، وخبيرًا بالرياضيات والفلسفة.. بالإضافة إلى أنه كان من أظرف من عرفتْ وأقواهم دعابة.. دعابات حزينة هذا صحيح، لكنها مضحكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم الحادث الشهير، أخذها إلى ما يشبه المستشفى.. استخرج كل قطع الزجاج التى انغرست فيها، وطهّر الجروح جيدًا بمادة ما ركّبها من الزئبق..
كان منهمكًا في عمله ولم يرفع عينيه إليها؛ لكنه راح ينشد بصوت رخيم:
- « تحَمّلْ الداء كبير الرجاء
إنك يومًا ستنال الشفاء
واشكر على الفقر الذي إن يردْ
أصبحت موفور الغني والثراء »
سألته وهي تعض على شفتيها ألمًا:
- « آى ! ما معنى هذا؟ »
رفع عينه الواسعة الصافية الحائرة نحوها، واهتزت لحيته وتساءل:
- » هل تفهمين الفارسية؟ »
- « أفهمها لكني لا أفهم ما تعنيه هذه الفارسية بالذات.. آى ! »
غمغم في صبر وهو يضمد ذراعها:

- « إنها رباعية أدعوك فيها إلى الصبر والأمل فى الشفاء.. وإن الله (تعالى) الذي جعلك فقيرة لقادر على أن يجعلك غنية.. »
- « هم م م.. ولماذا لا تقول هذا وتنتهي؟ »
ارتجفت لحيته من جديد.. هذا أول سؤال من نوعه يسمعه في حياته:
- « أنت.. أنت تتساءلين عن جدوى الشعر أصلًا؟ »
- « أعتقد هذا.. أي ! »
نظر إلى أعلى، وأخذ شهيقًا عميقًا:
- « لو كان بوسع الشحرور أن يعرف لماذا يغنى لأجبتك عن سؤالك.. »
- « شحرور؟ !! »
وتقلص وجهها تعبيرًا عن عُسر الكلمة..
فيما بعد ستدرك (عبير) أن (عمر الخيام) لا يكفّ عن إنشاد الرباعيات.. ينشدها عند الاستيقاظ وقبل النوم.. ينشدها قبل الأكل وبعده.. ينشدها قبل دخول دورة المياه، وعندما يخرج منها.. ينشدها حين لا يجد شيئًا آخر يفعله، وينشدها حين يقرر أن ينشدها..
إنه قطار بضاعة محمل بالرباعيات التي تتساقط منه طيلة الوقت.. وفيما بعد سيجمع (فيتز جيرالد) خمسًا وسبعين منها، يقدمها للقارئ الإنجليزي عام 1589، ومن يومها يتحول (الخيام) إلى أسطورة..
وقد تراوح عدد الرباعيات لدى مختلف المترجمين الغربيين بين خمس وسبعين إلى ثلاثمائة وتسع وعشرين.. ولكن هناك رباعيات كثيرة مدسوسة على (الخيام) وإن كان إثبات هذا عسيرًا.. ببساطة لأن الفوارق بين الفارسية القديمة والحديثة واهية جدًّا، ولأن كل هذه الرباعيات تتحدث عن ذات الأشياء، ولها نفس الأسلوب والصياغة العروضية..
لكن الباحثين الجادين يستخدمون كتابًا اسمه (نوروزنامة) كتبه (الخيام) عام 768 هجرية.. هذا الكتاب يصلح لمضاهاة الرباعيات مع أفكاره واستبعاد ما يبدو شاذًا منها.. الكتاب في مكتبة (برلين) اليوم، ويعد كنزًا أدبيًّا بالغ الأهمية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرعان ما توطدت علاقة حميمة بينها وبين الشاعر المكتئب (عمر الخيام).. إن النساء يملن إلى الشعراء حتى لو لم يفهمن ما يقولون.. للشعر جاذبية خاصة في روح المرأة سواء كان على شكل عمودى، أو ذلك الشكل المستحدث الذي ينتهي بنقطتين في كل سطر.. مجرد منظر الورقة بهذا الشكل يجذبهن، كما ينجذب أي رجل نحو مباراة كرة قدم أو قدّاحة موضوعة على منضدة أمامه..
بالنسبة للخيام كان راغبًا في جعلها تحبّ الشعر.. وبالنسبة لها كان الأمر شبيهًا بمحاولة إقناعها بحبّ السبانخ.. هذا مجهود لا جدوى منه لأن الحبّ لا يُعلّم.. الحبّ يجيء من تلقاء نفسه.. كل شيء أو لا شيء..
لهذا لم تحب الشعر لكنها أحبت الشاعر نفسه.. لم تهو السبانخ لكنها هوت الطبّاخ..
وراحت - محاولة ارضاءه - تتظاهر بأنها في غاية الاستمتاع، بينما هو يمطرها بوابل لا نهاية له من الرباعيات التي كان سيسيل لها لعاب المستر (زوكوفسكى) و(روزن) و(ونفيلد) وسواهم من المستشرقين..
- « نلبس بين الناس ثوب الرياء
ونحن في قبضة كف القضاء

وكم سعينا نرتجي مهربًا
فكان مسعانا جميعًا هباء »
فتهزّ رأسها في استحسان، وتقول:
- « يا سلاااام ! رائع ! »
- « وإن تواف العشب عند الغدير
وقد كسا الأرض بساطًا نضيرْ
فامش الهوينا فوقه.. إنه
غذته أوصال حبيب طريرْ.. »
- « طرير؟ !!! »
وتتمنى لو تدسّ حجرًا في فمه ليخرس قليلًا.. لكنه يزداد نشوة وتواجدًا وينظر للسماء، ويُسبل عينيه.. لقد ركبه شيطان الشعر ولن ينقذه سوى أن يركله أحدهم..
- « بستان أيامك نامي (الشجرْ)
فكيف لا تقطف غض الث.... »
- « كفى!! »
ينظر لها في ذهول كأنه لا يصدّق أن هناك من لا يحب شعره إلى هذا الحدّ، ثم يعتريه الخجل فيقطع إنشاده الذى لا ينتهي..
تسأله متلطفة:
- « هل (الحسن) و (نظام) يحبّان شعرك؟ »
- « كلاهما مهموم بالدنيا مشغول بها، ولا وقت لديهما لمثل هذا.. إن (نظام الدين) طموح حقًّا، وراغب في الوصول إلى أعلى المناصب؛ أما (الحسن) فداهية وسيصل إلى أعلى المناصب بالفعل، سواء كان مؤهلًا أم لا.. »
- « وأنت؟ »
ابتسم في مرارة، وأمسك بقيثاره وعزف عليه نغمتين، وقال:
- « أنا.. أنا أريد أن أترك وشأني فحسب ! »



ابتسم في مرارة، وأمسك بقيثاره وعزف عليه نغمتين، وقال:
- « أنا.. أنا أريد أن أترك وشأني فحسب ! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن حياتها في (نيسابور) مملة أو قاسية.. الحقيقة أن هناك بعض الملل لكن سببه أن شيئًا

لا يحدث على الإطلاق، فهو عصر ترف.. عصر رخاء.. وكما نرى اليوم الدول الإسكندنافية لا تتكلم - بعدما حلت كل مشاكلها - إلا عن قضايا الوجود والعدم وماهية الإنسان؛ كان الناس في هذا الزمن مشغولين بالفلسفة وقضايا الكون ودراسات الفلك..
مرت أعوام، وسرعان ما حدث ما توقعه (عمر الخيام).. لقد رحل (نظام الدين) إلى (أصفهان) حيث تقرّب إلى (ملك شاه).. كان ذكيًّا مهذبًا استطاع أن يشق طريقه سريعًا ليكون وزيرًا للدولة، وهو فى سن حديثة نسبيًّا..
قال لها (الخيام) وهو يضع جعبته على ظهره:
- « إنني و(الحسن) ذاهبان إلى (أصفهان).. »
- « جميل.. ولكن لماذا؟ »
ابتسم ابتسامة ذات معنى، وقال:
- « لقد تعاهد ثلاثتنا على أن من يصل لتحقيق طموحاته، فعليه أن يجذب الاثنين الآخرين معه.. »
تذكرت موقفًا مماثلًا لها مع صديقتيها (غادة) و(أحلام).. لقد وعدت كل منهن صديقتيها بأن تجذبهما معها إلى سطح المجتمع بمجرد أن تصل هناك.. كانت (غادة) بارعة الحسن لكنها لن تصير نجمة سينما بالطبع، وكانت (أحلام) ذكية لكنها لن تكون مدام (كورى) أبدًا.. (عبير) ظفرت بزوج ثرى لكنها لن تكون (كريستينا أوناسيس) التي تملك الجزر والأساطيل.. باختصار لم يتغير شيء، لكن (نظام الدين) صار وزيرًا.. ولكن لحظة...
سألت (الخيام) في شك:
- « ظننتك لا تريد شيئًا سوى أن تُترك وشأنك.. »
هزّ رأسه في حماسة:
- « وما زلت.. وإن وضع (نظام) الجديد كوزير سيحقق لي هذا الحلم.. لن أضطر إلى الركض وراء لقمة العيش، وسأتفرغ لدراساتي وتأملاتي وشعري.. »
ثم أمسك بيدها بطريقته المميزة، التي يرفع فيها كفها بأنامله، وسألها:
- « هل تأتين معي إلى (أصفهان)؟ »
كان هذا مستفزًّا.. أولًا هى ليست ملك نفسها بل هى جارية.. ثانيًا ماذا يظنها هذا الماجن بالضبط؟ إنه لم يفتح فمه لحظة طالبًا الزواج منها، ولا يبدو أنه سيفتح فاه.. ربما يعتبر الزواج - كما يعتبره الشعراء الآخرون - قفصًا يسجن خيالات الشعر، أو قبرًا يذهب إليه المرء تصحبه الزغاريد.. ربما.. لكن الحقيقة هي أنها (عبير).. فتاة من الطبقة الأدنى متوسطة، ولا تعتبر أية قصة حبّ مشروعة أو ناجحة ما لم تنته بالزواج..
قالت له هذه الآراء في كياسة وصبر، فبدا التأثر في عينيه، ورفع عقيرته منشدًا:
- « لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآتى العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس في طبع الليالى الأمان »
سألته في شيء من تبرم:
- « ما معنى هذا بالضبط؟ »
- « معناه أن الفرصة لا تجيء إلا مرة واحدة، وكما سيقولون بلهجة أكثر عصرية: إما الآن أو لا للأبد.. »

- « إذن وداعًا.. لست مغرمة باغتنام الفرص الحالية لأنها موجودة.. إن الغد قد يجيء بأى شيء.. أي شيء أفضل! »
ترقرقت الدمعة المعتادة في عينيه، وغمغم:
- « أهو فراق إذن؟ »
- « هو فراق حتى اللقاء.. اللقاء الذي أراه لائقًا ومناسبًا..«
وانتزعت كفها وابتعدت..
تبًّا للخيال الشعري ! لابد أنه ينشد رباعية جديدة عن الفراق وقسوة المحبّ وهو يرمقها تبتعد.. وكانت تعرف ما سيحدث بدقة..
سيتألم بعض الوقت ثم ينساها في (أصفهان)..
حتمًا سينساها في (أصفهان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- شطرنج وأشياء أخرى..

فيما بعد عرفت (عبير) تفاصيل ما حدث في (أصفهان)..
لقد دخل الصديقان المتهيبان - (عمر الخيام) و(الحسن الصباح) - على صديقهما الوزير (نظام الملك الطوسى).. كان جالسًا مع حاشيته يصدر أوامره حين رأى صديقى صباه يدخلان.. أشار بيده ليصرف من حوله، ثم تهلل وجهه بحق.. كان قد اكتسب سنوات من العمر، وزادته التجارب قوة شخصية ظهرت في نبرات صوته وفي تقاطيع وجهه..
فلما رآهما متحفظين، صاح في مرح:
- « يا لكما من أحمقين ! نحن الآن وحدنا ! »
وانفجر ضحكًا بينما الصديقان يغوصان في حضنه، وأدركا أن (نظام) ما زال هو (نظام).. لم يبدّله شيء..
أولم لهما فأكلا وشربا كما لم يفعلا من قبل، ثم سألهما عما أحضرهما إلى (أصفهان).. كالعادة التزم (الصباح) الصمت أما (الخيام) فقال:
- « أحضرنا وعد قديم من صديق كريم.. »
فكّر حينًا وقضم قضمة من أجاصة كانت أمامه، ثم عاد يسأل:
- « بم وعدت بالضبط؟ »
- « ذلك الوعد بصدد أن يرفع من يعلو منا صديقيه إلى السطح.. »
ابتسم (نظام) في خبث، ومال أكثر للأمام وتساءل:
- « وماذا تريد أنت أيها الشاعر الفيلسوف كى تطفو إلى السطح؟ »
فكر (الخيام) أو تظاهر بأنه يفكر، ثم قال في كياسة:
- « أريد ألا أنشغل بأمور الدنيا.. هب لى راتبًا سنويًا في (نيسابور) يسمح لى بالتفرغ لتأملاتى وشعرى.. »
- « لك هذا.. لك 1200 مثقال من الذهب كل عام من بيت مال (نيسابور).. وأنت يا (صباح)؟ »
فكّر (الحسن) قليلًا، ولم يكن راغبًا في مزيد من التظاهر ما دام قلب صديقه القديم مفتوحًا هكذا:
- « أريد أن أنشغل بأمور الدنيا ! »
- « مفهوم.. مفهوم.. هذا عهدى بك! »
- « أريد مكانًا ساميًا في قصرك.. »
فكّر (نظام الدين) قليلًا.. كفّ عن المضغ وحك لحيته، ثم قال:
- « هناك إمارتان تناسبانك.. إمارة (همدان) أو إمارة (الريّ).. فأية واحدة تريد؟ »
- « أريد أن أكون هنا في القصر معك.. »
- « لك هذا.. »
كانت هذه هي طريقة الحكام في تقديم الهبات لمن يرضون عنه.. وكان في كرمه الكفاية لأن (عمر الخيام) ظلّ يتقاضى راتبه السنوي حتى 485 هجرية..
أي أنه عاش سبهللًا عشرين عامًا كاملًا.. و(سبهللًا) بالمناسبة لفظة فصحى لا غبار عليها بمعنى

(لا لدنيا ولا آخرة)..
عاد (عمر الخيام) إلى (نيسابور) ليواصل اكتئابه، ويتقاضى 1200 مثقال ذهب في العام.. بينما بقى (الصباح) في (أصفهان) يلعب الشطرنج..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « شطرنج؟ »
قالتها (عبير) غير مصدقة، حين أخبرها (عمر الخيام) بالقصة كلها، وكانت عودته المفاجئة قد أثارت حيرتها.. لقد حسبته سيظل في (أصفهان) أبدًا..
قال لها (الخيام):
- « نعم شطرنج.. لا عمل له هناك إلا هذا، وهو يقضي الوقت مع ندماء السلطان يلعبون.. لا أعتقد أنه سيتحمل أدوارًا كثيرة قبل أن يجن جنونه ويبحث عن دور.. »
سألته وهي ترفع النقاب لتغطي وجهها:
- « ولماذا عدت أنت؟ »
- « لأنني لا أعرف لنفسي خارج (نيسابور) بيتًا ولا عملًا ولا حبًا ولا قبرًا.. إن بقائي في (أصفهان) يعني أن أتحول إلى شاعر الوزير الأليف.. مجرد وسيلة تسلية مادام التلفزيون لم يُخترع بعد.. لقد اخترت لنفسى نهاية أفضل..»
وشردت عيناه.. يا للكارثة ! ثمة رباعية في الطريق ! وكما توقعت بالفعل نظر لأعلى وقال:
- « وليس هذا العيش خلدًا مقيمْ
فما اهتمامى محدث أم قديم؟
سنترك الدنيا فما بالنا
نضيع منها لحظات النعيم؟ »
- « على رأيك.. »
قالتها وتنهدت.. لابد أن هناك طريقة لإخراس الشعراء المتحمسين غير الديناميت.. إنها – للأسف - لن تجد الديناميت في هذا الزمن قبل أن يخترعه (ألفريد نوبل).
قال لها (الخيّام) باسمًا على سبيل الزهو:
- « لقد وصلت شهرتي الطبية إلى (أصفهان)، وقد عالجت ابن (ملك شاه) نفسه.. إنه ولىّ العهد (سنجر) وكان محمومًا، وطلب الأب أن أفحص ابنه لأنه سمع عن شهرتى ونبوغى.. كان الصبى يعاني تسرب بعض (الأخلاط) الفاسدة إلى دمه وقد فصدته فتحسن.. »
كانت تعرف أن الطب في هذا الزمن لا يزيد على الأخلاط والهواء الفاسد، والعلاج الوحيد هو الفصد والكيّ واستنشاق الهواء النقىّ..
من الغريب أنهم كانوا يشفون أحيانًا !
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت الأخبار من (أصفهان) تصل إلى (عمر الخيام) أولًا فأولًا.. طبعًا بعد شهر من حدوثها..
عرف أن (الصباح) - كما هو متوقع - قد وطّد سلطته في البلاط، وصار له حلفاء عن طريق لعبة الشطرنج.. ثم تدريجيًا صار حاجب الملك..
وفي يوم استدعى الملك وزيره (نظام الدين)، وطلب منه أن يجرى جردًا لميزانية الدولة..
- « كم تحتاج إليه من الوقت؟ »
حك (نظام الدين) لحيته الوقور في تؤدة وقال:

- « عامان على الأرجح يا مولاى.. »
هنا تدخل (الصباح) في الكلام ضاربًا بيده على صدره:
- « أنا أفعلها في أربعين يومًا يا مولاى! »
نظر له الملك في إعجاب حذر، ثم هزّ رأسه:
- « برهن لى على ذلك.. والويل لك لو كنت مغاليًا.. »
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكذب (الصباح) خبرًا..
بعد أربعين يومًا كانت ميزانية الدولة – بالمليم - مدوّنة على رقاقة من جلد غزال بين يدىّ الملك.. يعلم الله (تعالى) وحده إن كانت صحيحة، لكن الملك كان مسرورًا جدًّا، ونظر نظرة لائمة إلى (نظام الدين).. نظرة من نوع (هل - ترى - أيها - المتخاذل -؟)..
وابتلع (نظام الدين) غيظه وصمت..
لكن الحقيقة هي أن نفوذ صديق طفولته العزيز كان يقوى يومًا بعد يوم، وهو ما يشبه الناسك الذي سمح للأفعى بأن تبيت في داره..
لقد حان وقت الخلاص من صديق الصبا العزيز هذا، وكلما كان هذا أسرع كان أفضل..
وهكذا دارت لعبة حاشية السلطان التقليدية: المؤامرات - الوشاية - الدسّ - نقل ما لم يحدث لمن لم ير.. إلخ..
ووجد (الصباح) أن (أصفهان) صارت مكانًا خطرًا، وأن طموحاته تحتاج إلى مكان أوسع وأكثر رحابة..
إلى مصر..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي العام 471 هجرية فرّ (الصباح) إلى مصر..
كان (المستنصر بالله) يحكم مصر، وقد سمع الكثير عن (الصباح)، فاستضافه وأكرم وفادته، وقام بتقديمه إلى الإسماعيليين في القاهرة.. وهم من نفس طائفته وميوله..
لكن - كما قلنا - كان (الصبّاح) يضمّ داخله ما هو أقرب إلى ياى السيارة.. الياي الذي يحاول أن يتمدد في أية لحظة مهما ضغطت عليه طويلًا.. الياى الذى يحاول التوسع وتحقيق الطموح بأي ثمن..
وكانت فرصته في مصر واضحة وسهلة..
كان للخليفة ابنان هما (نزار) و(المستعصم).. وكان له وزير قوى كاسح السلطان والشخصية هو (بدر الجمالى).. الوزير يؤيد (المستعصم) كى تكون له الخلافة.. والخليفة يؤيد (نزار)..
هنا قرر (الصباح) أن يراهن على (نزار) الابن الثاني للخليفة.. ليسجل لدى الخليفة نقطة..
لكنه أخطأ تقدير قوة منافسه الوزير..
كان الوزير قويًّا بحق، ربما أقوى من الخليفة نفسه، وكانت غضبته عاتية لا تبقى ولا تذر..
لهذا اعتقل (الصباح) وسجنه في (دمياط)، ليبقيه بعيدًا عن الصراعات على الخلافة..
إن (الصباح) مثير شغب ومتاعب حيثما وجد، وطبيعته التآمرية ليست مما يناسب الوزير، لأنه يملك الطبائع ذاتها، وقلما شعر ذئبان براحة في مكان واحد إذا تصادمت مصالحهما..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يبق (الصباح) كثيرًا في (دمياط)..

لقد لحق بمركب متجهة إلى الشام.. فرّ من مصر تاركًا المزيد من المشاكل وراءه، قاصدًا وطنه لينشر المزيد والمزيد من المشاكل هناك..

وقال (عمر الخيام) لـ (عبير) / (شورانكيز) وهو يرتجف:

- « إن (الصبّاح) لا ينسى أحقاده القديمة.. وهو لن يسامح (نظام الدين) على طرده من (أصفهان).. الويل لكل من وقف أو يقف أو سيقف في طريق هذا الرجل المخيف.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5النزارى الأول..

فى هذا الوقت لم يكن (الخيام) بلا عمل..
كان منهمكًا في رباعياته ودراساته الطبية والفقهية والفلسفية.. كان بطبعه زاهدًا في الناس والكون، ميالًا إلى العزلة وإعمال الفكر..
وعام 471 هـ - حين كان (الصباح) يبدأ مشاغباته في مصر - كان منهمكًا في إصلاح التقويم الجلالى بناء على أوامر (ملك شاه).. بدأ هذا التقويم من 15 مارس سنة 1079 م، ولا يزال من أعياد الفرس حتى اليوم.. إنه (النيروز) بداية السنة الفارسية، الذي حيّرنا فهم معناه حين درسنا قصيدة البحترى الشهيرة (أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا.. من الحسن حتى كاد أن يتكلما) ! إن من لم يتلق علقة من مدرس اللغة العربية بسبب (النيروز) لهو - في رأيي - إنسان سعيد الحظ حقًا..
كانت (عبير) قد يئست تمامًا من أن يطلب (الخيام) يدها.. واضح أنه لن يفعل هذا أبدًا..
لكنها - من ناحية أخرى - لم تفقد صداقته، فهو ذكى مهذب لطيف المعشر، ولو تغاضينا عن رباعياته التي لا تنتهي؛ يمكن القول إنه شخص لا بأس به..
ولم تنقطع أخبار (الصباح)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد تولى (المستعصم) حكم مصر كما رتب له الوزير (الجمالي)..
و(نزار) أخوه قد قتل..
كانت هذه هي الفرصة السانحة لـ (الصباح) كى يتبنى قضية ما.. إنه بحاجة إلى النفوذ والسلطة، لكن الناس لا يمنحان النفوذ والسلطة من دون قضية.. وقضية اليوم هى مصرع (نزار)..
وفي الحال التقط (الصباح) الكرة، ووجهها بتسديدة محكمة إلى قلوب الناس..
- « الويل لكم ! لقد هلك (نزار) ! (نزار) الذي كان الأحقّ بتوليه للخلافة في مصر.. وأنتم تركتموه يموت يا إخوة الأفاعي وأبناء الشياطين.. إن الأرضة لتشمئز منكم، وإن الطيور الجارحة لتزورّ عنكم، وإن قلبى ليرتجف هلعًا من حقارتكم.. »
لم يكن يبالي كثيرًا بـ (نزار) ولا من يحكم مصر، لكنه - كما قلنا - كان يبحث عن قضية.. يبحث عن فتنة.. يبحث عن جنازة يشبع فيها لطمًا وعويلًا..
- « ويحكم ! ليست هذه أول ولا آخر مرة تضيعون فيها إمامًا، ولا أول ولا آخر مرة تلقون فيها الخبز للكلاب، والجواهر للأوحال، والتبر للتراب.. يا مجموعة من الحمقى تخجل منها الكلاب في شوارع (خراسان).. وغدًا تبكون بدل الدموع دمًا.. »
الحق أنه كان رهيبًا مهيبًا، وهو يقطع الدروب ويدخل المدن، بثيابه السوداء الكابية، والنظرة النفاذة الغضبى في عينيه..



كان تأثيره مغناطيسيًّا، وهو تجسيد حقيقي لكلمة (كاريزما)، أو مصطلح (ديماجوج) الذي يحبه السياسيون، أو لفظة (أومف) التي يستعملها السينمائيون في (هوليوود)..

وببطء - وكما يحتشد دخان مصباح (علاء الدين) في صورة مارد - بدأت رسالته تتشكل، وأتباعه يتزايدون..
وفيما بعد سيطلق التاريخ على هذه الدعوة اسم (النزارية).. لأنها لا تتكلم إلا عن (نزار) ابن (المستنصر) القتيل، الذي اعتبره (الصباح) شهيدًا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لابد أنه احتاج إلى طاقة هائلة كي يبث دعوته في أرجاء (كرمان) و (طبرستان)..
ثم اتجه إلى شمال إيران حيث (قوهستان)، وصعد - وهو لا يكف عن الوعيد والتهديد - إلى ما يسمونه (قلعة الموت).. أو (شاه دز).. وهي قلعة حجرية قرب (خراسان)..
وجد مغارة هناك، فدخلها، وقبع فيها يدعو الناس إلى الالتفاف حوله، ومبايعة (نزار) خليفة..
لكن (نزار) مات فكيف؟ إن (الصباح) هو نائب الإمام القتيل، ويتكلم بلسانه.. وبما أن الإمام – فى رأيه- معصوم فنائبه معصوم.. كل ما يقوله (الصباح) صحيح، وكل شيء يعرفه، وكل سرّ ينفذ إلى خفاياه..
شعر حاكم المنطقة بالقلق، فهذا الثرثار يحدث الكثير من الصخب وهو مصدر متاعب لا ينتهي..
سأل رجاله:
- « ماذا نفعل مع هذه المصيبة التي جاءت من (نيسابور)؟ »
فكر الرجال قليلًا، ثم قالوا له:
- « اعرض عليه أن يترك الغار الذي يقيم به.. سنحاول أن نمنحه حياة أسهل مقابل أن يكف عن الضجيج قليلًا..»
وفي اليوم التالي ذهب الحاكم إلى الغار، ونادى (الصباح) فخرج له..
كان مخيفًا بحق وقد بدأ النفوذ ووساوس الفكرة الواحدة ترسم على وجهه تعبيرًا غير آدمى..
سأله الحاكم طيب القلب
- « ألن تفكر في ترك هذا الغار؟ »
- « نعم.. لا أفكر.. »
- « لكن هذا ممنوع.... أنت على مرمى حجر من قلعة الموت، وهي قلعة ذات أهمية حربية بالغة لنا.. »
حكّ (الصباح) لحيته، وقال بعد تفكير:
- « أنا بحاجة إلى البقاء هنا.. لماذا لا تبيعنى مقدار سلخ بقرة من أرض القلعة كي أعيش عليها؟ هذا لن يزعج أحدًا كما تعلم.. »
فكر الحاكم طيب القلب، وخطر له أن وجود (الصباح) داخل القلعة قد يجعله محاصرًا بشكل ما.. ربما يضعه هذا تحت الرقابة..
- « ليكن.. سأبيع.. ولكن مقدار سلخ بقرة لا أكثر.. »
- « لك هذا.. »
وطارت حزمة مصرورة من الدراهم لتسقط في يد الحاكم، الذي انصرف راضيًا عن ذكائه.. لقد حاصر (الصباح) بين أربعة جدران بدلًا من تركه في مكان مفتوح على الجماهير، ولم يؤذه قط..
إن إيذاء (الصبّاح) قد صار خطرًا هذه الأيام..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد أسبوع بدأ الحاكم يقلق نوعًا..
كانت وجوه المحيطين به تنم عن توتر حقيقى، وراحوا يتحاشون أن تلتقي عيونهم بعينيه.. فماذا حدث؟
قرر أن يرى بنفسه..
اصطحب عددًا من فرسانه، ومضى عبر الجبال قاصدًا قلعة الموت التي باع من أرضها مقدار سلخ بقرة للصبّاح..
هناك كان الصمت غالبًا، والجو لا ينذر بخير..
ترجّل أحد الفرسان عن فرسه، ومشى إلى باب القلعة وقرعه مرارًا.. جاءه من أعلى صوت يقول فى حزم:
- « كلمة السرّ؟ »
تبادل الفارس نظرة حيرى مع رجال الحاكم الراكبين الواقفين خلفه، ثم صاح:
- « هل تمزح؟ لا كلمات سرّ هنا.. »
كان حظهم حسنًا على كل حال لأن كلمة السرّ لهذا اليوم كانت (لا كلمات سرّ هنا)، وهكذا انفتح الباب وسمح لهم بالدخول..
سُمح لهم بالدخول خمسة أمتار لأن الحراس شاكى السلاح سدّوا عليهم الطريق.. وفي عيونهم التمعت نظرات من طراز (الويل لمن يتوغل أكثر)..
صاح الفارس الذي قال كلمة السر:
- « ويحكم ! هل ترون من معنا؟ إنه الحاكم نفسه.. (على بن المهدى) شخصيًّا.. »
- « إن (الصبّاح) يبتلع منه عشرة قبل الإفطار! »
ساد الهرج والمرج، وتبادل الواقفون السباب والاتهامات، وهنا شق الصفوف رجل مهيب فارع الطول متشح بالسواد، له عينان جاءتا من حيث جاءت عينا (راسبوتين) والكونت (دراكيولا)..
قال بصوت جهورى:
- « أيها الحاكم.. دع رجالك يرحلون حالًا.. »
صاح (ابن المهدي) القصير المكتنز:
- « ماذا تعنيه يا (حسن)؟ هؤلاء رجالى.. خيرة رجالى.. حامية القلعة تلك التي تحيط بك.. »
- « إنهم رجالى الآن، وأنت شخص غير مرغوب فيه هنا.. »
- « ف.. فى قلعتى؟ »
- « بل هي قلعتى أنا ! لقد بعتني إياها منذ أسبوع.. هل تذكر هذا؟ »
وابتسم (الصبّاح) في رفق كأنه يكلّم طفلًا شقيًّا..
صاح الحاكم غير مصدق، وكل ذرة في جسده ترتجف:
- « بعتك مقدار سلخ بقرة أيها النصاب !! »
- « إن ذاكرتك ضعيفة.. لقد بعتني إياها بالكامل.. ولو كنت لا تصدق كلماتي فإن رجالى يذكرون كل شيء.. »
نظر الحاكم إلى من حوله غير مصدق.. كل هذا الإنجاز في أسبوع واحد؟ وضع الرجل يده على القلعة كلها، ووضع رجالها - الحرس الأشداء - في جيبه ليصيروا حراسة الشخصيين..
- « لكنها قلعتى أنا يا (حسن).. »
- « بل هي قلعتى أنا يا (على).. أظن أنك تعاني مشكلة في السمع أيضًا.. حسبت أنني قلت هذا بصوت عال.. »

ثم تراجع إلى الوراء لتلتئم صفوف رجاله شاكى السلاح في وجه الحاكم ومن معه، وقال بنفس الهدوء:

- « إنني أحملك مسئولية أي صدام يحدث هنا.. هؤلاء رجالى وهم حسنو التدريب كما تعلم جيدًا.. إن اللحظات القادمة تعنى مذبحة، ما لم ترحلوا في سلام.. »

واختفى عن العيون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6(الصبّاح) يتكلّم[3]..

وعند الحاكم احتشد القوم يتبادلون الاتهامات والشكوى:
- « كان هذا خطأنا! »
- « إنه التخاذل.. »
- «ثعبان وثعلب معًا! »
- «يجب أن نعامله بحسم! »
- « كفى ى ى ى! »
هذه الأخيرة كانت من (ابن المهدى) الذي أوشك على أن يختنق من فرط الزحام حوله، وكان العرق قد بدأ يبلل ثيابه ويعمي عينيه.. قال أخيرًا وهو يلهث:
- « لا أريد سماع حرف عن هذا ال (حسن بن الصبّاح).. لقد أغلق باب المناقشة في هذا الموضوع.. دعوه وشأنه!»
- « ولكن هيبة الحاكم... »
- « لا أريد سماع حرف عن هيبة الحاكم.. »
وجفف العرق الذي سال على عنقه المكتنز، وقال:
- « على المتحمسين منكم أن يذهبوا إلى قلعة الموت لإقناعه! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا أخذ (الصباح) القلعة بوضع اليد كما يقولون، وكما يقولون أيضًا: بقي الوضع على ما هو عليه..
وبدأت الأمواج تجرى تحت الجسور بسرعة لا يمكن وصفها.. لقد كان المارد يحتشد معلنًا بدء حركة من أخطر الحركات في تاريخ الشرق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- »لا تختاروا الذكي أو الغبي.. بل اختاروا الوسط بين الاثنين.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « لا تلقوا البذور في الأرض السبخة، ولا تتورطوا مع الأغبياء الذين لا يصلحون.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « لا تتكلموا في بيت به سراج.. »

(الحسن بن الصباح)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تعليماته لأتباعه تتسرب كالثعابين من شقوق نظام الدولة الإيرانية المحكم، وكان محقًا في أمرهم بعدم الكلام في بيت به سراج.. هذا شيء مفهوم طبعًا.. إن ذكاء هذا الرجل...
ماذا؟ هناك بينكم من لا يفهم معنى (بيت به سراج)؟ هذا غريب.. إن الأمر واضح تمامًا.. البيت الذي به سراج مضيء ليلًا هو بيت تحت سقفه عالم أو فقيه أو باحث، وما كان (الصباح) يريد مثل هؤلاء لأنهم متعبون يرهقونه بالجدل.. كان بحاجة إلى العامة الجهلاء الذين يقبلون الأمور

على علاتها، ويقولون ما يُقال، ويرون ما يوصف لهم..
وتدريجيًا بدأت دعوة (الصبّاح) تتخذ طابع ادعاء نبوة كاملًا، وأحيانًا كانت تدخل - والعياذ بالله – في ادعاء الألوهية.. ومن الغريب أنه كان يجد من يصدقه.. يصدقه بإخلاص..
إن الحمقى موجودن في كل زمان ومكان، ولولاهم كما يقول (مارك توين) - ما حقق غَير الحمقى أى نجاح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن في العام 480 هجرية، ودعوة النزاريين تتشعب كالسرطان في كل مكان من البلاد.. ترسل خلاياها الخبيثة إلى كل صوب..
والورم الأصلي قابع هناك في قلعة الموت.. إن قلعة الموت حصن حصين بحقّ يصعب اقتحامه، وقد كان (الصبّاح) من العسكريين الذين يؤمنون باستراتيجية المرتفعات.. فقط المرتفعات هي التي تسمح لقاطنيها بالسيطرة على ما حولهم، ورؤية الخطر الداني..
والآن يمكننا أن نرى (الصبّاح) جالسًا على الأرض فى قلعته الرهيبة، محاطًا بالمشاعل، يتكلم بصوت وقور رنان لأتباعه الذين يشربون كلامه شربًا..
يقول لهم عن مراحل استقطاب أفراد الجماعة:
إن استقطاب واحد جديد لينضم لنا هو عملية معقدة، يمكن أن ندرجها في الخطوات التالية:
- « الخطوة الأولى: التفرس.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح (زيد) يتأمل جاره (وحدت) في اهتمام.. إن (وحدت) من الأشخاص طيب القلب الميالين للخنوع.. بعبارة أخرى هو بحاجة دائمة إلى من يأمره ويقوده..
لاحظ هذا، وخطر له أن الرجل صالح بالفعل كى ينضم إلى (النزارية)، لكن الأمور لا تتم بهذه السهولة وهذا اليسر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة الثانية هي التأنيس.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي تلك الليلة دعا (زيد) نفسه إلى بيت (وحدت).. كان يحمل معه بطيخة أذاب في قلبها بعض الريحان، ومعها (حلّى سنونك) من (أصفهان)، وهي حلوى لم يقاومها أحد منذ عرف الإنسان الحلوى..
وجلس في دار جاره يؤنسه، ويسليه، ويحكي له الغرائب والطرائف.. وكان (وحدت) الذي امتلأ بطنه بالبطيخ والحلوى في حالة من التسامح والرضا جعلته يفصح عن كل ما يخفيه حتى عن نفسه..
وتدريجيًا بدأ الكلام عن ظلم الحكام وبطء العدل، والفساد المستشري في أرجاء (إيران)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة الثالثة هي التشكيك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ففي الأيام التالية راح (زيد) يبلبل فكر (وحدت)، ويزعزع كل الأفكار الراسخة عنده.. وكل هذا بدعوى الإصلاح.. والإصلاح كلمة يقبلها كل الناس، ولا تسبب الذعر أو النفور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة الرابعة في التعليق.. »
لأيام عديدة لم يعد (زيد) يزور (وحدت) في داره..
شعر (وحدت) بقلق بالغ، وهو الذي انقطعت حبال سلامه النفسي والفكري.. كان بحاجة إلى من يُعني به..
لكن صديقه وجاره توارى تمامًا بعيدًا عنه، وبدت الأيام ثقيلة الوطء.. لقد اعتاد أفكار هذا الأخير، ووجد فيها إجابة جاهزة لكل سؤال يعنّ له.. أما الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة الخامسة هي الربط.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى ضوء السراج في الليل؛ أخذ (زيد) العهد من (وحدت)، وجعله يقسم على أن يكون مطيعًا للجماعة، مخلصًا لتعليماتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة السادسة هي التدليس.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعبر أحاديث متصلة؛ أقنع (زيد) (وحدت) بأن (النزارية) هي الدعوة الحق، وأن كل واحد في إيران يؤمن بها، لكنه يخشى أن يجاهر بذلك.. لكن هذه لم تكن الخطوة الأخيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول (الصبّاح):
- « الخطوة السابعة هي التأسيس.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا أعلن (وحدت) أنه صار نزاريًّا يطيع كل ما يطلبه منه (الحسن بن الصبّاح)، ويصدقه في كل شيء، ومستعد للموت من أجله..
وكانت هذه الخطوة الأخيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي تلك الليلة الرهيبة، اصطحبه (زيد) إلى قلعة الموت..
كان (وحدت) قد ارتدى الثياب السوداء، وراح يرتجف كورقة من رأسه إلى أخمص قدميه.. إن

منظر الحراس الأشداء، والمشاعل والسيوف اللامعة في ضوء النيران، لم يكن مما يناسبه حتمًا.. وعلى ركبتيه زحف على البساط نحو (الصبّاح) الجالس يكتب شيئًا.. انحنى عدة مرات وعجز عن قول شيء..



وعلى ركبتيه زحف على البساط نحو (الصبّاح) الجالس يكتب شيئًا.. انحنى عدة مرات وعجز عن قول شيء..

رفع (الصبّاح) عينيه الناريتين إلى (زيد)، فقال هذا راجفًا:

- « خادمك (وحدت) جاء يطلب الأمان، وأن يعرف مكانه.. »

تأمل (الصبّاح) تابعه الجديد في اهتمام، وقال:
- « إن له جسد ثور، وعضلات أسد.. ليكن من (الفداوية).. »
هل الواقفون استحسانًا، واقتادوا الرجل المذعور ليلبس ثياب الفداوية، ويتعلم ما يتعلمه الفداوية..
إن الفداوية هم المرتبة الخامسة من النظام المعقد الذي ابتكره (الصبّاح)، والذي يتكون من سبع مراحل: سيدنا - في المرتبة العليا طبعًا - ثم كبار الدعاة فالدعاة.. بعدهم الرفاق فالفداوية فاللاصقون فالعاديون..
الفداوية هم الفدائيون.. أي الجناح العسكري لهذا النظام.. إنهم هم المكلفون بعمليات القتل والذبح والخنق، وكان كل منهم يحمل قبل العملية شهادة ملكية لقصر في الجنة، عليه توقيع (الصبّاح) !!
الفداوية هم أشهر أعضاء الحركة النزارية.. وبما أنها حركة غير سلمية، قائمة أساسًا على العنف، فقد كانوا أهم أعضائها كذلك، وكانت لهم معاملة خاصة جدًّا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القنّب الهندي نبات آت من الهند.. طبعًا.. وإلا لماذا نعت بالهندى؟
كان في ذلك الوقت من عجائب الزمان، وربما كان من يعرفونه لا يتجاوزون أصابع اليد، وكان (الحسن) ذا خبرة كيميائية لا بأس بها، وقد عرف هذا النبات الغريب وعرف خواصه..
إن القنب الهندي هو ما سماه العلماء بعد ذلك Cannabis Sativa، ومنه خرج مانعرفه بالحشيش و(الماريجوانا) و(البانجو)..
لكن القنب في ذلك العصر كان سرًّا شبه حربي، وكانوا يتعاطونه سرًّا كما يحدث اليوم وإن اختلفت الأسباب.. أيامها كانوا يخشون على هذا السرّ الخطير من الانتشار، واليوم يخشون المخبرين و(الكبسات) وقضايا التعاطى..
استخدم (الحسن) الحشيش على نطاق واسع وبجرعات عالية جدًّا، فكان يجعل أتباعه في شبه غيبوبة دائمة.. غيوبة يصدقون فيها كل ما يقال ويلمسونه ويعيشونه..
لقد وصف الرحالة الإيطالي (ماركو باولو) هذه الطقوس بالتفصيل، كما وصف قلعة السفاحين..
ولقد كان الفداوية ينفذون عملياتهم - القتل دائمًا وفي كل الظروف - وهم في شبه غيبوبة من فرط تدخين الحشيش..
لهذا اشتهروا في التاريخ باسم (الحشاشين)..
يجب ألا تختلط علينا المسميات إذن.. إن الفداوية هم الجناح العسكري للنزارية.. والحشاشون هم الفداوية بعدما يذهب الحشيش بعقولهم..
ارتبط الحشاشون بالقتل والاغتيال في ذهن الغربيين - بفضل كتابات (مارك بولو) - حتى إن لفظة (حشاشيين) توجد كما هي في أكثر اللغات الغربية Assassin ولكن معناها هو (سفاح)..
يمكننا الآن أن نتخيل ما حدث للأخ (وحدت) حين اقتادوه ليكون من الفداوية.. لابد أنهم أعطوه خنجرًا، وجعلوه يدخن الحشيش حتى صار مؤهلًا ليصيح (يا مساء الجمال) أو ما يعادلها بالفارسية القديمة؛ ثم أمروه أن يذهب ليقتل..
يقتل من؟
(نظام الدين) طبعًا.. من سواه؟
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- حمامات الدم..

لا يحتاج الأمر إلى حاسب آلى كى نعرف أن (الصبّاح) لابد أن يقتل صديق صباه (نظام الدين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « إن (الصبّاح) لا ينسى أحقاده القديمة، وهو لن يسامح (نظام الدين) على طرده من (أصفهان).. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما أمروه، اتجه (وحدت)، والخنجر مختف بين طيات ثيابه، إلى (أصفهان)، وكان معه كذلك عقد ملكية لقصر في الجنة كتبه له (الحسن) نفسه.. إن الرجل كريم حقًّا وقد اختار للفداوى قصرًا من زمرد..

كان (نظام الدين) - الذي ازداد كهولة وبدائية وهيبة - واقفًا وسط مجموعة من عامليه، يصدر تعليماته لهم..

وكما يحدث في كل الاغتيالات في التاريخ، دنا منه (وحدت) متظاهرًا بأنه يريد تقديم عريضة تظلُم..

نظر له (نظام الدين) ورسم على وجهه ابتسامة سياسية متسامحة، ودعاه للاقتراب أكثر..

و.. هوب ! انغرس الخنجر حتى مقبضه في عنق (نظام الدين)، الذي لم يجد الوقت الكافي لينزع الابتسامة عن وجهه..

وكما يحدث في كل الاغتيالات في التاريخ، انقض الناس على القاتل وكالوا له اللكمات والركلات..

الغريب أنه كان باشّ الوجه مبتسمًا، ولم يظهر عليه لحظة ما يدل على ذرة ألم.. قال المعاصرون إن هذا عناد وتحدّ شديدان، بينما يمكن لأي خبير سموم حديث أن يتبين معالم إدمان المخدرات.. هذا هو التأثير الانفصالي للمخدر الذي يجعل المتعاطى يتلقى الضربات كأنها على جسد واحد آخر..

في النهاية لم يبق من (وحدت) شيء يصلح للاستجواب، فقد حولوه إلى عجين..

وفي جيبه وجدوا العقد إياه وعليه توقيع (الصبّاح).. وهى سمة سيجدونها عند كل فداوى يتمكنون من القبض عليه أو قتله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعت (عبير) خبر اغتيال (نظام الدين) من (الخيام)، فارتجفت وسالت دمعة حزن على خدّها..

تذكرت (نظام الدين) كما رأته آخر مرة: قويًّا وسيمًا واثق الخطوة يمشي ملكًا على رأى (إبراهيم ناجى).. هذا الفتى الطموح الذكي يرقد الآن وقد انتفخت بطنه بغاز كبريتيد الهيدروجين، وعما قريب يولم الدود وليمة هائلة على بقاياه..

قال لها (الخيّام) وهو يكفكف دمعة:

- « طوت يد الأقدار سفر الشباب

وطرحت تلك الغصون الرطاب

وقد شدا طير الصبا واختفى
متى أتى؟ يالهفا.. أين غاب؟ »
وصمت وراح ينهنه..
سألته في دهشة:
- « هل هذا كل شيء؟ »
- إنها رباعية كما تعلمين.. لم أجرّب كتابة الثمانيّات بعد..«
سألته في قلق وهي تدير قدح شراب الرمان بين كفيها:
- « هل أنت واثق من أن (الصبّاح) لا يحمل لك ضغينة ما؟ »
قال في ثقة وهو يمشط لحيته:
- « أنا لا أشكل خطرًا على طموحه.. أنا مجرد شاعر متأمل عاشق، أما (نظام الدين) فكان رجل سياسة، وكانت لدى (الصبّاح) كل الأسباب کی يقتله.. »
- « أرجو أن تكون متأكدًا من هذا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت الدماء قد عمت (إيران)..
إن (خراسان) الهادئة، و(نيسابور) الجميلة، و(أصفهان) الناعسة، كلها قد صحت لتجد الدماء عند الركبتين..
اغتيالات.. اغتيالات.. اغتيالات..
اغتيالات للقضاة.. للوزراء.. اغتيالات لمن قاوموا الاغتيالات..
اغتيالات لمن اغتالوا مدبری الاغتيالات..
هذا زمن رهيب.. زمن - بحق - كان الرجل إذا تأخر فيه عن بيته إلى العصر، صار بوسع أهل بيته إقامة العزاء، ونادرًا ما كان ظنهم يخيب..
لقد بذل (الحسن بن الصباح) كل ما بوسعه کی يحيل بلاده الجميلة إلى بركة دماء، وقد نجح في هذا إلى حدّ كبير..
المشكلة هي أن الفداوية كانوا يختلفون عن أي سفاحين آخرين.. كانوا أقوياء لكن هذه ليست مشكلة.. كانوا متعصبين لكن هذا سهل.. شباب (هتلر) النازی كانوا أكثر منهم تعصبًا، وكانوا يمزقون معارضيهم أحياء ويلقون بهم في نهر (الراين) البائس..
لكن الفداوية كانوا - على قدر علمی – أول سفاحين في التاريخ يمارسون عملهم تحت سيطرة كيميائية تفقدهم إرادتهم.. هذه أشياء تراها في السينما فقط؛ منذ (عيادة الدكتور كاليجاری) حيث القاتل تحت تأثير التنويم المغناطيسی، حتى (رجل الأطراف الكهربية) حيث القاتل تحت سيطرة إلكترونية مزروعة في عقله.. لكن الفداوية كانوا كابوسًا حقيقيًّا، لا يرحم ولا يتهادن ولا يتكاسل، وأكثرهم كان ينتحر قبل اعتقاله..
وما فائدة ذلك؟ إن استجوابه معروف النتيجة على كل حال.. كل واحد في (إيران) يعرف أن هؤلاء مرسلون من (الحسن بن الصبّاح)، ومن قلعة الموت في (خراسان) بالذات..
لكن من يجرؤ على عمل شيء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مات السلطان (ملكشاه) بعد شهر من وفاة وزيره..
كلا لم يُطعن.. لكنه في الغالب مات مسمومًا.. لا بد أن أحد الطهاة كان من الفداوية..

تولى ابنه (سنجر) - الذي عالجه (عمر الخيام) يومًا - في أسوأ ظروف يمكن لحاكم أن يتولى فيها..
والحقيقة أن حياته كانت كابوسًا متصلًا..
لقد كتب له (الصبّاح) رسالة رقيقة يقول فيها:
- « كل من في خدمتك هو طوع إشارة مني ! »
وهي - للأسف - حقيقة لا يمكن إنكارها..
وكدليل على كلامه، صحا (سنجر) من نومه ذات يوم، ليجد خنجرًا مغروسًا على الوسادة جوار رأسه..
والمعنى واضح بالطبع.. لم يمنعه من قتل (سنجر) سوى أنه لم يكن رائق المزاج وقتها، أو لأن وقته لا يسمح بهذه التفاهات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (الخيام) يزداد كآبة وانعزالًا ومقتًا للوجود، وما انفك يردد هذه الرباعية بالذات:
- « إن الذي تأنس فيه الوفاءْ
لا يحفظ الودّ وعهد الإخاءْ
فعاشر الناس على ريبة
منهم، ولا تكثر من الأصدقاءْ »
وحاولت (عبير) أن تجعله يسترد ثقته بالناس، لكن قلب الشاعر كان قد انغلق دون الوجود كله، والمصيبة هي أن معاشه السنوي الذي حسدناه عليه كثيرًا قد انقطع بوفاة الوزير.. هذا يدل على أن قلوبنا ليست بهذا الصفاء الذي كنا نحسبه فيها..
لكن لم يكن هذا كل شيء..
كان في الغيب ما هو أقسى وأغرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8وقائع موت شاعر..

لو أن تحقيقًا معاصرًا أجرى في جريمة اغتيال (الخيام)[4]، لكانت شهادة (عبير) الباكية كما يلى:
س - اسمك وسنك وعنوانك؟
ج - (شورانكيز).. 30 سنة.. جارية (ناظم الزورى) التاجر في (نيسابور)..
س - ماذا تعرفين عن القتيل؟
ج - (عمر الخيّام) شاعر ومفكر وأديب وطبيب.. إنه شخصية من التي لا يجود القرن إلا باثنين أو ثلاث منها.. إنه صديق عزيز..
س - ما معلوماتك عن الجريمة؟
ج - كان هذا في يوم (سيزده بدر) الذي يحتفل به الإيرانيون جميعًا.. كنت أعدّ طعام الغداء لسيدى التاجر، حين مرّ عليه (عمر الخيّام)، ودعاه لأن يلعبة الشطرنج كما اعتادا..
س - هل كانت هذه ذريعة يراك بها؟
ج - أعتقد هذا.. كان بحاجة إلى أن يراني كثيرًا فى الأيام الماضية لأن ثقته بالبشر قد انعدمت، وكان ينشد طيلة الوقت:
- « وأسعد الخلق الذي يُرزق
وبابه دون الورى مُغلقُ
لا سيد فيهم.. ولا خادم
لهم، ولكن وادع مُطلقُ »
ولقد ظل الرجلان يلعبان الشطرنج لمدة ساعة.. كان (الخيّام) يتعمد أن يضيع الفرص وينقل نقلات خاطئة، لأن هذا يسعد سيدي العجوز جدًّا، وكان سيدى لا يكفّ عن انتقاد غباء الشباب وقلة براعتهم..
هنا سمعت طرقات على الباب ففتحته..
كان القادم متسولًا يضع عصابة على عينه اليمنى، وقد انحنى ظهره.. ناولته تفاحة كانت في يدى، وسألته أن يعود في وقت آخر، لكنه أصرّ على أن يدخل.. وصاح بصوت عال:
- « أنت هنا يا (خيّام)؟ »
فدهشت لأنه يعرف هذا.. صاح المتسول مردفًا:
- « أين أنت؟ ولم لا تلبي نداء أخيك في الإنسانية؟ هكذا ديدن الشعراء.. يتكلمون ويتكلمون.. لكنهم لا يمنحون نصف تمرة فاسدة لمتسول جائع.. ألم يأمر لك (نظام الدين) رحمه الله بألف ونيف كل عام؟ »
هنا لم يتحمل (الخيام) أكثر، فنهض من أمام رقعة الشطرنج، ودنا من المتسول وهو يفتش في جيبه عن قطعة من ذهب أو فضة.. وجد واحدة فناولها للرجل، وقال:
- « خذ.. لكن الله (تعالى) يعلم أنني أحق منك بالتسوّل وأجدر.. لقد مات (نظام الدين)، ومعه ماتت عيشة الرغد والرخاء.. »
قلت لـ (عمر الخيام) في توتر:
- « كفى يا (عمر)، وعد لمكانك.. »
كان هذا لأنني لاحظت نظرة غريبة في عين المتسول الوحيدة المكشوفة.. لم أتبين فيها معنى

مخيفًا.. بالأحرى لم أتبين فيها شيئًا على الإطلاق.. إنها تلك النظرة الخاوية المذهولة التي تميز من هم تحت تأثير مخدر.. هذا الرجل (حشّاش) ! بالتأكيد هذا...

- « (عمر) ! احتر... »

أطلقت صيحتي لكنها كانت متأخرة طبعًا، لأن الرجل أولج خنجره حتى المقبض في صدر (عمر) وأداره..



أطلقت صيحتي لكنها كانت متأخرة طبعًا، لأن الرجل أولج خنجره حتى المقبض في صدر (عمر) وأداره..

كنت أحمل دورقًا مليئًا بشراب الرمان، فلم أنتظر حتى أصرخ وأولول؛ وإنما هويت به على رأس القاتل، فقال شيئًا ما.. ثم اهتزّ رأسه يمينًا ويسارًا وانزلق على الأرض..

س - هل مات (الخيام) على الفور؟
- لا.. ما كان لشاعر مثله أن يموت قبل أن يقول شيئًا تتذكره الأجيال.. لقد هرعت إليه ووسدت رأسه على ركبتى..
أدركت من الوهلة الأولى أنه انتهى.. عكارة النهاية تبدت في عينيه الصافيتين.. كنت أبكي فمسح الدمعة على خدى بيد مرتجفة باردة، وقال شيئًا ما جعل لحيته تهتز..
دنوت لأسمع أفضل فسمعته يقول:
- « لا تحسبوا أني أخاف الزمانْ
أو أرهب الموت إذا الموت حانْ
الموت حق.. لست أخشى الردى
وإنما أخشى فوات الأوانْ »
فيما بعد يمكن لدارسى الأدب أن يستخلصوا ما يريدون من هذه الأبيات العظيمة، لكن بالنسبة لي كان هذا كلامًا فارغًا يضيع به آخر أنفاسه النادرة.. قلت له أن يصمت، لكنه راح يردد:
- « عرفت أن (الصبّاح) سيفعلها.. عرفت أنه سيفعلها.. »
- « لكنك أكدت أنه لن يفعلها.. »
- « كنت أكذب عليك وعلى نفسى.. »
ثم أغمض عينيه، وذهب إلى ذلك العالم الذى حيره طيلة حياته، وكتب عشرات الرباعيات يتساءل عن كنهه..
س - وماذا عن القاتل؟
ج - لقد أفاق وهرب.. أضعت معه وقتًا أكثر من اللازم للأسف، وما كانت ضربتى بالقوة المرجوة..
س - هل لديك أقوال أخرى؟
ج - نعم.. إن (الصبّاح) هو القاتل بالتحريض طبعًا.. إنه قد قرر أن يتخلص من كل أصدقاء صباه، ومن كل من عرفوه قبل أن يصير أقوى رجل في (إيران).. لم يكن لـ (عمر الخيّام) ذنب سوى أنه (عرف أكثر مما ينبغي) كما يقول رجال العصابات.. وأعتقد أن دورى قادم لا محالة، فقد عرفت هؤلاء القوم جيدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى التحقيق..
لكن ما لم تقله (عبير) هو أن القاتل لم يهرب..
كانت أذكى من أن تتركه يهرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- هذا الجنون بعينه!

قال لها التاجر العجوز (ناظم الزورى)، وهو يرتجف كله كجناحي العصفور الطنّان:
- « أنت ستجلبين لنا الجحيم ها هنا.. »
قالت في قسوة وهي تعدّ الشموع:
- « لن أسلمه لرجال الشرطة، لأنهم سيتركونه ينتحر عند أول فرصة.. »
ازداد رجفة، وتعالى صوت اصطدام ما بقي من أسنانه:
- « لم أتحدث عن الشرطة.. أتحدث عن تركه يذهب! »
قالت في غيظ، وهي تعدّ الخناجر:
- « من الغريب أن الدانى من القبر مثلك، هو أكثر الناس تشبثًا بسنوات من عذاب الشيخوخة وآلام العظام.. »
- « هذا طبيعى.. لم يبق من الحياة ما يكفي للتخلي عنه بسهولة.. إن آخر الطعام أطيبه مذاقًا.. »
وصمتْ مرغمًا.. برغم أنه سيدها وهي جاريته؛ فإن شخصيتها كانت هي الأقوى والأكثر تأثيرًا، وشخصيته كانت الأوهى كأنما ضعفت مع جسده.. وهو ما يحدث كثيرًا لدى المرضى الشيوخ الذين تعنى بهم ممرضة أو خادمة شابة.. إنها تصير سيدة الدار بعد قليل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي القبو ربطت القاتل من ساقيه، ثم علقت الحبل من خطاف في السقف كانوا يعلقون عليه لحم الخراف.. وألقت بجسدها على الحبل حتى تمكنت من رفع رأس الرجل بضعة سنتيمترات عن الأرض، وهو وضع المشنوق من قدمية الشهير في أوراق (التاروت)..
وحين أفاق الرجل المقيد أخيرًا، راح يتلوى وقد احتقن الدم في يافوخه.. لا بد أن كل شيء كان أحمر فى عينيه.. أحمر ومقلوبًا..
قالت له بقسوة اكتسبتها عن جدارة:
- « مرحبًا بك في الجحيم.. ما اسمك؟ »
بصوت مبحوح منهك قال:
- « أنا (أرسلان آراه).. من (طبرستان).. »
- « تكلّم إذن.. من أرسلك؟ »
ضحك قليلًا فاهتزّ الحبل الذي يحمله، وبرغم وضع الوطواط الذي كان فيه.. ثم قال:
- « تستطيعين قتلى أيتها الحسناء بدلًا من إضاعة وقتي ووقتك.. إن الفداوية لا يخضعون للاستجواب.. »
- « صحيح؟ سنرى ذلك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولمدة ساعتين جربت (عبير) كل الأساليب السادية للتعذيب، تلك التي سمعت عنها أو قرأت عنها.. جربت الحرق بالشموع والتمزيق بالخناجر والماء المثلج والماء الساخن والركلات و... و... لكن الوغد كان صامدًا بحق.. لقد بدأت تشعر بالخوف من نفسها؛ فهي لم تحسب قط أنها تملك داخلها كل هذا العنف؛ لكنها كانت تعرف أن مصرع (الخيّام) - وهو الشاعر الحزين

الزاهد في الوجود - كان هو الزناد الذي أطلق كل هذا العنف منها..
وكان التاجر العجوز يجيء من حين لآخر مرتجفًا، ويقول لها:
- « ألم يتكلم بعد؟ إذن ارحميه وارحمينا ! »
- « عُدْ لفراشك يا جدّى! »
وبعد ساعة أخرى جلست تلهث على الأرض، ترمق رأس الرجل المقلوب المحتقن في غل.. لو طاوعت نفسها لمزقته بأسنانها، لكنها كانت راغبة فى أن تعرف.. ليس من أرسله طبعًا فهذا معروف، لكنها تريد معرفة تفاصيل القلعة.. كيف يتحركون وماذا يفعلون؟ أين (الصبّاح)؟
وهنا خطرت لها فكرة ما..
لقد كان القاتل يلبس ثياب متسول مهلهلة واسعة، لكنها كانت قادرة على الحكم على بنيته.. إنه قصير القامة دقيق التكوين.. ملامح وجهه قسيمة منمنمة إلى حدّ ما، وإن اكتست بالقاذورات، وغطتها لحية هائلة الحجم..
هل يمكن أن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعة كانت قد ابتاعت ما يلزمها من ثياب سوداء وسلاح.. لحية؟ بالطبع لا لأن اللّحى لا تباع فى أسواق (نيسابور)، لكنها استطاعت أن تصنع واحدة من فراء الخراف، ولصقتها بشكل ما على وجهها..
كيف تبدو؟
إنها لن تخدع أم (أرسلان) ولا زوجته؛ لكنها ستكسب بعض الوقت حتى ترى (الصبّاح) نفسه.. عندئذ...
وماذا تفعل بأسيرها؟ لن تفعل شيئًا.. ستكممه وتتركه معلقًا كما هو.. وليأمل في أن تتحمل شرايين مخه هذا الوضع طويلًا دون أن تنفجر.. هذه مشكلته على كل حال لا مشكلتها..
كان سيدها التاجر نائمًا، لذا لم تودّعه..
اقترضت جوادًا من جواديه الموجودين في الإسطبل، وهرعت تخبّ به عبر شوارع (نيسابور) التي التفت بالظلام..
إلى الشمال..
إلى قلعة الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة رهيبة هى..
عبر جبال فارس الوعرة، ووديانها الموحلة، تركض بجوادها وقد اكتسبت ملامح الدور الذي تلعبه تمامًا.. كأن تنكرها جعلها أقوى وأشجع.. لم تخف الذئاب المسعورة التي راحت تركض وراءها، محاولة نهش ساقى الجواد الخلفيتين.. لم تهب الوطاويط المحلقة فوق رأسها.. لم تخش ألاعيب الظلال ولا رهبة الأفق المخضب بلون الشفق..
إلى الشمال.. إن وعاء الدبّ الأكبر يهدى خطاها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وككل القلاع كانت قلعة الموت (شاه دز) تربض ككابوس وسط الضباب.. إن كل القلاع مخيفة رهيبة.. لا توجد استثناءات على ما يبدو..
ومن مكمنها وراء صخرة عالية؛ زحفت قليلًا لتأخذ صورة بانورامية للمشهد.. كان المكان

مدججًا بالحراس الأشداء الغائبين عن الوعى حتمًا.. هؤلاء يقتلون دون أن يشعروا بما فعلوا..
معنى وجود الحراس أن هناك كلمات سرّ.. وهى لا تعرف ما تقول.. ومحاولة الاقتراب معناها الموت الأكيد.. موت بلا فائدة..
كانت غارقة في أفكارها، حين ظهر فارس يركب جوادًا، واتجه في تؤدة إلى البوابة المعدنية هائلة الحجم..
من أعلى جاء صوت أحد الحراس يسأل في خشونة:
- « كلمة السر؟ »
كانوا حمقى لحسن حظها، وكل الحراس حمقى دائمًا.. إنها لقاعدة ثابتة.. لأن الضيف القادم صاح بصوت يوقظ الموتى:
- « **خوداه حافظ**.. »
فانفتحت البوابة العملاقة، وغاب القادم داخلها..
ابتسمت (عبير) في رضا..
هذا هو الحل.. لقد جاء بصورة سهلة حقًّا..
(خوداه حافظ).. المهم ألا تنسى، وأن تكسب صوتها الخشونة الرجولية اللازمة.. وترجلت عن حصانها واتجهت إلى البوابة في ثقة.. ثقة من دخل هنا مرارًا، وضاق ذرعًا بروتين الأمن هذا..
- « كلمة السر؟ »
- « خوداه حافظ »
ودعت الله ألا تكون هناك كلمة سرّ لكل واحد من القادمين، أو أن تكون كلمة السرّ مما يتبدل كل ربع ساعة.. أو... أو...
لكنها دخلت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وها نحن أولاء في الموقف الذي بدأنا به قصتنا..
لقد قالت للحراس إنها (أرسلان) الفداوى، جاسوس (الصبّاح) في (نيسابور).. بالطبع لديه أخبار طيبة عن قتل (الخيّام)..
وأدخلت إلى الرجل كما رأينا، لكنه لم يكن ممن يُخدعون بسهولة..
لقد عرف أنها ليست (أرسلان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- ضيفة برغم أنفها..

فما إن قال (الصبّاح) كلمته بهذا الهدوء، حتى خرجت عشرة سيوف من قرابها محدثة الكثير من ال. (كلاك) وال. (كلينج)..
كانت يد (عبير) في اللحظة ذاتها في منتصف الطريق إلى عنق (الصبّاح) حاملة الخنجر الذي أخفته بين ثيابها..
وهنا شعرت بيد حديدية تعتصر يدها، على طريقة المصارعة الشهيرة التي ترغم أوتار الكف على الارتخاء..
بالطبع سقط الخنجر على الأرض..
ابتسم (الصبّاح) صاحب اليد، ورفع عينيه المفزعتين إلى رجاله، وقال:
- « دعوه.. إنه فتى طيب القلب.. »
وبرفق نزع قطع الفراء الملتصقة بوجهها، ثم انتزع العمامة..
هنا دوّت شهقات القوم غير مصدقين:
- « ماذا؟ فتاة؟ »
قلّد لهجتهم المندهشة في سخرية، وقال:
- « نعم فتاة.. يجب أن تداووا عيونكم.. إن هذا واضح لكل ذي عينين، وواضح أن هذه اللحية مزيفة.. مزيفة بطريقة بدائية خرقاء.. إن المرأة لا تفلح أبدًا في أن تتنكر كرجل مُقنع، بينما يستطيع الرجال ذلك بسهولة.. والسبب هو أن كل رجل يحمل جزءًا من الأنوثة في ذاته، بينما لا توجد امرأة إلا وهي نقية بلا ذرة ذكورة[5]..
« والخلاصة هنا هي أنكم مجموعة من الحمقى.. »
ووضع أنامله المخلبية تحت ذقنها، وقال:
- « بالإضافة لهذا أنا أذكرها.. إن (الحسن) لا ينسى وجهًا حتى لو رآه منذ عشرين عامًا أو ثلاثين أو مائة.. أنت تلك الجارية التي كانت تميل إلى (الخيّام).. (شورانكيز).. أليس كذلك؟ »
هزّت رأسها لتريح خصلات الشعر الأسود على كتفيها.. وقالت بصوت مبحوح ممرور:
- « بلى.. »
- « وهل لي أن أفهم من هذا أن (أرسلان) أدّى مهمته بنجاح؟ »
- « بلى.. »
- « فهمت.. ما كان لحسناء مثلك أن تتورط في هذا كله إلا بدافع الحبّ، والانتقام لمن تحبّ.. لكنها محاولة يائسة يا صغيرتي.. جريئة لكنها يائسة.. ما كنت لتخرجي حية من هنا.. »
وقبل أن تتكلم (عبير) قال ضاحكًا:
- « ويحي ! بالطبع أنا أنسى طبائع الأشياء.. كان ما يهمك قتلي ثم لا يهم شيء بعد هذا.. مفهوم.. مفهوم.. »
وكانت (عبير) تعرف جيدًا أن محاولتها يائسة.. وكانت تعرف أن نظرة واحدة من (الصبّاح) ستهدم تنكرها.. فلو لم يتذكر وجه جاسوسه (أرسلان) - وهو ما كانت تأمله لكثرة أتباعه اليوم – فلسوف يتذكر وجهها الذي رآه في (نيسابور) منذ أعوام..
كل ما أملت فيه هو دقيقة واحدة تجعلها قريبة منه، وبعدها ينتهي كل شيء له ولها..
لقد قامرتْ وخسرتْ كل شيء..

يجب أن تقبل هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لرجاله وهو يعود للكتابة، دون أن ينظر لها:
- هذه (شورانكيز).. ضيفة مكرمة هنا.. خذوها إلى خدر مناسب، وأعطوها ثيابًا حريرية وعطورًا وماءً للاغتسال.. إنها ضيفة كما قلت لكم.. لا أحد يضايقها أو يتحرش بها.. أحضروا لها ماء ورد ولبنًا وعسلًا.. »
وواصل الكتابة حتى نسي أنها وأنهم حوله..
واقتادها الرجال الأشداء المدججون بالسلاح عبر جدران القلعة الحجرية الهائلة.. لا صوت سوى صوت أقدامهم تضرب الأرض ضربًا..
أخيرًا فتحوا لها بابًا خشبيًا غليظًا، فوجدت أن (الصبّاح) لم يكن يعاني من نقص الإمكانيات هنا..
كان هناك حمام صغير أقرب إلى مغطس في أرض رخامية، ومتكأ من الوسائد على بعد خطوات من الحمام.. وفي ركن القاعة كان فراش أنيق تحيطه الستائر، وثمة طاووس أو اثنان يخطران هنا أو هناك..
ثمة جارية زنجية تحمل دلّة مذهبة، وجارية شقراء - أوكرانية على الأرجح - تحمل طستًا فضيًّا للغسيل..
وبالطبع كان هناك طبق الفاكهة الشهير الذي يحوى التفاح والرمان والموز.. كلا لم تكن هناك خمور لأن (الصبّاح) كان صادقًا في تحريمها على نفسه ومن معه، إنما كانت هناك زجاجة ملأى بعصير الرمان وأخرى بالعنب الطازج الذي لم يتغير طعمه..
ودنت منها إحدى الجاريتين، ودعتها إلى الحمام.. الدافئ العطر الجميل..
نظرت للوراء فوجدت أن الحراس انصرفوا وأوصدوا الباب.. لا مانع أبدًا الآن.. إنها تشعر أن كيانها كله صار معجونًا بالتراب من جراء رحلتها عبر جبال (إيران) الوعرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى ضوء الشموع العديدة، راحت الجارية الشقراء تعزف على القيثارة لحنًا حالمًا بطيئًا.. بينما جلست (عبير) تلتهم الفاكهة كأفراس النهر..
أخيرًا سألتها بفم مليء:
- « هل هذه هي غرفة (الصبّاح)؟ »
- « لا.. إنها للضيوف فقط.. »
« هل تريدين القول إن لديه غرفة أفخم من هذه؟ »-
قالت الجارية بلهجتها الأجنبية المحببة:
- « لا.. بالطبع لا.. إنه ينام على الأرض فوق (الدوست)، ولا يدخل هنا أبدًا.. »
كان على (عبير) أن تتوقع هذا.. فالرجل من الطراز الخشن العنيف الذي لا يملك أية شهوة سوى السلطة والنفوذ.. هذا الطراز من الرجال يقسو على نفسه كثيرًا، ولا يهتم بأين نام ولا بماذا أكل.. كل ما يريده هو أن يرى أفكاره تتحقق والقوم يمتثلون له..
لقد كان (غاندي) يحكم الهند كلها - فعليًّا لا رسميًّا ـ لكنه ظلّ عاري الجذع، يجلس على الأرض، ويغزل من صوف الماعز ثيابه، ويشرب لبنها.. ولو شاء حياة الترف لمنحها الهنود له فورًا..

الفارق هنا طبعًا أن (الصبّاح) لم يكن (غاندى).. الأول يخدع الناس ويدّعى النبوة ليحكم.. والآخر يدعو للمقاومة السلبية ويصبر كى يحكم شعبه نفسه بنفسه..
وسمعت الفتيات الثلاث قرعات على الباب، ثم جاء صوت غليظ يقول:
- « إن مولاي (الصبّاح) يطلب الفتاة (شوراتكيز).. فهو بصدد معجزة جديدة من معجزاته! »
نظرت (عبير) إلى الفتاتين بدهشة، وتساءلت:
- « معجزة جديدة؟ »
قالت الجارية السوداء في رهبة:
- « نعم.. لابد من معجزة كل أسبوع.. هذا يطمئن قلوب الأتباع.. »
خرجت إلى العراء بعد الحمام مباشرة لوبختها كثيرًا.. لكن هذا في عالم الواقع، أما في (فانتازيا) فلا شيء اسمه الالتهاب الرئوي..
كان الأتباع واقفين خارج القلعة ينظرون إلى أعلى.. إلى جبلين يلوح ظلهما جاثمين على صفحة السماء التي اتخذت لونًا كحليًّا مهيبًا.. وكانت شفاههم ترتجف هولًا وتهيبًا..
وقفت وسطهم، ولاحظت أنه لا أحد يلاحظها على الإطلاق..
ومن بين الجبلين رأته يرتفع..
يرتفع ببطء لكنه أسرع بكثير من أي معدل طبيعي..
قرص القمر البراق اللامع الأصفر الشاحب يعلو ويعلو..
يتصايح الناس في هلع وانبهار:
- « لقد فعلها.. أتي بالقمر في غير موعده!! »
لكن (عبير) - بالطبع - لم تكن مستعدة لابتلاع شيء من هذا.. إن الناس ينظرون ليصدقوا بينما هي تنظر لتتبين الخدعة.. لا أحد يملك سلطة على الشمس والقمر إلا خالقهما، ومعنى ما يحدث أن هؤلاء مجموعة من المخابيل، وأن (الصبّاح) يمارس خدعة بارعة..
ولأنها شحذت عقليتها النقدية جيدًا؛ استطاعت بسهولة أن ترى البرميل المفرغ من قاعدته وأعلاه، والذي ربط من جانبيه بحبلين، بينما من خلفه نار ملتهبة تظهر من فتحته كأنها القمر..[6]
وبعد قليل بدأ القمر الصناعي يهبط من جديد ليتواري بين الجبلين، إنهم في السينما يستعملون مصباح (الآرك) لإحداث تأثير مماثل، لكنهم لا يزعمون أنهم يقومون بمعجزة ما..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت بيد تدفعها من جديد إلى داخل القلعة، فعادت مبلبلة الأفكار.. تعرف أن عليها أن تهرب، ولكن كيف؟
وفي خدرها رقدت على الفراش تصغي لعزف القيثار، وتتذكر (عمر الخيّام).. (الخيّام) الشاعر الرقيق المرهف الذي يؤدي الفناء دوره ببراعة فى جسده الآن..
إنها ستنتقم له..
ستنتقم ولو كان هذا آخر شيء تفعله في حياتها..
وكانت نظريتها قد صارت ناضجة تمامًا الآن.. لا بد من قتل (الحسن بن الصبّاح).. هذا قد صار واجبًا مقدسًا بريئًا من الأهداف الشخصية.. وقتله سيؤدي نفس دور قتل جرثومة الطاعون.. ليس إثمًا بل سيحقن دماء آلاف من أبناء (إيران)، وينقذ آلاف آخرين من الفتنة في دينهم..
إن كل لحظة تزيدها يقينًا بأنها كانت على حق، حين غادرت (نيسابور) متنكرة بلحية هي فراء خروف..

ولكن كيف تنفذ خطتها هذه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11– فداوية!

- « لماذا لا تقتلني لينتهي كل هذا الضجيج؟ »
قال لها وهو يقتادها عبر ممرات القصر الواسعة الكئيبة، التي لا تنيرها إلا المشاعل حتى في رائعة النهار:
- « ما زال أملى أن أضم تابعًا بدلًا من أخسر واحدا.. »
وابتسم بخبث وهو ينقل قامته الفارعة من على ساق إلى أخرى، وأشار إلى أحد الفداوية الواقفين بقربه، وقال لها:
- » إنهم يؤمنون بى.. هل ترين هذا؟ »
- « أراه.. »
قال له (الصبّاح) دون أن ينظر إليه:
- « اقتل نفسك! »
ولم يناقش الفداوى أو يتأكد من أنه سمع الأمر جيدًا، ولم يحاول أن يجادل أو يفهم أكثر..
أخرج خنجرًا جميل المنظر، ورفعه في الهواء بمجمع قبضتيه ثم أغمده كله في بطنه، على طريقة (الهاراكيرى) الخاصة بالأخوة اليابانيين.. لم يمت تمامًا فأدار الخنجر مرتين، ثم بصق بعض الدم وسقط على وجهه..



أخرج خنجرًا جميل المنظر، ورفعه في الهواء بمجمع قبضتيه ثم أغمده كله في بطنه..

- « هل ترين؟ »

قالها (الصبّاح) بزهو، ومعه حق.. فما من حاكم ولا قائد ظفر بكل هذا الولاء من رعاياه أو

جنوده منذ ولد التاريخ..
قالت (عبير) وقد هزّها المشهد:
- « لست مندهشة.. إن القنب الهندى قوى التأثير حقًّا.. »
ارتفع حاجباه في دهشة مصطنعة:
- « آه هـ ! وتعرفين هذا أيضًا؟ لابد أنه (الخيّام).. »
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « وما ذنب هذا البائس كى تقتله؟ مع (النظام) كان الأمر مفهومًا، لأن كليكما طلب الشيء ذاته.. كانت الحاجة واحدة وكان طالباها اثنين.. لكن ما ذنب (الخيام)؟ »
أصلح من وضع عباءته السوداء على كتفيه، وقال:
- « لم يكن (الخيّام) صديقًا لى.. لم يكن يحبني.. أنا أقبل هذا.. لكني - حين أصير إمام هؤلاء جميعًا - لا أريد أن أترك واحدًا خلفى، يحكى للناس تفاصيل التفاصيل عن صباى.. لا ينبغي أن تكون للإمام خلفيات تاريخية.. لا يجب أن يكون له ماض.. ولو كان له ماض فلا ينبغى أن يكون ما يحكيه (الخيّام) عنى.. »
- « وتقتل صديق صباك كي لا تكون لك خلفيات تاريخية؟ »
- « إن للسياسة تبعاتها المؤسية للأسف.. لكن (الخيّام) ما كان ليصمت لو سألته ذلك.. لا أحد يستطيع أن يسكت الشعراء.. كثيرون جربوها ووجدوا أن الحرق هو الحلّ الوحيد.. »
كانا الآن يقفان عند سور القلعة..
السور المطلّ على الوادي تحتهما، والذي غمره الغبار - أم هو ضباب؟ - فلا ترى سوى بعض نتوءات الصخور البارزة، كأنها جزر في بحر رمادي غريب..
استدار (الصبّاح) حيث كان عدد من الفداوية يقفون جوار السور.. نظر لها ونظر لهم، ثم صاح بصوت جهورى آمر:
- « إلى أسفل! »
وثب الرجال جميعًا دون تردد أو لحظة شك واحدة..
لم يصرخ أحدهم، ولم يكن بوسعك أن ترى جثثهم حين تناثرت في الوادي لأن الضباب / الغبار كان يغطيها.. لكنك كنت تستطيع سماع أنين أحدهم.. واحد تعس الحظ لم يمت فورًا..
صاحت (عبير) في جنون:
- « كفى ! أنت تقتل رجالك كلهم كي تبرهن لى على إخلاصهم لك ! والمشكلة انك تقتل المخلصين فعلًا.. »
في رضا قال وهو يبتعد عن السور:
- « إن مشاهد كهذه تجعل المترددين أكثر إخلاصًا.. حين يرى تابعى مدى إخلاص من سبقوه، يبحث عن درجة أعلى من الإخلاص لى.. »
جيش من (الروبوتات)..
هذا هو ما صنعه (الصبّاح).. وهو لا يعرف بالطبع معنى كلمة (روبوت) لكنه يحسها.. (روبوتات) فى قصص الخيال العلمي، و (زومبيون) في قصص الرعب.. نفس الشيء.. الطاعة العمياء بعيون زائغة، ونفوس لا تملك حق تحديد المصير..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي مودة زائدة؛ جعلها (الصبّاح) ترى أجزاء قلعته..

رأت كيف يعدون الدعاة.. وكيف يعدون الفداوية.. رأت التدريبات الجسدية العنيفة التي يخوضها هؤلاء، والتي لم يخضها جندى صاعقة في أي جيش معاصر.. إن حياة الإنسان لا تساوي شيئًا عند (الصبّاح)، ولا تساوي شيئًا عند صاحبها أيضًا..
كانت تتساءل عن سبب إبقائها حية..
فكرت في كل الاحتمالات؛ لكنها استبعدت احتمالين:
- 1احتمال أن يكون قد أحبها: مستحيل.. لأنه قد تقدّم في العمر، وشاخ قلبه وازداد قسوة، ولم يكن أمام عينيه إلا هدف واحد: أن يحكم البلاد كلها ثم يغزو العالم.. هذا الهدف جعله عديم الاهتمام بالنساء، وبالملذات عمومًا حتى المأكل والمشرب.. لقد كان يأكل كسرة خبز في الإفطار والغداء والعشاء، ولا يشرب إلا الماء القراح..
2- إنه يريد انضمامها إليه: هو قال هذا لكن تصديقه عسير.. ما الذي تملكه فتاة وسط هؤلاء السفاحين غائبى الوعي؟ إنهم أقدر منها طبعًا على تنفيذ مهامهم هذه..
لكن - كما عرفت فيما بعد - كان الاحتمال الثانى هو الاحتمال الصحيح، وكما قال لها بعد ثلاثة أيام:
- « ثمة أشياء يعجز عنها الرجال وتقدر عليها النساء.. إن المرأة بأنوثتها وذكائها تقدر على انتزاع الشك من أى رجل.. الرجل الذي لو دنا منه رجل آخر لمزقه إلى أشلاء.. »
- « تعنى شيئًا مثل (شمشون) و(دليلة) لدى العبريين؟ »
- »بل أتكلم عن (سميراميس) ! الملكة (سميراميس) التى أقنعت زوجها بالتخلي عن العرش لها، ثم كان أول فرمان تصدره هو قطع رقبته ! دليني على رجل آخر يصلح لهذه المهمة.. »
وأشار إلى رجاله المنهمكين في المصارعة ولوى شفتيه مشمئزًا:
- « هؤلاء الرجال ! تبًا لهم بعقولهم الضيقة، وعضلاتهم المتضخمة، ولحاهم المشعثة الثائرة، وروائحهم الكريهة.. إنهم لا يقدرون إلا على العنف.. أما أنت فإننى أعدك لتكوني ملكة! »
قالت في عصبية:
- « أنا لن أتعاون معك.. ظننت هذا جليًا.. »
- « لا أحد يرفض التعاون معي.. »
قالت ضاغطة بأسنانها على شفتيها:
- « إن رجالك يؤمنون بك، أما أنا فلا.. وأنت تعرف طبعًا أنني سأغمد في صدرك أول خنجر يقع في يدى، لدى أول لحظة تعطيني ظهرك فيها.. »
أخرج من جيبه منديلًا، ومسح به شفتها السفلى:
- « يا لكل هذه الدماء ! حذار يا بنيتى وإلا أدميت شفتك تمامًا.. أنا أعرف كل هذا، وأعرف كيف أعالجه.. »
ولم تدر أنه يتكلم عن علم إلا بعد الظهر..
لقد قدمت لها الجوارى طعام الغداء، فأكلت بشراهة.. إن السجن لم يفقدها شهيتها كما هو واضح..
بعد الغداء ثقلت أجفانها، وشعرت بمعدتها تتقلص..
قالت لنفسها:
- « تبًا.. لقد دسوا لي شيئ.. شيئًا من الق.. ق.. »
ثم لم تعد هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 - حديقة النزارية..

أنغام.. أنغام.. أنغام..
رائحة عطرة تداعب خياشيمها..
إنها تغوص في الحرير.. ساقاها تحملانها لأعلى ثم تهويان لأسفل، إلى بحر من حرير..
وتتفتح عينيها ببطء لترى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هناك على أريكة طويلة، وعلى بعد مترين منها يوجد نهر تترقرق مياهه، وفوقها تسبح بجعة في رشاقة، تلوي عنقها الطويل لتلتقط شيئًا من بين ريش جناحيها.. وعلى الماء تنتثر زهور البنفسج والأقحوان..
أنغام.. أنغام.. أنغام..
عند قدميها تتربع جارية لم تر (عبير) أجمل منها، (تطرقع) لها أصابع قدميها بيد خبيرة.. وعند رأسها تقف جارية أجمل تحرك مروحة قرب وجهها.. مروحة موشاة بالمنمنمات الفارسية التي يسمونها (مدرسة بهزاد)..
رفعت رأسها لأعلى، فرأت شجرة مثقلة بالثمار، تتدلى غصونها نحوها كأنما تقول لها، خذيني.. أنا لك..
تمدّ يدها وتقتطف تفاحة نضرة لامعة..
يا لها من رائحة عطرة !

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن جزءًا في ذهنها ظل يقاوم.. ظل يصفعها بقسوة..
أفيقي يا بلهاء ! هذا ليس حقيقيًّا.. أنت تعرفين جيدًا أنهم دسوا لك القنب الهندى فى طعامك..
أنت تعيشين تحت تأثير الحشيش الآن، وما هذه الرؤى إلا هلاوس..
لكن جزءًا آخر في ذهنها يقول: ليس الحشيش قادرًا على هلاوس من هذا النوع.. هلاوس ذات ملمس وطعم ورائحة.. لو كان عقار الهلوسة - LSD الذي يتعاطاه الهيبز - معروفًا في هذا الزمن؛ لكان هذا تفسيرًا كافيًا.. لكن الحشيش لا يقدر على هذا كله..
معنى هذا ببساطة أن ماتراه حقيقى.. حقيقى تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الارتخاء اللذيذ يتسرب إلى عضلاتها..
ورأت طفلًا جميلًا - كما كان الإغريق يرسمون (كيوبيد) - يمشي وسط هذه الحديقة الغناء، يحمل دورقًا زجاجيًّا مليئًا بالماء البارد.. ماء ترى أبخرته على الزجاج، فتجن شوقًا إليه..
جاءها وصبّ لها الماء في كأس من بلور، وهو يضحك ضحكة طفولية عذبة.. شربت مرتين وثلاثًا.. إنه الماء ممزوجًا بماء الورد، يدغدغ أعصابها..
ونهضت من مكانها، فهرعت جارية وراءها تنثر تحت قدميها الرياحين من طبق تحمله..
كانت روضة لم تر مثلها قط من قبل، واستطاعت أن ترى أرائك أخرى يرقد عليها رجال خشنو

المظهر يضحكون ويشربون..
ومن بعيد رأت مقصورة من الزجاج الملون، وشرفة تحيط بها أغصان اللبلاب، وقد جلس تحت الزجاج رجال آخرون يدخنون النارجيلة ويثرثرون.. بينما الجوارى يعزفن لهم على الأعواد..
ما هذا المكان؟
ثمة نافورة يخرج الماء منها من سمكة حجرية تتلوى، وقد التفت الحسان حول مائها يبللن سيقانهن ويتضاحكن ويتقاذفن الماء.. ومن بعيد كان عدد من الخيول البيض يركض، ومعارفه تتطاير في الهواء، وعلى صهوة أول الخيول كان طفل.. طفل كالذى سقاها الماء منذ دقائق..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن جديد غاصت في الحرير..
وشعرت بأن العالم يذوب من حولها، فلم يبق إلا صوت يتردد بلا انقطاع.. صوت هامس لكنه حاسم:
- « أنت دخلت الجنة.. (الصبّاح) أخذك إليها وعاد بك منها.. »
والصوت يترقرق ليمتزج بأبخرة لا تدري مصدرها..
يتكرر مرارًا، ثم يتلاشى..
وتغيب عن الوعي..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحت لتجد نفسها في الفراش، والجارية الشقراء تمسح وجهها بالماء البارد..
هبت مذعورة وقد أدركت ما حدث.. لقد سمعت الكثير عن حديقة (النزارية)، وهي المكان الذي ينقل إليه (الصبّاح) أتباعه بعد أن يخدرهم.. وهناك يقنعهم بأن هذه هي الجنّة..
طبعًا هذا كلام فارغ لأن الجنة الحقيقية فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، لكن التأثير كان مقنعًا بالنسبة إلى العامة الجهلاء، خاصة حين يلعب القنب الهندي بعقولهم[7]..
واستعادت (عبير) بالله من الشيطان الرجيم.. لقد كان (الحسن) شيطانًا حقيقيًّا يفعل ويقول كل ما يفعله شيطان.. إنه وغد عبقرى، وقد أجاد نصب شباكه لاصطياد العقول الساذجة..
لكن أين تقع هذه الحديقة بالضبط؟
لا أحد يعرف.. قالوا إنها قريبة من القلعة، وقالوا إنها بين جبلين في (خراسان)..
لكن سرّها ظل مستغلقًا، ولم ينجح أحد قط فى العثور عليها.. إن مكانها كان سرًّا لا يعرفه سوى القليلين، وكان إفشاء هذا السرّ هو آخر عمل يقوم به المرء في حياته..
بالتأكيد كانت قريبة من القلعة؛ لأنه من العسير نقل كل هؤلاء الرجال الغائبين عن الوعي إلى هناك..
هنا قطع على (عبير) خواطرها دخول (الصبّاح)..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتجفت الجاريتان وتراجعتا إلى الوراء، لأنهما لم تريا (الصبّاح) في هذه الغرفة من قبل.. كان هذا أقوى من تحملهما..
أما هو فكان يبتسم في ثقة، وتقدّم نحو (عبير) ليقول لها:
- « هل أحببت الجنة؟ »
لم يكن عقلها قد استرد صفاءه بعد، لكنها صاحت كى تنتزع قبضته التي تخنق روحها:

- « كف عن هذا الهراء أيها الشيطان ! إن ألاعيب الحواة هذه لا تناسبني.. »
- « غريب هذا.. فلماذا إذن أطعت أوامرى؟ »
وثبتْ من الفراش، وصاحت في غيظ:
- « أطعت ماذا بالضبط؟ »
- « لماذا قتلت القاضى (رزم طهسمبى)؟! »
ضربت صدرها بكفها في دهشة:
- « أنا قتلت من؟ »
- »القاضي (طهسمبى).. لقد خرجت من الجنة مليئة بالعزم والحماس، وانتظرت الرجل حين خروجه من المسجد بعد صلاة العصر، وأولجت خنجرًا في بطنه ثم فررت بين أزقة (خراسان) قبل أن يقبضوا عليك.. إن فتاة رقيقة مثلك لأقدر على الفرار من هؤلاء التيوس الذين يعملون معي.. ما إن يحاول الواحد منهم هزّ كرشه حتى يكون الناس قد أحاطوا به ومزقوه إربًا.. »
طبعًا لم تصدّق.. الرجل كاذب.. منذ متى لم يكن كاذبًا؟
قال وهو يشير إليها:
- « ستجدين الخنجر الملوث بالدماء في نطاقك.. »
حقًّا كان هناك.. أخرجته بيد مرتجفة وتأملت نصله، ثم ألقته أرضًا وصرخت:
- « هذا لا يدلّ على شيء.. أنتم دسستموه لي في أثناء غيبوبتى.. »
- « يمكنك أن تعتقدى هذا، لكن لا تصدقيه تمامًا.. »
واستدار نحو الباب، وقال لها دون أن يلتفت للوراء:
- « مهمتك التي أنجزتها هذه تدل على أنك فداوية ممتازة.. مهمتك التالية هي أن تذهبي إلى مصر وتقعي في حب (المستعصم) أو تجعليه يقع في حبك بعبارة أكثر دقة.. »
- « أنا؟ ولماذا؟ »
كان قد خرج من الباب فعلًا، حين جاءها صوته:
- « لماذا؟ كى تقتليه حين تنفردين به طبعًا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل حقًّا فعلتْ هذا دون علمها؟
هل قتلتْ إنسانًا وهي لا تعلم أنها قتلته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي اليوم التالي قدموا لها طعام الغداء..
في هذه المرة قررت ألا تأكل شيئًا هنا.. ثم عدلت عن هذه الفكرة.. بالتأكيد سيعرفون كيف يرغمونها على تعاطي القنب..
لهذا ملأت معدتها أمام الجاريتين، ثم أعلنت أنها راغبة في دخول الخلاء لأن المغص قد...
أسرعتْ مذعورة إلى الخلاء، وهناك مارست المهمة المقززة نوعًا: وضعت إصبعين في حلقها وتقيأت ما أكلته كله.. لا بأس.. كانت لها صديقة تمارس (ريجيمًا) من هذا النوع، لكن الأطباء نصحوها بألا تفعل لأنه قاتل..
أخيرًا خرجت من الخلاء، وكل عضلة في جدار بطنها تنتفض.. كان الاشمئزاز يقتلها والغثيان يمزقها، لكنها تماسكت..
ورقدت على الفراش، وأغمضت عينيها تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بين أهدابها المغلقة لمحت خيال الجاريتين يتحرك حولها..
سمعت همسات أقرب للفحيح:
- « هل نامتْ أم غابتْ؟ »
- « واضح أنها غابتْ.. لقد أدى الطعام دوره.. »
- « نادى (ارداش).. »
وبعد دقائق شعرت بذراع قوية - ذراع (أرداش) - تحملها في غلظة، على كتفيه كأنما هي جوال.. أدركت أنه يمشي بها عبر ممرات قلعة الموت، ثم سمعت أبوابًا تفتح وتغلق.. مزاليج تُزاح وتوصد..



وبعد دقائق شعرت بذراع قوية – ذراع (أرداش) – تحملها في غلظة، على كتفيه كأنما هي جوال.. أدركت أنه يمشي بها عبر ممرات قلعة الموت..

يبدو أن هناك عملية (تسليم وتسلم) تتم بصددها.. تستطيع أن ترى (أرداش) يحمل دفترًا يوقع عليه حارس الروضة: عدد واحد فتاة نائمة.. إنها عهدة، ولو ضاعت لفتك (الصبّاح) به..

أخيرًا تفتح عينيها، لتدرك أنها في روضة (النزارية)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد تعزف لها القيان أنغامًا عذبة، ومن جديد (يطرقعن) أصابع قدميها، ومن جديد الماء المث... لا.. لا طعام ولا شراب هنا.. ظلّت في هذا النعيم ساعة أو نحو ذلك، ترمق الفداوية من حولها الذين يحسبون أنفسهم في الجنة حقًّا..

يا للحماقة ! يا للجهل !

أخيرًا قررت أن وقت العودة للغيبوبة قد حان..

أغمضت عينيها، وتظاهرت بأنها لم تعد هناك..

والحقيقة هي أنها كانت هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد شعرت باليد القوية تحملها في الممرات ذاتها..

هذا رجل يؤدي عمله جيدًا، لكنه غير رفيق في حمله، ولا بد أن كل عظمة من عظامها قد تحولت إلى مسحوق..

شعرت بأنها توقف على قدميها قسرًا..

شعرت بمن يصفع خديها في قسوة، وأن بعض الماء البارد يرش على وجهها، ففتحت عينيها..

فتحتهما لأنها أدركت أن هذا هو ما يتوقعون أن تفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (الصبّاح) جالسًا هناك كعادته على (الدوست)، منهمكًا في الكتابة بريشته، ولم يرفع عينيه نحوها.. ولو رفعهما لأدرك الحقيقة دون جهد.. لقد كان ذكاؤه مخيفًا..

قال لها دون أن يرفع عينيه:

- « (شورانكيز).. تعالي هنا.. »

زحفت على ركبتيها مقتربة منه، ورسمت على وجهها كل ما تقدر عليه من سمات البلاهة والغباء.. وسمعته يصرف المحيطين به..

سألها دون أن ينظر:

- « هل استمتعت بوقتك في الجنّة؟ »

- « كل الاستمتاع يا سيدى ومولاى.. »

- « جميل.. جميل.. »

ثم فكّر حينًا، وقال لها:

- « ما زلنا بحاجة إليك قبل أن تذهبي إلى مصر.. إن لدىّ خصومًا كثيرين هنا.. ثمة رءوس يجب اقتلاعها قبل رحيلك.. لقد كنت بارعة حين قتلت (طهسمبى) أمس.. »

وارتجفت (عبير) برغمها..

لقد كان كل هذا صحيحًا إذن.. لم يكذب الرجل.. وها هو ذا السيناريو الكريه يتكرر.. المفترض أن تقتل بريئًا آخر اليوم بالذات..

قالت له بصوت رتيب آلى:

- « أمرك يا مولاي.. »

تحسس ذقنه بأنامله، وأصلح من وضع عباءته، وقال:

- « إن علىّ أن أحارب أعدائى بالقتل وبالفكر.. هل تعرفين ما أفعله الآن؟ إنني أردّ على فلاسفة

السنية وخاصة ألدّ أعدائنا: الإمام (الغزالي).. إن الرجل بارع.. بارع بحق، ومنطقه قوى.. وقد كتب كتابًا اسمه (المنقذ من الضلال) يفنّد فيه دعوانا، وكل ما أطالب به.. »

- « كتاب كهذا أشد خطرًا على (النزارية) من عشرة جيوش مجتمعة، لهذا أردّ عليه وأهاجمه هنا.. »

وواصل الكتابة..

كان مطمئنًا إلى أنها لا تعي ما يحدث ولا ما يقول، لهذا أخذ راحته تمامًا، وراح يحدثها بمكنون صدره بلا تحرز..

لكنها لم تكن تصغى..

كانت يدها على ساقها، حيث ربطت الخنجر بقطعة من القماش.. خنجر البارحة الذي قتلت به القاضي.. الخنجر الذي ألقته على الأرض مذعورة، ونسيه (الصبّاح) ونسيته الجاريتان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « أنت تعرف طبعًا أنني سأغمد في صدرك أول خنجر يقع في يدى، لدى أول لحظة تعطيني ظهرك فيها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقلصت يدها على المقبض..

طعنة واحدة فقط في المكان الصحيح..

المهم ألا ينتبه قبل الأوان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- الخاتمة..

ارتفعت يدها في الهواء، ثم تصلبت..
لم يكن (الصبّاح) منتبهًا لها..
الغريب أنه كفّ عن الكتابة، وأن رأسه كان متدليًا على صدره، حيث جلس متربعًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط..
ماذا دهاه؟ ماذا حدث بالضبط؟
هنا سمعت صوتًا ما كانت تحسب أنها ستفرح به إلى هذا الحدّ:
- « تك تتك تك! »
رفعت عينها لتجد (المرشد) وقلمه الزنبركي الشهير، يقف جوارها وينتظر.. لقد آن أوان الرحيل أخيرًا..
قال لها وهو يتأمل (الصبّاح):
- « لا داعي للعنف.. لقد مات الرجل ! ولو أخذت رأيي لقلت إن طعن جثة عمل لا أخلاقي ولا ديني.. »
تأملت الرجل الجالس الذي بدا لها كأنما نام فجأة، وهتفت:
- « كيف؟ فجأة وبهذه السرعة؟ »
- « إن (الحسن بن الصبّاح) بشر ضعيف مثلنا، ولا بد أن يموت يومًا ما.. لقد حان أجله.. حان الآن بالذات.. »
وابتسم وهو يعينها على النهوض، وأردف:
- « تخلصي من هذا الخنجر قبل أن يؤذي أحدًا.. حتى (الصبّاح) نفسه ليس أقوى من الموت.. لقد استرد الله (تعالى) روحه، وليكونن حسابه عسيرًا.. منذ ثوان كان الرجل غارقًا في أمور دعوته وأحلام السيطرة.. الآن هو يواجه مشاكل مختلفة تمامًا.. »
نظرت إلى الشيخ الميت بخيبة أمل، وقالت:
- « حسبت أنني سأقتله.. حلمت بأن أقتله.. »
- « ولحسن حظك لم تلوثي يديك بدمه.. إنها نهاية ما كان يحلم بها هذا الذي عاش حياته على العنف ومن أجل العنف.. لقد انتهى كما ينتهي المتسول والتاجر والحاكم والقائد وابن السبيل.. وطريقة النهاية لا تهمّ.. لقد انتهى وكفى.. »
ومعًا غادرا القلعة الرهيبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت (المرشد) وهما يعبران نطاق الصخور الوعرة، وسط الضباب:
- « هل كانت هذه نهاية (النزارية)؟ »
- « بل ستستمر (النزارية) طويلًا جدًا.. ربما نحو قرنين من الزمان، حتى يجيء (هولاكو) التترى ليكتسح كل شيء تحت سنابك خيوله.. ولسوف تندثر الدعوة، حتى يجيء (أغاخان) في القرن التاسع عشر، ليعلن أنه الإمام الجديد.. طبعًا لن تكون حركته بذات الطابع الدامي الكابوسي، لكنها ستنادى بالمبادئ ذاتها.. »

قالت له وهما يبتعدان:
- « عدنى يا (مرشد).. »
- « أى شيء يا (أليس).. »
- « عدني بمغامرة مسلية باسمة بلا دماء.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (المرشد) عند وعده..
وفي القصة القادمة تخوض (عبير) مغامرة الوصول إلى القمر عن طريق طلقة مدفع عملاق، أو عن طريق مادة (الكافوريت)..
ترى أي الأسلوبين ينجح؟

[تمت بحمد الله]
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلعة السفاحين..!

هناك هذه القلعة في (خراسان)..وهناك الفداوية..وهناك شاعر اسمه (عمر الخيام)..وهناك الكثير من الدماء التي تغرق كل شيء..وهناك(عبير)..وهناك قارئ يجد نفسه فجأة في أقسي فترات التاريخ وأخطرها..!

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

كل الرباعيات المذكورة هنا من ترجمة الشاعر الأستاذ (أحمد رامى) وتحقيقه.. عام 1924

[←2]

كانت في (نيسابور) وقتها ست جامعات !

[←3]

يعتمد هذا الفصل بشدة على كتاب (مذاهب غريبة) للأستاذ (كامل زهيرى)، كتب للجميع (129)، 1958

[←4]
نحن في (فانتازيا) ولسنا في كتاب تاريخ.. لكن الدقة تقضي بأن نذكر القارئ أن (الخيام) لم يقتل، لكنه مات ميتة طبيعية عام 517 هـ (1123 م). عن 84 عامًا..

[←5]

هذا صحيح، ومن الواضح أن الرجل يعلم شيئًا أو شيئين عن الهرمونات والجينات المحددة للجنس !

[←6]

حيلة حقيقية كان (الصبّاح) يمارسها كثيرًا..

[←7]

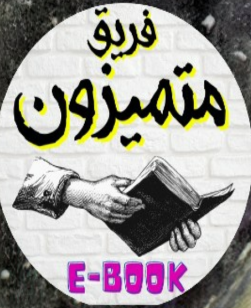
هذا صحيح أيضًا.. وقد وصفه الرحالة الإيطالى (ماركو بولو)..

روايات مصرية للجيب

23

فانتازيا

أرض .. قمر .. أرض



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (23)

أرض.. قمر.. أرض

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- الفــرار.. الفــرار..

فرغ (جول فيرن) من حساباته، فوضع الريشة في مكانها وقال:
- لا يهمني ما يقوله (هربرت جورج) إن العلم في كتاباته رديء كما هو دائما، ولن يستطيع الوصول إلى أي مكان.. إن أول إنسان يضع قدمه على القمر سيكون فرنسيًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الصباح بالذات لم تكن (عبير) رائقة المزاج..
الحقيقة أنه من العسير نوعا أن تكون الزوجة رائقة المزاج، وقد وجدت ذلك الخطاب في جيب سترة زوجها..
في المساء كان (شريف) قد عاد منهكا من عمله.. إنه يصمم نظام كمبيوتر لإحدى الشركات الاستثمارية، وهذا يجعله يعمل نحو أربع عشرة ساعة يوميا.. وكان يعود لها وقد تحول إلى دائرة متكاملة حية، أو موصل مؤكسد من الموصلات التي تسمعه يتكلم عنها أحيانا.. كلامه أرقام (واحد) وأصفار.. ولحظات صمته تطول كلحظات الانهيار التي تحدث مع الحاسب الآلى أحيانا، فلا يبقى حل سوى إطفاء الجهاز.. تركه ينام..
هكذا نام مفتوح الفم يوشك أن يغوص في حشية الفراش.. نظرت بشفقة إلى وجهه الوسيم الطفولي، ثم اتجهت إلى سترته المعلقة على المشجب، كي تعلقها في خزانة الثياب، ثم تفعل ما تفعله أية زوجة تحترم نفسها: تفتش الجيوب بحثا عن شيء ما..
وكان هذا ال. (شيء ما) ينتظرها بالفعل هذا خطاب مطوي له رائحة عطرة، وقد كتب على ورق (أنثوي) يذكرها ملمسه بالدانتيللا..
هنا يجب أن ننصف (عبير).. إنها بشر قبل كل شيء، ولم تزعم أن لها أخلاق القديسين.. ولهذا نجد أن من يطالبها بعدم فتح هذا الخطاب، إنما يطالبها بما يفوق قدرات زوجة بشرية من الطبقة المتوسطة...
دخلت إلى غرفة الحاسب الآلي حيث تتناثر الأجهزة وقطع الأجهزة، وكلها أشياء هامشية جدا إذا قورنت ب (دي - جي - ٣) الذي يحتل ركنا خاصا، وحوله مهابة وله ثقل لا يستهان بهما..
جلست أمام الجهاز، وأخذت شهيقا عميقا..
بالتأكيد يحوي الخطاب كارثة.. هي تعرف هذا وتدركه.. كانت أمسية بهيجة، وكانت الطفلة تلهو في مرح، وكان برنامج التليفزيون ممتعا، وكان العشاء لذيذا، وكان (شريف) وسيما.. و.. باختصار كان كل شيء ينبئ بكارثة تفسد هذا كله.. إن (عبير) زوجة مصرية تعتقد أن الكثير من المرح هو نذير أكيد بحدوث كارثة، ولهذا تقول كلما ضحكت: «اللهم اجعله خيرا».. كأن السعادة إثم يجب أن تدفع ثمنه بالدم والدموع.
بالتأكيد يحوي الخطاب مصيبة، ولهذا ترتجف يداها ويخفق قلبها، ولهذا لا تجرؤ على خطوة بسيطة كفتح هذه الورقة المطوية.
وسألها (شريف) في ضيق:
- ماذا؟ هل ستجربين هذا ثانية في هذا الوقت؟ ..
قالت:
- لم لا؟.. إنني لم أفعل منذ فترة..

ثم أدركت ما هنالك.. (شريف) يقف على باب الحجرة ويكلمها!
كانت غارقة في أفكارها السوداء، حتى إنها لم تر (شريف) حين جاء إلى باب الحجرة، ووقف.. وحتى حين تكلم لم تستوعب حقيقة أنه هو إلا الآن..
يا لشرود الذهن البشري!
متى استيقظ وكيف؟
كل ما استطاعت عمله هو أن دست الورقة في جيب منامتها - وهي تشبه منامات الرجال لحسن الحظ - وسألته في هلع:
- ما الذي أيقظك؟
- الذي يوقظ الناس جميعا.. كابوس.. مثانة ملأى.. ظمأ حارق..
وحك بطنه من فوق المنامة، وأضاف متثائبا:
- هيا.. دعك من هذا الهراء.. لقد أوشك افتتانك بهذا الجهاز إلى أن يكون عشقا مبرحا..
كان على وجهها تعبير تمثيلي يقول بوضوح:
أنا لم آخذ خطابا من جيب سترتك. وبدت لها فكرة النوم الآن دون أن تقرأ الخطاب لا تطاق.. الموت أهون وأبسط..
قالت له في غيظ:
- أريد رحلة جديدة إلى (فانتازيا)..
- وأنا أريد منك أن تتعقلي
ثم - كأنما بلمسة من عصا الحظ - حك شعره وقال:

سأذهب لأشرب.. لا أذكر ما أعددت لنا للعشاء لكنه بركان انفجر في جوفي..
واستدار مبتعدا..
وكان هذا هو الوقت المناسب بالضبط، لتخرج الخطاب من جيبها.. صاحت به آملة في تأخيره قليلا:
- هناك بعض المياه الغازية كذلك في باب الثلاجة..
وبأنامل باردة كالثلج فضت الخطاب



عزيزي شريف:
لم أستطع النوم البارحة من فرط التفكير في كل ما قلته لى.. أعرف أن روحينا متقاربتان منذ زمن سحيق.. ربما كنا نفس الذرة يوما ما عندما خلق الكون.. أعرف أن لنا نفس العالم ونفس الاهتمامات ونفس المهنة؛ لكني مازلت حيرى عاجزة عن اتخاذ قرار.
أعرف أنك صادق.. أعرف أنك مرتبط بلا أمل بزوجة ليست من طبقتك، ولا تشاركك ثقافتك ولا اهتماماتك.. أعرف أن النوبة القلبية الأخيرة كان لها ارتباط قوي بمشكلتك هذه، والصراع النفسي بين ما تريده وما لا تريده.. أنا أو تدمير حياتها..
أعرف هذا كله وأجدني حائرة مثلك.. نحن متحابان ومن العسير أن نقضي حياتين منفصلتين بعدما وجد أحدنا الآخر (وقد حسب كل منا أن هذا مستحيل)..
لكن دون هذا - كما يبدو لي - غابات متشابكة ومستنقعات ونيران وحفر تنتظر فيها التنانين!
أحيانا أحلم بالفرار من كل شيء، والهروب إلى بحر العواصف على القمر.. لعل هناك من يفهم ويقدر..

رانية



.. وبأنامل باردة أعادت طى الخطاب، ودسته في جيبها..
توجد أشياء كثيرة.. أشياء ستفكر فيها فيما بعد كلها.. ستخرج من كل كلمة خنجرا وتولجه ببطء في قلبها.. لكن ليس الآن..
«طبقتك».. «ثقافتك».. «نحن روحان».. «نوبة قلبية).. «كل ما قلته لى».. نعم ستسترجع الكلمات كلمة كلمة، ولديها نصيب هائل من الأحزان والصدمات تتلذذ به وحدها.. لكن ليس الآن.. ليس الآن..
إن (شريف) قد عاد من رحلته الميمونة إلى الثلاجة..
إنه يميل عليها ويقول أشياء، لكنها لا تفهم حرفا.
إنها لا تجرؤ على النظر إلى الوراء حيث وجهه..
فقط تقول وهي تبدأ تشغيل الجهاز:
- أريد أن أهرب يا (شريف).. خذني إلى (فانتازيا)
- ولكن..
- الآن!
لهجتها الآمرة جعلته يضع الأقطاب على رأسها، وفي غباء يسألها:
- إلى أين؟
في شيء من السخرية قالت وهي ترمق الشاشة:
- إلى بحر العواصف على القمر.. لعل هناك من يفهم..
ويقدر..



2- عزيزي جول فيرن..

الآن نفهم لماذا كانت منحرفة المزاج في ذلك الصباح البهيج، وهي تمشي في شوارع (بالتيمور)..
إن (فانتازيا) تعنى الفرار..
الكثير منه في الواقع، لكنها ظلت محتفظة ببعض ندوب الواقع في أعماقها..
وقررت أن تنسى كل شيء، وأن تندمج في هذه القصة حتى النخاع..
لسوف تلعب (فانتازيا) دور قرص (الفاليوم) المهدئ الذي يأخذه مريض (النوراستانيا) كي بنام..
كانت تعرف أنها صحفية أمريكية، وكانت تعرف أنها متجهة إلى نادي السلاح في (بالتيمور) لتكتب عن قصة بالغة الإثارة..
كانت تعرف أيضا أن هذا هو العام 1864..
كلها تفاصيل أبلغها بها (المرشد) وهو يداعب قلمه السمج كالعادة، ومن ثم كان عليها البدء بمفردها.
كان نادي السلاح - كما أخبرها (المرشد) -يضم نخبة كبيرة من كبار مصممى السلاح ومهندسيه، أولئك الذين قدموا خير ما عندهم في الحرب الأهلية الأمريكية، ثم انتهت الحرب، ومعها لم يعد لديهم عمل ما..
إن هدف الحرب الأسمى هو أن يجد صناع السلاح عملا، وما كانت لتدرك هذه الحقيقة قبل أن تعرف نادي السلاح..
هناك كان المهندسون والمقاتلون الذين فقد أكثرهم أطرافه، يجلسون ليلعبوا الورق ويدخنوا، ويتذكروا الأيام الخوالي - أيام المجد حين كانوا هم السادة، وحين كان الناس يحبون السلاح الجيد، ويستمتعون بالقتل باعتباره فنا راقيا.
اليوم لم يعد أحد بحاجة إلى خدماتهم، ولم يعد أمامهم سوى التدخين ولعب الورق والمزيد من التدخين ولعب الورق..
دخلت (عبير) إلى القاعة الكبرى للنادي، حيث كان هناك زحام شديد.. مئات السادة مبتوري الأذرع أو السيقان أو العور يقفون ويتزاحمون.. إنه اجتماع غير عادي..
يبدو أن هناك إعلانا خارقا للعادة سيذاع من هنا الآن..
وجدت لنفسها مكانا في المقدمة.. وفي هذا الزمن الطيب كان الرجال - حتى من فقدوا أرجلهم - يتركون مقاعدهم للنساء، وقد نهض جنرال عجوز مبتور الساقين ودعاها في حماس كي تجلس.. ثم راح يتواثب على عكازيه بحثا عن مكان آخر..
مرت دقائق عشر، ثم ظهر رئيس النادي (باربيكان)، وهو يحتفظ بأطرافه كلها إلا أنه رجل صموت بالغ الطول والنحافة.
ساد الصمت.. فأخرجت مفكرة من جيبها ووجدت في حقيبتها قلما من الرصاص..
لا بأس.. ستلعب دور الصحفية إلى النهاية..
وفيما بعد ستحاول فهم ما يحدث بالضبط..
قال رئيس النادي بصوت جهوري:
- يا سادة.. أرجو أولا أن تحيوا..
وأشار في حركة مسرحية إلى رجل ملتح أشيب قصير القامة، يقف بجواره وصاح:
- المسيو (جول فيرن)! دوت عاصفة من التصفيق، أما (عبير) فانحنت إلى الأمام ودست القلم

بين شفتيها مفكرة.. (جول فيرن) شخصية حقيقية بينما نادي السلاح هو جزء من قصة كتبها..



وأشار في حركة مسرحية إلى رجل ملتحٍ أشيب قصير القامة، يقف بجواره

هذا هو لقاء المؤلف وشخصياته.. الصانع والمصنوع.. الكاتب والمكتوب.. إنه مشهد مألوف في

(فانتازيا) منذ قابل (شكسبير) أبطاله في مسرح (جلوب)، وجلس (مارك توين) مع (توم) على حافة النهر..
انتهت عاصفة التصفيق أخيرا بينما (جول فيرن) يرد عليها بالانحناء مرارا.. وفي النهاية اتخذ مكانه خلف المنصة، وقال:
- أشكركم وأشكر الرئيس (باربيكان) على هذه الدعوة..
كان يتكلم بالإنجليزية، لكنها إنجليزية فرنسية الطابع مليئة بالأخطاء في القواعد والنطق واختيار الألفاظ.
لكنه عبقري! لا يوجد في الكون إلا حفنة من الرافضين لهذا الرأي، وبالتأكيد لم تكن (عبير) منهم..

☆ ☆ ☆

هنا نتوقف قليلا لنعرف شيئا أو اثنين عن (جول فيرن)..
(ميشيل ستروجوف) يركض في مهمته الخطرة ليوصل رسالة القيصر.. (ميشيل آردان) ورفاقه يدخلون فوهة المدفع للوصول إلى القمر.. كابتن (نيمو) يأمر بحارته بالغوص بغواصة (نوتيليوس) إلى عمق عشرين ألف فرسخ تحت البحر.. (أكسل) وعمه المجنون يحاولان الوصول إلى مركز الأرض عبر فوهة بركان.. الكابتن (هاثيرا) يصنع عدسة من الثلج يشعل بها نارا.. (فلياس فوج) يحاول الدوران حول الأرض في ثمانين يوما وإلا فقد ثروته..
كل هذه العوالم الساحرة لم توجد قبل أن يوجدها هذا الأديب الفرنسي العظيم.. لكنها اليوم صارت حقائق ملموسة في ذهن قراء الخيال العلمي في كل صوب، ومن الجدير بالذكر هنا أن أكثر خيالات قصصه تحققت وبصورة مذهلة؛ حتى إن لمسة ساحرة من التنبؤ تغلف رواياته كلها.. لقد كتب عن الغواصة قبل اختراعها، ووصف رحلات الفضاء قبل حدوثها بقرن كامل، ووصف الطائرة بدقة مذهلة..
ربما كان العثور على معلومات عنه سهلا، لكننا نذكر هنا على سبيل التوثيق أنه ولد في مدينة (نانت) عام ١٨٢٨، وبدأ دراسة القانون في شبابه لكنه لم يمارسه قط، واتجه إلى (باريس) حيث كتب بضع مسرحيات متوسطة النجاح، وعام 1862 نشر رواية (خمسة أسابيع في منطاد) التي نجحت بشكل غير مسبوق، كفل له عيشا رغدا، وصار اسمه شهيرا لدى القراء وهكذا بدأت رواياته ذات العناوين المرموقة تتوالى: (رحلة إلى جوف الأرض).. (من الأرض إلى القمر).. (٢٠ ألف فرسخ تحت الماء).. (الشعاع الأخضر).. إلخ..
وقد توفي عام 1905 عن ٧٧ عاما، وبعد خمسين عاما من وفاته اكتشفت السينما – التي صارت لها حقوق قصصه مجانا - موردا لا ينتهي، وسرعان ما انهالت الأفلام السينمائية التي تحكى أحلام هذا الرجل مجسدة على الشاشة.
لقد ترك (جول فيرن) علامة أبدية في هيكل الخيال العلمي.. ولربما يذهب البعض إلى أنه هو من شيد هذا الهيكل أصلا..
إن دقته العلمية درس بالغ الأهمية لكل من يفكر في كتابة الخيال العلمي من بعده..
ولسوف ندرك هذا وأكثر بعد قليل..
انتظروا.. وسترون!

☆ ☆ ☆

ونعود إلى (جول فيرن) حيث وقف يخاطب السادة أعضاء نادي السلاح في (بالتيمور)، و (عبير) بينهم..
قال في رزانة:
- أنتم تعرفون مشروعنا العظيم
المشروع الذي اقترحه الرئيس (باربيكان) والذي وجده كثيرون منكم سخيفا مستحيل التحقيق..
لكني أعطيتكم كلمتي وقلت إنني قادر على تحقيقه.. لقد أجريت الحسابات مرارا.
ولم أترك حجرا لم أقلبه كما تقولون معشر الأمريكيين.. إننا سنصل إلى القمر عن طريق مدفع جبار!
وارتجفت (عبير) رهبة، وقد تذكرت القصة التي هي فيها الآن.. هذه قصة يصعب نسيانها.. هي لا تذكر التفاصيل لكنها كانت دقيقة جدا، وقد تطابقت أحداثها بصورة محيرة مع عملية هبوط سفينة الفضاء (أبولو - ١١)
على القمر، في ٢٠ يوليو عام 1969..
أشار (فيرن) إلى رجل قصير القامة، له شعر أحمر ثائر وعينان لا تكفان عن الحركة، وقال:
- وكما تعرفون.. فإن مواطني (ميشيل آردان) المغامر الشجاع قد قبل أن يركب قذيفة المدفع هذه، ويكون أول بشري يخطو على القمر.. إننا معشر الفرنسيين لا نملك مالا مثل الأمريكيين، لهذا نمنح حياتنا بدلا منه!
كان في كلامه نعرة قومية (فرانكفونية) تثير الغيظ، لكن الأمريكيين - في ذلك العهد – كانوا يحبون الفرنسيين حقا، ويشتركون معهم في كراهية الإنجليز.. ولهذا ابتلعوا تفاخره في تواضع جم..
قال الرئيس (باربيكان):
- كل شيء معد يا سيدي.. وتالله لن نفشل أبدا..
هنا نهض رجل قصير القامة له وجه محتقن كالطماطم، وقال:
- أسجل هنا أنى أرى الفكرة مستحيلة ومجنونة.. إن هذه القذيفة ستنفجر بمن عليها في ثوان..
استدارت (عبير) لتسأل العسكري كث الشاربين بجوارها:
- من هذا المتكلم؟
قال دون أن ينظر إليها:
- هذا هو الكابتن (نيكولا).. وهو يلعب دور (الشريك المخالف) مع (باربيكان) دائما.. كل ما يقوله الثاني خطأ على طول الخط في رأيه..
وعلى المنصة تململ (جول فيرن)، وقال في تهذيب:
- أعتقد أننا عبرنا هذا الجسر يا كابتن (نيكولا) منذ زمن.. المشكلة الآن أخطر من هذا.. إن الإنجليز يحاولون أن يسبقونا إلى القمر!
الويل!
- سحقا لرعايا الملكة!
وابتسمت (عبير) في سرها.. بالطبع كانت الأحلام تفعم أذهان الفرنسيين والإنجليز في ذلك الوقت باعتبارهما القوتين العظميين.. وسرعان ما غرقوا في حربين عالميتين، ولم تدر القوتان متى انسحب البساط من تحت الأقدام لتظهر قوتان عظميان ما كانتا في الحسبان هما أمريكا والإتحاد السوفيتي.. ومن لحظتها صار الصراع على القمر حكرا على هاتين الدولتين..

لقد فعلتها (روسيا) أولا وأرسلت (جاجارين) إلى الفضاء - وكان هذا يوما أسود في تاريخ العِلْم الأمريكي [1] - ثم حشدت أمريكا هيبتها وأرسلت أول رجال يمشون على سطح القمر.
قال (جول فيرن) يواصل كلامه:
- نعم.. أكرر ما أقول: إن الإنجليز قد رسموا خطة للوصول إلى القمر، وقد رسم معالمها أديبهم (هربرت جورج ويلز)..
منافسي الطبيعي.. أنا لا أحب قصصه، ولا أرتاح كثيرا إلى العلم الذي يستعمله لأنه رديء مليء بالمغالطات.. لكن كل شيء يدعونا إلى الحذر..
من جديد وقف الكابتن (نيكولا) وقال:
- وماذا نفعل؟ نحن ملتزمون بجدولنا الزمني وليس بوسعنا أن نسبق أنفسنا.. هل نرسل من يقتل (ويلز)؟ ..
ابتسم (باربيكان) كمن يلوم طفلا شقيا،
وقال:
- لن نصل إلى هذا الحد.. لكنى راغب حقا في التجسس عليه..
ودار بعينيه بين الوجوه الجالسة وقال مردفا:
- نريد من يذهب إلى (لايمبن) ليعرف ما يدور هناك..

☆ ☆ ☆

- 3لقد أعددنا كل شيء..

فيما بعد قال (هـ. ج. ويلز) وهو يشعل غليونه:
- إن (جول فيرن) يخرف.. إنه يتناسى أبسط قواعد علم الطبيعة.. وإن إدراكه لمعادلات الحركة ولقوانين (نيوتن) يتسق تماما مع دراسته القانونية.. لو استطاع محام آخر أن يرسل صاروخا إلى القمر، لكان هذا كفيلا بإفحامي..
وسعل كثيرا لأن المرض الذي أصاب رئتيه
ما كان ليحتمل كل هذا الدخان، وأردف:
- إن أول قدم ستلمس القمر ستكون قدما بريطانية..

☆ ☆ ☆

في نادي السلاح:
تعالت أصوات الهمهمة وعبارات الاحتجاج - لا أدري سببها في الواقع - وراح كل واحد يشير إلى نفسه وإلى الآخرين، ويقول كلاما كثيرا قال (جول فيرن) بصوت عال ليغلب باقي الأصوات:
- إن الأمر غامض وجد خطير.. المشكلة هي أن (ويلز) يعرف من الصحف كل شيء عن خططنا، بينما نحن لا نعرف شيئا على الإطلاق.. ومن جديد أقول إن على واحد منا أن يذهب ليتبين الأمر..
قال (باربيكان) وهو يطوح جذعه الطويل النحيل:
- هذه مشكلة.. إن (ويلز) لن يرحب بأمريكي أو فرنسي يجيء من سماء صافية كي يستفهم عن مشاريعه..
- أنا مستعدة!
استدارت العيون كلها - ١٨٣٣ زوجا منها - نحو صاحبة الصوت الرفيع الذي دوي من الصفوف الأمامية، ولم يكن سوى صوت (عبير) طبعا..
عادت - محمرة الوجه خجلا - تكرر عرضها.
مال (جول فيرن) برأسه الملتحي فوق المنصة، كأنما يراها أقرب، وسأل:
- من هي الآنسة؟
بصوتها الرفيع الحاد عالى الطبقة، قالت:
أنا (هازل ستانويك).. صحفية..
نظر (فيرن) إلى (باربيكان) وهز رأسه قائلا:
- معقول..
قال الأخير وقد بدا عليه الرضا:
- لا بأس.. سيتكلم (ويلز) أمام الصحافة، خاصة إذا مثلتها حسناء كهذه..
وأشار لها كي تدنو من المنصة، ثم صافحها وانحنى يطبع قبلة مبتلة على ظهر يدها، وقال في تهذيب:
- يسرنا هذا يا آنسة (ستانويك).. ولكن أحسب علينا أن ننتقل إلى مكان أكثر هدوءا لنشرح لك تفاصيل فكرتنا أولا.. لا بد أنك تعرفين كل شيء؟
قالت في خفر وهي تمسح ظهر يدها في تنورتها:

- في الواقع لا أعرف، إلا أنكم ستطلقون رصاصة ضخمة نحو القمر..
تبادل نظرة مرحة مع (جول فيرن)، ثم قال:
- الأمر ليس بهذا التبسيط.. لكنه يتلخص في هذه الجملة فعلا..
والآن تعالي يا (ستانويك) إلى غرفة المطالعة بالنادي، لتسمعي تفاصيل المشروع العملاق.



أحضر الخدم لوح كتابة وقطعة من الطبشور، فأخذهما (باربيكان) وأشار في أدب إلى (جول فيرن) كي يتولى هو الشرح، لكن الأخير هز كفه باسما:
- أرجو أن تستمر أنت.. إنك استوعبت الفكرة جيدا..
رسم (باربيكان) على لوح الكتابة دائرة، وسأل (عبير):
ما هذا؟
- يا له من سؤال! طبعا القمر..
- أحسنت! إنه كرة في السماء قطرها 2160 ميلا.. وهذه الدائرة؟
- أحسبها الأرض..
- برافو! إن قطرها 7927 ميلا.. وهي
تبعد عن القمر بمسافة 253 ألف ميل.. هذه طبعا مسافة تزيد وتنقص مع دوران القمر الإهليجي حول الأرض.. وكانت فكرتنا هي إطلاق طلقة على القمر.. سيكون على الطلقة أن تقطع خمسة أسداس المسافة، وبعد هذا يجذبها القمر بجاذبيته إليه.. بمعنى أن هناك سبعة وثلاثين ألف ميل تقطعها الطلقة تحت سيطرة القمر..
كان (ميشيل آردان) جالسا يجرع كوبا من الشراب، وهو يهز ساقه في عصبية، فلما وصل الحديث إلى هذا الجزء قال:
- هل سنعود لشرح ذات الكلام من جديد؟
قال (جول فيرن):
- لأن هناك من لم يسمعوه أول مرة..
وأدركت (عبير) على الفور نمط (آردان).. نافد الصبر المتهور المندفع دائما.. إنه لا يستطيع مجرد السيطرة على نفسه بدعوى اللياقة..
قال (باربيكان) متضايقا لمقاطعته:
- أنت تعرفين يا عزيزتي أن طول المدفع لا بد أن يساوي قطر القذيفة مضروبا في ٢٠ مرة.. وهكذا - مع وضع الغازات في الاعتبار - كان علينا أن نصمم مدفعا طوله تسعمائة قدم..
بالطبع كنا نعرف أننا سنصوب المدفع ليس على القمر، ولكن على المكان الذي سيكون فيه القمر حين تصل القذيفة إليه..
وقد قدر علماء جامعة (شيكاغو) أن القذيفة ستستغرق نحو تسع وسبعين ساعة وربع حتى تصل إلى القمر، لو وضعنا في الحسبان احتكاك الهواء ونقص قوة الانطلاق.
قالت (عبير) وقد بدأت تفهم:
أي أنكم ستصوبون على المكان الذي سيكون القمر فيه بعد ٧٩ ساعة وربع.
- بالضبط.. وهنا نشأت مشكلة تقوس المدفع.. إن ماسورة طولها تسعمائة قدم لابد أن تتقوس.. وأبسط تقوس - تذكري حساب المثلثات - سيؤدي إلى فساد التصويب بالكامل على مسافة 221463 ميلا لهذا فكرنا في وضع المدفع في حفرة ترتكز فوهته على حافتها.. بالتالي لا

يحدث أي تقوس..
صفرت (عبير) بشفتيها منبهرة وقالت:
- أنتم تفكرون في كل شيء..
تبادل (باربيكان) نظرة فخورا مع (جول فيرن).. الواقع أن دقة (فيرن) العلمية مبهرة.. دائما لمن يعرفها.. ربما باستثناء منافسيه من كتاب الخيال العلمي..
ثم إنه واصل الشرح:
- نجيء لخامة القذيفة ذاتها.. نحن بحاجة إلى سمك كبير، لكننا - كذلك - بحاجة إلى وزن خفيف.. هذا لا يتحقق إلا بالسكينة R.R التي هي أمتن من الحديد لكنها في وزن الألومنيوم..
سألته (عبير) وهي تدون كل هذا في مفكرتها كي لا تنساه:
- وأين انتويتم إقامة المدفع؟
حك الرئيس (باربيكان) لحيته في صرامة وقال:
- تلك كانت مشكلة.. ثمة احتمال لا بأس به ألا تنطلق القذيفة، وأن يتحول المكان إلى كتلة من النيران والدخان وشظايا الحديد.
ولقد اخترنا مكانا بعيدا عن العمران في (فلوريدا) يطلقون عليه (جبل الحديد).. إن أقرب عمران له هو على بعد لا بأس به..
كانت مشكلة طبيعة التربة تضايقنا كذلك إن حفر عمق تسعمائة قدم يحتاج إلى أرض غير رخوة، وغير صلبة جدا..
ابتسمت (عبير) في تهكم:
- وهكذا ستحفرون في الحديد؟
ابتسم (جول فيرن) في تهكم أكبر، وقال:
- لا يا آنستي.. إن (جبل الحديد) مجرد اسم.. لكنه عبارة عن أحجار جيرية لا أكثر..
دونت هذا في مذكرتها، ثم سألت:
- وهل فرغتم من صنع هذا المدفع؟
- مازال العمل جاريا.. وآه لو رأيت المشهد!
ووقف وظهره لها ينظر خارج النافذة، كأنما يسافر بخياله إلى هناك.. إلى المشهد الرهيب لآلاف العمال عاكفين على حفر الحفرة العملاقة، ووضع الصخور التي سيصب في فجوتها المعدن المنصهر.. كأنه تمثال عملاق للتقدم البشرى..



ووقف وظهره لها ينظر خارج النافذة، كأنما يسافر بخياله إلى هناك..

حقا كان التمويل مشكلة بالنسبة لـ (باربيكان) و (جول فيرن) على السواء.. الأول كان بحاجة إليه لينجز مشروعه العملاق، والثاني كان بحاجة إلى تدبيره على الورق كي تكون الرواية مقنعة

للقارئ..
طبعا كان الحل الصحيح - والوحيد - هو مخاطبة تجار السلاح في العالم.. أولئك القتلة الذين أثروا وكدسوا الملايين من كل حرب عرفها الإنسان.. وقد قبل أكثر هؤلاء تمويل الحملة على سبيل التوبة وطلب الغفران..
في شهر يوليو ستأتي اللحظة الهائلة.
ستفتح أبواب مائة فرن لتنصب السبائك المتوهجة في الحفرة، لتملأ بالضبط تجاويف المدفع المرتقب.. ولسوف تظل المنطقة جحيما لمدة شهر كامل.. الحرارة لا تطاق والدخان يخنق الأنفاس..
وفي أغسطس سيتجمد الحديد المصهور، وينزل أعضاء نادي السلاح إلى قاع الحفرة ليتفقدوا مدفعهم العملاق..

☆ ☆ ☆

استدارت (عبير) إلى (ميشيل آردان)، وبللت سن القلم بلسانها، وسألته:
- ومتى جاء دورك يا مسيو (آردان)؟
كان قليل الكلام كما رأينا.. نافد الصبر دائما.. نموذج الاندفاع وعدم التعقل كما ينبغي أن يكون، ومن الغريب أن يكون الفرنسي الوحيد في قصة تدور في أمريكا بالكامل.. لكن المؤلف فرنسي على كل حال، ومن أبسط حقوقه أن يدس رجلا فرنسيا هنا أو هناك على سبيل (التميمة)..
على كل حال سيذكر الناس هذه القصة للأبد باسم (ميشيل آردان)، كما أن الكابتن (نيمو) هو اسم آخر لقصة (٢٠ ألف فرسخ تحت البحر)..
قال (آردان) وهو يمسك بساقه ليمنعها من الاهتزاز في عصبية..
- لم تكن الفكرة أساسا تتضمن إرسال بشر.. كانوا يزمعون إرسال القذيفة إلى القمر وتصويرها بالمرقاب، لكني لم أقاوم فكرة أن أكون أول بشري يضع قدميه على القمر.. ولهذا أبرقت لهم هنا أخبرهم أنني قادم..
- وهل وافقوا على هذا ببساطة؟
- بالطبع لا.. حسبوني مجنونا أو من هواة الانتحار.. لكنهم حين رأوا ما صممته للقذيفة؛ بدءوا يتراجعون لقد قمت بتزويد القذيفة بزنبركات قوية تقلل الصدمة على من يجلس داخل القذيفة.. قمت كذلك بجعل القذيفة كبسولة من جزأين.. بعد الإطلاق ينفصل الجزء السفلي وقد امتص أكثر شدة الصدمة[2]..
ثم أردف وهو يجرع المزيد من كوبه:
- يوجد مزيد من الأشياء التي أضافها العلماء الفرنسيون لجعل القذيفة قابلة لحياة البشر.. توجد خزانات أكسجين، وأحواض كيميائية تحول ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين.. توجد كذلك نوافذ مزدوجة يمكن فتح الداخلية أو الخارجية منها..
سألته:
- يبدو لي الأمر (تذكرة بدون عودة)..
فماذا عن تذكرة العودة؟
- هذا هو ما أضافه علماؤنا: صواريخ أسفل القذيفة.. هذه الصواريخ تملك القوة على التحرر من جاذبية القمر الضعيفة أصلا
نظرت (عبير) إلى (جول فيرن) وسألته:

- وهل يزمعون مغادرة الكبسولة والمشي على القمر؟
تحسس (فيرن) لحيته الرمادية، وقال:
- بالطبع.. وإلا فما جدوى هذه الرحلة إذن؟ ..
- وهل يمكنهم المشي في جو بلا أكسجين؟
- سأزودهم بكل شيء..
وكانت تفهم هذه النقطة جيدا.. الوصول للقمر هو المشكلة الرئيسية، وما عدا ذلك تم التخطيط له بإهمال وكثير من العجلة.. في الغالب لا يتصور أحد نجاح الجزء الأول من الخطة، ولتكونن مشكلة لو جاء الجزء الثاني..
قالت مغلقة مفكرتها:
- فيما يبدو أنتم أعددتم للأمر عدته، ولا أعرف كيف ستفشلون..
- لن نفشل..
- يبدو الأمر أعقد من هذا كله.. أعتقد أن مشكلة ما ستطرأ من حيث لا تتوقعون
ثمة مسمار ينفك دائما حين لا يجب أن ينفك.. ثمة شرخ يحدث دائما حيث لا يجب أن يحدث.. ثمة صفر (0) يختلط دائما بحرف (O) اللاتيني حين لا يجب أن يختلط..
وتذكرت باسمة رواية (الكونغو) ل (مايكل كرشتون).. كان (ترافيس) مهندس الأقمار الصناعية يضع على مكتبه لافتة تقول: S.D.T.A.G.W، وهي الحروف الأولى من عبارة: «لا بد من أن يحدث خطأ لعين دائما»![3]
قال (جول فيرن) في شيء من قلق، ظهرت وطأته على جبهته:
- الفشل الوحيد الذي أهابه هو أن يسبقنا الإنجليز.. أنا لا أعرف خطة (ويلز)، ولا أتخيلها.. وهذه هي مهمتك يا آنسة (ستانويك).. هذا لو كنت حقا قد منحتنا ولاءك الكامل..



4- عزيزي (هـ.ج. ويلز)..

في الثامنة مساء اجتازت (عبير) مدخل البيت وقرعت الباب..
كان الليل الإنجليزي البارد يغمر المكان، ومن بعيد كان الريف في بهائه الصيفي يستعد للنوم بعد يوم شاق..
انفتح الباب وظهر شاب نحيل على شيء من الوسامة وكثير من الخرق، فلما رأى وجهها ابتسم في تهذيب:
الآنسة (ستانويك)؟ هل أنت؟ تفضلي بالدخول..
اجتازت (عبير) المدخل.. ولم يفتها أن تدرك أن البيت في حال سيئة حقا، بلا أدنى علامة على لمسة أنثوية.. أجهزة وآلات وأسلاك في كل صوب.. وأوراق ملقاة جوار الحائط.. وبقايا طعام على المكتب.. و.. و..
قالت له وهي تتظاهر بأنها لم تر شيئا:
- هل أنت البروفسور (كيفور)؟
- - بل أنا (جاك بدفورد) كاتب مسرحيات عبقري.. فقط لا أحد يعرف هذا بعد..
وجدت نفسها في غرفة معيشة غير منسقة تتناثر فيها الصحف، وتتوسط هواءها سحابة كثيفة من دخان الطباق..
وبعد ثوان دخل البروفسور (كيفور) نفسه.. كان عالما من علماء القصص المصورة بحق.. هذا وصف كاف جدا ويقول كل شيء..
حركاته سريعة.. يلوح بيديه بمناسبة.. ودون مناسبة قصير القامة أقرب إلى البدانة.. شارد الذهن - كما هو واضح - بحيث ينظر لكل شيء دون أن يراه..
صاح (كيفور) حين رآها:
- آها! الآنسة الأمريكية.. الصحفية.. مرحبا بك في (لايمبن).. هذه قرية صغيرة بائسة الحال لكنها تناسبني بشدة..
ورأت (عبير) رجلا في منتصف العمر له شارب رفيع أنيق، وقد بدأ الشعر يتراجع عن مقدمة رأسه، ويرتدي بذلة أنيقة رمادية اللون، فتح سترتها كاشفا عن صديري تتدلى منه سلسلة ساعة..
- أقدم لك المستر (هربرت جورج ويلز).. إنه من الكتاب القليلين الذين يعرفهم العالم بالحروف الأولى من أسمائهم: (هـ. ج. ويلز).. مثله مثل (ت. س. إليوت) و (هـ. ب. لافكرافت) و (ر. ل. ستيفنسون) و (ج. ب. شو).. إن هذا شرف عظيم في الإنجليزية، ويعطى الاسم وقعا مهيبا شامخا..
حياها (ويلز) بهزة رأس، ثم جلس..
كان وقورا متحفظا يبتسم ابتسامة محايدة لا تدل على شيء، وتذكرت (جول فيرن) الودود، فأدركت أن هناك حقا فارقا هائلا بين الإنجليز والفرنسيين..
سألها (ويلز) في كياسة، وقد وضع ساق على ساق، وعقد ذراعيه على صدره:
هل لنا أن نتشرف بمعرفة سبب هذا اللقاء؟
قالت في تهذيب:
- - أنا صحفية يا سيدي.. واليوم يتحدثون في الولايات المتحدة عن أمور غريبة تدور هنا..

- أنت قطعت المحيط كي تجرى حديثا صحفيا؟!
كانت في (فانتازيا) حيث لا أهمية للمسافات، لكنها لم تقل هذا.. لابد أن تكون حذرة لأن الإنجليز يرتابون في الأمريكيين دائما، فكيف لو عرف أنها تمارس نوعا من (التجسس الصناعي)؟..
قالت:
- إن الأمر يستحق هذا.. إن المسافة بين انجلترا وأمريكا لا تقارن بالمسافة بين إنجلترا والقمر!
قال في كبرياء:
- إنهم يعرفون وهم قلقون حقا.. لكني أؤكد لك شيئا واحدا: أول قدم تلمس القمر ستكون قدما إنجليزية..
أخرجت المفكرة إياها، وبللت القلم بلسانها كالعادة، وتهيأت للكتابة قائلة:
- هذا ما أريد الكلام عنه.. هل يضايقك أن نتكلم بشيء من الوضوح؟
نظر إلى رفيقيه.. الأستاذ الشارد والشاب الأخرق.. ثم قال:
- لا مشكلة عندي.. إن هؤلاء القوم لن يصلوا إلى تركيب (الكافوريت) ولو بعد ألف عام..
- تعنى هؤلاء القوم عبر المحيط؟
- بل أعني هؤلاء القوم عبر (المانش).. إن الفرنسيين يحاولون أن يجعلوا من (جول فيرن) معبدا للخيال العلمي، بينما هو مجرد محام.. محام علاقته بالفيزياء كأي محام آخر..
ساد صمت رهيب، قطعته (عبير) بأن سألت:
- سيدي.. أعتقد أنني سمعت الفكرة كاملة من أصحابها، وأجرؤ على القول إنها خالية من الثغرات..
بل كلها ثغرات.. هذه هي مشكلتهم!



هنا نتوقف كالعادة لنعرف شيئا أو شيئين عن (هـ. ج. ويلز)، وهذا ليس استطرادا ما دام الرجل بطلا من أبطال قصتنا هذه..
ولد (ويلز) في (كنت) بإنجلترا عام 1866.. أي حين كان عمر (جول فيرن) ستة وثلاثين عاما.. أي عندما كتب الأخير قصته الشهيرة (من الأرض إلى القمر)..
كان من أسرة فقيرة، وبعبارة أخرى لم يعش أية طفولة كالتي نعرفها..
عمل في متجر للقماش ثم عمل معلما، وقضى فترة في الجامعة في (لندن) لم تمنحه شهادة، لكنها منحته طريقة التفكير العلمي التي عرف بها في كتاباته..
كان (ويلز) واهن الصحة دائما، مما اضطره إلى الهرب إلى عوالم القراءة والكتابة التي ترحب بأمثاله دائما..
صار صحفيا.. ثم كتب أولى قصصه الشهيرة (آلة الزمن)، التي تتحدث عن نفسها ولا تحتاج إلى تعليق.. بعد هذا انهمرت إبداعاته التي يعرفها..
كل قراء الخيال العلمي، وكل قراء الأدب الإنجليزي عموما: (حرب العوالم) - (أول رجال على سطح القمر) - (طعام الآلهة) - (شكل الأشياء القادمة) - (الرجل الخفي).. و (كيبس) و (أن فيرونيكا)، وهما قصتان تمثلان الاتجاه البعيد عن الخيال العلمي في قصصه.. وقد كتب الرجل في كل شيء وأي شيء....
يعرف عشاق الأدب الفارق بين (ويلز) و (فيرن) جيدا، إن (ويلز) أعمق وأقرب إلى الفلسفة وفهم

صراعات المجتمع وآلياته، لكن العلم عنده مطاط نوعا مليء بالثغرات.. أما (فيرن) فهو دقيق جدا وأخطاؤه نادرة أو معدومة، لكنه مسطح لا يهتم إلا بالمغامرة المثيرة.. [4]
ربما لهذا سيعيش (ويلز) فترة أطول بكثير من منافسة الفرنسي

☆ ☆ ☆

قال (ويلز) في مرارة وهو يشعل غليونه ويسعل:
- السيد (جول فيرن) بدأ قصته مستندا إلى مجموعة من الحقائق المتعفنة العطنة (المخوّخة)..
أولا: يفترض السيد (فيرن) أن مدفعه سيعطى القذيفة سرعة مقدارها 16 كلم / ثانية تهبط إلى 11 كلم / ثانية نتيجة للاحتكاك بالهواء.. هذه هي السرعة الكافية لتحرر القذيفة من الجاذبية الأرضية؛ لكن أقوى مدفع يستخدم البارود لا يستطيع إطلاق قذيفة أسرع من 3 كلم / ثانية.. كما أن مقاومة الهواء ستكون مخيفة وقتها..[5]
ثانيا: يحسب السيد (فيرن) أن تزويد الكبسولة ببعض اليايات، يكفي لتقليل صدمة التسارع على ركاب الكبسولة.. هذا هراء محض.. إن نقل سرعة أجسام ساكنة من الصفر إلى 16 كلم / ثانية خلال جزء من الثانية، لن يمر بسلام أبدا.. بعبارة أخرى:
سيزداد - لحظة الإطلاق - وزن كل جسم داخل الكبسولة بمقدار 60000 مرة.. أي أن قبعة السيد (ميشيل آردان) الجميلة سيتحول وزنها إلى 15 طنا.. ومن العبث أن نظن أن بعض اليايات ستقلل الضرر الناتج.. لا فرق بين أن يموت المرء تحت وزن 15 طنا، أو يموت تحت وزن 14 طنا!
إن الخطر الذي سيواجهه هؤلاء القوم داخل الكبسولة، لا يقل عن الخطر الذي كانوا سيواجهونه لو وقفوا أمامها..
ثم نظر إلى السقف باحثا عن تعبير مناسب:
- «كفتة! هذا هو ما سيتحولون إليه!»
بدا الغباء على (عبير)، وقد أحست بالضياع وسط كل هذه الأرقام، فقال لها (ويلز) باسما:
- يمكن لأي أحمق قرأ نظريات (نيوتن) أن يتأكد من دقة ما أقول.. أنت لم تقرئي (نيوتن) طبعا، لهذا أضعك خارج دائرة الاتهامات!
قال (كيفور) راضيا:
- هكذا العلم الفرنسي.. رومانسي وخيالي أكثر من اللازم.. أما نحن فلا نعترف إلا بالحقائق الكئيبة!
يواصل (ويلز) تحطيم نظرية (جول فيرن) في استمتاع:
- طبعا هناك حل واحد لمنع هذه الصدمة، هو إطالة ماسورة المدفع إلى 6000 كيلومتر..
وهكذا يحدث التسارع بشكل تدريجي، ولا تزداد قبعة (آردان) في الوزن أكثر من ضعفين.. لكن مدفعا بهذا الطول لا بد من أن يبدأ عند مركز الكرة الأرضية!
ثالثا: من الواضح تماما أن السيد (جول فيرن) لم يضع في حسابه موضوع انعدام الوزن داخل الكبسولة.. بعبارة أخرى لن يستطيع هؤلاء التعساء أن يأكلوا أو يشربوا، لأن كل شيء سيحلق في هواء الكبسولة وهم كذلك..
صفرت (عبير) بشفتيها.. حقا إن العلم لا يترك شيئا.. وقديما قالوا إن رجل الشارع يتعامل مع العلم باعتباره نوعا من السحر، ويقبل كل ما يقوله دون مناقشة.. لكن غريب أن يرتكب (جول فيرن) كل هذه الأخطاء، وهو معروف بدقته العلمية البالغة..

سألت (ويلز) في فضول:

- أحسب أنكم أعددتم ترتيبا أفضل؟

نهض، وقال وهو يشير لها إلى خارج الغرفة:

- أفضل بكثير.. والفضل لعبقرية (كيفور) وإخلاص وتفاني (بيد فورد)، الذي عزف عن كتابة المسرحيات الرديئة، وقرر أن يزور القمر.. ولكن لو تبعتنا إلى الغرفة المجاورة لفهمت أكثر..

وقررت (عبير) أن تتبعهم إلى الغرفة المجاورة لتفهم أكثر..

☆ ☆ ☆

5- لقد أعددنا كل شيء..

(معذرة لتشابه العناوين)

كرة عملاقة من الزجاج تتوسط كرة عملاقة من الصلب تفوق قطرها ببضع سنتيمترات.. تقف شامخة مهيبة في معمل فسيح لا سقف له، وقد أحيط بأوتاد تمنعها من التدحرج على أرض المكان، وقد بنى حولها فرن يسمح بصب المادة على الصلب.. المادة المنصهرة التي لا تدري (عبير) كنهها..

كانت في الكرة الخارجية فتحة تشبه الباب، تقود إلى فتحة مماثلة في الزجاج، وكانت - الكرة - مزودة في كل سطوحها بما يشبه مصاريع النوافذ القابلة لأن تفتح وتغلق بمفاتيح زنبركية من الداخل..

دارت (عبير) حول الكرة مبهورة الأنفاس، بينما (ويلز) يحشو غليونه على طريقة من رأي المشهد مئات المرات فلم يعد ينبهر به..

وراح (كيفور) - ككل عالم مجنون آخر.

يهذي بأشياء ما، ثم صرخ في ثلاثة مساعدين مذعورين، فهرعوا يضعون شيئا كالسلم يقود إلى باب الكرة..

قالت (عبير) وهي تتحسس المعدن الصقيل:

- إن كرتكم شبيهة بكرات الأعماق.. يبدو أن المستر (ويلز) مولع بالشكل الكروي.. لم تكن هذه أول مرة.. لقد قرأت قصتك الشهيرة (في الهاوية)، وكانت الكرة مخصصة للغوص تحت المحيط..

قال (ويلز) في غير اكتراث (وربما ضايقه نوعا هذا الكشف عن أساليبه):

- ربما.. إن (أرسطو) كان يعتبر الكرة أكمل الأشكال الهندسية، لأنه ليس لها طرف يمكن الإمساك به.. ولكن دعينا من هذا، وألقى نظرة من الداخل..

صعدت (عبير) الدرجات المحدودة ونظرت إلى الداخل.. إلى الجدران الزجاجية اللامعة التي صنعت بمهارة غير معقولة.. إلى الحشية المفروشة على الأرض، وجهاز تحويل ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين، وجهاز تقطير المياه، وأنابيب المعجون التي كتب على كل منها اسم محتواها: (لحم معجون) - (حلوى) - (خضر ممهوكة) - (جبن)....



صعدت (عبير) الدرجات المحدودة ونظرت إلى الداخل.. إلى الجدران الزجاجية اللامعة التي صنعت بمهارة غير معقولة..

لا بأس.. لقد كان رواد الفضاء يأكلون من أنابيب مماثلة.. ومن الواضح أن (ويلز) دقيق في هذا الجزء على الأقل..

هبطت الدرجات المعدودة من جديد، ونظرت إلى وجه (كيفور) المتوتر، وكان سؤالها منطقيا جدا وبسيطا:
- كيف سيطير هذا الشيء؟
ابتسم في خبث، ورفع كتفه كما يفعل الأطفال حين تطلب منهم الغناء، ثم قال:
- سيطير بفضل مادة (الكافوريت).
- وما هي مادة (الكافوريت) هذه؟
قال (بدفورد) لينقذ الموقف وليحميها من إجابة فظة:
- إن (الكافوريت) هو سر الموضوع كله.. النقل إنه اللعبة كلها.. فقط نقول إنه عازل يمنع وصول الجاذبية الأرضية إلى الأجسام..
وقال (ويلز) وهو يمسك بلوح معدني مطلي بطلاء بني، كان على الأرض:
- سأريك تجربة بسيطة..
وكأنما بلغة التخاطر اتجه الثلاثة المساعدون إلى خزانة حديدية كانت في ركن المعمل، وتعاونوا على حملها ليضعوها فوق اللوح المعدني كانت عروقهم توشك على الانفجار مما دلها على ثقل هذه الخزانة..
- والآن انظري!
وكأنما يؤدي عرضا سحريا على المسرح، انحني (ويلز) وحمل اللوح بأطراف أنامله ومن فوقه الخزانة الحديدية! وبنفس السهولة والأسلوب الذين يحمل بهما المرء جريدة وجدها على الإفريز..
صاحت (عبير) مصفقة بكفيها:
- هذا سحر!
- ليس سحرا يا آنسة.. بل هو العلم ذاته إن هذا اللوح مطلي بمادة (الكافوريت)، وبالتالي صار عازلا يمنع وصول الجاذبية الأرضية إلى الخزانة.. وبعبارة أدق لم يعد للخزانة وزن تقريبا..
قال (كافور) في فخر مجنون:
- إنها مادتي العبقرية.. بهذه المادة يستطيع المرء أن ينقل بارجة كاملة بيد واحدة لو أراد، لكننا اخترنا لها استعمالا أفضل..
وبدوره قال (ويلز):
- هذه الكرة سيتم تغليفها بالكامل بمادة (الكافوريت).. ما هي النتيجة التي تتوقعينها؟
- تطير طبعا..
تطير نعم.. ولكن للأبد! ستظل ترتفع لأعلى إلى يوم الدين..
وأشار إلى النوافذ التي تحيط بالكرة، وقال:
- هذه النوافذ مغطاة بال. (كافوريت) كذلك لكن يمكن فتح أي منها، وبالتالي تصل الجاذبية إليها حسب الحاجة..
بعد تحليق الكرة إلى الفضاء، يمكن للراكب أن يكشف النافذة المواجهة للقمر مثلا، وبالتالي تعمل جاذبيته وتجذب الكرة إليها.. وعند الانتهاء من استكشاف القمر نغلق النوافذ كلها و..
هوب! تحلق الكرة في الفضاء من جديد، ويبدأ كشف
النوافذ المواجهة للأرض..
لمست (عبير) كفيها ببعضهما كمن يصلى، وهتفت:
- أنت .. أنت عبقري!

داعب (ويلز) شاربه في رضا، وقال:
- أعرف هذا لكني أحب أن أسمعه.. لن تكون هناك انفجارات ولا نيران ولا قبعات تزن أطنانا.. كل شيء بنعومة وهدوء..
سألته وهي تدور حول الكرة في شغف:
- ولماذا لا تطير الآن؟
- لأنها مثبتة إلى الأرض، ولأننا لم نصب (الكافوريت) عليها بعد.. لكننا سنبدأ خلال أيام..
فكرت حينا ووضعت مفكرتها تحت ذقنها ثم قالت:
- هل يضايقك أن أنشر هذا؟
نظر ل (كيفور) و (بدفورد) وتساءل:
ما رأيكما أيها السيدان؟
أما الثاني فلم يتحمس، وقال شيئا عن سرقة الأفكار.. بينما صاح الأول في حماسية:
- لم لا؟ إن مفتاح الكشف هو (الكافوريت).. ولا أحد يستطيع صنعه أبدا سواي.. يمكنك أن تكتبي عن كل شيء رأيته أو سمعته يا آنسة..
قال (ويلز) في شرود:
- لست متحمسا مثلك.. إن حريقا بسيطا يمكن أن يقضي على كل شيء هنا.. أنا لا أثق بالأمريكيين لحظة..
(الكافوريت) لا يحترق.. والأبحاث في ذهني لا على الورق..
غارقا في التفكير؛ ظل (ويلز) صامتا هنيهة، ثم قال كأنه ملك يمنح العفو:
- حسن.. يمكنك نشر ما تريدين..
وضعت مفكرتها في حقيبتها، وصاحت وهي تهز كفه بقبضتيها:
- شكرا يا سيدي.. شكرا!
بدا متحفظا ككل الإنجليز حين يصافحهم أحد، وهم يمقتون المصافحة بشدة.. وهز رأسه كأنما يمنحها البركات..

☆ ☆ ☆

في طريق العودة (إلى الولايات المتحدة؟) راحت (عبير) تتأمل جوانب هذه المغامرة.. بصعوبة كان بوسعها الآن أن تتذكر عالم الواقع والخطاب الذي وجدته لدى (شريف)، ونوباته القلبية.. إلخ.. الآن ذابت تماما في هذا السباق المحموم بين الأنجلو ساكسون والفرانكفونيين على الظفر بالقمر؛ وهو السباق الذي سيتكرر في عالم الواقع بين الأمريكيين والسوفييت..
لم تكن تتذكر التواريخ الصحيحة؛ لكنها فيما بعد عرفت أن قصة (جول فيرن) قد كتبت عام 1864 بينما قصة (هـ. ج. ويلز) قد كتبت عام (1901).. بمعنى أن سبعة وثلاثين عاما تفصل المحاولتين.. بالتأكيد قرأ (هـ. ج. ويلز) قصة (جول فيرن) ومحصها، وبحث عن الأخطاء فيها حتى وجدها وتلافاها لكن - على طريقة (فانتازيا) – صارت المحاولتان متزامنتين، وهي على علاقة مباشرة بهما.. ومن العسير التنبؤ بشيء، لأن (فانتازيا) لا تلتزم بحرفية القصص الأصلية

☆ ☆ ☆

ولم تعرف كذلك أنها تعمل في جريدة اسمها (ماريلاند ويكلي)؛ إلا حين عادت إلى الولايات وكتبت مقالا ساخنا يصف الموقف:

هل يحالف التوفيق المدفع أم الكرة؟

يبدو أن القمر صار ثمرة دانية تنتظر القطاف، فقط بيد من يبرهن على أن فكرته هي الصحيحة والدقيقة علميا. عبر المحيط يزعم الدكتور (كيفور) العالِم الإنجليزي أنه قادر على الوصول إلى القمر باستخدام كرة مغلفة بمادة ضد الجاذبية، ويرى أن نظرية (نادي السلاح) خاطئة تماما لن تفضي إلا إلى كارثة.

وعلى الجانب الآخر من المحيط في (بالتيمور)، يرى السيد (باربيكان) أن التجربة قد أخذت حقها من التمحيص، وأن الوصول إلى القمر عبر ماسورة مدفع أمر ممكن..

من الطريف أن هذا الصراع نموذج آخر للخلاف بين المسيو (جول فيرن) والسيد (هـ. ج. ويلز) اللذين يؤمن كل منهما بصواب فكرته.

لم يكن هذا هو الصراع الأول.. فقد كان (فيرن) هو أول من تنبأ باختراع الغواصة في قصته (٢٠ ألف فرسخ تحت البحر)، لكن (ويلز) يصر على أنها اختراع لا قيمة له، وأن كرة الأعماق التي وصفها في قصته (في الهاوية) هي الحل الأمثل. (فيرن) مصرٌ على أن قصص (آلة الزمن) و (الرجل الخفي) قصص حمقاء تنم عن جهل تام، بينما (ويلز) يرى أن (رحلة إلى مركز الأرض) ليست سوى وسيلة لكسب الرزق، من شخص أراد أن يتخلص من ضائقة مالية عابرة..

(ويمضي المقال على هذا النحو..)

كانت جالسة في مكتبها تقرأ المقال، مستمتعة بذلك الشعور الذي يراود من يرى كلماته مطبوعة للمرة الأولى، حين جاء من يستدعيها إلى مكتب رئيس التحرير..

إن المستر (هيرد فورد) رجل كث السالفين يدخن بإفراط، ولا يكف عن الحركة.. قال لها وهو يلوح بصفحة الجريدة التي بها مقالها:

- إن هذا مثير.. مثير حقا.. وإن أرقام التوزيع لفي ارتفاع مطرد.. لهذا قررت أن أخبرك بفكرتي.. ولكن أريد انطباعاتك أولا.. هل من الممكن أن ينجح أحدهما؟

عقدت يديها خلف ظهرها فوق التنورة المصفحة، وقالت:

- ربما نجح كلاهما.. إنني أعرف الفكرة الممكنة حين أسمع واحدة..

وكان يتمنى سماع هذا..

قال لها وهو يطوي الجريدة، ويتناول ورقة من على المكتب:

- هاك إعلان أنتوي نشره غدا.. إننا سنجعل يوم الانطلاق واحدا لكلا الرجلين.. سيرحل (آردان) و (كيفور) إلى القمر في اليوم ذاته واللحظة ذاتها..

إن هذا يعطي الأمر كله صورة سباق الخيول، والناس تعشق السباق بأنواعه.. هذه هي الطريقة الوحيدة لجعل رجل الشارع يهتم بالعلم.

قالت في كياسة:

- ربما كان هذا عسيرا بعض الشيء.. وربما كانت لدى كل منهما اعتباراته العلمية الخاصة بساعة البدء..

- وهنا يجيء دور المكافأة المالية التي لا تُرفض.. هذا هو (العرض الذي لا يمكنهم رده).. وهو عرض يقدمه كبار المساهمين في جريدتنا..

(عرض لا يمكن رده).. العبارة الشهيرة التي تكررت مرارا في فيلم (الأب الروحي)؛ والتي جعلتها تشعر بأن المافيا جزء لا يتجزأ من عالم الولايات المتحدة.. إنه القرن التاسع عشر، وعسير أن يكون رئيس التحرير قد شاهد الفيلم.

قالت:

- وما هي الترتيبات لسباق كهذا؟

- الأمر هو البساطة ذاتها.. مراقبون في انجلترا، ومراقبون في (بالتيمور)، وحين يجيء الوقت الذي سيتم الاتفاق عليه، تنطلق المركبتان نحو القمر.. ولسوف تراقب المراصد مسار السباق..

فكرت في مدى صعوبة متابعة حدث كهذا يحدث في قارتين، في عصر لم يكن فيه تلفزيون ولا أقمار صناعية.. لكنه ممكن على كل حال..

هزت رأسها أن نعم.. هنا سألها رئيس التحرير:

- أية مركبة ستختارين للسفر؟!

☆ ☆ ☆

6- نحو القمر..

وقفت (عبير) في ردهة نادي السلاح شبه الخالية كانت تنتظر ظهور (باربيكان) أو (آردان) أو حتى (جول فيرن) نفسه، ولم تجرؤ على الدخول لأن السقاة سيضايقونها، لأن قاعة التدخين لا تسمح بدخول النساء والكلاب! نعم هكذا أخبرها الساقي في أدب جم.. إنها تعرف التقاليد السخيفة لتلك الأندية..

(تك.. تتك!)

سمعت الصوت وراءها، فلم تلتفت.. إن القلم الجاف الزنبركي لم يخترع بعد.. وهذا معناه أن القادم هو..

- مرحبا يا (أليس).. تك تتك!

قالت دون أن تنظر إليه:

- إنهم يتوقعون مني ركوب هذين الشيئين.. قال في بروده الثلجي المعتاد:

- لا أحد يستطيع إرغامك على شيء.. لكنك ستقبلين.. أنت تعرفين أنك ستقبلين، لأنه ما من فتاة في عالم الواقع - ولا الخيال - أتيحت لها فرصة كهذه.. إن زيارة الملاهي دون ركوب القطار الأفعواني حماقة.. يمكنك أن تقولي إنك تخافين المرتفعات.. إنك تشعرين بالدور..

لكنك في النهاية تشعرين أن إضاعة فرصة كهذه حماقة.. وإلا فلماذا دخلت الملاهي أصلا؟

قالت في ضيق:

- وهذه هي المشكلة.. لا أحد يرغمني سواي!

وأنا - بحق - ألد أعداء نفسي وأكثرهم قسوة..

سألها وهو يواصل الضغط على قلمه:

- هل قررت التجربة على طريقة (فيرن) أم طريقة (ويلز)؟

- لا أدري.. يبدو لي أن طريقة (ويلز) أكثر أمنا، لكنها تبدو خيالية أكثر من اللازم..

- إن طريقة (فيرن) خطرة، لكنها مهمة جدا، لأن التطابق بينها وبين ما حدث بالفعل في برنامج (أبوللو)، يوشك أن يكون كاملا..

استدارت وسألته:

- أحب أن أرى طريقة (ويلز) عن قرب وأكره أن أفوتها..

ابتسم (المرشد) ابتسامته السمجة، كاشفا عن أسنانه، وقال:

وتلك هي المفاجأة يا عزيزتي.. لسوف تكونين في التجربتين معا!

في الآن ذاته.. لو لم تهبك (فانتازيا) القدرة على التواجد في مكانين في نفس الوقت، فمن سواها يستطيع؟

في حنق صاحت:

- يا سلام! وأيهما ستكون أنا؟

- أنت الاثنان معا يا عزيزتي.

- لا بد من واحدة تحمل وعيي الحالي.. الأخرى ستكون صورة..

- لن يحدث هذا.. ثقي بي.. والآن..

وأشار إلى رجل يخرج من قاعة التدخين – وسط سحب التبغ الكثيف - ويتجه نحوهما.. فأردف:

- ها هو ذا (باربيكان).. ستعرضين عليه أن تكوني مع (آردان) في رحلة القمر هذه..
- لن يقبل
- بل سيقبل حتما.. أحيانا يكون الصحفيون أهم من الأكسجين الذي سيتنفسه (آردان) في الكبسولة.. إن الرجل بحاجة إلى إعلام، وأنت الإعلام ذاته..
وكما يفعل دائما، تلاشي من المكان لا تدري متى ولا أين ذهب..

☆ ☆ ☆

كما توقع (المرشد) لم يمانع (باربيكان) كثيرا في اصطحابها، والغريب أنه كان ينوي ركوب الكبسولة مع الكابتن (نيكولا).. لسببين: الأول كي لا يتهم بالجبن، والثاني على سبيل العناد..
هكذا ستحمل الكبسولة البائسة أربعة رواد فضاء (أم ضحايا؟).. بينهم امرأة تسبق بزمن سحيق محاولة (فالنتينا تشريكوفا) البطولية.
كتبت كذلك ل. (هـ. ج. ويلز) تخبره أنها تنتوي ركوب كرة (الكافوريت) مع (كيفور) و(بدفورد).. أرسل يقول لها إنه لا يمانع بالطبع لم يتصور أحد الرجلين أنها ستكون في الآن ذاته مع (جول فيرن)..
وبسرعة دارت العجلة..
في (بالتيمور) جاء اليوم التاريخي المشهود الذي قام فيه جيش العمال بصب الخليط المصهور الممزوج بمادة R.R
كان المكان قد تحول إلى خلية نحل.. أكواخ العمال في كل مكان، وخط سكة حديدية بالغ النشاط يصل ما بين الميناء والجبل.. حقا إن ل. (جول فيرن) عقلية إنتاجية تنظيمية لا تتوفر لدى (هـ. ج. ويلز)..
وكان المشهد رهيبا بحق حين أصدر المهندسون الإشارة في ذلك اليوم من شهر يوليو، فانفتحت الأفران المائة لتصب ما بها من جحيم سائل في الحفرة، وتصاعد الدخان كريه الرائحة ليجعل الرؤية مستحيلة..
لقد كتب على جبل الحديد أن يصير قطعة من جهنم لمدة شهر ونيف..
وفي الآن ذاته كانت الكبسولة تصنع في (بتسبرج) ومعها القذيفة التي ستحملها، والتي ستوضع في فوهة المدفع الهائل..
أما عبر المحيط؛ فكان (كيفور) ينهي التفاصيل الأخيرة الخاصة بكرته، وبدأ طلاؤها بمادة (الكيفوريت) الممزوجة بالغراء.. حقا كان العمل هنا أبسط وأقل إبهارا.. أقرب إلى عمل الهواة..
لكن العبرة في النهاية هي بالقدم التي ستوضع على القمر: قدم (آردان) أم قدم (كيفور)؟

☆ ☆ ☆

بالطبع لم يكن هناك تلفزيون في هذا الوقت من القرن التاسع عشر، ولم تكن هناك أقمار صناعية.
وفي هذا اليوم بالذات من شهر ديسمبر، شعر الناس بالحسرة لأن هذه الأشياء لم تخترع بعد..
كان وقت طويل ينتظرهم قبل أن يشمر الأخ (جون بيرد) عن ساعديه ويبدأ في اختراع التلفزيون الأول.. ولربما ولدت الفكرة من لحظة كهذه ظلت ندوبها في ذاكرة البشر طويلا..
وتذكرت (عبير) قصة قصيرة ل. (مارك توين)، تحكي عن شاب استطاع معرفة نشوب الحرب في أوربا مبكرا جدا.. قبل أن تصل الأخبار عبر المحيط إلى أمريكا، وهكذا اشترى كل الصوف في

السوق عالما أن سعره سيصل إلى السحاب خلال شهر واحد.. والسر هنا هو أن الشاب وجد جريدة بريطانية حديثة (عمرها أسبوعان لا أكثر) في بطن سمكة قرش اصطادها على الساحل الأمريكي..
نعم.. إن مشكلة بطء انتقال الأخبار في الماضي كانت تجعل الناس مجموعة من العميان الصم.. فلنذكر هذا كلما ضغطنا على زر التلفزيون أو الراديو، أو رفعنا سماعة الهاتف، أو بدأنا الإبحار في خضم (الإنترنت)..
أما عن (عبير) فلنا أن نتصور منظرها اليوم..
كان نهارا باردا، وكان لها كل الحق أن ترتجف وألا تشعر بأناملها.. لكن ليس إلى هذا الحد!
كانت تنتفض كورقة وهي ترمق فوهة المدفع العملاق المصوبة إلى السماء، وقد بدأت عمليات الإخلاء.. فقط المخابيل يمكن أن يتواجدوا في دائرة عدة أميال من موضع الإطلاق.. وكانت هي من المخابيل..
وقالت لنفسها: لا بأس.. لو هلكت في هذه القنبلة، فهناك واحدة أخرى مني في (بريطانيا)..
صدرت لهم الإشارة فراحوا الواحد بعد الآخر يستقلون الكبسولة.. (باربيكان) و (نيكولا) و (آردان) و (عبير) وكلب الأول.. وهذا الأخير جاء رمزا لهواية الأمريكيين المبالغ فيها لاقتناء الكلاب.. دائما تشعر أن كلب الرجل جزء آخر منه.. ربما (هو) آخر..
نظرت (عبير) حولها..
كانت الكبسولة مبطنة من الداخل بالإسفنج..
كبسولة فضاء فاخرة جدا تناسب تفاصيل العصر، بما فيه من أبهة وولع بالحلول غير العملية كانت هناك منضدة مثبتة إلى الأرض حولها مقاعد مثبتة أيضا، وكانت هناك كميات من الأطعمة والمشروبات.. بل كانت هناك كتب ومجموعة من أوراق اللعب..



كبسولة فضاء فاخرة جدا تناسب تفاصيل العصر، بما فيه من أبهة وولع بالحلول غير العملية..

وسمعت (عبير) صوت الباب ينغلق.. لا بد أن هذا الصوت لم يبد رهيبا بهذا الشكل لأحد مرضي التيبس، بينما القبر ينغلق عليه من الخارج وهو حي..

قال (باربيكان) في محاولة لإضفاء جو من المرح:
- ستكون إقامتنا هنا فاخرة على الأقل.
وبدأت الاهتزازات.. كل شيء يهتز ويتأرجح.
أدركوا أن هذا هو (الونش) الذي يحمل الكبسولة ببطء، ليسقطها في ماسورة المدفع فوق القذيفة.
استمرت الاهتزازات، ثم سمعوا صوت صدمة رفيقة تحت أقدامهم، فأدركوا أن الكبسولة بلغت قاع المدفع.



وفي ذهن (عبير) المعتاد على وسائل إعلام القرن العشرين؛ بدأ صوت المذيع الوهمي يصف ما يحدث:
- ببطء يا سادة كما ترون؛ ينزلق المسافرون الشجعان في الكبسولة عبر ماسورة المدفع..
في اللحظة ذاتها يتم إخلاء الموقع.. خلال دقائق سيتحرك القطار حاملا آخر الفنيين إلى (تامبا)، على بعد أميال من دائرة الخطر..
إن العلماء يؤكدون جميعا أن الانفجار سيكون مريعا.. ولنا أن نتصور مشاعر هؤلاء الأبطال الذين يجلسون داخل المدفع حقيقة لا مجازا..
والآن يتجه المستر (ماستون) - واحد من أبرز أعضاء نادي السلاح - إلى الكوخ الذي يبعد ميلا عن الموقع..
نحن هنا بانتظاره في الكوخ يا سادة.. يمكننا أن نرى أن الكوخ مصنوع من الفولاذ ومغطى بالرمال والشكائر الواقية.
كما ترون يوجد هنا صندوق التفجير الذي سيغلق الدائرة الكهربية، التي تشعل المدفع.
- مستر (ماستون).. ما هو شعورك بالضبط في هذه اللحظة؟
فيقول (ماستون) وهو يتحاشي عدسات الكاميرا:
- حقا لا أحب ما أفعله.. إن هناك احتمالا لا بأس به أن أصير مسئولا عن موت أربعة أبرياء..
- وهل ستضغط الزر برغم هذا؟
- لا توجد فرصة أخرى.. إن القمر لا يتخذ هذا الوضع الداني إلا كل ثماني عشرة سنة.. لا بد أن نعرف..
وأخذ شهيقا عميقا، وضغط الزر.. (لم يكن العد التنازلي قد اختُرع)..
بعدها حدثت فوضى على الشاشة، وسقطت الكاميرا جانبا، وبعد قليل انقطع الإرسال



اهتزت مدينة (تامبا) بفعل الانفجار الرهيب، وتهشمت أكثر النوافذ، وفوق مبانيها زحفت سحابة سوداء جعلت عمل المراصد مستحيلا..
أما في الكوخ فقد فَقَدَ (ماستون) وعيه بفعل الصدمة، وسال الدم من أنفه ليغرق الأرض..
لقد انطلق المدفع.
أما عما حدث للكبسولة فأمر لا يعرفه أحد..
سوانا.

☆ ☆ ☆

حين أفاق الجميع من غشيتهم؛ وجدوا الدماء تغمر أكثر الوجوه.. راح (آردان) - أقواهم - يساعدهم على النهوض، ويمسح وجوههم..

كانت (عبير) تشعر بأن ورشة حدادة تعمل هناك داخل رأسها المسكين.. ونظرت لترى أن الكلب متكور على نفسه يئن.. سيموت حتما..

إنها تذكر هذا الجزء من القصة على الأقل..

- أظن هذا يا سيدي..

قال (باربيكان) وهو ينهض على قدميه:

- ماذا جرى؟ هل انطلقنا؟

اتجه إلى إحدى النوافذ وفتحها..

وعبر طبقة الزجاج السميكة استطاع أن يرى الظلام الدامس بالخارج.. كأنه ملصق أسود اللون ثبته أحدهم على الزجاج ..

- هل هو قاع المحيط أم الفضاء؟

وكان الجواب واضحا.. إن النجوم ترصع السماء بالخارج.

☆ ☆ ☆

7- السباق مستمر..

في (انجلترا) كان (هـ. ج. ويلز) يتابع كل هذا
كيف يتابعه من دون أجهزة اتصال؟ كان جالسا في مقعد وثير يقرأ ما كتبه (جول فيرن) واصفا انطلاق القذيفة.. هكذا ببساطة!
جواره نار مشتعلة في المدفأة، وقدماه في خف صوفي كبير، وعلى السجادة يرقد كلبه الألزاسي الفاخر الذي يتسلى - (ويلز) – بمداعبة فرائه.
قال في غيظ وهو لا يفارق السطور:
- النصاب الفرنسي! إنه يزعم أن أبطاله لم يتحولوا إلى كفتة لحظة انطلاق الصاروخ..
هذا تلفيق واضح.. إنه ببساطة لم يشر بحرف إلى صدمة التسارع التي ستحول هؤلاء إلى عجين.
لو كان يعرف فهو مخادع، ولو لم يكن يعرف فهو جاهل..
وقلب صفحة أخرى وأضاف:
- هنا يزعم أن الركاب لم يعرفوا ما إذا كانوا مسافرين أم لا.. هذا تخريف.. المفترض أنهم فقدوا وزنهم من لحظة الدفع الذاتي.. إنه يتصور أن الركاب يقفون ويتكلمون ويضغطون على قاعدة الكبسولة كما كانوا يفعلون وهي ثابتة..
بالعكس.. إن الركاب والكبسولة يتحركون بذات التسارع، وبالتالي لم يعد لهم وزن.. إنهم ببساطة سيحلقون في الهواء..



نترك الآن (ويلز) واعتراضاته العلمية وننتقل إلى (عبير) الأخرى التي ركبت كرة (الكافوريت) مع الفريق الإنجليزي..
لقد انزلق (كيفور) أولا إلى داخل الكرة الزجاجية، وتبعه (بدفورد).. ثم جاء دور (عبير).. التي وقفت مترددة برهة، ثم توكلت على الله وتركت نفسها تنزلق فوق الزجاج الأملس إلى الداخل..
لم تكن الكرة مريحة من الداخل كما كانت كبسولة (جول فيرن).. إنها عملية جدا.. سطح زجاجي تغطي قاعه بعض الحشايا..
وكان الجو دافئا بالداخل حقا..
وخطر لـ (عبير) أن هؤلاء القوم – الأمريكان والإنجليز - تصرفوا مع الرحلة كأنها رحلة صيد في الريف.. ارتدوا الثياب ذاتها والقبعات ذاتها.. وحملوا عصيهم معهم. فكيف ينوون المشي على القمر بهذه الثياب الأنيقة إذن؟
قال (كيفور) بعدما اطمأن إلى أن الجميع قد ركب:
- هيا بنا.. وكانت في الأرضية كوة صغيرة هي المصدر الوحيد الذي يمد الكرة بالجاذبية الأرضية الآن..
مد يده وضغط زرا فانغلقت النافذة وساد الظلام.
سمعت في الظلام صوت قرقعة ثم..
ثم شعرت برأسها يتأرجح فوق كتفيها غريب هذا.. حاولت أن تنطق بكلمة ما لكن الكلمات تعثرت على شفتيها
أشارت إلى لسانها لتقول هذا بالضبط، لكن شيئا غريبا حدث.. لقد طار جسدها وراء إصبعها

ليحلق في الهواء، وراحت تهتز ثم أدركت في هلع أنها مقلوبة الآن بالكامل، وأنها تستكمل دورة كاملة بلا أرض تحت قدميها.. أم هي ثابتة وكل شيء آخر مقلوب؟
نظرت فوجدت الجميع يطير من حولها.. لم تندهش لهذه الدرجة لأنها إلى حد ما كانت تدرك ما عليها أن تتوقعه.. لقد كان (ويلز) دقيقا في هذه النقطة وجعل أبطال قصته يفقدون وزنهم في الوقت المناسب..
قال (كيفور) لها من مكان ما:
- حاولي أن تسترخي فلا تأتي بحركات عصبية.. سوف تعتادين هذا الوضع بعد قليل..
حاولت أن تجعل هذه القاعدة موضع التطبيق وسرها أن الأمر بدأ يغدو سهلا.. هو أقرب إلى السباحة في مياه هادئة، والفارق الوحيد هنا هو أنها لا تجيد السباحة ولم تجربها قط!
بعد قليل صارت قادرة على التحكم في جسدها..
وهو أمر ليس هينا لأن الزفير القوى كان يقذفها إلى الوراء مترين أو ثلاثة، حتى تصطدم بالجدار الزجاجي الأملس..
كان رواد الفضاء في عالم الواقع يخضعون لتدريبات عديدة لمواجهة هذا الموقف بالذات..
أما بالنسبة لها فكان هذا هو الارتجال بعينه..

☆ ☆ ☆

وبدأ الشاب (بدفورد) - الذي كان أبرعهم في السباحة - يحلق نحو إحدى الروافع الزنبركية وفتح النافذة الخارجية عندها فقط استطاعت (عبير) أن ترى الضوء..
وأن ترى قرص القمر
كان مهيبا رائع الجمال، وخطر لها أنها لم
تره قط في هذا الحجم إلا في الأفلام السينمائية أو ليحلق أمامه (إي تي).. الحقيقة هي أن الناس يتباينون في تصورهم لقطر القمر – وهذه حقيقة علمية - فمنهم من يصفه بأنه في حجم الليمونة، ومنهم من يصفه بأنه في حجم البطيخة العملاقة.. والسبب في هذا هو فكرة كل إنسان المسبقة عن بعد القمر عن الأرض..
الآن تراه (عبير) عملاقا لامعا يخزي ضوؤه الأبصار..
- افتح نافذتين أخريين يا (بدفورد)..
هز (بدفورد) رأسه موافقا، وفتح المزيد من النوافذ.. الآن صارت أشعة القمر تقريبا مؤلمة للعينين، بحيث اضطروا جميعا إلى إغلاق عيونهم لكن الجديد في الأمر هو أن جاذبية القمر بدأت تعمل، وسرعان ما وجد كل واحد منهم أنه يقف على قدميه.. بالتحديد فوق النوافذ المفتوحة.. وبالتالي صار القمر عند أقدامهم.
- لا بأس.. إننا نهبط باستمرار الآن..
قالها (كيفور) في رضا، وأخرج بضع أنابيب من المعجون ورصها رصا على أرضية الكرة (التي كانت سقفها منذ ساعات)، ثم دعا (عبير) كي تشاركه الطعام.
- هل تفضلين فخذ الدجاجة أم صدرها؟
نظرت (عبير) إلى المعجون البنى الكريه الذي خرج من الأنبوبة، ليستقر على كفها، وفي اشمئزاز قالت:
- هل هذا معجون الفخذ أم الصدر؟
- فخذ..

- إذن سآخذ الأنبوبة الأخرى.. لابد أنها الأفضل بالتأكيد!
وأخرج (بدفورد) ما يشبه زجاجة المياه الغازية، لكنها مطاطية يخرج من فوهتها أنبوب مثنى.. وناولها إياها:
- بعض الشاى سينعشك بالتأكيد..
الحقيقة أن ترتيب الطعام هذا لم يعد ذا ضرورة بالغة؛ لأن جاذبية القمر أعادت الأمور إلى نصابها الآن.. لكنه يدل على دقة لا بأس بها من (ويلز)..
وملأت (عبير) فمها بالمعجون والشاي البارد، وراحت تزدرد وهي تتساءل عما حققه الآخرون من نجاح..



وفي القذيفة المنطلقة نحو القمر، تساءلت (عبير):
- لماذا لم نسمع صوت انطلاق المدفع؟
قال (نيكولا) مبهور الأنفاس، الذي بدأ يستمتع بالتجربة:
- لأننا كنا أسرع من الصوت، ولهذا سبقنا صوت الدوي..
جميل! فكرت (عبير).. إن التفسيرات دقيقة، لكن (جول فيرن) لم يتنبه بعد لموضوع انعدام الوزن.. مازالت أقدام أبطاله ثابتة كالطود على أرض الكبسولة..
لقد استغرقت الرحلة أربعة أيام.. أربعة أيام قضوها في القراءة والكلام ولعب الورق والإطلال من النافذة..
وكان كلب (باربيكان) البائس قد مات بعد عذاب طويل.. هذا هو شأن التاريخ على كل حال، فهو لا يحتفظ إلا بأسماء الرابحين، بينما ينسي اسم هذا البائس بسهولة.. لنتفق فيما بيننا إذن على أن أول كلب يجوب الفضاء كان كلب (باربيكان) وليست الكلبة السوفيتية (لايكا)
قال (آردان) في لهجة عملية:
- آسف لهذا، لكن علينا الخلاص من جثة هذا الكلب..
هز (باربيكان) رأسه في أسي، وبدأ الرجل عملية الخلاص من المتوفي..
استعملوا تقنية نوافذ الغواصة الشهيرة، ففتحوا النافذة الداخلية وألقوا بالجثة، ثم أغلقوها، وفتحوا النافذة الخارجية ليحلق الكلب في الفضاء ويتحول إلى قمر صناعي أبدي..



وفتحوا النافذة الخارجية ليحلق الكلب في الفضاء ويتحول
إلى قمر صناعي أبدي..

☆ ☆ ☆

هنا فقط فقد (هـ. ج. ويلز) أعصابه، حيث جلس في داره يطالع الرواية جوار المدفأة هنا فقط نهض وطوح بالكتاب إلى النيران تلتهم أوراقه، ثم صاح مخاطبا كلبه الألزاسى النائم:
- هل رأيت كل هذا التهريج؟ إنهم يمزحون!
المفترض أن الكلب يتحرك بنفس سرعة الكبسولة لا أكثر ولا أقل.. ومعنى هذا أن جثة الكلب ستظل تطير جوار القذيفة طيلة مسارها.. فإذا كان (فيرن) قد أدرك هذه الحقيقة، فلماذا جعل الكلب يسقط أصلا عند موته؟ لا شيء يسقط في هذه الكبسولة.. يجب أن يكون كل شيء فيها في حالة انعدام وزن تامة..
أصدر الكلب غطيطا من أنفه، فقال (ويلز):
- أعرف أن موت الكلب مؤثر، لكن الحقيقة العلمية هي الحقيقة العلمية..

☆ ☆ ☆

ثم جاءت اللحظة أخيرا..
اللحظة التي تساوت فيها جاذبية الأرض مع جاذبية القمر، ووجد (جول فيرن) أن الوقت قد حان لترتفع الأطباق والملاعق من فوق المائدة لتحلق في الهواء..
نظرت (عبير) إلى المشهد في انبهار والتقطت أحد الأكواب برفق من الهواء، وتلمسته..
قال (باربيكان):
- هذه مرحلة انعدام الوزن التي وصفها (نيوتن).. لكننا واصلون إلى القمر عما قريب، ولسوف نعرف الجاذبية الأرضية من جديد.. بل أعني الجانبية القمرية.. إن جاذبية القمر هي سدس جاذبية الأرض، لأن كتلة القمر سدس كتلة الأرض.. ومعنى هذا أن من يزن على الأرض ستين كيلوجراما سيجد وزنه عشرة كيلوجرامات على القمر..
وتوقف عن الكلام لأن ضوءا ساطعا راح يتألق بالخارج....
ما كان هذا القمر.. لكنه كان جسما تتوهج عليه انعكاسات الشمس، ويدنو من النافذة بسرعة جهنمية..

☆ ☆ ☆

8- أول رجال على القمر..

في كرة الفضاء الإنجليزية بدا واضحا الآن أن نجاح الإنجليز مؤكد.. وقد استطاع أحد المراصد الأرضية العملاقة في (بورنيو) أن يرى منظر الكرة التي تهبط ببطء في مجال جاذبية القمر.. طبعا مازال أمام الخبر شهران إلى أن يعرفه الناس.. إن الأخبار – في هذا الزمن - لا تنتقل أسرع من السفن وجلس الثلاثة على الأرض فوق النافذة الزجاجية، يرمقون جار الأرض العجوز الذي امتلأ وجهه بالتجاعيد والثقوب.. كأنه عانى حالة جدري متقدمة يوما ما..
وقالت (عبير) وهي ترتجف بردا وترمق الكوكب المشوه:
- لقد كان الشعراء حمقى!
قال (كيفور) وهو يضع البطانية على كتفيها:
- لابد من الابتعاد عن الشيء ليبدو جميلا.. هذه قاعدة تنطبق على اللوحات الفنية والذكريات والقمر ذاته..
نهض (آردان) وجذب مقبضا، فانفتحت إحدى نوافذ السقف:
- وهذه هي الأرض!
نظرت (عبير) لأعلى وارتجفت..
هذه هي الأرض حيث ماضيها وابنتها وزوجها وأسرتها وذكرياتها وإحباطاتها و.... القرص العملاق الذي يتوهج بالضوء، والشمس تقع منه جهة الغرب في هذه اللحظة بالذات.. لذا راحت مياه المحيط تتلألأ بلون قرمزي مهيب.. واستطاعت بشيء من الجهد أن تميز الأمريكتين وإفريقيا، لكنها تلك الصور المشوشة المضطربة التي نراها في صور القمر الصناعي، والتي تختلف تماما عن خرائط كتاب الجغرافيا المحددة الدقيقة..
- أعد غلق النافذة يا (بدفورد)..
قالها (كيفور) وقد أحس بأن المسيرة أبطأت نوعا..
ومن جديد لم يعد من ضياء سوي القادم من قاع الكرة حيث القمر..
وشعرت (عبير) بتلك الخفة التي ألفتها من زمن.. إنها تتصرف وتحمل أعضاءها ووزنها بالضبط كما يفعل طفل وزنه عشرة كيلوجرامات.. كل شيء سهل وسلس، لكن الحذر ضروري كي تتفادى الحركات الزائدة.. أنت تنهض هنا على قدميك كما اعتدت على الأرض، فقط لتجد أنك تثب إلى السقف تقريبا كل شيء هنا يمكن إنجازه بجزء - سدس على وجه الدقة - من الجهد الذي تحتاج إليه على الأرض..
بعد ساعات صار القمر قريبا جدا..
مئات الفوهات البركانية الفاغرة في دهشة تنظر للكبسولة، وكأنها تتساءل من هذا؟ من الذي جرؤ؟
نهض (كيفور) سريعا، وقد أدرك أن أخطر الأجزاء قد دنا.. صحيح أن وزنهم صار أخف، لكن معنى هذا أنهم يهبطون على القمر كأن وزنهم مائتا كيلوجرام ولا يتجاوز الطن.. إن سقوط مائتي كيلوجرام لن يمر بسهولة..
راح يركض كالملسوع يمينا ويسارا، وهو يردد:
- رباه! رباه! - وراح يفتح نافذة تلو الأخرى..
على حين راح (بدفورد) يتلو بعض الأرقام من ورقة، وهو يمسك بساعة إيقاف.. أدركت (عبير)

أن العملية تتم حسب توقيت دقيق..
- الآن! نافذة 4.. الآن.. أغلق 6.. افتح ١٧..
- رباه! رباه!
كان هذا الأسلوب نوعا من الفرملة لإبطاء هبوط المركبة السريع، والفرملة هنا هي جاذبية الشمس الكاسحة..
وتسللت أشعة الشمس إلى الكرة.. كانت حارقة جدا يصعب تحاشيها حتى لو أغمضت عينيك، وضغطت بكفيك على الجفنين.. شمس لا فرار منها إلا بالعمي..
أبطأت الكرة، فعاد (بدفورد) يصدر أوامره:
- أغلق 17.. افتح 6.. افتح 12..
أخيرا أدركت أنهم قد سقطوا فوق جبال القمر..
أدركت أنهم يتدحرجون..
أدركت أنها ترى الثلوج تتناثر من خلال زجاج النافذة..

☆ ☆ ☆

كان الظلام خارج النوافذ دامسا..
لا يمكنك أن تبصر أي شيء..
البرد قارس يجمد الدماء في العروق، والنخاع في العظام.
قام (بدفورد) بتشغيل جهاز التدفئة، ثم راح الموجودون يدورون بحثا عن أكثر الأوضاع راحة في هذا المكان الضيق.. يبدو أن الفئران تعاني كثيرا في أرجوحة الفئران، التي تسجن فيها في شيء مماثل.
سألت (كيفور) وهي تنتفض:
- ما كل هذا البرد؟
- إن الشمس لم تشرق بعد.. ومن دونها يستحيل أن نرى ما حولنا.. الظلام والضباب وبخار الماء على النافذة.. يجب أن ننتظر..
صمتت، ولم تتوقع الكثير.. هي على كل حال تعرف أكثر منهما، وقد رأت الكثير من صور القمر هذه في أفلام وكالة (ناسا) القديمة..
المشهد الكئيب المظلم، يقف وسطه رائد فضاء جعلته بذلته يشبه علبة (السلامون)، ويتحرك حركة متقطعة، ويقول كلاما متقطعا لا يمكن فهمه بسبب الشوشرة الإستاتيكية التي تفسد الصوت والصورة معا..
هي لا تنتظر الكثير من القمر.. ويبدو أن القمر لا ينتظر منها الكثير..

☆ ☆ ☆

متكورة في ركن الكرة راحت ترمق الرجلين.. العالم المجنون فتح فاه وراح يغط بلا انقطاع بينما الفتى - كاتب المسرحيات السابق - (بدفورد) يتسلى بامتصاص شيء ما من زجاجة..
اندهشت (عبير) لأنه لم يقع في حبها بعد.. هكذا يفعلون دائما.. وما كان المرء ليجد فرصة أكثر رومانسية من رحلة في كرة إلى القمر.. القمر ذاته.. صديق العشاق والمذءوبين معا..
لكنها بعد ثوان فهمت السبب، وكان قد غاب عنها.. إن (ويلز) و (فيرن) على السواء قد انهمكا في المغامرة والتحليل العلمي إلى الأذنين.. لم يكن لديهما وقت ولا مزاج رائق يسمح بوضع

عنصر أنثوي مقحم.. لا مجال لكل ترهات الرومانسية المملة هذه..
وتثابت وقالت لنفسها:
- على الأقل في عالم القصة؛ يمكن القول إن الإنجليز هم أول من وصل إلى القمر.. لم يعد هناك شك في هذا..

☆ ☆ ☆

أشرقت الشمس.. ومعها التمعت صخور القمر، لكن السماء ظلت حالكة السواد كما هي.. (عبير) تعرف هذه الظاهرة لكنها نسيت تفسيرها، وتفسيرها بالطبع يعلمه القارئ لهذا لن نذكره!
ماذا؟ لا تعرفه؟ غريب هذا! بالطبع لأن القمر ليس له غلاف هوائي مليء بالجزيئات، التي تعكس أشعة الشمس وتعطيها لونا أزرق يعرفه كل شاعر..
وهنا بدأ أجمل مشهد في القصة..
كما قلنا كانت كرة (كيفور) قد سقطت فوق الثلوج.. الآن راحت أشعة الشمس تهبط على الثلوج، فتتحول إلى بخار على الفور! هكذا!
أشبه بالتسامي الذي تعرفه كتب الكيمياء (التحول من الصلب إلى الغازي دون مرور بالسائل)..
قال (كيفور) وقد فهم:
- ما كان هذا جليدا عاديا وإلا لتحول إلى ماء.. هذا - ببساطة - هواء متجمد!
وخارج الكرة راح الجليد يغلي في جنون والأبخرة تتصاعد بكثافة.. بينما أشعة الشمس الحارقة تمنع الجميع من فتح عيونهم..
وهكذا - ببساطة - تحول المكان الذي وقفت علية الكرة إلى بخار، وراحت تتدحرج بلا كلل لأسفل.. وبداخلها ركابها التعساء..
والآن يرون من النوافذ صخور القمر العارية.. الصخور التي كانت مغمورة بالجليد أمس ثم لم تعد.. وكلما ذابت الثلوج كلما هبطوا لأسفل أكثر.
قال (كيفور) بعدما استقر الجميع على أقدامهم:
- الآن حان الوقت لنخرج ونرى ما هنالك..

☆ ☆ ☆

9- لقاء..

فتح (كيفور) الباب في حذر، وتشمم الهواء الساكن:
- يبدو أن هناك نسبة لا بأس بها من الأكسجين..
وأشعل عودا من الثقاب، ومده إلى الخارج، فرأت (عبير) اللهب يتوهج ويهتز لكنه لم ينطفئ..
كان الدليل دامغا..
غادر الثلاثة الكرة.. وكما اتفقوا تماما كان (كيفور) هو أول من يضع حذاءه الغليظ على التربة الناعمة..
خطا بتردد، ثم بدأت خطواته تزداد ثقة - كما يفعل رضيع عمره عام ونيف – واستدار ل. (عبير) و (بدفورد) وصاح:
- هلما! إنها مغامرة مأمونة!



- النصاب!
كذا صاح (جول فيرن) وهو جالس في مكتبه، يطالع القصة على ضوء مصباح الكيروسين الأنيق الذي كانوا يستعملونه كأباجورة..



«– النصاب!».. كذا صاح (جول فيرن) وهو جالس في مكتبه، يطالع القصة على ضوء مصباح الكيروسين..

غمغم وهو يفرك لحيته الرمادية كالمجنون:

- (ويلز) النصاب كتب أن القمر له غلاف هوائي، وبالتالي لا يحتاج أبطاله إلى أقنعة أكسجين..

والأدهى أنه جعل الصوت ينتقل عبر هذا الغلاف الجوي المزعوم..
كنت أتوقع الأسوأ.. لكن ليس إلى هذا الحد!
بالطبع لم يعرف أبطال (ويلز) هذه الملحوظة.. لقد جعلهم (ويلز) يتنفسون ويمشون على سطح القمر، ففعلوا.. لا حيلة لهم في هذا..
وأمام عينيها المبهورتين، رأت (عبير) (كيفور) يثنى ساقيه ثم يثب في الهواء.. ويا لها من وثبة! لا أقل من عشرة أمتار طارها في الهواء كما يفعل الإخوة الصينيون في أفلام (الكونج - فو) إياها.. ثم هبط بعيدا ليتناثر الغبار..
وأشار لهما كي يلحقا به.
أمسك (بدفورد) بكفها، ووثب إلى الهواء وتبعته هي.. ويا لها من وثبة بدورها! إنهما يطيران.. يحلقان.. لن يتوقفا أبدا.. ثم ها هما ذان يهبطان.. ربما على بعد عشرة أمتار أخرى..
استبدت بهما النشوة فراحا يحلقان كأحمقين عبر صخور القمر وجباله، وهما لا يكفان عن الضحك.. إننا خفيفان قويان.. إننا رشيقان كأحلام البلابل.. إننا..
هنا دوت صيحة (كيفور) الحازمة، ينهاهما عن مزيد من العبث..
وثبا إلى الهضبة الرمادية التي يقف عليها، وقال (بدفورد) ضاحكا والنشوة مازالت تعبث برأسه:
- لقد فعلناها! فعلناها! إن القمر لنا!
قال (كيفور) في ثقة وهو يتحسس لحيته:
- ما كنت أشك في هذا.. والآن هل معك علم (يونيون جاك)؟
- نعم يا سيدي..
وأخرجه من حقيبته وناوله للعالم المتحمس، الذي سرعان ما غرسه ليكون بهذا علامة استعمارية واضحة.. إن القمر بما عليه قد صار من أملاك صاحبة الجلالة.. قال (كيفور) وهو يرمق العلم بانبهار:
- يجب أن نشعل نارا عظيمة.. يجب أن ترانا المراصد على الأرض الآن ليكون هذا ثابتا في كتب التاريخ..
- هذا جميل.. ولكن كيف نشعل نارا؟
لا توجد حياة نباتية حولنا..
فكر (كيفور) قليلا، ثم قال:
- سنعكس أشعة الشمس بمرآة عملاقة.. إن لدينا ما يلزمنا من شرائح الفضة في الكرة..
قالت (عبير) باسمة:
- هذه فكرة جميلة.. أنا أكره أن أكون كغراب البين يا سيدي؛ لكني أتمنى لو أخبرتني أين الكرة؟
نظر حوله لحظة.. حقا هذا سؤال جيد وهو يحب الأسئلة الجيدة.
- تقولين أين الكرة؟
- نعم يا سيدي..
- هل تمزحين يا آنسة (ستانويك)؟
- لا يا سيدي.. حاشا لله أن أفعل..
- ظننتك تذكرين مكانها.. ولكن.. لحظة..
ثم فكر بعض الوقت:
لحظة.. أعتقد أن الشمس كانت أمامنا طيلة الوقت و..
بل خلفنا.. لقد كنا نرى ظلالنا على الأرض..

قال (بدفورد) وقد بدأ يشعر بالرعب:
- أحسبنا مررنا بهذه الهضبة.. كانت على يميننا.. - بل على يسارنا.. وبدءوا الدوران حول الهضبة وهم يدعون الله أن يكون أحدهم مصيبا.. كانت هناك بعض آثار أقدام، لكن لا شيء يدل على الاتجاه الأصلي.. ببساطة لأن ذوبان الجليد أحال الأرض التي وثبوا عليها من دقائق إلى برك موحلة.. للأسف كانوا جميعا مخطئين..
قالت (عبير) وهي تعض شفتها السفلى:
- إحم.. أعتقد أن الموقف واضح.. نحن لن نجد الكرة..
- تبا!
قالها (كيفور) في غيظ، وأردف:
- نحن لم نمض ثلاثة أيام في البحث حتى نقول هذا.
- المشكلة هي أن الشمس لا تطاق، والجوع يمزق أحشائي الآن..
نظر (كيفور) إلى القمر الممتد بلا نهاية أمامه.. صحراء جرداء رمادية كلها صخور وفجوات خلفتها ملايين الشهب السابقة.. شعر للمرة الأولى أنه يكره كل هذا.. إن الشعراء حمقى كما قالت (عبير) من دقائق..
قال وهو يثب وثبة عملاقة إلى الأمام:
- تعالوا معي.. سنحاول أن نمسح دائرة قطرها ثلاثمائة متر.. لن يكون هذا عسيرا بقدرتنا الخارقة على الوثب..
ومن خلفه وثب الأرنبان العملاقان: (عبير) و (بدفورد)..

☆ ☆ ☆

بعد ثوان صاحت (عبير) في مرح؛ بينما هي ما زالت في الهواء:
- أرى العلم يا سيدي! علمنا.. أقصد علمكم..
صاح (كيفور) وهو يحاول أن يتوازن فوق جرف صخري شامخ:
- عظيم! معنى هذا أننا دنونا جدا.. أين هو؟
أشارت إلى الأفق نحو الغرب.. غرب القمر لو كان هناك واحد.. وكانت الراية متدلية في غباء بسبب عدم وجود رياح..
واصلت خطواتها الأرنبية العملاقة إلى هذا المكان، وتمنت لو تجد (المرشد) في أية لحظة كي يخبرها أن المغامرة انتهت أخيرا..
حقا وجدت الهضبة مختلفة نوعا حين دنت منها..
وحين رفعت عينيها لأعلى، وجدت أن الهضبة لم تكن هي على الإطلاق...
صاحت تنادي (كيفور):
- سيدي.. هذا ليس علم صاحبة الجلالة!
- ماذا؟ علم من إذن بحق السماء؟
- إن عليه ألوانا ثلاثة.. يبدو أن هذا علم فرنسا!

☆ ☆ ☆

وخلف الهضبة وجدوها..
الكبسولة التى صممها الأمريكان وابتكرها كاتب فرنسي.. الكبسولة التي جاءت إلى القمر عبر

فوهة مدفع، والتي لو لم يروها الآن لما صدقوا لحظة أن ركابها أحياء يرزقون.. كل الحسابات الرياضية تؤكد أنهم قد تحولوا إلى كفتة منذ زمن..
تبادل الرجلان والفتاة النظرات، ثم مشوا بتؤدة إلى حيث كانت الكبسولة تقف.. تقف على محاور ثلاثة في ذلك الوضع المألوف..
وخطر ل. (عبير) أن (جول فيرن) كان معقولا في قصته.. إن أكثر هذه المشاهد تكررت بحذافيرها عام 1969، بينما ما كتبه (هـ. ج ويلز) أقرب إلى هلاوس الأطفال.. كرة تثب وتفر من الجاذبية الأرضية.. ما أسخف هذا!
وها هو ذا الدليل الحي ماثل أمامهم: لقد وصل الأمريكان.. ربما قبلهم أيضا..
من مكان ما بين الصخور ظهر (باربيكان) ومن خلفه جاء (آردان).. ثم هبط (نيكولا) من الكبسولة.. وتصلبوا لدى مرآهم مذهولين.
الحق أنهم كانوا يرتدون ما يشبه الصناديق الزجاجية على رءوسهم، وعلى ظهر كل منهم كانت مضخة يبدو أنها تصنع - أو تضخ – الأكسجين..
لم تكن معهم (عبير) الأخرى.. هذا منطقي الآن، فقد اتحد الفريقان ولم تعد من حاجة ل. (عبير) ثانية.. إن واحدة فقط هي أكثر من اللازم بالنسبة لهذا العالم.
صاح (باربيكان) في ذهول من وراء قناعه:
- إذن نجحتم ولم تهلكوا؟!
هنا شعرت (عبير) بغصة في حلقها.. كلهم يتكلم على القمر بلا مشاكل..
يبدو أن هذه النقطة لم تضايق أعظم كاتبي الخيال العلمي على الإطلاق..
وصاح (آردان) بلهجته شبه الفرنسية:
- وكيف تمشون من دون أكسجين؟
قال (نيكولا) في سخرية واضحة لم يفهمها (كيفور) و (بدفورد):
- سهل جدا.. إنهم إنجليز ولا حاجة بهم لأشياء كهذه!
قال (كيفور) وهو يتواثب حنقا:
- كاتبكم يا سادة يلفق الأحداث تلفيقا.. لقد كان المفترض أن تتحولوا إلى كفتة لحظة انطلاق المدفع..
- وكاتبكم جعل هواء القمر مليئا بالأكسجين..
- ما كان لكم أن تكونوا هنا!
- وما كان لكم أن تغادروا الأرض أصلا..
في النهاية بدأت الأمور تهدأ والنفوس تصفو.. تصافح (باربيكان) و (كيفور) وغمز (آردان) - بما أنه فرنسي - ل. (عبير)، وصارحها كم هي حسناء.. على حين قال (نيكولا) ل. (بدفورد) وهو يتأبط ذراعه:
- لننس الخلافات.. ما يهمنا هو أن خطوة كبرى قد تحققت اليوم لبني الإنسان.. ليس اليوم مجال (الشوفينية) وضيق الأفق[6]..
قال (باربيكان) ل. (كيفور) في حماسة:
- دعنا الآن نر كرتكم هذه.. إن الفضول يغمرني كي أراها..
- ضاعت!
بلل (باربيكان) شفته السفلى بلسانه، وقال:
- رباه! أعتقد يا سادة أنكم في مأزق مخيف.. إن كبسولتنا لن تتحمل أية زيادة في العدد..

- لا تقل إنكم تريدون تركنا هنا..
- سنترككم بالفعل.. لكننا سنرسل إليكم قذيفة أخرى على الفور..
وفي الوقت ذاته كان (نيكولا) يحكي ل (بدفورد) تفاصيل رحلتهم، وكيف أن شهابا عملاقا كاد يصدمهم؛ لكن جاذبية الشهاب نجحت في أن تغير اتجاه الكبسولة لتدخل مدار القمر..
- فيما بعد أعدنا الحسابات عدة مرات.. كان من المستحيل أن نصل إلى القمر وكنا ببساطة سنمر بجواره لنحلق في الفضاء إلى الأبد.. لكن الشهاب قد تدخل وأنقذنا من حيث لم نتوقع..
- إن حظكم يفوق حظنا



وصعد الرجال إلى الكبسولة ليروها من الداخل، على حين وقفت (عبير) مع (كيفور) في الخارج يرمقون الصحراء القمرية الكئيبة.. لا شيء ينير السماء إلا الشمس المحاطة بالسواد، وإلا النجوم التي ترصع السماء، وإلا شهابا يمر من حين لآخر.
قالت وهي ترمق السماء:
- لن أعتاد أبدا هذا المشهد.. ضوء الشمس يغمر الأرض ويغمرنا، بينما السماء ذاتها سوداء كأنه الليل المدلهم..
لم يبد (كيفور) مهتما بالشاعرية.. فقط قال لها:
- لم تعد هناك خيارات كثيرة أمامنا.. أعتقد أن علينا أن نعود إلى الأرض.. هذا واجب قومي وليس مجرد نجاة أنانية بحياتنا..
ونظر لأعلى ليتأكد أن الرجال داخل الكبسولة وقال:
- سيقال إن الإنجليز صعدوا إلى القمر وفشلوا في العودة، وإن الفرنسيين أكلة الضفادع، والأمريكيين رعاة البقر، قد أنقذونا.. أو حاولوا ذلك لكنهم فشلوا وهلكنا نحن!
نظرت في عينيه العجوزين وتساءلت:
- فيم تفكر بالضبط يا سيدي؟
- إن كلامي واضح تماما.. علينا أن نستولي على هذه الكبسولة منهم!



10- الويل للآخرين..

قالت له وهي تتراجع للوراء:
- بروفسور.. أنت عالم ولست قاطع طريق ليس بوسعنا سلب هؤلاء ثمرة اكتشافهم.. ثم لا يسعنا سلبهم حياتهم بعد ذلك..
قال في إصرار وهو يعيد النظر لأعلى حيث باب الكبسولة:
- لسنا أندادا كي تتحدثي عنهم بهذه اللغة.. إن الفرنسيين خصومنا الطبيعون، والوطنية تحتم على أن أفعل ذلك.. إن انجلترا أهم من أي مبدأ بشرى أرضي.. انجلترا هي المبدأ ذاته..
ثم إنني أراك تتكلمين بلهجة من يملك الاختيار.. أنت بلا اختيار سوى الموت هنا جوعا وبردا..
الموقف من المواقف النادرة التي تتلخص في: نحن أو هم..
قالت بعناد تام:
- إن احترامك لوطنك أمر مستحب ولا بأس به.. لكن من العدل أن تترك لهم الكبسولة التي صنعوها بكثير من الجهد والعرق.. إنهم يستحقون ثمار ما بذوره من قبل..
نظر لها نظرة سوداء، فأدركت أنه مجنون تماما الآن.. لقد استحوذت عليه الفكرة، فلو جادلته أكثر لقتلها ودفنها في إحدى حفر القمر..
قال لها مبتعدا:
- يمكنك البقاء معهم لو أردت.. أما الآن فأنا أرجو أن تنسى ما قلته..
- سأحاول..
وخطر لها أن قصة الخيال العلمي تنحرف إلى منعطف دموي لا تحبه كثيرا.. «الناس لطيفو المعشر إلى أن يتهدد سلامتهم شيء.. عندئذ قد يتحولون إلى سفاحين..» .. من قائل هذه العبارة؟ لا تذكر.. ولا أذكر أنا أيضا، لكنه شخص ذكي.. وها هو ذا (كيفور) اللطيف يعيد تأكيد هذا المبدأ..
وفي هذه اللحظة برز (نيكولا) من باب الكبسولة، وراح ينزل درجات السلم المعدني المثبت إليها.. لم يكن قد رأى شيئا من هذا كله..
كان قوي البنيان برغم قصر قامته، وتساءلت كيف يحلم (كيفور) العجوز و(بدفورد) الناعم بهزيمة هؤلاء المحاربين القدامى؟
دعك من (آردان) المغامر الفرنسي الذي يملك عضلات الغوريلا وشراسة الفهود..
إن (كيفور) حتما غير جاد.. أو هو يهذي..
بعد ثوان نزل (بدفورد) متحمسا مبهور الأنفاس، وقال:
- كان يجب أن ترى هذه الكبسولة من الداخل.. إنها فاخرة بحق.. كتب ومنضدة للعب الورق، وطعام حقيقي وليس بمعجون..
سألته في عدم فهم:
- وماذا عن انعدام الوزن؟
- لا أدري.. إنهم سعداء الحظ لأن مؤلفهم (جول فيرن) لم يهتم بهذا الموضوع، أما مؤلفنا الإنجليزي فجعل رحلتنا شاقة بحق..
ثم رأت (باربيكان) و (آردان) ينزلان..
سألت (باربيكان) الذي كان قد نزع قناع الأكسجين عديم النفع:

- متى تنوون الرحيل؟
- بعد ساعتين من الآن..
- وهل علم المراقبون في الأرض أنكم هنا؟
- إن مرصد (بورنيو) يراقبنا من لحظة الانطلاق.. أعتقد أنه رآنا لحظة الهبوط على القمر، لكن ما من مرصد يستطيع أن يرانا الآن وعلى كل حال قد أطلقنا بعض الألعاب النارية ليروها لو كان حظنا طيبا..
قالت بلهجة عارضة لا توحي بشي ء:
- أقترح أن تبقوا في الكبسولة حتى لحظة الانطلاق..
- ولماذا؟ ليس هنا لصوص على ما أظن..
- لا أريدكم أن تضلوا الطريق إليها كما حدث معنا..
وبالطبع لم ترد الإفصاح أكثر..



كان الشيء يمشي بتؤدة واضحة عبر الصحراء القمرية الرمادية.. يمكنك بشيء من الخيال أن تعتبره بشريا آخر، لكن حجم رأسه يقول لك إنك مخطئ بالتأكيد.. وكان مغمورا بالظل ملفوفا به مما جعل تبين الأمر عسيرا..
رأته (عبير) على بعد مائة متر (ترى هل رؤية المسافات على الأرض تماثل تلك على القمر؟ تذكر أنه لا يوجد غلاف جوي هنا)..
وتصلبت رعبا، ومدت يدها في صمت لتمسك بمعصم (آردان) الذي كان أقرب الموجودين لها، وذلك لأنه فرنسي:
- ما.. ما هذا؟!
التفت نحوها، ثم إلى الاتجاه الذي أشارت إليه.. بالطبع لا يوجد شيء.. لقد اختفى الشبح الذي كان يمشي.. هكذا تفعل الأشباح جميعا..

- ماذا يقلقك؟
لم ترد أن يتهمها أحد بالهيستيريا، فهزت رأسها تنفي أن يكون هناك ما يقلق، وقالت شيئا ما عن تأثير الجوع على العقل.. ثم راحت ترقب ما يقوم به الرجال..
كانوا منهمكين في ملء بضعة صناديق بمحتويات شديدة التنوع.. أتربة وصخور.. صخور وأتربة.. أتربة وصخور.. وكان وزنها خفيفا للغاية طبعا..
أما (باربيكان) فكان واقفا تحت الكبسولة يفحص بعناية صواريخ الإقلاع.. تلك الصواريخ التي لم تكن في الخطة الأصلية، وتمت إضافتها هناك بناء على اقتراحات (آردان).. لكي يركب أحدهم هذه الكبسولة لا بد من أن تكون قادرة على العودة إلى الأرض.. والصواريخ التي تم تزويدها بها لم تكن فائقة القوة، لكنها قادرة على الخروج من مدار القمر والتحرر من جاذبيته.. بعدها تلعب قوي القصور الذاتي وجاذبية الأرض الدور الباقي..
دنت منه حيث وقف يقرع بطرف عصاه على أحد الصواريخ، وسألته:
- كيف تثق يا سيدي بأنك لن تهوي بالكبسولة، لتتهشم ورفاقك إلى ألف قطعة؟
- هذا احتمال قوي يا آنسة.. لكن ثلاثة أرباع مساحة الأرض من الماء.. أي أن احتمال أن نسقط في المحيط هو ثلاثة إلى واحد.. هذا احتمال يروق لي وإنني لأقبل المخاطرة..
ثم صاح مناديا (نيكولا) و (آردان):

- هل انتهيتما من كل شيء؟ يمكننا أن نرحل الآن..
ولها قال ناصحا:
- يمكنك المجيء معنا.. لقد كنت.. معنا من اللحظة الأولى..
- وأترك (كيفور) و (بدفورد) بعدما جئت معهما؟ لا.. شكرا..
وأحست برغم كل شيء بالحسد لهم.. سينجحون في العودة بالتأكيد.. إن القصة الأصلية تقول هذا، ولسوف تنتشلهم بارجة حربية بالضبط كما سيحدث مع رواد الفضاء الحقيقيين عام 969
إن أبطال (جول فيرن) نجحوا في كل شيء ما عدا الوصول إلى القمر.. هذا ما تقوله القصة..
إنهم محظوظون بالفعل.. بعد ساعات سيرون غلافنا الجوي الحبيب، ويرون السماء الزرقاء الصافية.. سيعودون لعالم يمكنك فيه أن تثب فرحا في الهواء، دون أن تجد نفسك بين النجوم!
وفي هذه اللحظة ظهر (كيفور)، وكان قد اختفى بعض الوقت..
هذه المرة ظهر.. ولم تكن يده خاوية.. كانت قد توقعت شيئا كهذا.. في يده كان مسدس عتيق الطراز يصوبه نحو (باربيكان)، وعيناه على الكبسولة.
وقال ويده ترتجف انفعالا:
- سأكون شاكرا يا سادة لو شرحتم لنا كيف يقلع هذا الشيء..
تصلب الرجال، وفكر (نيكولا) في رفع يديه، ثم تذكر أن أحدا لم يطلب منه هذا.. بعد دقيقة كأنها دهر قال الرئيس (باربيكان):
- سيدي.. أرجو أن تساعدني.. فإن عقلي يصور لى تصورات خطيرة..
ارتجفت يد (كيفور) أكثر، وقال:
- الأمر كما صوره عقلك بالضبط.. لقد وصلنا إلى القمر معا، لكن الإنجليز فقط هم من سيعود إلى الأرض..
- هذا مناف للشرف، وقد كنت أحسبكم تقدرون الشرف..
- إنها حرب يا سيدي، وكل شيء جائز في الحرب..
وأدركت (عبير) في هلع أن (باربيكان) لن يخضع بسهولة.. و (كيفور) عالم مجنون.. عالم مجنون يحمل مسدسا.. فما نتيجة مواجهة كهذه؟
ونظرت من فوق كتف (كيفور) لتجد (بدفورد) يدنو ليقف وراءه
قال (باربيكان) في ثبات:
- يمكنك قتلنا يا سيدي الآن، فنحن لن نترك الكبسولة..
وتحفز (آردان) متأهبا ليثب ويضرب (كيفور) لكن يد (نيكولا) الحازمة أوقفته.. إنه مجنون مندفع، ولن ينال سوى رصاصة في رأسه..
قال (كيفور) وقد ازداد موقفه سوءا:
- أنا لست قاتلا.. أنا عالم فلا ترغموني على..
وعلى الفور وثب (بدفورد) فوق عنقه، وتمسكت يده الأخرى بالمسدس ليصوبه إلى الهواء، وبالطبع انطلقت الرصاصة لتدوي في أرجاء القمر برغم أنف كل علماء الصوتيات..
تقريبا في نفس الثانية، كان (آردان) قد وجد فرصة عمره.. وثب وثبتين إلى حيث كان (كيفور) فألقاه أرضا، وجرده من سلاحه، ثم لكمه في فكه.
- صاح (باربيكان) ليهدئ من حماس الفرنسي:
- كفى يا (آردان)! كفي! إنه شيخ هش لا يتحمل كل هذا..
ونهض (بدفورد) لاهثا، ونظر إلى الواقفين كأنما يقول: أنا لم أضرب صديقي ومعلمي لأنني شرير..

أنتم تفهمون الموقف.
قال (باربيكان) في لهجة الحكماء:
- نشكرك أي مستر (بدفورد).. ما كنا نتوقع أن تنحاز لنا..
- ثمة أشياء لا أطيقها.. من بينها مخالفة الشرف..
كان (آردان) متعطشا للدماء، لكن (كيفور) للأسف لم يعطه الفرصة الكافية لأنه فقد الوعي على الفور.. فنهض الفرنسي يرغي ويزيد، ولو لم يكن الرئيس موجودا لفتك ب. (بدفورد) بدوره باعتباره انجليزيا..
قالت (عبير)، وهي تنظر إلى ما وراء هؤلاء السادة المهذبين:
- أكره أن أكون كغراب البين دائما.. لكن أين ذهبت الكبسولة بالضبط؟!

☆ ☆ ☆

11- ثمة شيء ما..

مشكلة القمر هي أن الأشياء تختفي بمجرد أن تدير وجهك..



ركض الجميع إلى حيث كانت الكبسولة تقف من دقائق، وبالطبع لم تكن هناك.. لكن آثارها كانت واضحة على الأرض.. ما كان هذا حلما على الإطلاق..
صاح (باربيكان) وهو يوشك على الإصابة بالفالج:
- ما معنى هذا؟ نحن لم نبتعد إلا أربعة أمتار.. فقط انشغلنا بالشجار وكل هذه الترهات..
قالت (عبير) وهي تتفقد المكان الذي كانت فيه الكبسولة الفقيدة:
- خيل إلي للحظة أن شيئا قد جذبها لأسفل.. لم يستغرق الأمر إلا ثانية لمحتها بطرف عيني، وحسبت أنني أخرف..
ثم جثت على ركبتيها، وقالت:
- بالفعل.. هذه آثار فتحة.. هذه الدائرة تهبط لأسفل كالمصاعد.. فقط كانت الكبسولة تقف للأسف على تلك الدائرة، ويبدو أن هناك من جذبها لأسفل!
- لأسفل؟!
وتصلب الرجال مذعورين، واتخذ كل منهم وضعا يريه جزءا من الثلاثمائة وستين درجة..
فقالت باسمة:
- هذا ليس غريبا.. إن (ويلز) في قصته الأصلية جعل شعبا كاملا له رءوس الأفيال يعيش في كهوف القمر، وكانت لديهم عجول يذبحونها، وحضارة لا بأس بها..
ولم تكن تعرف المخرج الفرنسي (ميليه) أبا الخدع السينمائية، الذي قدم رؤيته الفريدة للرحلة إلى القمر، وكان على القمر فرق استعراضية كاملة من الفتيات الحسناوات! كل شيء جائز إذن..
لكن (باربيكان) ومن معه لم يفهموا سر مرحها.. لقد فقدوا في ثوان سبيلهم للعودة.. ومن ناحية أخرى بدا لهم من السخف أن يتخيلوا وجود مخلوقات تشبه الأفيال على القمر..
قال (آردان) في تصميم:
- يجب أن نرى ما يوجد تحت هذه القشرة..

وكور قبضته، وتصلبت عضلات عنقه:
- لو كان هناك من يمزح معنا، فلسوف..
تبادل الرجال النظرات، ثم نظر (باربيكان) إلى إحدى الفوهات البركانية على سطح القمر، وقال:
- لو كان هناك شيء، فمن الممكن أن نلقي نظرة من هنا..
ساعد (نيكولا) (كيفور) على النهوض، وسأله:
- هل حقا تستطيع الوقوف على قدميك؟
هز هذا رأسه بمعنى أنه سيحاول، وكان يشعر برضا بالغ في أعماقه.. على الأقل هم الآن (في الهواء سواء).. لا أحد يعود تاركا الآخرين.. اليوم مساواة كاملة في الظلم: لن يعود أحد..
الآن بدأت الشمس تغيب، وبدأ الظلام والبرد يغشيان كل شيء، ولم يعد من مناص لديهم من محاولة اجتياز المجهول.. لن يكون هناك ما هو أسوأ من هذا..

ولكن هل توجد حبال؟ بالطبع لا بد من أن يحمل (آردان) حبلا في الجربندية التي يعلقها على كتفه..

نظر لهم باحثا عن شخص قوي يصلح؛ ثم وقع اختياره في النهاية على (نيكولا).. إنه عجوز لكنه قصير سميك يصلح وتدا..

ولف (نيكولا) الحبل حول خصره، وابتعد عن الفتحة.. وساعده (بدفورد) الهزيل ومعه (باربيكان)

وببطء بدأ (ميشيل آردان) ينزلق عبر الفوهة البركانية.. ينزلق حتى غاب رأسه.. ومرت بضع دقائق بينما (نيكولا) يواصل إنزال الحبل أكثر فأكثر.. و (بدفورد) و(باربيكان) يتشبثان بكتفية بقوة كي لا ينزلق بدوره..



وببطء بدأ (ميشيل آردان) ينزلق عبر الفوهة البركانية..

قالت (عبير) في تردد، وهي ترمق المشهد وترتجف:

- لا جدوى من كل هذا.. نحن نعرف ما سنراه مقدما.. مجرد حفرة عميقة لا أكثر ولا أق..

ولم تجد الوقت الكافي لحرف اللام في (أقل)..
فقد جاء صوت (آردان) العميق المكتوم من الداخل، يقول في هلع:
- إن المشهد هنا لا يصدق!

☆ ☆ ☆

- أريد شاهدا!
كذا صاح (آردان) من داخل الحفرة، فأصابهم الذهول..
- كيف نرسله لك؟ هل نلقي به؟
فدنا (باربيكان) من الحفرة، وصاح دون أن يرى من يحدثه:
- أنا واقف على جرف صخري.. يمكنكم رفع الحبل، وأنزلوا به واحدا آخر تختارونه..
تأمل (نيكولا) باقي الحبل المشدود، وقال:
- عشرون مترا.. وصوته مسموع.. لن يكون هذا صعبا.. فلتهبط الآنسة فهي أخفنا وزنا..
ولم يكن بحاجة إلى الإلحاح؛ لأن (عبير) كانت متحمسة بدورها.. لو أن لديها عيبا قويا غالبا فهو الفضول.. إنها ليست من أقوياء الإرادة الذين يقفون خارج فوهة بركانية قمرية، ويسمعون من يقول لهم إن المشهد لا يصدق وبرغم هذا يرفضون النزول..
وتمت العملية ببساطة..
ربطوا الحبل إلى خصرها، وصعدت إلى الفوهة المظلمة.. حبست أنفاسها وراحت تنزلق إلى أسفل بخفة.
طبعا لم تكن ترى شيئا على الإطلاق.. في البداية فقط..
ثم شعرت بيد قوية تمسك بمعصمها، ووجدت نفسها تقف على حافة جرف جوار الفرنسي..
كان يمسك بكشافه الضوئي لكنه أطفأه، وكان مبهور الأنفاس بارد الأطراف يرتجف..
وحين نظرت لأسفل فهمت لماذا أطفأ الكشاف..

☆ ☆ ☆

-12مـيو؟!

يا له من مشهد!
مشهد يفوق كل ما تصوره (ويلز) و (فيرن) معا، وما كانت الجرأة لتصل بواحد منهما إلى أن يتخيل شيئا كهذا، وإلا اتهمهما الناس بالجنون.. ثمة حدود يتوقف عندها الخيال وتبدأ مملكة الهلوسة، التي تستدعي أن يأخذ الطبيب الشرعي عينة من الدماء لتحليلها بحثا عن عقار (L.S.D)..
كانت الأضواء في كل مكان.. أضواء فوسفورية مبهرة، لكنها خجول غير مبالة إلى الانتشار.. وكانت ترسم حدود مدينة غريبة.. مدينة لا قبل للمرء بها، فيها مبان لم يتخيلها رسامو أفلام الخيال العلمي بعد..
كانت هناك طائرات مضيئة تذكرك بالفراشات في الليل، وكانت هناك أجسام متحركة تذكرك بالسيارات تمشي دون ضوضاء، كأنها تنساب.. وكأنها قطرات من سائل فوسفوري بدورها..
ملحمة من الضياء الأخضر الوقور عند قدميهما..
ونظرت لأعلى فرأت أشياء تذكرك بالمصاعد المتحركة، كلها تتجه لأعلى إلى السماء.. السماء هنا هي سقف هذا العالم الغريب.. السقف الذي نراه نحن من الخارج، ويمشي فوقه الآن (باربيكان) و (- كيفور) والآخرين غير عالمين بما تحت أقدامهم..
وكانت هناك شبكة عملاقة تبطن أكثر أجزاء هذا السقف.. وفهمت (عبير) أنها بمثابة شبكة أمان تمنع النيازك من السقوط فوق الناس..
همس (آردان) بكلمات فرنسية لم تتبينها، وكانت كالفحيح على كل حال.. فنظرت إلى حيث يشير..
نعم.. إنها ترى بوضوح أحد المصاعد، وقد هبط إلى أسفل.. إلى مستوى القاع تقريبا، وكانت فوقه كبسولة (باربيكان)..
يجب أن نذكر هنا أيضا أن كائنات ما كانت تتحرك هنا وهناك.. لم يكن المقصود بالكائنات أنها مسوخ، ولكنها تشبه البشر إلى حد كبير، لكن رءوسها أضخم نوعا..
همست وهي تلتصق بالجدار أكثر:
- رباه!
وهمس وهو ينظر لأسفل أكثر:
- رباه!
قالت له وهي تنظر لأعلى:
- لن يصدقوا مالم يروا..
- لابد أن نصعد أولا.. فهذا الجرف لن يتحمل سوي وزنينا..
ورفع عقيرته لأعلى وصاح:
- أخرجوا الآنسة.. ثم أنزلوا لى الحبل..
كانت (عبير) مشغولة، تدون شيئا ما في مفكرتها، على الضوء الأخضر القادم من أسفل وقالت له دون أن تنظر إليه:
- ألا تخشى أن يسمعك من بأسفل؟
- نعم.. إنهم على بعد سحيق.. ولكن ماذا تكتبين؟

همست وهي تواصل رسم النقوش:
- أنا أحد بصرا منك، وهذه النقوش المضيئة على البناية هناك تبدو لي نوعا من الكتابة..
وقبل أن تواصل الكلام، ارتفع الحبل بها..

☆ ☆ ☆

وعلى السطح احتشد الجميع يصغون لما تقول وما يقول (آردان).. كان الكلام أقرب إلى الهلاوس، ولم يبد أحد على استعداد للتصديق..
لكن كان التأكد سهلا على كل حال..
من العسير أن تتخيل (عبير) و (أردان) نفس الشيء في الوقت ذاته..
وبالنسبة لـ (بدفورد) كان يعرف أن النساء هستيريات والفرنسيين حمقى.. لكن من النادر أن يجتمع أحمق مع هستيرية على رأي واحد..
عرضت عليهم (عبير) النقوش التي نسختها، وكان من الصعب أن يروها في هذا الظلام الدامس.. دار كشاف (أردان) عليهم الواحد تلو الآخر كي يتفحص المكتوب بعناية.. طبعا لم يفهم أحدهم شيئا.. إنها زخارف أقرب إلى الكتابة البنغالية كما نعرفها اليوم..
هنا قال (كيفور) في تشف:
- طبعا لا تعرفون هذا لأنكم حمقى..
قال (باربيكان) في برود:
- أكون شاكرا لو شرحت لنا مدى حماقتنا..
قال (كيفور) وقد أرضاه تماما أن ينتقم لكرامته المهدرة، خاصة والدم البارد مازال يسيل من أسنانه:
هذه لغة (الناكال)..
- هذا مفيد.. ولكن ما معناه؟
قال (كيفور) بلهجة رجل العلم الملول:
- نقوش (الناكال) كانت محفوظة لدى الرهبان الهندوس في (البنغال)، وقد رآها صديقي الإنجليزي (جيمس شيروود) ونسخ بعضا منها.. هذا شيء لا يفهمه أمريكي أو فرنسي..
في غباء سأله (بدفورد):
- وما هي لغة (الناكال) هذه؟
- هي لغة القارة المفقودة منذ مائة وعشرين قرنا.. لغة قارة (ميو)!

☆ ☆ ☆

صاح (باربيكان) في غيظ:
- هذا هراء يا (كيفور).. هذه القارة لا وجود لها..
قال (كيفور) في كبرياء وهو يخط شيئا على الأرض، التي بدأ الجليد يكسوها:
- أنت تعرف ما يقوله الجيولوجيون عن أن القمر هو جزء منفصل من المحيط الهادي.. قطره وتضاريسه تتطابق بشدة، كما تتطابق قطعة من ألغاز الأطفال المسماة Jig saw..
الآن نجد أن القمر مسكون بالبشر - أو من يشبه البشر - وهم يستعملون لغة (الناكال) التي استعملها سكان قارة (ميو).. ثم نذكر هنا أن قارة (ميو) كانت في المحيط الهادي علي أرجح الروايات[7]

هل يفسح لنا هذا المجال لاقتراح جريء:
لم لا يكون القمر هو قارة (ميو) ذاتها؟ ولم لا يكون سكانه هم سكان (ميو) الذين تحوروا مع الوقت، وتعلموا كيف يعيشون في باطن القمر ليتفادوا الشهب؟
طقطق (باربيكان) معبرا عن احتجاجه وقال:
- عمر القمر أطول من مائة وعشرين قرنا بكثير.. كما أن مائة وعشرين قرنا لا تسمح بحدوث تطور دارويني..
- ومن قال إن قصة (شيروود) حدثت فعلا في هذا الوقت؟ ربما حدثت في عهد أقدم.. في زمن انفصال القارات..
كان البرد يمزقهم الآن.. البرد والجوع والظلام.. من الغريب أن الظلام يؤلم أحيانا..
وكان أول من تكلم هو (بدفورد):
- ماذا عسانا نفعل الآن؟
قال (باربيكان) وهو ينفض الجليد عن الحيته:
- حقا.. ماذا نفعل الآن؟

☆ ☆ ☆

وسمعت (عبير) صوت تكتكة القلم فاستدارت لتجد (المرشد) قادما، وقد لف كوفية صوفية حول عنقه، وراح البخار يتصاعد من فمه..
قالت له في لهفة:
- لم تأت قط في وقت أفضل من هذا..
- هذا ما ظننته.. تك تتك.. ت.. تبا!
لقد تجمد زنبرك القلم!
- ما هي خطتك بالنسبة لهؤلاء السادة؟!
- سيتولون أمورهم بأنفسهم.. أعتقد أنه لا مفر لهم من الاستسلام لحضارة (ميو) هذه..
ومن يدري؟ لربما لم يكن هؤلاء القوم عدوانيين مثل أهل الأرض.. لربما هم متحضرون حقا..
ثم ابتسم في سادية وهو يرمقهم يرتجفون:
- إن هذا درس لهم على كل حال.. لم يكن الإنجليز ولا الفرنسيون هم أول من وصل إلى القمر.. لقد كان أهل (ميو) هم أول من وصل إليه من اللحظة الأولى لتكوينه! بل كانوا عليه وهو ينفصل!
استدارت (عبير) وحيتهم مشجعة.
كانت تدرك أن هذه (فانتازيا)، وأن الأمر كله لعبة من ألعاب الخيال، لكنها لم تتمالك نفسها من الشعور ببعض النذالة في هذا المسلك..
وقالت ل (المرشد) وهي تلحق به فوق الثلوج:
- إنهما قصتان رائعتان.. لقد كان (ويلز) و (فيرن) بارعين حقا..
- إنهما اثنان من السحرة.. وحين نقرأ هذه الأفكار اليوم لا ندرك حقيقة أنها كانت جديدة كل الجدة في عصرهما.. صحيح أن هناك محاولات سابقة مثل (ميكرو ميجاس) ل (فولتير) وسواه.. لكن هذه أهم المحاولات الأدبية، والمشكلة هي أن العام 1969 جاء، ومعه عرف الناس حقيقة القمر الكئيبة، ولم يعد أحد مستعدا للكلام عن أو قراءة قصص فيها عجول قمر وقذائف مدافع.

ويوم يصل الإنسان لمركز الأرض سينسي كل شيء عن رواية (جول فيرن) الشهيرة، بالضبط كما أن اختراع الغواصة جعل بريق (٢٠ألف فرسخ) يخبو كثيرا جدا..
ومن بعيد في الأفق المظلم، رأت كبسولة تهبط ببطء بين جبال القمر.. كانت براقة لامعة في ضوء النجوم، وعليها شعار ما..
سألته والبخار يصّاعد من فمها:
- ما هذا؟
هذه (أبوللو - ١١) قادمة وعليها روادها الثلاثة.. سيكون (نيل آرمسترونج) أول رجل يضع قدمه على القمر.. في بحر الهدوء بالذات.. ثم يكون زميله (ألدرين) الثاني.. إن القمر بعد ثوان سيكون أول مستعمرة فضائية أمريكية.. هذا هو ما حدث في الواقع..
قالت دون أن تنظر للوراء:
- هل تريد رأيي؟
- هم م م؟
- كنت أفضل أن يكون (ميشيل آردان)
هو أول رجل على القمر!



وفي القصة التالية؛ نعرف أكثر عن عالم البوابات الذهبية، والخان العظيم، والخناجر المشرشرة، والتنين المسحور..
إنه عالم ساحر، لكن لا مكان فيه للضعفاء.

(تمت بحمد الله)

أرض.. قمر.. أرض

توجد طريقتان للوصول إلى القمر إما أن تركب في فوهة مدفع وتدع للحظ أن يحدد مصيرك، وإما أن تجلس في كرة تقاوم الجاذبية الأرضية وتحلق لأعلى..
لا توجد طريقة ثالثة تعترف بها (فانتازيا) فهل تفضل الطريقة الفرنسية أم الإنجليزية؟

د. أحمد خالد توفيق

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) يوم ١٢ إبريل عام 1961، وقد عدلت أمريكا مناهجها الدراسية وطريقتها في التفكير بعدما صدمها هذا الحدث العلمي..

[←2]

(*) من جديد نجد أن هذا ما حدث بالضبط عند تصميم (أبوللو)!

[←3] (*) (Some damn thing always goes wrong) وقد قدمنا الرواية في (روايات عالمية للجيب).. الكتيب رقم (٢٣)

[←4]

(*) تحدثنا عن (ويلز) بشيء من التفصيل في مقدمات الروايات (16) و (17) و (31) من (روايات عالمية للجيب).

[←5] (*) الاعتراضات على (فيرن) و (ويلز) مأخوذة من كتاب (الفيزياء المسلية) للرياضي الروسي (ياكوف بريلمان)، من إصدارات دار (مير) للطباعة والنشر (موسكو).

[←6]

(*) الشوفينية: الحماس الوطني الذي قد يصل إلى التعصب العنصري، وينسب إلى الجندي الفرنسي المجنون (نيكولا شوفان) الذي اشتهر بتعصبه لفرنسا

[←7]

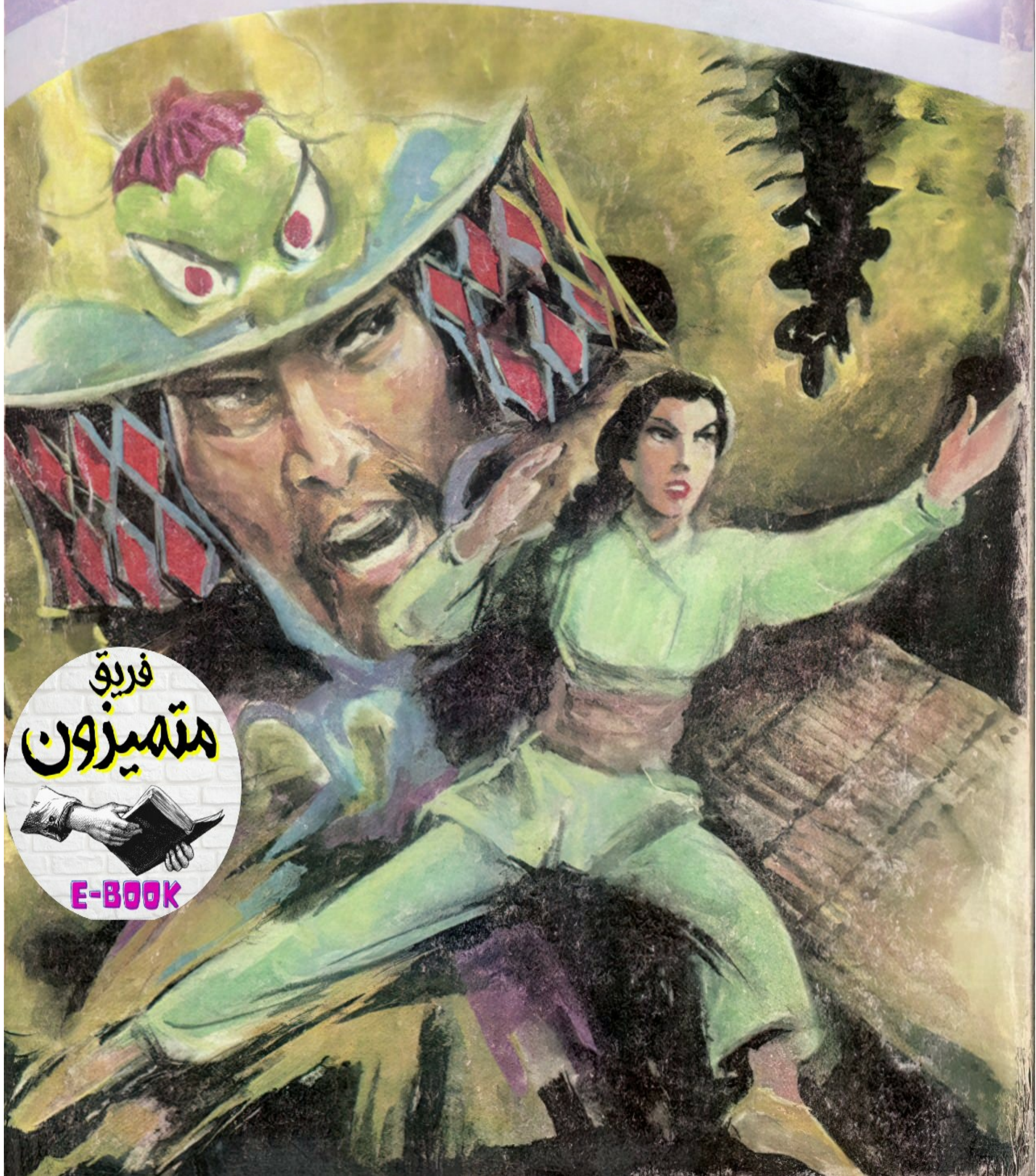
(*) أسطورة قارة (ميو) معروفة وحقيقية.. وكان لها رواج كبير في القرن الماضي.

روايات مصرية للجيب

24

فانتازيا

فليدْخلْ التنين !



مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (24)

فليدخل التنين

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مـاذا تختـارين؟..

عند الغروب بدأت الطقوس النهائية..
وكان القوم واقفين يرمقون بذعر ما عساه يحدث و (عبير) نفسها وقفت على بعد أمتار من

(جيانغ - سه)، تمضغ ضفيرتها الطويلة في نهم وجزع، بينما اشتعلت المشاعل في كل صوب لتعطى الكلمة الأخيرة لهذا الجو الكابوسي الخانق.. رائحة الشحم المحروق الممزوجة بالعرق، والدخان الذي يهيج الحبال الصوتية، وحرارة الجو الثقيلة.. ثم الوهج!
آه من الوهج الذهبي الكريه للنيران يرسم على الوجوه القلقة ألف ظل وظل! ظلال تولد وتتلاشى بذات السرعة الخاطفة التي يولد فيها هذا القبس أو يخبو.
ومدت يدها إلى صدرها تتحسس القلادة.. تستطيع.... أن تتخلص منها الآن.. تستطيع أن تلقيها في أي مكان.. إنها تراث الأجداد وقسم مقدس، لكن الضرورات تبيح المحظورات
.. مدت يدها إلى القلادة، وعالجتها في رفق ولكن.. آى! إنها ساخنة كالنار! إنها قطعة من حديد محمى يحرق الأنامل بلا رحمة..
هذه لعنة يصعب الخلاص منها، ولا يوجد مفر من أن تواجه قدرها بشجاعة، وأن تتحدى التنين ومن يدري؟ لربما تظل حية كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ كل شيء كما تعلمون برحلة في (فانتازيا) مع المرشد..
يتساءل البعض - ومعهم كل الحق في ذلك – عن مصير الخطاب الذي وجدته (عبير) في جيب (شريف)، وكيف واجهت الأمر كله؟ أقول لهم: إن (عبير) ليست من هؤلاء الذين يتخذون قرارات قاطعة حاسمة بسهولة.. لقد أرجأت التفكير في الأمر إلى ما بعد، وقررت أن تؤخر لحظة المواجهة قدر الإمكان.. وكانت بطبيعتها تعرف أن المواجهة ستكون عنيفة باترة، وأنها ستقول كلاما شرسا ولسوف يرد (شريف) بكلام أكثر شراسة.. إن الطلاق ذاته لم يعد مستحيلا إلى هذا الحد، خاصة أنها لن تصدق حرفا مما سيقوله (شريف)، ولكم ودت لو تصدق..
وكانت (عبير) في طفولتها تلجأ لواحدة من حيلتين، كلما ضاقت بها السبل ولم تعرف كيف تواجه الواقع. كانت تندس في سريرها وتقرأ حتى تحمر عيناها، أو تندس في سريرها وتحلم حتى يوقظها أحد.. وفي الحالتين كانت تحلم.. بعينين مفتوحتين أو مغلقتين.. المهم أنها تحلم وأنها تهرب من معركة الواقع.. سم هذا سلبية أو سمه جبنا، لكنه حل يصلح ل. (عبير) وحدها ولا يناسب سواها
كانت تعرف أن المواجهة قادمة لا محالة، لكنها.. فضلت أن تؤجلها قليلا.. ودخلت فراشها صامتة ساهمة كاسفة البال، وراحت تتذكر مغامرتها على القمر مع (جول فيرن) و (هـ. ج. ويلز)، بالطبع لأنها كانت آخر من يريد التفكير في الواقع الآن..
وصحت في السادسة على بكاء الطفلة تريد شيئا ما، من الأشياء التي يبكي الأطفال دائما بسببها في السادسة صباحا، والتي - للأسف - لا يعرف كاتب هذه السطور شيئا عنها، لأنه يفضل أن يكون مسئولا عن وشق الإستبس، ولا يكون مسئولا عن رعاية رضيع..
في العاشرة حملت الطفلة على ذراعها ونزلت إلى السوبر ماركت القريب؛ لتبتاع لوازم الغداء، ثم عادت فطهت شيئا ما بشكل مرتجل، وكانت الطفلة قد قررت أن تظفر بنوم الظهيرة المعتاد..
النوم الذي يبدأ في الثانية عشرة ظهرا ويستمر حتى الثالثة بعد الظهر..
(شريف) - الوغد - لن يعود قبل الخامسة مساء، وفي الغالب سيكون هذا هو الوقت ليعطي تفسيرا والتفسير لن يقنعها حتما، ولسوف يكون هناك الكثير من الصراخ والهستيريا، ولسوف تطلب أخاها ويطلب هو أمه في الغالب، وبعدها لن يكون مفر من اشتعال البنزين، لأن القادمين لن يمارسا دور المصلحين الاجتماعيين طبعا.. تبا ل. (شريف).. إنه هو المسئول عن كل هذا

وهكذا قررت أنها بحاجة إلى القليل من (فانتازيا) القليل منها جدا قبل أن تأتي (لحظة الحقيقة).
إن (فانتازيا) هي المهرب الوحيد أمامها الآن في عالم مصمم على أن يقهرها ويحطمها.. حيث لا يوجد سوى سبيلين للفرار: إلى أعلى أو إلى داخل الكمبيوتر، حيث عالم الأحلام الافتراضي ينتظر..
جلست على المقعد المختار، وكانت تعرف أن المغامرة لن تستغرق أكثر من ساعة على الأرجح لن تصحو الطفلة لأنها لم تفعل هذا منذ ولدت..
ثبتت الأقطاب على رأسها، وضغطت على مفتاح الإدخال، وبدأ (دى - جى - ٣) يمارس مهمته الساحرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن وسط الضباب يلوح لها المرشد قادما في تؤدة، وكان يلوح بعصا صغيرة من الأبنوس عليها بضعة زخارف، ومن بعيد يقف قطار (فانتازيا) المضحك، والدخان يتصاعد من مدخنته الأمامية، وهدير المحركات لا ينقطع.. سألته مشيرة إلى العصا:
- أين القلم؟
- ضاع.. إن الأقلام تضيع مثل أي شيء آخر..
- هذا لحسن حظي.. لا بد أنك شفيت من داء ال (تك تتك تك!)..
- ليس تماما.
ولدهشتها وجدت أن الطرف العلوي للعصا يستخدم كقداحة، وكان هذا مصدر التسلية الجديد للرجل.. راح يشعل القداحة ويطفئها ملايين المرات حتى حطم أعصابها تماما، وخطر لها أن القلم كان أكثر رحمة...
مد يده كأمراء القصص المصورة يساعدها على ركوب القطار، ثم طرق سقف العربة بطرف العصا، فبدأ القطار يتحرك ببطء، وراح يشق طريقه وسط أرض الأحلام التي صنعها الحالمون عبر العصور ومن حين لآخر.. توووووووووووت! ليسعد الأطفال لو كان أحدهم هنا..
قال لها في خبث:
- يبدو أن مزاجك سيئ.
- إنه أسوأ مزاج يمكن للسان بشري أن يصفه..
- لم أعد أراك إلا في حالة نفسية سيئة..
- لأن (فانتازيا) هي الهرب.. ونحن لا نهرب حقا اليوم إلا من خطر داهم يتهددنا، فلو كان الواقع أجمل لما رأيت وجهي هنا أبدا..
تنهد وقال وهو ينظر من النافذة:
- كما يقول (كامى): ليست مشكلة الحياة أنها كريهة لا تطاق.. المشكلة أنها كان يمكن أن تكون أفضل بكثير.. ما علينا.. هل اتخذت قرارا بصدد مغامرة اليوم؟
فكرت قليلا وحكت شعرها.. نظرت خارج النافذة، فرأت (زورو) بعباءته السوداء يبارز مجموعة من الجنود المكسيكيين الأوغاد، وبعد خطوات قليلة تتقدم (أندروميدا) العذراء الجميلة إلى البحر قربانا للأخ التنين (كراكون) المتحمس، الذي أرسله سادة (الأوليمب) انتقاما من غرور أمها الحسناء (كاسيوبيا). وكل العذارى في الأساطير الإغريقية لا نفع لهن عموما إلا كقرابين..
بعد هذا، ترى (عنترة) العبسي يتقدم قافلة الألف ناقة عائدا من عند (كسرى)، والألف ناقة بالطبع هي مهر (عبلة).. وفي مكان آخر يقتاد الجنود (ديمتري كرامازوف) بتهمة قتل أبيه وهو

لم يفعلها، وتلقى (آنا كارنينا) بنفسها تحت القطار هربا من حب فاشل، وينقض اللصوص على (أكاى أكاكيفيتش) ليسلبوه المعطف الذي كان يحلم به من أول سطر في قصة (جوجول) الشهيرة.
(أوليفر تويست) يبحث عن حافظة ينشلها، وهو يجهل تماما فن النشل، لكنه يخشى أن يضربه اليهودي (فاجن).. و...
كانت هناك مدينة صينية قديمة.. الناس يحتشدون بعيونهم الضيقة، يرمقون في انبهار المواجهة الرهيبة بين فتى عاري الصدر، له ضفيرة طويلة تتدلى على ظهره، وعجوز أشيب يرتدي ما يشبه المنامة الزرقاء الواسعة. وها هو ذا الصراع بينهما يبدأ بوثبات لا يمكن أن تصدقها ما لم ترها.. وعلى سبيل إظهار القوة يهوى العجوز بسيف يده على جذع شجرة فيشطره إلى نصفين، فيبصق الفتى في كفيه ويطلق صرخة مروعة.
- ما هذا العالم يا مرشد؟
نظر من النافذة وتثاءب، ثم قال:
- هذا عالم الرياضات الآسيوية القتالية.. عالم الكونج فو والجيدو والكاراتي والجيجوتسو وال...
- هل هذا نوع أدبي معروف؟
- بل هو عالم سينمائي بالكامل.. من الواضح أنك كنت تهوين تلك الأفلام في الماضي.. لم تر مصر أي فيلم كاراتي حتى الآن! ....
- يا سلام! وماذا عن كل الأفلام الملأى بالرعاع الذين يتبادلون الركلات ويتصايحون: هي.. هو.. هاه؟
ابتسم في ثقة كعادته حين يصحح معلومة:
- هذه أفلام (كونج - فو) في الواقع، لكن غير الخبراء - وهم رجال الشارع في حالتنا هذه لا يفرقون بين رياضة آسيوية وأخرى.. إن الغرب لم يكن يعرف شيئا عن هذه الأمور، حتى فوجئ بفيلم قادم من (هونج كونج) اسمه (الرئيس الكبير)، وكان بطله شابا صينا نحية اسمه (بروس لى) وهنا أدرك الموزعون أنهم أصابوا منجما من ذهب، وسرعان ما بدأت دبلجة تلك الأفلام، وصارت (هونج كونج) تنتجها في خطوط تجميع – كأنها سيارات - حتى إن تصوير بعض الأفلام كان يتم في أسبوع.. النتيجة هي أن حمى (الكونج - فو) أصابت العالم بأسره، وغدا (بروس لى) أسطورة، وفتحت له السينما الأمريكية ذراعيها، حتى إن عدد الأفلام التي قام بها بعد موته يفوق كل ما قام به وهو حي!!
- كيف؟
- إنهم مزورون بارعون.. وهم يلعبون على حقيقة أن الأسيويين يتشابهون بالنسبة للمشاهد الغربي، وبالتالي يصلح أي شخص نحيل أصفر كى يقنع المشاهد. أنه (بروس لى).. بل واعتمدت بعض الأفلام على لقطات كبيرة مأخوذة من أفلام (بروس لى) الحقيقية تدمج دمجا مع ممثلين آخرين يتصارعون.. المهم أن هذه الأفلام بيعت كالكعك الساخن.. على كل حال لم تعد تلك الأفلام بالنجاح القديم لها، وصارت الأفلام الحديثة - على غرار أفلام (جاكى شان) - لا تأخذ نفسها بجدية مطلقة.. إنها أفلام صنعت بالكامل من أجل المرح..
كانت (عبير) تتذكر.. لقد رأت بعض هذه الأفلام بالفعل مع خالها، وكان هو يعتبرها أعمالا مقدسة لا تحتمل مجرد المناقشة، وبالنسبة له كان (بروس لى) وسواه أشخاصا حميمين جدا كأنهم من نفس شلة الحارة.. بينما هي بطبيعتها الحالمة لم تفهم كل هذه الجاذبية في أناس يضربون بعضهم حتى تسيل دماؤهم أو تنفجر بطونهم.. ولم تفهم قط فيلما واحدا منها بضمير

مستريح؛ لأن مقص الرقيب كان يمارس عمله بحرية تامة.. دعك بالطبع من النسخة الرديئة التي ليس لها سوى لونين: الأصفر والبنى الخشنين المليئين بالخدوش.. وأمكنها – برغم قلة ما رأت - أن تميز نوعين من تلكم الأفلام:

أفلام رعاع (هونج كونج) ذوى القمصان المشجرة، الذين يضربون المارة في الشوارع، ويهربون المخدرات ويتحرشون بالنساء طيلة اليوم.. وأفلام (الخان الأعظم) التي تدور أحداثها في الصين القديمة، حيث الحكماء بلحاهم الطويلة والأميرات الجميلات ذوات الضفائر، والسيوف المسحورة..

من هنا - تذكرت - جاءتها كل هذه الخبرات عن هذه الأفلام، وأدركت أن المغامرة في هذا العالم هي - من جديد - مغامرة من تلك التي لا تستند إلى نص أدبي أو تاريخي، ومثلما حدث في مغامرتها مع الغرب الأمريكي.. لم لا؟ إن السينما تشكل الكثير من وجدان إنسان العصر سلبا أو إيجابا، ويقال إن التليفزيون لعب اليوم في حياة الغربيين نفس ما كان يلعبه (ديكنز) في حياتهم قديما..

لم لا تجرب؟ إن (فانتازيا) قادرة على جعلها تعيش المغامرة بتفاصيلها بدلا من أن تنتقدها.. وعلى كل حال لا بد من الاختيار، وهى زاهدة اليوم كل الزهد في الاحتمالات الأخرى التي رأتها حتى الآن..

- دعني أجرب هنا يا (مرشد)..

ثم رفعت إصبعها منذرة:

- لكن دعني ألعب دورا إيجابيا.. إن النساء في هذه القصص لا يتجاوز دورهن دور الضحايا الصارخات معدومات الحيلة.. كأنهن دجاج ينتظر الذبح.. أريد أن ألعب دورا..

- سأفكر في هذا.. أحسنت إن أخبرتني مسبقا.

وشد الحبل ليوقف القطار ومن هنا بدأت مغامرة جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- المعلم..

الآن هي ترتدي ما يشبه المنامة الزرقاء الواسعة وعلى كتفها تتدلى ضفيرة جميلة غزيرة الشعر، طالما اشتهتها في مراهقتها.. قدماها الدقيقتان في خف قماشي مريح، وتعرف أن اسمها (فو - لى).. لا بأس.. إنه اسم سهل النطق يمكن أن يعلق بالذاكرة.. وتدرك أنها رقيقة جميلة خفيفة الحركة..
إنها تدخل مدينة.. مدينة تمت لعالم الشرق الأقصى طبعا.. معابد بوذية وكونفوشيوسية في كل صوب وسوق - دائما السوق في بداية كل مغامرة لها في (فانتازيا) - وفرسان، ونساء يحملن الماء على أكتافهن بتلك العصا، التي تحمل قربة عند كل طرف.. عربات ريكشا يركبها أثرياء يرفلون في الحرير، ويجرها فتية ناحلون ممزقو الثياب يعانون سوء التغذية..
المشهد يذكرها بالنوع الثاني من أفلام القتال الآسيوي: أفلام الخان الأعظم التي تقع في الصين ذاتها في فترة ما من تاريخها، قبل أن يطيح (صن يات صن) بكل الأباطرة السابقين.. والطريف في الأمر أن كل شيء كان مصبوغ باللون الأصفر والبني كما اعتادت في تلك الأفلام.. حتى أوراق الشجر كانت بنية اللون
كل شيء حولها مزخرف جميل.. وكل شيء عامة الصين له طابع صينى زخرفي لا تخطئه العين حتى الطيور المحلقة والدجاج والأشجار وأسقف البيوت كأنما رسمت كلها بريشة مثقلة بالحبر الشينى..
تتوقف عند بائع البرتقال لتتأمل البرتقال الأنيق. أروع برتقال يمكن أن تراه في حياتك.. يغريها البائع ببضاعته، فيتكلم بتلك الطريقة الشبيهة برنين الأجراس، والتي تفهمها كالعادة:
- هلا جربت أفضل برتقال في المدينة المسحورة أيتها الحسناء الغريبة؟ ما اسمك؟
- اسمى (فو - لى).. وليست معي نقود
من الممتع أن تفهم الحوار مباشرة دون ترجمة على الصدور، أو دوبلاج يجعل حركات الشفاه غير متسقة مع مخارج الأحرف.. يمد يده لها ببرتقالة، وينحني بعنف:
- هي لك مكافأة على هاتين الغمازتين..
مدت يدها لتأخذ البرتقالة شاكرة، فقط عندما بدأت المتاعب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والمتاعب الجديدة هنا لم تتخذ شكل خيول راكضة أو كلب مسعور أو حصان ثائر - كما هي العادة في (فانتازيا) - ولكن اتخذت شكل مجموعة من الأوغاد
كيف عرفت أنهم أوغاد؟ هذا سهل تماما ولا يحتاج إلى موهبة.. الأوغاد هم الأوغاد سواء في حارتها أو في الغرب الأمريكي أو في المدينة المسحورة كما دعاها البائع.. نفس الضحكة السمجة والمشية المتثاقلة المتئدة والعينين الأثمتين المليئتين بالسايكوباثية.. أطلق البائع سبة صينية لم تفهمها، وتراجع للوراء، بينما الأوغاد يتسلون بركل السلال هنا وهناك، وتوجيه بعض الصفعات إلى أقفية الشيوخ، وما إلى ذلك من النشاطات المحببة للرعاع حول العالم.
أخيرا وجدوها، وكان من المحتم أن يتحرشوا بها.. أولهم - وزعيمهم - دنا منها في ثقة، وهو يلوك شيئا ما، ثم مد يدا وقحة يتحسس بها شعرها، وقال:

- ما رأيكم يا رفاق؟ بحق السيف الذي سيطير عنقي إنها لغندورة..
أبعدت يده في عصبية، لكنه بدا مستمتعا بكل.. ومن وراء منضدة البيع صاح البائع:
- (سونج بياو)! دع هذه الفتاة فإنها ليست من طرازك!
بصق ما كان يلوكه فإذا بها بعض الزلابية، وقال وهو يرمق الشيخ:
- وما طرازى؟ حذار أيها الشيخ.. إنك توشك على إثارة حنقي.
وصاح صائح منهم:
- لماذا لا نصحبها معنا يا (سونج بياو)؟ إننا سنحكي لها الكثير من قصص ما قبل النوم!!
ومعه انفجروا ضاحكين على الدعابة القوية، وخطر لـ (عبير) المذعورة أن دعابة الصينيين عسيرة الفهم حقا؛ فهم ينفجرون ضحكا بلا سبب أحيانا.
الموقف سيئ.. فالحقيقة أنهم يحيطون بها تماما الآن، وعددهم لن يقل عن العشرة بحال.. والناس في السوق تظاهروا بأنهم لا يرون شيئا، واصطنع كل منهم أذنا من طين وأخرى من عجين..
وجدت ثغرة ما في صفوفهم، فأحنت قامتها واندلعت كالوشق تحاول عبورها، فقط لتجد وغدا منهم يقف في وجهها، ويتحسس قلبه كأنما طعن فيه، بحركة هيام تمثيلية، فينفجر الجميع ضحكا.
أما من نهاية لهذا الموقف؟ لابد من نهاية ما
تجرب ثغرة أخرى، لكنهم أحبوا هذه اللعبة وسرعان ما أغلقوها أمامها.. لا مفر من هنا ولسوف يظل الناس صامتين مسالمين حتي يحملها هؤلاء الأوغاد إلى وكرهم حملاً.. قررت أن تبدأ العراك.. إن المرأة تملك سلاحين بتارين هما أظفارها وأسنانها، وبهما تستطيع أن تهزم الجيوش ليكن.. ستعض وتخمش وتركل.. ثم.
هنا ظهر العجوز (هياو - شى - فانج).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منحني القامة كأنه جذع شجرة عجوز.. لحيته توشك أن تلمس الأرض فيتعثر فيها.. ثيابه أقرب إلى الأسمال.. تجاعيد وجهه كأرض عرفت الجفاف دهورا..
يدنو منهم، ويضع قبضتيه المرتجفتين في خصره، ويقول بصوت واهن:
- (سونج بياو)! دع الفتاة وكف عن هذا السخف..



يدنو منهم، ويضع قبضتيه المرتجفتين في خصره، ويقول بصوت واهن:
- (سونج بياو)! دع الفتاة وكف عن هذا السخف

يا لك من شجاع يا جدي! لكن لا تتعب نفسك.. فهؤلاء الأوغاد لن يتركوني من أجل شيخوختك إنهم يضربون الشيوخ بحماس، وقد رأينا الكثير من هذا منذ ثوان

لكن - الغريب - بدا شيء من اهتزاز الثقة على وجه الفتي ومن حوله.. لقد تراجعوا للوراء بضع خطوات، ولمحت - لذهولها - رجفة واضحة في ساق أحدهم.. وقال (سونج بياو) وهو يهز كفه:
- (هياو - شى - فانج).. لا شأن لنا بك ولا شأن لك بنا.. نحن قد شربنا الكثير من الجعة وقد دفعنا هذا الطلب بعض المرح.. لا شيء..
قال الشيخ في ثبات وهو يتقدم نحو الفتية..
- إن مرحكم يذكرني إلى حد ما بقطع الطريق. ولئن لم تنتهوا الآن..
- نعرف. نعرف.. معذرة يا (هياو - شى -فانج).
.. وفي الثانية التالية كانوا قد اختفوا من السوق تماما
من هو هذا ال (هياو - شى - فانج)؟ هل هو الحاكم؟ لا أحد سوى الحاكم يملك هذه السلطة القوية.. لا يمكن أن يكون أب واحد منهم؛ لأن صيغة الحوار لا توحي بهذا.. ونظرت - متسائلة – إلى البائع الذي كان الآن راكعا خلف المنضدة تحسبا للقتال القادم، وسألته:
- من (هياو - شى - فانج) هذا؟ وما سلطته على هؤلاء الفتية؟
نهض مطمئنا، وقال وهو يعيد تنسيق البرتقال الذي سقط أرضا:
- سلطة القوة طبعا!!
-هذا الشيخ؟ إنه مومياء تم تركيب محرك لها.. أكاد أحسب أن عامين مرا على وفاته
قذف برتقالة في الهواء وتلقفها، ثم ناولها إياها، وضحك متهكما:
- حين رأيته قادما اعتبرت هؤلاء الأوغاد موتى. إنه ليوم حظهم في الأبراج..
- لم تجبني عن سؤالي عن كنه هذا ال (هياو -شى - فانج)
نظر إلى بعيد حيث كان العجوز يبتعد في وهن، وقال:
- إنه أستاذ القتال بطريقة (تشوب سيوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتواصل (عبير) جولتها في السوق الذي صار آمنا الآن، ولم تستطع أن تبعد عن ذهنها صورة العجوز (هياو - شى - فانج) الذي تحدى عشرة من البلطجية، بمجرد القوة النفسية لا أكثر.. أما عن طريقة (تشوب سيوي) هذه فلا تعرفها ولا يهمهما أن تعرفها.. إن كل شخص في هذه البلدان في هذا الزمن، قد اتخذ لنفسه على ما يبدو أسلوبا متفردا في القتال، وهي لا تفهم هذه الأمور.. ثمة رياضات يركلون فيها أكثر من اللازم، وأخرى يصرخون فيها أكثر من اللازم، ورياضات يصيحون فيها: كاييييي!، وأخرى يصيحون فيها بصوت رفيع كالسحلية: هييي! ليس لديها المزاج الرائق كى تتذكر كل هذا..
لكنها كانت متأكدة من شيء واحد: لو كان هذا الزمن خطرا إلى هذا الحد، فمن الطبيعي جدا أن يتعلم كل إنسان كيف يبقى حيا يوما آخر.. ترى كيف يبدو حاكم هذه البلاد؟ وكيف يسيطر على كل هؤلاء البلطجية الذين هم شعبه؟ بالتأكيد هو أبرع من يلعب الكونج فو هنا، وهو قادر على هزيمة كل معارضيه.. لا توجد شرعية أخرى لحكمه على ما يبدو!..
كانت هناك مجموعة من الأطفال – الأوغاد بالمناسبة - يتسلون بقذف الحجارة على كلب صغير أجرب بائس، وكان المسكين يحاول الفرار أو التكشير عن أنيابه، لكن الحصار أرغمه على أن يقف وظهره لجدار، فراح يطلق ذلك العواء الشبيه بالصرير والذي يمزق نياط أقسى القلوب.. لكن من قال إن الصبية لهم قلوب أصلا فضلا عن أن تكون لهم نياط؟

هرعت إليهم وصاحت منذرة بالويل، وقالت أشياء على غرار: بس يا ولد منك له! وصفعت اثنين منهم بخفة على الكتف.. لو كانت في حارتها لقذفت ماء الغسيل المتسخ عليهم، وأمرتهم باللعب في مكان آخر..
تفرقوا وهم يطلقون عبارات السباب الكونفوشيوسى البليغ، فتجاهلتهم وانحنت تربت على المخلوق التعس القذر.. متسخ هذا صحيح ولكن من قال: إن النظافة حق للمنبوذين؟
.. حملته دون حذر.. لو كان أجرب حقا فهي في مشكلة، لكنها لا تبالي أمام عذابه.. واتجهت إلى امرأة تضع قطعا من لحم الدجاج النيء على منضدة أمامها.. وطلبت منها قطعة
بدا التردد على المرأة، فوضعت (عبير) البرتقالة أمامها على سبيل المقايضة.. ناولتها المرأة قطعة دامية من الجلد التصق بها بعض الريش واللحم فأخذتها إلى جوار جدار ووضعتها أمام الكائن التعس كان جائعا كالبعوضة الصغيرة، وراح يزدرد في لهفة كمن يتوقع أن يحرم من هذا الترف في أية لحظة..
استدارت إلى المرأة تفكر في أن تشحذ منها قطعة أخرى، هنا وجدت المرأة تنظر إلى ما وراء الجدار، في شيء من التوتر والتهيب..
كان (هياو - شى - فانج) واقفا هناك يرمق المشهد بعينية الغائمتين العجوزتين..
فتحت فاها لتتكلم، لكنه تكلم أولا.. قال لها في رضا:
- القوة الحقيقية هي في حب ما لا يجرؤ الفانون على حبه.. إن القوة التي تكمن في الرفق بكلب أجرب منبوذ لقادرة على تحريك الجبال، وتبديل مسار الشهب..
لم تفهم تماما.. لكنها أدركت أنه يمتدحها؛ لأنها اعتنت بالكلب.. وقال لها قبل أن تتكلم من جديد:
- هذا هو كلبي!
- لا يدهشني هذا كثيرا..
وأرادت أن تصارحه برأيها في عنايته المفرطة بالحيوانات، لكنه قال لها:
- إنه امتحان لمن يصلحون، وهو دائما في السوق هنا يتصيد المارة، ودعيني أخبرك أن أحدا لم يجتز الاختبار منذ عشر سنوات.. إنهم يشمئزون منه أو يقذفونه بحجر، ولم يخطر ببال أحد أن البائس جائع
كان الكلب قد فرغ من الطعام، فلحق بسيده وذيله يهتز، كأنما يبرهن على صدق كلامه، وراح يلعق أسماله. الاثنان في حاجة إلى عناية فائقة: الكلب وسيده
- ما اسمك يا ذات الغمازتين؟
- (فو - لى)..
- وأنا (هياو - شى - فانج).. لكنك اليوم ستنادينني باسم (المعلم)..
- ول.. لماذا؟
- لأن يمامة مثلك لا تستطيع الحياة وسط هذا العالم، من دون أن تتعلم شراسة النمور، وأنا أعلم شراسة النمور فقط لمن أجد أنه يستحقها.. وأنت تستحقين.. أنا وكلبي نعرف أنك تستحقين!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- التلميذة والمدرسة..

هكذا يمكن أن نقول: إن (عبير) لحقت بالمعلم في بيته.. وكان بلا أسرة ولا خدم.. بيت صيني عتيق فقير جدا، لكن له ما يشبه الفناء الخلفي حيث يجلس الرجل، ليقرأ تلك الكتب الغليظة مصفرة الأوراق التي تركها الأجداد.. وكان يأتي ببعض التمارين هناك، لكن القسط الأكبر من التمارين كان يمارسه عند البحر، الذي - كالعادة - يصل إليه عن طريق ممر سري تحت الأرض..

كان عجوزا جدا، ولم تدرك مدى تقدمه في السن إلا حين استطاعت أن تدرس وجهه عن كثب
أشار لها إلى بساط على الأرض، وقال:

- هنا تنامين يا (فو - لى)..

وأشار إلى خرقة ممزقة، وقال بنفس الوقار:

- وبهذا تتدثرين..

ثم أشار إلى سلطانية خزفية صغيرة بها ما بدا لها كأنه أرز مسلوق تم عجنه بقبضة اليد:

- ومن هذا تأكلين..

وصب بعض الشاي الأخضر البارد في سلطانية مماثلة وقال:

- ومن هذا تشربين..

يا للروعة! يا للترف! إنها عرفت الفقر وتعذبت به، لكن أكثر خيالاتها جموحا لم يصل إلى هذه الدرجة.. فلو كان هذا المعلم يحاول تدريبها على حياة الشحاذين، فمن حقها أن تخبره برأيها في هذا العز كله

قال لها وقد سمع ما تقول في ذهنها:

- الكبر.. يجب كسر الكبر.. أما الترف فسم ينبغي الخلاص منه؛ حتى تجد الحكمة أرضا تنبت فيها.. إن التقشف ترياقك، وعليك أن ترشفيه ببطء وتلذذ.

هزت رأسها، فلم يرق لها الكلام، لكنها كانت بحق راغبة في الاستمرار، ومعرفة لماذا يملك هذا العجوز كل هذا النفوذ

فما إن جلست، ومضغت أول قضمة من العجين الكريه، ورشفت أول جرعة من السائل المر، حتى صارت تنتمي لعالم هذا الرجل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف على الشاطئ والريح تطير ثوبه الطويل، وتجعل شعر حاجبيه الكث ينسدل على عينيه، وصفيرها يجعلها لا تسمع حرفا مما يقول، لكنها تخمنه.. إنه يحمل قدحا من الشاي الساخن بين أنامله، ويقول لها:

- هـ.. ا.. فو.. ها.. نى..

بالطبع هو يقول لها: هيا يا (فو - لى).. هاجمينى... هذا طبيعي لأنه ما من طريقة أخرى الملء الفجوات بين الحروف.. لذا تلوح (فو - لى) بالمذراة التي تحملها، وهي شبيهة بالتي يحملها الشيطان في الصور، وتنقض عليه قاصدة صدره، لكن العجوز يتملص منها إلى اليمين دون أن يبدل من وضع ساقيه أو يهز جذعه.. فتهجم من جديد لكنه يثنى جذعه للجهة الأخرى، وينتهز الفرصة ليرشف في تلذذ رشفة من الشاي.. تنقض بعنف حتى ليحدث سلاحها صفيرا وهو يشق

الهواء، لكنه من جديد يتحرك برشاقة إلى الخلف.. أمام.. يمين.. خلف.. يثب.. ينحني.. خلف.. أمام.. أسفل.. يمين.. يسار.. ثم يرشف رشفة أخرى من الشاي..
تقف أمامه تلهث ككلب في أغسطس، وترمقه في غل.. الآن لن تجد عسرا في تحطيم رأسه فقط لو أعطاها الفرصة.. يقول لها وهو يواصل رشف الشاي الذي لم تنسكب منه قطرة واحدة:
- الأعصاب.. الأعصاب.. السيطرة على كل خيط منها، والقتال بالعقل لا بالجسد.. هذا هو ما تعلمناه من (زن)، وعليك أن تتعلميه منى...
ثم رشف آخر جرعة من الشاي الساخن، وقال:
- عليك أن تتعلمي أن القتال لا ينتهي
وفي الثانية التالية قذف القدح في الهواء، وطار - لا تدري كيف - لينزع المذراة من يدها بركلة صغيرة، ثم عاد إلى مكانه ليتلقى القدح قبل أن يسقط فيتهشم ويواصل جملته:
- إلا حين تقول غرائزك إنه انتهى..
قالت في غيظ وهي تجاهد من أجل التنفس:
- هه هه.. هل هذا هو دورى فقط؟ أن أبرهن لك كم أنك بارع؟ هل أنا مجرد أداة للتدريب؟
- صبرا يا (فو - لى) صبرا.. أنت الآن ارتكبت ثلاثة أخطاء..
في غلّ قالت:
- حقا؟ لم أدر أنني بهذه الوقاحة من قبل.
- أولا تساءلت عن دورك، والتلميذ لا يسأل المعلم.. عن دوره، بل يؤديه خير أداء.. وثانيا تكلمت بوقاحة مع معلمك.. فهل كلمت أمك بهذه اللهجة من قبل؟ إن الأم تساوي عشرة آباء، بينما المعلم يساوى أربعين أمًا..
- هذان خطآن لا أكثر..
- الخطأ الثالث هو أنك غضبى.. وحينما تكونين غضبي يستطيع طفل أن يخدعك..
ولوح بقدح الشاي الذي كان يحمله، وأردف:
- لو لم يعمك الغضب، للاحظت أن القدح كان فارغا لا يحوي شيئا من الشاي، وأنني كنت أتظاهر بالشرب. خيالك جعلك ترين الشاي الساخن والبخار يتصاعد منه، وجعلك تشعرين بمذاقه وحرارته
أسقط في يدها، وشعرت برغبة عارمة في البكاء، وسألته بصوت مختنق
- حسن.. أنا غبية جاهلة.. أليس كذلك؟ سأرحل الآن
تقلصت ملامح وجهه في ابتسامة، ذكرتها بالباذنجانة الفاسدة عند الخضري، تلك التي تحولت إلى كرة من التجاعيد وقال لها:
- لا أراك غبية ولا جاهلة.. فقط صدأ كثير يكسو روحك من جراء غمسها في مستنقع المادية، ولسوف أزيل هذا الصدأ كى تعود روحك براقة كما خلقت عندها تدركين أن للروح البراقة جسدا خاصا بها، له خفة النمور وشجاعة النسور وقوة الدب.
وهكذا تحملت (عبير) الكثير جدا.. ما كانت تحب هذه التشبيهات المعقدة التي يستخدمها الصينيون واليابانيون، وما كانت لتهوي هذا السيل المنهمر من قطوف الحكمة، لكنها قررت أن تضغط على أعصابها..
وتتعلم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن أيامها مع (هياو - شى - فانج) سيئة إلى هذا الحد.. كان الرجل طيب القلب حقا، وقد زهد كل أشكال متع الحياة، وبالتالي زهد كل الأشياء التي تجعلنا أشرارا حين تصطدم مصالحنا بمصالح الآخرين لقد وصل إلى من يسميه بوذا باد (كارما).. لكنه كان يكره القسوة والشر، وأسلوب من يؤذون الآخرين لا لشيء إلا لأنهم يقدرون على ذلك، ولقد حسبت (عبير) نفسها خارج الموضوع تماما.. فهذه الكلمات تعني البلطجية والسفاحين ورجال العصابات لكنه أخبرها بأنها مثلهم إن لم تكن أسوأ.. ألم تحاول أمس أن تقتل تلك الحشرة التي وجدتها على حشيتها؟
هنا رأت المعلم يرفع يده محتجا:
- هل هي مؤذية؟ هل هي سامة أو يمكن أن تكون؟
قالت في ضيق وهي تلوح بالشبشب الذي امتشقته:
- لا أدري.. لكنها مقززة على كل حال، وهذا سبب كاف في رأيى كى
- هي كذلك تراك مقززة.. ربما أكثر منها لكنك أكبر وأقوى، وهذا ما يهبك - كما تتخيلين – حقا في أن تسلبيها حياتها التي لا تملك سواها.. ربما لم يكن (سونج بياو) شريرا إلى هذا الحد حين ضايقك في السوق، لأنك فتاة وضعيفة! كان هذا سببا كافيا في رأيه.
شعرت بخجل وتخلت عن سلاحها الشبشبي.. ستترك الحشرة المرعبة وشأنها.. إن حياتها مع المعلم هي مجموعة من الأخطاء التي يتم تصحيحها.. لكنها - نعترف - كانت تتحسن يوما بعد يوم في أدائها الجسدي، كأنما تلك الدروس الأخلاقية تصب في عضلاتها، ولا أدري كيف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وها هي ذي تقف على الشاطئ في الموضع المختار للتدريب.. يقول لها ملوحا بعصاه:
- ابدئي يا (فو - لى)!
فتبدأ..
والبدء هو مجموعة من الحركات المتواصلة على سبيل (التسخين).. ثم يندمج المعلم فينزل لها إلى الحلبة، ويهاجمها بعصاه التي يطرحها في الهواء وينقلها من يد ليد كالأبالسة، فتتفاداها.. تثب في الهواء وتوجه له ركلة لا بأس بها أبدا، لكنه يحجبها بقبضته عن وجهة.. و. و. كما قلت لكم إن وصف القتال ممل حقا، وهو من اللحظات القليلة التي أقتنع فيها بالمثل (إن صورة واحدة تغني عن ألف كلمة)، ذلك المثل الذي لم أقتنع به قط، وما زلت أجده سخيفا..

الخلاصة كما ترون أن (عبير) تتحسن.. تتحسن بشكل لا يصدق.. خاصة لو تذكرنا أن هذه نتيجة سبعة أشهر من المران لا أكثر

إن أسلوب (تشوب سيوى) - الذي ورث أسراره (هياو - شى - فانج) عن أجداده العظام – شبيه إلى حد كبير بما نسميه اليوم برياضة (التايكوندو)....
أو هو يبدو كذلك لغير المتخصص، لكن الاعتماد على القبضات أكثر نوقا، ولها أسماء مختلفة تحاول تقريب كل قبضة إلى ذهن من يسمع الاسم
رأس الكبش.. العنكبوت.. التنين.. الثعبان.. الجندب.. إلخ.. طبعا أنا عاجز عن تمييز هذه القبضات، لكن (عبير) تستطيع.. بالإضافة لهذا هي الآن تعرف أهم عشر نقاط حساسة في الجسم البشري، وبشكل يفوق خبرة أي معالج بالإبر الصينية.. إنها تعرف البوابات العشر التي تجتازها الأحاسيس كي تبلغ الروح، وتعرف كيف تغلقها بضربات مختارة..
إنها تعرف الصرخة المختارة التي تجمد الدم في عروق الخصم، وتعرف أنها لن تطلقها إلا حين تنفد كل أسلحتها.. إنها تعرف كيف تتحكم في مشاعر الخوف والغضب، وكيف تأخذ شهيقا عميقا تتخيل معه - بل تدرك - أنها احتوت النرفانا الحيوية في الكون داخل رئتيها، وتشعر بها تسري مع الدم إلى كل خلية منها.. ومع النرفانا تدنو ببطء من حقائق.. الأشياء، وتستطيع أن تفهم كيف تثب الذبابة من فوق المنضدة حين تهوى بقبضتك عليها
إنها تعرف أن خصومها - مهما بلغ عددهم – ضعفاء جدا واهنون جدا، وتوشك على الشعور بالشفقة من أجلهم؛ لأنهم حمقى لا يدركون مغبة تحدي من يجيد أسلوب (تشوب سوى)..
إنها تعرف أن مهمتها لا تقتصر على أن تكون أقوى.. عليها أن تكون أفضل.. وعليها أن تدخر قواها لغرض لا تعرفه بالضبط، لكنها تعرف أنه موجود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- سرنا الرهيب.

أخيرا يجلس المعلم العظيم (هياو - شى - فانج) يشرب الشاي الأخضر، وهو دائما يشرب الشاي حين يكون راضيا.. ثمة صبية يلعبون أمام الدار ويتصايحون ويقذفون القاذورات على بعضهم.. تقدم للمعلم بعض الأسماك المجففة المملحة على سبيل (البسكويت) فيمد يده إلى الطبق، ويلقي بواحدة إلى الكلب الأجرب الذي يبصبص بذيله، ويقول:
- هوه هوه.. لم يكن (شنج - لى - موه - فونج) مخطئا..
و (شنج - لى - موه - فونج) هو – عدم المؤاخذة - الكلب ذاته، وهو اسم جدير به على كل حال، ويردف العجوز:
- أنت حقا مناسبة جدا لتعلم ال (تشوب سيوى)، وقد أبليت بلاء حسنا، وكنت بمثابة ابنة لي.. لقد تلقيت العلم كما تتلقى الأرض الصادية مياه (اليانج تسى)، وإنني لأباركك يا (فو - لي) ذات الغمازتين
فتجثو على ركبتيها وتلثم أطراف ثوبه الممزق هنا ينعقد حاجباه حتى يصيرا حاجبا واحدا كثا، ويقول:
- لكني الآن في مرحلة الشتاء، وقد وهن قلبي. وأعرف أن (هياو - شى - فانج) لن يعيش ليرى طير السنونو مرة أخرى.. فلم يبق وقت إلا ليعلمك أهم الدروس كافة
قالت له كلاما مما معناه: الشر بره وبعيد وسوف تعيش لتدفننا جميعا.. ولا تقل هذا يا رجل لكنه قاطعها في حزم وهو يشرب المزيد من الشاى:
- (جيانغ - سه).. التنين الحاكم.. حذار من (جيانغ - سه)..
وكانت (عبير) قد سمعته كثيرا يتكلم عن المدعو (جيانغ - سه) حاكم المدينة الشهير باسم (التنين).. لكنه كان يتكلم عنه بنفس الصيغة التي نستعيذ فيها بالله من الشيطان الرجيم.. واضح أن (جيانغ - سه) لا يمثل إلا الشر المطلق في هذا العالم
- والأدهى أنه أبو (سونج - بياو) الذي تحرش بك في السوق ذلك اليوم.
هزت رأسها في فهم.. إذن توجد عداوة قديمة بين العجوز و (جيانغ - سه) هذا
- قد طلب مني أن ألقن أسلوبي لولده لكني أبيت، وقلت له: إن تعليم الأفعى كيف تلدغ ليس عملى وإن طريقتي لا يعرفها إلا من أختاره أنا.. عرض على الذهب.. الكثير منه.. وعرض علي الجواري. الكثير منهن. وعرض على النفوذ كل النفوذ لكني قلت له: إن كل ما أريد هو أن أجلس في فناء دارى، أداعب كلبي الأجرب وألتهم العصيدة..
- وتركك وشأنك؟
- بالطبع لا.. لقد أرسل لى عشرة من المسلحين في مساء يوم صيفي جميل رجاله
- وهزمتهم؟
- بل هزموني!
وارتجف حاجباه وتجمدت دمعة في عينيه..
فسألته (عبير):
- كانوا أقوياء إلى هذا الحد؟
- بل كانوا ضعفاء إلى أقصى حد.. نعم هزمتهم في القتال، لكني هزمت أنا نفسى حين عجزت عن

كبح جماح غضبي، وأرديت خمسة منهم قتلى!
تنهدت (عبير) الصعداء.. حقا هى بحاجة إلى قرن كامل كى تتعلم التفكير بطريقة هذا الرجل مازالت الهزيمة بالنسبة لها لا تعني سوى تلقى علقة محترمة.. أما هذا النوع من الهزائم المعنوية ف.
قال مواصلا اعترافه المشين:
- إن الهزيمة أمام الغضب أشد خزيا من ألف هزيمة بيد الأعداء، وقد كففت عن تناول الشاي لمدة عامين تكفيرا عن أرواح هؤلاء الأبرياء..
ومد يده في صدره بين أسماله يبحث عن شيء ما، وأخرجه في النهاية، فوضعه في كفها
كانت قلادة من معدن نفيس في حجم الكف بالأحرى كانت نصف قلادة قد شطرت إلى نصفين عرضيين، وعلى المدن حفرت بعض النقوش الصينية التي لم تستطع فهمها
سألها:
- ما هذا الذي ترين؟
تأملتها في غباء، وقالت:
- قلادة.. نصف قلادة لو أردنا الدقة
قال في تؤدة وهو يشرب المزيد من الشاي:
- أنت لا تجيدين القراءة.. وهذا هو الشيء الذي لم يسع العمر لأعلمه لك، لكن لو أجدت القراءة لوجدت أن هذه لغة صينية قديمة جدا تنتمي إلى عهد أسلافنا العظام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- قليلون من الناس من يعرفون أن نصف هذه القلادة معلق الآن حول عنق (جيانغ - سه)، أما من يعرفون أن النصف الآخر حول عنقي أنا فاثنان لا أكثر: أنا وأنت.. وكانا منذ دقيقة واحدا لا أكثر..
- والقصة تعود إلى نحو قرن، حين جاء ساحر هندي شرير إلى المدينة، وكان يحمل تلك القلادة في عنقه. ورأى الناس كيف استعملها، وفي أية أشياء جربها، حتى إن اسم المدينة تغير ليكون (المدينة المسحورة) إلى الأبد. وكان ما كان.. لقد تسللوا ليلا إلى خبائه فضربوا عنقه، وحاولوا الخلاص من هذه القلادة بكل السبل الممكنة، لكنها كانت تحمل سحرا قويا، وكانت مصممة على الظهور دائما.. يبدو أنها لا تترك أحدا يحملها إلى خارج المدينة أبدا.. لكن الناس إذ حاولوا تحطيمها وجدوا أنها قابلة للكسر إلى نصفين لا أكثر، وكلا النصفين يأبى مغادرة المدينة.
- كان القرار الذي اتخذه الحاكم - وهو أبو (جيانغ- سه) - أن يضع هو نصف القلادة حول عنقه، ثم ألقي بالنصف الآخر خارج قصره، وأعلن أن على واحد من الأخيار أن يأخذ نصف القلادة الآخر خفية يأخذه دون أن يعرف أحد أنه فعل
- الفكرة هنا أن ما كتب على القلادة رهيب، ويفتح أبوابا من الشر لم يحلم بها الحكماء قط.. لكن امتلاك أحد النصفين يترك المالك في حالة من عدم الفهم؛ لأن معنى النص غير كامل.. فقط حين يلتحم النصفان يكتمل الهول ويعرف الإنسان ما لم يكن له أن يعرف..
- لك أن تتوقعي أن أهل المدينة أحجموا جميعا عن التقاط النصف الملقي أمام القصر.. إلا أن طفلا وجد قطعة المعدن هذه وهو يلهو ساعة الغروب، وقرر الاحتفاظ بها لأن مظهرها راق له
- بالطبع أنت تعرفين الآن من كان هذا الطفل، وتعرفين سر هذه القلادة.. القلادة التي احتفظ بها الغلام تسعين عاما دون أن يعرف أحد أنها معه.. وفيما بعد أدرك أنه قام بالعمل الصحيح..

وارتجفت شفتا العجوز قليلا، وقال في وهن:
- لكن الإنسان يموت، ولسوف يحملونني وقتها إلى المحرقة لأتحول إلى رماد.. عندها ستمتد يد عابثة إلى الرماد لتخرج منه نصف قلادة ذات أهمية خاصة. لا أريد لهذه اليد أن تكون يد (جيانغ - سه) أبدا..
- ولكن أبا (جيانغ - سه) هو صاحب الفكرة وكان بوسعه أن......
- كان رجلا خيرا يوقد البخور للماتشو.. أعرف جيدا أنه لم يحاول فهم المكتوب على القلادة الكاملة أما ولده فهو شيطان رجيم، وقد قرر أنه بحاجة إلى القوة، والقوة لا تكتمل من دون النصف الآخر للقلادة.. لهذا هو يقلب الأرض بحثا عن هذا.. النصف، وهو لا يعرف إن كان قد فقد أم أنه حول عنق رجل ما.. لو وجد (جيانغ - سه) هذا النصف، فلسوف ترتجف الأجنة في بطون أمهاتهم لهول ما سيسمعون....
قالت دون تفكير:
- ولماذا لا تعدم هذا النصف؟
لائما قال لها:
- أنت لا تصغين لما أقول.. قلت: إنه من المستحيل تدمير هذه القلادة أو إخراجها من المدينة.
ثم رفع عينيه الغائمتين إلى (عبير) وقال:
- تعرفين الآن يا (فو - لى) لماذا اخترت أن أمنحك هذه القوة قبل أن أموت.. إن القلادة من الآن مسئوليتك وميراث الشرف في عنقك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - فليدخل التنين..

نترك (عبير) وأستاذها العجوز، ونتوغل بالكاميرا في مكان رهيب ليس من السهل أن تزوره لولا ما تمنحه لك السينما - والأدب أحيانا - من قدرة على اختراق الجدران..
نحن الآن في قصر الشرير (جيانغ - سه) حاكم المدينة المسحورة.. كيف يبدو قصر حاكم صينى شرير؟ كما تتخيلونه بالضبط وأسوأ.. إنها مجموعة من الممرات المزدانة بالمشاعل، وحراس ضخام الأجساد يرتدون الدروع المزخرفة غريبة الشكل، وأقبية يحرقون فيها السجناء - الأبرياء دائما - بالنار، وقاعة كبيرة تتأجج فيها النيران يجلس فيها (جيانغ - سه) محاطا بالمحظيات والحكماء المنافقين، والحراس الضخام عراة الصدور الذين يحملون سيوفا في طول قامتك، والذين لهم شوارب تتدلى على جانبي الفم من طراز (جنكيز خان)..
طبعا شعار التنين الصيني الملتوى مرسوم على كل الجدران، وعلى دروع الحراس، وعلى صدر (جيانغ - سه) نفسه
لا تحاول استفزازه لأنه متعكر المزاج جدا اليوم، ليس من مصلحة من يرغب في الاحتفاظ بعنقه فترة أطول أن يدنو منه الآن.
أمامه يقف ذلك الحكيم الأصلع يرتجف فرقا وعن يمينه يرقد نمره الأليف يلعق مخالبه كقط، ويتلمظ اشتهاء التعس الحظ التالي الذي سيأمر التنين بالقضاء عليه.. للأسف لم يكن مذاق هذا الفلاح الذي التهمة صباح اليوم محببا.. لربما يعد اليوم بوجبة أفضل وأكثر دسامة..
- وبعد؟
يقولها التنين وهو يعبث بخنجره الشرقي المتعرج ذى المنحنيات الست في أسنانه.. يمكننا الآن أن نتأمله في رعب.. إنه يرتدي ما يشبه (الكيمونو) الأسود وله وجه جدير بالشياطين، وشاربين طويلين منسدلين يذكرانك بالأفاعي، وحاجبين كثين كحاجبي وشق الإستبس.. الحقيقة هي أن قليلا جدا من الأشرار يمكن أن يحملوا على وجوههم ما يحملون في قلوبهم بهذا الوضوح الفج.. ملامح من الصعب أن تصدق وجودها، تنتمي لذلك المكياج الفظ المضحك الذي يضعه الأشرار في أفلام (الكونج - فو) إياها..
يقول الحكيم المرتجف وهو - طبقا - يرتجف:
- للأسف أيها التنين العظيم.. لم نجد لدي النجوم السر الذي سألتنا إياه..
فينظر التنين إلى أحد رجاله ممن يشبهون ثيران الجر:
- وأنتم؟ هل من أخبار؟
فيقول ثور الجر في هلع:
- لا أيها التنين.. لقد فتشنا المدينة بيتا بيتا ويمكن القول باطمئنان إنه لا قلادة هناك..
- لا تكن متفاخرا أيها الخنزير.. لا أحد يمكنه القول إنه لا قلادة، لأن القلادة أسهل شيء في إخفائها إنها كالسر الذي تداريه في ضميرك، فلا يقدر أي تفتيش على العثور عليه من دون تعذيب!
وضغط على العبارة الأخيرة وقد راقت له:
- من دون تعذيب
يقول ثور الجر وقد تحركت رومانسيته المرهفة إذ سمع لفظة (تعذيب)، بنفس الطريقة التي

تجيش بها مشاعرك حين تسمع ألفاظ (نسيم - ربيع - غروب):
- المشكلة أيها التنين أن تعذيب المدينة بأسرها سيكون عسيرا بعض الشيء.
- هذا هو عملنا.. ننجزه مهما كان شاقا، لأن الثمار لا تمنح للناعسين تحت أشجار السرو..
ومد يده يتحسس نصف القلادة المتدلي من عنقه... كانت مشكلة أبيه الدائمة هي افتقاره لبعد النظر تخيل رجلا يجد تلك القلادة بين يديه، وبرغم هذا لا يحاول استجلاء أسرارها، ويكسرها إلى نصفين، ثم يتخلص من أحد النصفين دون أن يكلف نفسه بمعرفة صاحب الحظ السعيد..
وحين جاء (جيانغ - سه) إلى عالمنا هذا، أدرك أن له هدفا واحدا مقدسا لن يحيد عنه أبدا: أن يكون شريرا.. أن يخيف الأبرياء والضعفاء، وأن يجعل حياة الأخيار جحيما.. وهو شيء كان سيحير علماء الاجتماع جميعا الذين تساءلوا إن كانت الشخصية الشريرة نتاج الوراثة أو البيئة، ولم يكن الأمران صحيحين بالنسبة ل. (جيانغ - سه).. لكن هذا يناسب المقولة الشهيرة: قد يجيء من ظهر العالم فاسد.. والحق أنه كان فاسدا.. فاسدا من نفس العجينة العبقرية التي منها جاء (هتلر) و (هولاكو) وخط الصعيد.. لكن الشر بدون قوة لا معنى له.. وكان (جيانغ - سه) بحاجة إلى القوة، وقد عرف من.... الأسلاف والشيوخ مقدار تلك القوة السديمية التي تمنحها القلادة الكاملة لمن يملكها.. لكن من له بالقلادة الكاملة الآن؟
وحين حضر الموت أباه، كان (جيانغ - سه) في سن المراهقة.. وقال له أبوه وهو يعالج سكرات الموت:
- أنت شرير قذر يا (جيانغ - سه).. ولقد ورثت كل أرواح الشياطين من أسلافنا.. وإنني لأرتجف هلعا من مصير سكان المدينة في عهدك.
ابتسم (جيانغ - سه) في تواضع، فهو لم يعتبر نفسه شريرا قط إلى هذا الحد الذي يدغدغ غروره وحتى هذه اللحظة لم يكن قد فعل أشياء أكثر من فقء عيون القطط، وغرس دبوس في أذن معلمه
مد الأب يده الراجفة في صدره ولوح بالقلادة قائلا:
- أرجوك أن تدفن هذه مع جثتي.. لا تحاول أخذها.. دعها تمت معى هذه وصية أبيك الوحيدة الذي يقضي الآن نحبه فاحترمها..
ثم مات..
هكذا - بالطبع - كان أول ما فعله (جيانغ - سه) هو أن مد يده في صدر أبيه الذي لم يبرد بعد، وأخذ القلادة ووضعها حول عنقه، وقرر أن يستفيد منها في أقرب فرصة.. ولكن كيف؟
اليوم هو في منتصف العمر، ومازالت القلادة الكريهة لغزا لا يمكن حله، وهو قد رزق بابن فاسد مثله.. وإن كان فساده من النوع الذي هو إلى عبث المراهقين أقرب.. ابن من النوع المستهتر الذي لن يعرف أبدا كيف يحتفظ بحكمه وكيف يخيف الناس..
لهذا أدرك (جيانغ - سه) أن الوقت قد حان للظفر بالقلادة.. النصف الآخر منها..
لكن كيف يجد الآن ما فشل في العثور عليه طيلة حياته؟
هناك العرافون والمنجمون، لكنهم يبرهنون كما هي العادة دائما على أنهم نصابون، لا يجيدون سوى الكلام العائم على غرار: إننا نرى تنينا ضخما في السماء يلتهم النجوم، ومنه يولد تنين أصغر قوى. والواحد منهم عاجز تماما عن معرفة المكان الذي توجد فيه قطعة ذهب ضاعت منه..
هناك الجنود، وهم أكفأ وأكثر شراسة، لكنهم - كما قال قائده - عاجزون تماما عن انتزاع السر من المدينة بكاملها، لأن تعذيب خمسة آلاف شخص مهمة مرهقة

إذن كيف وأين يجد القلادة؟
سيقوم الآن بقطع بعض الرءوس، عله بهذا النشاط اللطيف المحبب له يظفر ببعض الاسترخاء الفكري، الذي يجعل أفكاره أصفى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الثالث مات (هياو - شى - فانج) المعلم العظيم..
كان مرهقا وقد استبدت الشيخوخة بكل خلية من جسده، بالإضافة إلى أنه كان محموما..
ولكنه نهض من على الحشية التي يرقد عليها، وطلب من (عبير) / (فو - لي) أن تسنده إلى أن يصل إلى السنديانة الشامخة أمام الدار، وساعدته حتى أمسك بدورق من الماء راح يسكبه على جذورها.



وساعدته حتى أمسك بدورق من الماء راح يسكبه على جذورها..

يا له من مجهود أحمق لا يستحق مغادرة فراش الموت، لكن الرجل كان متحمسا كأنما ستموت الشجرة الباسقة لو لم يفعل هذا الهراء الذي يفعله الآن، وقال لها بوهن بالغ:

- هي أختي هذه الشجرة.. وقد أوصيتك بأن تلقى رمادي ليختلط بجذورها..
- اطمئن.. أيها المعلم.. مت.. أقصد نم قرير -العين..
- أوصيك كذلك ألا تعلمي أحدا أسلوب (تشوب - سوى) إلا من تتوسمين فيه الخير، وهو قرار
- اطمئن.. اطمئن.. فقط اصمت قليلا لا تقدرين على اتخاذه إلا حين تشيب آخر شعرة في رأسك، ويمر عليك أربعين صيف
- يمكنك أن تكسبي عيشك من تعليم أساليب القتال.. فقط الأوليات.. لكن ليس كل شيء..
- اطمئن.. اطمئن.. لم أر محتضرا يثرثر إلى هذا الحدّ..
وساعدته حتى عاد إلى الحشية فرقد عليها، وراح يسعل ويبصق ويمارس كل تلك الأشياء التي يمارسونها المحتضرون بحماسة.. وراح يشير إلى عنقها محاولا قول شيء ما، فقالت له:
- نعم.. نعم.. أعرف القلادة.. اطمئن.. إنها.... معى..
ابتسم في إرهاق ثم أغمض عينيه، وفعل آخر شيء يفعله الإنسان في هذا العالم..
وهكذا رحل المعلم العظيم، ووجدت نفسها وحيدة في المدينة المسحورة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - مدرسة الثعبان..

في القرن السادس قبل الميلاد جاء إلى الصين راهب هندي يدعى (بوديداما)، حاملا معه أسلوب الديانة البوذية على طريقة (زن)، ومعه أسلوب قتالي للدفاع عن النفس يتكون من ١٨ تمرينا، وفي الواقع انتشر الأسلوب القتالى في آسيا بسرعة تفوق انتشار الديانة البوذية نفسها، وسرعان ما بلغ اليابان، وقد تشعبت شجرة تلك الفنون القتالية الآسيوية لتتخذ أكثر من اسم، منها ما نعرفه وما لا نعرفه وما نسينا أننا نعرفه.. الكاراتي (اليد الخالية)، والكونج - فو (الملاكمة الصينية)، والجيجوتسو، والجيدو، والتايكوندو، والسومو والكندو والإيكيدو، والتاى شى شوان. وكما هو معروف فإن الكاراتى و (الكونج - فو) هما النوعان الأكثر شعبية بين هذه الفنون..

نشأ الكاراتي منذ أكثر من عشرة قرون، في البداية كتمرين ديني يمارسه الرهبان، ثم كوسيلة دفاع يستخدمها الفلاحون العزل ضد قطاع الطرق..

الجيجوتسو فن أقرب إلى الرقي وعدم الإيذاء لكنه يميل إلى الالتحام الجسدي، وتوظيف قوة من يهاجمك في مصلحتك أنت، مع توجيه الضربات إلى الأماكن الحيوية من جسمه، ومنه تطور الجيدو والإيكيدو عام ١٨٨٢ على أيدي الأساتذة اليابانيين.

والإيكيدو والتاى شى شوان فنان قائمان على تحاشى هجمات الخصم عن طريق حركات دورانية مع محاولة لى المفاصل أو إغلاقها، وهما على العموم أرقى أنواع الفنون القتالية، لذا - كالعادة – يحظيان بشعبية أقل. التايكوندو فن قتالى آخر نشأ في كوريا يستعمل الركل أكثر من غيره، وله أسلوبه الخاص في توجيه الركلات في أثناء الطيران في الهواء. وقد غزا العالم ابتداء من عام ١. الكندو تطوير حديث للمبارزة اليابانية القديمة بالسيوف. أما السومو فهو. رياضة يابانية جدا تقوم على التحام الأجساد العملاقة الشبيهة بالجبال، لرجلين تحولا إلى كتلة من الشحم والعضلات، وهو يفتقر بالتأكيد إلى الجمال والرشاقة اللذين تمنحهما باقي الفنون الآسيوية، لكن له طابعا يابانيا حميما يعرفه العالم ويألفه.

كل هذه الرياضات تركز على ثلاثة عناصر: القوة- السرعة - التقنية.. والحقيقة أن الرياضات القتالية والبوذية وفنون اليوجا مع المزاج الآسيوي الميال للتأمل؛ كلها أمور متداخلة ممتزجة بشدة، بحيث يصعب فصلها، ولهذا لا يجيد هذه الرياضات إجادة مطلقة إلا من استطاع أن يبرمج جزءا من عقله ليكون آسيويا..

(عبير) الآن - بلا فخر - تملك مدرسة لتعليم أسلوب قتال آسيوي خاص هو أسلوب الثعبان.. وفي هذه المدرسة هي المعلم الوحيد والناظر والفراش.. سبب نجاح هذه المدرسة هو أن الجميع يعرف أنها كانت ربيبة المعلم العظيم (هياو - شى - فانج).. وبالتأكيد تعرف الكثير عن أسلوب (تشوب - سيوى) الغامض الذي أبي العجوز تعليمه لأحد حتى ابن الحاكم.. وللأسف ما كان أحد يقدر على إرغام (هياو - شى - فانج) على شيء.

لكن (عبير) كانت أذكى من أن تمنح أسرارها المقدسة إلى هؤلاء.. لقد اختارت لنفسها منهجا لا بأس به تقوم بتدريسه، ويمكن أن يكون مبهرا ولكنه ليس كل شيء

وبعد ثلاثة أيام من حرق جثة العجوز – كعادة المدينة - بدأ الطلاب يفدون إليها، وقد حمل كل منهم شيئا يؤكل على سبيل الأجر: ديك.. تفاحة.. كعك.. بعض الأرز.. برتقال.. باختصار: كان

أجرها هو أن تظل حية ولا يقتلها الجوع.
أمسكت بقدح من الشاي الساخن، وقفت تتأملهم إذ وقفوا في فناء الدار، وكانت قد ارتدت نفس الأسمال التي كان يرتديها المعلم، حتى بدت كالشحاذين، لكنها كانت تعرف الآن أن القوة الحقيقية تأتي من روح قوية لا تبالي بهراء الترف والثراء.. وكان تلاميذها مجموعة من الصبية والفتية المراهقين المتهيبين المذعورين..
قالت لهم:
- الكبر.. يجب كسر الكبر.. أما الترف فسم ينبغي الخلاص منه، حتى تجد الحكمة أرضا تنبت فيها.. إن التقشف ترياقكم، وعليكم أن ترشفوه ببطء وتلذذ.
.. ورشفت جرعة كبيرة من الشاي الساخن، ثم أمرت أربعة منهم بأن يهاجموها
انقض عليها الفتية، لكنها تتملص منهم إلى اليمين دون أن تبدل من وضع ساقيها أو تهز جذعها هجموا من جديد، لكنها تثنى جذعها للجهة الأخرى وتنتهز الفرصة لترشف في تلذذ رشفة من الشاي ينقضون بعنف حتى ليحدث سلاحهم صفيرا وهو يشق الهواء، لكنها من جديد تتحرك برشاقة إلى الخلف.. أمام.. يمين.. خلف.. تثب.. تنحني خلف.. أمام.. أسفل.. يمين.. يسار..
ثم ترشف رشفة أخرى من الشاي.
وأخيرا تقول لهم في ثبات:
- أنتم غاضبون.. لهذا صرتم تفكرون بحماقة ولا تلاحظون جيدا..
هنا صاح أحد الصبية اللاهثين:
- فهمت! إن (فو - لى) ذات الغمازتين (تبلف) يا رفاق.. هذا القدح فارغ!!
- حقا؟؟
قالتها وطوحت القدح في الهواء، ليتناثر منه السائل الأخضر الساخن في كل صوب..
هذه المرة كان القدح مليئا فعلا، ولم تنسكب منه قطرة واحدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومرت الأيام، كما في السينما حين تتطاير أوراق التقويم في وجوهنا.. الفارق الوحيد في (فانتازيا) هو أن (عبير) تشعر بمرور الزمن حقا، لكنها لا تشعر بملله ولا رتابته.. هي فقط تعرف أنه مرّ..
تقدم التلاميذ لكنهم لم يصلوا لمستواها بالطبع والسبب هو أنها تدارى سر أسرار العجوز (هياو - شى -فانج) في قلبها.. لن تعلمهم أبدا كيف يتنبئون بالضربة القادمة قبل أن يخمنها الخصم. ولا كيف يصرخون الصرخة إياها التي يمكن أن تشل أسدا وتجعله يولي الأدبار، ولا نظرة العينين الثاقبة التي تربك من يراها..
ولم تدرك أن اليوم آت لا محالة حين تضطر لاستعمال هذه الأساليب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن في قصر (جيانغ - سه) الذي اشتهر بالتنين لأسباب لا أعرفها حقا. في الغالب لأن كل شيء الصين هو تنين بشكل أو بآخر.. عيد التنين باب التنين.. حتى المرض يعالجونه بأسنان التنين المطحونة.. يبدو لي أن التنانين كانت تملأ أرض الصين وسماءها في وقت بعينه من التاريخ.
هو ذا (جيانغ - سه) الرهيب وسط رجاله ونسائه يلتهم قطعة كبيرة من اللحم، ويتأمل غلاما ممزق الثياب متورم العينين في الثامنة من عمره..

يقول له ثور الجر وهو يجرد سيفه:
- هل أفتح بطنه الآن أيها التنين؟
يداعب التنين ذقنه بيده التي استحالت أظفارها مخالب، ويتأمل الصبي مفكرا:
- لا أظن.. إنه صغير السن جدا، ولسوف يكون مشهدا قاسيا..
ثم أشار إلى النمر المربوط بالسلسلة وقال:
- دع النمر يلتهمه أمامي.. سيكون هذا أكثر تسلية
هنا صاح الصبي وقدماه لم تعودا تحملانه:..
- مولاي التنين الأعظم! أنا لم أفعل ما أستحق عليه الموت..
- نحن من يحدد هذا.. هل تنكر إذن أنك احتفظت بتلك التفاحة ولم تعدها لقصري؟
- كنت جائعا أيها التنين الأعظم، ومررت جوار أسوار القصر.. هوت تلك التفاحة على رأسي، ولم أدر أنها من شجرتكم.. هممت بالتهامها، لكن الحراس انقضوا على وأوسعوني ضربا..
بدا الرضا على التنين، وتحسس التفاحة بحنان:
- هذا هو سر نجاحي يا غلام.. أنا لا أترك شيئا يضيع من يدي. ولربما كانت نهايتك قاسية لكنها ستعلم الأوغاد الآخرين أن الاحتفاظ بتفاحة تخص التنين هو عمل خطير، لا يعوضه مذاق التفاح في الكون كله..
ثم أشار إلى حارسه أمرا:
- (شانج)! فكوا سلسلة النمر!
اتجه (شانج) إلى السلسلة، وأخرج مفتاحا من جيبه وراح يعالج القفل، فيما بدأ النمر فعلا يلتهم الغلام بعينيه قبل أن يلمسه.. صاح الغلام في هلع:
- سيدي التنين! أنت لن تفعل هذا.. أعطني سببا واحدا يمنعني.. لكن لا تتحدث عن الرحمة، فهي موضوع ممل يعكر صفوي..
- مصمم على أن أفتدي حياتي..
- كلام جميل.. ولكن كيف؟
- لو أبعدت هذا النمر، فسوف أخبرك بسر يهمك أمره!
نظر التنين إلى رجاله وانفجر ضاحكا، ومعه انفجر الرجال ضحكا على سبيل التملق.. أخيرا قال:
- هوه هوه! الغلام يساوم! هوه هوه! يا له من تاجر بارع.. الحق أن هذا البائس قد بدأ يروق لي.. إنه لا يعرف أن بوسعي أخذ ما أريد حين أريد دون مساومة.. ولكن.. أعد السلسلة إلى عنق النمر يا (شانج) ولنر ما هناك
نظر الغلام حوله في حذر، وقال مرتجفا:
- إذن تعطيني الأمان؟
- هو لك لو كان سرا مهما..
- هو مهم إلى درجة أنني أرغب في إخلاء القاعة.
- لا وقت لذلك.. تكلم..
قرب الصبى وجهه من وجه التنين، وقال همسا:
- القلادة.. نصفها الآخر.. أنا أعرف مكانه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 - الغمازتان ضد التنين.. (وليس هذا اسم فيلم من أفلام هونج كونج)

- ماذا تنتظرون أيها الأوغاد؟ أخلوا القاعة حالا!!!
هذه طبعا كانت من التنين، الذي جعلت صيحته الجدران والقلوب والسيقان ترتجف، وإن هي إلا بضع ثوان حتى خلت القاعة من كل كائن يتنفس، وحتى النمر تظاهر بأنه لا يسمع ما يقال..
خلا المكان من البشر، فانحنى يمسك بالغلام من تلابيبه، ويعيد سؤاله:
- ماذا قلت؟
الحقيقة أن الغلام لم يحسب أن الأمر بهذه الخطورة، وحين رأى ملامح التنين الشيطانية المتقلصة وعينيه شبه الجاحظتين، كاد قلبه يكف عن الخفقان.. والحقيقة - نعترف - لم ير أن النمر كان بهذا السوء.
قال مرتجفا وقد بدت دموعه تسيل:
- نصف القلادة الذي تبحث عنه.. أنا أعرف أين نصف القل...
- أعرف أيها الحمار! لا تكرر نفسك مرتين!
- إنها لدى العجوز (هياو - شى - فانج).. أعني عند ربيبته (فو - لى) ذات الغمازتين الآن!
- وكيف عرفت هذا كله؟..
- كنا نلعب أمام داره، ورأيناه جالسا مع الفتاة يشرب الشاي في فناء داره ويحدثها.. بعدها انتزع هذا الشيء من حول عنقه، وأمرها بأن ترتديه حول عنقها هي..
- وكيف عرفت أنها القلادة؟
أطلق التنين سراح الغلام وراح يفكر إن الغلام لا يكذب.. لا أحد يكذب بهذا التعقيد، ولا أحد يكذب وهو خائف إلى درجة أنه بلل سرواله..
- إن الأساطير معروفة في المدينة، والقلادة التي تم كسرها إلى نصفين يمكن تمييزها من بعيد..
نعم.. هكذا تبدو الأمور منطقية منظمة كما ينبغي أن تكون الحياة.. فقط في القصص التي يحكيها الأجداد تكون الحياة منطقية مفسرة بهذا الحد، ويكون لكل شيء مبرر ما.. تأمل الجوانب الشعرية في الموضوع القلادة لها نصفان: النصف الأول مع أشر أشرار المدينة، والنصف الآخر مع أخير أخيارها.. العدوان القديمان العتيدان.. قطبا إبرة البوصلة التي اخترعها الصينيون.. النور والظلام.. الأبيض والأسود وبينهما تتوزع أشنع قوة عرفها الكون بحيث لا يظفر.. بها أحدهما..
هكذا تغدو الأمور واضحة بلا التباس.. على أن الفارق الوحيد عن القصص هنا هو أن الشر سينتصر بالتأكيد سينتصر.. لماذا؟ لأن العجوز (هياو - شى -فانج) قد مات.. من حسن حظه أنه مات.. وربيبته هذه لن تصمد طويلا أمام (جيانغ - سه) الرهيب التنين.. منذ متى تصمد الغمازتان أمام التنين؟
ونظر إلى الغلام وابتسم في وحشية..



ونظر إلى الغلام وابتسم في وحشية..
قال الغلام متوجسا: «طبعا ستقتلني الآن»..

قال الغلام متوجسا:

- طبعا ستقتلني الآن.. وتقول إنك كذبت حين وعدتني بالأمان، وإنه ما كان على أن أصدق شريرا

مثلك؟ كلهم يفعلون هذا..
- كلا يا غلام.. لحسن حظك أن الخبر الذي جئت به أجمل ما سمعت في حياتي.. لن أفتك بك ولكنى مضطر لإلقائك في السجن حتى لا يتسرب خبر أنني أعرف..
وربت على خد الغلام في حنان شنيع، وقال:
- هلم يا غلام.. لا تحزن.. سأطلق سراحك. سريعا جدا.. وساعتها سترى أشنع تجربة رآها الناس منذ عهد أسلافنا العظام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالطبع لم تعرف (عبير) هذا إلا متأخرا جدا.. كانت تمشي في السوق كعادتها، وبالطبع كان استقبالها يختلف كثيرا عن المرة الأولى.. الباعة يبشون في وجهها ويلقون لها ثمرات الرمان والبرتقال، مع الصفة التي أحبت أن تقترن بها:
- تحية يا ذات الغمازتين.. يا بنة الشمس والقمر..
كان الكلب الأجرب (شنج - لى - موه - فونج) يمرح كعادته بقربها، ثم توارى بين أوتاد الخيام المنصوبة، فلم تقلق عليه.. هذه هي مزية أن يكون الكلب أجرب معدوم الحيلة.. لا أحد يرغب في. سرقته..
دنت من بين طبقات قماش الخيمة وأمعنت النظر إلى المشهد التالي:
كان هناك شاب غير مهندم الثياب، له قامة ولون بشرة ولون شعر وملامح رجل غير آسيوي، يسرق نعم يسرق بعض النقانق من على منضدة بيع، بينما البائع متكئ على الأرض منهمكا في تدخين الأفيون والأفيون - بالمناسبة - هو الطريقة التي اختارها المستعمر البريطاني لاحتلال الصين.. إن شعبا غائبا عن الوعي بفعل الأفيون لا يقاوم مستعمره بحماسة، هذا إن قاومه أصلا.. هل تذكرون موضوع حرب الأفيون الذي كان مقررا علينا، والذي استطاعت عصا الأستاذ (جودة) مدرس التاريخ أن تحفره في أذهاننا للأبد؟ نسيتموه برغم العصا؟! رباه! كنت أود أن أذكركم به، لكن هذا استطراد طالما أثار الحنق على كاتب هذه السطور.. فلنعد للسياق إذن.
كنت أقول: إن الفتى كان يسرق النقانق، ووقفت (عبير) ترمق هذا المشهد المذهل في فضول.. وهنا أدركت أنها لن تبلغ القوم عن الفتى.. لا لن تفعل.. السبب هو أن هذا فتاها بالتحديد.. ملامح زوجها (شريف) التي لا تخطئها أبدا.. ومعنى هذا أنه سيكون عليها أن تحب هذا الفتى وترتبط بمصيره طيلة القصة.. الروتين دائما.. الروتين.. لقد تعلمت هذا مرارا في (فانتازيا)، ومن الحمق إذن أن تفسد كل شيء باستدعاء القوم..
هنا ابتعد الفتي عن المنضدة وقام بعمل غريب بعض الشيء.. لقد ابتعد بضع خطوات، ثم انحنى ووضع النقانق على الأرض أمام شيء ما.. كلبها الأجرب على وجه التحديد..
ما معنى هذا؟ هل معناه أن عليها تعليمه أسلوب (تشوب سيوي)؟ ليس بهذه البساطة، وليس من واجبها تعليم هذا الأسلوب لكل من يطعم كلبها ثم إن كلمات المعلم الأخيرة كانت واضحة لا لبس فيها:
أوصيك كذلك ألا تعلمي أحدا أسلوب (تشوب.... سيوى) إلا من تتوسمين فيه الخير، وهو قرار لا تقدرين على اتخاذه إلا حين تشيب آخر شعرة في رأسك، ويمر عليك أربعون صيف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنت أيها اللص!!
دوت الصيحة فالتفتت إلى الوراء لتجد البائع قد أفاق أخيرا، ورفع الساطور يريد أن يفلق به رأس الفتى
وسمع القوم في السوق النداء، فهرعوا بالغوغائية المعتادة يلحقون بالمشهد، وتعالى السباب.. أما الفتى فوقف متجمدا كفار وقع في مصيدة.. مئات الوجوه الصفراء تحيط به، حتى غدا من العبث أن تقنعهم أنه سرق لإطعام كلب جائع.. هنا بدأ يفعل أشياء غريبة..
رأته (عبير) يكور قبضتيه.. وقد فرد أحد الذراعين للأمام، بينما ضم الذراع الآخر كأنما ليحمي وجهه.. لكن قبضة الفتي طارت كالبرق لتلطم فكه.. ترنح الرجل ثم هوي كالدن الثقيل
إنه يتحدانا إذن ذلك اللص الأوروبي!
وتقدم رجل ضخم الجثة كي يؤدب الفتى، وعلى وجهه تعبير أنه لا يحب هذا المزاح.. طارت قبضته نحو وجه الفتى، لكن هذا انحنى في رشاقة ليتفادى القبضة، ثم طارت قبضته لتدفن نفسها في لحم بطنه الرخو.. أوعععع! قالها وتكور على نفسه، وسال دم كثير من فمه
- هذه طريقة قتال الشياطين! هذا الفتى شيطان متنكر!..
وراحت ساقاه تهتزان جيئة وذهابا، وهو يتواثب للأمام والخلف.. دنا منه أحد الصينيين ليلقنه درسا، ويتقدم القوم واحدا بعد آخر، لكن الفتي يتواثب كالمانجوس حول الكوبرا، ومن آن لآخر يسدد ضربة قاتلة إلى بطن أو صدر أو فك خصمه، فيسقط هذا أرضا.. الخلاصة أنه جندل خمسة منهم..
حمل القوم عصيهم وقرروا أن يهجموا في الوقت ذاته.. إن الفتك بهذا الفتى سيكون متعة دونها مصارعة الديكة في حانة (فان - كوان) العجوز وبدا للحظة أن الأمر منته.. هنا..
- هبوني حياته يا أهل المدينة المسحورة؟
كذا صاحت (عبير) وهي ترفع كفها بطريقة آمرة.. صاح أحدهم في احتجاج:
- هذا لن يكون يا (فو - لى) ذات الغمازتين إن مكانه هو قصر الحاكم، حيث يلقى جزاءه..
من نطاقها أخرجت بعض ثمار الفاكهة، وقذفتها على المنضدة أمام البائع وقالت:
- هل أنت راض يا (ماو - شون - قه)؟
نظر إلى ما وضعته، وقال في تردد:
- راض يا (فو - لى) يا ذات الغمازتين ولكن..
طوحت بضفيرتها الجميلة إلى كتفها الآخر، وصاحت:
- دعه وشأنه يا (ماو - شون - قه).. قد نلت ثمن ما سرق منك، ولو كان لمعلمي العظيم خاطر عندكم فأنا أسألكم أن تطيعونى..
بدا على القوم أن للمعلم العظيم خاطرا كبيرا وبدءوا يتفرقون في حيرة..
أشارت إلى الشاب المذهول وقالت بلهجة آمرة:
- فلتتبعني....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8-جاءوا ليأخذوها..

قدمت له بعض العصيدة مع السمك المملح، وكان هو جالسا على الأرض ساهما ينظر إليها في فضول.. كان يتحدث الصينية ويفهمها لهذا لم تجد صعوبة في فهمه وإفهامه.
سألته وهي تربت على ظهر الكلب:
- ما تلك الطريقة القتالية التي اتبعتها في السوق؟
ملأ فمه بالعصيدة الكريهة، وقال:
- اسمها (الملاكمة).. إنني أتبع طريقة الماركيز (كوينزبرى) العظيم.. استخدام القبضتين في حماية الوجه والجذع، ثم استغلال الثغرات التوجيه لكمات قاضية إلى الخصم[1]...
- لا ركلات؟
- لا ركلات.. إن رياضة (ملاكمة الركلات) أو (كيك بوكسينج) لم تخترع بعد
ساد الصمت قليلا ثم سألته
- من أين أنت؟
- (جاك دلبيرت).. إنجليزي
- لا تبدو لي من سلالة ملوك إنجلترا، وأراهن أنك لا تملك قصرا، فهلا حكيت لي قصتك؟
حك شعره الأشقر المشعث، وقال في ملل:
- لا شيء.. بحار على سفينة اعتادت التعامل مع التجار الصينيين.. قراصنة صينيون.. الموت لجميع رجال الطاقم.. الهرب.. الأرض تلوح بعد أسبوع في المحيط، ثم الوصول إلى المدينة المسحورة..
- قصتك تحدث كل يوم
- بالفعل هي كذلك.. لهذا أخجل من سردها لأنها مملة....
تأملت طبق العصيدة الذي فرغ منذ ثوان في يده، وقالت:
سأقدم لك عرضا.. ستقيم هنا في مدرسة الثعبان، وتنال طعاما ومكانا للنوم.. في المقابل أريد أن أتعلم منك هذا الأسلوب القتالي الغريب إنه يختلف كل الاختلاف عن أسلوبنا هنا.. وأنا معلمة قتال، ويجب أن أعرف أكثر..
ابتسم في ارتياح، وتأمل المكان حوله، ثم قال:
- وماذا لو طلبت فرصة للتفكير؟
- بل يجب أن تطلب فرصة للتفكير.. نحن هنا في آسيا القديمة حيث الزمن لا معنى له.. يستطيع المرء أن يتأمل ويقلب الأمور بضعة قرون لو أن العمر سمح له بذلك..
ولكنه لم يستغرق كل هذه الفترة لقد عاد إليها بعد ساعتين راح يجول فيهما في الفناء الخلفي للدار، وقال لها:
- موافق يا (فو - لى).. ليس لدي اختيار آخر. تظاهرت بالبرود، وإن اعترفت لنفسها بأنها راضية كل الرضا عن هذا القبول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تدري متى ولا كيف استيقظت، وكان القمر يتسلل من النافذة الوحيدة للدار، ونظرت إلى

الكلب النائم بجوارها.. كان نائما بعمق، لكن هذا لا يهم.. إنه أحمق.. ربما أغبى كلب رأته في حياتها، ومن الوارد أن يثور بركان أو يتحرك زلزال دون أن يشعر؛ لأنه لا يملك من غرائز الحيوان إلا الجوع..
نظرت خارج النافذة فوجدت مجموعة من الأشباح، وسمعت مجموعة من الصيحات القصيرة.. إن الضيف الجديد ينام هناك في الفناء الليلة، ولا يمكن أن تكون هذه الأصوات بسبب كوابيس يراها..
لم تنتظر أكثر وتسلقت النافذة لترى ما هنالك.. هناك ترى تلك المجموعة من الأشباح، وتدرك أن.. الفتى الوافد الجديد يقف في وسطها ملوحا بقبضتيه.. يبدو أن نحو عشرة من الرجال ضخام الأجساد يهاجمونه، وهو يحاول بقبضته إنهاء القتال على طريقة.. طريقة (كازبوري) أو (كادبورى) هذا.. كان يؤدي عملا لا بأس به على الإطلاق.. وقد أسقط منهم ثلاثة أو أربعة.. لكن الكثرة تغلب الشجاعة على كل حال، خاصة إذا كانت الكثرة تحمل السيوف والخناجر.
شعرت بغضبة عاتية بسبب تدنيس دارها بهذا الشكل المهين.. لا بد أن هؤلاء القوم لا يغتسلون بماء (اليانج - تسى)، ولا يشعلون الشموع للمانشو.. وثبت من النافذة، وأدركت أنها ترتجف غضبا.. أخذت شهيقا عميقا لأنها سمعت صوت أستاذها العظيم:
- الخطأ الثالث هو أنك غضبى.. وحينما تكونين غضبي يستطيع طفل أن يخدعك....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنها تعرف كيف تتحكم في مشاعر الخوف والغضب، وكيف تأخذ شهيقا عميقا تتخيل معه - بل تدرك أنها احتوت النرفانا الحيوية في الكون داخل رئتيها، وتشعر بها تسري مع الدم إلى كل خلية منها.. ومع النرفانا تدنو ببطء من حقائق الأشياء، وتستطيع أن تفهم كيف تثب الذبابة من فوق المنضدة حين تهوى بقبضتك عليها..
إنها تعرف أن خصومها - مهما بلغ عددهم - ضعفاء جدا واهنون جدا، وتوشك على الشعور بالشفقة من أجلهم؛ لأنهم حمقى لا يدركون مغبة تحدي من يجيد أسلوب (تشوب سيوي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت في الفناء في ضوء القمر، وصاحت بأعلى صوتها:
- أنتم دنستم فناء داري بأقدامكم، وإنني آمركم بالرحيل حالا....
تصلب الجميع.. ثم تخلوا عن حصارهم للفتي، وبدأ ستة منهم يتقدمون منها وهم يلوحون بأسلحتهم التي تلتمع في ضوء القمر الفضي البارد.. وقال قائل منهم لم تتبين وجهه في الظلام:
- يا (فو - لى) ذات الغمازتين.. ثمة شيء معك يريده التنين.. شىء حول عنقك بالذات.. ونحن راغبون بحق في حقن الدماء.. فقط أنت تفهمين ما نريد قوله..
نعم تفهم.. المصيبة أنها تفهم.. ويعلم الله أنها لا تدري من أين عرفوا.. هؤلاء جاءوا إذن لذبحها وهي نائمة وسرقة قلادتها، لولا أن تعثروا في الإنجليزي النائم، ولم يكن سهل الهضم على ما يبدو..
اتخذت أحد الأوضاع الأستاذية البارعة التي تعلمتها من المعلم الذي لحق بأجداده: وضع القلق. لا أدري ما هو بالضبط لكنه كذلك.. وقالت وهي تفتح ذراعيها بأسلوب الإنذار النهائي:
- لقد أردتم القتال.. فأنا له!
لا تدري لما قالتها، لكن هذه العبارة تتردد في كل فيلم (كونج فو) تقريبا.. حتى صار لها مذاق (صباح الخير) عند الاستيقاظ، و (آلو) عند الكلام في الهاتف..

وكأنما كانت هذه هي الإشارة، انقض الرجال عليها بأسلحتهم، وهم يتصايحون..
لكن (عبير) كانت تتواثب وتوجه اللكمات كالقط البري.. تركل.. تنحني.. تقف على ذراعيها الممدودتين، وتدور كالعجلة.. ثم تمارس الشيء الذي لا تصدقه ما لم تره.. تثب.. تطير على ارتفاع ستة أمتار، ثم تهبط على ساقيها لتوجه لكمة إلى عنق أحدهم إن أسلوب (تشوب سيوي) يعمل جيدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- نعم هزمتهم في القتال، لكنى هزمت أنا نفسي حين عجزت عن كبح جماح غضبي، وأرديت خمسة منهم قتلى! إن الهزيمة أمام الغضب أشد خزيا من ألف هزيمة بيد الأعداء، وقد كففت عن تناول الشاي لمدة عامين تكفيرا عن أرواح هؤلاء الأبرياء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لهذا توقفت وقد أيقنت أنهم لن يستطيعوا مزيدا من العنف
راحوا يلملمون جراحهم وجرحاهم ويرحلون جثت على ركبتيها لترى الفتى الذي كانت لثته تنزف والكدمات تملأ وجهه وما حول عينيه، فساعدته على النهوض.. قال وهو يبحث عن ساقين يقف عليهما:
- آى! إن تقاليد الضيافة هنا غريبة نوعا لم أتوقع.. آى.. كل هذا الترحيب..
- إنهم ودودون هنا.. هل نسيت السوق؟
- ولماذا يفعلون.. آى!! هذا؟..
- لنفس السبب القديم قدم التاريخ. لدي شيء لا أريد أن أعطيه لهم وهم يريدونه.
- آى.. وما هو؟
ابتسمت في غموض ابتسامة لم يرها في ضوء القمر، وقالت بلهجة ذات معنى:
- هذه أشياء لا تحكى لغريب لم يلقه المرء إلا منذ يوم واحد..
- هذا صحيح.. آى..
قالها في خجل، وصمت.. مرت هنيهة ثم قالت:
- لكنك أنقذت حياتي.. شكرا لك
- لا أحد يستطيع إنقاذ حياة فتاة تقاتل مثلك هذا شرف لا أدعية، ولعلك أنقذت حياتي للمرة الثانية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يومان..
وأدركت (عبير) أن القصة لم تنته نهاية سعيدة بعد سيعود (جيانغ - سه) لأنه من طراز الأوغاد المثابرين الذين لا ييأسون بسهولة.. من الحكمة إذن أن تنتزع القلادة وتخفيها في مكان آخر.. صحيح أنها في أمان لا بأس به حول عنقها، وصحيح أنها ستدافع عنها حتى الموت، لكنها لا تضمن حياتها إن رمحا يطير في الظلام، أو هجمة غادرة مثل التي حدثت أمس قد تقضي عليها، وعندها سيحز هؤلاء القوم عنقها، وينزعون القلادة بالطريقة السهلة: من أسفل العنق لا من أعلى الرأس!
مدت يدها إلى القلادة وهمت بنزعها، لكن شيئا غريبا حدث....

لقد راح المعدن يتوهج.. يتوهج.. يسخن.. يسخن.. آه هـ هـ هـ! حزام من نار يحيط بعنقها حتى صار من العسير أن تحاول

ما معنى هذا؟ ما الذي؟

ابعدت يدها عن القلادة، هنا شعرت بها تبرد ببطء وعادت إلى سيرتها الأولى..... هذه القلادة تأبى التخلي عن عنقها، والغريب أن المعلم العجوز قد نزعها بسهولة تامة من قبل كأن القلادة تعرف أن مصيرها حول عنق (عبير) للأبد.. ولكن.. يا له من مأزق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9 - المباراة..

في الصباح جاء (سونج بياو) ابن التنين..
كان وحيدا لا يصحبه إلا حارسان مدججان بالسلاح، وكان الفتى متأنقا مضخما بالعطر، وقد حرص على أن يطوح برأسه لتبدو ضفيرتاه الطويلتان للعيان..
كانت واقفة في فناء الدار، حين رأتهم قادمين من بعيد تبادلت نظرة ذات معنى مع الإنجليزي وقالت همسا:
- هلت روائح الأحبة!
ثم شرحت له - باختصار - أن (سونج بياو) وغد رقيع وهو ابن (جيانغ - سه) الذي هو وغد غير رقيع.. إنها لم تلق الأخير قط، لكن من الواضح أنه الشر يمشي على قدمين
وفي ثبات تعلمته من أستاذها، وضعت جذعا خشبيا فوق قطعتي قرميد، ثم رفعت سيف يدها وأطلقت صرخة عاتية:
- كاييييييي!!
وهوت على الجذع لتحطمه إلى نصفين.. فعلتها كأنها لا تلاحظ القادمين، وكأنها تقوم بنشاط يومي رتيب.. كان هذا في الوقت الذي دنا فيه الفتى وحارساه منها، فوقفت ومسحت يدها في خرقة قماش، وانحنت بحركة احترام ساخرة وقالت:
- يا للشمس والقمر! ابن التنين العظيم في داري الحقيرة!
لم يبد مستعدا لمجاراتها في الكلام المسموم وقال وقد بدا عليه بعض التوتر:
- (فو - لى).. أنا هنا في مهمة محددة.. وأبغى الكلام على انفراد.. أنت من القوة بحيث لا تحتاجين إلى وجود هذا الأوروبي الناعم هنا بجوارك....
كوّر (جاك) يديه واستعد للشجار، لكنها هدأت من روعه بإشارة عابرة ودعته للابتعاد
.. فما إن اختلى بها (سونج بياو) حتى تهلل وجهه وهتف (أتراه في شيء من الرقة؟)
- (فو - لى) إلى متى ستبقين بعيدة عنا؟ أنت قوية ويمكنك أن تكوني منا.. إن المرء ليجد عسيرا بالغا في نسيان هاتين الغمازتين اللتين..
- لو اختصرت الكلام لكنت شاكرة..
- حسن.. لنقل إنني أهيم بك حبا منذ موضوع السوق إياه....
فلما رأى وجهها يربد وقبضتها تتكور، هتف في جزع ملوحا بكفه:
- لكن هذا ليس موضوع زيارتى.. هذا ليس موضوع زيارتى.. لقد أرسلني أبي برسالة مختصرة لك....
- القلادة أو الموت..
- انت تتكلمين بلساني حقا.. ودعيني أؤكد لك أن أبي شرير بما يكفي.. أنا نفسى أرتجف هلعا كلما رأيت ما يفعله، وأتساءل: أي نوع من البشر هذا.. صدقيني إن عداوته غير مستحبة، وأنا أخاف عليك من مغبة شيء كهذا..
- لذا جئت تطالب بالقلادة..
- هذا سيمنحنا حياة أطول وأهنأ. لكني على كل حال جئت أقدم لك عرض أبي، وهو يبدو عرضا لا غبار عليه..

وقدم عرضه: سيربح التنين القلادة في قتال شريف يقام فجرا عند بوابة التنين الذهبي.. سيكون على (فو - لى) أن تواجه خمسة من المحاربين المقتدرين.. الواحد تلو الآخر بطريقته.. فإن ربحت كانت القلادة لها بالكامل، ولها أن تفعل بها ما تشاء، أما إن خسرت فعليها أن تسلمهم القلادة..

قالت (عبير) مفكرة:

- هذا يبدو غريبا.. لماذا لم يلجأ أبوك للحيل القذرة؟

- لأن أبي يريد الحصول على القلادة سريعا دون إضاعة وقت، وقد رأى مما فعلت برجاله أنك صلبة قادرة على المقاومة فترة لا بأس بها.. هذا الحل لن ترفضيه لأن محارب (تشوب سيوي) لا يرفض التحدي أبدا.

- وهبني رفضت؟

- سيلجأ إذن إلى الطرق الصعبة القذرة.. وثقي أنه بارع فيها

واستدار الفتى إلى حارسيه داعيا إلى الانصراف وقال قبل أن يرحل:

- سنكون هناك في الموعد، ولسوف نعرف ردك وقتها، فلا تتجشمى مشقة إرساله لنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (عبير) لمرافقها الإنجليزي، وهما يتجهان إلى بوابة التنين الذهبي (وكل مدينة صينية تملك واحدة منها):

- المهم ألا تتدخل مهما حدث..

كان يحمل العصا وسيفين، وإن لم تكن الحاجة ماسة إليهما كما قلنا.. وقال لها لاهثا:

- لن تنجحي.. ولو نجحت لبدأ الجزء الثاني. من الخطة..

- وهو؟

- قتلنا والاستيلاء على القلادة.. ولكنك لم تخبريني بأهمية هذه القلادة التي يحدث كل هذا بسببها؟

قالت وهي تجد السير:

- إنها مهمة وكفى.. أقسم إنني لا أعرف سر أهميتها، لكن المعلم كان يعرف ما يقول..

ضوء الفجر الغامض الذي يأبى الاعتراف بأنه أزرق، ويرفض بكبرياء أن يكون أرجوانيا أو أحمر هذا الضوء يغمر كل شيء معلنا تلك الفترة التي يتردد فيها الوجود بين ليل ونهار..

البرد يخترق الجلد ليدغدغ العظام، والهواء النقي الذي ينسى المرء أنه موجود، الطيور تصحو من النوم لتتساءل: أين وكيف ومن؟ لا صوت سوى ارتطام أربعة أحذية بالكلأ المبتل الرطيب.. ولا صوت سوى لهاث حامل السلاح..

وأخيرا تلوح البوابة من بعيد مدثرة باللون الأرجواني.

لماذا هي بوابة التنين الذهبي؟ سؤال غريب بالطبع لأن عليها نقشا بارزا لتنين يلتف حول نفسه، ويطلق النار من منخريه وفمه، وهو نقش طلي بلون الذهب وراح يتوهج في ضوء الشمس القادمة من بعيد.

وكان الرجال ينتظرون.. وللمرة الأولى ترى (عبير) (جيانغ - سه)، وأدهشها أنها للمرة الأولى تبصر من يبدو شريرا إلى هذا الحد.. كل الأشرار الذين يقابلهم المرء هذه الأيام يبدون أناسا عاديين لكن التنين (جيانغ - سه) كان شيطانا بكل البشاعة التي تخيل بها الرسامون صورة الشيطان.. في تلك الأيام السعيدة كان الأشرار يبدون أشرارا بحق.

كان واقفا وسط رجاله.. وحوله مجموعة من الحكماء ذوى اللحى التي تلمس الأرض، وكان هناك خمسة من الرجال شرسي المنظر كلهم عراة الجذوع واضح أنهم مصارعون أو شيء من هذا القبيل وبالطبع كان ابنه (سونج بياو) وسط الواقفين..
وقفت أمام التنين وحاولت أن تبدو متماسكة..
قالت:
- قد جئت أيها التنين...
- عرفت أنك آتية يا ذات الغمازتين.. ولم تتأخري كثيرا..
ومد يده في صدر ردائه فأخرج نصف القلادة، ولوح به في وجهها باسما، وقال:
- نحن الآن نلعب بوضوح.. وكلانا يعرف ما يريده الآخر..
ثم نظر إلى أحد الحكماء الملتحين من حوله وقال:
- الحكيم (فانج) سيكون هو الحكم.. والآن يمكننا البدء.. إنني مشتاق إلى الحصول على القلادة..
- وأنا كذلك..
وبحركات آلية أخرج الحكيم كيسًا من الأرز، وفتحه ليبشر حباته في الهواء معلنا بدء القتال.. وهى الطريقة التي يتبعونها في بدء مباريات (السومو) اليابانية..
المصارع الأول هو (كاى - ون - شياه).. إنه أصلع الرأس ذو شاربين عملاقين يحيطان بفمه، وله طريقة مميزة في البصق على الأرض من فوق كتفه الأيسر كلما شعر بالغيظ، وهو مغتاظ دائما بالمناسبة.
(كاي - ون - شياه) خبير في أسلوب التمرغ على الأرض حتى يعرقل خصمه ويربكه، ويبدو هذا الأسلوب يدعى (أسلوب الخلد).. فلم تكد (عبير) تتخذ وضع بدء القتال، حتى كان الرجل قد تكور حول نفسه ككرة وانسل بين قدميها، وهكذا وجدت نفسها تتعثر فتسقط.. الجبل يثب فوقها لكنها تكور قبضتها بشكل رأس الكبش المعروف وتدفنها في معدته، ينهض صارخا ويبصق ثم يواصل الهجوم..
يواصل الخلد محاولة حفر أنفاق تحت رجليها، لكنها تركله في خصره.. في رئته.. في وجهه وتمنعه من الإمساك بقدمها كي يسقطها أرضا تتواثب من حوله وضفيرتها تتطوح يمينا ويسارا فتخطف القلوب، بينما يبصق بكثرة حتى إن المنطقة كلها صارت زلقة لا تصلح للوقوف.. وفي النهاية تجد الثغرة المناسبة في عنقه فتهوي عليها بسيف. اليد وللحظة تشعر كأنها شطرت الأرض ذاتها إلى شطرين..
وبعد ثوان يتمدد (كاى - ون - شياه)..



وفي النهاية تجد الثغرة المناسبة في عنقه فتهوي عليها بسيف اليد وللحظة
تشعر كأنها شطرت الأرض ذاتها إلى شطرين..

يشير لها الحكيم بيده اليمنى، ويشير إلى الثور الراقد على الأرض باليسرى.. ويهرع (جاك) يقدم لها بعض منقوع الشعير الطازج، على حين يتقدم المصارع الثانى..

المصارع الثاني هو (شيوي لينغ جيون) وهو من أساتذة الوثب، ويبدو أن هذا الأسلوب يدعى (أسلوب الجندب).. إنه رجل نحيل عصبى له ساقان طويلتان، وهو يبدأ الوثب دوما باتخاذ وضع القرفصاء ثم يفرد ساقيه ليحلق فوق الرءوس، ويوجه بضع ركلات إلى الرأس في أثناء التحليق.. إن أداءه جمالي لكنه خطر...
وكانت (عبير) تعرف على كل حال كيف تحد من خطره، لأن المعلم شرح لها كثيرا أسلوب القضاء على الخصوم الوثابين، وذلك بقفزة مضادة عرضية توجه ركلة إلى صدرهم.. وكراش! لابد أن هذا الصوت الذي سمعتموه كان من ضلوع الرجل، لأنه من المستبعد أن يضع بعض البسكويت في جيبه قبل القتال.
ويسقط (شيوي لينغ جيون) على الأرض ينزف من فمه، ويتقدم الحكم ليعلن انتصارها..
الآن صارت مرهقة بحق.. ليس عدلا أن تواجه وحدها خمسة رجال محترفين، وكان قلبها يخفق كالطبل والعرق يغمرها.. لكنها نظرت إلى التنين الذي كان يعض على نواجذه في حنق، فسرها أنه غاضب، وأنها أفسدت يومه..
إنها قوية.. قوية بحق.. ولسوف تقهرهم جميعا.
يبعثر الحكم الأرز فيتقدم الثالث، ويدعى (قو -هوا).. إنه خبير في أسلوب القتال الياباني المعروف باسم (كاراتي).. والحقيقة أنه أتعبها بالفعل كان سريع الحركة يعرف أين تكون الضربة التالية.. وكان يتواثب كالسنور ويهجم كالأفعى، مطلقا تلك الأصوات الرفيعة التي تشتت انتباهها...
لقد خارت قواها بعد المعركتين السابقتين، وخطر لها أنها قادرة على هزيمة عشرين رجلا بشرط ألا يكونوا من خبراء القتال الآسيوي.. إن الشراسة العادية مريحة جدا ويمكن القتال معها بسهولة.. أما هذا..
في النهاية وبعدما أدركت أن المعركة ستطول قررت أن تصرخ.
صرخة مريعة كانت.. صرخة عاتية كانت.. وللحظة شعرت بأنها ستنزع حبالها الصوتية.. وبالفعل كان عليها أن تسعل دما بعد هذا.. الكثير منه.. ما يهم أن الرجل تجمد مذعورا وهو لا يفهم سبب ولا سر هذه الصرخة، وفي اللحظة التالية أجهزت عليه (عبير) بركلات متلاحقة سريعة.. والضربة الأخيرة أرسلته للوراء مترين ليسقط على الأرض فاقد الرشد..
المصارع الرابع هو (لي - قوه - وان).. وهو يمتاز ب... لا.. لن أحكى التفاصيل لأن هذا صار.. مملا لا يضيف جديدا.. إن وصف القتال - كما قلت مرارا - ممل كوصف الرقص أو وصف سيمفونية لبيتهوفن.. باختصار: لا جدوى منه لا بد من أن ترى الشيء الحقيقي لتفهم وتنفعل.. نتيجة المباراة مع المصارعين التاليين هي (٢ - صفر) لصالح (عبير) ولم يكن هذا هينا لكنه حدث
في النهاية وقفت تلهث وتنتفض أمام التنين، وبصوت مبحوح قالت:
- لقد انتصرت أيها التنين.. وحان الوقت..
ومدت كفها بانتظار القلادة..
ابتسم التنين في سماجة ونظر لمن حوله.. ثم انفجر يضحك مطوحًا برأسه للوراء كما يفعل كل الأشرار في تلك الأفلام.. ومعه راح الآخرون يضحكون.. وأخيرا قال:
- هل تتوقعين حقا أن أمد يدي إلى عنقي وأعطيك القلادة؟
- لا أرى ما يمنع.. لقد كسبتها بشرف ولا داعي لأن تجعلني أنتزعها بنفسي؛ لأن هذا يتنافى مع كوني فتاة مهذبة

بدا الخبث على وجهه وقال:
- هلا قلت لي إذن أين ذلك الفتى الناعم الأوروبي الذي يرافقك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10مدسوس؟

هنا قصر التنين:
يمكننا أن نرى عجلة التعذيب التي ربط إليها (جاك دلبيرت) الإنجليزي الذي انضم ل. (عبير)، ويمكننا أن نرى القيود الحديدية المحيطة بعنقه وساعديه وكاحليه، ويمكننا أن نرى كيف أن العجلة تستند بثقلها إلى قطعة حجر بارزة في موضع اتزان خطر قطعة الحجر مربوطة إلى عشرة حبال، وكل طرف من هذه الحبال يمتد مشدودا إلى يد واحد من حراس عشرة يحيطون بالعجلة..
لو جذب أحد الرجال - واحد فقط - الحبل لتحرك الحجر، ولاختل توازن العجلة.. عندها تسقط... تسقط أين؟ تسقط في بئر عميقة مليئة بسائل مشتعل إن الصينيين خبراء في الحرائق، وهم من اكتشف.... البارود والألعاب النارية وأغلب أعيادهم عبارة عن سلسلة لا تنتهي من المفرقعات.. لذا أؤكد لكم أن الموت ينتظر من يسقط في هذه البئر..
هذا هو المأزق الذي ابتكره التنين السادي د (عبير).. لو أنها كانت من الحماقة إلى حد أن تلتحم برجاله، فلن تجد الوقت الكافي كى تمنع واحدا.. واحدا فقط.. من التخلي عن طرف الحبل وعندها يسقط تابعها وسط النيران..
وقفت (عبير) متصلبة ترمق هذا المشهد المروع، وتكورت قبضتاها في عصبية..
قال التنين في ثقة:
- كما ترين.. لقد اختطفنا الفتى وجئنا به هنا في أثناء انشغالك بالمباريات.. وكما هو واضح فإننا لن نحصل على القلادة إلا بالقتال، وأنت بارعة فيه أو بالحيل القذرة التي أفضلها كهذه.. كما هو واضح فالفتى تحت رحمتنا تماما، وأي قتال من جانبك سيزيد فرصة لحاقه بالجدود.. إن الغروب دان بعد قليل، وقد اخترت ساعة الغروب كي يتخلى رجالى عن حبالهم ما لم تبدِ إيجابية أفضل.
من بين أسنانها غمغمت:
- أنت نذل.. أنت وغد.. أنت..
- أعرف هذا.. لكني أحب سماعه من الآخرين والآن القلادة من فضلك..
- ما زال أمامنا وقت قبل الغروب..
وجلست على درجات السلم تستعرض الموقف تأملت وجه الفتى فوجدته يرمقها بنظرة ملتاعة كلها خوف وهلع.. نظرة من نوع: لا تلعبي – دور البطلة - على – حسابى..
جاء التنين فجلس جوارها، وراح يضوع بعطر خانق.. ابتسم بعد قليل في شيطانية وسألها:
- تحبينه .... هه؟
- من؟
- تابعك الإنجليزي هذا..
قالت في عصبية:
- لا يهم.. لا يجب أن أهيم به حبا كي أحاول إنقاذه من الاحتراق ٠ ٠
نظر التنين إلى خارج النافذة، وقال:
- إن الغروب دان.. يجب أن تقررى سريعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا نجد أنفسنا في الموقف الذي بدأت به قصتنا.. القوم ينتظرون ما عساه يحدث، و (عبير) نفسها وقفت على بعد أمتار من (جيانغ - سه)، تمضغ ضفيرتها الطويلة في نهم وجزع، بينما اشتعلت المشاعل في كل صوب لتعطى الكلمة الأخيرة لهذا الجو الكابوسي الخانق.. رائحة الشحم المحروق الممزوجة بالعرق، والدخان الذي يهيج الأحبال الصوتية، وحرارة الجو الثقيلة.. ثم الوهج!

آه من الوهج الذهبي الكريه للنيران يرسم على الوجوه القلقة ألف ظل وظل! ظلال تولد وتتلاشى بذات السرعة الخاطفة التي يولد فيها هذا القبس أو يخبو

.. ومدت يدها إلى صدرها تتحسس القلادة.. تستطيع أن تتخلى عنها الآن.. إنها تراث الأجداد وقسم مقدس، لكن الضرورات تبيح المحظورات

مدت يدها إلى القلادة، وعالجتها في رفق ولكن.. آى! إنها ساخنة كالنار! إنها قطعة من حديد محمى يحرق الأنامل بلا رحمة.. ككل مرة جربت فيها عمل الشيء ذاته..

كيف تعطيها للتنين إذن؟

هنا سمعته يقول في نوع من الفهم:

- أعرف.. أعرف.. القلادة المسحورة تحاول أن تظل سرا.. لكنها لن تصمد أمامي.. حاولى بجهد أكثر، وتذكري أن هناك طرقا سهلة للحصول عليها.. أسهلها قطع رقبتك!..

وهذه المرة قررت (عبير) أن تتخلى عن حملها مرة واحدة.. فلتسامحني أيها المعلم العظيم (هياو - شى - فانج).. لو كنت مكاني لفعلت ما أفعله استجمعت كل ما تملك من إرادة، وجذبت القلادة.. اشتعل المعدن في يديها وشمت رائحة اللحم المحروق، وتطاير الشرر في كل صوب.. لكنها تماسكت.. الدخان يملأ المكان، وقد تراجع بعض جنود (جيانغ - سه) للوراء وهم يدارون وجوههم.. الرائحة.. الدخان اللهيب.. الألم.

وفي النهاية سقطت القلادة على الأرض، وبعدها

سقطت (عبير) فاقدة الرشد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفاقت من الغيبوبة لتجد نفسها ما زالت وسط هؤلاء القوم، و (جاك) يسقيها بعض العصير من دورق كبير كان ألم الحريق يمزق ويعتصر جلدها.. جلد كفيها وجيدها.. لكنها قالت في رضا:

- لا بأس.. لقد أطلقوا سراحك يا (جاك)..

هنا سمعت صوتا.. كان صوت التنين بالذات يقول:

- دعك من السذاجة.. إن الفتى لم يكن أسيرنا قط! ترى ألم يخطر لك لحظة أنه مدسوس عليك؟

مدسوس عليك؟ حقا؟ اشرأبت عيناها إلى عيني الفتى كى تتلقى الإجابة منهما مباشرة، ولم يكن الجواب مطمئنا بحق.. كان الجواب يقول بحق: نعم لقد فعلتها..

نظرت إلى التنين الذي وقف يستمتع بالمشهد

وفي يديه نصفا القلادة، وتساءلت:

- منذ متى؟ من البداية ومع شراء النقانق لكلبي؟

- بل بعد المعركة الليلية التي هزمت فيها رجالى لقد أرسلت للفتى من يعده بالثراء وأول سفينة إلى وطنه، لو سرق القلادة منك في أثناء النوم، أو استطاع أن يقتلك.. وقد قبل لكنه لم يجد

الشجاعة الكافية.. وهكذا شارك معنا في تمثيلية عجلة الموت هذه..
- أنت وغد!
- صار كل هذا المديح مملا إن الحيل القذرة هي البحر الذي يحب التنين أن يسبح فيه..
- أتكلم عنه لا عنك..
والحقيقة هي أن (عبير) وجدت هذا مفهوما أليس (جاك) هذا هو (شريف) كما يراه عقلها الباطن؟ إذن فالخيانة سلوك وارد جدا، وكان عليها أن تعرف هذا وتتوقعه.. إن من يتلقى خطابات عاطفية ممن تدعي (رانية) ويحتفظ بها، لجدير بأن يتظاهر بأنه في صفها حتى يجد فرصة لقتلها
قالت بلا مبالاة دون أن تنظر إلى (جاك):
- أعتقد الآن أنك ستتخلص منه بعد ما حصلت على القلادة؟
اتسعت عينا (جاك) رعبا ونظر إليها وإلى التنين أما التنين فقال دون أن يرفع عينيه عن القلادة:
- بالتأكيد.. بمجرد أن أفرغ من هذه..
- إذن أرجو أن تمنحني هذا الشرف!
- لك هذا.. لقد كنت محاربة شريفة بالتأكيد..
تحول (جاك) إلى طفل مذعور، ويبدو أنه بلل سرواله.. وارتجفت شفتاه وهو يقول للتنين:
- لماذا؟ لماذا؟
- لأن الأفعى لا يمكن تربيتها يا بني.. إنها قد تصلح للدغ أعدائنا، لكنها ستلدغنا عند أول فرصة..
وزأر النمر الأليف ل.(جيانغ - سه) وهو يحاول التملص من قيوده، وكان قد تعلم من المحادثات التي تطول بهذا الشكل أن الطعام قادم.. كل جدل مع التنين ينتهي بالعشاء.. هذا مؤكد، وقد بدأ لعابه يسيل وعصارة معدته تتدفق طبقا للقوانين البافلوفية الصارمة عن الانعكاس الشرطي..
قال التنين وهو يعود إلى عرشه:
- الآن فليأت الحكماء.. أريد قراءة المكتوب على هذه القلادة.. ضعوا هذين في السجن حتى أفرغ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغوا من الترجمة عند منتصف الليل، وقد وضعوا نصفي القلادة على وسادة موشاه بالذهب، وراحوا يفحصونها باختراع صينى عجيب بعض الشيء، عبارة عن دورق من الماء المقطر له قدرة غير عادية على تكبير الصورة.. يبدو أن الغربيين يملكون شيئا مماثلا يطلقون عليه اسم العدسة المحدبة، لكن ما من صينى يحترم نفسه يثق باختراعات الغربيين خاصة إذا كانوا هولنديين، وكان اسمه (لى فان هوك).. كانت العبارات مكتوبة بلغة صينية قديمة جدا، تعود لعهد قبائل (الشانج) والتي كانت تعبد (الشانج تاى).
أخيرا قال أحد الحكماء ويدعى (فنج - لى) للتنين، وهو يلمس الأرض بجبهته:
- المجد لك أيها التنين العظيم.. إن هذه الطريقة خطرة جدا ولا أحد يضمن ما يحدث..
قال التنين وهو يجرع المزيد من الشراب:
- لا أحد يحصل على الأرز من دون أن يمشي في الأوحال..
- إننا سنفتح باب الجحيم، وعندها لن نستطيع التراجع..
-لا تزعجني أكثر
هذه كانت من التنين طبعا، وطوح الدورق ليصطدم بالجدار ويتهشم إلى ألف قطعة، ثم إنه

جرد سيفه ونهض ملوحا به:
- فليقل من يأبى مساعدتي ذلك الآن.. وأنا كفيل بأن أريحه من آلام كثيرة آتية وتبادل الحكماء النظرات وأدركوا أن عليهم القبول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - إنها تعمل!

بدأت التجربة عند مساء اليوم التالي..
كان الظلام والبرد يغطيان المدينة، لكن مسيرة التنين ورجاله وحكمائه كانت تبدد البرد والظلام بكل المشاعل التي يحملونها، وهم يتجهون إلى خارج المدينة.. إلى مقبرة المحاربين التي توجد على بعد ألف خطوة من أسوار المدينة، وهي عبارة عن كهف واسع في الجبل، لا يجسر أحد على الدنو منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفكرة هنا أن ما كتب على القلادة رهيب، ويفتح أبوابا من الشر لم يحلم بها الحكماء قط.. فقط حين يلتحم النصفان يكتمل الهول، ويعرف الإنسان ما لم يكن له أن يعرف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (جيانغ - سه) بحاجة إلى القوة، وقد عرف من الأسلاف والشيوخ مقدار تلك القوة السديمية التي تمنحها القلادة الكاملة لمن يملكها.. لكن من له بالقلادة الكاملة الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو وجد (جيانغ - سه) هذا النصف، فلسوف ترتجف الأجنة في بطون أمهاتهم لهول ما سيسمعون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسط الحراس تمشي (عبير) وجوارها (جاك)، وقد كبلا بالفلكة على الطريقة الشهيرة، التي تجعل الرأس والكفين يخرجان من لوح خشبي يحمله السجين على كتفيه.. وكلاهما لا يعرف ما عليه أن ينتظره.. إنه الموت طبعا، ولكن كيف؟ هذا هو السؤال..
وتمنت (عبير) لو يظهر (المرشد) الآن ليخلصها من كل هذا، لكنها تعرف جيدا أن القصة الآن في الذروة ولم تبدأ النهاية بعد.. مثلما يغلى اللبن ويحتشد عند حافة الإناء قبل أن يهدأ أخيرا ويستقر، وما كان (المرشد) ليتجاهل قواعد القصة أبدا إلا حين تتمنى هي أن تبقى أكثر..
المشاعل في كل صوب من حولهما، بينما المسيرة الغامضة تتقدم نحو مقبرة الجنود..
يقف التنين أمام باب الكهف، ثم يأمر من معه بالتراجع جميعا فلا يصحب إلا الحكيم المرتجف (فنج - لى)، ويحمل كلاهما مشعلا.. ثم يتذكر شيئا فيشير إلى الجند كي يتركوا (عبير) تلحق بهما
- أريدك أن ترى هذا.. فهو من حقك بالتأكيد.
فك الجنود ذلك اللوح الخشبي المقيت من حول عنقها.. ثم تقدم الثلاثة إلى الكهف..
وكان الكهف من الداخل عطن الرائحة، والوطاويط تحتشد على الهوابط من السقف لكنها لم تخش الضوضاء لحسن الحظ.. يمشون في كثير من المشقة وسط الصخور البارزة وفي الظلام الذي لا تبدده المشاعل إلى هذا الحد وفي النهاية يتوقف التنين أمام جدار صخري عملاق ويرفع المشعل..

عندها تراهم (عبير) بوضوح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانوا مختلطين بالصخر كأنهم حفريات عتيقة وساعد على هذا الانطباع أنهم كانوا ضخام الأجساد إلى حد مروع.. ربما يصل طول الواحد منهم إلى ضعفي قامتنا.. وكان الكلس يغطى ملامحهم ودروعهم، لكنك تستطيع أن تتبين أنهم غلاظ الملامح بشعو الخلقة كالوحوش..
وكانوا يرتدون ثياب القتال، وقد تجمدوا في أوضاع عشوائية كأنهم لوحة جدارية مهيبة الضخامة.. لوحة ترتفع بطبقاتها إلى عشرة أمتار فوق مستوى البصر..
يخرج التنين سيفه فتتوقع (عبير) ما سيحدث لا تعرف ما يقوم به بالضبط، لكنه في الغالب يتضمن أن تسيل دماء عذراء هنا.. كل هذه الطقوس السحرية تتضمن دماء عذراء، وفي الغالب سيتم ذبحها الآن..
لكن التنين كان مجددا غير نمطي.. لقد استل السيف ومزق به ساعده هو شخصيا.. ويسيل الدم.. دم كثير راح يبعثره حول المكان ويلوث به الجدار الحجري، بينما الحكيم يضع نصفى القلادة أمام عينيه قصيرتي النظر، ويغمغم بعبارات منغمة يبدو أنها نوع من الابتهال..
الخطوة التالية كانت أن التنين لامس بالشعلة جسده هو شخصيا! نعم لا مزاح هنالك.. لقد بدأ بإحراق نفسه بأعصاب جليدية لا تهتز، ولا ننكر أن المنظر راق ل. (عبير) كثيرا برغم أنه مريع..
هناك أمل لا بأس به أن يتحول التنين إلى شعلة ويموت
لكن الأمور ليست بهذه البساطة للأسف.. فقط اشتعلت النار في عباءته بضع ثوان، فراح يتمرغ في الأرض والجدار الحجري وهو يصرخ بعبارات لم... تفهمها، كأنه جن تماما.
وأخيرا همدت حركته.. فرقد على الأرض كمرضى الصرع الذين انتهت نوبتهم..
فقط راح جسده يرتعش من آن لآخر..



وأخيرا همدت حركته.. فرقد على الأرض كمرضى الصرع الذين انتهت نوبتهم

لا شيء سوى الصمت.. رائحة الشحم يحترق على المشعل.. الدخان.. صوت خافت لحفيف النيران والأنفاس الثقيلة.. ثم..

ثم بدأ أول الجنود يتحرك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تراجعت (عبير) في هلع للوراء، وهي ترى هذه المسوخ تهشم الصخر.. يتناثر الغبار من حولها.. تبذل جهدا عاتيا كي تتحرر.. إنها لم تر تمثال العبد ل (مايكل أنجلو)، ولو رأته لتذكرته الآن.. هذا التمثال غير المكتمل الذي أثار رعب النحات نفسه.. إذ بدا له وكأن العبد يحاول التحرر من الصخرة التي تحيط به..
أول الجنود يتحرر من الجدار، ويهبط على أرض الكهف، والغبار يتناثر منه وصوت قدميه الثقيلتين.... إذ تضربان الأرض الحجرية يثير الفزع في القلوب الغريب أنه كان مدججا بالسلاح، وكان لسلاحه قعقعة رهيبة.. جندى آخر يتحرر..
الكهف يهتز من فرط هدير الأجساد المتساقطة..
كانوا في حالة جيدة، إذا ما تجاوزنا عن القروح في جلودهم، وبعض الأنسجة المتحللة التي بدت من تحتها العظام.. هذه أشياء لا تعوق القتال على كل حال
حوالي ربع ساعة.. استغرق الأمر نحو ربع ساعة حتى تحرر كل الجنود المسجونين في الجدار، وكان الزحام شديدا كما لنا أن نتوقع، لذا احتشد أكثرهم في أعماق الكهف.. وكان لهم صوت منفر شبيه بخوار الثيران.. حتى عضلاتهم تحدث صوتا..
ماذا كان من (جيانغ - سه) في هذه اللحظات؟ كان يرتجف انفعالا ويرتجف رعبا.. ويضحك بالهستيريا المناسبة..
ماذا كان من الحكيم؟ لقد فقد وعيه طبعا.
ماذا كان من (عبير) - (فو - لى)؟ كانت تترنح.. محاولة ألا تتقيأ.. وكان ما تراه لا يصدق.. هذا هو إذن سر القلادة الغامض؟
كان (جيانغ - سه) يردد: الأجداد! (شانج تاى)! جنود (الشانج) العظام الذين لا يشق لهم غبار.. بهم سأحكم العالم!!
وكان الكهف قد تحول إلى ما يشبه حافلات وسط القاهرة عند الظهيرة.. وهكذا أشار لها التنين كى تخرج، ولطم الحكيم على خده كى يفيق.. وفي الخارج كان الواقفون قد سمعوا الأصوات الرهيبة، وفهموا بعض الحقيقة وليست الحقيقة كلها.. خروا على ركبهم ورفعوا المشاعل غير مصدقين..
في البدء خرج سرب كثيف من الوطاويط المذعورة كأنه نذير بما سيحدث..
التنين يتقدم شاحب الوجه.. ووراءه الحكيم أقرب إلى الجثة.. ثم (عبير) المرتجفة التي تلاشت شجاعتها تماما.. بعد هذا يبرز أول الجنود.. يمشي.. في تؤدة وثقة.. له عين تحولت إلى تجويف أسود كرية، ووجه خال من التعبير.. يقف على مدخل الكهف وينظر من حوله، كأنه الكابوس في ضوء المشاعل..
هوووووووه! صيحة رددها الواقفون رهبة وهلعا..
- وصاح صائح منهم وقد تذكر شيئا كهذا:
- جنود (الشانج تاى)! لقد أخرجهم من سباتهم كما فعل الساحر الهندي منذ أعوام..
وقال قائل:
- إذن هم موتى؟
- بل هم في سبات عميق، لكن القلادة تخرجهم منه..

وبعد قليل بدأ المكان يزدحم بالجنود الخارجين من الكهف.. حوالي ألف منهم كلهم له ذات القامة الضخمة والتسليح المكتمل، وذات الحركة المتصلبة المفزعة زومبي لو كان هذا اللفظ معروفا في الصين.
أخيرا استطاع التنين أن يقف أمام الحشود وصاح:
- أيها الجند الشجعان! اتبعوني! إنكم معى تملكون العالم!!
لم تبد علامات اهتمام على وجوه المسوخ الخارجة من الكهف، فعاد التنين يكرر في غيظ:
- اتبعوني! إنكم معي.. سوف..
هنا أغمد أقرب الجنود إلى التنين رمحه بين لوحي كتفيه، ورفعه بالرمح في الهواء كأنه راية خفاقة.. خفاقة من الألم طبقا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الطوفان يجتاح المدينة..

يا للمذابح! إنها جميعا تتشابه بطريقة مملة لكن هذه المذبحة بالذات تختلف؛ لأنها مذبحة يقوم بها جنود متحللون خرجوا من الكهوف حالا..
دعني أؤكد لك أن المشهد لم يكن جميلا.. دعني أؤكد لك أن دماء كثيرة سالت.. دعني أؤكد لك أن الصراخ كان يشق عنان السماء.. دعني أؤكد لك أن جل أعناق رجال التنين قد طارت من فوق الكتفين..
لقد حسب التنين أنه قادر على السيطرة على هذه الوحوش التي لا يمكن ترويضها، وكان أول من دفع الثمن.. ثم لحق به ابنه وهو يحاول الفرار..
ووجدت (عبير) نفسها وسط غبار القتال، ووجدت مشعلا ساقطا على الأرض فالتقطته، ومدت يدها تعين الحكيم على النهوض.. لا يجب أن يموت.. ليس الآن.. ليس قبل أن تفهم..
كان الإنجليزي (جاك) يحاول الهرب والفلكة مازالت تحيط بمعصميه وعنقه، هنا لحق به أحد الجنود كان بلا ذراع أيسر، لكن ذراعه اليمني كانت تحمل سيفا صدئا عملاقا، وكان هدفه بسيطا: أن يحرره من قيده بالطريقة الصعبة.. يعني من دون تحطيم لوح الخشب؟
بكى الفتى متوسلا، لكن الوحش كان - بحق - وحشا.
هنا قررت (عبير) أن الانتقام جميل، لكن ليس بهذه الصورة وليس أمام عينيها.. رفعت المشعل وصرخت صرخة (تشوب سيوي) الشهيرة، فتجمد الجندي مذهولا.. كان هذا كافيا لتدفن المشعل في وجهه، ثم تحلق في الهواء لتركله ركلة قوية. وتهبط على الأرض لتدفع الدجاجتين: الإنجليزي والحكيم إلى مكان آمن وسط هذه الفوضى..
كان هناك منحدر على اليمين فلم تتردد في أن تقذفهما فيه قذفا، ثم تثب خلفهما.. وهاهم أولاء يتدحرجون بين الأشواك في الظلام ليسقطوا في بركة صغيرة عند أسفل المنحدر
أخيرا يمكنها اللهاث والتقاط الأنفاس، بينما المذبحة مستمرة هناك عند قمة المنحدر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت للحكيم وهي تغسل وجهها بالماء:
- جميل جدا ما قمتم به.. أهنئك!
قال لها مذعورا:
- لقد أنذرناه، وقلنا له: إن شيئا كهذا حدث مع الساحر الهندي لولا أنه كان يعرف ما ينبغي عمله لكن منذ متى يصغي التنين لأحد؟
- وهل هؤلاء الجنود موتى؟
- لقد تم تجميدهم منذ قرون في حالة سبات لا تنتهي إلا بطقوس معينة وفي حضرة القلادة، وفي كل مرة كان من يعيدهم إلى العالم يدرك مدى ما تورط فيه ويجمدهم من جديد..
- جميييييييل! كيف كان هذا يتم؟
- لا أحد يعرف! ولهذا تخلص أبو (جيانغ -سه) من القلادة كي لا تقع في يد الحمقى
فكرت (عبير) قليلا، ثم عادت تسأل الشيخ المبتل:
- ماذا كان يبغي من إعادتهم؟

- سؤال غريب يا ذات الغمازتين.. لماذا يرغب شرير في الحصول على جنود لا يمكن قهرهم ويمتثلون لكل أوامره؟ هه؟ إن الحياة ملأى بالألغاز حقا
صمتت (عبير) وانتظرت حتى يأتي الصباح..
فقط هشمت بسيف يدها الخشب المحيط بعنق الفتى وساعديه، وقالت له دون حبور:
- أنت حر.. يمكنك الرحيل لو أردت....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما كان الصباح ليطلع على أكثر سكان المدينة لأن الجند اكتسحوا كل شيء، وأعملوا سيوفهم ورماحهم وقبضاتهم في أهل المدينة، ولم يكونوا ممن يسبون النساء كعادة الغزاة، بل كل ما يريدونه هو القتل..
أشعلوا النار في الشوارع، وبعثروا المحاصيل وسكبوا جرار اللبن، وهدموا المعبد، وحطموا تماثيل (بوذا).. وسال اللبن في الطرقات مختلط بالدم، وحاول بعض التعساء أن يقاوموا.. لكن قوة الغزاة كانت قاهرة.. كان الواحد منهم قادرا على أن يطوح بثلاثة رجال؛ ليرتطموا بجدار على بعد عشرين خطوة.. المشكلة هنا أنك لا تعرف ماذا يريدون بالضبط ولا ما يحاولون إثباته.. هم لا يريدون مالا ولا سلطانا ولا شهوات ولا طعاما.. الاستسلام لا يجدي معهم.. إنهم يتمتعون بنفوس طاهرة عفيفة لا تبغي سوى القتل والذبح.. لا أكثر ولا أقل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصحت (عبير) حيث رقدت جوار الغدير.. لم يكن (جاك) موجودا.. ورأت الحكيم يحدق في عنقها وقد اتسعت عيناه دهشة..
- عنقك يا ذات الغمازتين! عنقك!
قالت في ضيق:
- ماذا عنه؟ لم أحسبه بهذا الجمال قط..
قال وقد بدا كالمخبول:
- لقد التهبت القلادة حول عنقك، وتركت علامة بارزة هناك.. هذه العلامة تمثل رموزا بارزة محفورة على ظهر القلادة، ولا يمكن تبينها من الوجه لأن النقشين لا يتطابقان..
في غباء تساءلت:
- كل هذا جميل.. لكني لا أفهم....
- آثار الحرق على عنقك هي نقوش تحكى لنا كيف نتخلص من سحر القلادة!
بدا عليها الفهم أخيرا وتحسست عنقها.. معقول لقد صارت الوصفة السحرية المضادة منقوشة على عنقها إذن.. ولكن:
- لحظة.. لا بد أن هذه نصف الوصفة..
فتح كفه ليكشف عن نصفي القلادة، وقال وهو لا يخفى إعجابه بذكائها:
- نعم.. لكن القلادة معي هنا، ويمكن أن نضم النصفين معا
- أفهم من هذا أنك تنوى حرق عنقي بالنصف الثاني من القلادة لتتكامل الرموز؟
- ليس إلى هذا الحد.. يمكننا أن نطبع الأثر على الطين ونرى....
وهكذا غمس الحكيم نصف القلادة الأول في الطين..
ليطبع ما عليه، ثم غمس النصف الثاني جواره وتأمل الأثر بعض دقائق، ثم تدلى فمه في خيبة

أمل..
وقال:
- للأسف.. يبدو أن القلادة معدة كي لا تسخن منها إلا الأجزاء التي تعطينا الرسالة..
صاحت (عبير) محتجة:
- لا تقل إنك ستحرق عنقي لمجرد قراءة الرسالة كاملة!
ابتسم العجوز ولم يقل شيئا، إنما أخرج من عباءته قطعة من الكبريت ملفوفة في الجلد، وحكها في حجر جاف فاشتعلت.. وضع نصفى القلادة عليها انتظر حتى التهب المعدن وتوهج.. ثم ضغط النصفين على جلد ساعده الأيسر واييبي! تصاعد الدخان ورائحة الشواء.. واستطاعت (عبير) أن ترى النقوش واضحة على الجلد العجوز المجعد..
صاحت في جزع:
- لماذا فعلت؟ كنت أحتج فحسب..
- الوقت.. آى ى! لا يناسب الاحتجاجات!
وقربت رأسها من رأسه، وأصغت إلى فمه العجوز المتهدل وهو يلفظ بكلمات السر..
السر كاملا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي المدينة - التي لم تعد كذلك - كان الجند منهمكين في القتل والتمزيق والسلب.. بعضهم تأثر نوعا بالمقاومة فصار بلا رأس أو ذراعين، لكنه كان مصمما على الاستمرار..
اليوم يفرغون من المدينة المسحورة، وغدا يخرجون إلى العالم الخارجي.. ومن هناك تندفع جحافلهم وهم لا يطلبون شيئا من العالم سوى استرجاع أيام المذابح السعيدة..
إن ألف جندي ليس بالعدد الهين، خاصة إن كانوا من هذه العينة..
فما يدرون إلا و (عبير) تبرز لهم في الشارع الرئيسي بالمدينة أمام ساحة المعبد الذي تحول إلى خراب.. كانت تحمل سيفا عملاقا في يدها، وتلوح به فوق رأسها، وصاحت بأعلى صوتها:
- هلموا يا طعام الديدان ذوقوا هذا السيف..
تقدم عشرة منهم دون كلمة واحدة، وقد انفتحت أفواههم لا ليسيل اللعاب بل الدم.. خطواتهم تهز الأرض ها، وخوارهم يصم الآذان صاحت صيحة حرب قصيرة، ودارت حول نفسها في الهواء، ثم هبطت على ساقيها لتولج السيف في جسد اثنين منهما.. وقبل أن يفر الثالث بادرته بضربة بين عنقه والكتف..
إنهم يموتون! بالحق هم يموتون!
وتدور (عبير) حول نفسها من جديد وتجثو على الأرض، لتضرب بالسيف سيقان اثنين منهم، ثم تثب في الهواء لتطعن ثلاثة منهم، ثم تتدحرج على الغبار وتنهض لينغرس السيف في عنق واحد آخر..
وهنا التف ذراع حديدي حول عنقها، ورأت ذؤابة السيف تدنو من عنقها..
لقد نسيت العاشر؟ أين كان؟
الذراع القوية تحملها في الهواء، وتوشك على.. على..
هنا تخلت عنها القبضة قليلا، وسقطت على الأرض.. رفعت رأسها لتجد الفتى الإنجليزي يوجه اللكمات إلى خصر المعتدي.. لكمات مضحكة جدا تشبه الدغدغة لكنها شتتت اهتمام المسخ قليلا.

وهوى السيف لا عليها هذه المرة، ولكن على الفتى المتحمس.. لا بد أنه شطره إلى نصفين طوليا.. أنا لم أر المشهد لكن (عبير) رأته، وسرعان ما غرست سيفها في بطن المسخ، فأصدر خوارا ثم هوي على الأرض.. بوم!!
كادت تلحق ب. (جاك) لترى ما دهاه، لكنها وجدت أن هذا غباء ومضيعة وقت.. الاحتضار ترف لا يملكه من شطروا نصفين بسيف محارب من (الشانج تاى) ربما استحق ما حدث له، أو لم يستحق.. لكن ميتته تجعلها تسامحه على كل شيء.. لقد غسل بدمه حقدها عليه...
استدارت إلى الجنود القادمين وصاحت:
- بحق (تاى) العظيم. تراجعوا..
ثم لوحت بالسيف الملوث بالدماء وهتفت:
الآن تعرفون هذا السيف، وتعرفون أنكم ذقتم ويلاته من قديم، وتعرفون أنه يستطيع أن يمزقكم حتى لو كنتم ألفا نقصت عشرة.. وإنني لأمركم بالعودة إلى سباتكم..
ثم - بالصينية العتيقة التي حفظتها من الحكيم - هتفت مرارا:
- هوان يان تشاه.. هوان جينغقانغ تشاه..
ومعناها - إن لم تخني الذاكرة - هو: من الصخور جئتم.. وإلى الصخور تعودون..
عندها فقط تراخت أجساد الجنود العملاقة المتحللة وفي صمت بليغ بدأت المسيرة الصامتة البطيئة إلى الكهف.. ألف جندي يتقدمون نحو الكهف الذي جاءوا منه ليلتحموا بالصخور من جديد..
وبدأت (عبير) تلهث، وتستعيد دقات قلبها
هنا فقط تركت السيف يسقط من يدها ترتجف وراحت ترتجف
وسط الميدان الخالي إلا من الجثث وبقايا النيران..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين جاء (المرشد) بعصاه يدعوها للحاق به قالت له:
- أخيرا
تأبط ذراعها، ومشى وسط كل هذا الهول طالبا مخرج المدينة.. وسألها في الطريق:
- لم أفهم موضوع السيف هذا.. إنه غريب عليّ..
- هذا السيف المسحور قادر على إبادة هؤلاء المحاربين، وهم يعرفون هذا ويهابونه حقا.. وقد دفنه في الصخور جوارهم آخر من استحضرهم.. كان هذا مكتوبا على ظهر القلادة..
- جميل.. جميل.. أنت لم تضيعى وقتا..
- فقط كان السيف بحاجة إلى من يستخرجه وإلى من يزيل عنه الصدأ.. كان بحاجة إلى تشحيم
سألها في عدم اكتراث كعادته وهما يخرجان من بوابة التنين الذهبي:
- وما نوع التشحيم الضروري لسيف كهذا؟
- القلادة اشترطت أن يشحم بالدم! دماء شيخ عجوز على وجه التحديد!
ثم نظرت للوراء وهمست:
- رحمه الله! لقد قام بهذه المهمة بنفسه ولو لم يفعل لما كنا هنا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة نعود لعالم الأساطير الإغريقية، ونتعرف أشخاصا مثل: (باريس) و(أخيل)

و(هكتور) والفاتنة (هيلانة).. حيث أشرس معركة عرفها الإنسان، وحيث توجد مهمة واحدة في غاية الأهمية هي إنقاذ طروادة..

تمت بحمد الله

فليدخل التنين..
وفي الخارج كان الواقفون قد سمعوا الأصوات الرهيبة، وفهموا بعض الحقيقة
وليست الحقيقة كلها.. خروا على ركبهم ورفعوا المشاعل غير مصدقين.. في البدء
خرج سرب كثيف من الوطاويط المذعورة كأنه نذير بما سيحدث... بعد هذا يبرز أول الجنود.. يمشي في تؤدة وثقة.. له عين تحولت إلى تجويف أسود كريه، ووجه خال من التعبير.. يقف على مدخل الكهف وينظر من حوله، كأنه الكابوس في ضوء المشاعل..
د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

يوجد هنا خلط تاريخى كالمعتاد في (فانتازيا).. إن (الماركيز كوينزبرى) وضع قواعد اللعبة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ومن الواضح أن قصتنا هذه تحدث قبل هذا بقرن أو قرنين.....

روايات مصرية للجيب

25

فانتازيا

من أجل طروادة



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (25)

من أجل طروادة

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- خارج أسوار المدينة..

لا تذكر متى جلست إلى المقعد إياه..
لا تذكر متى ثبتت الأقطاب إلى رأسها لا تذكر متى انتظرت حتى صحا القرص الصلب من نومه، ولا كيف دخلت إلى عالم ال Dos القاتم الرتيب، تاركة وراءها عالم (النوافذ) المبهرج الصاخب.. إن (فانتازيا) تنتظرها هنا..
ضغطة واحدة على زر الإدخال، ويتلاشى عالمنا الحالي بمشاكله وصخبه... و... خياناته
ضغطة واحدة وتجد نفسها في عالم الخيال، وسط الأبطال الذين حرمنا نحن من لقائهم إلا على الورق، أما هي - (عبير) - فتعرف كيف تلقاهم.. تحبهم.. تكرههم.. تختلف معهم.. تعيش مغامراتهم لحظة بلحظة..
لا تذكر متى ضغطت الزر، لكن المؤكد أنها ذابت تماما.. لم تعد هنا..
صارت هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها المرشد في خبث، وهو يمد يده ليعاونها على ركوب القطار: مرحبا.. أنا شديد الإعجاب بحزمك البالغ مع مشاكل الحياة الواقعية!
لم تفهم لوهلة، ثم فهمت، فقالت في ضيق:
- آه.. تعني موضوع الرسالة هذا؟ لا أدري ما حدث.. لكني أفضل أن أرجئ المواجهة قليلا..
- لا تطيلي الانتظار وإلا تحولت إلى (هاملت)..
ثم نظر إلى ساعته، ووجه لطمة إلى سقف عربة القطار آمرا بالتحرك، وهو تصرف كان يذكرها بعربات (الحنطور)..
- إلى أين؟
هكذا سألها.. فقالت في حيرة:
- لا أدري.. ألم نر كل شيء بعد؟
استرخي في مقعده، وقال:
- نعم.. إن (فانتازيا) تختلف عن أية مملكة أخرى في أنها كالبحر.. في كل ثانية لها معالم وحدود تختلف عن الثانية السابقة.. لن تنتهي (فانتازيا) ببساطة إلا حين ينضب الخيال البشري، ومعنى هذا أن وجودها مرهون بوجود البشر.. إن الناس لا يكفون عن الخيال إلا حين يموتون، وحتى أكثر المجتمعات صرامة وأكثرها بدائية؛ لها - هي الأخرى – فنونها وقصصها الخيالية التي يسمعها القوم حول النار ليلا..
ثمة لحظة أخرى يمكن أن تموت فيها (فانتازيا).. إنها لحظة تكفين أنت عن القراءة أو رؤية الأفلام.. عندها لن يعود لديها معين تستمد منه الأحلام، وعلى قدر ما أعرف عنك مازالت هذه اللحظة بعيدة جدا.. ولو أنك أصبت بالعمي، لبحثت عمن يقرأ لك أو اشتريت مكتبة سمعية كاملة..
ارتجفت لهول الفكرة وغمغمت:
- الملافظ سعد! ولكن أية عوالم يمكن أن أراها الآن؟
كانت تقول هذا وهي ترمق أطرافا من قصص وأحداث، بعضها مألوف بلا شك، وبعضها مبهم

كسرٌ جميل..
أخيرا ترى أسوار مدينة.. مدينة من طراز قديم..
حول الأسوار خيام ومعدات حصار، وجيوش جرارة يرتدي أفرادها الدروع ويحملون السيوف..
ومن السماء كان هناك أشخاص مجنحون يرمقون المشهد، أو يرفرف أحدهم هابطا من أعلى ليفعل شيئا ما..
سألت المرشد وهي تحاول التخمين:
- هذا المشهد.. من أية قصة بالضبط؟
ألقي نظرة عابرة من النافذة، ثم قال بلا مبالاة:
- آه! هذا حصار الإغريق لطروادة..
- تعني بذلك (الأوديسة)؟
- آه.. كلا.. (الأوديسة) تحدث بعد هذا.. لنقل إننا في زمن معاصر لملحمة (الإلياذة)
فكرت قليلا ثم سألته:
- هل لي دور هنا؟ يبدو عالما رجوليا خشنا..
ابتسم وقال:
- كل شيء ممكن.. لا تنسى أنك شاركت في حرب (قادش) وكنت في عصابة (روبين هود)، وفي كل مرة كنت تتحولين إلى رجل قوي.. ربما من أقواهم..
في ضيق قالت:
- لا أتكلم عن ألعاب تحويل الجنس هذه، ولكني أريد أن أظل أنثى حتى اللحظة الأخيرة.. من حق المرأة أن تظل أنثى، كما من حق الرجل أن يظل رجلا..
مد يده ليوقف القطار، وقال:
- هذا هين.. لا تنسى أن هذه الحرب كلها قامت من أجل عيون فتاة واحدة..
- من هذه المحظوظة؟
- هل نسيت كل شيء؟ إن هذه الفتاة هي أنت يا صغيرتي!
كان يمزح بالطبع لأنه كان يعني (هيلين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين توقف القطار لتهبط منه، استعادت تلك اللحظات الأثيرية التي عاشتها أول مرة حين دخلت الأساطير الإغريقية.. الآن صارت حسناء إغريقية رائعة الجمال، ترتدي عباءة بيضاء تنحدر برشاقة عن أحد الكتفين، وحين تحسست مؤخرة رأسها أدركت أن شعرها معقوص على الطراز (الهيليني)، وحين نظرت لقدميها أدركت أنها تلبس صندلا مدعما بأشرطة تلتف حول ربلتي ساقيها..
وأدركت أنها لم تعد خارج (طروادة)، بل هي داخلها..
إنها داخل قصر الحاكم نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- هكذا تكلم (هوميروس)..

كان أول وجه قابلته في القصر، هو - ويا للعجب - أقبح وجه رأته في حياتها، لكنها تذكرت أنها رأته من قبل.. إنه ذلك العجوز الضرير الأحدب، الذي يرتدي الأسمال ويتكئ على عصا غليظة يضرب بها الأرض مرارا مع كل مقطع من كلماته..
- (هوميروس)! أيها الشحاذ القبيح! ألم تمت بعد؟
بحث عن مصدر الصوت، حتى وجده، فنظر لها بعينين بيضاوين لا سواد فيهما، وقال وهو يضرب الأرض بعصاه:
- (هيلين) أيتها الحسناء.. نعم لم أمت.. لأن الشعراء العظماء لا يموتون..
هناك كان معها حين دخل بطلها الإغريقي إلى كهف (ميدوسا)، وكان يبحث عن إلهام شعري يناسب الموقف خاصة وأنه لا خطر عليه.. فالعميان لا يرون وجه (ميدوسا) ولن يتحولوا إلى حجر..
سألته وهي تتجه إلى أريكة:
- ما هو دورك هنا بالضبط؟
- دوري؟ يا له من سؤال! إن أكثر ما يعرفه العالم عن حرب (طروادة) يعرفه من أشعاري.. ولو لم أكن أنا هنا فأين أكون إذن؟ ومن يكتب (الإلياذة) و (الأوديسة) إذن؟ إنني أفضل من يعرف تفاصيل هذا النزاع..
استرخت على الأريكة، وسألته:
- و (الإنيادة)؟ ألست أنت كاتبها؟
ارتجف تقززا، وصاح:
- بل هو الأحمق (فيرجيل).. أنا لا أكتب شعرا بهذا السخف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا نتوقف لحظات لنضع النقاط على الحروف كعادتنا في (فانتازيا)..
(هوميروس) شخصية أسطورية فازت بقدر هائل من الجدل.. لا أحد يمكنه أن يقسم على كون هذا الشاعر وجد فعلا.. وهناك كثيرون يعتقدون أنه أكثر من واحد، وأن الاعتقاد المدرسي القديم بوجود شاعر ضرير خلد لنا قصة حرب (طروادة)؛
هو اعتقاد يحتاج إلى مزيد من التمحيص..
لكن هناك حقيقة واحدة: لقد تم تأليف (الإلياذة) و (الأوديسة) في بعض المستعمرات اليونانية غربي آسيا الصغرى، في وقت هو حوالي القرن التاسع قبل الميلاد..
يمكن القول دون خطأ كبير: إن كلا الكتابين قد كتبهما شخص واحد، لأن الأسلوب لا يتغير، وإيقاع الشعر الذي يصفونه بال Dactylic Hexameter ثابت في كلتا الحالتين.. وشخصية الكاتب لا تظهر في الشعر بتاتا، لأنه يتكلم بصيغة رسمية محايدة خالية من الانفعالات..
ولفترة طويلة ساد الأوساط الأدبية المهتمة بالأدب اليوناني، ما يمكن تسميته بال. (سؤال الهوميري).. وهو سؤال بسيط جدا: من كتب (الإلياذة) و (الأوديسة)؟ وكيف؟ ومتى؟ وهو سؤال لم يجد إجابة قط، ومن الجلى أنه لن يجد إجابة أبدا..
لكن حرب (طروادة) حدثت فعلا، وقد برهنت حفريات (هنريش شليمان) على أن قدرا كبيرا من

الحقيقة موجود في أشعار من نسميه (هوميروس).. وعلى أن دمارا كبيرا قد حل بتلك المدينة في (الأناضول) بتركيا، وهذا الدمار حدث تقريبا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ويعتقد علماء الآثار أن هذا الدمار نتيجة حرب قام بها اليونانيون في محاولة لإنهاء سيطرة (طروادة) على التجارة في مضيق (الدردنيل)..
إذن هناك خلفية تاريخية لا بأس بها لكل هذا...
(عبير) لا تعرف هذه التفاصيل، ونحن كذلك سننساها، فقط كي نستمتع بالقصة الخيالية التي حكاها (هوميروس) - لو كان له وجود - وهو يعزف على قيثارته، ويتسلى بالجبن والزيتون اليوناني من حين لآخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتعود ب. (عبير) / (هيلين) الذاكرة إلى ذلك اليوم الأسود، الذي كان بداية المأساة كلها..
يوم قرر (باريس) ابن حاكم (طروادة) أن يجلس وحده في الليل يتأمل، ويمكن لنا بسهولة حين نرى (باريس) - هذا الفتى الرقيع الناعم الذي تحوم على شفتيه ابتسامة غامضة لزجة - أن ندرك أنه لا يتأمل إلا في ذاته.. إنه لا يجد وقتا كافيا للتفكير في شيء آخر، ولعله يتأمل فقط ليشعر بأنه يتأمل..
كان رقيقا ناعما - كما قلنا - مفعما بالنرجسية، وفي هذا الزمن الشرس حيث لا يؤخذ أي حق إلا بالقوة، كان هو لا يعرف كيف يمسك بالسيف ولا كيف يقاتل، وكان جلده خاليا من أي خدش إلا خدش أشواك الورود على أنامله..
١٧
جلس الفتى في تلك الليلة السوداء يتأمل..
فما هي إلا ثوان حتى هبطت عليه ثلاث من ربات (الأوليمب)، وهن (حيرا) و (مينرفا) و (أفروديت)..
ولمن لم يتشرف بهذه الأسماء من قبل؛ نقول: إن (حيرا) هي زوجة (زيوس) الخبيثة القوية، و (مينرفا) هي ربة الحكمة، و (أفروديت) هي (فينوس) ربة الجمال.. إن العقيدة الوثنية الإغريقية كانت تهوى التخصص، وكان لديهم إله مسئول عن كل شيء، وبالطبع كان تصادم الاختصاصات يؤدي إلى كوارث لا توصف تنهال على رءوس البشر..
كانت السيدات الثلاث يطلبن من (باريس) معروفا واحدا، هو أن يكون حكما ويختار أجملهن.. ومن يختارها يقدم لها هذه التفاحة الذهبية..
راحت كل واحدة منهن تغمز بعينها، وتعده بالسعادة المطلقة لو اختارها هي..
ووجد الفتى الأبله نفسه في موقف محرج، كأول حكم في مسابقة جمال في التاريخ، لكنه بعد تردد قدم التفاحة إلى أجملهن: (أفروديت).. وهذا طبيعي جدا.. إنها الزهرة ذاتها.. التحفة التي أجهد الرسامون ألوانهم في رسمها من فجر التاريخ..
وهكذا حصلت (فينوس) - (أفروديت) – على التفاحة واللقب، وحصل هو على وعد منها بأن يتزوج أجمل امرأة في الكون..
ومن هي أجمل امرأة في الكون؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(هيلين) الجميلة العذبة..

(هيلين) التي يجلب جمالها المتاعب عليها أينما ذهبت..
إنها زوجة الملك (منيلاوس) من (إسبرطة).. خطفها البطل (ثيذيوس) في شبابها كي يتزوجها، لكن أخويها الشجاعين (كاستور) و (بولوكس) أنقذاها منه..
بعد هذا وجد أخواها أنه من الأفضل أن يزوجاها، لتكون تحت حماية رجل قوي، خاصة والذباب يطاردها أينما ذهبت..
وكان أن صارت زوجة (منيلاوس) ملك (إسبرطة) الإغريقي.. حياة سعيدة مستقرة وزوج يهيم بها حبا.. لكن لا بد من قوة كالسحر تفسد هذا كله..
والقوة التي هي كالسحر - أو أقوى - كانت قوة (فينوس).. أليست (هيلين) أجمل امرأة في الكون؟
ألم تعد (فينوس) الفتي بأجمل امرأة في الكون؟
إذن فالقصة صارت معروفة واضحة المعالم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أولا: يصل (باريس) إلى (إسبرطة) سائحا..
ثانيا: يستقبله (منيلاوس) بحفاوة شديدة باعتباره ابن ملك، ويضيفه في قصره..
ثالثا: نظرة ساهمة حالمة جانبية إلى (هيلين)؛ بالإضافة إلى سحر (أفروديت) القاتل، وسرعان ما تقع (هيلين) - الزوجة العاقلة ذات العقل الراجح والخلق القويم - في غرام الوافد الجديد..
رابعا: تتدفق الكلمات من فمه كما يتدفق العسل من فتحة المجرور - لو كان شيء كهذا ممكنا – ويعدها بالمجد والسعادة و... والحب..
إنهما سيرحلان معا إلى (طروادة) بلده الجميل، وهناك ستعيش ملكة.. صحيح أنها الآن ملكة فعلا، لكن هناك فارقا كبيرا بين ملكة لا تحب زوجها وملكة تحبه..
خامسا: يتم الفرار المهين تحت جناح الظلام.. والضيف قد فر مع امرأة مضيفة..
سادسا: وهو الجزء المهم من كل هذا، أن (منيلاوس) العظيم يكتشف الخيانة، ويستشيط غضبا.. ويصرخ في رجال (إسبرطة) أن ملككم قد أهين.. علينا باللحاق بذلك الذئب الرفيع الذي لا يعرف للبيوت حرمة..
ويهب الإغريق ثائرين مغضبين لكرامتهم، وتقلع السفن من سواحلهم قاصدة (طروادة)، عازمة على خراب بيت (باريس) وبيت أبيه..
لم لا؟ وبين الإغريق أبطال من طراز (أخيل) و (نسطور) و (ديوميديس) و (تويسر) و (باتروكلوس).. وكل واحد منهم مخيف مهيب من الطراز الذي يقدر على (إغلاق شارع) كما نقول في مصر..
دعك من أنهم تحت قيادة كابوس مخيف هو (أجاممنون).. أخو (منيلاوس)..
سابعا: كانت السفن الإغريقية ألفا ومائتين، تحمل مائة ألف محارب إغريقي، وكانت هذه هي البداية لحرب ضروس استمرت عشرة أعوام!
نعم.. أنتم لم تخطئوا قراءة الرقم!
عشرة أعوام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3إنه لجحيم..

صحت من دوامة أفكارها المفجعة على صوت خطوات..
كان القادم هو (باريس) سبب المأساة كلها، وكان يترنح وفي يده دن ثقيل، ومن فمه يسيل النبيذ الطروادي الأحمر.. من الواضح أنه عاش عشرة أعوام في غيبوبة دائمة، وكابوس لا أخر له..
لو أمسكه الإغريق فلسوف! أحيانا يكون الموت ذبحا هو أرق أنواع العقاب وأكثرها رحمة..
مر بها دون كلمة، ثم رأى (هوميروس) واقفا جوارها، فصاح بلا وعي:
- هل المتسول الضرير هنا؟ ماذا تفعل في خدر زوجتى؟



لم يهتز (هوميروس) بل قال بلهجة تشي بالازدراء:
لا شيء.. أكتب الشعر طبعا.
دون كلمة واحدة من الفتى يده إلى لحية الشيخ فلفها حول قبضته، وراح يطوح بجسده الهزيل

يمينا ويسارا، وهو يردد:
- أعرف ما تريد.. أنت بانتظار لحظة هلاكي، كي تكتب أروع قصائدك.. حين قبض الإغريق على (باريس) صنعوا به كذا وكذا.. لكني أحذرك أيها العجوز.. لسوف أعيش بعدكم جميعا.. ولن تكتب حرفا عن وفاتي..
ثم ركله في مؤخرته الهزيلة، فطار الشيخ خارج الحجرة..
هذا لا يطاق؟ نهضت (عبير) محنقة وصاحت:
- لو أن براعتك في قتال أبطال الإغريق تعادل براعتك في ضرب الشيوخ، لكنا انتصرنا منذ سبع سنوات!
جرع المزيد من الدن الذي يحمله، وقال مترنحا
- لست بمحارب.. بل أنا عاشق! ثم إن هذا الشيخ يستحق، لأنه سيوسعني سبا في أشعاره..
ثم - من دون مقدمات - نظر لها وقال:
- عشرة أعوام! لشد ما تغيرت يا عزيزتي! لقد مرت الأعوام على وجهك شهرا فشهرا وساعة فساعة..
والآن أنظر لك فأعجب.. لا بد أنني كنت مجنونا حين وقعت في غرامك يوما!
صعد الدم إلى رأسها، وقالت وهي تحاول ألا تنفجر:
- لست المجنون الوحيد.. هناك مجنونة كذلك تخلت عن كل شيء من أجلك، وإنني لأتساءل عما يقوله زوجي لابنتى (هرميون)..
- ماذا تتوقعين؟ بالطبع يذكر اسمك مقرونا بنعوت مشينة للغاية!
قالت في عصبية:
- مازال كل شيء ممكنا.. لقد جعلني السحر أميل إليك، لكنه قد زال الآن، وما عليك إلا أن تفتح الأسوار وتسمح لي بالخروج لقومي..
طوح بالدن ليصطدم بالجدار، وأطلق ضحكة هستيرية:
- هاه! فات الأوان يا صغيرة.. إن هؤلاء الإغريق الواقفين خارج الأسوار، لن يرضوا بشيء سوى الدم.. لن يعودوا لبلادهم قبل نهب آخر قطعة ذهب، وقتل آخر صبي، وسبي آخر فتاة في (طروادة)..
وخروجك لن يدلهم إلا على خوار عزيمتنا، ولسوف يعجل بالنهاية..
ثم نظر لها من جديد، وانفجر ضاحكا:
- كل هذا.. هي.. هي.. من أجل.. هي هي.. واحدة مثلك! هي هي!
ثم إنه تمدد على الأريكة وسرعان ما راح يغط كالثور.
نظرت له (عبير) في غل ثم غادرت المخدع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولأنها امرأة توقفت أمام أول مرآة صادفتها تأملت وجهها - وجه (هيلين) - في اهتمام.. فلم يكن إلا وجه حورية بارعة الجمال لا يمكن وصفه لمن لم يره.. إذن عم يتكلم ذلك الخنزير؟ شيخوخة؟
هذا وجه لا يشيخ..
ثم فهمت الأمر.. الألفة تولد الازدراء، وقد صارت بالنسبة له أبا هول بلا أسرار.. صارت لغزا من ألغاز تجميع القطع Jigsaw، وقد قام بتجميع أجزائها مرارا من قبل، حتى لم تعد تمثل له أية

أهمية.. أهميتها الوحيدة الآن هي أنها السبب الذي سيمزقه الإغريق من أجله..
على كل حال؛ ليس مديح (باريس) كسبًا، وليس انتقاده لك خسارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتجهت إلى سور (طروادة) العظيم، ووقفت ترقب ساحة المعركة الرهيبة.. احتاجت إلى بضع دقائق حتى انقشع الغبار الذي ولدته سنابك الخيول، والذي جعل الرؤية عسيرة على بعد مترين..
أخيرا ترى محاربا طرواديا عملاقا يتقدم في تؤدة نحو صفوف الإغريق، الذين ضربوا حصارهم حول المدينة..

كانت له هيبة، وإن الأرض لترتج تحت قدميه الثقيلتين ارتجاجا.. ثم إنها رأت الإعجاب والفخر به في عيون الجنود الطرواديين..
وسمعت الاسم يتردد مرارا:
- (هكتور)! (هكتور)!
- ابن (بريام) الأكبر!
جاءها الصوت الواهن من ورائها فأجفلت.. ثم نظرت للوراء لتجد (هوميروس) العجوز يشرح لها تفاصيل المشهد الذي لا يراه، لكنه يسمعه ويشعر به..
واصل الشرح قائلا
- إنه أعظم محاربي (طروادة)، وهو من استطاع دحر الإغريق عن المدينة تسعة أعوام كاملة..
كان (هكتور) العظيم يواصل التقدم في تؤدة وفي طريقه كانت صخرة بارتفاع طفل صغير، فرفع قبضته وهوي عليها ليهشمها إلى غبار.. فشهق القوم منبهرين..
- إنه أخو (باريس).. وهو غير فخور بأخيه على الإطلاق، لكنه يخوض هذه الحرب مضطرا، وإلى حد ما هو يفهم الإغريق وربما يتمنى لهم النجاح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يقف (هكتور) في مواجهة صفوف الإغريق، فيلوح بسيفه صائحا، بيونانية عتيقة جدا لكن (عبير) فهمتها:
- أيها الإغريق! إنني أدعو أشجعكم وأقواكم إلى المبارزة.. فإن قتلني فعليه أن يرد جثماني إلى قومي، وإن قتلته رددت جثمانه إلى قومه!
مالت (عبير) على (هوميروس) وسألته:
- ما موضوع الجثمان هذا؟
- لا أحد يحب أن تقع جثته في يد الأعداء هنا، لأن التمثيل بالجثث من الرياضات المحببة.. وفي العادة يربطون الجثة خلف عربة حربية، ويدورون بها ست أو سبع مرات حول ساحة القتال!
هزت رأسها علامة الفهم، وعادت ترمق الميدان كان الإغريق حائرين متهيبين، وبدا واضحا أنهم يخافون الرجل حقا، وأنهم يعرفون أن من يقبل التحدي لن يعود لأهله أبدا..
قال (هوميروس):
- للأسف ليس (أخيل) هنا، ولو كان مع الإغريق لكان هو الجدير بقبول هذا التحدي.. لا أحد مثل (أخيل) في هذا الميدان كله..

حدثت ضوضاء بين الإغريق، وفهمت (عبير) أنهم يجرون قرعة لمعرفة من يبارز (هكتور) ثم ظهر البطل المنتظر.. كان ضخما قويا له لحية حمراء ثائرة كالنار، ولوح برمحه في السماء وهو يقهقه بوحشية..
- (أياس)! (أياس)!
كذا تعالت صيحات الإغريق فارتجت لها الأرض..
وببطء دنا البطلان من بعضهما.. وبعد لحظة حاول كل منهما فيها أن يزن خصمه جيدا، طوح (أياس) برمحه نحو (هكتور)، لكن هذا الأخير رفع درعه ليتلقى الرمح الذي اخترق الدرع لكنه لم يؤذ حامله..
وجاء الدور على (هكتور) فرمي برمحه، ولم يصب (أياس) لكنه خدش خصره..
ومن مكانها فوق الأسوار فهمت (عبير) أن هذا النوع من المبارزة له طقوس خاصة، يتم فيها استخدام كل أنواع السلاح.. فكما يحدث في المآدب حين تقدم المشهيات أولا ثم الحساء ثم الطبق الرئيسي، يتم هنا استخدام الحرب أولا ثم السهام ثم السيوف..
وهالها أن الجميع يرمقون ما يدور باستمتاع حقيقي، كأنها مباراة رياضية تنتهي بالفوز بالكأس لا بموت أحد الرجلين..
الآن جاء دور السيوف..
انطلق الرجلان نحو بعضهما، بينما الشمس تنحدر غربا، والرؤية تزداد عسرا.. وارتطم السيفان فكان لهما دوي أي دوي.. وكان لهما بريق أي بريق..
وراح الرجلان يدوران حول بعضهما، وهما يلهثان كثورين، ومن حين لآخر يحاول واحد منهما أن يجد فى دفاع الآخر تلكم الثغرة القاتلة التي ستكون نهايته..
الآن صارت الشمس عند الأفق وقد توارى ثلاثة أرباعها.
هنا وثب رجل يحمل عصا ما بين البطلين، وصاح:
- كفاكما أيها البطلان! إن الليل قد جاء، وقد خضتما قتالا عنيدا، لكن من الواجب أن ننهي القتال لنكمله غدا..
قال (هكتور) وهو يعيد سيفه لجرابه لاهثا:
- الحق أن (أياس) محارب شجاع شهم، وإنني لأرى أن ننهي القتال الآن ونستأنفه غدا.. أما الآن فيمكننا أن نتبادل الهدايا، ليعرف الناس أننا افترقنا صديقين..
وهكذا حيا كل من البطلين صاحبه، وتبادلا هدايا رمزية، ثم عاد كل منهما إلى قومه..
الحقيقة أن أخلاق هؤلاء القوم لم تكن تخلو من فروسية نبيلة لا شك فيها، وإن كان من الغريب فهم كيف تهدي هدية لرجل ليلا، ثم تقتله أو يقتلك صباحا..
لكن هذه هي الأخلاق التي تروق للشعراء مثل (هوميروس)، وبالتأكيد تروق للفتيات مثل (عبير) التي راح قلبها يخفق، واحتشدت العبرات في عينيها.
وعادت إلى خدرها، فوجدت (باريس) مازال راقدا على ظهره على الأريكة، يغط في نومه كدب قطبي..
بدا لها رخوا مبتذلا لا يمت للرجولة بشيء..
لو كان هذا رجلا فمن هؤلاء العمالقة الذين امتلأت أجسادهم بالجروح بدلا من الشعر، والذين عادوا إلى خيامهم الآن؟
لابد أنها كانت مجنونة يوم وقعت في هواه يوما.. لكن لا.. لم تكن هي المجنونة بل (هيلين)..
والمشكلة الآن أن حل المشكلة يقع على عاتقها هي..

ولكن ماذا بوسعها أن تعمل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تدري متى انفتح باب المخدع..
وفي الظلام - ومن أثر النور - لم تستطع أن تتعرف ملامحه جيدا، وخطر لها أنه المرشد الأحمق، لكن لا.. المرشد لا يعتمر قبعة ذات جناحين..
همست في توجس:
- من أنت؟ ماذا تريد؟
وهمت بشد الحبل المجدول الذي يستدعي الحرس، لكنه قال في صوت هادئ رزين:
- لا تهابي يا (هيلين).. أنا (هرمز).. إنهم يريدونك في (الأوليمب)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- ساعة مع (زيوس)..

مهما كان رأيك في الموضوع؛ فإن رحلة إلى (الأوليمب) وسط الظلام، بينما السحب الرمادية تتطاير من حولك، وأنت متشبث بصدر (هرمز).. والجناحان في قبعته وحذاءيه يخفقان باستمرار، وتتساءل أنت في حيرة: كيف لا تطير القبعة تاركة صاحبها؟ لكن هذا - ببساطة - سؤال جدير بمن لا يعرف الأساطير الإغريقية.
مهما كان رأيك في الموضوع؛ فإنها مغامرة نادرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى جبل (الأوليمب) الذي اشتق (الأولمبياد) من اسمه، يوجد القصر المنيف المحاط بالسحب.
تترجلين وتقفين لاهثة الأنفاس محتقنة الوجه، حتى إنك لا تلاحظين كثيرا مدى برودة الجو..
ثمة مجموعة من العذارى يلعبن ويتقاذفن الورود - كما هي العادة في الأساطير اليونانية - وثمة كلب ذو رأسين، و (أبوللو) يقف جوار عربته ذات الجياد يتأكد من أنها صالحة للقيام برحلة شروق الشمس.. تذكرته (عبير) على الفور وتذكرها.. فقد تقابلا مرة، بل إنها قادت عربته مرة وهوت بها في البحر..
قال لها (أبوللو) وهو يفحص حافر أحد الخيول:
- أسرعي.. إن (زيوس) بالداخل!
أسرعت الخطى ومن خلفها (هرمز).
ثمة قاعة واسعة تحيط بها الحفر المليئة بالنار، وثمة عذراء تعنى بنيران كل حفرة منها.. وأكثر من طاووس..
وفي صدر القاعة كانت هناك درجات تقود إلى منصة عالية، عليها جلس الأخ (زيوس) الرهيب، بلحيته المجعدة وعينية الشرستين، كما يراه من زار المتحف الروماني في الإسكندرية.
كانت تقف بجواره سيدة ثقيلة الظل قوية الشخصية، لا تحتاج إلى تعريف.. إنها (هيرا) زوجته التي يخافها كثيرا.
عن يساره كانت فتاتان جميلتان، وإن كانت واحدة منهما حسناء إلى درجة مذهلة، وكان يتعلق بثوبها رضيع مجنح (ملظلظ) بشدة، وعلى ظهره جعبة سهام..
هذه الأخيرة أيضا لا تحتاج إلى بطاقة تعريف.. هذه هي (فينوس) ومعها ابنها (كيوبيد)..
وجوار (زيوس) كذلك كانت رقعة كرقعة الشطرنج.. أقرب إلى غطاء علبة أحذية ملأها طفل بالرمال ليغرس فيها نماذجه.. وكانت حجارة الشطرنج تمثل محاربين يحملون رماحهم وسيوفهم، وقد انتثروا حول أسوار مدينة صغيرة..
قال لها (زيوس) بصوت رنان ارتجت له القاعة:
- مرحبا يا (هيلين).. لقد تأخرت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دنت منه شاعرة بالرهبة، فهو شخصية أسطورية لا وجود لها، لكنها تلعب الآن بقواعد

(فانتازيا)..
سمعت جلبة معدنية صاخبة من اليسار، فنظرت لتجد حدّادا ضخما يقف أمام سندان هائل، وهو يدق على سيف ساخن فيتصاعد منه الشرر والدخان في كل صوب.. كتلة من العضلات والعرق تصارع الحديد فتقهره..
قال لها (زيوس):
- هذا (فولكانو).. عاكفا على صنع الأسلحة اللازمة لـ (أخيل)..
رفع (فولكانو) السيف ليتأمله، ثم أطلق صرخة عدم رضا ووضعه على السندان من جديد، وهوي عليه بضربة أخرى.. لا غرابة إذن في أن القدماء أطلقوا اسمه على البركان.. وهو شبيه الجبل الذي يقذف الحمم والنار والرعد..
تناول (زيوس) أحد التماثيل من أمامه وقال:
الحق أنني أحب (أخيل).. ذلك البطل الإغريقي الهمام، وابن جنية البحر (ثيتس).. وهي التي غمسته في طفولته في مياه نهر (سيتكس) كي يصير منيعا لا تخرق السهام جلده.. لكن البائسة تركت نقطة ضعف واحدة في جسده؛ هي كعبه الذي كانت تمسك به وهي تدليه في النهر.. وهذا الكعب هو الذي سيكون سبب موته، ولسوف يطلق البشر الفانون مصطلح (كعب أخيل) على نقطة الضعف في أي نظام دفاعي صارم..
ثم وضع التمثال وتأمل تمثالا آخر، وقال:
- وهذا.. (هكتور) العظيم بطل (طروادة) الذي تورط في حرب لم يردها، لكنه كان مضطرا إلى أن يواصلها إلى النهاية وشرد من جديد.. ثم وضع التمثال وأشار إلى آخر:
- وهذا.. (نسطور) و (ديوميدوس) و (بارتلوكوس).. كلهم أبنائي، وأبطال لم تر الأرض لهم نظيرا، وكلهم يخوض حربا لا يريدها، من أجل فتى رقيع وفتاة جميلة.. فتاة مثلها كثيرات..
هنا تدخلت (هيرا) الواقفة جواره لتقول في غل بارد:
- إنه فتى أبله.. وهو لا يعرف الجمال حين يراه!
- لا أوافقك على هذا يا مدام
كانت هذه من (فينوس) التي تعرف بالطبع أن حقد (هيرا) ليس موضوعيا.. إن أية امرأة لا تنسى أبدا إهانة تفضيل غيرها عليها..
قالت (عبير) مرتبكة:
- لا أدري ما أقول.. لكن جمالي ليس ذنبي..
قال (زيوس) في حزم:
- لكن فرارك من زوجك ذنبك.. وهو ما أشعل جذوة حرب الأعوام العشرة هذه..
هنا تدخلت (هيرا) في سماجة بطريقتها المسمومة:
- لم يكن ذنبها، لكنه ذنب السحر الذي أفقدها عقلها..
وكانت تشير بطرف عينها إلى (فينوس).. هنا صاح (زيوس) بحزم:
- ليكن.. أنا أمنع أية خلافات بينكن، ولا أريد مصارعات ديكة.. لقد نشبت الحرب وانتهى الأمر، لكن علينا أن نحقن الدماء..
طبعا من نافلة القول أن نؤكد أن (هيرا) و (مينرفا) كانتا تريدان النصر للإغريق، بينما (فينوس) كان يهمها انتصار (طروادة) ونجاة (باريس).
وماذا عن (زيوس)؟ إنه محايد لكن قلبه كان يتحرك باستمرار نحو الإغريق، لأنه مفتون بهم.. وإن كان هذا الميل سينقلب سريعا مائة وثمانين درجة..

قال ل. (عبير) وهو يضع تمثالا جديدا على الرمال:
- عليك يا (هيلين) أن تنهي هذه الحرب..
- أتمنى.. ولكن كيف؟
ثم فكرت قليلا، وقالت:
- ربما لو هربت من (طروادة) ولحقت بزوجي الأول (منيلاوس)..
- فكرة حمقاء
قالها (زيوس) ملوا بكفه، وأردف:
- لقد هوت الصخرة من عل، ولسوف تستمر في الانحدار لأسفل.. إن الإغريق لن يرضيهم سوي الظفر ب. (طروادة) بعد حصار عشرة أعوام، سواء كنت فيها أم معهم.. ولن يعودوا لسفنهم معتذرين وينسوا الأمر..
قالت (فينوس) وهي ترمق (عبير) بحنان:
- لكن ماذا بوسع الفتاة أن تفعل؟
قالت
(هيرا) في صلف:
- هي مشكلتها وعليها أن تحلها!
قال (زيوس) وهو يحك خصلات لحيته المجعدة:
- أعتقد أن الحل الوحيد هو أن يسلم (باريس) نفسه للإغريق، وليفعلوا به ما يريدون!
شعرت (عبير) بدهشة.. إن (الميثولوجيا) الإغريقية اختلقت آلهة لهم ضعف البشر، ويغارون ويشعرون بحيرة ويختلفون ويندمون.. وهي صورة تختلف كثيرا عن صورة الإله القدير المطلق الذي تدعو الأديان السماوية لعبادته..
قالت (عبير) شاعرة بالعجز:
- لن يقبل.. فهم سيحولونه إلى سجق بمجرد أن يروه..
- لا ألومهم على هذا.. لكن عليك أن تجعليه يقبل..
وبيده الضخمة أطاح ببعض التماثيل المغروسة في الرمال، وصاح:
- كفانا هذا السخف، ولتنته كل هذه الدماء.. كأنما ليس لدينا من الأعمال هنا إلا حرب (طروادة)...
هنا شعرت ب. (هرمز) يجذب كمها برفق، ففهمت أن المقابلة انتهت..
وحين خرجت من القصر الدافئ، رأت اليونان كلها عند قدميها مسربلة بالسحب التي بدأت تصطبغ بلون الشروق الأرجواني..
شعرت ببعض البرد وارتجفت تحت ثوبها الإغريقي الخفيف..
قال لها (هرمز) وهو ينظر للسماء:
- مستعدة للعودة؟
- مستعدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم جديد في الحرب..

بدأ اليوم بمشهد دام هو سيف (هكتور) الذي أطاح بعنق (أياس)، وسط تهليل الطرواديين بعدها قام (هكتور) - في شيء من الملل – بربط جسد البطل الإغريقي إلى مؤخرة عربته الحربية،

وانطلق إلى الميدان يدور مرة واثنتين وثلاثا.. بينما الغبار يتصاعد إلى عنان السماء..

إن (هكتور) لا يحب التمثيل بالجثث، لكن التقاليد هي التقاليد.

بعد انتهاء هذه الضوضاء، عاد للحياة إيقاعها العادي الممل: قتل وذبح وبقر بطون وبتر أعضاء.. باختصار الروتين اليومي الذي ظلوا يمارسونه 3650 يوما حتى هذه اللحظة..
وقفت (عبير) في مكانها المفضل خلف الأسوار، وجوارها وقف (هوميروس) العجوز يلهث ويمضغ ذلك الشيء الغامض الذي يمضغه الشيوخ..
كان كالذبابة منيعا على الطرد، ولا بد أن (باريس) تخلص منه عشرين مرة على الأقل، لكنه يعود دائما، لا تدري كيف ولا من أين.
سألته وهي تقذف لفمها ببعض حبات العنب:
- أين (أخيل) هذا؟ وما سر الاهتمام به؟
صاح في حماس:
- (أخيل)؟ ومن مثل (أخيل)؟ إنه الغائب الحاضر هنا، وهي مشكلة خلاف على الغنائم معتادة في هذه الحروب، لكنها حرمت الإغريق من (أخيل)، وهو جيش جرار في حد ذاته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصة - والعهدة على (هوميروس) - أن خلافا شديدا نشب بين (أجاممنون) و (أخيل)..
- (أجاممنون) كما قلنا هو قائد هذه الحملة وأخو (منيلاوس).. إنه رجل شديد الحماس، إلى درجة أنه حين هبت العواصف على (أوليس) مهددة بأن تمنع السفن الإغريقية من الإقلاع؛ قرر هو أن يسترضى الربة (أرتميس) عن طريق ذبح ابنته العذراء الجميلة (إيفجينا).. وثمة فيلم سينمائي رائع يحكي هذه القصة، قدمه المخرج اليوناني العظيم (كاكويانيس)..
أما الشاعر اليوناني القديم (إسخيلوس)، فقد حكي حياة (أجاممنون) الصاخبة في مسرحيته (أوريستيا)..
إن الأساطير الرومانية - كما ترون - كانت مصدر رزق لملايين الأدباء الذين أعياهم البحث عن فكرة جديدة، ومنهم بالطبع كاتب هذه السطور!
لأسباب معقدة تتضمن غضبة (أبوللو) على الإغريق، كان على (أجاممنون) أن يعيد أسيرة طروادية حسناء هي ابنة كاهن (أبوللو)، ورغبة منه في تعويض نفسه، قرر أن يستأثر بأميرة طروادية حسناء هي (بريزيس)، وكانت هي الأسيرة المفضلة عند (أخيل)..
(الملاحظ أن هؤلاء القوم كانوا يجمعون الأسيرات الجميلات، بنفس المنطق الذي نجمع به نحن طوابع البريد أو الفراشات الغريبة).
كاد (أخيل) يجن ويهشم رأس قائده، لكن (منيرفا) - الحكمة - هبطت من عل، وطيبت خاطره، ولا بد أنها قالت له أشياء على غرار: لتكن أنت الكبير.. كده ما يصحش.. إمسحها فيّ.. الخ.
هنا فقط قمع (أخيل) غضبه، وأعاد السيف إلى جرابه، ونظر إلى (أجاممنون) في غيظ وقال وهو يلهث:
- أيها الجبان.. نراك وقت الوغى في مؤخرة الصفوف، ثم إذا جاء وقت اقتسام الغنائم نراك في المقدمة.. ليكن.. خذ.. (بريزيس) كما تشاء لكن سيفي لم يعد سيفك منذ هذه اللحظة..
نظر له (أجاممنون) غير مصدق، فقال (أخيل):
- وعما قريب.. عما قريب.. سيظفر بكم (هكتور) العظيم ويمزق صفوفكم، وعندها سوف تبحثون عن (أخيل) فلا تجدونه..
ثم نظر إلى الإغريق من حوله، وهز رأسه محييا:
- إخواني.. أرجو أن تسامحوني، فما تخليت عنكم ولكني نفرت من طمع (أجاممنون) وجشعه..

ثم انصرف شامخ الرأس، كله كبرياء..
انتظر (أجاممنون) بعض الوقت حتى هدأت ضربات قلبه، واطمأن إلى أن صوته لن يرتجف وهو يتكلم، وقال لأحد الرجال من حوله:
- (أوديسيوس)! اذهب لخيمة (أخيل) وهات لى أسيرته (بريزيس).. بعد هذا خذ سفينة وضع عليها مائة رأس من الغنم، وابنة كاهن (أبوللو)..
وأعد هذه الأخيرة مع الهدايا إلى أبيها.. لعل (أبوللو) يصفح عن الإغريق..
كان (أوديسيوس) هذا من أبطال الإغريق، ولو تأملنا وجهه بعناية للاحظنا أن له نفس ملامح (شريف) زوج (عبير)..
تذكروا هذا الفتى جيدا.. إن ملحمة (الأوديسة) بأكملها ليست إلا قصة عودته إلى وطنه وزوجته ([1])..
أما الآن فنحن في صميم ملحمة (الإلياذة).. موقف (أخيل) من جشع قائد، واتخاذه عزلة اختيارية بعيدا عن رفاقه في السلاح..
كان (أخيل) هو القادر على فتح (طروادة)، وكان (هكتور) هو القادر على منع هذا الفتح عشرة أعوام..
فهل يلتقي الرجلان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- ديكان!

مازلنا إذن مع (هوميروس)، وهو المعادل القديم لنشرة CNN الإخبارية:
لقد انتشرت القصة بين صفوف الإغريق كالنار في الهشيم، وراح البعض يلطم خديه أو يدفن رمحه في جذع أقرب شجرة.
لقد تخلى عنا (أخيل)، والسبب هو (أجاممنون)..
والمشكلة في الجيوش الغازية التي تحارب بعيدا عن أرضها، هي ضعف الحافز القتالي إلى حد ما، بينما الجيوش المدافعة عن أرضها تجد المبرر الأخلاقي الكافي للحرب.. وقد تبين (نابليون بونابرت) هذه الحقيقة بنظره الثاقب، وقال: «إن الجيش يُهزم حين يقول أول جندي: لقد هزمنا..»
وتكرر هذا السيناريو حرفيا مع الإغريق..
(أخيل) تخلى عنا! لا يمكن أن ننتصر من دون (أخيل)..
وسرعان ما التف الرجال حول السفن، وبدأت هذه الأخيرة تعد قلوعها، وأدرك (أجاممنون) أن الحملة فشلت.. يا ليته ما خضع لكبريائه المجنون!
ويا ليته هادن (أخيل)..
هنا كان (أوديسيوس) قد عاد بعدما أرجع أسيرته الحسناء لأبيها.
وجد الأمور على ما هي، فراح يركض بين الجنود يبشرهم بالنصر، وبأن الإغريق قادرون على النصر ب. (أخيل) أو من دونه..
وعند الشاطئ اعتلى صخرة عملاقة، وصاح:
- أيها الإغريق.. ليكن.. يمكنكم أن تعلنوا الهزيمة وتعودوا لدياركم، وبهذا تكون تسعة أعوام ونصف قد ضاعت سدي.. لكن من أدراكم أن النصر ليس بقريب؟ تذكروا نبوءة العراف (كلكاس)..
لقد رأينا جميعا مشهدا عجبا.. فهل تذكرونه؟
هنا صاح أحد المحاربين:
- نعم.. رأينا أفعى تلتهم تسعة أفراخ طير، ثم تنهي وجبتها بالأم التي جاءت تحاول أن تنقذ أطفالها. وبعد هذا تحولت الأفعى إلى حجر..
عظيم! وماذا قال العراف؟
قال محارب آخر:
- قال إننا نحارب الطرواديين تسعة أعوام، ونهزمهم في العاشر..
شاعت ابتسامة واثقة على وجه (أوديسيوس) القسيم، وقال:
- هكذا! فلا تكونوا كالأحمق الذي يهوى بمائة ضربة على صخرة دون أن تتفتت، فيقنط ويرحل ثم يجيء واحد يهوي بالضربة الأولى بعد المائة، فتنهار الصخرة ويتفجر الينبوع.. ما كانت الضربة الأخيرة هي التي فجرته، ولكن المائة ضربة السابقة.. هل فهمتم ماذا أقول؟
وكما يحدث عادة في هذه الأمور، عمت الفوضى، وتفشت ظاهرة الإشعاع السايكوفيزيائي، وتطايرت الرماح في الهواء مع الهتاف للإغريق.. لابد أن هذا المشهد راق ل. (مينرفا) و (هيرا) جدا..
وهكذا عادت الحرب تضطرم في أوارها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت (عبير) / (هيلين) على زوجها الجديد (باريس)، وهو جالس أمام المرآة يتبرج..
نعم.. لا مزاح هنا ولا يوجد خطأ مطبعي.. كان (باريس) يتزين أمام المرآة، وهي ليست عادة غريبة بالنسبة للشعوب القديمة، لكن الغريب أن يجد مزاجا رائقا يسمح بهذا، بينما صوت صهيل الخيل وضراب السيوف يصم الآذان.
قالت له بصوت كسير:
- (باريس).. لسوف يستمر هذا إلى الأبد..
وضع المزيد من الكحل عند طرفي عينيه، وقال وهو ينظر لها في المرآة:
- والمطلوب؟
- المطلوب أن نضع له حدا
- وكيف؟ هل مازلت تفكرين في الذهاب لهم؟
ابتلعت ريقها، وقالت:
- بل أفكر في أن تذهب أنت لهم!
ألقي بالمكحلة فتناثر المسحوق الأسود في كل صوب، والتفت لها وعيناه مفعمتان بالتوحش وصاح:
- هل جننت يا امرأة؟
- لم أجن.. لكنهم سيظفرون بك على كل حال.. فلماذا لا تفعل هذا الآن وتصون دماء أبطال (طروادة) و (أثينا)؟
- سيحولونني إلى عجين بمجرد أن يروا سبابة إصبعي..
تحاشت نظراته، وقالت بصوت مبحوح:
- ليس هذا ما أريد.. أريد أن تخوض مبارزة شريفة مع (منيلاوس).. مبارزة بين خصمين شجاعين، ونتيجة الحرب هي ذاتها نتيجة المبارزة..
بدا عليه الشرود، وبدا أنه لا يرفض الفكرة تماما.. ليس (منيلاوس) مرعبا إلى هذا الحد.. علي الأقل هو ليس (هكتور).. ثم إن فكرة الانتحار لم تعد مستحيلة بالنسبة للفتى.. وهذه فرصة مناسبة لانتحار شريف.. سيذكره التاريخ بالخير على الأقل..
عاد يضع المساحيق على خديه، وقال:
سأفكر في هذا.. أعدك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست في مخدعها تخيط مفرشا عملاقا، تحكي عليه بالرسوم قصة صراع الإغريق والطرواديين، وهي عادة مقدسة لدى نساء الأساطير الإغريقية..
لابد من مفرش أو سجادة ما، وفي الكتيب القادم نجد (بنيلوب) منهمكة في التطريز بانتظار عودة (أوديسيوس)..
جاءتها وصيفتها (إيزيس)، وقالت لها إن (بريام) العجوز - حماها وأبا (باريس) - يريدها أن تلحق به في الشرفة.. وضعت النسيج مهمومة، ومشت مع الوصيفة عبر ردهات القصر الذي تحول إلى ثكنة عسكرية..
كان (بريام) العجوز رفيقا بها من البداية، ولم يعاملها كغانية إغريقية كما عاملها الطرواديون..

كانت سنه قد علمته أن يسامح الضعف البشرى، ثم إنه كان يعرف أن ل (فينوس) دورا في هذا كله..
جلس عند الأسوار في مكان يشبه الطابية، وهش لها قائلا:
تعالي لترى قومك الإغريق.. إنني من هنا أراهم بوضوح تام حتى لأكاد ألمسهم.. للأسف أنا شيخ ولا أخوض القتال، لهذا أتمنى لو عرفتني أسماء هؤلاء..
أشارت إلى الساحة وقالت:
- هذا.. كتلة العضلات هذه.. هذا هو (أجاممنون) شقيق من كان زوجي.. أنا لا أرى (أخيل)، ومن الواضح أنه اعتزل القتال فعلا.. أما هذا فهو (أوديسيوس).. أقوى بطل لديهم بعد (أخيل) والأكثر نبلا.. و..
هنا فوجئت برجل طروادي يظهر تحت الأسوار وهو يلوح بقطعة قماش بيضاء هي من ثوب (أبوللو)، وهذا يجعل حياته مقدسة..
صاح الرجل في الصفوف:
- أيها الإغريق!
فتجمد الجميع فضولا، بينما أردف الرجل:
- إن ابن ملكنا (باريس) لراغب في مبارزة (منيلاوس) ملككم.. والنصر للجيش الذي يبقى بطله حيا.
صاحت (عبير) بصوت مبحوح:
- يا للهول!
بينما قال (بريام) في شيء من رضا:
- غريب! للمرة الأولى يتصرف (باريس) كالرجال.. لقد حان الوقت..
ثم ارتجفت شفته السفلي وغمغم:
- برغم أن نتيجة القتال معروفة سلفا!
- لمه؟ إن (منيلاوس) ليس (أخيل)...
- أي شخص في العالم يستطيع هزيمة ابني وقتله! إنه لم يبرع في حياته إلا في التهام الزيتون!
ثم نهض والرجفة لا تفارقه، وقال:
- على الأقل سيموت رجلا! لكني لن أنتظر لأرى!
وهكذا وقفت (عبير) وحدها ترمق آخر فصول المأساة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يقوم الرجلان بتقديم القرابين، ثم يقفان متباعدين في الميدان، وحولهما الجيوش تتلاطم وتفور حماسة..
كان التحدي بين رجلين مهمين في حياتها: زوجها الأول وزوجها الثاني، لكنها وجدت أنها متحمسة بحق الأول.. تمنت أن يطير عنق (باريس)، ثم ليأت بعد هذا ليطير عنقها هي، فهي لا تستأهل غير هذا..
كان (باريس) شاحب الوجه، لكن فيما عدا هذا نشهد أنه كان متماسكا ثابتا.. لقد استطاع ترويض نفسه بمعجزة.
- الرمية الأولى من نصيب (باريس)..
الجزء الأول من المأدبة هو رمي السهام، وقد صوب (باريس) سهمه نحو عنق (منيلاوس)،

لكن يده ارتجفت فطاش السهم..
جاء دور (منيلاوس) ولم ترتجف يده، لكنه كان يرغب فعلا ألا يموت (باريس) بهذه البساطة..
وطاش السهم..
الجزء الثاني هو السيوف..
وفي هذه المرة كانت اليد الطولى طبعا ل (منيلاوس).. لقد استل سيفه الثقيل وانقض على الفتى، وهوى على رأسه بأقوى ما استطاع..
هنا أنقذت الخوذة حياة (باريس)، وتهشم السيف إلى نصفين، عندها لم يجد (منيلاوس) بدا من القبض على الخوذة، وجر الفتى جرا فوق التراب، بينما هذا الأخير يولول:
- ماما! ماما!
وراح يحاول التملص بشكل مضحك، حتي إن الطرواديين أنفسهم انفجروا يضحكون وقد دمعت عيونهم..
أخيرا انقطعت سيور الخوذة، وتحرر الفتي..
- تبا! إن هذا الفتى لا يموت بسهولة كالثعابين!
قالها (منيلاوس)، وجرى إلى صفوف رجاله ليجلب رمحا، وبالطبع لم يكن ينوي أن يسلك به أسنانه..
هنا قررت (فينوس) أن المزاح طال، وأن (باريس) لن ينتصر بالتأكيد في هذا القتال، لذا نزلت من (الأوليمب) وأطلقت نفخة قوية، جعلت الفتى خفيا وسط ضباب كثيف.
وعبثا راح (منيلاوس) يفتش عن (باريس)، لكن بدا كأن هذا الأخير تلاشي..
شعر كثيرون بخيبة أمل مريرة، فقد منوا أنفسهم برؤية جثة الفتى مجرورة وراء مركبة (منيلاوس)، والغريب أن أكثر هؤلاء كانوا طرواديين..
وقف (أجاممنون)، وكانت لوقفته دائما هيبة تخرس المتقاتلين والصاخبين على الجانبين، وصاح بصوت جهوري:
- ربما لم يمت (باريس)، لكنه هزم.. والآن يا أهل (طروادة) حان الوقت كي تعيدوا لنا (هيلين) وجزية مناسبة.. هكذا كان اتفاقنا..

6- أين (أخيل)؟

هنا انطلق سهم..
انطلق يصفر فوق الرءوس، ثم استقر في كتف (منيلاوس)..
من أين جاء السهم؟ لا أحد يعرف، لكن (هوميروس) يقول إن (مينرفا) و (حيرا) كرهتا ألا تريا جثة (باريس) ممرغة في الغبار، ولم ترضيا أن يعم السلام.. لهذا أغريتا راميا طرواديا اسمه (بندراس) بأن يقذف هذا السهم..
وكان هذا خرقا صارخا لوقف إطلاق النار، مما جعل ثائرة الإغريق تثور.. إن الطرواديين يلعبونها بقذارة.. الويل لهم!
وكما يمتزج الكحول بالماء، امتزج الجيشان..
وفي هذه المرة لم يعد هناك نظام.. لقد صار كل واحد يضرب كل واحد آخر..
النقع يتصاعد في كل صوب.. والخيل تصهل وتبعثر سنابكها الجثث، بينما بين الصفوف يمشي رجل قوي له وجه صلب كالصخر، مليء بالغضب..
والغريب أن أحدا لم يتعرض له..
ومن موضعها فوق الأسوار، مالت (عبير) على (هوميروس) صائحة كي يسمعها:
- من هذا؟ معذرة نسيت أنك كفيف.. هناك رجل يمشي وسط الميدان ولا يقتل..
- هذا؟ إنه (مارس).. وهو المسئول عن إشعال الحروب، وهو الآن في ذروة نشوته..
يقولون إنه يعيش في كوكب (المريخ)، وحين يتعامد (عطارد) على (المريخ) حاجبا نوره الأحمر يعم السلام..
ورأت (عبير) (مينرفا) تمشي بدورها وسط الصفوف، وهي تشعل حماس الإغريق للمزيد من القتال
قالت ل (هوميروس):
- يبدو أنه لا أحد في (الأوليمب) الآن.. صدق (زيوس) حين قال إن هذه الحرب تستهلك أكثر وقته
قال العجوز:
برغم أن (زيوس) منع الجميع في (الأوليمب) من التدخل في هذه الحرب، ولابد أنه غاضب الآن..
هنا قذف أحد المحاربين نشّابة ثقيلة، طارت في الهواء ثم ارتطمت بخصر (مارس) فصرخ ألما وسال الدم منه
صاحت (عبير) وهي تضرب كفا بكف:
إنهم يجرحون أيضا!
لم يفهم (هوميروس) ما تتكلم عنه، وغمغم في غباء:
- نعم؟ طبعا يجرحون..
ونظرت إلى (مارس) وهو يحلق إلى السماء، ممسكا بخصره..
الحقيقة أن الأساطير الإغريقية تحتاج إلى بال رائق، وضغط دم ممتاز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازداد الأمر سوءا حين قرر (زيوس) شخصا أن ينزل إلى ساحة المعركة..
كان (زيوس) بطبعه يميل إلى (فينوس) ابنته المدللة (حبيبة بابا)، لهذا لم يكن من العسير أن ينحاز إلى الطرواديين..
ورآه المتحاربون يهبط من السماء محاطا بالغيوم، فارتاعت قلوبهم وارتعدت فرائصهم، خاصة حين رأوه يحمل جعبة الصواعق إياها.. وسرعان ما أمسك بالصاعقة الأولى، وأحكم تصويبها لتطير وتستقر جوار إحدى العربات الإغريقية، التي احترقت على الفور بمن فيها..



وراه المتحاربون يهبط من السماء محاطًا بالغيوم، فارتاعت قلوبهم وارتعدت فرائصهم..

تصايح القوم ذعرا:

- (زيوس) نفسه يحارب مع الطرواديين!

ومن لنا بمواجهة (زيوس)؟!
الصواعق تنهمر كالمطر، وأرض الميدان صارت شبيهة بمحارق الجثث.. والدخان وصل إلى الأوليمب ذاته..
وصاح (هكتور) وهو يطير بسيفه ستة رءوس إغريقية مرة واحدة:
- تماسكوا أيها الطرواديون! ألا ترون أننا كدنا ندحرهم، وأن (زيوس) شخصيا معنا؟
الحق أن نزول (زيوس) الميدان كاد يؤدي إلى إنهاء الحرب، واندحر الإغريق مبتعدين عن أسوار المدينة، وصاروا الآن يرون سفنهم بوضوح..
وبدأ الحنين يراود كثيرا منهم إلى ركوب السفن، فالتجديف بأسرع ما يمكن نحو الوطن..
إن (أجاممنون) يحث الرجال على القتال، و (هكتور) يطير رءوسهم كأنما يقتل ذبابا.. والرجال ممزقون بين إقدام وإحجام.
ارتجفت (عبير) وهي ترمق المشهد من شرفتها البانورامية.
وعلى شفتيها ترددت الكلمة فلم تسمعها:
- (أخيل).. لا أحد ينقذنا غير (أخيل)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم لا؟ إنها إغريقية برغم كل شيء، وما زالت تتوق إلى أن ينتصر الإغريق ويقتلوا (باريس) وربما يقتلوها أيضا.. لا يهم.. إنها تستحق هذا على كل حال..
ثم إنها كانت تعرف سبب انحياز (زيوس) للطرواديين. إنه يعاقب الإغريق على معاملتهم الفظة لـ (أخيل) بطل الأبطال، بصرف النظر عن كون (زيوس) ينحاز لابنته (فينوس) مهما فعلت..
ولم تتردد كثيرا في اتخاذ قرارها..
دخلت إلى مخدعها، ووضعت فوق رأسها غطاء يبدو عليه القدم، ثم تسربلت به جيدا، حتى صارت لا تختلف في شيء عن العجائز اللاتي يملأن الطرقات..
غادرت القصر، فلم يحفل بها أحد..
كانت تعرف وجهتها جيدا..
إنها الشاطئ الشرقي بعيدا عن سفن الإغريق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن بعيد لاحت سفن (أخيل)، ومن بعيد تردد صوت قيثاره..
كانت تعرف أنه هنا.. هكذا راحت تنقل خطاها فوق صخور الشاطئ الوعرة، والأنسام تطير عباءتها في الهواء.. صفير يكاد يصم أذنيها لكنها تتماسك..
هناك كان البطل العظيم جالسا، وقد نزع خوذته، وأمسك بالقيثار وراح يترنم بأغان عتيقة..
وعلى بعد خطوات منه جلس صديقه وتوءم روحه (باتروكلوس) يتسلى بالرسم على الرمال بعصا..
دنت منهما أكثر، ثم وقفت ترمق المشهد المهيب.
كان الحزن مرسوما على وجه (أخيل).. حزن لن يفارق ملامحه أبدا.. حزن من يشعر بأن قومه تخلوا عنه...
- التحية أيها البطل العظيم (أخيل)..
نظر لها شارد الذهن، وقال:
- هل تبغين شيئا أيتها العجوز؟

- جئت كي أنصحك..
- بم؟
- بأن ترجع إلى قومك وتحارب معهم..
نظر لها في شفقة، وتبادل نظرة مع صديقه ثم ابتسم في سخرية:
- وما دخلك أنت بالأمر يا أماه؟
نزعت الغطاء عن وجهها بحركة درامية، والحق أن نجوم السماء ذاتها اهتزت للمفاجأة.. كأن جمالها قد ألقى إشعاعا من السحر على الشاطئ كله..
وارتجف (أخيل) في رهبة، وسقط القيثار من يده..
- (هيلين)؟ هل هذه أنت؟
ووقف كالمسحور ومعه وقف (باتروكلوس).. كان يعرفها وقد رآها مرارا إلى جوار (منيلاوس).. لكنه لم يرها قط على هذه المسافة، والآن هو يفهم بالتأكيد كيف انبهر بها (باريس).. هذا جمال كالسيف.. جمال يبتر ولا يمكن التفاهم معه..
قالت (عبير) / (هيلين) في شمم:
- نعم.. أنا (هيلين) زوجة (منيلاوس) سابقا، وسبب هذه الحرب والمجازر.. يمكنك أن تنهي المشكلة ببساطة لو أردت.. أين سيفك؟
خر على ركبته وقال:
- أنا لا أقتل النساء.. (أخيل) بطل أبطال الإغريق لا يقتل النساء، ثم إنني ما زلت أراك زوجة مليكي..
- إذن.. عُد لقومك واهزم (طروادة)..
- لا أستطيع..
كانت كبرياؤه الجريحة تسيطر عليه بحق، وبدا أن شيئا لن يزحزحه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا صاح صاحبه:
- هناك وفد من الإغريق قادم من بعيد.. إنني أرى على رأسهم (أوديسيوس)..
نظر (أخيل) لـ (عبير) نظرة ذات معنى، وقال:
- في الغالب هم آتون لنفس السبب الذي جئت أنت لأجله.. وأرى من الحكمة أن تتواري حالا..
- لن يقتلوني
- أعرف هذا.. لكن نظرة كارهة أو لفظة عابرة قد تؤذي الملكات أكثر مما يؤذيهن نصل السيف..
هزت رأسها فهما، وانسحبت.. لكنها لم ترحل.. توارت وراء صخرة عملاقة تتيح لها أن تسمع وترى ما يدور، وكل الصخور في الأساطير الإغريقية تشبه الجدران الشفافة من جانب واحد..
أخيرا وصل سفراء النوايا الحسنة..
كانوا يحملون هدايا ثمينة أرسلها (أجاممنون) إلى قائده السابق، وكان (أوديسيوس) في مقدمة الصف، بينما خلفه (فينكس) وهو من الوجوه المهمة في معسكر الإغريق.. ونهض (أخيل) يعانقهم في مودة، ثم أمر صديقه بأن يقدم لهم الشراب، وأن يأمر الطهاة بأن يطبخوا لهم غداء شهيا
بدا البشر على وجه (أوديسيوس)، وقال:
- إن حفاوتك هذه تجعل مهمتنا أسهل!

بوجه كالصخر قال (أخيل):
- لا.. إن الترحاب برجال (أجاممنون) لا يعني خضوعي لـ (أجاممنون)! أنتم أصدقائي من زمن، وليس له دخل في هذا!
كان الطعام قد جاء، فراحوا يأكلون كالحيتان، ووسط لقيمات الطعام عاد (فينكس) يثير الموضوع:
- (أخيل).. إن الطرواديين يذبحوننا، و (زيوس) يحارب معهم..
- إن (أجاممنون) يستحق هذا.. إنه كاذب منافق جبان، وما عدت أطيق أن أحارب مع رجل كهذا.
قال (أوديسيوس):
- لقد أرسل لك هذه الهدايا..
- هي لن تزيدني ثراء، ولو شئت لحصلت بسيفي على أضعافها.. قولوا لـ (أجاممنون) يا رفاق أننى لن أحارب الطرواديين إلا إذا آذوني أو آذوا رجالي..
ساد صمت ثقيل، وبدا واضحا أن الطعام تحول إلى (خرسانة) في بطون الجميع، ولولا التهذيب لمدوا أصابعهم في الحلوق ليفرغوه..
بعد هنيهة قال (أوديسيوس) مهموما:
- أرى أن علينا أن نرحل يا (أخيل)..
- كما تشاءون أيها الأصدقاء..
وكأنما بعصا ساحر، تفرق الإغريق من حول مائدة (أخيل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- صديق يلقى حتفه..

طلعت شمس الصباح..
ومعها عادت (أم مرجم) - كما يقول الأعراب - تواصل نشاطها المحموم، وفي هذا اليوم بالذات كان (أجاممنون) هو المحارب الأكثر شراسة، وكانت عيناه تقتلان أسرع من سيفه، والعرق المتصبب منه يحرق من يلمسه كالنار.. لقد أدرك ألا أمل هناك في عودة (أخيل) لصفوفهم، فلم يبق إلا الاعتماد على الذات.. إن انتظار (أخيل) شبيه بانتظار (جودو) الذي لا يجيء، كما سيكتب الخواجة (بيكيت) بعد أعوام وقرون وبرغم استبسال الرجال؛ لم تكن الأمور على ما يرام، فقد تبين بجلاء تام مدى انحياز (زيوس) إلى جانب الطرواديين..
ومن مكان ما وسط الصفوف انطلق سهم، ليستقر في عنق (ماكون) طبيب الإغريق.. وربما أبرع طبيب لديهم.. كان رجلا مهذبا وديعا لا يجيد الكر ولا الفر.. لكن السهم لا يجيد المجاملات..
وهرع (نسطور) المحارب الإغريقي العجوز يجر الجثة بعيدا عن المعركة.. وقال له الطبيب وهو في النزع الأخير:
- لقد تمزق الشريان السباتي، فلا تضيع وقتك!
قال الشيخ لاهثا:
- مع احترامي لعلمك يا دكتور، أتمنى أن تخرس قليلا..
وواصل جر الجثة إلى الشاطئ.. إلى حيث كان (أخيل) جالسا يعزف على القيثار ويشكو زمانا صار فيه اللصوص قادة جيوش..
رأي (أخيل) المشهد الدامي، فقال بلا اكتراث:
- هل ثمة مشكلة؟
احمر وجه الشيخ غيظا، وقال من بين أسنانه:
- لا مشكلة هناك.. إن الوضع مطمئن للغاية!
شكرا.. إن الطبيب يرغب في الاستجمام علي الشاطئ قليلا!
تساءل (أخيل) من جديد:
- يستجم؟ بسهم في رقبته؟ ألا ترى هذا غريبا بعض الشيء؟
هنا انفجر الشيخ:
- ويحك يا (أخيل)! ضوضاء المعركة يصم الآذان، و (هكتور) يتسلى بقتلنا كما يتسلى غلام بقتل النمل، وأنت جالس هنا لا تفعل شيئا سوى ندب حظك؟
قال (أخيل) في عناد وهو يرمق البحر:
- منحت كل شيء لديّ للإغريق، لكنهم عند أول فرصة استلبوني غنائمي.. واليوم حين صارت المعركة وبالا عليهم، تذكروا أن عندهم (أخيل)، وراحوا يطالبون بعودته..
هنا أطلق الطبيب آخر شهقة، وكف عن الحركة.
قال (نسطور) وهو يريح الرأس الميت على الرمال:
- هذا واحد آخر لن يبيت في معسكر الإغريق الليلة..
ثم التفت إلى (باتروكلوس) صديق (أخيل) العزيز، وقال:
- مادام صاحبك لن يحارب، فلتقترض درعه وسيفه وتنضم لنا.. لعل الطرواديين يحسبونك هو، وهم يعملون له ألف حساب..

نظر (باتروكلوس) إلى (أخيل)، ولم يدر أي قرار يتخذ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه اللحظة كان الإغريق قد جلبوا برجا عملاقا يريدون تثبيته إلى جدار المدينة.. هنا برز لهم (هكتور) العظيم.. وكان أسلوبه بسيطا جدا وناجحا.. لقد انحنى فحمل صخرة هائلة الحجم ارتفاعها كارتفاع قامته..
- هاااااه!
دوت الصيحة من بين أسنانه فارتج لها الميدان، ثم هوي بالصخرة على البرج، فتهاوي هذا كأنه من الورق، وتساقط الإغريق من فوقه..
هنا فقط تناول البطل الطروادي سيفه، وراح يحش به الرءوس في كل اتجاه.. كل حركة السيف تساوي رأسا أو رأسين..
لا شيء يصلح للتصدي ل (هكتور) إلا دبابة، وربما نجحت هذه بشيء من الجهد.
وقد حاول الإغريق أن يلقوا عليه صخرة.. حقا أصابته وأسقطته أرضا.. حقا سال دم كثير من فيه.. حقا توقف عن القتل قليلا..
لكن سرعان ما استعاد قوته، وواصل التدمير والقتل.. وتعالت صرخات الإغريق (والهندي يحصدهم) على رأي شاعرنا (الأعشى)..
كان (باتروكلوس) الآن يشبه الإناء الذي غلى حتى أوشك غطاؤه أن ينفجر.. وطارت كرة من النار فوق الرءوس قاصدة سفن الإغريق، فاشتعلت النيران في واحدة منها، وتهاوى شراعها..
هنا فقط انفجر الإناء، وانهمرت الدموع من عيني (باتروكلوس):
- رحماك يا (أخيل)!
وتوقف ليخط على الرمال، ثم واصل الكلام:
- السهل هناك تغطى بدماء قتلانا، و (هكتور) يلهو بجثثهم كما تلهو القطة بفأر ميت، وأنت جالس هنا تأبى التدخل!
نظر له (أخيل) ببرود ولم يعلق.. فقد قالها مرارا من قبل: لقد آذاني الإغريق حين كانت الحرب في صالحهم، واليوم يريدون أن أعود.. فكيف؟
كان صوت الدماء المتفجرة - وليس صوت الصراخ - يصل إلى الشاطئ، حيث جلس (أخيل) يحفر في الرمال، جوار (باتروكلوس).
بعد قرون من هذه اللحظة سيتكرر المشهد حرفيا مع (عنترة العبسي).. البطل الأسود الذي طلب يد (عبلة) ابنة عمه، لكن هذا الأخير أبي..
ولسوف يجلس (عنترة) يتسلى بطقطقة أصابعه بينما الأعداء يفترسون قبيلته (عبس).. ولسوف يجيء إليه من أهانوه من قبل يتوسلون له أن يعود ويحارب.. وقد فعلها وانتصر كالعادة..
هذا الموقف عبر عنه الشاعر العبقري (أمل دنقل) في رائعته (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) في الأبيات التي يصف فيها نفسه باعتباره (عنترة):
«فلما حانت ساعة الطعانْ
لما تخاذل الرماة والكماة والفرسانْ
دُعيتُ للطعانْ
أنا الذي ما ذقت لحم الضانْ
أنا الذي أُقصيت عن مجالس الفتيانْ

أَدعى إلى الموت ولم أدع إلى المجالسة»

- أريد أن تعطيني سلاحك وجنودك، وسأقاتل أنا.. لا أستطيع البقاء هنا بينما المذبحة تقترب من النهاية..
هذا الموقف إذن خالد في ضمير الأدب العالمي..
قال (أخيل) لصاحبه:
- ماذا تريد إذن؟
صمت (أخيل)، وعاد يرمق البحر، الذي اشتعلت فيه ثلاث سفن..
ثم مد يده وناول درعه الفضي، وسيفه ذا المقبض الذهبي، وخوذته.. إلى صاحبه.. إنها قطع السلاح التي صنعها (فولكانو) شخصيا له.. (فولكانو) أبرع حداد في الكون.. ناوله هذه الأشياء وقال له:
هيا.. لكن لا تخاطر أكثر من اللازم..

هرع (باتروكلوس) إلى العربة الحربية، وأمسك برمح في يده واعتمر الخوذة، ثم أمر السائق (أوتوميدوس) أن يتحرك نحو الميدان.. وأشار إلى الجنود كي يتبعوه، وهز (أخيل) رأسه موافقا..

فارتفع الغبار إلى عنان السماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (أخيل)! (أخيل)!
تصايح الإغريق والطرواديون، حين لمحوا الخوذة والسيف اللذين لا تخطئهما العين..
وبدا للجميع أن (أخيل) قد انتصر على حقده وعاد..
وانطلقت سهام (باتروكلوس) تحصد الطرواديين لم لا؟ إن (باتروكلوس) محارب عظيم بدوره، لكن التصاقه ب. (أخيل) جعل الناس ينسون قوته..
والواقع أنه في هذا القتال ابتدع طريقة جديدة، هي التصادم.. راحت عربته الحربية تندفع لتصدم ثلاث أو أربع عربات فتنقلب..
ومن موقعها فوق الأسوار التي تتيح لها رؤية بانورامية مذهلة، ارتجفت (عبير) وهي ترى المشهد، وتذكرت عملاقا آخر حقيقيا هذه المرة، هو (رمسيس) في معركة (قادش)..
هتفت مفتونة:
- هذا (أخيل).. لقد عاد!
قال العجوز (هوميروس) وهو يرفع وجهه السماء:
- بل هو صديقه (باتروكلوس)!
- يا سلام! لا تزعم أنك ترى وجهه!
- بل أنا (أعلم) وجهه.. وهذا فارق لا يعرفه إلا شاعر ضرير..
ثم راح ينشد أبياتا من الشعر يصف بها ما يحدث:
- بحصاني (أخيل) ودرعه وسيفه
يدحر (باتروكلوس) جحافل الطرواديين..
و (زيوس) راح يضرب كفا بكف
عاجزا عن عمل ما ينبغي عمله..
ألا فأقدم يا (باتروكلوس)!
ها هوذا (سربيدون) يسدد سهما
لكنه يصيب أحد جوادي (باتروكلوس)
يسقط الجواد أرضا ويجره رفيقه لكن السائق الأسطوري (أوتوميدون) يقطع رباط الجواد..
وتعود العربة إلى سباقها المجنون ألا فأقدم يا (باتروكلوس)!
ابتسمت (عبير).. لا بأس.. صحيح أن الشاعر الضرير لا يرى شيئا على الإطلاق من هذا الذي يصفه، لكنه - كما يقول - يعلم.. وتعليقه يذكرها بالكابتن (محمد لطيف) حين يعلق على مباراة نارية بين الأهلى والزمالك، مع فارق واحد هو أن الفريقين لن يذبحا بعضهما..
ورأت (عبير) شخصا مألوفا يضيء كالشمس، يهبط من السماء.. بدا لها هذا مألوفا لأنها قابلت (أبوللو) أكثر من مرة..
كان غاضبا لأن كفة الإغريق راجحة، وقرر أن يدعم ظهر الطرواديين قليلا، وهذا شيء معتاد في هذه الحرب التي تشهد تدخلات سادة الأوليمب في كل ثانية..
مد (أبوللو) يده وانتزع خوذة (أخيل) من فوق رأس (باتروكلوس)، وألقي بها وسط التراب.. ثم تناول الدرع فأطاره في الهواء كانت هذه هي بالذات اللحظة التي وصل فيها (هكتور)، بعد ما سمع أن (أخيل) عاد إلى الميدان، وقد أثار هذا لديه مزيجا من الرهبة والحماس..

فالحقيقة أنه لم يستطع قط تذوق الحرب من دون خصمه الوحيد المكافئ له..
رأي (باتروكلوس) عارى الرأس فدهش، ثم ضحك في وحشية:
- نياهاهاها ها! هذا هو ذا (أخيل؟ إنه مجرد طفل!
ثار (باتروكلوس) غضبا وانقض على (هكتور)..
كان هذا من آخر الأخطاء التي يرتكبها المرء في حياته، وسرعان ما غيب (هكتور) رمحه في جنب (باتروكلوس) إلى حد أنه نفذ من الجانب الآخر.. ورفع الطروادى العملاق الرمح بالجسد المثبت فيه، وقام بتدويره عدة مرات في الهواء.. ثم قذف به بعيدا..
تقول الأسطورة إن (باتروكلوس) قال شيئا على غرار:
- لقد قتلتني لكنك لم تهزمنى، إنما هزمني (أبوللو)..
غير أننى أرى أن هذا تخريف.. لقد مات (باتروكلوس) دون أن يلفظ بحرف..

8- (أخيل) يعود..

انتهت (عبير) من التهام أظفارها فأصابعها وهي ترمق هذه المأساة.
وكان (هكتور) - كما قلنا - غير مولع بالتمثيل بالجثث، لكنه كان مضطرا لاحترام التقاليد الإغريقية.. اتجه إلى ساقي (باتروكلوس) كي يربطه إلى عربته الحربية، ويجره قليلا، لكن الإغريق وقفوا يتصايحون منذرين بالويل، ومنعوه من التمادي والوصول إلى الجثة.
في الآن ذاته جرى عدّاء إلى الشاطئ، حيث جلس (أخيل) وحده يعبث في الرمال.. فلما دنا منه صاح متلاحق الأنفاس:
- باه هـ هـ.. كلوه هه.. ماه.. ماه!
نهض (أخيل) واعتصر صدر الرجل ليبطئ من لهاثه، وسأله في غيظ:
- ماذا تقول؟
أخرج الرجل زفيرا هائلا كالحيتان، وصاح:
- (باتروكلوس).. ماااات!
- لاااه!
صاح (أخيل) وهو يرفع ذراعيه إلى السماء، وخر على ركبتيه منهارا، لكن العداء كان عمليا أكثر من اللازم.. صاح ب. (أخيل):
- إن.. إنهم يمثلون ب.. بجثته الآن لو لم ت.. تسرع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن معه سلاح، ولم يكن وقت للبحث عن سلاح..
هرع يركض نحو الميدان، ورأى الزحام والجيشين يصطرعان على الجثة الممزقة، فعوي.. بل زأر كالأسود..
وكما يهوى جلمود صخر (امرؤ القيس) من عل هوى على الطرواديين يحمل هذا، ويلقيه على هذين، ويركل ذاك فيطير فوق هؤلاء وفي هذه اللحظة أدرك الطرواديون أن هذا هو (أخيل) حقا، ودب فيهم ذات الهلع، الذي كان يجعل الجنود الإنجليز يلقون بأسلحتهم ويفرون، بمجرد سماع اسم (روميل) الرهيب.. هذا طبعا قبل أن يعلمهم (مونتجمري) ألا يخافوا الاسم، ويفوز لهم بمعركة (العلمين).
انفض الجميع فلم يبق إلا (أخيل) وجثة صديقه وعلى ركبتيه جثا (أخيل) يبكي..
يبكي صديق عمره.
يبكي الذي ذهب ليقاتل بدلا منه.
ومن (الأوليمب) هبط مبعوث يحمل ل. (أخيل) خوذة جديدة، وسيفا جديدا، ودرعا جديدة..
كانت الدموع تبلل عينيه، لكنه تماسك، ووضع الخوذة وتمنطق بالسيف..
هكذا الحرب.. مأساة دائمة أشنع ما فيها أنها لا تترك لك فرصة لتذوق هذه المأساة..
ورأى وسط الغبار من يدنو منه على مهل، وربما تردد.. وانجلى الغبار نوعا ليرى أن هذا (أجاممنون)، الذي امتلأ وجهه بالندوب والإرهاق..
هذه المرة لم يكن لدى أحد الرجلين مزاج رائق للشجار..
وتعانق البطلان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغت (عبير) من مشاهدة كل شيء، فدخلت إلى خدرها..
كانت أسوار (طروادة) هذه ساحرة حقا، أشبه عروض (الكولوزيوم) التي تتيح لك رؤية كل شيء بدقة غير عادية
وكان (هوميروس) جالسا ينعي (باتروكلوس) على قيثارته، فقالت له:
- أعتقد أن الحرب في عداد المنتهية الآن لقد عاد (أخيل).. إن (باتروكلوس) مات، ولكن موته حقق ما لم تحققه حياته..
كفّ (هوميروس) عن الإنشاد، وقال:
- من الخطأ اعتبار (طروادة) قد هزمت إذ عاد (أخيل).. ومن الخطأ اعتبار النجاح أو الفشل حكرا على وجود أو غياب رجل واحد..
- لكن الجميع يعتقد هذا..
- لا تنس أنه ظل مع الإغريق تسع سنوات لكن أسوار (طروادة) ظلت منيعة لم تقتحم.
- هل تعني أن الطرواديين سيفوزون؟
- لا أعني شيئا.. أريد أن تنظرى لترى..
وفي هذه اللحظة مر بهما شبح يترنح، وهو ينشد بعض عبارات التقديس ل (فينوس).. لم يكن هذا إلا (باريس)، ولم يبد أنه رآهما أصلا
صاحت في (هوميروس):
- وماذا يفعل هذا الحيوان هنا؟
أشار إلى عينيه اللتين لا سواد فيهما، وقال:
- تتكلمين كأنني أرى ما تشيرين إليه..
قالت في غيظ:
- كلما حاولت أن أصف لك ما أراه، قلت لي إنك لا ترى لكنك (تعلم).. وعلى كل حال هذا الحيوان هو (باريس)..
قال وقد فهم:
- (باريس) لم يمت.. لقد أخفته (فينوس) وسط الضباب، وها هو ذا قد عاد إلى القصر..
قالت في ضيق، وهي تتكئ على الأريكة:
إنه لا يطاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان اليوم التالي - كما هو متوقع – عسير التصديق.. لقد كف (زيوس) عن محاربة الإغريق، ويبدو أن (هيرا) و (منيرفا) لعبتا دون تدخله..
ها هما (أخيل) و (أجاممنون) يتقدمان صفوف الإغريق، وبالطبع كان مشهدهما أسطوريا.. أشياء كهذه لا توصف لكنها ترى أو يشعر بها..
كان سيف (أخيل) يهوي على الرءوس فيطيرها، بينما سهام الطرواديين تتهشم على جسده المنيع..
وبينما (أجاممنون) يغرس رمحه في عجلات العربات فتنقلب، وفي القلوب فتنفجر..

حقا كان (هكتور) يؤدي عمله جيدا، لكن الإغريق كانوا يملكون أسماء لامعة كثيرة ليس (أوديسيوس) أعظمها شأنا..
وكان مشهدا مهيبا أن ترى (أخيل) قد أعطى ظهره لـ (أجاممنون) وراح البطلان يطلقان السهام بلا انقطاع.. في كل اتجاه.
وفي النهاية صمت الجميع..
لقد وقف (هكتور) أمام (أخيل)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الغريب أن البطلين لم يتواجها قط طيلة الحرب، والآن صمت الجميع وهم يرون آلتي الحرب تقتربان من بعضهما، والعيون مثبتة على العيون..
لا يذكر التاريخ نص ما دار بين البطلين، لكن (عبير) / (هيلين) استطاعت أن تسمع العبارة الأولى، وكانت من (أخيل):
- هذا أنت إذن (هكتور) العظيم، وقاتل أعز أصدقائي..
- وأنت (أخيل) العظيم.. الأثير لدى (الأوليمب)..
رفع (أخيل) سيفه وهو يلهث انفعالا، وقال من منخريه:
- لا أحد يقتل صاحبي، ويري شمس يوم جديد..
- لكل قاعدة شواذ..
ورفع (هكتور) سيفه بدوره وصاح..
واندفع البطلان كصخرتين، لاهثين صارخين عاتيين.
حتى (عبير) لم تستطع أن تبقى عينيها مفتوحتين.
أغمضتهما بضع ثوان، ثم فتحتهما لترى.
ترى (هكتور) ممددا فوق الرمال والدم يتفجر من عنقه، بينما (أخيل) قد سقط أرضا لأنه لم يستطع التوقف عن الاندفاع.
هلل الإغريق مرحا، وطارت الرماح والسيوف في الهواء.. ولم تعد تسمع سوى المقطع إيل.. إيل..
الأخير في اسم (أخيل)..
يمكن القول إن الحرب انتهت.. مادام (هكتور) المخيف قد مات..
وقال (أخيل) في هدوء وإن أسمع الجميع:
- اربطوا ساقيه إلى عربتي!
من جديد الجر! كادت (عبير) تجن.. إن الأساطير الإغريقية تبدو تكرارا لا نهاية له للمشهد الأخير من فيلم (الأرض)، وتوقعت أن يظهر (محمد أبو سويلم) في أية لحظة..
وسرعان ما راح الجثمان يركض فوق الرمال.. فقط لم يفعل ذلك على ساقيه.. كان المشهد رهيبا، وحتى الإغريق لم يستطيعوا الهتاف أو إظهار الفرحة..
كان (أخيل) في حالة من الجنون الوقتي، وظل يدور بسرعة جنونية حول الميدان، وبدا أنه لن يتوقف أبدا..
وفي النهاية، وبعد دهر كامل، استدار ليهوي..
على الحبل بسيفه، فتدحرج الجسد الضخم قليلا ثم همد تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام كاملة!
ثلاثة أيام ظل الإغريق لا يفعلون فيها شيئا سوى الاحتفال والعربدة.. وظلت الجثة في موضعها تتسلى عليها الطيور الجارحة..
كاد الأب العجوز (بريام) يجن، وهو يرى في كل دقيقة من اليوم جثة ابنة ملقاة وسط الميدان..
وفي النهاية خرج من الأسوار، ومعه (عبير) التي لم تطق أن تترك هذا الشيخ طيب القلب يمر بمأزق كهذا.
مشيا معا حتى وصلا إلى معسكر الإغريق..
كان هؤلاء محتشدين حول النار يغنون ويرقصون، وفي صدر المكان جلس (أخيل).. البطل العظيم.. جلس شاردا يرمق النار المتراقصة، وفي عينيه ألف ذكري وألف ألم.. ذكريات مبتلة كالماء.. مالحة كالدموع.
رفع عينيه فرأى المشهد، وسمع صوت الصمت إن (بريام) ملك الطرواديين العجوز قد جاء إليه..
جاءه دون حراس، ولا رفاق إلا الفتاة التي أشعلت هذه الحرب كلها..
قال (أخيل) في محاولة للتماسك:
- (هيلين).. ليس مجيئك هنا آمنا.. إن الإغريق لا يحبونك، لكنهم يحبون زوجك..
قالت في ثبات نجحت فيه:
- الطرواديون كذلك لا يحبونني، لكنهم يخافون سلطان زوجي الجديد.. وعلى كل حال نحن هنا تحت حمايتكم وفي ضيافتكم.. أنا إغريقية وأعرف أن الإغريق لا يقتلون النساء والشيوخ..
- أحسنت القول، ولكن لماذا جئت؟
هنا ارتمى الملك العجوز على ركبتيه، وهتف:
- جثة ابني.. أريد (هكتور)!



هنا تصايح الإغريق محنقين رافضين، فرفع (أخيل) يده المزدانة بأساور الفولاذ وصاح:
- أعطوه الجثة ليدفنها كما يليق ببطل!

أذعن القوم، وتعاون أربعة منهم على حمل الجثة وتغطيتها، ثم مشوا كأنهم في جنازة نحو أسوار (طروادة)..
نظر الأب إلى (أخيل)، وفكر في أن يشكره.. ثم عدل عن ذلك.. أليس هو قاتل ابنه بعد كل شيء؟..
وسرعان ما لحق بالجمع المتجه إلى (طروادة)..
وبدورها نظرت (عبير) إلى الوراء.. وللحظة خطر لها أن تعود لهم.. لكنها ارتجفت من الفكرة..
كما قال (باريس) لن تُحقن الدماء..
إن الأيام ستدور دورتها، ولسوف يحدث ما لا بد أن يحدث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي احتفال مهيب رهيب، وقف الطرواديون يحرقون جثمان (هكتور) الذي حماهم ووحدهم كل هذه السنين.. (عند هذه النقطة تنتهي ملحمة الإلياذة)..
ومع الدخان المتصاعد كانوا يشعرون أن النار تحرق مدينتهم وغدهم، وأن نزاع السنوات العشر يدنو من نهايته.
دنا (هوميروس) من اللهب، وصاح ملوحا بقيثاره:
- الحرب لم تنته يا أهل (طروادة).. ومازال (باريس) و (بيريام) حيين!
انطلقت عبارات السباب تنهال على رأس العجوز البائس..
وقال أحد المتحمسين:
- لو كان الموت يختار لاختار (باريس) الرقيق بدلا من هذا البطل!
وقال آخر
- بل الموت يختار ببراعة.. يختار الأفضل والأنبل والأشجع!
وإلى حد ما كانت (عبير) تفهم ما يشعر به الطرواديون والإغريق.. كانت هناك قوتان كاسحتان في العالم هما (هكتور) و (أخيل).. كأنهما النار والماء.. الأرض والسماء.. فجأة تلاشت إحدى القوتين، وحدث اختلال في النفوس..
لكن القوة الثانية لم تكن لتعيش طويلا..
وإليكم ما حدث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9عملاق وقزم..

وعند المساء دخل (باريس) حجرتها.. ووقف ساكنا ينظر إلى الجدار..
من الواضح أنه قد وضع قدمه على أول الطريق الملكي إلى الجنون..
بعد صمت طال سألها:
- (هيلين).. هل تحبينني؟
- لا..
قالتها وتثاءبت واستلقت على الأريكة، متظاهرة بأنها بحاجة إلى النوم.. عاد يسألها في دهشة كأنما يعرف هذا لأول مرة:
- حقا لا تحبينني؟
- هو كما سمعت..
- والسبب؟
لم ترد لأنها تمقت الأسئلة السخيفة والأجوبة التافهة.. فقال لها ملحا:
- كنت تهيمين بي حبا، وفررت معي..
- كان هذا سحر (فينوس)، والآن لم يعد له أثر.. واضح أن (فينوس) لم تعد رائقة المزاج للعناية بك..
راح يجوب الغرفة متوترا.. كانت تعرف أن هذه بالذات هي اللحظة التي يجن الرجال فيها ويقتلون زوجاتهم، ولم تستبعد هذا.. لكنه كان واهنا نحيلا يمكنها أن تهزمه بسهولة لو حاول خنقها.. ثم إنها لم تعد تكترث..
سألها في عصبية وهو يرتجف:
- ليس الموضوع أن سحر (فينوس) انتهى، ولكنك تكرهين ضعفي وسط كل هؤلاء الأبطال..
لكن أكثرهم يرقد في قبره الآن..
قالت بلا مبالاة:
- ليس الموضوع ضعفك.. بل هو كونك السبب المباشر في كل هذه المذابح، وكل هؤلاء الذين (لن يعودوا لبيوتهم اليوم)..
- يا سلام! ألم تكوني أنت أيضا السبب؟
- ومن قال إنني أحمل لنفسى أدني تقدير؟!
عاد يجوب الغرفة كنمر حبيس، وقال:
- والعمل؟
لا شيء.. ننتظر حتى يدخل الإغريق (طروادة)، ويقتلوك ويعيدوني لزوجي الأول الذي قد يقتلني بدوره..
- لا!
كذا صاح، وضرب الحائط بقبضته، ومن الغريب أنه لم يصرخ أو يئن.. راح يعض أنامله وقد شرد تفكيره.. ثم هتف:
- لن ينالوني حيا.. غدا سأحارب، ولسوف تصيبهم الدهشة!
قالت في ملل، وهي تدير وجهها للحائط:
- حقا ستصيبهم الدهشة!

- وأنت ستهيمين بي حبا..
- ربما أهيم على وجهي!
وأغمضت عينيها وحاولت أن تنام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح كان الإغريق قد قرروا إنهاء احتفالهم كأنما حرق جثة (هكتور) معناه انتهاء المهلة..
هذه المرة بدأ الزحف مع الأبراج العملاقة نحو (طروادة)، وكانوا يعرفون أن (طروادة) المدينة العنيدة سوف تتحول إلى رماد عند قدوم الليل.. لم يتوقعوا هذا بل كانوا يعرفونه يقينا.. إن (زيوس) قد تخلى عن (طروادة)، و (فينوس) ملت الدفاع عن (باريس)، و (هكتور) ليس هنا كي يقلب الأبراج..
ومن (طروادة) خرج المحاربون متجهمي الوجوه، ينتظرون البلاء الأعظم.. لن يمر هذا اليوم إلا وهم جثث، ونساؤهم سبايا، وأطفالهم عبيد، وديارهم خرائب.. ماذا بوسعهم أن يفعلوا سوى المواجهة؟
وظهر (أخيل) في مقدمة الصفوف كان متجهم الوجه بدوره، كأنما هو غير راغب في الهول القادم.
وتلك هي السمة العامة التي لاحظها النقاد في (الإلياذة): كل الأبطال متهورون وضحايا.. كلهم متورط في حرب لا يريدها لكنه يخوضها بشرف..
كلهم نبيل.. فلا يوجد أشرار حقيقيون، وحتى (باريس) البغيض مجرد وغد ضعيف أمام شهواته..
وهذا هو ما يجعل (الإلياذة) مأساة حقيقية تملأ قارئيها حزنا على مصير أبطالها.
كالعادة وقف (أخيل) صائحا في رجال (طروادة):
- إنني أتحداكم أيها الطرواديون.. فمن يريد منازلة (أخيل)
تبادل الطرواديون النظرات..
هل هذا الرجل يمزح؟ تحدي (أخيل)؟ يا سلام؟!
من جديد عاد (أخيل) يكرر تحديه:
- هل خلت (طروادة) من رجل حار الدماء، يقبل تحدي (أخيل)؟
كانت الإهانة واضحة لاذعة، لكن لسان حال القوم قال إن رجلا جبانا حيا أفضل من رجل حار الدماء ميت..
هنا دوى صوت رفيع:
-أنا أتحداك!
ونظر الجميع إلى هذا الأحمق، فوجدوا (باريس)!
(باريس) الواهن الذي يكاد يعجز عن حمل سيفه، والذي جاء من مكان ما..
نظر له (أخيل)، وكتم ابتسامته، وقال:
- (باريس) يا بني.. ابتعد عني.. فأنا طلبت رجلا!
- وأنا لبيت نداءك!
- نظر (أخيل) من حوله في ارتباك، وقال:
- وأنا أرفض مقاتلتك.. لسوف يتبعثر شعرك الجميل!
(عبير) كانت ترمق المشهد من سور المدينة المحاصرة، وجاورها (هوميروس) الذي لا يكف عن

نظم الأشعار وإنشادها..
قالت ل (هوميروس) مندهشة:
- لقد جن (باريس).. أعتقد أنه وجد طريقته المثلى للانتحار، وما خطر لي أن هذا ما ينتويه أمس!..
قال الشاعر الضرير:
- ربما.. لكنه ليس مجنونا على كل حال..
نظرت له (عبير) وقد بدأت تفهم:
- لحظة.. عرفت من سيفوز في هذا القتال إنه (باريس) طبعا! أليس كذلك؟
- ربما.. ولكن لماذا تقولين هذا؟
- عقدة العملاق والقزم الشهيرة.. نموذج (داوود وجالوت).. في هذا النوع من الصراعات ينتصر القزم غالبا!
ضحك في خبث وقال:
- حسن.. لا يمكن أن يثير المرء انبهارك أبدا..
- لم أعد ساذجة كما كنت.. ولكن كيف سيحدث هذا؟
- راقبي القتال لتفهمي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الميدان كانت المواجهة مستمرة بين (باريس) و (أخيل).. كان (أخيل) غير راغب في أن يبدو متحمسا، لذا أدخل سيفه في جرابه، وراح يكتفي بتحاشي طعنات (باريس) المحمومة المجنونة، وعلى فمه ابتسامة واثقة أثارت غيظ الفتى.
أخرج (باريس) قوسه والسهام، وبدأ يصوب على صدر (أخيل)، لكن السهام طاشت أو تهشمت حين لامست جسده المنيع..
استدار (أخيل) إلى الإغريق وقال ويده في خصره:
- كما ترون يا رفاق.. سأترك هذا الصبي يموت إجهادا أو يموت مللا.. ولن..
وهنا أطلق (باريس) سهمه على كعب (أخيل) البارز من مؤخرة صندله.. وكان السهم مسموما..
عرف الجميع أنه مسموم حين استدار (أخيل) إلى الفتى والذهول على وجهه.. وهتف:
- أنت؟ قالت أمي إن حياتي ستكون قصيرة، لكني لم أتوقع أن تكون أنت.. أنت!
ثم سقط على ركبتيه..
وبعد ثانية سقط على وجهه في الغبار..
وهمدت حركته..
لقد أطلق (باريس) سهمه على كعب (أخيل)..
الجزء الوحيد غير المنيع في جسد البطل الذي غمرته أمه في نهر (ستيكس).. وهكذا دخل تعبير (كعب أخيل) كل اللغات الغربية، تعبيرا عن نقطة ضعف إنسان قوي، أو نقطة ضعف في نظام دفاعي صارم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساد صمت رهيب.. ساد طويلا جدا جدا ثم تقدم الإغريق واجمين، وحملوا جثمان بطلهم عائدين إلى معسكرهم.. لقد انتهت معارك اليوم وربما انتهت الحرب كذلك..

وحده وقف (باريس) في الميدان والقوس في يده..
كان يرتجف كورقة، لكنه كان راضيا عن نفسه..
لم يدر أحد كيف حمله الطرواديون على الأعناق وعادوا به إلى المدينة.. إنه فتي عابث ماجن..
لكنه هو الذي قتل (أخيل)..
(أخيل) الذي قتل (هكتور).. وما حسبوا (هكتور) يموت كالآخرين...
كانوا مرهقين عاجزين عن الصياح..
لكنهم كانوا يتبادلون النظرات.. نظرات تهتف حتى يبح صوتها..
وداخل القصر وقفت (عبير) جوار (هوميروس) ترمق البطل العائد.. لم يتحرك في قلبها حب..
وكانت تتمنى أن ينتصر (أخيل)..
لكنها كذلك لم تستطع ألا ترمقه بإعجاب واندهاش..
وقف (باريس) يتبادل معها النظرات، ثم همس:
- هل برهنت على أنني رجل؟
هزت رأسها ولم تتكلم
- وهل قتلت (أخيل) الذي لا يقهر؟
هزت رأسها من جديد.
- وهل انتهت الحرب بفوزنا؟
هذه المرة لم تهز رأسها.. فمن قال إن الحرب انتهت؟
لكن (هوميروس) قال نفس الشيء بصراحة، فوجه له الفتي ركلة أطارته مترين إلى الوراء..
ودخل حجرته لينام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 10الحصان..

مرت أيام هادئة تراجع فيها الإغريق إلى معسكرهم، ولم تبد بارقة توحي بعزمهم على القتال..
والحقيقة أن الجواسيس الذين قصدوا الشاطئ وجدوا الاستعدادات للرحيل..
هلل أهل المدينة المحاصرة، وكانوا يحتفلون، لكنهم لم يجسروا على هذا كي لا يستفزوا (هيرا) و (منيرفا) و(زيوس) الذي يبدو أنه بدأ يميل إلى الإغريق ثانية.
أما عن (باريس) فقد مات..
نعم.. مات بسهم اخترق قلبه، أطلقه رجل طروادي أبرص، يبدو أنه قد أخذ مالا من الإغريق مقابل الانتقام ل. (أخيل)..
في الحقيقة لم يقتل الطرواديون القاتل، إلا على سبيل المجاملة لملكهم (بريام)، ولولا هذا لتركوه ينصرف أو كرموه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

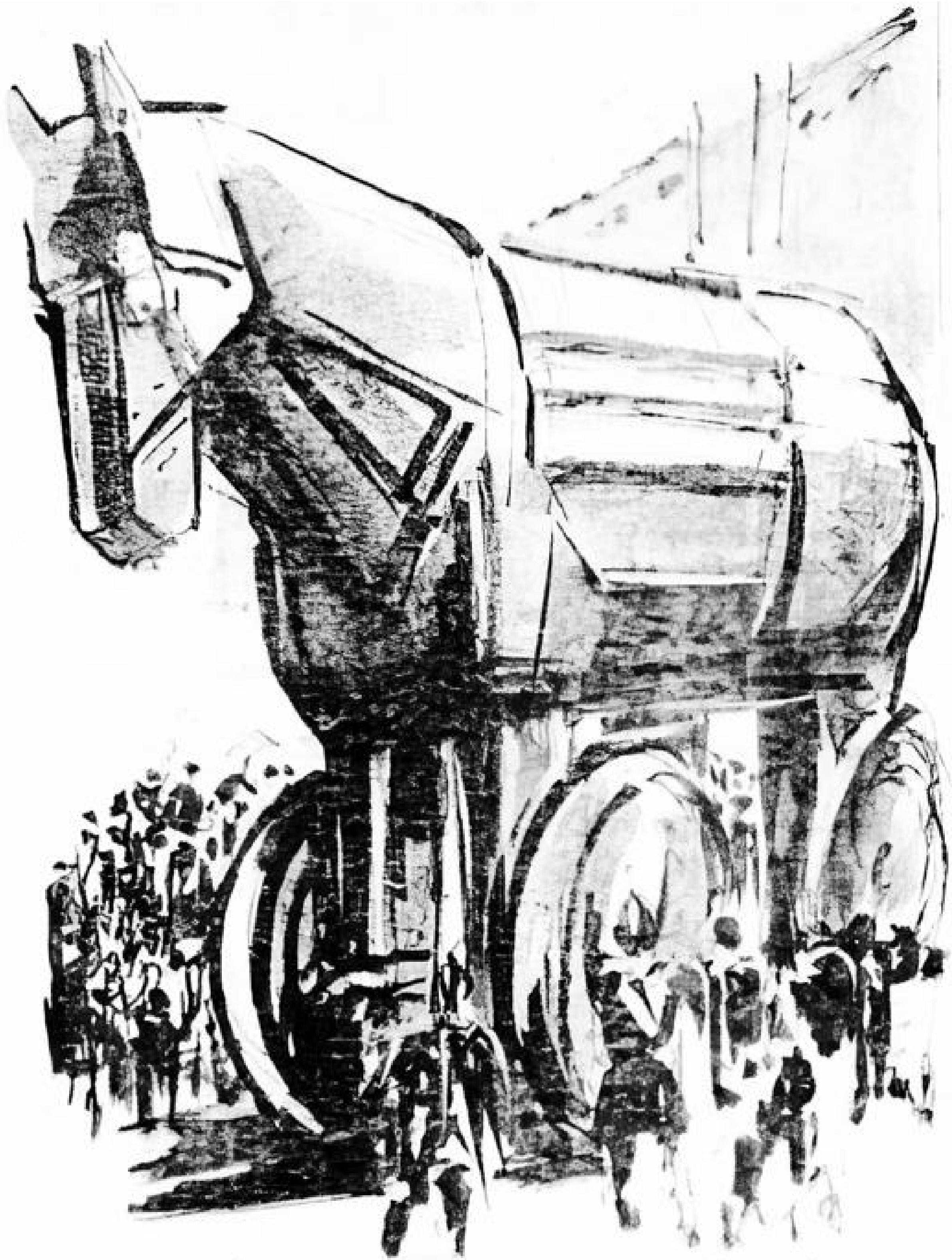
لم تكن (عبير) / (هيلين) شريرة إلى هذا الحد.. لقد بكت قليلا على هذا الذي أحبته يوما ما..
صحيح أنها لم تر منه خيرا، لكن الحقد على الموتى من شيمة اللئام..
ودخل (هوميروس) ليسمعها تنهنه في الظلام..
طبعا لم يدرك أنها في الظلام.. قال لها وهو يدق الأرض بعصاه:
- مات (أخيل) بيد (باريس)، ومات (باريس) بيد رجل أبرص..
سألته وهي تمسح دموعها:
- هل انتهت الحرب إذن؟
لم يرد على سؤالها، وواصل الإنشاد:
لقد تخلت (فينوس) عن طفلها الأثير.. وشعرت بالملل من الدفاع عنه تسعة أعوام كاملة..
(باريس) قد دفع ثمن اختياره غاليا، ولربما لو اختار (هيرا) أو (منيرفا) لكان أفضل.. وأنت..
وصمت طويلا، فقالت:
- أنا؟ وماذا عني أنا؟ لم يعد لي أحد في هذه المدينة..
- وما كان لك أحد منذ البداية، ومنذ كفت جمرة حب (باريس) عن التوهج.. ولكن لا أحد لك في (إسبرطة) كذلك.. ترى هل مازال (منيلاوس) يحبك؟، وهل ابنتك (هرميون) تعرف أن لها أما؟
صاحت في غيظ:
- هل أنت هنا لتعزيني أم تشجعني على الانتحار؟
- لا هذا ولا ذاك.. أنا مجرد شاعر لا يملك إلا الانفعالات..
- إذن رد على سؤالي.. هل انتهت الحرب؟
قال بغموضه المعتاد:
- لننتظر ولنر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي راح العداءون يركضون نحو المدينة، صائحين:
- لقد رحل الإغريق!
رحل الإغريق؟ مستحيل!
وخرج القوم من بيوتهم ينظرون من فوق الأسوار، ليروا الألف والمائتي سفينة إغريقية تبتعد عن الشاطئ من حيث جاءت..
وللمرة الأولى منذ عشرة أعوام يرى القوم البحر، وكانوا قد نسوا كيف يبدو، ولا كيف يبدو الأفق.
رحل الإغريق تاركين آثارهم وراءهم.. خيام محترقة.. رماح غرست في الرمال، ودروع متناثرة.. وسيوف..
هذه إذن حرب لم يجن منها أحد شيئا.. مات عشرات بل مئات الأبطال دون جدوى.. لم تفتح (طروادة) ولم تعد (هيلين) لقومها..
لكن الناس راحوا يرقصون فرحا بانتهاء الحرب..
الحرب التي تمنوا ألا ترجع أبدا بعد اليوم..
وصاح صائح: إن الإغريق قد تركوا هدية..
هدية؟ غريب هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحول الجانب الغربي من الأسوار؛ التف القوم حول أغرب ما رأوه في حياتهم.. كانوا ينظرون إلى حصان خشبي عملاق يقف على عجلات.. حصان يبلغ ارتفاعه نحو عشرين مترا، وطوله نحو خمسين..



كانوا ينظرون إلى حصان خشبي عملاق يقف على عجلات..
حصان يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً، وطوله نحو خمسين..

لقد تم تصميمه ببراعة، وباستخدام كمية غير عادية من الأخشاب.. إذن السفن التي رحلت لم تكن ألفا ومائتين، بل ربما كانت ألفا.. كل هذه الأخشاب لا مصدر لها إلا السفن..

تم تثبيت الأجزاء بأطنان من المسامير، ودعمت بالحبال.. وقد ارتكز هذا الكائن الهائل المهيب على أربع عجلات عملاقة..
راح الأطفال يتواثبون فرحا، وشهقت النساء وهن يرمقن ارتفاع الحصان المهيب، أما الرجال فكانوا عباقرة كعادتهم وقالوا:
- هذا عربون الصلح! إنه التعبير الأخير عن اعتذارهم لحرب لا لزوم لها..
- تعالوا نجره إلى المدينة!
صاحت امرأة وسط الجمع:
- صبرا! ولماذا يجب أن يكون في المدينة؟
- لأنه سيقف في أكبر ميادينا، رمزا لانتصارنا..
ما كنا لنبني تمثالا بهذا الحجم وهذا الإتقان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا برز من وسط القوم كهل ملتح، انحنى ظهره وبدا عليه الوهن، لكن عينيه كانتا تشعان حكمة وذكاء..
قال (هوميروس) لـ (عبير) وهما واقفان وسط الزحام لا يشعر بهما أحد:
- هذا (لاوكوون) كاهن (بوسيدون)..
سألته في كياسة:
- ألا ترى أن حصافتك وبصيرتك تفوقان المتوقع؟ إن الرجل لم يتكلم بعد حتى تتعرفه!
- أنت كباقي المبصرين تحسبين أن العينين هما كل شيء..
قال الكاهن بصوت جهوري:
- أيها الطرواديون! أنتم تعرفون (لاوكوون) كاهن (بوسيدون)، وتعرفون أن ما يقوله حق..
هنا همس (هوميروس) في أذنها:
- هل رأيت؟
- أعرف.. دعنا نصغ لما يقول..
صاح الكاهن:
- ليس من دأب الإغريق أن يحملوا هدايا.. وقديما قيل: احترس من اليوناني حين يجلب لك هدية..
سأله أحد الدهماء واسمه (سينون) (فيما بعد تحكي الأساطير أنه جاسوس إغريقي):
- وماذا تريد إذن؟
- أريد أن نحرق هذا الحصان الآن..
- كف عن السخف يا (لاوكوون).. لوح الرجل بذراعيه في الهواء، كأنما يرقص وواصل الصياح الغاضب:
- أيها الحمقى.. يجب أن تصغوا لكلمات كاهنكم.
هذا الحصان الخشبي يجب أن يحرق حالا..
دنا منه صبيان في سن المراهقة، وجذبا عباءته صائحين:
- لنرحل يا أبت!
لكنه لم يبال بهما، وواصل تحذير الطرواديين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقول الأسطورة إن (بوزيدون) إله البحار عندهم، كان يضيق ذرعا بالطرواديين، ولم يرق له أن يحذرهم كاهنه من مصيرهم المحتوم، لهذا أصدر أمره إلى أفعوانين بحريين عملاقين كي يقصدا (طروادة)..
كان الجانب الغربي، حيث وقف التمثال، ملاصقا للبحر
وفي اللحظة التالية انشقت صفحة الماء الهادئ، وخرج الأفعوانان وسط صراخ القوم وذهولهم..
التف الأول حول أحد ابني الكاهن (لاوكوون)، والتف الثاني حول الآخر..
حاول الكاهن العجوز أن يحرر الصبيين، لكنه لم يستطع، وسرعان ما التف ذيل أحد الأفعوانين حول صدره.. وراح يعتصره..
وفي النهاية لم يعد ضجيج ولا صراخ يصدر من الضحايا الثلاث..
وجذب كل أفعوان ضحيته أو ضحيتيه عائدا إلى الماء، وساد الصمت والتأمت صفحة الماء على ضحاياها
بعد قرون من السكون، صاح أحد الرجال:
- هذه إشارة واضحة من (بوزيدون)! لقد غضب على كاهنه لأنه رفض أن نجر الحصان إلى المدينة..
وقال آخر:
- هذا فأل! يجب أن نأخذ الحصان معنا!
وتعاون القوم على ربط الحصان العملاق بالحبال، وتعاون الشباب الأقوياء - الذين لم تبتر الحرب أطرافهم بعد به على جر الحصان، وهم يصيحون بعبارات إغريقية على غرار (هيلا هوب!)
وفي النهاية دخل الحصان إلى (طروادة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- السقوط..

قالت (عبير) ل (هوميروس) وهي تتأمل الحصان العملاق داخل أسوار المدينة:
- طبعا كان الكاهن البائس على حق في تحذيره..
قال ضاحكا:
- طبعا.. في الميثولوجيا الإغريقية يغدو كلام العرافين والكهنة صحيحا دائما، ولسبب ما يصر البشر على تجاهله.. ونصيحتي لك.. لو وجدت نفسك في أية أسطورة إغريقية؛ فعليك أن تصدقي هؤلاء القوم فورا!
ثم أضاف وهو يدق الأرض بعصاه:
- فيما بعد سيكتب خصمي اللورد (فيرجيل) هذه القصة في ملحمته (الإنيادة).. ولسوف يرى زوار (الفاتيكان) تمثالا رخاميا رائعا، يمثل مصرع (لاوكوون) هو وولديه بين عضلات الأفعوانين..
شعرت أنها رأت تمثالا كهذا في مكان ما، ومن الواضح أنه راقد في أعمق أعماق ذاكرتها.. لابد أنه تمثال باهر الجمال..
سألته:
والحصان؟ إنه خدعة طبعا..
- طبعا.. إنه مليء بالجنود الإغريق الذين ينتظرون مجيء الليل كي يخرجوا منه، ويدمروا (طروادة).
تذكرت هذه القصة على الفور.. وهو موقف شبيه بالأربعين جرة المهداة إلى (على بابا) في قصة (علي بابا والأربعين لصا).. وتعبير (حصان طروادة) هو تعبير آخر تضيفه الأساطير الإغريقية إلى التراث الأدبي الغربي، كناية عن الهدية بريئة المظهر التي تجلب الخراب..
ولعل آخر من استعمل هذا التعبير، هم خبراء الكمبيوتر الذين أطلقوا اسم (خيول طروادة) Trojan Horses على مجموعة من فيروسات الكمبيوتر، التي تبدو بريئة المظهر، وتدخل الكمبيوتر باعتبارها برامج نفعية مفيدة، ثم لا تلبث أن تكشر عن أنيابها متى عرفت طريق القرص الصلب..
قالت له وهي توشك على اعتلاء صخرة:
- هل أنذرهم؟
- لا تفعلي.. إن (بوسيدون) سيعرف كيف يسكتك.. ثم إنهم لن يصدقوا حرفا لأنك إغريقية، وسبب كل هذه المآسي..
- ربما لو انتزعت بعض ألواح الخشب؟
- لن يتركوك تفعلين.. لا تحاولي يا (هيلين)..
إن التاريخ سينفذ خطته مهما حاولنا أن نعترض..
- وهل هذا تاريخ أم أسطورة؟
- حتى لو كان أسطورة.. إن قواعد الأساطير اليونانية تحتم ألا يصغى البشر لنصح الناصحين، وأن يمشوا لمصيرهم المحتوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء المساء وأخلدت (طروادة) كلها للنوم، بعد احتفالات صاخبة..

لكن (عبير) لم تنم ظلت واقفة في الساحة التي شمخ فيها الحصان الخشبي، وراحت تنتظر أن ترى هذا المشهد الفريد..
كريييك!!
انفتح باب خشبي خفي في بطن الحصان، ثم - بالفعل - وثب أول جندي إغريقي، وتبعه آخر.
كانوا متوترين كالهررة، في يد كل منهما سيف بتار يلمع في ضوء النجم الوحيد الباقي في السماء..
رآها أحدهما، وقبل أن تقول حرفا، وثب بأربع قفزات نحوها، ولف شعرها على يده اليسرى، بينما وضع حد السيف على حنجرتها..
هتفت وهي تخشى أن يؤدي الكلام إلى توغل السيف:
- أنا ملكتكم! أنا زوجة (منيلاوس).. أنا (هيلين)!
تأمل وجهها في الضوء المحتضر، ثم ارتجف وأطلق سراحها، وغمغم:
- مولاتي.. ماذا جاء بك إلى هنا؟
وهمس الآخر وهو ينحني إجلالا:
- يحسن أن تبقى في القصر مع (بريام) العجوز.. إن ما سيحدث هنا لا يجب أن تراه عين ملكية..
صدعت بالأمر وتراجعت للوراء..
وبدا لها في الظلام كان بطن الحصان تفرغ أحشاءها.. وكأن ثعبانا عملاقا مدججا بالسيوف يخرج من هناك ببطء.
أصابها الهلع، فراحت تجرى.. تجري.. تجرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي القصر راحت ترتجف..
سدت أذنيها.. لكن صرخات الرجال والنساء ظلت تصل إليها وخرجت إلى الشرفة لترى (طروادة) تتحول إلى كتلة من الرماد المشتعل.. تلك البقايا التي سيجدها (هنريش شليمان) في القرن العشرين..
رائحة الشياط تزكم أنفها، بينما (هوميروس) لا يكف عن الإنشاد واصفا ما يحدث.. وهو على كل حال لا يخرج عما يكتب دائما عند اقتحام أية مدينة محاصرة..
(هدموا الدور والمعابد، ونهبوا الثروات، وقتلوا الرجال وسبوا النساء وبقروا بطون الحوامل، وأخذوا بلحى الشيوخ الأجلاء..)..
يقول (كريستوفر هارولد) المؤرخ العظيم:
«نفس المشاهد البشعة تتكرر دائما عند اقتحام المدن المفتوحة، حتى إن الأمر يحتاج إلى عالم نفسي لتفسيره وليس إلى مؤرخ».. فقط يشهد التاريخ أن الفاتحين الوحيدين الذين تعاملوا برقي وتحضر مع أهالى المدن المفتوحة هم المسلمون، لهذا دخل أهالي أكثر هذه المدن في الإسلام أفواجا بينما انقرضت ديانات (زيوس) و (مثرا) وسواهما..
استمرت أصوات المذبحة، و (عبير) تتمني لو ينقذها أحدهم من هذا كله.. وبالفعل تحققت أمنيتها..
سمعت صوت القلم الجاف (يتكتك)، ثم ظهر (المرشد) حاملا على وجهه قناع اللامبالاة المعتاد..
قال لها:
- لقد سقطت (طروادة) يا (أليس).. حان وقت الرحيل..

قالت وهي تتنهد:
- حقا حان الوقت.. لكن القصة مازالت مبتورة..
قال لها:
- سأقدم لك خدمة.. هي أن أحكي مصير كل واحد من الأبطال بعد الحرب، كما يحدث في الأفلام المأخوذة عن قصص من الواقع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (هيلين): يعيدها الإغريق إلي (منيلاوس) زوجها، الذي يجيء إلى (طروادة).. ويعود الزوجان إلى الوطن، لكن العواصف تطيح بالسفينة، ويضطران إلى أن يجنحا مرة في (قبرص) ومرة في (مصر)..
في النهاية يعودان إلى (إسبرطة) ويعيشان حياة هادئة سعيدة.. يبدو أن الحب يغفر كل شيء حتى بالنسبة ل. (هيلين)، التي أشعلت حرب عشرة أعوام ضروسا، وتسببت في موت ألوف الأبطال..
لم يرزق الاثنان إلا بطفلة واحدة، هي – كما عرفنا - (هرميون)
- (أجاممنون): يعود لوطنه مظفرا بعد سقوط (طروادة).. ويقدم له جيشه هدية قيمة هي الأميرة الطروادية الأسيرة (كاساندرا)..
أثار هذا غيظ زوجته (كليتمنسترا).. وكما تفعل الزوجات الغيورات في كل زمان ومكان، قامت بقتله في الحمام.. وهو نوع من الحب مبالغ فيه نوعا.. وبعد أعوام كبر ابنه (أورستس) وانتقم لأبيه..
- (إينياس): من القلائل الناجين من طروادة بعد المذبحة.. وقد فر مع باقي الناجين إلى رقعة على البحر المتوسط تشبه الحذاء.. وهي التي صارت إيطاليا اليوم..
إن قصة حياة هذا الرجل مذكورة بعناية في ثلاثية (أورستيا) للشاعر (إسخيلوس)..
وقصة هذا الفرار تحكيها (إنيادة) (فيرجيل) بالتفصيل الممل.. جدا..
- (أوديسيوس): البطل الإغريقي العظيم الذي يعود لوطنه وزوجته المخلصة (بنيلوبي)، لكنه يضل طريقة في البحر المتوسط، ويغيب عشرة أعوام كاملة!
إن (الأوديسة) ليست إلا قصة رحلة العودة هذه..
- (هوميروس): برغم الجدل المحتدم حول شخصيته، فإنه كان الأب الروحي للأدب اليوناني وربما الغربي كله.. إن (الفردوس المفقود) ل. (ميلتون) يشي بتأثر بالغ بأشعار (هوميروس)..
كما نرى هذا الأثر بوضوح في (دون كيشوت) ل. (سرفانتس)، و (أوليسيوس) ل. (جيمس جويس)..
ترجمت أعمال (هوميروس) إلى الإنجليزية على أيدي (تشابمان) عام 1661 و (بوب) عام 1715 – 1726.. كما أن هناك ترجمة إنجليزية معاصرة قدمها (روبرت فيتزجيرالد) في القرن العشرين..
لن نعرف الحقيقة أبدا.. هل وُجد (هوميروس) أم لم يوجد... لكن حرب (طروادة) حدثت فعلا، وبشكل لا يختلف كثيرا عما نعرفه.
في القصة القادمة؛ نخوض مع (أوديسيوس) رحلته المخيفة في طريق العودة إلى وطنه وزوجته الحبيبة (بنيلوبي)..

(تمت بحمد الله)

من أجل طروادة

تعالوا أيها المحاربون الشجعان ننتقم لكرامتنا.. تعالوا يا محاربي (إسبرطة) العظام.. تعال يا (أخيل) ويا (أجاممنون) ويا (نسطور) نجتاح أسوار (طروادة)..
نحرق حقولها.. نبيد شعبها.. نحيلها إلى خراب.. ولينشد (هوميروس) على قيثارته قصة مجدنا..

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس..

الملاحظات

[←1]

(*) راجع قصة (عودة المحارب).. ماذا؟ لم تصدر بعد؟ إذن اقرأها حين تصدر!

روايات مصرية للجيب

26

فانتازيا

عودة المحارب




فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (26)

عـودة المحـارب

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مواجهة لم تتم..

قالت له (عبير):
- لقد وجدت خطابا في جيبك..
تباطأت حركة الطعام في فمه، كأنما يمعن التفكير مليًا.. كذبة.. هو الآن يبحث عن كذبة.. لماذا؟ لأنه ذكي بالتأكيد ويعرف عن أي خطاب تتكلم.. لكن لا بد أن يسألها السؤال التالي على سبيل التقاليد:
- أي خطاب تعنين؟
- خطاب الآنسة (رانية) طبعا.. أم لعلها مدام؟
من جديد عاد (شريف) يمضغ ما في فمه، كأنما يستحضر الكذبة من غدد اللعاب، ثم قال بعد صمت طال:
- لا توجد (رانية).. ولا يوجد خطاب.. عم تتكلمين؟
وهنا تذكرت أنها كانت حمقاء حين أعادت الخطاب لجيبه بعدما نام في تلك الليلة التي سافرت فيها إلى القمر مع رجال نادي السلاح وكرة (هـ. ج. ويلز) معًا.. الآن يمكنه أن ينكر.. لكن لا توجد محاكم هنا.. إنها الشاهد والمدعي والقاضي معا، ولسوف تدينه قبل أن تحاكمه.. بل هي قد أدانته بالفعل من دون أن تصغي لدفاعه.. فقط في المحاكم يستطيع المجرم أن يفر من التهمة بإخفاء أداة الجريمة..
قالت والدموع توشك أن تتساقط من عينيها، لكن لا بد من أن تمنع هذا:
- كف عن المزاح.. ثمة خطاب من فتاة من عالمك وجدتك مناسبا لها أخيرا.. اسمها (رانية).. وأنا وجدته وقرأته وفهمته.. والآن أطلب منك تفسيرا أو فعلا أو كليهما..
في عناد شنيع قال:
- (عبير).. أنا أكرر أنني لم أعرف واحدة بهذا الاسم.
- وأنا أكرر أن للكذب حدودا يجب أن يتوقف عندها.
- أنا لا أكذب ولا أتجمل.. ولا وقت لدى لهذا الهراء..
ثم قرر أن الوقت قد حان لإنهاء هذه الوجبة، لأنها بدأت تتحول إلى حمض كبريتيك مركز في معدته، فمسح فاه بالمنشفة ونهض، وقال:
- إذا كنتِ ستلعبين لعبة الغيرة فالعبيها بالشكل الصحيح.. حاولى كتابة الأسماء كي لا تنسيها!
صاحت في غيظ:
- إلى أين تحسب أنك ذاهب؟ لم ننته بعد!!
- أنا انتهيت من الأكل ومن السماع، وصار من حقي أن أفعل شيئا أكثر أهمية..
ورأته في ذعر يتجه إلى الحمام ليغسل يديه، ويفعل شيئا أكثر أهمية.. مستحيل أن ينتهي الأمر هكذا!
لقد تجنبت هذه اللحظة ثلاثة أيام كاملة لأنها توقعت أن تفتح أبواب الجحيم عليها وعليه.. لكنها لم تتوقع أن تنتهي الأمور بهذه البساطة وهذا السخف..
كلا.. لم ينته الأمر.. ستعرف كيف توقع به..
إنها بحاجة إلى مواجهة.. مواجهة شرسة تعرف بعدها مالها وما عليها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقضت.. كما تتوقعون.. أسود يوم في حياتها..
إن الغد لا يجيء حين تريده.. وهي اليوم تريد الغد بشدة.. وهكذا ظلت في غرفة النوم راقدة على ظهرها، تتأمل السقف وتقضم أظفارها، وأحيانا كانت تذهب لتتأمل الطفلة مفكرة.
هي الآن تري (رانية) هذه بعين الخيال.. ترى وجها لا يمت للجمال بصلة، لكنه مغطى بالأصباغ إلى حد أنه صار وجها جديدا لا بأس به.. كما يرسم الرسام لوحته على قطعة من الخيش القبيح فتولد (الموناليزا) مثلا.. إنها ترتدي البنطال الضيق طبعا.. وتتظاهر بالرقة، وعلى وجهها تعبير دائم من الاشمئزاز كأنما (لم تتوقع أن تكون الأمور بهذا السوء).. وهي تمثل دوما.. بالتأكيد تمثل دوما.. كل حركة تريد بها أن يرى الآخرون كم هي رقيقة.. كم هي راقية.. كم هي ذكية..
- لنا نفس العالم ونفس المهنة.. هكذا قالت في خطابها، وبالتأكيد لم تكن تمزح.. إنها تعمل في مجال الكمبيوتر مثل (شريف).. بالتأكيد ليست مبرمجة أو مصممة نظم أو مهندسة.. لابد أنها تعمل في مهنة ما غامضة، من المهن التي امتلأ بها المجتمع حاليا.. التسويق.. السمسرة.. الدعاية.. المهم أنها مهنة من المهن التي لا تصنع شيئا ولا تقدم نفعا ملموسا.. تبيع وتشتري كلاما.. ولكنها تمنح صاحبها الحق في استعراض ثقافة غربية سطحية، وأن يستعمل كلمات مثل Sale وManager وCommission وأن يحمل الهاتف الخلوي، ويستعرض به متمايلا متلويا في أثناء انتظار القطار على المحطة..
(رانية) هذه ليست بالتأكيد عم (شحاتة) الميكانيكي الذي لم يعد يعرف لون يدية الحقيقي، وليست عم (طه) النجار الذي بلل بعرقه كل قطعة أثاث صنعها، ولا هي أم (رشدي) التي تبيع الشاي عند أول الحارة، وبالتأكيد ليست الدكتور (محمود) الذي أصابه الصمم من صرخات النسوة في أثناء الولادة، ولا المهندس (ثروت) الواقف مع رجاله فوق السقالة في الشمس الحارقة..
(رانية) هذه لا تجيد قلى بيضة، ولسوف يغشي عليها لو رأت حفاضة طفل مليئة بالخيرات إياها..
هكذا قضت (عبير) ليلتها مع (رانية)، وقررت في الصباح أن تذهب إلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

.. عمل زوجها!
نعم.. كان هذا ضروريا.. فقد قدرت أنها تريد أن تتأكد أولا من أنه لا توجد (رانية) في العمل مع (شريف).. ولو وجدت فلابد أن تراها لتكرهها جيدا.. وكانت تعرف أن (شريف) ليس في المكتب هذه الأيام، لأنه يذهب إلى تلك الشركة الاستثمارية التي يطور لها نظام الحاسبات.. لن تكون هناك مفاجآت سيئة إذن..
تركت الطفلة مع تلك المربية التي تأتي فترة الصباح لتعاونها في الآونة الأخيرة.. استقلت سيارة أجرة، ولم تكن قد رأت المكتب الجديد قط لكنها كانت تعرف مكانه..
وأخيرا دخلت القاعة الفاخرة مكيفة الهواء، حيث السكرتيرة الحسناء ترمقها من فوق العوينات المتدلية على قصبة أنفها، وتسألها بصوت أنفي أرستقراطي إن كان بوسعها أن تقدم لها خدمة ما:
- طلباتك؟
هذه هي البداية كما توقعت (عبير) الفتيات في هذه الأماكن التي تعمل فيها (رانية) يقلن

(طلباتك) دائما، ولا يقلن (ماذا تريدين).. إن حدسها صادق حتى الآن..
خرج صوتها مبحوحا وهي تقول:
- الآنسة (رانية).. هل هي هنا؟
في نشاط احترافي مدت السكرتيرة يدها إلى أزرار الهاتف، وهي تسأل في الآن ذاته:
- أقول لها من؟
إذن هناك (رانية) بالفعل، و (شريف) كاذب.. بقي أن ترى كم هي كريهة مصطنعة..
- أنا قريبتها.. قولي لها إن (سلوى) تنتظرها..
قالت الفتاة للطرف الآخر على الهاتف:
- هالو.. (عماد).. هل (رانية) عندك؟ قل لها إن (سلوى) قريبتها هنا في ال Reception.. ثم وضعت السماعة وتجاهلت (عبير) تماما..
بعد خمس دقائق دخلت المكان فتاة ما.. لا أراها رائعة إلى هذا الحد، لكن (عبير) وجدت أنها أجمل شيء رأته في حياتها، وكاد قلبها يثب في فمها انفعالا..
كان من الواضح أنها خالية من الافتعال، وأنها على قدر لا بأس به من الثقافة والتهذيب.. رقيقة هي.. وديعة هي.. ضحوك هي.. ولم يكن من داع للسؤال عما إذا كانت هي (رانية).. لأنها كانت (رانية)..
بالتأكيد (رانية)..
سألت (عبير) في تهذيب متحفظ:
- هل من شيء أقدمه لك؟
وهي أيضا لا تقول (طلباتك).. هذه صدمة أخرى ل (عبير) التي حشدت نفسها حشدا لكراهية ما ستراه، فإذا بها توشك على أن تحبه.. قالت (عبير) في ارتباك، وقد قررت أن تنهي اللعبة:
- عدم المؤاخذة.. إن اسم قريبتي هو (رانية شوقي).. أعتقد أن هناك خطأ ما..
- أنا (رانية راشد).. وأعمل في قسم الصيانة هنا.. لا توجد (رانية) أخرى..
إذن هي تؤدي عملا ما.. عملا له رأس وذيل ومرهق كأي عمل محترم آخر.. عملا يحتاج إلى ما هو أكثر من التلوى بالهاتف الخلوي في أثناء انتظار القطار على المحطة.. قالت بصوت متحشرج:
- إذن أنا آسفة.. يبدو إنني..
قاطعتها الأخرى ملوحة بيدها في مرح:
- بالعكس لقد ظفرت بخمس دقائق من الراحة بفضلك، ربما صارت عشرا لو سمحتِ لي بأن أقدم لكِ مشروبا باردا..
كان الأمر الآن يفوق تحمل (عبير)، ولم ترد إلا أن تجد نفسها في الشارع وتستجمع خواطرها.. لهذا صاحت بنبرة الموشك على البكاء:
- لا.. لا.. شكرا.. لا أريد..
وغادرت المكان كالسهم..
وعلى درجات السلم فطنت إلى أنها تبكي، وقد فهمت سبب البكاء.. ليس الغيرة بالتأكيد وإن بدا الأمر كذلك بل الفشل...
لقد فشلت في أن تكره (رانية)، ولكم كانت بحاجة إلى هذا الكره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان رأسها مفعما بالأفكار وهي تجلس أمام جهاز الكمبيوتر..
إنها الآن لا تستبعد أن يكون زوجها هو البادئ، وهو من أوقع هذه الزهرة الرقيقة في حبائله..
لقد حلا ل. (عبير) أن تعتبر الفتاة هي الصياد الشرير ولم يخطر ببالها العكس.. الآن بدأ العكس منطقيا، وها هي ذي البائسة الأخرى تهيم برجل متزوج.. وهي لا تعرف أن من كانت تكلمها هي زوجته.
ماذا تفعل بالضبط؟ كيف ترغم الوغد على الاعتراف؟
ولو اعترف فماذا تفعل بعدها؟
وضعت الأقطاب على رأسها وأغمضت عينيها، وحبست أنفاسها..
ستزور (فانتازيا) الآن كعادتها على سبيل التخفف من الواقع..
وحين تعود لا بد من أن تجد حلا ما..
- طلباتك!.. قالتها للجهاز على سبيل التهكم، ثم ضغطت على زر الإدخال...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الوفــية..

«اعملوا على ألا تعيشوا كالدواب.. ولكن لكي تكتسبوا كل يوم معرفة جديدة..»
[الشاعر الإيطالي (دانتي) على لسان (أوديسيوس)]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت واقفة هناك على التل ترمق الجزيرة مترامية الأطراف عند قدميها، وخصلات شعرها الأشقر تتطاير مع الريح، فتوشك على جرح قرنيتيها..
أشقر؟ كيف؟ شعرها ليس أشقر، وبالتأكيد لا يطير.. نظرت للوراء حيث وقف المرشد يتسلى بالضغط على زنبرك قلمه الأبدي، وعلى وجهه ابتسامة ثقيلة الظل.. إن المرشد ثقيل الظل دائما لكنها تحبه لما يرمز له، ولا تعرف سر اختيار هذا الرجل بالذات ليهديها هنا، كما اختار (دانتي) الشاعر (فيرجيل) ليهديه في العالم الآخر.. كان المرشد يرمز لمدرس اللغة العربية الذي عرفته في طفولتها، وكانت تعتقد أنه يعرف كل شيء.. وكان واسع الاطلاع يحكي لهم قصصا غاية في الإمتاع، لكنه كان يوحي بثقل الظل، وهذا شيء لا ذنب له فيه.. أما القلم فهو بالتأكيد يرمز لأداة الأدب الخالدة.. القلم هو المعادل البصري لكلمة (الأدب)، إلى أن تحتل أذهاننا صورة مفاتيح الكمبيوتر أو حزم الليزر
قالت للمرشد وهي تتحسس شعرها:
- أرى أنك لم تبذل جهدا هذه المرة في سؤالي عن وجهتي.. لقد اخترتها لي بالفعل..
ابتسم وقال:
- تك تتك! لا يمكن أن تعيشي الإلياذة من دون أن تعيشي الأوديسة بعدها.. إن الأمر يشبه الغداء دون
فاكهة ولا حلوى ولا شاي بعده..
- إذن أنت اخترت لى (الأوديسة) اليوم..
ثم حكت شعرها محاولة أن تتذكر، وقالت:
- قلت لي ما هي بالضبط؟
- العودة الأسطورية لـ(أوليس) إلى زوجته المحبة (بنيلوب) بعد انتهاء حرب (طروادة).. ([1])
- لا أعرف من هو (أوليس) هذا.. هل نسبت (الإلياذة) إلى اسمه؟
- (أوليس) هو البطل الإغريقي (أوديسيوس)، وإلى اسمه نسبت (الأوديسة).. وليس اسم (الإلياذة) مشتقا من (أوليس) كما يعتقد الحمقى في كل مكان وزمان.. إنما الاسم مشتق من (اليوم) وهو أحد أسماء طروادة.. أنت تعرفين أن الأساطير اليونانية تعج بالأسماء.. ولكل بطل اسم لاتيني وآخر يوناني.. لهذا تجدين أن (أوليس) هو (أوديسيوس)، و (اليوم) هي (طروادة)، و (فينوس) هي (أفروديت)، و (جوبيتر) هو (زيوس).. الخ...
ابتسمت في ذكاء وقالت:
- كان لي قريب من الريف يدعى (عباس) ولسبب ما كان أهله يطلقون عليه (رضا)، حتى إنه لم يعرف أنه (عباس) إلا حين استخرج أول بطاقة شخصية..
- لست مهتما كثيرا بقصة (رضا) الذي لم يعرف أنه (عباس)، لكنك على الأقل تعرفين ما أعنيه الآن.. أنت حاليا في مملكة (أوليس) الأصلية، وهي جزيرة (إيتاكا) اليونانية.. هل يمكنك البدء من

هذه النقطة؟
- سأحاول.. لكن دور من ألعبه هنا؟
- يا له من سؤال.. بالطبع لا توجد نساء هنا إلا (بنيلوب) المخلصة التي تنتظر عشر سنوات حتى يعود زوجها.. ستكونين (بنيلوب)...
قالت في تهكم:
- وهو؟ هل كان مخلصا مثلها؟
- غالبا ما كان كذلك.. ثمة مرات عاش فيها مع نسوة أخريات، لكن كان هذا ضد إرادته.. أحيانا كان تحت تأثير السحر أو أسيرا..
- إنه لرجل نادر إذن! ربما لهذا أُلّفت ملحمة كاملة باسمه!
قال وهو يبتعد، ويدس القلم في جيب سترته:
- إن (أوليس) رجل نادر الطراز حقا.. لكن الملاحم لا تكتب لأسباب كهذه.. والآن أتمنى لك حظا سعيدا خاصة مع ابنك الجامح العصبي (تيلماك).
وبدأت هي في حذر نزول الهضبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن هبطت إلى الأرض وجدت حشدا من الرجال يحيط بها.. كان الافتتان بها واضحا على الوجوه، وجثا بعضهم على ركبتيه، وراح بعضهم يفرك عينيه غير مصدق لجمالها، وراح عدد منهم يتلو الشعر بلغات متباينة لا حصر لها، دنا منها رجل سمج له ضفيرتان طويلتان وقال وهو يركع ليلثم يدها:
- قد قلقنا عليك يا (بنيلوب) الجميلة.. وهذا جعلنا نلتهم كميات أكثر في الغداء.. لا شيء كالطعام للقضاء على القلق..
كانت تعرف إلى أين تسير.. وقد تذكرت أنها قرأت شيئا كهذا من زمن، عن الزوجة الحسناء التي غاب زوجها في الحرب، وأقام الرجال والخطاب حول دارها ليل نهار، ينتظرون أن تختار منهم واحدا، حتى قبل أن يتأكدوا من وفاة زوجها..
مشت بين صفوفهم، وأدركت في دهشة أن عددهم لن يقل أبدا عن المائة.. مائة خطيب لزوجة جميلة هذا صحيح، لكن مملكة زوجها أجمل بالتأكيد..
وكان القصر شامخا من بعيد.. عرفت أن هذا قصرها وقصر زوجها الغائب (أوديسيوس)، فمضت إليه ثابتة الجنان شأن من تعرف ما تفعل.
كان خِطّابها في كل صوب، ولم يبد أنهم من فرسان الأحلام.. كانوا جالسين يلتهمون الطعام كالخنازير البرية.. منهم من انقض كالغول على فخذ حمل، فسال الدهن على صدره ولحيته، ومنهم من راح يجرع الشراب من دن ثقيل، ويتجشأ كما تتجشأ الخيول، ومنهم من راح يتسلق الأشجار الفينانة في الحديقة ليقطف العنب..
أكثر هؤلاء الرجال رشاقة كان يكتفي بالتباري مع رفاقه في الركض عبر البساتين، أو المصارعة..
الحقيقة أن هؤلاء القوم - وهم من أمراء اليونان - كانوا يلعبون لعبة (غاب القط) بنذالة متناهية، وما كان واحد منهم ليجرؤ على هذه الوقاحة لو أن (أوديسيوس) هنا.. إنهم الآن في داره يأكلون طعامه ويشربون شرابه ويطلبون يد زوجته!
لو عاد (أوديسيوس) العظيم لحولهم إلى هامبرجر لو أن شيئا كهذا كان معروفا في الأساطير الإغريقية..

أما هي فامرأة.. مجرد امرأة.. لا تملك الصوت الجهير ولا قوة البدن التي تسمح لها بطرد هؤلاء الوحوش..
عشرة أعوام كاملة منذ رحل زوجها مع (أخيل) و (أجاممنون) وسائر أبطال اليونان لمهاجمة طروادة..
وقد أبلى زوجها بلاء حسنا.. عرفت هذا من العائدين، كما عرفت أنه هو صاحب فكرة الحصان الخشبي الذي أنهى حصار المدينة.
لا بأس.. إنه زوجها.. وهي تعرف أنه الأفضل لأنه زوجها هي.. المشكلة الآن أنه لم يعد بعد برغم انقضاء عام على انتهاء المعركة، وبرغم أن الكثيرين عادوا، وبرغم أن تلك الكارثة اللعوب المسماة (هيلين) عادت مع زوجها هي الأخرى.. وكأن شيئا لم يكن، وكأنها لم تكن السبب في حرب ضروس دامت عشرة أعوام، وكلفت الإغريق حياة (أخيل) وألوف سواه من الأبطال..
والمشكلة هنا أن (الأناضول) قريب جدا من جزيرة (إيتاكا).. لو أمسك المرء بالخارطة لوجد أن اليونان مجاورة تماما لتركيا، حتى لو كان السفر أيام السفن الشراعية والمجاديف.. معنى هذا ببساطة أن مكروها ما قد حدث.. وما أكثر المكروهات في الزمن الصعب الذي لا يقل في شراسته عن زمننا هذا..
(أوديسيوس) أو (أوليس) لن يعود.. صار هذا مؤكدا.. لكنها لن تسمح لأحد هذه الغيلان بأن يصير سيد قصره من بعده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (هوميروس) العجوز بانتظارها داخل القصر كان ينشد أبيات الشعر الحزين، يترنم بأمجاد (أوليس) العظيمة وما أصاب زوجته وابنه في غيابه لقد صار هذا العجوز لا يطاق.. لا بد أن تجده تحت كل حجر وفي كل غرفة، وحتى لو فتحت موقدها ستجده.. لكن لا مفر من ذلك لأنها الآن في عالمه بالفعل.. كل حجر هنا من بنات أفكاره..
- الأقدار وحدها تعرف لماذا ضل (أوديسيوس) بجنده في تلك العباب، وقد عاد كل أقرانه إلى (هيلاس) بعد طول النأي وشحط المزار، إلا هو وإلا هم، ممزقين في دار الغربة كل ممزق، يتجشمون المصائب والأهوال، ويتخبطون بين موج كالجبال، ويخلصون من بحر إلى بحر، ومن روع إلى روع.. فإذا رسوا على أرض وظنوا أنهم نجوا، أفزعهم فيها غير الذي رجوا.. ([2])
قالت له وهي تجلس إلى المغزل:
- كل هذا جميل.. والآن أنا مشغولة من فضلك.. وراحت تنسج.. إن الحل الوحيد الذي وجدته (بنيلوب) للفرار من خطابها أن طلبت منهم أن يمهلوها إلى أن تنسج كفنا لأبيها الشيخ.. يبدو أن هذه كانت من علامات البر بالأبوين في ذلك الحين.. لا بد من أن تنسج الكفن بنفسها وعلى منزلها.. وكل نساء الأساطير الإغريقية ينسجن شيئا ما على كل حال..
ولأنها أرادت أن تكسب الوقت إلى أن يجيء (أوليس) - إن كان سيجيئ - فإنها راحت تنسج ببطء شديد.. شديد.. وفي كل ليلة تنقض ما تنسجه في النهار هنا دخل ابنها (تيلماك).. كان في الرابعة عشرة من عمره.. له ذلك الجسد النحيل الذي بدأ يزدحم بالعضلات النامية، وله ذلك الصوت الرفيع الخشن الذي يذكرك بصوت تلاميذ المرحلة الإعدادية، وفوق شفتيه العليا ذلك الزغب الأسود الشبيه بسناج الموقد.. فلو لم يكن يونانيا لنادي رفاقه ب. (يا كابتن).. ولأقسم ب. (وعهد الله)..
كان حانقا غاضبا وكان يغلي من الداخل.. وقد اعتادت أن تراه هكذا يوميا..

قال لها وهو يجوب القاعة:
- أماه.. لم أعد أتحمل كل هؤلاء الأوغاد..



قال لها وهو يجوب القاعة:
– أماه.. لم أعد أتحمل كل هؤلاء الأوغاد..

- لا أحد يتحملهم أي بني.. لكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟
لم يجد ما يقول فراح ينفخ كالثيران ويقول:
- لن يعود أبي.. لن يعود.. (أوديسيوس) العظيم قد مات، ولم يبق لنا إلا أن نطرد هؤلاء الأوباش بأنفسنا
قالت له ما معناه (فأل الله لا فألك).. وأردفت:
- لو كان في جعبتك شيء فافعله.. أنا لا أمنعك من شيء إلا أن تقتل نفسك في حماقة..
كان عسيرا على هذا الشاب المراهق الحساس أن يجد المكان مزدحما بطالبي يد أمه.. والأدهى أنهم كانوا أقوياء حقا، وكانوا يوسعونه سخرية كلما أبدى تذمره منهم.. رجولته الوليدة في مقابل رجولتهم الراسخة العتيدة، وصوته الرفيع في مواجهة أصواتهم الواثقة الغليظة.. لقد وصل (تيلماك) إلى حواف غابة الجنون، وبعدها سيحاول جاهدا أن يرتكب مصيبة ما، أو يغمد قناة الرمح في صدره ويستريح..
وقال له (هوميروس) في أناة:
- ألا فاصبر يا (تيلماك) يابن بطل اليونان.. إن أباك مازال حيا.. كل العرافين قالوا إنه حي وإنه سيعود..
بصق الفتى على الأرض وهتف باشمئزاز:
- ألا فاخرس يا شاعر الشؤم.. كلنا يعرفك.. تنتظر موت أبي لتكتب في ذكراه قصيدة رائعة.. أعتقد أنك كتبتها بالفعل، لكن الحياء يمنعك من إلقائها قبل أن يعلن الخبر.. ولكن أي أذى يمكن أن تصيبنا به وأي ضرر بعد مصيبتنا الكبرى التي ابتلينا بها؟ ألا فانتظر يا شاعر الغربان.. فلسوف يعلم (تيلماك) هؤلاء الرعاع معنى الشرف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- عودة المحارب..

فجأة شعرت بضوضاء غير معهودة، وسمعت الرجال يتهاتفون في الخارج، وثمة أقدام أكثر من اللازم تركض فوق الشاطئ.. ماذا هناك؟ خرجت إلى الشرفة الواسعة لترى ما هناك، فصاح بها صائح يركض إلى الشاطئ:
- قد عاد (أوليس) يا (بنيلوب).. عاد زوجك!!
ماذا؟ (أوليس) قد عاد؟ كيف ومتى؟ لابد أن هؤلاء القوم يمزحون.. لا بد أن هناك خطأ ما..
هرعت إلى الخارج وهي تتساءل عن سبب هذه العودة المفاجئة.. إنها لم تضع في شعرها مشطا، وليس لديها ما يؤكل إلا الجبن والزيتون.. لقد فرغ هؤلاء الوحوش من غدائهم.. هذا لعمر الله ديدن الأزواج في كل مكان وزمان.. يأتون في أوقات غير مناسبة، والبيت في أسوأ حالاته من حيث التنسيق، وربما يأتون مع رفاقهم.. عندها تجد الزوجة نفسها في أسوأ موقف ممكن.. إن الزوجة لا تطيق زوجها الذي يعود من عمله قبل موعد الانصراف، فكيف بالزوج الذي يعود من حرب (طروادة) نفسها في وقت الغداء حيث لا يوجد غداء؟!
لكن كيف ومتى ولماذا؟
كان (هوميروس) يركض جوارها معتمدا على عصاه، لكن سرعته ممتازة فعلا، بحيث إنه كاد يسبقها إلى الخارج وبرغم أنه كفيف.. ونظرت له عله يعرف شيئا لا تعرفه هي، لكنه كان مثلها يشعر بحيرة وعدم فهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (أوليس) قادما من بعيد.. كان.. كما قلنا هو بالضبط (شريف) زوجها في ثوب يوناني.. وكان قد تقدم في السن، ورسمت حرب العشرة أعوام خطوطها على تقاطيعه، لكنه كان يضحك فاتحا ذراعيه.. ورأت (تيلماك) يركض بين يديه باكيا دامع العينين يرتجف ضحكا وانفعالا.
ومن خلف البطل العائد مشي عشرون من رجاله في حالة سيئة.. ليست سيئة إلى الحد الذي يمنعهم من المشي على كل حال..
- (بنيلوب)!! زوجتي الحبيبة!!
وعانقها في حرارة، ثم أحاط بذراعه القوية كتفها وكتف ابنه، وصاح في أهالي الجزيرة الواقفين:
= - لقد عاد مليككم!!
همست في ارتباك وهي تمسح يديها في ثوبها:
- لو كنت قد أعطيتني خبرا.. أنا لم أعدّ لك ما يليق بك من...
- لا عليك يا ملاكي.. إن بعض الجبن والزيتون سيؤدي الغرض.. ولكن.. لماذا احتشد كل الرجال هنا؟
كان العشاق الذين بلغهم الخبر الأسود الآن يرتجفون هلعا، وقد دنا أكثرهم حماسية من البطل العائد، كأنما يتأكدون من أن الخبر صحيح.. وتبينت (عبير) (بنيلوب) وجهين بالذات هما (انتينوس) و (يوريماك).. وهما من أشرس المطالبين بالزواج منها.. كانا الآن في أسوأ حال ممكنة وقد دنا أولهما- ذو الضفيرتين – من (أوليس) فعانقه وقال مخاتلا مداهنا:
- الشكر لـ (زيوس) على عودتك مظفرا أي (أوديسيوس) الهمام..
عانقه (أوديسيوس) في حرارة، فأردف الأول:

- كنا هنا لنحرس زوجتك وابنك ونرعى حرمة دارك..
- عظيم عظيم! هذا ما كنت أنتظره منكم..
مالت (عبير) على أذن (أوليس) وهمست في تشف:
- لا تتحمسن لهؤلاء الخنازير كثيرا.. سأحكي لك بعض الأمور عنهم حين ندخل القصر.. أعتقد أن سيفك سيبتل بدماء كثيرة هذه الليلة..
نظر لها (انتينوس) في جزع.. كأنما يتوسل لها أن تحفظ السر، وأن تقول لسيد البيت خيرا، لكن الشفقة لم تعد في برنامج أعمالها اليوم.. إن الضباع لا تستحق إلا القتل..
ودخل (أوليس) إلى بيته الرحب، فبكت مرضعة ابنه (يوريكليا) حين بصرت به، وسجدت على ركبتيها شاكرة.. وسألها أن تعنى برفاقه وسلاحه..
ثم إنه جلس في صدر القاعة، وجاءته (بنيلوب) بالطعام.. للأسف لم يكن طعاما شهيا لأن الجراد أتى على كل شيء لهذا اليوم، لكنه كان متأثرا.. وراح يغمغم:
جبني! ثم يملأ فمه بالجبن.. زيتوني! ثم يلقي في فمه بعشر زيتونات أو أكثر، ولا تدري متى سيلفظ بذورها.. خبزي! ثم يدس في فمه رغيفين.. وكانت المرضع تصب له الراح في كأسه كلما فرغ..
جلست (عبير) جواره ترمق وجهه الوسيم المنهك.. وكان (هوميروس) قد لحق بهم في الداخل.. إنه كالذباب يوجد في كل مكان، وفي الغالب لا يلاحظه أحد..
لقد راح يصغي للمحادثات الجارية، وقد بدا عليه نفاد الصبر، ثم في النهاية صاح بصيحة مدوية:
- كيف عدت بهذه السرعة يا (أوليس)؟
نظر (أوليس) إلى الرجل في دهشة، وفمه مليء حتى الانفجار بالطعام.. ثم ازدرد ما به وقال:
- لم آت بسرعة بل تأخرت كثيرا أيها الشاعر قليل التهذيب.. أنت تعرف أن (الأناضول) على مرمى حجر من هنا.. لقد حدثت عاصفة أخرتنا قليلا ويبدو أن (نيبتون) كان غاضبا.. لكني عدت..
- كان المفترض أن تتأخر عشر سنوات!
- لا أدري ما هو المفترض.. لقد انتهت الحرب وعدت، وهأنذا بين أفراد أسرتي الحبيبة.. لا أدري إن كان هذا يروق لك أم لا، لكنني لست مطالبا بإرضائك على كل حال.. يمكنك البحث عن مطعم آخر إذا كانت الخدمة هنا لا تروق لك..
- عاد (هوميروس) ينفخ في غيظ ويضرب الأرض بعصاه، ثم قال:
- لكنك بهذا نسفت الملحمة من أساسها.. لم تعد هناك (أوديسة)!! كان المفترض أن ترى الأهوال وأن تعاني أفظع المعاناة كي أكتب أنا هذا كله!
نظر (أوليس) إلى (عبير) لحظة ثم إلى ابنه، وأفرغ كأسه في جوفه ثم انفجر يضحك كالمجانين دامع العينين:
- نياه.. نياه!! الشاعر المجنون! هاه هاه هام!! حقا إن هؤلاء الشعراء لا يستطيعون الحياة من دون جنازة يشبعون فيها لطما!! الحب غير ممتع، لكن لوعة الفراق هي المهمة.. الورد لا جمال له، إلا لأن أشواكه قاسية تدمي.. ليس من الجمال في شيء أن أعود لأسرتي، ولكن الجمال كل الجمال أن أهلك في أثناء الرحلة.. هاه هاه هاه!! لا أحد يكتب شعرا عن الأزواج السعداء، لكن الجميع يكتب عن الشهداء ومن ابتلعهم اليم..
صمتت (عبير) ولم تتكلم وكذا صمت ابنها بانتظار نهاية هذا الموقف..
قال (هوميروس) في ضيق:

- الصعاب هي ما يصنع البطولة.. من دماء الرجال تكتب الملاحم..
- لقد قاتلت ونزفت دمى عند أسوار (طروادة)، وكتبت اسمي بحروف من نور في (الإلياذة).. فلم أعد مطالبا بشيء.. لقد حق لي أن أستريح.
وتحسس بعض خصلات شعره التي اتخذت لون الثلج، وقال:
- أنا لم أعد صغير السن.. هذه نقطة.. لم يعد في العمر متسع كي أستمتع به.. لقد تركت ابني وهو يحبو ويتعثر في مشيه، واليوم هو على عتبة الشباب.. قد سرقوا مني سني طفولته، وهي أمتع فترة يعيشها أب.. فهل اكتفيت من التضحيات أيها الشيخ؟
ضرب (هوميروس) الأرض بعصاه ثلاث مرات كما في المسرح، وقال:
- لا ملحمة من دون معاناة.. وأنت تخليت عن الخلود من أجل أعوام من متعة رخوة زائفة..
صاح (أوليس) في غيظ وهو يطوح بالكأس لتتهشم على الرخام:
- لم أتخل عن شيء.. لم تعرض على المغامرة كي أرفضها.. كل ما قمت به هو أن عدت حين عاد الجميع..
- كان يجب أن ترى الأموال في رحلة العودة، وتعود محطما منهكا..
إلى حد ما كانت (عبير) تفهم ما يريد (هوميروس) أن يقوله، وتذكرت ثلاثة أبيات من الشعر من نظم (العقاد).. بأسلوبه الصعب.. هي في الحقيقة ترجمة لإحدى أغاني المربيات الإنجليزيات:

ثلاثة شيخة راحوا.. إلى البحر على زورق
ولو قاربهم أقـوى.. ولو بنـيتهـم أوثـــق
لكانت قصتي أوفي.. وكانت قصتي أشوق

والمعنى واضح.. الشيوخ الثلاثة ضعفاء وقاربهم متهالك، فلم يحدث شيء على الإطلاق.. ولم توجد قصة من الأساس! إن قدومها هنا لم يكن ذا معنى إذن.. فرغ (أوليس) أخيرا من وجبته فتجشأ وتحسس معدته المفعمة، ثم إنه نهض وطلب من (عبير) أن تلحق به في حجرتهما كي يريها ما جاء لها به من طرف.. ونظر شذرا إلى الشاعر الكفيف الذي لم ير تلك النظرة بالطبع.
حين صارا وحيدين في الغرفة قالت له:
- آمل ألا أثير غيظك، لكن هؤلاء الرجال بالخارج لم يأتوا كي يحموني، بل جاءوا لطلب يدى!!
نظر لها في غير فهم وعيناه مفتوحتان بصعوبة من فعل الشبع.. فأردفت:
- نعم.. كانوا يطاردونني ليل نهار كي أختار واحدا منهم.. وكانوا ينتظرون خبر وفاتك بفارغ الصبر، وطيلة تلك الفترة اعتبروا أنفسهم ضيوفا عندك، فكانوا يأكلون ويشربون كل خيرات القصر.. ويلعبون بكل شيء في الحديقة، ويهينون ابنك والخدم.. وهم ينتظرون أن أفرغ من خياطة الكفن الذي أسهر عليه كي يجبروني على اختيار عريس..
هز رأسه في تعب، ثم خلع حذاءه الروماني الشبيه بالصندل، وتمدد على الحشية.
سألته في غيظ:
- ماذا هنالك؟ ألن تفعل شيئا؟
قال وهو يتثاءب في إنهاك:
- كانوا يحسبونني ميتا يا ملاكي.. ما كانوا ليفعلوا هذا لو تأكدوا من أنني حي وعائد.. هذه الأمور تحدث..
- يا سلام.. ألا تجد في هذا نوعا من تدنيس حرمة دارك؟
- بلي.. بلى.. لكنه انتهى الآن.. لقد عدت لأخذ ما لي، ولن يضايقك أحد ثانية..

قالت في ضيق وهي تتربع على الحشية بجواره:
- غريب هذا! المفترض - حسب ما أذكر أن تقتلهم بقوسك الجبار واحدا واحدا بعد ما تدبر لهم كمينا شبيها بمذبحة القلعة..
قال لها وهو يتقلب ليوليها ظهره:
- المفترض.. المفترض!! كأنك وذلك الشاعر الكريه متفقان على الشيء ذاته.. المفترض أن يكتب هو ما حدث.. لا أن يحدث ما كتبه هو!! لقد جاء هؤلاء القوم ضيوفا على قصري، ولسوف يلقون معاملة الضيوف.. ثم إن عددهم كبير حقا.. هل تحسبين أنني مهما كنت بطلا قادر على مواجهة هذا العدد وقتله؟ لقد تعلمت من الحرب أن أكون عمليا.
- المفترض أنك ستقتلهم بالخديعة.. والمكر من أهم صفات (أوليس) التي خلدته..
- المفترض.. المفترض.. لو كانت حياتنا كتبت سلفا فهي في اللوح المحفوظ وليس في عقل هذا الشاعر النصاب (هوميروس).. لو سمعت حرفا ثانيا عما هو مفترض، فلسوف أعود أدراجي!
وسرعان ما تعالي شخيره، وجلست (عبير) ترمقه غير مصدقة..



وسرعان ما تعالي شخيره، وجلست (عبير) ترمقه غير مصدقة..

لقد تغير (أوديسيوس) العظيم كثيرا جدا بعدما رأى من أهوال الحرب، ومن الواضح أنه نزف الكثير من دمه حتى لم تعد هناك قطرة باقية للنخوة أو الغضب..

لشد ما ستدهش الأجيال القادمة لو عرفت أن هذا الكهل المتراخي، الذي ينام ببطن مليئة بالجبن والزيتون، هو نفسه (أوليس) العظيم بطل أعظم ملحمة قرأها الإنسان.. ولشد ما سيخيب أمل دارسي الأدب حين يدركون إنه لا (أوديسة) هناك ولا شيء يماثلها..
حقا لا يوجد شيء شاعري في زوج عائد للبيت بعد يوم طويل مرهق.. والأدهى أنه لا يجد شيئا كريها في أن يزدحم فناء القصر بطالبي يدها، كأنه ترك الغيرة عند أسوار (طروادة).. هذا لا يضايقها كثيرا لأن العشاق سيرحلون عند الفجر بالتأكيد.. لن يصدقوا أن (أوليس) لن يعاقبهم، وهو الذي عرف بالمكر والدهاء..
على الأقل إن لم تمنحها عودة المحارب أفعالا فلسوف تمنحها سمعة مهيبة..
لقد انتهت القصة سريعا هذه المرة (ثلاثة فصول لا أكثر)، فأين أنت أيها المرشد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- افعليها أنت..

«وشد الوتر العرد، وأرسل إلى حلق (أنطونيوس) سهما مراشا عجل به إلى (هيدز)، وكان العلج يوشك أن يحتسي كأسا ذهبية من أعتق الخمور، فسقطت الكأس من يده الذاهلة، وسقط وهو يتشحط في دمه، وذعر الآخرون حين رأوا أخاهم يسقط على الأرض رمة لا حس فيها ولا حراك، فهاجوا وماجوا وهبوا يبحثون عن أسلحتهم.. ولكن هيهات.. لقد أخفاها (أوديسيوس) وولده ليلة أمس.. فأنى لهم بها؟!!» ([3])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا هو (أوليس) العظيم الذي خلدته الأشعار والملاحم، وليس هذا الرجل الكسول الذي راحت الأيام تكسو جسده دهنا وشحما حتى كاد يغدو قطعة زبد..
كانت واقفة في الشرفة المظلمة ترمق البحر المتلاحم
من بعيد، كأن أمواجه عمالقة سود يتصارعون على الفوز بيدها، وخيام العشاق مدثرة بالظلام في حديقة القصر.. غدا يرحلون جميعا ولن تسمع عنهم ثانية على الأرجح..
سمعت صوت العكاز يضرب الأرض من ورائها، فالتفت لترى (هوميروس) يتقدم بقامته المحنية الواهية.. مزية هذا الرجل أنه يعرف أين هي بالضبط بسهولة مطلقة، وكأنه من المبصرين..
- (بنيلوب).. أهذه أنت؟
- لو لم أكن أنا لكنت واحدة أخرى.. هذا منطقي..
واصل المشي حتى وقف إلى جانبها وراح يلهث من فرط إرهاق، ثم قال وهو يسعل:
- ما رأيك في هذا كله..
- مثل رأيك.. أحيانا يكون الأبطال محبطين.. يتنافون تماما مع صورهم الساحرة في الخيال..
- كان (أوليس) بطلا.. لكن الظروف لم تمنحه البطولة الكاملة.. يبدو أن الحظ السيئ مهم للأبطال كذلك.
- والعمل؟
فكر قليلا، ثم قال لها في خبث:
- مازالت جزر البحر المتوسط عامرة بالأهوال والفزع.. فقط لمن يرغب في أن يجرب.. مازالت فرص المخاطرة مكفولة للجميع.. والأبطال فقط هم من يبقون أحياء بعد هذا كله.. أو - على الأقل - يموتون دون أن يتراجعوا أو يركعوا طالبين الرحمة عندها تكتب قصصهم في ضمير الأدب..
- لا أفهم كل ما تتكلم عنه.. لكني أتكلم عن التسلية.. عن المغامرة التي تقضي على رتابة الحياة..
- إذن أنت تفهمين قصدي!!
نظرت له في حيرة.. وكانت بالفعل تفهم قصده.. تفهمه لكنها تخشى أن تفصح عنه.. لو لم توافق لكانت مغامرتها هنا بلا جدوى على الإطلاق.. سألته وهي تنظر إلى البحر المتلاحم المهيب:
- وهل ستطلق على رحلتي اسم (العبيرية)؟ يبدو لى اسما سخيفا إلى حد ما..
- بل (البنيلوبية).. ولسوف تكون أعظم ملحمة كتبها إنسان.. الجديد هنا أنها ستكون من بطولة امرأة، ونحن لم نعرف ملاحم كثيرة بطلتها امرأة، اللهم إلا لو اعتبرنا رحلة (إيزيس) بحثا

عن أشلاء زوجها ملحمة.. وهو شيء كان نقاد الأدب سيرفضونه، لأن الملحمة يجب أن تحكى بالشعر عن أحداث هائلة عظيمة الأثر في حياة البشر، وأن تمزج البطولة بالخرافة بشكل متجانس.

- الجديد هنا أيضا أن معظم ملاحمي تبدأ من المنتصف، وتستخدم أسلوب القصة داخل القصة.. داخل القصة.. هذه الملحمة ستبدأ من النهاية وبشكل عكسي!!

فكرت قليلا ولم تعط إجابة عاجلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسألت (أوليس) حين صحا من النوم، وجلس في الفراش يلتهم الشواء ويشرب لبن الماعز:

- أنت متأكد من أنك لا تريد المجيء معي؟

قال وخيط من اللبن يسيل على جانب فمه:

- أنت مخبولة تماما.. لقد عدت من حرب ضروس وحق لي أن أستريح.. عجبا للنساء!! كل ذنب فعلته هو أن عدت لزوجتي، فإذا بها لا تطيق ذلك، وكأنها كانت تريد أن تعود رفاتي أو أن أدفن في إحدى الجزر المجهولة.. وإنني أسألك بكل صدق: ماذا يفعله الرجل لإرضاء زوجته أكثر من أن يخوض حربا لمدة عشر سنوات؟!

«إن كانت الرجولة هي الندوب فقط امتلأ جسدي بها.. وإن كانت شدة البطش فسلي أهل (طروادة) عن (أوليس) وكيف حارب إلى جوار (أخيل) و (أجاممنون) و (باتروكلوس).. ألا يحق لى إذن أن أنام يا امرأة؟»

قالت في ضيق:

- حسن لا أطلب شيئا خاصا.. ليكن ما يكون.. سأذهب لقطع رحلتي وحدي، وكل ما أطلبه سفينة وبعض الرجال.. سآخذ (هوميروس) معي..

- لا أحد يريد هذا العجوز المولول.. خذيه..

ثم سألها وهو ينهض من فراشه:

- هل لديك أية فكرة عن مسار الرحلة؟

- سنترك الأمر للظروف..

كان أحد الباحثين الفرنسيين المعاصرين.. وهو (فكتور بيرار).. قد جرب أن يعيد رحلة (أوليس) في أثناء العودة، وبدلا من أن يحمل معه خارطة حمل (الأوديسة) نفسها.. وقد أثار دهشته أنه استطاع أن يعرف كل الأماكن التي زارها (أوليس) بدقة بالغة.. يبدو أن (هوميروس) زار هذه الأماكن فعلا، أو جلس طويلا يصغي لحكايات البحارة...

وقد أمكنه أن يصف الرحلة بالترتيب التالي:

- 1طروادة (الأناضول) كما قلنا.
- 2بلاد اللقلق (في تراقيا على الأرجح).
- 3بلاد أكلة البردي (مكان ليبيا اليوم).
- 4أرض العمالقة (كوما).
- 5مملكة أبوللو (سترومبولي).
- 6أرض القتلة (غالبا هي مالطة).
- 7الساحرة (تشيرشي) (إيطاليا).
- 8جزيرة عرائس البحر (كابري).

و - مضيق مسينا
- 10جزيرة الشمس (صقلية).
- 11كاليبسو (عند مضيق جبل طارق).
- 12جزيرة (كورفو).
- 13جزيرة (إيتاكا).

طبعا سيكون عليها أن تقطع هذه الرحلة بالعكس حتى تصل إلى (الأناضول) لكنها لا تعرف ذلك، لأنها لا تذكر من (الأوديسة) إلا أطيافا متناثرة، لكن ثمة نقطة في صالحها: (هوميروس) العجوز معها.. وهو يعرف الطريق جيدا ويعرف ما يتكلم عنه.. وبالتأكيد يتحرق شوقا كي يعيش أحداث هذه الملحمة التي هي (أوديسة) من نوع جديد مقلوب..
ولم يكن إقناع (أوليس) صعبا، فهو بالفعل راغب في أن يعيش في هدوء.. المشكلة هي أنه رفض أن يرافقها ابنه (تيلماك) لأنه لا يريد أن يفقد وريث عرشه، وهو متأكد من أنها لن تعود..
وتم إعداد سفينتين من أجل هذه الحملة، ومرت أيام معدودة، ثم جاء النهار ومعه أنفاس (أورورا) – الفجر – الرشيقة فوق مياه البحر المتوسط، وقد وقفت (عبير) مع (هوميروس) على ظهر سفينتهما يرقبان ساحل (إيتاكا) الذي يذوب الآن تدريجيا في خط الأفق..
وكان على (عبير) أن تكتب ملحمتها الخاصة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- بدايات..

من بعيد تلوح جزيرة (كورفو) الجميلة على الشاطئ نرى الخضرة والوجه الحسن، والجميع يلوح بيده داعيا المسافرين إلى المجيء ها هنا..
صاح أحد البحارة المائة أنهم يمرون قرب (كورفو)، فنظرت (عبير) إلى الشاعر الكفيف الذي وقف ينشق أقسام البحر في نهم.. ولما رأته لا يعلق بشيء سألته:
- (كورفو).. حسبت أن لنا دورا فيها
- لا.. دور (كورفو).. بالنسبة ل (أوليس) كان أنهم يستضيفونه لدى عودته.. تهيم به ابنة الملك الحسناء (ناوزيكا) إعجابا؛ لأنه زارها في أحلامها من قبل مرارا..
حقا هو (شريف)! ولا بد أن (ناوزيكا) هذه تشبه (رانية)! كذا فكرت (عبير) وضغطت على أعصابها..
ربما كان من حسن الحظ أنه لم يمر هنا أصلا..
أردف (هوميروس):
- في البداية يسخر منه الشاب لأنه بدا لهم مهدما لا يوحي بالبطولة، لكن الملك يوبخهم ويحسن وفادة ضيفه.. وعلى مائدة العشاء ووسط أفخاذ الحملان المشوية يحكي لهم (أوليس) كل ما مر به منذ غادر (طروادة).. يحكي لهم ثلاثة أرباع ملحمة (الأوديسة).. ثم يزوده الملك المنبهر بالسفينة اللازمة كي يعود لوطنه وينهي الربع الأخير من القصة..
قالت في فهم:
- كما تقول أنت إذن.. (الأوديسة) تبدأ من منتصف الأحداث وليس من البداية.. لا لزوم إذن للنزول ضيوفا عند الملك، لأنه ليس لدينا ما نحكيه، ولأنني لا أموت شوقا كي أرى ابنته الحسناء..
- لقد فهمتِ.. لن نتوقف إلا في جزيرة (كاليسو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام من الإبحار في البحر المتوسط وصلوا إلى مضيق جبل (طارق)..
إن الإبحار أياما في (فانتازيا) لا يستغرق إلا الوقت الذي تستغرقه قراءة هذا السطر.. وهذه هي مزية الأدب.. إنه يختصر الوقت، ويضيف قرونا من الخبرات إلى عمرك، بينما يمكن لرحلة كهذه في الواقع أن تقتلك مللا، خاصة مع بحر هادئ خنوع كالذي كانت سفينتا (عبير) تبحران فيه..
ويبدو أن (نيبتون) سمع ما تقول، لأن السماء صارت سوداء تماما، ثم راحت الصواعق تتناثر فيها كأنما شروخ في قبة زجاجية توشك على أن تتهشم.. وهطل المطر مدرارا..
راحت العواصف تهب عنيفة كاسحة على السفينة، وراحت جبال الماء ترتفع وتهبط إلى أعمق الأعماق، حتى كأن السفينة دمية في يد غلام مجنون يريد تحطيمها بأسرع الطرق وأسهلها...
هرعت (عبير) مع أحد البحارة تجر الشيخ التعس إلى قاع السفينة.. كان يرتجف ويبصق الماء، ويحاول عبثا أن ينشد الشعر، لكن كلما فتح فاه - لحسن الحظ - كان الماء المالح يملؤه..
وشعرت (عبير) من الاهتزازات أن أمعاءها تعوم، وأن ما أكلته من شهور يتجمع هناك في مؤخرة حلقها..
وتدريجيا اخضر العالم، وبدت لها أرض السفينة رخوة لزجة، ومستواها يتغير من ثانية لأخرى..

أحيانا ترتفع حتى ذقنها وأحيانا تصير بعيدة جدا..
وقالت لنفسها وهي تقيء على حاجز السفينة:
- دوار البحر! أنا مصابة بدوار البحر!!
لكن الأمر كان أسوأ من هذا.. وراح البحارة يصرخون ويربطون حبلا ما من التي يربطونها دائما.. هناك من يجري ومن يتعثر ومن يسقط في الماء.. وأدركت أن السفينة لن تتحمل.. لا شيء في العالم يتحمل هذه المرتفعات والمنخفضات.. لا توجد يايات تتحمل كل هذه المطبات المائية، لو كانت للسفينة يايات.. إنها ترى من بعيد أعمدة (هرقل) التي صنعها المذكور بلكماته إلى الجبل، والتي سماها الجغرافيون بعد هذا ب. (مضيق جبل طارق).. لكنها لن تعيش لتراها هذه المرة..
ولا تدري متى ولا كيف ارتفعت السفينة للمرة الأخيرة، ثم انقلبت، ووجدت نفسها تسبح في سائل بارد مالح.. إنه يتسرب إلى رئتيها.. إن الظلام قادم..
هل هي النهاية؟ لو ماتت في (فانتازيا) لماتت في عالم الواقع، والذين لا يصحون من نومهم في الصباح كثيرون، ربما لأنهم حلموا بالموت..
لكنها لم تمت...
وحين أفاقت من غيبوبتها، كانت ترى نور النهار من حولها، وأدركت أنها راقدة فوق الرمال جوار قطعة خشب، غالبا هي التي أنقذتها.. كانت أجساد الرجال متناثرة هنا وهناك لكنها قدرت أن أكثرهم حي يرزق..
ماذا عن السفينة الثانية؟ أتراها تهدمت؟
نهضت وهي تبصق الماء المالح الذي جعل النار تشتعل في أحشائها، وراحت تتعثر باحثة عن... عن الجسد العجوز المنهك الذي يصعب أن يتحمل مغامرة كهذه.. وكان هناك بالفعل.. لكنه كان حيا.. كان أشبه بقنديل بحر ميت رماه الماء هناك، لكنه كان حيا، ولو مات لكانت في مشكلة.. إذ كيف يختار المرء (الأوديسة) من دون (هوميروس)؟



وراحت تتعثر باحثة عن... عن الجسد العجوز المنهك الذي يصعب أن يتحمل مغامرة كهذه.. وكان هناك بالفعل.. لكنه كان حيًا..

هزته مرارا حتى نهض.. صاح وهو يرفع وجهه المبلل للسماء:

- ويحي!! لقد غضب (نبيتون) منا لأننا لم نقرب له القرابين، وأرسل علينا الأمواه والعباب

تقتلنا!
- لكنها لم تفعل.. وعلى كل حال لست متحمسة لموضوع القرابين هذا.. لن أطلب رضا إله وثني حتى في (فانتازيا).. لقد كانت عاصفة وانتهى الأمر..
في اللحظة التالية هب الرجال على أقدامهم مبهوتين..
كان المشهد القادم من بعيد شبيها بالحلم.. ولا بد أن بعضهم حسب أنه مات ورحل إلى النعيم، لكن (عبير) - باعتبارها أنثى - ظلت محتفظة بقواها العقلية، ولم تشعر إلا بالغيظ
هذه حسناء.. حسناء بارعة الجمال.. هذا هو ما يمكن قوله، كما أنك تصف سيمفونيات (موتسارت) بأنها (جميلة).. لا بد من أن تسمع السيمفونية وأن ترى ما رآه هؤلاء القوم لتفهم..
لكن (عبير) لم ترتح لها كثيرا خاصة وأن ملامحها ذكرتها بملامح معينة رأتها في عالم الواقع
وتصايح الرجال فاغرى الأفواه في افتتان:
- حورية: هذه حورية
فقال (هوميروس) الذي لم ير شيئا لذا ظل
محتفظا بقواه العقلية:
- طبعا يا حمقى.. هي حورية.. نحن في جزيرة الحورية (كاليبسو).. أغلقوا أشداقكم لو كانت مفتوحة..
وابتلعوا لعابكم إن كان يسيل.. فمغامرتنا هنا ليست بهذه البساطة..
كانت الحورية قد دنت أكثر، ومن الغريب أن عطرها كان يفوح من مسافة عشرة أمتار، وأن طيورا صغيرة كانت تحوم حولها كما يحدث في أفلام (ديزني).. وقالت وهي تطوح بشعرها في الهواء.. شعرها الذي يوشك على أن يجرف الرمال جرفا:
- مرحبا بكم في جزيرة (كاليبسو).. يؤسفني أنني لا أتلقى الكثير من الزيارات هنا، لكنكم بحارة منهكون جائعون، وقد حقت على ضيافتكم..
كان كلامها حين تكلمت جديرا بأن تقوله حورية.. وتصايح الرجال في بلاهة حتى إنهم نسوا من مات منهم غرقا في اليم.. بينما دنت الحورية من (عبير) وعانقتها في حرارة:
- من أنت أيتها الحسناء؟
قالت (عبير) في جفاء وغلظة:
- أنا (بنيلوب) زوجة (أوديسيوس).. (أوديسيوس) ابن (ليرتيس) ملك (إيتاكا).. المعروف في السماوات بالدهاء والمكر، وملك (نريوس) ذي الشعاف السامقة..
تبدل وجه الحورية لربع ثانية.. ثم عاد إليها إشراقها وأشارت للوراء إلى حشد من الجواري بارعات الحسن، كي يصطحبن الرجال ويكرمن وفادتهم.. وهلل الرجال الذين لم ينتظروا دعوة كهذه، علي حين مال (هوميروس) على أذن (عبير) وهمس:
- ما كان لك أن تخبريها بكل هذه التفاصيل.. كانت (كاليبسو) تنتظر أن يرمي اليم لها ب. (أوديسيوس)، وكانت تتمنى أن يتزوجها ويعيش معها هنا إلى الأبد.. في الحقيقة كان المفترض أن يعيش معها سبع سنوات كاملة حتى يتدخل سادة (الأوليمب) ويأمروها بإطلاق سراحه.. الآن كانت هذه الحسناء تنتظر (أوديسيوس) فإذا باليم يلقي لها زوجة (أوديسيوس)!! لا تتوقعي أن تعاملك بالكثير من اللطف إذن!!
نظرت إلى الحورية في غل، وهمست:
- كان سيعيش مع هذه سبع سنوات كاملة؟ لا أفهم ذوق هؤلاء الرجال أبدا.. لابد أنها أجبرته على ذلك!

- في البداية كان سعيدا مستمتعا.. ثم بدأ يشتاق إلى زوجته الحبيبة وابنه..
- اشتاق إلينا بعد سبع سنوات؟! لكم من تضحيات عاناها هذا المسكين!! وأنا التي جلست كالحمقاء أنسج الكفن ليل نهار كي لا يتطاول عليّ أحد هؤلاء العشاق!!
- لا تنسى أنه لم ير (كاليبسو) قط.. أي أنك تحاسبينه على ذنب لم يفعله..
صفقت (كاليبسو) بيديها وصاحت في مرح:
- والآن أيتها الحسناء.. لابد أنك مرهقة ولا أري ما يدفع إلى إطالة الكلام الهامس مع شيخك اللطيف هذا..
وارتبك (هوميروس) فهو لم يعتد أن يرى فيه أحد شيئا من اللطف.. وتلعثم، وارتسمت على وجهه بسمة بلهاء، فاستشاطت (عبير) غيظا.. حتى أنت أيتها المومياء المتحركة وقعت في سحر الحورية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في قصر الحورية (كاليبسو): كان الأمر شبيها بالحلم كظهورها بالضبط.. كانت هناك صالة كبرى مُدت فيها الموائد، وذُبحت الشياه السمينة وشويت، على حين راح عازف كفيف يعزف على قيثارة، ويغنى بصوت رخيم.. وجلس البحارة يضحكون ويمرحون، وقد اغتسلوا جميعا وارتدوا أفخر الثياب العطرة.. وعشر راقصات كالبدور يرقصن ذلك الرقص اليوناني المميز الذي هو أقرب إلى حركات (الجمباز)..
الكل كان منتشيا ذاهلا ماعدا اثنين من الجالسين.. اثنتين لو شئنا الدقة.. (كاليبسو) وضيفتها..
راحت (كاليبسو) ترشف من كأسها وهي ترمق (عبير) من خلال الزجاج، كما تفعل الجاسوسات في الأفلام الرديئة، ثم مالت نحوها وهمست في ثبات:

- أنت حسناء حقا..
- شكرا لك.. ليس إلى هذا الحد..
- ربما لو استثنينا أنفك الأفطس قليلا وتسريحة شعرك التي لا تلامك، لقلنا إن وجهك في تمام سحره.. إني لأسائل نفسي عن السبب الذي جعل (أوليس) بطل الأبطال يختار واحدة لها هذا الأنف.. معذرة.. لا أعني شيئا مما فهمت، لكن (أوليس) - وأنت توافقينني -بطل الأبطال، وبوسعه أن يختار من يشاء من جميلات الأرض لتكون زوجته..
قالت (عبير) والنار تخرج من منخريها:
- أنت أيضا لست ملكة جمال أيتها الحورية..
- دعينا لا نختلف من أجل هذا ولننعم بحفلنا..
وراحت تهز رأسها يمينا ويسارا مستمتعة بصوت المغني الرخيم.. ثم بعد دقائق أضافت وهي تتأمل يدي (عبير) إذ تلتهم شريحة من لحم الشاه:
- أنت حسناء حقا لكني لا أشعر أن يديك على نفس المستوى من الرقة.. لو تركنا لخيالنا العنان لقلنا إنهما مخلبا ضبع ينشبهما في أحشاء فريسته، خاصة لو لاحظنا شراهتاك الزائدة في الأكل..
شعرت (عبير) بأنها تبتلع الطعام بالسم، فقالت وهي تزدرد ما بفمها حتى لا تختنق.. لكن.. لا.. لم تقل شيئا.. إن عدم الرد قد يكون أفضل في هذه المرة.. فقط مالت على (هوميروس) وهمست:
- متى تتركنا هذه الأفعى نرحل؟ أنا لم آت هنا كي أمنحها فرصة التسلية..
قال بفم مليء باللحم حتى إنه ليتساقط منه:

- لا أراها أفعى.. ثانيا لا أعتقد أنها تمانع لو رحلنا الآن.. فنحن لا نمثل لها بالتأكيد ما كان سيمثله (أوديسيوس).. المشكلة هي أن تقنعي الرجال بذلك لاحظي أن (أوديسيوس) كان يملك نقطة تميزه عنك:

كان رجاله يحبونه، وكانوا عائدين إلى الوطن.. أما أنت فلا علاقة لك برجالك، وأنت تبعدينهم عن الوطن في الواقع..

نظرت للرجال المستمتعين الغافلين وشعرت بالقلق.. حقا لا يوجد أي سبب يقنع هؤلاء بالرحيل معها.. إن ما تقدمه لهم غامض ومخوف ومليء بالأهوال.. بينما هم هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- قطعان الشمس..

كانت هناك سفينة واحدة باقية لم تؤذها العاصفة وكان من السهل إصلاحها بعد ما انتهت العاصفة وتلاشي غضب (نبيتون) - وهو دائما حانق على كل حال - وقد ذهبت (عبير) في الصباح مع بعض رجالها المخلصين لزوجها، فصعدوا إلى السفينة الجانحة عند الشاطئ، وحددوا مكان العطب فيها..
وبدأ الإصلاح على قدم وساق..
كانت المشكلة الآن هي إقناع الرجال بالرحيل.. ولم يكن أي منهم متحمسا لهذا حتى (هوميروس) نفسه.. وقد راحت (عبير) تردد لنفسها: «الرجال! هكذا الرجال! مجرد أطفال خائري العزيمة..»، بينما كان البحارة يلاحظون حماسها وعصبيتها، فيتغامزون ويقولون لبعضهم: «النساء! هكذا النساء! ضع امرأتين في مكان واحد، ولسوف تشعل الغيرة نارا أعتى من نيران (فولكان)..»
لكن الحل جاء وبسهولة غير متوقعة.. لقد كانت (كاليبسو) - التي فتحت قصرها للجميع – تملك مجوهرات نفيسة من كنوز الأوليمب.. لا تصدق العين أنها تراها، ولا تصدق الأصابع أنها تلمسها.. وقد كان ما حدث بعد هذا متوقعا للغاية.. اختفت بعض المجوهرات وجن جنون الحورية.. وكانت (عبير) تفهم جيدا أن السيطرة على كل البحارة مستحيل..
لقد راحت أصابع الشك تحوم حول رجال (عبير)، وتم تفتيشهم بقسوة وعناية لكن المجوهرات لم تظهر..
وكانت (كاليبسو) قوية، لكنها قوة الأنوثة وجبروتها، وما كانت تملك الوسائل التي تنتزع بها سر المجوهرات من ضيوفها هؤلاء، لذا اكتفت بأن طردت الجميع طردا مهينا، وتمنت أن يغدر بهم (نبيتون) وأن تتلذذ وحوش البحر بأجسادهم.
- لو كان (أوليس) هو القائد وليست زوجته البشعة، لما جرؤ البحارة على اقتراف شيء كهذا..
وعندما جاء الأصيل كانت السفينة تبحر وعليها من بقي من البحارة..
وقف (هوميروس) جوار (عبير) على حاجز السفينة يرمقان - أو ترمق هي - أعمدة (هرقل) تتوارى في الأفق.. هنا مدت يدها إلى قطعة صغيرة من الخشب ربطت إليها لفافة صغيرة، وفردت ذراعها وطوحت بها إلى اليم المتلاطم..
شعر بالحركة فسألها عما رمته إلى اليم.. قالت في لا مبالاة:
- لا شيء.. مجرد لفافة بها بعض المجوهرات!!
آمل أن يحملها الموج إلى الشاطئ ثانية..
- أنت أخذتها بنفسك؟
- ما كانت لتفتش زوجة (أوليس) أو تشك فيها كانت هذه هي الطريقة الوحيدة كي نطرد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت أيام في البحر، و (عبير) تقضي الوقت بين الوقوف جوار (هوميروس) لمشاهدة الأمواج والدرافيل التي تتسابق خلف السفينة، وبين النوم في قمرتها. خطر لها أنها على الأقل تجرب سياحة البحر المتوسط، وما كانت غريبة عليها لأنها عاشتها مع (شريف) من قبل.. لكن السياحة في هذه المرة تختلف.. إنها في سفينة خشبية ذات مجاديف وأشرعة.. وبالمجان.. وفي

صحبة أغرب دليل يمكن للمرء أن يقابله: (هوميروس) شخصيا
الآن يدنون من جزيرة كبيرة إلى حد ما، تنبعث منها أصوات ثغاء الغنم.. ويعرف (هوميروس) هذا فيقول لها:
- إنها (صقلية).. هكذا تطلقون عليها يوما ما، وتتهمونها بأنها الوطن الذي جاء منه رجال المافيا جميعا.. أما نحن فنسميها جزيرة الشمس، ولها مزية مهمة هي أن (أبوللو) يحتفظ بقطعان أغنامه هنا!
- أي أنها حظيرة كبرى!
- ومعنى هذا أن علينا ألا نتوقف هنا أبدا.. إن لهذه الأرض أخطارها..
لكن البحارة بدوا غاضبين موشكين على التمرد، وهم على كل حال لم يكونوا في خير حالات الولاء لقائدي رحلتهم: الفتاة والشيخ المكفوف.. إنهم يتمردون كلما لم يروق لهم شيء ما.. وتصايحوا بأنهم راغبون في الرسو على هذه الجزيرة الخصبة الفيحاء، على سبيل التقاط الأنفاس.. هذا من حقهم وهم الذين انتزعوا من جنة (كاليبسو)، ويقطعون البحر نحو هدف مجهول خطر..
لم تجد (عبير) مفرا من القبول، خاصة وأن (يوريلاكوس) وهو يلعب دور ضابط السفينة، ويبلغ أوامرها خفيضة الصوت المهذبة إلى الرجال بصوته الغليظ مازجا إياها بالسباب البحري المناسب.. (يوريكلاوس) هذا بدا بدوره مصرا على الرسو قرب سواحل جزيرة الشمس هذه..
هنا صاح (هوميروس) منذرا الرجال:
- ليكن.. لكن فاعلموا أن القطعان هنا كلها قطعان (أبوللو) نفسه.. إياكم إياكم أن تذبحوا أية شاة أو خروف هنا مهما ألحت عليكم المسغبة..
هزوا رءوسهم على سبيل الوعد، وإن أدركت (عبير) أنهم لن ينفذوا الأمر.. هذه طبائع الأمور.
هم فقط ينتزعون القبول من فم العجوز، وحتما لن ينفذوا الأمر.. ولكن ماذا يحدث بعدها، وما مدى غضب (أبوللو)؟ من الخير ألا تفكر في هذا الآن..
مر يومان على الجزيرة على خير.. فهم يأكلون مما معهم من طعام بلا مشاكل.. يعيشون كالنباتيين وسط هذه القطعان هائلة الحجم كثيرة الدهن.. ثم جاء الاختبار..
جاء في صورة عاصفة عاتية أرغمتهم على البقاء بالجزيرة وقتا أطول، وكان أن تناقصت الجراية يوما بعد يوم، وصار منتهى طعام البحّار منهم حفنة من البقسماط يبللها ببعض الخل ويلتهمها، لكن الماء كان متوفرا وبكثرة، ومعه العشب لو خطر لأحدهم أن يقلد السوائم.
وفي النهاية انتهز الرجال فرصة نوم (عبير) وغفلة (هوميروس)، واحتملوا عددا من الخراف السمينة إلى طرف الجزيرة وذبحوها.. ثم راحوا يشوون الأفخاذ.. كان حرق الأفخاذ وصب الخمر في النار نوعا من القرابين المفضلة عندهم، وكأنهم بهذا يخلون مسئوليتهم ويرضون سادة الأوليمب.. ثم إنهم راحوا يشوون الأحشاء والكبد، وأكلوا بدورهم في نهم كالذئاب..
- ماذا فعلتم يا مخابيل؟ تأكلون قطعان (أبوللو)؟!
كان هذا هو (هوميروس) الذي صحا من النوم على ريح الشواء، وجن جنونه.. لكن أحد الرجال قذف له بقطعة من (بيت الكلاوي) كي يصمت قليلا.. والحقيقة أن مذاقها راق للشيخ الجائع..
بدورها نهضت (عبير) وفهمت المأساة.. وإن دهشت من خبل هؤلاء القوم، الذين قاموا بكل هذه التضحيات كي يحرقوا الأفخاذ ولا يذوقوها ويأكلوا الأحشاء.. باختصار هم يأكلون ما كان يدعى في عالمنا (سقط السلخانة) فبماذا أفادوا إذن؟
لكنها شعرت بالخطر.. بالتأكيد شعرت بالخطر..

قالت وهي تسعل من رائحة الدخان التي حركت الجوع في أحشائها:
- هلموا! لم يعد من المستحب أن نبقى هنا لحظة واحدة.. لقد هدأت العاصفة، فلنهرع إلى سفينتنا ونبتعد، ولكن ناولني قطعة من هذه الكبد المشوية قبل أن نرحل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولماذا هدأت العاصفة؟ طبعا كي يحسب هؤلاء الحمقى أنهم آمنون، ويعودوا للبحر ثانية حيث ينتظرهم انتقام (أبوللو).. وهكذا ما إن ابتعدوا عن الجزيرة قليلا حتى ثارت الأمواج وهبت الرياح ورعدت الرعود وبرقت البروق..
من جديد عادت السفينة تتواثب لأعلى وأسفل، كأنما تصعد جبال (الهيملايا) وتهبط إلى أعماق أعماق المحيط الهادي في آن واحد.. وتم إنزال (هوميروس) البائس إلى أسفل حتى لا يغريه الماء بالسباحة، وربطت (عبير) خصرها إلى حاجز السفينة بحبل.. لم تكن تفقه شيئا من فنون البحر، لكنها شعرت بان عليها أن تكون مع رجالها حتى وإن لم تفدهم بشي.. وراحت الأمواج تتنافس مع بعضها أيها أعلى، وأيها أقدر على تحطيم السفينة.
حقا مضي الليل في جحيم مستمر، لكن المياه هدأت قليلا في الصباح.. وشعر القوم لأول مرة أنهم ربما ينجون من هذا المأزق.. وصعد (هوميروس) إلى السطح الزلق المبتل، وتشمم هواء الفجر الذي عطرته (أورورا) الجميلة بردائها الوردي، وسألهم في انتعاش كمن نام تسع ساعات مريحة متواصلة:
- ماذا أعددتم للفطور؟
نظر له الرجال في غيظ، هم الذين لم يغمض لهم جفن طيلة الليل، ولم يرد أحد.. قالت له (عبير) وهي تمسك بيده كي لا يتعثر:
- لا يوجد ما يؤكل إلا الأخبار الطيبة.. أعتقد أننا قد نجونا من غضبة الأخ (أبوللو)..
- بل هو ساقنا إلى حيث يريد بالضبط! هذه لعبة شطرنج كونية يا بنيتي ونحن نتجه إلى حيث يريدنا الخصم..
ثم دنا من أذنها وهمس في حذر:
- هل يسمعنا أحد من الرجال؟ خذيني إلى حيث لا يسمعنا أحد..
- ليكن..
وأمسكت بيده المعروقة الواهنة، واقتادته إلى الميمنة.. لابد أنها الميمنة لأنهم يسمون الناحية الأخرى الميسرة، واستندت على حبل غليظ، وسألته:
- ماذا تريد قوله؟
قال وهو يرتجف هلعا وتوجسا، حتى إن بياض عينية ازداد نصوعا واتساعا:
- نحن ندنو من مضيق (مسينا)!! أشعر بهذا وأتوقعه وأحسه!
- هذا مخيف.. ولكن ما معناه؟
- نحن ندنو من (شيلا) المخيفة وعين (كاريدي)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7شيلا- السرينات - وأشياء من هذا القبيل..

فيما بعد عرفت (عبير) ما غاب عنها من حقائق الحياة..
شيللا هي وحش من وحوش الأساطير الإغريقية الموجودة تحت كل حجر.. هولة كما يترجمها الأستاذ (دريني خشبة)، ويصفها كذلك بأنها «ليست مخلوقا يجوز عليه الفناء.. بل هي غول سرمدي شديد المراس، شكس شديد الشراسة، لا يغالب أحدا إلا غلبه»..
لها صوت عواء مريع يثير ذعر الأشباح نفسها، وهي تعيش في كهف في صخرة وسط البحر.. لها ستة أعناق يحمل كل عنق رأسا سام الأسنان.. ولها اثنتا عشرة قدما.. وهي - كالعادة - تتوارى بكل جسدها داخل الكهف فلا يبرز منها سوى الأعناق الستة التي تلتهم البحارة بتلذذ جدير بها.
هل ترى أن (شيللا) سيئة؟ بالطبع هناك أسوأ دائما.. فعلى الجانب الآخر من المضيق توجد عين (كاريدي) التي تمتص مياه البحر، ثم تلفظه طيلة اليوم.. أي أن المرور بجوارها بمثابة انتحار، لأنه يعني أن تمتص سفينتك إلى أعمق الأعماق.. ثم تلفظها إلى السطح وقد تحولت إلى أعواد ثقاب..
إن الأساطير الإغريقية كما ترى تعج بالأخطار الشنيعة، وهي بهذا لا تختلف كثيرا عن المشي في الشارع هذه الأيام، وإن كان أحد منا لم يظفر بملحمة واحدة تكتب تخليدا له..
وما العمل إذن؟
لو كانت (عبير) تذكر دراستها التجارية، لتذكرت أن حساب التكاليف يجعل (شيللا) هي الاختيار الأفضل.. ستة رجال تبتلعهم لكن السفينة نفسها تنجو، بينما عين (كاريدي) لا تعرف المزاح ولا تترك ذكريات وراءها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت (عبير) دليلها الكفيف:
- ماذا عسانا نفعل؟
- سنمر طبعا.. ولكن من ناحية (شيللا)..
- هل أنذر الرجال؟
- لا أرى لهذا داعيا لأنك ستسببين ذعرا وتمردا لا يمكن مقاومتهما.. فلنترك الحظ يتحكم في أقدارنا.. أما أنا فبالطبع لا بد من أن أتوارى في جوف السفينة كعادتي لأنني شاعر رقيق.. تصوري ما سيخسره الأدب لو مت أنا.. بينما لن يفيد الرجال شيئا من التهامي، ولن تفيد (شيللا) شيئا..
وقبل أن تناقشه أصدر تعليماته إلى (يوريكلاوس) كي يصدر تعليماته للبحارة بصوته الجهير الغليظ ولغته المليئة بالسباب.. ثم هرع يتوكأ على عصاه قاصدا جوف السفينة لينظم المزيد من الشعر الذي يصف الموقف..
هنا كان صوت العواء يتعالى كئيبا مخيفا ينذر بالشؤم، وكأنه شيطان يذبح في سقر.. حتى لتتمنى الموت كي لا تسمع هذا الصوت ثانية.. إلا لو كان هو صوت الموت نفسية وهذا ليس مستبعدا..
ودنا الهول القادم، ورأى الرجال المشهد المهيب الرهيب فتصايحوا.. وتدافعوا..
كان الكابوس يتكون من شطرين.. على اليمين ترى الأخت (شيللا) بارزة من كهفها وأعناقها

الستة تتلوى في تلمظ، بينما على اليسار ترى العين التي لا تني يفور ماؤها، ثم يغور.
هتف البحارة وهم يتراجعون للوراء:
- مستحيل.. هذا لن يكون.. لن نمر من هنا!
لكن أوان التراجع كان قد فات، والسفينة لا تملك فرامل سيارة.. إنها تمشي مع الماء عبر المضيق عاجزة عن الارتداد.. وهتفت (عبير) وهي تقف وسطهم في مكان بارز متصلبة:
- لا جدوى من التواري مع العجوز لأن (شيللا) وقتها ستقلب السفينة كلها.. سنمر من جهة اليمين أغمضوا العيون واصبروا.. إن هي إلا لحظات أليمة وتنتهي!
وبالفعل أغمضت عينيها وضغطت على أسنانها إن للوحش حرية مطلقة في اختيار فرائسه الست..
ولو كانت هي المختارة فلن تشعر إلا بأسنان حداد تحيط بصدرها وترفعها لأعلى.. وبعدها؟ هل يجيء الموت بسرعة أم يتأخر كالعدالة؟
كانت تعرف سرعة السفينة وتسمع صوت الماء وضربات المجاديف.. وقدرت أنهم الآن في مجال افتراس (شيللا).. إنهم أمامها الآن.. إنهم يمرون تحت الكهف.. إنهم..
لاااه!! صرخة متوسلة مريعة.. هذا واحد لن يبيت معهم الليلة.. لااااه! واحد آخر.. آهههههه!! ثلاثة.. الرحماااااه! هذا هو الرابع.. وحبست أنفاسها وتذكرت أنها في مكان بارز وأنها ملفتة للنظر باعتبارها ترتدي ثوبا طويلا وشعرها أشقر.. لكن ما كان بوسعها أن تترك الرجال لحظهم خاصة وهم لا يعرفون ما عرفته هي.. آيييي! الخامس.. من يكون السادس؟ هل هو؟
لاااااه!!!! تعالت الصرخة السادسة ففتحت عينيها وكادت تتنفس الصعداء، لكن ما رأته أشعرها كأنها ماتت هي الأخرى.. كانت الأعناق المفترسة تتلوى في السماء بينما كل فم يطبق على خصر أو صدر بحار، وكلهم ما زال حيا يصرخ ويتوسل أن يجيروه.. كلهم يمد يده طالبا غوثا لن يجيء..
أغمضت عينيها وضربت حاجز السفينة برأسها ليتها ما قامت بهذه الرحلة.. ليتها عادت لعالمها ليست لديها أعصاب تتحمل هذا كله..
وتنظر للوراء لترى الكهف المخيف يبتعد بسرعة السفينة، وصوت العواء الذي صار مكتوما ينخفض بالتدريج.. بينما (شيللا) - الهولة - ما زالت تعبث بضحاياها الأحياء عبثا..
ستة رجال لن يتناولوا طعام العشاء معهم لو كان هناك عشاء..
لقد صاروا هم العشاء المبكر لكائن آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تصبو إلى بعض الراحة الآن لولا أن خرج (هوميروس) من مخبئه، وقال بلهجة الندابات:
- (شيللا) قد قامت بعملها المؤسي.. سمعت ست صرخات.. ترى من أخذته ومن تركته؟ هل أنت هنا يا (بنيلوب)؟
همهمت بصوت خفيض كمن يوشك على الإغماء..
والحقيقة أن الرجال كانوا في حال أقرب إلى الصدمة العصبية.. لكن (هوميروس) كان مازال محتفظا بحماسه كاملا، وصاح فيهم:
- هلموا.. لقد انتهى أوان المزاح وبدأ الخطر الحقيقي!
- هل أنت واثق من أن كل هذا كان مزاحا؟

- لا بد من أن نذيب الشمع الآن، لأن السيرينات ينتظرن عند جزيرتهن.. الجزيرة التي سيطلقون عليها يوما اسم (كابري)..
ثم وجه الكلام إلى (عبير) وقال:
- لا أعتقد أن هناك خطرا ما عليك.. أنت أنثي وتملكين حماية طبيعية ضد الأخطار التي يواجهها الرجال البلهاء.. لكن لا أرى ما يمنع من ربطك إلى الصاري بالحبال!
صاحت في حنق:
- عم تتكلم بالضبط؟
قال وهو يضرب الأرض بعصاه الخشبية:
- السيرينات من عرائس البحر.. وهن يجلسن على الصخور ينشدن أغنيات ساحرة بأصوات لا يمكن وصفها.. هذه تيمة مهمة في أساطير أكثر الحضارات..

كل ثقافة لديها عروس البحر الخاصة بها التي تغرق البحارة أو تدعوهم إليها لتقتلهم.. عندكم في مصر (المزيرة) وفي ألمانيا (لورالاي).. عندنا نحن السيرينات.. إن البحار الذي سيلحق بهاته الساحرات سيظل هناك على الشاطئ للأبد يصغي لغنائهن، حتى يموت ويتحول إلى عظام..
ثم صاح في البحارة:
- ماذا تنتظرون يا حمقى لتأتوا بالشمع؟
أشعلوا نارا وراحوا يذوبون الشمع، ثم يسكبون بعض السائل الذائب الحارق في أذني كل بحار – على طريقة صيادي اللؤلؤ الكويتيين - حتى لا يسمع الغناء الرهيب.. وكان دور (هوميروس) هو الأخير.
في النهاية وقفت (عبير) جوار الصاري وتعاون رجلان على تقييدها بعناية بحبال غليظة.. وقال (هوميروس):
- ارفقا بها.. فهي ليست كتلة عضلات مثل (أوديسيوس)..
لكنهما لم يسمعا على كل حال وواصلا الربط بحماس.. وخطر ل (عبير) أن المجموعة صارت خليطا عجيا: مكفوف أصم يصدر تعليماته لمجموعة من الصم، كي يرفقوا بفتاة شبه مشلولة الآن.
وراحت المجاديف تضرب صفحة الماء.. ومن بعيد ظهرت سواحل الجزيرة..
- (أوديسوووس).. يا بطل (إليوم)..
- تعال أيها الحبيييب أصغ إلى غنائنا!
(أوديسوووس).. يا صاحب الذراع الشهم..
- تعال لنا.. وألق بالثقل عن كاهلك، ولينعم رجالك بالراحة..
- أخيراااان..
- (أوديسوووس)!
حقا كان الغناء مدوخا له تأثير المغناطيس.. ومن بعيد كانت الفتيات ساحرات الجمال يجلسن على الصخور يمشطن شعورهن الطويلة.. لكن السفينة واصلت رحلتها بنفس السرعة المنتظمة وخطرا (عبير) أن الحمقاوات يحسبن (أوليس) على ظهر السفينة، ولسوف يخيب أملهن لو عرفن أن هذه هي (المدام)..



ومـن بعيـد كانـت الفتيـات سـاحرات الجمـال يجلسـن علـى الصخـور يمشـطن شـعورهن الطويلـة.. لكـن السـفينة واصلـت رحلتها بنفس السرعة المنتظمة..

مزية أن يكون المرء أنثى هي أنه لا يعبأ إطلاقا بهذا الكلام الفارغ.. لا يؤثر فيه شيء اسمه حسن (كاليبسو) ولا غناء السيرينات ولا أي شيء من الأشياء التي تهلك الرجال الحمقى.. إن الغناء

جميل لا شك فيه لكن (عبير) لا تفهم إطلاقا السبب الذي يدفع الرجال إلى القفز للماء عند سماعه، فالسباحة إلى الشاطئ فالموت جوعا وعطشا فوق الصخور بينما تواصل عرائس البحر الإنشاد.. حقا ما كان من داع لهذه الحبال إذن..

أخيرا تبتعد الصخرة، وتبتعد السيرينات، وتبادل الرجال البسمات..

صاحت فيهم وقد آلمها الحبل:

- هلموا فكوا هذه الحبال..

لكن أحدا لم يسمعها بالطبع.. حتى أصابها ذعر حقيقي.. خاصة أن (هوميروس) لا يراها كذلك أخيرا تذكر أحد البحارة أن يزيل الشمع من أذنه، وهكذا سمعها تصرخ.. ركض وفك وثاقها وهو يكرر الاعتذار: وبعد قليل استعاد كل الرجال القدرة على السمع من جديد..

وعاد الهدوء، لكن الجوع كان يمزقهم شر ممزق، وبدأ البعض يشكو من الطوي، فقال لهم (هوميروس):

- صبرا.. لقد دنونا كثيرا من كهف (تسيرس) في (أيايا).. وهناك ستأكلون كما تحبون.. ستأكلون في نهم كأنكم خنازير وثقوا أنني أعني ما أقول!

وابتسم ابتسامة جانبية ساخرة لم يلحظها أحد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- خنازير.. رياح..

وصلت السفينة أخيرا إلى جزيرة هادئة توحي بالجمال والسكينة.. وتنفس الرجال الصعداء آملين في بعض الراحة.. قال (هوميروس) وهو يغطي وجهه بكفه كأنما يستهول ما يعرفه:
- تا لله لو علموا ما ينتظرهم لفروا من هنا فرار الظباء!
نظرت له (عبير) في غيظ.. هذا الرجل يبالغ أحيانا ويستمتع بدور العالم ببواطن الأمور حتى غدت هذه عادة.. لا تمضي دقيقة إلا ويصرخ ويرتجف من هول ما سيرون.. وإنها لترى في هذا لونا من الصبيانية..
قالت له بلهجة عملية:
- لو كنت ترى الخطر داهما إلى هذا الحد دعنا لا نرسو هنا..
- أولا: أنت خرجت طلبا للخطر.. ولو تفادينا كل مكان خطر لعدنا كما كنا من دون أحداث.. ثانيا: لن يقبل الرجال هذا لأن الأرض للبحارة كالماء للظمآن.. لا يجرؤ - ولا يقدر - أحد على حرمانه منه..
على الشاطئ اصطاد القوم ظبيا فقاموا بشيه.. وقضوا ليلة هادئة لا بأس بها..
في الصباح الباكر وقفت (عبير) تنظر إلى الجزيرة الرحبة الممتدة أمامها، وخيل إليها أنها تري دخانا ينبعث من أطلال في وسطها.. فنادت (يوريكلاوس) وسألته إن كان يرى ما ترى، فوافقها.. قالت:
- أرى أن تشكل مجموعة من الرجال يذهبون لمعرفة سر هذه النار..
- من قال إنها نار؟
- لا يوجد دخان من دون نار.. أليس هذا القول معروفا عندكم يا أحمق؟
بدا متململا غير راغب في المخاطرة، وخطر ل (عبير) أن هؤلاء البحارة لا يتميزون بالطاعة. إنهم (لَبَطْ) لو سمحتم لي بهذا التعبير الموفق برغم سوقيته.. لو كان (أوليس) هنا فلابد أنهم سينفذون أوامره وهم يرتجفون شاعرين بالفخر لأنه كلفهم بشيء.. لكن الرجال متعصبون دوما لا يطيقون الأوامر الصادرة من أنثى..
في حزم قالت شادّة قامتها:
- (يوريكلاوس).. لو أصررت على الرفض فسوف أخبر (أوديسيوس) أنك متمرد.. هل هذا الأسلوب مقنع؟
- مقنع تماما..
واستدار إلى الرجال ليأمرهم - مع كثير من السباب اللاتيني كالعادة - أن يجمعوا منهم عشرين لأنهم ذاهبون الآن الاستكشاف الجزيرة.. فرغ الرجال من إفطارهم المكون من بقايا الظبى المشوي، وحملوا أسلحتهم ولحقوا به متجهين إلى مصدر الدخان...
ووقفت (عبير) ترمقهم إذ يغيبون في الأفق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند الغروب، كانت الجزيرة تصطبغ بذلك اللون الذي أجهد اللغويين في وصفه، والفنانين التأثيريين في رسمه، حين رأت (عبير) من يأتي من بعيد ركضا، وهو يلوح بذراعيه في ذعر مجنون كمن أصابه هلع لا يوصف..

- هذا (يوريكلاوس).. - واستدارت إلى (هوميروس) الجالس جوارها - «.. يبدو أن السيناريو الذي تتوقعه أنت قد حدث..»
وكان (يوريكلاوس) قد وصل إليهم الآن فخر على ركبتيه وراح يجمع ما بين السعال والهذيان والبصاق والصراخ والعويل ولطم الخدين.. كل هذا في مزيج عبقري لن تصدقه مالم تره.. فراح الرجال يقدمون له الشراب ويربتون على كتفيه، فلو كانت أقراص (الفاليوم) موجودة في (الأوديسة) لأعطوه بعضها.. وبعد قليل هدأ روعه قليلا..
دنت منه (عبير) وقد عقدت ذراعيها على صدرها، وتأملته في برود ثم قالت:
- ما فهمته من كل هذه الضوضاء أن مكروها حدث للرجال الذين كانوا معك..
لطم على خديه الإغريقيين الغليظين، وصاح:
- نعم.. بحق (زيوس) نعم!
ثم أردف بعينين متسعتين هولا:
- ليست (تسيرس) إلا ساحرة!
نظرت ل (هوميروس) نظرة ذات معنى، لكن هذا الأخير لم يرها طبعا، وقالت:
- هذا استنتاج يدل على ذكاء خارق.. والآن هلا حكيت لنا ما حدث بالتفصيل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (يوريكلاوس):
كما اتفقنا، قصدت والرجال مصدر الدخان عند تلك الأطلال، فكان أغرب ما رأينا أن المكان هناك يعج بالسباع والذئاب والخنازير.. كلها تعيش جنبا إلى جنب، وكلها مسالمة ترمقنا في دهشة شبه آدمية.
كان قصر (تسيرس) هناك.. عرفنا هذا لأن المرأة كانت جالسة هناك.. كانت تغزل على النول وتغني بصوت لا يقل سحرا عن صوت السيرينات.. رحبت بنا ودعتنا إلى الداخل، وجاءت جاريات حسناوات يقدمن لنا الطعام والشراب من لبن وعسل.. كنت متوجسا بطبعي ثم إنني لا أحب العسل كثيرا لهذا لم أطعم أو أشرب معهم، وغادرت القصر لقضاء حاجة واختلست النظر من النافذة فوجدت رفاقي يمسخون إلى خنازير.. خنازير صغيرة لا تكف عن الصراخ، فنهضت الساحرة وقدمت لهم طعاما من الكرز وقشور البلوط.. عشرون خنزيرا في ثوان!!
هنا كان الهلع قد استبد بي، وعرفت سر الوحوش التي رأيناها عند مدخل القصر.. ولماذا لم تبد أية علامات للشراسة.. كانت هذه الوحوش في الواقع تفكر وتتعامل فيما بينها كبحارة.. بحارة بؤساء قذفتهم مصائرهم إلى ضيافة هذه الساحرة..
ورحت أجري وقد طار قلبي شعاعا حتى وصلت إلى هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راحت (عبير) تفكر في عمق.. طبعا ليس واردا ترك هؤلاء القوم لعذابهم الأبدي، لم يموتوا مثل من التهمتهم (شيللا).. إنهم أحياء ويتمتعون بعقولهم، لكنهم سجنوا في هذه الأجساد المهينة العاجزة..
نظرت إلى الرجال الباقين الذين وقفوا ينتظرون رد فعلها.. ثم نظرت إلى (يوريكلاوس) وأدركت أنها لن تجسر على طلب العون منه أو مرافقتها.. بالواقع هذه مشكلتها وحدها لأنها هي صاحبة فكرة الرحلة، وعلى رأسها يقع ذنب هؤلاء.. مدت يدها إلى قراب أحد الرجال وانتزعت سيفه،

وحملته في يدها شاعرة بثقله المهيب.. ثم قالت ل (هوميروس) ميممة وجهها شطر القصر:
- هل ترافقني؟ لا إجبار هنالك..
قال في حماسية وشجاعة:
- بالطبع لا.. مادام لا إجبار في الأمر.. لن أذهب لساحرة شريرة على قدمي.. لأسباب كهذه يعيش الشعراء أطول من الأبطال، ويكتبون قصصهم..
الأبطال يصنعون الأحداث ويموتون فيها.. بينما الشعراء يتابعون ما يحدث ويبقون أحياء ليكتبوا عنه فيما بعد..
دون كلمة أخرى اتجهت إلى الأفق مبتعدة عن الرجال الذين وقفوا يراقبونها صامتين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعند أول دغل تخترقه كان واقفا.. تذكرته على الفور من القصة السابقة بحذاءيه وقبعته المجنحين.. إنه (هرمز) مبعوث (الأوليمب)، أي أنه يلعب في الأساطير الإغريقية دور الساعي الذي ترسله الآلهة إلى البشر لإبلاغهم بأمور معينة مهمة، وتوصيل أشياء محددة، ثم يعود أدراجه على الفور.
قال لها بابتسامته العابثة الخبيثة نوعا:
- إلى أين تظنين أنك ذاهبة؟ ثمة أمور لا تكفي فيها الشجاعة.. لا بد من خطة ما ترسمينها وإلا هو الانتحار ذاته.. ولن يفيد أحد من خنزيرة تضاف إلى المجموعة التي تملكها (تسيرس)..
ثم أضاف وهو ينزع قبعته على سبيل الاحترام:
- إن سادة (الأوليمب) يتابعون مغامرتك بشغف، وقد راق لهم أن فتاة تجرب المرور بما كان يجب أن يمر به (أوليس) ذاته.. لهذا لم يستطيعوا تركك لحظك طيلة الوقت، وأرسلوني إليك بهذا.
ومن القبعة أخرج قرصا صغيرا وقال وهو يمد راحته لها:
- اسمه (مولي).. نستخرجه من عشبة خاصة لها زهرة بيضاء وجذور سوداء.. ابتلعيه الآن وكلي واشربي كما تريدين عند الساحرة، فلا خطر من سحرها.. أنصحك أن تداري هذا السيف فلا تخرجيه إلا في وقت متأخر..
ابتلعت القرص شاكرة له هذا الاهتمام، ثم علقت السيف وراء ظهرها، وفكت خصلات شعرها الأشقر الطويل لتنسدل حوله وتداريه.. لم تكن تتصور طول شعر (بنيلوب) إلا حين شعرت به يوشك على لمس الأرض.. حقا كانت (بنيلوب) جميلة، ومن الخسارة أن هذا الجمال مجرد ماكياج تضعه (عبير) للقيام بهذه القصة.
مضت في طريقها نحو القصر، فقابلتها الوحوش سالفة الذكر، وفعلت بها كما فعلت مع السابقين..
وكانت الأخت (تسيرس) جالسة في شرفة القصر الواسعة عاكفة على النسيج بنولها، فلما دنت (عبير) منها أكثر، وجدت أن ملامحها هي ذات الملامح الأنثوية المعادية التي تراها منذ بدأت الملحمة، والتي هي إسقاط لعالم الواقع.. كل النساء هنا شريرات وكلهن يحملن ملامح (رانية) ذاتها..
ولمزيد من الحيرة رفعت (تسيرس) وجهها من على النول وابتسمت وقالت:
- طلباتك؟
هزت (عبير) رأسها محاولة طرد ذكرياتها الأليمة، وقالت:

- أنا حرم (أوديسيوس)!!
- آه المدام!! (أوديسيوس) الذي لهج الأوليمب بذكر بطولاته؟ كنت أعرف أنه سيمر من هنا، وانتظرت في شغف أن يكون ضيفي يشرب شرابي ويأكل طعامي.
لكن زوجات أحبابنا هن حبيباتنا أيضا.. تفضلي..
ونهضت متأودة تستبق (عبير) إلى القصر المنيف الجميل.. وفي سرها شعرت (عبير) بالرضا لأن (أوليس) لم ير هذه المرأة.. ما كان ليصمد أمام سحرها، خاصة وأنها لم تعد تثق به على الإطلاق..
أما مع (عبير) فالأمر هين لأنها طبعا لا ترى في هذه الساحرة أي سحر.. إنها مجرد حسناء أخرى من اللواتي يمكن العثور عليهن تحت أي حجر..
جاءت الجواري بالطعام والشراب واللبن والعسل، وكانت (عبير) جائعة فملأت بطنها قدر الإمكان، وهي تتأمل البسمة الغامضة المريبة على وجه الساحرة.. الساحرة التي لم تكف عن ترديد لازمة (طلباتك) في كل مناسبة برغم أن (رانية) ليست من هذا الطراز.. وبدورها ابتسمت (عبير) لأن عقار (هرمز) يؤدي عمله كما يجب..
في النهاية تجشأت وقالت شيئا على غرار (سفرة دايمة) ثم مسحت فمها بمفرش المائدة، ونظرت للساحرة في تحد.. قالت (تسيرس) في دهشة:
- غريب.. ألا تشعري بأي دوار أو شيء من هذا القبيل؟
- بسبب السحر؟ يا ملاكي.. هذه الأشياء لا تؤثر في!
كان قناع المجاملة قد انتهى الآن وصار الكلام واضحا مكشوفا:
- لقد وضعت في طعامك تعاويذ تكفي لتحويل أمة إلى خنازير..
نهضت (عبير) وفي هذه المرة كان السيف يلتمع في يدها، وفي عينيها ارتسمت نظرة مريعة تنذر بالويل وصاحت:
- لا وقت لدي أضيعه في هذا السخف.. أعيدي رجالي لحالهم!
تناولت الساحرة كأسا من الذهب، وأشارت إحدى الجواري كي تصب لها بعض الشراب فيه، وقالت وهي تنظر لحد السيف البراق في يد عبير:
- حقا لا خطر على امرأة إلا امرأة أخرى! ليكن.. سأعيدهم لحالهم، لكن ليكن مفهوما أنني لست شريرة ولا سادية.. أنا من هواة جمع الأشياء كما يجمع البعض الطيور النادرة أو الحشرات، أنا أجمع البحارة على شكل حيوانات..
ثم مدت يدها في صدرها وأخرجت قنينة صغيرة، وأشارت إلى الجواري كي يجلبن الخنازير العشرين وبرفق راحت تمسح بهذا الترياق رأس كل خنزير منها.. في الحال بدأت الحيوانات ترتد إلى أصلها، وراح البحارة يتحسسون أجسادهم غير مصدقين ابتسمت وأعادت القنينة إلى صدرها وجرعت ما بقي بكأسها، وببرود سألت (عبير):
- هذا هو ما يحدث حين تظهر النساء في القصة.. إنهن يفسدن المتعة كلها، ولو كان (أوديسيوس) هنا لهام بي ولها.. الآن؟ طلباتك؟
قالت (عبير) وهي تتراجع للوراء:
- لا شيء.. لقد حصلت على رجالي.. والآن سنرحل..
داعبت الساحرة خصلتين من شعرها الأسود وقالت:
- ليكن.. أبلغي تحياتي لد (أوديسيوس) العظيم لو عدت له حية.. يا مدام..
نظرت لها (عبير) في غيظ، ثم اكتفت وأشارت للرجال أن يتبعوها..

وكان هذا أسرع إقلاع عرفه تاريخ السفن الشراعية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(ليستريجونيا) التي بناها (منالاموس) العظيم.. أو جزيرة (مالطة) على الأرجح..
كان (هوميروس) الآن في أسوأ حال، وراح يقضم أظفاره حتى أوشك على التهام رءوس أصابعه نفسها، وحين سألته (عبير) عما به قال وهو يرتجف:
- لقد انتهى المزاح وبدأ الهول!!
كادت تلتهم حنجرته غيظا.. بينما راح الرجال يتصايحون طالبين النزول إلى الجزيرة للتزود بالماء والمؤن.. فكرت في الأمر قليلا.. من الواضح أن كل جزيرة في البحر المتوسط في هذا الزمن تحوي كارثة ما.. إلى حد أن أية شركة سياحية تحاول تنظيم أية رحلات في البحر المتوسط كانت ستفلس.. لكن من الواضح أن الرجال راغبون حقا في النزول هنا..
وقررت أن من الحكمة أن ينزل منهم عدد محدود بينما يبقى الآخرون هنا - وهي معهم بانتظار الإقلاع عند أية بادرة خطر.
ووقفت على ظهر السفينة ترمق الرجال في ثلاثة قوارب صغيرة تدخل البوغاز الضيق الذي يقود إلى ميناء المدينة.. وكان سور هائل الحجم يحيط بها من كل الجوانب، لهذا توارى الرجال عن عينيها بعد قليل..
بعد ساعتين أو ثلاث ساعات عاد بعضهم في قارب واحد، وكانوا يجدفون بسرعة توشك أن تشبه القوارب ذات المحركات، فلما وصلوا إلى السفينة وثبوا إلى ظهرها كالقردة، وصاحوا في رفاقهم أن يقطعوا الحبال حالا، وأن يهرعوا إلى وسط البحر كأن الشيطان يطاردهم..
حاول زملاؤهم فهم ما يحدث لكن أحدهم صرخ:
- لا تسأل.. فقط أسرع؟
- ألن ننتظر الآخرين؟
- لم يعد هناك آخرون! لقد صاروا تاريخا!
وتذكرت (عبير) العبارة المماثلة التي يقولها الإنجليز عن فلان: (لقد صار تاريخا) كناية عن الهلاك.. لقد هلك الآخرون ولكن كيف؟ هذه هي مزية أن تبقى السفينة متأهبة للرحيل في أية لحظة لأنهم استطاعوا الإقلاع بسرعة الصوت..
وبعد قليل أمكنها أن تفهم من البحارة قصتهم:
- لقد قابلنا عند مدخل المدينة ابنة الملك (أنتيباتاس) التي أخذتنا إلى قصر أبيها.. لقد اقتادتنا إلى أبيها وأمها، ولم يكن منظر هذين مما يسر الناظرين.. وهؤلاء القوم غير طبيعيين، حجمهم شبيه بالجبال.. لقد أمسك الملك بواحد منا من قدميه وهشم رأسه على الحائط، ثم بدأ يفسخ لحمه أمام عيوننا التي لا تصدق..
- خرجنا من القصر جريا نحو الميناء لا نلوى على شيء، وهنا عرفنا أن المدينة كلها خرجت في إثرنا.. وحجم كل واحد فيهم لا يقل عن حجم ثور.. ركبنا قواربنا وحاولنا الخروج من الميناء، فراح هؤلاء القوم يرمون علينا الجلاميد.. تهشم قاربان من قواربنا وتناثرت جثث الرجال، لكن هؤلاء المفترسين كانوا يغرسون الحراب في الجثث ويحملونها إلى الشاطئ لينعموا بالتهامها..
وبصعوبة بقي قارب واحد استطاع الخروج من البوغاز..
- إن لهؤلاء القوم طريقة فريدة في الترحيب بالضيوف!
أصغت (عبير) إلى هذه القصة وهي ترتجف، ولعنت الساعة التي فكرت فيها في النزول إلى هذه

الجزيرة..
نظرت إلى (هوميروس) العجوز الذي كانت شفتاه تتحركان باستمرار فأدركت أنه يقرض الشعر الآن، واصفا هذه المذبحة بكلماته..
قالت له في غيظ:
- كان بوسعك أن تنذرنا بكلمات واضحة بدلا من كلامك الغامض الشعري هذا!
الشعراء لا يضعون القواعد.. إنهم يكتفون بالتلميح.. إن القواعد مهمة الأديان والقوانين وكتب العلوم لكنها ليست مهمة الشعر..
تمنت أن تنتهي الرحلة قبل أن تقتل هذا الرجل، ويومها ستدخل التاريخ باعتبارها المرأة التي فتكت ب. (هوميروس)، ومنعته من تأليف ملحمتيه الشهيرتين.. لسوف يشكرها كل دارسى الأدب اليوناني واللاتيني وقتها!
ومن جديد تواصل السفينة التي يتناقص عدد بحارتها بشكل ملحوظ، رحلتها نحو.. نحو.. لا يوجد هدف محدد هنا إلا المزيد من المجد، والمزيد من الشعر على لسان (هوميروس)..
بعد أيام ظهرت جزيرة (الأيوليين) في الأفق وهي ما نسميه اليوم (سترومبولي)..
سألت (عبير) شاعرها الكفيف وهي ترى أسوار المدينة النحاسية بين الأمواج:
- هل توجد هنا وحوش أو أكلة بشر أو ساحرات؟
- لا.. إنها فرصة مناسبة للاسترخاء.. لكن هناك خطرا لا بأس به، ولن أخبرك به حتى لا أفسد متعة المغامرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الملك من النوع الطيف المعشر الذي لا يلتهم ضيوفه أو يسحرهم.. كان أبا سعيدا مخلصا لست فتيات وستة فتيان، وقد دعا القادمين إلى مأدبة كبيرة وحفل جميل بعدها.. ولم يترك سبيلا للترفيه عن ضيوفه إلا واتخذه..
وقد قضوا عنده بضعة أيام يصغى فيها لقصة (عبير) المسلية عن رحلتها، وكان ككل ملوك الأساطير يعشق القصص ويكرم أصحابها أيما إكرام.. لهذا لم ينس أن يقدم لها قبل الرحيل قربة كبيرة من الجلد المدبوغ هدية..
ماذا في تلك القربة؟
يا له من سؤال غريب.. ظننت هذا واضحا إنها الرياح المعاكسة للبحارة في العالم كله، وقد حبسها (زيوس) في هذه القربة.. من الآن لن تضايقهم أية ريح ولا عواصف لأنهم يحملون معهم الشيء الحقيقي حبيسا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- أرض السيكلوب..

نامت (عبير) لكن البحارة لم يناموا

كانوا يتأمرون طيلة الليل، والسبب طبعا تلك القربة التي تلقتها هدية من ملك الجزيرة.. هذا الموقف مماثل لموقف سابق حين أرادت (بندورا) فتح الصندوق الذي تلقاه (برومثيوس) هدية.. وكان الصندوق يحوي كل الألم الموجود في الكون!! أما القربة الحالية التي خطر للبحارة الحمقى أنها مليئة بالكنوز والذهب، فلم تك تحوي إلا الرياح.. الرياح ولا شيء غير الرياح..

كل أنواع الرياح: رياح غربية.. رياح شرقية.. رياح عاصفة.. أعاصير.. دوامات.. نوات..

فما إن فك الحمقى الحبل الذي يربطها بينما (عبير) نائمة، حتى سمعوا صوتا لا بد أن من سقطت عليهم القنبلة النووية سمعوه.. وطاروا ليصطدموا بحواجز السفينة بينما إعصار رهيب يخرج من القربة، ويتلوى على ذيله الشرير بحثا عن ضحايا.. وتمزقت الأشرعة وتبعثرت الحبال في كل صوب..



وطاروا ليصطدموا بحواجز السفينة بينما إعصار رهيب يخرج من القربة..

ونهضت (عبير) من النوم على هذه الضوضاء غير المعتادة.. راحت تفرك عينيها غير مصدقة، وبصعوبة تمكنت مع رجلين آخرين من القبض على كاحل (هوميروس) قبل أن يطير إلى العباب،

وقامت بربطه إلى حبل غليظ..
- ماذا فعلتم يا حمقى؟!
كذا صاحت لكن أحدا لم يسمعها بالطبع، لأن كل واحد كان يعيش صممه الخاص وطار ثلاثة أو أربعة رجال جوار رأسها، وطار واحد عن يمينها ليرتطم بالموج.. إنهم يستحقون هذا كله، لكنها لا ترغب في أن يحدث لها ما يحدث لهم، ويبدو أن العواصف لا تفرق كثيرا بين من أطلقوا سراحها ومن لم يفعلوا..
الخلاصة أنها كانت ليلة سوداء..
وبشكل ما لا يمكن تفسيره بقواعد الفيزياء، ظلت السفينة متماسكة حتى الصباح.. صحيح أن عدد الرجال انخفض أكثر لكنهم ظلوا أكثر عددا ممن ماتوا..
وفي النهاية هدأ البحر كأنما سئم هذه اللعبة، وارتمى كل بحار حيث هو يلهث بلا انقطاع ويبصق الماء الذي ابتلعه كالحيتان..
نهضت (عبير) وبصقت بدورها، وراحت تضرب على بطن (هوميروس) وصدره لتخرج كل ما ابتلعه من ماء.. مشكلة شعراء اللاتينية هؤلاء هي أنهم يموتون بسرعة.. لكنه لم يمت.. من العسير أن يموت (هوميروس) وهو في قلب ملحمة.. رفعت عقيرتها صائحة:
- تبا لكم ولجشعكم الذي أوردنا المهالك.. تارة تذبحون خراف (أبوللو) وتارة تفتحون صندوق العواصف!! أنتم أسوأ طاقم بحارة في (هيلاس) كلها، ومن مصلحة من فتحوا الصندوق أن يكونوا في قاع اليم الآن، لأن هذا أوفق وضع لهم.. والآن أيها التنابلة انهضوا وليمارس كلٌ ما كان يمارسه قبل العاصفة..
قال (هوميروس) وهو يرتجف:
- إن الجزء القادم هو أخطر أجزاء الملحمة..
صاحت في نفاد صبر:
- نعم.. نعم.. وكل ما مضى كان مزاحا.. والآن هلم أتحفني بالمصيبة القادمة..
- يبدو أننا دانون من (كوما)..
- هذا رهيب.. إنني لأرتجف فرقا.. لكننا سنحاول الآن أن نتجنب (كوما) هذه فلا تتعب نفسك بالشرح..
هنا تصايح البحارة أن الدفة مكسورة والشراع مثقوب وهناك جزء مهم في الميمنة، دعك بالطبع من الثقب في القاع الذي يتسرب منه الماء بحماس مريب، والذي فشل عشرة منهم في نزحه.. يبدو أن عليهم الرسو عند أقرب جزيرة لإصلاح السفينة ما لم يريدوا أن ينتهوا في قاع البحر المتوسط فريسة للأسماك السعيدة..
- وما هي أقرب أرض إلى هنا؟
قال لها (هوميروس) وهو يبتعد:
- يا له من سؤال.. (كوما) طبعا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الشاطئ نام الجميع حتى الصباح التالي وقد هدهم التعب، وقدروا أن عليهم البدء في الإصلاحات مع أول ضوء من النهار.. الحقيقة أنهم دنوا كثيرا جدا من (طروادة) وعند أسوارها تنتهي رحلتهم..
عندما كشفت الشمس عن وجهها الصبوح، مضي الرجال يرتادون الجزيرة، وكان (هوميروس)

الآن قد كف عن الكلام نهائيا وراح يصلي بصوت مسموع.. لكنه لم يعط أية تفسيرات..
كانت هناك قطعان كبيرة من الماعز، ففرح الرجال وراحوا يركضون وراءها ويصطادون ما استطاعوا صيده.. لكنهم لم يتساءلوا قط عن صاحب هذه القطعان ولا من يفيد منها هنا..
وعند الطرف الآخر من الجزيرة، وجدوا كهفا منحوتا في الصخر.. تبادلوا النظرات ثم نظروا إلى (عبير) (بنيلوب) التي لم يكن لها رأي مخالف هذه المرة، فهي تريد أن تعرف..
دخلوا من مدخل الكهف، فوجدوا أنه يقود إلى ساحة واسعة أقرب إلى حظيرة في الجبل، امتلأت بالخراف والماعز وقد أحيطت بسور من الأشجار، والأوتاد المغروسة كما يغرس المزارع الحدود حول مزرعته..
كانت عبير تعرف هذا الموقف جيدا. وتتوقع ما سيحدث.. هذا هو بيت الغول لا شك في هذا..
إن الأدب العالمي يزخر بأمثال هذا الموقف.. بيت الكعك الذي بنته الساحرة.. أطباق حلوى الدببة الثلاثة.. عشاء الذئب.. وفي اللحظة المناسبة يعود الوحش إلى الكوخ، ويجد المتسلل الشره نفسه في أسوأ موقف ممكن..
كانت هناك تجهيزات توحي بأن المكان يستخدم كمصنع صغير لمنتجات الألبان.. هنا يخض صاحب الكوخ اللبن ويصنع الزبد والجبن.. هذا كوخ مزارع مسالم إذن.. مزارع يصنع الخير بيديه ولا ينزع الأرواح بهما..
قال البحارة الشرهون كالعادة:
- لماذا لا نسرق بعض منتجات الألبان هذه؟ نحن لم نذق الجبن منذ بدأت الرحلة..
قالت (عبير) في نفاد صبر:
- لا هم لكم إلا حديث البطون.. إنني أشعر بالخطر ولا بد أن..
وهنا دوى الرعد، وارتجف الجميع، لأن شيئا مهولا دخل من فتحة الكوخ.. شيئا له حجم الجبل ورهبته وصوت انهياره.. ولم يدرك الرجال متى تواروا مذعورين في كل فجوة من الكهف تسمح بمداراتهم.. لقد عاد الغول كما توقعت (عبير) تماما، وكان له خوار كخوار ثور هائج..
وكان يحمل من الحطب ما يكفي لملء غابة بالأشجار..
ومالت (عبير) على (هوميروس) الذي دسته كالشيء دسا في فتحة بالحائط، وهمست:
- هل لديك فكرة عن هذا؟
قال همسا وهو يرتجف كالعادة:
- هذه أرض المردة السيكلوب.. وكل منهم يملك عينا واحدة في رأسه.. إنهم طغاة عتاة لا يأتمرون بشريعة ولا قانون.. يعيشون فوضى ولا تربطهم رابطة، ولا يقوم بينهم نظام. يأوون إلى كهوف موحشة وغيران سحيقة في قلل الجبال وأحيادها. يعنى كل منهم بنفسه وزوجه وقطعانه ولا يأبه للباقين.. ([4])
لم تكن قد سمعت عن السيكلوب من قبل، وإن كان كل من درس علم الأحياء يعرف هذا المصطلح للدلالة على أي كائن ذي عين واحدة.. وبدا لها الوضع مثيرا للقلق إن لم يكن يائسا..
كان السيكلوب الآن يسد مدخل الكهف بجلمود عملاق يصلح جبلا صغيرا.. ولا أفهم حقا لماذا يصبو هذا الوحش إلى الإحساس بالأمان.. ربما يخشى أقرانه ممن يماثلونه حجما.. لقد جلس يحلب أغنامه في دن كبير ثقيل، فلما امتلأ إلى المنتصف كرع منه كمية لا بأس بها وتجشأ.. ثم أشعل النار وجلس أمامها يصطلي
كانت هذه هي اللحظة المناسبة كي يعطس (هوميروس).. هؤلاء الشعراء اللاتينيون يعطسون دائما في أوقات غريبة.. لكن الرجل كان مصابا بحساسية صدر مزمنة ولم يكن يتحمل الدخان..

نهض السيكلوب وأجال البصر حوله بعين الواحدة التي تتوسط جبهته، وراحت أنيابه الحادة تضرب بعضها في غضب.. وسرعان ما تبين الفئران الآدمية المتوارية في الشقوق، فمد يده يخرجها حتى صار عنده عدد لا بأس به من القوم الراجفين الخائفين..
كان (يوريكلاوس) أول من تكلم، فقال في تهذيب وكياسة برغم اصطكاك أسنانه:
- نحن بحارة إغريق يا سيد سيكلوب.. نحن رجال (أوديسيوس) العظيم الذي هزم (طروادة).. (أوديسيوس) بن (ليرتس) ملك (إيتاكا).. المعروف في السماوات بالدهاء والمكر، وملك (نريوس) ذي الشعاب السب..
ويبدو أن الوحش كان يعرف (أوديسيوس) لأنه لم يقل شيئا.. فقط تناول رجلين من الرجال بيد واحدة وممسكا بقدميهما ضرب رأسيهما في جدار الكهف فتناثر المخ في كل صوب.. ثم حمل الجثتين فوضعهما على الجمر، وراح يتسلى باللعب في أصابع قدميه إلى أن نضجا وفاحت رائحة الشواء.. أخرجهما وراح يتلمظ وهو ينتظر حتى تبردا، ثم أنشب أنيابه في اللحم وابتلعهما في استمتاع.. ولم ينس أن يشرب اللبن من حين لآخر على سبيل (التبليع)..
كان وقع هذا على الرجال و (عبير) لا يصدق لقد ظلوا يرمقون ما حدث في بلاهة، وكأنهم لم يدركوا بعد أنه حدث.. وحين نام الوحش على ظهره، وتعالى صوت شخيره الرهيب في الكهف.. فقط عندها فطنوا إلى المأزق المخيف الذي وقعوا فيه..
إن باب الكهف مغلق بالحجر فلا أمل في انتهاز الفرصة.. لا مفر سوى قضاء أسود ليلة في التاريخ..
والمؤلم هنا أنهم يعرفون أن الوحش سيصحو جائعا يحتاج إلى الإفطار..
وسأل (هوميروس) (عبير) همسا:
- ماذا حدث؟ هل نجونا؟
قالت في سخرية وهي تحيط عنق الشيخ بذراعها كي ينام:
- نعم.. نعم.. لقد نجح الرجال في قتل السيكلوب وهم الآن يشوونه لعشائنا!
- هذا مريع! لابد أن طعمه مثير للاشمئزاز!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح الباكر نهض السيكلوب نشيطا وهو يدندن بلحن ما.. فحلب الماعز كعادته، ثم اتجه في ملل إلى البحارة، كما يتجه المرء منا إلى الثلاجة ليأخذ بيضتين للإفطار.. فالتقط اثنين منهما هشم رأسيهما على الصخر وقام بشيهما، ثم التهمهما وجرع اللبن، وزحزح الصخرة التي على باب الكهف.. ثم استاق بعض الماشية إلى المرعى ولم ينس أن يعيد غلق الكهف وراءه ليسود الظلام من جديد.
كانت (عبير) الآن تشعر بالغثيان من رائحة الشواء الآدمي، وقال لها (هوميروس) الذي صحا من النوم:
- ألم ينضج بعد؟ إنني أموت جوعا!!
ابتسمت في شفقة ثم استدارت إلى رجالها وصاحت بصوتها المبحوح:
- إنه يأكل اثنين في الوجبة! بهذا المعدل لن نلبث هنا أسبوعين.. وإنني لأرى أن نحاول عمل شيء..
قال أحد البحارة في سخط:
- جميل.. لكن ما هو ذلك الشيء؟

كان هناك جذع شجرة في أحد أركان الكهف وكانت (عبير) تذكر شيئا كهذا.. بل إنها تذكر صورة مرسومة في إحدى المجلات، تمثل خمسة رجال يحملون وتدا مدببا ويثقبون به عينا وحيدة لوحش قائم.. أمرت القوم أن يتعاونوا معها، وبدءوا بمديهم ينحتون الجذع على شكل وتد مدبب كان مجهودا شاقا احتاج إلى النهار كله، وحين فرغوا أخيرا وتواروا في شقوق الكهف كان السيكلوب قد عاد.. وها هو ذا يزحزح الحجر، ثم يدخل مع قطعانه.. لكن (عبير) كانت الآن قد تذكرت القصة كاملة وتذكرت ما فعله (أوليس) العظيم..
كان أول ما قام به السيكلوب طبعا هو أن وضع العشاء على النار.. هذان إذن بحاران لن يشاركا في العملية القادمة، وخطر ل. (عبير) أن هذا الوحش منظم جدا وميال للاعتدال، فلو كان من الوحوش إياها لالتهم أكثر من رجلين في المرة.. لكنه يعرف بالضبط مقدار ما يحتاج إليه ليشبع.. وهذا جعلها قادرة على الدنو منه في كثير من وجل..
بعدما فرغ من وجبته، دنت منه حاملة دنا من الشراب.. دارت عينه الوحيدة في محجرها لتنظر إليها، فرفعت الدن وقالت بصوت جهير كله رهبة:
- هذا شيء يروي ظمأ بعد وجبة اللحم هذه.. ما اسمك أيها الوحش الجميل؟
كان أحمق ككل الوحوش فتناول الدن منها وجرع منه في نهم.. ثم قال وهو يطوح به بعدما فرغ:
- أنا السيكلوب (بوليفيمو).. وأنت ما اسمك أيتها الحسناء؟
كان صوته غليظا سميكا حلقيا رغويا ككل الوحوش ذوات العين الواحدة.. تجاهلت (عبير) خوفها وقالت - أنا.. أنا (لا أحد)..
- لا بأس يا (لا أحد).. سأمنحك مجاملة رقيقة هي أن أتركك حية للنهاية!! خخخخ!!
وسرعان ما كان يغط في نوم عميق.. نوم جدير بالوحوش ذوات العين الواحدة..
استدارت (عبير) إلى الرجال، وكانوا مازالوا يتوارون في الشقوق مقلدين الأرانب الصغيرة. فصاحت فيهم مغضبة:
- ليس هذا أوان التخاذل.. إما الآن أو فلا.. إلى الأبد.. ليذكر كل منكم أنه قد يكون في قائمة الإفطار صباح غد..
نهض خمسة رجال مترددين، وحملوا الجذع الثقيل وكما اتفقوا من قبل قربوا طرفه المدبب من النار
حتى أحمر.. صار كالجمرة.. وببطء وهدوء اتجهوا إلى عين السيكلوب النائم ينتظرون إشارة (عبير)..
رفعت ذراعها ثم خفضتها، وفي الحال غرس القوم طرف وتدهم في العين.. ودوي صوت الجذع المشتعل وهو يخترق سوائل العين.. طششششش!!
طبعا انفتحت أبواب الجحيم.. طبعا انفجر الدم في كل صوب.. طبعا نهض الوحش يعوى ويزأر حتى ليوشك الكهف على الانهيار.. طبعا راح يركل الأرض ويضرب الجدار، ولكنه لم يمس أحدا من الرجال الذين تواروا خائفين..



طبعا نهض الوحش يعوى ويزأر حتى ليوشك الكهف على الانهيار..

ومن خارج الكهف جاء صوت رفاقه من السيكلوب يسألون:

- ماذا دهاك يا أبله؟ لماذا تصرخ هذا الصراخ؟

صاح وهو يتلوى من الألم:
- (لا أحد) يقتلني! (لا أحد) فقأ عيني! (لا أحد) خدعني!
- يا لك من أحمق!!
وعادوا إلى كهوفهم على حين قضي هو الليل كله يزأر ويعوى ويتوعد ويتألم.. وبرغم أن التشفي واللذة السادية عبثت بعقول الجميع، إلا أنهم لم يجسروا على الدنو منه أو الكلام.. على كل حال يمكن القول إن السيكلوب الذي فقد عينا، في هذا المجتمع
غير المتماسك، هو سيكلوب مقضى عليه بالفناء..
وفي الصباح فتح (بوليفو) الكهف.. تحسس حتى وجد الحجر فأزاحه ثم جلس عليه، وراح يردد:
- إلى أيها الجبان (لا أحد).. تعال وحاول أن تمر من هنا لأذيقك الويل..
كان نور النهار أكثر إغراء من أن يقاوم، وقد نجح الرجال و (عبير) في التسلل من جوار الوحش الغبي الجالس وراحوا يركضون مذعورين نحو سفينتهم
لقد صار الانتظار حتى يصلحوها ترفا لا تحتمله الأحداث الجديدة.. ومن جديد كان هذا أسرع إقلاع عرفه تاريخ الملاحة الشراعية حتى هذا الحين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- البردى وما إلى ذلك..

استغرق إصلاح السفينة يومين في جزيرة صغيرة هادئة، خالية لحسن الحظ من كل سكان البحر المتوسط غريبي الأطوار إياهم..
ووقفت (عبير) جوار (هوميروس) على الشاطئ ترمق العمل يجري على قدم وساق في إصلاح السفينة.. السفينة التي صارت أقرب إلى حذاء (أبو القاسم الطنبوري) بكل ما فيها من ثقوب وعاهات..
قال لها وهو يضرب الأرض بعصاه:
- جميل.. جميل.. ما كنت لأتمنى ملحمة أفضل مع زوجك نفسه.. إن (البنيلوبية) تكتمل بالتدريج، ولسوف أضفي عليها طابعا شعريا نادرا.. فقط لو تمنحنا كل هذه الغيلان لحظة نلتقط فيها أنفاسنا..
ثم أردف بعد تردد:
- لكني لم أحب طريقتكم في القضاء على هذا المسخ.. إنني لا أحب أن أرى كائنا حيا يفقد عينيه.. أنا ولدت كفيفا لهذا لا أتصور كيف يبدو النور، وأعرف مدى قسوة الأمر بالنسبة لشخص عرف النور يوما..
قالت في نفاد صبر:
- لم يكن له من نقطة ضعف إلا عينه.. ولو لم نفعل لكنت أنت وجبة عشائه.. هل تذكر كعب (أخيل)، وكيف لم يجد (باريس) حلا إلا تصويب السهم إليه؟
- كيف لا أذكر؟ أنا كتبت عن ذلك قصيدة من أجمل قصائدي..
وكان الرجال الآن على وشك الانتهاء من ترميم السفينة واستئناف رحلتهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(نبيتون) غاضب كالعادة.. ومنذ متى لم يكن (نبيتون) غاضبا؟
يبدو لمن يقرأ (الأوديسة) أن ثأرا دمويا كان ينغص حياة (نبيتون) ويجعله راغبا في تدمير (أوليس) تدميرا لا مناص منه، ويبدو كذلك أن (أوليس) كان قادرا على تحدى سيد المحيطات دائما لقد ثارت العواصف وهاجت الأمواج، ومن جديد راحت الجبال تعلو وتهبط، حتى إن (عبير) شعرت بأنها في الملاهي.. وراح (هوميروس) الذي سجنوه في قاع السفينة لحمايته، يطير من جدار خشبي لآخر خاصة مع وزنه الخفيف.. لكنه لم يكف عن إنشاد الشعر، ويبدو أن العاصفة كانت تلهمه بحق، أما على السطح فقد راحت (عبير) تصدر أوامرها في ثقة كذئاب البحر الشيوخ، وقد راق لها ما اكتسبه صوتها وما اتخذته أوامرها من قوة.. إن شخصيتها تنمو بسرعة وتتبلور وتتضخم، حتى إنها لم تعد تفهم لماذا كانت ترتجف هلعا من هؤلاء البحارة في بداية الرحلة.. يبدو أن الأهوال التي رأتها كانت كورق الصنفرة.. في كل مرة تجلو شخصيتها أكثر وتكسبها بريقا وأناقة.. والآن هي تشعر بأنها خلقت القيادة الرجال.. تشعر بأن هذه الأهوال مناسبة لها أكثر من كل ما كانت تغزله في قصر (أوليس) جوار المرضعة العجوز (يوريكليا)..
لم يدر أحد إن كان الليل قد جاء أم لا.. لأن الشمس توارت منذ بدأت العاصفة..
كان السواد هو لون الأفق، وكان البرق هو اسم اللعبة..
لكن حينما هدأ (نبيتون) وذهب لينام بعد ليلته المرهقة، كانت السفينة قد جنحت أمام

شواطئ لم يعرفوا ما هي..
وكان النهار يعلن عن نفسه مما أخبرهم أن ما مضى كان ليلا حقيقيا لا صناعيا.
من جديد نزلوا إلى القوارب قاصدين الشاطئ، وكانوا يعرفون أن كل مرسى هو الجحيم ذاته.. هكذا عودهم البحر المتوسط.. لكن ما من سبيل للإبحار ثانية بهذه السفينة.. إنها تحتاج الآن إلى ما هو أكثر من الترميم.. تحتاج إلى سفينة جديدة على أقل تقدير.
قال (هوميروس) لـ (عبير) وهو يضع يده المعروقة في الماء:
- هذه (لوتوفاجي).. ما ستطلقون عليه (ليبيا) يوما ما..
قالت وهي تجدف مع الرجال:
- ما شاء الله.. أنت ترى كل شيء بلا عينين..
- أنا شاعر.. والشاعر لا يحتاج إلى عينين كي يري..
وترجل الرجال ومشوا فوق الرمال متوغلين في هذه الأرض.. قالت لهم (عبير) بلهجتها الآمرة:
- لا تتفرقوا هذه المرة.. فنحن لا نعرف ما تداريه لنا هذه الأرض..
سمعت بعض الرجال يطلقون سبة.. وقال أحدهم شيئا ما عن (المرأة التي لا تجيد إلا إصدار الأوامر)، فتصاعد الدم إلى رأسها.. يمكنها التظاهر بأنها لم تسمع، لكنها غير راغبة اليوم في تحاشي القتال.. إن كل ذرة فيها متحفزة للمواجهة والعقاب.. ولو كان الأدرينالين يباع بالجرام فلابد أنها ستكون أغنى نساء الأرض..
قالت لهم ما معناه: لا أسمح بقلة الأدب والبرطمة.. من كان يريد قول شيء فليقله بصوت عال..
صاح أحد الرجال بلهجة من أوشك على الانفجار:
- لقد واجهنا الأخطار معك ومات منا الكثيرون لكننا لم نظفر بشيء، ولنعودن لوطننا - لو عدنا – أكثر فقرا مما غادرناه.. إننا لم نأت من أجل مجدك، بل لأجل ما يمكن أن تقدمية لنا من غزوات وغنائم..
فطنت للحقيقة للمرة الأولى.. حقا هي لم تفكر لحظة في أن هؤلاء الرجال يستحقون بعض الأجر عن كل ما رأوه.. لكن كيف؟ هي لا تنوي أن تغزو بلدا ما.. لا تريد دماء ولا صراخا ولا سبايا.. كل ما تريده هو أن تعرف..
قالوا عن (أوليس) إنه خاض مغامراته كي يعرف أكثر.. والحقيقة أن هذا غير صحيح.. (أوليس) كان مرغما على مواجهة ما واجه، وكان هدفه الوحيد هو العودة إلى أسرته الحبيبة.. وربما لهذا صدق الناس (الأوديسة) وأحبوها، وصدقه رجاله وأحبوه.. لأن (أوليس) كان بطلا برغم أنفه.. رجلا عاديا أرغمته الظروف على البطولة.. وبرغم هذا لم يترك فرصة للسلب والغنم إلا وانتهزها كي يضمن ولاء رجاله وحماسهم..
إن موقفها أعقد منه بكثير إذن لأنها تخوض المغامرة من أجل المغامرة.. كما يكتبون الأدب للأدب، ويعيشون الحياة للحياة.. كيف تقنع الرجال بهذا كله؟
في اللحظة التالية قطع أفكارها ظهور سكان البلاد..
كان (اللوتوفاجي) ودودين جدا يضحكون للقادمين، ويهشون لهم ويبشون.. وتوقعت أن يبدءوا في التهامهم عند أول بادرة، لكن لم يبد أن هؤلاء القوم يظهرون عكس ما يبطنون..
أخذوهم إلى قصر منيف خاص بالملك، وأجلسوهم إلى مائدة عامرة، وقدموا لهم الكثير من اللبن والعسل..
لاحظت (عبير) أن الطعام كله نباتي.. كله من الثمار دون أثر للبروتين الحيواني من أي نوع.. ثم

ظهرت زهور اللوتس.. عرفتها (عبير) على الفور لأنه ما من مصري لم يرها في نقوش الفراعنة، باعتبارها رمزا بصريا فرعونيا مهما كالكوبرا والصقر..
خطر لها أن هناك خطا ما لأن اللوتس - على قدر علمها - لا ينمو في ليبيا.. لكنها تناست الأمر وراحت تراقب المائدة وهي تزدحم بالزهور الجميلة..
هنا وجدت أن الأهالي يقدمون الزهور للضيوف ويطلبون منهم التهامها.. أبدى هؤلاء بعض الدهشة ثم جربوا تذوقها، وبدا أنها شهية بحق لأنهم راحوا يطلبون المزيد والمزيد..
كان (يوريكلاوس) بجوارها وقد حشا فمه بهذه الزهور وسال لعابه، فسألته:
- كم من الوقت تحتاج إليه حتى ترمموا السفينة؟
نظر لها في غباء، وغمغم بفم مليء:
- أية سفينة؟
- سفينتنا يا أحمق..
- سفينتنا؟ ومن نحن؟
لم تفهم.. فجأة صار غبيا كحمير الجر.. إنها لم تحب (يوريكلاوس) قط بغبائه وعينية الضيقتين، لذا مالت إلى الفتي عن يسارها وسألته:
- (باليودوس).. ماذا عن السفينة؟
نظر لها بغباء بدوره، وسألها وهو يلوك المزيد من زهور اللوتس:
. - (باليودوس)؟ من هو؟
- إنه أنت يا أبله.. ماذا دهاكم جميعا؟
هل وصل مرض (آلزايمر) إلى الأساطير اليونانية، أم ماذا حدث بالضبط؟ ثم فطنت إلى الحقيقة المريعة..
لقد فقدوا ذاكرتهم بالفعل، ولكن بسبب ما يأكلون زهور اللوتس هذه تمسح الذاكرة كما يمسح الضوء الصورة من الفيلم الذي لم يحمض بعد.. إنه نبات مخدر مثله مثل القنب والقات، لكن من الواضح أنه أعتي أثرا.. نظرت إلى الرجال حولها في ذعر وصاحت:
- من منكم لم يأكل اللوتس بعد؟
رفع أكثرهم يده.. لحسن الحظ لم يأكلوا جميعا وإلا لوجدت نفسها في مأزق.. صاحت وهي تنهض عن المائدة:
- إياكم أن تمسوه لا يجب أن نعيد هؤلاء التعساء إلى السفينة معنا..
لم يتدخل (اللوتوفاجي) لدهشتها وهم يرون الرجال ينهضون فيعينون من أكلوا اللوتس منهم على النهوض.. لكن الغريب أن الآكلين كانوا يقاومون بشراسة ويصرخون كأنما يذبحون:
- دعونا! نحن نريد البقاء هنا! من أنتم؟؟ هذا بلدنا.. من نحن؟
لكن الرجال تعاونوا على حمل الجميع إلى السفينة وللمرة الثانية تضطر السفينة إلى الرحيل بحالة لا تسمح به.. إنها لا تلوم هؤلاء الرجال كثيرا فقد أوصلهم النبات إلى حالة من السلام جعلهم يشعرون كأنما ولدوا من جديد.. والبلاد جميلة تصلح بداية ساحرة لإنسان بلا ماض..
- دعونا! من أنتم؟؟ نحن نريد البقاء هنا! هذا بلدنا!!
كان (هوميروس) يقف جوارها على حاجز السفينة بينما سواحل (اللوتوفاجي) تبتعد عنهم..
فصارحته بأفكارها، وقالت متأملة
- قد يكون نسيان بعض الأمور نعمة.. لكن النسيان التام نقمة لا شك فيها.. حين تفقد ذكرياتك وكل ما يجعلك أنت.. تنسي اسمك وعمرك وأباك وأمك ووطنك وتبدأ من جديد.. ليس هذا

عادلا.. ربما اختار الرجال هذه النهاية لأنفسهم لو أعطيتهم حرية الاختيار ولربما لاموني فيما بعد على إنقاذهم.. لكني مسئولة عنهم الآن مسئولية كاملة، وما زلت أرى أن النسيان التام أمر شبيه بالقتل.. وما القتل إلا أن تختفي ذاتك التي تعرفها برغم إرادتك..
ثم سألته وهي تقذف إلى البحر بزهرة لوتس كانت تحملها:
- هل لك رأي مخالف؟
قال في غباء وهو يحرك رأسه يمينا وشمالا:
- رأي؟ ما معنى رأي؟
نظرت له في دهشة، وفهمت على الفور.. لقد أكل الأحمق من زهور اللوتس.. بل وأكل الكثير.. هذه هي مشكلة الشعراء اللاتينيين.. إنهم يأكلون الكثير من اللوتس متى أتيحت لهم الفرصة.. منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعاد أكثر الرجال وعيهم في اليومين التاليين إلا (هوميروس) الذي ظل لا يعرف من هو ولا من هي ولا سر سفره في البحر.. ويبدو أن عقل الشيوخ أكثر هشاشة وضعفا من عقل الشباب
حقا هي مصيبة.. والكارثة أنه نسي الآن كل الأشعار التي كتبها في حياته، ومن الواضح أنه نسي معني كلمة (ملحمة).. هل انتهت الرحلة؟؟ أين المفترض أن يكونوا الآن؟ أين هم في البحر؟
كانت هناك ميزة واحدة لكل هذا هي أن الرجال نسوا تماما حديثهم السابق عن الغنائم، وقد قدرت أن لنبات اللوتس بعض الفوائد أحيانا..
وبعد أيام سمعت من يصيح من على الصاري أنه يرى أرضا من بعيد، وتصايح الرجال فرحا وهم يتراصون على ظهر المركب يرمقون الأفق.. وخطر لها أنهم بلهاء كالعادة.. لم تعد الأرض تعد إلا بالمصائب، بينما البحر لا يحوي إلا خطرا واحدا رتيبا هو غضبة (نبيتون).. فلماذا يتوقعون الخير من هذه الأرض بالذات؟
لكنها عرفت أنهم يتذكرون هذه الأسوار..
عرفت أنهم عرفوا لون التراب وشكل السماء وتضاريس الجبال..
عرفت أنهم عرفوا ما غاب عنها..
هذه هي (طروادة).. (إليوم) الجميلة..
نهاية ملحمتها الخاصة، والنقطة التي بدأ منها (أوليس) ملحمته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وماذا بعد هذا؟
لو كان (هوميروس) بكامل قواه العقلية لساعدها وأخبرها بما ينبغي عمله، لكنه غائب ذاهل لا يعي ما يقول، ويتذكر أنه هو بصعوبة بالغة.. وقد وقفت على ظهر السفينة وصاحت في رجالها:
- الآن يا رجال.. يمكننا أن
صاح (يوريكلاوس) في مرح:
- نعم.. نعم.. يمكننا أن نمارس السلب والنهب كما نريد! هذه هي (طروادة) العزيزة التي تركناها منذ ثلاثة أعوام.. لقد اعتدناها كدارنا ونعرف موضع كل حجر فيها..
وصاح رجل آخر:
- إن نهب (طروادة) يشعرنا بالشباب وبأن الأيام الحلوة قد عادت!

صاحت في عدم فهم:
- لكن الحرب قد انتهت وأنتم...
هنا سمعت الصوت الرتيب من خلفها يقول وهو يضغط زنبرك القلم:
- كفي يا (بنيلوب).. دورك ينتهي هنا ويبدأ دور الرجال.. إنهم في حاجة إلى بعض المرح.. لقد حان وقت انصرافنا ما دمت قد انتهيت من ملحمتك الخاصة..
نظرت إلى المرشد الذي جاءها يمشي الهوينى فوق سطح السفينة المتآكل، وسألته:
- (البنيلوبية)؟ هل سيذكر (هوميروس) حرفا واحدا منها؟
قال وهو يربت على كتف الشاعر الكفيف الذي يضرب الأرض بعصاه في توتر:
- سيستعيد الذاكرة لكن بطريقته الخاصة.. قل لي يا أخ (هوميروس).. من الذي قتل السيكلوب؟
في حماس كالمجاذيب رفع (هوميروس) عقيرته وصاح:
- من؟ طبعا (أوديسيوس).. (أوديسيوس) ابن (ليرتيس) ملك (إيتاكا).. المعروف في السماوات بالدهاء والمكر، وملك (نريوس) ذي الشعاف السامقة..
. - هل ترين؟
صاحت في غيظ:
- الوغد: بعد كل ما رأيته من عذاب!!
- هذه هي ذاكرة الشعراء، وأنت تعيشين في عالم صنعه الرجال، لهذا لن يذكر (هوميروس) شيئا عن بطولات (بنيلوب).. ستظل هي الزوجة المخلصة التي تغزل بانتظار زوجها البطل العائد.. ولكن دعك من هذا.. لقد خضت مغامرة لا بأس بها.. قليلات من النساء من عشن الإلياذة والأوديسة مثلك.. بل إن نساء كثيرات ما زلن يحلمن بمجرد قراءة هاتين الملحمتين..
- وماذا عن (أوليس)؟
- لن يتركه (فرجيل) و (دانتي) في حاله..
ولسوف يضعه الأخير في ملحمة أخيرة يحاول فيها استكشاف مضيق جبل طارق.. لكنه سيموت في هذه المرة.. وستكون آخر كلماته هي...
قالت وهي تنظر إلى أسوار (طروادة):
- اعملوا ألا تعيشوا كالدواب.. ولكن لكي تكتسبوا كل يوم معرفة جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تعيش (عبير) مع (هتلر) الأيام الأخيرة لانهيار الإمبراطورية النازية.. الحلفاء يدخلون (برلين) والحرائق في كل مكان، لكنها تعيش التجربة بمنطق (فانتازيا) الذي يسمح بحدوث أي شيء بأية طريقة في أية لحظة..
إنها قصة مخيفة كئيبة.. لكنها شائقة ممتعة..

(تمت بحمد الله)

عودة المحارب

هنا كان صوت العواء يتعالى كئيبا مخيفا ينذر بالشؤم، وكأنه شيطان يذبح في سقر.. حتى لتتمني الموت كي لا تسمع هذا الصوت ثانية.. إلا لو كان هذا هو صوت الموت نفسه..

ودنا الهول القادم، ورأى الرجال المشهد المهيب الرهيب فتصايحوا.. وتدافعوا.. ولم يصدقوا ما رأوه كان الكابوس يتكون من شطرين.. على اليمن ترى الأخت (شيللا) بارزة من كهفها وأعناقها الستة تتلوى في تلمظ، بينما على اليسار ترى العين التي لا تنى يفور ماؤها، ثم يغور..

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) تحدثنا عن هذه الملاحم بالتفصيل في الكتيب السابق (من أجل طروادة) صفحات 15 و137، ولا داعي لإعادة ذكرها حتى لا تثير ملل من يعرفونها..

[←2]

(*) الأبيات - طبعا - من مقدمة ترجمة الأستاذ (دريني خشبة) للأوديسة!

[←3]

(*) ترجمة الأستاذ (دريني خشبة (

[←4]

(*) طبعا هذا هو الأسلوب الجزل المميز لترجمة (دريني خشبة) للملحمة الأصلية.



روايات مصرية للجيب

27

فانتازيا

آخر أيام الرايخ

فريق متميزون



E-BOOK

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٦٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٦٨٢٧١٠٢

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة



سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (27)

آخر أيام الرايخ

تأليف: د. أحمد خالد توفيق



مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأيّ مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيًّا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أيِّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءًا متفاعلًا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقًّا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا).. ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغيّر..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا).. نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أعرف أنكِ تعرفين..

حين عادت من مغامرتها، وودعت (هوميروس) وكل عالم (الأوديسة) الساحر المخيف، فتحت عينيها لتجد أنها جالسة أمام الحاسب الآلي، في بيئةDOS الكئيبة الخالية من الألوان والأصوات، ولا شيء سوى علامة المحث: C:\> تطالبها بالأمر التالي..
فكرت في أن تجرب جولة أخرى، لكنها عدلت عن ذلك لأن البيت يحتاج إليها الآن..
نهضت من المقعد وعظامها تؤلمها كأنها كانت بالفعل بين أنياب (شيللا) أو تصارع السيكلوب..
نظرت للساعة فوجدت أن الحلم السابق استغرق ساعة إلا عشر دقائق، وهذا معتاد في فانتازيا.. القصة التي تطالعها أنت في مائة وخمسين صفحة تقريبًا، تعيشها (عبير) في ساعة.. ساعة قد تحوي قرونًا وأجيالًا وأبعادًا لا نهاية لها..
كان (شريف) واقفًا هناك في الصالة أمام جهاز التلفزيون الصغير، يداعب أزرار التحكم عن بعد باحثًا عن قناة مناسبة.. يبدو أنه قد عاد من العمل من فوره، ووجدها تخوض حلمها فآثر أن ينتظر حتى تفرغ..
سألها دون أن يلتفت للوراء، وقد سمع صوت خطاها:
- هل كان جيدًا؟
- الحلم؟ كان.. كان.. كان حلمًا!!
- هل له موضوع ما؟
جلست على الأريكة ومدت يدها لزجاجة الماء بجوارها، وجرعت جرعة سخية، ثم قالت:
- كنت ألعب دور (بنيلوب) في (الأوديسة)..
- لم أقرأها قط.. أعرف عمّ يدور الأمر كله، لكني لم أطق صبرًا لقراءة كل هذا الهراء عن صراعات آلهة الأوليمب..
قالت بلهجة ذات معنى:
- كنت (بنيلوب) المخلصة التي راحت تنتظر زوجها وتذود عن شرفها، بينما كان هو ينعم بوقته إلى جوار (كاليبسو) الحسناء.. ربما كان مسحورًا.. ربما كان مفتونًا.. لكن النتيجة واحدة..
لم يعلق وقد فطن بذكائه إلى أن كلامها يحمل ما هو أكثر من مجموع أجزائه.. ضغط مزيدًا من الأزرار في عصبية بحثًا عن قنوات لا وجود لها.. فقالت مرة واحدة:
- كنت في مقر عملك اليوم..
نظر لها بدهشة واتسعت عيناه، فأردفت:
- قابلت الآنسة (رانية راشد).. من قسم الصيانة.. فتاة لطيفة حقًّا..
قطب جبينه وغمغم:
- لا أعرفها.. هل تعرفين عدد المستخدمين في شركة بهذا الحجم؟ ولكن كيف ولماذا أقدمت على حماقة كهذه؟ أتراني نسيت أن آخذ شطائري أو كراس الرياضيات إلى المدرسة، وأنت أمي التي لحقت بي لتذكرني بها؟
ثم فكر قليلًا والتمعت عيناه في فهم وأردف:
- لحظة.. أم هو تفتيش؟ مرور مفاجئ كالذي يقوم به المديرون ووكلاء الوزارات؟
قالت في صبر وهي تطيل مقاطع كلماتها:
- أنت كذبت على.. كذبت على مرتين وربما أكثر.. بل إنك..

هنا كانت طاقتها على المواجهة قد تلاشت، ففرت فرارًا إلى الحمام وأغلقته على نفسها، وهناك راحت تمارس النشاط الروتينى الذي تمارسه كل أنثى في الحمام: راحت تبكي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (صفوت) كما عهدته بالضبط بدينًا متلاحق الأنفاس ودودًا متفهمًا..
كان جالسًا أمام جبل من المقرمشات في طبق صغير، وجواره زجاجة المياه الغازية إياها، وقد راح يصغي لها في صمت والعرق يتفصد من جبهته، حتى فرغت من قصتها الطويلة.. كان الحر يخنقه، ولم يكن راغبًا في سماع المزيد من مشاكل الآخرين لأن المشكلة الوحيدة في العالم الآن كانت ضغط بطنه العملاق على حجابه الحاجز..
في النهاية قال لها:
- كما أرى يا مدام (عبير).. ليس هذا هو (شريف) الذي أعرفه.. (شريف) لا يفهم معنى العواطف المبالغ فيها ولا التهور ولا النزق.. وحين كنا نحن شبابًا طائشين كنا نشعر بأنه شيخ في العشرين من عمره.. إن لديه في موضع القلب معالجًا مركزيًّا، وفي موضع المعدة وحدة تخزين..
- لكن هناك لحظة ما يفسد فيها الخبز الطازج، ويتعثر الجواد الأصيل.. لابد من لحظة ما..
- (شريف) ليس رغيف خبز وليس جوادًا.. إنه (شريف).. وهو لا يتغير..
- والأدلة التي قلتها لك؟
فك حزامه قليلًا ليكسب بعض الأنفاس التي تسمح له بأن يقول:
- ربما كان هناك نوع شاذ من الخلط.. أعتقد أنه لا سبيل للتأكد إلا من فمه هو.. وعندها سيكون عليكِ أن تعلني ما تريدين بوضوح وصراحة.. هل تعرفين ما تريدين؟
- الحقيقة.. فقط الحقيقة.. لن أظل مخدوعة للأبد..
قالتها في شمم وكبرياء، مما جعله يبتسم:
- دعك من هذه العبارة التي بهتت من فرط استعمالها.. الحقيقة ليست دائمًا جنة المعذبين.. ربما لأسباب كهذه يظل الناس يكذبون على مريض السرطان حتى اللحظة الأخيرة، زاعمين أنه يعانى بردًا بسيطًا.. هى أن (شريف) مر بمراهقة متأخرة، جعلته يشعر بحنين لأيام الشعر والخطابات المعطرة المدسوسة في الجيوب.. أليس من الحكمة ألا تواجهى هذه الحقيقة وتدعيها تفنى من تلقاء نفسها؟ الكلاب تطارد السيارات لكنها لا تفعل أي شيء لو تمكنت من اللحاق بها..
قالت في كبرياء من جديد:
- (شريف) ليس كلبًا للأسف..
- وهو ليس جوادًا ولا رغيفًا كذلك.. تذكري هذا.. الحقيقة - لو كانت هناك حقيقة - سترغمك على اتخاذ موقف عنيف.. وربما اتخذ هو موقفًا أعنف بفعل الكبرياء ربما أخذته العزة بالإثم.. في النهاية خراب (مالطة) ليس بالصعوبة التي تتصورينها..
فكرت في كلامه قليلًا.. لم يخل من شيء من المنطق.. إنها حقًّا تهاب المواجهة وتخشى اللحظة التي يعترف فيها (شريف) بكل شيء.. لكن الخديعة كذلك مهينة جدًّا..
قالت له وهي تنصرف:
- أعتقد أنه لا حاجة بى إلى أن أطلب منك إبقاء هذه المحادثة المقيتة سرًّا.. أنا لم أحزم أمرى بعد، وما زالت الخيارات أمامي متساوية..
- كل هذا صحى تمامًا.. - وراح يلوك المقرمشات والعرق يتساقط من حاجبيه - كرونش

كرونش! ما دمت لن تقتليه وتضعيه في أكياس بلاستيكية، فالأمر صحي تمامًا.. وأنا سأنسى كل شيء عن هذه المحادثة بمجرد مغادرتك الغرفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين جاء المساء جلست وحدها في الغرفة المظلمة التى لم يبق فيها إلا شعاع الشاشة، وعلامة المحث التي تنتظر في صبر: C:\>

خطر لها أنه من المهين أن تترك هذه المشكلة لتفر إلى عوالم خيالية.. ثم فطنت إلى أنها ستعود.. حتمًا ستعود لتواجه كل شيء.. إن (فانتازيا) هنا تلعب معها دور من يدخل لإزالة توتره فقط..

إنها بحاجة لساعة أخرى في (فانتازيا) ما دام (شريف) بالخارج، والطفلة نائمة، والعشاء على المائدة و(صفوت) لا يملك حلولًا سحرية، و(عبير) لا تجد خيارًا، والرجال كالماء في الغربال كما قالت أمها مرارًا..

وكتبت الحروف السحرية، ثم ضغطت زر الإدخال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 2حفظ الله الملكة..

المرشد ينتظرها جوار القطار ويتسلى بالكلام مع فتاة ترتدي ثيابًا من العصر الفكتوري، وترتجف في انفعال واضح.. فلما رأى (عبير) قادمة لوح بيده محييًا، ثم ساعدها على ركوب القطار.. وهزّ كتفه للفتاة..
دق سقف العربة فتحرك القطار ببطء، بينما الفتاة تقف خارج النافذة ترمقه بعينين يشع منهما رجاء صامت.. سألته (عبير):
- من؟ قريبتك؟
- لا.. هى (جين إير) الشابة.. تطالب بأن أتوسط لها عند الإدارة كى ترفع راتبها.. إن راتبها لم يزدد منذ العصر الفكتورى، لكني لا أستطيع أن أعدها بشيء.. إن قصص الأخوات (برونتى) لا تلقى رواجًا هنا في (فانتازيا) بسبب كآبتها العامة وإغراقها في الرومانسية، ومن حسن حظها أنها لم تطرد بعد..
- فهمت.. ربما أزور هذا العالم ذات مرة.. اعتدت أن أحب مرتفعات (وذرنج) برغم كل شيء..
- مسألة ذوق خاص.. والآن إلى أين؟ هل تزورين (سيف بن ذي يزن) أم ملحمة (جلجاميش)؟ أحسبك مللت الملاحم.. لا بأس من بعض تغيير
كانا الآن يمران في القطاع الذي يحمل اسم (ألعاب تاريخية)، وهو ذلك الجزء من (فانتازيا) الذى يعتمد على قصص تاريخية معروفة، لكن خيال (عبير) يتدخل فيها على طريقة (ماذا إذا؟) الشهيرة.. ماذا إذا وجدت نفسها وسط هذه الأحداث؟ وفي كل صوب ترى لافتات تشير إلى جزء من هذا المكان:
- نيرون وحريق روما
- حرب فيتنام
- نابليون في مصر
- حروب العرب والفرس
وفوق القطار حلقت الطائرات العمودية الأمريكية عابرة حقول الأرز، لتحرق المزيد من القرى الفيتنامية الآمنة.. ونظرت للسماء لترى احتراق منطاد (زيبلن).. بينما صرخ الجنود المسلمون شاهرين سيوفهم: الله أكبر، وانطلقوا ليجعلوا إيوان كسرى مسجدًا.. وأخيرًا ترى لافتة تقول: سقوط الرايخ..
نظرت إلى المرشد في غير فهم، وقالت:
- ما هو هذا الرايش؟
- لسنا في ورشة خراطة هنا.. الرايخ هو الإمبراطورية الألمانية التي أراد (أدولف هتلر) أن تحكم العالم.. لكنه فشل في هذا..
- هل يمكن أن أجد هنا بعض التسلية؟
- ومن الذي لا يجد التسلية في لحظات كهذه؟ سوفييت من الشرق وأمريكيون من الغرب، ووزراء ينتحرون، ومتاريس في الشوارع، وطائرات حلفاء، ومقر سرى لا يعرفه أحد.. باختصار: هذه أيام ممتعة لمن يقرأ عنها.. كابوس لمن عاشها، وأعتقد أنك ستكونين مشغولة أكثر من اللازم في الفترة القادمة..
فكرت قليلًا، ثم قالت:

- ليكن.. دعنى أجرب هذا العالم بعض الوقت..
وشدت الحبل بنفسها دون أن تنتظر رأيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضباب في كل مكان.. والشوارع مبللة من أثر أمطار قريبة.. والقوم في الشوارع يمشون مقطبى الوجوه مفعمين بالهموم.. والسيارات ذات المقود على اليمين تمشى على يسار الطريق.. هل هذه هى (برلين) إذن؟
كانت هناك واجهة زجاجية لمتجر، لكن ما بداخلها كان مظلمًا، وهكذا صارت مرآة مثالية تمامًا.. دنت منها ووقفت تتأمل وجهها وثيابها.. حسن.. هى حسناء شقراء كالعادة.. قليلة هي مغامرات (فانتازيا) التي خاضتها بشعر أسود، ويبدو أن أغنية (رود ستيوارت) القديمة التى تقول: الشقراوات يمرحن أكثر، هي على قدر من بعد النظر..
إنها ترتدى معطفًا خاكيًا، يذكرها طرازه بالصور التى تراها في الأفلام الوثائقية عن الحرب العالمية الثانية.. وشعرها ملفوف في إيشارب أنيق، ما عدا خصلات على الكتفين هي ما دلها على أنها شقراء..
من خلف ظهرها تسمع ضوضاء الشارع، وتسمع حديثًا بالإنجليزية بين اثنتين من ربات البيوت.. إنجليزية؟ حتى في (فانتازيا) لا يتكلم الألمان بالإنجليزية.. ثمة خطأ ما على الأرجح..
دخلت المتجر المظلم، ولا تدري لماذا ذلك لكن المهمة كانت مرسومة هنالك في مؤخرة رأسها.. اتجهت إلى الكاونتر وقرعت الجرس، فظهر من الظلام عجوز متراخ يبدو عليه الملل..
قالت له وهى تناوله ورقة صغيرة:
- أريد معطفي الرمادي..
ما هذا؟ إنها تتكلم الإنجليزية.. إنجليزية راقية جدًا، والموظف يرد عليها بالإنجليزية العامية التي تلتهم الحروف التهامًا:
- لحظة يا سيدتي.. أرجو أن تلحقى بى..
ثم سبقها ليتوارى في ظلام المتجر الداخلي.. شماعات هنا وهناك، وآلات غسيل عملاقة.. هذه مغسلة إذن أو مكان التنظيف الجاف، ولكن أين بالضبط؟ ضباب ولغة إنجليزية وسيارات عسراء.. هذه (لندن) دون شك، ولكن ما دورها في هذه القصة؟ ولماذا يبدأ كل شيء بها؟
الآن تقف في غرفة داخلية ضيقة مليئة بالمرايا، كغرف البروفة في متاجر الثياب.. صحيح أنها لا تعرف أن المغاسل تتيح تجربة الثياب للزبائن، لكن كل شيء ممكن هنا.. والعجوز يقف جوارها ويناولها معطفًا رماديًا على شماعة مغلفًا بالمشمع، ويقول لها وهو يخرج ويغلق الباب الجرار:
- خذي راحتك.. ناديني لو كانت ثمة مشكلة ما..
وقفت أمام المرايا عاجزة عن التفكير أو فهم المطلوب منها.. هذه هي البداية وهي بداية قوية من دون شك، لكن ما معناها؟ ما نوع المغامرات التي تبدأ في مغسلة؟
وكانت الإجابة سريعة لأن إحدى المرايا تحركت، دائرة حول محورها الرأسي، وظهر رجل.. رجل هنا بالذات! ياللمصيبة!! أوشكت على الصراخ، لكن نظرة واحدة إلى وجهه جعلتها تدرك أنه ليس من هذا الطراز.. إنه مهموم عملى جدًا أقرب إلى الانشغال، وبصعوبة ينظر إليها.. فقط أشار إلى الداخل - إلى حيث جاء - في حركة روتينية، وقال وهو يلوك لفافة تبغ:
- هلمى.. لكن بسرعة..
حائرة شاردة الذهن دخلت إلى حيث أشار، وكان عالم ما وراء المرآة رحبًا بحق.. كما هو في

القصص الخيالية المعتادة، لكنه هنا كان عبارة عن ردهة طويلة، بها مكتب يجلس إليه مجموعة من رجال الجيش البريطاني، وقد طلب منها أحدهم البطاقة بشكل روتيني، وكانت - طبعًا - تعرف مكان البطاقة، وهي شيء صغير الحجم كأنه ظفر يد، يتدلى من سلسلة على صدرها.. ناولته إياها ووقفت تنتظر حتى دقق فيها جيدًا ثم أشار إلى نهاية الردهة..
تبدأ من هذه اللحظة سلسلة مملة من الإجراءات المتشابهة.. تدقيق في البطاقة.. تدقيق في وجهها.. السماح لها بالمرور.. طبعًا في هذا العصر لم تكن هناك أجهزة للبحث عن السلاح، ولم تكن هناك طرق إلكترونية لفحص البطاقات..
لكن الإجراءات برغم هذا كانت معقدة بما يكفى..
لم تسأل عن سبب كل هذا فهي تعرف وهم يعرفون طبعًا.. ولكنها تساءلت عن الشخص الذي ينتظرها بعد هذا كله.. لن يكون (ونستون تشرشل) بالتأكيد.. فما معنى هذا كله وما أهميتها هى؟
في النهاية وجدت نفسها تقف في حجرة دافئة، بها مدفأة تؤدي عملها جيدًا، وأثاث مريح فاخر.. وكان هناك خمسة من هؤلاء السادة المهمين يجلسون على الأرائك يرمقونها بنظرات بوليسية رهيبة، أما الرجل البدين الواقف أمام المدفأة يدخن السيجار، والذى يوليها ظهره.. وإن كانت تتبين بوضوح أنه يرتدي بذلة سوداء أنيقة من الصوف الإنجليزي المعتبر.. هذا الرجل بدا لها مألوفًا بشكل ما..
وحين استدار نحوها أخيرًا وهو يمضغ السيجار، ندت صرخة عن شفتيها.. هذا هو ذا (ونستون تشرشل) شخصيًّا.. ولا أقل من هذا!!





وحين استدار نحوها أخيرًا وهو يمضغ السيجار، ندت صرخة عن شفتيها.. هذا هو ذا (ونستون تشرشل) شخصيًّا.. ولا أقل من هذا!!

رمقها بعينيه الزرقاوين الباردتين اللتين تعكسان كل ما تعنيه كلمة بريطانيا، وقال:

- اجلسى يا (لورالاى).. هلا قدمتم لها شرابًا؟

هزّت رأسها لأن صوتها كان مبحوحًا، ورفضت أن تتناول شيئًا.. فواصل الكلام بلغته الإنجليزية الراقية الرهيبة التي تمثل ينبوع الإنجليزية للعالم كله..
- إذن تفضلي بالجلوس.. أرجو أن تسمحي لى بمناداتك بالاسم الحركي (لورالاى) لأنه يناسبني أكثر.. وأرجو أن تغفري لي قلة تهذيبي هذا في لقائنا الأول، فلم أكن قط رجلًا يتجاوز حدوده..
هزت رأسها من جديد ألا مشكلة هنالك.. كانت تعرف ولع الإنجليز الجنوني بالألقاب وعدم رفع الكلفة، والرجل يؤثر الموت على أن يخاطبها من دون استعمال لفظة مس أو مسز..
أردف الرجل بطريقته المتمهلة في الكلام:
- (لورالاى) كما تعرفين هي عروس البحر الألمانية التى كانت تنسج شباك شعرها على البحر وتغنى، كى يأتي البحارة إلى مصدر الصوت، ويقعوا في الشرك.. أرى في هذا الاسم مزيجًا موفقًا من تلخيص مهمتك والفأل الحسن.. والآن أنت تعرفين مهمتك.. كل ما أضيفه هنا هو أن (بريطانيا) كلها - والعالم كذلك - ينتظر نجاحك.. سيقوم الميجور (لانسبيري) بإعطاء آخر لمسات لمهمتك.. وبعدها تنطلقين..
- لو خسرت المهمة فلن نخسر سوى حياتك.. أما لو نجحت فلسوف نكون حققنا أكبر ظفر في تاريخنا.. ولا أخالك تبالين بحياتك كثيرًا من أجل بريطانيا العظمى والتاج..
ضغطت على أسنانها وصمتت.. آخر شيء ترغب فيه أو تشتهيه طبعًا أن تفدي بريطانيّا بروحها.. ولو زالت بريطانيا من على الخارطة فهي لا تهتم كثيرًا، لكنها الآن في (فانتازيا) وعليها أن تلعب بقواعدها..
لهذا قالت في شمم وطني أصيل:
- أنا مستعدة للموت من أجل التاج..
من جديد استدار ليعطيها ظهره، وقال في رضا:
- جميل.. جميل.. والآن سيأخذك الميجور لمناقشة النقاط النهائية..
نهض رجل حاد النظرات له شارب إنجليزي عسكرى كث، وأشار لها كى تلحق به في غرفة جانبية..
نهضت وهزت رأسها محيية كل هؤلاء السادة المرتابين.. كيف لو عرفوا أنها ليست (لورالاى) وليست إنجليزية!! كيف لو عرفوا أنها (عبير عبد الرحمن) وأنها مصرية، وأنها جاءت هنا كى تسلى لا أكثر!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها الميجور وهو يقف أمام لوح كتابة كبير:
- لن تفشلي.. أنت تشبهينها وتتكلمين مثلها تمامًا وتعرفين عنها كل شيء.. لغتك الألمانية لا شك فيها، وأعصابك قوية كما أثبتت كل الاختبارات.. الواقع أننا محظوظون يا مس (جوديث) إذ وجدناك..
إذن اسمها الحقيقي (جوديث).. وهي تشبهها وتتكلم مثلها.. جميل هذا لكن تشبه من بالضبط ؟
ثم أضاف الميجور وهو يخط أشياء على لوح الكتابة بقطعة الطبشور:
- طبعًا أنت تعرفين أنه لن يسمح لك بأي اتصال.. أنت على مسئوليتك الخاصة من لحظة الوصول إلى (برلين).. سيتم الإنزال الليلة في الواحدة صباحًا.. هل من أسئلة؟!!
أسئلة؟ هذا الرجل يمزح.. إن كل ما في ذهنها أسئلة لكنها لا تجرؤ على الإفصاح عنها.. المفترض أنها تعرف كل شيء.. ناولها حقيبة سوداء صغيرة، وقال:

- كل شيء هنا.. لن تجدي أية مشاكل.. والآن يمكنك أن تستريحي في حجرة ملحقة حتى يحين الوقت..
وهزّ رأسه محييًا ثم غادر المكان.. ودلفت هي إلى الحجرة التي أشار إليها ونظرت إلى ساعتها.. هو قال الواحدة صباحًا.. إنها الثامنة مساء الآن.. نظرت إلى الحجرة البسيطة النظيفة فوجدت أثاثها لا يتجاوز فراشًا صغيرًا نظيفًا.. ثمة كومود جوار الفراش عليه جريدة.. جريدة (هيرالد تريبيون) تحمل تاريخ مارس 1945.. والعناوين الرئيسية تتحدث في حماسة عن انتصارات جيش الحلفاء المتواصلة، وتقدم الجيش الأحمر السوفييتي على الجبهة الشرقية..
ما المطلوب منها بالضبط؟ وكيف تظل لا تعرفه حتى اللحظة الأخيرة؟؟
يمكنها على كل حال أن تدرك أنها عملية سرية بريطانية تحمل الاسم (لورالاى)، ومهمتها حساسة جدًّا إلى درجة أن (تشرشل) ذاته قابلها.. ومن الجلى أنها تلقت تدريبًا رهيبًا قبل هذا اليوم..
تمددت في الفراش وراحت ترمق السقف..
ولا تدرى متى غلبها الدفء والإرهاق فأسلمت عينيها لنعاس طويل بلا أحلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- ألمانيا فوق الجميع..

تحلق الطائرة العملاقة من طراز (ب - 17) فوق مياه القنال الإنجليزي..
من بالداخل؟ أنتم تعرفون طبعًا.. هذه (عبير) ومعها بعض الجنود.. تجلس في ظلام الطائرة العملاقة على ما يشبه (الدكة)، وقد تشبثت بسير من الجلد، والإضاءة الزرقاء المخيفة تغلف كل
شيء حولها.. الآن قد عرفت مهمتها، وهي مهمة لا تصدق.. وبالتأكيد لم تقرأ عنها قط في تاريخ الحرب العالمية.. فإما أنها حدثت ولم تكتب، وإما أنها تهويمة إلكترونية من (دى جى - 3)..
طبعًا لم تكن تملك أدنى فكرة عن أساليب القفز بالمظلة، والمفترض أنها تلقت دروسًا مكثفة حول هذا الموضوع بالذات.. لكن الحلفاء ما كانوا ليتركوها تحطم رقبتها في أثناء القفز الأخرق، لذا كلفوا أحد الجنود المظليين أن يقفز بها.. أي أنها ستتعلق به كقرد صغير حتى تصل إلى الأرض..
الآن هم فوق ألمانيا.. قيود الإضاءة تجعل من ألمانيا كلها بساطًا أسود اللون لا يبدو فيه سوى..
بروووم! بروووم!
... طلقات المدفعية المضادة للطائرات!
نظرت للرجال فوجدتهم متوترين.. هذا مخيف طبعًا حين يتوتر محترفون كهؤلاء فالأمر خطير حقًّا.. والطائرة ترتج من حين لآخر كأنما القنابل تنفجر على بعد سنتيمترات منها..
قال أحد الجنود وهو يشعل لفافة تبغ:
- بحق السماء! إن (فريتز) ليس في أفضل مزاج له هذه الليلة لو كان لى أن أقول هذا!
كان أسلوب الكلام الإنجليزي يضايقها.. خاصة ما يسمونه (صيغة المخافضة)[1] .. ف. (فريتز) متعكر المزاج ولا داعى لقول إنه ليس في أفضل مزاج.. كما أن أمامها وقتًا طويلًا حتى تتذكر أن (فريتز) كناية عن أي جندى ألماني..
انفجار آخر.. لن يمر وقت طويل حتى تجد ظلامًا تامًّا.. ولن تعرف وقتها أن قنبلة أصابت الطائرة في الصميم.. هنا فقط أضاء النور الأحمر الذي يأمر المظليين بالوثب..
ابتلعت ريقها في رعب، بينما أشار لها الجندي الذى يحمل مظلة أمامية، كي تتمسك به، وما كان بحاجة إلى التوسل إليها كي تفعل على كل حال..
وهوب!! هى الآن في الهواء.. صحيح أن عينيها مغمضتان، لكنها تشعر بالهواء يلطم وجهها بعنف.. فتتمسك بعنق الجندي أكثر وتغمض عينيها أكثر.. فجأة تنجذب لأعلى ثم يغدو الهبوط بطيئًا..
مرت دقائق كالحلم، لم يقلل منها صفير الطلقات التى تمر جوار أذنها.. بدا لها أن الألمان حمقى بالتأكيد، لأنه ما من هدف يمكن تصوره أسهل من هذه المظاهرة السماوية الهابطة..
وفي النهاية شعرت بالصدمة وبالجندي يتهاوى من تحتها، فطارت في الهواء لتتكوم وسط العشب المبتل البارد..
ظلام.. ظلام.. ومن بعيد تومض الطلقات الموجهة للسماء، وترى الطائرة تبتعد أو تحاول ذاك..
هتف الجندي وهو يجمع مظلته:
- لا وقت نضيعه! إن سيارة الإسعاف خلف هذه الأشجار!!

حقًا! كادت تنسى هذا.. إنهما الآن في غابة ما.. غابة من النوع الذي تتعلق به المظلات عند سقوطها ومن حسن حظها أن هذا لم يحدث..
هرعا إلى خلف حزام الأشجار، وكانت العربة هناك مطفأة الأنوار، يقف جوارها سائق ألماني متوتر، ومعه مسعف ممتقع اللون كالليمون.. يوجد جسم على المحفة في مؤخرتها.. وبسرعة نزعت (عبير) معطفها، ليظهر الثوب الأزرق الذي ترتديه، بينما نقل الرجلان الجسد الراقد على المحفة بسرعة خارج العربة.. كانت هذه امرأة شقراء لم تتبين (عبير) ملامحها لكنها خمنتها..
وبسرعة رقدت (عبير) على المحفة وأدخلت إلى مؤخرة السيارة، وسرعان ما كانت العربة تطوى الأرض طيًّا في الظلام، لأن قيود الإضاءة لم تكن تسمح إلا بإضاءة شاحبة من كشافات العربة المطلية باللون الأزرق، وهو لون لم يجعل الموجودات أكثر وضوحًا كما ترى..
لا تدرى كم استغرقت الرحلة ولا المسافة التى قطعتها العربة..
فقط حين توقفت السيارة سمعت كلامًا بالألمانية (النازية).. كلامًا شبيهًا بطلقات الرصاص..
ثم انفتح باب السيارة الخلفي وظهر ضابطان من رجال العاصفة، ومن الذين يرسمون صاعقتين على ياقات بذلاتهم.. وقال أولهما في حماسة عسكرية معتادة، وهو يسلط كشافا قويًّا إلى عينيها:
- مرحبًا بك يا فرويلاين (بيرون)!! إن الفوهرر ينتظرك!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت جوار العربة تنتظر، على حين كان السائق يحكى لرجال العاصفة ما حدث:
- قنبلة سقطت فوق السيارة المرافقة التي كان (الجشتابو) يركبونها.. فانفجرت.. بصعوبة استطعت أن أنحرف قبل أن تبلغني الشظايا.. ورأيت راكبى الدراجات البخارية يطيران في الهواء.. اضطررت إلى دخول الغابة بالسيارة وسط الأشجار، وانتظرت طويلًا حتى انتهت الغارة.. لم أجد مناصًا من العودة
خاصة أن الآنسة كانت على ما يرام
ونظر أحد الضباط إلى (عبير) وسألها:
- هل انتهى الألم أم أنه علينا أن نعدم السائق؟
ابتسمت في امتنان، وهي توشك على الفرار رعبًا، لكنها تتماسك بصعوبة:
- أشعر بحالة ممتازة.. ما كان يجب أن آكل كل هذه البطارخ..
- إن طبيب الفوهرر لا يفقه شيئًا.. ولو كان الفوهرر في حالة أفضل لأمر بإعدامه..
كانت (عبير) تتكلم معه وذهنها شارد تمامًا في تفاصيل العملية التي دبرها البريطانيون، والتي عرفت تفاصيلها المخيفة منذ ساعات لا أكثر.. برغم أنها - المفترض - كانت تتدرب عليها منذ شهور..
- 1(إيفا براون) هي حبيبة (هتلر) المؤمنة به والمخلصة إلى الأبد..
2- الحلفاء الآن على وشك اقتحام (برلين)، والسوفييت أقرب إلى الوصول من الأمريكيين والإنجليز.. إنها الأيام الأخيرة لألمانيا، ومن الواضح أن نهاية (هتلر) دانية جدًّا..
3- من الوارد تمامًا أن (هتلر) سينتحر قبل أن يقع في أيدي السوفييت الذين سيحولونه إلى هامبرجر.. لا.. السوفييت لا يعرفون هذه الأكلة الرأسمالية طبعًا.. سيحولونه إلى عصيدة سمك الحفش..
-4 يجب منع هذا.. يجب منع (هتلر) من الانتحار، ومن السقوط في أيدي الروس.. والسبب؟

السبب يعرفه رجال المخابرات العسكرية البريطانية – 6MI طبعًا، ولا تعرفه (عبير)..
5- (جوديث بارتردج) سكرتيرة حسناء شقراء من أم ألمانية وأب إنجليزي.. قال كل من عرفها إنها تشبه (إيفا براون) بشكل مريب.. وهي تجيد الألمانية وأعصابها من حديد..
6 - بعد تدريب شاق عسير صار على (جوديث) - اسمها الحركي الآن (لورالاى) - أن تذهب سرًا إلى (برلين)، وتحل محل (إيفا براون) وتقنع (هتلر) بأنها كذلك.. ولكن كيف يتم الاستبدال؟
7 -يقوم عميل للمخابرات البريطانية بدس عقار في طعام (إيفا براون).. يصيبها مغص مروع في بطنها ويكون رأي الطبيب وجوب إجراء جراحة استكشافية، لا يمكن بالطبع أن تتم في مخبأ الفوهرر تحت الأرض، وهكذا تخرج سيارة إسعاف مع حراسة متجهة إلى أقرب مستشفى..
-8 هنا تتم عملية الاستبدال في أثناء غارة الحلفاء.. يأخذ العملاء البريطانيون (إيفا) إلى مكان مجهول، وتعود (جوديث) مع سائق الإسعاف إلى مقر القيادة، وقد تحسنت وزالت الآلام..
9 - الآن يمكنها البدء بلعبتها.. عليها أن تحرس (هتلر) جيدًا وتتأكد من أن السوفييت لن يظفروا به أولًا..
هذه خطة غريبة جريئة، ومن العسير أن تنجح.. لو نجحت في الواقع لقضى (هتلر) أعوامه الأخيرة موضوعًا في قفص حديقة حيوان (برلين) يزوره الناس بعد دفع تذكرة باهظة.. لكن لـ (فانتازيا) قواعد أخرى، ويمكن بسهولة استنتاج أن الخطة نجحت تمامًا حتى هذه اللحظة.. ليس لأن الألمان حمقى، أو أن الإنجليز شديدو البراعة..
لكن لأن (عبير) لا بد من أن تلقى الفوهرر وتخوض معه المغامرة الأخيرة..
لابد لها من أن تجرب المخاطرة إلى أقصى حدودها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - أنباء سيئة..

اقتادها الحراس عبر ممرات مظلمة مبطنة بالفولاذ في هذا العالم البارد الجليدي، الذي لا يختلف عن أجواء سفن الفضاء في أي فيلم خيال علمي رأته..
أخيرًا يدق أحدهم الباب الفولاذي العملاق، ويدخلها ثم يضرب الأرض بكعب حذائه ذي الرقبة ويهتف:
- هايل (هتلر)!
لم يكن (هتلر) في الغرفة.. كان هناك رجل نحيل القامة كئيب النظرات يجلس على أريكة، وأمامه رجل ضخم كالثور من الطراز الانبساطي الذي يوقظ صوته الموتى، وتفزع ضحكته المجلجلة ستائر الغرفة..
كلاهما كان يدخن في إفراط، وينظر لها في فضول بارد..
- اجلسى يا فرويلاين (بيرون).. لابد أنك مرهقة بعد كل هذا..
قالها البدين ثم أشار إلى الحارس الذى وقف كالتمثال، وقال باقتضاب:
- اعدموا سائق الإسعاف، فهو لا يستحق أن يكون مواطنًا ألمانيًّا..
صاحت (عبير) في جزع:
- لحظة.. لا ذنب له هنا.. لقد كانت الغارات من الكثافة إلى حد أنه..
- ما دام عاد حيًّا فالغارات لم تكن كثيفة إلى هذا الحد.. كان عليه إذن أن يوصلك إلى المستشفى.. ماذا تنتظر أيها الجندي؟
ضرب الحارس الأرض بقدميه وغادر الغرفة، فقالت (عبير) ملهوفة:
- حرام أن .....
راتاآآآه!! دوت طلقات الرشاش.. دفعة واحدة ثم صمتت.. وخطر لها أن هؤلاء القوم لا يضيعون وقتهم.. فأضافت في تخاذل:
- ... تعدمونه!
قال البدين وهو يشعل سيجارًا ويسترخي في مقعده أو بالأحرى يغطس فيه:
- هذه هى الروح الآرية التي طلبنا الفوهرر بالالتزام بها.. إن الرجل لواسع الثقافة يا هر (جوبلز)..
هنا وثب النحيل - الذي اسمه (جوبلز) – وتحسس المسدس المعلق على خصره وصاح:
- ماذا؟ تقول ثقافة؟ أنت تعرف أنني كلما سمعت كلمة (ثقافة) تحسست مسدسي!
سرت (عبير) لأنها جاءت في هذه اللحظة بالذات التى قال فيها (جوبلز) - وزير دعاية (هتلر) – أشهر كلمة قالها على الإطلاق، والتي اتخذها كل دكتاتور شمولى ميثاقًا من ساعتها.. إذن هذا هو (جوبلز) أشهر نصاب في التاريخ، والذي جعل الأمة الألمانية كلها تؤمن بأن (هتلر) هو المخلص المنتظر الذي سيعيد للجنس الآري أمجاده، فمن هو الآخر؟
كأنما قرر النحيل أن ينهى حيرتها وجه الكلام للبدين قائلًا:
- هر (جورنج)؟ لا أعرف لماذا نعطل الفرويلاين (بيرون) عن الفوهرر.. لابد أنه ينتظر..
هذا إذن هو (جورنج) وزير الطيران.. لا بأس.. ثمة أسماء تذكرها من قراءاتها لكنها لا تذكر ملامح أصحابها.. (شبير) وزير التعمير.. (هلمر) رئيس الجشتابو وأخطر رجل في ألمانيا.. (بوبر) سكرتير الفوهرر.. (هيس) ذو الحاجبين الكثين والعينين الصغيرتين.. لحسن الحظ أنه ليس هنا لأنه الآن أسير في إنجلترا، ولسوف يظل أسيرًا للأبد حتى يموت..

من دون مناسبة قال (جوبلز) وهو يدون شيئًا في مفكرته:
- لا بد أن تكون الكذبة كبيرة جدًّا، وأن تكون عسيرة على التصديق لأن هذا يجعل الجماهير تصدقها بشكل أسهل..
لم تفهم (عبير) مناسبة هذه الكلمة لكنها أدركت أنه يقول ثاني أشهر عبارة تنسب إليه في التاريخ.. هذا هو ما تعرفه عنه على كل حال.. ونهض الرجلان وفتح أولهما بابًا فولاذيًّا آخر يقود إلى ممر يقف عند نهايته اثنان من رجال الصاعقة.. ورآها أحد الجنديين، ففتح لها بابًا فولاذيًّا آخر..
وهذه المرة كان (ادولف هتلر) يقف في وسط الغرفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أصغر حجمًا وأكثر نحولًا مما اعتادت أن تراه في الصور، كما أنه كان شاحبًا تمامًا، ولا شيء فيه يوحي بالحياة ما عدا نظرته النارية المعتادة.. الحقيقة أنه الآن كان يعيش أقسى لحظات حياته، وكان العبء الملقى على كاهله مريعًا.. الإمبراطورية (الرايخ) تنهار كأنها كانت حلمًا جميلًا لم يعد له حظ من الحقيقة.. حلم بدأ من النصف الثاني من الثلاثينات، وهو الآن يوشك على أن يلفظ أنفاسه الأخيرة..
لقد كان مجدود الحظ إلى حد غير طبيعي، وحسب الألمان أنه حقًّا لا يقهر.. استطاع أن يغزو أكثر أوروبا، ويحتل فرنسا عدوة ألمانيا العقيدة، ويوشك على احتلال إنجلترا، واجتاح الاتحاد السوفييتي الرهيب..
فجأة تغير الحظ.. استعاد السوفييت قواهم برغم كل ما - ومن - فقدوه، وهم الآن يزحفون نحوه بجيش جرار لا عدد له.. ومن الغرب يأتي الأمريكان والبريطانيون مكشرين عن أنيابهم، و(موسوليني) - حليفه الإيطالي الأحمق - قد مات.. بعد سلسلة طويلة من الفشل والإخفاق..
لقد انهارت أعصاب (هتلر)، ولم يعد ينام إلا بحقنة منومة، ولم يعد يثق بأحد إلا حبيبته (إيفا) نموذج الجمال الألماني الآري كما حلم به دائمًا..
ما إن رآها حتى بدا شبح ابتسامة على وجهه وقال:
- لا بأس.. لا بأس.. كنت قلقًا عليك، لكنهم أخبروني أنك بخير..
وأطال النظر إليها.. أطال كثيرًا جدًّا.. طبعًا.. فهذا النوع من الخدع القائمة على استبدال شخص بشخص لا ينجح طويلًا.. ولا ينجح أبدًا. لابد من ثغرة ما.. في لحظة معينة سيكتشف عدم وجود الشامة.. أية شامة؟ لابد من شامة دائمًا كما تعلمون.. وحتى لو لم تكن هناك شامة فالأمر هين.. ثمة هالة إكتوبلازمية ما تشع من الأشخاص الذين نعرفهم.. هالة لا علاقة لها بالشكل ولا الصوت ولا الذكريات المشتركة.. هالة لا يمكن وصفها ولا يمكن اصطناعها.. هذه الهالة هى ما سيجلب نهايتها المريعة.. نهاية سترد في كتب الأساطير في الأجيال القادمة.. لكن هل بهذه السرعة؟؟
بعد صمت جعلها تشيب فعلًا قال:
- لم أر هذه الشعيرات الشائبة في رأسك من قبل..
حقًّا؟ لم تكن شعرة واحدة شائبة حين ركبت الطائرة.. لكن هذا - كما هو واضح - نتاج اللحظات الأخيرة من التوتر.. هذا شيء لم يعمل رجال MI-6 حسابه طبعًا..
فتحت فمها لتتكلم، لكنه لوح بيده ليسكتها وقال:
- على كل حال من منا يحتفظ برونقه ونضارته الأولين؟ إن الحلم الآري ينهار، ولم يكن هذا هو

الوقت المناسب لبدء الرايخ الثالث.. الشعب الألماني ليس جديرًا بي.. كما يحدث لكل الأنبياء الذين يأتون لقوم غير جديرين بهم.. لهذا تستحق ألمانيا أن تُباد، وتستحق (برلين) أن تُحرق!



كان يتكلم بتلك الطريقة التصاعدية التي يسميها الموسيقيون والمسرحيون (كريشندو).. صوته يزداد علوًّا ولهجته تزداد تلاحقًا.. وعيناه تزدادان التماعًا مجنونًا.. حتى إنه حين وصل إلى كلمة

(برلين) في عبارته السابقة كان يصرخ كالمجنون ويلوح بقبضته في الهواء، ثم - بسرعة البرق - عاد إلى أسلوب (دى كريشندو) الشهيرة.. همد وراح صدره يعلو ويهبط، وصار صوته هادئًا ناعمًا..
- الحقيقة أنني أسأت تقدير الأمور.. لقد كان الجنس الأنجلوساكسونى هو الأجدر والأصلح لحكم الأرض.. لقد خلقت إنجلترا لتبقى.. شعبها يتحمل الحرب والشقاء بإرادة من حديد..
دق أحدهم الباب فأمره (هتلر) بالدخول..
- هايل (هتلر)!!
قالها أحد الضباط المتحمسين وهو يشد ذراعه اليمنى في الهواء.. وضرب الأرض بقدمه.. وضرب الأقدام عند النازيين أسلوب معقد حقًّا له طقوسه وترتيباته..
- الجنرال (هاينز جورديان) يطلب مقابلة الفوهرر..
- دعه يدخل..
ثم راح يدور في الغرفة في توتر كأنه نمر حبيس.. ودخل الجنرال العجوز الغرفة مع خمسة من ضباطه.. الحق أنه بدا لـ (عبير) موحيًا بالثقة بشعره الأشيب وجسمه متين البنيان، وابتسامته المهنية المتحفظة.. كان يحمل خرائط وضعها على منضدة في منتصف الغرفة وقال في أدب:
- الوضع يسوء يا سيدى الفوهرر..
نافد الصبر صاح (هتلر):
- الوضع يسوء.. الوضع يسوء! هذا ما أسمعه من الصباح حتى منتصف الليل.. هلم! هات ما عندك!
لم يهتز الجنرال وبدأ يتكلم في برود، وأدركت (عبير) هنا أنها تعتبر جزءًا من القيادة أو من أثاث الحجرة.. يستطيع من يريد الكلام أن يتكلم أمامها:
- الجيوش الحادية والعشرون تحت قيادة (مونتجمرى) تقوم بالزحف الأساسى عبر نهر (الراين)، لكن الجنرال الأمريكي (باتون) قد تمكن مع الجيش الثالث من عبور (الراين) حوالي مليون رجل.. في الجنوب يتقدم الأمريكان نحو (فرانكفورت).. الجيش الثانى عشر بقيادة جنرال (عمر برادلى) يتقدم جنوب مجموعة (مونتجمرى).. بينما في أقصى الجنوب الجيش السادس تحت قيادة (جاكوب ديفيز).. هذه المجموعة تضم 7 جيوش و85 فرقة..
- أي ى ى !!
- لقد خسرنا في وادي الراين 20 فرقة كاملة، وأسر 300 ألف رجل، ومات 60 ألفًا.. بعدها اجتاح الحلفاء (الرور) وهي منطقة - كما تعلم - غنية بالفحم ومصانع الصلب والبترول..
- آخخخخخخخخخ!
- القوات الروسية - للمرة الأولى - بدأت بشن غاراتها على (برلين).. الجنرال السوفييتي (جوكوف) وصل إلى نهر (الأودر) بعد اجتياح (بولندا).. لكنه اضطر للتوقف بسبب الثلوج التى تغطى النهر، والتي تمنع عبور المدرعات.. لكنه سعيد بهذه الراحة الإجبارية حتى يقوم بصيانة الدبابات.. إنهم ينتظرون الأوامر من (ستالين)، بعدها يدخلون (برلين).. ولو كنا نأمل في حظ حسن فلندع الله أن يدخل الحلفاء أولًا، لأن الروس ينوون أن ينتقموا لكل ما فعلناه بهم!! ولن يكون انتقامهم تجربة جميلة!!
- أووووه!!
كان (هتلر) يتلوى يمينًا ويسارًا ويعتصر معدته وهو يسمع هذه الأخبار.. يبدو أنه على وشك الموت، لكن لا تقلقوا.. إنه يسمع أخبارًا مماثلة يوميًّا ومن شهور.. على حين يواصل الجنرال الكلام بلا رحمة:

- التحصينات في برلين ضعيفة جدًّا، والقائمون عليها صبية لا خبرة لهم في القتال.. إنهم سيبدعون الصراخ: ماما ماما.. ويبللون سراويلهم عند ظهور أول دبابة للعدو..
- أوووف ففففففف!
- يقول أهالي برلين إن الروس سيقتحمون برلين خلال ست ساعات.. خمس ساعات ونصف للضحك ثم نصف ساعة للاقتحام الفعلي!! [2]
- هاااااااه !!
- الهر (هملر) رئيس الجشتابو، وهو رجل مشهود له بالكفاءة في التعذيب وانتزاع المعلومات، وقد تحول التعذيب في عهده إلى فن رفيع شديد الرق يوشك على أن يأخذ مكانه جوار الموسيقا والشعر والغناء.. لكنه صار الآن مسئولًا عن جيوش (الفستولا).. وهو – مع احترامي له - ليس عسكريًّا، ولم يتلق ثقافة تسمح له بالقتال الميداني..
ابتلع الفوهرر بعض أقراص المهدئ، ثم اعتدل في وقفته وقال بلهجة أقوي:
- شكرًا على التقرير الدقيق يا جنرال (جورديان).. إن الأمور تتحسن وأشعر بأننا سننتصر بلا شك! والآن عد إلى (الأودر) وتول قيادة جيوش الفستولا.. سأصدر أمرى ل (هملر) بأن يمنحك مركزه، وعليك أن تعين الكولونيل جنرال (هاينريتشى) لقيادة هذه الجيوش على الجبهة الشرقية..
قال أحد الواقفين:
- لكن تقارير (هاينريتشى) السرية تقول إنه متدين، ويذهب للكنيسة كل أحد!!
- لو كان على أن أختار بين ثلاثة شرور هى المتدين والأحمق والخائن، لاخترت الشر الأول بلا تردد.. إن الرجل بارع ويملك عقلية تكتيكية تشبه الحاسة السادسة..
- هايل (هتلر)!!
قالها (جورديان) في حماسة، وضرب الأرض بكعبه، ثم جمع خرائطه واتجه ومعه الرجال إلى الخارج..
قالت (عبير) ل (هتلر) وهى تحاول استخدام أسلوب (إيفا) في الكلام:
- لماذا لا تسلم نفسك وينتهى الأمر؟
- هل تمزحين؟
ونظر لها بعينيه الناريتين ثم أردف في غضب:
- أتحمل هذا الكلام من أي شخص سواك، بل لا أتحمله من أي شخص سواك، ولولا هذا لأمرت برميك بالرصاص حالًا.. أنت تعرفين كيف قبضوا على (موسولينى) وعلقوه كالخراف في خطاف، وأخذ الناس يتسلون بمشاهدته.. إنهم يدبرون لى بالطبع مصيرًا أسوأ.. لن أكون وسيلة لتسلية هؤلاء القوم أبدًا..
ثم نفش صدره وهتف منشدًا:
- ألمانيا فوق الجميع..
وخفضت (عبير) عينيها.. إن كلامه منطقى طبعًا، لكن كيف لو عرف أنها مدسوسة عليه كي تتأكد من أن الحلفاء سيظفرون به حيًّا؟ كيف لو عرف أن نهايته هى بالضبط النهاية التي يخافها هو؟ والطعنة ستأتي من أقرب الناس له؟
لا تتضايق أيها الفوهرر.. ليست (إيفا) هى التى ستطعنك.. إن الطعنة ستجيئ من (لورالاى) عميلة الحلفاء.. لهذا ستكون أقل قسوة إلى حد ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- إنه مرتاب!

كانت حالة (هتلر) العصبية تزداد سوءًا.. فتارة هو متحمس متوقد العزيمة يؤمن بأن كل شيء يمكن إنقاذه، وتارة هو خائر متردد يرتجف بحركة عصبية، مؤكدًا أن الكل خانوه وتخلوا عنه..
والمشكلة العظمى بالنسبة له كانت أن أحدًا لم يعد يجرؤ أن يصارحه بشيء.. الكل لا ينقل له إلا أفضل الأخبار، فهو لم يعد يتحمل الأخبار السيئة بأية صورة، وكان ناقلو الأخبار الطيبة - الكاذبة دائمًا - هم (جوبلز) و(هملر) و(جورنج) البدين..
أما أغرب الأمور فهو أن (هتلر) لم يرتب في أمرها قط، وهذا غريب حقًّا.. لابد أنه جن بالفعل كي لا يعرف أن حبيبته قد تبدلت.. والحقيقة هنا أن (هتلر) لم يكن يمنحها إلا أقل القليل من وقته - وهو شيء لم يضايقها طبعًا - كان يقضى الوقت في مخبئه الخرساني، الذي يحرسه رجال العاصفة، ويجتمع بهذا وذاك، ويفتح الخرائط ويصدر الخطط، ويصرخ في عصبية، ويضرب المنضدة بقبضته مرارًا، ثم لا يلبث أن يفقد حماسته ويكتئب.. وتطوى الخرائط من جديد..
كان لا يزال يعتقد أن إنقاذ كل شئ ممكن.. لكنه كان يتخذ أكثر القرارات حمقًّا وتخبطًا، وكان رجاله يضطرون لتنفيذ هذه الأوامر على كل حال..
وفي يوم جاء إلى القيادة الكولونيل جنرال (هاينريتشى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جالسة من دون عمل كعادتها حين رأت رجال العاصفة يقتادون الجنرال (هاينريتشى) - القائد الجديد لجيوش الفستولا - إلى الداخل، وقد قاموا بتفتيشه لأنه لا أحد يقابل الفوهرر من دون تفتيش، بعد محاولة اغتياله التي جرت عام 1944..
من النظرة الأولى أدركت أن الجنرال يشبه (شريف) زوجها إلى حد لا يصدق.. يبدو أن هذا الرجل سيكون ذا شأن كبير اليوم.. ووجدت نفسها تمشى في إثره إلى قاعة الاجتماعات التى كان (هتلر) يقف فيها، ولا بأس من ذلك لأنه لا أحد يأمرها بالانصراف من هذه الأماكن..
الإضاءة خافتة كأنه كابوس، والواقع أنه من المستحيل معرفة الليل من النهار في هذا المخبأ..
كان (جورنج) هناك - ضخمًا كخزانة الثياب أو فرس النهر المصاب بالاستسقاء - وجواره رجل صغير الحجم.. أظهر حجمه الضئيل ما بينه وبين (جورنج) من تناقض.. إنه (هملر) قائد الجشتابو.. لم تستطع أن تحبه من النظرة الأولى لأن شيئًا فيه كان يوحى بالدناءة والخسة.. له أسنان بارزة كالأرنب، وعلى أنفه الأفطس منظار صغير يوحي بالتآمر.. باختصار كان نموذجًا للشخص الضعيف المعقد، الذي وجد سلطة هائلة تحت يديه، مما جعله يزداد توحشًا ودناءة..
أما الفوهرر فكان يقف هناك منحنى القامة، لا يكف عن الارتجاف، وعيناه كأسان من الدم.. هذه ملامح رجل لم يعد ينام إلا بحقن المورفين..
قال الفوهرر في هدوء مفتعل:
- تعال يا (هاينريتشى)، واشرح لنا الموقف.. لكن لا داعى للأخبار السيئة..
في أدب قال (هاينريتشى):
- كنت أتمنى هذا يا سيدى.. لكن الأخبار السيئة هى كل ما في جعبتي اليوم..

اتسعت عيون الرجال في ذعر، وهم لا يصدقون كل هذه الجرأة.. أخبار سيئة تقال للفوهرر؟ يا للهول ويا للشجاعة! إن القبور تعج بالشجعان ناقلي الأخبار السيئة على كل حال..
قال الجنرال في هدوء:
- سيدى.. أرى أن نتخلى عن الدفاع عن (فرانكفورت).. هؤلاء الرجال هناك لن يفعلوا سوى أن يموتوا..
انفجر (هتلر) كاللغم الأرضي وراح اللعاب يتطاير من فمه في كل صوب:
- أنتم **مجموعة من الخونة لا تصلحون لشيء!! يجب الدفاع عن (فرانكفورت) حتى آخر جندي!!**
- سيدى أنا لا أطلب إلا انسحابًا تكتيكيًا.. هؤلاء الرجال في كل مكان آخر سيؤدون عملًا أفضل غير الموت..
- ولا متر للوراء!!
هنا تدخّل (جورنج) بصوته الغليظ وطريقته الكاسحة:
- أنا مستعد لتقديم مائة الف جندي من سلاح الطيران للدفاع عن (الأودر)..
نظر له (هملر) في حقد وقال:
- قوات العاصفة يشرفها أن تقدم خمسة وعشرين ألفًا للدفاع عن (الأودر)!!
كان (هاينريتشى) يوشك على الإصابة بنزف مخى من الغيظ.. فهؤلاء القوم يتبرعون بما ليس لديهم.. إنهم يحسبون الأمر مزادًا علنيًا؛ بينما القوات التى يقدمونها ضعيفة مخلخلة واهية بلا تدريب، وهى لا تزيد على الشيوخ الذين سيأتون بهم من ملاجئ العجزة، أو الأطفال الذين أتوا بهم من المدارس..
قال ل (هتلر) محاولًا تمالك أعصابه:
- سيكون تحت يدى جنود لم يطلق أحدهم طلقة رصاص من قبل.. ما قيمة هؤلاء أمام الجيش السوفييتي المدرب عالي الكفاءة؟
هز الرجال رءوسهم في استياء، وطقطق بعضهم بلسانه غير مصدق لهذه الروح الانهزامية، وقال (هتلر):
- لو كنت تدخل الحرب لتكسبها فلسوف تكسبها! هذا ما يجب أن تعرفه وتعلمه لجنودك!
وأضاف (جورنج) ليزيد النار اشتعالًا:
- لقد رأيت قواتك أمس، ووجدتهم مدللين غير صالحين للقتال.. لا يفعلون شيئًا سوى لعب الورق والجلوس في الشمس.. لو أنك كنت قائدًا حازمًا لأمرت بإعدام ألف جندي، وعندها سيتبعك الآخرون في حماسة!!
نظر (هاينريتشى) للجميع عاجزًا عن الكلام، ثم جمع خرائطه وقفازيه ووضع الكاسكيت فوق رأسه، ثم ضرب الأرض محييًا وغادر المكان..
كان لدي (هتلر) رجال عسكريون ممتازون حقًا.. بل ربما هم أبرع من عرف التاريخ من عسكريين، لكنه لم يعطهم الفرصة بدكتاتورية المعهودة.. وجعل بعضهم ينتحر فعليًا مثل ثعلب الصحراء (روميل) - الذى أرغم على الانتحار - وجعل بعضهم ينتحر معنويًا، مثل (هاينريتشى) وسواه، الذين لم يعودوا يفهمون كيف تدار هذه الحرب..
ظل الجميع صامتين، على حين غادر (هتلر) الغرفة بلا كلام..
كان المشهد مؤسفًا.. وكانت (عبير) لا تفهم كل هذه التفاصيل العسكرية، لكنها طيبة القلب لا تملك إلا أن تشعر بالأسى من أجل الدكتاتور الذي يعيش آخر أيامه.. والمصريون على كل حال

لا يشعرون بكراهية خاصة نحو (هتلر) فهو لم يؤذ العرب بشكل خاص.. وقد شعروا بأنه سيحررهم من الإنجليز الذين كانوا يحتلون بلادهم وقت الحرب.. بل حاول كثيرون للتفاوض مع قواته في (العلمين) للتنسيق ضد الإنجليز.. والحقيقة هى أن الاستعمار الألماني والاستعمار الإنجليزي لا يختلفان.. كلاهما استعمار على كل حال..

النقطة الثانية التي تحمس لها العرب فيما بعد هى أن (هتلر) جعل مهمته في الحياة إزالة اليهود من على وجه البسيطة.. وقد اكتشفوا أهمية هذه النقطة بعدما قرر اليهود أن يكونوا أكثر نازية من النازيين..

شعرت بوجود منفر يدنو منها، فالتفتت للوراء لتجد الهر (هملر) قائد الجشتابو وقوات العاصفة الشهير.. الجشتابو - لمن لا يعرفون - هي المخابرات النازية، والعاصفة هى قوات الشباب الموالي ل (هتلر) المتعصب للنازية بجنون، فلو أنصفوا لأطلقوا عليها اسم (قوات الكارثة).. وقد كان مجيء قوات العاصفة إلى مكان آمن يشبه العاصفة فعلًا.. وفي هذه الأيام بالذات كانوا يمرون على البيوت بحثًا عن أي شاب مختف في داره.. عندها كانوا يسحلونه في الشوارع، ويشنقونه بأسلاك البيانو عند أقرب عمود نور، ويعلقون على صدره لافتة تقول: خائن..

الخلاصة أن الهر (هملر) العزيز كان هو المسئول عن هذا كله، وهو الآن يرمقها في فضول!

هزت رأسها محيية في ارتباك، وتظاهرت بأنها ليست عميلة للحلفاء.. إن هذه العوينات الصغيرة ترى الأفكار بالتأكيد، وبالتأكيد يعرف كل ما تفكر فيه.. حاولت ألا تفكر إلا في شكل الأوردة على ظهر يديها..

قال لها وهو يشعل سيجارًا شيطانى الرائحة:

- لاحظت يا فرويلان (براون) أنك لم تغمرينا بسحرك هذه الأمسية..

سعلت قليلًا وقالت في اشمئزاز:

- لا مجال للنساء في حديث الاستراتيجية..

- هل تعتقدين أننا سنفوز بالحرب؟

- لا أعتقد إلا أن الفوهرر على حق دائمًا..

كانت تساءل نفسها عن مغزى هذا الحديث المسموم.. هل هو يشك فيها؟ ربما.. هذا وارد.. إن الرجل قادر على الشك في خالته ذاتها.. لكن هل يصل إلى يقين؟ وما الخطأ الذي ارتكبته هى؟

قال لها وهو يمسك بكأسين وزجاجة:

- سأقدم لك كأسًا.. إن الإنجليز يجيدون صنع بعض الأشياء..

- أنا لا أش... أعني لا أريد أن أشرب الآن..

كاد لسانها ينزلق.. ربما كانت (إيفا براون) تشرب الخمر.. من يدرى؟ ليست واثقة من هذه النقطة.. أخطاء صغيرة كهذه هي ما يؤدى إلى سقوط أعظم الخطط..

قال لها بطريقته الملساء:

- غريب هذا.. كنت أعرف أنك والفوهرر لا تذوقان الخمر أبدًا..

- وأنا رفضت أن أشربها..

- نعم.. لكنك ذكرت كلمة (الآن).. وهذا يعني أنك قد تشربين في حين آخر..

ثم ناولها الكأس برغم كل شيء، وتناول زجاجة ملأى بعصير البرتقال وصب لها بعضه في كأسها كى تشاركه نخب الرايخ على حد قوله.. رفعت الكأس إلى شفتيها وعقلها يموج بالأفكار السوداء.. فلما انتهت مد أصابعه كي يأخذ منها الكأس الفارغة.. لماذا أقول (أصابعه)؟ لأنه مد أصابعه

فعلًا ليمسك الكأس من القاع، وهي الطريقة المعهودة لدى رجال الشرطة كي لا تتلف البصمات..
بصمات؟ الأمر واضح إذن، وهي في مأزق..
وكان تصرفها سريعًا يتناسب مع تدريبها الشاق في المخابرات الحربية البريطانية.. سعلت وأسقطت الكأس على الأرض ليتهشم إلى ألف قطعة.. وصاحت في جزع:
- رباه! ما أغباني! أنا خرقاء اليوم!!



سعلت وأسقطت الكأس على الأرض ليتهشم إلى ألف قطعة..
وصاحت في جزع: - « رباه! ما أغباني »!..

قال في لهجة ذات معنى:

- بالعكس.. أنا لم أر حضور ذهن وسرعة بديهة كالتي لديك! لكن الفرص ما زالت متاحة كى

نتناول المزيد من الكئوس!
لكنها كانت قد قررت من هذه اللحظة أن (الإكزيما) ستصيب يديها.. ستجعلهما بشعتي المنظر ولسوف تحتاج إلى ارتداء قفاز طيلة الوقت..
هناك نقطة واحدة في صالحها هي أن الرجل يخاف (هتلر).. ولن يعنف بها بسبب (هتلر) الذي لن يصدق طبعًا أن حبيبة قلبه ليست هي حبيبة قلبه!! لن يتخذ (هملر) فعلًا عنيفًا ما لم يتأكد مائة بالمائة.. ثمة نقطة أخرى مهمة هي أنهم في زمن محدود التقدم العلمي.. لا سبيل لإثبات شخصية المرء إلا بصماته وخطه.. لو كانت هذه القصة عام 2001 للعبت البصمات الوراثية دورًا مخيفًا، وكان يكفيه أن يظفر بشعرة من رأسها أو منديل تمخطت فيه، وعندها كان سيجد بسهولة بعض الشعيرات في فرشاة شعر (إيفا براون) الأصلية.. ويثبت الكمبيوتر أن ترتيب القواعد في الحمض النووي مختلف بين العينتين.. وهكذا.. طاخ أو بوم أو بانج أو صوت الشنق لو كان له صوت!!
ولكن ما الذي يثير ريبته؟
ليتها تعلم ما الذي نسيه أولئك القوم في MI-6 وهم الفخورون بأنهم يستطيعون إقناع النملة أن ما تلتهمه عسل وليس ملحًا!
وما لم تعرفه (عبير) طبعًا هو أن الجاسوسية لعبة يلعبها اثنان.. وكما أن الحلفاء اخترقوا أكثر أجهزة (الجشتابو)، فإن (هملر) كان لديه عملاء في MI -6وهم من أخبره بأن الحلفاء يدبرون لعبة ما.. لعبة قائمة على استبدال إحدى الشخصيات اللصيقة بالفوهرر.. إحدى الشخصيات اللصيقة؟ هو لم يتبدل وكذا (بوبر) وكذا (شبير) وكذا (هيرمان جورنج) الذي لا يستطيع أحد العثور على من يماثله حجمًا.. بالاستبعاد تبقى (إيفا براون)..
فماذا عن (إيفا براون)؟ إن النساء كالبحر يتغيرن في كل يوم، لكن تغييرًا معينًا في وجهها وطباعها كان أكثر من اللازم، وهو رجل أمن وعينه خبيرة لا تفوت تفاصيل كهذه..
لماذا تغيرت (إيفا براون)؟
ولماذا صارت أميل للصمت؟
ولماذا لم تعد تدندن بألحان (فاجنر) كعادتها؟
يمكن تفسير هذا بأن الوضع المتردي لألمانيا لابد أن يغير فتاة الرايخ الأولى، خاصة وهي المرشحة الأولى للتعليق من خطاف إلى جوار الفوهرر كما حدث لفتاة (موسولينى) البائسة (كلارا بيتاتشي).. لكن لا.. إنه بحاجة إلى الكثير من أقراص الهضم والصودا كي يبتلع تفسيرًا كهذا..
عليه أن يراقب بحذر.. بهدوء.. لأن الفوهرر لو أحس بشيء لغضب غضبًا شديدًا ولن يتورع عن إعدامه هو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- التحقيق..

كان الحلفاء الآن يؤمنون تمامًا أن (هتلر) في (برلين)..
في البداية لم يصدقوا هذا، وانتشرت بينهم إشاعات عن مخبأ سرى مخيف في (برختسجادن) جنوبى (ميونخ) اسمه (عش النسر)، يحرسه رجال العاصفة، وبه أسلحة سرية كيماوية - وربما نووية - لا يمكن وصفها، وليكونن هذا المخبأ هو المعقل الأخير للفوهرر الذي سيخوض فيه معركته الأخيرة، وهي معركة مرعبة بالتأكيد.. سيفعل بالضبط ما يفعله حيوان (الولفرين) المحاصر.. إنه سيمزقهم إربًا قبل أن يموت..
لكن المصادفات ساقت إليهم تقرير مخابرات يقول إن (هتلر) في (برلين)، وبالتحديد في مخبأ سري مدعم بالخرسانة يقع تحت مبنى المستشارية في شارع (فلهلم شتراسه)..
كان هذا أجمل من أن يصدق، لكنهم - كما قلنا - كانوا يرغبون في الوصول إليه حيًّا.. ولما كان من العسير أن ينجحوا معه بحيلة كالتي مارسوها مع (إيفا براون)، فإنهم وضعوا كل أملهم في جاسوستهم هذه، وراحوا يواصلون الحرب في أوروبا، آملين أن يصلوا قبل السوفييت ولو بربع ساعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والذي لم تعرفه (عبير) ولم يعرفه التاريخ الذى كتب عن الحرب، ولم يعرفه كاتب هذه السطور من قبل، أنه في هذه اللحظة في (برختسجادن)، فرغ البروفسور (فون كاوفمان) من فصل الأسلاك كلها.. كان عليه أن يتأكد من كل التفاصيل لأنه لا مزاح في أمور كهذه..
أعاد المساعدون قضبان (الجرافيت) إلى مكانها، وابتسم هو في ثقة ورضا:
- لم يكن (روذر فورد) محقًّا..
ثم نظر إلى الشاب المتحمس الواقف جواره وقال:
- هل دونت القراءات كلها؟ حسن.. لن نعود لديارنا اليوم يا شباب.. سيكون الغداء على نفقتى وهنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واستمرت حياة (عبير) الكئيبة - ذات القفازين - في هذا الوكر.. حقًّا كان المرشد محقًّا حين قال إن هذه الأحداث كابوس لمن يعيشها، ممتعة لمن يقرؤها، وكانت كارثة الكوارث أنها تعيشها..
كان من المستحيل تحديد اللحظة التي سينتحر عندها (هتلر).. فقد كان يتحمس تارة ويبشر بالنصر، وتارة يمتلئ هزيمة ويأسًا ويزداد عمره عشرين عامًا..
وفي يوم دهشت (عبير) حين جاءت إلى المخبأ شقراء فاتنة، قدمت نفسها باسم (كافى هوسرمان).. كانت تعمل مساعدة الطبيب أسنان الفوهرر (هوجو بلاشكه)، وكانت تحمل مجموعة من المعدات، والهدف خلع ضرس الفوهرر.. وكل من قرأ تاريخ الحرب العالمية الثانية يعرف أن أسنان (هتلر) كانت مشكلة، ولربما هى سبب سقوط الرايخ الثالث..
جلس الفوهرر إلى مقعد عادى لا مقعد طبيب أسنان، وفتح فمه الكبير، على حين راحت الشقراء تتأمل أسنانه على ضوء كشاف..
- بحق السماء! لقد سقط الحشو يا سيدى الفوهرر.. لا بد من خلع هذا الضرس..

قال وفمه مفتوح كفرس النهر، مما جعل اللعاب يتساقط من شدقيه مع الحروف:
- إألعيه.. إاهُو يئير أُونونى!!
قالت باسمة وهي تلوح بالكماشة:
- سيكون هذا مؤلمًا بعض الشىء.. أنت تعرف أن المخدر الموضعي لا يجدي شيئًا مع كل المنومات التى تتعاطاها.. هوب!
- آآ.. أأس.. أأتحمأ..
أنشبت الكماشة في الضرس، وراحت تقاوم بعضلات كتفيها وساقيها وتتلوى، بينما الرجل لا يئن ولا يقول كلمة واحدة.. فقط راح يساعدها بأن تلوى في اتجاه معاكس لحركاتها.. ضرس الفوهرر لا يخرج بسهولة أبدًا..
أخيرًا سقطت الفتاة إلى الوراء والضرس الدامى في نهاية الكماشة.. فبصق (هتلر) في منديله، وقالت وهى تدس بعض القطن في فمه:
- للأسف كان هذا من الضروس المهمة..
- لا بأس.. سأعهد إليك بتركيب طاقم جديد.. إن الأسنان الجديدة من أهم لوازم الصحة!
كادت (عبير) تجن.. هذا الرجل لا يفكر في الانتحار.. بالتأكيد لا يفكر في الانتحار.. ولربما كان لا يفكر في الحرب كذلك، لأن آخر ما يهتم به دكتاتور يجتاح الأعداء عاصمته، أن يقوم بتركيب طاقم أسنان جديد..
ونهض (هتلر) من مقعده وحيا الفتاة شاكرًا، ثم أوصاها بألا تغادر (برلين) لأنه بحاجة إلى خدماتها كثيرًا..
بدا على الفتاة الحرج والارتباك.. بالطبع كان آخر طلب تريده هو هذا الطلب، وطوابير الفارين من العاصمة تملأ الطرق السريعة، بينما عليها هى أن تظل حتى النهاية المريرة للعناية بأسنان الفوهرر..
وما لا تعرفه (عبير) هو أن السوفييت - في عالم الواقع - زجوا بهذه الفتاة في السجن عشرين عامًا في حبس انفرادى، بمجرد أن عرفوا أنها كانت تعالج أسنان الفوهرر! لكن لهذه قصة لم يأت أوانها بعد..
خرجت (عبير) من الغرفة، وقررت أن تذهب إلى مخدعها قليلًا لتنام.. إن الملل يجلب النوم بكفاءة لا تحققها أية منومات..
مشت قليلًا في الردهة، وللحظة خطر لها أنها سمعت صوت شيء يتحرك خلف ظهرها، ثم ساد ظلام دامس بدأ من الأطراف واتجه لمركز مجال إبصارها.. قالت لنفسها: ضربة على مؤخرة الرأس! والغريب أنها بلا ألم!
ثم تكومت على الأرض.. ولم تدر ما حدث بعدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مقيدة إلى مقعد، وكان ضوء ساطع يغمر عينيها حتى لا ترى أي شيء سواه..
رمشت بعينيها الدامعتين، وحاولت أن تتفادى الضوء الذى يوشك على حرق شبكية عينها، بينما جاءت الأصوات من الظلام:
- إنها تفيق..
ثم صوت (هملر) الثعبانى الناعم:
- جميل أن نتمكن من الكلام الآن..

كانت أسيرة، وكانت في قبضة (هملر) وزبانيته.. كيف ومتى حدث هذا؟ لا تدرى.. لكنها قد ضاعت تمامًا دون شك.. لقد كان لديهم أكثر مما يحتاجون إليه من وقت كى يعرفوا اسم زوج خالتها نفسه.. ولو كانوا استعملوا عقارًا مثل بنتوثال الصوديوم – مصل الحقيقة - فقد انتهى أمرها بالتأكيد..
قال (هملر) في هدوء:
- نحن أسفون على هذه المعاملة.. لكننا نريد أن تتكلمي..
آه.. إذن هى لم تتكلم بعد.. لكن (هملر) على الأقل واثق تمامًا من أنها ليست (إيفا براون) وإلا لكان يجازف بحياته.. ما كان ليعامل المذكورة هذه المعاملة..
قالت في وهن:
- من أتى بى إلى هنا؟ وكيف؟
أشعل سيجاره الشيطاني (عرفت هذا من الرائحة وصوت القداحة) وقال:
- أما من أتى بك فهو نحن طبعًا.. هذا لا يحتاج إلى ذكاء.. أما عن كيف؟ فقد استعملنا نفس الأسلوب الذى دخلت به إلى مقر الفوهرر.. ضربة على رأسك، ثم نصرخ في هلع أنك فقدت الوعى.. يجيء طبيب الفوهرر ويرى أنك بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى حالًا لمعرفة سبب هذه الغيوبة.. وسرعان ما تحملك سيارة الإسعاف إلى بيتى.. نعم.. أنت في بيتي ولست في مقر (الجشتابو)..
قالت في ضيق:
- هل أكون وقحة لو طلبت أن تطفئوا هذا النور؟
- لا يمكن.. التقاليد أقوى منك ومنى.. وقد حتمت التقاليد أن تتم استجوابات (الجشتابو) وضوء ساطع على عينيك طيلة الوقت، يمنعك من رؤية وجوهنا.. لِمَ لا؟ ألسنا نازيين؟ هذا من أبسط حقوقنا.. علينا أن نستحق سمعتنا الكريهة هذه.. والآن دعينى أصارحك أن موقفك غاية في السوء.. أنت لم تخدعى سوى الفوهرر.. على كل حال سرني أن يديك شفيتا من داء الإكزيما.. لقد نزعنا القفازين في أثناء نومك وعرفنا هذه الحقيقة السعيدة.. ولقد فحصنا بصماتك وقارناها ببصمات (إيفا براون) الموجودة على مرآة حجرتها.. الآن نحن متأكدون من أنك لست هى.. قطعًا لست هى، وهو ما لم أكن بحاجة إلى تحليل بصمات كى أقسم إنه صحيح.. هنا يبرز السؤال الأهم في الموضوع.. لمصلحة من تعملين؟
ووجدت (عبير) القداحة المشتعلة تدخل الكادر لتحوم حول عينيها، بينما (هملر) يواصل الكلام:
- للروس أم للأنجلوساكسون؟
لم تكن بارعة في تحمل الألم، وقررت أن تثرثر كما يريد هذا الرجل.. ستخبره بكل شيء بدءًا بتطعيم الحصبة وانتهاءً بكراسة صديقتها التى سكبت عليها الحبر في المدرسة..
فتحت فمها لكن الرجل قاطعها:
- أعرف أنك لن تتكلمي بسهولة لهذا سنلجأ للتعذيب!
- لكن أنا ....
- تحاولين لعب دور البطل.. لكننا سنرى!
- لو أمهلتني دقيقة لـ ...
- التعذيب الذى سنلجأ إليه فريد من نوعه، ولا نلجأ إليه إلا حين يكون لدينا ضيوف فوق العادة على غرارك.. إننا سنحرمك النوم! هذا يحطم أعصاب الأبطال جميعًا.. لن يكون هناك

تعذيب بالكهرباء ولا جلد ولا انتزاع أظفار.. فقط الحرمان من النوم..
ثم تلاشى صوته وأدركت أنه غادر المكان مع رجاله..
الأحمق لم يعطها فرصة لاعتراف كامل، هى راغبة فيه أشد الرغبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن التعذيب سهلًا..
بالواقع - بعد ساعات من المحاولة - أدركت أن الحرق بالكهرباء أكثر رحمة وأدنى إلى الإنسانية..
كان هناك جنديان يقفان جوارها في الظلام، بينما الضوء الساطع المسلط على وجهها يجعلها عاجزة تمامًا عن الاستغراق في النعاس.. هى التى لم تكن تتحمل أختها التي تضيء النور حتى تقرأ صفحتين أخريين من رواية (رجل المستحيل) قبل أن تنام..
كلما ثقل جفناها وتهدلا، فوجئت بصفعة ثقيلة على قفاها من أحد الجنديين..
تغيب عن الوعى من جديد، وتحلم.. تحلم أنها.. صفعة أخرى!!
تحلم.. تحلم أنها تحلم.. تحلم بأنها تحلم بأنها تحلم.. تحلم.. صفعة ثالثة..
تفيق ثم ترى النور الساطع.. تحلم أنها نامت وأنه جزء من الحلم، ثم يتراخى جفناها.. صفعة رابعة.. رابعة فقط؟ لا.. لابد أنها تلقت عشرين صفعة حتى الآن..
لو كانت قد درست علم الأدوية لعرفت اسمًا لما تشعر به.. إنه ما يسمونه Hang Over أو - باختصار ـ حالة اللا نوم واللا صحو.. وهي شيء ثقيل قاس على النفس.. يصعب وصفه.. يصعب أن..
صفعة تعيدها إلى عالم الضوء الساطع ولا أقول عالم الواقع، لأنه لم يعد هناك واقع..
في النهاية استطاعت أن تجد الكلمات:
- سأقول كل شيء.. فقط.. نادوه..
وسقط رأسها على صدرها ويبدو أنها نامت.. أو فقدت الوعى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نامت عشر دقائق حتى جاء (هملر) مسرورًا، وأمر بإضاءة النور..
كان يرتدي روبًا أنيقًا لامعًا، ويبدو في أحسن حال ممكن بعد ما نام أربع ساعات متواصلة، وقلما كان أحدهم يظفر بكل هذا الترف هذه الأيام السوداء..
أمر الرجال بفك قيودها، وبأن يجلسوها على أريكة مريحة في ركن القاعة.. الآن تدرك أنها في رواق جميل..
كل شيء أبيض مريح للبصر.. الستائر والسجاجيد والأثاث.. فقط لمسة بسيطة تشيع في هذا كله من لون أخضر فاتح كلون الكرنب.. وفيما بعد وصف أحد الضباط منزل (هملر) بأنه أقرب إلى الأنوثة منه إلى ذوق رجل العاصفة المخيف..
أمر (هملر) الرجال بالانصراف، وتأكد من غلق الباب، ثم جلس أمامها ووضع خده على قبضته، وقال:
- أنا بالانتظار..
كانت تفتح عينيها بصعوبة الآن، لكنها تماسكت وقالت له:
- هل تتركني أنام بعد هذا؟
أشعل سيجارًا آخر شيطانى الرائحة، وغمغم وهو ينفث كمية سخية من الدخان:

- بالتأكيد..
قالها باسمًا.. ولم تبال هي إن كان كلامه يحمل تلميحًا بالإعدام أم لا.. المهم أن يفعل هذا بسرعة لتعود لنومها.. قالت وهي تبتلع ريقها الذي جففه الضوء:
- أنا أعمل مع الحلفاء..
- جميل.. جميل.. وما هي مهمتك بالضبط؟
ثم حك ذقنه بأنامله الدقيقة الشبيهة بأنامل أنثى.. أنثى طفلة كذلك! وأردف:
.. قتل الفوهرر؟ لقد كان هذا بوسعك ألف مرة.. بل كان بوسع من جعلوا (إيفا براون) تصاب بذلك المغص الذى خدعنا..
قالت مغمضة العينين:
- بل مهمتى منع موت الفوهرر..
- والسبب؟
- لا أدرى.. رجال ال 6- MI يعرفون.. لكنى لا أعرف..
فكر قليلًا، وبدا عليه نوع من الرضا على عكس ما توقعت:
- غريب أن يكون هدف الحلفاء إبقاء (هتلر) حيًا.. ربما هي لحظة نادرة نشترك فيها في الأهداف.. وهل أنت على اتصال بهم؟
- لا.. لا توجد وسيلة..
- هذا غريب.. برغم أني أشك في الكثيرين هنا.. يجب أن تجدى سبيلًا للاتصال بالحلفاء وإبلاغهم رسالة..
تثاءبت وقالت وهى تسترخى في الأريكة:
- هذا غير معتاد.. ألن تقتلني حالًا؟
- في الغالب.. نعم.. لن أفعل.. والسبب هو أننى طامح إلى التفاوض معهم! أريد أن أسهل لهم دخول (برلين) قبل السوفييت.. إنهم سيكونون أكثر رحمة.. أما السوفييت فلن يكون ما يفعلونه أقل من تحويلنا إلى نوع باهظ الثمن من المخللات..
- وهل يعلم الفوهرر هذا؟
ابتسم في خبث وقال:
- بالتأكيد لا يعلم وإلا ما كنت هنا أكلمك..
كانت حقيقة غريبة لم تدر بذهنها من قبل.. والواقع أن التاريخ سجل هذه المعلومة، ويمكن الاطمئنان لصحتها: قائد قوات العاصفة وأكثر الرجال حماسة للنازية، والوحيد الذي كان الفوهرر يثق به، يحاول التفاوض مع الحلفاء لتسهيل دخولهم (برلين).. والحقيقة الأخرى أن (جورنج) المتحمس كان هو الآخر يحاول الانفراد بالسلطة في هذه اللحظات الحرجة، ومن جديد تكرر الحقيقة نفسها، أن أكثر الرجال حماسة وتشدقًا بالوطنية، قد يكونون هم الخونة.. بينما أكثرهم تحفظًا وميلًا إلى الواقعية المريرة- مثل (هاينريتشى) - قد يكونون أكثرهم وطنية..
قالت له:
- معنى هذا أن...
ما معناه؟ معناه شيء مهم لكنها لا تستطيع أن تستجمع شتات أفكارها، ولا أن تتذكر لماذا بدأت هذه العبارة أصلًا.. ولكن.. لقد نسيت ما بدأت به العبارة أصلًا.. يا للنعاس!
إنها....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- فأل حسن..

فتحت عينيها لتجد أنها في غرفة نومها بالمخبأ.. كأن ما حدث كان مجرد حلم لا أكثر..
هل هذا صباح أم مساء؟ مستحيل أن تعرف أن الحياة في مخبأ (هتلر) تحت المستشارية عبارة عن يوم واحد طويل في الضوء الصناعي الخافت الكئيب..
كان صوت القصف والانفجار يتعالى بالخارج، مما أكد لها أن الساعة جاوزت التاسعة صباحًا، لأن الأمريكيين يبدءون غاراتهم في هذا الوقت.. الليل للبريطانيين الذين يملكون أجهزة الرؤية الليلية.. أما الروس فيعملون في أي وقت..
وكان يكفى سكان (برلين) أن يروا طائرات (سبيتفاير) في السماء كى يعرفوا أنها التاسعة صباحًا، وهى - كما ترى - فائدة غير مباشرة للحرب..
لماذا أطلق (هملر) سراحها؟
لا يحتاج المرء إلى أن يكون خبيرًا استراتيجيًّا كى يعرف السبب.. لأنه يريد أن تكون هي صلته مع الحلفاء.. وعن طريقها يؤكد لهؤلاء القوم حسن نيته.. إن الرجل عملى جدًّا.. عملى وخائن.. ولأسباب يمكن فهمها لم يعد يرغب بحال في أن يكون في المعسكر الخاسر يوم يدخل الحلفاء (برلين).. وهو بتقديره الصائب للأمور لا يملك أوهامًا.. إن (برلين) قد سقطت بالفعل.. صحيح أن الحياة مستمرة، والجيوش في كل صوب، لكن المدينة اليوم أشبه بالدجاجة بعد ذبحها.. تمشى وتلتقط الحب من الأرض، بينما دمها يسيل ويسيل.. ولا يستطيع أقدر الأطباء أن ينقذوها..
خرجت من غرفتها، ونظرت إلى التقويم المعلق على الجدار، والذي يظهر صورة جندى نازى مفتول العضلات ينظر للغد في أمل.. كان تاريخ اليوم هو الجمعة 13 إبريل..



خرجت من غرفتها، ونظرت إلى التقويم المعلق على الجدار، والذي يظهر صورة جندى نازى مفتول العضلات ينظر للغد في أمل..

الجمعة 13!

هنا سمعت صوت الضحك، وصوت فرقعات سدادات الزجاجات، فمشت على أطراف أصابعها

لترى ما هنالك في غرفة اجتماعات الفوهرر.. كانوا يغنون ويهتفون..
ماذا حدث؟ هل انتصرت ألمانيا فجأة؟ صحيح أن هذه (فانتازيا) حيث يوجد بعض اللعب بالتاريخ.. الكثير منه في الحقيقة.. لكن ليس إلى درجة انتصار ألمانيا طبعًا..
هنا برز (جوبلز) وزير دعاية (هتلر) وكان يحمل زجاجة يفور منها الزبد، وصاح في مرح:
- صباح جميل يا فرويلاين (براون)
قالت في ارتباك:
- مع كل هذا القصف.. نعم هو صباح جميل فعلًا..
- هل سمعت آخر الأخبار؟ لقد توفى الرئيس الأمريكي (روزفلت)!!
ثم صاح وهو يرقص:
- مكتوب في النجوم!! اليوم هو الجمعة 13.. لكنه بداية حظنا الحسن!
وفى قاعة الاجتماع كان الكل يرقص ويغني لأسعد خبر يسمعونه منذ زمن بعيد.. وللمرة الأولى بدا أن (هتلر) قد استعاد بعض الحياة الخابية في عينيه..
خطر لـ (عبير) أن موت الرئيس الأمريكي العجوز قد يكون خبرًا طيبًا، لكنه لا يعني أي شيء على الإطلاق.. فالخطة رسمت، والجيوش في الميدان الآن، و(إيزنهاور) و(مونتجمرى) و(زوكوف) و(عمر برادلى) و(تشرشل) كلهم أحياء يرزقون.. أي أن ما يحدث الآن أكبر من أشخاص يموتون ويمرضون ويختفون.. وكما قال أحد القساوسة الأمريكيين: حزننا لموت (روزفلت) لكننا رأينا كثيرًا من الرجال يموتون في هذه الحرب، إلى درجة أننا نعرف أنه حتى (روزفلت) نفسه ليس ضروريًا!
موت (روزفلت) لا يعني شيئًا إلا أنه فأل حسن بالنسبة لـ (جوبلز)، وهو بالمناسبة الرجل الوحيد الذى ظل مؤمنًا بالنازية حتى النهاية..
قال (هتلر) وهو يلتهم قطعة من الكعك قدموها له:
- أشعر بانتعاش اليوم، وبأن إيماني بالجيش الآري يعود لى.. لقد خلقت ألمانيا لتحكم العالم، وقد قلت في الفقرة الأولى من صفحة 228 من كتابى (كفاحي) إن... هل تذكرها يا (جوبلز)؟
انحشر الطعام في حلق (جوبلز) فراح يسعل ويحاول أن يجد بعض الهواء.. أخيرًا قال وهو يبتسم في حرج:
- إنها تلك الفقرة.. هل تعني الفقرة التي تقول فيها؟ أوه! إنها رائعة.. تلك الفقرة.. يا لها من فقرة!
وقال (جورنج) نفس الشيء وهو يحاول أن يبدو منهمكًا..
هنا شعر (هتلر) بألم فظيع في ضرسه – لحسن الحظ - فتغير مجرى الحديث..
الحقيقة أن هذا الكتاب (كفاحي) MEIN KAMPF الذى كتبه (هتلر) في السجن، والذي بشر فيه باحتلال العالم.. الكتاب الذي استوحاه من أفكار أستاذه (هاوزوفر)، وكان خليطًا عجيبًا من المعلومات غير الناضجة التاريخية والجغرافية والأنثروبولوجية والنفسية، والآراء العجيبة.. هذا الكتاب كان عند جميع رجال الحزب النازي، لكن أحدًا لم يجد البال الرائق ولا السعة النفسية كي يقرأه.. والغريب أن الحلفاء لم يقرءوه كذلك، برغم أن (هتلر) كتب فيه كل ما ينويه حرفيًّا!
المهم أن الموقف مر بلا توابع، وعاد للاحتفال مرحه الأول..
وهو مرح لم يكن ثمة شيء يبرره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دبابات (شيرمان) التي يقودها الميجور الأمريكي (هولنجورث) تتقدم عبر الجسر، وتطلق المدفع فتنفجر دبابة ألمانية من طراز (مارك -5)، وتميل على جانبها محترقة ويتصاعد منها دخان أسود كثيف[3]..
ومن النوافذ المهدمة كان الألمان يطلقون الرصاص من رشاشاتهم ومدافعهم المضادة للدبابات..
ويتقدم الضابط الأمريكي كالمحموم يبغى احتلال الجسر لكن قذيفة مضادة للدبابات تنفجر جواره ويتحول وجهه إلى كتلة من الدماء.. يتحسسه بحثًا عن أنف أو فم فلا يجد..
لكنه يصدر أوامره لقوات المهندسين بالتقدم، هنا ينفجر الجسر كله، لأن الألمان لغموه..
المشكلة بالنسبة للحلفاء أن نجاحهم ساحق.. ساحق إلى درجة تجعل خطوط إمداداتهم قاصرة عن اللحاق بهذا التقدم السريع غرب أوروبا.. وكان (إيزنهاور) قد بدأ يكتشف أن هناك مادة مهمة جدًّا لا يمكن ربح الحرب بدونها.. هذه المادة اسمها البترول.. وبسببها خسر الألمان بزعامة (روميل) شمال إفريقيا..
وعلى الجبهة الشرقية كان الجنرال (هاينريتشى) مشغولًا..
كان عليه أن يتوقع بالضبط لحظة بدء الهجوم الروسي على قواته.. وهي عملية اعتادها، وصار يجيدها، حتى اشتهر بين الألمان بانه يملك ما يشبه الحاسة السادسة..
كان يقرأ تقارير المخابرات، ويستجوب الأسرى الروس بنفسه طيلة اليوم.. لكنه كان يعرف جيدًا أن الهجوم سيكون يوم 15 أبريل.. لماذا؟ لا يوجد تفسير.. لكنه اعتاد أن يصغى لأفكاره وحدسه الخاص..
إن يوم 15 أبريل يبدأ بعد ساعات..
ووقف للحظة يتشمم الهواء مفكرًا في عمق، ثم أصدر الأمر لقواده بالتراجع إلى خط الدفاع الثانى لأن الهجوم الروسي سيبدأ صباح الغد..
وبالفعل لم يكذب الروس خبرًا..
كانوا قد حشدوا على الجبهة أميالًا من المدافع المورتار ومدافع الدبابات وقاذفات الصواريخ..
وفى ساعة الصفر أصدر الجنرال (جوكوف) الأمر، فأضيئت المصابيح لتجعل الليل نهارًا، وتطلق هدير نحو عشرين ألف مدفع في حين واحد.. تفتت قرى بالكامل، وطارت في الهواء قطع من الخرسانة والحديد.. وانثنت أغصان الأشجار من قوة الريح الساخنة التي هبت على الجبهة كلها.. وفى (برلين) ارتجت الأرض من هدير المدافع..
استمر القصف 35 دقيقة كاملة.. وحين انتهى لم يعد واحد من الرجال قادرًا على سماع صوت أفكاره نفسها.. وبصوبة أدركوا أن أجهزة هاتف الميدان ترن منذ زمن.. كانت القيادة تسأل عما تم في العملية..
وفي المساء كانت 6500 طائرة روسية تقصف خطوط الألمان وأهدافهم.. أي أن رؤية اللون الأزرق صارت حلمًا عسيرًا.. كأنها أسراب الجراد...
وحين بدأ الدخان ينقشع والحقائق تتضح، وحين صار سماع الأصوات ممكنًا..
عندها فقط أدركوا أنهم كانوا يضربون جزءًا فارغًا من الجبهة.. لقد تراجع (هاينريتشى) بقواته في الوقت المناسب تمامًا.. وظل الجيش التاسع سليمًا لم يمسسه سوء!
إن حاسة الجنرال الألماني الحربية لم تتخل عنه قط حتى في هذه الظروف..
المشكلة الوحيدة كانت أن الرجل يعرف أن هذا كله هباء.. كله عبث وإطالة لاحتضار ألمانيا لا أكثر.. إن النهاية محددة سلفًا، فلماذا لا يتم الاستسلام الآن بينما ما زال هناك شيء يدعى

ألمانيا؟
كان هذا هو الفأل الحسن كما وصفه (جوبلز)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في (برختسجادن)، انتهى البرفسور (فون كاوفمان) من تجربة التفاعل المتسلسل، وبدأ فريق العمل في صنع الكرة.. إن الإسراع ضروري، ولم يعد هناك وقت للعبث أو الأخطاء..
واتجه إلى سماعة الهاتف واتصل ب. (ألبرت شبير) وزير التعمير والإنتاج الحربي.. فوجده في قاعة الأوركسترا كعادته الأسبوعية.. طلب أن يتصلوا به هناك، وبعد قليل جاء صوت الوزير الوقور ومن ورائه خلفية بعيدة من الضجيج السيمفوني:
- بروفسور؟
قال البروفسور بلهجة مقتضبة:
- يبدو أننا وصلنا لشيء ما..
ثم وضع السماعة وابتسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- فيل هارمونيك..

رفع المايسترو عصاه، ثم دق في خفة على النوتة الموسيقية ليسعل من يريد أن يسعل.. ثم ساد صمت رهيب..
وعلى الفور بدأت الأوركسترا المكونة من 105 عازفين تعزف مقطوعة لـ (فاجنر).. وتبادل الجالسون النظرات.. من الأحمق الذي اختار لهذه اللحظات السوداء مقطوعة (جوتردا ميرونج) – أي خسوف الآلهة - كي تكون آخر ما تعزفه أوركسترا الفيل هارمونيك؟
لكن (شبير) وزير التعمير والإنتاج الحربى كان هو الذى اختار هذه المقطوعة كنوع من التورية الساخرة، أو لأن حاسة المسرح عنده تغلبت على خوفه من (هتلر)..
(شبير) المثقف شديد الرقى، الذي استطاع أن يجعل من ألمانيا قوة صناعية عظمى وكاسحة.. والذي كان مؤمنًا بالنازية حقًّا.. لكنه - كأي شخص شريف صريح - أدرك أنهم يخدعون أنفسهم.. لقد انتهى الرايخ بالفعل ولم يعد ثمة مجال للمزايدة..
وبرغم القصف المستمر والقنابل المتساقطة في كل صوب، فإن الألمان - وهم قوم (بيتهوفن) و(موتسارت) و(باخ) - لم يستطيعوا أن يتوقفوا عن حب الموسيقا السيمفونية، كما لا نستطيع نحن التوقف عن حب (أم كلثوم) تحت أية ظروف.. وظلت أوركسترا برلين تعزف كعادتها كل أسبوع، وظل أهل برلين يحضرون الحفلات أسبوعيًّا.. ولم يستطع (شبير) بدوره أن يتوقف عن هذه العادة التي كانت تمنحه القدرة على الاستمرار أسبوعًا آخر..
كانت (عبير) جالسة جواره في (البنوار).. تصغى لهذه الضوضاء السيمفونية وتحاول فهم سر الجاذبية فيها.. لا جدوى.. لابد من قرون من سماع هذه النغمات والتعود عليها كي يستطيع المرء أن يحبها.. هى التى تجيء كانت تمقت أية موسيقا من دون كلمات حتى تلك التي تجيء بين مقطع وآخر في أغاني (عبد الحليم حافظ)، وتشعر أن في هذا تبديدًا لمالها الذى اشترت به الشريط.. نوع من (الشغت) الذى يضعه الجزار النصاب وسط اللحم!
كان (هتلر) قد طلب من (شبير) - الذي يثق به كثيرًا - أن يصحب (إيفا) / (عبير) إلى الأوبرا على سبيل الترفيه عنها، فهي كانت في أسوأ حال من المعيشة في هذا المخبأ الرطب المظلم خافت الإضاءة، وبالفعل صار لون جلدها أخضر، وصارت عصبية بشكل لا يصدق.. يمكن لـ (إيفا) أن تذهب للأوبرا لكن (هتلر) لا يستطيع طبعًا.. ثم إنهم جعلوها تضع قبعة غريبة الشكل على رأسها وعوينات، تدارى بها ملامحها..
لم تكن تجد الكثير من الترفيه في الأوركسترا كما ترون، لكن (هتلر) اعتقد أن هذا سيعيد لها الانتعاش الكامل..
قالت لـ (شبير):
- ما زلت أرى أن هذه الفرقة في ....
- ش ش ش ش ش!
أصدر الصوت من شفتيه في حزم، وعاد يصغى بخشوع لهذا الذى يدور على المنصة أمامه.. كلهم خاشع غائب عن العالم، ويبدو أن نغمات (بتهوفن) حركت فيهم لواعج القلق على المستقبل والخوف من الغد، لأن كثيرًا من الجالسين في القاعة كان يخفى وجهه في منديل أو بين كفيه..

انتهت الموسيقا للحظة، فخطر لها أن تصفق، وضربت كفيها أول مرة ثم..
- ش ش ش ش ش!
فالتصفيق بين الحركات الموسيقية ممنوع، ولا بد من جاهل ينسى هذا في كل حفل سيمفوني..
جلست شاعرة بالخجل وبأن الدم يتجمع في أذنيها.. وشعرت بغيظ من كل هذه القواعد.. من وضعها؟ إنها ليست شريعة السماء على كل حال، وبالتأكيد يمكن خرقها في أية لحظة، ولن يكون هذا إلحادًا أو تجديفًا..
الحقيقة أن (شبير) كان شارد الذهن تمامًا، وكان يتصرف بالسليقة من دون تركيز.. فالليلة كان قد اعتزم أمورًا مهمة ربما تضع حياته في الميزان خاصة أن الفوهرر جن تمامًا كما هو واضح..
جاءه مدير القاعة وهمس في أذنه بشيء، فانحنى يعتذر لـ (عبير) طالبًا بضع دقائق، ونهض مع المدير.. وبقيت هى في الظلام ترمق ما يحدث على المنصة..
كان (شبير) الآن يرد على مكالمة مهمة جاءته من في (برختسجادن).. إنه البروفسور (فون كاوفمان) كما قلنا من قبل.. لكن (عبير) بالطبع لم تعرف هذا..
كانت مشغولة بمراقبة المسرح، وبدا لها أن شيئًا غريبًا يجرى ها هنا..
إنها واثقة من أن عازف الكمان ليس هو الذى رأته في البداية.. ربما تخدعها عيناها لكن من المؤكد أن العازف كان ذا شارب وعوينات.. هذا الذي تراه رجل أشيب وقور أملس الوجه تمامًا..
طبعًا لم يلحظ الجالسون هذا لأن وضعها في البنوار كان يعطيها رؤية بانوراميه أقوى، بالإضافة إلى أن الناس كانوا منتشين لا يتابعون التفاصيل، بينما هى تموت مللًا ولا تجد ما تفعله سوى مراقبة الناس.. هذه الفتاة جميلة.. هذا الرجل يتظرف.. هذه المرأة تستعرض مجوهراتها أكثر من اللازم.. هذا العازف تغير!!
نعم.. لا شك في هذا! عازف الكمان الكبير – لا تعرف أن اسمه (تشيللو) - هو الآخر لم يعد ذلك البدين كبير البطن.. إنه شاب نحيل سقيم..
ثمة شيء غريب مريب يدور هنا..
ما معناه وما سببه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (شبير) فجلس جوارها في البنوار وابتسم لها ابتسامة لم تدر مغزاها ثم عاد يواصل الاستماع للحفل.
ساعة من التعذيب مرت عليها، أمكنها فيها أن تعد حوالى عشرين أو أكثر من العازفين لم يعودوا هم ببساطة. كأن هذا شيء معتاد في الحفلات السيمفونية.
انتهى الحفل أخيرًا وتعالى التصفيق.
قال لها (شبير) وهو يتأبط ذراعها:
- سنجلس قليلًا في الاستراحة. أنا أرغب في تدخين سيجار والحديث معك..
اتجها إلى القاعة.. وكان وجود (شبير) ومعه رجال العاصفة من حراسه كافيًا كي يفهم الجميع أن عليهم الانصراف.. أشعل سيجارًا وطلب من الحراس الانتظار بالخارج، بينما صوت دوى الانفجارات وعربات الحريق تنبعث من الخارج.. إن الليل جاء ومعه موعد غارات البريطانيين، وهم لا يقتصدون في الذخيرة.. إلى حد أن بعض القنابل لا تجد مكانًا تنفجر فيه..
قال لها (شبير) بهدوء:
- متى تنفذين؟

نظرت له في غباء بضع ثوان.. ثم قالت الشيء الذى يجب أن يقال:
- أنفذ ماذا؟
- عملية الحلفاء التي كلفت بها!!
بدا عليها مزيج من الرعب والحيرة والغباء والصدمة واللوعة والرغبة في البكاء.. شعرت بأن الإنكار جهد ممل سخيف لا طائل من ورائه، ولا يخلو من الابتذال.. ولما أدرك أنها لا تجد ما تقول قال بدوره:
- لا لم يخبرني أحد بهذا لكني استنتجته..
- هل لأنى صفقت في أثناء العزف؟ القصة هكذا دائمًا..
- هذه نقطة تضاف لشكوكي.. ما من سيدة ألمانية ترتكب هذا الخطأ.. لكن هناك كذلك عشرات العادات والإيماءات والتعبيرات التى جعلتني ألاحظ الفارق، خاصة أنني لم أحظ بالقرب منك من فترة طويلة.. لا بد أن الفوهرر جن تمامًا كي لا يلاحظ..
قالت له في شيء من برود:
- طلباتك؟
وابتسمت في سرها لأنها تذكرت من تستخدم هذا التعبير في عالم الواقع.. لكنه لم يلحظ ابتسامتها وقال:
- الأمر سهل.. لأسباب ما نحن في نفس المعسكر الآن.. إن الفوهرر كان راغبًا في تدمير برلين تمامًا حتى لا يجد الأعداء عند دخولهم شيئًا يتكلمون عنه.. كان يرى أن هزيمة ألمانيا سبب كاف كى يزيلها من الوجود.. وقد صارحني بهذا وطلب منى أن أعد العدة من متفجرات وخلافه..
- لكنى مهندس.. بنيت هذه المدينة.. بنيت هذا البلد جزءًا جزءًا.. ولا أطيق أن أهدم ما بنيته أبدًا.. لهذا تجاهلت أوامر الفوهرر تحت طائلة الإعدام.. برغم هذا لم أتحمل أن أترك فرقة الفيل هارمونيك لمصيرها..
هؤلاء العازفون الموهوبون رمز لألمانيا والحضارة الآرية أكثر من (هتلر) وكل الحثالة التى حوله بمن فيهم أنا.. أنت تعرفين أنهم حصلوا على إعفاء من التجنيد منذ بداية الحرب.. لكن الرياح تسير بما لا تشتهى السفن ولن يمر وقت طويل قبل أن يصدر الأمر بتجنيدهم.. تصورى! كل هؤلاء العازفين مرهفى الحس سيحملون السلاح، ولسوف يقتلهم السوفييت أو يأسرونهم.. إن الرصاصة لا تختار ضحيتها ولا تعرف إن كان عازفًا بارعًا أم لا.. كم من الزمن نحتاج إليه كى نربى عازفًا بارعًا كالذي صرعته رصاصة خرقاء كهذه؟
- لهذا اتخذت تدابيرى لتهريب كل هؤلاء إلى سويسرا، وكانت ساعة الصفر هى هذا الحفل.. بل إن كلمة السر - هل أقول (لحن السر)؟ - كانت مقطوعة (جوتر داميرونج).. وهى تحمل من الإيحاءات ما تحمل.. خسوف الآلهة.. آلهة الرايخ يتساقطون الواحد تلو الآخر وتحترق (فالهالا) في معزوفة (فاجنر) العظيمة..
- لقد أنقذت نحو تسعين عازفًا، هم الآن في حافلة تتجه إلى الحدود السويسرية.. وأرجو ألا يصيبها القصف الجوي قبل أن تصل هناك..
- وهؤلاء الذين على المسرح؟
نفث الدخان في الهواء وقال:
- جنود طبعًا.. جنود يعرفون العزف.. وقد قمنا بتشغيل أسطوانة أصلية ل (فاجنر) كى تدارى النقص والخلل الذي سيحدث في الأداء لا محالة.. لم يلحظ المشاهدون هذا، وربما خطر لهم أن هذه أجمل مرة يسمعون فيها (فاجنر)، والسبب أن الأسطوانة كانت جميلة حقًا!

ثم قال لها في رفق وهو ينظر بعينيه الزرقاوين الصادقتين في عينيها:
- لن أؤخرك أكثر من هذا.. لكن لو كانت عندك وسيلة اتصال بالحلفاء، فاخبريهم أن يحاولوا إنقاذك فورًا.. إن أهوالًا لا يمكن تصديقها ستحدث في الأيام القليلة التالية، ولن أفسر أكثر!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الزواج!

اليوم هو 20 إبريل.. بعبارة أخرى هو عيد ميلاد الفوهرر!
وإذا كان البعض - ومنهم ألمان كثيرون - يؤمنون أن (هتلر) لم تلده أمه ولم يكن طفلًا يوًما ما، فإنني أؤكد لكم أنه ولد.. وأنه كان رضيعًا يبلل نفسه ويضع إصبعه في فمه، ولم يكتب (كفاحي) إلا بعد أعوام عديدة، فلم يولد وهو يحتضن الكتاب مع المشيمة..
وقد أعد موظفو الفوهرر ورجاله الخلصاء كعكة عيد ميلاد جميلة، واحتشد الجميع حولها يغنون: عيد ميلاد سعيد يا فوهرر.. عيد ميلاد سعيد.. كان مشهدًا مخيفًا خاصة إذا عرفنا أن أكثر المغنين كانوا من رجال قوات العاصفة المخيفين، ومعهم الثور العملاق (جورنج) والثعبان (هملر).. وطبعًا كان (شبير) هناك، لكنه لم يشارك في المرح..
دمعت عينا الفوهرر وهو يرقب الوجوه في تأثر، خاصة أن هذا أتعس عيد ميلاد يمر في حياته.. ربما آخر عيد ميلاد كذلك.. وفتح الهدية التي قدموها له وكانت ربطة عنق سوداء فاشية كالتي يرتديها الشباب النازي.. طبعًا كانت أروع هدية تقدم له هى رأس (تشرشل) أو (إيزنهاور) أو (ترومان) لكن ما باليد حيلة..
قال أحد رجال العاصفة:
- سننتصر أيها الفوهرر!
نظر له (هتلر) غير فاهم.. هل هذا الرجل أحمق أم مجنون؟ هل الانتصار مسألة نية لا أكثر؟
نظر (هتلر) إلى معاونيه ثم إلى (إيفا براون) ومد يده ليمسك يدها في رفق، بيده الباردة المرتجفة.. وقال:
- الآن ثمة شيء واحد مهم يجب أن أقوم به.. سأتزوج (إيفا)!
شهقت (عبير) وأوشكت على أن تفقد وعيها.. بينما ضغط (هملر) و (شبير) على أسنانهما.. فكلاهما يعرف الحقيقة.. وللمرة الأولى فطنت (عبير) إلى أن (هتلر) لم يتزوج (إيفا براون) حتى الآن.. ليكن. لكن هل يجب أن يفعل ذلك الآن؟
قالت في شبه احتجاج:
- ليس الوقت مناسبًا كى..
- بل أنت تستحقين هذا من زمن.. الحقيقة هى أننى أردت الزواج بك منذ أربع سنوات لكن المشاغل كانت تجعلني أنسى هذا كل يوم..
إذن هو يعتبر الزواج مكافأة لها على إخلاصها! وهى مكافأة تجد أنها زاهدة فيها كل الزهد.. كيف تهرب من هذا المأزق السخيف؟ ثمة حل واحد، أن تقول إنها ليست (إيفا).. لكنه في الغالب آخر شيء تقوله في الحياة..
مال (هملر) على أذنها وهمس:
- لا داعى للإصرار.. إنه مجرد إجراء صوري.. لسوف ينتحر خلال ساعات فلن تطول حياتك الزوجية كثيرًا..
لم تدر ما تقول بينما احتشد رجال العاصفة المخيفون، وراحوا ينشدون أغاني الزفاف.. إن أصواتهم التى خلقت للسباب والتهديد لا تصلح كثيرًا لإضفاء البهجة..
وفي المساء ودع (جوبلز) موظفيه الدامعين في وزارة الدعاية قائلًا لهم:

- لماذا انضممتم لنا يا حمقى؟ إن أعناقكم الصغيرة سوف تطير الآن..
ثم جاء إلى المخبأ بزوجته (ماجدة) وأطفاله الستة، وتمنوا حظًا سعيدًا للزوجين، وأخذت (ماجدة) (عبير) إلى ركن المكان لتعلمها كيف تكسب زوجها، على حين راح الأطفال يتشيطنون..
وكان الزواج مدنيًا بلا رجال دين.. فقط قدم لها الفوهرر خاتمًا وعقدًا وقع عليه والشهود.. وهكذا أخلى ضميره من ناحيتها.. وبالنسبة ل (عبير) كان الزواج سهلًا حقًّا.. لقد انتهى الأمر كما بدأ وعاد الفوهرر إلى صمته واكتئابه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الأيام انتحر كثيرون حقًّا.. كل واحد في الحزب النازي تقريبًا أطلق الرصاص على نفسه ثم على أسرته.. أعرف أن الترتيب خطأ لكن هؤلاء النازيين يفعلون أغرب الأشياء.. هناك عباقرة أطلقوا ست أو سبع رصاصات على رءوسهم، ومن جديد لا تسألني كيف..
(جوبلز) وزير الدعاية النصاب تناول العشاء مع أسرته، ثم حقن أولاده جميعًا بالسم.. لم يبد الأطفال خوفًا لأنه أفهمهم أن هذا منوم كي لا يخافوا عند ركوب الطائرة مع العم (أدولف).. الحقيقة أن هذه كانت من اللحظات القاسية، خاصة أن الأطفال لا ذنب لهم، حتى يموتوا بيد أبيهم وهم لا يعلمون أنهم يموتون.. لا بد أن أعصاب الرجل كانت من حديد وهو يفعل هذا، ثم يطلق الرصاص على زوجته وعلى نفسه.. لكنه كان يفر بهم وبنفسه.. كان يعرف ما سيحدث لأسرته لو سقطت في أيدى السوفييت..
وجاء يوم 1 مايو.. وصار السوفييت على بعد ثلاث ساعات أو أقل من المستشارية..
تناول الفوهرر مع (عبير) عشاءه المكون من المكرونة السباجيتي والصلصة، ثم طلب منها أن تصحبه إلى غرفته.. حيا الموجودين جميعًا وتمنى أن يراهم في الجحيم، ثم دخل معها إلى الحجرة وأغلق الباب..
اتجه إلى الخزانة فأخرج منها مسدسًا وخنجرًا وبعض السيانيد وحبلًا.. وألقى بهذا كله أمامها ثم سألها في رقة:
- هل تفضلين أسلوبًا معينا؟



اتجه إلى الخزانة فأخرج منها مسدسًا وخنجرًا وبعض السيانيد وحبلًا.. وألقى بهذا كله أمامها ثم سألها فى رقة..

قالت في ارتباك:

- لم أجرب من قبل.. لكن هل يجب أن ننتحر حقًّا؟

- لو كنت غير راغبة في أن يحولك السوفييت إلى مخلل في مرطبان، فأنا أنصحك بهذا..
كان عقلها يعمل بسرعة.. هذه هى اللحظة إذن وعليها أن تقنعه بألا يفعل.. تقنعه بالفرار من (برلين) وتسليم نفسه للحلفاء.. لا تدرى كيف، لكن لا بد من هذا..
قالت له في رقة:
- الحلفاء لن يحولوك إلى مخلل.. سيحاكمونك.. ربما كان هذا أفضل و...
- وهى محاكمة معروفة النتيجة سلفًا.. مع كل اليهود الذين فروا إلى الغرب ليس لي أن أتوقع حكمًا بالبراءة. إن الخطاف الذي علقوا عليه (موسوليني) لا يفارق مخيلتي.. لا.. لقد اخترت لنفسي نهاية أفضل بكثير.. حتى الجثة لن يجدوها لأنها ستتحول إلى فحم..
ساد الصمت لمدة دقائق، ثم سألته:
- ما دامت هذه لحظة الحقيقة.. لماذا أبدت كل هؤلاء اليهود؟
قال وهو يجوب المكان في عصبية:
- أولًا لم أبد اليهود فقط.. لقد قتلت كثيرين؛ منهم البيلاروس والأرمن والسوفييت وسواهم.. فلماذا اليهود فقط؟ الحقيقة أنني كنت أومن منذ نعومة أظفاري أن اليهود وباء وطاعون ينخر في كل الأمم.. وذات مرة رأيت رجلًا يلبس معطفًا أسود وقبعة سوداء ولحيته طويلة سوداء.. وشعره مضفر على جانبي رأسه على شكل زنار.. قلت لنفسي: هذا الغراب غريب المنظر لا يمكن أن يكون ألمانيًا ولا إنجليزيًا ولا فرنسيًا.. إنه يهودي! اليهودية جنسية سياسية مستقلة وليست دينًا.. كنت أكرههم بجنون لكني لم أبد منهم أكثر من نصف مليون على الأرجح، بينما أبدت ملايين السوفييت..
قالت في هدوء:
- فيما بعد سيزعمون أنك حرقت سبعة ملايين يهودي في غرف الغاز!
صاح في غيظ:
- الهولوكاست!! المحرقة! تبًا لهم من كذابين! لقد كانوا يتعاونون معي كثيرًا في بداية الحرب، ثم أدركوا كم أمقتهم.. غرف الغاز لم تستخدم قط.. وأكرر.. لقد كان عدد يهود العالم قبل الحرب أحد عشر مليونًا وظل كذلك بعد الحرب، فمتى قتلت أنا السبعة ملايين؟ لنقل إنني قتلت ما يوازي ما أنجبوه في سنوات الحرب.. أي نصف مليون على الأكثر.. بعد موتى ستنشط أجهزة دعايتهم لتوحي للناس أن النازية جاءت لتبيد اليهود ولم يكن لها عمل آخر، وأن المحرقة هي أبشع شيء حدث في التاريخ، وكل ما عداها مزاح ولا يستحق الاهتمام..
هذه هى حسابات (بن جوريون) اللعين.. سيضغط على أعصاب أوروبا بهذا الكلام.. سيزعم أن إسرائيل هى الممثل الوحيد ليهود العالم على طريقة (وكلاء وحيدون - ليست لنا أية فروع أخرى).. ولسوف يبتز ألمانيا طالبًا التعويضات، ولن يجسر أحد على الاعتراض.. ستكون المحرقة النازية هي مصدر (أكل العيش) الوحيد لإسرائيل، كما كان الحواة النصابون يصنعون نموذجًا ملفقًا لعروس البحر من جثة قرد وسمكة كبيرة، يعرضونه على الناس مقابل مال..
بعدها سيسبك اليهود مصطلح (المعاداة للسامية) الكريه، يتهمون به كل من يشكك.. أما الجائزة الكبرى فهي احتلالهم لبلد بريء هو (فلسطين).. سيحصلون عليه برضا أوروبا، وسيزعمون أن هذه هى مكافأتهم وتعويضهم عن كل ما ذاقوه على يدى النازي..
الهولوكاست! لابد أن يكون لديهم هولوكاست لأن التوراة تعدهم بفلسطين مقابل الهولوكاست.. وفي فلسطين سيرتكبون من المجازر ما عجز (هملر) وكل رجال العاصفة عن عمله..

سيصنعون أفلامًا عظيمة مؤثرة عن الهولوكاست كلها كذب، لن يكون (أوراق شندلر) آخرها - و(ستيفن سبيلبرج) يهودي متعصب بالمناسبة - سيكتبون مذكرات أشخاص عاشوا في الهولوكاست.. سينشرون صورًا لأفران غاز لم توجد.. والخلاصة أن العالم سيسمح لهم بأى شيء باعتباره لا شيء يعادل ما عانوه هم.. كل من يشك في حقيقة معسكرات الاعتقال سيطارد بقسوة ويسجن ويضرب وربما يقتل.. سيكون في فرنسا ما يدعى (قانون جيسو) الذى يسمح لك بمناقشة الأديان وكل شيء.. لكنه لا يسمح لك لحظة بالشك في حقيقة الهولوكاست[4]!

- إنهم دنسون منافقون.. والخطأ الوحيد الذى اقترفته هو أننى لم أقتل منهم عددًا كافيًا.. ولم أفعل ما سيقولون إنني فعلته!!

كعادته كان قد وصل في الصراخ والانفعال إلى الذروة، ثم بدأ منحناه يهبط، وصوته ينخفض ويهدأ.. وقال لها:

- دعينا من اليهود ولنناقش كيفية انتحارنا..

إنه مصر!! لم ينس الأمر بعد..

قالت له في ارتباك وهى تبحث في ذاكرتها عن حجج ما:

- لنفرض لحظة أننى لا أريد الانتحار..

- لن أسمح للروس بأن يعرضوك في حديقة الحيوان باعتبارك زوجة (هتلر).. إن كرامتك كألمانية آرية تحتم عليك أن تلحقي بزوجك..

ثم ناولها زجاجة السيانيد التي تفوح منها رائحة اللوز المر، ورفع المسدس نحو صدغه وقال:

- أعتقد أن السموم تناسب النساء أما المسدس فهو يناسب الرجال الشجعان.. والآن....

رفعت يدها مستغيثة تحاول منعه واحتبس الكلام في حلقها.. من الواضح أنه لا جدوى هنالك من..

هنا دق جرس الهاتف بإلحاح.. قال (هتلر) وهو يتجه ليرفع الساعة:

- لا يستطيع المرء أن ينتحر في سلام.. لابد من مشاكل العمل دائمًا.. على العموم ستكون هذه آخر مصيبة أسمعها في حياتي.. آلو...

وساد الصمت للحظة، وتراخت ذراعه واتسعت عيناه.. رأت المسدس يسقط من يده، ثم رأته ينتصب في وقفته.. الدم يعود إلى وجنتيه..

- ومتى تكون جاهزًا؟ اليوم؟ عظيم عظيم!

ثم وضع السماعة ونظر إليها.. وابتسم:

- لقد تغيرت الأمور.. لن يكون هناك انتحار إن الرايخ سيبقي!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - ما زال كل شيء ممكنًا..

عند المساء وصل (هاينريتشى) إلى المخبأ السرى ممتقع الوجه.. جلس ينتظر الفوهرر متوترًا.. الحقيقة أنه كان في موقف غاية في السوء، فقد رأى أن الفرقة المدرعة الثالثة - الوحيدة الباقية من جيوش الفستولا - في وضع ميئوس منه.. لهذا أصدر أوامره إلى قائد الفرقة بالانسحاب.. فعلها دون أن يطلب إذنًا شخصيًّا من (هتلر) الذى كانت تعليماته صريحة بهذا الصدد.. كان يعتبر أن (هتلر) فقد أهليته للقيادة ولم يعد صالحًا لقيادة ثلاث دجاجات إلى عشها.. وقد صار هو المسئول عن حياة هؤلاء الجنود الذين سيموتون دون طائل..

لكنه كان يعرف جيدًا مصير من يخالفون أوامر الفوهرر صراحة..

وصدر له الأمر بالتوجه إلى برلين، فركب سيارته وأمر السائق بالانطلاق لكن ياوره دنا منه وقال متوسلًا:

- أتوسل إليك يا سيدى أن تتباطأ في الذهاب إلى برلين..

- هذا مطلب غريب.. هل لى أن أعرف السبب؟

- كنت ياور قائد عظيم اسمه (روميل) يومًا ما.. وفى يوم اختلف (روميل) مع القيادة وصدرت إليه الأوامر بالذهاب إلى برلين.. ومن يومها مات (روميل)..

- لقد انتحر (روميل).. هذا شيء معروف..

- لا يا سيدى.. (روميل) قد أرغم على الانتحار لأنه كان يرى أن ألمانيا لن تربح هذه الحرب.. وإني لأتوسل إليك أن تقود السيارة ببطء لأن الحرب قد تنتهى أو ينتحر الفوهرر قبل أن تبلغ برلين.. وعندها تكون أنت في أمان..

شكره (هينريتشى) وابتسم في سره.. ثم استرخى في مقعده وقال للسائق ما معناه (سوق على مهلك سوق..).. لسنا متعجلين هنا..

ووصل إلى برلين مساء متوقعًا أن يجد الحرب انتهت أو أن (هتلر) مات، لكن الكارثة أن كل شيء كان كما هو.. وعرف أن الفوهرر ينتظره بفارغ الصبر.. معنى هذا واضح، وبالتأكيد يعرف الرجل ما حدث من انسحاب، وسيكون جزاؤه محددًا أليمًا..

دخل الفوهرر ومعه (عبير / إيفا) فنهض الكولونيل جنرال، وفرد ذراعه المشدود هاتفًا في هستيريا:

- هايل هتلر!!

لم يهتم الفوهرر بتحية جنراله إنما أشار له أن يجلس.. كان منتعشًا على غير العادة، وقد توقع (هاينريتشى) أن يطلق عليه الرصاص بنفسه أو - على أقل تقدير- يأمر الرجل بإعدامه.. لكن الفوهرر بدا متمالكًا أعصابه، وقال لضيفه في مرح:

- بلغني أنك أمرت الفرقة الثالثة بالانسحاب.. دون أوامر مني..

- حدث يا سيدى الفوهرر..

- وأن الوضع سيئ جدًّا في الجبهة الشرقية.. إن السوفييت يدخلون برلين الآن، وإن كانت حرب الشوارع تؤخرهم قليلًا عن بلوغ (فلهلمشتراسه)..

- نعم يا سيدى الفوهرر..

استرخي الفوهرر في مقعده وقال بهدوء:

- إن النصر لنا يا (هاينريتشى) وقد أردت أن تكون أنت القائد العام.. إن (جورنج) وغد نصاب

و(هملر) يحاول التفاوض مع الحلفاء من وراء ظهري.. الوحيد المخلص لى هو (جوبلز) وقد انتحر..
لم يبد الجنرال أية دهشة.. فأنت لن تندهش لو قيل لك أن الشمس تشرق من الشرق، وأنه لا يمكن حلب الثيران.. فقط قال في كياسة:
- هذا حقيقى يا سيدى الفوهرر..
ثم أضاف:
- ولكن هل لى أن أعرف كيف يكون النصر لنا؟
بصوت جهوري مجلجل صاح الفوهرر:
- لقد فرغ العلماء الآريون من صنع ثلاث قنابل ذرية.. أول ثلاث قنابل ذرية!! وصواريخنا عابرة القارات التى صممها البروفسور (أوتوفون براوننج) تحملها الآن إلى (موسكو) و(لندن).. و(نيويورك)!!
صمت الجنرال غير فاهم، ثم نظر إلى (عبير) محاولًا الفهم.. لكنه رأى الحقيقة في وجهها.. كانت عصفورًا سقط في الشرك.. كانت تبكي بلا صوت ولا دموع..
قال الجنرال في كياسة مبحوح:
- معذرة يا سيدى.. أعتقد أن هذه القنابل التى تتحدث عنها يصنعها الأمريكان الآن في (لوس ألاموس) تحت إشراف العالم اليهودي (أوبنهايمر).. لقد استوحوا الفكرة من عالم يهودي آخر فر من شرق أوروبا هو (زيلارد)..
- تقارير المخابرات تقول هذا.. لكن القنبلة ليست جاهزة بعد، وهم يزمعون استعمالها ضد اليابانيين حين تكتمل.. وما تعرفه أنت أننا كنا نجرب النظريات ذاتها طيلة هذه السنين.. ولم يهاجمنا الحلفاء إلا بعد ما تأكدوا يقينًا من أننا لم نصل لهذه القنبلة بعد، وإلا لانتهت الحرب منذ شهور لصالحنا.. لكننا اليوم سبقناهم!!
تمكن البروفسور (فون كاوفمان) من إنهاء التصميم في اللحظات الأخيرة قبل سقوط برلين.. وقد بذل الرجال جهدًا جبارًا كى يفرغوا منها.. (شبير) كرس كل ما بقى من إمكانيات الرايخ لإنهاء المشروع في أسبوعين.. إنه أعظم وزير إنتاج حربى في تاريخ الحروب..
ثم رفع كفه اليمنى مبسوطة إلى السماء فوق ذراعه المثنية، وراح يغني:
- ألمانيا فوق الجميع!!
سأله الجنرال الذي هزه الخبر:
- لكن هذه القوات التى تحاصرنا.. لسوف..
- لن تعود هناك قوات! سترى ما سيحدث في الساعات القادمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل هذا بساعتين، في مكان ما من الجبال، ارتفعت الشبكة الخادعة - كاموفلاج - التي نشرها النازيون فوق أعتى أسرار الحرب، والتي نثروا فوقها الأتربة والنباتات لتبدو لأى مراقب جوى جزءًا من الطبيعة المحيطة بها..
الصواريخ الرهيبة عابرة القارات التي صممها (أوتوفون براوننج)، والتي كانت كابوس الحلفاء ولم يستطيعوا إثبات وجودها قط.. كان (هتلر) يعرف أنها صواريخ تقليدية لا دور لها في الحرب، ولن تؤذى بأكثر مما تحدثه قنبلة ساقطة من الجو، مع ارتفاع التكلفة..
أما الآن ومع تلاشى سلاح الطيران ألمانى- لوفتفاف - ومع بعد أمريكا النسبي عن مجال الطيران

في هذا الزمن، فإن أهمية الصواريخ صارت مطلقة خاصة أنها ستحمل رءوسًا غير تقليدية..
كانت ألمانيا قد جربت الغازات السامة في الحرب العالمية الأولى، واليوم ستجرب النووي.. لم تتورع ألمانيا قط عن استخدام سلاح تملكه.. وهى تعرف أن الحلفاء كانوا سيفعلون نفس الشيء.. كلنا يعرف أنه ما إن اخترع الأمريكيون القنبلة الذرية، حتى راحت أيديهم تدغدغهم.. لماذا لا يجربون؟ لماذا لا يقذفونها على اليابان؟ وقد فعلوها في عالم الواقع، وتبخرت مدينتا (هيروشيما) و(ناجازاكي) في ثوان..
اليوم تحاول ألمانيا إنقاذ نفسها للمرة الأخيرة باستعمال هذا الاختراع الوليد..
الصواريخ أيضًا - منذ خمسة وخمسين عامًا – لم تكن على ما يرام، وكانت هناك مشاكل خطيرة في التوجيه.. حتى ليذكرنا هذا بدعابة الرجل الذى يفشل في إصابة شقة بمدفع موضوع داخلها..
لكن فريق العلماء كان ممتازًا، والحقيقة التاريخية تقول إن الزعيم (جمال عبد الناصر) استعان ببعضهم في تصميم الصاروخين المصريين (القاهر) و(الظافر) اللذين كانا جدى صاروخ (سكاد)..
وكان النجاح مبهرًا إلى أن أجهض المشروع بسبب التهديدات الإسرائيلية المستمرة، والطرود المتفجرة التى تصل للعلماء في البريد..
وهكذا جاءت ساعة الصفر، وانطلقت الصواريخ الثلاثة نحو مهمتها الجحيمية..
وبعد ساعتين - بينما كان (هتلر) يتكلم مع (هاينريتشى) - هوى أول الصواريخ على لندن.. ابيضت السماء والأرض وارتفعت سحابة عش الغراب الشهيرة.. ثم صمتت إذاعة (لندن) تمامًا..
وبعد ساعة أخرى صمتت إذاعة (موسكو)، وعلى الجانب الآخر من الأطلنطي اختفت (نيويورك).. إنها أهم وأشهر من (واشنجتون) بالتأكيد، لهذا اختارها الفوهرر..
وعرف العلماء النازيون أنهم نجحوا.. ومتى؟ في اللحظات الأخيرة للرايخ.. في الوقت الضائع للمباراة..
ودوى صوت راديو برلين من مخبئه خارج العاصمة يعلن الخبر..
ثم جاء صوت (هتلر) قويًا كعادته في أيام الصعود الأولى:
- على حكومات الحلفاء أن تقى شعوبها خطر هذا الجحيم.. وإنني لأطالبها بإعلان الاستسلام الكامل خلال أربع ساعات، وإلا حدث الشيء ذاته مع ثانى أكبر مدينة في كل دولة..
ثم أضاف في ثقة:
- إنهم يعرفون رقم هاتفنا، ويمكنهم طلبنا في أي وقت لتوقيع الاستسلام!
وبالصدفة كانت هذه هى ذات العبارة المتغطرسة التى قالها (موشى دايان) للعرب بعد هزيمة يونيو 1967!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- الذى يجب أن يموت..

أيام صاخبة بحق..
في البداية كانت أول علامة شعرت بها (عبير) هى أن الغارات توقفت.. كفت أصوات القصف المستمرة، وإلى الشارع خرج أهل برلين يرقصون ويغنون.. وأظهرت قوات العاصفة مرحًا وتهذيبًا يندر أن نراهما فيهما.. لقد بدأت القوات تتراجع..
وراح (هاينريتشى) يبذل مجهودًا جهنميًا فى تجميع فلول الجيش النازي الهاربة أو المبعثرة، وفي النهاية صار عنده جيش لا بأس به يمكنه الإشراف على عمليات التسليم..
في الوديان التي اجتاحتها قوات (مونتجمرى) و(عمر برادلى) وقف الجنود الأمريكيون والبريطانيون وقد نزعوا خوذاتهم يرقبون بعضهم بذهول.. لقد كان النصر على بعد خمسة سنتيمترات، وفجأة تبخر تمامًا.. ما معنى هذا؟
ولم تكن هناك أنباء من الوطن على الإطلاق..
يقول الإنجليز إن عدم وجود أخبار هو خبر طيب في حد ذاته، وهو تعبير آخر من التعبيرات التي يكشف التحقيق فيها أنها غبية.. لو كان أهلك يرسلون خطابًا يوميًا لك ثم انقطع هذا الخطاب، فماذا تستنتج؟
لا أخبار من إنجلترا ولا الولايات.. فهل هذا خبر طيب؟
فقط كانوا يسمعون أخبارًا متناثرة عن الشوارع التى أذابها الإشعاع، أو تحولت إلى غبار مشع.. عن الأشخاص الذين تبخروا.. والحروق المريعة.. وسرطان الدم وشلل النخاع..
عندها كانوا يرمقون الأفق بعيون ذاهلة لامعة ويرتجفون..
إذن كان هتلر على حق.. لقد جاءت النازية لتبقى، ويبدو أن الجنس الآري كان يستحق بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد يومين تم لقاء الأربعة الكبار في (ميونيخ) هذه المرة، وهم الذين التقوا في (يالطة) قبل ذلك لتنسيق الكفاح المشترك ضد قوى المحور.. كان هؤلاء هم (ستالين) بشاربه الكث، و(تشرشل) بسيجاره الغليظ - لم يكن في لندن حين سقطت القنبلة - و(ترومان) بعينيه المندهشتين.. أما الرابع الذي جلس في صدر المائدة فكان (أدولف هتلر) نفسه.. وكان قد استعاد حيويته ونظرة عينيه المخيفة، وتوارت الرجفة التى كانت تسيطر عليه.. وقد استرخى في مقعده واضعًا ساق على ساق..
كان هناك مترجم ألماني - سوفييتي وألماني – إنجليزي وكانت وثائق الاستسلام جاهزة.. وتم التوقيع..
ثم وجه (هتلر) كلامه إلى (ترومان):
- أريد أن يتم تسليم كل علماء الذرة اليهود العاملين عندكم لى.. يجب أن أعدمهم للتأكد من سرية القنبلة.. ولسوف تصل إلى الولايات لجنة تفتيش للتأكد من عدم وجود نوايا أخرى لمشروع نووى..
كانت (عبير) تسمع هذه الكلمات في الإذاعة الألمانية، هناك حيث جلست في دار المستشارية فوق الأرض لا تحتها.. ابتسمت في سرها وقد تذكرت موقفًا مشابهًا في عالم الواقع، كانت أمريكا

فيه هى من يفرض شروطه..
- أريد عقد محاكمات في (نورمبرج) للقصاص من كل من سولت له نفسه إيذاء واحد من الجيش الآري..
- ليكن..
- أريد محاكمة (إيزنهاور) و(مونتجمرى) و(زوكوف) وسواهم باعتبارهم مجرمي حرب..
- ليكن..
- سأشكل لجنة نازية لإعادة كتابة التاريخ.. إن المنتصرين يكتبون التاريخ دائمًا، وتاريخى سيحكى كيف انتصرت على الذل والغباء والخيانة، وكيف هزم جنود الحلفاء بسببها..
- ليكن..
- أريد الكثير من الإعدام.. أريد أن تتوسع المحارق وأن تؤدى بحق الدور الذي كانوا سيزعمون أنه لها! سأحاول الوصول إلى رقم السبعة ملايين يهودي، برغم أن هذا عسير جدًّا..
- ليكن..
كانت (عبير) تصغى لهذا كله حين سمعت من يتحرك من خلفها.. نظرت للوراء لتجد أن القادم هو الجنرال (هاينريتشى) الذي صار قائد الجيوش النازية جميعًا.. ومعه المهندس (شبير) الذي لمح لها بما سيحدث..
دنا منها الأول وجلس جوارها، وابتسم:
- هل سمعت شروط الاستسلام؟
- نعم..
ببطء قال وهو ينظر في عينيها:
- هل تغيرت مهمتك الآن؟ لم يعد عليك إنقاذ الرجل بل قتله!
نظرت له في حيرة ثم نظرت إلى (شبير).. لم تعد هناك جدوى إذن.. لقد تبادلا الأسرار.. والآن طبعًا قرر (شبير) أن يكون مخلصًا للرايخ.. هذه طبائع الأشياء.. لا جدوى على كل حال من ادعاء البراءة، فمن الواضح أنه مكتوب على جبينها: (أنا جاسوسة الحلفاء فاقتلونى)..
لما لم ترد قال (شبير):
- الأمر واضح تمامًا.. (هتلر) استعاد لياقته وتوازنه وسرعان ما يدرك أنك لست أنت.. إن حياتك صارت في الميزان.. ولا أدري ما يكون موقفك لو عرف ما نعرفه.. بالإضافة إلى أنك فقدت أي اتصال بالوطن الذي استسلم بدوره.. لا يحتاج المرء إلى خيال واسع كى يرى رجال الجشتابو بثيابهم الواقية من الإشعاع، في لندن الآن عاكفين على تفتيش كل وثائق الـ MI -6 وعندها سيجدون إشارة واضحة إلى العميلة التي تلعب دور زوجة (هتلر) الآن..
قالت في ملل:
- اسمها عملية (لورالاى) إن كنت لا تعلم.. والآن.. طلباتك؟
للمرة الثانية تستعمل هذه العبارة التي تكرهها..
قال (هاينريتشى) وهو يشعل سيجارًا:
- الأمر سهل.. (أدولف هتلر) يجب أن يموت.. ومن يقتله يجب أن يكون من أقرب الناس له..
- هل هى لعبة الصراع على السلطة المعهودة؟
- ربما نعم وربما لا.. لكننا نرى المستقبل بوضوح.. إنه كابوس مجسد.. سوف يلتهم أوروبا وإفريقيا وآسيا.. ثم ينهى وجبته بأمريكا.. لن يوقفه شئ.. سيخرج كل عقده الكامنة ويموت الملايين.. إن لديه الآن القوة المطلقة ولسوف يغدو حاكم العالم كله..

ثم لوح أمام عيني (عبير) بكفه المفتوحة.. وكان الكف قرص صغير أبيض.. قال:
- هذه الأقراص تذوب في أي مشروب، وليست لها رائحة أو مذاق خاص..
نظرت للقرص في جزع، ونظرت للجنرال في رعب:
- أنتما خائنان إذن؟
- لا.. لكننا نحب ألمانيا أكثر منه.. نحب العالم والبشر أكثر منه.. إن النازية شر.. كل دعوة عنصرية شر لابد من التخلص منه.. ربما سررنا قليلًا لأن أمريكا وبريطانيا ترتجفان، ولكن النازية غول مدمر.. اليوم تلتهم خصومنا وغدًا تلتهمنا نحن.. إن (هتلر) لم يعد يملك سقفًا يتوقف عنده.. وهذا هو ما نحاول الخلاص منه..
يجب أن تفكري بعقلية عملية.. إن موت (هتلر) هو الضمان لسلامتك الآن.. وسلامة بلادك غدًا.. وسلامة الكرة الأرضية بعد غد..
مدت كفًّا مستسلمة منومة مغناطيسيًا فألقى بالقرص فيها، وابتسم مشجعًا.. كان يشبه (شريف) ولهذا صدقته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد الظهر جاء (هتلر)، ليجدها جالسة جوار الشرفة المفتوحة في دار المستشارية، وأنسام حنون تتسلل إلى الداخل مطيرة الستائر الهفهافة.. برلين تبدو من النافذة.. صحيح أنها خراب تنعق فيه البوم، لكنها مريضة ستسترد عافيتها سريعًا..
كانت أسنانه تؤلمه كالعادة وطلب من سكرتيره (بوبر) أن يستدعى له (كافى هوسرمان) كى تخلع له المزيد من الضروس.. إن هذا الرجل يستمتع بانتزاع الضروس نفس استمتاعنا بقص أظفارنا..
وجاءت الحسناء لتنزع له ضرسًا آخر، وحشت فمه بالقطن وطلبت منه ألا يأكل شيئًا الليلة..
كان الآن رائق المزاج مواظبًا على النوم تسع ساعات يوميًّا، وقد زالت من يده الرجفة، وزاد وزنه قليلًا.. وكان يجد من الصعب نوعًا أن ينام دون عشاء..
طلب من (عبير) أن تعد له بعض العصير البارد، لأن هذا سيريحه قليلًا..
وهكذا أدارت (عبير) ظهرها له، وراحت تعد العصير.. بيد مرتجفة أسقطت القرص في الكأس، ثم أخذت شهيقًا عميقًا كى لا ترتجف يدها أمامه.. وراحت تردد لنفسها: أنا لم أدس لك سمًّا! أنا لم أدس لك سمًّا.. صدقني..



وهكذا أدارت (عبير) ظهرها له، وراحت تعد العصير.. بيد مرتجفة أسقطت القرص في الكأس

وتظاهرت بذلك.. وقدمت له الكأس، فرمقها بنظرة ثاقبة قاتلة دامت قرنين، كما يفعل كل من تقدم لهم السم.. ثم تناول الكأس وبدأ يرشف منه.. قال لها وهو يمسح شفتيه:

- لقد فرغ الرجال من صنع ثلاث قنابل أخرى.. سأدك (بومباي) و(ستالينجراد) و(أونتاريو)..
- ولماذا؟ أنت ربحت الحرب..
- يجب تحطيم تماسك هؤلاء القوم النفسي.. يجب تحويلهم إلى.. إلى..
وبحث عن لفظ وفي النهاية وجد التعبير الموفق:
- إلى مخلل!! ها ها ها ها ه !!
ثم عاد ينظر لها مليًّا وقال:
- لقد بدأت باستبدال كل معاونيّ.. تخلصت من (هملر) و(جورنج).. ولسوف أتخلص من (شبير) و (بوبر).. لابد من دماء جديدة طازجة للرايخ.. إن شباب العاصفة قادرون على الهبوط على الصفوف الأمامية.. بالمناسبة..
ورأته ينظر في اهتمام إلى عنقها.. آه! لا بد أن هناك شامة ليست هناك كما توقعت بالضبط..
قال لها:
- ما موضوع هذه الشامة؟
قالت في ارتباك وهي تتراجع إلى الوراء:
- شامة؟ لقد أزالتها بعملية جراحية بسيطة..
- بل ما أعنيه هو وجود شامة لم أرها من قبل! هل أصبت بسرطان الجلد أخيرًا؟
- إنه الجو المظلم الرطب في المخبأ.. هذا يتلف ال.. جلد.. تمامًا..
- لا أدرى.. إنها المرة الأولى التي أراك فيها في ضوء النهار منذ زمن طويل.. ثمة أخطاء كثيرة في مظهرك.. كأنها لوحة من عصر النهضة حاول رسام خشن الموهبة أن يعيدها.. أنا كنت رسامًا وأعرف ما أقول.. (إيفا).. يخيل إلى أنك لست أنت!
- هل تمزح؟
نهض نحوها واتسعت عيناه المخيفتان كعينى النمر المنقض.. وأدركت أن كل شيء ضاع.. لن يعمل هذا القرص.. من الواضح أنه كان طلقة اختبار من (هاينريتشى) لا أكثر..
- (إيفا).. اقتربي أكثر.. أريد أن أتملى وجهك بعناية!
فجأة تقلصت ملامحه.. أمسك صدره وفتح فمه باحثًا عن هواء..
ثم.. بوم! هوي على الأرض مكومًا..
لقد مات مستشار الرايخ أخيرًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعت خطوات وراءها فالتفتت لتجد المرشد واقفًا وهو يداعب القلم كالعادة..
قالت له وهي ترتجف وترمق ما فعلته يداها:
- هل كنت تنوى تركى هنا للأبد؟ أنا لم أسر بقدومك قط مثل هذه المرة..
قال لها في برود:
- هدفنا إمتاعكم.. لا أحب أن آخذك من المغامرة قبل أن تنعمي بها جيدًا.. الآن قد مات الدكتاتور وستعود الأمور لتستقر لأن (هاينريتشى) و (شبير) راغبان في السلام.. هذا عالم خسر الكثير، ويحتاج إلى نحو عشرين عامًا كي يستعيد توازنه.. ربما ما حدث في عالم الواقع أفضل.. لقد مات (هتلر) منتحرًا، واجتاح السوفييت برلين ليجدوا جثته وجثة (إيفا براون) محترقتين.. لو كان قد وجد القنبلة الذرية بين يديه فعلًا لاهتز الكون لهول انتقامه..
قالت له وهي ترمق الجثة شاخصة البصر:

- برغم كل شيء.. لقد التقت ميولي معه في شيء واحد: كراهية اليهود..
- (هتلر) كان يكره اليهود، أما نحن فنكره الصهاينة.. وإسرائيل ليست الممثل الشرعي الوحيد ليهود العالم كما تصر على أنها كذلك.. لكن النازية والصهيونية على العموم يلتقيان في نقاط كثيرة جدًّا، وليس من الحكمة أن نحب النازية لمجرد أننا نكره الصهيونية، كما حاول بعض المصريين في أثناء الحرب العالمية الثانية التعاون مع النازيين لمجرد أنهم يكرهون الإنجليز.. كل النظم العنصرية الدموية كريهة وكلها يجب أن تباد.. ولو دخل النازيون مصر فلا أحسب أنهم كانوا سيتحولون إلى ملائكة فجأة..
كانا الآن يمشيان في (فلهلم شتراسه) مقر المستشارية..
ومن بعيد ترى (برلين) المريضة السقيمة التى تمقت الماضي وتتحاشى الحاضر وتهاب الغد..
نتيجة جنون رسام فاشل حاول أن يصبغ الكرة الأرضية باللون الأحمر..
وكان قطار (فانتازيا) ينتظر عند نهاية الشارع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تعيش (عبير) أحداث عام مهم من أعوام مصر.. 1919.. عام فريد من نوعه لكنها تعيشه بمقاييس (فانتازيا) التي لا مقاييس لها! فماذا رأت وماذا سمعت؟

تمت بحمد الله



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

هكذا يترجم الدكتور (محمد العنانى) لفظة Understatement

[←2]

نحن في (فنتازيا) حيث لا نثق كثيرًا بما يقال من معلومات.. لكن كل ما ذكر هنا حقيقي تمامًا..

[←3]

أكثر المعلومات هنا دقيقة وتعتمد على كتاب (المعركة الأخيرة) للمؤرخ العظيم (كورنيليوس ريان)..

[←4]

بالطبع لا يعرف (هتلر) التفاصيل الكاملة لما سيحدث ويمكنك - لو كنت أعصابك قوية - قراءة المزيد عن الموضوع في كتاب (جارودى) الشهير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية). ترجمة محمد هشام، دار الشروق.

روايات مصرية للجيب

28

فانتازيا

١٩١٩

د. أحمد خالد توفيق



طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (28)

1919

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- 1919..

قالت له وهما يمشيان باتجاه قطار (فانتازيا):
- لو لم تكن (فانتازيا) لفقدت كل مبرر لي في الوجود..
يقول لها وهو يداعب القلم بالطريقة المعروفة:
- لو لم تكوني أنت لما وجدت (فانتازيا).. لا تنسى أننا الآن نمشي في أملاكك الخاصة.. تبتسم وتنظر للعالم الهائل المترامي الأطراف من حولها وتقول:
- هل تريد رأيي؟ أنا لا أصدق حرفا.. كل هذا العالم أكبر مني، ومن العسير أن يوجد لمجرد أنني هنالك.. أحيانا أقول لنفسي إن (فانتازيا) أقوى مني وأكثر واقعية، وإنني لو مت الآن فلن يشعر بي أحد هنا.. ستهطل الأمطار على مرتفعات (وذرنج)، ويحلق (سوبرمان)، ويزحف الرجل الخفي بالضبط كما كانت الأمور دوما.. من الغرور أن أعتقد أن الكون سيكف عن أن يكون كونا يوم أرحل أنا، ومن الحمق أن أحسب (فانتازيا) ستزول لو زلت أنا..
هز رأسه بسماجته المعتادة، وقال وهو يعينها على الركوب:
- هذا تواضع محبب للنفس.. كثير من البشر يجد عسرا في تصور هذه الحقيقة بالنسبة للعالم الواقعي.. أعتقد أن كل إنسان يحسب الشمس موجودة لأنه يراها، والأرض موجودة لأنه يمشي عليها، وبمجرد موته تزول مبررات وجود كل الموجودات..
لكن (فانتازيا) بالفعل عالم صنعته أنت.. لقد كتب الأدباء كثيرا لكنك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يمشي في هذا العالم، ولا أحسب التجربة قابلة للتكرار ما لم يتطور جهاز (دى - جى) أكثر من هذا.. يومها ستباع الأحلام عند البقالين، وستكون لها تذاكر كتذاكر السينما
- سيحدث... سيحدث.. الفكرة ليست بهذا البعد..
- حتى ذلك اليوم.. أنا موظف لديك ونحن نجول في أملاكك.. فبم تأمرين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها وهما يركبان قطار (فانتازيا) المضحك الشبيه بقطارات (ديزنى):
- أراك لم تبتي في الأمر.. أتراك نمت في العسل؟
- بل تواريت بين عيدان الذرة!
- أنا أتحدث عن...
- وأنا أتحدث عن نفس الشيء.. الأنسة (رانيا راشد) مهندسة الكمبيوتر الحسناء، التي قرر زوجي أن يهيم بها حبا.
- ولم تصلى لقرار ما غير التواري بين عيدان الذرة؟
قالت في لهجة حاولت أن تجعلها واثقة:
- ما زال (شريف) ينكر.. وما زال يعرف كيف يجعلني ألعب دور المجنونة الغيور.. لكنه سيقترف خطأ ما، أو ستدفعه (المحروسة) إلى اتخاذ خطوة إيجابية.. عندها يعم الويل!
قال لها مترددا بين وقاحة وتهيب:
- هل أسألك سؤالا؟
- سأموت كما لو لم تفعل..
نظر إلى أنامل يده الطويلة النضيدة، وقال:

- أنت تخشين ما سيأتي.. الحاجة إلى المواجهة.. الخوف مما بعد ذلك.. أليس كذلك؟..
تبا.. في كل مرة يصيب الهدف تماما.. لم لا؟ أليس جزءا من عقلها الباطن؟ لم لا؟ أليس هو عقلها الباطن ذاته في صورة إنسان؟ تنهدت ونظرت خارج نافذة القطار وفكرت بعض الوقت، ثم قالت:
- إن المرأة تدفع أحيانا ثمنا باهظا مقابل أن يكون لها بيت وأطفال.. هذا اعتراف مهين.. لكنك لست غريبا.. أنت جزء من عقلي..
نظر خارج النافذة حين كان حشد من رجال الفايكنج يذبحون حشدا من نساء الإنجليز.. وهي على ما يبدو من المشاهد المعتادة المملة لهذا العصر، وقال:
- هل ترين من الوقاحة أن أسألك عن الكرامة؟ أم أنها جزء من ضريبة الاستقرار؟
- لا تسألني عن الكرامة.. سأتولى أنا أموري بنفسي.. لست طفلة معدومة الحيلة..
كانت قد بدأت تزداد عصبية، وازداد اهتزاز ركبتها اليسرى مما ينذر بشر مستطير، ورفعت إصبعا مرتجفا نحوه:
- قل لي.. هل أنت متأكد من أنك برغم كل شيء تعمل عندي؟..
- بالطبع.. ماذا تحسبين؟
- إذن آمرك أن تخرس! لا تتدخل في حياتي الخاصة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها وهما ينظران من النافذة حيث كانت مشاهد (فانتازيا) تتوالى:
- هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في حضور انفجار بركان (فيزوف)؟ إن سقوط (بومبى) مشهد لا يمكن نسيانه.. أطنان من الغبار والحمم تنهال على رءوس الناس فيدفنون في ثانية!!
- جميل.. أنا راغبة في الترفيه لكن ليس إلى هذا الحد..
- وماذا عن حرق (جان دارك)؟ ومذبحة القلعة؟ وماذا عن عالم الجنوب الأمريكي الخانق الذي عبر عنه (شتاينبك) في رواياته، و (وليامز) في مسرحياته؟ هل تحبين العلاقات الأسرية المتفسخة؟
- لا!!!
قالتها كأنها سدادة تحبس بها السائل الفوار في زجاجة، لكن هذه المحاولات تفشل غالبا في النهاية رأت اللافتة المعهودة:
- ألعاب تاريخية.
لقد جربت هذا الموضوع مرارا ولم يكن يخلو من إثارة برغم مقتها العتيد للتاريخ.. هنا واجهت (هنري الثامن)، وحاربت الخناقين والحشاشين وواجهت الفوهرر.. ترى هل ما زال التاريخ يحوي أشياء تمتع؟
قال لها (المرشد) بلهجة الترغيب:
- هل تجربين حظك هنا اليوم؟
- لم لا؟
الطرابيش الحمراء في كل صوب، ولافتات.. ونسوة يرتدين النقاب الأسود.. وشاب محمول على الأعناق يهتف في حماسية:
- نموت.. نموت ويحيا (سعد).
ثم يستحيل كل هذا جحيما وتصرخ النساء، وسرعان ما يظهر الجنود.. الجنود شقر الشعور

زرق العيون الذين يلبسون السراويل القصيرة.. الزي الرسمي للإنجليز في مستعمراتهم الحارة، ويصرخ أحد الضباط آمرا الجند بفتح النار، وتنهمر الطلقات.. إنه لمشهد لا يصدق.. هي لم تعتد قط أن ترى الرصاص يطلق على مظاهرة بهذا الشكل الفج.. أين الغازات والعصى المكهربة والطاقات المطاطية؟ الضحايا يتساقطون بالعشرات وتتبعثر الصفوف كأنما هي مياه جدول ألقى فيها طفل شقي بحجارته، تنقلب عربات الترام.. تسقط امرأة صارخة.. يقاتل شاب بقبضته.. قس يمسك بذراعه التي اخترقتها طلقة.. تشتعل النيران.. تنهمر الطلقات.. تولول امرأة.. يمسك رجل بصدره.. يلوح آخر بعلم.. إنجليزي يطلق السباب.. جندي إفريقي يعيد تعمير بندقيته.. حصان السواري يتعثر.. تخان.. نار. موت.. طلقات.. رصاص.. رصاص....

لكن المرشد يقف ثابتا يتابع كل هذا في هدوء لا يخلو من استمتاع.

- ما هذا كله يا (مرشد)؟

مد يده في الهواء ليلتقط رصاصة عابرة.. تأملها ثم ألقى بها أرضا وقال لها:

- هذه ثورة 1919.. ظننت هذا واضحا..

- حسبتك أخذتنا إلى الجحيم..

- لا أرى جحيما في الأمر.. هذه أمة تحاول الدفاع عن إرادتها.. هذه لحظات مقدسة.. وفيما بعد سيذكر التاريخ أن هذه أول ثورة حقيقية يقوم بها الشعب المصرى....

صفرت رصاصة جوار أذنها، ثم طار جندى بريطاني ملطخا بالدماء ليسقط عند قدميها فتراجعت للوراء وواصلت السؤال:

- ليست أول ثورة.. هناك هوجة (عرابي) كما يسمونها.. أنا لم أنس التاريخ بعد...

- يرى المؤرخون أن هوجة عرابي كانت من قلب الجيش ومن أجل تحسين حالة الجيش.. أما هذه الثورة فولدت من الشارع.. من الفلاحين والموظفين والطلبة إنها ثورة بالمعنى الحقيقي للكلمة، وقد أحدثت أعاصير في كل شيء.. في السياسة.. في الأدب.. في الفن.. في طريقة تفكير الناس.. والجدير بالتأمل أن (غاندي) في الهند درسها بعناية؛ لأنها كانت ثورة ضد عدو مشترك: الإمبراطورية الإنجليزية..

ضمت ياقة ثوبها على عنقها كأنما البرد يمزقها قالت راجفة:

- لا هذا الزمن خطر..

نظر لها في ضيق وقال:

- نعم هو زمن خطر لكنه شديد الأهمية، ومن المفيد أن تجربي أماكن كهذه من وقت لآخر.. لن تقضي حياتك في ارتياد عوالم (ميكى ماوس)..

- ومن قال إن (ميكى ماوس) تافه؟

- ومن قال إن ثورة 1919 غير جديرة بالتجربة؟

هنا هوى أحد الجنود بدبشك بندقيته على رأس أحد مشايخ الأزهر الشباب، فانحنى قس شاب يعينه على النهوض.. قال لها المرشد:

- هذه فرصة أخرى لترى هذا المشهد الجميل التلقائي.. وهو أكثر تأثيرا مما ترينه في المناسبات الرسمية على شاشة التلفزيون.. الهلال والصليب يواجهان الرصاص معا ويجرحان معا من أجل أن يرحل الأخ (جون بول)..

ثم أخرج القلم الممل كعادته وراح يداعبه، وقال دون أن ينظر لها:

- على كل حال.. أنت صاحبة الشأن.. لو شئت أن نجرب شيئا آخر..

رفعت كفها تدعوه إلى التريث وقالت:

- وما هو دوري هنا؟ هل سأكون واحدة من هاته المتظاهرات؟
حك شعر رأسه بالقلم وقال:
- بل الصحفية الإنجليزية (دوروثي ثورنوايلد) ظننت هذا واضحا.. إنك تسألين أسئلة غريبة اليوم..
حركت شفتيها محاولة حفظ الاسم:
- (دوروثي ثو...).. يا له من اسم! كيف يمكن حفظه؟
- لا توجد خيارات أخرى.. لو أنك أمعنت التفكير لوجدت أنك لا يمكن إلا أن تكوني (دوروثى ثورنوايلد):
- ولماذا أواجه ثورة 1919 وأنا إنجليزية؟ ألم يكن من الأسهل أن أكون واحدة من المتظاهرات؟
قال وهو يعيد القلم إلى سترته:
- إن دورهن بسيط ومحدد سلفا: الثورة هذا يجعل منهن شخصيات أحادية مسطحة لا تصلح مادة ثرية للدراما التي ترغبين فيها.. أما كونك إنجليزية في بلد ثائر ضد الإنجليز فهذا حافل بالاحتمالات.. هذا هو الصراع.. الجدل.. الدياكتيك..
صفرت رصاصة أخرى جوار رأسه فمال بعنقه إلى اليسار ليتقيها وقال:
- هنا يبرز جانب آخر من الموضوع: الطريقة الوحيدة التي تحميك من رصاص الإنجليز هو أن تكوني إنجليزية! وأنا مسئول عن بقائك حية..
ثم ربت على كتفها باسما:
- مس (ثورنوايلد).. لقد وضعتك على الطريق الصحيح.. والآن أتمنى لك مغامرة طيبة..
- ولكن.....
لكنه كان قد ذاب وسط الجموع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هز الهلال يا سيد.. كراماتك لأجل نعيد
ده الموظف منا مش حمل خناق ولا شومة
لما يحمر عينه.. ولا يقوم له قومة
حد الله ما بيني وبينك غير حب الوطن يا حكومة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- ثلاثة رجال..

رحب بها السير (ريجينالد) بشدة، ودعاها إلى الجلوس.. وانحنى ليطبع قبلة على أناملها..
كانت الآن في ثياب (الشغل) المعهودة في (فانتازيا).. وهي ثياب يمكن أن أصفها باختصار شديد بأنها ثياب صحفية إنجليزية من العام 1918.. وبالطبع كانت جميلة.. لا أعرف لماذا يجب أن تكون كذلك، لكن هذا على سبيل الاختلاف في كل شيء، لأن من العسير وصف (عبير) بالجمال في عالم الواقع..
السير (ريجينالد وينجيت) هو المعتمد البريطاني وهو منصب بالغ الأهمية للمستعمرات، وباختصار شديد أيضا نقول إنه هو الاستعمار البريطاني يمشي على قدمين واليوم - 13 نوفمبر 1918 - يوم مهم جدا في تاريخ مصر، لكننا لن نستبق الأحداث.. دعونا نصغ على مهل.



السير (ريجينالد وينجيت) هو المعتمد البريطاني وهو منصب بالغ الأهمية للمستعمرات..

قال لها وهو يشعل سيجارا غليظا:

- مس (ثورنوايلد).. إن الصحف لا تصلنا بانتظام، لكني مولع بقراءة مقالاتك..

وأشار إلى جندي إفريقي يقف متصلبا كالباب، كى يجلب لهما ما يشرب.. ثم سألها:
- هذه زيارتك الأولى إلى مصر؟
قالت له في كياسة:
- نعم.. وهي بلد جميل..
- نحن جعلناه جميلا.. وهذا هو عبء الرجل الأبيض White man's burden.. هذه شعوب تحبو في أولى درجات الحضارة، ولابد من أن يعني بها أحد.. والثمن الذي تدفعه تلك الشعوب هو التخلي عن بعض الثروات التي لا تعرف كيف تفيد منها.. لا أريد أن أكون قاسيا في تشبيهي، لكن الخراف لا تعرف كيف تغزل صوفها.. لابد من راع ليفعل هذا.. مقابل هذا هو يأخذ الخراف إلى المرعى ويمنحها الأمان من الذئب..
وافقته من سويداء قلبها وأثار هذا رعبها.. لم تعرف أنها استعمارية إلى هذا الحد إلا الآن.. ثم فطنت إلى أنها فقط تؤدي دورها بأمانة.. إنها صحفية بريطانية، فليس أقل من أن تفكر كصحفية بريطانية!
- نعم.. نعم.. خراف..
- لقد انتهت الحرب كما تعرفين.. وعاد الاستقرار إلى البلد.. نحن اليوم في مرحلة جنى الثمار..
قال وهو ينفض الرماد في المطفأة:
والثمار التي ينتظرها كانت في الطريق.. كان هناك ثلاثة من المصريين في الطريق الآن للقائه.. والسبب؟؟ لم يكن يعرفه لكنه سمع عن أحد الرجال وهو سياسى مصرى لا بأس به اسمه (سعد زغلول)..
دقت الساعة الخامسة، وجاء من يعلن أن السادة المنتظرين قد جاءوا..
ورفعت (عبير) عينيها للمرة الأولى كى ترى الرجل الأسطورة.. لم يكن قد صار أسطورة بعد، لكنه كان محاميا ناجحا ثم وزيرا ثم عضوا في البرلمان.. من اللحظة الأولى أدركت أن له شأنا عظيما التأثير الذي يسمونه (أومف) في هوليوود، ويسمونه (كاريزما) في العلاقات العامة.. هل هو الطول الفارع؟ هل هي الملامح الصارمة النافذة؟ هل هما العينان الثاقبتان اللتان تخترقانك إلى أعمق الأعماق؟ هل هو... كل شيء فيه؟ لو لم يكن هذا الرجل زعيما لاعترفت بأنها لا تفهم شيئا..
وإذ قدم الرجال أنفسهم، عرفت أن زميلي الرجل يدعيان (على شعراوي) و (عبد العزيز فهمى)..
رحب المعتمد البريطاني بالرجال بشيء من الفتور ثم أعلن أن وقت تناول الشاي قد حان.. إن هؤلاء الإنجليز بناة الإمبراطورية لا يتغيرون، وتمسكهم بالتقاليد لا يتزحزح.. من العسير على المرء أن يصدق أنهم مازالوا يوقفون رجلا على ضفة (المانش) حتى اليوم كى ينذرهم إذا جاءت أساطيل (نابليون)! لكنها الحقيقة!..
همس المعتمد في أذنها وهما يتجهان إلى المائدة الصغيرة الموضوعة في الشرفة:
- إن طقوس الشاي هي محك التحضر عندي، وسرعان ما نعرف إن كان هؤلاء همجا أم راقين.. هذا هو اختباري الأول..
ونجح الرجل في الاختيار لأنه جذب لها مقعدا كى تجلس، وانتظر حتى استراحت في مجلسها ثم جذب مقعدا مع رفاقه.. وراحوا (يمارسون) طقوس الشاى برقى لا شك فيه.. لابد أنهم تشربوا أكثر من اللازم من حضارة الغرب..
قال السير (ريجنالد) وهو يداعب شاربة الذي برم طرفيه لأعلى على طريقة (أبو زيد الهلالي):
- (سعد) باشا.. أنا مسرور لقدومك هنا.. إن حكومة بريطانيا لتسعد بالتعامل مع مواطنى

المستعمرات..
قلب (سعد) الشاي بملعقته وبدا كأنما يبحث عن رد مناسب، ثم عدل عنه، وقال:
- إن الحرب انتهت يا سيد (وينجيت)..
كان صوته عميقا مؤثرا جديرا بخطيب.. يبدو أن القدر لم يدخر علاقة ما تشير إلى شأن هذا الرجل..
هنا نتوقف - كالعادة في (فانتازيا) - كي نضع بعض النقاط على الحروف.. لو كان من يقرعون هذا الكلام من مواليد أول القرن العشرين فلا حاجة بهم إلى قراءة الفقرة التالية، أما لو كانوا مثلي ومثلك فالاستطراد ضروري....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرب العالمية الأولى..
هذه حرب شاملة.. حرب حارة الوطيس.. حرب قذرة لو تذكرنا أن الغازات السامة والجراثيم استعملت فيها بحرية مما جعل الجميع سعداء.. (بريطانيا) تحتاج إلى مصر بشدة كقاعدة هجومية.. مصر التي كانت من أملاك الإمبراطورية العثمانية وقتها.. لهذا أعلنت بريطانيا فرض حمايتها على مصر، وانتزعتها من.. تركيا انتزاعا، وتحولت البلاد إلى خلية نحل من كثرة من فيها من جنود بريطانيين، وكان الفلاح المصري- كالعادة - هو أول الضحايا، لأن البريطانيين أرغموه على حفر الخنادق ودفع تكاليف الحرب و.... و.... وهي عادة استنها المماليك ولم تتوقف من حينها.. أربعة أعوام واجه فيها المصريون أهوال الحرب مرغمين مع الضيف الثقيل الذي استولى على دارهم عنوة.. وتطلعوا جميعا إلى يوم الخلاص..
الآن انتهت الحرب وأعلن (ويلسون) الرئيس الأمريكي أن الكل أخوة، وأن شعوب الأرض يجب أن تبدأ عهدا جديدا من الرخاء والسلام.. وصدق المصريون هذا وحسبوا أن الوقت قد جاء كي يتخلصوا من البريطانيين ويبدءوا عهدا من الاستقلال..
وهنا تبرز أسماء بالغة الأهمية مثل (عدلى) و (رشدي) و (سعد زغلول)..
نحن الآن في اللحظة التي يتوجه فيها (سعد زغلول) إلى المعتمد البريطاني طالبا السماح لهم بالسفر إلى فرنسا، حيث مؤتمر الصلح في (فرساى)، وحيث يتم تقسيم كعكة السلام والرخاء على كل الشعوب التي أضيرت من الحرب..
لم يكن (سعد) يطلب.. بل كان يقرر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال السيد (وينجيت):
- لا شأن لكم بموضوع مؤتمر الصلح.. إن هذه قضايا فرعية يمكن أن نسويها معا.. شئون داخلية للإمبراطورية البريطانية مع رعاياها..
قال (سعد) في إصرار:
- كان هذا مفهوما في أثناء الحرب، وكانت الضرورات تبيح المحظورات.. أما الآن فلم يعد ثمة مبرر لبقاء مصر تحت سيطرة التاج البريطاني.. لقد أعلنت بريطانيا الحماية على مصر دون أن تستشار مصر في الأمر.. وبالتالي هي حماية باطلة قانونا..
اتسعت عينا السير (وينجيت) واحمر وجهه أكثر من ذي قبل، و (خنفر خنفرة) شديدة.. هذا كلام خطير، والأخطر أن يقال أمام الصحفية ليجده منشورا بعد أيام في جرائد الأحد بالوطن

قال في كياسة:
- لقد سبق وأن طلب رئيس الوزراء (رشدى) ووزيره المختار (على) الشيء ذاته، ولكن بطريقة أقرب إلى فهمى.. إنهما يسلمان بسلطتنا لكنهما يطلبان دستورا..
ارتجف شارب (سعد زغلول) الكث انفعالا وتصميما وقال:
- أما نحن في الوفد فنطلب شيئين: الاستقلال والدستور.. لا شيء يغني عن الآخر..
نظر له (وينجيت) في إمعان هذا الرجل من الأبطال.. إنه يعرفهم ويشمهم في الهواء على بعد أمتار. لكن (بريطانيا) لا تهاب الأبطال.. إن القبور تعج بهم.. لا أحد يجرؤ على تحدي التاج خاصة إذا كان فلاحا مصريا..
وقال (على شعراوي):
- نحن نريد صداقة الإنجليز، لكن صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر..
وقف المعتمد البريطاني في حزم وقال:
- (سعد باشا).. لقد سمعت وجهة نظرك وهى مرفوضة جملة وتفصيلا.. أعتقد أنه لا مبرر لاستمرار هذا الاجتماع، لكن دعني أؤكد لك إنك لا تملك الحق في الكلام نيابة عن رعايا التاج في هذا البلد..
نهض (سعد) وتناول معطفه الأنيق الذي كان قد خلعه عند الجلوس، وهز رأسه ل. (عبير) في تهذيب ثم انصرف ومعه زميلاه..
قال لها السير (وينجيت) متبسطا وقد لاحظ توترها:
- هذا لا شيء.. مشكلة يومية من التي تواجهنا هنا.. إننا نعرف كيف نتعامل مع هؤلاء.. إن ضرب الرأس في الحائط هواية محببة لسبب لا أدرية، لكنهم يتلقون العقاب فورا...
قالت شاردة الذهن وهي ترمق الرجل يبتعد بقامته الفارعة:
- ما الذي يمنح هذا الرجل الحق في الكلام عن المصريين؟
- إنه وكيل الجمعية التشريعية.. وهو يعتقد أنه ملك حق التفاوض بهذا.. لا ألومه على هذا كثيرا..
- هل من حق المصريين المطالبة بالاستقلال؟
أشعل سيجاره وقال وقد غاب وسط الدخان الكثيف حتى لم يبق إلا صوته:
- ليس لهم أي حق.. إن بريطانيا لا يمكن ابتزازها، ولا تعطى من الحقوق إلا بقدر ما هو مهم لصالحها وعلى كل حال، إن كثرة الطعام الذي يقدم للطفل كفيل بأن يقتله من التخمة..
ثم أشار إلى الجندي الواقف متخشبا في ركن القاعة، وأردف بلهجة قاطعة:
- هذا وإلا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- اشتعال...

ظلام.. ظلام في كل صوب..
لكنه ليس ذلك الظلام المتجانس المحبب للنفس بل هو ظلام تنبض فيه ألف شمس.. خضراء صفراء.. حمراء.. زرقاء.. أشياء ترقص أمام عينيها وتجعل الفهم مستحيلا..
لم يكن التشخيص صعبا.. أنا كنت فاقدة الوعي، والآن لم أعد كذلك.. لكن من فعلها؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية عرفت صحفيتنا الحسناء أن (سعد) ورفاقه خرجوا من دار المعتمد البريطاني عازمين على أن يبرهنوا على أنهم يمثلون الأمة
عرفت مصر أكبر حملة لجمع التوقيعات من كل مكان.. من الأعيان.. من أعضاء الجمعية التشريعية.. من علية القوم.. من القرى والأزقة.. باختصار من كل مكان في مصر.. كانت التوقيعات توكل (سعد) ورفاقه للتفاوض باسم الشعب المصري من أجل الاستقلال..
الحقيقة أن (عبير) لاحظت أن الشرارة بدأت تمشي في الفتيل.. لاحظت أن الوهج يتزايد وأن الفتيل يقود إلى برميل البارود المسمى الثورة.. هذه الظواهر تحدث في كل مكان قبل الثورات، وأمكنها بسهولة أن ترى أن المياه تغلي.. لكن السير (وينجيت) كان واثقا من أن هذه مجرد زوبعة ستنتهي بمجرد أن يرى هؤلاء العين الحمراء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمشي حائرة في شوارع القاهرة الباردة - لا تنس أننا في الشتاء الأن - تضم معطفها على جسدها وتنظر للناس..
نظرات الاستغراب والدهشة تلاحقها، فلم يعتد الناس أن يروا فتاة إنجليزية تمشي على قدميها.. لكنهم يقبلونها على الفور كمعجزة من المعجزات التي لا تفسير لها وينصرفون..
عربات تجرها الخيول تركض من حولها، وصوت فرقعة الكرابيج ونداء الباعة على بضاعتهم، ونساء يضعن النقاب على وجوههن يتفحصون الأقمشة لدى دلالة جالسة على مدخل السوق..
والدلالة تغلظ الأيمان أن هذا الحرير أصلي وارد بلاد اليابان، وأن هذا الخال الذي في كاحل الزبونة لا يساوي شيئا بالنسبة لما تعرضه هى
اقتربت من إحدى العربات الواقفة على جانب الطريق.. كان هناك قدر كبير يتصاعد منه البخار، وثمة أكوام من الخبز الأسمر وكومة من البصل وأطباق خزفية صغيرة.. زجاجات يبدو أنها تحوى الزيت والتوابل.. وما هذا بالضبط؟
لم تكن لديها أية فكرة عن الأطعمة الشعبية في مصر، ولم تسمع إلا عن الكباب، حتى اعتقدت أنه طعام المعدمين....
هل يليق بأنسة إنجليزية أن....؟ ماذا عن كرامة التاج؟ المفترض ألا يراها أحد وهي تفعل ما ستفعله..
دنت من البائع، وبالعربية التي بدأت تعرف بعض عباراتها سألته:
- ما هذا؟

رفع الرجل عقيرته كأنما يتغنى بأغنية عشق:
- فوول مدمس! زبدة.. فزدق..
كانت تعرف الفول طبعا، بل إن كل خلية من خلاياها كانت تحمل حبة فول بدلا من النواة، لكن (فانتازيا) جعلتها تمر بحالة مؤقتة من فقدان الذاكرة.. وهكذا نظرت في فضول إلى القدر وهي تشب على أنامل قدميها.. وأوشكت أن تسأل: هل هو يؤكل؟ لكنها وجدت أن هذه مبالغة في التحذلق..
طلبت من الرجل أن يعطيها طبقا.. فراح في تلذذ يصب عدة أشياء في طبق خزفي صغير، وهو ينظر لها من حين لآخر في تهكم.. لسان حاله يقول: ياله من زمن! ماذا تعرفه هذه الخواجاية عن الفول؟ إنها لم تصل لهذه الدرجة من الرقي الثقافي.
كانت تريد أن تجرب كل شيء بحاسة صحفية أصيلة، ولم تكن هناك أشواك ولا ملاعق.. فتناولت لقمة غمستها في المادة الغريبة، وراحت تلوك في حذر.. ما الذي يأكلونه في هذا الشيء؟ لم يرق لها قط، وأحست أن خلايا لسانها الأنجلوساكسونية ترفض الاستمرار لكنها كانت تشعر بالحاجة إلى النفاذ إلى روح هذا البلد.. ومن العسير أن تنفذ إليه وهي لا تأكل إلا الخبز المقدد واللحم في الإفطار..
كان هناك الآن موكب من أولاد البلد والفضوليين والأطفال يقفون حولها يراقبون هذا السيرك.. ومر بضعة جنود أستراليين من بعد رأوها فناداها أحدهم:
- هل تريدين مساعدة يا آنسة؟
- لا.. شكرا..
فابتعد الرجال وهم لا يبعدون نظرهم عنها.. هذه الفتاة مجنونة أو بلهاء.. لا شك في هذا.. دنا منهما أحد الشبان يحمل ورقة وقلما، ووجه سؤاله إلى البائع أولا:
- هل تبصم أم....؟
هع هع هع! ضحك البائع ضحكة أولاد البلد التي تنتهى - على الأرجح - يبصقه.. إن الكتابة بالنسبة له عمل مهين ينتقص من قدر الرجال.. لوث إبهامه من الهباب المتراكم أسفل قدر الفول، وبحذر ألصقه على الورقة وضغط جيدا..
- والآنسة؟
قالها الفتى وهو ينظر في حذر إلى (عبير) التي امتلأ فمها بالفول، وتلوثت شفتاها بالزيت الحار، فقال البائع:
- هذه ليست تبعك.. إنها حماية ولربما مدت يدها لتمزق هذه الورقة.. كم توكيلا جمعت يا فندي؟
- خمسمائة إلا قليلا...
قالها الفتى وهو يمد يده ليلتقط بصلة خضراء من على العربة، فيحش نصفها في قضمة واحدة وينصرف البحث عن التوكيل الخمسمائة.. قال البائع وهو يتابعه بعينية:
- معلش.. إنه يدور يجمع التوكيلات منذ الصباح، ولعله على لحم بطنه.. مسكين!
سألت البائع وهي تدس لقمة أخرى في فمها:
- هل تحب (سعد باشا)؟
نظر لها في حذر، ثم غلبه التحدي وقال:
- طبعا.. أحبه.. كلنا نحبه.. ولسوف ينصره الله....
وتدخل أحد الواقفين المطربشين وهو شاب نحيل يضع العوينات ويطوي تحت إبطه جريدة،

وقال بالإنجليزية:
- أنتم الإنجليز تحاربون الزمن.. لقد ولى عصر دبلوماسية مدافع الأسطول وحان الوقت كى يحكم كل شعب نفسه بنفسه....
ابتسمت في ثقة وقالت:
- هل كتب على جبينى أنني إنجليزية؟
- ظننت هذا واضحا..
- أنا أمريكية..
وكانت تعرف أن ثقافة هؤلاء الواقفين لا تسمح لهم بإدراك الفارق بين اللكنتين.. وكانت أمريكا في هذا العصر محايدة مسالمة تطالب بأن تتحد شعوب العالم تحت مظلة السلام، وكان الكثيرون يحبونها لهذا اعتذر لها الرجل عن سوء الظن.. وقال للرجال الواقفين وهو يلوح بالجريدة التي في يده:
- هل تعلمون؟ لقد ألقى (سعد) خطابا في دار جمعية الاقتصاد والتشريع.. وقد رد به على (برسيفال) الذي رأى أنه ليس للمصريين حقوق.. لقد أعلن (سعد) انتهاء الحماية البريطانية، وقال....



وكانت تعرف أن ثقافة هؤلاء الواقفين لا تسمح لهم بإدراك الفارق بين اللكنتين..

وفتح الرجل الجريدة ليكرر ما قاله سعد حرفيا:

- في سنة 1914 أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها، بدون أن تطلبها الأمة

المصرية أو تقبلها.. فهي باطلة لا وجود لها قانونا.. بل هي من ضرورات الحرب تنتهي بانتهائها، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة..
- الله أكبر! سلم فمه!
وتصاعدت صيحات الحماسة فانكمشت (عبير)/(دوروثي) في ثيابها الأنيقة.. هذا الجو المكهرب بالشوفينية يعني أن أحداثا جليلة في الطريق.. وهي تعرف قومها الإنجليز وتعرف عنادهم وتعاليهم.. لن يسمحوا بشيء من هذا.. لن يسمحوا إلا بما يمكن أن يسمحوا به.. باختصار: لا شيء.. إنهم ينظرون إلى المصريين نظرتهم إلى قبائل (ماو ماو) التي لا تعرف ما يفيدها، ويجب أن تحكم بالرصاص.. هذا مع احترام التام لقبائل (ماو ماو) التي لها الحق الكامل في الحياة كما تريد.. أليسوا بشرا؟ ...
هي تعرف أن صدام الجبابرة قادم لا شك فيه.. الغضب والحماسة المصرية مع القوة والسلاح البريطاني.. صدام كصدام النيازك سوف يتطاير منه اللهب في كل مكان مع الغبار الكوني والصخور إنه الوبل!
وقال أحد العامة يكلم الآخرين:
- لقد أنذر (سعد) الملك (فؤاد) إذ حاول أن يشكل وزارة جديدة.. أرسل له كلمات ملتهبة تنصحه بألا يقف أمام إرادة الأمة، وأن يركز جهده على الاستقلال..
- الله أكبر!!
سألت الرجل المطربش وهي تزدرد ما بقي في فمها من فول:
- هل (سعد) قوي إلى هذا الحد؟
- ليس الموضوع موضوع قوة.. إنه موضوع إرادة.. والإرادة تهب القوة.. لقد كان (مصطفى كامل) بطلا رومانسيا متحمسا اشتهر بخطبة النارية، لكنه لم يجد الفرصة لتغيير شيء، وجاء من بعده (محمد فريد) الذي كان يعرف الحل الصحيح، لكنه لا يعرف السبل التي تحققه، ولهذا أصابه الاكتئاب والإحباط.. والآن جاء الرجل الذي يعرف ما يريد في اللحظة التاريخية المناسبة، والآن تقف الأمة كلها معه.. ولن تجدى من يقبل أن ينضم إلى الوزارة الجديدة.. هذا هو العصيان المدني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم 9 مارس عام 1919 كتبت (عبير) لقرائها عبر البحار:
- كما تعرفون توالت الأحداث بسرعة في مصر.. لقد استدعى قائد الجيوش البريطانية (سعد باشا) وطلب منه أن ينهي العصيان المدني، لكن (سعد) أصرّ على موقفه..
- الشعب المصري متمسك ب. (سعد) ورفاقه ويعتبرهم (وفدا) مكلفا بالكلام باسمه في باريس..
- لا أحب هذه الأفعال، لكن المعتمد البريطاني لم يجد أمس إلا أن يأمر باعتقال (سعد) ورفاقه ونفيهم. إنهم مصدر العدوى وسط التفاح.. ومن الخير إبعاد هذه التفاحات الفاسدة كي لا تفسد السلة كلها..
- تم هذا عصر أمس - 8 مارس 1919 – وكانت استجابة الشرطة سريعة.
- توجهت قوة من الشرطة إلى منزل الرجل، واعتقلته.. كانت القوة تكفي لاحتلال (الصين) لو أرادت، وبدا لي أنه من السخف أن يرسل كل هؤلاء لاعتقال رجل مسن وحيد، لا يملك إلا الإصرار.. لكن المعتمد البريطاني السير (وينجيت) رجل كفء بالتأكيد ويعرف متى يكون الخطر خطرا..

- من منزل الرجل اتجهت القوة التي تصلح لاحتلال الصين، إلى ثكنات قصر النيل، حيث احتجز هناك مع ثلاثة من رفقه، هم (حمد الباسل) و (إسماعيل صدقي) و (محمد محمود).. ومن حسن حظ رجال الشرطة أن قليلين من الناس عرفوا بما حدث..
- وفي اليوم التالي تم وضع الرجال الثلاثة على سفينة وتم نفيهم إلى (مالطا)..
- بهذا تمكن المعتمد البريطاني من الخلاص من المشكلة، وخاصة أن القوى الوطنية الباقية يمكن التفاهم معها فهم فريق (دستور - لا - استقلال).. الذي يؤمن أن كل شيء يمكن التفاهم عليه تحت ظل التاج..
في اليوم ذاته اشتعل العصيان في أرجاء البلد..
نلاحظ هنا أن (عبير) استعملت لفظة (ثورة) لا (عصيان)، لكن الرقيب الإنجليزي أصر على استبدال لفظة (عصيان) بها، وهذا واضح في كل ما كتب عن ثورة 1919 لدي البريطانيين حتى اليوم.. لم يطلق عليها مؤرخ واحد اسم (ثورة).. كما يصر الإسرائيليون على تسمية الانتفاضة باسم (العنف)، وتسمية الفدائيين باسم (المخربون)..
نعود لكلام (عبير) لصحيفتها:
- بدأ كل شيء بإضراب الطلبة في مدرسة الحقوق، ثم امتد الإضراب إلى كافة المدارس والمعاهد. ومن (بورسعيد) ومن (دمياط) ومن (أسوان) ومن (المنصورة) ومن القاهرة خرجت الجماهير في الشوارع معبرة عن غضبها.. سبقت هذا حملة توعية نفسية عالية المستوي قام بها رجال الدين: الشيوخ والقساوسة، وتحولت الشوارع إلى جحيم، وصار كل من يحمل ملامح أجنبية في خطر..
- لم يجد رجال الشرطة الأعداد الكافية منهم للسيطرة على زخم الجماهير، وكان السلاح هو الحل الوحيد انطلقت الرصاصات تحصد الناس، لكن البنادق كانت تفرغ في لحظة ما، عندها تتقدم الجماهير ماشية فوق من أطلقوا عليها الرصاص.. حتى النساء خرجن من ديارهن للمرة الأولى مرتديات ثيابهن السوداء المميزة، وهن يحملن أعلام الثورة.. وذلك الشعار الذي صار أشهر من نار على علم: الهلال مع الصليب..
- إن حكومة التاج تواجه خطرا لا شك فيه، لكني أثق بحكمة السير (وينجيت) وقدرة رجالنا الشجعان على السيطرة على الأحداث، وعلى احتواء هذه النار قبل أن تلتهم كل شيء..
قرأ السير (وينجت) هذا الكلام في الصحيفة وقال لها:
- لا أدري.. لو أن أحدا من هؤلاء المتمردين كتب عن الموضوع لما كتب غير هذا.. يصعب على أن أحدد انتماءك من مقال كهذا.. كنت أتمنى المزيد من عبارات السباب.. هل تفهمين ما أعنيه؟
قالت باسمة:
- أنا أحكي ما أراه فقط.. وليس على أن أثبت ولائي بأن أشتم المصريين وأتهمهم بأنهم رعاع وأوباش وما إلى ذلك.. هذا ليس عمل المراسل الصحفي.. إن هناك معلقين سياسيين سيقومون بهذه المهمة!؟.
سرعان ما تعطلت المواصلات عن العمل، وغادر الموظفون مكاتبهم، ثم أضرب العمال والمحامون و..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والكناسون أيضا رأسهم وألف مقشة

لا يكنسون كنسة ولا يرشون لنا رشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما لم تقله (عبير) هو أن المظاهرات - بشكل فطرى غير مقصود - كانت تتجه إلى بيت (سعد زغلول) الذي صار اسمه (بيت الأمة).
ويمكن لنا أن نتصور هول تلك الأيام، إذا ما تذكرنا أن عدد الشهداء كان نحو ثلاثة آلاف! حقا لم يقتصد الميجور جنرال (واطسون) - الحاكم العسكري - ولا رجاله في الطلقات ولم تقتصد مصر في تقديم صدور أبنائها، وكلاهما كريم على طريقته.. حتى إن أحد الجنود قال ل. (عبير):
- لو استمر الحال هكذا فلسوف نواجه نقصا خطيرا في الذخائر!
وفي الريف خرج الفلاحون يمارسون هوايتهم المفضلة للكفاح: تدمير الخطوط الحديدية.. وهكذا انقطعت المواصلات تماما.. وكان المعتمد البريطاني يشد شعره غيظا كلما سمع عن عملية جديدة..
لكن الثورة لم تزل في بدايتها..
هذا ما لم يعرفه المعتمد البريطاني، وبالتأكيد لم تعرفه (عبير)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الاشتعال مرة أخرى؟

رأسها يؤلمها لكنها حاولت أن تبقيه فوق كتفيها. كان هذا عسيرا لأن وزنه لا يقل عن طنين..
قالت: أووع! وأفرغت ما في معدتها، ولحسن حظها أنها ليست طبيبة وإلا لعرفت أنها مصابة ب (ما بعد الارتجاج)..
وكان حلقها جافا كالدبق - أتمنى أن أعرف ما هو - لكنها لم تجرؤ على الشرب..
أين أنا؟
السؤال الأول..
لماذا أنا في هذا (الأين)؟
السؤال الثاني....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الثورة تشتعل يوما بعد يوم..
في البداية يلتقي الناس في ميدان أو أمام مدرسة، وتنطلق الخطب كلها تتحدث عن مصر المسلوبة المخطوفة، وعن (سعد) الذي انتزعه الإنجليز من بين أبنائه الذين هم أحوج ما يكونون إليه الآن
وسرعان ما تتعالى الهتافات وتندلع مظاهرة جديدة.. ثم تصل قوات الشرطة فيتعالى صوت الرصاص وتصهل الخيول ويتصاعد الدخان إلى عنان السماء، وتتلطخ الشوارع بالدماء..
وكانت (عبير) الآن في خطر داهم.. لو نزلت إلى الشارع فهي لا تأمن الإنجليز قبل المصريين.. أن يصعب أن تصيبها رصاصة إنجليزية متحمسة، أو يهوى على قفاها دبشك بندقية أو – لو كانت سعيدة الحظ – سوط يمزق لحم وجهها.. لهذا اختارت أن تتوارى في فندقها المطل على النيل،
ومن خلف الستار راحت تنظر إلى هذا المشهد العجيب: القاهرة المسالمة الرحبة غالبا تغلي
وإن تنس لا تنسى يوم رأت المصريين يجرون من يبدو كأبناء البلد ووجهه ينزف دما، ومن الواضح أنه قد تلقى عددا لا بأس به من الضربات.. رأتهم يجرونه.. مشفوعا بالسباب والاحتقار، حيث ألقوا به بين خيول الشرطة ثم تركوه وتراجعوا.. وتلقى الرجل عددا لا بأس به من لسعات الكرابيج قبل أن يتوارى وهو يصرخ ككلب دست ساقه.
- هذا من رجالنا..
نظرت إلى الوراء إلى السير (وينجيت) الذي جلس في مقعد وثير في الغرفة، يدخن سيجاره، ويفكر والحقيقة أنه لم يكن ينظر لها على الإطلاق.. كان ينظر عبر البحر إلى إنجلترا.. عينان زائغتان شفافتان تشبهان عين ميت، لو كان الميت إنجليزيا.. والحقيقة أن السير (وينجيت) لم يكن يجد مفرا من المسئوليات في الآونة الأخيرة إلا في غرفتها بالفندق، حيث كان يزورها ليجلس الساعات يدخن شارد الذهن..
- هذا من رجالنا..
أردف الرجل وهو مغلف بالدخان الكثيف:
- هذا من رجالنا، وقد انطلق ليتجسس على المصريين، ويشعل بعض الحرائق أو يخرب الممتلكات، كى نجد مبررا لقمع هذا التمرد أمام العالم.. إنها سياسة ناجحة دائما في المظاهرات.. إن خرجت المظاهرات ضدك فأرسلي من يندس فيها ويحرق شيئا هنا وهناك..

بعد هذا لن يلومك أحد إن ذبحت كل المتظاهرين.. لم لا؟ هذا من حقك.. أليسوا مجموعة من المخربين؟
- المشكلة هنا أن المتظاهرين كانوا أذكى منا، وعرفوا على الفور ما يريده هذا الأحمق.. لقد نظموا شرطة وطنية تراقب أعمال العنف كهذه ويقبض على مرتكبيها.. لاحظي أن العملاء أغبياء دائما لا يمكن أن تجدى شخصا ذكيا بارعا يعمل لديك....
- هذا طبيعي.. وإلا فلماذا يعمل الشخص الذكي البارع عميلا؟
في مرارة ابتسم الرجل، وأطلق سحابة دخان كثيفة كادت تخنقها، وقال:
- لقد انتهى الأمر بالنسبة لي على كل حال..
استدارت لتنظر له في ذهول وعدم فهم:
- ماذا تعني بالضبط؟ هل ستموت؟
ابتسم ثانية وقال:
- ليس بالضبط.. ليت هذا كان ممكنا.. أعنى أن هذه المظاهرات قد قضت على سياسيا.. ولسوف أعود إلى إنجلترا.. لقد اعتبروني فاشلا.. لسوف يرسلون إلى هنا من هو ألعن منى وأقسى.. ولسوف يعرف المصريون أنهم استجاروا من الرمضاء بالنار..
وبحث عن مثل إنجليزي مماثل لمثلنا: - «يا ناكر خيرى.. بكره تعرف زمانى من زمان غيري،» فلم يجد - طبعا - لذا واصل التدخين:
- ومن سيأتي بعدك؟ من هو هذا السفاح الوغد معدوم الضمير؟
- من غيره؟ طبعا الجنرال العظيم (إدموند هنرى هاينمان اللنبي)..
- (اللنبي)؟
- طبعا.. وهو مناسب جدا لأن...
ثم عاد إلى الشرود.. وقررت (عبير) أن الرجل انتهى عقليا كما انتهى نفسيا.. ربما يطلق الرصاص على رأسه حين يعود إلى الوطن وربما لا يفعل، لكن الأمر سيان..
وهكذا ينتهي دور السير (وينجيت) المعتمد البريطاني في هذه القصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما لم تعرفه (عبير) كذلك أن أهالي قرية (البدرشين) لم يكن لهم باع في السياسة.. لماذا تهتم بأمور كهذه؟ كما أنها لم تعرف قط أن أهالى القرية ناموا في ساعة مبكرة بعدما أظلمت السماء، ولم يكونوا يتمتعون بتيار كهربى..
في الساعة الثانية صباحا تحول الليل إلى نهار، وازدحمت شوارع القرية بالسيارات.. ومنها نزل عدد من الجنود يكفي لاحتلال الاتحاد السوفييتي هذه المرة.. خرج القوم من ديارهم، والفلاحون أكثرهم لم يجدوا الوقت الكافي لارتداء الجلباب فوق السروال ذي التكة والصديرى
كانت الكلاب تنبح والأطفال يعوون.. الكلاب والأطفال.. الثنائي الضروري لتحطيم الأعصاب خاصة إذا أضيف إليهم صراخ النساء.. وحقا صرخت نساء كثيرات، لكن الضابط البريطاني مرهف الحس أمرهن بأن يخرسن..
اقتيد الرجال إلى ساحة القرية.. ووقف العمدة يلوح بيديه في عدم تصديق، وطلب أن يسمحوا له بالفهم.. هذه قرية مسالمة لم تفعل شيئا..
ولم يصدق أحد ما حدث..
لم يصدق حتى وقف الجنود صفا والبنادق مصوبة إلى الصدور..

لم يصدق أحد حتى أصدر الضابط أمره: - فاير! الذي لم يفهمه الفلاحون..
لم يصدق أحد حتى تهاوى عدد من الرجال على الأرض دون أن يجدوا الوقت للصراخ....
لم يصدق أحد حتى قفز الجنود إلى السيارات الصاخبة، وابتعد الجمع وسط رقعة الضوء..
لم يصدق أحد حتى حين عاد الظلام، فلم يبق من ذكرى ما حدث إلا رائحة البارود في الهواء..
وبالطبع لم يعرف الذين ماتوا أن هذا حدث كذلك في (العزيزية) و (نزلة الشوبك)، ولم يعرفوا أن (مصطفى كامل) لم يعد هناك كي يفضح الجريمة في كل أرجاء العالم المتحضر، كما فعل مع (دنشواى)، وكما فعل (برناردشو) ضمير بريطانيا..
كان هذا يوم 25 مارس 1919..
إن أشياء كهذه قد تمر مر الكرام.. لهذا لم تعرفها (عبير).. أما عن (اللنبي) فقد راح يجرب المزيد من فن المذابح.. راح يحاول إثبات أنه جدير بسمعته السيئة....
لكن المصريين كانوا قد بلغوا نقطة اللاعودة، وصار أي كلام عن التراجع معناه أن من ماتوا قد ماتوا سدى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن مكان ما في الليل دوى صوت مطرب سكندرى له صوت حزين بعيد، يحمل في ثناياه رائحة الأرض الرطبة المحروثة، ورائحة خان الخليلي ليلا، وقسوة ودلال بنت البلد، وأحزان عمال التراحيل، و... و...
كان صاحب هذا الصوت يدعى (سيد درويش).. الشيخ الذي لم يستطع قط قراءة النوتة الموسيقية، لكنه غير تاريخ الموسيقا العربية إلى الأبد
وفي مكان آخر كان مثال اسمه (محمود مختار) ينهض، ليمسك بإزميله ويستلهم أجداده المصريين وتدب روح الفن في الحجر كما لم تدب منذ آلاف السنين...
وحول أسرة المرضى يحتشد د. (على إبراهيم) و (نجيب محفوظ) و (جورجي صبحي) و (على رامز).. هؤلاء العباقرة الذين من عباءتهم خرج الطب في مصر.. إنهم النطاسيون.. لا أدري السبب لكن اللفظة تعطى انطباعا بالبراعة أكثر من كلمة (أطباء)..
(طلعت حرب) يقرر إنشاء (بنك مصر) عام 1920.. الاقتصاد المصري ينهض، ومعه يتم إنشاء مصانع الغزل العملاقة في المحلة الكبرى، ويتحول نشاط البنك إلى نهر يروي المصانع والسياحة والسينما (ستوديو مصر).. وكل شيء..
ومن الصعيد يأتي (طه حسين).. ومن أسوان يأتي (العقاد).. ومن روما يعود (يوسف وهبى).. بعضهم جاء قبل هذا وبعدهم جاء بعد هذا بقليل.. لكن الحقيقة التي لا يجب نسيانها، هي أن مصر كانت تنهض.. تنفض الغبار عن نفسها وتحك عينيها بعد قرون من السبات أين أنا؟ ماذا حدث في أثناء نومي؟ كانت هناك هزة أولى مع الحملة الفرنسية، وهزة ثانية مع ثورة (عرابى)، وهزة خفيفة مع (مصطفى كامل) و (محمد فريد).. لكن ثورة 1919 كانت الهزة التي نفضت الغبار عن المارد النائم..
وها هو ذا الآن ينهض ويفتح فمه، مهددا بازدراد كل من يقف في طريقه.. الإنجليز و (عبير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5مجرد مذبحة أخرى..

رأسها يؤلمها لكنها حاولت ألا يؤلمها.. كيف؟ تلك مشكلتها لا مشكلتنا..
كان يدق كالجرس.. هذا الألم من النوع الرنان الذي يخض الأفكار خضا ويجعلك عاجزا عن التفكير الصائب..
عيناها بدأتا تقهران الظلمة ببطء، والآن تختفي الشموس، وتدرك أنها في غرفة قذرة اتساعها.. يمكن القول إنها باتساع حمامين ملتصقين.. هنا تأتي مشكلة تحديد حجم الحمامين.. لأن هناك حمامات واسعة وأخرى ضيق.. آه! يا للألم! إنها تخرف فعلا.. هذا هذيان لا شك فيه.. إن الضربة لم تزل بعد....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكتب (اللنبي) وجدته جالسنا مهموما يدون بعض الأوراق..
نظرت إلى التقويم على مكتبه فوجدت أن اليوم هو 5 إبريل.. لقد مر شهر على الثورة أو أقل قليلا.. شهر لم تكف فيه البلاد عن الاشتعال كالمرجل، ويبدو أن الجنرال قد بلغ آخر المدى في جذب وتر قوسه.. بعد قليل سينقطع الحبل من دون شك..
فيما بعد سيخلد أهل السواحل عندنا نكري (اللنبي) هذا للأبد، حين يحرقون الدمى المحشوة بالقش، والتي تلبس ثيابا بريطانية.. بعد فترة سينسون سبب ما يقومون به، لكنهم سيظلون يحرقون الدمى في شم النسيم كل عام، ويطلقون عليها اسم (لنبيهات)..
قال لها (اللنبي):
- (سعد) ومن معه..
كادت تقول له (اشمعنى) باعتباره يبدأ قافيه، لكنها تذكرت أنها صحفية إنجليزية وقور، فسألته:
- ماذا دهاهم؟..
- سيعودون من مالطة!
لم تصدق ما تسمع.. إلى هذا الحد إذن نجح المصريون في إملاء إرادتهم على الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؟ كانت تعتقد أن ما يقوم به هؤلاء نوع من النطح في الصخور أو محاربة الطواحين، ولن تلبث قرونهم أن تتهشم، ويعودوا إلى رشادهم نادمين على ما كان.. لكن رضوخ الإمبراطورية بهذا الشكل لإرادة مجموعة من الفلاحين هو أمر مذهل..
الحقيقة أن بريطانيا صارت تتلقى ضربات أكثر من اللازم منذ ذلك الحين، حتى جاءت حرب 19 حين فشلت في الاحتفاظ بقناة السويس، التي أممها (عبد الناصر).. من حينها غربت الشمس على الإمبراطورية، ولحقت بالمكان الذي توارت فيه الإمبراطورية الرومانية والفارسية وغيرهما..
رأي (اللنبي) ترددها ودهشتها فقال لها:
- لابد من قمع العصيان.. كانت خطوة نفي (سعد) مجنونة، وقد شعر المصريون بأنه ليس لديهم ما يخسرون.. هل تفهمين؟..
ولوح في وجهها بالقلم المذهب الذي كان يكتب به وأردف:
- أخطر شيء في العالم أن يشعر خصمك أنه ليس لديه ما يخسره..
وافقته من قلبها.. كلام حكيم جدا برغم أن قائله سفاح..
قال لها:

- سيخرج المصريون من ديارهم، وغدا تمتلئ الشوارع بالمحتفلين.. لا أطلب منك شيئا إلا أن تخففي من غلواء مقالاتك.. كفي عن الحماسة والفرح لفرح أعدائنا! لا تنسى أنك بريطانية..
- ظننت هذا مفهوما..
- أحيانا أشك فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشوارع مزدحمة بحق، فلم يعد الكلام عن علبة السردين واردا هنا.. لقد تداخلت الذرات ذاتها، ولرب من يرفع ذراعه الأيمن فيفاجأ بأنه رفع ذراع جاره.. الكل يهلل ويتصايح ويلوح باللافتات، وتتصاعد الزغاريد.. لقد برهن الشعب على قوة إرادته التي استطاع أن يفرضها على المعتمد البريطاني، وفهمت (عبير) أن هذا الزحام - ربما - يمتد في رقعة واحدة متجانسة عبر وادي النيل كله..
وخرج أحد الباعة من متجره، ودس في يدها كوبا مليئا بسائل وردى عجيب.. وقال لها وهو يجفف عرقه:
- شربات (سعد باشا)..
لم تعرف كنه الشربات لكنها أفرغته في جوفها مرة واحدة، وقدرت أنه مشروب محلى ما.. فهي لم تجسر على الاعتراض، وملامحها الأجنبية تجعلها عرضة للشكوك.. وخفضت رأسها لتتقي سيلا من الحلوى قذفته امرأة من شرفتها..
كان الناس يرقصون.. وبدا أنهم راضون عن الكون.... إلى حد لا يمكن معه لشيء أن يضايقهم..
لا شيء حتى طلقات الرصاص التي راحت تنهمر من مكان ما عليهم..
ونظرت (عبير) إلى مصدر الطلقات.. من هذا المجنون الذي؟
طاخ طاخ؟
هذه حقيقة! الإنجليز يطلقون النار على الحشود بلا تفسير.. هذه ليست مظاهرات احتجاج يا حمقى، بل مظاهرات فرح! ما معنى هذا؟
من جديد عاد المشهد الخالد، وتعالى صراخ النساء بينما الناس يسقطون بالجملة، وسقط الشيوخ والأطفال تحت التدافع، كما يحدث في خلية نمل وطأتها قدم غادرة..
تركض ذاهلة وهي تردد: هذه ليست مظاهرات احتجاج يا حمقى، بل مظاهرات فرح! تتعثر.. تنهض.. تسقط هذه ليست مظاهرات احتجاج يا حمقى، بل مظاهرات فرح!
لكن التفسير الوحيد كان جليا.. غطرسة المستعمر تجعله يرفض الاعتراف بأنه هزم.. لم يطق صبرا وهو يرى الناس يحتفلون متشفين فيه، وقرر أن يبرهن لهؤلاء أنه ما زال صاحب الكلمة الأخيرة..
طاخ! طاخ!
والحقيقة أن كثيرين في وطنها كانوا يرون أن (اللنبي) يتعامل مع الثورة بلين جدير بالمرضعات.. لماذا لا يسفك المزيد من الدماء؟ لماذا لا يعدم نصف الشعب المصرى ليتعظ النصف الباقي؟
وكانت هذه الطلقات تؤكد المفهوم ذاته
راحت تركض غير عارفة من أين يأتي الموت.. موت غريب يتخذ شكل صفير يشق الهواء.. ها هو ذا قد اختار ضحيتين.. هذا الشاب الذي سقط على الأرض كدنّ ثقيل دون أن يفعل أو يقول شيئا.. وهذه السيدة المنقبة التي صممت على أن تعطى الموت بالرصاص حقه الكامل من الاحترام، فصرخت وأمسكت صدرها وراحت تتلوى وتئن، ثم سقطت على الأرض أمامها..

إلى أين تهرب؟ ثمة من يدفع من الخلف ومن يسد طريق الهروب من الأمام.. تعثرت على الأرض، فجذبها أحدهم على قدميها بيد من حديد، لأن من يسقط لن ينهض ثانية، وواضح أنه لم يتبين ملامحها وإلا لتركها..
جدار يقود إلى زقاق جانبى.. هي الآن مهروسة إلى الجدار يوشك كتفها على أن يتهشم تحت ضغط الناس تحاول أن تحول محصلة القوي العمودية إلى قوي جانبية تدفعها إلى الزقاق، لكنها لم تكن قط بارعة في علم (الاستاتيكا)..
الهواء.. لا بد من هواء.. إن صدرها صار مغلقا لا يستطيع الحصول على المزيد..



الهواء.. لا بد من هواء.. إن صدرها صار مغلقًا لا يستطيع الحصول على المزيد..

الطلقات تنهمر.. اللعنة على الإنجليز! اللعنة على قومها! إنهم جزارون بحق.. ألا يرون أنها وسط. هؤلاء؟ ألا يفهمون أنها على وشك الموت؟ لماذا لا تعطينا لحظة تلتقط فيها أنفاسنا

أيها الوغد؟
الطلقات.. الطلق.. لابد من هواء.. هواء.. هواء.. شعرت برغبة عارمة في القيء ثم... لم تعد هنا.. صارت هناك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- ضيفة برغم أنفها..

هكذا يمكننا الآن أن نفهم ما تكلمنا عنه في بدايات الفصول السابقة..
كانت (عبير) الآن تصحو من نومها أو إغماءتها لتجد أنها راقدة على فراش في غرفة مظلمة فقيرة.. وأن رأسها يؤلمها بعنف.. وكانت مغطاة ببطانية سميكة فلا تنس أننا في إبريل..
كانت هناك نافذة.. استطاعت أن ترى حدودها في الظلام، ومشت لها.. اصطدمت قدمها بشيء في الأرض وكادت تهوى على عنقها لكنها تماسكت، وأخيرا تتحسس حدود النافذة.. وجدت يدها المزلاج ففتحته، لكنه كان موصدا بشكل لا يسمح لها إلا بأن ترى خيطا خافتا من نور يدخل الغرفة.. على الأقل كان هذا كافيا كي تفهم أن الوقت نهار، وتتبين أبعاد المكان الذي هي فيه..
نظرت للوراء حيث كان باب مغلق يوحى منظره بأنه عسير الفتح.. مغلق من الخارج غالبا..
و (عبير) ذكية كما نعلم.. لهذا قدرت أنها سجينة.. فهمت الأمر سريعا كما يفهمه أي قط متوسط الذكاء، وبدأت تخمش بأظفارها وتدق الباب إن رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) يصيب الصحفيات الإنجليزيات كأى واحد آخر..
بعد ثوان من الصراخ والخمش، سمعت من يعبث بالمفتاح من الجانب الآخر.. انفتح الباب ودخل (شريف)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعني هنا طبعا أن من دخل هو (شريف)، لكنه يحمل ملامح (شريف) زوجها ويتكلم مثله، وفي هذه اللحظة فهمت (عبير) باقي القصة: السوف تحب هذا المصرى وتتبنى قضيته.. وينتهى الأمر بها وقد صارت مصرية قلبا وقالبا..
لا يمكن أن تتخذ الأمور منحى آخر، لأن ظهور (شريف) المعتاد هو العلامة.. لابد من قصة حب ما.. مع من؟ مع من يحمل ملامح زوجها.. الأمر منطقى وممل تماما، و (دى - جي) هذا لم يعد مجددا في أحداث القصص.. تبا له..
كان وسيما طبعا كما اعتادت أن ترى (شريف) لكنه كان مصفف الشعر بأسلوب عتيق، وقد وضع عليه - فيما يبدو - طنا من (الفازلين)، حتى صار يلمع كغلاف هذا الكتيب.. وكان يلبس قميصا أبيض مفتوح الياقة غير مزرر الكمين.. الخلاصة أنه بدا خارجا من أحد الأفلام القديمة الصامتة، وتوقعت في أية لحظة أن يمشي مثل (شارلي شابلن)..
يداه تحملان صينية عليها بعض الشطائر وكوب من الشاي..
قال لها بإنجليزية لا بأس بها وهو يضع الصينية على منضدة صغيرة مهشمة الأرجل:
- أنت استعدت وعيك؟ لحسن الحظ....
كان صوته هادئا مريحا من الطراز الذي يصلح لأن تحبه باقي القصة.. لكنها قررت أن تؤدي دورها حتى النهاية:
- أين أنا؟ ومن أنت؟ وماذا تريد مني؟
قال لها مبتسما:
- السؤال الأول لن أجيب عنه.. السؤال الثاني إجابته أنني أدعى (محمود أحمد فؤاد). طالب في مدرسة الحقوق.. السؤال الثالث إجابته أنني لا أريد شيئا منك....

قالت في عصبية:
- أنا (دوروثي ثورنوايلد).. صحفية بريطانية، وليس من حق.....
- أعرف.. لقد تفحصت أوراقك
- السؤال الرابع هو: ماذا أفعل أنا هنا؟
حك رأسه وقال وهو يتجه للباب:
- كنت فاقدة الوعي لو كان هذا عملا يمارس وقد أحضرناك إلى هنا وقد أوشك الزحام على تهشيم جسدك.. كان من العسير تركك تتحولين إلى دقيق تحت الأقدام، لقد كافحنا حتى أبعدنا الناس عنك، وحملناك إلى هذا الزقاق الذي كنت بجواره حملا، ولم يلاحظ أحد ما حدث لأن كلا كان مشغولا بنفسه، وباتقاء الرصاص المتطاير من كل صوب..
- إذن أنا شاكرة لكم، والآن أرجو أن تسمح لى..
حك شعره من جديد في ارتباك، وغمغم:
- هنا يأتي الجزء المخرج من الموضوع.. لابد من الانتظار..
- انتظار ماذا بالضبط؟ الاستقلال؟
ضحك قليلا تلك الضحكة العصبية التي توحي بأنه لا يجد ما يضحك في هذا، وقال:
- إذن لكان انتظارك قصيرا جدا.. ولكني أرجو أن تصبري قليلا حتى يأتي رفاقي وعندها ستفهمين كل شيء..
- إذن أنا سجينة هنا؟
قال وهو يفتح الباب، ودون أن ينظر إليها:
- ليس بالضبط.. لنقل إنك ضيفة برغم إرادتك!
كان هذا هو آخر ما قال، ومن جديد ساد الظلام والصمت، وعادت وحيدة تختلس النظر إلى أرجاء الغرفة.. الأمر واضح.. لقد سمحت لنفسها بأن تفقد الوعي، وهكذا صارت غنيمة باردة لمجموعة من المصريين حملوها إلى هذا المكان، والآن هي رهينة لديهم.. خطفوها لكنها لا تعرف الغرض من خطفها لو كانوا يريدون تهديد الإنجليز بقتلها لو لم تنل مصر استقلالها، فهم مخطئون بالتأكيد! ولو كانوا يريدون مبادلتها ب. (سعد باشا) فقد تأخروا قليلا إن الرجل حر الآن.
كانت الشطائر لا بأس بها، ومن الغريب أنها كانت تحوي اللحم والسجق.. هذا غريب.. والأغرب أن اللحم كان مطهوا بعناية بطريقة توحي بأنه بيتي أما الشاي فكان أثقل مما تتحمله لكنها شربته للنهاية باعتباره نوعا من الدواء يعيد لها الوعى قليلا..
مرت الساعات ثقيلة.. وهي لا تجد ما تفعله إلا النظر في أرجاء الغرفة، ثم قررت أن تبدى المزيد من الفضول.. ركعت على ركبتيها ونظرت إلى ما تحت الفراش.. كان هناك صندوق ورق به زجاجات كيماوية ما، وكانت هناك عدة قطع من المواسير في كيس.. لا يزيد طول القطعة على عشرين سنتيمترا.
ما هذا وما معناه؟
إن المواسير وزجاجات المواد الكيماوية ليست من الأشياء المسلية للأسف، لهذا عادت إلى الرقاد على الفراش وراحت ترمق السقف في الظلام.. تستطيع عيناها أن تريا الأرض إلى حد لا بأس به.. لقد بدأت الشمس تغيب، لكنها ترى الأرض جيدا، وتتساءل عن هذه البقعة التي تتحرك هناك.. بقعة قاذورات حية؟ هذا غريب.. ثم فهمت على الفور.. والفهم جعلها تصرخ قبل أن تتأكد مما رأته..

.. إى ى ى ى ى ى ى.
وهرع الفأر يتوارى تحت الفراش، بينما وقفت هي تطلق الصرخة تلو الصرخة.. وصار من المستحيل الآن أن تهبط من على الفراش أو تنام ثانية واحدة..
سمعت المفتاح يولج في الباب
واندفع - بحركة درامية مثيرة - ثلاثة من الشباب المطربشين إلى الغرفة، وقد بدا من هيئتهم أنهم يستعدون لقتال جيش (نبوخذ نصر) نفسه.. هذا طبيعي ما دامت قد صرخت كأنثى وجدت نفسها أمام جيش (نبوخذ نصر) نفسه.. وكان (محمود) هذا أول الثلاثة، وأول من فطن إلى حقيقة ما جرى....
- الفأر.. أليس كذلك؟
صاحت وهي تضرب المرتبة بقدميها
- الفأر؟ إذن هناك واحد معروف لديكم؟
- في الحقيقة.. هناك اثنان.. لكني لم أتوقع أننا حبسنا أحدهما معك..
وقال آخر مفتول العضلات ضيق الجبهة من طراز هواة المشاجرات إياهم:
- إنه خبيث كالثعابين، وقد التقط رأس السمكة من المصيدة دون أن تنغلق عليه..
صاحت في جنون:
- إذا كنتم تنوون سجني هنا فأنا أطالبكم من الآن بقتلي..
قال لها (محمود) - الذي بدا أرجح الثلاثة عقلا - وهو يرفع يده ليهدئها:
- حسن.. حسن.. سأتصرف.. أين هو الآن؟
- ت.. تحت الفراش..
كان يحمل مكنسة في يده لأنه كان يتوقع شرا أكبر، لهذا انحنى على ركبتيه وراح يعبث هنا وهناك تحت الفراش، حتى خرج الحيوان الأسود الكريه جاريا بين أقدامهم من فرجة الباب.. وهوى ضخم الجثة عليه بحذائه الثقيل، لكنه كان قد تأخر نوعا..
أما وقد استقرت الأمور، فقد وقف (محمود) باسما وأصلح من وضع الطربوش على رأسه، وقال وهو يشير للآخرين:
- الآن يمكننا الكلام.. أنت هنا في دارى وهذان صديقاى (مصطفى زاهر) و (شفيق مترى).. كلنا طلبة في مدرسة الحقوق..
أما ضخم الجثة فكان (مصطفى) وأما النحيل حزين الملامح فكان (شفيق).. وضعت (عبير) يديها في خصرها وقالت:
- تشرفنا.. هل لي أن أفهم لماذا أنا سجينة هنا؟
- لم يقل أحد إنك
- نسيت.. معذرة.. لماذا أنا ضيفة برغم أنفي؟
- ألا ترين أن الكلام سيكون أسهل لو نزلت من فوق الفراش؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها (محمود) حين هدأت الأمور قليلا: إن الإنسانية هي السبب الوحيد الذي جعلهم ينقذونها لكن هناك عدة عوامل تجعل إطلاق سراحها عسيرا إن الصينيين يقولون إن الإمساك بذيل النمر سهل لكن تركه مسألة أخرى! لقد تسرعوا بجلبها هنا، لكن إطلاق سراحها سيجلب عليهم الوبال

العامل الأول: هو أنك إنجليزية.. ونحن نكره الإنجليز جدا.. ليس إلى حد قتل نسائهم طبقا لكن الإغراء شديد من دون شك.. أو هذا ما يراه (مصطفى زاهر) ....
العامل الثاني: هو أنك ستخرجين من هنا لتقابلى (اللنبي) شخصيا وتزعمي أننا خطفناك.. ولن يتكلم أحد وقتها عن إنقاذك من الموت في الزحام.. هذا رأي (شفيق متري)..
العامل الثالث: من يدري؟ لربما كان الخطف فكرة لا بأس بها، ويمكننا عندها أن نضغط على قومك للإفراج عن بعض رجالنا.. هكذا بدأ يصير رأيي..
قالت في سخرية:
- لو حسبتم هذا فأنتم حمقى.. سيترك لكم الإنجليز حرية قتلى، ولسوف يرسلون للوطن يقولون إنني قبلت الموت راضية من أجل التاج..
- هذا يجعلنا نتكلم عن العامل الرابع وهو الأهم كيف نطلق سراحك وأنت تعرفين عنا ما تعرفين؟
- لا أعرف ماذا؟
- لا داعي للادعاء.. أنت رأيت ما تحت الفراش.. لا تنكري هذا.. لقد رأيت الصندوق بينما كنت تطاردين الفأر، وعرفت أنك فتحته ورأيت ما به!!

7- ضيفة برغم أنفها..

(هل سمعت هذا العنوان من قبل؟)
قال من عرفنا أن اسمه (مصطفى) وهو يضرب بقبضته كفه:
- لا يمكن لهذه الفتاة أن تخرج من هنا حية. اسمع.. سنأخذها الليلة إلى المقطم ومعنا جوال و...
- هلا التزمت الصمت قليلا؟
ثم نظر لها (محمود) وقال باسما:
- كما ترين.. هناك إلحاح جماهيري غير مسبوق لقتلك
وأخرج من جيبه مدية ومد كفه بها ل (مصطفى) وقال دون أن ينظر إليه:
- لماذا لا تفعل هذا الآن؟ إن المكان يسمح ولسوف نزيل آثار الدماء بسهولة.
وقف (مصطفى) ينظر إلى المدية كأنما ينظر إلى ثعبان ودس يديه في جيبه كأنما يخشى أن يلمسها دون أن يقصد.. مرت دقائق ثم همس والعرق يحتشد على جبينه:
- سبحان الله.. ولماذا أفعل هذا وحدي؟
في هدوء أعاد (محمود) المدية إلى جيبه، وقال وهو ينظر لها محتفظا بابتسامته:
- كما ترين.. ليس بيننا قاتل نساء.. حتى لو كن إنجليزيات.. إن (مصطفى) عنيف شديد المراس، لكنه طيب القلب.. وتلك هي المشكلة.. لن يجرؤ.. لن يجرؤ أحدنا على قتلك.. لكننا لا نستطيع تركك تفرين بعدما رأيت....
سألته:
- وما الذي رأيته؟
- أنت تعرفين أن هذه متفجرات وأننا فدائيون..
تساءلت في غباء:
- هل تعني أن هذه متفجرات وأنكم فدائيون؟
- بل عنيت أن هذه متفجرات وأننا فدائيون!
- وكنت أنام على فراش تحته كل هذه المتفجرات؟
- يبدو هذا.. والآن ترين أننا لن نستطيع تركك ترحلين..
ساد صمت رهيب لبضع دقائق.. الآن تفهم (عبير) وضعها بوضوح إنها أسيرتهم لأنها إنجليزية، ولأنها تصلح للضغط، وحتى لا تزعم أنهم خطفوها، وحتى لا تبلغ عما رأته..
تمنت أن تقسم له إنها لن تبلغ عنهم، لكنها لم تفعل.. أولا هم لن يصدقوها.. ثانيا هي لا تضمن تصرفها حين تخرج من هنا.. إنها تكرههم بالفعل ومن الواضح أنها تمارس دورها كبريطانية متعالية بأمانة ودقة.. من يدريها أنها لن تتصرف بأمانة ودقة حين تخرج من هنا؟
قالت له في غيظ:
- ألا ترى أنك تصرفت بحماقة؟ لقد وضعتني ووضعتكم في مصيدة لا فكاك منها.. والآن يبدو أنني سأظل هنا حتى يخرج الإنجليز من مصر.
- هذا حق.. لكنني لم أتحمل أن أراك تهرسين في الجدار.. وأرجو أن تسامحيني لو قلت إنك أيضا تصرفت بحماقة.. كيف تمشي امرأة بريطانية وسط هذه المظاهرات الغاضبة على بريطانيا؟ إن للانتحار طرقا أخرى كثيرة.. لا أشك أن البريطانيين كانوا يعتبرونك مجنونة

هنا دخلت الغرفة امرأة مسنة ترتدي طرحة وجلبابا.. كان منظرها غريبا بحق وسط المكان الذي كان يبدو كخلية ثورية من دقائق.. نظرت ل (عبير) في فضول ونظرت للشباب، ثم قالت:
- هل هذه هي الخواجاية؟ إنها جميلة.. لابد أنها لم تأكل شيئا منذ التهمت الشطائر.. إن الغداء.. مُعَدّ.
- حالا يا أمي..
كان المشهد غريبا بحق.. إذن هذا بيت عادى جدا.. بيت أسرة يطهى فيه الطعام.. هذا طبعا يفسر شطائر اللحم ذات المذاق البيتي.. فماذا عن المفرقعات التى تحت الفراش؟ ومنذ متى تسمح الأمهات باستجلاب الأسيرات البريطانيات إلى بيوتهن؟
أشار لها (محمود) باسما وقال:
- إن أمي طاهية بارعة.. وهي تصر على أن تتناولى الغداء معنا..
ولما رأى السؤال في عينيها قال:
- كل بيت صار جزءا من الثورة.. لم يعد بيت مغلقا على نفسه.. حتى ربات البيوت اللاتي لم يرين الشمس قط، صرن يفتحن بيوتهن ليخفين الهاربين والجرحى.. إن قومك قد أحدثوا تطورا رهيبا في سلوكياتنا..
ثم همس لها في خبث:
- لكنها بالطبع لا تعرف إلا أقل القليل من القصة.... هي لا تدخل الغرفة التي أنت فيها، ولا تعرف شيئا عن المفرقعات، وإلا لأصابها الجنون.. وهى بالمناسبة صماء تماما لا تتفاهم إلا بالإشارات فلا تعتقد أنها ستتضايق من صراخك..
كانت المائدة معدة في الصالة.. مائدة مستديرة صغيرة عليها قلة ماء، وبعض أرغفة الخبز وبضعة أطباق يتصاعد البخار من محتوياتها التي هي قليل من الخضر واللحم.. ولا حظت (عبير) أن باب الشقة قريب جدا وأن له شراعة كبيرة لا بأس بها لا يفصلها إذن عن العالم الخارجي إلا زجاج مصنفر واه.. هذا جميل.. هذا واعد.. لكنها لم تقرر شيئا كهذا بعد.. أما عن الصالة نفسها فكانت عارية من الأثاث.. لا شيء عدا مقعدين عتيقين صغيرين تتوسطهما منضدة عليها مصحف..
الآن يفتك الشباب بالطعام فتكا، والعجوز لا تجلس معهم إنما تقوم بإمداد المائدة بالمزيد من الطعام.. واضح أن صديقي الشاب معتادان على البيت ولا يشعران إلا بأنه بيتهما...
قال (شفيق) وفمه مليء بالطعام:
- سيسافر عدد من أعضاء الوفد إلى (مالطة) للحاق ب (سعد باشا).. ومن هناك ينطلق الجميع إلى باريس للمشاركة في المؤتمر..
- سيسافرون يوم 11 إبريل إلى بور سعيد ومن هناك إلى مالطة..
- هذا يعني أن علينا الانتظار.. لم يعد لنا دور في هذا كله..
لم تكن (عبير) تأكل وإنما كانت تبلل اللقمة بالحساء مرات لا حصر لها هي أسيرة في بيت مصري، تتناول الغداء مع مجموعة من الثوار ضد بلدها.. هذه ظروف غريبة.. ظروف جديرة بعالم الخيال طبعا.. لكنها سرت إذ تذكرت أنها صحفية وأن كل تجربة جديدة إضافة لا شك فيها إلى رصيدها المهني.. تجربة الحياة مع مجموعة من الثوار.. وأن تكون رهينة.. كم أن هذا ممتع، والأهم أنها تستطيع الهرب بشيء من الجهد متى أرادت.. ليس هذا مستحيلا.. كانوا يسخرون من الشخص المتراخي بقولهم إنه لا يستطيع حراسة امرأة عجوز.. الآن (عبير) نفسها في حراسة امرأة عجوز صماء!

تناول (مصطفى) القلة فرفعها إلى فمه في قوة وفتوة لا داعي لهما، وراح يكرع الماء في نهم كأنما يملأ بئرا.. ثم.
أأأأأه! تجشأ وتمطى ونهض وهو يردد: سلمت يداك يا حاجة! لكن الحاجة لم تسمع طبعا..
ثم تصاعدت رائحة التبغ، مع أكواب الشاي كانوا الآن يتكلمون عن توزيع المزيد من المنشورات تفضح ما قام به الإنجليز عندما احتفل الشعب بالنصر.. كانوا يتكلمون عن مطبعة في الأزبكية تقوم بهذه الأمور، وبدا شيء من الانزعاج على (عبير) فقال لها (شفيق):
- أنت تعرفين ما هو أسوأ من مطبعة للمنشورات.. نحن مكشوفون أمامك تماما ولا داعي للتمثيل مادمت لن تخرجي من هنا.. على الأقل الآن
قال (محمود) وهو يفرغ كوب الشاي في جوفه، ويلوك البقايا:
- إن الاستقلال دان.. أراه على الأبواب.. ولسوف تخرجين من هنا!
صاحت في غيظ، وهي تزيح كوب الشاي الموضوع أمامها:
- يا للسماء! على أن أنتظر هنا حتى تنالوا استقلالكم! حتى لو تم هذا بعد مائة عام!
- من يدري؟ - وشردت عيناه قليلا- ربما نموت سريعا وتتحررين أنت.. إن من يعيش حياتنا لا يعيش طويلا جدا..
ثم أشار لها بأدب إلى حجرتها السابقة:
- لو سمحت لنا الآن.. يجب أن أطمئن عليك قبل أن أرحل...
نهضت.. ومشت إلى الحجرة، وقالت على الباب منذرة:
- لن أبقى بالداخل مع كل هذه المفرقعات.. ليس ثانية!
- اطمئنى.. لن نفعل هذا.. حتى على سبيل الاطمئنان على أنفسنا..
وركع تحت الفراش ليخرج الصندوق إياه، فيحمله لاهثا إلى الخارج، ثم أشار لها في أدب كى تنتظر بالداخل، وأضاف:
- سأحاول أن أجد لك بعض الروايات المسلية بالإنجليزية، ولا أنصحك بالصراخ حتى لا يبح صوتك.. إن في هذا الزقاق مقهى لا يكف صخبة طيلة الليل ولو انفجرت قنبلة هنا فلن يسمع أحد شيئا، ثم إني لا أضمن ما قد يقومون به لو عرفوا أنك إنجليزية!
وأغلق الباب وسمعت المفتاح يدور فيه من الخارج، فضغطت على شفتها السفلي في غيظ، ثم.. تمددت على الفراش تفكر.. حانت منها نظرة إلى الأرض فرأت
آآآآآآه هـ هـ هـ هـ هـ!!
دوي صراخها حين لمحت الذيل الأسود يتلوى هناك تحت الفراش، لكن أحدا لم يبال بها هذه المرة.. لقد عاد الفأر بعد طرده، فقط ليحبس معها في غرفة واحدة!!
يبدو أن ليلتها الأولى هنا لن تكون سارة جدا.



دوي صراخها حين لمحت الذيل الأسود يتلوى هناك تحت الفراش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- ضيفة برغم أنفها..

(بدأت أشك في أنني أكرر العناوين)
اقتحموا الغرفة - بعد دقتين أو ثلاث على الباب ووقفوا حولها واجمى الوجوه.
نظرت لهم (عبير) في عدم فهم، وتساءلت:
- ماذا هنالك؟ هل رأيتم فأرا؟
قال (محمود) وهو ينظر إلى الأرض:
- لقد انعقد مؤتمر (فرساى).. وقد أقروا بأن لإنجلترا الحق في فرض حمايتها على مصر..
فكرت في الكلمات قليلا؟ هذا سيئ.. سيئ لهم ولها.. هم فقدوا الأمل الذي علقوه من دهور على هذا المؤتمر، وهي تخشى ردة فعلهم.. كان عليهم أن يتوقعوا هذه النتيجة...
سألتهم وهي تنهض من الفراش الذي تحجرت أطرافها بسببه:
- فقدت الاحساس بالزمن.. أي يوم هذا؟
- الثامن من مايو.. لقد أعلن المؤتمر هذا أمس
الثامن من؟ معنى هذا أنها حبيسة هذه الغرفة القذرة منذ شهر؟ لم تغادرها إلا لدخول الحمام وكان هذا في وقت محدد مرتين يوميا كما يفعل المساجين عندما تفتح لها العجوز، والغريب أنها لم تحاول الهرب قط طيلة هذا الشهر..
أشار (محمود) إلى الأرض جوار الفراش، وسألها بلهجة من لا يهتم بسماع الإجابة:
- ما هذا؟
نظرت إلى حيث أشار، وأجابت:
- إنه الفأر.. لما لم أجد فائدة من طرده قررت أن أهادنه وصرنا صديقين..
كان الفأر يقضم قطعة من الخبز، ولم يبد مهتا أدنى اهتمام بالفرار من المكان.. يبدو.. يبدو أنه صار يعتبر نفسه كائنا بشريا له حقوق وعليه واجبات..
قال (شفيق) وهو يعض على أنامله:
- الأدهى أن الموظفين أنهوا إضرابهم..
- والولايات المتحدة التي اعتبرناها صديقا أقرت لبريطانيا بالحق في فرض حمايتها..
- هم مجموعة من المنافقين.. يلعبون اللعبة.. ببراعة..
قالت (عبير) وهي ترمي للفأر بقطعة خبز أخرى:
- لو كان لي أن أتكلم بصراحة لقلت إنكم سذج إن هذه الألعاب للكبار.. الدول الكبرى تتبادل المجاملات وتلتهم الدول الصغرى في أناقة، ودون أن تنسى قواعد (الاتيكيت).. إن فرنسا دولة استعمارية. والولايات المتحدة بنيت فوق عظام الهنود الحمر فهل تتوقعون من أحد أن ينصفكم؟
- حسبنا العدل شيئا حقيقيا له وجود..
- هذه الدول تحب العدل.. لكن فيما بينها إنها تعتبركم تحت مستوى العدل، وغير مؤهلين لأن تحكموا أنفسكم..
كور (مصطفى) قبضته، ونفرت عروق رقبته وقال في غلّ:
- لسوف نريهم من.. نحن.. إن (سعد باشا) لن يسكت لهم..
إنه من الطراز - فكرت (عبير) - الذي يعتقد أن كل شيء يحل بالضرب، فلو أن بريطانيا تجرأت

ووقفت أمامه في مشاجرة فلسوف ينتهي الصراع سريعا.. قالت له في برود:
- (سعد باشا) مقهور مثلكم، ولسوف يعانى الأمرين في أروقة المؤتمرات، لكنه لن ينال إلا ما تمنحه إياه الدول العظمى..
قال (شفيق) وهو يجهش بالبكاء ويغطى وجهه كى لا يتشفى أحد في دموعه:
- الغرب هو الغرب.. مجموعة من الأفاعي اتخذت شكل دولة..
- وقال (مصطفي) وهو يمد يده في جيبه:
- أعتقد أن الوقت قد حان كى نفعل ما اتفقنا عليه.. لكن أولا من الخلاص من رموز الاستعمار كلها!
وافقه (محمود) - لشدة دهشتها - وهز رأسه في أسى قائلا:
- إنها لن تبقى هنا للأبد.. لن أمنعك هذه المرة يا أخي....
- متى؟
- الليلة بعد أن تنام الحاجة!
- والخروج بالجثة؟
- إن حقيبة كبيرة تصلح، ونحن طلبة... سيعتقد أن الحقيبة تحوي كتبا دراسية!
-وأين؟
- نتخلص منها؟ في المقطم طبقا.. أين غير المقطم يتخلصون من الجثث؟
كادت تجن.. هؤلاء السادة يناقشون تفاصيل قتلها ودفنها، والغريب أنهم يفعلون هذا برقى بالغ، فلو تمادوا قليلا لأخذوا رأيها.. وما كانت لتدهش لو فعلوا..
- أنتم مجانين، قلتم من قبل مرارا إنكم لا تقتلون النساء..
- كان لدينا أمل.. أما الخطر الحقيقي فهو الثائر الذي لم يعد يملك ما يخسره!
تذكرت هذه العبارة.. لقد قالها (اللنبى) وكانت صادقة طبعا.. وما لم تفهمه (عبير) لكننا نفهمه لأننا عباقرة؛ أنه مهما تباين الطغاة فهم حذرون بعيدو النظر بيرون الخطر قبل وقوعه.. قليلون من الناس يعتبرون الأفلام خطرة، لكن (هتلر) أدرك هذا قبل سواه، ومنع عرض فيلم (المدرعة بوتمكين) في ألمانيا، وهو بهذا كان أذكى وأبعد بصيرة من مثقفين كثيرين لا يرون في السينما إلا تسلية.. ولأسباب كهذه منع (بونابرت) رجاله من مضايقة النساء المصريات - تحت طائلة الموت - وكان (جوبلز) يتحسس مسدسه كلما سمع كلمة (ثقافة)، وأعاد الخديوي بعثات الدارسين بالخارج - وفيهم (على مبارك) - لأن الأمة الجاهلة أسهل حكما من الأمة المتعلمة..
صاحت والدموع في عينيها مزيج من الرعب والغيظ:
- وأنتم لن تقتلوا صحفية بريطانية بهذه البساطة
قال (محمود) في أسى وهو يشير لرفاقه نحو الباب:
- لماذا؟ ليس هناك دم أغلى من دم.. ولا روح أثمن من روح.. أنت لست أهم من كل من ماتوا من رجالنا ونسائنا..
وقبل أن تواصل الكلام كان الرفاق الثلاثة قد أوصدوا الباب عليها وانصرفوا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أنها جابت الغرفة ألف مرة كنمر حبيس وهي تنتحب.. لن يحدث هذا لي.. لابد من الفرار.. لابد.. وفكرت في النافذة، لكنها كانت موصدة بشكل لا يسمح إلا ببصيص من نور كما قلنا.. إذن هو الباب.. ولكن كيف؟

جاء الحل بسهولة غير متوقعة لأن العجوز طرقت الباب من الخارج.. وقالت بصوتها الذي لا تتحكم في ارتفاعه كعادة الصم:
- موعد الحمام يا بنيتي..
هذا موعد دخول الحمام، وكانت أحشاء (عبير) قد اعتادت هذا المؤثر البافلوفي، حتى إن الطرقة كانت تصيبها بمغص شديد.. يبدو أن أهل الدار حمقى إذا كانوا سيتبعون نفس الروتين بعد ما عرفت (عبير) ما عرفت.. يبدو كذلك أن هذه هي الفرصة الأخيرة..
دار المفتاح في الباب، ثم ظهر وجه العجوز الطيب الباسم المغضن.. وتنحت جانبا لتسمح ل (عبير) بالمرور، فهرعت هذه إلى الحمام في حماسة كما تفعل كل يوم.. ثم خرجت منه لتجد العجوز جالسة في الصالة تحيك شيئا وتنظر - كالعادة - أن تدخل (عبير) الغرفة بنفسها.. لابد من قتال والتحام جسدي، لكن العجوز في حال مخجلة.. إنها عجوز جدا لا تغرى بأي نوع من العنف..
في ثبات مشت (عبير) إلى الباب وأدارت المقبض..
تبا.. الباب موصد من الخارج..
نظرت الأم من فوق كتفها إلى (عبير) ورأت ما تفعله، فقالت دون اهتمام:
- (محمود) يغلق الباب عليّ من الخارج دائما أنا لا أخرج أبدا كما ترين..
- تبا لكِ ول (محمود)!
لكن العجوز - طبعا - لم تسمع حرفا، واحتفظت بالابتسامة على وجهها، ومن جديد عادت للحياكة.. لا يوجد سوى حل واحد: حياتها أمام حياة العجوز.. اتجهت المائدة الطعام التي كان عليها طبق به بعض قطع الجبن وسكين.. سكين لا بأس بها.. وعندما يدخل (محمود) لن تطلب إلا شيئا واحدا: حريتها مقابل سلامة الأم.. ملت يدها إلى السكين.. قبضت عليها واتجهت إلى العجوز.
هنا سمعت مفتاحا يدور في الباب..
ثم انفتح الباب وظهر (محمود).. لم يكن خالى اليدين، بل كان يحمل حقيبة كبيرة.. حقيبة تكفي لحملها هي.. فما إن رأى العجوز و (عبير) والسكين حتى أجرى الحسابات اللازمة في ذهنه:
الإنجليزية + الأم + السكين + الصالة = أي!
صاح وهو يلقي بالحقيبة أرضا ويوصد الباب:
- أتركي هذه قبل أن تجرحي أحدا..
- هذا لن يكون..
- أنتِ حمقاء.
ثم جرى نحوها، وقبل أن تفهم ما يحدث كان قد انتزع السكين من يدها بطريقة فنية لم تدر ما هي، وحمل الحقيبة، وجذبها من يدها نحو الحجرة.. أجفلت ولكمته في صدره وهي تنشج، لكنه قال لها:
- لن أقتلك يا حمقاء.. لو هدأت قليلا لفهمت كل شيء..
كل هذا والعجوز لم تسمع حرفا.. فقط نظرت للوراء فرأت ابنها، وتهلل وجهها..
في الغرفة دخل (محمود) و (عبير) معه جلس على الأرض وجلست هي على الفراش كما أمرها، وقال لها وهو يتأمل السكين:
- مجنونة! أنت مجنونة.. كنت ستقتلين أمي.. كل سكان جزيرتكم مجانين..
- ما كنت لأقتلها.. فقط أردت أن أضمن حياتي..

- لا خطر على حياتك يا بلهاء.. أنا لا أقتل النساء، خاصة إذا كن معدومات الحيلة حمقاوات..
- ظننت أنني سمعت كلاما عن الخلاص منى وعن الحقيبة التي ستوضع فيها جثتى
- كل هذا هراء.. لقد عانيت الكثير من الألم حتى أذبح هذه الدجاجة! إن (شفيق) و (مصطفي) كانا يتكلمان في جنون الصدمة، لكنهما مثلى لا يقدران على ارتكاب جريمة قتل باردة..
وفتح الحقيبة، ففوجئت (عبير) بأنها غارقة بالدم من الداخل، وكانت هناك دجاجة مذبوحة.. منظر غريب لا يخلو من البشاعة ولكن لماذا؟ قال لها:
- هذه هي مشكلة أن يكون المرء قائد مجموعة ثورية.. لا يمكن أن يبدو واهن القلب.. لابد يقتنع الجميع بأنني تخلصت منك، وأن الخطر زال..
نظرت له في عدم فهم، فهز رأسه مؤكدا: أن
- نعم.. كما تتوقعين بالضبط.. سأحشو ملاءة ببعض الأثقال والأقمشة القديمة وألطخها بدماء الدجاجة، ثم أضعها في الحقيبة.. عندما يعود.. صديقاى ليلا سيجدان أنني سبقتهما بأداء المهمة بنفسي.. سيصدقان ما أقول.. لا داعي لفتح الملاءة لأن المنظر ليس جميلا.. ولسوف نذهب للخلاص من الجثة في جبل المقطم، بينما تكونين أنت قد رحلت..
- هل تعني؟
- أظن أنني واضح.. سأطلق سراحك الآن لكن بشرط..
هزت رأسها في حماسة وهي تبتلع ريقها:
- نعم.. نعم.. ولا كلمة عما رأيته هنا..
- لا أدري إن كان هذا خطأ عمري، لكني سأجرب أن أثق بك.. وأملى أن أجد لدى الإنجليز بعض الشرف ورد الجميل.. أنت لست (اللنبي) على كل حال..
من جديد سألته وهي تنتفض انفعالا:
- لماذا تخاطر؟
- أكرر أنني لست قاتلا.. أعني أنني اقتل الجنود فقط أو هذا ما أنوي عمله.. ثم إنني لا أستطيع قتلى أنت بالذات لأن..
ولم يكمل فكأنما قال كل شيء.. وهمست (عبير) في سرها: كنت على حق.. لابد من أن أقع في حبه أو يقع في حبي كما يحدث في الأقلام.. لكني لن أعلق لأنه لا وقت عندي لهذا الهراء..
قالت له وهي تنهض وتبحث عن حذاءيها اللذين لم ترهما منذ شهر:
- هل أرحل الآن؟
نظر للضوء الذي خبا متسللا من النافذة، وقال:
- دنا الليل.. يمكنك الرحيل فعلا.. وأنا أعتمد على كلمة شرف منك.. فهل تعدينني؟
- أعدك.. تبا! لقد انتفخت قدماى من طول الحفاء.. أم لعله الحذاء قد انكمش؟؟
- لو مشيت في الشارع الرئيسي حتى نهايته لوجدت ثكنات الجيش الإنجليزي.. هم سيعتنون بك....
واتجهت نحو الباب، وودت لو تسأله عن مرآة. إنها لم تر وجهها في المرآة منذ شهر، كما أنها ظلت بالثوب ذاته.. لابد أن منظرها يصلح للتسول لكن لا يهم.. متسولة حية خير من أميرة ميتة.
وعبرت الصالة متجهة للباب فلم تسألها الأم عن شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مأزق..

أما ما لم تره (عبير) فهو أن الصديقين الآخرين عادا عند منتصف الليل.. كانا مرتبكين، وكان شفيق) أول من تكلم:
- (محمود).. لا أريد أن أبدو (طريا).. لكن هذه الفتاة لم تفعل شيئا لنا.. ليس ذنبها أن قومها أوغاد..
وفرك (مصطفى) يديه في توتر وقال:
- أنا.. أنا عنيف متوحش كما تعرفني.. لكن من أن يقال إنني.. قتلت امرأة.. هات لى (اللنبي) نفسه لأصنع منه عجينا.. لكن.. امرأة..
ابتسم (محمود) ابتسامة غامضة.. كان يتوقع شيئا كهذا لكنه لم يضمنه تماما، وعلى كل حال صار على هؤلاء الفتيان أن يذوقوا نصيبهم من الخدعة..
- تأخر الأمر يا صديقي.. لقد فعلتها منذ ساعة!
ابيض وجها الشابين وجف ريقهما.. وقالا بصوت واحد:
- أنت؟ أنت فعلتها؟ ولماذا لم تقل لنا؟
- لأني توقعت أنكما ستقولان ما تقولان الآن.. وأشار إلى الحقيبة العملاقة الموضوعة على باب غرفة الفتاة.. وقال:
- هي بالداخل تنعم بسلام تام.. هل ترغبان في رؤية الجثة؟ لا؟ توقعت هذا.. لقد قمت بتنظيف المكان جيدا ولم تسمع أمي صوت الصراخ.. والآن من يساعدني على التخلص منها؟
تبادل الصديقان النظرات، ثم اتجها إلى الحجرة ليقوما بالمهمة الكريهة.
المهمة التي لا يعرفان أنها دفن بعض قوالب القرميد ودجاجة مذبوحة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الضابط الإنجليزي ل.(عبير) وهو يتأملها بعمق من خلال سحب الدخان:
- مازلت مصرا يا آنسة (ثورنوايلد) على أنك تستطيعين مساعدتنا..
هزت رأسها مرارا وقالت وهي تتحاشى عينيه الزرقاوين الحادتين:
- لا أستطيع.. الأمر هين.. لقد كانت عيني معصوبة في الذهاب والإياب..
- ولم تسمعي بعض الأسماء؟ لابد أنهم تبادلوا بعضها....
- كانوا يستعملون الأرقام في التفاهم.. وإن كنت أعتقد أن أحدهم يدعي (محسن).. نعم.. هو كذلك.. (محسن).. كما أنني سمعت صوت قطار يمر جوار البيت أكثر من مرة ويرجه رجا.. كان البيت جوار خط القطار....
نظر لها نظرة ثاقبة.. هذه الفتاة تكذب.. فليقطع ذراعه إن لم تكن تكذب.. لكن لماذا؟ وكيف يثبت هذا؟ المفترض أنها من مواطني التاج ومطلقة الولاء، ولسوف يهينها أن اتهمها بشيء..
قال وهو يدون ما قالته:
- هذه معلومات مهمة للغاية.. كل ما علينا هو البحث عن شاب يدعى (محسن) يعيش قرب السكك الحديدية.. أنت تسهلين حياتنا يا آنسة..
- هذا هو هدفي الأوحد..
مرت لحظات من الصمت.. لحظات ثقيلة الوطء على الأنفاس والروح، وقد ثبتت نظرها على

النافذة ذات القضبان الحديدية وراءه، حيث كانت ترى الفناء الخلفي، والخيول الواقفة تشرب من حوض الماء، وحيث كانت مجموعة من الجنود المصريين يقفون صفا، بينما عريف إنجليزي يصدر لهم الأوامر..

أخيرا قال لها الضابط وهو يصفق بيديه:

- ثمة شيء أرغب في أن تريه..

بعد ثوان ظهر جندي وأدي التحية، فأمره الضابط وهو يرمقها بعينين لا تطرفان:

- هات السجين..

رفعت رأسها لترى من أحضره الجندي.. في البدء لم تتعرفه من وجهة المتورم والدماء الجافة الملتصقة به.. كان الأمر يبدو غير حقيقي فهي لم تر هذا التشوه من قبل إلا في السينما، لكن الأمر واضح لا شك فيه، وحقيقي تماما.. هذا رجل تم استخدامه كمضرب (هوكى)، أو أداة يتمرن بها (كينج كونج) على الوثب..



رفعت رأسها لترى من أحضره الجندي.. في البدء لم تتعرفه
من وجهة المتورم والدماء الجافة الملتصقة به..

وبرغم كل هذه المؤثرات فإنها تذكرت الوجه سريعا.. هذا (مصطفى)! (مصطفى) الفتي شديد المراس الذي كان يتمنى أن يواجه بريطانيا في مباراة ملاكمة.. ويبدو أن حلمه تحقق.. جدا!

التقت عيناه بعينيها.. لكن عينيه لم تتوهجا ولم يد عليه أنه عرفها.. يبدو أنه ما زال يهيم في عوالم الارتجاج المخي الرحبة، ولربما هو ينزف داخليا أيضا..
- هل تعرفين هذا الحيوان؟
مطت شفتها السفلى بمعنى أنها لا تعرف وأردفت وهي تعيد النظر إليه..
- حتى لو كنت أعرفه فمن العسير أن أفعل هذا
قال الضابط وهو يواصل التدقيق المزعج في وجهها:
- منذ شهر أو أكثر شوهد في مظاهرة 8 إبريل الشهيرة، وقال رجالنا إنه واثنين آخرين كانا يحملان شيئا ملفوفا.. شيئا يشبه الجسد البشري وقد حاول رجالنا اللحاق بهم لكن الزحام كان مستحيل التجاوز.. لا أدري لماذا اعتقد أنهم كانوا يحملون صحفية إنجليزية.
ونهض وقد وضع عصاه تحت إبطه وراح يدور حول الفتى كما يفعلون في الأفلام:
- اليوم شاهده نفس الملازم وهو يحمل رزمة من الأوراق.. اتضح أنها منشورات معادية لنا، وقد حاول أن يلعب دور الأقوياء لكننا لقناه درسا قاسيا.. أليس كذلك يا ...
وهوى بالعصا على وجه الفتى بأقصى ما عنده وهو يكمل سؤاله:
- وغد؟
أجفلت (عبير) لأن الضربة كانت في غير موضعها وغير منتظرة على الإطلاق.. وهى لا تتحمل أن ترى خصما مقيدا يضرب حتى لو كان من الراغبين في قتلها.. على كل حال لم يعد الفتي.. يتألم.. لقد أرهق جهازه العصبي بحيث لم يعد يشعر بالمزيد...
صاحت وهي تهب من مقعدها:
- لم يفعل شيئا أيها العقيد.. لم يكن بين من خطفوني.. أشياء كهذه لا تُنسى..
- متأكدة؟
- حتما..
هوى بضربة أخرى - على سبيل التخمة السادية -على وجه الفتى، ثم أشار للجندي كي يبتعد به، وقال لها:
- إنه كالقبر لا يتكلم، ولا يعطي أية أسماء.. على كل حال، لديه من المتاعب ما يكفيه.. إن اسمه (مصطفى زاهر).. طالب في مدرسة المهندسخانة....
- الحقوق.. طالب في الحق.....
يا للمصيبة! هذا هو انزلاق اللسان الذي يورد المرء مورد المهالك.. فقط لتأمل أنه لم يلحظ ما قالت، وبسرعة سألته كي تغير اتجاه تفكيره:
- ماذا حدث في أحوال السياسة في أثناء خطفى؟
فكر قليلا، ثم قال وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:
- لا شيء.. المصريون يشعرون بأنهم خدعوا في (فرساى)، و (سعد زغلول) يحتج إن اللورد (كرزون) وزير المستعمرات ينوي إرسال الجنة للتحقيق إلى مصر لمعرفة أسباب الثورة، ويبدو أن هناك نية لتحسين أحوال الموظفين لاسترضائهم..
- إنهم يريدون الخلاص منا.. هذه هي أسباب الثورة.. يمكنكم توفير نفقات اللجنة..
- الاستقلال.. الاستقلال.. هذا هو كل ما يفكرون فيه.. إنهم مملون حقا أولئك المصريون...
قالت (عبير) شاردة وهي تسترجع خيط الأحداث السابقة:
- الحق أننا خدعناهم.. آلاف الأفارقة والهنود ماتوا من أجل حربنا كى تنتصر إنجلترا وفرنسا على المحور.. وكل هذا طمعا في الاستقلال وفي أن نتركهم وشأنهم.. بعد الحرب اتضح أنه لا

استقلال هناك.. بل اتضح لهم أن المحافل الدولية لم تسعفهم، وإنما أضفت صفة رسمية على الاحتلال..
عيناه تتأملانها في عناية مرعبة.. أتراها أفرطت في الكلام؟ لماذا لا تخرس؟ قالت له مفسرة:
- معذرة.. لكني صحفية.. والصحفي مهمته الحقيقة بصرف النظر عن اعتبارات السياسة..
- وأنا عسكرى.. وأخدم السياسة.. والسياسة تقول إن على المرء التنازل عن المعايير الأخلاقية أحيانا من أجل أهداف أسمي.. هذه هي الميكيافيللية.... جميل أن نهتم بأمر شعوب المستعمرات، لكن الأجمل أن نهتم بالمواطن البريطاني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمشي (عبير) في شوارع القاهرة التي بدأت تهدأ. لكنها هادئة هدوء من ينتظر النهوض ثانية.. فيما بعد سيموت (محمد فريد) في منفاه، وينفي (سعد زغلول) إلى (سيشل) وتتجدد الاضطرابات، لأن الثورة لم تنته بعد.. تتأمل (عبير) الباعة الجوالين، والموظفين الجالسين على المقاهي، والأطفال الذين يلهون في الأزقة، والنساء المنقبات الماشيات على عجل في الطرقات..
تمر أمام فندق (كونتيننتال) لترى رجل دين مسيحيا يخطب في الناس.. يقول لهم:
- الإنجليز ليسوا مسيحيين بل هم مجرد كفرة لا يعرفون الله.. لأن الذي يقتل الشباب الهاتف من أجل بلده كافر..
فيصرخ فيه بعض الناس:
- كفي يا أبانا.. سيقتلونك يا أبانا!
- دعهم يقتلوني كى تتطهر أرض مصر بدمى وتحل بها بركة الربا..
كان هذا - وإن كانت (عبير) لا تعرف - هو القمص (مرقص سيرجيوس).. الثائر الغاضب وصداع البريطانيين، الذي اعتاد أن يخرج من كنيسته في الفجر، ليقابل رفاقه الثائرين في الأزهر ومنهم الشيخ (محمود أبو العينين) و (على الغاياتي).. ولسوف يضطر الإنجليز إلى نفيه لإسكاته..
وفي ذهنها تتردد العبارات في تكرار يحطم الأعصاب، حتى لتتمنى لو نسف رأسها ليخرس هذا الضجيج:
أما هذه الثورة فولدت من الشارع.. من الفلاحين والموظفين والطلبة.. إنها ثورة بالمعني الحقيقي للكلمة، وقد أحدثت أعاصير في كل شيء.. في السياسة.. في الأدب.. في الفن.. في طريقة تفكير الناس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كان هذا مفهوما في أثناء الحرب، وكانت الضرورات تبيح المحظورات.. أما الآن فلم يعد ثمة مبرر البقاء مصر تحت سيطرة التاج البريطاني لقد أعلنت بريطانيا الحماية على مصر دون أن تستشار مصر في الأمر.. وبالتالي هي حماية باطلة قانونا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- معلش.. إنه يدور يجمع التوكيلات منذ الصباح ولعله ما زال على لحم بطنه.. مسكين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Open Fire!! Don't Shoot low! !

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا أدري.. لو أن واحدا من هؤلاء المتمردين كتب عن الموضوع لما كتب غير هذا.. يصعب على أن أحدد انتماءك من مقال كهذا.. كنت أتمنى المزيد من عبارات السباب.. هل تفهمين ما أعنيه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا داعي للادعاء.. أنت رأيت ما تحت الفراش لا تنكري هذا.. لقد رأيت الصندوق بينما كنت أطارد الفأر، وعرفت أنك فتحته ورأيت ما به!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لماذا؟ ليس هناك دم أغلى من دم.. ولا روح أثمن من روح.. أنت لست أهم من كل من ماتوا من رجالنا ونسائنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كل بيت صار جزءا من الثورة.. لم يعد بيت مغلقا على نفسه.. حتى ربات البيوت اللاتي لم يرين الشمس قط، صرن يفتحن بيوتهن ليخفين الهاربين والجرحى.. إن قومك قد أحدثوا تطورا رهيبا في سلوكياتنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وأنا عسكرى.. وأخدم السياسة.. والسياسة تقول إن على المرء التنازل عن المعايير الأخلاقية أحيانا من أجل أهداف أسمى.. هذه هي الميكيافيللية جميل أن نهتم بأمر شعوب المستعمرات، لكن الأجمل أن نهتم بالمواطن البريطاني.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا تدري كيف ولا متى حملتها قدماها إلى ذلك الزقاق الضيق الزقاق الذي يعيش فيه (محمود)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- من أجل قتلكم.

فتح الباب ليجدها أمامه.. لو أنه رأى كل شياطين جهنم.. لو أنه رأى الجيش البريطاني آتيا لاعتقاله.. لو أنه رأى (اللنبي) شخصيا؛ لما امتقع وجهه بهذا الشكل.. لقد صار وجهه بلون الورقة تقريبا..
- تبدو كأنما رأيت شيطانًا..
- أسوأ من هذا..
ثم نظر من وراء كتفها، واختلس نظرة من وراء كتفه.. كأنما يتأكد من أن الشرطة ليست وراءها، وأن ما بداره لم يتبد لعينيها.. وهمس:
- لا أستطيع أن أسمح لك بالدخول.. إن أصدقائي..
- هذا واضح.. وهم يحسبونني مت ولا يجب أن يجدوني حية..
- ليس (شفيق) و (مصطفى) من أعنى لقد اعتقلا اليوم.. إن من بالداخل نوع مختلف من الأصدقاء..
- أعرف.. وأنتم الآن تعدون العدة للانتقام منا..
كان يلبس قميصا وبنطالا، لكنها أدركت أن الانبعاج الموجود تحت إبطه هو مسدس.. لقد دخلت الثورة مرحلة جديدة إذن.. ابتلع ريقه وفكر قليلا، ثم قال:
- اسمعي.. لا أعرف لعبتك ولا يهمني أن أعرفها.. فقط لا يمكن أن أسمح لكِ بالدخول....
قالت في ضيق وتحد:
- حسن.. يمكنك إذن قتلى لأنني سأملأ الدنيا صراخا.. سأذهب إلى الثكنات وأعود بآلاى كامل إن ما أطلبه هو أن أكون معكم وأن أعيش هذه التجربة....
ثم استدارت مبتعدة.. وكما توقعت صاح يناديها:
- تعالي هنا أيتها الحمقاء!
عادت له فأدخلها من باب الشقة، وقالت له وهو يغلق الباب:
- سأعود سالمة.. لقد تركت مذكراتي في الفندق، وهي تحكي بالتفصيل قصتي معكم.. لو لم أعد سيقدمها موظف الاستقبال للحاكم العسكري البريطاني.. سيروق له الأمر كثيرا!
- أنت تفكرين في كل شيء..
ثم عاد يسألها في غيظ بطريقة الهمس الجهير:
- ماذا تعتقدين؟ ليست هذه مسرحية لـ (شكسبير).. ولن يسر أحد بقدومك.. إن موقفك سيكون غاية في السوء..
كانت تكذب.. لكنها كانت مضطرة لهذا، لأنها لن تجازف ثانية مع شخص مسلح، ومع رفاقه الذين لا تعرف من هم، لكنها كانت تشعر بحاجة ماسة إلى أن تكون معهم، وأن تسمعهم يتكلمون....
لم تكن الأم في الصالة، ووجدت نفسها تدخل غرفة أخرى لم ترها من قبل، يبدو أنها غرفة نوم الفتى نفسه.. كان هناك فراش صغير، ومكتب بحجم علبة الثقاب عليه عدد هائل من الكتب، وكان هناك عدد لا يقل عن الخمسة من الأخوة.. اثنان منهم يبدو أنهما من الحرفيين، عرفتهم من ثيابهم البسيطة المتسخة وأيديهم الخشنة.. وكان دخان التبغ يجعل الغرفة كأنها مرجل سفينة.. وعلى الأرض كان تلك الصندوق الذي قابلته أول ما جاءت هنا..

كان دخولها الغرفة شبيها بدخول ابن عرس إلى بيت الدجاج.. لم تر دهشة ولا رعبا ولا ذهولا أكثر مما أثاره مرآها لديهم، وتحفزوا جميعا، لكن (محمود) قال وأذناه الآن في لون الدم من فرط الحرج:
- لا تخافوا.. إنها الآنسة (ثورنوايلد) وهي منا.. إنها تعمل معنا!
كان هو الآخر يكذب.. لكنه كذب ضعيف خاو ليس.. ببراعة كذبها.. وقال أحد الرجال وهو يرمقها بحذر كأنها ثعبان وجده في الحمام:
- إنها إنجليزية.. ما معنى أن تدخلها هنا؟ هل جننت؟
قال (محمود) وهو يحاول ألا يفقد الوعي:
- بل هي أمريكية، وهي تؤمن بقضيتنا وتحب سعد زغلول.. صدقوني لا خطر من وجودها معنا..
لما رأى عدم التصديق في العيون صاح في عصبية:
- صدقوني! إن رأسى هو أول رأس يطير لو كان كلامى خطا.. ثم إن الإنجليز لا يرسلون نساءهم التجسس على الفدائيين.. ليسوا بهذه الحماقة...
احتاج الوقت إلى برهة لا بأس بها حتى بدأ الرجال يقبلون وجودها أو بالأحرى ينسونه.. وأخيرا عاد (محمود) يتكلم وهو يوجه كلامه إلى شاب نحيل يضع عوينات سميكة وله شارب كشارب (مصطفي كامل):
- كما كنت أقول.. بعد اعتقال (مصطفى) و(شفيق) لن آمن لحظة ألا تصل الشرطة إلى دارى.. هذا وارد برغم أن الفتيين لن يتكلما، لكني لا أعرف أي مدى يمكن للتعذيب عنده أن يقهر الإرادة..
تمنت أن تقول له: إن (مصطفى) لم يتكلم، ومن الواضح أنه لن يفعل ثم آثرت الصمت..
واصل (محمود) الكلام:
- لا بد من نقل هذه الأشياء إلى ورشة (عثمان الطوبجي)..
قال (عثمان) وهو أحد الحرفيين اللذين خمنت (عبير) مهنتهما بمجرد النظر:
- أنا موافق.. لكن هل أنت متأكد من أنها لن تنفجر من الحر في الورشة؟
قال الفتى النحيل:
- لن يحدث شيء.. هذه الزجاجات تحوي حمض النيتكريك والكبريتيك وكربونات البوتاسيوم.. لا خطر منها طالما لم تخلط بالمقادير التي قلتها لكم....
قال (محمود) في ارتياح:
- (سيد) طالب علوم.. ويعرف تماما ما يتكلم عنه..
فيما بعد ستعرف (عبير) أن (سيد محمد باشا) طالب يدرس الكيمياء.. وكان الفدائيون بحاجة إلى السلاح ليقتلوا الإنجليز، ولم يكن الرصاص متاحا لهم، حتى إن الفدائي كان يحصل على خمس رصاصات بشق الأنفس، فيتدرب على الرماية باثنتين منها، ويدخر ثلاثا لقتل الإنجليز! لذا فكروا في صناعة القنابل.. وكانت هذه القنابل البيتية هي ما تفتق عنه ذهن طالب العلوم..
أما دور الحرفيين في الموضوع، فكان تقطيع مواسير المياه ثم لحام أحد طرفيها وحشوها بالخليط، ثم يغلق الشباب الطرف الآخر.. ويذكر التاريخ اسمين هنا هما الأسطى (عثمان الطوبجي) والحاج (أحمد جاد الله).. كلاهما عامل خراطة في الترسانة.. ومن الغريب أنهما الآن في ذات الحجرة معنا!
وكان لهذه القنابل البيتية سمعة سيئة، هي أنها لا تنفجر غالبا حين تريدها أن تنفجر، وتنفجر دائما.... حين تكون في جيبك أو في يدك.. لكن لم يكن هناك بديل آخر، وقد قبل الثوار هذا

الخيار..
أما عن التدريب على إلقاء القنابل، فكان يتم في الغابة المتحجرة في (حلوان).. الحقيقة أن هؤلاء الفدائيين كانوا شجعانا، لكنهم لم يكونوا قد تمرسوا بعد في العمل السري.. وقد سقط منهم كثيرون في أيدي الإنجليز..
نعود لموضوعنا..
حمل الأسطى (عثمان) الصندوق، وودع الجالسين وكذا نهض الجميع.. وعرفت (عبير) أن الرجال سيرحلون متفرقين كي لا يثيروا التساؤلات.. كما فهمت أن أحدا لن يزور (محمود) ثانية هنا، لأن ورقته صارت مكشوفة أو توشك على أن تكون كذلك
مر نصف ساعة حتى خلت الحجرة تماما إلا منه ومنها.. وساد الصمت خمس دقائق أخرى، ثم قال لها:
- ها قد انتهى الأمر.. أرجو أن تكوني راضية عما رأيت....
بدت عليها خيبة أمل لا شك فيها، وقالت:
- كنت أعتقد أن الموضوع أكثر إثارة.
- لو حسبت أنني سأقوم بتركيب القنابل في بيت أبى كى أثير انبهارك، فأنت مخطئة.. إن هذه القنابل تحتاج إلى دقة هائلة في حساب المقادير، كما أن احتمالات انفجارها عالية جدا.. ولقد جرب بعض الشباب صناعتها من أكواز يشترونها من عند السمكري، فكانت النتيجة أنها انفجرت فيهم....
قالت له وهي تبتسم:
- لماذا تفعلون هذا كله؟
- يا له من سؤال! طبعا من أجل قتلكم! هذا غرض شريف على ما أظن..
ثم انحنى حتى قارب رأسه رأسها، كأنما يجعل كلماته أكثر تأثيرا، وقال:
- لقد جربنا السياسة فلم تصلح، والآن على البريطانيين أن يعلموا أن بقاءهم هنا غالي الثمن جدا.. سوف تسقط قنابلنا على كل رجل أمن إنجليزي، وكل عسكري، وكل مصري يتعاون معهم يوليو 1919 هو بداية تكوين الحركات الفدائية ضد الإنجليز.. لكن هذه المجموعة بدأت مبكرا على ما يبدو.. ثم إن (محمود) نهض واتجه للباب وفتحه ونظر في حذر، ثم قال دون صدق:
- الآن أرجو أن ترحلي، ولسوف أكون سعيدا لو لم أرك ثانية.. وسأكون أسعد لو برهنت على أنك صادقة شريفة ولم تنطقي بحرف عن كل هذا....
- ولا حتى بالتلميح في مقالاتى دون ذكر أسماء ولا أماكن؟
فكر قليلا ثم قال:
- ليس قبل عمليتنا الأولى.. من المفيد ألا يتوقع أحد الصواعق التي ستهوي من السماء لا تبقى ولا تذر.. بعدها يمكنك الكلام والتهويل كما تريدين هذا سيجعل الإنجليز يشعرون بأن مصر جحيم لهم. ولكن لا تأتي بهم هنا قائلة إنهم ضغطوا عليك..
- لا تخف- قالتها وهي تهبط في أولى درجات السلم - - إن من حقي إخفاء مصادرى.. هذا حق أصيل لي في القانون البريطاني، ولن يعرف أحد إلا ما أقبل أن أصرح به..
وحين اختفى عن عينيها، بدأت تشعر بشعور غريب تخشاه من البداية..
تبا أيها الكمبيوتر الأحمق! كنت متأكدة من أنني سأهيم بهذا الفتى حبا.. كنت أتوقع هذا وأعرفه لأن هذا هو البروتوكول المعتاد الآن أعرف أنني كنت محقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- سوء تفاهم بسيط..

في الأيام التالية ازداد انفلات أعصاب السلطة البريطانية إلى حد غير مسبوق..
قام الجنرال (اللنبي) بنفي كل من (محمود سليمان) باشا و (إبراهيم سعيد) باشا من حزب الوفد، إلى قريتيهما.. ثم جعل (اللنبى) جنوده يقتحمون (الأزهر الشريف) في 11 ديسمبر 1919 وهو تصرف مجنون لم يفعله إلا (بونابرت) عندما وقعت ثورة القاهرة، وكان هذا دليلا على انفلات أعصابه التام..
كما أنه - (اللنبي) لا (بونابرت) - قبض على سكرتير اللجنة المركزية للوفد (عبد الرحمن فهمى) مع سبعة وعشرين آخرين، وقد حوكموا في محاكمة شهيرة أدانتهم وحكمت على سبعة منهم بالإعدام.. الحقيقة أن أحكام الإعدام خففت فيما بعد..
في هذه الفترة بدأت سلسلة الاغتيالات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتكفي لقطة واحدة هل مر حقا عام على هذه الأحداث؟
لم تصدق هذا حتى عرفت أن العام هو 1920.. في فانتازيا) يمر الزمن سريعا، ولا تحدث فيه إلا الأحداث المهمة.. في فترة ما كان مفهوم الواقعية السينمائية هو أن تستغرق الأحداث على الشاشة نفس الزمن الأصلي لها.. ثم فطن الجميع إلى أن هناك نوعا من الواقعية المنقحة.. إن ذهابك للبقال لشراء علبة ثقاب قد يستغرق ربع ساعة، فلا معنى لإضاعة ربع ساعة من الفيلم في هذا الهراء، وتكفي عند البقال تظهرك وأنت تبتاع الثقاب.. نفس الشيء في (فانتازيا).. لا داعي لسرد عام من التحقيقات الصحفية والحياة المنتظمة.. يكفينا أن نعرف أن عاما قد مر على الصحفية البريطانية (ثورنوايلد) في مصر..
نعود للاغتيالات..
لقد بدأت أصوات الانفجارات تدوي في سماء القاهرة.. وصار كل من له علاقة بالإنجليز يركب سيارته فلا يدرى متى تسقط القنبلة على حجره، سرعان ما يظهر شاب من شارع جانبى، فيلقي بالقنبلة ويفر.. بينما يفتح.. راكبو السيارة أبوابها ويقفزون للخارج.. أحيانا ينجون وأحيانا لا.. أحيانا تنفجر القنبلة وأحيانا – وهو الأرجح - لا..
وكان رجال وزارتى (يوسف وهبة) و (محمد توفيق نسيم) - المواليتين لبريطانيا - يركبون السيارات فيدفنون رءوسهم تحت مستوى المقاعد، ويغلقون الزجاج، ويدعون الله أن يكون عمر السائق أقصر من أعمارهم..
لم يعد هناك من يقبل أن يصير وزيرا، حتى إن بريطانيا رفعت أجر الوزير إلى مبالغ فلكية..
فيما بعد - وفي العام 1922 - أطلق الرصاص على (محمد بدر الدين) بإدارة الأمن، وهو من أهم عملاء الإنجليز.. وقد رسم الناس صورة هذا المشهد، وراح يباع في الشوارع، ويعلق في البيوت كله نوع من البركة!
ولم تدر (عبير) مدى تغلغل هذه العمليات إلا حين واجهت واحدة منها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تركب في مؤخرة العربة الكارو التي تخضها كالجبن عبر شوارع (شبرا)....
كانت منهكة لم تنم ليلا، وقد انهمكت في ألف عمل وعمل.. وبعين ناعسة تتأمل المعسكر البريطاني في جزيرة (بدران).. رأت ضابطا بريطانيا رفيع المقام يخرج من المعسكر، فيضرب له البروجي.. ثم ينحنى السائق ليفتح له الباب.. وكعادة الضباط وقف الضابط منتصب القامة دافعا صدره إلى الأمام وذقنه إلى الوراء، وعصا المارشالية تحت إبطه، وراح يدور بعينيه يمينا ويسارا في شموخ.. قليل من (الطاووسية) لن يضر أحدا قبل ركوب السيارة..
في اللحظة التالية رأت الشاب الذي خرج من مكان ما..
كان يحمل شيئا كأنه قطعة من ماسورة مياه.
وثب إلى جانب السيارة.. قذف بما يحمله من الزجاج المفتوح ومرت ثانية.. لم يحدث شيء
لم تنفجر القنبلة.. تصرفت كأية قنبلة بيتية أخرى، وأثبتت أنها بنت أصل لا تشذ عن المجموع....
وفي اللحظة التالية لتلك التالية، خرج القائد من السيارة وأطلق سبة إنجليزية، ومد يده إلى حزامه ليخرج الطبنجة - هلم يا وغد.. سأنال منك!
طاخ! دوت الطاقة.. الشاب يركض في الشارع يترنح، وهو يجر ساقه خلفه.. طائر عنز كسرت ساقه وهو يتواثب محاولا الفرار من الصياد
الأدهى أن رجالا كثيرين يخرجون من المعسكر ليروا ما يحدث
لم تصبه هذه المرة، والتي كان قد صار الآن جوار الحنطور، فمدت يدها نحوه صارخة:
- اركب يا (محمود) بسرعة..



فمدت يدها نحوه صارخة:
- اركب يا (محمود) بسرعة..

ولم يكذب الفتي خبرا، بينما صرخ العربجى محتجا:
- لن أسمح له بالركوب. حتودونا في داهية..

وهنا حلّ الإنجليز المشكلة بعبقرية، إذ خرج صفان من الجنود وراحوا يطلقون وابلا من الرصاص على الحنطور، فلم يجد العربجي مناصا من إلهاب جواديه بالسوط.. وراح الحنطور يترجرج مبتعدا بسرعة البرق..
كان الرجل يولول وهو يلهب ظهر جواديه، بينما (عبير) تمكنت تماما من إركاب (محمود).. وهنا دوى صوت انفجار مروع.. لقد انفجرت القنبلة أخيرا.. لعلها أصابت واحدا أو اثنين ولعلها لم تفعل.. لن نعرف أبدا..
- كان يوما أسود! كان يوم نحس! ليتني لم أمر من هنا ولم أر وجهك القبيح!
- در عند اليمين، وأنزلنا بسرعة! يمكنك أن تغيب وسط الزحام بعدها.. أما نحن فلن نكون معك لنجلب الشبهات!
كانت هذه من (محمود) الذي كان في حال طيبة برغم ساقه التي كانت تنزف باستمرار، وقررت (عبير) أن تمارس دور الأنثى، فأخرجت منديلا وربطتها به..
أخرجت من حقيبتها بعض العملة وناولتها للعربجي من الخلف، فقال وقد شعر بلمستها:
- لا! أنا لا آخذ مالا من الفدائيين.. كل ما أطلبه هو أن يبتعدوا عني، ولا يخربوا بيتي!
وتوقفت العربة، فوثب الفتى منها، وخلفه وثبت (عبير).. الحق أن الفتى كان يجري بسلاسة لا بأس بها، وبدا أن العرج يناسب صحته.. كان هذا زقاقا ضيقا مسقوفا يشبه إلى حد ما الزقاق الذي كان يعيش فيه مع أمه.. لكن هذا المكان كان مهجورا بحق فقط كان هناك معمل تخليل وعشرات البراميل المفتوحة مليئة بالطرشي.. وفي نهاية الممر كان هناك باب صغير ارتفاعه متر واحد..
أخرج مفتاحا وأمرها لاهثا بأن تفتح هذا الباب ففعلت..
وفي الداخل كان الظلام دامسا، لكن رائحة الحبر جعلتها تخمن أن هذا المكان مزيج من ورشة ومطبعة معا.. الآن يشعل الفتى عود ثقاب فشمعة لترى أن حدسها كان صحيحا.. هناك آلة طباعة يدوية صغيرة، وهناك زجاجات كيماويات وهناك مواسير مقطعة وهناك منشورات.. طبعا.. فآلة الطباعة هذه لا تصلح إلا للمنشورات، حتى إنها تعتقد أن اسمها عند الباعة (آلة منشورات)..
الحق أن محتويات هذا المكان كانت قمينة بإعدام الفتي ست مرات..
قالت له وهي تجلس على مقعد هناك:
- هذا هو مقركم السرى إذن؟ ما كنت أعرف أنكم الآن تقيمون في (شبرا)...
- اعتدنا العمل في (الحلمية).. لكني كنت بحاجة إلى أن أكون قريبا من مقر العملية.. ما كنا لنجد فرصة للابتعاد أكثر لو لم يكن هذا المكان هنا..
رفعت ساقه فأراحتها على كومة من المنشورات وطوت طرف البنطال لأعلى.. وراحت تتأمل الجرح:
- ثمة رصاصة بالداخل.. لا أدري إن كان هذا خبرا جميلا....
قال في لا مبالاة وهو يريح رأسه للخلف:
- سيأتي الرفاق بعد قليل، ومنهم من يعرف شيئا عن الطب.. دعك من هذا الهراء.. واخبريني هل تعتقدين أن القنبلة قتلت الضابط؟
- لا أعتقد.. ربما قتلت جنديا أو اثنين كانا يقفان بالصدفة جوار العربة.
قال في غيظ:
- هذه هي مشكلة الإنجليز.. إنهم لا يموتون بسهولة.. كالشياطين.. لكني سأكررها مرارا حتى

يظفروا بي.. أو أقتلهم جميعا..
ثم همس وهو يرتجف انفعالا وإعياء وألما..
- إلا واحدة منهم!
كانت تعرف أن هذا سيحدث.. كانت تعرف أن هذا يحدث.. إن الخلطة الكيماوية العجيبة قد مزجت بين روحي الثائر المصري والصحفية البريطانية لتصنع مزيجا غريبا، وما أثار رعبها أنها بالفعل لم تعد تشعر بذرة تعاطف مع بلدها.. إنها تؤمن أن إنجلترا معتدية ظالمة وأن قادتها العسكريين أوغاد، فلماذا يجب أن تكابر لمجرد أنها ولدت هناك؟ ولكن كيف؟ هذا حب جدير بفانتازيا.. حب لا مستقبل له.. حب خيالى لا يصمد لأي تعقل.. هذا الفتى جواد خاسر، ونهايته محددة لأنه لن يربح الحرب ضد الإمبراطورية.. لن يربحها أبدا.. وهي لن تتزوجه ولن تعيش معه في بلده....
مرت ثلاث ساعات دون أحداث تذكر.. ثم.. سمعت الباب يفتح وظهر خيال شخص ضخم على المدخل.. كان ينحني محاولا حشر جسده الضخم عبر الباب.. سقط ضوء الشمعة على وجهه فعرفته وعرفها على الفور، فتقلص وجهه في كراهية..
هتف (محمود) وهو ينهض من مكانه:
- (مصطفي)؟ (مصطفى) هنا.. كيف لم أعرف أنك خرجت من السجن؟
قال (مصطفى) ضاغطا على كلماته:
- خرجت أمس.. إنهم أطلقوا سراح بعض الطلبة في محاولة لتهدئة النفوس.. لكن هيهات.. إن النفوس لا تهدأ بهذه البساطة..
لاحظت (عبير) أن وجهه مازال متورما، بمعنى أن الضرب لم ينقطع طيلة هذه الفترة، كما لاحظت أن شعيرات بيضاء نمت في ناصيته.. حقا لم يكن الإنجليز يمزحون..
قال (مصطفى) وهو يغلق الباب خلفه:
- سألت عنك، فقالوا لي إنك على الأرجح هنا، وكان على أن آتي حالا..
ومد يده في جيبه وأردف
- كان عليّ أن أعاقب خائنا!
رأت المسدس في يده قبل أن يخرجه.. وفهمت ما سيحدث.. صرخت وهبت واقفة كالملسوعة.. تعثرت وسقطت كومة من المنشورات على الأرض.. بينما هتف (محمود) في عدم فهم:
- (مصطفى).. عم تتحدث بالضبط؟
- عن الخائن الذي زعم أنه قتل الإنجليزية، ثم وجدتها حية ترزق وجالسة مستريحة أمام الضابط.. إن اعتقالى تم لسبب واضح، والآن ها هي ذي هنا أن كل ما تخيلته في السجن لم يكن هلوسة.. أنت تعمل معهم من البداية..
- (مصطفى): أنت لا تفه...
- الآن فهمت!
وانطلقت الطلقة.. هذه المرة لم تكن مترددة.... أو متعثرة.. هذه المرة وجدت طريقها المرسوم إلى القلب.. وتحسس (محمود) صدره للحظة في غباء، ثم هوي على الأرض قبل أن يعرف ما حدث له..
- والآن دور الإنجليزية!
لم تنتظر (عبير) لأن المسدس ارتفع نحوها هذه المرة، ففتحت الباب صارخة، وسمعت

الصفير جوار أذنها.. لكنها لم تنتظر كي تتنهد أو تقول: نجوت بمعجزة.. أو أي شيء من الهراء الذي يضيع الوقت.. فتحت الباب وراحت تجرى.. اصطدمت ببرميل مخلل فبرميل آخر.. انسكب السائل المالح قوى الرائحة وبلل ثوبها لكنها واصلت الجري.. فأر وثب فوق قدمها لكنها كانت أكثر منه رعبا..
تبا! كان هناك من يقف في مدخل الزقاق يسد عليها الطريق.. لابد أنه صديق (مصطفى).. لكن أين رأته من قبل؟
ركلته بقوة في أسفل ساقه، ثم في أعلى بطنه، وكادت تركض لولا أن سمعت صوته يئن:
- أووووه؛ أنت شرسة حقا يا فتاة..
- (المرشد)؟ ماذا تفعل هنا؟
تماسك ليقف على قدميه وهو يتلوى ألما، وقال
- آى ى ى! جئت لأعود بك.. هل هذا ذنبي؟
كانت الدموع تبلل عينيها وهي تستند للجدار وتولول:
- أنا المسئولة عن كل هذا.. لقد مات بطل بريء لأنه لم يجسر على قتلى! مات بيد أعز أصحابه!
قال لها وهو يصلح من شأن ثيابه:
- أنتم الإنجليز أسّ البلاء الذي حط على هذه الأمة.. فلن أندهش من هذا كثيرا.. وعلى كل حال إن شعار (فرق تسد) شعار بريطاني صميم.. صحيح أنك لم تتعمدي شيئا لكنك فعلت ما فكر به كبار المستعمرين.
- والثورة؟ كنت أتمنى أن أرى نجاحها..
- هذا حديث يطول.. لكن كفاح الشعب استمر طويلا فلم يظفر بالاستقلال الحقيقي إلا بعد ثورة 23 يوليو.. إن هذه أيام صاخبة، ولسوف تتغير وزارات وتتوالى الاغتيالات وينفي (سعد زغلول) إلى (سيشل)، لكن حزب الوفد صار هو الحزب الأكثر شعبية والقادر على تحريك الجماهير.. ولسوف يعمل له الملك والإنجليز ألف حساب..
- لقد حركت الثورة الشعب المصري بكل طبقاته ومهما حاول الإنجليز قهرها فهي لا تقهر لا تقهر في السياسة ولا في الفنون ولا في الاقتصاد ولا في الطب يمكنك أن تعتبريها ولادة متعسرة مريرة خرجت بها مصر إلى العالم الحديث..
- بالمناسبة.. لقد توفي القائد البريطاني الذي ألقي عليه (محمود) القنبلة.. إن الأحمق لم يكن قد ابتعد عن السيارة كثيرا حين قررت القنبلة أن تنفجر.. يمكنك على سبيل إراحة النفس - أن تعتقدي أن (محمود) مات في أثناء عملية التفجير الناجحة تلك..
قالت له وهما يتجهان إلى نهاية الزقاق حيث ترى شوارع (شبرا) وترى رجال الشرطة ينتشرون، باحثين عن قاذف القنبلة الأخيرة:
- لقد فقدت حبا عظيما والسبب سوء تفاهم سخيف..
- لا لوم على أحد.. لا على القاتل ولا القتيل ولا عليك.. إن هذه المواقف العبثية تحدث كثيرا، ولو زرنا يوما عالم (ألبير كامى) لوجدت أكواما منها.. بطلا..
- فقدت مصر بطلا
- لكنها خصبة ولّادة.. ولسوف تأتي بعشرات من بعده.. والآن دعينا نفس هذه المأساة ونرحل..
نظرت له ولم تقل شيئا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتوهج الكشاف العملاق طابعا صورة الوطواط فوق سحب (جوتام سيتى)، ومن الواضح أن سماء تلك المدينة التعسة لا تصفوا أبدا.. إنهم ينادون الوطواط..

فهل يلبي؟

ولو لبي فما دور (عبير) في هذه القصة العجيبة؟ دعنا لا نثرثر كثيرا.. فقط اقرأ الكتيب القادم لتعرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برغم أنني ما زلت أجد كتابة مراجع لقصة روائية أمرا غريبا، إن لم يكن سببا لذعر القارئ وفراره، إلا أنه لابد من ذكر الكتب المهمة التالية:

- أيام لها تاريخ: أحمد بهاء الدين. مكتبة الأسرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.1995
- دراسات في ثورة 1919: د. حسين مؤنس. (418) ، دار المعارف بمصر.1976
- سجين ثورة 1919: د. محمد مظهر سعيد افرأ (316). دار المعارف بمصر. 1969
- مصطفى كامل: فتحي رضوان. اقرأ (390) دار المعارف بمصر. 1974

(تمت بحمد الله)

ثم يستحيل كل هذا جحيما وتصرخ النساء وسرعان ما يظهر الجنود.. الجنود شقر الشعور زرق العيون الذين يلبسون السراويل القصيرة.. الزى الرسمي للإنجليز في مستعمراتهم الحارة، ويصرخ أحد الضباط آمرا الجند بفتح النار، وتنهمر الطلقات إنه لمشهد لا يصدق.. و (عبير) لم تعتد قط أن ترى الرصاص يطلق على مظاهرة بهذا الشكل الفج.. أين الغازات والعصى المكهربة والطلقات المطاطية الضحايا يتساقطون بالعشرات وتتبعثر الصفوف: كأنما هي مياه جدول ألقى فيها طفل شقي بحجارته..

د. أحمد خالد توفيق



Link – لينك القنـاة

الفهرس:

روايات مصرية للجيب

29

فانتازيا

الوطواط

د. أحمد خالد توفيق

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٦٨٢٧٠٠٣

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (29)

الوطــواط

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- الأمـر كذلك..

في هذه المرة اعترف..
ليس لأنها ضيقت عليه الخناق، وهي تضيق عليه الخناق من فترة.. لكن لأنه سئم هذه اللعبة..
ربما هو لم يتحمل دور التلميذ المطارد الخائف..
قال لها في عصبية في ذلك اليوم:
- نعم.. هناك واحدة وأنا أحبها..!
نظرت له صامتة ولم تجد ما تقول.. هذه هي اللحظة التي كانت تخشاها، وبرغم هذا تتعقبها في إصرار.. هل هي لذة ماسوشية مريضة تلك التي تغرينا بالتعذب؟ أم هي الرغبة في الانتهاء سريعا من هذه المهزلة؟ أم هو بصيص أمل خافت في أن تكون مخطئة؟
كأنما ألقي قنبلته واستراح، بدأ يهدأ قليلا وصدره يعلو ويهبط..
قالت له:
- (رانية راشد)؟
- نعم..
- منذ متى!
- منذ أقل من عام؟
- والسبب؟
- الحب يأتي دون سبب..
ثم غطي وجهه وقال وحاجبه الوحيد المكشوف يرتجف:
- حاولت ألا يحدث هذا.. حاولت كثيرا لكن الأمر كان أقوى منى.. كأن اسمينا دونهما الفراعنة على إحدى المسلات من فجر التاريخ.. كأن ذرتين في جسد واحد قد تقابلتا وعرفت كل منهما الأخرى..
سألته بذات الصوت الهادئ:
- تحبها كثيرا..
- جدا..
- وهل تستمتع بقول هذا لي؟
- أنا لا أستمتع ولا أحزن.. أنا أقرر حقائق..
- وهي!
- لا تريد خراب بيتي.. هذا هو العائق الوحيد، لكنها لو قبلت فسأتزوجها في اللحظة ذاتها..
كان هذا كافيا، وأسوأ من كل شيء رأته في كوابيسها.. إنه لم يغير الكلمات أو يخفف منها قليلا، ولم يستبق شيئا لنفسه.. كل شيء واضح وصريح و(على عينك يا تاجر) كما يقولون..
والغريب أنها كانت تصغي لهذا كله بهدوء تام وتحضُّر، وكأن الحديث يدور حول غداء الغد.. هل هو من الفاصوليا أم من الكوسة..
قالت له بنفس الهدوء وهي تربت على ظهر الطفلة التي من حسن حظها أنها لا تسمع هذا:
- هل ينقصك شيء معي؟
- لا.. وهذا هو ما يجعل الأمر صعبا.. وبسبب الصراع أصبت بنوبتي القلبية.. أو هذا ما أعتقده..
- والأخرى.. هل هي تفهمك تماما؟

- كأنها أنا!
- وما هي خطتك؟
فكر حينا وهو يحك ذقنه.. ثم قال لها محاولا انتقاء كلماته:
- أنا لا أتكلم عن علاقة.. أنا أتكلم عن زواج.. ولو فكرت في الأمر لوجدت أنني لا أطلب شيئا مشينا.. هناك رجال تزوجوا اثنتين وثلاثا.. بعبارة أخرى أنا لا أريد خداع أحد.. وأريد أن تباركي زواجي هذا..
- أباركه؟
- لم لا؟ سأظل أنا أنا....
- ستكون نصف قلب ونصف عقل ونصف جسد..
ضحك في عصبية، وقال:
- من الخطأ التعامل مع الإنسان باعتباره قابلا للقسمة.. سأكون معك مائة في المائة وسأكون معها مائة في المائة كذلك.. لا يوجد نصف إنسان لو أردتِ رأيي إلا في مشرحة قصر العيني..
صمتت قليلا ثم قالت:
- هبني قلت إنه حل مرفوض، وإنني أرغب في الطلاق؟
نظر إلى أظفار يده وقال:
- لا أحب هذا ولا أحب أن أفقدك.. لكن لو أصررتِ على هذا فالأمر من شأنك أنتِ... Up to You
بارد كباب الثلاجة.. بارد كلوح الثلج عند عم (عطيه) الذي يرفض أن يشتري ثلاجة مياه غازية كهربائية..
إنه لا يمزح، والمحادثة كلها واضحة كالشمس.. وهو يتحدث عن الطلاق كأنه يتحدث عن التخلص من سويتر قديم وقعت عليه بقعة من الزيت..
هذا الرجل لم يحبها قط..
لقد كان (صفوت) محقًا حين تكلم عن عقدة (بجماليون).. لقد كان اختراع (دي - جي) هو الذي جعله يلقاها، وهو الذي جعله يُعجب بها، وقد افتتن بها حين وجدها الدليل الحي على أن اختراعه ناجح.. هكذا فعل (بجماليون) الذي صنع تمثالا لـ (فينوس) ثم هام به حبا إلى درجة البكاء..
فيما بعد لم يعد لـ (دي جي) فائدة ما، واتضح أنه اختراع لا يمكن أن تفيد منه إلا فتاة واحدة هي (عبير) فتاة واسعة الخيال قرأت كل شيء في العالم وقع تحت يديها، لكن تفكيرها ضحل وغير خلاق وهكذا قل اهتمام (شريف) بالجهاز.. وبالتالي قل اهتمامه بها..
ثم تلاشي..
قالت له في صرامة:
- غدا أذهب لقضاء أيام عند أمي..
والسبب هو أن الليل كان قد انتصف...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت لها أمها عندما توغل الظلام وتعالت أصوات الكلاب في الحارة تتشاجر لسبب ما:
- أخطأت إذ تركت بيتك للأخرى.. أنت لا تتركين بيتك وإنما يتركه هو..
ثم وضعت كوب الشاي أمامها، والطفلة تتعلق بها مصدرة مناغاة غريبة..

لم تكن (عبير) رائقة المزاج لهذه الأمور الاقتصادية.. كل شيء مرهون بدراسات الجدوى وحساب الربح والخسارة.. هي لا تبالي إن فقدت زوجها أن تفقد شقتها كذلك أو أن تتسول في الطرقات.. لا شيء من هذا يهم، ويدهشها أنه يهم الآخرين إلى هذا الحد..

- غدا صباحا يأتي أخوك ويجد حلا لهذه المعضلة..

- وكانت تعرف أن (شريف) لن يأتي.. ولن يعض أصابعه ندما..

لو ظلت هنا ستظل هنا إلى الأبد..

أخليت الصغيرة العزيزة إلى النوم، فحشرتها (عبير) جوار الجدار المشقق الرطب، في فراشها القديم الذي لم ينس أحلامها وهي بعد لم تتزوج.. أيام العودة من المدرسة والتهام الكتب و..

رأت رف المكتبة التي صنعتها لنفسها قديما، والمكونة من ثلاثة ألواح من الخشب تتصل بقطع من السلك، وقد تم تثبيتها إلى الجدار بمسامير معوجة..

هذا الرف المثير للشفقة كان يحمل - وما زال - إبداعات عباقرة العالم.. وكان أعز جزء في الدار بالنسبة لها.. لقد تركت خلفها صانع الأحلام والذي كان هو مفتاح (فانتازيا)، ولن تعرف ما خسرته إلا فيما بعد، حين تتطلع روحها إلى الحلم فلا تجد إليه سبيلا..

تنهدت.. هل كانت (فانتازيا) تستحق أن تحيا مع زوج يحب واحدة أخرى؟

بالنسبة لفتاة غيرها فالسؤال غير مطروح أصلا لكن بالنسبة لها لم تكن تعرف الإجابة..

الكرامة أم الحلم؟ الكرامة طبعا.. لكن الحلم عزيز وجميل كذلك.. كانت تحب (شريف) لكنها لم تكن على استعداد لأن تشعر بحنين إليه الآن.. لقد آذاها كثيرا..

لكن ماذا جنته (فانتزيا)؟

ومدت يدها تلتقط إحدى المجلات من على الرف، وكانت مجلة لبنانية قديمة من مجلات (الوطواط) المصورة.. مطبوعات شركة (دي سي كوميكس) التي احتكرتها إحدى الشركات اللبنانية قديما.. مجلة عتيقة متهالكة الأوراق وعلى غلافها الممزق ظهر (الوطواط) بزيه المميز، وهو يوجه لكمة عاتية لرجل فارع أخضر الشعر اسمه هو (مضحك).. وكان هناك أثر خاتم يشوه الغلاف يقول: (ممدوح - صاروخ الروايات).. هذا هو توقيع البائع على مجلاته كأنه هو المؤلف..

راحت تجوب المجلة، وهي تسمع من الشارع عواء قطط تتصارع على شيء ما.. وبالطبع لم تنس شيئا من القصة المصورة كعادتها.. إنها تذكر التفاصيل كأنها قرأتها أمس.. لشد ما أحبت هذا العالم الخيالي المتشابك، ولشد ما حلمت به..

ولا تدري متى نامت..

فجأة لم تعد هنا..

صارت هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..JSA -2

كانت واقفة هناك في (فانتازيا). بالتأكيد (فانتازيا) وليست أي مكان آخر.
كان (المرشد) بعينه ينتظرها هناك، وهو يضغط على مؤخرة قلمه البغيض، لكنها شعرت برضا بالغ إذ رأته واحتشدت أسئلة في ذهنها..
- نعم.. أنت في (فانتازيا).. لا مجال للخطأ..
قالها ليختصر الطريق عليها، ثم أردف وهو يمد كفه لتمسك بها:
- من أين ترين أن نبدأ؟
صاحت في حيرة، وهي تنزع يدها من يده:
- لحظة! كيف تكون هناك (فنتازيا) من دون....؟
- من دون جهاز؟ لا مشكلة هنالك يا (أليس)..
لقد تعلم عقلك كيف يخلق عالم (فانتازيا) بنفسه.. لم تعودي بحاجة إلى جهاز يعلمك الحلم..
لقد صرت تستطيعين الحلم بنفسك!
نظرت حولها في انبهار.. في عدم تصديق.. وسألته:
- معنى هذا أنني لن أحتاج إلى الكمبيوتر ثانية؟
مط شفته السفلى في حسرة، وهز رأسه نفيا:
- للأسف لا.. الحلم لا يزورنا حين نريد.. الحلم يزورنا حين يريد هو.. بينما هناك كان من السهل عليك أن تضعي الخوذة وتضغطي زر الإدخال وتغمضي عينيك.. هنا لا.. سيكون عليك الانتظار حتى يتعطف الحلم عليك!
قالت في لهفة وهي تنظر إلى شوارع خيالها الفسيحة:
- حقا كنت في أمس الحاجة إلى بعض الوقت هنا..
- عقلك الباطن عرف هذا وقدم لك هذه الخدمة.. أنت تعرفين أن (فرويد) يعتبر الحلم وسيلة لإخراج العادم.. عادم الضغوط النفسية التي تحتشد فينا طيلة اليوم.. ليس من العسير فهم لماذا تحلمين الآن..
هزت رأسها وقررت أن تستمتع بهذه الرحلة أيما استمتاع.. من يدري؟ ربما كانت الأخيرة.. ربما عجزت عن ابتكار حلم آخر.. لو كان عقلنا الباطن يطيعنا..
الأن تركب القطار الصغير المضحك وجوارها (المرشد)..
سألها وهو يسند ذقنه على كفيه:
- الأحوال سيئة في الخارج.. هه؟
- سيئة جدا.. يمكنك القول إنها (زفت) وأرجو أن تسامحني على ألفاظي..
- هل تعتقدين أن (شريف).....
- كفى!
قالتها في حزم، ثم أردفت:
- منذ متى تجسر على الخوض في أموري الخاصة؟
على قدر ما أفهم فأنت مجرد مرءوس لي وأنا لا أطيق أن يكلمني مرءوس في أمور شخصية.
الحق أنه كان سمجا، لكن (المرشد) بارد وعملي وليس من الطراز الذي يخجل من نفسه أو يشعر بالحرج..

يمكن القول إن أذنه لم تحمر لحظة..
فقط هز رأسه، ونظر من النافذة، ثم قال لها:
- هذا المكان لا بأس به.. ما رأيك؟
قالت في ضيق:
- جميل جدا.. دعنا نجربه..
- هل يناسبك هذا الطراز من القصص؟
- وهل تركت لي فرصة كي أرى ما تراه أنت من النافذة؟
تنبه، فتراجع في مقعده قليلا، ليتيح لها أن تميل برأسها عليه وتنظر من النافذة في اهتمام..
كان الظلام الدامس يغلف مدينة غريبة.. مدينة تشبه عوالم الكوابيس بمبانيها الشاهقة القوطية، والغيوم تصطرع في سمائها مدلهمة كابية تنذر بالويل، فلو كانت (عبير) تفهم في التصوير لذكرها المشهد بلوحات (الجريكو) الرهيبة..
وعبر السماء انطلق ضوء ما.. انطلق من فوق سطح أحد المباني الشاهقة، وسقط على السحب في السماء فانعكست صورة..
كانت الصورة تمثل وطواطا يفرد جناحيه..
قالت له وقد فهمت:
- هذا عالم الوطواط، وهذه (جوتام سيتي) أو (جرجر) كما تسميها المجلات اللبنانية..
- نعم.. إن رجال الشرطة أضاعوا الشارة التي تستدعي الوطواط....
- لن يتأخر.
هز رأسه في ثقة وقال:
- بل لن يأتي على الإطلاق وهذه هي المشكلة.. إن حياة بلا (سوبرمان) ولا (الوطواط) ولا حتى (البرق) هي - بالنسبة لمطبوعات (دي سي كوميكس) - حياة أقرب للجحيم..
قالت له في شيء من حماسة:
- ليكن.. سأجرب هذا العالم..
شد الحبل ليتوقف القطار، ثم نزل وساعدها كي تترجل بدورها.. وإذ نزلت وجدت أنها في شارع معاصر صاخب أمريكي غالبا، وأدركت أنها ترتدي ثيابا مختلفة..
إنها رشيقة فارعة القوام خفيفة كالقط.. ثيابها تشبه الجلد الأسود، وفي قدميها حذاءان عالية الكعب، كما أن شيئا يضايق تنفسها.. هذا قناع على رأسها.. تحسسته فوجدته ينسب إلى أعلى على شكل أذنين طويلتين مدببتين..
هتفت في انبهار:
- سأكون أنا الوطواط إذن؟
- بل الفتاة الوطواطة. إنها تشبه الوطواط في كل شيء لكنها أنثى.
ثم أشار إلى مبنى عبر الشارع، وقال لها مشيرا لساعته:
- لقد تأخرت عن اجتماع ال JSA..
في جزع قالت وهي تتعثر بسبب الكعبين ناطحي السحاب:
- آسفة.. أقسم لك إنني لم أتعمد التأخير ولكن ما هذا ال JSA الذي تأخرت عنه؟
- رابطة العدل الأمريكية Justice Society of America.. إن مقرها (نيويورك) لو كنت تعرفين ما أعنيه والآن هيا! لا تتوانى في إقناعهم!
- بأي شيء؟

- بأن يعطوا (الوطواط) فرصة أخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن (رابطة العدل الأمريكية) هي البوتقة التي قامت فيها (دي سي كوميكس) بجمع كل أبطالها المقنعين..

يعرف كل من قرأ مطبوعات هذه الشركة أن لديها مخزونا هائلا من الأبطال المقنعين، الذين يلبسون حُللا خاصة، ولهم شخصيات سرية لا يعرفها أحد، وحينما تكفهر الأمور يتسلل الواحد منهم إلى أقرب زقاق ليتحول إلى شخصيته الأخرى التي يمكنها تغيير الحقائق..

بعد (سوبرمان) و (الوطواط) حدث نوع من التكاثر السرطاني لهذه الشخصيات، وبدا أن كل مواطن في الولايات المتحدة يلبس تحت ثيابه ثيابا سرية ما.. وكان لابد من ضمها جميعا تحت لواء واحد هو ما أطلق عليه (رابطة العدل الأمريكية).. طبعا أمريكية لأن كل هذه المطبوعات أمريكية جدا، ورابطة العدل هذه تضاف إلى الترسانة النووية والأسطول ومشاة البحرية، لأن كل أفرادها ينتمون للبشرية نعم، لكنهم أمريكيو الولاء..

لم يكن (سوبرمان) و (الوطواط) و (المرأة العجيبة) قط أعضاء في رابطة العدل.. لو خطر لك هذا فأنت مخطئ.. لكن الشركة تنازلت أخيرا وقررت أن هؤلاء جديرون بالانضمام..

الآن يمكنك أن ترى (عبير) - التي تحولت إلى الفتاة الوطواطة - وهي تجتاز مدخل البناية.. يوجد مصعد صغير يقلها إلى الطابق السادس..

هناك رجال أمن وأجهزة كاشفة عن المتفجرات وشاشات مراقبة.. يستوقفها أحد رجال الأمن، ويمد يده لقناعها قائلا:

- معذرة سيدتي.. لكن لا بد لنا من التحقق من..

وهنا يطير في الهواء بحركة (جيدو) بارعة، قبل أن يصطدم بالجدار المقابل ويهوى على الأرض، وهو ما زال يكمل جملته:

- شخصيتك!!

هنا كما هو واضح - تلعب القوة الدور الوحيد المعترف به.. كل شيء يمشي بالعنف.. هذا بدأ يروق لها على ما يبدو.. إن (الوطواطة) رشيقة جميلة، لكن قوتها لا تصدق، ومن غير المستحب المزاح معها بأي شكل..



هنا كما هو واضح – تلعب القوة الدور الوحيد المعترف به..
كل شيء يمشي بالعنف..

قالت لبقايا هذا الأحمق:

- لا أحد ينزع قناع الوطواطة أبدا!!

ثم تقف أمام الباب العملاق الذي يحمل شعار (رابطة العدل).. ينفتح إلكترونيا منزلقا لأعلى بطريقة سينمائية جدا، لترى القاعة الواسعة.. يمكنك أن ترى تلك المنضدة الطويلة الشبيهة بمناضد اجتماعات مجالس الإدارة.. وعلى جانبيها يجلس أعضاء الرابطة.. وأمام كل منهم زجاجة من العصير والمياه المعدنية وحزمة أوراق..
لو لم تكن ملما بهذا المكان، فلسوف تشعر بأنك ترى أغرب مجموعة من المخابيل في تاريخ العالم في مكان واحد.. هذا حفل تنكري بالتأكيد.. أقنعة في منتهى الغرابة وثياب أغرب.. وبعض النماذج في حجم قبضة اليد، وبعضها متضخم العضلات كالكابوس.. توجد حسناء ويوجد رجل شفاف يمكنك أن ترى من خلاله المقعد الذي يجلس عليه، وكلهم ينظرون لها في اهتمام وترقب..
يمكنني أن أقدمهم لك بالترتيب:
إنهم من اليمين لليسار، ومع حفظ الألقاب.. الذرة.. الكناريا السوداء.. دكتور قدر.. دكتور منتصف الليل.. الفانوس الأخضر.. البرق.. الصقر.. رجل الساعة.. جوني الرعد.. الإعصار الأزرق.. مستر مدهش.. رجل الرمال.. الطيف.. رجل النجوم.. اليقظة الشرسة.. المرأة العجيبة..
أسماء غريبة؟ لا تعتقد هذا.. هناك تقريبا مجلة مصورة لكل واحد من هؤلاء لها مشترون وقراء ومن يراسلون بريد القراء فيها.. ولا تنس أنك تشتري مجموعة قصصية مصرية بطلتها تدعى (عبير عبد الرحمن)، والتي لم يسمع عنها أحد ممن يقرءون قصص رابطة العدل هذه..
قال لها (الفانوس الأخضر) بثيابه الخضراء المميزة، ولحيته الطويلة الشقراء المشذبة:
- مرحبا أيتها الوطواطة.. هل لديك أخبار أفضل؟
قالت في أسى وهي تضرب كفها اليسرى بقبضتها اليمنى:
- لا جدوى..
لكنها كانت لتغدو أكثر سعادة لو عرفت ما هذا الذي لا جدوى منه بالضبط..
كان الفانوس الأخضر هو رئيس رابطة العدل لهذه الدورة العمومية، ولم يكن (سوبرمان) موجودا.. هذا يفسر لك الأمور أكثر.. وقد قال وهو يراجع لائحة كئيبة المنظر أمامه على المنضدة:
- اللائحة صارمة جدا بالنسبة للعضو غير المنتج.. لابد من محاسبته بقسوة.. والوطواط لم يقدم لنا أية قصة منذ نصف عام..
قال (البرق) وهو يتململ في مكانه:
- لا فائدة.. لابد من فصل الوطواط.. هذا مؤلم لكنه الحل الوحيد..
في جزع صاحت المرأة العجيبة:
- ربما فصلنا الوطواط وربما كان هذا سهلا، لكن كيف نواجه العالم بعد هذا، حين يذكر التاريخ أننا نحن من فعلها؟
قالت الوطواطة (عبير) في تململ:
- لا أحد يمكنه فصل الوطواط.. إنه كالفنان أو الزعيم الديني أو الثائر لا يمكن إيقافه بقرار..
- لكن تفاصيل العمل النقابي تجعله معرضا للمساءلة وربما الغرامة لو خرق قوانين (رابطة العدل).. لم تعد الأمور سائبة كما كانت في الماضي.. حتى البرغوث يحتاج إلى تصريح نقابي كي يمتص دماء من يريد..
نعم.. فرابطة العدل نقابة كأية نقابة أخرى.. ويبدو أن هناك رسوم عضوية وكارنيهات وما إلى ذلك.

فقط هي - كما قلنا - نقابة تضم كل من يلبسون ثيابا غريبة ويضعون قناعا على وجوههم، ويحاربون الجريمة بشكل منفرد..

قالت الوطواطة وهي تسدل عباءتها على كتفها الأيسر في عصبية:

- كل ما أطلبه هو مهلة من المجلس الموقر.. أحتاج إلى ثلاثة أسابيع.. بعدها يمكنكم فصل الوطواط لو أردتم، وإن كنت أعتقد أن هذا القرار ليس هينا، ولن يقبله الجميع بترحاب..

ثم غادرت المكان دون أن تنتظر قرارهم....

ستكون سعيدة لو فهمت ماذا يدور هنا.. وما المطلوب منها بالضبط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- حديث عن الوطواط..

في الطابق الأرضي قابلها (بوب كين)..
هذا خبر لا يهمنا كثيرا إلا لو عرفنا أن (بوب كين) هو مبتكر شخصية (الوطواط).. والخبر الأهم هنا أن (كين) توفي عام ١٩٩٨.. لكن هذه هي (فانتازيا) على كل حال.. كان عجوزا أشيب قصير القامة، وكنا نود أن نقول إنه في أسوأ حال وبادى الفقر كمبتكر شخصية (سوبرمان)، لكن الرجل كانت تلوح عليه مخايل النعمة..
سألها في لهفة وهو ينظر للوراء خشية أن يسمع أحد ما يقال:
- هيه! علام اتفقتم؟
- لم نتفق.. أنا قررت أن أمنح نفسي فترة قدرها ثلاثة أسابع لإقناع الوطواط..
قال لها وهو يقتادها إلى مجموعة مقاعد جوار الباب الزجاجي العملاق للبناية:
- الحقيقة هي أن الوطواط فقد القدرة على الاستمرار.. إن بقاءه في رابطة العدل أمر لا يهم هؤلاء القوم ولا يهمه هو كذلك!
ثم أضاف وهو يجلس:
- إن وفاة (روبين) زميل عمره قد جعلته يعتزل العمل ومكافحة الجريمة.. يمكن القول إنه مصاب باكتئاب تفاعلي حاد، وهذا النوع من الاكتئاب لا يزول إلا بزوال السبب.. والسبب هنا لا يمكن زواله.. لقد حاولت كثيرا جدا.. يعلم الله أنني حاولت كثيرا جدا.. أحضرت الورق والقلم والفرشاة وجلست.. ناديت (الوطواط) كثيرا جدا لكنه لم يلب ندائي أنا صانعه.. أنا والده...
- والحل؟
- على قدر علمي لا يوجد حل..
وجلست جواره ووضعت ساقا على ساق، بينما أراحت ذقنها على قبضتها وسألته:
- ما هي ذكرياتك عن ابنك هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعرف أن الاستطراد لا يناسب الكثيرين منكم.. ولربما طلب مني البعض أن أصمت قليلا، لكني – بصراحة - أجد أنه من المحزن أن يتكلم صانع شخصية الوطواط فتتجاهل ما يقول، ثم إن معرفة تاريخ الشخصية وعالمها هو الهدف الأول لهذا الكتيب.. أما ما بقي فيحتمل أن يروق لك أو لا يروق، وهو في جميع الأحوال يذهب.. لهذا أرجو أن تتحملوني بضع دقائق أخرى..
بدا على ملامح (كين) الحنين، كأنما يتذكر بالفعل ابنه الأول.. كيف مشي.. كيف تكلم.. متى ارتدي السروال الطويل أول مرة.. ومتى خرج إلى الشارع وحده أول مرة...
قال لها بصوت ناعس حالم:
- ولد الوطواط في مايو عام ١٩٣٩ في العدد ٢٧ من مجلة (دتكتيف كوميكس).. من العسير أن أذكر الآن لماذا ابتكرت شخصية (الوطواط).. ربما كان السبب هو الأرباح الهائلة التي راحت شخصية (سوبرمان) تدرها على الشركة التي احتكرتها.. للأسف لم يظفر مبتكرا (سوبرمان) بقسط من هذه الأرباح لأنهما وقعا فريسة عقد احتكار مجحف لا يمكن إلا أن نعتبره سرقة..
الآن يمكن القول إنني اعتمدت بشدة على ثلاثة مصادر أساسية في خلق مفردات هذه الشخصية:

أولا تأثرت بشخصية (زورو) بعدما رأيت فيلم (علامة زورو) الصامت الشهير.. إن (زورو) هو الفارس المغوار المقنع الذي يعيش حياتين. في الصباح هو (دون دييجو) الشاب العابث المستهتر وفي الليل يتحول إلى (زورو) العظيم بسيفه السريع البتار.. هكذا جاء (الوطواط) في شخصية (بروس واين) المليونير المستهتر، الذي ينزل إلى كهفه الرهيب ليتحول إلى الوطواط.. رمز العدل وسيد الظلام..

المصدر الثانى في إلهامي كانت تصميمات (ليوناردو دا فينشي).. العالم الإيطالي العظيم الذي صمم الهليكوبتر والغواصة والدبابة.. وكانت طائرات (دا فينشي) وسياراته لها أجنحة الوطاويط، وبالمثل صارت طائرة (الوطواط) تحمل الشكل ذاته..

والمصدر الثالث هو فيلم صامت اسمه (الوطواط).. كان يقدم لصا يحمل الاسم ذاته.. وكانوا يستدعونه بضوء كشاف عملاق رسم عليه وطواط.. لطالما خفت الوطاويط، لكني افتتنت بها دوما، وبدا لي أن الوطواط سيخيف المجرمين بالقدر نفسه..

كان على أن أجد المؤلف.. واتصلت ب. (بيل فنجر) كي يعد لي قصة مثيرة مناسبة.. وقد تحمس الرجل للأمر، وإن لم ترق له الاسكتشات الأولى للوطواط لأنه رأى أنه يشبه (سوبرمان) كثيرا، وفتحنا قاموس (ويبستر) كي ندرس صورة الوطواط المرسومة فيه.. وبدأنا التعديل.. فصارت للوطواط عباءة تغطي نصف وجهه وعينيه وأذنان طويلتان وقفازان..

وأطلق (فينجر) على المدينة اسم (جوتام سيتي).. وخلق شخصية الخادم (ألفرد) ورئيس البوليس المفتش (جوردون)..

في القصص الأولى كان الوطواط قاسيا جدا في تنفيذ العدالة، بل إنه كان يحمل مسدسا! ولما وجدنا أن الوطواط يشعر بالوحدة قررنا أن نمنحه رفيقا، وكان هذا الرفيق هو الفتى العجيب (روبين) الذي يربيه الوطواط، ويعلمه أساليب مكافحة الجريمة، وقد ظهر للمرة الأولى عام 1940.. ومن وقتها اكتسب الوطواط طابعا أكثر هدوءا وصار أقرب إلى الأب أو الأخ الأكبر..

لكن في هذه الفترة بالذات ظهر طبيب نفساني شبه مجنون اسمه (فردريك ورتهام).. شن هذا الرجل أعنف هجوم على شخصية الوطواط.. ونشر كتابا اسمه (إغواء الأبرياء) عام 1954 اتهم في هذا الكتاب شخصية الوطواط بتهم مشينة لا يمكن ذكرها، لكنها تستند إلى أنه لا توجد أية شخصيات نسائية في عالمه.. فقط هو و (روبين) والخادم (ألفرد)....

وهي محاولة للتذاكي تذكرنا بما حاوله واحد آخر، زعم أن (واطسون) صديق (شيرلوك هولمز) الصدوق هو امرأة.. وتساءل كيف ولماذا لم يتزوجها (هولمز)؟!

كان السبب الثاني لمهاجمة السلسلة هو كثرة ما فيها من عنف وقتل.. والحقيقة أن الرقابة ضايقتنا كثيرا بسبب هذا الكتاب.

سألته (عبير) وهي منبهرة بكل هذه المعلومات التي لم تكن لتعرفها إلا من صانع الوطواط نفسه:

- هل أثر هذا المجنون في الشخصية التي ابتكرتها؟

- إلى حد ما.. لا أنكر أن كلامه أثار قلقنا.. ولهذا ظهرت المرأة الوطواطة في القصص.. ما دام الرجل يرغب في زيادة الشخصيات النسائية الجذابة، فلا أقل من أن نحقق له ما يريد.. كان اسمها الأصلي (كاتي)

وبعدما تقدمت في السن علمت ابنة أخيها (بيتي) - التي هي أنت - كيف تكون الفتاة الوطواطة.. لقد ولدت أنت عام 1961.

كما أن (الفرد) الخادم لم يعد هناك وجاءت بدلا منه عمة الوطواط (هارييت) لتقيم عند ابن

أخيها، وهي لا تعرف أنه الوطواط..
في القصص التالية بدأ الوطواط يقابل (سوبرمان).. وصارا عضوين شرفيين في رابطة العدل الأمريكية.. عام 1953
سألته في خبث:
- تبدو لي في بحبوحة من العيش.. لست كمؤلف (سوبرمان)..
تحسس ربطة عنقه في مزيج من الفخر والرضا، وقال:
لأنني كنت موفقا من البداية وقمت بتوقيع عقد يسمح لى براتب لا بأس به طيلة حياتي.. كما أني عملت مع (هوليوود) كثيرا، ورواتبهم كما تعرفين هي ثروات صغيرة
والشيء الذي لم تعرفه (عبير) ولم يقله (كين) طبعا هو أن رسوم الأخير كانت ضعيفة جدا.. إنه مبتكر جيد للشخصيات لكنه ينفذها برداءة، مثله مثل (والت ديزني).. ولكن رسامين عظيمي الموهبة رسموا الوطواط فيما بعد، وأعطوه سحرا لا ينسى.. نذكر منهم (جيري روبنسون) - الذي اشتقوا من اسمه اسم (روبين) الفتى العجيب - و (ديك سبرانچ) و (جاك بيرنلي) و (شلدون ملدوف) و (ستان كاي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها وعلى وجهه العجوز ترتسم أمارات التوسل والاستعطاف، تلك التي يجيد الشيوخ رسمها على وجوههم:
- أنا بمنزلة أبيك.. عديني أن تعيدي لى الوطواط ثانية
قالت وهي تنهض:
سأحاول.. لكني لا أعد بالكثير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- كيف مات (روبين)..

راكبة دراجتها البخارية، التي تقودها كالشيطان لو كان هذا الأخير يقود دراجات بخارية، انطلقت (عبير) تدور حول الجبل عند أطراف (جوتام سيتي)..
كانت تشعر بخفة غير عادية كأنها تطير بالفعل، واستطاعت فهم نشوة القوة بحق.. إنها تستطيع عمل كل شيء ولا تخاف عمل الأشياء الباقية.. هذه هي أحب لحظات (فانتازيا) لها حين تتقمص بحق دور الشخصية وتتنفس مثلها.. عندها تفهم.. تصير لها رغبات وطموحات ومخاوف.. وهي الآن قد صارت الوطواطة بحق..
الآن ترى الجبل، وعلى قمته قصر المليونير العابث (بروس واين) محبوب النساء رقم واحد.. كن سيهمن به حبا أكثر لو عرفن أنه بالإضافة لثرائه ووسامته يتحول ليلا إلى الرجل الوطواط.. وطواط الليل المهيب الذي يتواثب فوق قمم ناطحات السحاب، ويتربص بالشر حيثما كان..
لكنها لا تتجه إلى الطريق الصاعد المعتاد.. إنها تدور حول الجبل قاصدة نقطة وعرة عند السفح.. نقطة لا يوجد مجنون واحد يفكر في تسلقها..
تترجل وتعبث بين غصون الشجيرات الملاصقة للمكان، فتتحرك الصخور إلى اليمين واليسار ليظهر طريق ممهد بين صفي الصخور، وتنطلق من جديد بدراجتها البخارية، بينما تخرج من جانب الطريق فرشاة عملاقة تكنس أي أثر لعجلات الدراجة يمكن لفضولي أن يتبعه..
تدخل (عبير) ما يشبه الكهف، ومن خلفها تنغلق الصخور من جديد صانعة حاجزا يحسب الرائي أنه لم يُمس من العصر الطباشيري..
الآن تعبر دراجتها طرقات الكهف المظلمة وثمة كشافات خافتة على الجانبين.. لا صوت إلا هدير المحرك العالي والصدى.. وحتى هنا مازال الحذر موجودا لأن فراشي آلية تخرج من جانبي الطريق، لتزيل آثار عجلات الدراجة من على الطريق بمجرد مرورها..
أخيرا ترى الباب العملاق وجواره مجس البصمات الشهير.. تنزع القفاز مرغمة وتثبته على الزجاج وتنتظر حتى تمر أشعة الماسح الضوئي على يدها بالكامل، ثم يضيء مصباح أحمر فتقرب فمها من سماعة هناك لتقول:
- الوطواطة!
يرتفع صوت الى معدني من تلك الأصوات التي يعرفها هواة الكمبيوتر، يقول:
- التعرف إيجابي.. البصمات مشفرة.. يمكنك الدخول..
والحقيقة أنها كانت تعرف كل شيء عن الوطواط، بينما هو لا يعرف عنها أي شيء تقريبا.. تعرف داره ومكان كهفه السري وشخصيته الأصلية وكل شيء.. لكنها لم تسمح له بأن يعرف أي شيء عنها.. ولم يجد الوطواط مانعا من أن يسمح لها بدخول كهفه متى أرادت ذلك.. ذات مرة استطاعت أن تنقذ حياته لمجرد أنها تعرف عنه ما تعرف.. وتأكد هو من أنه من المفيد أن يكون هناك من يعرف أسراره سواه..
انفتح الباب محدثا (تك).. ثم وجدت نفسها في قلب كهف الوطواط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبعا لا داعي لوصف الكهف لأنه معروف لقراء سلسلة الوطواط.. ماذا؟ لم يقرأها الجميع؟ حسن.. الوصف سهل على كل حال.. إنه كهف.. هل اتضحت الأمور؟

كهف عملاق هو تتناثر في أرجائه شاشات الكمبيوتر الضخمة، وبعض شاشات الدوائر التليفزيونية المغلقة التي تراقب أهم الأماكن في (جوتام سيتي).. وهناك سيارة الوطواط التي تغير شكلها أكثر من خمس مرات في القصص، وطائرته.. وكلها تحمل الطابع المميز لأجنحة الوطاويط
هناك الكثير من الأسلحة على الجدران.. وكل أسلحة الوطواط ومعداته تشبه الوطاويط.. عامة طابع المكان أزرق بارد خانق.. ويوحي بالكثير من التوجس..
هناك صف من التماثيل التي تمثل أعداء الوطواط الأشهر.. إنهم معرض مخيف يضم أسماء سنلقاها حالا مثل (البطريق) و (المضحك) و (القطة) و (مستر صفر).. والتماثيل توشك على أن تدب فيها الحياة في هذا الضوء الخافت، ومع كل هذا الإتقان..
هنا كان (الوطواط) و (روبين) يعملان، وما من بشري دخل هنا من قبل إلا (ألفرد) الخادم العجوز النزيه والوطواطة التي هي (عبير)..
الآن يمكنها أن ترى الوطواط.. كان جالسا أمام شاشة صغيرة يشاهد أحد أفلام الفيديو، والفيلم كان يصور (روبين) وهو يؤدي بعض التمارين التي لا يمكن وصفها إلا بالإعجاز.. لا تنس أنه كان بهلوان سيرك قبل أن يموت أبواه ويتبناه المليونير (واين)..
كان مكشوف الرأس لكنه يلبس حلته كاملة، ولطالما تساءلت (عبير) أين يخفي هؤلاء الأبطال ثيابهم؟ ترى (بروس واين) بالثياب العادية يمشي وسط المدينة، فيكتشف حادث سطو.. هنا يدخل أول زقاق ويتحول إلى شخصية الوطواط.. كيف؟ هل كان يداري هذه الثياب في جيب الحلة؟ ولنفرض هذا.. فماذا عن الحذاء
الطويل الرقبة؟ ثم أين يخفى ثيابه المدنية في أثناء القتال؟ تزعم المجلة أنه كان يخفيها في عباءته! يا سلام! العباءة تخفي حلة كاملة وحذاءين وقميصا وربطة عنق وبرغم هذا ترفرف كالأعلام في سماء (جوتام سيتي)؟
المهم أن الوطواط كان يشاهد الفيلم وهو يمزج بين الضحك والبكاء في ذلك المزيج العبقري الذي لا تجده إلا عند المجانين.. وكان يكور قبضته ويطوح بها في الهواء، كأنما يستحث البطل على الشاشة كي يفعل ما هو أكثر..
هكذا هو منذ أشهر لا حصر لها..
قالت له في حذر:
- مساء الخير يا وطواط..
لم يرد، وهو ما دلها على أن الأمور لا تتحسن.. بعد قليل قال لها وهو يمسح دمعة:
- قابلته للمرة الأولى في سيرك (هالى)، وكنت ألاحق واحدا من مافيا الحماية يدعى (زوكو).. وكان أبطال السيرك هم آل (جربسون): الأم والأب والابن.. وكانت لعبة ترابيز خطرة تلك التي قاموا بها، حين انقطعت الحبال.. كان هذا هو التخريب الذي تعمده (زوكو) عقابا لهذه الأسرة على رفضها الدفع.. ومات والدا الفتى (ديك) وقمت أنا بتبنيه وعلمته كل شيء أعرفه.. وساعدته حتى قبض على (زوكو) وسلمه للعدالة.. صار هو الفتى العجيب (روبين).. وصار ربيبي الصغير اللطيف (ديك واين).. إن ما مر به من ألم لا يختلف كثيرا عما مررت أنا به..
- كان بارعا.. كان ذكيا.. كان..
ثم ارتجف وتهانف.. دنت منه وهي لا تدري ما تقول وربتت على كتفه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة السوداء كان الوطواط مريضا.. نعم.. حتى الوطواط يمرض لأنه رجل عادي وليس (سوبرمان).. وكرجل عادي له لوزتان تلتهبان أحيانا..
كان في الفراش وحرارته تصلح لإنضاج اللحم.. حين اتجه (روبين) ربيبه - الفتى الذكي المليء بالمرح وحب الحياة - إلى النافذة ليفتحها.. أخذ نفسا عميقا ثم نظر إلى السماء.. وسماء (جوتام سيتي) ملبدة بالغيوم دائما.. لو كان هناك قمر فهو قمر شاحب كئيب خجول.. وفي السماء يرى الفتى شارة الوطواط مرسومة على السحب.
- وطواط.. إنهم يريدونك!
مد الوطواط يده إلى جهاز اللاسلكي الصغير الذي يضعه في متناول اليد دائما، وأصغى إلى الرسالة التي يبثها له المفتش (جوردون):
- الفزاعة يهاجم المصرف..
كان هذا كافيا.. حاول النهوض لكن كل عظمة من عظامة كادت تتفكك..
الفزاعة هو لص يشبه الفزاعة.. أي خيال المقاتة.. وبالنسبة لعالم الوطواط يعتبر هذا أخطر اللصوص وأذكاهم، لأنه كان أستاذا لعلم النفس قبل أن يقرر أنه أخطأ اختيار الكلية بعد الثانوية العامة.. قرر أن يكون لصا.. وأن يستخدم أساليب الخوف والتنويم المغناطيسي للحصول على ما يريد..
قال له (روبين) وهو يعد نفسه:
- سأذهب بمفردي هذه المرة.. أنت لا تقدر..
- وأنت لا تقدر على مواجهة الفزاعة وحدك..
- وأنت لا تقدر على الوقوف على قدميك..
ما كان الوطواط بحاجة إلى قومسيون طبي كي يعرف هذه الحقيقة، وهكذا عاد للفراش وهو يلهث ويرتجف وقال للفتى:
- حسن اذهب ولكن توخ الحذر..
وبالطبع كانت هذه آخر عبارة سمعها الفتى من أستاذه ومربية
ما إن وصلت دراجته البخارية إلى المصرف حتى رأي الفزاعة ورجاله يفرون قاصدين سياراتهم..
الفزاعة يلبس ثيابه المألوفة: قبعة القش على رأسه والثياب الممزقة والقش يطل من كمي قميصه.. وكان يرمي أعواد القش على رجال الشرطة.. ولاحظ (روبين) أن رجال الشرطة يرتجفون ولا يجسرون على التقدم.. وهذا من المشاهد المعتادة مع الفزاعة.. لقد نومهم مغناطيسيا وهم الآن لا يرون أمامهم شارعا وعصابة، بل يرون حمما بركانية تغلى وتوشك على حرقهم أحياء..
ثلاث شقلبات بهلوانية حتى صار عند العصابة، فركل اثنين منهم في الصدر وضرب اثنين في البطن.. وهي من معجزات الوطواط الغريبة: يمكنه أن يضرب أربعة رجال بأربعة أطراف ويظل واقفا على الأرض كذلك كأن له قدما ثالثة..
تحاشى رصاصة كادت تمس رأسه.. وقذف قذيفة الوطواط (الباتارانج) التي تشبه (البوميرانج) الأسترالية لتحلق وتضرب الرامي في أنفه.. ثم دار ليركل أحد الرجال في عنقه و..
هنا بدأ الفزاعة يؤدي عمله.. رفع يده التي يغطيها القش في وجهه وقال بصوته المكتوم:
- أيها الفتى العجيب.. أنت مثل غيرك تشعر بالخوف.. بالخوف..
حقا كان هناك الكثير مما يدعو للخوف..
ماذا أتي بكل هذه الأسود والنمور هنا بالذات؟ في قلب مدينة (جوتام سيتي)؟
الويل.. إنها جائعة!! تراجع (روبين) للوراء في ذعر بينما هذه الوحوش تدنو منه مكشرة عن

أنيابها، وأدرك في ضيق أن الفزاعة قد ركب سيارة الهرب مع رجاله.. لكن الخطر الذي أمامه كان مباشرا وحقيقيا إلى حد لا يصدق.. إنه ليشم رائحة أنفاسها الكريهة.. إنه....
لكن هذا كله وهم.. بالتأكيد وهم..
دون تردد اجتاز صفوف الوحوش بل وداس على بعضها فلم يحدث له شيء..
لحق بدراجته البخارية وانطلق يطارد سيارة اللصوص.. ومن خلفه راحت سرينات سيارات الشرطة تولول.. لقد صحا هؤلاء التنابلة من سباتهم..
سيارة اللصوص تتجه إلى الجسر.. يلحق بهم وهو يضغط على أسنانه في تحد.. إن سنه المراهقة تجعله خاسرا سيئا لا يقبل الهزيمة بحال.. وهذا هو ما أضاعه....
بازوكا! إن لديهم في السيارة بازوكا!
لكن...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لاااااااااااااااااه!!
قالها الوطواط وهو يغطي عينيه..
حسب ما قاله رجال الشرطة، فإن الدراجة النارية تحولت إلى شعلة من الجحيم ثم طارت لتسقط من فوق الجسر.. وفيما بعد كان حجم أكبر قطعة وجدوها منها لا يزيد على حجم هذا الكتيب..
أما عن جثة الفتى فهم لم يجدوا إلا حذاءه.. لقد تلقاها في فمه حرفيا..
ولم يستطع الوطواط أن ينسى ولم يستطع أن يغفر لنفسه قط.. لو كان رجلا حقيقيا لاستطاع أن يذهب مع الفتى عديم الخبرة.. أو لتجاهل استدعاء الشرطة له.. إنهم يتقاضون راتبا أما هو فلا..
التهاب لوزتين؟ تبا!
لم يشر أحد على أثر للفزاعة من وقتها، ولم يسمع عنه أحد.. إنه يتوارى حيث لا يعرف أحد، ويخرج حين لا يتوقع أحد، ليفعل ما لا يتصوره أحد..
وتمر الساعات فالأيام والشهور والوطواط جالس كما هو أمام الشاشة يستدعي الذكريات.. حين كان له ابن وصديق وزميل كفاح.. ودب الثلج إلى قلبه فلم يعد يبالى بأن يستدعيه رجال الشرطة أو لا يستدعوه.. إنهم مجموعة من التنابلة.. لقد وقفوا ينتظرون حتى احترق (روبين) حيا..
وهو؟ ما دوره في مكافحة الجريمة إذا كان قد عجز عن حماية أصدق أصدقائه؟
لم يعد لشيء جدوى ولا معنى.. فليشطبوه من رابطة العدل.. فليشنقوه إن أرادوا فهم بذلك يزيحون عن كاهله الكثير من الأعباء..
تقف (عبير) ترمقه في غباء.. من الواضح أنه لن يستجيب حتى لو حقنوا في عروقه دماء الإسكندر الأكبر ذاتها.. لكنها كانت قد قررت أن تجبره على الحماسة..
هذا لن يكون سهلا لكنه ممكن..



تقف (عبير) ترمقه في غباء.. من الواضح أنه لن يستجيب حتى لو حقنوا في عروقه دماء الإسكندر الأكبر ذاتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- أنقذوا الوطواطة..

كما يعرف أكثركم: تم السطو على حصيلة الحفل الخيري المخصص للأيتام..
كان هذا في الثامنة مساء السبت، في قاعة احتفالات المدينة، وفي حضور المحافظ ورئيس الشرطة..
الحقيقة هي أن أهالى (جوتام سيتي) كانوا شديدي السخاء، وقد شرعوا يلقون بأوراق العملة في الكأس العملاقة التي يبلغ ارتفاعها قامة رجلين.. ومن الغريب أن الكأس امتلأت وكادت تفيض..
دوى التصفيق بينما عمدة المدينة يعلن انتهاء التبرعات.. ولا بد أن المبلغ قد قارب الثلاثة ملايين إذا ما فكرنا مليا في حجم الكأس.
- يا سادة.. لقد برهنت (جوتام سيتي) على..
على انعدام الأمن طبعا..
لقد برز من لا مكان خمسة من المسلحين.. كانوا - كما هي العادة - يضعون على رءوسهم أقنعة وحوش الغاب.. أحدهم يضع قناع ذئب وآخر يضع قناع أسد.. الخ.. مرورا بالوعل والفيل..
كانوا يحملون البنادق الآلية.. وتصلب الناس وقد فهموا الرسالة سريعا: الويل لمن يتحرك..
برغم هذا وجد أحد المتحمسين من اللصوص الوقت والدافع كي يطلق دفعة طلقات في الهواء، وتهاوت الزينة الورقية لتتدلى فوق الرءوس كأنها خيوط عنكبوت..
ودوى الكثير من الد (أوه) وال (ياه) وال (واو)....
تصلب الجميع وتراجع العمدة للوراء وهو يردد كأي عمدة:
هذه فضيحة!!
طلقة رصاص محكمة أصابت الكأس فتفجرت، وتناثرت الدولارات في شكل نافورة جميلة يتمنى مدير أية شركة صرافة لو غرق فيها ومات.
كانت هناك حقائب بلاستيكية عملاقة، وقد راح ثلاثة من الرجال يعبئونها بسرعة ونشاط، بينما ظل الأسد والدب يراقبان الجمهور.. طبعا لابد أن يكون الزعيم هو من استأثر لنفسه بقناع الأسد.. هذه هي طبيعة البشر.. حتى أعتى المجرمين لابد أن يحمل مسحة ما من عالم الطفولة
لا ندري متى وجد أحد رجال الشرطة الوسيلة للتسلل إلى الخارج.. لا ندري متى طلب التعزيزات بجهاز اللاسلكي في السيارة.. لا ندري متى انطلقت سيارات الشرطة نحو قاعة الاحتفالات، ولا ندري متى صعد أحد رجال الشرطة إلى سطح البناية ولا متى أضاء الكشاف العملاق، فانطلق النور الساطع إلى السحاب.. وعلى وجه السحب انطبع الشعار المميز المطمئن.. دائرة يتوسطها وطواط يرفرف بجناحيه..
لكن الوطواط لم يستجب..
شخص آخر استجاب.
ومن لا مكان ومن حيث لا تجسر النسور.. حلق الخيال الرشيق فاردا عبارته فبدا كوطواط جميل..
ولم يدر اللصوص متى ولا كيف نزل عليهم هذا الوطواط من سقف القاعة متعلقا بحبل من الحبال الخطافية التي يستعملها الوطواط بإفراط...
- الوطواط؟
لا.. ليس الوطواط وكنا نود لو كان كذلك، لكن الوطواط لا يلبس هذين الكعبين العاليين، ولا

هو بهذه الرشاقة وخفة الحركة.. الفارق هو حرف التاء في نهاية الاسم.. لقد جاءت الوطواطة كي تقوم بعمل (الوطواط) وهي ليست بالخصم الهين على كل حال.. إن من يستخف بها في البداية باعتبارها فتاة يدفع الثمن غاليا..
انطلقت البنادق الآلية نحوها لكنها قامت بعدة عجلات بهلوانية انتهت بكعبها في بطن اللص الذي يضع قناع الأسد، وكان هذا كافيا كي يسقط أرضا.. يمكنها انتزاع سلاحه واستخدامه، لكن التقاليد هي التقاليد.. لا بد من الركلات واللكمات.. الكثير منهما في الواقع..
لكن الفتيات يرتكبن أخطاء.. نعم.. يرتكبنها أكثر من الرجال خاصة في مواضيع القتال هذه..
وقد تمكن أحد اللصوص من أن يهوى على مؤخرة رأسها بدبشك بندقيته.. لا تدري متى دار من خلفها ولا متى هوي على هذا الموضع المختار الكفيل بأن تفقد وعيها.. تهاوت كالبالون المثقوب على الأرض، وكاد أحد الرجال يفرغ فيها طلقاته لكن..
- لا تفعل..! إنها رهينة ثمينة!
طبعا كانت هذه من الأسد الذي بدأ يسترجع وعيه.. نهض وهو يعتصر بطنه وأمرهم بأن يستبقوها، وأمر أحدهم - وهو الدب - أن يحملها على كتفه.. ثم أطلق طلقة محذرة في وجه الرجال.. وانطلق الخمسة بحملهم المالي والأنثوي الثمين..
نلاحظ هنا أن الشرطة في (جوتام سيتي) لا وجود لها.. إن رجالها مجرد أشخاص مذعورين لا يفعلون شيئا سوى انتظار قدوم الوطواط من السماء.. وهكذا تراهم لا يفعلون شيئا، بينما اللصوص يغادرون قاعة الاحتفالات.. فقط يطلقون بعض الطلقات في الهواء من خلف أبواب سياراتهم المفتوحة، على سبيل المجاملة لا أكثر..
وتنطلق عربة اللصوص بعدما تحدث فرملة صارخة مولولة.. ثم تذوب في الظلام.
في نشرة المساء ظهرت على شاشة التليفزيون صورة مقلقة بعض الشيء.. صورة وجدتها الإدارة على شريط فيديو في صندوق البريد..
كانت الوطواطة معلقة في وضعية النسر المرفرف.. معلقة من حبال تتدلى من السقف، بينما تحتها وعلى بعد ثلاثة أمتار لا أكثر يغلي سائل ما موضوع في مرجل نحاسي عملاق.. ومن الملاحظ هنا أن كل لصوص هذه القصص يتصرفون بدماثة خلق.. فهم تركوا قناعها على وجهها ولم يحاولوا انتزاعه ولو على سبيل الفضول.
في مقدمة الكادر ظهر وجه الأسد وهو يشير إلى الوراء ويقول:
- كما ترون يا سادة.. الوطواطة في قبضتنا.. ولسوف نلقيها في بركة الحمض هذه بعد ست ساعات ما لم نتلق مبلغا إضافيا نظير سلامتها.. إن ثلاثة ملايين دولار تبدو مبلغا مرضيا.. التفاصيل سيعرفها رجال الشرطة بعد قليل..
ثم أخرج سكينا من جيبه ولوح به:
- فكروا بسرعة.. إن انقطاع هذه الحبال سيكون مشهدا لا نحب أن تروه..
وبكت الوطواطة وارتجفت.. على حين انتهى الشريط..
وعادت مذيعة النشرة الحسناء تواجه المشاهدين قائلة في حسرة:
- هذه هي الحقيقة.. الوطواطة أسيرة ومعرضة للخطر، والوحيد الذي يملك شيئا لها هو الوطواط.. فهل يسمعها؟ هل يستجيب؟
كان المشهد مؤثرا وقد بكى كثيرون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بين الذين بكوا كثيرا جدا (عبير) الوطواطة واللصوص إذ جلسوا جميعا يشاهدون التلفزيون ويأكلون الفيشار.. وجوارهم أكياس المال البلاستيكية.. وعلى بعد أمتار كان الماء الساخن في المرجل قد كف عن الغليان..
- مؤثر جدا..
قال لها اللص الذي كان يضع قناع الأسد:
- لا تنكري أنني أديت دوري كأنما خلقت له..
- لم لا؟ ألست ممثلا؟ أعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تجيده..
مدت (عبير) يدها في حقيبتها وأخرجت حفنة من المال، وبدأت توزيع الأجور على الممثلين الخمسة ولم يبد عليهم رضا شديد لكنهم ابتلعوا الأمر..
- يمكنكم أن ترحلوا الآن.. سأنتظر أنا قدوم الوطواط إما أن يأتي وينقذني، وإما أن أعيد أنا المال غدا للشرطة وأزعم أنني حولتكم إلى عجين..
قال لها الأسد وهو يمد يده طلبا للمزيد:
- أريد علاوة.. إن ركلتك كادت تزهق روحي..
في قسوة قالت وهي تنهض:
- ودبشك بندقية صديقك كاد يهشم رأسي من الخلف.. نحن متعادلان..
- ولكن..
ثنت ركبتها ووجهت له لكمة عاتية في أسفل بطنه، ثم اعتصرت أنفه وأسفل وجهه حتى شوهت ملامحه تماما..
- أنا اقتنعت! أطلقي سراحي حالا!
أطلقت سراحه ونظرت في تحد للأربعة الآخرين بأسلوب (هل تريدون - خدمة - يا - فتيان -؟) فهزوا رءوسهم، وحمل كل منهم أجره وانصرف.. هكذا البشر.. لقد نسوا نفوسهم حين رأوا أكياس المال الممتلئة..
الآن لم يعد أمامها إلا أن تتابع التلفزيون وتنتظر..
لو كان الوطواط قد رأى الفيلم، وهو غالبا سيراه، فلن تفوته اللافتة الصغيرة التي قامت بتعليقها في مؤخرة الكادر، التي تقول بوضوح:
«مطعم ويب سينج للأكلات الصينية»
لو استطاعت لوضعتها في مقدمة الكادر لكن لا يجب أن تفوح من القصة رائحة مبالغة..
فقط عليها أن تنتظر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان عليها أن تنتظر كثيرا جدا..
تنتظر حتى تعرف أنه لن يأتي..
ها هو ذا النهار يطلع عليها، وهي مازالت هنا.. فقط نامت أكثر من خمس مرات ولم تدر كيف نامت ولا كيف أفاقت.. أخيرا تسربت أشعة الشمس عبر خصاص النافذة
وقالت لنفسها: إن الخنزير المجنح لن يأتي أبدا.. هو بالتأكيد يعرف الخبر الآن لكنه تجاهل كل شيء.. فضل أن يضحي بها كي يثبت لنفسه أنه مكتئب..
إن الحزن جميل.. أجمل من القتال.. أجمل من المروءة.. أجمل من المجد..
وهكذا كان عليها أن تغادر المطعم الصيني المهجور، وأن تضع كل أكياس المال على دراجتها

البخارية وتتجه إلى المخفر..
من الغريب أن أحدا هناك لم يسألها ولم يهلل ابتهاجا بنجاتها..
ما سر هذا التجاهل؟ هل كرهها الناس فجأة؟ هل تحول الجميع إلى خنازير؟
كان المفتش (جوردون) واقفا هناك يدخن سيجاره الغليظ، ويداه في جيي معطفه، فلما رآها قال في برود:
- أوه ييه؟ oh Yeh هل أرجعت المال؟ جميل.. جميل..
قالت في غيظ وهي تلقي الأكياس عند قدميه:
- لم تسألني عن سلامتي..
قال بنفس البرود:
- نحن طلبنا الوطواط لكنه رفض أن يذهب للبحث عنك.. قال لنا إن هذه مزحة لأنه يعرف المطعم المهجور الذي كنت فيه، ويعرف أن صاحبه لم يكتب لافتات بالإنجليزية قط.. كان (ويب سنج) يقدس اللغة الصينية.. هذه واحدة..
- والأخرى..؟
- لا يمكن الحفاظ على الحمض في مرجل من النحاس.. إنه يتحول على الفور إلى كبريتات النحاس.. إن الوطواط ينصحك بمراجعة معلوماتك في الكيمياء!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- ألعاب البطريق..

جالسا في كهفه يطعم بطاريقه، نظر لها في عدم تصديق..
أنفه المدبب وأسنانه الحادة والهالات السوداء تحت العينين وكرشة العملاق.. بينما يداه بلا أصابع كأنما هي أجنحة صغيرة.. وسترة السهرة مفتوحة كاشفة عن بطنه، بينما تتلى إلى الخلف بما يشبه ذيل الصرصور وقامته قصيرة لا تتجاوز مترا وربع المتر..
كان له صوت غريب.. والسبب هو أن أول من قام بهذا الدور كان الممثل (بيرجيس ميريديث)، وقد أرغمه المخرج على تدخين السيجار وهو لم يدخن قط.. هكذا احترقت - تقريبا - جيوبه الأنفية وصارت له تلك النبرة الخنفاء المناسبة للدور تماما..
إنه البطريق.. البنجوين.. أشهر وألد أعداء الوطواط..
قال لها في شك وهو يداعب بطاريقه بطرف عصاه:
- أنت متأكدة من أنك لم تأتي للقبض عليّ؟
هزت رأسها باسمة أن لا.. فعاد يسأل:
- ومتأكدة من أن هذا ليس شركا؟
من جديد هزت رأسها.
ثم لوحت بالوثيقة أمام عينيه وقالت وهي تحركها يمينا ويسارا:
- أنت ترى ما أراه.. هذه وثيقة تشملك بالعفو الكامل لو نفذت ما أقوله لك..
الحق ان البطريق كان أقبح إنسان يمكن للمرء أن يراه.. حسب القصة الشهيرة ولد طفلا مشوها لأبوين لم يتحملا أن يكون هذا المسخ طفلهما.. تخلصا منه في شبكة المجاري تحت (جوتام سيتي) وفرا.. هذا هلاك محتوم للرضيع.. هلاك لا شك فيه.. لكن المياه تجرف الرضيع إلى ماسورة صرف علاقة قرب النهر..
هنا تأتي طيور البطريق لتجد الرضيع.. وتحسبه منها من فرط تشوهه، من ثم تقرر أن ترعاه وتتبناه وبالفعل يشب الطفل وهو لا يعرف له أهلا إلا طيور البطريق.. إنه يبدو مثلها بالتأكيد بأنفه الشبيه بالمنقار وبطنه المنتفخ وقامته القصيرة..
فيما بعد فعل ما يفعله أي رجل ناجح في العالم: عرف قدراته واستغلها جيدا.. عرف أنه يبدو كالبطريق فتحول إلى بطريق.. لو أنك رأيت طيور البطريق تتزاحم حول الثلوج في القطب الجنوبي، لبدت لك آدمية جدا، وكأنها تلبس ملابس السهرة.. وكان هذا هو الزي الذي اختاره لنفسه..
ثم كان أن صار لصا.. أعتى لص في المدينة.. وهو لا يمارس الجريمة من أجل الكسب، فماذا عساه يفعل بالمال من يعيش مع البطاريق في كهف به بعض برك الماء؟ إنه يفعل هذا على سبيل التسلية.. على سبيل الحقد على المجتمع..
وكان مقدرا أن يستمر هذا الرجل، لو لم يبرز للبطريق وطواط آدمي.. وطواط يعرف كيف يوقفه عند حده ويعاقبه ويسجنه كلما ارتكب جرما ما.. ولا داعي لأن نؤكد هنا أن البطريق يكره الوطواط كما نكره نحن الثعابين، وبالتأكيد لم يكن يرى له نفعا ما إلا أن يسقط ميتا في الشارع وحوله بركة من الدم..
لكنه اليوم بدأ يغير رأيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له الوطواطة وهي تطعم أحد البطاريق بسمكة صغيرة أخذتها من طبق على المنضدة:
- أنت تفتقد الوطواط.. أليس كذلك؟
نظر لها في صمت.. ثم اعتصر عصاه في كثير من الغيظ..
قالت له باسمة ودون أن تنظر إليه:
- لا تخجل.. إن هذا معتاد..
للسقف المبتل الذي تتدلى منه الهوابط نظر وقال متنهدا:
- بلى.. أنا أفتقد الوغد.. إن الحياة من دونه لا طعم لها.. لا معنى للشر ولا لذة له إن لم يكن هناك محارب الجريمة البارع الذي لا يحلو الشر إلا في وجوده..
إن رجل شرطة (جوتام) مجموعة من الموظفين الحمقى الذين يفتقرون إلى الذكاء، بينما الوطواط كان العقل الوحيد الجدير بي.. كان هو لاعب الشطرنج الوحيد الذي أقبل أن ألعب معه.. صحيح أنه اختار القطع البيضاء واخترت أنا القطع السوداء، لكن المباراة ممتعة حامية الوطيس.. وفجأة انسحب هذا اللاعب العبقري ليتركني وحيدا..
وأشار إلى منضدة عليها بعض أسماك الرنجة وبعض قطع الجبن.. وقال:
- هذا هو طعامي منذ شهر.. صدقي أو لا تصدقي.. أنا لم أسرق تفاحة واحدة منذ اختفى الوطواط.. لم أقم بعملية واحدة.. لا أجد في نفسي الرغبة ولا الحماسة لعمل شيء.. مستحيل أن يعود البطريق لسرقة المتاجر بعدما يهشم زجاجها بقطعة حجر.. مستحيل أن أمشي في الأزقة بقطعة سلك باحثا عن سيارة يمكن أن أفتح بابها..
لقد انتهى الوطواط ومعه انتهت مباراة الشطرنج البارعة، ولم يعد لي من دور في الحياة!
ثم انفجر في البكاء مما أثار شفقتها وربتت على كتفه وهي لا تدري ما تقول..
في النهاية سألته:
- هل تقبل أن تساعدني إذن؟
. في استعادة الوطواط؟ طبعا.. لكنه سيبدأ بقطع رقبتي..
- لن يحدث.. إن العفو العام سيجعله مكتوف اليدين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوطواط ذكيا.. للأسف كان كذلك.. وهذا ما جعل خطة المطعم الصيني إياها تفشل بجدارة، ثم كيف كان لها أن تلاحظ أن المرجل من النحاس.. أشياء كهذه لا يلاحظها من يحاول إعادة وطواط إلى الصف..
وكان التلفزيون ينقل تفاصيل مباراة الكرة المهمة في تاريخ المدينة.. فريق الشرطة مع فريق ضيف.. ولسبب ما يصر الأمريكان على اعتبار هذا الشيء الذي يلعبون كرة قدم، بينما ما نلعبه نحن يسمونه (ساكر)..
كرة القدم هذه عبارة عن مجموعة من الجبال الآدمية تلبس الخوذات والأكتاف المدرعة، تتصارع للحصول - بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة - على كرة بيضاوية بائسة، وتصطدم الإرادات بالإرادات والأجساد بالأجساد فتوشك أن ترى الشرر يتصاعد إلى عنان السماء..
المدينة كلها تهلل بينما أحد هؤلاء القتلة يتقدم لينزع الكرة من قاتل آخر، ثم يركض.. ويركض.. ويركض.. والجماهير تصرخ.. وتصرخ...

في الوقت ذاته في المدينة التي صارت شبه خاوية، حدث شيء غريب..
كانت هناك دبابة عملاقة لها ذات ملامح البطريق الضخم، تتقدم عبر الشوارع نحو مصرف المدينة الاتحادي..
أمام جدار المصرف الرئيسي وقفت الدبابة.. تراجعت بضع خطوات للوراء ثم أطلقت قذيفتها..
بوم!!
وبعد قليل كانت هناك فجوة بحجم سيارة في الجدار، ومن الدبابة خرج البطريق وهو يمضغ سيجاره في نهم، ويأمر رجاله:
- هلموا يا شباب! إن غنيمة باردة تنتظرنا هنا!!
ويهرع الرجال إلى داخل المصرف، ويتجهون إلى حيث الخزائن، ويبدءون التفجير في نظام ودقة كأنهم مارسوا هذا العمل مرارا.. ويسأل أحد الرجال البطريق:
- كم النتيجة حتى الآن؟
- يضربه البطريق بعصاه على رأسه:
- تبا لك يا أحمق!
ثم يجلس على الدبابة في وضع مسترخ، بينما الرجال يفتحون خزانة تلو الأخرى.. ويثبتون خرطوما إلى الدبابة فيتضح الأمر.. إنها مكنسة كهربية عملاقة لا تبدو كذلك..
الآن تدور عملية شفط محتويات الخزائن إلى كيس عملاق في مؤخرة الدبابة، ويتضخم الكيس بالتدريج.
- أسرعوااااا! لن نظل هنا طيلة اليوم..
ثم يهرع الرجال إلى الدبابة التي صار منظرها عجيبا الآن، هو خليط من البطريق والمكنسة الكهربية والدبابة.. وتستدير الدبابة مولية الأدبار..
الآن والآن فقط يخرج رجال الشرطة حاملين مسدساتهم.. يطلقون فيضا من الرصاص على المجنزرة المدرعة، لكن هيهات.. هذا نوع من المزاح لا أكثر..
ويصيح صائح أن يستدعوا رجال الشرطة كلهم وأن يستدعوا الوطواط..
- لكن الوطواط لا يستجيب..
- ربما فعلها هذه المرة.. وهكذا تنطلق الإشارة العملاقة إلى عنان السماء، وسماء (جوتام سيتي) مزدانة بالسحب دائما ولا تصفو أبدا.
هكذا ينطبع شعار الوطواط المهيب على صفحة السماء.
وفي الاستاد يرى الناس جميعا الإشارة، وينصرفون عن المباراة في أهم لحظاتها.. وينظر اللاعبون ليروا أن الجمهور لا ينظر لهم.. الكل ينظر إلى السماء ذاهلا فاغرا فاه..
ويصبح المأمور في رجاله:
- أسرعوا! لابد أنهم لم يبتعدوا كثيرا..
ويندفع الرجال إلى الخارج، فقط كي يكتشفوا المفاجأة المروعة.. كل أبواب الإستاد موصدة، وبإحكام.. الجنازير الثقيلة التي تدعم البوابات كلها تحمل شعار البطريق..
ويطلق رجال الشرطة رصاصهم على الجنازير لكنها لا تخضع لأحد.. عشرات الطلقات بلا جدوى، بينما بدأ الناس يصابون بالذعر، وأوقف الحكم المباراة لأن أحدا لم يعد يتابع ما يحدث..
عشرون رجل شرطة يفرغون طلقاتهم في فولاذ لا يستجيب..
ويتنهد المأمور ويتراجع للوراء، ثم يجفف عرقه:

- أوقفوا إطلاق النار.. لابد من حدادين....
- بل لابد من خبراء تفجير.. هذه البوابات لن تستجيب إلا للديناميت..
أشار لرجاله وأمرهم بأن يحاولوا التسلق.. وابتلع ريقه في مرارة وهو يرى أن كاميرات التلفزيون انصرفت كلها عن متابعة المباراة إلى مشاهدة هذا السيرك..
سيرى كل العالم هذه الفضيحة في لحظة وقوعها..
رجال شرطة (جوتام سيتي) وقعوا في مصيدة سخيفة مضحكة.. وها هم أولاء يتخبطون كالحمقى في شباك البطريق.. أين الوطواط؟ لماذا لا يتدخل ذلك الأحمق؟
فقط الوطواط يعرف كيف يقبض على البطريق ويعرف كيف يحررهم..
لكن الوطواط لم يأت..
لم يأت قط..
وعندما تحرر رجال الشرطة أخيرا، كانت شارته ما زالت في السماء لكن الغيوم بدأت تنقشع، مما جعلها تبدو مهلهلة شاحبة.. لا تخيف الوطاويط البشرية الأخرى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- ثم جاء المضحك..

ها ها ها ها!
تدوي الضحكة طويلة رفيعة هستيرية.. ربما أكثر مما يحتمله الأمر.. ربما إلى درجة تدل على جنون مطبق.. ربما إلى درجة تثير الذعر في قلبك..
وعلى مقعده يتلوى المضحك أو (الجوكر) وهو يضرب الأرض بقدميه من فرط استمتاع.. شعره الأخضر يسقط على وجهه.. قدماه الطويلتان النحيلتان تتحركان في عصبية..
إنه جالس أمام شاشة التلفزيون العملاقة الموجودة في الطابق السفلي من نقابة المجرمين، وهو يشاهد للمرة الألف تلك المشاهد الدسمة التي تظهر رجال الشرطة يحاولون الخروج من بوابات الإستاد..
- ها ها!! رائعععععععععع!! لعبة متقنة بحق!.
حوله يجلس الرجال، بينما البطريق يجلس في مقعده المفضل على شكل بطريق، وهو يستند بذقنه على عصاه ويلوك السيجار في غيظ.. الحقيقة أنه لم يعتبر نفسه نجح.. النجاح الوحيد بالنسبة له كان أن يظهر الوطواط في سماء المدينة.. لكنه بالطبع لا يجرؤ على إعلان هذا وإلا مزقه الرجال إربا.
- هوه هوه هوه!! وماذا فعلت بكل هذا المال؟
قال البطريق وهو يمضغ السيجار أكثر:
- تخلصت منه بالطبع.. ألقته سيارة أحد رجالي في كومة أمام المصرف..
- ولماذا؟
في اشمئزاز قال البطريق:
- أنا فنان ولا أسعى للمال.. لقد حاولت البرهنة على شيء..
- وفشلت؟
لم يرد البطريق فانفجر المضحك في قهقهته الساخرة العربيدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعرف قراء مجلة الوطواط المضحك جيدا. يعرفون شكله الشبيه ب. (جوكر) أوراق اللعب بفمه الواسع الذي يكشف عن ضحكة عابثة ماجنة.. ويعرفون ثيابه فاقعة الألوان.. ويعرفون بشرته البيضاء بلون هذه الورقة، وبالطبع يعرفون شعره الأخضر.. وكان آخر من جسده من الممثلين (جاك نيكولسون) العظيم في فيلم (الوطواط)..
إن المضحك مرعب.. وهو يثير تلك المخاوف الكامنة في أعماق أكثرنا من مهرج السيرك.. إن مهرج السيرك له ضحكة قاسية عابثة، وهو ملطخ بالأصباغ وعيناه ميتتان.. حقا لا أفهم كيف يحبه الأطفال..
كان المضحك لصا عاديا حتى طارده الوطواط ذات ليلة في أثناء سرقة مصنع كيماويات، وكان أن اضطر الأحمق إلى السباحة في مادة كاوية، خرج منها بهذا الشكل الغريب، مع الضحكة الساخرة القاسية على شفتيه..
وكان أن وجد في نفسه مقتا شنيعا للوطواط، بالإضافة إلى إمكانات تتيح له أن يلعب لعبة المضحك هذه..

إنه مهرج سخيف.. كل دعاباته قاسية إن لم تكن قاتلة، وفي بعض القصص تجد لديه مصلا يقتل ضحاياه ويترك جثثهم تحمل ذلك التشوه الضاحك المريع.. باختصار يشبهونه.. وهو يهوي أن يترك أوراق لعب تحمل صورة (الجوكر) على سبيل التوقيع بعد كل جريمة يقوم بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتازا لرجل باب المحل الدوار..

ملامح وجهه قاسية شرسة وثمة ندبة جرح تحت خده الأيمن تشي بباع طويل في المعارك.. كان غامضا صلبا وإن لم يكن جسده ضخما يتناسب مع شراسته.. لكنه كان واثقا.. كان خطرا....

في الداخل ينتقي الزبائن الثياب.. الرجال ينظرون له في كراهية، بينما النساء يرمقنه في شيء من الإعجاب والخوف.. يجتاز كل هذا إلى أن يدخل غرفة البروفات الضيقة..

طبعا - في كل هذه القصص السخيفة - تكون غرفة البروفات ممرا إلى الطابق السفلي.. إلى قاعة سرية خاصة.. وليست هذه القصة مختلفة كثيرا عن هذا..

ها هو ذا الرجل الغامض ينزلق في المصعد إلى الطابق السفلى ويغادر المكان.. هناك أغرب مجموعة من السحنات الكريهة والقاتمة.. وجوه سفاحين.. وجوه مجرمين إن صحت فراستي..

هناك موظفة شرسة المنظر تجلس إلى حاسب آلى، فيتقدم الرجل منها، ودون كلام تفتح كفها طالبة منه هويته..

- آه! معذرة!!

وفي اللحظة التالية وجدت ماسورة مسدس عملاقة مثبتة إلى أسفل ذقنها.. تصلبت بينما قال الدخيل في برود:

- هذه هي بطاقتي.. أظنك تعرفين الآن من أنا..



– آه! معذرة!!
وفي اللحظة التالية وجدت ماسورة مسدس عملاقة مثبتة إلى أسفل ذقنها..

كانت بطاقة الهوية واضحة ولا تدع مجالا للشك في شخصية السيد الكريم.. لكن أحد اللصوص دنا منهما وربت على كتف الدخيل في ترحاب:

- مرحبا ب.(جاك السفاح).. معذرة.. إن الفتاة جديدة هنا..
- ستكون جديدة جدا حين أدخلها القبر..
ونظر لها في ثبات وضغط على الزناد في عصبية لكنه لم يطلقه، ثم مشى مع الآخر مبتعدين..
وبدا من تراجع الرجال أنهم يعرفونه حقا، وأن سمعته غير مريحة على الإطلاق.. كان يمشي في عجلة وتصميم قاصدا القاعة الكبرى في نقابة المجرمين، الذين لا تعرف قلة من الناس أنها هنا..
إن نقابة المجرمين تنظيم معقد ويصعب الدخول إليه.. وهو يعادل رابطة العدل بالنسبة لشركة (دي سي كوميكس)..
لابد أن دقيقي الملاحظة منكم قد لاحظوا أن هذا ال.(جاك) ليس سوى الوطواطة.. نعم.. كلنا لاحظنا ذلك من دون شك.. إن من يعرفون (جاك) جيدا يذكرون أنه أضخم من هذا.. والجرح على خده ليس بهذا الشكل بالضبط.. السيجار الغليظ الذي يدخنه مسدود فلا يمكن سحب نفس واحد منه..
والصوت؟ الصوت دقيق والوطواطة على كل حال خبيرة بتغيير صوتها، لكنها تلصق كذلك على حنجرتها جهازا من نوع Scrambler يغير تردد الصوت وطول الموجة وشكلها..
لماذا جاءت؟ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لدخول نقابة الإجرام من دون قتال، وهي على كل حال تعرفها عن ظهر قلب، كما تعرف أن (جاك) السفاح احترق منذ عامين، ولم يعلم أحد بذلك سواها..
لهذا جاءت هذه النقابة مرارا وهي تلبس مثله.. لكنها لم تحاول اعتقال واحد منهم لأن هذا المكان مفيد لها..
إنها تعرف منه ما سيحدث من جرائم.. إنه الدجاجة التي تبيض لها ذهبا، وليس من الحكمة أن تذبح هذه الدجاجة من أجل اعتقال لص أو اثنين.. بعد هذا سيجتمعون في مكان أكثر سرية ربما لا تستطيع اختراقه.
كان دورها اليوم هو دور (المهيج).. الرجل الذي يندس وسط المتظاهرين ليشعل المظاهرة..
وفي قاعة الاجتماعات كان المضحك والبطريق وسيد الأوهام يستكملون محادثتهم..
قال المضحك وهو يضحك كالعادة في جنون:
- الحقيقة هي أنك لا تطيق الحياة من دون الوطواط!!
طبعا كان على البطريق أن ينكر هذا، فقال في حدة:
- ولماذا؟ ما زالت الوطواطة هنا..
انفجر الرجال ضاحكين مما جعل الوطواطة التي هي (عبير) وإن كانت تبدو ك.(جاك) تشعر بالدم يصعد إلى رأسها.. إذن هؤلاء القتلة لا يعملون لها أي اعتبار يعتبرونها مجرد موضة نسائية تثير المرح ولا تثير الخوف.. لم تكن قد قابلت الكثيرين ممن يؤمنون بمساواة المرأة في المجتمع، لهذا كان من الحمق أن تتوقع أن تجد هذا وسط هؤلاء اللصوص....
حتى اللصوص متعصبون ضيقو الأفق..! هي لم تتوقع هذا!
قال المضحك وهو يحاول أن يتنفس:
- أفهمك تماما لأنني أعاني نفس المشكلة.. إن الحياة من دون الوطواط لا تطاق.. أظن أنني سأصاب بالبله لو استمر الحال هكذا..
قال بعض اللصوص العاديين:
- لماذا يا ريس؟ الميدان مفتوح والغنائم لا بأس بها.. كان ذلك الوغد المجنح يعوقنا..
تبادل اللصان النظرات المتفهمة، وقال المضحك:

- هذا لأنك لست فنانا مثلنا.. نحن نسرق للتحدي ولا نسرق للكسب.. وحين لا نجد من نتحداه..
هنا تدخل (جاك) السفاح الذي عرفنا أنه الوطواطة التي هي أصلا.. صار هذا مملا..
قال وهو يشعل سيجارا غليظا:
- اسمحوا لي يا رجال.. أنا أفهم ما تتحدثون عنه.. وأتكلم عن مسابقة كبرى..
- أية مسابقة يا (سفاح)؟
قال بصوت جهوري دعائي:
- مسابقة بين المجرمين كلهم.. من يقدر على ارتكاب جريمة تقدر على إخراج الوطواط من عزلته واعتزاله..!
تبادل الرجال النظرات وقال أحدهم في حيرة:
- نحن اللصوص نتبارى كي نعيد الوطواط؟ ألد أعدائنا؟
قال (جاك) السفاح وهو يشعل عود الثقاب بحكة في ذقنه الخشنة:
- نعم.. الفائز ينال كل الغنائم التي جمعها الآخرون وينال لقب (لص القرن).. كلنا رأينا أن جريمة البطريق لم تحرك ساكنا لدى الوطواط، كأنه استقلها..
- وحين يعود الوطواط ليطاردنا؟
- سنحاربه كما كنا نفعل طيلة حياتنا..
انفجر المضحك في قهقهته الهستيرية.. لقد راق له الأمر كثيرا، وكانت (عبير) تعرف أنه سيروق له..
قال وهو يركل مقعدا صغيرا ليطيره في الهواء:
- لكن لا بد أن يعرف كل مجرمي المدينة هذا الخبر العظيم.. المرأة القطة.. أين هي؟ والمستر (صفر).. وذو الوجهين؟ أين رجل الألغاز؟
قال أحد الرجال وهو يراجع دليلا أنيقا من الورق (الكوشية):
- ذو الوجهين في السجن الآن..
- لا بأس، أخبر الآخرين.. ولتبدأ المسابقة من ظهر الغد ومدتها شهر.. شهر واحد..
قال (جاك) وهو يتذكر مهلة رابطة العدل:
- لو سمحت لى ولأسباب لن أذكرها أرجو أن تكون المدة أسبوعين.
ليكن.. ها ها ها ها
وسقط على الأرض من فرط الضحك، وراح يعتصر بطنه التي ألمته عضلاتها بشدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقالت عمتها (كاتي) وهي تصلح لها بذلتها:
- هذا خطأ.. أنت تلعبين بالنار يا (بيتي)..
كانت المرأتان جالستين جوار المدفأة في قاعة الجلوس، والقط يغفو، يقر بتلك الطريقة المخدرة المغرية بالنوم.. هناك قد حان من مشروب (الجنجر)، وبضع إبر وخيوط..
- لماذا يا عمتي؟ ليس لدي من حل آخر..
- أنت تفتحين عش الدبابير وتطلقينه على المدينة.. دعوت اللصوص إلى التنافس في ترويع الأمنين، وتخريب المجتمع..
هزت (بيتي) رأسها ورشفت بعض المشروب الساخن الحاد:

- الغاية تبرر الوسيلة.. أنا لم أوفق قط في استعادة الوطواط، لهذا تركت المهمة لهؤلاء الذئاب.. وهم أبرع وأحط مني ولسوف ينجحون.
قالت العمة في عصبية:
- يوم أخبرتك بسري وعلمتك كيف تكونين الفتاة الوطواطة، كما كنت أنا المرأة الوطواطة، لم يخطر لي ببال أنك ستطلبين العون من نقابة المجرمين..
- لا سبيل لاستدعاء الغطاس إلا بأن تغرقي..
- لو لم يأت الغطاس لغرق بلا ثمن..
في هذا البيت الصغير عاشت (بيتي) وتعلمت أساليب القتال، وهنا معملها وكل شيء في حياتها.. طبعا لا تتناسب الإمكانات مع كهف الوطواط - لا تنس أن الرجل مليونير - لهذا لم تبلغ الوطواطة قط مبلغ الوطواط، ولم تخصص لها أية مجلة..
على شاشة التلفزيون كانت أحداث المسلسل تتابع، وفجأة انقطع الإرسال.. انتقلت الكاميرات إلى مسرح المدينة، وكانت الوطواطة تعرف أنه يقدم عرضا لأشهر فرقة كوميدية فرنسية (كوميدي فرانسيز).. بالطبع مع هذا النوع من العروض كان ثمن التذكرة لا يسمح إلا لعدد محدود جدا بالمشاركة.. عدد من الرجال ذوي الساعات الذهبية والنساء ذوات قلائد الماس..
كان المضحك على المسرح..
وتصلبت (عبير) وهي تراه يتكلم مخاطبا الجمهور:
- الآن يا سادة أقدم لكم هذا العرض الضاحك.. هوه هوه هوه هوه!!
وظهر قزم يلبس ثياب الوطواط، فأخرج المضحك عصا صغيرة وراح يركض وراءه ليضربه بها على مؤخرته.. ربما كان المشهد مضحكا وربما لا، لكن ضحكات المضحك الهستيرية كانت توحي بأنه أكثر من راقت له هذه الدعابة..
- صفقوا وإلا!
كذا صاح أحد رجال المضحك.. وتراجعت الكاميرا لتكشف أن الرجال المسلحين بالبنادق الآلية يملئون القاعة.. وصفق الناس بالفعل.. صفقوا وإلا.. صفقوا بحماسة..
- والآن يا سادة.. نحن نأمل في كرمكم ما دام هذا العرض راق لكم....
وانفجر يضحك ممسكا ببطنه، بينما هرع الرجال حاملين أكياسا من البلاستيك يدورون بها حول الجالسين على طريقة متسولي الفرق الموسيقية.. ووجد الجالسون أنه لا مناص أمامهم من إخراج ما معهم من مال..
- السيدات! ماذا عن تلك المجوهرات الثمينة؟ مذعورات تلقى السيدات بالقلائد والأقراط في الأكياس، بينما يفك الرجال ساعاتهم.. حتى الأسنان الذهبية تولي اللصوص انتزاعها..
قالت العمة وهي تواصل الحياكة:
- هل رأيت ما قمت به؟ أهنئك.. وأين الغطاس يا ترى؟
لكن الغطاس لم يأت.. فقط دوت سرينات رجال الشرطة من خارج القاعة.. لابد أن كل قوة الشرطة في المدينة وقفت خارج المسرح الآن.. لا بد أن كل مسدس لدى الشرطة جاهز للانطلاق الآن..
- شكرا لكرمكم أيها السيدات والسادة!..
وانفجر ضاحكا وهو ينحني لهم في احترام وإجلال..
وتشبث بواحد من الحبال المتدلية من الديكورات بينما هرع رجاله يتشبثون بحبال مماثلة، وفي اللحظة التالية ارتفعت الحبال العشرة نحو السقف بينما ضحكته السخيفة المفزعة تتردد بأعلى

صوت ممكن فلا تحتاج لأي مكبر صوت..
ههوه! هوه هوه هوه! ها ها ها ها ها!!
هبت الوطواطة واقفة لا تدري ما تقول، بينما قالت العمة وهي تواصل الحياكة دون أن تنظر للشاشة:
- طبعا.. ولا بد من طائرة هليكوبتر علي السطح.. هذه هي التقاليد..
والحقيقة أن رجال الشرطة احتاجوا إلى وقت أكثر من اللازم كي يفهموا اللعبة التي فهمتها العمة في ثوان.. وحين نظروا للسماء كانت طائرة الهليكوبتر التي رسم عليها رأس المضحك، تسلط أضواءها الساطعة عليهم وألقت عليهم مئات من أوراق اللعب.. الورقة التي تحمل صورة (الجوكر) دائما..
ثم هوت فوق رءوسهم المندهشة لترات عديدة من سائل أخضر لزج.. سائل يصعب أن تزيله بالصابون والماء.. الحق إن المضحك لعب معهم لعبة كريهة قاسية..
لكنه لم ينجح برغم كل شيء.. لو تذكرنا الهدف الوحيد لهذه العملية..
وحين ابتعدت الطائرة في الأفق مرت فوق بناية الشرطة العالية، وسقط عليها شعار الوطواط..
لكن صاحب الشعار لم يأت.. ولن يأتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- وتحاول القطة..

في نقابة المجرمين هنأوا المضحك على عمليته بشدة، لكنه فقد الكثير من ضحكته المجنونة المدوية.. بدا للمرة الأولى مكتئبا إلى حد ما..
وقال له البطريق وهو يمضغ سيجاره في استمتاع:
- هذا هو ما شعرت به بالضبط يوم انتصرت.. إن الوطواط مزعج لكن الحياة غير ممكنة من دونه.. لا قيمة لأية عملية لا تتضمن إهانة الوطواط وتدويخه..
وقال (جاك) السفاح بطريقته الخشنة التي تذكرك بأفلام (همفري بوجارت) القديمة المليئة برجال العصابات:
- لقد لعبت المباراة ببراعة يا مضحك، لكنك لم تحرز أهدافا..
هنا انطلق سوط يطير السيجار من فم (جاك)، فنظر الجميع في رعب إلى مصدر الهجوم..
كانت المرأة القطة واقفة هناك.. وكانت في أفضل حالاتها..
يعرف قراء الوطواط أن المرأة القطة هي أشرس أعداء الوطواط لكنها أكثرهم جاذبية..
وكعادة ظروف التحول التي تحدث كل ثانية في (جوتام سيتي)، كانت المرأة القطة فريسة محاولة قتل.. لكن القطط أنقذتها، وهكذا - كالعادة – تحولت إلى قطة آدمية.. صارت رشيقة لينة خفيفة الحركة كالقطط، وصارت تصدر ذلك الفحيح الغاضب حين يضايقها أحد، وصنعت لنفسها تلك الثياب الضيقة ذات المخالب في اليدين، ولبست ذلك القناع الذي لا تتبدي منه إلا عينان خضراوان قاتلتان تفتكان دون طلقات..
ولما كانت تملك طباع القطط ورقتها وشراستها وتقلب مزاجها، فإنها لا تخفى أنها تحب الوطواط وتجده أجدر الرجال بحبها.. لكنه حب ممزوج بالعداوة والكره..
الحق إن القطة هي أعمق شخصيات الوطواط وأكثرها ثراء لونيا.. إن الشخصيات المسطحة هي القاعدة هنا، فلا تجد الشرير إلا شرا خالصا، والطيب خيرا خالصا، لكن المرأة القطة الشخصية الوحيدة ثلاثية الأبعاد الجديرة بأن تجد مثلها في الأدب العالمي.. شخصية متشابكة معقدة لا تعرف هل تميل إليها أو تكرهها كالجحيم.
كانت تقف الآن في نقابة المجرمين وتتسلي بفرقعة سوطها..
قال المملون منهم ما لا داعي له:
- من؟ المرأة القطة هنا؟
قالت وهي تتقدم في ثبات لتقف في مركز الاهتمام الذي كان البطريق والمضحك وسيد الأوهام يحتلونه:
- مياوووو! نعم يا حمقى.. من سواي يملك هذه المخالب؟
ثم أشارت بطرف سوطها إلى المضحك الجالس:
سمعت كل ما تقولون باعتباركم من اللصوص معدومي الابتكار، وخطر لي أن كل هذا مضحك..
- من اللص عديم الابتكار؟
قالها المضحك وهو يتأهب للنهوض انتقاما لكرامته، فدفعته في صدره بمؤخرة السوط وقالت ساخرة:
- فقط القطة تعرف كيف تجعل الوطواط يفقد صوابه.. ولسوف أثبت هذا لكم..
وفجأة تصلبت.. تشممت الهواء للحظة ثم هزت رأسها:

عجبا! أشم رائحة أنثى هنا! بل أشم رائحة وطواط!!
ارتجفت (عبير) من وراء قناعها السميك الذي يغلف الوجه بالكامل.. رائحة أنثي ووطواط! إن حاسة شم هذه الشيطانة حادة جدا.. بالفعل هنا توجد وطواطة تلبس ثياب رجل وليس تعرفها بعسير.. وبدأ عرقها يسيل..
لكن الأمور بدأت تتحسن، إذ أطلق البطريق سحابة كثيفة من الدخان جعلت شم أي شيء آخر عسيرا..
لو كان هنا كلب شرطة لاختنق قبل أن يشم شيئا..
كانت هناك مشكلة القطة: إنها امرأة.. والنساء أدق ملاحظة وأذكى من الرجال لا شك في هذا، ولأسباب كهذه تكون فتاة التتابع في السينما دائما فتاة.. فقط الفتاة يمكنها أن تتذكر إن كان السيجار في يد البطل في اللقطة السابقة مشتعلا إلى نصفه أم إلى ثلثه.. إن كان كأس البطلة فارغا أم مليئا في اللقطة السابقة.. إن كان هذا هو (جاك) السفاح أم الوطواطة تقلده مستعملة تنكرا بارعا..
قالت القطة وقد بدا أنها نسيت ما كانت تفكر فيه:
- أرجو أن تشاهدوا التلفزيون اليوم في السابعة مساء.. سيكون المشهد جميلا..
ثم أصدرت فحيحا مرعبا، وابتعدت متأودة في مشيتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما هي العادة لم تتخذ الوطواطة أي إجراء.. فقط قررت أن ترى هذه المشاهد وهي عند الوطواط..
وجاءت السابعة مساء لتجدها في كهف الوطواط الموجود أسفل بيته.. كان كالعادة يقضي الوقت مهموما شارد الذهن يستعيد لقطات تظهره حين كان أبا وكان له ابن، وقد شعرت (عبير) بالكثير من التقزز.. إنها تكره الذين يعتبرون همومهم خارقة لم يعانيها أحد سواهم على ظهر البسيطة.. لا بأس من الحزن.. بعض الحزن.. الكثير من الحزن.. لكن من الصعب أن تتحول الحياة كلها إلى حزن..
كان هناك جهاز تلفزيون آخر تملأ شاشته جدارا كاملا.. وكان ينقل أحداث المسلسل اليومي، عندما انقطع الإرسال، وكانت هي تتوقع هذا وإن لم تعرف التفاصيل بعد....
الآن ترى حديقة حيوان المدينة..
هكذا أمكنها أن تفهم القصة التالية..
لقد وصلت إلى الحديقة مجموعة نادرة من النمور البيضاء، وهذه تساوي ثروة في حد ذاتها..
ماذا تسرق القطة إن لم يكن قططا نادرة؟
على الشاشة ظهر المذيع المبهوت، وراح يقول وهو يرتجف:
- النمور البيضاء قد أطلق سراحها وهي حرة طليقة في الحديقة.. ويبدو أن عددا من الحراس محاصر بالداخل.. إن هذه النمور شرسة جدا..
نحن ننتظر قدوم قوات الطوارئ وربما..
ونظر إلى السماء الغائمة كالعادة وارتفعت الكاميرا لترينا شعار الوطواط مرسوما على الغيوم:
- وربما يأتي الوطواط!.....
- أأأأأأأأأ!
كانت هذه من الوطواط.. لقد جلس يشاهد هذا وكأنما الأمر لا يعنيه، ثم شرب جرعة كبيرة من

علبة المياه الغازية وتجشأ.. تجشأ كالقردة..
فكرت الوطواطة: ربما كان من الخير لرابطة العدل أن تشطب هذا الخامل معدوم الرجاء..
وفي اللحظة التالية هبطت الكاميرا لترينا عشرات النقاط السوداء الملتهبة تتطاير في الهواء.. استغرق الجميع فترة لا بأس بها كي يفهموا دلالات هذا المشهد.. إنها بالفعل وطاويط.. لكنها تحترق حية!..
وقال المذيع المذعور:
- هناك من أحرق الوطاويط ثم أطلق سراحها!! هذه إهانة متعمدة مقصودة للوطواط!!
صاحت (عبير) / (الوطواطة) وهي تشير إلى الشاشة:
- هل ترى؟ هذه المرأة تسخر منك!!
نظر لها مليا ثم قال في هدوء:
- من أدراك أنها امرأة؟
يا للشرود!! يصعب عليها أن تفكر بدقة وحذر.. قالت وهي تدفن عينيها في الشاشة:
- الأمر هين.. من الواضح أن القطة هي من يهتم بسرقة النمور!
هز رأسه وعاد يواصل تأمل الشاشة في استمتاع حقيقي كأنه يشاهد فيلم السهرة..
وفي اللحظة التالية انفتحت أبواب الحديقة وظهر أول النمور.. كان يقظا وثابا يتمتع بحيوية هائلة، وجواره تمشي المرأة القط في تؤدة وهي تدلله وتخاطبه.. إنها لم تفقد سيطرتها على عائلة السنوريات كما هو واضح.
طبعا أطلق المراسل صيحة رعب، واختل توازن الكاميرا فهبطت إلى الأرض.. على حين دوي صوت صراخ مريع.. ثم انقطع الإرسال..
قال الوطواط وهو يريح قدميه على مقعد أمامه:
- هكذا النمور.. ثقي أنها لا تهتم كثيرا بسترة المراسلين الصحفيين.. إنها تلتهمهم كسواهم!
في غيظ صاحت:
- ألا تشعر بخجل؟
- طبعا نعم.. لا أشعر بشيء.. إنني اليوم مواطن عادي يراقب كل هذا في رعب وضيق ويتساءل أين رجال الشرطة؟ أين الوطواط؟
- أنت الوطواط!
- لا أظن.. لقد كففت عن أن أكون شخصا آخر...
وفي عالم الواقع فرغت القطة من جعل النمور تصعد إلى صندوق سيارة نقل.. ثم وثبت إلى جوار السائق، وابتعدت السيارة بحمولتها الثمينة بينما وصلت سيارات شرطة (جوتام) لتحاصر الحديقة الفارغة.. في (جوتام) سيتي يصل رجال الشرطة بعد أجهزة الإعلام..
كانت سرقة نظيفة أنيقة وتمت بسرعة مذهلة..
لكنها لم تحقق أي شيء من كل ما أرادته.. إن الوطواط لم يحرك ساكنا..
(عبير) هي التي تحركت.. لقد وجدت أنه لا جدوى من أن يتحمس الوطواط، ووجدت أنه لا بأس من القبض على القطة هذه المرة.. فهي استنفدت فرصتها.. ولا بد من إعادة بعض الهيبة للقانون في هذه المدينة..
نهضت وقالت للرجل الجالس يتجشأ:
- سلام.. سأتولى الأمر بنفسي..
- لا بأس.. لكن كوني حذرة.. إن عشرة نمور ليست بالخصم الهين..

- ومن قال لك إنها عشرة؟
- إنني أطالع الصحف بدقة.. هل نسيت هذا؟
غادرت الكهف مسرعة لتركب دراجتها النارية ولم تمر دقيقة إلا وكانت في الطريق تنهب الأرض نحو المكان الذي قدرت أن سيارة القطة مشت فيه..
ها هي ذي السيارة قد اجتازت الجسر وبداخلها عشرة نمور لا بل أحد عشر.. النمر الأخير هو أخطرها.
الجزء السهل من العملية هو إيقاف السيارة..
انطلقت الوطواطة بأسرع ما استطاعت حتى صارت بمحاذاة الشاحنة، ثم تجاوزتها وضغطت على زر في دراجتها البخارية، عندها انتثرت دبابيس الوطواط عبر الطريق.. دبابيس يمكنها أن تثقب أية عجلة مهما كانت غليظة..
رأى السائق المشهد، فشد كوابح السيارة، وانزلقت العجلات على الأسفلت عشرين مترا ثم توقفت.
تتوقف السيارة، وبعد ثوان تظهر القطة على الباب، ويدها في خصرها.. رأت الوطواطة متوقفة على دراجتها البخارية على بعد أمتار وصدرها يعلو ويهبط من فرط انفعال..



تتوقف السيارة، وبعد ثوان تظهر القطة على الباب، ويدها في خصرها..

قالت وهي تهتز ضحكا

- آه!! كان يجب أن أعرف أن هذه الطفلة مازالت موجودة.. إن عروضها المثيرة للشفقة

تضايقني كثيرا..
ثم أرسلت لها قبلة في الهواء وهتفت:
- يا بنتى لا تحاولي اللعب بالنار.. إنها تحرق الأطفال.. هذه أشياء للكبار!
كانت (عبير) تخشاها بالفعل، والأغرب أن القطة الحمقاء كانت تعتقد أن الوطواطة تحب الوطواط وتحاول انتزاعه منها.. وهو شيء لن تغفره لها أبدا برغم أنه غير صحيح.. الخلاصة أنك لو وضعت امرأتين في مكان واحد لكان الصراع مخيفا يشيب له رأس العمالقة من الرجال..
لا توجد في هذا القتال قواعد، والهدف الوحيد هو إحداث أكبر قدر من الضرر النفسي والمادي لدى الخصم.
قالت الوطواطة ضاغطة على أسنانها:
- هلمي أيتها الأفعى وقاتليني بدلا من إطلاق سمومك!
ثم قذفتها بالباتارانج المرتدة، لكن هذه الأخيرة تفادتها وتكورت حول نفسها كقطة.. بالضبط قطة، وقذفتها برأس قط صغير مغلف بالأشواك.. وهكذا استمر القتال بصورته المعروفة المألوفة لدى قراء تلك المجلات.. تابلوه فوضوي وعبارات تحد يتبادلها الطرفان كأنما هما يتكلمان أكثر مما يتقاتلان.. لا بد من مؤثرات التصادم مكتوبة بحروف كبيرة متعرجة (بوم! - طراخ! بان! - كراش!!) والغريب أن مسلسل التلفزيون المعروف كان يضيف هذه المؤثرات المكتوبة على الكادرات..
تلقت (عبير) الكثير من الخدوش والعضات.. حقا لم يكن القتال سهلا.
إنها ستطلق النمور حالا.. (عبير) تعرف هذا.. هذا محتم.. وترى بطرف عينها أن السائق يمد يده
في حذر إلى باب الشاحنة الخلفي.. لكنها لا تجد الوقت الكافي لمنعه..
فجرت القطة شيئا ما أخرجته من حزامها، وحزام القطة كحزام الوطواطة مليء بالمفاجآت..
كان هذا الذي انفجر عبارة عن غاز كثيف.. غاز حاجب للرؤية لا أكثر..
ووسط الدخان تسمعها (عبير) تقول:
- للأسف يا طفلتي ليس لدي الوقت لألعاب الأطفال هذه.. لقد أردت أن ألقي شخصا ما لكنه لم يأت، والآن على أن أنصرف.. أنا لم أعد بحاجة إلى هذه النمور..
وسمعتها (عبير) تبتعد وهي تصيح:
- يمكنك أخذها وإعادتها للشرطة!! مياوووو!!
وسمعت (عبير) هدير الشاحنة وأدركت أنها دارت حول الطريق لتهشم السياج على جانبه متفادية المسامير..
ثم بدأ الدخان ينقشع لتجد (عبير) أنها واقفة وحدها في الطريق العام ترى الجسر لكنها لا تقدر على بلوغه..
واقفة وأمامها عشرة نمور بيضاء غاضبة

9- ألغاز..

مشكلة النمور هي أنها غير مولعة بالمناقشة والكلام المنطقي..
كانت (عبير) تعتقد أن اللباقة يمكن أن تخرجها من أي موقف.. إن المفاوضات تصلح - كما تعتقد – للتفاهم مع التمور الغاضبة.. لكن النمور ليست من هذا الطراز..
وثب عليها النمر الأول وهو يزأر ذلك الزئير المنذر بالويل، فطارت في الهواء فقط لتسقط فوق النمر الثاني الذي مزق قطعة من عباءتها.. لكنها طارت من جديد.. بينما النمر الثالث يشب على قدميه الخلفيتين.. ليصير أطول وينال منها.. إن الوضع حرج..
صوبت قفازها نحو جانب الجسر، وأطلقت قذيفة الوطواط.. طبعا لن تعمل.. لا.. لقد عملت وهذا غريب.. تشيك.. شريك.. كلانك!....
إن هذه القذيفة هي خطاف موصل بحبل مطاط له شكل وطواط فارد جناحيه، ويمكنه التشبث بأى حافة بارزة..
وسرعان ما تتشبث القذيفة بقضبان الجسر (هذا يفسر التشيك والشريك)، ثم قصر الحبل لتجد أنها تطير في الهواء فوق مخالب النمور وثيابها (وهذا يفسر الكلاك الأخيرة)..
يبدو أنها أفلتت بصعوبة من ألف موت كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة، في النهاية وقفت على روافد الجسر المعدنية تلهث وتتنفس الصعداء قائلة لنفسها كما يقول الأمريكيون:
- كان هذا قريبا جدا!!
أخيرا سمعت سرينات عربيات الشرطة، ومعهم عربات حديقة الحيوان.. كانت النمور تحتشد على الطريق وهي تزأر وتضرب بأكفها خصوما لم يظهروا بعد..
سيكون هناك الكثير من الصخب.. الكثير من الصراخ.. عشرات من الطلقات المخدرة التي تحمل ريشة في مؤخراتها..
ولكن الأمر سينتهي في النهاية وتبقى المشكلة الأساسية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العاشرة مساء استدعى الناس رجال الشرطة لأن شابا كان يقوم بعمل غريب..
لقد كان يمشي في متجر كبير في (جوتام سيتي).. وفجأة وقف أمام أكبر مرآة في المكان.. راح يرمق صورته لمدة ربع ساعة في انبهار شديد، ثم راح يقبل صورته في هيام وإعجاب..
في البدء تجاهله رواد المحل وعماله، ثم بدءوا يرتابون في أمره. هذا مجنون لا شك فيه..
رفع أحدهم سماعة الهاتف وطلب الشرطة.. حتى هذه اللحظة جنون الفتى غير ذي خطر، لكن من يضمن ما قد يحدث بعد هذا؟ إن المجانين الذين يطعنون الناس بعنق زجاجة مهشمة ليسوا نادري الوجود..
وجاء رجال الشرطة.. هذا أمر يمكنهم القيام به دون استدعاء الوطواط.. قبضوا على الفتي..
وفي المخفر بدا لهم مجرد شاب مهذب.. لا تلوح عليه أمارات الجنون.. وحين سألوه عما فعل قال لهم في ضيق:
- لم أسمع أن القانون يحرم أن يقبل المرء صورته في المرأة.....
هذا حق.. لم يحرم أحد ما قام به قط.. لكنه تصرف غير طبيعي.. ولم يكن أمامهم من حل سوي احتجازه إلى أن يقوم طبيبهم بفحصه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في التاسعة صباحا اتجهت فتاة شابة إلى متجر الأسطوانات بالبلدة، وقد وجدها البائع متلهفة ترتجف رعبا وتوترا، وطلبت منه أن يبيعها كل أغاني وموسيقا (البلوز) التي لديه في المتجر.. إن (البلوز) - ومعناها كذلك الأحزان - هي موسيقا ابتكرها الزنوج حين جاءوا إلى أمريكا، وكلها حنين إلى إفريقيا الوطن الأم.. إنها عبارة عن نياط قلب يتمزق.. وفيما بعد دخلتها معان دينية مسيحية، فصار لها طابع معين لا تخطئه الأذن.. اليوم اختلفت مواضيع أغاني (البلوز) لكنها ما زالت تحتفظ بنفس الطابع الحزين الأليم..
كانت الفتاة متلهفة جدا، وابتاعت كل ما وجدته لدى المتجر.. وهو عدد من الأسطوانات أثار ذعر البائع.. كما أنها دفعت نقدا مبلغا فلكيا..
كانت الواقعة غريبة إلى حد أنه لم يدر كيف ولا لماذا رفع سماعة الهاتف وأبلغ الشرطة..
من حق الفتاة أن تعشق أغاني (البلوز) إلى هذا الحد، لكن من حق البائع أن يفهم السبب.. لكن رجال الشرطة اتهموه بأنه رائق البال، وأن عليه أن يحمد الله لأنه حقق هذه الصفقة ولما ينتصف النهار بعد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء اليوم التاسع من الشهر..
وكانت (عبير) هناك في ثياب الوطواطة طبعا لماذا كانت هناك؟ لأنها تعرف أن كل شيء غريب يحمل وراءه لغزا ما، والألغاز هي مهنة رجل الألغاز عدو الوطواط العريق.. هذا اللص المقنع شديد الذكاء، الذي يلبس حلة ملئت بعلامات الاستفهام، والذي يعاني من عقدة كامنة فيه.. إنه لا يستطيع القيام بأية عملية سطو ما لم يبعثر كثيرا من الألغاز قبلها.. هذه الألغاز لو استطعت حلها تجعلك تعرف مقدما أين ومتى تقع العملية التالية..
غالبا ما كان الوطواط ينجح في حل اللغز، وغالبا ما كان ينتظر رجل الألغاز في مكان العملية ليقبض عليه (في الجرم المشهود) على حد تعبير المجلات لبنانية الترجمة.. سبّب هذا عقدة لرجل الألغاز، وراح يحاول أن يصعب ألغازه، لكنه لم ينجح قط في التخلص منها.. إنها عادة لم يعد يستطيع السرقة من دونها..
الآن كانت (عبير) قد قرأت محاضر الشرطة وخمنت ما يلي:
1- الشاب الذي يقبل نفسه في المرآة.. يشير إلى (ناركيسوس) أو (نرجس) بطل الأسطورة الإغريقية الذي رأي صورته في الماء فهام بها حبا.. وراح يحاول أن يقبلها لكنها كانت تتلاشى كلما لامس الماء بشفتيه.. أضناه الهوى والجوي والنوى حتى إنه انتحر، ومن جثته نبتت شجيرة (نرجس).. إذن هذه القصة تشير إلى (نرجس)...
2- الفتاة التي اشترت شرائط (البلوز).. ما معناها؟ لو فكرنا بطريقة رجل لتذكرنا أن لفظة (Blue) لا تعني فقط الحزن، بل تعني كذلك اللون الأزرق.. هناك شيء أزرق في القصة..
3- هنا نتذكر - كما يعرف القارئ - أن متحف المدينة يعرض جوهرة نادرة واردة من نيبال اسمها (النرجسة الزرقاء).. وثمنها أعلى من أن تتم كتابة أرقامه في سطر واحد.
4- متى تقع الجريمة؟ حادثتان وقعت واحدة منهما في العاشرة مساء والأخرى في التاسعة صباحا..
هذا يشير إلى الساعة العاشرة من اليوم التاسع من الشهر، أو الساعة التاسعة من صباح اليوم الاثنين والعشرين من الشهر.. طبعا لا يمكن السطو على متحف في التاسعة صباحا، أو هذا لم

يحدث حتى اليوم.. هذا منطقي وواضح كالشمس.
ولأنها تعرف الوطواط جيدا فهي تعرف أنه أول من سجل اللغز..
هي أيضا حلت اللغز بسهولة نسبية، وكان عليها أن تتجه إلى متحف المدينة.. تقذف إحدى قذائفها الخطافية إلى أعلى ثم تتسلق إلى السطح.. إن هذه المخلوقات التي تعج بها (دي سي كوميكس) لا تشعر بالمرتفعات على الإطلاق، ولفظة (أكروفوبيا) لا وجود لها في قاموسهم..
تصعد إلى السطح لتنام على بطنها فوق الزجاج الذي يطل على القاعة الرئيسية، ووسط القاعة ترى بوضوح تام تلك النرجسة الثمينة كأنها زهرة تنتظر القطاف.. حولها كاميرات وأسلحة إلكترونية معدة لإطلاق الرصاص لدي أي استشعار.. وحولها ثلاث طبقات من الزجاج المقوي.. لكنها تعرف..
هذا كله لن يعوق رجل الألغاز.. لا شيء يعوق هذا الرجل إلا الضرب.. وهي - بعون الله – ستضربه بعنف.. لقد انتهى زمن تدخل الوطواط ولم يعد أمامها إلا القيام بواجبها كما كانت..
في العاشرة مساء بالضبط رأته.. رأت ثيابه المليئة بعلامات الاستفهام من أعلى وهو يخترق الحواجز حاملا حقيبة معقدة مليئة بأجهزة إلكترونية.. هكذا عطل الأسلحة والكاميرات.. لابد أن الحراس نائمون أو ماتوا.. لابد أن التيار انقطع.. لابد أن العدالة نائمة.. لابد أن..
ها هو ذا يمد يده وينزع الجوهرة من مكانها ولكنه أحمق.. كيف يتوقع أن يعرف الوطواط بهذه الجريمة؟ لو كان يريده أن يأتي له فعليه أن يمارس عمله بنوع من الاستعراضية والوضوح.. ثم قدرت أنه على الأرجح يصور ما يقوم به، وربما يعرضه في التلفزيون أو في نقابة الإجرام..
هنا ظهر الوطواط في الكادر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تصدق ما تراه لكنه كان حقيقيا..
إذن وصلت ألغاز الرجل إلى الوطواط، وكما توقعت قام بحلها..
الجديد هنا أنه جاء بالفعل.. كان هذا أقوى منه..
لقد صمد كثيرا جدا لكنه لم يتحمل أن يحل لغزا ولا يتدخل.
واستطاعت أن تسمع بصعوبة رجل الألغاز يصيح:
- أنت هنا يا وطواط!! إذن استطعت أن تحل ألغازي!!
قال الوطواط وهو يكور قبضته:
- طبعا يا أحمق.. كان هذا من أسهل ألغازك وأبسطها.. وكان من الأحكم لو التزمت الصمت..
- إن لي الشرف أنك تخليت عن عزلتك من أجلي.
- إن إغراء توجيه اللكمات لك قد شفاني من اكتئابي..
هنا اندفع رجل الألغاز يلقى أسلحته على الوطواط..
إن سلاحه الدائم هو علامات استفهام متفجرة مرعبة تناثرت حول الوطواط كالأرز حين ينثرونه حول العروسين في الغرب.
راح الوطواط الآدمي يتواثب ثم قام بحركة بهلوانية ضرب بها ذقن خصمه.. حسن.. كما قلت ألف مرة لا داعي لوصف الشجار.. الخلاصة أن الوطواط كان يتمتع بصحة جيدة، وقد أبلى بلاء حسنا.. حتى.... آي!
حتى قذفه رجل الألغاز بقذيفة مكهربة جعلته يصرخ ثم يسقط على الأرض محطم العظام..
الحقيقة أن الوطواط لم يستعد لياقته كاملة بعد..

وفكرت (عبير) أن عليها النزول لتساعد بدورها في قتال رجل الألغاز، الذي بدا أنه ولى الأدبار.. لكن الزجاج
الذي تنام عليه كان أسرع من قرارها.. فجأة بدأ شرخ يسرى فيه كالوباء.. وتفرع الشرخ من تحت جسدها، ثم سمعت الصوت الكرية للزجاج المحطم المتناثر.
كان أول ما تحرص عليه وهي تسقط ألا تؤذي عينيها.. لا مشكلة في السقوط من ارتفاع عشرة أمتار، لكن المشكلة هي الزجاج.
وأخيرا وجدت نفسها راقدة على الأرض وسط شظايا الزجاج، تغطي وجهها بكفيها، وتأمل ألا تهوي قطعة حادة لتفصل عنقها عن جسدها لم يستغرق الأمر كثيرا..
أخيرا استطاعت أن تنهض، وكان ما أثار ذهولها أن الوطواط لم يعد هنا.. لقد لحق برجل الألغاز..
إنه كعهدها به صلب قوي لا يقهر بسهولة..
لقد عاد!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- ثم جاء الصقيع!

- «لأنه رجل طيب لطيف.. لأنه رجل طيب لطيف.. ولا أحد ينكر هذا..»
راحت الأغنية تتردد في نقابة المجرمين، ثم جاءت الكعكة التي ترتفع عن الأرض مترين، وسرعان ما خرجت من أعلاها راقصة.. ودوت الموسيقا وتبادل المجرمون التهاني..
وحين حمل سيد الأوهام الدرع ليقدمه إلى رجل الألغاز، صفق الجميع بحرارة، وتظاهر البطريق والمضحك بعدم المبالاة.. الآن يحمل رجل الألغاز الرسمي (لص القرن)..
وكان من نصيبه كل الغنائم التي ظفر بها زملاؤه وهي لم تكن كثيرة لأن البطريق تخلص من غنائمه، أما المرأة القطة فكانت غنائمها عشرة نمور بيضاء وما كان أحد ليرحب بها على كل حال لو لم تتخلص منها..
سأله (جاك) السفاح وهو يشعل له سيجارا:
- كيف استطعت أن تزحزح الحجر من موضعه؟..
قال رجل الألغاز في ثقة الخبراء:
- كنت أعرف أن الوطواط لو حل ألغازي، فلن يستطيع ألا يجعلني أعرف.. لقد راهنت على ذكائه وكان عليه أن يبرهن لي على أنه كسب الرهان.. إن هذا أقوى منه، ولو لم يأت لكان هذا خارقا لطباع البشر..
كانت (عبير) هي (جاك) طبعا، وقد خطر لها أن كلام الرجل على شيء من المنطق.. أرأيت الذي يسمع نكتة سمعها من قبل؟ إن قبضة شيطانية تعتصر روحه وعذاب أسطوري يمزقه.. في النهاية لا يتحمل أكثر ويصرخ: سمعتها.. سمعتها!!
هكذا الوطواط.. لو حل اللغز فلن يقاوم أن يعرف الأخرون ذلك..
كان الفيلم الذي صورته كاميرات المتحف يعرض على الشاشة الكبيرة للمرة العاشرة.. وكان اللصوص يشعرون بالابتهاج لكنهم كانوا كذلك ممزقين من الحيرة.. بم يحتفلون؟
بإعادة ألد عدو لهم من إجازته المفتوحة الاختيارية؟
هل من الصواب أن يحتفلوا بأن أيامهم صارت قصيرة؟
غارقين في هذه الأفكار شعروا ببرد شديد.. ثم سمعوا صوتا باردا بدوره يقول:
- أهنئك يا رجل الألغاز!!
كان القادم معروفا لهم جميعا وهو – كالعادة – أخطر أعداء الوطواط.. كل واحد من أعداء الوطواط هو أخطرهم.
القادم هو السيد صفر أو رجل الصقيع.. الصقيييع كما يحب أن يسمي نفسه، وقد اشتهر جدا حين قام (أرنولد شوارزنجر) بأداء دوره في فيلم (باتمان وروبين) لكن قراء المجلة يعرفونه من الستينات..
السيد صفر هو لص أصيب بمرض خطير كاد يودي به إلى القبر، لهذا كان لابد للأطباء من تجميده حيا في درجة حرارة صفر مئوية.. ولهذا يلبس بذلة كبذلات رواد الفضاء هي في الحقيقة ثلاجة كاملة، ويعيش في كهف ثلجي، وكل شيء في حياته متجمد.. حتى أسلحته تجمد من يقف في طريقها.. لدية بندقية ثلوج وقنبلة ثلوج إلخ....
كان مخيفا وكان اللصوص يعملون له ألف حساب.. لا يعرفون هل البرد الذي يبعثه من حوله برد خوف أم برد هذه الثلاجة الحية التي يحيا فيها..

كما أنه كان غير مولع بأن يظهر في أماكن غير ثلجية، بمعنى أنه كان غير اجتماعي على الإطلاق.. الآن هو هنا وهو يكلم رجل الألغاز بلهجة هي أكثر برودة من الثلج نفسه.. فما معنى هذا؟
قال رجل الصقيع وهو ينظر لرجل الألغاز من وراء نافذة خوذته:
- يقول حراس المتحف إن هناك اثنين اقتحما المكان وخدراهم بطلقات لها شكل علامات الاستفهام..
نظر رجل الألغاز إلى من حوله وقال:
- الأمر سهل.. كنت أنا والوطواط هناك، وأنتم رأيتم الصور التي التقطتها كاميرات المتحف وهي ذات الصور التي تراها الشرطة الآن..
- اثنان دخلا في الآن ذاته!! لم يتبعك الوطواط بل دخل معك!!
قال سيد الأوهام وهو يمعن التفكير:
- يا إلهي.. لو كان ما أفهمه صحيحا فأنت تريد القول إن..
قال رجل الصقيع بصوته المكتوم من وراء الخوذة:
- حراس المتحف وجدوا القذائف المتفجرة والمكهربة التي ألقاها رجل الألغاز على الوطواط.. كلها كانت دمى كلعب الأطفال تحدث فرقعة لكنها لا تضر..
- رباه!!
- هنا يأتي الجزء المهم.. لقد قام رجالي بتحليل الصوت.. وها هي ذي النتيجة..
وفرقع بيده فهرع أحد رجاله يرفع أمام العيون لوحة رسمت عليها موجات.. الموجات الأولى التي ترونها في نصف اللوحة العلوي تمثل صوت الوطواط القديم، والثانية تمثل صوت الوطواط الجديد..
- كما ترون.. لا يجب أن تكون خبير سمعيات كي ترى الاختلاف الكلى للموجات.. هذا صوت واحد يقلد صوت الوطواط جيدا لكن لا يمكن خداع الفيزياء مهما كنت بارعا..
ثم وقف بقامته الفارعة المهيبة ونظر إلى رجل الألغاز وقال:
- الأمر واضح.. لقد حاول رجل الألغاز خداعنا!
لم يأت الوطواط ببساطة وإنما أتى ممثل!
النظرات في كل صوب تنهمر على وجه رجل الألغاز، ولم يكن من داع لأسئلة سخيفة على غرار: أحقا؟ فقد كانت الإجابة على وجهه تشي بالحقيقة.. هو فعلها طمعا في المجد، وبعد هذا يمكنه الزعم أن الوطواط عد لعزلته.. إن كون الوطواط قد خرج من عزلته لأجلك أنت فقط لهو شرف عظيم.
شرف يضعك في موضع متميز بين مجرمي المدينة والعالم.
كان المخادع الأكبر قد نفذ هذه الخدعة مع بهلوان في السيرك له قامة الوطواط وربما صوته.. ولهذا لم تر (عبير) الوطواط على الأرض حين سقطت من علٍ....
أما الآن فقد كان رجل الألغاز عمليا أكثر من اللازم.. ألقي بالدرع والشهادة وولي الأدبار.. لن يتصدى له أحد، لكن العار سيلاحقه ربما للأبد..
بوم!
لن يلاحقه للأبد.. هذا صوت طلقة رصاص طبعا لم يقتله أحد من الحراس ومعنى هذا أنه انتحر بمجرد أن توارى عن العيون.. بعض اللصوص مرهف الحس حقا.
لم يتحرك أحد، وقال سيد الأوهام وهو يتأمل الصورة على شاشة التلفزيون:
- أرسلوا من يتخلص من الجثة في الحمض..

طبعا.. لابد من مرجل حمض.. لا تنس أننا في نقابة المجرمين هنا..
قال مستر (صفر) وهو يضع بندقية الصقيع على كتفه:
- أنا سأنجح فيما فشل به الأغبياء الآخرون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة كانت في زيارة الوطواط، لكن في شخصيتها الطبيعية كفتاة حسناء بلهاء تدعى (بيتي) معجبة بالمليونير (بروس واين) وتحاول أن تظفر به عريسا.. هنا نجد تجربة أحادية التعمية: هي تعرف سره وهو لا يعرف.. والسبب أن اختلاف الصوت والمساحيق الكثيفة، بل والتبدل الكامل في الشخصية جعله لا يعرف من يخاطب.
كان المليونير الوسيم جالسا في قاعة الجلوس الرهيبة التي يبلغ طولها طول شارعك.. والتي ازدانت جدرانها برءوس الوعول والأسود والأيائل.. كان يرتدي الروب ويضع ساقا على ساق أمام شاشة التلفزيون الجدارية العملاقة، بينما عمته (هارييت) جالسة تحيك سترة من التريكو.
العمة معجبة بالفتاة وتتمنى أن يتزوجها ابن أخيها..
لكن المليونير العابث لا يهتم بهذه الأمور، والأغرب أن الاكتئاب صار يسيطر على كل حياته بعدما اختفى (ديك) ابنه بالتبني منذ بضعة أشهر.. إنه لم يعد يمرح ولا يتكلم إلا بالقطارة.. نعم ولا فقط.
على الشاشة ظهرت المذيعة تعلن عن شريط وصل إلى التلفزيون من رجل الصقيع أو المستر صفر.
للحظة توقف المليونير عن التنفس وراح يرمق الشاشة، وكانت الوطواطة تعرف الجهد الذي يبذله في التمثيل كي يبدو غير مبال.
الصور التي ظهرت كانت رهيبة..
كان (روبين) هناك في أسوأ حال، مقيدا إلى الجدار في وضع النسر المحلق.. لحسن الحظ كان القناع على وجهه.. ثم ظهر رجل الصقيع أو السيد صفر.. كان يلبس بذلته الكاملة، وكان الوطواط قد خمن أنه هو من سيظهر لأن الجليد كان يغلف كل شيء في الصورة، كأنما هي مأخوذة داخل فريزر ثلاجتك..
قال رجل الصقيع بصوته المكتوم البارد وهو يواجه الكاميرا:
- نعم يا وطواط.. هذا هو (روبين).. صديقك الحميم.. إنه حي.. لقد انتشله رجالي من البحر، وأبقيناه كل هذا الوقت في الأسر من أجل مساومة كهذه التي أعرضها عليك..



قال رجل الصقيع بصوته المكتوم البارد وهو يواجه الكاميرا:
- نعم يا وطواط.. هذا هو (روبين)..

وثب (واين) إلى الأمام وراح يتنفس بصعوبة، بينما قالت العمة في برود:
- هذه خدعة لا شك فيها.. (روبين) مات من زمن.. هل يحسبون الوطواط بهذه السذاجة؟

طبعا لا.. لكن مجرد رؤية المشهد جعلت الوطواط داخله يصحو.. الأب والصديق وزميل المهنة يشعر بشيء غير مريح..
على الشاشة قال رجل الصقيع:
- أمام الوطواط عشر ساعات ليقرر.. إما أن يأتي إلى هنا ومعه عشرة ملايين من الدولارات، وإما أن نقوم بتحويل هذا الصبي إلى قطعة من الثلج، وهذا لن يستغرق أكثر من ربع ساعة.
ازداد تنفس الوطواط صعوبة، لكن (عبير) كانت تعرف أنه أذكى من هذا.. هذه هي الحيلة التي تفتق عنها عقل المستر صفر، لكنها ليست بارعة جدا إلى هذا الحد..
قال رجل الصقيع:
سأقول للوطواط: فكر جيدا.. لو لم تكن هذه خدعة فأنت تجازف بفقد (روبين) للمرة الثانية..
لن أفشي أسرارا على الهواء لكني أذكرك بكلمة واحدة: منديل من قماش الخيمة!
- أوع ع ع ع!
كانت هذه من الوطواط الذي لم تتحمل معدته كل هذا فسد فمه، ونهض وهو يضع كفه عليه.. قال شيئا على غرار معذرة.. عسر هضم بسيط.
ثم ركض مبتعدا وهو يرتطم بقطع الأثاث في طريقه..
كان الأمر واضحا الآن.. لقد أعطاه رجل الصقيع علامة لا يمكن أن تعرفها مالم يكن (روبين) في قبضتك فعلا، وهذا يعني أن عليها الرحيل، والتحول ثم العودة في صورة الوطواطة كي تفهم منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخلت الكهف من مدخله السري الخارجي وجدت الوطواط يلبس ثيابه.. يضع الحذاءين في قدميه.. يصلح من وضع القناع على رأسه.. كانت الثياب قد ضاقت نوعا لأنه ازداد في الوزن، لكنه حشر جسده بشكل ما..
قالت له وهي تضع يديها في خصرها:
- هل ستصدق هذا الهراء؟
قال دون أن ينظر للوراء:
- منديل من قماش الخيمة.. هذا هو تذكار (روبين) الخفي الذي بقي له من أمه.. لا أحد يعرف هذا التفصيل الدقيق.. إن (روبين) حي.. وهو أسير لدي رجل الصقيع.
ارتجفت لدى سماعها هذه المعلومة.. لو كان رجل الصقيع كاذبا فكيف عرف هذا؟ الجواب المنطقي هو أن (روبين) حي.. لقد لعب رجل الصقيع لعبته ببراعة من البداية..
- وهل تعرف أين هو؟
- طبعا.. قال إنه ينتظر أن أحضر له المال.. كان يعرف أنني سأعرف كل شيء.. هل لاحظت الفيلم جيدا؟ المكان مصنع ثلج بالتأكيد.. كل شيء يدل على هذا.. لا يوجد إلا مصنع ثلج قديم على مسيرة ساعة بالسيارة من المدينة.. سيكون اللقاء هناك..
في حماسة هتفت:
- سألحق بك..
- لا.. هذه معركتي ولسوف أخوضها..
ثم رأى النظرة في عينيها فعاد يكرر:
- لا أريد أن تلحقي بي.. ليكن هذا مفهوما..

كان يعرف وكانت تعرف أنه يعرف أنها لن تطيعه.. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ يقيدها بالحبال هنا؟

وهكذا راقبته في تعاسة وهو يكمل ارتداء ثيابه يتجه إلى عربة الوطواط السوداء التي تبدو كوطواط كبير.. وهي عربة لا تستغرق أكثر من خمس ثوان بين التوقف والاندفاع بسرعة 150 كيلو مترا في الساعة.. وتبعث وراءها سحابة من الدخان كأنما خرجت من سحابة.. ولها عدة مزايا أخرى لا يتسع الوقت لشرحها.

هكذا بعد دقيقتين كانت تقف وحدها في الكهف تقضم أظفارها، وتتأمل صورة (روبين) على الشاشة للمرة الألف.. يجب أن تلحق بدراجتها البخارية قبل أن يبدأ الحفل بدونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- عودة الوطواط..

مصنع الثلج..
(عبير) لم تر قط أي مصنع ثلج في حياتها لكنها تخيلت الأمر كما يجب.. لا بد أن هناك روافد وسقالات من الخشب، والكثير من الخطاطيف المدلاة من السقف..
لابد من عربات يدوية.. الكثير منها.. لابد من منحدرات مهمتها أن تحمل ألواح الثلج إلى مستويات أخرى تحت.. لا بد من.. مصنع ثلج! ماذا تتصورون؟ ليتخيل كل منكم مصنع ثلجه الخاص ليوفر على عناء الوصف!
كان الظلام دامسا حين تسللت إلى هناك زحفا.. باستخدام قذيفة الوطواط الخطافية تسلقت إلى الطابق الثاني..
إن الطوابق العليا تريحها لأنها تريها منظور عين الطائر.. إنه يشعرها بالأمان.
الوطاويط تحلق كلما توغلت أكثر.. هذا فأل حسن!
الآن تقف هناك في مكان ما من الطابق المظلم إنه يشبه (الصندرة) إلى حد ما، ويمكنها أن تختلس النظر إلى مشهد بانورامي جميل تحتها تراه من بين شقوق الخشب.. من الغريب أن الإضاءة من تحتها ساطعة تماما.. (إضاءة أفراح) كما كان يحلو لها أن تصف، قبل اختراع أفرح اليوم التي تحولت إلى ظلمة ودخان يعبث فيهما الليزر بلا هدف..
البرد قاس حقا لكنها ستتحمله.. معنى هذا البرد في مصنع ثلج مهجور أنه مازال مطروقا.. هناك من يبقيه باردا، وهي تعرف أن البرد هو أول ما يحييك في مخابئ السيد صفر، لكن الرجل لا يقيم هنا طبعا.. لا بد من ثلاجة حقيقية لها باب سميك، وبالداخل تجد الثلج في كل مكان مع لوازم معيشة الرجل.. مكتبه.. جهاز تلفزيونه.. هاتفه.. أسلحته.. كل شيء.. هنا فقط يمكنه أن ينزع بذلته الواقية ويسترخي كأي واحد آخر..
لكنها تسمع أزيزا جوارها.. أزيزا لا تدري مصدره..
تخرج كشاف الوطواط الرفيع وتديره من حولها في حذر فترى.. ترى - على بعد خمسة أمتار – الكاميرا المثبتة التي راحت عدستها تختلس النظرات بوقاحة عبر شقوق الخشب إلى الطابق السفلي.. هذا مهم.. رجل الصقيع لا يريد أن تفوت عدسات الكاميرا لقطات مواجهته مع الوطواط.. لو افترضنا أن هذه دائرة تلفزيونية مغلقة فلا شك أن الصورة منقولة بالبث المباشر إلى نقابة الإجرام.. هذا هو تفسير الإضاءة الساطعة إذن..
معنى هذا أن الكاميرا تري..
هذا حق.. الآن هي تنام جوار الكاميرا رفيقتها في التلصص وترى ما تراه.. إن (روبين) الفتي المدهش في الطابق السفلي بالفعل.. عرفته من ثيابه وقامته.. مصلوبا في الوضع الذي ظهر به في شريط الفيديو.. إنه نائم على الأرجح أو ينتظر مصيره في استسلام فلسفي..
الآن يظهر رجل الصقيع..
تراه من أعلى وهو يمشي إلى حيث الفتى المكبل معدوم الحيلة.. إنه يركع على ركبته.. يصوب شيئا يشبه المترليوز نحو الفتي.. بالطبع هذا المترليوز يطلق جليدا يجمد من يقف في طريقه.
يقول للفتى بصوت عال كي تسمعه الكاميرا:
- الآن فلنر إن كان صاحبك الوطواط يعبأ بك حقا.. لقد اقتربت لحظة النهاية بالنسبة لك، وأجدني آسفا يا (روبين).. لكن الحرب هي الحرب.

طبعا هي لا ترى وجه الفتي لكنها تتوقع ما تقوله عيناه..
هنا صاح صائح:
- قف! كف عن هذا العبث!
ونظرت من أعلى باحثة عن قائل هذه الكلمات الذي لا بد أنه الوطواط، لكنها لم تره.. رأت بدلا منه شخصا نحيلا يلبس قبعة من قش، ووجهة عبارة عن قطعة قماش مجعدة.. إنه الفزاعة! لقد صار هذا المكان مزدحما كمترو الأنفاق في الثانية بعد الظهر.
ماذا أتي بالفزاعة إلى هذا السيرك؟..
تصلب سيد الصقيع ووقف يرمق محدثه في كراهية..
قال الفزاعة وهو يفرد ذراعيه على امتداد جذعه كالفزاعة الحقيقية:
- هذا ليس (روبين) يا بني.. أنت نصبت هذا الفخ للوطواط، بينما أنا الوحيد الذي يعرف أنه فخ.. لن تنتصر بحيلة كهذه.. أنا سأمنعك..
- بأي حق تخترق وكرى وتهذي بهذه السخافات؟
ضاغطا على حروفه قال الفزاعة: - لأن (روبين) قد مات.. رجالي قتلوه بأنفسهم. أنا رأيت جثته الممزقة بعيني.. والآن حان الوقت كي ترحل.. أنا من سيواجه الوطواط حين يأتي وأنا أعرف أنه سيأتي.
- لن أسمح لك..
- لا أحد يسمح للفزاعة بشيء.. الفزاعة يفعل ما يريد حين يريد..
وأدركت (عبير) من مكانها أن الصراع الحتمي قادم بين اللصين، وهو يناسبها تماما.. قال العرب قديما:
«وقد تموت الأفاعي من سموم العقارب».. بينما تمني الصينيون أن يروا أسدين يلتهمان بعضهما حتى الذيلين.. كلاهما شرير وكلاهما قاس متوحش.. وكلاهما قوي إلى حد لا يصدق.. ترى ماذا يمكن أن....؟
فجأة رأت مشهدا عجيبا رأت سيد الصقيع ينزع خوذته وثيابه الثقيلة.
رأته يتحرر من قيود الثلج..
إنه الوطواط ولا أحد سواه....
الفزاعة ليس أحمق بحيث يصرخ: الوطواط؟ مستحيل!
لكنه كان أحمق وصاح:
- الوطواط؟ مستحيل!!
قال الوطواط وهو يحرر آخر ساق له من البذلة:
- بل يجب أن تصدق عينيك.. نحن لا نصنع الأوهام مثلك..
وطارت ساقه في وجه اللص المخيف لتلقي به مترين إلى الوراء، وصاح:
- كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لاجتذابك هنا والحصول على اعترافك.
ثم وجه له لكمة في وجهه بلغ من قوتها أن كلمة (طراخ!) ظهرت في الجو:
- كنت أعرف أنك لن تتحمل أن ينسب أحدهم الفضل لنفسه عن طريقك..
ولكمة أخرى من طراز (بوم!) الفتاك:
- إنك كالرجل الذي يسمع نكتة سمعها من قبل، فلا يتحمل أن يظل صامتا.. لا بد من أن يبدو عليما ببواطن الأمور..
ثم طار في وضع أفقي تقريبا ليدفن رأسه في بطن الرجل النحيل.

- وكان هذا الشريط الملفق الذي أذاعه التلفزيون هو الطعم الذي....
بوم!
- سيخرجك من وكرك..
طاخ!
- والآن ترى نقابة المجرمين هذا كله، وتعرف أن رجل الصقيع كان الوطواط من البداية، لأن رجل الصقيع مسجون في ألاسكا وسط الثلوج.. أنا وحدي أعرف هذا..
فلام فهام!! هذا صوت صفعات.. تبا! إن الوطواط يضرب بسادية بالغة ولئن لم ينته ليقتلن الرجل فعلا..
- منذ عرفت بموضوع المسابقة أدركت أنك صرت في قبضتي!
أأأأأأ هـ هـ هـ هـ هـ!!
هذه كانت من الوطواط الذي تصلب للحظة وبدأ يتراجع، وهو ينظر إلى الأرض.. كنت أسماك القرش تخرج رءوسها من البحر عازمة على افتراسه، ولم يكن يستطيع إلا التراجع.. لكن ماذا عن التماسيح التي تدنو منه من الجانبين؟ نهض الفزاعة وراح يصلح من شأن ثيابه.. ثم اتجه نحو الوطواط الذي وقف يرتجف كطفل..
كانت في يد الفزاعة المغطاة بالقش مدية لا بأس بطولها أبدا..
هنا وهنا فقط خرجت (عبير) من نوبة الذهول التي كانت تمر بها.. رأت أنها تستطيع أن تساعد الوطواط بشيء، وأن هذا الشيء سهل بعيد عن الخطر.. بأصابع من حديد هشمت خشب السقف حتى صارت لديها فجوة تسمح بإدخال ذراعها، وأحكمت التصويب بقذيفة الباتارانج، ثم قذفتها..
اهتز رأس الفزاعة حين ضربته القذيفة من الخلف.. نظر لأعلى ليراها فغمغم في غير رضا:
- هذا الجبان.. لم.. لم يأت وحده..
ثم هوي على الأرض.. والحقيقة أنه لم يبد قط كجوال من القش مثلما بدا في هذه اللحظة.. بينما عادت القذيفة لتستقر في يدها..
وكان الوطواط يستعيد عافيته ببطء....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقا سراح الصبي (مارتن) الذي قبل أن يتعاون مع الوطواط في هذه المهمة..
ولم ينس الوطواط أن يقف أمام الكاميرا حاملا الفزاعة المقيد على كتفه.. نظر لأعلى حيث كانت العدسة متوارية بين شقوق الخشب، ولوح بيده وأرسل قبلة قائلا:
- قد عدت لكم أيها الجبناء! أعرف أن الخبر يسعدكم الآن لكنكم ستعرفون سريعا أنه أسوأ خبر في التاريخ.. لدينا بطريق وقطة ورجل ألغاز ومضحك.. وكلهم ارتكب جرائم لم يغفرها له المجتمع.. إن لحظة القصاص قادمة يا سادة!
سألت (عبير) وهم يغادرون المصنع بينما الوطاويط ترجع لتستقر في أماكنها فوق روافد الخشب:
- هل حصلت على نسخة من هذا الفيلم؟
قال في ثقة وهو يتقدمها بقامته الفارعة:
- طبعا.. إن الكاميرا ترسل صورها إلى نقابة المجرمين وإلى كهفي في الوقت ذاته.. وقد صار لدى اعتراف كامل من الفزاعة بأنه من قتل (روبين)..

- منذ متى فكرت في الاندساس بينهم؟
- منذ سمعت أنني تشاجرت مع رجل الألغاز.. كان هذا طريفا.. هنا فكرت في أنه من الصواب أن أزور نقابة المجرمين لأفضح رجل الألغاز ثم أدبر هذه اللعبة..
كان رهاني على أن الفزاعة لن يترك المجد يذهب لسواه بحيلة بسيطة كهذه.. وأعتقد أن هذه كانت حيلته الخاصة، وأنه حسب رجل الصقيع سلبه إياها..
هكذا عاد.. هكذا اعترف أمام العدسات.. هكذا ظفرت به..
ثم ابتسم وقال في رصانة:
- يجب الاعتراف أن الفزاعة - بشكل ما - هو الذي يكسب المسابقة، وهو الذي أخرجني من عزلتي..
وفتح لهم باب السيارة الواقفة بين الأشجار فألقي حمله ثم جلس وراء المقود ودعاها إلى الدخول نظرت لساعتها في الظلام وقالت في توتر:
- يجب أن تمر على رابطة العدل لتخبرهم أنك عدت.. إنهم سيفصلونك خلال ساعة..
- لا أحد يفصل الوطواط.. إذ على كتفيه وسوبرمان قامت شركة (دي سي كوميكس).. ثقي أنهم سينتظرون..
وانطلقت السيارة بسرعتها المريعة التي تجعلك تشعر بأن الأشجار المجنونة تتسابق على تهشيمك..
قالت له في كياسة:
- الآن تعرف حقيقة أن (روبين) قد مات..
صمت قليلا وراح ينظر للطريق.. ومن تحت قناعه المطاطي رأت دمعة ثم قال:
- نعم.. اليوم فقط مات (روبين) ودفنته.
لكن عندي (روبين) آخر سأربيه وأعلمه كيف يقهر الجريمة.. إنه هو الآخر فقد والديه..
ونظر إلى المقعد الخلفي حيث جلس الفتى (مارتن) الممتقع الخائف على الدوام.. وابتسم.
عادت تسأله:
- ولماذا أبديت كل هذا الذعر حين رأيت الشريط في التلفزيون برغم أنك من صنعه؟ كنت وقتها في شخصية (بروس) ولم يطلب منك أحد أن تتظاهر بالقيء وال....
ثم عضت شفتيها في ضيق.. بلهاء غبية.. هذه أنت! كنت وقتها في شخصية (بيتي) وما كان لك أن تعرفي هذا.. إن هذا الخلط.. لقد أخطأت.
قال لها باسما دون أن ينظر لها:
- لأنني أعرف من البداية من أنت يا صغيرتي..
لا تحسبيني بهذا الغباء.. أردت أن أترك الانطباع للوطواطة لا (بيتي).. وما أهمية (بيتي) لي؟
فجأة ضغط على الفرملة، وعوت السيارة ككلب جريح ودارت حول نفسها..
- من هذا الحمار الذي....؟
لكنها كانت قد رأت الشخص الذي وقف على الطريق في ثبات أمام سيارة الوطواط المسرعة..
لكن الرجل كان يعرف أنه في منطقة نفوذه..
نزل الوطواط من السيارة وهو يعد قبضتيه للضرب، لكن وجه (المرشد) البارد الهادئ جعله يتوقف..
- حان الوقت يا (أليس).. يجب أن نرحل..
نفخ الوطواط في غيظ وهتف:

- لم نكمل كلامنا بعد.. هذه هي أول مرة نتصارح فيها من دون أقنعة.. هي تعرف من أنا وأنا أعرف من هي..
- جميل.. جميل.. أنت تعرف من هي وهي تعرف من أنت.. وكلاكما يعرف من أنا.. وقد انتهت هذه المغامرة..
- من يدري؟ لربما وقعت في حبها..
تثاءب المرشد في ملل ونظر في ساعته:
- ليكن.. لتقع في حبها ولكن خلال خمس دقائق.. فأنا أنتظر حبكما طيلة اليوم.. هيا! فلتحبها بسرعة!
- أنت وقح يا صاحبي..
- ربما.. لكنك لن تستطيع ضربي..
قالت (عبير) للوطواط وهي تهرع للحاق بالمرشد:
- هو على حق.. حان وقت رحيلي.. لقد اطمأننت عليك..
وأشارت إلى السماء:
- ويبدو أن خبر عودتك تسرب سريعا..
كانت إشارة الوطواط ترتسم على سحب (جوتام سيتي).. المدينة الغريبة.. المدينة التي تشبه عوالم الكوابيس بمبانيها الشاهقة القوطية، والغيوم تصطرع في سمائها مدلهمة كابية تنذر بالويل، كأنها سماء (الجرييكو) الرهيبة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تلقي (عبير) عبقريا اسمه (دستويفسكي)..
هل هذا يكفي لكي نعرف ما سيحدث في القصة التالية؟

تمت بحمد الله

الوطواط..

كان الظلام الدامس يغلف مدينة غريبة.. مدينة تشبه عوالم الكوابيس بمبانيها الشاهقة القوطية، والغيوم تصطرع في سمائها مدلهمة كابية تنذر بالويل، فلو كانت (عبير) تفهم في التصوير لذكرها المشهد بلوحات (الجريكو) الرهيبة..

وعبر السماء انطلق ضوء ما.. انطلق من فوق سطح أحد المباني الشاهقة، وسقط على السحب في السماء فانعكست صورة..

كانت الصورة تمثل وطواطا يفرد جناحيه.. إن رجال الشرطة أضاءوا الشارة التي تستدعي الوطواط.. لكن حارس الليل المهيب المخيف لن يأتي على الإطلاق.. وهذه هي المشكلة..

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

روايات مصرية للجيب

30

فانتازيا

عبقري!

د. أحمد خالد توفيق

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٦٨٣٧٠٠٣٠

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (30)

عبــقري

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

أولجا ناتاليوفا



الفصل الأول

أولجا ناتاليوفا..

لا تدري (عبير) لماذا وجدت نفسها فجأة في عالم (فانتازيا)..
كانت في فراشها تقرأ من لحظات مهمومة غارقة في خواطرها السوداء - كالعادة - وتفكر في أن الوقت قد حان كى تجد عملا ما.. إنها لا تعرف إلا ما كانت تفعله قبل أن تتزوج.. ترى هل (صفوت) مازال بحاجة إلى فتاة على قدر من الغباء كى تراقب الصبية في أثناء لعبهم ألعاب الفيديو؟
هل (صفوت) مازال يملك محلا لألعاب الفيديو؟
أم هو قد اندمج في ذلك النشاط الجديد الذي يمارسه كل من وجد مساحة متر في متر.. نشاط بيع مستلزمات الهاتف المحمول؟ ثمة جنون عام اسمه (الاتصالات) أصاب الناس جميعا كأنما تحولنا إلى أمة من رجال الأعمال.. وبرغم هذا ازدادت العلاقات البشرية برودا وسطحية.. لم يزدد التواصل بل ازداد كل ما هو كرية وقميء ومبتذل.
كانت غارقة في هذه الخواطر تفكر - في اشمئزاز في أنها بحاجة إلى اللحاق بهذا الركب الكئيب إن أرادت ألا تتضور جوعا..
حينما غابت في ذلك العالم الغامض القريب من الموت..
ووجدت نفسها للمرة الثانية في شهر واحد تقف مع (المرشد) في (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها (المرشد) وهو يتثاءب كأنما لم يكن مستعدا لجولة اليوم:
- هااااه! هل هناك مكان معين ترغبين في زيارته؟
قالت وهي تنظر حولها في انبهار:
- لم أختر المجيء هنا.. تم هذا برغمي وإنني لراضية عنه..
ابتسم في خبث وقال:
- كما يحدث للعاشقين.. يتمنى الواحد منهم أن يلقى حبيبته في المنام فلا يحدث هذا أبدا.. الحبيبة لا تأتي إلا حين تريد ذلك.. هذا مؤسف كما ترين..
هزت رأسها ولم تعلق، وراحت عيناها تتأملان المشاهد المتباينة من مملكة (فانتازيا) الغريبة كان هناك سور كئيب المنظر، ولقد علمتها تجاربها أن هذه الأسوار تحيط بالعوالم المتميزة لكتاب معينين..
رأت هذه الأسوار حول عوالم (شكسبير) و (ديزنى)، وعرفت أن مثلها يحيط بعوالم (نجيب محفوظ) و (يوسف إدريس) و (ماركيز) وسواهم كثير..
هذه الأسوار بنيت حول العوالم المميزة لمنعها من الاختلاط بالعالم الخارجي، ولتضفي على فكر المؤلف قداسة وتميزا
كل شيء كان يوحي بأن هذه الأسوار المهيبة الكئيبة تحيط بعالم أديب متميز جدا.. أديب من الطراز الثقيل لو كانت الموهبة تقاس بحجم لبنات الحجارة المستخدمة في بناء السور..

- من يعيش هنا يا (مرشد)؟
نظر إلى حيث أشارت، وغمغم:
- هذا عالم (دوستويفسكي).. هناك الكثير من الصرع والصراع والعلاقات الأسرية المتفسخة والجنون والتوتر.. إنها روسيا قبل ثورة ١٩١٧.. روسيا القيصرية حين كان كل شيء ينبئ بتغير ما خطير..
ثم ابتسم في شفقة وقال:
- هل تريدين زيارته؟ سبق لك أن تلقيتِ دعوة سابقة.. لكنكِ فضَّلتِ أن تزورى عالم المغامرين الخمسة لتركبي الدراجة خلف (تختخ)!
- لم يكن هذا رديئا.. خيل إلى أن الغرض من (فانتازيا) هو الترفيه عني، وليس نيل درجة الدكتوراه في الآداب..

- لم أعترض على هذا.. لكني أخشى أن عالم (دستويفسكي) أكثر جهامة وسوادا مما تتحملين.. عهدى بكِ أن عقلك خاو كجيب موظف.. تعرفين الكثير لكن لا ثقافة لكِ..
فكرت قليلا وكانت عاطفة التحدي تتلاعب في روحها.. لم لا؟ هي لم تعتد التحدي لكنها كأي شخص آخر تكره أن تتهم بالغباء، خاصة إن جاء الاتهام من خيال مقاته مثل المرشد..
قالت له:
- سأكون شاكرة لو أدخلتني عالم (دستويفسكي) هذا.. لا أعتقد أنه سيكون مملا..
نظر في ساعته وقال ببرود:
- لم أتكلم عن الملل.. أتكلم عن التعقيد الذي لا يستوعبه مخ البراغيث.. هذا عالم خال من القراصنة وسيوف الليزر، والركلات في البطن، وكل الوحوش المتحولة والأشخاص الذين يلبسون قناعا ويحاربون الجريمة.. لن تجدي هنا إلا مجموعة من الناس المثقفين جالسين يتبادلون الأفكار الفلسفية..
- شكرا لك، لكني أوثر لو تركت لي الخيار..
- إن أحلامك أوامر..
وفي اللحظة التالية وجدت أنها خارج القطار، وأنها ترتدي ثيابا رقيقة لابد أنها تخص القرن التاسع عشر.. كانت تحب تلك الثياب الكلاسية وتشعر بأنها تجعلها رقيقة هفهافة.. الدانتيلا الكثير منها الساتان.. الكثير منه.. الا.. لا أعرف بالضبط لأني
لا أفهم هذه الأمور، لكن هناك الكثير من هذه الأشياء
كانت شقراء - طبعا- وكانت ضفيرة جميلة تنسدل على كتفها الأيمن..
قالت له:
- أنا رائعة! سلمت يداك.. ولكن من أنا؟
هرش ذقنه مفكرا، وقال وهو يتأملها في عمق:
- اسمك هو.. هو (أولجا ناتاليوفا).. لا يوجد اسم آخر في ذهني الآن.. بالطبع اسمك الآخر هو (تاشا)..
- اسمى الآخر؟
- طبعا.. إن الروس يبالغون في الأسماء.. هناك عدة أسماء لكل شخص.. اسم في محيط الأسرة واسم رسمى واسم للأصدقاء.. لو أنك قرأت ترجمة الأستاذ (حلمي مراد) - رحمه الله – ل. (دكتور جيفاجو) لوجدت أنه نشر كشفا للأسماء في مقدمة الكتاب.. كما أنه من المستحيل أن تتابعي (الحرب والسلام) دون أن تكون هناك مفكرة وقلم في يدك..

- هل من معلومات أخرى عني؟
فكر من جديد، وقال:
- طبعا أنت مدرسة.. كل فتاة جميلة في الأدب الروسي هي مدرسة.. كما أن كل رجل هو جنرال أو ضابط طرد من الفرقة لإدمانه الشراب.. لا بد أن تكوني من (موسكو)، وأن تجيئي إلى هنا لأن الأطباء نصحوك بالبحث عن مكان جاف للاستشفاء..
قالت في قلق:
- استشفاء؟ هل أنا مريضة؟
- كل أبطال الأدب الروسي قبل الثورة يعانون من الدرن، ويقصدون مكانا حسن التهوية للاستشفاء ظننت هذا واضحا.. إن الدرن هنا يلعب دور الزكام في عالمنا المعاصر.. لاحظي أن الأطباء لم يجدوا له علاجا وقتها إلا تغيير الهواء، ولهذا تجدين الكثيرين من الروس يستشفون في الريف أو في أوروبا ولا تنسى أن (تشيكوف) - وهو الطبيب - مات بالدرن في سن صغيرة نسبيا
قالت في جزع:
- نعم.. ولكن.. الدر.. كح كح!
وأخرجت منديلها الحريري لتبصق فيه.. وكان ما رأته في المنديل مما زاد قلبها رعبا:
- لا أفهم روعة الخيال في أن أنزف دما من رئتى
- لابد أن تندمجي في الجو.. لا تقلقي.. لن يقتلك المرض قبل أن أعود لأخذك، ثم إنه يعطيك رقة وشفافية لابد أن تفتنا أي رجل.. كان (ألفريد دى موسيه) الشاعر الفرنسي العظيم مصابا بارتجاع الأورطى الناجم عن مرض الزهري.. لكن الأديبة (جورج صاند) تركته وفضلت عليه (شوبان) لأن الأخير كان مصابا بالدرن! إن الدرن يكسب دائما!!
وسرعان ما كان قد رحل.. ووجدت (عبير) نفسها أمام البوابة العملاقة لعالم (دستويفسكي) الرهيب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثانى

العَبَاقِرة



الفصل الثاني

العباقرة..

كان هناك بيت ريفي صغير.. بيت من الطراز الذي تراه في الصور.. سقف منحدر ومدخنة وسقيفة مدهونة بحيث لا تؤثر الأمطار فيها.. ثمة حديقة يرعى فيها بعض الأغنام والبط، وبعض الزهور، وعجوز جالس يدخن غليونا طويلا ويتأمل الأفق.. إنه الربيع يبدأ وقد ذابت الثلوج منذ ثلاثة أسابيع لا أكثر

رآها تدنو من البوابة فصاح بصوت واهن:

- (تاشا)! لماذا تأخرت أيتها الشيطانة؟ إن شاء الله تأخذني مصيبة إن لم تكوني أجمل ما رأيت اليوم..

كان يتكلم بتلك الطريقة الغريبة التي لا تعرف إن كانت خاصية لدى اللغة الروسية، أم خاصية لدى المترجمين العرب الذين نقلوا الأدب الروسي إلى لغتنا الخلاصة أن الروس في القصص يتكلمون هكذا

أردف الرجل ليريحها قبل أن تجد ردا:

- إن الجميع ينتظرك بالداخل

ردت عليه بالروسية التي صارت تجيدها فجأة:

- الجميع؟

- الجميع.. كل كتاب ما قبل الثورة!

كان الأمر غريبا.. مثل دعابة العملة التي نقش عليها (صكت عام 1500 قبل المسيح).. فكيف عرف من صك العملة أن هناك مسيحا قادما بعد 1500 عام؟ هذا العجوز يعرف أنهم ما قبل الثورة.. لكن هذه (فانتازيا) على كل حال، لذا لم تعلق على هذه النقطة ودخلت إلى البيت الذي كان دافئا على عكس خارجه.

في الداخل كانت هناك مدفأة موقدة.. إن الجو لم يصر دافئا كما يجب بعد.. لذلك لا بد من (السماور) كذلك ورمشت (عبير) وهي تحاول تبين أولئك السادة الملتفين حول منضدة خشبية عتيقة (روسية جدا) إذا كان (الروسي) هو الشيء المتين الضخم العملى ربما بلا رفاهية.

كانت مجموعة عظيمة جدا من اللحى والشوارب الكثة والنظرات المخيفة.. واكتشفت طبعا أنها لا تعرف أي واحد منهم

قال لها أحدهم، وهو رجل نحيل يضع عوينات بلا إطار، وله نظرة حالمة رفيقة شفافة:

- تعالى يا (أولجا ناتاليوفا).. كنا قد بدأنا نقلق

ابتسمت في حرج ولم تعرف ما يجب أن تقول.. هنا نهض شاب من الطراز المليء بالحيوية، له شارب كث يخفي فمه بالكامل، وفي عينيه نظرة عدوانية مقتحمة.. نهض وجذب مقعدا لتجلس عليه وقال:

- دعها تجلس أولا يا (أنطون بافلوفتش).. إن المسكينة شاحبة كسحلية خائفة..

جلست وراحت تنقل عليها بين الجالسين.. من هؤلاء؟

قال الأول وهو يشير إلى الجالسين:

- الحقيقة أن هناك خدعة زمنية ما.. لم نجتمع جميعا في مكان واحد بهذا الشكل، ولم نكن

متقاربين في السن، لكن بوسعك أن تعتبرينا أدباء ما قبل الثورة.. منا من آمن بالغرب والاقتباس عن الحضارة الغربية ومنا من آمن بالعودة إلى التراث الروسي والإيمان به. هؤلاء من يسمونهم (الصقالبة)..
ثم أشار إلى الجالسين إلى المائدة:
- بالترتيب.. هذا هو صديقي الثائر العصبي (ماكسيم جوركى).. صاحب (الأم) وعدد لا بأس به من القصص القصيرة والمقالات.. إنه أصغرنا سنا والوحيد الذي سيعاصر الثورة.. لهذا سيعتبره البعض عبقريا ويعتبره البعض مجرد بوق دعاية للشيوعية.. أما هذا..
واشار إلى رجل أمرد الوجه له جبين عال يوحى بالذكاء، وشعر مجعد ضخم يهبط إلى جانبي وجهه على شكل سالفين كثين:
- فهو (نيكولاي جوجول) صاحب (المعطف) الذي يمكن اعتباره بلا جدال أبا الأدب الروسي، والذي خرجنا جميعا من معطفه.. أما هذا..
وأشار إلى كهل مخيف له لحية تغطي صدره ونظرات نارية، يريح ساقه الموضوعة في حذاء طويل الرقبة على المنضدة، فلا غرابة في أن نعرف أنه حاول الانتحار في مراهقته بسبب قبحه الشديد ولحسن حظنا لم ينجح
- فهو الكونت (تولستوي).. أهم أدبائنا وصاحب (الحرب والسلام) و (آنا كارنينا) وهو بالمناسبة رائد اتجاه (الصقالبة).. أما هذا..
واشار إلى رجل ملتح منمق أنيق بادى الأرستقراطية:
- فهو (إيفان تورجنيف).. رائد المنادين بالاتجاه الحضارة الغربية، صاحب (آسيا) و (مياه الربيع) أما هذا..
وأشار إلى رجل له شعر طويل أسود أملس.. وله شارب رفيع منمق:
- فهو (بوشكين).. شاعرنا العظيم.. وهو كذلك قصصي مهم.. أما أنا
واشار إلى صدره في تواضع:
- فأنا (أنطون تشيكوف) رائد القصة القصيرة في الأدب الروسي.. وربما رائد المسرح كذلك..
إن (تشيكوف) أديب بالغ الأهمية.. بل لا نبالغ لو قلنا إنه من أهم خمسة أدباء في العالم، لكننا سنلقاه في مرة أخرى.. ليس اليوم بالتأكيد
لم تكن (عبير) متعمقة في الأدب الروسي، لهذا لم تصرخ فرحا أو تقف على يديها.. إن الحلم الذي يتيح لك لقاء كل هؤلاء في مكان واحد؛ لهو حلم فريد من نوعه.. لكن ليس بالنسبة ل. (عبير).. فهي لم تر فيهم إلا مجموعة من السادة ذوى اللحى المشعثة والنظرات المرعبة والشوارب الكثة..
قالت في فتور:
- هل أنتم جميعا هنا؟
- بالطبع لا.. لا ترين بيتنا (بلينسكى) أعظم نقادنا، ولا (كوبرين) ولا (نكراسوف) ولا ولا..
وبالطبع لا ترين أعظمنا: (فيودور دستويفسكى) ..
- حسبت أن القصة تتعلق ب. (دستويفسكى).. لم أعرف أننا بصدد دكتوراه في الأدب الروسي ..
- لهذا نحن هنا.. المشكلة التي يمر بها الرجل والتي يجب أن نجد لها حلا عاجلا
هنا تدخل (جوركى) بطريقته العصبية نافذة الصبر إن الرجل فعلا ثائر لا يصلح إلا للثورة وأن يضرب ويسجن، صحيح أنه يحترم (تشيكوف) ويهيم به، لكن روحه المترددة القلقة لا تتحمل أسلوب (تشيكوف) الهادئ المتفهم:

- فلتأخذني الأبالسة إن لم يكن (دستويفسكي) مصابا باكتئاب شديد.. لا أدري ما الذي منعه من الانتحار حتى هذه اللحظة لكنه دان جدا.. إن الرجل أديب كبير لكنه كذلك رجعي كبير.. وقد هادن السلطة في آخر حياته وكتب ما يرضيها.. مثل هذا الشخص ينتحر بسهولة لأنه خان البروليتاريا..

وأضاف (تولستوى) في لغة وقور ثقيلة بعض الشيء:

- الرجل يعانى شعورا عارما من الإحباط.. إنه لا يعبأ كثيرا بكونه أديب روسيا الأعظم - بعدي طبعا ولا يهتم بنجاحه وأمارات عبقريته.. اعتقادنا الخاص - وقد نكون مخطئين - أنه يفتقر إلى الحب.. طيلة حياته لم ينعم بحب امرأة.. كانت له قصص عدة لكن لا يمكن أن تصف أيا منها بأنها حب.. وهو ما أريد قوله من البداية: قصص الحب الناجحة هي المتبادلة منها.. و (دستويفسكي) لم يحظ قط بحب امرأة صاف خالص برغم كل مواهبه..

قال لها (تورجنيف) وهو يداعب لحيته الأنيقة:

- الحق إنه الشعور قاس.. أنا لم أجربه لأن كل النساء همن بى حبا دون مجهود من جانبي.. لكني أفهمه.. والمشكلة هنا هي أن الرجل مهدد بالتوقف عن الكتابة وربما الانتحار.. وهذا - إن لم يكن تعاطفا معه - يعكس قلقا على الأدب الروسي الذي سيفقد أهم علاماته.. ومن دون (دستويفسكى) لن يبقى إلا نحن وبعض التافهين الذين سيظهرون بعد الثورة..

في اشمئزاز تقلص وجه (بوشكين) وأخرج لسانه:

- يع ع ع ع!! هؤلاء الكتاب لا يتمتعون بالموهبة الأدبية على الإطلاق، وهم لا يكتبون إلا عن المزارع الجماعية والحرب ضد النازى.. كل همهم سيكون إرضاء الحزب الشيوعي الحاكم، والويل لمن يخرج على الخط السائد.. إنه يحاصر ويضطهد.. هذا ما حدث ل (إيليا أهرنبورج) و (ماياكوفسكى) و (أنا أخماتوفا) إنهم موهوبون فرديون، لهذا لم يطقهم الحزب وعوملوا كالعبيد حتى انتحر أكثرهم..

قال (جوركى) في شيء من الضيق لأنه يمقت من يهاجم الشيوعية:

- لا تضع (شولوخوف) ضمن التافهين.. ثم إن هؤلاء الكتاب الذين تتهمهم بالانقياد للحزب هم جنود المشاة في حرب فكرية مهمة.. وكان عليهم أن يكونوا واضحين.. لن يكون هناك مجال للون الرمادي أو الكلام المائع عن عيني الحبيبة و...

كان (تشيكوف) يتابع المحادثة بابتسامته الحانية المتفهمة للضعف البشرى.. الابتسامة التي وصفوها فيما بعد بأنها تقول باختصار: أنتم تعيشون حياة سخيفة قاسية أيها السادة..

ثم في حزم رفع يده لينهي هذا الجدل، واستدار إلى (عبير) ليقول لها:

- الحب.. رأينا أن هذا هو ما يريد (دستويفسكي).. وهذا هو ما يمكنك أن تمنحيه!

نظرت لهم في جزع، وغمغمت:

- هل الحب يأتي بالأمر؟ كانت أمي تقول ما معناه: كل الدواء عند العطار إلا الحب بالأمر..

- ستتظاهرين بهذا.. ليس الأمر صعبا..

بدا لها الأمر غريبا سخيفا.. هذه أغرب مهمة تطلب منها في حياتها في الواقع أو الحلم.. قالت في حيرة:

- لكني لا أعرف كيف أحب

بطريقته الأبوية المتسامحة ابتسم (تشيكوف) وقال:

- إلا هذا.. إن المرأة مفطورة على الحب.. هذا معروف.. هناك شعراء وأدباء ورسامون لكن موهبة المرأة الخاصة هي قدرتها على الحب وأن تلهم الحب فيمن حولها.. لاحظي صالونات

الأدب وكيف يجتمع فحول الشعراء والأدباء والموسيقيون والرسامون حول امرأة لا موهبة لها إلا جمالها.. وبرغم هذا يكون هناك نوع من التساوي في القيمة البشرية.. بل إن الفنانين يتملقونها ويتسابقون على رضاها.. الجمال موهبة كالشعر والرسم والأدب..
.. ابتلعت (عبير) ريقها وقالت في توتر:
- ليس الأمر بهذه السهولة.. هل أدخل عليه لأقول له إن عينيه سحرتاني وإنني لا أنام الليل إلى آخر هذا الهراء؟
من جديد ابتسم (تشيكوف) وقال:
- لا.. كل ما نطلبه منك أن تتعرفي علمه وتقتربي منه.. فلو وجدت أن هذا البائس جدير بالحب فعليك أن تفعلي ذلك دون إبطاء.. يعني لا داعي لهذه الألعاب الأنثوية القاسية والتظاهر بأنك لا تفهمين، أو أنك تعتبرينه أخا لا أكثر، أو لست راغبة في الارتباط إلى آخر هذا السخف الذي تجدنه معشر النساء أكثر من أي شيء آخر.. باختصار لا وقت لدينا لهذا.. إن أعظم أدباء روسيا - وربما البشرية - يوشك على أن يضيع..
كانت غير راغبة على الإطلاق في الترفيه عن شخصية من (فانتازيا).. لقد جاءت إلى (فانتازيا) كي ترفه عن نفسها.. لكن أن تطالب بالوقوع في غرام أديب معقد مريض بالصرع من القرن التاسع عشر، ففي هذا إلحاح سخيف عليها وهي.
هنا قاطعها (جوركي) بطريقته الباترة العدوانية:
- (تاشا).. لا مجال للاختيار.. إن الفتاة الوحيدة التي يمكن أن يسر (دستويفسكي) لحبها هي أنت طرازه المفضل، ولسوف تغيرين حياته كليا..
هنا أمسكت برئتها نوبة من السعال، فلم تستطع إلا أن تقول في وهن:
- ليكن.. لكن أين أجده؟
- خلف هذا الباب في نهاية القاعة.. عالم (دستويفسكي) المتشابك المعقد.. ستبحثين عنه..
هزت رأسها ومشت في بطء.. خلف هذا الباب تكمن البداية الحقيقية لتلك المغامرة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

عبقري في المنفى..

الآن راحت تمشي في مكان متسع أقرب إلى الريف.. صحيح أن طبقة رقيقة من الثلج كانت تغلف الأرض
لكن الطقس كان صحوا غير بارد إلى هذا الحد..
هذه روسيا القيصرية عام 1849 هي لا تعرف لكننا نعرف هذا
هؤلاء مجموعة من الجنود يمشون شاكي السلاح وأمامهم مجموعة من السجناء.. تراهم.. ترى وجوههم المثقفة المعذبة المليئة بالبؤس واليأس.
ولكن.. ما الذي يحدث هنا؟ إن الجنود يقتادون المجموعة الأولى من السجناء - ثلاثة منهم – إلى مجموعة من الأعمدة الخشبية المغروسة في الأرض.. يقيدون أيديهم خلف ظهورهم.. ثم يقف الجنود صفا وقد أعدوا بنادقهم.. هناك قارع طبل يقف بعيدا ويبدأ في الدق على طبله بذلك الإيقاع البطيء الدرامي، كأنما يضفي الموسيقا التصويرية على فيلم مثير.. بينما الضابط يقف على جانب الرماة صائحا وهو يرفع سيفه في الهواء:
- استعد! صوب!
يصدر صوت (شليك شلاك) بينما البنادق ترتفع تبا! قدماها السقيمتان قادتاها إلى ساحة إعدام، والأدهى أنها ستراه أو تسمعه
المساجين - الذين سيموتون حالا، يبدو ميتين فعلا، وقد تهالك كل منهم في أصفاده تعسا عاجزا عن الحركة.. وإيقاع الطبل يتسارع.. كما يحدث في السيرك حين تتأهب فتاة (الترابيز) للوثبة الخطرة.. تلك الإيقاع الذي يصل لذروته ب. (بوم!).. و (بوم!) هنا لن تعني سوى أن هؤلاء البؤساء قد ماتوا..
- توقفوا!
.. كما يحدث في السينما مع (أسلوب جريفث) الذي تكلمنا عنه من قبل، يتعالى صياح ضابط يمتطي حصانا يسرع به نحو المشهد الرهيب.. ثم لا ينتظر حتى يتوقف
الحصان بل يترجل عنه واثبا، ويهرع إلى الضابط الآمر ليقدم له ورقة.. ويصيح وهو يلهث:
- القيصر.. (نيقولا الأكبر).. القيصر.. قد. عفا عن هؤلاء!
ارتجفت (عبير) من انفعال ودمعت عيناها وهي ترى هذه المعجزة.. وقالت لنفسها: إن هذا القيصر رجل طيب بالتأكيد، والأهم أن هذا الضابط الوسيم وصل في الوقت المناسب بالضبط. لم يكب به الجواد، ولم يتوقف في أقرب حانة.. إن هي إلا بضع ثوان وكانت النهاية محتومة..
هنا شعرت بمن يربت على كتفها في رزانة:
- لا تكوني بلهاء.. هل انطلت عليك هذه التمثيلية؟
استدارت للوراء مجفلة فوجدت المرشد يبتسم في.. سماجة كعادته.. ومد لها يده بمنديل كأنما هو يدعوها لأن تتمخط.. سألته في غباء:
- أية تمثيلية؟ ففففففت!
- هذه التمثيلية التي أعدها القيصر ليعاقب هؤلاء الثوار! لقد رتب لهم عملية الإعدام هذه بعدما سجنهم تسعة أشهر.. وكل الجنود يعرفون أنهم لن يطلقوا الرصاص، وأن العفو سيأتي في

اللحظة الأخيرة! مجرد دعابة قاسية لا أكثر..
هتفت في حيرة:
- غريب! أية رواية هذه؟
- ليست رواية بل هذا هو ما حدث فعلا! أنت ترين مشهدا حقيقيا. وبالمناسبة فإن (دستويفسكى) أحد هؤلاء المقيدين إلى الأعمدة بتهمة التآمر ضد القيصر.. إنه الواقف في المنتصف!
صاحت غير مصدقة:
- يا سلام! تريد القول إن (دستويفسكى) مر بهذه الخبرة حقا؟
- حتما..
- لا عجب من أن يصاب باكتئاب مدمر..
قال في لا مبالاة وهو يداعب قلمه الزنبركي ويقرأ من ورقة كانت في جيبه:
- تك تتك! إن هذه الخبرة مهمة جدا.. عاشها (دستويفسكي) في الثامنة والعشرين من عمره.. ولم ينسها طيلة حياته، وقد وصفها بدقة في رواية (الأبله).. قال فيها على لسان الأمير (موشكين): إن أقسى عذاب هو اليقين من أنك بعد ساعة. بعد...عشر دقائق.. بعد نصف دقيقة.. ستفارق روحك جسدك وأنك لن تعود إنسانا حيا، وأن كل هذا أمر مؤكد تماما.. إن هذا اليقين هو أقسى أنواع العذاب.. حتى الرجل الذي يغتاله اللصوص في غابة مظلمة، يظل حتى آخر لحظة من حياته يأمل في النجاة.. أما في حالة الإعدام فهم يحرمونك تماما من تلك البقية الباقية من الأمل.. فاليقين بأنك لن تفلت من عملية الإعدام هو في ذاته العذاب الذي ليس بعده عذاب..
- لو وضعت جنديا أمام فوهة مدفع، فسيظل حتى آخر لحظة يأمل في النجاة.. لكن اتل على هذا الجندي نفسه الحكم بالإعدام، تراه يفقد عقله أو ينخرط في البكاء.. من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هذا كله دون أن تصاب بالجنون؟
ارتجفت من هول الكلمات وقالت في استحسان:
- رباه! هذا رائع!
قال كمن يقرر حقيقة لا شك فيها:
- إنه (دستويفسكى) ببساطة..
سألته وهي ترى الجنود يفكون قيود المحكوم عليهم بالإعدام:
-إلى أين يأخذونهم؟
- إلى الثلاجة! إلى (سيبريا) حيث المنفى ولكن لا داعي لأن نستبق الأحداث.. أرجو أن تواصلي جولتك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن هي وسط الثلوج من حولها.. في كل صوب
اللون الأبيض الذي يؤذي العينين يمتد إلى مرمى البصر، مع ذلك الشعور الممض بأن الأفق يمتزج بالثلج بحيث لا تعرف أين يبدأ الثلج ولا أين ينتهى..
كانت تتجمد.. الزفير الخارج من فمها كان يتحول إلى بلورات جليدية تتكاثف على الإيشارب الذي وجدته على رأسها فجأة
نظرت لأصابع يديها فوجدت أن أناملها زرقاء تماما قالت وهي تنتفض من البرد:
- أي.. أي.. أين أنا.. أنا.. أنا.. يامر.. مر.. مرشد!

سمعته يقول وهو ينفض شفتيه طلبا للدفء:
- يا له من سؤال! أنت حيث تتجمد الأفكار والنظرات والمياه والأنامل والقلوب ونسمات الهواء أنت في (سيبريا) طبعا..
- ولماذا أنا في (سيبريا) طبعا؟
لم يرد على سؤالها.. إذ صار بوسعها أن ترى الإجابة.. كان هناك أربعة جنود يحملون البنادق، ويقتادون أمامهم مجموعة من السجناء.. سجنا جدا يذكرونك بما تراه في الرسوم الكاريكاتورية بالبذلات المخططة والقيود الحديدية حول الكاحلين، وكرة الفولاذ الثقيلة التي يحملها كل سجين في يده كي لا تمنعه من المشي
كان الجنود يرتدون معاطف طويلة من الفراء، بينما المساجين يضعون في أقدامهم ما يشبه أحذية الفراء بحيث بدا مظهرهم كأرانب عملاقة تمشي على القدمين الخلفيتين.. أرانب أسيرة معذبة
صاح صائح بأمر ما فتوقف الرجال
خرجت الفئوس، وبدءوا تلك المهمة العجيبة:
نقل الجليد من موضع إلى آخر! عمل حفرة كبيرة يتراكم جوارها الجليد في جبل صغير
كانوا يعملون بنشاط وحماسة.. وأدركت أن سبب هذه الحماسة هو حاجتهم إلى الدفء لا أكثر ولا أقل.. وقالت المرشد في غباء:
- ما الذي يفعلونه بالضبط؟
- لا شيء أشغال شاقة عقابا لهم..
- لكنهم لا يحققون إلا بعثرة الثلوج..
- لابد من اختراع عمل لهم وإلا ماتوا مللا أو بردا.. بالمناسبة (دستويفسكي) واحد من هؤلاء البؤساء إنه الثالث من اليمين..
قالت له في غيظ:
- هل لابد من أن آتي إلى (سيبريا) لأرى هذا؟ كان الوصف كافيا..
- لابد من الانفعال.. لابد من التجريب كى تفهمى.. لقد قضى (أليكس هيلى) عدة ليال مكبلا بالأصفاد في قاع سفينة تعبر الأطلنطي، فقط كى يشعر بما شعر به (كونتا كينتي) بطل روايته (جذور)..
هنا حاول أحد المساجين الفرار على ما يبدو وإلا لماذا أطلق عليه الحراس طلقة كومته أرضا ككلب صريع؟ وسرعان ما واصل رفاقه تكويم الثلج فوق جثته دون أن يقولوا شيئا أو يبدو عليهم أي انفعال..
أشار المرشد إلى المساجين المنهمكين بالعمل السيزيفي الذي لا جدوى منه، وقال:
- هذا الذي هناك قاتل.. أما هذا فسفاح أطفال هذا الذي يبصق فتتجمد بصقته في الهواء هو لص بيوت.. أما هذا.. هل ترينه؟ إنه الذي يمد يده في جيب الحارس.. لقد خمنت طبعا أنه نشال....
- ما شاء الله.. هل سيعيش (دستويفسكى) وسط هؤلاء السادة لطيفي المعشر؟
-هذا هو الغريب في الموضوع.. سيجعله هذا يفهم الإنسان أفضل، ويشعر بأن في كل واحد من هؤلاء جانبا إنسانيا.. جانبا إنسانيا محبطا.. فيما بعد سيعين جنديا في جيش (سيبريا) - وهو جزء مهم من العقاب يعتبر استكمالا للنفي - ولسوف يجلس ذات مساء ليكتب خبراته مع هؤلاء النساء في روايته الشهيرة (رسائل من بيت الموتى)..

برغم البرد استطاعت أن تتذكر العنوان من موضع ما من عقلها، وهتفت في فخر:
- أنا قرأت ذلك الكتاب.. وجدته في دار الكتب منذ خمس سنوات واستعرته.. لكنه كان أقرب إلى خواطر طويلة بلا حبكة قصصية معينة.. مجرد ثرثرة عن السجن ورفاقه هناك....
- هو كذلك.. إنها أقرب إلى يوميات مطولة
تشرح أي هول وأي عذاب عرفه هنا.. الأهم أنه يلتمس العذر لهؤلاء المجرمين.. بل ويكاد يعتبرهم جميعا مظلومين بشكل أو آخر.. ويرى أن (سيبريا) هي تبديد لطاقات شابة عظيمة ما كان أحوج روسيا لها..
قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها وترتجف:
- قلت إن بينهم نشالين وقتلة..
- هذا هو ما ستتعلمينه مع الأدب الروسي.. أنت تفقدين كل قدرة لك على الإدانة.. حتى القتلة هم ضحايا ظروف دفعتهم للقتل.. الخلاصة أن الأب الروسي يفقدك نهائيا القدرة على احتقار الآخرين حتى لو استحقوا ذلك..
- مرشد؟
- هم م م م؟
في غل صاحت راكلة الثلج بقدمها التي لم تعد تحس بها:
- محاضرة شائقة.. لكنك لن تفيد منها لو أنني قضيت نحبى متجمدة الآن!
قال وهو يتأبط ذراعها كي يبتعدا:
- على رأيك. حان الوقت كى تذهبي إلى موسكو إن جريمة قتل تنتظرك الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

هل أقتل العجوز؟

هي الآن تمشي في زقاق ضيق قذر نوعا.. لكنه برغم كل شيء زقاق روسي الطابع جدا
هناك بناية عتيقة لها باب متهالك.. لا شيء يدفعها إلى الدخول لكن كل شيء - برغم هذا –
يقول لها إن عليها أن تدخل
وتدخل..
مرت عربة كبيرة تحمل القش أمام الباب، وتوقفت لوهلة.. رفعت (عبير) عينيها إلى أعلى فرأت سلما عاليا مخيفا متآكل الدرجات يصعب على المرء أن يتسلقه من دون أن يشعر بالدوار..
بدأت تتسلق الدرجات في عسر، وهي تلهث طلبا للهواء.. تبا! لم تدر من قبل أنها ثقيلة الوزن إلى هذا الحد، وأن الارتفاع قاس إلى هذا الـ.... ارتفاع ماذا؟ إلى أين هي ذاهبة بالضبط؟ ليست لديها أدني فكرة.. إنها تصعد فحسب كأنما هو نداء خفي يستحثها إلى الصعود
الآن هي تدنو من الطابق الرابع، وتنظر لأعلى فترى أن هناك المزيد من الطوابق.. ترنو لأسفل فتجد أن القاع صار أشبه بقاع بئر.. استندت إلى الجدار وراحت تلهث.. إن لياقتها لم تعد على ما يرام....
هنا سمعت صوت خطوات....
لا تدري لماذا أجفلت.. لكنها قررت أن تواصل الصعود طابقا آخر كي تتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الدرج.. من الواضح أنها لن تجد (دستويفسكى) هنا..
هناك وقفت، وراحت تتوسل إلى رئتيها كي تكفا عن الضجيج
.. الآن تراه.. ترى رجلا أو شابا يصعد الدرج متمهلا وهو يضم معطفه إلى صدره.. كان مريب الخطوات متثاقلا بتلك الشكل الذي لابد معه أن يستوقفه أي شرطى يقابله في أي مكان.. فقط اللصوص يبدون متثاقلين يجرون أقدامهم بهذا الشكل
واصل الصعود.. ثم رأته يتوقف في الطابق الرابع.. يقف أمام باب الشقة الوحيدة في الطابق.. يضم معطفه إلى صدره في حيرة.. ينظر لأعلى لكنها كانت في الظلال تراه ولا يراها..
كان وسيما لكنه شاحب الوجه غائر العينين... يوحي بالعذاب والألم ولا يوحي بأنه لص على الإطلاق ثيابه رثة مبعثرة لا توحي إلا بتدهور الحال.. (عزيز قوم ذل).. هذا هو الانطباع العام الذي أخذته من منظره.
إنه يشد حبلا.. فتسمع صوت جرس يدق.. هكذا كانت أجراس الأبواب وقتها.
لا أحد يرد بالداخل.. يبدو مترددا كأنه يفكر في الرحيل، ثم يمد يده إلى الحبل من جديد.. يقرع الجرس من جديد.. هذه المرة ينفتح الباب.. ومن الغريب أنها رأته يندفع إلى الداخل.. هذا سلوك من يقتحم البيت اقتحاما، وليس سلوك من يدخل بيته
الباب الآن موارب ومحادثة تدور بالداخل.. لا تتبين أطرافها..
تقرر أن تنزل بضع درجات وتختلس النظر، لأنها شمت فأرا على حد قول الأمريكيين.. هناك شيء ما لا تفهم ما هو لكنه مريب
أخيرا تقف أمام الباب لترى.. إنها في الظل ومن في الدار في النور
امرأة عجوز نحيلة معروقة هي - بالتأكيد – صاحبة البيت، شعرها أبيض معقوص إلى مؤخرة

رأسها بمشط صغير مما يجعلها تبدو كالساحرات اللاتي يلتهمن الأطفال. تقف في وضع جانبي تتفحص جسما ملفوفا في ورق بين يديها.. جسما هو أقرب إلى علبة التبغ.. بينما الفتى يقف وراءها متوترا عصبيا...
تستدير العجوز إلى الوراء فجأة لتسأله و (عبير) تسمع الصوت:
- لكن ما بالك شاحبا إلى هذا الحد؟ لماذا ترتجف يداك؟
قال لها في ارتباك زاد الأمر سوءا:
- أنا محموم.. ثم كيف لا يشحب من يعاني الطوي؟
تبتسم العجوز من جديد وتعود لمحاولة فتح غلاف العلبة.. وهي محاولة يبدو أنها ليست هينة جدا..
تقول وهي تبتسم في مكر:
- فكرة غريبة أن تغلق هذه العلبة بهذه الكيفية..
هنا حدث الشيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح الفتى معطفه.. ورأت (عبير) البلطة تلتمع في الضوء القادم من شقة العجوز رفعها في الهواء.. ثم..
شهقت (عبير) برغمها حيث وقفت في الظلام ترى المشهد الرهيب - الذي تتذكره بشكل ما - وكان من سمعها هو الفتى لا العجوز.. استدار في عشر ثانية ليبحث عن صاحب الشهقة، ثم في اللحظة التالية توارت البلطة بين طيات معطفه..
هل تهرب؟ إن من يقتل واحدا يقتل اثنين والفتى لم يعد لديه الخيار الآن، لكن قدميها تصلبتا في الأرض كأنما كانت تقف فوق أسمنت سريع الجفاف..
انتهت الثانية كلها، فرأته (عبير) ينتزع العلبة من يد العجوز، ويفر نحو الباب..
صاحت العجوز في دهشة:
- لكننا لم نتفق بعد يا (راسكولينكوف)..
قال بصوت كالفحيح:
- فيما بعد.. فيما بعد.. أنا محموم يا (إليونا إيفانوفنا).. لقد غيرت رأيي.-
وسرعان ما كان قد خرج من الباب وجذبه وراءه..
- ولكن..
هذه كانت من (عبير) التي وجدت الفتى أمامها فلم تدر ما تفعل ولا ما تقول.. لكنه أمسك بمعصمها بقوة لم تتوقعها من منظره المتهافت، وسرعان ما جذبها ليهبط معها في الدرج..
صوت باب العجوز يفتح من جديد كأنما تريد أن تعرف ما دها الفتى لكنها لم تستطع اللحاق به طبعا
- لو سمحت! معصمي!!
ثم أخذت بخناقها ثوبة من السعال حتى شعرت أن روحها توشك على الخروج من فمها
لم يرد وواصل الهبوط وهو يلهث كالخرتيت ويعتصر معطفه في قوة أكبر
وبعد ثوان كانا في الشارع الخالي تقريبا
توقفا جوار جدار، فراحت تنظر له في مزيج من.... الرعب والشلل والتوجس.. دفعها إلى الوراء لتجد نفسها في وضع المحاصر.. ظهرها للجدار ولا مفر.
هنا فعل آخر شيء توقعته.

.. لقد جثا على ركبتيه ولثم حذاءها.. قبل أن تجد الوقت لتمنعه.. وهو شعور غريب مقزز لم تتصوره قط.. فيما بعد ستعرف أن كل أبطال (دستويفسكي) تقريبا، يجثون على ركبهم ليلثموا أحذية النساء الطاهرات اللاتي خلصن أرواحهن.. هذه حركة دستويفسكية جدا إذن.
ثم رفع عينيه لها.. كانتا دامعتين تماما
- ما اسمك أيها الملاك؟
ماذا كان اسمها؟ لقد نسيته.. آه.. تذكرته الآن.. (أولجا ناتاليوفا).
- أول.. أولجا ناتاليو.. فا...
- .أنت ملاك.. هل تعرفين هذا؟
- أنا؟ لا.. لا أعرف..
- لقد جعلتني أعدل عن.. عن ارتكاب جريمة قتل...
ثم نهض وهو ينفض الغبار عن ركبتيه
قالت له في غيظ:
- طبعا كنت على وشك ارتكاب جريمة قتل.. هذا واضح.. لكن لا أعرف إن كنت حقا قد عدلت عن هذا...
- هل عندك شك؟
- ربما قررت استبدال جريمتين بواحدة.. ربما قمت بتأجيل الموعد بعض الشيء.. من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (راسكولينكوف):
- هناك قلة وقتلة.. لكني الوحيد الذي أراد القتل كى يؤكد ذاته!
ابتسمت في سخرية، وتذكرت أحد أفلام (عادل أمام) حين دخل السجن كى (يؤمن مستقبله)، وهى استطاعت أن تفهم منطق الفيلم لكنها لم تستطع فهم منطق الفتى
كانا جالسين في حانة رخيصة موبوءة، لا يمكنك أن تجلس مستريح الضمير إلى أي مقعد فيها.. وكان هناك برميل كبير في ركن المكان يصب منه الساقي أي شيء لأي واحد يطلب.. من نفس البرميل ملا الساقى كوزا من الجعة ثم الفودكا ثم البراندي.. فلو طلبت كوبا من الشاي لصبه لها من نفس البرميل
صاح (راسكولينكوف) بالساقي، وهو يضرب المنضدة بيده:
- (فاسيلى سيماكوف)! أيها الشيطان! فلتمزق الأبالسة روحك! طلبت كوزين من الفودكا!
قالت (عبير) وهي تسند ذقنها إلى قبضتها:
- اطلب واحدا فقط فأنا لا أشرب هذه الأشياء..
نظر لها في دهشة وقال:
- رباه! بحق القديسين لكم تبدين شاحبة سقيمة! هذا هو ما يجذبني إلى وجهك.. إنه يذكرني بوجهى.. لو كان لدى مال لطلبت لك بعض الحساء واللحم..
لكنها كانت تعرف أن الدرن هو السبب....
وحتى لو كان الطلب عصير ليمون فهي لن تلوث شفتيها بهذه الأكواز التي تذكرها بتلك الموجودة وراء باب حمام بيتها القديم.. ونظرت حولها لترى (مخلوقات كانت رجالا) - وهو بالمناسبة عنوان مجموعة قصصية بديعة ل (ماكسيم جوركى) - يسطون ويبصقون ويقتون وكلما فرغ أحدهم من شرب كوزه، طرح به من فوق كتفه على الطريقة الروسية ليصطدم

بالجدار إن الشرب في أكواز له حكمة عليا لم تستوعبها إذن
سألته وهي ترتجف اشمئزازا من المكان:
- لا أفهم جيدا موضوع القتل لإثبات الذات هذا..
.. نظر حوله في حذر، ثم مد يده في صدره وأخرج البلطة وألقاها بحذر تحت المنضدة.. وقال:
- نحن في رواية (الجريمة والعقاب) لو كنت قد لاحظت هذا
- هذا لا يجيب عن سؤالي..
قال وهو يجرع ما جلبة الساقي:
- لو لاحظت لوجدت أنني مثقف جدا، وأن تطلعات حاسمة تحدد مصيري ومستقبلي.. لكنه الفقر.. الفقر يعتصرني ويحرمني كل شيء، وأختي الحبيبة توشك على الزواج من وغد ثرى لمجرد أن تحمي مستقبل الأسرة.. إنها تضحى بنفسها من أجلي ومن أجل أمي. بينما أنا لا مستقبل لي ولا غدا.. كانت هناك تلك المرابية العجوز.. تلك الحدأة المسماة (إليونا إيفانوفنا).. امرأة لا جدوى منها ولا تنفع أحدا.. خطر لى أن قتلها لن يؤدي لأن يخسر المجتمع شيئا، لكنه في الوقت ذاته يمنحني القدرة على أن أمتلك بعض المال.. أعيش..
- خطر لي أنه من حقي أن أتخلص من العجوز أضمن مستقبلي. لو أن حشرة كهذه وقفت في طريق عظيم مثل (نابليون بونابرت) فليس من حقه أن يتردد.. ليس من حقه أن يفقد كل المستقبل الذي ينتظره لمجرد اعتبارات أخلاقية بسيطة
- كان على أن أبرهن لنفسي أنني قادر على أن أفعل أي شيء مهما كان منقرا.. مهما كان قاسيا ما دمت أعتقد أنه الصواب..
قالت في تقزز:
- قتل من أجل السرقة لا أكثر.. لماذا تفلسف الموضوع؟ إن صفحة الحوادث في الصحف تحوى يوميا عشرة عباقرة مثلك..
شد شعره في جنون، وصاح:
لا ليس . .
ثم تذكر أين هما جالسان فخفض صوته ومال نحوها ليهمس في حماسة:
- لا ليس الأمر بهذه البساطة.. ولو كان كذلك لما كتبه (دستويفسكي).. إن فكرة الرجل الذي يقتل لمجرد أن يثبت لنفسه أنه قادر على القتل لهي فكرة فريدة.. إنها فلسفة الرواية بالكامل، لكن من الواضح أنني كنت سأعجز عن قبول هذه التجربة، وكنت سأنهار تحت وطأة عذاب ضميري..
- لكنها جريمة.. القتل جريمة مهما صغر شان القتيل..
- طبعا هي جريمة.. من قال العكس؟ لقد كان أتعس مصير ينتظرني، لكن رؤيتك جعلتني أثوب إلى رشدي وأتخلى عن هذه الفكرة
- بهذه البساطة؟
- رؤية ملاك لحظة أن تقرر القتل ليس بالأمر البسيط
معنى هذا أن السماء لا تريد لك أن تتلوث بالدماء..
فكرت قليلا وبدا لها الأمر مما يدعو إلى الفخر لوكان صحيحا.. إن هذه الضفيرة الذهبية لا تلعب إذن.. هذه. من المرات القليلة التي يتضح فيها أن للجمال دورا خيرا فعالا.. للجمال أدوار فعالة كثيرة ليست سامية جدا غالبا، لكن جمالها هي بالذات منع جريمة قتل، وأنقذ عنق الفتى سألته كى تبتعد عن الموضوع، وكي لا يبدأ بعبارات الغزل التي لا تريد سماعها:

- والعلبة التي كنت تحملها؟
- مجرد طعم للعجوز كى تفتح الباب في ساعة كهذه.. قلت لها إن معي علبة تبغ فضية أريد أن أرهنها.. طبعا لم يكن هناك شيء في اللفافة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (نكراسوف) جالسا صامتا يصغي إلى صوت الشاب المرتجف، الذي يتلو عليه قصته الأولى (المساكين).. في هذا الزمن كان سماع رواية بكاملها شيئا عاديا ومقبولا..
- النهاية..
.. قالها الفتي (دستويفسكي) ابن الأربعة والعشرين عاما وجمع أوراقه، وراح يتهيأ لسماع الكلمة التي ستحطم أحلامه.. وتنهي مستقبله الأدبي للأبد
لكن (نكراسوف) لم ينه أحلامه. لم يقل شيئا.. فقط ظل يرمقه من وراء دخان الغليون ثم قال:
-أعطني هذه القصة.. سأخبرك برأيي قريبا.. وما لا يعرفه الفتى (دستويفسكي) أن (نكراسوف) الشاعر العظيم، حمل الرواية وذهب إلى الناقد الكبير (بلينسكى).. أهم نقاد روسيا قبل الثورة.. وهو شخص حاد الطباع يدفعك منظره العدواني إلى أن تفر فرارك من الأسد.. إنه كغراب البين لا يجد عملا خيرا من أن يجعلك تكف عن هذا العمل المشين الذي تعتبره أنت أدبا
ما إن دخل عليه حتى صاح:
- لقد وجدت (جوجول) الجديد!
نظر له (بلينسكى) في تهكم، وقال من بين أسنانه:
- إن روسيا تعج بخلفاء (جوجول) هذه الأيام! هات ما عندك
وضع (نكراسوف) المخطوطة أمامه وقال في تهذيب:
- كتبها شاب اسمه (دستويفسكى).. أرى أنها جيدة..
- سنرى
وكان (بلينسكى) محترفا يمارس ما وصفه (برنارد شو) فيما بعد قائلا: لا يجب أن ألتهم البيضة كلها لأعرف أنها فاسدة.. وقد بدأ بعشر صفحات.. ثم عشر صفحات أخرى.. في النهاية اكتشف أنه التهم البيضة كلها وأنه أحب طعمها
لم يطل الوقت ب. (بلينسكى) حتى يدرك أنه أمام شىء مختلف.. - وهذا يدلك على أنه - برغم عدوانيته منصف بحق.. فقط هو قد سئم كل الأعمال العفنة -كالبيض الفاسد - التي يحاصرونه بها طيلة اليوم..
- هاتوا لى (دستويفسكي) هذا!!
ولم يكذب الرجال خبرا.. جاءوا له بالفتى المذعور الممتقع الشاحب.. لقد عرف الفتى أنه سيقابل (بلينسكى).. فلو قيل له إنه سيعدم بعد قليل لما أصابه كل هذا الذعر.. نظر له الناقد بشيء من السخرية، فكلهم يبدو كذلك عندما يقابل (بلينسكى) الرهيب
قال (بلينسكى) وهو ينظر إلى النيران في المدفأة:
- إن ما كتبته لرائع يا بني.. لكن هل تفهم حقا هذا الذي كتبته؟ أنا أشك في هذا.. لقد كتبته بغريزة الفنان، ولم يكن المفكر فيك هو من كتب.. ما كان لفتى صغير السن مثلك أن يفهم روسيا بهذه الدقة والروعة.. لقد نفذت إلى المأساة بلمسة واحدة من قلمك.. هذه هي سمة الفنان.. إن الحقيقة تمنح نفسها لك.. وتظهر في لمسة أو كلمة واحدة.. ربما بما يفوق فهمك أنت للأمور.. يجب أن تعتز بموهبتك ولسوف تكون أعظم كتاب روسيا..

هبطت الكلمات على الفتى كأنها الحلم
احمر وجهه ولم يعد يعرف حقا ما يفعل بذاته
لم تعد قدماه على الأرض وإنما هو هناك فوق السحاب يسبح.. يسبح.. يسبح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما زلنا في الحانة حيث يقول (راسكولينكوف):
- وسط هذا العالم القذر البائس الذي أعيش فيه كانت هناك فتاة.. والفتاة تدعى (سونيا مارميلادوفا).. إنها - بمقاييس المجتمع - سيئة.. بل هي السوء ذاته.. لكني عرفت.. دنوت فرأيت.. إنها روح طاهرة مزقها الآخرون من مدعي الفضيلة.. كلهم مفعمون بالخطايا، لكن كل واحد منهم رجمها بحجر.. لقد ضحت بنفسها من أجل أسرتها وأبيها، وهي في هذا لا تختلف عن المصير الذي تساق إليه أختى بالزواج من ثرى لا تميل إليه..
كانت لدي (عبير) خلفية لا بأس بها عن الموضوع.. ليس من الرواية ولكن من الفيلم الشهير (سونيا والمجنون) الذي قدمه (حسام الدين مصطفى) إنه ليس بعمق الرواية ولا تعقيدها طبقا، ولكنه أعطاها فكرة عن مجرى الأمور عامة..
سألته في شك:
- هل كنت ستقدم لها خدمة عظيمة بقتل العجوز؟
- بالطبع لا.. قلت إنني أردت قتل العجوز كى أثبت لنفسي أنني أستطيع.. أنت لا تفهمين عقدة الموقف.. مصرة بسطحية على تحويله إلى خبر في صفحة الحوادث.. ولو كان (دستويفسكي) يرغب في الكتابة عن جريمة قتل من أجل المال لأخفى شخصية القاتل، ولجاء المفتش (إيفانوف) كى يستجوب المتهمين، ويفحص البصمات.. ولامتلأ الموقف بالمطاردات المثيرة.. لا.. ليس الموضوع كذلك على الإطلاق..
ثم رفع عقيرته وقال بصوت مجلجل
- كل من يمتلك القوة سيكون سيدهم.. فإن تجاسر أكثر يكن على صواب في رأيهم.. ومن يقدر على أن يزدرى كل شيء يصر المشرع بينهم والذي يتحدى يصبح له معظم الحق.. المرء أعمى إن لم ير هذا بوضوح! هذه هي الكلمات التي كان سيقولها ل.(سونيا) لو أنه قتل العجوز..
والحقيقة أن أفكار (نيتشه) فيلسوف النازية كانت تسيطر على فكره.. الناس نوعان: أناس عاديون خلقوا للحياة العادية.. وأناس استثنائيون لهم كل الحق في تحدي المجتمع والقانون..
وكان هو يعتبر نفسه من النوع الثاني
لكنه لم يكن قاتلا.. لم يملك غرائز القاتل.. إنه لم يفهم شيئا عن ذاته، وهذا جعله ممزقا بأشد أنواع العذاب، ووجد صعوبة بالغة في تنفيذ نظرياته تلك...
قالت له (عبير) وهي تسعل وتكتم أنفاسها بالمنديل:
- نظريتك كلها هراء.. لا يمكن أن تبدأ حياة المجد بجريمة قتل.. إن الذين يقتلون يصيرون فيما بعد ندوبا وقروحا في جسد المجتمع..
- هذا هو ما عرفته وفهمته حين رأيت وجهك لكني - بعد كل شيء - نموذج لليأس.. أنا الشخص الذي لا مكان يذهب إليه على الإطلاق.. تصورى إنسانا لا يملك مكانا يذهب إليه على الإطلاق!!
ثم نظر إلى منديلها الملوث بالدم، وغمغم:
- رباه! أنت أيضا في مأزق!

- لكنك ستجد حلا لمأزقك.. أليس كذلك؟
تأمل الكوز الموضوع أمامه وقال في ضيق:
- لا يوجد حل.. على قدر علمى.. لكني على الأقل أدرك اليوم أني لست بقاتل ولن أكون.. هذه بداية..
ثم أفرغ ما تبقى في الكوز في فمه، وقال لها وهو ينظر إلى الوراء:
- هل تجرين بسرعة برغم مرضك؟-
فكرت قليلا ثم قالت:
- نعم.. أظن هذا..
-إذن.. اجرى معي!!
وسرعان ما أطلق ساقيه للريح هاربا من الحانة.. ولم تجد مناصا من اللحاق به برغم أنها لم تشرب شيئا.. وسعت من ورائها ضجة ومن يتكلم في غضب ويصيح في حنق
لكنها كانت تجرى..
بدت لها حماقة هذا الموقف.. ما دام الفتى يعرف الساقى فالأخير يعرفه وسيظفر به بسهولة..
لكنها قدرت أن المعرفة من طرف واحد على الأرجح وفيما بعد - عندما تتزوج أخت الفتى – سيعود لسداد ديونه في كل الحانات التي هرب منها
إنه في ورطة
لكنه لم يصر قاتلا بعد....
لكن أين (دستويفسكي) وسط هذا كله؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

من قتل الأب ؟



الفصل الخامس

من قتل الأب؟

الحقيقة أن الفتى (دستويفسكي) صار مغرورا
نحن لا نلومه كما نحاول أن تتظاهر بذلك.. فمن يمكن أن يحتفظ برأسه بعدما انبهر (بلينسكى) بروايته الأولى؟
في البداية غرق في بحر من الثناء في كل مكان، وصار ضيفا فائقا للعادة في ندوة (بلينسكى).. بعد قليل بدأ التغير المعهود.. صار يهاجم الجميع وينتقد الجميع ويرى أنهم جميعا جهلة، وأنه لا يوجد أدب روسى من قبله.. بل إنه بدأ يعرض عن ندوات (بلينسكى) بعد هذا باعتبارها أقل من مستواه..
قالوا لـ (بلينسكى) ان (دستويفسكي) صار لا يطاق، فهز كتفيه وتنهد وقال:
- يا لتعاسة! إن الفتي موهوب حقا.. لكنه لا يصنع
شيئا سوى أن يعتبر نفسه عبقريا!
وفي هذه الفترة بدأ (دستويفسكي) يتعرف مجموعة من الشباب الثوري الخطر.. شباب من الطراز الذين تجد ملفاتهم في أي قلم للبوليس السري، والذين يعمل نصفهم جواسيس على النصف الآخر
وفي هذه الظروف بالضبط ألقي القبض عليه وحكم عليه بالإعدام!
وتفاصيل ما حدث بعدها قابلناه منذ قليل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن هي تمشي في الظلام
لا تعرف أين هي بالضبط لكنها متأكدة من أن هذه حديقة منزل.. ربما هي فيلا ريفية لأسرة ثرية.. ما هذا المكان بالضبط؟ هل هذا جزء من قصة (الجريمة والعقاب)؟ المفترض أنها كانت هاربة من صاحب الحانة بعدما رفض (راسكولينكوف) - ذلك النصاب- أن يدفع ثمن ما شربه.. لكن هذا المكان؟
.. شعرت بأن قدميها تنغرسان في شيء طري.. كان وحلا لحسن الحظ.. وإن لم يكن جميلا أن تجد الوحل يغطى ساقيها حتى الكاحلين
أخيرا رأت نافذة مطلقة يخرج منها الضوء، فدنت منها لتختلس النظر
ترى نارا في مدفأة.. وترى رجلا مسنا يمسك بزجاجة ويرقص مع فتاة غجرية.. إنه يتمتع بحيوية لا بأس بها برغم سنه المتقدمة.. يتوائب.. يجثو على ركبة واحدة ينقل الاعتماد على الركبتين على طريقة رقصة (الكازاتشوك) الروسية العتيدة
ثم ينفجر ضاحكا ويجرع من الزجاجة فيغرق لحيته وصدره.. يسعل ويبصق.. ثم ينهض ليواصل الرقص.. باختصار هذا عجوز (منحل) بالمعنى الكامل للكلمة
التناقض الغريب هنا أن هناك ثلاثة شبان يجلسون ويرمقونه في صمت..
من العجيب أن العجوز يلهو كالمجانين، بينما الشباب جالسون في وقار وتحفظ يرمقونه.. ربما في ضيق كذلك يمكنها أن تميز وجوههم إلى حد ما.. أحدهم يرتدى ثوبا أسود طويلا.. ربما هو

قس أو رجل دين. بالطبع كان هذا الفتى بالذات لا ينظر إلى المشهد وإنما يعبث بحبيبات مسبحة بادي الضيق والحرج..
الفتى الثاني كان باردا سجا قليلا متأنقا بعناية، يطل من عينيه اشمئزاز. لا يمكن وصفه
الفتى الثالث كان وسيما قوي البنية.. من الطراز الذي لا يمكن أن تصدق أنه عفيف النفس طاهر الذيل.. لكنه كان يراقب المشهد في غيظ.. تكاد النار تخرج من عينيه وفمه
- إن الأب (كارامازوف) قد تجاوز الحد!
أجفلت حين سمعت هذه الكلمات ونظرت إلى الوراء، فوجدت المرشد يقف خلفها ويمط عنقه كي يختلس النظر عبر الزجاج مثلها..
- أفزعتني يا مرشد!!
قال دون أن ينظر لها.
- لا بأس بالفزع. فالقصة كلها مرعبة مقبضة
- هل هناك أشباح ووحوش وما إلى ذلك؟
- الوحوش داخل البشر.. وهي لعمري أشد رعبا وهولا.
ثم نظر لها وابتسم
- بالطبع لاحظت أننا في قصة (الإخوة كارامازوف)..
- نعم.. لكني لا أذكرها بالضبط
- لو كنت شاهدت فيلم (الإخوة الأعداء)، فأنت تعرفين فكرة سطحية عامة عنها..
ثم أشار إلى الشباب الجالسين بالداخل وقال:
- هذا الذي يلبس كالقساوسة هو قس فعلا؟.. إنه (أليوشا كارامازوف) الذي يلعب دور الملاك في هذه القصة.. الفتى المعقد المتأنق هو (إيفان كارامازوف).. فيلسوف ومفكر من (موسكو).. لا يؤمن بشيء وملحد تماما.. أما الفتى الوسيم العصبي فهو (ديمتري كارامازوف).. الفتى العابث حاد الطباع، لكنه أكثر إخوته شجاعة وإيجابية.. أما العجوز فهو الأب نفسه (فيودور بافلوفتش كارامازوف)..
- لا يبدو قدوة إلى هذا الحد..
- بالواقع هو ليس قدوة على الإطلاق.. إنه الفساد يمشي على قدمين، بالإضافة إلى بخله وكراهيته لأولاده.. ولقد ورث هؤلاء منه تلك الكراهية.. كلهم يكره الآخر.. والحقيقة أن الأب هو نموذج لأبي (دستويفسكي) في الحقيقة!
- أبو (دستويفسكي) نفسه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أبو (دستويفسكى) طبيبا في مستشفى الفقراء في (موسكو)..
في هذا المستشفى ترعرع الفتى وبهرته - إذا صدق التعبير - كل مظاهر البؤس والشقاء. المرض إذا اجتمع مع الفقر في ذلك الخليط العبقري المخيف.
لكن لم يكن هذا كل شيء
كان الأب فظا سكيرا بخيلا يعامل أسرته أقسى معاملة، ولا يكف عن ضرب ابنه بسبب وبدون سبب
كما كان يقسو على فلاحي أرضه.. وهم من يعرفهم الروس باسم (فلاحو القنانة).. إن نظام القنانة كان يجعل المالك يشترى الأرض بمن عليها من فلاحين.. وهذا يجعلهم أقرب إلى العبيد،

ولسوف تجد الكثير من الكلام عن الفنانة في كتابات أدباء هذه الفترة، وبصفة خاصة (إيفان تورجنيف) ....
المهم - دعنا من الاستطراد - ثار الفلاحون على المالك ذات يوم وقتلوه.
لسبب ما لم يستطع (دستويفسكي) أن يتخلص من هذه الحادثة.. عقدة ذنب مبهمة كانت تطارده طيلة حياته بسببها: أتراه قتل أباه بشكل أو بآخر؟ ثم – وهذه لمسة فرويدية واضحة حتى قبل أن يقولها (فرويد)- أتراه تسبب في موت أبيه حين تمني ذلك سرا؟
لقد كان (دستويفسكى) بحاجة إلى معرفة ما هو أكثر عن أبيه وعن ظروف قتله، لهذا زار ضيعة أبيه وجلس مع الفلاحين يسمع منهم ويسألهم.. وكان هذا خيطا أساسيا في (الأخوة كارامازوف).. ومن هنا ولدت شخصية الأب (فيودور بافلوفتش كارامازوف)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعد المرشد جوارها..
كان عليها أن تبدأ من جديد.. لقد وضعها على الخطوط الأولى ثم كان عليها أن تنطلق
الآن ترى من النافذة أن الأمور لم تعد على ما يرام.. الأب يبدو مذعورا خائفا ويتراجع ليحتمي بابنه (إيفان) بينما (ديمترى) - الذي عرفنا أنه ملتهب كالديناميت- يصرخ ويلوح بذراعيه ويتوعد.. يمسك بدورق كبير ويقذفه ليهشمه في الجدار، ثم يصرخ دون انقطاع:
- سأقتلك... سأقتلك
ثم ينصرف وهو يكاد لا يرى أمامه.
.. إنها مشكلة أسرية بسيطة ليس من حقها التدخل فيها كما هو واضح.. إنها تربت جيدا وتعرف أنه لا ينبغي التدخل في أمور السادة المهذبين
الآن حل الظلام.. أعرف أن الظلام كان قد حل من البداية، لكن هناك ظلاما وظلاما.. الظلام الحالي دامس من النوع الذي لا تعرف فيه أين يدك
تمشي في الحديقة عاجزة عن معرفة أين هي.. لقد كانت حلت مشكلتها مؤقتا مع الظلام، لأنها اعتمدت على الضوء القادم من النافذة.. أما الآن
هنا شعرت بمن يصطدم بها بقوة فأجفلت
سقط على الأرض وسقطت بدورها جواره.
كان الوحل طريا وشعرت باشمئزاز من كل هذه الفوضى التي تحتم عليها أن تستحم.. وفي الظلام سمعت الشخص يأتي بأصوات غريبة.. مذءوب في قصص (دستويفسكى)؟ هذا غريب بعض الشيء لكن الحقيقة أن الرعب ليس كائنا غريبا على الأب الروسي....
إن قصة (الآس البستونى) لبوشكين.. أو (فوردالاك) ل. (تولستوى) لدليل على صحة كلامي.. لكن.. قصص (دستويفسكي)؟
في الواقع لم يكن هذا مذءوبا.. الحقيقة أن البائس الذي اصطدم بها كان مريضا.. وكان مريضا بالصرع، وقد أثار لقاؤها في الظلام هلعه وسقط على الأرض يتلوى ويتشنج وعض لسانه بعنف.
إن الصرع له أهمية عظمى في قصص (دستويفسكي) لأنه كان مصابا به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منفاه في (سيبريا) عرف (دستويفسكى) سيدة تدعى (ماري إيسايفا).. ولحسن الحظ صارت أرملة بسرعة جدا.. لأنه كان قد هام بها حبا ولعله أول حب في حياته

إن المرأة لا تقطع علاقتها بالشاب في مراسلاتها.. لكنها في الوقت نفسه كانت قد اختارت لنفسها عريسا مضمونا وسيما.. أرسل لها الفتى العاشق (دستويفسكى) يتوسل إليها أن ترضى به، لكن الجواب وصله.. ولم يكن منها.. كان من زوجها المقبل (فروجونوف).. وبالطبع امتلأ بالشتائم
هذه كانت أعظم إهانة لحقت به، وأدرك أنه لا أمل له، وأنها لن تكون له أبدا، لذا آثر أن يظل بعيدا وأن يلعب دور (عشق الروح مالوش آخر.. لكن عشق الجسد فانى) كما تقول الأغنية، وهو دور لعبه بلا اقتناع كبير لكنه لعبه على كل حال.. بل إنه راح يتوسط لإلحاق ابنها بالمدارس الداخلية
على كل حال يبدو أن مصيرهما كان موحدا أكثر ما يظن.. لقد نال هو رتبة الملازم وتحسن راتبه، بينما بدا أن الأخ (فروجونوف) يتنصل من الزواج..
ولم تجد المرأة - عملية التفكير- إلا أن تقبل الزواج بالشاب الموهوب غريب الأطوار توقع أن تبدأ الراحة وأن يتذوق للمرة الأولى في..
حياته تلك الثمرة المراوغة: السعادة، لكننا ننسى تفصيلا بسيطا.. الرجل مصاب بالصرع... كيف كان الزوجة الحالمة المفعمة بالتطلعات والنهمة إلى الحياة المترفة الثرية، أن تجد لحظة راحة واحدة، وقد كان شهر عسلها عبارة عن نوبات صرع متكررة من (دستويفسكي) يصرخ فيها ويهوى على الأرض يتشنج بينما الزبد يسيل من شدقيه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح الفتى يتلوى بينما (عبير) تردد في الظلام:
- يا لك من أحمق! يا لك من تعس! اهدأ! ستؤذي نفسك
ولفت منديلها حول نفسه ودسته بين شدقيه لعله يحمى لسانه قليلا.. لم تكن قد رأت نوبة صرع من قبل، وخطر لها أن من يحتاج إلى العلاج فعلا هو الشخص السليم وليس المريض..
كما أنها أدركت لماذا اعتبر القدماء هذا المرض مسا شيطانيا..
في الظلام اصطدمت يدها بشيء معدنى.. شىء بارد..
ما هذا؟ إنه جسم معدني ثقيل كان هذا الفتى يحمله في يده.. فما السبب؟
يبدو أن المفاجآت لا تنتهي هذه الليلة لأن شبحا مر من أمامها.. الآن فقط يمكنها أن تتبينه بوضوح نسبي لأن عينيها تعودتا الظلام، وهي لم تكن تعاني نقصا في فيتامين (أ) بأي شكل كان هذا الجسد الضخم الفارع يخص (ديمترى كارامازوف).. الابن العصبي العدواني يتقدم في الظلام نحو البيت.. في يده هراوة ضخمة.. تلمع في الظلام فتدرك أنها يد هاون.. تعرف هذه الأشياء على الفور، بحكم الخبرة..
(ديمتري) يقف جوار شجرة وصدره يعلو ويهبط بما يدل على أنه يعاني صراعا عظيما.
السيرك يستمر.. هذا رجل عجوز أصلع يخرج. من البيت.. يمشي في تؤدة في الظلام، والمشكلة هي أنه يتجه نحو الشجرة التي يقف وراءها (ديمتري) بالضبط.
طبعا هي صاحبة أفضل رؤية ليلية وترى خيرا من ثلاثتهم، لأنها تقف هنا منذ زمن حتى تحولت إلى قط بشري متوتر..
الآن ترى العجوز يمر جوار (ديمترى) في الظلام.. وهو لا يراه..
(ديمتري) لا يجد سبيلا إلا أن يرفع يد الهاون في السماء.. و...
كانت اللحظة التالية مما يدهشها هي نفسها.. لم تتصور قط أنها سريعة رد الفعل إلى هذا الحد،

وأن قوة ذراعها يمكن أن تفعل هذا.. ربما اتحدت سرعة رد الفعل مع سرعة البديهة في لحظة واحدة.. ساقها امتدت أمام ساق (ديمترى) ففقد توازنه، وفي الثانية الأخرى كانت يدها تمسك بيد الهاون في قسوة وعناد

كان يحاول المقاومة ويحاول انتزاع اليد المعنية..

- يا للشيطان: فلأشنق إن لم . . .

وانهالت على رأسها شتائم روسية بذيئة جدا، ثم صفعة بيد من حديد على وجهها

القمر يتبدى من وراء السحب للمرة الأولى هذه الليلة، ومعه تبرز الموجودات إلى الحياة..

تتسع عيناه وهو ينظر لها غير فاهم، ثم يتخلى عن يد الهاون..

يده الغليظة تمتد لتمسح أسفل أنفها.. هناك سائل دافئ.. هناك طعم مالح في فمها، وتدرك أن كل فتحات وجهها تنزف.

- يا للشيطان! ملاك! أنت ملاك!

قالها وهو يلهث في رهبة

همست وهي تسعل بدورها لتضيف نزف الرئة إلى كل هذه الدماء:

- كدت تقتل أباك! يا لك من ثور هائج!-

كان لايزال يرمقها في انبهار مرعب، وإن استطاع أن يهمس:

- ليس هذا أبي.. إنه (جريجوري) الخادم العجوز. كنت سأضطر إلى قتله

- لكنك أردت قتل الأب العجوز أولا.. كنت سترتكب جريمة في جريمة أخرى..

- ولم أفعل.. إنني...

ثم نظر إلى الفتى الذي صرعه الصرع، والراقد وسط الوحل وقد غاب في نعاس عميق.. مرضى الصرع كلهم ينامون بعمق بعد النوبة..

- (سمردياكوف).. ما معنى ال...

ثم اتسعت عيناه وقد بدأ يفهم كل شيء..

- حين تركناه منذ ساعة كان يتظاهر بأنه في نوبة صرعية.. من الجلى أنه كان يمثل.. والآن هو يتسلل نحو البيت مسلحا.. فلماذا؟ وما هي غايته؟

قالت في تحفظ:

- ربما.. ربما كان يريد قتل أبيك.

- (سمردياكوف)؟ هه! مستحيل! إنه أغبى من مستنقع وأخس من قملة.. لا يمكن أن

ودون رفق بمرضة هب للفتى النائم، فاعتصر قميصه في فظاظة وصفعه على خده:

-هيه! أيها الخنزير! قم وكلمني..

فتح الفتى المنهك عينيه فرأى الهول ذاته.. رأي وجه (ديمتري) الغاضب ينظر له من على بعد عشرة سنتيمترات

- (ديمتري).. أنا

- لماذا تسللت في الظلام مسلحا؟

ساد الصمت، وهنا نكتشف أن أسلوب الصفعات مقتنع دائما.. وهي حقيقة نتناساها نحن، بينما يعرفها كل معاون مباحث في أي قسم شرطة في العالم.. شلاك شلاك ثم بدأ الفتى يثرثر كأنما اكتشف لذة الكلام لأول مرة في حياته:

- أردت أن أقتل العجوز.. أبي!

هزه (ديمترى) في عنف:

- هل تمزح؟ قلت لك مرارا إن العجوز ليس أباك.. إنه أبي وأنا أرفض أن أكون أخاك..
- لكنها الحقيقة يا (ديمترى).. أنا أخوك من أم أخرى.. أنت تأبى أن يكون مثلي أخا لك لكنها الحقيقة
- ليكن.. سنتناسى هذا مؤقتا.. ولكن لماذا أردت قتل العجوز؟
نظر للسماء وقال بصوت كالفحيح:
- كل شيء مباااااح!
كان صبر (ديمترى) قد نفد تماما واصل مهمته في تعذيب الفتى، إذ راح يضرب رأسه مرارا في الأرض، كأنما هذا علاج جديد للصرع، حتى استوقفته (عبير) في رعب:
- كفي.. أنت لا تريد جريمة قتل أخرى..
نظر لها وراح يلهث كالدرفيل، ثم أمسك بيدها ونظر في عينيها في الظلام وهمس:
- لا أعرف من أنت ولا من أين جئت.. لكنك ملاك.. وقد جعلتني أعدل عن القتل لأن..
أكملت جملته في ملل:
- رؤية ملاك لحظة أن تقرر القتل ليس بالأمر البسيط.. معنى هذا أن السماء لا تريد لك أن تتلوث بالدماء.
- كيف عرفت ما أردت قوله؟
- لأنني عبقرية..
ثم نهضت وراحت تركض مبتعدة في الظلام وهى ترفع ثوبها الطويل كي لا يتسخ بالوحل..
صاح يناديها:
- لم أعرف اسمك بعد..
لم ترد لأنها كانت قد نسيت اسمها على كل حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان المرشد يقف هناك خارج أسوار البيت،
وهو يضع يديه في جيبيه.
قالت له في لا مبالاة:
- مرحبا مرشد..
- مرحبا..
ثم نظر لها في جدية وقال وهو يقف أمامها بحيث
لا تبتعد أكثر:
- الأمر جد خطير.. إن الرجل غاضب..
- أي رجل؟
-دستويفسكي طبعا... إنك أفسدت أهم قصتين له... في (الجريمة والعقاب) لم تحدث جريمة وبالتالي لن يكون هناك عقاب.. لقد لعبت دور الملاك الذي طهر روح (راسكولينكوف) بطريقة درامية، ولم تتم عملية قتل العجوز التي هي من أهم الجرائم في الأدب العالمي..
قالت وهي تلوح بذراعيها:
- قل لى ما هو خطئي.. أنا لم أفعل شيئا واحدا عمدا
- وفي قصة (الإخوة كارامازوف) أنت أفسدت الموقف الأساسي في القصة.. إن (سمردياكوف) الأبله الذي هو ابن (فيودور كارامازوف) يقرأ كل مقالات أخيه المعقد (إيفان كارامازوف)

بشغف بالغ، وقد تعلم منه الإلحاد.. هذا مالم يخطر ببال (إيفان) قط.. وقد قرر (سمردياكوف) أن كل شيء مباح حتى القتل.. وهكذا يقرر قتل الأب ليبرهن على أنه استوعب الدرس جيدا.. وحين قابلته كان بالفعل ذاهبا لقتل (كارامازوف) الأب، وهو ما كان سينجح فيه فعلا لولا أنك أصبته بالصرع رعبا..

- يا سلام! وماذا عن (ديمترى) المتحمس؟

-(ديمتري) لم يقتل أباه.. كان سيهوى بالهاون على رأس خادم الأسرة العجوز ويفر هلعا.. لكنه بهذا يضع نفسه بالضبط موضع الشبهات، ولسوف يستحيل عليه أن ينكر تهمة قتل أبيه أمام الشرطة.. ولسوف يحكم عليه بالرحيل إلى سيبريا برغم أنه فعل كل جريمة في حياته ما عدا القتل..

- الحقيقة أن (ديمترى) مؤمن بالله لكنه غارق في المعصية، وهو بهذا أقرب إلى قلب (دستويفسكى) وتعاطفه.. إنه الخاطئ الذي يأمل في التوبة.. أما (إيفان) الأخ فلا يؤمن بأي شيء على الإطلاق، لكنه لا يرتكب ذنوبا يجرمها القانون.. و (دستويفسكى) يكرهه كما هو واضح، وسرعان ما يكتشف (إيفان) أنه المسئول - بالتحريض - عن قتل أبيه.. لدينا (ديمتري) الذي تمنى موت أبيه وعوقب على ذلك وإن لم يقتله.. ولدينا (إيفان) الذي تسبب في موت أبيه فعلا، لكنه بالنسبة للمجتمع بريء.. هنا تثار أسئلة عديدة: هل من تمنى موت الأب مسئول بالفعل عن موته؟ هل يستحق العقاب؟ هل المجرم هو القاتل بالتحريض أم القاتل بالنية؟

أمسكت برأسها وهتفت في ضيق:

- رحماك! أعفني من كل هذه الدهاليز النفسية..

- ومن قال إن (دستويفسكي) أديب سهل؟ لكنك - ولك الفخر - قمت بتدمير القصة كلها وحولتها إلى خرقة بالية.. وهي بالمناسبة آخر رواية كتبها (دستويفسكي) في حياته وأراد لها أن تكون الجزء الأول من رباعية اسمها (قصة خاطئ كبير).. لكنه بالطبع لم يعش إلى هذا الحد..

- لم أفعل سوى أن مددت ساقي قليلا ليتعثر (ديمتري كارامازوف)..

- هذا كان كافيا لتفسد الرواية الرائعة الثانية وإنني أنصحك بألا تتدخلي في الأحداث. راقبي من بعيد.. لا أكثر.. فإن قابلت (دستويفسكى) فبها ونعمت وإلا فأنت مستمرة

وفي اللحظة التالية لم يعد جوارها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

آخر نقود معك

كانت (بولين سوسولوفا) في حالة من النشوة، وهي لا تصدق نفسها
لقد قرر العبقري الذي بهر روسيا (دستويفسكي) أن يستجم قليلا في أوروبا، فقط كي لا يصاب بانهيار عصبى بعدما أغلقت الحكومة القيصرية جريدته (الزمان)..
ولم يكن وحده في أوروبا.. كانت معه تلميذته الذكية المثقفة (بولين).. فقد اختارها هي بالذات كي ترافقه في رحلته.. ولم تستطع أن تصدق أن تكون بصحبة هذا العقل الجبار.. هذا المخ الذي يمشي على قدمين والذي ستتعلم من خلاله كل شيء، وترى بعينيه كل شيء.. من يدري؟ لربما تلهمه أوروبا رواية جديدة، وعندها ترى عملية المخاض الفني في بدايتها...
لكن العبقري الذي توقعت أن تنبهر بعقله انبهر بجمالها.. سقط في شراك الجمال كأي متسكع في الطريق يقول كلمة غزل فلا تعيرها اهتماما
لقد ركع عند قدميها - ويبدو أن هذه عادة مزمنة لديه - وراح يبكي كالقرود لو أن القرود تبكى مصارحا إياها بحبه.. لا بد أنه كان يبدو مرعبا في هذه اللحظات الرومانسية المرهفة..
لم تستطع أن تصدق أن ينحدر الأستاذ العظيم إلى هذه الدرجة..
وحين خلت لنفسها كتبت في مذكراتها:
- كنت أصحو من نومي فأتخيل منظر (دستويفسكى) العظيم وهو يبكي عند قدمى.. عندها كنت أجري في الحجرة منتحبة باكية..
المشكلة.. لقد أحبته كمثل أعلى بينما هو أحبها كفتاة جميلة
ولسوف نجد أن (بولين) تسللت إلى كل قصص (دستويفسكى) قريبا.. تسللت إلى (الجريمة والعقاب) و (الإخوة كارامازوف) و (الأبله) و (الممسوسون).. كما أن دورها الأساسي يظهر في (المقامر).. أعمق وأعظم ما كتب عن داء القمار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كنت قد خسرت كل شيء.. كل شيء.. وكنت خارجا من الكازينو، حين شعرت بشيء يتحرك في جيب صدارى.. كانت قد بقيت معي قطعة عملة واحدة.. قلت لنفسي: أستطيع إذن أن اشترى غداء..
ولكن بعدما سرت مائة خطوة، غيرت رأيي وعدت.. وقامرت بهذه القطعة.. الحقيقة أن هناك شيئا خارقا وراء إحساس المرء أنه وحيد في بلد أجنبي، بعيدا عن وطنه وأصدقائه، ولا يدري ماذا سيأكل، وبرغم هذا يراهن بآخر قطعة عملة معه..

وكسبت.. وبعد عشرين دقيقة غادرت الكورسال وفي جيبى مائة وسبعون قطعة عملة.. هذه حقيقة يا سيدي! فانظر ماذا يستطيع الجولدن الأخير أن يفعل غدا إذن سنرى ماذا سيكون..
الفقرة الأخيرة من رواية (المقامر)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا داء وبيل..
السرطان الذي يتفشى في روح المجتمع، والعيون الزائغة حول الموائد الخضراء، وكل واحد يقامر الهدف ما.. منهم من يقامر للتسلية ومن يقامر طلبا للمال.. آملا في فرصة واحدة تغير كل شيء.. ومنهم من يقامر كى يهرب من نفسه..
و (عبير) تعرف أن للقمار أشكالا شتى.. منها الشكل المعروف الفج الذي نراه في أفلام (إستيفان روستى)، والشكل المتخفي الذي لا يبدو قمارا.. لماذا يشترى الطفل عشرة أكياس من الحلوى التي لا يريدها بحثا عن صورة؟ ولماذا ينفق الموظف ماله في مكالمات هاتفية لمسابقات تعده بالثراء الذي لا يأتي؟ بل لماذا يندفع الشاب بسيارته بسرعة ستين كيلومترا في شارع يعج بالمدارس؟ كل هذا وأكثر فهمه (دستويفسكي) وعبر عنه بدقة وبراعة، والحقيقة أنه كتب الرواية في وقت أدمن فيه القمار هو نفسه، على سبيل جلد الذات بسبب فشله في الفوز بحب (بولين).
تمشي بين الموائد الخضراء، وهي لا تعرف كيف ولا متى وجدت نفسها هنا.. خبراتها تعرضت لقطع حاد كأنه مونتاج سينمائي قام به مونتير عديم الخبرة..
لم تكن (عبير) تفهم شيئا عن هذه الألعاب، فقط هي ترى أشياء مألوفة بالنسبة لها.. مثل العجلة التي تدعى (روليت)، وألعاب تشبه لوحة (الليدو)، وألعاب بالورق.. وسادة متأنقون يشرفون على هذه الألعاب والكثير من اللغة الفرنسية والمجوهرات ودخان التبغ المنعقد في سماء القاعة...
هنا أصابها ما يصيبها حين تدخل قاعة مزدحمة أصابها الدوار والتشتت ولم تعد تعرف أين هي..
رأت شابا يرتدي ثيابا غير مهندمة توحي برغبة فاشلة في التأنق، يقف أمام تلك اللعبة ذات الكرة التي تعتقد أن اسمها (الروليت).. كان ذاهل العينين يتابع في فضول ما يجري، وهو يخرج ورقة من حين لآخر ويدون فيها شيئا.
- هذا هو المقامر (أليكسي إيفانتش)..
التفتت إلى الوراء فوجدت المرشد يتابع اللعب دون أن ينظر لها.. الحقيقة أنه يظهر كثيرا في هذه المغامرة، والحقيقة أيضا أن وجوده مهم فعلا أردف وهو يتابع الفتي:
- إنه يحاول الوصول إلى نظرية كونية معينة تتعلق باحتمالات توقف الكرة.. في البدء لاحظ أنها تتوقف عند الأرقام الوسطى ثم تهبط إلى الأعداد السفلي مرتين.. ثم تعود إلى الأعداد الأولى..
- لكن هذا كلام فارغ..
- هو كذلك.. لا أحد يمكنه التنبؤ بالخانة التي ستتوقف عندها الكرة، ما عدا أصحاب الملاهي النصابين الذين يضعون محركا تحت المنضدة لتتوقف الكرة حيث يريدون.. لكنه على الأقل يوشك على أن يبتكر نظرية (الهيوليات).. سيكون هذا فرعا مهما من الرياضيات فيما بعد، ولكن ما يحدث على كل حال هو أن الفتى يخسر بلا توقف..
ثم تقدم الفتى في حماسة وأخرج مبلغا كبيرا
وضعه على أحد الأرقام وتراجع، بينما الكرة بدأت تدور لقد خسر المبلغ كله
همست (عبير) في إذن المرشد:
-إنه معتوه.. هل المال ماله؟
قال وهو يبتعد في اشمئزاز
- لا تقتربي مني إلى هذا الحد.. لا تنسى أنت مصابة بالدرن!

- يا لك من خنزير! كنت أنت صاحب الفكرة..
- على كل حال يمكنك دوما الكلام على مسافة مني.. أما عن إجابة سؤالك.. لا.. إن الفتى يسدى خدمة لحبيبته التي تدعى (بولين)، والتي لا تفهم القمار، والتي تعامله معاملة باردة سيئة جدا، لكنها تعرف كيف تستغله..
- هل هي جميلة إلى هذا الحد؟
مط شفته السفلى في اشمئزاز وقال:
- لا.. كل الكتاب الكبار يقعون في حب فتيات لسن جميلات لكن لهن تأثير كاسح.. هذا بالطبع
– على اعتبار أن (بولينا) هي حبيبة (دستويفسكي) الأصلية يصفها في الرواية على لسان البطل بأنها طويلة نحيلة جدا توحي لك بإمكانية عقدها في أنشوطة.. وقدماها طويلتان ضيقتان معذبتان
هنا حدثت ضوضاء وصخب، وهرع الخدم يركضون ذات اليمين وذات اليسار.. وكان هناك نحو عشرين حمالا يحملون عددا فلكيا من الحقائب.. هناك نوع من الكهرباء سرى في القاعة وجعل الجميع يتوقف عن اللعب
وبين العاملين دوت الهمسات:
- الأميرة الروسية!!
- السيدة رفيعة القدر!
وبدأ الزحام يتشكل حول مركز بؤرة، استطاعت (عبير) أن تدرك أنها سيدة عجوز في التسعين من عمرها يحملها الخدم على محنة.. امرأة شمطاء لابد أنها كانت من مرضعات (بطرس الأكبر) نفسه.. لكن على وجهها كل أمارات الأرستقراطية المغرورة المتعالية.. من أجل نساء كهذه قامت الثورة الشيوعية عام ١٩١٧
وقال لها المرشد وهو يعد لنفسه شطيرة من مادة سوداء مقرفة لا تعرف (عبير) طبعا أنها الكافيار:
- هذه هي الجدة العجوز (أنتونيدا فاسيليفنا تراسيفيشا).. إنها عمة الجنرال.. أما المقامر بطل القصة فهو معلم أبناء الجنرال.. لقد توقع الكل موتها منذ بداية القصة، فإذا بها تفاجئهم بقدومها بالقطار
كانت الجدة تنهال بالسباب على الخدم وتدعو عليهم بالخراب، والواقع أن فكرة مجيء أرستقراطية روسية إلى الفندق ملأت العاملين فخرا ورهبة.. ولم تكن من هواة خفض الصوت بل كانت تسأل بصوت عال عن كل شخص تراه وتقيسه بعينيها.. وكان من الجلى أنها لا تتصنع التعالي وإنما هي متعالية من الأصل
صاحت منادية الجنرال:
- أين أنت؟
ظهر رجل عسكري بدين ممتقع الوجه.. يبدو أنه كان يحمل هم (البهدلة) أمام كل هؤلاء الذين تصنع العظمة أمامهم.. خاصة والجدة من النوع الذي لا يراعي أحدا..
قالت له بصوتها الحاد:
- إيه أيها الخائب! واضح أنك لا تفارق مائدة القمار.. أراهن على أنك قامرت وخسرت كل مليم لديك..
- أنا؟ مستحيل
- لابد لي من أن أرى لعبة (الروليت) المضحكة هذه.. كلكم بلهاء معتوهون!!

وأشارت بطرف إصبعها إلى الفتى (إليكسى إيفانتش)، وقالت:
- تعال يا (أليكس) كي أفهم ما هي هذه اللعبة الشيطانية
كان من الجلي أنها برغم عصبيتها البالغة تحمل مودة لا بأس بها نحو المقامر.. وهمست (عبير) في أذن المرشد:
- ما علاقة كل هؤلاء القوم ببعض؟
ابتسم كأنما كان يتوقع أن تسأل هذا السؤال:
- هذه من المشاكل التي تقابلك في القصص الروسية كثيرا.. هناك دائما بيت كبير - غالبا بيت جنرال أو بيت ريفي - يقيم فيه عشرات الأشخاص يأكلون ويشربون ويسهرون، ويصعب فهم العلاقات بينهم ربما حتى تصل إلى منتصف الكتاب...
جرى الفتي نحو العجوز في احترام، بينما وقف الناس يتهامسون.. كانوا يسبقون اسمها بلقب (أميرة) برغم أنها ليست كذلك، لأن أحدهم لم يجسر على استعمال لفظة أخرى..
راحت تراقب الألعاب التي لا تفهم منها شيئا، لكنها كانت طفلا كبيرا، وقد راق لها أن اللعبة فيها كرة.. وجدوا لها موضعا جوار منضدة الروليت فجلست وطلبت من (أليكسي) أن يشرح لها.. حاول جاهدا أن يفهمها معني اللون الأحمر والأسود والصفر والزوجي والفردي..
- ما هو الصفر؟
- معناه أن الكازينو هو الرابح.. إذا وقفت الكرة على الصفر نال الكازينو كل شي.. ولكن لو راهنت أنت على الصفر لحصلت على خمسة وثلاثين ضفا لنقودك..
- يا لهم من حمقى! لماذا لا يراهنون على الصفر إذن؟
- لأن الفرص ضدك تساوى ستا وثلاثين
- هراء! سأجرب بنفسى
وأخرجت قطعة عملة صغيرة من جيبها.. وجربت
بالطبع خسرت.. وخسرت مرة أخرى.. فثالثة
صاحت في عصبية:
- مراقب اللعبة هذا.. إنه فرنسي! أليس كذلك؟ أخرجوه من هنا! إنه نحس..
همس (أليكس إيفانتش) في أذنها ما معناه أن الصياح ممنوع ثم أن أحدا لا يملك طرد المراقب.
لكن في المرة الرابعة توقفت الكرة على الصفر متحدية كل قوانين الفيزياء..
وبالمجرفة أزاح مراقب اللعبة كومة بها خمسون قطعة ذهبية.. فصاحت الجدة في حماسة:
- هل رأيت يا أبله؟ ألم أقل لك؟ أين ذهب الجميع؟
ودارت العجلة من جديد، ولكن العجوز كانت قد وضعت كل شيء على الصفر.. برغم أن المراقبين يعرفون أن الصفر قد لا يظهر أكثر من ثلاث مرات يوميا..
خسرت مرة.. ثم راهنت بمبلغ كبير فتوقفت العجلة على الصفر!
هنا التفت (المرشد) إلى (عبير) وهمس في أذنها:
- هذا من المشاهد التي لا تصدق في الرواية.. مشهد العجوز الوقور الكارهة للقمار، وهي تنغمس فيه حتى النخاع إلى حد أنها لن تملك المال الذي تعود به إلى روسيا! لقد جربت اللعبة الشيطانية على سبيل الفضول، ثم فجأة صارت مدمنة..
شعرت (عبير) بالحزن يخنقها.. كانت تكره أن ترى الآخرين يفقدون كرامتهم.. لا تدري كيف تدافع الحزن إلى عينيها ليتحول إلى دمعتين، ثم انفجرت منها أنة مكتومة:
- اهىء!!

نظر لها البعض في فضول، وحتى الجدة المنهمكة في متابعة اللعبة رفعت عينا حازمة نحوها، ثم صاحت في الفتى الواقف جوارها:
- بكاء ومخاط! شيء مقزز! اذهب يا (أليكسي إيفانتش) لترى لماذا تبكي هذه الفتاة الحسناء! يا للغباء! أنا فهمت اللعبة فلا تبق هنا طيلة اليوم أنت تحسبني أغبى من مستنقع!
كانت (عبير) تعرف أن التشبيهات الغريبة تملأ الأدب الروسي.. على غرار (خسيس كقملة) و (أغبى من مستنقع) و (نشط كبرغوث).. لكنها كانت تبكي الآن فعلا وبحرقة ولم يعد لديها وقت للتمعن في طرافة الكلام.
جاءها (أليكسي إيفانتش) بين الزحام ووضع يدا هذرة على معصمها، وقال:
-(أنتونيدا فاسيليفنا) تريد معرفة سبب بكائك أيتها الآنسة..
قالت وهي تنظر إلى الواقفين حولها، الذين شرعوا في ممارسة اللعبة:
- إنها تنزلق إلى الجب الذي لم يرجع منه أحد. وأراك تساعدها.. لم أتحمل هذا.. لم أتحمل أن أرى كل هؤلاء الذين أضاع القمار أرواحهم..
- أنت لا تفهمين.. أنا ولدت مقامرا.. إن هي إلا لحظات وتمشي النشوة المجنونة في دمي وعندها.. يوما ما سأكون ثريا.. ويومها تولد أسرة ثرية جديدة إلى الوجود، من الأسر التي لا يفعل أبناؤها شيئا على الإطلاق إلا اللهو والجدل بصدد خلود الإنسان..
قالت له وهي تكفكف دمعها بمنديل حريرى وجدته
في جيبه:
- هل يمكننا أن ندخل إلى الشرفة لنتكلم؟ أنا لا أسمع نفسي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحث عنها المشرف طويلا جدا، لأنه يعرف أن علمها بالأدب الروسي محدود، وفي الغالب هي الآن في مأزق كريه..
أخيرا وجدها في الشرفة مع الفتي.. لكن ما لفت
نظره هو أنها لم تكن تبكي كما تركها، ولكن الفتى كان هو من يبكى؟ ولشدة غيظه سمعه يقول:
- أشكرك يا.. قلت لي ما اسمك؟
لكنها كانت قد نسيته على كل حال، فقالت ما جاء بذهنها:
- (ساشا)..
- ليكن يا (ساشا).. أنت ملاك.. ولا بد أن ظهورك في حياتي كان لغاية خلقية مهمة.. إنها إرادة الله.. سأترك هذا المكان الموبوء وأعود إلى (سان بطرس بورج).. لقد صرت أكره القمار كأنه أنفاس الأبالسة.. لا أدري كيف أغير مسار حياتي بعدما عودت نفسي على حقيقة أنني سأكون ثريا يوما ما دون جهد ولا تعب.. لكن الحياة تستمر، ولسوف أكون شخصا آخر..
- ثم ركع على ركبتيه وطبع قبلة على أطراف أناملها، وهمس:
- سألحق بالجدة كي أمنعها من أن تبدد آخر مليم لديها.. وداعا يا أرق وأطهر من عرفت..
ونهض ليزيح المرشد بكتفه كي يغادر الشرفة، وفي جفاء قال:
- بعد إذنك
ما إن غادر الفتى المكان، حتى راح المرشد يضرب كفا بكف:
- لقد أنقذته!
- ولي الفخر..

- ونسفت الرواية نسفا!
- ليس هذا ذا بال..
- لسوف يخرب الرجل الكبير بيوتنا.. أنت أفسدت هذه الرواية الرائعة لمجرد أن قلبك أرق من اللازم.. لماذا لم تتركيه وشأنه؟
قالت في كبرياء:
- لم أتعمد شيئا.. هذه الأمور تتم برغمي.
قال وهو يضع يديه في جيبيه مفكرا في اكتئاب:
- لن ينغمس في القمار ولن تنغمس الجدة. وقد انتهى الصراع المليء بالحب والمقت بينه وبين (بولينا) القاسية التي تعامله كعبد لدى ملكة. لقد دمرت أروع صراعات الأدب العالمي..
ثم - في فتور - قال لها وهو يشير إلى الباب:
- ليكن.. ماقت قد مات.. هلمى واصلى البحث.. أرجو أن تجدى (دستويفسكي) وتمنحيه الحب سريعا..
- سأحاول لكني لا أعدك بشيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

مجرد أبله آخر

على موائد القمار في (فسبادين)، خسر (دستويفسكي) الجلد والسقط كما تقول في العامية.. وكتب إلى صديقه العزيز (إيفان تورجنيف) يتوسل إليه أن يرسل له مائة روبل كى يتمكن من مواصلة الحياة..
أرسل له (تورجنيف) خمسين روبلا سرعان ما ضاعت على موائد القمار.. الحقيقة أن حياة (دستويفسكي) الدليل صارخ على أن الفنان العبقري قد لا يتصرف بذكاء وحكمة على الإطلاق.. يصعب أن نعتقد أن هذا المخ الجبار لا يحسب لكل خطوة حسابها، لكنها الحقيقة، وكان من يجلس ليكتب الروايات شخص آخر يملك حكمة القرون.. بينما صاحب الجسد خاطئ أحمق مليء بالمثالب
وكتب (دستويفسكي) يصف خدم الفندق:
- ثلاثة أيام لم أذق فيها إلا شاي الصباح.. خدم الفندق لا ينظفون ثيابي وإذا ناديتهم لا يأتون.. وهم يعاملونني باحتقار لا يوصف، لكن أقسى شيء أنه لا توجد شموع أستطيع أن أكتب على ضوئها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هي ذي تواصل بحثها عن (دستويفسكي).. إنها لا تجده أبدا لكنها لا تكف عن مقابلة أبطاله الذين لم يكف عن صنعهم طيلة الوقت، وبعثرتهم في الزمان والمكان. إنها تجد خيوطه التي بعثرها وتجد آثاره.. لكن أين هو؟ وكيف يمكنها أن تصل إلى أعماق هذا العبقري المعقد؟
صحيح أن هناك دلائل واضحة على أنه أحب نساء لمجرد جمالهن، وليس لأنهن فيلسوفات.. لكنها مازالت تشعر برهبة
كان السعال يأخذ بخناقها الآن وشعرت أنها محمومة.. وراحت تتساءل إن كانت ستظل حية حتى تتم مهمتها..
إن الدرن يكسب دائما!! قالها المرشد الأحمق ويبدو أنه لا يعرف الكثير عن علم الأمراض..
هي الآن تدخل قاعة فاخرة.. قاعة تمت إلى القرن التاسع عشر.. وترى حشدا من السادة المتأنقين يقفون متبادلين الدعابات.. الرجال يرتدون الفراك والنساء يرتدين ثياب السهرة.. مدفأة موقدة وشمعدانات وثريات ازدانت بالشموع.. بعض الرجال يرتدي الحلة العسكرية الكاملة، وكل شيء يدل على أن هذا مجتمع روسيا الراقي قبل الثورة.. مجتمع العشرة آلاف كما كانوا يسمونه..
تلاحظ أن النظرات كلها تتجه نحوها.. إنها فاتنة.. جمالها لا يمكن وصفه أو تصديقه.. هى ترى هذا في المرآة، وتشعر بالشعور العجيب الذي شعرت به حين كانت (هيلين) اليونانية وحين كانت (آن بولين) البريطانية.. غالبا ما كانت جميلة في قصص (فانتازيا) لأن بطلات القصص جميلات وكأن القبيحات لا حق لهن في الحلم، لكنها قلما جربت الشعور الغريب بأنها المادة المجسدة للجمال.. هي نفسها (فينوس) أو الصورة التي يختارها الرسامون حين يعبرون عن لفظة (جمال)..

كان رجل قصير مضحك يرفع كأسه ويقول:
- اللعبة التي أقترحها هي أن يحكي كل منا أسوأ عمل شرير ارتكبه على الإطلاق..
ثم هز إصبعه محذرا:
- ولكن دون كذب
كان هناك جنرال وكانت قد صارت تميز شكلهم بسهولة بشواربهم الكثة ولحيهم وقاماتهم المديدة.. قال هذا الجنرال:
- أرى أن تبدأ أنت يا (فردشتنكو)
وتعالت الأصوات في مرح:
- نعم.. أنت.. أنت..
فكر الرجل وقتا قصيرا ثم قال في خجل:
- ذات مرة سرقت ثلاثة روبلات يا صاحب الشرف.. كنت في حاجة لذلك.. لكني سرقت على كل حال..
تعالت الضحكات الساخرة، ولم يصعب على (عبير) أن تدرك أن هناك الكثير من الاشمئزاز كذلك
- وأنت يا جنرال..
ابتسم الجنرال في حرج، وبدا عليه بعض الأسى وهو يفكر:
- كانت هناك امرأة عجوز عنفتها يوما.. لم أدر أنها تحتضر.. كنت صغير السن قليل التجربة، ولم أغفر لنفسي ما حدث طيلة خمسة عشر عاما.. حتى وجدت الحل: قمت بتخصيص معاش شهرى لعجوزين في أحد الملاجئ.. إن حياتي مفعمة بالأخطاء لكن هذه أحط الأعمال التي ارتكبتها..
وانتفخت أوداجه في تأثر.. وارتعش شاربه صار الآن رضاه عن نفسه لا يصدق....
هنا شعرت (عبير) بمن يجذب كتفها. فالتفتت للوراء غضبى.. فقط لتجد المرشد يرتدي الفراك،
وفي عينيه نظرة تدعوها إلى الابتعاد عن الزحام..
مشت معه وهي لا تفهم ماذا يريد.
قال لها حين صارا في ركن القاعة:
- هؤلاء مجموعة من المنافقين الكذابين.. تصورى أن تكون كل خطايا الجنرال أنه عنف عجوزا.. وبعد قليل تسمعين اعتراف وغد آخر هو (توتسكى).. ستجدين أن اعترافه لا يختلف عن هذا.. لو كان هذا حقيقيا لكنا نعيش في جنة أو المدينة الفاضلة.. الوحيد الذي كان صادقا وحسب اللعبة تؤخذ بجد هو البائس الذي اعترف بأنه سرق ثلاثة روبلات..
وأشار إلى الجنرال وهمس:
- هل ترين مدى تأثره بطيبته ورقة قلبه؟ إن
الدمع يكاد يطفر من عينيه..
قالت له في حيرة وهي تتحسس ثوبها:
- من أنا ومن هؤلاء؟
قال في ضيق:
- أنت في رواية (الأبله).. ظننت هذا مفهوما..
- أقسم بالله إنني لم أعرف هذا إلا منك.. ومن أنا؟

- أنت (ناستاسيا فيليبوفنا) التي تدور القصة كلها حولها..
- هل تعني أنني (الأبله)؟
- لا.. أنت بلهاء ولست (أبله).. الأبله هو الأمير (موشكين) الواقف هناك..
وأشار إلى رجل ملتح يلبس ثيابا غير منسقة ولا تناسبه، وقد بدا عليه ارتباك واضح.. هذا رجل لا تناسبه هذه الحفلات كما هو واضح.
- القصة تدور حول (ناستاسيا فيلييوفنا) الطفلة. البريئة التي رباها من يدعي (توتسكى).. هل ترينه؟ إنه ذلك القصير الخبيث.. رباها كأنها أحد الطيور غالية الثمن.. والتي يصفها (دستويفسكى) بأن (جمالها لا يطاق).. وحين كبرت الفتاة قررت أن تنغص عليه عيشه وأن تفسد أي زواج قادم له.. والغريب أن شراستها هذه جعلته يهيم بها ويكتشف سحرا خاصا فيها لم يره من قبل
- إن (توتسكى) رجل أناني لا يحب إلا ذاته.. قذر كخنزير.. وقد بدأ برغم كل شيء يخاف (ناستاسيا فيلييوفنا).. إنها تكرهه بجنون ولا يوجد ما يردعها عن أي شيء.. بل هي يمكن أن تقتله بسهولة لقد شعرت بأنه أهانها أبلغ إهانة حين رباها كالكلاب منذ
كانت صغيرة لمجرد الاقتناء
هكذا يفكر (توتسكي) في أن يزوج (ناستايا فيليوفنا) على سبيل اتقاء شرها، ولكي يستطيع الفوز باحدي بنات الجنرال.. ويفكر في سكرتير الجنرال الوصولى (إيفولجين) الذي لا يريد شيئا في العالم سوى المال.. يمكنه أن يتزوج (ناستاسيا) ويحصل على بائنة
قدرها خمسة وسبعون من الروبلات.. طبعا لن يكون عمل هذا السكرتير إلا أن يسهل وصول الجنرال - رئيسة - إلى الحسناء التي ذاع صيتها..
هتفت في تقزز:
-يا للفظاعة! كل هذه القذارة في مكان واحد؟
- هذا ليس كل شيء.. هناك (روجويين).. التاجر الذي يريد الحصول على (ناستاسيا) زوجة بماله، كأنها سلعة في مزاد، بأن يعرض أكثر مما يعرضه (توتسكى).. ولسوف تلقى (ناستاسيا) بهذه النقود في النيران معربة عن احتقارها البالغ لهؤلاء الأوغاد ونقودهم القذرة.. الجمال لا يمكن انتهاكه.. وسيكون في هذا نهايتها.. إذ سيقتلها التاجر..
- وهناك الجنرال الذي يسعى للفوز ب.(ناستاسيا) ويسعى كى يزوج ابنته إلى (توتسكى) الثرى المرموق... أي إنه سيضرب عصفورين بحجر واحد..
-الأظرف من هذا أن القصة معروفة لكل من في الحفل، ولا أحد يحرك ساكنا
- أنت تثير اشمئزازى ..
-ومن قال إن قصة (الأبله) غير هذا؟ إنها تقول لك بكل وضوح: إن هذا العالم مكان قذر للغاية.. كل ما هو جميل محكوم عليه بالإعدام..
نظرت إلى الخارج وسألته:
- وما دور الأبله هنا؟
- إنه الأمير (ميشكين).. من أقارب الجنرال وفقير برغم اللقب الذي يحمله، ومصاب بالصرع كالعادة.. إن المصابين بالصرع عددهم كحبات الرمل في أدب (دستويفسكي).. شخص نقى تماما يتعامل مع كل هذه القذارة بعدم فهم وبراءة تامين بالمناسبة هو يحب (ناستاسيا) بشدة، لكنها لا تقبل حبه لأنه يوحي لها بأنه يشفق عليها.. إنه بالنسبة للآخرين أبله.. كل شخص غير شرير في هذا العالم لا بد أن.. يستحق لفظة (أبله).. عاجز عن الفعل لكن كل هذا السواد يثير ذهوله..

وفي النهاية تحطمه الصدمات إلى حد أنه يتحول إلى أبله أو مجنون فعلا.. وتعامله ببساطة وسلامة نية مع كل هذه الأحداث صار له رجع واضح في الأدب العالمي.. ولسوف تجدين رائحته في فيلمي (أن تكون هناك) و (فورست جامب).
- يقول (دستويفسكي) عن (ميشكين) إنه شخصية بالغة الصعوبة، وتوجد خيوط كثيرة تجمع ما بينه وبين الفارس الأحمق (دون كيشوت).. كلاهما ساذج.. كلاهما يصارع المستحيل.. إنه الشخصية التي لا تدرك كم فيها من روعة وجمال فطريين..
ثم حياها ودون كلمة أخرى وثب من الشرفة.. فقط استطاع أن يقول لها قبل أن يتوارى:
- وداعا.. وحاولي ألا تفسدي هذه القصة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نوبة صرع عنيفة دهمت (دستويفسكي) وهو يقامر.. سقط على الأرض وشج رأسه.. ودماء كثيرة أغرقت الأرض..
حين أفاق من غيبوبته راح يفتش كالمجنون عن أقرب كنيسة، ليتوب عن خطاياه الكثيرة..
الحقيقة أن من يعتقد أن (دستويفسكي) كان ملحدا لم يعرفه جيدا.. (دستويفسكى) خاطئ كبير لكنه كان يؤمن بأن الحل الوحيد لتعاسة الإنسان ليس على هذه الأرض وإنما في السماء..
الإنسان لا يستطيع أن يساعد نفسه، لأنه قد تورط أكثر من اللازم في. مستنقع الشرور والفقر، بحيث لم يعد يقدر على إنقاذه إلا إرادة إلهية. هذا يظهر أوضح ما يكون في روايته الأخيرة (الإخوة كارامازوف)..
كتب إلى زوجته الثانية يعدها بأنه لن يقرب القمار أبدا، وأنه لن يفكر بعد اليوم إلا في العمل.. وقد بر بوعده هذا
وحين عاد من أوروبا طارده الدائنون، وكانوا يستغلون جهله بالمعاملات المالية وسذاجته.. كأنه بطل رواية (الأبله) ذاته..
وهنا تولت زوجته التفاهم مع الدائنين، وجدولة ديونه - على حد تعبير الدول النامية - بل راحت تشتري له الورق، وتعدل مسوداته، وتتفق مع الناشرين..
الخلاصة أنها عملت كسكرتيرة ومدير أعمال ومحاسبة.. وكانت كفاءتها غير عادية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت (عبير) إلى الداخل عالمة أنها (ناستاسيا فيليبوفنا).. وهو دور لم يعد يروق لها كثيرا.. إنها تلعب دور الغزال وسط الذئاب، أو الرغيف الأخير على مأدبة اللئام.
كان الاشمئزاز قد بلغ بها منتهاه، وهى ترى هؤلاء المتأنقين المتظاهرين بالرقي وهم ليسوا أكثر من أكلة لحوم بشر.. كلا.. لا تستطيع أن تواصل أحداث الرواية معهم.. بعض الإيجابية.. بعض الإيجابية ستصلح كل شيء..

.. ورأت المشهد الذي استفزها جوار المدفأة.. كان التاجر (روجويين) يناول رزمة من المال ل. (توتسكى) الشرير الذي رباها منذ كانت طفلة.. الأول يبدو عليه الرضا بالصفقة والثاني يبدو عليه الفخر
في حزم اتجهت إلى الرجلين، ورفع كلاهما عينيه إليها باسما متوقعا أن تقول شيئا لطيفا، لكنها أمسكت برزمة المال و...

في ربع ثانية كانت الرزمة تحترق في المدفأة..
صاح الجميع في هلع، ووثب سكرتير الجنرال إلى النار محاولا أن يبقى شيئا من الروبلات الثمينة، التي تحولت إلى ذبابات نارية تتطاير في كل صوب..
- هل جننت يا (ناستاسيا فيليبوفنا)؟
- المجنون هو من يضيع لحظة واحدة من عمره معكم، ونظرت إلى الأمير (موشكين) - الأبله - الذي وقف يرقب كل هذا في حيرة، عاجزا عن قول أو عمل شئ؟ صاحت وهي تمد يدها له:
- تعال هنا!
ودون كلمة أخرى تأبطت ذراعه واقتادته – في نوع من الهرولة - إلى خارج القاعة التي سادها صمت رهيب، لا يقطعه إلا صوت روبلات تحترق، ورائحة الشياط المميزة لروبلات تحترق في الخارج كان الجليد والظلام.. والعربات ذات الخيول الفارغة تذرع الشوارع باحثة عن زبون..
اتجهت به عند منعطف حيث لا يراهما أولئك الذين بالتأكيد خرجوا بحثا عنهما..
قال لها:
- (ن.. ن.. ناستاسيا) يا ملاكى.. م.. ماذا فعلت؟ هذا سيجعل.. يجعل (توتسكي) يجن.. يجن ٠٠ إنه يتلعثم كذلك.. قالت وهي ترتجف من البرد وتسعل طبعا:
-فليذهبوا إلى الجحيم.. (روجويين) كذلك سيحاول قتلى.. الحقيقة هي أننا الوحيدان غير الملوثين وسط هؤلاء.. ومالم نجد بعضنا فلسوف نضيع..
ثم نظرت في عينيه وقالت:
- الخيار لك.. أنت عرضت حبك على مرة ورفضت.. اعتبرت هذه شفقة، والجمال الحق لا يحب الشفقة.. إنه يعتبرها إذلالا لا يقل سوءا عما فعله هؤلاء.. لكني كنت حمقاء.. على ألا أتخلى عن فرصة الحب الصادق حتى أقابلها أول مرة وسط هذا المستنقع
قال لها.. كلا لم يقل.. كانت الحيرة تغمره.. لم يتوقع هذا قط.. فقط أمسك بيدها وراح يرتجف بردا أو انفعالا أو ارتباكا..
- دعنا نرحل.. ولسوف نجد بداية ما..
- ليكن يا ملاكى ٠٠
هل ترى هذين الشبحين المذعورين يبتعدان في الشارع المظلم الذي يغمره الجليد؟ إنهما وحيدان خائفان في عالم قرر أن يكون شريرا كالأبالسة.. لكنهما معا وهذا ما يهم الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

الذين مستهم الشياطين

- لسان (شيشرون) يجب أن يقطع.. عينا (كوبرنيكوس) يجب أن تسملا.. (شكسبير) يجب أن يجلد حتى الموت..

فيرخوفنسكى الفوضوى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (دستويفسكي) منهمكا في كتابة (رسائل من بين الموتى)، لكن نوبات الصرع بدأت تهاجمه بشراسة غير مسبوقة.. وكانت كل نوبة تتركه وحيدا شاحبا فاقد النطق فاقد الذاكرة..
ازداد إرهاقه من العمل، فقرر أن يذهب إلى أوروبا للاستشفاء.. كل أطباء هذه الفترة لا يملكون ما ينصحون به مرضاهم سوى الذهاب إلى أوروبا للاستشفاء..
في باريس كتب (دستويفسكي) إلى أخيه:
- باريس مدينة مقبضة كريهة.. لولا ما فيها من آثار لمت غما..
بعدها زار لندن وسويسرا.. وفيما بعد وصف رحلاته هذه في كتاب اسمه: ملاحظات الشتاء حول ذكريات الصيف. وكانت خلاصة ملاحظاته هي أن أوروبا فقدت روحها. الغرب متقدم بحق لكنه خلا من الروح، وليس مما يفيد روسيا أن تقتدي به بأى شكل.. على روسيا أن تنظر في تراثها وتنهض لتتولى هي قيادة الغرب...
هذه الخطوات تذكرنا بنهضتنا الأدبية التي مر قرن ونيف عليها، ولما يستقر الجدل بعد: غرب أم شرق..
لكن (دستويفسكي) اختار طريقه للأبد: صقالبة ولا شيء سوى الصقالبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد فقدت الأمير في شوارع المدينة المتعرجة.. لم تعد تعرف أين ذهب ولا متى.. هذا متوقع على كل حال.. أليس أبله؟ بل من الوارد أن يكون أصيب بنوبة صرع عند منعطف ما ولم تدر هي..
رأت رجلا يمشي في تؤدة وقد دس يديه في جيب معطفه.. لم يكن هناك شيء غير طبيعي في الموضوع، وفجأة رأت عربة يجرها حصان تدخل ذات المنعطف.. يثب منها شاب يلبس عباءة سوداء، وقد أنزل على رأسه قبعة جعلت رؤية عينيه أمرا مستحيلا
رأته يركض نحو الرجل الأول.. يخرج مسدسا.. بذراع مفرودة يصوب إلى مؤخر رأسه.. يطلق بوم! رصاصة روسية جدا لها دوى لا يصدق.
ثم يثب الفتي في العربة التي تنطلق لا تلوى على شيء..
جثة في الشارع فوق الثلج، وبقعة دم على اللون الأبيض..
قبل أن تسأل عما يحدث كانت يد حازمة قد تأبطت
ذراعها لتبعدها عن هذه الضوضاء، وسمعت المرشد

بهمس من بين أسنانه:
- لا داعي للوقوف كثيرا أمام جثة.. فقط الحمقى يفعلون هذا، وبعدها تجدين أن المتهم الوحيد..
ثم أضاف وهو يجد السير مبتعدا:
- أهنئك على إفساد قصة الأبله..
قالت في استخفاف:
- أعتقد أن (دستويفسكى) قد كتب الكثير.. لا أحسب إفساد ثلاث أو أربع حبكات سوف...
- حقا هناك الكثير.. (نيتوشكا نزفانوفا).. (القرين).. (المساكين).. (الليالي البيضاء).. (رسائل من بيت الموتى).. (الزوج الأبدي).. (منلون مهاتون).. يوجد الكثير جدا.. إن الرجل لم يقض حياته في لعب الشطرنج أو طقطقة أصابع قدميه.. لكن طريقتك هذه قادرة على إفساد أية قصة. أريد منك المشاهدة ولم أطلب المشاركة التفاعلية..
وضغط على كلماته:
- لا.. مشاركة.. ت.. ف..ا..ع.. ل..
- سأحاول.. لكن ربما لو جعلتني أقل جمالا فلربما
- لا وقت لذلك وأكون شاكرا لو كففت عن التنفس بعمق في وجهي.. حتى المرشد قد يصاب بالدرن لو أنك أصررت على هذا..
ثم نظر في ساعته وقال:
- مل أحداث هذه القصة تستغرق ستين ساعة.. إن الفوضويين يجتاحون شوارع المدينة.. هذه قصة عن الفوضويين.. الثوري العدمي.. الثوري بلا قضية الذي - كما قال (دستويفسكى) - لا يوجد إلا في روسيا.. كان قد كتب هذه القصة بعدما زاره أخو زوجته.. وهو شاب روسى فر من الشرطة في موسكو.. كانت بين الرجلين مناقشات كثيرة بعدها كتب (دستويفسكي) قصته هذه..
- جميل.. وما هي قصته هذه؟
- (الملبوسون) أو (الممسوسون) أو (الذين ركبتهم الشياطين).. ظننت هذا واضحا..
- ومن هو الثوري العدمي؟ هل هو ابن عم (إبراهيم العدمى)؟
قال في غيظ:
- لو أنك كففت لحظة عن (دعابات البوابين) هذه أخبرتك أن الثوري العدمي أو الفوضوي هو من يرغب في التحطيم فحسب.. هو لا يطالب بشيء ولا يحلم بنظام معين.. إنه يبغى هدم السلطة لكنه لا يملك تصورا لما بعدها..[1]
ثم أردف في هدوء:
- هذه الشخصية العبثية راقت جدا ل. (ألبير كامى) فيلسوف العبثية.. وقد كتب لنفس القصة معالجة مسرحية شهيرة..
ثم هز رأسه راغبا في الرحيل لكنها استوقفته في هلع:
- لحظة.. ما دوري أنا في هذا كله؟
- اصعدي في هذا السلم لتصلي إلى الاجتماع.. هلمي لقد تأخرت!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بالله عليك كيف أكتب وأنا في حالة جوع مزمن؟ لقد اضطررت إلى رهن سروالي.. الجوع هو رفيقي الدائم.. أما زوجتي فهي ترعى رضيعها ثم تضطر إلى الخروج كي ترهن معطفها الوحيد.. لو

أدركت ما أعانيه لعرفت أنه من المستحيل أن أستمر في الكتابة في ظروف كهذه..
دستويفسكى يكتب لصديق له

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجميل في المرشد أنه يبالغ في التفاصيل.. هذا يجعل الحياة مبهجة
.. صعدت في الدرج مترددة لا تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل.. كان درجا عتيقا باليا ذكرها بذلك الذي صعدته في (الجريمة والعقاب)..
كانت هناك شقة شكلها مريب.. وعرفت بسهولة أن هذا هو المكان المختار
تدنو من النافذة كى تقرع الزجاج بضع مرات.. تنفتح الشراعة عن وجه غليظ القسمات يتأملها في شك.. ثم يسألها في حذر:
- كلمة السر
- لم أعرف أن هناك كلمة سر..
- هذا صحيح.. ادخلى ..
كما هي العادة معها تكون كلمة السر دائما هي (لم أعرف أن هناك كلمة سر).. وتدخل (عبير) إلى قاعة تضيئها الشموع.. لكن أشد ما أثار هلعها هو أن الجدار كان مزدانا بالسلاح.. مسدسات صغيرة وأخرى متوسطة وأخرى ضخمة.. كما كانت كل لوازم صنع المفرقعات، وقد وضعت على منضدة القنابل اليدوية..
وحولها رأت عددا من الشباب المتحمس.. شباب يبدو مثقفا متعلما لكن الشراسة تطل من العيون مع كثير من الشك.. في الوسط يقف شاب فارع القامة مهيب لكنه مخيف، يلبس عباءة سوداء طويلة وفي عينيه نظرة شريرة لا بأس بها أبدا.. هذا هو الزعيم كما هو واضح..
قال لزميله وهو يتأملها في فضول:
- من هذه يا (فيرخونسكى)؟
قال الشاب القصير الذي يبدو ضعيف الشخصية في كل إيماءة من إيماءاته:
- عضو من الجماعة ولا شك يا (ستافروجين) ما دامت تعرف كلمة السر
وجدت أنها مكلفة بالإيضاح، فقالت في تهذيب:
- أنا (أولجا ناتاليوفا).. مدرسة من موسكو..
بدا الاشمئزاز على وجهه:
- لا جدوى من التدريس.. نحن هنا كي نهدم المجتمع.. كى ننسفه نسفا.. كى نعلمه أنه لا جدوى من التعليم..
قالت في كياسة وقد أدركت أن هذا هو سبيلها الوحيد للنجاة:
- لهذا جئت يا سيدى كى أعرف أكثر.. تم قبولها بسهولة ما كانت لتحدث لولا أن هذه (فانتازيا).. وأن هذه هي الطريقة الوحيدة كى تجلس معهم وتسمع لهم..
قال (فيرخونسكى):
- أحسنت إذ جئت هنا.. إن (ستافروجين) هو الشمس والنور.. هو الحق.. وهؤلاء الأغنام في.. الخارج يحتاجون إلى وثن يمشون خلفه ولا يفكرون..
أثار دهشتها هذا التأليه المبالغ فيه لشخص (ستافروجين).. إن من يقدس شخصا بهذه الطريقة لا يصعب أن يفعل أي شيء يطلب منه..
لكن ما هي مؤهلات الأخ (ستافروجين) إذن؟

- النار!
قالها (ستافروجين) وهو يفتح ذراعيه إلى أقصى امتداد لهما حتى يبدو مرعبا كأنه مصاص دماء في عالم أفلام (هامر).. ثم اتجه إلى النافذة ففتحها
لم يكن هناك ظلام في الخارج.. كانت النيران تتوهج إلى عنان السماء.. ومن النافذة تسلل ذلك اللون البرتقالي الرقراق الذي يشي بأن حريقا هائلا يدور.. صوت الصراخ وعربات الإطفاء ذات الأجراس، والتي تجرها الخيول..
صوت يصيح من الخارج:
- النار ليست فى أسقف البيوت، ولكن في عقول الناس!
ابتسم (ستافروجين) في ثقة وقال:
- هذه آثارنا تشهد علينا.. هذا الفيلسوف هو الحاكم (ليمبك) الذي هاله ما جرى لحي كامل احترق عن بكرة أبيه
كان (ستافروجين) هو الفوضوي الوغد الذي يتحكم في هذه الخلية من الشباب.. وما لا يعرفه الكثيرون أن الخيانة والقذارة طبيعتان فيه.. إنه يتعامل مع الشرطة كذلك لا لغرض إلا لكي يستمتع بمشاعر الخائن بالإضافة لمشاعر المتآمر.. وهو وعصابته لا يقاتلون من أجل مذهب معين أو فلسفة ما، ولكن من أجل القتل والتدمير وسماع الصراخ.. لا شيء عدا هذا.. وفيما بعد سيتهم الشيوعيون (دستويفسكي) بأنه رجعى، لأنه لا يوجد ثورى نظيف واحد في هذه الرواية كلهم فوضويون عدميون يستحقون أن تقطع رقابهم..

كانت العصابة تتكون من بضعة وجوه، لكن أهم الأفراد كانوا (كريلوف) و (شاتوف) و (بيوتر فيرخونسكى).. (فيرخونسكى) الذي قال لها في حماسية وعيناه تلمعان بوهج النار:
- البشر يتكونون من السادة والعامة.. عشر المجتمع يجب أن يحظى بحقوق غير محدودة، والتسعة أعشار يجب أن يتحولوا إلى قطيع.. وبالتدريج يكسبون براءة بدائية
إن (فيرخونسكى) اعتبر نفسه كاهنا.. كاهنا لوثن واحد اسمه (ستافروجين).. والحقيقة أن القصة تتحدث عن سقوط هذا الوثن وهربه، بينما الكوارث كلها تحل بجماعته.. موت: انتحار.. جنون..
وقف الرجال يتكلمون في ركن.. ويبدو أنهم كانوا يرتبون عمليتهم القادمة..
ونظرت (عبير) إلى أرجاء المكان في فضول
كانت هناك عدة أجولة مليئة بمساحيق ما.. جوال واحد رأت مكتوبا عليه بخط واضح وبالإنجليزية (بارود).. هذا مستورد من أوروبا بالتأكيد.. الجوال أو المسحوق..
كان مثقوبا وكان هناك خيط من المسحوق ينساب على الأرض واهيا خفيفا حتى يقترب من القلب.. لم تفكر مرتين..
كان الجواب واضحا.. ولم تحتج إلى مبرر أخلاقي له.. مدت يدها إلى شمعة كانت هنالك، وتحركت نحو الباب ببطء.. ببطء.. فتحته وهي تأمل ألا يكون ذا صرير، ثم أسقطت الشمعة فوق خيط المسحوق
توهج اللهب للحظة ثم اشتعل خيط المسحوق كله
وفي اللحظة التالية وثبت خارجة من الباب، وأغلقته وراءها، وسمعت من يقول في جهامة:
- ما هذا؟ من الذي؟
كان تركض فوق درجات السلم متعثرة.. السعال يخنقها.. لكنها تجاهد كي تغادر المبنى البغيض قبل أن

بووووووم؟
كان الانفجار كأنما ألف بركان انفجر في اللحظة.. ذاتها.. وارتجت البناية من فوقها.. لكنها كانت في العراء الآن.. لقد أبادت عصابة الفوضويين، وإنها الفخور بهذا برغم أنه لم تتعرف عالمهم بما يكفي.. لكن - كما قلنا من قبل - لا داعي لالتهام البيضة كاملة كى تعرف أنها فاسدة.
تنظر لترى المبنى والنار والدخان يتصاعدان منه.. حين كانت من قليل.. حيث كانت كل الأفكار المريضة المخبولة
لكن الجهد أرهقها بحق..
كان صدرها الآن يئز كمرجل، وراحت تسعل وتسعل..
هذه المرة كان سعالها أقوى وأسرع من منديلها وقد بدأ الدم يغطي صدر ثوبها، وبدأت تشعر بذعر حقيقى، ومن فمها خرجت كلمات مخنوقة:
- تبا لك أيها المرش.. المرشد!
ثم أظلمت الدنيا من حولها..
كان المرشد على حق..
إن الدرن يكسب دائما!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع

عبقرى

كانت حية..
بالتأكيد هي حية..
راقدة على أريكة أنيقة في حجرة يغطى ورق الحائط جدرانها.. وكانت هناك مصابيح زيتية مثبتة إلى الجدران، وثمة دفاع جميل لا تدري مصدره..
رفعت عينيها فرأت مكتبا.. مكتبا عاديا لا يميزه شيء إلا أنه عتيق الطراز بحق.. عليه جبل من الأوراق والمجلدات.. ومن بين الكتب ترى وجها مخيفا ملتحيا صارم النظرات يرمقها في اهتمام وسط لحية شعثاء..
لم تكن تذكر وجه (دستويفسكي) جيدا.. لكنها عرفت على الفور أنه ذلك الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهضت وسوت ثيابها في توتر.. لم تشعر براحة النظرات الرجل الثاقبة، وهي نظرات من الطراز الشبيه بكشافات الاستجواب التي يستنطقون بها المجرمين..
قال لها بصوت متعب:
- أنت بخير.. كدت تفقدين حياتك من النزف كان عليك الرحيل إلى بلاد دفيئة.. ربما إيطاليا..
- هل أشكرك على إنقاذي؟
- ربما..
سألته وهي تصلح من خصلات شعرها:
- أنت.. أنت (دستويفسكي)؟
- (فيودور ميخائيلوفيتش دستويفسكي).. أنا هو..
الآن بدأت تتذكر ذلك الوجه الذي كانت تراه على الغلاف الخلفي لكتب (دار الهلال)، أو باطن الغلاف لكتب دار (رادوجا) السوفييتية..
تبدو مخيفا أكثر من صورك..
- لا تنسى أنني في الستين، ولم تكن حياتي سهلة على الإطلاق.. ثم إن أحدا لم يتهمني بجمال الصورة قط..
ثم بدأ يتفحص بعض الأوراق على مكتبه وغمغم:
- كما أرى أنت أفسدت بعضا من أفضل رواياتي.. لقد تدخلت بشدة ووحشية في قصصي، وفي اللحظات الحاسمة فقط كى تهدمي أساس القصة من البداية
ثم نهض فصب شرابا ما من زجاجة مضلعة أنيقة، ولوح لها بكاس فهزت رأسها نفيا.. قال وهو يطوح بالسائل في جوفه:
- هذه فودكا.. ليكن.. كنت أعرف أنك لا تمسين هذه الأشياء..
ثم أردف وهو يعود إلى المكتب:
- لماذا تعمدت أن تقتلي قصصي؟
- لم أتعمد شيئا.. كان أبطالك في أسوأ حال.. أنت لا ترحمهم أبدا.. وكان من العسير ألا يتدخل

المرء..
ثم سألته وقد قررت أن تلعب الدور الرقيق الذي أرادها (تشيكوف) أن تلعبه:
- ما سر الاكتئاب الذي خيم على حياتك؟
حك لحيته الكثة في تفكير.. إن اللحية مهمة جدا للتأمل، وكان الأديب (محمد عفيفي) يتمنى لو أوتى الشجاعة الكافية ليملك لحية كهذه، فلا شك – والكلام له - أنها كانت ستلهمه يوما ما وهو يعبث فيها في تأمل فلسفي رواية في أهمية (الحرب والسلام)!
قال بعد تفكير:
- ربما لأنني لم أجرب الحب قط.. كانت مهنتي مهنة صعبة خشنة لا تختلف عن مهنة سائق القطار أو منظف المداخن.. كنت أتعامل مع القبح البشرى والضعف البشرى.. لكني لم أر قط الجانب الجميل.. من الحياة.. رؤية الجمال كانت تلهمني بالموت.. وأعترف أنني لم أر قط الحب في عين امرأة.
- لكنك تركت لنا ما يعيننا على فهم أنفسنا..
-. لهذا أنا أشبه سائق القطار الذي لا ينعم بحياته لكنه يجعل حياة الآخرين أفضل.. هل تعرفين أنني رحت أراجع ما حدث لأبطالي على يديك؟ (راسكولينكوف) وجد السعادة الحقيقية وفر من ارتكاب القتل (ديمتري كارامازوف) لم يتورط في مقتل أبيه المقامر أنقذ نفسه من التردي في بئر القمار التي لا قاع لها.. الأمير (موشكين) عرف الحب مع (ناستاسيا).. حتى (ستافروجين) هلك قبل أن يؤذي الناس أكثر مع عصابته.. إن ما قدمته لهؤلاء لا يمت للأدب بصلة لكنه يمت للسعادة..
كانت تنظر له محاولة فهم ما يرمي إليه، وكانت تقول لنفسها إنها ستعاني كثيرا جدا حتى تقنع نفسها أنها تحبه.. ليس من السهل أن تحب (دستويفسكي).. هذا رجل خلق للانبهار به لا لحبه.. إنه جبل (الهيمالايا) أو (معبد الكرنك) أو سور الصين العظيم إنه مخ عملاق محفوظ في متحف للطب في إناء زجاجي شفاف.. يمكنك دائما أن تنبهر به، لكن من العسير عليك بحق أن تحبه بالمعنى المألوف للحب
تعس حقا ذلك الرجل
قال لها (دستويفسكي) مواصلا شرح أفكاره:
- الحقيقة أنه من العسير على أن أعترف ربما كان من الأفضل لى أن أكون مجرد رجل بسيط سعيد بلا عقل.. كان هذا سيريحني ويسعدني.. أنا مجرد شخص فشل في أن يكون سعيدا، وقد تحولت تعاسته وتعاسة روسيا إلى قصص يحب الناس أن رعوها، ويهتفون: أية عبقرية هذه! لكن أين.. حياتي أنا؟
ثم بدأت ذراعه ترتجف.. ترتجف ببطء ثم بعنف أكثر فأكثر.. والتوى فمه.. ورأته (عبير) يشير إلى قارورة هناك على مكتبه.. ثم سقط من على. مقعده والزبد يسيل من فمه.. إنها نوبة صرعية عظيمة جدا ويمكن أن تدرس في كليات الطب..
هرعت تفتح القارورة وهي تسبه في سرها.. ما كانت بحاجة إلى كل هذا الرعب..
سكبت منها بضع قطرات في فمه.. لم تكن متأكدة من عد القطرات، ولا ما إذا كانت تصب في الأنف أو الفم.. لكنها قدرت أن خمس قطرات عدد محايد معقول.
مرت لحظات ثم بدأ يثوب إلى رشده..
غارقا في العرق منها يرتجف.. ساعدته على الجلوس فجلس على المكتب وهو يسند رأسه بكفيه قال لها:

- هل.. ترين؟ كل أنثي عرفتها.. كانت تصاب بالهلع.. هلع. هلع.. حين.. حين.. ترى هذا المشهد..
- لا ألومهن على كل حال.. ليس أجمل منظر في العالم.. لو أخذت برأيي أرى أن مستشفى (عين شمس التخصص.....
-أنت طاهرة الذيل جميلة كخواطر الأطفال وقد تمكنت من تحرير أبطالى من تعاسة دائمة.. فهل تقدرين على هذا معي؟
نظرت في رعب.. هو الذي يبدأ الآن
وماذا لو قبلت؟ هل تصير مدام (دستويفسكى)؟
من دون إنذار هوى على ركبتيه أمامها – يبدو أنها عادة كما قلنا وأمسك بيدها وهتف:
- إنني أنحني أمامك وكأنني أنحنى لعذابات البشر ومعاناتهم.. أنت الوحيدة القادرة على أن تمنح السعادة لهذا العمر المثقل من الشقاء.. أنت..
بعد دقائق عاد يقول لها:
- يا أستاذ (فيودور ميخائيلوفيتش دستويفسكى). يمكننا أن نتفاهم.. لو أنك فقط نهضت و..
- أنت قادرة على أن تلهمي الحب مثل فينوس) ذاتها.. أنت
وفي اللحظة التالية أطلقت (عبير) صرخة عاتية..
لقد كان الدم يسيل من فمه كالنهر.. تراجعت إلى الوراء غير فاهمة.. ما هذا؟ هل كان مريضا بالدرن هو الآخر؟؟ لم تقرأ هذا قط..
صرخت في توتر وهى تثب إلى الوراء:
- الغوث! هل من غوث؟
هنا اصطدمت بمن يقف وراءها فأجفلت كان هذا هو المرشد الذي قال في جدية وهو يتأمل المشهد:
- لا جدوى.. هكذا مات (دستويفسكي) في الحقيقة في ٢٧ يناير عام ١٨٨١.. لقد سقط منه القلم فانحني ليحضره، لكن شريانا رئيسيا في رئته انفجر ..
صاحت وهي تكتم دموعها:
- لا يا للفظاعة.. لا بد من شيء يمكن عمله...
- لا شيء يمكن عمله.. لقد انتهى أديب روسيا الأعظم.. لا بد أن السبب هو الانفعال الذي عاناه.. لكن لا عليك.. لقد مات وفي نفسه شيء من الأمل.. يمكن القول إن مجيئك لم يكن غير ذي جدوى..
ثم تأبط ذراعها ليخرجا من الغرفة الكئيبة
وفي الخارج كان قطار (فانتازيا) يتأهب للرحيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إن مكان (دستويفسكى) في سلم الأدب العالمى يلى (شكسبير) مباشرة.. وفي رأيي أن (الأخوة كارامازوف) أروع رواية كتبت في التاريخ..

سيجموند فرويد رائد التحليل النفسي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تقابل (عبير) رجل المخابرات الأشهر، الذي خلب عقول الشباب القارئ

للعربية.. هذا الرجل يدعى (أدهم صبري).. ربما كان الاسم مألوفا لكم، وهذا يعني أنها مغامرة فريدة بالتأكيد!!

(تمت بحمد الله)

عبقري!

هذه القصة - كما فهم سريعو الملاحظة - تتحدث عن عبقرى.. والعباقرة موجودون في كل مكان هذه الأيام.. إنك تجدهم وراء كل باب وعند كل منعطف وتحت كل حجر وفى كل موقد.. لكن العبقري الذي نتحدث عنه اليوم عبقري من الطراز القديم.. عبقرى حقيقى.. عبقرى اختلط في روحه الألم والعذاب والصرع والجنون والشك.. لابد أنكم خمنتم أننا نتكلم عن (دستويفسكى.)

د. أحمد خالد توفيق



لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

ثمة رواية ممتازة لـ (تشسترتون) عن مذهب الفوضوية اسمها (الرجل الذي كان الخميس)، وقد قدمناها في روايات عالمية للجيب رقم.(40)

روايات مصرية للجيب

31

فانتازيا

اسمه أدهم

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة ف‍انت‍ـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (31)

اسمه أدهـم

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر خالص للدكتور نبيل فاروق)، الذي سمح لى باستعارة (أدهم صبري) من أجل هذا الكتيب. كما أنه رفض بشدة أن يطالع القصة قبل طباعتها كما اقترحت أنا، لأنه يمقت ممارسة دور الرقيب..
أعرف أنه سيتحملني بصبره المعهود، لأنه لولا أهمية (أدهم صبري) ونجاحه ما ولد هذا العمل، وليت العجوز (رفعت إسماعيل) يبلغ درجة الأهمية التي تتيح له استحقاق كتيب مماثل!
وشكر آخر للصديقة الكريمة (إيمان زكريا) التي أعدت لى دراسة مرهقة عن عالم (أدهم صبري) المتشابك، الذي كنت أحتاج إلى سنوات كي أعرف تفاصيله كما يعرفها قراء (رجل المستحيل) المخضرمون.
فلولا هذا الجهد منها لما كان بوسعي تقديم هذا الكتيب، ولربما أطمع في أن تعد دراسة عن (ملف المستقبل) يوما ما!

1- اسمه أدهـم..

هذه المرة لم تغادر (عبير) عالم (فانتازيا)..
لا تدري لذلك سببا، لكن القطار تأرجح بها مسافة صغيرة.. ربما لمدة عشر دقائق، ثم وجدت نفسها أمام مدينة عملاقة تحيط بها الأسوار، وهناك الكثير من الصخب ينبعث منها..
كانت هناك طائرة هليكوبتر ترتفع فوق الأسوار، وهي تحمل - بالمعنى الحرفي للكلمة - رجلا وسيما يتعلق بعجلاتها، ويطلق الرصاص من مسدسه على مجموعة من العملاء يعتلون السور..
كيف عرفت أنهم عملاء؟ هذا سهل.. العملاء يسهل تمييزهم..
ثم وثب من فوق السور فارس أندلسي قوي البنيان يمتطي حصانا عربيا أبيض، وانقض على مجموعة من جنود الفرنجة يحتشدون في الخارج.. وفوق السور وقف مجموعة من رجال الشرطة العلمية يطلقون بنادق الليزر.. وغير هذا كثير..
قالت للمرشد في انبهار:
- أين أنا يا مرشد؟
قال وهو ينظر خارج النافذة:
- هذا عالم د. (نبيل فاروق) طبعا.. لقد أبدع مئات الأفكار، حتى صار علينا أن نحيط أعماله بسور خاص.. الحقيقة أن أعماله من الأمثلة النادرة لأدب المغامرة المكتوب بالعربية أصلا.. إنه قد كتب أكثر من خمسمائة عنوان، وكتب في كل الموضوعات تقريبا.. وعلى كتاباته تربت عدة أجيال من قارئي العربية وشكلت وجدانهم.. الحقيقة أنه شديد الأهمية إلى حد لا يوصف.. (دستويفسكي) نفسه لم يؤثر في كل هذا العدد من القراء، خاصة في سن الشباب حيث التكوين الأول للطين اللين.. والملاحظة الصادقة هى أن كل شاب يجرب الكتابة يبدأ بتقليد أسلوب د. (نبيل فاروق) المميز.. المميز جدا..
قالت له في حماسة:
- أوقف القطار.. أوقفه!
فشد الحبل وانتظرت (عبير) حتى كف صرير العجلات، ثم عادت تسأل:
- هل لو دخلت هنا أرى كل قصصه في مغامرة واحدة؟
ابتسم في تهكم:
- مستحيل طبعا.. لا بد من عشر مغامرات على الأقل حتى تزعمي أنك رأيت الكثير.. فقط الكثير.. يمكنكِ على كل حال أن تبدئي بعالم (رجل المستحيل).. إنه يضمن لك مغامرة مسلية.. وهو النموذج الرائد الوحيد لأدب الجاسوسية في العربية، لو استثنينا أعمالا معدودة للمرحوم (صالح مرسي).. وعلى كل حال هناك كثيرون يقلدون رجل المستحيل الآن.. دعك ممن يسرقونه بالكامل ويكتفون بكتابة أسمائهم على الغلاف..
قالت في ذكاء:
- إنه (جيمس بوند) العربي..
تقلص وجهه في ضيق وغمغم:
- هذا يدل على أنكِ تتمتعين بعقل دجاجة كعهدي بكِ.. إن (أدهم صبري) شخصية متدينة تعيش بالمثل العليا.. إنه من يتمنى كل منا أن يكونه لكنه لا يستطيع.. أما (جيمس بوند) فهو خنزير شهواني.. وهو يلعب على وتر أن كثيرا من الناس يحملون ذات الشيطان في أعماقهم

لكنهم لا يجسرون على أن يكونوه.. فارق كبير بين من نتمنى أن نكونه، وبين من لا نجسر على أن نكونه.. دعك من أن (أدهم) يداعب الحلم العربي، بينما (جيمس بوند) يداعب الغرور البريطاني.. ورأيي أنه لو ظفر (أدهم صبري) بمنتج ثقيل لا يبخل بشيء من طراز (بروكولي) لكانت أفلامه رائعة..
ثم أضاف:
- الشيء الممتع في الموضوع هو أنني لن أحكى لكِ نبذتي الشهيرة عن المؤلف وقصة حياته، لأنكِ تعرفين هذا عن ظهر قلب.. كل القراء يعرفونها.. ستبدئين المغامرة على الفور..
قالت وهي تتنهد في ارتياح:
- أخيرا.. تمنيت أن تريحني من المحاضرة الأدبية التي تلقيها عليّ في كل مرة..
- هذا لأن الدرس محفوظ لك في هذه المرة.. وعلى كل حال أنا أعتبر هذه المحاضرة أهم ما تقدمه لك (فانتازيا) يا رأس الدجاجة..
وساعدها على الترجل من القطار..
ومشيا نحو الأسوار..
قالت له وهي تلهث محاولة اللحاق بخطواته:
- لحظة.. من سأكون أنا هذه المرة؟ لا أريد أن أكون (سونيا جراهام)..
قال دون أن ينظر للوراء أو يبطئ من خطواته:
- ستعرفين حالا.. المهم أنك ستكونين فتاة مخابرات بارعة الجمال..
- لقد مللت أن أكون جميلة في كل قصة.. دائما أنا الجمال يمشي على قدمين..
قال في خبث:
- أنتِ تأتين إلى (فانتازيا) من أجل تغيير الواقع.. أليس كذلك؟!
ترى ماذا يقصد بهذه العبارة غير المفهومة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتجهت ([1])نحو السور ([2]) وهي تجر قدميها ([3]) بينما المرشد يمشي ([4]) خلفها، وهو مازال يحكي ([5]) لها أهمية (أدهم صبري) ([6])، الذي صار حلم كل شاب، وفتى أحلام كل فتاة في المنطقة العربية ([7])
هنا توقفت (عبير) وصاحت في المرشد:
- ماذا هناك يا مرشد؟
عقد حاجبيه وسألها:
- هل هناك شيء؟
- ما كل هذه الهوامش أسفل الصفحة؟
عقد حاجبيه وقال في كبرياء:
- هذا يذكر القراء بالكتيبات السابقة.. ظننت هذا مفهوما..
- وهل يضايقك أن نتوقف عنها قليلا ما دمنا نتكلم بلا رسميات؟
عقد حاجبيه وقال بنفس الكبرياء:
- هذه ليست الطريقة المثلى.. لكن.. ليكن لن نضع هوامش ثانية إلا الضروري منها..
- شكرا..
عقد حاجبيه وقال:

- عفوا..
- السؤال الآخر هو لماذا تعقد حاجبيك مع كل جملة؟
عقد حاجبيه وقال:
- نحن قد صرنا الآن في عالم روائي يعقد كل شخص فيه حاجبيه أو يتلاقيان أربع مرات في كل صفحة.. إنها عادة خاصة..
- خاصة جدا..
قالت له في حيرة:
- ولماذا تكرر آخر كلمتين من آخر جملة؟
عقد حاجبيه وهتف في غيظ:
- اسمعي يا فتاة! إما أن تقبلي قواعدنا هنا أو ترحلي.. هل تريدين أن تجربي قصة (أدهم صبري) أم لا؟
- أريد طبعا.. أنا آسفة..

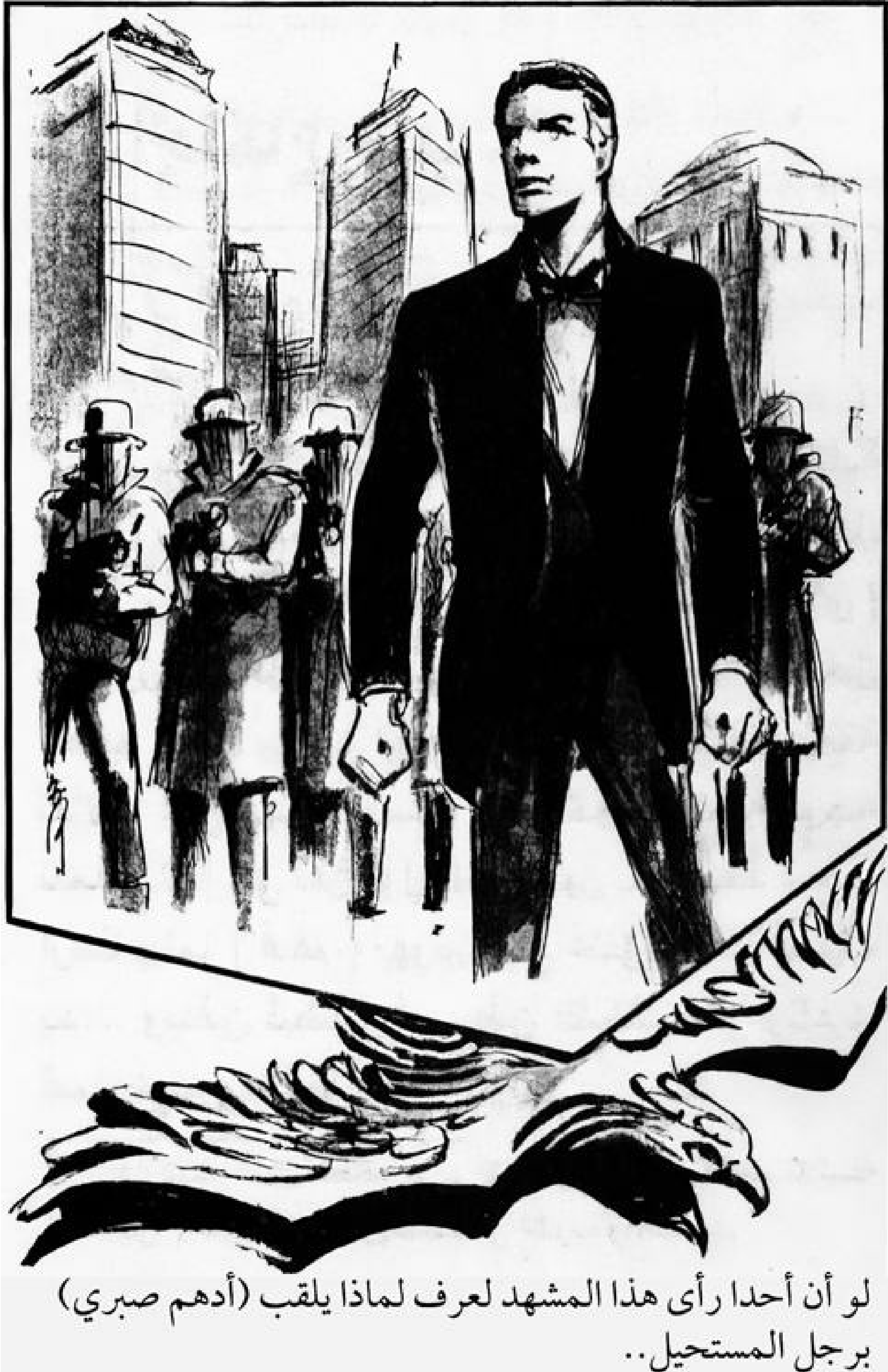
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقد حاجبيه وقال وهو يتهيأ للانصراف:
- هناك نقطة مهمة يجب أن تعرفيها.. لن تظل هذه الأحداث كلها من وجهة نظركِ أنتِ، لأنها متشعبة معقدة متباينة الزمان والمكان.. لكنكِ على الأقل ستعرفين ما حدث وما يحدث.. أي أن دورك هنا خليط من دور الشخص الثالث ودور الراوي العالِم بكل شيء..
- لسوف تبدئين الآن.. وستكون مغامرة خطيرة..
خطيرة جدا..
وهكذا وجدت (عبير) نفسها وحيدة..
وحيدة جدا..
وحيدة تماما..
تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- اجتماع رهيب..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..



لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..

كان يقف هناك جوار حافة الماء ([8])، بينما القتلة العشرة يجرون نحوه ملوحين بمديهم وسيوفهم.. كل من يرى المشهد يمكنه أن يعرف أن (أدهم صبري) سيتحول إلى عجين أو لحم

مفروم، لكن رجل المستحيل العظيم احتفظ بهامته الشامخة، وابتسم ابتسامة واثقة تلألأت على وجهه الوسيم، ثم كور قبضته ووجه لكمة عاتية إلى ذقن أول المهاجمين.. سقط الرجل أرضا بينما (أدهم) يهوي على عنق الآخر بسيف يد.. ويدفن قبضته في بطن الثالث، ثم ارتفعت قدماه ليضرب بهما اثنين آخرين...
وهذه من معجزات (أدهم صبري) الشهيرة.. إنه يستطيع أن يقاتل بينما أطرافه الأربعة كلها في الهواء فهو لا يحتاج إلى نقطة ارتكاز.. وسرعان ما سقط القتلة العشرة والدم ينزف من كل فتحة في وجوههم الطبيعية منها وتلك التي تكونت من أثر الضربات..
أخيرا بدأت علامات الخدوش تظهر على الشاشة معلنة انتهاء الشريط ([9])، وبالفعل فرغ الشريط فلم تبق إلا شاشة مضيئة.. لكن أحدا من الجالسين لم يجد في نفسه القوة كي بنهض ويغلق آلة العرض.. فلم يعد من صوت إلا طرف البكرة وهو يضرب شباك العرض مرارا وتكرارا..
كانت هناك أصوات بكاء مخنوق.. كان هناك من يحاول التظاهر بأنه لم يبك تأثرا لكن صوته فضحه.. في النهاية، ولما كانت هذه من المرات القليلة التي لا يجد نفسه مخطوفا فيها، فقد تكلم (قدري) بصوت مختنق.. قال وهو يعقد حاجبيه:
- يجب أن نقبل الحقيقة هذه المرة يا رفاق لقد مات (أدهم)!
هنا وجدت (عبير) نفسها - التي لم تدر من هي أصلا - تصيح وهي تنهض:
- مستحيل! (أدهم) لا يموت بهذه السهولة!
قالت لها (جيهان) وهي تعبث بمقعدها المتحرك:
- كلنا نموت يوما ما يا (مني)..
إذن هي (منى توفيق).. جميل.. هذا معقول ويناسب شخصيتها إلى حد ما.. إن دور (مني) على الأرجح لا يتجاوز أن تُخطف لتكون وسيلة ضغط، أو تجلب المتاعب على رأس (أدهم).. هذا كما ترون يتواءم مع شخصية (عبير) إلى حد كبير..
نظرت (عبير) إلى قدري وسألته:
- هل يمكن أن تحكي القصة من جديد؟
التهم آخر قطعة في الشطيرة ([10]) التي كانت معه وعقد حاجبيه وقال:
- كان المشهد مريعا..
مفزعا..
بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان شعار المؤتمر هو (يا جاسوسي العالم.. اتحدوا)..
وكان يقام في إحدى العواصم الأوروبية التي لن نذكر اسمها هنا كي لا يقاضونا، لكن عدسات التلفزيون كانت هنالك.. وكان من المعروف لكل فرد أن هذا المؤتمر يضم أخطر جواسيس الأرض، لكن القاعدة الغربية هي: إنهم يقولون.. ماذا يقولون؟ دعهم يقولون..، وقاعدة أخرى هي: دعه يعمل.. دعه يمر، وقاعدة ثالثة تقول: عش ودع غيرك يعيش.. وقاعدة رابعة....
دعنا من هذا كله، ولنر ما يحدث في مدخل هذا المؤتمر..
كان الناس يقفون ممسكين بعلب البوب كورن وعلب المشروبات الغازية، وهم يحملون اللافتات التي ترحب بالجواسيس، وراحوا يتدافعون كأنهم أمام أحد العروض الأولى لفيلم سينمائي، حيث ينتظر الناس بالساعات كي يروا النجوم..

في البدء جاء رجال منظمة العقرب Scorpion بثيابهم المميزة التي تحمل شعار العقرب الذهبي الصغير على العروة، وسياراتهم التي طبع عليها ملصق العقرب (*).. ولقد تصايح الناس وهم يرونهم ينزلون من السيارات: ما هذا؟ ألم تنسف جزيرتهم بالكامل (**)؟
لكن الحقيقة كما يعرفها الناس أن هؤلاء القوم لا يموتون أبدا.. فقط هم يعطون انطباع أنهم ماتوا، لكنهم يظهرون دائما حيث وحين لا ينبغي أن يظهروا...
(*) راجع قصة (أرض الأهوال) المغامرة رقم 13
(**) راجع قصة (جزيرة الجحيم) المغامرة رقم 84

سيارة سوداء مرعبة كأنها سيارة الشيطان لو كان يركب سيارات تقدمت بسرعة لتدهس ثلاثة من المشاة فصاح الواقفون فرحا وانبهارا.. ثم انفتح الباب لتخرج منه امرأة جميلة.. جميلة؟ لا.. إن الحروف لا يمكن أن تصف هذا المعنى الجديد..
هناك الجمال، وهناك ما هو أجمل من الجمال ذاته بمراحل.. خرجت من السيارة وخرج وراءها فتى في مقتبل العمر، قالت له وهي تساعده:
- هلم يا (سولومون) يا حبيبي ..
ثم طوحت بالفراء الثمين الذي تحمله إلى كتفها، ورأى الناس في يدها مدفع (عوزي) صغيرا..
انحنت لتحدث من يقود السيارة.. قالت له بصوت بارد وضحكة تشبه ضحكة أفعي لو كانت الأفاعي تضحك:
- الآن أنت تعرف سر مجيئي إلى هنا، وتعرف أن السر إذا عرفه اثنان لم يعد سرا..
ثم دست فوهة المدفع في النافذة وأفرغت بضع طلقات..
الآن كان الدخان يتصاعد من النافذة بكثافة.. فتأبطت يد الفتى الصغير، وأعادت إخفاء سلاحها تحت الفراء الثمين، واجتازت جموع الناس المتحمسة وهي تبتسم برقة..
قال قائل إنها (سونيا).. (سونيا جراهام) عدو (أدهم) اللدود، فرد عليه آخرون بأنه أحمق..
(سونيا) ماتت وشبعت موتا([11]) .
قال القائل:
- وهل يموت أحد في عالم الجواسيس؟ حقا لم يستطع أحد أن يجيب..
سيارة أخرى من السيارات الرهيبة هذه المرة تحمل علامة المنجل الروسي.. سرعان ما توقفت لينزل منها (إيفان إيفانوفيتش) زعيم المافيا الروسية الذي لم يكلف نفسه بتحية الجماهير..
فقط راح يمضغ سيجارا غليظا، ثم تقدم يتبعه رجال أقرب إلى الدببة منهم إلى البشر.
بعدها بثانية خرج من السيارة رجل آخر هو أخوه (يوري إيفانوفيتش) الذي لم يكلف نفسه بتحية الجماهير.. فقط راح يمضغ سيجارا أغلظ، ثم تقدم يتبعه رجال أقرب إلى الأفيال منهم إلى البشر..
وبعدها دوي انفجار مخيف من السيارة.. وتناثرت الأشلاء في كل صوب.. إن الرجل مازال كعادته لا يترك شهودا.
يا لهذه المافيا الروسية! هؤلاء بقايا عهد (بيريا) والقمع الستاليني الذين انفلت عيارهم بعد زوال قبضة الحزب الحديدية..
بعد هذا - وبعدما نقلت الإسعاف بقايا القتلى – وصلت سيارة (موشي حاييم دزرائيلي).. رجل المخابرات الإسرائيلية البارد كالثلج والذي مات منذ فترة.. إن هذا الاجتماع يعج بالموتى كما ترون خرج من السيارة ووقف بقامته الفارعة ينظر إلى الجماهير، ثم قال في ضيق:
- أغبياء! أغبياء!

ثم توارى عن الأنظار.. توطئة لأن يصل مستر (إكس).. وهو جدير باسمه، لأن أحدا من الناس لم يستطع رؤية وجهه في أية إضاءة من أي نوع حتى والأضواء ساطعة مباشرة تجد وجهه مكسوا بالظل..
ثم وصلت سيارة صاخبة قائدها يخرج ساقه الملفوفة في حذاء طويل العنق من النافذة، ولا يكف عن إطلاق الرصاص في الهواء.. والصراخ: ووه! واو! ببببببببببيي!!
وانفتح الباب عن قبعة مكسيكية عملاقة من طراز (سومبريرو)، ثم ظهر ذلك المجنون المكسيكي (بانشو سيلارز) ملوحا بزجاجة (تاكيلا).. يبدو أنه مات من قبل لكن هذا لا يهم كما قلنا..
أطلق بعض الرصاص في الهواء ليشعل حماسة القوم، ثم صاح:
- أميجوس؟ هاستا لا فيستا: يييييييييييييييي؟
ثم دخل المقر ومعه خمسة أوغاد من رجاله وهكذا بدأ الاجتماع..
الاجتماع الذي سيقرر..
أشياء خطيرة..
خطيرة
جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكن القول إن رئيس الجلسة أو الـ Chairman كان هو مستر (إكس) ذاته، والذي لم يستطع أحد رؤية وجهه في أية إضاءة..
في البداية تحسس مكبر الصوت ([12]) ونقر عليه، ثم قال للجالسين:
- هل تأكدتم من أن القاعة مؤمنة؟
كان هناك عدد من الحراس الشخصيين صلع الرءوس بالنظارات السوداء، والأجساد الضخمة التي تذكرك بأناقة الغوريلا، وقد دس كل منهم سماعة ذات سلك لولبي في أذنه، لهذا ظلوا صامتين ينظرون له في برود..
- إنني أحدثكم يا حمقى! انزعوا هذه السماعات لتسمعوني..
سارع الرجال بانتزاع السماعات مرتبكين، وقال له أكبرهم حجما:
- معذرة يا سيدي.. القاعة مؤمنة..
- لا بقBugs ؟
- لا بق يا سيدي..
- لا كاميرات خفية مثبتة في عروات السترات أو في حلى النساء؟
- القاعة مؤمنة يا سيدي..
نظر الرجل باتجاه الحسناء التي نعتقد أنها (سونيا جراهام) ([13])
- هل من متنكرين؟
هزت يدها وهي تضع ساقا على ساق في لامبالاة، وقالت:
- بصمات الآذان كلها صحيحة.. الرجل ليس هنا..
إن (سونيا) خبيرة في تمييز (أدهم صبري) من بصمات أذنيه.. الكل يعرف هذا..
- إذن نبدأ.
يسود صمت رهيب، وطبعا يعرف كل واحد من الجالسين أن الآخرين يسجلون ما يدور.. لم لا؟

أليس اجتماع جواسيس؟
بدأ الرجل بالكلام ببطء وبعبارات راسخة:
- جميعكم هنا. لقد واجهكم ذلك الرجل المدعو (أدهم صبري) من قبل، ووجه لكم ضربات ساحقة..
ولقد تصرف بعضكم بدافع الانتقام مثل (سونيا جراهام) والبعض بدافع الشر المجرد.. لكننا جميعا حاولنا أن ندمر رجلا واحدا وفشلنا.. حتى هذه اللحظة على الأقل..
صاح أحد الجالسين من منظمة العقرب:
- ولن نفشل ثانية!!
عاد مستر (إكس) يتكلم بذات التؤدة السمجة:
- ربما ننجح وربما نفشل، لكن الحقيقة هي أن (أدهم صبري) قد فاز بشعبية عظيمة.. ويعرف الأبوان العربيان أن طفلهما قد تعلم القراءة بمجرد أن يمسك في يده بأول قصة من (رجل المستحيل).. هذه خطوة حتمية في النمو، بعدها تظل هذه القصص معه في مراحل نموه التالية، ومعها يتعلم أشياء سلبية.. كراهية (إسرائيل) تنتقل من جيل إلى جيل، وكنا نعتمد على النسيان كي يمحوها.. الشعور البغيض بالتفوق والتميز لدى العرب يستمر وكنا نريد أن نسحقه.. دعك من حقيقة أن قراءة (جيمس بوند) - رمز عبقرية المخابرات البريطانية تتدهور من جيل لآخر.. الحقيقة هي أن (أدهم صبري) قد آذانا كثيرا، وعلينا أن نجد مخرجا من هذا..
- الحقيقة التي أتعشم ألا ننساها كذلك، هي أننا لا نقاتل من أجل إنقاص تعداد أعدائنا العرب - فهم كثيرون جدا - ولا من أجل الكسب، ولكننا نقاتل من أجل تدعيم القيم الكريهة ومن أجل هدم المبادئ..
هذه هي القاعدة الذهبية التي على هديها نتحرك والتي يحطمها (أدهم صبري) كل يوم..
نهض الإسرائيلي البارد (موشي حاييم دزرائيلي[14]) ، ونظر إلى الجالسين من حوله في لا مبالاة، ثم قال وهو يتحسس صدره:
- الحقيقة التي نعرفها جميعا هي أن القضاء على (أدهم صبري) مستحيل.. لقد حاولنا كل شيء لكن الرجل بارع حقا.. أقول هذا وأنا أتحسس موضع رصاصته التي اخترقت صدري وكادت تصيب قلبي لولا طولي الفارع الذي جعل قلبي يميل إلى اليمين..
علينا أن نلعب أوراقنا بشكل صحيح وعلى أساس ما نعرفه بالفعل.. لن تكون الدنيا أوهاما.. لن نقتل الرجل جسديا لكننا بالتأكيد ننوي قتله معنويا..
وتلاقي حاجباه وضحك..
وضحك..
وضحك..
وضحك..
وضحك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- مهمة مستحيلة..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد العرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل.. لقد هبطت طائرة الهليكوبتر فوق ناطحة السحاب الأمريكية، التي يبدو أنها معدة لهذه الأمور من قبل، لأن علامة X كبيرة كانت هناك.. وكانت الشمس الساطعة تنعكس على الزجاج: فلا تجرؤ على النظر دون أن تحترق عيناك..
ببطء راحت تتأرجح، وبخشونة راحت تهبط فوق السطح، ثم انفتح بابها وظهر ثلاثة رجال من الطراز الذي ينزل من الهليكوبتر جريا ([15]).. أنتم تعرفون هذا الطراز الذي تعج به الأفلام الأمريكية..
كان هناك رجلان يحمل كل منهما بندقية آلية ويقف بانتظار القادمين..
الرجل الأول من راكبي الهليكوبتر، والذي يتطاير معطفه في الهواء كان هو من بدأ الكلام..
قال وهو يعقد حاجبيه:
- أنا (سيرجي سيرجيوف) عميل المخابرات الروسية (كي جي بي)..
صافحه أحد الرجلين وقال:
- وأنا الكولونيل (سميث).. عميل الاستخبارات المركزية الأمريكية.. إنه منتصف الليل الآن وقد حان وقت العمل..
طبعا كان كل واحد منهم يعرف أن هذا ليس اسم الآخر ولا عمله ولا شكله.. بالإضافة إلى أن هذا ليس منتصف الليل طبعا.. إن التمويه طبيعة في عمل المخابرات كما تعلم..
نظر العميل الروسي حوله، وقال منبهرا:
- (لوس أنجلوس).. هه؟ مدينة كبيرة عظيمة.. لكني لم أرها قط إلا من على الأرض..
قال الكولونيل (سميث) بلهجة غامضة:
- ولسوف تراها ثانية..
وقبل أن يفهم أحد الرجال ما يحدث، أخرج بندقيته الآلية وأفرغها في صدر العميل السوفييتي..
وكانت ضربة مفاجئة..
قاتلة.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال المستر (إكس) للمجتمعين:
- الآن أرجو أن ترحبوا بالسيد (رائد وهيب).. واتجهت الأضواء كما في السيرك إلى مدخل القاعة الجانبي، ليظهر شاب فارع القامة: وسيم كموديلات الإعلانات.. له ذاك الذقن المشقوق الذي يميز أبطال القصص المصورة.. واثق من نفسه كرعاة البقر..
تقدم الشاب في خيلاء بينما الضوء يلاحقه.. خطواته نشيطة توحي بطاقة لا نهاية لها..



تقدم الشاب في خيلاء بينما الضوء يلاحقه..

أخيرا صعد إلى المنصة، وكان من الواضح أن الانبعاج تحت إبطه ليس ورما لمفاويا وإنما هو مسدس...

قال مستر (إكس):
- (رائد وهيب) هو النموذج الذي سنتبناه.. سنقدمه للشاب العربي في إطار جديد يجذب انتباهه وطبعا نحن جميعا نفهم أن (رائد) ليس سوى رجلنا.. إنه إسرائيلي منحناه كل الأوراق التي تدل على أنه عربي.. سنعطيه انطباع رجل العمليات الخاصة العربي الأنيق الوسيم..
ولسوف تعلق الفتيات صورته في حجراتهن، ولسوف يضع كل شاب عصا مكنسة بها ثقلان من الأسمنت ([16]) في غرفة نومه.. وينهض كل صباح مبكرا ليرفعها عدة مرات، على أمل أن هذا هو الطريق الذي سيقوده إلى أن يكون مثل (رائد)..
ومن خلال هذا الإعجاب سيصدقونه في كل شيء وينسون كل ما يمثله (أدهم صبري)..
هنا نهض الروسي (إيفان) وهو يمضغ سيجاره الغليظ، وقال:
- لحظة.. ألا يستدعي هذا أن يحقق بطولات؟
- طبقا.. ولهذا جمعتكم هنا..
ثم دار بعينيه بينهم وقال:
- سترتب كل منظمة منكم بضع عمليات تُهزم فيها، ويعلن في كل مرة أن (رائد) هو الذي انتصر.. وبعد عام سيتحول الشباب إلى قراء لقصص (رائد وهيب).. هل من أسئلة؟
هنا نهضت (سونيا جراهام) - لا بد أنها هي - وقالت في ضيق:
- لحظة.. إن أذني هذا الفتى لا تريحانني كثيرا..
وتقلص وجهها في وحشية وقالت:
- هذا الفتى هو (علاء) صديق (أدهم صبري) متنكرا وهو يعبث بنا!
ومن ثوبها خرج المدفع (العوزي) وأطلقت سيلا من الرصاص..
على (علاء)..
صديق (أدهم صبري).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسلل الرجل إلى مكتب الوثائق السرية الخاص بال CIA أو وكالة الاستخبارات المركزية.. نظر حوله في توتر... كانت عدسات الدائرة التلفزيونية المغلقة موجهة نحوه، لكنه كان يقوم بتشغيل الجهاز الذي يبث صورة مستمرة تمثل قاعة فارغة....
وقف أمام القفل الصوتي، وأخرج جهاز تسجيل قام بتشغيله فانبعث صوت مدير الاستخبارات شخصيا يقول:
- افتحوا لي..
كليك.. أغلق الجهاز قبل أن تكتمل العبارة (.. عقولكم جيدا..)..
ثم أخرج قفازا من المطاط حشره حول كفه.. كان القفاز يحمل بصمات مدير المخابرات، وقد تمت إعادة نقشها على المطاط، فألصق كفه على الماسح الضوئي، وانتظر حتى مر الإشعاع ماسحا كفه بالكامل، ثم دوى الصوت المعدني:
- مسموح لك بدخول هذا القطاع..
انفتح الباب فدخل..
استغرق الأمر بضع دقائق حتى فرغ من ملء جيوبه بالميكروفيلم، ثم بدأ ينسخ محتويات الحاسبات الآلية على قرص عالي السعة..
تنفس الصعداء واتجه نحو الباب ليغادر المكان، وفي هذه اللحظة شعر بشيء صلب يلامس

ظهره بين لوحي الكتف..
كان هذا حارسا يصوب نحو ظهره فوهة مسدس، ويأمره في غلظة:
- استدر ببطء..
وعرف أنه وقع في شرك..
شرك مخيف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استدار العميل السوفييتي ليضرب البندقية الآلية، ثم يركل صاحبها، الذي لم يجد وقتا إلا ربع ثانية ليقول:
- مستحيل.. أنت ميت يا رجل.. لقد أفرغت خمس رصاصات أو أكثر بين ضلوعك، ومن المؤكد أنك لا تلبس قميصا واقيا للرصاص، كما أن هذه الرصاصات ليست (فشنك)، فقد قتلت بها رجلين من نصف ساعة.. كما أنك لا تبدو شبحا.. إن هذا الموقف غير طبيعي وغير معتاد، ولا أجد له أي تفسير من أي نوع، ويخيل إلى أن الأمر كله كابوس.. صحيح أن الجواسيس البارعين في القصص لا يموتون أبدا، لكني عميل في نفس القصص.. هل تفهم ما أعنيه؟ الرصاص على شاشة السينما لا يقتل المشاهدين لكنه يقتل الأشخاص داخل الفيلم، وهذا يعني أنه من المفروض أن يقتلك رصاصي لأن نفس المنطق يسري علينا.. و...
كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي لم يجد الكولونيل وقتا ليقول ما هو أكثر منها، وهو يهوي من فوق ناطحة السحاب.
ويصرخ..
يصرخ..
يصرخ..
هنا فقط وثب الرجل الثاني - صديق الأول – إلى الوراء، وقذف بقنبلة يدوية على العميل الروسي، وهو يقول:
- سأدمرك يا رجل
وهوت القنبلة لتصدم الروسي في صدره..
وكان الانفجار مخيفا..
و....
وقاتلا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وسألت (عبير) - التي صارت (مني) – صديقتها القعيدة (جيهان):
- كل هذا جميل.. لكن لماذا لا تحكون كل موقف حتى نهايته؟ ألاحظ أن كل موقف ينتهى برصاصة أو انفجار ثم أجد أنكم تحكون موقفا آخر..
قالت لها (جيهان) التي لم تنس بعد أنها سلبتها (أدهم) لأسباب غير مفهومة:
- صه يا حمقاء.. هذا هو أسلوب القفلات أو (كليف هانجرز).. مع الكثير من المونتاج المتوازي.. كل هذه الأحداث تتم في وقت واحد، بينما تنتقل الكاميرا بينها.. هذا يتركك متوترة بانتظار ما يحدث، فقط لتدخلي في حادث مثير جديد..
- لكني نسيت من الذي....

عقدت (جيهان) حاجبيها وقالت:
- ش ش ش ش ش ش! دعي (قدري) يكمل القصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا اختاروا (رائد وهيب) كي يكون بديلا لرجل المستحيل.. لما انطلقت الرصاصات نحوه وهو على المنصة، سارع إلى انتزاع عارضة من الفولاذ كانت هناك.. لا تسألني من أين جاء بعارضة من الفولاذ؛ لأن هذه ليست مشكلتي.. وضعها أمام صدره وجسده فارتطمت الرصاصات بها وسقطت مرتدة، وقبل أن يفهم أحد ما حدث كان قد تدحرج على الأرض في رشاقة، وأخرج مسدسا صغيرا دقيقا أطلقه على (سونيا).. والحقيقة هي أن الرصاصة لم تكن موجهة لها بل إلى مدفع (العوزي) في يدها..
وسرعان ما طار المدفع في الهواء، وأمسكت يدها وهي تعوي كالذئاب من الألم.
- معصمي! كدت تحطمه أيها الأبله
طلقة أخرى هشمت رأسها فوقفت لحظة ترمق ما يحدث في غباء ثم سقطت أرضا..
قال (رائد) وهو ينفخ الدخان من الفوهة في رشاقة:
- معذرة يا جميلتي.. لكنني لا أجيد استعمال اللياقة حين تنطلق رصاصات نحو رأسي..
هنا فقط دوت القاعة بالتصفيق.. لقد كان أداء (رائد) مبهرا، ولا يمكن فهمه إلا بإعادة المشهد بالسرعة البطيئة.
قال له (آلان شيفالييه) ([17]) بلهجته الفرنسية وهو يلوح بكأس في يده:
- بغافوووووو! أنت باغع حقا لكنك لم تبغهن لنا بعد صدق أو ظلم هذا الادعاء..
قال (رائد) وهو يعيد المسدس إلى قرابه:
- هذا بعد ما فقدت الكثير من لياقتي.. على كل حال كل رجل مخابرات يعرف جيدا أن (عادل) صديق (أدهم صبري) قد مات..
قال مستر (إكس) في حماسة:
- والأهم هو أنك برهنت لنا على أن (رائد) بارع بالفعل، ويمكن أن يحل محل (أدهم).. تصور أن يكون رجل المخابرات الأكثر شعبية رجلنا نحن..
ومن جديد دوي التصفيق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ببطء استدار المتسلل لينظر إلى الحارس
كان حارسا جدا لو صح التعبير.. بطن كبيرة مترهلة وقميص أزرق وشيب على الفودين.. وقد رآه يصوب إليه المسدس في توتر؛ كما لو كان لم يعتد هذه الأمور.. لكن المسدس يعني أن الأمور مقلقة ([18])
قال له الحارس في توتر:
- والآن يا بني.. أعتقد أنه لا يوجد لديك تفسير لتسللك إلى هنا..
قال المتسلل في تهكم:
- لو قلت إنني أنتظر المترو لما صدقتني لم يرد الحارس ومد يده إلى حزامه، وأخرج جهاز لاسلكي، وضغط على الزر في هذه اللحظة ارتفعت قدم المتسلل ببراعة لتضرب المسدس الذي في يد الرجل، ثم - بالقدم الأخرى - عاجله بركلة جعلته يصطدم بالجدار.

سقط الحارس فلم ينظر له.. يجب أن يفر الآن وبأقصى سرعة..
صحيح أنه لا يهاب شيئا لكن يجب أن يعرف المرء قدراته.. إنه ليس مستعدا لمواجهة جهاز الأمن كله..
وهكذا تأكد من أن كل شيء معه وهرع نحو المخرج..
هنا دوي انفجار..
انفجار هائل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين انقشع دخان الانفجار فوق ناطحة السحاب لم يعد هناك من الروسي إلا بقايا تصلح لتلميع زجاج النوافذ..
وكان صوت سرينة سيارات الدورية يولول في الشارع من أسفل، بعد أن جاءت كل شرطة الولاية على صوت الانفجار.. وعرف الرجال أن الوقت قد حان للفرار.
ونظر أحد الرجلين الباقيين إلى هذا المشهد الدامي، ثم إلى القاتل الذي قذف القنبلة، ثم لشدة الدهشة هوى على ركبته أمامه في إجلال وهتف:
- سيدي.. برغم أنك قتلت صاحبي، فإن على أن أعبر لك عن احترامي البالغ.. أنت لا تعرف من قتلته، ولو عرفت هذا لجن جنونك طربا أو أطلقت الرصاص على رأسك خوفا..
قال القاتل وهو يتراجع إلى الوراء:
- ألم تقولوا إنه (سيرجي سيرجيوف) من (الكي جي بي)؟
قال الرجل وهو يتأمل الدمار الذي أحدثته القنبلة:
- أنت قتلت رجل المستحيل.. قتلت (أدهم صبري)!!
كانت المفاجأة كاملة....
ومخيفة..
مخيفة جدا..
جدا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- ذكريات..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد العرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..
لقد كان رفاقه جميعا بيكون الآن، وهو بالفعل مشهد مستحيل.. لو مت أنا فلن تعدم أن تجد من يرقص طربا أو يكتم ضحكة وحشية.. أما الجالسون إلى المنضدة - (مني) و (جيهان) و (قدري) و (شريف) و (عادل) و (نادية) و (حسام) - فكانوا يبكون في حرقة كأنما مات الآن حالا..
صحيح أن بعضهم مات من قبل، لكن لا أحد يموت في قصص الجاسوسية كما قلنا من قبل..
وقال (قدري) وهو ينهي قد قصته:
- وكلنا نعلم الباقي..
لقد وصلت الرسالة من (سيرجي كوربوف) عدو (أدهم) القديم، الذي صار صديقا له، واشترك معه في تدمير منظمة (الثعبان) التي كونتها (سونيا جراهام)..
كانت الرسالة تقول إن (أدهم) مات في (لوس أنجلوس) في أثناء عملية خاصة لعب فيها دور رجل من ال (كي جي بي).. أما قاتله فواحد من رجلين قالا إنهما يعملان مع وكالة الاستخبارات المركزية.. طبعا كان هذا تمويها لأنه لا أحد يقول الحقيقة في المخابرات أبدا.. لقد مات أول الرجلين الذي كان يسمى نفسه الكولونيل (سميث).. لكن (كوربوف) كان هناك، واستطاع أن يرى (أدهم) يتحول إلى أشلاء بفعل قنبلة تلقاها في جسده مباشرة..
صحيح أن (أدهم) مات كثيرا من قبل لكن الأمر حقيقي هذه المرة..
قال (كوربوف): إن (أدهم) كان يلبس سترة واقية من الرصاص من نوع خاص لا يمكن ملاحظته، لكن القنبلة لا تجدي معها السترات الواقية([19]) ..
أما الجزء الأسوأ في الموضوع؛ فهو تلك العمليات الناجحة التي راحت أخبارها تأتي من أمريكا وأوروبا عن رجل المخابرات (رائد وهيب) الذي استطاع أن يدمر عدة منظمات، ويحرق جزيرة كانت مركز تدريب لرجال منظمة العقرب التي بدأت تجمع نفسها..
أخبار جيدة والمفترض أن تكون سعيدة، لكن الجميع كان يعرف أنه لا أساس لها من الصحة..
علامات استفهام كثيرة تحيط بهذا ال (رائد وهيب)، والأخبار القادمة من مؤتمر الجواسيس غير مريحة.. ثمة من يقول إنه ليس عربيا ولكن تم تلفيق تاريخ له، وحين تتعلق قلوب الناس به سوف يصدقون أي شيء.. ويمكنه تمرير أي معتقد..
قالت (جيهان) وهي تسترخي في مقعدها المتحرك:
- الأمور سيئة..
وكانت (عبير) قد اندمجت في دور (مني) تماما، وصارت تشعر بما تشعر به.. لهذا فعلت الشيء الذي تجيده (مني) أكثر من سواه..
راحت تبكي في حرقة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثل الطيف الجميل راح الجميع يتذكر (أدهم).. لقد فرغ الدكتور (أحمد صبري) شقيق (أدهم) من آخر مريض في عيادته، وراح يحصى دخل اليوم..
استغرق هذا ساعتين إلا الربع تقريبا لأنه كان قد اعتاد ألا يضيع وقته في عد الجنيهات..
ما إن فرغ من هذا حتى راح يتأمل ويبكي..

وإلى ذهنه تداعت صورة (أدهم) صغيرا حين كان في الثالثة من العمر، وحين كان أبوهما رجل المخابرات يعد ابنه ليكون رجل المستحيل ([20])..
كان الأب في ذلك اليوم قد فرغ من دروس العبرية وبدأ يعلم ابنه ذا الأعوام الثلاثة درس اليوم في الإيطالية..
أعطاه قطعة من (جحيم دانتي) وطلب منه أن يترجمها إلى الألمانية.. وصفع الطفل مرتين لأنه أخطأ في قراءة كلمة (إنفرنو).. لقد قرأها (إنفالنو) لأنه – الأحمق - لا يستطيع نطق حرف الراء بعد.. وصاح فيه الأب:
- خطأ كهذا قد يكلفك حياتك يوما ما..
ثم قام الصغير بتحويل مسرحية (هاملت) لشكسبير إلى اللغة الفنلندية، وقام بترجمة عدة مقاطع من شعر (بوشكين) الروسي إلى الفرنسية.. وترجم قصيدة (أربعاء الرماد) ل (إليوت) إلى اللغة السنسكريتية، ثم ترجمها من السنسكريتية إلى لغة (الييديش) الخاصة باليهود الشرقيين..
- بابا.. لاص!!
قالها لأبيه.. وهو يقصد (بابا.. خلاص) فالحقيقة أن الطفل لم يكن قد تعلم الكلام بعد.. وهو ما يدلك على أهمية التعليم من الصغر..
بعد هذا كان على الصغير أن يقوم بصنع بعض القنابل من مبيدات الحشرات، وخرج مع أبيه إلى الصحراء كي يتعلم دفن ألغام الدبابات.. ثم قام بتفكيك وتجميع بعض بنادق ال M - 16 ومسدسات (كولت).. وفي النهاية ارتدي ثياب الجيدو كي يدخل في صراع دام مع أبيه.. كان الآن - برغم أنه لم يمش جيدا بعد - يجيد الكاراتيه والجيدو والتايكوندو والجيجوتسو والسومو كما أنه برهن عن براعة في استخدام الغازات حين خنق القط.. وقد أهداه أبوه في عيد ميلاده الثالث قرص سيانيد يخفيه في ثيابه كي يبتلعه إذا قُبض عليه وهي عادة رجال المخابرات الكبار الأكفاء..
الدرس الأخير قبل العشاء كان في التنكر، وكان من المذهل أن ترى الطفل (أدهم) يتنكر ليبدو في صورة وطول وصوت أبيه.. ثم يصير في صورة وطول وصوت أمه.. ثم يتنكر في صورة صرصور ثم وشق الاستبس وعناق الأرض..
وقالت الأم حين عاد زوجها وابنها من الخارج:
- العشاء جاهز.. لكن ألا ترى أنك تقسو عليه في سنه الصغيرة؟
قال الأب:
- بل أجعل منه أفضل رجل مخابرات في التاريخ.. أين الولد (أحمد)؟
- فرغ من حفظ كتاب (جراي) في التشريح، وهو الآن يقوم بجراحة نقل مخ صديقه (رامي) إلى صديقته (لمياء)..
ابتسم الأب في رضا..
الحقيقة أنه كان من الآباء القلائل الذين يعرفون كيف يربون أطفالهم ([21])..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما (منى توفيق) - التي هي (عبير) – فتتذكر في حزن..
الحقيقة أنها الفتاة الوحيدة في العالم التي نالت شرف أن يحبها (أدهم).. وكانت بالطبع تهيم به حبا وتغار عليه بقوة.. كما أنها كانت تقارن بين ما تملكه هي وما تملكه واحدة مثل (جيهان) التي كانت من أبرع فتيات العمليات الخاصة، فتجد أن (جيهان) أفضل وأثقل بمراحل.. إن الحب

كائن غريب حقا.. أنت لا تحب..
الأجمل ولا الأقوى ولا الأغنى، بل ببساطة شديدة تحب من تحبه.. تحبه لأنه هو وليس شخصا آخر هذه الحقيقة كانت تعرفها لكنها لا ترتاح لها كثيرا، وتشعر أن قوانين الفيزياء والبيولوجي ستعمل يوما ما، ولسوف يميل قلب (أدهم) إلى من تستحقه..
وهذا أغرب ما في الأمر.. المفترض أن تكون أسعد الفتيات وأكثرهن فخرا بحب كهذا، لكنه للأسف لم يزدها إلا تعاسة وقلقا وتوترا.
كانت قلقة بسبب كل شيء.. قلقة على (أدهم) الذي يعمل وسط النيران ولا بد أن يحترق يوما ما.. قلقة على حبه لأنه يعمل وسط الفاتنات - وكل النساء هنا فاتنات - ومن السهل أن يتغير في أية لحظة..
إنها الآن تتساءل لماذا لم يتزوجا بعد كل هذه المغامرات ([22])؟
في المرة الأولى هي التي رفضت - وكانت حكيمة بالفعل - لأنها عرفت أن من يعمل عمله لن يعود في كل مرة.. هناك مرة ما لن يعود فيها، وهي لن تتحمل ذلك..
في المرة الثانية طلب منها الزواج ووافقت.. فقط لتفقد الذاكرة بعدها، وتنسى وتنسى أنها نسيت.. يبدو أنها تتذكر الآن لكن بعد فوات الأوان طبعا..
في العدد رقم (100) وافقت أيضا.. لأنها اعتقدت أن العدد (100) آخر الأعداد ويحمل لها مفاجأة سارة من نوع الزواج كما في الأفلام العربية.. لكن سرعان ما أصيبت بجروح مرعبة، ونُقلت إلى المستشفى.. لا غرابة في أن هذا العدد سمى ب. (الضربة القاصمة).. إنها ضربة قاصمة لآمالها ولا مراء.. ويبدو أن هذا العدد كان مجزرة للجميع.. لقد مات (حسام).. وأصيب (قدري) في ذراعه حتى تكلف علاجه نحو المليون من الدولارات.. إن تدمير منظمة (الثعبان) التي أنشأتها (سونيا جراهام) لم يكن هينا، وقد دفع فريق الشجعان ثمنا غاليا..
بعد هذا - في المرة الرابعة - نظرت لنفسها في المرآة فوجدت أنها تحولت إلى ابنة خالة (ميدوسا).. وقررت أن تضحي بسعادتها من أجل (أدهم) الذي لا يستحق أن يتزوج ابنة خالة (ميدوسا).
في المرة الخامسة والأخيرة طلب منها الزواج، فصاحت في عصبية:
- هل تسأل؟
هنا فعل أغرب شيء يمكن أن يفعله رجل يطلب يد فتاة..
فقد الوعي..
هكذا أدركت (عبير) أنه لا جدوى من الزواج من (أدهم) لا تدري إن كانت هناك مرة سادسة أم لا
لكنها أدركت أن (أدهم)، كفرسان النينجا أو الرهبان الذين يفقدون تفردهم إذا تزوجوا.. وعلى كل حال هي لا تعتقد أن الزواج من (أدهم) سيجعلها أسعد.. وإلا لكانت سعيدة الآن وهي حبيبته الوحيدة..
كان القلق على حياته سيعذبها.. وكان – وهذا أسوأ - القلق على حبه سيثير جنونها..
شيء واحد تعرفه: الحياة ليست لعبة مسلية للترفيه عنها.. هي ليست زبونا في مطعم يجب إرضاؤه بأية صورة، ويؤمن السقاة أنه دائما على حق.. إن من أوتي حظها العاثر يجب أن يتحمل. ولسوف تتحمل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(جيهان) أيضا كان لديها ما تتذكره..
مغامرتها كبديلة ل.(مني) مع (أدهم).. لقد برهنت على أنها بارعة جدا ذكية جدا.. بل إنها كانت جميلة جدا كأية فتاة هنا.. لكن قلب (أدهم) بقى معلقا ب.(مني) لأسباب مجهولة.. يبدو أنه من الطراز الذي لا يحب إلا ما ألفه جيدا، وقد خاض 104كتيبا مع (مني) مما جعل (جيهان) غريبة برغم كل شيء....
لكنها قاتلت كما يجب، وخاضت حربا شريفة ضد السنيورا حتى العدد 121، ثم أصيبت إصابات بالغة وهي تدافع عن (مني) ([23]). إنها نبيلة أيضا.. لكن حظها قليل..
طبعا اتضح أن السنيورا كانت (كلوديا) التي بُعثت ثانية بعد خمسين كتيبا كي تحاول السيطرة على العالم، وهذا ما استطاع (أدهم) أن يمنعه بنجاح ساحق..
على كل حال لم يبخل (أدهم) على (جيهان) بالعلاج، ويبدو أن نفقات علاجها قد تجاوزت الثلاثة ملايين من الدولارات، وهو مبلغ كاف لصنع واحدة أخرى..
لشد ما كرهت (مني)! لشد ما تشاجرت معها أكثر من مرة. ألد عداوة في التاريخ هي عداوة امرأتين تحبان نفس الرجل.. هذه عداوة ترتجف لها قلوب السفاحين، وتتوارى الديناصورات خوفا منها، وتدخل الأفاعي جحورها وهي تهنئ نفسها على السلامة.
والشعور الذي تشعر به الآن - نتحدث عن (جيهان) لا الأفاعي - هو نوع خبيث جدا من الرضا.. على الأقل لن يكون (أدهم) لسواها..
نحن الآن متعادلتان يا حبيبتي هكذا قالت ل.(مني) في سرها، وابتسمت ابتسامة خبيثة حاولت أن تخفيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين فرغت (سونيا جراهام) من قراءة الرسالة الإلكترونية التي وصلتها، لم تملك دمعة سالت على خدها الجميل.. كانت تتمتع بخبرة أعوام في العمل السري، وتعرف الخبر الكاذب حين تسمع واحدا.. لا.. هذا الخبر ليس كاذبا.. إنه صحيح..
لقد مات (أدهم) أكثر رجل أحبته، وأكثر رجل كرهته، وشعرت بإذلاله في حياتها.. لقد اعتادت على أن تعتبر الرجال مجرد كائنات حمقاء كثيفة الشعر..
تفوح منها رائحة التبغ عندما تموت....
أما هذا الرجل فمختلف تماما.. إنه جدير بها..
الحقيقة هي أن (سونيا جراهام) من أجمل الشخصيات التي كتبها د. (نبيل) وأعقدها.. إنها تحوي كل ألوان الطيف، وكل درجات السلم الموسيقى، ويمكنك بسهولة أن تصدقها وهي تذبح ضحاياها أو وهي تحب أو تداعب طفلها أو تبكي تأثرا.. في قصص الجاسوسية تكون كل الشخصيات أحادية إما بيضاء كالثلج أو سوداء كالفحم.. من الصعب أن ترى شخصية رمادية بهذه الجودة....
كل حياتها كانت صراعا لتدمير (أدهم) ثم للفوز به..
وكانت أجمل لحظة في حياتها عندما سقط كطفل فاقد الذاكرة في قبضتها؛ فتزوجته وأنجبت منه ابنهما..
وحين غضبت منه فعلت كأية زوجة أخرى: (طفشت عند أهلها).. لكن حين (تطفش) واحدة مثل (سونيا) فإنها تفعل ذلك على طريقتها: تحرق البيت وتأخذ الولد إلى إسرائيل..
وكانت تعتمد على هذا الابن الذي أطلقت عليه اسم (سولومون أفرام صروف).. وهو - كما ترى

- اسم يهودي جدا كأنه شمعدان سباعي، لكن أقوياء الملاحظة يعرفون أنه يحتوي على حرفي (ألف) و (صاد) ليرمز إلى (أدهم صبري) لأن عاطفة الأبوة لا تخذل أحدا.
وقد حاول الرجل أن يسترد ابنه وفشل ([24])..
لحظة.. يقول بعض القراء إنني نسيت أن (سونيا) ماتت في الفصل السابق.. أقول لهم إنهم هم الذين ينسون أنهم يقرءون قصة مخابرات حيث لا أحد يموت أبدا.. ظننت هذا واضحا والأدهى - والكلام ل. (سونيا) - أن ذلك الأحمق (رائد وهيب) الذي اخترعه جواسيس العالم لا يملك ذرة من سحر (أدهم صبري) ولا كاريزما (أدهم صبري).. إنه بالفعل كما هو: مجرد دمية.. فلو كانت تجيد العامية المصرية لقالت مثلنا (الأنصاص قامت والقوالب نامت).. لكنها لا تجيدها..
فقط تتكلم العربية الفصحى الخنفاء - بصفتهاFoyMat إسرائيلية - من وقت لآخر..
وتنهدت (سونيا) وأدركت أن الحياة من بعد (أدهم) شاقة جدا.. لا يمكن الحياة مع هذا الرجل، ولا يمكن العيش من دونه..
كان المسدس أمامها على المنضدة جوار الكمبيوتر، الذي مازالت شاشته تحمل الرسالة الإلكترونية.. وكان الإغراء شديدا.. لا تنكر هذا.
في البداية قامت بمسح القرص الصلب أو تهيئته Format تماما، وهكذا أزالت كل ما يمكن أن يجده الفضوليون، ثم مسحته مرة أخرى ببرنامج من برامج المسح التي يستعملها الجيش الأمريكي، وتقوم بالكتابة ست مرات على نفس الموضع..
رجل المخابرات الجيد لا ينتحر قبل أن يمحو بياناته من الوجود..
ثم رفعت المسدس وألصقته بصدغها وضغطت الزناد..
ضغطته ببرود..
وبلا مبالاة..
وبقوة..
وبقسوة..



ثم رفعت المسدس وألصقته بصدغها وضغطت الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- أفق..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..
والسبب هو أن (أدهم صبري) كان الوحيد الذي يمكن أن يدخل مقر وكالة الاستخبارات المركزية ويخرج حيا.. لكن كان من الواضح أن هذا المتسلل لم يكن رجل المستحيل..
لقد دوي الانفجار في المكان..
رهيبا..
شنيعا..
عاتيا..
كاسحا..
مخيفا..
وفي النهاية دخل الحراس الأمريكيون المكان، ليجدوا أن عليهم تنظيف كل هذه الفوضى، والجدران التي صار لونها أحمر..
قال الحارس الأول:
- بالله عليك يا رجل.. اطلب فريق الأمن.
وقال الثاني:
- لقد فجر جهاز التأمين المتسلل.. إنني لا أحب هذا المشهد يا رجل لكني أشعر بأنه ضروري ..
وقال الثالث:
- كان يحاول سرقة ملفاتنا يا رجل ولعله نجح ..
ثم انحني أحدهم يتفحص الرأس الملقي جوار الباب، وأصابه الذعر فصاح ينادى الآخرين:
- إنه ليس المتسلل يا رجل.. إنه (مايك) زميلنا.. لقد فجر الجهاز (مايك) زميلنا. إن المتسلل هنا في مكان ما يا رجل..
وأدرك الرجال أن المتسلل لم يكن رجلا عاديا..
لقد كان عميلا خارق القدرات..
جدا..
إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (سونيا جراهام) لابنها وهي تحتضنه وتريح رأسها على كتفه:
- لا أدري إن كان الأمر يمثل لك أهمية ما لكن يجب أن تعرفه.. لهذا جئتك في المدرسة الداخلية..
وبحثت عن الكلمات المناسبة، وبعد لأي قالت:
- أبوك (موشي حاييم دزرائيلي) قد مات..
لم يبد الطفل اهتماما، وقال:
- لقد أبلغتني بهذا الخبر 4335 مرة من قبل وفي كل مرة أعرف أنه حي..
- هذه المرة حقيقية.. هذه المرة هي الأهم..
وصمتت..

لم تكن تعرف هل يجب أن تخبره بالتاريخ الكامل لأبيه.. كيف أتعبها وأرهقها طيلة هذه الأعوام، وكيف تسبب في طردها من (الموساد).. وكيف أنها تحبه كما لم تحب أحدا، وكيف أنها تمقته كما لم تمقت أحدا؛ لكنه - الصبي لا الأب - مجرد صبي..
دعه يعش حياته الآن..
وكانت تعرف أنها ستجعل منه أهم ضباط الموساد..
يوما ما سيكون أعظم ضابط مخابرات في العالم..
هذا هو انتقامها الأخير من (أدهم صبري)([25]) ..
سيكون انتقامها الأخير..
والأخطر..
والأعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقد رئيس الموساد حاجبيه وقال لمساعده:
- بوكرتوف شلوم ليكود شاس يديعوت احرونوت.[26]))
فابتسم مساعده وهو يتفحص مجموعة من التقارير القادمة من أرجاء العالم، وقال:
- ها آرتس.. حدشوت. ([27])
قال رئيس الموساد الذي فرغت حصيلته من الكلمات العبرية:
- لا أرى ما يمنع من بدء مشروعنا الأكبر الآن.. إن هؤلاء العرب سيجدون أنفسهم في مأزق.. كنا نخشى أن يعوقنا (أدهم صبري) لكننا الآن نعرف أنه مات..
قال مساعده:
- ربما كانت خدعة؟
- لا.. لا خدعة في الأمر. لقد حصلنا على البصمات الجينية لبقاياه ونحن متأكدون من نتيجة الفحص في معاملنا من أن هذه الأشلاء تخص الرجل..
- فعلها (حاييم) ببراعة.
ضحك رئيس الموساد وقال:
- والأدهى أن مجموعة (أدهم صبري) لن تجد إلا أن تعمل مع (رائد وهيب) الوجه الجديد المشرق.. وهم لا يعرفون أنه رجلنا.. هكذا سنتخلص منهم واحدا تلو الآخر..
وانفجر يضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يتم الاجتماع في مقر رجال العمليات الخاصة في عاصمة أوروبية لن أحددها كي لا يقاضوني.. المجتمعون هم (منى) و (جيهان) و (قدري) و (شريف) و (عادل) و (ريهام) و (حسام).. ومن فضلك لا تقل إن (عادل) و (حسام) قد ماتا، فهذا يدل على أنك رجل عادي لا يفهم شيئا في الجاسوسية..

كانت الفرصة ذهبية لأن هذه من المرات القليلة التي لم يخطف فيها (قدري)، وكان يستمتع بالتهام بعض الشطائر والعرق يسيل من وجهه الشحيم، كأنما يحارب لا يأكل..
وقد قاموا بفتح التلفزيون والمذياع، كما قاموا بفتح كل صنابير المياه برغم أنهم يعرفون جيدا أنه لا أجهزة تنصت هنا..
كانت (ريهام) تتسلى بتركيب لغم أرضي، وهي هوايتها حين تتابع شرحا ما؛ لأنها تساعدها على التركيز.. وكانت (جيهان) تتسلى بالنظر إلى (مني) في كراهية من فوق قناع الأوكسجين الذي تثبته من آن لآخر.. وكان (حسام) يتسلى بالنظر إلى (مني) في وله وهيام.. وكانت (منى) تتسلى بالبكاء في صمت..
قال (قدري) وهو يضغط على زر جهاز العرض:
- يجب أن نقبل الحقيقة وأن نعود لعملنا.. لقد عودنا (أدهم) على أن ننظر إلى الأمام، وأن نقبل الخسائر باعتبارها جزءا من عملنا
وارتجفت شفته السفلي وابتلع دمعة ثم أردف:
- علينا أن نبدأ العمل دون إبطاء.. هلم يا (حسام) اشرح لنا..
أنتم تعرفون أن (حسام) هو بديل (أدهم صبري) الذي يتحرق شوقا للعب دوره، وقد فعلها عندما فقد رجل المستحيل ذاكرته.. وعلى الشاشة بدأت اللقطات الأولى التي تمثل صاروخا ينطلق إلى السماء.. ثم يتخذ ذلك المدار المنحني..
قال (حسام) بصوته الراجف قليلا، وهو يضع يديه في خصره:
- من هذه اللحظة أنا (ن - 2) قائد العمليات، ولسوف تطيعون أوامري في دقة.. إن ما أريده من هذه اللحظة لهو روح الفرييييييق!
ثم نظر إلى الشاشة حيث كانت صورة الصاروخ قد اختفت، لكنه واصل الكلام:
- هذا هو القمر الصناعي الإسرائيلي (أفق)..
وهو الحلقة الأخيرة في سلسلة الأقمار الصناعية التي أطلقتها (إسرائيل) للتجسس على جيرانها.. هناك أقمار سقطت وأخرى فشلت مهمة إطلاقها، لكن هذا النموذج هو الأقرب للنجاح..
ثم نظر إلى الجالسين وقال:
- مهمتنا بسيطة جدا هي تخريب هذا القمر.. هذا معناه إهدار أعوام من البحث والإنفاق بالنسبة للعدو.. بالإضافة إلى تدمير معنوياته..
سأله (عدل) وهو يعقد حاجبيه ويخط أشياء في ورقة:
- هذا كلام جميل.. لكن هل لديك اقتراحات؟
إن القمر في الفضاء فعلا..
قال (حسام) وهو ينظر له في ضيق:
- لو انتظرت حتى النهاية لسمعت..
ثم تبدلت صورة الشاشة لتظهر رجلا آسيويا أصلع له شارب نحيل جدير بوغد، وقد بدا على وجه الرجل أنه يعرف الحل
- خبير الصواريخ الياباني (ميكو ناجازى).. الذي يطلقون عليه اسم (البروفيسور).. قام بتصميم الصاروخ (بوشيدو) القادر على تدمير أي قمر صناعي ([28]) في مداره.. وقاعدة الإطلاق جزيرة في جنوب شرق آسيا.. سيكون علينا أن نتواجد هناك ونجري الصفقة.. ومن دون أن تشعر بنا أجهزة المخابرات.. هل من أسئلة؟ ...
سألته (جيهان):

- نعم.. هل جرب هذا من قبل؟ كم قمرا صناعيا دمر من قبل؟
- قدرات الرجل لم تختبر قط..
- إذن على أي أساس تثقون به وتعتبرونه (البروفسور)؟
ابتسم (حسام) وقال:
- ليس لدينا الخيار.. إن الصواريخ التي تدمر الأقمار الصناعية لا تباع في ميدان العتبة لو كنتم قد لاحظتم هذا..
- ألا ترى أن في هذا نوعا من التهور لا بأس به؟
كان الشريط قد انتهى فأطفأ آلة العرض ليجدوا أنهم في الظلام التام، وهنا انفجرت آلة العرض كما يحدث دائما مع هذه الشرائط المهمة، واحترقت الورقة التي في يد (عادل) تلقائيا..
قال (حسام):
- بلى.. لكن هذه هي مهمة الفريق الذي سيذهب إلى هناك، والذي لا بد أن يتضمن (شريف) خبير الإلكترونيات.. علينا أن نعرف أولا إن كان الرجل يستطيع..
سألته (عبير) التي صارت (مني):
- وهل نذهب إلى الجزيرة لنخبره أننا جئنا لنرى ما يستطيع عمله ثم نقرر؟
- لا.. الرجل يعرف عنا كل شيء، وقد مهدت (دونا كارولينا) لزيارتنا بدقة.. أنتم تعرفون أنها مستعدة لعمل أي شيء ل (أدهم) ورفاقه..
قال (قدري) وهو يلتهم آخر شطيرة في الطبق:
- ليكن.. الفريق يتكون من (منى) و (شريف) و (حسام) و (ريهام).. لا أعتقد أنني و (جيهان) سنفيدكم كثيرا..
- التحرك صباح غد وإنني لأتوقع منكم أن تعودوا إلى روح الفريق بأسرع ما يمكن.. ومن جديد أكرر يجب ألا يشعر بنا أي جهاز مخابرات، كما لا أريد أن يشعر بنا ذلك المهرج صنيعة الموساد (رائد وهيب)..
وبدت في عينيه نظرة جادة..
وصارمة.
ومقلقة..
ومتوترة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما (سونيا جراهام) تخرج من ذلك الفندق في (ستوكهلم)، شعرت شعورا غريبا، إن حاسته السادسة مرهفة، وقد جعلتها تتوقع هجوما.. هجوما ببنادق آلية من أربعة رجال يركبون سيارة ألمانية زرقاء، وأحد هؤلاء الرجال يعرج نوعا ويتكلم بلهجة روسية..
لم تر شيئا من هذا، لكنها شعرت به.. إن الجاسوس يجب أن يعرف هذه الأشياء.. لهذا أخرجت مدفع العوزي الصغير الرقيق الذي ربطته بشريط أحمر أنيق، وكمنت بين السيارات تنتظر قدوم هذه السيارة..
من هؤلاء؟ لماذا هي بالذات؟ لا تعرف.. لكن لها أعداء بعدد شعر رأسها وكلهم يتمنى أن يراها جثة ملطخة بالدم على قارعة الطريق ([29])..
لكن الهجوم لم يأت من الأمام كما توقعت..
جاء من الخلف..
من السيارة التي احتمت بها..

من النافذة خرجت يد بقفاز حاملة مبضعا ومرت بالنصل تحت عنقها..
بدقة..
بقسوة..
ببرود..
بوحشية..
بشراسة..
بكراهية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- جزيرة الجواسيس..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..
لكن دعنا من (أدهم) قليلا فهو ليس هنا للأسف..
راح ربان السفينة ينظر في دهشة إلى هذه المجموعة من السياح.. لقد رأى أغرب منهم في حياته، ولكنه لا يفهم ما هو الشيء الجذاب الخارق للعادة في جزيرة (موكاوا) بحيث يقصدها كل هؤلاء السياح.. لكنه لا يسأل.. المهم أن هؤلاء السادة يدفعون.. يدفعون بسخاء..
يمكنك أن ترى المجموعة.. منهم فتاة شقراء رائعة الجمال يبدو أنها أمريكية، ويبدو أن الفتاة التي معها شقيقتها الأقل جمالا.. وهناك ذلك الشاب الإسباني العصبي قليلا، ثم ذلك الفتى الفرنسي النحيل ذو العوينات.. لا أحد يبدو عليه أنه يعرف الآخر لكن سمة عامة تجمع بينهم..
إنهم عصبيون كالقطط..
لكن البحارة يتكلمون، وكانوا يقولون شيئا عن رجل ياباني يعيش هنا.. رجل خطير خطير جدا..
وكانوا يقولون إن كل هؤلاء الذين يأتون هنا رجال مخابرات، لكنه لم يكن يسأل أسئلة مادام يتقاضى راتبه بالتمام والكمال..
أمس أحضر هنا رجلين يبدو أنهما من الروس.. كان كل واحد منهما ضخما كالثور، باردا كالثلج، وكان من الواضح أنهما خطران لأن أحد البحارة حاول أن يضايق أحدهما فلم يجد أنفه في موضعه.. هؤلاء الروس يجيدون استعمال المدي حقا..
منذ أسبوع أحضر شابا فارع القامة.. وسيما كموديلات الإعلانات.. له تلك الذقن المشقوقة التي تميز أبطال القصص المصورة.. واثقا من نفسه كرعاة البقر..
كان الشاب يزعم أنه أسترالي وأن اسمه (دوجلاس).. لكن ربان السفينة المحنك الذي علمته السنون، لم ينخدع بهذا.. من الواضح تماما أن الشاب يدعى (رائد)، ومن الواضح أنه إسرائيلي يتظاهر بأنه عربي.. عرف هذا بخبرته على الفور..
لكنه لم يكن صاحب رأي في هذه الأمور..
كل شيء يتساوى مادام ينال أجره..
أجره في النهاية..
في النهاية..
النهاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- تريدون عشاء؟
التقى حاجبا الياباني العجوز، بعدما قال هذه العبارة، وهو يتأمل هذه المجموعة من السياح في مطعمه..
قال له الشاب الإسباني العصبي:
- نحن نريد طبقا من (السوشي).. ولكن من دون (سأكي).
فكر الرجل قليلا وتأمل الواقفين، ثم قال في حذر:
- اتبعوني..
ومشى إلى نهاية المطعم الذي كان يعج بالأشخاص المريبين.. يسهل على المرء أن يعرف

الجواسيس حين يراهم، وحقا كانت جزيرة (موكاوا) القريبة من اليابان هي ملتقى جواسيس العالم.. من الصعب أن تجد هنا مواطنا بريئا أو شخصا أحمق لا يعرف ما أتي به هنا.. وكان الأهالي يطلقون على الجزيرة فيما بينهم اسم (نادي الجواسيس)..
طبعا كانت كلمة السر هي (طبق من السوشي بدون ساكي)، وهو ما كان يؤدي إلى اختلاط الأمور بالنسبة لعدد من السياح العاديين الذين هم - فعلا – يريدون طبقا من (السوشي) بدون (ساكي) وعندها كان التخلص من هؤلاء واجبا.. حقا لا بد من ضحايا في هذا العالم الخطر..
مشى الرجل إلى نهاية المطعم، ورأت (عبير) - التي كانت متنكرة كشقراء أمريكية رائعة الجمال - نصف دستة من الجالسين يتلصصون في شوق لمعرفة ما سيحدث.. ورأت أكثرهم يكلم كمه..
أي يتكلم في جهاز الاتصال المثبت إلى معصمه..
انفتح باب.. ثم انفتح باب آخر يفضي إلى مخزن للخمور.. ثم انفتح باب ثالث..
كانت هناك قاعة بلا نوافذ ولا أبواب – غير المدخل - تحيط بها مواسير ماء صدئة، وبعض الفئران تلعب هنا وهناك..
قال الإسباني الذي لم يكن سوى (حسام):
- هل سيقابلنا هنا؟
هز الياباني رأسه في أدب ثم انسحب من القاعة..
انغلق الباب خلفه ووقفوا ينتظرون..
(عبير) لم تحب هذا وذكرها الموقف بالكمائن التي تراها في السينما.. وكادت تقول هذا، حين بدأت المواسير تنفجر بالماء، وأدركت أن المكان معزول تماما.. إن الماء يرتفع..
قالت وهي تنظر إلى الأرض في رعب:
- إنه كمين بالفعل! لقد اقتادتنا الرجل إلى كمين..
وعقد (حسام) حاجبيه..
إن الموقف رهيب..
وخطير..
خطير جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضعت (سونيا جراهام) سماعة الهاتف، وراحت تنظر إلى الجهاز في توتر لقد كانت المكالمة مهمة.. صحيح أن هناك نحو ألف جهاز مخابرات قد حصل على نصها الآن، لكنها لم تستطع الانتظار حتى تشغل جهاز تشويه الصوت Scrambler..
لقد اختفى كل أصدقاء (أدهم صبري).. كلهم غادر الفندق.. وتفرقوا.. ثم لم يعد لهم من أثر..
أين ذهبوا؟
لقد مات (أدهم صبري) بالفعل، لكنها مازالت تعتبره حيا في رفاقه وفي فريق العمل الذي كونه..
وما زالت تجد أن من واجبها التصدي لأية خطة يزمع هذا الفريق عملها.
أين هم؟
بالطبع هم في مهمة سرية..
إنها تعرف أن عددا من الجواسيس اتجهوا إلى جنوب شرق آسيا لغرض ما..
وبحاستها التي لا تخطئ أدركت أن هناك شيئا ما يدور هناك، لكن ما هو؟
لو كانت على علاقة بالموساد لاستشارتهم، لكنها طُردت من (الموساد) طردا مهينا، والسبب

(أدهم صبري) الذي لقنها درسا لا بأس به في الماضي..
عليها إذن أن تعمل وحدها.
إن المعلومة في هذا المجال الذي تعمل فيه تساوي الكثير.. تساوي الملايين.. وهذا هو عمل الجاسوس المستقل الذي لا يعمل لحساب دولة ما، وإنما يعمل لنفسه..
يمكن القول دون خطأ كبير إن رفاق (أدهم) جميعا في تلك الوجهة الآسيوية، وعليها أن تلحق بهم هناك..
رفعت سماعة الهاتف واتصلت ب. (توني بورسالينو)
الذي يعمل واجهة لها في كل شيء..
قالت له:
- أريد السفر إلى (المكسيك) يا (توني).. احجز لى تذكرة على طائرة السادسة مساء بعد غد..
طبعا كما يعرف القراء الخبراء، معنى هذا أن عليه أن يحجز تذكرة إلى (طوكيو) في طائرة الواحدة بعد ظهر اليوم..
ووضعت السماعة وضحكت..
ضحكت ضحكة..
ضحكة مرعبة..
جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في وكالة الاستخبارات المركزية مازال الرجال يفتشون عن ذلك المتسلل الغامض الذي سرق كل ما تعرفه الحكومة الأمريكية...
قال أحدهم لزميله:
- هلم يا رجل.. إن هذا الفتى لا يمزح.. إنه محترف..
ومشى كل واحد منهم يستكشف أحد الممرات.. وكانوا قد طلبوا الكلب البوليسي الشرس (ساتان) لكنهم عرفوا أنه التهم مدربه اليوم فقط..
دخل أحد الحراس ممرا جانبا ومسدسه في يده، وهو ينظر وراء كل مضخة إطفاء أو منصة صغيرة للهاتف أو أي شيء يوضع في إدارة المخابرات..
هنا شعر بشيء غريب..
نظر لأعلى فوجد جزءا من سترة رجل تتدلى من بين ألواح السقف المتحرك البلاستيكية.. ابتسم في سره.. لم تكن خطة سيئة.. بالواقع ليست سيئة على الإطلاق، لكن ما ينساه المتسلل هو أنهم محترفون ولا يلعبون ال (بيكا - بو) - المساكة الأمريكية – وهكذا كل ما عليه هو أن يطلق طلقة على هذا الشيء..
أخرج مسدسه وصوب الفوهة لأعلى، وداري ضحكة وحشية ثم أطلق الرصاص من مسدسه كاتم الصوت..
انفتحت ألواح السقف وتدلى الجسد من أعلى كأنما هو مربوط إلى السقف..



انفتحت ألواح السقف وتدلى الجسد من أعلى كأنما هو مربوط إلى السقف..

لكن الوجه الذي رآه لم يكن وجها غريبا.. كان وجه صديقه (وايلدر).. عرفه برغم أنه مقلوب..
صاح في حيرة وذهول:

- لكن! ما الذي....؟
هنا خرج عليه شخص ما من وراء مبرد المياه الموجود في الركن، وعاجله بلكمة في فكه، ثم لف ساعده حول عنقه وضغط بقوة حتى هشمه.. ثم ضربه على رأسه للتأكيد.. ثم ركله في خصره.. ثم ضربه بسيف يد على كتفه.. ثم هوى بمؤخرة المسدس على رأسه.. ثم أخرج محقنا مليئا بالسم أفرغه في عروقه.. ثم شنقه بحبل.. ثم ربطه إلى سلك كهربي وقام بتمرير 1500 فولت في جسده.. ثم أطلق عليه عشر رصاصات من المسدس الذي يتسع لست طلقات..
حدث كل هذا بسرعة المحترفين وبراعتهم.
ثم إن المهاجم جر الحارس إلى حجرة جانبية كي يخفيه عن العيون.
عن العيون..
العيون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- جلست (سونيا جراهام) في الطائرة تقرأ مجلة أزياء باريسية، وجاءتها المضيفة بالعشاء فابتسمت لها في رقة، وقالت وهي تنظر لساعتها:
- معذرة.. هل اقتربنا؟ إنني متوترة جدا..
ضحكت المضيفة وقالت:
- هل هي المرة الأولى لك؟
هزت (سونيا) رأسها في توتر.. الحقيقة أن هذه كانت المرة الأولى بعد المليون تقريبا، لكن كان الخداع طبيعة ثانية لديها.. في هذه المهنة لا أحد يعطي معلومات مجانية..
ومال الرجل الجالس جوارها عليها وقال:
- لا تقلقي يا (كتكوتة).. إن الطيران صار أكثر أمنا من المشي في شوارع المدن..
- كتكوتة؟
ونظرت له في غيظ وغل.. كان رجلا قصيرا أصلع يبدو مسرورا جدا لأنه يستطيع أن يبدو قويا أمامها.
من فوق صينية عشائه، ناولها بطاقة صغيرة وقال:
- (شارل ميلو).. محاسب بلجيكي..
ثم رشف رشفة من كأسه وراح ينتظر رد فعلها في شغف..
أخذت البطاقة ومزقتها بدقة إلى قطع صغيرة وضعتها في صينية عشائها، وقالت بجفاء:
- (مارلين مونرو).. ممثلة أمريكية.
راح يضحك وسال الدمع من عينيه وهو يضرب المسند مرارا:
- أنت تمزحين.. هاهاها.. ظريف جدا.. ظريف!
ثم مال عليها من جديد وقال:
- إن سفر فتاة جميلة مثلك وحيدة ليدفع المرء دفعا إلى أن يعرض خدماته وحمايته عليها..
أنت تعرفين.. كلما كانت الفتاة (كتكوتة) كان...
فجأة تقلص وجهه وجحظت عيناه..
فك رابطة عنقه وحاول أن يقول شيئا، ثم سرعان ما هو رأسه على صدره بينما رائحة اللوز المر تفوح من حوله.. لقد أدى قرص السيانيد الذي وضعته في شرابه عمله جيدا.
أراحت رأسه على مسند المقعد، وابتسمت..

وعادت تطالع المجلة في اهتمام...
لا شيء يضايقها في السفر إلا ثرثرة جيران المقعد..
لكنها ليست مستريحة.
حاستها السادسة تقول لها إن شيئا ما ليس على ما يرام..
وهي اعتادت أن تحترم حاستها السادسة هذه فلطالما أنقذتها من مواقف أسوأ بكثير..
هل هناك من يعرف أنها سافرت؟ ليست لديها أوهام.. لا توجد أسرار في عمل الجاسوسية.. إن الأخبار معروفة لكل منظمات التجسس في العالم، ولا شك أن جريدة (عالم الجواسيس) نشرت صورتها في الصفحة الأولى وهي تصعد متنكرة إلى الطائرة..
لكن هذا لا يدل على وجود خطر ما..
إلا لو كان هنالك من يريد منعها من..
في هذه اللحظة دوي الانفجار وانشطرت الطائرة إلى نصفين..
وسقطت بسرعة رهيبة..
مفزعة..
لا تصدق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- البروفيسور..

لو أن أحدا رأى هذا المشهد العرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل..
هو فقط الذي كان يستطيع إخراج رفاقه من هذا المأزق..
لقد أفرغ (حسام) الكثير من طلقات الرصاص في الباب، وجربت (ريهام) بعض مفرقعاتها على القفل، لكن بدا أن الباب لن ينفتح أبدا..
قالت (عبير) لهم وهي ترتجف:
- لا تقلقوا يا رفاق.. لا بد أن هناك حلا..
لكن من يراها كان يدرك الحقيقة بوضوح تام: لا يوجد حل من أي نوع.. الماء يرتفع حتى بلغ الصدور.. والوقت يمر.. هذه ميتة شنيعة.. ميتة مملة.. ميتة بشعة..
وقال (شريف) الذي لم يعتد أن يوقف عقله أبدا:
- لكني لا أفهم.. لماذا يحاول أحد أن يقتلنا؟
التقى حاجبا (حسام) في نفاد صبر:
- القصة واضحة.. الإسرائيليون يعرفون كل شيء عن نوايانا ورتبوا لنا هذا الكمين.. ربما لا يوجد بروفيسور على هذه الجزيرة أصلا.. ربما صاحب المطعم مرتش.. النتيجة واحدة..
ثم بدت عليه رومانسية مرعبة وهو يقول لـ (عبير):
- (مني).. بما أن هذه لحظة الحقيقة فلابد أن أصارحك بأنني.
هنا توقف إذ لاحظ شيئا غريبا..
لقد كف الماء عن الارتفاع..
قالت (عبير) / (منى) وهي تتحسس المياه:
- لا أدري إن كانت الأمور تتحسن أم أن هذه هي اللحظة التي يبدأ فيها الماء في الغليان..([30])
لكن كل شيء كان يقول إن الأمور تتحسن.. بعدها بدأ المستوي يهبط..
ويهبط..
ويهبط..
كانت هناك فتحة واسعة قرب القاع كأنها بالوعة أو فتحة ميزاب.. ومنها كان الماء يتسرب.. لقد فتحها أحدهم.. وأطل رأس من الفتحة لم يتبينوه جيدا، وهتف:
- بسرعة.. يمكنكم الخروج من هنا..
كانوا مبتلين كقطط صغيرة، لكنهم ركضوا إلى هناك، وحشر كل منهم جسده عبر الفتحة التي يبلغ قطرها المسافة التي بين كتفيك بالضبط..
أخيرا وجدوا أنهم يقفون في نفق كبير تغمر المياه أرضه.. وكانت هناك سيارة (جيب) تقف بانتظارهم.. أما عن الذي كلمهم فقد كان شابا فارع القامة.. وسيما كموديلات الإعلانات.. له تلك الذقن المشقوقة التي تميز أبطال القصص المصورة.. واثقا من نفسه كرعاة البقر..
قالت له (عبير) وهي تمسح الشعر المبتل عن عينيها:
- أنت.. أنت (رائد وهيب)..
ابتسم في أناقة على طريقة (جيمس بوند) وقال:
- في خدمتك يا آنستي..
اندفع نحوه (حسام) مكورا قبضته وهو يهتف:

- أيها الوغد! أنت مجرد عميل! أنت لن تخدعنا كما خدعت سوانا!
- هل أنت متأكد من هذا؟
قالها (رائد) وهو ينحني ليتفادى الضربة ثم بحركة (جيدو) بارعة لف ذراعيه حول خصر (حسام) فألقاه على الأرض، ودفن ركبته في منبت عنقه..
ثم التقى حاجباه وقال لهم وهو مازال حيث هو:
- لست هنا للدفاع عن نفسي.. هل تريدون لقاء البروفيسور أم لا؟
صاحت (عبير):
- نريد..
- إذن تعالوا معي..
نهضوا وركبوا السيارة.. وسرعان ما انطلق (رائد) بها عبر النفق الطويل الذي لم تكن تنيره إلا أضواء خافتة على الجانبين..
لم يبد سيئا بالنسبة لـ (عبير)، وقالت لنفسها إنه قد لا يكون إسرائيليا على الإطلاق.. إن حبهم لـ (أدهم) وانبهارهم به قد يجعلهم أكثر عدوانية مع كل من ليس (أدهم)..
تلاقي حاجباه وهو يقود السيارة وقال لها:
- فعلا.. أنت محقة..
نظرت له في دهشة فقال:
- فعلا أنتم مستعدون لكراهية كل من ليس (أدهم) حتى لو كان في صفكم.. هذه هي المشكلة..
- هل تقرأ أفكاري؟
تلاقي حاجباه وقال في غموض:
- رجل المخابرات البارع يجب أن يفعل ما هو أكثر..
سألته (ريهام) التي كانت منهمكة في إعداد بعض ألغام الدبابات، وهي جالسة في المقعد الخلفي:
- لماذا تعرضنا لمحاولة القتل هذه؟
قال في غموض مرة أخرى:
- كلا.. لم يرد الرجل قتلكم.. كان يريد التأكد من أنكم رجال مخابرات حقا.. هذا نوع من المرشح (الفلتر) الذي لا بد من المرور به قبل أن تقابلوا البروفيسور.. إن هلكتم كنتم من المدعين.. وإن نجوتم كنتم رجال مخابرات، وصار من حقكم مقابلة الرجل..
- لكننا رجال مخابرات وكدنا نهلك برغم هذا..
- لكنكم نجوتم.. هذه هي المحصلة الأخيرة..
دنت السيارة من نهاية النفق.. وبدأت الأرض الممهدة...
عندها زاد (رائد) من سرعة السيارة..
وخطر لـ (عبير) أنه لو كان يخدعهم فقد فشلت المهمة قبل أن تبدأ..
إن لهذا تبعات خطيرة..
خطيرة جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقترب القارب من الجزيرة وعلى ظهره تلك الشقراء الفاتنة التي يمكننا أن نتذكرها على الفور..
إنها (سونيا جراهام) عدو (أدهم صبري) اللدود والتي حسبناها هلكت عند انفجار الطائرة..
بالنسبة للربان زعمت أنها فتاة فرنسية بلهاء، لكنه كان يعرف ما هو أفضل.. إنه ليس ابن الأمس

أو معدوم الخبرة.. كما تقول المجلات المصورة: هؤلاء القوم من النوع الذي يبعث بطاقته على شكل رصاص.. من الواضح تماما أنها جاسوسة إسرائيلية وأن اسمها (سونيا جراهام) وأنها كانت متزوجة من مصري فاقد الذاكرة يدعى (أدهم صبري)..
قال لها وهو يرسو بالقارب إلى شاطئ الجزيرة:
أنت ذاهبة إلى المطعم طبعا..
قالت في غموض وهي تضع مساحيقها:
- أنا جائعة.. هذا حقيقي ..
أسدى لها النصيحة القلبية التي يسديها لكل قادم إلى الجزيرة:

- اطلبي منهم أن يقدموا لك طبقا من السوشي لكن من دون ساكي
وضم إبهامه إلى سبابته ليوحي بأن الطبق ممتاز، وأردف بالفرنسية ليوحي بأنه راق:
- إنها (سبيسياليتيه) خاصة بهم..
لم يكن يعرف كلمة السر، لكنه بحماقة كان يزيد من عدد هؤلاء الذين تورطوا في شبكات التجسس وهم أبرياء..
هزت (سونيا) رأسها.. إنها بالفعل مولعة بالسوشي خاصة من دون فودكا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مازلنا في وكالة الاستخبارات المركزية..
لقد تنكر المتسلل في ثياب الحارس، وخفض الكاسكيت على عينيه، ثم مشى في ثقة بين الرجال الذين يبحثون عن المتسلل.
سأله أحدهم:
- هل وجدت الرجل يا رجل؟
قال بلهجة أمريكية ممتازة كأن أمه من (فرجينيا):
- ناب.. لو سألتني لقلت إن الوغد يجيد الاختفاء.. إنه جيد يا رجل.. فلأشنق لو لم يكن جيدا.. يجب أن يجد المخرج.. يجب...
مشى في تلك الرواق الطويل المفضي إلى الخارج، وهو يضع في مشيته كل الاستهتار والثقة الأمريكيين خاصة حين يكون هو من أبناء ذلك المكان..
قابل مجموعة من رجال (السوات) الذين يرتدون الدروع الواقية للرصاص والثياب السوداء، وقد حمل كل منهم بندقية آلية مزودة بكشاف.. وثبت على أذنه سماعة تتصل - لسبب ما - بعدسة مثبتة أمام عينه اليسرى، وهذه العدسة ترسل أشعة ساطعة....
لا أعرف جدوى هذا الإجراء في الحقيقة لكنه يبدو رهيبا ويصلح لملصقات أفلام الأكشن..
يبدو أن العالم قد انقلب رأسا على عقب في الخارج، وأن كل قوات الأمن الأمريكية تحاصر المكان.
سأله أحدهم وهو يقف خلف جدار رافعا فوهة البندقية الأعلى:
- هل من أخبار يا رجل؟
قال وهو يقذف لفمه بقطعة أخرى من اللادن:
- يا للجحيم.. ناب.. إن الرجل اللعين جيد.. لأشنق إن لم يكن جيدا.. لكننا سنظفر به ونركل الشيطان ليخرج من أحشائه.. سوف نصنع منه هامبرجر يا رفاق..
كان هناك رجل زنجي عملاق يرتدي معطفا، وكل جلده يلمع كأنه حذاء (فيرنيه) فاخر.. لا بد أنه

رئيس الشرطة.. كلهم زنجي ولا أعرف سببا لذلك.. كان يوجه الكلام لرجل من (السوات) يضع (كاسكيت) يغطي نصف وجهه ويبدو متقدما في العمر عن الآخرين:
- رجالك لا شأن لهم بهذا العمل.. إنه من اختصاص شرطةLA
- وأنا أقول لك إن رجالي سيتولون من هنا..
دفع الزنجي إصبعه في صدر الرجل وقال:
- لن أسمح لكم بالتدخل.. أنا أعرف عملي جيدا..
وضع رجل (السوات) يده في جيبه وصاح:
- إن مكالمة واحدة لـ (جون مايرز) ستكلفك منصبك.. لن تجد...
الخ.. الخ.. هذا المشهد يحدث في كل الحلقات التلفزيونية وكل الأفلام إلى حد أنه لا داعي لتضييع الوقت في سرده.. لعل ما يميز فيلما مثل (مولان روج) أو (الرقص مع الذئاب) أنك لن تجد فيه هذا الموقف، ولهذا تفوز هذه الأفلام بجوائز الأوسكار....
هنا صاح أحد رجال (السوات) وهو يشير إلى الذي يمر جوار الرجلين:
- لحظة يا رجل! إن هذا الرجل لا يلبس حذاء رجال الأمن!
وقبل أن يفهم أحد ما حدث ركع رجال (السوات) على ركبهم وانطلق سيل من الطلقات..
لم يعد أحد يرى شيئا من الدخان..
كان الهجوم عنيفا.
كاسحا..
بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن تغير المشهد تماما..
لم يصدق أحدهم ما رآه حين بدأت السيارة الجيب تشق طريقها وسط مساحات شاسعة من الأرض.. كل شيء فيها يبدو كمعسكر حربي، لكن الغريب في الأمر هو أنه لم تكن هناك سماء.. السماء كانت شبكة هائلة ضيقة الفتحات؛ تتعلق بعشرات الأوتاد العالية التي يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرة أمتار.. وكانت هناك أضواء معلقة بالأوتاد، بينما الشبكة تحمل جذور نباتات تتدلى.
قال (رائد) وهو مستمر في القيادة:
- كاموفلاج! تمويه.. إن هذه الشبكة تبدو من أعلى كأنها قطعة متجانسة من أرض الجزيرة، ولا تستطيع أية طائرة استطلاع أو قمر صناعي أن يتنبأ بوجود هذا المعسكر تحت.. ولو عرف الأمريكان بهذا لدك المكان كله خلال ساعة..
قالت (عبير):
- لكن الجزيرة تعج بالجواسيس..
- تعج بالجواسيس المستفيدين.. هذه نقطة.. ثم إن أكثرهم لا يعرف طريقة الوصول هنا..
ومن خلفها دنا (حسام) ليقول في ولع:
- (مني).. كدت أعترف بحبي لك في القبو لأنني حسبتها لحظة النهاية.. و...
قالت محاولة التخلص منه:
- لكنها لم تكن كذلك.. لا مشكلة.. كلنا يخرف عندما يشعر بأنه لا مفر..
- إن (أدهم) صديقي.. لكنه قد مات. وهذا يعني أن علينا أن...
كانت أنفاسه لزجة كأنفاس (الوولفرين).. وودت لو لكمته في أنفه كي يكف عن الرومانسية

قليلا..
هنا جاءها الفرج في صورة أحد الكمائن..
كان هناك عدد كبير من الحراس الآسيويين الذين راحوا يتفقدون العربة كلما انطلقت مائة متر.. وهم حراس يلبسون ثيابا متباينة لا توحي بالالتزام أو النظام.. بعضهم كان يلبس كرجال الصاعقة مع خوذة على الرأس، والبعض كان يربط عصابة على رأسه، والبعض كان عاري الجذع يربط مئزرا على نصفه الأسفل.. لكنهم جميعا كانوا شرسين.. يسهل معرفة أن هذا ليس جيشا نظاميا بل هم مرتزقة ([31]).. فكان (رائد) يلوح بيده، ويقول شيئا ما في كل مرة..
أخيرا تتوقف السيارة أمام الكوخ..
ترجلوا جميعا وهم متوجسون، لكن حارسا آسيويا دنا منهم وقال شيئا ما..
- البروفيسور ينتظرنا..
دخلوا الكوخ حيث لم يكن هناك ما يثير الخيال من الأثاث أو الأجهزة.. فقط كانت هناك منضدة عليها زجاجة شراب، ويجلس إليها رجل آسيوي أصلع بشارب يوحي بأنه وغد، يلبس بدلة تدريب الكاراتيه، ويضع على عينيه نظارة (بانس نيه) غليظة من الطراز الذي يثبت على الأنف مباشرة.. وله أسنان أرنب واضحة.. بينما يمسك في يده بمنشة للبعوض.. باختصار كان مجرم حرب يابانيا من الطراز الذي اعتادت السينما الأمريكية تقديمه، حين كانت تطلق على اليابانيين اسم (جابس).. لقد تقدم في السن كثيرا عما كان في الصورة.. لا بد أنه في السبعين الآن.. لكنه ما زال يبدو وغدا...
كان هذا هو البروفيسور (ميكوناجازى) شخصيا..
الياباني..
الخطير..
الذي..
جاءوا..
من..
أجله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- بوشيدو..

عقد رئيس الشرطة حاجبيه، وهو ينظر إلى الردهة الخالية التي بدأ الدخان ينقشع عنها.. والتي لم يعد يرى فيها أحدا إلا ثقوب الرصاص التي ملأت الجدار..
قال لرجال (السوات):
- توقفوا يا حمقى.. لقد تبخر الرجل بفعل كل هذا الرصاص..
لكن قائد (السوات) قال وهو يغطي وجهه بفعل الدخان:
- لقد احترقت عيناي.. سأبتعد عن هنا..
- قلت لك إن رجالك أغبياء..
- إنهم أسرع من قدرتك على الملاحظة.. لقد فعلوا كل شيء بينما أنت لم تفهم ما يدور أصلا..
صاح الزنجي وهو يفتح ذراعيه:
- الرجل لم يتبخر.. لقد فر..
لكن أحد رجال (السوات) دخل الغرفة المجاورة، وعاد حاملا ذراعا، كانت ذراع الرجل..
وقال لرئيس الشرطة:
- من الواضح أنه لم يفر أيها المفتش.. لقد بعثرت رصاصاتنا أشلاءه فقط..
في هذه اللحظة دخل قائد (السوات) الحجرة الجانبية، فأعاد تنسيق شكل الرماد الذي بعثره على شعره.. لقد كانت ضربة موفقة أنه تنكر بهذا الشكل بسرعة وقبل أن يصل الأخرون.. لم يكلفه شيئا أن يلعب دوره بثقة. أما القائد الحقيقي فهو سجين في خزانة التنظيف..
أما البائس الذي مات لأنه يرتدي حذاء غير قانوني، فلا شأن له به..
الآن يجب أن يغادر المكان بسرعة..
اتجه إلى نهاية الردهة حيث باب الخروج عالما أن ثياب (السوات) هذه ستفتح له الأبواب المغلقة.. وفي الخارج كان المكان مسرحا للمجانين.. أكثر من مائة سيارة مفتوحة الأبواب، وقد احتمي رجال الشرطة خلف كل منها، وكانت سيارات نقل الجنود أشبه بوحش خرافي لا يكف عن القيء وإفراغ المزيد من (السوات) بالثياب السوداء..
دنا من أحد رجال الشرطة، وأخرج لفافة تبغ قدمها له، وأشعل أخرى وقال:
- هل من أخبار أيها الزميل؟
قال رجل الشرطة:
- يا للجحيم.. ناب.. إن الرجل اللعن جيد.. لأشنق إن لم يكن جيدا.. لكننا سنظفر به ونركل الشيطان ليخرج من أحشائه.. سوف نصنع منه هامبرجر يا رفاق..
كان هذا كافيا كي يعرف أن أم رجل الشرطة من (فيرجينيا).
هز رأسه بمعنى أنه يفهم وابتعد ببطء متعمد..
ابتعد عن دائرة الزحام وبدأ يشعر بأنه يسترد أنفاسه.. ثم دخل زقاقا خاليا..
هنا فقط شعر بفوهة المسدس مصوبة إلى مؤخر رأسه، وسمع من يقول:
- لا تتحرك يا (أدهم صبري)!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- معذرة على عدم اللياقة لكنكم جئتم في وقت تدريبي اليومي..

قال البروفيسور (ميكو ناجازي) هذه العبارة وهو ينحني في أدب، فأفهمه (رائد) أن آخر ما يريدونه هو مقاطعة تدريبه..
نهض الرجل وانحنى.. ثم بدأ يتلو صلاة ما باليابانية..
ثم بدأ يؤدى حركات (كاراتيه) توحي بأنه يقاتل خصوما وهميين.. كان يتحرك بسرعة ورشاقة وصوت قبضته يمزق الهواء تمزيقا.. ودخل بعض الجنود يحملون كومة من الخشب والقرميد.. فأطلق صرخة مرعبة وهوى على الخشب ليشطره إلى نصفين، ثم تناول عودا من الخشب قذفه في الهواء وهوى عليه بسيف يده فشطره كأنما هي سكين..



ثم بدأ يؤدى حركات (كاراتيه) توحي بأنه يقاتل خصوما وهميين..

بعد هذا هوى على القرميد فأحاله إلى غبار أحمر..
ثم إن الرجال جاءوه بخمس بنادق آلية، وضعوها على كومتين من القرميد، فرفع سيف يده

وهوى عليها وهو يطلق صرخة ال (كاييييي) التي تجمد الدم في العروق.. سرعان ما تهشمت البنادق إلى نصفين..
ابتلع (حسام) ريقه وقال ل (عبير):
- لا بأس.. بالنسبة لسنه..
هنا قذف أحد الحراس بسيف إلى البروفيسور.. سيف (ساموراي) مخيف من الطراز الذي كان الجنود اليابانيون يبترون به أطراف الجنود الأمريكيين في جزر الملايو..
أمسك الرجل بالسيف ورفع ساقا في الهواء، وراح يرقص وهو يموء كقط.. ثم صرخ صرخة عنيفة وانطلق كالملسوع ليهوي به على ذبابة كانت على المنضدة فمزق جناحيها دون أن يؤذي جسدها..
ثم طار في الغرفة ليهوي على عنق (رائد) الذي لم يفهم ما يحدث، حتى وجد أن ما بقي على عنقه لم يكن سوى أقدام العنكبوت، بينما طار الجسد بعيدا..
- لا بأس.. لا بأس..
أخيرا انتهى التدريب.. فانحنى الرجل وعاد إلى موقعة خلف المكتب، وهو مبلل بالعرق لكنه يشعر بالرضا عن النفس....
- معذرة. لكني أحب أن أكون بكامل لياقتي.. إن السن المتقدمة تقتل..
قال له (رائد) وهو يجلس على مقعد أمامه:
- سرنا هذا العرض.. لكنك تعرف لماذا جئتك وجاء هؤلاء.. وأرى أن نبدأ في الكلام عن الأعمال..
- آه هاهاها.. الأعمال!
سألته (عبير) وهي تجلس على الأرض لأنه لم يكن هناك من مقعد:
- كم تريد؟
نظر لها (رائد) في غيظ، وانحنى ليهمس في أذنها:
- لسنا في سوق العتبة هنا.. الأمور لا تؤخذ بهذا الشكل يا (مني)..
ثم انحنى ليسال الرجل في حنكة
- كم تريد؟
ضحك الرجل كثيرا كاشفا عن أسنان الأرنب، وقال:
- هاهاها.. خمسة ملايين.. هاهاها..
- هاهاها..
- نعم.. هاهاها.. حساب في سويسرا.
هنا قرب (رائد وهيب) وجهه منه وقال في حزم:
- اسمع.. أنا أكره هذا لكني لم آت لأشتري منك ولكن لأبيع.. إن لدينا كل الملفات التي تثبت أنك مجرم حرب، كما أن كل معلوماتنا عن نشاطك في صنع الصواريخ مدونة.. كل هذه الأوراق في خزانة في سويسرا، ويعرف أمرها ثلاثة محامين سوف يسلمونها للأمريكيين في حالتين..
قال الياباني في استمتاع:
- هي هي.. الحالة الأولى لو لم تعودوا أحياء..
- أنت عبقري.. والحالة الثانية لو لم تفعل ما نطلبه منك.. لكننا سندفع مليون دولار مقابل خدماتك
نظرت له (عبير) في إعجاب.. إنه بارع حقا..
لكم سيشق عليها لو عرفت أنه عميل كما يقال عنه....

قال الياباني في استسلام:
- لدى صاروخ (بوشيدو) جاهز.. متى تريدون التدمير؟
- اليوم لو أمكن..
- لا بد من يومين..
أخرج (رائد) خنجرا وغرسه في المنضدة أمام البروفيسور الياباني وابتسم.. كانت حركة لا معني لها إلا استعراض القوة..
ثم غادرت المجموعة المكان..
ولم يلاحظوا النظرة التي أرسلها الياباني من خلفهم..
كانت نظرة مفزعة..
مخيفة..
حاقدة...
جدا..
جدا جدا..
إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو أن أحدا رأى هذا المشهد لعرف لماذا يلقب (أدهم صبري) برجل المستحيل لقد نظر إلى الوراء فوجد الأخوين (إيفان) و (يوري إيفانوفيتش) رجلي المافيا الروسية الشرسين.. كان كل منهما يحمل مسدسا ثقيل الوزن ويضحك في وحشية.
قال لهما في برود:
- أنتما مخطئان.. أنا لا أدعى (أدهم).
قال (يوري) وهو يتفحصه في اهتمام:
- أنت لا تشبهه.. لكن منذ متى كانت الملامح ذات أهمية في عالم الجاسوسية؟ إن التنكر يفعل الكثير وجراحة التجميل تفعل الباقي.. لكننا عرفنا أسلوبك.. لا أحد يدخل وكالة الاستخبارات المركزية ويسرق كل وثائقها ثم يخرج حيا إلا (أدهم صبري).. لهذا أطلقوا عليه اسم الرجل..
رجل المستحيل..
وقال (إيفان) وهو يمضغ سيجاره:
- عرفنا أن هناك رجلا بالداخل وأنه يتمتع بقدرات غير عادية، لهذا جئنا هنا لنرى بأنفسنا.. ومن الواضح أن وفاتك السابقة كانت مثل كل وفياتك مجرد إشاعة..
وقال (يوري) وهو يمضغ سيجاره:
- لكنها ستصير حقيقة بعد ثانية واحدة..
قال الرجل الذي نرجح الآن أنه (أدهم صبري) فعلا وهو ينظر لما وراء الرجلين:
- لو كنت مكانكما لنظرت إلى الخلف..
ضحك (إيفان) وقال:
- تلك الحيلة التي كف الناس عنها من عام 1714
وقال (يوري):
- ماذا تتوقع أن يهاجمنا؟ مذءوب؟
قال في سخرية:

- نعم..
- لماذا لا تجد شيئا أقوى وأكثر تأثي...
هنا انقض المذءوب وأنشب أنيابه في عنقي الرجلين..
وكانت المفاجأة قاسية..
مريعة..
للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- المؤامرة..

عقد رئيس الموساد حاجبيه، وهو يقرأ التقارير التي أمامه ثم قال لمساعده:
- ليلاتوف.. هليلا.. رحبعام زائيفي.. إرييل شارون.. ([32])
قال مساعده وهو يراجع البيانات على الشاشة:
- إيزاك رابين.. ها أرتس.. كيبور.. ([33])
قال رئيس الموساد وهو يتصفح تقويم الجواسيس:
- هل هناك مهرجان أو مؤتمر أو عيد قومي للجواسيس هناك؟
- لا يا سيدي..
- إن (رائد وهيب) عميلنا هناك لكنه لم يرسل أية تقارير.. بل و (سونيا جراهام) كذلك..
ثم عقد حاجبيه وفكر قليلا، ثم قال له في قلق:
- لا بد من أن تحاول الاتصال بالرجل فورا.. (رائد) يعرف كل شيء.. لو كانت هناك لعبة ما تحاك ضدنا - وكل ألعاب (أدهم) ورجاله ضدنا ـ فأنا أريد أن أعرف فورا..
وغاب في تفكير عميق..
عميق جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت (سونيا جراهام) إلى الكوخ إياه يقتادها ثلاثة من الجنود المرتزقة الآسيويين، وكان اثنان منهم قد عميا للأبد، بينما الثالث ينزف بسبب جروح طولية عميقة في وجهه..
قالت وهي تضع قبضتيها في خصرها:
- (ميكو) أيها الأحمق.. ألم تجد حراسا أفضل من هؤلاء؟ إن جدتي كانت ستؤدي المهمة بشكل أفضل..
نهض مبهوتا وانحنى في احترام:
- (سونيا).. (سونيا جراهام) ([34])! بعد كل هذه الأعوام!
قال أحد الحراس:
- إنها شرسة كالنمر يا سيدي.. وقد التهمت حنجرة (سايوزاكا).. لقد لحق بالأجداد..
قالت في اشمئزاز:
- أجداده.. كلاب البرية.
لثم البروفيسور يدها في انبهار وهو يطري جمالها الذي تزيده السنون تألقا، ثم أمر الحراس الذين صاروا من ذوي الحاجات الخاصة بالانصراف، ودعاها إلى الجلوس..
قالت وهي تصب لنفسها بعض الساكي:
- لديك رجال مخابرات عرب هنا..
هز رأسه في ضيق.. فعادت تسأله:
- الأمر يتعلق بصاروخ.. أعتقد أنه (بوشيدو).. أليس كذلك؟ يريدون نسف قمرنا الصناعي..
هز رأسه من جديد.. ولم يعلق.. إنها كالعادة تعرف كل شيء..
قالت وهي تبتلع ما في قدحها الخزفي مرة واحدة:

- أنت لن تفعل..
- بل سأفعل مضطرا..
- مهما كان ما لديهم من أوراق فإن ما لدي أقوى.. ولسوف أنسفك نسفا.. لو علم الأمريكيون أنك...
هنا كان الياباني الصبور قد فقد أعصابه.. انتزع سيفه البتار المعلق على الجدار، وصرخ:
- الأمريكيون.. الأمريكيون! لم أعد أتحمل أكثر؟
سمعت الكلام ذاته عشر مرات اليوم!
وقبل أن تفهم ما يحدث كان قد أطاح بعنقها من فوق كتفيها بضربة واحدة..
واحدة فقط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

افترس المذءوب الرجلين، بينما الرجل - الذي يبدو أنه (أدهم صبري) - يتراجع في الزقاق..
لكنه اصطدم بشيء كما يحدث دائما.. كانت هناك صفيحة قمامة وضعها أحمق ما في طريقه، وقد قلبها.. وهكذا وجد نفسه على الأرض بينما المذءوب يعبر فوق الجسدين الممزقين، والدم يتساقط من بين أنيابه المفزعة..
قادما نحوه..
هو بالذات..
مد الرجل يده في سترته وأخرج المسدس الصغير..
أحكم التصويب ثم سدد بين عيني الوحش..
وأطلق الرصاص..
استقرت الرصاصة في رأس الوحش؛ فأطلق ضحكة ساخرة، ثم أدرك أن الأمر ليس مزاحا.. إن هذه الرصاصة فضية.. لقد خُدع! أطلق عواء مفزعا ثم سقط على الأرض ومات..
وفي اللحظة التالية بدأ يعود لطبيعته البشرية..
وتنهد الرجل الساقط على الأرض..
كان من حسن التصرف أن يحمل معه مسدسا به رصاص فضي.. هذه هي طبيعة عمل المخابرات.. يجب أن تحتاط لكل شيء حتى للقاء مذءوب في زقاق مظلم.
الآن يجب أن يفر من هنا..
يجب أن يسلم ما معه من صيد ثمين..
هنا رأى من يظهر عند مدخل الزقاق..
كان يحمل مدفع بازوكا عملاقا على كتفه ([35])
وأطلق الرصاص..
وأطلق النار..
ورأى الرجل كتلة من اللهب قادمة نحوه..
بسرعة..
بسرعة لا تصدق.
على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (سونيا جراهام) وهي تعقد حاجبيها:
- الآن بعد ما هدأت نوعا يمكن أن نتكلم.. أصدقاء (أدهم صبري) هؤلاء لن يحصلوا على الصاروخ..
قال لها الياباني وهو يمارس رياضته اليومية:
- ولكن كيف؟ إنهم سيدمرونني..
قالت ضاحكة:
- دعك من لعبة الوثائق هذه.. إنني أعرف كيف أحصل على تلك الوثائق التي تقلقك وأحرقها أمامك..
بل يمكن أن أدبر حادث قتلك كي يعتبرك الأمريكان ميتا..
قال لها وهو يضرب الهواء بسيفه:
- هل سيفعل الموساد هذا؟
مطت شفتها السفلى في اشمئزاز وقالت:
- أنا لا أعمل مع جهاز الحمقى هذا.. لقد طُردت منه، والحقيقة أنني الذي طردتهم من عالمي..
أنا أتكلم عن عمل مستقل.. جاسوسية القطاع الخاص..
ثم وقفت ووضعت يديها في خصرها وقالت في كبرياء:
- قدراتي التنظيمية + صواريخك هذه.. بهذه الطريقة يمكن أن نحكم العالم من هذه الجزيرة..
تصور أنا وأنت تهتز لنا الدول وتنحني العروش..
- والعرب؟
قالت في برود:
- أصدقاء (أدهم صبري) والجاسوس الإسرائيلي الذي يحسبونه عربيا.. يجب أن يتلقوا العقاب المناسب، وأنا أعرف أنك لا تحتاج إلى عوني في أمور بسيطة كهذه..
وانفجرت تضحك..
تضحك..
تضحك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (حسام) ل (منى) - التي هي (عبير) - وهو يمسك بأطراف أناملها:
- كما قلت لك لقد كان (أدهم) صديقي.. لكن للحب أحكامه وأنا اليوم لا أشعر بتأنيب ضمير لو صارحتك بهذه الحقيقة.. إنني...
استردت يدها في حياء، وهي تفكر في الطريقة المثلى للخلاص من هذا اللزج اللحوح.
قال (رائد) وهو يحلق ذقنه في المرآة الصغيرة:
- فيما بعد يا (روميو) يمكنك أن تعبر عن خلجات فؤادك.. لكننا اليوم في فم التنين حرفيا..
كانوا يقيمون في خيمة عسكرية جدا منحهم البروفيسور إياها، ولم تكن مريحة على الإطلاق لكنهم كانوا يعتبرون مهمتهم على وشك الانتهاء..
نظرت له (عبير) في انبهار، وقالت لنفسها إنه من المستحيل أن يكون إسرائيليا.. حرام أن يكون إسرائيليا أو حتى عميلا لأي جهاز آخر.. إنه يعرف ويجيد كل شيء..
قال (رائد) وهو مستمر في حلاقة ذقنه:
- يجب أن تتظاهروا بالاسترخاء..

نظر (حسام) إلى (شريف) الذي كان راقدا على الأرض يغط دون توقف، وقال:
- لا أعتقد أنه يمكننا التظاهر بالاسترخاء أكثر من هذا..
- هذا جميل.. لأنني أرى في المرآة مجموعة من المهاجمين، وهم قادمون ليذبحونا طبعا لأنهم يحملون السيوف.. لا تنظر للوراء.. (ريهام).. أين (ريهام)؟
نهضت (ريهام) من رقدتها على الأرض في كيس نومها، وتساءلت وهي تفرك عينيها:
- ماذا؟
- هل قمت بما طلبت منك؟
- أنت طلبت 41567 طلبا.. فأيها تقصد؟
- الألغام الأرضية المضادة للأفراد.. هل هي جاهزة؟
- جاهزة..
- جميييييل
وجفف ذقنه وابتسم في المرآة ليرى كم هو جميل.. في اللحظة التي صار أقرب المهاجمين على مسافة مترين من الخيمة.. وعلى الفور دوت الانفجارات.. وارتجت الأرض...
صاح (رائد) وهو يضع المنشفة على كتفه:
- هلموا يا شباب! تذكروا تعليماتي.. لا تدوسوا إلا على المواضع التي حددتها بصخور فوسفورية..
الحقيقة أن الألغام كانت تحيط بالخيمة من الجهات الأربع.. وكان على من لا يريد أن يفقد ساقيه أن يتعلم كيف لا يمشي إلا على الأحجار.. لقد قضوا أول ليلة لهم يزرعون هذه الألغام تحت جنح الظلام ولكن كان على (ريهام) أن تنزع عنها التفجير في الصباح وتعيده ليلا..
وخرج الأصدقاء من الخيمة محاذرين؛ ليروا الرجال وقد سقط عدد لا بأس به منهم في الخارج.. بعضهم اشتعلت النار في ثيابه فراح يصرخ..
كانوا يلبسون مثل (النينجا) بالضبط، ويبدو أن هذه من التقاليد اليابانية المحببة.. لا تقتل أحدا إلا وأنت تلبس ثياب النينجا ([36])
واندفع أحد الرجال نحو (رائد) وهو يصرخ ويطوح بالسيف البتار في الهواء.. لكن (رائد) بادره بركلة قوية في فكه أسقطته أرضا.. ثم لف المنشفة حول عنق آخر وقربه منه ليلكمه في عنقه..
وهجم واحد ثالث على (عبير) لكنها ثنت ركبتها لتضربه في أسفل البطن فتدفع الهواء من فمه..
بينما أفرغ (حسام) مسدسه في أربعة أو خمسة رجال..
كان الهجوم قد أُحبط بالفعل..
ووقف الأصدقاء يرمقون ضحاياهم في رضا..
وقال (رائد) وهو يواصل تجفيف ذقنه:
- لم يعد القتلة يجيدون عملهم كما كانوا في الماضي.. لقد صارت المهنة متاحة لكل من هب ودب..
ثم سألهم وهو يعود إلى الخيمة:
- استنتاجات؟
- هذا واضح.. لكن لماذا تجاهل تحذيرنا له بفضح أمره؟
قالت (ريهام):
- لأن لديه ورقة أقوى.. أو لأن ضده تهديدا أقوى..
قالت (عبير) وهي تلحق به في حذر:

- البروفيسور خاننا..
وفي صوت واحد فكر الجميع:
- (سونيا جراهام) هنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت طلقة البازوكا نحو الرجل الذي نعتقد أنه (أدهم صبري)..
لكنه في اللحظة الأخيرة تلوّى، وارتمى على الأرض، فانطلقت القذيفة لتصطدم بالجدار من خلفه وتحدث فجوة عملاقة..
أخرج مسدسه وصوبه نحو حامل البازوكا، وأفرغ طلقتين.. ولم يحاول معرفة شخصية مهاجمه.. فقد مات على كل حال.. انضم إلى ملفات الماضي التي لا تهم أحدا سوي حفار القبور..
ولم يحتج إلى ما هو أكثر.. استبدل بثياب (السوات) ثيابا عادية تماما..
وسرعان ما كان يركض عبر الشوارع المظلمة..
وصل إلى المطار في الوقت المناسب، وليس معه من متاع إلا حمله الثمين وجواز سفر باسم (ويليام سلفورد) وتذكرة الطائرة..
دخل إلى الحمام فغسل وجهه بعناية.. إن مغامرة اليوم كانت مرهقة إلى حد ما؛ فلا بأس بأن يغسل وجهه.. لكنه لم ينس أولا أن ينزع قناع (كوزمو) المطاطي الملتصق بالجلد، وينزع محرف الصوت Scrambler الملتصق بحنجرته.. وينزع القفاز الذي يحمل بصمات مدير وكالة الاستخبارات المركزية..
تأمل وجهه في المرآة..
ثم نظر (سيرجي كوربوف) إلى ساعته. لقد حان وقت اللحاق بالطائرة..
لقد قام بعمل جيد الليلة وسرق مستندات غاية في الأهمية، وقد تذكر ما قام به مع (أدهم صبري) من عمل جميل في الماضي..
لكنه بحاجة إلى النوم..
الطائرة لا تمثل له إلا فراشا مريحا جميلا..
وابتسم..
راضيا..
عن..
نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- انطلاق (بوشيدو)..

دوى صوت المكبر يهيب بالرجال أن يبدءوا إجراءات الإطلاق..
وفي مقر قيادته تحت الأرض وقف البروفيسور (ميكو) يراقب الشاشات التي تظهر له مسرح العمليات، بينما وقف خلفه (رائد) و (مني) و (حسام) و (ريهام) وكلهم يصوب فوهات المسدسات إلى رأسه..
قال لهم وهو يعرق ككيس خبز ساخن في ثلاجتك:
- إن (سونيا) ستجن..
قال (رائد) وهو يلصق فوهة المسدس أكثر:
- نحن سنجن أكثر لو لم تفعل.. وخطرنا أدهي وأقرب من خطرها..
ثم غمز بعينه لـ (عبير) وقال:
- ثق من أنها لن تضايقك الآن!
قال الياباني المعذب وهو يضغط بعض الأزرار:
- أنتم لا تعرفون.. إن هذه المرأة أخطر من ألف فوهة مسدس مصوبة إلى رأسك.. أحيانا أعتقد أن الموت بالرصاص أفضل لى..
وفي مكبر الصوت راح يتكلم باليابانية..
وعلى أكبر الشاشات ظهر (أفق).. القمر الصناعي الإسرائيلي الذي يتجسس على الدول العربية كلها.. كان بريء الشكل يبدو كأي قمر صناعي آخر.. هذه ستون مليونا من الدولارات تنتظر في الفضاء..
أصدر الرجل أمرا آخر باليابانية..
وعلى الفور بدأت مظلة التعمية تتراجع إلى الوراء ببطء شديد.. ببطء..
شديد..
شديد..
شديد..
ثم بدأت المحركات تهدر.. بينما الأرض تنفتح ليبرز الرأس المدبب، ثم الجسد الكامل للديناصور الغافي المختفي عن عيون العالم..
إنه يرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
الآن يبرز بالكامل فوق السطح ليطل برأسه.. وكانت مظلة التعمية (الكاموفلاج) قد توارت بالكامل الآن فعاد المعسكر كما هو بالضبط: معسكر لإطلاق الصواريخ..
هتفت (عبير) وهي ترتجف انفعالا:
- هذا لا يصدق.. من يشك في هذا؟
قال (رائد) باسما:
- العالم كله يشك في هذا.. لا أعرف سرا أكثر ذيوعا من هذا.. لكن لا أحد يقدر على إثبات شيء..
ثم مال على البروفيسور وقال:

- أظن أنه لا داعي لأن أذكرك بأننا لا نحب الألاعيب.. هه؟
لكنه كان مطمئنا.. البروفيسور لم يعد يبالي الآن إلا بأن تنجح المهمة بدقة.. لا شيء يعادل لذة أن ينطلق الصاروخ ويدمر القمر الصناعي..
وقرب العالم فمه من مكبر الصوت وراح يهدر بكلمات يابانية.. ثم بالإنجليزية.
- إخلاء.. إخلاء.. سيبدأ العد التنازلي حالا..
وتحولت المحطة إلى خلية نحل.. خلية نحل دب فيها وباء قتل كل ما فيها..
صفارات الإنذار تهدر بينما الوحش يتخذ زاويته الصحيحة..
وأخيرا بدأ العد التنازلي..
عشرة..
تسعة..
ثمانية..
سبعة..
الخ.. الخ..
اثنان..
واحد.. اشتعال!
وامتلأ المكان بالدخان، ولم يعد أحد قادرا على رؤية يده.. في البدء بدا الصاروخ كأنه يتسلق ببطء ثم بدأ يصعد بسرعة على غرار تلك العادة السخيفة للصواريخ، أن تبدو بطيئة لحظة الإطلاق.. كان لدي كتاب فيزيائي يفسر هذه الظاهرة لكنه ضاع مني.. التفسير والكتاب معا..
تصايح الجميع وهللوا وصفقوا..
هنا سمعوا من يقول في برود:
- انتهى الحفل أيها العرب..
وانطلق الرصاص ليقتل (حسام) و (قدري).. (أعرف أن قدري لم يأت أصلا لكنكم لا تفهمون عمل المخابرات كما يفهمه المحترفون)..
وكانت المفاجأة رهيبة..
كاملة..
للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت واقفة على الباب وفي يدها مدفع العوزي الرقيق.. لكن رقبتها كانت تتدلى على كتفها كأنما هي دمية ماريونيت تمزق خيطها.. وكانت لها عين ناقصة وبضعة أطراف أخرى ليست في مكانها الصحيح.. فقط بقي منها ما يكفي لتمسك المدفع..
صاحت (عبير) في هلع:
- الويل! (سونيا) تحولت إلى زومبي!
قال (شريف) في رعب:
- إذن لصارت أقل خطرا وأكثر رقة...
قالت (سونيا) وهي تنقل عينها الوحيدة بين الموجودين:
- أنتم وضعتم لي هذا اللغم أمام خيمتي أمس.. لحسن حظي وسوء حظكم لم أمت.. لن تموت (سونيا) قبل أن تحولكم إلى عصيدة..
ثم نظرت إلى الشاشة حيث كان الصاروخ يشق أجواز الفضاء، ونظرت إلى الياباني في حقد:

- يا أحمق.. أنت أضعت آخر سبب يحفظ عليك حياتك..
هنا دق الهاتف المحمول في جيبها.. لا تعرف (عبير) كيف ظل سليما بعد هذا كله، فمدت يدها ووضعته على أذنها بينما عينها الوحيدة لا تفارق الواقفين..
- من؟ (بورسالينو)؟ مشغولة بالقتل كما تعلم..
ماذا تقول؟ هل تهذي؟ دخل مقر وكالة الاستخبارات المركزية وغادرها حيا وغانما؟ قتل الأخوين (إيفانوف)؟ لا بد أنه هو.. بالتأكيد هو..
وقذفت بالهاتف في الهواء وصاحت في مرح:
- (أدهم صبري) حي.. أنا متأكدة من ذلك! شوهد في (واشنطن) أمس.. فعل كل ما كان (أدهم) يفعله.. كنت أعرف أنه حي.. حي!
وراحت تصفف شعرها المحروق في انبهار.. وبصقت بعض الأسنان المهشمة..
- سأعرج أولا على باريس لأجمل نفسي.. سأحتاج بعض جراحات زرع العيون والأطراف لكني سأكون في أبهى صورة حين أعود إليه!
ثم ألقت بالمدفع وغادرت الخيمة متعجلة.
لكنها لم تنس أن تطل برأسها مرة أخيرة لتوجه عينها الوحيدة شطر البروفيسور:
- لم ننته بعد أيها الأحمق.. سأعود إليك وسنمرح كثيرا!!
فلما غادرت المكان راح البروفيسور يلطم الخدين..
وراح يصلى باليابانية وينادي الأجداد.. فقط قال بالإنجليزية:
- (سونيا) توعدتني بالهلاك.. أنا بطة ميتة!
ثم قال لـ (رائد):
- لن تكون هناك مشاكل في التحكم الصاروخي.. كل شيء سيتم بدقة فلم تعد بكم حاجة إلي!! سايونارا!
وقبل أن يفهم أحد ما حدث، كان قد جلب سيفه البتار إياه، وجثا على ركبتيه وأغمد السيف في بطنه بالكامل على طريقة (الهاراكيري) الشهيرة..
لقد انتحر كي لا تفتك به (سونيا)!
وفجأة نظر الأصدقاء إلى الشاشة..
كان الصاروخ الآن يخترق القمر الصناعي.. وتناثرت النيران والشظايا في مشهد كوني رهيب..
مشهد مخيف..
جميل..
جليل..
مرعب..
رهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما نزع (رائد وهيب) قناع (كوزمو) عن وجهه ومعه جهاز تغيير الصوت المثبت إلى حنجرته، وعندما رأى الجميع أن هذا هو (أدهم صبري) نفسه انفجروا في البكاء..
مر ربع ساعة عليهم بين البكاء والعويل، ثم قالت (عبير):
- لقد فقد فريق الشجعان (حسام) و (قدري)..
قال (أدهم) في ثقة:

- لا تقلقوا.. لا أحد يموت في قصص الجاسوسية.. لقد مات (حسام) من قبل.. وماتت (سونيا) كثيرا..
سألته (ريهام) وهي تتسلى بإعداد قنبلة نيوترونية:
- ما قصة موتك هذه؟ أعرف أنك مت 4356 مرة من قبل، لكن هذه بدت أقربها إلى الحقيقة.
قال (أدهم) وهو يداعب فوديه اللذين خطّهما الشيب:
- كنت أعرف مؤامرة الجواسيس لاستبدال شخصية عميلة بي، ولعبت لعبتي كي أبدو ضابطا في الموساد.. وتم اختياري لأكون (رائد وهيب).. هكذا ظنوا أنني رجلهم بينما كانوا في قبضتي تماما.. لكنى كنت بحاجة إلى تبرير اختفائي بشكل منطقي مقبول وإلا تساءل الناس عن سبب اختفاء (أدهم صبري) بمجرد أن ظهر (رائد وهيب) إلى الوجود.. ثم مات عميل روسي في إحدى العمليات في لوس أنجلوس لهذا قررت أن أتظاهر بأنني من مات.. أرسلت عينة من أنسجتى للمعامل الإسرائيلية كي يعتقدوا أنني القتيل.. وجعلت صديقي الروسي (سيرجي كوربوف) ينقل لكم خبر وفاتي.. يجب لكي تنجح العملية أن يعتقد الجميع في صدقها حتى أقرب أصحابي لي..
- تمكنت عن طريق هذا التنكر أن أعرف خطط الأعداء كلها، ودمرت عشرات المنظمات التي أسلمتني أسرارها طواعية.. بل وسبقتكم إلى هنا حين عرفت بنيتكم في تدمير القمر الإسرائيلي..
ثم تذكر شيئا فمد يديه إلى أذنيه، وانتزع القالبين المصنوعين من اللاتكس، وقال:
- استعملت قالبي أذن (حسام) لأنني خشيت أن تعرف (سونيا) بالأمر..
سألته (عبير) في انبهار:
- ولكن.. من الذي فعل المعجزات في واشنطن كما تقول (سونيا)؟
- لا بد أنه (سيرجي كوربوف).. إنه بارع لا أحد ينكر هذا.. المهم أنه أعطى (سونيا) والقراء انطباعا زائفا بأنني من فعل هذا كله.. وأتمنى أن أرى وجهها حين تعرف الحقيقة..
ثم ابتسم ونظر لهم وقال:
- الآن هل نعود إلى البيت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فقط (عبير) لن تعود إلى البيت..
لقد جاء المرشد يعبث بقلمه الجاف الزنبركي وينتظر حتى تفرغ من الكلام مع (أدهم صبري)، فلما فرغت حيا الواقفين بان هز رأسه بطريقته السمجة، وقال لها:
- أرى أنك استمتعت بوقتك حقا.. الآن حان وقت الرحيل..
هزت رأسها في استسلام ومشيت معه مغادرين الجزيرة([37]) .
قال لها وهو يجد السير:
- كما ترين تملك هذه القصص كل عناصر الجانبية.
فيما مضى لم يكن لدى الشاب الذي غادر مرحلة الطفولة شيئا يقرؤه.. كان عليه الاختيار بين (شرشر) وبين أفكار (العقاد) الفلسفية شديدة التعقيد.. لم يكن هناك أدب وسيط.. ثم جاء الأستاذ (محمود سالم) بمغامريه الخمسة، وقدم حلا فائق الشعبية.. بعد هذا بأعوام جاء د. (نبيل فاروق) وخطا خطوة أكبر..
أكبر بكثير..
بكثير جدا..
قالت له باسمة:

- ألاحظ أننا غادرنا القصة ولم تزل تتكلم بالطريقة ذاتها..
تلاقي حاجباه وقال في غموض:
- إنها طريقة مميزة..
مميزة جدا..
جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تقابل (عبير) أخوين صنعا عالما لا ينسي.
عالما خاصا جدا..
جدا..
جدا..
جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله)

اسمه أدهم

من هو البروفسور؟ هل يستطيع (حسام) تدمير القمر الصناعي؟ من هو (رائد وهيب)؟ أين اختفي (أدهم صبري) كم الساعة الآن: لماذا عاد (إيفان إيفانوفيتش) للحياة؟ لماذا تختنق الأسماك لو غادرت المياه؟ كم قرشا في الجنيه؟ ما سر (سونيا جراهام)؟ اقرأ هذه الرواية لتعرف إجابة كل هذه الأسئلة وربما أكثر.....

د. أحمد خالد توفيق



لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـاة – Link

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) راجع قصة (مذاق الدم) المغامرة رقم 99

[←2]

(*)راجع قصة (خط المواجهة). المغامرة رقم 87

[←3]

(*)راجع قصة (الجاسوس). المغامرة رقم 63

[←4]

(*)راجع قصة (مهنتي القتل) المغامرة رقم 40

[←5]

(*) راجع قصة (قبضة السفاح) المغامرة رقم 89

[←6]

(*) راجع قصة (مدينة الذئاب) المغامرة رقم 137

[←7]

(*) راجع قصة (الاختفاء الغامض) المغامرة رقم 1

[←8]

(*) الماء سائل شفاف عديم اللون والرائحة والطعم اكتشفه (كافنديش) عام 1815.. ويستخدم في الشرب والاستحمام.

[←9]

(*)الشريط: خامة من السليلويد يتم تصوير الأفلام عليها.

[←10]

الشطيرة عبارة عن شريحتي خبز بينهما طعام آخر.. ابتكرها ضابط البحرية البريطانية (ساندوتش) وسميت باسمه.

[←11]

(*) راجع الأعداد من 1 إلى 128..

[←12]

(*) مكبر الصوت هو جهاز لتكبير الصوت..

[←13]
(*) راجع لوحة الفنان (إسماعيل دياب) صفحة 19 في قصة (الخطر).. المغامرة رقم 92.. بالتأكيد هذه الجالسة في المؤتمر هي (سونيا)...

[←14]

(*) راجع قصة (الجاسوس القتيل) المغامرة رقم 200

[←15]

(*) راجع قصة (سم الكوبرا) المغامرة رقم 51

[←16]

(*) الأسمنت مادة تستخدم في البناء، بعد خلطها بالماء وتركها لتجف..

[←17]

(*) راجع قصة (أصابع الدمار) المغامرة رقم 22

[←18]

(*) حقيقة علمية

[←19]
(*) حقيقة علمية.. وقد برهن عليها العالم السوفييتي (فيودور فيودوروف) إذ فجر قنبلة في نفسه وهو يلبس سترة واقية فمات على الفور.

[←20]

(*) راجع قصة (ملكة الجحيم) المغامرة رقم (61) وقصة (الرأس الكبير) المغامرة رقم 233.

[←21]

(*) نفس المصدرIbid

[←22]

(*) Ibid

[←23]

(*) راجع قصة (وجه الأفعى) المغامرة رقم 121

[←24]

(*) راجع قصة (نقطة ضعف) المغامرة رقم 127

[←25]

(*) راجع قصة (الانتقام الأخير) المغامرة رقم 456

[←26]

(*) أعتقد أن المجال صار مفتوحا أمامنا.

[←27]

(*) بالفعل يا سيدي.. بعد موت (أدهم صبري) صار كل شيء ممكنا.

[←28]

(*) القمر الصناعي هو قمر غير طبيعي وإنما هو مصنوع.

[←29]

(*) حقيقة علمية..

[←30]

(*) الغليان هو الظاهرة التي تحدث للماء عندما يتم تسخينه. ويمكن ساعتها إضافة الشاي أو البن إليه.

[←31]

(*)راجع قصة (جزيرة الجحيم). المغامرة رقم 84

[←32]

(*) هذه الأخبار تثير قلقي.. كل زملاء (أدهم) في جنوب شرق آسيا..

[←33]

(*) يخيل إلى أن العالم فرغ من الجواسيس.. كل جواسيس الأرض في تلك الجزيرة الآن..

[←34]

(*) راجع المغامرات من 1 إلى 135

[←35]

(*) البازوكا أداة حربية تطلق طلقات البازوكا..

[←36]

(*) راجع قصة (سلاحف النينجا).. المغامرة رقم 455

[←37]

(*) الجزيرة مساحة من الأرض يحيطها الماء من كل الجهات..

روايات مصرية للجيب

32

فانتازيا
فى مملكة الأخوين



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (32)

في مملكة الأخوين

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- هدية غريبة..

في العاشرة صباحا ذهب (شريف) إلى متجر الأدوات الصحية، حيث يعمل أخو (عبير).. حياه بكلمة عابرة، ثم ترك له هدية غريبة بعض الشيء كي يسلمها ل. (عبير)..
قبل أن يفتح الأخ شفتيه كان (شريف) قد انطلق بسيارته (الدسمة) إياها، التي لا يمكنك أن تعرف طرازها أبدا....
وفي البيت فتح الأخ الصندوق، فكان ما وجده جديرا بالاهتمام فعلا..
إن الأخ لم يتوقع أن يجد داخل الصندوق هدية ذات قيمة ما.. بل إنه استعد للتخلص فورا من لفافة المخدرات التي سيجدها - حتما - بالداخل، والتي هي ورطة أعدها له (شريف) على سبيل الانتقام، بينما رجال مباحث المخدرات ينتظرون لحظة الهجوم.. هذه هي طبائع الأشياء، وهكذا تسير الأمور.. إنه ليس فتي الأمس كي يخدعه هذا الفتى الرقيع الذي أحبته أخته وتزوجته.
لكن ما وجده في الداخل كان يفوق كل قدراته على التخيل.
يوجد كمبيوتر وشاشة وبعض الأسلاك..
قالت الأم شيئا ما عن وقاحة بعض الناس، وقال الأخ شيئا عما جلبه الغراب لأمه، لكن كانت أمام (عبير) بضع ساعات حتى تصحو من نومها.. إنها قد تحولت إلى وطواط حقيقي يقضي الليل في القراءة، وطفلتها كذلك تسهر معها، وهكذا يطلع الصباح على الأنثيين وقد غابتا عن الوعي حتى الظهيرة..
عمل؟ ربما لم تجد.. وربما لم تكن جادة تماما في البحث..
عند الظهيرة ستصحو (عبير)، ولسوف تجد الكمبيوتر المألوف بما عليه من برنامج حبيب..
عندها ستتساءل عن السبب الذي دفع (شريف) إلى خطوة كهذه..
الاحتمال الأول بالنسبة لنا هو أن (شريف) قد بدأ يحاول أن يجمع طرفي خيط الوداد المقطوع.. ربما سيحاول بشكل ما..
أن يصنع عقدة كيفما اتفق.. هذا وارد ولا أستبعده كثيرا.
الاحتمال الثاني هو أن (شريف) يريد التخلص من كل ما يمت لها بصلة.. حتى أداة الأحلام الجاهزة الخاصة بها.. إن الأزواج لأسباب كهذه قد يهشمون مزهرية ثمينة أو يعطون مجموعة من الثياب غالية الثمن لأول متسول يقرع الباب.. هذا احتمال آخر وارد، ولا أدري ما يمنعني من رفضه الاحتمال الثالث إنساني جدا... إنه نوع من الرفق بالحيوان.. نوع من البر بالشخص الذي آذيته بعنف..
هو لا يريدها لكنه لن يبخل عليها بهذه اللمسة الأخيرة من الشفقة.
وهي لا تقدر على الحياة من دون (فانتازيا)، وهو لا يحمل لها ضغينة ما.. لماذا لا يتصرف كشخص ناضج ويقدم لها ما تريده؟
هذا احتمال آخر لا بأس به أبدا، وإنني لأجد أن موقف (عبير) عسير حقا.. محاولة الفهم لأمر لا يمكن فهمه هي نوع من العذاب المستمر.. الأسوأ ألا يكون (شريف) نفسه يعرف..
ولكن دعونا من الأسباب ولنناقش النتائج..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال أخوها وهو يتحسس الشيء بيده المضمدة دوما:
-كم يساوي هذا؟ هذه الأشياء غالية الثمن على ما أعتقد.. أراهن على أنه يمكن بيعه بمائة جنيه على الأقل..
صفرت الأم بشفتيها المجعدتين، وقالت:
- أنت تمزح.. هذا الجهاز مستعمل.. من يشتريه منك بمائة جنيه؟
قال وهو يقلب الكمبيوتر كأنما هو يتفحص دجاجة بياضة:
- (سعيد) هل تعرفينه؟ إنه ذلك الفتى الذي عنده (مكنة).. إنه يفهم في هذه الأشياء.. لسبب ما يصر أخوها على أن يطلق لفظة (مكنة) على أية دراجة بخارية.. وكل أصدقائه اسمهم (سعيد).. وهو ينطق (سعيد) بطريقة حلقية تضغط على حرف (العين)، وينطق الياء بطريقة تجعلها أقرب إلى حرف (الألف).. لكن هذه الأمور لاتهم.. لأنها خرجت من حجرتها في هذه اللحظة، والطفلة على كتفها، وانتزعت يده من على الجهاز:
- هذا لن يكون.. هذا الكمبيوتر ملكي أنا..
قال لها في ضيق وهو يشعل لفافة تبغ:
- يا سلام! ومنذ متى لا تستطيعين الحياة من دون (كمبيوتر)؟
شد ما أنت وحيدة حائرة بين طبقتين يا (عبير)! زوجك - الأمير الوسيم القادم من عالم الأحلام – تخلى عنك، وطبقتك هذه لا تشعرين بأي انتماء لها.. لا تتحملين كلامها ولا أصواتها ولا آراءها في الحياة.. طبقة فوقك ليست جنة على الإطلاق.. وطبقة أنت منها تشعرين بأنك تنتمين لمكان يختلف عنها ولو قليلا..
حائرة أنتِ.. تعسة أنتِ..
لنقل إن قراءاتك أعدتك لعالم آخر لا وجود له.. عالم لا تصلحين إلا له..
أنتِ مواطنة في عالم (فانتازيا).. هذا هو مكانك الوحيد، ومن دونه أنت عاجزة للأبد عن التأقلم..
(فانتازيا) حيث تجسر النسور وحيث يحلم النمل الأخضر لو كان تعبير كهذا موفقا.
ومن دون كلمة أخرى لفت ذراعها الطليقة على علبة القرص الصلب وحملتها إلى حجرتها..
لو كان هذا هو ما بقى لها من عالمها فهي تعرف كيف تنتفع به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يعمل بشكل جيد.. وخطر لها أن هذا الجهاز هو اعتذار من (شريف) الذي لم يجد قط التعبير عن نفسه ببراعة.. نعم.. كل هذه الأسلاك والوصلات هي لفظة (آسف) لا أكثر ولا أقل
وكانت مرهقة عصبيا كمدمن شاي لم يلمس كوب شاي منذ يومين.. الحقيقة أنها لم تزر (فانتازيا) منذ زمن، ومنذ كانت مع (أدهم صبري) في عالمه الجاسوسي إياه.. والحقيقة أيضا أن كلام المرشد كان دقيقا: الأحلام الجميلة لا تزورنا لمجرد أننا نريد ذلك، بل تزورنا عندما تريد هي..
مدت يدها وبحثت عن القابس.. قامت بعمل وصلة معقدة من سلك وجدته هناك مكون من خمسة أسلاك قديمة تم توصيلها بشريط لاصق.. ثم ضغطت على زر التشغيل، وبدأ الهدير..
الجهاز يسترد كينونته وذاكرته ويعرف بدقة أين هو ومن هو..
لابد أن صدمة مروعة دهمته وهو يرى الحجرة الضيقة الفقيرة، ولا بد أن فكرة الخطف جالت بذهنه الإلكتروني للحظة.. ثم رأي (عبير) فاطمأن.. لا بد أنها تعرف ما تفعله..

جلست أمام الجهاز.. ونظرت إلى ركن الغرفة لترى الطفلة نائمة في سلام تحلم..
(حيث يحلم النمل الأخضر وتجسر النسور)..
ثبتت الأقطاب على رأسها وأخذت شهيقا عميقا..
اليوم ستحلم..
اليوم تذهب هي بقوة التكنولوجيا إلى (فانتازيا) بدلا من أن تنتظر حتى تتعطف عليها..
وغدا يوم آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2في مملكة الأخوين..

الآن هي تقف في السهل الذي وقفت فيه مرارا من قبل، والقطار المضحك قادم من بعيد على مهل، كأنه ترام عتيق في شوارع القاهرة أو (سوارس) التي لم ترها قط لكنها قرأت عنها..
المرشد البغيض ثقيل الظل يقترب منها في تؤدة..
الغريب أنه ثقيل الظل إلى درجة تجعله فاتنا.. يقول السرياليون: إنك لو حدقت في شيء ما لفترة طويلة فإنه يكتسب أهمية خاصة، وتشعر بأنك تحتاج إليه..
هكذا كان المرشد.. دعك من أنه البواب الذي يقودها إلى عالم (فانتازيا) المكان الوحيد الذي تشعر بأنها تنتمي إليه حقا..
كان من دأبها أن تراقب الحياة كأنها حلم، فلو أن قنبلة ذرية هبطت على شارعها لوقفت غير فاهمة، غير قادرة على التفاعل، لكن في (فانتازيا) تشعر بأن كل شيء يخصها ويهمها. قال لها وهو يلوح في الهواء:
- مرحبا يا (أليس).. لم نرك منذ دهر..
ابتسمت في ارتباك وتمنت ألا يسألها عن أمورها الشخصية..
لحسن الحظ لم يفعل:
- إلى أين اليوم..؟
- أرني ما في جعبتك..
فكر حينا وهو يتفحص وريقة أخرجها من جيبه:
- كنت قد أعددت بعض الأفكار.. ولكن.. هل تحبين المذابح؟ هل تحبين مشاهد قتل الأطفال وبقر بطون النساء و...
صاحت وهي تركل الأرض في عصبية:
- يا لك من أحمق! من قال لك إنني سادية مريضة؟ قتل أطفال؟؟ هل تنوي زيارة الجنرال (شارون) وطاقم السفاحين المحيطين به؟
- ليس إلى هذه الدرجة.. ما كنت لأختار لك برنامجا بهذه البشاعة.. وعاد يتأمل الورقة..
عالم العلاقات الأسرية المتفسخة في الجنوب الأمريكي.. إن مسرح (تنيسي وليامز) سوف...
- حرام عليك.. إن لدي من العلاقات المتفسخة في عالمي ما يكفي ست أسر..
ثم نفخت في غيظ، وقالت:
- هؤلاء الكُتّاب مجانين..
قال باسما:
- ليس هذا جديدا.. ولهذا قال الأقدمون إن الفنون جنون.. يمكنك أن تفكري في الأمر على أن الأديب والمريض العقلي شخصان يذهبان إلى النهر.. أحدهما يغرق ويختفي للأبد، والآخر يجيد السباحة ويعود سالما.. النهر هو نهر الجنون....
والأديب يغطس فيه ثم يخرج إلى بر العقل ليكتب ما رآه.. بينما المريض العقلي يهوي إلى القاع..
- لا أفهم ما تقول.
- لا عليك.. هذا التعبير قاله العالم النفسي العظيم (يونج) تلميذ (فرويد) للكاتب الشهير (جيمس جويس) الذي أصيبت ابنته بالجنون.. قال الكاتب في ذهول إن ابنته تقول ما يقول

وتفعل ما يفعل، فكيف نتهمها بالجنون ولا نتهمه هو؟ عندها ذكر له (يونج) هذا التشبيه البارع..
وصمت قليلا.. ثم بدت عليه الحيرة، وراح يمزق قطعا من الورقة في عصبية:
- هل تحبين الأميرات والأمراء المسحورين والساحرات الشريرات و....
- يبدو هذا مغريا.. ماذا عندك بهذا الصدد؟
لم يرد عليها وأشار إلى القطار ليقف، وقال في هم وهو يجد السير:
- يجب الإسراع إذن.. إن المملكة في الجانب الآخر من (فانتازيا).. إنه مشوار شاق لكنه يستحق..
- مملكة؟ عم تتحدث بالضبط؟
وثب إلى القطار ثم مد يده يساعدها، وقال وهو يلهث:
- ستفهمين الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما ستفهمه هو أنها تدخل إلى عالم من المروج الخضراء.. خضرة أكثر اخضرارا من الخضرة ذاتها، وطواحين متباعدة.. خراف شديدة الاكتناز ترعى، وأبقار من تلك التي ترى صورها على علب السمن الهولندي وعلب اللبن المجفف.. فلاحات متوردات الوجوه يحملن السلال على الرءوس، ويضربن الأرض بتلك النعال الخشبية التي تراها في القصص.. سماء شديدة الزرقة لا ينقصها إلا أن تري قرص الشمس يضحك....
من بعيد بيوت ذات سقوف منحدرة من القرميد الأحمر، ومداخن يتصاعد منها دخان لا يلوث الجو، وفطائر موضوعة في النوافذ لتبرد..
الخلاصة أنه جو أقرب إلى صورة ملونة في قصة أطفال.. قصة أطفال كلاسية عتيقة.
هي لا تذكر أنها رأت هذا الجو إلا في زيارة سابقة لعالم (ديزني) الساحر.. لكن الطابع العام يختلف قصص (ديزني) لها طابع أمريكي لا تخطئه العين، أما هنا فطابع أوروبي.. ربما يعود إلى القرن الثامن عشر..
أين هي؟ هل مازالت في (فانتازيا) أماكن كهذه؟
الحق أن المشهد فتنها وراح قلبها يتواثب في صدرها طربا..
قالت للمرشد وهي توشك على الوثب من نافذة القطار:
- لماذا لا ننزل هنا؟
- إن وجهتنا هنا... لكنك لن تبدئي من هذه النقطة..
هنا كان القطار يدخل شارعا كئيبا يغمر الضباب جوانبه، وكانت هناك برك من المطر على جانبي الإفريز. ووجوه كئيبة تنظر لهما في فضول. لا بد أن منظر قطار يمشي في شارع هو مشهد غريب بعض الشيء، حتى لسكان (فانتازيا) أنفسهم..
قالت في خيبة أمل:
- لماذا تخليت عن ذلك المشهد الجميل من أجل العودة للكآبة؟
- هذه هي البداية..
- وأين أنا؟
قال في ضيق وهو يجذب حبل القطار ليقف:
- يا له من سؤال.. أنت في ألمانيا طبعا.. لا أعرف مكانا آخر في العالم يمكن أن ترى فيه كل هذا

الحشد من لفظة ..Der وكل هذه الكلمات طويلة المقطع على اللافتات..
ثم أشار لها إلى مبنى أكثر كآبة يتوسط الشارع الكثيب:
- أتمنى لكِ حظا سعيدا..
نظرت إلى المبنى محاولة فهم ما تقوله اللافتة الألمانية، فلم تفهم.
عادت تسأله:
- ما هذا المبنى بالضبط؟ ولا تقل لي: ظننت هذا واضحا، كما هي عادتك..
قال في لا مبالاة:
- ظننت هذا واضحا.. إن هذا المبنى هو قسم الشرطة طبعا.. ماذا كنت تتوقعين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- التحدي..

مغامرة حالمة تبدأ في قسم الشرطة.. يبدو هذا غريبا بعض الشيء حتى في (فانتازيا)..
المهم الآن أنها صارت صحفية ألمانية.. مرارا في فانتازيا كانت (عبير) صحفية، وهو سبب يمكن فهمه.. لنفس الأسباب كان (سوبرمان) صحفيا هو الآخر في شخصيته السرية، إن للصحفي مزية الاطلاع السريع على كل المصائب حيث تحدث، ويمكنه أن يدخل كل مكان ويسأل أي شخص.. هيبة الإعلام تعطيه مزية طرح أسئلة لو وجهها سواه لتلقي لكمة في أنفه..
كانت (عبير) تدرك أنها ألمانية، وأنها فجأة صارت تجيد الألمانية كأنها (جوته) نفسه..
وكالعادة - صار هذا مملا - كانت شقراء جميلة....
تدخل إلى قسم الشرطة الذي هو معاصر جدا.. هناك لصوص وضباط وهراوات ورجال شرطة يحملون أجهزة اللاسلكي وشباب من الذين يتظاهرون طيلة اليوم ضد العولمة دون جدوى..
الآن تعرف وجهتها فتتجه إلى مكتب المفتش (بليتز) أو (القوميسير) كما يترجمونه أحيانا.. تدق الباب وتحيي الرجل في عجلة، ثم تجلس واضعة ساقا على ساق في ثقة..
كان المفتش بدوره رجلا ألمانيا صميما، وكان بدينا جدا حتى إنك تشعر بأنه سيصاب بنوبة قلبية في أية لحظة.. أضف لهذا أن سحرها الذي لا يقاوم جعله مرتبكا موشكا على الاختناق..
سألها وهو يعقد أصابعه:
- هل تبدئين اليوم يا فرويلاين (باومان)؟
قالت في ثقة:
- طبعا..
كالعادة لم تكن تعرف ما هذا الذي يجب أن تبدأه، لكنها كانت مصممة على أن يبدأ اليوم، وانتظرت باقي المحادثة ليتضح كل شيء.. إن التعامل في (فانتازيا) كالحلم.. لا تعرف ما هذا الذي يدور في ذهنك أنت نفسك حتى تخرج الكلمات من شفتيك..
قال لها:
- قرأت مقالك.. أنت تتحاملين علينا..
- أكره اتهام الأبرياء..
- ولهذا عدت؟
- نعم من أجل الرهان..
ما هذه المحادثة السخيفة؟ هي لا تفهم حرفا وتتمنى لو فهمت.. لكن لا شيء في الكلام يدل على شيء..



ما هذه المحادثة السخيفة؟ هي لا تفهم حرفا وتتمنى لو فهمت!

قال لها المفتش وهو يصب لنفسه مشروبا ما سميكا غليظا في كوب (من العسير أن يعرف هؤلاء القوم المغات لكنه يبدو كذلك):

- سنساعدك على الدخول بنفسك إلى عالم الأخوين (جريم) وهناك يمكنك أن ترى بنفسك..
هذان الرجلان يفتقران إلى الأصالة ويتمتعان بميول نازية.. لهذا بدأنا نصادر كتبهما..
الآن بدأت الأمور تتضح.. لكن من هما الأخوان (جريم)؟ إنها تذكر هذا الاسم، لكنها لا تذكر شيئا سواه.. واضح أنهما مؤلفان، وأنهما متهمان بشيء ما.. ماذا يكتبان؟ هل يكتبان موضوعات إلحادية أم إباحية أم سياسية متطرفة؟
هنا جاءتها الإجابة على لسانها هي نفسها:
- كل هذا الكلام عن كاتبين لقصص الأطفال؟
هنا تذكرت كل شيء.. الأخوان (جريم) الألمانيان العبقريان اللذان صنعا كل ذلك العالم الساحر الذي تحكيه الأمهات لأطفالهن قبل النوم..
ليس الاتهام لكتاب الأطفال بغريب، فهي تذكر قصة (ديزني) والقتلة الذين كانوا يحاولون اغتيال (بطوط) أو (دونالد).. والسبب هنا أن أبطال ديزني مبشرون ينشرون الثقافة الأمريكية في كل مكان.. وبسببهما عرف الأطفال معنى العولمة قبل أن يبتكر المفكرون السياسيون هذا المصطلح، وقبل أن يكتب (فوكوياما) مقال (نهاية التاريخ) النازي إياه.. لم لا؟ ألم تمنع الصين - حقيقة - دخول (بطوط) باعتباره عميلا للمخابرات الأمريكية؟
كل هذا يمكن فهمه.. لكن ما التهمة التي تحيط بسمعة كاتبين جميلين مثل الأخوين (جريم)؟
قال المفتش وهو يفك ربطة عنقه ليحرر المزيد من الشحم الحبيس:
- هذه هي نقطة خلافنا.. إن الأطفال تربة خصبة تصلح لبذر أي معتقد. قل لطفل في قصصك إن الشمس تشرق من الغرب، ولسوف يصير مستحيلا أن تقنعه بالعكس حين يكبر.. ثم إن هذه ليست التهمة الوحيدة.. قلت لك إنهم لا يتمتعون بالأصالة.. كل قصصهم اشتقاقية، ولها أصول ما عند الفلاحين هنا..
- هذه ليست تهمة إلى هذا الحد.. (شكسبير) لم يكتب عملا أصيلا في حياته..
- لكنهم ليسوا (شكسبير)..
ثم وضع كوب (المغات) الذي يمسك به، وضرب المنضدة بقبضته:
- الأمر سهل.. أنت تقولين إننا مجموعة من الأوغاد الذين لا خلاق لهم ولا عمل إلا أن يدمروا عبقريين عظيمي الموهبة، وأنا أقول لك إن الأمر سهل.. لقد أعددنا كل شيء كي تدخلي عالم الأخوين (جريم) وتحققي في كل شيء.. لو برهنت على أنك محقة سنحني رءوسنا في تواضع.. ولو برهنت على أنك مخطئة ستكتبين مقالا يعيد لنا الاعتبار وهو ما أعرف أنك ستفعلينه حتما..
ثم فكر قليلا وأضاف:
- لربما اضطررت أحيانا إلى التدخل في القصص، وربما وجدت بعض رجالنا هناك.. إنهم يراقبون الأحداث بدقة.. الرقابة.. الرقابة.. بعبع المائعين الراغبين في حرية بلا قيود، لكني أجدها من ضرورات المجتمع.. ضعي ثلاثة رجال على جزيرة ولسوف يتكون مجتمع وقانون ورقابة..
قالت (عبير) في شمم وقد بدأت الصورة تتضح أمامها:
- سأفعل.. وسأجد أنني على حق..
ضحك فاهتز ذقنه المزدوج، ثم سرت الارتجاجات الشحمية إلى أعلى صدره فبطنه.. لابد أن أصابع قدميه ارتجت بعد قليل في الحذاء، ثم قال:
- ليكن.. والآن يمكنك البدء.. إن الملازم (دانييل) سوف يساعدك في الوصول إلى الغابة.. كل الغابات مخيفة كما تعرفين، والغابات الألمانية تعج بالذئاب..

وفي خبث أردف:
- هناك من العلماء النفسيين والنقاد من يفترض أنها ذئاب مجازية لا حقيقية.. وهذه نقطة أخرى تجعلنا نتهم الأخوين (جريم) بعدم الأخلاقية..
- أنتم مجموعة من المخابيل تتظاهرون بأنكم لستم كذلك.. لا أمقت شيئا مثل التذاكي..
- ربما.. لكننا لا نترك شيئا للصدفة..
ودون كلمة أخرى غادرت (عبير) الغرفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملازم (دانييل) هو شخص نحيل فارع القامة، من الطراز الذي يبتلع ريقه كلما مرت ثانية، وقد مد لها كفه في رفق كي يقتادها إلى عالم الأخوين قالت له:
- هل ستبقى معي هناك؟
- لا.. سأضعك على أول الطريق.. وأول الطريق هو بلدة (هاناو) قرب (فرانكفورت) حيث ولد الأخوان.. لكن هناك نقاطا يجب أن تعيها.. هذا عالم تبدأ فيه كل قصة ب. (كان ياما كان) أو Once Upon A Time وتنتهي ب. (وعاشوا في تبات ونبات) أو They lived Happily ever after هكذا في كل اللغات.. دارسو الألب في العالم الغربي يطلقون عليها اسما عاما هو (ميرخين) وهي لفظة ألمانية تعني (القصص الخيالية). أما في أمريكا فيسمونها (قصص جاك Jack Tales) وهو ما معناه أن بطل القصص يكون اسمه (جاك) على الأرجح..
ارتجفت وهي تتذكر القشعريرة الجميلة التي كانت تشعر بها وهي طفلة، حين كانت تحت الغطاء الدافئ مع أمها؛ لتقول لها الأم: «كان ياما كان يا سادة يا كرام.. ولا يحلو الكلام.. إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام»..
- عليه الصلاة والسلام..
بصوت الطفلة المرتجف قليلا.. المتلهف شغفا وفضولا وخوفا.. فلا تنس أن أغلب هذه القصص مرعب..
ولم تظل متيقظة قط حتى تسمع نهاية القصة:
وعاشوا في تبات ونبات.. وخلفوا صبيان وبنات..
كانت أمها آنئذ شابة جميلة نوعا - والأهم – رائقة المزاج، لا تنتمي لتلك العجوز الطيبة التي رسم كل هم وكل قرش ناقص علامته التي لا تمحى على وجهها.. حتى إنها نسيت كيف يبتسم الناس..
طبعا لم تكن الأم تحكي لها قصص الأخوين (جريم)، ولكنها كانت تحكي لها عن الغولة والشاطر (حسن) وبنت السلطان و.. و.. ولو قال أحد دارسى الأدب للأم إنها تحكي (ميرخين) لماتت من الرعب..
سيكون عالما ساحرا..
أو المفترض أن يكون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- يمكنك الذهاب إلى الحفل..

كان يا ما كان..
كانت الآن على ركبتيها..
ليس هذا مجازا بل هو الحق بعينه.. كانت راكعة على ركبتيها منهمكة في تنظيف البلاط بالفرشاة.. ماء الغسيل حولها في كل مكان والدلو الخالد.. ماذا جرى؟ إنها خادمة أو أقرب إلى الخادمة.. هل هذه (فانتازيا) فعلا؟
يا للحظ التعس الذي يجعل حتى أحلامها نوعا من تنظيف البلاط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن تدخل المرأة الشريرة.. وقد اعتدنا أن تكون المرأة الشريرة حسناء أو على الأقل ناعمة كالأفعى، لكن هذه المرأة كانت شريرة قلبا وقالبا.. التعالي والغباء والغرور وضيق الأفق كلها رسمت على وجهها تلك السمات التي يصعب أن تصفها مالم ترها، حتى صارت إلى الحلوف البري أقرب.. الجبهة الضيقة والعينان الصغيرتان المتلاصقتان والفم الغليظ السمج.
بقدمين كبيرتين تمشي على ماء الغسيل وبالتالي تلوث كل شيء.. ثم تقف فوق رأس (عبير) وتنظر لها نظرة نارية، توطئة لأن تصيح:
- يا لك من حمقاء!!
رأتها (عبير) من أسفل وكأنها هرم كما يحدث في السينما مع لقطات التسلط أو السيطرة.. نظرت لها بعينين لا تفهمان، فعادت المرأة تصيح:
- يا لك من حمقاء!!
ثم ظهرت فتاتان شريرتان.. نعم.. إنني أعني ما أقول.. حين ترى فتاتين شريرتين في هذا العالم، فأنت تعرفهما على الفور.. ذلك القبح الغبي.. وتلك الثياب المبهرجة التي لا تنسجم على الإطلاق، والتعالي الأحمق.. الآن بدأت (عبير) تدرك أن هذه القصة مألوفة.. لا شك في هذا..
- قلت لك أن تنظفي الردهة يا (سندريللا).. ولكن ما أراه يقول إنك كسول.. كسول إلى حد لا يوصف.. كل شيء قذر.. كل شيء متسخ..
وكببغاوين تصايحت الفتاتان:
- كل شيء قذر.. كل شيء متسخ.
- من العسير أن يجد المرء خادمة ذات ضمير..
تصايحت الفتاتان:
- فعلا.. فعلا.. هذا عسير..
- (سندريللا).. هذا هو الجواب.. وهذه هي زوجة أبيها الشريرة وابنتاها المزعجتان.. طبعا (عبير) لا تعرف أن زوجة الأب كانت هي الأم في الإصدارات الأولى من القصة، ثم قرر الأخوان (جريم) أن يجعلاها زوجة الأب في محاولة لجعل القصة أكثر تهذيبا وقبولا أسريا.. لقد عرف الأخوان ما نسميه اليوم قيم (الترفيه المنزلي Home entertainment) قبل أن تظهر (ديزني) للوجود بعقود كثيرة..
هي إذن (سندريللا).. الحسناء المعذبة التي تتسلى الشريرات الثلاث بتعذيبها، وإخراج ميولهن السادية عليها، وهذا لا يخلو طبعا من حقد لأنها أجمل من الفتاتين بمراحل.. ثم يجيء

التعويض في صورة الأمير الجميل الذي يهبط عليها كالحلم و.. الحفل والحذاء.. إلخ..
لكن (عبير) تعرف أن (فانتازيا) لا تتصرف كما هو مفترض أو متوقع، لذا واصلت التنظيف في اجتهاد وقررت أن تنتظر لترى..
- أنت قبيحة جدا..
قالتها إحداهن لها، وهي تجرب أمام المرآة قبعة شديدة القبح كأنها متجر للخضر في السوق..
وقالت الأخرى وهي تلطخ وجهها بمساحيق جعلتها كهنود (الشيين):
- لن تحضري الحفل معنا.. لا نجرؤ على اصطحابك..
ثم إن الفتاتين راحتا تتسليان بخنق بعض القطط الصغيرة، وفقء عيون الضفادع، وما إلى ذلك من الأنشطة اليومية تزجيان بها الوقت.. لم لا؟ أليستا شريرتين؟..
كانت (عبير) قد فرغت من تنظيف الأرضية وتلقي الإهانات، فنهضت حاملة الدلو.. وكان حقد لا بأس به نحو الشريرات قد نما في روحها.. لو كانت لديها بندقية آلية فهي تعرف ما ستصنعه بها خلال دقيقة.
وتذكرت طفولتها.. حين كانت تكره هاته النسوة إلى حد مروع، وقد كانت لديها قصة مصورة يظهرن فيها وهن يتهكمن على (سندريللا)، من ثم شوهت وجوههن في الصفحة ثم مزقتهن شر تمزيق بالمقص..
كان المطبخ واسعا كئيبا مسود الجدران، فافترشت الأرض جوار الموقد، وراحت تبكي.. ليس من الحزن، بل لتكمل الصورة الجميلة التي ترى نفسها فيها..
كان هناك فأر صغير يزحف على الجدار فأجفلت.. لكنه اقترب منها في هدوء.. فأر قوي الشخصية لا يخلو من حكمة.. وأدركت على الفور أنه يتكلم..
- أنت.. أنت تتكلم؟
ابتسم في ثقة لو كانت الفئران تبتسم، وقال بصوت جدير بالفئران:
- طبعا.. يجب أن توطني نفسك على عالم الأخوين (جريم).. هنا لا يوجد حيوان لا يتكلم، ولا يوجد موقد أو شمعة أو براد شاي لا يعبر عن نفسه في طلاقة.. لكن يجب هنا أن أذكر أنني لم أوجد في القصة الأصلية.. أنا إضافة من إضافات (ديزني) العديدة.. لقد كانت ستوديوهات (ديزني) من أهم المتحمسين لقصص الأخوين (جريم)، ولسوف تجدين في أمريكا مجموعة من المجانين بعالم (جريم) ربما أكثر ممن تجدينهم في أوروبا كلها.
قالت شاعرة بسخفها وهي تجري حوارا ثقافيا مع فأر:
- تشرفنا..
- كما تعرفين أنت تلعبين هنا دور (سندريللا).. زهرة الرماد.. لكن قصة (سندريللا) ليست من بنات أفكار الأخوين (جريم).. بل هي ليست أسطورة شعبية ألمانية أصلا.. إنها عالمية.. هناك نحو 300نسخة من ذات القصة لدى كل شعوب الأرض، ويغلب الظن أن أصل القصة صيني..
بدا عليها الاهتمام.. إن هذا يتفق إلى حد ما مع المفتش البدين..
- هل تعني أنهما سرقا القصة؟
- ليس بالضبط.. إن جمع الفولكلور الشعبي وتنسيقه ليس سرقة وإلا لاعتبرنا السير (والتر سكوت) أو (زكريا الحجاوي) لصين.. وعلى كل حال لن نستبق الأحداث.. لنعد إلى تمثيل دورنا..
أنت الآن حزينة جدا لأن الخنزيرات الثلاث ذاهبات إلى الحفل الذي يقيمه الأمير..
- يا سلام؟ ومن هو الأمير؟
- وكيف أعرف؟ إنه أمير من أمراء القصص.. لا يفعل شيئا من أي نوع سوى أن يتزوج البطلة

الفقيرة.. منبهر حالم النظرات لأربع وعشرين ساعة.. وحياته كلها مجموعة من الحفلات والمواكب والمآدب.. لو تعاملنا معه بالمفهوم المادي لقلنا إنه شاب (صايع) لو سمحت لي بالتعبير، لكنه في القصص يمثل غاية المراد من رب العباد.. باختصار هو نموذج لفارس الأحلام في خيال كل فتاة، ولا أشك لحظة في أن جواده أبيض.. هكذا تسير الأمور.. إن ارتباط خيال الفتيات بالجواد الأبيض لأمر شبه مقدس..

- هل لا بد من أمير في كل قصة؟

وثب على كتفها فلم تجفل، وقال:

تقريبا.. هذه القصص لا تعترف للرجل إلا بمهن الأمير والحطاب الفقير والساحر والغول.. بينما الفتاة خادمة أو راعية إوز أو ساحرة..

هنا دوي صوت.. ففر الفأر على الفور كأي فأر يحترم نفسه، وظهرت المرأة الضخمة كالكابوس على مدخل المطبخ.. مرتدية ما تعتقد - لسبب ما- أنه يجعلها فاتنة.. قالت ل.(عبير) في اشمئزاز:

- نحن ذاهبات إلى حفل الأمير.. والويل لك إن لم تنامي الآن.. تذكري: أنت فقيرة ضعيفة ونحن ثريات شريرات شديدات البأس..

وانفجرت ضاحكة، ثم غادرت المكان..

وفي سرها خطر ل.(عبير) أن هذه المرأة لا تعرف اللون الرمادي.. إنها الأسود الصافي تماما.. وهي لا تتورع عن الإدلاء بعبارات تقريرية كان يمكن الاستغناء عنها.. وهو ما سيثير حفيظة أي ناقد أدبي يجيد عمله..

الآن هي وحيدة..

الآن يجب أن تبكي..

وقد فعلت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن من الذي دخل إنه لم يكن تلك الجنية الطيبة..

كانت (عبير) تذكر الصورة جيدا.. هي تبكي في الظلام جوار الموقد، ثم يظهر ضوء غريب أزرق، وتنتثر النجوم الصغيرة.. وتظهر تلك الجنية الطيبة الوديعة حاملة عصاها، وتغير كل شيء بلحظة.

لكن لم تكن هذه التي دخلت هي الجنية.. كانت عجوزا طيبة لكنها أرضية جدا لو طلبت رأيي.. مجرد امرأة أخرى ترتدي ثياب العصر.. تضع قلنسوة بنية وعباءة من نفس اللون..

- ولكن.. من

أخرستها إشارة من المرأة إلى فمها.. إنها من الطراز الذي يفضل أن يكون الكلام همسا.. ثم قالت بصوت كالفحيح وبلكنة شبه فرنسية:

- لا داعي لرفع الصوت.. لو عرف أحد أنني أتصل بك لكانت نهايتي.. أنت الصحفية أليس كذلك؟

مسحت (عبير) عن وجهها الدمع، وقالت في حيرة:

- بلى.. ولكن..

- أنا أدعى (دوروثي فايمان).. هل يذكرك الاسم بشيء؟؟

- لا....

في صبر عادت المرأة تسألها:
- هل تعرفين مدينة (كاسل - نيدر تسفيرين)؟
- لو كنت عرفت مدينة بهذا الاسم المعقد فلن أتذكره أبدا.
بدا على المرأة الغيظ.. نظرت إلى الموقد في شرود، وبدا كأنما تريد أن تسكب القدر على رأس (عبير):
- أنت بلهاء إذن.. هل أنت متأكدة من أنك صحفية؟
- نعم.. كنت.. والآن ألعب دور (سندريللا) من دون براعة..
فتحت المرأة فمها لتتكلم، لكن ضوءا أزرق غامضا تسلل من باب المطبخ.. وراحت النجوم تتناثر في كل صوب.. كان هذا كافيا كي تحمل أطراف ثوبها وتهرع مغادرة المكان، فتذوب في الظلام..
(عبير) ترمش بأهدابها الطويلة غير فاهمة.. إلى أن رأت الجنية الطبية ذات الجناحين - هذه المرة – تقف على الباب، وهي تحمل معها العصا التي تتناثر النجوم من طرفها كما يتناثر الشرر من تلك الصواريخ التي يشعلها الأطفال في الأعياد..
قالت لها بصوت رقيق جدير بالجنيات:
- تبكين يا (سندريللا)؟ كل هذا من أجل الحفل؟
كانت (عبير) غير رائقة المزاج، راغبة حقا في معرفة من هذه المرأة (فايمان) التي بدا ظهورها دراميا جدا، مؤثرا جدا وسط هذا الجو الحالم.. كانت أكثر واقعية من الواقع.. لكن الجنية افترضت أن صمتها شوق..
- لسوف تحضرين الحفل.. أعدك بهذا..
في الحقيقة لم تكن (عبير) راغبة على الإطلاق في حضور أية حفلات.. تلك الأماكن الحارة المزدحمة حيث يحتشد الناس مصممين على الصراخ، ويتأمل بعضهم البعض في فضول.. كانت دوما تمقت أن يدعوها أحد لحفل زفاف لأنها لا تطيق ساعات التعذيب تلك، وتفضل أن تترك وشأنها....
لكن القصة تحتم أن تكون ملهوفة على حضور حفل الأمير..
وتم الأمر بسرعة.. لمسة من العصا السحرية، وسرعان ما وجدت نفسها ترتدي ثيابا جديرة بالأميرات لمسة أخرى وتحول شعرها المبعثر إلى أروع قصة شعر رأتها في حياتها.. إن هذه العصا كفيلة بخراب بيت (سعد) الكوافير الذي يقبع محله التعس عند مدخل الحارة، والذي لا يفعل شيئا سوى وضع طبقة من الجص اللامع الملون على وجوه العرائس..



وتم الأمر بسرعة.. لمسة من العصا السحرية، وسرعان ما وجدت نفسها ترتدي ثيابًا جديرة بالأميرات..

قالت الجنية في حيرة وهي تتأمل عملها:

- لكن كيف تذهبين إلى القصر؟

قالت (عبير) في ملل وهي تتفحص وجهها في المغرفة اللامعة:
- هذا سهل.. تحولين قرعة كبيرة إلى عربة فاخرة بخيول مطهمة..
- جميل.. جميل.. والحوذي والخدم؟
- المطبخ يعج بالفئران.. لن تجدى صعوبة في هذا..
- أنت عبقرية يا عزيزتي!
وكأن هذا جديد.. وبرغم أن جزء العربة هذا من ابتكار (ديزني) وليس في القصة الأصلية؛ فإنه تم حرفيا..
تنزل (عبير) إلى الحديقة أمام المنزل لترى أروع عربة تجرها الخيول في حياتها، ولن أطيل الوصف لأن الصورة موجودة في أي كتاب قصص أطفال يحوي قصة (سندريلا).. بينما يقف الحوذي الذي كان فأرا من دقائق ينتظر ركوبها.. شكله مقنع لو تجاوزنا عن رائحته، والذيل الذي يحاول ببراعة أن يخفيه تحت ذيل ثوبه الطويل، ثم إنه كان يقرض قطعة من الجبن..
انحنى لها في رشاقة، فصعدت برشاقة مماثلة إلى العربة.. غريب أن (سندريلا) تجيد الإتيكيت برغم أنها قضت أعوامها السبعة عشر في تنظيف البلاط..
هنا تدنو الجنية من باب العربية، وتلوح بعصاها مودعة لكنها تذكر (سندريلا):
- ثمة مشكلة صغيرة..
- منذ متى لم تكن؟
- هذه هي النقطة التي يطلق عليها الكتاب اسم Catch أو اللقفة.. إن مفعول السحر ينتهي عند منتصف الليل تماما..
- هذا شيء معروف..
بحثت الجنية في ثيابها قليلا ثم أخرجت مفكرة إلكترونية صغيرة دستها في يد (عبير)، وقالت في حرج:
- معذرة.. ليست معي ساعة لكن هذه ستفي بالغرض.. سوف تدق عند منتصف الليل ولا أنصحك بالانتظار بعدها..
ابتسمت (عبير).. هذه أشياء معتادة على كل حال في (فانتازيا) منذ كان (رمسيس الثاني) يستعمل اللاسلكي في الاتصال بفرقة (بتاح)..
وثبت إلى العربة ولوحت بيدها وقد بدأت تشعر بأن الليلة لن تكون مملة جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5-سهرة مع الأمير..

كان دخولها إلى الحفل جديرا بالقصص الخيالية فعلا..
في البدء كان القصر بقعة من الضوء.. كأنه شمس صغيرة تتوهج في ظلام الليل.. شمس لا ترى معالمها ولا تفهم من أين تبدأ ولا أين تنتهي، وكان البسطاء يلتفون حوله.. البسطاء بثيابهم الممزقة والسمات التي تشي بالجوع.. ثمة أم تلبس الأسمال تحمل طفلا عاريا من الأطفال الذين تراهم في صور مجاعات إفريقيا.. وكانا ينظران في انبهار إلى رقصة الأضواء ويضحكان من القلب.. هكذا البسطاء يرون السرور فيشعرون به من دون أن يكون لهم في هذا المشهد ناقة ولا جمل..
تهبط من العربة ممسكة بيد الحوذي الذي كان فأرا منذ ساعة.. ويثلج صدرها أنها جزء من هذا المشهد فلم تشذ عنه لحظة.. إنها حلم يمشي على قدمين.. جميل أن تشعر بأنها حلم..
من القصر تنبعث موسيقا (شتراوس).. الفالسات الفاخرة إياها التي دوت مرارا في ليل النمسا، فلا غرابة أنه حين ثار الفقراء في فيينا وتكفل المارشال (رادتسكي) بخراب بيتهم، خلد (شتراوس) هذا الجنرال في مقطوعته العظيمة (مارش رادتسكي).. هذا عالم (شتراوس) حيث لا موضع للفقر أو البؤس أو الجوع..
يدوي نفير من مكان ما، وتصعد هي في الدرج ومن خلفها ذيل ثوبها الطويل.. الطويييييييييل الخدم ينحنون.. الحجاب ينحنون.. الأبواب تفتح.. ثم هي في القاعة الواسعة التي علقت في سقفها ثريات لا يقل عددها عن المائة.. والتي يمكنك أن تغرق في سجادها السميك وتموت.... الرقص يتوقف والموسيقا تتوقف.. والكل ينظر في دهشة إلى هذه المعجزة الجميلة التي دخلت..
رشيقا كغزال.. متأنقا كطاووس.. سمجا كحيوان (الولفرين).. يخطو هذا الشاب نحوها بخطى واسعة.. لا تحتاج إلى وسيلة إيضاح كي تعرف أن هذا هو الأمير.
يأتي بحركة رشيقة من أنامله في الهواء، كأنما يرسم دائرة، ثم ينحني ليلثم كفها ويمشي جوارها مفرود الظهر إلى وسط القاعة.. كل حركات هؤلاء القوم مفتعلة كأن هناك رساما خفيا يرسمهم في هذه اللحظات، وهم يعرفون هذا..
يصيح الأمير:
- رابسودي!
من ثم تبدأ الفرقة في العزف، ويدور بها وسط الحشد.. من الغريب أنها ترقص ببراعة أيضا ولا تسل عن المكان الذي تعلمت فيه (سندريلا) الرقص، هي التي لم تمارس في حياتها إلا تنفيض السجاجيد.. ولا تسلني كذلك عن كيفية الرقص بثوب يبلغ طول ذيله سبعة أمتار.. هذه أمور تافهة لا تستحق التفكير.
عملي جدا هذا الأمير.. لم يسأل عن شيء ولم يضع لحظة للتعارف.. الرقص هو كل شيء.. وكما توقعت (عبير) لم يرق لها على الإطلاق كانت طيلة حياتها تمقت الرجال ذوي النظرة الناعسة والشوارب الرفيعة..
دورة فدورة.. دورة أوسع فدورة أوسع.. فأوسع.. فأوسع..
ترى الخنزيرات الثلاث من بعيد ينظرن في مزيج من مقت وحسد.. لا بأس بهذا الانتقام، لكن لذته لن تكتمل إلا حين يعرفن أن هذه (سندريلا) بالذات.. هذه هي لحظة الإشباع الحقيقية

التي يعرفها كل كاتب سيناريو يجيد عمله.. طبعا لن يعرفن هذا إلا متأخرا لأنهن حمقاوات تماما، والفراسة مرادفا للذكاء دائما.
دورة فدورة.. دورة أوسع فدورة أوسع.. فأوسع.. فأوسع..
ثم تتغير الموسيقا.. ويدوي صوت المطرب المبحوح:
- هلموا.. دعونا نرقص التويست ثانية كما فعلنا في الصيف الماضي!!
(تويست)؟ لا بأس.. إن هذه (فانتازيا) على كل حال...
ولا بد أن (دي جي ـ 2) كان في حالة نشوة غير طبيعية لأن الفرقة انتقلت إلى (إلفيس بريسلي).. ثم (هشام عباس) ثم (حكيم).. ثم انطلق صوت (شعبان عبد الرحيم):
- حقوم الصبح بدري وانط الحبل نط.
كمان حاغذي نفسي وآكل حمام وبط؟
لقد تجاوز عالم (فانتازيا) كل القيود.. وحفل الأمير الذي بدأ بفالسات (شتراوس) قد انتهى ب. (حمام وبط).. لكن الكارثة هي أن الأمير كان منتشيا جدا، وكان يرقص كل أنواع الرقص في اندماج غير عادي. كما توقعت بالضبط.. هذا رجل لا يوجد ما يشغله في عالمنا هذا.. المفترض أنه مكافأة (سندريللا) على عذابها السابق.. ويا لها من مكافأة..
لابد أن الاهتزازات كانت قوية لأنها لم تشعر بالمفكرة الإلكترونية وهي تدق لابد أنها لم تلق نظرة واحدة إلى ساعة الجدار التي - للأسف - لم تكن من النوع الدقاق كما في القصص..
فجأة شعرت بأن ثيابها لم تعد بذات الجدة والرائحة العطرة.
فجأة عرفت أن قدميها كانتا حافيتين على الأرض..
وفي الخارج وجد أحد الحراس قرعة نصف فاسدة تركض هاربة من مكانها عدة فئران مشعثة..
لابد أنه لم يصدق عينيه لما صار إليه حال القصر..
أما في الداخل فحدث ولا حرج...
الكثير من الذعر والذهول والتساؤلات والعيون المتسعة والتنهدات والرعب والحيرة وعدم الفهم..
بعد صمت طال قال الأمير:
- أنت نفس الفتاة.. كنت أنت نفس الفتاة..
نظرت (عبير) إلى ساعة الحائط فوجدت أنها تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق..
وقال الأمير وهو يخطو للوراء:
- لقد استعملت السحر.. أنت ساحرة!!
وهنا فقط صاحت زوجة الأب التي لم تعد لديها ذرائع حتى لو كانت حمقاء كأخطبوط:
- (سندريللا)! فعلتها اللعينة!
وقالت واحدة من بنتيها:
- نعم.. نعم.. لعينة..
بينما أطلقت الابنة الأخرى شهقة ثم سقطت فاقدة الوعي، لكن لم تمتد أي ذراع حانية تساعدها على النهوض كما تصورت.. تركوها على الأرض كخرتيت اغتالته طلقات الرصاص
قال الأمير وهو يدير ظهره:
- خذوها إلى السجن.. فلتواصل الفرقة العزف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا يا سادة انتهت قصة (سندريللا) بالنسبة لـ (عبير) البائسة!
تلاحظون أنه لم يكن هناك حذاء رقيق يرسل الأمير رجاله للبحث عن صاحبته، وهو ما كان في الماضي يثير دهشة (عبير) دوما.. لقد انتهى السحر وتحولت ثياب (سندريللا) الأنيقة إلى أسمال وحوذيها إلى فأر، فكيف ظل حذاؤها محتفظا بحالته ولم يتحول إلى أصله المخجل؟ حتى قصص المذءوبين كانت أكثر حذرا فجعلت مخلب المذءوب يتحول إلى إصبع بشرية حينما تشرق الشمس..
المهم أننا الآن مع (عبير) في تجربة مثيرة بعض الشيء.. السجن في عوالم الأخوين (جريم).. على قدر علمي لم يحك الأخوان عن السجن قط، لكنها الآن تعيش فيه وتنام فيه..
ليس سجنا رائعا لو أردتم رأيي.. لا توجد زهور ولا أرانب صغيرة.. إنما هو قبو رطب مظلم.. رائحة عطنة.. قفص كأقفاص الوحوش.. قيد حديدي على عنقها مربوط إلى سلسلة مثبتة في الجدار وكومة قش هي فراش في الواقع..
كان المساجين وأكثرهم رجال يئنون في الأقفاص المجاورة.. أحيانا تسمع صراخ التعذيب لكنها لا تراه..
هذه هي الحقيقة يا رفاق.. الحقيقة تحت ذلك العالم الجميل الحالم فوقها.. ليست إلا كقشرة الأرض الهادئة الخضراء، بينما تحتها جهنم من الحمم، وحتى (فانتازيا) لم تستطع أن تهرب من هذه الحقيقة المريرة.
هنا سمعت (عبير) صوتا مألوفا..
نظرت من بين قضبان قفصها فرأت تلك المرأة في الظلام وبين المشاعل.. ماذا كان اسمها؟
- أنا (دوروثي فايمان)..
في ضيق وغيظ قالت:
- أعرف.. أعرف.. أنت سارقة الفطير التي قابلتها في المطبخ، وكنت أتمنى لو عرفت كيف دخلت هنا..
- إن قدرتي على الحركة غير محدودة.. لكن سلطاتي معدومة لأنني لست صاحبة هذا العالم..
قالت (عبير) في غل:
- لا تكلميني عن هذا العالم القشري.. هذا الأمير الوغد الذي كان يطير بي فرحا وانبهارا، ألقاني في غياهب الجب في ثوان، لمجرد أنني لم أعد بذات الثياب الفاخرة.. يذكرني هذا بقصة (جحا) الذي ذهب لمأدبة فطرده الحراس.. عاد لبيته وارتدي ثيابا فاخرة فرحب به الحراس.. هكذا استنتج - ذلك العبقري – أن ثيابه هي المدعوة إلى الطعام وليس هو، وكور عباءته وألقي بها في قدر الطعام.. إذن الأمير الرقيع لم يكن يرقص مع (سندريللا).. كان يرقص مع ثيابها..
قالت المرأة في فهم:
- كلهم نفس الشيء يا بنيتي.. أنت لم تتغيري.. ذات العينين الساحرتين والشعر الذهبي والبشرة النضرة.. لكنك ببساطة تغيرت في نظر هؤلاء الحمقى.. هذا ضعف بشرى مفهوم، وإن لم يكن مقبولا.. لا تتوقعي أن تتحولي إلى خادمة بينما الأمير يرقص معك، ومن ثم يهز رأسه في تواضع ويواصل الرقص مؤكدا أن الجوهر هو المهم..
- ليس إلى درجة السجن على كل حال..
ثم تذكرت (عبير) أن هذه المناقشة ليست هي ما تريده الآن:
- من أنت؟
- أنا أدعى (دوروثي فايمان)..

شدت (عبير) خصلات شعرها وصرخت في غيظ:
- سمعت هذا الاسم السخيف عشر مرات.. لكن من أنت حقا؟
- أنا..
ثم تذكرت شيئا فمدت يدها في صدرها وأخرجت مفتاحا.. لوحت به أمام عيني (عبير) في انتصار، ثم دسته في القفل و... كليك انفتح الباب كما ينبغي للأبواب أن تفتح، وفي لهفة قالت:
- الآن يجب أن تفرى.. لا وقت للشرح لأنهم سيحرقونك باعتبارك ساحرة عند الشروق. لو كانت عندك طموحات أفضل من أن تتحولي إلى قطعة فحم، ولو لم يكن لديك مزاج رائق للتضحية فلابد من الهرب..
قالت (عبير) وهي تخرج من القفص، مندهشة كيف لم يشعر الحراس بهذا كله:
- ولكن إلى أين أهرب؟
- إلى الشمال.. سوف تمرين ب. (شتيناو) ثم (ماربورج).. وفي النهاية تجدين نفسك في (شفالماشتات).. خذي الحذر هناك..
ما شاء الله.. هل هذه أسماء أم أفعال؟ لم تتذكر حرفا على الأرجح..
ولو كانت (عبير) عبقرية مثلنا جميعا لتذكرت أن (ماربورج) هي المدينة الألمانية التعسة التي ارتبط اسمها بفيروس (ماربورج) وهو من أخطر الفيروسات النزفية، لكن هذا ليس موضوعنا طبعا..
راحت تركض بين الأقفاص بينما المساجين – الأبرياء غالبا - يصيحون ويمدون أيديهم بين القضبان:
- هيه أيتها الحسناء..
- افتحي لنا الباب!
- هل من نظرة لمحكوم عليه بالإعدام؟
الخ.. لكنها لم تكن تملك مفاتيح، ولحسن الحظ أنها لا تملك، فما كانت لتجازف بإخراج واحد من هؤلاء حتى لو كان بريئا.. إن بضعة أيام في هذه الأقفاص تحول الإنسان إلى وحش..
تركض بين الأقفاص.. تركض....
المفروض أن تعبر هذه المساحة الشاسعة.. نحو الشمال.. كأن الشمال غاية في حد ذاته.. ولكن لماذا ولأي غرض؟
وفي النهاية كان هناك باب يرقد جواره حارس يغط في نوم عميق أقرب إلى الوفاة.. هذا رجل تم تخديره بلا شك.. إن (دوروثي) ليست بلهاء..
أمامها ترى الغابة الممتدة المظلمة، فيرتجف قلبها..
وضمت أسمالها على جسدها وغمغمت:
- لم يكن الأخوان (جريم) صادقين تماما.. هناك قبح في هذا العالم.. قبح شديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- بياض الثلج..

الغابة مظلمة باردة..
مرعبة بحق لذوي الخيال الجامح، ومخيفة فحسب لضيقي الأفق.. وللأسف كانت (عبير) ذات خيال جامح..
يبدو أن الغابة تحيي في النفس خوفا أوليا ترسب هناك في وجداننا الجمعي.. حين كان الظلام يعني الموت.. عواء يتردد من مكان ما فيتردد عواء من صوب آخر.. ثم عواء ثالث فرابع ينتهي بزئير طويل لوحش لا يعوي.. ثم ينسل شيء من تحت قدميك.. قليلة هي الأشياء التي تنسل.. وكلها باردة مميتة.
ثم صوت (هووووه!) يشي ببومة تنتظر هناك فوق غصن شجرة.. كأنها نذير الموت..
إن (عبير) خائفة.. وحيدة وخائفة صحيح أنها فرت من الإعدام، لكن إعداما من نوع آخر ينتظرها حتما حين يثب الشيء من فوق الشجرة ليلتهم أحشاءها..
الغابة مظلمة باردة..
و (عبير) واجفة القلب تنتظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تدري كيف ولا متى فقدت وعيها وسقطت على الأرض من فرط إرهاق ورعب..
لكنها حين صحت من نومها كان هذا بفعل ضياء الشمس....
لشد ما ندرك سخف مخاوفنا في ضوء الشمس! إن هذه الغابة من أرحب وأجمل ما رأت.. هذه الغابات الألمانية خلقت لقصص الأطفال وخلقت لها قصص الأطفال..
هنا حدثت إضافة من إضافات (ديزني) الشهيرة.. لقد راحت الطيور تغرد حول رأسها وتحوم، في حين راحت الأرانب الصغيرة ترتمي على قدميها.. أرانب صغيرة تلعب آذانها دور الضفائر بالنسبة للبنات..
فلو كانت (عبير) تملك صوتا رخيما أوبراليا لغنت، لكنها أدركت أن صوتها كفيل بإفزاع كل هذه المخلوقات الصغيرة..
مشت في الغابة تشم هذا وتقطف هذه وتلاعب تلك حتى رأت الكوخ من بعيد..
هذا كوخ معتاد من الأكواخ التي تعج بها تلك القصص، ولكن التحفظ قد علمنا أن تلك الأكواخ مقلقة دوما.. (حسن) وجد كوخا كهذا ودخله ونام فيه، غير عالم أنه كوخ الذئب.. وعندما انتصف الليل عاد الذئب إلى الكوخ ليجد (حسن) نائما في فراشه.. هناك كوخ آخر كانت الدببة الثلاثة تعيش فيه وقد أضير الأحمق الذي قرر أن يبيت في هذا المكان والتهم الحلوى....
لكن الكوخ كان رحبا بالفعل.. لو كان هذا الكوخ خطرا فهي لا تفقه شيئا..
وكان - كما نعرف - يحوي سبعة أسرة ومنضدة صغيرة عليها سبعة أطباق وملاعق، كما كان هناك قدر كبير من قدور القصص التي تحوي (العصيدة) دائما.. ولا أعرف مم تصنع هذه العصيدة بالضبط، لكنهم يأكلونها دوما ولا أعرف السبب ولا يمكن فهم كيف ولماذا قامت (عبير) بتنظيف الكوخ وتجميله بالزهور، وكيف ولماذا طهت العصيدة التي جعلت رائحتها الغزلان تطل برأسها من باب الخوخ تتشمم الهواء في نهم..
أما المعجزة الكبرى التي جعلها الأخوان (جريم) ممكنة فهي أنها نامت..

لا تنسوا أنها لم تنم لحظة طيلة الليل..
وهكذا صار المسرح معا لقصة (سنوهوايت) التي هي من أهم وأجمل ما كتب الأخوان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد الأقزام السبعة إلى الكوخ من عملهم في المنجم، كان النظام المفزع هو أول ما لاحظوه..
تسألني بالطبع عما يفعله هؤلاء القوم في المنجم أقول إنني لا أعرف.. إنهم يستخرجون الذهب لكنهم لا يبيعونه أبدا، ولا تعرف ما يفعلون به بالضبط.. القزم وقدر الذهب شيئان مترابطان في الوجدان الغربي مثل الفول والفلافل في وجداننا..
المفاجأة الأخطر هنا هي أن هناك فتاة جميلة بارعة الحسن تنام في فراش أحدهم..
يجب هنا أن أقول إن الأقزام لا يتميزون بشيء إلا بأنهم أقزام وأنهم سبعة، أما (ديزني) فجعل لكل منهم شخصية متميزة واسما يدل على شخصيته.. على غرار (جرامبي) و (سنيزي) و (هابي).. إلخ..
وبعد الذعر.. الكثير منه في الواقع تنهض (عبير) لتعلن أنها فتاة وأنها حسناء، وتعطى كلا من هؤلاء قبلة على خده.. يتقبلها في خجل وارتباك كأنها وصمة..
ثم إنها تمارس الدور الأنثوي المعروف الذي تصفه عاشقة فرعونية قديمة تتغزل في حبيبها وتتمنى أن تظفر به.. ثم في نهاية القصيدة تقول:
حتى أستولي على كنوزك ومفاتيح بيتك!
هكذا - بنعومة لا تصدق - تحولت (سنوهوايت) إلى الحاكم بأمره في هذا البيت، وصارت تحدد للأقزام البسطاء السعداء ماذا يأكلون ومتى ينامون ومتى يصحون..
الحق أن (عبير) كانت متوترة في البداية من أن يلاحقها رجال الأمير الوغد، لكنها بدأت ترتاح إلى حقيقة أن هذه قصص منفصلة غير متداخلة.. في الغالب هي قصة مختلفة تماما، وعلى أبسط الأحوال لم يعد اسمها (سندريللا) بل تحول إلى (سنوهوايت).. صحيح أنها تحتفظ بنفس الملامح لكن تعرفها صار عسيرا.. أضف لهذا أن بيت الأقزام متوار في الغابة يصعب العثور عليه..
يبدو أن الحياة ستكون منتظمة إلى حد ما من الآن فصاعدا...
في الصباح تعد الإفطار لهم ويخرج الأقزام مغنين حاملين الفؤوس ليعملوا في المنجم، بينما هي ترتب لهم الكوخ وتنظفه.. إن هؤلاء الأطفال الكبار يحدثون في الكوخ ما تعجز عشرة خراتيت عن عمله.. إن (عبير) تؤدي تقريبا نفس عملها حين كانت (سندريللا)، لكنها تمارسه بحب وبرغبتها الخاصة وهذه نقطة مهمة..
ثم تفرغ من العمل فتعد لهم العشاء – عصيدة دائما طبعا - مع كعكة التوت المقدسة في هذه القصص، وتجلس كأم مخلصة تنتظر الرجال السبعة لدى العودة مغبرين مشعثين غارقين في العرق طبعا ترغمهم على الاستحمام، والاستحمام كما هو واضح ليس من الأمور المحببة لدى الأقزام.. فإذا فعلوا فعلوا كالأطفال متحاشين غسيل آذانهم وعيونهم.. وهكذا يمر الوقت في شد وجذب حتى يجلس الجميع نظيفي الوجوه والأيدي إلى المائدة، وتشرف هي على طعامهم كأي أم متفانية فلا تظفر بأول لقمة إلا بعد أن يشبعوا جميعا....
بعد هذا يبدأ الشخير لأن السبعة المتعبين ينامون جميعا
وغدا يوم آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا الوقت - كما نعرف نحن - توجد ملكة شريرة.. ملكة شريرة وساحرة..
والساحرات في عوالم (جريم) رائعات الجمال، لكنه جمال كالثلج البارد.. جمال أرستقراطي جليدي شاحب يثير الرعب أكثر مما يثير الإعجاب.. باختصار هو جمال الكوبرا التي تتحفز للدغة، ومن ينكر أن الكوبرا رائعة الجمال؟
كانت تعيش في قلعة من قلاع القصص التي يحيط بها الضباب ويقود إليها طريق ضيق خطر متعرج.. كانت الملكة تعرف أنها رائعة الجمال، ولكنها كانت بحاجة إلى أن يطمئن قلبها من حين لآخر.
لهذا كانت عندها مرآة من مرايا القصص الثرثارة إياها.. في كل صباح تتجه إلى المرآة وتسألها:
- من هي أجمل امرأة في الكون؟
فتتثاءب المرأة المنافقة في ملل وتقول الجواب الذي رددته آلاف المرات:
- أنت طبعا
هكذا تغمض المرأة عينيها راضية عن الكون وعن نفسها..
إلى أن جاء اليوم الأسود الذي قالت فيه المرأة:
- أنت أجمل امرأة في الكون، لكن (سنوهوايت) التي تعيش في كوخ الأقزام السبعة أجمل منك بمراحل..
واللغز الذي يصعب فهمه هنا، هو أين كانت (سنوهوايت) طيلة هذا الوقت؟ كأنها ظهرت إلى الوجود أو صارت جميلة فجأة.
المهم أن الملكة جن جنونها وقررت أن تنتقم..
في البداية انفجرت في سيل من السباب للمرآة، ولا أستبعد أن تكون هشمتها في ثورة غضبها..
إن ملكة الجمال التي فقدت تاجها تكون خطرة كالخرتيت..
وانتقامها كان من نوع مبتكر..
وهكذا في ذلك الصباح جلست (سنوهوايت) أمام الكوخ بعدما رحل الأقزام إلى عملهم..
تتأمل الدغل أمامها.. ذلك الدغل الجميل الذي جعلته أحلام الشعراء أجمل في هذه اللحظة رأت شبح امرأة يخرج من هناك متجها نحوها.. لم تتبين ملامحها جيدا لأن عباءة كانت تغطى رأسها، لكن يمكنك بسهولة أن ترى تلك التفاحة التي تحملها في يدها..
قالت (عبير) لنفسها: إن هذه المرأة حمقاء حتما..
لو كانت تريد أن تسممها بالتفاحة كما تحتم القصة، فإنه من السخف أن تمشي حاملة إياها بهذا الشكل الفاضح..
هذا المشهد المريب يقول بوضوح إن التفاحة مسمومة...
إذن هذه هي الملكة الشريرة.. لا شك في هذا..
استعدت (عبير) للمقاومة متحفزة، لكن المرأة دنت أكثر فأدركت (عبير) أن هذه ليست الملكة الشريرة.. كانت تلك المرأة غريبة الأطوار (دوروثي فايمان)..
- أنت من جديد؟
رفعت المرأة التفاحة إلى فمها فقضمت قضمة كبيرة، ومعها قضمت أي احتمال لأن تكون التفاحة مسمومة، وقالت ل (عبير):
- بالطبع أنا.. وكنت أتمنى لو يكون الوقت مناسبا للثرثرة لكنك في خطر داهم..



رفعت المرأة التفاحة إلى فمها فقضمت قضمة كبيرة،
ومعها قضمت أي احتمال لأن تكون التفاحة مسمومة..

- كالعادة...
قالت المرأة وهي تنظر حولها:

- هؤلاء الأقزام.. ليسوا على ما يرام.. حاولي ألا تثقي بهم إلى هذا الحد!
من جديد هذا السخف.. طبعا يصعب على المرء أن يجد أية لمحة من الشر في هؤلاء الأطفال شديدي البراءة. هذه هي البارانويا الحقة..
هنا تعالي صوت الأقزام عائدين من بعيد مرددين نشيدهم الشهير..
نظرت المرأة إلى (عبير) واتسعت عيناها وهتفت في جزع:
- لم يعد من وقت لمزيد من الشرح.. أنا راحلة لكني أعتقد أن اليوم هو المختار.. سلي نفسك عن السبب الذي جعلهم يعودون مبكرا اليوم.. خذي هذا ودست في يدها وريقة صغيرة ملفوفة حول مسحوق ما....
ثم توارت كعادتها بين الأشجار، في ذات اللحظة التي ظهر فيها أول الأقزام حاملا فأسه ووراءه صف إخوانه..
نظرت لهم (عبير) وهي جالسة أمام الكوخ، وقررت ألا تخبرهم بشيء عن تلك المرأة.. كيف تخبرهم وهي ذاتها لا تعرف شيئا عن حقيقتها؟ إنها تظهر وتختفي فحسب كأي شبح.. وليست الأشباح من الموضوعات الدسمة الصالحة للنقاش.
- جئتم مبكرا اليوم..
قال أحدهم - ربما كان (سنوبي) - وهو يمسح عرقه:
انتهينا من هذا القطاع في المنجم، وقررنا أن نظفر ببعض الراحة.
- لم أنته من إعداد الطعام بعد..
- لن تكون هذه مشكلة.. سننتظر ودخلت (عبير) إلى الكوخ الرحب، وراحت تعد العصيدة - كالعادة - شاردة الذهن في كلمات المرأة، وفي تلك العودة غير المتوقعة للأقزام.. ثمة شيء ما لا تعرف ما هو، لكنه يفعمها قلقا وتوترا..
شيء ما..
ومن خارج الكوخ كانت تسمع ثرثرتهم المعهودة، وكل الأقزام ثرثارون بالمناسبة.
- يمكننا الانتهاء الآن.
- ليس قبل أن نتناول العصيدة.. إنها تجيد صنعها..
- من المؤسف أنها لم تعلمها لنا!
- الملكة ستغضب من التأخير.. وغضبها مخيف..
- بضع دقائق أخرى لن تحدث تغييرا..
- (سنوزي) سيبدأ بالعنق. أما أنت فتقيد اليدين معا!
كان هذا كافيا..
وبدأت يدها ترتجف وذهنها يتشتت..
القصة واضحة إذن.. المرأة لم تكذب، وهؤلاء الأوغاد يعملون تحت إمرة الملكة الساحرة..
ويبدو أن هذا هو اليوم المختار.. لقد صار التفاح المسموم موضة قديمة بالية..
بشكل ما استطاعت الشريرة أن تجند هؤلاء السبعة كي يقتلوا (سنوهوايت) وبالتالي تعود أجمل امرأة في الكون.. هل بالسحر؟ هذا هو الاحتمال الأقرب..
ومدت (عبير) يدها الراجفة تعبث في حقيبة ظهر أول الأقزام.. كانت تعرف أنها تحوي بعض الطعام والفأس.. لكن ما دور السكين هنا؟ سكين طويلة شرسة المنظر توحي بجز الأعناق....
الحقيبة الثانية.. نفس الشيء..
الثالثة.. الشيء ذاته..

ماذا تفعل؟
كيف تتصرف؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- رد رايدنج هود..

المسحوق!
لقد أنقذتها (دوروثي) من قبل، ولا يوجد ما يمنع من أن تستمر في هذا..
مدت (عبير) يدها إلى الورقة، وأفرغتها في إناء العصيدة.. كان محتواها مسحوقا أقرب إلى الفلفل.. كل المساحيق المؤذية تشبه الفلفل.. هكذا تعلمت حين ابتاعت أمها سم الفئران، وراحت تلوث به قطعا من الطماطم لتلقي بها في مدخل الدار من أجل ذلك الفأر الذي....
انتهى إعداد الطعام..
ووقفت على المدخل تدق جرسا صغيرا كعادتها في موعد الغداء، لكنها في هذه المرة لم تشعر بأنها تدق قلبها، ولكن تدق طبول إعدام هؤلاء الخونة.
سحر أو لا سحر.. هي لن تبتلع أبدا الخيانة ولن تفهمها.. ذاقتها في عالم الواقع كثيرا، ولن تتحمل أن تذوقها في (فانتازيا).. ويلتف الأوغاد السبعة حول المائدة.. ويبدءون في الصياح والشجار كالعادة، لكنها تشعر بأن كل شيء مفتعل.. ليس المرح هو المرح ولا الصخب هو الصخب.. إنهم يمثلون دورهم.. فقط يريدون قتلها ببطون مليئة بالعصيدة التي أعدتها لهم!
وتذكرت قصة بوليسية قديمة قرأتها، أرغم فيها القاتلان الطبيبة على إعداد طبق من المكرونة لهما قبل أن يقتلاها! بعد ما التهما المكرونة أعلنت أنها دست الزرنيخ لهما في الطعام وأنها وحدها تعرف الترياق المناسب..
طبعا يتضح في نهاية القصة - بعد قدوم الشرطة- أن ما دسته فعلا هو الكثير من الفلفل والشطة، مما جعل القاتلين يشعران بأن السم يمزق أحشاءهما..
بعد الغداء بدأ الصمت وبدأت النظرات الزائغة.
إنهم يعتقدون أن الوقت قد حان.. وهي تعتقد.. الشيء ذاته..
قالت لهم ضاغطة على كلماتها:
- الآن أريد أن أفهم.. لماذا تريدون قتلى؟
كانوا أغبياء.. لهذا تبادلوا نظرات الحيرة وعدم الفهم، ولو كانوا أذكى لاختصروا الوقت..
- هل أنتم أشرار أم مرغمون على الشر؟
فتح القزم الأكبر الغاضب دوما - أظن أن اسمه (جرامبي) - فمه ليتكلم، ثم هوى رأسه على المنضدة.. وعلى الفور دوت أصوات ستة أجساد تهوي أرضا أو ترتطم بالمنضدة الخشبية العتيقة..
دنت (عبير) وتحسست عنق الأول فأدركت أنه يتنفس.. نائم بعمق كما كان حارس السجن ليلتها..
إن (دوروثي). هذه تملك الكثير من المنوم وهي لا تدخر في استعماله..
إلى الكوخ نظرت نظرة أخيرة، عالمة أنها لن تراه ثانية أبدا......
كانت هناك عباءة حمراء ذات قلنسوة لا تدري من تركها هناك، لكنها كانت أجمل من أن تتركها

حيث هي.. لهذا ارتدتها حول جسدها ورفعت القلنسوة لتغطي شعرها..
بالإضافة لهذا كان هناك الكثير من الذهب في القدور، وقد قررت أن تحتفظ ببعضه.. إنها ستكون بحاجة إلى مال ولا شك.. هي تعرف أن السرقة هي السرقة حتى لو كان المسروق قاتلا، وحتى لو كان آخر ما قام به هو محاولة قتلك أنت بالذات.. لكنها رأت أن هذه ليست سرقة بالضبط.. إنه نوع من العقاب لهؤلاء الأوغاد..
ثم حملت جعبتها الصغيرة وانصرفت تاركة الأقزام يحلمون.. بالذهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى هذه اللحظة لم تشعر بأن عالم الأخوين (جريم) جنة حقيقية.. بالأحرى هو ليس جنة على الإطلاق..
وحين جلست أخيرا تحت شجرة على مسافة معقولة من الكوخ، أخرجت مفكرتها الصغيرة وكتبت فيها بضعة سطور من مقالها الذي سيتضخم ويتضخم كلما طالت رحلتها هذه:
- إلى حد ما يمكن القول إن الأخوين (جريم) تحدثا عن عالم لا وجود له.. عالم ينتصر فيه الخير، ويمكنك ببساطة أن تتعرف الطيب والشرير.. لقد أعدا الأطفال لعالم سهل هين لا معاناة فيه ولا ألم، وتعمدا خلط الحقائق.. ربما قالا الحقيقة لكنهما لم يقولا كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.
- الأمير وغد لا خلاق له، والأقزام السبعة باعوا (سنووايت).. والقصص تدور على مسرح من الجمال المبهر بينما الكواليس ذاتها قطعة من العذاب والألم.
ثم وضعت المفكرة بين حاجياتها وقررت أن تواصل الرحلة..
إلى الشمال.. هكذا قيل لها وهكذا ستفعل..
كان هناك فلاح ألماني جدا - من طراز (فانتازيا)- يقف جوار عربة جر، ويلبس (سالوبيت) على قميص ذي مربعات، الغليون العتيق في فمه، ويعتمر قبعة تيوتونية وله شاربان أشقران كثان، ويمسك في يده بكوز جعة تفور في الهواء حين ترى فلاحا ألمانيا في (فانتازيا) فأنت تعرفه على الفور، لأنه يفعل كل ما نتصور أن يفعله فلاح ألماني.
سألته بألمانيتها التي صارت طلقة فجأة برغم أنها صفر في عالم الواقع:
- أين نحن؟
- (شفالمشتات) في (هسه) أيتها الحسناء.. هل تجمعين الشليك؟
نظرت لنفسها وفطنت فجأة إلى أنها تحمل سلة جميلة تصلح فعلا لجمع (الشليك) الذي هو (الفراولة) لو لم تكن تعرف.. هزت رأسها موافقة على كلامه ونظرت لترى الغابة ممتدة أمامها.. غابة جميلة فعلا لكنها كذلك مخيفة.. كل غابات الأخوين (جريم) جميلة لكنها توحي بالتوجس والقلق..
وهكذا وجدت مهمة لحياتها..
دخلت إلى الغابة وراحت تجمع ما تساقط على الأرض من شليك.
هنا فقط بدأت تفطن لحقيقة عملها وثيابها.
إنها تلعب بالضبط دور ذات الرداء الأحمر..
لم لا ونحن نعرف أن (شفالمشتات) هي بالفعل موطن ذات الرداء الأحمر؟ لقد استطاع الدارسون بالضبط تحديد موضع أبطال كل قصة من قصص (جريم)، وغالبا ما تجد اليوم تمثالا في هذا الموضع يمثل بطل القصة.. بل إن فتيات (شفالمشتات) يلبسن حتى اليوم الثياب

ذاتها التي تلبسها (عبير) الآن.
يبدو أنها بدأت تندمج في الدور بعض الوقت، وبالفعل شعرت بأنها معجبة بنفسها وهي تجمع الشليك كأنها صورة في قصة أطفال ملونة.
هنا دوي عواء الذئب..
أجفلت ونظرت حولها ثم واصلت العمل أخيرا رأته قادما.. لم يكن ذئبا يمشي على أربع لكنه أقرب إلى جنتلمان متأنق.. فقط تلاحظ أن خطمه أطول من اللازم وأن عينيه ناريتان أكثر من اللازم، وأن أذنيه ومخالبة طويلة أكثر من اللازم..
باختصار يبدو كوغد ولا يبدو كذئب
وكان يضع يديه في جيبيه ويتقدم منها بتؤدة كأنما ليس متلهفا كما هو..
قال لها بصوت ناعم:
- صباح الخير أيتها الحسناء.. يوم جميل.. ألا ترين هذا؟
قالت وهي تبتعد:
- أمي قالت لي ألا أكلم الغرباء أبدا.
في الحقيقة كانت ترغب في الفرار لكنها خشيت أن تطلق هذه الحركة شراسته من عقالها.. لهذا فضلت أن تبتعد بالتدريج وعلى مراحل..
- وماذا تفعلين بالضبط؟
-كما ترى..
وابتعدت أكثر لكنه كان يضيق الفجوة باستمرار..
بدا لها الأمر مخيفا.. هل تحدث الأخوان (جريم) بالفعل عن ذئب حقيقي أم ذئب مجازي؟ إن كل لحظة في هذا العالم تجعلها أكثر اقتناعا برأي المفتش (بليتر)..
في النهاية وقد بدا أنه لن يرحل أبدا، قررت أن تلجأ لسلاح المرأة الأخير في سلسلة أسلحتها المعروفة:
الصراخ.. الصراخ الذي يشبه صراخ صفارة إنذار الغارات أو عربة الإسعاف.. وكان التكتيك ناجحا لأن الذئب تصلب في مكانه في غباء عاجزا عن الفهم، عاجزا عن قول شيء..
وهنا رأت جدارا من العضلات يثب من بين الأحراش حاملا فأسا..
وبعد ثوان فهمت أن هذا حطاب متحمس.. والحطاب المتحمس من المهن القليلة المسموح بها للرجال في عالم الأخوين (جريم)، وكلهم فقير جدا شديد المراس جدا..
كان يحمل الفأس ويلوح به في الهواء وعيناه على الذئب.. رآه الذئب فأطلق عواء قصيرا يشي بالرعب وخيبة الأمل، ثم أطلق ساقيه للريح.. وإذ ابتعد كان بوسعها أن تدرك أن له ذيلا قصيرا..
قال لها الحطاب وقد قرر أن يعدل عن المطاردة:
- ما كان لك أن تكلمي الغرباء يا فتاة. أين دارك؟
داري؟ حقا هي لا تعرف أن لها دارا.. لكنه اختصر عليها الأمر وأشار إلى دخان يتصاعد في السماء من بعيد، وقال:
- هذا الكوخ؟ سأوصلك إليه.
- قالت له وهما يمشيان نحو الدخان؟
- شكرا لك..
- لا شكر على واجب.. المهم أن تلتزمي بالنصيحة.

لا تكلم الذئاب؟ مطلب غريب حقا.. فالذئاب تهاجمك سواء كلمتها أم لم تفعل.. الأمر إذن يتعلق بالذئاب البشرية.. والقصة كلها قصة توجيهية إرشادية تقول للأطفال ذات ما كانت أمهاتنا يقلنه لنا.. لا تتكلموا مع الغرباء في أثناء الذهاب والإياب من المدرسة.. هذا بالطبع لو استبدلنا بجمع الشليك الذهاب للمدرسة..

على باب الكوخ توقف فى أدب ليسمح لها بالدخول، ثم قال وهو يتأهب للرحيل:

- لا تنسى لو ضايقك ثانية أن تصرخي كما فعلت اليوم.. اسمي (هانز).

طبعا.. كل الحطابين اسمهم (هانز).. ربما كل الرجال في قصص (جريم) كذلك..

دخلت الكوخ الذي لم يختلف كثيرا في الواقع عما قابلته من أكواخ.. لكن رائحة الشليك كانت قوية بالداخل.. من الواضح أن هذه الأسرة تأكل الشليك في كل الوجبات، وتشرب عصيره، وتشعل به الفرن لو أمكن......

ثمة امرأة عجوز في الفراش من الطراز الذي يضع وشاحا على كتفيه.

هذه هي الجدة طبعا، وهي من المهن النسائية المعروفة في هذا العالم..

بصوت واهن ضعيف متعرج تسألها:

- هل جئت يا ذات الرداء؟

- جئت يا جدتي

- وهل كان يومك طيبا يا ذات الرداء؟

- الذئب.. الحطاب.. الروتين المعتاد..

- إذن تعالي واجلسي جواري.

صدعت (عبير) بالأمر في تردد، فجلست على بعد متر من العجوز في إضاءة الغرفة الخافتة..

هؤلاء المسنون الأعزاء يعانون من الحرمان العاطفي دوما.. كلما شعروا ببرد القبر أكثر كلما طلبوا دفء العلاقات الإنسانية..

لاحظت (عبير) شيئا غير مريح فقالت:

- إن عينيك كبيرتان يا جدتي.. ربما أكبر من اللازم لو أردت رأيي..

بصوتها الواهن قالت العجوز:

- لأراك بهما يا عزيزتي..

لا بأس بها إجابة.. لكن

- وأذناك كبيرتان يا جدتي..

- لأسمعك بهما يا حبيبتي..

يبدو الأمر مألوفا بشكل ما.. ولكن أين ومتى؟

هل هي ظاهرة (ديجافو) التي لا تعرفها (عبير)؟

- وأسنانك كبيرة يا جدتي..

- لآكلك بها يا حبيبتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صرخت (عبير) ووثبت إلى الوراء، وحين كشفت الجدة عن وجهها كان ما رأته (عبير) هو.. (دوروثي فايمان).. المرأة التي تصر على الظهور حين لا ينبغي في المكان غير الصحيح..

صرخت (عبير) من جديد وهي تقف على باب الحجرة:

- لابد أنك جننت تماما..

كانت (دوروثي) تنهض وتخلص نفسها من الغطاء، بينما تقول في لهجة اعتذار:
- آسفة.. آسفة جدا.. يجب أن يتخفى المرء في هذا العالم، فلا يمكنك الثقة بأحد كما تعرفين.. كان يجب أن ألقاك على انفراد..
- وجدتي؟ هل ماتت..
- هي بخير وتنام في الغرفة الأخرى..
- وما سر هذه اللعبة السخيفة؟
- أردت أن أداعبك على طريقة القصة، لكن ما سأخبرك به فريد من نوعه تماما..
- لقد حان الوقت..
وفتحت (دوروثي) فمها لتتكلم، هنا سمعت (عبير) صوتا قويا.. كانت الأرض ترتج بالفعل كأن قطيعا من ثيران البيسون يركض بالخارج، لكن لا توجد ثيران بيسون في ألمانيا.. على الأقل في (شفالمشتان)..
وفي اللحظة التالية اقتحم الحطاب المكان وهو يعوي، حاملا الفأس التي تقول بوضوح: إن الويل قادم..
تراجعت (دوروثي) بسرعة لا تتناسب وسنها، ووثبت من النافذة، بينما هوى حد الفأس على مسافة خمس سنتيمترات من ساقها.. وصرخت (عبير):
- لا تفعل: إنها بريئة
- إذن لماذا صرخت؟
وهوى بالفأس على النافذة هذه المرة، عالما أنه لن يصيب شيئا.
أخيرا ساد الهدوء واستطاعت (عبير) اللاهثة أن تتكلم..
قالت له وهي ترتجف:
- المرأة بريئة.. أنت رأيت أنها ليست ذئبا على الإطلاق.
- هناك ذئاب وذئاب.. المرأة الثرثارة أخطر من أي ذئب..
ثم وضع الفأس جانبا.. واتجه إلى المنضدة الموضوعة في مدخل الكوخ واسترخي في مقعده، وأراح قدميه المدفونتين في حذاء ثقيل ذي رقبة على المنضدة، وقال في غلظة:
- أعدي لنا شيئا نأكله!
قالت في حرج:
- أولا مرحبا بك.. ثانيا ليس لدي ما يؤكل عدا الشليك.. ثالثا أنت انتهيت من مهمتك ولسوف أكون لك شاكرة لو رحلت الآن..
- هكذا يكون العرفان بالجميل؟
كانت قد بدأت تشعر بقلق.. هذا التبسط ورفع الكلفة ليسا مما يريحانها.
هنا قال وهو يعود للاسترخاء في المقعد:
- الفكرة أنني وجدتك في أمس الحاجة إلى رجل قوي يعني بهذا البيت، وأنا بحاجة إلى بيت مريح وامرأة تجيد الطهي..
هذا إذن ما يريد.. الاستيلاء على البيت ومن في البيت.
هنا حدث شيء غريب..
من النافذة وثب الذئب الذي قابلته في الغابة اليوم.. وقبل أن يفهم الحطاب شيئا كان الاثنان قد التحما في صراع عنيف، ولما كانت المفاجأة في جانب الذئب، فإنه لم يجد صعوبة في أن ينشب أنيابه في عنق الحطاب..

كان الصراع عنيفا قاسيا لكنه انتهى سريعا بجثة حطاب غارقة في الدماء..
وتراجعت (عبير) في رعب ممسكة بالفأس وصاحت وهي تتراجع للوراء:
- ليكن.. أنت ربحت.. لكني لن أكون فريسة سهلة
قال الذئب اللاهث وهو ما زال يجلس على الأرض يلتقط أنفاسه:
- دعي هذا السلاح فقد يؤذيك.
ثم مسح خطمه بكمه وقال:
- مشكلتك أنك تصدقين القصص الخيالية حيث يكون الأخيار جميلين كالزهور، ويكون الأشرار شديدي القبح.. خيالك لا يسمح لك بتخيل أن يكون هناك ذئب طيب القلب أو شهم..
- نعم.. لا أتخيل..
- أنا هو ذلك الذئب.. الذي أضناه الفقر وأضنته الوحدة.. ثم وجد نفسه أمام مخلوقة رقيقة تجمع الشليك.. حاولت الكلام معها لكنها فرت.. كالعادة فرت لأنني أحمل هذه الملامح المريعة..
- لا أصدق..
- بل أسوأ من هذا.. هل تعرفين أنهم قالوا إنني أرمز إلى الشعب اليهودي؟ تصوري هذا؟ قال دعاة الرايخ إن ذات الرداء الأحمر هي ألمانيا وأن الذئب الذي يريد التهامها هو الشعب اليهودي.. طبعا هذا لم يخطر للأخوين (جريم) قط، لكن القصص دفعت الثمن باهظا.. لقد اتهموها بالنازية ومعاداة السامية وحوربت في أوروبا كلها.
فيما بعد صرت أرمز إلى النازية التي تريد التهام الشعب اليهودي البريء الذي لا هم له إلا جمع الشليك.. وهكذا استعادت قصتي شعبيتها وصارت رائجة بقدرة قادر.. أي أن كل طرف يفسر القصة حسب مصالحه..
ثم نهض واتجه نحو الباب وقال دون أن يلتفت إليها:
- الحطاب لم يكن ملاكا.. وأنا لست شيطانا.. هذا عالم يحتاج إلى الحذر ومراجعة المفاهيم.. أتمنى لك حظا سعيدا في رحلتك نحو الشمال..
صاحت تناديه:
- إلى الشمال أين؟
- أعتقد أن (سابادورج) هي محطتك التالية.
من هذه اللحظة سيكون طريقك سهلا.. تتبعين نهر (فيسر) نحو الشمال.. سلام.
واختفي الذئب الشهم..
ومعه عرفت (عبير) أن مغامرتها هنا قد انتهت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الجمال النائم..

حتى اليوم في شمال (كاسل)، توجد قلعة الأميرة النائمة في (سابادورج).. السياح يعرفونها ويزورونها..
يمكنك أن ترى القلعة الشامخة وسط الضباب تحيط بها غابة سنديان سحرية.. وتقوم القلعة فوق تل، يجعل المشهد لا يصدق حين يكتمل القمر وتلتمع الفضة على جدرانها وأبراجها..
هناك يوجد مطعم صغير يقدم وجبة شهيرة تتكون من حساء الغزلان ولحم الجاموس وسمك الترويت الطازج، ثم يصعد السائح إلى غرفته لينام فكأنه الأميرة التي نامت مائة عام كاملة..
وكانت (عبير) الآن متجهة إلى (سابادورج)
غير عالمة ما ينتظرها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست تحت شجرة وراحت تدون الملاحظات كي لا تنساها:
- من جديد أجد فارقا كبيرا بين العالم كما أراد الأخوان (جريم) وصفه للأطفال، وبين الحقيقة المريرة.. هنا أقزام أشرار وحطابون أوغاد وذئاب وادعة وأمراء لا يتذكرون حبيباتهم أكثر من ثلاث دقائق.. ثم تلك المرأة التي لا محل لها من الإعراب، والتي تتواجد في كل مكان وتخرج من كل صندوق مغلق: (دوروثي).. مازالت رحلتي طويلة لكني بدأت أشك في أن هذا العالم مجرد مخدر جميل..
وأغلقت المفكرة، ونظرت إلى الأفق..
هناك كانت القلعة جاثمة وحدها وسط الضباب كل القلاع مخيفة، لكن هذه كانت تحمل طابعا لا يوصف من التوجس.. الضباب المحيط بها والصمت كما خلقة الله.. لا طير يحلق ولا سنجاب يتواثب..
لا شيء..
نهضت ومشت في رفق عبر الطريق المتعرج الذي يقود إلى القلعة والذي تحيط به هاوية عن اليمين واليسار.. هكذا يجب أن تكون أية قلعة تحترم نفسها كان هناك باب معلق من النوع الذي يهبط ويرتفع من أعلى.. ولكنه كان في وضع الهبوط.. وفي النهاية كان باب عملاق من السياج الحديدي مرفوعا ليكشف لها عن قلب القلعة..
دخلت كأية حمقاء أخرى إلى الظلام..
كل شيء يدل على أن هذه القلعة مهجورة منذ أعوام طوال.. ربما مائة عام.. وهو رقم صحيح بالفعل لو كنت تذكر القصة..
في الداخل رائحة الظلام والعطن ونسيج العنكبوت المشاعل مطفأة والسلاسل صدئة والتراب ارتفاعه ربع متر على الأقل..
تمشي بين الممرات.. كأنما تبحث عن شخص حي، والحقيقة أنها لو قابلت شخصا حيا لسقطت ميتة من الرعب..
هنا مجموعة من الدروع الواقفة.. كأنها حرس من الأشباح ينتظرها..
تمشي بينها وقد بدأت تهدأ قليلا عندما..
- آ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ!!

كذا صرخت ووثبت إلى الوراء مترين وفي الهواء مترا، عندما تحرك ذلك الشبح بين الدروع ومد يده لها.
- اخرسي يا بلهاء! هل تحتاجين إلى مكبر صوت؟
- أنت من جديد؟ أنت كالكابوس الذي لا ينتهي..
قالت (دوروثي) وهي تمسكها من معصمها على سبيل التهدئة:
- لي معك كلمتان، لكني لا أستطيع أبدا أن أجد الوقت المناسب كي أقولهما.. أنت صحفية كما نعرف.. وأنا مصدر معلومات بالغ الأهمية.. اسمي هو (دوروثي فايمان).
- تشرفنا.. لقد سمعت هذا الاسم أكثر مما سمعت اسمي أنا..
- أنا أعرف كل شيء عن الأخوين (جريم).. لكن لو عرفا أنني أعبث هنا فلسوف يكون..
هنا تعالى صوت المغزل من القاعة المجاورة، فأجفلت (دوروثي) وابتلعت ريقها:
- لن أستطيع.. هناك شخص ما.. يجب أن أرحل..
قالت (عبير) في غيظ:
- لماذا لا تختصرين فتريحين وتستريحين؟
يمكن تلخيص كلامك في أربع كلمات..
ضحكت المرأة في خبث، وقالت:
- ألخص حياتي كلها في أربع كلمات؟ أنت كريمة حقا يا بنية.. وداعا!
ثم توارت في الظلام، بينما تعالي صوت المغزل من القاعة المجاورة..
في فضول مشت (عبير) - كأية بطلة قصة حمقاء - إلى مصدر الصوت..
وكان ما رأته هو امرأة عجوز جالسة على الأرض، منهمكة في إدارة مغزل وقد بدت عليها المعاناة والتعب.
الحقيقة أنك تتعلم بسهولة في قصص (جريم) أن عليك أن تتحاشى النسوة العجائز خاصة الشمطاوات منهن.. لكن (عبير) ليست بهذه الحكمة طبعا..
دنت من المرأة ونظرت في توجس إلى هذا الذي تقوم به..
قالت العجوز وكأنما أحست أن هناك من يراقبها:
- هذا مجهود عنيف يا بنيتي.. مجهود لا يناسب عمري على الإطلاق..
تساءلت (عبير) عن سر هذه الحماسية للغزل في قلعة لا يبدو أن أحدا قد دخلها منذ قرن.. إن للناس هوايات عجيبة حقا....
جلست جوارها.. كانت تحب النسوة العجائز طيلة حياتها.. وكانت تجد في وجوههن المتغضنة مذاق تلك الحكمة الجميلة التي لم يعد وقت كاف لنقلها إلى الآخرين..
وبشهامة حقيقية عرضت على العجوز أن تساعدها..
ابتسمت المرأة وناولت المغزل ل (عبير) وهي تلقنها كيفية استعماله.. كان مغزلا من تلك المغازل المنزلية التي تراها دوما مع (غاندي) في الصور.. وقد حاولت (عبير) أن تفهم من المرأة كيف..
آي!..!..
الآن تذكرت.. تذكرت وكفها الجريحة تسيل منها الدماء على الأرض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكريات متضاربة لا تقدر على استيعابها جميعا، لكن هناك حفلا ومولودة جديدة للملك.. ثلاث

ساحرات طيبات.. ساحرة شريرة لم تدع إلى الحفل..
الساحرة حاقدة متضايقة.. الساحرة تدخل الحفل وسط النيران الخضراء المرعبة.. تقدم للطفلة نبوءتها: إنها ستكبر وتصير جميلة لكن جرحا في يدها سوف يجعلها تنام نوما أبديا..
الآن واضح أن الساحرة الشريرة نفذت وعيدها حرفيا.. وقد دخلت (عبير) القلعة فقط لتدمي كفها.. وهي الآن تشعر بنعاس غير مسبوق..
هناك من يضحك تلك الضحكة الشريرة التي تجيدها الساحرات..
لكنها لا تعرف من ومتي.. كل ما تريده الخروج من هنا..
تتحامل على نفسها حتى تصل إلى الدرج.. تتسلقه وهي تستند إلى الجدار..
ثمة غرفة نوم مفتوحة.. يبدو أنها موجودة في أحد ضلوع القلعة.. ذلك الجزء الذي يشبه الطابية.. ثمة فراش خال منسق، وستائر تتطاير في نعومة من النافذة، كأنما هي دعوة صامتة لها كي تنام..
تناااااام
الغابة مظلمة هادئة.. لكن هناك مواعيد يجب أن أحفظها وأميالا يجب أن أقطعها قبل أن أنام..
من قال هذه الأبيات؟ هي لا تعرف بالطبع أنه الشاعر العظيم (فروست).. تعرف فقط أنها ستتمدد في الفراش وتغمض عينيها..
ربما للأبد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنها لم تنم فعلا..
لقد ظلت بشكل ما تعي ما يدور حولها.. كأنما هي في تلك الغيبوبة مفتوحة العينين التي يسمونها Coma Vigil.. صحيح أنها نامت كثيرا جدا، لكنها كانت تسمع كل همسة وترى كل شبح في الغرفة.. تشعر بتتابع الليل والنهار، وتحس البرد والقيظ..
ترى هل مرت عليها ساعات أم قرون؟
عسير أن تعرف..
لكنها إذ سمعت صوت الفرس بدأت تفطن إلى أن هناك بشرا..
ثمة صوت حوافر حصان، ثم صهيل قصير، ومن يأمر الحصان أن (ش ش ش ش!)..
كانت مغمضة العينين ممددة في الفراش.. برغم كل ما مر عليها من أعوام تبدو كأنها نائمة.. لم تتعفن بالطبع ولم تتآكل لأنها كما قلنا حية..
لو كانت هذه القصة من قصص الرعب القوطي، لقلنا إنها (غير ميتة Undead).. لكن المشهد الآن أقرب إلى العذوبة منه إلى خيالات الرعب..
لو أنها رأت نفسها لسرها ما ترى.. تبدو في قمة جمالها، بينما الستائر تتطاير في نعومة مداعبة وجهها، وكل المشهد يوحي بالسلام النفسي..
إن أميرها قادم.. الأمير الذي انتظرته قرنا كاملا، وهو الذي سيزيل السحر.. سيكون بوسعها أن تنهض وتكمل القصة..
ترى كيف يبدو؟ لا يهم كيف يبدو.. فقط ليكن حصانه أبيض.. هذا هو أهم شيء في القصة كلها.. يحظر على أي أمير يستعمل حصانا غير أبيض، ومن يخالف هذا يعاقب بالسجن والغرامة..
تسمع صوت الخطوات.
إنه يقترب.. تعال يا أحمق.. أنا هنا..

أحسنت.. أنا إلى اليمين قليلا.. نعم.. هذا المدخل.. لا بأس..
إنه يقف الآن جوار الفراش.. لا بد أنه سيصاب بالرعب للحظة ثم يدرك كم هي رقيقة جميلة..
هنا حدث أغرب شيء في العالم..
في البداية أطلق سبة ألمانية بذيئة.. ثم قال في مزيج من الحقد والجشع:
- حتى الجثث أكثر ثراء مني! ماذا تفعلين بهذا العقد الثمين أيتها الحدأة الميتة؟
لقد مد يده وانتزع العقد المحيط بعنقها ثم غادر الغرفة!
ما معنى هذا؟
هنا فقط وجدت (عبير) أن الحركة صارت ممكنة.. لقد زال السحر.. لكن ليس بفعل الأمير الوسيم ولكن من الغيظ والذهول.. وجدت أنها تستطيع المشي إلى النافذة.. بصعوبة استطاعت ذلك.. وكانت النافذة على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض..
من أعلى ومن بين الستائر رأت الرجل.. لم يكن أميرا وسيما بالتأكيد بل هو وغد.. وكان يبصق بإفراط لا يناسب فرسان الأحلام على الإطلاق.. أما حصانه فكان بغلا أجرب أسود اللون كالشيطان الأهم أنه كان يحمل صندوقا من صناديق الكنوز إياها التي تعج بها القصص.. ورأته يضعه على ظهر البغل، ثم يخرج قنينة من جيبه يجرع منها جرعة كبيرة، ثم يبصق ويمسح فاه بكمه.. وينظر لأعلى ثم يعود إلى القلعة!



من أعلى ومن بين الستائر رأت الرجل.. لم يكن أميرًا وسيمًا بالتأكيد بل هو وغد..

لص! هذا هو أمير الأحلام الذي انتظرته كل هذه الأعوام.. والأسوأ أنه سارق جثث!
كانت قد حزمت أمرها.. غادرت الغرفة ثم مدت أصابعها في شعرها فنكشت خصلاته مثلما

كانت تفعل تلك المرأة المجنونة في جارتها.. ثم بدأت تهبط في الدرج وقد ساعدت الخطوات المتصلبة على جعلها تبدو ككابوس.. مدت أناملها أمامها كأنما تريد أن تخنق شخصا وهميا، وضغطت بنابها على شفتها السفلي في جشع، وراحت تزوم....
كان اللص قد عاد ليظفر بالمزيد من كنوز القلعة المنسية، حين لاحظ ظلا ما آتيا من أعلى الدرج..
نظر إلى هناك ليجد الفتاة التي كانت ميتة، وقد خرجت من الظلال.. وعلى وجهها كل مخايل شيطان يحلم..
فتح فاه وقال شيئا.. كما تفعل القطط حين تخاطب العصافير فوق الشجرة بذلك المواء الصامت..
- تعال.. تعاااال!
قالتها بصوت كالفحيح وهي تواصل التقدم نحوه.. إن أساليب الرعب القوطي تنجح أحيانا.. مادامت الأساليب الشاعرية لا تنجح يظل الرعب أكثر فعالية..
- تعال كي أقودك إلى الجحيييييييييييم!!
وواصلت التقدم..
- إنهم ينتظروووووووووونك هناااك!
هنا كان الرجل قد فقد كل تحكم في جهازه العصبي، فراح يعوي ككلب جريح ثم أطلق ساقيه للريح.. انزلقت قدمه وهو يركض وربما كسرت.
لكن لم يكن لديه وقت لهذا الترف.. سرعان ما كان قد اختفى عبر الباب، وسمعت شيئا يرتطم بالأرض ثم صوت الحوافر المندفعة إذ يفر البغل بحمله....
وإذ خرجت إلى الشمس التي لم ترها منذ مائة عام، وجدت أنه تخلص من كل الكنوز التي سرقها كي لا تطارده اللعنة..
هذه قصة أخرى ليست بالروعة المرجوة..
لو طاوعت نفسها لأطلقت على هذا المكان اسم (جحيم الأخوين جريم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9طفلان في قفص وزمار ينتقم.. (تعرفون هذه الأمور)

ولم تكن تعرف عن طريقها إلا أن عليها أن تظل قريبة من نهر (فيسر)..
فلتبق جواره إذن..
من بعيد تري بلدة صغيرة.. بلدة مليئة بالكنائس القوطية وأبنية عصر النهضة.. وفي وسط المدينة تري تمثالا لفتاة حسناء حافية القدمين، تحمل في يدها عصا ملتوية الطرف، وقد وقفت جوارها إوزة أو إوزتان..
رأت شابا بروب أسود يتقدم نحو التمثال، فيتسلقه ويطبع قبلة على خد الفتاة، ثم يضع زهورا عند قدميها، ويهبط ثانية..
طالب دكتوراه آخر! كانت هذه من فلاح ألماني عجوز يقف يراقب المشهد، وهو – كما قلنا من قبل - فلاح ألماني جدا بالشارب والقبعة والغليون و (السلوبيت) وكوز الجعة.. ولما رأى دهشتها قال مفسرا:
كل من يحصل على الدكتوراه في (جوتنجن) عليه أن يطبع قبلة على خد تمثال راعية الإوز وهي من بطلات الأخوين (جريم) الشهيرات.. هذا التقليد مستمر حتى القرن الواحد والعشرين!
ابتسمت (عبير) للمشهد الطريف، وواصلت رحلتها كانت الآن تمشي قرب قرية (هاملن).. هي لا تعرف هذا، لكنها في النهاية رأت لافتة عملاقة تحمل اسم القرية، لكن الطريف في الموضوع هو أن اللافتة كانت مليئة بالثقوب.. ليست ثقوب الرصاص كما في مدن الغرب الأمريكي، لكنها آثار أسنان دقيقة التهمت أطراف اللافتة..
غريب هذا..
اقتربت أكثر من القرية فكان ما رأته مخيفا.. إن الفئران في كل مكان.. الأرض مغطاة بعشرات منها، وتتسلق الجدران وتسقط من الأشجار.. هي لم تر قط وباء فئران ألعن ولا أشد وطأة..
الحقيقة أن ذلك المشهد يتكرر في فيلم (نوسفيراتو) المخيف للمخرج الألماني المجنون (هيرتزوج).. لكن السبب كان أن (نوسفيراتو) - وهو من أسماء (دراكيولا) - قد وصل إلى القرية، وهكذا اجتاحها وباء الفئران.
والمقصود طبعا هو أن خطر النازية يتهدد أوروبا.. كانت ترتجف رعبا.. فهي أنثى، ولم تخلق بعد الأنثى التي تطيق الفئران حتى في (فانتازيا)..
كانت هناك طفلة حسناء في السادسة من عمرها تقف وسط الفئران، وتحاول أن تحمي ساقيها.. انحنت (عبير) وحملتها على كتفيها ولثمت خدها في لطف.. ومما سرها أن الطفلة لفت ذراعها حولها في ألفة كأنما تعرفها منذ قرون..
- ما اسمك يا قطعة السكر؟
- هانا..
هكذا بدأت قصة الحب بينهما في ثوان.
ووسط ميدان القرية الذي بلغته بصعوبة، وقف العمدة.. عمدة ألماني جدا هو بشاربه الأشقر الكث والفراك الذي يرتديه، وقد حلى صدره بالأوسمة.. كان يخطب في الناس واقفا على منصة عالية تحميه بعض الشيء من الفئران:

- مشكلة الفئران تزداد حدة يا أهل (هاملن).. استنفدنا كل الحيل المعروفة للقضاء عليها:
السم.. القطط.. المصائد لو كان هنا من يعرف الجواب الصحيح للمشكلة فليتقدم..
راح الناس يتقدمون باقتراحات غبية، وهم لا يكفون عن ركل الفئران التي تحتشد حول أقدامهم.. حتى إن الأمهات كن يحملن الأطفال على الأكتاف طيلة اليوم..
- ماذا عن إغراق المدينة؟ نفتح السدود و...
- بخار سام.. عرفت واحدا يمكنه أن..
- السحر.. ثمة ساحر يمكن أن..
- أنا أستطيع..
قائل هذا كان رجلا رفيعا طويلا يعلق مزمارا تحت إبطه كأنه بندقية، وعلى كتفيه معطف مكون من عدة رقع بحيث لا تعرف أبدا لونه الأصلي نظر الجميع باتجاه الصوت.. وعرفت (عبير) من النظرات أنه غريب على الأرجح..
سأله العمدة في شك:
- هل تقول إنك تستطيع؟
- بالفعل يا سيدي.. ولكن يجب أن نتفق على أجرى أولا..
وشق الزحام حتى بلغ العمدة، وهمس في أذنه بكلمات ما جعلت لغد الأخير ينتفخ.. واضح أن الثمن فادح.. لكنه بعد لحظة تردد ثم هز رأسه:
- موافق.. لو فعلت..
وأدركت (عبير) من دون جهد أن العمدة لا يصدق حرفا، وأنه يتعامل بطريقة (خليك مع الكداب لحد باب الدار) أو (آدي الجمل وآدي الجمّال).. أو أي تعبير آخر يروق لك..
هنا - برشاقة - أخرج الغريب المزمار من موضعه، وضعه على فمه..
وسرعان ما بدأت الأنغام تنساب من المزمار.. أنغام ساحرة رشيقة لعوب مراوغة مداهنة..
والأدهى أن الغريب راح يحرك ساقيه معها فكأنه لا يمشي على قدمين وإنما على زنبركين..
وبدأ الزحام ينفرج ليمكن الرجل الغريب من الخروج..
وفوجئت (عبير) بأعداد لا تعد ولا تحصى من الفئران تأتي من كل صوب لتتبع الزمار..

فئران.. فئران.. فئران..
فئران تهبط من فوق أسطح البيوت وتخرج من البالوعات.. فئران تهبط من الأشجار وتنزلق عبر المداخن.. فئران تتلوى من تحت سراويل الرجال وأثواب النساء.. فئران تخرج من التراب وأخرى تثب من بين أحجار الطريق..
فئران.. فئران.. فئران..
فئران.. فئران.. فئران..
فئران.. فئران.. فئران..
والغريب يتقدم الموكب الغريب وهو مستمر في العزف..
الموكب يتقدم والفئران تتزايد.. حتى أكثر الأهالي تشاؤما لم يتصور أن كل هذه الفئران في القرية..
- إنه متجه إلى النهر!
يمشي الغريب مستمرا في العزف ووراءه الموكب..
الناس ينظرون عاجزين عن الكلام..
أخيرا يصل إلى نهر (فيسر) ويمشي على الجسر..

تحاول الفئران اللحاق به.. لكن الجسر لا يتسع لهذه الأعداد الهائلة، التي راحت تهوي في اليم.. وبالطبع تغرق..
لم يتوقف عن العزف لحظة، وكانت النتائج باهرة على أي صعيد..
بعد نصف ساعة أو أكثر قليلا لم يبق فأر في البلدة.. ولم يبق فأر حيا على الجسر.. لقد بر الزمار بوعده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد يقف الزمار أمام العمدة من دون فئران هذه المرة..
- لقد بررت بوعدي.. تم العمل وبقي الأجر..
قال العمدة في ارتباك حاول أن يخفيه بانبهار وإطراء:
- أنت كنت رائعا.. لقد حررتنا من غزو غاشم..
- لهذا أطلب أجرى لو سمحت..
- يمكننا أن نتفاهم.. إن بيننا الكثير من..
- أجري أولا لو سمحت..
ودارت مناقشة طويلة، يبدو أن العمدة كان يحاول التملص من العهد الذي قطعه.. يقولون إنه لا أحد يدفع ثمن شيء حصل عليه بالفعل، ومن السهل أن تبذل الوعود بينما الفئران تلتهم حذاءك، أما الآن وقد هدأت الأمور وصار بوسعك أن ترى الشارع من جديد.. يبدو المبلغ فادحا بحق..
استمر الجدل نصف ساعة، وفي نهايته صاح العمدة:
- لن تلوي ذراعا يا بني.. إن أجرك غير معقول ومبالغ فيه.. يجب أن تكون معقولا..
نظر له الزمار في صبر، ولم يغضب.. المخيف أنه لم يغضب..
فقط ابتعد وهو يقول في ثقة:
- ستسمعون عنى يا أهل (هاملن)..
وقالت الطفلة (هانا) ل.(عبير) وقد ترجلت أخيرا:
- ألم يأمرنا الله بأن نفى بعهدنا وأن نعطى العامل الأجر الذي اتفقنا عليه؟
قالت (عبير) في رفق وهي تصفف خصلات الشعر الشقراء على رأس الفتاة:
- بلى يا حبيبتي.. لكن العمدة يمارس لعبة اسمها السياسة.. تقوم هذه اللعبة على أن ترتكبي أقذر الأفعال وتقولى أشنع الأكاذيب وتخالفي كل شرع للبشرية..
فقط تفعلين كل هذا وأنت ترتدين الفراك وتبتسمين.. عندها يقول الناس إنك سياسية محنكة ويصفقون لك ويعيدون انتخابك..
- هل هي رياضة من رياضات السادة؟
- نعم يا حبيبتي.. في انجلترا يصطاد السادة الثعالب أو يمارسون السياسة.
كان الناس قد بدءوا يتفرقون، هنا سمعت (عبير) صوت المزمار من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة كان اللحن يختلف بعض الشيء.. لكن النتيجة كانت مشابهة لما حدث من قبل..
الفارق الوحيد هو أن الأطفال بدءوا يخرجون من بيوتهم ويمشون وراء الزمار.
من كل باب خرج الأطفال.. أطفال يحبون أو تعلموا المشي حالا.. أطفال في السادسة أو العاشرة

أو الثانية عشرة.. أولاد وبنات.. فتية وفتيان.
كلهم يمشي مسحورا نحو الزمار الذي لا يكف عن العزف..
وتصايح أهالى (هاملن) إن شيئا غريبا يحدث، وحاول بعضهم منع الأطفال دون جدوى..
وفجأة رأت (عبير) أن (هانا) الصغيرة تدير ظهرها لها متجهة إلى مصدر الصوت..
- (هانا).. لا تذهبي!
ووضعت يدها على كتف الطفلة.. وهنا شعرت بألم حارق من موضع العضة.. لقد كانت أسنان (هانا) اللبنية حادة فعلا..
وانطلقت الطفلة لا تلوى على شيء تلحق بموكب الأطفال الذي يتجه الآن إلى خارج البلدة..
- ما الذي.....؟
هنا سمعت صوت امرأة يقول من ورائها:
- هذا هو انتقام الزمار.. إن أحدا لن يرى هؤلاء الأطفال أبدا بعد اليوم!!
استدارت لترى وجه صاحبة الكلمات.. ثم قالت:
- (دوروثي فايمان)! لقد بدأت أقلق عليك بعد ما مرت ساعتان من دون أن أرى وجهك!
- أنا معك دوما.
- هل تقولين إن هؤلاء الأطفال لن يعودوا؟ لقد خدع العمدة الزمار، لكن ما ذنب الأطفال؟
- هذا هو الانتقام الجماعي..
شعرت (عبير) بالأسى.. لقد ارتبطت بالطفلة تماما برغم أن علاقتهما لم تتعد الساعة.. يا لها من قصة قاسية! وكأنما شعرت (دوروثي) بأفكار (عبير) قالت لها:
- ليس عالم الأخوين (جريم) جنة (ديزني) كما ترينها في الرسوم المتحركة.. لكن للقصة على كل حال أساس تاريخي لا بأس به.. لقد عانت (هاملن) فعلا في القرون الوسطى من أكثر من وباء فئران.. والسبب أنها تعج بمخازن الحبوب.. أما عن رحيل الأطفال فقد حدث فعلا عام 1284 حين هرب أطفال كثيرون مع غريب يحمل مزمارا.. لقد اختلطت القصتان لتصنعا حكاية واحدة..
حتى اليوم في (هاملن) في عالم الواقع، مازال أهل البلدة يحيون هذه الذكرى.. وكل المتاجر هناك تعرض تماثيل وتذكارات من تلك القصة..
وكادت تواصل الثرثرة لولا أن رأت على البعد رجالا قادمين، فهمست في أذن (عبير):
- لو كنت مكانك لفررت الآن.. هؤلاء من رجال الأمير..
- أي أمير؟ هذا العالم يعج بالأمراء.
- أمير (سندريللا) الذي اتهمها بالسحر.. لابد أنهم يبحثون عن طعم نيرانهم الذي فر! كان هذا كافيا لـ (عبير) كي تندس وسط الزحام عازمة على مغادرة القرية..
توجد ذيول للقصص إذن في هذا العالم، وهي التي كانت تحسب كل قصة حكاية متكاملة تنتهي بنهايتها.
وازدادت نظريتها تكاملا حين سمعت من يصيح:
- هذه هي!!
ونظرت إلى اتجاه الصوت المألوف لتجد الأقزام السبعة يركضون نحوها عبر الطريق والشرر يندلع من عيونهم!
- سارقة الذهب!!
يا للكارثة! كانت أمامها عربة يجرها حصان عليها كومة عالية من القش.. وقدرت أن الكومة

غير متزنة فمدت يدها وجذبتها، وسرعان ما هوي القش ليسد الطريق، بينما وثبت هي لتتواري وسط الفوضى..
ولا تدري متى ولا كيف وجدت نفسها في الغابة من جديد..
تركض بين الأزقة المتعرجة.. تركض بين البيوت التي خلت من الأطفال.. تركض..
وقفت تلهث وتنظر حولها.. إن كل شيء في هذا العالم يطاردها إذن.. يبدو أنها على رأس قائمة المطلوبين.. ثمة عملاق قادم من بعيد.. ليس عملاقا من عمالقة القصص لكنه شخص ضخم بما يكفي، ويحمل حجرا ثقيلا.
هل هذا الحجر مخصص لتحطيم رأسها؟
لكن نظرة إلى وجه العملاق جعلتها تكف عن القلق.. هذا طفل كبير أزرق العينين الصافيتين. على وجهه نمش يوحي بالصبا والسذاجة.. نمط العملاق الذي يملك قلب وعقل طفل شائع جدا حتى إنه صار قاعدة...
قال لها وهو يلهث من مجهود حمل الحجر:
- أنا (هانز) المحظوظ.
-تشرفنا.. وأنا (عبير) المنحوسة..
قال وهو يضع الحجر ويجلس إلى جوار جدول ماء:
- عملت بجد خادما لسيدي عشرين عاما، من ثم أعطاني بقرة مكافأة لى عندما قررت العودة لقريتي وأمي..
نظرت حولها فلم تر بقرة.. وكأنما فهم ما تبحث عنه قال:
- في الطريق أقنعني فلاح بأن أستبدل بالبقرة خروفين، فهما يصلحان كي يكونا قطيعا فيما بعد..
- لا أري خرافا هنا..
- مشيت بالخروفين فقابلني راعي خنازير أقنعني أن خنزيرا سمينا يفيد أمي أكثر.
- وأين الخنزير؟
- أقنعني مربي إوز أن أستبدل به إوزة سمينة لتطهوها لى أمي الليلة..
- إذن أنت أكلت الإوزة؟
- لا.. استبدلت بها دجاجتين بياضتين لأفطر بالبيض كل صباح..
- وأين الدجاجتان؟
- أقنعني رجل ممن يسنون المدي أن أستبدل بهما هذا الحجر.. إنه ممتاز ويصلح لسن المدى عليه.. هكذا ضمنت مستقبلي ومهنة المستقبل..
- أنت رجل عبقري.. و
وهنا ضحك العملاق كثيرا.. ضحك فارتجت الأرض وحرك ردفه فانزلق الحجر الثقيل ليسقط في اليم..
نظرت له (عبير) في جزع، وتوقعت أن يفعل شيئا لكنه قال:
- لا أعرف السباحة.. لكني برغم هذا سعيد..
- والسبب؟
نهض ومسح بيديه الغليظتين على صدره العريض كأنما يفسح للهواء مجالا أكبر وهتف:
- لقد تخلصت من هذا الحجر الغليظ الذي كاد يحطم ظهري.. هنيئا لي! إنني فعلا لسعيد الحظ!!
ثم انطلق مبتعدا وهو يتراقص طربا..

راحت (عبير) تتابعه بعينيها غير مصدقة.. هذا الفتى يلخص كل شيء.. الساذج البسيط حسن النية في عالم قرر كل من فيه أن يتحولوا إلى نصابين وأوغاد.. لكنه على الأقل لا يعرف هذا.. إن غباءه قد وقاه من معرفة الحقيقة المريرة.. وكما يقول الشاعر: «مأساتك أنك تدرك مأساتك..».. فمن لم يدرك مأساته إنسان سعيد.. ربما محظوظ كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت الفلاح الذي قابلته جوار المحراث، والذي هو - كالعادة - فلاح ألماني جدا:

- أين أنا؟

قال وهو ينفث دخان الغليون العتيق، ويشرب من كوز البيرة، ويدس إصبعه في حمالة (السلوبيت) الذي يرتديه:

- أنت في (فردن) يا فتاة.

أغرب ما في قصص (جريم) أنها جغرافية جدا.. يمكنك أن تتابعها على الخارطة بدقة متناهية.. وفيما بعد قام كثيرون بالمشي في ذات المسار الذي تقطعه هي..

لكن ماذا يميز (فردن) من قصص؟ على الفور تذكرت حين رأت الطفلين يمشيان عبر الغابة.. الفتاة تحتضن دمية، بينما تقف في طريقهما امرأة عجوز منحنية وتتكلم معها.. ثم تقتادهما إلى كوخ رهيب صنع من كعك الزنجبيل.

(هانزل) و (جريتل).. لا شك في هذا....

الطفلان اللذان طردهما أهلهما ففرا إلى الغابة حيث يقعان في قبضة ساحرة شريرة.. الساحرة تريد التهامهما طبعا، لذا تحبسهما في قفص وتطعمهما بانتظار أن يسمنا بما يكفى للذبح والأكل..

في كل يوم تطلب أن ترى إصبع الفتاة لتعرف إن كانت سمنت، فتخرج لها الفتاة إصبع الدمية، ومن ثم تقرر الساحرة أن تنتظر قليلا.

في النهاية ينجح الطفلان في خداع الساحرة والإلقاء بها في الفرن، ويفران عائدين إلى أهلهما..

- لا تتدخلي.. سينجوان..

كانت هذه - بالطبع - (دوروثي) ملاكها الحارس الذي يظهر من حيث لا تدري..

قالت (عبير) في رهبة:

- هذان الأخوان (جريم) كانا يكرهان العجائز بحق.. كل عجوز في هذه القصص مرعبة بحق.. ثم إن نصائحهما صارمة بصدد عدم التعامل مع الغرباء.. كانت أمي تقول لى أشياء مماثلة ليس أقلها إن الغرباء سيخطفونني ويعلقونني من ساقي فوق وعاء من الماء الساخن، حتى يسيل الدهن من جسدي ويصنعوا منه مرهما! حتى اليوم أرتجف لهذه الفكرة، لكنني أتساءل إن كانت هذه بحق أسهل طريقة لصنع المراهم.. تخيلي أن يتجشموا كل هذه المخاطرة من أجل صنع مرهم!

ضحكت العجوز قليلا للفكرة، ثم أردفت:

- أنت تجدين هذا سخيفا.. في الواقع كان من دعائم دعاية اليهود ضد النازيين ومن أركان المحرقة المهمة، ذلك الزعم بأن النازيين يذيبون اليهود ليصنعوا منهم صابونا.. وقيل إن ربة البيت الألمانية حين تستحم بصابونة فإنها في الواقع تتخلص من يهودي في البالوعة.. والأغرب أن هذا المعتقد مازال سائدا، وهناك كثيرون في أوروبا وأمريكا مازالوا يؤمنون به.. فإن عارضتهم حاكموك بتهمة معاداة السامية.. وبزعم كهذا مازالت ألمانيا تدفع التعويضات لليهود اعتذارا عن

الصابون الذي صنعته منهم في الحرب العالمية الثانية!
قالت (عبير) وقد تذكرت قصتها مع (هتلر):
- لكن ألا ترين أن هذه الأساليب التربوية مفزعة؟
أن تحكى للأطفال عن قفص يسجن فيه طفلان بانتظار التهامهما.
قالت (دوروثي):
- كانت هذه هي أساليب التربية في الماضي كان هناك كتاب فائق الشهرة اسمه (درشتروملبيتر) كتبة دكتور (هنريش هوفمان).. هذا الكتاب كان مليئا بالمواعظ المخيفة للأطفال.. مواعظ يمكن تحويلها إلى أفلام رعب ناجحة.. من يرفض الشوربة يمت ويدفن في قبر عليه طبق الشوربة.. من لا يقص أظفاره تطل وتمتص كل طعامه.. من يلعب بالكبريت يحترق ويتشوه.. والكتاب مزخرف بأشنع رسوم يمكن تخيلها.. ليست هذه بالطريقة التربوية المثلى لكنها فعالة.. ولا تنسى أنك لم تكلمي الغرباء في طفولتك قط، حتى لا تتحولي إلى مرهم!!
نظرت لها (عبير) في ثبات وقالت:
- لو تناسينا المرهم والصابون والشوربة قليلا.. أريد أن أعرف من أنت..
- هذا سهل.. أنا (دور..
- كفي عن هذا السخف.. أنت تعرفين ما أسأل عنه بالضبط..
قالت (دوروثي) في غموض:
- أنا صاحبة هذه المملكة الحقيقية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الأخوان..

قالت (عبير) في غباء:
- عم تتحدثين بالضبط؟
قالت (دوروثي) وهي تمسك بيد (عبير) في رفق، وتقتادها إلى طريق بين الأشجار:
- في هذا الكوخ تعرفين كل شيء.. لقد حاولت أن أتحاشى الظهور، فليس هناك من يرحب بي هنا، ثم وجدت أن عليك أن تعرفي الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شيء إلا الحقيقة..
كان كوخا عاديا من تلك الأكواخ التي يعج بها هذا العالم.. كوخ كأنه جزء لا يتجزأ من هذه القصص، ويصلح لأي شيء.. قد تلقى فيه ذات الرداء الأحمر أو تجد الجدة، أو ربما يقف الذئب ينفخ محاولا أن يهدم المكان على رءوس الخنازير الصغيرة..
قرعت (دوروثي) الباب فجاء من الداخل صوت ثابت يقول إن بوسع القادم أن يدخل.
فتحت الباب الثقيل، وكان أول ما رأته (عبير) هو منضدة ثقيلة من الخشب عليها كومة من الكتب.. ثم استطاعت أن ترى الشابين الجالسين إلى المنضدة.. أحدهما منهمك بالكتابة، والآخر يقرأ في نهم بعض الأوراق الصفراء..



وكان أول ما رأته (عبير) هو منضدة ثقيلة من الخشب عليها كومة من الكتب.. ثم استطاعت أن ترى الشابين الجالسين إلى المنضدة..

قال الذي كان يكتب:

- (دوروثي).. قلت لك إن أحدا لا يرحب بك هنا..

لم تبد العجوز اهتماما، وبثقة لاحد لها دخلت وجذبت مقعدا لتجلس عليه (عبير)، ثم اختارت هي موضعا على الأرض جوار المدفأة.. وقالت:
- صه يا (جاكوب).. إن الآنسة صحفية، وليس هذا خير وقت لنشر غسيلنا القذر..
ثم أشارت إلى الشابين وقالت ل (عبير):
- أقدم لك الأخوين (جريم)..
في انبهار نظرت لهما (عبير) غير مصدقة.. كانا شابين عاديين في ثياب العصر، لا يمكن أن ترى فيهما قبحا مميزا أو جمالا مميزا.. لكن أحدهما – المدعو (جاكوب) - كان على شيء من الصرامة وحدة الطبع كما بدا من نظراته، أما الآخر فكان أكثر رهافة ورفقا..
- هذا العصبي هو (جاكوب).. أما هادئ الطباع فهو (فلهلم)
هز (فلهلم) رأسه في رفق، وقال ل (عبير):
- تشرفنا يا آنسة.. هل استمتعت في عالمنا الساحر؟
قالت (عبير) في خجل، وهي لا تصدق ما يحدث بعد:
- لم أر كل شيء.
- ولن ترى كل شيء.. لقد كتبنا 210 قصة لا يمكن أن تزعمي أنك تعرفينها جميعا.. جمعناها في كتاب اسمه (حكايات الأطفال والأسرة).. وقد صدر عام 1812.. ونجاح الكتاب ساحق إلى حد أنه صدر ب 160 لغة.. بل إن هناك حديقتين موضوعيتينTheme Park في اليابان خصصتا لقصصنا..
قال (جاكوب) في برود وهو ينظر إلى العجوز:
- طبعا أنت قابلت زوجة الخياط وتكلمت معها.. أتكلم عن (دوروثي فايمان)..
قالت (عبير):
- لم أجد لذلك فرصة.. إنها متخصصة في بدايات الجمل المبتورة..
قال (جاكوب) وهو يغلق الكتاب العملاق الذي كان يقرؤه:
- هذه المرأة تدعي ببساطة أنها هي من صنعنا.. وأنها ملهمتنا رقم واحد.. كنا قد عرفناها في (كاسل) وهي زوجة خياط تنحدر من أصل فرنسي.. وقد حكت لنا بعضا من القصص الشعبية التي قصصناها في كتابنا الشهير. المؤسف أنها نالت قسطا لا بأس به من الشهرة بفضلنا. وقد صار بيتها في (كاسل) مزارا سياحيا مهما، وحتى اليوم تلبس حفيدتها قلنسوتها وتقابل السياح لتحكي لهم قصصا..
وتدخل (فلهلم) قائلا:
- لو كان لكل مصدر من مصادرنا الحق في أن يتفاخر بأنه هو من صنعنا، لما صار في هذا العالم موضع قدم..
وفهمت (عبير) ما يريد الأخوان قوله.. إنهما استقيا الحكايات من أفواه عشرات الفلاحين والخادمات و... و... ثم طوراها وصنعا منها ذلك المزيج الساحر.. ذات مرة جلس العالم النفسي المصري (يحيى الرخاوي) يسجل حكايات خادمة صغيرة أمية عمرها اثنا عشر عاما.. وكانت القصص غريبة تتمتع بأصالة غير عادية: المعلم الغول الذي يلتهم طلبته الذين يأتون للصف مبكرا.. الرجل الذي أكل من التفاح الذي يجعل النساء حوامل، ومن ثم أنجب من بطن ساقه فتاة بارعة الحسن.. ووجد العالم أن هذه القصص تصلح نواة للتطوير والتشذيب لتنضم إلى تراث الأدب الشعبي العالمي بجدارة تامة...
قالت (دوروثي) في عصبية:

- هل لو اتخذ كاتب شهير قصص خادمة أساسا لأعماله.. يمكن أن تعتبره لصا مادام لم يشر إلى المصدر؟..
قال (جاكوب) في عصبية مماثلة وإن كانت أعلى قليلا:
- إن الكاتب يدخل هذه المواد الخام إلى خلاط خاص.. يضيف النكهة والمذاق والرائحة.. يجمل.. يشذب.. في النهاية يخرج عمل متقن متكامل لا علاقة له بالهراء الأول.. ولو لم نكن نحن لماتت قصصك على الفور، ولما كان العالم كله يعرف ذات الرداء الأحمر والأقزام السبعة وسندريللا وزمار (هاملن)..
هنا بدأت (عبير) تفهم لماذا اتهم المفتش الأخوين (جريم) بعدم الأصالة.. إن كل قصة مما كتبا لها أساس ما لدى الفلاحين أو في حكايات (دوروثي).. لكن لو تمسكنا بهذه القاعدة لاتهمنا (شكسبير) بأنه أكبر لص في التاريخ.. فهو لم يكتب قصة أصلية قط.. كان يحكي التاريخ بطريقته الخاصة، أو كان يطور قصصا سابقة لم تكتب لها الشهرة..
قالت (عبير) للفتى الأرق حاشية (فلهلم):
- هل لك أن تحكى لى مسار حياتكما كي أستطيع الحكم؟
قال وهو يضع القلم جانبا:
- ليكن.. لكن لا تقاطعيني من فضلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وللقراء الذين يكرهون التفاصيل، أقول إن الفقرة التالية كلها تفاصيل.. أنا أراها مهمة جدا.. بل هي ما يبقى من كتيب كهذا، وهي السبب الأساسي لكتابته.. لكنك على كل حال لن تفقد سياق القصة لو ذهبت لتفتح الباب كي يدخل القط، أو تتأكد أن الماء لم يجف من براد الشاي على الموقد.. دعك – بالطبع من فرصة دخول الحمام الذهبية.. أراك فيما بعد على خير، بعد انتهاء هذه الفقرة..
قال (فلهلم):
- ولدنا في بلدة (هاناو) قرب (فرانكفورت).. أنا أصغر من (جاكوب) بعام وقد ولدت عام 1786.. كان لنا أربعة إخوة ماتوا جميعا فلم يبق سوانا. لأبينا المحامي.. ولسوف تجدين نصبا تذ يمثلنا في ساحة البلدة، لكن بيتنا قد تهدم للأسف في أثناء غارات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية..
عام 1791 ارتحلنا إلى (شتيناو).. نفس الطريق الذي مشيته أنت وأنت قادمة إلى هنا.. وهناك صار أبي قاضي البلدة.. كانت (شتيناو) هي الحقبة الشعرية من حياتنا، وفيها تعلمنا معنى الخيال ومعني سحر القصص الشعبية..
- كان المفترض أن تدرس القانون، لكننا لم نجد أننا مهتمان به على الإطلاق. وعام 1805 قررنا أن ما نريده حقا وما نحلم به هو دراسة التراث الشعبي واخترنا (كاسل) كي نبدأ فيها..
- هناك في (كاسل) أدركنا أن الأدب وهذه القصص على وشك أن تموت في صدور الشيوخ..
كانت هذه خسارة مروعة لو حدثت.. لهذا انطلقنا في كل مكان نسمع قصص الفلاحين وخاصة مصدرنا الأهم.. تلك المرأة (دوروثي فايمان) التي عرفنا منها قصة (سندريللا) من بين عشرات القصص الأخرى.. هناك امرأة تدعى (ماري) سيكتشف النقاد دورها في سبعينات
القرن العشرين، وهي من أخبرتنا بقصص (ذات الرداء الأحمر) و (سنووايت) و (الجمال النائم)..
وفي العام 1812 أصدرنا كتابنا الشهير..

- عام 1830 ظفرنا بوظيفتين في جامعة (جوتنجن).. أنا تزوجت ورزقت بأطفال، لكن (جاكوب) لم يفعل.. كان بطبعه أعزب جادا صارما وقد اهتم أكثر بتراث اللغة الألمانية وتأليف القواميس وله نظرية مهمة في اللغة الألمانية تدعى (نظرية جريم).. لا تنسى أن تمثال راعية الإوز مازال في (جوتنجن) وعلى من يحصل على الدكتوراه أن يطبع قبلة على خده..
- عام 1837 حدثت مشاكل سياسية فاضطررنا إلى ترك الجامعة وعدنا إلى (كاسل) ثم اتجهنا إلى برلين، وهناك أمضينا حياتنا في تنقيح القصص ودراسة اللغة الألمانية..
الحقيقة أننا غيرنا الكثير في القصص لتكون مناسبة للأسرة.. لم تعد أم (سندريللا) هي الشريرة ولكن زوجة أبيها.. لم تعد راعية الإوز توضع في برميل مليء بالمسامير لعقابها.. لم تُرغم زوجة أب (سنوهوايت) على ارتداء حذاء حديدي ساخن لدرجة الاحمرار.
- الخلاصة أن القصص حين انتهينا من تنقيحها صارت نموذجا للترفيه المنزلي الحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألته (عبير):
والتفسيرات التي ترى أن قصصكما غير أخلاقية؟ والكلام عن ميولكما النازية؟
قال (جاكوب) في اشمئزاز:
- هذا هو التذاكي بعينه.. إن علم النفس الفرويدي عميق كأخدود، لكن بعض العلماء النفسيين يسيئون استخدامه ويطبقونه على كل شيء مهما كان بريئا..
إفساد البساطة.. هذا هو همهم الأوحد.. ونفس الشيء ينطبق على تهمة النازية.. أنت تعرفين الصهاينة خيرا منا..
نظر لها (جاكوب) في عمق، ثم سألها وهو يفتح كتابه:
- ماذا ستكتبين عنا في مقالك: أديبان ملهمان؟ لصان لا يختلفان عن لصوص الغسيل؟ باحثان جادان؟
نظرت خارج النافذة.. إلى الحقول الخضراء والطواحين التي لا تكف عن الدوران والفلاحات موفورات الصحة.. وهتفت كمن تحلم:
- عن الفلاح العادي سأكتب.. عن الأمهات المسنات الجالسات جوار أسرة أبنائهن.. عن ذلك العبقري الذي كتب (ألف ليلة وليلة) و (روبن هود) و (أبو زيد الهلالي).. عن الذي لا اسم له.. أنتما شيدتما صرحا عظيما لهذا البسيط المنسي ولآلاف البسطاء المنسيين.. لكنكما لم تكتبا حكايات (جريم)..
لقد وجدتماها في مكان ما بين هذه الفيافي ووسط هذه الأكواخ..
قالت (دوروثي) في ضيق وهي تضع قبضتيها في خصرها:
- وأنا؟ ألا يوجد لى مكان وسط هذا كله؟ أم أن الشهرة فقط للسادة؟
- أنت وسواك أصحاب هذا الصرح.. إن الأخوين (جريم) باحثان جادان أبقيا للبشرية حكاياتك أنت وسواك.. لهذا يستحقان الشهرة التي نالاها في العالم كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الخارج كان زحام عظيم..
أول من رأت هم الأقزام السبعة، وقد حمل كل منهم فأسه وارتسمت أمارات الجنون على ملامحه
القبيحة أصلا:

- ها هي ذي! لقد سرقت ذهبنا!
هنا اندلعت نيران خضراء وبرزت الملكة الشريرة حاملة عصاها السحرية ذات النجمة، وقالت بصوتها البارد الذي يسيل الثلج منه كما يحدث فى القصص المصورة:
- مازالت هناك فتاة واحدة في العالم أجمل مني.. ولكن لن يبقى هذا الوضع طويلا..
ثم ظهر من بين الزحام لص القلعة.. كان يجر بغله الأسود من خلفه وقال وهو يشير إليها:
- تلك النائمة.. لقد خدعتني وتظاهرت بأنها شبح.. لا أحد يخدع (ميلر) أبدا
ومن بعيد جاء رجل شرطة يلوح بقيد حديدي ويقول:
- لقد وجدنا جثة الحطاب في كوخك.. أنت ذات الرداء الأحمر بعينها!
وتعالى الغبار إذ جاءت مجموعة من الخيول عليها رجال شرطة لا يبعث منظرهم الاطمئنان:
- الأمير يريد هذه الساحرة.. لقد أعددنا الساحة لحرقها!
صاح الأقزام في غضب:
- ليس قبل أن نقتص منها أولا..
وقال الحراس:
- الأمير فوق من ذكرت..
هنا رفع رجل الشرطة الأوحد يده، وقال مهدئا الجموع:
- لا أنت ولا هم يا سادة.. من الجلى أن الجميع يرغب في قطعة من هذه الشريرة، وإنني لأرى أن نمزقها إلى قطع.. كل منا يحصل على جزء.. إنها تملك شيئا واحدا على الأقل آذت به كل واحد منا..
- الرأي ما رأيت!
وصاحت الساحرة الشريرة:
- إن الوجه يناسبني حتما! سأتسلى بإشعال النار فيه!
وصاح الأقزام:
- يدها! التي سرقت بها ذهبنا!
كانت (عبير) تتراجع في هلع.. ونظرت إلى الوراء فلم تر كوخ الأخوين (جريم).. لقد اختفى تماما.. وكانت ستدخله طالبة اللجوء السياسي.
لا أحد يمكنه السيطرة على هذه الكائنات إلا من قام بابتكارها أو - للدقة - قام بتخليدها على الورق..
هنا سمعت الصوت المطمئن يقول:
- معذرة يا رفاق.. لن يأخذ أحد شيئا.. لقد حان وقت عودة الآنسة..
تعالت صيحات الاحتجاج وزمجر الجميع.. لكن (المرشد) كان صارما كعادته ووضع يده على كتف (عبير) ليخرجها من هذه الفوضى.. قالت في انبهار:
- مرشد! لم أسر فقط برؤيتك مثلما سررت اليوم..
أنت تجيد الظهور في اللحظة المناسبة.
قال في تواضع:
- الإنقاذ في اللحظة الأخيرة.. أسلوب (جريفث) السينمائي الشهير.. هذا سهل بالنسبة لي..
ثم توقف بينما هما يتجهان إلى قطار (فانتازيا) المضحك، وقال لها وهو يشير إلى الوراء:
- ألم تنسى شيئا؟
- نعم.. لا أظن أن..

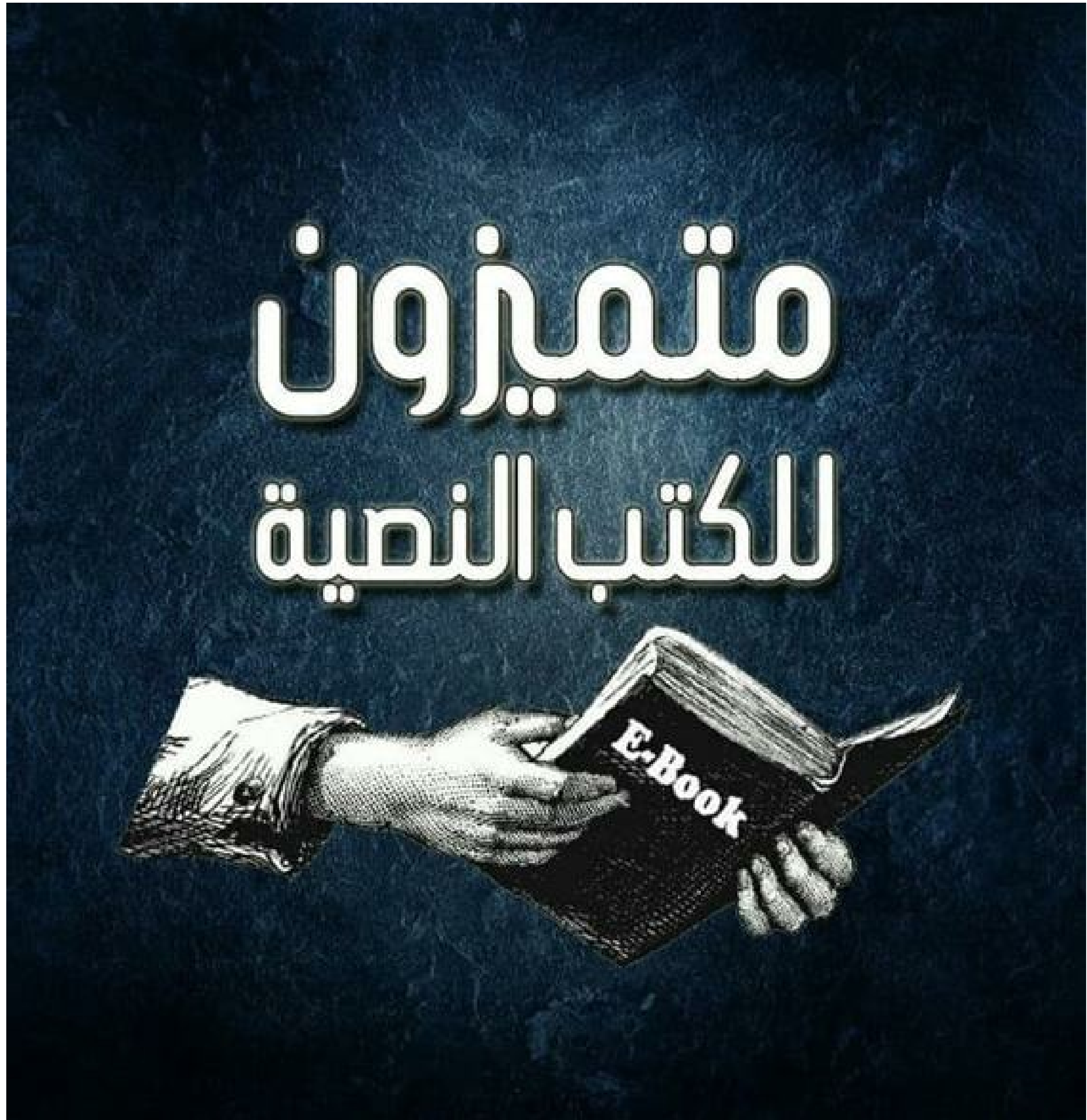
- بل هناك عبارة أخيرة تودعين بها هذا العالم..
في الإنجليزية يقولونThey Lived Happily ever after ..
وفي العربية نقول...
صاحت في لهفة:
- نعم.. نعم.. تذكرت.. (وعاشوا في تبات ونبات، وخلفوا صبيان وبنات).. أو بمعنى آخر
توتة توتة
فرغت الحدوتة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تخوض (عبير) تجربة مروعة.. الأفيال العملاقة تجتاز الجبال.. والمواجهة المرعبة بين جيوش (هانيبال) و (سكيبيو الإفريقي).. لا.. لا أتكلم عن أكل لحوم البشر (هانيبال لكتر) طبعا.. أتكلم عن (هانيبال) آخر.. (هانيبال) الحقيقي!

(تمت بحمد الله)

في مملكة الأخوين
في مملكة الأخوين يصير كل شيء ممكنا..
الأحلام حقائق والحقائق أحلام.. ذئاب تتكلم ونمل يثرثر وساحرات يحلقن أمام قرص القمر
في مملكة الأخوين هناك مغزل مسموم وأميرة نائمة وزوجة أب متوحشة.. بيت من الكعك وضفدع كان أميرا..
في مملكة الأخوين ترى (فانتازيا) قبل أن توجد (فانتازيا).. ترى الخيال ولا شيء إلا الخيال.. وأهم من هذا كله أنك تراه بعيني (عبير)....
د. أحمد خالد توفيق



لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـاة – Link

الفهرس:

روايات مصرية للجيب

33

فانتازيا

أيام مع هانيبال

د. أحمد خالد توفيق



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (33)

أيام مع هانيبال

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«فليصب جام الرعب والمخاوف على مدينة (قرطاجة) هذه.. إننا نلعن هؤلاء القوم وجيشهم بكل ما في كياننا من قوة.. نلعن كل من شغل هذه القصور وعمل في هذه الحقول، وعاش على هذه الأرض.. نتضرع ألا يروا النور ثانية.. فليحل الصمت الأبدي والوحشة الكئيبة هنا فلا يبرحان. ملعون من يعود، ومن يحاول تعمير هذه الخرائب أو بعث الحياة فيها..»

القائد الروماني (سيبيو الأميلى) على أطلال قرطاجة المحترقة..

1- رحلة جديدة..

سافر (شريف) إلى أوروبا..
عرفت (عبير) هذا من أصدقائه..
تزوج؟ لا لم يتزوج.. ما زالت الآنسة (رانية) هنالك في الشركة تبتسم برقة وتوقع المتزوجين في شراكها....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن ماذا حدث بالضبط؟
هل هي رحلة عابرة يعود بعدها أم هي هجرة؟
هل تنتظره (رانية) هذه أم أن كل شيء قد انتهي بيننا؟ من الممتع للخيال أن تتصور أنه وجد أن (رانيا) هذه لا تستحق، وأنها براقة المظهر صدئة الأعماق، وأن من فات قدميه تاه.. عندها سيعض على أنامله ويقرع سنة.. ولسوف يفكر في (عبير) من جديد.. وهي ستسامحه.. نعم.. ستفعل.. لكن بعد تمنع كثير وتفكير طويل..
من الممتع أن تتصور أن هناك عدالة شعرية ما، وأن تحلم بهذا.. لكنه للأسف لا يتجاوز حتى اللحظة أحلام يقظة..
كادت تجن وهي تجهد عقلها بحثا عن إجابات هذه الأسئلة، وما كانت لتجد الشجاعة كي تذهب إلى بيتها لتسأل البواب، أو تسأل (رانية) نفسها.. يجب أن تكون هناك إدارة خاصة للرد على الأسئلة من هذا النوع.. تذهب هناك وتدفع الرسوم المطلوبة ثم توجه سؤالك: هل فلانة تحبني؟ هل هناك من يتآمر ضدي في العمل؟ الخ.. تنتظر بعدها نصف ساعة ثم يأتيك الخبر اليقين أما أكثر ما أثار غيظها فهو أنها ليست من هذا الطراز القوي الذي يعرف كيف يتجاهل الأمر.. الذي يقول:
«سأنسي» ثم ينسى بالفعل..
هي لم تكف عن التفكير لحظة.. هي لم تكف عن التوتر لحظة..
مشروعات جنونية جابت عقلها، تبدأ بالتوسل وهي جاثية على ركبتيها، وتنتهي بالتذويب في حمض الكبريتيك المركز.. مشروعات من الطراز الذي لا تدرك أنه سخيف إلا حين تصحو من النوم صباحا..
وهكذا وجدت - كالعادة - أن النشاط الذي تجيده وتقدر عليه ولن يخذلها أبدا هو:
أن تجلس في غرفتها.. وأن تشغل الحاسب الآلي..
إن بضع دقائق في (فانتازيا) لن تؤذي أحدا، لكنها بحاجة بالفعل إلى الفرار من حصار المشاكل اليومية..
من كآبة الواقع ورتابته.. جميل أن تفر من مشاكل الحارة لتواجه مشاكل المجرة مع (سوبرمان)..
جميل أن تهرب من هذه الغرفة لتجد نفسك في قصر إنجليزي عتيد وتساعد (بوارو) في تحقيق جريمة قتل.. رائع أن تتناسي مشاكلك العاطفية لتجد أن أبطال الإلياذة كلهم - الإغريق والطرواديين – يهيمون بك حبا..
الطريف في الموضوع هو أن أخاها وأمها وأختها. الجميع في الدار لا يعلمون شيئا عن (دي جي) و (فانتازيا) والنشاط الغريب الذي تمارسه (عبير) حين ينام الجميع وتبقى وحدها ساهرة..

وحتى لو تسلل أحد إلى غرفتها فلن يفهم شيئا.. سيجدها جالسة إلى المنضدة الصغيرة أمام الحاسب الآلي.. مغمضة العينين كأنما هي نائمة، وقد ثبتت الأقطاب حول رأسها.
منظر مرعب ربما.. لكنه قابل للتفسير لمن يسأل أسئلة فضولية..
وهكذا تأكدت من أن الجميع نام وأن الهدوء عمّ المكان. الطفلة قرقرت قليلا في الفراش، وراحت تكلم نفسها ثم غابت في نوم جميل عميق..
تأكدت (عبير) من أن الملاءة تغطي الصغيرة، وأن الإيشارب على وجهها يحميها من البعوض وهو كثير بحق هنا، ثم جلست إلى المقعد وأحكمت وضع الأقطاب.. ذلك النشاط الذي كانت تمارسه بنجاح منذ دهر حتى إنها لم تعد تخلط الألوان ولا تحتاج إلى النظر في المرآة..
وبدأت الرحلة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت واقفة جوار قطار (فانتازيا).. المشهد المعتاد في كل مرة، والمرشد ثقيل الظل يقف وقد قاطع ساقيه كأنه يقف على شفرتي مقص، وهو يضغط بلا توقف على قلمه.. تلك العلامة المميزة أو اللازمة التي لا تفارقه.
قال لها:
- إلى أين هذه المرة يا (أليس)؟ إن أحلامك أوامر كما تعرفين.
ثم فكر وهو يراجع دليل (فانتازيا) الذي في يده:
- الحقيقة أن عوالم كثيرة قد انضمت إلى (فانتازيا) فى الفترة الأخيرة.. إن نمو (فانتازيا) السرطاني لا يتوقف أبدا.. هناك عالم (هاري بوتر) وعالم (الرجل العنكبوت).. الخ..
- هل عملك صار مقتصرا على الأفلام؟ أين ثقافتي؟
- أولا السينما منبع ثقافي مهم في عصرنا هذا ويجب ألا تتعاملي معه باستخفاف.. ثانيا: (هاري بوتر) كتاب تحول إلى فيلم، ولو كنتِ لم تقرئي الكتاب فليس الذنب ذنبي.. أما (الرجل العنكبوت) فقصص مصورة قديمة جدا.. فقط تمت إعادة اكتشافها كما حدث مع الرجل الوطواط..
ثم أضاف وهو يقلب صفحات الدليل:
- عوالم خاصة؟ لم لا؟ هل تزورين اليوم عالم (تشيكوف) أو (ديكنز)؟
أصدرت صوت (م م م م م) قد يعني عدم الرضا، وقد يعني التفكير وقد يعني طلب المزيد من الاقتراحات..
- ليكن. ماذا عن الألعاب التاريخية؟ يمكن أن تجربي دخول (بونابرت) إلى الإسكندرية.. أو تختنقي بالغازات السامة في الحرب العالمية الأولى. ماذا عن فتح القسطنطينية أو الدفاع عن الأندلس؟
كررت ال (م م م م).. فعاد يقول:
- (هانيبال).. الهجوم على روما..
هنا قالت في دهشة:
- (هانيبال)؟ أليس هذا هو آكل لحوم البشر في فيلم (صمت الحملان)؟ شاهدته مع (شريف) على شريط فيديو ذات ليلة.. حين كان (شريف) مازال (شريف)..
ابتسم في سخرية وقال:
- سطحية كالعادة.. مشكلة هذه الأعمال الناجحة أنها تغرس معلومات غير قابلة للتصحيح في

الأذهان.. لهذا يعتقد أكثر الصبية أن (مايكل أنجلو) و (ليوناردو) كانا سلحفاتي (نينجا).. أما (هانيبال) الفاتح القرطاجي العظيم.. عدو (روما) الأوحد فقد نسيه الناس تماما.. تحول إلى آكل لحوم بشر مجنون يطهو مخ ضحاياه وهم أحياء..

- وأي (هانيبال) تنوي أن أراه اليوم؟

- الأول.. الأصلي.. ربما تقابلين الثاني يوما ما.. لكن ليس اليوم.. ولسوف تقابلينه كما هو في قصة (توماس هاريس) الشهيرة وليس كما في الفيلم..

فكرت قليلا....

لم تكن تعرف الكثير عن (هانيبال).. لكن معني أنه متاح لها هو أنها تعرف الكثير عنه فعلا.. فقط هي لا تعرف أنها تعرف..

لقد قرأت كثيرا جدا.. طيلة حياتها كانت تقرأ..

لكنها كانت تعتبر نفسها مؤسسة (حزب المواسير) العظيم، حيث لا شيء يبقى.. كل ما يدخل عقلها يغادره في اللحظة ذاتها.. ولم تعتقد قط أنها تفيد من قراءاتها إلا التسلية، ولم تحسب شيئا يبقى.

ها هي ذي (فانتازيا) تبرهن لها على العكس.. لا شيء يفقد أو يضيع.. هناك رواسب لكل شيء.

قالت للمرشد وهي تتثاءب:

- ليكن.. اليوم (هانيبال).. أرجو أن تكون مغامرة مثيرة..

نظر لها نظرته الغريبة المزعجة وقال:

- أنت غريبة الأطوار يا فتاة.. أضعك في مغامرة كاملة مع قاهر (روما) الذي كانت حياته سلسلة لا تنتهي من المغامرات والحروب.. وبرغم هذا تشترطين أن تكون المغامرة شائقة!! حقا أنتِ عسيرة الإرضاء.. لكن دعيني أؤكد لك أنه لو كنتِ تتوقعين السعادة الأبدية والإثارة المطلقة وربما رغيفا محشوا بالكباب كذلك، فقد اخترت المكان الخطأ.. لا أستطيع إرضاء كل خاطرة غريبة لديكِ..

- الزبون دائما على حق، وأنا زبون.. لا تنس هذا..

قال في خبث:

- إذن جربي (هانيبال).. ولن تندمي..

- (هانيبال).. (هانيبال).. لن يكون هذا آخر اختيار غير موفق في حياتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2إيبـريا..

(روما) أعلنت الحرب على (هانيبال)!!
(روما) أعلنت الحرب على (هانيبال)!!
كان هذا هو الخبر الذي تهامس به الناس في الأسواق والجند في مجالسهم.. وراح الأطفال يركضون في الشوارع صائحين به، لا يخشون لوم لائم.. وهذه هي مزية الأطفال الكبرى..
وكانت (عبير) جالسة في الخيمة وسط النساء حين سمعت الخبر..
في الحقيقة كانت ما زالت في طور انعدام الوزن الذي تعرفه في بداية كل مغامرة، فهي لا تعرف من هي ولا ماذا تعمل هنا..
لكنها كانت تعرف على الأقل أنها جميلة جدا – كما هي العادة المملة - وأن ثيابها فاخرة، وأنها لا تتكلم لغة النساء المحيطات بها.. إنها تتكلم لغة شبيهة باللاتينية.. ومن الغريب أنها تفهم أكثر ما يقلن..
لم يكن لها عمل ما.. فهي مضطجعة طول اليوم في خيمتها أو تتوكأ على الأرائك، على حين تعني بها جاريتان إفريقيتان.. أحيانا تأتي فتاة حسناء سمراء فتعزف لها على آلة تشبه القيثار بعض الألحان.. الطعام يأتي في وفرة ومعه الشراب.. لكن لا شيء غير هذا. ولا يوجد تدفق معلومات من أي نوع..
فقط أدركت (عبير) أنها تعيش في فترة عتيقة جدا من التاريخ.. لا شك أنها قبل التاريخ بقرون.. لو كانت تذكر حقا لعرفت أن هذا هو العام 218 قبل الميلاد.. وهي في شبه جزيرة (إيبريا).. في إسبانيا بالذات..
لكن من هي؟ ومع من تعمل؟ وأين (هانيبال) من كل هذا؟
لا أحد يعرف.. وللحظات خشيت أن يكون هناك خطأ ما.. الأخطاء تحدث في كل مكان، ولا يوجد ما يمنع أن ترتكب إدارة (فانتازيا) خطأ ما.. معنى هذا أن تقضى القصة في أكل العنب والكرز.. بل ربما ينسى المرشد وجودها أصلا..
لقد اعتادت أن تبدأ كل قصة من ذروتها.. لكن الوضع اليوم يختلف بعض الشيء.
إلى أن جاء اليوم الذي جاءها فيه الحارسان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظت (عبير) أن الحارسين يقتادانها في مزيج غريب من الإرغام والاحترام.. هما لا يتركان لها الخيار، وفي الوقت ذاته لا يجسران على أن يعنفا بها.. بل أنهما لا يجسران على رفع عيونهما نحوها..
لم تكن هناك كلمات.. فالمحادثة مختصرة جدا..
أخيرا ترى خيمة عملاقة.. على باب الخيمة مزيد من الحراس المدرعين شاكي السلاح.. كلهم ينتحون جانبا كلما دنت منهم.
إنها أسيرة كما هو واضح.. لكنها أسيرة عظيمة القدر..
كانت الخيمة من الداخل مليئة بالرجال.. رجال أقوياء كالثيران ينتفش الشعر من شواربهم ولحاهم كأنما حول رأس كل منهم شعلة موقدة.. وكانت هناك منضدة بدائية في الوسط، ونار مشتعلة تم اختيار موضعها تحت فتحة من فتحات الخيمة بحيث لا يملؤها الدخان..

رماح وسيوف معلقة أو مغروسة على الأرض.. جلود منشورة عليها رسوم واضح أنها خرائط..
أما ما أثار اهتمامها أكثر من سواه على المنضدة فهو مجسم.. نعم مجسم يبين جبالا وعرة وقوات جيش وما إلى ذلك..
هذه غرفة عمليات حرب.. كل هذه الغرف تتشابه سواء كانت قاعة تحت الأرض مليئة بالحاسبات الآلية في (البنتاجون) أو خيمة رثة في شبه جزيرة (إيبريا).. وتابعت العيون التي نظرت لها أولا، ثم تمحورت حوله.. ذلك العملاق الفارع الواقف فى صدر المكان.. كتلة من العضلات تطل من دروع، فهو ليس من الطراز الذي ينزع الدروع وقت الراحة..
يداه في خصره وساقاه متباعدتان.. كأنه تمثال اسمه (السيطرة)..
دون ترجمة عرفت أن هذا هو (هانيبال)..
لا يمكن إلا أن يكون هو.
فيما عدا النظرة الحادة القوية والشخصية الجاثمة كالجبل على النفوس، فإن ملامحه هي ملامح أي رجل ملتح أسمر.. والحقيقة هنا هي أن أحدا لا يعرف شكل (هانيبال) بالضبط..
توجد تماثيل وصور لكل قائد في التاريخ تقريبا، إلا هذا الرجل.. باستثناء تمثال لا يقول الكثير في متحف (نابولي).. كما أن الرجل لم يكتب مذكرات أو تعليمات من أي نوع، كأن شعاره في الحياة هو: ليس لدي ما يقال..
وقد عرف علماء التاريخ حقيقة أن الرجل لم يكن ثرثارا على الإطلاق..
قال (هانيبال) بصوت مدو:
- ستأتين معنا يا (برسيفون)
كان هذا اسمها إذن..
صاح أحد القواد في شبه استنكار:
- سيدي القائد.. إنها أسيرة رومانية والخيانة لن......
من جديد كرر (هانيبال):
- ستأتين معنا يا (برسيفون)..
فصمت الجميع توترا..
كان الرجل قد قدم لها معلومات لا تقدر بثمن إنها أسيرة رومانية.. اسمها (برسيفون).. وستذهب معهم إلى أين؟ الله وحده يعلم ثم هؤلاء القوم.. المعلومة الأخيرة المهمة هي أنه يحبها أو يميل إليها.. وإلا فلماذا يختصها بالدخول لخيمته، ولماذا يصر على أن تأتي معهم؟
قال وهو يشير إلى المجسم الموضوع على المنضدة:
- (روما) لا تتوقع أن أهاجمها الآن.. ولو فعلت لكنت مجنونا إذا فكرت في اجتياز ذلك الطريق.. ثمة طريق منطقي هو البحر، لكنه مملكة الرومان بلا منازع، وأساطيلهم في كل صوب منه.. لذا سأجتاز جبال البرانس والألب بهذا الجيش.. لنهاجم روما من حيث لا تتوقع.
هنا بدأت تتذكر التفاصيل....
حملة (هانيبال) الرهيبة عبر جبال الألب.. الحملة التي لم يستطع أحد من علماء التاريخ ولا الاستراتيجية فهم كيف تمت ولا كيف نجحت.. كانت هناك أفيال وزجاجات خل و... إنها رحلة شاقة رهيبة في أسوأ ظروف ممكنة.. وما زالت تدرس بعد ألفي عام من هذه الأحداث باعتبارها معجزة غير عادية..
ولكن.. هل تتحمل هي حملة كهذه؟ واضح أنه لا خيار أمامها..
وفكرت في (المرشد) المقيت.. تبا له! هذه إذن هي فكرته الخاصة جدا عن تسليتها.

قال (هانيبال) لقواده وهو يدور بالمشعل حول المجسم:
- التحرك غدا.. تذكروا القسم..
تبادل القواد النظرات ثم صاحوا في صوت واحد:
- نقسم أن نكره (روما) إلى الأبد!
- التحرك غدا..
نظر له القواد.. كانت في أذهانهم آلاف الأسئلة لكنهم لم يجسروا على الكلام، وانسحبوا في تثاقل..
وقفت (عبير) لا تعرف ما هي الخطوة التالية لها، فرفع (هانيبال) رأسه وقال في صرامة:
- نامي جيدا.. التحرك غدا..
ثم هز رأسه فأبعدها الحارسان برفق متجهين إلى خارج الخيمة..
الحق أن (هانيبال) هذا كان قليل الكلام فعلا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تستطع (عبير) أن تغلق عينيها..
هذا طبيعي بالفعل، بالنسبة لواحدة تعرف أن عليها عبور جبال البرانس غدا.. ولأي غرض؟ حملة عسكرية في عصر سحيق، وضد من؟ ضد الإمبراطورية الرومانية بجلالة قدرها..
جلست جوارها الجارية السوداء، وراحت تغني بصوت مبحوح يبدو أن الغرض منه بعث النعاس في عينيها، لكن (عبير) كانت أبعد ما تكون عن هذا.



لم تستطع (عبير) أن تغلق عينيها.. هذا طبيعي بالفعل، بالنسبة لواحدة تعرف أن عليها عبور جبال البرانس غدًا..

سألت الجارية وهي تجلس في مضجعها:

- ما هي القصة بالضبط؟

كانت تتحدث باللاتينية ببراعة منقطعة النظير كأن ما تتكلم به مجموعة من المصطلحات الطبية.. وكل كلمة تنتهي ب (أوس) فخيمة رصينة.. حين تتحدث عن الإنسان لا يبدو لكلامك أهمية ما، لكن حين تتحدث عن (الأنثروبوس) يتخذ كلامك طابعا علميا مهيبا يجمد الدم في العروق.. كأن الرطانة هي ثياب السهرة الفخيمة التي يلبسها العامة فيبدون من الصفوة..
كما هي العادة في (فانتازيا) لم تندهش الجارية..
تصور أنت أن صديقك في الكلية يسألك فجأة عن اسمك واسمه واسم الكلية وعن مغزى الدراسة بها وعن طريق الوصول إليها.. لكن في (فانتازيا) تبتلع الجارية هذا بتواضع وتبدأ في إخبار سيدتها بما كان مفروضا أن تعرفه جيدا..
قالت الجارية التي كانت تفهم اللاتينية جيدا:
- كان سيدي القائد (هانيبال) قد استولى على كل أقاليم إسبانيا ما عدا (ساجونتو).. وقد تمكن أخيرا من الظفر بها بعد حصار دام ثمانية أشهر.. لكن (روما) اعتبرت أنه بهذا الغزو قد داس علي قدمها.. لم تعد على استعداد للتسامح أو التفاهم، وهي تعتبر (هانيبال) الآن عدوها رقم واحد.. لقد بدأت الحرب البيونية الثانية..
في غباء تساءلت (عبير):
- بيونية؟ ما معنى هذا؟
- بيونية.. لا أعرف كيف أصف.. إنها..
ثم وجدت الكلمة فتهلل وجهها الأسود:
- بيونية.. إنها أي شيء يمت ل (قرطاجة).. فيما بعد سيدخل مصطلح (بيونية Punic) قواميس اللغة ليكون معناه (خائن).. إن الرومان قومك يتهمون (قرطاجة) بالغدر في كل شيء..
- فهمت.. ولكن استمري في قصتك..
قالت الجارية:
- إن (هانيبال) هو أحد أبناء القائد العظيم (هاميلكار برقة) حاكم (قرطاجة).. اعتاد الرجل أن يطلق على أولاده (أشبال الأسد).. وهم (هانيبال) و (هاسدوبال) و (هانو) و (ماجو).. أما (هانيبال) فمعنى اسمه (سعادة بعل).. إن (بعل) هو الصنم المفضل لهؤلاء القوم، وتماثيله تظهره إنسانا برأس ثور مفرود الذراعين.. وقد كان (سعادة بعل) جنديا بارعا بحق، برع في فنون القتال منذ كان في التاسعة من عمره.. وفي هذه السن المبكرة قام أبوه بذبح ضحية بشرية ل (بعل) وجعله يضع يده عليها ويقسم على أن يكره (روما) إلى الأبد.. ويقال إنه الرجل الوحيد في التاريخ الذي التزم بقسمة بهذا الشكل الحرفي.. وقد كان يعيش مع أبيه في (قرطاجة) في تونس ثم ذهب معه لغزو إسبانيا.. وسرعان ما انتخب القائد العام وهو في السادسة والعشرين من عمره..
الآن يواجه (هانيبال) العظيم تحدي حياته كلها.. لقد صارت الحرب مع (روما) علنية.. حقيقة واقعة، ولم يعد من مجال للتراجع..
بدأت (عبير) تدخل الجو نوعا..
وإذ صرفت الجارية ظلت في الظلام وقتا لا بأس به، تصغي لصوت الليل من الخارج.. وتفكر..
وكما يحدث عادة مع الذين يفكرون في الظلام، لا تعرف كيف نامت.. لكنها فعلت، وقد كان هذا رحمة بها لأن يوما عسيرا كان ينتظرها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- بداية الزحف..

عند الفجر شعرت بالجارية توقظها..
هذا حرام! لم تكن من هواة الاستيقاظ مبكرا.. وخطر لها أن (روما) لن تكسب الحرب وتهزم (قرطاجة) لو أنهم تركوها تنام ساعة أخرى.. هذا الرجل ينوي الزحف نحو إيطاليا فلن يحدث البكور فارقا يذكر كان الفجر باردا، فإذا أضفنا لهذا أنها في إسبانيا لفهمنا سر الرجفة التي كانت تعصف بها.. صحيح أنهم في مايو، لكن يبدو أن الفصول كانت مختلفة في هذا الزمن السحيق..
وقد وجدت دثارا من الفراء، فلفته حول جسدها وأكثر رأسها..
قدمت لها الجارية شيئا في جرة.. تذوقته (عبير) فخمنت أنه مزيج من العسل واللبن..
ثم إنها خرجت من الخيمة لترى مشهدا لا يمكن وصفه..
إن حشدا مكونا من أربعين ألف محارب لا يمكن أن تقتحمه العين..
كانت الخيول تصهل كأنها تحاول الفرار من ركابها، والبخار يتصاعد من مناخيرها كأنما هي وحوش أسطورية أقرب إلى التنين..
وكان هناك جنود من المشاة في كل صوب يعدون أسلحتهم..
الواقع أن الأمر بدا كبرج (بابل).. هل ترى هؤلاء الجنود السمر الذين ينفخون في الأبواق، ويركبون الخيول دون سروج؟ إنهم المراكشيون.. لهم شعور مصففة مضفرة بعناية وأسنان ذهبية.. قليلو الكلام جدا.. يلبسون جلود النمور وفوقها عباءات بيض.. وهم لا يقاتلون إلا بالرمح لهذا يغدو الاقتراب منهم شبه مستحيل.. أما إذا كنت محظوظا ونجحت في الاقتراب من أحدهم، فهو لا يقاتلك بيد واحدة كما تفعل أنت، وإنما هو قادر على أن يقاتلك باليدين معا بينما يحتفظ بتوازنه على ظهر الجواد كأنما هو ملصق إليه بالغراء..
أما هؤلاء العمالقة فهم الليبيون.. إنهم أسرع الفرسان طرا.. تعرفهم بسهولة من خوذاتهم الجلدية المميزة..
المحاربون (المسيليون) يضعون على رءوسهم ما يشبه القفص الحديدي، أما هؤلاء أصحاب الخيول المدرعة فهم (الكلتيبريون).. وهم رماة بارعون.. لا تنس أن بعض قذائفهم كرات نارية من القار المشتعل، ولديهم قذائف قادرة على تحطيم الدروع.. أي أنها نوع من الطلقات الخارقة..
أما هذه فليست وحوشا أو مجموعة من المذءوبين.. إنهم الإسبان الذين يرقصون حول النار ليلا، ويضعون رءوس الأسود والذئاب على رءوسهم.. إنهم خفاف الحركة إلى حد مرعب، وعندهم القدرة على أن يروا السهام تقذف نحوهم فيجلسوا القرفصاء إلى أن تمر فوق رءوسهم، ثم ينهضوا ويقذفوا الرماح..
هناك حشد من رعاة الباسك بفئوسهم العجيبة التي هي قمة التكنولوجيا في هذا العصر.. تصور فأسا له رأسان وتخيل أي دمار يمكن أن يحدثه!
هؤلاء القوم في اللباس الأحمر الأنيق هم ضباط من قرطاجة.. وعملهم هنا هو الترجمة.. هذا على قدر معلوماتي الجيش الوحيد في التاريخ الذي امتلأ بالمترجمين!
أما عن الأسلوب الذي استطاع به (هانيبال) أن يوحد هؤلاء ويجعل منهم جيشنا متجانسنا، فلغز من ألغاز التاريخ.. لكن كل أعدائه شهدوا له بالعبقرية التي مكنته من تجنيد كل هذه الجنسيات المختلفة في حرب مستمرة طيلة خمسة عشر عاما دون مشاكل.. لا اضطرابات.. لا

قلاقل..
من بعيد ترى (عبير) ما يشبه ناطحات السحاب الحية تمشى فترتج بها الأرض ارتجاجا هذه أفيال.. هذا الصراخ الذي يمزق الآذان هو صراخ هذه الوحوش العملاقة وهي ترفع خراطيمها في هواء الفجر البارد..
لكن أية أفيال! لابد أن أفيال ذلك العصر كانت أكثر ضخامة من أفيالنا البائسة في حديقة الحيوان التي تفعل أي شيء من أجل قطعة عملة تدس في خراطيمها.. ضخمة كالكوابيس.. مشعرة كأنها الماموث الذي تراه في الصور.. وقد غلفوها بالدروع ليقوها طعنات الرماح فبدت كأنها دبابات حية.. بالفعل كانت هذه الأفيال دبابات قبل اختراع الدبابات، وكان التأثير الأهم الذي أراده (هانيبال) نفسيا.. ها هو ذا العملاق القادم من إفريقيا مع وحوشه المخيفة التي لم يرها الأوروبيون من قبل.
كان المشهد مهيبا.. وقد شعرت (عبير) بأنها ستفقد الوعى من هول ما تراه..
ثم يبرز القواد.. هنا يكون القائد أضخم من جنوده مجتمعين.. إنه قائدهم فقط لأنه الأقوى والأشرس وليس لأنه تخرج في الكليات الحربية..
يصدر القواد الأوامر، وسرعان ما بدأ الجنود يحتشدون في صفوف..
ثمة جندي يدنو منها في أدب حازم.. يقتادها إلى...
إلى فيل يبرك على الأرض وهو لا يكف عن إصدار ذلك الصراخ المزعج.. هل تتوقعون مني أن أركب هذا الشيء؟ للأسف كان هذا صحيحا.. إن ظهر الفيل يعلوه هودج.. وهي ستركب هذا الهودج كأنها العروس في ريفنا قديما حين كانت تركب المحمل وهي ذاهبة إلى عريسها..
لم تكن تملك ترف الاعتراض، وسرعان ما دخلت الشيء.. وهي تحاول أن تحبس أنفاسها كي لا تشم رائحة الفيل الذي لم يكن آية في النظافة..
ثم بدأ الفيل ينهض..
طبعا لن أصف شعورها وهي تقذف في كل الاتجاهات، ولن أحكي عن صرخاتها التي لا بد أنها أزعجت النائمين في روما.. هذا شيء مفروغ منه..
لكنها في النهاية وجدت أنها استقرت هناك.. هناك فوق كل الروس.. هناك على ارتفاع خمسة أمتار على الأقل.. وأمامها كانت أذنا الفيل العملاقتان ومؤخرة رأسه تحرس الأفق.
شعرت بشيء من النشوة تستخفها.. ومع النشوة شعرت بقلق بالغ: كيف ومتى يحق لها أن تدخل الحمام وهي في هذا المكان؟ لو كانت راجلة أو تركب جوادا لأمكنها أن تجد حلا ما، لكن هبوطها من هذا الجبل عملية تشبه هبوط الإنسان على سطح القمر.
ثم قررت أن ترجئ الأمر حتى تبلغ هذا الجسر.. هذه هي (فانتازيا) حيث لا تشكل المثانة المليئة مشاكل..
وإلا فمتى رأى أحدكم (سوبرمان) يدخل الحمام علي مدى كل هذه السنوات من عمله؟
لقد بدأ الزحف الذي يبلغ 1500 ميل..
هي الآن جزء من حملة (هانيبال)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتقدم المسيرة الرهيبة وسط الأراضي الإسبانية.
يخرج الفلاحون ليرمقوا المشهد، لكنهم لا يقولون شيئا لأن الحرب لا تعنيهم في شيء.. هم فقط يهابون هذا الفاتح العظيم القادم من شمال إفريقيا..

الشمس تملأ الأفق وتغمر السهول.. من بعيد الجبال الرهيبة التي تعرفها إسبانيا والتي سيكون على الحملة أن تعبرها..
من فوق الهودج لاحظت (عبير) أن هناك فارسا يمتطي جوادا ويمشي مع خطى الفيل، وهو لايني يدون بعض الملاحظات في مفكرة يحملها.. الغريب أن زي هذا الفارس يبدو حديثا نوعا.. كأنه من القرن السابع عشر أو الثامن عشر، وله طابع أوروبي لا تخطئه العين.. على رأسه قبعة مثلثة مألوفة.. إنه.. نعم.. إنه (نابليون بونابرت) لا شك في هذا.. كما كانت تراه في كتاب التاريخ بالمدرسة..
انتظرت حتى صار في متناول صوتها ثم صاحت:
- سيدي..
بحث عن مصدر الصوت ثم نظر لأعلى ليجدها تنظر إليه من ارتفاع خمسة أمتار.. فرفع حاجبين متسائلين. قالت:
- لماذا أنت هنا بالضبط؟
- يا له من سؤال! أنا أدرس هذه الحملة.. سوف أستعين بها في وضع خطة زحفي على إيطاليا في القرن الثامن عشر.. إن (هانيبال) سيكون معلمي.. ولسوف تكون هذه الحملة هي ما يجعل اسم (بونابرت) ملء الأسماع والأبصار..
- فهمت.. حظا سعيدا..
وأسدلت الستار على جانب الهودج بينما القافلة تواصل طريقها، وقررت أن الوقت قد حان كي تتعلم النوم على ظهر فيل.. إن هذه الرحلات مملة وعلاج الملل الوحيد هو النوم..
جاء المساء فجاء من يساعدها على الهبوط عن ظهر الفيل بوساطة درج مصنوع من الحبال الليفية المجدولة.. وقد جاءت هذه الخدمة في وقتها، لأن المثانة......
وكانت الخيام قد نصبت في كل صوب، واشتعلت النيران.. وجلس الجنود يستريحون من عناء يوم شاق.
أشاروا لها إلى خيمة تبدو أكثر أهمية من سواها، فاتجهت إلى هناك وهي تترنح من فرط الدوار شاعرة أن قدميها مصنوعتان من العجين.. إن يوما كاملا على ظهر فيل لأمر لم تعتده قط..
في الداخل كانت هناك مأدبة عظيمة موضوعة على الأرض.. وكانت هناك مشاعل.. وعدد لا بأس به من القادة يلتهمون اللحم في نهم.. وفي صدر المكان جلس (هانيبال) بضخامته المعتادة حتى يبدو وهو جالس كأنه واقف..
- تعالي يا (برسيفون) وتناول بعض العشاء..
أفسح لها جداران من الصخر الحي المكان بينهما فجلست.. كان أمامها في الطبق شيء مرعب لا تعرف ما هو لكنه مشوي بعناية... فمدت يدها وفتشت عن شيء يمكن انتزاعه.. أخيرا خرجت قطعة من هراديم اللحم بين أناملها فراحت تلوكها من دون تلذذ..
ورفعت نظرها تختلس النظرات، فوجدت أن القادة يأكلون كأن هذا آخر زادهم.. وهذا ليس تعبيرا بلاغيا.. إلا أن (هانيبال) نفسه بدا قليل الأكل.. كان يمسك بلقمة ما وقد وضع كومة صغيرة من الملح أمامه، وراح يغمس طرف اللقمة في الملح كما نفعل نحن مع (السميط)..
الواقع أنه كان إلى شرود الذهن أقرب........
في النهاية صاح بصوته الجهوري:
- كفى هذا.. يجب أن تناموا مبكرا.. انصراف!!
نهض الرجال متململين، فمنهم بالطبع من كان يرغب في المزيد من اللحم والشراب.. لكنه صاح

آمرا:
- إليّ بالقسم!!
- نقسم أن نكره (روما) إلى الأبد؟
- انصراف!
أخيرا خلت الخيمة الواسعة تماما إلا منهما ومن بعض المشاعل.. وكان هناك حارس مدجج بالسلاح أشار له (هانيبال) بعينه فابتعد..
للمرة الأولى تنفرد به.. ولم يبد لها هذا الشعور مريحا..
قال بعد صمت طال:
- أعرف ما تفكرين فيه يا (برسيفون).. أعرف أنني أمثل لك العدو الذي قتل قومك، ويهدد وطنك.. لن أبالي بهذا كله.. لكني لن أرغمك على شيء.. وأنت تعلمين أنني قادر على إرغامك..
كان يتكلم وهو يثني عضده، فبرزت عضلاته كأنها صخور.. وقد ارتسمت فوقها أوردته بوضوح يحبس أنفاس أي عالم تشريح.. الحقيقة أن هذا الرجل كان قادرا على إرغام أسد على أن يغرد في الفجر.
عاد يقول:
- أنت تعرفين أني أنوي اتخاذك زوجة لي.. لكني محارب فظ لسانه جاف كالصحراء.. محارب لم يعتد أن يلفظ كلمة رقيقة واحدة.. هاتان يدان خلقتا لقطع رقاب الرومان لا لقطف الزهور.. هاتان عينان خلقتا للبحث عن الكماة لا لتوجيه النظرات الحانية.. لا يملك (هانيبال) العظيم شيئا من الأشياء التي تروق للنساء ما عدا القوة.. لكن (هانيبال) عادل وهو يكره انتزاع شيء من الضعفاء.. قوة (هانيبال) مسلطة على من يعادلونه في القوة والبطش.. أما من هم أضعف منه فهو يحاول أن يقنعهم.. أن يأخذ منهم ما يريد طواعية وبموافقتهم الكاملة.. لهذا لا أرغمك على شيء.. لهذا لن أضغط عليك..
أثارت دهشتها هذه الكلمات المتحضرة التي تقال قبل الميلاد بقرنين.. وممن؟ من محارب شديد البطش حتى إن (روما) لا تدعو في صلاتها إلا دعاء واحدا: أن يموت (هانيبال)..
حرك هذا الرقى شيئا في روحها.. لكنها لم تجرؤ على الاعتقاد أنها ستحبه يوما.. إنه مرعب رهيب.. ولو أحبته سيكون هذا تنويعا على عقدة (الجميلة والوحش) الشهيرة..
أردف وهو ينزع إصبعا من الموز ويقشره:
- لقد طلبت أن تأتي معي في هذه الحملة لأنني لا أطمئن إلى بقائك وحدك في إسبانيا.. يوجد موضع وحيد آمن أعرفه في العالم وهذا المكان هو بجوار (هانيبال بن هاميلكار).. ولسوف أوجه لك السؤال ذاته أربع مرات في أثناء الحملة.. فإن أجبت بالموافقة فبها ونعمت؛ وإن أبيت أعدتك إلى أقرب معسكر لقومك، الذين أمقتهم حتى الموت لكن مشاعري استثنت منهم واحدة..
هزت رأسها في تقدير.
مهما قالوا عن (هانيبال) في كتب التاريخ فهي على الأقل تعرف أنه (جنتلمان) بالمعنى المعروف لهذه الكلمة.. وهذا متوقع على كل حال لأن الرجل كان فاتحا عظيما، وهؤلاء القوم يندر أن يكون لديهم وقت كاف للاهتمام بالنساء أو مضايقتهن..
انتهى الكلام فساد الصمت.. كما قلنا لم يكن الرجل يحب الكلام الكثير..
بعد دقائق قال لها:
- نامي جيدا.. فغدا يوم شاق..

هزت رأسها وغادرت الخيمة العملاقة وهي توشك على التعثر في ثوبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (قرطاجة) - التي تقع في (تونس) – عاصمة كبري أنشأها الفينيقيون حوالي العام 800 قبل الميلاد..
تقول الأسطورة إن ملكتهم (ديدو) أنشأتها.. وكانت تلعب دورا مهما كمركز تجاري يطل على البحر المتوسط ويستقطب كل تجارته..
هنا حدث ما لا بد أن يحدث للشعوب التي تطل على البحر ولا تخشاه.. بدأت قرطاجة تتوسع وازدادت عضلاتها نموا كقوة خليقة بأن تثير قلق الإمبراطورية الرومانية..
ثم إن (هاميلكار) أبا (هانيبال) زحف على إسبانيا لينشئ هناك (قرطاجة) الجديدة.. ومن لحظتها عرف الجميع أن هذه الإمبراطورية لن تكتفي بذلك، بل ستزحف على باقي أوروبا..
وقد راقبت (روما) في توجس ما يقوم به (هانيبال) من غزو لإسبانيا وجمع أقطارها المتباعدة تحت رايته.. لكن ضربة ضم (ساجونتو) كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير، وأعلنت (روما) الحرب على هذا المحارب الأسطورة القادم من شمال إفريقيا ليزيد الحياة تعقيدا..
لكن (هانيبال) لم ينتظر الفترة التي تقع بين الفعل ورد الفعل. لقد بادر إلى الزحف سريعا وعبر أغرب الطرق المحتملة..
لكنه قبل رحيله حرص على التأكد من ثلاثة أشياء:
- 1استقرار الوضع هنالك عبر البحر المتوسط.. لابد أن تكون قواعده آمنة في تونس.
- 2استقرار الوضع هنالك في إسبانيا التي يبدأ منها حملته..
- 3موقف القبائل الغالية التي سيقابلها في رحلته والتي تحمل جميعها حقدا بالغا نحو روما..
وهكذا بالنسبة لرجل لا يترك ثغرات في خططه، صار كل شيء معدا لأصعب حملة في تاريخ الحملات العسكرية..
والهدف..... روما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الزحف نفسه..

عند الفجر كانت هناك معركة..
صحت (عبير) من نومها لتسمع صوت الصراخ، وصوت قراع السيوف..
أمعنت النظر إلى بعيد فرأت أن هناك عددا من الجنود يلتحمون مع جنود آخرين.. معركة صغيرة هي فلا يمكن بحال أن يتجاوز عدد المتصارعين العشرين....
أيا ما كان هؤلاء المتسللون فهم حمقى.. لا يمكن لهذا العدد البسيط أن يغامر بالتسلل إلى معسكر القرطاجينيين.
وكما توقعت بالضبط انتهت المعركة سريعا جدا.. لقد سقط أكثر المتسللين مضرجين بالدماء، بينما التف الجنود حول ثلاثة من الأسرى الذين راحوا يقاتلون كالأسود، لكن الكثرة تغلب الشجاعة دوما..
وبرز قائد قرطاجي متضايق من هذه الضوضاء التي حرمته النوم، وخرج من خيمته وهو يفرك عينيه:
- ماذا يحدث هنا بالضبط؟
- جواسيس رومان يا سيدي!
هؤلاء إذن من بني جلدتها.. دفعها الفضول إلى أن تتقدم أكثر لترى هذا المشهد..
كانوا أوروبيين فعلا يختلفون عن الوجوه السمراء القاسية للقرطاجيين.. وكانوا يلبسون كالفلاحين الإسبان.. وبرغم أن وجوههم صارت أقرب إلى درنات البطاطس من فرط ما تلقوه من ضربات، فإنها استطاعت أن تميز ملامح (شريف) في وجه أحدهم..
هذا الشخص بالذات كان ينظر لها في ثبات وهو مكبل بين ستة جنود أشداء.. وكلما أبدى حماسة زائدة تلقى ضربة على مؤخر عنقه بمقبض السيف.
ظل ينظر لها في ثبات ثم صاح بصوت مبحوح:
- أنت رومانية! عرفنا هذا.. آي!
وحاول أن يتماسك من هول الضربة ثم بصق دما وصاح:
- واجبك نحو قومك أن تقتلى (هانيبال).. يجب أن تفتكي ب. (هانيبال)!
هنا هوت الضربة الأعنف على رأسه فهوي أرضا..
لحسن الحظ كان الحوار باللاتينية، وبدا واضحا أن أحدا من الواقفين لا يعرف هذه اللغة..
لكنهم أرادوا منع هذا المتسلل من عمل غسيل مخ للأسيرة الحسناء..
قال القائد القرطاجي وهو يتثاءب ويعود لخيمته:
- لو كنتم ستوقظونني كلما قابلتم جاسوسا فإن نهايتي قريبة.
ثم أخرج رأسه من ستار الخيمة وأردف:
- اقطعوا رءوس من بقي حيا!
وعلى الفور هوت السيوف، وأغمضت (عبير) عينيها كي لا ترى المشهد المريع.. هؤلاء القوم يجيدون قطع الرقاب حقا..
دخلت إلى الخيمة مترنحة تتماسك كي لا تفقد وعيها....
المفترض أن من ماتوا هم من قومها، وعليها أن تجن كمدا، لكنها لم تتأثر إلا بفكرة الإعدام ذاتها.

إنها لا تشعر ميلا من أي نوع نحو الرومان.. هي كذلك لا تشعر بأي ميل نحو القرطاجينيين.. وتساءلت.. هل عليها أن تشعر بالحقد وتقرر قتل (هانيبال)؟ هل هذا هو الدور المطلوب منها؟ لكنها لا تمثل قصة لا تملك نصها.. ستترك الأمور تجري في أعنتها.. ولسوف تشعر بما تريد (فانتازيا) أن تشعر به..
وحتى لو أرادت: كيف يمكن قتل (هانيبال)؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المكان: روما..
الزمان: في هذه الأثناء طبعا..
الحدث: وهل هناك موضوع آخر؟ إن القادة الرومان يناقشون نوايا (هانيبال)..
كان هناك رواق طويل.. بالطبع يزدحم ببعض الفلاسفة الرواقيين.. أين يتواجد الفلاسفة الرواقيون إن لم يكن في رواق كهذا؟ طبعا كان هناك بعض الفلاسفة الكلبيين يتسولون وبعض الأبيقوريين ينامون منهكين من فرط اللهو ليلة أمس.. لكن لا تشغل بالك بهم من فضلك.. هذه الفلسفات يونانية طبعا لكن كان لها أتباع أوفياء في روما..
تماثيل (زيوس) والسيدة حرمه (هيرا) في كل مكان.. وفي الواجهة يمكنك أن ترى أن هناك مجموعة من المقاعد المتراصة كما في المسارح بينما يقف أمامهم رجل أشيب يلف عباءته البيضاء حول ذراعه، ويتكلم في حماسة.. الوجوه كلها مقطبة مما يوحي بأن الأمر جد خطير..
يقول الرجل المتقدم في السن في رزانة:
- (هانيبال) ينوى شيئا.. نحن متأكدون من هذا..
سأله أحد الجالسين:
- هل لديك تصور ما أيها الجنرال (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور)؟
الاسم حقيقي طبعا وينم عن ذاكرة ممتازة لدى هؤلاء الرومان.. بينما كاتب هذه السطور لا يستطيع طبعا إلا نسخ الاسم نسخا من كتاب تاريخ، مع استعمال خاصية (انسخ والصق) في منسق الكلمات كي لا يضطر إلى إعادة هجاء هذا الاسم المريع..
لكننا على الأقل نعرف أن هذا الجنرال هو (فابيوس).. وسياسته شهيرة جدا في تاريخ الاستراتيجية، لأنها سياسة البعد عن الاستفزاز قدر الإمكان والتغيير ببطء تدريجي لا يحس.. لا أعرف إن كان أحدكم قد سمع عن (الاشتراكية الفابية) التي كان (برنارد شو) يؤمن بها.. إنها الاشتراكية التي تسعى إلى تغيير المجتمع ببطء وهدوء.. كان هذا الاسم (فابية) منسوبا إلى القائد الروماني (فابيوس)..
قال (فابيوس):
- إن جواسيسنا لم يعودوا قط.. لهذا أرى أن ننتظر.. فقط أنا أعرف شيئا يقينا: هذا الرجل ينوي أن يهاجم روما..
صاح أحد الجالسين في عصبية حتى إنه نسي أن يداري ساقه المشعرة بعباءته:
- يهاجم روما؟ هذا البربري؟ كيف يكون له هذا؟
في هدوء قال (فابيوس):
- لقد تعلمنا من تجاربنا أن (هانيبال) يملك خاصيتين..
وبدأ يعد على إصبعيه السبابة والوسط:
- أولا هو يكره روما بجنون.. ثانيا هو ليس بالخصم الهين.. وقد عرفنا أنه إن قال فعل..

- والعمل؟
- كما قلت.. ننتظر.. ونكون حذرين..
هنا نهض رجل أصلع قصير القامة متين البنيان من الطراز الذي ندعوه في العامية (مدكوكا)..
وقال في غضب:
- أنا القائد (بوبليوس كورنيليوس سكيبيو) أرفض الانتظار.. لا بد من قتل (هانيبال)..
إنه إذن من أقوياء الذاكرة الذين يعج بهم هذا العالم..
نهض قائد آخر ووقف أمام الناس وهتف:
- وأنا المستشار (لوسيوس باولوس) أرى الشيء ذاته.. لابد من اغتيال الرجل..
ساد صمت رهيب.. من جديد تصدق مقولة (برنارد شو) الرائعة: الاغتيال هو أعنف أنواع الرقابة.. لكن من يفعلها وكيف؟
قال أحد الجالسين:
- هناك أسيرة رومانية يحتفظ بها في معسكره، وهي ترافقه في كل حملاته.. من الواضح تماما أنه وقع في هواها.. إن كل بطل له كعب (أخيل) الخاص به. يمكننا أن نفترض أن (هانيبال) يجلس في معسكره على بعد أمتار من نصل روما..
- جميل.. لكن كيف نصل إليها وكيف تقنعها؟
- المشكلة الأهم هي: كيف تستطيع؟
- السم.. لقد كان دوما سلاح النساء الجريئات.. فقط المرأة تعرف كيف تناولك كأس المنون لتجرعها راضيا.. ثم ترقص بعد هذا حول جثتك...
من جديد ساد الصمت. كأن الصمت واحد من المجتمعين هنا، وله رأيه الخاص الذي يعلنه من آن الآخر.. ثم قال (فابيوس):
- اتركوا لى هذه النقطة.. أرى أن كل شيء يجب أن يتم بهدوء وترو..
الحقيقة أن هدوء هذا الرجل، وإصراره الدائم على التروي فيهما شيء ما غير آدمي.. شيء لا يمكن تحمله.. على الأقل بالنسبة لواحد نافد الصبر مثل كاتب هذه السطور.. لكن هذا هو التاريخ وعلينا أن نقبله كما هو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبور النهر عملية شديدة التعقيد..
لقد أرسل (هانيبال) رجاله يشترون بالفضة كل قارب وكل طوف يمكن شراؤه.. وتحمس القرويون فراحوا يبيعون ما يجدون للغزاة، ثم راحوا يصنعون المزيد..
وقد استغرق الأمر أياما حتى تم صنع الأطواف اللازمة، وتم تغليفها بجلود الماعز..
ثم جاء دور الأفيال..
من المستحيل إقناع هذه الوحوش بعبور النهر إلا بالحيلة..
وقد تفتق ذهن (هانيبال) عن فكرة لا بأس بها.. اصطنع طوفا عملاقا غطاه بالتراب كأنه قطعة من الأرض، وجمع عليه إناث الأفيال ثم دفع به إلى النهر.. هكذا هرعت الذكور تلحق بالإناث سابحة عبر النهر.
ومن الغريب أن هذه الأفيال برغم ضخامتها كانت رشيقة الحركة..
الآن يرون أمامهم جبال الألب ممتدة عبر الأفق.. بعضها يرقى إلى المرتفعات العظمي، حيث يمكنك أن تجد القمم وقد اكتست بعباءتها البيضاء الثقيلة وبعضها يهبط منحدرا إلى الأنهار.

تخيل أن تجد طريقك وسط هذه الجبال الوعرة..
تخيل أن تحمل معك من المؤن والعتاد ما يكفي لتسليح أربعين ألف رجل..
تخيل أن تقنع سبعة وثلاثين في بارتقاء هذه المرتفعات.. حاول أن تقنع قطة بصعود سلالم دارك ولسوف تدرك المعجزة التي قام بها (هانيبال)..
أما الكارثة التي لم تقدرها (عبير) حق قدرها فكانت قبائل (الكلت)..
إنهم مجموعة من أشرس المقاتلين يعيشون في هذه المناطق.. وهم شديدو الجهل لم يسمعوا من قبل حرفا عن جيش (قرطاجة) و (هانيبال).. إن الخوف يحتاج إلى قدر من الحس المرهف.. والذكاء يحتاج إلى خيال يقظ..
ولما كان هؤلاء الهمجيون يفتقرون إلى أي من هذه الصفات فإن جيش (هانيبال) لم يثر رعبهم، وبدءوا ينقضون من حين لآخر.. بالنسبة لهم لم يكن الجيش المخيف إلا مغنما من الجياد والأسلحة والفضة.. وبرغم أنهم لم يشكلوا تهديدا حقيقيا إلا أنهم لعبوا دور الذبابة السمجة التي تحيل حياتك جحيما..
لكن (هانيبال) لاحظ ببصيرته النافذة أن هؤلاء القوم لا يهاجمون إلا في النهار وينامون ليلا.
هكذا جرد عدة حملات ناجحة في ظلام الليل لمهاجمة قرى هؤلاء، وقد ظفر رجاله بالكثير من القطعان الصالحة للذبح.
وكان يحمس الجنود المرهقين من حين لآخر:
- هناك مدن تفعمها الثروة.. وما عليكم إلا أن تقصدوها على صهوات الجياد..
هكذا استمر الزحف المريع فوق جبال الألب وعلى جانبي الطريق كانت القبور تحفر في الثلج بسرعة ليدفن فيها أولئك الذين لن يروا إيطاليا أبدا
وهم كثير......
أما عن العواصف فلا داعي للثرثرة.. إن العواصف الجليدية لا توصف وإنما ترى.. فجأة يصير الهواء نفسه أبيض وترتطم بوجهك كتل عملاقة من البرد، بينما الريح تحاول جاهدة أن تدفعك من على الجبال والصفير يجعلك عاجزا عن سماع أفكارك نفسها..
وجهك يتجمد حتى لو أنك ابتسمت لتهشم اللحم.. ولو صرخت لسمعت صوت ال. (كراش ش ش ش ش) المخيف..
وابتسمت (عبير) برغمها وهي ترى أن جيش (هانيبال) قد تحول إلى جيش من بابا نويل، بسبب كل اللحى والشوارب والشعور البيضاء.. ابتسمت فسمعت صوت جلدها يتشقق على جانبي الفم..
وكان الهودج يهتز ب. (عبير) كأنما يوشك على التحليق.. هنا كان الجنود يصرخون ويلتفون حول الفيل العملاق، وقد جذب كل منهم طرقا من أطراف الحبل لتثبيته....
هذه من اللحظات النادرة التي تعرف فيها قيمة أن تركب فيلا.. إنه ثابت كالطود على حين قد تطير بعض الخيول بمن عليها لتسقط في الهاوية..
لكنك ترى وسط هذه الضوضاء المجنونة رجلا يبدو كأنه ليبي، يلبس ثيابا حمراء فاقعة اللون وله لحية مصبوغة بالأحمر.. يمشي بين صفوف الجنود الطائرين ثابتا كأن قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه.. يمشي ويصدر تعليماته من حين لآخر ويساعد هذا وينقذ ذاك..
ومر من أمام فيل (عبير) فنظر لأعلى يستوثق من أنها بخير.. نظرة لم تطل لكنها كانت كافية..
إنه (هانيبال) نفسه!
وتذكرت ما قالوه عنه من أنه يملك أدوات تنكر كاملة يخرج بها من حين لآخر ليراقب الجنود

وقوادهم..
ثم تهمد العاصفة لتكتشف أن هناك مشكلة أخرى..
إن البرد يمزق الأوصال حقا.. لا تنس هنا أن أكثر الرجال كانوا من إفريقيا واعتادوا الدفء.. لا تنس كذلك ما شعرت به الأفيال وهي مرغمة على اجتياز الجبال الجليدية.. لابد أنها حسدت أجدادها من (الماموث) و (المستودن) الذين كان الفراء يكسو أجسادهم بكثافة..
أما عن الأخت (عبير) فقد كانت تقضي نهارها في النوم غير المريح على ظهر الفيل، وتقضي ليلها في النوم غير المريح على الأرض.. حتى شعرت أنه لم تعد في جسدها عظمة سليمة.. دعك من أن البرد يضاعف آلام العظام كأنما هو سكين تتوغل في نخاعها بلا رحمة.. وأدركت أنها لم تمت لسبب واحد: أن هذه (فانتازيا) حيث تتناسب قوى احتمالها مع سعة خيالها نفسه.. ولو كانت في دنيا الواقع لكانت جثتها المتجمدة مدفونة منذ أسبوع على الأقل.
ذات مرة سقطت كتلة كبيرة من الجليد أمام فيلها..
لم يكن خطرا داهما لكن المشكلة هي أن الطريق قد سد بالكامل، وهكذا انكب الجنود يحطمون الكتلة بالفئوس.. وكانت صلبة بالفعل، من ثم تقدم المهندسون حاملين دنان الخل، وراحوا يسكبون منه على الكتلة حتى تفتتت..
كان الخل هو الطريقة التي وجدها (سلاح المهندسين) لتفتيت أي شيء يسد الطريق.. ويبدو أن خل هذا العصر كان مثل أفياله، وليس كالخل البائس الذي تشتريه اليوم من (بيومي) البقال.. كان قويا يتصرف كحمض الكبريتيك بالضبط.. سرعان ما تفور الصخور ويتصاعد البخار الحارق للعينين والحلق، ثم يهمد الفوران فتجد أن الصخور ذابت..
وسرعان ما فتح الطريق من جديد واستمرت المسيرة..
وبعد خمسة عشر يوما بالضبط كان جيش (هانيبال) قد عبر الألب.. وهو رقم قياسي بأى مقياس. لكنه لم يكن غير ذي ثمن.
لقد كلفته هذه المسيرة الكثير.. كلفته اثني عشر ألفا من الرجال..

5- مغامرة غاليّة.. (بتشديد الياء كما لاحظتم)

انهيار جليدي أخير..
كأنما الجبل الرهيب يعلن غضبته بسبب هذه الضحايا التي أفلتت منه..
وتدحرج عالم من البياض قادما من عل لا يبالي بمن يقف في طريقه.
رجال يصرخون ويسقطون أرضا.. يبدو أنني كنت متعجلا حين عددت خسائر جيش (هانيبال)
كأنما العبور قد انتهى.. ما زالت الأعداد مرشحة للزيادة....
ولا تدري (عبير) كيف ولا متي طارت من فوق الفيل لتحلق بضعة أمتار في الهواء..
ثم تتدحرج لأسفل.. تتدحرج بلا انقطاع كأنها كرة ثلج.. يطلق كتاب السيناريو الأجانب مصطلح (كرة الثلج) على الأحداث التي تتصاعد وتتسارع بلا انقطاع ولا تترك فرصة لالتقاط الأنفاس.. الآن تعرف (عبير) عمليا معنى هذا المصطلح....



سرعتها تزداد وحجمها يزداد كذلك من فرط ما التصق بها من ثلوج..
في النهاية تجد نفسها في جرف عميق.. وتنظر لأعلى فتدرك أنها غاصت كثيرا جدا..

تحاول الحركة.. هنا تدرك المفاجأة اللطيفة التي ادخرتها لها الثلوج.. إن ساقها مكسورة.
تصرخ.. تصرخ.. لكن الضوضاء عالية من أعلى، فلا أمل لها في أن يسمعها أحد..
هكذا قررت أن تدخر جهدها وتصمد قليلا.. ربما يجدونها..
وربما لا يفعلون.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما جاء المساء - والمساء يحل سريعا هنا - قدرت أن مغامراتها مع (هانيبال) انتهت فعلا..
لقد زحف الخدر على أطرافها، وأفظع ما في الأمر هو أنها لم تكن تشعر ألما في ساقها على الإطلاق.. لا تعرف معنى هذا لكنها تعرف أنه مخيف..
ثم بدأ عواء الذئاب يتعالى من بعيد.. هذه الوحوش الكريهة تعرف كيف تحدث تأثيرا دراميا مروعا، وكيف تمزج التوحش بالوحشة بالقنوط في مزاج عبقري لا يصدر إلا من ذئب..
قدرت أن هذه الذئاب ستجد الكثير مما يشغلها في الخارج.. لن تكون هي ضحية الانهيار الجليدي الوحيدة..
لكنها استطاعت أن ترى السماء الصافية التي احتشدت فيها النجوم بعد العواصف..
واستطاعت أن ترى رأسا يحملق فيها من أعلى.. ومن حين لآخر تومض جمرتاه - بل أعني عينيه - في جشع.. ثم تكاثرت الرءوس.. لا بد أنهم يتناقلون الأخبار: هناك فتاة.. رائع.. رومانية؟ جميل.. مهشمة الساق؟ ممتاز.. أحضروا (المسطردة) و (الكتشاب) وأبلغوا الإخوان..
بعد نصف ساعة بدأ أول الذئاب يتشجع ويحاول في حذر أن يهبط على حافة الحفرة..
عملية صعبة عسيرة لكنه سينجح.. إنه أحمق لأنه سيجد عسرا بالغة في الصعود، لكن هذا لا يمنع من أنه قد يصل للقاع.. وعندها ستجد نفسها في حفرة مظلمة مع ذئب.. وأي ذئب؟ ذئب غاليّ مفترس، وكما أسلفنا القول لم تكن الأفيال ولا الذئاب ولا الخل كما نعرفها في هذا الزمن السحيق.. كل شيء كان أقوى وأخطر وأشرس....
كان قد وصل إلى منتصف المسافة حين دوي عواء الذئاب من الخارج.. عواء رعب لا شك فيه..
ونظرت لأعلى فرأت أن وجوه الذئاب لم تعد هناك ولكن وجوه رجال.. وطار رمح من الفتحة لم تدر إلى أين ذهب.. لكنها عرفت حين رأت الذئب يتكور جوارها على الأرض وهو يحاول انتزاع ذلك الشيء الذي ثقب بطنه وخرج من ظهره..
مشاعل.. مشاعل.
ثم حبل يهبط من الفتحة.. يتدلى منه رجل فارع الطول مشعث الشعر يبدو كذئب في حد ذاته..
لم تكن هناك مجاملات ولا عبارات أتيكيت.. لقد انتزع رمحه من بطن الذئب، ثم حملها بنفس اليد الواحدة كأنها مجرفة البلدوزر على كتفه.. وسرعان ما وجدت أنها ترتفع إلى أعلى..
هذا الرجل يستطيع تسلق حبل بذراع واحدة بينما الذراع الأخرى تحمل فتاة ورمحا!
مرحي! إن المستقبل رائع!
وفي الخارج وجدت الوقت ملائما لبعض الهستيريا فراحت تلهث وتنتفض..
أخيرا استطاعت أن ترى منقذيها.. فما إن رأتهم حتى تمنت لو عادت إلى الحفرة من جديد لم تكن قد رأت الغاليين من قبل، لكنها سمعت عنهم وتعرف كيف يبدون.. ورأت الكثير من آثار غزواتهم.. إنهم يكرهون روما لكنهم كذلك لا يحبون (هانيبال).. إذن هناك مصير أسود ينتظرها لو عرفوا أنها كانت مع (هانيبال).. ومصير أكثر سوادا لو عرفوا أنها رومانية.

الحقيقة أن علاقة (هانيبال) بهؤلاء القوم لا يمكن فهمها.. إنهم حلفاؤه وأعداؤه في الوقت ذاته.. أحيانا يستعين بهم ويشترى منهم المؤن.. لكنه كذلك يحاربهم ويغير على قراهم.. إنهم أعداء أعدائه لكنهم ليسوا أصدقاءه..
كانت هناك خيول.. وكانت هناك رحلة عبر الصخور المكسوة بالثلوج.. لا تذكر عنها أية تفاصيل..
وفي النهاية تجد نفسها في معسكر الغاليين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظت من النظرة الأولى أن طول هؤلاء فارع حقا.. وفي طباعهم توتر واضطراب غير عاديين.. الشعر طويل كأنه معرفة الجواد يتدلى على مؤخر العنق.. أما الشاربان فطويلان كثان.. يقول (ديدورو) الصقلي - وهو من أهم المؤرخين - إنهم كانوا يطيلون الشوارب لتصفية الحساء الذين يشربونه!
على الرءوس خوذات برونزية عملاقة لها قرون والدروع طويلة جدا بارتفاع قاماتهم وفوق كل درع رأس حيوان.. أما الأعناق فتحيط بها سلاسل حديدية أقرب إلى الجنازير.. أما سيوفهم فمن طراز بتار لا يصلح لأن يجرح أو يخيف.. يصلح فقط لحش الرقاب..
هذا هو المشهد الذي رأته حول النيران..
دخل زعيمهم الخيمة.. كيف عرفت أنه زعيمهم؟ يا له من سؤال! هذه الأمور تحس ولا توصف.. ربما لأنه أضخمهم وربما لأن شاربيه هما الأكبر..
كما هو المعتاد في (فانتازيا) لم تكن اللغة الغالية، تمثل أدني مشكلة..
لقد وقف يتأملها قليلا.. ثم هتف في دهشة:
- فتاة؟ في جيش (هانيبال)؟
قال أحد الرجال وهو يسلك أسنانه بخنجره:
- لابد أن أمرها يهمه يا (سانكتوريوس)..
- يهمه؟ هم م م م؟
ساد صمت ثقيل على حين اتجه (سانكتوريوس) إلى فخذ من اللحم النيء على منضدة من الخشب العتيق، فاستل خنجرا واقتطع منها شريحة دسها في فيه.. سال الدم على ذقنه كمصاصي الدماء وهو يرمقها في شرود، ثم أمسك بدن كبير من النبيذ وأفرغه في جوفه وتجشأ.. وقال:
- إذن أريد أن تعنوا بها.. ستنام مع النساء ولا يضربنها أحد.. إن (هانيبال) سيدفع لنا ثقلها فضة.
تنفست (عبير) الصعداء.. ستلعب دور الرهينة. لا بأس أبدا.. هذا أفضل مما تصورت.. لكن هل يدفع (هانيبال) وزنها فضة حقا؟ إن الرجل عملي جدا ولن يفسد حملته مهما كان يهواها.. ثم إنها ليست خفيفة الوزن..
قال أحد الرجال ما كانت تخشاه:
- وإن لم يدفع؟
التمعت عيناه في وحشية وقال:
- عندها سنعرف إن كانت ستكون جارية لى أم جثة بلا رأس..
- ولو هاجمنا (هانيبال)؟
هنا - وبحركة سريعة كأنها لدغة الثعبان – هوي (سانكتوريوس) بالسيف على عنق سائله.. فتدحرج هذا مبتعدا تاركا جثمانا بلا رأس.. لقد رأت (عبير) من قبل أنواعا عدة من إبداء عدم

الرضا أو التذمر، لكن هذا كان أكثرها بلاغة.. وتساءلت وهي توشك على فقدان الوعي: كيف يحتفظ هؤلاء القوم بتعدادهم؟ إن بعض المناقشات الثقافية المحتدمة كهذه كل ليلة كفيلة بإفناء العشيرة كلها..
دون كلمة أخرى أعاد (سانكتوريوس) السيف إلى غمده، واقتطع قطعة أخرى من اللحم وعاد يقول في هدوء:
- نحن لا نخاف الموت.. كل غاليّ يعرف أنه لا موت هنالك.. إنما روحه تغادر جسده لتستقر في جسد آخر..
وهكذا حملوا (عبير) حملا إلى ما يشبه الكهف..
كانت هناك نساء والحقيقة أنهن كن بارعات الحسن.. لكن فيهن خشونة لا شك فيها.. وقد أدركت (عبير) أن بقاءها هنا سيكون عسيرا..
وكان أول ما قامت به النساء هو تجريدها من حليها ومن كل شيء ثمين معها..
ثم دنت منها شقراء فارعة الطول من بينهن وسألتها في تحد:
- هل أنت قرطاجية؟ لا أظن هذا..
قررت (عبير) أن تتظاهر بالغباء أو الخرس أو أي شيء، لأنه لو عرفت هاته النسوة أنها رومانية فلربما ينقلب كل شيء على رأسها..
لكن النسوة ظللن يرمقنها بشك.. وقدمن لها حساء يبدو أنه مصنوع من ذيول الثعالب.. ثم اصطنعن لها جبيرة بدائية لساقها المحطمة، وفرشن لها بعض الفراء على الأرض وطلبن منها أن تنام..
للمرة الأولى بدأت (عبير) تتساءل:
- أين أنت يا (هانيبال)؟ لماذا لا تفعل شيئا يا أحمق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورد (هانيبال) كان في الطريق....
في الصباح رأى الرجال جوادا مقبلا.. وخرجوا مسرعين يستقبلون صديقهم (سيليانوپريكس) الذي أرسلوه بالرسالة إلى جيش (هانيبال).. كان عائدا وقد فرد ظهره على صهوة الجواد.. بدا كأنما يحمل أخبارا طيبة بالفعل.
ثم اقترب اكثر.
هنا بدأ الرجال يشعرون بأن شيئا ما ليس على ما يرام.. إنه لا يتحرك..
ثم فهموا أخيرا.. إنه ميت.. وطريقة قتله غريبة بعض الشيء لأن خازوقا اخترق جسده كله من أسفل الظهر حتى الفم، ثم ثبت طرف الخازوق المدبب بالحبال إلى صهوة الجواد.. وعلى طرف الخازوق الخارج من فمه ثبتت الرسالة..
قال أحد الغاليين وهو يوقف الحصان:
- أعتقد أن معنى هذا الرفض..
قال آخر في غيظ:
- لا يا أحمق.. بل هو يطلب مهلة للتفكير..
أما الكارثة الحقيقية فكانت عندما عرف (سانكتوريوس) بالخبر.. لابد أنه أطار عنقين أو ثلاثة من أعناق من جاءوا يبلغونه.. ثم خرج إلى العراء وهو يزأر والدخان يخرج من منخريه كالتنين...
- القرطاجي الحقير يسخر منا!

قال أحد الرجال وقد اطمأن إلى أنه بعيد عن متناول سيف القائد:
- إنها سخرية ثقيلة الظل نوعا..
وقف القائد الغالي يخنفر ويقذف الثلج من حاجبيه.. ثم قال أول ما توقعه الجميع:
- الأسيرة!! هاتوا الأسيرة! سنكرر ما فعله ونعيد له الجواد!
وهكذا وجدت (عبير) نفسها تحمل حملا بأذرع النساء القوية، وهن يضحكن في وحشية..
الحقيقة أن النساء أقسى من الرجال وأكثر قابلية للافتراس.. هي لم تؤذهن في شيء، لكنهن شغوفات برؤية مصرعها كما تشغف نساؤنا بمسلسل السابعة مساء..
- هاتوها هنا!
راحت (عبير) تولول وتحاول التملص لكن من الذي يستطيع التملص من قبضة النساء؟
هنا ظهرت في الأفق مجموعة - نحو خمسة – من فرسان الغال.. بخوذاتهم المميزة وشعورهم الطويلة.
توقف الجميع.. ونظر (سانكتوريوس) إليهم محاولا فهم من هم:
- ربما كانوا من القرية المجاورة؟
أخيرا دنا الغاليون أكثر وكان رئيسهم أطولهم شعرا وأضخمهم جسدا وأطولهم قامة.. وكان له شاربان أشقران ينحدران حتى أعلى صدره..
- تحية يا (سانكتوريوس)..
- تحية..
- هذه الأسيرة ملك الغال جميعا وليس من حقك أن تتلفها.. لربما عادت بالخير علينا..
في عصبية لوح المذكور بسيفه وهتف:
- هذه أسيرتي.. رجالي وجدوها.. ومن حقي أن أنكل بها كما أريد..
-. إن قوانين الغال أقوي منا معا.. وأرى أن تدعونا للجلوس والكلام..
بدا شيء من التردد على (سانكتوريوس) ثم تراجع خطوة وقال:
- ليكن.. لكن هذا لن يغير شيئا..
ودنا من الحصان ورفع رأسه نحو الغالي المهيب:
- ولكن من أنتم؟
كان الرد سريعا جدا لأن عنقه طار في الهواء بينما لسانه ما زال يلفظ حرف (التاء) في (أنتم)..
وعلى الفور اندفع القادمون وسط الغاليين الذين كهربهم الموقف فوقفوا في غباء.. وانهالت الفئوس يمينا ويسارا مع السيوف.. وبدا كأن قنبلة يدوية ألقيت وسط معسكر الغال.. ومن مكان ما خرجت شعلة ملتهبة هوت على الخيام فاشتعلت..
وشعرت (عبير) بيد قوية تحملها على سرج حصان.. هذا غير آدمي! إنها تعامل كجوال من القمح هنا.. لكنها رفعت عينيها فرأت أن الجمة والشارب سقطا عن وجه خاطفها.. هذه الملامح السمراء القوية.. إنه (هانيبال)! لقد جاء بنفسه!
بالمثل كان التنكر قد سقط عن أكثر الرجال فعرفتهم واحدا واحدا....
إنه لم يتخل عنها..
الخيول تبعثر الجليد.. والجليد يبدو كأن شحنة من علب الصلصة قد أفرغت فوقه.. والنار تشتعل والنساء تصرخ.. والأجساد تهوى......
في النهاية رفع (هانيبال) سيفه وصرخ:
- لنعد يا رجاااااال؟

واستدارت الخيول الهادرة مبتعدة تبعثر الوغي والمنون في كل صوب..
وقدرت (عبير) أنه لو ظل هؤلاء الشجعان ساعة أخرى لأبيد جنس الغال من على وجه الأرض لم تحب هذه المذبحة.
لكنها لم تحب كذلك ما كان سيحدث لو لم يأت (هانيبال)..

6- روما تتحرك..

كان جيش (هانيبال) يحتشد في وادي نهر (البو)..
فلما رأى الرجال قائدهم.. تصايحوا وطارت الأسلحة في الهواء..
- هانيباااااال؟ هانيبااال!!
كانوا يعرفون أنه سيعود.. كانوا يؤمنون أنه لا يقهر.. هذه هي اللمسة السحرية التي جعلته يحكم قبضته على هذا الخليط غير المتجانس من البشر..
لوح بسلاحه في الهواء، ثم اتجه إلى خيمة القيادة.. وأنزل أسيرته الحسناء التي راحت تثب على ساقها الوحيدة كاللقلق.. واقتادها إلى الداخل..



ثم اتجه إلى خيمة القيادة.. وأنزل أسيرته الحسناء التي راحت تثب على ساقها الوحيدة كاللقلق..

- أغبياء!

قالها وهو ينزع الثياب المستعارة التي كانت تثقل جسمه.. أخيرا يقف بالثياب المريحة

القرطاجية:
دروع ودروع ثم دروع.. جميل أن يشعر المرء بالتخفف قليلا..
- أغبياء! - كررها من جديد وأردف – هؤلاء الغال أغبياء.. هل كانوا يتوقعون أن نعيد رسولهم ولا نقتفى أثر الحصان؟ لولا هذا الحصان الذكي الذي يعرف طريقه لاستحال علينا العثور عليك بين كل قرى الغال هذه..
ثم نظر لها في صلابة وسألها
- للمرة الثانية أتساءل: هل تكونين زوجتي؟
صمتت.. كانت بعد مزعزعة من المغامرة الأخيرة، ثم إنها لم تتوقع هذا السؤال.. ومن جديد تشعر بأنها لن تستطيع أبدا.. تعجب به نعم.. تتزوجه لا.. إنها تخشاه بشدة وهذه ليست البداية المثلى لزواج ناجح..
دعك طبعا من أنها لن تقبل عرضا بالزواج من رجل أطار عشرة أعناق منذ ربع ساعة.. ويعلم الله أنه فعلها بنفس البساطة التي تنتزع بها أنت عنق الروبيان (الجمبري) لو استطعت شراءه..
قال في ضيق:
- ليكن.. ذات الإجابة إذن.. لكني أحتفظ بالحق في سؤالين.
كانت تشعر بالخجل من نفسها.. هذا هو نكران الجميل الحق لكن هل تتزوج المرأة من كل من ينقذ حياتها؟ ثم من طلب منه أن يأسرها ومن طلب منه أن يصطحبها في أخطر حملة في التاريخ؟؟؟
ثم وضع يديه في خصره وقال بحزم:
- يمكنك العودة إلى خيمتك.. نحن لن نزحف اليوم.. لكننا سنواصل القتال غدا..
والحق أنها حين غادرت خيمته ومشت بعكازها وسط الجنود، أدركت مدى ما كلفه الزحف الرهيب عبر الألب.. أكثر الجنود معوقون بشكل ما.. وأكثر الأفيال ماتت من البرد.. لم يعد للجيش ذات الهيبة الأولى، وهو ما كان (هانيبال) يدركه جيدا لهذا وقف هذه الوقفة التعبوية من أجل ضم من يستطيع من الغاليين أعداء روما..
كما قلنا كانت علاقته بالغال شديدة التعقيد..
أما رسالته للجيش فكانت شبيهة برسالة (طارق ابن زياد) بعد هذا بقرون.
لقد دعا القوات إلى التجمع.. وفي وسط المكان وقف أسيران من الغال يبدو عليهما النبل والقوة..
أسدان أسيران لو كنت تفضل هذا النوع من التشبيهات.
وقف (هانيبال) على مرتفع.. مهيبا ضخما ثابتا كالجبل.
وصاح بأعلى صوته:
- هاتوا السلاح والدروع!!
أحضر رجالة مجموعة من الأسلحة والدروع المزدانة بالذهب وألقوا بها أمام الرجلين.
- سيتقاتل هذان النبيلان الغاليان حتى الموت.. فمن يفز بالمباراة يظفر بحريته وكل هذه الأسلحة..
وهكذا وقف الغالبان وكل منهما يزن الآخر بعينية.
ثم كان القتال المروع الذي يمكن أن تراه فقط في كوابيسك لو التهمت وجبة دسمة ونمت على ظهرك..
هذه أشياء لا توصف بل ترى.. الواقع أن الرجلين لم يكونا يمثلان أو يرفق أحدهما بصاحبه..

كانا مصممين على أن يرى هؤلاء الأفارقة شجاعتهم وصلابتهم.
...... كلينج.. كلانج.. كلونج.. كلانك.. كلينج.. شليك.. شلوك.. شلانك!
ثم سقط أحد البطلين على الأرض ممرغا في مزيج من الوحل والدم والثلج..
لوح المنتصر بسلاحه في الهواء.. فلوح له (هانيبال) بسلاحه.. الحقيقة أنه كان ضعيفا دوما أمام الشجاعة والنبل.. في حين لم يكن يطيق الجبن.
ثم إن (هانيبال) صاح في رجاله:
- هل فهمتم الدرس؟ نحن كهذين الغاليين.. ليس أمامنا إلا أن نسحق روما ونفوز بكل ثمين.. أو نهلك جميعا....
هنا ارتفعت الأسلحة في الهواء من جديد:
- (هانيبااااااال).. (هانيبااااااااال)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المستشار الروماني (سكيبيو) الأكبر ينتظر.
لم يكن متوترا ولم يجف ريقه.. لقد اختار (هانيبال) هذا الطريق وبالتالي صار مسئوليته هو..
الواقع أن الرومان وزعوا المسئوليات بينهم حسب اتجاه جيش (هانيبال)، ما بين المستشار (سكيبيو) الأكبر والقائد (جايوس فلامينيوس) والجنرال - لحظة حتى أنسخ الاسم من الفصل الرابع - (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور).. مع جزيل شكري لشركة (ميكروسوفت).. صارت المهمة مهمة (سكيبيو) الأكبر..
وقد وقف يقول لجنوده:
- عبور الألب ليس معجزة..
ومط شفته السفلى احتقارا وأردف:
- بالواقع هذا المجنون القرطاجي قد وضع جيشه في حالة لا يمكن معها التراجع.. وقد فقد نصف رجاله وكل الأفيال التي حاول بها أن يفقدنا روعنا..
إننا محظوظون بحق!
لكن بالتأكيد كان (هانيبال) أكثر توترا وعصبية.
الحقيقة أن قوة جيشه ضعفت كثيرا، بالإضافة إلى أن خطوط الاتصال انقطعت بينه وبين (إسبانيا).. حتى الحمام الزاجل كان الرومان يقنصونه ويشوونه..
وكان احتياطيه الاستراتيجي قد نضب فعلا.. أما الرومان فكانوا قادرين على استدعاء نحو مليون جندي من الاحتياطي.
وفوق ذلك الشاطئ الممتد.. شط (تيشينو)، ظهر الجيش الروماني للمرة الأولى..
وجاءت لحظة الحقيقة..
إن الموقعة التالية سيذكرها التاريخ باسم.. نعم..
أنتم عباقرة فعلا.. سيكون اسمها موقعة (تشينو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من موقعها فوق الفيل الأخير الذي تركوه لها، كان بوسع (عبير) أن تراقب مجريات المعركة في هدوء ملحوظ.. لو فاز (هانيبال) فلن يتغير شيء، وإن فاز الرومان عادت إلى قومها!
كان (هانيبال) يركب حصانه وجواره مجموعة (المخابرات العسكرية) الخاصة به.. ورئيس

مخابراته هو (كارثالو) الذي راح يشرح له معنى كل تحرك للرومان، ومعنى كل نداء بالبوق..
قال له (كارثالو):
- النظام.. النظام هو ما يميز الجيش الروماني.. إنه يعمل كالة لا تعطب.. كل شيء يتم بدقة..
ابتسم (هانيبال) في وحشية وقال:
- هذا النوع من الجيوش يهزم بسرعة إذا وضع في وضع غير تقليدي.. إن جنوده لا يفعلون إلا ما تدربوا عليه ولا يرتجلون أبدا..
القوات الرومانية تتقدم بأسلوب المربعات الشهير..
نظام محكم يثير الغيظ في النفوس والرهبة في القلوب.. مثل هذه التشكيلات أوقعت الهلع في قلوب كثيرين من قبل، وقد ارتجف العبيد على شاطئ (برنديزي) تحت قيادة (سبارتاكوس) يوم وقفوا يشاهدون هذه الاستعراضات المخيفة التي دامت ساعات قبل الالتحام.. الحق أن روما كانت قوية جدا..
- غائع!! بغافوووووو!!
سمعت هذه العبارة فالتفتت لترى الأخ (بونابرت) واقفا جوارها وهو يدون في مفكرته بعض الملحوظات..
قالت له في ضيق:
- ظننت أنك معجب بالقرطاجيين فقط..
- لنقل إنني أشجع اللعبة الحلوة.. إن لدينا هنا منهلا من الأفكار الاستراتيجية لا ينضب.. هذه المربعات التي لا يمكن اختراقها ستحير أعدائي.. يوما ما سيفاجأ المماليك بها في معركة (امبابة) في مصر وطنك.. ولن يفهموا كيف يمكن اختراقها....
تقدم الرومان نحو جيش القرطاجيين المبعثر.. فبدأ هذا يتراجع من القلب..
هنا - كأنما بفعل ساحر - برزت من الجانبين قوات الفرسان البرابرة.. وأطبقوا من الميمنة والميسرة على الجيش الروماني حتى أوشكوا على إغلاق الدائرة....
وهنا ظهرت من المؤخرة قوات النوميديين لتهاجم مؤخرة الجيش الروماني.. وكانت لهم طريقة معروفة في الهجوم، هي أنهم لا يضيعون الوقت في المبارزة.. بل يسددون بالسيف ضربة إلى مؤخرة الفخذ تقطع كل الأوتار.. من ثم يتهاوى الجندي الروماني على الأرض كأنه دمية انقطع خيطها.. ويتركونه ليبحثوا عن واحد آخر..
وسرعان ما تكوم الرومان وهم يصرخون طالبين من يغيثهم.. من يرحمهم بالقتل.. لكن أحدا لم يكن رائق المزاج لقتلهم.. لقد تم تعطيلهم وهذا كاف....
وكان (هانيبال) في مقدمة الصفوف يهدر كالرعد، وكانت الضربة من فأسه ذي الحدين تسقط عشرة في كل مرة..
وكانت الضربة الأعنف حين سقط المستشار جريحا من فوق فرسه..
هكذا راح الرومان يتقهقرون وهم يصرخون في بعضهم أن أوان الانسحاب قد جاء..
هتف (بونابرت) وهو يرسم شكل الجيوش في مفكرته:
- هل رأيت؟ تكتيك تراجع القلب وتقدم الجناحين هذا؟
قالت في ملل:
- لست ذات خبرة استراتيجية، لكني في وصف كل معركة في التاريخ أسمع عبارة:
تراجع القلب بينما تقدمت الميمنة والميسرة في شكل هلال لتطبقا على العدو.. أحيانا أعتقد أن هذا كان التكتيك الوحيد وأن أي قائد لا يفطن له هو حمار..

ضحك كثيرا ثم قال:
- لكن (هانيبال) كان الأول.. لقد كتب (ويلز) عن آلة الزمن، وبعده كتب المئات عنها.. لو قرأت (آلة الزمن) في وقت متأخر واتهمت (ويلز) بالنمطية والتقليد لكان ظلمك فادحا.. كثير من القصص تحكي عن مجموعة صبية كونوا فريقا لحل الجرائم.. لكن لا تقرئي (المغامرون الخمسة) ثم تقولي إن (محمود سالم) نمطي.. لا من فضلك.. لقد كان (محمود سالم) أول من ابتكر هذا الطراز من القصص في العربية.. هذه التكتيكات مورست مرارا بعد هذا، لكن ابتكارها يعود لـ (هانيبال)..
لم ترد وراحت تراقب المعركة التي بدأت أحداثها تنتهي سريعا......
الرومان يفرون إلى معسكرهم..
وارتفعت صيحات الفرح تهتف باسم (هانيبال) الذي لا يقهر..
أما الأهم فكانت صرخات الأهالي الذين لم يتصوروا لحظة أن يروا هزيمة الرومان.
لقد رفع هذا النصر أسهم القرطاجيين كثيرا جدا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- روما تتحرك.. (لماذا أشعر بأنني كررت العنوان؟)

الموقعة الثانية كانت عند نهر (تريبيا)..
هذه المرة كان الرومان قد أرسلوا القائد (تيباريوس سيمبرونيوس) كي يقود الجيش بدلا من (سكيبيو) المريض.. والحقيقة أن (سيمبرونيوس) كان ينتمي بكل جوارحه إلى تلك القبيلة الواسعة التي تدعى بالحمقى.. كان أحمق مغرورا ولهذا لم يفهم ما يحدث.
وكان (هانيبال) قد درس كل شيء عن معسكر الرومان ودار حوله بنفسه.
وفي اليوم المحدد بدأ رجاله يستعدون.
كانت الأمطار تنهمر محيلة المنطقة إلى أوحال مستحيلة بالنسبة للقوات النظامية، بينما التهم رجال (هانيبال) وجبة دسمة من اللحم المسلوق وحساء الشعير.
هذه الخطوة مهمة لأنهم لن يأكلوا شيئا في الغد بطوله.
ثم دهنوا أجسادهم بالزيت.. هكذا لم يعد البرد يؤثر فيهم..
على حين كان جنود الرومان يرتجفون من البرد بثيابهم الخفيفة.. وكان عليهم أن يخوضوا المعارك طيلة الليل وطيلة النهار دون أن يأكلوا شيئا..
قال (بونابرت) الذي صار ملازما لـ (عبير) تقريبا:
- الجيوش تزحف على بطونها.. سأقول يوما ما هذه الحكمة.
كانت تتمنى الخلاص منه لكنها وجدت أنه يلعب دور المفسر إلى حد ما.. مثله مثل (هوميروس) الذي يلازمها في الأساطير الإغريقية.. دعه يبق معها فهو يعرف ما يحدث.. خاصة أنها لم تفهم فيلما حربيا في حياتها وكانت تخلط على الفور بين الحلفاء والنازيين، ولا تعرف من يضرب من..
الحقيقة أن تقنيات القرطاجيين الحربية كانت لا تتوقف أبدا.. كانوا يعبرون المستنقعات عن طريق تشييد قناطر من القوارب الصغيرة المتلاصقة، فإذا عبروا فكوا القناطر وحملوها معهم.. بهذا ابتكروا الجسور السوفييتية قبل أن نعرفها بقرون..
على كل حال كانت المذبحة واضحة.
إبادة شبه كاملة. وقد راح الرومان يفرون وسط الأوحال الزلقة...
وفيما بعد كتب (سيمبرونيوس) إلى روما يقول إن سوء الظروف الجوية كان سبب هزيمته.. وهو بهذا يقلد مدربي كرة القدم الذين يفسرون هزائمنا في المباريات بأن - الهواء كان ضدنا في الشوطين.
وعلى معسكر القرطاجيين توافدت أفواج الأسرى..
وكان أول ما قام به (هانيبال) هو فرز الأسرى، فمن كان رومانيا بقي ومن لم يكن رومانيا أو كان من الغال الذين انضموا للرومان، فكان يطلق سراحه..
- عودوا لدياركم وقولوا لأهلكم إن (هانيبال) لا يريد أن يؤذيكم.. إن عدوه الوحيد هو (روما)..
وهي حركة ذكية لا تخفى على أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المكان: روما
الزمان: في هذه الأثناء طبعا

الحدث: وهل هناك موضوع آخر؟ إن القادة الرومان يناقشون نوايا (هانيبال)......
كانت روما في حالة عصبية عنيفة.. الشوارع تزدحم بالنساء الصارخات اللاتي يأتين لا تدري من أين.. لكنهن هناك دوما.. لقد رأى الأقدمون أشباح سفن تعبر السماء.. وضرب البرق المعبد.. واشتعلت الرماح في معبد (مارس).. واصطبغت مياه نهر (كيري) بالدم..
في أجواء كهذه يجد كهنة (زيوس) أكل عيشهم.. هذا وقتهم.
- إن (زيوس) غاضب ويطالب بالقرابين..
ومن كل موضع في البلاد تصل الحيوانات الصغيرة التي ستذبح عند قدمي صنم (زيوس) العملاق.. بل إن بعض العباقرة قرروا صنع تمثال هائل له من الذهب كي يهدأ قليلا.. هكذا في هذا الوقت الذي تحتاج البلاد فيه إلى كل مليم....
كان الرومان الآن قد كونوا نظريتهم الخاصة..
أولا (هانيبال) هذا خارق للطبيعة ولا يمكن القضاء عليه.. إنه شيء قدري جاء يذيق الرومان الويل بسبب جرائمهم وتفشي الفساد فيهم...
ثانيا يبدو أن (بعل) أقوى من (زيوس) بمراحل ربما كان (زيوس) مغشوشا أو (مضروبا) بشكل ما.. وفي مجلس الشيوخ كان المشهد أقرب إلى مسرحية من مسرحيات (سوفوكليس).. الكل يصرخ والجوقة تهدر، والاتهامات تطير ذات اليمين وذات اليسار..
قال (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور):
- تلك الفتاة الرومانية التي يحبها (هانيبال).. هذه هي ورقتنا الرابحة الوحيدة.. لابد من الوصول إليها..
قال أحد القواد في تهكم:
- وعدتنا أنك ستحاول..
- ومازلت.. إن مشكلة هذا المجلس هي التسرع والاندفاع..
قال قائد آخر:
- فقط أرجو أن نجد حلا قبل أن نجد (هانيبال) جالسا يشاركنا التفكير هنا..

في هدوء عقد (فابيوس) ذراعيه وقال:
- بعض الهدوء.. هذا ما أريده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن تزحف جيوش (هانيبال) نحو روما عبر سلسلة جبال (الأبيتاين)..
كالعادة يبدو أن لدى (هانيبال) ولعا خاصا باستخدام الطرق الصعبة غير المنطقية.. وهو يؤمن أن أقصر طريق بين نقطتين ليس هو الخط المستقيم، بل الخط المتعرج أو المنحني أو المتكسر أو المقوس أو الملتوي..
هكذا كان عبور المستنقعات هو المرحلة الأخطر والأصعب.
وأصيب أكثر الجنود بحمى المستنقعات.. بينما مرضت الدواب.. وكان الجندي يمشي وهو نائم فعلا يغط بصوت عال...
وكان أغرب ما حدث هو يوم فوجئت (عبير) في هودجها بمن يدق على الستائر..
وجدت قائدين من القرطاجيين قد تسلقا إلى هناك فوق ظهر الفيل، وقال لها أحدهما في شيء من الخجل:
- معذرة.. هل يضايقك كثيرا أن تركبي حصانا؟

نظرت إلى المستنقعات تحت وإلى كل هذا الوحل، وللمرة الأولى شعرت بسرور بالغ لأنها تركب فيلا..
وفي ضيق قالت:
- لماذا؟؟ هل صار هذا الفيل ضروريا لهزيمة روما؟
- تقريبا.. إن (هانيبال) مريض ولم يعد يحتمل الخيول..
(هانيبال) مريض؟ هذا الرجل يمرض كالبشر؟ إذن فهزيمة هذا الجيش ممكنة.. طبعا كانت لفتة لا تخلو من التهذيب.. ولهذا ترجلت نازلة من الهودج بينما الرجال يحملون العملاق حملا إلى الهودج.. الحق أنها لم تره قط في حالة كهذه.. كانت عيناه حمراوين كالدم وفمه مغطى بقشرة بيضاء.. ولكنه لم يهلوس لحسن الحظ..
قال لها وهو يرتفع إلى أعلى:
- تعالي إلى أعلى.. هناك ما أقوله لك..
لحقت به في الهودج، حيث كان قد رقد وهو يلهث ويسعل.. وبما أنها رقيقة المشاعر كان سؤالها الأول:
- هل ستموت الآن؟
نظر لها في حيرة كأنما لم يخطر له هذا الأمر من قبل، ثم هز رأسه وقال:
- لا أظن.. من الصعب أن يموت (هانيبال).. إن لدي من الأعباء ما يجعلني لا أجد وقتا للموت ذاته..
ثم أردف وهو يريح رأسه:
- أريد أن تقومي أنت بتمريضي..
لم تدر مدى سوء الحالة إلا حين قربت من فمه وعاء الشرب فلاحظت أنه لا يراه.. ثم أدركت أن عينه اليسرى لا ترى فعلا.. لقد أتلفت الحمى إحدى عينيه لكنه لم يقل شيئا، ولا بد أنه كان في أسوأ حالاته النفسية لأن (سعادة بعل) يكره أن يراه أحدهم ضعيفا.. ثم أغمض عينيه.. لقد كان مرهقا مرهقا..



لم تدر مدى سوء الحالة إلا حين قربت من فمه وعاء الشرب فلاحظت أنه لا يراه..

فجأة فتح عينه وسألها في حزم:

- هل تقبلين الزواج مني؟

قالت في حزم مماثل:
- لا..
- إذن سأسألك بعد أيام مرة أخيرة.. بعدها أنت زوجتي أو حرة..
ثم أغمض عينيه من جديد.. وفي الخارج رأى الجنود للمرة الأولى واديا رائع الجمال تكسوه الخضرة.. هذا المكان لم يسمع قط أن هناك حروبا تحدث في العالم.. لم يسمع عن الدماء والصراخ وقراع السيوف..
كان اسم هذا الوادي (فوسيولى) وإن اختار له الجند اسم (وادي النور)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن صار (هانيبال) - منذ أن دخل وادي النور في نطاق عمل القائد (جايوس فلامنيوس)..
يحكي التاريخ عن مناورة معقدة عسيرة الفهم قام بها (هانيبال) لخداع هذا القائد.. الواقع أنني لا أستطيع تحويل هذا الكتيب إلى كتاب في الاستراتيجية، لكن الأخ (بونابرت) كتب الكثير جدا حتى إن يده اليمنى تورمت..
الخلاصة أن هذه كانت موقعة (ترازيمين)، وقد أوشك فيها (هانيبال) على إبادة الرومان تماما..
لقد استغل الموقع الوعر والضباب خير استغلال والحقيقة أن جنود (هانيبال) كانوا فرسانا، بينما كان الرومان جنودا يركبون الخيول.. وكان القتال مع الغاليين معروف العواقب من البداية لأنهم أشرس المقاتلين طرا. والحقيقة أن كثيرا جدا من الرومان فقدوا أوتار أفخاذهم كما هي العادة المحببة لدى القرطاجيين.. وهكذا سقطوا على الأرض يولولون ويتوسلون كأنهم طيور تهشم جناحاها..
لقد استعاد (هانيبال) معنوياته وللمرة الأولى يعود إلى حصانه. وسرت (عبير) بهذا لأنه كان يزحم المكان حقا.. مات ألفا قرطاجي بينما أبيد الجيش الروماني وأسر خمسة عشر ألفا من الجنود الأشداء..
لكن (هانيبال) ليس بالقائد الذي ينسى التفاصيل.. لقد راح يفتش مع رجاله عن جثة (فلامنيوس)..

- أريد أن تجدوها.. وأن تدفن مع أسلحتها مع مراسم تكريم.
قال أحد رجاله في غيظ:
- لكنه كلب روماني.
- هو كذلك قائد حارب مع جنوده ومات ممسكا سيفه.. إنه خصم شجاع شريف يستحق التكريم..
لكن أحدا لم يجد القائد على كل حال.. وهذا من حسن حظ الغاليين الذين لم يتحملوا قط أساليب (الجنتلمانات) هذه.. اعتبروها نوعا من النفاق السياسي.. الحرب المحترمة بالنسبة لهم هي التي يتم فيها تمزيق الخصم والتمثيل بجثته وإلقاؤها للكلاب.. لم لا؟ ألم يكن هذا هو الهدف من الحرب أصلا؟
وفي روما أوصدت أبواب مجلس الشيوخ أمام الجماهير لعدة ساعات كأنها نتيجة الثانوية العامة، ثم خرج (بومبونيوس ماثو) إليهم.. كان له وجه مشرق مفعم بالأمل.. وابتسامة آسرة.....
- يا أهالى روما الكرام
هنا حبس الناس أنفاسهم حتى لا يفوتهم حرف..
فأردف الرجل بوجهة المشرق الصبوح:

- لقد هزمت جيوشنا في موقعة عظيمة مع (هانيبال)..
ثم لوح بيده في الهواء وهتف في حماسة:
- لقد مات المستشار (جايوس فلامنيوس)!!
الحقيقة أن البلهاء سعداء الحظ فعلا.. وبمعجزة ما لم تفتك الجماهير بهذا المتفائل السعيد.
وهكذا اجتمع مجلس الشيوخ من جديد، وكان القرار الذي صدر هو تعيين (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) - شكرا لميكروسوفت - كي يقود البلاد.. بل ليكون حاكما مطلقا..
وكان أول قرار أصدره هو كما نتوقع:
- يجب أن نهدأ قليلا.. لا داعي للانفعالات أو العجلة.
ثم أضاف في خبث:
- كل يوم يمر على (هانيبال) يضعفه ويقلل من مؤنه.. بينما الوقت معنا.. يجب أن نصمد.... يجب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- روما تتحرك.. (هذه المرة أنا متأكد من أن العنوان مكرر

كانت (عبير) تجول خلف الخيام لبعض أغراضها.. الحقيقة أنها لا تجد شيئا من الحرية وهي محاصرة ووحيدة وسط هذا الجيش من الرجال الأشداء، لكنهم على الأقل كانوا يعرفون أنها تحمل خاتم (هانيبال) وأنها مقدسة لا يمكن لمسها.. هذا كان يعطيها نوعا من الاحترام والحصانة.. وفي جولات كهذه كان الحراس يستنتجون ما تريد ويكفون عن مراقبتها.
لا بد أنها دنت أكثر من اللازم من الحفرة..
في هذه الحفرة كان الأسرى الرومان.. حفرة عميقة هي يجلسون فيها مربوطين بالسلاسل والحبال الغليظة التي لا يمكن قضمها.. والحقيقة أنهم كانوا يمثلون عبئا متزايدا على المؤن، لكن (هانيبال) لم يحب فكرة إبادتهم.. صحيح أن تصرفاته كانت تزداد وحشية هذه الأيام كلما اقترب من روما، لكن ليس إلى درجة قتل الأسرى..
كان قد بدأ يحرق الأراضي ويقتل الرجال في سن الحرب في القرى التي يدخلها.. والخلاصة أن كراهيته لروما بدأت تتضح يوما بعد يوم.. واتخذت شكلا أكثر شراسة يتوارى خلفه الجنتلمان
سمعت (عبير) من يناديها من الحفرة فألقت نظرة فضول:
- هيية.. پرسيفون!
تلفتت حولها في رعب ثم دنت من الحفرة أكثر.
كان هناك نحو عشرة رومانيين مربوطين بسلاسل غليظة تحيط بالعنق فالذراعين في نوع من التوصيل على التوازي الذي يبهر أي كهربائي في عصرنا هذا..
وكان المتكلم فتى شابا منهم.. لا يبدو ذا باع كبير في الحرب كانت له عينا طفل واسعتان خائفتان صادقتان.
سألته في حدة:
- ك.. كيف عرفت اسمي؟
- كل روما تعرف أمر الفتاة التي ترافق (هانيبال) في حملاته..
ثم ثنى معصمه بالسلسلة.. وهوب! في اللحظة التالية طارت القنينة الصغيرة لتسقط في يدها قبل أن تعرف ما هي..
- قطرتان في طعام (هانيبال).. هذا ما نريد..
صاحت في جزع وهي تشعر بأنها تمسك ثعبانا:
- لحظة.. هذا غير ممكن.. من قال إنني أجرؤ على؟؟
- الأمر سهل.. كل امرأة قاتلة بالسم بالفطرة.. بالسليقة.. ثم لا تنسى أن هذه المحاولة ستنقذ روما..
تذكري قومك وأباك وأمك.. تذكري وجوه النساء الدامعة والثكالى والأرامل.. تذكري الأيتام والأطفال الذين لن يروا النور لأنهم فقدوا البصر.. تذكري كل من سيموتون في الأعوام القادمة..
- هل كنت تقاتل بقنينة سم؟
- أنا لست جنديا أصلا. أرسلني المستشار (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) عالما أنني سأسقط في الأسر.. وربما استطعت تسليمك هذه..
هنا صاح جندي روماني فظ:
- قد عرفت كل شيء.. الآن ابتعدي قبل أن يراك أحد وفكري بعيدا عنا!!

هكذا ابتعدت (عبير) وهي ترتجف..
من العبقري الذي قال: يكاد المريب أن يقول خذوني؟
لقد صار بوسع كل من في المعسكر أن يرى على وجهها عبارة: أنا أحمل زجاجة سم.. وتذكرت النكتة العبقرية القديمة عن الرجل الذي حمل جنيها وذهب ليشتري حشيشا، فلما رأى رجل الشرطة ألقي بالجنيه أرضا وجرى! إنه شعر بأن الجنيه ملوث مثير للشكوك بما يكفي!
هي بحاجة إلى أن تهدأ.. تهدأ..
المشكلة التي لا يفهمها هؤلاء القوم أنها لا تحمل أي ولاء نحو روما.. يتكلمون عن أمها وأبيها وهي لم ترهما قط.. هي بالعكس تشعر براحة أكثر وألفة أكثر لمعسكر (هانيبال)..
حتى اللحظة لم يظهر (هانيبال) غير ما يقول إنه جندي نبيل جدير بالمجد..
وقررت أن تخفي القنينة في مكان حصين، وأن تنتظر كيف تتطور الأحداث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت فترة من الهدوء الحذر.
انشغل (هانيبال) بتدريب جنده على حيل حربية جديدة لا يعرفها الرومان.. إن جعبته كانت مليئة بها.. والخبر الطيب هنا أن (قرطاجة) أرسلت له سبعين سفينة لحقت به عند نهر (الأدرياتيك)..
ولم يكن يضيع وقته فقد أرسل على ملك اليونان يطلب أن يتحالف معه ضد (روما)، كما أرسل عملاءه السريين إلى (سيراكوزا) معقل (صقلية).. كان يريد أن يضيق الخناق على (روما) قبل أن يزحف إليها..
أما المستشار (فابيوس) فكان مشغولا بالخطة الاستراتيجية التي عرفها التاريخ باسمه منذ ذلك الحين: ألا يفعل أي شيء على الإطلاق..
فقط يترقب ويتفادى المواجهة.. ربما ينفذ هجمة استنزاف من حين لآخر لكنه لا يشتبك أبدا ولا يُري (هانيبال) ما في جعبته، وكانت هذه السياسة فعالة بالفعل مع جيش مقطوع عن خطوطه الخلفية في إسبانيا وقرطاجة.. جيش يعاني نقص الإمدادات.. والوقت هو عدوه الحقيقي.
لكن القواد لم يفهموا هذه السياسة، وأطلقوا على (فابيوس) الاسم الذي سيشتهر به في التاريخ: المعرقل..
قال لها (نابليون) في حماسة:
- هل ترين؟ هذه هي الاستراتيجية الفابية الحقة
قالت في غيظ:
- أية استراتيجية؟ يمكن لهذا الوضع أن يدوم للأبد.
- بالضبط! الأبد.. هذه هي اللفظة التي يخشاها (هانيبال) ويعتقد (فابيوس) أنها المنقذ الوحيد لـ (روما).. هاتي جنرالا متحمسا من الحمقى الذين يملئون (روما) الآن، ولسوف يلتهمه (هانيبال) كقطعة من البسكويت.. لكن (فابيوس) يلعب لعبة مستفزة بارعة.
والحقيقة أن (هانيبال) كان يمشي إلى مأزق دون أن يعرف..
في ذلك اليوم الأسود استدعى رجاله أحد الأدلة من القبائل الإيطالية وقالوا له:
- قدنا إلى وادي (كاسينوم)..
كان الرجل بادي الذكاء تلتمع عيناه فهما.. لكنى أعتقد أنه كان كذلك ألثغ أو ربما افترض أن

القرطاجيين جميعا يعانون من لثغة.
- ليكن أيها الجنيال العظيم.. ستيون أننا نعيف كل شيء هنا..
وانطلق الجيش القرطاجي الرهيب بكل فرسانه وعتاده وخيوله وراء الفلاح الإيطالي الذي سرته أهميته.. فليس متاحا لكل واحد أن يقود جيش (هانيبال) إلى وجهته..
يمضي الركب وسط وديان ومنحدرات.. رحلة شاقة جدا..
في النهاية يقف الأخ المرشد في واد غير ذي زرع، تحيط به الجبال من كل الجهات ويقول في حماسة، وهو يجفف العرق المحتشد على جبينه:
- هذا هو وادي (كاسيلينيوم) يا سادة!
اقترب منه (هانيبال) ونظر له طويلا بعينه الوحيدة المبصرة، ثم قال:
- وادي (كاسيلينيوم)؟ من تحدث عن وادي (كاسيلينيوم)؟ طلبنا منك وادي (كاسينوم).
هنا بدأ الرجل يتلعثم.. المشكلة أن هؤلاء الإيطاليين يستعملون أسماء متشابهة، وهؤلاء القرطاجيين لا يجيدون النطق السليم.. و..
- أنت جلبتنا كل هذه المسافة لأنك سمعت الاسم خطأ؟!
طبعا لم يكن الأمر في سهولة أن تركب إلى (السنطة) وأنت تقصد (طنطا).. هذا جيش كامل بكامل عتاده وخيوله.. وعملية الانتقال معقدة جدا من الناحية اللوجستية.. لهذا لم يجد (هانيبال) أمامه إلا أن يأمر بثقب أذني الرجل ثم يأمر الجيش بالبقاء حيث هو..
قال له أحد القواد في ارتباك:
- حاشا لله أن أتدخل ولكن ألا ترى أن المكان يبدو كـ..
- يبدو ككمين.. نعم.. أعرف هذا.. لكننا مرغمون على أن نقضي اليوم هنا..
قالها (هانيبال) وهو ينفخ في عصبية.
كان يعرف أن لعاب الرومان سيسيل لو عرفوا بهذا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (منيوسياس)! حاول السيطرة على لعابك قليلا!
كانت هذه من (فابيوس) الذي رأى أن قائده يسيل لعابه إلى حد أنه أغرق الخرائط وجعل الحياة مستحيلة..
- معذرة أيها المستشار.. سليرب.. سليرب!
لكن لم أر جيش (هانيبال) في ورطة أكثر غباء من هذه من قبل سليرب.. سليرب!
قال (فابيوس) وهو يراجع الخرائط المبتلة:
- الحق أنها لفرصة سانحة.. هذا يدفعني دفعا إلى تجاوز سياسة ضبط النفس المعروفة.. إننا سنهاجمهم.. سنهاجمهم بقوة وشراسة.. سيكون علينا أن نغلق عليهم ممرين من ممرات هذا الوادي.. هكذا يضطرون إلى استعمال ممر ثالث ونصطدم بهم..
وأطبق بقبضته في حماسة:
قال القائد وهو يجفف لعابه في كمه:
- حركة تطويق.. و.. هوب! وداعا أيها الإفريقي! سيطر على لعابك يا (منيوسياس)!
ولم يكذب الرجل خبرا.. وكذا لم يكذب (فابيوس)..
سرعان ما تحرك الرومان المتعطشون للدماء نحو الوادي.. وتمت عملية الحصار بدقة بالغة....
في هذا المساء سمعت (عبير) ضوضاء عالية من المعسكر..

الغريب في هذه الضوضاء أنها كانت غير آدمية على الإطلاق.. إنها أصوات بهائم فماذا يحدث؟
خرجت من خيمتها وحاولت ألا تتعثر بحبل الفيل النائم جوار الخيمة.. وعلى المدى رأت أغرب مشهد يمكن أن تراه....
كان هناك نحو ألف من الثيران والماشية.. هذا ليس غريبا لأن هناك قطعانا هائلة تتبع الجيش لتغذيته.. لكن الغريب فعلا كان أن الجنود يلفون حول قرون الماشية قطعا من الخشب الجاف والصنوبر..
أما الأغرب فكان أنهم يشعلونها.
يدورون بينها بالمشاعل، ويلامسون القرون جميعا..
وبدأت النار تضطرم.. فتعالى خوار الثيران..
وانتابها هياج يمكن تبريره..
هل جن الجميع فجأة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الرومان ليس بينهم (جسكو)..

أما الآن فقد تحول المشهد إلى أسوأ فوضى يمكن تخيلها.
الماشية ثائرة، والجند المحيطون بها يصرخون ويضربونها.
ثم انطلق الركب يجرى..
في أي كابوس يمكن أن تري مشهدا كهذا؟ الليل.. القطعان تركض والنار تشتعل من قرونها فتبدو كأنها وحوش أسطورية من الأساطير الإغريقية..
الدخان يتصاعد والوادي كله يضاء بالنار.
خوار الماشية.. صراخ الجنود وسبابهم.
في أي كابوس يمكن أن تهدر الأرض تحت حوافر الثيران.. وتهتز الجبال من صراخ الرجال..
ويتصاعد الدخان أكثر فأكثر......
قل أي شيء عن (هانيبال) لكن لا تقل إن الحياة معه مملة فضلك...
وتقف (عبير) المذهولة ترمق القطعان المشتعلة الثائرة يقودها الرجال نحو الممر.. الممر الذي يتوقع الرومان أن يحاول القرطاجيون الهروب منه..
وهنا بدأت تفهم.
بالنسبة لها كان المشهد أشبه بجيش القرطاجيين كله يتجه إلى الممر.
بالنسبة لمن يراقب من الجبال لابد أن المشهد كان أكثر وضوحا أو خداعا..
وصاح القواد الرومان في جندهم أن الحين قد حان..
كل هذه المشاعل والأضواء والصرخات لا تصدر إلا عن جيش..
وسرعان ما انحدرت قوات (فابيوس) كلها نحو الممر لتتصدي لجيش (هانيبال) العظيم....
وعلى الفور بدأت القوات تصحو.. وتحرك الجمع المخيف نحو الجبال.. نحو القمة التي تركها الرومان وكانوا يسيطرون عليها من دقائق.
في هذه اللحظة برز (هانيبال) في معسكره.. كان الجو قد أظلم من جديد وانبلج الدخان كاشفا عن العملاق المخيف وهو يزأر في رجاله:
- هلموا، لقد ترك الرومان الممرين اللذين كانوا يحاصرونهما؟
وهتف (بونابرت) بينما العبيد يساعدون (عبير) على ركوب الفيل:
- رررررررائع ذكريني أن أستعمل هذه الحيلة في حرب ما..
قالت في ملل بينما الفيل يتأرجح وقد نخسه النخاسون:
- لن تجد كل هذا العدد من الثيران.
الآن كان جيش (هانيبال) يخرج من المأزق المخيف الذي أعده له (فابيوس) الصبور.
وراح الرومان يقتلون خيولهم قتلا للحاق بهذا الجيش الوهمي الذي رأوه يقذف النار والضوضاء، لكنهم - بعد مطاردة مرعبة - اكتشفوا أنهم يطاردون مجموعة من الثيران ذات القرون المشتعلة.. القرون التي بدأت تنطفئ الآن.
- سيدي.. ليس هذا جيش (قرطاجة).. إنه قطيع من الثيران!
نظر (فابيوس) إلى الوادي.. فاستطاع أن يرى جيش (هانيبال) الحقيقي يصعد الجبل خارجا من حصاره.. فات أوان تصحيح الخطأ.. ابتسم ابتسامة صفراء يعرف كل من رآها أنها فقط تداري الشعور بالحرج والخيبة....

قال بصوت مبحوح وهو يفكر فيما ينتظره في مجلس الشيوخ في روما:
- الأيام بيننا أيها الإفريقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عام 216 قبل الميلاد، وفي الثالث من أغسطس؛ وقعت موقعة (كاناي)..
ساعة الشروق ظهر (هانيبال) على جواده فوق تل يطل على السهل.
كان المشهد مهيبا بينما الرياح العاصفة الساخنة تطير عباءته في الهواء، لكنه لا يهتز.. حتى كأنه بشكل ما أتى من ذلك العالم الذي تأتي منه الشموس وإليه تأوي.. أتى من حيث تأتي العواصف والأعاصير والغيوم.. وهو إلى هذا العالم ينتمي.
كان يدرس ساحة المعركة في صبر.. الآن يستطيع أن يرى - بعين خبيرة - تفاصيل الجيش الروماني وتوزيع قواته.. إنه يفهم الرومان ويعرفهم كظهر يده.. وكانت عينه الخبيرة تلتقط انعكاسا لأشعة الشمس فيعرف على الفور أن هؤلاء مجموعة من الفرسان..
اقترب منه مجموعة من قواده ونظروا إلى المشهد الرهيب في الوادي.. العملاق الروماني الذي يتمطى في الفجر استعدادا لتمزيق أعدائه.
قال أحدهم وكان يدعى (جيسكو)، وهو – بالمناسبة - أبلة نوعا:
- منظر مريع.. كل هؤلاء الرجال!!
قال (هانيبال):
- هناك ما هو أغرب.. هل تعرفونه؟
تبادلوا النظر لا يدرون ما يقولون فأضاف:
- كل هذا الجيش الروماني ليس فيه واحد يدعي (جيسكو)!
كانت واحدة من دعاباته الشهيرة.. فقد اشتهر بأن له مزاجا لا تعرف أبدا إن كان مزاحا أم لا..
لكن المقولة انتشرت في الجيش القرطاجي حتى صارت من المأثورات:
- الرومان ليس عندهم (جيسكو)..
يعرف الرومان جيدا دعابات (هانيبال) الثقيلة.
فذات مرة تلقوا رسالة من وكيل القنصل ومختومة بخاتمه، فكادوا ينفذون الأمر لولا أن تذكروا أن وكيل القنصل قتله القرطاجيون، وبالتالي فلابد أن خاتمه مع (هانيبال)..
كانت النسبة ثلاثة إلى واحد لصالح الرومان.. وكل شيء يدل على مذبحة قادمة.
لن أتحدث عن التعقيدات الاستراتيجية التي لا تهم إلا الإخوة (ليدل هارت) و (كلاوزفيتز) و (بوفر) وغيرهم من أساتذة الاستراتيجية.. فقط أقول إن توزيع قوات (هانيبال) كان فريدا، واحتفظ بحرية الحركة للفرسان الغاليين والأفارقة وهم الأسرع والأكثر صلابة..
والأهم أنه احتفظ للمربعات الإفريقية بالأماكن المرتفعة من الأرض بحيث صار بوسع هذه القوات أن تضرب من تحتها في حرية تامة....
كان (هانيبال) دائما ملك الحرب، فقط حين يتاح له اختيار الأرض بشروطه الخاصة.. وقد كان هنا يلعب على أرض اختارها بعناية.
- استراحة! مياه!!
وهكذا توقف القتال.. كانت هذه - كما يبدو – من عادات الحرب في هذا الزمن.. لقد توقف كل واحد عند النقطة التي بلغها.. الذي يجثم فوق صدر خصمه متأهبا لذبحه، والذي يثب من فوق حصانه على أعدائه، والذي يوشك على تلقى الطعنة في صدره.. كل هؤلاء توقفوا كأنما هو

فيلم سينمائي في وضع تجميد الصورة Freeze - Frame بينما دار السقاة على الجنود جميعا بالماء.. إن الحرب في أغسطس تسبب الظمأ بالتأكيد، ونحن مازلنا في منتصف النهار. ترى من سيبقى حيا حتى يشهد الغروب؟ مازال اليوم طويلا وشاقا.
شرب الجميع.. وغسلوا وجوههم....
- التحاااام!
هكذا عادت الأحداث تتدفق.. من كان على وشك أن يُذبح تم ذبحه، ومن كان يثب من على حصانه واصل وثبته، ومن كانت الطعنة في طريقها إلى صدره واصلت طريقها.. لا يوجد غش هنا..
عند الظهيرة كان الرومان في وضع غاية في السوء، وقد (قالوا البقية والهندي يحصدهم، ولا بقية إلا السيف فانكشفوا)..
وكما تقضي العادة القرطاجية اللطيفة كان أكثر الرومان الآن بلا أوتار في سيقانهم.. وصاروا مؤهلين للتسول في شوارع (روما) لو ظلوا أحياء..
هكذا عند الغروب كان (هانيبال) قد أباد الجيش الروماني.. أباد جيشا من خمسين ألفا بينما فقد سبعة آلاف من جنوده!
يقول الخبراء إن (هانيبال) نجح في اجتذاب الرومان إلى المواقع التي حددها لهم بالضبط، كما يحدث في مباريات الشطرنج الأستاذية.
وفي روما وجدوا - لحسن الحظ - كبش فداء في القائد الروماني (ترنتيوس فارو) حتى إنهم أطلقوا عليه لقب (ابن القصاب) الذي لا يصلح لقيادة الجيوش..
ومن الجدير بالذكر أن طبقة الأشراف الرومان كادت تباد في هذه الحرب، حتى إن مجلس الشيوخ وجد نفسه مضطرا إلى تعيين 177 نائبا دون انتقاء بدلا من الذين هلكوا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويقال إن (هانيبال) كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي التزم بقسمة بهذا الشكل الحرفي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي روما انتشرت عبارة (هانيبال على الأبواب)، والحقيقة أن الأمهات يُخفن أطفالهن حتى اليوم بهذه العبارة في كثير من الدول الأوروبية.. ومن فوق صخرة (تاربي) هوى مزيد من الأجساد.. إن هذه الصخرة المباركة كانت مخصصة لإلقاء الذين يرفضون التجنيد، وقد بلغ عددهم في هذه الفترة ما جعل ارتفاع الهاوية مترين لا أكثر.. إن كومة الأجساد تحتها كانت تتعالي بسرعة لا تصدق..
وعلى سبيل إرضاء (زيوس) بحث الرومان عن أي خاطئ في المدينة.، يبدو أن الطهر كان شديدا لدى هؤلاء القوم لأنهم لم يجدوا خاطئا واحدا إلا أرملة بائسة دفنوها حية..
وراح القواد القرطاجيون يصرخون في (هانيبال):
- هلم ازحف على روما.. إنها النهاية!
لكنه فضل الانتظار في صبر غريب.. مما أثار حفيظة القوم..
وقال له أحد قواده في غيظ:
- أنت تعرف كيف تحقق النصر لكنك لا تعرف كيف تفيد منه!!
لكن (هانيبال) كان يعرف أكثر كان يعرف أن جيشه لا يجيد فن الحصار.. وكان يعرف أنه لا

يملك معدات الحصار.. لا بد من أن ترسل له (قرطاجة) بعضها..
لكن ما لاحظته (عبير) هو أن مثله العليا بدأت تهتز في تلك الفترة....
لقد بدأ يقتل الأسرى.. وسمح لرجاله بقطع أيدي الموتى لانتزاع الحلى.. كما أنه لم يسمح بدفن القواد الرومان كما ينبغي.. صحيح أنه لم يأمر بالتمثيل بهم كما كانت العادة المحترمة في ذلك الزمن، لكنه عودها على مستوى رفيع جدا من الأخلاق إلى حد أنها لم تعد تعتبره من غزاة هذا العصر.
أتراه الغرور؟ الشعور بأنه لا يقهر؟
أتراه الكره الشديد لروما الذي يتزايد كلما دنا من قلبها المتأجج؟
أتراه الإرهاق العصبي بعد حروب طالت.. مما جعله عاجزا عن لعب دور الجنتلمان أكثر من هذا؟
أتراه كل هذا معا؟
المهم أن (عبير) بدأت تدرك الحقيقة التي تنمو في نفسها يوما بعد يوم..
(هانيبال) يجب أن يموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- لا تفسد دوائري..

وفي المساء جاء إلى خيمتها..
كان منهكا وكانت هي متوترة بحق..
هذه هي المرة الثانية في (فانتازيا) التي تقتل فيها - أو تحاول - فاتحا تاريخيا بالسم.. المرة الأولى مع مستشار الرايخ (هتلر) والآن مع (هانيبال)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الأمر سهل.. كل امرأة قاتلة بالسم بالفطرة.. بالسليقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- فقط المرأة تعرف كيف تناولك كأس المنون لتجرعها راضيا.. ثم ترقص بعد هذا حول جثتك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقال لها (هانيبال) وهو يريح رأسه إلى جدار الخيمة:
- فقط مكانك يا (برسيفون) هو الموضع الوحيد الذي يستطيع فيه قائد متعب أن يريح رأسه.. كل شيء فيه يمت لك بصلة.. بعيدا عن الدماء وأنين الجرحى والنقع.
كانت تنتظر اللحظة المناسبة.. وكانت تعرف أنها آتية لا محالة..
- صبي لنا بعض الشراب..
مدت يدها إلى الإناء القرطاجي المعدني، وصبت له كوبا مترعا من الشراب الممزوج بالسم الذي أعدته من قبل.. كان يعرف أنها لا تشرب أبدا لهذا لم يطلب منها أن تشاركه.
كانت يدها ترتجف لكنها كانت تجلس عند عينه المعطوبة فلم يلحظ شيئا..
قال لها وهو يفرك عينية:
- لقد طالت الحرب.. طالت.. هم يطالبونني بأن أتقدم إلى (روما) لكني لن أخضع لهؤلاء القواد عديمي الخبرة.. ليست (روما) هي تلك المجموعة من الجنرالات الحمقى الذين قضيت عليهم أو على سمعتهم.. إن (روما) تستطيع الصمود.. ولسوف تصمد.. بينما أنا مقطوع بالكامل عن قواعدي في (قرطاجة) و (إسبانيا).. لا بد من وقت لحشد قواتي.. لا بد من استمالة المزيد من الغاليين.. لا بد..
ثم مد يده وخلع حذاءه..
كان تأثير هذا بالنسبة لمحارب قضى أسبوعا بحذائه يشبه ما يحدث عند فتح مقبرة.. لكنه لم يلحظ شيئا.. وراح يعبث بأصابع قدميه في استجمام..
مدت له يدها بالكوب وتمنت أن يكون الرومان بارعين في علم السموم.. طبعا عرفت أوروبا آل (بورجيا) فيما بعد حين كانت قنينة السم توضع على المائدة مثلها مثل الملاحة..
- لن يصدق أحد في الكون أن (هانيبال) الرهيب لم يرغم أسيرته على شيء.. لكني قلت لك مرارا: لا أريد منك إلا ما تقبلين منحه.. لن أرغمك.. إنني مستعد لمواجهة الجيوش والعمالقة وسادة

الحرب، لكني غير مستعد لإرهاب شخص ضعيف لا يملك من أمره شيئا.
لست من هؤلاء القادة العظماء الذين يبللون سراويلهم في ميدان الحرب، ثم يعودون لنسائهم ليوسعوهن ضربا.. (هانيبال) العظيم يعرف كيف يكون جبارا ظالما مع الجبابرة، وضعيفا واهيا مع الضعفاء..
قال (هانيبال) وهو يرتكز على كوعه وقد برزت عضلات ذراعه العملاقة:
ثم رفع الكوب إلى شفتيه..
قالت له قبل أن يشرب:
- (هانيبال)..
- هم م م م م م؟
- هذا الشراب مسموم!
نظر لها واتسعت عيناه.. ثم طوح الكوب إلى طرف الخيمة وعاد يسألها:
- من قال هذا؟
- أنا قلت.. والسبب هو أنني من وضع فيه السم.
- ولماذا؟
- لأنني رومانية وأنت عدو قومي..
- ولماذا تكلمت الآن؟
- لأنني شعرت بالخسة.. لم أحتمل قتل من يعاملني بهذا النبل..
مد يده فأعتصر كتفيها في غلظة وراح يهزها حتى كادت روحها تخرج من فمها:
- لماذا يا حمقاء.. لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟ ولماذا اعترفت به؟ هل تعرفين ما على أن أفعله الآن؟
أخيرا كف عن الهز وعاد قلبها ينبض فقالت باكية:
- أعرف.. ستقطع رقبتي الآن.. لا مفر من ذلك..
- ليس هذا الحل محببا ولا يناسب من أرادت أن تسمم (هانيبال).. لا بد من تقطيع أطرافك وإلقائها للكلاب وأنت حية تشاهدين المنظر! هذا أقل عقاب في ذهني الآن..
ارتجفت للفكرة.. كانت تتوقع إعداما سريعا مريحا، لكن هؤلاء القوم واسعو الخيال..
- أين زجاجة السم؟
مدت يدها إلى صدرها وأخرجت القنينة.. فأمسكها في يده كأنما يفكر.. نظر لها طويلا في مزيج من الاشمئزاز وخيبة الأمل، ثم نهض.



مدت يدها إلى صدرها وأخرجت القنينة.. فأمسكها في يده كأنما يفكر..

بالطبع لم تنم ليلتها..
ظلت حتى الفجر تنتظر قدوم الرجال ومعهم أدوات التمزيق.. لكن أحدا لم يأت..

وقدرت أنه رتب لها انتقاما أفظع مما وعد به..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد مرت أعوام طويلة و (هانيبال) يكتفي بالمناوشة والرومان يحاولون عبثا و (قرطاجة) لا ترد على طلبات الرجل الملحة للمزيد من العتاد والجنود..
الزمن ليل.. ولمن نسوا ما هي (سيراكوزة) نذكرهم أنها قلب (صقلية) في البحر المتوسط..
نحن الآن عند ميناء (سيراكوزة)..
تتقدم السفن الرومانية في بطء شديد وقد التحمت كل سفينتين بالحبال في منظر غريب..
الغرض من هذا تحويل السفن إلى أدوات اقتحام منيعة.. في مقدمة كل سفينة مزدوجة دروع ثقيلة من الحديد وسلالم عملاقة معدة لتلتصق بأسوار المدينة عند الالتحام....
على ظهر السفن أعداد غفيرة من مشاة الرومان الأشداء الذين ينتظرون لحظة الالتحام ليتسلقوا السلالم كالفئران إلى داخل المدينة العنيدة..
ستون سفينة.. أتمت الاختراق تحت جنح الليل..
وكانت بين السفن مراكب مستعدة بالمقاليع وآلات الحرب لتغطية ظهر الجنود وهم يصعدون السلالم.
وكانت هذه هي الضربة الأولى القاسية الموجهة إلى أسنان (هانيبال) الصلبة.. إن (سيراكوزة) الحليفة كانت من أهم نقاط ارتكازه في البحر المتوسط..
لم يكن ما يقلق الرومان هو بسالة أهل (سيراكوزة) ولا شجاعتهم، ولكن كانت تقلقهم عبقرية رجل واحد.. عجوز غريب الأطوار يهوى الجري عاريا في الشارع صائحا: أوريكا (وجدتها!) ..
نعم.. إنه (أرشميدس).. في هذا المكان والزمان بالذات.. (أرشميدس) العبقري الذي لا بد أنك قضيت أسوأ أوقات حياتك وأنت تدرس قوانين الطفو وأحجام السوائل التي اكتشفها في الحمام.. كلنا يعرف قصة التاج الذي أراد الملك أن يعرف إن كان مزيفا أم لا..
وحين دخل (أرشميدس) الحمام رأي الماء الذي أزاحه حجم جسده، من ثم وجد الحل للمعضلة.. وغادر الحمام يجري في الشوارع صائحا: وجدتها.. وجدتها..
يحكي التاريخ عن هذا العبقري الذي طور روافع بوسعها قلب السفن التي تحاصر (سيراكوزة) وعن المرايا المقعرة العملاقة التي صنعها، والتي استطاعت تركيز أشعة الشمس على الأساطيل المعادية وهي في عرض البحر فتحترق.
هكذا يمكننا فهم لماذا كان الرومان يرتجفون هلعا مما دبره لهم هذا العبقري المزعج..
وبالفعل..
لقد انفتحت الأسوار بطريقة ميكانيكية ثم خرجت منها رماح طويلة اخترقت جسد الرومان في كل مكان.. وتعالت الصرخات لتوقظ النيام..
ثم - كأنما نحن في إحدى قصص (ديزني) المسلية - ظهرت أذرع تلسكوبية بالغة الطول تتحرك بسلاسل..
اتجهت هذه الأذرع كأنما هي مخالب توشك على الانقضاض على السفن.. وهوب! ألقت كل ذراع كتلة حديدية هائلة الحجم فوق كل سفينة..
كل كتلة من هذه كانت تهوى على السفينة فتشطرها إلى نصفين.
بعض الأذرع كان يمسك بالسفينة ويرفعها من مقدمتها ليقلبها في البحر....
بعض الأذرع كان يلقى فوق السفن كتلا من القار المشتعل....
الحقيقة أن العجوز (أرشميدس) استطاع وحده حماية (صقلية).. وهذا نموذج جيد على

العبقرية التكنولوجية التي توفر الجهد وحياة الجنود..
وفي النهاية أدرك الرومان أن الهجوم من هنا مستحيل..
أدركوها وهم لا يبصرون شيئا إلا المخالب العملاقة التي تمزق سفنهم، والظلام الدامس، ووهج النيران..
لقد اختاروا الظلام للمفاجأة، لكن اختراعات (أرشميدس) كانت تعمل بشكل أفضل في الظلام..
- هاجموا جزءا آخر من السواحل!!
ودام الحصار.. ثم - كالعادة - كانت الخيانة هي الطريق الوحيد للاختراق، وكم من شعب باسل لا يفله شيء، لم يقض عليه إلا خيانة الخائنين..
هكذا تدفقت القوة الرومانية الغاضبة إلى شوارع المدينة..
هنا يبدأ الفصل التقليدي من الذبح والنهب والقتل والاغتصاب وبقر بطون الحوامل وكل الفظائع التي تكتب كمجموعة واحدة في أي موقف مماثل.. كررت من قبل عن اقتحام (طروادة) ما قاله المؤرخ العظيم (كرستوفر هارولد) عن أن سلوك الجيوش المقتحمة للمدن لا يحتاج إلى مؤرخ بل يحتاج إلى محلل نفسي..
وكانت مواجهة الرومان مع الإغريق هي اللقاء بين القوة العسكرية العاتية والرقي الحضاري الثقافي.. بين البلطجي والفيلسوف.. بين راعي البقر والموسيقار.
أما المشهد الذي لا يمكن وصفه والذي أحكيه دون أي تدخل مني، فهو مشهد الجنود الرومان حين دخلوا إلى بيت (أرشميدس)..
كان العالم العظيم الذي بلغ الخامسة والسبعين من عمره، جالسا على الأرض يحل مسألة هندسية عويصة، وكان منهمكا بها إلى حد أنه لم يشعر بأن المدينة تم اقتحامها.. لم يشعر بأن بيته اقتحم.. لم يشعر بأن خمسة جنود رومان أشداء تكسوهم الدروع يقفون فوق رأسه الآن..
وهم يلهثون كالخنازير فقط دخل صندل أحد الجنود الرومان الكادر ليدوس على دائرة بالطبشور رسمها العالم على الأرض..
قال (أرشميدس) دون أن يرفع رأسه:
- من فضلك.. لا تفسد دوائري..
هنا هوي الجندي على العنق الثمين ليطيره بسيف لا يعرف الفارق بين عنق وآخر.
وسقط العالم على الأرض بينما سالت الدماء لتغرق دوائره.. وبصرف النظر عن كونك تعتقد أنه استحق هذا لأنه عذبك في المدرسة بما يكفي، فإن موته كان خسارة عظمى للعلم والحضارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- سكيبيو..

الآن تعال أقدم لك المستشار (بوبليوس كورنيليوس سكيبيو)..
إنه قائد بارع شديد المراس.. وفي عينيه تري عزيمة لا يمكن قهرها.. هناك أكثر من (سكيبيو) في هذه الحرب فلا تختلطن عليك الأسماء.. يبدو أن أسرة (سكيبيو) كانت تحترف الحرب ضد (هانيبال) وقد فقد هذا ال (سكيبيو) الذي نتحدث عنه الآن أباه وعمه في إسبانيا..
الحقيقة أن التاريخ سيذكر فيما بعد أن هذا الرجل هو أفضل قائد عسكري قبل عصر (يوليوس قيصر) ....
كانت لدى هذا المحارب المتحمس نظرية ثورية هي:
- عدونا ليس (هانيبال).. بل (قرطاجة)!!
فشرحوا له في صبر الحقيقة البسيطة:
- (هانيبال) الآن على مشارف (روما)، بينما (قرطاجة) بعيدة جدا في شمال إفريقيا.
فقال في عناد:
- لو أننا دمرنا قرطاجة.. فماذا يبقى ل (هانيبال)؟
كانت هذه فلسفته العسكرية.. فلسفة تجفيف المنبع.. لا تمنع تدفق النهر ولكن ضع صخرة تمنع تدفق الماء في منبعه..
قال له المستشار (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور):
- أنت رجل شجاع.. لكني أوصيك بالهدوء والتعقل.. إن الزمن معنا لا ضدنا..
لكن الرجل كان متعقلا بالفعل. وأكثر من هذا كان يعرف ما يفعله....
لاحظ عدة أشياء مهمة:
أولا: أن جل جيش (هانيبال) لم يعد من القرطاجيين.. إنه يعتمد الآن بالكامل على القبائل الغالية والإيطالية عدو (روما).. فلو أمكن أن.. لاستطعنا أن..
ثانيا: يجب أن يكسب ميل هذه القبائل وثقتها بدلا من الطريقة الرومانية المتعالية المؤذية.
ثالثا: أن السلطة في (روما) موزعة بين أكثر من قنصل وأكثر من قائد.. هذه السلطة يجب أن توضع في يد رجل واحد يعرف ما يفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت أربع سنوات..
وقد شهدت حياة (هانيبال) الخاصة مأساة هي هزيمة أخيه (هسدروبال) في موقعة (ميتوروس).. لقد قتل الآخر على يدي القائد الروماني (جايوس كلاوديوس نيرو).. إنها قصة التفاف حول القوات وهجوم من الخلف في لحظة كادت فيها القوات القرطاجية أن تحرز النصر كالعادة..
كلف هذا النصر الرومان الكثير لكن قوات (هسدروبال) أبيدت بالكامل.
وحين عاد (نيرو) إلى معسكره كان يحمل رأسا حفظه في الكحول.. صاح في رجاله:
- أريد أن تأخذوا هذا الرأس وتلقوه على معسكر (هانيبال).
وهكذا انطلق مجموعة من الفرسان نحو معسكر (هانيبال).. وكان هذا واقفا مع (عبير) يحدثها عن خططه المستقبلية.. الحقيقة أنها لم تفهم بعد إن كان سامحها أم هو يرتب لها عقابا

جهنميا، لكنها شعرت كأن قصة السم محيت بالكامل من ذاكرته، وهو ما يحدث مع فقدان الذاكرة الهستيري حين تذكر كل شيء ما عدا الواقعة التي تريد نسيانها بالذات.. لكن من الصعب أن نقول إن (هانيبال) كان هستيريا....
هنا تصايح الفرسان:
- رومان قادمون.. هل نفتك بهم يابن (برقة)؟
صعد إلى مرتفع ووضع يده على عينه ليتقي الشمس.. لم يكن منظر الرومان مهاجما بل هم أقرب إلى رسل يحملون رسالة.
قال لرجاله في حزم:
- لا.. انتظروا لحظة..
ودنا الرومان على خيولهم من أسوار المعسكر فطوحوا بكيس صغير يحملونه وولوا الأدبار وهم لا يصدقون أنهم ما زالوا أحياء....
تذكرت (عبير) جارتها التي كانت تتخلص من بقايا ذبح الدجاج بهذه الطريقة، إذ ترسل ابنها ليطوحها عند مدخل بيت (عبير) ويفر.. هل الرومان يهتمون بذبح الدجاج إلى هذا الحد؟
لكن الكيس طار في الهواء ليستقر عند قدمي الرجل..
مد يده وفتحه في حذر.. وفي اللحظة التالية كان وجه أخيه الميت يحملق فيه..
للحظة أطلق شهقة قصيرة من أعماق روحه، ثم تماسك على الفور.. قال بصوت حديدي:
- تأكدوا من أن يدفن بالاحترام اللائق.
بحثت (عبير) في وجهه عن ألم أو تأثر أو أي شيء فلم تجد.. هذا الرجل مصنوع من فولاذ.
واصل إصدار تعليماته لمدة نصف ساعة ثم ابتعد.. اتجهت (عبير) إلى خيمته لكنها توقفت عند باب الخيمة.. لقد كان يبكي بالداخل في حرقة كأنه طفل ضاعت أمه في الزحام..
شعر بوجودها فانتصب في صلابة..
قال بصوت لا أثر للدمع فيه:
- سنعود إلى (قرطاجة).. إنني أعرف أن الرومان، سيحاولون مهاجمتها لقطع خطوط اتصالي..
وفي كلماته شعرت (عبير) بشيء كالنذير.. هذا شيء يشبه عودة الحيتان إلى الشواطئ التي ولدت عندها كي تموت إذا شعرت بدنو ساعتها.. لماذا يحن (هانيبال) إلى (قرطاجة) الآن بعد كل هذه الأعوام؟
بعد أربعة وثلاثين عاما!!
وفي تلك الليلة عمت (روما) الأفراح التي نسيتها طويلا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن بدأت الأحداث تدور بسرعة.
كتاب (هانيبال) يقترب من نهايته كأنما التاريخ قد مل هذه القصة ويريد الانتهاء منها ليبدأ غيرها.
لقد أبحر (سكيبيو) إلى إفريقيا عازما على تحقيق نظريته السابقة بضرورة غزو (قرطاجة).. (قرطاجة) هي الخطر لا (هانيبال).. اتجه إلى هناك على رأس أربعمائة مركب فيها نحو ثلاثين ألف رجل..
وتوسل إلى (نبيتون) قائلا:
- هب لى القوة كي أقضي على (قرطاجة)..

ثم ذبح قربانا بنفسه وألقى بأمعائه إلى البحر ليلتهمه الأخ (نبيتون)..
ثم صاح بأعلى صوت ليسمعه الناس على الشط:
- إلى (سرت)!!
فلما ابتعدت السفن عن مسمع الناس أصدر الأمر الجديد المعدل:
- إلى (قرطاجة)!!
وهكذا نصل إلى وضع فريد.. القرطاجي في إيطاليا المعادية والروماني في شمال إفريقيا المعادي.. هكذا مر شتاء عام 204 قبل الميلاد.
على كل حال يجب أن نوجز القول فنؤكد أن (سكيبيو) استطاع غزو البلاد.. وكانت هناك موقعة كبرى في (كامبي ماجنى) وهي ما يطلق عليه التونسيون اليوم اسم (سوق الخميس).. ولحق به (هانيبال).. كيف؟ الله تعالى أعلم.
فالتاريخ لا يفسر كيف كأنما الرقابة الرومانية حذفت هذه اللقطة من الفيلم..
المهم أن (هانيبال) وصل بكامل عتاده وجيشه و (عبير) طبعا إلى شمال إفريقيا ليدافع عن (قرطاجة).. وبمعجزة ما مر عبر البحر المتوسط الذي كان كل سنتيمتر منه يزدحم بسفن الرومان بعد سقوط (صقلية)..
هنا نجد الجزء الساخر من الموضوع..
قالت (عبير) ل (هانيبال) ذات مرة:
- بلدك جميل.. لكن أين تتوقع أن تقع المواجهة؟
كان هواء البحر المتوسط الجميل ينعش صدرها، بينما ترى غابات من أشجار الزيتون وجبالا اكتست برداء أخضر ناصع.. لم يبد لها هذا بلد حرب..
نظر لها (هانيبال) للحظة.. كان وجهه قد تجعد وغزته علامات الهم.. هو الذي ظل في حرب ضروس طيلة حياته.. وابتسم وقال:
- صدق أو لا تصدقي.. (هانيبال) لا يعرف شيئا عن هذا البلد!
صفرت بشفتيها وهتفت:
- يا نهار اسود..
- هذا حق.. هذا بلدي ومسقط رأسي لكني أجهل كل شيء عنه لأني تركته وأنا طفل، بينما الرومان يعرفون كل شبر فيه! هذا هو ما يثير قلقي.. للمرة الأولى أقاتل في أرض لا أعرفها..
وهكذا جاء اليوم الذي استقبل فيه (سكيبيو) مندوبا قرطاجيا يقول له إن (هانيبال) يدعوه إلى طاولة المفاوضات)..
وافق (سكيبيو) وتم ترتيب اللقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يلتقي البطلان كان (هانيبال) قد اصطحب معه (عبير) كمترجمة للاتينية برغم أنه يجيدها.. والسبب هو أن المترجم يعطى فرصة للتفكير والتراجع.. وبالمثل أحضر (سكيبيو) معه مترجما حاصلا على الدكتواره في القرطاجية من (روما)..
أخيرا يقترب البطلان وللمرة الأولى يرى (سكيبيو) العملاق الذي ظل كابوس (روما) كل هذه السنين.. لقد رأي ضحاياه.. رأي خططه.. رأى جيوشه لكنه لم يره قط....
بالنسبة ل (عبير) لم يبد (سكيبيو) موحا بالبطولة.. له ملامح دقيقة شبه نسائية ورأس أصلع ونظرة ناعسة ومملة.. وكان يضع على صدره شعار روما.. ويقطب جبينه أكثر من اللازم..

أما (هانيبال) فكان كما هي العادة شامخا لكنه لم ينزع الخوذة، لهذا ظل وجهه في الظل مستغلقا على الفهم.
قال (هانيبال) بصوته الواثق:
- لقد حالفك الحظ أيها المستشار.. لكن هل تفهم حقيقة أنك لو هزمت هنا لضاعت (روما) تماما؟ إن في الصلح منفعة لكلينا.
ثم أضاف لخصمه الصموت:
- كل جزر البحر بين إيطاليا وإفريقيا.. هذا ما نريده.. مقابل هذا تتخلى (قرطاجة) عن إسبانيا..
قال (سكيبيو):
- للأسف.. إن لدى مجلس الشيوخ وهو لن يقبل أية سيطرة غير رومانية على الجزر.
- هذا مرفوض أيها المستشار.
وحانت نظرة من (سكيبيو) إلى (عبير) وابتسم:
- أنت الأسيرة الرومانية التي ظلت في معسكر (هانيبال) كل هذه السنين؟ إن الرجل يجيد الاختيار.
قال (هانيبال) في لامبالاة:
- ولا يموت بالسم بسهولة كذلك..
عندها ساد الصمت، ثم أدى (هانيبال) التحية العسكرية لخصمه وابتعدا.
هكذا كان موعد موقعة (زاما) قد تحدد.
وكان (سكيبيو) بارعا واستطاع أن يمتص قوة (هانيبال) تماما.. وهكذا هزم القائد العظيم في هذه الموقعة، لكنه كان أذكى من أن يعيش في الوهم.
لقد أعلن لرجاله:
- نحن لم نخسر معركة.. لقد خسرنا الحرب كلها.. اقبلوا شروط الصلح المعروضة عليكم..
لأنه كان يفهم أن (قرطاجة) هي أمله الأخير..
واستسلمت (قرطاجة) أخيرا..
ودفعت فدية الحرب، وأسلمت قواتها المسلحة وعتادها ل (روما).. ومن يومها أطلق على (سكيبيو) اللقب الذي تعرفه أنت من كتب التاريخ الإفريقي..
وفي العام 201 فر (هانيبال) إلى سوريا ليعيش في ضيافة الملك (أنتيوخوس الثالث).. بعد هذا اتهم بالتآمر ضد (روما) ففر إلى (بيثينيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة دخلت عليه (عبير) فوجدته جالسا جوار نافذة تطل على الليل البهيم بالخارج..
شعر بوجودها فقال لها:
- تعالي يا (برسيفون)..
جلست بقربه ولاحظت أنه شارد الذهن شأن من يستعيد شريط حياته من بدايتها.. قالت له:
- فيم تفكر؟
أخرج مرآة صغيرة ذات إطار فضي وناولها إياها وقال:
- هلا تأملت وجهك في هذه المرآة؟
نظرت في السطح اللجيني.. وبرغم الظلام فإن الشموع كانت كافية كي تعرف ما تراه.. عينان غائرتان وسط محجرين ازدحما بالتجاعيد وجبين مغضن وشعر نصفه ذهبي ونصفه أبيض..

رفعت عينيها نحوه وهمست:
- وماذا هنالك؟ هذا وجهي.
- لقد حلت بك لعنتي أنا الذي قضيت كل حياتي وسط غبار الحرب.. لقد قضيت أنت أيضا زهرة عمرك وسط السيوف وصراخ الجرحى وثورة الفيلة..
تلاحظين أنني لم أقدم لك عرضي الرابع بالزواج وبهذا لم أمنحك اسمى ولم تنالي حريتك.. لقد كان هذا انتقامي ممن أرادت أن تدس لى السم.. وإنه لانتقام مريع.. مريع.. لو كنت أكثر رحمة لمزقت جسدك وألقيت به للكلاب.. لكني انتزعت حياتك ببطء ببطء.. وها هي ذي قد انتهت وأنت لم تحققي شيئا بكل ما كان لديك من جمال وشباب..
ارتجفت لأن الفكرة لم تخطر لها ببال قط وهمست:
- هل تكرهني إلى هذا الحد؟
- ربما أكثر.. والسبب هو أنني أحببتك أكثر من أي شيء في الكون، ولم أشعر لحظة بأنك تحبينني برغم ما أظهرت نحوك من رعاية وكرم.. لهذا اخترت لك أقسى انتقام خطر لي.. والآن أنت حرة..
ثم مد يده إلى شيء كان على المنضدة جواره وفتحه.. عندها أدركت أنها قنينة السم إياها:
- لا تفعل!!
- لم لا؟ إن الرومان يضيقون على الحياة وغدا يأتون مطالبين بي.. هم مثلى في القسوة لا يريدون لي أن أموت، وإنما يريدون أن أكون رمزا لعدو (روما) المهان الخائف المطارد.. لقد اخترت لنفسي مصيرا كان يتراءى أمامي منذ أخذت منك تلك القنينة منذ أعوام طويلة..
ورفع القنينة لشفتيه فصرخت في رعب:
- بعد كل هذه الأعوام.. لا بد أنه فسد!! إن تاريخ الصلاحية.
عاودته روح الدعابة السوداء فانفجر يضحك:
- كيف يفسد السم؟ هل تعنين أنه سيصير ساما؟
ثم أفرغ القنينة في فمه دفعة واحدة..
حقا زادت الأعوام السم قوة لأن رأسه هوي على صدره على الفور، وتصلبت نظرة الموت في عينيه..
- هانيباااااااااال!!
هنا شعرت باليد الواثقة توضع على كتفها، وصوت المرشد يقول في حزم:
- لا جدوى.. لقد مات.. لا تحدثي ضوضاء حتى لا توقظيه!
- ولكن..
- هذه هي النهاية التي اختارها (هانيبال) لنفسه.. لم يتحمل أن يصير طريد (روما) بعد ما كان مطاردها.. وغدا يحرق الرومان (قرطاجة) ويحرمون سكناها خمسة وعشرين عاما.. لكن (هانيبال) حفر لنفسه موضعا لا يزول من تاريخ البشرية.
ثم مد يده لها فنهضت متثاقلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تعيش (عبير) مجتمعا غريبا بعض الشيء.. العراب والمافيا و (إليوت نس) و (آل كابوني) والأسرة الغاضبة دوما..

(تمت بحمد الله)

المصادر:

* هارولد لام: هانيبال. ترجمة رشدي السيسي.
الألف كتاب. 421. دار الفكر العربي 1962
* شبكة الإنترنت.
*Leonard Cottrel: Enemy Of Rome, Pan Books Ltd, London. 2nd edition. 1964

أيام مع هانيبال

هناك في (تونس)، في هذا الزمن السحيق تدور المشاهد السريعة الأخيرة من الصراع الذي انتظر خمسة عشر عاما، بين (هانيبال) العظيم عدو روما، والقائد الروماني (سيبيو)
الذي عرف فيما بعد باسم (سيبيو) الإفريقي.
إنها موقعة (زاما).. ليست أسطورة.. لكن الأحداث العظمى التي ستقع تبدو كأنها كذلك

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

روايات مصرية للجيب

34

فانتازيا

عرض لا تستطيع رفضه

د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (34)

عرض لا تستطيع رفضه

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- لن يكون هناك (أنت) آخر..

(الأب الروحي.. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. (عبير) لا تعرفها، لكن لو لم تعرفها أنت فإنني.. إحم.. إحم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تفق (عبير) من الرحلة السابقة.. كانت في عالم (هانيبال)، وجاء (المرشد) كي يستعيدها..
لكن القطار لم يعد إلى دارها قط.. لم تصح لتجد نفسها جالسة أمام الكمبيوتر والأقطاب مثبتة إلى رأسها..
لقد تباطأ المرشد في رحلة العودة بعض الشيء.. راح القطار يترجرج في رحلته التي تذكرها بمدينة (ديزني) كما تبدو في التلفزيون..
من جديد ترى معالم (فانتازيا) التي لا تنفد من النافذة، وكما يحدث في (فانتازيا) دوما انتهت تماما ذكريات (هانيبال).. كل الإنهاك الجسدي والنفسي وكل الهموم والآمال والمخاوف.. كلها تلاشت كما يتلاشى دخان القطار إذ يغيب في الأفق.. صارت صفحة بيضاء، ولكم ودَّت لو تمر بخبرة كهذه في حياة الواقع.. النسيان التام..
قال لها وهو يتمطى وينظر من النافذة:
- يبدو أن هناك خبرة جديدة قادمة.. أنتِ لم تعودي إلى عالم الواقع..
- لاحظت هذا.. ولكن إلى أين؟
أزاح الستار قليلا ونظر من النافذة.. ثم قال بطريقته اللامبالية:
- عوالم (ديكنز)؟ هناك الكثير من الشخصيات المثيرة... هل تحبين عذاب الأيتام والسادة المتعصبين كثى الحواجب ضيقي الأفق؟
ابتسمت.. إن طريقته في العرض شاقة بحق.. لقد جعلها لا تطيق (ديكنز)..
- ليس اليوم.. هل من خيار آخر؟
- الواقعية الأسطورية اللاتينية.. هذا عالم (جابرييل جارسيا ماركيز) المتشابك الصعب..
- هل من خيار آخر؟
- الواقعية الاشتراكية؟ هل تحبين إرهاصات الثورة الشيوعية و (هوام المدينة) لدى (ماكسيم جوركي)؟
ابتسمت في ضيق.. هذا الأحمق لا يكف عن تعذيبها.. الغريب أنها قرأت (جوركي) ولم تجده بهذا السوء، لكن المرشد قد تكفل بجعله كريها.. وتذكرت بيت الشعر العربي العبقري عن عسل النحل:

هذا مجاج النحل تمدحه.. إن شئت نمًّا فقل قيء الزنابير!

هكذا.. يمكن للكلمات أن تجعل الشيء مغريا أو مثيرا للتقزز مع أنه لم يتغير..
هنا رأت شوارع مدينة.. غالبا أمريكية.. وغالبا في أوائل القرن العشرين..
هناك سيارة عتيقة كالتي تراها في أفلام (أنور وجدي) تدور في حركة عصبية لتغلق الطريق، مع عواء الفرامل العالي إياه: إي ي ي ي ي!! ثم - لا وقت لردود الأفعال -يقفز منها مجموعة من الرجال الشبيهين بالدببة، كلهم يلبس بزة سوداء وينتعل حذاء أبيض، والقبعات على الرءوس..

وفي يد كل رجل بندقية من الطراز الذي يشبه ذكر الضفدعة الذي يحمل كيسا منتفخا تحت ذقنه، ويطلقون عليه Tommy gun وهو تدليل لاسم (تومسون).. ويندفع الرجال نحو حانة مريبة الشكل.. ثم تدوي الطلقات...
ترررررررررر ! ثم: راتاتاتاتاتا إثم، بانج.. بانج!
قال لها المرشد:
- سأكون شاكرا لو خفضت رأسك.. نحن في (فانتازيا) عالم الخيال.. حيث الطلقات الخيالية تقتل.. أنت تفهمين هذا.. في السينما يستطيع الرصاص (الفشنك) أن يقتل لأن الأبطال هم أنفسهم (فشنك)..
خفضت رأسها طبعا وإن استبعدت أن تموت بهذه البساطة.. ستسبب كارثة لإدارة (فانتازيا) لو حدث هذا..
أخيرا هدأت الطلقات وإن صار الشارع كأنه مغطى بالضباب بفعل دخان البنادق..
ويهرع الرجال ليقفزوا إلى سيارتهم.. ويخرج أحدهم رأسه من النافذة ليصيح:
- حين يلحق بكم (مولدانو) في العالم الآخر.. لا تنسوا أن تخبروه أن (كابوني) قد سيطر على هذا الجزء من (شيكاغو).. نيا ها ها هاه!!
ثم ابتعدت السيارة بنفس الصخب، كأنها سحلية مصابة بالبواسير، وبعد قليل ظهرت سيارات شرطة مضحكة بدورها تحاول اللحاق بها.
سألت (عبير) بعدما رفعت رأسها:
- ما هذا الذي يحدث؟
قال المرشد وهو يعود إلى استرخائه:
- احتكار! منافسة تجارية راقية.. إن التعبير الإنجليزي يصف المنافسة الحامية في عالم الأعمال بأنها (منافسة قاطعة للرقاب Throat - cutting Competition) ويبدو أن هؤلاء القوم ينفذون التعبير المجازي حرفيا!
- ومن هؤلاء القوم؟
نظر لها في غباء ثم أخرج قلمه من جيبه؛ ليهدئ أعصابه قليلا بالضغط عليه وقال:
- أنت أحمق مما ظننت.. مدافع آلية وحانات و (كابوني) و (شيكاغو).. لم يبق إلا أن يعلق هؤلاء القوم على صدورهم شعار المافيا..
- أنت تمزح..
قال في ملل:
- نعم.. فأنا أعاني حالة مرضية من المزاح حيث لا يجب المزاح..
ثم قال في هدوء:
- هذا عالم المافيا الرهيب.. أعمق أعماق الجريمة المنظمة.. هل ترغبين في تجربته؟
قالت في حذر:
- هل هو مسل؟
- ربما تجدينه مرعبا.. ربما تجدينه قذرا.. ربما تجدينه متوترا.. لكني متأكد من أنك لن تشعري بالملل لحظة واحدة..
فكرت قليلا ثم اتخذت قرارها:
- ليكن.. سأجرب هذا العالم..
شد حبل القطار ليوقفه، ثم نظر في ساعته وقال:

- حسن.. الوقت مناسب لأن هذا موعد فقرتك في ملهى (باليرمو).
- مقهى ماذا؟
- (باليرمو).. كل ما يتعلق بالمافيا اسمه (باليرمو) إنها عاصمة (صقلية) كما تعلمين..
- أنا لي فقرة؟
- طبعًا.. هيا قبل أن يغضب (سكاليتشي)..
وقبل أن تفهم وجدت نفسها خارج القطار..
وعرفت أن المغامرة بدأت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الصالة مزدحمة بالرواد.. دخان التبغ منعقد ساكن في الهواء كأنه الغيوم التي أطبقت على مدينة (بومبي) قبل انفجار البركان.. السادة الجالسون لا يمتازون بأي نوع من الرقى للأسف.. كلهم يحمل ذات الملامح الشيطانية والندوب على الوجه التي تشي بأنهم جاءوا من بالوعة الإجرام.. بالطبع يحتسون الخمر ويدخنون كثيرا جدا..
الإضاءة واهنة ترهق العينين، ومن مكان ما تنبعث أنغام معزف.. هناك عازف زنجي نحيل يشكو من سل لا علاج له يجلس والسيجار في فمه يعزف على البيانو.. وهناك عازف زنجي أكثر نحولا يعاني درنا لا علاج له يعزف الساكس.. أعرف أن السل هو الدرن لكن (عبير) لا تعرف أما الساكس فهو شيء مقدس في هذه الأجواء المشبوهة..
الآن تجد نفسها واقفة خلف الكواليس، ولفافة تبغ في فمها.. إنها لم تدخن قط ولا تطيق الفكرة، لكنها اكتشفت في هذه المغامرة أنها تدخن كمصنع مطاط.. هذا زمن كان التدخين فيه يضفي على المرأة شخصية وغموضا ونبرة خشنة محببة في الصوت، قبل أن يكتشف الطب أنه يضفي عليها سرطانا كذلك.
كانت تلبس ثيابا زاهية مبهرجة كأنها على وشك الرقص.. ولم تفهم بالضبط ما هي القصة، إلا حين برز رجل نحيل أصلع الرأس يحمل لوح كتابة، ويثبت على جبهته واقيا من الأضواء، وقال لها وهو يشير إلى الخلف:
- فقرتك يا (ميمي).
فقرتي؟ إذن هي مطربة أو راقصة في هذه الحانة.. ربما ما هو أسوأ.. إن المرشد قد تمادي كثيرا.. من البداية لا يجب أن يسمح لنفسه بأن يزج بها في مغامرات من النوع ال..
لكن فتاة غليظة الصوت مفتولة العضلات دفعتها إلى خشبة المسرح، وقالت لها بلا مبالاة:
- هلمي يا صغيرتي.. لقد جاء (سكاليتشي).. إنه لا يصبر!
ووجدت نفسها في اللحظة التالية تحمل مكبر صوت عتيقا مربوطا بسلك، وتقف على خشبة المسرح تواجه أسوأ مجموعة من الرعاع رأتها في حياتها.
أظلمت الأضواء وشعرت بشعاع ضوء وقح يلاحقها هي بالذات..
إذن عليها أن تمشي.. ولكن كيف تمشي على ساقين من عجين؟
قربت المكبر من فمها، وحاولت أن تقول شيئا.. هنا فوجئت بالصوت الرخيم الساحر الذي يخرج من فمها عميقا خشنا بعض الشيء لكنه ساحر.. باختصار هو الصوت الذي خلق ليغني أغاني (البلوز) كما يسمونها..
- أعرف أن اللحظة قادمة..
أراك تتحاشى النظر إلى وجهي وأنت تشعل لفافة تبغك..

أراك تطيل التحديق في ساعتك..
منذ متى تحتاج إلى كل هذا الوقت من أجل ربطة عنقك؟
أعرف أن اللحظة قادمة.
ستكون لديك (أنا) أخرى.. بل مئات ال (أنا)..
تلك ليست مشكلة.. لكن ماذا عني أنا؟..
مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر..
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

يصعب القول إن هؤلاء القوم يتمتعون بأدنى قدر من الشاعرية.. كانوا يتكلمون ويتجادلون، وإن رفع واحد أو اثنان الكأس مشجعين لها، وصاح البعض بما معناه:
- يا سلام يا ست.. أعد!
هنا وقعت عيناها عليه.
كان هو الرجل.. كان هو (سكاليتشي) الذي تحدثوا عنه حتما [1]..
هذه الجلسة الراسخة ذات الثقل، والتي تشعر معها أن مستوى القاعة يهبط من تحت مقعده.. وجهه مليء بالعجرفة والثقة والخبرة.. والشر.. يجلس حوله ثلاثة (فتوات) من الطراز شديد الغباء والقوة معا.. لكنهم لا يجسرون على النظر إليها أكثر من اللازم.. وكذلك لا أحد في الصالة يجسر على ذلك..
إنه هو شرير الفيلم.. هذا واضح..
لكن خواطرها لا تيح لها أن تستمر في هذا؛ لأن مقطوعة العزف المرتجلة التي يطلقون عليها (فامب) تنذر بالمقطع الثاني من الأغنية:
- أعرف أنك ستكون سعيدا..
بلد آخر.. بيت آخر.. واحدة أخرى..
الذكريات تتحول إلى قطرات ندى...
سرعان ما تجف مع شمس الجنوب..
لكنني مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر
فلن يكون هناك (أنت) آخر..
وتستمر الأغنية.. وتذوب هي مع الكلمات واللحن تماما، إلى أن ينتهي المقطع الأخير فتقف لاهثة والدمع متجمد في عينيها.. ويصفق البعض.. لكن التصفيق الأكثر حماسة كان من (البعبع) نفسه.. يصفق بفخر ورضا وثقة باعتبار هذا السحر كله ملكه.. ملكه؟ نعم يا (عبير) الصغيرة.. ألم تفهمى هذه الحقيقة بعد؟
إن سبب حضور (سكاليتشي) الرهيب إلى هذا الملهى الحقير يوميا، هو أنه يحب المغنية الحسناء (ميمي واندر)..
هل ظننت أن رقي المكان هو السبب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- قتل قبل النوم..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. (عبير) لا تعرفها، لكننا سنفترض ذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهاء فقرتها كان عليها أن تمارس دورها التقليدي:
تذهب لاستبدال ثيابها في غرفتها.. هنا تسمع قرعات على الباب، فأسرعت بارتداء ثياب مناسبة وفتحت الباب..
كان من يقرع الباب يحمل زهورا.. زهورا رقيقة في الحقيقة، وهو ما بدا مضحكا إذا ما تأملت وجه حامل تلك الزهور.. إنه في حجم الغوريلا بلا أية مبالغة، وله تلك الأذن المشوهة المثنية المميزة للملاكمين.. هناك ندبة على خده استكمالا للمشهد العام، وهو متلق كالأبالسة لو كان التعبير هذا موفقا.
ناولها الزهور فتناولتها في رعب، واستطاعت أن ترى أنه يحمل مسدسا عملاقا أقرب إلى المدفع يتدلى إلى جوار خصره..
- (سكاليتشي) ينتظرك..
ثم ابتسم في رقة.. وهز رأسه وانصرف..
هنا بدأت تفهم الحقيقة المروعة.. (سكاليتشي) هو الرجل المرموق الذي كان في الصالة، وهذا تابعه.. وليس لما يحدث إلا تفسير واحد: الرجل معجب بها..
لم يكن لديها إلا أن تمارس دورها كما تريد (فانتازيا) ستفعل كما طلب منها..
هكذا أغلقت باب حجرتها، ونزلت إلى الصالة لتشق طريقها إلى المنضدة.
كان (سكاليتشي) كما أسلفنا القول راسخا قوي التأثير.. نضيف إلى هذا أنه كان أصلع الرأس ذا شارب رفيع وابتسامة عريضة.. ابتسامة من الطراز الذي.. أنت تعرف ما أريد قوله.. فلا داعي للثرثرة.
نهض راسما تعبير الانبهار على وجهه وطبع قبلة لزجة على يدها، وعلى الفور وجدت مقعدا تحتها لتجلس عليه.
- أنتE فاتنة يا عزيزتي..
كان يتحدث بلكنة إيطالية.. لا تعرف من أين عرفت هذا. لكنها - لسبب ما - تصير مثقفة جدا في (فانتازيا)..
أخرج (سكاليتشي) ذلك السيجار الغليظ الذي لا بد أن يذكرك بإصبع الكفتة، فاشتعلت خمس قداحات كلها مصوبة إلى طرف السيجار، وارتجفت الأيدي وهي تنتظر الزعيم حتى يقضم طرفه، ثم إنه انتقي - بنوع من التفضل - إحدى الشعلات الخمس، وأطلق سحابة كثيفة من الدخان الخانق.. هناك دوت خمس (كليك) لخمس قداحات تغلق وتعود للجيوب..
قال أحد الواقفين حوله:
- سأذهب إلى دورة المياه يا ريس..
نظر له (سكاليتشي) في شك لبعض الوقت، فبدأ الرجل ينقل رجليه وينفض أصابعه متلويا كأن روحه تخوض عذابها الأخير.. قال (سكاليتشي) في برود:

- لكنك دخلت الحمام قبل مجيئنا هنا..
- لم أحقق كل شيء.. إن مثانتي من الطراز الخجول، والحمام كان مليييييئا أي!
أشار له في اشمئزاز بمعنى أن بوسعه الرحيل، وخطر ل. (عبير) أن الرجل يخيف رجاله حقا.. لا تذكر أن هناك شريرا في التاريخ بلغ من الشر حد أن يمنع رجاله من دخول دورة المياه، وإن كانت المعلمة في المدرسة الابتدائية تفعلها معها كثيرا..
قال لها وهو يتأمل وجهها في ثبات:
- أنا ذاهب إلى (ميامي) في (فلوريدا) الأسبوع القادم..
ولما رأى عدم الفهم على وجهها قال:
- هذه هي التقاليد.. رجال المافيا لا يذهبون إلى أي مكان.. إنهم مولعون بالبيت.. لكن لا بد لكل رجل مافيا من أن يذهب إلى (ميامي) من حين لآخر..
ثم قرب وجهه من وجهها وسألها في رفق لزج:
- هل ترافقينني إلى هناك؟
نظرت إلى الغوريلات المحيطة به ثم بحذر سألته:
- هل لي الخيار في الرفض؟
- لا.. إن من يرفض طلال (سكاليتشي) لا يعيش كي يحكي بطولته..
- إذن لماذا تسألني؟
- مجرد صيغة لغوية.. حين أقول.. هل بوسعك أن تغلقي الباب؟ فأنا لا أنتظر منك أن تقولي: نعم.. هذا بوسعي، بل أنتظر أن تغلقي الباب فعلا.. ثمة أسئلة هي في الحقيقة أوامر.
لم يكن الوقت مناسبا لفهم هذه الأساليب اللغوية، لكنها كانت تعرف شيئا واحدا: بداية هذه القصة قاتمة فعلا.. الرجل لا يغرى بالبقاء معه خمس دقائق، فماذا عن إجازة في (ميامي)؟
هنا عاد الرجل الذي كان في الحمام، ووقف يلهث للحظة..
ثم..
لم تفهم (عبير) ما حدث ولا متى حدث.. لقد مد الرجل يده إلى جيبه، وفي اللحظة ذاتها أخرج اثنان من حراس (سكاليتشي) مسدسين عملاقين، ودوت الطلقات.. وفي اللحظة التالية كانت جثة الرجل - العائد من الحمام – ممددة على الأرض والدماء تغادرها من عدة ثقوب..
كانت (عبير) قد تحولت إلى تمثال مذعور فلم تحرك ساكنا.. حتى الهلع جمده صوت تبادل الرصاص.. كان من الواضح أن (سكاليتشي) تضايق بسبب ذهاب مساعده إلى الحمام، لكن ليس إلى هذا الحد!
انحني أحد الرجلين ليمد يده في جيب الفقيد، ثم نهض وفي قبضته مسدس عملاق أقرب إلى المدفع الرشاش..
- هاته يا (مورانو).
ناوله ل. (سكاليتشي)، فأمسك به.. وتفحصه.. إن مقبضه مغطى بمادة خشنة كأنها الطبشور..
قال الرجل وهو يبتسم، على طريقة الفنان الذواقة المضطر للاعتراف بموهبة فنان آخر:
- لقد عالجوا المقبض كي لا يحتفظ بالبصمات.. إنهم ليسوا من الهواة..
هنا استبد الفضول ب. (عبير) فسألته بصوت راجف:
- هل تعنى أنه كان ينوي قتلك؟
- طبعا.. لكننا كنا الأسرع كالعادة..
- وكيف خمنت ذلك؟

متعبا تثاءب وقال بلا مبالاة:
- منذ أن عرض فيلم (الأب الروحي) وحيلة المسدس الموضوع في الحمام فوق السيفون يمارسها للجميع.. يطلب الفتى الإذن من الزعيم لدخول الحمام، ثم يدخل ويجلب المسدس ويعود به راسما البراءة على ملامحه.. ثم.. بوم!
لكن هذا الأحمق يفترض أنني ولدت البارحة.. ولهذا لا أحب أن يدخل رجالي دورة المياه أبدا..
أما إذا كان الرجل قد دخل دورة المياه منذ ساعتين فأنا لا أحتاج إلى أدلة أخرى كي اقتله.. رجالي يعرفون هذا ويرتجلون عند اللزوم!
- ومن ترك له المسدس؟
- يا له من سؤال! أعدائي طبعا.. إنها تلك المنافسة اللعينة.. هم يريدون الوصول إليّ عن طريق رجالي..
هنا انحني أحد رجاله عليه وقال في أدب:
- معذرة يا (سكاليتشي).. ربما كان من الأفضل أن تنصرف قبل حضور الشرطة.. لا أريد أن يقحم اسمك في الموضوع..
قال وهو ينهض:
- هذا صحيح يا (لوتشيو).. المشكلة أن سهرتي تفسد دوما بهذه الطريقة.. وماذا عن (مورانو) و (سوني)؟
بالطبع يتكلم عن القاتلين..
- سأتصرف.. أنت لا تدفع كل هذا الراتب لمحاميك كي يفشل في إنقاذ رجالك..
أطلق (سكاليتشي) سحابة من الدخان راضيا وقال:
- تذكري هذا يا حسناء.. المحامي هي أهم مهنة في الوجود.. ولو كان الأمر بيدي لجعلت نصف سكان أمريكا محامين والنصف الآخر مجرمين!
وجاء من الرجال من وضع المعطف على كتفي الزعيم، وجاء من يفتح له قفازيه الأبيضين كي يدس يده فيهما..
ابتسم ولوح بسبابته في وجهها كأنما سيقول شيئا ثم لم يقله، وغادر المكان ومعه رجاله وجدت معطفا في غرفتها، فوضعته على كتفيها وقدرت أن الوقت مناسب للانصراف.. لقد رحل الرجل منذ ربع ساعة.
وفي الصالة كان رجال الشرطة منتشرين.. هنا تجد سمة مهمة، في البشر.. كل واحد منهم تتدلى لفافة تبغ أبدية من ركن فمه، يتكلم بها ويجرى بها.. هذا التأثير يستعمله رجال الشرطة ليبدوا محنكين، ورجال العصابات ليبدو خطرين.
وكانوا يقفون جوار الجثة لالتقاط بعض الصور التذكارية.. نعم.. فقد كان هناك صحفي يلتقط لهم الصور وهم يضحكون في فخر كأنهم من قتلوا القتيل.
وكان هناك محقق شاب متحمس يسأل الساقي:
- قلت من أطلق عليه الرصاص؟
يقول الساقي بحماسة:
- لا أعرفهم يا سيدي.. كانوا ثلاثة رجال جاءوا من الخارج.. أحدهم زنجي والآخر له عين عوراء..
نظر المحقق إلى الرجال حوله نظرة ذات معنى، وسأل في حذر:
- أين (سكاليتشي)؟
- لم يأت الليلة يا سيدي.

من الواضح تماما أن المحقق يعرف من فعلها.. والساقي يعرف أنه يعرف من فعلها.. لكن ما جدوى البحث؟ لن يتكلم أحد.
غادرت المكان لأن أحدا لم يطلبها.
وفي الخارج وقفت تتنفس الهواء النقي المبلل بالمطر، وللمرة الأولى تعرف أين هي بالضبط.. هذه (برونكس) في (نيويورك).. ليست (شيكاغو) إذن.. ولكم - لا لها - أقول إن (برونكس) هي الحي اليهودي في (نيويورك).. إن المزج بين الثقافة اليهودية وثقافة المافيا حقيقة واقعة منذ فترة طويلة، وكان لدى كل من الفريقين ما يعلمه للآخر.. والملاحظة الثانية هي أن كل شيء يوحي بالأربعينات من القرن العشرين.. لن تدهش لو ظهرت (فاتن حمامة) تتأبط ذراع (ماجدة) في أية لحظة.
- لن يتكلم أحد!
أجفلت (عبير) وقد سمعت الصوت من ورائها، فالتفتت للوراء..



أجفلت (عبير) وقد سمعت الصوت من ورائها ، فالتفتت للوراء ..

كان هذا (شريف).. أعني أنه كان الرجل الذي يشبه (شريف).. هذا سيكون بطل القصة أو سيكون له دور لا بأس به هنا..
كان يشبه (شريف) كما قلنا، لكنه كان يحمل مخايل الثقة بالنفس، والحنكة والعلم ببواطن الأمور.. كل من في هذا العالم محنك على ما يبدو، وهي الحمقاء الوحيدة.
كان يلبس معطفا خاكيا طويلا وقبعة تغطي حاجبيه، وقد داري قذاله بالياقة التي رفعها.. ومن ركن فمه تتدلى لفافة التبغ الأبدية.
أضاف وهو يقدم لها لفافة:

- وحتى لو تكلموا يا وجه الطفلة.. غدا سيكون (سكاليتشي) في المخفر مع ثلاثة محامين، ومعه ألف دليل - على أنه لم يكن في الملهى هذه الليلة.. تذاكر سينما.. تذاكر دواء.
محاضر شرطة من ولايات أخرى.. القصة هكذا دائما..
سألته بحذر:
- من أنت؟
قال وهو يشعل لها اللفافة:
- هذا السؤال يحتاج إلى وقت.. إن سيارتي تنتظر عند ركن الشارع.. هلا أتيت معي؟
لم يكن أمامها حل آخر.. فهي لا تملك أدنى فكرة عن مكان إقامتها، ولا تعرف ما هي الخطوة التالية..
نظرت للوراء ثم همست:
- لا أعرف ما ستقول لكني متأكدة من أنه ضد (سكاليتشي).. فماذا لو رآنا رجاله؟
ابتسم في ثقة وغمغم:
- لن يظهر أحدهم في المنطقة هذه الليلة.. أشياء كهذه لا تفوتني يا وجه الطفلة..
وهكذا وجدت نفسها إلى جوار هذا الغامض في سيارته.
من المذياع راحت موسيقا الساكس تتسرب معطية جو عصابات لا بأس به أبدا.. الشوارع مظلمة باردة مبللة وهي متعبة.. لو كانت تعرف من هذا الأخ لنامت مطمئنة في السيارة الدافئة المريحة....
لكنها لا تعرفه حتى لو كان (شريف).. الأدهى أنها ترى انعكاس أضواء الشارع على سحنته.. وجه صلب قاس كالصخر.. هذا ليس بالرجل الهين.
ثم بدأت تنتبه إلى أن هناك أضواء تنعكس في مرآتي الرؤية الجانبية والخلفية.
تنتبه إلى أنه يضغط أكثر على دواسة البنزين.. وأن السرعة تتضاعف بمتوالية جبرية.
وهمس الرجل وهو يضغط على لفافة تبغه:
-مام ما ميا!! إنهم يطاردونني! لا أريد أن يعرفوا أنك معي!

3- فليعش (الدون)..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما..
(عبير) لا تعرفها، لكنها ستفعل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نأخذك إلى منظر مطاردة بالسيارات في شوارع (نيويورك)..
سأحاول أن أنقل لك أنين الفرامل الذي يتحول إلى عواء..
سأحاول أن أنقل لك رقصة الأضواء المجنونة في الظلام سأحاول أن أسمعك صوت ال.
(سبلاش) الذي يحدثه الماء وهو ينتثر كالموج من تحت العجلات.. سأحاول أن أعطيك الإحساس بالتوتر.. بالسرعة.
سأحاول أن أريك يدي الغريب على عجلة القيادة.. سأحاول أن أريك السرعة المجنونة التي يضغط بها على دواسة البنزين، وكيف يضغط أكثر حتى ليخرق قاع السيارة.. سأحاول أن أريك يده وهي تنقل عصا السرعات في عصبية.. سأحاول أن أسمعك صرخات (عبير) وهي تحاول أن تتماسك في مقعدها لكنها تقذف ذات اليمين وذات اليسار كجوال من قمح..
سأحاول أن أريك الوغد الذي برز من أعلى السيارة السوداء التي تطاردنا.. يحمل المدفع الشبيه بضفدعة حبلى.. سأحاول أن أريك وجهه المسعور وأذنه المهشمة المشوهة..
سأحاول أن أنقل لك صوت (الراتا تا تا تا) وال (فلوب)!
(فلوب) هذه تحدث حين ترتطم الطلقات بالرصيف.. والد (كلاش) حين تصطدم الطلقة بالزجاج الخلفي.
- تبا.. اخفضي رأسك يا حمقاء! لا أريد أن يروك!!
- فقط هذا؟ - قالتها وهي تندس في الفراغ تحت المقعد - ظننتك تخشى على من الطلقات..
سأحاول أن أسمع صوت العجلات التي توشك على الاشتعال..
سأحاول أن أنقل لك ذعر المارة الذين راحوا يتواثبون إلى الإفريز، لكن هذا ليس بالحل المضمون؛ لأن هذه السيارات تصعد على الإفريز بسهولة تامة.
سأحاول أن أسمعك سباب الغريب وحنقه وهو ما زال يحتفظ بلفافة التبغ التي مضغ نصفها..

سأحاول هذا كله.. إنها مهمة عسيرة.. لكني سأحاول.. هل أنجح؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن صار الطريق ممتدا بلا انحناءات..
تطوى السيارة الأرض طيا وتنهبها نهبا كما يقول مدرس اللغة العربية.
لكن الأوغاد مصرون على ملاحقة سيارة الغريب.. إصرار شيطاني.
قال لها الغريب وهو ينظر في مرآة الرؤية الخلفية:
- جميييل.. إنهم يقتفون أثرنا بسرعة لا تقل عن خمسة وسبعين ميلا في الساعة.
- هل هذا سريع؟

- لاحظى أن القياس هنا بالميل يا حمقاء.. أعتقد أن هذا يماثل مائة وعشرين كيلومترا.. لقد حان الوقت..
وامتدت يده إلى زر في (تابلوه) السيارة.. فلم تفهم (عبير) ما قام به.
لكنها سمعت الفرامل الحادة من الوراء.. ثم نظرت للوراء فرأت السيارة المطاردة تدور في الهواء حول نفسها، ثم تتدحرج إلى جانب الطريق وتشتعل فيها النيران..
بقعة اللهب ذي الدخان الأسود تبتعد عن عينها بسرعة خمسة وسبعين ميلا أو ما يماثل مائة وعشرين كيلومترا في الساعة.. لابد أن هؤلاء القوم لم يجدوا الوقت كي يتألموا..
لاحظ دهشتها فقال باسما:
- المسامير يا وجه الطفلة! المسامير.. هذا الزر يفتح خزانة المسامير المثبتة في مؤخرة السيارة.. تصوري أن تنطلقي بالسيارة بسرعة خمسة وسبعين ميلا؟ أو ما يماثل مائة وعشرين كيلومترا في الساعة، ثم (هوب).. لا توجد عجلات! إن الموت محقق هنا..
قالت له وهي تلتقط أنفاسها:
- من صاحب هذه الفكرة العجيبة؟
نظر لها في دهشة وهو يمضغ لفافة التبغ، وقال:
- كل سيارات المافيا مزودة بهذه الحيلة، حتى إنها صارت كالتراث لا تعرفين من صاحبه.. إنها الحل الأمثل للمطاردات.. حتى سيارة هؤلاء القوم مزودة بها.. لكنهم حسبوا أنني لن أستعمل هذه الطريقة ما دمت لم أفعل من البداية.. الحقيقة أنني كنت أقودهم إلى السرعة الجنونية..
نظرت له في دهشة بدورها.. لم تلتقط من عبارته الطويلة إلا جملة واحدة.. فسألته:
- هل أنت من المافيا؟
نظر لها في دهشة بدوره - لقد صار هذا مملا- وقال:
- طبعا.. ماذا كنت تحسبين؟

الآن تمشى السيارة في ممر طويل بين الأشجار.. إنها ضاحية على الأرجح وعلى جانبي الطريق (فيلات) لا شك في فخامتها وأناقتها.. هذه ضاحية تخص الأثرياء..
وقالت له وهي تنظر إلى الخارج في رهبة:
- إلى أين العزم؟
- ستعرفين حالا.
- ومن أنت؟
- أنا (لويجي بيرازي) يا وجه الطفلة.. ظننت هذا واضحا..
طبعا واضح.. كيف لم تفهم هذا؟ فقط الأحمق يرى (لويجي بيرازي) فلا يعرفه.
الآن بدأت العملية المملة.. عبور البوابات
على كل بوابة مجموعة من الغوريلات المتأنقة التي ترتدي سترات السهرة، وتتظاهر باللطف.. لكنهم جميعا مسلحون.. وفي كل مرة يلقون نظرة على السيارة ويطلبون منهما أن يترجلا.. ثم يدور أحدهم حول الاثنين بكشاف.. وبعد قليل يسمح لهما بالمرور.
وتنغلق بوابة أخري..
تذكرت ما كان زوار (هتلر) يمرون به قبل الدخول إلى (الفوهرر).. لم يكن الأمر أسوأ من هذا..
قالت له في حيرة وهما يواصلان المرور عبر البوابات:

- هل أنت واثق من أننا لسنا ذاهبين للقاء الشيطان؟
- تقريبا.. نحن ذاهبان للقاء الدون (مولدانو).
- دون؟
- الزعيم.. في الإيطالية والإسبانية تعني كلمة Dominus الزعيم أو الرئيس.. (دون) هي تدليل هذه الكلمة.
طبعا كان هذا معقدا في (فانتازيا).. أن يشرح لها مرافقها أبجديات العالم.. بينما يصعب على المطربة (ميمي واندر) ذات العلاقات المتشابكة مع المافيا أن تجعل شيئا كهذا في عالم الواقع.. ومالم تقله (عبير) أن كلمة (دون) لها معني مختلف تماما في العربية.
- زعيم المافيا هو دائما (دون)..
وثب قلبها إلى فمها.. إذن من كان (سكاليتشي) إذن؟ كيف يبدو الزعيم؟
ثم - السؤال الأهم - ماذا يريد منها؟ ومن هذا الأخ الذي يمشي معها؟ من الواضح أنه لا يعمل مع (سكاليتشي)..
فمن هو؟ الجواب سهل.. ما دام لا يعمل معهم فهو يعمل مع آخرين..
أخيرا ترى قاعة جلوس طويلة تشبه ميدان العتبة، في ركنها مدفأة مشتعلة.. وأثاث فاخر بحق.. وترى عددا من الغوريلات المتأنقة متخففة من ثيابها.. أي أنهم انتزعوا ستراتهم ليقفوا بالقميص مشمر الكمين، لكن حزام المسدس كان يتدلى إلى الخصر في كل مرة..
وفي صدر المكان كان الرجل جالسا.. الحق أنه ليس مخيفا ولا ضخما.. إنه عجوز أشيب الشعر يثير الشفقة أكثر مما يثير الرعب، لكن عينيه كانتا سامتين.. وأنا أعني ما أقول.. عينان يمكن أن تفعلا كل شيء وقد شاهدتا الأهوال.. ربما من عهد (كابوني) حتى اليوم..
قال مرافقها وهو ينحني في احترام:
- فليعش الدون..
ثم اتجه نحو الرجل وصافحه بطريقة معينة معها طبع قبلة على الخاتم العملاق في يد الرجل.. فيما بعد عرفت (عبير) أن طقوس (تقبيل الخاتم) هذه أساسية هنا.. إن عالم المافيا مفعم بالتقاليد التي يحترمونها كأنما هي دينية.
بدأ (مولدانو) يتكلم.. وكان كلامه مقلقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان صوته مبحوحا يذكرك بصوت احتكاك (الفوم) الذي يغلقون به الأجهزة الكهربية.. وفيه حشرجة توحي بتليف حنجرة لا بأس به.. هذه صارت من التقاليد بعد أداء (مارلون براندو) المبهر في (الأب الروحي).. كل زعيم مافيا لابد أن يكون مبحوح الصوت تخرج الكلمات من حنجرته كأنها تخرج من خلاط أسمنت....
قال الدون وهو يستخدم السيجار كأنه إصبعه السبابة:
- سعيد برؤيتك يا (لويجي بيرازي).. آخر أخبار جاءتنا عنك هي سمكة متعفنة في طرد بريدي.. معنى هذا طبعا بلغتنا الصقلية أنك ترقد في قاع المحيط.. إن لك أعداء كثيرين هذه الآونة، ومن الرجال من يقول إنك إيطالي ولست صقليا.. ولا يمكن الوثوق بك.. أعرف أن هذا يسبب لك بعض الألم والشعور بالمهانة، وكان الكثيرون يعايرونك.. لكن تذكر أن (كابوني) نفسه كان مثلك إيطاليا وليس صقليا.. بعد هذا صار مفخرة المافيا.. لقد علمت بسلامتك فطلبت منهم أن يكلفوك بهذه المهمة.

ابتسم (بيرازي) في حرج وبدا كأنما يفضل أن يستمع..
أشار الدون إلى مجموعة من الشباب المكتنز شرس الملامح.. وقال:
- (سوني) هنا.. ومعه (جويسبي).. إنهما يؤديان عملا ممتازا في نوادي القمار..
على طريقتنا في السلام احتضن (بيرازي) الرجلين وتبادل قبلة على الخد الأيمن لكل منهما
- أما (ماريو) فقد استقام أخيرا.. إنه يشرف على مجموعة من بيوت المتعة الرخيصة..
- سرني هذا.. إنه فتى من أصل طيب، ولا يعمل إلا في المجالات المحترمة.. فقد كان أكثرنا جدية واحتراما!
قبلة أخرى على الخد الأيمن.. واضح أن هؤلاء الفتية إيطاليون حقا.. لابد أن كلا منهم محشو بالمكرونة والبيتزا و (اللازانيا)..
هنا جاء رجل يحمل الهاتف على صينية ذهبية وقدمه للدون فرفع هذا يده الممسكة بالسيجار بمعنى أن انتظروا لحظة، على حين قال الرجل:
- (فيليب) المحامي يريدك..
وضع الدون السماعة على أذنه وهو لا يكف عن النظر إلى (عبير) وإن بدا أنه يفكر في شيء آخر:
- نعم.. أنا (مورانو).. ماذا؟ المطعم يصر على حجز (لوتشيانو) إلى أن يدفع الحساب؟ هذا سخيف. لماذا لا تذهب وتدفع له؟ يغسل الأطباق؟ هذا مضحك.. اذهب له وإن لم يقبل المطعم يمكنك أن تطلب من (فيتوريو) أن يقوم بتسليك البالوعة.
ثم وضع السماعة.
كان يدير هذه الأمور كلها وهو جالس في نفس الوضع والساق على الساق.. لم يتبدل فيه إلا حركة عينية..
طبعا لا بد أن القراء فهموا الرسالة فهي شديدة الوضوح.
نعم.. أنا (مولدانو) ماذا؟ الشرطة قبضت على (باريللي)؟ هذا سخيف.. لماذا لا تذهب وتدفع له الكفالة؟ يستجوبونه؟ هذا مضحك.. اذهب له وإن لم يطلقوا سراحه بكفالة، يمكنك أن تطلب من (لوكا التركي) أن يعمل على خطف الضابط وقطع أنفه والتخلص من جثته في النهر..
كل رجال المافيا يستعملون لغة خاصة في المكالمات الهاتفية لا يمكن استخلاص شيء منها..
وكل واحد له عدة أسماء.. هذا بالنسبة للمتساهلين منهم، أما أولئك المبالغون في الحذر فهم يستعملون لغة صقلية قديمة مندثرة..
نظر الدون إلى (عبير) وجذب الكثير من الدخان من سيجاره، ثم قال:
- أنت إذن المطربة الحسناء..
ابتسمت في حرج لهذه المجاملة.. وإن بدا لها أنه لا يصدق.. فأردف:
- إن (سكاليتشي) يهيم بك حبا.. كل رجل له نقطة ضعف لكن الحب هو أخطر هذه النقاط..
فهمت ما سيطلب منها.. دائما تكلف هي بهذا الدور.. إنها الطعم الذي يستخدمه أحدهم للإيقاع بأحدهم.. ألم تكن منذ قليل أمل (روما) الوحيد لتسميم (هانيبال)؟ ألم تكن أمل المخابرات البريطانية في أسر (هتلر)؟
قال باسما:
- ما الذي خطر لك؟ لن أطلب منك قتله.. فهو لن يموت ولن يرحمك.. كل ما أطلبه منك أن تكوني جاسوسنا الدائم عليه.. إننا نعتبره متمردا على الأسرة.. يحاول العمل مستقلا بينما شعارنا هنا هو المركزية.. لو تركنا كل واحد يعمل ما يشاء لانتهت الأسرة..

هنا دخل شاب وسيم متأنق القاعة، فدنا من الدون ولثم خاتمه ثم همس بعض كلمات في أذنه، فقال بصوت عال:
- آه.. (برناردو)! دعه يأت.
ثم عاد يواصل كلامه مع (عبير):
- أنت يا صغيرة لا تملكين الخيار.. نريد أن تقومي بهذا العمل وستقومين به.. أنت جميلة ونحن نريد أن تظلي كذلك دعك من أننا ندفع بسخاء.. هذا عرض لا تستطيعين رفضه..
دخل القاعة رجل أصلع نحيل واجف، واتجه نحو الدون باحترام ولثم خاتمه ثم وقف بين يديه منكس الرأس..
- تعال يا (برناردو).. تريد أن تنال هذه الترقية.. هه؟ اترك اسم رئيسك في العمل.. سيكون لك هذا..
ثم أشار بالسيجار إلى الرجل محذرا:
- لكن تذكر.. أنت مدين لى بخدمة أحدد أنا متى وكيف تسديها لي..
هز الرجل رأسه في ذعر.. ثم سأل متأدبا:
- هل يسمح لى الدون (مولدانو) بالسؤال عن كيف تقع رئيسي؟
ابتسم الدون ونفث دخان السيجار والتمعت عيناه:
- سأقدم له عرضا لا يستطيع رفضه..
كان هذا هو التهديد المبطن بالعنف An Offer you cannot refuse فالعروض التي لا تستطيع رفضها تتعلق دائما بحياتك أو حياة من تحب.. والحقيقة الأخرى التي ستعرفها (عبير) جيدا فيما بعد هي أن زعماء المافيا يعيشون على رصيد هائل من الخدمات (الخاصة) التي قدموها للآخرين.. حين يحتاجون إلى شهادة زور يجدون من يشهد.. حين يحتاجون إلى رحلة مجانية يجدون من يدفع.. حتى في قصة (الأب الروحي) احتاج الدون (كورليوني) إلى حانوتي بارع يداري الجروح في جثة ولده الأكبر حتى لا تراها أمه.. وكان له ما أراد!
هاتف آخر..
جاءت الصينية وعليها هاتف أحمر مخيف الشكل.. غمغم الدون في ضيق:
- الرئيس؟ ماذا يريد؟
ثم رفع السماعة وبدأ في حوار قصير هامس لم تفهم منه (عبير) الكثير. تبادلت نظرة مع (لويجي) ثم نظرت إلى الآخرين فرأت نظرة احترام وتوتر لا بأس بها.. هنا فهمت.. الرئيس هو رئيس الولايات المتحدة! هذا ليس غريبا.. إن علاقات المافيا وتداخلها مع السياسية على أعلى مستوى الأمر معروف..
يحكي لنا التاريخ عن استعانة الرئيس الأمريكي (روزفلت) بالمافيا وذلك لأنه كان يزمع عمل إنزال كبير للقوات الأمريكية في جزيرة (صقلية).. كانت العملية خطرة وتحتاج إلى حماية للقوات على أعلى مستوي.. هكذا اتصل الرئيس الأمريكي بزعماء المافيا في (نيويورك) ورتب معهم تسهيل عملية إنزال القوات الأمريكية على الجزيرة بلا مقاومة.. هذا سهل بالنسبة لهم لأن (صقلية) عبارة عن بلد أعمامهم وخالاتهم.. تقاضت المافيا ثمن الصفقة خمسة وعشرين مليونا من الدولارات، وعندما نزلت القوات الأمريكية في (صقلية) كانت العائلات تستقبلها ملوحة بالأعلام الأمريكية، لدرجة أن المشهد كان مؤثرا!
هذه الحقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان: فقط المافيا تستطيع حماية الجيش الأمريكي نفسه لو نزل في (صقلية)!

ثم إن الدون أنهى المكالمة ونظر إلى (عبير) وهز رأسه بمعنى أن بوسعها الانصراف..
اتجه (لويجي) إلى الدون ليلثم خاتمه ثم ينصرف متراجعا بظهره إلى الوراء.. وتبعته (عبير) التي لم يكن في نيتها طبعا أن تفعل كما فعل ولو كان هذا آخر يوم من عمرها..
وفي الخارج مشت وراء (لويجي) الذي راح يشق طريقه وسط حواجز الحراسة تلك..
أخيرا استقرت في سيارته فتنهدت وتنفست الصعداء..
قالت له في ضيق:
- هلا شرحت لي معنى هذا كله؟
أدار المحرك الكسول بفعل البرد.. اقتضى الأمر مرتين أو ثلاث مرات حتى هدر المحرك ثم قال لها:
- الأمر لا يحتاج إلى شرح وإلا فأنت حمقاء أو صماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- أومرتا وفنديتا..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. لو لم يكن كتبها لأوجدت نفسها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت السيارة إلى الطريق العام..
كان الظلام دامسا إلا من بعض أضواء السيارات من بعيد.. وأضواء (نيويورك) تتلألأ على خط الأفق.. كأنها غابة أسطورية غافية.
فجأة رأت (عبير) الأضواء تلتمع في مرآة السيارة صاخبة قاسية.. نعم.. هناك أضواء صاخبة ولا أعرف كيف.
هتف (لويجي) في رعب:
- هناك من يتبعنا يا وجه الطفلة.. إنهم منهم!
قالت في ضيق:
- حسبت أنك قلبت سيارتهم في المرة السابقة..
- هؤلاء غير هؤلاء!
وسرعان ما دوت الطلقات تحصد كل ما يكون في مجال عملها، وشعرت (عبير) بالغيظ.. لقد صار هذا مملا..
ومن جديد راحت عجلات سيارته تعوي وهو يتخذ مسارات متعرجة خطرة للغاية.. لو كانت (عبير) لبنا فقد تحولت إلى جبن الآن، ولو كانت بيضا فقد اكتمل تحولها إلى عجة مخفوقة بعناية..
قالت له وهي تنحدر إلى دواسة السيارة:
- هل هذا روتين حياتك الدائم؟
- دائما.. وفي كل مرة.. معذرة.. (فرملة مفاجئة.. إي ي ي ي ي!!) وفي كل مرة تنقلب سيارتي

وتصل إلى الدون أخبار مصرعي.. لكني أظهر من جديد.. يجب أن يتعلم هؤلاء الصبية القيادة فترة أطول في مدرسة القيادة حتى يوقعوا ب. (لويجي بيرازي) ...
ثم قال لها وهو يضغط على لفافة تبغه كالعادة:
- اسمعي.. أنت تحت المقعد.. ثمة زر تحت يدك.. هل وجدته؟ حسن.. اضغطي عليه..
قالت وهي تفتش بيدها في الظلام:
- هل من مزيد من المسامير؟
- لا.. بل..
وضغطت على الزر.. هذه المرة لم تعرف ما يحدث، لكنها وجدت السيارة التي تطاردهما وقد راحت تميل ذات اليمين وذات اليسار. صارت تعبر الطريق عدة مرات بالعرض كأنها ترسم حرف Z اللاتيني عددا من المرات لا حصر له..
ثم حدث الشيء المتوقع وخرجت من الطريق لترتطم بشجرة لا تدري متى وجدت هناك..
واندلعت النيران..
نظرت (عبير) إلى الوراء إلى الشعلة التي تبتعد بسرعة لا يمكن تصديقها وقالت:
- هذا زيت؟
قال دون أن ينظر لها:
- طبعا.. لا يوجد رجل مافيا يتخلص من زيت سيارته المتسخ.. إنه يصلح دائما.. إن حيلة الزيت على الطريق العام لا تفشل أبدا..
قالت وهي تعتدل في مقعدها:
- من حسن حظك فعلا أنهم يطاردونك ولا تطاردهم أنت.. وددت لو رأيت ما كنت ستفعله في موقف مماثل..
ثم سألته في فضول:
- لماذا أنت بالذات؟
- الأسرة تكرهني.. هذا تفسير بسيط سهل.. إن (نيويورك) تعج بالقتلة الباحثين عن رأس (لويجي برازي)..
- أية أسرة؟
- الأسرة التي انفصلت عنها.. أنا الآن أعمل مع الدون (مولدانو)..
ثم توقف بالسيارة تحت مجموعة من الأشجار، فنظرت حولها إلى الليل المظلم.. لو أن طائر العنقاء ذاته قتل هنا فلن يسمع صوته الحاد المرتفع أحد.. قالت له في رعب وهي تبحث في التابلوه عن سلاح:
- هذا هو المكان المختار.. أليس كذلك؟ إنهم يتخلصون من الجثة في الدغل دائما.. ستطلب مني أن أنزل من السيارة وأبتعد بضع خطوات وظهري لك تغمره كشافات السيارة.. ثم.. طاخ! هل تحسبني لم أر أفلاما من قبل؟
أخيرا وجدت قلما مدبب الطرف فرفعته منذرة..
أشعل لفافة تبغ وراح يضحك مما جعله يغرق في السعال، وأخيرا قال لها:
- لا تكوني سخيفة يا وجه الطفلة.. طبعا لن أقتلك..
الفكرة هنا هي أن هذا المكان هو الوحيد الذي لا أرى رجال (سكاليتشي) فيه..
وبدأ يحكي لها بصوت خفيض منوم قصة المافيا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التوصية الأولى: على عضو المافيا أن يهب لمساعدة أخيه بكل طريقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن القصة قديمة يا وجه الطفلة.. تعود إلى القرن الثالث عشر في (صقلية).. كان الحكام الأسبان والفرنسيون يحكمون الجزيرة بقبضة من حديد.. لم نر منهم إلا الفقر والعذاب. وهكذا نشأت المقاومة.. وحركة المقاومة كانت صلبة متماسكة تتخللها طقوس غاية في السرية وأحلاف الدم، وقد استطاعت هذه الجماعة أن تلقى الرعب في قلوب المستعمرين.. (أومرتا).. كلمة إيطالية معناها (مؤامرة الصمت).. هذا هو القانون..
ثم جاء العام 1860.. ومعه توحدت (صقلية) مع إيطاليا تحت عرش ملك إيطالي قوي، وهكذا انتفى الغرض من هذه الجماعة السرية.. لكنها ظلت في وجدان ونفوس الناس.. إن (مافيا) كلمة إيطالية الأصل معناها (الشجاعة والإقدام) [2].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التوصية الثانية: على عضو المافيا أن يطيع مجلس الإخوان دون مناقشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمرت المافيا.. استمرت وإن غيرت نشاطها إلى مجال مختلف بعض الشيء.. بدلا من ترويع الأعداء قررت ترويع الآمنين.. وكانت تمارس الخطف والقتل والابتزاز.. وهنا ظهرت أقدم مهنة في التاريخ الحديث: الحماية الجبرية.. وهو ذات الأسلوب الذي يمارسه أي بلطجي في موقف (ميكروباصات) في بلادكم..
- أنت في خطر يا بني.. يجب أن تجد شخصا قويا يحميك.. لكن يجب أن تدفع له مقابل هذه الحماية.. فإن كان الفلاح أو التاجر أحمق، كان رده هو: أنا قادر على حماية ذاتي..
عندها يقرر رجال المافيا أن عليهم أن يبرهنوا له على أنه مخطئ وأن الحياة خطيرة فعلا..
وهكذا يحترق متجر التاجر أو أرض الفلاح.. يموت ابنه أو تنفق مواشيه أو يتلقى علقة ساخنة..
وفي النهاية يقتنع البائس أن الحياة محفوفة بالأهوال، وأن هؤلاء القوم بعيدو النظر..
استمر هذا النشاط حتى القرن العشرين.. هنا تحدث نقلة مباركة في حياة المافيا: أمريكا هذه الأرض المباركة البكر التي انتزعها البيض من الحمر ليستعبدوا فيها السود والصفر.. إنها مليئة بالفرص لكل شيء.. للفلاح وعامل المنجم وحفار القبور.. فكيف لا تكون عامرة بالفرص للصوص؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التوصية الثالثة: على عضو المافيا أن ينتقم بأي ثمن من أي عدوان يقع على أخ من الجماعة..
هذا هو المبدأ الذي يسمونه (فنديتا).. الثأر.. وهم يفهمونه كما يفهمه أي واحد من مطاريد الجبل في الصعيد (الجواني).. يبدو أن لغة الثأر عالمية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت المافيا - يا وجه الطفلة - تمارس عملها في أحياء الإيطاليين في الولايات المتحدة، تحت

اسم التدليل (اليد السوداء) وببطء ولدت مافيا الولايات المتحدة أو (الكوزا نوسترا) أي (بيتنا).. وكانت حتى هذه اللحظة مجرد عصابة منظمة ببراعة.. ثم جاء التحول الثاني المهم في تاريخها: قانون تحريم الخمور..
لقد حرم الكونجرس الأمريكي الخمور.. وكان هذا العمل الشجاع ليغدو أكثر نفعا لو تم في مجتمع يرغب في التخلي عن تلك المشروبات القاتلة.. لكن - بالنسبة للمجتمع الأمريكي كان معنى هذا البحث عن باب خلفي موارب وازدهار تجارة تهريب الخمور.. ازدهارها إلى حد غير مسبوق في التاريخ.. لقد وجد هؤلاء القوم منجم الماس المفقود....
الآن صار هذا هو سباق (المنافسة القاطعة للرقاب). لقد قررت المافيا أن هذا بالذات هو مجال عملها، ولن تسمح لأحد آخر من الهواة بمقاسمتها لقمة العيش هذه.. وبدأت المذابح الشهيرة التي يعرفها كل من رأى فيلما من أفلام المافيا.. كان هذا هو العصر الذي عرف أسماء عظماء من أمثال (كابوني) و (لوتشيانو).. إلخ.. وبالنسبة لمؤرخي المافيا كانت تلك أياما ذهبية لن تعود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التوصية الرابعة: على عضو المافيا ألا يلجأ إلى البوليس أو المحاكم مهما حدث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبقرى التنظيم والملك المتوج ل (شيكاغو) هو (آل كابوني) أو (الوجه ذو الندبة).. صحيح أنه ليس من (صقلية) بل هو مجرد إيطالي آخر - وهكذا يجعل أصله مخجلا بالنسبة للمافيا - فإن الرجل استطاع أن يسكت كل منافسي المافيا في البلاد.. ثم يسكت كل منافسي المافيا الذين لا يعملون معه في شيكاغو.. وقد وضع وثيقة (تحالف) مهمة جدا هي معاهدة (أتلانتا سيتي) عام 1929 التي وحدت كلمة رجال المافيا في كل مكان.. إنها بالنسبة للمافيا تلعب دور الدستور بالنسبة للولايات المتحدة.
ومع (آل كابوني) وضعت القواعد الشهيرة للمافيا التي نعرفها حتى اليوم.. شبكة المخبرين الذين يتقاضون رواتبهم منه سرا.. من كل دولار هناك خمسة وسبعون سنتا لرشوة رجال الشرطة..
كان الرجل رهيبا وقد تحول إلى أسطورة بسرعة لا تصدق.. إلى أن برز له رجل لا يرتشي اسمه (إليوت نس)..
حسن.. إن كل من رأى مسلسل أو فيلم (المعصومون) يعرف القصة كاملة. ويعرف أن (إليوت نس) لم يستطع أن يمسك على (آل كابوني) إلا تهمة (هايفة) بعض الشيء هي التهرب من الضرائب، تصور أن الرجل الذي قتل وهرب وسرق: متهم فقط بالتهرب من الضرائب.. لكنها كانت التهمة الوحيدة التي استطاعوا إثباتها على كل حال وبفضلها سجنوا الرجل، وأمكن حصر شروره بين جدران أربعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التوصية الخامسة: على عضو المافيا ألا يعترف بوجود الجماعة مهما تعرض للتعذيب والألم، وألا يناقش نشاطها مع أحد أو يعرف باسم واحد منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يذكر التاريخ أن أول من كاد يقترب من تدمير المافيا في (صقلية) كان دكتاتورا فاشيا هو (بنيتو موسوليني).. إن النظم الفاشية لا تسمح بوجود ترف فردي مثل المافيا.. والحق يقال إن أساليب الرجل كانت عنيفة جدا، فلو لم يلق نهايته لاندثرت المافيا من (صقلية) فعلا..
وفي السبعينات قدمت السينما الأمريكية فيلمها الرائع (الأب الروحي) عن قصة (ماريو بوتزو).. وعن طريقه صار الناس يفهمون كل شيء عن المافيا، وقد تلقي (مارلون براندو) بطل الفيلم رسالة من المافيا تقول له:
لو لم تؤد الدور كما أديته بعظمة واحترام لكنا غضبنا عليك!! ولا بد أن هذه الرسالة جعلت (براندو) راضيا أكثر من جائزة الأوسكار التي رفض تسلمها على كل حال..
وفي الثمانينات ستخوض إيطاليا معركة عاتية ضد المافيا، ولسوف تعتقل زعيمها الشهير (سلفاتور ريينا) عام 1993، إلا أن هذا سيؤدي إلى أكبر وباء اغتيالات يودي بالقضاة والشهود والصحفيين..
ومن أجل المافيا أوجدت الحكومة الأمريكية برنامج (حماية الشهود).. حيث يمكنك أن تشهد وتكون شاهد ملك.. لكن بعد هذا يتم تغيير حياتك بالكامل.. تُعطى اسما جديدا وأوراقا جديدة، وتنقل إلى بيت وعمل جديدين في ولاية أخرى.. وتظل الشرطة تراقبك من بعيد طيلة الوقت.
لكنهم يقولون إن العصابة تجدك دائما في النهايةThe mob will always get ya
هكذا يجدونك - لا سمح الله - في زقاق مظلم مقتولا وبلا أنف أو عين.. عبرة لمن لا يعتبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل الساكن في الخارج.. ساكن تماما حتى من صوت مخلوقات الليل التي لن تجازف بالخروج في هذا البرد.. كان (لويجي) قد أنهى لفافتي تبغ فقط وهو يحكي لها هذه القصة.. والسبب هو أنه لا يسحب الدخان أبدا إنما تتدلى لفافة التبغ من ركن فمه لتحترق وحدها.
قالت له في كياسة:
- هل لي من سؤال لا علاقة له بالموضوع؟ لماذا تتدلى لفافة التبغ طيلة الوقت من فمك؟
بدا أنه يلاحظ هذه للمرة الأولى، فقال في شيء من الحرج:
- هذه هي العادة في هذا الزمن يا وجه الطفلة.. إنني أتخذ النمط (البوجارتي).. أي أحاول أن أبدو محنكا غامضا مثل الممثل (همفري بوجارت) الذي اشتهر بذقنه غير الحليقة ولفافة التبغ المتدلية..
عادت لخيط الحديث:
- ومن هو (سكاليتشي)؟
قال وهو يدير محرك السيارة:
- إنه وغد..
- يا سلام! لم ألحظ هذا من قبل.
- (سكاليتشي) يسيطر بقبضة من حديد على النشاط الإجرامي في (برونكس).. يسيطر على أعمال البناء ومحال القمار كما أنه من أهم مصادر الإقراض بالربا في البلدة. الطريف هنا أنه يفرض عليك إتاوة إجبارية، فإن عجزت عن الدفع أقرضك بالربا ما يمكنك من سداد الإتاوة!
ثم انطلق بالسيارة وأردف:
- يقول عن نفسه إنه مقاول بناء!
- مقاول بناء؟

- ليس هذا غريبا.. كان (آل كابوني) يحكم الجريمة في أمريكا كلها، لكنه يقول عن نفسه إنه مجرد تاجر أثاث مستعمل! ليس هذا موضوعنا.. إن الدون يعتقد أن (سكاليتشي) يحاول السيطرة على (نيويورك) كلها.. وقد كلفني بأن أعرف ما ينتويه.. يمكنه أن يتخلص منه بسهولة تامة بأن يرسل له (لوكا التركي) أو أي واحد من الإخوة المتحمسين، لكنه لا يستطيع أن يقتله لمجرد الاشتباه.. وكان الحل الذي وجدته أنا هو أنت..
- هل تعتقد أنني سألعب هذه اللعبة..
- ستلعبينها.. لا أحد يناقش الدون.. ثم إنني أعرف أنك تكرهين (سكاليتشي).. ستتخلصين من هذا الوغد وتهربين من غضب الدون.. صدقيني إن غضبه يختلف نوعا عن أن يبكي ويضرب الأرض بقدمه..
نظرت إلى الطريق الذي يفتح أحضانه للسيارة القادمة وقالت وهي ترتجف:
- أريد الابتعاد عن هذه اللعبة الخطرة.. هؤلاء القوم لا يبعثون الراحة في نفسي..
- ليس هذا بيدك.. و..
هنا التمعت كشافات مبهرة في مرآة الرؤية الخلفية وشعرت (عبير) بأنها لا تستطيع فتح عينيها..
ثم انهمرت الطلقات.. وهتف (لويجي):
- الويل! مام ما ميا! إنهم قد رأوني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- لماذا تأخرت؟

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. لو لم تكن قد سمعتها يمكنك أن تتجاهل هذه الفقرة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (عبير) وهي تنزل إلى الدواسة بينما الرصاص يهشم زجاج النافذة:
- إن الحياة معك مملة فعلا.. هل يمكن أن تمر بك ساعتان من دون مطاردة سيارة؟
لم يرد عليها، وهتف ينظر في المرآة:
- هذا (دومينو).. ويلي!! لقد عاد إلى (نيويورك).. إنه يجيد التصويب.. ومن الآخر؟
هنا دوى صوت عال يصيح بالسباب الإيطالي الفاحش الذي لن نترجمه هنا، ثم:
- توقف يا (لويجي) يا كيس لحم الخنزير المتعفن؟ إننا سنعلقك من أذنيك!!
قال (لويجي) وهو يعالج ذراع السرعات:
- هذا (الأخرس).. لقد عاد من (شيكاغو).. كان قد قتل عشرة رجال شرطة في لحظة ضيق وفر..
- اسمه الأخرس؟ إنه أكثر الخرس فصاحة على ما أعتقد..
كانت الطاقات مستمرة بلا هوادة، فقال لها وهو يشير إلى ما أسفل التابلوه:
- هناك هذا الزر.. هل ترينه؟ إنه جوار الآخر نعم.. نعم.. إلى اليسار قليلا.. اضغطي عليه..
ضغطت على الزر وهي تتساءل عن الحيلة هذه المرة.. لكنها لم تفهم ما حدث إلا حين توقفت الطلقات.. ورفعت رأسها بحذر لترى ما هنالك، فكان ما رأته هو أن الضباب صار يملأ الكون.. بالذات الكون من خلف السيارة لا أمامها.
سحابة كثيفة من الدخان وراء السيارة تذكرك بالقطن الذي تم لصقه على العالم.. فلو أنك مددت يدك للمسته.
قالت له في حيرة:
- وما هذه الحيلة؟
- لا شيء.. ستار الدخان الذي يخرج من العادم.. مجرد حيلة تسمح بحقن خليط من البنزين والزيت.. كل سيارات رجال المافيا تملك الشيء ذاته.. لقد صار من المستحيل على مطاردنا أن يستمر..
- إن سياراتكم هذه عجيبة حقا..
- إن لدينا ميكانيكيين لا يعملون إلا معنا.. رجل المافيا لا يثق بميكانيكي من المافيا..
بعد دقائق من الانطلاق بسرعة جهنمية صارت (نيويورك) المعمورة أمام عينيها.. لقد عادا من لقاء الدون، وبرغم أن هذا احتاج إلى التملص من ثلاث سيارات تقل ما مجموعه نحو عشرة قتلة، فقد انتهى اللقاء المهم..
والآن يبقى السؤال المهم: أين تعيش؟
والإجابة كانت سهلة؛ لأن الرجل أوقف السيارة قرب عمارة سكنية في (برونكس).. لم يقف أمامها وإنما في شارع جانبي قريب منها، وكان الظلام الدامس يغلف الكون.. نظر في كل الاتجاهات ليتأكد من أن سيارة أخرى لن تبرز له، ثم قال وهو يفتح الباب لها من الداخل:
- عمت مساء.. أنا أعرف أن (سكاليتشي) ينوي الذهاب إلى (ميامي) ولسوف يصحبك معه.. هذه

الاجتماعات مهمة جدا وسوف تعرفين عن نواياه الكثير.. سوف أكون هناك بشكل أو بآخر..
ولسوف أعلن عن نفسي في الوقت المناسب عندها تعطينني وريقة تحمل آخر الأخبار..
نظرت له في رعب وقالت:
- وهنا؟ هل تتركني وحدي مع هؤلاء الأوغاد؟
كان هو (من هؤلاء الأوغاد) فعلا.. لن تنسى هذا.. لكنها على الأقل تستطيع الكلام معه.. هذه نقطة.. ثم إن له ملامح (شريف).. وهذه نقطة أخرى في صالحه.. على الأرجح هذا يعني أنه الشيطان ذو قلب الملاك أو اللص الظريف أو أي شيء بهذا المعنى.
قال لها باسما وهو يدس لفافة تبغ بين شفتيه:
- أنت لست في خطر يا وجه الطفلة.. الخطر الوحيد يأتي حين تكونين معي لأن أكثر الأسر في الولايات تبحث عني، ولو رآنا (سكاليتشي) معا لفهم كل شيء.. هيا بسرعة..
هكذا هزت يدها مودعة وانطلقت لا تلوى على شيء تدخل البداية..
سمعت محرك سيارته ينطلق، بينما استوقفتها حارسة البيت العجوز لتعطيها مفتاح شقتها..
هكذا لم تعد في ورطة معرفة في أية شقة تقيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نترك هذا السياق لتتجه إلى مكان لا تراه (عبير) الآن..
نحن في صالون حلاقة (باليرمو).. لا.. ليس (باليرمو) بل (باليرمو).. أنت صرت من الأسرة وتعرف أن كل مقاهي المافيا وملاهيها ونوادي قمارها اسمها (باليرمو).. هؤلاء القوم يحنون إلى أوطانهم بحق لدرجة تدفعك إلى البكاء تأثرا..
كان الحلاق الصقلي العجوز واقفا يدندن ويعيد صقل موسي الحلاقة، بينما أمامه على المقعد يجلس (ساباتيني).. (ساباتيني) هو من أهم زعماء العالم السفلي.. لكن في الفترة الأخيرة بدأ ذلك الداء الوبيل يصيبه: محاولة الاستقلال عن الأسرة.. لقد استطاع إدخال الهيروين إلى الولايات ومكاسبه تنتعش يوما بعد يوم..
وضع الحلاق المنشفة على وجه الرجل، وراح يعالج قفاه بالموسى بينما هو يثرثر بالإيطالية..
وكان (ساباتيني) قد صار أقرب إلى الغيبوبة الآن من فرط الملل..
هنا ينفتح الباب.. يرى الحلاق القادم في المرآة.. يتقدم الرجل فارع الطول ذو البذلة السوداء الأنيقة.. قبعة سوداء تخفي عينيه وقفاز أبيض وحذاء أبيض، وصندوق كمان عملاق أعتقد أنه (ستراديفاريوس) لو كنت تفهم ما أعنيه.. إن منظر هذا الرجل في هذا العالم لا يتحمل إلا إجابة واحدة: إنه قاتل محترف.
ارتجف الحلاق وتراجع للوراء لكن صوته احتبس في حلقه...
نظرة واحدة إلى وجه الغريب تكفي.. وجهه يحمل رسالة صامتة تقول: إياك أن تتكلم.. وجه كالصخر لا يحمل أي انفعال فلو لم يكن هذا الرجل يتسلى في داره بحرق القطط في الفرن لكنت لا أفقه شيئا.
تراجع الحلاق أكثر، ثم أطلق ساقيه للريح غير مصدق أنه خرج من هذا المكان..
الآن الزبون والغريب معا في نفس صالون الحلاقة الخالي.
في بساطة ونعومة يتناول الغريب الموسى من موضعها ويتقدم نحو (ساباتيني)..



فى بساطة ونعومة يتناول الغريب الموسى من موضعها ويتقدم نحو (ساباتينى) ..

- لماذا تصمت فجأة أيها الحلاق؟

يقولها (ساباتيني) دون أن يفتح عينيه.. لكن الصمت هو الإجابة.

يقف الغريب وراءه ويضع الموسي بدقة وعناية على الوريد الوداجي..

- إن هذه الموسي باردة فعلا..

قالها (ساباتيني) ثم بدأ يشعر بأنه على غير ما يرام.. ما سر هذا البلل على صدره؟ بلل لكنه دافئ

لزج.. لماذا يشعر بكل هذا الوهن.. لماذا يغوص في مقعد الحلاقة؟
لماذا لا يشع......؟
وفي الخارج يقف الحلاق يرتجف يتكلم مع حارسي (ساباتيني) اللذين ذهبا لشراء بعض الشطائر ثم عادا.. أحدهما سمع الأخبار ومد يده يخرج مسدسه..
هتف الحلاق الدامع وهو يمسك بيده:
- مام ما ميا.. لا تفعل يا أحمق.. لقد مات (ساباتيني) فعلا فلن تفيد شيئا لو مت معه.. هل تعرف من الذي معه الآن في الصالون؟
نظر له الحارس متسائلا، فقال الحلاق الاسم الذي جعل الرجال الثلاثة يفرون مسرعين:
- إنه (لوكا).. (لوكا التركي)!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشقة مظلمة خبيثة الرائحة.. هكذا عرفت (عبير) الكثير من الحقائق عن شخصيتها: إنها مطربة حسناء لكنها فقيرة.. الحقيقة الأخرى هي أنها قذرة نوعا ولا تعرف كيف تنظف دارها..
الحقيقة الثالثة عرفتها حين بحثت عن مفتاح النور وضغطت عليه: إن (ميمي واندر) يهودية!
عرفت هذا من بعض المتعلقات الدينية الموجودة بكثرة في الشقة.. أصابها هذا بالجزع لأنها لم تلعب قط شخصية يهودية في (فانتازيا)..
لكن هذا متوقع على كل حال.. هي في (برونكس).. ومن الواضح أنها ستشق طريقها إلى (هوليوود) بشكل أو بآخر لتصير نجمة سينمائية.. إن الأخوة (سام جولدوين) أو (جاك مترو) وغيرهم من أعمدة (هوليوود) كلهم يهود يسعدهم أن يضموا يهودية أخرى إلى مملكتهم هذه..
هي إذن تعيش أعوام الفقر قبل أن تصل إلى الشهرة والمجد، طبعا بالاستعانة بنفوذ رجل مافيا قوي يحبها مثل (سكاليتشي) هذا.
الحقيقة الرابعة التي عرفتها هي أنها ليست وحيدة هنا.. هذا متوقع مع فقرها.. لابد أن الشقة مشاركة..
هناك فتاة نائمة بكامل ثيابها على الأريكة...
اسمها (جيل ماكلوسكي).. ستعرف (عبير) هذا بعد دقائق.. مشروع راقصة أو كما يسمونها Wannabe dancer وهذا متوقع كما قلت لك بالنسبة لصائدتي فرص تبحثان عن طريق للشهرة.. لا توجد مهن كثيرة لفتاة لا تملك عقلا ولا تعليما ولا ذكاء، وإنما هي جميلة جدا طموح جدا.. طبعا من الجلي أنها يهودية بدورها..
شعرت بدخول (عبير) ففتحت عينيها، وقالت وهي تتثاءب كفرس النهر:
- هل تعرفين كم الساعة؟؟ إن (سكاليتشي) قلق عليك واتصل عدة مرات..
فكرت (عبير) في أن (سكاليتشي) هذا يعاني حالة استحواذ غير عادية، لابد أنه شخصية فمية أنانية متسلطة.. صحيح أنه فقد ما لا يقل عن سبعة من رجاله هذه الليلة بالذات، لكنه مازال متحمسا.. وإن كانت تدعو الله ألا يكون قد عرف أنها كانت مع المدعو (لويجي بيرازي)..
قالت (عبير) وهي تنزع معطفها:
- لا توجد سيارات أجرة..
- خرجت من الملهى منذ ثلاث ساعات، ولم تجد سيارة أجرة؟ لاحظي أنه كان بوسعك الوصول إلى هنا مشيا في ربع ساعة..
لم تعلق (عبير) حتى لا تزيد الطين بلة.. هنا سمعت قرعات عالية على الباب.
اتجهت لتفتحه فوجدت أمامها جدارا آدميا يرتدي معطفا واسعا، وقد دس يديه في جيبه.. ولم

تكن ترى وجهه لأن قبعته تغطيه.
قالت الفتاة النائمة وقد نهضت لتري القادم:
- الأخرس! لقد جاء يطمئن بنفسه..
الأخرس؟ نعم.. إن سيارته لم تنقلب ولكن عطلها الدخان..
قال الأخرس من دون أن يتحرك أو يبدو عليه أي انفعال:
- قلق (سكاليتشي) عليك لقد غادرت الملهى في موعدك، لكنك تأخرت.. بحثنا في كل مكان.. وقد أقسم لي حارس المشرحة على أن جثتك لم تصل قط..
ثم أخرج شيئا ملفوفا بمنديل ورقي من جيبه وضحك:
- طبعا بعدما انتزعت أنفه بمطواتي صرت واثقا من أنه صادق.. نفس الشيء حدث مع رجل الشرطة في المخفر.. أشخاص كثيرون فقدوا أنوفهم أو آذانهم هذه الليلة!
ابتلعت ريقها، وتراجعت للوراء، وأخيرا وجدت من الصوت المبحوح ما يسمح لها بأن تقول:
- أنت تؤدي عملك جيدا..
- أحب أن أتأكد من دقة معلوماتي قبل أن أبلغ (سكاليتشي).. والآن أين كنت؟
كنت مع الدون نتآمر على القضاء على رئيسك أيها الأبله.. يعلم الله أنني غير راغبة في هذا ولا ذاك، لكن لهؤلاء القوم مزية مهمة هي أن عروضهم لا يمكن رفضها.. لكنها لم تقل له هذا طبعا بل لفقت قصة طويلة سخيفة عن محاولة سائق سيارة الأجرة أن يختطفها، ثم عدوله عن ذلك بمجرد أن عرف أنها فتاة (سكاليتشي).. لقد خرج بها سائق السيارة من (نيويورك).. اتجه إلى محجر خارج البلدة.. قيد يديها.. طلب منها أسماء من يهمهم أمرها كي يهددهم هاتفيا ويطلب فدية.. غافلته وهربت.. لحق بها.. ضربها.. أعادها إلى المحجر.. عرف منها أن...
- وهل يستغرق هذا ثلاث ساعات؟
قالت في غيظ:
- في المرة التالية سأحاول تقصير الجدول الزمني.. سأعمل على أن يتم خطفي وعودتي في نصف ساعة..
عاد يسألها في ثبات:
- كيف كان يبدو ذلك السائق؟
بعد لحظة ارتباك قالت:
- نحيل.. أشقر.. هذا هو كل شيء.
- حسن.. سنجده!!
ثم انصرف دون أن يقول كلمة واحدة..
أغلقت (عبير) الباب وهي لا تصدق بنجاتها، فقالت لها (جيل) وهي تتثاءب:
- كان يجب أن تكوني محددة أكثر.. لقد حكمت بالإعدام على كل سائقي سيارات الأجرة الشقر النحيلين! غدا ستكون هناك عدة جثث مشوهة في مستودع القمامة خارج البلدة..
ثم هزت إصبعها في وجه (عبير) بتحد، وفي عينيها التمعت نظرة خضراء شيطانية تجيدها كل فتاة خضراء العينين:
- اسمعي أيتها الحدأة.. أنا أعرف جيدا أن هذه القصة ملفقة.. لاحظي أنني أراقبك جيدا وأبلغ (سكاليتشي) بكل نفس من أنفاسك.. لهذا أرجوك أن تكوني أكثر حذرا وربما أكثر براعة..
ثم نهضت وقالت باسمة:
- تصبحين على خير!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- عرض لا تستطيع رفضه..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما..
لا أدري دخلها بالموضوع لكنها جميلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظاهرة غريبة أثارت اهتمام رجال شرطة (نيويورك) هي أن هناك جثا كثيرة ملقاة في مستودع النفايات.. واضح أن كلا من هؤلاء القتلى عذب تعذيبا مروعا وهناك من مثل بجثته بعنف..
السمة العامة هي أن جميعهم أشقر نحيل وسائق سيارة أجرة.. وقد ألقيت عدة سيارات أجرة في النهر ليلة أمس..
قال رئيس شرطة (نيويورك) في ثقة:
- على قدر فهمي للأمور هناك قاتل تتابعي جديد يهوي قتل سائقي سيارات الأجرة.. لا أعتقد أن للمافيا أية علاقة بهذه الجرائم..
قرأت (عبير) هذه الأخبار في الصحف شاعرة بالغم، مزيج فريد من الخوف والشعور بالذنب والارتياع والقلق..
ماذا ألقاها في هذا العالم المخيف؟ المشكلة ليست في أن هؤلاء القوم شرسون.. المشكلة في أنهم يعدون أنفاسها حقا.. في الملهى وفي البيت هناك من يعرف كل شيء عنها..
لكنها تعيش حياتها.. ما زالت تؤدي عمل المطربة في ملهى (باليرمو).

- ستكون لديك (أنا) أخرى.. بل مئات إل (أنا)..
تلك ليست مشكلة.. لكن ماذا عني أنا؟
مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

كان (سكاليتشي) يأتي في كل ليلة مع عصابته، فيجلس معجبا بها.. لكن - لحسن حظها - يجب أن تعترف بأنه لم يضايقها قط أكثر من إرغامها على الجلوس معه وسماع كلامه.. ومن الواضح أن موعد السفر إلى (ميامي) يقترب جدا.. وكانت تخشى هذه اللحظة بشدة..
أعرف أنك ستكون سعيدا..
بلد آخر.. بيت آخر.. واحدة أخرى..
الذكريات تتحول إلى قطرات ندى..
سرعان ما تجف مع شمس الجنوب..

وتستمر الأغنية.. وتقول هي في نفسها: ما من حرف في هذه الأغنية موجه لك.. لا تخدع نفسك.. إن هي إلا كلمات مثلها مثل الغزل الصناعي لدى شعراء المعلقات..
لو أحببت شخصا فلن يكون رجل عصابات.. ولو أحبت رجل عصابات فلن يكون أنت.. ربما كان هو (لويجي بيرازي)..
لا تأخذ هذه الكلمات على محمل الجد فأنا لا أحفظ أغنية أخرى للأسف..

كان جالسا في الصالة يتكلم مع أحد رجاله، وكعادة الإيطاليين يشوح بذراعه في عنف.. يقولون إنه لو جاء مريخي إلى الأرض ورأى كيف يتكلم الإيطاليون لحسب الإيطالية لغة إشارة.
الرجل يغادر المكان وقد كلف بمهمة عاجلة.. (سكاليتشي) يقضم سيجارا وينتظر الشعلة ثم ينظر في ساعته بقلق. تري ماذا يضايقه هذه الليلة؟
كانت الأغنية توشك على الانتهاء حين..
بووووووم!!
دوى الانفجار الرهيب فاهتزت القاعة كلها.. وتساقط الغبار من السقف.. وحين انتهى الضجيج كان الموجودون قد اتخذوا أوضاعا ثابتة كأنهم في إحدى اللوحات الرافائيلية.. من نهض ومد ذراعه يتقي الخطر، ومن جثا على ركبتيه، ومن هب واقفا مستندا إلى منضدته والرعب على وجهه.. هناك من أطار كأسا في الهواء، فظلت الكأس ثابتة حيث هي في الهواء لا تقع ولا تتهشم.
صرخت (عبير) وسقطت على ركبتيها.. ثم فطنت إلى أن الانفجار جاء من الخارج.. شعرت بيد قوية تنهضها وتساعدها على النزول إلى الصالة لتجلس جوار (سكاليتشي)..
كان ثابت الجنان وإن بدا عليه أنه ينتظر من يأتي له بالخبر اليقين..
أخيرا عاد أحد رجاله من الخارج والدخان يتصاعد من ثيابه، وهو يحمل حذاء في يده، وقال في أسي:
- ماما ميا! لقد انتهى (مورانو)..
خلع الرجال قبعاتهم، ومضغ (سكاليتشي) سيجارة في ضيق، ثم رأى أن الذهول على وجه (عبير) فقال مفسرا:
- هناك من لغم سيارته لتنفجر عند بدء المحرك.. هذا أسلوب تقليدي.. كل رجل مافيا يتوقع نهايته كلما بدأ تشغيل محرك السيارة.. لهذا قدم لنا صاحب الملهى مساحة بعيدة عن العمران نوقف سياراتنا فيها.. هكذا تنفجر سياراتنا دون أن تؤذي أحدا.. في الأيام السعيدة – عهد تحريم الخمور - كنا نرى خمس انفجارات يوميا، وكانت السيارة تباع ومعها كتالوج يشرح كيفية تثبيت القنبلة فيها دون إتلاف المحرك..
- ومن يفعل هذا؟
هز كتفيه وقال:
- كيف لي أن أعرف؟ واحد من حزب أعداء النجاح طبعا.. ما دمت أتلقي الركلات في مؤخرتي فأنا في المقدمة.. هذا مؤكد..
ثم نظر إلى أحد الرجال وقال:
- ستذهب أنت يا (لورنزو) ما دام (مورانو) لم يعد مستعدا.. حاول أن تفحص السيارة بعناية قبل تشغيل المحرك.
هز الرجل رأسه وانصرف، على حين أعلنت (عبير) أنها ذاهبة إلى غرفتها لأن الانفجار أرهق أعصابها..
هز رأسه بمعنى الموافقة، ثم عاد ينظر إلى ساعته في توتر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن أضاءت نور الغرفة حتى وجدته هناك.. كان جالسا على مقعد (التسريحة) ولفافة التبغ الشهيرة بين شفتيه.. إنه (لويجي بيرازي) شخصيا محتفظا بطابعه (البوجارتي) الشهير..
همت بالكلام أو الصراخ لكنه رفع إصبعه إلى شفتيه منذرا..

ثم قال وهو يساعدها على الجلوس في مقعده:
- كانت هذه الطريقة الوحيدة لمقابلتك يا وجه الطفلة.. انتهزت فرصة الانفجار وتسللت إلى حجرتك..
- إذن أنت الذي؟
- ليس أنا بل (داريو ذو الوجه السمح).. إنه كهربائي بارع، وقد أحكم وضع القنبلة في أقل من خمس دقائق..
- وهل قتلت (مورانو) لمجرد تشتيت الانتباه؟
- بل لأنه يستحق الموت.. إن بيني وهؤلاء القوم حسابا طويلا لا تشغلي ذهنك به كثيرا.. ولكني لم أتجشم خطر المجيء هنا من أجل هذا..
وأخرج قداحة أشعل بها لفافة التبغ.. ثم راح يعبث في جيب سترته الداخلي وهو يقول:
- حتى هذه اللحظة كنت واضحا معك.. أنت تعرفين أو تحسبين أنك تعرفين من أنا..
في اللحظة التالية وجدت في يده شارة معدنية صغيرة يضعها في حافظة.. لم تفهم معنى هذا فواصل الكلام:
- الآن يمكنني أن أتكلم بصراحة أكثر.. أنا المفتش (جيمس بانيني) من مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI..
تراجعت للوراء غير مصدقة، وهتفت:
- أنت؟ ومن هو (لويجي بيرازي)؟
- إنه مات منذ زمن.. معلومات الدون صحيحة لكني أشبه (بيرازي) بشكل غير عادي ومن أصل إيطالي، لهذا كان من السهل أن أستمر في أداء دوره.. بالنسبة لرجال المافيا أنا رجلهم الذي عاد من الموت بشكل ما.. صدقيني إن تمثيل الدور ليس سهلا.. أحيانا أضطر إلى اتباع أساليبهم بالضبط إلى حد القتل..
بدأت تهدأ نوعا.. هذا يفسر ملامح (شريف) التي يحملها الرجل.. كان بوسعها من البداية أن تثق به..
- ولكن لماذا لم تقل هذا من البداية؟ كنا منفردين..
- المرء لا يصارح امرأة يلقاها للمرة الأولى بأشياء كهذه.. لكن مراقبتي لك تشي بأن بوسعي أن أثق بك.. من الواضح أنك تريدين الخروج من هذا الموقف.. وإليك عرضي
ثم نفث دخان التبغ كثيفا في الهواء، وأردف:
- عفو عام عنك.. ستعتبرين شاهد ملك.. سيتم نقلك إلى ولاية جديدة باسم جديد وعمل محترم.. لن يجدك رجال المافيا أبدا.. إنني أمنحك فرصة الخلاص..
- وماذا على أن أقدمه؟
-معلومات! الكثير منها.. إن (سكاليتشي) حذر جدا والدون أكثر حذرا.. يجب أن تعرفي ما ينتويه هذان الوغدان وأن تمنحينا فرصة اعتقالهما بالجرم المشهود.. سيكون اجتماع (ميامي) بالغ الأهمية لنا..
(بالجرم المشهود).. لسبب ما تصر هذه القصص على استعمال هذا المصطلح بدلا من (في حالة تلبس).. أما اللصوص فلا يقبض عليهم ولكن يتم توقيفهم ويأخذونهم لا إلى قسم الشرطة بل إلى (المخفر).. كما أن القتلى يقوم بتشريحهم (الطبيب العدلي) بدلا من (الشرعي)..
فكرت قليلا ثم قالت:
- لو كنتم متعهدين بحمايتي، فأنا أقبل.. لا أحتاج إلى وقت طويل حتى أقرر الجانب الذي أنضم

إليه.. أنتم (الأشخاص الطيبون) كما تقولون في الأفلام، وإن كنت لا أقولها مستريحة..
- في عالمنا هذا لا يمكن محاربة الذئاب إلا بذئاب.. فقط العبرة بالمكان الذي تتقاضين منه راتبك في نهاية الأسبوع..
ثم نهض وقال وهو يتأهب للرحيل:
- خذي الحذر يا وجه الطفلة.. أنت تعيشين في عالم خطر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغ رجل الشرطة من الإدلاء باعترافه.. المشكلة كانت هي أنه عاجز تماما عن تبين ذلك الذي يستجوبه..
إن الضوء على وجهه هو بينما الآخر في الظلام الدامس.. مقيد هو بالشريط اللاصق تماما إلى حد أنه لا يستطيع تحريك أصبع يده، وكان فمه مكمما منذ دقائق إلى أن أزال خاطفه الكمامة كي يمكنه من الكلام..
جاءه صوت الآخر باردا قاتما أسود:
- هل هذا كل شيء؟
- كل شيء..
- هل من كلمات أخيرة؟
فطن لما يريد الرجل قوله فصاح في عصبية.
- أنت قلت إنك لن تقتلني إذا تكلمت..
ببرود قال الآخر وهو يقف خلفه تماما:
- لم أقل هذا.. قلت إنني سأختصر آلامك.. وأنا أبر بوعدي..
كان رجل الشرطة يعرف لماذا هو هنا.. السبب هو أنه لم يسمح بإطلاق سراح (باريللي) بكفالة.. زملاؤه قالوا له إن الرجل يعمل مع الدون شخصا وأنه من الحكمة إطلاق سراحه.. لكنه كان مصرا....
جاءه (فيليب) المحامي.. محامي الدون.. وقال له:
- إن الدون سيقدم لك عرضا لا تستطيع رفضه..
هنا أصابه الجنون وهتف في غيظ:
- هل هذه رشوة؟ قل لي أين مكتبك ولسوف نغلقه لك..
قال المحامي في برود وهو يجمع أوراقه:
- ليس لي مكتب.. أنا أعمل لزبون واحد فقط هو الدون (مولدانو).. وثق أن ما يدفعه لى يكفيني..
كان هذا أمس.. واليوم هو هنا مقيدا إلى مقعد في غرفة مظلمة.. وهناك من يتحدث عن اختصار آلامه.
- كنت سأطلق عليك الرصاص، لكني وجدت أن على أن أنمي مهاراتي قليلا، هل تعرف طريقة التنخيع؟ إنهم يغرسون خنجرا في مؤخرة العنق لتمزيق النخاع الشوكي من تحت الجمجمة.. إن الأطراف تتشنج كلها وتفرغ المثانة نفسها.. ثم يتم الموت في ثانية..
هتف الشرطى البائس في جزع:
- من أنت؟
قال الواقف خلفه وهو يلهث بحرارة في مؤخرة عنقه:

- هذا من حقك.. حين تلقي زبانية الجحيم قل لهم إن من قتلك يدعى (لوكا التركي)..
هنا تذكر الاسم....
تذكره بينما طرف الخنجر يشق طريقه عبر الأنسجة الهشة في...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(ميامي) رائعة الجمال.. هذا شيء لا تنكره.. ولكن من يستطيع الاستمتاع بإجازة في (ميامي) وهو يقضيها مع زعيم مافيا؟
الشمس.. الشاطئ.. الوجوه الحسنة.. الفنادق الفاخرة.. لكنها تعرف أن هذه قشرة براقة تغلف بركة قذرة عطنة..
كان (سكاليتشي) يستمتع بكل سنت من ماله الحرام، وقد ارتدي نظارة سوداء وقميصا زاهي الألوان مشجرا فتح أكثر أزراره كاشفا عن كرش - لا يوجد صدر لدى هذا الرجل – بدين مغطى بالشعر.. وقلادة ذهبية عملاقة تتدلى لتعطيه منظر الوغد الثري الذي يريده..
وقد جلس في الشمس يراقب الماء، وأمامه كوب من الآيس كريم، تخرج منه مظلات وشفاطات وأشياء غريبة جدا.. لكنه طبعا لم ينس السيجار الغليظ.. وكانت جواره زوجته الحسناء ابنة صديقه (أنستاسيا).. إن رجال المافيا يتزوجون من بنات بعضهم لكنهم لا يخلصون لزوجاتهم أبدا.. وكلهم يعرف هذا ويفهمه..
كانت (عبير) جالسة بقربه تحاول قراءة جريدة..
كان يلوح بيده من حين لآخر محييا أوغادا يشبهونه تماما، إنهم من رجال العصابات كما هو واضح.. كل منهم محاط بخمسة من الفتوات.
- (بايلو)!! يا لها من مفاجأة.. (ماريو) هنا؟ يا للبهجة!
أما هؤلاء الذين يبدون كعمال النظافة فهم فيدراليون.. عملاء فيدراليون يحاولون فهم ما يحدث هنا، لكن من دون جدوى لأنهم لا يستطيعون الاقتراب.. والكل يعرف أمرهم على كل حال..
كان هناك صحفى نحيل متحمس التقط صورة للجالسين، وأوشك على الفرار بغنيمته، لكنه في اللحظة التالية وجد نفسه بين قردين عملاقين، أحدهما أمسك به من ياقة سترته، والآخر انتزع منه الكاميرا..
- لحظة.. أنا صحفي في.. أنت لن..
لكن يد القرد الأول كانت أسرع.. فتح الكاميرا وأخرج الفيلم منها بكثير من الفظاظة وعرضه كله للنور.. بينما أمسك الآخر بالصحفى من سترته وطوح به في الماء مرتين ثم تركه ليسقط في الماء..
- هذا الفتى لا يعرف السباحة..
- كان عليه أن يعرفها ما دام ينوى التقاط صور لـ (سكاليتشي)..
قال لها (سكاليتشي) وهو يمتص المشروب الملون من كوبه:
- الليلة سيكون هناك اجتماع مهم.. لن يسمح لك أحد بحضوره لكني راغب في ذلك.. ولسوف تتعلمين سريعا أنه لا أحد يجرؤ على رفض طلب لـ (سكاليتشي)..
نظرت له في دهشة ولم تفهم، فقال:
- أردتك أن تعرفي من السيد هنا.. ولمن يميل ميزان القوة في (نيويورك)..
هنا فهمت ما يريد قوله.. هذا الرجل يحبها حقا.. أو هو - على الأقل - يحاول أن ينال إعجابها فعلا.. ثمة نقطة ضعف مهمة في الرجال.. إنهم قد يستطيعون إحكام سيطرتهم على المرأة وقد

لا يكون لها مفر.. ربما تكون كالعصفور معدوم الحيلة في يده.. لكنه ما زال يتوق إلى أن تبقى معه لأنها تريد ذلك وليس لأنها تخافه.. ثمة شرخ في ثقته بنفسه ما انفك يؤلمه.. ما زال يعتقد أنها معه لأنها خائفة، وهو يرغب فعلا في أن تبقى معه لأنها تحبه.. لهذا يحاول أن يبهرها.. لهذا يحاول أن يريها كم هو بارع قوي.

لقد تصرف معها (هانيبال) بالمنطق نفسه، فلم يمس شعرة من رأسها برغمها.. ولكن (هانيبال) كان فارسا راقيا، بينما لا يمكن أن تتهم (سكاليتشي) بالرقي..

على الأقل ستنال فرصة لا تحلم بها.. سترى اجتماعا للمافيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



7- مشروع طموح..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. من الصعب أن تتصور ما يحدث لو لم تكن في ذهنك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذا لن يكون.. هذا ضد قوانين المافيا..
كذا تصايح القوم وهم يجلسون إلى المائدة الطويلة في قاعة اجتماعات الفندق.. كانوا قد استأجروها قبل الاجتماع بربع ساعة حتى لا توضع أجهزة تنصت في الغرفة، وكان هناك ما لا يقل عن عشرين رجلا مسلحا يحرس المكان من الخارج.. الإضاءة خافتة قادمة من أعلى لتعطي نفس إيحاء إضاءة فيلم (الأب الروحي) حيث يغطى ظل الحاجبين على العينين.. أكثر الحوار بالإيطالية على سبيل الراحة. كما تخلع أنت حذاءك الضيق وتدس قدميك في خف مريح.. ثم إن الإيطالية تمنح المحادثة بعض السرية.. لكن (عبير) تفهم الإيطالية طبعا..
قال (باولو جيرالدو) الذي يسيطر على نقابات العمال في شرق الولايات كلها:
- كن معقولا يا (سكاليتشي).. امرأة في اجتماع المافيا؟ هذا لم يحدث في التاريخ.. نحن لا نسمح بوجود رجل ليس نقى الأصل الصقلي، فما بالك بامرأة؟
وقال (منجيني) المسئول عن بيوت المتعة الرخيصة في الولايات كلها:
- يجب أن نحافظ على التقاليد العتيدة المحترمة للمنظمة..
قال (سكاليتشي) في ثبات وهو يقضم سيجاره الغليظ:
- نحن هنا في ملعبي.. والاجتماع اجتماعي.. من يرد الرحيل فليرحل.. الفتاة هي سكرتيرتي وهي المسئولة عن جدول الأعمال..
امتدت خمس شعلات إلى السيجار فاختار إحداها، بينما صمت الآخرون على مضض وإن كانوا يغلون غيظا.
- الآن يا (ميمي) اقرئي لنا جدول الأعمال..
كان الأمر مضحكا كأنه مجلس إدارة شركة محترمة.. فقط الموضوعات غريبة بعض الشيء..
بصوت مرتجف بدأت (عبير) تقرأ القائمة:
- الموضوع الأول.. قبول عضوية (برناردو فابريزي) و (ألبرتو كاسباري) من (شيكاغو)..
قال أحد الجالسين، وهو رجل كث الحاجبين يبدو كذئب عجوز:
- أوافق على الأول.. أما الثاني فلى اعتراضات عليه.. إنه ليس صقليا.. ثم إنه فتى رقيع.. إن للمافيا مستوى شامخا من الأخلاقيات تفترضه فيمن ينضم لها.. بهذا نطمئن إلى قدرة العضو على ممارسة القتل والسرقة والتهريب والتزوير والسيطرة على نوادي القمار وبيوت الهوى والملاهي الليلية.. لو تنازلنا لانحدر مستوانا..
فكر (سكاليتشي) قليلا ثم غمغم:
- الحق ما تقول.. تأكدوا إذن من أن (فابريزي) سيتم كل الطقوس بشكل صحيح..
طقوس الانضمام للمافيا أكثرها سري هي أقرب إلى الكهنوت.. لكن تتضمنها قسم دم وأن يتلو العضو القسم وهو يضع كفه في لهب شمعة.. من مصلحة العضو أن يكون القسم قصيرا إذن.
- الموضوع الثاني هو الحاجة إلى صندوق لرشوة السادة أعضاء الكونجرس المذكورين.. وهم..

هتف أحد الجالسين، وهو على ما أظن (كاستيللاني) الشهير ب. (الملاك):
- لا أرى أن نضغط على جيوبنا في هذه اللحظة بالذات.. إنني..
قال (سكاليتشي) مقاطعا في حزم:
- هذه تقاليد (كابوني) العظيم.. الوجه ذو الندبة. أرى أن المافيا بدأت تتوانى عن رشوة الحكومة، وفي هذا نسيان خطير لقواعدنا الأساسية..
بعد مناقشات طالت، استقروا على تمويل الصندوق المذكور على أن يتولى الإشراف عليه (باولو جيرالدو) فهو خبير في حلب البراغيث.
- الموضوع الثالث يتعلق بتمويل العملية التالية..
هنا فقط ساد الوجوم.. بدا أن الكل يفكر في عواقب هذا القرار.. وكانت (عبير) تفتح أذنيها جيدا، لكنها لم تستطع أن تفهم شيئا.
قال (باولو جيرالدو) ذاته وهو يشعل سيجارا:
- مام ماميا.. الفكرة التي تثير قلقنا يا (سكاليتشي) هي أنك بلا خبرة في مجال المخدرات.. إن تهريب المخدرات علم له أساطينه.. وأخشى أن...
- (سكاليتشي) لا يفشل.. إنه ليس أكثر غباء ممن يحصدون الملايين من هذه البضاعة..
قالها (سكاليتشي) في عصبية، ثم أردف:
- لا تنسوا أننا سنتعامل مع رمزنا المقدس (لوتشيانو).. أنصع الرجال سمعة بعد (كابوني).. لقد قبض عليه رجال الشرطة عام 1935 بتهمة إدارة عدة شبكات للبغاء، ثم أجريت صفقة مع الحكومة الأمريكية لأنه نجح في إنهاء إضرابات العمال في موانئ (نيويورك) إبان الحرب الأخيرة.. هكذا نفي الرجل إلى (نابولي) هنالك صار هو مندوب المافيا في الخارج، وهو يشرف على كل عمليات تهريب المخدرات..
«إن (سلفاتوري لوتشيانو) شخصية حقيقية.. وبالنسبة للمافيا هو بطل قومي.. نشأ في أحياء (نيويورك) الحقيرة حيث تعلم الإجرام جيدا، وكان من زعماء المافيا وهو في الخامسة عشرة من عمره.. ثم صار يعمل مع الدون الرهيب (ماسيريا) ومعه ترقى إلى مرتبة (دون) هو الآخر بعدما تخلص من زعيمه.. والحقيقة أن (لوتشيانو) كان بعيد النظر حين أدرك أن أمريكا لن تقوى على الاستمرار في سياسة تحريم الخمور، لذا فكر في خطط مستقبلية للعصابة بعد انتهاء التحريم.. وكان الحل الذي وجده هو تجارة الهيروين..»
نعود لاجتماعنا المهم..
قال (سكاليتشي) من دون حذر (يبدو أن الثقة بالذات مؤذية في أغلب الأحوال):
- ستكون الصفقة هنا خلال أسبوع.. وسيتم توزيع الأرباح حسب الأسهم.. إن السفينة (إيفانجليست) ستقلع من (نابولي) بينما عشرون كيلوجراما من الهيروين في خزانة بحار من بحارتها يدعى (فلدمان).. أقول هذه التفاصيل لو رغب أحدكم في التحقق..
وهكذا بدأت المزايدات وراحت (عبير) تدون النتائج إن سعر المخدرات عال جدا هذه الأيام بسبب الضربات الناجحة للشرطة الفيدرالية.. لكن معنى هذا أن الربح سيكون خياليا.
أخيرا انتهت العطاءات.. وبقيت بضع نقاط في جدول الأعمال أنهتها (عبير) بسرعة.
قال (سكاليتشي) للرجال وهو يشير لأحد التابعين له:
- لحظة.. هناك شيء أرغب في أن تروه.. إنه يرمز لصداقتنا..
جاءه التابع بصينية.. عليها مضرب ثقيل من مضارب البيسبول.. فتناول المضرب باسما ووقف به في منتصف القاعة.

قال للرجال وهو يمضغ السيجار:
- لعبة البيسبول هي ما نفعله نحن.. تلعب بروح الفريق.. كل واحد منا يركض بأقصى ما يستطيع ويصد هجمات الشرطة قدر ما يستطيع.. لكنك لو لم تؤد دورك تخسر اللعبة، حتى لو لم يكن هناك تهديد عليك..
كانت (عبير) تبتسم في بلاهة لهذا التشبيه، لكنها رأت وجوه الرجال فرأت الهلع مرتسما عليها.. ما لم تعرفه هو أن هذا المشهد هو بالضبط تكرار لمشهد سابق أداه (آل كابوني) في (شيكاغو).. لقد تذكروه وارتجفوا هلعا.
قال (سكاليتشي) وهو يدور حول الرجال:
- البيسبول يعلمك بالضبط متى تضرب ومتى تتوقف.. ومتي..
وكما توقع الجميع انهال بالمضرب الثقيل على رأس أحدهم، وكان هذا هو (كاستيللاني) الذي لم يجد وقتا ليخاف.. انفجر رأسه، وصرخ الجميع في رعب عاجزين عن عمل شيء، بينما الضربات تنهال على رأس الرجل لتكمل المهمة. بعده جاء دور (منجيني).. لقد فعل (كابوني) الشيء ذاته يوما في الثلاثينات حين هشم رأس (أتسلكي) و (جونيتا) و (سكاليتشي) - واحد آخر - بعد مأدبة عشاء دسمة..
أخيرا هدأ (سكاليتشي) فوقف يلهث والعرق يبلل وجهه، وقال:
- من أراد أن يعارضني أو يجادلني أكثر فليقل ذلك الآن..
طبعا ساد الصمت مع كل هذه الديموقراطية.
وكان معنى هذا واضحا.. (سكاليتشي) يحاول أن يتخذ نفس مكانة (كابوني) العزيزة.. ثم هو يعلن نفسه ملكا على هؤلاء الجالسين وعلى الجريمة في (نيويورك)..
بمعنى آخر لقد جاء وقت إزاحة الزعيم الشرعي الدون (مولدانو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتاجت (عبير) إلى ثلاث ساعات في غرفتها حتى استطاعت أن تستجمع شتات أعصابها.. كل خلية عصبية كانت متوارية في ركن ما ترتجف.. في النهاية استطاعت أن تجلس وعلى ظهر مشط ثقاب في غرفتها خطت بدقة:
- صفقة مخدرات خلال أسبوع، السفينة (إيفانجليست) ستقلع من (نابولي). عشرون كيلوجراما من الهيروين في خزانة بحار من بحارتها. (سكاليتشي) قتل بيده (كاستيللاني) و (منجيني)..
ثم أخفت المشط في جيب ثوبها.. سيكون عليها أن تنتظر لحظة اللقاء.
بالواقع بدا كأنما ينتظر حتى تدون هذا..
- هل طلبت خدمة الغرف يا سيدتي وجه الطفلة؟
كان الواقف على الباب رجلا في الأربعين.. له شارب كث ويضع عوينات ويلبس ثياب خدمة الغرف.. طبعا من الواضح تماما أنه لم يستطع إخفاء ملامح (شريف).. إنه تنكر لا يخدعها لكنه يخدع سواها....
سألته في حذر:
- بم دعوتني؟
- وجه الطفلة.. شعرت للحظة أنك تملكين وجه طفلة يا سيدتى.. اغفري لي وقاحتي..
دست مشط الثقاب في يده وقالت في حزم:
- أرجوك أن تتأكد حين تسمع الجرس من أية غرفة جاء الاستدعاء..

ثم أغلقت الباب في صرامة فتوارت ابتسامته المتفهمة، وعادت لتجلس على الفراش.
كانت ترتجف من الداخل.. فما قامت به خطير.. لقد رأت ما فعله (سكاليتشي) لمجرد المعارضة الخافتة، فماذا عن المندسين والعملاء؟
ولو استطاع البوليس ضبط المخدرات فلمن يتجه الشك؟ ثمة غريب بيننا فمن هو؟ وقتها لن يكون مضرب البيسبول هو عقابها.. ستستحق عقابا لم يرد في الأساطير الإغريقية..
لكنها بالفعل ستضيع في هذا العالم.. ليس في وسعها إلا المقامرة على أن رجال الشرطة أكفاء حقا.. يعرفون عملهم حقا.. وإلا فهي بطة ميتة كما يقولون.
بعد قليل دق الباب من جديد.
هل عاد (لويجي)؟ لا.. من المستحيل أن يجرؤ على الحماقة ذاتها مرتين.
فتحت الباب فوجدت (سكاليتشي) نفسه شخصيا.. وكان معه حارساه الشخصيان اللذان أشار لهما أن ينتظرا بالخارج.. ما الموضوع بالضبط؟
دخل الرجل الغرفة، ونزع قبعته.. رائحة السيجار الشيطانية تخنقها.
قال لها وهو يتشمم هواء الغرفة
- أنت سمعت عن (سكاليتشي) يا (ميمي).. طبعا لم تعرفي إلا جانبه الرومانسي المرهف.. لكن هناك جانبا آخر لمحت جزءا منه في اجتماع الليلة..
جانب رومانسي مرهف؟ لو كان ما رأته هو الجانب الرومانسي المرهف فمن المؤكد أنها لا ترغب البتة في رؤية الجانب الأخر..
هزت رأسها بما معناه أنها تفهم.
أردف الرجل:
- لا أحد يخدعني.. هل فهمت هذا؟ إن القبور تعج بمن حاولوا خداعي، لكن الجميع تعلم الدرس الآن.. هل تفهمين؟
ومن جيبه أخرج مشط ثقاب.. نفس مشط الثقاب الخاص بالفندق والذي استعملته لكتابة الرسالة!
حك العود ليشعله ثم أشعل سيجاره من جديد ووقف يرمقها بعينين ثابتتين من وراء اللهب، حتى إن أطراف أنامله احترقت، قبل أن يهز العود ويلقى به أرضا.
- أحيانا تعتقد فتاة حمقاء أنها قادرة على خداعي.. لكنها تدفع الثمن غاليا..
هنا فقط بدأت ساقاها تتحولان إلى عودين من المكرونة المسلوقة أو (الباستا) في وجود كل هؤلاء الإيطاليين.. فتحت فمها لتبكي أو تعترف أو تطلب الرحمة لكنها لم تجد الصوت الكافي..
قال وهو يتأمل مشط الثقاب في اهتمام:
- أنا أكره العنف مع النساء لكنني مضطر لذلك..
هتفت في ذعر:
- عم تتحدث بالضبط؟
نظر لها في هدوء وأخرج سحابة دخان وقال:
- عن زوجتي طبعا.. إنها كانت تحب ذلك الوغد (كاستيللاني)!
تنهدت (عبير) الصعداء، واندفعت الدماء من جديد كالشلال إلى وجهها وهتفت:
- آه هـ هـ هـ! ألهذا قتلته؟
- من ضمن الأسباب.. لكني لن أقتلها.. فهي ابنة صديق عمري (أنستاسيا).. العلاقات بين الإخوة في الأسرة أقوى من هذه السفاسف.. سأكتفي بتعذيبها وأن أحيل حياتها جحيما..

ثم نظر لها وابتسم:
- أعتقد أن هذا الخبر أسعدك.. لم أرك مرتبكة بهذه الدرجة من قبل..
ثم ناولها مشط الثقاب، وقال وهو يخرج:
- سنعود إلى (نيويورك) صباحا.. لقد أنهيت أعمالى هنا..
أعمال؟ يا لها من أعمال!! جلست على الفراش تستجمع أنفاسها وقلبها يرفرف كطير ذبيح.. ثم نظرت إلى مشط الثقاب.. لا يوجد شيء.. طبعا.. كل غرفة في الفندق بها ذات المشط.. لكنها لم تشعر بالرعب قط مثلما شعرت به في هذه اللحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- حكم بالإعدام..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. أحيانا تشعر بأنها أجمل من أن ترتبط بهذا العالم المريع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الماء يتدفق في الحمام.. وأكثر من خمسين (دشا) مفتوحا والأرض مبتلة زلقة.
يقف السجناء يستحمون ويثرثرون ناعمين بهذه اللحظة الوجيزة من النظافة.. بينهم يقف (جو الصقلي) يغمر نفسه برغوة الصابون، وكما هو واضح فإن (جو) رجل مافيا.. لهذا يهابه السجناء ويتحاشون إغضابه.
الآن فقط شعر المساجين بشيء ما مقلق..
إنه ذلك السجين الذي لم يروه من قبل والذي يقف عند الباب.. إنه يلبس ثياب السجن كاملة، لكن وقفته الواثقة المخيفة ولفافة التبغ بين شفتيه كلها تقول إنه ليس سجينا عاديا..
وكأنما أدوا بروفة هذا المشهد مرارا راح السجناء يتسللون خارجين من المكان في صمت.. الواحد تلو الأخر..
(جو الصقلي) يغسل رأسه والفقاقيع تملأ عينيه.. لهذا لا يدرك ما حدث.. لا يدرك أنه صار وحده تماما في الحمام.. لا يدرك أن هذا الغريب الغامض صار خلفه الآن..
زالت الرغوة من عينيه وراح يلهث من فرط الماء المتدفق من حاجبيه وشعره على وجهه.. هنا فقط أدرك أنه وحيد..
التفت للوراء يتساءل هنا سمع صوتا يقول له:
- هذه مع تحيات الدون يا (جو)..
ومر نصل المدية تحت ذقنه في سرعة وحزم وفعالية..
لكنه كان قد مات من الرعب قبل أن يصل النصل لأي شيء؛ لأنه عرف على الفور الصوت الذي سمعه.. هذا صوت (لوكا التركي).. وهكذا مات من قبل أن يموت..
لقد قال لضباط الشرطة منذ أسبوع إنه سيتكلم.. سيحكي كل شيء يعرفه عن الدون (مولدانو).. مقابل أن يصير شاهد ملك، ويقوموا بحمايته.. لكنه لم يتصور لحظة أن هذا الخبر سيتسرب.. لم يتصور أن الأسرة ستعرف كل شيء.. ولم يتصور أنها سترسل له من يسكته وهو في السجن.. أما آخر ما تصوره فهو أن يكون القادم هو (لوكا التركي) بالذات.. إن الأسرة تعطيه مكانة لا يستحقها..
فكر في هذا كله بينما روحه تفارق جسده، و (لوكا التركي) يغادر المكان مسرعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على المسرح تواصل (عبير) غناء أغنيتها الشهيرة:

- ستكون لديك (أنا) أخرى.. بل مئات الد (أنا)..
تلك ليست مشكلة.. لكن ماذا عني أنا؟
مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر..

فلن يكون هناك (أنت) آخر..

كان (سكاليتشي) جالسا في الصالة كالعادة يثرثر مع رجاله.. وطلب أحد الرجال منه أن يدخل دورة المياه فأذن له..
بعد قليل عد الرجل ويده في جيبه.. على الفور انطلق الرصاص ليقتله.. لقد صار هذا مملا.. لا بد أنها رأت المشهد خمسين مرة حتى الآن.

- أعرف أنك ستكون سعيدا.
بلد آخر.. بيت آخر.. واحدة أخرى..
الذكريات تتحول إلى قطرات ندي..
سرعان ما تجف
مع شمس الجنوب..

أحد رجال (سكاليتشي) غادر الملهى ليقوم بمهمة ما.. ثم.. بووووم! دوي الانفجار المعتاد.. لا توجد سيارة مافيا غير ملغمة على ما يبدو، حتى إن رجال المافيا يتوقون - في ظنها - إلى أن يجربوا السرعة الثانية أو الثالثة في سياراتهم لكن القدر لا يمهلهم.. لا بد أن هناك كهربائيا بارعا كون ثروة من هذه المهنة: تلغيم السيارات.. ولا بد أن كهربائي المافيا يعلقون لافتة (تلغيم السيارات) إلى جوار لافتة (تركيب أجهزة الإنذار والسنتر لوك)..
كان (سكاليتشي) يزداد شرودا وهما، وصار عصبيا بالفعل.. إلى حد أنها تجاسرت ذات مرة وسألته عما يضايقه، فقال وهو يقضم سيجاره:
- لا شيء..
- هل السبب هو زوجتك؟
قال وهو يشعل طرف السيجار:
- لا.. لقد عادت إلى حبي بمجرد أن رأت أذن (كاستيللاني) في علبة مجوهراتها.. إن قلب النساء ساذج يسهل خداعه بسهولة.. تصوري أن هدية بسيطة كهذه جعلتها تخلص لى إلى الأبد!
- إذن؟
نظر إلى النافذة حيث كان الميناء يبدو من بعيد وقال:
- إنها صفقة (الهيروين) تلك..
- إنها قادمة.. هل حدث شيء؟
- لا.. لكن لو حدث شيء لانتهيت أنا..
فكرت قليلا ثم قالت وهي تتظاهر بأنها لم تبلغ كل شيء للشرطة:
- هل سيتكلم البحار؟
- لا.. هو لا يعرف مع من يتعامل.. لكن المشكلة هي أنني استثمرت كل رصيدي.. كل أموال رجال العصابات في هذه الصفقة.. لو ضاعت المخدرات لضعت أنا..
وصدقيني إن الوقوع في قبضة الشرطة أكثر رحمة..
ولم تكن (عبير) تعرف طبعا أنه في هذه اللحظة بالذات كانت السفينة (إيفانجليست) تدخل إلى الميناء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع الرجال الذين يشبهون رجال العصابات فوق ظهر السفينة.

كلما اعترض طريقهم أحد لوحوا بشاراتهم المعدنية:
- نحن من الـ FBI.. أين (فلدمان)؟
على كل حال لم يكن من داع لإبراز الشارات لأنهم كانوا قادرين على فعل ما يريدون.. كل واحد منهم يشبه بوابة (المتولي) ذاتها.. يرتدون القبعات والبذلات التي توشك على الانفجار من فرط ما تحتها من عضلات، وجوه شرسة وسلطة في العينين تقول ببساطة: نحن من عتاة المجرمين أو من عتاة المخبرين الذين يقبضون على عتاة المجرمين.
وبعد ثوان ظهر البحار المثير للشفقة (فلدمان).. إنه نحيل مصاب بفقر الدم يوشك على السقوط أرضا من الهلع والرعب.. الحق أن المشهد بدا أقرب إلى دجاجة هزيلة في يد جزار عملاق..
- أين خزانتك؟ هنا!!
وبكثير من العنف والدفع اقتيد الرجل إلى الخزانة.. إلى حد أنهم لطموا وجهه ببابها المعدني.. فتحها وهو يرتجف رعبا.. في الداخل كانت هناك صور لـ (استر ويليامز) و (مارلين مونرو) كأي خزانة بحار.. لكن كانت هناك أيضا تلك الحقيبة الثقيلة العملاقة التي امتلأت بأكياس..
الأكياس من (النايلون) الشفاف تحوي ما يشبه مسحوق الأسبيرين.
كما يحدث في السينما أفرغ أحدهم كيسا على ظهر يده وتشممه.. في الحقيقة لم أر قط من يفعل هذا ثم يقول: لقد أخطأنا.. كأن عملية الشم ذاتها هي تحليل الطب الشرعي النهائي..
لقد تم ضبط الكمية كلها..
ووجه أحدهم لكمة إلى معدة البحار.. فسقط أرضا وهو يعوي.. هنا ركله أحدهم في وجهه..
سأل أحدهم الآخر:
- لماذا نضربه؟ إنه في قبضتنا
قال زميله وهو يركل البحار المكوم على الأرض:
- لا أدري.. إن هذا يجعلنا نظهر في صورة الرجال شديدى المراس المحترفين.. ثم إن الخلاص من المشاعر العدوانية أمر لا بأس به..
تذكر أحدهم أن امرأته اتهمته بأنه لا يعطيها مالا كافيا لهذا كور قبضته و... بوم!
تذكر آخر أن ابنه فر من البيت.. لذا رفع ركبته و.. طاخ!.
الثالث تذكر أن رئيسة وغد وربما معتوه.. باوم!
أما الذي وثب في الهواء وهوى بقدميه على الرجل فقد فعل هذا لأنه ساخط على سيطرة الديموقراطيين على الحكومة.. طراخ! أي!
أخيرا سقط (سكاليتشي) في الشرك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا هو الاجتماع الأهم في تاريخ (نيويورك) على أننا يمكن أن نتخيل جوه لو أننا تذكرنا الاجتماع السابق.. فقط ليكن كل شيء بالعكس.. لن يكون (سكاليتشي) هو الحاكم الأمر.. ولن ينفش صدره.. سيجلس كالدجاجة التي سقطت في إناء شربها وابتل ريشها بالماء.. سيغمر العرق جبهته.. سيرتعش..
(عبير) تجلس عن كثب تدرك بوضوح خطورة موقف هذا الرجل الذي كان يعد نفسه لزعامة (نيويورك).
الجميع هنا.. (باولو جيرالدو).. (مارديني).. (جويسي بربارا).. إلخ.

النظرات حادة ثاقبة كلها مسلطة على وجهه فلو أن النظرات تقتل..
كان (سكاليتشي) حذرا، فقد كان يعرف هذا الطراز من الدعوات.. إن المافيا تتبع تقليدا شبيها بالعشاء الأخير، فيه يتم دعوة العضو المرشح للإعدام إلى الطعام في مطعم فاخر.. شموع.. موسيقا.. ثم تنتهي العملية.
لهذا حرص من البداية على أن يجلب معه جيشا من رجاله لحمايته.. كانوا يقفون وراءه وأيديهم على بنادقهم الآلية.. وكان رجال المافيا الأخرون قد اتخذوا إجراءات مماثلة.
يقول (جيرالدو):
- (سكاليتشي).. أنت تعرف ما نريد قوله.. أنت مسئول مسئولية تامة عن فشل العملية..
صاح (سكاليتشي) موشكا على البكاء:
- فقط لو عرفت كيف عرف الفيدراليون..
- النتيجة واحدة هي أنهم عرفوا.. الآن حسب قوانين الأسرة أنت مسئول بالكامل عن إعادة نقودنا.. لن يلقاك أحد بابتسامات متفهمة.. متى تتوقع أن تعيد لنا مالنا؟
لا يتوقع.. (عبير) تعرف هذا جيدا.. إن المبلغ جسيم ولو باع كل أملاكه فلن يتمكن من ذلك.. لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟
قال بصوت مبحوح:
- أنا أطلب أن تمهلوني أسبوعين..
- بل هو أسبوع واحد.
وفكرت (عبير).. سبحان مغير الأحوال.. منذ أيام كان هذا الرجل يجلس كالملك يدخن سيجاره في ثقة، بل إنه وصل إلى أعلى درجات السيطرة حين هشم رءوس رجاله بالمضرب.. أما اليوم فهو يستأذن هؤلاء الرجال في أسبوعين..
كما كانت تعرف أن هناك بعض الجالسين هنا ممن كانوا يحبون (كاستيللاني) و (منجيني).. هؤلاء لم ينسوا من قتل هذين بلا سبب إلا ليبدو زعيما لا يمزح..
قال (سكاليتشي) وهو ينهض:
- حسن.. سأتصل بكم بعد أسبوع لإعادة المال.
لكنه لن يفعل.. (عبير) كانت تعرف هذا.. وكانت تعرف أن الحكم بالإعدام صدر عليه فعلا.. هي لا تبالي ولا تشفق عليه لحظة.. على من يلهو بالنار أن يحترق بها.. لكن ما دورها هي في كل هذا؟ وأين تذهب؟
تذكرت كتكوتا صغيرا رأته ذات مرة يركض في الشارع بين عجلات السيارات.. لا يعرف لأين يذهب ولا ماذا يفعل.. كان ميتا لا محالة.. لكن المشكلة كانت أنه يعرف هذا..
متى يتصل بها (لويجي بيرازي) أو المفتش (جيمس باليني) حسب التعديل الأخير؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الإعدام نفسه..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما..
لا أدري من أين.. هل فتح أحدكم جهاز التسجيل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الواحدة والنصف بعد الظهر، مشي (سكاليتشي) في شارع (آرثر) متجها إلى محل (مازارو) للخضراوات..
الحقيقة أن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة.. وكان الرجل الحريص على كل شيء في تفاصيل حياته، والذي يقود سيارته بسرعة البرق ولا يظهر في ذات المكان مرتين أبدا، قد تخفف من حراسته وقرر أن يمارس حياته البسيطة القديمة.. أن يتناول الغداء في الشارع وأن يبتاع خضرا وفاكهة.. وهي عادة يلجأ إليها من حين لآخر كانت هذه هي النقطة.
لقد راقبه رجال المافيا أسبوعا كاملا وقد عرفوا أنه لن يستطيع رد أموالهم أبدا.. وهكذا في ظروف خاصة كهذه عاد الكثير منهم إلى الدون (مولدانو) ليبدوا ندمهم.. لا أحد يستطيع أن ينتصر على الدون.. لا أحد يمكن أن ينفصل عن الدون.. كل واحد منهم انحني ولثم الخاتم في يد الرجل.. ثم أعلن ولاءه.. بل إن كلا منهم ناداه ب. (أبي).. وهذا يعلن عن اعترافه التام بأنه الأب الروحي للمنظمة.
قال لهم الدون في رضا
- لقد تأخرتم كثيرا يا حمقى.. الآن وبعدما ضاعت أموالكم تأتون إلى لتقولوا (أبي).. أنا لا أستطيع أن أرد لكم أموالكم.. إنها لدى الفيدراليين الآن..
- إذن هو الانتقام.. أنت تعرف أن (سكاليتشي) حذر ورجاله لا يفارقونه..
- ما من عدو للدون آمن في بيته.
وصدرت التعليمات لرجال الدون كي يراقبوا (سكاليتشي) جيدا، وكان أن عرف رجاله هذه الثغرة في جدار الرجل الأمني.. وهكذا صدرت التعليمات باقتناص هذه الفرصة..
كان (سكاليتشي) يمشي في الشارع يبعث التحيات الإيطالية المرحة لكل البقالين على الجانبين.. إنهم يحبونه ويحترمونه.. نعم.. فهو رجل اجتماعي خدوم أو هذا ما يرونه منه..
دخل متجر الخضراوات فنهض صاحبه يحييه باحترام، ثم تنحى جانبا لأنه يعرف مقت الرجل للمراقبة..
انهمك (سكاليتشي) بين أنواع الطماطم والفاكهة، فلم يلحظ السيارة التي توقفت أمام المتجر.. هذه سيارة مميزة لأن أرقامها تتغير من ثانية لأخرى كأنها الآلة الحاسبة التي يضعها البقال على الكاونتر.. في لحظة هي من (أوهايو) وفي لحظة هي من (نيويورك)..
أما من ترجل من السيارة فكان شخصا مميزا بثيابه السوداء وحذائه الأبيض وصندوق الكمان الذي يحمله..
يسهل على من يدقق النظر أن يفهم أن هذا الرجل يعزف مقطوعات من نوع غريب بعض الشيء..
يدخل المتجر.. يقف في الظل يراقب المجرم الذي فقد عرشه.. ثم يمد يده إلى علبة الآلة الموسيقية، يدس يديه في قفازيه الأبيضين، وفي رفق وحنان يتحسس بندقيته الآلية الناعمة البراقة.
يخرج البندقية.. يصوبها نحو (سكاليتشي).
هنا - بغريزة الذئب - سمع (سكاليتشي) صوت السلاح وهو يستعد لإطلاق.. في يده أجاصة لم يعد يعرف ما يفعل بها.. كاد يركض لكنه عرف أن الواقف أمامه هو (لوكا التركي) نفسه..
عندها عرف أنه لا داعي لإضاعة الوقت والكبرياء فيما لا نفع منه.

قضم قضمة من الأجاصة وابتسم ابتسامة باهتة متحدية كي يذكرها من يأتون بعده..
قال (التركي):
- هذه من تحيات الدون (مولدانو) يا (سكاليتشي)..
ماذا؟ ما دخل الدون بهذا؟ لقد حسبه مستأجرا من قبل شركائه الذين فقدوا أموالهم.. فما دخل ال..
راتاتا تا تا تا!!!
وسقط (سكاليتشي) على الأرض.. مشكلة الموت المفاجئ هي أنه لا يترك لك الفرصة لإشباع فضولك.. وما كان ليضير (التركي) شيء لو أجاب عن الأسئلة ثم أطلق الرصاص؟
لكن كل هؤلاء القتلة قساة القلوب الدخان ينعم الهواء.. وصاحب المتجر قد بال في سراويله هلعا، هنا يعيد (التركي) بندقيته بعناية إلى علبة الكمان.. يتجه إلى الباب في صمت ويستقل سيارته وينصرف..

لقد عرف جميع سكان الشارع أنه (لوكا التركي)..
لكنهم جميعا عرفوا أنهم لن يذكروا اسمه للشرطة.. لو ذكروا اسمه فلن يجدوا مكانا آمنا على وجه الأرض بقية حياتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي اليوم ذاته تلقى أخوا (سكاليتشي) طردين.. فتح كل منهما طرده فوجد فيه سمكة متعفنة..
هذه البرقية القصيرة قوية الرائحة جعلتهما يعرفان الخبر مبكرا جدا.
أما أول من عرف بالخبر في (نيويورك) من خارج المافيا فكان (عبير) ذاتها.. لقد جاءتها مكالمة هاتفية حيث كانت في حديقة (سكاليتشي) في بيته الفاخر.. كانت جالسة – طبعا مرغمة - تتأمل حمام السباحة وتفكر مهمومة في طريقة الخروج من هذا كله.. دق جرس الهاتف مرارا فلم يأت من يرد عليه.. كانت وحيدة تماما.. هكذا نهضت إلى البر وتناولت السماعة.. سمعت الصوت يقول لها:
- كيف حالك يا وجه الطفلة؟
ارتجف قلبها وقد أدركت أن هناك من يذكرها ويعنى بأمرها..

لكنني مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر..
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

- (سكاليتشي) مات الآن..
من جديد ارتجف قلبها.. كانت تتوقع النبأ منذ الاجتماع الأخير لكن وقعه كان رهيبا.. هؤلاء القوم يتصرفون كأنهم القدر.. حكم إعدامهم لا يمكن استئنافه.
من جديد عاد الصوت يقول:
- ستتصرفين بسرعة البرق. لا وقت للانفعالات.. الآن تدخلين إلى غرفة مكتب (سكاليتشي).. كل رجاله سمعوا بالخبر وتركوا البيت.. أنت وحدك تماما.. فتشي المكتب جيدا.. هذا الرجل غير حذر وواثق من نفسه.. أعني أنه كان كذلك.. سوف تجدين رسائل وأرقام هاتف وأسماء.. ضعي هذا كله في جيبك.. ثم غادرى البيت.. ستجدين سيارة شرطة واقفة بالخارج فاركبيها بسرعة

وبلا تردد.. لا تنتظري لحظات إلى أن يحدد القناص مكانك!
- هل هناك قناص؟
- لا بد من واحد.. إن هذه الفرضية تعطيك عمرا أطول..
من دون كلمة أخرى، وثبت (عبير).. تعثرت في مقعد صغير لكنها تماسكت ونهضت.. ركضت داخل الدار.. إنها تعرف أين يقع مكتب (سكاليتشي) بالضبط، وفي العادة يكون هناك أكثر من ثلاثة رجال جواره، أما الآن فالبيت كله خال.. فتحت الباب فرأت المكتب مغمورا في ضوء خافت يتسلل من ستائر النافذة الثقيلة.
اتجهت كالملهوفة إلى المكتب ذاته.. ومن دون تفكير راحت تجمع كل ما وجدته عليه من أوراق.. مفكرات صغيرة... تلهث.. تلهث.. لو أن أحدا رآها فلن تكون هناك أسئلة.. قرار الإدانة مرسوم على وجهها.
وضعت ما وجدته في جيبها.. حتى الأقلام جمعتها..
حاولت فتح الأدراج كلها لكنها كانت موصدة.. يكفي هذا.. يمكنها أن تفر.
لكن حب الإجادة تغلب عليها.. هناك سلسلة مفاتيح ذهبية ملقاة على المكتب تتدلى منها مفاتيح غريبة الشكل لها مقبض جلدي.. تناولت أحدها وجربت فتح الأدراج.. إنها تنفتح..
المزيد من الملفات الدسمة.. هذه لا تصلح للوضع في الجيب بل يجب أن تحملها تحت إبطها..
الآن يجب أن...
- لا تتحركي يا حسناء!
كانت هذه (ماريا سكاليتش) زوجة الفقيد.. كانت واقفة على الباب وهي تمسك مسدسا بكلتا يديها. وقد بدت كالعقرب.. بالضبط كالعقرب إذ وقفت هناك على الباب..



كانت واقفة على الباب وهى تمسك مسدسًا بكلتا يديها .. وقد بدت كالعقرب ..

رفعت (عبير) وجهها وقد تجمدت الدماء في عروقها..
تبا! كيف نسيت (عبير) هذه الحدأة؟
قالت المرأة وهي تحاول ألا ترتجف يدها:
- من البداية أنذرت (فرانشسكو) الأحمق بأنني لا أستريح إليك كثيرا.. لكنه فضل أن..
تذكرت (عبير) مشهدا لم تستطع نسيانه من فيلم (الطيب والشرس والقبيح)، حين كان (إيلي

والاش) في مغطس الحمام واقتحم عليه المكان قاتل يبغي رأسه.. راح القاتل يثرثر ويتشفى في خصمه معدوم الحيلة الجالس في المغطس.. هكذا أخرج (والاش) المسدس من تحت رغوة الصابون وأفرغه في المهاجم.. ثم بصق عليه وقال في اشمئزاز: كلام.. كلام.. لماذا لا تطلق الرصاص يا أحمق؟!

تذكرت هذا المشهد في ربع ثانية، وهي تلتقط تمثالا على المكتب يستخدمه (سكاليتشي) كثقل للورق.. قذفت به في وجه المرأة وهي تثب جانبا.. هكذا سمعت صوت الارتطام مع الطلقة في آن واحد، وسقطت زوجة (سكاليتشي) مع التمثال على الأرض.. لم يكن ثمة وقت كاف لمعرفة هل ماتت أم فقدت الوعي أم تتظاهر بإحدى الحالتين.

لقد وثبت (عبير) من فوقها واندفعت حاملة غنيمتها كالمجنونة نحو الباب..

هذه سيارة شرطة.. نعم.. سيارة شرطة وسائقها ينظر لها حائرا لا يعرف من أين جاء صوت الطاقة، هنا فتحت الباب الخلفي وألقت بنفسها إلى الداخل.

الحديقة.. الحديقة.. هؤلاء الحمقى تركوا البوابة مفتوحة..

- انطلق!!

كان هذا هو صوت (لويجي بيرازي) أو المفتش (جيمس بانيني) من جوارها، لقد كان جالسا في المقعد الخلفي طيلة الوقت، وإن بدل ملامحه قليلا كي لا يتعرفه أحد، وغاص في مقعده تحت مستوى النظر.، وسرعان ما راحت العربة تطوى الأرض نهبا وتنهبها طيا - معذرة على الخطأ لكنه التوتر - بينما راحت (عبير) تنشج وترتجف.

مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

ومن دون أن تدري كيف: أفرغت كل ما في جيبها في راحته، ثم وضعت الملفات على حجره..

قال لها وهو يتصفح أحد الملفات في اشمئزاز:

- غباء!!

- أي غباء؟

- أتحدث عن (سكاليتشي).. إن الرجل كان يحتفظ بملفات كاملة لنشاطه الإجرامي.. لم أر أحمق من هذا في حياتي كلها.. هذه الملفات تساوي ثقلها ذهبا..

ثم أخذ شهيقا عميقا وقال وهو ينظر إلى الوراء:

- الآن تتحدث مافيا (نيويورك) كلها عن المطربة (ميمي واندر) التي أوقعت ب.(سكاليتشي) وسرقت ملفاته.. طبعا لن يطول الوقت حتى يتهموك بإفشاء عملية تهريب المخدرات..

- هل تقول هذا لتسعدني؟

- بل لأقول إننا ذاهبون إلى المكتب الفيدرالي.. يجب أن يبدأ برنامج حماية الشهود معك حالا.. اسم جديد.. بيت جديد حياة جديدة.. ربما وجه جديد كذلك.

إن المفاجآت لا تنتهي يا (عبير)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- ابحثوا عنها..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. إنها تذكرك بخبرة لم تعشها في أرض تزرها مع أشخاص لم ترهم قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الدون (مولدانو) يداعب قطته الشيرازية العملاقة المستكينة في حجره، بينما صوت (كاوروزو) الرنان ينبعث من السماعات العملاقة المنتشرة في الغرفة.
أمامه وقف (لوكا التركي) حاملا علبة الكمان الشهيرة.. إنه لا يتخلى عنها أبدا حتى حين يقابل الدون، وقد فشل الحراس في أخذها منه.. لكن الدون كان يعرف الرجل.. ويثق به.. الرجل الوحيد الذي يمكن أن يحمل سلاحا وهو يقابل الدون هو (لوكا التركي).
قال الدون في استمتاع بصوته المبحوح الذي يذكرك باحتكاك (الفوم):
- أوه.. الأوبرا.. إنها كالماء يقع على نفس صادية بالنسبة لنا معشر الصقليين..
لم يعلق (التركي) وظل محتفظا بقناع وجهه الصخري..
أردف الدون وهو يطلق سراح القط:
- لقد سخر الفيدراليون منا.. كانت تلك الفتاة تعمل معهم، وأنا جلبتها إلى هنا وطلبت منها أن تعمل معنا.. لقد خدعتني وخدعت (لويجي بيرازي) الأحمق.. والمشكلة الآن أنها تعرف كثيرا جدا.. لا أعرف ما قاله لها (سكاليتشي) ولا ما قاله لها (بيرازي) ولا ما وجدته بين أوراق الأول.. الجزء الأخير لم يعد في أيدينا بل هو في أيدي الفيدراليين.. لكننا نستطيع علاج ما اقترفنا من خطأ في الجزء الأول والثاني..
قال أحد الواقفين حول الدون، وهو (فيليب) المحامي:
- على الأقل استطاعت أن تفشل مخطط (سكاليتشي) للتهريب.. هكذا خدمتنا من حيث لا تدري.. لقد كان (سكاليتشي) يخطط كي يصير الدون في (نيويورك).. لقد فشل مخطط (سكاليتشي) وتهمة قتله لا تقع علينا ولكن على شركائه الذين أضاع نقودهم..
نظر له الدون في حدة، ثم قال:
- لو كان هناك شيء أكرهه يا (فيليب) فهو أن تقاطعني.. لو أردت رأيك لطلبته..
- آسف يا دون (ريكاردو).. أنا..
من جديد قال الدون في حدة:
- لو كان هناك شيء أكرهه أكثر من المقاطعة فهو أن يدعوني أحدهم ب. (ريكاردو)..
انحنى المحامي في رعب يلثم خاتم الدون، فسحب هذا يده في غيظ وصاح:
- لو كان هناك شيء أكرهه أكثر من المقاطعة واسم (ريكاردو) فهو أن يقبل يدي شخص غير صقلي..
الآن لم يعد المحامي يعرف أين يذهب أو ماذا يصنع بنفسه.. هنا - لحسن حظه - عاد الدون يتبادل الكلام مع (لوكا التركي):
- ستسكت الفتاة أيها (التركي).. إنها في مكان ما باسم مستعار.. سنحاول أن نأتي لك بالتفاصيل.. هي في حماية الشرطة لكنك لا تهتم بهذه الأمور طبعا..
في برود ومن دون أن يبدو على وجهه أي انفعال قال (لوكا):

- فليعتمد على الدون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيت جديد في (لوس أنجيليس).. شقة في الطابق العاشر من بناية شامخة.. اسمها الآن حسب الأوراق هو (جين هارلوت).. المفترض أنها رسامة.. المفترض أنها غير متزوجة.. المفترض أنها سوداء الشعر.. لقد كانت (ميمي) شقراء، وقد تعلمت (عبير) أن تصبغ شعرها بعناية وأن تضع العوينات.
كانت حياتها الآن شبه عادية، وإن شابها شيئان: أولا رقم الهاتف الخاص بالطوارئ الذي تحفظه عن ظهر قلب..
ثانيا تلك السيارة التي تمر بدارها من حين لآخر والرجال ذوو المعاطف الذين يقفون يدخنون تحت نافذتها.. يمكن لأي أعمى أن يعرف أنهم من رجال الشرطة السرية.. هذه الأجساد القوية والنظرات البوليسية الثاقبة لن تخدع أحدا..
أحيانا يأتيها صبي البقال حاملا بقالة لم تطلبها، وتفتح له الباب فترى ذات السمات.. الحذر.. الغموض.. الذكاء يشع من العينين.. فتدرك أنهم يتأكدون من أن كل شيء على ما يرام.. يبتسم لها ابتسامة ذات معنى ثم يرحل..
حين تنزل لتتسوق تدرك أن عدد الرجال الذين يقرءون الجريدة من حولها أكثر من اللازم..
إجراءات عديدة.. المفترض أن تجعلها أسعد، لكنها كانت تزيدها توترا.. إنها مطاردة من المافيا.. إنها قد حكم عليها بالإعدام من زمن.. هؤلاء الرجال الأشداء يحاولون حمايتها لكن لا بد من ثغرة ما في لحظة ما.
طبعا لا داعي لأن أقول إن (لويجي) أو المفتش (بانيني) لم يظهر مرة واحدة، وإن تلقت منه مكالمة ذات مرة..
كان يبدأ مكالماته معها ب. (يا وجه الطفلة) ... التي تحولت إلى شفرة متبادلة بينهما..
قال لها:
- لقد تحركت مياه تحت الجسور..
- ماذا تعني؟
- إن (لوكا التركي) يبحث عنك.. إنه هو ال Hitman الخاص بك..
- ما هذا الاسم السخيف؟
- لا تحاولي أن تخبريه برأيك في اسمه لو قابلته.. هذا الرجل لا يحب المزاح.. إنه كابوس..
- وماذا بوسعي أن أفعل أكثر من هذا؟ هناك مخبرون في حسائي..
- فقط حاولي أن تجدي الثغرات التي لم يسدوها هم.. وسديها أنت.. أنت تملكين ما لا يملكونه هم: الخيال..
لكن هذه المكالمة جعلتها أكثر قلقا.
من قال إنها واسعة الخيال؟ ولكن لا.. إن (فانتازيا) كلها وليدة خيالها فكيف لا تقدر على التنبؤ بسلوك قاتل اسمه (لوكا التركي)؟؟
الآن الساعة الواحدة صباحا وهي وحدها في الشقة.. لكنها تخرج إلى النافذة فترى أن السيارة إياها تقف هناك مطفأة الأضواء، والدخان يتصاعد من نافذتها كناية عن أن راكبيها يدخنون بكثافة.
وقفت ترقب المشهد بعض الوقت شاعرة بالاسترخاء يزحف إلى روحها..

ليلة هادئة أخرى.. إنها تعرف جيدا أنها ستشعر بليلة موتها.. ستعرفها من البداية.. لكن هذه الليلة ليست هي.

فجأة لفت نظرها شيء غريب..

رأت فتاة تخرج من باب البناية.. فتاة لها ذات قامتها ولون شعرها وتلبس نفس ثيابها.. باختصار توشك أن تكون هي لو رأيتها من بعيد..

الفتاة تنظر إلى الوراء في هلع، ثم تركض.. تمر بجوار السيارة الواقفة فتنظر لها بسرعة ثم تواصل الركض..

هناك رجل أسود الثياب يعتمر قبعة وحذاء أبيض.. يخرج من باب البناية بدوره وهو يجد السير خلف الفتاة.

الفتاة تستوقف سيارة أجرة وتثب فيها مذعورة.. هنا يكون الرجل قد لحق بها وفتح باب سيارة الأجرة برغم المقاومة ووثب إلى الداخل.. ثم انطلقت السيارة بالاثنين..

على الفور دبت الحياة في سيارة الشرطة الواقفة دارت محركاتها هادرة وانطلقت في إثر سيارة الأجرة..

ولم تكن سيارة الشرطة وحدها.. هناك سيارة أخرى لحقت بها.. ومن مكانها أدركت مدى الارتباك الذي حدث هنا.. إنهم متلهفون بالفعل..

ما معنى هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- كشف الأوراق..

(الأب الروحي).. موسيقا (نينو روتا) العذبة التي استوحاها من رعاة (صقلية) تنبعث من مكان ما.. الغريب أنها تصلح للبداية والنهاية معا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا بدأت تفهم..
بدأت في ذعر تفهم..
هذان اللذان خرجا من البناية هما ممثلان يلبسان مثلها ومثل قاتلها لو جاء.. فرت الفتاة أمام المخبرين ثم لحق بها القاتل.. فماذا يفعل رجال الشرطة؟ بالطبع يجن جنونهم ويسرعون خلف الضحية والقاتل.. وينسون كل شيء عن الضحية الحقيقية التي ما زالت آمنة في دارها..
هكذا يمكن القول إن المراقبة حولها صارت معدومة الآن.. إنها وحيدة تماما.. فلماذا هي وحيدة؟
لأن..
كريك كراك كلاتك!!!
هناك من يعبث بباب الشقة..
يمكنها بلا جهد أن تدرك أن القاتل يحسبها لم تع ما حدث وهو الآن يحاول التسلل إليها حيث لن تكون إلا نائمة على الأرجح...
انتصب شعر رأسها ونظرت إلى الوراء.. لن يلبث أن يدخل إلى الشقة.. هناك مكان واحد للاختباء.. إنه خطر لكنه ليس أكثر خطرا مما يوشك أن يحدث.
هكذا عادت إلى النافذة.. تسلقت إطارها ثم دفعت بجسدها إلى الخارج.. وقفت على الإفريز العريض تحت النافذة ترتجف.. لم تحاول النظر إلى الشارع تحت لأنه يمتصها لأسفل بقوة غير مسبوقة.. إنها تعرف كيف سيبدو الشارع المظلم من الطابق العاشر.. فقط أضواء المصابيح والسيارات.. فقط الهواء يحاول أن يقتلعها من مكانها...
زحفت بضع خطوات إلى جنب كي تصير خارج مجال النافذة ثم حبست أنفاسها.
لا بد أنه بالداخل الآن.. لا بد أنه يفتش عنها في غرفة النوم.. في الحمام.. تحت الفراش.. في كل مكان، ولا بد أن عدم العثور عليها أصابه بالجنون ككلب مسعور..
أحيانا يتقطع الضوء الخارج من النافذة ثم يعود.. إنه الآن جوار النافذة بالضبط....

لا بأس.. فلتتماسك.. لا بد أنه سيرحل.. لن يفكر في هذا المكان أبدا.. المهم الآن ألا تنظر لأسفل كي لا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة..
هذه الأشياء لا تحدث إلا لها..
انفتحت نافذة في البناية المقابلة وبرز رجل أصلع بدين.. كان يرتدي ثيابه الداخلية ويصيح وهو يفتح الزجاج:

- للمرة العاشرة تأكلين عشائي لمجرد أنتني تأخرت عن العودة.. اسمحي لي أن أقول شيئا وقحا.. إنني..
ثم نظر أمامه فرأى (عبير)..
فتح فاه في بلاهة.. ثم بعد ثانية خرج صوته المبحوح المذعور:
- ولكن.. إنها تحاول الانتحار. انتظري يا حمقاء!!
رفعت كفها لتخرسه لكن الأوان كان قد فات..
من النافذة جوارها برز وجه صخرى.. وجه عرفناه نحن جيدا لكنها تراه للمرة الأولى.. إنه (لوكا التركي) ذاته..
نظر لها بعناية وابتسم ابتسامة شيطانية.
في ثبات يخرج مسدسا عملاقا ويصوبه نحو رأسها.. يقول شيئا بصوت عال لكنها لا تسمعه بسبب الريح والمسافة..
نحن نعرف أنه يقول لها:
- هذه مع تحيات الدون (مولدانو)..
لن يخطئها من مسافة كهذه..
ودوت الطلقة المكتومة.
لكنها لم تسقط.. لم تطر بجناحين وقد تحررت روحها..
الذي سقط هو (لوكا التركي) ذاته.. كان يتحشرج ويسعل ويبصق دما، ثم هوي إلى الوراء ليختفي في الحجرة ثم ظهر وجه (لويجي) أو (باتيني) اللاهث المبتسم..

مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر..
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

أخيرا عادت إلى الغرفة معتمدة على ذراعه القوية.. وفي الداخل هالها الوحش المريع الراقد على السجادة، كما يبدو المذءوب بعد قتله في أفلام السينما.. بينما كان (لويجي) أو (بانيني) ينزع خنجره الذي غرسه في مؤخرة عنق الرجل المشغول بالتصويب من النافذة..
قال لها وهو ينظف النصل بمنديل ورقي:
- ليس (التركي) هو الوحيد الذي يجيد فن التنخيع.. لقد تسللت وراءه وغرست الخنجر في الوقت المناسب.
قالت له لاهثة وهي تجلس على الأرض غير عابئة بكل هذه الدماء:
- لم يطلق رصاصة واحدة..
- إن التنخيع يختلف عن أي طريقة موت أخرى، في أنه يقضي على الجهاز العصبي من الثانية الأولى.. بينما أنواع القتل الأخرى تسمح بتقلص عصبي للسبابة.. إن التنخيع أسلوب راق يناسب أبناء الأسر الطيبة..
مدت ساقيها أمامها وهمست:
- لا أنكر أنك جئت في الوقت المناسب.. لكني لا أعرف كيف وجدني
- إنه واسع الحيلة.. صدقي أن يكون قد فعل أي شيء بدءا من رشوة المسئولين عن برنامج حماية الشهود، وانتهاء بمسح كل المحلات التي تبيع دهان شعر أسود ومعرفة العميلات المنتظمات.. على كل حال واضح أن الدون هو من أرسله.. فهذا الرجل لا يعمل إلا لزبون واحد..

ومد يده إلى مسدس الرجل فتأمله في اهتمام.
كان كاتم الصوت قد اخترع في الحرب العالمية الثانية، لكنه لم يكن منتشرا بين أفراد العصابات في الخمسينات. هذا المسدس كان مزودا بكاتم صوت.. أخرج منديلا من جيبة ومسح المسدس جيدا وإن ظل محتفظا بالمنديل حول مقبضه..
قال (لويجي) أو (باتيني) في هدوء:
- كان الهدف من هذه القصة كلها أن يقع (سكاليتشي) في فخ الشرطة وأن تعدمه الأسرة.. لهذا أقنعت أنا الدون (مولدانو) باستغلالك لأنك أقرب شخص إلى (سكاليتشي) وكان النجاح باهرا..
أما وقد جاء دورك فإنني توقعت أن الدون سيرسل (لوكا التركي) بحثا عنك، وكان على أن أترقب اللحظة المناسبة كي أقتله.. لا أحد يستطيع قتل التركي أبدا ما لم يكن الأخير مشغولا بالقتل..
هكذا انتظرت في الظلام حتى تبينت خطته ثم تسللت من ورائه عبر بابك الموارب، ومارست هوايتي في التنخيع بينما هو منتبه بكل حواسه لك..
هتفت في دهشة:
- تعني أنك استخدمتني كمجرد طعم؟
ابتسم وتحسس المسدس بيده وقال:
- لا أنكر هذا.. وبفضلك يا صغيرة تخلصنا من أقوى حلفاء الدون.. لقد انتهى دورك..
وصوب المسدس إلى رأسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتفت (عبير) في ضيق:
- ثمة تعبير يقول (السلاح يطول) ولا أعرف كيف أنقله لك.. أبعد هذا الشيء عنى..
قال في شيء من السخرية:
- وكيف أقتلك إن لم أصوب المسدس إلى رأسك؟
- عم تتحدث بالضبط؟
دس لفافة تبغ في ركن فمه، وابتسم أكثر فأكثر وقال:
- لقد انتهى دورك.. المشكلة أنك تعرفين الآن أكثر مما ينبغي.. دائما ما يموت الناس في قصص المافيا لأنهم يعرفون أكثر مما ينبغي.. والآن أرجو أن تكوني فهمت أنني لست رجل شرطة يتظاهر بأنه عضو مافيا.. أنا عضو مافيا يتظاهر بأنه رجل شرطة.. وولائي الوحيد للدون (فيليب تاتاليا) الذي سيصبر حاكم (نيويورك) عما قريب..
لقد انتهى عصر الدون (مولدانو) وأتباعه وأعدائه..
والآن هيا ننه هذا قبل أن يعود المخبرون من رحلتهم التي لا داعي لها..
صاحت في رعب:
- وإنقاذي؟ ورجال المكتب الفيدرالي؟ و..
- كل هذا حقيقي.. إنني مفتش شرطة بارع ذو خبرة..
أقدم لهم كل ما يؤذي أعداء (تاتاليا) وهم يعتقدون أنني بارع في التغلغل داخل المافيا.. بينما السبب بسيط جدا.. أنا نفسي عضو مافيا..
هنا فقط راحت أغنيتها القديمة تتردد في ذهنها:

أعرف أن اللحظة قادمة..
أراك تتحاشى النظر إلى وجهي وأنت تشعل لفافة تبغك

أراك تطيل التحديق في ساعتك
منذ متى تحتاج إلى كل هذا الوقت من أجل ربطة عنقك؟
أعرف أن اللحظة قادمة..
ستكون لديك (أنا) أخرى.. بل مئات ال (أنا)..
تلك ليست مشكلة.. لكن ماذا عني أنا؟
مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر..
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعرف أنك ستكون سعيدا..
بلد آخر.. بيت آخر.. واحدة أخرى..
الذكريات تتحول إلى قطرات ندي..
سرعان ما تجفا مع شمس الجنوب..
لكنني مهما بحثت.. ومهما فتشت تحت كل حجر
فلن يكون هناك (أنت) آخر..

وبدأت تفهم لماذا يحمل الرجل وجه (شريف).. لقد صار (شريف) بالنسبة لها رمزا للغدر والخيانة والتقلب.
كان عليها أن تشك في هذا من البداية..
- هذه مع تحيات (تاتاليا)..
ورفعت رأسها لترى الرصاصة تنطلق.
هل يمكن أن تراها؟ بالفعل هي تفعل هذا الآن..
لا يوجد صوت.. فقط الى (فلوب) المميزة للمسدسات الكاتمة للصوت.
إن الضربية تصفعها في الضلوع كأنها قطار مسرع..
تطير للوراء..
يرتطم رأسها بالأريكة..
في اللحظة التالية وجدت أن المرشد يحملها حملا خارجا من الشقة.
كان يلهث.. لكنه لم يتوقف.



تطير للوراء .. يرتطم رأسها بالأريكة .. تسقط ..

أدركت أن صدر ثوبها ملوث بسائل ساخن لزج.. فقالت له في وهن:
- أنا قد هلكت يا مرشد.. قلت لي إنني لو هلكت في (فانتازيا) فقد هلكت في الواقع.
قال لاهثا وهو يضغط على زر المصعد:
- لهذا أحاول أن أخرج من هذا العالم بسرعة.. أنت لم تلفظي أنفاسك بعد.. هه هه.. ولو لحقنا بقطار (فانتازيا) لتلاشت التجربة تماما.. هه هه.. أما لو لم نلحق به..

أغمضت عينيها وقالت في إرهاق:
- الخائن! كنت أثق به أكثر من نفسي:
قال وهو يسعل كمرضى الدرن
- إن من يعش في عالم الأفاعى هذا يتعلم أن يكون أكثر حذرا.. هه هه.. يمكن القول إنك تجربين للمرة الأولى تجربة الموت برصاصة في القلب..
- وهو؟ ماذا سيحل به؟
- لا أعرف.. هه.. هه.. ولا يهمني أن أعرف.. هه هه..
سيموت يوما ما بيد قاتل آخر يجيد عمله، ويعرف كيف يجد الثغرات.. هذه الحياة.. هه هه..
لا تعطى أصحابها ترف الموت على الفراش.
ومن بعيد رأت قطار (فانتازيا) وأدركت أنها ستعيش حتى ترى مغامرة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصة القادمة تعيشها (عبير) في عوالم الأشباح والمذءوبين والمومياوات الحانقة دوما..
لكنها لن تعيش هذه الخبرات وحدها.. ستعيشها مع عجوز نحيل غريب الأطوار.. اسمه (رفعت إسماعيل).

(تمت بحمد الله)

عرض لا تستطيع رفضه.
عالم غامض من الصقليين الشرسين، والسيارات الفورد السوداء، والبنادق الآلية، والأسرة الغاضبة دوما، والدون الذي يعرف كل شيء.. هذا القصة ستجعلنا (نعرف أكثر من اللازم).. وربما ستقدم لنا (عرضا لا نستطيع رفضه)..

د. أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>لينك القنـاة – Link</u>

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(سكاليتشي) شخصية حقيقية لكنه هنا مع الكثير من التصرف طبقا

[←2]
هناك تفسيرات كثيرة لهذا الاسم، من بينها (الموت للفرنسيين) و (ابنتي)، لكن -على الأقل -هذا هو التفسير الوحيد الذي يقدمه (قاموس التراث الأمريكي) الإصدار الثالث -1993

روايات مصرية للجيب

35

فانتازيا

ما أمام الطبيعة

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (35)

ما أمام الطبيعة

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملحوظة مهمة: أكثر المصطلحات والأسماء الغربية الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية، والسبب ليس التحذلق ولكن، لأن بعض الأصدقاء طالبوني بهذا مرارا؛ ليسهل عليهم معرفة الهجاء الصحيح، فالبحث عن المزيد من التفاصيل في الإنترنت إذا أرادوا.. هذا مطلب عادل مهم.. ولسوف أحاول الالتزام به في كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله.

1- مغامرة أخرى..

كما عرفنا فرت (عبير) من عالم عصابات المافيا، وهي توشك على الموت بعد الرصاصة التي اخترقت صدرها، لكن في (فانتازيا) قد يكون بوسعك أن تنجو لو أنك غادرت هذا العالم بسرعة البرق..
وكان هذا ما فعله (المرشد) حين حملها حملا إلى القطار الذي راح يتحرك بطريقته المضحكة.. هذا قطار من قطارات القصص يوشك أن تكون له- على طريقة (ديزني) - عينان جاحظتان وشارب في المقدمة.. لولا أن هذا يجعله أكثر طفولية مما نريد له..
الآن يمشي القطار في معالم (فانتازيا) وهو يطلق الدخان، ويطلق صفارته كأنما يمكن أن يدهم شخصا ما بسرعته هذه..
كانت (عبير) مرهقة لكنها تتحسن، وأدركت أنها عادت بثيابها القديمة المعتادة.. لم تعد مغنية المافيا الحسناء، لكنها الآن (عبير عبد الرحمن) التعسة الخائفة إلى الأبد.
قال لها (المرشد) حيث جلس أمامها مرجعا ظهره إلى الوراء، عاقدا يديه على صدره، وواضعا ساقا على ساق:
- استيقظي وأشرقي!
تخللت بيدها خصلات شعرها، وقالت:
- أنا تحت أمرك.. لقد عدت إلى العالم من جديد..
- خبرة مثيرة هي أن تتلقى طلقات في صدرك.. إن (فانتازيا) تعجّ بالخبرات حقا، والمهم أن تفيدي من كل لحظة..
- لا أحب الخبرات الأخيرة في أي شيء.. أنت تتخيل أنني لحظة الموت سأهتف في مرح: آه!! إذن هذا هو الموت الذي كتب عنه الأدباء، وتخيله الشعراء، وخافه الناس منذ القدم! رباه! يجب أن أستمتع بالتجربة إلى أقصى حد، ولا يفوتني شيء!
- هكذا يجب أن يكون..
- فاتك أننا لا نلاحظ بعناية إلا لأننا نعرف أننا سنجلس وندون هذه الخبرات.. نري الهول فنقول: سنكتب أشياء جميلة جدا فيما بعد، لكن أحدا - حتي (شكسبير) نفسه - لم يملك روح المبادأة إلى حد أن يطلب ورقة وقلما وهو على فراش الموت ليدون ما يراه..
ثم صمتت وهي ترمق معالم (فانتازيا) من النافذة.. الآن تري بساطا سحريا تركبه أميرة شرقية حسناء، وترى جنيا يهبط على الأرض بمدينة من الذهب.. لا أعرف هذه القصة للأسف لكنها موجودة.. ما دامت في (فانتازيا) فهي موجودة.. صف من رعاة البقر يتقدمون في الأفق والغبار يجعلهم أسطوريين.. بينما تدوي من مكان ما موسيقا (من أجل مزيد من الدولارات)..
قالت له في استمتاع:
- لا أعرف ما جاذبية هذا المشهد.. لكنه يحرك شيئا في أعماقي..
قال لها بلا مبالاة كعادته:
- هذا سحر السينما.. إنها تجعل الحياة أكبر من الحياة ذاتها.. ثم إن تأثير الحركة البطيئة والموسيقا تجعلك تعتقدين أن الفيلم أعمق مما هو في الحقيقة..
من بعيد تحلق طائرات (زيرو) اليابانية الشبيهة بلعب الأطفال الزنبركية، لتقصف الأسطول الأمريكي الناعس في (بيرل هاربر Pearl Harbor).. ويثب (الياتي) فوق مجموعة من رهبان

التبت الذين توغلوا في الجبال أكثر من اللازم.. (عاصو) الشرير يقاتل (أبو زيد الهلالي)، ومن مكان ما في (لوخ نس Loch Ness) يرفع الوحش الأسطوري النائم رأسه، على حين يعوى (القدم الكبيرة) جوار معسكر هندي في الشمال..
ماذا تختار؟ ماذا تختار؟
إنها ترى شوارع القاهرة، وترى سيارة عتيقة بحالة سيئة فعلا تصطدم بسيارة توقفت أمامها فجأة.. ومن السيارة العتيقة ترجل رجل نحيل أصلع يلبس بذلة كحلية اللون متسعة نوعا بالنسبة له.. واتجه إلى سائق السيارة الأولى ليوبخه:
- لو كنت تعتقد أن دور السيارات هو أن تقف فجأة لا أن تمشي، فأنت في مشكلة!
هل هذه مغامرة؟ من هؤلاء إذن؟ إن الأمر أقرب ما يكون إلى حياتها هي..
قال لها (المرشد) باسما:
- طبعا العجوز (رفعت إسماعيل) هو المخطئ.. إنه أسوأ سائق سيارة على وجه الأرض، لكن اللوم سينهال على صاحب السيارة في المقدمة؛ لأن العجوز يستعمل لسانه ببراعة..
هتفت في دهشة:
- (رفعت إسماعيل) العجوز؟ هو ذا؟ إذن نحن فى عالم..
- ما وراء الطبيعة.. ظننت هذا واضحا..
قالت وهي تنظر حولها:
- لكن لا أثر لشيء من عالم ما وراء الطبيعة هنا.. لا أشباح ولا مصاص دماء واحد..
- هذا هو الطابع المميز لما وراء الطبيعة.. إنها تريك غير العادي في عالم عادي تماما.. يطلقون على هذا النمط من القصص مصطلح (وحيد القرن فى الحديقة Unicorn In The Garden).. هناك العادي في عالم غير عادي (مثل أليس).. وهناك غير العادي في عالم غير عادي (مثل سيد الخواتم وكل عوالم تولكين Tolkien)..
- وماذا عن العادي في عالم عادي؟
- عندها لن يحدث شيء خارق! هذا نحن ببساطة!
كان (رفعت إسماعيل) قد انطلق بالسيارة في أثناء هذا النقاش.. فهتفت (عبير) في غيظ:
- لقد رحل.. حسن. أريد تجربة هذه القصص معه..
- أحلامك أوامر.. لكن هناك عدة مشاكل يجب أن تلاحظيها.. هذا الرجل ملول جدا وربما لن يروق لك.. نحن نمل من يملنا.. ولا نطيق من لا يطيقنا..
- سأتحمل هذا.. أنت طبعا ستجعلني (ماجي) حبيبته.. لقد اعتدت أن أبحث عن الشقراء الفاتنة في أية قصة وأتحول إليها..
فكر قليلا.. راح يتأملها في اهتمام كأنه خياط نساء يفكر في حل يصلح به ثوبا قبيحا.. ثم قال:
- لا.. ليس (ماجي).. إنه يغدو مع (ماجي) رقيقا مرهفا مهذبا، وهذا سيسلب شخصيته أهم ما فيها.. لا.. ليس (ماجي)..
- إذن؟
فكر قليلا ثم قال:
- أنت مراسلة تلفزيون شابة.. متوسطة الجمال ذكية كالثعالب.. ستكون هذه هي البداية..
وتوقف القطار.. هنا أدركت أنها تلبس ثيابا تناسب مراسلة تلفزيون شابة متوسطة الجمال ذكية كالثعالب.
وكانت تعرف أن القصة ستبدأ بمجرد أن تهبط من القطار.

قال لها:
- أنت من الطراز الذي يجيد حسم أمره أو كما يقول الإنجليز Self-Managed.. وهو - هذا الطراز - لا يناسب (رفعت) كثيرا.. لأنه - (رفعت) طبعا - يجيد (البروكرستيزية)..
سألته في حيرة:
- أولا لماذا صرت تقحم تعبيرات إنجليزية؟ ولماذا تستعمل مصطلحات لا أفهمها مثل (بروكست....) هذا؟
- أنت الآن في عالم المؤلف.. إنه مولع باستعمال المصطلحات لأنها- على ما أظن - تجعل الأمر يبدو أعمق مما هو عليه! إما أنه متحذلق، وإما هو يحاول القيام بدور تثقيفي ما.. المهم أن تتعودي هذا.. هذا يشبه الموسيقا التصويرية في السينما.. ثم إنه يمقت كتابة تعليقات تفسيرية في الهامش إلا للضرورة القصوى..
- والجمل الاعتراضية الكثيرة؟
- هذه طبيعة مرضية أخرى لديه.. سوف - لو لاحظت هذا - تجدين نفسك تتكلمين - لو أنك بقيت فترة كافية - بالطريقة ذاتها.. إن - لو فرضنا أن هذا صحيح – الجمل الاعتراضية - مع بعض التحفظ - تعطي حيوية أكثر للحوار..
قالت مفكرة:
- إنني - مع بعض التحفظ - سأقبل هذا بالتأكيد..
ابتسم كمن يقول لها (سوف ننجح) وأضاف:
- يجب كذلك أن يكون هناك اسم للمغامرة القادمة وإلا لن تحدث أبدا!
هتفت مغتاظة:
- يا سلام!! أنا لا أعرف ما سيحدث على الإطلاق! كيف أختار اسما؟
- هو يؤمن أن الأحداث تولد من العنوان.. كأن عنوان القصة شهادة ميلاد يجعل لها وجودا رسميا لا يمكن إزالته.. ومن وجهة نظره إن قليلين جدا من الرسامين يبدءون رسم الشخصية من القدمين.. هو - كذلك - يعتبر أن عنوان القصة مثل رأسها.. هو نقطة البدء..
فكرت قليلا ثم قالت:
- ليكن.. مثلا.. (البيت المسكون)..
- تقليدي جدا.. أسوأ أنواع العناوين هي التي تتكون من صفة وموصوف، أو مبتدأ وخبر، أو مضاف ومضاف إليه فقط.. ثم إنها تشير إلى شيء نعرفه جميعا.. فلنختر شيئا آخر..
- مثلا.. (الرعب في الليل)..
هز رأسه راضيا بعض الشيء وقال:
- لا بأس.. لكن لا بد من كلمة (أسطورة) أولا.. أضيفي لهذا أن العناوين التي تأخذ نفسها مأخذ الجد لا تروق له.. (أسطورة الرعب في الليل) يعد القارئ بشيء لن يجده غالبا.. وحتى لو وجد فإن تحفز القارئ للتحدي سيجعله يري القصة لعب أطفال..
صاحت في غيظ وقد سئمت كل هذا:
- كفي! لن أقضي بقية حياتي في اختيار عنوان يناسب هذا الـ...
صفق بيديه في مرح وبدا عليه الرضا:
- أنت عبقرية يا عزيزتي.. (أسطورة الـ.....) لم يستعمل المؤلف هذا العنوان قط، لكني أراهن على أنه سيستعمله لو تركناه وشأنه.. الآن يجب إضافة علامة تعجب بعد العنوان..
- ولماذا؟

- لا تسألي كثيرا.. إن استهلاك هذا المؤلف لعلامات التعجب يكفي عدة أجيال.. ستجدين علامة التعجب تالفة في لوحات مفاتيح أية جهة نشر يتعامل معها.. هكذا صار لدينا العنوان، ولسوف تنبع منه القصة!

- أية قصة؟

- قصة ال.. طبعا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- أسطورة ال....!

إنه...... يعرف هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من هو؟ ما الذي يعرفه؟ ما علاقة هذا بالموضوع؟ لا يهم.. لكنها كانت تعرف أن هذه لعبة أسلوبية ما يمارسها المؤلف.. ربما تستطيل العبارة في أول كل فصل إلى أن تصير كالقطار.. ربما هي جزء من أغنية..
ربما هي عبارة كتبها ابن المؤلف على لوحة المفاتيح، بينما الأخير في المطبخ يشرب كوبا من الماء. لا يهم..
إنها لا تبالي كثيرا بهذا الهراء..
هنا فطنت إلى شيء آخر: هذا عالم يعج بال (هراء) حيث تستعمل فيه هذه اللفظة عشر مرات في الصفحة الواحدة.. هل هناك شيء آخر؟ لو كان هناك شيء آخر فلسوف تعرفه حالا..
الآن هي تقف عند مدخل البناية.. هناك محفة تنزلق من سيارة الإسعاف يحملها رجلان شديدان غليظان كزبانية جهنم، وهناك زحام من الفضوليين الذين لا عمل لهم سوي جعل الحياة أكثر عسرا..
هنا تدرك الحقيقة.. هذه ليست مصر.. إلا لو تعلم أهل مصر جميعا الإنجليزية فجأة، وصار رجال الشرطة يلبسون اللون الأزرق، وصار لون سيارات الأجرة أصفر يقودها باكستانيون.. هذه أمريكا.. (نيويورك) بالتحديد..
ماذا أتى بها هنا؟ وما دور (رفعت) في القصة؟
لكنها على الأقل تعرف أنها تتقدم الجمع، وأنها تحمل مكبر صوت في يدها، وأن هناك فتى نحيلا مجعد الشعر كثيفه.. صار الشعر حول رأسه على شكل كرة ملساء.. يلحق بها وهو يحمل كاميرا ثقيلة على كتفه تحمل شعار FFF New هو ذات الشعار الموجود على مكبر الصوت الذي تحمله.
هذه هي مهمتها إذن.. أن تغطي الحادث.. أي حادث؟ هناك محفة وزحام ورجال شرطة فلابد أنها جريمة قتل. تتقدم إلى المدخل، ويستوقفها رجل شرطة لكنه يرى الشارة التي تعلقها فيفسح لها.. تعبر شريط مسرح الجريمة الذي يغلقون به المدخل وتهتف:
- هلم يا (جيري)..
تقولها للفتى الذي من الواضح أن اسمه مناسب جدا.. وهو من النوع الذي لا تفارق لفافة التبغ فمه كأنها عيب خلقي..
وفي الداخل تتوقف أمام المصعد الذي يهبط في هذه اللحظة بالذات.. يخرج منه عملاق زنجي يرتدي معطفا خاكيا، فقط لأن رئيس الشرطة يجب أن يكون عملاقا زنجيا يرتدي معطفا خاكيا.. هكذا تعلم من السينما..
من ورائه تخرج الجثة على محفة، وقد وضعت في كيس من المشمع الأسود الكئيب.. ويلتمع الفلاش في كل صوب.. طبعا صارت الآن تعرف أن اسمه (رودمان)..
تدنو من رئيس الشرطة، وتضع المكبر أمام فمه:
- أيها المفتش (رودمان).. ما هو سبب الجريمة في رأيك؟

- لا تعليق..
ويدنو صحفي آخر يحمل جهاز كاسيت صغيرا:
- كيف تمت؟
- لا تعليق..
صحفي ثالث:
- من الذي ثنى الجثة ثلاث مرات حول نفسها؟
- لا تعليق..
كان المفتش يزداد عرقا وسوادا، وبدا بوضوح أنه يمقت هؤلاء الأشخاص.. دائما مفتش الشرطة في هذه القصص لا يرحب بظهور صورته في الصحف.. ليست لديهم أية نزعة إعلامية.
ابتعد الرجل مسرعا ليستقل سيارته، وسط مهرجان الأضواء والسرينة العاوية.. فسرعان ما صعد الصحفيون إلى الشقة الواقعة في الطابق السابع.. وكان بعض رجال الشرطة هناك عاكفين على شيء ما، بعد ما قاموا بأخذ البصمات والتقاط الصور.. لكنهم سمحوا للصحفيين بالدخول..
راحت الكاميرا تهدر، وهي تلتقط صورة الشقة الخالية..
شقة مظلمة كئيبة لكنها لا تحمل أي أثر للعنف.. من الواضح أن الرجل كان يعيش وحده لأنه لا توجد أية لمسة أنثوية هنا.. وكان مهتما بكل ما يهتم به رجل امريكي في منتصف العمر: كرة القدم التي يسمونها كذلك برغم أنها عبارة عن وحوش تركض وتتصارع على كرة تمسك باليد..
إن كرة القدم التي نعرفها نحن تدعي عندهم (Soccer).. صور ممثلات.. كاسكيت لعبة (بيزبول) ومضرب موقع عليه من بطل رياضي ما.. جهاز فيديو تراصت جواره مجموعة من الشرائط.. هذا الرجل يهوى أفلام العنف كأي رجل في الواقع.. (شانج.. ماذا؟).. صورة في إطار للرجل وزوجته وابنته.. أحيانا تشعر (عبير) بأن كل رجل أمريكي مطلق أو منفصل إلى أن يثبت العكس.
أما الرجل نفسه - كما تراه في الصور - فهو ضخم الجثة بدأ الشعر يزول عن مقدمة رأسه.. إنه في الخمسين أو منتصف الأربعينات من عمره..
إنها تواجه الكاميرا، وظهرها للصورة الموضوعة في إطار.. وتقول بتلك الطريقة السخيفة التي تجيدها المذيعات هناك:
- وهكذا لقي (ويليام باكستر) البائع الجوال هادئ الطباع حتفه..
إذن الرجل اسمه (ويليام باكستر)؟ جميل.. إنها تخبر نفسها بمعلومات مهمة جدا..
- بنفس الطريقة الشنيعة التي لقي بها (جوش كيندرلي) نهايته..
إذن هذه ليست المرة الأولى؟ عليها أن تصغي لنفسها بدقة لأنها - كما هو واضح - تعرف الكثير
- وهذا من جديد يطرح السؤال: من قتل هؤلاء؟ ولماذا؟ ولماذا قتلهم بهذه الطريقة البشعة؟ إن على إدارة الشرطة في (نيويورك) أن تجد الحل السريع، قبل أن يتفشى الذعر في الولاية.. (ويلما موريسون) FFF News..
إذن هذا هو اسمها؟ جميل.. إنها تعرف كل ما يسمح لها ببدء القصة إذن.
وأشار لها المصور بإبهامه إلى أعلى بمعنى أنها كانت رائعة، فتنفست الصعداء وتحررت من وقفتها الإعلامية الثابتة.. قال لها وهما يتجهان إلى المصعد:
- إنها الثالثة ونحن لم نأكل بعد.. ما رأيك في هامبرجر بالجبن؟
طبعا كانت تمقت اسم أكلة كهذه، وكانت تفضل شطيرة من (الطعمية) بالسلطة، لكنها الآن تلعب دور الأمريكية المنطلقة، مما يحتم عليها أن تقول:

- واو! كوووووووووووول
أي أنها فكرة لطيفة جدا.. كانت شاردة الذهن.. ما معني هذا؟ وما دور (رفعت إسماعيل) العجوز فيه؟ طبعا لو ظهر فالجواب معروف.. لقد مات هؤلاء بقوى خارقة للطبيعة، وهو شيء متوقع على كل حال.. فلا أحد يقتل ضحاياه بأن يلفهم حول أنفسهم ثلاث مرات كأنك تطوي رغيفا لتدسه في جيبك.. إن طريقة القتل هذه لها رائحة كتب سحر القرون الوسطى.. لا يوجد شيطان يحترم نفسه في تلك الكتب، لا يدير رأس قتلاه إلى الاتجاه المعاكس.
المهم أنها تناست الأمر، وجلست تلتهم الهامبرجر بالجبن.. بينما (جيري) يثرثر عن أحلامه بدراسة الإخراج السينمائي، والتوجه إلى (هوليوود)..
راحت عيناها تدوران في القاعة حولها، ثم توقفتا أمام رجلين جالسين إلى منضدة.. الأول أصلع الرأس نحيل يبدو مألوفا ببذلته الكحلية الواسعة قليلا.. يضع العوينات وهي اختراع خاص بهذا العالم الذي لا يضع فيه أحد (النظارات) على ما يبدو.. والثاني ضئيل الحجم له ملامح طفولية دقيقة كالدمية.. كان الأول يرشف القهوة عابسا مكفهر الوجه، والآخر يتحدث في حماسة وهو يشوح بيديه في الهواء وينظر إلى السقف من آن لآخر، وكانت أمامه كأس كبيرة من القشدة المثلجة لم يمسه قط حتى أوشك على أن يذوب كله.
ثم إنه نهض فجأة وقال كلمة، وهو يعض على أسنانه وهرع جريا باتجاه الحمام..
الأول هو (رفعت إسماعيل).. لا شك في هذا.. هي الآن تعرفه جيدا، وإن كانت لا تدري لماذا ظهر هنا؟ الآخر هو.. لا.. لا تستطيع أن تخمن.
إن (رفعت) جالس في مكانه بلا حراك.. لكن شيئا ما ليس على ما يرام.. شاحب اللون يتحسس صدره في ألم واضح.. يمد يده إلى جيبه ويخرج علبة صغيرة ويسكب بعض ما تحتويه في كفه. يلتقط قرصا، هنا يغلبه الألم فيسقط ما التقطه على الأرض، ويحاول دون جدوى أن يلتقطه ثانية..
الظريف هنا أن الكل لاحظ ما يحدث، لكن أحدا لا يتدخل.. كأن إنقاذ شخص يموت عمل مناف للياقة ويدل على تدخلك فيما لا يعنيك.. إنهم يراقبون المشهد بلا مبالاة.. ربما بانتظار أن يموت حتى يعودوا لتناول طعامهم في هدوء..
هذا هو العجوز (رفعت إسماعيل).. متأهب للموت في أي مكان وأية لحظة، والغريب في هذه القصص أنه لا يفعل ذلك أبدا.. لم تر في حياتها مريضا أكثر صحة ولياقة منه...

☆ ☆ ☆

إنك تعرف متى يأتون.. لكنك لا تعرف أبدا متى يرحلون.

☆ ☆ ☆

بوم! بوم!! حتى في الظلام!

☆ ☆ ☆

ما هذا؟ ما دخل هذه العبارات في السياق؟ من الذين يأتون وما هذا الذي يدق (بوم بوم) حتى في الظلام؟ من جديد يبدو أنها إحدى تقنيات المؤلف التي يستخدمها بإفراط..
دعنا من هذا ولنعن بهذا العجوز الذي يخطو إلى القبر بخطوات واسعة مالم ننقذه الآن..
هرعت إلى الأرض فالتقطت القرص ودسته في فمه.. ظل ساكنا لحظة يستحلب ما تحت

لسانه، ثم بدأ يهدأ قليلا.. وعادت الدماء تتدفق في عروقه..
- شكرا.. شكرا.. إنه (النيتروجلسرين) كما تعلمين.. نوبة.. نوبة قلبية.
سألته في شك وهي تعينه على النهوض بمعونة المصور:
- أليس النيتروجلسرين مفجرا؟؟ أليس أهم مكونات الديناميت؟
- وهو يوسع الشرايين التاجية كذلك.. النترات قصيرة الأجل.. هذا موضوع يطول.. المهم أنك أنقذت حياتي.
وعاد يجلس إلى المنضدة، ومد يده إلى القهوة يرشف جرعة أخرى فهتفت:
- لحظة.. المفترض أن القهوة تؤذي مرضى القلب..
قال في بساطة:
- لقد تجاوزنا مرحلة الإيذاء هذه. إنها تتعاطف معي، فقد أدركت أني غير ذي خطر.. وقد صرنا صديقين الآن..
ثم مد يده لها مصافحا:
- (رفعت إسماعيل).. طبيب مصري.. أنا هنا في مهمة علمية..
- (ويلما موريسون).. مذيعة تلفزيون..
وقدمت له زميلها المصور، فدعاهما إلى الجلوس معه.. لم يبد المصور متحمسا لمشاركة هذا العجوز المحتضر نفس المنضدة، لكنها أدركت أن ظهور (رفعت) هنا يعني أن طرف المغامرة قد ألقى لها، وعليها ألا تتركه من هذه اللحظة..
هنا جاء الرجل قصير القامة من الحمام وقد أغرق ثيابه بالكامل بماء الصنبور.. كان أمريكيا كما هو واضح.. والأهم أنه يهودي.. هذه الملامح لا يحملها إلا يهودي.
وقال وهو يتخذ مقعده:
- معذرة.. كنت في الحمام.. مشكلة بروستاتا صغيرة..
قال (رفعت) يقدمه:
- (سام كولبي).. هناك من يزعمون أنه أعظم ساحر في (نيويورك).. وهناك من يزعمون أنه مجرد نصاب.. الفريق الأول يتكون من شخص واحد: هو نفسه.. الفريق الثاني يتكون من باقي العالم وعلى رأسهم أنا..
قال (كولبي) وهو يجفف الماء من على وجهه بمنشفة الطعام:
- إنه يمزح.. صديقي دكتور (إسماعيل) يحب المزاح.. هيء هيء..
ثم نظر إليها مليا وهتف في ذهول:
- أنت (ويلما موريسون)!! المذيعة الأهم في شبكة FFF News!! ولكن.. دعيني أؤكد لك أن هذا يوم مجيد! إنني أعتقد أن كل لحظة تتوارين فيها عن الشاشة في وقت ضائع!

كانت تنظر له بدهشة، حين قطع كلامه فجأة ونهض:
- معذرة.. الحمام.. إنها البروستاتا كما تعلمون!
- والتفت لها صائحا - لا ترحلي.. سأعود حالا.. وجرى مسرعا.. لم تعتقد قط أن الكلية ترشح البول بهذه السرعة. فقال لها (رفعت) باسما:
- إن قصته مع البروستاتا ملحمة تشبه ملحمة جلجامش Gilgamesh).. لكن أعتقد أنه - وقد تعرفك - لن يطلق سراحك، فهو يعاني جوعا مزمنا إلى الشهرة، وإلى من يعترف به..
عاد (كولبي) من الحمام، فجلس وراح ينظر لها في انبهار أثار خجلها، ثم قال:
- أنا راغب في الظهور على شاشتكم.. وصدقيني إن ما سأقوله لك سيجلب اهتمام المشاهدين..

وهو نفس السبب الذي جعلني أطلب لقاء الدكتور (إسماعيل) هنا.. إن لدي معلومات مهمة عن سفاح (نيويورك) الذي يثير اهتمام الإعلام.. ولسوف أقولها أمام عدسات الكاميرا..
تبادلت نظرة مع المصور، وقررت أن الرجل مجنون أو نصاب على الأرجح، لكن ربما كان لديه شيء مهم..
هنا هتف (رفعت) وقد صعد الدم إلى رأسه (نحن في عالم لا يغتاظ فيه الناس، وإنما يصعد الدم لرءوسهم):
- منذ ثلاث دقائق قلت لي إن الأمر خطير، وإنه سيظل سرا بأي ثمن وتحت طائلة الموت.. والآن تنوي أن تذيعه على شاشة التلفزيون! هكذا فقدت كتمانك البطولى أمام أول عدسة.
وكانت (عبير) تفهم هذا على كل حال.. إن سطوة الإعلام تجعل الناس يفشون أدق أسرارهم أمام العدسات.. وتجعلهم يتحملون أسئلة لو وجهها لهم واحد غير المذيع لتلقي لكمة في أنفه..
قال (كولبي) وهو يجفف وجهه بالمنشفة:
- إن الأمور بهذه الطريقة ستكون أفضل يا دكتور. صدقني.
ثم نظر (كولبي) إلى (عبير) وقال بلهجة النصر، وهو يناولها بطاقة صغيرة:
- إذا كان الأمر يهمك، فعليك أن تأتي مع طاقم التصوير إلى داري.. ستكون هناك جلسة تحضير أرواح ذات أهمية خاصة!



3- أسطورة ال.....!

نظرت (عبير) إلى عنوان الفصل، فغمرتها الدهشة. إنه مكرر.. هنا تذكرت أن المؤلف يكرر عنوان الفصل نحو خمسين مرة في القصة الواحدة، وفي كل مرة يقول إنه ليس متأكدا مما إذا كان أورده من قبل.. برغم أنه من السهل أن يطلق على الفصل اسم (عباس) أو (طلبه) أو أي اسم آخر.. ربما فيما بعد يطلق على الفصول (أسطورة ال.. بشرطة) كما يفعلون مع الحافلات في القاهرة..



في الساعة العاشرة مساء عرفت (عبير) أن هناك قتيلا آخر.
في (مانهاتن) كانت صفارات عربات الإسعاف تعوي.. وعربات سيارات الشرطة تعوي.. ومئات الأضواء الملونة ترقص في جنون باحثة عن هدف..
ومن جديد تركض (عبير) وسط الراكضين، يلهث خلفها الفتى التعس المدخن (جيري) حاملا الكاميرا التي قام بتشغيلها.. وكان هذا يعطي تأثيرا مهتزا للصورة يحبه كثيرا لأنه يذكره بسينما الحقيقة الفرنسية Cinema Verite.. كل أفلام مخرجي الحقيقة هؤلاء تهتز فيها الصورة، ولا تكاد ترى شيئا أبدا.. وكان (جيري) كأي أمريكي يشعر بأن كل ما يأتي من أوروبا مثقف رفيع جدير بالتقليد.
كما عرفنا القتيل هذه المرة اسمه (مايكل ستوردواليان).. وقد بدا لها الاسم غريبا.. فقال لها المصور وهو يركض، وبرغم هذا لا يتخلى عن لفافة التبغ بين شفتيه:
- هذا هو طابع هذه القصص.. إن المؤلف طلبا للدقة يبحث عن الأسماء في القصص والمجلات الأجنبية، وكلما كان الاسم معقدا بدا له أفضل وأدنى إلى الواقعية.. إن قليلين يعرفون أن (جينغ - تشا) و (هن - تشو - كان) بطلا (الكاهن الأخير) هما - في الحقيقة - عضوان في لجنة التثقيف الشيوعي في ريف الصين.. كان بحاجة لاسمين صينيين مناسبين، ففتح مجلة (بناء الصين) واختار اسمين راقا له.. نفس الشيء بالنسبة للأسماء الأسكتلندية والرومانية والسويدية.. لم يحب قط مباريات كرة القدم، لكنه يتابع كأس العالم باهتمام ممسكا بقلم وورقة، وهو يرى أن الفريق الروماني يضم أروع مجموعة من أسماء مصاصي الدماء في التاريخ! ذات مرة قرأ اسما يونانيا لسائح هو (ستافروس دندرينوس) فكاد يبكي من روعة الاسم! وقد احتفظ به في بطاقته الشخصية دهرا إلى أن كتب (أسطورة المينوتور)، إنه يمقت الأسماء الملفقة حتى في العربية.. ويؤمن أن الاسم الذي لا ينتمي لشخص ما يبقى ذا رنين ملفق سخيف..
- هذا مزاج غريب..
ولكن دعينا من هذا ولنر ما حدث هنا..
كانت الشرطة تحيط بالمكان، وفي هذه المرة لم تكن هناك استثناءات.. لا أحد يرحب بالصحفيين هنا.. وظهر ملازم ضخم الجثة ولوح بيده كأنما يطرد مجموعة من الدجاج، حتى أوشك أن يقول (بيتك.. بيتك) ...
- هيا يا شباب! لا يوجد ما ترون.

وهنا وجدت (عبير) فرجة بين الصفوف.. فرجة من الفرجات التي تجدها بطلات القصص دوما، ولا يمكنك أن تجدها أنت في أي طابور جمعية.. هكذا أشارت من طرف خفي للمصور، وراحت تنساب منحنية بين الصفوف.. طبعا لم يلحق بها لأن اختفاءه سيكون أصعب نوعا..
كان المكان هذه المرة مطعما من المطاعم التي تقدم الطعام الأمريكي عديم اللون والرائحة والطعم، والذي لا يكتسب مذاقا إلا مذاق ما يضاف إليه.. هناك فوضى وهناك مقاعد مقلوبة.. هناك دماء على الجدار، وهناك رائحة موت لا شك فيها..
هناك كان رجال المختبر الجنائي يلتفون حول جثة يبدو أنها تحولت إلى عجين.. وكانت على الجدران بعض الصور، وثمة مجموعة من شرائط الفيديو متناثرة على (الكاونتر).. ترى العناوين من مكانها: (المهمة: المستحيل).. (البرتقالة الميكانيكية).. (الصخرة).. (الشفرة).. كلها أفلام عنف أو رعب تدل بوضوح على أن القتيل - وهو صاحب المطعم غالبا - شخص طبيعي جدا.. فقط هو يتمني - كأي شخص وديع آخر - لو يذبح بعض الناس، ويسرق مصرفا، ويخطف فتاتين أو ثلاثا.
هنا تصلبت منابت شعرها.. قد يكون هذا مهما وقد لا يكون.. لكنها رأت نفس الشعار على شريط الفيديو في شقة (ويليام باكستر) ظهر اليوم.. شركة فيديو (شانجري لا) Shangri – La.. إن هذا الاسم لا ينسي بسهولة.
ولو كانت (عبير) عبقرية مثلك لعرفت أن (شانجري لا) هي ذلك العالم الخيالي الذي لا وجود له، والذي تحدث عنه (هيلتون Hilton) في قصته (الأفق المفقودLost Horizon).. وقد استعمله رئيس أمريكي حين سأله الصحفيون عن المكان الذي تجري فيه تجارب القنبلة الهيدروجينية، فقال أول اسم ورد لذهنه وهو (شانجرى لا).. والغريب أن الصحفيين صدقوا أن هناك مكانا بهذا الاسم، وراحوا يكتبون عن خطورة التجارب النووية على سكان (شانجرى لا)!!
«فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجرى لا)..» هكذا تقول الأغنية المرحة..
هنا تذكرت (عبير) أنها غرقت في هذه الخواطر ربع ساعة وهذا لأن كاتبنا الحالي مولع إلى أقصى حد بالاستطراد حتى لتشعر بأنه يكتب القصة لا ليحكيها بل ليستطرد.. ولو كانت (عبير) مع أي كاتب آخر، لدست الشريط في حقيبتها على الفور، وغادرت المكان في رشاقة.
أما مع كاتبنا هذا فقد تأخرت كثيرا جدا.. وحين قررت أن تستولي على الشريط، سمعت من يصيح فيها:
- ممنوع لمس شيء يا فتاة! هذا مسرح جريمة!
نظرت للوراء لتجد ذلك الضابط ضخم الجثة الذي طرد الصحفيين، فأجفلت.. قال وقد فهم كل شيء:
- أنت مراسلة تلفزيون.. أنا أعرفك، وقد تسللت وسط أخيلة المقاتة الواقفين على الباب.. ليكن.. سأتركك ولكن حذار من أن أراك في مسرح جرائمي بعد اليوم!
قال (مسرح جرائمي) بفخر كأنه هو الذي قتل القتيل..
على كل حال كانت (عبير) قد التقطت كل شيء.. اسم شركة الفيديو.. رقم الهاتف.. ودونته في المفكرة الصغيرة الموجودة بين أذنيها: مخها.. هكذا أسرعت بمغادرة المكان مرتبكة.. وهرعت تلحق ب.(مايك) الذي كان ينتظرها بالكاميرا.. حاول أن يتكلم فأخرسته.
أخرجت القلم وبسرعة راحت تدون في مفكرة حقيقية رقم الهاتف واسم الشركة..
قال (مايك) في ضيق وهو ينفث التبغ في شراهة:
- هل نرحل الآن أم ننتظر حتى يظهر رئيس الشرطة ويقول: لا تعليق؟

- سننتظر يا (مايك)..
ثم تذكرت شيئا فسألته:
- ألم يكن اسمك (جيري)؟
هز رأسه وابتسم:
- بلي.. لقد تغير.. إن المؤلف يخلط بين الأسماء أحيانا.. وقد يبدأ (ستيف) القصة ليصير (مارك) وينهيها وهو (جون).. هذه الأشياء تحدث.
كانت تفكر في شرود.. ثم التقطت جهاز الهاتف الخلوي، وطلبت الرقم الذي دونته.. هنا جاء صوت فتاة رفيعا حادا يسال:
- فيديو (شانجرى لا).. هل من شيء أقدمه لك؟
- نعم.. نعم.. العنوان لو سمحت..
أخبرتها الفتاة بالعنوان، فدونته (عبير) بسرعة..
ثم قالت ل (مايك) وهي تبتعد:
- التقط صورة أو اثنتين.. أما أنا فأشعر بالرغبة في مشاهدة فيلم فيديو عنيف الليلة..
نظر لها في غباء.. إنها غريبة الأطوار اليوم..

☆ ☆ ☆

فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجري لا)..
هكذا تقول الأغنية المرحة..

☆ ☆ ☆

لم يكن أفخم ولا أكبر نادي فيديو في الولايات المتحدة..
بالواقع كان عبارة عن فجوة بين بنايتين شامختين، وله مدخل ضيق رطيب.. إضاءة خافتة كئيبة.. وأنت تمشي بين صفين من الملصقات التي تمثل الرجال عنيدي المراس وهم يحملون البنادق الآلية ليخربوا بيت أعدائهم، والأخ (بيرس بروسنان) ينظر لك في حنكة ليخبرك أن عليك أن تموت في يوم آخر.. تلك العناوين التي تتظاهر بعمق لا وجود له وشاعرية مزيفة، والتي تميز الكاتب السطحي (إيان فلمنج Ian Fleming)..
كانت الفتاة الواقفة خلف الكاونتر من طراز البائعات الملولات اللاتي يرغبن في العودة إلى ديارهن طيلة الوقت، لكنها حرصت على أن تجذب الشباب - الأمريكي طبعا - بارتداء ثياب جلدية لصيقة سوداء، مع كثير من الوشم طبعا، وذلك الماكياج المميز للشيطانيين Satanics..
نظرت لها نظرة من طراز (هذا - المكان - لا – يناسب - يمامة - مثلك).. فنظرت لها (عبير) نظرة من طراز (أنا - أعرف - كيف - أعني - بأمري).. إن مؤلف هذه القصص يؤمن بكلام النظرات إلى حد مبالغ فيه.. ربما تقرأ استجواب بوليس يتم بالنظرات.. الضابط ينظر نظرة من طراز (اسمك - وسنك - وعنوانك) فيرد المتهم بنظرة من طراز (عباس - أبو - شفة - 35 - سنة - 8 - حارة - الشحاذين).. الخ...
هذه المرة تكلمت الفتاة:
- هل لي أن أقدم لك خدمة يا حبيبتي؟ أفيلما أم DVD؟
تأملت (عبير) شفتيها المصبوغتين بالأسود وارتجفت.. قالت وهي تتأمل الشرائط:
- أريد.. أريد فيلم (الشفرة)..
بلا رد فعل معين، دخلت الفتاة إلى ما وراء الستار الأحمر خلفها، وعادت حاملة شريطا بيدها

المكسوة بقفاز أسود دون أصابع، ودسته في كيس صغير، فشكرتها (عبير) وأعطت بياناتها ودفعت الثمن.. هذا غريب.. هذا غريب.. كانت تتوقع أن تقول الفتاة: ليس عندي.. إنه عند ثم تعطيها بعض البيانات عن العميل الذي لم يعد عميلا (مايكل ستوردااليان).. فلابد أن لديهم عدة نسخ من هذا الشريط..

استقلت سيارة أجرة عائدة إلى دارها..

طبعا كانت وحيدة.. عرفت هذا من اللحظة الأولى.. هذه هي (نيويورك) حيث يجب أن تعيش في وحشة وكآبة.. وحيث استلهم (لافكرافت Lovecraft) سيد الرعب أفظع قصصه..

شقتها أنيقة راقية ونظيفة جدا.. لكنها باردة كالثلج.. وهناك صورة جدارية عملاقة لها، فمن الواضح أنها لم تكن تتمتع بالتواضع..

أعدت لنفسها عشاء بسيطا ثم بدأت تشغيل الشريط.

هنا دق الهاتف.

أجفلت للحظة ثم تناولت السماعة.. هنا سمعت صوت عجوز يبدو أنه غير أمريكي.. بل هو (رفعت إسماعيل) العجوز ذاته.. كيف عرف؟ لابد أنها تركت رقم هاتفها لذلك النصاب (كولبي)..

- أنا دكتور (إسماعيل).. هل (كولبي) عندك؟

- هذا عنواني أنا لو كنت لاحظت هذا.. وليس من عادتي اصطحاب (العمل) إلى داري.

- أعرف.. لكنك بعد إجراء اللقاء خرجت معه.

- أي لقاء؟

- اللقاء الذي قام فيه بتحضير الأرواح.. لو كنت قد نسيت ما قمت به منذ ساعتين فأنت في مشكلة!

هنا توترت.. إنه لا يمزح.. الأمر حقيقي تماما.. الاحتمال: هو مخطئ أو مخبول..

- د. (رفعت).. أنا مرهقة بحق، وليست لدي النية كي... أنا لم أر السيد (كولبي) منذ عصر اليوم!

ساد الصمت قليلا ثم قال:

- إذن أحدنا كاذب أو مخبول.. ولا أرجو أن نكون الاثنين معا.

ثم بعد قليل قال:

- لقد اختفى (كولبي) تماما.. لا أثر له.. وأعتقد أنه يجب أن نلتقي الآن!

☆ ☆ ☆

4- شانجرى لا..

- فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجرى لا)..

☆ ☆ ☆

تحرك الشيء من وراء الباب، ونظرت (عبير) جيدا هل هي تحلم أم أن المقبض يتحرك؟
صاح (رفعت) وهو يبدل عويناته ليتمكن من أن يرى:
- إنه يفتح الباب فعلا.. هلمي يا حمقاء!
قالت وهي تتراجع إلى الوراء:
- لكن.. لا يمكن أن.. لا يمكن أن..
جذبها من يدها.. إن يده برغم نحولها تؤلم، كأنها يد هيكل عظمي.. وصاح وهو يتقدم إلى النافذة:
- لو شئت أن تبقى هنا للأبد لممارسة هوايتك في اللعثمة، فهذا موضوع آخر.. أما الآن فأنا أرى أن..
وفتح النافذة، ودفعها إلى الخارج دفعا.
إنها تثب لتسقط وسط الأعشاب الندية التي يغمرها الظلام...
وفي هذه اللحظة سمعت الباب ينفتح بالكامل، و (رفعت) يصرخ:
- أنت؟!
- مدت (عبير) يدها فاصطدمت بجسد آدمي.. فتحت فاها لتصرخ لكن يدا حازمة وضعت على فمها، وسمعت صوت (المرشد) يقول:
- أنا المرشد يا حمقاء! صمتا!
سألته في ذهول:
- ماذا حدث؟ كيف صرت في هذا الموقف؟
قال وهو يدفن رأسه وسط الأعشاب:
- هذه طريقة للسرد يمكنك أن تطلقي عليها (فلاش فورورد) وهي عكس ال (فلاش باك) الذي يعرض عليك لمحة من الماضي.. هنا ترين لمحة مما سيحدث في القصة فيما بعد.. إن المؤلف مولع بهذه الطريقة للأسف.
- لكني لم أعد أعرف أين أنا وماذا أفعل.. أريد سردا تقليديا يعتمد على (بداية - وسط - نهاية)..
- وهنا ما هو أسوأ من هذا.. أحيانا يبدأ المؤلف القصة بمشهد الذروة، ثم يعود بك إلى البداية ليحكي كيف وصلت الشخصيات إلى هذا الموقف.. اسم هذه الطريقة «In Medias Res»
- إنه غريب الأطوار حقا. ولكن ما الذي يحدث ل (رفعت) الآن؟
قال لها في برود:
- سنعرف فيما بعد.. الآن تعودين لسياق القصة العادي!

☆ ☆ ☆

جاء (رفعت) إلى شقتها بعد نصف ساعة من المكالمة..

- فتحت له الباب، فكان يلهث كمن يوشك على السقوط ميتا.. وكان كئيبا كالقبر.. الحقيقة أن (رفعت إسماعيل) كان بلا جدال من أقبح من رأتهم في حياتها، لكنه – كذلك - يملك نوعا خاصا من الجاذبية.. إنه مسل كثمرة (الدوم) الجافة التي تؤلم أسنانك لكنك لا تحب تركها.. يقول الممثل العالمي (جاك نيكولسون Nickoloson): إنني أزداد قبحا عاما بعد عام، لكنني لسبب لا أفهمه أزداد جاذبية..
قال لها وهو يجلس على الأريكة:
- ثمة شيء يجب أن تعرفيه جيدا.. لقد رأيت كل شيء تقريبا.. وقابلت نفسي أكثر من مرة، لكن لا تؤكدي لى أنك لم تكوني موجودة في ذلك اللقاء التلفزيوني.. لا لغرابة الأمر، ولكن لأنه سيجعل فهم الأمور عسيرا.. إن الحياة معقدة بما يكفي..
قالت في ضيق:
- أنا لم أجر أي لقاء تلفزيوني.. لقد عدت من العمل إلى هنا..
فكر (رفعت) قليلا ووضع ساقا على ساق كاشفا عن عظام يكسوها الشعر:
- هذه إذن تيمة (إن صديقك الذي سهرت معه لم يكن صديقك).. إن للرعب تيمات معينة أعرفها جميعا، ولكن لننتظر ولنر:
قالت له وهي تصب بعض العصير في كوب:
- وهل لا بد للمسوخ من أن تصنف نفسها تحت تيمة ما؟
- لا مجال للارتجال هنا.. نحن نعيش في عالم (الأنواع).. وعلى كل حال إن الطبيعة تقلد الفنان كما قالها (وايلد wilde) كثيرا جدا.. اليوم لا بد لكل مسخ يحترم نفسه أن يجد نوعا من الرعب يتخصص فيه..
ثم أردف وهو يتناول كوب العصير منها:
- في السابعة مساء اتصلت به وجئت إليه أنت ومصورك الشاب.. وهكذا استدعاني (كولبي) لأنه يرغب في أن أحضر التجربة معه.. وقد حضرت على الفور بمجرد أن انتهيت من ارتداء البذلة الكحلية لأنها تبدو فاتنة على شاشة التلفزيون.. وبدأت جلسة تحضير أرواح بطريقة لوح (الويجا).. يبدو أنه لا يجيد إلا هذه الطريقة.. كنت تصورين كل شيء في اهتمام، بينما زعم (كولبي) أنه يحضر روح (جوش كيندرلي) أول ضحايا سفاح (نيويورك)..
سألته في دهشة وقد بدأت تشعر بأنه مخبول:
- أنا فعلت هذا كله؟
- بالتأكيد.. وصدقيني أنك كنت أكثر جمالا منك الآن.. فلابد أن ذلك المتنكر أو المسخ أو الإكتوبلازم قد جاملك أكثر من اللازم. بعد قليل راح القرص يتحرك، واستطعنا أن نقرأ كلمات من يزعم (كولبي) أنه (كيندرلي).. كان يردد دون توقف لفظة: (أنا أبصق على قبرك).. (أنا أبصق على قبرك).. ولا شيء غير هذا..
لم تبد لي المعلومات عالية القيمة إلى هذا الحد.. إن (كولبي) يعشق الشهرة، ولكن لو لم يكن لديه ما هو أفضل من قرص يردد (أنا أبصق على قبرك) فهو في مشكلة..
هنا صحت أنت في ذكاء مؤكدة أنك تعرفين معنى هذا.. (أنا أبصق على قبرك) هو ملهى رومانسي رقيق في (بروكلين).. وكان (كولبي) قد أنهى الجلسة، فقلت له إنك ستذهبين معه إلى (أنا أبصق على قبرك) للبحث عن السفاح باستعمال موهبته الخاصة.
كنت أنا كالعادة متشكا.. فسألته: هل هذه هي المعلومات التي ملأت الأرض والسماء طربا لحصولك عليها؟ قال لي في شيء من الحرج: إن تجاربي السابقة كلها خرجت بالنتيجة ذاتها:

حل اللغز هو في (أنا أبصق على قبرك).. مع رجل يدعى (جالاجر)..
هكذا انطلق فريق المتحمسين إلى (أنا أبصق على قبرك) بينما خيرني (كولبي) بين المجيء معهم أو الانتظار هنا أو العودة لفندقي أو الموت.. لم أحب أيا من هذه الاقتراحات.. وقررت أن أبحث عن دار سينما تعرض فيلما رديئا.. إن الأفلام الرديئة تساعدني على النوم المريح..
لما انتهى الفيلم عدت لشقة (كولبي) فلم أجده.. عاودت الاتصال مرارا فيما بعد لكن لا أثر له.. الآن يمكنني فهم ما حدث.. لم تكن هناك مذيعة تلفزيون ولا مصور.. والذهاب إلى (أنا أبصق على قبرك) لم يكن إلا.. لنقل إنه طعم لقد ذهب (كولبي) إلى مكان مجهول مع شخصين لا نعرف عنهما شيئا.
فكرت (عبير) قليلا ثم قالت:
- (بروكلين) في هذه الساعة المتأخرة؟ ما كنت لأفعل هذا بكامل قواي العقلية..
- أعرف.. العصابات وقطاع الطرق.. الحق أن بلادكم تتمتع بأمن غير عادي.. لكني أتمنى أن يكون هناك حمام نظيف في المكان الذي سيوجد فيه.. سوف يحتاج إليه أكثر من أي واحد آخر..
- وماذا نفعل؟ نلحق به هناك؟
- لن نجده على كل حال..
- وماذا نستنتج من هذا؟
- أن (كولبي) لم يكن أحمق.. إنه يعرف أكثر من اللازم، وهو قد وضع يده على شيء.. لهذا قرر أحدهم أن يسكته أو يبعده.
- (أنا أبصق على قبرك)؟ (جالاجر)؟
لا أعرف معنى هذا.. لكني متأكد من شيء واحد: لا علاقة للموضوع بذلك الملهى في (بروكلين) لو كان له وجود.. ابحثي عن أي شيء آخر..
ثم نهض متجها إلى الباب، فسألته:
- هل ترحل الآن؟
قال في بساطة:
- سأعود لفندقي.. لقد توغل الليل..
- قد تكون في خطر ما؟
- لا أظن.. أنا بهذه القصة أجهل من دابة، ولم نسمع عن دابة قتلت لأنها تعرف أكثر من اللازم..
كلامه منطقي.. لكن هذه القصة لا تستجيب للمنطق..
على كل حال هو رجل رشيد يعرف كيف يحمي نفسه أو على الأقل يحاول..

☆ ☆ ☆

هل تنتهي هذه الليلة؟
ضغطت على زر جهاز (التحكم عن بعد) واستلقت مسترخية على الأريكة.. كانت مطمئنة إلى أنها مرهقة، ولسوف تغرق في النوم قبل أن ينتهي الأخ (الشفرة) من قتل نصف مصاصي الدماء.. لكنها كانت فقط راغبة في معرفة شيء عن (شانجري لا) هذا..
راحت الأحداث العنيفة تتدفق.. وراح مخها يدور في أفلاك أخرى..
هنا استرجعت ذكرى واضحة كالشمس من أحداث اليوم..
- ممنوع لمس شيء يا فتاة. هذا مسرح جريمة

نظرت للوراء لتجد ذلك الضابط ضخم الجثة الذي طرد الصحفيين، فأجفلت.. قال وقد فهم كل شيء:
- أنت مراسلة تلفزيون.. أنا أعرفك، وقد تسللت وسط أخيلة المقاتة الواقفين على الباب.. ليكن.. سأتركك ولكن حذار من أن أراك في مسرح جرائمي بعد اليوم!



وهرعت تلحق ب. (مايك) الذي كان ينتظرها بالكاميرا.. حاول أن يتكلم فأخرسته.. أخرجت القلم وبسرعة راحت تدون في مفكرة حقيقية رقم الهاتف واسم الشركة.. و..

هنا أدركت حقيقة أخرى.. إنها لا ترى هذه الأحداث على تلك الشاشة التي خلقها الله في وعي كل منا، وإنما تراها على شاشة أخرى.. شاشة التلفزيون!
هبت معتدلة في جلستها، وأعادت تقييم الموقف. نعم.. لا خرافة هنا.. هذا الذي على شاشة التلفزيون هو مشاهد من يومها.. إنها.
(لكن هذا مستحيل.. وهي متأكدة من أنه..)
ترى نفسها من الخارج.. وتتابع
(.. لم توجد أية كاميرا داخل الشقة)
كل ما قيل حين كانت تحقق في شقة القتيل!
الأغرب من كل هذا تلك التقنية الغريبة في الكتابة.. الجملة مقسومة تتخللها خاطرة في سطر آخر، ثم تعود الجملة.. ثم الخاطرة.. إن المؤلف يجرب إحدى تقنيات (ستيفن كينج Stephen King) الشهيرة.. لكنها مربكة، والأسوأ أنها لن تظهر أبدا بعد الطباعة كما أرادها المؤلف.
كأن الموقف ليس مربكا بما فيه الكفاية، كي يزداد سوءا بهذه الألعاب التكنيكية!
- ولعدة مرات أعادت الشريط فكانت ترى الشيء ذاته.
ما معنى هذا؟ هناك من كان يراقبها بكاميرا خفية، وقد أعد هذا الشريط.. لكن متى؟ ولماذا اختار هذا الفيلم بالذات بينما هي نفسها لم تعرف أنها ستختاره؟ لقد طلبته فناولتها الفتاة الشيطانية إياه في ثانية واحدة.. لا وقت لإعداد خدعة من أي نوع..
إن هذا لا يصدق.
كان طول اللقطة بضع دقائق، لكنها انتهت وسرعان ما عادت أحداث الفيلم.
مدت يدها إلى الهاتف، وبحثت عن رقم الفندق الذي يقيم فيه (رفعت إسماعيل).. كان قد كتبه لها أمس.. في النهاية سمعت صوته عبر السماعة فقالت:
- ثمة شيء مذهل يحدث الآن..
- إن كل الأشياء التي تحدث الآن مذهلة.. إلى حد أنني سأندهش جدا لو حدث شيء عادي..
فتحت فمها لتحكي القصة، لكن ذلك الحافز الخفي جعلها تلزم الصمت.. لن يصدقها ولسوف تبدو حمقاء هستيرية.. إنه من الطراز الذي يؤمن بهيستيرية النساء.
سألته عن (كولبي) فقال إنه لا معلومات عنه، ولو كانت هناك معلومات فمن المستحيل أن تصله خلال ربع ساعة..
ثم إنه لا يرى السؤال عن (كولبي) شيئا مذهلا يحدث الآن..
هكذا وضعت السماعة مبلبلة الفكر.. قال (المرشد) إنها ستكون واثقة من نفسها تجيد تولي أمرها، فلماذا تلك الرغبة الملحة في أن تجد بجانبها من يعرف كيف يتولى أمره؟



بعد انتهاء عملها اتجهت بخطى ثابتة إلى نادي الفيديو العجيب..
كانت الفتاة الشيطانية إياها ترتب الشرائط على الرفوف، بينما التلفزيون الصغير المعلق يقدم أغنية (راب) مجنونة.. إنه عصر (الراب) تلك الأغاني التي يقدمها زنوج يلبسون ويبدون كسمكرية السيارات في مصر.. يمكن لأي مبيض محارة في مصر أن يحقق الملايين، لو ابتاع قلنسوة صوفية وسافر إلى أمريكا بفانلته الداخلية، ووضع الكاميرا على الأرض وتعلم كيف يخاطبها ويلاحقها، وهو يغني بتلك الطريقة السريعة المتعصبة الغاضبة بلا سبب..
مدت يدها بالشريط إلى الفتاة، فقالت لها في مرح:
- هل أحببته يا حبيبتي؟
- جدا! قالتها بصوت كالفحيح.. هل الفتاة تعرف أم أن هناك من يخطط هذا من وراء ستار؟
ماذا يوجد في تلك الحجرة الداخلية خلف الستار الأحمر؟
طلبت (عبير) فيلم (تحت الحصار) لأنها رأت ملصقه خلف الفتاة، فسرعان ما غابت بالداخل ربع ثانية - لو أردنا الدقة - ثم عادت به، ودسته في الكيس وضحكت كاشفة عن أسنانها التي لوثها التبغ وقالت:
- أي وقت يا حبيبتي.. أي وقت!
وهكذا استقلت (عبير) سيارة أجرة، وعادت إلى دارها..
كالملهوفة طوحت بفردتي حذائها، وهرعت إلى فم الفيديو الجائع فألقمته الشريط.. سرعان ما ابتلعه في نهم.. كلونش.. كلانش.. كلونش!!
وجلست على الأريكة وراحت تتابع الصورة على الشاشة..
لا يوجد شيء.. لا يوجد شيء.. الإرهابيون يستولون على سفينة تجارية، لكنهم - لحظهم الأسود - لا يعرفون أن طاهي السفينة هو (ستيفن سيجل) نفسه.. ولو كانوا أذكى لبحثوا عن سفينة أخرى يكون الطاهي فيها (شارلي شابلن) أو...
- كانت الفتاة الشيطانية إياها ترتب الشرائط على الرفوف، بينما التلفزيون الصغير المعلق يقدم اغنية (راب) مجنونة.. إنه عصر.. فقالت لها في مرح: هل أحببته يا حبيبتي؟
- جدا!
قالتها بصوت كالفحيح....... ثم عادت به، ودسته في الكيس وضحكت كاشفة عن أسنانها التي لونها التبغ..
هذه المرة لم يكن أمام (عبير) إلا أن تلقي برأسها إلى الوراء وتضحك.. تضحك.. هو ضحك كالبكاء أو بكاء كالضحك.. هذه روح انفجر إطارها الأمامي.. لا توجد سيطرة على أي شيء، وعجلة القيادة لا تؤدي أي عمل..
إن الأمر حق لا شك فيه.
إنها قد جنت أو توشك على ذلك.. لا توجد سوى طريقة واحدة للتأكد..



- هل شاهدته بهذه السرعة يا حبيبتي؟
يبدو أنني أكره (ستيفن سيجال)..
- لا ألومك.. البعض يعتبره أول حصان يمثل، والبعض يعتبره أفضل شيء اخترع منذ الهامبرجر.

وكان الفيلم هذه المرة هو (السرعة).. وهكذا حملته (عبير) عائدة إلى دارها، وهذه المرة لم تقم بخلع حذاءيها.. لقد دسته في الفم النهم وجلست مفتوحة العينين..

جاء (رفعت) إلى شقتها بعد نصف ساعة من المكالمة.. فتحت له الباب، فكان يلهث كمن يوشك على السقوط ميتا... قال لها وهو يجلس على الأريكة: - ثمة شيء يجب أن تعرفيه جيدا.. لقد رأيت كل شيء تقريبا.. وقابلت نفسي أكثر من مرة، لكن... فكر (رفعت) قليلا ووضع ساقا على ساق كاشفا عن عظام يكسوها الشعر.

من جديد راحت تضحك في هستيريا.. وكانت عاجزة تماما عن فهم ما تشعر به حقا.. هل خوف أم غضب أم دهشة أم استمتاع بالأمر.

رفعت السماعة وطلبت الأحمق الوحيد الذي يمكن أن يأتي في وقت كهذا:

- د. (إسماعيل).. أريد أن تأتي عندي حالا..

☆ ☆ ☆

5- شيء ما..

ملحوظة عابرة: لو كان المؤلف يحصل على جنيه عن كل مرة يستعمل فيها عنوان (شيء ما)، لكان قد صار مليونيرا منذ ثلاث سنوات.



قال لها (رفعت) وهو يلهث:
- لو لم يكن لديك عمل أكثر جدوى من استدعاء عجوز مثلي إلى شقتك كلما فكرت في شيء، فإنني أرجو أن تعفيني من إبداء رأيي فيك.
لم تبال بسخريته.. هذا الرجل يتمتع بلسان سليط، وملل لاحد له.. لا يكف لحظة عن اعتبار الحياة كلها مكررة من قبل، ولو ظهر له تنين أخضر ينفجر ليخرج من جوفه (أخناتون) ويحلق بمحركات ذرية نحو (عطارد)، لقال إنه يرى في هذا تكرارا لا يخلو من الإملال..
قصت عليه القصة كلها، ثم عرضت عليه الشريط.. هنا حدث ما نتوقعه دوما.. هات ابن أختك ذا الست السنوات وقل له أن يكرر على ضيفك الأغنية التي أداها أمس. سوف ينظر لك ببلاهة ولا يفعل شيئا.. افتح جهاز التلفزيون وحاول أن تجعل مهندس الإلكترونيات يرى الخطوط السوداء التي تظهر كل ثلاث دقائق.. ماذا يحدث عندئذ؟ لا شيء على الإطلاق.. إن الحياة معقدة فعلا، ويبدو أن هناك قانونا فيزيائيا لا يعرفه أحد اسمه (أنت على خطا دائما).
وهكذا ظل (رفعت) يشاهد فيلم (السرعة) في ملل.. نصف ساعة على الأقل وهو صامت.. في النهاية قال لها:
- أنا أحب من يريدون الدفء الإنساني.. لا تريدين مشاهدة هذا الفيلم وحدك.. أفهم هذا.. لكني أتحفظ بعض الشيء على استدعائي على وجه السرعة لأرى فيلما لم أحبه قط..
كانت على وشك البكاء.. وراحت شفتها ترتجف:
- أؤكد لك أن...
قال لها في ملل وهو ينهض:
- أفهم. أفهم.. تحاولين إقناعي أن هذه تيمة (أنا رأيته فكيف لا يراه سواي؟).. هذه تيمة رعب شهيرة، لكنها تتشابه إلى حد ما مع تعريفات الجنون.. ولما لم يكن بوسعي أن أبرهن على كلامي...
دززززز!
كان هذا صوت الهاتف
سألها في شك:
- هاتف يحدث (دززززز) وليس (ترررررن)؟
- هذه هي الحقيقة.. أنت تعرف أن المؤلف يعشق المؤثرات الصوتية.. هذا أسلوب شائع في القصص المصورة، لكنه يحب إدخاله في القصص السردية كذلك.
ورفعت السماعة، وقطبت وجهها قليلا ورددت عددا هائلا من ال (أوكي) ثم قالت:
- قتيل آخر..
- جميل.. أنا أحب الأخبار المبهجة قبل النوم.. هل هو (كولبي)؟

- لا أظن..
ثم نظرت له في توسل وقالت بصوت كالفحيح وهي تعتصر السماعة:
- أتوسل إليك.. أريدك معي في هذه المرة.. إنني لا أعرف الرابط بين هذه الأشياء لكنه موجود.. أريد عينا أخرى حساسة للخوارق..
كان سلس القياد هذه المرة، فنهض متجها إلى الباب، قائلا:
- إذن هيا بنا..



من جديد يتكرر المشهد الذي صار مملا..
فقط نحن في ساعة متأخرة من الليل و (ستيف) مصورها المفضل يركض جوارها.. سألته وهي تركض:
- ألم يكن اسمك (مايك) بعدما كان (جيري)؟
مط شفته السفلى بمعنى أن كل إنسان معرض للخطأ..
ونظرت للوراء حيث كان (رفعت إسماعيل) يتعثر محاولا اللحاق بهما.. طبعا هذا مستحيل.. لسبب ما لم يمنع رجال الشرطة الصحفيين من دخول صالون الحلاقة.. بالداخل كان هناك زحام من رجال المختبر الجنائي، صور تلتقط وجثة مثنية للخلف.. وكان دخان التبغ ثابتا متصلبا في الهواء، فسعل المصور عدة مرات، وقال في ضيق:
- لا أتحمل الدخان! لم لا يمنعون التدخين هنا؟
- أنت لا تتحمل الدخان؟ كانت لفافة التبغ لا تفارق شفتيك.
- نسي المؤلف ذلك.. هذا سهو بسيط يحدث من حين الأخر.
- إذن أنت صرت (ستيف) وكرهت التدخين.. لحسن الحظ أنني مازلت أدعى (ويلما).. هييه! د. (رفعاات)..
شق الطريق إلى الداخل وسط الزحام.. كان مرتبكا ومن الواضح تماما أنه يكره ثاني أكسيد الكربون، وينفر من أي تجمع بشري.
هذه المرة استطاعت أن تظفر بقائد الشرطة الزنجي ذي المعطف الخاكي، فأمرت (ستيف / مايك / جيري) بأن يبدأ التصوير، ووضعت مكبر الصوت قرب فمه:
- سيدي.. السلسلة مستمرة.. ومن الواضح أننا نتعامل مع قاتل تتابعي Serial Killer، فهل لك أن تخبرنا بالرابط بين هؤلاء المقتولين؟
نظر لها في حدة ثم نظر إلى العدسة وقال:
- أفهم ما تريدين قوله.. ربما يتخصص فى قتل الشقر أو قتل الرجال البدينين أو البيض.. ربما يتخصص في القتل يوم الثلاثاء أو يتخصص في قتل أصحاب المطاعم.. في الغالب حين نمسك به يقول لنا إن الرب أمره بقتل السباكين مثلا.. لكن لا.. لا يوجد أي رابط حتى اللحظة بين هؤلاء المقتولين.. منهم الأبيض والأسود.. منهم النحيل والبدين.. منهم البائع الجوال والحلاق.. منهم من مات يوم السبت ومنهم من مات يوم الخميس.. لا يوجد رابط..
نظرت حولها ثم رأت ما كانت تبحث عنه هناك جوار المرآة.. فهتفت في انتصار:
- شرائط فيديو في صالون حلاقة؟؟ ألا يبدو هذا غريبا؟
قال في ضيق:
- ليس إلى هذا الحد.. هناك حلاقون يعرضون أفلام فيديو على زبائنهم..

- ألم تلحظ أن شرائط الفيديو هي القاسم المشترك بين كل الضحايا؟
- إن الفيديو اختراع شائع نوعا.. ولن أندهش لوجود صنبور ماء أو ثلاجة لدى كل من ماتوا..
ثم انسحب دون أن يودعها أو يشكرها أو أي شيء. كان من الواضح أنه يعيش أسود أيام حياته، وربما آخر أيام منصبه.. على كل حال لا مشكلة.. سيجدون زنجيا آخر ضخم الجثة يعرق بغزارة ويلبس معطفا خاكيا، ويعينونه مديرا للشرطة.. دنا منها (رفعت) الذي غمر العرق عويناته وقال:
- هذا الرجل سمج كال. (تابير) سيئ الخلق كال. (وولفرين)..
- هل الى (تابير) سمج إلى هذا الحد؟
- لا أعرف.. لكنه يبدو سمجا في الصور..
لم تكن تعرف ما هو (التابير) لكنها تلك التشبيهات التي يهواها المؤلف، ويستخدم فيها أسماء حيوانات عجيبة لكنها حقيقية.. بالمناسبة كان في حديقة حيوان الجيزة (تابير) لا بأس به لكنه مات منذ أعوام!
- هل شرائط الفيديو تحمل علامة (شانجرى لا) هذه؟
اتجهت وسط الزحام إلى المرآة وألقت نظرة - ثم نظرت له وهزت رأسها أن نعم.. ورفعت إصبعها بمعنى أن هناك واحدا.. لكنها خشيت أن تمد يدها للشريط فتسمع ما لا تحب..
وقف (رفعت) يتأمل وجهه في المرآة أمامه.. وبدا هذا غريبا للناس.. لم يبد مسرورا بما رأى ومعه حق طبعا.. تذكرت (عبير) كيف أن الطاغية (تيمورلنك) رأى وجهه في المرآة مرة فهاله مدى قبحه وراح يعول ويبكي، هنا فوجئ ب. (جحا) يبكي معه.. سأله عن السبب فقال (جحا): أنت رأيت وجهك مرة واحدة فبكيت.. فماذا عنى أنا الذي أراك كل يوم؟!!
اقتربت من (رفعت) الذي كان يحاول أن يشذب شاربه باستعمال مشط صغير، وقالت باسمة:
- لو أن أحد رجال الشرطة رآك، لأبلغك برأيه في جمالك..
لم يبتسم وقال وهو يواصل ما بدأه:
- لا أعرف إن كان الأمر يعني لك شيئا.. لكن هذه المرأة من الطراز المعتم من جهة والشفاف من جهة أخرى!
نظرت له في المرآة في حيرة.. وقالت:
- ماذا تعني؟
- يوجد جزء غير مفضض عند الركن الأيمن السفلى.. ومن خلاله أعرف أن هناك تجويفا - ربما غرفة - على الناحية الأخرى.. هذا أسلوب معروف للتجسس.. من يقف هنا ير مرآة، ومن يقف على الناحية الأخرى ير نافذة شفافة..
من جديد قالت في حيرة:
- وما الهدف؟ لماذا يريد الحلاق أن يراقب زبائنه؟
- لا أعرف.. لكني شغوف بمعرفة ما يوجد على الجانب الآخر.
فكرت حينا ثم قالت:
- سنخبر الشرطة.. لا أعرف حلا آخر
ثم لحقت برجال الشرطة وتبادلت بعض الهمسات مع أحدهم، ثم نظرت للوراء وهتفت:
- (ستيف)!! صور كل شيء!
بدوره هتف رجل الشرطة:
- تعالوا هنا وساعدوني يا شباب.
جاءت المطارق من مكان ما، وكذلك استعان البعض بالهراوات.. وسرعان ما انقض الجميع على

المرأة يوسعونها تحطيما.. تدخلت النزعات السادية لتزيد من حماستهم وقد تخيل كل منهم أنه يهشم رأس زوجته..

اتسعت الثغرة، وكان ما وراءها مظلما... فهرعوا يسلطون الكشافات على الداخل..

هنا دوت صرخة رعب مريعة..

☆ ☆ ☆

6- الغول..

كانت هذه أعظم ليلة في عمر (عبير).. ليس لجمال ما وجدوه، بل لأهميته.. وكان (ستيف | مايك / جيري) يصور هذا كله..
لو كانت هذه القصة بقلم كاتب آخر، لوصف ببساطة ما يحدث.. أما مع كاتبنا فإنه يبدأ بالقول: كنت أود أن أصف لكن هناك آنسات ها هنا.
هذا موقف راق لا بأس به.. لكن المشكلة الحقيقية أنه يصف كل شيء بعد هذا!! يصفه بطريقة تلميحات خبيثة على غرار (بعض السادة المعلقين بالداخل لم تكن رائحتهم طيبة جدا) أو (هذا الذي على الأرض ليس عصير طماطم) أو (قطع اللحم المتناثرة لا تدل على رقي كبير)..
كان الحلاق سفاحا.. والأهم من هذا أنه كان آكل لحوم بشر كما هو واضح.. لا غرابة في هذا.. إن أمريكا تعج بهم، وأي بحث في شبكة الإنترنت يخبرك على الفور أن (هانيبال لكتر Hannibal Lecter) ليس وليد خيال المؤلف (توماس هاريس Tomas Harris) تماما...
كانت هناك سبع جثث معلقة من خطاطيف، ويبدو أن تلك الغرفة كانت هي (قاعة الهوايات) بالنسبة للحلاق.. بالإضافة إلى أنه كان يراقب زبائن المحل من خلال المرآة الزائفة، ربما لاكتشاف وجبات جديدة.. لابد أنه كان يفعل هذا حين يتولى أحد مساعديه الحلاقة في المحل، لأنه من الصعب أن يقف خلف المرآة وأمامها في الوقت ذاته لو أردت رأيي.
صرخات كثيرة.. إغماءات أكثر.. الكثير من القيء.. إلخ.. إنها عادة يصعب التخلي عنها..
وقال رجل الشرطة وهو يتفحص إحدى الجثث بعد إنزالها من على الخطاف:
- (لويجي فرناندل).. مهاجر أسباني.. أذكره جيدا لأنه في قوائم المفقودين لدينا.. أعتقد أن كل هؤلاء ضمن القوائم.
هتف آخر في حماسة:
- هذا هو ما ندعوه (العدالة الشعرية).. لقد مات سفاح بيد آخر!
ودنت (عبير) من (رفعت) لتقول له في حماسة:
- أنت نجم السهرة.. ربما مر الأمر دون أن يلاحظه أحد.. لقد كانت غرفة الهوايات هذه مخبأة جيدا، ويبدو أنه كان يدخلها من خلال المرآة ذاتها بعد انتهاء ساعات العمل..
في ملل قال وهو يتأمل نفسه في مرآة أخرى:
- سئمت الحلاقين الذين يذبحون الزبائن ويأكلونهم لقد صرت أغلق بابي كي لا يدخل أحدهم.. لو فتحت الصنبور لنزل عشرة منهم..
- أعرف أنك ملول.. لكني لم أتصور قط أن حالتك بهذه الخطورة!
قال لها وهو يدس يده في جيبه:
- بالمناسبة.. الشريط معي.. كان من الممكن وسط هذه الضوضاء أن أدس حاملة طائرات في جيبي.
لكنها كانت تعرف.
لقد رأى القتيل شيئا ما على الشريط.. لكن ما هو؟ الاحتمال الأكبر هو أنها ستجد الشريط نظيفا بريئا حين تراه.. كما حدث في شقتها منذ ساعات.. هذه الشرائط لا يراها إلا صاحب الشأن..

كانت قد فرغت من هذا المكان، و (ستيف) المصور يلتهم لفافة تبغ في جشع.. فقد تذكر المؤلف من جديد أنه مدخن شره.. فقالت له:
- سأنصرف الآن يا (ستيف).. سآخذ الدكتور (إسماعيل) معي..
نظر للعجوز في غيظ وقال:
- هذا النصب التذكاري الأصلع؟ إن لك ذوقا غريبا في فرسان الأحلام، ولو كنت مكانك لذهبت لأقرب طبيب نفسي.. إن مرض (الجيرونتفيليا) قابل للعل..
- أنت تغار يا صديقي.. ولكن بلا داع.. الرجل مصدر.. لا أكثر ولا أقل.
- لو كان مصدرا فهو مصدر للإزعاج.. للدرن.. للحمي الراجعة..

☆ ☆ ☆

تقول الأغنية:
- لا أريد أن أصحو في المدينة التي لا تنام.. (نيويورك)..
وحقا (نيويورك) لا تنام...
إنهما يجلسان في ذلك المقهى الصغير في حي (بارك أفينيو) الراقي، حيث تدور الأغنية.. هناك زبائن معدودون، وثمة جو ناعس جميل.. إنها تحب الجلوس مع هذا الشيخ العصبي.. تحب الجلوس ولا تحبه هو.. ثمة فارق طفيف في المعنى لكنه يغير الأمور بشدة.
جاء النادل بإفطار مبكر جدا فجلسا يأكلان في صمت..
بعد دقائق سألته:
- هل من استنتاجات بصدد هذا كله؟
كان فيه مليئا بالبيض، لذا انتظر قليلا حتى ازدرده، ثم قال:
- بالطبع لا.. لدينا عدة نقاط غامضة:
1- أين (كولبي) وماذا كان يعرفه مما شكل كل هذا الخطر؟
2- كل القتلى - فيما يبدو - كانت لديهم شرائط فيديو من (شانجرى لا) هذا..
3- هذه الشرائط غير طبيعية..
4- القتيل الأخير كان قاتلا تتابعيا.. بل آكل لحم بشر لو شئنا الدقة..
ثم فكر قليلا وأضاف:
- ثمة نقطة أخرى مهمة.. (أنا أبصق على قبرك) فيلم سينمائي شهير من أفلام (الجيالو Giallo) التي يطلقون عليها (قاذورات الفيديو Video nasties)، بسبب كل ما فيها من عنف سافر لا يتورع عن شيء.. أعتقد أن (كولبي) كان يتكلم عن فيلم فيديو لا عن ملهي في (بروكلين)..
هتفت في مرح مصفقة بيديها:
برافو.. هذا حق.. لقد كان (جوش كيندرلي) يشاهد هذا الفيلم حين مات.
هنا شعرت (عبير) بمن يدق على كتفها فنظرت إلى الوراء.. فوجئت بالمرشد يقف هناك وهو يضغط على القلم الزنبركي، وحيا (رفعت إسماعيل) بهزة رأس فيها من الوقاحة أكثر مما فيها من التأدب، ثم قال لها:
- حان الوقت: لقد انتهت القصة!
هتفت في رعب:
- انتهت! هي لم تبدأ بعد!!
مد يده يلتقط قطعة من الكرواسان من طبقها، وقضم منها، ثم قال ببرود كعادته:

- لقد سئم المؤلف القصة ويريد إنهاءها حالا.. إنه يفعل ذلك أحيانا.
- لكن المشكلة مازالت قائمة..
- ربما يلجأ إلى حيلة الحلم.. تفيقين لتكتشفي أن هذا كله حلم.. ربما يترك النهاية مفتوحة لخيالك.. أي شيء.. المهم أن القصة انتهت.
قال (رفعت) في تفلسف:
- يسمون هذا (الإله من الآلة) أو ال Contriving.. هذا عيب درامي شهير.
- عيب أو ليس عيبا ليست مشكلتي.. لا ذنب لي إذا كنت اخترت قصة المؤلف نافد الصبر سريع الملل كهذا.. هلمي يا فتاة..
في عصبية طوحت ما بقي في قدح القهوة في وجهه وهتفت:
- أنت والمؤلف! أنا لا أخدع بسهولة! سأبقى ولو كان هذا آخر شيء أفعله راح يجفف السائل الساخن عن وجهه على حين قال له (رفعت) في حزم:
- ارحل أنت.. لن تستطيع إرغامنا على شيء.. نحن باقيان هنا حتى يتضح الأمر.
قال المرشد وهو يقضم ما بقي من الكرواسان على مرة واحدة:
- أكره أن ألقى التهديدات.. لكني غير مسئول عن أي خطر تتعرضين له.. أنت رفضت الرحيل حين قمت أنا بواجبي.
ثم هز رأسه في ضيق وابتعد، على حين استدارت (عبير) إلى (رفعت) وقالت في إعجاب:
- أنت تجيد معالجة أمورك.. مازلت لا أفهم كيف لم تتزوج حتى الآن.
قال وهو يقضم بعض الكعك:
- هذا يذكرني بنكتة الأحمق الذي وثب من الطائرة بالمظلة.. نسي أن يجذب الحبل ليفتح المظلة، حتى صار على ارتفاع ستة أمتار من الأرض.. هنا تذكر.. لكنه قال لنفسه: إن خمسة أمتار ليست معضلة.. يمكنني أن أثبها!
هكذا أنا.. ترددت كثيرا جدا حتى سن الخمسين.. ثم وجدت أنه لا مشكلة في قضاء الأعوام الباقية لي وحيدا..
أضافت باسمة:
- سأضيف شيئا.. ربما لم تتزوج لأنك تجيد معالجة الأمور، والمرء يتزوج إذا لم يجد شيئا آخر يفعله..
قال بطريقة من لا يرغب في مزيد من الكلام حول هذه النقطة:
- ربما.. والآن ماذا نفعل في هذه القضية؟ إن رغبة عارمة تحدوني إلى أن أنسى الأمر برمته وأعود لوطني. هذا يبدو محببا.. لكن لدى التزاما نحو الأحمق (كولبي).. إنه إنسان برغم كل شيء.. ثانيا أريد أن أبقى لمجرد استفزاز هذا المرشد..
- إذن ماذا نفعل؟!
نظر لها في غموض وابتسم وقال:
- هل تعرفين أين يقع مطعم ذلك المدعو (مايكل ستوردليان)؟



لم تعرف (عبير) أنها نامت كالجثة في شقتها، ولم تعرف الساعة إلا حين دق جرس الهاتف الذي يقول (دززززز) لا (ترررررن).. رفعت السماعة كالمنومة مشوشة التفكير وتساءلت:
- من؟!

جاءها صوت (رفعت):
- استيقظي وأشرقي كما تقولون.. إنها الرابعة عصرا.. لقد عاد كل منا لداره في الخامسة صباحا، وأؤكد لك أنها خبرة مروعة.. إن بلادكم تنعم بأمن غير عادي، فقط لو تخلصتم من تلك العصابات من البلطجية، وسائقي التاكسي المجانين، وعصابات الزنوج المزودة بالهراوات، وعصابات الكاريبي التي تحمل المدى، ومدمني المخدرات في الأزقة..
حكت شعرها كالقرود، وقالت:
- من أين تتكلم؟
- من فندقي طبعا.. كنت أريد أن أعرف مكان نادي الفيديو المدعو (شانجري لا) هذا..
قالت في ضيق وهي تترجل من الفراش:
- لا أعتقد أنه يفتح أبوابه في هذا الوقت المبكر.
- إذن يجب هذه الليلة بالذات أن أزوره.. وأن نقوم بعدها بالبحث في مطعم المدعو (مايكل ستوردااليان)..
- نبحث عن ماذا؟
- لا أدري.. سنعرف عم نبحث حين نجده!
وهكذا اتفقا على اللقاء في العاشرة مساء عند نادي الفيديو..
ولم يكن لديها ما تعمله الآن إلا إعداد وجبة خفيفة ومشاهدة التلفزيون، حيث مازال التقرير الذي قدمته أمس يعرض في كل نشرة...
وفي العاشرة مساء اجتاز الاثنان مدخل نادي الفيديو الكئيب..
الحقيقة أن المكان اكتسب أهمية خاصة بعد كل ما رأياه وعرفاه عنه.. فلو كانا يجتازان مدخل معبد وثنى لما تصرفا بهذا التوجس والخوف.. ولكن (رفعت) قال هامسا وهو ينظر إلى الملصقات:
- شيطانيون Satanics.. هذا واضح..
قالت في لا مبالاة:
- أوه.. دعك من هذا.. إن هذه موضة لا أكثر.. إن الشباب يحب الغرابة.. لو حكمت على المجتمع الأمريكي بطلاء الشفاه الأسود، لاستنتجت أننا مجتمع من ال..
ثم صمتت لأن الفتاة المخيفة إياها ظهرت لهما..
نظرت ل (رفعت) نظرة شك ذات معنى.. ثم عادت ابتسامتها المخيفة التي تكشف عن أسنانها المصبوغة، وقالت في مرح:
- عدت يا حبيبتي.. هل أحببت الفيلم؟
- جدا..
قالتها (عبير) ثم أشارت إلى (رفعت) وقالت بكياسة:
- جلبت لكم عميلا آخر محترما يهوى أفلام العنف القذر.. إنه يريد عنفا لا هوادة فيه.. الكثير من الرعب المعوي والأشلاء الممزقة..
نظرت له الفتاة من جديد وغمضت بشيء من السخرية:
- هذا واضح.. إنه شرس قوي كالفهد.. أراهن أنك فخور به..
قال (رفعت) كلمة واحدة:
- (أنا أبصق على قبرك)!
. أوه.. نحن لا نعتبر هذا فيلم عنف بالضبط.. إنه من كلاسيكيات السينما الراقية.. لكن السيد

ذو ذوق لا بأس به..
وبعد ثوان كان الشريط في الكيس المعتاد في يد (رفعت)..
قالت له (عبير) وهي تستوقف أول سيارة أجرة:
- الآن نذهب إلى دارى لنراه.. أم هو لا يعمل إلا حين تكون وحيدا؟
- لماذا تسألينني؟ لست أنا من وضع كل هذه الخطة
بعد عشر دقائق كانا في شقتها الأنيقة، فاتجهت لتدس الشريط في الفيديو.. الوحش الجائع يزدرد وجبته اليومية ثم يخرجها على شكل صور على الشاشة.
بعد دقائق قالت له:
- ما رأيك؟
- مثل رأيك.. تذكري الطفل الذي يرفض الغناء أمام الضيوف.. هذا فيلم (أنا أبصق على قبرك) بأحداثه الرقيقة الشاعرية، كما رأيته آسفا من قبل.. لا أكثر ولا أقل..
نهضت في إحباط واتجهت إلى المطبخ لتعد له بعض العصير، هنا سمعته يصرخ كالمجنون:
- تعالي.. تعالي!!
هرعت إلى الخارج فوجدته يجلس على الأرض أمام الشاشة وهو يتواثب غير مصدق..
كان المشهد على الشاشة يظهرهما معا.. لكن الغريب أنهما يقومان بعمل لم يقوما به قط.. كانا يتسللان إلى مطبخ كبير يقف فيه مجموعة من الرجال بثياب الطهاة.. يتسللان من وراء الرجال.. ويفتحان بابا.
خلف الباب غرفة ضيقة بها أروع مجموعة من المهملات في العالم.. لكن (رفعت) يمد يده وسط الفوضى إلى أن يجد خزانة مغلقة.. يعالج بابها حتى ينفتح، ويلقي نظرة بالداخل.. ثم يقول لها:
. أعتقد أن علينا أن نرحل.. لقد عرفنا ما يجب أن نعرفه..
هكذا فقط.. ثم بدأت مشاهد فيلم (أنا أبصق على قبرك) التي رآها (رفعت) من قبل...
تبادل النظرات معها.. وساد صت ثقيل.. وشعرت (عبير) بالشعر ينتصب على ساعديها بينما انتصبت شعرة واحدة باقية في رأس (رفعت).. إن الرعب في هذه القصص - كما نعرف - عبارة عن إعادة إحياء للعضلة الناصبة للشعر التي ضمرت عندنا وإن ظلت تمارس عملها ببراعة لدى أي قط يحترم نفسه..
بعد قليل قالت بصوت كالفحيح:
- هذه الشرائط لا ترينا فقط ما حدث لنا بل ما سيحدث.. أعتقد أن هذا هو المطعم الذي ستراه بعد ساعة من الآن قال وهو يحك صلعته حيث جلس على الأرض:
- لا أعتقد.. لا أحد يستطيع التنبؤ بالمستقبل.. حدث لى مرة واحدة أن قابلت شخصا مماثلا لكنه كان آتيا من الغد.. لا أعتقد أن هذه هي القصة هنا.. إن هذا الفيلم ببساطة يشرح لنا ما يجب عمله.. إنه فيلم تعليمي..
ثم قال باستمتاع:
- هل رأيت كم كنت رائعا؟ إن تلك البذلة الكحلية لا تكف عن جعلي فاتنا.. وكنت أتحرك بثقة وأتقدمك كأنني (جيمس بوند) نفسه في ملصقات أفلامه..
قالت في غيظ:
- هذا فقط ما لفت نظرك في هذه الظاهرة العجيبة؟
- رأيت ما هو أغرب.. لكني أعرف شيئا واحدا: هناك من يحاول مساعدتنا.. هذه رسالة بليغة

جدا لكننا لا نملك الذكاء الكافي لفهمها بالكامل..
ثم نهض من على الأرض ونفض ثيابه وقال:
- والآن.. أين هذا المطعم؟

☆ ☆ ☆

7- هل هو نذير؟

كان المطعم صاخبا.. ومن الواضح أن إدارة جديدة اشترته وقامت ببعض التجديدات.. أضف لهذا أن موت صاحبة السائق ميتة بشعة لشيء يثير شهية هؤلاء القوم الباحثين عن أية تسلية.
قال لها (رفعت) وهو يتفحص قائمة الطعام:
- اطلبي أي شيء.. أنا لا أفهم هذه الأسماء..
جاء النادل فطلبت منه طبقين من شيء لا يعرف أحد كنهه، وبعد دقائق بدأت الشاشة الكبرى المعلقة تعرض مباراة كرة قدم أمريكية من الطراز الذي لا يلمس أحدهم فيها الكرة بقدمه.. (مباراة قرب منتصف الليل؟؟!!)..
وهكذا راح الجميع ينظر لأعلى في بلاهة.
- هذا هو الوقت المناسب.
ولو سألنا واحد عن وجهتنا؟
- سنقول إننا نبحث عن الحمام.. لا توجد مشكلة..
نعم هناك مشكلة لأن الحمام على بعد أربع خطوات منهما..
وهناك لافتة لا يمكن ألا تراها ما لم تكن أعمى.. ثم إنه ليس من الطبيعي أن يبحث الرجل ومرافقته عن الحمام في الآن ذاته.. من الطبيعي أن يذهب كل منهما منفردا، مالم يكن الرجل طفلا في السادسة بلل سرواله والمرأة هي أمه..
قالت له في ضيق:
- يبدو هذا موقفا عسيرا..
قال لها وهو ينهض:
- سنستخدم الأسلوب الشهير.. نحن نريد التسلل إلى المطبخ بينما هذا ببساطة مستحيل حسب المنطق.. هنا تظهر قاعدة (دعني أنخدع - دعني أخدعك).. سنذهب برغم كل شيء، ولسوف يقنع القارئ نفسه أن هذا حدث..
في أحد أفلام (هتشكوك) الشهيرة كانت عصابة التهريب تطارد البطل مطاردة محمومة.. وفي النهاية وجد نفسه في المخزن الذي تخزن فيه العصابة ما تهربه.. كانت هناك علب طعام محفوظ.. هنا تساءل (هتشكوك): ما هو المبرر الذي يفسر كل هذه المطاردة المحمومة؟ حتي المخدرات لا تبرر هذا كله.. إذن فلتحتو العلب على (يورانيوم)! وصاح الكثيرون: هذا مستحيل.. اليورانيوم لا يهرب بهذه الطريقة.. ثم إن العالم لا يحوي من اليورانيوم هذه الكمية.. لكن (هتشكوك) صمم على تطبيق القاعدة! هيا بنا!

وهكذا نهض الاثنان متجهين إلى المطبخ.. أحيانا كان نادل يسألهما إن كانا يريدان شيئا فيقول له (رفعت):
حمام! بنفس اللهجة التي يقول بها الراكب المتسلل إلى الحافلة (مصلحة) كلما جاءه المحصل..
كان المطبخ يعج بالطاهين.. هذا مطعم يملك إمكانات طيبة إذن..
كان الجميع يتابع المباراة على شاشة جهازين معلقين.. وبدا أنه لو احترق المطعم فلن يهتم أحد..
هكذا اتجه (رفعت) في شيء من الثقة إلى المخزن الخلفي.. المخزن الذي رأياه في فيلم الفيديو.

مد يده وفتح المقبض.. ثم انسابا إلى الداخل.. هنا تذكرا أنهما لم يحملا ضوءا، لكن المخزن كان مضاء من أعلى بمصباح واهن.. توجد مجموعة رائعة من المخلفات والقمامة.. وهناك في النهاية خزانة غاصت وسط المخلفات إلى نصفها.. لكن بابها غير موصد..
شق (رفعت) طريقه وسط المخلفات إلى أن استطاع أن يفتح باب الخزانة. ألقي نظرة مدققة ثم مد يده وأخرجها.
وفي الضوء الواهن استطاعت (عبير) أن ترى حقيبة أنثوية في يده.. حذاءين أحدهما يخص أنثى والآخر يخص رجلا.. حقائب أنثوية.. ربطة عنق رجل..
أخرج (رفعت) بعض محتويات الحقيبة الأنثوية ودسها في جيبه..
ثم نظر لها وهز رأسه.
قالت له بصوت كالفحيح:
- ألن تقول: أعتقد أن علينا أن نرحل.. لقد عرفنا ما يجب أن نعرفه؟
- نعم لن أقولها.. لا أريد أن أثبت فكرة النبوءة في ذهنك..
ثم أشار لها كي يعودا..
وعلى منضدة الطعام جلسا يفكران بينما النادل يجلب لهما الطعام العجيب..
عبث (رفعت) في جيبه وأخرج بطاقة شخصية.. وراح يتأملها من تحت مستوى المنضدة، ثم قال لها:
هنا هوية شخصية لفتاة تدعى (تلما كليفلاند)..
وهنا بطاقتها الائتمانية.. ما معنى هذا؟
- لا أعرف.. إن الفتيات يفقدن حقائبهن أحيانا..
- ويفقدن حياتهن أحيانا أخرى..
ثم راح يعبث في جيبه من جديد، ودس في يدها من تحت المنضدة شيئا أسطوانيا باردا.. وقال:
- ما هذا؟
اختلست نظرة ثم قالت:
- أنبوب غاز مسيل للدموع.. هذا من لوازم الفتاة للدفاع عن النفس في نيويورك).. وإن كان لم يفد صاحبته على ما أظن..
استرد الأنبوب وأعاده إلى جيبه، فسألته:
- أعتقد أنني أجدر به منك..
قال باسما:
- بل المؤلف طلب مني أن أحتفظ به.. هذا هو ما يسميه المؤلفون ب. (الغرس) أو (الإرهاص) أو (الاستنباط).. يجب أن يعرف القارئ أن هذا الشيء معي.. وبهذا يقبل حقيقة أن أستعمله بعد عدة فصول.. في (أسطورة الغرباء) عرفنا مبكرا أن الدكتور (رايتمان) لا يدخن.. هذا هو الغرس.. قرب نهاية القصة أشعل لفافة تبغ.. هذا يمهد القارئ لقبول حقيقة أن الرجل لم يعد هو..
ووصلا الأكل في شرود.. بينما كل المطعم يتابع المباراة مع إطلاق الصرخات والصياح.
وحين جاء النادل سأله (رفعت) وهو يتناول الفاتورة:
- أين (جوش كيندرلي) صاحب المطعم؟
صححت له (عبير) المعلومة:
- (مايكل ستوردااليان)..

. معذرة.. أنا لم أنس الاسم.. المؤلف هو الذي نسيه..
ابتسم النادل وحرك إصبعه حركة أفقية أمام حلقه وقال:
- أين كنت يا سيدي؟ في (تمبكتو)؟ لقد ظل التلفزيون يعرض صورة جثة (ستوردالیان) أسبوعا كاملا.. ودعني أؤكد لك أن هذا كان يوم سعد لنا.. اشترينا المطعم من الورثة، وانهال الزبائن علينا.. لم يخلق بعد المواطن الأمريكي الذي يقاوم تناول العشاء في مطعم قتل صاحبه منذ أسبوع.
رسم (رفعت) على وجهه علامات الصدمة والرعب وقال:
- يا للهول! هل حدث هذا هنا أم في داره؟
- لقد كان يقيم هنا إقامة دائمة.. بل إنه كان تقريبا يدير كل شيء وحده.. لقد كان هذا المطعم مملكته الخاصة لو كنت تفهم ما أعنيه..
ونظر (رفعت) إلى الفاتورة فانتصبت الشعرة الوحيدة في رأسه.. هذا هو الرعب الحقيقي فعلا..
- هل أجد معك (فكة) لورقة بمائة ألف دولار؟

☆ ☆ ☆

كان (رفعت) متعكر المزاج بسبب فاتورة المطعم، لهذا اختل تركيزه إلى حد كبير..
أما (عبير) - التي لم تخسر مليما - فإنها كانت رائقة المزاج، وقد راحت تفكر بصوت عال بينما هما يعودان على الأقدام إلى شقتها:
- هل تعتقد أن الشريط قد تبدل الآن؟ أم أننا سنرى نفس الأحداث؟
- م م م.. حساء و.. م م م..
- (رفعت).. أنا أكلمك!!
نظر لها في دهشة كمن انتزع من بحر عميق، ثم قال:
- نعم.. نعم.. أعتقد أن علينا أن نرى الفيلم.
وهكذا جلسا في شقتها وضغطت على زر التحكم عن بعد.. لكنهما لم يريا ما كان في المرة السابقة.. بالفعل بدلا من رؤية عملية التسلل للمطعم، رأيا مشهدا غريبا بعض الشيء..
كانت هناك جثة مقطوعة الرأس تزحف على الأرض وهي ترتجف كالديدان.. هذا المشهد الشنيع الذي يعرفه كل من قتل (بورص) [1] وجده في الشرفة ليلا.
أطلقت (عبير) شهقة استبشاع، وهي تغطي فمها بيدها.. بينما قطب (رفعت) جبينه وضغط على عضلاته الماضغة..
وهتفت وهي تشيح بوجهها:
هذه لقطة من الفيلم.. أنت قلت إنه يحوي مشاهد عنف سافرة..
قال وهو يأخذ منها جهاز التحكم عن بعد:
- ليس هذا المشهد في الفيلم الذي أعرفه.. لو دققت النظر لوجدت أن الجثة ترتدي بذلة.. بذلة كحلية اللون لا بد أنها كانت تجعلها فاتنة!!

☆ ☆ ☆

8- الصورة أكثر وضوحا..

- فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجري لا)..

☆ ☆ ☆

إنهم.. إنهم يمقتون السبانخ.. ولكن ما دخلى أنا بهذا كله؟

☆ ☆ ☆

وقفت تنتظر حتى يفرغ من مكالمته الدولية إياها.. ومر رجل يرتدي السواد جوارها فأجفلت.. كانت تتوقع المرشد في أية لحظة.. الخوف كل الخوف أن يظهر المرشد ليستردها قبل أن تعرف سر هذه القصة.. هذا وارد للأسف هنا وهو احتمال مريع..
كان (رفعت) يكلم الطرف الآخر بالإنجليزية قائلا:
- ماذا؟
- وحتى تحترق النجوم كلها.. وحتي
هنا انقطع الخط فيما يبدو لأنه ظل يهتف في عصبية:
- هالو! هالو!
ثم وضع السماعة ولحق بها، وقد بدا الغيظ على وجهه...
قال لها وهو يتقدمها:
- معذرة.. كنت أكلم شخصا مهما بالنسبة لى..
- (ماجي ماكيلوب).. لا تعتقد أنني لا أعرف كل شيء عنك.. ولكن ما المناسبة؟
قال في جدية:
- أنا أعرف أن ما رأيناه لم يكن نبوءة لكنه تحذير.. هناك من يرغب بشدة في قطع رأسي.. ومن البديهي أن أفكر فيمن أحب في لحظة كهذه..
ثم أردف وهو يوقف سيارة أجرة مجنونة:
- سنذهب إلى الشرطة.. طبعا هم يعرفونك وسوف يخضعون لنفوذك..
- لا تعتمد على هذا.. إنهم يكرهونني كالجحيم.. أنا (برسونا نان جراتا) أو شخص غير مرغوب فيه بالنسبة لهم.. ولكن ماذا ستقول لهم؟ هل ستخبرهم أنك خائف من قطع رأسك؟
نظر لهما السائق الباكستاني متسائلا، فأخبرته (عبير) بوجهتهما، ثم عادت تواصل الكلام مع (رفعت)..
قال لها:
- كنت أحسبك أذكى من هذا.. سنخبرهم أن عليهم أن يفتشوا بعناية بيوت من قتلهم السفاح.. (كيندرلي) و (باكستر) وسواهما..
- هذا جميل.. ولكن لماذا؟
- أكره أن أكون على صواب دوما فهذا يبدو مملا..
لكن من الواضح أننا نعرف الآن مجال تخصص هذا القاتل التتابعي..



- ربما يتخصص في قتل الشقر أو قتل الرجال البدينين أو البيض.. ربما يتخصص في القتل يوم الثلاثاء أو يتخصص في قتل أصحاب المطاعم.. في الغالب حين نمسك به يقول لنا إن الرب أمره بقتل السباكين مثلا.. لكن لا.. لا يوجد أي رابط حتى اللحظة بين هؤلاء المقتولين.. منهم الأبيض والأسود.. منهم النحيل والبدين.. منهم البائع الجوال والحلاق.. منهم من مات يوم السبت ومنهم من مات يوم الخميس.. لا يوجد رابط..



قالت له في دهشة:
- لا أحد وجد رابطا..
- بل هناك رابط.. الحلاق كان يقتل الناس ويأكلهم.. لماذا نجد كل هذه الأشياء في مطعم (ستورداليان)؟ لماذا تتخلى فتاة عن حذائها وحقيبتها وبطاقة ائتمانها؟ لماذا يترك رجل حذاءه في مطعم؟ الأمر سهل.. لأن كل هؤلاء قد ماتوا..
- ومعنى هذا؟
- معناه أننا نعرف نشاط هذا القاتل التتابعي.. هذا أول قاتل تتابعي في التاريخ يتخصص في قتل التتابعيين!!



بدأ (رفعت) يعد على أصابعه النحيلة كعادته حين يرتب أفكاره:
- أولا.. لا جدال في أن من ماتوا كانوا قتلة..
قالت (عبير) محتجة:
لحظة.. إن بضعة أنسام لا تكفي لتحديد اتجاه الريح.. المؤلف يقول هذا..
قال في غيظ:
- لا أعتقد أنه ينطق بالحكم الأبدية.. فلنفترض أنه يخطئ أحيانا.. (برنارد شو Bernard Shaw) من ناحيته يقول: لا يجب أن آكل البيضة كلها كي أعرف أنها فاسدة.. ثانيا نحن لا نتحدث عن الأنسام يا حمقاء بل عن الجثث. إن العثور على آثار موتي لدى اثنين من قتلانا يسمح لنا بتعميم القاعدة....
ثانيا.. يمكننا بنوع من الاطمئنان أن نتوقع أن هؤلاء أفلتوا من العدالة.. ما دام لم يقبض على أحدهم.. أعتقد أنهم لم يتمتعوا بالاستعراضية مثل السفاح الأخير، ومعظم ضحاياهم اعتبروا مفقودين.
ثالثا.. هناك شخص ما يمارس دور (العدالة السوداء) أو (فارس الليل) يقوم هو بتطبيق القانون على هؤلاء..
رابعا.. كنت لأفترض هذا لولا تلك اللمسة فوق الواقعية.. موضوع الشرائط هذا..
قالت معترضة:
- كل هذا العدد من القتلة التتابعيين؟
- لا غرابة في هذا.. شاهدي أي فيلم أمريكي يخيل لك أن المجتمع هنا مجموعة من القتلة التتابعيين.. إن من ليس قاتلا تتابعيا هو ضحية محتملة..
راحت تضحك طويلا فنظر لها في دهشة، وصعد الدم إلى رأسه:

- هل جاء دور الهستيريا الأنثوية المحببة؟
- لا.. أحب فقط أن أتخيل وجه رجال الشرطة وأنت تخبرهم بهذا التصور..
فكر قليلا وبدا أن فكرتها لمست وترا مهما عنده.. ليست فتاة سخيفة إلى هذا الحد..
في النهاية قال لسائق التاكسي:
- توقف.. سننزل هنا..
دون إنذار وكأنها طائرة تنقض من السماء عوت الفرامل، ومالت السيارة إلى اليمين لتقذفهما معا ليرتطما بالباب من الداخل.. وعلى حين نقد (رفعت) الرجل ماله، كانت (عبير) تحاول أن تعرف أين ذهب ذراعاها، وأين رأسها بالضبط.
- هل عدلت عن الذهاب إلى الشرطة؟
- هذا واضح.. سنجري مكالمة من مجهول..
- هل تعرف أنهم يتلقون 3636993 مكالمة من مجهول يوميا؟
- ليس فيما يتعلق بهذه القضية.. وليس حين أذكر لهم اسم (تلما كليفلاند)..
وهكذا اتجه إلى هاتف عمومي من هواتف العملة.. أمسك بسماعة الهاتف وراح يدلي بمعلوماته..
هنا حدث شيئان.. أولا دوت سرينة سيارات الدورية وهي تنقض كالنسور على هذا القطاع بالذات.. ثانيا راح هاتف (عبير) الخلوي يدق..
وضع (رفعت) السماعة وقال لها وهما يبتعدان:
- فلنسرع.. إن الفكرة جيدة لدرجة أنهم تتبعوا المكالمة بهذه السرعة.. سوف تجدين شرطة (نيويورك) هنا خلال دقيقتين..
ورفعت هي الهاتف الخلوي وأصغت قليلا ثم قالت بصوت أرادت أن يسمعه (رفعت):
- ماذا تقول؟ الشرطة تحاصر مطعم (ستوردااليان)؟ تريد أن أتجه إلى هناك فورا لتصوير ما يجري؟ ليكن..
أغلقت الجهاز ونظرت باسمة لـ (رفعت)..
على الأقل ستكون الليلة صاخبة، ولسوف يصل رجال الشرطة إلى ما عرفه (رفعت) في نفس الليلة.. على الأقل يملك رجال الشرطة بعض القوة مما يطمئنك بدلا من التعامل مع هذا العجوز المحتضر.
قال لها (رفعت):
- هل ستغطين الحدث؟
- طبعا.. العمل هو العمل..
- أريد مبرد أظفارك..
- ولمه؟
- الغرس.. الإرهاص.. سيكون مهما فيما بعد.. كذلك أريد مفتاح شقتك.. مدت يدها لحقيبتها وسألته وهي تخرج المفتاح:
- فهمت موضوع المبرد.. ولكن هل لي أن أعرف السبب في أخذ مفتاحي؟
- لأنني سأمر الآن على متجر فيديو (شانجرى لا) وأجد فيلما جديدا.. يجب أن أتلقى الرسائل الجديدة.. لا يوجد لدي جهاز فيديو في الفندق..
- ولماذا تريد رسائل جديدة؟
- يجب أن نفعل هذا قبل أن نتسلل إلى متجر الفيديو.

في ضيق قالت وهي تغلق حقيبتها وتشير لسيارة أجرة:
- وهل يجب أن نتسلل إلى متجر الفيديو؟
ببساطة قال:
- طبعا.. ماذا يوجد خلف الستار الأحمر؟ لا بد من أن يجازف البطل في غباء ويدخل.. هذا هو (المشهد الإجباري) كما يقول السينمائيون.. ولو لم يأت لشعر القراء / المشاهدون بإحباط لاحد له.
- تعني (الذروة Climax)
- لا.. (المشهد الإجباري) يختلف عن (الذروة).. لكن أفضل القصص طرا هي ما يتطابق فيها المشهدان.. للأسف ليس هذا هو الحال هنا..
- ولماذا؟
- لأن هذه القصة لن تكون جيدة إلى هذا الحد!
وقبل أن تعلق كان قد تواري في الزحام، ووجدت أن عليها أن تفتح باب سيارة الأجرة، لأن السائق الباكستاني - كالعادة - ينظر لها متسائلا..

☆ ☆ ☆

بسرعة تعيد تصفيف شعرها وهي تنظر في المرآة الصغيرة التي يحملها المصور (تومي).. (تومي) هو آخر اسم له على ما يبدو.. وهو - كما وصفناه من قبل - ضخم الجثة أصلع الرأس..
سألته وهي تتناول مكبر الصوت:
- كيف أبدو؟
- تبدين كمجاعة في الهند أو إعصار في (بورنيو).. باختصار: مصيبة..
- شكرا.. هذا لطيف منك.
وشقت طريقها وسط الزحام، بينما المفتش الزنجي العملاق ذو المعطف الخاكي يخرج من الزحام، فقربت منه المكبر وسألته عما هنالك..
- لا شيء سوي مخابرة هاتفية من مجهول.. يبدو من لهجته أنه ليس أمريكيا.. ربما هو عربي.. أدلى بمعلومات مهمة ويبدو أن الحلقة تضيق..
- تضيق حول القتيل؟!!!!
نظر لها نظرة من التي تقتل دون رصاص.. ثم في صبر قال:
- من المفيد أن نعرف جديدا عمن ماتوا.. هذا يساعدنا على تحديد الدافع أكثر..
وراح يعرض على الكاميرا مجموعة من الأوراق التي وجدوها هنا..
الخلاصة أن المقابلة كانت سيئة تماما.. وكانت تتوقع هذا على كل حال، لأنها تعرف ما هو أكثر بكثير.. وقد فرغت من عملها بعد نصف الساعة، وكانت النتيجة التي وصلت إليها.. الشرطة تتحرك في اتجاه خاطئ تماما. يحتاجون إلى عدة أيام قبل أن يلاحظوا أن كل من ماتوا كانوا قتلة.. بل كانوا سفاحين تتابعيين.
وحتى لو وصلوا لهذا فما هي النتيجة؟ لا شيء..
هكذا استوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق – الباكستاني غالبا - أن يتوجه إلى دارها.. وفي المقعد الخلفي راحت تفكر بعمق.
هنا تذكرت شيئا بالغ الأهمية..
هناك شيء لم يعرفه (رفعت) وهو بالغ الأهمية.. إن الحل صار قريبا جدا..



9- لا يمكنك أن تكون حذرا بما يكفي..

- هل استحممت بعطر وتنشفت بنور؟
(أرجو أن يعطينا المؤلف فيما بعد تفسيرا لهذه العبارات التي لا دخل لها في سياق القصة..)



راحت تقرع باب شقتها مرارا دون جدوى..
ما معنى هذا؟ إنه غير موجود.. فهل جاء ونزل أم أنه لم يأت من البداية؟ هل أصابته نوبة قلبية في أثناء مجيئه هنا؟ في هذه الحالة يكون قد اختار أسوأ وقت ممكن للموت.. سخفاء هم الذين يموتون ومعهم مفاتيح شقق الآخرين..
هكذا نزلت بالمصعد إلى حارسة العقار، ولحسن الحظ أن هذه تملك مفتاحا لكل شقق البناية.. وهكذا تمكنت من الدخول..
كما توقعت كانت الشقة خالية تماما..
جهاز الفيديو مفتوح لكن الشريط بداخله بلغ نهايته، وقد انطفأت شاشة التلفزيون تلقائيا بعد قليل.
اتجهت إلى الجهاز وأعادت الشريط لبدايته، ثم جلست تشاهد ما يحدث.
كان الفيلم يدعى (الموتى الأشرار) وهو من الأفلام الشنيعة التي تصنف بدورها ضمن قاذورات الفيديو.. وقد شاهدت منه ربع ساعة حين بدأت ترى أحداثا غريبة بعض الشيء..
كانت تركض في الشارع.. تركض وتنظر للوراء، وقد بدا عليها هلع غير عادي.. ثم هي تجد بابا مفتوحا فتدخله.. ينتقل المشهد إلى الداخل لترى (كولبي) يقف هناك، وهو يلهث وقد شاخ فجأة عشرة أعوام أخرى.. كانت ثيابه ممزقة والدم ينزف من شفتيه.
هتفت في لهفة:
- (كولبي).. حمدا لله على أنني وجدتك.. ما هذا؟
وماذا يريد؟
قال منها:
- لو كانت لدي أجوبة كل الأسئلة، لجلست أتأمل مع الرهبان البوذيين فوق إحدى قمم (الهيملايا)..
فجأة سمعت صوت القطرات.. بليك.. بليك.. بليك!
نظرت له في هلع فأدركت أن وجهه يذوب وأنه يتحول إلى واحد آخر.. واحد يقبع وجهه تحت هذا القناع الذي كان أقرب إلى قناع شمعي.. وراحت تصرخ.. تصرخ..
- لكن الفيلم لم يمهلها حتى ترى الوجه الآخر – ولم تتمن هذا قط - لأن لقطات (الموتى الأشرار) عادت إلى الشاشة، وقد بدت لها الآن بهيجة باعثة على الرضا والحبور..
ما معنى هذا؟
ما دامت هذه ليست نبوءة فهي تحذير.. تحذير من ماذا؟
على الأرجح من (كولبي) - لو كان حيا - هو ليس كما يبدو.. لكن هل هذا سيحدث أم هو حادث فعلا؟؟

نحن نلعب بقواعد قذرة هنا، أو - بمعنى أدق - بلا قواعد..
وقد عرفت ما حدث لـ (كولبي)، وكيف خدعته هي حين لم تكن هي؟ فماذا عنها إذن؟
هنا سمعت من يسعل في الحمام.
لقد كانت على حق..

☆ ☆ ☆

فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجرى لا)..

☆ ☆ ☆

الآن يمكننا أن نتساءل عن مصير العجوز (رفعت)..
لقد اتجه إلى شقة (عبير) وفتح الباب، ثم جلس أمام التلفزيون يتابع عرض شريط الفيديو الرهيب، الذي صار أحد مراجع أفلام (الرعب المعوي)..
هنا رأي المشهد يتبدل.. وكان هذا ما ينتظره، فدنا الشاشة من أكثر حتى كاد يدخلها..
كان المشهد يمثل شقة سكنية فاخرة.. تبدأ اللقطة من الحمام.. إنها لقطة وجهة نظر أو P.O.V كما يقول السينمائيون حيث تحل أنت محل البطل فلا تراه.. الكاميرا تخرج من الحمام وتتقدم ببطء خارجة ماشية في ردهة طويلة..
كما قلت أنت لا ترى الممثل لكنك تسمع صوته.. تسمع صوت لهاثه.. شيء ما في هذا الصوت يجعلك تتمنى ألا ترى وجهه أبدا..
إنه يتقدم أكثر.
هذه قاعة جلوس.. بها جهاز تلفزيون..
هناك رجل نحيل أصلع يجلس على الأرض، وظهره للكاميرا يتابع في اهتمام ما يدور على الشاشة.
الرجل يرفع رأسه وينظر للوراء في رعب ويصرخ..
فجأة يهوي عليه شيء ما لا تتبينه من سرعة اللقطة، وسرعان ما يتدحرج الرأس الأصلع على الأرض والنظرة البلهاء على ملامحه..
كان (رفعت) يشاهد هذه اللقطات في توتر.. عندما فطن للحقيقة..
- هناك رجل نحيل أصلع يجلس على الأرض..
هذا هو بالذات!
هكذا يبدو في هذه اللحظة بالذات لمن يأتيه من الحمام!!
نظر للوراء بسرعة فرأى الظل الواقف في الحمام والذي يتأهب للخروج..
لم ينتظر أكثر.. وثب من مكانه.. هرع إلى الباب لم ينظر إلى الوراء على الإطلاق..
فقط فتح باب الشقة ووثب إلى خارجها..
المفتاح.. أين هو؟
أولج المفتاح في الباب وأغلقه بإحكام.. ثم مد يده الراجفة إلى جيبه وبحث عن قرص النيتروجلسرين.. الألم يتزايد.. هيا يا قلبي أيها الأحمق لا تضعف الآن.. لم تتوقف من قبل فلا تتوقف الآن..
دوار.. الصداع المحبب كناية عن أن القرص بدأ يسرى في دمه.
آلام صدره تزول..

يبحث عن زر المصعد وهو يشهق طلبا للهواء..

☆ ☆ ☆

كان قد حاول الاتصال بالمذيعة (ويلما) عدة مرات على هاتفها الخلوي، فلم ترد.. من الواضح أنه مغلق لأنها كانت مشغولة في التصوير.. يجب أن يخبرها بألا تدخل بيتها الآن.. لكن كيف؟
في سيارة الأجرة بدأت أفكاره تصفو قليلا الآن خطر له أنها لن تستطيع الدخول على كل حال ما دام المفتاح معه..
إن ذلك الشيء حبيس الشقة الآن.. ولكن متى كانت هذه الأشياء تحبس في الشقق؟ لا بد أنه تحرر.
الآن فقط يمكنه أن يتأكد من شيء واحد.. أفلام الفيديو هذه تحاول إنقاذه.. إن رسائلها في الأغلب إرشادية أو تحذيرية
لقد حان وقت المشهد الإجباري.. وقته الآن.. مكانه هنا..
لن ينتظر حتى يقابل الفتاة.. سيذهب إلى (شانجري لا) ويعرف كل شيء..
وأمام نادي الفيديو ترجل واتجه بخطى ثابتة..
لو كان هذا المكان خيرا فهو أغرب مكان خير في العالم..
يجتاز المدخل.. من الغريب أن هذا النادي لا يزدحم أبدا.. لم ير رجلا يبحث في عناوين الأفلام سواه.
الفتاة الشيطانية إياها تخرج من الداخل وهي تدخن لفافة تبغ غريبة الشكل خبيثة الرائحة.. يبدو أنها كانت (تعلي مزاجها) أو Getting high.. طبعا.. هذه ثلاثية (المخدرات - الجنس - الروك أند رول) الشبيهة بمقعد ثلاثي لا يمكن أن يقف لو انتزعنا أحد قوائمه.. المقعد الذي وصفوه بأنه الطريق إلى الجحيم...
قالت له بطريقتها الناعمة المداهنة:
- هذا هو الرجل الصلب.. هل أحببت الفيلم؟
قال في تؤدة:
- لم أره بعد.. لكني جئت لأطلب واحدا آخر.. لا بد من فيلمين هذه الليلة بالذات..
ثم بطريقة عارضة:
- سيارة الدورية بالخارج.. يقولون إنهم ينتظرون شخصا دخل هنا.. هل لديك فكرة عن الموضوع؟
بدا الاهتمام على وجهها الثلجي.. ومطت عنقها محاولة أن ترى ثم قالت:
- شرطة؟ هذا غريب.. لحظة..
وكما توقع خرجت من وراء الكاونتر وتقدمت على كعبين كرأس دبوس نحو المدخل الذي صار مخرجا الآن.
كان (رفعت) بحاجة إلى أقل من دقيقة.. يزيح الستار الأحمر الغامض.. يلقي نظرة.. يعود لمكانه قبل أن تعود..
هكذا اندفع إلى ما وراء الكاونتر وأزاح الستار لكن ما رآه جعله عاجزا عن التراجع..

☆ ☆ ☆

قال لها (رفعت) وهو يخرج من الحمام ويجفف وجهه:

- من حقي البشري أن أدخل الحمام.. هذا واجب فسيولوجي نؤديه نحو أنفسنا ولا أرى ما يستاهل كل هذا اللوم!
قالت (عبير) في عصبية وهي تسترخي على الأريكة:
- لقد أفزعت الجحيم من داخلى (هكذا يقولونها حرفيا).. حسبتك واحدا آخر.. لكن تعال هنا.. لا بد أنك أصم تماما.. لقد أوسعت الباب طرقا..
- ولا بد أن يدك أرق مما تبدو عليه..
ضغطت على زر جهاز التحكم عن بعد، وقالت في ملل:
- حين تقترض مفتاحا من أحدهم، فمن أبسط الأشياء أن ترهف السمع للباب.. ثمة أخبار جديدة على هذا الشريط.. (كولبي) ليس كما يبدو.. ربما مات وهناك من يستخدم ملامحه.
- من قال هذا الهراء؟
- هذا..
وأرجعت الشريط بضع لقطات للوراء، ثم بدأت المشاهد المألوفة من فيلم (الموت الشرير).. قالت له:
- ثمة شيء آخر نسيت أن أخبرك به.. إنه يغير كل شيء في هذه القصة.. هل تعرف أن..
ثم توقفت عن الكلام..
فالمشهد على الشاشة كان يظهر فتاة تشبهها تشاهد التلفزيون.. أمامها رجل عجوز أصلع.. الفتاة على الشاشة تراقب التلفزيون باهتمام.. بينما الرجل العجوز يتحور.. بالضبط يتحور كما يحدث (المسخ) على شاشة الكمبيوتر.. الآن لم يعد آدميا على الإطلاق وإن ظل يلبس البذلة الكحلية..
إنه ينهض نحو الفتاة.. يفتح مخالبه نحوها.. ثم..
نظرت للوراء فوجدت وجه (رفعت) يذوب ببطء.. (رفعت) الحقيقي الجالس جوارها في هذه اللحظة بالذات.. كلا.. ليس هذا جزءا من ظاهرة (شوهد من قبل Deja vu)..
بل هذا يحدث فعلا.
هذا التلفزيون يعمل الآن كمرآة.. لكنها مرآة تسبق الواقع بثوان..

☆ ☆ ☆

10- خلف الستار الأحمر..

فقط (مارجريتا) تأخذني إلى (شانجري لا).

☆ ☆ ☆

وقبل أن تدرك أنها نهضت نهضت.. وقبل أن تدرك أنها ركضت إلى الباب ركضت إليه.. وقبل أن تعرف أنها تثب الدرجات خمسا خمسا فلا وقت للمصعد، راحت تثب الدرجات.
أخيرا وقفت في الشارع المظلم تعب الهواء في جشع وتتساءل.
ماذا كان مصير (رفعت)؟
والسؤال الأخطر: منذ متى لم يعد هذا (رفعت)؟ هل كان الذي أخذ مفتاح شقتها (رفعت) أم لا؟
على الأرجح كان المسخ ينتظره في الشقة وتفرد به وحده..
هذا يعني أنها ببساطة وحيدة تماما..
وهكذا قررت أن تستقل سيارة أجرة يقودها باكستاني، وتتجه إلى نادي الفيديو (شانجري لا)..
هذا هو الاتجاه الوحيد الذي تعرفه.
إن الإجابات كلها هناك، لكن هل يمنحونها إياها؟
لن يكون هذا سهلا طبعا.. لكنها ستجرب.

☆ ☆ ☆

وعند باب النادي كان ذلك الرجل المسربل بالسواد والذي يتسلى بالضغط على قلم صغير في يده..
قال لها دون أن ينظر لها:
- أعتقد أن الوقت قد حان للرحيل..
- لا يا مرشد.
قالتها بحزم، فعاد يلج عليها:
- لا بأس بهذه النهاية للقصة.. إنها مما يروق للمؤلف بشكل خاص.. التفسير النهائي متروك للقارئ.. وهذا.. أوف ف ف ف!
كانت هذه ركلة قوية تلقاها في قصبة ساقه وهي من (مواضع الزناد) التي يمكن أن تقتل.. ولم تنتظر لتعرف ما دهاه، بل شقت طريقها إلى الردهة الطويلة.
كانت الفتاة واقفة حيث هي تعبث بأصابعها المخضبة بلون أسود في شعرها، وتراقب أغنية (راب) قميئة على شاشة التلفزيون.. وحين رأت (عبير) ابتسمت ابتسامة ذات معنى، وقالت بنعومة:
- فيلم آخر يا حبيبتي؟
قالت (عبير) في حزم:
- اسمعي أيتها الأفعى.. فلنكف عن المزاح لحظة.. ماذا يوجد في هذه الغرفة خلف الستار؟
نظرت الفتاة للستار كأنما تراه لأول مرة، وقالت:

- هذا مخصص للعاملين فقط.
- حسن.. أنت تريدين أن تدخلي.. أليس كذلك؟
ساد الصمت قليلا ثم قالت الفتاة بصوت بارد خشن لا أثر فيه للميوعة السابقة:
- ستدخلين.. لكن بكامل إرادتك الحرة.. أريد التأكد من هذه النقطة..
- لا شك في هذا..
أشارت الفتاة إلى ما وراء الستار في صمت..
(عبير) لا تذكر طبعا أن كليشيه (بكامل إرادتك الحرة) يوشك أن يكون مقصورا على مصاصي الدماء.. أو – على أقل تقدير - يرمز لشيء مخيف..
لكنها كانت تتوقع الأسوأ.. لهذا تقدمت نحو الستار الأحمر وأزاحته..



يا للعوالم الجهنمية التي لا يمكن وصفها!
فقط يقدر (بودلير Baudelaire) الشاعر الفرنسي الرجيم أن يصف هذا المشهد، طبعا بعد ما يأخذ جرعة هائلة من الأفيون.
لم يكن للمكان أبعاد.. كان ممتدا إلى لا مكان.. هناك كانت نيران خضراء ترقص، وكانت المسوخ تتواثب من أسقف لا وجود لها.. وهناك كانت العذارى يصرخن، بينما من بحار لا تعرف كيف وجدت، ترتفع أكف مخلبية امتلأت بالبثور.
هناك كان الألم شخصا له طول وعرض وارتفاع.. له وجود مريع يجثم فوق روحك.
هناك كانت فراشات تحلق هاربة من اللهب، لكن ألسنة النيران تلحق بها وتحرقها.. تنفجر.. فتسيل دما يتجمع في بحار أخرى...
هناك كان (المينوتور) يصرخ، و (ميدوسا) تبرز للبحارة الصارخين فيستحيلون تماثيل.. هناك كانت ساحرة تعبث بأوراق (التاروت tarot) بيد واحدة، بينما مصاصو الدماء يصطرعون مع المذءوبين..
وسط هذا كله كانت المنضدة.. وكان العجوز (رفعت إسماعيل).. كان ينظر لها وقد بدا عليه رعب سرمدي..
سمعت صوته آتيا من مكان ما لا يمكن أن تتبينه:
- أنت جئت يا حمقاء!
شقت طريقها وسط الجروح النازفة، والمخالب التي تخرج من الأرض محاولة أن تنتزع قلبك.
شقت طريقها متعثرة حتى بلغت المنضدة، ووجدت مقعدا فجلست.
- أين نحن؟
قال بصوت مبحوح:
- في قلب عالم الرعب ذاته.. هذا المتجر يحرس إحدى ثغرات (جانب النجوم)..
جانب النجوم!! المكان الذي تأتي منه الشرور والمسوخ ومصاصو الدماء.. إنها أسطورة رومانية قائمة بالفعل ولم يخترعها المؤلف، لكنه استعملها مرارا فى (ما وراء الطبيعة) حتى صار جانب النجوم هذا مكانا جغرافيا كأنه كوبري 6 أكتوبر أو شارع (صلاح سالم)، فلم يبق إلا أن تقف سيارات (ميكروباص) يقف على بابها صبية ينادون:
جانب نجوم.. واحد! جانب نجوم.. واحد!
همست بينما الأشباح تعبث بشعرها محاولة انتزاعه:

- وأين (كولبي)؟
أشار إلى أعلى، وقبل أن تصرخ في فزع هتف:
- إنه حي.. لكنه لن يظل كذلك طويلا.
كان (كولبي) معلقا من حبل مربوط إلى ساقيه.. والمخيف هنا أن الحبل لم يكن يتمسك بشيء.. كان يسبح وحده في الفضاء السرمدي للغرفة.. ذكرها المنظر بصورة (المشنوق من ساقيه) في أوراق التاروت.
- ماذا يحدث هنا؟
قال وهو يبلل شفته السفلى بلعابه:
- لنقل إنه خلاف في الرأي.. لكنه خطر بعض الشيء.. إنه يفسد للود ألف قضية
الآن يتضح النور أكثر، وينزاح الظل.. كان الجالس على المنضدة من الجهة الأخرى يلبس مسوحا واسعة من الطراز الذي يغطي الوجه فلا تعرف من تحدث.. لكن بضع لمحات كانت تجعلك تدرك أنه ليس كائنا بشريا على الإطلاق وإن بدا كذلك.
- أي مسخ هذا؟
قال (رفعت) وهو يضغط يدها تحت المنضدة:
- صمتا.. فهم شديدو الحساسية هنا..
هنا بدأ الشيء يتكلم.. يتكلم بإنجليزية قديمة يمكن تفسيرها بصعوبة:
- أنت تلقيت إنذارك أيها الفاني.. مرارا تلقيت.. مرارا أنذرت.. هنا لا تأت أبدا.. لكنك برغم هذا أتيت.. ربما لأننا أنذرناك.. وديدن الفانين أن يهرعوا إلى ما حذروا منه كما يهرع مصاص الدماء إلى وريد في عنق حسناء.
ثم ساد صمت ثقيل يوحي بأن أحدهم ينتظر لحظة ما.
شعرت (عبير) بالحيرة.. لو كان هؤلاء القوم أشرارا فلماذا يقتلون السفاحين؟ ولماذا أنذروهم بالنهاية أكثر من مرة؟ بل وعلموهم كيف يعرفون سر المطعم.. ومن الذي في شقتها الآن؟ ولماذا اقتادوا (كولبي) إلى هنا؟
قال لها (رفعت) همسا:
- القصة هي البساطة ذاتها.. لقد جاء أحد سادة النجوم إلى عالمنا في شكل رجل وديع مهذب.. لا أعرف مهمته بالضبط، لكنه جاء متمتعا بكل براءة المسوخ.. طبعا وجد في (نيويورك) مسوا أكثر فظاعة.. لقد سقط في يد الحلاق الذي قتله ومزقه إربا.. طبعا لم يمت.. لقد خرج من المخزن ممزق الأوصال يحمل رأسه على يده.. وقرر أن ينتقم من كل السفاحين الذين فروا من العقاب..
- هذا يعني أنه صار في صف الخير وإن كان هذا لأسباب مختلفة.. وبالطبع كان اسمه البشري (جالاجر)..
- كيف عرفت؟
- (كولبي) تحدث عن (جالاجر).. ثم تذكرت أن اسم (جالاجر) ضمن الأسماء التي وجدها رجال الشرطة في المطعم.. أي أن (جالاجر) كان ضحية السفاح.. والآن أكمل..
قال وهو يضم سترته كي لا يتشمم مصاصو الدماء الجوالون عنقه من حين لآخر:
- كل السفاحين تقودهم خطاهم إلى مقر نادي الفيديو هذا لأنهم يبتاعون منه أفلام العنف التي تروق لهم.. أكثرها أفلام ممنوعة لا تجدينها في أي مكان آخر.. ومن لم يعرف اسم النادي كان يتلقى إعلاما بريديا يعده بالكثير. أما ما لا يعرفه أحد فهو أن نادي الفيديو يقع فعلا فوق إحدى

فتحات جانب النجوم القديمة جدا.. لعل هذا هو السبب في الطابع الشيطاني المميز للمكان.. وسرعان ما استحوذ (جالاجر) على المكان وجعله مقر قيادته.. وكان كل قاتل يزوره يجد على الشريط الذي يستعيره مشهد مصرعه.. الفكرة هنا أن الذعر الذي يسببه هذا يفوق الوصف، وكان يسعد قلب (جالاجر) - لو كان له قلب - إلى أقصى حد.. بعد هذا كان يفتك بالقاتل – الضحية بطريقة عنيفة جدا..
- هنا ظهر أحمق اسمه (كولبي) بدأ يعرف شيئا عن القصة.. ظهرت مراسلة (حشرية) وعجوز أحمق.. (كولبي) يعرف أكثر من اللازم لهذا وقع في الشرك.. قرر سادة النجوم أن يكتفوا بهذا.. لكن (جالاجر) قد جن تماما.. وهو مصمم على قتلك وقتلى برغم أننا لم نؤذه.. وقد تحدي سادة النجوم أنفسهم الذين طلبوا منه أنه ظفر بانتقامه كاملا.. إنه يجول في المدينة.. لا أعرف كيف يبدو الأمر لكنه أشلاء ممزقة تحاول أن تتماسك.. وهكذا تلقينا تحذيرات على شرائط الفيديو من سادة النجوم كي نفر وننجو بحياتنا.. لكن حماقتنا قادتنا إلى هنا كالمستجير من الرمضاء بالنار..
بدأت القصة تتضح.. لكن..
- وماذا نفعل الآن؟
- ثمة حقيقة واحدة.. نحن لن نرى الشمس ثانية.. لن نعرف هذا كله ثم يطلقوا سراحنا..
- وفي الخارج يفتش عنا الأخ (جالاجر).
هنا دوي هدير رهيب..
نظر الجميع إلى القادم.. هذا الشيء لا يحتاج إلى بطاقة تعريف كي تعرف أنه (جالاجر).. يصعب أن أصفه لك لأنه عبارة عن أشلاء تتحرك.. وعلى كل حال ليس مؤلف هذه القصص مولعا بوصف المسوخ.. إنه يترك كل واحد يفكر في مسخه الخاص.. تخيل أسوأ شيء رأيته في كوابيسك.. حسن.. إنه قريب من هذا..
كان يزحف على الأرض بطريقة مذهلة.. ويعرف دوما كيف يحافظ على رأسه كي لا يسقط.
فقط نظر إلى (عبير) و (رفعت) بعينين حمراوين تنزفان دما، وقال بصوت متحشرج:
- هذان لي!!
هنا تكلم الشيء الجالس على المنضدة.. قال بصوته العميق الغريب:
- هذان لن تقتل أي (نيموس).. القانون هو القانون.. أنت طلبت الانتقام وقد نلته، وانتقامك لا يشمل هذين.. هذان عرفا الكثير، ولو لم يأتيا هنا لما نالهما سوء.. لكنك لن تقتلهما.. سادة النجوم سيحددون المصير.
قال وهو يزحف نحو (عبير):
- هبهما لى أى (جلاديوس الجيلى).. بموتهما أنعم.. إنهما من الفانتين..
- هذان لن تقتل..
لكنه كان مصرا.. يزحف في إصرار نحو الفتاة التي بدأت تسمع الشعر (يطقطق) في رأسها.. إنها تشيب الآن حتما.. وقدرت أنه سينقض عليهما غير مبال بأوامر سيده..
هنا حدث شيئان..
لقد أخرج (رفعت) من جيبه شيئا أسطوانيا.. و..
فووووووووووش ش ش!!
انطلق الغاز مسيل الدموع في عيني (جالأجر) أو (نيموس) فأطلق صرخة شنيعة.. وأدار (رفعت) الفوهة ليطلق السائل في وجه (جلاديوس الجيلى).. ثم بعثر النفثات في كل اتجاه كالمجنون...

في اللحظة ذاتها تقريبا، هوى (كولبي) من السقف غير المرئي ليرتطم بالأرض.. وتصاعدت أبخرة الكبريت من كل صوب.. بينما ارتجفت الدماء التي تحيط بالجدران، وتقلصت الوجوه المتدلية من أعلى في صرخة ألم.
صاح (رفعت) في (عبير):
- الباب بسرعة!!
ولكن أين الباب في هذا العالم الذي بلا قواعد؟
صاح (كولبي) وهو يتقدمهما:
- أنا أراه! أراه!
وهكذا ركض الجميع وراء (كولبي) الذي راح يشق طريقه وهو يتعثر..
الستار الأحمر.. الستار الأحمر.. صوت عويل وصراخ..
وبعد لحظة كانوا في الخارج..
قالت الفتاة الشيطانية شيئا لكن (رفعت) أفرغ ما تبقى في الأنبوب في وجهها.. فانثنت على نفسها جوار الجدار تسعل وتجاهد من أجل التنفس..
وسرعان ما وجدوا أنفسهم في شوارع (نيويورك) المظلمة.. وبعد دقيقة كانوا يستقلون سيارة أجرة يقودها باكستاني إلى منزل (كولبي)..
هتفت (عبير) وهي تلتقط أنفاسها:
- فهمت الآن قيمة الغرس أو الإرهاص.. لقد ظل الأنبوب معك يا (رفعت) حتى اللحظة المناسبة.. لكن من قال إن الغاز المسيل للدموع يؤثر في مسوخ جانب النجوم؟ هذا الأخ (جالاجر) قد تم تمزيقه بالكامل من قبل لكنه مازال حيا.. فهل يؤثر بعض الغاز في عينيه؟
قال (رفعت) في وقار:
- المفترض أن يؤثر.. المؤلف أراد له أن يؤثر.
- وكيف جريت هذا الجري كله، وأنت مريض قلب معروف؟
- المؤلف أرد لى أن أجرى.. في العربية العامية يقول الشباب (سنفري دماغك).. لا أعرف كيف أنقلها إلى الإنجليزية.. إن تعبير never mind لا يفي بالغرض.. تذكري دعني أنخدع - دعني أخدعك)..
- لكن القاعدة بهذا الشكل توشك أن تكون (دعني أستغفلك).. (دعني أجعل منك أحمق).. (دعني أهن ذكاءك)..
- لا تأخذي الأمور على محمل شخصي.
ثم استدارت إلى (كولبي) بدوره:
- لكن كيف تحررت يا (كولبي)؟
- استعملت مبرد الأظفار الذي أخذته منك. كانت هذه نقطة غرس موفقة بدورها.. وقد أربكهم سقوطي..
نظرت إلى (رفعت) في غيظ، وقالت:
- لكنك أنت من أخذ مبرد الأظفار وليس (كولبي).
تثاءب في ملل وقال:
- حقا؟ إذن اختلط الأمر على المؤلف.. لا يهم.. كان سيكتب بضعة أسطر تبرر كيف قذفت بالمبرد إلى (كولبي) المعلق من ساقيه.. لكن لم يعد لهذا من داع الآن.. لقد تحرر (كولبي) فعلا.. ثم صافح (كولبي) في حماسة على طريقة (كفك) المصرية أو (أعطني خمسة يا جدع) الأمريكية

وقال:
- أجمل ما في الأمر هو أن المشهد الإجباري كان هو نفسه مشهد الذروة.. الآن بدأت أعتقد أن القصة جيدة..
سألته (عبير) وهي تنظر من النافذة:
- وهل انتهت الذروة بهذا الشكل؟
- لا.. ما زلنا في الذروة.. يجب أن ننتصر على (جالاجر) أو ينتصر هو علينا.. هذه هي الذروة.. ولسوف يعقبها فك الخيوط denouement.. وتنتهي القصة فورا.. أي مشهد زائد بعد هذا سيكون (ضد الذروة) أو Anticlimax.. وهو يضعف القصة جدا..
شعرت بقلق.. إذن مازال الأخ (جالاجر) غاضبا وحرا طليقا.. لا بد أن غضبه صار جنونا بعد موضوع الغاز إياه..

☆ ☆ ☆

كان بيت (كولبي) الجديد يتكون من طابق واحد وأمامه حديقة لا بأس بها.. في الظلام والأضواء الخافتة. بدت كأنما تدعوك للنعاس فالحلم..
همس (رفعت) في أذنها:
- يبدو أن النصاب اليهودي قد صادف أيام سعد.
فتح (كولبي) الباب، وسمح لهما بالدخول.. كان منهكا بحق وراح يجفف عرقه.. قال لهما:
- الحق أنني لم أجد لحظة واحدة من الراحة منذ أخذتني تلك الفتاة معها.. تخيل أن تبقى معلقا كل هذه الفترة، ومن حين لآخر يدس أحدهم شيئا في فمك فقط ليبقيك حيا..
لم يكن (رفعت) يصغي له.. كان يقف خلف النافذة يراقب الحديقة..
- (رفعت).. نحن نكلمك..
قال (رفعت) دون أن يبدل وقفته:
- (كولبي).. أنا لم أكن حديد البصر يوما، لكن لا بد من أن أكون أعمي كي لا أرى الشيء الذي يزحف بين الأعشاب متجها نحونا!
هتفت (عبير) بصوت كالفحيح:
- (جالاجر)..
- اسمه (نيموس) الآن.. وأقترح أن تنظر بنفسك يا (كولبي).
نظر له (كولبي) في حيرة، ثم اتجه إلى الباب وخرج..
هنا هرع (رفعت) يدير المفتاح الذي كان جوار الباب ليوصده بإحكام..
صاحت (عبير) في دهشة:
- ماذا تفعل؟ إنه وحده في الخارج مع هذا ال..
- لا يوجد شيء في الخارج، وهذا ليس (كولبي)..
اتسعت عيناها حيرة وهتفت:
- ليس (كولبي)؟
- طبعا.. (كولبي) الذي أعرفه لا يتحمل ثلاث دقائق من دون أن يدخل الحمام.. لأنها البروستاتا كما تعلمون.
لا يمكن أن يظل معلقا أسبوعا أو أكثر، ولا يمكن أن يبقى معنا كل هذا الوقت دون أن يهرع إلى الحمام.. ثم كيف حرر نفسه ما دام المبرد لم يكن معه؟ واضح أن المؤلف لم يكن شارد الذهن

إلى الحد الذي حسبناه.. لقد حرره سادة النجوم لأنهم أرادوا ذلك.. وقد هوى بالضبط في نفس اللحظة التي أعميت فيها (نيموس).. كيف عرف طريقه إلى الخارج بينما نحن لم نكن نرى أي شيء؟
ضغطت على أصابعها وهتفت:
- يا إله السماوات!! هذا نوع آخر من الغرس أو الإرهاص كما تسميه.. ولكن لم هذه المناورة؟
- لا أعرف.. لكني أعرف جيدا أن هذا واحد من سادة جانب النجوم.. كما أعرف أن الباب موصد بعناية ولا يمكن فتـ..
- صه!!
تحرك الشيء من وراء الباب، ونظرت (عبير) جيدا.
هل هي تحلم أم أن المقبض يتحرك؟
صاح (رفعت) وهو يبدل عويناته ليتمكن من أن يرى:
- إنه يفتح الباب فعلا.. هلمي يا حمقاء!
قالت وهي تتراجع إلى الوراء:
- لكن.. لا يمكن أن.. لا يمكن أن..
جذبها من يدها.. إن يده برغم نحولها تؤلم، كأنها يد هيكل عظمي.. وصاح وهو يتقدم إلى النافذة:
لو شئت أن تبقى هنا للأبد لممارسة هوايتك في اللعثمة، فهذا موضوع آخر.. أما الآن فأنا أرى أن..
وفتح النافذة، ودفعها إلى الخارج دفعا.
إنها تثب لتسقط وسط الأعشاب الندية التي يغمرها الظلام..
وفي هذه اللحظة سمعت الباب ينفتح بالكامل، و (رفعت) يصرخ:
- أنت؟؟!!
راحت تركض وسط العشب، لابد من نجدة.. لا بد من..
فجأة اصطدمت بالمرشد.. فهتفت في رعب:
- لا تطالبني بالرحيل.. لن أتركه وحده مع هذا الـ...
قال وهو يساعدها على التماسك:
- لا تقلقي. تعالى الآن لنرى هذا البائس..
مشى في ثبات ومشت وراءه في تردد.. على الأقل هو من (الإدارة) فلن يؤذيه أحد.. اتجه إلى الباب وفتحه بحزم..
ونظرت إلى داخل الشقة متوقعة أن تجد (رفعت) ميتا مطويا إلى نصفين، لكنها وجدته يقف منهكا ممزق الثياب وعلى الأرض تناثرت أشلاء مشتعلة ينبعث منها الدخان.
قال لها (رفعت) وهو يصلح من شأن ثيابه:
- كنت محقا.. لم يكن هذا (كولبي).. بل كان هو (جالاجر) نفسه.. لقد حل محله في اللحظة التي سقط فيها من أعلى..
تساءلت في غباء:
- وكيف مات؟
- لقد أصدر سادة النجوم حكمهم عليه.. إنه متمرد.. وفي الوقت ذاته هو يستحق الموت بنفس منطقه لأنه صار قاتلا تتابعيا: لقد أصدروا حكمهم في اللحظة المناسبة تماما قبل أن ينهي

مهمته.. إن هذه الأيام مليئة بالمرح حقا!
قال المرشد وهو يدس يديه في جيبه:
- أما وقد صار الجميع بخير - ما عدا (كولبي) الذي لا نعرف مصيره - فإنني أرجو وأتوسل إليك أن نرحل..
هتف (رفعت) بدوره كالملهوف:
- نعم.. نعم.. ولا دقيقة بعد انتهاء الذروة.. حتى لا نقع في خطأ (ضد الذروة) بالفعل حان الوقت لذلك..
صافحت (رفعت) بحرارة وقالت:
- لقد أحببت هذه القصة برغم غرابة أطوار مؤلفك، وعاداته الغريبة التي تفسد كل شيء..
هز رأسه في تواضع:
- ليس بوسعنا نحن الأبطال اختيار مؤلفينا.. ولو كتبت أنا قصة بطلها المؤلف لجعلته يدفع الثمن غاليا.. والآن وداعا أيتها الحالمة الكبرى.. أتمنى لك مغامرة أجمل من هذه.. لقد انتهت أسطورة ال..
كان الملل قد بلغ منتهاه بالمرشد فجذبها من ذراعها كأنما قبض عليها في قضية إحراز مخدرات..
واتجه نحو قطار (فانتازيا) الواقف في الحديقة..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة (عبير) في جنوب شرق آسيا تعيش قصة حب رقيقة.. قصة حب رطيبة كالندي تحت شمس أغسطس..
ولكن هذه قصة أخرى..

(تمت بحمد الله)

ما أمام الطبيعة

إنه شيء ما.. يتحرك.. يلاحقك..
تتساءل عن كنهه فلا تجد إجابة..
ربما كان في دارك..
ربما كان على باب غرفتك..
إنه
شيء ما..
لا أحد يعرف ما هو..
والخطأ الجسيم أن تفترض أن المؤلف ذاته يعرف أي شيء عنه!

د. أحمد خالد توفيق



<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

( ) اسمه بالفصحى (وزغة)، لكن أحدا لن يفهم أنني أتحدث عن (بورص)!!.

روايات مصرية للجيب

36

فانتازيا

حب فى أغسطس

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (36)

حب فى أغسطس

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت تلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكي) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى............

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

العشاق

«نعم.. نعم.. أنا كنت عاشقًا يومًا ما.. لن أندهش لو أنك وثبت فى نهر (أوتا).. إن هاتين الغمازتين قادرتان على تغيير الكون ذاته، وعلى ترويض الشياطين فوق (فوجى ياما)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مغامرة أخرى..

وقطار (فانتازيا) المضحك يتأرجح فى رحلته المعهودة..
لا تعرف (عبير) لماذا لم تعد إلى عالمها بعد، ولا لماذا تعيش ثلاث مغامرات بشكل متصل.. لا تجسر على أن تقول إن هذا مرهق، أو ظلم أو أكثر من اللازم.. إنها تتسلى بعد كل شيء..
وخطر لها أنها جربت ذات التجربة مرة من قبل.. تجربة عدم العودة..
قال لها (المرشد) وهو يضغط على القلم:
- لا داعى للقلق.. أنت تعرفين قواعد (فانتازيا).. لابد أن سباتك تحت الجهاز لم يستغرق أكثر من ساعتين..
- وما تفسير هذه الظاهرة؟
مط شفته السفلى وقال:
- كيف لي أن أعرف؟ هذه الأشياء تحدث.. ربما كنتِ بحاجة إلى جرعة أكبر من اللازم من الفرار من الواقع..
فكرت قليلًا وراحت تنسق خصلات شعرها المنكوشة كما هى دومًا وقالت:
- حسن.. أحيانًا أشعر بالذنب لفراري إلى (فانتازيا).. لا أرتكب إثمًا لكن الفرار فى حد ذاته مهين..
قال لها باسمًا والشمس تؤذى عينيه، فيرخى ستار النافذة قليلًا:
- لنقل إن تركيبك النفسي فريد من نوعه.. أنتِ غير قادرة على مواجهة عالمك بأى شكل من الأشكال.. كأنكِ كائن فضائى هبط على الأرض شاعرًا بالعجز عن التكيف.. الكل يطالبه بالتكيف.. الحقيقة هي أنه لن يتكيف أبدًا.. سيظل مشتاقًا إلى الكوكب الذي جاء منه حيث يتنفسون النتروجين ويأكلون الديوتيريوم.. كوكبكِ الذي جئتِ منه هو (فانتازيا).. إليه تنتمين وتشعرين نحوه بالانتماء والولاء بلا حد..
تنهدت وقالت فى صبر:
- أنت لخصت الموقف.. والآن إلى أين؟
نظر من النافذة - بعدما أزاح الستار - وقال:
- أنت من تختارين.. إن أحلامك أوامر..
من بعيد تهبط الصواعق فوق قلعة الدكتور (فرانكنشتاين) فى أثناء تجربته الرهيبة.. (راغب دميان) بطل قصة (العنكبوت) يحاول إجراء تجاربه المخيفة على الجسم الصنوبري حيث يكمن وجداننا الجمعي.. الرجل العنكبوت يتواثب فوق الأسطح بينما (هاري بوتر Pootter) يجرب حظه فى رياضة (الكويديتش).. (سارة) المراوغة التي تحوي شخصية ألف امرأة تتلاعب ب. (همام) فى رواية (العقاد) المعقدة الكثيفة.. (هنادى) تلقى حتفها.. (نسرين الجبالي) الصحفية الشابة تركب سيارتها إلى (المقطم) فى مهمة غامضة.. ومن بعيد الجزيرة الطائرة (لابوتا) التى استضافت (جليفر Gulliver) تحلق أمام قرص الشمس لتحجبه عن بعض الشعوب المطلوب عقابها..
ألف احتمال واحتمال.. احتمالات متعددة إلى درجة أن الأمر عسير..
قالت له وهي تلصق وجهها بالنافذة:
- الأمر صعب يا (مرشد)..
قال لها فى لا مبالاة:

- هناك تقنية راقية اسمها (حادى بادى).. يمكن استعمالها.. فقط غطى عينيك.. هذا سيجعل المرح عامًا..
نفذت ما يقول متجاهلة سخريته، وراحت تردد بلهجة طفولية كما كان الأطفال يلعبون فى الصغر.. وفي خبث وبلهجة منتصرة هتفت:
- ما خدش إلا دى!
وفتحت عينيها فوجدت منظرًا مخيبًا للآمال إلى حد ما..
بلدة عادية جدًّا.. مبان نظيفة.. حدائق.. لا شيء يوحى بأى شيء..
قالت له وهى تشعر بالذنب:
- ما هذا؟ تبدو لى قصة غير مشجعة..
قال لها وهو يتفقد الدليل فى يده:
- آه.. إن طابع هذه القصة هو الرومانسية.. الكثير منها فى الواقع.. هناك شهقات ودموع وفراق وخطابات مبللة بالدمع حتى صارت لا تقرأ إن كنت قد أحسنت فهم المكتوب هنا.. هل تحبين هذه الأشياء؟
قالت مفكرة:
- أحبها لكنى لم أجربها قط لو كنت تفهم ما أعنيه.. إن لدى قدرًا هائلًا من الرومانسية لم يستعمل قط حتى صدئ.. يشبه الأمر سيفًا كنت تعده لحرب لا هوادة فيها، ثم مرت الأعوام والسيف لم يغادر قرابه، وصرت تتساءل: هل حقًّا لديك سيف؟ وهل حقًّا يمكنك استعماله؟ لقد تزوجت دون رومانسية وأنجبت دون رومانسية وفارقت دون رومانسية..
نظر لها فى ضيق وقال:
- لو كنت ستمضين اليوم فى الاستمتاع بالرثاء لذاتك، فإنني أرجو أن تخبريني متى تنتهين..
- لا داعى.. فلنكمل حوارنا..
- هل ترغبين فى تجربة هذه القصة الرومانسية؟
- أحب.. سيكون هذا نوعًا من التجديد.. ولكن ما هى خلفياتى؟
مط شفته السفلى كالعادة، وقال وهو يدس قلمه فى جيبه:
- لا يوجد الكثير.. المدرسة الشابة (متشيكو زاكو).. هل هذا كافٍ؟
أعادت نطق الاسم بصعوبة، وقالت:
- (متشيكو..).. ألم تجد اسمًا أكثر تعقيدًا وثقلًا على اللسان؟..
- نعم.. لم أجد.. إن مسمعه يختلف بالنسبة لأذن يابانية.. ثقى أنه ما من يابانى سيروق له اسم (عبير عبد الرحمن) مهما كان متفتح الفكر..
- يابانى؟ إذن أنا؟
- نعم.. يابانية.. هذا كاف.. والآن إلى اللقاء..
وجذب حبل القطار فتوقف بشكل مفاجئ، حتى إنها قُذفت إلى الأمام.. وحين أفاقت وجدت أنها تقف فى الخارج، وأنها ترتدى ثيابًا رقيقة هفهافة أقل ما يقال عنها هو أنها ثياب مدرسة يابانية..
لقد بدأت القصة فجأة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- إنه أغسطس..

إنه (أغسطس)..
إنه (أغسطس) لكنه (أغسطس) آخر يختلف عن (أغسطسنا) الحار الرطيب، حيث يلتصق جلدك بالقميص بفعل صمغ كريه هو العرق.. حين تغرق روحك ذاتها فى العرق.. الحقيقة أن الطقس جميل بالفعل.. هذه البلدة الصغيرة ساحلية وقرب خليج.. ويبدو أن هواء البحر العابث الخبيث لا يرحم العواطف هنا..
ما أجمل أن توجد وأن تملأ المكان والزمان.. ما أجمل أن تكون هناك لحظة قادمة، وما أروع أن تكون هناك لحظة ماضية.. لحظة قادمة تفعمك بالأمل.. ولحظة ماضية تفعمك بالحنين..
كل هذا الطرب فى روحها، وكل هذا الجذل يرهقها بحق.. تغلق فاها بإحكام كى لا يثب قلبها منه..
منذ متى كانت فى العالم كل هذه الورود؟ منذ متى كانت فى الجو هذه الروائح مجتمعة؟ منذ متى تعزف الطيور (رابسودى) كاملة؟ حواسك عادت إلى حالتها الطفولية الأولى كما خلقها الله، قبل أن يفسد التلوث أنفك، وتفسد الضوضاء أذنيك، وتتلف الدموع عينيك.. ثمة منديل كونى مسح كل البقع على زجاج روحك فعدت ترين الأشياء كما كان ينبغي أن تريها..
تالله أنت عاشقة أيتها البلهاء الصغيرة! لا يوجد تفسير آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يبدو قلبي بهذه الخفة؟ لماذا تبدو النجوم بهذا التألق؟
لماذا تبدو السماء بهذه الزرقة..
منذ الساعة التى قابلتك فيها؟
أعرف لماذا تبتسم الدنيا بهذه الرقة البالغة..
إنها تردد تلك القصة القديمة الخالدة عبر الأبدية ذاتها..
أيها الحب.. هذه أغنيتي لك..

(أغنية قديمة من كلمات وتلحين شارلي شابلن[1])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها (متشيكو زاكو)..
رقيقة كالزهرة.. دقيقة كالزهرة.. أنيقة كالزهرة..
لها ضفيرة سوداء طويلة ناعمة على ظهرها، وترتدى تنورة طويلة يمكن أن تكنس الأرض أحيانًا..
لها غمازتان لا تظهران إلا حين تضحك، وهكذا يمكن أن نعرف أن أحدًا لم يرها إلا بغمازتين..
مدرسة أطفال هى.. وهنا نعرف حقيقة غريبة.. يبدو أن مدارس اليابان أو هذه البلدة بالذات تعمل فى (أغسطس).. خير مدرسات الأطفال هى من تملك كل صفات الطفولة، وقد كانت هى طفلة كبيرة لهذا كانوا ينادونها بلا تحفظ (متشيكو)..
تمشي فى الشارع متجهة إلى المدرسة.. الكل يعرفها.. الكل يحبها..
بائع البطيخ العجوز - الذي وقف يرص شرائحه الحمراء التى يكفى مرآها ليطفئ ظمأك - يصيح من بعيد:
- صباح الخير يا (متشيكو) الحسناء!

فتصيح بدورها وهى تجد السير فى الشارع:
- صباح جميل يا (نوجوشا سان)..
- أجمل من وجهك يا (متشيكو)؟ مستحيل.. يا للشيطان! مستحيل.. مستحيل..
ويسعل ويبصق معبرًا عن انبهاره بها..
وبائعة الزلابية الحسناء تصيح فيها:
- هل تذوقين الزلابية يا (متشيكو) الحسناء؟؟
- هل هى لذيذة اليوم يا (كوتيكو)؟
- ألذ من وجهك؟ أشهى من غمازتيك؟ مستحيل!
فتضحك وتواصل السير.. إن خطواتها خفيفة جدًّا كأن جسدها لا يطيق انتظار انعكاسات العضلات وأوامر الأعصاب.. تبدو هذه الأمور بطيئة جدًّا بالنسبة لروحها الوثابة..
ولكن.. ما أجمل الطبيعة! هذه البلاد تبدو كلها نوعًا من النقوش اليابانية على بساط أو طبق خزفي.. ذات الشعور الذى تشعر به كلما رأت منظرًا فوتوغرافيًّا من الصين.. كأن الطبيعة هنا مصممة على أن تتخذ الطراز الصينى أو الياباني.. حتى الطيور لا تبدو بمظهرها المعتاد.. إنها طيور زخرفية جدًّا.. الأشجار شبه مرسومة.. وكذا قمم الجبال من بعيد.. إما أن الطبيعة تقلد الفنان كما قال (أوسكار وايلد wiled) وإما أن هؤلاء القوم لم يتعبوا فى صنع الطراز الذي ألفناه فى فنونهم.. هم فقط نقلوا طبيعتهم نقل مسطرة.
وتدخل إلى المدرسة فتقابلها المديرة العجوز ذات الشعر الأشيب.. إنها تقليدية جدًّا تعقص شعرها بشكل يوشك معه فمها أن يكون فى جبهتها.. وتلف شالًا على خصرها.. تقول لها بصوت كصوت الرجال المصابين بسرطان الحنجرة، وهى تنحني محيية:
- تأخرت يا (متشيكو).. هل رحت تطاردين الفراش كدأبك؟
- بل جمعت بعض الورود.. آسفة يا سيدة (كنتاروا)؟
ثم تقدم باقة الزهور للسيدة.. فتشمها فى حزم.. ثم يفلت ذلك الغشاء الرقيق من الصرامة الذى كانت تتخفى وراءه فتضحك فى مرح، فلا أحد يستطيع أن يغضب بحق من (متشيكو) إلا إذا استطعت أن تغضب بحق من قط صغير يعبث فى حذائك.. وتأخذ الزهور إلى غرفتها بينما تجتاز (متشيكو) الجدار الورقي الذي يفصلها عن الصف..
الأطفال يجلسون على الأرض إلى تلك المنضدة الطويلة التى وضعت عليها عدة مزهريات.. أمامهم ألواح كتابة وقصص أطفال متناثرة هنا وهناك.. وعلى الجدار صورة عملاقة للإمبراطور..
قالت لهم وهي تجلس على الأرض فى الوضع المنتصب الياباني الشهير:
- اليوم سأخبركم عن أجمل شيء فى العالم..
- ما هو يا (متشيكو)؟
- خمنوا..
قالت طفلة تبدو كدمية يابانية ضيقة العينين:
- الأرانب البيضاء..
- لا.. هناك ما هو أجمل..
قال طفل (ملظلظ) بشدة:
- فطائر السمك..
- لا..
طفل ثالث:

- بيت الجدة..
- لا..
- إذن ما هو يا (متشيكو)؟
قالت وهي تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة:
- إنه.. إنه (أغسطس)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها (متشيكو زاكو)..
رقيقة كالزهرة.. دقيقة كالزهرة.. أنيقة كالزهرة.. وهى غارقة فى الحب حتى الأذنين..
لماذا هو بالذات؟ لا تدرى.. ربما لأنه خجول.. ربما للطريقة التي يعيد بها تثبيت عويناته المذهبة على أنفه.. ربما لتلك الطريقة التي تسقط فيها خصلات الشعر الأسود على عينه حين ينهمك فى عمل ما.. ربما لأنه يقدسها وهى تحب الرجل الذى يهاب المرأة نوعاً.. تمقت الرجل الذى يظهر لها استهتاره ولا مبالاته باعتبارها ستقع فى حبائله على الفور.. إن (توشيو موكازا) يتعامل مع المرأة باعتبارها كائنًا ساميًا جدًّا.. بعيدًا جدًّا.. أسطوريًّا جدًا.. لا شيء من عبراتها يجب أن يسيل ليمتزج بالتراب.. لا شيء من أحلامها يجب أن يحلق كالدخان ويتلاشى فى الهواء.. لا شيء من أوامرها يمكن أن تصغى له وتهز كتفيك..
أمس كانا يمشيان جوار المصرف.. مصرف (زديوتومو) حيث اعتادا أن يمشيا يوميًّا عند الظهيرة، وهو ذلك المثلث الشهير فى المدينة: مصرف (زديوتومو) ومبنى إدارة الغاز ومبنى (فوكوزايماى).. كان الحارس يجلس على باب المصرف يراقب الطريق فى شك، وكل شيء فى عينيه يوحى بالويل..
نظرت هي عبر سياج المصرف وشهقت.. إن الحديقة أمام عينيها وقد خيل لها - الحديقة - أنها أول من اكتشف الألوان فى العالم.. كأنها طفل وجد أمامه علبة ألوان للمرة الأولى فراح يستعمل كل شيء بإفراط وبذخ وبلا اقتصاد أو تكلف.. الأحمر بأشد درجاته والأزرق كما يجب أن يكون، والأخضر بكل ظلاله.. وكانت تلك الفراشة تحلق.. أليس غريبًا أنه فى الطبيعة لا توجد ألوان غير متناسقة؟ اجعل رجلًا يلبس البنى مع الأزرق والأحمر والأصفر ولسوف تجد أمامك مهرجًا، بينما الطبيعة تعرف بالضبط درجات الألوان الصحيحة التى تزيدها أناقة..
هذه الفراشة هنا لأنها شعرت بأنها تضفى لمسة لا بد منها إلى المشهد.. وكانت أغرب فراشة رأتها فى حياتها..
- (توشيو)! ما أروعها فراشة!
هذا ما قالته وأقسم بالله العظيم.. لم تطلب شيئًا على الإطلاق.. وفي اللحظة التالية وجدت (توشيو) يتسلق سياج المصرف ليثب بوثبة واحدة إلى الداخل، ويركض وراء الفراشة.. يتعثر وينهض..
صاحت فى جزع وهي تتشبث بالسياج:
- عد يا (توشيو موكازا)! إن ال...
كان قد سقط فوق العشب، وهو يمسك بالفراشة فى يده وهى تهزُّ جناحيها محاولة التملص..
قبض عليها، وفي اللحظة التالية قبض الحارس عليه..
- أنت تتعدى على أملاك الدولة أيها الشاب المحترم.. أي أنك تتعدى على أرض الإمبراطور!
قال الفتى وهو يحاول التملص:

- إنها فراشة أيها الحارس المحترم.. فراشة لا أكثر.. لست لصًا ولا سفاحًا..
نظر له الحارس وهو يقتاده إلى خارج السور.. ونظر لها.. ثم نظر له.. وفجأة شقت الضحكة مجراها وسط ملامحه الصارمة، وقال:
- ولكن.. لا ألومك يا بنى.. أنت عاشق..
وأطلق سراحه وهو يغمغم:
- نعم.. نعم.. أنا كنت عاشقًا يومًا ما.. لن أندهش لو أنك وثبت فى نهر (أوتا).. إن هاتين الغمازتين قادرتان على تغيير الكون ذاته، وعلى ترويض الشياطين فوق (فوجى ياما)..
وينطلق الفتى بغنيمته إلى جوار ذات الغمازتين.. تتأمل الفراشة الساحرة فى يده غير مصدقة..
لكنهما ليسا سعيدين.. ثمة شيء بدأ يخيم عليهما، وجعل الغمازتين تتلاشيان..
فجأة قالت له:
- (توشيمو).. أنت تعرف ما أفكر فيه..
- هو نفس ما أفكر فيه..
- إذن افعله الآن..
ومن دون كلمة أخرى فتح كفه فانطلقت الفراشة غير مصدقة بالنجاة.. دارت حولهما دورة ثم أخرى.. كأنما تشكرهما على لطفهما، ثم ابتعدت..
وانفجرا يضحكان...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا عود النعنع.. لا تفزع!
خطوة محبوبى كالنسمة..
لن تسحق رأسك.. والبسمة..
لا أبدع منها.. لا أروع!
يا عود النعنع هل تلمح تلك النجمة؟
يا عود النعنع هل تسمع وقع النسمة؟
موعدنا حان فلا تفزع..
لا تفزع.. يا عود النعنع!

(عادل قره شولى - شاعر سورى)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها (متشيكو زاكو)..
رقيقة كالزهرة.. دقيقة كالزهرة.. أنيقة كالزهرة..
والمشاكل كانت على الأبواب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- النسر واليمامة..

إنه (أغسطس)..

والغريب الذي جاء إلى المدينة ليعمل فى مكتب المحاسبة منذ ثلاثة أشهر لم يعد غريبًا..
متى تقابلا؟ لا تذكر.. لعل ذلك كان بينما أرواح الأجداد تسكن أجساد أصحابها.. لكنه يمشى فى نفس الطريق الذي اعتادت أن تمشى فيه وهى ذاهبة إلى المدرسة أو عائدة منها..
لا بد أنها أحبت تلك الطريقة الخجول الهيابة التى يتكلم بها، أو سقوط خصلة الشعر الأسود على جبينه حين ينهمك بعمل ما.. قال لها إن اسمه (توشيو موكازا).. قال لها إنها أجمل زهرة نبتت فى حدائق اليابان.. ربما العالم.. ربما الكون.. قال لها إنه رآها يومًا ما قبل أن توجد النجوم.. قال لها إنه يحبها..
وهى.. هى فضلت الصمت لكن عينى (متشيكو زاكو) تقولان كل شيء بوضوح تام..
وكانت تؤمن بالفأل.. إن حروف اسميهما بالغة التقارب، وهذا يعنى أنهما سينسجمان بلا شك..
قال لها ما قال فى الأول من أغسطس وعرفت هى أنها ستتذكر الأيام الأولى من أغسطس للأبد، سواء كان لها أو لم يكن..
لقد تعطر (أغسطس) بعطر الحب الرقيق الفاغم فلن تزول منه تلكم الرائحة بسهولة.. لحظات نادرة هي تلك التى تعرف وأنت تعيشها أنها ستكون من ذكرياتك الغالية، وكانت هى تعيش لحظات من هذا الطراز الفريد..
منذ متى صارت للشمس رائحة؟ ومنذ متى كان للروائح لون؟ منذ متى تتحد الحواس لتغدو كيانًا واحدًا عملاقًا يفعل كل شيء؟ يسمع بأنامله ويتحسس بأذنيه.. ويذوق بأنفه ويشم بلسانه؟
إنه أغسطس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكرًا لكل دقيقة سمحت بها عيناك فى العمر البخيل.
شكرًا لساعات التهور والتحدي واقتطاف المستحيل.
شكرًا على سنوات حبك كلها...
بخريفها وشتائها..
وتناقضات سمائها..
شكرًا على زمن البكاء.. ومواسم السهر الطويل.
شكرًا على الحزن الجميل..

نزار قباني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
والجدة (فومورا) يجب أن تعرف..
هناك أشياء لا تقال للأب ولا الأم ولا الأخت أولًا.. تقال إما للصديقة أو الجدة.. وكانت الجدة

ككل جدة يابانية أخرى يحمل وجهها من التجاعيد ما يوحي بأنه ليس وجهًا وإنما هو قطعة ورق (مكرمشة) حاول كلب ابتلاعها وفشل.. وككل جدة أخرى كانت قد فقدت كل ما يجعل المرء شريرًا، واحتفظت بكل ما اكتسبته من حكمة عبر الأعوام.. إنها فى تلك السن التي يعقد المرء فيها تحالفًا مع الموت.. ليس الموت موتًا لكنه يوم زيارة الأصدقاء والأقارب الذين رحلوا..
وكانت الجدة جالسة فى الحديقة الخلفية للدار..
ليس أهل (متشيكو) أثرياء.. لكن بيتهم مريح، وله حديقة خلفية تطل على حي (نوبويشو).. أي أنهم كانوا قريبين من قسم الشرطة لو كنت تعرف خارطة البلدة جيّدًا..
كانت الجدة جالسة فى الحديقة الخلفية للدار أمام منضدة صغيرة، وقد وضعت عليها كتابًا للصلوات.. إن لكل أسرة هنا ديانتان هما البوذية و(الشنتو).. وبالطبع لم تكن (عبير) تنوى أن تندمج إلى هذا الحد لكن منظر الجدة بدا لها زخرفيًّا يناسب شعورها بأن هذا البلد يتخذ أوضاعًا أيقونية.. فلو دهمت سيارة كلبًا لمات فى وضع أيقونى آخر..
زحفت (متشيكو) على ركبتيها حتى صارت على بعد سنتيمترات من الجدة، لكن هذه لم ترها.. الجدة لا ترى أي شيء لا يصطدم بأنفها.. والحقيقة أنها لم تكن تقرأ تلك الصلوات، بل كانت تردد ما حفظته عن ظهر قلب منذ أعوام.. فقط منظر الكتاب المفتوح يقنعها بأنها ترى..
- (متشيكو)! لم أرك!
كأنها كانت ستراها لو لم تكن منهمكة.. وقد ركعت (متشيكو) على ركبتيها جوارها وأخبرتها.. أخبرتها بكل شىء بلا تحفظ.. بينما العجوز تضحك كاشفة عن سن واحدة فضية فى الصف العلوي من لثتها.. وتكرر فى ذكاء:
- سودسكا.. سودسكا (هكذا إذن؟)..
في النهاية فرغت (متشيكو) من عصر روحها أمام الجدة، وتركت لها أن تقرر ما يجب عمله بهذا العصير..
قالت الجدة:
- أخته الصغرى.. لا بد من أن ترى أخته الصغرى! إنها مرآته ومنها تعرفين كيف هو من دون قناع..
بدا هذا كالطلاسم بالنسبة للفتاة.. ما معنى هذا؟ لكنها كانت تعرف أسلوب الجدة فى فهم الحياة.. هذا شيء يشبه ألا تشترى حصانًا قبل أن ترى أسنانه..
سألتها فى حذر:
- وإن لم تكن له أخت صغرى؟
- عندئذ فتشى عن أخيه الأصغر..
- وإن لم يكن؟
- عندها لن يكون جديرًا بحبك يا (متشيكو) الصغيرة!
الحق أنها تحتاج إلى عدة عقود حتى تفهم حكمة الجدة.. ما ذنب الفتى لو لم يكن لديه أخوة صغار؟ لكن الجدة تؤمن أن هذه جريمة لا تغتفر ولا يمكن التسامح منها..
سألتها فى كياسة:
- وهل تقبلون بأن أتزوجه يا جدة (فومورا)؟
ضحكت المرأة طويلًا وقالت فى النهاية:
- لم لا يا (متشيكو) الصغيرة؟ الكل يتزوج يومًا ما.. لكنك يمامة فلابد أن تعيشي فى كنف نسر.. تأكدي من أنه نسر، والأهم تأكدي من أنه يراك يمامة..

- أنا متأكدة من الجزء الأخير..
- إذن فالأمر سهل.. هى هى هى.. والآن اتركينى قبل أن يفوت وقت الصلوات..
نهضت (متشيكو) متراجعة بظهرها كعادتها مع الكبار، فصاحت الجدة تكلم الهواء:
- تذكرى.. أخته الصغيرة! لا تنسى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
إنه قادم من بعيد.. وهى تراه فتشعر بأن قلبها يخفق مع خطواته.. المارة يرمقونها بوجه صلب لكنه حنون.. حبهما أطهر من الندى وأرق من النسيم فلا يجرؤ أحد على أن ينظر لهما نظرة لائمة أو حاسدة..
تسأله فى رقة:
- هل الحر يرهقك؟
يتشمم الجو فى افتتان ويقول وهو ينزع عويناته المذهبة:
- لا.. ليس الطقس حارًا.. ما من عاشق يشعر بالحر أو بالقر..
ما من عاشق يرى القبح، وما من عاشق لا يتحمل الإساءة، وما من عاشق لا يشعر بأن الحياة لم تعامله بكرم لا يستحقه..
تمشي جواره قرب حي (نوبوشو) وتسأله وهى تمشى بسرعة كي تلاحق خطواته:
- هل لك إخوة؟
- نعم.. ثلاثة منهم..
- هل هم معك هنا؟
- نعم.. ومعي والدتي.. كنا نعيش فى مزرعة جدتي فى (شيمانى) قبل أن نأتي هنا.. إنهم صغار السن وما كنت لأتركهم مع أمي.. إنني أؤدى دور أبى..
- هل لك أخت صغرى؟
ضحك لغرابة السؤال، ثم قال وهو يقتطف زهرة:
- نعم.. وأنت بالذات تعرفينها.. إنها (هيروكو)..
- الطالبة فى الصف عندي؟
- نعم..
كانت (هيروكو) هى تلك الدمية اليابانية التى تعتقد أن الأرانب البيضاء الصغيرة هي أجمل ما فى الوجود.. دمية تتخيل أنك لو فحصت ظهرها لوجدت موضع البطاريات الجافة مع (صنع فى اليابان - لا تشمل البطاريات – أجزاء صغيرة قد تسبب خطر الاختناق للأطفال دون الثالثة)..
إذن هذه هى أخته.. لقد انتهت أسباب قلقك يا جدتي.. لا توجد مشكلة..
سألته فى اهتمام:
- والطفلان الآخران؟
- واحد فى الثامنة والآخر فى الحادية عشرة.. إنهما لطيفان كالملائكة سليمان كالجرس.. تسألين أسئلة عجيبة بعض الشىء..
صمتت ولم تقل شيئًا.. لن تخبره طبعًا بسبب اهتمامها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رياح أكتوبر تحرك مياه البحيرة..
تحرك كسرات ثوبى.. تلامس الأعشاب الرقيقة..
كان النسيم رقيقًا، وأردت أن أمسك يدك..
إن زهور الوادي العنبرية قد غطت على كل شيء..

(أغنية قديمة لميراى ماتيو)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
وتقول لها أمها وهي تعد الحساء بالسمك:
- خذي الحذر يا (متشيكو).. أنت بريئة.. بريئة جدًّا وحلوة.. لقد جئت العالم كى يخدعك أحدهم..
هل عرفت شيئًا؟ لا تعتقد هذا.. إذن هو الحدس.. و(متشيكو) تؤمن مثل أي واحد آخر بالحدس.. لكن هذا التخمين جاء فى وقت لا تتوقعه على الإطلاق.. لهذا ارتبكت..
تقطع أمها البصل والكرات على حساء السمك، وتقول:
- إن العالم لا يعج بالشياطين، لكنه كذلك لا يعج بالملائكة..
قالت لها متجاهلة عينيها الثاقبتين:
- هل هذا الكلام يعنى أكثر من النصح؟
قالت الأم فى رفق:
- لا.. لكن السيدة (كنتاروا) كانت هنا منذ ساعات، وقد أخبرتني عنك أشياء وأشياء.... أنا أعرف أنك لم تقارفى خطأ لذا أتكلم.. هذا هو أوان التوقف قبل أن يحدث شيء..
- وهل من الخطأ أن يطلب يدى؟
- ليس من الخطأ.. فليأت إذن.. إن لدارنا بابًا واحدًا وهو السبيل إلى الدخول، فلماذا يجول فى الأزقة؟ لماذا لا يأتي مع أسرته للقاء أبيك؟
ثم تذوقت الحساء وتلمظت حينًا وقالت:
- إنه شهى، ولسوف يسعد به أبوك.. إنه يعود جائعًا كنسر صغير..
كانت رائحة السمك تفوق قدرة (عبير) على الاحتمال.. لو كانت اليابان تحفة فى كل شيء، فإن مطبخها هو الاستثناء الوحيد.. إن سلق السمك مع الكرنب لا يمكن أن يغرى قطًّا جائعًا شريدًا أجرب بأن يأكل..
لهذا قالت وهي تحبس أنفاسها:
- سأخرج قليلًا يا أماه..
وتراجعت بظهرها إلى الوراء وهى تكرر الانحناء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- كذبة بيضاء..

إنه (أغسطس)..
وتتجه إلى بائعة الزلابية لتبتاع قطعتين، وتسألها على سبيل العادة:
- هل هى لذيذة اليوم يا (كوتيكو)؟
- ألذ من وجهك؟ أشهى من غمازتيك؟ مستحيل!
هذا نوع من الاطمئنان اليومي يشبه ما كانت تقوم به ساحرة (سنووايت) التى كانت تستشير المرآة كل يوم..
وتقضم (متشيكو) قطعة الزلابية.. لذيذة فعلًا، ومعنى هذا أنها أجمل فتاة على وجه الأرض..
تسألها البائعة التي لا تقل عنها حسنًا:
- أين فارسنا الوسيم اليوم؟
تنظر لها (عبير) بدهشة.. الموضوع لم يلتهب إلا منذ ثلاثة أيام، وها هى ذي كل المعمورة تعرف به.. لا بد أن الامبراطور ذاته يتساءل عن كنه هذه العلاقة..
لم ترد فقالت البائعة:
- شاب وسيم هو.. يناسبك تمامًا يا (متشيكو) الحسناء.. يبدو أنه سيتزوجك.. لكن لو كنت مكانك لصرت أكثر حذرًا..
احتشرت لقمة الزلابية فى فمها، فنظرت إلى البائعة فى عدم فهم:
- ماذا تقولين يا (كوتيكو)؟
قالت البائعة بكياسة:
- إن هذه الأشياء تنتقل من جيل لجيل.. أبى كان يقول إنها نقمة الأجداد علينا..
- عم تتكلمين بالضبط؟ معذرة أنا لا أفهم حرفًا..
قالت البائعة وهي تلقي بعض العجين فى المقلاة العملاقة:
- هذان الطفلان.. إنهما مصابان بمرض عضال.. يضعهما معًا على مقعد متحرك ويجوب بهما الحديقة كل يوم عصرًا.. يا للأسى! كل طفل منهما لا يستطيع رفع حاجبيه فماذا عن يديه؟ كان لي قريب رزق طفلًا من هذا الطراز، وقد قال الأطباء فى (طوكيو) - ترين أنه كان ثريًا - إن طفله مصاب بداء وهن العضلات.. هذا قاس.. خاصة بالنسبة لأب.. لكن ماذا عن أخوى فارسك الوسيم؟
- أخويه؟
هزت البائعة رأسها وهي تقلب الزيت بملعقة خشبية:
- نعم.. جاء بهما هنا وابتاع لكل منهما زلابية.. سألته عن الطفلين فقال إنهما أخواه.. كان ينادي كلًا منهما بلقب أخي..
بدأت (متشيكو) / (عبير) تتوتر.. الفتى قال إن أخويه سليمان.. من الطبيعي أن يخفى أشياء كهذه.. هذه معلومات لا تمنح مجانًا.. ولكن...
أردفت البائعة:
- تفهمين قصدي.. طفلان فى الأسرة ذاتها.. هذا الشيء يتحرك فى الذرية.. لو كنت مكانك ل...
ثم أخرجت أول قطعتين من الزلابية ووضعتهما على لفافة من الورق الذي يمتص الزيت..
- هل لك فى المزيد؟

- لا..
كانت هذه أول مرة تكلم فيها إنسانًا بغلظة.. لكنها لم تتحمل البقاء مع طوفان أفكارها..
لو كان هذا حقيقيًّا فإن زواجها بهذا الفتى الوسيم الخجول أمر مستحيل.. يسهل أن تزعم أنها ستضحى لكن ما ذنب هؤلاء الأطفال الذين سيأتون إلى العالم عاجزين عن رفع الحاجبين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
لكنه لم يعد بالجمال ذاته بالنسبة لها.. ثمة سحابة رمادية تعبر الآن أمام قرص الشمس.. هذه السحابة هى القلق.. قلق من أن يتزوجا فتكون النتيجة مريعة، وقلق لأنه كذب عليها.. لا لم يكذب عليها.. هى مجرد كذبة بيضاء.. إن المرء لا يفرغ أحشاءه بهذه السهولة لدى معرفته فتاة..
لكن ماذا لو كان يخطط كى يتزوج تلك الفتاة؟
وحين قابلته وهو فى طريقه إلى العمل كان يحمل جريدة امتلأت بتلك النقوش اليابانية الجميلة.. وكان يمشى مسرعًا لأنه تأخر، لذا راحت تلهث وهي تحاول اللحاق بخطواته المتسعة..
قالت له:
- لماذا لا تأتى لدارنا؟
نظر لها.. الحقيقة أنه نسى أن الحب يجب أن يتوج بالزواج.. لا يوجد حب للحب إلا فى عقلية شعراء الرومانسية الفرنسيين، وهو لم يقرأ لهم على كل حال..
- بالطبع.. ماذا كنت تظنين؟
- هل تأتى أسرتك معك؟
- لا أحد يذهب لطلب يد حبيبته وحيدًا ما لم يكن كذلك فعلًا..
- وجميع إخوتك سيأتون معك؟
- هذا أكيد..
- هل هناك ما لم تخبرني به عنهم؟
فكر قليلًا ثم هزّ رأسه:
- لا شيء.. بالتأكيد لا شيء..
وهنا كان مكتب المحاسبة الذي يعمل فيه قد صار على بعد مترين، فهزَّ رأسه لها ووثب الدرجات القليلة الصاعدة.. بينما واصلت هى طريقها بنفس السرعة..
وصلت إلى المدرسة، فتلقتها المديرة العجوز بالسؤال الدائم عن سبب تأخرها لكنها فى هذه المرة لم تكن تحمل زهرة واحدة.. كانت تحمل أنفًا محمرًا يوشك على الانفجار.. وتحمل رئتين تشهقان طلبًا للهواء..
دخلت إلى الصف حيث كان الصغار يلهون، ولم يبال أحد بدخولها لأنهم يعرفون أنها منهم..
لكنها نادت بصوت عال:
- (هيروكو)..
هرعت الصغيرة التى تشبه دمية (صنعت فى اليابان) إليها، فانحنت ولثمتها.. ثم انتحت بها جانبًا وسألتها:
- هل الطفلان المريضان.. الطفلان اللذان يجلسان على مقعد متحرك أخواك؟

ابتلعت الصغيرة ريقها وقالت:
- (أوزوا) و(ميكو).. نعم.. نعم يا (متشيكو).. هما أخواى..
- وأخوك الأكبر هو (توشيو سان)[2]؟
- نعم.. نعم.. هو أخي..
هكذا أسقط فى يدها.. يجب أن تتعقل.. يجب أن تحسم أمرها.. أولًا من الواضح أنه لم يكن صريحًا معها.. فى المحاكم الغربية يقسم الشاهد على أن يقول الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقة.. (توشيو) لم يقل كل الحقيقة.. بل لم يقل الحقيقة ذاتها..
ثانيًا: لم يعد الزواج بهذا الشكل إلا مخاطرة.. اثنان فى أسرة واحدة! معنى هذا أن الصفات الوراثية موجودة وقوية.. من حق الأطفال المصابين بوهن العضلات أن يعاملوا برفق وينالوا حظ سواهم من الحياة، لكن من حقهم كذلك ألا يوجدوا لو استطاعوا ذلك! هذا ليس توحشًا.. نحن نتكلم عن الاستشارة الجينية قبل الزواج لا بعده.. قبل أن يأتي هؤلاء التعساء إلى العالم وليس بعده.. و(عبير) لم تكن تعرف شيئًا عن الجينات.. لم يكن أحد يعرف الكثير فى ذلك الزمن، لكنها تعرف يقينًا أن الخطر قائم..
وهكذا أدركت أن قصة الحب الأولى فى حياتها قد انتهت..
وفي موعد العودة كانت فى الطريق إلى دارها حين رأته مقبلًا نحوها وهو يضحك ضحكته المشرقة المرتبكة نوعًا..
لم تدر ما تقول ولا ما تفعل..
أطلقت ساقيها للريح وهي تنشج بصوت عال..
لم تسمع منه إلا صيحة مندهشة مبحوحة:
- (متشيكووووو)! هل حدث شيء؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
إذ خرجت ليلًا لتبتاع العشاء للأسرة، كان رجال الشرطة وجنود الحرس المدني يرمقونها فى دهشة.. ماذا أصاب (متشيكو) الحسناء؟ لماذا ذبلت ضفيرتها؟ أين ذهبت غمازتاها؟
كانت تمشي فى الحديقة شاردة الذهن قاصدة بائع الخبز..
هنا وجدت أنها تحدق فى الصبيين الجالسين على مقعد متحرك..
كانا فى السابعة من العمر، متشابهين تمامًا، وإن كان ضمور العضلات قد جعلهما فى حجم طفلين فى الرابعة من العمر، ولهذا كان المقعد يتسع لهما بلا مشاكل..
جوارهما كانت امرأة فى الأربعين من العمر تبتاع الخبز، وبدا بوضوح أنها أمهما أو خالتهما أو شيء من هذا القبيل..
تصلبت (عبير) وراحت ترمق المرأة والطفلين.. حقًا كانا يثيران الشفقة.. الرأس ثقيل لا يتحمله العنق، لذا انحنى على الصدر، والفم لا يقدر على الانغلاق لذا هو مفتوح يتدلى منه خيط من اللعاب.. اليدان كجناحي دجاجة، والساقان كجناحي أوزه..
التقت عيناها مع المرأة فحنت هذه رأسها كعادة اليابانيين، ثم عادتا تتبادلان النظرات.. من أنت؟
في النهاية قالت (عبير):
- أهذان أخوا (توشيو سان)؟

بدت الدهشة على المرأة وقالت:
- تعرفينه؟
- نعم.. أعرفه كثيرًا..
قالت المرأة وهي تقطع شريحة من الخبز وتدسها فى فم أحد الطفلين:
- إنهما قادران على البلع.. هذا لحسن حظي..
ثم أردفت:
- إنه يكره أن يمر عصر يوم من دون أن يأخذهما للنزهة عصرًا، ويبتاع لهما الزلابية..
هذا الجزء تعرفه (عبير) لكنها لم تبد ذلك، وهي تمد يدها تربت على رأس أحد الصغيرين البائسين.. وقالت:
- من حسن الحظ كذلك أن أختهما سليمة تمامًا..
قالت المرأة وهي تقطع شريحة أخرى من الخبز:
- ليست لهما أخت..
- أتحدث عن (هيروكو)..
قالت المرأة بلا مبالاة وهي تدس الخبز فى فم الأخ الثانى:
- (هيروكو) أخت (توشيو سان)..
تصاعد الدم إلى رأس (عبير) من فرط الغباء البشري:
- أي أنها أختهما..
- مجازًا نعم.. إن (توشيو سان) يعتبر طفلي أخويه.. وهما لا يناديانه إلا ب. (أخي).. بل هو يرغم إخوته الحقيقيين على أن يعتبروهما من الأسرة.. بعض الناس هنا يعتبرون الطفلين أخويه فعلًا.. أنا لم أر قط إنسانًا أنبل منه ولا أكرم.. لقد جئنا هنا منذ شهرين، وعرفنا أنه سبقنا إلى هنا بشهر أو أكثر قليلًا.. ومنذ عرف بعاهة طفلي، وهو يصر على أن يفرج عنهما.. لقد صارا يحبانه أكثر منى أنا أمهما..
هتفت (عبير) وأنفاسها تتلاحق:
- لكنْ له أخوان ذكران!
- نعم يا حسناء.. لكنهما سليمان كالجرس.. ماذا ظننت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
و(توشيو) ليس كاذبًا ولا يحمل مورثات تلك العاهة.. إنه إنسان نبيل، يمقت أن يترك طفلين يتعذبان.. والأهم أنه لم يخبرها بذلك قط ولم يتفاخر به..
كانت تعرف أن قلبها ليس بأحمق.. ليس ذبابة غبية تحلق ثم تهبط فوق كومة من القاذورات.. بل هو فراشة لا تحط إلا فوق زهرة نادرة.. وهي تركت فؤادها يختار فأحسن الاختيار..
كانت تعرف أن عينيها ليستا حمقاوين.. حين تريان النقاء فى إنسان فهو نقى.. لا مجال للخطأ..
كانت تعرف أن (أغسطس) حكيم عجوز لا يخطئ.. وحين يقرر أغسطس أن يغدو أجمل الفصول، فإن لهذا تفسيرًا قويًا.. ليس الأمر مصادفة..
اليوم هو الأثنين.. تصحو من النوم وتقول للعالم: أيها العالم أنا أحبك..
تهرع فى الشارع مبكرة نحو المدرسة.. الطقس حار أكثر من اللازم مما ينذر بيوم صعب.. ربما أصعب يوم منذ بداية أغسطس..
الثامنة صباحًا.. لن تلومها المديرة لكنها لن تلقاه كذلك.. لا مشكلة.. عندما يحين موعد

الانصراف ستقابله.. ولسوف تخبره دامعة أنها حسبت قصة حبها انتهت.. بينما هى بدأت..
دخلت الفصل..
إنها الثامنة وعشر دقائق..
قالت للتلاميذ الجالسين:
- اليوم سأخبركم عن أجمل شيء فى العالم..
- ما هو يا (متشيكو)؟
- خمنوا..
قالت أخت (توشيو) الحقيقية:
- طيور السنونو..
- لا.. هناك ما هو أجمل..
قال طفل (ملظلظ) بشدة:
- كعك الزنجبيل..
- لا..
طفل ثالث ذكى:
- أغسطس..
- لا..
- إذن ما هو يا (متشيكو)؟
قالت وهي تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة:
- إنه.. إنه.......
هنا ابيض العالم كله.. ولم تعد تسمع حرفًا..
لم تعرف ما حدث.. ولن تفهمه إلا بعد زمن طويل..
لكنها تذكرت فى هذه اللحظة الحاسمة أنها لم تول عناية لاسم البلدة التي تقع فيها هذه الأحداث..
الآن ترى لافتة تطير فى الهواء الساخن
لافتة كتب عليها (هيروشيما)..
إنه أغسطس..
بالتحديد يوم الاثنين السادس من أغسطس عام 1945...
الساعة الثامنة والربع صباحًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

الأشباح

لو تنبأت بما سيحدث لوددت أن أكون سمكريًا بدلًا من عالم طبيعة..

أينشتاين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- مخالب الشيطان..

لم تكن (هيروشيما Hiroshima) قبل السادس من أغسطس مسرحًا للحرب المضطرمة والتي طالت كل مدن اليابان..
لقد تساءل الناس مرارًا عن سبب كون القنابل لم تهو على (هيروشيما) قط.. واعتقدوا أن مدينتهم محظوظة.. ومن سمعوا صفارات الإنذار فى هذا الصباح لم يولوها اهتمامًا لأنهم اعتادوا أن تمر الطائرات الأمريكية فى سمائهم قاصدة أهدافًا أهم..
البعض رأى تلك الطائرة تحلق على ارتفاع عال..
البعض رآها تقذف شيئًا ثم ترتفع..
لكنهم لم يعلقوا على ذلك أهمية ما..
في بادئ الأمر حدث ذلك البريق الناصع..
لقد زالت الألوان عن كل الموجودات، والعالم صار بقعة ساطعة من اللون الأبيض حتى حسب الجميع أنهم أصيبوا بالعمى..
لم تعد ثمة حدود ولا معالم لأي شيء..
لقد صار العالم كله لا شيء أبيض.. ومعه ساد الصمت.. لم يعد أحد يسمع أي شيء..
اللحظة التالية هي لحظة الحرارة.
فجأة شعر الناس كأنما الشمس قد هوت من السماء لتسقط فوقهم.. إن اليابانيين وثنيون يؤمنون بخليط غريب من المعبودات، لذا حسبوا أن إله الشمس جاء شخصيًّا إلى بلدتهم المتواضعة..
وفي خمسين ألف جسد من الأجساد التي لم تتفحم فورًا، تركت
الحروق علامة سيطلق عليها فيما بعد اسم (مخالب الشيطان)..
وعلى بعد خمسين أو ستين كيلومترًا سمع الناس صوت البركان الهادر..
نبحت الكلاب فى القرى البعيدة، وثارت الخيول، لكن الإنسان لم يفهم..
الآن بدأت مرحلة الأعاصير..
أعاصير عنيفة تطير كل شيء.. تمزق الثياب.. تطير الأطفال فى الهواء.. تنتزع أعمدة النور واللافتات وتقلب السيارات.. ومعها جاء الغبار ليغطي كل شيء.. ثم انسحب الغبار..
وتغلف سماء المدينة سحابة سوداء ثقيلة.. كأنما هم جربوا النور التام والظلام التام فى ثوان..
وفي كلتا الحالتين هم لا يبصرون شيئًا..
الآن انتهت المرحلة الثالثة.. تنحت المؤثرات السابقة لتفسح المسرح للممثل المرهوب المخيف: النار..
اندلعت النيران تجتاح كل شيء بلا رحمة.. والغريب أنها اتخذت صورة القطار الذي يشق طريقه فى حماسة وجرأة بين البيوت على الجانبين.. قطار يعرف كيف يدخل الأزقة، وكيف يدخل من النوافذ..
وراح الناس يصرخون ويركضون..
لكن النار كانت أسرع منهم، لذا بدا المشهد كأنها كائنات عجيبة تتكون أجسادها من النيران..
وكأننا هبطنا على كوكب فضائى مجهول..
لقد بدأ العصر الذرى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكن القول بدقة إن القنبلة سقطت فى المثلث الذي يتكون من مصرف (زديوتومو) وبناية (فوكوزايماى) وإدارة الغاز..
نفس الموضع الذى كانت (عبير) تمشي فيه منذ أيام مع فارسها
الرقيق (توشيو)..
ترى كم فراشة احترقت؟ كم زهرة تفحمت؟
طبعًا لا أحد يفكر فى أمور كهذه لأن حرارة القنبلة أذابت الأعمدة الخرسانية ذاتها، وما زالت حتى اليوم توجد صورًا لأشخاص كانوا يقفون أو يتكلمون حين سقطت القنبلة.. لقد قامت الحرارة المشعة بتحميض صور هؤلاء وطبعها على الأسفلت.. لا بد أن صورة الحارس الواقف على باب المصرف مطبوعة يراها سياح (هيروشيما) اليوم..
هذه الدائرة التي يمتد قطرها أربع كيلومترات هى منطقة الفناء الشامل.. هى منطقة (اللابشر).. حيث لم يفلت فيروس ولا نملة ولا قط ولا إنسان من الفناء.. ليس الفناء بل التبخر..
مدرسة (عبير) كانت بعيدة عن هذا كله..
لا لم تنج.. مازال على القنبلة أن تقضي على مائتى ألف يابانى فى ذلك اليوم المشئوم..
لقد اندفعت النيران إلى داخل الصف، وسمعت الأطفال يصرخون.. هل مستها النار؟ لا تعرف..
كل ما تعرفه أنها شعرت بحاجتها إلى ألف يد.. لم تكن لديها إلا يدان احتضنت بهما طفلين واندفعت نحو الباب.. وفى الخارج لم تصدق ما تراه..
الشارع الجميل تحول كله إلى نيران.. والسماء بلون حذائك الأسود أو قلب عدوك..
ألقت بالطفلين على الأرض، ثم عادت تبحث عن المزيد لكن النيران والدخان يحاصرانها.. لا تخطو خطوة من دون أن يهوى فوقها شيء ما.. فى النهاية مدت يدها بين الأطفال والتقطت ثلاثة يصرخون كقطط صغيرة عمياء، وهرعت إلى الخارج..
ألقتهم على الأرض وأعادت الكرة..
لكن الأمر صار مستحيلًا هذه المرة.. لقد اكتمل جدار النيران فلم تعد تستطيع أن تبصق من خلاله..
لم تنقذ إلا خمسة أطفال! لم تنقذ إلا خمسة أطفال..
وهرعت إلى الخارج لتصطدم برجل يمشى فى هدوء وسط هذه النيران..
قال لها وهو يواصل المشي:
- إنها نهاية العالم يا رجل.. نهاية العالم..
رجل؟ ثم فطنت إلى أنه لا يبصر شيئًا.. فى الواقع لم يعد له رأس.. كتلة متفحمة تعلو عنقه يصدر منها صوت.. إنه مجرد شبح يمشى كما يمشى الزومبي فى القصص المخيفة.. مشى بضع خطوات ثم هوى على وجهه بلا حراك..
لأين تذهب؟ ماذا تفعل؟
هى تملك مزية واحدة لا يملكها هؤلاء.. إنها تعرف ما يحدث.. تعرف أن المرشد الوغد اختار لها مغامرة عاطفية فى (هيروشيما) يوم سقوط القنبلة، أما هؤلاء القوم فلم يروا شيئًا كهذا من قبل.. وأكثرهم ماتوا أو سيموتون دون أن يفهموا..
كان جدار النيران يسد الشارع، ورأت مجموعة من الشباب يركضون.. يركضون نحو النيران ذاتها.. ما هذا؟ هل فقدوا صوابهم؟..
- انتظروا!! أنتم!

لكنهم غابوا وسط النيران.. فلم يطلق أحدهم صرخة..
لقد أصابهم العمى من وهج القنبلة فلم يعودوا يعرفون أين النار..
هكذا راحت تركض فى طريق ملتو.. الأطفال معها.. لا تعرف إلى أين تذهب بهم ولا ماذا تفعل..
لم تنقذ إلا خمسة أطفال! لم تنقذ إلا خمسة أطفال..
وعبر الشارع رأت حافلة محترقة.. لم يبق منها إلا هيكل منصهر أسود.. ومن النوافذ ترى قطعًا من الفحم لا أكثر ولا أقل..
وسمعت من يصيح بها:
- إلى النهر يا فتاة! إلى النهر! لا سبيل للنجاة إلا النهر..
إنه الجحيم.. لم تعد تميز أي شارع ولا أي اتجاه.. المدينة كلها تحولت إلى دائرة رماد تحيط بها دائرة أوسع من البيوت المحترقة..
ثمة امرأة عجوز تنبش فى كومة رماد، ثم تخرج منه عظمة صغيرة يتصاعد منها الدخان.. تصرخ وهي تضحك:
- هذا هو ما تبقى من ابني! لقد وجدته! هاهاهاها!!
وحيدة تقف وسط الرماد ملوحة بالعظمة، وقد راحت تضحك وتضحك.. شعرها يتصاعد منه الدخان، فبدت كأنها إحدى ساحرات (ماكبث Macbeth)..
أشاحت (عبير) برأسها عن المشهد.. هي لا تصدق.. كل هذا أكبر من أن يستوعبه عقلها.. لكنها ستجد الوقت الكافي فيما بعد كى ترتاع.. كى تقدر المأساة حق قدرها.. كى تتحدث عن الوحشية التى لا توصف حين..
رباه! أبواها وجدتها!
انحنت أرضًا ونظرت حولها.. على الأقل لا تهب النار على هذا المكان.. لذا قالت للأطفال الباكين:
- انتظروا هنا بلا حراك..
إنهم يصرخون ويبكون فلا يسمعون ما تقول.. عادت تكرر الأمر فلم يصغ أحد..
- اخرسوا!!
لا شيء يحطم الأعصاب أكثر من عويل طفل لا يتوقف ولا يفسح مجالًا للتعقل.. إنك تشعر بأن كل دمعة تذيب عصبًا من جهازك العصبي.. هذه المرة فهموا فتركتهم حيث هم، وراحت تركض فى الشوارع التي لم تعد شوارع.. هى فقط تعرف أن هذه الحافلة المحترقة كانت تمشي فى شارع من قبل.. إذن المقدمة تشير إلى ما كان فتحته من ساعة واحدة..
إنه لكابوس.. الجثث على الإفريز فى كل مكان.. لكنها كفت عن أن تكون جثثًا.. هذه قطع من الفحم..
وكاهن من (الشنتو) يقف وسط الطريق عاريًا تقريبًا بعد ما أطارت الأعاصير ثيابه.. يعوى مرددًا:
- هلك الجميع.. هلك الجميع!
ثم رآها فصاح:
- أنت أيضًا هالكة يا فتاة.. لا تحسبي أنك فررت.. إن (البيكادون) يجد الجميع!
(البيكا) لفظ يابانى معناه (الضوء).. و (دون) معناه (الصخب).. هو يتحدث عن الضوء والصخب اللذين هبطا من السماء على غير إنذار.. وبعدهما لم تعد الحياة كما كانت..
واصلت ركضها نحو حي (نوبويشو) حيث كانت دارها..
هذا هو المكان.. بالتأكيد هو لكن لم يعد هناك بيت.. لقد صار المكان ساحة خالية تتناثر فيها

أشياء تحترق.. أين أبي وأمي؟ فقط فلتدع الله ألا يكونا في الدار وقتها..
وفي الحديقة الخلفية - أو حيث كانت - رأت كومة من الرماد المتصلب.. لو أمعنت النظر لأدركت أنها تمثل تمثالًا متقنًا لامرأة جالسة على ركبتيها.. لا شك أنها كانت تطالع كتاب صلوات حين طرأ الانفجار.. إنها الجدة.. نعم.. لا شك في هذا.. دنت منها لتلمسها لكن الحرارة الحارقة المتصاعدة من الرماد جعلتها تتراجع...
- الكل يتزوج يومًا ما.. لكنك يمامة فلابد أن تعيشي في كنف نسر.. تأكدي من أنه نسر، والأهم من أنه يراك يمامة..
هذه الكلمات خرجت من هذا الرماد منذ يومين أو أقل..
من يصدق هذا؟
وهكذا غادرت المكان دامعة العينين.. لا لم تدمع عيناها لسبب لم تفهمه.. لكنها فعلت كل ما يفعله الباكون من أنين ونهنهة..
لو كان ظنها صحيحًا فهي تمشى الآن في ذات الطريق الذى كانت تمشى فيه وهى ذاهبة للمدرسة.. من هنا كان (توشيو) يمشى.. لا بد أنه كان قد غادر داره حين وقع الانفجار..
ترى هل هو قد......؟ لا تعتقد ذلك.. لماذا؟ لأن الحياة ليست بهذه القسوة.
لكن هل هي ليست بهذه القسوة فعلًا؟ كم من أطفال صفها أنقذتهم ولم يحترقوا أحياء؟ إذن كل شيء ممكن.. كل شيء ممكن..
وفي الطريق كان هناك جدار أسود اللون بقى وحده وسط مساحة خالية من أية بناية أو أي أثر بشرى..
رأت شيئًا ملتصقًا بالجدار.. أدركت أن هذا إنسان أذابه الانفجار ليحيله إلى جزء من الجدار ذاته.. من فضلك لا تكن أنت.. أرجوك لا تكن أنت.. لو سمحت لى لا تكن أنت..
لكنك أنت؟
كانت معالمه قد تلاشت لكنها ترى أنه كان يضع عوينات.. وأنها مذهبة.. لقد ذابت تمامًا لتبدو كأنها رسمت على رأسه بقلم مذهب.. فتح فمه في صرخة صامتة ستسكن كوابيسها للأبد..
كان هذا كافيًا..
راحت تركض وسط النيران صارخة:
- القتلة!! القتلة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - النهر..

إنه أغسطس..
والآن صارت (متشيكو) الحسناء ذات الضفيرة بلا ضفيرة.. بلا أهل.. بلا حبيب.. بلا بيت...
الأدهى أنها كانت مدركة تمامًا لحقيقة أنها لم تفلت من مخالب الشيطان.. من حولها يجهلون معنى التلوث الإشعاعى، لكنها تعرف.. وتعرف أن جسدها امتص كميات هائلة من هذا التلوث تكفى لتشغيل مفاعل..
فجأة تسمع عند المنعطف غناء..
إنه نشيد دينى يابانى من الأناشيد التي يودعون بها الموتى.. تدنو أكثر فترى ثلاثة شبان - أو كانوا كذلك – يجلسون على الإفريز - أو ما كان كذلك - ويغنون بصوت واحد تلك الأغنية..
أحدهم كان ما زال يملك عينيه فصاح بها:
- أيتها الفتاة.. نحن نريد جرعة ماء..
ذكرها منظرهم بأشباح الأساطير الإغريقية الجالسة فى مملكة الموتى تتسول قطرة لبن كى تملك القدرة على التعبير عن نفسها..
هكذا ركضت إلى النهر.. استغرق الأمر مسافة لا بأس بها وجهدًا جهيدًا، فقط لتدرك أنها لا تملك شيئًا تضع فيه الماء.. راحت تفتش حولها..
أخيرًا وجدت جثة جندي مغمورة فى الماء والخوذة على رأسه..
آسفة أيها الجندي.. أنا لن أهينك.. فقط أريد أن أنقذ ثلاثة حيوات..
انتزعت الخوذة من على رأسه بصعوبة، وكانت ساخنة كالفرن.. ملأتها بالماء الموحل الملوث الساخن، ونهضت.. راحت تركض جارية إلى حيث كان أولئك الفتية..
المهم أن تسرع.. من المحزن أن عمر أكبرهم لا يتجاوز الستة عشر عامًا..
أخيرًا دنت منهم فى مجلسهم، وأثار دهشتها أنهم كفوا عن الغناء.. هل هدأت نفوسهم أم؟
بالفعل.. لا أحد منهم يتحرك.. لقد لفظوا أنفاسهم جميعًا..
نظرت إلى الخوذة المليئة بالماء فى يدها.. هل تشعر بظمأ؟ ربما.. هى لا تعرف الآن إن كانت ظامئة أم لا.. هكذا ألقت الخوذة بما فيها جوار الفتية وانطلقت عائدة إلى حيث تركت الأطفال..
عليها أن تأخذهم إلى النهر.. لو كانت مسئولة عن نفسها لظلت حيث هى إلى أن تموت.. لكنها مسئولة عن أطفال..
إن حالة (هيروكو) الصغيرة تثير قلقها.. لقد احترق أكثر جسدها.. صحيح أن وجهها لم يمس لكن من الواضح أن كل ما عدا ذلك فى غاية السوء..
قالت الصغيرة وهي تنتحب:
- أمي.. أخي (توشيو).. أين هو؟
- بخير.. كلهم بخير.. وقد نجوا كما نجوت أنت..
لماذا يغدو الكذب عسيرًا بهذا الشكل، بينما كل الناس يكذبون طيلة الوقت؟ لماذا تخرج الكلمات من صدرك فتصطدم بالغصة
التي تسد حنجرتك، وتقاوم للخروج كما يقاوم راكب الحافلة للخروج منها فى القاهرة فى وقت الذروة؟

صاحت فى الأطفال:
- سنتجه إلى النهر.. إلى النهر!
وفى الطريق استطاعت أن ترى سيارة إطفاء.. جميل! ما زال هناك أثر للحكومة هنا.. لكن ماذا بوسع الإطفائيين الشجعان أن يفعلوا؟ لم يعد الأمر يتعلق بمواضع محترقة فى المدينة، بل مواضع من المدينة وسط الحريق...
وفجأة ذابت عجلات السيارة فوق الأسفلت الساخن.. ووقفت حيث هى..
زحام الناس المتجهين إلى النهر.. هناك ما يشبه الموكب وسط هذا الزحام.. هذا غريب! مشهد لا يمكن تفسيره أو فهمه..
فى مقدمة الموكب يمشى رجل بخطوات عسكرية وهو يحمل صورة عملاقة.. ويصيح فى الناس:
- هيئوا لى مكانًا! إنني أنقذ القيصر.. إن (هيروهيتو) آت!!
فيفسح الناس له طريقًا فى احترام..
وما لم تعرفه (عبير) إلا بعد فترة هو أن الرجل هو (هيروهاتا) الذي يعمل فى مصلحة الهاتف.. حين وقعت الواقعة لم يجل فى ذهنه إلا خاطر واحد هو أن ينقذ صورة القيصر من الحريق، باعتباره رمز اليابان.. دعك من عقيدة اليابانيين التي تقدّس هذا الرجل باعتباره الشمس ذاتها وقد تحولت إلى إنسان..
وكان عمل هذا الرجل - (هيروهاتا) - فى مصلحة الهاتف يتركز فى أنه حامى حمى صورة القيصر.. موضوعة هى فى موضع بارز من المصلحة فى غرفة خاصة.. وكان الموظفون يمرون بها فى الأعياد لينظروا لها باحترام من دون أن يطيلوا النظر لأن هذا حرام لديهم..
وكان أول ما خطر للرجل أن ينقذ صورة الإمبراطور من الحريق.. لاحظ أن عليه أن ينقذ شيئًا لا يحق له التحديق الطويل فيه، مما يصعب الأمر.. اخترق النيران والدخان حتى وصل إلى القاعة وحمل الصورة.. وببطء بدأت تتكون حوله مظاهرة من الأهالي..
لقد بدا لهم كأن هناك هدفًا لحياتهم، وأن كل شيء ممكن ما دام (هيروهيتو) لم يحترق..
في الصورة يقف (هيروهيتو) حاملًا سيفًا من عهد الساموراي samurai الشجعان، وقد غطى ذراعيه برقائق الذهب، وارتدى ثيابًا تشبه ثياب التشريفة عندنا..
- هيئوا لى مكانًا! إنني أنقذ القيصر.. إن (هيروهيتو) آت!!
ويمشى فى الشارع وقد بدأت تتكون حوله مظاهرة صغيرة.. لقد نصحوه بأن يتجه إلى الغرب، نحو الجبال..
يشق طريقه وسط الزحام والدخان يتصاعد من شعره وثيابه.. بينما يقف الجنود على الجانبين يحيون صورة الإمبراطور.. من حين لآخر يلتصق حذاءاه بالأسفلت فيتوقف حتى يحررهما..
كلاب ملتصقة بالأسفلت تعوي وتحاول التحرر.. بشر يحاولون أن ينهضوا ليحيوا القيصر..
وقال قائل:
- إلى نهر (كيوباتشى).. من هناك تصل إلى الجبال..
وهكذا مشى الجمع نحو النهر المذكور الذي تقود إليه حدائق (سنتاى).. وكان هناك نحو عشرين ألفًا من البشر يحاولون النجاة بحياتهم.. لكنهم سمعوا النداء: القيصر قادم.. فبدءوا يفسحون طريقًا..
وعلى ضفة النهر المواجهة رأى (هيروهاتا) ضابطًا يحاول إعادة تنظيم جنوده.. فصرخ فيه:
- أرسلوا لى قاربًا.. إنني أحمل صورة القيصر!!
هنا رفع الضابط سيفه ملوحًا بالتحية، وأمر جنوده بأداء التحية من الجانب الآخر..

وسرعان ما عبر النهر قارب يحمل الضابط وجنديًا ليحصلوا على صورة القيصر..
وصاح الضابط فى المحتشدين:
- ابتعدوا! سأقتل أي شخص يعترض سبيل القيصر!!
وسرعان ما ركب (هيروهاتو) القارب معهم.. وابتعد القارب عن الآلاف الباكين المعذبين المتضرعين..
سوف يعبر القناطر ويتوقف على بعد خمس كيلومترات من مكان المأساة، وفى المساء سيستقر القيصر فوق جبل (كاشوياما)...
شاهدت (عبير) هذا كله فتصارعها شعوران نقيضان: العجب من هذا كله وكل هذا التقديس لصورة، بينما الناس يموتون ويحترقون فعلًا.. لا وقت لهذه السخافات.. الشعور الثانى هو الإعجاب بإرادة هؤلاء القوم وإصرارهم على الحفاظ على رمز وجودهم.. لقد تحولت هذه الصورة إلى اليابان ذاتها، وصار من المحتم أن تنجو بأى ثمن.. إن التى عبرت النهر هى إرادة الحياة لدى اليابانيين، وهي التي لم تحترق واتخذت مكانها فوق الجبل..
للأسف لا وقت للتأملات الفلسفية..
الآن هي ترى نهر (كوباشى) أكثر هدوءًا بعدما رحلت صورة القيصر..
لكنها ترى كذلك أن الأمر يشبه الكوابيس..
آلاف الرجال والنساء يهرعون إلى هناك وهم يصرخون.. هذا هو المنجى الوحيد على ما يبدو فى (هيروشيما) كلها.. وهكذا يتحول الأمر إلى صورة رهيبة من صور الطوفان أو لوحات (الجرييكو Greco) الكابوسية.. لا أحد يعرف من هو ولا يبالى بعريه ولا بشيء إلا الهرب من الحريق..
لم تعد ترى النهر.. لكنها على كل حال شقت طريقها بالأطفال وغمرتهم فى الماء بين الأجساد المتلاطمة.. تقسم إنها تسمع الماء يصدر صوت (طش ش ش) لدى ملامسة الأجساد الصغيرة..
أطفال يبحثون عن أمهاتهم صارخين، وأمهات يبحثن عن صغارهن صارخات..
والغريب أن الكل كان يصرخ ولا يتكلم.. لا أحد يتساءل عما حدث أو يحاول فهمه.. بدأت الأمطار تهطل.. فراح الناس يهللون فرحًا بالخلاص القادم، لكن (عبير) بالطبع تسبقهم خبرة بعالم الذرة.. إن هذه القطرات تعبر الغلاف الذرى الذي صنعته القنبلة، وبالتالي تتحول إلى عصير مشع يهبط على الأرض ليزيد الأمور تعقيدًا.. الآن ثيابها مبللة بالكامل، لكنه (ماء ذرى) لو لم نرد الدقة...
إن من نجا من النار لن ينجو من الأمطار..
وجاءت مجموعة من الجنود اليابانيين بسيارة لا تعرف كيف تحملت الحرارة، وجروا إلى النهر حاملين مجموعة من الأطفال، وألقوهم فى الماء.. ثم إنهم رفعوا بعض الجثث الطافية وحملوها إلى سيارتهم..
صاحت (عبير) وسط الضجيج:
- إلى أين تأخذون الجثث؟
قال لها جندي احترق نصف وجهه:
- حفرنا بعض الحفر.. نلقى فيها الجثث بعد ما نرش عليها الجير الحى..
بينما تناول جندي آخر مكبر صوت، وصاح بالطريقة اليابانية العسكرية التي تبدو كطلقات رصاص:
- سنحمل الجرحى فى قوارب إلى جزيرة (ميتى).. ليس لدينا عدد كاف.. فلتختاروا أحوجكم

لذلك..
قررت (عبير) أن هذه هى الطريقة المثلى لإنقاذ الأطفال، فهرعت إلى الجندي..
- أين؟
- عند فرع النهر الآخر..
قالت وهى تشير إلى الأطفال:
- سيركبون معكم.. لا بد من إبعادهم..
قال وهو ينظر لها نظرة سريعة:
- وأنت كذلك.. لابد من إسعاف سريع..
إسعاف سريع؟ إنها سليمة تمامًا.. ماذا يقصد؟
كانت بندقيته على كتفه فانتزع السونكى.. السونكى البراق الشبيه بالمرآة وناولها إياه، وهزَّ رأسه بإشارة ذات معنى.. رفعته أمام وجهها لترى ما دهاها فلم تر نفسها..
من هذا الشبح المخيف الذي يقف وراءها ويتأمل نفسه فى انعكاس السونكى؟ وسط الدخان ووهج النيران ينظر لها.. فلو رأته فى فيلم رعب لضمنت الأرق عدة أشهر.. لكن...
إنها هى!
لقد زال شعرها تمامًا، بينما تحول وجهها إلى عجين أحمر يطل منه ثقبان هما عيناها، وفمها ثقب ثالث يشبه فم الذبابة لو كان يبدو كهذا..
الغريب أنها لم تشعر بألم.. وتذكرت ما سمعته من الأطباء يومًا أن الحروق البالغة تحرق الأعصاب ذاتها فلا يبقى شعور بالألم.. الأغرب هنا أن الأطفال لم يخافوا منظرها ولم يصرخوا.. لقد أنساهم الرعب أن عليهم أن يتصرفوا كأطفال..
وجهها تلاشى.. سيكون عندها وقت كاف فيما بعد كى تصرخ وتولول.. أما الآن فرصيد الأوجاع كبير جدًّا.. لا يمكن استيعابه بهذه السرعة..
لهذا إذن لم تدمع عيناها حين بكت..
أعادت له السونكى.. ولم تقل شيئًا.. فأفسح لها الطريق كى تتجه إلى القوارب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس..
والقارب يشق طريقه وسط المياه تحت سماء سوداء مكفهرة.. ووسط الجثث.. رحلة خيالية لا يمكن أن تكون خطرت ل. (هوميروس Homer) وهو يصف عبور الأرواح لنهر (ستيكس) إلى مملكة الموت (هيدز Hades)..
فكرت فى المرشد.. ذلك الوغد الذي ألقاها فى هذا العالم دون أن يمهدها له.. وأسوأ شيء أنها تعرف أن كل ما يدور من حولها واقع مرير.. حدث بالفعل وليس وليد خيال مؤلف.. إن الحياة نفسها أكثر جرأة وأجمح خيالًا من الفنان.. فى الطبيعة يمكن أن يسقط نيزك من الفضاء الخارجي ليقتل الشرير، بينما لا يمكن أن يكتب الأديب ذلك وهو بكامل قواه العقلية.. فى الطبيعة يمكن أن تلقي أمريكا قنبلة ذرية على مدينة سكنية عادية لمجرد أنها تريد تجربتها، بينما لا يجسر أديب مجنون على تخيل ذلك..
كانت جالسة تحتضن الصغير البدين (أكوكو) الذي يرى أن فطائر السمك هى أجمل ما فى الوجود.. هنا سمعت الطفلة الجميلة (هيروكو) تناديها فى وهن..
- ماذا تريدين؟
قالت (هيروكو) وهي تخلع حقيبتها عن كتفها بصعوبة بسبب الحروق (ولم تلحظ عبير أنها

كانت معها منذ الصباح):
- أعتقد أننى سأموت الآن..
- كفى عن الحماقة يا (هيروكو)..
لم تعلق الطفلة وناولتها الحقيبة وقالت:
- إن (أكوكو) جائع.. فى الحقيبة طعام إفطارى الذى أعدته لى أمي صباحًا ولم أمسه.. أرجو أن تعطيه إياه..
صاحت فى جنون:
- ألن تكفى عن هذا؟
- قلت لك إنني سأموت الآن فلن أحتاج إليه..
وناولتها الحقيبة وهي تهمس:
- لو قابلت أمي فلا تخبريها بأنني احترقت..
نظرت (عبير) إلى الحقيبة فى يدها غير فاهمة.. ثم رفعت عينيها فوجدت أن الطفلة قد أغمضت عينيها للأبد.. بهذه السرعة رحلت (هيروكو) الدمية المصنوعة فى اليابان والتي تعمل بالبطاريات الجافة[3]..
هنا انفجرت (عبير) فى البكاء.. وأثار ذهولها أن الدموع الساخنة كانت تجرى على خديها.. يبدو أن قوة العاطفة مزقت الالتصاقات التي كانت تسد مجرى دموعها..
ودعت الله أن تموت الآن حتى لا تذكر هذا المشهد ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس
كان الظمأ يخنقها.. لا تعرف إن كان هو الظمأ أم كل الأبخرة الحارقة التى ابتلعتها..
فتشت فى حقيبة (هيروكو) عن شيء يشرب.. بعض الماء أو العصير.. نعم.. هذه زجاجة عصير.. رفعتها إلى فمها وحاولت أن تشرب لكن دون جدوى.. إنها عاجزة عن الابتلاع تمامًا.. لقد تحولت عضلات بلعومها إلى كتلة هلامية اختلطت بلسانها فلم تعد قادرة على ممارسة النشاط الانعكاسي المحموم المسمى بالبلع..
قالت لها امرأة تجلس فى القارب:
- صبرًا أيتها التعسة.. سأدبر الأمر..
وكأنها طفل جعلتها المرأة تريح رأسها على فخذها.. ثم أمسكت بثمرة طماطم، وراحت تعصرها عصرًا من خلال الثقب الذى صار هو فم (عبير).. ويبدو أن العصير وجد طريقه بقوانين الجاذبية..
العصير يتسرب إلى جوفها.. ينعشها.. يرطبها.. إنها ستقاوم.. ستعيش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثالث

الصقور

«أنباء طيبة..
يبدو أنه برغم كل شيء أحبهم..
كانت أوامره هى أن يحرق عظامهم حتى تتفحم..
حمل القنبلة وتركها تسقط
بعد هذا كان عليه أن يتقاضى المال..
معاش بطل.. لكنه لم يلمسه..
من العبث أن تسأله عن السبب..
من العبث أن تسأله: لماذا؟

أنشودة الميجور إيثرلى (أحد طياري القنبلة الذرية)
للشاعر جون بارينجتون وين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 - ما هذا الذى فعلناه؟

إنه أغسطس...
في ساعة مبكرة من صباح السادس من أغسطس..
يقف الميجور الأمريكى (توماس فيريبي) يدخن لفافة تبغه الأخيرة قبل الإقلاع.. الكل من حوله يهرع ويتشاجر، يتعثر ويرتبك، لكنه بارد تمامًا.. حتى لفافة التبغ لا تهتزَّ بين شفتيه..
ربما كانت هذه من الأسباب التى رشحته لهذه المهمة بالذات، فهو من أقوى الطيارين أعصابًا ورباطة جأش..
أضف لهذا أنه - هو بالذات - واحد من الذين اختاروا هدف القنبلة، بعد عدة ساعات من الطيران فوق اليابان كلها.. لا أحد على جزيرة (تيتان) الواقعة فى المحيط الهادى يعرف السر.. قليل جدًّا من العاملين بالقاعدة يعرف كنه تلك القنبلة الغامضة القادرة على إنهاء الحرب فى ثوان..
ثم جاء توجيه القائد الأعلى فى الثالث من أغسطس:
- على الوحدة 509 التابعة للكتيبة 20 من القوات الجوية الأمريكية أن تلقي القنبلة الذرية على إحدى المدن التالية: (هيروشيما) أو (كوهارا) أو (نيجاتا) أو (ناجازاكى)..
إن (هيروشيما) تقع جنوبى جزيرة (هونشو Honshu) اليابانية.. على خليج (هيروشيما).. تم بناؤها من قرون على دلتا نهر (أوتا).. وهى بكل الأحوال هدف مناسب.. فلم يكن أحد ينوى ضرب (طوكيو)..
وبعد منتصف ليلة السادس من أغسطس أقلعت ثلاث قاذفات قنابل من طراز (ب - 29) نحو (هيروشيما).. وكان الميجور (فيريبى) بارد الأعصاب يقود طائرة المقدمة المسماه (إينولا جاى Enola Gay) وهو يلوك قطعة من اللادن.. الطائرتان الأخريان مهمتهما الحراسة والتصوير فقط..
إنه يحفظ اليابان والمحيط الهادي شبرًا شبرًا..
الآن تبدو له السواحل اليابانية فى ضوء الفجر.. مساحات من الخضرة بارعة الحسن..
يتذكر فى مرارة هجومًا مماثلًا حدث فى الفجر من قبل، لكن المُهاجَم - بفتح الجيم - كان الأمريكيين.. أسطولهم فى (بيرل هاربور Pearl Harbor) تلقى ضربة قاصمة عند الفجر.. لكن اليابان هذه المرة ستهزم بقنبلة واحدة تسقطها طائرة واحدة..
وفي الطائرة التي تقوم بالتصوير قال المصور لمن معه:
- لاحظوا يا سادة أن هذه اللقطات تاريخية، وكل ما نقوله يتم تسجيله.. فحافظوا على لغتكم..
لأنها ستكون فضيحة لو احتوى هذا السجل التاريخي على أي من ال F- words كما يقول الأمريكيون..
التلال تصنع مثلثًا وقمة هذا المثلث هى (هيروشيما).. المدينة الناعسة التي تتأهب لاستقبال هذا اليوم من أغسطس فى تفاؤل.. صحيح أن الحرب تدور فى كل اليابان لكنهم ظلوا بمنأى عنها.. كانت هيروشيما واحة سلام بعيدًا عن كل شىء.. بالإضافة إلى الستار الكثيف على الحقائق الذي أسدله الإعلام الياباني..
وفى الطائرات الثلاث شعر الطيارون بالزهو.. هكذا قالوا فيما بعد.. إنهم يتحكمون فى مصائر الآف الأشخاص.. إنهم يلعبون دور الأقدار.. ضغطة على الزر تغير التاريخ.. وعدم الضغط على

الزر يغير كذلك التاريخ..
الآن يستعد (فيريى) لضغط الزر..
كان قد حسب مرارًا شكل القطع الناقص الذى سترسمه القنبلة وهى تهوى، من ارتفاع عشرة آلاف متر وعلى بعد خمس كيلومترات من المدينة.. سوف تلامس المدينة بالضبط فى المكان المطلوب..
- اضرب!!
وفي طائرة التصوير همس أحد الجالسين وقد نسى الأوامر بتهذيب اللسان:
- انظر إلى تلك القذرة وهي تسقط!
والآن حان وقت ارتفاع الطائرة بسرعة كما طلب العلماء وإلا صارت أولى ضحايا القنبلة!
دارت الطائرة حول (هيروشيما) والكاميرات تعمل بلا توقف..
لقد خيم ليل الموت على الجزيرة والسحب السوداء تطبق قبضتها على المدينة البائسة..
وعلى الرغم منه همس أحد الطيارين بكلمة ظلت محفوظة فى السجلات حتى اليوم وسمعها العالم كله:
- يا إله السماوات! ما هذا الذي فعلناه؟!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد كتب أحد التلاميذ اليابانيين للميجور (فيريي) يسأله:
- ألست نادمًا؟
قال الميجور فى الرسالة التي رد بها:
- كنت مكلفًا بمهمة استراتيجية وقمت بها على خير وجه.. لا تسألنى هل أحس بتأنيب الضمير أم لا فهذا موضوع يهمني وحدي.. لكني أعرف حقيقة واحدة هي أن اليابان طلبت الاستسلام بعد أيام من إسقاط القنبلة، وقد زرت (هيروشيما) بعد ذلك وتأملت الخراب الذي أحدثته قنبلتي فسيطر على شعور واحد هو أننى قمت بمهمتى على خير وجه ممكن..
بعد هذا بثلاثة أيام ارتدى (ليونارد شيشيرى) البريطاني الذى يعمل مع القوات المسلحة الأمريكية بذلة الطيران، وركب طائرته متجهًا إلى اليابان.. هذه المرة ليكرر مع (كوهورا) ما فعله (فيريى) مع (هيروشيما)..
غير أن العواصف فى هذه المرة كانت تحيط بالساحل الياباني، وصارت الرؤية شبه مستحيلة.. كانت الرحلة عسيرة بحق، وفقد كلًّا من الطائرات الثلاث المرافقة له..
هكذا صارت الساعة التاسعة صباحًا وهو عاجز عن معرفة أين هو ولا كيف يصل إلى (كوهورا)..
يتصل بالقيادة فيؤمر بأن يتجه إلى هدف ثان..
(ناجازاكى Nagasaki)..
هكذا نجت مدينة من الدمار فى اللحظة التي تقرر فيها مصير
مدينة أخرى بهذه البساطة..
لكن (شيشيرى) لم ينس كل هذا الدمار.. وقضى حياته يعانى الاكتئاب، ثم انغمس فى التدين محاولًا أن يطرد عن نفسه كل الأذى الذي أحدثه هو بغارة جوية واحدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الحفل..

إنه أغسطس...
لكنه ليس أغسطس 1945.. إنما هو بعد ذلك بأعوام..
إنه أغسطس..
لكنه ليس فى (هيروشيما).. بل هو فى (نيويورك).. بالتحديد فى الحفل الذي نظمه مستشفى (جبل سيناء) فى (نيويورك)..
الموسيقا تعزف.. هناك الكثير من المراسلين الصحفيين.. أضواء الفلاش فى كل صوب.. قشدة المجتمع الأمريكي بأثريائه وبعض ممثلاته الحسناوات.. هناك ضحكات وهناك مصافحات..
وسط الواقفين ثمة رجل نحيل أصلع يبدو عليه الاكتئاب.. لا ليس (رفعت إسماعيل) لقد اكتفينا من هذا العجوز فى (فانتازيا).. هناك رجل آخر نحيل منكوش الشعر أشيبه.. وجنرال فارع الطول بادى الصرامة.. هناك رجل نحيل آخر يلبس قبعة، وهو عصبي كثير الحركة لا يهدأ لحظة..
ثم جاء صوت المذيع من مكان ما:
- سيداتى وسادتي.. فلنرحب بالرئيس (هاري ترومان Truman).. الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة..
التهبت الأكف بالتصفيق، بينما تقدم الرجل إلى المنصة وهو يحيى الجميع..
لا أعتقد أن رئيس الولايات المتحدة يمكن أن يحضر حفلًا فى (نيويورك).. ولا أعتقد أنهم يعلنون ترتيبه فى كل مرة.. فلربما كان الأمر لا يخلو من شطحات (فانتازيا).. لكننا سنقبل وجوده على كل حال..
لكن الحضور بدأ يتفرق من حول (ترومان).. ثمة جو من الكهرباء العامة ساد المكان، وتهامس القوم:
- قد جاءوا! قد جاءوا!
واندفع الجميع نحو المدخل، ورفع الصحفيون آلات التصوير فوق الرءوس كعادتهم.. وراحت أنوار الفلاش تلتمع بلا توقف حين دخل المكان الشاب الياباني الأول.. كان وسيمًا فارع القامة - على عكس ما يقال عن اليابانيين – وإن بدا مذهولًا مرتبكًا من كل هذا الزحام.. بعده دخل رجل يابانى أشيب ملتح له عين زجاجية لا تخطئها العين برغم أنها متقنة الصنع..
بعد دقيقة دخلت فتاتان مرتبكتان.. أنت ترى الفتاة على اليمين.. لا داعى لأن أقسم لك إن هذه (عبير) ذاتها.. نحن نتعامل على أساس الثقة المتبادلة هنا.. هذه هى (عبير) ذاتها أو (متشيكو) لو كنت تفضل هذا الاسم.. إنها بارعة الحسن.. شقراء الشعر.. لم تعد تمت بصلة لتلك الفتاة التى كانتها يومًا ما، ولكن هل تريد رأيى؟ أنا أعتقد أنها كانت أجمل فى صورتها الأولى..
راحت الأضواء تسقط عليها مع الكثير من الـ (كليك) (كليك).. وصوب نحو فمها أكثر من مكبر صوت، وسألتها مذيعة شقراء منكوشة الشعر:
- ما هو شعورك بوجهك الجديد؟
ابتلعت (عبير) ريقها وقالت الكلمات الإنجليزية التى قامت بحفظها ألف مرة:
- أنا أشكر رجلي البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلي.. كما أشكر الجراح البارع

الأستاذ (بارسكى) على ما قام به.. إن الشعب الأمريكى شعب طيب.. أريجاتزوووووووه!
سألها شاب نحيل يملأ النمش وجهه:
- هل وافق أهلك بسهولة على سفرك إلى الولايات المتحدة؟
ابتسمت وهزت رأسها لأنها لم تفهم.. هنا مالت على أذنها صديقتها اليابانية وترجمت لها ما قيل، فقالت:
- لم يعد لى أهل..
ساد الصمت المرتبك للحظة ثم سألتها الصحفية الأولى:
- أهل بلدتك.. هل سروا للأمر؟
- بالعكس.. كان الاعتقاد السائد أن أمريكا لا يمكن أن تقدم عملًا خيرًا.. لهذا اعتقد الكثيرون أنها ستتظاهر بعلاج ضحايا القنبلة، لكنها فى الحقيقة ستخطفهم وتتخلص منهم حتى لا يكون هناك شهود..
سألها الفتى بسرعة:
- ورأيك الآن؟
قالت وهي تبتسم بخبث:
- أنا أشكر رجلي البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلى.. كما أشكر الجراح البارع الأستاذ (بارسكى) على ما قام به.. إن الشعب الأمريكي شعب طيب.. أريجاتزوووووووه!
- هل ستعودين إلى (هيروشيما) أم تقيمين فى الولايات؟
هزت رأسها وقالت برقة:
- أنا أشكر رجلي البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلى.. كما أشكر الجراح البارع
الأستاذ (بارسكي) على ما قام به.. إن الشعب الأمريكي شعب طيب.. أريجاتزوووووووه!
كان الموجودون كلهم من ضحايا القنبلة الذين حملهم العم (سام) إلى أمريكا ليعالجهم.. إن اسمهم فى اليابان هو (كيبو) أي (المشوهون).. وما حدث بعد الحرب هو أن رجال أعمال أمريكيين جاءوا إلى اليابان، وتحملوا نفقات سفر وعلاج بعض هؤلاء المشوهين فى الولايات المتحدة على أيدى جراحين بارعين.. بل إنهم تحملوا نفقات سفر جراحين يابانيين إلى الولايات ليتعلموا أسلوبهم فى العمل..
بالنسبة للعالم كان هذا دليلًا على أن أمريكا تشعر بتأنيب الضمير..
بالنسبة لهؤلاء اليابانيين فإنهم كانوا يشعرون بأنهم يُستعملون كأداة لتحسين صورة أمريكا.. وبالنسبة لهم لم يكن من الممكن نسيان ما حدث.. إن الأمر ينطبق عليه المثل الشعبى المصرى (يخاصمني فى شارع ويصالحني في عطفة).. بالتأكيد لن تمحو بعض جراحات التجميل تلك الندبة الهائلة التي ستظل فى روح اليابان وجسدها للأبد..
لكنهم - اليابانيين - لم يكونوا يملكون الخيار.. هذه هى الفرصة الوحيدة التي ألقيت لهم للعودة إلى الحياة..
لقد ظلت (عبير) فى المستشفى أسبوعين كاملين بعد الانفجار.. حيث كانوا يغذونها بأنبوب أنفى.. كان الإسهال يقتلها.. وفيما بعد عرفت أن الإسهال من علامات الإشعاع الشهيرة.. لكنها قاومت.. كانت تريد الحياة..
هناك فى المستشفى عاشت ورأت من المآسي ما يفوق الحصر.. ورأت صفوف الأمهات اللاتي

يفتشن عن أطفالهن.. وسط صفوف جثث الأطفال التي لم يعد لها مكان..
رأت الضحايا الذين سقط شعرهم وقضى الإشعاع على نخاع
عظامهم..
لم يبدأ سرطان الدم لكنه سيعلن عن نفسه بعد أعوام، ولسوف يحصد آلاف الضحايا..
أما أشد ما أثار دهشتها فهو أن دم الموتى لا يتخثر أبدًا.. يظل النزف مستمرًا مهما طال الوقت..
لا تعرف متى ولا كيف حملوها على متن طائرة متجهة إلى الولايات المتحدة، ولا كيف قوبلت فى المطار كأنها ملكة.. ولا كيف مرت بعشر جراحات تجميل.. كل هذا كابوس طويل مرير..
وفي يوم من تلك الأيام صحت من النوم وتأملت وجهها فى المرآة فرأت وجهًا لا يسبب الكوابيس.. لكنه - ببساطة – ليس وجهها.. لقد رسموا على وجهها المتفحم وجهًا جميلًا زائفًا..
ومنذ هذه اللحظة صارت نجمة المجتمعات وظهرت صورتها على كل مجلات وصحف العالم تقريبًا.. حتى توقعت أن يتقدم الرئيس (ترومان) لطلب يدها، أو ربما يصلها سيناريو فيلمها الجديد..
هي الآن تقف فى هذا الحفل راسمة ضحكة صناعية على شفتيها، وأسنانها تلتمع كأنه إعلان عن معجون أسنان.. معجون أسنان (هيروشيما) الجديد.. بفضله أنا واثقة من ضحكتي.. أعلى نسبة من اليورانيوم 235 بين أنواع معجون الأسنان فى السوق.، يضمن لك تلوثًا إشعاعيًا دائمًا..
فى ركن القاعة ترى ذلك الرجل ذا الثياب السوداء، والذي وقف فى ملل يتسلى بالضغط على مؤخرة قلمه الزنبركى.. تك.. تتك.. تك.. تتك.. يمكن أن تفقد عقلك بسهولة..
- بعد إذنكم.. أريجاتزووووووووه!
وضمت كفيها معًا وحنت رأسها.. ثم انسحبت لتلحق بالمرشد..
كانا الآن خلف ركن متوار من القاعة، فثنت ركبتها ووجهت له ضربة قوية جدًا فى ركبته.. حتى إنه تكور حول نفسه يعوى ألمًا وقالت:
- أنت تتسلى على أيها السافل!
- أنت اخترت هذا يا فتاة.. أووووه!! أنا لم أختره!
قالت وهي تضغط على أسنانها:
- أنت تتلاعب بالكلمات.. تخفى حقائق كأنك تتسلى بنصب الشراك الخداعية لى.. حين تكلمت عن قصة حب فى اليابان كان هذا آخر ما خطر لى..
- أوووه! أي ى يى! تجربة القنبلة الذرية فى (هيروشيما).. لا شيء مثل (فانتازيا) يتيح لك كهذه فرصة..
- أنا آتى لـ (فانتازيا) من أجل الخيال.. وليس من أجل مزيد من الواقع الأليم..
قال وهو ينهض والألم لما يفارق وجهه:
- ليكن.. ليكن.. لم تنته القصة بعد.. لكنى ألفت نظرك إلى أن هذا الحفل لا يوجد إلا فى (فانتازيا)..
- إنني أموت بهجة..
قال وهو يشير إلى الواقفين:
- مثلًا لن تجدي حفلًا اجتمع فيه الرئيس الأمريكي (ترومان) صاحب قرار إلقاء القنبلتين، و(أينشتاين) و(إنريكو فيرمى) و(زيلارد) و(أوبنهايمر) وكل الطيارين الذين ألقوا القنبلة.. هذه من الأشياء التي تمنحها لك (فانتازيا) على سبيل الـ Cadeau..
ضحكت فى مرارة وقالت:

- أحرقت وجهى بالكامل وتتحدث عن الهدايا؟ لقد خضت عشر جراحات تجميل كى تستطيع أن تراني دون أن تصرخ..
فجأة سمعوا صوت صراخ.. تصلب الناس.. ومن أماكن - لا تعرف أين كانت - برز حرس خاص للرئيس يحملون مسدساتهم.. لم تكن السماعات فى الأذن موجودة فى هذا الزمن، لكنهم استعاضوا عنها بالمزيد من التوتر..
هناك شخص ما يقاوم فى المنتصف.. هناك لكمات تطير فى الهواء.. هناك من يركل ومن يصفع.. وفى النهاية تراجعت الدائرة قليلًا لتكشف عن شاب أمريكي يرقد على الأرض، وقد قيدت يداه إلى الخلف، وهو يتلوى ككلب عقور ولا يكف عن الصراخ.. فلو أنه وجد ساقها فى طريقه لعضها.. لكن ثلاثة حراس جثموا عليه كالجلاميد..
كان يردد فى هستيريا:
- لا تجذب الرافعة! لا تجذب الرافعة!
نظر المرشد إلى الوراء فى أسى، وهزَّ رأسه قائلًا:
- لا مشكلة.. هذا بطل حرب كان المفترض أن يكرمه الرئيس (ترومان) اليوم..
الآن هم يجرون الشاب إلى الخارج فتسأل المرشد، بينما الحفل يعود إلى مرحه السابق:
- قل لى.. ألا ترى أن هذه طريقة غريبة بعض الشيء لمعاملة بطل حرب؟
قال فى لا مبالاة:
- ماذا يمكن عمله وقد جن تقريبًا؟ إن الميجور (كلاودى) الشهير بقسوته وحبه للتدمير كان قائد سرب منذ كان فى الحادية والعشرون من عمره.. كان باردًا صلب الأعصاب حتى أطلق عليه أصدقاؤه اسم (وجه البوكر Poker face).. أنت تعرفين أن لاعب البوكر يجب أن يبدو باردًا لا يستطيع اللاعبون معه أن يخمنوا إن كان يكسب أم...
- اختصر.. اختصر.. لست بهذا الغباء..
- ثم رشح كى يكون فى طائرتي القنبلة الذرية.. على (هيروشيما) وعلى (ناجازاكى) معًا.. وكان مسرورًا مما حقق.. لكنه إذ عاد إلى وطنه (تكساس) بدا صموتًا أميل إلى الاكتئاب.. وقد أقامت له بلدته حفل تكريم.. وفى وسط الحفل اختفى قبل أن يلقي خطبته.. بحثوا عنه كثيرًا جدًّا حتى وجدوه فى النهاية نائمًا على ظهره فى مخزن قش، وهو يبكي بحرقة..
بعد هذا تزوج لكن زوجته شعرت بالذعر منه وطلبت الطلاق.. كان يصرخ طيلة نومه: لا تجذب الرافعة! لا تجذب الرافعة! إن الأطفال يحترقون! وكان ينهض فى منتصف الليل ليقول إنهم يريدونه فى (هيروشيما) ليحقق فيما أحدثته القنبلة من دمار.. نالت الزوجة الطلاق بينما ظلت حالته العقلية تتدهور.. فصل من القوات المسلحة ومنح معاشًا سخيًّا.. لكنه لم يلمسه قط.. فضل أن يسرق المتاجر بينما حسابه فى المصرف يتضخم.. كان يعتبر أن هذا المعاش هو ثمن أرواح أطفال (هيروشيما) و(ناجازاكى).. وقرر أنه لن يلمسه أبدًا، وقد حاولت الحكومة الأمريكية أن تتجاهله وترفق به قدر الإمكان حتى لا تسبب فضيحة.. لكن الحقائق تغلبت أخيرًا.. هكذا تحول بطل الطيران إلى لص عادى يلاحقه رجال الشرطة فى كل مكان..
قالت فى تشف:
- هذا هو ثأر (هيروشيما).. لكنى - بشكل ما – أجد أن هذا الرجل أشرف ممن أرسلوه ليحرق أطفالنا.. لقد عذبونا كثيرًا جدًّا.. أكثر مما يتصور عقل..
قال وهو يبتعد مسرعًا:
- لكن كيف حالك الآن؟ لقد انتهت المعاناة وبدأ المرح.. سلام!!

ومن جديد وجدت أنها تقف وحدها وسط الجمع.. وقررت أن تجد (أينشتاين) لتتكلم معه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- من فعلها..

كان الرجل العظيم واقفًا يحاول أن يحصى النقود التى معه.. وكان يعانى معاناة شديدة فى العد كما هو واضح.. من العسير ألا تراه بشعره الأشيب المنكوش الذي يجعل رأسه عملاقًا، والغليون فى فمه، وثيابه غير المهندمة.. دعك من عينيه الواسعتين المندهشتين اللتين لم يجد فنان المؤثرات الخاصة (رامبالدي Rambaldi) خيرًا منهما لتكونا عينى كائن الفضاء البريء المندهش المذعور ET..

دنت منه فكف عن العد، ووقف ينظر لها..

قالت له - لقد صارت تجيد الإنجليزية تمامًا الآن – فى عتاب:

- لماذا فعلت ذلك يا بروفيسور (أينشتاين)؟

قال لها مرتبكًا:

- لو كنت تتحدثين عن القنبلة الذرية فلا ذنب لى فى هذا الموضوع كله.. إن رجل الشارع يعتقد أنني مخترعها، لكن الحقيقة هى أنه لا دخل لى بهذه القصة أصلًا.. كل ما حدث أننا كنا جميعا من العلماء اليهود الذين هربوا من النازية وجاءوا إلى الولايات المتحدة.. كنا نرتجف هلعًا من فكرة أن يلتهم (هتلر) أوروبا ويجيء إلى أمريكا.. وكان (زيلارد Szilard) العالم المجرى يحمل كابوسًا مقيمًا.. كان يعتقد أن (هتلر) سيتوصل إلى القنبلة الذرية وبها سيحكم العالم.. لهذا حاول إقناع الأمريكان بخطورة الأمر: لو كانت القنبلة الذرية ممكنة - وهى كذلك - فلابد أن تكون أمريكية.. وقابل الكثيرين من المسئولين دون جدوى.. ثم جاءني وشرح لى نظرياته التى بدت لى ممكنة ومنطقية.. هكذا كان دورى هو أن كتبت إلى الرئيس (روزفلت Roosevelt) أزكى الفكرة.. وبالطبع أعطى اسمى للخطاب ثقلًا خاصًا مما جعله يتبنى المشروع.. لكنه لم يعش ليرى تنفيذه..

- إذن أنت نقي الضمير من هذه التهمة؟

نظر لها بعينيه الواسعتين الصادقتين، وقال:

- طبعًا هناك ليال أبكى فيها، ومازلت أشعر بالارتباك والذنب حين أقابل أحد اليابانيين مثلك.. ولم أكف لحظة عن الدعوة إلى وقف التجارب النووية، لكني أقولها مستريحًا: لا دخل لى فى هذا المشروع.. ولو كنت ممن صمموا القنبلة لقتلني الهم..

وابتسم فى مرارة وقال:

- حين عرفت بمدي ما أحدثته القنبلة من دمار قلت: ليتنى كنت سمكريًا أو صانع أقفال بدلًا من عالم طبيعة.. الطريف أن نقابة صانعي الأقفال فى (نيويورك) شعرت بالفخر من مقولتي هذه، وضمتني عضوًا فخريًا إليها..

لم تبتسم (عبير) وهمست وهي تبتعد:

- إذن يجب أن أرى (زيلارد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (زيلارد) هو ذلك الرجل النحيل الأصلع حزين النظرات،

وكان يقف مع امرأة مجرية يتحدثان حين دنت منه (عبير).. وبهدوء سألته:

- دكتور (زيلارد).. لماذا فعلت ذلك؟

أخرج منديلًا وجفف العرق على جبينه وقال:
- القنبلة؟ لاحظى أنني لم أتخذ قرار إلقائها بل فعلت ما بوسعى كى أمنع هذا إلى حد أن المخابرات الحربية الأمريكية اعتبرتني خطرًا على الأمن..
- لكنك صنعتها..
- قدمت أهم النظريات التي قادت لصنعها.. كان معي زميل عظيم هو (فيرمي Enrico Fermi) الذى طور معي أول تفاعل متسلسل فى المختبر عام 1943 إن فريق الباحثين فى (شيكاغو) قد قدم أهم النظريات التي تطلبها صنع القنبلة، لكني أكرر: لم أقبل قط فكرة استعمالها..
قالت فى غيظ:
- لكنك صنعتها..
- كنت خائفًا من (هتلر).. كلنا كنا كذلك.. وكنت مؤمنًا أن الألمان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف هذه القنبلة؛ لذا سعيت فى لهفة إلى أن تمتلكها الولايات المتحدة.. وقد اقترحت أن تظل معنا لقهر (هتلر) لو فكر فى استعمالها ضدنا.. ثم انتحر (هتلر) وخرجت ألمانيا من الحرب.. ظلت اليابان هى عدونا الوحيد، لذا اقترحت أن يتم إلقاء القنبلة فوق جبل (فوجى ياما) حيث لا بشر.. إن الرسالة سوف تصل إلى اليابانيين كاملة لكن من دون أن تموت قطة.. اقترحت كذلك أن يتم إخطار اليابانيين بموعد تفجيرها فى جزيرة نائية بالمحيط الهادي، حتى يروا بأنفسهم ما يمكن أن يحدث لهم.. لكن لم يصغ لى أحد.. واعتبرني الجيش الأمريكي عميلًا أو مخربًا، حتى إنهم كانوا يراقبون الذباب الذى يطير حولي.. وكنت أعيش فى بناية لا يمنعها من الانهيار إلا كثرة أسلاك أجهزة التنصت فيها.. هذه الأسلاك كانت تؤدى نفس عمل أسياخ الحديد..
نظرت له مفكرة.. إذن هذا بريء آخر.. على الأرجح سيتضح أنها المسئولة عن قنبلة (هيروشيما).. هى وحدها..
سألته فى برود:
- إذن هناك من صنع القنبلة إذا سمحت لى.. إنها لم توجد نفسها منذ الأزل..
أشار إلى نهاية القاعة إلى حيث كان ذلك الرجل النحيل كثير الحركة ذي القبعة، يقف مع الجنرال الصارم الذى يحلق شعره بتلك الطريقة العسكرية القصيرة التي يطلقون عليها Crew Cut (قصة الفلاحين)..
هذا هو (أوبنهايمر Oppenheimer) مع الجنرال (جرو).. باختصار هذان هما الأخوان (قنبلة)..
دون أن تتكلم فارقته كالمسحورة متجهة نحو قاتليها..
نظر لها الجنرال بكراهية.. بعد كل هذه السنين هو لا يتحمل اليابانيين، ويطلق عليهم باحتقار لفظ japs وهو لفظ يبدو لنا بريئًا لكن فيه رائحة ازدراء لا يفهمها سوى الأمريكيين..
حيتهما فى فتور، وسألت الرجل النحيل الذى هو (أوبنهايمر):
- لماذا فعلت ذلك يا د. (أوبنهايمر)؟
قال لها بارتباك وهو ينزع قبعته:
- القنبلة؟ حسن.. لقد بدأت من حيث بدأ (زيلارد).. كنت أخاف أن يسبقنا (هتلر) إليها..
- لكن (هتلر) مات وتراجع (زيلارد)..
- عندها كان علينا أن نثبت أننا لم نصنعها لأننا نكره (هتلر) بل لأننا نحب أمريكا.. أنت تعرفين أن أكثر من صنعوا القنبلة - بمن فيهم أنا - علماء يهود.. كنا نكره (هتلر) كالطاعون.. وفى هذه

النقطة اتفقنا مع الحكومة الأمريكية، فلما مات (هتلر) راح (زيلارد) ينادى بأن نوقف مشروع القنبلة، لكن كان على أن أثبت أننا نصنعها لمصلحة أمريكا وليس بسبب كراهيتنا الشخصية لـ (هتلر).. صار من الواجب علينا أن نصنعها ونجربها وأن تنجح..
ثم تبادل نظرة فخورًا مع الجنرال وأردف:
- صرت مكلفًا بمشروع (مانهاتن) - الذى هو صنع القنبلة - وقد قمت بتكوين فريق عمل.. وقد أعجب الجنرال بطريقتي المنظمة شبه العسكرية فى تنفيذ الأوامر.. وبنينا مدينة سرية فى (لوس ألاموس) وسط الصحراء.. هناك واصلنا أبحاثنا حتى نجحت..
قال الجنرال فى صرامة:
- كنت أنا المشرف على الجانب العسكري.. لم أشعر قط براحة مع كل هؤلاء العلماء باستثناء (أوبنهايمر).. كنت أعتبر أننا نستضيف أكبر مجموعة مخابيل عرفتهم أمريكا.. لكن هؤلاء المخابيل استطاعوا أن يصنعوا القنبلة من فكرة وهمية.. لو استطاعوا أن يفجروا قنبلة إلى الداخل بدلًا من الخارج لبدأ التفاعل المتسلسل.. تصوري هذا السخف..
قال (أوبنهايمر) وعيناه تدمعان تأثرًا:
- أجرينا أول بروفة للانفجار.. رأينا كيف ساد الصمت، ثم تعالى الوميض المرعب.. بعدها ارتفعت سحابة عش الغراب تعلن بداية العصر النووي.. عندها قال الجنرال يصف المشهد.. هل تذكر يا جنرال ما قلته؟
- إنها أكثر سطوعًا من ألف شمس.. الآن فقط انتهت الحرب..
- وقلت أنا بعد انتهاء الانفجار: أنا قد صرت الموت.. مدمر العالم.. إنها صلاة هندية قديمة.. هل تعرفينها؟ لحظتها قال لى صديقي الذى كان يراقب المشهد: لقد صرنا جميعًا أولاد (....) من هذه اللحظة..
قالت (عبير) فى غيظ وهى تتحسس وجهها:
- هذه ذكريات مؤثرة للغاية.. لكن ألم تتخيل لحظة ما يمكن أن يحدث لبشرى يقف فى قلب هذا الانفجار؟ هل فكرت كيف يمكن أن تؤثر هذه الألف شمس فى أطفال المدارس؟
فى صرامة قال الجنرال وهو يدفعها بيده:
- اسمعى يا فتاة.. رأيك لا يهمني.. هذه القنبلة قد هشمت إرادة اليابان التي لا تتهشم.. وقد وفرت علينا حياة مليون جندي أمريكي على الأقل.. لقد أنهت الحرب، لهذا أعتبرها أعظم عمل سلمي فى التاريخ!
ثم اتجهت عصبيته نحو (أوبنهايمر) فقال وهو ينقر بإصبعه على صدره فى ازدراء:
- حتى هذا المتخاذل ليس صافي النية إلى هذا الحد.. إنه يبذل ما بوسعه كى يعرقل مشروع إنتاج القنبلة الهيدروجينية التى تعتبر قنبلة (هيروشيما) بالنسبة لها نوعًا من مفرقعات الأطفال..
قال (أوبنهايمر) وقد بدا أن الوخز يؤلمه:
- لقد انتهت الحرب يا جنرال.. لا جدوى من صنع قنبلة أكبر وأخطر لأن القنبلة الذرية لن تستعمل ثانية.. لا جدوى من أن تستعمل ثانية خاصة والسوفييت يعرفون الآن طريقة صنعها.. بل صنعوها فعلًا..
في ازدراء قال الجنرال:
- أصدقاؤك السوفييت! هل تجهل أن الكلام قد كثر من حولك بصدد وطنتيك وولائك للولايات المتحدة؟ هل تجهل أن الكثيرين يطالبون بإيقافك عن العمل؟ يقولون إن لك ميولًا شيوعية واضحة وإنك قد تبيع سر القنبلة الهيدروجينية للسوفييت متى صنعناها؟

قال (أوبنهايمر) مدافعًا عن نفسه وقد تحشرج صوته بالبكاء:
- كنت أميل إلى الشيوعية فى شبابي.. لكن هذا انتهى منذ زمن.. ثمة مقولة شهيرة تقول: من لم يمل إلى الشيوعية فى العشرين فلا قلب له.. ومن مال إلى الشيوعية فى الأربعين فلا عقل له!!
- تهمة الشيوعية تكفي لتلويثك إلى الأبد..
كانت (عبير) تفهم جيّدًا هذه المواقف.. أنت معنا وإلا فأنت ضدنا.. (أوبنهايمر) لا يريد أن يصنع القنبلة الهيدروجينية فقد اكتفي من الألم البشري ورؤية الجثث المحترقة.. عندئذ يتهمونه بعدم الولاء لأمريكا..
انسحبت مبتعدة بينما الجدل دائر بين الرجلين.. سوف يظل (أوبنهايمر) مهددًا تحوم حوله علامات الاستفهام حتى آخر يوم من حياته..
وكان الرئيس (ترومان) يقف مع إحدى الصحفيات..
دنت منه وهزت رأسها، فأشرق وجهه وأصلح من عويناته وهتف بطريقة دبلوماسية سريعة:
- جميل.. جميل.. أنت إذن اليابانية التي استعادت جمالها بفضل جراحي أمريكا؟
ابتسمت وقالت بتهكم:
- لم أستعده.. أعطوني جمالًا آخر!!
وتذكرت – بصفتها (عبير) - أغنية قديمة لـ (عدوية) تقول: «شوفلى جمال.. على قد الحال.. يعوض صبرى إللى طال.. كأن (عدوية) كان يرثى حالها.. الحقيقة أنها كانت تحب أغانيه لكنها لم تعترف لنفسها بذلك قط..
ثم بلهجة لا تخلو من الكياسة سألته:
- سيدى.. لم أصدرت أوامرك بإلقاء القنبلة؟
طلب من الصحفية أن تبتعد، ثم نظر إلى (عبير) مليًّا وقال:
- سأكون صريحًا معك يا آنسة؟
- (متشيكو زاكو)..
- (متشيكو).. كل اسم من أسمائكم اليابانية هذه يبدو كأنه مصطلح من مصطلحات (الكاراتى).. سأكون صريحًا معك.. لقد كان بلدك موشكًا على الاستسلام وكانت هناك مفاوضات سرية تتم من وراء الستار.. أعتقد أن الحرب كانت موشكة على الانتهاء..
- أي أن خطر فقد مليون جندي أمريكي فى أثناء غزو اليابان أكذوبة؟
ضحك كثيرًا حتى دمعت عيناه وقال:
- بالطبع لكننا لا نطلق على هذا أكذوبة.. نطلق عليه (دعاية استراتيجية).. جنرال (إيزنهاور) قائد العمليات قال فى أكثر من تصريح صحفي إن هذا رقم مبالغ فيه..
اتسعت عيناها ذهولًا.. لم تصدق ما تسمعه:
- وبرغم هذا.. برغم هذا ألقيتم القنبلة؟
قال وهو يجفف قطرات العرق التى نمت على جبينه:
- أنت لا تفهمين.. لقد كلفتنا القنبلة الكثير من الجهد والوقت والمال وكان لابد أن تنفجر.. لابد من تجربتها على بشر.. كان هذا أقوى منا.. ثم إن الأمريكيين كانوا متعطشين إلى الدم الياباني بعد هزيمة (بيرل هاربور) ولم يكن من حقي أن أحرمهم هذه المتعة.. بالإضافة إلى أن القنبلة كانت الرسالة الأخيرة لعالم ما بعد الحرب.. هناك قوة كاسحة شديدة البطش اسمها الولايات المتحدة.. فلتتراجع الضباع إلى جحورها.. الضباع العجوز التى ولى عهدها مثل (إنجلترا) و (فرنسا).. والضباع الشابة التى تحاول أن تستأسد مثل الاتحاد السوفييتي.. لقد كانت القنبلة

بمثابة الإعلان عن ميلاد إمبراطورية جديدة..
جف ريقها وشعرت بأنها تتكلم بصعوبة بالغة:
- و.. وكيف استقبلت خبر سقوط القنبلة؟
- كنت وسط مجموعة من البحارة حين وجدت البرقية فى يدي، فصحت: لقد ألقينا أول قنبلة ذرية على اليابان.. يا أولاد.. أنتم عائدون إلى الوطن! هكذا ساد المرح وتطايرت القبعات فى الهواء!
ثم راح يفكر فى شرود:
- كان على أن أرتب عالم ما بعد الحرب.. غزو (كوريا).. مشروع (مارشال).. لقد وضعت أولى اللبنات فى صرح.. ولكن.. أين أنت؟
لأن (عبير) كانت قد تركته يتكلم وابتعدت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الرابع

المكلومون

اليابانيون أسعد حظًا لأنهم خسروا الحرب.. فالنصر فى ميدان كهذا هو درس قاس..

(أينشتاين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- والحياة تستمر..

إنه أغسطس..
واسمها (متشيكو زاكو)..
لم تعد رقيقة دقيقة أنيقة كالزهرة.. لقد تقدمت فى السن لكنك تستطيع أن تقول باطمئنان إنها كانت جميلة يومًا ما..
لم تعد لها غمازتان لأنهما تلاشيتا تحت طبقات مزرعة الجلد أولًا، ولأنها لم تعد تضحك..
مدرسة أطفال هى..
خير مدرسات الأطفال هي من تملك كل صفات الطفولة وقد كانت طفلة عجوزًا، لهذا كانوا ينادونها بلا تحفظ (متشيكو)..
تمشى فى الشارع متجهة إلى المدرسة.. بائع البطيخ الشاب الذى وقف يرص شرائحه الحمراء التى يكفى مرآها ليطفئ ظمأك يصيح من بعيد:
- صباح الخير يا سيدة (متشيكو)
ثم يتذكر خطأه فيصحح كلماته:
- يا آنسة (متشيكو)..
إنه يعرفها.. يقولون إنها كانت من ضحايا القنبلة، وإنها تلقت علاجًا كثيفًا فى الولايات المتحدة، لكن هذا كان منذ عشرين عامًا.. لا أحد يتكلم عن هذه الأمور..
وبائعة الزلابية العجوز الكفيفة التي احترق نصف وجهها تصيح فيها:
- هل تذوقين الزلابية يا (متشيكو)؟
- لم تعد صحتي تسمح بهذا يا (كوتيكو)..
وتواصل السير.. إن خطواتها ثقيلة رصينة متأملة كأنها خطوات راهب بوذي يخرج من منسكه فى (الهيمالايا Himalaya) ليتأكد من أن العالم مازال كما هو ولم يختف..
لقد تغيرت (هيروشيما) بالكامل.. مدينة أخرى حديثة هى.. وقد امتلأت بالسياح الذين لا يكفون عن تصوير كل شيء فى نهم..
منذ أغسطس 1945 واسم (هيروشيما) قد خلد في تاريخ البشرية، إلى جوار أسماء البلدان المنكوبة الأخرى مثل (جيرونيكا) و(وارسو) و(ناجازاكي).. درجة النكبة تختلف لكن يمكن القول باطمئنان إن (هيروشيما) كانت الأسوأ حظًّا..
وتدخل إلى المدرسة حيث الأطفال يجلسون على الأرض إلى تلك المنضدة الطويلة التي وضعت عليها عدة مزهريات.. أمامهم ألواح كتابة وقصص أطفال متناثرة هنا وهناك.. وعلى الجدار صورة صغيرة للإمبراطور..
قالت لهم وهي تجلس على الأرض فى الوضع المنتصب الياباني الشهير:
- اليوم سأخبركم عن أجمل شيء فى العالم..
- ما هو يا (متشيكو)؟
- خمنوا..
قالت طفلة حسناء دقيقة:
- الأرانب البيضاء..
- لا.. هناك ما هو أجمل..

قال طفل (ملظلظ) بشدة:
- أطباق الأرز..
- لا..
طفل ثالث:
- بيت الجدة..
- لا..
- إذن ما هو يا (متشيكو)؟
قالت وهي تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة:
- إنه.. إنه السلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لشد ما تغيرت (هيروشيما)..
لم يعد مصرف (زديوتومو) ولا مبنى (فوكوزايماى) موجودين.. لم تعد هناك إدارة غاز..
اليوم تجد فى المكان ذاته حديقة شاسعة فيها نصب تذكارى، اسمها (حديقة الحرية).. هناك مبنى تعليمى فاخر عملاق اسمه (معهد الذرة).. مستشفى كبير هو مستشفى (زيما)..
لا توجد آثار تخبرك بموضع سقوط القنبلة، لكنك تستطيع أن ترى ظل الحارس الذي انطبع على الأسفلت لحظة سقوط القنبلة.. وظل من يومها هناك.. ترى فيم كان يفكر فى تلك اللحظة؟
كانت تمشي هناك كل يوم.. شاعرة بأنها لا تنتمي لشيء..
عالمها القديم توارى.. الآن المسرح يعد لعالم جديد.. يشبه الأمر ما يحدث فى المطاعم حين تفرغ من وجبتك، فتبدأ إجراءات إعداد المنضدة لزبون جديد لم يأكل بعد.. أنت جالس والنادل يحوم حولك.. يتصرف بتهذيب لكنه لا يكف فى كل لحظة عن التخلص من آثارك.. عن إعداد المكان لمن يأتي بعدك.. يرفع الطبق الأخير.. يمسح المنضدة.. يفرغ منفضة التبغ، يصلح من وضع المقاعد.. أنت نلت فرصتك كاملة وقد انتهى دورك.. حان
وقت الرحيل يا سيد.. أرجو أن نكون قد رقنا لك.. و(عبير) لا تعرف كيف تقول، إنها لم تحب المطعم، وإنها لم تشعر لحظة بأنها نالت ما تستحق فيه، وإن الطبق الأساسي كان ساخنًا ملتهبًا أكثر من اللازم حتى شوهها بالكامل..
فجأة رأت ذلك الرجل..
إنها تعرفه.. رجل يابانى أشيب له عين من زجاج.. لقد قابلته فى ذلك الحفل الذى ضم (أوبنهايمر) و(ترومان)..
هو مثلها من (الكيبو) وقد فعلت الولايات المتحدة ما تستطيع كي تعيد له شكله الآدمي، لكن العيون لا تباع فى محلات البقالة.. «تلك أشياء لا تشترى.. قالها الشاعر العظيم (أمل دنقل) بعد هذا اليوم بعقد من الزمن تقريبًا..
الرجل يمر جوار سور (معهد الذرة)..
يرمق الحديقة فى افتتان.. يتنهد..
إنه أغسطس.. كان هناك أغسطس مماثل فى الجمال منذ عدة أعوام.. يبدو أن جمال الفصول دوري..
فجأة رأته ينظر فى حذر من حوله.. ثم إنه راح يتسلق السور الحديدي بخفة لا تناسب سنه..

يركض وسط الورود.. يتعثر.. ينهض.. يسعل.. ينهض..
فى النهاية وقف وفى يده شىء يختلج.. يرمقه فى حنين واضح بعينه الوحيدة السالمة..
إنه يبكى..
وبدورها انفجرت فى البكاء...
يستوقفه الحارس ويعتصر ذراعه فى قسوة:
- أنت تتعدى على أملاك الدولة أيها السيد المحترم.. أي أنك تتعدي على أرض الإمبراطور!
قال الكهل وهو يحاول التملص:
- إنها فراشة أيها الحارس المحترم.. فراشة لا أكثر.. لست لصًّا ولا سفاحًا..
أطلق سراحه وهو يغمغم:
- نعم.. نعم.. أعرف أنك كنت من ضحايا ذلك اليوم.. من حقك أن تنعم بفراشة.. فلا أحد يملك الفراش..
ويخرج الرجل من الحديقة وهو مازال يحملق فى الفراشة..
تستوقفه هاتفة:
- معذرة.. لكن لماذا فعلت ذلك؟
نظر لها طويلًا فى حيرة ثم غمغم:
- قبل القنبلة بأيام رأيت ذات الفراشة الغريبة جدًّا فى حديقة مصرف (زديوتومو)، وأهديتها لحبيبتي..
- وبعدها؟
- أحسبها ماتت.. أحسبني مت أنا كذلك..
نظرت له طويلًا وراحت شفتها السفلى ترتجف:
- أنت.. أنت (توشيو)!
هنا فقط بدأ يفهم ما هنالك.. إنها تبدلت كثيرًا جدًّا لكن روحها تطل من عينيها.. روح لها ضفيرة طويلة وغمازتان.. لا أعرف كيف..
- أنت (متشيكو)؟!
- يا لك من أحمق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس...
وحكايا الحب لا تنتهى حيث وقفا هنالك جوار معهد الذرة يبكيان لا تفترق عيناهما.. الفراشة فى يدها ترفرف برفق وقد نسيت كل شيء عن العالم..
قال لها وهو يرتجف:
- رأيتك مرارًا فى الولايات المتحدة ولم أتصور لحظة أنك ذات الفتاة التي أحببتها.. إن اسم (متشيكو) شائع وقد كان الأمريكان يعزلوننا عن بعضنا كفئران التجارب.. لم نتبادل حديثًا منفردًا مرة واحدة..
- وأنا رأيتك مرارًا ولم أتصور أنك هو أنت..
- لم نعد نملك ذات الوجهين، وربما لا نملك ذات الروحين..
ونظرت إلى الأفق حيث يلهو بعض الأطفال، وهم يعرفون يقينًا أنه لن تهوى عليهم قنبلة نووية:

- وجدت جثة محترقة يبدو أنها كانت ترتدى عوينات مذهبة الأطراف..
- كل اليابانيين فى تلك الأيام كانوا يضعون العوينات مذهبة الأطراف.. كانت هذه الموضة وقتها..
وأردف وهو ينظر لبعيد:
- لقد خرجت لعملي فى ذلك الصباح، وأغلقت باب البيت.. وفجأة وجدت الوهج والنيران وفي لحظة لم يعد لدي وجه.. وأدركت أننى فقدت عيني اليمنى.. هناك قطعة خشب اخترقتها أثناء العاصفة التي هبت بعد القنبلة.. هكذا مشيت أترنح وأصطدم بالناس حتى وجدت جنديًا يجرنى جرًا إلى النهر.. فقدت وعيي فى قارب وأفقت فى المستشفى.. بعدها جاء رجال البر والإحسان الأمريكيون يبحثون عن ضحايا.. وقد وقع الاختيار على..
ثم ابتسم بمرارة:
- لا أعرف شيئًا عن أهلي..
صمتت للحظة ثم همست فى حزن:
- (هيروكو) ماتت.. من حقك أن تعرف هذا..
نظر لها للحظة والتمعت دمعة فى عينه السليمة ثم همس:
- هل تعذبت كثيرًا؟
هنا يأتي دور الكذب.. أحيانًا يكون مفيدًا:
- لا.. لقد ماتت لحظة سقوط القنبلة.. لم تعرف ما حدث قط..
بدا عليه سرور يثير الشفقة.. كأنه من الطبيعي جدًا أن يموت الأطفال محترقين.. فقط لنأمل ألا يكونوا تعذبوا..
قالت له بصوت مبحوح وقد عادت ذكرى اليوم الرهيب إليها حية..
- لقد انتهت آلامك..
ثم فطنت إلى أنه يوارى أنفه بين كفيه.. حسبته يبكى بحرقة، ثم فطنت إلى أن الدم يلوث راحتيه..
- ماذا دهاك؟
أخرج منديلًا وراح يمسح به الدم:
- سرطان الدم.. إن مخالب الشيطان لا تتخلى عنك بهذه السهولة..
- سرطان دم بعد كل هذه الأعوام؟
- ماذا تظنين؟ هذا هو الوقت المناسب كى يكون التلوث الإشعاعي قد فرغ من مهمته الشاقة الشيطانية.. هناك خمسون ألفًا ينتظرون الموت بسرطان الدم أو النخاع خلال الأعوام القادمة.. إنني أتلقي العلاج الكيماوي فى مستشفى (زيما).. لم أمر من هنا مصادفة..
مدت يدها برفق وتحسست وجهه.. خيط الدم مازال ينزف من منخره، فمسحته برفق وقالت:
- لن أتخلى عنك هذه المرة.. سأكون معك فى كل خطوة تخطوها..
ثم همست:
- لقد جاءت القنبلة لتسلبنا حياة كانت من حقنا.. كنا فى عمر الأزهار حين تحولنا إلى معوقين، نقضي بقية حياتنا على منضدة الجراحة وفي عيادات الكيماوي.. لكنها لن تسلبنا روحينا..
وفي هذه اللحظة تذكرت شيئًا ما..
فتحت كفها.. فحلقت الفراشة فى الهواء.. دارت دورة حولهما كأنما تشكرهما ثم ابتعدت..
هنا فقط انفجرا يضحكان..

القنبلة قد تحرق كل خلاياك لكنها لن تحرق روحك أبدًا.. هذا هو ما تعلماه الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه أغسطس...
لكن المرشد يظهر فى أغسطس كما يظهر الذباب والبعوض.. وقد جاءهما من بعيد وقد بدا عليه أنه يستمتع بهذا كله.. قال لها:
- حان الوقت يا فتاة.. هذه النهاية لا بأس بها..
نظرت له فى غل وقالت:
- تتركني أحترق فى هذا الأتون.. ثم تظهر فى اللحظة التى توشك فيها قصة حب أن تنضج..
- لا بد من العودة.. لن تبقى هنا للأبد.. فقط أنت تعرفين أن (متشيكو) ستبقى مع (توشيو) حتى يموت.. وصدقينى لن تحبى هذا المشهد كثيرًا..
كان الحافز قويًّا.. نعم هى لن تتحمل المزيد من المصائب..
نظرت ل. (توشيو) نظرة طويلة ذات معنى، ثم ابتعدت مع المرشد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تعيش (عبير) عالمًا شديد التعقيد، لا يمكنك فيه أن تلتهم البرتقالة قبل أن تعرف ما هو البرتقال؟ هل هو وهم؟ هل تتخيل أننا نتذوقه؟ ما جدوى أن تأكل أصلًا؟ أليس من الأفضل أن تترك البرتقالة تعيش حياة طبيعية بدلًا من أن تنتهى داخلك؟
الخلاصة إنه عالم لا يناسب ذوي الضغط المرتفع أو مرضى المرارة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله

المصادر

* Rober Jungh: Brighter Than a Thousand Suns. Harcourt, 1970.
* فرناند جيجون: إنى عائد من هيروشيما.. ترجمة جمال جمعة.. من الشرق والغرب (208) دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.. 1967



<u>لينك الانضمام الى الجروب – Group Link</u>

لينك القنـاة – Link

الفهرس

الملاحظات

[1←]

نعم.. لا خطأ هنا.. (شارلي شابلن) كاتب وملحن موهوب، وكان يكتب الموسيقا المصاحبة لكل أفلامه، ومن أشهر ألحانه بالنسبة للأذن العربية افتتاحية أغنية (الميه تروى العطشان) التى لم ينكر الموسيقار (عبد الوهاب) أنه نقلها من موسيقا فيلم (البحث عن الذهب).

[←2]

لا أعرف إن كنت قلتها من قبل أم لا.. (سان) معناها (السيد)..

[←3]

هذا المشهد المحطم للأعصاب ليس وليد خيال المؤلف، لكنه حدث حرفيًا..

روايات مصرية للجيب

37

فانتازيا

فلاسفة فى حسائى

د. أحمد خالد توفيق



<u>مكتبة فريق (متميزون)</u>

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف.انت.ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (37)

فلاسفة فى حسائي

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

هذه القصة استكمال لفكرة بدأها أستاذ الأدب الساخر العظيم (محمد عفيفي)، فى كتابه (فانتازيا تاريخية)، حين تخيل نفسه ضائعًا فى بلاد اليونان يفتش عن أفضل فلسفة ممكنة.. لا يخجل التلميذ من الاعتراف بأنه بدأ من إحدى أفكار أستاذه، خاصة إذا كان الأستاذ فى ثقل وعمق وموهبة وتميز (محمد عفيفي).

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت تلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكي) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى...........

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- نهاية عـصر..

في نهار بهيج من شهر (أكتوبر) تم الطلاق..
بمجرد عودته من الخارج، تسارعت الإجراءات وسرعان ما تم الطلاق، الذي توقعه كل إنسان فى الأرض ما عداها.. كل إنسان رأى فى هذه الزيجة نهايتها، والشهود الذين وقعوا عقد الزواج أبقوا أقلامهم مكشوفة لتوقيع عقد الطلاق..
لكنها لم تتوقع هذا قط..
كانت فى قرارة نفسها تؤمن بأنها تستحق.. تستحق أن يعود (شريف) لها ويترك الأخرى.. تستحق أن يعرف كم هو مخطئ.. تستحق أن يزحف عند قدميها دامع العينين ويخبرها أنه كان حمارًا..
لكن شيئًا من هذا لم يقع..
لقد تم كل شيء ببساطة وقسوة..
وكان مستعدًا تمامًا لعمل أي شيء كي يريحها ماديًّا.. هو مستعد لأى شيء كى ينهى هذا الفاصل من حياته.. أما هى فكان هذا الفاصل هو كل حياتها..
قالت لها أمها:
- لم يكن ابن أصل من البداية.. وغدًا تتزوجين خيرًا منه..
لكنها كانت تعرف أن هذه الكلمات تقال لأنها يجب أن تقال.. لن تتزوج سيد سيده ولا شخصًا أقل منه، ببساطة لأنها لا تريد.. ولأنها أم..
حياة طويلة قاسية من الوحدة تنتظرها، لكنها على الأقل تملك طفلتها.. وبالإضافة لكونها طفلتها فهي تحوى خمسين فى المائة من كروموزومات (شريف)، وهى لم تستطع قط أن تكره (شريف)..
ستكون لديها ساعات عظيمة تجتر فيها كل الألم.. كل المهانة.. كل الصدمة التي شعرت بها منذ وجدت تلك الورقة المشئومة فى جيبه، حتى أمسكت بورقة طلاقها شخصيًا..
محاولات إقناع أخيها بألا (يضربه).. وعلاقة أخيها بالناس بسيطة جدًّا تتلخص فى أن يضربهم.. صحيح أنها لم تره يضرب أحدًا قط لكنه يتكلم عن ذلك طيلة الوقت، وليس من سبب لافتراض أنه كاذب..
محاولات إقناع أمها بألا تعذبها أكثر من هذا وأن تصمت.. لا تريد أن يحدثها مخلوق عن الموضوع.. لا تريد عبقريًا يفتش عن حقوقها الضائعة.. فقط تريد أن تُترك وشأنها..
فى هذه الفترة الكئيبة ازدادت قراءاتها إلى حد مروع.. ومن الغريب أنها وجدت بعض كتب عن الفلسفة فراحت تطالعها.. لم تفهم شيئًا طبعًا لأنها مبرمجة على الأدب، لكنها كانت تعرف أنه لا شيء يمحى من عقلها الشبيه بمقلاة من نوع رديء تلتصق بها كل أنواع الطعام.. وهى نعمة حمدت الله عليها.. لو كانت أكثر ثراء لكان عقلها مقلاة من نوع فاخر، ولما التصق به شىء على الإطلاق..
كانت تهاب الجهاز الجاثم كالكابوس فى حجرتها.. إنه يذكرها بكل شيء.. كل جزء فيه يحمل ذكرى ما، وله رائحة تبغ (شريف) حين كان يدخن، ورائحة عطره حين لا يدخن..
كما قلنا لم تكن تستعمل الجهاز إلا لدخول عالم (فانتازيا)، لهذا كانت تقدر أنه لن يتلف.. لن يتلف فى القريب العاجل، لكنها قررت أن تطلب عون من يفهم فى هذه الأجهزة كي ينسخ لها

البرنامج على أسطوانة صلبة.. فهى تكره الجهاز الآن، لكنها حتمًا ستجد نفسها محتاجة لدخول (فانتازيا).. ماذا لو رفض الجهاز الاستجابة؟ لن تذهب ل (شريف) طالبة العون.. الحل الوحيد إذن هو التعامل بحذر شديد مع هذا الكنز.. لن تستعمله فى أى شيء من أى نوع.. ستتصدى بحرص لمحاولات أخيها التعامل معه..

منذ يومين جاء حاملًا أسطوانة مدمجة.. وقال إنه حصل عليها من صديق فى المقهى..

- إن عليها بعض ألعاب (الأتاري).. لقد علمني (سعيد) كيف أشغلها..

كما قلنا فإن كل أصدقاء أخيها اسمهم (سعيد).. ينطق الاسم كأنه (سعا) بحذف الدال وتحويل الياء إلى ألف وإخراج العين من الحلق، وكل لعبة كمبيوتر عند أخيها هى (أتاري) إلى أن يثبت العكس.. وكانت هذه اللعبة بالذات تجعلك تقود سيارة مجنونة فى شوارع المدينة تدهم بها المارة والأطفال، وكلما قتلت عددًا أكبر ازداد ما تحصله من نقاط.. هذه هى اللعبة الوحيدة التي حركت شيئًا فى روح أخيها المرهفة، وجعلته على استعداد للتعامل مع هذا الجهاز اللعين.. لقد فهم - أخيرًا - أن الكمبيوتر اختراع مفيد..

لكنها تصدت له بحرارة ورفضت أن تشرح له كيف يفتح صينية القرص المدمج.. كانت تعرف أن هذه هى البداية، وبعدها تتعدد الأقراص المدمجة، ثم يأتي أصدقاؤه ليلعبوا عنده.. ويخرج الكمبيوتر إلى الصالة لأنهم لن يلعبوا فى غرفة نومها.. ثم يأتي اليوم الذي يتحول فيه الجهاز إلى (عشة دجاج)..

كلا.. هذا الكمبيوتر يخصنى ومن منقولاتى ولن يمسه أحد.. ربما بعد وفاتي يمكن أن تلمسوه..

كان أخوها متضايقًا بحق.. وقال أشياء عن منعها له من لعب (الأتاري) هو الذى يشقى فى متجر الأدوات الصحية طيلة اليوم.. هنا كانت مستعدة لسلاح الأنثى الثانى بعد البكاء: الهستيريا..

بهذه الطريقة ضمنت أن يظل الجهاز بمنأى عنه..

أما عن الكيفية التي تغلبت بها على نفورها المزمن من الجهاز فقصة يطول شرحها..

المهم أنها تجاسرت أخيرًا وفتحته.. وحيدة فى الظلام وقد نام الجميع راحت رسائل البدء تتوالى على الشاشة.. يطمئن المعالج على سلامة أجزائه مرددًا OK بلا انقطاع.. قدماى سليمتان OK.. رأسى سليم OK.. أنا يقظ ونشط.. OK..

وأخيرًا وجدت أنها تضغط المفاتيح بيد مترددة..

جولة سريعة فى (فانتازيا) لن تؤذى أحدًا..

لكن إلى أين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2نادى الفلاسفة الغربيين..

تأرجح يا قطار (فانتازيا) المضحك عبر السهول والوديان..
(عبير) فى الداخل ساهمة النظرات، والمرشد جوارها يتسلى بالضغط على قلمه.. يحاول احترام صمتها لكنه لا يستطيع أن يبقى صامتًا للأبد..
- هيه! انتهت الرحلة!
نظرت له فى عجب فكرر كلامه:
- انتهت معالم (فانتازيا) ولم تختاري شيئًا! هل نعود إذن؟
- هل تعنى أننى مررت بقلعة (فرانكنشتاين) ولندن فى الضباب و(طرزان) و(باتمان) وكل هذا الهراء؟
- بالتأكيد.. لقد انتهت معالم (فانتازيا) حتى آخر إضافة لهذا الشهر.. لو كنت تريدين المزيد فعليك انتظار الأعمال الأدبية الشهر القادم.. لا أعرف إن كانت هناك رواية جديدة ل (ستيفن كنج Stephen King) أم لا، لكن هناك رواية جديدة دائمًا له للأبد.. هل ترين انتظارها؟ أم تنتظرين فيلم (ماتريكس Matrix) الجديد؟
- ليس إلى هذا الحد.. ربما لو عدنا القهقري لاخترت شيئًا..
هكذا رفع قبضته ودق على سقف القطار.. لا أعرف من الذى يقود هذا القطار، لكنه بارع جدًّا ومرهف السمع كما يبدو.. سرعان ما اتخذ القطار تحويلة فرعية ثم عاد ليجري على نفس القضيب فى الاتجاه المعاكس..
من جديد بدأت ترى معالم (فانتازيا) التي اعتادت بعضها.. ترى عالم (ماركيز) الذى هو خليط من الواقعية والفانتازيا.. عالم الواقعية الأسطورية اللاتينية كما يسمونه..
عالم (يوسف إدريس) الخاص جدًّا.. عالم (يحيى حقي) شديد الخصوصية.. ألعاب تاريخية.. قصص الثورة الفرنسية.. دستة كاملة من عوالم مصاصي الدماء.. محكمة (جريشام Grisham) دائمة الانعقاد، ومشرحة (باتريشيا كورنويل Cornwell) التى لا تخلو من الجثث، ومستشفيات (روبن كوك Cooke) التى تعج بالأطباء الأوغاد خائنى الأمانة.. عوالم (تولكين Tolkien) الغريبة وأرضه الوسطى.. عوالم (بوتزو Puzo) حيث هناك أكثر من دون وصقلى وأسرة غاضبة وقتلة مافيا.. مائة قصة تدور فى الجنوب الأمريكي حيث يتهم شاب زنجى برىء بالتحرش بفتاة بيضاء.. الجدة العجوز تزور القرية فى مسرحية (دورنمات Durnmat) الشهيرة..
كل هذا مرت عليه عيناها دون أن تتوقفا.. فقط تمارسان الحركة الدائرية الراقصة التى تمارسها عينا أى شخص ينظر من نافذة قطار..
قال لها المرشد:
- هل لى أن أساعدك فى الاختيار؟
- أتمنى هذا لكن لا تضعني فى (ناجازاكى Nagasaki) يوم انفجار القنبلة..
ضحك كثيرًا فى سادية لا شك فيها، ثم قال:
- أنت لا تفهمين لماذا تعيشين.. لا تفهمين ماهية السعادة.. ماذا يحمله الغد؟ من أنت؟
تنهدت واسترخت فى مقعدها وقالت:
- أنت تتحدث بلساني.. لست أحمقًا إلى هذا الحد.. على أن هذه أسئلة محدودة بالنسبة لما يدور فى رأسي وصدري.. لا أعرف حقًّا أين تعتمل هذه الأسئلة لكنها موجودة..

تهلل وجهه وجذب الحبل، ونظر من النافذة وقال:
- نحن نمر عند النقطة بالضبط.. لحظة.. هذه هى!
نظرت من النافذة فلم تر شيئًا ذا بال.. هناك ما يبدو لها كمعبد يونانى مهدم قديم.. لو كنت رأيت المسرح الروماني فى الإسكندرية فأنت اقتربت جدًّا.. ومزية الآثار اليونانية عامة هى أنك ترى عمودين محطمين يستندان فوق عمود مائل.. وهذا كاف لتنقطع أنفاس السياح.. طبعًا هذا لا يحرك ساكنًا فى شخص أتى من مصر حيث يوجد أثر تحت كل حجر، إلى درجة أن النوبيين كانوا يشوون الدجاج لـ (بلزونى Belzoni) النصاب الإيطالي الشهير على نيران المومياوات! كانوا يستعملونها بدلًا من الحطب لأنها أكثر وفرة وجفافًا وأرخص!
قالت له فى خيبة أمل:
- هل هى عوالم المسرح اليوناني؟ لم أحبه قط..
قال باسمًا:
- لأنك حمقاء.. على كل حال يمكنك أن تطمئنى.. هذا مجرد ديكور يميز نادي الفلاسفة الغربيين.. بما أن الفلسفة فن وعلم يوناني أساسًا فقد قررت إدارة (فانتازيا) أن يتخذ النادي هذا المنظر..
فكرت قليلًا ثم قالت:
- فلاسفة غربيون؟ لماذا هم بالذات؟
- هناك الفلسفة الإسلامية والبوذية والكونفوشيوسية.. لكنها تحتاج إلى رحلات منفصلة.. إنها عوالم ضخمة جدًا شديدة التعقيد، وفي رأيي أنها لا تناسب غير المختصين منعًا للبلبلة الفكرية..
قالت فى ضيق وهي تسند ذقنها إلى حافة النافذة:
- فلسفة؟ لماذا نأكل البرتقالة؟ هل هي موجودة أم أننا نتخيل ذلك؟ لماذا نأكل؟ هل البرتقال لذيذ أم أننا نعتقد ذلك؟ هل حواسنا هى التى أوجدت البرتقالة؟
ثم ابتسمت وغمغمت:
- أليس كذلك؟ جدل يدخل فى جدل ويخرج من جدل، إلى أن تفسد البرتقالة ونلقيها فى القمامة؟
صاح فى حماس مصفقًا بيديه:
- أنت عبقرية يا فتاة! لقد لخصت ماهية الفلسفة ببضع كلمات!! كما ترين هذا المكان يعدك بالكثير من المرح، لكنه كذلك قد يعينك على فهم مشكلتك.. إن حياتك بلا جدوى كما ترينها، والفلسفة هى العلم الذي سيعينك على فهم نفسك وفهم الكون..
فكرت قليلًا ثم هزَّت رأسها:
- ليكن.. سأجرب..
هكذا نهضت متثاقلة.. وترجلت من القطار على الرصيف الدائم الذى لا يظهر إلا حين تقرر النزول..
وفي اللحظة التالية أدركت أنها تلبس الثياب المناسبة.. تلبس ثيابًا كالتي لبستها فى الأساطير الإغريقية وحين اجتازت (الإلياذة Iliad) و(الأوديسة Odyssey).. شيئًا أقرب إلى ملاءة بيضاء تلتف حول أحد كتفيها، بينما شعرها معقوص بشكل هللينى جميل إلى مؤخرة رأسها، وقدماها فى صندل إغريقي له شرائط تلتف حول ربلتى ساقيها..
وحين نظرت وراءها أدركت أن القطار قد رحل بمن فيه من مرشدين..

عليها أن تعتمد على نفسها بدءًا من هذه اللحظة..

∞∞∞∞∞∞

تمشى بين الخرائب اليونانية.. تحاول ألا تتعثر فى هذا العمود أو ذاك.. وجوه مخيفة لتماثيل نصفية مهدمة ترمقها فى شك حيث ارتمت هناك على الأرض..
يبدو الأمر كأن هذا بستان منسى.. كل شيء يدلها على أن عليها المشي بهذا الاتجاه..
هناك أشجار غليظة ملتفة الأغصان، وقد بدت أقرب إلى وحوش نائمة منها إلى أى شيء آخر..
لو لم تكن متأكدة من أن هذه مغامرة بلا رعب، لتوقعت خروج الأخت (ميدوسا Medusa) من وراء شجرة فى أية لحظة..
أخيرًا ترى الباب الحديدي الموارب كأنه مصيدة للبلهاء..
على الباب هناك عبارة باليونانية لكنها تستطيع قراءتها برغم كل شيء..

نادى الفلاسفة الغربيين

هى لم تضل الطريق إذن.. (نادي الفلاسفة الغربيين) فلا غرابة فى أن تجد فلاسفة غربيين بالداخل..
أزاحت الباب أكثر، فكان له صرير محبب..
الباب يقود إلى حديقة أضيق وأصغر وفى نهاية الممر الصغير يوجد باب آخر.. وبناية متهالكة لها ذات الطابع الكئيب المميز للمدارس الحكومية..
قابلها رجل قصير القامة ذو عين واحدة حولاء، يرتدى بذلة لها طابع الستينات، ومن فمه تتدلى لفافة تبغ يبدو أنها من معالم وجهه.. وجواره امرأة نحيلة فى الخمسين من عمرها..
قال لها بالفرنسية التى تفهمها برغم كل شيء:
- أوه.. أنت قررت القدوم هنا، لذا أنت مسئولة عن قراراتك..
وقالت المرأة وهى تتأبط ذراعه:
- جربي أن تحققي كينونتك كامرأة من دون (المرشد)..
ثم تركاها وغادرا البناية.. فيا لخيبة الأمل! كانت تتوقع مشهدًا أقل تقليدية وأكثر غرابة..
لكن المشهد الغريب الذي تمنته جاء بلا إبطاء.. هناك رجل قصير القامة بشع الخلقة له شارب كث.. كث إلى درجة أنه يغطي نصف وجهه الأسفل.. نظر لها نظرة مجنونة متوحشة لا شك فيها، وقال:
- أنت واهنة حقًّا.. أنا لا أطيق الضعف!
ثم بصق على الأرض وغادر المكان..
ورجل آخر من الطراز الذي تراه فى الكتب المدرسية.. له سالفان كثان.. كثان إلى درجة أنهما يقومان بدور اللحية ويجعلانه شبيهًا بقردة (البابون).. قال لها وهو يحكم ربطة عنقه:
- أنت مكتئبة.. لا غرابة فى هذا.. فالحياة كلها شر..
ورجل معاصر على قدر من الوسامة برز لها ولفافة تبغ أخرى تتدلى من ركن فمه، ليقول بالفرنسية:
- هل جربت الانتحار يا صغيرتي من قبل؟ لو لم تكوني جربته فأنا أنصح به..
كانت كلماتهم مألوفة.. لقد قرأتها فى مكان ما فى موضع ما.. لكنها - بصفتها مؤسسة حزب المواسير الأعظم - لم تستطع تذكر أى شيء.. فقط ظلال مبهمة تقول لها إن هذا الموقف ليس جديدًا..

الآن ترى قاعة كبيرة واسعة.. مائدة طويلة يجلس إليها أغرب مجموعة من غريبى الخلقة فى التاريخ.. كل الوجوه الممكنة، وكل الثياب غير الممكنة من عدة عصور.. هناك رجل يلبس برميلًا كأنه يمثل مشهدًا من كوميديا (الفارص farce) سرقت فيه ثيابه، ورجل يزحف على ركبتيه وساقيه ويعوي كالكلاب.. هناك فتى سفيه يمسك بدن من الخمر وقد دس عنقودًا من الكروم خلف أذنه، وهناك...

لو كانت تبحث عن حل فهو ليس هنا بالتأكيد.. المشهد لا يوحي بالثقة..

هنا تكلم الرجل الجالس فى صدر المائدة..

كان قبيحًا كالأبالسة لكنه وقور موح بالهيبة وله سمت الفلاسفة كما تخيلتهم دومًا..

قال لها بصوت وقور جدير بالمحاورات:

- تعالى يا فتاة.. لماذا تعتقدين أنك جديرة بالانضمام إلى هذا النادي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- معلم أثينا..

من الأفضل أن نعانى الظلم من أن نمارسه..

سقراط

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السؤال سخيفًا، فهي لم تطلب الانضمام للنادي، ولكن أشياء كهذه لا تقال بالطبع.. من الصعب أن يقول الرجل للفتاة: (أنا لم أطلب يدك قط.. من الأحمق الذى قال هذا؟).. هذه وقاحة.. والأقرب للتهذيب أن يتنصل من الأمر بحيطة وكياسة.. أنا لست جديرًا بك لهذا سأرحل.. وكذا ستفعل (عبير)...
قالت وهي تتراجع للوراء:
- حسبت للحظة أن... لكنى حمقاء.. آسفة على إزعاجكم.. وداعًا..
- انتظرى!
ثم تبادل بعض الكلام مع الجالس عن يمينه.. وقفت هى مرتبكة لا تعرف ما تفعله.. لكنها تختلس النظر إلى الجالسين الذين بدأ الاهتمام يلوح عليهم.. الرجل الأحول ومرافقته يعودان من الخارج، وهو يحمل مجلدًا عملاقًا تحت إبطه.. كذلك عاد الرجل كث السالفين الذي يشبه المذءوبين..
قال الرجل الجالس فى صدر المائدة:
- ليكن.. نحن هنا مجموعة من الفلاسفة.. ولفظة (فيلسوف) فى حد ذاتها تعنى (محب الحكمة).. من المثير أن نرى هذا الاهتمام الشغوف لدى فتاة من سنك.. لقد اعتدنا إلى حد ما أن تكون الفلسفة علمًا رجوليًا.. أما النساء فدورهن يقتصر على منعنا من ممارسة هذا العلم..
في هذه اللحظة هوى شلال من الماء فوق رأس الرجل الوقور..
نظرت (عبير) لأعلى فوجدت أن هناك شرفة عالية تشبه (بنوار) المسرح، وأن هناك امرأة إغريقية شرسة المنظر مفتولة العضلات تحمل دلوًا وتقف هناك.. وهى تمارس (الردح) كما تعرفه (أم بلبل) جارة (عبير) سليطة اللسان فى الحارة.. تقول كلامًا يونانيًا كثيرًا لا تفهم (عبير) أكثره، لكنه على الأرجح لا يزيد على ما تقوله (أم بلبل) المذكورة حين تجد زوجها ما زال جالسًا على المقهى مع رفاق السوء.. وكل أصدقاء الزوج (رفاق سوء) فى نظر أية زوجة..
كان المنظر محرجًا خاصة مع وقار الرجل.. هذا مشهد لا يثير الضحك لكن يثير الأسى...
لكن الرجل لم يعلق.. فقط أخرج منديلًا إغريقيًا راح يجفف به حاجبيه وقال:
- إن المطر ينهمر دائمًا بعد الرعد! لا تهتمي بذلك كثيرًا، وإن كان يبرهن لك على مدى اهتمام المرأة بالفلسفة! أحيانًا نتفلسف لأنها الوسيلة الوحيدة التي نهرب بها من نسائنا.. ونساؤنا بهذه الطريقة يلعبن دورًا مهمًا جدًا فى تطور فلسفتنا! بنفس المنطق الذى تصنع به الكلاب المسعورة منك بطلة فى الجري!
هنا تذكرت ذلك المشهد الشهير.. مشهد الفيلسوف الذى يسكب فوقه دلو من الماء وهو يتفلسف، فهتفت فى ذهول:
- إذن.. أنت (سقراط Socrates)؟
- بشحمه ولحمه.. اعتبرينى رئيس هذا النادي الموقر.. لست أول الفلاسفة ولا أهمهم لكنى -

بلا فخر - أشهرهم.. وسؤالي لك هو: هل جئت هنا لتفهمي نفسك؟
في تردد وبصوت مبحوح قالت:
- نعم..
- وتريدين أن تأخذي موقفًا من حياتك وغوامض الكون؟
- نعم..
ولم تفهم أن هذه أولى علامات الأسلوب السقراطي.. أسئلة متلاحقة والأجوبة عليك أنت..
- إذن أنت فى المكان الصحيح..
هنا تدخل الرجل ذو الشارب الكث نافد الصبر قائلًا:
- دعك من هذا التطويل.. اسمعى يا فتاة.. نحن نتباين بشدة فى آرائنا فى الحياة.. ولن تخرجي منا مجتمعين برأى موحد، لذا أرى الصواب هو أن ترافقي كلًا منا بضعة أيام.. تتشربين فلسفته بدقة وتعرفين ما يتكلم عنه، وفي النهاية يتكون لديك رأيك الخاص الناضج..
قال (سقراط) وهو يجفف صلعته:
- هذا رأى صائب يا (نيتشه Nietzsche) برغم أننى لا أطيق آراءك عامة.. إذن لك أن تختاري من تبدئين التعلم معه.. سنضع لك برنامجًا مكثفًا: يوم واحد مع كل فيلسوف شهير.. أعتقد أن بوسعك اتخاذ قرارك بعد ثلاثة أعوام!
صاح الرجل ذو العين الحولاء فى احتجاج:
- هراء! تريد منها أن تلم بالفلسفة الوجودية existentialism فى يوم واحد؟ هذا تلفيق.. إنني أدنو من نهاية حياتي وما زلت أتعلم..
قال (سقراط) باسمًا:
- هلم يا مسيو (سارتر Sartre).. أنت لا تحاضر فى الجامعة.. يمكن تحويل الموضوع إلى برشامة تبتلعها هذه البائسة.. أنت تعرف ذلك الولع المرضى لدى العلماء: (الأمر ليس بهذه البساطة.. الأمر معقد جدًا.. لا تطالبني بأن أختصر مجهود عمر فى سطر واحد).. وهو مجرد دفاع يائس عن النفس يشعرنا بأننا لم نضيع أعمارنا هباءً.. لكنك تعرف كما أعرف أن أى شيء فى العالم يمكن تلخيصه.. ربما بلا كفاءة، لكن بما يناسب حجم مخ هذه الفتاة الضئيل!
لم تدر هل تشكره على الرفق بها، أم تلومه على هذه الإهانة.. لكنها استراحت لذلك الترتيب.. يوم واحد مع كل فيلسوف لن يتجاوز قدرتها على الاحتمال.. واحتمال الفلاسفة فن صعب بحق..
قال (سقراط) فى برود وهو يدون شيئًا:
- طبعًا سيعقد لك امتحان صغير فى نهاية الدورة.. ماذا عرفت عن نفسك وعن الحياة؟ لو نجحت فى الامتحان فيها ورحبت، وإن رسبت كان عليك أن تبقى هنا للأبد إلى أن تتسرب الفلسفة إلى روحك!
للأبد؟ سيكون هذا عسيرًا.. ربما لو قطعوا رقبتها لكان هذا أكثر رحمة.. قالت وهي تتنهد:
- ليكن.. أنا موافقة.. لكن من أين أبدأ؟
قال (سارتر) وهو يمضغ لفافة تبغه:
- من البداية طبعًا.. سيرتب لك (سقراط) الأمر.. أتمنى لك حظًا سعيدًا..
وتصايح الفلاسفة يتمنون لها حظًا سعيدًا.. كانوا يتمنون لها المزيد من المعرفة، بينما كانت هى فى قرارة نفسها تتمنى وقتًا ممتعًا لا أكثر ولا أقل..
ترى من أين تبدأ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن (سقراط) جميلًا على الإطلاق.. كان أصلع الرأس جاحظ العينين مخيف النظرات.. لكنه كان لطيف المعشر بحق.. وله طريقة ودود تأسر القلوب..
أمسك بيدها برفق واقتادها إلى الحديقة الخارجية التى ترتمي فيها التماثيل، وهناك فوجئت بأن هناك مظاهرة من الشباب اليوناني.. كلهم يقبل فى حماس كأنهم ذاهبون لمشاهدة مباراة كرة قدم.. العيون تلمع مع نظرة شغف شديدة.. نوع من الجوع العقلي الواضح مع استعداد تام لافتراس أية فكرة جديدة..
لم تشعر براحة وسط هذا الزحام، لكنها أدركت أنه لا أحد ينظر لها أو يجد مزاجًا رائقًا لسماع ما تقول.. إن (سقراط) هو الملك هنا.. نفس النظرات الملهوفة التي تراها فى عيون من يحضرون حفلًا لـ (محمد منير) أو (عمرو دياب).. غير أن هذا النجم لا يغنى لكنه يشع أفكارًا من حوله..
هذا هو مكمن القلق وقد أدركت على الفور أن هذا الرجل خطر، ولابد أنه يسبب صداعًا للسلطات.. كل مفكر يجذب الشباب - من فجر التاريخ - يسبب حساسية لا شك فيها للحكومات.. عندها يكون الحل الوحيد شراءه أو إسكاته..
سألها (سقراط) وهو يواصل مشيه السريع وسط البستان:
- حسن.. أنت تبحثين عن السعادة.. فما هى السعادة؟
فكرت قليلًا.. ثم قالت فى غيظ:
- ظننتك ستخبرني بهذا.. أنت الفيلسوف وأنا التلميذة الغبية لو لاحظت هذا..
قال باسمًا:
- أنا لا أقدم إجابات.. لكنني ألقى أسئلة تحفز الناس على التفكير.. هذه هى مدرستي.. فلسفتي هى أن على الناس أن يفكروا ولا يقبلوا المسلمات.. والآن ما رأيك فى السعادة؟
فكرت وهى تحك خدها.. لا بد أن إجابتها ستكون سخيفة على غرار:
- السعادة هى اللذة..
- ليكن.. السعادة هى اللذة.. لكن اللذة تتوقف على أشياء قد لا يمكن الحصول عليها.. فهل تفترضين أن الفقير أو الجائع لا يمكن أن يكون سعيدًا؟
- هناك فقراء سعداء.. لا أنكر هذا..
- إذن.. لماذا لا تكون السعادة هى الاكتفاء بما لديك؟
- لا أدرى.. لكن....
الحقيقة أنه بدأ يرهقها.. طريقة أن تبحث بنفسها عن إجابات، بينما هى تعلمت منذ السنة الأولى الابتدائية أن الإجابات جاهزة فى الكتب.. ومن هى كي تبحث عن إجاباتها الخاصة؟
أنقذها من الرد مرأى تلك المرأة العجوز تتقدم نحو الفيلسوف.. منحنية منكوشة الشعر بلا أسنان فى فمها المفتوح من فرط لهاث.. وتساءلت (عبير) فى سرها: من هذه؟ هل هى (المدام)؟ لو كانت هي فالرجل تعس الحظ فعلًا..
لكن (سقراط) حل الموقف حين همس كالحالم:
- عرافة (دلفى) هنا؟ يا لجمالها! لو كانت زوجتي تملك ربع سحرها!
هكذا لم تعد (عبير) تتمنى أن ترى زوجة (سقراط)!
تقترب عرافة (دلفي) وهي تتوكأ على غصن شجرة غليظ، من (سقراط).. فيصمت الجميع فى وجل وتهيب.. تقف أمامه وترفع نحوه عينين واهنتين.. ثم تلحق بالعينين إصبعًا راجفًا مدببًا كالمخلب وتهمس بصوت جدير بمنظرها:

- (شقراط)!! أنت أحكم رجل على ظهر الأرض!
كانت هذه كل كلماتها.. فمن الواضح أنها لا تحب الكلام كثيرًا...
ثم تستدير بمعجزة.. وتبتعد بذات الخطوات..
تصايح التلاميذ فى مرح، بمجرد أن ابتعد وجود المرأة الخانق:
- عرافة (دلفي) لا تخطئ! قالت إنك أحكم رجل على ظهر الأرض يا أستاذنا! إنها لشهادة ثمينة!
كانت عيناه تتابعان العرافة فى إعجاب، واحمرت أذناه من المجاملة.. لكنه قال فى ثقة:
- هى مخطئة.. أنا أؤمن بأن العرافين على خطا دائمًا.. وسأبرهن لكم على أنها مخطئة.. سأجد من هو أعظم منى حكمة الآن..
ثم نظر إلى أحد تلاميذه، وسأله:
- (بيلايس).. هل تعرف لماذا وجد الكون؟
في أدب أطرق التلميذ برأسه وقال:
- أعتقد هذا يا أستاذنا..
استدار الفيلسوف إلى تلميذ آخر وسأله:
- (ألكبيادس).. هل تعرف الغاية من وجودك؟
قال (ألكبيادس) فى ثقة التلميذ الذي استذكر درسه جيّدًا:
- طبعًا..
هنا لوح (سقراط) بيده فى إحباط وغمغم:
- إذن يبدو أن العرافة محقة.. من العسير أن أجد واحدًا أكثر منى حكمة! أنا جاهل مثلكم ولا أعرف شيئًا.. لكنى على الأقل أعرف مدى جهلي بينما أنتم لا تعرفون.. هذا بالفعل يجعلني الأكثر حكمة!
وابتسمت (عبير) فى سرها.. لا يمكن التنبؤ أبدًا بردود هذا الرجل، لكن لا شك فى أنه ممتع، وأنه ذكى، وأنه متواضع بدرجة جذابة.. ثم أسلوبه فى السخرية الذى اشتهر باسم (السخرية السقراطية) يفضح زين الآخرين المعتدين بأنفسهم على الفور..
اقترب أحد التلاميذ من (سقراط) وسأله:
- هل تنصحني بالزواج يا أستاذنا؟ إنها تلك الفتاة ذات الضفيرة الشقراء التي...
قال له (سقراط) فى رفق:
- تزوج يا بنى.. تزوج.. فلو كانت امرأتك صالحة لصرت رجلًا سعيدًا.. أما لو كانت شريرة لصرت فلسوفا مثلى!
ثم صعد على صخرة ليصير فى موضع أعلى يجعل الجميع يرونه وقال:
- لا تعنيني فى شيء مواضيع الفلسفة المجردة.. مثل كيفية نشوء الكون وخامته الأصلية.. كل هذا كلام لن نصل فيه إلى حل.. ما يعنيني هو فهم الأخلاق.. فهم العدل.. فهم الصدق.. فهم ال...
قالت (عبير) فى كياسة:
- يا أستاذنا.. أنا أعانى مشكلة عاطفية معينة.. لم أرتكب أي خطأ لكن زوجي تخلى عنى.. لا أعرف السبب ولا أستطيع فلسفته أو التظاهر بأنني أقوى.. لولا بقية من وقار لارتميت على الأرض ورحت أركلها بقدمي وأعوى.. يقولون: إن الزمن يداوى كل شيء لكنى لا أستطيع أن أتحمل مروره..
حك (سقراط) صلعته ولحيته مفكرًا، ثم قال:

- الفلسفة لا تقدم حلًا للمشاكل العاطفية.. إنها أكثر شمولًا من باب (طبيب القلوب) فى مجلة نسائية.. إنها تتحدث عن أمور أكثر تجردًا.. مثلا ما هو النسيان.. ما هو الزمن.. ما هو الظلم..
تبًا! هى لا تريد من يعلمها الصيد، بل هى فى حاجة عاجلة إلى من يعطيها سمكة وينتهى الأمر..
لا تريد معرفة ماهية الزمن.. تريد معرفة كيف يمر سريعًا..
في هذه اللحظة رأت حشدًا من الجنود المدججين بالسلاح يقتحمون الحديقة..
تراجع التلاميذ فى رعب، وتصايحوا ما الخطب.. لكن ضابطًا وسيمًا مغرورًا تقدم من (سقراط) فى حزم وقال:
- (سقراط).. إن الأوامر الصادرة لى هى أن أعتقلك..
لم يهتز الفيلسوف، بل ضم ملاءته البيضاء على جسده النحيل وتساءل:
- هل لى أن أعرف السبب؟
- الحكومة تتهمك بإفساد شباب (أثينا)..
راح الشباب يتهامسون.. بدا على بعضهم الغضب ويبدو أنه كاد يتهور ويهاجم الجند، لكن (سقراط) أشار بيده بحزم:
- يجب احترام الحكومة وسلطة القانون.. هذا ما علمتكم إياه..
وكانت (عبير) تعرف سبب اعتقاله.. التهمة الظاهرة – وهى أتفه التهمتين - هى تعاونه مع الثلاثين طاغية.. وهم الإرهابيون الذين استولوا على السلطة فى (أثينا) لفترة..
طبعًا بعدما أطاحت الحكومة الحالية بالثلاثين طاغية، كان لابد من عقاب كل من اتصل بهم.. (سقراط) اتصل بهم بشكل سطحي لا يبرر اعتقاله..
التهمة الخفية - والأهم - هى كما قلنا شعبيته الشديدة لدى شباب (أثينا)، مما يجعله خطرًا لا تطمئن له أية سلطة.. إن الطغاة أغبياء فى كل شيء، لكنهم فى هذه النقطة بالذات شديدو الذكاء والحرص.. وقد أبدى المخرج المشاغب (كرونبرج Kronenberg) إعجابه الشديد بذكاء الطغاة حين يشمون الخطر فى أفلام مخرج أو قصائد شاعر، بينما النقاد غافلون عنه.. وقد تجاهل النقاد الألمان الفيلم السوفييتي الرائع (المدرعة بوتمكين Potemkin)، فمن الذي شعر بأهميته وخطره؟ (هتلر Hitler) شخصيًا!!
وهكذا مضى الفيلسوف الكبير مع الحراس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت محاكمة صورية.. محاكمة من الطراز الذى يهدف إيجاد مبرر لحكم الإعدام لا أكثر.. لكن (سقراط) تكلم كثيرًا جدًا.. كأنه شعر بقرب النهاية فقرر أن يقول كل ما يريد قوله.. وكان أحد تلاميذه منهمكًا يدون كل حرف يقوله الفيلسوف الكبير..
انصافًا للحق يجب أن نقول إنهم كانوا مستعدين لتبرئته لو أعلن التوبة عن مبادئه، لكنه كان مصرًا على هذه النقطة بالذات ولعله كان يريد التخلص من زوجته المشاكسة بأى ثمن..
وأخيرًا صدر الحكم المرتقب:
- حكمنا على (سقراط) بالإعدام بأن يشرب خلاصة (الشوكران)..
كان نبات (الشوكران) هو مشنقة ذلك العصر.. ولقد بكى التلاميذ كثيرًا وهللوا وأحدثوا صخبًا لا بأس به، لكن (سقراط) كان واضحًا بصدد احترام قوانين الدولة..
وتدخل (عبير) الزنزانة لتجد أنها رحبة أكثر من اللازم.. لا يمكن أن تكون زنزانة بكل من فيها من أحباب (سقراط) ورفاقه.. يمكنها أن تعد عشرين شخصًا باكيًا..

جلس (سقراط) وسط المكان يضحك كأنه عريس ليلة زفافه، ودنا منه شاب أصلع ملتح وهتف:
- هلم يا أستاذنا.. إن الفرصة متاحة.. إن الشبه بيننا قوى.. فقط البس ثيابي وسوف تغادر الزنزانة.. لا أعتقد أنهم سيعدمونني لو عرفوا الحقيقة..
ضحك (سقراط) فى حزن وقال:
- يا بنى أنت لا تفهم.. لو هربت لصار كل ما ناديت به فى حياتي هراء.. على الفيلسوف أن يموت وفقًا لمبادئه.. وأنا أمرتكم بطاعة القوانين مهما كانت جائرة أو ظالمة.. والآن هات الشوكران لى..
ناوله الحارس ضخم الجثة دامع العينين - هو الآخر – إناء من الفخار مليئًا بسائل قذر..
أمسك الفيلسوف بالإناء وقربه من شفتيه وتذوقه:
- ليس سيئًا لكن ربما لو أضفتم بعض السكر..
- سنحاول تذكر ذلك عندما نعدم الفيلسوف التالي..
ثم نظر إلى أحد تلاميذه وقال:
- ستجد عندي فى الدار ديكًا.. أرجو أن تعيده لصاحبه (بيلادس)..
لم تسمع (عبير) من قبل عن شخص يقترض ديكًا..
إن هذه القصة مضرب المثل فى أمانة الفيلسوف، لكننا نتذكر الملاحظة الذكية التي قالها الأديب العظيم (محمد عفيفي) من قبل: ماذا يفعل (سقراط) بالديك وهو كان ينهي عن أكل اللحوم؟
على كل حال أفرغ (سقراط) الإناء فى جوفه ولعق شفتيه، وسط بكاء تلاميذه.. وقال:
- لا بأس.. إن السكر كان فى القاع من الب. ...
ثم تهاوى رأسه وغاب عقله العظيم عن التفكير للمرة الأولى..
نهضت (عبير) دامعة العينين وابتعدت عن المشهد..
كان المشهد مؤثرًا.. لكنها لم تحصل على إجابة عن أسئلتها، بالإضافة إلى غرابة هذا الفيلسوف الذي يقترض الديكة.. كل هذا يكفى ليخبرها أن (سقراط) لم يكن معلمها المنشود..
في الخارج كان التلميذ الذى كان يدون المحاكمات يقف دامع العينين وحده جوار عمود.. يعبث بلحيته كأنما هو يستنبط فلسفته الخاصة بسرعة..
اقتربت لتتبادل الكلام معه، لكنه رآها فكأنه رأى سحلية ذات رأسين.. صاح فى اشمئزاز:
- أنت امرأة!!
- وأنت رجل.. لا مشكلة هنالك..
لكنه استدار ليقف وراء العمود ويفرغ معدته.. لم تكن تعتقد فى نفسها جمالًا خاصًا لكن ليس إلى هذا الحد..
- لا تحاولي التفاهم مع (أفلاطون Plato).. إنه يمقت النساء كأنهن الطاعون..
كان القائل هو أحد التلاميذ الذين خرجوا من السجن.. كان شابًا نحيلًا تعس النظرات صادقها..
نظرت للرجل المشمئز فى اهتمام.. إذن أنت (أفلاطون) الشهير.. الذي عذبنا كثيرًا فى المدرسة.. أنت رجل وسيم يبدو عليه الرقى والثراء.. له لحية قصيرة مهذبة بعناية.. لكن ما سر طباعك الغريبة هذه؟
قال التلميذ الذي وجه لها النصح:
- سوف ينشئ (أفلاطون) مدرسته الخاصة بعد موت أستاذه (سقراط).. لكن ليس بوسعك

التعلم فيها مالم تصيري رجلًا..
- رجلًا؟ وكيف؟
نظر لها مفكرًا، ثم قال:
- لا توجد مشكلة.. سأجد لك حلًا سريعًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4 فى الأكاديمية..

لن يتحسن المجتمع ما لم يحصل الفلاسفة على سلطة سياسية، أو يصبح السياسيون فلاسفة..

أفلاطون

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن هى شاب وسيم كريم المحتد.. لقد قصت شعرها وحاولت أن تجعل صوتها يخشوشن..
لقد عرفت أن (أفلاطون) ذا التفكير العملي قد أنشأ لنفسه مدرسة شهيرة فى (أثينا) هي الأكاديمية.. وأن عليها إذا أرادت أن تتعلم منه شيئًا أن تذهب إلى هناك..
على الباب توجد لافتة كبيرة كتب عليها (ممنوع الدخول لمن ليس ملمًّا بالهندسة)..
هي لم تكن ملمة بالهندسة، وقد فشل علم الرياضيات فى اقتحام أسوار مخها على مدى أعوام حياتها، لكن ذلك الشاب الخدوم حذرها من شيء مماثل، وقد اتخذت حيطتها..
وعلى طريقة (فانتازيا) فى المزاح الثقيل، وجدت على الباب رجل الأمن ببذلته الزرقاء يمسك بورقة، رفعها نحو أنفها:
- كيف يمكن تقسيم المثلث أب ج بخطين، بحيث يكون الناتج خمس مثلثات، مساحة أصغرها عشر مساحة أ ب ج؟
لم تفهم السؤال لكنها كانت تعرف الجواب عن ظهر قلب.. هذا الحارس لا يسأل إلا فى أربعة تمارين شهيرة، وهكذا أمسكت بالقلم وقسمت المثلث فى المكان المطلوب..
هتف الحارس الفظ:
- برافووووو!
قالت فى تواضع مغرور:
- هذا لا شيء.. أنا بارعة فى الرياضيات كلها..
- ماذا؟!
هنا تذكرت أن ذكاءها خانها فقالت متداركة:
- أنا بارع فى الرياضيات كلها..
فلو اتضح أنها أنثى لحملها الحارس من قذالها ليلقى بها فوق أقرب كومة قمامة..
الحقيقة أن فلسفة (أفلاطون) كانت تعتمد على الرياضيات بشكل غير معقول.. إنها سبيله للسلام والانسجام مع حقائق الكون، وهو ما وجده بعد هذا بقرون فيلسوف بريطاني هو برتراند راسل Russell).. وقد كان يحتم ألا يدخل أكاديميته إلا من يعرف الهندسة.. لهذا كانت إجابتها هى (الكارنيه) المطلوب، وسرعان ما أفسح لها الحارس الباب وهو يهز رأسه باحترام..
- أنا شاكرة لك!
ثم فطنت للأمر فأسرعت بالابتعاد عنه قبل أن تساوره الظنون.. من السهل على الرجل أن يتخلى عن رجولته بعض الوقت ليخدع الناس، أما الأنثى فمن شبه المستحيل أن تنسى أنوثتها..
ولهذا بدا كل من مثل دور الأنثى حتى (إسماعيل يس) نفسه مقنعًا، بينما لم تكن أية ممثلة مقنعة فى دور الرجل..
هكذا وجدت نفسها تمشي وسط حشد من الشباب لتدخل ما بدا لها كحديقة عامة أنيقة.. ما

الذى يقدمه لها (أفلاطون)؟
لقد صارت الفلسفة منظمة أكثر.. لها شكل محترم كأنها جامعة..
دنا منها أحد الشباب، وكان منهمكًا فى قضم تفاحة وهو يلهث كى يلحق بها، وسألها:
- من أنت أيها الشاب؟ من أين أتيت؟
فكرت (عبير) لحظة ثم قالت أول ما خطر بذهنها:
- أنا (أبيروس) من (كريت)..
- وأنا (مينوس) من (أثينا).. هلا أسرعت قليلًا؟ لقد تأخرنا..
وتصافح الاثنان دون أن يكفا عن الهرولة..
رأت (عبير) أن الفيلسوف - الذي صار كبيرًا - يمشى وسط تلاميذه.. واضح أن لياقة هؤلاء الفلاسفة اليونان عالية جدًّا، لأن كل محاوراتهم تتم أثناء المشي.. يروحون ويجيئون ولا يجلسون أبدًا.. فيما بعد ستتبلور هذه الطريقة أكثر مع (أرسطو Aristotle) ولسوف يمشى الفيلسوف مسافات شاسعة لم يمشها جمل فى صحراء، ولهذا سيطلق المؤرخون عليهم اسم (الرواقيون) لأنهم لا يكفون عن الفلسفة وهم يمشون فى الأروقة..
دنت أكثر لتسمع ما يقول:
- لقد رأيت إعدام أستاذى (سقراط)، فلم أتحمل.. هكذا قررت شيئين: أولًا أن أدافع عنه وأنشر نص محاكمته.. ثانيًا أن أكون فلسفتي الخاصة.. وأن أنشئ هذه الأكاديمية ليتعلم فيها الساسة الفلسفة.. لو تعلم السياسة الفلسفة لعمت الحكمة ولما وقع الظلم.. ولما أعدم شخص مثل (سقراط)..
إذن هذا المكان يربى من سيصيرون حكامًا يومًا ما.. كأنه (بكالوريوس فى حكم الشعوب) كما تدعى المسرحية الشهيرة..
ومشى والتلاميذ وراءه وهو يواصل الكلام:
- هذه الشجرة لا وجود لها.. هذا العمود ليس هنا.. إنهما انعكاسان لشجرة أخرى وعمود آخر موجودين فى عالم المثل..
نظرت (عبير) إلى الشجرة والعمود.. هذان انعكاسان! هذا هو الشيء الذى لا تبتلعه فى الفلسفة.. هذا عمود له وزن وسمك ويشغل حيزًا من الفراغ، وبرغم هذا يصر هذا الأخ على أنه انعكاس.. لكنها لا تعرف أن هذه هى عقيدة الأشكال Doctrine of Forms وهي جزء أساسي من فلسفة (أفلاطون)..
مشي (أفلاطون) مسرعًا إلى مكان آخر من الأكاديمية، فلحق به التلاميذ لاهثين.. قال وهو يشير إلى صخرة:
- هل ترون هذه الصخرة؟
تصايح الجميع فى بلاهة:
- نعم!
- يا لكم من حمقى! بل تتخيلون أنكم ترونها! لو قرأتم كتابي (الجمهورية) لعرفتم أنها وهم لا وجود له..
وهنا تعثرت قدمه فهوى على الأرض ليرتطم رأسه بالصخرة.. سرعان ما راح يعوى ألمًا والدم يسيل من جبهته.. كادت (عبير) تنفجر ضحكًا.. لم تر من قبل ظلًا يجرح الرأس.. لكنه واصل الشرح:
- هذا وهم.. والدم الذي يسيل من جبهتي وهم.. مجرد ظلال من عالم المثل العليا.. هناك عالم

عقلى وعالم مادى.. ما نراه فى العالم المادي وما تشعر به الحواس هو مجرد ظل غير متقن لعالم عقلاني فيه كل شيء جميل متقن..
تخيلت (عبير) أنها مجرد ظل لـ(عبير) أخرى بارعة الجمال تعيش فى عالم المثاليات.. (عبير) قوية لا يتخلى عنها الناس وتعرف كل شيء.. فكرة لا بأس بها، لكن كيف تنتصر هذه الـ(عبير) وكيف تجد مكانها إلى عالمنا هذا؟
- بالرياضيات!
قالها (أفلاطون) فى ثقة:
- الرياضيات هي الشيء الوحيد المحكم فى العالم.. إن الظلال التي تسقط علينا تتغير من وقت لآخر أما الرياضيات فهي النافذة الوحيدة المتاحة لنا على عالم المثاليات..
فهمت (عبير).. هذا هو السبب فى امتحان الهندسة الذى اجتازته قبل دخولها هنا..
مشى (افلاطون) إلى مكان آخر فى الأكاديمية.. هنا شعرت أن ساقها تقلصت.. أصيبت بـ(كرامب) محترم كأنها تلعب فى نهائي الكأس، إلا أنها تحاملت على نفسها.. ويبدو أن اثنين من التلاميذ أصيبا بنوبات قلبية وماتا.. رحلا إلى عالم المثاليات لحسن حظهما..
وواصل (أفلاطون) الكلام وهو يجد السير:
- نحن نعيش فى كهف.. وما نراه على جدران الكهف هو ظلال الحقائق.. فقط الفيلسوف هو من يستطيع اختراق هذا الكهف ليرى الحقيقة!
ثم أشار إلى التلاميذ وهتف:
- على ذي العقل والحكمة أن يحكم الجموع التى لا تعنيها إلا المسرات الأرضية الزائلة.. وعلى الفنون أن تخضع لغرض تعليم الحق والخير والجمال.. يجب على الفن أن يخصص لتثقيف الشباب..
في هذه اللحظة رأت شابًّا يركض وعباءته الإغريقية بين أسنانه، بينما يركض من ورائه حشد من الفتية يتصايحون بالإغريقية:
- حراااااامى.. حرااااامى!
لم يبد لها الفتى قادمًا من عالم الأخلاق المثالية إلى هذا الحد.. وكاد التلاميذ يلحقون به ليرسلوه لعالم المثل، مع قدر لا بأس به من الإشباع السادي.. لكن (أفلاطون) صاح فى وقار إغريقى:
- اتركوه! فالمرء لا يرتكب الرذيلة عامدًا أبدًا!
هكذا وقف الفتية مرغمين، بالرغم من أنهم يتحرقون شوقًا لإرسال اللص إلى عالم المثل كما قلنا، لكن هذا أثار حيرة (عبير):
- تريد القول إن خطايانا ليست باختيارنا؟
قالتها بأغلظ صوت وجدته فى حنجرتها، فقال (أفلاطون) باسمًا:
- أؤمن بهذا كما آمن به (سقراط) العظيم.. الحمقى يطلقون على هذا مصطلح (التناقض السقراطى).. لكنى أؤمن به.. على هذا الفتى أن يطهر نفسه بالرياضيات والفلسفة.. فإن لم يستطع مات ليعود للحياة حيوانًا أو امرأة!
غلى الدم فى عروقها.. لم تتلق أنوثتها إهانة كهذه من قبل، ومنذ أسقطها كوع أحد المتزاحمين فى الحافلة لتسقط على الأرض.. هذا الرجل - (أفلاطون) - يجمع بين الحيوان والمرأة فى سلة واحدة..
قالت له بصوت يكاد الثلج يتساقط منه كما يحدث فى القصص المصورة:
- أنت لا تميل للنساء كثيرًا..

قال بفخر وهو يمسح الدم الذي يسيل:
- بل وأشمئز منهن.. الشخص الوحيد الجدير بالصداقة هو الشاب المهذب الوسيم..
ثم قال لها فى رفق:
- بالمناسبة.. أنا لم ألقك من قبل فى الأكاديمية أيها الشاب اللطيف..
لم تعد تشعر براحة مع هذا الرجل.. وتذكرت كيف سيطلق الأدباء اسم (الحب الأفلاطوني) على الحب الطاهر بين فتى وفتاة.. بينما التعبير الأدق (الحب العذري) نسبة لقبيلة (عذرة) العربية.. أما هذا الأفلاطون ففيه شيء لا يبعث الراحة.. لم تشعر براحة قط فى التعامل مع أى رجل له هذا الشارب الرفيع المنمق، ويبدو أنها كانت على حق..
طبعًا لا جدوى من استشارته فى مشكلتها.. أولًا لن تخبره بأنها فتاة - برغم أن هذا أكثر أمنًا - ثانيًا لن تجد لديه إلا بعض النصائح.. هى ليست هى و(شريف) ليس (شريف) و(رانيا) ليست (رانيا).. كلهم ظلال من أشخاص آخرين رائعين فى عالم المثاليات.. وما عليها إلا أن تنغمس فى الهندسة والرياضيات لتشعر بسعادة..
دنا منها (مينوس) زميلها فى الأكاديمية، وهمس فى أذنها وهو يدلك ساقه متألمًا:
- بيني وبينك.. أنا أيضًا غير مستريح لهذا المتحذلق.. ما رأيك فى أن نجرب مدرسة أخرى؟
- بالطبع.. لكن هل هناك مدارس قريبة؟
ضحك كثيرًا وقال:
- نحن فى اليونان.. حيث تنتشر مدارس الفلسفة انتشار مقاهي الإنترنت أو (أكشاك السجائر) فى عالمكم.. على الناصية سنجد (الليسيوم Lyceum)..
- ومن فى هذا (الليسيوم)؟
- واحد آخر كان تلميذًا لـ (أفلاطون) ثم كون مدرسته الخاصة.. إنه (أرسطو)!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- فى الليسيه..

كل منا منذ ولادته إما أفلاطوني وإما أرسطوطالى..

كولردج

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن خرجت من الأكاديمية حتى تحررت من تمثيل دور الرجل، وأمام عينى الفتى المذهولتين أدرك أن زميله (مينوس) فتاة جميلة.. فصاح فى عجب:

- لو عرف (أفلاطون) لفتك بك!

- لكنه لم يعرف.. كان لا بد أن أسمع ما يقال فى هذه الأكاديمية..

- ما دمت بهذا الجمال، لماذا لم تنضمي إلى (الأبيقوريين)..

- لا أعرفهم.. المهم ألا يكون (أرسطو) من أعداء المرأة.

- لا.. هو رجل متفتح الذهن، ومشكلته الوحيدة أنه يمشى أكثر من (أفلاطون).. سنفقد بضع كيلوجرامات فى عملية تعلم الفلسفة هذه.

هكذا دخل الاثنان إلى مدرسة (أرسطو).. لقد أنشأها أولًا قرب معبد يدعى (أبوللو ليكيساس) أى (الذي يذبح الذئب).. وسرعان ما صار اسم المدرسة هو (ليسيوم Lyceum).. وهى الكلمة التي تطورت إلى (ليسيه Lycee) كما تنطقها كل فتاة (فخوغ بتغبيتها الفغنسية)..

أهم ما فى الموضوع هو أن هناك تذاكر ورسمًا للدخول.. يبدو أن الأخ (أرسطو) فيلسوف عظيم لكن الفلسفة لم تنزع منه الرغبة فى جمع بعض المال.. وهي لم تسمع قط عن فيلسوف ورجل أعمال بارع، لكنها الحقيقية.

كان الأمر فى الداخل يشبه مسيرة جنازة لميت مشتاق إلى ظلمات القبر.. عدد لا بأس به من التلاميذ يمشون وراء رجل.. والموكب كله جدير بسباقات (المارثون).. أخذت (عبير) شهيقًا عميقًا ولحقت بالماشين، وكان (أرسطو) كما تخيلته بالضبط.. كل هؤلاء الفلاسفة اليونان يتشابهون على كل حال، ويصلحون لقطع نصفهم الأعلى ليكون تمثالًا..

كان هناك صبي يمشى مع الماشين وهو يلعب بسيف خشبي صغير، ولم تتنبه إلا بعد أن داست قدمه.. صاح فى غضب والكثير من الوقاحة:

- لا بد أنك عمياء أو بلهاء..

ودت لو تعتذر لكن وقاحته لم تترك لها فرصة.. قال لها فى تحد وعيناه الصغيرتان تحاولان تمزيقها:

- لو عرف أبى فلن ترى يومًا آخر!

قررت أن تتوكل على الله وتعتصر أذنه، لولا أن سمعت (أرسطو) يناديه:

- ولد! تعال هنا وأصغ للدرس!

نظر لها الصبي متوعدًا ثم لحق بالمعلم وسط الزحام.

قال لها (مينوس) فى رعب:

- هذا الصبى ذو نفوذ.. لا تحاولي أن تعبثي معه..

لكنها لم تكن تتحمل قلة الأدب فى الصبية، إن لم تكن لا تتحمل الصبية أصلًا.. المرء يتحمل كافة المشاق فى حياته فمن العسير أن تطالبه أيضًا بتحمل هذه الصراصير الآدمية..

كان (أرسطو) يتكلم فى كل شيء تقريبًا، ويثب من موضوع لآخر.. يتحدث فى العلوم والفلك والطب والدين.. فلا غرابة أن آراءه ظلت تسيطر على أوروبا فترة لا بأس بها.. والذى يثير الغيظ هنا هو أنه كان يضع القواعد العلمية من مكانه ومن دون تجريب.. هكذا كاد (جاليليو Galileo) يفقد رأسه لأنه خالفه.. ولم تتقدم أوروبا إلا حين تعلمت أن تتحرر من ربقته..
إن الفارق الأساسى بين (أرسطو) و(أفلاطون) هو أن (أرسطو) اهتم بالعلم المادي وحياتنا، بينما (أفلاطون) قضى وقتًا أكثر من اللازم مع المثل..
- الشمس تدور حول الأرض، وعدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل، والضوء يخرج من العينين ليسقط على الموجودات، والشرايين تنقل الهواء لهذا أسميتها Artery ..
هكذا ببساطة كان (أرسطو) يصدر أحكامه بلا انقطاع.. ويصل إلى حلول نهائية لأمور أرقت العلماء أجيالًا.. واحتاج الأمر إلى قرون حتى يظهر (كوبرنيكوس Copernicus) عالم الفلك و (فيساليوس Vesalius) رائد التشريح و (ابن الهيثم) علامة البصريات و (ابن النفيس) مكتشف الدورة الرئوية ليبرهنوا - بالترتيب - على خطأ كل واحدة من هذه (الفتاوى الأرسطوطالية)..
لكن الطلبة يكتبون ما يقول كالمحمومين وهم يمشون وراءه، محاولين ألا تنزلق أقدامهم فى صنادلهم الإغريقية المبللة بالعرق..
- لقد قمت بوضع علم المنطق.. عليكم دراسته جيدًا لتفهموا كيف تقود مقدمتان منطقيتان إلى نتيجة.. هذا هو أسلوب القياس المنطقى.. ومن لم يفهمه يمكنه الاتصال بسكرتيرتى للحصول على درس خصوصى فأنا لن أعيد ما قلته من قبل..
ثم أشار إلى عمود فى المدرسة وقال:
- هذا العمود هو خليط بين الواقع والإمكانية.. خليط مما يمكن أن يكونه لكنه لم يصره بعد، ومما هو عليه فعلًا.. كل شيء يتغير فى العالم ما عدا العقل الإنساني والمثل..
شعرت (عبير) بأنها متخلفة عقليًا.. لا تفهم شيئًا على الإطلاق من هذا الكلام.. لكن من الجلى أنه مهم جدًّا لأن الطلبة يكتبون كالملسوعين، وبعضهم سال الدمع من عينيه وبعضهم راح يهتف فى لوعة: يا عيني! أعد!
إذن هى الجاهلة الوحيدة فى هذه المدرسة..
اصطدمت بالصبى من جديد، فنظر لها فى حدة، ثم بصق على ثوبها وركض قبل أن تفتك به..
- الروح البشرية هى أعلى شيء فى الكون، وهى التى تدور فى قلب المجرة للأبد بإرادة إلهية.. والقواعد الأخلاقية تقودنا إلى حياة أسعد وأكثر اكتمالًا وأقرب إلى الشكل الكروي، الذي اعتبره أكمل الأشياء.. والفن هو طريقة للمتعة لا التعليم كما كان (أفلاطون) يقول.. لا قيمة لفن غير ممتع.. ومن لم يفهم هذا الجزء يمكنه الاتصال بسكرتيرتى للحصول على درس خصوصى فأنا لن أعيد ما قلته من قبل..
كان الرجل لا يكف عن الكلام.. يبدو أنه من الطراز الذى يهوى سماع صوته..
سألته (عبير) حين استطاعت الدنو منه:
- أيها المعلم.. لقد تخلى عني من أحببت بلا سبب واضح.. فقط لأنني أنا.. كيف أجد فى الفلسفة عزاء عن شيء كهذا؟
قال دون أن ينظر لها وهو يواصل المشى:
- حين تموتين ستدور روحك السامية للأبد بين النجوم.. أليس هذا عزاء كافيًا؟
لم تدر ما تقول.. هل ينوى أن يعيش هو وسط النجوم مع كل المال الذي جمعه؟ هزت رأسها فى حرج.. و... آى!

اصطدمت قطعة الحجر بجبهتها.. وإذ نظرت لمصدرها وهى تتحسس موضع الإصابة المؤلم، وجدت ذلك الغلام المزعج يخرج لها لسانه، وهو يعيد حشو مقلاعه..
هذه المرة لم تهتم بسؤال (أرسطو) عن أساليب التربية ولا الطرق المثلى لتفادى الألم.. كان هناك شيء واحد تشتهيه وقد فعلته.. جرت الصبى خلف عمود حجري، وبدأت مهمة تحطيم كفيها على عظامه..
رباه! كان هذا ممتعًا وتمنت لو يستمر للأبد.. صحيح إن الوغد يعض ويخمش ويسب سبابًا يونانيًا بذيئًا جدًّا، لكن هذا كان يزيد حماسها.. تضرب فيشتم فيزداد حماسها لمزيد من الضرب..
هذا نوع من التطهير النفسي لن تعيش مثله مهما شاهدت من مسرحيات إغريقية..
في النهاية تركته قطعة من العجين خلف العمود ولحقت بالفيلسوف الكبير الذي بلغ نهاية المدرسة فعاد مع من حوله يقطع نفس المسافة..
هنا اندفع إلى داخل الرواق طالب ممتقع الوجه، وصاح فى هلع:
- أيها المعلم! إن فيلقًا من جيش (مقدونيا) يقف بالخارج!
بدا الرعب على (أرسطو) وتساءل فى قلق:
- والسبب؟
- (فيليب الثانى) ملك (مقدونيا) سمع أن هناك من ضرب ابنه فى المدرسة! لقد جاء كى (يجيب عليها واطيها)!
لطم الفيلسوف على خديه.. بينما مالت (عبير) تسأل (مينوس):
- ابن ملك هنا؟ من هو؟
- الصبى الذى كنت تتشاجرين معه! إنه (الإسكندر الأكبر)! ألم تعرفي إنه تلميذ (أرسطو)؟
يا للكارثة!
حين تضرب صبيًا يجب أن تتأكد من شخصية أبيه وهى لم تكن تعرف شخصية ذلك الصبي المزعج، الذى يبدو أنه لن يتعلم شيئًا من أستاذه الكبير.. وها هو ذا (فيليب الثاني) ملك (مقدونيا) يتصرف كأي بلطجي سمع أن ابنه ضُرب فى المدرسة.. طبعًا لن يصعب على الصبى تسليمها للأب الغاضب!
الصبى المزعج ينفجر فى بكاء تمثيلى كأنما هناك من ذبحه.. ويجرى إلى الباب صارخًا:
- باباااااااااااااااااااا!
نظرت حولها فلم تر أن أحدًا يراقبها.. الكل مشغول بالكارثة الواقفة خارج باب المدرسة.. هكذا توكلت على الله.. اتجهت إلى السور وتسلقته.. أسوار المدارس خلقت لتسلقها والفرار منذ فجر التاريخ.. لعلها أول طالب يثب من فوق سور المدرسة فى التاريخ..
هوب! سرعان ما وصلت أعلى السور فثنت ساقيها ووثبت.
ووجدت نفسها ملقاة على العشب بالخارج..
لا وقت للمزاح.. يجب أن تواصل الركض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- فلاسفة من كل صنف..

أنا مواطن عالمي.. وهذا يجعل من نفيي ضربًا من المستحيل..

ديوجين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الحشد يقف حول الفيلسوف فى الطريق العام كأنما هو يبيع بيضًا طازجًا.. الرجل نفسه كان ضخم الجثة يتحدث فى حماس..
ودنت (عبير) أكثر وسط كل هذه العباءات الإغريقية، فاستطاعت أن تسمع طرفًا من المحادثة:
- إذن البرغوث يقدم لنا خدمة جليلة.. لأنه يزيل الدم الزائد من أجسادنا ويرغمنا على الاستحمام.. وبفضله يضطر الناس إلى استبدال ثيابهم، وهكذا وجدت كلمة (نظافة)..
سأله أحد الواقفين فى حيرة:
- لكن لو لم توجد براغيث لما وجدت كلمة (قذارة).. والأشياء بأضدادها.. لو لم توجد قذارة لما صارت هناك ضرورة للنظافة من الأصل..
قال الفيلسوف ضاحكًا:
- وهذا يؤكد ما سبق أن قلته.. البراغيث لا أهمية لها ومن دونها يصير الكون أفضل.. لولا المرض ما وجد العلاج.. لكن لماذا وجد المرض أصلًا؟
هتفت (عبير) من بين أسنانها فى غيظ:
- ما هذه السفسطة؟
هنا سمعت صوتًا متحمسًا يقول من خلفها:
- بالفعل هؤلاء هم السفسطائيون Sophists.. وهذا هو (بروتاجوراس Protagoras) من أهم فلاسفتهم..
أدركت أن هذا هو (مينوس).. لا تعرف متى جاء.. إنه معها طيلة الوقت..
قالت له همسًا:
- ما الممتع فى هذا الأمر؟ إنه يثبت ما ينفيه وينفى ما أثبته بنفس الحماس والحجة المقنعة..
- إنه بائع كلام شديد البراعة.. وهم يحيلون الفلسفة إلى نوع من استعراض العضلات العقلي.. لهذا ستشيع كلمة (السفسطة) فى كل اللغات..
- إن السفسطة أصلًا لفظة معناها (المهارة).. لكن هؤلاء السفسطائيين قد اعتبروا أن الإنسان هو مصدر كل قياس.. والحقائق كلها تعتمد على قدرته على البرهنة عليها.. لو استطاع السفسطائي أن يبرهن لك على أن الشمس تشرق من الغرب، فالأمر كذا.. وعليك أن تقبل به كحقيقة علمية..
لهذا كتب السفسطائيون فى أمور عديدة، وليس موضوع (مدح البراغيث) هذا مزاحًا بل هو موضوع حقيقى..
إن من قرءوا التراث العربي جيّدًا يتذكرون على الفور كتاب (المحاسن والأضداد) لل. (جاحظ).. كما أن من قرءوا (مجمع الأحياء) للعقاد سيتذكرون هذا الأسلوب. أنت تقرأ الكتاب لتقتنع بألف رأى كلها يناقض بعضها.. وفي النهاية تشك فى قدراتك العقلية أصلًا.. هل أنت بهذه السذاجة حقًّا؟ هل تملك رأيًا كما كنت تعتقد فى نفسك؟

شعرت (عبير) بالضيق من الزحام فابتعدت قليلًا..
هناك كان حفل صاخب.. موسيقا صاخبة تعلو فلا تسمع صوتك.. وفتيات فاتنات يرقصن بالدفوف، بينما ضحكات خليعة تنبعث من داخل خيمة.. وخرج شاب يحمل فخذ خروف، ودنا من الخمر يحاول أن يشرب منه لكنه فى حالة سكر تجعل التصويب مستحيلًا.. لهذا ارتوت الأرض بالخمر حتى راحت تترنح بدورها..
حين رآها لوح بما بقى فى الدن وصاح:
- هلمى.. هلمى! إن المدرسة الذرية ستبدأ!
لم تفهم عم يتحدث.. إلا أنها قررت أن تلقى نظرة فضول على ما يدور بالداخل.. هذه على الأرجح حانة أو مباءة ما.. ولكن المشهد بالداخل كان يفوق الوصف.. إنه حفل لهو من حفلات كفار الجاهلية كما تراهم فى السينما المصرية، حتى توقعت أن يبرز (أبو لهب) فى أية لحظة ليقول: تبًّا للعبيد!
مالت تسأل أحد الفتية الجالسين الغارقين فى السكر ففوجئت بأنه (مينوس) ذاته.. لا بأس.. هى على الأقل تعرفه.. قال لها وهو يقاوم نوبة فواق:
- هذه.. هئ.. مدرسة.. (أبيقور Epicurus).. للفل.. هئ.. فلس.. فلس..
أدركت أنه سيقضي بقية الليل محاولًا نطق كلمة (فلسفة) فقررت أن تتركه وتقترب من (المعلم) لتعرف فلسفته.. هذه مدرسة؟ حقًّا ليست هناك نهاية لما يراه المرء من غرائب..
على كل حال كانت متأكدة من أن حل مشاكلها ليس هنا.. لا تتصور أن تغرق أحزانها فى دن من الخمر وسط الحسناوات.. خاصة أن الحسناوات لا يمثلن لها شيئًا بالطبع..
قال (أبيقور) الذي كان يضع عنقود عنب خلف أذنه، ويحمل كأسًا عملاقًا:
- الهدف الوحيد للحياة هو الحصول على أكبر قدر من اللذة.. إنكم ستغرقون فى اللذات حتى تكتفوا وبعدها تتعلمون إن السعادة هي الحركة الهادئة المنتظمة وعدم وجود ألم.. إنني أتفق مع (ديمقريطس Democritus) فى أن كل شيء فى الكون يتكون من ذرات.. وهذه الذرات تتحرك حركة منتظمة لأسفل، لكن بعضها يتحرك حركة عشوائية، وهنا يأتي دور الإرادة.. عليك أن تختار اتجاه ذراتك..
هكذا فهمت (عبير) سر وصف (الذرى) الذى يلحق باسم هذه المدرسة.. يبدو أن أول وصف للذرات جاء على لسان (ديمقريطس)، ثم تبناه (أبيقور)، فمن حسن حظ هؤلاء إن الولايات المتحدة لم تكن موجودة فى عصرهم، وإلا لخضعت مدارسهم للتفتيش..
نهض أحد الرجال وصاح فى حماس:
- بحق (زيوس) أنت تتكلم كلامًا صائبًا..
سألته (عبير) باهتمام:
- جميل.. ما معنى ما يقول؟
- لا أعرف لكنه يبدو صائبًا بما يكفى..
ومد يده يمسك بمعصمها، وقال فى حماس فلسفى:
- لماذا لا تجلسين معي أيتها الحسناء نناقش مذهب (أبيقور)؟
هوت الصفعة على وجهه وقبل أن يفهم ما يحدث كانت (عبير) قد غادرت (المدرسة) وقد قررت فى نفسها أن الفلسفة الأبيقورية لا تناسبها كثيرًا.. بل إن لفظة (أبيقور) ذاتها لها رنين حيوانى شهواني معين، تسمعه كأنما هى تسمع سبة بذيئة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قابلت بعض الرواقيين Stoics وهم سادة المشي.. تلاميذ الفيلسوف (زينو Zeno) الذين يؤمنون بأن اللامبالاة هى الحل.. لا ألم ولا فرحة ولا رغبة.. لم تحب فلسفتهم كثيرًا خاصة مع كل هذا المشي وفضلت البحث عن خيار آخر.
أما عن الفيثاغورثيين، فحدث ولا حرج.. لا شك أنك تلقيت بعض ضربات فى المدرسة بسبب نظرية (فيثاغورس Pytahgoras) عن المربع على وتر المثلث الذي تساوى مساحته المربعين المرسومين على الوترين الآخرين..
كان الفيثاغورثيون قد كونوا نظرة متكاملة للكون تمزج بين الرياضيات والهندسة والموسيقا.. إن حركة الكون تتم بنفس القواعد الموسيقية.. والأرقام يكمن فيها سر كل شيء.. بالذات رقم عشرة هو رقم مبارك يحمل الكثير من الأسرار.. والسبيل الوحيد لتطهير النفس هو دراسة الموسيقا والرياضيات.. ولا بد - كالعادة - من الامتناع عن أكل اللحوم وترك الشهوات جميعًا حتى الحلال منها..
كما لاحظ الساخر (محمد عفيفي): المسألة ليست لعبًا إذن.. ومن المستحيل أن يقابل المرء فى هذه البلاد من يسمح لى بأكل الفراخ دعك من لمسها أصلًا!
وفي جولتها الطويلة فى (أثينا) مرت بمجموعة من الفلاسفة أو التلاميذ يقفون فوق مرتفع.. المثير فى الموضوع ليس ما يفعلون بل ما لا يفعلون..
فعند نهاية الطريق كانت هناك هاوية.. وكان أحدهم يمشى فى خطوات ثابتة نحوها.. توقعت أن يتوقف لكنه لم يفعل..
جذبت أحد الواقفين من كمه وهتفت:
- إنه يتجه للهاوية!
نظر إلى حيث أشارت ثم قال فى ملل:
- لسنا متأكدين من هذا..
- سيهشم عنقه!
- هذا شيء لا يمكن إثباته إلا لو حطم عنقه.. وعندها يكون استنتاجك محتملًا لكنه ليس حتميًا!
أنتم مخابيل! هكذا قالت فى سرها وعلانيتها.. ثم فارقته وركضت نحو الرجل الذي بلغ حافة الهاوية فانتزعته من عباءته الإغريقية وجرته إلى الوراء.. لقد تبدل اتجاهه فاكتفى بأن واصل المشي فى اتجاه آخر كما تفعل لعب الأطفال حين تصطدم بجدار.. كأن قدميه تتحركان حركة آلية لا علاقة لها به[1]..
نجحت فى تغيير اتجاهه ليواجهها.. وفي النهاية قالت له ما معناه (إيه اللي بتهببه ده؟).. فاكتفى بأن هز رأسه وداعب لحيته وقال:
- أنا لست مجنونًا.. أنا الفيلسوف (بيرو Pyrrho).. أو هذا ما أعتقده
- تشرفنا.. لكن هذا لا يبرر أن تمشى للهاوية فى غباء كسلحفاة الصحراء..
- لا يمكن التأكد من شيء.. الإنسان غير مؤهل لمعرفة شيء عن يقين.. هذا هو مذهبى.. لا يمكنك التأكد من إن السقوط من فوق الهاوية يمكن أن يؤذيني.. أنا لا أعرف، أنت لا تعرفين..
- الخبرة تقول إن من يسقط من الهاوية يمت..
- الخبرة لا قيمة لها بعقلنا القاصر.. هذا جوهر مذهب الشك Skepticism.. وهؤلاء هم المتشككون من تلاميذى.
ثم التفت إلى تلاميذه (الشكوكيين) ليسألهم بصوت عال:

- هل الطقس بارد يا شباب؟
قالوا بصوت واحد متحمس:
- لا نعرف..
- هل حار يا شباب؟
- لا نملك القدرة على إعطاء رأى كهذا..
أشرق وجهه بالرضا وقال لها:
- كنت أتمنى أن أقول إنهم عباقرة.. ولكنى لست حكيمًا إلى هذه الدرجة بالطبع..
كان هذا كافيًا كي تتركهم وتنصرف..
يبدو أن اليونان فى هذا العصر كانت مستشفى مجاذيب عملاقًا.. هذا رأى (عبير) بالطبع وليس رأى كاتب هذه السطور.. لماذا ليس رأيه؟ لأنه ليس مؤهلًا لإعطاء رأى فى أي شيء طبعًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قابلها (مينوس) وهى تمشى جوار أحد الأسواق هناك.. كان يقضم تفاحة ويحمل رزمة من الأوراق تحت إبطه.. قال لها فى استمتاع:
- كيف الحال؟ هل عرفت نفسك وفهمت أسرار الكون؟
- لا أعرف إلا أن رأسى موشك على الانفجار..
قال فى جدية وهو يجد السير مبتعدًا:
- إن نادى الفلاسفة أعد لك امتحانًا عسيرًا فى نهاية (الكورس).. فخذي الحذر.. يجب أن تصلى إلى الحقيقة سريعًا..
ثم اختفى وسط مجموعة من عربات الفاكهة..
كان الليل قد جاء، واستطاعت أن تجد خانًا إغريقيًّا صغيرًا يقدم لضيوفه عشاء فلسفيًّا ممتازًا، يتكون من الجبن القديم والزيتون..
وهنا عرفت (عبير) إن هؤلاء القوم منظمون حقًّا.. عليها أن تكتب اسمها فى دفتر الخان.. وتحت الاسم تكتب.. لا ليس عملها ولا دينها ولا رقم بطاقتها.. بل مذهبها الفلسفي.. هكذا رفعت عينيها فى دهشة متسائلة..
قال الخواجة (خريستو) صاحب الخان، وهو يشبه (البارمان الإجريجى) فى أفلامنا العربية إياها:
- هذا من أجل راحتك حبيبي.. لو كنت من أتباع (أبيقور) تأكدنا من أن الحجرة مزودة بالمعازف وأدوات اللهو وما إلى ذلك.. لو كنت من الكلبيين فرشنا لك خرقة على الباب ووضعنا لك قطعة من العظم فى وعاء مهشم.. لو كنت من أتباع (فيثاغورس) وضعنا لك آلة وترية مع مثلث وفرجار وبعض الأدوات الهندسية، كى تجدى التسلية باعتبار أن الفن للفن..
- ولو كنت من السوفسطائيين؟
- لدينا فيلسوف سوفسطائى هنا يمكن أن يسليك طيلة الليل بمعضلات عقلية لا حل لها.. الخلاصة أن المسألة ليست مزاحًا.. نحن محترفون ونحب إرضاء الزبون خبيبي.. ترى ما هو مذهبك؟
فكرت حينًا ثم قالت فى ضيق:
- ليس لى مذهب بعد.. أحاول أن أتعلم..
قال وهو يناولها مفتاح غرفتها:
- حاول أن تجد واحدًا بسرعة.. إن اليوناني بلا مذهب فلسفى هو إنسان ضائع.. إنسان فى

ورطة..
دخلت إلى الفراش، وكانت مرهقة بحق بعد يوم كامل من المشي فى الأكاديمية والليسيه..
كانت قدماها تنبضان كأن لها قلبًا فى كل قدم.. ورأسها يدق بإيقاع محبب خاص به.. سوف تتعلم الفلسفة ولسوف تواجه واقعها.. ستصير أقوى.. لن يجسر أحد على........
هنا انفتح الباب بقوة فهبت مذعورة.. كان جوار رأسها دن من الفخار امتلأ بالماء فطوحت به بقوة وبلا تفكير فى وجه الرجل الذى اقتحم الباب..
لحسن الحظ لم يصبه وارتطم بالجدار ليتهشم إلى ألف قطعة.. لكنها استطاعت أن ترى أنه رجل عجوز طيب لا يبدو خطرًا، وهو يحمل شمعة..
أما أجمل ما فى الأمر فهو إنه يلبس برميلًا.. نعم.. يلبس برميلًا خشبيًا يستعمله كدرقة السلحفاة.. فتخرج منه قدماه ويداه ورأسه.. كأن هذا مشهد من أحد أفلام الفارص Farce الكوميدية..
نظر لها الرجل - الذي لا بد أنه فيلسوف - وجال بعينيه فى أرجاء الغرفة ثم قال بأسى:
- ألا يوجد هنا شخص أمين؟ شخص واحد أمين؟
ثم غادر الغرفة.. وجلست هى فى الفراش تفرك عينيها غير متأكدة مما إذا كان هذا حلمًا أم كابوسًا أم حقيقة..
- معذرة أيتها الحسناء..
قالها صاحب الخان وهو يقف على الباب ممسكًا شمعة أخرى.. وأردف:
- نسيت أن أحذرك من زيارة (ديوجين Diogenes).. إنه يقتحم البيوت والغرف فى هذه الساعة من الليل باحثًا فى ضوء شمعة عن رجل أمين! هذه عادته خبيبى..
جمعت الملاءة على صدرها وتساءلت:
- ولم يجده بعد كل هذا البحث؟
- إنه يحاول.. لكنه لم يجده حتى هذه اللحظة.. لا أحتاج إلى أن أكون فيلسوفًا كي أعرف هذه النتيجة بنفسي.. والآن تصبح على خير خبيبي..
اليوناني بلا مذهب فلسفى هو إنسان فى ورطة.. كررت هذه العبارة لنفسها وابتسمت..
فى الصباح خرجت (عبير) من الخان لتجد هذا الـ (ديوجين) يجوب الطرقات فى البرميل الذى يلبسه.. الآن تتذكر من هو.. لقد رسمه رسامون كثيرون.. لكنهم لم يتفقوا حول شكل البرميل.. هل هو يلبسه كدرقة السلحفاة أم يعيش فيه كأنه غواصة صغيرة مجهزة بفراش ومكتبة ومنضدة كتابة..
هذا هو النموذج الأصدق للفلاسفة الكلبيين Cynics الذين يرون أن حياة الكلب هى المثل الأعلى.. الكثير من التسول والزحف على الأرض.. مع المزيد من (الكلبية) طلبًا للكمال.. لا أكل.. لا ثروة.. لا زواج.. الكلب سعيد راض بحاله وكذا يجب أن يصير الإنسان..
غريب أمر هؤلاء.. وخطر لها أن حظ المجاذيب الذين يجوبون الأزقة خلف مسجد (الحسين) تعس حقًا.. لو ولد هؤلاء فى اليونان القديمة لصار لهم أتباع وتلاميذ..
كانت هناك فى حارتها امرأة متسولة.. تتسول طيلة الأسبوع ثم تبتاع بما جمعته من مال سمنًا.. ماذا تفعل بالسمن؟ تسكبه على رأسها طبعًا! ولا تسألنى عن السبب..
كان اسم المرأة (أم رزة).. ولو عاشت فى اليونان قديمًا لصار لها أتباع وتلاميذ وأكاديمية.. ولصارت مذهبًا فلسفيًا يطلق عليه (الرزيون) أو (السمنيون)..
ثمة موكب مهيب يتقدم..

فى المقدمة جواد أبيض شامخ يركبه رجل قوى وسيم واضح السلطة والذكاء.. لا يهم أن تعرف اسمه.. يكفى أن تعرف أنه حاكم..
يتوقف الموكب أمام الفيلسوف الواقف فى برميله على الأرض بلا مبالاة.. اقتربت (عبير) لتسمع هذه المحادثة المثيرة بين الفيلسوف الكلبى والحاكم.. من المثير دومًا سماع المحادثات بين السلطة والفلاسفة..
قال الحاكم من فوق صهوة جواده:
- أين وطنك يا (دويوجين)؟
نظر الفيلسوف لأعلى ثم قال فى ضيق:
- أنا مواطن عالمي أنتمى لكل البلدان!
- وهل يوجد شيء كهذا؟
- هذا أقوى وضع ممكن للإنسان.. هكذا لا يمكن نفيى.. لو نفتني السلطات إلى أي بلد فأنا فى وطني!
- يمكننا إعدامك لو شئنا..
- وما المشكلة في إعدام كلب؟ كما يقولون (كلب وراح)!!
فكر الحاكم قليلًا وبدا أنه يتسلى بالوضع.. هذا الفيلسوف لا خطر منه ومسل كأي مهرج فى بلاط سلطان.. إن إظهار الغضب مع رجل كهذا أقرب إلى الضعف منه إلى القوة والهيبة.. لا بد من الابتسام.. الكثير من القوة..
- قل لى يا (ديوجين).. تمن أى شيء وسأحققه لك..
- أى شيء..
- نعم.. الذهب.. الفضة.. الضياع.. أي شيء..
فكر الفيلسوف قليلًا ثم قال فى حذر:
- لا أتمنى إلا أن تنصرف يا مولاي لأنك تحجب الشمس عنى!
كادت (عبير) تنفجر ضحكًا.. الورطة الحقيقية التى يواجهها أى حاكم هي أن يقابل رجلًا لا يخشاه فعلًا.. رجلًا لا يريد شيئًا منه فعلًا..
هنا سمعت الفتى (مينوس) يتكلم من ورائها، فى نوع من الحذر:
- لماذا تقفين هنا؟ لا أعتقد أن الإسكندر الأكبر نسى وجهك!
التفتت إلى الخلف فى ذعر:
- ماذا؟ هذا الحاكم فوق الجواد هو الإسكندر الأكبر؟ ألم يكن طفلًا أمس؟
- لا تنسى أن هذه (فانتازيا).. حيث لا يتصرف الزمن بطريقة طبيعية، ولو كنت مكانك لفررت كأن الجحيم يطاردني..
هنا سمعت صوت الحاكم الآمر يقول:
- أنت يا فتاة! أين رأيتك من قبل؟ اقتربي قليلًا لأرى ملامحك!
هتفت بصوت مرتعش وهي تنظر للأرض:
- لم ترنى يا مولاى.. إنها ظاهرة (ديجا فو Deja vu) لا أكثر..
قال وقد نسى كل شيء عن الفيلسوف:
- لحظة.. ربما كان لقاؤنا فى مدرسة (أرسطو)؟ هل أنت متأكدة من أن؟
هنا كانت قد أطلقت ساقيها للريح..
اصطدمت ببعض سلال مليئة بالبرتقال فوثبت فوقها.. كان هذا حظًا حسنًا لأنها سمعت جند

الإسكندر يتعثرون فى البرتقال.. ثم عبرت من خلف عربة محملة بالقش – وهناك دائمًا عربة محملة بالقش - تتحرك لتقف جوار الجدار، وهكذا انغلق الطريق من خلفها..
كانت تعرف تقاليد مطاردات الأسواق هذه..
خاصة إذا كان الأمر نوعًا من أسلوب (اللسان فى الخد Tongue in Cheek) حيث يوجد جو عام من المرح وسرعة الحركة.. لا بد أن تظهر عربة محملة بالخنازير من مكان ما، ولا بد أن تثب إلى ظهر العربة لتختفي وسط الخنازير.. صحيح أن هناك الكثير من القذارة والنجاسة والخوار، لكنها على الأقل ستهرب.. لا تحب كثيرًا أن تقع فى يد الإسكندر الأكبر ليعاقبها على عقد طفولته، خاصة أنها تعرف أن أحدًا لم يضربه صبيًّا باستثنائها.. كان بعض أمراء القرون الوسطى يتلقون العلم مع عبد مخصص لهذه الأمور، فإذا استحقوا العقاب تلقاه العبد بدلًا منهم.. لا بد أن الإسكندر لم يكن استثناء..
الآن هى وسط الخنازير تكتم أنفها، وتعترف بأن دراسة الفلسفة لم توصلها إلا إلى هذا المكان..
ترى ماذا يمكن أن تجده فى هذا العالم بعدما شبعت من الفلسفة اليونانية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- هكذا تكلم زرادشت..

وهكذا احتل الثعلب مكان النسر.. لقد كان انتقامًا بارعًا من جانب الجبناء ضد ذوى الجرأة والجسارة.. لقد أبعد السادة الأقوياء وانتصرت أخلاق الرعاع..

نيتشه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتنزل (عبير) من عربة الخنازير التي فرت بها من الإسكندر.. صحيح أنها لم تعد جميلة ولا أنيقة، لكن لا يبدو أن هناك من يبالى بها.. إنها فى مكان ما من أوروبا.. ربما فى القرن التاسع عشر أو الثامن عشر.. لقد كان فرارها عبر الزمن كما كان عبر المسافات كما هو واضح..

أين هي؟ ما هي البداية الآن؟

ثمة صوت هدير.. الأرض تهتز بشدة.. غبار يتصاعد فى الأفق..

ركعت على ركبتيها بشكل غريزي.. لا يمكن أن يكون هذا جيش (الإسكندر) إلا لو كانوا اخترعوا الدبابات.. ولكن.. دبابات؟

بالفعل هناك صف منها يتقدم.. دبابات عتيقة يبدو أنها تعود للحرب العالمية الثانية.. جنازيرها لا تكف عن الأنين.. صليب القوات البرية الألمانية على كل دبابة، وآلاف المشاة يلبسون الخوذات الألمانية الغريبة والمعاطف، ويمشون بخطوة الأوزة الشهيرة.. وصيحات عسكرية بالألمانية من تلك التى تبدو لأذنك كأنها طلقات مترليوز.. إن الألمانية واليابانية لغتان صالحتان فعلًا للعسكرية.. يكفى أن تسمع لفظة (آختونج) أو (هالت) بطريقتهم ليتجمد الدم فى عروقك..

لم تدر ما دخل هذا المشهد المهيب فى الفلسفة.. لكنها على الأقل كانت واقفة وسط المروج تراقب هذا الجيش العرمرم يتقدم فى الوادي من تحتها..

هنا شعرت بمن يتقدم ليقف جوارها..

كان رجلًا متوسط الطول نحيلًا، يقف فى وضع متصلب متشنج وقد فرد يده اليمني فى حركة مميزة.. ورأت شاربه الرفيع المضحك فعرفت على الفور أنها قابلته من قبل.. بل كانت حبيبته كذلك!

- هايل (هتلر)..

نظر لها بسرعة ثم عاد يحيى جيوشه الزاحفة.. وهتف:

- تقدموا يا أبناء الجيش الآري! ألمانيا فوق الجميع! لا تأخذنكم شفقة بضعيف أو مريض أو عاجز.. إن الحياة مهيئة لكم مفتوحة أمام جحافلكم..

هذه المرة لاحظت أن هناك رجلًا آخر قصير القامة، له شارب كث غريب.. لقد قابلته من قبل فى نادى الفلاسفة الغربيين.. لكنها نسيت اسمه..

كان يرمق المشهد فى رضا.. وهلل قائلًا لـ (هتلر):

- مرحى.. مرحى! أنت فهمت تعليماتى جيدًا.. هكذا تكلم زرادشت Zarathustra)!

وفجأة تحسس رأسه.. من الواضح أن نوبة صداع عنيفة قد داهمته..

أخرج (هتلر) منظارًا مقربًا، وراح يتفقد المشهد ثم قال:

- إنني أضع كتابك تحت وسادتي يا (نيتشه Nietzsche).. أقرؤه كل ليلة.. لم أنس حرفًا فيه..

دوت الانفجارات فراح (هتلر) يرقص طربًا.. الموت ل. (تشيكوسلوفاكيا).. الويل ل. (بولندا).. تسقط فرنسا!
اقتربت من الفيلسوف الذى راح يداعب شاربه فى استمتاع، وقالت:
- هل يضايقك لو سمعت فلسفتك؟ على قدر علمى لم يؤثر الفلاسفة فى حركة التاريخ البشرى إلى هذا الحد من قبل.. يبدو لى أنك رجل خطير..
قال لها فى رضا:
- هناك أمثلة أخرى مهمة فى التاريخ، لكن هذا مثال قوى.. يمكنك أن ترافقيني بعض الوقت..
وحيا (هتلر) بتلك الطريقة العصبية التي صارت شعارًا للنازية، ثم ابتعد وهى تمشى معه.. كان المرج يمتد أمامها هادئًا مسالمًا.. الجحيم هناك فى الوادي بينما السلام والأمن هنا..
سألته فى حذر:
- لا أريد أن أكون وقحة.. لكن ما سر الشارب المضحك؟ إنه يبدو كفرشاة تنظيف البلاط..
تحسس شاربه فى فخر وقال:
- كان لى فم حساس وعينان حادتان ثاقبتان.. هكذا قررت أن أطيل شاربي ليخفى فمي تمامًا.. إن هذا يجعل وجهى بادى القسوة لا يكترث بشيء.. ألا ترين هذا؟
- مازلت أشعر بأنك ألصقت فرشاة تنظيف بلاط تحت أنفك..
- هذا لا يهم.. أنت حمقاء لأنك امرأة..
ثم صاح ينادى رجلًا يقف بعيدًا..
- (زرادشت).. أيها العبقرى! تعال!
من موضعه دنا الرجل.. كانت له لحية طويلة مضفرة وثياب غريبة، وكانت فى يده أفعى حية.. باختصار كان يبدو ككاهن وثنى أو كأحد الأشوريين الذين تراهم فى النقوش.. هل تريد رأيى؟ كان يبدو مثل (كسرى أنوشروان) كما يظهرونه فى التمثيليات الدينية أو التاريخية عندنا..
قال (نيتشه) يقدم لها الرجل:
- هذا هو (زرادشت).. أحد حكماء الفرس القدامى، وهو بريء من أكثر ما قلته على لسانه، لكنني استعملته ليقول كل ما أردت قوله.. كان كتابي (هكذا تكلم زرادشت) شديد الأهمية، وقد طبعت منه أربعين نسخة لكنى لم أستطع بيعها برغم ذلك! هلا قدمت له نفسك؟
هزت (عبير) رأسها فى أدب:
- أنا (عبير).. (عبير عبد الرحمن)..
قال (زرادشت) فى اشمئزاز:
- أنت امرأة.. وأنا لا أعتبر المرأة إلا وعاء للحمل يترعرع فيه الجنس الأسمى.. السوبرمان.. إن قلب الرجل مكمن القسوة أما قلب المرأة فمكمن الشر.. فيما عدا هذا فلا قيمة لها، ونصيحتي للناس هى: إذا ذهبت إلى المرأة فلا تنس السوط!
كان مجاملًا بحق لهذا هزت رأسها، وقالت:
- شكرًا..
صاح (نيتشه) فى مرح:
- دعينا نمش مع (زرادشت) ولسوف نتعلم منه فى كل دقيقة شيئًا جديدًا..
وتحسس رأسه.. لو كانت (عبير) طبيبة لحسبت الرجل مصابًا بورم فى المخ.. لم يكن الأمر كذلك، لكن أكثر الأطباء قالوا له هذا مما جعله يعيش فى انتظار الموت..

هكذا مشى الثلاثة وسط المرج متجهين إلى جبل عال.. (عبير) و(زرادشت) ومخترع

(زرادشت).. إن سمعة (نيتشه) سيئة جدًّا باعتباره الفيلسوف الذي دعا إلى مذهب القسوة والعنف.. وفي أوروبا يعتبرونه الأب الروحي للنازية.. بل إنه كان كئيب السحنة منذ ولد.. حتى قيل إنه الطفل الوحيد الذي ولد مهمومًا!
عند سفح الجبل توقف (زرادشت) عن المشي.. وانحنى يبحث عن شيء فى الكلأ.. فجأة أطلق صرخة..
- ثعبان!
لم تر (عبير) شيئًا غريبًا فى الأمر.. فهو يحمل ثعبانًا من البداية.. لكن يبدو أن عضة الثعابين الغريبة تكون أخطر.. مد يده فالتقط الزاحف البشع، وقال له:
- لطيف أنك لسعتني.. فنبهتني..
قال الثعبان:
- للأسف لن تشكرني طويلًا لأن سمى زعاف قاتل..
ابتسم (زرادشت) وقال:
- هل للسم أن يقتل تنينًا؟ خذ سمك أيها الثعبان، فلست ثريًّا حتى تقدم لى هدية..
هكذا راح الثعبان يلعق السم من على يد (زرادشت)..
التفت (زرادشت) إلى (عبير) وقال:
- لو كان لك عدو فلا تقابلى شره بالخير.. تظاهرى بأنه أفادك بعمله هذا.. وإذا ما نزلت بك مظلمة فقابليها بمثلها وأضيفى إليها خمسة مظالم صغيرة، لئن ينتقم الإنسان فهذا أقرب إلى الخير.. وليس من الإنسانية أن يترفع مظلوم عن الانتقام!
هتف (نيتشه) بالألمانية بما معناه: يا سيدي! أعد!
أما (عبير) فرأت أن فى هذه الفلسفة الطريق لخراب العالم.. الحقيقة أن (نيتشه) كان يدعو لفلسفة قاسية قوامها التخلص من الضعف البشرى.. لا رحمة.. القوة هى الأساس.. والأقوياء يجب أن يمارسوا قوتهم لأن هذا حقهم الطبيعي، فلا يتركوا الضعفاء الأغبياء (الثعالب) يحرمونهم هذا الحق.. طبعًا لا داعى لذكر أن الإلحاد يشيع فى كل حرف من كتابات (نيتشه).. لا أستطيع ترديد ما قاله لكنه يؤمن أن رجال الدين ابتكروا الدين ليخدعوا الأقوياء وينتزعوا منهم حقوقهم.. فى رأيه أن رجال الدين لم يكونوا يملكون قوة الجسد فاستعملوا عقولهم، واخترعوا سلاح (التقوى والصلاة) وأشاعوا أن الضعفاء والفقراء هم الأخيار، بينما الأقوياء والأغنياء هم أصل البلاء..
حسب فلسفة (زرادشت) يتم الانتقاء الطبيعي، ويظفر الأقوياء بحقوقهم ومزاياهم ويتم انتقاء الكائن الأفضل.. فى النهاية نصل إلى الشخص الأعظم: سوبرمان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فلتحل اللعنة على من لا يتحملون فلسفتي، أما الذين يقدرونها حق قدرها فقد كتب عليهم أن يصبحوا سادة العالم!

نيتشه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (نيتشه) كأنه أب فخور يسأل طفله تسميع جدول الضرب أمام الضيوف:
- حدثها عن الروح يا (زرزر)..

(زرزر)؟ تدليل (زرادشت)؟ الحقيقة أن تدليل هذا الفيلسوف الفارسي ذي اللحية المجدولة أمر لا يطاق.. لكنه - برغم كل شئ - ابن (نيتشه)..
قال (زرادشت) وهو يتأمل فى السماء:
- الطفل جسد وروح.. أما البالغ الناضج فجسد فقط! إن الجسد يتكون من عدة آلات بينها الروح.. والعقل هو الذى يسيطر على هذه الآلة.. إن الذات العليا المسيطرة على جسدك هي جسدك ذاته!
نظرت (عبير) فى رعب إلى (نيتشه).. هذا فليسوف توصل بعد دراسات مرهقة إلى أن الروح جزء من الجسد.. كان رأيها دومًا أن هؤلاء الفلاسفة مخابيل.. لو تركت نفسها للأمر لما جرؤت على أن تعتبرهم مخابيل، لأن المدرسة الشكوكية ترفض أن يعتقد الإنسان أى شيء..
ويواصل (زرادشت) صعود الجبل.. لقد بدأ الأكسجين يندر، وبدأت تلهث.. يبدو أن هذا أسلوب الفلاسفة الألمان.. كان اليونانيون يمشون مشيًا لم يمشه جمل فى الصحراء أما هؤلاء فيتسلقون..
سمع (زرادشت) لهاثها وسعال (نيتشه) فقال:
- إن عدد من يتسلقون معي ذرى الحكمة ينقص كلما ازددت ارتفاعًا.. لكنى ذاهب هناك لألقى الإنسان الأعلى (سوبرمان)..
راح (نيتشه) يسعل ويبصق.. لكن (زرادشت) واصل التفلسف بلا انقطاع..
إنهم الآن فوق قمة الجبل.. والفيلسوف ذو الشارب الكث يتحسس قلبه ورأسه.. نوبة قلبية وصداع فى وقت واحد.. هذه عبقرية! كان طيلة حياته معتل الصحة.. ومن المثير أن تتخيل ما كان سيحل به فى مجتمع يزدرى الضعف الجسدي..
في النهاية صرخ فى وهن وسقط على الأرض..
صرخت (عبير) بدورها تنادى (زرادشت).. لو كان عبقريًا إلى الحد الذي يعتقده فلابد أنه يعرف كيف يعالج نوبة قلبية.
- افعل شيئًا!
- سأفعل..
وببطء تقدم نحو (نيتشه) الراقد على الحافة.. رفع قدمه المكسوة بصندل فارسى انيق - وإن كنت لا أعرف كيف يبدو - وضغط على يد الفيلسوف بقوة وقال:
- إنني والحق أكره الرحماء.. احترسوا من الرحمة لأنها لا تلبث أن تعقد فوق الإنسان غيمًا متلبدًا.. إن المحبة الأعظم تتعامى عن الرحمة، لأن لها هدفًا أسمى هو خلق من تحب!
قال (نيتشه) رافعًا رأسه.. لولا الضعف والألم لبدا مغتاظًا:
- كف عن الفلسفة لحظة واحدة يا أحمق وانتشلني!
قال (زرادشت):
- لا تجامل قريبك.. لأن الإنسان قنطرة يجب علينا تجاوزها للتفوق عليه.. تفوق على نفسك فى ذات قريبك فلا تدعه ينل حقًا تستطيع أنت أن تناله..
صاح (نيتشه):
- جميل.. جميل.. آى! ولكن ما رأيك لو خرست قليلًا وساعدتني؟
واصل الحكيم الفارسي الكلام وهو يركل الفيلسوف المريض بقدمه:
- إذا ما رأيتم شخصًا متداعيًا يوشك على السقوط، فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه.. فإن عجزتم عن تعليم إنسان الطيران، فعلى الأقل علموه أن يسقط بسرعة!!!

قالها وأمام عينى (عبير) المذهولتين ركل (نيتشه) فى خصره، فسرعان ما تدحرج هذا من فوق الحافة.. ولم يجد الوقت الكافي ليصرخ أو يتعلم الطيران..

- هكذا تكلم (زرادشت)!!

أنهى الحكيم الفارس موعظته الطويلة بهذه العبارة التى يوقع بها سمعيًّا على فلسفته..

إلى حد ما لم يبد هذا العقاب ظالما ل (نيتشه).. من حظه الأسود أن (زرادشت) التزم بتعليماته حرفيًّا.. فلو قابل فى هذه اللحظة شخصًا رحيمًا رقيق القلب يؤمن بأن (نيتشه) حمار لبقى حيًّا..

- فلتحل اللعنة على من لا يتحملون فلسفتي، أما الذين يقدرونها حق قدرها فقد كتب عليهم أن يصبحوا سادة العالم!

هذه كلمات (نيتشه) الرقيقة فى أحد كتبه.. (هتلر) قدر هذه الفلسفة حق قدرها.. وإن كان لم يصر سيد العالم.. فقط دهن نصف الكرة الأرضية باللون الأحمر ثم انتحر.. واقتضى الأمر خمسين عامًا وأطنانًا من مساحيق التنظيف حتى تم غسل هذا اللون الأحمر..

وبدأت (عبير) تنزل من القمة..

ولم تنظر للوراء..

صاح (زرادشت):

- ألن تنتظري مجيء السوبرمان معي؟

- فيما بعد.. فيما بعد..

لأنها كانت قد رأت ما يكفى من (نيتشه)..

ولأن موعدها مع (شوبنهاور Schopenhauer) كان قد اقترب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الحياة شر..

لو كنت ملكًا لكان أول أمر أصدره إلى رعاياى هو: دعوني وحيدًا!

شوبنهاور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (شوبنهاور) يمشى فى شوارع (برلين) بمنظره الغريب، فتنبح الكلاب ويصرخ الأطفال ويصابون بالسكتة القلبية.. بينما ترتجف الفتيات.. الحق إن مسخ (فرانكنشتاين) لو مشى فى هذه الشوارع لما أحدث هذا التأثير الذي يثيره هذا الفيلسوف.. والأغرب أن معه كلبًا صغيرًا غريب المنظر بدوره..
حين رأته (عبير) عرفته على الفور.. إنه الرجل ذو السالفين الكثين اللذين يذكرانك بقرود البابون.. بالإضافة إلى نظرته النارية المجنونة وجبهته العالية السامقة..
كان يمشي فى الشارع هامسًا بصوت غليظ:
- صبرًا يا أمي! سترين.. سأنتقم منك!
الحق أن علاقة هذا الفيلسوف بأمه فريدة من نوعها.. كراهية متبادلة لا يمكن وصفها.. وقد أنجبت هذه الكراهية فلسفة كئيبة قاسية تذكرك بفلسفة (نيتشه).. وما أدركته (عبير) لدهشتها هو أن هذا الرجل سيئ الخلق شديد الفظاظة كما يقول منظره بالضبط.. وكانت تتوقع ألا يكون عنيفًا كفلسفته.. لقد كسر ذراع صاحبة المنزل الذي يعيش فيه، وهكذا حكمت المحكمة عليه بأن يعلوها طيلة حياته.. ومن سوء طالعه أن العجوز كانت معمرة لدرجة أنه أقام احتفالًا يوم ماتت بعد أعوام لا حصر لها!!
الحقيقة أن (نيتشه) تأثر كثيرًا بفلسفة (شوبنهاور).. لكن هناك فارقًا مهمًا بين الاثنين سنعرفه حالًا..
اقتربت (عبير) راجفة من الرجل، وابتلعت ريقها وقالت:
- هر (شوبنهاور).. أنا (عبير)..
- وما فى ذلك؟
وتطاير الشرر من عينيه، فقالت وهي تتراجع للوراء خطوة:
- المفروض أن أتتلمذ على يديك..
- لا خير لك فى فلسفتى يا فتاة.. فهي قاسية كئيبة.. إن فلسفتي قائمة ببساطة على الإنكار.. إنكار كل شيء.. هل تريدين أن تصيري تلميذة لى؟ إذن موتى! الموت هو العودة بالحالة القلقة إلى السلام الكربوني الأولى!
- إذن دعنى أصغ قبل أن أموت.. ولكن اسمح لى أولًا أن أعرف سر غرابة شكل سالفيك..
قال فى عصبية:
- وما شأنك بهذا؟ على كل حال أنا لا أثق بأى مخلوق فى العالم، وبالأخص موسى الحلاق..
ثم مد يده إلى جيبه فأخرج كيسًا مدبوغًا من الجلد مليئًا بالماء، فقربه من شفتيه وشرب..
إنه يخاف المرض إلى أقصى حد.. لهذا لا يريد المجازفة بلمس كوب ماء ربما لمسته شفتا شخص آخر.. بل إنه كان يدخن الطباق بغليون طوله متر ونصف، كي يضمن أن الدخان برد فلا يصيبه بالسرطان!

- خلاصة فلسفتي هي أن الحياة شر خالص وأنها يجب أن تنتهى..
رأت (عبير) رجلًا قادمًا من نهاية الطريق، وقد بدا عليه توتر شديد.. فلما اقترب صاح (شوبنهاور) فى اشمئزاز:
- ناشري.. ماذا وراءك؟
دنا الرجل أكثر ووقف قرب (شوبنهاور) وإن كان على مسافة تتيح له الفرار، وقال:
- كتابك (العالم إرادة ورأى).. بصراحة يجب أن أعترف لك.. لم نبع منه إلا بضع نسخ.. وقد اضطررت فى النهاية إلى إحضار تاجر كتب يحمل ميزانًا، وقمنا بوزن الكتاب ثم...
- هل جننت!!
وبرغم حذر الناشر فإنه وقع بين يدى (شوبنهاور) الغليظتين.. فاعتصر هذا الأخير ياقة سترته وراح يهزه للأمام والخلف كأنما يصنع منه جبنًا..
قال الناشر وهو لا يكف عن الاهتزاز:
- اسمع.. المقدمة التي كتبتها مستفزة جدًّا.. تصور أنك تقول فى مقدمة الكتاب.. لقد نسيت كلماتك..
قال الفيلسوف البلطجي:
- كل من أتم عملًا عظيمًا لا يضيره عدم إقبال الجماهير عليه، كما لا يضير العاقل تهجم المجانين عليه فى مستشفى المجاذيب!
- وتريد أن تجذب القراء بهذه المقدمة؟
هنا ازداد جنون الفيلسوف فراح يعتصر ياقة الناشر بعنف أكثر، ثم مد يده فى جيبه وأخرج مسدسًا.. فصرخت (عبير).. إن أساليب فلسفة هذا الرجل غريبة نوعًا..
صاح صائح من الناحية الأخرى من الطريق:
- كف أيها المجنون!
هنا فقط تخلت قبضة الفيلسوف عن الناشر، ونظر إلى المتكلم ثم ضاقت عيناه فى استمتاع وحشى:
- (هيجل Hegel)!! والله زمان!
- أنت عار على الفلسفة بتشاؤمك!
- وأنت لا تفقه شيئًا بتفاؤلك هذا!
كان الناس قد بدءوا يتجمعون حول الفيلسوفين يصغون لهما، مما ذكر (عبير) بالزحام المماثل حول السفسطائيين فى (أثينا).. الواقع أن (شوبنهاور) لم يخف يومًا احتقاره الشديد ل (هيجل) بفلسفته المليئة بالأمل.. وكان يحدد لمحاضراته نفس وقت محاضرات هذا الفيلسوف..
قال (هيجل) للناس الواقفين حوله:
- أنتم تعرفون أنني أدعو للفلسفة المثالية Idealism.. الحقيقة عملية متغيرة، أما الشيء الوحيد الثابت فهو قوة كونية عليا.. الحقيقة تنشأ من عملية ثلاثية هى الطريحة Thesis.. والنقيضة Antithesis.. وناتج الجمع بينهما Synthesis.. كل ما هو حقيقى معقول وكل ما هو معقول حقيقي.. والدولة هى النموذج الأعلى لهذه العملية حيث تولد الحقيقة ببطء من عمليات صراع متوالية..
ثم استبدت به الحماسة فصاح:
- الإنسان وحده لا يساوي شيئًا.. فقط يسترد قيمته إذا صار عضوًا فى مؤسسة أو نظام أو جمعية.. لا بد لكل سيارة من أن تحمل رقمًا وإلا هى ليست سيارة على الإطلاق ولا حق لها فى

الوجود!
تصايح الناس فى حماس برغم أن (عبير) لم تفهم الكثير..
هنا صاح (شوبنهاور) الغضوب فى الناس الواقفين حوله:
- هذا كلام نظري يصعب فهمه ويستحيل تطبيقه.. بينما الحقيقة هى التشاؤم.. أنا أهديت إلى العالم من قطوف عبقريتي فلسفة الإرادة.. إرادة الحياة الموجودة فينا والتي ترغمنا على أشياء غير منطقية.. نحن لا نريد الشيء لأن عقلنا يريده، بل لأن إرادة الحياة تريده فتسخر عقولنا كي تريده! إرادة الأكل هى التى رسمت شكل الفم والأسنان وإرادة النمو هى التى تجذب النبات نحو الشمس.. إرادة الحياة هذه صراع طويل لا جدوى منه.. بلا دافع ولا غرض ولا حدود.. ثم ينتهى الأمر ونموت وتنتصر إرادة الديدان!
تصايح الناس المحيطون به فى حماس:
- صدقت! أنت عبقرى!
كان هذا تقريبًا ما يؤمن به (نيتشه) لكن هذا الأخير كان يريد أن تنتصر إرادة الحياة على يد الأقوياء، بينما (شوبنهاور) كان يريد القضاء عليها للأبد..
تحمس الفيلسوف الغاضب أكثر.. فمد يده واعتصر عنق (عبير) التي صاحت لكن قبضته القوية لم تدع لها فرصة:
- الخدعة الكبرى فى حياتنا هى المرأة.. إنها تتزود لسنين معدودة بالجمال والسحر حتى يتزوجها الرجال.. ثم سرعان ما تنجب وتفقد الفراشة الجميلة أجنحتها، وتنقل الرسالة إلى أطفال أجمل منها.. بهذه الكيفية تستمر إرادة الحياة للأبد ولا تتوقف.. هكذا نحن نقع فى فخ الطبيعة غافلين.. ولا أعرف كيف يمكن أن يحب المرء هذه الكائنات ضيقة الكتفين ضئيلة الحجم قصيرة الساقين!
نظرت (عبير) لنفسها، لم تكن مشوهة بشعة إلى هذا الحد، وخطر لها أنها ستلاقى الكثير إلى أن تقابل فيلسوفا يحترم المرأة فعلًا.. (سقراط) يعتبرها كارثة تحفز على الإنتاج الفلسفي على سبيل الهرب.. (أفلاطون) يراها شيئًا مقززًا.. (نيتشه) يراها مكمن الشر ولا تصلح إلا للحمل.. هذا كثير..
ويواصل (شوبنهاور) الكلام بصوت عال كى يغطى على (هيجل) خصمه اللدود:
- الحياة بندول يتأرجح بين ألم الحرمان وألم الشبع.. بين اشتهاء شىء والزهد فيه.. لقد خلق الإنسان للألم..
سعل أحدهم بجواره فارتجف.. وتراجع للوراء، وقال فى غضب:
- يا لك من أحمق! ألم تسمع عن العدوى؟
كان هذا تناقضًا لا بأس به.. فهذا الرجل الذى يتمنى القضاء على الحياة وأن يكف الناس عن التناسل، يخاف أن يصاب بمرض صدري.. وهذا الرجل الكاره للبشر يسعده كثيرًا أن يسمع صيحات الإعجاب وأن يرى اسمه فى الصحف.. لكن هذا مفهوم فى العباقرة على كل حال، وقد قالها (أفلاطون) منذ قرون: أكثر العباقرة ضعاف الأخلاق محتقرون، وربما أشرار أيضًا! لم يحدث أن انطبقت هذه المقولة العبقرية على أحد أكثر من (شوبنهاور) و(بيتهوفن)..
تصايح الناس من حول (شوبنهاور):
- صدقت! إن الحياة شر يجب أن ينتهى!
وصاحت فتاة مدللة ملطخة بالأصباغ:
- ياى! أنا أكره البشر! لا أطيق أى كائن حي!

الحقيقة أن (شوبنهاور) قد نشر فى أوروبا كلها موضة (كراهية البشر).. لا أعتقد أن العجوز (رفعت إسماعيل) معجب ب. (شوبنهاور) لكنه ينفذ تعليماته إلى حد ما.. وصارت مقولة (الحياة شر) نوعًا من تحية الصباح.. إن التشاؤم سهل وأقرب إلى طبيعة البشر الهشة أما التفاؤل فعسير يحتاج إلى جهد حقيقى..

هنا سمع القوم من تقول:

- (آرثر)! أين أنت؟ بحثت عنك كثيرًا جدًّا!

نظروا فرأوا فتاة قبيحة شابة لها سمت الخادمات تشق الزحام وهى تحمل طفلًا.. والطفل لا يكف عن العواء..

بدا الارتباك على (شوبنهاور)، وحاول التراجع لكن الفتاة صاحت:

- ما دمت صرت ثريًّا شهيرًا، فقد صار بوسعك أن تنفق على ابنك!

تصايح الناس فى دهشة.. فيلسوف العدم المصر على إبادة الحياة، له ابن وهو لا ينفق عليه برغم ثرائه وبخله الشديدين..

ورأته (عبير) يتشاجر مع الفتاة ويقول لها كلامًا من طراز (ماذا جاء بك هنا يا ولية؟ هل جئت لتفضحيني؟).. إلخ.. موقف غير فلسفى على الإطلاق..

هكذا أيقنت أنها اكتفت من فلسفة (شوبنهاور) و(هيجل).. بالنسبة لهذا الأخير لم تكن على استعداد لفهم هذا الميكانيزم الثلاثي الذي يبشر به.. لهذا قررت أن تنسحب وتجرب حظها مع فيلسوف آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الآخرون..

1 = 1+ 1

سارتر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الأيام التالية قابلت فلاسفة كثيرين جدًّا، وتداخلت الأسماء والآراء حتى إنها أشفقت على دارسى الفلسفة.. أشفقت عليهم إلى أن يبدءوا فى تأليف فلسفتهم الخاصة.. يبدو أن هذا داء مزمن فى هذا العلم.. الضحية تبتاع سوطًا بمجرد أن تترك وشأنها..

قابلت الفيلسوف الألماني (كانط Kant) وكان فى مختبر يمسك بقطعة من الورق وشمعة..

قال لها وهو يثبت المونوكل على عينه:

- الآن سألمس الورقة باللهب.. فماذا يحدث؟

نظرت له فى حيرة وغباء، ثم قالت:

- يا سلام! تحترق طبعًا..

صاح فى غضب:

- لا.. لا.. لابد من التجريب.. هناك جزء من الاستدلال العقلي فى الموضوع لكن لا بديل عن التجريب!

- إذن لا دور للعقل هنا..

- كلا.. العقل يعطى بعض النتائج مقدمًا.. لكن الأشياء التى تقع خارج نطاق التجربة البشرية لا يمكن معرفتها.. هل مت من قبل؟

فكرت حينا ثم قالت فى ثقة:

- لا أعتقد..

- إذن من المستحيل أن تعرفي كنه الموت.. الروح وسر الكون أمور لا يمكن تجربتها.. (أشياء فى حد ذاتها) كما يحلو لى أن أسميها.. هذه الأشياء تشكل ال (نومنون Noumenon).. أى مفهوم الشىء.. وهذه لا يمكن إثباتها إلا بالعقل..

في هذه اللحظة كانت الشمعة قد لمست الورقة فراحت تحترق..

بلغت النار أنامله فصرخ وراح يعوى، ويتواثب فى الغرفة، فقالت (عبير) فى لهجة باردة:

- تجربة ناجحة! أنت الآن تعرف جيدًا أن النار تحرق الورق!

قال وهو لا يكف عن الأنين:

- كانت هذه معضلة فلسفية حقيقية وقد حللتها!

خرجت (عبير) من عند الفيلسوف فاتجهت إلى أقرب صيدلية، وابتاعت مهدئًا قويًّا..

فتحت العلبة وابتلعت قرصين من غير ماء.. إن هذا العالم سيقضى عليها فعلًا.. الغريب أنها بدأت تفكر بهذه الطريقة الملتوية العجيبة.. هل الدواء موجود لأنه موجود أم موجود لأنها تشعر به بحواسها؟ هل الصيدلي انعكاس أم حقيقة؟ هل الفلسفة أكذوبة كبرى وهى الطفل الذى صرخ: الإمبراطور عار تمامًا؟ أم أنها بالفعل علم عظيم لا يستطيع مخها - الجدير ببرغوث - أن يستوعبه؟

قال لها الصيدلي الألماني وهو يرى رجفة يديها:
- كثير من الفلسفة يا (فرويلاين)؟ هذا متعب حقًّا..
ثم أشار إلى الناحية الأخرى من النهر، وقال:
- جربي الفرنسيين قليلًا.. إنهم يختلفون عن الألمان، وفلسفتهم لها مذاق خاص..
هزت رأسها فى امتنان:
- شكرًا.. سأجرب هذا..
بالفعل لا بد أنها ستعيش حياة أفضل هناك.. فرق كبير بين من يقولون (مدموازيل) و(ميرسى) وبين من يقولون (فرويلاين) و(ضانك).. لا بد أن الفلسفة الفرنسية أكثر نعومة وأناقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها الكهل الفرنسي الوقور وهو يتأمل النهر:
- أنا أفكر إذن أنا موجود..
ثم راح يكرر هذه العبارة مرارًا، وتهلل وجهه طربًا..
- أنا أفكر إذن أنا موجود! هذا هو الجواب الصحيح.. لقد برهنت على وجودي!! الآن يمكن أن أبرهن على أى شيء فى العالم.. لقد وجدت نقطة البدء!
ثم استدار فطبع قبلة على يدها وانصرف..
استدارت تبحث عن شخص تستغيث به للفهم، ففوجئت بأن ذلك الفتى اليوناني (مينوس) يقف جوارها، وهو يمضغ قطعة من الكرواسان، وقد ارتدى ثيابًا حديثة ووضع الكاسكيت الباريسي العتيد على رأسه..
قالت له باسمة:
- لا أعرف كيف تنتقل عبر الأزمان والأماكن، لكنى مسرورة بوجودك..
وأشارت إلى الكهل الذى ابتعد وهو يوشك على الرقص طربًا:
- من هذا الأخ؟
- (رينيه ديكارت Descartes)؟ من الذى لا يعرف (ديكارت)؟ كان يشك فى كل شيء حتى وجوده ذاته.. ثم وجد الحل لهذه المعضلة.. ما دام يفكر فهو موجود..
- يا سلام؟ لو سألني لقلت له هذا وانتهى الأمر..
- هذه هى الفلسفة.. لا يوجد شيء واضح أبدًا.. رجل الشارع الأحمق يعتقد أن كيلوجرامين من اللحم أثقل من كيلوجرام واحد.. الفيلسوف لا يعترف بهذا ويحاول إثبات العكس وغالبًا ما ينجح.. على كل حال الرجل مهم جدًّا، وقد وضع أهم أسس البحث العلمي والطريقة العلمية.. دعك من فلسفته (الثنائية Dualism) التي اكتشفت شيئًا شديد الأهمية.. إن العقل منفصل عن الجسد.. إنها قنبلة فلسفية!
قالت فى غيظ:
- بصراحة لم تعد مرارتي تتحمل كل قنابلكم الفلسفية هذه.. سوف يظهر واحد آخر يخبرني بأن القط يأكل الفأر.. وأن فى يدى خمسة أصابع..
- ربما يأتي هذا اليوم السعيد، إن التقدم لا يقف عند حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبر الشارع المظلم الخالي تقدم الرجل القصير لابس الكاسكيت بدراجته راجلًا.. كان يمشى

جوارها وقد وضع فى سلتها رغيفًا فرنسيًا عملاقًا وزجاجة نبيذ (بوردو).. ووقف للحظة يشعل لفافة تبغ ثم واصل المشي.. صوت (أم كلثوم) فرنسا (إديت بياف) ينبعث من مذياع قريب يقول إن الحياة وردة..
في نهاية الممر تقف شاحنة عسكرية هائلة الحجم يبدو أنها تنتظر شيئًا.. كل سائقي الشاحنات ينزلون ليشتروا طعامًا أو لفائف تبغ..
نظر الرجل القصير ذات اليمين وذات اليسار.. هو ذا يمد يده فى خفة لص، ويخرج منديلًا عملاقًا.. يبلله بمادة من زجاجة فى يده.. يتلفت يمينًا ويسارًا ثم يمد يده إلى غطاء خزان الوقود.. يفتحه.. يحشر المنديل فى الخزان ما عدا طرفه.. يشعل عود ثقاب.. يلامس المنديل المشتعل غير مكترث بآراء (كانط).. ثم..
يولى الأدبار!!
مر جوارها بدراجته وقد ظهرت خطوط السرعة من خلفه كما يحدث فى القصص المصورة.. صاح فيها:
- ابتعدى يا آنسة.. هذا المكان سيتحول إلى..
برووووووم!
جحيم! فعلًا.. لقد انفجر خزان الوقود.. وهرعت (عبير) تركض جواره، فتوقف وساعدها على الركوب من خلفه.. تشبثت به، ثم انطلق بالدراجة بسرعة لا تصدق.. الرجل يلهث من فرط الجهد ولفافة التبغ التي تحرمه الهواء، لكن قدميه لم تغيرا سرعتهما..
اندلعت مع صوت الانفجار صيحات ألمانية.. هنا؟ (أختونج).. (هالت).. (هلفتن).. ثم دوت الطلقات من البنادق الآلية.. هذا هو البروتوكول.. وكل جملة ألمانية يليها سيل من الطلقات..
إنهم النازيون لا شك فى هذا، ولو كانت (عبير) حكيمة مثلنا لعرفت أن هذا الرجل من المقاومة الفرنسية.. كل رجال المقاومة الفرنسية يركبون دراجة ويضعون الكاسكيت ويحملون رغيفًا وزجاجة نبيذ (بوردر).. لو كنت أنا الحاكم النازي لباريس لأعدمت كل من له هذا المظهر، لكن النازيين لم يروا أفلامًا عن الاحتلال النازي لباريس!
صاح الرجل من بين أسنانه:
- أوه.. رباه! لو انتظرونا عند طرف الشارع الآخر لكانت نهايتنا! لقد اخترنا وعلينا أن ندفع ثمن اختيارنا..
لكن قلقه لم يطل، لأن بابًا انفتح وبرز منه أحد لابسي الكاسكيت وإن كان أقوى بنية وأشد مراسًا وصاح:
- بس! (جان بول)! من هنا..
لم يسأل راكب الدراجة مرتين.. سرعان ما دلف بدراجته إلى الباب، ووجدت (عبير) أنهما فى بئر سلم لبناية عتيقة.. وكان هناك رجلان من ذوى الكاسكيت يحمل كل منهما رغيفًا وزجاجة نبيذ (بوردو) ومدفعًا رشاشًا..
ابتسم أحد الرجلين وانحنى يصافحها وطبع قبلة على يدها:
- أوه.. رباه.. لم أتصور أن هذا الجمال فى المقاومة.. إن لها أنفًا كالبوق Nez en trompette.. لم تكن هذه إهانة لكنها مجاملة فرنسية للفتاة ذات الأنف الجميل.. طبعًا ليس الوقت مناسبًا لهذا الكلام الفارغ، لكننا فى فرنسا على كل حال..
قال (جان بول) وهو يجرها من يدها..
- بسرعة.. من أين جئتم؟

- من النفق المعتاد.. هلموا بنا!
وركضوا إلى ما يشبه بئرًا تحت السلم.. فى الوقت المناسب طبعًا، لأن صوت الكلام النازي إياه مع صوت الأحذية الثقيلة وصوت ضربات بدبشك البنادق على الباب راح يدوى..
كانت العملية زحفًا فى الظلام دام بضع دقائق، وفى النهاية وجدت (عبير) أنها تقف فى غابة فرنسية جميلة تبدو خارج العالم.. هذا النفق جاء فى وقته إذن..
كانت هناك أربع دراجات مستندة إلى شجرة بلوط عملاقة.. كل دراجة تحمل رغيف خبز عملاقًا وزجاجة نبيذ (بوردو).. يبدو أن هؤلاء القوم يتركون دراجاتهم ليجدوا دراجات أخرى مثلما كان رعاة البقر فى الغرب الأمريكي يستبدلون خيولهم فى الرحلات الطويلة..
أشعل (جان بول) لفافة تبغ، وقال وهو يركب دراجته:
- لقد كانت عملية ناجحة.. لكن موعد البروفة قد اقترب.. يجب أن نفترق..
بروفة؟ عم يتكلم هذا الرجل؟ لقد انتهى لتوه من حرق شاحنة ألمانية وفر من الموت الأكيد، فما دور البروفات هنا؟!
ركبت دراجة أخرى وراحت تحرك ساقيها شاردة الذهن.. من أنت؟
أخيرًا دخلا (باريس) من جديد ووصلا إلى مبنى واسع، لم تعرف ما هو حتى رأت ذلك الملصق على الجدار:

الذباب

مسرحية لجان بول سارتر

هتفت فى دهشة:
- (جان بول سارتر).. هل هو هنا؟
هتفت فى دهشة:
أشعل لفافة تبغ وهو يترجل:
- أنا هو.. هل توجد مشكلة ما؟
هنا فقط أدركت أنها رأت هذه الملامح من قبل.. القامة القصيرة والعوينات والعين الواحدة الحولاء حولًا وحشيًا (أى للخارج).. للمرة الأولى تعرف أن (سارتر) كان عضوًا نشطًا فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي لباريس.. بل إنه اعتقل لفترة..
كان هذا هو مسرح (سارة برنار).. لقد اقتادها (سارتر) إلى الصالة.. مجموعة من المقاعد الخالية بينما يؤدى الممثلون على المسرح البروفة.. كانت تحب هذا الجو.. جو (جنون المسرح) كما يلقبونه، مع كل دخان التبغ المنعقد فى الجو، والغبار على المقاعد، وهياكل الخشب والخيش على المنصة.. كانت تحب المسرح حتى يتحول إلى مسرحية حقيقية تؤدى أمام الجمهور عندها تفقد إعجابها به.. بمعنى آخر كانت تحب مراحل تكوين الجنين ولا تحب الجنين نفسه..
قدم لها (سارتر) إحدى الجالسات وقال:
- (سيمون دي بوفوار).. زميلة دراستي النجيبة وحبيبتى فيما بعد..
صافحتها (عبير) ثم جلست جوارها.. مرتبكة قليلًا بسبب عدم ألفة الجو، بينما أشعل (سارتر) لفافة تبغ وراح يتابع البروفات فى توتر.. مالت (عبير) على أذن المرأة وسألتها:
- الذباب مسرحية إغريقية على ما أظن؟
- هناك قصة إغريقية بهذا المعنى.. لكن (سارتر) قد تناولها من منظور جديد.. هناك فى الأساطير الإغريقية مدينة كاملة ابتليت بالذباب، هي مدينة (أرجوس Argos)، وهذا لأنها

تسترت على مصرع (أجاممنون Agamemnon) بطل حرب طروادة على يد زوجته (كلتمنسترا Clytemnestra).. فى النهاية يقوم ابنها (أورست Orestes) بالانتقام لأبيه بمساعدة أخته (إليكترا Electra).. ما قام به (سارتر) فى مسرحية (الذباب) هو أن جعل المسرحية تتحدث عن الفلسفة الوجودية.. جعل (ايجسن) زوج الأم يرمز للنازيين و(كلمنسترا) ترمز لحكومة (فيشى) الفرنسية العميلة التى تعاونت معهم.. أما (أورست) فهو المثقف الوجودى الذى يفعل ما يؤمن به متحديًا (زيوس) نفسه.. وفي النهاية يغادر المدينة رمزًا إلى أنه يصلح للثورة والتحرير لكنه لا يصلح للحكم..
هنا شعرت (عبير) بأن هناك من يلصق أنفه بكتفها.. نظرت للوراء فوجدت جاسوسًا يحاول ألا يبدو كذلك.. قالت لها (سيمون) فى اشمئزاز وهى تنظر للوراء:
- لا عليك.. إن المسرح يعج بهم.. لا تنسى أن النازيين يسيطرون على باريس، ولهذا اضطر (سارتر) إلى استعمال الرمز كى لا توقف المسرحية..
- لماذا لا تطردون هؤلاء الجواسيس؟
- إن (سارتر) يرى أننا لم ننعم بحريتنا قط مثلما نعمنا بها تحت احتلال النازيين.. لقد أرغمنا النازيون على الاتحاد والعمل والتحدى.. وهذه هى الحرية الحقيقية!
كان هناك شاب أسمر فارع القامة يقف مع (سارتر) يتكلمان.. جذبه (سارتر) من ذراعه واتجه به نحو (عبير) وقال فى حماس وهو يشعل لفافة تبغ:
- هذا هو ممثل ومخرج مسرحيتي القادمة (الآخرون)..
بالعربية قال لها الشاب الفارع:
- تشرفنا!
هتفت فى دهشة:
- أنت عربى؟!
- ولدت فى الجزائر.. ان اسمي هو (ألبير كامو Camus)..
وتوقع أن تصاب بذهول لدى سماع اسمه لكنها لم تستطع تذكر من هو.. سمعت الاسم مرارًا لكنها لا تعرف بمن يتعلق.. وهكذا سألته فى ذكاء:
- هل لك علاقة بصابون الوجه؟
نظر لها ثم لـ (سارتر).. ثم آثر أن يبتعد..
قالت لها (سيمون دي بوفوار) فى غيظ بعد انصراف الشاب:
- أى صابون يا بلهاء؟ هذا الرجل هو فيلسوف العبثية Adsurd الأهم والأعظم..
- حسبته ممثلًا..
- لا.. هذا مجرد مشروع لن يكتمل.. لن يلبث (كامو) أن ينشر روايته (الغريب) ويصير شهيرًا كفيلسوف وروائى..
عادت (عبير) إلى (سارتر) الذي جلس وسط مجموعة من الشباب السارتريين.. تعرفهم بسهولة من القمصان الواسعة التى يحكمون غلقها حتى أعلى زر فيها.. وعويناتهم الصغيرة ذات الإطار الأسود، ولفافات التبغ التي لا تفارق شفاههم.. فى هذا الزمن قبل أن يعرف الطب علاقة التدخين بسرطان الرئة وتوسع الحويصلات وتصلب الشرايين، كان التدخين يميز المثقفين، حتى إن (سارتر) قال يومًا: السجائر هى خبز المثقفين! وهى كلمة سحبها سريعًا مع أول نوبة سعال داهمته..
كان يمسك بكتاب لا يختلف حجمه عن أى (كومود) جوار فراشك.. واستطاعت (عبير) أن تقرأ

عنوانه (الوجود والعدم).. هذا هو الكتاب الذى يضم أهم مبادئ الرجل الفلسفية.. دعك من حشد من المقالات والمسرحيات والمرجع الأهم (نقد العقل الديالكتيكى)..
أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال للشباب:
- إن العدوان الثلاثي على مصر عمل غير أخلاقي ويجب أن نرفضه بكل قوانا.. فرنسا لا تريد إلا استعمار بلد حر من أجل قناة السويس التي لا تملكها أصلًا..
هتفت (عبير) فى دهشة:
- عدوان ثلاثي عام 1956؟ والنازيون ما زالوا فى باريس؟
قالت (سيمون دي بوفوار) وهي تشعل لفافة تبغ:
- لا عليك.. هذا خلط زمنى مما اعتادته (فانتازيا).. نحن الآن عام 1956..
أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال للشباب مستطردًا:
- احتلال فرنسا للجزائر عمل لا يليق بها.. يجب أن نقف بكل قوانا ضد هذا الاحتلال الغاشم.. إن المثقف الذى لا يحاول منع الحرب لا يختلف عن المجرم الذي أشعلها..
سأله أحد الشباب وهو يشعل لفافة تبغ:
- لكن هذا يجلب علينا السخط.. سيعتبروننا خونة..
- المثقف مسئول عن اختياراته.. هذا هو معنى الحرية.. الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرًّا وأن يكافح فى عالم من المتناقضات.. ليست هناك قيم خارج الإنسان أو فوق إرادته.. كل إنسان وحدة مستقلة فريدة فى كون لا يبرر وجوده فيه أى شيء على الإطلاق.. ليس هناك ما يتيح لنا البقاء إلا إرادتنا الحرة..
هنا دخل أحد الممثلين القاعة وأعلن:
- لقد انتحرت (موربيل)!
شهق الجميع بينما أشعل (سارتر) لفافة تبغ وسأله:
- هل كان (كامو) معها؟
- نعم..
- فهمت..
ثم عاد يواصل كلامه مع الشباب.. أحدهم مد أصابعه فى حلقه وراح يعبث حتى نجح فى النهاية فى أن يتقيأ.. هنا تحمس باقى الشباب.. هذا طقس مهم هنا.. الاشمئزاز الوجودى من سخف الحياة، لكن يبدو أن (سارتر) لم يكن مولعًا بهذا الحماس الزائد..
- أنا أكره (هيجل) وأعتبره حمارًا.. إن فلسفته المثالية لا تصلح للتطبيق أو الحياة.. لقد حقر كل شيء فى الحياة وأنصف العقل.. لقد ألغى الفردية ومجد المؤسسات.. بينما فلسفتى صالحة لعالمنا هذا ولكل يوم من حياتنا.. فلسفتى هى الإنسان الفرد بمتاعبه ومشاكله..
هنا دخل رجل متأنق القاعة، وفى تؤدة اتجه إلى (سارتر) وانحنى راسمًا نصف دائرة بجذعه وقال:
- سيدى.. أنا (فردريك أنسليم) من لجنة جائزة (نوبل).. لقد فزتم بالجائزة عن إنجازاتكم فى الفلسفة!
أشعل (سارتر) لفافة تبغ ولم يتحرك من موضعه.. فقط نظر للرجل وقال:
- إذن أرجو أن تبلغهم اعتذاري عن عدم قبولها..
يا للهول! امتقع وجه الرجل وهتف فى جزع:
- مسيو (سارتر)! هذه هى أعظم جائزة فى التاريخ! إنها الشرف والثراء مجسدين!

قال (سارتر) فى بطء وهو يستدير بظهره:
- أنا أشك فى هذه الجائزة.. هناك عظماء كثيرون استحقوها ولم ينالوها.. لماذا لم تمنح لسوفييتي من قبل؟ لماذا لم تمنح لعربي حتى الآن؟ السوفييتي الوحيد الذى نالها هو (باسترناك Pasternak).. والسبب هو أن قصته (د. زيفاجو Doctor Zhivago) تهاجم النظام الشيوعي، وقد رفض تسلمها على كل حال.. هذه الجائزة سياسية تمنح لمن يؤيدون المشروع الغربي الاستعماري.. وأنا أرفضها!
راح الرجل يرتجف غضبًا وغيظًا وحرجًا وراح يردد:
- مسيو.. هذه إهانة.. هذه إهانة.. أنت لا.. لا تستطيع أن....
أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال فى برود:
- بل أستطيع.. لم أفعل إلا أن مارست حريتي كمثقف فى أن أقول لا!
ابتعد الرجل وهو يرغى ويزبد.. وخيل لـ (عبير) أنها سمعت صوت طلقة من الكواليس..
هنا دخل القاعة أحد الممثلين ليصيح:
- انتحر (رينيه)!
أشعل (سارتر) لفافة تبغ وسأله:
- هل كان مع (كامو)؟
- نعم..
- تبًّا! قل لـ (كامو) أن يهمد قليلًا.. نحتاج إلى بعض الممثلين أحياء!
هنا نهضت (عبير) وهزت رأسها برقة محيية الجميع.. ربما كانت الوجودية صعبة، لكنها مفهومة نوعًا قابلة للتطبيق، وهذا يختلف عن كل متاهات (هيجل) و(كانط) وسواهم.. ربما لهذا دمغت (فرنسا) بطابعها طيلة الستينات.. لكن الحقيقة التى لا يمكن تجاهلها هى أن الإلحاد عنصر جوهرى فى الفلسفة الوجودية.. وهذا يجعلها لقمة تستعصى على البلع أو المضغ..
سألتها (سيمون):
- ألن تعرفي المزيد؟ ما زلنا فى البداية..
- أريد سماع ما يقوله هذا المدعو (كامو)..
- أرجو ألا يقنعك بالانتحار.. فهو يتمتع بكفاءة غير عادية فى هذا الصدد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- عبثية...

هناك قضية واحدة مهمة ألا وهى الانتحار!

ألبير كامو

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قابلتْ (ألبير كامو) أثناء خروجه من حفل جائزة (نوبل).. كان وسيمًا وجعله الفراك الذى يرتديه أكثر وسامة.. لهذا حاولت ألا تلمسه حتى لا تتسخ بذلته.. لقد قابل ملك (السويد) من دقائق وهو الآن يقابلها.. فأي فارق!

كان يحتضن الجائزة فى اعتزاز، ولفافة التبغ الوجودية إياها بين شفتيه..

قالت له فى كياسة:

- ألف مبروك.. لا بد أنك فخور بها..

هز رأسه فى رضا:

- فى سن الرابعة والأربعين.. ليست شيئًا سيئًا.. هه؟

قالت فى حذر محاولة ألا تستفزه:

- (سارتر) رفضها لأنه يرفض اللجنة ذاتها..

قال فى غيظ:

- يمكن لـ (سارتر) أن يمارس المواقف البطولية الطفولية كما يريد.. هذا حقه.. لكن لا تطالبي كل إنسان بأن يرفضها..

كانت تعرف هذا.. كلما رفض أديب أو فنان جائزة ما اتهمه الذين لم ينالوها - والذين نالوها من قبل - بأنه يمثل.. وأن روحًا درامية استبدت به.. الذين لم ينالوها لا يتصورون أن ينال أحد حلم حياتهم ويرفضه.. والذين قبلوها يشعرون بأن رافضها يهينهم بهذا الرفض.. قصة تتكرر مع (برنارد شو) و(مارلون براندو) - الذي رفض الأوسكار - وقريبًا جدًّا رأيناها مع (صنع الله إبراهيم) الذي انقسم المثقفون العرب بشأنه إلى فريقين..

اتجه (كامو) إلى سيارة رياضية أنيقة، وسألها وهو يفتح الباب:

- هل ترافقيني

كانت راغبة فى معرفة المزيد، ففتحت الباب الجانبي وجلست، وهنا لم تدر ما حدث.. لقد انطلقت السيارة بسرعة ألف كيلومتر لو كان هذا ممكنًا.. ولم تصدق ما يحدث.. هذا الرجل مجنون..

- هل تعي أنك تقود سيارة لا صاروخًا؟

قال وهو يزيد السرعة أكثر:

- لا أبالى بهذه التفاصيل.. أريد أن ترى شيئًا..

راحت ترتجف.. وأيقنت أن نجاتها أمر شبه مستحيل، فراحت تتلو الشهادتين فى سرها.. معالم الطريق غير واضحة حتى إنها لم تعرف إن كانا يمشيان فى مرج أم صحراء أم بحر.. ربع ساعة من الهلع التام، إلى أن توقفت السيارة بفرملة أوشكت على أن توقف قلبها.. وشعرت (عبير) أن السيارة ذاتها لا تصدق أنها نجت لذا راحت تلهث..

- هل تقود دومًا بهذه السرعة المجنونة؟
- ليس دومًا.. أنا مرهق اليوم لهذا كانت سرعتى متوسطة..
وفتح الباب وترجل.. إنهما فى الصحراء.. ترى ماذا يريد من إحضارها هنا؟ وأشار لها إلى جبل قريب وقال:
- تأملي هذا الأحمق..
عند سفح الجبل كان هناك رجل.. رجل يبدو من عضلاته وثوبه أنه بطل إغريقي أسطوري.. كلهم يحمل الشكل ذاته..
الرجل يدحرج صخرة عملاقة.. كل عضلة فى جسده تتوتر وكل وريد ينفر.. جهد خرافي جدير بالأساطير.. يدحرج الصخرة نحو قمة الجبل.. يئن.. يضغط على أسنانه.. يرتجف...
لكن الصخرة كانت تتحرك.. ببطء تتحرك..
هو ذا يصل إلى القمة بعد مجهود يثير الإعجاب..
فى حماس هتفت (عبير):
- لقد نجح! إن إرادته لا توصف! إنه....
هنا شهقت.. لقد تدحرجت الصخرة من قمة الجبل إلى أسفل.. وهكذا هوت إلى السفح واستقرت هناك.. جفف البطل عرقه ثم اتجه إلى الصخرة من جديد وبدأ عملية دحرجتها إلى القمة..
هتفت (عبير):
- لكن هذا جهد لا طائل من ورائه.. إنه.. إنه..
أشعل (كامو) لفافة تبغ واستند إلى سيارته وقال:
- أبله تمامًا.. هيا قوليها! هذا هو (سيزيف) البطل الإغريقي.. لسبب ما عاقبه (زيوس) بأحد أساليب العقاب الشهيرة لدى الإغريق.. عليه أن يدحرج هذه الصخرة للقمة إلى الأبد، وكلما سقطت كان عليه أن يعيدها إلى القمة.. هذا هو ما نفعله فى الحياة.. عناء فى عناء.. جهد متواصل والنتيجة لا شيء لكننا نواصل هذا الجهد.. باختصار نحن مساجين محكوم علينا بالحياة.. كفاحنا لا يزيد على رفع هذه الصخرة إلى قمة الجبل.. نقرأ الفلاسفة الحمقى من أمثال (هيجل) و(نيتشه) و(ماركس) ونحسب أننا عرفنا الحقيقة.. بينما لا حقيقة إلا هذه الصخرة.. إن فلسفتى كلها تتلخص فى كتابي (أسطورة سيزيف).. هل قرأته؟
- لا..
بدا عليه الامتعاض، وقال:
- هل قرأت (الغريب) أو (الطاعون) أو (سوء تفاهم) أو (الأبرار) أو (كاليجولا)؟
هزت رأسها نفيًا فقال فى ضيق:
- أين كنت تعيشين؟ على المريخ؟
- تقريبًا..
فكر حينًا ثم قال:
- على كل حال هذه هى خلاصة فلسفتي.. حياتنا عبثية لهذا نحاول أن نجملها بالفن والدين والحب.. من دون هذه الأمور يكون الانتحار مسألة وقت بل واجبًا على كل إنسان.. إن حياتنا سيئة لكن يمكن أن تكون أفضل لو تكاتفنا.. لا أمل هنالك ولا مخرج.. لهذا نحاول أن نجعل أيامنا على الأرض ممتعة قدر الإمكان..
سألته فى فضول حقيقى:

- لماذا لم تنتحر حتى الآن؟
- لابد من شجاع يضحى، ويقبل البقاء على الأرض لينصح الناس بالانتحار!
وأشار إلى سيارته، وقال لها:
- اركبي.. فقط أردت أن تعرفي مصدر فلسفة العبث أو الأبزيرد Absurd..
قالت شاكرة وهي تتراجع للوراء:
- هذه السيارة؟ لا.. لن أفعلها ثانية..
ركب وحده، ولوح لها من النافذة وقال:
- كما تريدين.. تذكرى أن كل شيء عبث ولا جدوى من الكفاح.. سلام!
- سأتذكر هذا.. سلام!
وانطلقت سيارته بتلك السرعة الجهنمية الجديرة بالإلكترونات حول نواة الذرة..
وقفت (عبير) بعض الوقت ترقب (سيزيف).. كانت تعرف أنها ستتمكن من العودة.. لا مشكلة فى العودة من أي مكان فى (فانتازيا).. هذه مشكلة الإدارة لا مشكلتها.. المهم أن....
إى ى ى ى ى ى!
كراش!!
لم تر ما حدث لكنها خمنته دون جهد.. السيارة المجنونة اقتحمت شجرة، وتحولت إلى كتلة من الصفيح لا تتبين لها مقدمة من مؤخرة.. ملحمة اختلط فيها الحديد الساخن بالزجاج باللحم بالفلسفة فى موقف عبثى حقيقى.. هكذا مات (كامو) فى حادث تصادم مروع.. ولحسن حظها أنها قررت ألا تركب معه.. ولحسن حظها أن أجله كان بعد توصيلها لا قبله!
هزت رأسها فى أسى واستعدت للعودة..
لقد دنا وقت الامتحان الأخير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- قضية الفلسفة

دخلت نادى الفلاسفة الغربيين متوترة.. فى يدها كيس صغير فيه قلم وممحاة ومسطرة..
تشعر بنفس الاضطراب الذي ألفته وتعرفه جيّدًا.. اضطراب فى روحها وعقلها يمتد إلى قلبها وأمعائها.. لم تأخذ الأمر بجدية لكن أعراض الامتحان ليست انتقائية.. الرعب هو الرعب حتى لو كان امتحانًا فى دحرجة البلى.. فى الداخل يقف (أرسطو) بانتظارها.. طبعًا صار هو المدير بعد إعدام (سقراط).. يلومها على التأخر.. يقتادها عبر المعبد اليوناني العتيق إلى قاعة بها منضدة خشبية ومقعد..

- اجلسى هنا.. هل معك شيء؟

أخرجت من كيسها نسخة من كتاب عن (الفلسفة الغربية) كانت تطالعه قبل الموعد..
قال ضاحكًا:

- ليبق معك.. لن يحدث فارقًا.. لو كانت معك مكتبة فلسفية كاملة فلن تحدث فارقًا ما لم تتمتعي بعقل فلسفى..

ثم وضع أمامها ورقة الامتحان، ووقع عليها ثم تركها وانصرف..
راحت تتأمل الأسئلة فى قلق وهى تحاول السيطرة على أنفاسها المتقطعة:

الوقت ساعتان

أجب عن جميع الأسئلة:

1- ما هو التركيب الثلاثي لفلسفة (هيجل)؟
2- لماذا رفض (سقراط) الفرار من السجن؟
3 - ما الفارق بين فلسفة (هيوم) و(سبينوزا)؟
4 - اذكر عشرة فوارق بين (أفلاطون) و(أرسطو).
5- ما هي نظرة (نيتشه) إلى المرأة؟
6 - ما الفارق بين نظرة (نيتشه) و(شوبنهاور) لإرادة الحياة؟؟
7 - اذكر اسم فيلسوفين كرها (هيجل) بشدة، وعلل لما تقول.
8 - ما أهمية رقم عشرة عند الفيثاغورثيين؟
9 - ما هو (النومينون) ومن مؤسس هذه الفكرة؟
10- ما الفارق بين (سارتر) و (كامو)؟
11- من هو مؤسس الفلسفة الذرية؟ وما هى نظرة (أبيقور) للسعادة؟
12- ماهي عقيدة الأشكال الخاصة ب.(أفلاطون) وما تطبيقاتها على حياتنا؟
13- استغل الطغاة أفكار (هيجل) و (نيتشه).. علل.

راحت تتلفت حولها بقلق.. رأت (أرسطو) يقف عن بعد يتكلم مع (أفلاطون) فصاحت:

- لو سمحت..

اقترب منها وقد رسم علامات الصرامة على وجهه، قائلًا:

- الأسئلة واضحة فلا تضيعي وقتك..

في رعب هتفت:

- لم أتلق أية محاضرات عن (هيوم) ولا (سبينوزا).. السؤال الثالث.. أتكلم عن السؤال الثالث..

- سأتأكد من هذه النقطة..
وهزّ رأسه وغادر القاعة بعض الوقت.. بعد قليل عاد ومعه الفيلسوف البريطاني الصارم (هيوم Hume).. قال هذا الأخير وهو ينظر لها بحدة:
- لست مسئولًا.. أنت لم تحضري أية محاضرة لى، لكن الامتحان هو الامتحان..
- لكنى لم أختر من ألقاه من فلاسفة.. إن....
باشمئزاز قال موجهًا كلامه لـ (أرسطو) لا لها:
- كلهم نفس الشيء.. يقضون الوقت فى اللهو والعبث، ثم تجدهم يختلقون كافة الأعذار وقت الامتحان..
- لم يعد الطلبة كما كانوا فى الماضي..
هكذا راحت (عبير) فى تعاسة تحاول أن تكتب شيئًا.. طبعًا كان الأمر عسيرًا، فقد اختلط الفلاسفة فى ذهنها ولم تعد تذكر من قال ماذا.. فقط تذكر أكبر مجموعة من السحنات المكفهرة والنظرات الحادة والأفكار المختلطة..
بعد وقت طال من المحاولات التعسة، نظرت إلى (أرسطو) فى قنوط وهتفت:
- لا جدوى..
اقترب منها.. ونظر لها نظرة ثاقبة، ثم أمسك بالورقة التي دونت فيها الإجابات.. بدا مستمتعًا بهذا الذى يقرؤه.. فى النهاية قال:
- دعك من الامتحان.. قولي لى بشكل عام: ما الذى خرجت به من الفلسفة؟
فكرت حينًا وأرجعت ظهرها إلى الوراء.. ثم قالت:
- لا شيء فى الواقع.. عندما جئت إلى هنا، كنت أطلب إجابة بسيطة عن مشكلة بسيطة.. كيف أنتصر على الألم الذى أشعر به لأن زوجي تخلى عنى.. وجدت (أفلاطون) يطالبني بأن أنغمس فى الهندسة وحساب المثلثات كى أنسى.. ووجدت (ديوجين) يطالبني بأن أعيش فى برميل وأعوى كالكلب.. ووجدت (أبيقور) يطالبني بأن أشرب الخمر وألهو قدر الإمكان.. أنت - (أرسطو) - اقترحت أن أنتظر وأصبر إلى أن تصعد روحي وتعيش بين النجوم.. (كامو) اقترح أن أنتحر، و(سارتر) يطالبني بتحمل مسئولياتى، و(هيجل) يريد أن أمزج بين الطريحة والنقيضة وأن أنضم لجمعية ما ليكون لحياتي معنى.. و(كانط) يطالبني بالتجريب.. (نيتشه) و(شوبنهاور) يريان أنني كائن حقير لا نفع له إلا خديعة الرجال.. (فيثاغورس) يرى أن الموسيقا هى الحل خاصة لو أغرقت آلامي فى رقم (عشرة).. كل هذا مع الكثير من المشي وتسلق الجبال والجري فى شوارع (أثينا) و(باريس).. لقد أتعبتني الفلسفة.. أتعبتني جدًّا..
ووضعت القلم على المنضدة وأردفت:
- الفلسفة كما رأيتها هى فن إضاعة الحقيقة.. البحث عن الشمس بينما هى تضيء الأفق.. الفيلسوف هو شخص فشل فى أن يفهم الحياة كما هى.. فشل أن يمارسها كما تمارسها قطة سعيدة راضية.. الإيمان بالله هبة ظفر بها البسطاء بينما حرم منها أكثر فلاسفتكم.. تعتقدون أن الطعام وجد كى لا نأكله، والشراب وجد كى لا نشربه، والحب وجد كى لا نعيشه.. هناك أشياء مهمة فى الفلسفة بالطبع، لكن هناك أشياء لا تطاق ولا يمكن احتمالها.. ولو قارنت فى ميزان البشرية بائع الفول الواقف على باب شارعنا بـ (نيتشه) لرجحت كفة بائع الفول على الفور.. إنه رجل سعيد مفيد لنفسه والآخرين..
قالتها وأطلقت زفيرًا طويلًا.. لقد نالت درجة الرسوب بجدارة إذن..
لدهشتها ابتسم (أرسطو).. شاعت البسمة فى وجهه الصارم الذى تجده فى أى كتاب تاريخ

مدرسي عندك، وقال:
- لا بأس.. لا بأس.. عرفت كيف يفكر هؤلاء، واستطعت تكوين رأيك الخاص..
وأردف وهو يجمع الأوراق المتناثرة أمامها:
- رأيك فى الفلسفة هو نوع آخر من الفلسفة.. لقد نجحت فى تكوين مفهوم كامل للحياة والكون.. صحيح أنه ضد الجميع لكن منذ متى لم تصطدم فلسفة بأخرى؟ سأعطيك درجة النجاح!
- لكن..
صافحها بيده الإغريقية الخشنة وقال:
- العادة هى أن تلميذ الفلسفة ينشئ مدرسته الخاصة فيما بعد.. هل تنوين بدء مذهب (العبيرية) إذن؟ هذا المذهب يقول باختصار: كل الفلاسفة حمقى.. وعلى من يرغب فهم الحياة أن يعيشها!
- لكن....
هنا شعرت بيد توضع على كتفها مع صوت مألوف يقول:
- لا داعى للتطويل.. لقد أعطاك درجة النجاح وهذا كاف..
نظرت للوراء فوجدت المرشد يساعدها على النهوض، بينما يردف:
- لو غير رأيه لاضطررت إلى المرور بهذا (الكورس) من جديد!
- أتوسل إليك ألا تفعل.. أريد الرحيل الآن.. فورًا.. حالًا..
وهكذا خرجا من المعبد.. يمران بحشد من رجال شاردى الذهن، ورجال فى براميل، ورجال يمدحون البراغيث، ورجال يدخنون بإفراط ويناقشون الوجود والعدم..
لقد كانت رحلة مرهقة لكنها انتهت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تواجه (عبير) رجلًا اشتهر بالكاريزما.. واشتهر بعينيه المخيفتين القادرتين على تغيير روحك وربما تغيير الوجود ذاته..

كان اسم الرجل (راسبوتين).....

(تمت بحمد الله)

المصادر

* حلمي مراد: كتابي (الكتاب الشهري).. الأعداد 48 و53 و86 و88..
* أنيس منصور: الوجودية.. كتب للجميع.. 103
* زكريا إبراهيم: الوجودية.. اقرأ.. 161
* مراد وهبة: قصة الفلسفة.. اقرأ.. 305
* أميرة حلمي: فلسفة الجمال.. المكتبة الثقافية.. 74
* موسوعة المعرفة..



<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـاة</u>

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

الحادثة حقيقية!

روايات مصرية للجيب

38

فانتازيا

عينان

د. أحمد خالد توفيق




فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (38)

عينـــان

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اسمها (عبير عبد الرحمن)..
إنها لا تملك شيئا من رقة اسمها، ورشاقة اسمها..
إن (عبير) ليست جميلة بأي مقياس، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات، وليست عالمة أو أديبة ممثلة، ولا تملك مؤهلًا دراسيا محترمًا..
إن (عبير) هي إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة.. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها.. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة..
لقد قابلت (عبير) (شريف).. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقري.. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أيّ ذكاء.. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذي ابتكره، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء، وإعادة برمجتها في صورة مغامرات متكاملة..
ولأن (عبير) تقرأ كثيرا جدا.. ولأن عقلها مزدحم بأبطال القصص ومواقف القصص؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة..
(عبير) سترى القصص التي عشقتها.. ولكن مع تحوير بسيط: إنها ستكون جزءا متفاعلا في كل قصة! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان).. وتغوص في أعماق المحيط مع كابتن (نيمو)..
وتزوج (شريف) (عبير).. ربما لأنه أحبها حقا.. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد.. ونعرف أن (عبير) حامل..
وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا)..
ترى الكثير وتعرف الكثير.. وفي كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة..
إن (عبير) تنتمي إلى (فانتازيا).. أرض الخيال التي صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة.. وأعاد تقديمها لها من جديد..
(فانتازيا) هي المهرب من براثن الواقع.. وكل الوجوه التي لا تتغير..
(فانتازيا) هي الحلم الذي صاغته عبقرية الأدباء على مرّ السنين.. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه.. لكن هذا في مقدورنا الآن..
لسوف نرحل جمعيا مع (عبير) إلى (فانتازيا)..
نضع حاجياتنا وهمومنا في القطار الذاهب إلى هناك..
هو ذا جرس المحطة يدق.. وهدير المحركات يدوي.. إذن فلنسرع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه القصة استكمال الفكرة بدأها أستاذ الأدب الساخر العظيم (محمد عفيفي)، في كتابه (فانتازيا تاريخية)، حين تخيل نفسه ضائعا في بلاد اليونان يفتش عن أفضل فلسفة ممكنة.. لا يخجل التلميذ من الاعتراف بأنه بدأ من إحدى أفكار أستاذه، خاصة إذا كان الأستاذ في ثقل وعمق وموهبة وتميز (محمد عفيفي).

1

دعنا نأخذ الأمر على هذا المحمل: لا يوجد شيء شخصي..
في البداية كان هناك هذا التوجس وهذا الحماس من أجل الوطن.. فقط..
أما الآن وقد فاق الأمر تصورهم للأمور، فإن الذعر هو الذي بدأ يلعب الدور الرئيس في القصة.. الذعر من شيء غير مبرر وغير مفهوم..
تتذكر (عبير) أنها في طفولتها كانت في الفناء الخلفي للمدرسة، تلعب مع صديقاتها ألعاب البنات الصغيرات السخيفة إياها، حين رأت أغرب دودة رأتها في حياتها.. دودة زرقاء عملاقة.. ربما لم تكن المقاييس دقيقة، لكن (عبير) تذكر أن الدودة كان لمقطعها نفس قطر ساعدك.. وهكذا راحت الفتيات يصرخن وانهلن بالركلات على الكائن التعس.. لم تكن الدودة قد أظهرت أي شيء مقلق.. كانت بطيئة تعسة معدومة الحيلة، لكنها كانت غريبة.. وكانت ركلات الفتيات تنهال لا على الدودة بل على الغرابة.. على اللغز.. على التهديد الذي يسببه كل ما هو غير مألوف..
الآن يمكنها أن ترى ذات اللمسات في الطريقة التي يتعامل بها الرجال..
كان من الواضح أن السم لن يفعل شيئا..
أثار هذا ارتباك الرجال كثيرا مع قدر لا بأس به من الهلع..
لقد نهض (راسبوتين Rasputin) الرهيب ممسكا ببطنه..
وهو يتحرك بطريقة ديناصورات السينما المتخشبة.. عيناه متسعتان في ألم ورعب.. رعب مرعب في حد ذاته.. وبدأ يعوي كالذئاب..
ترنح لحظة.. كاد يسقط ثم تماسك.. بدا جليا أنه يقاوم بعنف.. إنه يحاول أن يطرد السم من خلاياه.. أن يقهره..
قامته القارعة تقف هنالك، ومن حوله يقف الرجال قصار القامة مذعورين.
ماذا سيحدث حين يستخرج الأسد السهم من بين ضلوعه؟
ماذا سيحدث حين يستعيد قواه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) تقف هنالك قرب إحدى النوافذ المطلة على القبو، وقد أخفت أكثر جسدها خلف النافذة، لكنها سمحت لوجهها بأن يطل عبر ثنيات الستار الشفاف إلى المشهد الرهيب بالداخل..
هذه جريمة قتل.. قتل مع سبق الإصرار والترصد.. يقوم بها عدد من الرجال ضد رجل واحد، لكن حجم هذا الرجل وقدراته الخارقة جعلتها ترتجف خوفا على الرجال.. ماذا سيحل بهم لو...؟
السبب الثاني لرجفتها هو أن الطقس كان باردا في هذه الليلة من شهر ديسمبر عام 1916.. هذا أقل ما تصف به نهرا متجمدا وأشجارا اكتست بالثلج.. حتى الظلام نفسه تجمد، وربما الأشباح ذاتها.
(راسبوتين) الرهيب يهز رأسه.. شعره الأسود الفاحم الطويل ينتثر من حوله، كأنما هو يطرد ما بقي من السم في أوصاله..
تتسع عيناه الجهنميتان النمريتان وينظر إلى الأمير ويقول:

- أخطأت أيها الأمير (فليكس فليكسوفتش يوسبوف)! (راسبوتين) لا يموت بالسم.
كان له صوت عميق مدو.. هذا مناسب جدا لعينيه.. صاحب هاتين العينين لا يتكلم إلا بهذا الصوت، ولا يحق له استعمال صوت آخر.. دعك من حقيقة أنه صوت خلق ليتكلم الروسية أصلا..
وضحك.. ضحكة من تلك الضحكات التي تجلجل في الصدر، وغالبا ما تجلب معها الكثير من السعال.. وأردف:
- منذ أعوام لا أذكر عددها أبتلع قدرا من السم كل يوم.. واعتدت أن أزيد الجرعة حتى يعتاد جسدي.. لم يعد هناك سم أرضي يقدر على قتل (راسبوتين)..
ثم أطبقت كفه العملاقة على حلق الأمير.
ما يقوله الأطباء حديثا هو أن إفراط (راسبوتين) في الخمر أفقده عصارة معدته الحمضية، وبالتالي لم يستطع سم (السيانيد) أن يتحول إلى حالة متطايرة.. وطبعا كان (السيانيد) هو السم الذي اختاره الأمير بحظة الأسود.
صرخ الرجال في رعب وهم يرون الأمير يوشك على أن يهلك بيد العملاق المخيف، وتصايحوا:
- افعلوا شيئا! هلم يا (ديمتري رومانوف).. هلم يا (فلاديمير بيرشكفيتش) وانقض الرجال على العملاق.
على الأقل ساعد هذا في أنه أطلق سراح حنجرة الأمير، ثم هوي بصفعة على وجه الدوق (رومانوف).. الصفعة لا تحدث سوى الإهانة لو تمت بكفك أو بكفي، أما هنا فالأمر يشبه الاصطدام بمقدمة قطار مسرع..
راجفة مدت (عبير) يدها إلى حقيبتها الصغيرة، وأخرجت الكاميرا..
إن الإضاءة لا تسمح، لكنها تؤمن بحساسية الفيلم وإمكانات الأشعة تحت الحمراء..
سوف تلتقط بعض صور ثم تفر.. هذا مشهد لا يفوت بسهولة.
حمل (بيرشكفيتش) قضيبا معدنيا - يبدو أنه كان محركا للنار. وهوى به على رأس العملاق..
يمكنك أن تسمع العظام تتهشم ولا دور لخيالك في هذا..
لكن العملاق استدار وأمسك بالقضيب، ثم أطاح به رجلا آخر يقف جواره..
الأمر يشبه السيطرة على ثور هائج..
(عبير) متوترة تشهق.. تلتقط عشرات الصور، وهي تحاول ألا تبرز من وراء الستار.
المعركة تتطور.. إنهم يتجهون إلى درجات السلم، والأمير الذي أفاق نوعا يخرج مسدسا عتيقا ويثب مقتفيا أثر العملاق المخيف.
تخرج (عبير) من مكمنها، لأنها أدركت غريزيا أن الأحداث ستجري من فوق رأسها بالفعل كانت هناك شرفة تطل على نهر (نيفا) المتجمد..
شرفة رقيقة تحف بها الفوانيس وأغصان النباتات.. شرفة خلقت لعوالم أخرى غير هذه، ولا شك أن زوجة الأمير (فليكس) الحسناء (إيرينا) وقفت هنا أكثر من ليلة ترمق الأفق وتتنهد..
والحقيقة أن هذا هو الطعم الذي ألقى لـ (راسبوتين) هذه الليلة بالذات.. إنه سيقابل (إيرينا)..
ترفع رأسها فترى أن (راسبوتين) يقف الآن في الشرفة مستندا إلى الحاجز، وأنه يعوي كالدببة..
ثم دوى صوت الطلقات.. طلقة.. طلقة.. طلقة
إنهم يطلقون عليه الرصاص، وقد أدركوا أن الأساليب الراقية كالسم وتهشيم الرأس لا تجدي مع رجل كهذا..
إنه يسقط..

الأمير يصرخ في رفاقه:
- إنه حي!
صوت آخر:
- صدره يختلج.. لم يمت بعد..
طلقة أخرى..
وفي اللحظة الثانية امتدت الأيدي تحمل هذا الجسد الرهيب.
وهوى جوارها مندفعا كأنه صخرة عملاقة تنحدر من فوق تل.. ثم سمعت صوت الجليد يتهشم، والماء ينتثر حتى كاد يبلل عدسة الكاميرا التي تحملها.
التقطت صورة للحفرة التي أحدثها وسط الجليد، بينما من فوق رأسها تسمع أحدهم يقول:
- انتهى أمره.. حتى لو كان حيا فلن يظل كذلك تحت الثلج..
كان يلهث.. في نبراته من الرعب أكثر مما فيها من تشف أو غضب..
- لا بد من أن نرى ذلك على ضوء المشاعل ليطمئن قلبي..
- يا للشيطان! أي وحش هذا!
وابتعدت الأصوات، فقدرت (عبير) أنها قامت بمهمتها على خير وجه..
معها صور ورؤية العين.. ويمكن القول إن المشهد تم كما وصفته الكتب بدقة تامة..
حان الوقت كي تعود قبل أن يروا الأداة الغريبة التي تخفيها بين الأشجار.

☆ ☆ ☆

2

ذات ليلة..
نصب له بعض علية القوم فخا..
ولا يمكن أن تلومهم على ذلك..
تعال لزيارتنا.. كذا ألحوا عليه..
وبالفعل جاء..

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

هل رأيت من قبل آلة زمن؟
لو لم تكن قد فعلت فعلى الأقل تملك تخيلا عاما استقيته من السينما، وهي تلك الآلة التي تشبه كرسي الحلاق أو كابينة الهاتف.. حسن.. لم تكن هذه الآلة تختلف كثيرا، لكن ضع في ذهنك أنها تبدو إلى حد ما كفقاعة كبيرة كذلك.. سطحها براق محدودب يعكس العالم الخارجي مشوها زائفا، وإن كانت هذه نقطة مهمة للتعمية أو (الكاموفلاج).. حين تنعكس عليها الموجودات الخارجية يصعب أن تراها حقا..
كانت (عبير) تركض في الظلام.. قدماها تنزلقان فوق الجليد المجاور لحافة البحيرة، ومن فوق رأسها الغصون المتجمدة تراقبها في صمت.. لا يمكنك أن تعرف أية أشجار هذه حتى لو كنت خبيرا.. إلا لو كنت قادرا على ذكر أسماء مجموعة من الرجال الصامتين المتسربلين بالأبيض..
ها هي ذي آلة الزمن.. تذكرة العودة إلى أرضك وزمنك..
إنها تنتظر كأي جواد أمين حيث تركتها تحت الأشجار، وحيث كان بوسعها من ذلك الموضع أن ترى أضواء قصر الأمير (فليكس)..
لاهثة من البرد والانفعال جلست في المقعد.. أحكمت ربط حزام الأمان، ثم ضغطت زر غلق الباب..
فووووم.. الباب ينغلق ببطء، وللمرة الأولى تشعر بالدفء منذ ساعة، ومنذ تسللت لتلقي نظرة أقرب على المشهد الرهيب..
القفاز يعوقها لذا نزعته.. وبإصبع واحد مرتجف راحت تدق على الأرقام: خمسة - تسعة - ألف - تسعمائة - تسعة - تسعون.. الساعة 20.. أي الثامنة مساء..
هنا شعرت بحركة غير عادية بالخارج..
رفعت رأسها فوجدت أنها تحدق مباشرة في الأمير ورفاقه.. كانوا يقفون بالخارج ينظرون إلى الفقاعة وقد اتسعت عيونهم رعبا.. سوف نتذكر كلمة (برادبوري Bradbury) عن أنه بالنسبة للرجل البدائي لا فارق بين التكنولوجيا والسحر، ونقول نحن إنه بالنسبة لهؤلاء القوم لا فارق بين آلة الزمن والوحش الأسطوري..
فجأة وجد الأمير هذا الشيء العجيب في حديقة قصره.. فماذا يفعل وماذا يقول؟
لم يكونوا وحدهم.. كان هناك عدد من الحراس القيصريين بثيابهم المزركشة وبنادقهم المضحكة..
بنادقهم؟

نعم.. للأسف.. كانت هناك بنادق وغدارات مصوبة نحوها.. وكان الأمير يقول شيئا وهو يضغط على الزناد..
وكانت (عبير) تعرف شيئا واحدا.. لا يمكنها أن تجازف بعبور حاجز الزمن بزجاج مهشم....
أين هذا المحول اللعين؟
ضغطة.. إنه لا يستجيب.
تعرف هذا طبعا، لأن هذا هو البروتوكول.. كل جهاز يعمل جيدا حتى اللحظة التي تتوقف فيها حياتك عليه..
- أستانافيتيس!!
ماذا يقولون؟ ما دخل (الفتيس) في الموضوع؟ لقد كف (دي جي) عن الترجمة وإنها لعلامة خطيرة.. فجأة لم تعد تفهم الروسية، لكن لا تحتاج إلى أن تكون (دستويفسكي) كي تفهم ما يقوله لك رجل صارخ وهو يفتح كفه في وجهك قف وإلا خربت بيتك.. شيء من هذا القبيل.
ضغطة أخرى في اللحظة التي انطلقت فيها الطلقة الأولى.
هل رأتها؟ هذا ما تعتقده..
إن ألاعيب الزمن هذه تسمح بكل شيء.. ولقد قرأت من قبل قصة عن معجل الزمن الذي جعل صاحبه يرى كل شيء مهما كان سريعا، دعك بالطبع من أسلوب (زمن الرصاصة) الذي ابتدعه فيلم (ماتريكس)..
أخيرا ترى تلك الدوامة الزمنية التي جاءت عن طريقها..
شعور الغثيان والدوار.. شعور الهبوط لتغوص في القاع ثم تعلو..
هل هي تصرخ؟ لا تعرف.. لكنها تسمع صرخاتها وأنينها وسط كل هذه الضوضاء..
مبان ترتفع كأنها تنطح السماء، ثم تغوص في الأرض بسرعة البرق.. وأشجار تعلو وتلتف وتتشعب ثم تغيب في الأرض.. بينما الشمس تعبر الأفق بسرعة جنونية كأنها نيزك مشتعل يتقدمها النور ويخلفها الظلام.
الحق أنها لرحلة تدير الرءوس

☆ ☆ ☆

الآن ترى معالم القاعة الواسعة.. تشم رائحة حمض الكربوليك تتسرب إلى خياشيم أنفها آتية من مكان ما، وتتجسد الرؤية أكثر فتبصر الكشافات المسلطة على الزمن.. أجهزة الحاسب الآلي المحيطة بها.. الكاميرات التي تهدر تلتقط جزءا على مليون من الثانية، ومئات الماسحات الإشعاعية والحرارية..
باختصار: كل شيء كما تركته منذ...
منذ دقيقة؟
كان هذا واضحا.. لقد رحلت للماضي وعادت بعد دقيقة من لحظة انطلاقها.. كان العامة يسخرون من النظرية النسبية حين اشتهرت، بأغنية تقول: كانت هناك فتاة تدعى (ماري) سافرت اليوم إلى (نيويورك) ثم عادت الأسبوع الماضي.. يبدو أنهم كانوا على حق..
أخيرا تنفتح القبة الزجاجية فيندفع منها البخار الأزرق.. كأنها وحش ينفث البخار من منخريه..
تشعر بالرهبة وتشعر بما يستشعره الآخرون من رهبة وحين بدأ البخار ينقشع كان أول وجه تراه هو د. (سلاتر).. برأسه الأصلع الدقيق ونظارته سوداء الإطار.. التعبير الطفولي المعتاد على وجهه.. كان يلبس ككل الواقفين هنا ذات البزة الزرقاء الشبيهة ب. (الأوفرول) وقد ثبت على صدره بطاقة تحمل اسمه وصورته مع شعار المشروع HR.. كلا.. ليس اختصار (معدل ضربات

القلب) كما سيعتقد الأطباء، ولكن اختصار عبارة (التاريخ وقد أعيدت كتابته History rewritten)..
خرجت من مكمنها على ساقين رخوتين، فساعدها أحدهم على النزول، ثم - كلهم رجل واحد - دوي التصفيق من الأكف..
إنها التجربة الأولى من هذا الطراز..
قالت وهي تشهق انفعالا بتلك الطريقة التي تجعلها غير قادرة على استكمال جملة واحدة:
- كنت هناك.. رأيت.. رأيت.. (راسبوتين).. رأيت عملية.. عملية اغتياله لدى الأمير..
قال (سلاتر) في رفق:
- فيما بعد يا صغيرة.. فيما بعد.. سيكون ثمة وقت كاف لسماع شهادتك وتسجيلها، ولسوف نحمض الفيلم الذي جئت به ونحلله.
- كادوا.. يفت.. يفتكون بي.. أطلقوا عليّ الرصا.. الرصاص..
قال أحد الفنيين وهو يتفحص مقدمة آلة الزمن مدققا:
- بالتأكيد.. هذه الندوب لم تنتج عن الشيخوخة..
في حذر قال د. (سلاتر) وهو ينظر للرجال:
- يجب أن نحمد الله على أن الزجاج لم يتهشم.. إن التسرب كان خليقا بأن يسبب مشاكل عسيرة.. ربما تلاشيت تماما بين الأبعاد..
سأل أحد الفنيين:
- هل نفحص الآلة الآن؟
- لا داعي للعجلة من الممكن أن نفعل هذا غدا، والمهم الآن أن نعنى بمسافرتنا..
كان (جيمي) واقفا بين الرجال، وكان يضحك لها برقة.. طبعا كان يحمل ذات ملامح (شريف) زوجها السابق، وقد جعلها هذا تقرر في نفسها ألا تثق به أكثر من اللازم.. فيما مضى كانت هذه علامة إيجابية، أما اليوم فهي شيء لا تستطيع أن ترتاح إليه.
قال لها (جيمي) وهو يمد يده ليمسك بيدها:
- فيما بعد.. كما قال د. (سلاتر).. أما الآن يا (بيتي) فسوف تخضعين لفحص طبي دقيق.. بعد هذا حمام دافئ ونوم وربما عشاء أيضا..
وهكذا تركت نفسها لمجرى الأحداث، والحقيقة أنها كانت مرهقة فعلا.. صحيح أنها لم تمر بأحداث كثيرة بعد، لكن (فانتازيا) تصر على أن تكون مرهقة وهذا ما صارته.

☆ ☆ ☆

بدأ كل شيء منذ عام على الأقل حين وقف د. (سلاتر) أمام القاعة.. فقط نصف وجهه هو الظاهر في الضوء المنعكس من الشاشة، وقد انعكس الضوء على نظارته بتلك الطريقة التي تجعلها تضيء هي ذاتها، وتجعل صاحبها يبدو متحجر العواطف..
قال بصوته الرخيم المنوم:
- التجربة التي قمت بها أنا مؤخرا هي ذات التجربة التي نعرفها جميعا.. احك قصة حادث لصديقك، واطلب منه أن يحكي القصة لخمسة من أصدقائه، بشرط أن يحكي كل واحد منهم ذات الحادث لخمسة آخرين.. سوف يبدأ التفاعل المتسلسل.. المتوالية الهندسية تكبر بسرعة لا تصدق.. بعد أيام سوف تصلك القصة أنت نفسك.. ولكن ماذا صارت؟ سوف يصيبك الهلع مما جرى: السيارة (الفيراري) الحمراء تحولت إلى سيارة (فولكس) بيضاء، والضحية لم تعد

طفلا عائدا من المدرسة، وإنما مجموعة من عمال الموانئ، والسائق الثمل صار إرهابيا يعمل في جيش التحرير الإيرلندي.. باختصار سوف تجد أن القصة تحولت في غضون أيام إلى قصة أخرى تماما..
ساد الصمت.. الكل يعرف هذا.. الكل يقبل هذا..
عاد الرجل يستطرد:
- الآن دعنا نر أحداث التاريخ الكبرى.. ماذا عن حرب (طرواده Troy)؟ لماذا هزم (نابليون) في (واترلو Waterloo)؟ هل كان (هتلر) شريرا؟
هنا يبدو أن الرجل فتح بابا من أبواب الجحيم؛ لأن أصوات (البووو) وال (هووو) تصاعدت من أرجاء القاعة.. هناك يهود هنا بالتأكيد، وهم يقبلون أي تفتح علمي ما عدا أن تقول إن (هتلر) لم يكن شيطانا..
تعالت الأصوات فصاح الرجل كي يجعل صوته أعلى:
- أقول مثلا.. وعلى كل حال نحن لا نثق في شيء يا سادة، لأن التاريخ يكتبه المنتصرون.. إن المثال الذي قدمته عن الحادث يتعلق بقصة أعيد سردها ثلاثة أيام.
فماذا عن قصة تحكي منذ آلاف السنين أو مئاتها؟ هذا هو مفتاح تجربتي.. يجب أن نعيد سرد التاريخ كما حدث فعلا، لا كما حكوا، ولا كما نريده أن يكون..
وعلى الشاشة خلفه ظهر شعار HR مهيبا عملاقا..
أردف قائلا:
- التاريخ وقد أعيدت كتابته.. هذا هو مشروعنا الذي تموله منظمة اليونسكو.. سوف نكتب التاريخ سطرا سطرا حتى لو لم يرق لنا ما نكتبه.. عندئذ نعرف.. هل تتكرر أغلاط البشر لأنهم حمقى لا يتعلمون؟ أم لأن التجارب السابقة لم تدون بدقة؟
هتف هاتف من الجالسين في شيء من السخرية:
- وكيف تفعل هذا؟ هل تذهب للتاريخ لتأخذ منه حديثا صحفيا؟
لم يغضب (سلاتر).. لم يتوتر.. لم يسخر..
فقط قال بهدوء:
- هذا هو ما سنفعله فعلا..
- وهل أكون وقحا لو سألت كيف؟

☆ ☆ ☆

- بآلة الزمن طبعا..
قالها كبير فريق الفيزيائيين وهو يدور حول المنصة العملاقة التي تربعت فوقها آلة الزمن.. بدا المنظر إلى حد ما دعائيا كأنه أحد معارض السيارات.. وقد قدرت (عبير) - التي صار اسمها (بيتي) هنا - أن كثيرا من عبارات السخرية والهجوم سوف تنهمر على رأس العالم..
كان يمشي مع لجنة مكونة من العسكريين الأمريكيين لهم ملامح تذكرك بكلاب الصيد اليقظة - ودافعي الضرائب والصحفيين، وكان ما سيقوله عسيرا، لكن الرجل كان طويل الفتيل يعرف كيف يمتص سخرية محاوريه..
سأله صحفي وقد بدا عليه أنه مستمتع بما يحدث هنا:
- هل لنا أن نعرف متى وكيف وجدت هذه الآلة؟
بدأ الفيزيائي الكبير في شرح علمي طويل، اسمحوا لي ألا أعيده هنا؛ لأني - بلا تزويق - لم أفهم

منه حرفا.. إن من يتهمني بالقدرة على استيعاب هذه الأمور لا يعرف شيئا عنى.. ويمكن بلا تجن كبير أن تقول إن أحدا من الواقفين لم يفهم شيئا.. لست الجاهل الوحيد هنا.
في النهاية قال الصحفي الذي لم يفهم شيئا:
- وتريدنا أن نصدق هذا الكلام؟
قال العالم وهو يضع يديه في جيبيه بثقة:
- أنا لا أريد أي شيء من أي نوع.. فقط نبحث عن متطوع بشري.
- إذن لم ترسلوا إنسانا في هذه الرحلة؟
- أرسلنا (روبوت) مزودة بكاميرا.. ثم أرسلنا قردا فقط لنتأكد من أنه سيعود لنا حيا يرزق وليس عجين هامبورجر.. يمكن القول إن هذه الآلة فعالة - وهذا مهم - وآمنة.. وهذا أهم..
هنا سأله أحد العسكريين بلهجة تقريرية صارمة:
- لماذا لم تطلبوا طيارا من (ناسا)؟ إن من يركب سفينة فضاء يمكنه قيادة آلة زمن..
قال العالم بصوت عال، كأنما هو يوجه صفعة لشخص ما:
- يجب أن أقول هنا إن (ناسا) ترفض التعاون معنا..
إنهم لا يصدقون حرفا مما نقول، ويحسبون أنهم سيضيعون سمعتهم بالاشتراك في هذا الهراء..
- وما هي شروطكم لهذا المتطوع؟
قال ببساطة:
- شرط واحد: أن يقبل!
- ولماذا لا ترسلون أحد صبيتكم القابعين هنا بلا عمل؟
- سوف يتهمنا الجميع بأننا لسنا محايدين.. ما نريده هو شخص خارج المشروع.. شخص غير متحيز.. شخص يعتبرنا نصابين، ويبحث عن فرصة لإثبات ذلك.. شخص له احترامه لدي وسائل الإعلام.. شخص..
وكانت عيناه متصلبتين على عيني (عبير)....
وفي هذه اللحظة عرفت (عبير) ما سيحدث في الأيام التالية..

☆ ☆ ☆

قال لها (جيمي دافنبورت) قائد الفريق الطبي:
- لا أعتقد أن هناك مشاكل.. إن القرد الذي أرسلناه مازال حيا يرزق..
ابتسمت في رفق وقالت:
- هذا يريحني.. لكنى أسأل عن أمور أخرى.. أسأل عن الخبال.. عن التشنجات.. عن الاكتئاب وعن السرطان الذي سيظهر بعد أعوام..
قال لها وهو يحك رأسه مفكرا:
- لا أستطيع أن أتبنى طريقتك في التفكير.. من الممكن أن يسقط أحدنا ميتا الآن.. ولو أصيب القرد بسرطان إذا فلا تتهمني بأني أخفيت عنك شيئا..
كان هذا مطمئنا كما ترى..
كانت تتأهب لرحلتها الأولى، وثمة جو عام من التوتر تسرب إلى نفسها شخصيا.. قاعة مزدحمة بالفنيين وعبارات مضيئة على شاشات عملاقة، وأصوات بمكبر الصوت.. الحقيقة أنها تخيلت دائما اللحظة السوداء التي تقرر فيها أمريكا بدء الحرب النووية.. لن يختلف الأمر عن هذا الشكل.. علماء يقطبون وجوههم وفنيون يركضون ذات اليمين واليسار، وإضاءة تتغير كل ثانية.. لا تعرف الحكمة من هذا إلا لإضفاء جو درامي معين.

وهي.. هي مركز هذه الضوضاء كلها.. لكنها كانت تعرف لماذا اختيرت.. ليس لأنها الأفضل.. بل لأنها هي.. (عبير).. وهذه (فانتازيا).. إذن لن يتم هنا اختيار الأفضل، بل اختيار الفتاة المراد تسليتها..
قال لها (جيمي) وهو يناولها قفازين ومعطفا سميكا:
- بما أننا اتفقنا على أنك ذاهبة إلى روسيا في ديسمبر، فلا يوجد ما يمنع من أن تستعدي لهذا جيدا.. لا أعتقد أن الجو كان أكثر دفئا هناك منذ مائة عام.
قال لها د. (سلاتر) وهو يثبت قلنسوة صوفية على رأسها:
- أبدو متفائلا.. هكذا أفترض أنك فعلا ستصلين هناك.. لكن لا أريد أن أخاطر بأن تنجح ثم تتجمدي بردا جوار نهر (الفولجا).. يذكرني هذا بقصة القس الأمريكي الذي قرر إقامة طقوس صلاة المطر.. لقد غصت كنيسته بالمتدينين.
لكن هذا لم يرق له، وقال لهم غاضبا: لو كان بينكم من هو صادق الإيمان حقا، فلماذا لا أرى أحدا قد جلب مظلة الأمطار معه؟!
ابتسمت للفكرة.. معنى هذا أن وضعها قلنسوة صوفية على رأسها دليل على إيمانها بكفاءة آلة الزمن..
لماذا اختارت روسيا في هذا التاريخ بالذات؟
كان هذا اختيارها؛ لأنهم تركوا لها الحرية كاملة.. هذا جزء من إثبات كفاءة الجهاز..
كان هذا التاريخ هو تاريخ وفاة (راسبوتين) ذلك الرجل الرهيب الذي كثرت حوله الأساطير، ولا تعرف لماذا ورد إلى ذهنها على الفور بمجرد أن طلبوا منها اختيار حادثة تاريخية معينة.
لكن العقل الباطن له أسبابه الوجيهة.. ولقد فاتها أنها كانت في فراشها منذ يومين، وكانت في حالة السنة التي هى يقظة نائمة أو نعاس متيقظ.. جوارها كان المذياع وكان سيل من الغناء ينبعث منه، لكنها لا تستطيع تمييز أغنية واحدة.. التقط عقلها الباطن أغنية (بوني إم) القديمة:
را را راسبوتين..
حبيب ملكة روسيا..
را را راسبوتين...
أعظم أداة حب في روسيا..
من العار أنهم تركوه يتمادى...

وعلى الطريقة الفرويدية الشهيرة نسيت الأغنية ونسيت أنها سمعتها، ولكن الذكرى أعلنت عن نفسها في الوقت المناسب حينما سألوها:
- أية حادثة تاريخية تريدين أن تريها؟
- مصرع (راسبوتين)!
تبادلوا نظرات الدهشة.. ذوق غريب حقا.. كانوا يفضلون أن تختار حادثة أمريكية مهمة.. التاريخ الأمريكي الذي لا يتجاوز أربعمائة عام جعلوه شديد الأهمية حافلا بالأحداث، كأنه التاريخ الأشوري مثلا.. يعثر بعض المهاجرين الجائعين على ديك رومي فتتحول هذه المناسبة إلى عيد قومي هو عيد الشكر Thanksgiving، أو يلقون بعض صناديق الشاي في البحر فيصير هذا (يوم الشاي).. وهكذا..
على كل حال بحثوا في مراجعهم وعرفوا التاريخ والساعة.
عليها أن تراقب كل شيء.. تلتقط من الصور ما تستطيع..
والنصيحة الأهم هي ألا تبقى هنالك أكثر من اللازم..

- بمجرد أن يموت التيس العجوز، عليك أن ترحلي.. لا نريد المجازفة.
وهكذا جلست (عبير) داخل آلة الزمن، ورفعت يدها المغلفة بالقفاز بحركة يمارسها الطيارون، ومعناها أنها مستعدة وكل شيء على ما يرام.. ثم بدأت الضغط على الأزرار.
وبدأت الرحلة العجيبة.

☆ ☆ ☆

3

عاش رجل ما في روسيا منذ زمن بعيد..
كان قويا ضخما.. وفي عينيه بريق ملتهب..
أكثر الناس كانوا يرمقونه بتوجس وخوف..
لكن بالنسبة لحسناوات (موسكو) كان لطيفا حبوبا للغاية..

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

بدأ عرض الشرائح الضوئية.
وهنا فقط خطر لها أنه كان من الأفضل لو التقطت صورا متحركة.. لا تعرف لماذا لم يفكروا في هذا لكنها الحقيقة..
على كل حال كانت الصور جيدة، تظهر كل مراحل عملية القتل الشنيعة التي شاهدتها.. صور ملونة واضحة لا كتلك الصور الضبابية الزيتونية التي تميز أحداث أول القرن الماضي، حين كانت الكاميرا تدعى (فوتوغرافيا).. وعلى قدر علمها كانت هذه أول عملية قتل تتعاطف فيها مع القتلة لا الضحية.. السبب هنا هو أن الأمر كان أقرب إلى صيد الأسود..
كان العلماء يراقبون الشرائح وهم لا يكفون عن إطلاق الشهقات..
وقال د. (سلاتر) في نوع من خيبة الأمل:
- على الأقل هذه الحادثة التاريخية دقيقة وتم تسجيلها بعناية.. إن التاريخ الذي نعرفه هو الذي حدث فعلا.. هذا بسبب كثرة الشهود للحادثة.. يقولون إن الشيء الوحيد المؤكد في حياة (راسبوتين) هو وقائع موته..
قالت (عبير) باسمة:
- ليس هذا ذنبي.. كنت أتمنى أن أكتشف أن (راسبوتين) هو الذي قتل الرجال أو أنه مات بنوبة قلبية.. لكني نقلت ما رأيت بأمانة..
ووقفت (عبير) - لحسن الحظ أنها متمرسة على مواجهة الجمهور بحكم المهنة - وراحت تجيب عن الأسئلة التي أمطروها بها.. لقد كان الأمر ذا شقين.. كيف كانت الرحلة، وماذا رأته في تلك الرحلة؟ وقد أجابت بكفاءة قدر الإمكان حتى إنهم صفقوا لها بعد انتهاء شهادتها كأنها كانت تغني ولا تتكلم..
بعد المؤتمر وقفت تستجمع أنفاسها فدنا منها د. (جيمي دافنبورت) وهو يلوك قطعة من اللادن.. دس يديه في جيببه، وقال بلهجة ذات معني:
- كنت رائعة..
- شكرا.. أعرف هذا..

لم تكن قد تخلصت بعد من الشعور الممض بأن هذا (شريف) آخر، ومعنى هذا أنه خائن كذوب.. ربما وغد كذلك.. فيما مضى كانت هناك فتاة ساذجة اسمها (عبير) كان يكفيها أن ترى وجه (شريف) كي تمنحه ثقتها كاملة.. أما اليوم فقد ازدادت اكتئابا وازدادت حكمة..
قال لها على الطريقة الأمريكية:
- هل أنت مرتبطة بموعد الليلة؟
- ربما..
- كنت أفكر في عشاء في مطعم صغير.. ربما بعض الرقص..
وكانت تعرف (طقوس المواعدة) الأمريكية هذه.. يقول الغربيون: اعثر عليهن.. ادعهن للعشاء.. حبهن.. اتركهن
كلا.. هي لا تبحث عن المغامرة ولا تبحث عن هذا النوع من العلاقات.. لماذا لا يسمح لها بأن تكون امرأة مستقلة ذاتيا لا تحتاج إلى الرجل في حياتها؟ هذا من حقها.. ربما لم يكن المجتمع الشرقي ليبتلع شيئا كهذا، حيث لا بد من رجل ما: زوج أو أخ يأخذ نصيبا مضاعفا من اللحم في الغداء، أو عاشق ولهان تتذمر الفتاة منه لكنها تخفي شعورها بالفخر كذلك.. هي الآن في أمريكا.. وأية أمريكا! أمريكا (فانتازيا) ذاتها! سوف تفعل ما تريد وليس لأحد حق الاعتراض.. بمعنى أدق لن تفعل أي شيء.. سوف تعيش حياتها بدون ذلك الكائن ثقيل الظل الذي تفوح منه رائحة التبغ: الرجل..
هكذا ابتسمت تلك الابتسامة العصبية التي تجدها في أي أطلس طبي مع شرح مرض (الكزاز).. مجرد تقلص لزاويتي الفم لأعلى من إظهار الأسنان كلها، وقالت:
- شكرا على العرض.. سأضعك في القائمة..
وتركته وانصرفت..

☆ ☆ ☆

فيما بعد عرفت (عبير) أنها تعيش في واشنطن).
شقة لا بأس بها أبدا تدل على أن دخلها من الصحافة ليس متواضعا على الإطلاق.. كانت تعيش وحدها طبعا ولديها كلب صغير مرح.. إن العلاقة بين الأمريكي وكلبه علاقة معقدة حقا فيها قدر لا بأس به من الاعتماد النفسي.. الكلب مرآة ترى فيها ما تريد أنت من انفعالات وعواطف.. وهذا يكفي في هذا المجتمع المفكك الخالي من الدفء بطبيعته..
قضت يومها تتلقى مكالمات هاتفية عديدة.. دور نشر كثيرة تريد مذكراتها عن التجربة التي قامت بها وما سوف يتلوها من تجارب أخرى.. نعم.. حتما هناك تجارب أخرى، إلى أن يقرر العلماء صنع عدة آلات زمن وعدة فرق تمسح التاريخ مسحا.. عندها يكتمل الغرض من المشروع..
لكن د. (سلاتر) كان واضحا: أنت ملكنا.. وما تعرفين ملكنا قانونا.. لا يحق لك أن تنطقي بحرف عما رأيت أو عرفت إلا بإذن مسبق منا..
قالت محتجة:
- لكن اللسان ينزلق أحيانا
قال بلهجة لا أثر للمزاح فيها:
- القانون لا يتعامل بالنوايا الحسنة ولكن بالحقائق. تذكري أن جزءا كبيرا من تمويل المشروع قام به البنتاجون، وبالتالي نحن نتكلم عن سر حربي من أسرار الدولة لو ثرثر أحد العلماء بأسرار

أسلحتنا السرية، فإن المحكمة لن تعتبر ما حدث زلة لسان.. سيصير هذا العالم تاريخا.
قالت متظرفة:
- تاريخا حقيقيا أم مزورا؟
لكنه لم يضحك.. وهكذا تعلمت أهم دروسها.. عليها أن تظل صامتة مع هؤلاء القوم، وبالتالي عليها أن ترفض كل عروض الثراء التي تنهمر عليها..
أما عن البريد فقد كان أهم ما حصلت عليه هو دعوة للعشاء في البيت الأبيض بعد يومين..
لم لا؟ إنها صحفية مهمة، ثم اكتسبت أهمية أكثر بعد ما صارت أول رائد زمن.. (يوري جاجارين Yuri Gangarin) كان أول رائد فضاء.. هي أول رائد زمن.. إن هذه الدعوة أقل مما تستحق..
وتنهدت.. إنها تجرب كل شيء في (فانتازيا) بدءا بالمزاح مع (سقراط) ومواجهة الكونت (دراكيولا) والموت برصاصة قاتل مافيا، فلم يبق إلا تناول العشاء في البيت الأبيض.. لكنها لا تعرف حقا ما يجب أن تفعله.
في خزانة الثياب وجدت ثوبا أسود أنيقا يصلح للسهرة.. ووجدت لديها عقدا ثمينا يصلح كي تبدو ثرية.
سوف تذهب.. ولتأمل ألا ترتكب أخطاء قاتلة هناك.. قيل لها يوما إن وضع الشوكة والسكين والملعقة في الطبق لغة خاصة يفهمها سادة البروتوكول.. تأمل ألا تضع هذه الأشياء الثلاثة في وضع سباب أو تهديد أو شيء من هذا القبيل.

هكذا يمكننا أن نفهم لماذا تجتاز (عبير) مدخل البيت الأبيض متأنقة بهذا الشكل.
حاصرها بعض الصحفيين بأسئلة عديدة، وقد أثار هذا حيرتها.. هي لم تلعب دورا ذا أهمية، ولو أنصف هؤلاء القوم لصار فريق علماء الفيزياء هو نجم الحفل وكل حفل، لكنها كانت صالحة للعب دور النجم على كل حال.. جميلة مشرقة متألقة.. إنها واجهة المشروع البراقة، بينما يتوارى خلفها كل هؤلاء العلماء كئيبي المنظر الذين انحنت ظهورهم وغلظت عويناتهم حتى صارت أقرب إلى التلسكوبات.. هكذا الأمر في كل شيء.. نجمة الفيلم المبهرة التي صارت حلم كل شاب، تتألق عليها الأضواء، بينما يقف المخرج الذي صنع كل هذا في الظل.. (فاديم Vadim) صنع (بريجيت باردو) من المراهقة الفرنسية الخرقاء الباهتة، فصارت رمز فرنسا وأسطورة تمشي على قدمين، بينما توارى هو وراء عويناته السميكة، وراح يفتش عن فتاة أخرى يصنع منها نجما وهاجا: (جين فوندا)..
هذه هي قواعد اللعبة ولسوف تحسن التعامل معها ما دامت في صفها.
- سيداتي سادتي.. رئيس الولايات المتحدة الأمريكية..
ساد جو من التوتر بينما هي ترمق للمرة الأولى الرجل الذي يحكم العالم.
كان (جيمس باكستر) قصير القامة.. ربما أقصر مما يبدو في الصور.. له ابتسامة بلهاء نوعا.. ابتسامة تلفزيونية جدا من تلك التي يجيد الممثلون اصطناعها، لكن ما إن تبتعد الكاميرا عنه حتى يعود لتجهمه.. وقد اكتسب إحساسا غريزيا باللحظة التي تسلط فيها الكاميرا عليه، فما إن تفارقه حتى يريح عضلات فمه.. عامة كان أقرب إلى تاجر سيارات مستعملة منه إلى أي شيء آخر.. لكن من العسير أن ينظر المرء باستخفاف إلى الرجل الذي اجتاز غابة المصالح والتعقيدات المالية والمشاكل السياسية، دون أن يخدشه غصن واحد، ليصير أقوى رجل في العالم.
زوجته أيضا أمريكية جدا من طراز (حفلات الكوكتيل) و (القيم الأمريكية) إياه.. وتبدو أكثر طولا منه.. عصابية جدا، وفي عينيها مزيج فريد من الذعر والمودة والقسوة.. يمكن أن تكون

وديعة متى أرادت وشرسة جدا متى أرادت. يمكن أن ترى من عينيها أنها فعلا تجاهد كي تبدو لطيفة، لكن تفلت منها تلك النظرة التي يصفونها في العامية ب. (يطق منها الشرر)..
وجدت (عبير) من يهيب بها في ذعر أن تتجه لتقابل الرئيس..
دنت ببطء من الرجل الكبير، فوجدت من يقدمه لها..
فاكتفت بأن هزت رأسها بحركة أنيقة.
قال لها متبسطا:
- هاي (بيتي).. لقد عرفت تفاصيل رحلتك الشجاعة إلى الماضي.. فلتحل بي اللعنة! فقط أتمنى ألا تسلبنا مهنتك الجديدة صحفية بارعة.. لقد كنت أهوى مقالاتك..
(فلتحل بي اللعنة I'll be damned) عبارة تعجب تصدر عن الرئيس كثيرا، وتعتبر من العلامات المسجلة له.. قالت (عبير) في حنكة:
- سيدي.. إن الحلوف البري يعود لحك جسمه في لحاء الأشجار حتى لو أبعدناه عن الغابة عدة أعوام..
كانت هذه هي العبارة الراقية التي وردت لذهنها عفو الخاطر.. لكن يبدو أن هذا التشبيه العبقري لم يرق ل. (باكستر) كثيرا؛ لأنه غير الموضوع سريعا وثمة نظرة قاسية باردة التمعت في عيني زوجته للحظة.
قال الرئيس:
- نعم.. أفهم ما تريدين قوله.. السمك لا يعيش طويلا خارج الماء.. لكني أريد أن تدرسي تاريخنا العظيم بعناية. أريد أن تشاهدي اغتيال (لنكولن).. نزول الحجاج.. يوم الشاي.. إعلان الاستقلال.. كل هذه التفاصيل لا بد من أن تتابعيها بعناية وتصوريها..
والتفت إلى زوجته وقال:
- تصوري يا (إميلي).. صورة كبيرة لتوقيع معاهدة إنهاء الحرب الأهلية.. صورة كبيرة نعلقها فوق المدفأة.. حقيقية وليست بريشة رسام.. فلتحل بي اللعنة!
قالت زوجته بطريقتها المصطنعة:
- إنه معجب بالجنرال (جرانت)..
انتهت المحادثة القصيرة، فجلسوا إلى المأدبة.. طبعا وقف الرئيس يحكي عن (أطرف شيء حدث له في رحلة الصيد الأخيرة) وكيف أن زوجته تفضل إضافة (الجنجر) إلى الكوكتيل.. الكل يضحك.. دعابات ظريفة جدا كما يبدو لكن (عبير) لم تفهمها على كل حال، ربما لأنها لم تفقد جزءها المصري تماما.
كانت هناك بعض الخطب، ثم بدأ العشاء..
في نهاية الأمسية - التي لم تكن ممتعة جدا - أشار لها الرئيس كي تدنو..
قال لها في مودة:
- لك وضع استثنائي هنا.. إن زوجتي تراك لطيفة فعلا، وأنا أشاركها الرأي.. يمكنك أن تتصلي بي في أي وقت، أو أن تطلبي أية خدمة بعيدا عن التعقيد الحكومي..
هزت رأسها معربة عن امتنانها لهذه المجاملة، بينما عدسات الكاميرا تلتقط لها أكثر من صورة مع الرئيس.. ثم انصرفت
وفي السيارة التي أقلتها إلى دارها - الخاصة بالرئاسة - أغمضت عينيها وابتسمت.
ليلة في البيت الأبيض.. ليست بداية سيئة على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

4

في كل شئون الدولة.. كان الرجل المطلوب.
لكنه كان كذلك رائعا حين يكون مع فتاة..
بالنسبة للملكة لم يكن ثعلبا وصوليا، برغم أنها سمعت عما قام به.
كانت تؤمن بأنه معالج مقدس..
سوف يشفي ابنها..

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

هناك لحظة ما في حياة كل فتاة، تلقى فيها رجلا تعرف أنها ستتبعه إلى نهاية العالم لو طلب منها هذا..
حسن.. كانت هذه اللحظة قادمة في حياة (عبير).. انتباه.. لا تستسلم للنعاس لو كنت قد فعلت.. إنها ستحدث بعد ساعة.. بعد نصف ساعة.. بعد ربع ساعة.. (عبير) ستلقى الرجل الجدير بها أو الذي هي جديرة به.. لا أعرف بالضبط..
إنها عائدة لدارها بسيارتها الخاصة.. تتجه إلى المرآب تحت البناية.
كنت أقول دائما إن هذه الأماكن عبارة عن أوكار لممارسة الجريمة أو الإعداد لها، وكنت على حق.. تصور مكانا مظلما خاليا تتراص فيه السيارات، وبتلك الطريقة التي تجعل من المستحيل عليك أن ترى الخطر.
أغلقت سيارتها ومضت بين صفوف السيارات.. لا صوت إلا صوت كعبيها وهما يضربان الأرض الإسفلتية.. ولا ضوء إلا ذلك البصيص الخافت في نهاية الممر.
هنا شعرت به.. كان خلفها.. كان يقترب.. التقطت حركته أجهزة الرادار الضامرة الموجودة في مؤخرة رءوسنا والتي لا تعمل إلا في لحظات خاصة جدا..
استدارت بسرعة لكنها لم تجد الوقت الكافي لأن يدا غليظة وضعت على فمها، وشعرت بشيء بارد على وريد عنقها الودجي..
صوت كريه كالفحيح يخرج مع أنفاس تعبق بالخمر يقول لها:
- الهدوء.. لو تصرفت كفتاة طيبة فلن يمسك أذى..
ثم - بقوة لا تصدق - يقتادها إلى ركن المرآب.. إن التعامل مع هذه القوة ليس عادلا.. كأنها تحاول إيقاف بلدوزر بيدها.. هذا الرجل لم يكن بحاجة إلى سلاح أصلا...
قالت هامسة:
- الحقيبة.. إن بها مالا..
قال وهو يلهث كخنزير بري:
- نعم.. نعم.. المال آخر شيء..
كانت أفكارها مختلطة لا تعرف ما يجب عمله.. لماذا لم تلتحق بتلك المدرسة للدفاع عن النفس؟ إن المرء يكتشف حاجته إلى أشياء بعد فوات الأوان.
الأفكار تتسابق في ذهنها.. هنا رأت ذلك الرجل الآخر يتقدم في ظلال المرآب.
كان فارع القامة لم تتبين وجهه، لكنها قدرت أنه سيتصرف على الطريقة الأمريكية.. سيتظاهر

بأنه لم ير شيئا.. هنا يعتبر إنقاذ فتاة في مأزق نوعا من التدخل في أمور لا تخصك، يصل إلى درجة الوقاحة..
لكن الرجل دنا أكثر.. كان فارع القامة على قدر من الوسامة.. هذا ما استطاعت أن تتبينه في الإضاءة الخافتة.. وكان ينظر إلى مهاجمها الذي لم تره قط..
قال الوحش الذي يضع النصل على عنقها:
- ابتعد يا سيد ولن يصيبك أذى.. اهتم بشأنك الخاص لتتمتع بصحة طيبة..
المزيد من رائحة الخمر يخنقها.. دعك من رائحة العرق تحت إبطيه.. لماذا لا يستحم هؤلاء قبل مهاجمة الأبرياء؟ إن هذا يجعل العذاب مضاعفا.
قال الرجل القادم بثبات:
- وأنا أقدم لك عرضنا أفضل.. يمكنك أن ترحل من هنا قطعة واحدة لو أطلقت سراحها حالا..
كان صوته عميقا رخيما، لكنها أدركت أن لهجته ذات طابع أوروبي لا شك فيه.. هل هو آلماني؟
- ابتعد يا سيد والا انتهيت منها ثم جاء دورك..
قال الغريب الواقف في الظلال:
- وأنا آمرك بأن تقتلها حالا.. لو لم تفعل لأتيت وانتزعت رأسك من فوق عنقك..
هذا غريب! لا تستفزه أيها الأحمق..
بقيت ثلاث دقائق..
لم يعد ثمة مفر لها.. إنها ستلقى الرجل الذي تتمنى أن تتبعه إلى الأبد..
دقيقتان..
الوحش الذي يمسك بها يتردد.. يرخي النصل عن عنقها.. واضح أنه لا يريد القتل..
- قلت لك اقتلها.. أنت مجرد جبان آخر يتظاهر بالشجاعة.. لا تملك الأحشاء لتفعل ذلك..
من الغريب أن النصل يبتعد عن عنقها بسرعة أكبر. فكا الملزمة الحديدية ينفتحان فتشعر أنها تحررت.. تتراجع للوراء وتنظر لمهاجمها فتدرك أنه وحش آدمي لا يوصف. لو لم يكن بهذه الثياب لحسبوه خرتيتا في حديقة الحيوان..
لكن الوحش لدهشتها يرتجف.. يقول للقادم:
- لقد أطلقت سراحها.. الآن دعني أمضي..
- ليس بعد
وقبل أن تفهم ما يحدث كان القادم فارع القامة قد وثب وثبتين نحو الوحش الذي هاجمها.. ارتفع حذاؤه ذو الرقبة في الهواء ليدفنه في بطن الوغد، وقبل أن ينثني الوغد المذكور حول نفسه ألما بالكامل، كانت قبضة منقذها تهشم فكه.. عرفت هذا لأنها سمعت صوت ال (شلينك).. أما الضربة التالية فكانت على حنجرته حين رفع رأسه لأعلي ليصرخ..
هكذا - وبثلاث ضربات - تكوم الخرتيت الآدمي على الأرض.. لم يكن يتلوى.. لم يكن يئن.. لقد انتهى على الأرجح.. أو هذا ما سيحدث لو لم يسعفه أحد خلال ثانيتين..
قال لها القادم:
- جميل.. والآن تعالى نبتعد.. على الأرجح ستكون لدى الشرطة أسئلة كثيرة..
وانطلقا يركضان هاربين من المرآب....
انتهى الوقت.. لقد صارت في قبضته الآن..

☆ ☆ ☆

في الضوء استطاعت أن تراه بطوله الفارع وبنيانه المتين.. لم يكن جميلا لكن له وجها عظيم التأثير.. له عينان واسعتان قويتان ووجه حليق بعناية.. أما عن ثيابه فكانت من (الجينز) لا يميزها شيء..

قالت له بصدق وحرارة:

- أشكرك.. فلو لم تظهر..

ببساطة قال وهو يتأبط ذراعها:

- ليس المهم أن أظهر.. المهم أن أفعل.. كنت أوقف سيارتي في المرآب قبلك بدقيقة حين رأيت المشهد.. هناك أشياء لا أتحملها..

كانت أضواء الليل تلتمع على مجموعة من المحلات، فقال لها:

- هل تناولت عشاءك؟ ما رأيك في شطيرتين من اللحم البقري؟

- تعني الهامبرجر؟ لا بأس.

اجتازا المدخل إلى أحد هذه المطاعم، هو مزيج من مطعم وناد ليلى.. مع رجل له هذا البنيان المتين يمكنها أن تكون مطمئنة.. فهذا المكان لا يخلو من الرعاع خاصة في ساعة كهذه.. لقد وقف لحظة على المدخل ونظر للجالسين نظرة واحدة فعكفوا جميعا يواصلون ما قاموا به.. لو كانت وحدها لتحرشوا بها بلا شك..

جلس إلى منضدة وجاءت ساقية خشنة خالية من الأنوثة من الطراز الذي يدس القلم خلف أذنه، فقال لها:

- نريد شطيرتين من اللحم البقري..

- تعني الهامبرجر أيها الرجل الضخم؟

- نعم.. نعم.. والكثير من النبيذ..

قالت (عبير) في تهذيب:

- أنا لا أشرب.. سأتناول بعض الكولا إن لم تمانع.

ضرب المنضدة بقبضته وهتف:

هلمي أيتها الحسناء.. لقد سمعت ما طلبته الآنسة..

إن الخدمة عندكم بطيئة فعلا ثم عقد يديه العملاقتين تحت ذقنه، ونظر ل.(عبير) باسما..

سألته (عبير) وهي تتأمل تقاطيعه القوية:

- إذن؟ من أنت؟ لا تبدو لي أمريكا.

- أنا ألماني.. اسمي (بيتر كاوفمان).. جئت إلى الولايات منذ عشر سنوات..

- وهل تمارس عملا ما غير (الفارس الليلي) الذي ينقذ الفتيات؟

- أنا طبيب نفساني.

كان هذا غريبا.. للمرة الأولى تلقي طبيبا نفسيا لا يمكن ضربه.. طبيبا نفسيا لا يبدو أن عنده وقت لفتح أي كتاب، وبالتأكيد هو لا يعاني مشكلة نفسية ما.. هذه شخصية منفتحة بعنف.

جاءت الساقية بالشطائر والشراب..

وفي دهشة راقبت (عبير) كيف يلتهم الشطيرة مرة واحدة على طريقة (مسح الزور) المصرية الشهيرة، ثم راح يشرب النبيذ من الزجاجة مباشرة.. ومسح فمه بيده الكبيرة، فمدت يدها تضع شطيرتها أمامه:

- لست جائعة إلى هذا الحد..

لا بد أن التمثيل الغذائي لهذا الجسد العملاق عال جدا..

معنى هذا أنه يقضي اليوم كله في البحث عن طعام كما يفعل العصفور.. ومن الغريب أن هذا راق لها.. الرجل الذي لا يتظاهر بالرقة عند موعده الأول مع فتاة حسناء هو رجل من طراز نادر.. كانت لها في مصر صديقة خطبت إلى شاب رقيق مهذب، وبعد الزواج أصابها الهلع حين رأته يكرع الملوخية من الطبق مباشرة ثم يتجشأ، ويدس عود ثقاب في أذنه، ويعبث باللقيمات بين أسنانه.. سألته: أين ذهبت رقتك السابقة؟ هل كنت تمثل؟ كانت إجابته: لم أكن أمثل.. لكني لست مطالبا أن آكل دجاجة نيئة أمامك وأصفع الأطفال وأخنق القطط في أول لقاء كي اقنعك بصراحتي..

دوت موسيقا صاخبة فوقف بعض الشباب يهتزون مع الإيقاع كأنهم دمى ماريونيت معلقة من خيط واحد..

هنا بدت الحماسة على الرجل.. بدأ يهتز مع الإيقاع بدوره ثم قال لها وهو يصفق:

- هلمي.. فلنرقص..

تهز رأسها أن لا.. فيتركها.. إنه في حال من الحماس لا تسمح بالمجاملة.

يتوسط الشباب.. بينما يدوي الإيقاع القوي من الأرض ذاتها حتى لترتج له أحشاؤك وقلبك.. ويدوي صوت مغني فريق (كوين Queen):

يا صديقي أنت صبي تحدث جلبة عالية..
تلعب في الشارع.. لكنك ستغدو كبيرا يوما ما..
الوحل على وجهك.. شكلك مشين للغاية..
تركل علبتك الصفيح في كل مكان...
سوف نجعلك.. سوف نجعلك ترقص الروك..

إنه يتلوى.. يرفع ساقه اليمني.. يرفع ساقه اليسرى.. يثب في الهواء..

يا صديقي أنت شاب شديد المراس..
تصرخ في الطرقات حاسبا أنك ستملك العالم يوما ما..
الدم على وجهك.. شكلك مشين للغاية..
تلوح باللافتة العملاقة التي تحملها في كل مكان..
سوف نجعلك.. سوف نجعلك ترقص الروك..

إنه يثني ركبتيه ليمشي في وضع الاحتباء.. إنه ينقل ساقيه ويعقد كفيه.. إنه يثب.. يزحف على الأرض..

يا صديقي أنت شيخ مسن...
تتوسل عيناك كي تجدا بعض الراحة والسلام في مكان ما..
الوحل على وجهك.. شكلك مشين للغاية..
لسوف يضعك أحدهم حيث تستحق..
سوف نجعلك.. سوف نجعلك ترقص الروك..

إنه يرسم على وجهه أمارات النشوة.. الألم.. الفرحة.. الحزن.. إنه يرقد على ظهره.. إنه يحرك ساقيه كالعجلة.. إنه يستند على ذراع واحدة ويدور كالمحراث.. إنه ينهض.. إنه يركع.. إنه يجثو.. إنه يثب.. إنه يركض.. إنه يمشي.. إنه ينعس.. إنه يصحو..

سوف نجعلك.. سوف نجعلك ترقص الروك..
سوف نجعلك.. سوف نجعلك ترقص الروك..

وكان الجميع قد كفوا عن الرقص، ووقفوا في حلقة يراقبون هذا العملاق الذي يرقص كما لم يروا أحدا يرقص..
المغناطيسية التي بعثها من حوله جعلت الجميع غائبين عن الوعي..
وفي سرها همست (عبير): إنه لي!
مهما حدث سيعود إلى هذه المائدة بالذات ويتكلم معي بالذات..

☆ ☆ ☆

5

ولكن حين عرف المزيد من الناس شأن إدمانه الخمر..
وشهواته..
وتعطشه للسلطة..
تعالت الأصوات المطالبة بعمل شيء ضد ذلك الرجل المشين..
أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

كانت علاقتها تزداد ارتباطا ب. (بيتر كاوفمان)..
حقا لا تعرف السبب فهو لم يكن قط من الطراز الذي يروق لها، لكن كان هذا الرجل يملك طاقة حياة مذهلة، بالإضافة إلى تلك القوة المغناطيسية التي يصل بها إلى أي شيء.. أحيانا يطلقون عليها (الكاريزما charisma).. وفي السينما الأمريكية يطلقون عليها اسم (أومف)..
كانت تتذكر في استمتاع طريقته في الرقص.. وتفكر: ثمة شيء مألوف في هذه الطريقة.. لكن ما هو؟
على أنها لم تنكر لحظة أنها صارت في شباكه بالكامل.. لكنها لا ترغب في التحرر..
لقد دخل حياتها رجل في اللحظة التي قررت فيها أنها لن تسمح لأحد على الإطلاق.. حتى ذكر البعوضة.. بأن يدخل حياتها.. ومن الغريب أنها سعيدة بهذا..
الأهم أنه يوليها الاهتمام ذاته.. كانت جالسة معه ذات مرة في مقهى صغير حين ظهر آخر شخص تتمنى أن تراه الآن.. (جيمي دافنبورت).. شبيه (شريف) وقائد الفريق الطبي.. المتودد الأبدي الشبيه بذبابة لا ترحل أبدا..
لقد جاء وحياها، ثم تبادل نظرة سريعة مع (بيتر).. ومن دون كلمة أخرى جذب مقعدا وجلس.. وبسماجة قال:
- ماذا تأكلان؟
قال (بيتر) بلهجته الثقيلة الأوروبية نوعا:
- هل تعرف أمك أنك خرجت يا صغير؟
لم يتصور (جيمي) أن يهان بهذه السرعة، فرفع عينيه وثبتهما في عيني (بيتر) الثاقبتين وقال:
- شكرا.. هذه أمور عائلية لا تعنيك في شيء..
قال (بيتر) وهو يقلب السكر في القدح (هذا الرجل يشرب ويأكل كميات هائلة من السكر):
- إذن لماذا لا تبحث عن منضدة أخرى؟
- شكرا للنصيحة لكن من المصادفة أن (بيتي) زميلة عمل.. ومن حقي أن أجلس معها ما دمت لم تضع بطاقتك عليها.. وما دامت هي لم تطلب..
واصل (بيتر) تقليب السكر.. ثم قال دون أن يرفع عينيه عن الرجل الجالس أمامه:
- عندما أطلب أنا شيئا فعليك أن تنفذه.. لا تنفذه فقط بل تسعد به..
- حقا؟ إذن لماذا لا أشعر بهذه السعادة؟
- لأن سترتك متسخة! من الصعب أن تشعر بشيء آخر عدا الحرج!
قالها وفي اللحظة ذاتها قذف محتويات القدح كلها في اتجاه (جيمي).. السائل الأسود اللزج -

والساخن للأسف يغطي السترة كلها.. وهكذا وثب (جيمي) صارخا كأنما هو ملدوغ، وصرخ في هستيريا:
- أنت مريض نفسي.. (سايكوباث) حقيقي!
قال (بيتر) ببرود:
- ربما.. لكنى سايكوباث بثياب نظيفة.. قلت لك إن أمك ستغضب..
كوّر (جيمي) قبضته، فصاحت (عبير) في هلع وقد أدركت أن الأمور ستتطور إلى مأساة.. معنى دخولك في صراع مع هذا العملاق هو مذبحة تنتظر أن تحدث.. لن يكون (جيمي) أكثر من قطة صغيرة في قبضة خرتيت..
- (جيمي).. أتوسل إليك أن تبتعد.. قدم لي هذه الخيمة على الأقل!
نظر إلى (بيتر) مليا.. ثم نظر لها.. ويبدو أنه بدأ يقدر حقائق القوة على الأرض.. لو أطبقت على عنقه هذه اليد فلسوف يكون الأمر خطرا..
هكذا أخرج منديلا وراح يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. ثم قال ل (بيتر):
- الأيام بيننا أيها المهاجر..
وابتعد.
قالت (عبير) ل (بيتر) وهي تتنفس الصعداء:
- الحمد لله.. بالمناسبة أنت عصبي جدا.. لا أري ما يمنع في أن تسمح له بالجلوس..
قال في ازدراء وهو يضرب المنضدة:
- رجل صغير حقير.. دعينا من هذا الهراء.. هناك خدمة أريدك أن تقدميها لي..
خدمة له هو؟ يبدو مكتفيا ذاتيا لا يحتاج إلى شخص خارج حدود ذاته.. هذا هو السولييسزم solipsisim الحق..
لهذا رفعت حاجبيها متسائلة فقال:
- الرئيس.. أريد مقابلة الرئيس..
- رئيس الولايات المتحدة؟
- نعم.. أعرف أن لك صداقة خاصة معه.. أعتقد أنك تستطيعين تدبير شأن كهذا..
قالت وهي تفكر مليا:
- لا أعرف حقا.. لا بد من سبب قوي على الأقل..
- قولي إن لدى أشياء مهمة يجب أن يعرفها.. قولي إنني أعرف كل شيء عن (شاكو)..
- (شاكو)؟
- نعم..
لم تكن قد سمعت هذا الاسم من قبل، لكنها قدرت أنها (العلامة).. العلامة التي ستجعل الرئيس يوافق على الفور.. كان الطلب عسيرا خاصة وعلاقتها بالرئيس ليست حميمة إلى هذا الحد، لكن عيني (بيتر) القويتين جعلتاها تعرف أنها ستفعل..
بالتأكيد ستفعل..

☆ ☆ ☆

في الأيام التالية خاضت (عبير) رحلتين بآلة الزمن.. الأولى كانت للقاء (كليوباترا) الشهير مع (يوليوس قيصر)، وقد غيرت هذه الزيارة حقائق تاريخية مهمة، والزيارة الأخرى كانت ليوم الشاي في (بوسطون).. إن كل زيارة من هاتين تستحق كتيبا كاملا لكن ليس هذا موضوعنا على

كل حال.. دعك من أن الزيارة الأخيرة تم التعامل معها بسرية؛ لأنها لا تظهر الأمريكان بالبطولة التي يتصورونها عن أنفسهم.. هنا فقط يصحو الرقيب الأمريكي الذي قيل إنه نائم أو ميت، ويتم التعامل مع الأمر بسرية صارمة..
يجب أن نتذكر هنا أن متاجر الفراء في مركز التجارة العالمية تم نهبها لحظة حيث 11 سبتمبر الرهيب، وأن المتهم الوحيد هو رجال إطفاء (نيويورك) الأبطال، لهذا تم حجب هذه القضية تماما عن الصحافة ولم يجر أي تحقيق.
نعود لقصتنا إذن.
كان رد فعل الرئيس مذهلا حين أخبرته بأمر الرجل الذي يريد أن يكلمه عن (شاكو).. لقد نزع عويناته أكثر من مرة، وعاد يضعها.. ثم نظر لها بدهشة.. وعاد يكرر ما قالته:
- (شاكو)؟ فلتحل بي اللعنة! متأكدة من أنه تكلم عن (شاكو)؟
- هذا ما قاله يا سيدي..
- و هذا غريب!
وتبادل نظرة ذات معنى مع امرأته.. ثم قال ل (عبير):
- وما عمله؟
- يقول إنه طبيب نفساني.. لقد جاء من ألمانيا ولم يولد في الولايات..
فكر قليلا وحك ذقنه عدة مرات ثم قال:
- بالطبع أريد أن أرى هذا الرجل..
لسبب ما كانت تعرف أن هذا اللقاء سيتم.. إن (بيتر) يعرف ما يتكلم عنه...
وحين وصلت إلى البيت الأبيض في الموعد أخيرا مع (بيتر) العملاق غريب الأطوار، سألها في قلق قبل أن يجتاز المدخل:
- كيف أبدو؟
كانت هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها من دون الجينز.. لقد اعتادت منظره الأول وصارت تراه أنيقا جميلا لهذا لم تحب قط منظره الجديد.. لقد رأت أعيان القرى وكيف يكونون في ذروة هيبتهم وجلالهم بالجلباب، فإذا ارتدوا البذلة بدوا مضحكين.. لهذا قالت له بكياسة:
- تبدو مهرجا..
- أعرف هذا.. لكنهم لن يسمحوا لي بلقاء الرئيس بالجينز.. لقد استأجرت هذه البذلة..
وانتظرت بصبر حتى انتهت إجراءات التفتيش المعقدة، ثم اقتادهما رجلا أمن إلى المكتب البيضاوي.. لست متأكدا إن كانت هذه هي طقوس مقابلة الرئيس الأمريكي.. لكن هذا هو ما تخيله (دي جي) عن الموضوع على كل حال.
بعد قليل دخل الرئيس ومعه زوجته.. كان يحمل كلبه الصغير ويرمق القادم بفضول.. أما (بيتر) فظل ثابتا شامخا لا يفعل ولا يقول أي شيء...
حياها بهز رأسه، وهنا لاحظت (عبير) أن الزوجة لم ترفع عينيها عن القادم لحظة.. من هو (شاكو) هذا وما أهميته؟
هذه الكلمة فجرت لغا من الاهتمام لدى الزوجين..
قال الرئيس لأحد الحارسين:
- إن الآنسة لم تر مجموعة أطباق (إليانور روزفلت).. أعتقد أنها شغوف برؤيتها.. أريدكما أن تصحباها هناك وتسمحا لها برؤية كل شيء.. إن راحتها تهمني حقا.
إذن جاء وقت التخلص منها.. لو لم نكن في البيت الأبيض لوصفنا ما يحدث بأنه (زحلقة) أو

(توسيعة).. طبعا لن نستعمل ألفاظا سوقية كهذه هنا، لذا نكتفي بالتلميح.. وهكذا امتثلت للأمر ونهضت بينما انغلق باب المكتب البيضاوي خلفها على الرئيس وضيفه الخارق للعادة.
وبعد ساعة من مشاهدة ألعن مجموعة أطباق في التاريخ، جاء من يخبرها إن الرئيس يتمنى لها وقتا طيبا ويأسف لأنه لا يستطيع القدوم لتوديعها لأنه مشغول..
إذن هو الطرد.. لو لم تكن في البيت الأبيض لوصفنا ما يحدث بأنه قلة تهذيب.. لكننا سنحافظ على ألفاظنا قدر الإمكان كما يقضي البروتوكول وننصرف في هدوء..

لكنها شعرت بنوع من الإهانة وهي تغادر المكان وحدها..
شعرت بأنها إلى حد ما كانت وسيلة لا غاية.. لقد استعملها (بيتر) للوصول إلى هذا المكتب..
وبعد هذا انتهى أمرها بالنسبة له.. كالعاشق الذي يقدم حبيبته لصديق عمره، ثم يفاجأ بأنهما صارا حبيبين على الفور..
شيء في هذا كله يذكرها بقصة (سيرانو دي برجيراك Cyrano de Bergerac).. طبعا كان الوقت مبكرا جدا كي تتهم (بيتر) بأشياء من هذا القبيل..
لكن الأيام التالية برهنت لها على أنها عبقرية..

☆ ☆ ☆

حكم الأرض الروسية ولم يبال بالقيصر
لكن (الكازاتشوك) التي يرقصها كانت مذهلة..
را را راسبوتين..
حبيب ملكة روسيا..
را را راسبوتين..
أعظم أداة حب في روسيا..
من العار أنهم تركوه يتمادى..

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

إنه الأسبوع الثالث.. لم يتصل بها.. لم يأت لدارها..
لقد تلاشى (بيتر كاوفمان) من حياتها تماما..
لا تعرف السبب ولا تفهمه، لكنها قدرت ما عرفته منذ البداية: هي كانت وسيلة.. مجرد طريقة وجدها هذا ال (بيتر) للاتصال بالرئاسة وراحت البارانويا تؤدي عملها معها.. من يدري؟ ربما كانت محاولة الاعتداء عليها في المرآب مجرد مسرحية تم الاتفاق عليها مسبقا.. الطريقة الأخيرة لدى الأفلام العربية حين يحاول فتى أن يتعرف فتاة فيتفق مع متطفل ضخم الجثة كي يتحرش بها، ثم في اللحظة الأخيرة يظهر هو و (بوم - طاخ) يحطم أنف المعتدي وينال حب الفتاة..
وتذكرت منظر المهاجم المكوم على الأرض..
لا بد أنه نال مبلغا لا بأس به بالإضافة إلى تمثيله المبدع..
لكن لماذا؟ هل هي الطريقة الوحيدة أو المثلى للوصول إلى الرئيس؟ هي لا تعرف السبب لكن ربما كان الأمر كذلك..
وقد شاهدت في التليفزيون الرئيس أكثر من مرة، هنا أثار ذهولها أن (بيتر) بدا في ركن الصورة

واقفا وسط رجال الأمن.. لا لم يكن يضع السماعة في أذنه ولم يكن ينظر من حوله بتلك النظرة القلقة المتوترة المميزة لكلاب الصيد، بل كان يقف وقفة راسخة كأنه من عتاة رجال البروتوكول..
ما معنى هذا؟ كيف انخرط وسط رجال الرئيس بهذه البساطة؟
وفي الصحف رأته أكثر من مرة في خلفية الصور.. كان موضعه غير بارز إلى حد مستفز يدفع الصحافة للتساؤل، لكنه كان واضحا بما يكفي..
كانت الأسئلة تملأ رأسها بشكل غير مسبوق.
وجاءتها الفرصة في الجريدة التي تعمل بها.. أنت تعرف أن هناك جريدة دائما، وأن (عبير) قضت أكثر وقتها في (فانتازيا) كصحفية.. تلك المهنة التي تجعلك كثير الاتصالات عالما بالأخبار قبل سواك.. ولأسباب كهذه تكون الشخصية السرية لأكثر أبطال القصص المصورة المقنعين هي شخصية صحفي، منذ فتح (كلارك كنت) الدرب لمن بعده.
كان هناك رجل متأنق أشيب لا ينزع عويناته السوداء أبدا يمشي في الممر، وقد عرفته على الفور.
- (ديك)!
طبعا (ديك) هو (ريتشارد) بلغة التدليل الأمريكية، و (ريتشارد) هذا من عشاقها القدامى الذين لم تمنحهم رضاها قط.. إن دورها في (فانتازيا) يتكرر كثيرا كمحطمة قلوب الرجال، ويبدو أن هذا مفيد أحيانا.
رآها فتهلل وجهه وأشرق وهتف:
- يا للسماء! إن لم تكن هذه (بيتي دانييلز) ذاتها!
(ريتشارد كيلرمان) هو المستشار الصحفي للرئاسة.. وبالطبع لابد أن تنعقد بينهما صداقة ما بصفتهما يجتمعان على المهنة ذاتها، دعك من أنه ما زال يراها أجمل امرأة في العالم.. وهي بالفعل كذلك كما رأت نفسها في انعكاس عويناته السوداء.
تبادلا حديثا سريعا عما فعل الزمن بهما.. ثم دعاها - كالعادة - إلى الغداء في مطعم قريب فوافقت على الفور..
صب الكثير من (الكتشاب) داخل شطيرته وعلى البطاطس الفرنسية ثم ناولها الزجاجة وقال:
- أتابع رحلاتك إلى الماضي.. إن هذا الحدث قد هز التاريخ..
قالت في تواضع:
- كنت أتمنى أن يكون لي دور في هذا.. أنا مجرد شخص يركب السيارة لكن لا فضل له في اختراعها أو تطويرها..
- دعي أحمق أو غبيا يركب هذه السيارة ولسوف يأتي التقرير غبيا مملا.. أنت تحكين التاريخ بطريقة تعطيه بريقا حقيقيا.
دار الحديث بضع دقائق ثم قررت أن تسأله برفق..
لو تراجع أو خاف فلن تكون لديها فرصة للإعادة.. هذه فرصتها الأخيرة إذن.
قالت في كياسة:
- هناك وجوه كثيرة جديدة حول الرئيس هذه الأيام..
نظر لها بشفتين ملونتين بالكتشاب وقال:
- لا أرى هذا.. من تعنين؟
- ذلك الرجل فارع القامة حاد النظرات.. إن اسمه (بيتر).. كنت أنا من قدمه للرئيس..

هتف في حماسة:
- ذلك الرجل الغامض؟ (راسبوتين)؟!
هنا تصلبت
- ماذا تقول؟
- قلت (راسبوتين)..
نعم.. لماذا لم تعترف لنفسها بهذا من قبل؟ قامته الفارعة.. عيناه.. رقصته في المطعم.. ألم تكن هذه رقصة (الكازاتشوك kasachok)؟

☆ ☆ ☆

إنه يثني ركبتيه ليمشي في وضع الاحتباء.. إنه ينقل ساقيه ويعقد كفية

☆ ☆ ☆

لكن (الكازاتشوك) التي يرقصها كانت مذهلة
را را راسبوتين..
حبيب ملكة روسيا..

☆ ☆ ☆

قالت في حيرة:
- لماذا تطلق عليه هذا الاسم؟
قال ضاحكا:
- كل شيء فيه يذكرنا ب. (راسبوتين).. هذا هو الاسم الذي يطلق عليه خلسة في أوساط البيت الأبيض..
الرئيس معجب به حقا.. السيدة الأولى تعتقد أنه عبقري..
إنهم يقدمونه في كل شيء..
راحت تلوك الطعام ببطء شأن من يفكر، ثم سألته فجأة:
- هل تعرف من هو (شاكو)؟
قال من دون حذر ومن بين شفتيه الملطختين بالكتشاب:
- تعرفين هذا أيضا؟
- من هو؟
- هي.. ابنة الرئيس.. هذا هو اسم التدليل الذي لا يعرفه سوى ثلاثة أو أربعة.. أنا أعرف الاسم طبعا كما أعرف حقيقة مرضها..
كادت تتساءل في ذهول عن هذا المرض، ثم قدرت أنه أحمق.. مصادفة طيبة هي أن يعهدوا بمهنة المستشار الصحفي لأغبى حمار قابلته في حياتها، وهو رجل لم يعرف بعد حقيقة أن اللسان في مكان مبلل ويسهل أن ينزلق.. من الخير ألا تظهر أنها تجهل أي شيء، لذا هزت رأسها هزة محايدة.. فأردف المستشار الصحفي:
- إنه مرض نادر ناجم عن نقص بروتين يعمل على تجلط الدم..
- تعني الناعور (الهيموفيليا Hemophilia)؟
قال ضاحكا:

- لا.. لا.. الهيموفيليا ليست مرضا نادرا ولا صعبا..
ما أتكلم عنه مرض جيني نادر جدا.. إن الفتاة تنزف كميات هائلة من الدم أسبوعيا من كل فتحات جسدها.. وهي تتلقى جرعات هائلة من مضادات التجلط.. طبعا نتكتم نحن أشياء كهذه، لأن ابنة الرئيس يجب أن تبدو أمام الصحافة سليمة كالجرس.. تكلمي عن مرض نادر أصيبت به ابنته ولسوف تمتلئ الصحف بالتكهنات، ولسوف ينبري أعداؤنا السياسيون بالقول إن هذا دليل على خلل جيني في الرئيس نفسه، ومعني هذا أن الولايات المتحدة تقف على قاعدة مهتزة..
سألته في فضول:
- وهذا القادم الجديد؟ هل له دور هنا؟
قال وهو يجفف شفتيه:
- طبقا.. إنه معالج روحي بارع، وقد أجرى عدة جلسات مع (شاكو) ويقال إن النتيجة مذهلة..
ثم ضحك والتمعت عيناه:
- ألم أقل لك إنهم يطلقون عليه اسم (راسبوتين)؟

☆ ☆ ☆

عبثا حاولت الاتصال بالرئيس عدة مرات..
لقد انغلق الطريق في وجهها، وصار الأمر عسيرا حقا.
هكذا قررت أن تنسى القصة برمتها وأن تتفرغ لعملها.
على كل حال لم يحدث شيء أسوأ من أن فتاة مراهقة بدأت تشفي من مرض نادر.. ربما كان هذا - وهو الأرجح – دور الإيحاء.. لكن النتيجة واحدة..
ترى ماذا تفعل الآن أيها العزيز الكريه (بيتر كاوفمان)؟

☆ ☆ ☆

7

جلست في آلة الزمن تنتظر رحلتها القادمة..
كان العلماء يقومون بما يقومون به كل مرة من ضبط العدادات ومراجعة بعض القياسات، دعك من عملية صيانة آلة الزمن نفسها.. إن آلة تعبر الزمن تحتاج بالتأكيد لما هو أكثر من استبدال الزيت واعادة ملء الرادياتور بالماء.. وكانت الحركة صاخبة كالعادة.. أشخاص لا تعرف دورهم يجرون من هنا لهناك وقد تجهم وجههم بما يوحي بأن مهمتهم خطيرة جدا..
جاءها د. (سلاتر) باسما، وقال وهو يراجع لوح الكتابة في يده:
- هل اتخذت قرارا؟
قالت في مشاكسة:
- أبعدني عن التاريخ الأمريكي.. فأنتم لا تطيقون الحقائق.
قال لها وهو يشير إلى مكتبه في خلفية القاعة:
- تريد أن تتكلم معك بعض الوقت..
- أنتم؟
- أنا ود. (دافنبورت):
لم تكن تطيق سماع هذا الاسم، لكنه - للأسف – زميل عمل، ولو كان بوسعنا أن نختار زملاءنا في العمل لتحولت الحياة إلى جنة صغيرة.. أن تختار بيئتك وأبويك وزملاءك في العمل وربما رؤساءك.. هكذا تصير الحياة أجمل من أن تصدق.
هكذا نهضت مغادرة آلة الزمن ومشت متثاقلة إلى المكتب.
هناك كان (جيمي) جالسا وقد وضع ساقا على ساق، وفي عينيه نظرة متحفزة لا تختلف عن نظرة المصارع لدى دخوله الحلبة حين يجد خصمه قد سبقه.
وعلى الفور وقبل أن تلتقط أنفاسها قال:
- هل أغلقت باب آلة الزمن في رحلتك الأولى؟
فكرت قليلا في هذا السؤال الغريب ثم قالت:
- لا أذكر طبعا..
- كيف؟ أنت امرأة.. والمرأة لا تفوتها التفاصيل.. في السينما هناك مهنة اسمها (فتاة التتابع continuity girl)..
لاحظي أنها فتاة ولم يقل أحد (رجل التتابع).. مهمة هذه الفتاة أن تتذكر ما إذا كانت البطلة تضع يدها على خصر البطل أم على كتفه.. ما إذا كانت لفافة التبغ التي يمسك بها البطل قد بلغت نصفها أم لا.. وتتذكر هذه التفاصيل بعد أشهر حين يستكملون اللقطة.. لا يوجد غبي واحد يمكن أن يعهد بمهنة كهذه لرجل يقف ويحدثك، ثم لا يذكر بعد دقيقة واحدة إن كنت تعقصين شعرك أم لا.
كررت في عناد:
- لا بد أن الهرمونات الذكرية في عروقي مرتفعة نوعا..
- هذا جميل.. نحن فحصنا آلة الزمن بعناية.. لم نفعل ذلك بعد الرحلة الأولى ولكن مؤخرا.. هناك تجويف في مؤخرة الآلة في قمرة القيادة.. هذا التجويف يسمح باختباء إنسان ضخم الجثة.. فهل تعرفين ما وجدناه هناك؟

- قطرات دم متجمدة.. هل لديك تفسير؟
فكرت حينا ثم قالت:
- لم أجرح إصبعي هناك لو كنت تفكر في هذا..
- ونحن نعرف أنك لم تجرحي إصبعك..
قال د. (سلاتر) في هدوء:
- هذا هو ما كنا نفكر فيه.. لهذا فكرنا في خطة صغيرة.. ستعودين إلى لحظة مصرع (راسبوتين).. لن تحضري الاغتيال بل بعدها بقليل..
قالت وهي تنهض:
- لن أكرر مشاهدة هذا المشهد الشنيع.
- قلت إنك لن تحضري الاغتيال.. كل ما هنالك هو أن..
وراح يحكي خطته الجديدة..

☆ ☆ ☆

حينما وقفت آلة الزمن وسط الأشجار أثار ذهولها أنها تري آلة الزمن على بعد أمتار من موضعها.. آلة الزمن التي ركبتها في رحلتها الأولى قد صارت جزءا من التاريخ وبوسعها أن تراها الآن من موضعها هذا..
لكن.. هل صارت آلة الزمن التي تركبها الآن جزءا من التاريخ بدورها؟ هل كانت دائما هناك؟ هذه الأمور تسبب الدوار.. يحتاج الأمر إلى عدد من علماء المنطق يضعون تصورهم للأمر أما هي فعقلها أبسط من هذا.. كل ما تعرفه أنها تتواري بين الأشجار.. ترى الشرفة من بعيد.. تسمع صوت الطلقات وتسمع صوت المعركة الدائرة هناك..
سقوط (راسبوتين) في الماء المتجمد.
الرجال يختفون من الشرفة.
كل هذا رأته من قبل.. ترى هل سترى نفسها؟ هل تواجدت في هذا الزمن مرتين؟ هل هناك (عبير) أخري تنتظر تحت الشرفة وتركض نحو آلة الزمن الآن؟
هنا تصلبت..
لقد كان (جيمي) محقا..
لقد تركت باب آلة الزمن مفتوحا.. وهي الآن ترى ذلك الجسد الضخم المبتل يزحف خارجا من البحيرة المتجمدة..
يركض وهو يلهث ويتعثر نحو آلة الزمن.. يلقي نظرة حوله، ثم بلا تردد يثب داخلها.
تحشرجت الكلمات في حلقها..
لقد ركب!
الوغد قد ركب!
إنها ترى نفسها قادمة من بعيد.. هذه الفتاة النحيلة المدثرة بالفراء.. إنها هي بالتأكيد.. تثب داخل آلة الزمن..
تغلق الباب.. يا لك من حمقاء! إن (راسبوتين) معك داخل آلة الزمن!
الأمير ورفاقه يخرجون المسدسات والحرس القيصري يهرع ليهدد راكبة آلة الزمن..
الآلة تختفي وسط دوامة من الريح والضباب.. وأخيرا يقف الأمير ناظرا في حيرة إلى الموضع الذي خلا الآن..

هكذا وقد رأت ما أرادت أن تراه ضغطت بدورها على أزرار آلة الزمن.
لم تنس قبل أن تنطلق أن تلقي نظرة سريعة إلى القسم الخلفي من القمرة.. لا يوجد أحد.. لقد أصابها الوسواس..
إذن الشيطان لم يمت عندما سقط في البحيرة..
لقد ظل حيا.. تسلل إلى آلة الزمن المفتوحة.
كانت السبيل الوحيد له كي يظل حيا.. وبشكل ما كان وجودها سببا في تغير التاريخ وفي إنقاذ حياته.
لم يتردد ولم يتساءل عن كنه هذا الشي..
وهكذا عادت عبر التاريخ إلى الولايات المتحدة حاملة وحشا عاش منذ مائة عام..
الآن تعرف الحقيقة ولات حين مناص.
كانت ترتجف كورقة حين عادت إلى زمننا هذا، واحتاجت إلى وقت أطول من اللازم حتى تحكى ما حدث.. إن فكرة وجود (راسبوتين) الجريح معها فى آلة الزمن، وهي لا تدري لفكرة مرجفة..
ولما قصت ما رأته على (سلاتر) و (جيمي) بدا عليهما أنهما كانا يتوقعان هذا..
- فقط أردنا أن ترى هذا بعينك..
- وماذا يجعلكما متأكدين إلى هذا الحد المروع؟
قال د. (سلاتر) وهو يصب لنفسه بعض القهوة:
- هناك معالج روحي ظهر في حياة الرئيس.. يعالج ابنته وتتزايد أهميته يوما بعد يوم.. معالج له تأثير نفساني غير عادي وكل من تعامل معه لم يستطع مواجهة عينيه.. ألا يبدو هذا مألوفا؟
- من أخبركم بهذه التفاصيل؟
- الكل يتحدث في (واشنطن)..
إذن لم يكن المستشار الصحفي أحمق.. هي الحمقاء.. ولم يكن ثرثارا.. فقط هي صماء..
وواصل د. (سلاتر) كلامه:
- وهذا المعالج لم يظهر إلا بعد رحلتك إلى الماضي.. ثم بقع الدم الجافة في آلة الزمن..
قال د. (جيمي):
- ولهجته الروسية.. لقد تحدثت معه في المطعم حين كاد يفتك بي.. أقسم أن هذه اللهجة لا يمكن أن تكون ألمانية.. أنا عرفت بعض ذوي الأصل الروسي في (نيويورك)
وأعرف كيف يتكلمون..
قالت (عبير):
- لكن لا يمكن إثبات هذا.. ربما نحن متأكدين منه لكن ماذا تقولون للرئيس؟
قال د. (سلاتر) وهو يرشف ما في قدحه:
- لابد أولا من استكمال الحلقة المفقودة.. من عالجه؟
كيف ذاب في المجتمع الأمريكي؟ لماذا تعرفك؟
ثم نظر إلى خارج الغرفة شارد الذهن وغمغم:
- والأهم.. ماذا يريد بالضبط؟

☆ ☆ ☆

استغرقت رحلتها التالية بضعة ايام لكنها عادت بعد دقيقة من إقلاعها كالعادة..
لقد عادت أولا إلى تلك اللحظة التي خلا فيها المختبر إلا من آلة الزمن، فرأت (راسبوتين) - كما

عرفته - يتسلل خارجا منها في الظلام.. وكان في أسوأ حال ممكن لكنه استطاع التسلل إلى خارج المختبر.
وفي الليل المظلم مشى يترنح.. ويبدو أنه استطاع أن يجد إحدى جمعيات جيش الرب.. هناك أطعموه وعالجوه وقد قدروا أنه مهاجر روسي لم يجد الإنجليزية بعد، وعلى الأرجح اعتدى عليه بعض الزنوج بالضرب والسطو.. لم تكن هناك مشاكل مع الشرطة.. وجدوا له ثيابا تناسب حجمه الضخم، وكانت هناك فتاة من أصل روسي استطاعت أن تتكلم معه بلغته.. كان ذكيا ولم يعطها أية معلومات مهمة، لكنه عرف منها الكثير عن هذا الزمن.. ولا بد أنه استغرق وقتا طويلا حتى يستوعب حقيقة أنه في المستقبل بعد مائة عام تقريبا..
من هنا بدأت رحلته في المجتمع الأمريكي.. حلق لحيته المخيفة وارتدي ثيابا عصرية، وراح يزاول بعض الأعمال التي تناسب جسده القوي.. تعلم الإنجليزية وتعلم مفردات هذا العالم.. لا تنس أن ذكاءه كان جبارا وكانت سرعته في التعلم مما يدير الرءوس..
كان ما رأته (عبير) كافيا ويفسر الكثير لذا عادت إلى زمننا..
وهكذا إذ جلست في مكتب د. (سلاتر) كانت الصورة واضحة..
قال (جيمي) وهو يضرب قبضته بكفه:
- الأمر كما أراه هو أن هذا الوغد يكمل دورة حياته..
لقد سبب تدمير آل (رومانوف Romanov) وكان من الأسباب المهمة التي قادت لثورة 1917 التي أنجبت الشيوعية.. واضح أنه سوف يبذل جهده لتدمير آل (باكستر).. من يدري؟ ربما تقوم ثورة شيوعية هنا!
ضحك د. (سلاتر) حتى راح صدره يهتز، وقال:
- لا تكن سخيفا.. ثورة شيوعية في الولايات المتحدة وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟ جل ما يقلقني هو أنه سيؤذي الرئيس.. كل طفل يعرف أن (باكستر) ضعيف الشخصية..
- هكذا كان القيصر (نيقولا)..
قالت (عبير) وهي تتأهب للنهوض:
- الخلاصة.. لا أعتقد أن في وسعنا عمل شيء.. فقط نكتفي بإنذار من يعنون بالرئيس..
- هل لديك اقتراح؟
لم يكن لديها أي اقتراح.
لكنها حين تلقت تلك الدعوة للبيت الأبيض بعد أسبوع قررت أن فرصتها قد حانت.

☆ ☆ ☆

8

هذا الرجل يجب أن يرحل..
كذا أعلن أعداؤه..
لكن السيدات توسلن إليهم: «لا تحاولوا هذا من فضلكم..»
من المؤكد أن هذا ال (راسبوتين) كان يملك سحرا خفيا..
وبرغم أنه كان وحشا فظا، فإن النساء كن يتساقطن بين ذراعيه..
أغنية قديمة لفريق (بوني ام Boney M)

☆ ☆ ☆

فلاحة روسية حسناء تحمل جرة من النبيذ وتمشي في الطريق، وفجأة ينقض عليها عملاق ملتح مخيف فيقبلها بعنف، ثم ينتزع منها الجرة ويجرع كل ما كان فيها من النبيذ، ثم يعيد لها الجرة قائلا:
- هذا النبيذ هو ثمن القبلة!
ويبتعد مهرولا، بينما الفلاحة المذهولة الشاعرة بالمهانة والصدمة، تسأل القوم:
- من هذا الحيوان؟
قالت لها فلاحة متقدمة في العمر:
- ألا تعرفينه؟ روسيا كلها تعرفه.. إنه (راسبوتين)..
ولد (جريجوري ييفموفيتش راسبوتين Grigory Yefimovich Rasputin) في (توبولوسك Tobolsk) بسيبيريا علم 1871.. أو هو التاريخ الأرجح لدى المؤرخين..
يقترن اسم (راسبوتين) بلفظة راهب لكنه في الحقيقة لم يكن راهبا على الإطلاق.. كان ينتمي لجماعة (الخلييستيين) وهي جماعة تؤمن بشيء واحد: كل شهوة لدى الإنسان يجب أن تطاع والأرض السوداء هي التي تعطينا أشهى الثمار.. وهذا يذكرنا إلى حد ما بالفلسفة الأبيقورية. وعلى كل حال نحن نجهل كل شيء تقريبا عن الأربعين سنة الأولى من حياته.. فقط نعلم أنه كان متزوجا ولديه ثلاثة أبناء هم (ديمتري) و (فارفارا) و (ماريا).. وقد ذاعت سمعته كرجل مقدس يستطيع شفاء المرضى.. كان مصدر هذه السمعة هو نفسه، وقد جاء له الفلاحون الروس من كل حدب وصوب يستشفون لديه مقابل المال أو الهدايا.. على كل حال هناك الكثير من الجدل حول قدراته الخارقة هذه، لكن لم يختلف اثنان على موهبته العظيمة: قدرته التي لا تصدق على بعث الطمأنينة في نفس المرضى المذعورين.. الموهبة الأخرى التي لا شك فيها هي أن امرأة لم تقاوم سحره قط.. لا أعرف السبب في الحقيقة باعتباره لا يزيد جمالا على كاتب هذه السطور، لكن هذا الأخير لا يملك نظرة النساء للأمور على كل حال..
يرتحل (راسبوتين) إلى (سان بطرسبرج St Petersburg) عام 1905.. وهناك ينتظره قدره..
إن قصته مع القيصر وابنه صارت معروفة للجميع على كل حال.. لقد آمنت القيصرة (ألكسندرا) بالقدرات السحرية للرجل حين رأت ابنها يشفي من مرض (الهيموفيليا).. وهكذا تنامت سلطة (راسبوتين) يوما بعد يوم، وحين نشبت الحرب العالمية الأولى وذهب القيصر إلى الجبهة صار (راسبوتين) هو الآمر الناهي في البلاط.. المشكلة هنا هي أن القيصرة كانت ذات أصل ألماني، وهو اختيار غير موفق بالنسبة لشعب يخوض حربا ضد ألمانيا.. هكذا وجدت

نفسها تنعزل أكثر فأكثر بينما يحتل (راسبوتين) الواجهة..
من المريضات المهمات في حياة (راسبوتين) أيضا صديقة القيصرة (آنيا فيروبوفا) التي تعرضت لحادث قطار مروع.. ويبدو أن جسدها قد تحول إلى عجين لا يرجو له الأطباء إلا موتا هادئا..
هنا - في لحظة شهيرة من لحظات (راسبوتين) - جلس جوار فراشها وأمسك بيدها، وراح يكرر: انهضي يا (أنوشكا).. انهضي.
وبعد دقائق كان العرق قد غمره، وكانت (أنوشكا) تنهض.. لقد شفيت وإن لم يكن شفاء كاملا.. وهكذا ظفر بأخلص صديق عرفه في القصر.
عيّن القيصر رئيس وزراء بارعا يدعى (ستوليبين Stolypin) فعل كل ما يستطيع لإنقاذ عرش القيصر، لكن القيصرة كانت تكره رئيس الوزراء هذا، والسبب – طبعا - هو أنه حاول أن يحد من السلطات الهائلة ل (راسبوتين) رجلها المقدس..
وعلى كل حال تم اغتيال (ستوليبين) هذا بعد عامين.. والسبب؟ لا أحد يمكنه معرفة أسباب الاغتيال دائما.. هناك من يرجح أن الرجل كان أنجح من اللازم حتى خشي مشعلو الثورة أن تنطفئ إذا استمر في سياسته الموفقة.. وهو ما يدلك على أن المطلوب من الثورات ليس إصلاح حال البلاد ولكن أن تحكم أنت..
وبدأ الناس يعتقدون - وهذا صحيح إلى حد ما – أن (راسبوتين) ينوم القيصر وزوجته مغناطيسيا.. قيل إن علاقة عاطفية ما تربطه بالقيصرة لكن التاريخ يؤكد أن هذا غير صحيح..
كانت مجرد أم وجدت الشفاء الوحيد لابنها الموشك على الموت، وقد صممت على ألا تتخلى عنه. وبالنسبة للطبقة الأرستقراطية القريبة من الصورة لم تكن هذه الفكرة واردة على الإطلاق، لكن الأمر بدا مقنعا - ومشينا - بالنسبة لعامة الشعب البعيدين عن القيصر.. دعك من أن الكلام عنه لذيذ ممتع كذلك.. إن الدهماء يحبون أن يتصوروا إلى أي حد بلغ فساد الأثرياء والمشاهير، ونجاح أية جريدة (باباراتزي Paparazi) في عصرنا هذا لخير شاهد على هذا.. لسان حالهم يقول: «هؤلاء الأثرياء يملكون المال والجمال والنفوذ لكنهم تعساء منحلون يعيشون كالحيوانات.. بينما نحن لا نملك إلا الشرف وسعداء به..»
كانت أولى محاولات الخلاص من تأثير الرجل عام 1912 مؤسية، لقد اختلف مع القيصر فاختار لنفسه منفى اختياريا وقيل إنه قرر أن يحج إلى القدس.. إلا أن الأمير (ألكسي) تعثر في الحمام، و (بانج!).. راح يتصرف كأي مريض (هيموفيليا) يجيد عمله.. راح ينزف بلا توقف.. وفي ذلك العصر قبل اكتشاف عوامل الدم المجلطة فإن النهاية كانت قريبة جدا، أبرقت الأم إلى (راسبوتين) في منفاه الاختياري تطلب عونه فرد عليها: الأمير لن يموت.. لقد استجاب الرب لصلواتك.
وخلال ساعات توقف النزف واستعاد الصغير عافيته.
كانت هذه هي النقطة التي عرفت عندها الأم أنها لن تتخلى عن (راسبوتين) أبدا.
في النهاية بدأ الأمراء يجمعون على أن هذا الرجل يجب أن يرحل.. وهكذا وجهت له الدعوة إلى بيت الأمير (يوسوبوف).. وكان الطعم الذي وضع له هو أنه سيقابل زوجة الأمير، وما كان (راسبوتين) ليمتنع عن لقاء أية امرأة جميلة في أي مكان في أية لحظة.
هناك كان العشاء يتكون من النبيذ وكعك الشوكولاتة المشبع بالسيانيد.. كلنا رأينا ما حدث في الفصل الأول، وكيف استطاع أن يقاوم السم.. لم يشعر سوى بحرقة عابرة في معدته.. واسترخي في مقعده طالبا من الأمير أن يسمعه أية أغنية يحفظها!
كان الأمير على وشك الانهيار التام، لذا هرع إلى أصحابه فاستعار مسدسا، وعاد إلى العملاق

وأطلق عليه رصاصة في صدره.. يسقط الرجل المخيف أرضا فيقف الأمير يتفحصه.. هنا - مثل أي فيلم رعب - يفتح (راسبوتين) عينيه ويطبق على ساق الأمير.. لابد أن قلب هذا الأخير كف عن الخفقان بعض الوقت، ولم يستطع التملص إلا بغرس السكين في ذراع (راسبوتين)..
وهكذا تتوالى الأحداث الشنيعة التي انتهت بإلقاء الجثة في النهر..

☆ ☆ ☆

البيت الأبيض من جديد
في هذه المرة كان العشاء مختلفا نوعا..
لقد جلست (عبير) متوترة تراقب ما يحدث.. لسبب ما كانت تعرف إنها هنا بحكم المجاملة وليس لأنها ضيف مرغوب فيه..
يدخل الرئيس القاعة ومعه زوجته.. الطريف هنا أن الزوجة كانت تمشي مع الأخ (بيتر) وهما يثرثران.. إنه يقهقه بصوت عال مطوحا رأسه إلى الوراء.. يبدو أنه ينعم بوقته حقا
كيف لم تلحظ هذه النظرات من قبل؟ كيف لم تر هاتين العينين الناريتين؟ كيف لم تلحظ هذه القامة الفارعة؟ كل هذا لم تلحظه لسبب بسيط هو أن (راسبوتين) حلق لحيته الهائلة، وأرتدي ثيابا عصرية بدلا من ثيابه المميزة.. العباءة الطويلة التي تمس الأرض والحذاء عالي الرقبة.
أضف لهذا الغباء البشري المعتاد.. أنت تتوقع أن ترى فلانا في المكان والزمان الخاصين به، فإذا قابلته في مكان وزمان آخرين افترضت ببساطة أنه ليس هو.. هذا يحدث للجميع..
وقف الرئيس الأمريكي يلقي الكلمة المعتادة قبل أية مأدبة، ثم بدأ يتكلم في أمور غريبة بعض الشيء..
- الاستفزاز الذي تمارسه الحكومة الروسية.. محاولة استرداد الجمهوريات الحرة في أوروبا الشرقية إلى ملكوتها من جديد.. فلتحل بي اللعنة! لقد ولى عهد الستالينية.. إلخ..
ما معنى هذا؟
كان جو من التوتر قد بدأ يتسرب إلى الجالسين.. ونظرت (عبير) حولها فرأت المستشار الصحفي (ريتشارد كيلرمان) جالسا على بعد مقعدين منها، وهو يحاول جاهدا أن يقطع قطعة قاسية من اللحم في طبقه.
نظرت حولها فلم تر أحدا ينظر لها.. هكذا مالت نحوه وهمست:
- هاي (ريتشارد)..
رفع رأسه ورآها فابتسم ابتسامة عابرة.. وقال:
- الحسناء هنا؟
- ما هذا الهراء؟
- أي هراء؟ هناك الكثير منه.. هل تعنين كونك حسناء؟
- هذا الكلام عن روسيا..
وضع الشوكة والسكين جبا وعقد يديه كأنما هو يصلى، وقال:
- اسمعي يا (بيتي).. ليس من المفترض أن أقول ما سأقوله لكنها الحقيقة.. الرئيس يحاول التحرش ب(روسيا) لسبب لا أدريه.. نحن نعرف أن (روسيا) اليوم في أضعف وأوهن وضع مرت به في تاريخها، لكنه لسبب ما يصر على اعتبارها الخطر الأوحد الداهم المترصد بأمتنا..

- هل كرر هذا الكلام من قبل؟
- يكرره كل يوم تقريبا..
- ومعنى هذا؟
- أنت تعرفين أن كل رئيس أمريكي بحاجة إلى حرب جيدة يثبت فيها رجولته.. يبدو أن (باكستر) العجوز يمر بهذه المرحلة..
- لكن الأمر ليس بهذه البساطة.. أنت تتكلم عن تحدي دولة نووية..
- إن مستشاريه يعلمون هذا ويقولونه.. ليس هذا دوري على كل حال..
إن المكارثية شبح يطارد الولايات المتحدة منذ زمن بعيد.. الخوف من الاتحاد السوفييتي أدى إلى ظهور رجل مثل سناتور (مكارثي Mcarthy) الذي راح يضطهد الكتاب والفنانين بتهمة الشيوعية، اليوم انتهى الاتحاد السوفييتي فلماذا يفكر أحدهم في عودة المكارثية؟
على غير العادة قال الرئيس وهو يشير إلى (بيتر):
- أنتم تعرفون (بيتر).. لا أخفي لحظة أنه مستشاري وطبيبي الخاص وصديقي العزيز.. الأمر الفريد هنا هو أنه راقص بارع حقا..
تبادل القوم النظرات في حيرة.. هذا غير معتاد فعلا.. وما زاد الطين بلة أن عازفين زنجيين دخلا يحمل أحدهما جيتارا والآخر طبلا، وبدأت موسيقا بسيطة لكنها فعالة.. كل الجالسين في حيرة لا يعرفون ما يقولون أو يفعلون، لكن الرئيس بدأ يصفق بيديه ومعه السيدة الأولى.. وعلى حركات الإيقاع نهض (بيتر) إلى وسط المكان.. ثابتا لا يتحرك شيء فيه إلا عيناه.. ثم ببطء بدأت حركة مغناطيسية تدب في ساقية.. وسرعان ما اتخذ وضع (الكازاتشوك) الشهير.. الركبتان مثنيتان والردفان يوشكان على ملامسة الأرض لكن لا يفعلان، بينما يداه متقاطعتان عند المعصمين.. وراح يثني ساقا ويفرد الأخرى بالتوالي وبسرعة لا تصدق..
تدريجيا بدأت الحمى تدب في الجالسين.. طبعا لم تفعل (عبير) إلا أن تثاءبت فهي رأت هذا الفيلم من قبل.
إلا أن الرقصة هذه المرة كانت أكثر حيوية.. لقد جذب شرشف إحدى الموائد ليطير ما عليها من أطباق وكئوس، ثم وثب فوقها وراح يرقص..
الخلاصة أن انفلاتا عنيفا ساد القاعة لا يليق بالبيت الأبيض على الإطلاق.. وعلى قدر علمي لم يقف أحدهم ليرقص (الكازاتشوك) فوق مائدة منذ بنى البيت الأبيض حتى اليوم..
في النهاية طار (بيتر) في الهواء ليسقط جالسا على مقعد جوارها.. مد يده إلى زجاجة كانت على المنضدة هناك فرفعها إلى فمه وأفرغ جرعات هائلة، ثم طوح الزجاجة وراء كتفه..
مبللا بالعرق رآها تنظر إليه فنظر لها بثبات، وقال:
- كيف حالك؟
قالت في ثبات مماثل:
- يبدو أنك لا تنوي التخلي عن عاداتك الروسية.. (كازاتشوك) وزجاجات تقذف فوق الكتف..
فكر قليلا، ثم قال لها:
- أعتقد أنك الآن تعرفين كل شيء.. أليس كذلك؟ إن لى جواسيسي في كل مكان.. إذن يمكننا الكلام بلا أقنعة..
راق لها هذا فقالت:
- لماذا أنا بالذات؟
لأنني عدت معك وراقبتك كثيرا.. ظل وجهك ملتصقا بذاكرتي، حتى رأيت وجهك مع الرئيس في

تلك الجريدة..
هنا خطر لي إنني إذا أردت تعرف الرئيس فأنت بداية الخيط..
- والمرآب واللص الذي ضربته؟
ضحك كثيرا.. ثم قال:
- عرفت بيتك وكنت أراقبك فترة، وقد أعددت هذه اللمسات الأخيرة.. أعرف أنك تعودين وحدك من المرآب في هذا الوقت.. لتكن هذه بداية التعارف.
- أنت وغد..
- ربما.. لهذا بقيت حيا.. كلما كثر أعدائي ازددت قوة..
ثم طرح رأسه إلى الوراء، وانفجر ضاحكا على الطريقة (الراسبوتينية) الشهيرة.. نظرت حولها لتتأكد من أن أحدا لا يراقبهما، ثم سألته:
- ماذا تريد من الرئيس؟
- أنا أبحث عن القوة.. القوة المطلقة.. أين أجد القوة المطلقة إن لم يكن هنا؟ مع رئيس أقوى دولة في العالم؟ معنى أن أسيطر عليه أن أحكم العالم بالوكالة..
- وهل تسيطر عليه؟
- أسيطر على زوجته.. وهي تسيطر على زوجها.. اللعبة هكذا دائما..
فكرت قليلا، ثم سألته وقد عرفت أنه سيجيب:
- ماذا تريد من روسيا؟ نظر لها طويلا.. عيناه تشعان قوة لا توصف.. هذا رجل سيفعل ما يريد ولن يعبأ لو داس صفا من الأطفال الرضع في طريقه لغرضه.
- يجب أن تخفض روسيا رأسها لي.. يجب..
- بعد كل هذه الأعوام؟
- (بيتر).. إن الصداع يقتلني!
كانت هذه الأخيرة من السيدة الأولى التي وضعت أناملها على جبهتها، ثم أرجعت رأسها للوراء..
نهض (بيتر) من موضعه دون كلمة أخرى، وجرى إلى حيث كانت السيدة تقاوم الصداع.. جلس جوارها.. أمسك بأناملها برفق، ثم قال لها كلمتين ففتحت عينيها وراحت تحملق في عينيه المتسعتين.. كان يقول شيئا ما وهي تبتسم.. وضع سبابته على جبينها فبدت عليها أمارات الراحة...
هل هو الإيحاء؟ كان السؤال المجنون يحير (عبير).. إنه تأثير (البلاسيبو Placebo) الذي يجعل المريض يشعر بتحسن بمجرد ابتلاعه كبسولة من الجيلاتين بشرط أن يعتقد أنها تحوي الدواء.. لكن لو انطبق تأثير الإيحاء على عرض مثل الصداع فكيف ينطبق على الهيموفيليا أو ذلك المرض النادر الذي أصاب ابنة الرئيس؟
الحق إن (راسبوتين) لغز.. لكن ما لا شك فيه هو أنه فعلا يسيطر على الزوجة تماما..

☆ ☆ ☆

في المساء عرفت (عبير) الخبر من (ريتشارد)..
لقد أمر الرئيس الأمريكي بتركيب الرءوس النووية على الصواريخ العابرة للقارات.

☆ ☆ ☆

9

را را راسبوتين..
حبيب ملكة روسيا..
را را راسبوتين
أعظم أداة حب في روسيا..
من العار أنهم تركوه يتمادى

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

في الأيام التالية حدث الكثير من الصخب..
الأزمة الدبلوماسية تتصاعد.. وإهانات متبادلة بين الرئيس الأمريكي والروسي، وقد بدأ الغليان يجد طريقه إلى الجماهير
نشرات الأخبار تظهر الاستعدادات العسكرية وحاملات الطائرات الأمريكية التي تستعرض قواها على حدود الاتحاد السوفيتي..
أصوات خافتة تعالت هنا وهناك تقول إن روسيا فعلا لم تفعل شيئا، لكن تم إخراسها بحجة أن هذا تبديد لهمة الأمة في حاجة هي أحوج ما تكون فيه للاتحاد..
دائما ترى الرئيس ومن وراء ظهره صديقه المريب (بيتر) الذي بدأ الناس يقبلون حقيقة وجوده، وقد قدروا أنه ما دام الرئيس لا يقدر على الاستغناء عنه فهو على الأرجح مهم جدا.
كان رجال الجيش يجتمعون ويتدارسون الأمر.. ووضعت عشرات الخطط البديلة.
هناك دائما صقور في كل زمان ومكان رأي هؤلاء أنه لو شاءت أمريكا استفزاز روسيا فليكن هذا هنا والآن إن روسيا لم تعد هي الاتحاد السوفيتي.. إنها هشة يسهل تحطيمها أو الضغط عليها...
يقول المعتدلون:
- أنتم تتحدثون عن حرب نووية وربما عالمية..
يقول الصقور:
- لن يحدث هذا.. نحن نضغط ونضغط وفي النهاية سوف يصرخ أحد الطرفين لأن أعصابه لم تعد تتحمل.. ولن يكون هذا الطرف هو الولايات المتحدة..
هكذا توالى الضغط من الطرفين.. طرف يضغط لأن (راسبوتين) أراد ذلك، وطرف يضغط لأنه وجد نفسه مضغوطا بلا تفسير واضح.. وهنا تكتشف ظاهرة عجيبة.. إن جنون الأمم ليس شيئا عسيرا أو مستحيلا.. والسيناريو الذي تعتقد أنه يحتاج إلى أعوام طويلة قد يتحقق خلال أيام وفجأة تجد أن أسوأ كوابيسك يوشك على التحقق.. هناك لحظة تقرر فيها الدولة أنها جنت وأنه لا شيء يهم.. وعندها يتضح أن كل رصيد التعقل الذي حسبته موجودا لا وجود له في الواقع..
وجاء اليوم الذي صرخ فيه د. (سلاتر):
- ما الذي يقودنا إليه هذا المخبول؟
قالت (عبير) في هدوء:
- لا تنس أنه كان يكره روسيا.. كان يريد السيطرة عليها بالكامل وإخضاعها، وهو لم ينس هذا..

لقد جاء من العام 1916 ليكمل ما بدأه دون مبالاة بنحو مائة عام مضت من حينها.. لا بد أنه قرأ ما كتب عنه ويريد أن ينتقم..
- لكنه مجنون إذن..
- لم يقل أحد العكس لكنه ليس مكتوف اليد..
هنا نهض (جيمي) - الذي لم تعد تراه وغدا إلى هذا الحد - وقال في حماس:
- هذا لن يكون.. سأطلب لقاء الرئيس.. سأخبره بالقصة كاملة.. سأقول له إن إرادته مسلوبة بتأثير هذا الوغد.
- وهل تعتقد أنه سيصدقك؟
- سأكون مقنعا.. لاحظي أن الرئيس قبل فكرة آلة الزمن.. وهذا هو الجزء الأعقد في الموضوع..
هكذا تم الاتفاق ورفع د. (سلاتر) سماعة الهاتف.. لاحظ أنه ليس نكرة وطلباته مهمة في البيت الأبيض.. سوف يرتبون اللقاء المزمع مع د. (دافنبورت)..

☆ ☆ ☆

في العاشرة مساء عادت (عبير) إلى شقتها..
كانت مرهقة بشدة لهذا طوحت بالحذاءين حيثما اتفق، وزحفت إلى المطبخ مستشعرة تلك النشوة التي يبثها التحرر من الحذاء بعد يوم طويل.
راحت تبحث عن شيء يؤكل في الثلاجة.. شيء يؤكل على الواقف أو يشرب.. من حقها بعض الترف كما ترى.. هنا تذكرت شيئا.. أين كلبها الصغير؟ ذلك الشيء المضحك الذي لا يكف عن التواثب في كل مكان، ويحدث ضوضاء تذكرك ببطة مذبوحة؟
راحت تبحث عنه وتنادي.. لكنها بدأت تعرف أن هناك شيئا خطأ على الأرجح.. لا بد أنه عالق في مكان ما أو مريض.. أو..
في الحمام رأت المشهد.. كان وصفنا للبطة المذبوحة دقيقا فعلا.
فقدت وعيها الثانية وهي واقفة، فارتطم رأسها بقائمة الباب.. ثم عادت إلى رشدها.. من الكافر الذي فعل هذا بكلب بريء وديع؟ من يستطيع؟
وارتجفت
معنى هذا أن هناك من دخل الشقة فمن هو؟ ومن أدرها أنه رحل حقا؟
هكذا اتخذت وضع دفاع عصبيا يوحي بالشفقة.. هرعت إلى المطبخ فانتقت أكبر سكين هناك وشهرتها، ثم اتجهت إلى الهاتف.. بدأت تطلب رقم الشرطة، ثم توقفت.. إنه ذلك الهاجس الخفي الذي تعتبره النساء حاستهن السادسة..
بدأت تطلب رقم د. (سلاتر)..
هل هناك من يئن؟
هذا حقيقي.. ومعنى هذا أنها محقة.. هي ليست وحدها في الشقة.
من أين جاء الصوت؟ من هنا؟ لا.. لا.. أنت حمقاء.. الصوت جاء من هنا..
من الخزانة الجدارية.. لا تعرف أية معجزة جعلتها تستجمع شجاعتها وتتجه إلى هناك.. تفتحها وتلقي نظرة..
حسن.. لا داعي لوصف المشهد لكنه شنيع.. لقد تحول الرجل إلى نسخة أخرى من أيقونة القديس (سباستيان) التي تخترق المدي كل جزء منها.. من الرجل؟ (جيمي دافنبورت) طبعا.. حسبت هذا واضحا.. هل نسيتم ملامحه بهذه السرعة؟

لعل بشاعة المنظر جعلتكم لا تميزون جيدا.
لو حدث هذا في بداية القصة لشعرت (عبير) بالرضا لأنها كانت تمقت (جيمي) فعلا، أما الآن فهي لا تراه بهذه السوء دعك من أنه كائن حي، وهي بالفعل لا تتحمل أن ترى كائنا حيا في مشهد كهذا.
الغريب أنه لم تكن هناك بقعة دم واحدة من حوله، على عكس الكلب.
ولماذا كان يئن؟ لا تعرف.. لكنه كف عن ذلك على كل حال..
انتابتها حالة من الهستيريا.. راحت تتنفس بتلك السرعة التي تزيد قلوية الدم والتي تبدأ نوبات الصرع لدى المتأهبين استندت إلى الجدار وراحت تحاول ألا تفقد الوعي..
ليس الآن.. ليس الآن..
من جديد هرعت إلى الهاتف
كانت تعرف أن هذه هي اللحظة المناسبة في الأفلام السينمائية كي يأتي الهجوم من الخلف.. ستقول آلو.. الشرطة.. أنا في ورطة.. إن عنواني هو.... هنا توضع اليد على فمها وتخنقها بينما تتدلى السماعة على الأرض يدوي منها صوت فتاة السويتش المعدني يكرر، من يتكلم؟
أرجو إعطائي العنوان..
لهذا قررت أن تلغي هذا الاحتمال، واستندت بظهرها إلى الجدار..
رد يا د. (سلاتر) أيها الأحمق.. رد..
أخيرا جاء صوته - ذلك الأحمق - سأل عمن هنالك..
- أنا (بيتي).. لقد قتل كلبي بطريقة شنيعة..
ثم تذكرت أن هذا ليس كل شيء فأضافت:
- و د. (دافنبورت) كذلك.. لا أعرف كيف وصل إلى شقتي لكنه هناك وقد قتل بلا رحمة..
قال (سلاتر) وقد بدأ يفهم:
- اتركي كل شيء كما هو وتعالي حالا..
- أخشى أن المصير ذاته ينتظرني.. لا أعرف ما يوجد على باب الشقة.
- لا أعتقد أن هناك المزيد من الخطر.. هذه رسالة تهديد.. لا أكثر.. (راسبوتين) يطالبك بأن تهتمي بشئونك الخاصة.. وأعتقد أنه عرف ما كان (جيمي) ينتويه.
لو تفحصت جثة (جيمي) لما وجدت دماء حوله..
- كيف.. كيف عرفت؟
قال بثقة:
- بديهي.. لقد قتل في مكان آخر، ثم تخلصوا من جثته في شقتك.. الغرض أن ترى ما يصير إليه من لا يهتمون بشئونهم الخاصة، ولا يشربون اللبن قبل النوم..
قالت في رعب:
- وهل فعل (راسبوتين) ذلك وحده؟
- لماذا يفعل؟ لا تنسى أن المخابرات المركزية ومكتب الاستخبارات الفيدراليFBI طوع أمره الآن.. كل ما عليه هو أن يطلب.. بالمناسبة لا تنسى أن احتمال أن يكون هاتفك مراقبا هو 99%!
هنا شعرت بأنها لا تمسك هاتفا وإنما ثعبان (كوبرا).. تكاد تقسم أنها سمعت فحيما يخرج من السماعة.. أدارت السماعة في يدها في هلع، ثم قالت:
- ماذا أفعل؟

- لا شيء.. تعالي لي وسوف أرتب الاتصال بالشرطة..
- هل يتهمونني بشيء؟
- بالطبع لا.. لكنهم سيحررون الحادث ضد مجهول، ولسوف تخضعين لاستجوابهم عدة أيام.
هكذا وضعت السماعة.. هي بالفعل لم تعد راغبة في البقاء ثانية واحدة أخرى في هذه الشقة التي تفوح برائحة الموت..
دعك من فكرة تهشم حاجز الخصوصية.. البيوت هي قلاعنا وملجأنا فإذا عرفت أن شخصا كان يجول بحرية في هذا البيت قبل قدومك.. إذا عرفت أن هناك من يصغي لسكناتك ويراقب حركاتك، عندها يصير البيت كابوسا.. عندها يتهشم حاجز الأمان والخصوصية ويصير أي شيء واردا..
فكرت في هذا كله وهي تهرع إلى سيارتها..

را.. را.. راسبوتين..
الذي يوجد في كل مكان ويراقب الجميع..
را.. را.. راسبوتين
الذي يحاول أن يحيل العالم جحيما
را.. را.. راسبوتين..

كأن هذا الكابوس لم يكن كافيا للعالم مرة واحدة.. لابد من أن يتواجد مرتين.

☆ ☆ ☆

10

الآن دعني أقدم لك الموجودين..
لا تقلق.. إنهم ستة فقط.. لن يطول الأمر..
أنت تعرف د. (سلاتر) و (عبير) فلا داعي لتقديمهما من جديد.. لكني أقدم لك (سميث كلارسون).. لا داعي لمعرفة مهنته فأنت خمنتها.. هذه العضلات القوية ونظرة الكلب البوليسي اليقظ.. لقد كان يعمل في المخابرات المركزية لفترة.. الأخر رجل عسكري جدا.. سنتفق على دعوته بالجنرال (ك).. لماذا (ك)؟ لأن هذا ليس أول حرف من اسمه طبعا.. ظننت هذا واضحا.. الثالث اسمه (مايكل فريدلاندر)، وكان مختصا بالعمليات القذرة في المخابرات في العصر الذهبي لها، أيام (إدجار هوفر) وسواه، حين كانوا يذهبون للوكالة في الصباح.. يتناولون الإفطار.. ثم يضعون الخطط لاغتيال الزعيم (جمال عبد الناصر) حتى المساء فيعودون لبيوتهم وينامون راضين عن أنفسهم، السادس هو (ليندساي برستون).. قاض فيدرالي عظيم المكانة والسن والحجم..
اليوم هناك مهمة اغتيال يرتب لها هؤلاء لكنها – للمرة الأولى - عملية في محلها..
قال (كلارسون):
- طبعا نحن جميعا متفقون على ضرورة التخلص من (بيتر كاوفمان) قبل أن يقود العالم إلى الهاوية.
قال (سلاتر):
- لندعه (راسبوتين).. فهذا يجعل مهمتنا أسهل..
سألت (عبير) في حذر:
- وهل أنتم متأكدون من أننا استنفدنا الوسائل السلمية كلها؟
قال (فريد لاندر):
- كلنا حاولنا الاتصال بالرئيس وتحذيره.. لكن إما عجزنا عن ذلك أو وجدنا أن الرئيس لا يصغي لأحد.. لقد أحكم هذا الشيطان قبضته عليه.. وهناك أشخاص قتلوا في ظروف غامضة.. لو أطلقت لنفسي العنان لقلت إنه لا يوجد شخص واحد نثق به في البيت الأبيض.. إن شبكة علاقات الرجل تتزايد.. دعك من أنه ما من امرأة لا تعمل معه سرا وتعطيه ولاءها الكامل..
في غيظ قالت (عبير):
- باستثناء واحدة..
قال د. (سلاتر) باسما:
- لم يشك أحد في ولائك يا صغيرة.. أنت الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه..
كان الجنرال (ك) يتمتع بتلك الخاصية المهمة التي يتمتع بها الرجال الغامضون.. إنه دائما في الظل فلا ترى وجهه.. لو أنك وضعت كشافا من كشافات المسرح أمام أنفه وأوقفته في الصحراء ظهرا لظل وجهه في الظل.. هذه موهبة لا نتمتع بها نحن معشر غير المهمين.. ويمكن أن تعتبره قائد هذه المجموعة الصغيرة التي أطلقت على نفسها اسم T.W.R.P.S.. لماذا هذا الاسم بالذات؟ إنه الحروف الأولى من عبارة.. للأسف نسيت.. لا بد أنها تعني شيئا ما.. إن ولع هؤلاء الأمريكيين بالحروف الأولى من الجمل الطويلة ليثير الأعصاب.

قال الجنرال بصوته الهادي الرتيب:
- ستكون العملية نمطية.. استدراجه خارج البيت الأبيض الموعد مع حسناء.. هذا ينجح دائما..
أضافت (عبير):
- وهكذا مات أول مرة..
- لكن من هي الحسناء؟
قالت (عبير) في حدة:
- ليس أنا من فضلك..
- أوه يا عزيزتي.. كنت أتكلم عن حسناء! لا أنتقص شيئا من جمالك، لكنك لست من الطراز الذي لا يقاوم..
ثم إنه يعرف كل شيء عنك، ولن يمنحك ثقته أبدا..
ومن تقوم بهذا الدور غير (كاتيا شرودر)؟

☆ ☆ ☆

بالنسبة لـ (عبير) لم تكن (كاتيا شرودر) إلا حدأة ملطخة بالأصباغ، لكنها أدركت من شهيق الرجال وارتباكهم أنها بالفعل تعزف على الوتر الصحيح.. إنهم مجانين هؤلاء الرجال ولا يمكن فهمهم أبدا.. لو كانت رجلا لما أحبت إلا فتاة واحدة: (بيتي دانييلز).. أي (عبير) ذاتها في صورتها الجديدة.. إن ملامحها جميلة مريحة توحي بالرقي والذكاء، لكنها ليست رجلا على كل حال، ولن تفهم مقاييسهم أبدا.. المزية الأهم في (كاتيا) أنها لم تقع في سحر (راسبوتين).. كانت تجده مخيفا منفرا، فلابد أنها احتفظت ببعض الهرمونات الذكورية برغم كل شيء..

لقد تم ترتيب كل شيء.. تم ترتيب تعارف (كاتيا) مع (راسبوتين).. الصدفة هنا أنها من أصل روسي.. لهذا يمكنها الكلام مع الرجل بالروسية وكان هذا يروق له..
ثم جاءت اللحظة المهمة.. لنلتق خارج البيت الأبيض إن هذا المكان يبعث في التوتر.. حاول أن تتخلص من كل هؤلاء الرجال الذين يراقبونك لأنني لا أشعر براحة وسط كل هذه الديناصورات الصلعاء التي تدس السماعات في الآذان.
وكان هو متحمسا مستعدا لأي شيء تطلبه.
وفي ليلة الثلاثاء دق جرس الباب في شقة (كاتيا) أشارت إشارة خفية فتوارى الرجال الذين ينتظرون في كل ركن من الشقة الواسعة.. فقط تحاشوا الحمام والمطبخ.. من الوارد أن يقرر الرجل دخول أحد المكانين.. فتحت الباب فرأت (بيتر) واقفا وحده.. كان متأنقا ضخما كالعادة يمسك بباقة من الورد في يده محاولا أن يتظاهر بالرقة..
الحقيقة أن كل شيء كان مراقبا من قبل مجموعة المتمردين الصغيرة، المجموعة التي تحاول إنقاذ أمريكا والعالم من الكارثة القريبة.
هناك في مقرهم في مختبر د. (سلاتر) جلس الجميع أمام شاشات المراقبة يشاهدون الصور الرقمية القادمة من شقة (كاتيا).. إنهم متوترون لكنهم يأملون في انتهاء الكابوس سريعا..
على الشاشة يرون (بيتر) يدخل الشقة.. (كاتيا) متوترة.. متوترة جدا.. تحاول أن ترسم على وجهها تعبير براءة، النتيجة أنها توشك على الصراخ: أنا لم أنصب لك شركا.. أنا لم أنصب لك شركا..
سألته في صوت مرتعش:

- ماذا تريد أن تشرب؟
ألقي بقدميه في حذاءيهما على المنضدة أمامه، وقال في غلظة:
- فودكا.. الكثير منها.. ثم تعالي لنجلس ونتكلم..
تركته وهرعت إلى المطبخ.. من الصعب ألا تصطدم بساق أو حذاء رجل من هؤلاء المختبئين في كل ركن من الشقة..
رجل خلف هذه الأريكة.. رجل وراء هذا الستار.. إلخ.. بدأت تعد الفودكا، ثم وضعت قرص السم فيها كالعادة.. هذا القرص الذي أعطاها إياه (فريدلاندر).. وهو من سموم المخابرات عالية الفعالية.. لابد أنه كلف دافعي الضرائب مبالغ هائلة.

(هل هناك من يفتح سدادات زجاجات هنا؟ ما هذا الصوت؟)

كان الأمر سهلا هذه المرة، فلن يكرر الحركة المعهودة ويبدل الكأسين لأنها أرادت أن تشرب بعض عصير البرتقال وهو آخر شيء يمكن لوحش مثل (راسبوتين) أن يشربه.
قدمت له الكأس وحاولت ألا ترتعش يدها لكن الجميع رأى هذه الرعشة حتى على الشاشات ومع الصورة الرقمية بطيئة الحركة بطبيعتها..
لكن (راسبوتين) لم يبد مهتما.. أو لم يلحظ.. كان ينظر لها هي في نهم ولا ينظر ليدها..
رفع الكأس وكالعادة أفرغة في جوفه مرة واحدة.. ثم طوح الكأس وراء ظهره ليتهشم في الجدار ويسقط جوار المدفأة.
قال لها وهو يعود للاسترخاء:
- ممتاز: إن النار اشتعلت في معدتي.
حينما تعد المخابرات الأمريكية الفودكا المسمومة فهي تعد الأفضل.
أمام الشاشات ظل الرجال ينتظرون حدوث شيء، لكنه لم يحدث.. ورأوا في هلع أن (راسبوتين) يطالب بالمزيد.
التفت د. (سلاتر) إلى (فريدلاندر) في شك وسأله:
- ما نوع هذا السم؟
قال (فريدلاندر) في فخر:
- (سيانيد).. إنه فعال جدا!
تبادل (سلاتر) و (عبير) نظرات خيبة الأمل، ثم قال في غيظ:
- هل هذا أفضل ما عندك؟ كل هذا التخطيط والعبقرية من أجل سم قاومه (راسبوتين) عام 1916؟ مائة عام تقريبا لم تغير شيئا في علم السموم؟
- إن السيانيد فعال وراق.. رجل المخابرات الذي لا يقتل بالسيانيد هو شخص منحط..
- حسبتك ستستعمل سم (FFAD-53) الذي لا يمكن اكتشافه والذي يسبب الموت في ربع ثانية..
- لم أسمع عن هذا ال (FFAD-53)
- ولا أنا.. لقد قمت بتأليفه حالا.. لكني حسبته موجودا عندكم..
تناول الجنرال (ك) الذي لم يحب هذه المحادثة الميكروفون، وقال بصوته العجيب الرتيب الخالي من الانفعالات:
- من الأمير إلى مجموعة النظافة.. انتقلوا للخطة (ب)..

☆ ☆ ☆

را.. را.. راسبوتين
حبيب ملكة روسيا
وضعوا بعض السم في نبيذه
را.. را.. راسبوتين
أعظم أداة حب في روسيا..
شربها كلها وقال: أشعر بالرضا..
لم يجعلهم هذا يتوقفون، فقد أرادوا رأسه.
لذا أطلقوا عليه الرصاص حتى لفظ أنفاسه الأخيرة..

أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)..

☆ ☆ ☆

سمعت (كاتيا) هذا الجزء - كلام الجنرال لا الأغنية من السماعة الدقيقة المثبتة في قرطها، وهي ترشف عصير البرتقال، فوضعت الكأس جانبا ونهضت.
سألها (راسبوتين) وهو ينحى الزجاجة جانبا:
- إلى أين؟
قالت مصطنعة الدلال:
- سأصلح زينتي.. لا تسأل امرأة أبدا عن وجهتها لأن هذا يحرجها..
ثم اتجهت إلى الحمام فأغلقته على نفسها وجلست على المغطس.. ودخلت في حالة من الهستيريا فراحت تبكي وتلطم الخدين ..
قالت (عبير) وهي تراقب الشاشة:
- قلت لكم إن هذه الفتاة قبيحة كالأبالسة.. الآن تصدقونني..
الحقيقة أن الكحل في عيني (كاتيا) تحول إلى خطين أسودين طويلين ينحدران من عينيها، بينما اسود ما تحت عينيها حتى صارت كالراكون.. وسال المخاط من أنفها، وتحول شعرها إلى ليفة تصلح لتنظيف الأطباق.. كانت تعرف أن شقتها ستتحول إلى ساحة رماية بعد ثوان.. لسوف تقضى ثلاثة أيام في جمع الطلقات الفارغة التي سيفرغها هؤلاء في جسد الرجل.. دعك من أحشائه طبعا.
قال جنرال (ك) وهو يراقب الشاشة في قلق:
- لماذا لا يتحرك البلهاء؟
على الشاشة كان الرجال متوارين كما هم.. في وضع ثابت لا يتحرك
- من الأمير إلى مجموعة النظافة.. انتقلوا للخطة (ب)..
لكنهم لم يتحركوا..
- من الأمير إلى مجموعة النظافة.. انتقلوا للخطة (ب).. ماذا دهاكم يا حمقى؟
في اللحظة التالية دبت الحياة في الصور.. هذه المرة لم يكن الرجال في وضعهم السابق بل كانوا جثثا هامدة غارقة في برك الدم.. ماذا حدث؟ ما معنى هذا؟
دخل (راسبوتين) الكادر.. كان ينظر مباشرة إلى الكاميرا الخفية ويتكلم!
قال في هدوء وبلا انفعال من أي نوع:
- معذرة يا جنرال.. إن الصور التي كنت تتلقاها منذ ساعة هي صور فيديو تم تسجيلها لرجالك حين كانوا أحياء وقد قام رجالي بإعادتها عدة مرات.. لا أفهم هذه التفاصيل الإليكترونية فأنت

تعرف أنني لم أفهم هذا العصر بعد، لكن هؤلاء الرجال يجيدون عملهم حقا.. إنهم يعرفون كل شيء عن هذه التدابير منذ يومين، وقد قاموا بفك وتركيب أجهزة التنصت هذه.. وبينما كانت تلك الحمقاء في المطبخ تدس لي السم قاموا بتشغيل الفيلم المزيف، ثم دخلوا الشقة، وقتلوا كل المبتدئين الذين أرسلتهم بأسلحتهم مزودة بكاتم الصوت.. رجالك ماتوا منذ لحظة تقديم السم لي لكنكم لا تعرفون.. طبعا شربت السم لأن مذاقه يروق لي..
ثم تنهد بينما امتلأ الكادر برجال يحملون المسدسات المزودة بكاتم الصوت.. وقال:
- من الحمق أن تعتقد أن الطريقة ذاتها ستنجح معي مرتين.. والآن يمكن ببساطة أن أقول إن أمركم انتهى فعلا.. أنا أعرف من أنتم وأعرف كيف أجدكم..
ثم اتجه نحو الحمام وقال وهو يشير إلى الكاميرا:
- الآن يمكنك أن تستمتع بمشاهدة إعدام جاسوستك الحسناء هذه.. أرجو أن تتابع جيدا لأن طريقتي فريدة..
وأطلق أحد الرجال طلقة على قفل الباب فانفتح.
غير مصدقين راح الرجال يشاهدون ما يحدث.. حتى حسبوا أنهم يشاهدون أحد أفلام (لوتشيو فولشي Fulei)..
لا بد أن خللا قد حدث وجعل الكاميرات تنقل فيلما من أفلام الجياللوGiallo الإيطالية المريضة..
وهتف (فريدلاندر) غير مصدق:
- رباه! هؤلاء الرجال أقسى منا بمراحل.. لم أتصور هذا قط.
بينما أفرغت (عبير) معدتها وهتفت:
- حمدا لله أنني لم أتطوع لهذه المهمة..
وكان القاضي هو من أول من تكلم بصوت العقل بحكم مهنته.. تنحنح وقال:
- هو ذكر كلمة (جنرال).. أليس كذلك؟
- بلى..
- معنى هذا أنه لا يمزح.. إنه يعرف من نحن فعلا وماذا نريد.. يجب أن نتفرق سريعا..
وتبادلوا نظرات قلقة..
الحقيقة أن الوضع يسوء بسرعة.

☆ ☆ ☆

11

عاش رجل ما في روسيا منذ زمن بعيد
كان قويا ضخما.. وفي عينيه بريق ملتهب
أكثر الناس كانوا يرمقونه بتوجس وخوف..
لكن بالنسبة لحسناوات (موسكو) كان لطيفا حبوبا للغاية
أغنية قديمة لفريق (بوني إم Boney M)

☆ ☆ ☆

اتخذت الصواريخ النووية وضع الاستعداد..

الرئيس الأمريكي طرح على الكونجرس تعديلات مهمة بصدد قوانين الانتخابات.. يبدو أنه يحاول إجراء تعديل دستوري يجعل مدة الرئاسة عشر سنوات! طبعا ساد الاحتجاج وتعالت أصوات الرفض، لكن الرجل كان قد بدأ يتعلم كيف يصير دكتاتورا.. لن يتمكن من تحقيق غرضه، لكن هذا ينذر بانقسام مروع في الحكومة وعلى مستوى الشعب الأمريكي ذاته.
الأمم المتحدة تحاول وقف فتيل الحرب قبل أن يصل إلى الديناميت، لكن السفير الأمريكي في إحدى دول أوروبا الشرقية نجا من محاولة اغتيال.
إن العالم على غلاية كالتي نحن عليها الآن، وإن كانت الأسباب مختلفة.
لكن (عبير) لم تكن تتابع هذه الأمور.
بالأحرى كانت تحاول وقفها..

☆ ☆ ☆

جنرال (ك)..
كان يمشي في طريقه إلى سيارته والظلال تغمر نصفه العلوي كما هي العادة، حينما شعر بشيء غريب.. شعر بأنه مراقب.. نظر للوراء فرأى ذلك البريق.. إنه يعرفه جيدا منذ كان في حرب (فيتنام).. انعكاس نور الشمس على عدسة تلسكوب بندقية قناص.. وهذا القناص يتوارى في إحدى النوافذ المطلة على المكان..
قال بصوته الرتيب:
- إن هذا...
وقبل أن يفسر الأمر كانت الطلقة قد دوت.. وسقط على رفرف السيارة..

☆ ☆ ☆

قال د. (سلاتر) وهو يقود (عبير) عبر الممرات الملتوية التي تقود إلى مختبره:
- المهم أن تتحلى بالشجاعة.. أنا لم أفعل هذا من قبل لكني سأفعله من أجل الجميع..

☆ ☆ ☆

(سميث كلاركسون)..
يقود سيارته بنفسه.. إنه اعتاد هذا ولم يكن يثق بقيادة أي شخص آخر..
الطريق مكتظ بالسيارات.. هناك إشارة مرور فاضطر إلى التوقف.. راح يتسلى بالطرق على عجلة القيادة بينما رأي بركن عينيه سيارة سوداء تتوقف في محاذاته.
بدافع الفضول التفت إلى اليسار
كان ما رآه هو أن السيارة يركبها اثنان.. وأن الرجل الذي على اليمين ينظر له.. لم تكن يده خالية.. كان يحمل مسدسا كاتما للصوت وكان يصوبه على رأسه.. رفع يده عن المقود وهتف بصوت كالبكاء:
- لا يمكن.. لن تفعل هذا بي.. إن...
هنا انطلقت الطاقة.. فلوب.. صوت انتزاع سدادة الفلين المميز.
لم يكمل عبارته كتلك العادة المستفزة لدى المحتضرين.. وسرعان ما كانت السيارة السوداء تكسر الإشارة، وتنطلق مبتعدة بينما سقط صدره على آلة التنبيه فتصاعد الصوت عاليا يصم الأذان.

☆ ☆ ☆

حاملة الطائرات (ساراتوجا) تتخذ أقرب وضع ممكن للهجوم..
وعلى متنها عرف الجميع أن الأمر جلل.
بينما تعالي صوت مكبر الصوت ينذر البحارة:
- هذا ليس تمرينا.. انتباه.. هذا ليس تمرينا.
جو عام من التوتر ساد الجميع بينما هم يحملون الطائرات بالقنابل ويعدونها للغارة الأولى.. شعروا بتقلص في أحشائهم. اللحظة التي يرهبها العالم منذ انتهت الحرب العالمية الثانية صارت دانية جدا.
ووقف الكومودور (أروسميث) يرقب البحر المتلاطم أمامه وهمس لمساعده:
- لا أعرف سبب هذا.. لا أرى مبررا لما سيحدث لكننا جنود.. سنفعل ما نؤمر به ولن نسأل أسئلة.. سنفعله جيدا..

☆ ☆ ☆

أما عن (فريدلاندر) فقد وجد صعوبة في فهم سبب توقف المصعد به.
كان في الفندق الذي يقيم فيه مؤخرا، وكان كل شيء يعمل بكفاءة.. لكن المصعد توقف بين الطابق الثامن عشر والتاسع عشر.. ضغط زر الاستغاثة، وما لم يعترف به لنفسه هو أنه يعاني الكثير من (الكلوستروفوبيا).. هذا مشين لكنه حقيقي.
راح يدق بقدميه بشيء من العصبية.
فندق بهذا الحجم ولا يشعر عماله بأن المصعد معطل..
لكن من حسن حظه أن الحركة كثيرة ولسوف يلاحظ أحدهم أن الأمور لا تسير على ما يرام..
هذا محتوم.. لن يصيبه أسوأ من الذعر.
فجأة شعر بأن الأرض تهبط..
هذه حقيقة! إن المصعد يهوى لأسفل!
لم يجد الوقت الكافي لفهم ما يحدث لأنه.. بفعل القصور الذاتي.. طار الأعلى ليضرب رأسه في السقف قبل أن يصير هو والمصعد كتلة واحدة لها نفس التسارع.. هذه أشياء بديهية فيزيائيا يعرفها طلاب المدارس الثانوية لكني نسيتها للأسف.. كل ما أعرفه أن الرجل هلك.. فليتكرم أحدهم بتفسير الأمر لي فيما بعد..
الآن (عبير) ترتدي ثيابا ثقيلة تناسب تلك الليلة في (سانت بطرسبرج) منذ مائة عام.. تضع القفازات.. ينظر د. (سلاتر) إلى ساعته ويقول لها:
- فلنسرع.
طلب الجنرال (ك) بهاتفه الخلوي فلم يرد.. لم يرد أي واحد من المجموعة.
قال لها وهو يلبس الثياب المناسبة للطقس البارد:
- كما توقعت.. أعتقد أن عملية الصيد بدأت..
- ربما تمت؟
- لم تتم بعد.. ما زلت أنا وأنت حيين!
انفتحت آلة الزمن الرهيبة.. هذه المرة لم يكن هناك فريق العمل ولا ذلك الزحام.. وقد عانى د. (سلاتر) كثيرا حتى تمكن من أن يضع (البازوكا) داخلها.. وهكذا دخل وجلس في تلك الكابينة الخلفية التي لا بد أن (راسبوتين) توارى فيها منذ أشهر تكور على نفسه وراح يلهث.. كان

الطقس حارا لكنه لن يصير كذلك بعد دقائق.
أغلقت (عبير) الآلة وهمست في رعب:
- هل تعتقد أنه خمن ما ننتويه؟ إنه يسبقنا دائما بخطوة واحدة..
- لا سبيل لمعرفة هذا إلا بالتجربة.. ولو انفجرت هذه لدي التشغيل كما يحدث مع سيارات المافيا فلن نظل حيين لتندم..
قالت (عبير) وهي تجفف عرقها وتضغط على الأرقام التي حفظتها:
- لا أعتقد أنهم لغموها وإلا ما حاجتهم لهذا؟
نظر إلى حيث أشارت خارج الزجاج البراق، فرأت هؤلاء الرجال القادمين، كلهم يحمل مدافع (العوزي) الإسرائيلية.. أداة القتل الرشيقة التي باعتها إسرائيل للعالم كله..
صرخ في جزع:
- اهربي فورا! لو أن طلقة اخترقت هذا الزجاج!
كانت (عبير) قد ضغطت الزر فعلا.. ومن جديد ترى أسلوب (زمن الطلقة) الشهير.. لقد تدربت على هذا.
وهكذا بدأت الرحلة ضمن الدوامات الزمنية المعهودة..
كان (سلاتر) يوشك على أن يموت انفعالا وحماسا وخوفا، أما هي فقد صار الطريق محفوظا لها فلولا الحياء لتثاءبت مللا.
أخيرا هي ترى المشهد الذي صار مألوفا..
الشرفة من بعيد وصوت الطلقات.. آلة الزمن التي جاءت بها لأول مرة تتواري بين الأغصان على حافة النهر..
راحت ترقب المشهد لاهثة.. شعرت بمن يلهث جوارها فالتفتت.. كان هذا د. (سلاتر) الذي يرقب ما صنعه هو وفريقه.. كان لا يصدق ما يراه.. حتى وهو يراه رأي العين.. همس بصوت كالفحيح:
- مذهل..
سألته حائرة:
- د. (سلاتر).. معنى هذا أن آلة الزمن الأخرى التي عدت بها ثاني مرة تقف في الحديقة؟ هل يعني هذا أن ثلاث آلات زمن كانت تقف عندما قتل (راسبوتين)؟ لماذا لا أري الأخرى؟
قال لها وهو يفتح الباب:
- شش.. لا وقت لهذا.. ناوليني البازوكا..
(راسبوتين) يسقط في الماء.. الرجال يهرعون للحاق به.. يقف د. (سلاتر) ضئيل الحجم حاملا البازوكا التي يبلغ حجمها ضعف حجمه ويحاول أن يحكم التصويب..
الآن يتجه (راسبوتين) الجريح إلى آلة الزمن ويدخلها بلا تردد..

☆ ☆ ☆

كانت هذه هي الفكرة التي خطرت لد. (سلاتر).. أن يقتل (راسبوتين) في هذا المكان بالذات وهو في أوهن حالاته جريحا ينزف مذعورا خائفا.. هنا يمكن الظفر به، بينما يبدو أنه صار أذكى وأقوى من أي تصور في زمننا..
سوف ينتظر حتى يدخل آلة الزمن الأولى، ثم ينسفها بمن فيها، وهكذا لن يعود هناك (راسبوتين) في زمننا..
إنه الحل الوحيد.. العودة عبر حاجز الزمن لتصحيح خطأ قاتل..

لقد دخل (راسبوتين) الآلة المفتوحة وتواري داخلها..
هتفت (عبير) وهي تضغط على أسنانها:
- هيا يا دكتور.. الآن..
لكنه ضغط الزناد فلم يحدث شيء..

☆ ☆ ☆

تعرف هذا طبعا لأن هذا هو البروتوكول.. كل جهاز يعمل جيدا حتى اللحظة التي تتوقف فيها حياتك عليه.

☆ ☆ ☆

الآن ظهرت (عبير) القديمة وهي تركض نحو الآلة.. دخلتها.. أغلقت الباب..
هتفت (عبير) الحالية في رعب:
- توقف.. لم يعد هذا ممكنا الآن..
نظر لها (سلاتر) في حيرة.. عينان زجاجيتان خاليتان من التعبير.. ثم صوب البازوكا وضغط الزناد مرة أخرى..
النار تخرج من مؤخرة المدفع ومن مقدمته، ولم تر (عبير) القذيفة تخرج لكنها رأت آلة الزمن تنفجر.. تتطاير أجزاؤها في كل صوب وتحول ظلام الحديقة إلى نهار.. وارتجت الأرض تحت قدميها..
هنا وجدت أنها تقف وحدها..
أين ذهبت آلة الزمن؟ أين د. (سلاتر)؟ هل هلك (راسبوتين)؟
كيف تعود إذا كانت آلة الزمن قد تلاشت؟
هنا سمعت من يقول بصوت مميز:
- طبعا هلك (راسبوتين).. لا أحد ينجو من انفجار كهذا..
التفتت للوراء فرأته.. المرشد يقف بذات البرود المعتاد والبسمة السمجة على شفتيه والقلم الأبدي في يده يتسلى بالضغط عليه..
هتفت في رعب:
- المرشد.. عامة أنا لا أهيم بك حبا لكنك تأتي حينما تكون الحاجة ماسة لك..
قال وهو يدس يده في جيبه:
- لن تعرفي أبدا كم إن الحاجة ماسة لي.. أنت الآن في مأزق حقيقي.. لقد نُسفت آلة الزمن وفيها (راسبوتين)..
بالتالي انتهت كل التداعيات الكارثية التي توشك على تدمير العالم.. لكنك نُسفت كذلك.. لقد اضطر د. (سلاتر) للتضحية بك لأنه لا وقت للعودة للحاضر وبدء رحلة أخرى.. هل تفهمين معنى هذا؟ معناه أنك هلكت في ليلة من عام 1916!
- ماذا تعنيه؟ أنا حية أرزق.
- هذا لأنك في (فانتازيا).. لكن الحقيقة هي الحقيقة.. في اللحظة التي انفجرت فيها آلة الزمن لم يعد هناك (راسبوتين) في المستقبل ولا آلة زمن، ولن توجد الصحفية الحسناء (بيتي)..
- لكن لا بد أن توجد في المستقبل حتى يمكنها أن تموت في الماضي..
- لا يهمني ما تعتقدين.. لكن هل تتصورين أن تراقبي مشهد موتك في الماضي وتظلي حية؟ لقد

تم التخلص من (راسبوتين) بسعر باهظ
كانت تشعر بالدوار.. كل مشاكل السفر في الزمن هذه تشعرها بالدوار.. أقرب إلى العبارات المنطقية التي تلتهم نفسها.. حلاق (كريت) يحلق للرجال الذين لا يحلقون لأنفسهم ولا يحلق للرجال الذين يحلقون لأنفسهم.. المشكلة هي أين يحلق هو. لو حلق لنفسه فهو يحلق لنفسه وبالتالي لا يجب أن يحلق لنفسه، ولو لم يحلق لنفسه لصار ضروريا أن يحلق لنفسه!
أين الصواب وأين الحقيقة؟
قال لها المرشد:
- لو كنت اكتفيت من هذه التجربة الرهيبة فإنني أرى أن بوسعنا الرحيل..
- ولو بقيت؟
- لا أضمن حياتك.. من المفترض أنك ميتة منذ خمس دقائق حسب منطق القصة..
هكذا ضمت المعطف على جسدها ورفعت الياقة لتمنع الريح الباردة من تجميد أذنيها وانطلقت وراءه..

☆ ☆ ☆

في القصة القادمة تخوض (عبير) عالما فريدا من نوعه يذكرنا بنقوش مدرسة (بهزاد) الفارسية.. سوف تقابل (جلجامش) و (انجيدو) وتعرف ما هو أكثر عن عالم الأساطير الفارسية الساحر.

(تمت بحمد الله)

عينان

عاش رجل ما في روسيا منذ زمن بعيد..
كان قويا ضخما.. وفي عينيه بريق ملتهب..
أكثر الناس كانوا يرمقونه بتوجس وخوف..
لكن بالنسبة لحسناوات (موسكو) كان لطيفا حبوبا..!
را را راسبوتين..
حبيب ملكة روسيا..
را را راسبوتين..
من العار أنهم تركوه يتمادى...

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية للجيب

39

صديقي جلجاميش

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (39)

صديقي جلجاميش

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء: إلى العظماء الخالدين (جلجاميش) و (حمورابي) و(أشور بانيبال) و (نبوخذ نصر) و.. و.. إلى حضارة بين النهرين العظيمة، التي هي واحدة من أقدم حضارات التاريخ إن لم تكن أقدمها فعلا والتي تهينها اليوم وتبدد آثارها وتعريها وتجرها بحبل من عنقها حضارة لم يتجاوز عمرها بضع مئات من السنين..

1- رحلة جديدة..

تأرجح يا قطار (فانتازيا) المضحك، الذي يمشي في طرق عشوائية تماما، ولا يكرر الطريق ذاته مرتين أبدا.. ما زلت طفولي المنظر حقا تذكرني بقطارات (ديزنى) التي لها عينان في المقدمة وسيجار غليظ تنفث منه الدخان..
صحيح أن بعض الهرم قد زحف عليك واكتسيت بالغبار والسناج.. لكن سبب هذا هو نفسية (عبير) ذاتها التي ملأتها الآلام فتسللت إلى عالم (فانتازيا) ذاته..
(عبير) تجلس في المقعد وأمامها (المرشد) الذي اتخذ وضعا من الجلوس أقرب إلى الرقاد، وفي يده القلم الزنبركي اللعين يضغط رأسه مرارا: تك.. تتك.. تك.. تتك.. يمكنك أن تفقد عقلك بسهولة.
إنها تمسك بالنشرة المطوية التي تشرح معالم (فانتازيا)..
تلك النشرة التي يعاد طبعها قبل كل زيارة لها.. تفخر (عبير) - ويفخر المؤلف بأنهما ارتادا عوالم الحقيقة الافتراضية قبل أن يقدمها فيلم (ماتريكس) و (استعادة كلية Total Recall) بأعوام عديدة، تلك العوالم التي يخلقها الكمبيوتر ليصير بوسعك أن تعيش وتتنقل فيها.. بل إن الموت داخل ال (ماتريكس) يعني الموت في عالم الواقع لأن (الجسد لن يعيش من دون العقل)، وهو ذات التحذير الذي تلقته (عبير) في (فانتازيا) عام 1995.. إلا أن عوالم (ماتريكس) صنعتها آلات عملاقة دكتاتورية ترغب في استعمال البشر كبطاريات، بينما عوالم فانتازيا صنعها مبرمج مصري نحيل بإمكانيات شبة بدائية، وباستعمال جهاز رسم مخ كهربائي عتيق.. وكان غرضه أولا استكشاف عوالم الحلم ثم لم يعد له غرض إلا الترفيه عن زوجته.. أو من كانت زوجته حتى إنه لم يقم بربط برنامج (دى جى) ببيئة النوافذ قط، وإنما ظل البرنامج كما هو يعمل من بيئة (دوس DOS)!
تعالى صوت غطيط المرشد الذي - كما نعرف عنه - يشعر بملل أبدي.. وأسوأ لحظات حياته هي التي تظل فيها (عبير) عاجزة عن حزم أمرها كأنها طفل حائر في متجر ألعاب.. ولكم من مرة اضطر إلى إرغامها على اختيار ما، أو أقنعها بأنها اختارت وهي لم تفعل..
راحت تقلب النشرة.. كانت دائما تشعر بأن هذه هي المرة الأخيرة.. دعك من أنها لا تريد أن تجد نفسها وسط جحيم (هيروشيما) أو قلب حرب (طروادة) أو تجد نفسها مشلولة صماء بكماء عمياء..
فجأة توقفت عند صفحة بعينها..
من المعروف في (فانتازيا) أن النشرة تتزامن تزامنا مثيرا للإعجاب مع مشاهد النافذة.. لهذا ترى في الصفحة التي أمامها رجلا أشوريا عملاقا - أليست هذه اللحية الكثة المجدولة في صفوف أشورية؟ - يقف ممسكا تحت إبطه بأسد يحاول التملص كأنه قط.. ونظرت خارج النافذة فرأت مدينة هائلة لها أبراج مخيفة، ورأت رجالا ضخاما شديدي المراس يحاربون مجموعة من الأسود.. ورأت رجلا ضخما يمتطى أسدا.. ورأت طفلا يداعب أسدا.. ما هذا بالضبط؟ هل هي محمية طبيعية للأسود؟
هزت (المرشد) فلم يستجب.. اضطرت إلى أن تمد طرف حذائها وتوجه له ركلة خفيفة في ركبته، فنهض مذعورا وهتف:
- نعم.. نعم.. موعد العودة يا فتاة! هيا بنا..

قالت في برود:
- نحن لم نبدأ بعد.. أين نحن؟
نظر خارج النافذة وضيق عينيه ليري أفضل ثم قال:
- بلاد ما بين النهرين Mesopotamia.. بمعنى آخر أنتِ في العراق وشرق سوريا..
- وما هذه القصة؟
- طبعا أسطورة (جلجاميش gilgamesh).. لسنا هنا في منطقة (ألعاب تاريخية).. إذن ليس هذا تاريخا وإنما هي ملحمة أسطورية من أعظم الملاحم في الخيال البشري.. نقاد الأدب يضعونها فوق ملاحم (هوميروس) بعدة درجات..
قالت في ضيق وهي تضع المطوية جانبا:
- لا أعرف عنها حرفا.. طبعا ستقول لي إنني أعرفها لكني نسيت أنني أعرفها..
- أنت تتكلمين بلساني.. لا وجود لحجر واحد أو شجيرة أو شخص في (فانتازيا) مالم تكوني على علم سابق به.. كيف يخرج من فص ما ليس فيه أصلا؟
قالت له وهي تنظر إلى العالم خارج النافذة:
- حسن. دعني أجرب.. ما دوري هنا؟
فكر قليلا وحك رأسه ثم قال:
- توجد أدوار ذكرية كثيرة.. لكنك لا تحبين هذا بعد مغامرة (روبن هودRobin Hood) هل تحبين القيام بدور راقصة المعبد الغانية (شامحات)؟
- احترم نفسك!
قال من دون اكتراث:
- أولا ليست (غانية) سبة وإنما لفظة عربية فصيحة تعني (التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة) وقد تغير معناها مع الوقت.. وحينما قال (شوقي):
خدعوها بقولهم حسناء.. والغواني يغرهن الثناء.»
- لم يكن يقصد اتهام المذكورة بأنها منحلة وإنما بأنها مغرورة.. ثانيا حتى مع تغييرات (فانتازيا) لا أعتقد أن لديكِ إمكانيات تسمح بهذا..
- احترم نفسك مرة أخرى!
- هكذا النساء.. يلمنك لو قلت إنهن جميلات ويلمنك لو قلت إنهن لسن كذلك.. هل تحبين أن تصيري رجلا وتلعبي دور (أوتنابشتيم)؟
قالت في تقزز:
- حتى لو قبلت لعب دور رجل، فمن العسير أن العب دور رجل لا أستطيع حفظ أسمه أكثر من خمس دقائق..
ابتسم في شيطنة وسألها وهو يعتدل في جلسته:
- خمس دقائق؟ أنت تحسنين الظن بذكائك.. لقد مرت عشر ثوان.. كرري على مسمعي الاسم ذاته!
- عمن تتحدث؟ هذا ال (أونشيم).. هذا ال (اوتناسايكلين)..
- توقعت هذا! والآن لنجد لك دورا أنثويا مناسبا..
وراح يقلب في المطوية التي معه ثم هتف في انتصار:
- (عشتروت)!! ستلعبين دور (عشتروت)!
- ومن هي؟

- ستعرفين كل شيء في وقته..
ثم مد يده يجذب حبل القطار.. أحيانا يجذب الحبل أو يضرب السقف، والقطار – ما شاء الله - يتمتع بذكاء صناعي غير مسبوق.. إنه يعرف نيته على الفور بلا أدني أرتباك..
هكذا وجدت (عبير) نفسها تقف - للمرة الأولى في حياتها - على ضفاف نهر (دجلة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- جلجاميش.

بعين الخيال تراه (عبير).. عبر المسافات وعبر الأزمان..
منذ مائة عام يجلس هناك في الظلام الذي لا يبدده إلا ضوء شمعة خافت.. الطقس حار والبعوض يحيل الحياة جحيما لأنه يلتصق بالعرق فلا يغادر جلدك إلا ميتًا.. لكن الرجل جالس وفي يده العدسة، وأمامه قطع صلصال كبيرة نسخ بها – كما يفعل علماء الآثار صور النقوش التي كانت على الطين المحروق، ثم طبعها على الورق.. بهذا ظهرت تلك النقوش الدقيقة الأقرب إلى الزخرفة والتي ظل أعواما يحاول فك لغزها.. والمشكلة أن هؤلاء القوم الذين كتبوا هذه النقوش منذ آلاف السنين كانوا يتمتعون بعيون ممتازة.. يبدو أن داء طول النظر لم يكن موجودا في تلك العصور. بعض القطع تحوي ستة أسطر في مساحة سنتيمترين مربعين..
هذا هو (جروتنفند Groten fend) عالم اللغات الألماني العظيم، يحاول فك ألغاز هذه الألواح المكتوبة باللغة المسمارية Cuneiform.. اللغة التي تستعمل حروفا أقرب إلى المسامير أو (الخوابير) يتم نقشها على الطين المحروق، والتي سبقت الأبجديات المعروفة ب. 1500 سنة. اللغة التي ابتكرها السومريون ثم تبناها الأشوريون والبابليون. هذا النص فارسي وجدوه في أطلال مدينة (برسبوليس Persepolis) ولسوف يقود إلى أعظم كشف في تاريخ الآثار بعد كشف رموز اللغة الهيروغليفية، ومن حسن الحظ هنا هي أن المسمارية الفارسية كانت أسهل من المسماريات الأخرى..
وقد كان (جروتنفند) يعرف من هذه الرموز رمزا واحدا هو (ملك)..
لهذا استخدم نوعا من الحاسة البوليسية.. إن عدة أسماء تتكرر في النص.. هناك ثلاثة أشخاص أحدهم لا يسبق اسمه لفظة (ملك).. وهو يعرف من التاريخ الفارسي أن الذي كان أبا لملك وجدا لملك ولم يكن هو نفسه ملكا هو (هستاسب).. إذن نص العبارة يقول:
داريوس ملك.... ابن هستاسب.... إكزركسيس ملك ابن داريوس
بهذه الجملة القيمة دارت العجلة بيد عشرات من علماء اللغة، واستطاع العالم أن يفك الكثير من الحروف الهجائية اللغة المسمارية.. وانفتح الستار عن طريقة تفكير تلك الحضارة الهائلة المخيفة.. حضارة بلاد ما بين النهرين.
وفيما بعد سوف يجد علماء الآثار تحت أطلال مدينة (نينوى) مجموعة من الأقراص.. لا.. ليست أقراصا مدمجة CD، إنما أقراص من الطين المحترق.. ورق ما بين النهرين. هناك اثنا عشر قرصا دونت عليها الملحمة باللغة الأكادية Akadiac. وآخرها مهشم بفعل الزمن. والأقراص تحكي قصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ينزلق الزجاج الأسود ببطء على طريقة الأفلام السينمائية.. (لمياء) تعشق هذا التأثير حين يبرز وجهها لعينيه الذاهلتين ببطء، وبعد ما كان لا يرى إلا انعكاس وجهه المرهق، يرى وجهها هي يطل عليه من نافذة السيارة السوداء الفاخرة..
لكنها تكره أن يرى عينيها برغم هذا.. إنها تستعمل العينين في الوقت والزمان المناسبين وتخرجهما من وراء النظارة السوداء في لحظات تختارها هي، على طريقة (جردت حسام نظراتها) الشهير عند العرب.. أما الآن فالنظارة السوداء تستكمل التأثير ذاته.. إنه يرى وجهه الملوث

بالعرق المذهول مكررا مرتين في العدستين.. تأثير سينمائي آخر تحبه كثيرا..
كان يقف جوار صاحبه في العمل.. وهو يماثله في القوة والفتوة، لكن ما أبعد الفارق بينهما من ناحية الوسامة.. يذكرها وجه صاحبه بدب أشهب غاضب.
نظر لها فتاها في حيرة وضغط على المضخة ليوقف توقف البنزين:
- هل أملأ الخزان كله؟
هزت رأسها في كبرياء.. والحقيقة التي صار كلاهما يعرفها الآن أنها تملأ الخزان كل مرة من ذات المحطة وذات الفتى.. حتى أنه تساءل: ماذا تصنعه بالبنزين بالضبط؟ لم يسمع قط عن شخص يشرب البنزين لكن هذا وارد بالصورة الحالية..
قال لها في ارتباك وهو يتظاهر بأنه لا يرى عينيها:
- السيارة جديدة.. لا يبدو أن المحرك يحرق البنزين بهذه السرعة..
لم ترد وظلت تراقبه.. مسرورة لأنها تسبب ارتباكه..
بعد قليل سألته وهي تعرف الإجابة يقينا:
- (جلال).. أليس هذا هو الاسم؟
هز رأسه في ارتباك..
- طالب في كلية الحقوق.. وتعمل هنا لسداد نفقات دراستك وأسرتك؟
هز رأسه من جديد غير عالم ما يقول.
- برافو (جلال).. برافو.
قالتها بتلك الطريقة التي تعرف كيف تصدرها.. ثم مدت يدها من فوق حافة الزجاج بالورقة ذات الخمسين جنيها..
لا تضع في معصمها الكثير من الحلى ما عدا سوارا واحدا يبدوا أن سعره يختصر الكثير.. هو لا يفهم في الحلي لكنه يعتقد أن هذه الحلية مزينة بالبلوتونيوم أو اليورانيوم..
نزع الورقة وقال شيئا عن انتظارها حتى يجلب الباقي، لكن الزجاج ارتفع في اللحظة ذاتها ليولد الحاجز الأسود من جديد.. الحاجز الذي تراه من ورائه ولا يراها...
لن يقاوم كثيرا.. لن يقاوم.. هو لم يلمس امرأة في حياته ولم يعرف إلا كتبه وحارته ورائحة البنزين.. سوف تهوي هي عليه كلكمة تطير صوابه.. ولسوف يستسلم بلا قتال..
وانطلقت السيارة مبتعدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانا جالسين يشاهدان التليفزيون ويأكلان بعض التمرات.. لا تسألني من فضلك عن ظهور التليفزيون في (بابل) القديمة لأن هذه هي (فانتازيا) حيث لا تنطبق مقاييسنا تماما..
دخلت ووقفت ترقبهما.. كانت الآن تعرف عدة أشياء عن نفسها.. أو هي تملك قدرات خارقة. ثانيا هي سيئة الطبع غيور جدا.. ثالثا اسمها (عشتار Ishtr) هذا كاف كما ترى لبدء القصة..
كان أبواها يجلسان أمام التليفزيون كما قلنا.. الرجل ذو اللحية التي تكسو صدره الذي يتسلى باللعب في أصابع قدميه هو (آنو Anu)، وهو يلعب في هذا العالم دور (زيوس) في الأساطير الإغريقية، أما المرأة فهي أمها (أنتوم)، وتلعب إلى حد ما دور (هيرا) في الأساطير الإغريقية.
قال لها أبوها دون أن تفارق عينيه الشاشة:
- ماذا تريدين يا (عشتور)؟
(عشتور)؟ هذا هو أفضل تدليل أمكنهما ابتكاره لاسم (عشتار)؟ لكن لا وقت لديها لهذا

الهراء.. إنها مدللة عصبية، اعتادت منذ الصغر أن تنال ما تريد حينما تريد، وكان (بابي) يحقق لها أي شيء.. هات لى هذه المدينة. انسف لى هذه القرية..
قالت في حنق:
- اللعين (جلجاميش Gilgamesh)!!
- ماذا دهاه ذلك اللعين؟
- لقد رفض حبي له!
ابتسمت الأم، أما الأب فبدا أقرب إلى التعقل وقال:
- من حق (جلجاميش) أن يرفض حبك.. فيما بعد سيقول المصريون في أمثالهم: كله عند العطار إلا حبني غصب..
وأضافت الأم:
- بيني وبينك يا حبيبتي.. أنت تتلاعبين بعشاقك طيلة الوقت.. ليس من بينهم إلا من غدرت به أو خنته أو تخلصت منه بداعي الملل.. (جلجاميش) ملك عظيم وبطل المغوار وهو غير راغب في أن يصير مجرد اسم في القائمة..
تصاعد الدم إلى رأسها وهتفت:
- أنا (عشتار).. (عشتار) الفاتنة.. (عشتار) القوية.. أقضي الليل في سهاد.. وأبكي وأعتصر الوسادة كمراهقة تهيم حبا بمطربها المفضل.. وكل هذا من أجل كائن بشري تافه.. أية إهانة هذه!
كانت قد رأته في المرج في ذلك اليوم الأسود.. الأسود بالنسبة لها طبعا.. لم تتصور قط أن في العالم كله رجلا بهذا النبل والجمال والقوة.. لولا أنها تعرف أنه بشري لاعتبرته إلها وثنيا آخر من الذين تعج بهم أساطير البلاد [1]
وهنا نجد أن الآنسة (عشتار) هي ذاتها مختصة بالخصب والنماء في المعتقدات الدينية الموثقة لهذا العصر، وبالتالي كان بوسعها أن تعد فتحقق وعدها.. فاتنة؟ طبعا كانت (عشتار) فاتنة.. من قال العكس؟
لقد اتجهت في ثقة إلى البطل البابلي المغوار، وقالت بطريقة عابرة:
- هاى..
لم يرد لأنه كان منهمكا في خنق ثلاثة أسود..
قالت وهي تعابث خصلات شعرها السوداء:
- هل ترغب في.. لنقل هل ترغب في أن تكون صديقي؟
لم يرد لأنه كان يفسخ تمساحا.. فواصلت الكلام:
- هناك مزايا عدة لأن تكون حبيبي.. أي شيء ترغب فيه سيكون ملكا لك.. ما نوع سيارتك؟
قال وهو يخنق أفعوانا:
ليست لدي سيارة..
- حسن.. تصور نفسك في عربة مذهبة موديل العام نفسه تجرها خيول تتصاعد النار من تحت حوافرها ومعرفتها. عربة تحلق فوق السحاب وتحملك إلى الشرق، حيث يجثو الملوك الصفر ويمرغون رءوسهم في التراب.. يلثمون يديك وقدميك.. تصور أن كل محاصيل الأرض ترد إليك من أربع جهات المعمورة، وهذه المحاصيل تكدس عند قدميك.. كل الإبل والماعز والأبقار.. كل ثيران الشرق وكل خيول الغرب.. وكل هذا لك أنت وحدك.. فقط لو..
وغمزت بعينها تحت حاجبيها البابليين المتصلين، ثم أمسكت بكفه وقربتها من شفتيها

الحمراوين..
- لا!!
واضح أن هذا (الجلجاميش) لا يجيد التعامل مع الجنس اللطيف، أو إن كثرة الحروب جعلت هذا أرق شيء في وسعه.. لقد تملص منها في غير رفق وقال:
- اسمعي يا (عشتار).. أنا أعرفك! تجمعين العشاق كما يجمع سواك الفراشات أو الحجارة الغريبة، ربما لا تريدين منهم إلا أن يكونوا لك.. تنامين راضية كلما فكرت في أن رجلا آخر صار في حبائلك.. الرجال عندك نوعان: نوع تريدينه ولا يريدك ونوع يريدك ولا تريدينه.. ولسوف تحاولين معي كثيرا إلى أن أنضم لخانة (رجال يريدونك ولا تريدينهم) عندها تتخلصين مني.. كما يقرر الصبي التخلص من مجموعة أحجاره بإلقائها في نهر (الفرات).. لكن دعيني أؤكد لك شيئا: لا أحد يخدع (جلجامش) أو يرغمه على شيء..
ثم حمل الأسود الثلاثة على كتفه وابتعد دون كلمة أخرى..
لم تكن هي قد تلقت هذا الفيض من الإهانات من قبل.. صفعة عملاقة بحجم القمر قد هوت على خدها مازلت تصفر في أذنها حتى الآن..
هكذا لنا أن نتصورها وهي تجرى بصندلها البابلي الأنيق وسط الأحراش، وهي تصرخ بلا انقطاع، وتدمع بلا توقف:
- باباااا! باباااااااااا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الانتقام

قال (جلال) لـ (لمياء) شيئا مماثلا حينما طلبت أن يصحبها إلى كافيتريا صغيرة في (الزمالك).. قالت إنها تريد أن تعرفه أكثر، فقال ما أراد قوله بتهذيب لكن بحدة وصرامة:

- أرجوك ألا تتسلى عليّ.. أنا أعرف من أنت يا آنسة وأعرف من أنا جيدا.. وكل ما أريده أن أعمل في محطة البنزين هذه وأن استكمل دراستي وأعول أسرتي.. لا تتسلي عليّ أرجوك.. ربنا يكرمك لا تتسلى علي.. لا وقت لديّ كي أصير لعبة في يد آنسة ثرية..

كان يعرف أنها معجبة به لأنه مختلف، ولعل (الشلة) ستهنئها على هذا الفتى الفريد.. من يدري؟ ربما يصير الفتى الفقير الجاد موضة هذا العام لدى الفتيات.. ياي! إن هذه الطبقة قد تجد متعة من آن لآخر في الجلوس على الرصيف والتهام الفلافل والجبن القديم.. ربما يعشقون ارتداء الجلابية فيما يطلقون عليه (جلابية بارتي).. لكنه في النهاية يملك طموحات أكبر بكثير من أن يصير مجرد موضة..

بينما سيارتها تبتعد، دنا منه صاحبه المخلص (مجدي) وربت على كتفه:

- ماذا هنالك؟ هل ضايقتك هذه المدللة؟

قال (جلال) وهو يعيد وضع فوهة الخرطوم في مكانها:

- تحاول أن تتسلي... كأنما نحن لا نجد ما يكفينا من متاعب وشقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا أريد أن أعاقبه.. أريد أن يراه يتعذب!

قالتها (عشتار) لأبيها وهي تقف في عصبية أقرب إلى شيطان يبحث عن مشاكل..

خفض من صوت جهاز التليفزيون ونظر لها.. كان يعرف أنها خطرة.. هو من صنع هذا الوحش عن طريق تراكمات التدليل، لكنه الآن عاجز عن وضع حد لهذا.. ليس في وسعه إلا أن يسايرها.. وإذا كان ابن المسئول صاحب النفوذ يتحول إلى وحش مفترس في كل مكان، فما بالك بابنة (آنو) نفسها؟

قال لها وهو يفكر في طريقة للتهرب:

- ماذا ترين إذن؟

- أنت تعرف يا أبي!

والكارثة إنه كان يعرف.. فهو يفهم ابنته جيدا.. لم يحدث قط أن رجلا رفض حب (عشتار).. ومعنى رفض (جلجاميش) لها إن الانتقام سيكون فريدا..

قال لها للمرة الأخيرة:

- (عشتار) يا عزيزتي.. دعك من هذه القصة.. هذا الفتى لا يستحقك على الإطلاق.

- لكنني أستحقه.. وهذا يثير غيظي..

ثم اتسعت عيناها لتصيرا عيني وحش مفترس وهتفت:

- لو لم تساعدني يا أبي فإنني سأتصرف.. سأفتح بوابات العالم السفلي ليخرج الموتى يقتحمون بيوتهم ليفترسوهم..

ارتجف الأب طيب القلب لهذه الفكرة المرعبة.. نفس هذه الفكرة المخيفة - خروج الموتى ليأكلوا الأحياء - هي التي جعلت شعب (الكلت) يغادرون بيوتهم في ليلة (هالوين Halloween)

من كل عام، لأنهم كانوا يعتقدون أن إلههم (ساوين Samhin) يرسل الموتى للأحياء في تلك الليلة [2].. وعلى سبيل تخويف الأشباح كانوا يلبسون تلك الأقنعة المرعبة التي يلبسها أطفال الغرب اليوم ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر.
قالت (عشتار) التي لم تكن تتمتع برقة القلب:
- أو ليكن انتقام آخر.. سأكف عن جلب الخصب والنماء إلى الأرض، ولسوف تحل بالأرض سبع سنين من الجدب والقحط.. إن الموت بفعل المجاعة أقسى من الموت بأنياب الموتى.. الخلاصة إنني (حاجيب عاليها واطيها)..
ثم ابتسمت برقة وقالت:
- هذا طبعا لو لم تساعدني يا أبي!
هكذا لم ير حلا.. حياة (جلجاميش) مقابل حياة آلاف التعساء الذين سيموتون تحت غضبة (عشتار)..
قال لها وهو يرفع صوت التليفزيون ليتابع المسلسل:
- ليكن.. خذي الثور الأسود! لكن حاولي أن تسيطري عليه..
صاحت في مرح:
- شكرا يا بابي.. شكرا!
وانطلقت إلى الحظيرة الكونية حيث ينتظر الثور المخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقالت (لمياء) لأبيها الذي كان يلعب (الجولف) في النادي:
- هذا الحيوان الوقح.. يجب أن تؤدبه يا دادي.
ضرب (رجائي) بك الكرة وراح يراقبها وهي تتواثب فوق العشب الأخضر الجميل.. لم تصب..
كان (رجائي) بك في الخامسة والستين الآن لكنه مازال يتمتع بوسامته وأناقته.. ربما هذا حال من يأتيه الثراء متأخرا فيقرر أن يعطل كل التغيرات البيولوجية المحتمة على جسده، فقط ليستمتع بالمال فترة أطول.. لسبب ما يكف الشعر عن الابيضاض، وتكف العضلات عن الترهل، ويكف البطن عن البروز.. لا تسأل عن تفسير ذلك طبيا فلا علم لي لكنه يحدث...
واسع النفوذ هو.. ولم يكن ينتمي للأرستقراطية من قبل، لكنه حاول تعويض ما فاته بسرعة.. تخلص من أم العيال التي رافقته في فترة كفاحه الأولى امرأة بدينة بائسة طيبة القلب لا يستطيع أن يظهر معها في أي مكان من دون أن يخجل، وتزوج تلك الفاتنة التي تنتمي لأرستقراطية ما قبل الثورة.. كان هذا منذ عشرين عاما، واليوم (لمياء) هي ابنته الوحيدة في عصر ما بعد الفقر.
قال لابنته وهو يشعل سيجارا (لم يكن يحب السيجار لكنه وجده ضروريا للمظهر الذي يصبو إليه):
- لم أفهم يا (لمياء).. ماذا فعل بالضبط؟
قالت في ضيق وهي تركل الأرض:
- أنت تفهم كيف يكون المرء وقحا.. إنه يتعمد قول كلمات هامسة مشينة، ويتعمد لمس يدي حين أناوله النقود.. يجب أن تربيه يا دادي..
فكر حينا.. لم يكن باله رائقا لهذه الأمور الصبيانية، كما إنه كان يعرف (لمياء) جيدا.. على الأرجح هي كاذبة.. كل ما تقوله (لمياء) كذب ولو قالت له (صباح الخير) لفتح النافذة ليتيقن ما إذا كان الوقت صباحا أم ليلا.. لكنه يعتبر كذبها هذا لمسة أرستقراطية أنيقة لا يريد أن

تفقدها..
قال لها:
- لماذا لا تغيرين المحطة وينتهي الأمر؟
- لن يجعلني هذا الصعلوك أغير مسار حياتي.. ثم إنه لو لم يلقن درسا لتمادي مع أخريات.
وبعصبية ركلت العشب وصاحت:
- أقسم بالله لو لم تتصرف يا دادي فلسوف أبرهن لكم كم أنا مجنونة.. أنت لم تر (لمياء) حين تجن رسميا..
فكر من جديد.. لا بأس.. إن (كامل) لم يستحق راتبه منذ فترة، وهو مولع بالمشاجرات.. لعل هذه هي فكرته عن (قضاء وقت طيب).. لم لا تأخذ (كامل) والباقين؟ هؤلاء التنبالية الذين يجلسون في الشمس في حديقة الفيلا ولا يفعلون شيئا سوى خراب بيته بكل ما يأكلون ويشربون، ثم يقبضون رواتبهم الباهظة؟
قال لها وهو يضرب الكرة ثانية:
- ليكن.. لكن لن أتصل بأحد.. خذي (كامل) والباقين معك وهم سيقومون باللازم..
صاحت في مرح وهي تصفق بيديها:
- واو.. شكرا يا دادي.. شكرا!!
ووثبت لتطيع قبلة على خده المجعد عطر الرائحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيبدأ المرح حالا..
(عشتار) / (عبير) تهبط الآن من السماوات نحو مدينة (أوروك Uruk) - لاحظ تشابه الكلمة مع (عراق) - - وهي تمسك ثور أبيها بالسلسلة.. ثور؟ لا.. لن تفيد اللفظة في تقريب هذا الكائن إلى ذهنك.. ربما لو تخيلت ميدان التحرير وقد صار لونه أسود ونبت له قرنان يمكنك أن تقترب من المشهد نوعا..
لقد فوجئ البشر بالظل الذي حجب الشمس ثم رفعوا عيونهم لأعلى فرأوا الهول.. إن (عشتار) تمتطى الثور الأسود وتمسك بسلسلته، وتهوى من أعلى وعلى وجهها ضحكة متوحشة.. كانت عبير مشفقة على هؤلاء التعساء لكنها مضطرة للعب الأسطورة حرفيا، ولكم كانت تفضل لو أعطاها المرشد دورا أكثر رقة..
كان هدفها أن تمزق (جلجاميش) وحده، لكن هذا مطلب عسير بينما الثور البري العملاق لا يدقق.. لقد راح يطأ الحقول ويرفس البيوت، وينطح من أراد أن ينطح.. كأن الأسطورة الصينية عن الثور في معرض الخزف تتكرر..
البشر يتطايرون أشلاء.. والصرخات تتعالي كأنها الموسيقا في أذنيها.
لا ترى (جلجاميش) لكنها تعرف أنه لن يتحمل ما يجري لشعبه.. إنه أت ولا ريب..
فيما بعد قال الصليب الأحمر إن عدد القتلى ستمائة أما عدد الجرحى فأضعاف هذا، بالإضافة إلى عدد كبير من المفقودين.. الحب يفعل هذا كله؟ ليس الحب بل الحب الذي صار مقتا.. و (عبير) لم تندهش على كل حال، لأنها جربت مصائب الحب من قبل، وقد رأت حربا ضروسا دامت عشر سنوات على أبواب (طرواده Troy) بسبب ذلك الفتى الرقيع (باريس) الذي اختطف الفاتنة الإغريقية (هيلانه) من زوجها..
هنا ظهر البطل. لكنه لم يكن (جلجاميش)..

كان (إنكيدو Enkidu) العظيم قادما.. هو يمثل ل (جلجامش) ما يمثله قول (أمل دنقل):
- «تلك الطمأنينة الأبدية بينكما: أن.. سيفان سيفك.. صوتان صوتك.. أنك إن مت للبيت رب.. وللطفل أب**»**
هكذا جاء (إنكيدو) ولوح بسيفه ثم طار في الهواء، قاصدا عنق الثور.. ركب فوق عنقه وراح يحزه بالسيف.
صاحت (عشتار) في غيظ بطريقتها الأنفية:
- لا تحاول يا حيوان: أنت لا تعرف مع من تتكلم!
قال وهو منهمك في عمله:
- أعرف أنك (عشتار) وأن على قتل هذا الثور!
لكن الثور يموج.. ويعتقد أنه في إحدى مباريات (الروديو Rodeo) في الغرب الأمريكي.. يهب منتفضا فيطير (إنكيدو) في الهواء بضعة مئات من الأمتار ثم يرتطم بالأرض فلما استعاد توازنه ووعيه، كان أول ما رآه هو قرن الثور العملاق يتجه نحوه.. طعنة هائلة بمدية في حجم برج القاهرة توشك على اختراقه..
أغمض عينيه عارفا أنها النهاية..
حتما هي النهاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- البطلان يصيران واحدا..

لكن (جلجاميش) كان هنا..
من كانوا معنا منذ البداية يعرفون ما هو (أسلوب جريفث في الإنقاذ على آخر لحظة).. لهذا اسمحوا لي ألا اشرحه ثانية منعا للإملال.. فقط نعرف أن (جلجاميش) الجبار صاح صيحة ارتج لها العالم وهتف:
- انهض يا (إنكيدو)! لا تدعه ينل منك!
ثم وثب بدوره على الثور وبدأت مباراة (الروديو) الكونية تتخذ شكلا آخر.
وعلى الأرض أمسك البطلان المتقاربان في الطول والحجم والقوة بجذع شجرة عملاق رفعاه عاليا نحو الثور المنقض.. هكذا لعب الجذع دور رمح هائل الحجم.
الدم يتساقط في كل مكان وقد بلغ جنون الثور مبلغا لا يمكن وصفه..
هنا من جديد اعتلى البطلان ظهره، وراحا يعملان سيفهما في جانبي عنقه.. ومن أعلى تصرخ (عشتار) التي أعماها الغضب:
- يا لكما من وقحين. اتركا ثوري حالا!!
لكن عملية الذبح مستمرة والثور يقاوم بعنف ويتلوى، لذا لف كل منهما خصلة من شعر الثور الطويل على ساقه كي لا يسقط أرضا.. نافورة الدم تغرق الأرض وبلاد (أوروك) كلها وفي النهاية انفصل الرأس وهوى الجسد العملاق ليحدث أكبر قدر من الخسائر التي يعوضنا كونها آخر خسائر يحدثها هذا الوحش.
مد (جلجاميش) بيده فانتزع القلب.. لا بد أنه كان في حجم شاحنة.. ثم اقتطع شريحة ضخمة من اللحم ليلقيها في وجه (عشتار) على سبيل النكاية.
نظر لأعلى بحثا عن الشريرة اللعوب فلم يجدها..
هذا الصوت الأخير كان للثور وهو يتحشرج.. هذه هي المعاملة المثلى للثيران. لكن أين ذهبت (عشتار)؟
كانت عند أبيها تخبره بالكارثة.. (جلجاميش) وصاحبه قد ذبحا ثوره العظيم.. الثور الذي كان يحتفظ به لإرهاب البشر قد تحول إلى شرائح (بفتيك) ممتازة..
هذه المرة استشاط الأب غضبا.. صحيح أنها تجنت على البشر لكن لا بد من درجة ما من الحزم وإلا أفلتت الأمور من نصابها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و (جلجامش) نائم يحلم..

أنتما قتلتها الثور!
أنتما ارتكبتما ذنب الذنوب..
سوف تدفعان الثمن..

(جلجاميش) نائم على ظهره يعاني صعوبة تنفس، ويتمنى لو كان يحلم.. ولو كان يفيق.. ثم يخطر له أن هذه حقيقة تدور في رأسه وليته يكتشف أنها كابوس.
إن تلك الآلهة الوثنية مجتمعة فيما يشبه المحاكمة، لكنها محاكمة صورية على كل حال لأن الحكم قد صدر فعلا.. كل هذه الآلهة الوثنية في الأساطير ظالمة حقود وكما نقول في العامية -

(تعمل عقلها بعقل البشر).. حتى لو كانت (عشتار) قد تعمدت الإيذاء فإن قتل الثور كان خطيئة.

أنتما قتلتما الثور؟
أنتما ارتكبتما ذنب الذنوب.
سوف تدفعان الثمن.

أحدكما يجب أن يموت.. لكن من هو؟ لا.. ليس (جلجاميش).. إن (إنكيدو) نصف حيوان ويصلح للموت.. إذن هو (إنكيدو).. لا.. ليس هو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأيت أن (أنو) و (انليل) و (آيا) و (شاماش) السماوي قد اجتمعوا يتشاورون وقال (آنليل) لأنهما قتلا الثور السماوي وقتلا (خمبابا) فينبغي أن يموت ذلك الذي اقتطع أشجار الأرز من الجبال.
ولكن (أنليل) أجابه قائلا: إن (انكيدو) هو الذي سيموت، ولكن (جلجامش) لن يموت. ثم انبرى (شاماش) السماوي وأجابه حانقا: ألأنك تطلع عليهم كل يوم حتى صرت كأنك واحد منهم؟
من النص الاصلى الملحمة (جلجاميش)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و (جلجاميش) نائم غارق في العرق، وعلى بعد خطوات منه يرقد (إنكيدو) منهكا.. حولهما ما يدل على صخب الاحتفالات التي تمت قبل نومهما احتفالا بنجاة البشر.. لابد أن (جلجاميش) التهم وحده ثلاثين كيلوجراما من لحم الثور المشوي.. لا بد من كوابيس.
لكنه كان يعرف أفضل.. كان يعرف أن هذا يحدث فعلا.. وأن الحكم صدر على (إنكيدو) فعلا..
لذا صرخ وهو ينهض من نومته المزعجة:
- لا.. ليس (إنكيدو).. لاااااااااااااا!!
(إنكيدو) أيضا كان يحلم..
كان يرى ذلك الرجل المسربل في الظلال، والذي يقتاده في الصحراء إلى أرض الظلام.. أرض تتناثر فيها الجماجم.. حيث تيجان الملوك ملقاة ممرغة في الوحل، وحيث الحلي لا قيمة لها.. وحيث قوم يتمرغون في الطين ويكتسون بالريش..
- أين نحن؟!
- أنت في مملكة الموتى.. أنت في أرض (أرشيجال)!
وهي مملكة تذكرنا كثيرا ب. (هيدز Hades) وملكها (بلوتو Pluto) في الأساطير الإغريقية.. يبدو أن علم الأديان المقارنة ليس بالصعوبة التي نتخيلها يجب أن نتوقف هنا لنلاحظ شيئا مهما.. نعم كانت العقيدة الدينية في بلاد الرافدين تعتمد على تعدد الآلهة، لكن الإنسان ميال إلى التوحيد بالفطرة. لقد خلق ذهن إنسان الرافدين عددا لا حصر له من الآلهة الوثنية التي تتقاتل وتتزاوج وتموت (!!) وتدعو من هو أقدر منها (!!!)، لكنه طلبا للتبسيط - قسمها إلى آلهة العالم السفلي (أنوناكي) وآلهة السماء (إيكيكي)، أي أنه حاول بشكل ما أن يقترب من فكرة التوحيد. ويبدو أن الأخت (أرشيجال) كانت من (الأنوناكي).
نعود لقصتنا..
حين فتح (إنكيدو) عينيه مبللا بالعرق من فرط هذا الكابوس، كان قد أدرك يقينا أنه سيموت..

في الصباح بدأت أعراض الحمى على (إنكيدو)..
كان التدهور سريعا، وقد احتشد الناس يحاولون عمل شيء للبطل الذي أنقذهم أمس.. وفكر البعض في أن جروحه قد تلوثت.. لكن (جلجاميش) كان يعرف أن الأمر لعنة لا أكثر ولا أقل..
كانت عيناه تدمعان لكنه يداري هذا عن صاحبه.
ولم يكن (إنكيدو) ينوى الموت في تهذيب ككل الأبطال، بل قرر أن يملأ الدنيا صراخا مما جعل الحالة النفيسة ل. (جلجاميش) غاية في السوء.
- أنا.. أنا - يقول (إنكيدو) - الذي واجه الأسود والدببة والثعابين، والذي صارع العمالقة.. أموت هذه الميتة المهينة الجديرة بالنساء؟
- أنا.. أنا - يقول (إنكيدو) - الذي عاش في الغاب وصارع وحوش البرية.. أموت بلا قتال؟
- أنا.. أنا - يقول (إنكيدو) - الذي ذبح (خومبابا).. أموت من المرض؟
الخلاصة أنه قضى يومين في الشكوى واستمطار اللعنات بالذات على تلك الأنسة (شامحات) التي لم ترها (عبير) قط، لكنها عرفت أنها غانية وأن هذه ليست سبة..
- لماذا جاءت بي إلى الحضارة؟ لماذا؟؟ إنني ألعنك من كل قلبي يا (شامحات).. ألعنك!
ثم يرى وجه (جلجاميش) صديقه المخلص جواره فيقول:
- بل أباركك.. أباركك يا (شامحات) اللعينة لأنك كنت سبب معرفتي ببطل أبطال العالم وملك (أوروك) العظيم.. صديقي (جلجاميش)..
هكذا ظل في هذه الضوضاء عدة أيام، ولو لم أكن رقيق الحس لقلت إنني سعيد لموته.. من الممتع دائما أن تتخلص من رجل لم يكف عن الكلام أسبوعا كاملا..
لما أغمض (إنكيدو) عينيه للأبد أطلق (جلجاميش) صرخة ارتجت لها (أوروك) بأسرها..
وعلى لحيته الكثة سالت دموع غزيرة بحق..
البطل الذي وزع الموت على الجميع، يري للمرة الأولى الموت عن كثب وأمام ناظريه.. وفي أقرب صديق له..
مزق ثيابه وارتمي على صدر صاحبه يعول ويبكي..
وكانت هذه النقطة - موت الصديق - هي البداية الحقيقية للملحمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- هكذا التقينا..

عند المساء جاء (كامل) ومن معه..
كان (جلال) و (مجدي) قد غادرا العمل، وارتديا ثيابهما العادية.. وقد ابتعدا في الشارع المظلم بضع خطوات كي يصيرا عند المنعطف.. والمنعطف مهجور كأنه فلاة..
أشار (كامل) للرجال الذين معه، ثم اتجه الجميع في أثر الشابين..
(كامل) لا يتمتع بأية موهبة فيما عدا شراسته الشديدة، وكونه كان بطل كمال أجسام قديما.. لقد كون عضلات ممتازة لكن الدهن غطاها مع التوقف عن التدريب المنتظم هكذا اكتسب ذلك المظهر الشرس الخاص ب. (الأبضايات) حيث العضلات والكرش والصدر المنتفخ. فلا هو حاز رشاقة ناحلي الجسد، ولا الاتساق الجسدي لأبطال كمال الأجساد المواظبين على التدريبات.. إنه غول لا أكثر ولا أقل..
والرجال الذين معه لا يتفوقون عليه في الجمال.
كان الشابان يبتعدان حينما ناداهما بصوته الغليظ الفظ نظرا للوراء ثم قررا لسبب أو آخر أن يواصلا المشي.
لهذا ناداهما مرة أخرى وألحق بندائه سبة مشينة.. لهذا صار محتما أن يتوقفا ويواجها..
- هذه من أجل ما تعرف أنك فعلته!!
لم يكن هذا تفسيرا.. فهو لم يعط أي سبب مفهوم، لكنه على كل حال انهال باللكمات على (جلال).. انهال حتى انفجر الدم من فمه، ولم تكن لكمة الرجل تختلف في شيء عن تلقى ضربة بدبشك البندقية..
لكن (جلال) ليس ضعيفا.. لن ننسى أن قوامه الرياضي كان أول ما شد انتباه (لمياء) له. لهذا رفع قدمه ودفنها في كرش الرجل.. وسادة الدهن التي تسمح بالمزيد..
هوى أحدهم على أذنه بقبضة معدنية صغيرة، فشعر بأنه سيفقد وعيه.. وآخر دفن ركبته في بطنه، في نفس اللحظة انحنى في الوقت المناسب ليتلقى ضربة بسيف اليد على مؤخر عنقه..
هكذا تقاليد المعارك، فكأن منسق معارك السينما المصرية الشهير (الطوخي) هو من رسم تفاصيل هذا العراك.
هنا بدأ (مجدي) يدافع عن صاحبه.. (مجدي) شرس وقوة لا يستهان بها.. حينما ترى وجهه الذي يذكرك بوجه دب أشهب تعرف على الفور أنه ليس خصا هينا
لقد ضرب رأسين ببعضهما فسقط الرجلان أرضنا وهما يئنان.. ثم استدار للثالث.. آخ! من الخطأ أن تضرب فك رجل يبدو بهذه العصبية وهذه الخطورة.. لقد أخرج الرجل من مكان ما مطواة من طراز (قرن الغزال) المحرم دوليا، وهو يعرف كيف يفتحها بيد واحدة كما يجيد ذلك كل من تمرس على القتال في الأزقة، وأولجها في بطن الفتى.. وسرعان ما هوى (مجدي) أرضا بلا حراك.
- يا لك من مجنون! قلت لكم أن تكتفوا بضربهما!!
قالها (كامل) وقد أدرك أن الدرس قد تحول إلى جريمة.. وشد الأذن الذي طلبة البك قد أدى لانتزاع الأذن بأكملها.. كانت المهمة تأديب الولد لا أكثر ولا أقل.. والآن.. لحسن الحظ أنهما لا يعرفانهم.. هكذا ترك الرجال الشابين الراقدين على الأرض وابتعدوا راكضين..
يزحف (جلال) نحو صاحبه.. يدنو منه..

رأى الجرح في بطن صاحبه وأدرك أنه بليغ.. فتح فمه ليصرخ منه دم كثير..
همس لـ (مجدي) وهو يرفع رأسه قليلا:
- صبرا يا (مجدي).. سآتي بنجده..
لكن (مجدي) لا يرد.. صدره يعلو ويهبط بتلك الطريقة المتحشرجة، وعيناه شاخصتان..
تبا للظلام! تبا لهذا الظلام! إنه يعوق كل شيء.. من فضلك لا تمت لا تمت لا تمت لا تمت لا تمت
عيناه زجاجيتان.. إنه يغوص.. يغوص في ذلك البحر الذي لم يعد منه أحد..
رفع (جلال) رأسه للسماء وصرخ.. صرخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(جلجاميش) يجلس وحده يتأمل مياه النهر (دجلة) ويتذكر..
لقد نمت لحيته وصار شعره مشعثا يتدلى إلى كتفيه.. أما ثيابه فصارت أسمالا بالية..
يتذكر كيف عرف (إنكيدو) أول مرة..
سوف نعرف من هو (إنكيدو).. ولكن.. لحظة.
كيف نعرف (إنكيدو) ونحن لم نعرف (جلجاميش) أصلا؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في عصرنا هذا:
كانت الحفريات تجري في موقع نهر الفرات القديم قبل أن ينشق النهر، حينما وجد العلماء الألمان تلك المعالم التي تدل على وجود مقبرة.. مقبرة ملك..
تبدأ الحفريات وتتقدم، ويقول قائد الفريق:
- كل شيء هنا يوحي بأنه قبر (جلجاميش) نفسه!
قال زميله باسما:
- أنت تعرف أنها مجرد أسطورة...
- أسطورة نعم.. لكن (جلجاميش) شخصية حقيقية واسمه مدون في سجلات الملوك.. لا مشكلة في هذا.. انت تعرف أن (روبين هود) وجد فعلا ثم نسجت حوله عشرات الأساطير.. الأسطورة تقول إن الملك (جلجاميش) دفن تحت نهر الفرات القديم.. كل المعالم التي ذكرت في الملحمة موجودة هنا بدقة.. وشبكة الري المعقدة هذه..
ثم نظر إلى الأفق وهمس في انبهار:
- لقد بني هؤلاء البابليون (فينيسيا) حقيقية وسط الصحراء!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (جلجاميش) يتذكر صداقته التي حسبها أبدية مع (إنكيدو)..
(جلجاميش)!
من مثل (جلجاميش) العظيم؟
ملك (أوروك) القوى المسيطر المهيب.. الحق – يجب أن نكون صرحاء - لم يكن (جلجاميش) من أكثر الملوك رحمه ورفقا، بل كان قاسيا طاغية.. في هذا العصر على كل حال كان عليك أن تكون لينا تؤكل بسهولة، أو تكون وحشا.. لم تكن هناك حلول وسط..

هكذا اتجه الرعايا البائسين يطلبون العون من (آنو) الذي عرفنا أنه أبو (عشتار).. وقد رق قلبه لهم..
قال لهم:
- لا يفل الحديد إلا الحديد.. أنا سأصنع لكم واحدا في ذات قوة وسطوة (جلجاميش)..
هكذا خرج (أنكيدو) إلى الوجود....
لا تعرف السبب في أنه جاء بهذا المظهر، لكنه جاء العالم أقرب إلى الوحش.. كان ضخم العضلات، مكسوا بشعر كثيف يجعله أقرب إلى الدببة.. وتقاطيع وجه الغليظة الصارمة تجعل هذا التشابه قويا فعلا..
يعيش هذا المخلوق شبه المتوحش في الغابة. سوف نعرف أنه يأكل اللحم نيئا ويشرب الماء وقد ركع على أربع ومد فمه في النهر كما تفعل الوحوش، بل كان يقتات بالأعشاب كذلك. أما عن شرب اللبن فطريقته ثورية بعض الشيء تعتمد على النوم على ظهره وشرب اللبن مباشرة من ضرع البهيمة، كما نشرب نحن زجاجة مياه غازية، لكن من رأوه قالوا إن له سحرا خاصا.. هذه الطبيعة البرية الشرسة والقوة الهائلة جعلتا له جاذبية معينة تختلف عن زيف الحضارة وتعقيداتها.
لا أعرف في الحقيقة الرمز الصعب الذي أراد الفنان (الرافديني) أن يشير إليه عن طريق (إنكيدو).. هل هي معركة التحضر ضد التوحش؟ قسوة المدينة أمام جمال البدائية؟ لو كان هذا صحيحا فلماذا سيصير صديق (جلجاميش)؟ هل هذا يعني أن البدائية إذا اجتمعت مع التمدين تصير لهما قوة عظمى؟ يحتاج التفسير إلى من هم أذكى مني - وهم كثيرون بحمد الله - لفهم هذا العلاقة..
أنا هنا أحكي ما حدث فحسب..
عاش هذا الوحش الساحر في الأدغال طويلا، ويبدوا أن (آنو) قد نسي الغرض من وجوده.. إلى أن جاء اليوم الذي رآه فيه صبي صغير يلعب في الغابة هرع الصبي إلى أبيه الصياد مذعورا يخبره بما رآه، ويبدو أن الصبي قد قرأ كثيرا من قصص المذءوبين وعفاريت الغابات لذا أصر على أن يرى أبوه هذه الأعجوبة.
خرج الصياد وتواري بين الأغصان يراقب مورد الماء.. بالفعل كان هذا الشيء الذي يركع على أربع ويشرب الماء من الجدول غريبا جدا.. مزيجا من وحش وإنسان.

وكانت هناك مشكلة أخطر.. لقد مر غزال قرب (إنكيدو) فوثب على قدميه وسرعان ما كان يركض خلف الغزال بسرعة البرق، ثم وثب فوقه وهشم عنقه، وأمام الصياد المذعور راح يفسخ جسد الحيوان ويلتهمه وهو أقرب للحياة منه إلى الموت..
- يا للكارثة!
هذه كانت من الصياد الذي أردف وهو يحك رأسه:
- هذا الوحش يمكن أن يقضي على كل الصيد في الغابة خلال أسبوع..
أضف لهذا أن الغابة صارت مكانا غير مأمون.. لا أحد - وأنت توافقني - يحب أن يضل طريقه ليلا ليجد هذا الشيء أمامه يرمقه في ضوء القمر..
ثم فكر الصياد حينا وقال:
- يجب أن نعرفه ب. (شامحات Shamhat)!
كان هذا هو الوقت المناسب كي يعرف (إنكيدو) هذا الاكتشاف الهائل المدعو بالمرأة.. وقد قدر الصياد أن فاتنة المعبد (شامحات) سوف تعرف كيف تعيده إلى التحضر. لا أعرف كيف

يمكن لفتاة تدعى (شامحات) أن تكون فاتنة لكن كل شيء يحدث في الأساطير
لا نعرف كذلك كيف استطاع الصياد الفقير ترتيب هذا اللقاء، لكن الأسطورة تقول إنه تم.. وإن (شامحات) الغانية - وهذه ليست سبة كما قلنا - أوقعت الوحش الغرير في حبائلها.. إن لقاء الرجل بالمرأة لأول مرة مشهد يتكرر كثيرا في التراث الإنساني. وقد هام (إنكيدو) حبا بهذه المخلوقة الفاتنة وترك الصيد يسمن ويترعرع، ولم يعد يخيف كائنات الغابة..
كم قضى في هذا الحلم؟ قضى أسبوعا واحدا!! ثم أصابه الملل كأي زوج معاصر، يشعر بأن (شامحات) ثرثارة أكثر من اللازم.. لحوح كثيرة المطالب أكثر من اللازم.. طاغية أكثر من اللازم.. بدينة أثر من اللازم.. إنها تمنحه حبها لكنها تريد كل شيء في حياته مقابل ذلك..
وهكذا صحت (شامحات) من نومها يوما لتجد أن (إنكيدو) عاد إلى الغابة وقد اشتاق إلى مصارعة الوحوش.. لسان حاله يقول: كده أجدع من الحريم..
لكن المسألة ليست مزاحا، والخروج من الحمام ليس كالدخول فيه.. لقد نفذت منه وحوش الغاب، وكانت الأسود تفزع لرؤيته في الماضي بسبب قوته، أما اليوم فهي تفزع من رائحة العطر التي تفوح منه.
وأدرك الوحش الجميل الحقيقة.. هو لم يعد وحشا بعد ما عرف المرأة..
هكذا عاد لها وقال في استسلام:
- أنا تحت أمرك يا مدام..
قالت له (شامحات):
- تعال معي إلى (أوروك).. أنت و (جلجاميش) من نفس العينة لكنك قادر على هزيمته بالتأكيد، ولسوف تصير ملكا..
في البداية ألبسته قطعة من ثيابها يغطي بها صدره ذا الشعر الكثيف فقط ليبدو آدميا إلى حد ما.. وعلمته بعض دروس اللياقة. كيف يشرب اللبن دون أن ينام كالميكانيكي تحت الماعز، وكيف يطهو الطعام قبل أكله.. كلا لم تشتر له هاتفا جوالا لأنه لم يكن معروفا وقتها..
الآن يدخل (إنكيدو) أسواق (أوروك) مع (شامحات)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف الناس مذهولين يرقبون هذا العملاق المخيف ترتج له الأرض ارتجاجا.. وتصايحوا:
- هذا رجل الغاب.. هذا (أنكيدو) المرعب.
عضلاته توشك على الانفجار من تحت صدريته الضيقة التي كانت لـ (شامحات) أصلا.. وعيناه ينبعث منهما الشرر.. وحين رفع ذراعه خيل إليهم أنه ثبت جذعي شجرتين إلى كتفيه.
ثم نظروا إلى الناحية الأخرى فرأوا (جلجاميش)..
ملك مدينتهم المخيف قادم.
وكانت نظرة واحدة بين الرجلين فتم تبادل الرسالة كاملة: أنا وأنت..
لم يضيعا الوقت في التهديدات على غرار القصص المصورة: الويل لك.. بل الويل لك أنت.. لقد جئت إلى حتفك..
ها ها.. ستدفع الثمن.. الخ..
بل فهما على الفور بعضهما، وانقض (جلجاميش) على (إنكيدو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- في غابة الأرز..

كان الصراع عاتيا مخيفا,,
نرى دوما في أفلام الوسترن الغربية صراع البطلين بالمسدسات في الشارع الذي صار شارع أشباح، ونرى في أفلام (الفتوات) المصرية كيف تخلو الحارة عندما يتقابل العملاقان بالنبابيت..
كان المشهد شبيها بهذا فيما عدا أن حجم العنف كان أكبر بكثير.
الصيحات تدوي كأنها صيحات الجبابرة، واللكمات لها صوت يصم الآذان.. من يسقط منهما يهدم عدة أكواخ في سقطته.. ثم ينهض ليحمل غريمه في الهواء ويقذف به على مجموعة أكواخ أخرى..
عرق.. دم.. غبار.. لعاب.. غبار.. دم.. عرق..
كان الناس يرتجفون خوفا بينما العملاقان يفتكان ببعضهما لكن القوى متقاربة.. ولهذا طال القتال كثيرا جدا.. وفي النهاية سقط العملاقان منهكين على الأرض..
زحف (جلجاميش) حتى وضع ركبته على عنق خصمه..
وصاح بصوت مزلزل برغم تعبه:
- من الأقوى؟
- (جلجاميش)!!
قالها (إنكيدو) الذي لم يعد قادرا على الاستمرار.. وعلى الفور سقط (جلجاميش) جواره لاهثا.. ثم انفجر الجبلان يضحكان ويضحكان.
- أنت قوي أيها الرجل البري.. لقد أتعبتني كثيرا!
- بحق (شاماش).. وأنت تقاتل كجبل دبت فيه الحياة!
- قدموا لنا عصير البلح المختمر أيتها النسوة!!
قالها (جلجامش) آمرا فهرعت النساء مذعورات يجلبان الجرار.. إن هذين العملاقين يحتاجان ليرويا ظمأهما إلى أكثر من جرة واحدة.. كأن الجرة كوب ماء واحد بالنسبة لنا.. والجرة تخرج من الجلد في اللحظة ذاتها على شكل عرق غزير.. العملاقان يجرعان ومن حين لآخر ينفجران في الضحك..
(ما محبة إلا بعد عداوة).. هذا هو ما حدث بالضبط.. لقد وجد (إنكيدو) رجلا يماثله في القوة، ووجد (جلجاميش) الخصم الذي استمتع بقتاله.. كما قابل (روبين هود) (جون الصغير)
في القصة الشهيرة، وأوسع كل منهما خصمه ضربا بالنبوت، وكانت النتيجة أنهما صارا صديقين لا يتفارقان.
ولم يمر اليوم حتى كان (جلجاميش) قد اصطحب صاحبه إلى (ماما).. أم (جلجاميش) صغيرة الحجم الرقيقة المذعورة التي رأت هذا الجبل يدخل إليها.. فقال لها (جلجاميش):
- هذا أخي! إنه ابنك من الآن فصاعدا!
ومن الغريب أن هذه الصداقة جعلت (جلجامش) يتغير..
صار رفيقا بشعبه، ومن الأغرب أن الناس أحبوه وصار بطلهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهاء المشاجرة التي دارت بينهما في الحارة احتضن (جلال) خصمه (مجدي) وراحا

يضحكان.. كانا مبتلين تماما بالعرق والماء الذي رشه عليهما عم (سعد) بائع الكشري في محاولة للتفريق بينهما، خاصة أنه كان يخشى أن يحطم أحدهما زجاج عربته..
ضحك أولاد الحارة بدورهم وذهب من جلب لهما (شويين) من عصير القصب.
قال (مجدي) وهو يجرع السائل الرغوي البارد لذيذ المذاق:
- لقد أتعبتني يا عم (جلال).. من يرك لا يعتقد أنك بهذه الصلابة..
يوضع سره في أضعف خلقه..
كانا طالبي جامعة ومن العار أن يتشاجرا كل هذا الشجار من أجل فتاة اعتقد أحدهما أنه تحبه واعتقد الآخر الشي ذاته.
وفي هذا اليوم - وهما في السينما يشاهدان ذلك الفيلم الهندي - أخبره (جلال) أنه يعمل في محطة بنزين لسداد نفقاته..
- أنا أبحث عن عمل.. يبدو أن الحال واحد.
قال له (مجدي) في حسد:
كان (أميتاب باتشام) يوجه ركلاته لعشرة من الكومبارس الهنود التعساء ضخام الجثة على الشاشة لكن نفسه لم ينقطع بعد حتى ظل قادرا على الغناء.. قال (جلال) وهو يتابع الفيلم:
- غدا نقابل مدير المحطة.. أعتقد أنه يحتاج لواحد مثلك لفترة المساء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن أبطال الملاحم طموحون.. هذا متوقع.. وإلا فكيف صاروا أبطال ملاحم؟
إن إيثار السلامة طريق ممتازة كي تنعم بالعودة لدارك، والتهام البطيخة التي اشتريتها.. هذا هو نوع المغامرات الذي يمكن للمرء أن يخوضه.. أما بالنسبة ل (جلجاميش) فالأمر يختلف..
هناك في غابات الأرز القريبة يوجد وحش مخيف يدعي (خومبابا Humbaba).. نعم.. لم لا؟ كل شعب كانت له وحوش أساطيره.. هناك جيش كامل منها في الأساطير الإغريقية ومثلها في أساطير العرب والفراعنة عندهم (الملتهمة).. فماذا عن السيد (خومبابا)؟
إنه شيء له مظهر بشري ومهمته حماية غابة الأرز هذه، لكنه يصرخ أعاصير، ويطلق النار من فمه.. وله سبعة جلود تقيه الحراب والسيوف. كالعادة يتكرر الرقم سبعة بإلحاح في كل الثقافات القديمة.
قال (جلجاميش):
- أنا سأواجه (خومبابا) وأقتله!
كان (إنكيدو) خبيرا بالغابات كما قلنا، وكان يعرف بالضبط ما عليهما أن يتوقعاه.. لكن (جلجامش) كان متحمسا ولم يزده التخويف إلا إصرارا..
هكذا مضي (جلجاميش) حاملا معه فاسا وقال لصاحبه:
- بك أو بدونك أنا ذاهب.. لك أن تختار..
قال (إنكيدو) وقد شعر بالحرج:
- ليكن.... أنا معك..
وتسلح الرجلان واتجها معا إلى غابة الأرز.. شيء في مظهرهما كان يوحي بالعظمة والخلود، وهو ما يختلف بالتأكيد عن منظر مجموعة بلطجية تحمل (السنج متجهين إلى عركة في السلخانة عندنا..
تجمع الناس من كل صوب يودعون (جلجاميش) الذي صار محبوبا فجأة قالوا له ناصحين:

- لا تتخل عن (إنكيدو) أبدا فهو يعرف كيف يجد هذا المدعو (خومبابا).. كن حذرا.
وبكت الحسناوات وهن يرين هذين البطلين ذاهبين للهلاك الأكيد.
أما هذه العجوز التي تحرق البخور على سطح دارها فهي أم (جلجاميش).. لقد قابلناها من قبل.. إنها الآن تقف مبتهلة للأخ (شاماش Shamash) الذي يشبه (أبوللو) عند الإغريق.. أعد لى (جلجاميش) سالما فلن أستطيع إنجاب شخص آخر بهذا الحجم.. أنا نفسي كلما رأيته اشعر بالذهول لأنه خرج من بطني..
وهكذا يواصل الصديقان رحلتهما نحو الغابة وهي رحلة تستغرق ثلاثة أيام..
وفي النهاية يبلغان موضع المعركة.
هنا نكتشف شيئا مهما في (جلجاميش).. إنه ينام كثيرا جدا.. طيلة الملحمة ينام كالقتلى، وكانت هذه هي البداية مما دفع (إنكيدو) إلى إيقاظه بشيء من العنف.
- تذكر الأمجاد.. جئت هنا كي تقتل (خومبابا) لا لتنام في الظل.
وكان (خومبابا) قادما.. لقد نزع جلدا من جلوده السبعة على سبيل الاسترخاء، وهكذا - تزعم القصة - صار صالحا لأن تخترق النصال جسده..
وتدور معركة شرسة لن أطيل وصفها.. لأنك لن تتخيلها مهما بلغت دقة وصفي.. آه لو كنت معي لتري كيف استطاع (جلجاميش) العظيم أن يقطع رأس هذا الوحش!
ليس من سمع كمن رأى..
لقد خاض البطلان هذه المعركة كأنهما رجل واحد.. وإن ظهر أن (جلجاميش) هو الأقوى والأكثر تأثيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الطمأنينة الأبدية بينكما: أن.. سيفان سيفك.
صوتان صوتك.
أنك إن مت للبيت رب.. وللطفل أب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأخذا يتضرعان إلى الإلهة شاماش لتعينهما على الخلاص من الهلاك فاستجابت لهما، وانقلبت الآية حيث أهاجت (شاماش) الرياح العاتية وساقتها على (خمبابا) فمسكت به وشلت حركته، فاستسلم لهما.

من النص الاصلى الملحمة (جلجاميش)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحينما انتهى القتال وقف (جلجامش) بعضلاته اللامعة من العرق والسيف البتار في يده، وراح يلهث.. كانت هذه هي اللحظة التي رأته (عشتار) / (عبير) فيها وقررت أن تهديه لنفسها..
وأنت الآن تعرف باقي القصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- إنه الموت..

العدة أيام لم يتحرك من موضعه...
كانوا يدسون الطعام في فمه دستا.. وهو لا يلاحظ.. ربما كان يمضغ بحكم الفطرة لا أكثر..
كانت أمه تبكي حين ترى أن ابنها (جلال) الشاب المليء بالحيوية قد تحول إلى هذا النبات فاقد الشعور.. وقد اقترحوا أن يراه طبيب نفسي، لكن بالنسبة لبيئتها كان الطبيب النفسي يعني أن ابنها مجنون..
له عدة ايام لم يذهب فيها إلى الكلية ولا إلى عمله..
ما اعتقده الناس - وهو صحيح - أنه يشعر بمسئوليته الكاملة عن موت (مجدي). لقد كانت المشاجرة مشاجرته والتحرش هو المقصود به.. لكن (مجدي) تدخل ودافع عنه، وكانت النتيجة هي أنه تلقى تلك الطعنة الغادرة والتي لم ينهض بعدها قط.. لقد توفي أثناء نقله بعربة الإسعاف..
كانت أسئلة رجال الشرطة عديدة، لكنه لم يملك أية إجابة هو لا يعرف من هاجموه ولا لماذا هاجموه.. الرجل الذي هاجمهما قال: «هذه من أجل ما تعرف أنك فعلته!!». لكن (جلال) لا يعرف أي شيء فعله. وكلام الرجل يقول بوضوح إنه هو المذنب.. لكن بأي شيء؟
فقط يوجد شيء واحد مؤكد، هو أن (مجدي) لم يكن هو المقصود على الإطلاق.
عرض عليه رجال الشرطة عشرات الصور لقطاع الطرق والمسجلين خطرا والبلطجية في هذه المنطقة، وكل وجوههم تتشابه لكنه لم يستطيع قط أن يعرف من فعلها..
على الأرجح لم يكن الوجه بين تلك الوجوه.. وفي النهاية حفظت القضية ضد مجهول.
ما اعتقده الناس - وهو صحيح - أنه يشعر بمسئوليته الكاملة عن موت (مجدي). لكن شعورا أفظع كان يعذبه ويرهقه.. وما كان ليعترف به لأحد..
إنه خائف.. خائف من الموت..
هل هو بهذه القسوة؟ لا.. لكن الأمر أقوى منه..
لقد رأى صاحبه المليء بالحيوية وقد رقد على أرض الزقاق، والدم يخرج من الثقب في بطنه.. كأن الحيوية والحياة تسربتا من هذا الثقب.. لماذا لا يرد؟ لماذا لا يلقي دعابته العنيفة؟
انهض بالله عليك! انت تخيفني؟
فكرة أن الصديق قد رحل إلى عالم الحقيقة.. عرف ما لم يعرفه أي شخص بعد..
وفكرة انه هو بالذات - (جلال) - سوف يقطع هذه الرحلة حتما يوما ما..
كل هذه الأفكار أصابته بهلع حقيقي.. هلع يمتزج باكتئاب.. وقد شعر بذات الشعور الفلسفي (الكافكاوي) العتيق: نحن محكوم علينا بالإعدام، ومهما تبدلت ثيابنا ومهما اتسعت زنزانتنا، فنحن في الحقيقة نجلس في غرفة المحكوم عليهم بالإعدام ونلبس ثياب الإعدام الحمراء، بانتظار صوت الخطوات في الردهة ودخول السجان ومدير السجن والشيخ أو القس.. كل منا (رجل ميت يمشى Dead man walkin') كما يقول الأمريكيون عن المحكوم عليهم بالإعدام.
الأسوأ أنه شعر بمقت خالص لنفسه لأن حزنه لم يكن خالصا من أجل (مجدي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) / (لمياء) عرفت الخبر متأخرا جدا. كانت تتردد على محطة البنزين مرة من حين لآخر

لتلقي نظرة على فتاها، لكنها لم تلقه قط.
في النهاية ضغطت على كبريائها.. أنزلت زجاج النافذة الأسود حتى نهايته لتسمح للعالم الخارجي المنحط (البلدي) بأن يدخل.. وسألت أحد عمال المحطة عن ذلك الفتى.. ذلك الفتى طالب الحقوق.. ماذا كان اسمه ذلك الصعلوك؟
- تعنين (جلال) يا هانم.. أعتقد أنه لن يعود..
تظاهرت بأنها غير مصدومة.. وسألت في تعال:
- لماذا؟
- إنه محزون من أجل صديق عمره (مجدي).. يبدو أن بعض البلطجية تحرشوا بهما، ودافع (مجدي) عن (جلال) لكنه تلقي مطواة لم يصح بعدها..
مطواة وبلطجية! لن تكون هذه مصادفة أبدا.
- أوه.. خسارة! وهل قبضوا على هؤلاء البلطجية؟
- لا يا هانم.. لقد ذهب دم الفتي هدرا..
وانطلقت بسيارتها عائدة لبيتها.. كانت دمعة توشك على أن تفلت من عينها.. لقد فرقت الصديقين.. (كامل) فعلها بالتأكيد مهما أنكر.. وهي السبب..
تذكرت وجه (مجدي) قوى الملامح الشرس قليلا والذي يذكرك بوجه دب.. وارتجفت.. لن يكون ثانية.
لكن أباها - حين صارحته بما تعتقده - لم يبد مندهشا أو غاضبا.. كان يعرف هذا كله.. لقد صارحه (كامل) بالأمر وهو يرى أن (كامل) هذا أكبر حمار على ظهر البسيطة.. يربت على ظهر قط فيكسره، ويقتطف زهرة فيقتلع المرج كله.. لقد ورطهما في عمل خطير، لهذا وجد أن أفضل شيء يمكن عمله هو الصمت.. لا أحد يعرف رجاله، ولا أحد يعرف أنهم رجاله، ولا أحد يعرف علاقته بالموضوع.. لا يوجد ما يورطه سوي آنسة هستيرية حمقاء كانت الفكرة فكرتها منذ البداية.
وأضاف الأب في تهكم:
- على كل حال لقد شددنا أذن ذلك الفتى الوقح الذي كان يضايقك.. صحيح أننا اقتلعنا الأذن ذاتها، لكن هذا لا يمنع أن المهمة نجحت!
لم تعرف ما تقول.. إن كلامه صائب إلى حد ما.. والقتل لم يكن مقصودا على كل حال.. لكنها قررت أن تبدي عصبية على سبيل التنمر.. ضربت الأرض بقدمها ثم أطاحت بالمزهرية الثمينة التي تتوسط البهو فهشمتها إلى ألف قطعة.. ثم هرعت إلى غرفتها..
ستبكي بعض الوقت ثم تنسى الأمر..
هذا ما انتوته.. وهي ليست بالطريقة السيئة لإمضاء الأمسية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(جلجامش) أيضا قضى ليالي طويلة يبكي ويرتجف..
كان يتذكر كل خلجة وكل كلمة ل (إنكيدو) فيرتجف من جديد كأنه محموم.. لم يصدق أن هذه الحيوية قد ماتت بهذه البساطة..
والأدهى أن الدور قادم إليه.. ربما بعد يوم.. ربما بعد قرن.. لا يهم.. سوف يمرح الناس ويضحكون ويتشاجرون، بينما هو وحده في القبر منتفخ البطن يتسلى الدود بجثته.
ثم الرحلة.. الرحلات جميلة بشرط أن تعرف إلى أين.

لكن أحدا لم يعد من هناك قط، ولا يمكنك أن ترسم خارطة توضح مسارك أو أماكن المبيت، أو كم خانا يقدم عشاء طيبا.. هل ستكون أنت وقتها أم ستكون واحدا آخر؟
والسؤال الأهم: حينما تعرف الحقيقة.. هل ستعرف أنك عرفت؟
هل ستعرف أنك عرفت؟
هل ستعرف أنك عرفت؟
هذا هو (جلجاميش) بطل الأبطال وملك (أوروك) يجلس بلا حراك ينتظر الموت.. خائفا حتى الموت من الموت..
هو الذي صارع الأسود والثعابين وأعتى الأبطال أرهقته فكرة رؤية الموت عن كثب.. لقد كان (إنكيدو) بمثابة (هو آخر).. وقد مات (إنكيدو) لهذا صارت فكرة الموت قريبة منه جدا..
كان يشعر بالجنون يعصف بعقله.. يتأمل انعكاس وجهه في الماء.. يتأمل عضلات ساعديه وربلتي ساقيه.. وتمضه للأبد فكرة أن هذا كله سيصير عفنا فترابا..
ماذا رأيت وماذا عرفت يا (إنكيدو)؟ لماذا لا تخبرني؟
لو استطعت أن ألقاك خمس دقائق لا أكثر.. فقط عندها سأعرف كل شيء..
و(عشتار) / (عبير) تراقبه.. إنها تعرف أنها تسببت له في تلك الكارثة.. هي التي جعلت أباها يطلق الثور الأسود، وهكذا حدثت تلك التفاعلات التي أدت لموت صديقه الصدوق، لكنها بشكل ما تعرف أنه استحق هذا.. وكانت تعرف ما سيحدث.
إن (جلجاميش) بطل ملحمي، ولن يظل جالسا هكذا..
لو انتهت القصة عند هذا الحد لما سمعنا عنها حرفا لكنها كانت تعرف أن الكارثة قادمة وأن عذابه الحقيقي في الطريق.
هنا جاء وقت رحلة البحث الأسطورية..
لا بد من واحدة لكل بطل ملحمة.. هذا شيء محتوم رحلة لكل من (أوديسيوس) و (هركيوليس) و (رستم) و (إيزيس) و.. و.. لا بد من رحلة طويلة وأهوال.. من أجل هدف.
فيما بعد سيضع أحد كتاب السيناريو - (جوزيف كامبل) - تفاصيل هذه الرحلات المحتومة في كل أسطورة لدى أي شعب، والتي تتكرر بإلحاح بشكل يدل على أنها موجودة في لا وعينا الجمعي، وكما وصفه (يانج Jung) تلميذ (فرويد) المشاغب، والذي درس الأساطير الشعبية كما لم يدرسها أحد قبله. كل هذه الأساطير تأتي من نفس النبع الذي يحمله كل منا داخل عقله. وهي تأخذ الخطوات التالية:
- 1البطل في العالم العادي
- 2البطل يلتقي دعوة للمغامرة تقدمها له شخصية غير نمطية هي (المعطاء) (غالبا عجوز أو قزم).
- 3رفض النصيحة أولا ثم قبولها.
- 4اجتياز البوابة الأولى.
- 5اختبارات وحلفاء وأعداء.
- 6الاقتراب من الكهف العميق، حيث مركز المعاناة.
7- المعاناة العظمي.
- 8الجائزة (الحصول على السيف - التفاحة - الجوهرة.. إلخ). الآن صار بطلا حقا.
- 9طريق العودة. يحاول خصومه منعه من العودة بمكاسبه.
- 10انتصار جديد يطلقون عليه اسم (البعث).

1- العودة بالإكسير، وهذا الإكسير قد يكون الكنز الذي دخل الكهف لأجله، وقد يكون الحكمة، وقد يكون العودة للوطن سالما بقصة جيدة.
لو طبقت هذه الخطوات على (علي بابا) أو (الشاطر حسن) أو (أوديسيوس) أو (هركيوليس) أو أي بطل ملحمي تعرفه ستدرك أنها صحيحة.
إذن لا بد أن يمر بطلنا بهذه المراحل..
لقد جاء أحدهم إلى (جلجاميش) العظيم ووضعه يده على كتفه وقال:
- أنت حزين مهموم لأنك تهاب الموت.. لكن الخلود موجود أيها العظيم (جلجاميش).. هناك من يعرف سره.
نظر له (جلجاميش) مذهولا.. الحقيقة أنه لا يريد الخلود، لكنه يهاب الموت.. والخلود هو سبيل الفرار من الموت..
- هل لديك حل أم أنك تتسلى؟
قال الرجل (الذي أشعر بشكل ما أن عشتار أرسلته وإن لم تقل الملحمة هذا):
- هل سمعت عن (أوتنابشتيم Utnapishtim)؟
حاول (جلجاميش أن ينطق الاسم الصعب ثانية فلم يستطيع - هل هذا اسم أم فعل أم دواء جديد للإسهال أردف الرجل:
- هو الوحيد الذي ظل حيا بعد الفيضان العظيم..
هذا الفيضان الموجود في كل الملاحم القديمة، والذي يعتقد كثيرون أنه ذات الفيضان الذي أغرق الأرض في عهد (نوح) عليه السلام.. واضح تماما أن الفيضان حقيقي ثم نسج خيال البشر الملاحم حوله.
- وهل يعرف سر الخلود؟ ربما يملك الخلود لكنه لا يعرف سره..
قال الرجل:
- بل هو يعرف.. أنا على يقين من أنه يعرف..
هكذا نظر (جلجاميش) إلى الأفق.
يبدو أن هناك أملا ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الرحلة..

يعيش (أوتنابشتيم) حيث نهرا (دجلة) و (الفرات)..
أعتقد أن هذه النقطة مناسبة لنفهم لماذا سميت البلاد باسم (ما بين النهرين Mesopotamia).. كما قلنا إنها المنطقة شديدة الخصوبة ما بين نهري (دجلة Tigris) و (الفرات Euphrates) [3] وهما يجريان متباعدين المسافة لا بأس بها قبل أن يلتقيا ليصبا في شط العرب.. لاحظ أنني لم أطلب منك البحث عن الأطلس لأنني يئست تماما منك في هذه النقطة.. لسبب ما يعتقد الجميع أن الأطلس خلق لتشرب أوراقه الزيت الناجم عن قلي البطاطس. إن المنطقة تفتقر إلى الأمطار لكن شبكات القنوات التي ترويها من النهرين تجعلها عالية الخصوبة. وكما نعرف فحيثما وجدت الحضارات القديمة. نضيف إلى هذا إنه حيثما وجدت الخصوبة وجد الغزو الخارجي. سوف نجد أن (الأكاديين حكموا المنطقة ثم جاء السومريون لتكون عاصمتهم (أور Ur) ثم جاء غزو (عيلام) من الشمال...
بعد هذا تظهر حضارة البابليين والأشوريين. الحضارة الأخيرة اشتهرت بالبطش واليد الحديدية. حكم الأشوريون الشرق الأوسط بأكمله في فترة ما، ولسوف تجد ذلك الخليط من النمط الأشوري والفرعوني في بعض تماثيل المتحف المصري حيث (أبو الهول) يحمل وجها أشوريا لا شك فيه. وتنتهي هذه الحقبة الصاخبة بالغزو الفارسي.
ثم يأتي الغزو اليوناني فالروماني، وبعد هذا تصير البلاد عربية إلى أن يصل العثمانيون..
المهم كما قلنا إن الأخ (أوتنابشتيم) كان يعيش عند النهرين.
لسبب ما تفترض الملحمة أن هذا الموضوع عسير جدا.. وأن الأهوال تفصل بين (جلجامش) وبينه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعرف أنها هي إلا متأخر جدا..
السيارة الفاخرة تقترب منه لتسير بمحاذاته.. دقائق ثم يلاحظ أن الأمر غير معتاد..
نظرة إلى زجاج السيارة الذي يهبط ببطء كاشفا النظارة السوداء جعلته يعرف من هي..
كان يحمل كيسا بلاستيكيا يحوي بعض الخضر مع أرغفة الخبز، وكان عائدا للدار، وقد لاحظت أن ثيابه لم تعد بالنظافة التي عرفتها.. لم يكن متأنقا قط - وهي لم تره إلا في ثياب المحطة الزرقاء على كل حال - لكن ثيابه كانت شديدة النظافة، أما لحيته التي ترفض أن تستطيل أكثر، فكانت توحي بالإهمال لا أكثر.
- البقية في حياتك..
نظر لها وهمس بشيء لم يتبينه هو نفسه.
كلا.. هي لم تأت لتخبره الحقيقة.. ليست مجنونة إلى هذا الحد لكنها بحثت عنه لسببين: أولا لأن المجرم يحوم حوله مكان الجريمة.. هذه قاعدة يعرفها أصغر مخبر في الشرطة فكيف لا تعرفها هي؟ ثانيا: لأنها مازالت معجبة به وقد أملت في أن يمنحه الوهن النفسي درجة ما من الاستسلام..
قالت له وهي تلاحق خطواته بسيارتها:
- مررت على محطة البنزين فقالوا لي إنك تركت العمل..

قال وهو ينظر للأرض:
- لن أسأل عن الطريقة العبقرية التي عرفت بها مكان بيتي.
- آه.. ما أكثر أولاد الحلال!
وما أكثر ما تفعله عشرات الجنيهات تعطى لأصحابه في محطة البنزين.. هكذا تجد بسهولة من يصحبها لداره ومن يخبرها بمواعيد خروجه وكل شيء.
- ألن تركب يا (جلال)؟
قال بنفس الطريقة الساهمة:
- ومنذ متى ركبت يا آنسة؟
- إذن توقف بالله عليك قبل أدهم طفلا وأنا انظر إليك..
كانت طبعا تمشي على يسار الطريق كي تتمكن من الكلام معه.
ولما توقف لم تترجل وإنما قالت له من النافذة كدأبها:
- اسمع.. أنت شاب والمستقبل أمامك.. لن تقضي العمر كله تبكي هذا الصديق.. ماذا كان اسمه؟
هز رأسه وقال في شيء من التهكم:
- اسمه الفقيد.. لم تعد الأسماء تهم.
كل هذا الجفاء وهو لا يرى علاقة لها بالموضوع، فماذا لو عرف؟
- ماذا تنتوي؟ ما هي خططك المستقبل؟
قال لها ساهما كأنه يكلم نفسه:
- لا أعرف.. إن فكرة الموت تطاردني.. أنا بحاجة إلى وقت أطول لأستوعبها وأتكيف مع حياتي..
كان يفكر.. يفكر في الشيخ (أبو شاهين)..
كل الناحية يعرفون الشيخ (أبو شاهين).. هناك وراء مجموعة البيوت العشوائية هذه أرض بور تستخدم كمقلب للقمامة، وتسكن فيها الكلاب الضالة، ووراء الأرض البور توجد حديقة صغيرة من نباتات (التمر حنة) والياسمين..
وسط هذه الحديقة تجد بيتا صغيرا بائسا من طابق واحد وقد تم بناؤه بحجارة بدائية اقرب للطين اللبن..
في هذا البيت يعيش (أبو شاهين).. لم يره (جلال) قط لكنه يسمع عنه.. البعض قال إنه نصاب وإنه ينتظر (كبسة الشرطة التالية)، والبعض قال إنه من كبار العارفين.. لا يعرف..
لكنه فكر في أن يذهب لهذا الرجل.. أخبر رفاقه وأهله أنه ذاهب ليقابل الشبح اليوم....
سوف يسأله كل الأسئلة التي تحيره، ولو لم يجد عنده إجابة فلسوف يتجه إلى أحد الأطباء النفسيين.. لا يعرف أحدهم ولا يحسب أنه قادر على دفع أتعابه، لكنه سيحاول.
فقط لو لم يرو الشيخ (أبو شاهين) عطشة إلى الحقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و (جلجامش) يقطع السهوب والوديان والتلال قاصدا عنوان هذا الأخ (أتنابشتيم)..
اجتاز بوابات يحرسها الغيلان، وخاض جداول تحف بها التماسيح، وقابلته عشرات من السباع..
لكن هذه الأشياء كانت من روتين حياته المعتاد قبل أن يلقى (إنكيدو)..
نوع المتاعب الممتعة التي تجعل الحياة محتملة.. إن الوحش الحقيقي المخيف في هذا العالم هو أفكاره.

لهذا كان يقضي أيامه في خلق الأسود، وتهشيم عظام السحرة، وإطاره أعناق الغيلان بالبلطة.. وفي المساء كان ينام راضيا.. يبدو أن هذه عادة (أشورية قديمة، لأن الأخ (أشور بانيبال Ashurbanipal) شخصيا كتب عن نفسه في الآثار يقول:
- لقد سلخت بيدي جلود كل من قبضت عليه من أسرى (عيلام)، وتلك شيمة المحارب. ثم شربت كأسي بلذة، وفي الليل نمت ملء جفني فكانت أحلامي سعيدة مفرحة!
هكذا يريد ذلك الوغد أن يجمع بين متعة سلخ الأسرى ومتعة النوم الهادئ!
وتستمر الرحلة دون أحداث إلا ما سبق ذكره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يجتاز (جلال) الأرض البور التي تفصله عن الشيخ..
يتعثر في عشرات الحفر ومومياوات النباتات.. النباتات المائتة لها رهبة لا تختلف كثيرا عن رهبة البشر الموتى.. تنبح عليه الكلاب ثم تتراجع حين تراه يمشي في تصميم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل (جلجاميش) في النهاية إلى حديقة.
نعم حديقة فيما عدا أن ثمارها تلبس ولا تؤكل.. لا مزاح هنا.. إن الأشجار تحمل ثمارا من الياقوت والمرجان واللؤلؤ والزبرجد.
بالطبع لم يكن هذا نوع يناسب حالته النفسية.. تصور أنك في الصحراء تموت من الظمأ فيلقي لك أحدهم بقطعة ذهب..
مشي نافد الصبر وسط هذه الأشجار التي لا نهاية لها.. وكان مرهقا من السفر الطويل، لهذا سره أن يجد ينبوعا.. ولحسن الحظ كان في الينبوع ماء وليست فضة منصهرة..
راح يجرع الماء بلا توقف بما يناسب بطلا بابليا مثله، وتذكر طريقة (إنكيدو) في الشرب على قوائمه الأربع.
تلك العادة التي لم يتخلص منها منذ أيام الوحشية.. فوجد نفسه يشرب بالطريقة ذاتها
طبعا كانت (عشتار) تراقبه من وراء إحدى الأشجار.
إن إعجابها به لم يفتر.. وإن لم تجرؤ على أن تدعوه حبا..
وقالت في نفسها:
- هو ذا الأحمق يبحث عن خلود.. ولا يعترف بأن الخلود محرم على البشر.
إن (جلجاميش) من أغرب أبطال الملاحم الذين سمعت عنهم بوصفها مازالت (عبير).. كل بطل ملحمة يفتش عن شيء مادي ملموس ويواجه الموت ذاته من أجل الحصول عليه، أما (جلجامش) فيواجه الموت من أجل تفادي الموت.. هو أول بطل ملحمة يعذبه الخوف من الموت. لكن هذا يعطيه طابعا ميتافيزيقيا فريدا.. وبينما يكافح الأخ (جيسون) من أجل الفروة الذهبية، ويكافح الأخ (هيركيوليس) من اجل حريته، ويكافح (برسيوس) من أجل إنقاذ حبيبته (أندروميدا).. فإن هذه الأشياء تبدو طفولية جدا بالنسبة للسؤال الأكثر نضجا بصدد الخلود والموت..
أقسمت أن تفسد له خطته ما استطاعت، لكن بعد أن يقبل بحبها أولا.. في هذه اللحظة بالذات سيموت.. هذا هو الانتقام الأمثل لكرامتها التي لم يشبعها موت (إنكيدو)..
لا بد أنها رفعت رأسها للسماء وضحكت ضحكة شيطانية من التي يضحكونها في الملاحم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الرحلة مرة أخرى..

إنه البحر المتلاطم..
أي بحر؟ بصراحة لست متأكدا.. غالبا هو الخليج العربي..
وعلى الشاطئ هناك كوخ كبير.. وهناك براميل.. هناك أكوام من البلح تعلو كالجبال.. وهناك براميل.. ومعصرة بابلية عتيقة.. وهناك براميل.
أدرك (جلجاميش) إن هذا المكان معمل لتقطير الخمور على الأرجح.
تقول الملحمة إن هذا المكان كان يخص (سيدوري Seduri) المسئولة عن تقطير خمور الآلهة.. لا غرابة في هذا ما دام آلهة الأساطير لهم ذات عيوب البشر..
كانت هناك فتاة.. لم تكن في جمال (عشتار) طبعا ولا إغراء (شامحات).. ويبدو أن انهماكها في العمل طيلة اليوم أفقدها البرق الأنثوي..
لكنها ظلت تتمتع بحدة البصر.. فما إن رأته قادما حتى أطلقت صرخة هلع.. رأت هذا العملاق المخيف خارجا من الدغل وهو ملطخ بمزيج فريد من الغبار والعرق والدم..
وفي عينيه بريق مخيف يجمع التصميم والتوحش والشك..
- عفريت!!
وهرعت ركضا إلى الكوخ وأغلقت الباب خلفها..
دنا الرجل من الباب بغلظة:
- افتحي الباب يا مدام!
- لن افتح..
الآن يدق بغلظة أكثر:
- أنا أستطيع تحطيمه في ثوان، لكني أكره استخدام العنف مع من لم يؤذني.. أرجو أن تفتحي لأن لدي عددا من الأسئلة..
- لن أرد على شيء..
هكذا مد يده إلى الرتاج وانتزع القفل، ثم مد يده ليزيح الباب عن طريقه.. هكذا وجدت نفسها تقف أمام ذلك الوحش الواقف وسط شظايا الخشب..
قال لها وهو يبتعد:
- الآن أرجو أن تنسى هذه الهستيريا وتخرجي.. ترين أنني لن أؤذيك.
هكذا خرجت من مكمنها عارفة إنه بالفعل يستطيع تهشيم عنقها.. ما دام يفعل فلا يوجد سبب يدفعه إلى ذلك..
جلس يلهث وطلب منها بعض الماء.. لغسيل وجهه طبعا، ثم طلب منها بعض الشراب فأحضرت له جرتين أفرغهما في جوفة بسرعة البرق..
قالت له وهي تقف على مسافة مأمونة:
- من أنت؟ ولماذا جئت هنا؟
بدأ يحكي لها قصته.. قصته منذ كان حاكما ظالما حتى صار فيلسوفا يبحث عن الخلود.. حكي لها عن صاحبه (إنكيدو) وعن (عشتار) وعن.. باختصار حكى لها هذا الكتيب من بدايته حتى الفقرة السابقة.
ثم قال لها:

- الجواب عند (أوتنابشتيم).. هذا هو ما قالوه لي..
فكرت في الاسم مرارا وهي تعيد ملء إحدى الجرار له.. ثم قالت:
- آه! الرجل الذي نجا من الفيضان.. أعرفه..
ثم قالت وهي تناوله الجرة:
- لا بد من عبور نهر الموت.. لا أحد يستطيع هذا.. ويؤسفني إن هذه نهاية رحلتك.. سوف تعود من هنا.
- هل تتحدثين عن نهر (ستيكس Styx)؟ يبدو أنك أصبت بالحول يا أختاه فلسنا في الأساطير الإغريقية هنا..
هزت إصبعها مؤكدة على كلامها:
هناك واحد هنا أيضا.. أكثر ثقافات العالم عندها (نهر الموت) في لا شعورها الجمعي.. النهر الذي يعبره الأحياء ليصيروا في عالم الموت.. غير أن الإغريق سيكونون سعداء الحظ لأن عندهم معداوي هو (شارون Charon)، أما هنا فلا توجد طريقة للعبور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن الحياة التي تبحث عنها، لن تجدها أبدا..
لقد قرر الإله أن نهاية الإنسان هي الموت..
لا أحد يستطيع أن ينجو منها..

من النص الاصلى الملحمة (جلجاميش)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل تريدين القول إنه لا جدوى؟ لا سبيل إلى عدم الموت؟
في صدق قالت:
- لا توجد طريقة.. لقد منحت بضعة أعوام تستمتع فيها ثم تموت، وأنت تنوي تضييعها في البحث عن الخلود.. سوف تموت لأن الطير يموت.. يسقط على الأرض فيلتهمه القط، والقط أيضا يموت.. تأكل الديدان جثة القط لكن الديدان تموت.. النبات يتغذى على الجميع لكنه في النهاية يموت..
قال في غل وهو يطوح بالجرة التي في يده:
- ثمة رجل واحد نال الخلود.. رجل واحد.. معني هذا أن الأمر ليس مستحيلا..
- (أوتنابتشيم) هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة..
فجأة لمستها يد (عشتار) الخفية لتذكرها بشيء فهتفت:
- لحظة.. ثمة طريقة لعبور النهر..
هتف (جلجاميش) في مرح:
- هلمي يا أختاه! ماهي؟
- هناك بحار يدعى (أورشانابي Urshanabi) إنه يعبر نهر الموت بانتظام..
فكر في الاسم قليلا وحاول أن يكرره:
- حاول تجزئة الاسم ليسهل نطقه وحفظه.. (أور) هي المدينة المعروفة.. ثم (شنبي) أي (شاربي) بالعامية..

- ليكن.. (أورشاربي)..
- (أورشانابي)..
هذه هي مشكلة الحفظ بالربط.. أحيانا لا تتذكر المعلومة لأنها تختلط بالطريقة التي ربطتها بها.. أذكر طالب طب من زملائي حاول حفظ الاسم اللاتيني (لينيا ألبا Linea alba)
بربطه بعبارة (الدنيا قالبة).. وهكذا لم يستطيع نطق الاسم اللاتيني للأبد إلا هكذا: (دنيا ألبا)..
ما هذا؟ ما الذي جعلنا نتفرع إلى هذا الموضوع؟ إن الاستطراد عادة لن أتخلص منها أبدا، وهو من أعراض تصلب شرايين المخ المعروفة.. نعود ل (جلجاميش) الذي قال متلهفا:
- هذا الرجل.. أين أجده؟
أشارت إلى واد مظلم مكفهر يمتد أمامهما في الأفق، وقالت له إنه عبر هذا الوادي يجد الملاح، ثم أضافت في حذر وقد قدرت أن (عشتار) ليست هنا:
- لا جدوى من محاولاتك.. تذكر هذا.
لم يضف كلمة أخرى.. لقد استرد قواه وبوسعه أن يواصل الرحلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أفواج الموتى تقطع الوادي، وقد بدا على كل منهم الهم والغم.. من يفكر في أطفاله الذين تركهم بلا معين في الحياة، ومن يفكر في أبويه المسنين، ومن يبكي لأنه ببساطة لا يتخيل أن يذهب إلى حيث لا توجد خمر ولا نساء ولا لهو.. الكل يمشي صامتا أو باكيا في مسيرة طويلة..
ودنت منه فتاة حسناء ألقت بنفسها عند قدميه وصرخت:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (جلجامش) أيها الملك العظيم.. أتوسل إليك أن تنقذني وتعيدني لعالم الأحياء.. لا أريد أن أترك حبيبي وصديقاتي..
تبدو مشاكل الآخرين سخيفة جدا إذا ما كنا نواجه مثلها أكثر.. وهو ذات ما يشعر به ذات ما يشعر به الطبيب المحموم حينما يأتيه مريض يشكو له بعض أعراض البرد.. لهذا لم يعلق وتركها حيث هي.. إنها تعتقد أن بوسعه عمل شيء لمجرد أن جسمه يشبه أبطال كمال الأجسام..
المركب يقف جوار الشاطئ، وهو مركب جدير فعلا بعبور بحر الموتى..
كان ذلك الملاح الذي نسيت اسمه يقف هناك، وهو يتسلى بربط مجموعة من فقرات العظام البشرية بسلك.. طبعا.. فبم يتسلى ملاح كهذا؟
بالفعل يبدو الجو تماما كأنه نهر (ستيكس) وكأن هذا هو (شارون) ملامح الجحيم.. ولن أندهش كثيرا لو كانت مملكة (هيدز) موجودة على الجانب الآخر.. كما قلت لك لا أرى أن علم الأديان المقارنة القديمة صعب إلى هذا الحد.
أما عن الملامح (أورشانابي) ذاته فكان عجوزا له وجه أقرب إلى الجماجم، وإن كانت له عينان ثاقبتان من الطراز الذي يخترق روحك ذاتها..
- مساء الخير.. هل أنت (أورشاربي)؟
- مساء النور.. لو كنت تتكلم عن (أورشانابي) فأنا هو.. لنكن مختصرين.. أنت تريد العبور وأنا أريد أجرا..
والأجر هو أن أعرف قصتك..

هكذا ناوله (جلجاميش) لوحا من الصلصال المحروق وقال:
- اعتدت أن أحكي القصة لكل من أقابله حتى صار الأمر مملا، لهذا قمت بطباعتها على هذه الألواح لأريح بالي..
ألقى الملاح بالعظام التي كان يتسلى بها، وراح يطالع اللوح في اهتمام..
- مم.. نم نم.. (عشتار).. نم نم.. (سيدوري).. مم.. صديقك.. إم م م.. ليكن.. إن (أتنابشتيم) في الناحية الأخرى فعلا.. فلنذهب..
وجلس (جلجاميش) في القارب بينما ركل الملاح الشط بقدمه، وحرر المجداف..
وبدأ القارب يبتعد في مسيرته الرهيبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- أتنابشتيم..

دق (جلال) الباب عدة مرات فلم يرد أحد..
أزاحه برفق وحذر، لا يعرف ما يجب أن يتوقعه..
لكنه وجد الكوخ خاليا تقريبا.. كان هناك مصباح من الطراز الذي نطلق عليه (كلوب)، وكانت هناك حشية على الأرض. حشية رخيصة في الواقع، وثمة جريدة ممزقة عليها طبق معدني صغير به قطع من الباذنجان الأسود المخلل وبقايا رغيف من الخبز الأسمر..
لم يفهم أن هناك من يجلس في الركن المظلم إلا بعد دقيقة وأصابه هذا بالرعب..
أخيرا استطاع أن يدرك الحدود الخارجية لهذا الشيخ الجالس هناك.. اللحية البيضاء السابغة التي تذكرك بالتاريخ كما يرسمونه في القصص المصورة.. الجلباب الممزق الرث..
- نعم.. هذا هو طعامي..
كذا قال الشيخ بصوت واهن مرهق، وأضاف:
- هذا هو أقل القليل الذي يبقيني حيا.. ولو استطعت لقللته أكثر لكن هذا مستحيل..
سمع (جلال) صوت زئير خفيض.. ذلك الزئير المنذر بالويل الذي تصدره الكلاب عندما تنوي الهجوم..
عندما ترجع آذانها للخلف وتتصلب ذيولها.
نظر للوراء في هلع ولم يعرف ما يفعل بينما الكلب الأسود شرس المنظر يقف على باب الكوخ وينظر له بعينين تتقدان في الظلام..
قال الشيخ:
- لا تخف هذا كلب أعرج بائس عجوز لكنه يتسول بعض الهيبة بعد ما نبذه البشر.. تعال أيها التعس..
وفي يده كانت لقيمة صغيرة ألقاها للكلب فنسى هذا كل شيء عن التمثيلية التي كان يؤديها، وراح يلتهمها في جشع.. ودبت الحياة في ذيله..
قال الشيخ
- المشكلة أنني لا أجد ما يكفي لإطعام هذه الأكباد الرطبة.. كم من مرة تخليت فيها عن وجبتي من أجلها.. لكن هذا لا يكفي.. هذه المخلوقات البائسة لم تخلق لتتحمل كل هذا العذاب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الضفة الأخرى يقف (أوتنابشتيم).
فعلا ينطبق عليه كل شيء قيل عنه أو تخيلته أنت..
الذقن البيضاء الكثة التي توشك على أن تلمس الأرض.. الحاجبان الكثان الشائبان، تطل من تحتهما عينان ثاقبتان.. والتجاعيد في كل بوصة من وجهه كجريدة مضغها كلب عجوز ثم بصقها.. والجلباب الطويل البابلي والصندل.
كان بانتظار (أورشانابي) ليثرثر معه كما اعتادا.. لكنه اليوم يراه قد أحضر زائرا وأي زائر! إنه عملاق ضخم يوشك على إغراق القارب ذاته.. وعضلاته توشك على الانفجار..
في النهاية بلغ القارب الشط فترجل (جلجاميش) وحيا العجوز..
سأله العجوز وهو يرمقه بعينية الثاقبتين:
- مرحبا بك.. لكن من أنت؟ ولماذا جئت هنا؟

أخرج (جلجاميش) من ثيابه لوحا آخر من الصلصال وناوله العجوز وقال:
- معذرة.. لقد حكيت هذه القصة عدة مرات حتى قررت في النهاية أن أحمل معي هذه الألواح.. إنها تشبه البطاقات الشخصية التي سيستعملونها فيما بعد..
- لكني للأسف لا أحسن قراءة الكتابة المسمارية..
هكذا وجد (جلجاميش) نفسه مضطرا إلى قص القصة..
أخيرا حك رأسه وقال وهو يصطحب (جلجامش):
تعال لكوخي كي نتكلم..
هنا تساءل (أورشانابي) وهو يعد القارب للعودة:
- هل يوجد شيء مطلوب مني؟ هل تريد أن أجلب لك شيئا من عالم البشر؟
شكرا يا (أوشو).. لا شيء.. فقط لو وجدت بعض الجرائد المسمارية فلا تنس أن تجلبها المرة القادمة.. إن زوجتي تجيد القراءة.
- لم تعد الجرائد تقول شيئا ذا بال.. دعك من تكلفة الصلصال المحروق..
- لقد صار الغلاء فاحشا.. لكنها تسليني على الأقل.
نحن الآن في كوخ (أوتنابشتيم)...
مالم يعرفه (جلجاميش) هو أن زوجته خالدة مثله وتعيش معه.. وكان الكوخ مريحا لكنه غير فاخر.. كانت الزوجة مسنة مثل زوجها، وكانت تتحرك في وهن.. أدرك (جلجامش) إنهما وقعا في ذات الخطأ الذي يقع فيه أبطال القصص طالبوا الخلود.. إنهم يطالبوا بالخلود.. إنهم يطلبون ألا يموتوا وينسون أن يطلبوا ألا يمرضوا أو يشيخوا.. وفي قصة (جليفر Gulliver) قابل البطل الخالدين الذين يحملون شامات على جبينهم، فوجدهم أقرب إلى المومياوات الحية. وقد رأى كل منهم كل أنواع الأمراض، ورأي موت كل أب يحترمه، وكل صديق يرتاح إليه، وكل قط يأتنس به.. باختصار كانت حياتهم ضنكا حتى لتدرك أن الموت هدية حقيقية..
قدم له (أوتنابشتيم) وجبة خفيفة أعدتها المدام ثم جلس على الأرض وقال:
- أنت إذن راغب في الخلود.. هل لي أن أعرف السبب؟
قال (جلجامش) بفم مليء بالطعام:
- لنصحح الأمر.. أنا لا أرغب الخلود.. أنا خائف من الموت.. لا أطيق فكرة أن يتعفن جسدي وتأكله الديدان بينما أعبر أنا عالما لم يعد منه أحد.. هذه الفكرة مفزعة وقد جعلتها وفاة (إنكيدو) كابوسا..
قال (أوتنابشتيم):
- ليس الخلود متعة كما تتصور.. إن له مرادفا خطيرا هو الملل..
في غيظ قال (جلجاميش:
- يسهل عليك قول هذا وأنت الليل عارفا يقينا أنك ستصحو. مثلما يقول الأثرياء: المال لا يجلب السعادة، وهم يزنون القنطار الخامس من ذهبهم..
قال (أوتنابشتيم) آسفا:
- لا وجود للخلود بالنسبة للبشر.. يجب أن تعي هذه الحقيقة.. الطريقة الوحيدة للخلود بالنسبة للبشر هي أن تنجب أطفالا يحملون صفاتك واسمك..
- وماذا يعنيني في أن يمشي على الأرض من يحملون اسم (جلجاميش) بينما (جلجاميش) نفسه هيكل ينخر فيه الدود؟
نهض (أوتنابشتيم) مغادرا الكوخ، قائلا:

- بعد إذنك.
وفي الخارج كانت الزوجة واقفة تعلق بعض العباءات البابلية على الحبل.. إن الغسيل البابلي يجف بسرعة خاصة في مملكة الموتى..
قال لها همسا:
- هل ترين أن أخبره؟
هزت رأسها لا تعرف ما تقول، ثم قالت في حذر:
جربه أولا.. إن العالم مليء بال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- قسوة.. العالم مليء بالقسوة.. لهذا فررت إلى هنا.. بعيدا عن كل شيء وحيث لا رفيق لي إلا الكلاب الضالة والقطط وربما الثعابين لو كنت سعيد الحظ.. الثعابين تحتاج إلى الحب والرفق لأن الناس يلعنونها لا لشيء إلا لأن شكلها غريب..
قالها الشيخ وتمدد على الحشية الأرضية وراح يكمل طعامه..
قال له (جلال) وهو يتربع على الأرض مثله:
- الخوف من الموت يحاصرني.
- لكنك ستموت..
- لا أريد أن أبتلع هذه الحقيقة..
- لكنك ستبتلعها عندما تجربها..
- ذكرى (مجدي) لا تفارقني..
- سوف تلحق به..
ثم قال الشيخ وهو يلوك الباذنجان الأسود في استمتاع:
- إن الله اختار لك هذا المصير وكذلك اختار لك أن تنساه وتنعم بحياتك.. أما أن نقضي حياتنا نفكر في الموت فهو حمق.. ربما نتأهب له لكننا لا ندعه يبقينا مشلولين عاجزين عن الحركة.. هل كنت في المدرسة؟
نظر (جلال) إلى ثيابه الرثة ولحيته النامية وأدرك أن السؤال منطقي وليس وقاحة.. قال:
- نعم..
- كانت هناك الفسحة.. تلهو فيها وتستريح وتلتهم وجبتك.. هب أنك رفضت أن تلهو في الفسحة ورحت تبكي.. لماذا؟ لأنها ستنتهي! تبكي وتبكي حتى تنتهي فعلا.. هل هذا حمق أم فكر فلسفي؟
- حمق
- أنت تفهم ما أريد قوله..
- لا حيلة لي في هذا..
قال الشيخ في صبر:
- يجب أن تعي أنه لا خلود لنا على الأرض.. الخلود هو في الدار الآخرة.. فكر في الأمر كفسحة قصيرة بعدها تعود إلى مكانك الدائم في الصف.. عندئذ تواجه السؤال: هل آذيت سواك؟ هل أديت ما عليك؟ هل تركت شيئا.. شيئا واحدا أفاد من يأتون بعدك؟ هل. وهل.. لا يمكن أن تجيب عن هذه الأسئلة إذا أمضيت حياتك في البكاء..
ثم أشار إلى (جلال) وقال:

- هناك طريقة واحدة للخلود على هذه الأرض هي أن تتزوج وتنجب وتربي أطفالك جيدا.. فهل تفعل ذلك؟
- لا يمكنني الزواج.. أنا مفلس.
- كنت تكافح وتبني ذاتك.. تدرس وتعمل، ثم قررت أن ينتهي كل هذا لأن صاحبك مات.. كنت في طريقك إلى الاحتمال.. كنت تنمو ثم قررت أن توقف هذا النماء..
تذكر (جلال) أنه لم يخبر الرجل قط عن عمله بجانب الدراسة.. لكنه من البداية قدر أنه لن يندهش لأي شيء يقوله هذا الشيخ.

قال (جلال) وهو يداعب عنق الكلب الذي أقعى إلى جانبه، والذي لم يعد يهابه الآن:
- لا تؤاخذني. ربما أبدوا لك طفلا.. لكن..
- أنت لا تبدو.. أنت طفل!
- ليكن.. لكني ما زلت أصبو إلى حل مادي ملموس بدلا من الكلمات الحكيمة..
كأنه يتمنى أن يضغط الرجل على زر (منع الخوف من الموت) فينتهي الأمر..
نهض الشيخ في تثاقل واتجه إلى ركن الغرفة.. كانت هناك جرة مهشمة سدها بقطعة ورق مكرمشة كأنها سدادة.. مد يده وأزاح السدادة ثم عبث بالداخل حتى أخرج لفافة صغيرة من الورق لها طابع الأحجبة المخيب للأمل.. وقد أعلن (جلال) عن هذا في حسرة:
حجاب لإطالة العمر! وطبعا على أن ادفع ثمنه!
قال الشيخ باسما في الضوء الخافت الذي يغلق المكان:
- لا.. المشكلة أنك تعتبرني نصابا ولا اعرف لماذا يجب أن ابرهن لك عن أي شيء.. لكن هذه الورقة تحوي سر عدم الخوف من الموت.. لنتفق على شيء.. أولا أنت لن تفتحها أبدا. ثانيا لن يراها أحد سواك..
قال (جلال) في عدم اقتناع:
ثق بي في هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- الاختبار..

قال له (أوتنابشتيم):
- سبعة أيام كاملة لا تنام فيها.. هذا هو الشرط..
نظر (جلجاميش) إلى الكوخ حوله.. كان هذا آخر مطلب يتوقعه.. لذا كرر السؤال:
- سبعة أيام من السهر.. وهل هذا يفيدك في شيء؟
- لا بد لي من أن أعرف قدرتك على السهر.. إذا كان النوم موتا أصغر فأهم شروط الخلود هي ألا تنام.. فكر في الحياة الأبدية كسر لا آخر له..
ثم أخرج بعض الأعشاب من لفافة يحتفظ بها وقال:
- ربما تساعدك هذه الأعشاب السحرية.. لاحظ أنني قلت (ربما)..
قال (جلجاميش) في ضيق:
- لا أخفي عليك أنني أحب النوم حبا جما.. لكن الأمر يستحق..
وهكذا جلس ساهما..
المشكلة هي أنه كان مرهقا جدا، وكانت كل عضلة في جسده تطالب بحقها في أن تستريح.. تلك الراحة المقدسة التي تتخلى فيها عن كل شيء حتى مقاومة الجاذبية الأرضية.. ملقى كالشيء على الأرض.. غير مسئول حتى عن نفسك.. لا تمارس أي شيء بإرادتك.. فلو خيروك لتوقفت عن التنفس والهضم والحلم.
كانت عيناه حمراوين وشعر بجفنيه أثقل من حوافز الثور الأسود الذي كانت (عشتار) تركبه.. لكنه قاوم..
جلس (أوتنابشتيم) جواره وبدأ يتكلم.. يتكلم بصوت رتيب ممل عن قصته مع الطوفان وكيف نجا منه صوت ممل يغرى بالنوم.. لكنه قاوم.
بعد ساعات خرج من الكوخ ومارس الجري عدة مرات.. ثم عاد إلى الداخل فراحت كل عضلة تطالب بحقها من جديد.. لكنه قاوم.
جاءت العجوز وراحت تغني أغاني أكادية عتيقة صوتها رتيب يغرى بالنوم.. لكنه قاوم.
جفناه يزدادان ثقلا.. لكنه لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.. لن ينام لن ينام.. لن ينام.. لن.........

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما قلت من قليل: مشكلة (جلجاميش) المزمنة هي أنه ينام حين لا ينبغي له النوم، والأغرب هنا أنه نام سبعة الأيام كاملة!! لم ينم سبعة أيام متواصلة طيلة حياته لكنه الآن نامها، مما يجعلني أرتاب في هذه الأعشاب التي أعطاه إياها (أوتنابشتيم) وإن كانت الملحمة لم تعلق على هذا.. ربما هو الدافع الخفي الذي يطلقون عليه Rebound أو تفاعل الارتداد.. حياتك كلها تعتمد على السهر.. إذن هذه هي الطريقة المثلى لعلاج الأرق! وأي طالب ثانوية عامة يدرك دقة كلامي..
كان ينهض فقط لالتهام بعض الخبز الذي تضعه المرأة جواره أو شرب جرعة ماء.. ثم.. خخخخ!

وقال (أوتنابشتيم) لامرأته في غيظ:
- تأملي! هذا هو البطل الذي يشتهي الخلود! إنه عاجز عن البقاء ساهرا سبعة أيام بينما يطالب بسهر الأبدية..
قالت وهي تضع رغيفا آخر جوار (جلجاميش):
- لقد أنهك المسكين.. لا تنس كم من المسافات قطع..
أخيرا نال (جلجاميش) كفايته من النوم (حان الوقت لهذا).. فنهض يسأل عن طعام الإفطار.
- قال له (أوتنابشتيم) في امتعاض:
- يمكنك أولا أن تستحم وتبدل ثيابك.. إن رائحة النوم تفوح منك كقبر..
وهكذا استعاد البطل رونقه.. لا لم يحلق ذقنه لأنك تعرف تلك اللحى الأشورية المجدولة العملاقة.. ثم جلس يلتهم الإفطار ويسأل (أوتنابشتم) عن الخلود!
قال العجوز وهو يغمس اللقمة في بعض العسل:
- أنت فشلت فشلا ذريعا في الاختبار.. لكن يشفق عليّ أن أتركك ترحل خالي الوفاض.. سأخبرك بالسر الذي آليت ألا أخبره لبشري.
كف (جلجاميش) عن المضغ ليسمع بينما قال الشيخ:
- هل تعرف (الإبسو)؟
- لا.
- هي بقعة في أعماق البحر.. هناك نوع معين من الأعشاب الشائكة.. سوف تغطس وتقطفها ثم تعود لدارك فتأكلها هناك.. هكذا تنال الخلود وكلما دب بك الهرم استعدت قدراتك..
ثم وقف على باب الكوخ وأشار إلى النهر وقال:
- إن الملاح (أورشانابي) عائد الآن.. قل له أن يأخذك إلى البحر.. إلى (الإبسو)..
بعد قليل يصل القارب.. يترجل الملاح..
يقول للعجوز وهو يحمل كومة من ألواح الصلصال:
- ها هي ذي كل الجرائد الأشورية والبابلية والسومرية التي وجدتها.. خذ الحذر لأنها ما زالت طرية.
ثم يشير إلى (جلجاميش):
- هيا بنا.
ودع (جلجاميش) العجوز واحتضنه لكن الأخير قال في نفاد صبر:
- اذهب الآن ولا تشكرني إلا حينما تقدر على الخلود..
أخرج (جلجامش) واحدة من بطاقاته الشخصية العملاقة وناولها إلى الرجل، وقال في حرارة:
- أية خدمة من (أوروك)! لو أردت أي شيء من هناك فأنا الملك!
- أعرف.. أعرف.. كن حذرا..
ومن جديد ينطلق القارب ببطء فوق نهر الموتى....
قال (أوتنابشتيم) وهو يرقب ابتعاد القارب:
- هذا مجنون آخر قد رحل.. متى ينتهي هؤلاء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال له الملاح وهو يواصل التجديف:
- هل ترى هذه البقعة؟ يمكنك الغطس هناك..

كان البحر يمتد على مرمى البصر لا ترى له أولا ولا آخر. والأمواج ترتطم بجانبي القارب لكن الأخ (أورشانابي) لا يهتز ولا يفقد اتزانه..
شهق (جلجاميش) وقرر أن يغطس.. يبدو أن الطريق إلى الخلود معناه الهلاك المحقق.. لكنه كان مصرا علي ما أراد..
هكذا وثب إلى البحر، وسرعان ما شعر بأن المياه صارت هادئة.. ثمة ضوء أخضر جميل يزداد زرقة كلما هبط إلى أسفل.. وفي النهاية رأى ذلك المشهد الذي لا أستطيع وصفه.. تلك الحديقة الغناء تحت الماء.. أعشاب من نوع غريب فريد امتلأت بالأشواك.. هذه هي حتما.. لا يكن الخلود ذا شكل آخر لو كان له وجود..
هكذا مد يده واقتلع بعضها.. وبدأ يرتفع.. عندما أدرك أن خيطا أسود يخرج من بين أنامله.. هذا دم.. دم تغير لونه بفعل تلك القوانين الفيزيائية التي تحكم الرؤية في الأعماق.. لقد جرحت الأشواك كفه كما هو متوقع..
ومن بعيد رأى القاتل الصامت رائع الجمال يسبح نحوه..
ذلك القاتل الذي يشم قطرة واحدة من الدم في الماء.. القاتل ذو العينين الباردتين اللتين لا ترحمان يدنو منه مسرعا.
لكن (جلجاميش) لم يكن رائق البال لهذا المزاح.. لهذا دس الأعشاب في مئزره، ثم أمسك بذيل السمكة حين مرت بجواره، وأمسك بزعنفتها العليا ثم اعتصر اليدين معا ليحيلها إلى عجين قبل أن تفهم ما حدث لها..
إن أسماك القرش الجائعة هي آخر شيء يحتاج إليه الآن..
ومن جديد عاد يطفو نحو السطح.
فوق مستوى الماء المتراقص راح يسعل ويبصق، ثم تعلق بالقارب.. إن الماء المالح يؤذي العينين.
- هل وجدت العشب؟
أخرجه من حزامه ولوح به منتصرا!
قال الملاح وهو يتناول المجداف:
- حافظ عليها.. إنك إن عدت لن تجد الباقي منها، لأن هذه الأعشاب تزول إذا اقتطف بعضها!
- ومعنى هذا؟
- معناه أن ما في يدك هي آخر فرصة لبشرى للخلود..
توتر (جلجاميش) فدس الأعشاب من جديد في زناره، ومتجاهلا الأشواك التي راحت تمزق بطنه..
وقال للملاح:
- فلنعد.. ممنوع أن ألتهم هذه الأعشاب إلا في (أوروك)..
- أعرف هذا..
وراح القارب يتهادى فوق صفحة المياه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- لقد أضعته!

الطريق إلى (أوروك)..
ليس أجمل من العودة مظفرا إلى الوطن حاملا ما جبت الآفاق من أجله
لن يموت (جلجاميش).. سوف يعيش للأبد وسوف يكون أعظم ملك عرفته الأرض..
لكنه ينسى تفصيلا مهما: (عبير) أو (عشتار) مازالت هنا وهي تحمل له الضغينة كأسوأ من ذي قبل.. في الحقيقة هي لا تعرف - ولا نحن نعرف - هل هذه الأعشاب ذات نفع أم لا.. إن منطق القصة غريب.. فلماذا يقبل (أوتنابشتيم) إعطاء سر الخلود ل. (جلجامش) وهو قد فشل في الاختبار الوحيد الذي عقده له؟
هل هي خدعة من الشيخ كي يتخلص من هذا اللحوح؟
على كل حال كانت (عشتار) تعرف شيئا واحدا: لن تتركه يعود إلى (أوروك) بهذه الأعشاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة ل. (جلال) كان على يقين من العكس تماما: هذه اللفافة مجرد حيلة من الشيخ (أبو شاهين) كي يتخلص بها منه.
راح يعبر الأرض البور التي تفصله عن حزام البيوت الذي يعيش فيه، وهو يتعثر في الحفر والصخور والأوحال.. الكلاب تفر لدى اقترابه.
ثم توقف فجأة.. نظر إلى الوراء حيث صار بيت الشيخ غير مرئي..
لن أكون بهذا السخف.. بعد كل هذه الأعوام من الدراسة. لن أحمل حجابا صنعه شيخ نصاب.. صحيح أن الرجل لم يطلب مالا لكن ليس النصابون كل سكان الأرض.. هناك المخابيل أيضا..
هكذا مد يده وعالج تلك اللفافات الكثيرة التي تحيط بالورقة.. كانت عسيرة الفك.. وخطر له أكثر من مرة أن يتوقف.. لكنه كان يدرك أنها تلك الطاقة المعنوية التي تكتسبها الأشياء ذات الرمز..
يفك اللفافات.. يفك
في النهاية وجد ورقة.. على الأرجح سيجد بها تلك الحروف(العفاريتي) الغريبة، والكتابة التي سيقال إنها سريانية.. لكن الورقة كانت بيضاء.. بيضاء تماما....
نظر للوراء وضحك..
أنت لم تخدعني يا شيخ (أبو شاهين).. فقط اعتقدت أنك خدعتني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان (جلجاميش) الآن يعاني حاجة ملحة إلى الاستحمام.
إن رائحته صارت كوحوش الغاب.. بل كرائحة (إنكيدو) ذاته قبل أن يتعلم المدنية.
كان النهر قريبا.. ماؤه يتلألأ في الشمس ويبتسم بسمة إغراء..
هكذا نظر حوله ثم خلع ثيابه كلها وكومها على الضفة، ووثب إلى النهر يعانقه ويعانقه النهر.
ما أغرب تصرفات أبطال الملاحم هذه! في أسطورة إغريقية شهيرة ينجح الموسيقار (أورفيوس

(Orpheus) في أن يدخل مملكة الموتى ليستعيد زوجته، ويقبل (بلوتو) هذا لكنه ينصحه بألا ينظر للوراء ليراها وإلا فقدها للأبد.. هذا مطلب عادل سهل.. لكن لابد من ذلك الحافز الذي يجعله – وقد صار على عتبة دنيا الأحياء - ينظر للوراء ليطمئن عليها، فكانت نهايتها!
وتشد أنت شعرك! وتوشك وأنت تقرأ القصة أن تصيح: ألا تستطيع الانتظار قليلا يا أحمق؟!
الحقيقة أن لهذا معنى عميقا، وهو أن البشر قاصرو التفكير.. وأنهم عاجزون عن تغيير مصائرهم إلا في حدود ما تسمح به بشريتهم.. و (جلجامش) ليس استثناء لأن جزءا كبيرا منه بشري..
وقفت (عشتار) / (عبير) خلف مجموعة من الأشجار تراقب البطل البابلي يسبح.. وابتسمت..
مدت يدها إلى صدرها وأخرجت الأفعى ومسحت على رأسها برقة.
المرأة والأفعى.. دائما.. بصرف النظر عن (البوستر) القبيح رديء الطباعة الذي يعلقه الجميع والذي يمثل امرأة توشك على أن تلثم أفعى..
إن الأفعى تعرف ما يجب عمله...
هكذا راح الزاحف الناعم يتسلل وسط الأعشاب حتى بلغ ثياب (جلجاميش).. وبلطف ورقة راحت تلتهم الأعشاب كلها.
ضحكت (عبير) وهي ترقب المشهد.
سوف تنال الأفعى الخلود إن كان كلام (أوتنابشتيم) صحيحا..
أما بالنسبة ل (جلجاميش)..
- هارد لك يا كابتن!
قالتها (عبير) / (عشتار) وهي تبتعد متأودة وسط الأشجار وهي تغنى أغنية أكادية رقيقة.. لقد اكتمل انتقامها والآن سوف تبحث عن رجل وسيم آخر تضعه في شركها ثم تزدريه..
هكذا......
ويخرج (جلجاميش) من الماء ليجفف جسده هنا يتلقى ألعن صدمة تلقاها في حياته..
يمكننا أن نتخيل دون جهد كبير كم بكي.. كم لطم خديه.. كم لام نفسه على غبائه وضيق أفقه.
وهكذا نهض كاسف البال وقد صمم على أن يعود إلى (أوروك).. لن يحاول ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- حافظ عليها.. إنك إن عدت لن تجد الباقي منها، لأن هذه الأعشاب تزول إذا اقتطف بعضها!
- ومعنى هذا؟
- معناه أن ما في يدك هي آخر فرصة لبشرى للخلود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت السيارة تنتظر (جلال) كالكابوس عند المدخل..
نزل الزجاج الأسود من جديد وسألته (عبير) / (لمياء) في نعومة:
- أنت جئت من عنده.. أليس كذلك؟
قال شارد الذهن:
- بلي..
نظرت إلى ما بين يديه وقالت في خبث:

- وفتحت الورقة برغم أنه نصحك بألا تفعل؟!
نظر لها في حيرة وقال:
- نعم.. من أين عرفت كل هذا؟
قالت وهي تنظر إلى الأمام عبر العدسات السوداء:
- كنت عنده.. لا تنس أنني قادرة على معرفة تحركاتك ببساطة.. بمجرد أن رحلت أنت ذهبت إليه وسألته عنك.
زعمت أنني أختك وأنني أريد أن أعرف: هل هناك أمل؟
هل تعرف ما قال لي؟
- ؟؟؟؟؟
- لقد أعترف لي بكل شيء.. قال إنه أعطاك ورقة بيضاء.. لكنها مهمة لأنك لو وثقت به لشعرت بالتحسن.. احتفاظك بهذه الورقة كان سبيلك إلى الشفاء.. لكنه كان بعيد النظر كذلك.. قال لي إنك لست من هذا الطراز الذي يقنع بإجابات جاهزة.. كان يعرف أنك ستفتحها.. وعندها يعود خوفك من الموت.. هناك آخرون مروا به وألقوا أسئلة، فكان يعطيهم هذه الأوراق ويوصيهم بعدم فتحها.. وكانوا يثقون به.. هكذا كانوا يصحون من نومهم شاعرين أن مشاكلهم قد حلت ومخاوفهم قد زالت.. هناك نساء عجزن عن الإنجاب ثم أنجبن بعد ما أعطاهن هذه الورقة..
هتف في غيظ وتحد:
- يا سلام! ستقولين لي إنه عالج العقم بالإيحاء!
ألقي بالورقة التي يحملها بعيدا وقال:
- وماذا يعنيك من الأمر؟
قالت باسمة وهي ترفع الزجاج من جديد:
- معذرة.. أردت أن أخبرك بما خسرته.. أو لنقلها بصراحة: أردت أن أتشفى فيك!
وقبل أن يعلق أو يرد على هذه الصفعة كانت السيارة قد ابتعدت، فلم يلحق إلا بصوت ضحكتها الهستيرية التي تذكرك بضحكات الممثلات:
- ها ها ها ها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند مدخل المدينة نام..
نام (جلجاميش) للمرة الأولى منذ دهر هادئا، لا يؤنب ضميره أنه كان عليه أن يفعل كذا وكذا.
وفي منامه زاره (إنكيدو).. ربما للمرة الأولى منذ موته. ولما كنا نحن ملمين بعوالم الأساطير هذه، فنحن نعرف أنه حلم متجل صادق، وأن من جاء لبطلنا هو (إنكيدو) نفسه..
لم تبد عليه السعادة ولا الرضا.. كان منهكا محطما.. لا غرابة في هذا.. أكثر الأساطير القديمة تعتبر الموت عقابا وأن الأهوال تحل بالميت.. أكبر خطأ يمكن للمرء أن يرتكبه هو أن يموت عندهم.. بينما وجدت فكرة الحساب عند قدماء المصريين في أساطيرهم.. مشهد وزن القلب والغولة الملتهمة.. إلخ....
قال (إنكيدو) بصوت كسير:
- ما بك يا (جلجاميش)؟ لا تبدو سعيدا..
قال (جلجاميش) وهو يبكي بحرقة:
- كيف لا أبكي وقد أضعت فرصة الخلود للأبد؟

- ألا تحب أن تأتي إلى؟ ألا تحب أن تلحق بصديقك الصدوق؟
لم يرد (جلجامش).. كانت الإجابة واضحة على كل حال..
عاد (إنكيدو) يقول:
- ألا تحب أن تأتي إلى؟ برغم أنك مهما فعلت آت إلى!
ثم قال كأنما هو يستمتع بتعذيب صاحبه:
- لكن تذكر حين تأتي إلى يا (جلجامش) أن تكون في أسوأ حال.. لا تتعطر ولا تلبس ثوبا نظيفا.. إنك إن فعلت هذا تثير عليك حنق الموتى الذين قتلتهم في حروبك السابقة.. لا تقبل أحباءك لحظة الوداع.. هذا يثير غضب (شاماش) عليك..
في غيظ وجزع هتف (جلجاميش) بما معناه:
- هي بقت رسمي؟
هذا هو صديقه يخبره باستعدادات الوفاة.. لم يعد من مفر.. لم يعد من مفر..
وصحا من النوم صارخا أن هذا كاف.. لابد له من أن يقابل (إنكيدو) من دون أن يموت..
وفي العالم السفلي سمعت الأخت (أرشيجال) هذا البكاء فلانت ناصيتها نوعا..
نادت أحد أتباعها - وهم طبعا هياكل عظمية - وقالت له وهي تقضم تفاحة نخرة:
- هات لى هذا المدعو.. ماذا كان اسمه؟ (إنكيدو)..
انحنى من جديد وهرع ليعود لها بالمذكور الذي لم تكن حالته تختلف عما رآه (جلجاميش) في منامه.. لقد نجح الموت في كسر كبرياء البطل الذي كان أقرب إلى وحوش البرية وهو حي..
قالت له وهي تقضم التفاحة:
- اسمع يا.... سوف نعيدك إلى عالم الأحياء.
هتف في فرح واهن:
- شكرا لك يا (أرشيجال) العظيمة.. شكرا لك..
قالت مقاطعة:
- ليس للأبد يا (روح ماما).. ستقابل صاحبك (جلجامش) وتخبره بأحوالك ثم تعود لى هنا.. هل فهمت؟ تعود لي.
وهكذا تم التعامل مع (إنكيدو) كما يفعلون مع المساجين حسني السير والسلوك الذين يسمح لهم بزيارة أهلهم في أيام العيد.. فقط هو مربوط بال (كلابش) وحارسه هو زوج (أرشيجال) شخصيا (نيرجال).. وهو مذعور جدا لأن زوجته سليطة اللسان توعدته بخراب بيته لوفر منه (إنكيدو)..
هناك على أبواب (أوروك) تم اللقاء....
لقد انفجر (جلجاميش) باكيا وارتمى في أحضان (إنكيدو) لكن هذا تراجع قائلا:
- لا تطل العناق.. فأنا شبح.. والأشباح قد تنزع الحياة من الأحياء..
جلسا هناك جوار الأسوار ونظر (جلجاميش) شذرا إلى (نيرجال).. كم يود الخلاص منه لكن هذا لا ينوي أن يتزحزح.. هكذا سأل صاحبه:
- كيف الأحوال؟
قال (إنكيدو) في ثياب وكأنه آلة:
- كل شيء تمام.. الوجبات في وقتها ويعاملوننا معاملة إنسانية طبقا لاتفاقية (جنيف).
- أسألك عن الأحوال..
عاد (إنكيدو) يكرر:

- الوجبات ممتازة واللحم يومان في الأسبوع.. كل شيء تمام.. ويعاملوننا معاملة إنسانية طبقا لاتفاقية (جنيف)..
هنا أدرك (جلجاميش) أن صاحبه لن يتكلم إلا إذا تخلص من (نيرجال).. تحايل على الرجل حتى أبعده قليلا وفك الأصفاد ثم عاد يسأل صاحبه عن الأحوال.
هنا فقط انفجر (إنكيدو) باكيا:
- يعاملوننا أسوأ معاملة.. كل شيء قاس أو سيئ أو مظلم أو كريه أو متعفن أو مرير أو مؤلم أو كئيب! إن العث يأكلني ست مرات يوميا!
هتف (جلجاميش) في رعب:
- يا للكارثة! كنت أتوقع هذا..
قال له (إنكيدو) باكيا:
- نصيحتي لك.. حاول ألا تموت أطول فترة ممكنة!
هنا صاح (نيرجال) أن الوقت قد........
.... لم يكن......
..........(إنكيدو)
وإذ عاد إلى (أوروك) لم يكن...........
.........البشر الآخرين............
(عشتار) الشرهة التي لا تكف عن.........
.........والرجال الآخرون..........
لأن أسوار المدينة.........خمور........
.... تأمل يا (أورشاناب.......... راقصة........
هو الذي رأي.......... لم يكن....... (أوتنايشتيم).........
لأن الناس في (أوروك)..........
.... (عشتار)...........
وكان (نيرجال)......
.....العالم السفلي..........
.........أسري............
........(نهر الموت) و..........عشب.......
وعاش حتى بلغ..........

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان المرشد يقف هناك في المرج بانتظارها وهو يضغط على مؤخرة قلمه..
قالت له مذعورة:
- ماذا حدث للقصة يا (مرشد)؟ لا أفهم حرفا من كل هذه الجمل المتقطعة..
قال باسما:
- أنت الآن تقرئين القرص الثاني عشر من الملحمة وهو مهشم كما تعرفين، لهذا لا يمكن استنتاج الأحداث لا تنسى أن ملحمة (جلجاميش) غير مكتملة على الأرجح.. فقط نعرف أنه عاد لمدينته ودون مآثره جوار أسوارها.. لقد عرف أن الخلود مستحيل للبشر، لذا قرر أن يمارس الخلود بمعناه المعنوي: ترك آثارا تحكى عنه للأجيال القادمة.. والحقيقة التي لا يجب أن

ننساها هي أن (جلجاميش) خالد بالفعل.. آلاف الأعوام مرت وما زلنا نحكي قصته وتتعاطف معها كأنما هي وقعت أمس.. لقد شيد له نصب عظيم في مدينة التراث الإنساني، وهذا النصب سيظل للأبد.. قليل من الأحياء اليوم من يتمتع بذات الحياة التي ينعم بها (جلجاميش) العظيم.
ثم نظر لها في إعجاب وقال:
- كنت موفقا حينما اخترت لك دور (عشتار).. لا تتصوري مدى روعتك وفتنتك..
- هذه الفاتنة قد رفضها (جلجاميش) وقد لعبت دور شرير القصة أو (الفيلين villain) كما يقول السينمائيون..
- لا شيء أكثر شرا من امرأة صدمت في كبرياء أنوثتها ذاته.. على كل حال هذه الشخصيات الشريرة تضفي حيوية كبيرة على القصص..
راحت تمشي في المرج وهي ترفع ذيل ثوبها كي لا تدوس على الوحل وعادت تسأله:
- وماذا عن (جلال)؟ الفتى الذي انتقمت منه (لمياء)؟
- سوف يتخلص من فكرة الموت، ويعود إلى حياته النشطة المثمرة.. سوف يعي أن الخلود لله وحده، ولسوف يبحث عن السبيل البشرى للخلود.. يتزوج ويكون أسرة..
نظرت إلى تلك السهول الخصيبة رائعة الجمال.. إلى القنوات المعقدة التي شادها السومريون والبابليون والأشوريون.. إلى الأبراج والأسوار.. إلى النقوش التي تصور الرجال الأشداء كثي اللحى يصطادون الأسود برماحهم.. وهتفت دامعة:
- عظيمة أنت يا بلاد ما بين النهرين.. خالد يا عراق منذ كان (حمورابي) يمشي على أرضك، و (هارون الرشيد) يصدر تعليماته لوزرائه من قصورك، وحتى اليوم.. ما أهمية بضعة أعوام سيئة في تاريخ يتكلم بآلاف السنين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الكتيب القادم تعود (عبير) لعالم كاتب غزير الإنتاج عظيم الشهرة.. إن اسمه د. (نبيل فاروق).. هل تعرفون الاسم؟
جميل.. يمكننا إذن أن ندخل معها عالم (أرشيف الغد)!

(تمت بحمد الله)

المصادر:

* موسوعة المعرفة.
* ل ديورانت: قصة الحضارة. (النسخة التي وجدها صديقي في حديقة داره عام 1985 كانت عتيقة ممزقة الغلاف لهذا لا أستطيع إعطاء بيانات أخرى، لكنها الجزء الأول على الأرجح).
* د. سمير سيف: إخراج أفلام الحركة: تجربتي في السينما. آفاق السينما (25). الهيئة العامة لقصور الثقافة. يناير 2003.
* شبكة الإنترنت

صديقي جلجاميش

صديقي (جلجاميش) ليس شخصا عاديا..
إنه واحد من أبطال الملاحم، وطموحاته ليست أقل من تحدي الموت ذاته.
صديقي (جلجاميش) ليس شخصا عاديا..
إنه رمز لحلم الإنسان بالخلود..
صديقي (جلجاميش) ليس شخصا عاديا..
إنه لحن أصغي له العالم منذ آلاف السنين، قادما من بلاد ما بين النهرين، وحتى هذه اللحظة ما زال يطرب له..

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

للمزيد من الدقة، تقول الأسطورة إن (جلجاميش) خليط من البشر والآلهة بنسبة 46 % و54 % مع بعض المواد الحافظة.. إنه Demigod كما كان هو كبوليس وثيذيوس وسواهم في الأساطير الإغريقية..

[←2]

نعم كان ينطق (ساوين) وليس (سامحين) ولا تسألني عن السبب!

[←3]

برغم أن النهريِن وبلاد ما بين النهرين مصطلحات عربية فقد أدرجت الأسماء الغريبة لها، لأن معظم ما كتب عن الأسطورة مكتوب بالإنجليزية..

روايات مصرية للجيب

40

فانتازيا

أرشيف الغد

(سرى جدًّا)

د. أحمد خالد توفيق



) كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (40)

أرشيف الغد
(سري جدًّا)
تأليف: د. أحمد خالد توفيق

من جديد أكرر شكري لاثنين بل ثلاثة هذه المرة: د. (نبيل فاروق) الذى سمح لي بتقديم هذا الكتيب ورفض قراءته قبل الطبع كالعادة.. لم أستوعب ضخامة وإمتاع العمل الذى قام به على مدى عشرين عامًا إلا حينما بدأت كتابة هذا الكتيب.. كذلك أشكر الصديقة (إيمان زكريا) التي أعدَّت لى دراسة مرهقة أخرى عن هذه السلسلة العملاقة، وهى عمل جدير بالنشر مستقلًا بلا أية مبالغة والصديق السكندرى (أحمد ماجد) الذى يُعرف فى المنتدى بإسم (ملف المستقبل) والذى أرسل لى دراسة ذكية جدًّا لا يقل عدد كلماتها عن اثنى عشرة كلمة.. والطريف أنهما كانا يضيئان لى الطريق: علق على هذا.. هنا موطن دعابة لا بأس به.. تذكر هذه.. حتى بدأت أتساءل عما إذا كان دورى يختلف نوعًا عن دور لوحة مفاتيح الكمبيوتر.. كم تقاضيا مقابل هذا الجهد.. لا شيء طبعًا.. إن الأشياء التي لا يشتريها المال، وتُمنح تطوعًا لهى أثمن الأشياء طرًّا..

فى النهاية استعنت بالأعداد المحوريّة التي طلبا منى الاعتناء بقراءتها بالذات، كما أفادني دخول (منتدى روايات) كثيرًا..

1- الكتابة من غلافه..

هذه المرة أيضًا لم يحدث انتقال مرحلي لعالم الواقع..
يذكرها الأمر بدور السينما الرخيصة التي كانت تدخلها مع خالها، والتي لا تكلف نفسها بإضاءة الأنوار بين فيلم وآخر أو مجرد التنويه.. وكانت هذه السينما لا تعرض إلا نوعيات معينة من الأفلام ذات اللونين البنى والأصفر، مع نسخة غير صالحة للاستعمال الأدمي.. دعك مما اقتصّته الرقابة واقتصّه عمال العرض.. كنت ترى (جاكى شان) على الشاشة يتشاجر مع ستة رجال ثم فجأة ترى (أميتاب باتشان) يغنى لحبيبته.. هكذا.. من دون إنذار.. وباعتبار أن المشاهدين يريدون مشاهدة صور ملونة لا أكثر..
نفس الشيء حدث معها فى (فانتازيا) طبعًا..
لقد كانت مع (جلجاميش) الباحث عن الخلود.. ثم فى اللحظة التالية وجدت نفسها تحلق فى الهواء.. هذا غير إنسانى.. لابد من لحظة تستجمع فيها خبراتها السابقة وتستعيد مذاقها فى فمها..
قليلة هى المرات التى طارت فيها فى (فانتازيا) لكنه شعور عجيب..
تذكرت فأضافت:
- ربما رحلتي إلى القمر على طريقة (جول فيرن Verne) أو (هـ. ج. ويلز Wells)..
- بل أقرب من هذا..
- لا أستطيع أن أتذكر..
قال باسمًا:
- مغامرتك مع (جلجاميش).. كثير من النقاد يعتبرها نوعًا من الخيال العلمي؛ لأن الخيال العلمي يتحدث عن رغبة الإنسان الدائمة فى الخلود.. وهكذا يضعون له المدينة الفاضلة و(جلجاميش)..
- هذا صعب التصور..
- توقعت هذا.. السبب فى ذلك يعود إلى الخلط فى أذهاننا بين الخيال العلمي وأوبرات الفضاء.. على كل حال للخيال العلمي تعريفات كثيرة منها أنه خيال ممزوج بالحقائق العلمية والرؤية التنبؤية، وهو محاولة لتخيل تفاعل الإنسان مع التقدم العلمي.. هناك تعريف آخر ساخر يقول إنه نوع الأدب الذى يشير إليه عشاق الخيال العلمي قائلين: هذا خيال علمي!!
- أعتقد أنه أقرب تعريف إلى فهمى.. لكن لم أعرف بعد علاقة هذا بهذه الكتب..
قال باسمًا وهو يشير إلى الأغلفة:
- هناك أنواع عديدة من الخيال العلمي تندرج تحت 23 تصنيفًا.. فت تعرفين أن مفهوم النوع genre يسود العالم الان.. كل شيء يجب أن يندرج تحت قائمة ما وإلا فالويل له.. تقريبًا لن تجدى قصة من هذا الطراز أفلتت من التصنيف، ما لم يأت كاتب ما برواية كارثية تشبه الحرف الأبجدي الثلاثين أو قطعة الشطرنج السابعة والثلاثين..
- هلا ذكرت لى هذه الأنواع؟
أغلق المفكرة وبدأ يدل على أصابعه:
1- غرباء بيننا.. هذا هو عالم الفضائيين الأوغاد الذين يأتون الأرض.. سواء كانوا واضحين لنا (قصص الغزو) أو مجهولين (رعب هل أمك هى أمك حقًا؟).. كقاعدة لهذه القصص: لا تثق فى

الكائنات الفضائية، فتسعة من كل عشرة منهم سفلة.. إى تى ET هو الاستثناء الوحيد الذى يؤكد القاعدة..
2 - التاريخ البديل Allohistory أو الأوكرونيا Uchronia.. ماذا لو لم يغز (هتلر) روسيا وبالتالي احتفظ بقوته ليغزو إنجلترا وأمريكا.. ماذا لو لم تهزم (روما) (هانيبال).. ماذا كان سيحدث لو لم تكتشف أهمية البترول كمصدر طاقة؟
3 - العوالم البديلة: هناك مجرات أخرى عليها أراض أخرى، وعلى كل أرض هناك (عبير) حمقاء أخرى..
4 - تحدى الجاذبية.. هذا ببساطة حلم الطيران..
5- الانتقال الجزيئي.. تدخلين الكابينة فى مصر لتذوب جزيئاتك وتظهري فى أستراليا..
6 - خلف الحقول التى نعرفها: عوالم كاملة تختلف عنا فى كل شيء.. يطلقون عليها اسم (القصص التولكينية) نسبة لـ (تولكين Tolkien) صاحب (سيد الخواتم).
7 - مدن الغد: المدن التى يعيش فيها الفضائيون أو بشر الغد..
8 - السايبر بانك Cyber punk وهو عالم المتسللين على الأنظمة Hackers والكمبيوترات ذات الذكاء الصناعي والسايبورج Cyborg.. إن فيلم ماتريكس ينتمى لهذا النوع على كل حال.. هناك جانب آخر ميتافيزيقي لهذا النوع من الأدب.. سحر الفودوو والأشباح والزومبى على نطاق فضائى طبعًا..
9- اليوتوبيا Utopia.. المدينة الفاضلة..
10 - نقيض اليوتوبيا Dystopia حيث نرى المستقبل الذى ينتظرنا شنيعًا ككابوس..
11 - الإدراك الفائق للحواس ESP: فى هذه السلة ضعي قارئي الأفكار والمحركين عن بعد والمستبصرين والعرافين..
12 - الخيال العلمي الصعب Hard Sci – Fi: هذا نوع من الخيال العلمي المرتبط بنظريات العلم إلى درجة غير معقولة فى دقتها، وهو نوع من الأدب لا يتحمله غير العلماء المتخصصين لأنه مرهق جدًّا..
13 - البحث عن الخلود: بكل أشكال هذا الحلم بما فيها الإحياء المؤقت والكرايونيكس Cryonics.. لهذا تكلمنا عن (جلجاميش)..
14 - الأرض التى غفل عنها الزمن: والعنوان لا يحتاج لتوضيح لأن هناك ألف رواية تدور على هذا المحور بدءًا بـ (أطلنطس) وقارة (ليموريا) وانتهاء بمجاهل الكونغو.. (إدجار رايس بوروز Burroughs) لم يكتب تقريبًا إلا هذا النمط من القصص فى الأوقات التي لم يكن منشغلًا فيها بتأليف (طرزان Tarzan)..
15 - الاختفاء.. طبعًا لا يحتاج العنوان إلى تفسير..
16 - الخيال العلمي الشهوانى Space erotica: وهو نوع شائع جدًّا فى الغرب..
17 - أوبرات الفضاء: والحقيقة أن أكثر الناس يعتقدون أن هذا هو الخيال العلمى ولا شيء سواه.. سيوف الليزر والإمبراطور ومعارك مكوكات الفضاء.. فيلم (حروب النجم star wars) ذاته نموذج باهظ التكاليف من هذا النوع.. على كل حال يقول ناقد أمريكي إن هذه القصص تتلخص فى أن (هناك الكثير من القذارة فى الفضاء الخارجي).. وهى معلومة لا تبرر كل هذا الإنفاق..
18 - السوبرمانات.. هذه سلة تضعين فيها (سوبرمان) والرجل العنكبوت وكل من يتسلل لزقاق مظلم ليبدل ثيابه، ثم يطير ليمنع الطائرة من السقوط.. هذه من النقاط (الأمريكية) المهمة التى يلتقى فيها الخيال العلمى بفن الشرائط المصورة (الستريبس).. وهما صنوان لا يفترقان فى الثقافة

الشعبية الأمريكية..
19 - السفر عبر الزمن: طبعًا هذه تيمة لم يستطع كاتب خيال علمى واحد أن يفلت منها.. منذ بدأها الكاتب النرويجي (هرمان فيسل) عام 1781.. مرورًا بالقصة الأشهر ل (هـ. ج. ويلز)..
- أعماق البحر.. تيمة أخرى لن ننساها.. وقد تتداخل مع القيمة رقم 14 غالبًا ما يقابل الغواص قارة مغمورة هى (أطلنطس Atlantis) على الأرجح..
21- ما بعد المحرقة: الأرض بعد حرب نووية أو وباء أو نفاد الطاقة حيث يعود الإنسان لحياة الكهف، ويصير أقرب للوحوش.. طبعًا هذه من أهم التيمات لدى كتاب الخيال العلمى..
22- العلم ينفلت عياره: هنا كل أنواع التجارب الخاطئة التى لا تكف عن صنع مسوخ أو طفرات وراثية، يقوم بها علماء مخابيل أو عديمو المسئولية.. هذه قصص رجعية جدًّا ترى أن العلم فى حد ذاته خطر داهم، وهنا يظهر العسكريون لينقذوا العالم.. إنهم الأكثر حكمة وكفاءة حسب هذه القصص.. سوف نلاحظ هنا أنها نفس عوالم الرعب القوطي.. فقط انزعى مصاص الدماء أو الشبح وضعي بدلًا منه مسخًا أو اختراعًا مخيفًا
قالت وهي تعد على أصابعها:
- لم تذكر إلا اثنين وعشرين نوعًا.. هل نسيت شيئًا؟
قال بطريقته الخبيثة:
- النوع رقم 23 هو الذى يضم هذا كله!
- وهذه الأغلفة؟ لم أعرف قيمتها بعد
قال لها وهو يشير إلى الكتب المتناثرة تحتهما:
- هناك طريقة أوصى بها الناقد (ديفيد هارتويل Hardwell) لمعرفة محتوى الكتاب من صورة غلافه.. هل ترين هذا الكتاب الذى يظهر بشرًا أمام خلفية مستقبلية؟ إذن هذا الكتاب من طراز (أوبرات الفضاء).. هل ترين الغلاف الذى يبدو عليه (نيرون) واقفًا مع (إلفيس بريسلي).. هذا الخلط الغريب يدل على أن الكتاب من طراز (التاريخ البديل).. هل ترين حقلًا أسطوريًّا وقلعة.. لا بد أن هذا كتاب من عائلة (خلف الحقول التى نعرفها).. أما هذا الغلاف الذى يظهر مدينة مستقبلية وبشرًا غاضبين فلابد أنه ينتمى لقصص (نقيض اليوتوبيا) أو (سايبر بانك) أو (مدن المستقبل).. هل على الغلاف رجل متضخم المخ له عينان تلمعان.. إذن هذا كتاب من طراز (الإدراك الفائق للحواس).. هل هناك أطباق طائرة ومسدسات وكائنات عجيبة؟ إذن نحن نتحدث عن (غرباء بيننا).. هل ترين بشرًا من عصرنا يقاتلون قبائل فى ثياب غريبة وفي الخلفية صنم؟ إذن هذه القصة من طراز (الأرض التي غفل عنها الزمن)..
نظرت إلى الأرض تحتها وبدا لها التقسيم معقولًا..
كانت هناك مجموعة من الكتب البراقة لا يمكن تصنيفها.. كل غلاف منها ينتمى لنوع من تلك الأنواع التي تكلم عنها.. فقط هناك دائمًا تلك العلامة المتفجرة التي تقول: ملف المستقبل - سرى للغاية..
كانت قد قرأت الكثير من هذه القصص، وعلى خلاف عادتها (البخارية) فى نسيان كل شيء بلا رحمة، فهي تذكر كل حرف كتب فيها..
قالت له:
- عوالم د. (نبيل فاروق) من جديد..
قال لها وهو يواصل الكتابة:
- مائة وخمسون عنوانًا من قصص الخيال العلمى.. دعك من عشرات القصص المتناثرة فى

سلسلة (كوكتيل) وسواها.. على مدى عشرين عامًا ظلت هذه القصص تحفر مكانها فى عقول قارئي العربية فى كل صوب، وصارت مصطلحات مثل (الهولوجرام) و (الأشعة الارتجاجية) و(الاستنساخ الانتقائى) مألوفة لكل شاب بينما ـ على الأرجح - يجهل أبواه ومعلموه كل شيء عنها.. إنها قصص بالغة الأهمية ومن جديد أكرر: لم يؤثر (دستويفسكى Dostoyevsky) ذاته فى كل هذا العدد من العقول.. لقد قدم (نبيل فاروق) للشباب ما يقرءونه بعدما كان الحل الوحيد أمامهم هو قراءة (مغامرات شرشر) أو أدب (المنفلوطي) الصعب أو الانتحار وثبًا من الشرفة..

قالت فى حسرة:

- لكنه توقف..

قال باسمًا:

- لم يتوقف.. هي مجرد راحة لالتقاط الأنفاس.. حتى أكثر الكتاب إنتاجًا فى التاريخ مثل (إدجار والاس) لم يقدم كل هذا العدد من العناوين.. نحن نتحدث عن روايات لا قصص قصيرة، ونتحدث عن عقل بشرى لا خط إنتاج فى مصنع.. الحقيقة أن ما قام به ضخم.. ضخم إلى حد لا يصدق ويحتاج إلى دراسة نقدية مدققة..

قالت وهي تقلب الاحتمالات فى ذهنها:

- إذن نجرب[1].. أعتقد[2] أننى أذكر[3] كل شيء[4] هذه المرة[5]..

- أحلامك أوامر يا (أليس)..

- ولى طلب آخر.. ألا تنوى تقليل الحواشي السفلية قليلًا.. هذا يشعرني بأن المكان ليس مكاني..

بدا عليه الغيظ وعقد حاجبيه، وقال:

- يقولون فى العامية (سكتنا له دخل بحماره).. لو تغاضينا عن الحواشي السفلية فلسوف نتغاضى غدًا عن نصب خبر كان واسم إن..

ثم عقد حاجبيه وقال:

- ليكن.. سأقللها قدر الإمكان لكن لا يمكن إلغاؤها..

- وكف عن عقد حاجبيك ولو فى فقرة واحدة..

عقد حاجبيه وقال:

- لكن هذا مهم لأنه يوحى بالخطورة.. هل ما زلت تسألين عن هذه البديهيات بعد لقاء (أدهم صبري)[6].. حسبت أنك فهمت كل شي.. على كل حال ليس كل الناس هنا يعقدون حواجبهم.. هناك من تلمع عيونهم ببريق خاص..

- لكنك لم تقل لى الدور الذى سألعبه لو قبلت..

- لا سأترك لك اكتشاف هذا..

- وما نوعية القصة التي سأمر بها؟ هل هى من طراز (غرباء بيننا).. أم من طراز (خلف الحقول) أو..

قال وهو يتفقد الأوراق:

- هذا يتوقف على رقم الكتيب.. هناك قواعد صارمة هنا.. أربعة كتيبات تتحدث عن وحش غامض وكتيب يتحدث عن غزو فضائى.. 4-1-4.. لا يمكن هدم هذه القاعدة.. نحن لا نلعب هنا.. دعك من أن هناك أعداد (ما قبل الاحتلال) وأعداد (الاحتلال) وأعداد (ما بعد الاحتلال).. أعداد (ما قبل الاحتلال) هي نوع من قصص (من فعلها ? Whodunit) على نطاق مستقبلي.. أعداد (ما بعد الاحتلال) يمكن معرفتها من الهوامش التي تطلب منك مراجعة (الاحتلال)..

ولكن.. سأقدم لك عرضًا لا يمكن رفضه..
وابتسم بخبث وقال:
- سأجعل قصة اليوم تنتمي إلى النوع الثالث والعشرين! ستواجهين كل شيء في مغامرة واحدة!!
- ألا ترى أن المصطلح المناسب لما تقترحه هنا هو (سلاطة)؟
- وأنا أحب السلاطات! هيا!!!
وقبل أن تعلق كانت قوانين الطفو قد أعلنت تمردها، وسرعان ما وجدت نفسها تهوى وهى تصرخ تلك الصرخة الدرامية النهائية.. تهوى نحو كتاب مفتوح وضع هناك..
وقبل أن تدرك ما حدث لها حقًا، انغلقت عليها صفحات الكتاب.............

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- أرشيف الغد..

قليلون هم الذين رأوا ذلك المشهد بعيونهم، لكن من رأوه منهم لم ينسوه حتى هذه اللحظة..
لقد انطلق تلك الشهاب من مكان ما فى أمريكا الشمالية ليحيل ظلام الليل نهارًا.. شهاب ينطلق من الأرض.. نعم.. هذا هو ما حدث..
في البداية راح يرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ويرتفع..
ثم راح يهبط..
ويهبط..
ويهبط
ويهبط..
ويهبط
ويهبط..
ويهبط
ويهبط..
ويهبط
ويهبط..
ويهبط
ويهبط..
ويهبط
ويهبط[7]..
حتى توارى فى بقعة ما من المحيط الأطلنطي..

كان هذا غريبًا وغير معتاد لأن هناك قاعدتين فى قصص (أرشيف الغد):
1 - كل الظواهر الغريبة لا تحدث إلا فى مصر.
2- لا يتم إنقاذ الأرض كلها إلا بوساطة (نور) وفريقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-فى شقته شعر (أكرم) بذلك النداء من مدير المخابرات العلمية..
كان جالسًا فى همجية يتناول عشاءه الأيوني الذى تم طهيه بأشعة (زيتا).. أنت تعرف أن هناك أشعات من كل نوع فى هذا العالم.. وقد بدا له أن هذه الأمسية ستكون هادئة.. يتوق إلى أن ينام.. يتوق إلى أن ينسى العالم بحق..
وتنهد فى ارتياع.. (نعم.. لا أحد يتنهد فى ارتياع لكن هذا الخطأ المطبعي يتكرر عدة مرات فى السلسلة، ويبدو أن حرف الحاء يشبه حرف العين بشدة).. وفي رضا همجي داعب شاربه الجميل.. إنه يشعره بالفخر.. لن ينسى أنه صاحب الشارب الوحيد بين أبطال د. (نبيل فاروق) جميعًا.. هذا هو التميز الحقيقي.. إنه - كما عرفنا وصفه من قبل – فى أوائل الأربعينات كث الحاجبين بارد الملامح يميل رأسه إلى الصلع قليلًا..
فجأة خفت ضوء المنزل.. فتظاهر بأنه لم يلحظ ذلك.. لكن الضوء راح يخفت ويعلو بإلحاح غريب..
قالت له (سلوى) وهى ترفع الأطباق من أمامه:
- أعتقد أن عليك أن ترد.. أعرف أنك همجي ولا تبالى بهذه الأمور لكن العمل هو العمل..
هكذا نهض فى ملل إلى الحمام.. كان يعرف أن هذه هى الخطوة التالية فى الاستدعاء.. لا بد من صورة القائد الأعلى فى المرآة، وهو ما كان يضايقه كلما أختلى بنفسه لأنه يشعر بأنه مراقب.. قليل هم الأشخاص الذين يستطيعون دخول الحمام بينما القائد الأعلى للمخابرات العلمية يطل عليهم ثلاثي الأبعاد من المرآة..
الحرارة تتزايد فى ساعته الذرية[8]، وضوء الشرفة يضيء وينطفئ بلا انقطاع.. لا بد أن الأمر ملح فعلًا..
هنا حدثت المعجزة.. لم تتحمل الدوائر الكهربية كل هذا العبث فانقطع التيار الكهربي[9]..
هكذا غادر البيت مسرعًا إلى سيارته الفيات الهمجية موديل ١٩٧٨.. أعتمت النوافذ كالعادة، ثم ظهرت على الشاشة - شاشة سيارة (فيات)؟ - تلك الصورة المجسمة للقائد الأعلى د. (هاشم).. لسبب ما كان هذا الرجل يتسم بشراسة وخبث لا شك فيهما، حتى إن (أكرم) كان يقول لزوجته:
- هذا الرجل يبدو لى كأحد علماء القصص الخيالية الأشرار..
يقال - والله أعلم - إن هذا الرجل كان مصابًا بفيروس قاتل يدعى (هشيم).. يبدو أنه حفيد فيروس التهاب الكبد (ج) الذى نعرفه فى عصرنا.. ويبدو أنه عولج منه لكنه اكتسب خشونة طبع وحدة لا شك فيهما بعد هذا..
عقد الرجل حاجبيه وقال فى غيظ:
- لماذا لم ترد أيها الهمجي؟
قال (أكرم) وهو يداعب شاربه:
- لم أشعر.. ظننت أن المنصهر فيه مشكلة و...
قال القائد الأعلى:
- يجب أن تأتى إلى المخابرات العلمية حالًا.. هناك كارثة.. إن العالم سيفنى قريبًا..

- ومنذ متى لم يكن موشكًا على الفناء.. لقد أنقذته مائة وخمسين مرة من قبل..
- ليس عندما يكون خصمنا من هذا الطراز.. إنه أخطر أعدائنا..
وعقد القائد العام حاجبيه وأضاف:
- إنه (نور الدين محمود)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ست ساعات - بسيارته موديل 1978- وصل (أكرم) مسرعًا إلى إدارة المخابرات العلمية الواقعة فى (مكان ما من أرض مصر).. من المعروف أن د. (نبيل) لا يستطيع الابتعاد عن عوالم المخابرات حتى فى الخيال العلمى، كما لم يستطع (ستيفن كنج) أن يتخلى عن الرعب عندما مارس الشيء ذاته. وفي ملاحظة ذكية لأحد القراء، يتساءل: لماذا لم تكن كل هذه المصائب اليومية تحدث للأرض قبل أن توجد المخابرات العلمية.. هذا يذكرنا بقول (مارك توين): فى أيام الماضي السعيدة قبل أن يخترع الطب الحديث مرض السرطان، كان الناس يموتون بالشيخوخة أو مقتولين..
في طريقه إلى المصعد / الأنبوب رأى حشدًا من الرجال يحيطون برجل ويحاولون منعه.. منعه من ماذا.. من الانتحار طبعًا.. كان فى يده مسدس يصوبه إلى رأسه لكنهم كانوا يمسكون بمعصمه.. والرجل يصرخ:
- أنا (أدهم صبري)!! أنا (أدهم صبري)!!
أخرج (أكرم) مسدسه الهمجي ذا الساقية وصوب واحدة أطارت المسدس من يد الرجل، ثم طوح بمسدسه فى الهواء بحركة بهلوانية ليعيده لحزامه كما يفعل الرماة المحترفون فى أفلام الغرب، وتنهد فى (ارتياع) ثم دنا من الرجل الصارخ فربت على خده وقال:
- كف عن هذا التهريج يا (أمجد)..
قال أحد الحراس:
- لا تلمه على ذلك.. لقد عاش على أمل أن يتضح أنه (أدهم صبري) فى النهاية، لكن الدكتور (نبيل) منعه من ذلك..
قال (أمجد) وقد انهار تمامًا:
- لا يمكن ألا أكون (أدهم صبري).. تصور كل ما أملكه وفكر فى الأمر..
وراح يعد على يده:
- أولًا أنا رجل مخابرات سابق.. صارعت (المافيا) و(الموساد).. لى زوجة إسرائيلية وابن منها.. أجيد التنكر وأتعامل مع كل الأسلحة.. هل ينقصك شيء؟
ثم تذكر فهتف فى جنون:
- واسمى (أمجد صبحى)! أي (أ. ص)! وبعد هذا كله.. بعد هذا كله.. يقولون إنني لست (أدهم صبري).. لاااااااا!
قال (أكرم) لأحد الواقفين:
- راقبوه بعناية.. لو حاول الانتحار فاقتلوه بلا تردد..
الحقيقة أن (أمجد صبحى) أثار حيرة القراء لفترة لا بأس بها، فقد شعروا أنه السبيل لدمج السلسلتين معًا.. (رجل المستحيل) و(ملف المستقبل).. حتى صار هناك سؤال اخترت له اسم (السؤال الأمجدى) على غرار (السؤال الهوميرى) الشهير.. هل (أمجد) هو (أدهم).. إلى حد ما بدأت الإجابة تتضح الآن: إنها (لا).. وقد أراح هذا الكثيرين..

دخل (أكرم) إلى الأنبوب ذي الضوء البنفسجى الهادئ، بعد ما مر بتلك الإجراءات المعقدة فى الفحص الجيني والهوية والأسنان والبصمات وشكل صيوان الأذن والتوافق النسيجى HLA وبصمة قرنية العين.. هذا الجزء بالذات صعب لأن النظام هنا يقتضى إدخال جهاز يشبه الفرجار إلى عينك، وهو شعور غير محبب على الإطلاق..
ثم تظهر فرشاة إلكترونية لتدهن القرنية بالحبر، توطئة لأن تظهر يد آلية تلصق فرخًا من الورق عليها.. هكذا تصير القرنية مطبوعة على فرخ يشبه (الفيش والتشبيه). وكما يعرف القارئ صار أكثر مجرمي هذا العصر يحرقون قرنياتهم بالحمض كي لا يتركوا أثرًا فى مكان الجريمة.
ضغط (أكرم) على زر الطابق الثالث السلبى فوثب المصعد لأعلى.. هنا تذكر أنه ضغط الزر الخطأ لأنه همجي لا يجيد التعامل مع هذه الاختراعات الحديثة.. من الغريب أنه مهندس جيولوجي لكنه على الأرجح نجح بالغش أو (الواسطة)..
هكذا ظل يحاول مرارًا.. كان فى مأزق حقيقى..
نظر لأعلى بحثًا عن حل حينما شعر بذلك الشخص الضخم الواقف وراءه.. كان ذا وجه أخضر صارم الملامح، وله عينان براقتان مخيفتان، دعك من ثوبه الأحمر المخيف الذى يتألق كأنما هى نيران الجحيم.. وفى يده كانت بندقية عجيبة لكنه - كما هو واضح - لم يكن ينوى استعمالها.. لقد وضعها على الأرض ثم ضغط على مفاتيح المصعد كى يتجه إلى الطابق الثالث السلبى.. ثم حمل سلاحه وهم بالانصراف..
هنا قال له (أكرم):
- (س - ١٨).. كالعادة تأتى فى الوقت المناسب..
ثم أضاف باسمًا:



فرد المقاتل:
- (س - ١٨) فى خدمتك يا سيدى..
وهز رأسه فى رضا وطار من أعلى المصعد..
مشكلة هؤلاء المقاتلين الأطلنطيين أن التفاهم معهم مستحيل إلا بالهيروغليفية.. صحيح أن الهيروغليفية طريقة كتابة لكن من قال إن (أكرم) لا يجيد كل شيء؟
في النهاية - بعد نصف ساعة - كان باب حجرة القائد الأعلى ينفرج كاشفًا الحجرة الفسيحة، التي يجلس فى نهايتها القائد نفسه خلف مكتبه الزاخر بالأزرار وشاشات الكمبيوتر. وجواره رئيس مركز الأبحاث (خالد رضوان).. الأخير من الطراز الصارم إلى حد أن (أكرم) كان يقول عنه: لو ولد هذا الرجل فى زمن (هتلر) لصار جنرالًا نازيًا..
قال القائد الأعلى وهو يصب لنفسه بعض الشاي الأيونى:
- تأخرت يا (أكرم).. كم من مرة نصحتك فيها بأن تستعمل السيارات الصاروخية..
قال (أكرم) وهو يجلس:
- تعرف أننى همجي.. لا أثق البتة بهذه الاختراعات الحديثة.. دعك من أن الوقود الأمينى له ذات رائحة الجوارب التى لم تنتزع منذ أسبوعين.. المهم.. ما المشكلة؟
قال (خالد رضوان) فى خطورة:

- أنت تعرف أن هناك احتمالًا كبيرًا لوجود كائنات عاقلة فى الفضاء.. الإشارات التي نتلقاها من الفضاء تدل على ذلك..
قال (أكرم) فى غيظ:
- السلسلة منذ البداية تتعامل مع الكائنات الفضائية باعتبارها حقيقة فُرغ منها، والآن تأتى لتقول لى إن هناك ما يدل على ذلك! كما فعلت معى فى قصة (الاحتلال) حين اكتشفتم ذلك الاكتشاف الرهيب: نحن لسنا وحدنا فى الكون.. برغم أن عدة محاولات غزو حدثت قبل هذه القصة..
لم يهتم (خالد) بهذا وواصل الكلام:
- ثمة ما يدل على وجود عوالم أخرى تشبه الأرض كثيرًا فى مجرات أخرى.. كل مجرة فيها كوكب يشبه الشمس وكل شمس حولها كوكب يشبه الأرض.. معنى هذا كما تعرف أن هناك احتمالات عدة لأكثر من (أكرم) وأكثر من (نور)..
ثم ضغط على زر فظهرت صورة هولوجرافية تسبح فى فضاء الغرفة.. هذه الصورة تظهر مجرة.. ثم دنت الكاميرا أكثر لتظهر كوكبًا يبدو بريئًا.. إنه الثالث من الشمس.. إذن هو الأرض..
إن الصور الهولوجرافية هى الطريقة المعتمدة لعرض الصور فى السلسلة من الكتيب رقم 12 (طريق الأشباح) حتى اليوم..
قال (خالد رضوان):
- ثمة ما يدعونا للاعتقاد بأن هناك أرضًا أخرى تختلف عن عالمنا هذا.. هناك ليس (نور الدين محمود) شريرًا على الإطلاق.. ليس أخطر مجرم عالمى عرفناه.. فى الحقيقة هو رئيسك فى العمل!
هب (أكرم) غير مصدق لهذا الهراء وهتف:
- كلام فارغ! (نور) رجل خير.. بل هو رئيسى كذلك؟
عقد القائد الأعلى حاجبيه وقال:
- بل إنكما تشكلان فريقًا منذ الكتيب رقم 109! بالمناسبة.. على هذا الكوكب (سلوى) زوجته![10]
ما هذا.. (سلوى) تتزوج شريرًا عالميًّا مثل (نور)؟
أضاف (خالد رضوان):
- وأنا شرير خارق الذكاء! عملت لفترة مع (هتلر) باسم (فردريك هولدشتاين)..
صمت (أكرم) وقد راق له هذا الجزء بالذات.. برغم غرابة هذا الكلام بالنسبة له، فالأمر لا يخلو من منطق لا بأس به.. لو وجد (خالد) والقائد الأعلى فى مكان آخر لصارا شريرين من شريرى القصص المصورة.. على أن اسم (فردريك هولشتاين) له رنين يهودى واضح، فلا يمكن أن يكون مكانه إلا داخل معتقل (أوسفيتز Auswitz).. ما لم يكن (هتلر) فى ذلك العالم يحب اليهود..
قال (أكرم):
- حسن.. سأقبل هذا كله.. والآن ما دور (نور) في هذه القصة؟
قال القائد الأعلى وقد تلاقى حاجباه:
- قلت لك إن (نور) على هذا الكوكب بطل التحرير، وهو قائد الفريق الخاص بالمخابرات العلمية.. إنه منقذ الأرض ومحررها من الاحتلال، وهو من جعل مصر قمة دول العالم بعده..
هتف (أكرم) فى غيظ:
- إذن هو فعل كل ما فعلته أنا هنا..

أضاف القائد الأعلى:
- (نور) الشرير فى عالمنا قد تمكن من الوصول إلى هذا الكوكب.. لقد رصدنا شيئًا حسبه الناس شهابًا ينطلق من الأرض ثم يعود لها، لكننا نعرف أن هذا يدل على وجود عملية اختراق للأبعاد..
- هذا جميل.. معنى هذا أنه لم يعد هناك (نور) فى عالمنا..
- ليس هذا كل شيء.. لقد اختطف (نور) الطيب وحل محله.. والآن لك أن تتخيل تبعات هذا..
- لا أتخيل.. لا تنس أنني همجى..
عقد (خالد رضوان) حاجبيه وقال:
- تخيل إنهم يحسبونه (نور) الطيب والبطل القومى المصرى.. المخابرات العلمية هناك هى ذات مخابراتنا ولها ذات الملفات والأسرار.. معنى هذا أن (نور) الشرير الخاص بنا يعمل الآن فى المخابرات العلمية ويرى كل شيء ويدرس كل شيء.. بعد هذا يعود لنا ليواجهنا بما عرفه.. ويصارعنا على أساس هذه القواعد الجديدة..
وهنا فقط فهم (أكرم) حقيقة الوضع..
الوضع الخطير..
المخيف..
المنذر بالخطر..
المرعب..
المقلق..
المقلق جدًّا..
جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- من الأرض إلى الأرض..

أدار (أكرم) عينيه فى القاعة وهو يفكر فى آلاف الأسئلة.. فى النهاية سأل القائد الأعلى:
- كيف عرفتم كل هذا؟
- عرفناه من مصدر موثوق به جاء إلينا من ذلك العالم..
- من هو؟
هتف القائد الأعلى بصوت أيونى رخيم:
- ادخل يا باشمهندس!
هنا انفتح أحد الأبواب الأوتوماتيكية، وظهر شخص مألوف.. للحظة خيل ل. (أكرم) أنه رآه من قبل.. ثم أدرك أنه لم يره من قبل إلا فى مرآته!
لقد كان هذا هو (أكرم) ذاته يخرج من الحجرة الداخلية..
قال (خالد رضوان) وهو يعقد حاجبيه:
- لولا اختلاف الثياب لتعذر على التفرقة بينكما.. إن (أكرم) قد جاء من أرضهم - التى أطلق عليها (أرض نور الطيب) - إلى عالمنا عن طريق جهاز انتقال جزيئات.. وقد جاء إلى هنا لأنه عرف بحسابات معقدة قامت بها ابنته أن (نور) الذى عندهم لم يعد هنالك.. هناك (نور) الآن لكنه غريب الأطوار نوعًا.. تقول زوجته (سلوى) إنه تغير.. (أكرم) أيضًا يقول إنه تغير.. طبعًا لا سبيل لإثبات هذا لأنه يملك نفس الجينات ونوع الأنسجة[11] وبصمة القرنية.. أثبتت الحسابات التى قامت بها (نشوى) التي جرت أصابعها على أزرار الكمبيوتر بسرعة أكبر.. وأكبر؛ أن (نور) عندهم جاء من أرضنا هذه.. وقد جاء (أكرم) إلى هنا ليخبرنا بذلك، وهو يطلب أن تذهب أنت معه إلى هناك..
هتف (أكرم) فى دهشة:
- ولماذا.. ما دورى فى هذا؟ فليقم هو بالعمل كله ما دام (أنا آخر)..
قال (خالد رضوان) وهو يعقد حاجبيه:
- إنهم لا يعرفون إلا القليل عن أساليب (نور) الشرير.. لهذا هم بحاجة إلى من يعرفه جيدًا.. لاحظ أن المستفيد الأكبر من هذا هو نحن لا هم..
صافح (أكرم) (أكرم) فى حرارة وقال:
- ليكن أيها الصديق.. الحقيقة أننى لم أعرف من قبل إننى بهذه الوسامة.. أنا رائع لو صح التعبير..
- وأنت كذلك وسيم يا باشمهندس..
قال القائد الأعلى وهو يعقد يديه:
- أما وقد فرغنا من النرجسية المتبادلة، فإنني أكلفك يا (أكرم) بأن..
ثم توقف إذ وجد أن الرجلين ينظران له، فقال مستدركًا:
- منعًا للخلط سنطلق على (أكرم) الخاص بنا اسم (أكرم ن. ش).. أى (أكرم حيث نور الشرير) والآخر (أكرم ن. ط).. أى (أكرم حيث نور الطيب).. أكلفك يا (أكرم ن، ش) بأن تصحب (أكرم ن، ط) إلى عالمه.. وهناك تعملان كفريق من أجل التخلص من (نور ش.) واستعادة (نور ط.)..
(أكرم ن. ش) و (أكرم ن. ط).. يا للغرابة! يذكرنى الأمر بأسماء تلك التنظيمات الشيوعية القديمة فى مصر (طش - طليعة شعبية) و (وش - وثبة شعبية) و (حدتو - حركة ديموقراطية

للتحرر الوطنى) وسواهم..
وهكذا غادر الرجلان المكتب إلى غرفة جانبية بها جهاز نقل الجزيئات الذى جاء به (أكرم ن ط) من عالمه..
كانت هناك صعوبة لأن كليهما لا يجيد التعامل مع الأجهزة لأنه مهندس جيولوجى، حيث إن ضباط الشرطة هم أفضل من يتعاملون مع هذه الأشياء كما تعلمون، لكن (خالد رضوان) عالج أزرار الجهاز، وسرعان ما تم الانتقال الآنى عبر المسافات..
عبر المجرات..
إلى أرض أخرى..
أرض بعيدة..
بعيدة للغاية..
للغاية..
جدًّا..
بشدة..
تمامًا..
بقسوة..
بعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقد د. (جلال) حاجبيه وقال:
- كل ما تقوله لى يا (أكرم) غريب ولا أصدق منه حرفًا..
تبادل (أكرم) النظر مع (أكرم).. ثم قال:
- سيدى.. أعرف أن ما أقوله عسير.. لكن يجب أن تقبله..
قال د. (جلال) وهو يعقد حاجبيه:
- أنت تعرف أن القراء يمقتوننى لأننى كنت أتعامل بشكل عدائي مع الفريق.. أكثر رؤساء مركز الأبحاث شعبية كان د. (عبد الله) فليرحمه الله أما د. (ناظم) فهو فى السجن الآن منذ الكتيب 12 بعد قضية الظلال إياها.. أما أنا فلقمة لم يستطع القاري ابتلاعها أو لفظها.. الآن تطالبنى بأن أعتقل (نور) لأنه شرير جاء من بعد آخر.. بهذا تحطم أية فرصة لى فى كسب القارئ.. أنت تعرف أن هذا ضرورى وإلا تم تغييرى.. ربما أموت فى الكتيب 150 كذلك[12]..
قال (أكرم) فى عصبية:
- سيدى.. إن الأمر أخطر مما تتصور.. لو افترضنا أن هناك فرصة تقدر بواحد فى المائة لأن أكون على حق، فمعنى هذا أن أخطر أعداء جهاز المخابرات العلمية حر طليق، وهو يأتى لمكتبك ليشرب معك الشاى الأيونى..
قال د. (جلال) وهو يعقد حاجبيه:
- لقد ابتلعت فكرة البعد الموازى يا (أكرم) لأن هذا صار جزءًا من حياتنا اليومية.. لم أندهش لوقوف (أكرمان) أمامى.. لكن (نور) شرير؟ آسف.. لن أتصرف على هذا الأساس.. ما دام الفتى يتصرف كـ (نور) وله بصمات (نور) وأنسجة (نور) فهو (نور).. لا داعي للتعقيدات.. خاصة أننى أعرف أنك لست أفضل من يتعامل مع النظريات العلمية.. لا تنس أنك همجي..
نظر له (أكرم).. وقرر أن يتصرف وحده..

بالكامل..
على..
مسئوليته..
الخاصة..
الخاصة جدًّا..
جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت (عبير) خارج مقر المخابرات العلمية تراقب هذا الذى يدور فى شك..
كانت الآن تفهم ما يحدث ويا له من خلط! هذه هى أرضنا.. الأرض التي يعيش فيها (نور) الخير المتزوج من (سلوى).. يبدو أن هناك عالمًا موازيًّا ما يعيش فيه (نور) شرير خطر.. معلوماتها تؤكد لها أن هذا الشرير موجود الآن على هذه الأرض..
طبعًا كانت قد رأت فى حياتها كل شيء ممكن يدخل هنا أو يخرج.. ربما رأت قطيعًا من الجاموس البرى أو أسطول كوكب (يورير) أو أفيالًا تلبس أحذية التزلج.. كل شيء ممكن فى مبنى المخابرات العلمية هذا..
كانت تعرف أنها صحفية.. يجب أن تمضي وقتًا أطول من اللازم فى (فانتازيا) كى تجرب أية مهنة أخرى.. ولما كانت تحفظ السلسلة عن ظهر قلب، فقد كانت تدرك أنها (مشيرة محفوظ) مديرة قناة أنباء الفيديو..
فضولية جدًّا.. تدس أنفها فى كل شيء.. تؤمن بأن الأخبار كالماء والهواء حق مكفول للجميع..
لهذا هي تلعب فى هذه السلسلة دورًا يشبه الذبابة التى يصعب الخلاص منها..
إنها نمط المرأة الطموح جدًّا والتى تعلى نجاحها المهنى على بيتها ذاته، والقراء يذكرون جيدًا كيف راحت تغطى في حماس نبأ هلاك فريق زوجها (رمزى) فى مغامرة (أرض العمالقة) إياها، مما جعله يرمي عليها يمين الطلاق المثلث.. لا أعرف شيئًا عن محاكم هذا العصر، لكن لابد أنها خربت بيته.. على كل حال لم يدم زواجهما أكثر من عشرة كتيبات.. هذه فترة أطول من اللازم بالنسبة لطبيعتين متنافرتين كهاتين..
هي الآن ترى باب المخابرات العلمية ينفتح ويركض (أكرم) و(أكرم) إلى سيارة (أكرم) العتيقة التى تعمل بالبنزين.. هذا غريب.. لو كان هذا (نور) مع (نور) فلا غرابة فى الأمر لأن (نور) يقابل ذاته كثيرًا جدًّا.. مرة حينما اجتاز مثلث (برمودا) فى الكتيب رقم 42، ومرة حينما استنسخوا منه نسخة شريرة فى (الخلية القاتلة) رقم 51.. ومرة حينما جاء من كوكب معاكس للأرض فى (طريق النجوم) رقم 127..
لكن بالله عليك هذا هو (أكرم) ذاته! حيث لا تحدث هذه الأشياء معه.. لسان حالها يقول: هذا زوجى.. انا أعرفه جيدًا ذلك الأحمق.. ليس من الطراز الذى يقابل نفسه أبدًا..
صاحت منادية:
- أكراااااام!
فنظر لها الرجلان.. أيهما هو.. لا تعرف.. كلاهما مندفع همجي كالعادة..
قال (أكرم ن. ش) فى غل حين رآها:
- هل هذه السحلية الثرثارة عندكم أيضًا.. لا تقل لى إنها زوجتك هنا!
قال (أكرم ن. ط) فى خجل:

- للأسف هى زوجتي فعلًا..
ثم قال وقد صارت (عبير) جواره تسمع كل ما يقول:
- لا وقت لدى يا أميرتى ومليكتى! إني أنقذ العالم..
صرخت (عبير) فى غيظ وهى تركل باب السيارة المفتوح:
- تبًّا لك من همجي! أنت وفريقك تنقذان العالم للأبد.. أتتركنى أعود للبيت راجلة فى هذا الجو؟
تلقى (أكرم) الضربة فى جبهته بالضبط فسقط أرضًا ليفقد الوعى..
على الفور هرعت إليه تحتضنه وترفع رأسه، وراحت تلثم يده فى حنان:
- آسفة أيها الزوج الحبيب! سامحنى! لم أرد أن أكون فظة!
يعرف القراء أن علاقة هذين الزوجين هى نوع من دائرة (أنت همجي - يصاب ويفقد وعيه - ترتاع وتبثه حبها).. هكذا إلى الأبد.. ولو شاء أن تحبه إلى الأبد لكان عليه أن يموت إلى الأبد.. على كل حال (مشيرة) شخصية عصبية جدًّا، و(عبير) الآن تدرك هذا[13].. إنها تشعر بالغل يتسرب إلى أعماقها وتشعر أنها لا تطيق شعر رأسها إلا أن انتزاعه عسير نوعًا.. إنه ضيق الخلق الشبيه بما تشعر به النساء فى سن الإياس عندما تنضب الهرمونات الأنثوية، لكن هذه - بالله عليك - حالة مبكرة جدًّا!
حينما أفاق (أكرم) من الإغماءة تذكرت شيئًا.. ليس هذا هو (أكرم) الذى ناداها ب. (أميرتى) بل هو الآخر! عندما ركلت باب السيارة كان (أكرمها) يقف على الجانب الآخر! وقد رفعت رأسها لترى (أكرمها) ينظر لها وقد احمرت عيناه غيظًا.. وقال لها وهو يتحسس مسدسه:
- كل هذا الحنان مع رجل غريب يا مدام؟! وأمامى؟
قالت فى حيرة وهى تلقى برأس الرجل على الأرض:
- لقد اختلط على الأمر.. لم أعد أعرف من منكما هو (أكرمى)..
- كلانا (أكرم).. لكن أحدنا فقط هو زوجك..
- يا سلام! وكيف لى أن أعرفه؟
قال وهو يقرع على الباب:
- الذى يقف جوار باب السيارة الأيسر هو من سيقودها.. إذن هو زوجك!
قالت فى غيظ:
- ألا تنوى أن تفسر لى هذا السيرك؟
- نعم لن أفسر.. هذه أسرار عليا تخص المخابرات العلمية..
- لا من حق الجمهور أن يعرف.. لا يمكن إخفاء الأخبار عن الناس..
قال لها كلمة واحدة:
- مصر!
كان يعرف أن هذه هي الكلمة السحرية مع (مشيرة).. فقط يذكرها بأن سرية ما يتعاملون معه مهمة من أجل مصر فتقتنع على الفور، كأنه قد سكب دلوًا من الماء على النار..
- لكن هذه الأخبار.....................
- مصر!!
- ليكن.. لكنى سأعرف كل شيء وسوف نتفق على ما يجب أن يعرفه الناس و......
- مصر!!
ثم إن (أكرم) أيهما؟ فتح لها باب السيارة الخلفى، وقال:
- اركبى.. وسوف أوصلك إلى مكان ما قبل أن أتخلص منك يا مليكتى وأميرتى..

قالت فى غيظ:
- همجي!
وانطلقت السيارة الهمجية فى شوارع القاهرة التي دمرها الاحتلال الفضائى يومًا ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم اللقاء فى مكان لن أحدده لأن السرية مطلوبة هنا..
هناك (رمزى) الذى انتزعوه بصعوبة من عمله كخبير نفسى، حيث يقضى نهاره فى تنويم الناس مغناطيسيًّا محولًا عينيه إلى بئر عميقة، ومتكلمًا بصوت عميق ملىء بالصدى من داخل روحه..
أنتم تعرفون هذه الأمور.. أحيانًا حينما لا ينشغل بالتنويم المغناطيسى يقضى وقته في صفع الفتيات المصابات بانهيار عصبى.. لهذا تضخمت كفه اليمنى بسبب الإفراط فى الصفع..
يعرف قراء السلسلة العلاقات المعقدة بين الأبطال.. لكننا نوجزها فى أن (رمزى) زوج (نشوى) و(نشوى) ابنة (نور).. و(مشيرة) مطلقة (رمزى).. و(مشيرة) زوجة (أكرم).. و(سلوى) تغار من (مشيرة).. وغالبًا (أكرم) يغار من (رمزى).. وغالبا (نشوى) تغار من (مشيرة) لأن زوجها كان لها من قبل..
الآن صارت الأمور أسوأ.. هناك (أكرم) الذى هو زوج (مشيرة) و(أكرم) الذى هو زوج (سلوى) على بعد آخر.. إذن (مشيرة) تمقت (سلوى) كراهية التحريم، و ..... ومن أنا بالضبط؟
على كل حال نؤكد أن (رمزى) كان هنا.. (مشيرة) كانت هنا لأنهم لم يستطيعوا التخلص منها، وهم لا يعرفون طبعًا أنها (عبير) كذلك.. (نشوى) كانت هنا.. (محمود) تائه فى نهر الزمن طبعًا فلن يحضر الاجتماع.. د. (محمد حجازى) كان مشغولًا فى تشريح بعض الفضائيين من كوكب (بلغور).. أنت تعرف أنه يشرح خمسة كائنات فضائية يوميًا فى المتوسط، لكن كائنات (بلغور) بالذات مرهقة فى تشريحها لأن عظامها موجودة فى الخارج، والكبد يشترك مع المخ فى تجويف واحد.. دعك من الرئتين الموجودتين فى القدم والعين الخارجة من المستقيم..
(سلوى) زوجة (نور) كانت موجودة.. وكانت تؤمن يقينًا أن هذا الرجل الذى يدعى (نور) ليس هو (نور) اللطيف المحب..
أضف لهذا الحشد ذلك المقاتل الغامض (طارق).. (طارق) الذى جاء فى البداية ليعمل فى هذه المهنة البسيطة (فنى أشعة) بعد اختفاء (محمود) من السلسلة.. ثم بدءوا يشعرون بأنه خارق القدرات إلى حد لا يثير الراحة فى النفس.. اعتقدوا فى مرحلة من المراحل أنه جاسوس فضائى ثم اتضح أنه مجرد مقاتل قادم من المستقبل، يحمل ذات البصمة الجينية ل (نور).. هكذا خمن القراء أن (طارق) هو حفيد (نور) وابن (نشوى) و(رمزى).. ومن الواضح أنه لن يرى أمه لأنها ستموت.. استنتج القراء كذلك أن مستقبل (رمزى) مشرق.. فهو بالإضافة إلى صفع الفتيات طيلة اليوم وتنويم الناس مغناطيسيًّا، سوف يصبح القائد الأعلى يومًا ما..
قالت (سلوى):
- أنا زوجة (نور) منذ الكتيب رقم 13 وأم طفلته بعد ثلاثة كتيبات.. لن يخدعنى أحد.. عينه لم تعد تلمع بذلك البريق الغامض.. لكنه ما زال يعقد حاجبيه..
- هذا لا يدل على شيء.. الكل يعقد حاجبيه هنا..
هنا أصيبت (نشوى) ابنة (نور) بحالة من الهستيريا فراحت تصرخ:
- تكلموا بالله عليكم! ماذا فعلوا بأبى.. كنت أعرف يقينًا أنه تغير لكن لم أتخيل أن.. آه آه!!
قال لها (أكرم) فى شيء من اللطف:

- يجب أن تتماس. ...
هنا دوت الصفعة إذ هوى (رمزى) على خدها بأعنف ما استطاع.. شهقت ثم هدأت قليلًا وتحسست خدها الذى ينبض بالألم.. أنتم تعرفون عدد الفتيات اللاتى يصفعهن (رمزى) طيلة اليوم.. هذا عد فلكى.. لكنه يرحب دائمًا بصفع امرأة فوق العدد المطلوب خاصة إذا كانت (المدام)..
وعلى كل حال شعرت (مشيرة) / (عبير) بالرضا وقالت من بين أسنانها:
- هكذا يجب أن تعامل هاته الفتيات المائعات..
قال (أكرم ن. ط) فى جدية:
- يا رفاق.. كفانا إضاعة وقت.. إن مهمتنا محددة.. هل هناك بينكم من يعتقد للحظة أن (نور) الذى يتعامل معكم هو (نور) الشجاع النقى بطل التحرير؟
كانت النساء يملكن شكوكهن.. المرأة أكثر حساسية من الرجل فى هذه الأمور وقد اتفقت (سلوى) و(نشوى) على أن هذا الـ (نور) مختلف.. فى أى شيء؟ لا يملكن التحديد.. الأمر يشبه ذلك الاختلاف الطفيف الذى تراه فى ترتيب دفاترك ويدلك على أن هناك من عبث بأوراقك.. لكنك لا تدري كنهه..
قال (أكرم ن. ش) فى لهجة عملية:
- إذن أمامنا مهمتان محددتان.. أولًا يجب أن نتأكد من شكوكنا. ثانيًا يجب أن نتخلص من هذا الـ (نور) الوافد لعالمنا..
قالت (مشيرة) فى حماس:
- يجب أن تعرف الجماهير هذا.. من واجب الإعلام أن....
قال لها (أكرم):
- مصر..
هكذا قررت أن تسكت فى الوقت الحالي..
قالت (نشوى) وهى تبكي:
- ونسترد أبي!!!
فتح (رمزى) فمه ليتكلم..
لكن قنبلة غاز[14] انفجرت وسط هؤلاء..
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..
وفي اللحظة التالية لم يعد أحدهم يدرك ما يجرى من حوله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- البعد العاشر..

بينما هم فى تلك الغيبوبة جاءهم صوت (محمود):
- خذوا الحذر! لقد أعد لكم ذلك الشرير قنبلة منومة.. إنه يريد أن يتخلص منكم مرة واحدة..
كانت (عبير) أول من استجاب فسألته:
- وما جدوى هذا التحذير الآن.. ألا يشبه هذا طوق النجاة الملقى للغريق بعد وصوله على الشاطئ كما يقول (برنارد شو)..
قال فى برود:
- تعرفين أننى لا أستطيع الاتصال بكم إلا وأنتم نيام.. كان لا بد للغاز المخدر أن يفقدكم وعيكم حتى أتمكن من تحذيركم منه!
قالت له:
- شكرًا.. سأبلغ الآخرين بالتفاصيل.. لكن ما هى أخبار مجرى الزمن؟
- سيئة جدًّا.. تعرفين أننى الآن كيان معنوى لا جسد لى.. لهذا لا أستطيع حك ما خلف أذنى وهذا يضايقنى فعلًا.. هل تفهمين التناقض هنا.. لا توجد بيد لى أحك بها.. لكن لماذا أشعر بالحكاك أصلًا؟
قالت له:
- أحيانًا برغم هذا تكون لك قبضة قوية كما حدث فى قصة (الثعابين).. يبدو أن الحالة المادية ليدك تعتمد على مزاجك.. بالمناسبة رأيى الخاص أنها كانت تضحية خرقاء تلك التي قدمتها ل (س - ١٨)..
- بالعكس.. لو كان الموت آتيًا لا ريب، فلنمت فى سبيل من نحب.. لقد صار هذا شعار السلسلة.. وعلى كل حال هذا هو العمل المهم الوحيد الذى قمت به منذ البداية.. تعرفين أن عملى الوحيد كان أن أصاب..
- هل تنوى العودة؟
- هذا يتوقف على الدكتور.. إننى مشتاق إليكم حتى لأتمنى أن تلحقوا بى جميعًا هنا فى مجرى الزمن..
- فأل الله ولا فألك..
وبعد قليل أدركت أنه رحل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما أفاق الجميع أدركوا أنهم مسجونون مجردون من السلاح.. تبادلوا النظرات، هذا ليس سجنًا بل هو أقرب إلى قلب مركبة من نوع ما.. هناك أجهزة على الجدران وفى كل ركن.. وذلك الجو الفضائى (المعقم) البارد الذى يوحى بأنهم فى سفينة فضاء..
أما الأكثر إثارة فهو ذلك الرجل الذى يقف وسطهم وعيناه تلمعان ببريق غامض ملىء بالتصميم.
صاحوا جميعًا غير مصدقين:
- نور!
(نور) يقف وسطهم، وهو (نور) الحقيقى على الأرجح.. أعنى أنه حقيقى بالنسبة لنا.. ففي البعد الآخر (نور) الشرير هو الحقيقى.. أعني أن (نور) الطيب البطل كان هو الواقف معهم..

صاحت (سلوى):
- أنت (نور) زوجى.. عرفت هذا البريق الغامض فى العينين!
التقى حاجباه وقال:
- تمنيت أن تعرفى الحقيقة.. إن هذا الشرير الذى أتى من بُعد آخر استولى على حياتى كلها وسجننى هنا..
- ولم ينقذك س - ١٨؟
- لا بد أن طاقته انتهت.. هؤلاء المقاتلون الأطلنطيون يفرغ شحنهم بسرعة.. يبدو أن رطوبة الجو....
- هل تعتقد أنه يعمل وحده.. أقصد (نور) الآخر..
- لا.. أعتقد أنه يعمل مع وزير الدفاع..
- ماذا يدعوك لأعتقاد هذا؟
- لا أعرف.. لكن كل وزراء الدفاع فى القصص الأخيرة صاروا متآمرين، ويبدو أن هذا يضفي لمسة (ووترجيتية) على الأمر.. إن نظرية المؤامرة ممتعة دائمًا.. و....
هنا فوجئ الجميع بصوة هولوجرافية تتجسد كالدخان فى القاعة..
كان الواقف هو (نور) ذاته.. (نور) الذى لا تشع عيناه ببريق غامض، وكان يضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
أخيرًا قال بلهجة انتصار:
- لقد وقعتم فى شركى.. الفريق كله قد اكتمل.. والأجمل أن هناك اثنين من (أكرم).. سأتخلص منكم بضربة واحدة..
أخرج (أكرم) مسدسه الهمجى وصاح:
- سأريك أيها الشرير!
وأطلق رصاصة على الصورة فلم يحدث شيء طبعًا..
فقط قال (نور) المجسد فى الصورة:
- هذا هو (أكرم).. عدو التكنولوجيا.. الوحيد الذى يطلق الرصاص على صورة هولوجرافية

ثلاثية الأبعاد.. لقد تركت لك هذا المسدس العتيق لأنه لن يفيدكم أبدًا.. والآن دعني أذكرك أن رصاصة أخرى سوف تهدد حياتكم ذاتها، لأنها ستثقب المركبة.. المركبة التي ستنقلكم آنيًا إلى بعد آخر..
سأله (رمزى) بعد ما صفع (مشيرة) التي انتابتها حالة هستيرية:
- لماذا لا تفجر المكان وينتهي الأمر؟
قال (نور) المجسد فى الصورة:
- أنت تعرف قوانين هذه القصص.. لا بد من طريقة للموت البطيء البارع.. الطريقة التي تسمح لكم بالفرار ومواجهتى ثانية.. لو كنا نتعامل مع الحلول الجذرية العنيفة لانتهت السلسلة كلها بعد خمسين صفحة..
ثم قال بلهجة منتصرة:
- سوف تنتقلون آنيًا إلى عالم آخر، هذه المصيدة التي أنتم فيها جلبتها من البعد الذى أعيش فيه، وقد صممتها مع (مشيرة) زوجتى هناك..
قالت (سلوى) فى غيظ:
- إذن تلك الحدأة ظفرت به على ذلك البعد!
قالت (مشيرة):
- كما ظفرت أنت ب. (أكرم) هناك..! يا لك من قملة!
واصل الطيف الكلام:
- حينما تنطلق هذه المركبة سوف تجدون أنفسكم وسط معضلات لا حل لها.. سوف تجربون مشكلة داخل مشكلة داخل مشكلة.. هكذا للأبد.. هذا موت يشبه أساليب العقاب الأغريقية.. كما حدث مع (تنتالوس Tantalus) وهكذا يخلو لى هذا البعد كى أجمع ما أريد من معلومات، بعدها أعود لعالمى وأستخدم ما عرفت.. لاحظ أن (أكرم) لن يكون فى عالمى وقتها وهذه مزية أخرى..
سأله (نور) المادى الواقف مع رفاقه:
- هل من مزيد من التوضيحات أيها الش. ...
لكن الصورة تلاشت ومعها بدأت الغرفة تهتز..
وتهتز..
وتهتز..
وتهتز..
وتهتز..
ثم تهدأ..
وتهدأ..
وتهدأ..
وتهدأ..
وتهدأ..
وتهدأ..
وتهدأ[15]..
لقد تم الانتقال
إلى ذلك العالم..

العالم المجهول..
المجهول..
المجهول جدًّا..
جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحق أن استقبال هذا العالم الجديد لهم كان صاخبًا..
ما أن انفتحت أبواب الزنزانة التي دخلوها، حتى انهمرت عليهم طلقات الرصاص..
طلقات من كل العيارات والأشكال.. وراحت الجدران تهتز.. والدخان يفعم الجو..
صاح (نور) وعيناه تلمعان ببريق غامض:
- تواروا داخل الجدران!
قال (أكرم ن. ش) فى غيظ:
- لاحظ أننى لا أعتبرك القائد.. بالنسبة لى أنت أشر رجل على ظهر الأرض.. على كل حال يبدو أن هذه الطلقات قادرة على اختراق الجدار..
صاحت (مشيرة) فى رعب:
- إذن ماذا نفعل؟
فى هذه اللحظة ظهر ذلك العملاق المخيف قادمًا من لا مكان.. وقف على باب الزنزانة غير مبال بالطلقات المنهمرة عليه، وراح يطلق النيران من بندقية الليزر التى يحملها.. يطلق ويطلق.. كلما أطلق أكثر راح عدد الطلقات المهاجمة يقل.. وفي النهاية صمتت تمامًا..
يبدو أنه أباد جيشًا كاملًا..
وصاح (نور) فى جزع:
- يا للبشاعة! إن هذه جريمة قتل! كان يجب أن يتركهم أحياء!
لكن الآخرين لم يروا هذا الرأى..
هتف (أكرم ن ط) فى حماس:
- س - ١٨.. دائمًا تأتى فى الوقت المناسب..
وقال (أكرم ن ش):

ـ « لكنه تأخر بعض الشيء .. لو كان فعالاً لجاء قبل نصل هنا .. »

ـ « هذا لأنه لا يريد إفساد القصة .. إنه يتدخل بالقدر

فرد المقاتل:
- (س - ١٨) فى خدمتك يا سيدى..
وتوارى مبتعدًا....
قال (نور) فى ضيق موجهًا كلامه ل. (أكرم ن. ش):
- لو كنت تعرف شيئًا عنا لعرفت أن س - ١٨ لم يعد بحاجة إلى تلقى المعلومات بالهيروغليفية.. لقد صار بوسعه فهمى.. ثم إنه لم يطعك أنت.. إنه مبرمج على صوتى..
ثم قال كالحالم:
- فى كل مرة يثبت س - ١٨ أنه الإله من الآلةMachina Deux ex فعلًا.. مهما تعقدت الأمور يظهر لينقذنى.. إنه يلعب نفس دور (فهد) فى قصص (فارس الأندلس) التي أقرؤها قبل النوم.

- لكنه تأخر بعض الشيء.. لو كان فعالًا لجاء قبل أن نصل هنا..
- هذا لأنه لا يريد إفساد القصة.. إنه يتدخل بالقدر الكافى فقط.. حينما تدخل فى (سادة الكون) أثار غيظ القراء.. لهذا يبقى بعيدًا عن الأحداث بمسافة كافية ويراقب..
قالت (سلوى):
- واضح أن هذه المغامرة أخطر ألف مرة من كل ما واجهناه معًا..
- كيف عرفت؟
- لا أدرى.. فى كل مرة تكون مغامرتنا الحالية هى الأخطر.. لا بد أن هذا هو الحال الآن..
وفي هذه اللحظة فوجئ الجميع بمجموعة من الجنود يشهرون الأسلحة فى وجوههم..
كانت نظرة واحدة إلى الخوذات المعدنية والمعاطف والشارات المعلقة على الصدور، والتى تظهر صلبان القوات البرية النازية كافية جدًّا كى يعرفوا أين هم..
وهتف (نور) وهو يشد شعره:
- تااااااااااانى!
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- دويتشلاند أوبرأليس!

يعرف قراء السلسلة أن د. (نبيل) متأثر جدًّا بفترة الاحتلال النازى لأوروبا، وقد سبق لذات الفريق أن واجه أرضًا أخرى انتصر فيها (هتلر) فى الحرب العالمية.. هذه الأرض عبروا إليها عن طريق (مثلث برمودا) طبعًا.. إن مثلث برمودا يصلح بوابة للعبور إلى أى شيء، كما تلعب الدور ذاته ثغرات (جانب النجوم) فى سلسلة (ما وراء الطبيعة).. هناك رواية أخرى اتضح فيها أن (هتلر) مجمد بانتظار العودة.. دعك من (فارس الزمن) الكتيب رقم 117.. ومواجهة الجنرال النازى اليهودى (فردريك هولدشتاين) فى باريس المحتلة..

يجب أن نعترف هنا أن العبور للأبعاد الأخرى لم يكن عن طريق مثلث (برمودا) طيلة الوقت.. أحيانًا ما تم عن طريق مرآة مهجورة فى قصر مخيف[16]، وأحيانًا عبر إطار مفرغ يثبون عبره[17] وأحيانًا عبر كهف فى جبل (عتاقة)[18] أو مرض يصيب (نور) ليرى العالم فى صورة سلبية (نيجاتيف)[19] (ذكرونى أن أقرأ هذا الكتيب الأخير.. واضح أنه تحفة!)..

نعود لحبكتنا الرئيسية التي أفسدها باستطراداتى الأبدية..

هكذا وجدنا أنفسنا فى قيادة نازية يعلو بابها صليب (سواستيكا Swastika) المعقوف الشهير المنذر بالويل.. أقوى رمز بصرى يدل على الشر والعنف قبل أن تحل نجمة (داود) محله بالنسبة للعرب..

الحراس المتخشبون فى كل مكان.. والعلم الرهيب يرفرف.. ورجال الـ SS يهرعون ذات اليمين واليسار.. وتبادل الرفاق النظرات..

عقد (نور) حاجبيه وقال:

- هذه هى القيادة العامة.. ويبدو أنها تقع فى (برلين) ذاتها.. كان الطبيعي أن يقتلونا على الفور، لكنهم الآن فى حيرة بسبب ظهور (س - 18).. إنهم لا يعرفون ما يحدث ولا من نحن..

سأله (أكرم) فى انبهار:

- إذن أنت تجيد الألمانية فى هذه القصة يا (نور)؟

- نعم.. أنت تعرف أنني أحيانًا أجيدها كما فى القصة رقم 23 (بصمات السحرة) وأحيانًا أجهلها كما فى القصة رقم 39 (الثلوج الساخنة).. هذه الأشياء تحدث..

قال (أكرم):

- نفس الشيء يحدث معي كثيرًا.. أحيانًا أجد نفسى أجيد الإنجليزية كما فى القصة رقم 109 (الدوامة)، وأحيانًا أجهلها كما فى القصة رقم 118 (ألف عصر)..

- كلنا ذلك الرجل..

والحقيقة أن أخطاء كهذه لابد أن تحدث لأن الأمر لا يتعلق برواية تنتهى ويبدأ غيرها، ولكنه عالم متداخل مضفر بعناية.. لو أردنا الدقة لقلنا إنه رواية واحدة عملاقة من حوالى أربعين ألف صفحة ومائة وخمسين فصلًا.. مهما حدث لا بد أن تفلت بعض التفاصيل لأن الكمال لله وحده..

كانت هناك عدة أسئلة.. أولًا هل هذا بعد آخر فعلًا أم هى مجرد عودة للماضى.. ثانيًا لو كان هذا بعدًا آخر فهل (هتلر) ما زال حيًّا؟

الإجابة على السؤالين كنت فى غرفة القائد الذى اقتادوهم إليها.. على الجدار كانت صورة (هتلر) شابًّا ينظر بعينه النارية إلى القادمين فى شك.. تقويم الجدار يقول إن هذا هو العام 2050

همس (نور) وهو يعقد حاجبيه:
- الأمر واضح.. نحن لم نعد للماضى.. هذا بعد آخر بالفعل حيث ما زال (هتلر) حيًّا..
هذه من جديد تيمة (لقد انتصر هتلر).. كانوا يتوقعون أن تكون لدى (نور) الشرير أفكار أفضل..
هناك كان ذلك القائد جالسًا إلى مكتبة وقد بدا عليه الملل.. المونوكل فوق عينه وهو يدخن سيجارًا غليظًا وخلفه العلم النازى العملاق..
تقدم (نور) فى تصميم ووقف أمام الرجل وعيناه تلمعان..
قال له القائد بألمانيته الشبيهة بطلقات المدافع:
- زى فيردن شبرخن.. دويتشهد أوبر أليس..
التمعت عينا (نور) وقال:
- ليس لدينا ما نقول..
عقد القائد حاجبيه وقال:
- أنا الجنرال (فون رونشتات) قائد (برلين).. ومعنى هذا أنك ستتكلم..
في ثقة قال (نور):
- أنا الذى أريدك أن تتكلم.. أولًا ما معنى أن (هتلر) حى فى هذا العالم!
قال الجنرال فى غيظ:
- أنا الذى أوجه الأسئلة.. إن المستشار (أدولف هتلر) الثالث لن يسمح بتواجد غرباء فى أهم مناطقنا العسكرية..
ثم مضغ السيجار فأشعله له جندى حراسة بقداحة[20] عملاقة.. واستطرد:
- أولًا ما هذه المركبة العجيبة التي جئتم بها.. ثانيًا من هذا الشخص الذى يبدو كعفريت أخضر الذى قتل رجالى ثم اختفى؟
الحقيقة هنا أن كلمة (أخضر) هى الكلمة الأكثر استعمالًا فى هذه السلسلة.. كل شيء أخضر.. عامة الأخضر رمز الشر ما لم يكن سترة (نور) أو عينى (س - 18).. كل الفضائيين لونهم أخضر وبحراشف ربما باستثناء بعض المرات القليلة، فسادة الأعماق خضر بحراشف، وسكان (جلوريال) خضر دون حراشف، أما سكان البركان فلهم حراشف لكنهم ليسوا خضرًا..
قال (نور) فى ثقة:
- لماذا لا تخمن قليلًا؟
ضرب القائد المنضدة وقد نفد صبره.. نهض إلى (نور) وقرب وجهه منه ثم وضع السيجار تحت ذقنه، وقال ككل النازيين فى القصص:
- لدينا طرق تجعلك تتكلم..
هنا بحركة بهلوانية لوى (نور) ذراع الرجل، ثم مد ساقه ليوقعه على الأرض، ثم دفن كعب حذائه فى كتفه.. وقبل أن يفهم هذا ما حدث كان (نور) يوجه له سيف يد.. ثم خنقه من ياقته.. ثم ضرب رأسه فى الأرض عدة مرات، ثم انتزع منه السيجار وأطفأه فى يده، ثم شد أذنه ولواها.. كان بوسعه أن يحطم عنقه لكن (نور) لا يقتل كما نعرف..
كل هذا قبل أن يتحرك الحارسان الواقفان..
وفي اللحظة التالية أخرج الحارسان بندقيتيهما وصوباهما نحو فريق (نور).. وبدا أنهما موشكان على الإطلاق.. من ثم نهض (نور) رافعًا ذراعيه وقال بصوت عال:
- أستسلم.. هل فهمتما أيها الوغدان؟ أستسلم..

نهض الجنرال من على الأرض وصاح فى غل:
- خذوهم وعذبوهم.. أريد أقذر معاملة ممكنة!!
هنا وثب (أكرم) مندفعًا نحو أحد الحارسين، فصاحت (مشيرة):
- تعقل! يا لك من همجي!
ضربه أحد الحارسين بالدبشك فى ذقنه فسقط على الأرض فاقد الوعى..
هرعت (مشيرة) تحتضنه وتبكى.. طبعًا قبل أن تدرك أن هذا ليس (أكرم ن ط) بل (أكرم ن ش) الذى هو زوج (سلوى)..
قال الجنرال وهو يجفف وجهه الغارق بالدم:
- خذوا هؤلاء الأوغاد بعيدًا! أريد واحدًا من (الجشتابو) لاستجوابهم!
كان غاضبًا بحق..
بشدة..
بعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألقوا بهم فى زنزانة ضيقة كريهة الرائحة. ومن الزنازين الأخرى كانوا يسمعون صرخات أولئك الذين يتم تعذيبهم.. تعذيب النازيين يختلف طبعًا عن التعليق على (العروسة) والجلد والحرق بالكهرباء وإطلاق الكلاب عليك، وانتزاع الأظفار وإطفاء لفافات التبغ فى بطنك.. كل هذا نوع من الترفيه بالنسبة لتعذيب النازيين..
قال (رمزى) فى الظلام:
- أين ذهب (س زفت) هذا..
قال (نور) وعيناه تلمعان ببريق غامض:
- أعتقد أنه يعيد شحن نفسه..
للمرة الأولى وجدت (مشيرة) / (عبير) وقتًا تدقق فيه فى (نور) الذى طالما قرأت مغامراته لكنها لم تلقه من قبل.. واعترفت لنفسها بأنها محظوظة لأنها الفتاة الوحيدة فى العالم التي قابلت (أدهم صبري) ثم (نور).. لكن هل هو نسخة أخرى من (أدهم).. الواقع أن الإجابة (لا).. (نور) أكثر مثالية وتخشبًا وذكاء من (أدهم).. (نور) لا يقتل أبدًا ربما إلى درجة تثير الغيظ.. تصور أن عنكبوتًا عملاقًا فى (ظلال الفزع) يوشك على افتراس حبيبتك لكنك لا تقتله لأنك تكره القتل.. وحينما قتل بعضهم فى (مثلث الغموض) أصابه انهيار عصبى.. وهو بهذا يتصرف مثل شخصية (سوبرمان) التي لا تقتل ابدًا.. بالإضافة لهذا لا يملك (نور) روح الدعابة الواضحة لدى (أدهم).. إن المسألة أذواق.. لكنها إلى حد ما تفضل (أكرم) فهو يبدو أكثر آدمية ولا يعقد حاجبيه كثيرًا.. لحسن الحظ أنه زوجها..
قال (أكرم):
- إنهم أغبياء.. لا بد أنك تحمل فى ساعتك ما يكفي لتدمير هذا السجن.. لقد رأيناك من قبل تخرج منها كاميرا وجهاز تسجيل وغسالة (فول أوتوماتيك) ومنطادًا ومعجلًا نوويًا[21]..
قال (نور) وهو يعقد حاجبيه:
- فعلًا.. لكن نهرب من هنا إلى أين؟ يجب أن نعرف أين نحن ومن نحن ولأين نذهب.. السجن كبير بالخارج..
هنا سمعوا من الزنزانة المجاورة من يتكلم..

صرخت (نشوى) فى رعب:
- هناك أحدهم..
قال (نور) وعيناه تلمعان ببريق غامض:
- هذه هى التقاليد.. نزيل الزنزانة المجاورة يعرف كل شيء وسوف يخبرنا بطريقة الهرب.. هذه هى التقاليد منذ قابل (فاريا) (دانتس) فى السجن.. قبل أن يصير اسمه الكونت (دى مونت كريستو)..
من الزنزانة الأخرى سمعوا الرجل.. كان منهكًا لكنه يتكلم بفرنسية جيدة.. وقد راح يسعل ربع ساعة قبل أن يقول:
- لن تهربوا! لا أحد يهرب!
قال (أكرم) فى غيظ:
- لو كنت تبذل كل هذا الجهد لتخبرنا بهذا فأنت رجل بلا مشاغل حقيقية..
أوقفه (نور) بإشارة حازمة من يده وسأل الرجل:
- من أنت؟
- أنا (جان بول جان).. عالم فرنسى.. يعتقلنى النازيون منذ ثلاثين سنة..
- ولم تنس الكلام بعد.. هذا رائع..
- إن (هتلر) الثالث يسيطر على كل شيء لكنه موشك على الموت.. وهم يستعدون بالرابع الآن..
قال (نور) وعيناه تلمعان فى ذكاء:
- واضح أنك تتكلم عن استنساخ..
قال الرجل منهكًا:
- طبعًا.. استنساخ.. نسيج من (هتلر) الأصلى يستخدمونه لصنع (هتلر) جديد.. إن هذه المستنسخات تتلف بعد أربعين عامًا، لذا يستعدون بنسخة أخرى قبل أن تتلف الأولى.. إنهم قد ربوا شابًا فى العشرين من عمره الآن هو نسخة من (هتلر) فى كل شيء.. ويوم يموت (هتلر) الثالث سيكون (هتلر) الرابع مستعدًّا لقيادة الحزب..
قال (نور) وعيناه تلمعان فى غموض:
- توقعت هذا.. هذا عن الجينات فماذا عن البيئة؟
- لا بد من أن تعيش النسخة الجديدة فى ذات الظروف.. لابد من أن يسمع أن أبويه ماتا، وأن يعمل نقاشًا ورسامًا معدوم الموهبة، وأن يحارب فى حرب تشبه الحرب العالمية الأولى، ولابد أن يضم للحزب النازى وأن ينظم انقلابًا فاشلًا اسمه (انقلاب قاعة البيرة) يسجن بعده.. ولا بد أن يكون معه فى الزنزانة من يدعي البروفسور (هاوسوفر)..
بالصدفة كانت هذه بالضبط حبكة قصة شهيرة جدًّا من قصص الخيال العلمي للكاتب (إيرا ليفين ira Levine) هى (الأولاد من البرازيل) حيث كان يتم إعداد نسخ (هتلر) فى البرازيل..
قال (نور):
- كل هذا جميل ولكن ما دخلك بهذا؟
قال العالم وهو يسعل:
- الموضوع هو أننى أستطيع وقف هذه المأساة.. لقد استطاع عملاء المقاومة الفرنسية الوصول إلى النسيج الذى تؤخذ منه تلك النسخ منذ عشرين عامًا، ودسوا عليه نسيجًا آخر.. كان لابد من ترك شيء حتى لا يجن جنون النازيين..

قال (أكرم) فى همجية:
- لا أفهم هذه التفاصيل العلمية الدقيقة لأننى همجى كما تعلمون.. لكن يبدو لى أن هذا هو النجاح بعينه.. لقد أفسدوا التجربة..
عقد العالم حاجبيه وسعل وقال:
- ليس كما تظن.. إن النسيج الذى دسه رجال المقاومة كان جزءًا فى حجم الظفر من نسيج حى وجدوه فى المرج أثناء تسللهم للمختبرات.. وهم لا يعرفون أنها بقايا صرصور!
هنا شهقت (مشيرة) وشهق (أكرم) أما (نور) فقد كان يتوقع هذا..
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الفرار..

عقد الدكتور (يوسف منجيل) الثالث حاجبيه وهو يراقب (أدولف هتلر) الرابع أثناء التهام طعامه..
كان يشعر بأن تجربة الاستنساخ هذه المرة لا تسير على ما يرام.. هذا الشيء يتصرف بطريقة لا تروق له كثيرًا..
إن (يوسف منجيل) شخصية واقعية - وإن جعل منه اليهود أسطورة تشبه أساطير مصاصي الدماء - لكننا نتكلم عنه فى هذا العالم الغريب..
بالإضافة لهذا كانت لديه من الأسباب ما يدفعه إلى القلق..
لقد قدم منذ أيام أوراقه وطلب الانضمام إلى نقابة العلماء المخابيل، وهى نقابة مهمة فى هذا العالم.. لا بد من أن يملأ استمارة تسأله عن مدى حقده على العالم.. مدى كراهيته للأطفال والكلاب الصغيرة والقطط والزهور. ثم يقدم براءة اختراعه المدمر للبشرية..
كان هناك مجموعة من العباقرة فى النقابة منهم ذلك الذى اخترع الضوء الأسود - القصة رقم 24 - والذي طور عقارًا يجعل البشر ذوى قوى خارقة - القصة رقم 44 - والذي وضع عدسة عملاقة أمام الشمس ليجعل أشعتها زرقاء – القصة رقم 66 - والعالم الذى فقد الطبقة الخارجية من جلده ليعيش فى الظلام - القصة رقم 71 - والعلماء الذين حاولوا استخدام مخ (نور) أثناء وقوعه فى غيبوبة فى القصة رقم 61.. (ذكرونى أن أقرأ هذه القصة رقم 71 فهي تبدو شائقة!!)..
لكنه ما زال قلقًا.. أين هو من هؤلاء العباقرة؟ إنه أجرى تجارب مروعة على البشر، لكنه لم يصل إلى هذا المدى المذهل من العلم بعد...
بالإضافة إلى أن القلق يساوره على تجربة الاستنساخ الجديدة..
وقد انتظر حتى انصرف (هتلر) الشاب لينام، ثم نادى أحد الحراس..
كان هذا المختبر الضخم يقع فى (شتوتجارت).. وقد تم تصميمه على مساحة شاسعة من الأراضى بحيث تم بناء مدينة كاملة تشبه (برلين) فى ثلاثينات القرن العشرين.. كانت هناك اجتماعات لحزب العمال الاشتراكى الحروف الأولى تصنع كلمة NAZI - وكانت هناك قاعة بيرة، وقد دارت منذ أعوام حرب تمثيلية تشبه الحرب العالمية الأولى، وقد أرغم الشاب (هتلر) على أن يرى استسلام بلاده بشروط مهينة فى عربة القطار إياها.. وقبل الحرب اختاروا له مهنة نقاش..
جلس (منجيل) يتحسس وجهه الصارم الوسيم وسأل الجندى:
- فى البالوعة؟
ضرب الجندي كعبه فى الأرض وقال:
- نعم يا سيدى..
- رأيته يحاول أن يدخل رأسه فى البالوعة؟
- هذا ما حدث يا سيدى..
- غريب!
وعقد حاجبيه مفكرًا..
هناك ذلك الولع الغريب لدى (هتلر) الشاب بالتهام كميات هائلة من السكريات.. ثم تلك

الرائحة الغريبة التى تفوح منه.. دعك من محاولاته المضحكة للمشى على الجدار.. وذلك الخوف الغريب من أي حذاء أو خف..
هناك شيء خطأ.. حتمًا هناك شيء خطأ..
لابد أن يراجع مسار التجربة ويجرى خارطة جينية دقيقة لهذا الفتى الذى يوشك على أن يصير السيد..
سيد الرايخ..
الرايخ..
رايخ..
ايخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (مشيرة) ما زالت تصرخ، وفقدت (سلوى) وعيها.. هنا هب (رمزى) يصفع (مشيرة) لتفيق.. وخطر ل. (عبير) أنها ستفقد نصف أسنانها فى هذه المغامرة لو استمر مسلسل الصفعات هذا..
أحاط (أكرم ن ش) كتف (سلوى) بيده لتفيق، فوجه له (نور) لكمة قوية وصاح:
- لا تلمس زوجتى أيها الهمجي!
قال (أكرم) معتذرًا:
- آسف.. أنت تعرف أنها زوجتى فى عالمى.. أنسى الوضع من حين لآخر..
وصاحت (مشيرة) / (عبير) مغضبة:
- إياك أن تلمس هذه الحدأة!
- معذرة.. لكنك لست زوجتى فى عالمى!
قال العالم الفرنسى وهو يسعل ويموت:
- دعكم من هذا الهراء.. الآن أنتم تعرفون خطورة الوضع.. هناك صرصور آدمى سوف يسيطر على العالم.. نحن لا نعرف مكانه ولا أين نجده لكن اللحظة آتية حتمًا حينما يصير قائد الرايخ.. يمكن تخيل ما سيحدث مع كل ما يملكه من قنابل (جاما)..
هتف (نور) فى رعب:
- قنابل (جاما)؟ هل يملكها؟
- نعم.. لقد ربحوا الحرب العالمية الثانية لأنهم توصلوا إلى القنبلة الذرية قبل الأمريكيين، وبعد هذا جاء دور القنابل الهيدروجينية والنيوترونية ثم الأيونوبروتينية ثم قنبلة (جاما).. الأخيرة لم تجرب قط فى هذا العالم.. لكن يمكن تخيل الأمر كله.. صرصور يملك قنبلة (جاما) فهل يترفع عن استعمالها؟
قال (نور) ل. (أكرم):
- هل تذكر قنبلة (جاما)؟
ابتسم (أكرم) فى حنين.. تلك كانت أيامًا لن تعوض، وقد كانت سبب لقائه ب. (نور).. عندما فجر الغزاة قنبلة (جاما) على كوكب الأرض فقضوا على حضارتها.. حينما صار أكل لحوم البشر هو السبيل الوحيد للحياة.. لسبب ما يصر كل كتاب الخيال العلمى على أن القنبلة التي ستزيل الحضارة هى من نوع (جاما) وليست (ألفا) أو (بيتا)، وفى قصص (سوبرمان) القديمة كانت قنبلة (جاما) هذه وهى تشبه ثمرة التين نوعًا تنفجر فى الناس فيتحولون إلى رجال كهف مشعرين

بجبهات ضيقة وعيون صغيرة غائرة وفكوك بارزة..
قال (نور) فى تصميم:
- لن يحدث هذا.. لا بد من منعه.. قل لى ما يجب عمله..
قال العالم وهو يسعل ويموت:
- يجب أولًا أن تخرج من هنا.. هذا القرص يحوى كل شيء عن آلة الزمن التى اخترعتها أنا.. مهمتك أن تعود عبر الزمن لتمنع الثوار من هذه الخطوة الحمقاء.. ربما كان الأكثر حكمة أن تتخلص من النسيج كله..
هتف (أكرم):
- ولماذا لا نعود أبعد من هذا فنمنع انتصار النازيين؟ ولماذا لا تمنع مجيئنا هنا أصلًا؟
صاح (نور):
- معنى هذا أن تنتهي القصة الآن..
قال العالم وهو يسعل ويموت:
- هذا هو كل ما عندى.. خذ القرص وحاول أن تستوعب ما به جيدًا.. بعد هذا عليك البحث عن المختبر العملاق الذى يجرون فيه تجارب الأنسجة.. تسلل إليه واعمل على أن تسرق النسيج أو تمنع خلطه بنسيج الصرصور.. يجب أن تفهمنى.. ربما استطعنا استرداد حريتنا يومًا ما لكننا لن نستعيد حضارتنا أبدًا لو ضاعت منا.. والآن وداعًا!
ثم مات بعد ساعة لم يكن فيها عن الثرثرة، وقد تساءلت (عبير) عما كان سيحدث لو تأخروا فى الوصول إلى الزنزانة ساعة أخرى.. لا بد أنه كان سيموت كمدًا..
قالت (مشيرة) / (عبير):
- يا حرام؟ لقد مات..
قال (رمزى):
- بعد ما ترك لنا تراثه الفكرى.. هذه هى التقاليد.. لقد مرر رسالته وانتهى دوره..
هب (نور) مسرعًا وهتف:
- يجب أن نتخلص من هذا ال ....
لكنه تعثر وسقط أرضًا..
في هذه اللحظة ظهر تلك العملاق المخيف قادمًا من لا مكان.. وضع البندقية على الأرض ثم تفحص قدم (نور) بعينيه الخضراوين، ثم ضغط على بعض الأزرار فى ذراعه.. وبدقة وبراعة راح يفك رباطى الحذاء اللذين اشتبكا معًا فى عقدة يصعب فكها.. تنهد (نور) فى (ارتياع) وقال:
- س - ١٨.. دائمًا تأتى فى الوقت المناسب.. لقد فككت لى عقدة رباط الحذاء..
فرد المقاتل:
- (س - ١٨) فى خدمتك يا سيدي..
ربت (طارق) على ظهره شاكرًا بينما توارى العملاق مبتعدًا....
قال (رمزى) فى ضيق:
- ألم ير فى كل متاعبنا هذه ما يستأهل التدخل إلا لفك عقدة الحذاء؟
قال (نور) فى ثقة:
- كان هذا يمنعنا من الهرب.. والآن صار الهرب متاحًا..
قال (أكرم ن. ط) وهو يحك ذقنه:
- غريب أن ترى رجلًا آليًا يقوم بالضغط على أزراره ليؤدى عملًا ما؛ أى أنه يأمر نفسه.. لماذا لا

يفعل ما يريد مباشرة؟
قال (نور):
- كفاك سخفًا.. أنت مهندس جيولوجى ولا تفهم هذه الأمور كما يفهمها ضابط شرطة مثلى!
فجأة اتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و (نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر (أكرم) إلى النساء وصاح فى غيظ:
- ما هى المفاجأة هنا؟ لا يوجد شيء..
قالت (عبير) التي اكتسبت لباقة بحكم كونها مراسلة:
- هذا هو أسلوب ال (Cliff hanger) الشهير حيث ينتهى كل موقف بلحظة توتر عارم قبل الانتقال إلى الموقف التالى.. إنه أصلًا يستعمل للحلقات التليفزيونية حيث نندهش ثم يأتى إعلان قصير، ثم نواصل معرفة سبب دهشتنا..
- أعرف هذا كله.. لكن ما سبب دهشتكما إذن؟
- لا يوجد سبب.. فقط لا بد من موقف مذهل.. فإن لم يوجد اختلقنا واحدًا.. لا يمكن الانتقال لموقف آخر من دون أن نصرخ.. والآن لا بد من أن نبدأ من جديد فقد أفسدت التشويق علينا..
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغ ابن الشيطان (بعلزبول الصغير) من حلاقة ذقنه أمام المرآة.. وابتسم..
لقد مر زمن طويل منذ واجه فريق (نور).. سليل (أوزيريس) الذى ضايقه وهزمه مرارًا..
اليوم حانت لحظة الانتقام.. إن (نور) تحت رحمته الآن وليس عليه إلا أن....
وبدأ الشرر يتطاير من أظفاره وعينيه..
سوف يكون المرح تامًّا.. هذه المرة لن يخدعه (نور) بتلك الحيل الأرضية الرخيصة.. سوف..
هنا سمع ذلك الصوت المميز الرنان يقول له:
- عد إلى قرصك يا (لوسيفر).. فلا دور لك فى هذه القصة!
قال غير مصدق:
- لكن يا د. (نبيل)....
- قلت لك إنه لا دور لك هنا.. عد إلى قرصك!!
هكذا وقف (بعلزبول) ينظر إلى المرآة فى غباء..
ثم انفجر باكيًا..
الكل يقسو عليه.. الأبالسة لا تعتبره منها، والبشر لا يعتبرونه منهم.. وقنبلة (جاما) لم تحقق

النتائج المرجوة..
إنها لحياة غير عادلة..
لكنه سيجد حلًّا للاشتراك فى هذا المهرجان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (نور) للأصدقاء بعد ما انتهى (رمزى) من صفع النساء لمنعهن من الانهيار العصبى:
- أعتقد أن علينا أن نضع خطة من عدة مراحل.. المرحلة الأولى هى الخروج من هنا، والمرحلة الثانية هى إنقاذ هذا العالم.. عن طريق تدمير النسيج لمنع (هتلر) من التجدد باستمرار..
قال (أكرم):
- خطة محكمة.. لكنك لم تقل كيف نخرج من هنا..
نظر لهم (نور) ولمعت عيناه فى غموض.. ثم قال:
- الجواب سهل.. ألم تفكروا فيه؟
تبادلوا النظرات.. وأدركت (سلوى) أن أى شك فى كون هذا زوجها قد تلاشى.. هذه هى طريقة (نور) فعلًا..
قال (أكرم):
- قلت إنك ستستعمل ساعتك لتفجر السجن..
قال (نور) فى غموض:
- لا..
- هل ستتصل بكوكب (أرجوران) لتطلب من (بودون) أن يصغرنا إلى حجم عقلة الأصبع لنخرج من هنا؟
قال (نور) فى غموض:
- لا.. ثم إنه قد مات أثناء الاحتلال..
(بودون) هو عدو الفريق الذى صار صديقًا حميمًا لـ (نور) فيما بعد.. عندما كانوا فى سجن (أرجوران) حدثت مصادفة من المصادفات الجميلة فى الحياة.. تصور أنك سجين على كوكب آخر وتجد (س - ١٨) بتذات ملقى وسط المهملات فى مخزن.. هكذا أنقذهم وبعد مغامرات عديدة صار عدوا الأمس صديقين..
تساءلت (نشوى):
- تطلب (س - 18)؟
قال (نور) فى غموض:
- لا.. إنه يعيد شحن بطارياته الآن..
هتفت (مشيرة) فى دهشة:
- إذن ما الحل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق الأصدقاء يجرون محاولين تجنب الحراس المحيطين بالسجن..
كيف هربوا؟ هذه تفاصيل لا تهمنا هنا.. المفترض أن تركز القصة فقط على ما هو مهم أو مفيد.. لن أدخلك فى تفاصيل معقدة.. المهم أنهم هربوا وغادروا السجن الرهيب..
أخيرًا تمكنوا من التوارى فى إحدى الغابات الألمانية، حيث لا صوت إلا صوت السناجب....

كانوا يلهثون، لكنهم يشعرون بالرضا..
قال (رمزى) وهو يجفف عرقه:
- لا بد من أن نجد هذه المركبة اللعينة التي جاءت بنا هنا..
نظر له (نور) وابتسم فى غموض وقال:
- من قل لك إنها معدة للعودة بنا؟ لو أراد (نور) الشرير التخلص منا فلابد إنه تأكد من أنها تذكرة بدون عودة[22]..
اتسعت عينا (نشوى) فى رعب وصرخت:
- أى أنها تذكرة بدون عودة!
- أنا قلت ذلك..
- ومعناها أن نظل للأبد فى عالم يحكمه النازيون..
وكانت موشكة على الدخول فى هستيريا لولا أن صفعها (رمزى)..
قال (نور):
- أعتقد أن تلك الخبيث أعد لنا مخرجًا ما.. لكنه ليس المركبة..
ثم مد يده وتفحص القرص.. لم يفهم ما هو فقالت (نشوى):
- هذا قرص (إبسلون).. كل قرص عليه جهاز كمبيوتر مصغر خاص به بحيث لا تحتاج إلا إلى تدفئته قليلًا كى يعمل.. لقد رأيت مثله فى معرض الاتصالات الأخير فى كندا..
قال (أكرم) فى حيرة:
- غريب أمر هذه التكنولوجيا المتوافقة فى كل الأبعاد..
والحقيقة أن هذا يحدث كثيرًا.. فى فيلم (يوم الاستقلال) تسلل البطل (جيري جولدبلوم) اليهودي العبقري – طبعًا - إلى سفينة الغزاة، وتمكن من توصيل (اللاب توب) الذى يحمله بكمبيوتر الغزاة لسرقة فيروس خاص بهم.. لا أعرف تفاصيل توافق النظم بين الكواكب، لكنه بالتأكيد لم يجرب عذابنا فى البحث عن وصلة مفاتيح أو كابل طابعة يمكنهما أن يتوافقا مع جهازك.. ومعنى هذا أن غزاة الفضاء يستعملون نفس نظم التشغيل وذات الأجهزة المتوافقة[23]
..
المهم أن (نشوى) قامت بتدفئة القرص بين كفيها بعض الوقت، ثم جرت أصابعها على أزرار الكمبيوتر بسرعة أكبر.. وأكبر وسرعان ما ظهرت نسخة هولوجرافية من ذلك العالم الفرنسي الذى مات منذ دقائق.. فشهق الجميع فى انبهار..
قال العالم الفرنسي:
- هربتم إذن؟ هذا جميل.. سيكون عليكم أن تغيروا ملامحكم قليلًا لأن الآلة التي أتكلم عنها موجودة فى قرية جنوب فرنسا..
قالت (مشيرة) فى دهشة:
- المفترض أنه سجل هذا كله منذ أعوام.. فكيف يخاطبنا إذن؟
قالت (سلوى):
- هذا برنامج ذكاء صناعي يغير التسجيل حسب الظروف الجديدة.. لقد رأيت مثله فى معرض نظم المعلومات الأخير فى (دبي)..
قالت الصورة الهولوجرافية:
- هل ستخرسون أخيرًا أم أصمت؟
قالت (مشيرة) فى انبهار:

- بل إن من برمجوه أعطوه مزية قلة الأدب كذلك.. إن العلم لن يتوقف عند حد..
- إن برامج الوقاحة الصناعية متقدمة جدًّا منذ زمن..
عادت الصورة تقول:
- سيكون عليكم السفر إلى باريس.. آلة الزمن مدفونة فى أرض بور خارج القرية.. انظروا إلى هذه الخارطة..
وعلى الفور تشكلت فى الهواء خارطة مجسمة تظهر موضع تلك القرية المحظوظة.. وتألق موضع القرية بضوء (أرجوانى) جميل..
- بالنسبة للأوراق.. يمكنكم التوجه إلى أحد العملاء الألمان هنا.. إنه يعمل معنا.. قولوا له إنكم من طرف (جان بول جان).. كلمة السر هى (الموت للفوهرر)..
قال (أكرم) فى إعجاب:
- كلمة سر ممتازة فعلًا.. غامضة ولا تدل على شيء من نوايانا..
- سأقدم لكم عنوانه الآن.. هذا القرص سيتحلل ذاتيًّا خلال خمس ثوان..
لحسن الحظ أن ذاكرة (طارق) فوتوغرافية لأنه لم ينس أى شيء من هذه التفاصيل... وسرعان ما دوت موسيقا (المهمة: المستحيل).. تلك المقطوعة الرائعة لـ (لالو شيفرن Lalo Schifrin).. وتلاشى القرص...
قال (نور) فى تصميم:
- هذا هو الحل الوحيد أمامنا..
وكان يعرف أن مهمتهم صعبة..
عسيرة..
جدًّا..
إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- خطأ قاتل..

عقد جندى الحراسة النازي حاجبيه وهو يراقب هذه المجموعة من العمال الفرنسيين العائدين إلى بلدهم، فور نزولهم من القطار.. محاطين بالبخار الذى يتصاعد من المحركات..
فى كل مكان كانت صورة (أدولف هتلر) تراقبهم، مذكرة إياهم بعوالم (أورويل) الكابوسية عن الأخ الأكبر الذى يراقبك..
كان الجندي يشعر بعدم راحة، لأن هذه الوجوه لا توحى بالفرنسية على الإطلاق برغم أنها ملوثة بالشحم.. كما أنه لا توجد امرأة شقراء واحدة، برغم أن النسوة لففن شعورهن بالإيشاربات..
قال له (نور) بألمانية ذات طابع فرنسى:
- إذن. هل تسمح لنا بالمرور يا سيد؟
راح الجندي يعيد تفقد أوراق الفرنسيين، ثم اتجه نحو (مشيرة) التي هى (عبير).. وراح يتفحصها فى شك واضح..
ثم التفت للوراء ينادى أحد الرجال:
- (ماير)! كوم هير[24]!
جاء (ماير) وهو يحكم ربط خوذته ويلوك شيئًا فى فمه.. فقال له:
- أنت تجيد الفرنسية.. هلا عرفت من هؤلاء بدقة؟ إن شيئًا فيهم لا يريحني..
هذه هى الورطة.. إن (عبير) لا تذكر من الفرنسية إلا تصريف فعل avoir وهو غير كاف جدًّا لإقناع هذا الجندي بأنها فرنسية..
هنا قال (نور) بفرنسية ممتازة:
- ماذا هناك يا سيدى؟ إن (ميشيل) خرساء.. أرجو ألا تثير رعبها..
نظر (ماير) إلى (عبير) فى شك.. ثم اتجه نحو (أكرم).. ومن المعروف أن (أكرم) لا يتكلم إلا الإنجليزية أحيانًا كما فى القصة 109.. هنا فقط قرر (رمزى) أن يتكلم..
قال للجندي الأول بالألمانية:
- سيدى..
ثم نظر له فى عينيه بعمق.. حول عينه إلى بئر عميقة.. ومتكلمًا بصوت عميق مليء بالصدى من داخل روحه قال له:
- أرجو أن تسمح لنا بالمرور..
هنا هتف الجندي فى ذهول وعيناه لا تفارقان عينى (رمزي):
- لا عليك يا (ماير).. لقد كانت شكوكى خاطئة..
لكن (ماير) ظل مصرًّا.. وفى هذه المرة اتجه نحو (سلوى).. لسبب واضح قرر هذان أن يسألا النساء لأنهن يرتبكن أسرع..
- هل تحفظين تصريف فعل Sourir؟
كانت ترتجف فمد (أكرم ن ش) يده ليعتصر كفها.. هنا همس (نور) فى أذنه من بين أسنانه:
- لو لمست زوجتي مرة أخرى فسوف أحولك إلى كفتة كلاب..
- معذرة.. لا تنس أنها زوجتي فى عالمنا..
فتحت (سلوى) فمها لتتكلم.. لكن الأوان كان قد فات لأن (أكرم) و(نور) قررا أن وقت الخداع

قد انتهى.. انهال واحد منهما بسيف يده على عنق (ماير) بينما سدد الآخر لكمة عنيفة إلى بطنه.. وهكذا لم يجد (أكرم ن ش) بدا من تكرار الشيء ذاته بمساعدة (رمزى) مع الجندي المنوم مغناطيسيًّا.. لا بد أن هذا راق للأكرمين الهمجيين كثيرًا..
ظهر جندي قادمًا وهو ينزع بندقيته من على كتفه، هنا طار (نور) فى الهواء ليسدد له ركلة أطارت البندقية من يده.. ثم سدد له لكمة ألقت به فاقد الوعى....
تنهد (نور) فى (ارتياع) وسأل (أكرم):
- كم تظن عددهم هنا؟
- أعتقد أنهم كثيرون.. لكن الآخرين فى مكتب الأمن..
- إذن فلنبتعد فورًا..
تركوا ثلاثة الجنود راقدين على الأرض وهرعوا يركضون.. هنا دوى صوت من خلفهم:
- هالت[25]!!
تجمدوا فى أماكنهم بينما انطلقت الرصاصات من البنادق الآلية نحوهم.....
وكانت المفاجأة قاسية..
شاملة..
عنيفة..
جدًّا..
بشدة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بما أن التفاصيل لا تهم هنا.. خاصة أنها لن تؤثر فى سرد القصة، فإنه يكفيك أن تعرف أن الفريق فر من محطة القطار.. أنا مصمم على أن يصلوا إلى مكان آلة الزمن ولن يمنعني أى شيء فى سياق السرد من تحقيق هذا.. ألمان يطلقون النار.. سجن.. كل هذا كلام فارغ.. فقط أريد أن أصل إلى هذه النقطة..
كانت هناك دراجات تنتظرهم.. على كل دراجة رغيف خبز عملاق وزجاجة نبيذ بوردو وكاسكيت.. الزى الرسمي للمقاومة الفرنسية.. إن هذا العالم أعد كل شيء.. حتى الخبز كان طازجًا برغم أن هذا كان منذ أعوام عديدة..
وانطلقوا بالدراجات نحو الريف..
نحو تلك القرية التي وصفها لهم العالم الفرنسي...
أخيرًا تمكنوا من إخراج آلة الزمن التى غمرتها الأتربة.. يمكن بشيء من التجاوز أن نقول إنها تشبه كابينة الهاتف العملاقة.. كأن من صممها كان يعرف أنها يجب أن تتسع لهذا العدد..
قال (نور) وهو يدخل:
- أعتقد أنني فهمت كيف تعمل.. هذه ألعاب أطفال بالنسبة لى..
وقالت (نشوى) وهى تدقق:
- هذا نظام كمبيوتر رأيت مثله فى معرض جنيف للذكاء الصناعي..
ثم راحت أصابعها تجرى على الأزرار بسرعة أكبر فأكبر..
وابتسمت وأضافت:
- على كل حال قد صار السفر عبر الزمن شيئًا روتينيًّا بالنسبة لنا.. منذ القصة رقم 43 (ثقب فى التاريخ) وذلك بسبب خطأ فنى.. مرورًا بثلاثية (عبر العصور).. حين قابلنا (خوفو) و(دافنتشي

da Vinci) والنازيين..
واحتشد الجميع بالداخل.. و...
- ألن تخرج كوعك من معدتي؟
- ليس قبل أن تخرج إصبعك من عينى..
- تعال هنا يا (أكرم ن ش) ولا تقف جوار زوجتي..
- آسف.. أنسى أنها ليست زوجتي..
- (رمزى).. كف عن صنع النساء لأن المكان مزدحم..
هنا فقط رأوا تلك العربة المصفحة تندفع نحوهم عبر الحقل البور.. وكانت تطلق النار..
وتطلق..
وتطلق..
وتطلق..
وتطلق..
- يا للكارثة! لقد شعروا بنا!
الطلقات تئز جوار الكابينة.. والعربة تقترب وتصويبها يزداد إحكامًا...
صاح (أكرم):
- اضغط يا رجل أى زر! أخرجنا من هنا!
ثم مد يده وضغط على زر أحمر كبير كان هنالك..
عندها تلاشى كل شيء......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعرف كل القراء أن (أكرم) يقضى وقته فى الضغط على الأزرار الخطأ منذ ظهر فى السلسلة..
لم تختلف هذه المرة كثيرًا لأن الزر الأحمر لم يكن هو الزر الصواب على الإطلاق.. لقد كتبت تحته عبارة فرنسية أنيقة تقول: لا تلمس هذا الزر بالذات! .... أما عن سبب وضع زر خطر كهذا فى هذا الموضع فلا أعرفه.. يمكنكم سؤال العالم الفرنسي..
إنهم يرون من حولهم النجوم تندفع.. فى شكل دوامى مخيف.. إن ذلك الثقب الكوني يمتصهم إليه.. دوامات.. سُدُم.. صراخ.. غبار كونى....
- إلى أين أخذتنا أيها الهمجي؟
- لا أعرف.. فأنا همجي كما تعلم..
استشاط (أكرم ن ش) غضبًا فوجه لكمة غيظ إلى (أكرم ن ط) فسقط أرضًا.. إن قوة الرجلين متساوية لذا كانت الضربة مؤلمة..
مؤلمة...
بحق..
صرخت (مشيرة) وركعت على الأرض وقبل أن تحتضنه سألته:
- هل أنت زوجي؟
هز رأسه منهكًا فاحتضنته وراحت تبكى..
هنا وجدت (مشيرة) شيئًا على الأرض يشبه شاحن أجهزة المحمول، فرفعته متسائلة.. ثم وضعته فى كف (نور) الذى نظر إليه ثم ابتسم فى ذكاء.. لقد اتضح كل شيء..
قال (نور) وهو يعقد حاجبيه ويدس الشيء فى جيبه:

- واضح أننا نخترق الأبعاد.. يبدو أننا لا نسافر عبر الزمن فقط بل عبر البعد الثامن أو التاسع.. لو أنك انتظرت لحظة حتى تفرغ (نشوى) يا (أكرم)..
قال (أكرم) الراقد على الأرض:
- لو انتظرت لاخترقا الرصاص.. ولما كنت هنا تلومني..
- بالعكس.. لقد كانت أصابعها تجرى على مفاتيح الكمبيوتر بسرعة أكبر فأكبر.. لقد فكرت فى أن أبحث لها عن عمل كناسخة فى مكتب لطباعة الرسائل.. هناك تتقاضى خمسين قرشًا عن الصفحة وهذا معناه....
- إننا نهبط!!
قالها (رمزى) وهو يراقب السحب المحيطة بذلك الكوكب..
كانت عملية الهبوط غريبة.. سرعتهم تقل كلما هبطوا بدلًا من أن يحدث العكس....
وفي النهاية وجدوا أنهم قد استقروا فى ظل جبل أزرق اللون غريب الشكل.. كان هناك حشد من جنود غريبى المنظر يحيطون بهم.. جنود خضر اللون لهم حراشف وعيون حمر.. وكانوا مسلحين.. أي شيء يحمله المرء ويصوبه نحو آخر لابد أن يكون سلاحًا...
فتح (نور) الباب ونظر إلى الرجال..
ثمة شيء مألوف فى هذا كله....
هنا صاح أحد الجنود وهو يلوح بسلاحه:
- المجد ل (جلوريال)!
التفت (نور) إلى رفاقه وهتف وهو يضرب رأسه:
- تاااااانى!
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- خطأ قاتل آخر..

عقد (يوسف منجيل) حاجبيه وهو يراقب (هتلر) الرابع.. ثم أزاح بيده أسراب البعوض المحيطة به..
منذ فترة يحاول علاجه نفسيًا - (هتلر) لا البعوض طبعًا - بلا جدوى، وقد خطر له أنه من الأفضل التخلص من نتائج هذه التجربة... لكن هذا مستحيل.. لن ينتظر الرايخ بلا مستشار عشرين عامًا حتى ينمو (هتلر) جديد خاصة أن موت (هتلر) الثالث صار وشيكًا.. معنى هذا أن إعدام (يوسف منجيل) سيكون هو الحل الوحيد لمشكلة لا حل لها..
خلع خفه ووضعه على المنضدة أمام (هتلر) فراح هذا يرتجف فى هلع..
قال له:
- لا تخف يا سيدى الفوهرر.. هذا خف.. لن يضرك!
لكن عينى (هتلر) كانتا جاحظتين توشكان على الوثب من محجريها وراحت أسنانه تصطك..
هنا دخل جندي إلى الغرفة فأدى التحية وقال:
- هر أرتست.. هناك مشكلة لدى الفوهرر.. لقد ضبطناه أمس فى الميس.. كان وحده هناك ليلًا وكان يلعق أطباق الطعام الفارغة..
هذا جميل.. الأمور تزداد تعقيدًا.. الرايخ سيحكمه (حرامى حلل).. من هواة التسلل للمطابخ ليلًا.. يا للبعوض!
قال للجندي:
- سأفكر فى الأمر.. أما الآن فلتخلصنى من هذا البعوض اللعين..
هكذا ذهب الجندي ليحضر مبيدًا حشريًا.. عاد به وضغط على المضخة وفس س س س س..
هنا أطلق المستشار صرخة عاتية.. صرخة لم يسمعها (منجيل) منذ كان يلعب التنس بعيون أسراه.. ثم انقلب (هتلر) على ظهره وراحت قدماه تتحركان بسرعة وهو يصدر أزيزًا غريبًا...
- كف عن الرش حالًا!!
قالها للجندى.. يبدو أن هذه حالة حساسية متقدمة للمبيدات.. يجب دراسة هذا..
فلو كان (منجيل) يجيد العامية المصرية لقال (أول الرقص حنجلة) وهو التعبير الريفى المصرى السائل فى معناه ل.(أول الغيث قطرة) وإن كنت أجده أقوى.. سوف تأتى الكوارث تباعًا..
هذه هى البداية فقط..
البداية فقط..
فقط..
قط.......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعتبر أعداد الاحتلال أهم أعداد (أرشيف الغد) قاطبة.. فبعدها لم تعد السلسلة قط كما كانت قبلها، ويرى القراء أن هذا تزامن مع أعداد مهمة جدًّا من (رجل المستحيل)، مما يوحى بأن السلسلتين ترتفعان معًا..
لسبب ما يبدو أن الفضائيين يستخدمون لتسمية كواكبهم أسماء إنجليزية، مما يدلك على مدى الانتشار الكونى للغة الإنجليزية.. هذا برغم أن مركز الكون فى المستقبل سيكون مصر كما هو

واضح.. فجلوريال مشتق من لفظة Glory أى المجد.. وفى رواية (لهيب الكواكب) كان اسما قائدى المقاومة هما (دجنيتى) و (أونار) – المجد والشرف بالإنجليزية - وفى رواية (الأرض المفقودة) كان اسم قائد القوات هو (ليدر) أى القائد..
ليست الإنجليزية فقط بل اللاتينية أيضًا.. ففي رواية (أنياب ومخالب) كان اسمها الكائنين (ألفا) و(بيتا).. لكن العربية قد تصل للفضائيين أيضًا مثلما كان اسم إمبراطور الغزاة فى (أرجوران) هو (سيلبا).. وهو كما عرف القراء (إبليس) معكوسة.. على كل حال هذا يذكرنا بالشاب المدعو (ألوكارد Aluecard) فى كل أفلام (دراكيولا) القديمة والذى يتضح دومًا أنه (دراكيولا) ذاته أو خادمه..
عامة كانت (عبير) تعرف - كما قلنا- أن كل سكان الفضاء خضر.. لكن علم المورفولوجيا[26] لا يتوقف عند هذا.. مثلًا الغزاة فى الموت الأزرق زرق - لأن هذا عنوان القصة - وعلى كوكب (أرغوران) يسود اللون البنفسجى مع عروق نافرة تحت الجلد، وهناك قوم نحاسيو البشرة فى (السيف البلورى)، ولهم ذات لون بشرتنا فى (رنين الصمت)، بينما هم ملائكة بيض فى (سجن القمر)، وفى (الأسطورة) يشبهوننا كثيرًا..
أحاط بهم الحراس، فهتفت (سلوى) همسًا ل (نور) وهى تمسك بذراعه:
- نحن فى (جلوريال)!
- أعرف..
- ولو عرفوا أننا نحن لصنعوا منا كفتة للكلاب..
- أعرف..
ثم لمعت عيناه بوميض غامض وقال:
- ما زال هناك أمل.. لاحظى أننا نبدو كعمال فرنسيين.. ربما لن يتذكروا من نحن..
قالت (عبير) فى غيظ:
- لو تذكروا من نحن لصنعوا منا كفتة كلاب، ولو لم يتذكروا من نحن لاكتفوا بقتلنا.. ان المستقبل مشرق بحق..
اقترب منهم أضخم الكائنات وأكثرها إثارة للرعب وقال بصوت (جلوريالى) مخيف:
- أنا القائد (دسترويار) العظيم من جيش (جلوريال) العظيم.. سوف تذهبون الآن للقاء القائد (كوماد) العظيم..
شهقت (نشوى) فى رعب.. (كوماد) أيضًا هنا؟
المصيبة لو كان الإمبراطور الشرير (أغرو) موجودًا بانتظارهم.. (أغرو) ابن الشيطان ذاته.. بصراحة لا أعرف هل حرف (الغين) فى اسمه وفي اسم (ارغوران) أصيل؛ أم هى طريقة المترجمين الشوام فى استبدال حرف الغين بالجيم غير المعطشة لأنه لا وجود لها فى العربية.. لهذا نجد كلمات مثل (كنغ كونغ) و (آفا غاردنر).. و.........
ولكن.. هل هذا وقت البحوث اللغوية؟
قال القائد وهو يفتح مفكرة صغيرة:
- من حقكم التزام الصمت.. كل ما ستقولون قد يستعمل ضدكم فى المحكمة.. من حقكم توكيل محام فإذا لم تتمكنوا من ذلك سوف نعين لكم محاميًا.. تقدموا!
في هذه اللحظة وثب (نور) ليركل أحد الحراس، وانتزع منه سيفه الليزرى.. وشهره فى الهواء محدثًا الكثير من الضوضاء الاستاتيكية.. بززززززز دزززززززز!
- إلى أيها الجبناء!

تقدم أحد الجلورياليين، وشهر سيفه الليزر وبدأت مواجهة عنيفة بين الرجلين.. وفكرت (عبير) فى ملل أن هذا المشهد ضرورى لإضفاء لمسة أوبرا فضائية على الموضوع.. تقاليد مبارزات سيوف الليزر منذ أدخلها (دكسترا) ساحر المؤثرات الخاصة فى (حروب النجم).. لقد ابتكر أشياء كثيرة فى هذا الفيلم بينها منظر المكوكات الشهير وهى تعود إلى السفينة الأم.. الخ.. بعد هذا فتح الله عليه.. استأجر شقة مفروشة ووجد فتاة من حاملات الدبلوم لتعمل سكرتيرة، وكون شركته الخاصة ILMأو (الضوء والسحر الصناعيان).. إن هذه الشركة تعد كل...
دززززززززززز!
كان هذا هو سيف الجلوريالى الذى طار فى الهواء، بينما تقدم منه (نور) بسيف الليزر الذى يطول ويقصر حسب اتجاهه.. كان على (نور) أن يكلل هذا الجهد بضربة تطير عنق المقاتل، لكنه تردد لأنه كما نعرف لا يقتل أبدًا.. وهكذا انقض عليه الجلورياليون ليكبلوا حركته.. كما توقعت (عبير) تمامًا.. لم يكن لهذا المشهد من جدوى إلا إقحام أوبرات الفضاء فى القصة.. (سيوف ليزر + روبوتات ثرثارة + إمبراطور حانق + مكوكات + حواديت لا نهاية لها)..
وهبطت حوامة جلوريالية محملة بالرجال قادمة لنقل الأسرى..
واتجه أعضاء الفريق مذعورين إلى الحوامة وهم يفكرون فى الساعات القادمة..
الأرض من تحتهم تركض.. والحوامة تدور فى الهواء بتلك الزوايا المستحيلة فيزيائيًا، بينما (مشيرة) / (عبير) لا تكف عن الرجفة.. لاحظ أنها أقلهم خبرة بهذه الأمور.. أسرى على كوكب بعيد فلا أمل فى منظمات حقوق انسان أو اتفاقيات تبادل أسرى أو صليب أحمر..
نظرت (عبير) للحظة خارج الحوامة، فرأت شيئًا يحلق فى السماء مندفعًا.. شيئًا يحدث خطين لها لون أحمر وأزرق وقد بدا لها هذا مألوفًا.. رأته يرتفع ويرتفع نحو ما بدا لها كأنها مجموعة من النيازك القادمة نحو الأرض بسرعة البرق، فتم الارتطام وتناثرت الشظايا فى كل صوب...
قال لها (نور) وقد لاحظ نظرتها:
- هذا (سوبرمان).. كان فى رحلة إلى المستقبل كالعادة حينما رأى هذه النيازك..
- وماذا يفعله هنا بالذات؟
- لا أعرف.. ربما يضفى لمسة أمريكية على الموقف كله..
لكنها كانت تعرف.. لقد وعدها (المرشد) بأن تقابل كل أنواع الخيال العلمى، وقد وفى بوعده.. لا دور لـ (سوبرمان) فى القصة ولم يستطع أن يختلق له موقفًا مناسبًا، من ثم دسه فى هذا المشهد السريع.. هكذا يمكنه أن يخرسها لو اتهمته بأن القصة كانت خالية من السوبرمانات..
وتنهدت فى (ارتياع)... على كل حال هى قد قابلت (سوبرمان) من قبل، وعاشت معه قصة كاملة..
كانوا الآن يحلقون فوق مجموعة من الخرائب الجلوريالية يبدو أنها بقايا حرب قديمة.. وبدأت الحوامة تنحدر نوعًا..
هنا صاح (نور):
- الآن!
وقبل أن يفهم الجلورياليون ما حدث، ركل المقاتل الذى يجلس أمامه، ثم وجه سيف يد إلى المقاتل الجالس جواره، ثم لكم ثلاثة مقاتلين بقبضة واحدة، ثم ضرب الجالس أمامه فى جبهته الجلوريالية العريضة.. ثم رفع كوعه ليضرب الجالس جواره، ثم ركل الجالس خلفه بحركة بهلوانية رشيقة.. ثم اعتصر عنق من على يمين الذى خلفه.. ثم ضرب بكوعه من على يسار الذى أمامه.. ثم عاد للجالس أمامه الذى بدأ يفيق فضربه بـ (الروسية) فى موضع الضربة

الأولى..
كل هذا قبل أن يفهم الجلوريااليون ما يحدث..
ولهذا استحق (نور) اسم الرجل..
رجل المستح..... آسف..
ثم اندفع إلى باب الحوامة.. وسرعان ما وثب إلى الأرض من ارتفاع عشرين مترًا..
صاح الأصدقاء فى ذعر، بينما انتفض الجلورياليون..
لقد وثب (نور) من الحوامة كأنما هو يقفز من أحد قطارات الدرجة الثالثة عندنا.. لكن هذا صعب.. لا بد أنه تهشم إلى ألف قطعة..
راحت (سلوى) تبكي فطوقها (أكرم) بذراعه.. صاحت محتجة:
- ما هذه الوقاحة؟
قال لها وهو يضرب جبينه:
- أنا آسف! كلما رأيتك حسبت أننى فى عالمى وأنك زوجتى.. لا ذنب لى فى هذا الخلط..
قالت (عبير) فى حماس:
- يا له من خبر! قائد الفريق قد تخلى عن رفاقه! انتظر حتى يعرف الجمهور بهذا.. هذا من حق الرأى العام..
قالت (نشوى) فى غيظ:
- أبى لم يتخل عنا.. سوف ترين.. إنه يشعر بأن فرصته فى إنقاذنا أفضل إذا صار وحده..
- سنرى.. لكن هذا لابد أن ينشر على الرأى العام..
قال لها (رمزى):
- لكى ينشر لابد لنا أن نعود أولًا.. إن تفاؤلك هذا يسعدنى..
قالت (عبير) / (مشيرة) فى ثقة:
- أنتم تنجون دائمًا.. لا أحد يموت هنا.. من لم ينج يبقى فى نهر الزمن..
هنا قال لها (أكرم) الذى سئم هذه المحادثة:
- اسمعى يا مليكتى وأميرتى.. سأقول لك كلمة واحدة: مصر..
هكذا اقتنعت على الفور بألا تنشر حرفًا.. هذا فى حالة نجاتهم طبعًا..
رفع قائد الجلوريااليين جهاز اتصال مثبتًا إلى ساعده وقال:
- صباح الخير يا باشا.. يبدو أن أحد هؤلاء الغرباء فى الخرائب الآن.. نعم.. إنه أخطرهم.. نريد تمشيطها.. شكرًا..
وكانت الحوامة قد وصلت إلى أحد المعسكرات.. لا أعرف بالضبط كيف تبدو معسكراتهم لذا يمكنك أن تتخيلها كما تشاء.. المهم أن هناك الكثير من الرجال الخضر ذوى الحراشف..
وبدأت تهبط..
فجأة سمعوا من يقول بلغة أرضية واضحة:
- هؤلاء ليسوا مجرد متسللين.. إنهم من ذلك الفريق الذى منعنا من غزو الأرض!
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- ما بعد المحرقة..

نظر (نور) حوله وهو يشق طريقه بين الخرائب..
كان قد فهم كل شيء كالعادة.. هذا ليس (جلوريال).. ليست هذه معالمه.. هذا واضح تمامًا.. بل إن معالم المكان أقرب إلى الأرض مع بعض التعديلات.. ولكن ما معنى وجود الجلورياليين هنا؟
الأمر الآخر الذى جعله يثب من الحوامة هو أنه لمح من أعلى شيئًا.. شيئًا يمكن أن يفيدهم فى هذا الوضع المؤسى..
كان بحاجة إلى أن يصل إلى تلك المكان الذى رآه من أعلى، وأن يتم ذلك بسرعة قبل أن يفتك الجورياليون بأصحابه..
لقد شعر بتلك الحركة الغريبة فى الخرائب، وهكذا تظاهر بأنه يواصل طريقه.. لكنه - كعادته - كان يملك عينين فى ظهره، وقد أبقاهما مفتوحتين..
هناك عند ذلك الجدار توارى.. ووقف يكتم أنفاسه.. وفى اللحظة التالية عبر من خلف الجدار شىء مبعثر الثياب كريه الرائحة، فمد (نور) قدمه ليعرقله.. ثم وثب عليه..
طبعًا حاول الشيء المقاومة لكن (نور) جثم فوقه ووجه له بضع لكمات من التى يوجهونها فى القصص..
كان هذا الشيء إنسانًا، لكنه كان فى حال مثيرة للشفقة.. لحية نامية.. أظفار متسخة.. ثياب ممزقة.. وجه دبغته الشمس....
قال له وهو يغطى وجهه:
- لا تضربني! أنا بشرى مثلك!
دهش (نور) لأن هذا الشيء يجيد العربية.. على كل حال كل سكان الفضاء يتكلمون العربية كما هو معروف، إلا أنهم يفضلون الأسماء الإنجليزية..
قال له (نور):
- من أنت؟
- نحن لا نستعمل الأسماء.. نحن متخلفون كما ترى.. يطلق نقاد الخيال العلمى علينا اسم (بشر ما بعد المحرقة).. لقد انتهت الحضارة وفر البشر إلى الكهوف.. هذه النبوءة بدأت بعد (هـ. ج. ويلز) الذى تكلم عن المرلوك والإيلوى.. ما تراه الآن هو خليط من نوعين هما قصص (ما بعد المحرقة) و(نقيض اليوتوبيا)..
هز (نور) رأسه.. الحق أنه لم يقابل بدائيين كثيرين يتمتعون بهذه الثقافة..
- ومن أتى بالجلورياليين هنا؟
- إنه غزو.. غزو..
نظر (نور) حوله إلى الخرائب.....
نعم.. يبدو أن هناك الكثير من الخيرات على هذا الكوكب.. مجموعة خرائب وسحال تزحف.. فعلًا سبب كاف للغزو...
ابتلع (نور) ريقه للحظة ثم عاد يسأل:
- أى كوكب هذا بالضبط؟
قال الرجل الساقط على الأرض والذى بدأ يحتضر من ثقل (نور):

- عم تتحدث؟.. هذا هو كوكب الأرض طبعًا!!
وكانت المفاجأة كاملة..
ساحقة..
عنيفة..
جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر الجميع فى ذهول إلى (سيلبا) الذى طوح برأسه للوراء وراح يضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك[27]..
قال لهم وهو ينهض من على مقعده النفاث:
- لم أتصور لحظة أن الكون صغير إلى هذا الحد.. أنتم مخطئون إذا حسبتم أن هذه الثياب يمكن أن تخدعنى.. لقد وصلتنى إشارة تخبرنى بأنكم من أريد ولستم مجرد عابرى سبيل حمقى.. كانت هذه ورطة حقيقية لأن الرجل هو ابن (أغرو).. دعك من حقيقة أنه (إبليس) بشكل مقلوب.. لكن كيف تحرر من القرص الذى كان مسجونًا فيه؟ كان القرص مع (س - ١٨) لكنه بدأ يجعل أخلاقه تفسد.. بدا (س - ١٨) ينحرف ويدخن ويلعب القمار ويعاقر الخمر، ثم صار مدمرًا.. وكان على (نور) التخلص من هذا القرص.. لكن السؤال هو: هل هذا هو نفس العالم الذى وقعت فيه تلك الأحداث أم هو عالم مواز؟
تذكر شيئًا فسأل فى خبث:
- أرى أن عددكم ازداد كثيرًا لكنى لا أرى الشخص الأهم هنا..
ثم خطرت له فكرة فنظر إلى قائده:
- هل وجدتم الرجل الذى هرب؟
قال القائد فى احترام وهو يمرغ رأسه بالتراب:
- هم يمشطون الخرائب الآن يا سيدى العظيم..
عقد حواجبه الثلاثة وقال:
- جميل.. جميل.. من الأفضل أن يجدوه لأنه الصيد الثمين وسط هذا كله..
هنا قالت (سلوى) فى حنق:
- سوف يأتى لينقذنا أيها الشرير.. ولسوف يهزمك مرة أخرى.. كل أساليبك لم تجد شيئًا، وقد استطاع رجل واحد أن يهزمك على الأرض وعلى (أرغوران).. بل إن قنبلة (جاما) لم تحقق أى

شيء..
إنها ككل أبطال القصص لا يخافون ولكن يغضبون.. ويبدو أن شخصية (نور) طغت عليها..
قال (سيلبا) وهو يعقد حواجبه الستة:
- نعم.. نعم.. لم تحقق شيئًا.. موضوع مكعبات الكمبيوتر هذه، التى حوت كل ما وصلت إليه الأرض قبل الاحتلال من تطور علمى.. لقد وزعها الأحمق فى مثالية مبالغة وغريبة جدًّا على كافة البلاد.. ما زلت أجد هذا التصرف عجيبًا.. لو نال أحد خصومكم الأرضيين هذه المكعبات لاحتفظ بها.. كما إننى لا أفهم كيف تقع على عاتق شخص واحد مهمة تحرير العالم ومهمة إعادة الحضارة..
قال (رمزى):
- هذه هى تقنية (دعني أخدعك.. دعني أنخدع) الشهيرة..
- مفهوم.. مفهوم..
ثم قال فى غموض:
- على كل حال لم يتغير الوضع كثيرًا.. لقد زالت الحضارة عن كوكب الأرض من جديد..
ثم أمسك بزجاجة من الحمم فشربها، وتجشأ وقال:
- مهما بلغ خلافنا فنحن متفقان فى نقطة واحدة: أنتم هنا.. إذن لابد أن (نور) سيأتى.. لنقل إنكم الطعم الذى يجذبه كما يجذب (الموركا) حيوان (الشانهاتنتتانفسركانل)..
همست (مشيرة) بحاستها الصحفية فى أذن (أكرم):
- ما هذا الـ (الشانهاتنتتانفسركانل)؟
قال وهو لا يبعد عينيه عن (سيلبا):
- واضح يا مليكتى وأميرتى أنه حيوان ينجذب للـ (موركا)!
ضحكت ضحكة مكتومة وصافحته على طريقة (كفك) حينما سمعت (أكرم) يقول من ورائها:
- لو لمست هذا الوغد مرة أخرى لأطرت رأسك!! لا تنسى أننى همجي..
نظرت للوراء فى ذعر، وعرفت أنها كانت تصافح (أكرم ن ش) لا (أكرم ن ط).. إن رأسها سينفجر..
قال (سيلبا) للكائنات الخضراء:
- خذوهم إلى صخرة (الأطياف)..
ما صخرة الأطياف هذه؟.. لا يعرفون.. لكن من المؤكد أنها كارثة....
معرفتهم بـ (سيلبا) تؤكد أنها كارثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حول النار جلس هؤلاء القوم محيطين بـ (نور).. كانوا لا يختلفون فى شيء عن ذلك الذى قابله أول مرة.. لكن كان بينهم رجل عجوز متداع ضامر يبدو أنه أكثرهم حكمة..
قال لـ (نور) وهو يعبث بعصا فى النار:
- نعم هذه هى الأرض.. الأرض بعد المحرقة التى قضت على حضارتها..
قال (نور) وعيناه تلمعان:
- إذن آلة الزمن قادتنا إلى مستقبل بعيد جدًّا.. يبدو أن (أجرو) وولده قررا أن يحتلا الأرض فى المستقبل البعيد جدًّا بعد زوال حضارتها.. ما داما فشلا فى احتلالها فى عصرنا..
الحقيقة أن هذه كانت المرة الأولى فى (أرشيف الغد) التى يتم السفر فيها للمستقبل.. لقد

اعتادوا أن يسافر الحاضر والمستقبل إلى الماضى.. والحقيقة أن هذه طريقة ذكية للالتفاف حول شبهة معرفة الغد.. بدلًا من أن تذهب للغد لتراه يأتى الغد لك حيث أنت.. وفي الحالتين النتيجة واحدة.. فأنت تعرف بالتفصيل ما سيكون!
قال العجوز الذى لا اسم له:
- نعم.. هذا ما حدث بالفعل.. وكما ترى من حالنا ليس بوسعنا مقاومتهم..
هنا جاءت امرأة تحمل إناء من الطعام قدمته ل. (نور) فراح يلتهم ما به فى نهم، ثم قدمت له قدرًا من الفخار به سائل شربه ليطفئ ظمأه..
قال العجوز:
- هاتى له المزيد من السحالى الممهوكة! إنه يحبها!
نظر له (نور) فى رعب ثم نظر إلى الكوب فقال العجوز باسمًا:
- عصير سحال.. مشروبنا المفضل!
بعد ما يلزم نتيجة هذا الحادث، وبعد ما عاد (نور) من بين الأشجار، جفف فمه وسأل العجوز:
- أوع! لم أفهم بعد.. أوع! ماذا دمر حضارتكم؟
قال العجوز:
- فى كل قصص (ما بعد المحرقة) تكون الأسباب واحدة تقريبًا.. نفاد الطاقة.. قنبلة مدمرة.. حرب ضروس.. وباء..
- وماذا عنكم؟ أوع!
- كل هذا.. نفدت الطاقة فنشبت حرب ضروس استعملت فيها القنابل البيولوجية، من ثم حدث وباء.. هذا جو صحى جدًّا بالنسبة للجلوريااليين لذا احتلوا الكوكب.. يمكنك أن تعتبر الأرض نوعًا من (المنتجع السياحى) لهم..
فكر (نور) قليلًا ثم قال فى تفاؤل:
- على الأقل هذا يدل على أن (هتلر) لم يفجر قنبلة (جاما).. لقد زالت حضارتكم بطريقة أخرى.. يبدو أننا سننجح..
ثم أردف:
- حينما كنت معكم رأيت شيئًا يهمنى بين الخرائب.. وأتمنى لو ساعدتمونى فى العثور عليه..
كاد العجوز يرد بالإيجاب، ثم تردد كأنما فكرة خطرت له وقال:
- أما هذا فلا.. أنت لست منا فلا نستطيع أن نسدى لك العون..
ثم نظر للمحيطين به وعقد حاجبيه وقال:
- إلا إذا...
- إلا إذا ماذا؟
- إلا إذا صرت أخًا لنا..
ثم نظر إلى (نور) وعقد حاجبيه وقال:
- يجب أن تفوز فى رياضة (السابادوس) على بطل أبطالنا..
لمعت عينا (نور) فى تصميم وقال:
- موافق..
كان يعرف أنه سيفوز.. منذ متى لم يفز بأي شيء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذوهم إلى صخرة الأطياف..
على جدار الصخرة قاموا بربطهم معلقين فى وضع النسر الفارد جناحيه، قالت (نشوى) متألمة:
- آى! يا لك من حيوان! هذه الحراشف قد مزقت معصمى..
قال المقاتل الذى يربطها فى خجل:
- آسف يا سيدتى.. لا حيلة لى فى هذا..
وقال لهم المقاتل الجلوريالى الذى اقتادهم إلى هناك:
- مزية هذا المكان هى أن صراخكم سيدوي عبر أرجاء المعمورة.. الصوت ينتقل هنا بجودة غير عادية.. سوف يجدكم المارق بسهولة.. وعندها..
ثم راح يضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
ويضحك..
قالت (عبير) وهى تلهث محاولة تخفيف القيد الأيونى عن معصميها قليلًا:
- الملاحظ أن كل هؤلاء الأشرار يقضون الوقت فى الضحك..
- هذه هى القواعد.. لابد من أن يطوح رأسه للوراء ويطلق الكثير من ال (نيا هاه ها ها هـ)!
ثم تغلبت حاستها الصحفية فقالت وهى تنظر حولها:
- بالمناسبة.. هل يعرف أحدكم ما هى صخرة الأطياف هذه؟
قال لها المقاتل الجلوريالى وعيناه الحمراوتان تتوهجان فى وجهه الأخضر:
- ستعرفينها يا مدام.. ستعرفينها حالًا!
وراح يتلفت حوله فى ذعر، ثم أصدر الأمر لجنوده أن ينسحبوا..
كان انسحابهم عجيبًا، فهم يتراجعون بظهورهم وأسلحتهم مشهرة وهم لا يكفون عن البحث فى كل صوب.. إنهم خائفون أكثر من ضحاياهم.. هنا صاحت (سلوى):
- لن تثيروا ذعرنا.. لا تأت هنا يا (نور)!! إن هذا كمين!
لكن صوتها راح ينتقل بالصدى مكبرًا مئات المرات.. حتى لم يبق مفهومًا إلا استغاثة عالية تقول (نور).. (نور)...
قال (رمزى) وهو يريح رأسه للوراء إلى الصخرة:
- أرجو ألا يطول الأمر فأنا أشعر بتنميل حقيقى.. أكره أن يظل ساعداى فوق مستوى رأسى.. إن..
ثم توقف إذ رأى ما كان يجب أن يموتوا قبل أن يروه..
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - عالم الماء..

قال العجوز لـ (نور):
- رياضة (السابادوس) سهلة لكن لابد أن تتدرب عليها جيدًا.. سيكون عليك أن تركب نمرًا سيفى الأسنان، وتسيطر عليه..
قال (نور) وعيناه تلمعان:
- نمر سيفى الأسنان؟ لقد انقرض منذ زمن سحيق..
- وقد عاد.. المهم أن عليك أن تركبه، وترغمه على أن يقفز من حلقة معلقة مشتعلة بالنار، وتلتقط من هذه الحلقة كرة تسددها إلى الحفرة هنالك.. ثم تثب من على النمر لتسقط خصمك أرضًا من فوق نمره، ثم تركب مكانه وتثب فى الحلقة الأخرى وتلتقط كرة أخرى تلقيها فى الحفرة هناك.. بعد هذا تقف فوق النمر لتتعلق فى ثعبان البوا الملتف حول الشجرة وتطير فى الهواء لتركل خصمك فى ذقنه.. ثم تدور حول فرع الشجرة وتسقط فى الجهة الأخرى وسط المستنقع الصغير، حيث تأتى بتمساح من ذيله وتضع رأس خصمك فيه.. بعد هذا يكون عليك قتل النمرين معًا.. هل أكرر ما قلت؟
التمعت عينا (نور) فى تصميم.. وقال:
- بالعكس.. لن أنسى حرفًا.. لنبدأ على الفور..
كان بطل هؤلاء القوم فى (السابدوس) عملاقًا شرسًا.. وقد أخبروا (نور) أنه يلعب فى (السابادوس) منذ كان فى التاسعة من عمره، ولم يهزم قط.. وهو يتدرب على هذه الرياضة عشر مرات يوميًا..
لكن (نور) قال للعجوز فى شجاعة:
- أعط إشارة البدء..
وألقى أحد الرجال برمح مشتعل فى الهواء فانتظر الرجلان
حتى هبط الرمح وانغرس فى الأرض، ثم انطلق كل منهما يمتطى ظهر نمر سيفى الأسنان يمسك به الرجال بالحبال.. وسرعان ما تمكن (نور) من إرغام النمر سيفى الأسنان على الوثب من الحلقة المشتعلة، والتقط الكرة ثم سددها بإحكام لتسقط فى الحفرة.. كل هذا قبل أن يتمكن منافسه من امتطاء نمره.. فصاح الأخير:
- ستندم أيها العربى.. لا أحد يهزم..........
ثم تذكر أنه لا اسم له..
فى هذا الوقت كان (نور) قد اندفع ليقفز فى الهواء نحو خصمه.. وبلكمة واحدة بارعة أسقطه أرضًا وامتطى النمر مكانه، ثم عاد يجتاز الحلقة ويلتقط الكرة الأخرى...
ثم تعلق بثعبان البوا وركل خصمه برشاقة، ثم وثب فى المستنقع.. كان هناك تمساح شرس يوشك على التهامه فأمسك بذيله وجره إلى الشط.. ثم فتح فمه وجعله يطبق على رأس الخصم.. بعد هذا وثب على النمرين فأسقطهما أرضًا متجاورين وأخرج خنجرًا عملاقًا..
وفجأة صرخ وأسقط الخنجر وراح يبكى قائلًا:
- لا أستطيع قتلهما.. لا أستطيع!
ساد الصمت.. وبعد لحظة تردد قال العجوز:
- لقد فشلت فى الاختبار أيها الغريب لأنك لم تقم بكل ما طلب منك....

وبعد صمت أطول أردف:
- إلا أننى نظرًا لما أبديته من براعة وشجاعة بالغتين أقبلك أخًا..
وهلل القوم..
نهض الخصم وصافح (نور) ثم سأله:
- كيف فعلت هذا كله وأنت لم تلعب (السابادوس) قط؟ بينما أنا ألعبه طيلة حياتى؟
قال (نور) وعيناه تلمعان:
- إن الإنسان فى لحظات الخطر يجد فى نفسه قوة لم يتصور قط أنها عنده[28]..
وهكذا تم تنظيم الحملة التى سترافق (نور) إلى الخرائب..
يجب أن يجد هذا الشيء الذى رآه من أعلى أثناء الطيران..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (نشوى) و(مشيرة) غارقتين فى الصراخ وقد أدركتا أن هذه النهاية هذه المرة..
وفجأة صرخ (رمزى) وهو ينظر لأعلى:
- انظروا! لقد نجونا!
وتجمدت عيون الجميع على ذلك العملاق الأخضر صارم الملامح، ذى العينين البراقتين المخيفتين، دعك من ثوبه الأحمر المخيف الذى يتألق كأنما هى نيران الجحيم.. ورفع (طارق) يديه مهللًا للمنقذ القادم الذى هبط من السماء لينقذهم من الأطياف، وصاح:
- س - ١٨.. مستحيل!!
وبسرعة وإتقان الإله من الآلة، ضغط العملاق المحارب على أزرار ذراعه ليفك قيود الجميع..
ثم حمل بندقيته وراح يصوب على الخطر الداهم الذى كان سيقضي عليهم..
كان يصوب بدقة..
ورشاقة..
وإحكام..
حتى زال الخطر تمامًا..
ما نوعية ذلك الخطر؟ أنتم تهتمون بأشياء غريبة فعلًا.. لماذا نصف الخطر ما دام قد زال؟ ألا ترون أن هذا مجرد تبديد للورق والجهد؟ هذه صخرة الأطياف إذن كانت هناك أطياف.. هذا كاف جدًّا..
قال له (أكرم):
- (س - ١٨).. كالعادة تأتى فى الوقت المناسب..
فرد المقاتل:
- (س - ١٨) فى خدمتك يا سيدى..
ومن وراء (س - ١٨) رأوا (نور) قادمًا فشهقت (نشوى) و(سلوى) واحتضنتاه باكيتين..
قال (نور) ضاحكًا:
- مصادفة لا تحدث إلا كل مليون مرة.. أنتم تعرفون أنه لا بد من أن أجد (س - ١٨) فى مكان ما مهما ذهبت فى الكون.. هذه المرة وجدته فى الخرائب أثناء طيراننا فوقها، وصممت على أن أسترده.. كان شاحنه منزوعًا فقمت بإعادة تركيبه، ولحسن الحظ كان (محمود) قد عاد من مجرى الزمن فى هذه اللحظة بالذات، فطلبت منه أن يضحى بنفسه ثانية كى يشحن طاقة (س -)، هكذا أطلق عبارته الشهيرة: لو كان الموت آتيًا لا ريب، فلنمت فى سبيل من نحب.. ثم شحن

(س - ١٨) وعاد إلى مجرى الزمن..
قالت (عبير) فى برود:
- معنى هذا أن (محمود) قد تحول إلى بطارية لشحن (س - ١٨) من وقت لآخر..
قال لها (أكرم) فى غلظة:
- لا تنسى يا مليكتى وأميرتى أن هذا أنقذ حياتنا..
قال لهم (نور) وعينه تلمع ببريق غامض:
- أرى أن نفر من هنا.. إن (س – 18) سيقودنا إلى مكان آلة الزمن.. يجب أن نغادر قبل أن يلحق بنا الجلورياليون..
راحوا يركضون بين الصخور..
واجهوا بعض الجلورياليين الذين جاءوا يبحثون عنهم لكن (س - ١٨) أبادهم على الفور..
فجأة صرخت (مشيرة) / (عبير)..
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت آلة الزمن تنتظرهم حيث تركوها سليمة تمامًا.. هذه هى المفاجأة..
هنا سأل (أكرم) زوجته فى غيظ:
- يا لكن من دجاجات بلهاء! لماذا تصرخن؟
قالت (نشوى) فى برود:
- لقد لمحنا سطر النجوم الذى يعنى انتهاء الفترة، ومعنى هذا أن علينا أن نندهش ونشهق ونصرخ.. وأن تكون المفاجأة كاملة.. هل يجب أن أشرح لك هذا فى كل صفحة؟!!
من الغريب أن الجلورياليين تركوا آلة الزمن من دون حراسة.. وهذا غالبًا يعود لثقتهم الكاملة بأنفسهم.. وقد دخل الأصدقاء الآلة على حين التف حولهم مجموعة من أهل الأرض البدائيين الذين أوصلوا (نور) إلى (س - ١٨)، فخرج (نور) من الآلة وصعد على صخرة وصاح:
- أيها الأرضيون.. لو بقيت هنا أكثر لقدت كفاحكم المسلح ضد الجلورياليين.. وأنا متأكد من أننى سأنجح.. لكن الوقت لا يسمح للأسف.. أعدكم أن أفعل هذا فى مرة تالية. أما الآن فعليكم أن تثوروا ضد الجلورياليين..
تصايح القوم فى حماس:
- الموت لـ (جلوريال).. الموت لـ (جلوريال)!
أغلق الأصدقاء آلة الزمن الشبيهة بكابينة الهاتف، وتأكدوا من أن (أكرم) بعيد عن اللعب بأى زر فيها.. ثم لوح (نور) للقوم فى الخارج مودعًا..
- ماذا يصنع هذا الزر؟
والتفتوا فى هلع ليتذكروا أن معهم اثنين من (أكرم).. لقد سيطروا على واحد، فقام الثانى بتجربة زر آخر.. وفى هذه المرة كانت تحت الزر عبارة بالفرنسية تقول: أما هذا الزر فأخطر من السابق!

إنهم يرون من حولهم النجوم تندفع.. فى شكل دوامى مخيف.. إن ذلك الثقب الكونى يمتصهم إليه.. دوامات.. سُدُم.. صراخ.. غبار كونى....
- إلى أين أخذتنا أيها الهمجى؟
كانت هناك مركبة فضائية تحاول اللحاق بهم.. سبقتهم ثم مالت إلى يمين الممر الزمنى وهى تطلق إشارات ضوئية باستمرار..
تساءلت (عبير) فى حيرة:
- ما هذا؟ هل لحق بنا الجلورياليون إلى هنا؟
قال (نور) وعيناه تلمعان:
- لا.. هذه شرطة الزمن التى تراقب المسار بين الأزمنة المختلفة.. إنهم يشيرون لنا كى نتوقف على يمين الطريق كى يروا أوراقنا..
- وهل ستتوقف؟
- لو استطعت لفعلت، لأننى أكره مخالفة القوانين.. لكن هذه الآلة البدائية بلا فرامل..
وبالفعل مروا بشرطة الزمن بسرعة البرق مستمرين فى طريقهم.. وراح (نور) يبكى ويضرب الجدار فى غيظ لأنه أرغم على مخالفة القانون لأول مرة فى حياته..
فجأة لم يعد حولهم فضاء....
في اللحظة التالية وجدوا أنهم مغمورون تحت الماء، وأن الأسماك تسبح حولهم تتأملهم فى فضول علمى.. كانت هناك جثث سابحة فى حالة تصبن رمى، ورأوا مشهدًا مهيبًا لسفينة فضاء مستقبلية غارقة، وقد التف حولها أخطبوط.. من حسن الحظ أن آلة الزمن قد منحت إمكانات كرة الأعماق كذلك.. إن الفرنسيين يفكرون فى كل شيء..
قال (نور) وقد لمعت عيناه فى تصميم:
- الأمر واضح.. نحن فى مستقبل أبعد من هذا الذى رأينا فيه المحرقة.. لقد ذاب القطبان وغمرت المياه الأرض..
هنا فقط انتابت (نشوى) حالة هستيرية وراحت تصرخ..
وتصرخ..
وتصرخ..
وتصرخ..
وتصرخ..
وتصرخ..
وتصرخ..
الحقيقة أن (نشوى) تحمل أسوأ الذكريات بالنسبة للماء.. فهى لم تذق طعم الحياة الطبيعية منذ الكتيب رقم 60.. منذ انقطع الكابل الذى يربط الغواصة (ق -1) فى (سادة الأعماق) حيث اختطفها أفراد خضر - كالعادة - يعيشون فى الأعماق، يذكرونك بآلهة (لافكرافت Lovecraft) الوثنية القديمة الرابضة فى الأعماق على غرار الأخ كتولو Cthulu وسواه.. وأعطوها عقارًا من تلك العقارات القذرة التى تسبب الشيخوخة.. يبدو أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى وجدوها للقضاء على التلوث الذى يسببه البشر..
لكنها لم تجرب من العقار الكثير، لذا ازداد عمرها عشر سنوات بحيث صارت فى سن أمها وأبيها تقريبًا.. كان هذا قبل أن يفيق أبوها وأمها من غيبوبة دامت عامًا.. طبعًا بالنسبة لنا لابد من عام آخر للنقاهة، لكن بالنسبة لواحد مثل (نور) لابد من أن يفيق من الغيبوبة ليزحف فورًا

تحت الفراش بحثًا عن الحذاء، ويلبس البذلة الخضراء ثم يهرع إلى الأعماق لينقذ ابنته..
ثم بدأت تصغر فى السن من جديد حتى اضطر أبوها إلى الغوص فى الأطلنطى ليجد لها العلاج المناسب لدى علماء (أطلنطس) قبل أن تتحول إلى بويضة..
دعك من تجربتها مع ذلك الوحش على كوكب المريخ، الذى نقل جزءًا منه إلى جنينها.. طبعًا كان لون الوحش أخضر طبقًا لقاعدة (أرشيف الغد) الصارمة: أنت أخضر.. إذن أنت شرير..
الحقيقة أن (نشوى) لم تر خيرًا من الماء قط..
هكذا انطلقت فى نوبة هستيرية أنهتها صفعة من (رمزى)..
هنا هتف (نور) وهو يشير إلى خارج آلة الزمن:
- لقد جاءت لجنة الاستقبال..
خارج الكابينة كان هناك عدد من الجنود يصوبون الحربون نحوهم.. جنود خضر اللون ذوو حراشف ومظهر عام أقرب إلى الأسماك...
وأدركوا أن الكابينة يتم جرها..
إلى مصير مجهول..
مجهول جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- مع الملكة..

قال (هتلر) الرابع وهو يقف على جدار المطبخ فى الرايخشتاج:
- أريد أن تفجروا قنبلة (جاما).. الآن!
قال له (بوبر) الرابع سكرتيره وهو يرتجف رعبًا:
- سيدى الفوهرر.. لو حدث هذا فلن نكون فى مأمن على الإطلاق.. إن الإشعاع قد يفتك بنا.. أرى أن ننتقل إلى المدينة التى بنيناها تحت الأرض.. بهذه الطريقة قد نظل محتفظين بعقولنا..
الحقيقة أن الفوهرر كان غريب المنظر فعلًا.. يوشك (بوبر) على أن يقسم أن شاربه الغريب يتحرك.. كما أن يديه كانتا خشنتين بطريقة غير عادية.. أمس وجده يحاول أن ينضغط ليمر من تحت باب الحمام..
يبدو أن هناك خطأ ما فى التجربة..
والأسوأ هنا أن أول قرار اتخذه بعد تعيينه كفوهرر جديد هو إعدام (منجيل) بتهمة الخيانة والتآمر على قتله.. يقال إن (منجيل) كان خائفًا فى أيامه الأخيرة، وكان يبتاع كل المبيدات الحشرية التى وجدها فى السوق.. دعك من عادته المستجدة فى أن يرش (بودرة الصراصير) فى كل ركن من داره الفاخرة..
قال (هتلر):
- لا وقت للنزول إلى المخابئ.. أريد قنبلة (جاما) الآن!!
مرتجف اليدين ضغط (بوبر) على مفاتيح الهاتف طالبًا (جورنج) الرابع.......
إن الموقف خطير..
خطير فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المدينة المائية تتألق فى ضوء فوسفورى غامض.. ترى أسماكًا غريبة تخرج منها أو تعود لها.. أسماكًا يبدو أنها تلعب دور الميكروباص بالنسبة لسكان هذه المدينة.. هناك الكثير من الأخطبوطات وحدأة الماء.. يبدو أن الأسماك المضيئة تلعب دور المشاعل هنا..
وهتفت (عبير) فى دهشة:
- ما هذه المدينة؟
قال (نور) فى ملل:
- ومن غيرها؟ (أطلنطيس) طبعًا..
الواقع أن هناك قاعدة لدى كتاب الخيال العلمي جميعًا: (أطلنطس) حقيقة واقعة أكثر منى ومنك.. لم يمت أحد هناك بل حدث لهم تطور مع الوقت ليتمكنوا من الحياة تحت الماء.. صارت لهم خياشيم وزعانف، ومن الواضح أنهم بلغوا شأنًا هائلًا فى العلوم، كما لا بد لهم أن يتخاطروا، وإلا فكيف يمكن للأسماك أن تتفاهم؟
انفتحت طاقة فى أحد جدران المدينة المغطاة بالشعاب المرجانية، وسرعان ما وجدوا أنفسهم كالعادة داخل قاعة كبيرة واسعة.. يبدو أن أهل (أطلنطس) ما زالوا يتنفسون الهواء إذن..
قالت (مشيرة) / (عبير):
- ومن أخيلة المقاتة الذين رأيناهم بالخارج؟

قال (نور) فى غموض:
- الأمر واضح.. مع مرور الزمن تطور هؤلاء إلى فئات متخصصة كأية مستعمرة نمل.. من رأيناهم فى الخارج هم المحاربون.. بينما الطبقة الحاكمة هنا وتشبهنا..
ثم أشار إلى مدخل الردهة وقال:
- والآن الجزء التقليدى: ها هى ذى الملكة قادمة مع كبير حكمائها..
ملكة (أطلنطس) كما لك أن تتخيلها بثوبها الطويل المزين بالقواقع ونجوم البحر وعلى رأسها تاج يشبه حصان البحر لو أردت رأيى.. طبعًا لا داعى للقول إنها جميلة إلى حد يحبس الأنفاس.. ذلك الجمال الذى يشعرك بعدم الراحة وبأن التنفس صعب.. وجوارها كان ذلك الحكيم الذى تتدلى لحيته خلفه على الأرض..
(مرحبًا بكم فى الأطلنطس..)
هتفت (مشيرة) فى عدم فهم:
- هه؟ هذه الحدأة لم تحرك شفتيها..
طبعًا وصفتها بالحدأة لأنها رأت كيف فتح الرجال أفواههم فى بلاهة، وتحولوا إلى أطفال أمام متجر حلوى.. (أكرم ن ش) و(أكرم ن ط) و(رمزى).. طبعًا لم يتأثر (نور) كثيرًا لأنه يراقب كل هذا فى ذكاء كالعادة..
قال لها (نور) همسًا:
- إنها تستعمل التخاطر..
(بعد ما غمر الماء الأرض ازدهرت حضارتنا وصار الكوكب كله ملكًا لنا.. أنتم تعرفون أننا موجودون هنا منذ قرون.. لكن بعد ما هلك أكثر البشر لم يعد من داع للبقاء متخفين.. لقد صرنا نحن البشر)
ثم أشارت بحركة رشيقة.. إلى ممر جانبى..
(تعالوا إلى استراحتى الخاصة لتنالوا قسطًا من الراحة..)
قال (أكرم) فى حماس:
- نعم.. نعم..
بينما قالت (مشيرة) ببرود:
- تمالك نفسك قليلًا..
تقدم الأصدقاء نحو الممر الجانبى؛ ليجدوا أنهم فى قاعة واسعة تزدان ب. (الأورديسات) - لا بد أنكم خمنتم ما هى - وكانت هناك مجموعة من عرائس البحر يسبحن فى حوض يتوسط المكان.. يؤدين نوعًا من الباليه المائى... وكانت مجموعة من المأكولات البحرية التي لا يمكن أكلها فى عالمنا ما لم تكن مليارديرًا..
هنا صاحت (سلوى) فى رعب:
- أين (نور)؟
ثم تذكرت فأضافت:
- وأين الملكة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في جناحها الفسيح خافت الإضاءة الذى يزدان بالستائر التى رسم عليها تاريخ (أطلنطس) منذ عهد غرقها حتى اليوم، اتجهت الملكة لتجلس على أريكة هناك، وقالت ل. (نور):

(ألن تجلس بجوارى؟)
قال فى تصميم وعيناه تلمعان:
- شكرًا.. لا أرغب فى هذا..
تناولت عنقودًا من العنب وقالت:
(كما تريد.. لكن تذكر أنني أهيم بك حبًّا.. هذه هى التقاليد كما تعلم.. لا بد من أن تكون الملكة معجبة بك تراقب مغامراتك على الراصد منذ زمن.. هل ترى هذا؟)
وأشارت إلى صنف من القصص جوار الفراش، وقالت:
(كل نسخ (أرشيف الغد) عندى.. وأحفظها بالحرف.. اشتريتها من سوق (الأزبكية) العائم حيث تباع نسخ مضادة للبلل.. لقد كلفتنى ثروة.. للأسف ينقص مجموعتى الكتيب رقم (51).. (الخلية القاتلة)[29].. لكنى تمنيت دومًا أن تجلس هنا جوارى وتحكيه لى بنفسك..)
قال فى نفاد صبر:
- هل لى أن أنصرف الآن؟
قالت فى تعاسة:
(للأسف.. بما أن هذه القصة تحوى كل أنواع الخيال العلمى فقد فكرت فى أن أجرب بعض الإغراء كنموذج لل Space erotica لكن من الواضح أنك بطل قصص فعلًا.. الإغراء يزيدك قوة.. إن مقاومتى صعبة جدًّا لكن لا شيء يصعب على بطل التحرير..)
ثم أضافت وهى (تقزقز) بعض (أم الخلول):
(لهذا سأقدم لك خدمة مقابل أن تحكى لى القصة التى فاتتنى.. أنا أتابع كل شيء من هذا المكان.. لسبب ما يصر كُتاب الخيال العلمى على أن قارة (أطلنطيس) شمولية العلم.. ما سأقدمه لك هو نصائح لكنى لن أتدخل فى شيء بنفسى.. ما الذى تريده بالضبط؟)
قال فى تصميم:
- العودة لعالمى.. القضاء على (نور) الشرير الذى يعبث فى ملفات المخابرات العلمية.. منع تكوين (هتلر) الرابع من نسيج الصراصير..
(الجزء الثانى سهل.. لقد قام النازيون باغتيال (هتلر) الرابع لأنهم شعروا (بصرصوريته) الزائدة.. وجدوا أنه يقودهم إلى الهلاك، لهذا قاموا برش (الرايخشتاج) بمسحوق (دى دى تى) من الطائرة.. لقد انقلب على ظهره وراح يركل برجليه كثيرًا لكنه مات فى النهاية.. ومن لحظتها قرروا أن يحكموا بأنفسهم بدلًا من استنساخه من جديد.. كنت هذه بداية النهاية لهم على كل حال.. لأنهم لم يتمتعوا بكاريزمية (هتلر) والخوف الذى يبثه فى القلوب..)
- النقطة الأولى؟
(هذه أسهل لأن الجواب قريب جدًّا.. أقرب ما تتخيل..)
وعلى شاشة معلقة راحت مشاهد من المغامرة تتوالى..
وهنا اتسعت عينا (نور)..
لقد فهم كل شيء..
كان ما يراه مذهلًا..
مذهلًا إلى أقصى حد...
بعد ما انتهى العرض قالت له باسمة:
(الآن هل عرفت السر؟)
هز رأسه وهو ما زال تحت تأثير الصدمة..

قالت له:
(والآن جاء دورك فى الاتفاق..)
جلس (نور) على طرف الفراش وراح يعتصر ذاكرته.. ثم بصوت رتيب بدأ يحكى:
- الفصل الأول (الحادث).. زحف الضباب فى سرعة لينسدل على ذلك الطريق المعد للقيادة الصاروخية، والذى يربط العاصمة القاهرة بمدن الوجه القبلي.............. إلخ.. إلخ.............................. إدارة المخابرات العلمية المصرية، وخفق قلبه فى شدة وهو يخطو إلى حيث تبدأ نهايته.. وأطبق الفخ فكيه..... نهاية الجزء الأول..
كانت عيناها مغمضتين الآن، لكنها قالت بصوت غائم:
(ثمة جزء ثان! دائمًا موضوع الأجزاء هذاااااا.. خ خ خ خ خ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما عاد (نور) من الغرفة كان متعجلًا وعلى درجة من العصبية..
سألته (سلوى):
- أين كنت كل هذا الوقت؟
قال وهو يجمع أشياءه:
- مع الملكة فى جناحها..
- جناحها؟!!!
- نعم.. ولا تنظري لى هكذا لأنى كنت أحكي لها القصة رقم (51) من السلسلة حتى نامت!
نظرت له فى غباء على حين ابتسمت (مشيرة) فى خبث.. فهي ما زالت تحمل حقدًا على (سلوى).. أولًا لأنها فازت ب. (نور).. ثم فازت ابنتها ب. (رمزي).. إن هذا كثير.. لهذا كان يسرها أن ترى الغيظ فى عينى (سلوى)..
قال (نور) لرفاقه:
- الآن حان وقت الرحيل.. لقد سمحت لنا الملكة بهذا.. وقد أخبرتني كيف نعود إلى الزمن المضبوط.. إن الأطلنطيين سوف يقودوننا إلى السطح..
وفجأة التفت إليهم وهتف:
- لكن أولًا لابد من التخلص من الخونة!
تبادلوا النظرات كأنما هم الحواريون فى لوحة العشاء الأخير ل. (دافنشي).. حينما راحوا يتبادلون النظرات وكل منهم يحمل على وجهه تعبيرًا من طراز (ليس - أنا - ربما – هو - أنت؟)
قال (نور) وعيناه تلمعان فى ذكاء:
- منذ البداية كانت أشياء غريبة تحدث هنا.. وقد رأيتها من جديد على شاشة الملكة التى تراقب كل شيء.. أولًا وجدنا شاحن (س - ١٨) ملقى فى أرضية آلة الزمن.. فمن انتزعه؟.. لقد احتفظت به فى جيبي إلى أن وجدت (س - ١٨) وأعدته إليه.. ثانيًا من أخبر (سيلبأ) أننا نحن المقصودون؟ قال إنه تلقى إشارة فمن أرسلها؟ ثالثًا لماذا عدل شيخ المحرقة عن مساعدتي بعد ما كاد يقبل؟ هل وصله أمر تخاطري ما؟ رابعًا: كيف لوح (طارق) بذراعيه عندما أنقذهم (س - ١٨) من صخرة الأطياف؟ لقد كنتم جميعًا مقيدين للصخرة فى وضع النسر فارد جناحيه.. رابعًا لم يلمس أحد (س - ١٨) لأنكم تخافونه باستثناء (طارق) الذى ربت على ظهره بعد ما ربط لى الحذاء..
نظر الجميع إلى (طارق) فى ذهول فواصل (نور):

- الوحيد الذى يشبهني إلى حد أنه يمكن أن يكون أنا هو (طارق).. إذن لماذا لا تتم الأمور بالعكس؟ لماذا لا يكون (نور) الشرير بيننا منذ البداية وقد اتخذ شخصية (طارق)؟ صاحت (مشيرة) غير مصدقة:
- لكن كيف؟ ماذا يجنيه من هذا؟
- كان معنا منذ البداية وغالبًا بعد تفجير القنبلة المنومة، حيث أفاق معنا متظاهرًا بأنه (طارق).. السبب أنه متأكد من براعتي وأنى قادر على العودة.. لذا قرر أن يبقى معنا ليفسد كل محاولة لنا للهرب، ويبدو أن معه جهازًا قادرًا على إعادته لزمنه.. لا أشك فى أنه تآمر مع الجلوريااليين لتدبير ذلك الكمين الذى نصب لى، ولهذا جعلوه يبدو كمن قيد لكنه كان حر الحركة يمكنه الفرار فى أية لحظة.. تذكروا ما قاله حينما رأى (س - ١٨).. لم يصح: نجونا أو حمدًا لله أو أى شيء مما يقال فى ظروف مماثلة.. فقط قال: (س - ١٨)؟ مستحيل! هذا يدل على أنه لم يتوقعنا قط..
قالت (عبير):
- ولماذا لم يقتلنا حينما كنا تحت رحمته؟ كانت سكين طعام قادرة على إنهاء المشكلة للأبد..
- هذه هى التقاليد فى هذه القصص.. لا توجد طرق قتل سهلة هنا.. لا بد من طريقة يمكن الفرار منها..
نظر (أكرم) و(أكرم) إلى (طارق) وتساءلا:
- هل هذا حقيقي؟
هنا فقط تبدل وجه (طارق) ليصير (نور).. (نور) الشرير طبعًا..
صاح فى غل وهو يمد يده لجيبه:
- صحيح للأسف أيها السذج!!
قبل أن يفعل أى شيء انطلق الرصاص من مسدسي الرجلين اللذين يعملان بالساقية.... واهتز جسد (نور) وهو يطير إلى الوراء ليرتطم بالجدار.. لكنهما واصلا إطلاق الرصاص.. كانا يعرفان خطورة (نور) الطيب أو الشرير.. إن قتله ليس سهلًا أبدًا لأن كل وحوش الكون تحاول ذلك طيلة عشرين عامًا..
صرخ (نور):
- توقفا! يا لكما من!
لكن فات الأوان فقد مزقت الطلقات الرجل تمامًا....
قال (نور) مغتاظًا وهو يجثو جوار جثة (نور):
- الحزام الذى حول صدره.. كان هو سبيله للعودة.. بل كان سبيلنا نحن أيضًا!!
واتسعت العيون عن آخرها..
وشهقت (سلوى) و(نشوى) من المفاجأة..
وكان عندهم كل الحق..
فالمفاجأة مدهشة..
مدهشة إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى الجزء الأول بحمد الله

ويتبعه الجزء الثاني
(سجناء أطلنطس)

12- أرشيف الغد..

فرغ دكتور (نبيل فاروق) من كتابة هذه السطور، وكتب فى نهايتها ملحوظة يذكر نفسه بالكتيبات القادمة:
- واضح أن الفريق سيظل فى (أطلنطيس) للأبد.. لا بأس من أن تبدأ سلسلة مغامرات أخرى تحت الماء يكون اسمها (أرشيف الغد المبتل).. أو (أرشيف الماء).. أعتقد أن (أكرم ن. ش) بديل مناسب لـ (طارق)..
فى هذه اللحظة دخل (أدهم) الغرفة ووقف يراقب أباه أثناء العمل.. لقد تعلم ألا يتكلم إلى أن ينظر له د. (نبيل) متسائلًا عما يريد..
وجاءت النظرة المرتقبة، فقال:
- أبى.. لم أفهم بعد نظرية العوالم المتوازية هذه.. أنت تستعملها كثيرًا جدًّا..
تناول د. (نبيل) كتيبًا من قصص (رجل المعجزات) التى يلعب بطولتها (شريف صبرى) وقال:
- تصور مثلًا أن هناك مجرة أخرى.. عليها شمس أخرى.. حولها تدور أرض أخرى.. عليها د. (نبيل فاروق) آخر.. تصور - لمجرد ضرب الأمثلة - أن (أدهم) ليس ابنه وإنما هو بطل سلسلة شهيرة من سلاسله.. تصور أن (شريف) ليس بطل سلسلة إنما هو ابنه البكر.. وتصور أن سلسلة (أرشيف الغد) ليس اسمها كذلك.. بل اسمها (ملف المستقبل)!
فكر (أدهم) فى هذا.. اسم غريب وغير مألوف.. كان المثال غريبًا صعبًا على الفهم، لكنه تظاهر بذلك..
لقد جاء الدنيا ليجد أباه يكتب (أرشيف الغد) وهو لا يتخيل لها اسمًا آخر.. كما أن (شريف صبرى) رجل المعجزات هو (شريف صبري) ولن يكون اسمه (أدهم) أبدًا..
إنه الرجل..
رجل المعجزات............

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأت (عبير) الخطوات على الأرض ترتسم خطوة تلو الأخرى.. فى خط طويل يتقدم نحوها..
صرخت فى هلع وتراجعت للوراء..
لكنها سمعت صوت (تكتكة) القلم المميزة، وسمعت صوت المرشد يتصاعد من مكان ما..
- (مرشد)! هل هذا أنت؟
- أنا هو يا (أليس).. كنت قد وعدتك بكل أنواع الخيال العلمي بما فيها الرجل الخفي.. ولما كانت الفرصة لم تسنح قررت أن أقوم بهذا الدور بنفسي.. أنا أفى بوعدي دائمًا..
قالت له باسمة:
- ولكن أين أنت الأمد يدى لك؟
- لا مشكلة.. تتبعي الصوت.. فقد حان وقت الرحيل..
ووراءه مشت.. تعبر عالم الأطلنطيس.. تسبح إلى سطح الماء.. تحلق بين السُّدم ووسط الجلورياليين المحنقين والنازيين الثائرين وبشر ما بعد المحرقة والعلماء المخابيل..
إلى أن رأت قطار (فانتازيا) يقف فى تململ..
في القصة القادمة تقترب (عبير) أكثر فأكثر من عالم الأساطير الفارسية.. لقد دنت من الحضارة

البابلية مع (جلجاميش).. لكن القصة القادمة فارسية بالمعنى الحرفي للكلمة..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

[←1]

راجع قصة (الخلية القاتلة) رقم 51

[←2]

راجع قصة (سجن القمر) رقم 48

[←3]

راجع قصية (المقاتل الأخير) رقم 47

[←4]

راجع قصة (زمن الدم) رقم 119

[←5]

راجع قصة (حرب الفيروسات) رقم 113

[←6]

راجع قصة (اسمه أدهم) رقم 31

[←7]

تعتذر المؤسسة عن اختصار عشرين سطرًا من هذا المقطع نظرًا لارتفاع سعر الورق..

[←8]

راجع التعليق أسفل صفحة 117 فى قصة (حرب الفيروسات).. رقم 113 فلا أريد كتابته من جديد.

[←9]

حقيقة علمية.

[←10]

راجع كل القصص منذ صدورها.

[←11]

نوع الأنسجة طريقة علمية تحدد نوع الأنسجة.

[←12]

حقيقة علمية.

حقيقة علمية.

[←13]

[←14]

قنبلة الغاز هي قنبلة تحوي غازًا..

[←15]

تعتذر المؤسسة عن اختصار عشرين سطرًا من هذا المقطع نظرًا لارتفاع سعر الورق..

[←16]

راجع قصة (منطقة الضياع) رقم 57

[←17]

راجع قصة (أرض العمالقة) رقم 60

[←18]

راجع قصة (الستار الأسود) رقم 70

[←19]

راجع قصة (العالم الآخر) رقم 69

[←20]

القداحة أداة للحصول على النار..

[←21]

راجع قصة (غزاة داركونيا).. رقم 3090

[←22]
تذكرة بدون عودة: اخترعها العالم النرويجي (إنغريد هنسان) سنة 1768 وبها يمكنك الذهاب لمكان لا تستطيع العودة منه.. راجع قصة (بلا عودة).. رقم 549

[←23]

راجع الرسم صفحة 70 من قصة (سجن القمر).. رقم 48

[←24]

لفظة ألمانية..

[←25]

لفظة ألمانية.

[←26]

المورفولوجيا هو علم مختص بالمورفولوجيا.

[←27]

تعتذر المؤسسة عن حذف ثلاثين ضحكة نظرًا لارتفاع أسعار الورق ونأمل أن يتفهم القارئ ذلك..

[←28]

حقيقة علمية.. ذات مرة كانت فى يدى علبة صلصة لا تريد أن تفتح، لكنى شعرت بالغيظ وحاولت بعنف فانفتحت..

[←29]

حقيقة علمية..

روايات مصرية للجيب

41

فانتازيا

ألعاب فارسية

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (41)

ألعاب فارسية

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل. (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمي) و (أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقتضي الأمانة أن أوجه الشكر إلى الصديقة الكريمة (نيّرين) - أم (عمر) - والتي قرر موظفو السجل المدني أنها (نرمين) بالقوة فكان لهم ما أرادوا، والتي تحضر رسالة ماجستير في الأدب الفارسي، وقد أعدت لي منذ عامين دراسة قصيرة جدا لكنها فعالة عن هذا الأدب استعانت فيها بدراستها مع أجزاء من كتاب (القصة في الأدب الفارسي) للدكتور (أمين عبد المجيد بدوي) أستاذ الأدب الفارسي بجامعة عين شمس. بعد هذا استعملت أنا خليطا من المصادر ومواقع الإنترنت (حوالي عشرين مصدرا) لأستكمل الصورة

1- ما بعد (نحن)..

(نحن)..
بشكل ما تتحول إلى (أنا وأنت)..
ثم يحدث التفكك العبقري فتصير (هو وهي)..
توطئة لأن يتلاشى حرف (الواو) الرابط الأخير وسرعان ما يرحل (هو) بحثا عن رزقه، وترحل (هي) بحثا عن عالمها الخاص..
تحاول أن تتحسس الحياة من جديد من دون (شريف)، وهذا عسير؛ لأن (شريف) صار عادة سيئة لا تمكن الحياة من دونها!
كانت تجلس في غرفتها الضيقة وتراقب (شذى) تلعب فتقول لها همسا:
- لقد تخلى بابا عنا معا.. أنا وأنت.. لقد عاد إلى عالمه.
وهي مطمئنة إلى أن الطفلة لا تسمع حرفا من هذا الكلام؛ فهي لا ترغب في أن تنتقد (شريف) أمامها.. من الغريب أنها لم تذكر ضده أية عبارة سلبية برغم احتفالات القرابين الوثنية التي أعدتها أمها.. في كل مرة تهيئ المذبح وكل شيء من أجل مضغ سمعة (شريف) وكل ما يمت له، تشعل الأم النيران وتتوهج عيناها بانتظار بدء الحفل، لكن (عبير) تحبطها في كل مرة.. هي لا تريد.. وهو ما تجده الأم غير أخلاقي إلى حد فاضح.. كل زوجة تحترم نفسها يتخلى عنها زوجها، لابد من أن تقضي الوقت في سبه وذمه، أما هذا الترفع غير المفهوم فالأم تجده مزيجا من الغباء والبلاهة والوقاحة.
ما بعد (نحن)..
إنها في الآونة الأخيرة تعمل مع (صفوت).. للأسف صارت الأمور معقدة جدا بالنسبة لها، فلم تعد هناك بضعة أجهزة كمبيوتر ومجموعة من الصبية، لقد تحول (نادي الأتارى) إلى (نت كافيه)، وهناك عشرات الأجهزة وأكثر من فتى يضع السماعات على أذنيه، وأكثر من فتى يرتبطون معا في لعبة واحدة مثل (الإنذار الأحمر) أو (نصف حياة) أو (ضربة مضادة)، إنهم يأتون معا في التاسعة صباحا كأنهم ذاهبون إلى محاضرة، تجدهم يقفون على باب المحل بانتظار بعضهم، ثم ينتشرون على الأجهزة بالداخل، سوف يبقون هنا ست ساعات كاملة! ولكل منهم رصيد و.. و.. وأمور غاية في التعقيد.
كان هناك (مراد) الذي يعرف كل شيء.. إنه شاب نحيل عصبي يفهم كل تفاصيل هذه الألعاب، وكان يريحها من العذاب بأن يطلب منها مهمات محددة تناسب ذكاءها، فيما عدا هذا كان الاستغناء عنه مستحيلا! أما عن (صفوت) نفسه فلم يكن يظهر إلا نادرا.. في المساء بالذات..
كان قد افتتح مكتبا آخر يمارس فيه تلك الأنشطة الغامضة: خدمات رجال الأعمال، إصلاح أجهزة المحمول، الفاكس، حجز تذاكر السفر بالطائرة، دورات في لغة (سي).. لا تعرف الخيط الذي يربط كل هذه التفاصيل ببعضها، لكنها تلك المهن العجيبة التي جاء بها العصر، ويبدو أنه كان يكسب جيدا من تلك المهن مما جعل اهتمامه بألعاب الكمبيوتر أقل..
ذات مرة قال لها وهو يلهث من البدانة:
- عامة كل مهنة تتعلق بفتحات الجسد تنجح في مصر: الفم - الأنف - الأذن - الشرج.. لهذا تنجح مشاريع الطعام، ولهذا ينجح أطباء التوليد وجراحو الأسنان والبواسير؛ ولهذا يثري السباكون، لهذا تنجح الأغاني الشبابية.. لهذا يكوّم تجار المخدرات المال، لهذا تروج شركات

المحمول..
بدا لها التعبير غريبا.. فقالت متأملة:
- والكتاب؟!
قال وهو يتواثب غيظا:
- لا.. العين ليست من فتحات الجسد.. كل ناشر يعرف هذه الحقيقة المريرة أو سيعرفها.. لكن الأذنين من فتحات الجسد المهمة، لهذا تنجح تجارة المحمول وكل ما يتعلق به!
ثم فكر قليلا وأضاف:
- القياس الآخر هو استثمار كل ما يمت للبطالة.. مقاهي الإنترنت.. الكافتيريات.. أندية البلياردو.. مكاتب الاتصالات.. كلها مشاريع تنجح حتما.
قالت له في تهذيب:
- أنت تعرف الكثير عن الكسب..
قال مغضبا:
- لكني لا أحقق أبدا ما يكفي لأصير من أعمدة المجتمع، أنال ما يكفيني وأكثر لكني كنت أطمح للثراء الفاحش.. إنني أعرف أكثر من أي أحمق آخر. لكن ينقصني شيء ما. تلك اللمسة الأخيرة التي تحول الناس إلى (تايكونات Tycoons) ربما لأنني لست وغدا بما يكفي.
ثم سألها وهو يفتح الدرج ليحصى حصيلة اليوم:
- هل من أخبار عن (شريف)؟
هزت كتفها في ارتباك وقالت:
- كنت أحسبك مصدر هذه الأخبار؟
- للأسف.. لم أعد أعرف شيئا عنه، أرجو أن يكون حيا.
ثم قبض على رزمة من المال ودسها في يدها، نظرت له متسائلة فقال متضايقا دون أن ينظر لها:
- فلتكن سلفة.. أنت مسئولة عن طفلة.. و.. لنقل إن..
لكن الرسالة وصلتها. (صفوت) ذو القلب الكبير الذي يكره أن يبدو طبيا.. لكنه كذلك.. طيلة هذه الأعوام عرفت أنه طيب القلب حقا، إنه حريص على راحتها وكلما احتاجت إليه وجدته، لكنه يكره أن يبدو رقيقا ويشعر أنه لم ينجح برغم عبقريته؛ (لأنه ليس وغدا بما يكفي).
هكذا أخذت المال.. كانت بحاجة له.. و (صفوت) هو الشخص الوحيد في العالم الذي لا تسأل المرأة عن سبب عنايته الزائدة بها.. لا تسأل عن كرمه غير المبرر.
السبب أنه طيب القلب.. لا أكثر ولا أقل..
ثمة نوع آخر من الكرم يسبب لها القلق فعلا.. هذا الفتى (مراد) يعني بها أكثر من اللازم.. هي قد تفهم (صفوت) لكنها لن تفهم هذا الفتى أبدا.. إن نظراته لزجة طويلة أكثر من اللازم، وهو يبدى لطفا لكنه لطف غير أصيل.
صحيح أنه يتمتع بالكفاءة، وصحيح أنها تشعر بالضياع لو لم يكن موجودا، لكن ليس لأنه ساحر أو فتن لا سمح الله، ولكن لأنه يعرف كيف يشغل لعبة (الإنذار الأحمر) وكيف يخرس هؤلاء الفتية المتعطشين للدم.
قالت لنفسها إن (مراد) في الغالب يحاول أن يلعب اللعبة الفكرية الشهيرة: الصيد في الماء العكر.. إنه سمكة قرش وأسماك القرش تشم الماء حيثما كانت.. دماء جراح قلبها.. لقد سالت هذه الدماء برغم حرصها الشديد، وتلون الماء بلون أسود كئيب.. ومن مكان ما جاءت تلك

السمكة لا تلوى على شيء.
هناك فرصة! هناك فرصة! وليكونن أحمق بن أحمق لو تركها.
لكنه أخطأ الفريسة.. هي لن تكونها ولن تقبل.
فقط لو يتركها وشأنها.. ليته يتركها وشأنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكننا الآن فهم الظروف النفسية التي دفعت (عبير) إلى طلب بعض السلوى.. جهاز الأحلام الذي هو من حقها وحدها.. لا أحد سواها يعرف كيف يستعمله ولا أحد سواها يمكن أن يفيد منه.
وحينما نام الجميع ضغطت على المفاتيح طالبة أن ينجدها المرشد.
وقد كان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- ألعاب فارسية..

- (رستم) رجل حر وليس عبدا إلا لله.. سيفي هو خاتمي.. وحصاني هو عرشي.. وخوذتي هي تاجي
ومن دوني (كاى كاووس) لا شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الآن تتفقد (فانتازيا) بعين خبيرة ذواقة عندما تزور مكانا ما أربعين مرة فإن تفاصيله تصير محفورة في خلاياك، وبرغم هذا كانت (فانتازيا) دائمة التبدل كالشلال..
يمضي القطار المرح الصغير وسط معالم المملكة المرشد يجلس أمامها ناعسا مغمض العينين ينتظر حتى تتخذ قرارها.. كانت حريصة على التدقيق.. عندما يقضي المرء مائة وأربعين صفحة في عالم ما، فعليه أن يدقق.. في هذه الصفحات المحدودة قد تواجه الاحتراق بالقنبلة الذرية أو تعبر الألب مع جيوش (هانيبال)، وقد تفر من (راسبوتين) أو تعبر الصحراء مع (لورانس) العرب، أو تطير المقصلة عنقها.. يجب أن تدقق.
راح يهوم برأسه ويقول كلاما لا تتبينه لكنه مهم جدا. أما هي فكانت تفكر في الإمكانيات المختلفة لهذا الذي تراه.
ترى مدينة لها طابع عتيق.. ليس عربيا بالضبط لكنه إسلامي.. طراز بناء فريد من نوعه.. منمنمات دقيقة من مدرسة (بهرزاد) تظهر أبطالا يحاربون وحوشا أسطورية وحول رءوس الأبطال هالات نور تذكرك بأيقونات القديسين البيزنطية.. هي تعرف أن الحضارة الإسلامية أحدثت تقدما هائلا في الفن الزخرفي، لكن فن التشخيص والبورتريه توقف لشبهات دينية.. إذن ما معنى أن ترى هذه الرسوم حولها؟
الخط العربي نفسه يقطع الأنفاس هنا.. لقد جعل منه هؤلاء القوم فنا عظيما شديد البراعة والأناقة والتعقيد، يمكن أن نسميه (الطغراء) بضم الطاء برغم أن هذا المصطلح عثماني وليس فارسيا..
فيما عدا هذا الجو كله جو شرقي كأنه ألف ليلة وليلة هناك جوار وأسواق يباع فيها البطيخ والشمام.. هناك سيوف وفرسان ملثمون على خيول مطهمة.. هناك نعناع ورائحة ماء الورد في الجو.. هناك..
ثم تذكرت.. لقد عاشت هذا الجو من قبل عندما واجهت (الفداوية) وفرق السفاحين.. عندما كان (عمر الخيام) لا يتركها من دون رباعية كل عشر دقائق..
إنها في بلاد فارس.. هذه طهران لا شك في هذا..
وراحت تفكر.. ما الذي يمكن أن يوجد في هذه البلاد مرة أخرى؟ لقد جربتها من قبل في مغامرة رهيبة وفي فترة من أحلك فترات التاريخ، فماذا بقي؟ الحقيقة أنها نسيت أنها تعرف تفاصيل أخرى عن هذا العالم.
- مرشد..
لم يرد وإنما رفع صوت شخيره أكثر، فعاودت مناداته بصوت أعلى.. لما لم يرد وجهت له ركلة صغيرة في ركبته بطرف حذائها فأجفل وهب متيقظا.
قالت له وهي تشير خارج النافذة:

- ما هذا بالضبط؟
أخرج الدليل وراح يقلب الصفحات، ثم تثاءب كفرس النهر وقال:
- هذه.. أساطير فارسية طبقا.. ماذا كنت تتوقعين؟
- وأي نوع منها؟
- هناك الكثير.. الفراعنة قضوا حياتهم مع (رع) و (آمون).. والإغريق قضوا حياتهم مع (زيوس) و (فينوس).. وشعوب الشمال ضيعت وقتها مع (أودين)، بينما راح البابليون يتصورون الأخت (عشتار) تفسد حياتهم.. لماذا يجب أن يكون الفرس استثناء؟
ثم نظر خارج النافذة وقال:
- على كل حال واضح أن هذه ملحمة وليست أسطورة؟
قالت في غيظ وقد استفزها بروده:
- تتحدث كأنني خبيرة أدب شعبي.. ما الفارق؟
استرخي في مقعده، ووضع ساقا على ساق، وراح يعبث بالرباط المطاط لجوربه على طريقة (أشده -يلسعني) الشهيرة، وقال:
- الأساطير هي صورة فطرية ساذجة لعقائد القدماء. أي أنها صيغة أخرى لديانات تحاول تفسير ما استغلق من غوامض الطبيعة. الملحمة Epic تختلف؛ لأنها تتعامل بشكل شعري مع أحداث تاريخية حقيقية ومع أبطال حقيقيين وإن أدخلت ما تشاء من خيال عليها.. هنا نجد أن البطولة مهمة جدا.. قال (أرسطو) إن الملحمة تشبه المأساة على المسرح.. كلاهما يتحدث عن المعاناة وصراع الأخلاق لكن المأساة تتخذ شكل حوار بينما الملحة تتخذ شكل رواية.. يقول د. (محمد عناني) إن صفات الملحمة الأولية هي [1]:
1- الضخامة: ضخامة حجم الملحمة وضخامة الأحداث معا.. لا بد من حروب ضروس وصراعات بين بلدان تمتد لعقود وأعداد غفيرة من (الكومبارس).. لا يمكن كتابة ملحمة عن معاناة شاب مع حبوب الوجه لو أردت رأيي.
2- وحدة الحدث: عقدة واحدة مهما تفرعت الحركات الفرعية.. هناك 474874 قصة لكنها تعود دوما إلى القصة الأصلية: حصار (طروادة) أو رحلة (جلجاميش).. إلخ...
3- البطولة: إنهم وراء الواقع.. إنهم فوق الواقع.. إنهم أكبر من الواقع. لهذا - نكرر - لا يمكن كتابة ملحمة عن معاناة رجل يبحث عن مواصلة لإمبابة من دون أن تتهشم البطيخة التي يحملها، أو فتاة تبحث عن طلاء أظفار يناسب لون بشرتها العكر.
4- الخرافة: ستظل الملاحم القديمة مصدرا لنا لفهم تلك الديانات الوثنية القديمة.
5- نقاط تقنية يفهمها المختصون.. مثل البحر السداسي Dactylic hexameter.. البدء من النصف ثم العودة للماضي ونقطة البداية.. الاستطراد.. إلخ
ثم استرخي في مقعده وتنهد وقال:
- سوف تجدين أن ملحمة اليوم تحقق كل هذه الشروط باستثناء الثاني.. وهذا باختصار شديد!
قالت في غيظ:
- تمنيت لو أبقيت فمي مغلقا!
- كان هذا إلى الحكمة أقرب.. والآن ما رأيك؟
قالت وهي تشعر بالدوار:
- سأجرب طبعا.. لقد جربنا الأسلوب البابلي في الملاحم فلم لا نجرب الأسلوب الفارسي؟
قال منذرا:

- لكن أنذرك منذ البداية.. أنا لا أجد لك دورا واضحا لهذا سيكون دورك هامشيا جدا.
- هذا ما أتمناه
مد يده يجذب حبل القطار.. وهكذا بدأت المغامرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زهجرت بشد * نج هشتاد بار
كه * فتم من اين نامه شاهوار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تذكر الكثير عن أبيها في تلك الفترة..
أحيانا نعتقد أن آباءنا خرجوا من بطون أمهاتهم - لو كانوا قد فعلوا هذا... بذات الشكل الذي عرفناهم به؛ ولهذا يصعب عليها أن تتخيل أباها بمظهر آخر غير هذا التعبير الحكيم المنهك المرير.. بغير هذه الأسمال البالية والقامة المنحنية.. بغير هذا الشعر الأشعث الأشيب.
فقط هي تذكر أطيافا عنه..
لا بد أنه كان في الخامسة والثلاثين من العمر.. كانت هي طفلة لا تكف عن اللعب في الحقول والتي لا تعرف أنها تطل على مدينة (مشهد)..
ثم كانت تعود للدار لتجده جالسا على (الدشت) غارقا في التفكير.. إن الكتكوت بداخله ينقر البيضة عازما على الخروج.. وما لم تكن تعرفه، هو أنه سيظل على هذه الحال لمدة خمسة وثلاثين عاما أخرى.
ثم جاء اليوم الذي أحضر فيه القرطاس والريشة.. بلل تلك الأخيرة بالحبر ثم تربع على الأرض، وبدأ يكتب.. يكتب ويكتب.. بلا توقف.. هكذا أيضا سوف تذكره ما بقي من حياتها..
كان (الدهقان) - وهم الفلاحون الفقراء الذين يعيشون في الجوار - يقولون لها إن أباها (أبو القاسم منصور) شاعر عبقري موهوب وإن عليها أن تفخر به..
حينما كان يغادر الدار كان يتجه إلى بيوت هؤلاء الفلاحين.. هناك كانوا يقدمون له البطيخ الإيراني الأصفر والشاي.. وكان شيوخهم يشعلون الغلايين، ثم يحكون من تحت شواربهم الفارسية الكثة قصصا ممتعة كانت تهيم بها حبا.. قصصا عن تنانين وعن رجل مرعب له ثعبانان يخرجان من كتفيه.. عن رجل يدعى (رستم) وعن حسناء تدعى (تهمينة).. وعن.. وعن...
كانت (عبير) - التي عرفت أن اسمها (ثريا) – تصغي لهذه القصص مفتوحة العينين ذاهلة.. وكان أبوها ينظر لها من حين لآخر وقد شاعت بسمة على وجهه الوسيم كأنما يبغى أن يرى تأثير هذه الحكايات عليها على الطبيعة ثم كان يرجع إلى الدار ليخط كل ما سمعه في مسودات صغيرة، وكان يستعمل هذه المسودات في ذلك العمل العملاق الذي يكتبه..
ذات يوم دنت منه.. وضعت رأسها الصغير على كتفه وراحت تتملى خطه الجميل على القرطاس.. أراح جلسته قليلا لتتمكن من الجلوس على حجره، وإن همس في أذنها:
- احترسي وإلا سكبت الدواة على الورق!
نظرت له في حيرة، ثم همست:
- ماذا تكتبه يا أبي؟
قال في شيء من الفخر:

- أكتب كتاب الملوك.. (كتاب الملوك) باللغة الفارسية معناه (الشاهنامه)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- عن الشاهنامه...

* نين * فت رستم بآواز سخت
كه اى شاه شادان دل ونيكبخت
بدين * ونه تيز وتندى مكوش
بدانده ب. * شاى يكباره * وش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يجب أن تكون فارسيا لتعرف قيمة هذا العمل الرهيب الضخم (الشاهنامه Shahnama)، الذي ينسب له أنه العامل الوحيد الذي أدى لحماية اللغة الفارسية من الانقراض..
ليست اللغة فقط، بل الثقافة الفارسية.. إن (الشاهنامه) مرجع شامل لتاريخ الفرس وعقائدهم وأبطالهم، عمل لا يمكن أن تصدق أن شخصا واحدا كتبه.. والحقيقة أنه لم يكتبه بالضبط، ولكنه جمع أساطير الفرس وحكايات الفلاحين الدهقان، ثم أدخلها إلى ذلك الخلاط العملاق الموجود في عقل كل أديب كبير، وصنع منها ذلك المزيج المتجانس الساحر الذي خلب لب الكثيرين..
يجب أن نذكر أن أول ترجمة للشاهنامه باللغة العربية قام بها الفقيه (قوام الدين بن على البدارى) في دمشق. أما باللغة التركية، فقد قام الشاعر التركي (على أفندي) بترجمة الشاهنامه شعرا منظوما عام 916 هجرية، وقد شهد عصر السلطان (سليمان القانوني) اهتماما بنظم التاريخ شعرا، وقد ابتكر منصبا في البلاط يدعى (شاهنامجي) أي (ناظم تاريخ الملوك على غرار (الشاهنامه).
وهناك ترجمات لكل الشاهنامه أو أجزاء منها، باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإسبانية والدنماركية واللاتينية والبولندية والمجرية والسويدية والأرمنية وغيرها.. أشهر هذه الترجمات ترجمة (تشاك) باللغة الألمانية، وترجمة (جول مول) باللغة الفرنسية وترجمة (بيتزي) باللغة الإيطالية.
هل يضايقك هذا الاستطراد، وينغص استمتاعك ويحيل حياتك جحيما «نعم»، يا أخي كنت أتوقع أن تجيب بالنفي على سبيل المجاملة.. ليكن، فقط تحملني بضعة أسطر وبعدها كما يقول (حافظ إبراهيم):
أبشر فإني ذاهب.. متوجه في داهية..
ماذا كنت أقول؟ آه.. يجب التحفظ نوعا مع هذا العمل؛ لأنه صدر عن شعور فارسي عميق بأن الحضارة العربية توشك على التهامهم؛ لهذا تنتهي الشاهنامه بدخول العرب ومقتل ملك الفرس، ويرى كثير من النقاد أن الشاهنامه تحوي الكثير من (الغل) الفارسي الدفين تجاه تلك الحضارة، لقد فتح المسلمون بلاد الفرس في عهد الخليفة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، وقتل آخر حكامهم (يزدجرد Yedgird) الثالث.. ثم بدأ الفرس يدخلون الدين الجديد ويندمجون في الحضارة الجديدة.
لكن حكم الأمويين لم يأت لهم بخير.. لقد عوملوا كمواطنين من الدرجة الرابعة، وتسبب هذا في نوع من الحقد الأصيل الكامن في نفوسهم تجاه بني أمية، وأحيانا ضد العرب جميعا.. وهكذا كان من الطبيعي جدا أن يؤيدوا مجيء العباسيين للحكم.. في (خراسان) كان (أبو مسلم الخراساني) -

وهو شخصية جديرة بكتاب كامل - هو قائد التآمر ضد الأمويين وسرعان ما انهار حكم بني أمية، وفر (مروان) الثاني إلى مصر حيث قتل.. لقد تلاشى الأمويون، فلم تعد لهم إلا مملكتهم في إسبانيا.. هذه تفاصيل يعرفها أي تلميذ في المدرسة الإعدادية يجيد عمله.
نحن الآن في القرن العاشر الميلادي وقد شرع الفرس في إعادة إحياء لغتهم الموشكة على الانقراض.. انقرضت الفارسية القديمة، لكنهم أحيوا ما يعرف باللغة البهلوية.
من الغريب أن هذه اللغة بعثت أولا في (بلخ) في (أفغانستان).. ثم بدأت تبعث على استحياء في بلاط الأمراء الذين حاولوا التمرد على الحكم العباسي بدوره. كان الأمراء يمارسون تقاليد رعاية الأدب كما تعلموها من العرب، وصار الشعراء يقصدونهم بقصائد المدح.. فكان الشاعر الذي يستحسن الأمير قصيدته يمنح ملء فمه ذهبا أو يعطي حصان سبق.
وكما يحدث في كل مكان عندما ترعى السلطة الفنون، وكما عرفنا (آل ميديتشي Medici) في إيطاليا وبلاط (هارون الرشيد)، ازدهر الأدب الفارسي بقوة في تلك الفترة، ولسوف تظهر أسماء لا تقل عن (حافظ شيراز) و (مولانا رومى) و (عمر الخيام) و (الشيخ سعدي).. إلخ
هنا يخرج (أبو منصور الدقيقي)..
هنا يدخل (أبو القاسم منصور)..
الرجل الطموح الذكي، الشاعر الموهوب الذي قرر أن يخلد التاريخ الفارسي والأدب الفارسي في عمل واحد..
يجب أن نقول: إنه ليس من بدأ (الشاهنامه). ففي عصر الدولة السامانية - القرن الرابع الهجري – أمر الأمير (نوح بن منصور) الشاعر (أبو منصور الدقيقي) بكتابة تاريخ فارس شعرا، وقد كتب منها ألف بيت وكانت البداية تتحدث عن (زرادشت) وصعود ديانته والملك (كشتاسب)، لكن (الدقيقي) قتل هنا على يد خادمه التركي.
هكذا وجد (أبو القاسم) نفسه أمام عمل أسطورى لم يكتمل بعد.

وقرر أن هناك رجلا واحدا يستطيع استكماله.
رجلا يستحق بجدارة بأن يوصف بأنه (هوميروس) الفرس (وهذا اللقب من اختراعي على قدر علمي)..
كان هو ذلك الرجل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البدء وجدت (عبير) أن اسمها (رودابة Rudabah) اسم غريب طبعا لكنه محبب للأذن الفارسية.. إن أباها هو (مهراب) ملك (كابول) شخصيا.. أمها سيدة أريبة اسمها (سيندخت).
هناك شاب مخلص مكافح يتقدم لها.. هذا الفتى يدعي (زال).. إنها موافقة.. خاصة أن الفتى يبدو كريم المحتد.. لكن أباها لا يوافق.. الفتى من نسل ملوك لكنه ليس ملكا.. كما أنه ربيب عنقاء.. تخيل أن يتقدم لابنتك عريس ربته عتقاء!
أصر الأب على موقفه.. فقابلت (عبير) ذلك بالدموع والهستيريا، وخطر لها أن مشاكل الفرس في الملاحم لا تختلف عن مشاكل باب (أريد حلا) في أية مجلة.. هذه الزيجة لن تتم.. لكن الفتاة متعلقة به هنا تتدخل الأم التي قلنا إنها أريبة.. أقنعت الأب بأن الفتى يبشر بخير، وهكذا تمت الزيجة التي سوف يكون ثمرتها بطل أبطال الفرس..
كانت الولادة عسرة جدا.. يبدو أن الجنين كان ضخما أكثر من اللازم، وقد أدركت القهرمانة أن (رودابة) موشكة على الموت.. هكذا خرجت تصرخ وتلطم الخدين باعتبار ما سيكون.

جاء (زال) ليرى ما حل بامرأته.. بالفعل الوضع خطير.. إن هالتين سوداوين تحيطان بعينيها، وقد غطت القشور شفتيها.. (عبير) تحاول أن تتكلم فلا يخرج الكلام من شفتيها..
هكذا قرر أن يلجأ إلى الحل الذي يبقيه للنهاية في كل مرة.. أخرج من بين ثيابه ريشة، وقربها من لهب الشمعة..
قالت له (عبير) واهنة:
- ماذا يحدث؟ هل جننت؟
وقبل أن تفهم أطلقت شهقة رعب؛ لأن السماء أظلمت وتوارت الشمس، ومن أعلى انحدرت العنقاء المخيفة بريشها الأحمر وصرخاتها التي تمزق أعصابك قبل أذنيك.. هنا فقدت (عبير) وعيها ولا تثريب عليها.
العنقاء تمسح رأس (زال) بجناحها.. إنها هي التي ربته مع أفراخها ثم ردته لأبيه عندما اشتد عوده.. والريشة التي أحرقها هي طريقة لاستدعائها.. وهنا نكتشف ظاهرة بيولوجية غريبة في الشاهنامه: ظاهرة العنقاء التي تجيد التوليد.. إنها تشمر عن ذراعيها، وتبدأ التوليد كما لم يفعل أفضل طبيب أمراض نساء في التاريخ، وفي النهاية تصاعدت صيحات الوليد فجففت العنقاء عرقها، وانطلقت محلقة.
هكذا ربت العنقاء (زال) وأنقذت حياة ابنه.
هل تعرف من هو ابنه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(رستم) البطل الإيراني العظيم من مثل (رستم)؟ لا أحد.. إنه الخامة الأصلية للبطولة قدت من مقلع التاريخ، ومن هذه الخامة يمكنك أن تشكل أبطالا أقل شأنا من (رستم).
(رستم) ابن (زال) سليل ملوك الفرس ابن (سام) ربيب العنقاء و (رودابة) ابنة ملك (كابول).. يجب أن نذكر هنا أن (زال) أبا (رستم) هو من مجموعة من أبناء الملوك تعج بهم الشاهنامه لم يستطيعوا أن يجلسوا على العروش، ومن هؤلاء (طوس بن نوذر) و (إصفنديار بن كرشاسب)..
إن (رستم) اليوم في الثامنة من عمره.. أي أنه في السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية لو كان شخصا عاديا، لكن سن الثامنة بالنسبة لأبطال الملاحم هي سن كافية لغزو العالم.
لقد صحا من نومه جوار أمه ليسمع ضجيجا وصراخا.. الأرض تهتز.. صوت غريب هو مزيج من نهيق الحمار وخوار الثور.. ماذا يحدث هنا؟
نهض من الفراش واتجه إلى الباب، فقال له أحد الحرس:
- فيل الملك الأبيض قد فر..
بدا الحماس على (رستم) وأراد الخروج.
- مستحيل يا سمو الأمير! إن حياتكم مهمة جدا!
- لكني أرغب في..
- مستحيل!
وأغلقوا الباب بإحكام كي لا يخرج.
هكذا وقف وحده يصغي لأصوات مغرية محببة.. أصوات لا يمكن أن توصف لكنها السحر ذاته.. تهشيم عظام...
صراخ.. بطون تبقر.. هناك من يحمله الفيل بخرطومه ليلقى به على بعد مائة متر..
الخلاصة أنه لم يستطع مقاومة هذا السيرك.

قالت أمه (عبير) وهي ترى تلك النظرة في عينيه:
- لا تفعل يا ولدي! أرجوك ألا تفعل!
لكن فات الأوان.. أبطال الملاحم لا يصغون للنصائح.
هشم الباب بقبضته واندفع إلى الخارج.
بالفعل كان المشهد أقرب إلى الكابوس.. الفيل الآسيوي العملاق يندفع وسط صفوف الحراس.. هؤلاء البلهاء يصوبون رماحهم لكنه يقتلع الرجل برمحه ويطوح به إلى مسافة مائة متر، ثم يستدير لينتزع آخر ولا بأس من أن يدوس على من يتعثرون.
اندفع (رستم) الصغير وسط هذا الزحام حاملا صولجان أبيه.. تسلق شجرة حتى صار فوق الفيل، وثب فوق عنقه ثم هوي بالصولجان بأعنف ما استطاع، من ثم تهاوي الفيل صريعا.
فما إن تكوم العملاق الأبيض على الأرض حتى وثب (رستم) من فوقه وسط ذهول الواقفين!
عاد إلى البيت فدخل فراشه أمام عيني أمه المذهولتين، ونام حتى الصباح غارقا في أحلام سعيدة.
تقول إن هذا صعب؟ أنت لست بطل ملاحم فلا تستطيع التعليق على حدث بهذه الأهمية..
فقط أردت أن أعطيك فكرة عن نشأة هذا الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقفز إلى الأمام بضع سنوات لنسمع هذا الخبر الرائع لقد سمعه (بشنج) ملك (توران) عدو الإيرانيين ونقله إلى ابنه (أفراسياب)..
لقد مات (مانوشهر) ملك الإيرانيين وترك كل شيء لابنه (نودير).. كان هذا أجمل خبر سمعه في حياته؛ لأن (نودير) ليس أكثر من صبي غرير رقيع مغرور.
أما ابنه (أفراسياب) فذئب حقيقي.. وغد يسيل الدم من أنيابه، ولسوف يكبر ليصير ألد أعداء إيران وألد أعداء (رستم).. تذكر هذا الاسم؛ لأننا سنقابله مرارا بعدد شعر رأسك.
وقال (أفراسياب) وهو يبتلع لعابه:
- صبرا! سليرب! سوف ألتهم (نودير) هذا كفاتح شهية!
إن إيران قد صارت ثمرة ناضجة حان قطافها..
هكذا نادي رجاله، وأعلن لهم أن وقت القتال قد حان.. سنزحف على إيران يا رجال!
وهكذا التقى الجمعان: رجال توران ضد رجال (إيران)..
سال الدم كأنه الأنهار، وتطايرت الرءوس كأنها أوراق الشجر في الخريف. أما الرأس الأهم الذي طار فهو رأس (نودير) نفسه.
تقول الملحمة إن هذا الفتى مستهتر، وأرى إنه مظلوم.. هو لم يجد وقتا كافيا للاستهتار ما دام مات في اللحظات الأولى للقصة.
وسرعان ما راحت الأنباء تتوالى عبر إيران.
لقد هزم (نودير).. لقد صارت إيران ثمرة ناضجة.
سمع (زال) هذه الأنباء السيئة فنادى ابنه(رستم).. وقال له:
- أي بني.. إن شفتيك ما زالتا تحملان رائحة اللبن..
نظر (رستم) في ذهول إلى أبيه.. ما هذه البداية المحبطة التي هي أقرب إلى الإهانة؟ لكن الأب العظيم استطرد قائلا:
- من الواجب أن يمرح قلبك، لكننا في خطر، وإيران كلها بحاجة إليك!

طبعا كان هذا أفضل مما يتوقعه الصبي.. إنها دعوة للقتال.. لا مزيد من الذهاب للمدرسة وتعلم اللغة الفارسية وتعليمات الأم، وإنما هو الطعان والكر والفر.. لقد انتهت المدرسة، أو كما يقول الغربيون: School is out..
قال لأبيه وهو يجاهد كي لا يقفز فراحا:
- تعرف يا أبي إنني أشتهي الحرب، ولا أصبو لأية متعة طفولية.. هبني القوة من (سام) أبيك.
الآن هناك مشكلة واحدة هي الحصان الذي سيركبه الفتي.
هذا الجزء مهم؛ لأن هذا الحصان شهير.. ربما يفوق شهرة صاحبه، ولسوف يظل مخلصا له حتى يغيب معه في القبر.. إن (رستم) لا يبحث الآن عن حصان لكنه يصنع التاريخ..
كان هناك صف من الخيول، وقد مشى بينها (رستم) يتفحصها بنظرة خبير الفروسية.. كان يضغط على ظهر كل حصان ليري إن كان سيتحمل ثقله.. وهو أسلوب شبيه بأسلوب حدادي السيارات عندما يتفحصون (المساعدين).. في النهاية مط شفته السفلي مشمئزا.. كل هذه خيول رقيعة لا تتحمله!
على أن الحل جاءه حينما كان يمشي في سهول (كابول)، فرأى حصانا لا يمكن وصفه بكلمات.. لونه – يقول الفردوسي - كلون أوراق الورد المبعثرة على أرض من الزعفران.. لا تسألني إذن عن لونه فأنا لا أعرف!
صدره صدر أسد وقوته قوة فيل.. الخلاصة إنه هو. أنت تعرف الحصان الذي تبحث عنه حينما تجده.
أمسك بأنشوطة واقترب قليلا من الحصان الثائر، ثم ألقى بالحبل عليه.
وثب الحصان في الهواء، ثم وقف على قائمتين خلفيتين، وراح يرغي ويفعل كل ما يفعله أي حصان يحترم نفسه، لكن (رستم) ظل ثابتا واستمر الصراع ساعات حتى أدرك الحصان من هو السيد.

- أرجوك أيها الفارس النبيل لا تسلبني حصاني!
ونظر (رستم) إلى الوراء فرأى فلاحا بائس الحال ينظر له متوسلا.
قال الفلاح وهو يربت على عنق الحصان:
- لكن لا علامات عليه تدل على أن له صاحبا..
قال الفلاح مجففا عرقه:
- اسمه (راخاش).. (راخاش) معناها البرق كما تعلم.. إنه لا يسمح لأحد بركوبه برغم أنه مستعد لوضع السرج منذ ثلاثة أعوام..
قال (رستم) وعيناه تلمعان، وهو يتفحص الحصان:
- هبني إياه!! كم ثمن هذا التنين؟
قال الفلاح:
- ثمنه غال.. إنه أرض إيران.. لكن لو كنت أنت (رستم)، فلتأخذه بلا ثمن سوى أن تنقذ إيران!
وركب (رستم) الحصان الجامح فبدا كأسطورة.. بدا أكبر من الحياة ذاتها.
وأطلق صيحة ارتجت لها السهول، ثم انطلق كي ينصر إيران..
كانت المشكلة الآن هي العثور على حاكم جديد لإيران.
لم يكن (رستم) راغبا في قيود الحكم.. إنه كما قال مرارا يعتبر (راخاش) عرشه وخوذته تاجه.. لا يريد شيئا آخر.
هكذا انطلق إلى جبل (ألبورز).. وصل إلى بيت تحيط به حديقة غناء.. هناك نافورة وجدول ماء

رقراق.. أكثر من طاووس على العادة الفارسية، وحسناوات يلتفون حول شاب وسيم يجلس في الحديقة يلتهم الفاكهة.. بدا هذا المنظر مترفا غريبا بالنسبة ل.(رستم) الخشن المغبر
- مساء الخير.. أنا أبحث عن (كاي جوباد)..
- هل تريده في شيء ما؟
كان (رستم) يغتاظ كثيرا لهذه الطريقة.. تسأل الشخص عن شيء ما فيستجوبك، ثم في النهاية يعلن أنه لا يعرف. لكنه في النهاية وجد نفسه مضطرا.. فقال للفتي:
- إنه مرشح ليكون شاه إيران لو كان الأمر يهمك في شيء.
هنا هتف الفتى في مرح:
- أنا (كاي جوباد)!! الآن فهمت الحلم الذي رأيته أمس.. كان هناك صقران طارا من إيران ليضعا تاجا ذهبيا على رأسي!!
هكذا شعر (رستم) بالرضا؛ لأنه أنجز مهمته.
عاد بالحاكم الشاب إلى خيام أبيه (زال) وتمت حفلات التتويج.. وهكذا صار للإيرانيين شخص يقفون خلفه في حربهم للأتراك.
استمر حكم (كاى جوباد) أعواما رائعة. ولما مات خلفه ابنه (كاي كاووس).. مات الشاه.. عاش الشاه.. (كاي كاووس) أخرق وأحمق مثل (نودير).. حاول الهجوم على (مازندان)، ففشل وسقط في الأسر والأهم أن بصره كف.. إنه الآن أسير في قبضة (التوران) يحرسه التنين الوغد (ديف) الأبيض هكذا صارت مشكلة (رستم) أن ينقذ (كاي كاووس) شاه إيران، ويعيد له بصره.
وهكذا تبدأ رحلة بحث أسطورية من عشرات الرحلات التي تعج بها الشاهنامه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهي (رستم) من عشائه في الخلاء، ومعنى أنه انتهي من عشائه حسب تقاليد الشاهنامه الصارمة أنه أكل بغلا، ثم هشم عظامه من أجل النخاع.
أخيرا نام (رستم).. هؤلاء الأبطال لا ينامون إلا على ظهورهم مع مباعدة الأطراف، وهي التومة التي يقول علماء النفس، إنها توحي بالسيطرة والتملك والثقة بالنفس.
صدره يعلو ويهبط في شخير ترتج له أشجار الغابة. وهنا نعرف شيئا آخر عن هؤلاء الأبطال: إنهم ينامون كالأصنام.
ثمة زائر قادم من وسط الأحراش وقد شم رائحة الشواء. يدنو الزائر أكثر فتسمع زئيره وترى عينيه الناريتين.. إنه أسد.. أسد فارسي محترم جدا.
و (رستم) نائم فلا يمكن أن يوقظه شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- أنت الفردوسي..

نحن الآن في (غزنة).
العام الهجري أربعمائة حسب قول الشاعر نفسه:
(بنج هشتاد بار) أي إنه نظم الشاهنامه في العام الهجري (50 x 8)..
يجتاز (أبو القاسم) المدخل بين الحراس المدججين بالسلاح.
الحقيقة أنه لم يعتد كثيرا المثول أمام الأمراء والملوك برغم أن هذه كانت عادة شعراء العصر.. لقد كان معتزا بنفسه لكنه شعر بأن عمل عمره يجب أن يكافأ بسخاء.
سألته ابنته (عبير) همسا، وهي تهرع لتلحق به:
- لماذا غيرت مبادئك؟ ظننتك في حالة اكتفاء ذاتي..
قال همسا وهو يجد السير بين السيوف والرماح:
- لئن لم تغنني هذه القصيدة فلا نفع في كل ما كتبت.. هناك لحظة في حياة كل إنسان يرغب فيها في معرفة ما إذا كان واهما أم لا.. وقد جاءت لحظتي..
على الباب الأخير استوقفه حارس تركي مخيف.. يبدو أن الحراس يزدادون ضخامة وبشاعة خلقة كلما توغلت أكثر.. فقال له في كبرياء:
- أريد مقابلة السلطان (محمود).. لدي قصيدة له..
نظر له الحارس مفكرا ثم أشار إلى (عبير):
- وهذه؟
- ابنتي..
من ثم دخل الحارس الباب السميك.. وسمع (أبو القاسم) جلبة من الداخل.. واضح أن السلطان التركي (محمود الغزنوي) يتمتع بطباع سلطان تركي فعلا. إنه يرفض ويتشاجر.. ولابد أنه يقول الكثير من (خرسيس نرسيس أوغلى كلاب.. إلخ)
كلا الرجلين يغلي.. السلطان بالداخل يغلى لأنه لا يفعل شيئا آخر.. إنه يصحو من نومه ليغلي حتى الليل، أما الشاعر، فيغلى لأنه راغبة في الانصراف.. لو لم يكن قد توغل كل هذه المسافة لانصرف بلا ندم.. و (عبير) ترقب أباها مشفقة.. إنها تعرف طباعه، وتعرف أن هذه محنته الخاصة.
في النهاية انفتح الباب وقال الحارس:
- ادخل.. لكن بسرعة!!
ما أرهب أن تدخل إلى بلاط السلطان (محمود الغزنوي) التركي الذي قهر آسيا الوسطى! كان جالسا على عرش عال يدخن النارجيلة، وقد أحاط به رجاله.. غزاة أتراك فعلا.. الشوارب الكثة والحواجب الغليظة والنظرات النارية الملتهبة.
- تعال يا شاعر!
هكذا مشى الشاعر نحو السلطان وخلفه (عبير) تهرول محاذرة أن تتعثر في البساط السميك الذي يذكرها بالرمال المتحركة.. من أين يأتون بكل هذا المال؟ يبدو أن مهنة الغزو مربحة فعلا.
حني الشاعر رأسه في عصبية، ثم مد يده إلى ثيابه، فأخرج لفافة.. فكها وبدأ يقرأ.. بصوت متحشرج في البداية ثم صوت ثابت رصين، ثم بدأ الانفعال يجعل صوته يتهدج ثانية لكنه يتهدج في المكان والوقت الصحيحين:

- ا*ر جن* خواهي وخون ريختن
بدين سان تكا*وي وآويختن
ب*وتا سوار آورم زابلي
كه باشند با جوشن كابلي

ارتفع حاجبا السلطان التركيان.. على حين واصل الشاعر الإنشاد، وقد نسى كل شيء عن هيبة المجلس.. نسي الجائزة.. نسى كل شيء إلا سحر الكلمات.. فلو قيل له إنه لا جائزة. لو قيل له إن رأسه سيقطع لو استمر.. لاستمر.

- *ه بايد مرا جن* زابلستان
همان جن •ايران وكابلستان
مبادا *نين هر*ز آيين من
سزا نيست اين كار در دين من
كه ايرانيان را به كشتن دهيم
خود اندر جهان تاج بر سرنهيم

هنا صرخ السلطان بأعلى صوته:
- رااائع! جوزال!! جوزال أفنظم جوزال!
وراح يخنفر خنفرة شديدة من أنفه.
معه حق فالكلمات مؤثرة كما ترى.. ماذا؟ لا تفهم؟
كنت أحسبك تجيد الفارسية.. أنا لا أجيدها لكن حسبتني الأحمق الوحيد في هذا العالم.
موضوع الأبيات هو حوار بين (رستم) العظيم و (أصفنديار) البطل العظيم الآخر.. وهو جزء من قصة (هفتخوان إسفنديار) الشهيرة..
(رستم) يقول: يا أخا الملك وذا السعد وذا القلب المنير.. لا تجادل، ثم لا تغضب وكن مستمعا لعليم ناصح جمع علما كثيرا.
فيرد عليه أصفنديار قائلا: لا أريد الحرب في زابولستان. لا أريد حرب إيران ولا كابول.. إن أخلاقي لا تقبل ما تصبو إليه، ليس من ديني ما قلت وما تمشي عليه.
هنا بلغ السلطان حالة من النشوة جعلته يشق ثوبه بالطول، وهو سلوك معتاد في ألف ليلة وليلة.. ثم صاح بصوت ارتجت له القاعة:
- عفارم! ما اسمك أيها الشاعر الفحل؟
توقف (أبو القاسم) متضايقا، لأنه كان يشتهى إنشاد الشعر للأبد.. وقال:
- أبو القاسم منصور يا مولاي..
صاح السلطان بجنون:
- بل أنت الفردوسي! أشعارك جعلتني أشعر بأنني في الفردوس ولذا أنت الفردوسي!
ثم صاح بصوت خلع قلوب الواقفين:
- جنيهان ذهبيان عن كل بيت!!
ارتعد الجميع، وراح الكل يحسب في ذهنه المبلغ الذي يمكن لشاعر النحس هذا أن يحصل عليه.. إن الشاهنامه سوف تصل إلى 44 ألف بيت وبهذا سيكون حجمها مثل الإلياذة سبع مرات.. وقالت (عبير) لنفسها: لقد صرنا أثرياء بحق.

لكن الفردوسي - كما صار يدعى بعد دقيقتين - كان من طراز فريد من البشر.. كان فنانا لا يرضى إلا بالكمال.
لهذا قال في تهذيب:
- فليسمح لى مولاي.. لن أتقاضى مليما عن هذه القصيدة إلا بعد الانتهاء منها!
نظر له الجميع في ذهول.
إما أنه فنان حقيقي، وإما أنه جشع إلى حد لا يصدق. لا يرغب في تجزئة المال.. المهم أن هذا موقف غير معتاد..
وهمست (عبير) في أذنه
- أبي.. أخشى أن تندم على هذا!
ولم تدر كم هي محقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جهاندار ا*ر نيستي تن *دست
مرا بر سر *اه بودي نشست
كه سفله خداوند *يتي مباد
جوانمرد را تن *دستي مباد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأسد يواصل زحفه نحو القتل السهل.
هنا يهب حصان (رستم) ليبرهن بحق عن أنه حصان (رستم).. وثب على الأسد البائس.. الأسد الذي حسب الخيول سواء والرجال النائمين سواء.. هكذا وجه الحصان ركلة قوية إلى فم الأسد فتراجع هذا ووثب في الهواء، لكن الحصان بادره بركلة في بطنه.. أتبعها بعدة رفسات.. في النهاية سال الدم من فم الأسد وسقط ميتا..
هنا فقط يصحو الأخ (رستم) من نومه الثقيل.
رأى المذبحة فلم يمتدح شجاعة الحصان.. فقط قال له في غيظ:
- لا أحب المجازفة.. لو مزقك هذا الأسد لكان عليّ أن أجتاز الصحراء وحدي.. كان عليك أن توقظني!
ثم نهض وواصل رحلته وهو متعكر المزاج.
الحق أن رحلة الصحراء كانت عسيرة بحق.. الشمس تعتقد ألا عمل لها سوى أن تحيله إلى شواء.. والظمأ لا يوصف. دعك من الحقيقة التي لم يصارح بها نفسه: لقد ضل الطريق..
أخيرا توقف، وراح يجفف العرق عن جبينه فقط ليجد ألا عرق هنالك.
نظر للحصان وقدر أن الموت قريب على الأرجح.
فجأة رأي ظبيا يجرى.. امتطي حصانه وهتف في أذنه:
- لا تدعه يهرب منك!
لأن الظبي يعرف مكان الماء.. إنه ذاهب إلى بينبوع أو آت من ينبوع.. وهكذا بدأت مطاردة رهيبة فوق كثبان الرمل بين الظبي وبين الفرس.. ولو عرف الظبي أن من يطارده صرعه الظمأ لا الجوع لهدأ نوعا.. إن البطل بحاجة إلى الماء لا اللحم..
في النهاية رأي (رستم) الينبوع، فأطلق صرخة عظيمة لم تخرج من حلقة الجاف.. ووثب في الماء

يعب منه كالحيتان.. بينما غمر الحصان نفسه كلية في ينبوع الحياة هذا..
لا تفسير لوجود الظبي إلا إنها علامة.. معجزة ما. الإله لا يريد ل. (رستم) أن يموت الآن وبهذه الطريقة. لكن (رستم) على كل حال اصطاد الظبي وشواه علي سبيل العرفان بالجميل..
جوار النهر رقد (رستم) وعاد يمارس عادته القديمة:
النوم كالصخرة..
أما الحصان فوقف قربه يتشمم الهواء.
ما لا يعرفه (رستم) هو أن هذا المكان مسكن تنين.. تنين فارسي عصبى لا يوحي بالثقة كثيرا.. وقد جاء يجر ذيله العملاق، ووقف يراقب النائم.
هنا أسقط في يد الحصان.. هل يحارب التنين مخالفا أوامر فارسه أم يوقظه؟ هكذا قرر أن يلجا للأحوط ووجه ضربة بحافره إلى خصر (رستم) النائم.
- آي!!
وصحا (رستم) متعكر المزاج.. نظر حوله ثم إلى الحصان.. طبعا قد اختفى التنين عن العيان.. هكذا نظر للحصان نظرة يقدح منها الشرر رد عليها الحصان بنظرة خجلي كسيرة.. سوف نكتشف من الشاهنامه أن هذا الحصان حكيم جدا، وأن (رستم) يظلمه طيلة الوقت.
عاد (رستم) للنوم وعاد حصانه يراقب المكان في توتر.
بعد قليل عاد التنين يطل برأسه المليء بالحراشف.. إنه من طراز التنينات الوقحة إذن..
ومن جديد يهز الحصان فارسه ليوقظه، ومن جديد. يفر التنين فيستشيط (رستم) غضبا.. لا تحاول إزعاج نوم (رستم) وإلا ندمت ندما شديدا.. كل أبطال الملاحم مثله.
في هذه المرة أقسم (رستم) قسما مغلظا أن الحصان لو أيقظه مرة ثالثة، فلسوف يحز عنقه ويجتاز الصحراء راجلا.
الآن تأتي المرة الثالثة.. لابد من ثلاث مرات وثلاث ليال وثلاث فتيات أو ساحرات.. إنه الرقم ثلاثة الملغز يطل من جديد كعادته..
يطل التنين برأسه.. ويقرر الحصان أن يجازف بحياته ليوقظ (رستم)..
لكن لحسن حظ الحصان رأى (رستم) التنين العملاق الذي يحوم حول النبع.
هبّ ممسكا بسيفه، واتخذ وضعا قتاليا.
قال التنين (وكل التنينات في هذا العالم تتكلم بلباقة):
- ما اسمك أيها الفارس؟ لأن المرأة التي حملتك ستبكي بكاء حارا الليلة..
صاح البطل وهو يهوي بسيفه:
- أنا (رستم)!!
والآن يدور الصراع الرهيب بين (رستم) والتنين. صراع لا يمكن وصفه إلا بمشاهدته. التنين يهجم بأسنانه السامة ويحاور البطل، والبطل يهجم بسيفه البتار و (راخاش) يساعده بحوافره وصهيله..

في النهاية استطاع أن يسدد ضربة إلى صميم قلب الوحش فزار، ثم هوي يتشحط في دمه، وتلون ماء النبع بالدم.
مد يده وربت على عنق الحصان.. لكنه سينسى هذا الموقف سريعا كما سنرى..
ويواصل (رستم) رحلته التي نسينا هدفها.. يمكنك أن ترجع للفصل السابق لو أردت؛ لتتذكر أما أنا فلا وقت لدى. إذ يجب أن أصف لك تلك المأدبة التي وجدها البطل بين الأشجار.

مأدبة رائعة بها ما لذ وطاب من طعام وشراب، و (رستم) كان جائعا بحق الآن.. بعد النوم وبعد قتل التنين.. لهذا انقض على الطعام انقضاضا.
أكل وشرب كثيرا، ثم قرر أنه سعيد وأن الوقت قد حان للغناء.. لهذا رفع عقيرته وبصوت جدير بأبطال الملاحم أنشد:
- أنا (رستم).. أنا ابن (زال) العظيم.. إلخ..
هنا سمع صوت خطوات تأتي من خلفه.. لا يعرف السبب في الرجفة التي انتابته لكنه التفت، فوجدها فتاة حسناء تصغي لغنائه في انبهار.
قالت في رفق:
- إذن أنت (رستم) بطل الأبطال!
قال في خجل:
- أنا (رستم) بطل الأبطال..
مدت يدها تضعها على معصمه رقيقة باردة.. لكنها بعثت المزيد من التقزز في دمه، وقالت:
- احك لي قصتك.
قال وهو يصب لنفسه المزيد من الشراب:
- قصة طويلة.. لكن بفضل (أرمازد) العظيم قد بقيت حيا حتى..
ما هذا؟ هل تبدلت ملامح تلك الفتاة عندما ذكر اسم (أرمازد)؟ قرر أن يتأكد فواصل الكلام:
- ولما جاء التنين ابتهلت إلى (أرمازد) كي..
من جديد تبدلت ملامحها لربع ثانية.. هكذا قرر أن يتأكد أكثر فراح يكرر في خبث:
- لأن (أرمازد) هو (أرمازد) الذي يفعل ما يفعله (أرمازد) ولا يفعل شيئا لا يفعله (أرمازد) و..
الآن صارت ملامحها ثابتة.. ساحرة شمطاء عجوز خلا فمها من الأسنان، وتغضن وجهها كالمومياوات.. ولم تكن لها عينان.. لقد غطت أذنيها وصرخت في جنون:
- كفي ي ي ي ي!!
كانت ساحرة.. كانت هي صاحبة تلك المأدبة التي جلس يأكل عليها.. ومن الواضح أنها كانت ستفعل به ما تفعله الساحرات عامة.. ولكنها لم تتحمل ذكر اسم (أرمازد).
جرت هاربة لكنه أطلق عليها حبله الذي صنعه على شكل أنشوطة، ثم جذبها إليه وقبل أن تعي ما يحدث كان قد قسمها إلى نصفين بسيفه.
ويواصل (رستم) رحلته بحثا عن (كاي كاوس) الأحمق الذي سقط في الأسر كطفل.. أخيرا وصل إلى أرض خضراء جميلة، لكنها لا ترى الشمس ولا النجوم.. ترك حصانه يرعى واستلقي على الكلأ يتأمل السماء التي لا تحوي أي شيء على الإطلاق.
لابد أنه أوشك على النوم حينما شعر بضربة قوية على أصابع قدميه.
نهض مغضبا ليجد رجلا ثائرا.. رجلا ثائرا يلومه على أن ترك حصانه يرعى في أرضه.. كان الرجل أحمق بالطبع، لأنه لا أحد يضرب (رستم) بالعصا على أصابع قدميه ما لم يكن يرغب في الانتحار.
لقد نهض (رستم) وانتزع أذني الرجل.
صرخ الرجل ألما فهرعت مجموعة من الحراس لنجدته..
هكذا انتزع (رستم) سيفه وأطار أعناقهم جميعا، ثم استدار إلى الرجل وقال له في غيظ:
- قل لي أين أجد التنين (ديف) الأبيض!!
برهن الرجل بحق على أن الأذن الخارجية لا علاقة لها بالسمع، وقال وهو يرتجف:

- سوف تعبر سبع بوابات تقودك إلى الجحيم..
- جميل.. هذا يناسبني..
- لكن لا أنصحك بالدخول ليلا.. إن (ديف) ينام في الصباح.. في ضوء الشمس.. هذا سيجعل فرصك أفضل.
هكذا يجتاز (رستم) الأبواب السبعة التي لا تصفها الملحمة بدقة، لكن بوسعنا تخيل ما حدث.. كان الأمر سيئا بما يكفي..
في النهاية وجد نفسه عند مدخل عرين (ديف).
رائحة الهواء تنذر بالموت.. وثمة شيء في الموقف كله يذكرك باقتحام (ثيذيوس) عرين (ميدوسا) في الأساطير الإغريقية.
اجتاز (رستم) المدخل متوترا.. وفي هذه اللحظة رأى جبلا يسد العرين.. إنه (ديف) نفسه..
حمل صخرة عملاقة وألقاها على الوحش.. فتنبه (ديف) وانقض على البطل..
قال (رستم) في نفسه: لو نجوت من هذا الصراع فلن يمسني الضر أبدا!
ودار صراع مرعب.
وفي النهاية استطاع (رستم) أن يغمد سيفه في قلب التنين العملاق، ثم انتزع رأسه.. ولم ينس أن يملأ عدة زجاجات بالدم..
من هذا الموضع خرج يبحث عن مكان (كاي كاووس)..
وجده مع رفاقه لا يبصرون شيئا في أسرهم، فسكب دم التنين في وجوههم من ثم عادوا يبصرون.
وهكذا تحرر شاه (إيران).. بفضل (رستم) الذي خاض كل هذه الصعاب من أجله.. لكن الأحداث سترينا كيف أن الرجلين اصطدما بسبب كبرياء كل منهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أن (رستم) لم يضيع وقته في هذه الأثناء.. هناك تلك المواجهة المهمة جدا مع (أصفنديار).. دعني أخبرك بالقصة بسرعة.
كان هناك ملك إيراني اسمه (كرشاسب).. له ابن اسمه (إصفنديار).. لأسباب لا تعنينا - لأنها تتعلق بأسرار البيوت قام الأب بحبس ابنه في إحدى القلاع، وحرمه ميراث العرش..
إن (أصفنديار) هو واحد من عدد هائل من أبناء الملوك الذين لن يرثوا الملك في الشاهنامه. من هنا تبدأ قصة (هفتخوان أصفنديار) أو (العقبات السبع).
دخل الأب وحده في حرب طويلة مع وغد يدعى (أرجاسب) ملك (توران)؛ ولأن الوغد قوى فقد هزم (كرشاسب) وقتل له ٣٨ ابنا وأسر ابنتيه.. حوصر رجاله حتى اضطروا إلى ذبح خيولهم لأكلها.
استدعى (كرشاسب) عرافه الخاص وسأله:
- هل من مخرج لهذا؟
فكر العراف قليلا، ثم راح يمارس طقوسهم المعتادة..
في النهاية قال:
- لن ينقذ الإيرانيين إلا ولدك (أصفنديار).
كان الخبر سيئا على (كرشاسب)، وقد حاول تجاهله لفترة، لكن رؤية حال شعبه جعلته مضطرا إلى الضغط على كبريائه.. إن موقف استدعاء البطل لينقذ شعبه خالد في الملاحم على كل حال.

هكذا أرسل الملك وفدا إلى محبس ابنه يخبره بذلك.. على الفور نسي الفتي كبرياءه الشخصي وهب لنجدة قومه.
من هنا تبدأ الملحمة الفرعية التي تنتهي بانتصار (أصفنديار) وفتح القلعة الفولاذية (رونين دز)، وتحرير أختيه من الوغد التوراني
عاد (أصفنديار) إلى أبيه متوقعا معاملة آدمية نوعا، وطالب بالعرش لكن الأب اشترط عليه أن يهزم (رستم) أولا، لأنه لم يبد له أي ولاء.. هنا نغمة تتكرر في الشاهنامه.. تضحية الحاكم بابنه من أجل أن يحكم.
سمع (رستم) بقدوم (أصفنديار) وكان يعرف مدى قوته، فبدأ يقلق.. ذهب إلى (سيمورج) مستشاره الاستراتيجي ليستشيره.. إن (سيمورج) عملاق مجنح يبدو كطائر طاووس له رأس كلب ومخالب أسد.. يعيش حيث يوجد الماء.. لقد رأى دمار العالم ثلاث مرات من قبل.. وعلمه يشمل عدة قرون.. لهذا كانت نصيحته ذات أهمية خاصة.
أوصاه (سيمورج) بأن يصنع سهما ذا رأسين يفقأ به عين (أصفنديار).. هكذا تمكن (رستم) من هزيمة البطل الثائر.. لكن (رستم) عاد مثخنا بالجراح، حتى إنه اتجه إلى العنقاء لتداويه وتستخرج السهام بمنقارها.. ثم مسحت على جروحه بريشتها المغموسة باللبن..
إن العنقاوات في هذه الملحمة مثقفات جدا وتجدن أشياء عديدة إلى جانب رعاية الأطفال والتوليد.. على كل حال كانت لحظات مريرة تنتظر (رستم).. فهو لم يخلق كي يستمتع بالنصر أبدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- قصة حب عابرة..

بداية غريبة لقصة حب..
لقد صحا (رستم) من نومه شاعرا بالجوع.. وجوع (رستم) ليس بالضبط حادثا بسيطا.. إنه مذبحة.. ليس من الطراز الذي يبحث في الثلاجة عن بيضة أو قطعة جبن قديمة بل هو بحاجة إلى لحم بغال.. الكثير منه.. يجب أن نتذكر هنا أن الشاهنامه تعج بالحمر الوحشية.. حمر وحشية في إيران! هل تكفل الأخ (رستم) وحده بانقراض هذه الحيوانات البائسة؟ لا أدري..
هكذا أعد سهامه واتجه نحو حصانه (راخاش) ووضع عليه السرج.
حوافر الحصان تهدر قرب غابات (توران).. قرب مدينة (سامنجان).. الهواء يضرب البطل الإيراني في صدره فينعشه هذا بينما يمكن أن يقتل من هو مثلنا.
(رستم).. من مثل (رستم)؟ الرجل والحصان كيان واحد مهيب شامخ جدير بالملاحم والأساطير..
هذا بغل.. يطلق السهم فيسقط الحيوان يتشحط في دمائه.. هكذا يجلس (رستم) ويشعل نارا ثم يشوى البغل عليها، ويلتهمه مرة واحدة.. ليس هذا فحسب.. إن الملحمة تصر على أن يهشم العظام طلبا للنخاع اللذيذ.. هذا رجل شجاع لا يخشى الكوليسترول إذن.
صوت شيء يتحرك بين الأغصان..
أمسك بسيفه وهب متحفزا.. هنا تباعدت الأغصان أكثر فرأى رجلا عملاقا يخرج من بينها.. رجلا يلبس فراء فهد وله لحية عملاقة مضفرة مدرجة. الحقيقة أن التشابه بينهما قوي جدا كأنهما ينتميان لعالم واحد.
قال الرجل القادم:
- معذرة.. أنا أبحث عمن يدعى (أوتنابشتيم).. هل تعرف أين هو؟
هنا تنفس (رستم) الصعداء وأنزل سيفه.. وهتف (جلجاميش)! كدت أقتلك!
(جلجاميش) بطل الملحمة البابلية.. من الطبيعي في هذا العالم أن يلتقي هؤلاء الأبطال من حين لآخر.. قال (جلجاميش) وهو يشق طريقه للخروج:
- أنا أبحث عن سر الخلود..
- وأنا كنت أبحث عن بغل بري..
- فرصة طيبة أيها الزميل..
وابتعد (جلجامش) بينما (رستم) يراقبه في فضول.. لا يمكن أن تعتبره ضعيفا.. إن هؤلاء البابليين أقوياء حقا.. لقد سمع عنه لكنه لم يره رأي العين إلا الآن.. من يدري؟ ربما يتصارع معه ذات مرة.. بل هو يتوق إلى هذا لكن الملحمتين لم تمتزجا قط للأسف..
أخيرا شعر البطل بأجفانه تتثاقل بشكل لذيذ.. إن من حقه بعض الراحة بعد وجبة الإفطار إلى أن تحين ساعة الغداء وهي مذبحة أخرى.. هكذا تمدد على الكلأ وسرعان ما تعالي شخيره الملحمى..
الصمت..
ثمة شيء يتحرك بين الأشجار..
يظهر سبعة فرسان يبدو أنهم ينوون شيئا شريرا.. يخرج أولهم من مكمنه ويقذف أنشوطة على الحصان العظيم..

يثب الحصان في الهواء ويقف على قائمتيه الخلفيتين ويصهل، ثم ينطلق نحوهم لا يلوي على شيء.. يضرب هذا ويرفس ذاك.. كأنه يصارع أسدا.. لكم من أسمد قتله (راخاش) بحوافره من قبل فماذا عن حفنة من الرجال؟
كل هذا والأخ (رستم) نائم.. هذه هي مشكلة أبطال الملاحم. إنهم ينامون كالجلاميد.. تصور هذه الحرب تدور على بعد خطوات منه وهو نائم لا يشعر بشيء! وهو ما رأيناه مع الزميل (جلجاميش) البابلي الذي فقد فرصته في الخلود لأنه نام أسبوعا كاملا.
رجل آخر يقذف أنشوطة.. تلتف حول ساق (راخاش).. أخيرا تغلب الكثرة الشجاعة ويتهاوى الفرس النبيل عاجزا عن القتال أكثر، من ثم يجره الرجال جرا هاربين به..
أخيرا وقد بدأ يشعر بالجوع استيقظ (رستم) العظيم..
كان الوقت عصرا.. وقد بحث عن حصانه ليركبه بحثا عن بغل جديد.. هنا لم يجده..
صاح بصوت ارتجت له الغابة:
- كيف من دون حصاني أحارب الترك وأعبر الصحراء؟!
وعلى الأرض لمح علامات المعركة.. سوف يندم هؤلاء.. أمهات كثيرات سيبكين هذه الليلة بالذات..
وفاردا صدره اتجه نحو المدينة عازما على تحطيم رأس أول من يقابله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج له ملك (سامنجان) واعتذر له بشدة:
- نحن لا نستطيع السيطرة على كل لص.. لا يعني وقوع الحادث قرب مدينتي أن لنا دخلا فيه..
ثم دعاه إلى الشراب والعشاء.. فقبل البطل الإيراني العرض.. إن الجوع بدأ يمزق أحشاءه.. ولابد أنه راح يردد من تحت شاربه الكث:
- بغال! بغال مشوية! بغال!
هكذا أكل كأفراس النهر وشرب كالحيتان.. ثم تثاءب من وراء ستار كانت (عبير) تراقبه في إعجاب، وبدت لها طريقته في الأكل غاية في الرقي والأناقة.. كانت قد قررت أن تظفر به..
قال له الملك أخيرا وهو يمسح فمه:
- من حقك أن تستريح.. كان يومك عصيبا..
- هذا حق.. لكن الغد سيكون عصيبا أكثر على رأس من سرق حصاني.
اقتادوه إلى مخدع جميل تحيط به الستائر.. هناك طاووس أو اثنان، وهناك الطبق الأزلي المليء بالعنب والكمثرى والدورق الذهبي إياه.
استلقي على الفراش وغاب في سبات عميق
ليس عميقا إلى هذا الحد، لأنه سمع الأصوات قرب الفجر.
هب من الفراش.. ونظر إلى القادم في شراسة.. لكن القادم لم يكن أسدا.. كان جارية جميلة معها فتاة تغطي وجهها بنقاب.. هذه الفتاة ذات النقاب كانت (عبير) أو (تهمينة) ابنة الملك.. إنها تلعب الآن دورا جديدا من الأدوار النسائية في الملحمة..
هزت الجارية رأسها، وانصرفت بينما اقتربت منه (عبير)..
لم يكن معتادا الرقة، وقد بدا له هذا الاقتحام لمخدعه عملا عدوانيا ينذر بالشر.. لذا لوي ذراعها بإحدى حركات المصارعة اليابانية وكاد يهشم عنقها لكنها صاحت في رعب:
- أنا ابنة الملك.. أنا (تهمينة) أطلق سراحها فقالت متأففة:

- يا لك من ثور!
ثم قالت في برود:
- حصانك عندي!
ارتفع حاجباه في غباء فقالت:
- ألم تفهم بعد؟ كانت هذه لعبة لاجتذابك إلى المدينة.. أنا من أرسل الرجال لسرقة الحصان..
كور قبضتيه وصدر عنه خوار كالثور، فقالت مهدئة:
- كف عن هذا.. ليست هذه مباراة مصارعة... الموضوع بكل بساطة هو إعجاب فتاة ببطل الأبطال.. دعني أصارحك أن أي رجل لم ير وجهي قط من وراء هذا النقاب.. والسبب؛ لأنه ما من رجل يستأهل أن يرى هذ الجمال.. كلهم رخو ضعيف مدلل.. أما (تهمينة) فجائزة للرجل الوحيد الحقيقي في هذا العالم..
وكشفت عن وجهها
إن الأمر متروك لخيالك، لكن (رستم) حسب للحظة أن القمر العابث تسلل إلى مخدعه.. حقا لم يكن هذا جمالا أرضيا.. فلو لم يكن لـ (رستم) فمن يستحقه؟
قالت له وهي تصلح خصلات شعرها:
- أنا من نسل الفهد والأسد.. لكني أعرف أنك لا تخاف الفهد ولا الأسد.. بل إنك صارعت التنين (ديف).. أنت أنت بطل الأبطال.. رمز بلاد فارس.. قاهر الترك.. ابن (زال) العظيم ربيب العنقاء!
كانت هذه أجرأ عبارات تلفظت بها (عبير) حتى في (فانتازيا).. لكن الملحمة كانت تحتم هذا.. لقد خطبته لنفسها لكنها ستترك الأحمق يعتقد أنه من أراد هذا..
هكذا النساء في كل مكان وزمان يقنعن الرجال بأنهم من اختاروا وأنهم من أرادوا..
في الصباح طلب يدها من أبيها.. أعتقد أنه نسي موضوع الحصان تماما.
وهكذا عاشا أياما من الأفراح والليالي الملاح.. لكن هؤلاء الأبطال كالبراغيث.. يستحيل أن تحبسهم في الموضع ذاته أكثر من دقائق، وفي النهاية أعلن لها أنه يجب أن يرحل....
- لماذا؟
- لأنني بطل ملحمة.. لو بقيت هنا فعن أي شيء سيكتب الشعراء؟ لم نقرأ من قبل ملحمة عن رجل عاش سعيدا مع زوجته ومات.. لابد من متاعب.. الكثير منها..
بصعوبة تماسكت (تهمينة).. كانت على وشك الانفجار باكية.. كانت تعرف هذا الطراز من الرجال.. لن يعود أبدا.. إن لديه من المشاكل ما يكفيه، ولن تراه يوما يأخذ صغيرها من يده إلى المدرسة.
مد يده في صدره فأخرج جوهرة.
- ما هذه؟
- جوهرة..
- يا سلام.. أعرف هذا.. لكن ما دورها؟
- لو أنجبت فتاة فلتعلقيها على صدرها لتحميها من الشر.. لو أنجبت فتى فلتربطيها على ذراعه.. سوف يكون قويا مثل (كيريمان)، ضخما مثل (سام بن ناريمان)، وطلق الكلام مثل (زال) أبي..
ثم ودعها وودع حماه.
وانطلق على صهوة حصانه - الذي نسي أمره فترة لا بأس بها - يسابق الريح..
لا أعتقد أن الأخ (رستم) من النوع العاطفي.. أعتقد أنه ما إن رأى الغابة من جديد حتى نسى كل

شيء عن هذه الفاتنة.. ربما بدأ يفكر في البغال المشوية. لا أعرف المهم أنه لم يخبر أحدا قط بهذه القصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- اسمه صحراب..

بدانديش كش روز نيكي مباد
سخنهاي نيكم به بدكرد ياد
بر *إدشا *يكرم زينت كرد
فروزنده اختر *وأن *شت كرد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن مرت تسعة أقمار.
من التجارب المروعة في (فانتازيا) تجربة الولادة.. تخوضها (عبير) للمرة الثانية على الطريقة الفارسية حيث لا تعقيم ولا مسكنات ألم ولا شيء من أي نوع.. فقط القهرمانات الفارسيات يهدئن روعها ويطالبنها بالمزيد من الدفع.. وهذه المرة لا توجد عنقاء مولدة.
في النهاية زال الألم فجأة ودوت صرخات ولي العهد.
جاء الأب ليربت على شعرها المبتل بالعرق، ثم حمل حفيده المعلق كقرد تعس في الهواء وصاح:
- أنت قوي جميل كأبيك.. سوف يكون اسمك (صحراب)!
برغم إنها كانت مريضة مفككة الأوصال رفعت (عبير) رأسها من الفراش وهتفت في اشمئزاز:
- (صحراب)؟
لكن يبدو أن هذا الاسم رشيق موسيقي جدا للأذن الفارسية.. إن الجد الفخور مصر، كالجحيم، وهكذا قالت (عبير) لنفسها: (صحراب).. (صحراب).. ليكن.. إن اسمك (تهمينة) وهو لا يقل سوءا..
كان نمو الطفل مروعا كأنه الدودة الشريطية.. في سن خمس سنوات صار خبيرا في المبارزة والمصارعة.. يبدو أن بعض جينات (أدهم صبري) تسربت إليه.. في سن العاشرة صار قادرا على هزيمة كل من يصارعه..
وتجلس (تهمينة) ترقب في ذعر هذا الشيء الذي خرج من بطنها والذي يناديها (ماما).. إن الأرض لترتج تحت قدميه، وإن صوته ليكفي كي يتخثر اللبن في الجرار..
سألها:
- من أبي يا أماه؟
كانت ترغب في الكتمان لكن عصبيته كانت ترعبها، لذا أجابته ذات مرة:
- لك أن تفخر وتسعد؛ لأن أباك هو (رستم) العظيم..
لكن لا تخبر أحدا بذلك لأن أعداء (رستم) كثيرون وبالتأكيد يسعدهم أن يمزقوا حنجرة ابنه..
هنا ضحك الفتى بصوت عال كأنه يصرخ:
- يمزقون حنجرتي؟ ها!
كان يبحث عن المشاكل.. هذا الشلال المقيم في عضلاته يبحث عن مجرى ينساب فيه.. وجاء اليوم الذي جاءها فيه ليخبرها بمشروعاته:
- سوف أسيطر على إيران.. سأنهي حكم (كاي كاووس).. ثم أجعلك أنت ملكة إيران وأهدي البلاد كلها لأبي..

لم تستطع (عبير) الكلام لأن مشاريعه الطموح أصابتها بالهلع.
إنه مثل أبيه مستحيل الإقناع.. لن تنجح أبدا.. لكن الأمر سخيف بل هو السخف ذاته.. هذا الصبي الغرير يريد أن يحكم إيران.. لو أراد أبوه لفعلها.. الحقيقة أنه لا مكان لها في هذا العالم الذكوري المرعب.. النساء هنا زوجات أو حبيبات أو ميتات..
لكن الصبي لم يهمد قط بعد هذا.. لقد أعلن أن كل شيء جاهز.. فقط هو بحاجة إلى حصان لا يقل عن حصان أبيه (راكاخ)..
أخيرا عرض عليه أحد الفلاحين حصانا ممتازا.. أخبره أنه من نسل (راكاخ).. تحسس الفتى عنق الحصان وضغط على ظهره عدة مرات فقاومه الحصان كأن في ظهره يايا قويا.. هنا هتف الفتي:
- أما وقد صار عندي حصان مثلك فالعالم صار حالك السواد بالنسبة لكثيرين..
كان الجد جالسا أمام التليفزيون مع الأم القلقة.. حينما دخل (صحراب) القاعة.
نظر له الملك متسائلا.. فقال الفتى:
- جدو.. أنا راغب في قهر إيران...
كان هذا طلبا غريبا يدل على الحماس الأبله لكن الجد سر لهذا.. أمثال هذا الفتى الثرى يقضون وقتهم في معاكسة الفتيات ومرافقة أصدقاء السوء، فمن الجميل أن يصبو هذا الفتى إلى عظائم الأمور.
قالت (عبير) وهي ترتجف رعبا:
- كنت أفضل لو عاكس الفتيات بدلا من هذه الأحلام المجنونة..
لكن كان للجد رأي آخر.. نهض إلى الخزائن فأخرج منها كل شيء.. غمر الفتى بالذهب والفضة.. وتمنى له حظا حسنا.
في هذا الوقت بلغت الأخبار مسمع الذئب (أفراسياب) عدو (رستم) التقليدي..
قال له تابعه:
- إن أبن الأسد يريد أن يكون أسدا بدوره!
هز (أفراسياب) رأسه.. وبدا عليه الرضا.. وقال:
- أعرف.. وهذا مفيد حقا.. إني سأوجه إلى (رستم) ضربة تتحدث بها الملاحم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي وصل وفد محمل بالهدايا من عند (أفراسياب).
كان الوفد يحمل رسالة مهمة: إن (أفراسياب) متحمس ولسوف يساعدك على غزو إيران..
هكذا لم يحتج الفتى الأخرق إلى مزيد من الحماس.. بالطبع أرضي غروره أنه صار مهما كالكبار.. خطط وتآمر ووفود تحمل الهدايا.. وعمو (أفراسياب) يريد أن يضع يده في يدك لغزو إيران.. لقد لعبت خمر الزهو بعقله فلم يعد يدرك ما هو مقدم عليه..
دقت صنج الرحيل وراح الجنود يتصايحون ملوحين بالسيوف والرماح.. الخيول تصهل.. باختصار كان هذا جزا معتادا من روتين الحياة اليومية هنا.. لابد من بدء الزحف إلى مكان ما..
هنا خرجت (عبير) ترمق المشهد المهول، ونادت أخاها (زنده).
قالت له بصوت عال لا يسمعه أحد (بسبب الصخب):
- اسمع.. أنت خال ولدي الأحمق.. أعني أن ولدي هو الأحمق لا أنت.. لهذا طلبت أن ترافقه كظله..
قال في حماس:

نعم.. نعم.. أحميه من نفسه.. ربما جرح إصبعه بالسيف أو...
قالت في غيظ:
- لست قلقة عليه من تفاهات كهذه.. أنا قلقة بصدد شيء أكبر.
ثم بدت الجدية على ملامحها التي صارت قاسية وقالت:
- اسمع.. أخشى في لحظة ما أن يقابل (رستم) ابنه فيقتتلا.. لاحظ أن أحدهما لم ير الآخر قط.. أريد أن تتأكد من أن هذا لن يحدث.
أشار إلى عينيه بمعنى أنه سيفعل هذا بأي ثمن.. فبدا عليها الرضا..
وانطلق الجيش قاصدا غزو القلعة البيضاء الحصينة التي تحمي إيران.
فجأة وجدت (عبير) أنها ليست (تهمينة).. إنها أكثر شبابا وجمالا.. والأهم أنها أقوى.. نظرت لنفسها في المرآة، فوجدت أن تكوينها العضلى أقرب لتكوين الرجال المصارعين، لكنها لم تصير رجلا.. إنها أنثي.. فقط أنثي أنضجتها الحروب على غرار الأخت (زينا)..
وهنا فهمت.. إن (فانتازيا) تختار لها الدور الأنثوي الأقرب لتتمكن من متابعة الملحمة كلها.. إنها تتقمص كل دور نسائي تقريبا.. مثلما يبدل المصور زاوية الكاميرا ليأخذ لقطة أوضح..
في هذه المرة هي جالسة في القلعة الحصينة.. إنها مدججة بالسلاح والدروع.. أمامها حاكم القلعة وهو رجل يدعي (هجير).. وهناك رجل مسن يطلقون عليه اسم (جوستاهيم) الشجاع.. أما هي فابنة الحاكم (جوردافريد).. وفي سرها دعت الله أن تتذكر هذا الاسم.
كان (هجير) يدق على المنضدة بيده صائحا:
- هذا الفتى الأخرق (صحراب).. يهددني أنا! يطلب مني مغادرة القلعة..
وضعت (عبير) / (جوردافريد) حذاءها على المنضدة وأفرغت في جوفها كوبا كاملا من الشراب، ثم أرجعت رأسها للوراء وضحكت في وحشية:
- إنه لن يحتفظ برقبته على كتفيه طويلا يا أبي!
قال (هجير) وهو يدق على المنضدة من جديد:
- سوف أرسلها هدية للشاه (كاي كاووس) ليعرف مصير من يهددون أمن بلاده!
هنا قال (جوستاهيم) الشجاع وهو يرتجف رعبا:
- سوف أكتب للشاه أخبره بما يحدث.. لابد أن يعرف.
الحقيقة أن أحد هؤلاء لا يعرف أنهم يتكلمون عن ابن (رستم)، ولو عرفوا لما كانوا بهذه الثقة.
المهم أن الجيشين التحما.. لم يكن (صحراب) سيئا وقد استطاع أن يهزم جيش (هجير) خارج الأسوار ويأسره هو نفسه.
لكن الأمر ليس بهذه البساطة
اتجهت (عبير) إلى غرفتها فبحثت عن ثياب فارس.. ثياب رجل مغبرة توحي بقوة الشكيمة، ثم حملت جعبة السهام وحملت سيفا ورمحا وركبت حصانها.. إنها (جوردافريد).. إنها ابنة (هجير).. دماء غاضبة تجري في عروقها، وتشعر بأنها قادرة على سحق جيش من ذوي الشوارب..
وضعت اللثام على وجهها القسيم، وخرجت من القلعة وحصانها يبعثر الشرر تحت حافريه. لابد أنها بدت فاتنة في هذه اللحظات..
ثم لوحت برمحها وبصوت غليظ لم تفتعله صاحت:
- إليّ أيها الجبناء! من يرغب في منازلتي؟
وسط الجنود الذين اصطفوا وقف رجل بريطاني بثياب عصرية نوعا.. كان يحمل مفكرة يدون

فيها التفاصيل..
سألته (عبير) من فوق صهوة حصانها:
- ماذا يفعل الأخ هنا؟ هل أنت مراسل حربي؟
انحنى الرجل في وقار ونزع قبعته وقال:
- محسوبك الإنجليزي (ماتيو أرنولد Mathew Arnold) أنا الكاتب سعيد الحظ الذي سيقدم هذه الأسطورة للقارئ الغربي، عن طريقي سيعرف قارئ الإنجليزية من هو (صحراب) ومن هو (رستم).. ولسوف يبكي البريطانيون كلما قرءوا هذه المأساة.
فهمت.. إنه يقوم بذات الدور الذي كان يلعبه (هوميروس) عندما كانت في جيش (طروادة).
لذا قالت له بلا مبالاة:
- ليكن.. راقب لكن كن حذرا.. إن هذه الحرب ليست لعبة ولا قصيدة شعر..
تقدم فارسان متحمسان من جيش (صحراب) نحو هذا الفارس الوقح.. لكنهما تلقيا درسا لا بأس به.. أعني أنهما لم يتلقيا الدرس.. لابد لك من رأس يحتفظ بالمعلومات لو أردت رأيي.
ثم رفعت رأسها لترى رد الفعل على تحديها السابق..
هنا تقدم (صحراب).. إن هذا الفارس النبيل جدير به.. في هذه الحروب قد تقطع رأس خصمك لكنك تحتفظ باحترامك له لو كان شجاعا هذا الفارس وحده يواجه جيش المنتصرين لكنه لا يبالي..
وقف الفارسان أمام بعضهما.. لحظة يدرس فيها كل منهما الآخر.
ثم إن (عبير) أخرجت جعبة سهامها وأطلقت سهما او اثنين على رأس (صحراب).. خطر لها أن الموقف غريب.. بصفتها أمه فيما سبق هي تريد حياته، وبصفتها (جوردافريد) هي ترغب في موته.
إن السهام تنطلق.. بذات السرعة كما لو كانت تطلق عليه بندقية آلية.
لكن الفتى ينحنى ليمر سهمان فوق رأسه ثم يرفع درعه ليتهشم عليه ثلاثة أسهم.. انتهى مطر السهام فهجم على الفارس الجريء بسيفه.. وارتطم النصلان.. لحظات مروعة من القتال.
- إنه قوي!
- إنه قوي!
كذا دوت الفكرتان في الذهنين.. في اللحظة التي طار فيها (صحراب) من فوق حصانه ليضرب الأرض لكنه لم يقنط.. انتظر حتى كر عليه الفارس من جديد وثب ليمسك باللجام ويلويه.. من ثم سقط الفارس الجريء من فوق حصانه، وكانت سقطته أسوأ بكثير.
أدركت (عبير) أن فرصتها في إخفاء سرها صارت ضعيفة؛ لأن (صحراب) سيثب عليها وينزع اللثام حتما، من ثم راحت تركض لتتوارى في الغابة القريبة..
لكن (صحراب) ركض وراءها..
وفي الغابة بعد كر وفر ومراوغة وثب (صحراب) على الفارس الجريء، فأسقطه أرضا.. قال وهو يلهث ويتحسس سيفه:
- لقد أتعبتني أيها الشجاع.. أتعبتني حقا.. لكن هناك نهاية لكل شيء.. وجثم فوقه ثم نزع اللثام ليتمكن من إعمال سيفه!!
هنا وقع المشهد المعتاد الذي رأيناه مئات المرات.. لقد ذهل حينما وجد أن ذلك الفارس الشجاع ليس سوى امرأة.. امرأة لم ير أجمل منها في حياته.
وسقط السيف من يده..

هو لن يستطيع أن يقتل امرأة بقلب بارد خاصة إذا كانت بهذا الجمال.. لا حل أمامه سوى أن يأسرها.
كانت (عبير) منهكة لا تقدر على مزيد من المقاومة..
و (صحراب) كذلك كان يلهث ككلب في يوم قيظ.. لكنها استجمعت أنفاسها لتقول:
- ليس من مصلحتك أن يعرف أحد شخصيتي..
قال بغباء:
- هل لديك سببا واحد؟
ضحكت في توحش وهي تجلس وقالت:
- الكل رأى (صحراب) العظيم يسقط عن فرسه ويوشك على أن ينهزم.. تصور لو أدركوا أن من هزمه امرأة!
كان كلامها منطقيا وقد أسقط في يده.. جلس في غباء يفكر فيما يجب عمله..
قالت له وهي تنهض وتعيد اللثام إلى وجهها:
- سوف تكون القلعة لك.. سنصل إلى صيغة صلح ما..
نهض ومشى وراءها عائدين إلى ساحة القتال..
فلما دنت من القلعة تحولت ساقاها إلى عجلتين كما يحدث في الرسوم المتحركة، وصاحت في الحرس وهي تثب إلى الداخل:
- أغلقوا الأبواب!!
هكذا انغلق الباب العملاق تاركا (صحراب) بالخارج..
كانت حيلة صبيانية جعلت الدم يحتشد في رأسه.. لم يشعر قط كم هو صبي سخيف إلا في هذه اللحظة..
الحقيقة أنه مر بذات التجربة التي مر بها أي بطل ملحمي آخر وأي رجل عموما.. إن الرجل لا يتصرف بحكمة وبشكل عقلاني متزن مع الجميلات..
وفي داخل القلعة نزعت (عبير) ثياب الرجال التي تنكرت فيها، وصاحت بصوتها الخشن في الرجال:
- هلموا! أنتم تعرفون ما يجب عمله!
وعلى الفور انفتحت تلك الطاقة في الأرضية، وبسرعة وحسم راح محارب تلو الآخر ينزلق عبر الفتحة؛ ليفر من ذلك الممر تحت الأرض.. ذلك الممر الذي اتخذه (هجير) كملاذ أخير لأنه لا يهوى الحصار.. ويبدو أن الوقت قد حان لاستخدامه.
في النهاية ألقت نظرة إلى القلعة الخالية وتصورت الجيش الواقف بالخارج، ووجه (صحراب) المحتقن كعرف ديك وأطلقت ضحكة وحشية.. ضحكة جعلتها تسعل وتبصق قبل أن تهبط في النفق بدورها.
سوف يتلقى (صحراب) صفعة أخرى عندما يقتحم القلعة في الساعات التالية.
لكنها ما زالت قلقة على أبيها.. إن احتمالات نجاته شبه معدومة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- رستم وصحراب والغزنوي والفردوسي..

نحن الآن في وضع فريد.. هات القلم والورقة وحاول أن تفهم وإلا ضعنا معا..
(رستم) هو حامي حمى إيران.. ابن (رستم) يريد أن يغزو إيران ليهديها أباه الذي لا يعرفه..
(رستم) يحمي إيران لكنه لا يريد الاستيلاء عليها، بينما ابنه يريد أن يستولى عليها من أجل أبيه..
أبيه الذي لا يريد ذلك ولا يعرف ابنه.
هل فهمت شيئا؟ إذن أنت رجل سعيد الحظ.. على الأقل فهم (الفردوسي) هذه الحبكة المعقدة وهذا كاف..
الآن الشاه (كاي كاووس) يستغيث ب. (رستم)..
قال له رجاله إن (رستم) هو الوحيد القادر على حماية إيران.. لذا كتب رسالة إلى (رستم) وأرسلها مع مبعوث خاص وأمره ألا يتأخر بنبرة تشبه نبرة الكواء حينما يوصى صبية بألا يلعب أثناء رحلته.
وصل الرسول إلى (رستم) في (زابوليستان).. رحب به البطل ودعاه للجلوس، لكن هذا ظل واقفا وهو يجفف عرقه..
- شكرا.. لكن لابد أن أعود للشاه حالا.
قال (رستم) متبسطا ما معناه (يا أخي لسنا يهودا حتى نتركك ترحل هكذا.. لابد من حق الضيافة.. لم أحسبك بخيلا) إلى آخر هذه العبارات المعتادة.. لكن الرسول أصر:
- أرجو أن تخبرني بردك.
فكر (رستم) قليلا.. أمسك برسالة الشاه وراح يتأملها ثم قال وهو يحك لحيته الفارسية العملاقة:
- غريب أمر هذا ال. (صحراب).. لا يوجد بطل بهذه المواصفات في إيران كلها سواي.. إن لدي ابنا لكنه ما زال في سن المراهقة. مستحيل أن يملك هذه الصفات..
ثم سأل الرسول:
- ألن تبدل ثيابك؟ لابد من أن تتناول العشاء معي..
- لكن قلت لك أيها القائد...
- هم م م!!
وظهرت نظرة مرعبة في وجه (رستم) فاضطر الرسول التعس إلى أن يقبل دعوة العشاء.. جلس على مأدبة العشاء مهموما يراقب (رستم)، وهو يلقي بلحم البغال في فمه كأنه يعبئ جوالا.. ثم لابد أن يهشم العظام ليمتص النخاع..
وفي اليوم التالى طلب أن يسمح له بالعودة فقال له (رستم) ما معناه (يا أخي لسنا يهودا حتى نتركك ترحل هكذا.. لابد من حق الضيافة.. لم أحسبك بخيلا) إلى آخر هذه العبارات المعتادة..
وانتهى الأمر ب: «هم م م!!» المعتادة.
كم لبث الضيف المرغم؟ لبث ثلاثة أيام إلى أن انتهى (رستم) من استضافته، وهكذا تحرك الركب إلى الشاه..
منذ وصل (رستم) إلى البلاط حتى شعر بأن الجو عدائي ضده.. وحينما دخل الشاه القاعة انحنى الجميع ما عدا (رستم) طبعا.. نظر الشاه نظرة نارية إلى (رستم) ولم يقل شيئا.. ثم اعتلي عرشه وقال بلهجة باردة ما معناه (لسه بدري!!)..

ثم نظر إلى رسوله وقال:
- عندما يطلب منك الشاه الإسراع فعليك أن تنفذ بلا مناقشة..
نظر الرسول للأرض في خجل وألقي نظرة لوم عابرة على البطل الإيراني.
هنا أدرك (رستم) أن الشاه غاضب؛ لأنه لم يهرع للقائه عندما طلبه.
نظر حوله ثم تقدم ليقف في وسط القاعة، وهتف بصوت عال:
- (رستم) رجل حر وليس عبدا إلا لله.. سيفي هو خاتمي.. وحصاني هو عرشي.. وخوذتي هي تاجي.. ومن دوني (كاي كاووس) لا شيء!
ثم غادر القاعة مغضبا بينما الحاشية لا تصدق ما سمعته آذانها.. والشاه كذلك لم يصدق.. لكن من يجرؤ على اعتقال (رستم) أو إعدامه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن الكبرياء مقصورة على (رستم).
إن الزمن يغير كل شيء.. وخمسة وثلاثون عاما هي زمن لا بأس به أبدا.
كانت الأخبار تصل إلى (عبير) من بلاط (الغزنوي).. كانت تفهم طبائع الأشياء، وتعرف أن قليلين جدا من الشعراء سوف يقبل هذه الحقيقة.. حقيقة أن أباها سينال جنيهين ذهبيين عن كل بيت من الشعر.
هكذا راح الشعراء يوغرون صدر السلطان على الفردوسي..
وقد وجدوا ما أرادوا.. أولا هناك أبيات تمدح الوزير (أبي العباس فضل بن أحمد)، وكان السلطان قد أقاله قبيل قدوم الفردوسي عند السلطان ليقدم له الشاهنامه، فكان ذلك من أسباب توتر العلاقة بينهما. أضف لهذا اختلاف الرأي بين الفردوسي والسلطان (محمود) في القضايا القومية والوطنية: فإن الفردوسي كان رجلا وطنيا هائما بحب وطنه وقومه، وكان يشيد بهما وببطولات شعبه، لكن السلطان لم يكن يؤمن بشيء من هذا، كان يكره سماع التغني ببطولات الشعوب الأخرى وقد قال ذات مرة للفردوسي:
- كتابك هذا لا شيء فيه غير حديث (رستم)، وفي جيشي تجد ألف رجل مثل (رستم)..
قال الفردوسي:
- أطال الله عمر الملك لا أعلم كم من رجالك يشبهون (رستم)، لكني أعلم أن الله لم يخلق عبدا آخر مثله!!
ثم استأذن الفردوسي، وخرج من عند الملك فظل هذا ينظر باتجاه رحيله، ثم قال بصوت كالفحيح:
- هذا الرجيل اتهمني بالكذب!
هنا هب رجال البلاط يريدون الفتك بالشاعر، لكن السلطان أمرهم بأن يجلسوا حيث هم.
كما ترى لم تكن العلاقات ناعمة.. تذكر أن كلا الرجلين شديد الكبرياء معتز بنفسه.. لابد من تصادم عنيف.. أنت لا تستطيع وضع سمكتي مقاتل سيامي في حوض واحد..
اليوم يعود الفردوسي إلى بلاط السلطان في (غزنة) حاملا قصيدته المكتملة.. هذه المرة تختلف.. لقد صار محنى الظهر يمشي بكثير من العمر.. عيناه تكادان لا تريان..
خصلات الشعر الأبيض تتدلى من تحت عمامته.. وهي تمشي بجواره.. لم تعد مراهقة حسناء بل هي امرأة في منتصف العمر..
من جديد يجتازان صفوف الحراس والبوابات.. لكنها في هذه المرة تفتح أسرع لأن السلطان كان

ينتظره..
في النهاية مشي الشاعر نحو مجلس السلطان. السلطان أيضا تقدم في العمر، لكن السنين تزيد الشاعر إرهاقا ونحولا لكنها زادت السلطان بدانة وحدة طبع.
ويقف الشاعر أمام السلطان ويقول بصوت واهن:
- لقد انتهت الشاهنامه يا مولاي..
لكن (عبير) كانت تتمتع بعينين حادتين، وقد رأت في العيون وعلى ملامح السلطان ما لا يوحي بالخير.. لقد حدث شيء ما..
هذه المرة لم يطلب السلطان سماع شيء..
قال للفردوسي بلهجة باردة
- اتركها هنا.. قلت كم بيتا؟ سيقوم المحتسبون بالعد ويعطونك قطعة فضة عن كل بيت!
سقط قلب (عبير) في قدميها.. هذا ما كانت تتوقعه.. ليس المبلغ تافها لكنها تعرف أباها.. هو سيصر على المبلغ الذي اتفقا عليه منذ أعوام ليس لجشعه الشديد ولكن لأن الذهب هو ما يراه التقدير الأوحد لما بذله..
قال الفردوسي في صبر:
لكنك يا مولاي وعدتني بجنيهين من الذهب عن كل بيت!
بنفاد صبر قال السلطان:
- كان هذا منذ زمن.. لقد تغيرت الأوضاع.. هلم اذهب لتأخذ مكافأتك..
وتقدم رجلان يجران الشاعر قبل أن يعترض أكثر.. وفي غرفة جانبية ناولوه زكيبة من الفضة..
ظل صامتا لكن (عبير) كانت تعرف أباها وكانت تعرف ما يفكر فيه..
أخيرا وجد نفسه في الشارع معها.. وعلى كتفه تلك الزكيبة من الفضة..
كان هناك زحام من الناس يرمقه.. هنا فوجئت به يفتح الزكيبة فيبعثرها على قارعة الطريق.. ويصيح:
- هلموا! خذوا حاجتكم من أموال السلطان! هلموا!
هرع المارة يتصارعون ويضحكون وهم يملئون قبضاتهم بالمعدن النفيس.. لم يصدقوا ما يرون لكنه حقيقي.. أما أبوها فقد استنقذ قطعة فضة ومشي يتوكأ على ذراعها إلى أن بلغ بائع عصير على قارعة الطريق، فناوله القطعة وطلب منه أن يقدم لهما كوبين..
وراح يشرب ويضحك.. ويضحك ويشرب..
وأنشد:

- و سي سال بردم به شهنامه رنج
كه شاهم ببخشد به *اداش *نج
به *اداش، *نج مرا در *شاد
به من جز بهاي فقاعي نداد
فقاعي بيرزيدم از *نج شاه
از آن من فقاعي خريدم براه..

أي: لقد عانيت في إعداد هذه الشاهنامه ثلاثين حولا؛ لأكون غنيا وأنال رتبة، لكن لم يرنى السلطان أساوي أكثر من كوب عصير، لذا اشتريت بما قدمه لي عصير فاكهة في الطريق.. (ويبدو لي أن الفقاعي نوع من عصير الفاكهة عندهم)..

كانت فرائصها ترتعد.. هذه صفعة عالية موجهة للسلطان ولسوف يسمعها الرجل حتما.. إن من لا يحني هامته أمام الملوك يفقدها سريعا وهناك عشرات القصص من هذا الطراز.
لهذا ما إن فرغ أبوها من كوب العصير - أغلى كوب في التاريخ - حتى صاحت به:
- هلم نفر الآن!
مشي جوارها وهو ينشد:

نكردي در اين نامه من ن*اه
*فتار بد*وي *شتي ز راه
هر آنكس كه شعر مرا كرد *ست
ن *يردش *ردون *ردنده، دست

أي: أنت لم تنظر إلى رائعتي لأن أعدائي غيروا رأيك عني.. لكن من يقلل من شأن شعري لن يقدره الكون ولن يأخذ بيده.
فيما بعد سيضاف هذا الهجوم الشرس إلى مقدمة (الشاهنامه) ولسوف يتساءل أكثر من دارس للفارسية:
كيف قرأ السلطان هذا الهجوم عليه؟ وكيف هاجمه الشاعر قبل أن يحدث ما حدث؟ يذكرك الأمر بمشهد (رد سكلتون) الممثل الكوميدي الشهير الذي يخترق الجموع ويصافح المحافظ كي يقدم له صورته معه وهو يصافحه! الجواب أن هذا أضيف فيما بعد إلى نسخة الشاهنامة التي مات الإدريسية وهي معه.. وهي النسخة التي عرفها العالم..
لكن الفردوسي بدأ رحلة الهرب الطويلة من بطش السلطان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختفى (رستم)
لكن الجيش الرهيب ما زال يزحف يقوده الأخ (صحراب).. إن الكبرياء معني جميل لكن الجيش الزاحف على (إيران) حقيقة مروعة.. هكذا راح النبلاء يحاولون إقناع الشاه بأن يسامح (رستم).
- أنت تعرف كبرياء هؤلاء الأبطال.. إنهم أطفال كبار تجب معاملتهم برفق.. لا عليك.. أنت تعرف أننا بحاجة إليه.. الأمر تجاوز حدود الكبرياء بل هو يمس إيران ذاتها..
بدأ الشاه يهدأ ويفكر بشكل عملي.
أرسل الوفود لاسترضاء (رستم).. لكن هذا تمنّع كثيرا.. سوف نشم هنا رائحة غضبة الأبطال الشهيرة على غرار (عنترة بن شداد) الذي رفض نجدة قومه الذين أصروا على أن يبقى عبدا.. سوف نشم أيضا جلسة (أخيل Achilles) على الشط يتأمل بلا مبالاة الطرواديين وهم يمزقون الإغريق.. يبدو أنها لحظة تمر بحياة كل بطل ملحمي: إنهم لا يعاملونني كما ينبغي.. إذن دعهم يذوقوا الأهوال من دوني.
ثم تأتى اللحظة التي تغلب فيها النخوة شهوة التشفي، من ثم ينهض البطل ويعتمر خوذته ويستل سيفه وينطلق..
هكذا نهض (رستم) عازما على خرب بيت (صحرب) هذا..
و (صحراب) سمع أن جيش إيران قادم للقياه فتاه فخرا..
الأب يوشك على مواجهة ابنه.. وكلاهما لا يعرف الآخر.. (رستم) لا يعرف أن هذا ابنه، و (صحراب) يعرف أنه ابن (رستم) لكنه لا يعرف شكل (رستم)..

في المساء لبس (رستم) ثياب الأتراك وقرر أن يمارس بعض التجسس.
كان بحاجة إلى إلقاء نظرة على (صحراب) هذا الذي يوشك على أن يتحول إلى أسطورة.
وهكذا تسلل إلى معسكر الأتراك الذين كانوا يقيمون مأدبة كبرى استعدادا للحرب القادمة..
لابد أن رائحة البغال المشوية حركت حماسه لكنه ذكر نفسه بأن الموضوع ليس نزهة..
أين هو؟ ها هو ذا في صدر المأدبة.. يلوح بكأس وفخذ ثور في يده الأخرى.. إنه يضحك.. إنه يصيح.. و (رستم) خبير بالأبطال.. هذا الفتى بطل أو سيكون واحدا.. لكنه ما زال أقرب للأطفال... من هو؟ من أين جاء؟ من أبوه؟
راح (رستم) يراقبه بعض الوقت ثم قرر أن يدور حول الخيمة..
مشي في الظلام وقدماه تغرسان في الرمال.. هنا سمع من يضع يده على كتفه.. كان هذا هو (زنده) أخو (تهمينة) الذي شعر بأن هذا الرجل يحمل ملامح مألوفة نوعا.. لكن (رستم) لم يجد وقتا كافيا للتدقيق.. مد يده إلى عنق (زنده) واعتصره بيد واحدة حتى برز لسان الرجل وعيناه..
وحينما أطلق (رستم) سراحه تكوم على الأرض جثة هامدة
لقد قتل (رستم) الشخص الوحيد الذي يعرفه ويعرف (صحراب) معا
أما وقد صار في القصة قتل فقد وجب إنهاء المرح، لابد من العودة سريعا إلى معسكر الإيرانيين.. لقد عرف ما أراد البحث عنه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح - بعد حسرة العثور على جثة (زنده) - وقف (صحراب) يراقب معسكر الإيرانيين..
جواره كان أسيره (هجير).. أبو (جوردافريد).. وكان يستعمله كخبير تجسس..
سأله وهو يشير إلى بعض الخيام:
- هل ترى هذه الخيمة المصنوعة من جلد الفهود والمقصبة بالذهب؟ تلك التي يقف على بابها مائة فيل؟
خيمة من هذه؟
قال (هجير):
هذه خيمة الشاه..
- وهذه الخيمة الخضراء التي عليها علم (كاواه).. مع رسم يصور أسدا وتنينا وحصانا نبيلا؟
هنا قرر (هجير) أن يسكت.. لن يخبره بأن هذه خيمة (رستم) هنا تتحرك المأساة في مسارها الإجباري الحتمي.. لماذا لا يخبره بأمر (رستم)؟ كل شخص يصر على ألا ينطق بكلمة عن (رستم).
الفتى يستنطق (هجير) لكن هذا مصر على أنه لا يعرف صاحب الخيمة.. إنه يكذب وقد فهم الفتى هذا، من ثم أخرج سيفه وأطاح بعنقه
ثم خرج إلى رجاله فأعلن أن القتال سيبدأ حالا..
- سوف أنتقم لموت (زنده)! إن من قتله ليس إلا إيرانيا!
وفي معسكر الشاه بدأ الرجال يسرجون حصان (رستم) ووضعوا جلد الفهد على كتفيه.. ثم انطلق الفارس العظيم وحده متجها إلى جيش الترك بقيادة ابنه الذي لا يعرفه في المنطقة المحرمة بين الجيشين وقف وصاح بصوت مجلجل:
- لا أريد دماء.. أريد قائدكم.. أريد (صحراب)!
كانت هذه من الطرق الشهيرة لحقن الدماء.. يتواجه القائدان والنتيجة تسري على الجيش كله..

انطلق نحوه جواد مطهم رشيق، وعلى ظهر الجواد كان ذلك الشاب حديث السن الذي قابله في المأدة أمس ساد الصمت، وتبادل الرجلان النوع الأول من المبارزة..
مبارزة العينين.. ثم قال (رستم) وهو يتأمل الشاب:
أيها الشاب.. إن الجو دافئ لكن الأرض باردة.. أنا لا أريد أن أسلبك حياتك!
لكن الفتى لم يبال وشهر سيفه..
هكذا بدأت مبارزة الرجلين العظيمين.. الأب والابن..
تصارعا كثيرا جدا حتى أنهك الجوادان وتثلمت السيوف وتعوجت الرماح، وقال (رستم) لنفسه:
- هذا الفتي قوي فعلا.
بينما السيفان يتلاطمان سأله (صحراب):
- أيها الفارس العظيم.. أشعر من قوتك أنك (رستم)!
فهل أنت هو؟
قال (رستم) وهو يسدد الضربات:
- لا! أين أنا من (رستم)؟
هنا تشد شعرك وأنت تقرأ الملحمة.. لماذا هذا الإصرار على التكتم؟ لقد رسم الشاعر النهاية بالقلم والمسطرة.. وهو مستعد لتحدي أي منطق مقابل أن يظفر بالنهاية التي يريدها.
المهم أن اليوم الأول مر دون أن يتفوق أحد الطرفين. نعم.. فالمبارزات لمدة ١٢ ساعة لم تكن شيئا غريبا في هذا العهد.
وفي اليوم الثاني بدأ (رستم) يشعر بالقلق، لذا صلى لإلهه (أرمازد) طالبا الثبات.. وتقول الأسطورة إنه صار ثابتا أكثر من اللازم حتى تهشم الصخر تحت قدميه! فقال في أدب:
- ليس إلى هذا الحد.. أقل قليلا.. شكرا!
هكذا صار أقل ثباتا بما يسمح له بالحركة..
دارت المعركة من جديد، لكن جرعة الثبات التي حصل عليها (رستم) كانت جيدة.. وقد استطاع توجيه ضربات لا بأس بها.. وعند منتصف النهار استطاع أن يطرح الفتى عن حصانه في هذه المرة لم تكن هناك مجاملات أو أعذار.. لقد أخرج سيفه وأولجه في الفتي.
تصل المأساة ذروتها في هذا المشهد الخالد الذي يعرفه كل من قرأ الأدب الفارسي.
والفتى على الأرض يئن والحياة تفارقه، ويلقي خطبة جديرة بالموقف لا يقل طولها عن ساعة.. من أهم ما جاء فيها:
- سوف ترى! لو أنك صرت سمكة في المحيط فلسوف يجدك أبي ويخرب بيتك..
هكذا عاد طفلا يقول كلاما على غرار: أبي سيأتي المدرسة ويذيقك الويل.
نظر (رستم) إلى ضحيته وهو يلهث وانتظر ما سيقول.. قال الفتي:
- إن أبي هو (رستم)! هل تعرف معنى هذا؟ (رستم) بطل الأبطال!
ويمد (رستم) يده ليتفحص الفتى فيجد الجوهرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لو أنجبت فتاة فلتعلقيها على صدرها لتحميها من الشر.. لو أنجبت فتى فلتربطيها على ذراعه.. سوف يكون قويا مثل (كيريمان)، ضخا مثل (سام بن ناريمان)، وطلق الكلام مثل (زال) أبي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا أطلق (رستم) صرخة عنيفة ارتجت لها السهول والوديان.. لابد أن الفايكنج سمعوها في سفنهم في بحر الشمال..
وهنا يتحرك المزاج الشرقي النكد المولع بتعذيب الذات.. لا تنس أننا قريبون من الهند والأفلام الهندية.. هذه ذروة الميلودراما التي يشتهيها أي مخرج سينمائي..
قال له أحد الواقفين إن الشاه عنده بلسم شاف للجراح، فصاح (رستم):
- فليذهب أحدكم للشاه ليجلب هذا البلسم!!
وينطلق الفارس ثم يعود بعد ساعة وقد بدت عليه خيبة الأمل الشاه وجد أن هذه فرصة طيبة لينتقم لكبريائه الذي جرح عندما عامله (رستم) بكبرياء! قال للرجل إنه لا شيء عندي ولا يوجد شيء بهذه الصفات..
نقلوا الخبر لـ (رستم) فلم يعرفوا إن كان سمع أم لا. وإن كان سمع فهل استوعب أم لا..
فقط انطلق في الصراخ والعويل..
وعندما جاء المساء حمل (رستم) جثة ابنه عائدا إلى أمه (تهمينة)..
كان أول ما قاموا به من حداد هو قص ذيول الخيول يبدو أنها كانت عادة محببة.. ثم أعلنوا الحداد وبنوا قبرا لـ (صحراب)..
لقد وجه (أفراسياب) ضربة محسوبة جدا لـ (رستم)..
أما (عبير) / (تهمينة) فقد كان عليها أن تجتر أحزانها وتتحمل هذه الذكرى عاما كاملا إلى أن قتلها الحزن.
ومن جديد ظفر الفردوسي ثم (ماتيو أرنولد) بأبيات في غاية الروعة.. دعك بالطبع من الروسي (جوكوفسكي)
الذي ترجم هذه القصة بالذات شعرا إلى الروسية.. وقد تحولت لأكثر من باليه وأوبرا..
مصائب قوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- رستم وشوجداد (ألن تنتهي هذه الأسماء؟)

كانت (عبير) الآن تمارس بجدارة حياة (الكعب الدائر) مع أبيها.. الذي فر إلى (طبرستان) طالبا حماية الأمراء هناك.. ثم من هناك اتجه إلى (بغداد).
لم يكن قد انتهى بعد.. لقد جلس على (الدشت) شارد الذهن لفترة كما عرفته، ثم خرج بتسعة آلاف بيت من الشعر عن (يوسف وزليخة).. ومن جديد تعد هذه من درر الأدب الفارسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نه زين *ونه دادي مرا تو نويد
نه اين بودم از شاه *يتي اميد
(ليس هذا ما وعدتني به.. ولم أتوقع من السلطان شيئا كهذا)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

*وديهيم دارش نبد در ن*اد
زديهيم داران نياور ياد
*واندر تبارش بزر*ي نبود
نيارست نام بزر *ان شنود

(السلطان ليس من نسل الملوك لهذا لا يحب الكلام عنهم!)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد عرفت (عبير) هذه القصة هناك تلك الجارية الجميلة في بيت (زال) أبي (رستم).. لقد تزوجها (زال) فأنجبت له ولذا اسمه (شوجداد).. لابد أن الاسم رائع بالفارسية فلن نعلق على هذا..
وكما يفعل العرافون في كل مكان وزمان تكون مهمتهم هي إفساد بهجة الرجل العادي.. لهذا قال العرافون لـ (زال) العظيم أن هذا الـ (شوجداد) سوف يجلب المصائب لبيت أبيه..
قال (زال) لنفسه:
- هذه أخبار مقلقة، لكن يجب ألا أنسى أن هذه ملحمة.. قواعد الملحمة الأساسية أن يتجاهل البطل نصائح العرافين التي تكون صادقة أبدا.. سوف أتجاهل هذا الهراء إلى أن يتضح أنه ليس هراء..
هكذا عاش الفتي في بيت أبيه العظيم (زال).. رباه الرجل جيدا جدا لكن قواعد الملحمة لا تتغير.. إنها أقوى من عوامل الوراثة وعوامل التربية، لهذا صار (شوجداد) شريرا حقيقيا من شريرى القصص..
عندما صار الفتى يافعا أرسله أبوه إلى (كابول) ليلقى ملكها
رحب به الملك بشدة باعتباره ابن (زال) العظيم، وزوجه ابنته.. لكن الرجلين: الملك وصهره كانا يخفيان تلك الميول المرضية التي يخشيان الإفصاح عنها. كلاهما كان يكره (رستم) كالجحيم.. وفي لحظة صفاء تصارحا وعرف كل منهما أن الشيطان أرسله للآخر.

هكذا جلسا يعاقران الشراب.. لابد من مشاعل متوهجة تضفي ظلالا مخيفة عليهما.. لابد من الكثير من النظرات الشريرة مع رفع الحاجب الأيسر على طريقة (فريد شوقي) في الأفلام القديمة.
قال ملك (كابول) بلسان معوج:
- إن (رستم) أخوك غير الشقيق.. هك! مازلت لا أرى هك! مبررا كي تكرهه إلى هذا الحد..
قال (شوجداد) في غل:
- لأنه نال المجد ورضا أبي.. هذه أسباب كافية فيما أرى..
ثم صب لنفسه كوبا آخر وقال:
- دعنا من هذا الهراء.. نحن بحاجة إلى الحيلة لهزيمة (رستم).. فالرجل خطر وهو قادر على هزيمة جيش كامل.
- أنا مصغ..
فكر الفتى كالحالم ثم قال:
- سوف تقيم مأدبة تدعو إليها النبلاء.. وأنا بينهم..
- خطة محكمة.. هك! لكني لا أعرف كيف يقضي هذا على (رستم)..
- سوف توجه لى إهانات مشينة.. تسب أبي وأمي إلخ.. من ثم أنصرف غاضبا.. سوف أنطلق إلى (رستم) لأشكوك له.. عندها يجن الرجل..
لم يفهم الملك الكثير لكنه وافق على كل حال.
هكذا شهد قصر (كابول) مأدبة عظمى.. سال الخمر أنهارا وتصاعدت روائح الشواء.. بينما تعالي صوت الموسيقا وراح الحواة يرقصون.. النبلاء راحوا يأكلون ويشربون حتى الامتلاء.. وتصاعدت الضحكات..
في وسط الصخب نادي الملك (شوجداد).. وبصوت عال صاح:
- أنت خنزير!
نظر له الفتى في ذهول ثم فضل تجاهل الأمر أو تظاهر بذلك.. فأردف الملك:
- وأبوك (زال) خنزير كذلك! أما أخوك (رستم) فقد جاء من نسل حلاليف برية يمتد إلى فجر التاريخ!
طبعا لم تكن الشتائم بذيئة جدا لكنها مشينة بما يكفي.. هكذا احمر وجه الفتي، ولما كان في بلاط الملك لم يكن بوسعه إلا أن ينصرف.. هذا ضمن السيناريو المتفق عليه..
يبدو كذلك أنه انفجر في البكاء وراح يقول كلمات على غرار أنه سيخبر أخاه الأكبر.. أشياء على غرار (والله العظيم أخويا رستم حيوريك).. الخ.
ينطلق الفتى (شوجداد) على حصانه قاصدا (زابوليستان).
كان منظره رهيبا عندما قابل أخاه (رستم).. لقد خرج له (رستم) واحتضنه حتى كاد يقتله.. بل رفعه مترين فوق الأرض.. أما (عبير) فقد ألقت نظرة مدققة....
لم تكن من الطراز الذي يجيد فهم البشر قط، ولو كانت كذلك لكانت في حال آخر، لكن شيئا في مظهر الفتي أشعرها بالافتعال.. هذا الفتى يبالغ.. ليس غاضبا إلى الحد الذي يتظاهر به.
قال الفتى بين دموعه:
- شتمك.. قال إنك حلوف..
- فهمت..
- نعم قال إنك حلوف بري..
- فهمت هذا أيها الأحمق.. كف عن ترديده!

- بل شتم أبي وأجدادي! إهيء إهي
البطل الإيراني العظيم يصفى وعيناه تشتعلان نارا.. في هذه اللحظة لمعت في عيناه تلك النظرة التي التمعت مرارا في عيني (عنترة) و (جلجاميش) و (هرقل).. أوردته تنفر.. وجهه يحمر..
ألقي بأخيه على الأرض وصرخ:
- الجيش!!! إلى (كابول)!
سمع الرجال هذا فتهيأوا للقتال.. إن راحتهم التي طالت ثلاث ساعات هي شيء غير معتاد مع رجل مثل (رستم).
أعتقد أن هذه أول حرب إيرانية أفغانية في التاريخ..
هنا صاح الفتى وهو على الأرض:
- أخي العظيم يا بن (زال).. هل تنوي تجريد الجيش لحملة كهذه؟
- هل لديك اقتراح آخر؟ سوف يغسلون الإهانة بدمائهم..
قال الفتى في خبث:
- إن إرسال جيش كامل يعني.. يعني أنك تعطى هؤلاء الأوغاد بعض الأهمية.. في حين أرى أن ذهابك وحدك كاف جدا.. يكفي أن يروا (رستم) عند حدودهم حتى ينتابهم الهلع..
- فكرة لا بأس بها.
هنا هتفت (عبير) في رعب:
- أية فكرة؟ من غير المعقول أن تذهب لمحاربة ملك (كابول) وحدك!
- أراها فكرة لا بأس بها.. إنها تنم عن الاحتقار..
كادت تجن.. لكن منذ متى يستطيع أحد تغيير أفكار أصحاب الملاحم؟؟ وقدرت أن كارثة ستحدث لا محالة..
هكذا انطلق (رستم) مع عدد محدود من رجاله نحو (كابول)
كانت مسيرة قصيرة لأن غضبه كان يزجي الوقت.. ويبدو أنه لم يكف عن ترديد:
- سوف يرون! سوف يرون!
أخيرا لاحت مشارف (كابول) جاء الملك ليلقى (رستم) متزلفا متظاهرا بالمودة، وهو يفرك يديه..
كانت عينا (رستم) تشتعلان كالنيران، لهذا كان الرجل شجاعا بحق عندما خرج ليواجهه.. لو كنت مكانه لما تأكدت من شيء.. لربما أطار هذا الوحش الإيراني عنقك قبل سماع أية أعذار..
قال له:
- (رستم) العظيم.. يا بن (زال).. أعرف لماذا جئت وإنني لأمرغ رأسي في الأرض أمامك.. ومرغ رأسه.. ليس رأسه بالضبط بل أهداب عينيه، وهي عادة شائعة في الأساطير الفارسية..
اكتفي (رستم) ببعث الشرر من عينيه فقال الملك:
- أنت لن تعاقبني على لسان جعلته الخمر لا يعرف ما يقول.. لم أتعمد ما قلت..
هكذا بدأ البطل يلين.. خفض سيفه وأطفأ شعلتي عينيه.. إن الرجل لا يبدو خطرا.. إنه أبله لا أكثر..
هنا فقط تصايح القوم في مرح، وأقيمت المآدب..
قدم اللحم المشوي ل (رستم).. لكننا نعرف أن الرجل مولع بالتهام البغال المشوية.. مرارا نراه يلتهم بغلا كاملا مرة واحدة.. إن شهية هؤلاء الأبطال تذكرك بالحيتان.. لهذا لم يكن متحمسا لأصناف الطعام التي بدت له أقرب إلى العينات..
مال عليه الملك وقال بتلك الطريقة المنافقة:

- هناك غابة تزخر بالبغال المشوية و...
- مشوية؟
- أعني البغال السمينة.. سوف نذهب هناك غدا لتمارس هوايتك في الصيد.. ثم نقيم حفل (باربيكيو) خلويا.. سوف تستمتع بكل لحظة من وقتك..
- أعترف أن العرض مغر..
في اليوم التالي بدأت طقوس الصيد الفارسي.. الكثير من الألوان الزاهية كأنما هم يعرفون أن صورتهم سيرسمها رسامو (بهزاد).. الكثير من المنمنمات.. أبواق.. كلاب صيد طويلة العنق.. خيول..
وانطلق الركب في الغابة يسابق الريح.. إن فكرة البغال لا تفارق ذهن الأخ (رستم) وقد بدأ لعابه يسيل فعلا..
أخيرا نصل إلى مكان الفخ..
ألم أخبرك بهذا من قبل؟ لا؟ إذن ما مبرر هذه الخدعة المعقدة كلها؟ طبعا هناك فخ.. حفرة عميقة تم إعدادها بعناية وخبرة.. في القاع غرست عشرات السيوف بحيث تطل نصالها إلى أعلى، أما الجدران فقد غرست فيها الرماح بزاوية 45 درجة متقنة.. لو أن برغوثا وثب في هذ الحفرة فأنا لا أضمن سلامته.. ثم تمت تغطية الحفرة بغصون الشجر والغبار.
لكن هناك تفصيلا بسيطا.. (راخاش) حصان (رستم) ليس حصانا عاديا.. إنه مزيج من مخبر ومصارع وتنين..
قال الملك ل (رستم):
- أرجو أن تتكرم بعبور هذه البقعة.. إنها تقود إلى الغابة التي تحتشد فيها البغال..
لهذا جذب (رستم) مقود حصانه نحو الممر القاتل..
شم شم! تشمم (راخاش) التربة.. هذا لن يخدعني إن رائحة التربة طرية.. لقد تم تقليبها قريبا جدا.. هناك كمين هنا..
لذا وقف وتصلبت ساقاه.. لن أعبر هذه أبدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- نهاية عصر.

استشاط (رستم) غضبا.. آخر شيء يقبله أن يرفض حصانه أو خادمه طاعته أمام الآخرين.. وكما عرفنا من الشاهنامه هو لم يكف لحظة عن إساءة الظن ب. (راخاش)..
هكذا أخرج السوط وهوي به على عنق الحصان..
- هلم أيها اللعين!
لكن الحصان قاوم الألم.. ألم الروح وألم الجسد معا..
كراج! هوى السوط ثانية.. وفي هذه المرة لم يتحمل الحصان العظيم أكثر وقرر أن يبرهن للبطل كم هو أحمق وهذا بطريقة عملية جدا..
لقد مشى فوق الفخ..
كانت اللحظات التالية مريرة.. الأرض تنهار.. الحصان يصهل.. الغبار يتطاير لعنان السماء ثم ينتثر الدم.
و (راخاش) الآن يرقد وقد تحول إلى أيقونة القديس (سباستيان) من كثرة النصال التي اخترقت جسده..
(رستم) العظيم يبصق الدم ويبدو أن رمحين على الأقل اخترقا أحشاءه، وهو يحاول أن يقف فوق جسد حصانه.. من ثم يثبت النصال أكثر
(رستم) يثب إلى خارج الحفرة ثم يستلقي جوارها وهو يلهث.. والدم يخرج من فتحاته السبع.. صدره المهول يعلو ويهبط.. إنه يزأر كأسد جريح..
إنه يرى العالم يستحيل إلى لون رمادي غامض.. لون العالم الذي قرر أن يرحل.. الذبول.. الذبول..
لكنه يرى وجها..
آخر وجه يراه على الأرض.. وجه يتظاهر بالأسى لكن شفافية الموت جعلته يدرك شبح تلك البسمة الجذلة.. وجه اخيه (شوجداد)..
لقد فهم!
ونظر إلى الحفرة من تحته.. لقد مات. (راخاش الوفي! مات (راخاش) الوفي!
قال ملك (كابول) وهو لم يكف عن التمثيل:
- (رستم) العظيم.. سوف أحضر لك خير أطبائي!
سعل (رستم) وهو ما زال على الأرض وهتف:
- كف عن هذا أيها المخادع! لقد انتهى عهد الأطباء فلم يعد من طبيب يقدر على تخفيف آلامي إلا الموت!
تظاهر الرجلان بالأسى وهزا الرأسين في حزن كما يفعل الأنذال في كل زمان ومكان..
قال (رستم) وهو يعتدل في جلسته:
- أريد قوسي وسهمين..
نظرا له في عدم فهم، فأردف:
- سوف أبقى هنا أنزف فترة.. لا أريد أن يأتي أسد يلتهمني وأنا عاجز.. أظن هذا مفهوما.
يبدو أن الأنذال يكونون حمقى كذلك.. أو ربما شعر الرجلان بالذنب فلم يريدا أن يحرما الرجل طلبا أخيرا كهذا.. كيف يمكن فهم عشرات النوازع والقرارات الغريبة التي نتخذها في حياتنا؟

لقد جلبا له قوسا وسهمين ثم وليا الأدبار بما يدلك على أنهما لم يكونا بهذه الحماقة..
نظر (رستم) من حوله بعينين زائغتين، فلمح ظل أخيه (شوجداد) يتوارى خلف الشجرة.. كان يريد أن يتأكد من وفاته..
ضحك ضحكة مريرة جعلته يسعل المزيد من الدم.. ثم صوب القوس.. وبرغم ظلال الموت التي حجبت عنه العالم، فقد انطلق السهم..
تشاك! اخترق السهم حنجرة الفتى الكذوب.. ويبدو أنه ثبت الفتي إلى الشجرة وإن كان هذا الوضع يبدو لي مستحيلا..
أطلق (رستم) ضحكة ارتجت لها الغابة كلها.. ها ها ها ها!!!
ثم انتهى ما بقي في جسمه من قوة فمال رأسه ومات.
مات (رستم) العظيم.. مات بطل الأبطال الذي هزم كل تنين وأسد قابله.. مات ضحية خيانة وغيرة.. فليترنم الشعراء في كل صوب ببطولاته ولتمزق (زابوليستان) ثيابها وتبعثر الرماد على شعرها.. فلتنزع النسوة حليهن وتلقي بها إلى التراب.. فليغمد الرجال سيوفهم ولتطفأ النيران في الديار.. فلتذكروا أيها الإيرانيون أنه كان لكم بطل ملك العالم، وجعل الأتراك يصرخون رعبا في منامهم ويبللون فراشهم.. ثم مات..
وعاد أحد رجال (رستم) دامعا إلى (زابوليستان)ليخبر الأب..
صرخ (زال):
- ألا ليتني كنت ميتا! تعسا للأب الذي يعيش بعد ابنه البطل!
وسمعت (عبير) الأخبار المروعة، فسقطت على ركبتيها تبكي.. نزعت الحلى عن معصميها وفكت جدائلها..
كانت تعرف هذا يقينا.. كانت تعرفه يقينا..
على كل حال دفعت (كابول) الثمن فادحا..
لقد انطلق (فارامازـ) ابن (رستم) الآخر إلى (كابول) ومعه جيش عرمرم، وهناك لم يدع شيئا يتحرك إلا وقتله.. ثم دمر الحقول وغطاها بالملح في عصر ما قبل علم معالجة التربة.. هكذا صارت أرضا بورا..
وعاد الموكب الحزين إلى (زابوليستان) وقد ازداد جثتين.. جثة (رستم) وجثة (راخاش)..
لقد انتهى عصر مجيد.. مات بطل مغوار لكن الشعراء والمنشدين كسبوا كنزا حقيقيا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن الأخ (رستم) لم يحتكر الشاهنامه.. هناك قصص أخرى وأبطال كثيرون.. دعك من أنها غير مقصورة على سلالة الملوك.. خذ عندك (كاوة) الحداد.. لقد كان له ولدان.. والملك (الضحاك) كان رأسه على شكل حيتين.. هكذا التهم رأس الملك ابن (كاوة) ولهذا قام (كاوة) بقيادة ثورة شعبية ضد الملك.
خذ عندك (سباوش) وحصانه (بهزاد) الذي أحضره وطلب منه أن يتماسك لأنه موشك على الموت.. وأوصاه بألا يخضع لأحد من بعده، ولا يترك أحدا يضع السرج على ظهره ما عدا ابنه (كيخسرو).. وقد بر الحصان المخلص بهذا الوعد..
خذ عندك كذلك (أزهيدا كاكا) الثعبان العملاق الذي يخدم (أندجرا ماينيو) أبا الكذب.. إنه وحش متطور له ثلاثة فكوك وثلاثة رءوس هي الألم والحزن والموت.. هذا هو الثعبان الوحيد في العالم - على قدر علمي - الذي تم حشوه بحشرات سامة.. دعك من الثعبانين اللذين يخرجان

من عنقه.. إنه مختص بأكل الماشية.. ويقال إنه سيعود يوما ليدمر ثلث العالم إلى أن يوقفه بطل يدعى (كيرسابا).
خذ عندك كذلك ثاني ملوك الفرس (أوشهنج) الذي كان أول من اكتشف النار والحديد حسب كلامهم.. كان يجوب الجبل حينما رأى حية تنظر له فتتوهج عيناها.. رماها بحجر فلم يصبها.. وقع الحجر على سفح الجبل فاشتعلت منه النيران ونقلها للبشر.. وهذه القصة مهمة جدا عند عابدي النار.. أي أن الأخ (أوشهنج) هو (برومثيوس) الفرس. وقد حكى (الطبري) عن هذا الملك في تاريخه.. ولم يكتف (أوشهنج) بذلك بل اتخذ آلات الحديد من الفئوس والمناشير وغيرها.. واتخذ من جميع البهائم كل نوع يصلح للعمل من البقر والحمير وغيرها، ودبغ جلود الثعالب والسنجاب والسمور وأمر بسلخ الجلود للملابس والمفارش، وكانت مدة ملكه أربعين سنة..
إن الأخ (رستم) لم يحتكر الشاهنامه..
لكن لابد أن نتوقف عند لحظة ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الركب يمضي بجثة (رستم).. وأنشودة حزينة تتصاعد من الحناجر..
والفيل يمشي محاطا بالعبيد والحرس المدججين بالسلاح.. إنه ليس كأي فيل.. إنه فيل يحمل ما استطاع حمله من ذهب يتجه الحراس نحو المدينة.. (طوس).. أسوارها الفارسية العتيقة تطل عليهم.. هذه بوابة (طبران).. يتجهون إلى حارس البوابة ويسألونه:
- هل تعرف أين بيت (أبو القاسم) الشهير ب. (الفردوسي)؟
نظر لهم الحارس في حيرة.. ثم نظر إلى الفيل متسائلا:
- ما هذا بالضبط؟
- هذا فيل محمل بالذهب.. قد أرسله السلطان (الغزنوي) إلى (الفردوسي)..
- والسبب؟
- بفضل وساطة مولانا (الميمندي) شمس الكُفاة.. ندم السلطان على ما كان منه في حق هذا الشاعر العظيم وقرر أن يعيد له اعتباره.. إن السلطان في الهند الآن لكنه فخور بالشاهنامه ويرى أنها خلدت الأدب الفارسي للأبد..
فكر الحارس قليلا ثم سمح لهم بالدخول، وقال وهو يتنحى عن البوابة:
- لو أسرعتم للحقتم به قبل أن يغادر المدينة من بوابة (رزان) في الناحية الأخرى!
ووصف لهم بيت الرجل.. أصيب الرجال بالذعر، فاندفعوا في الشوارع يبحثون عن الشاعر المحبط.. إنهم ليشقون طريقهم عبر السوق شقا والفيل الذي لا يكفون عن نخسه يدوس أي شخص لا يروق له.. لهذا كان موكبهم صاخبا إن لم يكن مرعبا.
أخيرا رأوا البيت..
كانت (عبير) ابنة (الفردوسي) تقف على الباب، وثيابها ممزقة والدموع تسيل على خديها.. وكانت حافية..
الأمر الذي أثار دهشتهم..
سألها الحارس بأدب:
- هل.. هل هذا بيت الشاعر العظيم (الفردوسي)؟
نظرت له وإلى الفيل والعبيد، ثم قالت في سخرية مريرة:
- كان!

- كان؟ لماذا تستعملين هذه الصيغة؟ إن صيغة الماضي هذه..
قالت وهي تبصق على الأرض:
- إن جثته تغادر المدينة الآن من بوابة (رزان)!
أصيب الرجال بالذهول.. ربما لو كانوا أسرعوا قليلا.. إن غباء هذه الأفيال..
قال لها الحارس وهو ينزع خوذته الغارقة في العرق:
- أرجو أن تقبلي تعازي وتعازي مولاي السلطان (الغزنوي).. هل أنت ابنة الشاعر؟ نعم؟ إن هذا يعني أنك وريثة هذا الفيل بما عليه من ذهب..
نظرت له نظرة نارية.. تذكرت كل ما قاله أبوها وفعله.. تذكرته شابا وسيما يجلس على (الدشت) ليكتب الأبيات الأولى من الشاهنامه.. تذكرته شيخا انحنى ظهره على الأوراق.. ما معنى الذهب هنا؟ الأشياء لا تكتسب معناها إلا من حاجتنا لها، وقد كان الذهب بالنسبة لها الآن لا يزيد أهمية على قطعة من الجبن الفاسد..
قالت وهي تتجه لتغلق الباب:
- لا أقبله.. أخبر مولاك بهذا.. ولا تنس أن تأخذ قطعة القاذورات العملاقة هذه معك..
ووقف الرجال يتبادلون النظر.. لقد عرف (الفردوسي) كيف يهينهم برغم أنه مات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرا سال ب*ذشت بر شصت و *نج
نه نيكو بود بيارم ب. *نج
(قد تجاوز العمر خمسة وستين عاما.. فلو نلت الثروة اليوم ماذا أفعل بها؟)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والموكب يخرج من المدينة، و (عبير) تبكي..
هنا شعرت بمن يلمس كتفها في رفق.. نظرت للوراء فرأت المرشد واقفا يبتسم ابتسامته اللزجة.. نظرت له قليلا ثم قالت وهي تستنشق لتمنع أنفها من أن يسيل:
- حان الوقت إذن..
قال وهو يضغط على قلمه:
- هذا صحيح.. أعتقد أنك عرفت قشرة لا بأس بها عن الشاهنامه.. لكن ليس كل الكثير.. إنها ضخمة إلى درجة لا توصف، وقد تحتاجين إلى عمر كامل لرؤية كل شيء..
لكن لا تنسى النقطة المهمة التي قلتها لك.. الشاهنامه محاولة فارسية للاحتفاظ بالذات أمام المد الإسلامي، ولهذا تحوم حولها تهمة شعوبية ما.. وما زال البعض يعتبرها عملا خبيثا..
قالت له وهي تتنهد:
- ليكن.. لكن أرجوك أن تعفيني من الملاحم القديمة بعض الوقت.. أنا بحاجة لرؤية شوارع وسيارات وأناس يتصارعون عن طريق المحامين لا بوساطة الرماح والسيوف!
فكر قليلا وأمسك بيدها وأشار إلى قطار فانتازيا، وقال:
- سأحاول.. لكن لا أعدك بالكثير.
ولم تدر (عبير) أن القصة القادمة ستكون أسوأ كوابيسها.. إنها الملل بعينه!

(تمت بحمد الله)

ألعاب فارسية

رستم.. إصفنديار.. تهمينة.. ملك رأسه ثعبانان.
عنقاء.. وعدد لا بأس به من السادة خشني الطباع الذين لا يجيدون المزاح.. اليوم نفتح بوابة جديدة في (فانتازيا) هي بوابة الأساطير الفارسية.. سوف ندرك بسهولة أنه عالم ساحر.. ساحر لدرجة أنه مخيف.. ومخيف... مخيف لدرجة أنه ساحر.

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

هذا الجزء مأخوذ من كتابه (الأدب وفنونه).. مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٧، وهو كتاب مهم جدا ككل كتب د. (محمد عناني) في الواقع.

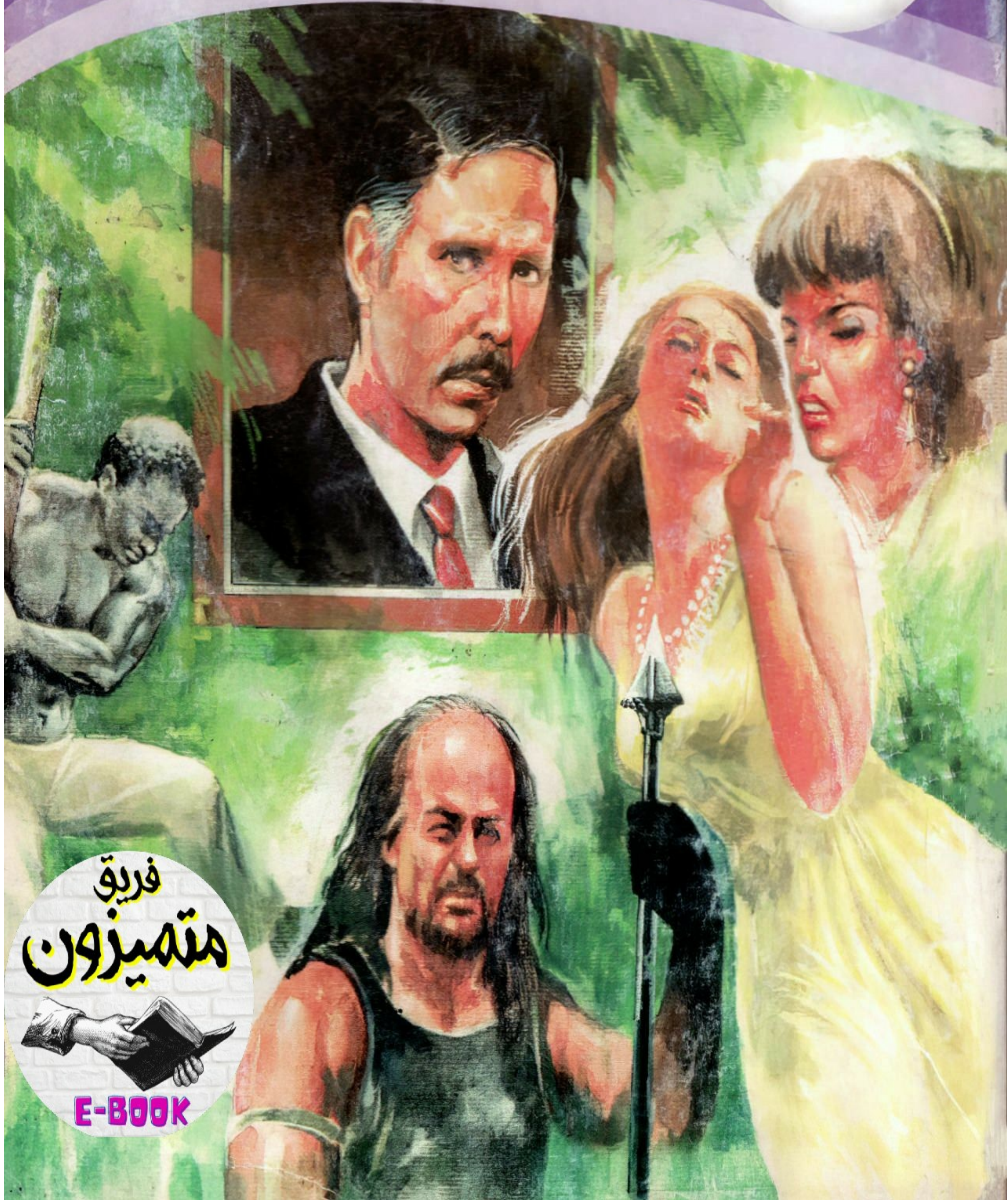
روايات مصرية للجيب

42

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

الملل بعينه



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة



سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (42)

الملل بعينه

تأليف: د. أحمد خالد توفيق



مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكي) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يصعب على المرء أن يقدم للمرة الأولى قصة للقراء لا يرسمها الفنان الأستاذ (إسماعيل دياب) ولا يشرف على تنسيقها الأستاذ (صبحى عبود) - عم (صبحى) كما ينادونه فى المؤسسة – خاصة أنها المرة الأولى منذ وضعت قدمى هنا، لكن هذه سنة الحياة ولسوف تستمر أردنا أم لم نرد.. ليرحم الله الفقيدين العزيزين ويرحمنا يوم يقول الرسام الجديد: يحز فى نفسى أن أرسم غلاف قصة لم يكتبها فلان أو فلان....



1- حيـاة لزجة..

قال لها (مراد):
- يبدو عليك الإرهاق..
قالت فى لا مبالاة:
- لا.. أنا بخير..
غاب ربع ساعة ثم عاد ليقول لها فى حنان:
- يبدو عليك الإرهاق..
- قلت لك إننى بخير..
راح يمارس عمله المعتاد.. يتأكد من حسابات الصبية ويعيد تنصيب النوافذ على الأجهزة (وهو يفعل هذا كل أسبوع) ويخفى كل ما يمكن أن يجده رجال مباحث المصنفات لو قاموا بكبسة ما، ثم سألها:
- يبدو عليك الإرهاق..
- يا أخي قلت لك إننى بخير..
- بالعكس.. يبدو عليك الإرهاق..
لم تكن (عبير) معتادة مناورات الرجال.. لكنها اليوم تعرفها بسرعة عجيبة.. هذه مناورة (التظاهر بالحنان).. إننى أهتم بك أكثر مما تهتمين أنت بنفسك.. أنت تشعرين بأنك بخير لكنى أؤكد لك وأقسم أنك لست بخير على الإطلاق.. أنا حنون. أنا رائع..
كان الطقس حارًّا وشعور بالتعاسة يغمرها.. لذا شعرت تجاه حنانه بما تشعر به أنت تجاه ذبابة لا ترحمك وتصر على أن تلاحقك بينما العرق يغمرك.. (لزوجة) هذه هى الكلمة العبقرية التى تصف كل شيء..
- يبدو عليك الإرهاق..
هذه المرة لم ترد وانشغلت بعملها.. فعلًا تكفل هذا الـ(مراد) بجعل حياتها أسوأ – وهذا شيء مستحيل الحدوث - لكنه عبقري فعلًا.. الرجل الذى يحول الطين إلى ما هو أسوأ لرجل جدير بوصف (عبقرى).. وما يثير غيظها هو أنه لا يطاردها لأنه معجب بها.. غريزة الأنثى لن تخدعها ولا تخطئ أبدًا.. هو ليس معجبًا بها على الإطلاق.. فقط هو يكره أن يترك فرصة سهلة تمر به دون أن يغتنمها.. يكره أن يكون مع أنثى فى مكان واحد ولا يغازلها.. يعتبر هذا نوعا من (الاستخسار) مع الاعتذار عن اللفظ العامي..
طبعًا هى ليست فرصة سهلة.. ليست فرصة على الإطلاق.. لكنه مصر على أنها سهلة، وتمنعها يثير جنونه لأنه يهز ثقته بنفسه.. إذا لم ترحب (عبير) بملاطفاته فمن ترحب بها إذن؟ إنها تجرح كبرياءه الذكرى بشدة وهذا يدفعه للتمادي، بينما هى فعلًا لا تريد من هذا المكان إلا العمل..
- يبدو عليك الإرهاق.. أنا مصر على هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يبدو عليكِ الإرهاق.. أنا مصرة على هذا..
نظرت (عبير) إلى أمها ولم تتكلم.. أحيانًا تكون المصادفات غير قابلة للتفسير إلا على أنها

ليست كذلك.. مزحة كبيرة من الحياة حتى لتشعر بأنها - الحياة - تدارى ضحكتها الخبيثة الآن..
خرجت الصغيرة إلى الصالة.. لقد صارت تزحف بكفاءة تامة.. وبرغم فقر ثيابها الواضح (هناك ثياب أطفال لا تكلف شيئًا لكنها تؤدى الغرض) فإنها كانت جميلة فعلًا.. لم تأخذ من (عبير) إلا القليل من ملامحها بينما أخذت من الأب كل شيء تقريبًا.. هذا لحسن حظ الطفلة طبعًا..
جلست (عبير) القرفصاء واحتضنت الجسد الصغير الدافئ، ثم وقفت.. كف الطفلة الدقيق الشبيه بكف دمية يتلمس خدها.. لشد ما يمنحنا الأطفال أكثر مما يأخذون منا! الحنان أغرب ظاهرة فى العالم.. الشيء الوحيد الذى يتشابه إعطاؤه مع تلقيه.. هى النشوة ذاتها سواء كان مسار الحنان منك أو إليك.. هذه الكائنات الهشة التى لا سند لها فى العالم سواها والتي يمكن أن تموت جوعًا لو لم نعتن بها.. لشد ما هى قوية.. لشد ما هى جوهرية لوجودنا..
أحيانًا كانت (عبير) تعتقد أنها كانت تعيش فى رحم ابنتها وليس العكس..
قالت الأم:
- ما أخبار العمل؟ هل من مضايقات؟
كانت تكره لفظة (مطلقة).. بيئتها ترفض هذا الوصف وتتعامل معه فى شك بالغ.. لذا كانت تتوقع أن (عبير) تعمل فى عرين ذئاب يسيل الزبد من أشداقها.. لا بد أن المضايقات تنهال عليها أطنانًا..
قالت (عبير) وهي تهز الصغيرة هزًّا:
- لا مشكلة.. هناك واحد يحسب نفسه ظريفًا لكنني أعرف كيف أدبره..
- كونى حذرة.. أرجوك..
وراحت (عبير) تفكر.. أتعس شيء فى الحياة هو أن يلاحقك من لا ترغبين فى حبه.. إن الكون عندئذ يغدو أضيق من سم الخياط.. اللزوجة.. هذه هى الكلمة..
كانت تمتلك الكثير من الرومانسية لكنها لم تستعملها قط حتى صارت كسيف صدئ.. الآن لم يعد من حق أحد أن يطالبها بالبحث عن تلك البقايا النخرة التى نسيتها منذ زمن..
تريد أن تُترك وشأنها.. هل هذا كثير؟
قالت الأم وهى تلف الطرحة حول رأسها:
- سأخرج إلى السوق لأبتاع بعض الأشياء.. قالت (أم بطة) إنها انتقت لى زوجًا من الحمام.. سأرى ما فعلته هذه النصابة..
ثم أشارت إلى الطفلة وأردفت:
- هاتيها معي..
- كلا.. أريدها هنا..
- إنها لا ترى الشمس.. حرام عليك تركها فى هذه الرطوبة.. الشمس سوف تنعش عظامها الغضة..
وانتزعها من ذراعيها دون أن تنتظر.. وسرعان ما كانت تخرج والطفلة تنظر إلى (عبير) من فوق كتفها وتضحك..
وحيدة فى الشقة الآن..
(عبير) وحدها فى الشقة.. عندما تخرج أمها فإن غيابها يتجاوز الساعتين.. دخلت غرفة نومها وراحت تفتش بين الكتب المعلقة على الجدار المدهون بالجير.. هل من شيء لم تقرأه بعد؟ هناك مجموعة من الروايات الرومانسية (زهور) و(عبير).. إلخ.. هناك مجموعة أخرى لكتاب

فرنسيين.. وماذا عن الألمان؟ هذه هى (آلام فرتر) التى قدمتها سلسلة روايات الجيب قديمًا.. مجموعة (يوسف السباعي) شبه كاملة.. مجموعة (محمد عبد الحليم عبد الله) الذى كانت له منزلة خاصة فى روحها. أحلام مغلفة كانت تعيش معها فى مراهقتها الأولى.. لكنها الآن صارت مجرد كلمات.. جهاز الاستقبال عندها تالف تمامًا.. إذن لا جدوى من محاولة القراءة..

كان الكمبيوتر جالسًا ينتظر..

خطرت لها فكرة مرعبة عما ستفعله لو تلف يومًا ما.. لن يكون أمامها حل إلا البحث عن (شريف).. هذا خيار مروع.. والأسوأ منه ألا تكون فى حياتها (فانتازيا) للأبد..

على كل حال ليس من الحكمة أن تستبق الشر قبل وقوعه..

قامت بوضع الاقطاب حول رأسها ثم اختارت البرنامج الدائم..

وسرعان ما تلاشت الغرفة من حولها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- حسناء..

قال لها (المرشد):

- يبدو عليك الإرهاق.. لا أعرف السبب!

نظرت له فى غيظ.. إنها مؤامرة إذن. إما أن الأمر كذلك أو هى مصابة بسرطان المثانة وهى آخر من يعرف ذلك..

قالت له مفضلة عدم الصدام:

- لا شيء.. أرهقت نفسي بالعمل بعض الشيء..

راح قطار (فانتازيا) يتهادى وسط المعالم التى تتغير فى كل مرة.. هناك معالم أخرى تضاف بلا انقطاع.. يبدو أن رواية (هارى بوتر) الأخيرة قد صدرت.. هى تعرف هذا لأنها قرأت الخبر، لكنها لم تقرأ حرفًا منها لهذا لا تستطيع دمجها فى حلم.. هناك روايات جديدة فى كل مكان.. عالم متشابك من أبطال القصص المصورة.. كل هؤلاء المقنعين الذين كانوا يتوارون فى مخازن (دي سي كوميكس DC Comics) و(مارفيل Marvel) قد قرروا الخروج ليزيدوا الحياة سوءًا.. هناك حشد من أفلام (الرجال إكس) و(العنكبوت) و(فتى الجحيم) و(العملاق الأخضر) و (الأربعة المذهلون) و(رابطة السادة المدهشين).. يبدو أن مجنونًا فى مكان ما قرر أن القصص المصورة هى لغة المرحلة القادمة من الأفلام السينمائية.. وهاهم أولاء.. كلهم ضخام كالثيران مقنعون يطيرون فى الهواء ولهم شخصيات سرية.. حالة إسهال أبطال حادة لن تجدى معها بعض أقراص المترونيدازول..

كانت هناك مجموعة من قصص نهاية الألفية التى تتحدث عن فناء العالم.. ثم مجموعة لا بأس بها من إبداعات الكتاب المعاصرين التى تتحدث عن (الصدأ المتراكم من فوق تعاريج اللحظة).. مع كم لا بأس به من المصادر التي يتم إضافة (ية) لآخرها.. بهذا تنشأ كلمات مثل (تعبوية -تصفوية - مساراتية - حياتية) وهى حيلة لا تخيب لإضفاء جو من الحداثة والثقافة على القصة..

وسط هذا كله قال المرشد وهو يرقبها فى قلق

- يبدو عليك الإرهاق.. أنا متأكد من هذا..

ثم أضاف مفكرًا:

- أعتقد أننى سأخذك اليوم حسب ذوقي الخاص.. أنت بحاجة إلى هدية..

- ليكن. لكن من فضلك لا تأخذني إلى (ناجازاكى) لأستمتع بمشاهد احتراق الأطفال

بدا عليه الذهول وهتف:

- من قال لك إنني وغ سأدى إلى هذا الحد؟

نظرت له مغتاظة.. كأن من دعاها إلى قنبلة (هيروشيما) كان شخصًا آخر.. لكنه كان يراقب معالم الطريق من النافذة.. فجأة هتف:

- بالضبط!!

سألته فى حيرة:

- ما الذى صار بالضبط؟

لم يرد لأنه كان يجذب الحبل الذي يوقف القطار..

فى الخارج ترى حديقة ممتدة.. حديقة لا يميزها إلا جمالها.. حديقة حسناء لو شئت الدقة

تضطجع على جانبها تنعم بأشعة الشمس.. هناك نافورة تحيط بها تماثيل نساء لا تعرف أبدًا ما يفعلن كعادة تماثيل (أخوة ما قبل رافائيل).. كأن النحات ينحت أجسادًا ثم لا يعرف ما يجب أن تقوم به هذه الأجساد.. المهم هو الجو الروماني العام.. هناك أرجوحة.. هناك إناء لسقاء الطيور.. هناك بيت مهندم أنيق فى وسط المكان..
وتنظر (عبير) لنفسها فتدرك أنها على الأرجح صارت رائعة الجمال.. هى لا ترى وجهها لكن من تملك هاتين اليدين لا بد أنها أجمل فتاة فى العالم..
قالت له فى حيرة:
- ما الموضوع؟
- لا شيء.. أنت فتاة جميلة.. وهذا يجعلك محاطة بالعشاق!
هتفت فى غيظ:
- ألم تفهم بعد يا أحمق إن هذا هو السبب الذى جعلني أفر من عالمي إلى (فانتازيا) هذه المرة؟ أنا هاربة من تودد المترددين وتلطف المتلطفين.. أريد أن أترك وشأني!
فى عدم فهم وغباء نظر لها وغمغم:
- غريب.. متلطفين؟ هم م م! هل أنت واثقة من كلامك؟
- لِمَ لا؟ ألست كائنًا بشريًّا؟
- أنت كائن بشرى.. موافق على هذا على الأقل.. إحم.. لكن.. لنقل إن (كل فولة لها كيال).. حسن.. لا أرى ما يضايق فى أن يخطب الرجال ودك..
- هذا هو الملل بعينه.. خاصة عندما لا أريد ذلك.. إنهم ينصرفون عنك عندما تريدهم ويطاردونك عندما تتمنى الوحدة! هم فى هذا يتصرفون كالمكالمات الهاتفية.. لم أطلب صديقة لى قط ووجدتها.. لكن حينما أرغب فى الوحدة والهدوء تنهال على المكالمات..
قال لها وهو يساعدها على النهوض:
- الجمال موهبة وليس مجرد مزية جسدية.. إنه شيء كالشعر والرسم..
قالت محتجة:
- معذرة.. لا أوافقك.. الشاعر والرسام يشقيان كى يولد إبداعهما بينما الفتاة الجميلة لم تبذل أى جهد.. إنها لعبة جينية لا أكثر.. لقد اختارت أبويها بعناية وهذا فضلها الوحيد، ومن غير العدل أن تنال أكثر مما تناله الفتاة القبيحة.. بل أكثر مما ينال الرجل.. الموديلات العالميات يحصلن على الملايين وهن فى العشرين من العمر.. الممثلات الحسناوات والمطربات الجميلات يحصدن المال بينما يجلس الشباب فى سنهن على المقاهي ويكافح من أجل بضعة جنيهات.. كم يبلغ دخل الراقصة فى الساعة وكم يبلغ دخل غطاس المجاري فى العام؟
قال لها غير راغب فى إطالة النقاش:
- أنت تتحدثين عن مهن طابعها الدخل الفاحش الاستثنائي.. دخل لاعب الكرة أو الممثل أو المطرب الناجح.. هذا موضوع آخر.. أنا أتكلم عن أن الجمال موهبة.. لم تكن الأنسة (مى) أديبة عظيمة، لكنها كانت جميلة لبقة بلا شك.. وفى صالونها كان يحتشد قادة الفكر فى مصر من أمثال (أحمد لطفي) و(العقاد) واعتقد كل منهم تقريبًا أنه يهواها.. وحتى (طه حسين) وقع فى غرام صوتها.. برغم هذا كانوا يعتبرونها ندًّا لهم.. منهم من امتلك العلم ومنهم من امتلك الشعر، ومنهم من امتلك البيان.. لكنهم كانوا يضعونها معهم على قدم المساواة لأن موهبتها هى الجمال.. موهبة كأية موهبة أخرى.. ثم من قال إن الشاعر حصل على موهبته بالكفاح وحده؟ لقد صقلها بالدراسة لكن لا تنكري أنه ولد بها إلى حد ما.. (موتسارت) ألف أولى

سيمفونياته فى سن الرابعة.. فلا تحدثيني من فضلك عن كفاح شاق خاضه ليحصل على موهبته.. إن حضور ألف درس فى الرسم لن يجعل منك (شاجال).. ثمة جزء فى كل موهبة منحه الله لصاحبها وولد بها..
وضحك ساخرًا وأضاف:
- ومن قال إن المرأة الجميلة لا تتعب؟ كل ساعات الامتناع عن الطعام خوفًا من السمنة.. كل العناية بأظفارها وبشرتها.. فإذا نامت دهنت وجهها بالزبادي وغطت جفنيها بالخيار كما يغطون جفون مصاصي الدماء بالعملة الفضية لمنعهم من فتحها.. الفنان لم يحصل على موهبته عن طريق الكفاح وحده، والحسناء لم تظفر بجمالها عن طريق الحظ وحده..
قالت وقد أرهقها حديثه الطويل ما معناه (هات من الآخر).. ثم أردفت:
- أى أن الفتاة القبيحة مثلى عاطلة من أية موهبة ويجب أن تُحرق؟
- لم أقصد هذا.. الفتاة التى لا تملك موهبة الجمال لا بد أنها تملك شيئًا آخر فى عقلها.. فى صوتها.. فى أناملها التى قد تعزف أو ترسم أو تحيك.. فى شخصها..
كانت الآن تقف على باب القطار ترمق الحديقة فى توجس.. هذا الجمال يوحي بمغامرة رهيبة ولا شك..
حك ذقنه مفكرًا:
- أريد أن أجد لك اسمًا يوحي بالجمال..
- (إنصاف) مثلًا؟
هز رأسه فى غيظ كأنما يطرد ذبابة وقال:
- كفى عن التذاكى.. سيكون اسمك (غيداء).. هل قابلت من قبل فتاة قبيحة اسمها (غيداء)؟
- لم أقابل فتاة اسمها (غيداء) أصلًا..
- هذا جميل.. إنه التفرد الذى أبحث عنه.. والآن انطلقى يا فتاة..



∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- عن البواب والقيراط وكتاب الوزارة والحاج ومواضيع مماثلة..

(غيداء) جميلة؟
يسهل أن تلفظ الكلمات.. إنها مجرد حركة بالشفتين، لكن التعبير عن هذا الجمال لا يتأتى إلا بالموسيقا.. ربما الرسم.. هذه من اللحظات النادرة التى تتمنى أن تجد فيها لغة جديدة..
(غيداء) جميلة؟
يسهل أن تقول نعم.. برغم أن هذا لا يعني شيئًا.. ربما لو تخيلت خواطر الملائكة.. ربما لو تصورت أحلام الفراشات.. ربما لو أمكنك استراق السمع إلى أسرار النسيم.. ربما لو امتزجت بهدير الشلال وخرير الجداول، وحلقت مع بذور اللقاح المنبعثة من تنهدات أزهار الليلك..
(غيداء) جميلة؟
ربما.. لو امتزجت ألحان (موتسارت) و(بيتهوفن) و(ليست) و(شوبان) فى مزيج واحد، يرسم على نغماته (رينوار) و(مانيه) و(بيكار) و(صلاح طاهر) و(الجريكو) لوحة واحدة عملاقة.. وهذه اللوحة سوف يصورها (دوجلاس سلوكومب) و(كارديف) و(عبد العزيز فهمى) وسوف يستعملها (كيوكور) و(بركات) فى فيلم مشترك.. وهذا الفيلم ستراه أنت فى أرقى قاعة عرض فى العالم وأنت تلتهم (ساندوتش كفتة مشوية).. ربما عندها تقترب من إدراك الصورة..
(غيداء) جميلة؟
نعم.. كانت جميلة.. جميلة بحق..
في هذا البيت الجميل نشأت.. كان هناك أبوها وكانت هناك خادمة رقيقة عجوز.. وكان هناك بواب نوبي طيب القلب.. دعك من بذخ البيت الواضح ووجود خادم وبواب وطاهية.. إما أن موجهي التربية والتعليم يكسبون كثيرًا وإما أن أباها يعيش على إرث ما.. هناك دائمًا فدان فى مكان ما يباع فى لحظة ما..
يبدو الأمر رائعًا.. لكنه ليس كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الصالة هناك مدفأة.. وفوق رف المدفأة توجد لوحة عملاقة تمثل امرأة بارعة الحسن.. تلك الألوان الطيفية (سفوماتو sfumato) التى تجعل الصورة كأنها تطل من عالم الأشباح.. إن هذا صحيح لأن هذه صورة أمها بالذات.. لسبب ما تشحب صور المتوفين وتبهت.. لكن حضور اللوحة طاغ وبشكل ما كانت واحدة من أفراد الأسرة تمارس دورها..
أبوها رجل وقور من طراز الآباء الذى انقرض أو كاد.. صموت هادئ لكن سلطته لا تتزحزح لحظة عن البيت.. شارب أبيض.. عوينات.. بعض الصلع.. ملامح قسيمة وسيمة تريح النظر وتدل على أن له أصلًا طيبًا.. دعك من أنه أسهم ب 50 % من نسبة جينات هذا الجمال الجدير بالأساطير..
أستاذ (منصور) الموجه السابق بالتربية والتعليم والذى يقضى وقته بعد المعاش فى مهنة واحدة: حمايتها.. لقد توفيت والدتها وهو الآن فى مأزق.. هناك أمور لا غنى للرجل عن امرأة فيها، وحماية هذه الزهرة اليانعة صغيرة السن أمر يفوق قدرة رجل.. لا بد من امرأة فى منتصف

العمر.. امرأة ذكية تفهم (هذه الأمور).. ما هى (هذه الأمور)؟ لا يعرفها طبعًا وإلا فلماذا يفتقد زوجته لهذا الحد؟

في ذلك اليوم عاد إلى البيت غاضبًا..

اتجه إلى سماعة الهاتف وطلب رقمًا ما.. ثم تعالى صوته:

- أستاذ (عدلي).. لا بد من أن تتصرف.. هؤلاء الأوغاد يواصلون مضايقتي.. لقد استولوا على قطعة الأرض التى كلمتك عنها..

ثم صمت قليلًا وراح يصغى.. بعد قليل أضاف:

- سوف أجد بعض (الفتوات) كى يساعدوني على طرد هؤلاء.. نعم.. سوف أبقى يدى نظيفة..

ووضع سماعة الهاتف واستدار ليجدها واقفة خلفه فى قلق.. وجد أن التفسير من واجبه فقال:

- إنها أسرة (عبد المنصف).. أنت تعلمين أن البلدة ضيقة علينا معًا.. لقد اغتصبوا القيراط الذى لدى فى (السنبلاوين).. ومعنى هذا أنهم يعلنون الحرب..

- ولكن يا أبى.. لا تلطخ يدك..

- لن ألطخها.. سأفعل كل شيء من دون أن ألطخها.. سوف يساعدني (عدلي) المحامي فى هذا.. سنحرك الخيوط عن بعد.. ولسوف يدفعون الثمن غاليًا.. (عدلي) يقول إن إجراءات التقاضي سوف تستغرق وقتًا طويلًا.. إن العدالة حذرة تخشى الخطأ.. لهذا هى بطيئة.. سأنفذ عدالتى الخاصة..

لم تكن هذه أول مرة تسمعه فيها يتهدد هؤلاء القوم.. إن العلاقة بين الأسرتين تشبه على حد ما العلاقة بين القط والفأر.. لا بد أن الخلاف بدأ فى زمن سحيق.. لا تعرف تفاصيله.. لكنها كراهية عمياء بحق..

قرع الأب جرسًا.. بعد دقيقة ظهر (عنتر)..

(عنتر) هو البواب الأسمر.. يعيش فى غرفة صغيرة بالحديقة مع والدته العجوز.. ويصعب أن أصفه لك.. إنه أقرب إلى جدار أسود من العضلات.. كل عضلة محددة ومرسومة بوضوح تام.. قامة فارعة.. عينان يتناقض بياضهما بشدة مع الجلد الأسود حولهما مما يعطيهما بريقًا مرعبًا.. هذه نظرة تنذر بقطع الرقاب، لكنها تحمد الله على أنه فى صفهم وليس ضدهم.. الرقاب رقاب أخرى غالبًا..

يدخل من الباب فى تؤدة.. جلبابه أبيض نظيف وفى حركاته كبرياء تشي بأنه ليس ممن يخافون ولى نعمتهم.. إنه يتلقى النداء كأنه من ند له..

- أفندم يا (منصور) بك..

لم ينظر الأب للوراء.. لقد وقف حيث هو أمام جهاز الهاتف.. وحانت منها نظرة على العملاق المخيف فوجدته ينظر لها منتهزًا فرصة أن أباها لا يراه.. نظرة غريبة هى أقرب إلى الحنان وإن كان صعبًا أن يجعل الحنان يتشكل فى هاتين العينين الناريتين.. نظراته مربكة بحق.. ذكرتها بنظرة فهد ينظر لك من بين الأحراش..

قال الأب وهو ينظر إلى الهاتف:

- (عنتر).. أنا بحاجة إليك..

- أنا خادمك يا (منصور) بك..

كلا.. ليس خادمه.. النبرة التى يتكلم بها تدل بوضوح تام على أنه لا يعتبر نفسه خادمًا لأحد.. لكنها المجاملة.. (لست خادمك يا منصور بك بل أقول هذا مجاملة لك.. وإن كان بوسعي أن أحيل رأسك إلى دقيق).. هذه هى الترجمة الصحيحة..

قال الأب:
- أسرة (عبد المنصف).. لقد استولوا على القيراط الخاص بى.. لا أجد الحل القانوني ممكنًا.. لهذا فكرت فيك..
- تحت أمرك يا (منصور) بك..
- سوف تجمع عددًا من الرجال مثلك.. هل تفهم؟ مثلك.. أى أنهم لا يخافون من الجان.. أريدك أن تذهب إلى هؤلاء الأوغاد لتذيقهم الويل.. بمجرد طردهم سوف نبني سورًا حول قطعة الأرض ونعين خفيرًا مسلحًا لحمايتها.. هل هذا مفهوم؟
- مفهوم يا (منصور) بك..
- متى تفعل ذلك؟
- اليوم إن أردت..
- بل أريد ذلك الآن..
تحرك (عنتر) لتنفيذ المهمة فاستوقفه الرجل:
- لحظة.. هل ستحمل سلاحًا؟
- فقط بعض العصى..
- لا أريد قتلى.. هذا مفهوم طبعًا..
- لا تقلق يا (منصور) بك..
- هل تحتاج إلى مال من أجل الرجال؟ أو من أجل استئجار سيارة؟
- لا يا (منصور) بك.. عيب.. هؤلاء الرجال الذين سيأتون معي يفعلون هذا لأنهم يخدمون (عنتر).. ومن هؤلاء الرجال من يملك سيارة نصف نقل..
- جميل.. جميل..
استدار (عنتر) للرحيل فاستوقفه الرجل من جديد:
- (عنتر)..
- نعم يا (منصور) بك..
- شكرًا على كل شيء..
- لن نفعل إلا الواجب.. والآن أرجو أن تأذن لى.. سوف أحتاج لعدة ساعات حتى أجمع الجميع.. سوف نستغل الليل لنهجم..
- ليكن..
بعد انصرافه وجد الأب أن عليه أن يقدم لها تفسيرًا فقال وهو يشعل لفافة تبغ:
- أنا لن أترك حقوقى.. لو فعلت هذا فلست جديرًا بأن أكون أباك.. أنا أدافع عن أرضك..
لم ترد.. كانت تمقت العنف بجميع أشكاله، لكنها كانت تفضل أن تترك هذه الأمور للرجال كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في غرفتها ليلًا..
غرفتها رقيقة جديرة بأن تكون غرفتها.. طبعًا هناك ستائر شفافة.. الكثير منها.. هناك دببة (تيدى) أو بلساننا نحن (دباديب).. الكثير منها.. يبدو أنها تعشق سماع (كاظم الساهر) على الأرجح.. هناك عصفور جميل فى قفص.. الغرض منه أن تتأمله وتبكى وتتمنى أن يستعيد حريته لكنها لا تفعل ذلك أبدًا! هناك مرآة تخبرها كل يوم أنها أجمل فتاة على ظهر الأرض..

تمشى فى غرفتها شاعرة بالقلق..
هذا هو الوقت بالضبط..
لقد تأخر..
فجأة تسمع صوت الصفير من الحديقة فتهرع إلى الشرفة.. تراه هنالك واقفًا فى الظلام ينظر حوله فى حذر.. إنه ينتظر فى هلع اليوم الذى يربى فيه أبوها كلبًا.. دعك من أنه يخاف (عنتر) البواب لأن هذا لو أمسك به لاستعمله خلة لأسنانه..
إنه نموذج العاشق الضعيف الرقيق المتهافت.. أقرب إلى الأنوثة نوعًا لو قارنته بواحد مثل (عنتر).. أو أبيها كتلة الرجولة المتجمدة فى بذلة.. لكنها بشكل ما تشعر أنه قريب إلى قلبها..
(رامي)..
الحفل.. الأضواء.. صديقاتها يمرحن حولها فى حركات تحوي 80 ٪ من التمثيل و20 ٪ من البراءة الطبيعية.. إنهن فى سن الزواج وقد خرجن للقنص، فالحفل يحوى مجموعة من الشباب.. هذا زفاف صديقتها (رانية).. يضحكن بافتعال.. يفكرن بافتعال.. يتكلمن بافتعال.. وقد دنت من (دينا) صاحبتها لتكلمها فراحت الأخيرة ترد عليها.. لحظات ثم فطنت (غيداء) / (عبير) إلى أن (دينا) لا توجه لها كلمة واحدة من كلماتها.. إنما كل كلماتها موجهة إلى العيون التي تراقبها.. هكذا تركتها شاعرة بخيبة أمل..
وذلك الفتى الذى يقف جوار العريس متظاهرًا بالسعادة.. إنه يقف فى وضع استعراضي مفضوح كأنه عارض أزياء، وعلى وجهه ترتسم تعبيرات متتابعة من الاهتمام.. الحزن.. الفرح.. الخطورة.. واضح طبعًا أنه لا يبالى بالعريس لحظة وكل اهتمامه هو أن يظهر للبنات كم هو فاتن.. يبدو أنهم خرجوا للقنص كذلك..
ذلك الرجل ضخم الجثة.. ذلك الفتى كبر الأنف.. ذلك الفتى كث الشارب.. تقتحمهم عيناها بسرعة.. فقط ذلك الفتى الرقيق الخجول كان يقف بعيدًا.. يتابع الحفل بطريقة من يجلس على البحر لكنه يخشى أن تبتل قدماه.. (زهرة حائط) كما يقول التعبير الإنجليزي..
التقت عيناه بعينيها فرأته يتحرك ببطء نحوها.. دخلت الشرفة المظلمة فمشى وراءها.. ووقف على الباب بحيث سد عليها سبيل العودة للداخل..
أطرقت برأسها.. رباه! إنه جريء!..
قال بصوت رقيق بعد فترة صمت:
- إن تنتهك يدى الحقيرة تأثمًا هذا الحرم المقدس.. فإن شفتي هاتين جديرتان بأن تطهراه من مسها الخشن بقبلة يملؤها الحنان..
ما هذا الكلام الغريب؟ لكنها وجدت نفسها ترد:
- أيها الحاج الكريم.. إنك لتظلم يدك التى لم تزد عن أن قدمت بهذا نسكًا تقيًا.. فإن للقديسات أيديًا تمسها أيدى الحجيج.. ومس الراح للراح قبلة حاج طاهر..
ما هذا الذي تقوله؟
قال لها باسمًا:
- أليس للقديسات شفاه كما للحجاج أيضًا؟
- بلى أيها الحاج.. لهن شفاههن يؤدين بها الصلاة..
ما الذى أدخل الشفاه فى الكلام؟ هذه (قلة أدب).. ثم من هو الحاج؟ أحيانًا نستعمل لفظة (حاج) للدلالة على الأب أو صاحب المكان، فهل ينطبق هذا على الفتى؟
لكنها شعرت نحوه بميل شديد.. لا تنكر هذا.. إن لكلامه الغريب طابعًا ساحرًا متميزًا..

(رامى)..
(رامى عبد المنصف)..
متى عرفت اسمه بالكامل؟ لا تذكر..
فقط تعرف أنه يظهر تحت شرفتها فى هذه الساعة.. فلو شعر به أبوها لفجر رأسه، ولو شعر به (عنتر) لحوله إلى هامبرجر.. إنه شجاع برغم وهنه..
هوذا يقف الآن ويناديها:
- تكلم فى عليائك أيها الملك المشرق.. روعة ملاك بجناحين تراءى رسولًا من السماء.. ينظر إليه الناس بعيون مبهورة شاخصة حتى ليرى بياضها..
قالت له بصوت هو ذلك الهمس الصاخب:
- (رامى).. اخلع أباك وانبذ اسمك.. فإن لم تستطع فاقسم على الوفاء لحبى ولن أنتمى بعدها لأسرة (الفرجانى)..
هنا سمعت صوتًا من بعيد ينادى:
- يا منصور بك!!
نظرت للفتى فى لهفة فرأته يهرع ليتوارى بين الأشجار..
هى تعرف صاحب الصوت.. إنه (عنتر).. يبدو أنه عاد من مهمته بعد النجاح فيها أو الفشل.. ومن مصلحة
الشاب ألا يتقابلا ابدًا..
تسمع الباب ينفتح..
ترى من أعلى (عنتر) يقف أمام باب البيت وعلى كتفه هراوة عملاقة، وترى أباها يخرج له.. (عنتر) يوجه نظرة عابرة إلى شرفتها كأنه يطمئن على أنها ما زالت موجودة، ثم يوجه كلامه للأب بصوت عال:
- لقد هاجمناهم على حين غرة.. كان معي الرجال وكلب ضخم.. كان المعتدون خمسة وقد راحوا يولولون كالنساء بينما نحن نوسعهم ضربًا.. ثم طردناهم ممزقى الأوصال إلى الخارج.. أعتقد أننى هشمت رأس اثنين منهم وحدى.. تركت ثلاثة رجال يحرسون الأرض وسوف أعد العدة غدًا لبناء سور..
هتف الأب وهو يمد يده فى جيب الروب:
- عفارم يا (عنتر).. كنت أعرف أننى أستطيع الوثوق بك.. لحظة حتى..
يد العملاق القوية تمسك بيد الأب كأنها فكا تمساح:
- ماذا تنوي عمله يا بك؟ عيب.. أنا أفعل هذا من أجل العيش والملح..
ومد يده يوارب الباب وهو يغمغم:
- تصبح على خير يا (منصور) بك..
أغلق الأب الباب وساد الظلام.. العملاق الأسود يمشى فى ظلام الحديقة.. تدعو الله ألا يتمتع بحاسة شم الكلاب أو بحاسة النساء السادسة وإلا ضاع (رامى)..
كان تحت شرفتها بالضبط.. يعرف أنها تراه الآن بوضوح.. عندما قام بشيء غريب..
وقف فى مكانه وهتف:
- لم يكونوا خمسة.. كانوا عشرة وكادوا يفتكون بنا لكنى تذكرتك فاستطعت أن أجندل منهم أربعة..
ثم رفع يده كأنما ينشد الشعر وقال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم
ثم انصرف..
ما معنى هذا؟ إنها تذكر هذه القصيدة فى كتاب محفوظات المدرسة.. وكانت تحبها بشكل خاص لكن كتاب الوزارة كان يحتم أنها رديئة (لأنه من المستحيل أن نقارن السيوف اللامعة - وهي شيء كريه - بثغر الحبيبة وهو شيء محبب).. وصار محتمًا أن تعتنق هذا الرأي حتى لا ترسب فى اللغة العربية، برغم أن رأيها الخاص كان يختلف.. من المؤثر أن نتذكر من نحب فى لحظات الخطر والموت.. هل يملى علينا كتاب الوزارة ما يجب أن نحبه؟
لكن..
دعك من آرائها النقدية..
ما معنى أن ينشد البواب هذه القصيدة تحت شرفتها بالذات؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الملل بعينه

كان الرجل ذو البذلة السوداء جالسًا على الفراش فى غرفتها عندما عادت من الشرفة..
لا لم يكن جالسًا.. كان شبه مضطجع على كوعه يطالع مجلة أطفال تركتها هناك.. وكان غارقًا فى مغامرات (بطوط) حتى أنه لم يشعر بأنها تقف عند رأسه..
لم تدر ما تفعل ولا ما تقول.. سوف تصرخ وتنادى أباها. ثم قررت أن تبدأ بتهشيم رأسه بالأباجورة على سبيل (التليين) ثم تصرخ بعدها..
هكذا تناولت الأباجورة وهوت بها على رأسه.. وفى اللحظة التى خضعت فيها الأباجورة لقانون الجاذبية وحسابات طاقة الحركة وطاقة الوضع بحيث صار من المستحيل إيقافها، أدركت من هو..
- المرشد؟!
كراش ش ش!
تهشمت الأباجورة على رأسه وتناثر الزجاج فى كل مكان.. نهض مذعورًا وقال:
- آى! سأكون شاكرًا لو حرصت فى المرة القادمة على التأكد من شخصية من تريدين قتله..
لم يحدث له شيء وهذا طبيعي فى (فانتازيا).. لذا راحت تجمع الزجاج المهشم وسألته:
- ماذا أتى بك إلى هنا؟
- ليس حبًّا فى جمال عينيك.. جئت أقدم لك بعض التفسيرات.. لكنك غير ودود على الإطلاق..
- ضع نفسك مكاني.. فتاة تجد رجلًا فى غرفة نومها.. هل تقدم له البونبون؟
قال وهو يعود لجلسته المريحة:
- طبعًا أنت لم تفهمي أى شيء على الإطلاق.. خادم أسود اسمه (عنتر) لا يشق له غبار فى القتال وينشد الشعر.. وشاب اسمه (رامى) يقف تحت شرفتك وينشد الشعر..
قالت فى غباء:
- مثل ذلك الأحمق.. (روميو)..
احمر وجهه غيظًا:
- ليس مثل.. إنه هو (روميو Romeo).. ألم تفهمي هذا بعد يا بلهاء؟ ما دخل الكلام عن الحجاج فى ذلك الحفل؟ القصة أن (روميو) كان متنكرًا بثياب حاج فى ذلك المشهد من مسرحية (شكسبير Shakespear) حينما قابل (جولييت Juliette) أول مرة.. اسمه (رامى).. أليس هذا أقرب تنويع عربي على اسم (روميو)؟ (رامى عبد المنصف).. هل يذكرك اسم أسرته بشيء؟
اتسعت عيناها رعبًا وهتفت:
- لا تقل إن..
- بل هو كذلك.. إن أسرته هى العدو رقم واحد لأسرة (الفرجانى).. أسرة أبيك.. وماذا عن البواب الشاعر الأسود المدعو (عنتر)؟ إنه يحبك فى صمت.. فماذا عن (عنترة بن شداد)؟
هتفت:
- مستحيل!
- لا مستحيلات فى فانتازيا..
ثم نهض من على الفراش واتجه للشرفة وهو يقول:

- أنت فى وضع فريد.. سوف يتقدم لك أشهر العشاق فى كل العصور يطلبون يدك.. كل واحد بطريقته.. وسوف يكون عليك أن تقرري أيهم الأفضل
- ومن قال لك إننى راغبة فى هذا الوضع؟
- هذه هى مغامرة (فانتازيا) اليوم..
- هذا هو بالضبط ما فررت منه.. قلت لك إن هذا يجعل الحياة لزجة كئيبة بالنسبة لفتاة ترغب فى تركها وشأنها.. إن هذا هو الملل بعينه..
نظر لها طويلًا ثم غادر الغرفة قائلًا:
- حاولى الاستمتاع بوقتك.. لن أغيِّر المغامرة بعد لحظات من بدايتها..
هكذا تركها حائرة.. لكنها حيرة تأتى من الفهم لا من عدمه.. إذن هى ذلك المزيج الفريد من (عبلة) و(جولييت).. ولكن.. هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السابعة مساء جاءت الطاهية تخبرها أن الكهربائي هنا.. كهربائي؟ أنا طلبت كهربائيًا؟ لم يكن أبوها فى الدار لذا توقعت أنه طلبه على الأرجح قبل أن ينصرف ثم نسي الأمر..
قالت لها الطاهية العجوز:
- لا تقلقي.. أنا معك..
نظرة واحدة على وجه الكهربائي جعلتها تلفظ مخاوفها، فهو يبدو مهذبًا على درجة من الرقى..
كان يحمل حقيبة صغيرة وقد قال لها فى أدب:
- والدك اتصل بى.. قال إن هناك ماسًا كهربيًا فى غرفتك..
لم يحدث.. لكنها لا تستبعد أن يكون هذا بسبب الأباجورة التى هشمتها على رأس المرشد.. ربما دخل أبوها الغرفة ولاحظ شيئًا.. هكذا سمحت له بدخول غرفتها ووقفت على الباب تراقبه وهو يضيء النور ويطفئه.. ثم نظر إلى أعلى وقال للطاهية:
- هل لديكم سلم؟ أريد بلوغ هذا (البواط)
هكذا انصرفت السيدة متثاقلة تدفع عربة بدانتها، تبحث عن ذلك السلم..
فما أن ابتعدت حتى وجدت الكهربائي - المزيف طبعًا - يفتح حقيبته ليخرج منها ورقة مطوية ويدسها فى يدها.. نظرت له متسائلة خائفة فقال:
- أنا أدعى (سراج).. أحضرت لك رسالة من سيدى (تامر).. لا تقلقي.. سوف تفهمين كل شيء من هذه الرسالة..
هنا عادت الطاهية وهي تلهث من فرط جهد حمل السلم.. ساعدها ليضعه تحت (البواط) ثم اعتلى الدرجات.. وراح يعبث بالمفك قليلًا هنا وهناك..
بوم!.. هذه المرة حدثت (قفلة) فى مكان ما.. هذه أشياء لا يمكن اللعب فيها.. الظلام ساد المكان لكن مصباح النيون الاحتياطي أضاء تلقائيًا..
قال فى توتر وهو يجفف عرقه:
- لا تقلقي.. سأصلح كل شيء..
وراح يحاول إعادة الوضع إلى ما كان عليه.. استغرق هذا ربع ساعة تقريبًا بينما الطاهية تمصمص بشفتيها.. لم تر قط كهربائيًا أغبى من هذا..
في النهاية عاد النور إلى الغرفة فتنهد الرجل الصعداء ونزل السلم.. ثم راح يضيء النور ويطفئه وفي حماس قال:

- انتهت المشكلة!
أى أنه أتلف الكهرباء ثم أصلحها..
بعد انصرافه فتحت (عبير) الرسالة الصغيرة وقرأت المكتوب فيها:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حبيبتي...
هذه هى رسالتي الأخيرة التى يجلبها لك خادمى (سراج).. فعلًا لا مجاز فى هذا لأنى ابتلعت علبة كاملة من أقراص الكورتيزون المنومة.. على الأرجح لن تلحقي بى لكنني أرحل على أمل أن نلتقى فى عالم آخر عادل.. يومها ستكونين لى.. سوف تعيشين حياتك وتنعمين بها وسوف تنسين هذا الذى مات من أجل نظرة واحدة بخلت بها..
ملحوظة: لو أردت أن تريني قبل وفاتي فأنا موجود فى العنوان التالي..

تامر
لم تتمالك نفسها من الرعب.. لماذا لم يتصل بها؟ المسكين! هذه هى مشكلة الجمال.. إنه يجلب التعاسة لمن يتعامل معه وبالتالي لصاحبه..
كورتيزون؟ متى سمعت هذا الاسم من قبل؟ لكن من يبالى بعلم الصيدلة الآن؟
إن أباها ليس هنا لكنه لن يسمح لها بأداء هذه المهمة الإنسانية.. سوف تذهب وحدها.. ولربما لم يتأخر الوقت بعد.. سوف تطلب الإسعاف..
ولماذا لم يتصل ذلك الخادم الأحمق بالإسعاف؟ لماذا أضاع كل هذا الوقت الثمين فى الخداع؟
كانت تركض نازلة الدرج بسرعة البرق..
وسألتها الطاهية وهى فى أعلى الدرج:
- إلى أين يا بنيتي؟
- فيما بعد يا (سنية).. فيما بعد..
تخرج من الباب.. إنها تحب تحاشى (عنتر) برغم أنه ليس من حقه أن يوجه لها أسئلة.. تشعر بشكل ما أن له حقًّا عليها.. لكنه ليس هنا لحسن الحظ وإلا لدخل مع الكهربائي.. أمه العجوز بالداخل لا تسمع ولا تتكلم ولا ترى.. ربما لا تتنفس كذلك..
تجرى نحو سيارة تاكسي تمر أمام البيت.. ما أجملها وهى توقف التاكسي وشعرها الطويل يتطاير وراءها وتنورتها المنتفشة تهتز كأرجوحة.. تتخيل نفسها (ماجدة) أو (فاتن حمامة) فى واحد من تلك الأفلام القديمة..
تثب فى التاكسي نحو العنوان المذكور..
إنها شقة فى الطابق الثانى من بناية خالية.. تدق الجرس.. يفتح لها الخادم (سراج) الباب.. على وجهه نظرة حزينة وقور.. يقول لها وهو ينظر إلى الأرض:
- أشكرك على سرعة تلبية النداء..
- هل هو....؟
قال فى حزن:
- اقترب جدًّا..
- وأنت واقف هنا مثل صنم (يغوث) ولا تفعل شيئًا؟
- لقد منعني.. لا أستطيع أن أرفض له طلبًا
شقة عادية جدًّا.. من الغريب أن يكون لصاحب هذه الشقة خادم.. خادم بهذه الأناقة.. لكن من

يبالى بدراسة اقتصاديات الطبقة الوسطى الآن؟
مرت جوار المطبخ وهى تبحث عن غرفة النوم، فوجدت على الرخام مجموعة من الرموز التي علمتها السينما المصرية معناها.. دلو به زجاجة.. كأسان.. تفاح.. سكين.. ما معنى هذا؟
غرفة النوم..
هناك فى الفراش يرقد ذلك الفتى وهو يهمس من قبل أن يراها:
- (غيداء).. هاتوا لى.. (غيداء)..
دنت منه أكثر فرأت أنه وسيم.. وسيم فعلًا لكنها تلك الوسامة التى تجثم على روحك.. طراز الرجل الذى يطلقون عليه Womanizer.. كانت قد رأت فيلم (إنقاذ الجندي رايان) وشاهدت تتابع القتل الرهيب، عندما كان النازي يجثم على صدر اليهودي ويصوب الخنجر إلى قلبه، وهو يهمس له بطريقة منومة شبه حنون. إلى أن غاب الخنجر فى صدره.. لقد تذكرت هذا المشهد الآن وهى ترى هذا الشارب الرفيع والنظرة الناعسة.. هذا وحش لا يبالي بمشاعر النساء بل هو لا يبالي بهن أصلًا لكنه يحب صيدهن! أى أنه يحبهن لأنهن يرضين نرجسيته لا أكثر..
لكن من يبالى بدراسة علم الفراسة وفن (الميزانسين) فى السينما الأمريكية الآن؟
فتح عينًا واهنة ونظر لها فأشرق وجهه وهمس:
- أنت هنا؟
ومد يده يلمس يدها.. شعرت بأنها تلمس ضفدعًا لكن هذا الفتى يحتضر.. لا بد من أن تتحامل قليلًا..
قال لها:
- يبدو عليك الإرهاق!
- ماذا؟
وشعرت بالغيظ.. بينما أردف:
- كنت أعرف أنك لن تتركيني أموت ظامئًا.. إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر..
من هذا العاشق؟ من المستبعد أن يكون (أبو فراس الحمداني).. ثم نظرت للوراء فرأت أن الخادم يغلق الباب بذات التهذيب! هنا احتشدت حواسها.. وبدأت تتذكر..
كورتيزون؟ متى سمعت هذا الاسم من قبل؟ لا يوجد منوم بهذا الاسم.. تذكر أنه مضاد التهابات على الأرجح لأن أمها كانت تتعاطاه.. بل هو مضاد التهابات ولم تسمع قط عن واحد انتحر بابتلاعه.. زجاجة وتفاح.. هذا الوغد ليس لزجًا فحسب بل هو فاسق كذلك.. ثم ماذا عن لون وجهة المتورد المتفجر بالصحة؟ لو كان هذا يحتضر فأنا ميتة منذ أعوام..
انتزعت يدها فى عصبية فجلس ليقول بحنان مثير للتقزز:
- لماذا لا تتركين لى أى شيء منك؟
هى الحمقاء.. وكان عليها أن تتذكر هذا المشهد الخالد فى السينما المصرية.. فقط اعتقدت أنه لا يحدث بهذه الفجاجة فى الواقع.. إنه أسخف من أن يكون خدعة.. لكنها فى (فانتازيا) حيث يتصرف زئر النساء بهذه الطريقة الساذجة فعلًا..
نهض أكثر ليحاول منعها من الابتعاد فالتقطت الأباجورة جوار فراشه وتوكلت على الله..
كراش ش ش ش!
يبدو أن مغامرتها هذه المرة لن تزيد على تحطيم الأباجورات طيلة القصة.. لكن هذا الفتى لم يكن المرشد. لقد هوى فاقد الرشد والدم ينزف من رأسه..
نهضت وغادرت الغرفة فى حزم..

قال لها الخادم الواقف على الباب وهو مصر على الاستمرار فى تمثيل دوره:
- هل.. هل مات؟
- غالبًا! بحق هذه المرة!
ووجهت له ركلة عنيفة فى قصبة ساقه.. فانحنى كما هى العادة وهو يئن، وهنا انهالت بسيف يدها على مؤخرة عنقه لينحنى أكثر.. ثم رفعت ركبتها لتدسها فى فم معدته..
وسرعان ما كانت فى الشارع وهى تسب وتلعن..
تاكسى.. تاكسى.. لا بد أنها فى (فانتازيا) فعلًا لأن سيارات الأجرة تتوقف بسهولة..
كان سائق التاكسي يبدو مألوفًا لها من الخلف.. فلما دققت النظر اكتشفت لدهشتها أنه المرشد.. قالت فى غيظ:
- إن مغامرتك تفعمني حبورًا..
قال لها وهو يواصل القيادة:
- لمه؟ لقد خضت الموقف ببراعة، وهذه هى طريقته فى خطب ود المرأة على كل حال.. لقد جربت (عنترة) و(روميو) وجاء دور هذا.. ودعينى أؤكد لك أنه سيحاول مرارًا.. هذا الطراز من الرجال كالذباب تذبينه فيعود..
- وهذا الخادم المثير للتقزز؟ كل هذا الوقار وكل هذه الكبرياء.. بينما مهنته لا تزيد على مهنة أتعفف عن ذكر اسمها.. هل لا يجد عملًا آخر إلا تسهيل الرذيلة لسيده؟
- بالفعل ليس له عمل آخر.. بل إن هذا يروق له وهو يمارسه بنوع من الكبرياء والإخلاص التامّين.. إن (ليبوريللو Leporello) هو أشهر قواد فى تاريخ الأدب والفن.. ولسوف تشمين رائحة هذه الشخصية فى دور (حسن مصطفى) فى فيلم (مطار الحب).. كان يحضر الحسناوات لسيده (فؤاد المهندس) ويستمتع بذلك، إلى حد أنه قدم استقالته يوم فكر سيده فى الاستقامة.. هناك قصة لـ (ستيفن زفايج Stephen (Wzeig) اسمها (ليبوريللا) عن امرأة كانت تؤدى هذا العمل لسيدها بكل رضا..
ثم التفت إلى الوراء للحظة وقال:
- هل حقًّا أنت من الجهل بحيث لم تدركي أنك كنت فى حضرة (دون خوان)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- دون خوان دى ماركو وآخرون..

كان المرشد يشرح لها بينما السيارة تشق طريقها وسط الزحام نحو دارها:
- (دون خوان Don Juan) شخصية جاسوس أسبانى حقيقى.. وهو كما فهمت أنت وألعن.. إنه الرجل الذى لا يترك امرأة فى حالها.. على أن الحقيقة فى شخصيته اختلطت بالخيال لأن شخصيته الثرية راقت للفنانين.. إن هذا الطراز يروق للفنانين والنساء على السواء.. وإن كنت لا أفهم ماذا تراه النساء فى وغد كهذا لا يمكن أن يصون عهدًا..
قالت فى برود:
- نفس ما يراه الرجال فى فتاة مائعة لا تستطيع أن تقلى بيضة أو تسكت رضيعًا يبكي..
لم يعلق.. فقط واصل الكلام:
- هناك الصيغة التي حكاها البريطاني لورد (بيرون Byron) والصيغة التى حكاها الفرنسي (موليير Moliere).. على أن الصيغة الأشهر هى التى حكاها (موتسارت Mozart) فى الأوبرا المعروفة.. سوف تجدين أن خادم (دون خوان) عند (موليير) هو (سجانارى sganarelle) الخجول الذى تخزيه أفعال سيده المشينة، بينما عند (موتسارت) هو (ليبوريللو) الفخور بما يفعله سيده.. عامة نمط (دون خوان) لا بد وأن يذكرك بوغد متبختر آخر يروق للنساء هو (جيمس بوند).. كلاهما واسع الحيلة يفلت من كل موقف عسير، وكلاهما لا يترك فتاة تنجو منه أثناء مغامراته.. لقد قارن نقاد كثيرون بين الشخصيتين..
كانت السيارة قد توقفت أمام بيتها، فقال لها:
- هناك مغامر وغد آخر يشبه (دون خوان).. إنه (جياكومو كازانوفا Casanova Giacomo) الذى كان مغامرًا ورحالة ولم يترك أية فتاة فى حالها، وقد خطر لى أن أضعه فى القصة ثم وجدت أنه تكرار لا يخلو من الإملال.. دعك من أن الأسماء ستختلط عليك وستصير مغامرتك بالغة التعقيد
ثم تذكر شيئًا فأضاف:
- كونى حذرة.. كفى عن لعب دور (ماجدة) فى الأفلام القديمة.. إن العالم مكان خطر..
وانطلق بالسيارة دون أن يطلب أجرًا.. طبعًا.. من حقها بعض الامتيازات فى هذا العالم كما يفعل أي موظف بالسكة الحديد عندما يستعمل قطاراتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أبوها جالسًا يقرأ فى الصالة فلما رآها قال فى صرامة:
- أين كنت يا (غيداء)؟ لم تقولي إنك تنتوين الخروج.. أضيفى لهذا أن الإرهاق باد عليك!
كنت مع (دون خوان).. قالتها فى سرها طبعًا.. كيف لو عرف! كان يصحبها دائمًا فى كل مرة تخرج فيها إلا فيما ندر.. كان هذا الجمال الصارخ يحرقه ويعذبه.. ربما لو كانت أقبح قليلًا..
قالت وهى تنزع حذاءها:
- صديقة لى كانت مريضة.. لم أستطع الانتظار حتى..
كان ينظر لها فى ثبات وأدركت أن ملامح وجهها ستخذلها.. جرس الباب أنقذها فهرعت فى خفة تفتحه.. لكن الأب استوقفها واتجه ليفتحه بنفسه.. لم يكن يطيق أن يرى أى شخص شيئًا منها حتى قدميها الحافيتين..

سمعت صوته يقول:
- (قاسم)؟ تعال.. أين رفاقك؟
وسمعت صوتًا خافتًا يقول:
- لم أكن معهم يا عمى.. فى الحقيقة جئت أطلب شيئًا..
بعد دقيقة عاد أبوها ليقول لها بلهجة عابرة وهو يستعيد جريدته:
- هذا (قاسم) ابن عمك.. يبدو أنه يريد تناول عشائه وأسطوانة البوتاجاز فارغة فى هذه الساعة.. عندنا أسطوانة احتياطية وقد جاء يستعيرها!
يستعير أنبوب البوتاجاز؟ هذا غريب..
إن بيت عمها يقع فى أول الشارع.. وهى لم تر عمها كثيرًا لكنها قابلت (قاسم).. وقد تحاشته لأنه يحمل فى عينيه ذات النظرة التي سئمتها.. إنه يهيم بها كالعادة..
دخل أبوها غرفته.. بينما جاء (قاسم).. كان ناحلًا رقيقًا يذكرها ب. (رامى) نوعًا.. لكن على سحنته تلك النظرة (السهتانة) المائتة الخائرة.. كما يقول الساخر الأعظم (بيرم التونسي) عن شاب مماثل: مستقتل وفى حاله وهادي. كده زى المعزة السهتانة
باختصار كان يحمل كل الصفات التى تنفرها منه.. ثمة شيء فيه يوحى بالأنوثة أكثر منه بالرجولة.. من الصعب أن تقبل فكرة الرجل الذائب فى الحب إلى هذا الحد..
لكنها قامت بالواجب:
- (قاسم) ابن عمى عندنا؟ يا مرحبًا يا مرحبًا..
قالتها ساخرة مقلدة (أسمهان) فى أوبريت (عبد الوهاب) الشهير. وفجأة فطنت للحقيقة! إنه هو! وشعرت برجفة.. إذن هى الآن (ليلى العامرية) وهو (قيس بن معاذ) أو (قيس بن الملوح) عاشق العرب رقم واحد!
صاحت منادية الطاهية:
- عف.. أ.. سنية.. أحضرى أسطوانة البوتاجاز الفارغة لابن عمى..
لو كان هو فإن كل حججه ملفقة.. حجة طلب أسطوانة البوتاجاز تبدو سخيفة بما يكفى.. وجلس الفتى دون أن يرفع عينيه عنها.. يده تمتد لاشعوريًا إلى مطفأة التبغ.. كانت هناك لفافة تبغ لم يحسن أبوها قتلها.. فوجئت بالفتى يضع يده على اللفافة فشمت رائحة اللحم المحترق..
صرخت:
- ويح (ق.. أ.. ويح (قاسم).. لقد احترقت راحتاه!!
قال بصوت ناعم:
- (غيداء)!
- خذ الحذر..
قال لها وهو يبعد يديه:
- يبدو عليك الإرهاق.. لا أعرف السبب لكن..
- سأكون شاكرة لو لم تذكر هذه العبارة ثانية!
- لقد قمت بكتابة بعض الشعر.. أهديه لك..
ثم مد يده فى صدر قميصه ليخرج ألعن رزمة ورق رأتها فى حياتها.. فى حجم كتاب (رأس المال) بالنسبة لخريجي الاقتصاد والعلوم السياسية، أو تشريح (جراى) بالنسبة لخريجي الطب، أو كتاب (الوجود والعدم) بالنسبة لدارسي الفلسفة.. تبًا! إنه يريد قراءتها الآن!
قال وهو يسبل عينيه:

حبيب نأى عنى الزمان بقربه
فصيرنى فردًا بغير حبيبِ
فلى قلب محزون وعقل مدله
ووحشة مهجور وذل غريبِ
فيا عقب الأيام هل فيك مطمعٌ
لرد حبيب او لدفع كروبِ
هزت رأسها مجاملة بمعنى أن هذا رائع.. فواصل الإنشاد:
تذكرت (غيدا) والأيام الخواليا
وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
فقال بصير القوم وألمحت كوكبا
بدا فى سواد الليل فردًا يمانيا
فقلت له بل نار (غيدا) توقدت
بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا
بدت لها القصيدة مألوفة وإن لاحظت أن اسم (ليلى) قد تم استبداله ليكون (غيدا).. وإن سبب الأخير بعض الكسر فى الوزن.. المشكلة هى أنها لا تعرف كيف تخرسه.. لو كان معها إصبع ديناميت فلربما....
- الأسطوانة يا ستي!
كان هذا هو الغوث المطلوب، فهرعت تفتح له الباب فى حماس.. هكذا حمل الأسطوانة عن (سنية) على كتفه الهزيلة وهو يلهث.. المشكلة أنه لن يصنع بها شيئًا.. لكم جاء بأسباب ملفقة وعليه أن يدفع الثمن..
هنا جاءته النجدة فى صورة (عنتر) البواب الذى قابله على الباب فتناول منه الأسطوانة ليحملها بيد واحدة كأنه يحمل جريدة..
- عنك يا أخي..
أغلقت الباب سعيدة بانتهاء هذا السيرك لولا أن سمعت خلف الباب (قاسم).. أنت تعرف أن بعض ترددات الهمس تكون عالية جدًّا حتى تقترب من الصراخ:
- أنا لست أخاك فكف عن هذا..
البواب يقول فى ثقة:
- بل أنت أخي وأبوك أبى.. كف أنت عن إنكار الشمس..
هنا انتصب شعر رأسها.. (عنترة بن شداد) قضى حياته يكافح كى يثبت نسبه لأبيه (شداد) الذى أنجبه من جارية سوداء.. كان العبد يُنسب لأمه وقصة (عنترة) هى كفاح مضن من أجل الحرية قل مثيلها فى الأدب العالمي.. كفاح مضن حتى يصير قادرًا على طلب يد (عبلة) التى شبب بها..
نفس الشيء يتكرر هنا (عنتر) البواب يصر على أن أبا (قاسم) - عمها - هو أبوه.. ومعنى هذا أن يصير (عنتر) ابن عمها.. ولكن كيف؟
المحادثة تستمر:
- أكرر للمرة الألف.. أبوك تزوج أمي سرًّا ولكن على سنة الله ورسوله.. أحبها ولم يستطع أن يواجه كبار أسرة (الفرجانى) بحقيقة أنه أحب خادمته.. تزوجها وأنجباني.. (منصور) بك لم يرد أن يترك من كانت زوجة أخيه وابنها فى الشارع.. منحهما المأوى على أن وضعنا ظل وضع البواب وأمه.. لكنى سأكافح كى أبرهن للعالم عن الحقيقة.. (منصور) بك هو عمى وليس

مخدومى..
- اخرس يا أحمق.. لا أريد أن تكرر هذه الترهات..
- لو لم تكن أخي لحطمت رأسك هنا والآن.. (عنتر) فتح رءوسًا كثيرة لكلمات أقل من هذه بكثير، لكنك أخي ولك أن تنعم بهذه المزية
الصوتان يبتعدان..
هي الآن تفهم حرص (عنتر) على إثبات نسبه.. أن تكون هى ابنة عمه لأمر يختلف عن أن تكون ابنة مخدومه.. هذا يقربه منها خطوة بل خطوات..
لكن محاولته بلا جدوى.. أبوها سيرفض بتاتًا أن تتزوج البواب حتى لو كان ابن أخيه. أبوها يعرف السر لكنه لم يلمح به.. لم يسمح لـ (عنتر) يومًا بأن يناديه (عماه).. لم يلمح لها بالقصة قط.. لقد اتخذ قراره منذ زمن.. ربما و(عنتر) بعد جنين فى بطن أمه..
الآن تفهم سر العلاقة الغريبة بين أبيها و (عنتر).. علاقة ندين.. علاقة عم وابن أخيه.. نعم.. هى كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذن ابن عمها هو (قيس) وهو فى الوقت ذاته أخو (عنترة) غير الشقيق.. بينما يتسلل (روميو) كل ليلة تحت شرفتها وينصب لها (دون خوان) أحابيله!
ترى هل تلقي (جميل بثينة) و(كثير عزة)؟ لا تعتقد هذا.. إنهما تكرار لـ (قيس) بشكل أو بآخر.. لن يظهرا لذات الأسباب التى منعت (كازانوفا) من الظهور.. إن واحدًا من كل نوع يكفى، والجزء يدل على الكل..
إن هذا هو الملل بعينه.. لا شك فى هذا..
ثم ماذا بعد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- هو بالذات؟

- (قاسم) ابن عمك مدله بك..
قالها أبوها وهو يضيف بعض الخضر للأرز على مائدة الغداء..
همهمت بمعنى أنها تعرف.. ماذا يريد من هذا؟ إن بعض الآباء يعتبرون كون الفتاة لابن عمها مسألة بديهية.. فهل يفكر فى هذا؟
أردف الأب مفكرًا:
- إنه ثرثار أكثر من اللازم.. لا أكره شيئًا فى حياتي قدر العاشق (الخفيف)
- خفيف؟
- نعم.. غير ثابت الجنان.. لا يطيق أن يحب من دون أن يملأ الدنيا صراخًا... هذا يشعرني بأنه شخص غير متأكد من حبه لهذا يبنى له كيانًا وهميًا من الكلمات وثرثرة الناس.. انظرى..
ولوح بمجلة شبابية شهيرة كانت على المائدة وقال:
- فى نفس المجلة مشكلة فى باب (مشاكلك العاطفية) تحمل توقيع (ق. ف).. يحكى فيها عن حبه لابنة عمه (غ) رائعة الجمال لكنها لا تهتم به.. ثم هنا فى باب كتابات القراء..
وفتح صفحة أخرى من المجلة وقال:
- قصيدة للشاعر الشاب (قاسم الفرجانى).. يقول فيها: تذكرت (غيدا) والأيام الخواليا.. وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا.. إن المحرر نشرها وإن كان ينصحه بدراسة أوزان الشعر وقراءة الكثير منه لأنه ما زال فى أول السلم!
كادت (عبير) تنفجر ضحكًا.. المحرر يتلقى قصيدة من أهم قصائد (قيس بن الملوح) وإحدى درر الشعر العربي، لكنه لا يعرف ذلك فيطالب ناظمها بالمزيد من الدراسة! عندما تقدم (شارلي شابلن) متنكرًا للاشتراك فى مسابقة لتقليد (شابلن) كان ترتيبه الخامس! (زكي مبارك) أرسل فى شبابه قصيدة لمجلة (المقتطف) فرفضتها لأنها دون المستوى.. فلما صار (الدكاترة زكي مبارك) - كما كان يطلق على نفسه - أرسل ذات القصيدة بلا أدنى تعديل إلى نفس المجلة، فخرج العدد التالي منها وعلى غلافه (نحن ننفرد بنشر آخر قصيدة للدكاترة زكى مبارك.. درة جديدة فى عقد الشعر العربي)! هكذا الأمور دائمًا!
هنا ألقى الأب بالمجلة فى اشمئزاز وهتف:
- ما هذا الهراء؟ أيذكرك بالاسم؟ هذا الفتى يعانى حالة زكام عاطفى حاد.. أنفه يسيل بلا أمل فى أن يتوقف.. وهذا معناه شيء واحد: لن أسمح له بكتابة بيت شعر آخر عنك ولن أسمح له بأن يراك ثانية.. إن تقاليد أسرة (الفرجانى) تقضى بأن من يشبب بفتاة من فتياتها لا يتزوجها أبدًا وإلا ظن الناس بنا الظنون..
كانت تتوقع رد فعل كهذا.. وبدا لها عادلًا بلا شك..
نهض الأب وقال وهو يبتعد:
- بالمناسبة أرجو أن تنامى قليلًا.. لا أعرف لماذا يبدو عليك الإرهاق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما جاء المساء سمعت الصوت من تحت الشرفة..
اتجهت إلى هناك فرأته فى ضوء القمر.. (رامى) طبعًا.. ينظر لها مشرئبًا ثم يهتف:

- سيدتي.. أقسم بهذا القمر المبارك الذي يصبغ بذوب الفضة أعالي كل هذه الأشجار..
هتفت من شرفتها:
- لا تقسم بالقمر.. إن القمر لا يدوم على حال.. وهو في فلكه يغير دورته كل شهر.. فإني أخشى أن يكون حبك مثله متقلبًا..
- بم يجب أن أقسم؟
- لا تقسم مطلقًا.. فإن شئت فلتقسم بشخصك الجميل..
لم تكن تفهم نفسها.. إنها تبادله عبارات (شكسبير) فهل هي تحبه؟ أم هي تؤدي دورها المرسوم؟ لا تنكر أنه أفضل الموجودين بالنسبة لها.. (عنترة) مخيف برغم أنه ساحر. (قيس) لزج.. (دون خوان) وغد..
يقول لها الفتى:
- إن اسمى أيتها القديسة العزيزة بغيض على.. لأنه اسم عدو لك.. ولو قد رأيته مكتوبًا لمزقت صورته
- إن أذني لم تشربا بعد مائة كلمة ينطق بها لسانك.. لكنى على ذلك عرفت الصوت.. ألست (رامى)؟ ألست (رامى عبد المنصف)؟
- لا هذا ولا ذاك إذا كان كلاهما يؤذيك..
هنا سمعت صيحة حازمة من ورائها ارتجفت لها ساقاها..
كان أبوها يقف في مدخل الشرفة عكس الضوء.. وساعد هذا مع غضبته على جعله يبدو أسطوريًّا.. كأنه من عالم آخر يجول فيه الأباء الغاضبون في الظلام ليذبحوا الفتيات..
- أبي!
وركضت إلى الداخل.. أما هو فخرج إلى الشرفة يبحث عن الفتى الذي رأي لمحة منه قبل أن يتلاشى.. أطل بجذعه من أعلى وصرخ:
- (عنتر)! (عنتاااااااااااااار)!
جبل أسود في ثيابه الريفية الداخلية.. بالفانلة والكلسون يركض وسط أشجار الحديقة.. هذا هو (عنتر) وعيناه تلمعان في الظلام..
- (عنتر)! واحد من أسرة (عبد المنصف) هنا في الحديقة!!
عينا (عنتر) تتسعان أكثر ثم يهرع إلى الفأس فيحملها وينطلق لا يلوى على شيء..
يعود الأب إلى ابنته الباكية.. للمرة الأولى في حياتها يفتح كفه ويهوى على خدها.. صفعة ثم صفعة ثانية:
- الأولى لأنك تسمحين لفتى رقيع بأن ينشد الشعر تحت شرفتك.. الثانية لأنك لم تختاري بين البشر جميعًا إلا ابن (عبد المنصف).. عدوى اللدود!
تكومت على نفسها وراحت تبكى..
وسط شهقاتها تسمع (عنتر) ينادي من تحت الشرفة:
- لا بد أنه هرب يا بك.. لم أجد إلا هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- المخادع..

برغمها هرعت تهبط الدرج مع أبيها.. لم يستطع فضولها تحمل فكرة أن هناك شخصًا آخر فى الحديقة غير (رامى).. من هو؟ لص؟ فى هذا الوقت بالذات؟
ثمة احتمال آخر مخيف.. إن (رامى) ليس بالنقاء الذى تحسبه، وقد اصطحب معه صديقًا ليريه مدى براعته فى خداع الفتيات..
كانت دامعة العينين ملتهبة الخدين دامية الكرامة، لكنها مصرة على فهم ما يحدث..
هناك كان الفتى يقف وقد ربطه (عنتر) بحبل غليظ.. كان قويًا بادى الكبرياء ممشوق القامة.. وكانت ثيابه أنيقة مهندمة.. ومن الغريب أن ثياب (عنتر) كانت ممزقة.. ثيابه التى كانت داخلية أصلًا صارت خارجية..
قال الأب:
- لقد آذاك هذا الوغد يا (عنتر)..
قال (عنتر) وقد تخلى عن نغمة التفاخر الدائمة:
- أعترف بأنه قوى.. لم ألق رجالًا فى قوته إلا فيما ندر.. إن زميله صغير الحجم كالفئران، وكالفئران استطاع أن يتسلق السور ويفر.. أما هذا فقد وثبت عليه وهو يركض بين الأشجار وتبادلنا الصراع، لكنه بحاجة إلى مزيد من الطعام كى يهزم (عنتر)..
دنت (عبير) أكثر من الفتى المقيد.. الأسد المقيد كما بدا لها فبدا منظره غريبًا.. لم تر أنفًا بهذا الحجم فى حياتها.. وكما يقول (ابن الرومي) الشهير بدقته وسخريته اللاذعة:
حملت أنفًا يراه الناس كلهم
من ألف ميل عيانًا لا بمقياس
إن شئت كسبًا به صادفت مكتسبًا
أو انتصارًا مضى كالسيف والفأس
هذا الأنف كان يبعد عينيك عن أية تفاصيل أخرى فى الوجه.. كأنك تحاول الاقتراب من رجل يصوب سيفًا نحوك.. لا توجد طريقة آمنة للاقتراب منه من دون أن ينغرس السيف فى بطنك..
قال الأب:
- هل أنت من أسرة (عبد المنصف) أم مجرد لص؟
قال الفتى المقيد:
- لا هذا ولا ذاك.. لكني أنصحك باستدعاء الشرطة يا سيدى.. فأنا لن أتكلم..
لكزه (عنتر) بعنف وقال:
- تكلم..
قال الأب فى عصبية:
- أتكتفى بلكمه؟ لم لا تصفعه على قذاله؟
قال (عنتر) بلهجة قاطعة:
- لا يا بك.. لقد كان شجاعًا وأنا لن أهينه وهو مقيد.. ربما يفضل أن نقتله على أن نهينه.. أنا أعرف هذا الطراز..
قال الفتى المقيد بذات الكبرياء:
- أشكرك على هذا الكرم.. لكنى لن أتكلم.. أكرر هذا..

فكر الأب قليلًا:
- يفضل أن نقتله على أن نهينه.. هذا مهم..
ثم مد يده ل. (عنتر) طالبًا مطواته.. طبعًا هناك مطواة فى جيب (عنتر) وأمام عينى (عبير) و(عنتر) المندهشتين فتح الأب النصل ثم راح يمزق ثياب الفتى.. يمزقها حتى صار عاريًا إلا مما يستر العورة..
قال الأب:
- لو لم تتكلم فسوف يأخذك رجال الشرطة.. لكنهم سيأخذونك بهذا الشكل ولسوف (يزفك) الصبية فى الشوارع.. ربما وضعنا فوق رأسك بعضًا من أوحال الحديقة..
راح الفتى يتملص..
- أنت لن تفعل هذا.. أنا شاعر وأديب محترم..
لكن (عبير) كانت تعرف أن أباها سيفعل ذلك.. يستطيع أن يكون قاسيًا إذا أراد..
قال الأب:
- يمكنك أن ترحم نفسك وتقول من أنت..
صمت الفتى قليلًا وبدا كأنما هو متضايق من أنفه الضخم الذى لا يتركه لحظة.. ثم قال:
- اسمى (سمير).. أنا صديق (رامى).. بما أننى شاعر موهوب فقد كان يستعين بى لأؤلف له ما يقوله للآنسة!
هتف الأب فى دهشة:
- هذا أغرب شيء سمعته فى حياتي.. هل تعنى أنك كنت تمليه ما يقول كما يحدث فى الأفلام العربية الكوميدية؟
- بالضبط يا سيدى.. كنت أقف تحت شجرة قريبة وأهمس بالشعر وهو كان يردده بصوت عال..
أما (عبير) / (غيداء) فكانت ترتجف.. وتتذكر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحفل: ذلك الرجل ضخم الجثة.. ذلك الفتى كبير الأنف.. ذلك ال. ....
دخلت الشرفة المظلمة فمشى وراءها.. ووقف على الباب بحيث سد عليها سبيل العودة للداخل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا لم يدخل (رامى) الشرفة وراءها؟ لأنه كان يقف على الباب بينما صاحبه يقف جوار باب الشرفة ويمليه ما يجب أن يقول.. يمكنها أن تتصور المشهد.. تعال يا صاحبى.. أنا معجب بهذه الحسناء التي دخلت الشرفة.. هلا قلت لى كلمتين أخاطبها بهما؟
عندما كان (رامى) يقف تحت شرفتها كان (سمير) يقف بين الأشجار المظلمة ويهمس بذلك الشعر الذي خلب لبها..
(رامى) لم يكن هو صاحب هذه الأشعار الرقيقة.. ربما أحبها حقًا لكنه كذوب مخادع.. صفتان فى الرجل لا علاج لهما هما الكذب والبخل.. لكن (روميو) كان صادقًا.. هذا مؤكد..
أمر الأب (عنتر) بفك قيود الفتى وقال له:
- سأطلق سراحك لأنك لا تبدو لى متورطًا فى هذه الأمور.. مجاملة قادتك إلى كارثة.. لكن دعنى

أؤكد لك إنني لو رأيتك أو صاحبك هنا فلسوف تكون هذه الحديقة قبر من أراه..
هز الفتى رأسه ولم يبد متعجلًا للانصراف.. فقط هز رأسه..
قال الأب:
- أريد عنوانك ورقم هاتفك.. لربما طلبتك للشهادة يومًا ما.
فى تعاسة أملى الفتى بياناته على الأب الذى دونها فى ورقة ثم سمح للفتى بالرحيل.. وهكذا اتجه لباب الحديقة ومعه (عنتر)..
قال الأب فى غيظ:
- ذباب! أنا أكرههم جميعًا! لو أنك كنت أقبح قليلًا لكانت حياتنا أفضل!
تذكرت (عبير) طفولتها.. عند بائع الأرانب انتقت تلك الأرنبة البيضاء الجميلة صغيرة الحجم ودفعت أمها الثمن وعادت بها للدار.. ظلت تلعب بها ومعها أيامًا.. وما أشد سادية الأطفال! إنهم يعتبرون الحيوانات دمى صغيرة لا تشعر.. حتى جاء اليوم الذى ارتمت فيه (عبير) على الفراش بقوة، ولم تدر أن الأرنبة تختبئ تحت الغطاء! هكذا تحولت الأرنبة الحسناء إلى عجين..
قالت أمها وهى تتخلص من الجثة:
- لو كانت أقل جمالًا لعاشت أطول، ولما لاقت كل هذا العذاب!
هذا ينطبق على كل شيء عرفته.. الوردة الأجمل تُقطف.. الأرنبة الأجمل تقتنى للعب.. الفتاة الأجمل لا تسلم من المضايقات.. أحيانًا ما يجلب الجمال الوبال على صاحبه..
فى غرفتها أغلقت (عبير) الباب..
كانت ساعتان قد مرتا على رحيل ذلك الشاب (سمير)..
لهذا قدرت أنه فى داره الآن.. مدت يدها إلى الهاتف وطلبت الرقم الذى لم تنسه بعد برغم أنه قاله همسًا وهو يلهث فى الحديقة..
رنين متواصل.. لم يعد بعد..
فجأة جاء صوته المميز يقول:
- من؟
ظلت صامتة حينًا ثم قالت:
- أنا..
لم يسأل أسئلة أكثر.. فقط قال:
- لم أتعرف الصوت أولًا.. ثمة إرهاق واضح فى صوتك! لكن هل تذكرت الرقم بهذه السهولة؟
- أنا لم أتصل بك إلا لأعرف قصتك. لماذا قبلت هذا الدور؟
ظل صامتًا.. ثم قال فى تعب:
- صديق طلب منى أداء هذا الدور وقد قمت به جيدًا..
- قمت به جيدًا أكثر من اللازم..
كانت تعرف أساليب الغزل الصناعي عند العرب.. حتى لو كتب الشاعر قصيدة عن حرب (داحس والغبراء) فلابد أن يبدأها بوصف الأطلال والحبيبة.. لكنها استطاعت أن ترى فى كلام هذا الفتى صدقًا يحرق.. ثم إنه وليد الموقف. أى أنه لم يسهر الليل ينظمه مع كوب من الشاي الأسود..
قالت له بذكاء الأنثى:
- هذا الكلام صادق.. أليس كذلك؟
قال فى حسرة:

- صادق أو كاذب. لقد انتهى الأمر..
- لماذا فعلت ذلك؟ لا تقل لى إنها خدمة لصديق..
فى النهاية تكلم.. كان يحبها منذ زمن بحرارة.. يحبها بصدق. لكنه لم يتصور أن تحبه ولم يتصور لمن يحمل أنفه العملاق أن يقع فى الحب.. هكذا ظل يدارى أسراره حتى كان ذلك الحفل.. لقد همس له (رامى) وهو يراها تدخل الشرفة:
- (سمير).. هذه الفتاة تسحرني لكنى عاجز عن قول (كلمتان) لا تشبهان روث الماشية.. هلا ساعدتني قليلًا؟ أنا أعرف أنك (شاعرًا مفلقًا) والكلمات عندك توزن بالطن لا بالجرام!
الكلمات بين قوسين مليئة بالأخطاء النحوية؟ ومن قال العكس؟.. تذكر أن (رامى) هو الذى يتكلم..
شرح له (رامى) أن كل ما عليه هو أن يقف جوار باب الشرفة ويصغى للمحادثة، ويهمس بكلمات مناسبة لكل موقف.. كان الكل مشغولًا باستعراض سحره لهذا لم يلحظ أحد وقفة الشاعر ذي الأنف الكبير جوار باب الشرفة متصلبًا.. يضع كفه على فمه ويهمس:
- إن تنتهك يدى الحقيرة تأثمًا هذا الحرم المقدس.. فإن شفتي هاتين جديرتان بأن تطهراه من مسها الخشن بقبلة يملؤها الحنان..
لقد دبت الحرارة فى كلماته لأنه تخيل أنه يخاطبها فعلًا.. هكذا راح يرتجف وعيناه تدمعان.. أغمض عينيه وراح يتكلم بلا توقف..
خرجت الحسناء بعد قليل وبعدها خرج (رامى) ليرفع إبهامه للشاعر بحركة معناها (إنت كده).. تلك الحركة التى كان الإمبراطور الروماني يسمح بها للمصارع الشجاع بالحياة.. ثم إن (رامى) فرك كفيه وقال لشاعرنا الحزين:
- اسمع.. سوف أزورها فى حديقة دارها.. أريد منك أن تساعدني.. تقف وسط الأشجار بينما أقف أنا تحت شرفتها.. طبعًا أنا لا أستطيع قول أى شيء لهذا سوف تساعدني..
لماذا وافق؟ ليس الأمر مجرد التزام نحو صديق.. الحقيقة أنه كان راغبًا فى ذلك.. لذا وافق على هذه المخاطرة..
قال له (رامي):
- ليست لديهم كلاب. لكن هناك مشكلة خطيرة.. أولًا أسرتي هى الخصم الطبيعي لأسرتهم.. ثانيًا لديهم بواب هو ألعن من أى كلب وأسد وتنين معًا.. لكنى أعرف أنه يخرج ليلًا لشراء العشاء لأمه.. هذه هى فرصتنا..
وبدأت المغامرة..
فى كل مرة كان الشاعر يقف تحت الأشجار وينشد الشعر الذى كان سيقوله لتلك الحسناء لو كان أنفه أصغر.. لو كان أقل قبحًا.. لكن الحظ كان عاثرًا فى تلك الليلة.. لقد نادى الأب البواب المرعب، وعلى الفور فر (رامى) مبرهنًا على أنه وإن لم يقرض الشعر فإنه جدير بأن يكون بطل مصر فى العدو..
هنا انتهى اعتراف (سمير) وصمت..
قالت (عبير):
- إذن أنت و(رامى) كنتما تصنعان واحدًا كبيرًا مكتملًا.. ملاحة (رامى) مع حسن بيانك..
- نعم.. ولحسن الحظ أننا لم نجرب ملاحتي مع حسن بيانه..
- تصبح على خير..
- تصبحين على خير.. حاولى أن تنامى فالإرهاق واضح فى صوتك!

ووضعت السماعة..
لم تكن فى حاجة لتذكر اسم هذا العاشق..
حتى برغم ذاكرتها الجوفاء فإنها لا تنسى هذه القصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- لن أعود..

(سيرانو دي برجيراك Cyrano de Bergerac) الفارس القبيح النبيل العاشق..
إن (سيرانو) شخصية حقيقية، لكن المسرحية الرائعة التى كتبها عنه الفرنسي (إدمون روستان Rostand) هى التى جعلته أسطورة.. هذا نموذج للأدب الرومانسي الفرنسي كما يمكن أن يتعلمه الدارسون.. إنه الشاعر الموهوب الذى يحب (روكسان Roxane) لكنه لا يجرؤ على مصارحتها.. وبدلًا من هذا يتطوع بتأليف قصائد الحب عنها لصديقه (كريستيان Christian) الذى يحبها بدوره.. طبعًا هى قصائد رائعة إلى درجة أنها توقع (روكسان) فى غرام (كريستيان).. ويتعذب (سيرانو) أكثر.. ويكتب شعرًا أفضل.. إنها غريزة التفاني وتعذيب الذات.. كما كان المحكوم عليه بالإعدام يدفع بقشيشًا للجلاد فى إنجلترا قديمًا..
(سيرانو) الأديب غريب الأطوار، الذي اشتهر بقبحه وضخامة أنفه، وبرغم هذا كان فارسًا وجنديًا شجاعًا ومبارزًا لا يهزم أبدًا.. وهو فى هذا يحمل بعض بصمات شعراء الصعاليك العرب من أمثال (تأبط شرًا) و(عروة ابن الورد).. يقال إن براعته فى المبارزة هى نتيجة لكثرة الساخرين من أنفه..
فى القرن السابع عشر، كان مفكرًا حرًا وقد كتب البذور الأولى لأدب الخيال العلمى عندما وصف رحلات خيالية إلى القمر والشمس.. يقول (آرثر كلارك): يجب أن ننسب لهذا الرجل أنه أول من فكر فى الصاروخ والمحرك النفاث.. هناك يهبط على القمر حيث يخضع لمحاكمة تجريها الطيور، وتهديه روح (سقراط) الذى يقول له: أنتم معشر البشر تحسبون أن كل ما لا تفهمونه روحانى غامض أو لا وجود له....
يقال إن كتابات (سيرانو) هى التى ألهمت (سويفت Swift) كتابة رحلات جليفر.. وألهمت (فولتير) كتابة (ميكروميجاس)..
وفي النهاية مات الرجل ميتة مهينة بعض الشيء إذ سقط لوح خشب على رأسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذن هذه هى القصة.. (روميو) يحبها لكنه كذاب.. يستعمل الأشعار التى كتبها (سيرانو دى برجيراك) ويخشى الوقوع فى قبضة (عنترة بن شداد).. بينما هذا الأخير يحاول إثبات أنه أخو (قيس)! كل هذا على خلفية من ألاعيب (دون خوان)!
كانت فى فراشها تقرأ على ضوء الأباجورة الخافت عندما سمعت المشادة فى الطابق السفلى.. نهضت على أطراف أناملها وألصقت أذنها بالباب.. إن تحركاتها صارت محددة جدًا بعد موضوع (رامى) هذا لهذا تكره أن تخرج من غرفتها..
كان الأب يصيح:
- ما كان لك أن تطلب هذا الطلب.. إنها وقاحة!
صوت (عنتر) يتعالى:
- لم أطلب إلا الحلال يا (منصور) بك..
إذن الأمر يتعلق بها.. سوف تندهش لو مر ربع ساعة فى هذا البيت من دون مشادة بسببها..
(عنتر) يواصل الكلام:
- أنا أخلص من خدمك.. ثم إننى ابن أخيك.. لو فكرت فى الأمر لوجدت أننى لا أطلب شيئًا لا

يحق لى.. أنت تعرف أننى قادر على حمايتها..
هتف الأب بلهجة من لا يقدر على سماع المزيد:
- كفى.. كفى.. لا أريد سماع حرف عن كونك ابن أخي.. لقد عطفت عليك أنت وأمك..
- لو سمحت يا بك لا تذكر أمى
- لكن عندما يتعلق الأمر بمصير ابنتي فأنا أعتذر بشدة.. لن تتزوج ابنتي بوابًا أسود يتسلى بقتل الذئاب التى تحوم ليلًا حول البيت..
غضبة (عنتر) هائلة بحق:
لئن يعيبوا سوادي فهو لى نسبٌ
يوم النزال إذا ما فاتني النسب
إن كنت تعلم يا نُعمان أنّ يدى
قصيرةٌ عنك فالأيامُ تنقلب
إن الأفاعي وإن لانت ملامسها
عند التقلب فى أنيابها العطب
الأب يسأله:
- عم تتكلم؟.. كلمني بالعربية!
- أنا بالفعل أتكلم العربية يا (منصور) بك.. أتكلم أفضل صورة لها.. أقول إن سوادي هو دلالة نسبى.. هذه القصيدة كتبتها لتهديد (النعمان) لكنها مناسبة.. والآن يا (منصور) بك أو يا عمى.. ما دمت تعتبر انتسابى للأسرة عارًا فأنا راحل.. سآخذ أمي معي وأرحل..
- إلى أين يا أحمق؟
- بلاد الله واسعة.. لكنى لن أبقى هنا دقيقة أخرى..
- مجنون..
لكن بدا من الصوت أن (عنتر) غادر المكان فعلًا..
شعرت بالدمع يحتشد فى عينيها.. إنه مخلص نبيل.. روح من أرقى الأصناف لكنها للأسف اتخذت سكناها فى جسد بواب لا يمكن أن يقبله أبوها عريسًا لها.. لا يوجد حل لهذه المعضلة.. ثم إنها تخافه فعلًا.. تثق فيه لكنها تخاف نظراته النارية وقوته الكاسحة..
لقد خسر أبوها حليفًا قويًّا..
سمعت صوت خطوات أبيها فهرعت تندس فى الفراش..
فتح الباب فرآها متيقظة.. جاء يجلس عند قدميها وفى عينيه نظرة ساهمة محزونة.. إن ما فقده ليس بالتافه..
قال لها ساهمًا:
- هناك من يدعى العقيد (عطا الله الأشمونى).. ضابط جيش كريم النفس شهد الناس له بالصدق والشجاعة.. إنه فى الأربعين من عمره ولم يتزوج بعد.. وقد فاتحني بصدد الزواج منك!
نظرت له فى صمت فقال:
- وقد وافقت!
هتفت غير مصدقة:
- لكنى لا أعرف عنه أى شيء.. كيف يا أبى؟
قال بثقة وبلهجة قاطعة:
- أنا أعرف عنه كل شيء وقد وجدت فى نفسى راحة لدى التعامل معه.. ثقى بى سوف ترينه غدًا

ولسوف تعرفين أنه إنسان نبيل فعلًا..
(لقد حان الوقت أيتها المصيبة).. هذا هو الجو العام للمشهد.. لقد تعب أبوها من مسئوليتها ومن شلال المعجبين.. يريد أن تتزوج ليلقى الحمل عن كتفه إلى كتفي رجل آخر..
قالت محتجة فى وهن:
- سنه متقدمة.. لا تنس أننى فى العشرين..
- أعرف هذا.. لكن المثل الشعبى يقول (خدى شايب يدلعك.. ولا تاخدى عيل يلوعك).. هذا الرجل يعرف كيف يحب وكيف يحمى من يحب.. إنه صورة أخرى لأبيك..
قالت له فى رهبة:
- وكيف.. كيف يبدو؟
ابتسم.. واهتز صدره من ضحكة مكتومة وقال:
- مصادفة غريبة.. إنه أسود البشرة ضخم الجثة.. باختصار هو صورة متحضرة من ذلك الأخ (عنتر)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- هجوم فى الظلام..

لم يكن (عطا الله) من الطراز الذى يلتهم الأطفال ويترنح فى الطرقات ممسكًا بزجاجة خمر.. كما أنه لم يكن يبصق على الأرض وبالتأكيد ليس من عبدة الشيطان.. باختصار لم تجد فيه عيبًا واضحًا يمنعها من الزواج به..

حينما قابلته وجدت أنه بالفعل صورة من (عنتر).. إنه رجل عسكري فى الأربعين.. أنيق.. واضح تمامًا أن معلوماته عن النساء لا تزيد على معلوماتها عن الرجال..

- أنا رجل بسيط قضيت عمرى وسط الرجال و(صفا وانتباه) والضبط والربط.. لست أفضل عريس لفتاة مثلك لكنى أستطيع أن أكونه لو ساعدتينى..

كانت مطالبها بسيطة: فترة انتظار تقرر فيها.. لن ترفضه بقلب مستريح ولن تقبله بسلاسة.. لهذا لم يخبر الأب أحدًا بمشاريعه تفاديًا لإلحاح طالبي يدها.. فقط أخبر أقاربه..

أخبر أقاربه؟

فى هذا العالم المتداخل يغدو قرار كهذا كارثة، لأن الخبر بلغ مسمع ابن عمها المجنون أصلًا (قاسم).. كيف يكون وقعه على مجنون؟ للأسف لم يشفه هذا على طريقة (نفى النفي إثبات) بل زاده جنونًا..

وسمعت أخبارًا عجيبة عن خروجه من دار أبيه.. عن مشيه فى الشوارع بلا هدف.. عن أبيات الشعر التى لا يكف عن تأليفها.. عن لحيته النامية وثيابه الممزقة..

آلمها هذا.. والأسوأ أنه زاد من تدهور سمعتها لأن الناس أطلقوا عليه (مجنون غيداء)..

يحكون أنه يمشى فى الأزقة ويقول بصوت عال:

بكى فرحا بغيدا إذ رآها

محب لا يرى أحدا سواها

لقد ظفرت يداه وطاب عيشا

لئن كانت تراه كما يراها

لا بد أنه استبدل (غيدا) ب. (ليلى) فى الأبيات كما هى العادة.. من حسن حظه أن اسمها ليس (نجلاء) أو (مهيتاب) وإلا سبب له هذا كارثة لأنه سيضطره إلى إعادة صياغة الأبيات بالكامل..

وقال لها الأب عندما سمع بما حدث:

- أرى أن الزواج صار ضروريًا.. يجب أن نعجل به..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الليل سمعت الأصوات..

خرجت إلى الشرفة عالمة أن هذا ليس (رامى).. لن يجرؤ على المجيء.. ولو جرؤ فلن تحدث قدماه صوتًا كأنه ألف رجل.. رأت هذه الأشباح تثب من فوق السور..

كان أول ما رأته هو هذا البريق..

دققت النظر فأدركت أن سيارة أبيها الواقفة فى الحديقة تشتعل.. الدخان يتصاعد منها..

صرخت ونزلت فى الدرج مسرعة.. كان أبوها هناك وقد سمع الضوضاء بدوره وكان يحشو مسدسه.. لم تر هذا المسدس فى حياتها إلا مرة واحدة..

هتفت فى جزع:

- إنهم يحرقون ال..
قال وهو لا ينظر لها:
- نعم.. رأيت.. إنهم رجال (عبد المنصف).. لكنى سأدافع عن بيتي حتى النفس الأخير..
ثم أشار لها إلى الهاتف وقال:
- اطلبى الشرطة ريثما أرد عليهم..
مدت يدها المذعورة إلى الهاتف لكنها أسقطت السماعة عندما أدركت أنها قطعة من البلاستيك البارد.. الميت..
قال لها دون أن ينظر للخلف:
- قطعوا خطوط الهاتف.. هه؟
لم تكن هناك جدوى من المحمول لأنه لا وجود له فى هذا العالم الرومانسي.. وقال الأب وهو يهرع إلى إحدى النوافذ:
- غادري البيت من الباب الخلفي.. عبر المطبخ.. هناك مرآب سيارات فى نهاية الشارع على اليسار.. هناك تجدين (عنتر).. إنه يعمل (سايس جراج) ويقيم فى غرفة من قرميد مع أمه العجوز.. اطلبى منه أن يهرع لينجد عمه..
- وعمى؟ إن بيته قريب..
- أولاده صغار السن.. كان (قاسم) يستطيع مساعدتنا لو لم يجن..
هنا انطلقت قطعة من القرميد تهشم النافذة التى وقف خلفها.. كادت تهشم نظارته لولا أن تنحى جانبًا..
دس الفوهة فى فتحة الزجاج وأطلق طلقة ارتج لها البيت..
وهتف بينما الصدى يصم أذنيها:
- هلمى!!!
هرعت إلى المطبخ.. بينما صراخ الطاهية يحطم أعصابها..
هى لا تهرب.. هى تلجأ للحل الوحيد الممكن لإنقاذ أبيها.. لو تأخرت لفتك به هؤلاء الرعاع.. وطبعًا لن يتركوا أى برهان على أنهم من أسرة (عبد المنصف)..
صراخ الطاهية.. تهشيم زجاج.. طلقة.. صوت ضربات.. قرميد يضرب الجدران.. تهشيم زجاج.. طلقة أخرى.. صراخ الطاهية.. قرميد يضرب الجدران.. طلقة.. صوت ضربات.. طلقة أخرى.. تهشيم زجاج.. قرميد يضرب الجدران.. صراخ الطاهية.. تهشيم زجاج.. طلقة.. صوت ضربات.. قرميد يضرب الجدران.. تهشيم زجاج.. طلقة أخرى..
تهرع عبر الشارع وتنظر للوراء إلى سور البيت..
ترى السنة اللهب تتعالى..
إنهم يحرقون البيت كى يغادره من فيه..
هذا هو المرآب.. تهرع وسط السيارات النائمة الباردة كوحوش غافية مبللة بالندى.. كلب شرس يعوى فى اتجاهها لكن لا وقت لديها كى تخاف..
تهرع والكلب وراءها نحو الغرفة.. تدق الباب فى إصرار:
- (عنتاار).. عنتاااار)!!
لا أحد يجيب.. والكلب قد تحول إلى مجنون..
عواء الكلب.. تهشيم زجاج.. طلقة.. عواء الكلب.. صوت ضربات.. يدها تضرب الباب.. تهشيم زجاج.. طلقة أخرى.. عواء الكلب.. صراخ الطاهية.. عواء الكلب.. صراخ الطاهية.. تهشيم

زجاج.. طلقة.. صوت ضربات.. يدها تضرب الباب.. تهشيم زجاج.. عواء الكلب.. طلقة أخرى..
فجأة تسمع صوتًا هادئًا من خلفها يقول:
- كف عن هذا يا (عباس)..
نظرت للوراء فوجدت أن (عنتر) يجلس خارج الغرفة.. منذ البداية كان هناك.. يجلس على الأرض ويخيط غطاء سيارة تمزق.. جواره كوب شاي يتصاعد منه البخار.. معلومة أخيرة: واضح أن (عباس) هو الكلب لأنه كف عن ذلك فعلًا..
قال دون أن ينظر لها:
- كلب عجوز يحب أن يتظاهر بالشجاعة.. لكن العرب قديمًا قالوا:
بغاث الطير أكثرها صياحًا.. ولم تصح البزاة ولا الصقور..
ضعاف الأسد أعلاها زئيرًا.. وأخطرها اللواتي لا تزير
قالت وهي تلهث وتبكى:
- (عنتر).. ألا تسمع كل هذا؟ آل (عبد المنصف) يدمرون بيتنا.. بيت عمك..
لم يرفع رأسه.. قال وهو مستمر فيما يقوم به:
- كنت أحتقر هذه الأعمال اليدوية.. أحسب يدى الرجل خلقتا للضرب والصراع.. لكنى اليوم عرفت أننى خلقت لهذه الأعمال.. إن يدى تستمتعان بالحياكة فعلًا.. بالمناسبة لم لا تشربين هذا الشاي؟ إن الإرهاق باد عليك!
- (عنتر).. إن لك لشأنًا آخر..
- أى شأن؟ إننى بواب.. وكما قال (عنترة) قديمًا العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلب والصر..
هو ذا (عنترة) يفصح عن وجهه الحقيقي.. لقد اعتادت على كل حال مشهد (البطل المقصوص) فى كل قصص الشعوب تقريبًا. (رستم).. (أخيل).. (عنترة).. يجلس بينما الأعداء يمزقون قومه.. يبدو أنها لحظة تمر بحياة كل بطل ملحمي: إنهم لا يعاملونني كما ينبغي.. إذن دعهم يذوقوا الأهوال من دونى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت فى عبيد عبس أحرس القطعان..
أجتز صوفها.. أرد نوقها..
أنام فى حظائر النسيان..
طعامي الكسرة والماء وبعض التمرات اليابسة..
وها أنا فى ساعة الطعان..
ساعة أن تخاذل الرماة والكماة والفرسان..
دعيت للميدان..
أنا الذى ما ذقت لحم الضان..
أنا الذى لا حول لى أو شان..
أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان..
أدعى إلى الموت ولم أدع إلى المجالسة!

أمل دنقل - البكاء بين يدى زرقاء اليمامة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- سوف يذبحون عمك يا (عنتر)!!
- ليتنى أستطيع عمل شيء.. لكنى كما قلت لك مجرد بواب..
نظرت له ولم تدر ما تقول..
وجدت على الأرض فأسه الذى لم يكن يتركه.. فحملته برغم ثقله واتجهت خارجة من المرآب..
هتف يناديها:
- ماذا تنوين عمله يا ابنة عم.. يا ست (غيداء)؟
لم تنظر إلى الوراء.. فقط قالت وهى تجد السير:
- سأحاول أن أدافع عن أبى.. هذا ما سأفعله..
ومضت تمشى فى الشارع بينما الأصوات تتعالى من بعيد..
صراخ الطاهية.. تهشيم زجاج.. طلقة.. صوت ضربات.. قرميد يضرب الجدران.. تهشيم زجاج.. طلقة أخرى.. صراخ الطاهية.. تهشيم زجاج.. طلقة.. صوت ضربات.. قرميد يضرب الجدران تهشيم زجاج.. طلقة أخيرة.. واضح أن المسدس فرغ مرتين فلن يحشى مرة ثالثة..
ثم صيحة (عنتر)!!
لقد جاءت اللحظة.. اللحظة التى لا يتحمل فيها البطل المزيد من السلبية.. مصرع صديق (أخيل).. غضبة (رستم).. صراخ الأب....
كان قادمًا من خلفها وهو يزأر كأنه جبل يهوى من عل.. لم تدر كيف ولا متى انتزع منها الفأس..
سبقها بقدميه الحافيتين إلى البيت.. البيت الذى صار لوحة سريالية لا يمكن وصفها أو تصديقها.. أشباح تجرى فى كل صوب.. نيران.. دخان..
وقبل أن تلحق به سمعتهم يعوون ألمًا..
على باب الحديقة وقفت لترى هذا العملاق الأسود يطوح بفأسه ذات اليمين وذات اليسار.. ولا يكف عن التقدم وسط صفوف الرجال.. الفأس يضرب هذا فى عنقه وذاك فى رأسه..
البعض حاول الهجوم عليه بالنبابيت لكن كيف تقترب من هذا الوحش الأسود المسعور؟ كان الفأس أقل مما تسمع به قدراته فمد يده يلتقط أحد هذه النبابيت.. وراح يضرب بالفأس والنبوت الذى يحمله فى يده اليسرى كأنه باقة أزهار.. أحيانًا يستعمل قدميه الكبيرتين..
كان يزحف فوق جثث ضحاياه نحو مدخل البيت وسمعته ينشد:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

لحقت به لترى مشهدًا لا يمكن وصفه إلا فى الكوابيس..
كان أحد هؤلاء يجثم فوق الأب - أبيها - وهو يوشك على أن يولج خنجره فى صدره.. لكن البائس لم يعش هذه اللحظة.. أعنى بالبائس حامل الخنجر طبعًا وليس الأب..
لأن (عنتر) دس يده تحت عنقه ولواه للخلف فدوى صوت (كريش ش)..
أسقط آخر ثم أمسك بجثته من ساقيها وراح يضرب بها الآخرين.. أحيانًا كان يمسك برأسين ليهشمهما معًا.. وهو لا يكف عن الإنشاد:

ولقد هممت بغارة فى ليلة

سوداء حالكة كلون الأدلم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر فى لبان الأدهم
ولقد شفى نفسي وأبرا سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

في النهاية صرخ أحد الرجال (هل بقى أحد؟):
- إن هذا الحيوان لا يهزم! فليفر من بقي حيًّا!
ثم سقط على الأرض فاقد الرشد..
من بقي حيًّا؟ للأسف لا يوجد أحد.. لقد أبادهم (عنترة) وحده.. فلماذا احتاج إلى بعض الرجال فى تلك الغزوة التى استرد بها القيراط المفقود؟ لا بد أن تفسير ذلك هو درجة إلحاح الخطر.. الخطر الملح يزيل الستار عن قوة لم يكن أحد يعرف أنها لديه..
كان (عنتر) الآن أشبه بتمثال من أبنوس مبتل.. وكان يلهث من منخريه العظيمين بلا انقطاع..
هنا التفتت (عبير) إلى الوراء لتجد (رامى) يقف على الباب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتف (رامى) فى جزع:
- أنتم بخير.. لقد جئت أحاول إقناعهم!
صرخت (عبير):
- **ابتعد يا (رامي)! ابتعد حالًا!**
لكنه كان أغبى من اللازم.. وقد هتف الأب وهو يحاول تثبيت عويناته المهشمة على أنفه:
- هذا الصبى.. إنه من أسرة (عبد المنصف).. الفتى الرقيع الذى كان يتسلل إلى الحديقة ليخاطب (غيداء)!
تراجع (رامى) إلى الوراء وهو يقول بلهجة من يعتبر الأمر مزاحًا:
- لا.. لقد جئت هنا كى أوقف مجزرة.. Calm down..
في اللحظة التالية كان (عنتر) قد وثب فوق الأريكة وهوى فوق الفتى كالجبل، ثم أدار رأسه فى الاتجاه العكسي كما كانت الشياطين تفعل بضحاياها فى القرون الوسطى..
- لاااااااا!!
هتفت (عبير) وهى تغمض عينيها وأذنيها.. ليتها تستطيع أن تغمض وعيها كذلك..
ليتها.. شعور الغثيان هذا..
إنها توشك على القيء..
ما كل هذا الظلام؟
إنها.........................

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الزواج

توتر الجزار وصبيه عندما دنا منهما ذلك الفتى النحيل.. يلبس الأسمال ولحيته نامية وعيناه غائرتان.. لو كانا يفهمان الطب لحسبا هذه حالة درن أو سرطان دم..
كانت الماعز مقيدة بالحبال والسكين على عنقها.. من الخطأ أنهما يفعلان هذا خارج السلخانة، لذا توترا لدى رؤية الغريب.. لكنه لا يبدو مثل مفتشى الصحة..
قال الرجل بصوت واهن:
- هلا توقفت من فضلك؟
توقف الجزار ونظر له فى شك، فقال (قاسم):
- هل تنويان ذبحها؟
- بل ننوى أن نلعب معها طاولة.. هأو!
لم يعلق الفتى ومد يده فى جيبه يعبث ببعض أوراق العملة ثم دسها فى يد الجزار وقال:
- لقد اشتريتها منك.. أرجو أن تفك وثاقها!
نظر له الجزار من جديد وسأله:
- هل هى - بلا قافية - من باقى أسرتك؟
- تقريبًا!
قالها الفتى وهو يرمق الجزار بنظرة مخيفة جعلته يتحسس سكينه.. حتى الجزارين يخافون المجانين.. لا يتعلق الأمر بالقوة الجسدية بل بعدم وجود رادع لديهم..
عد الجزار الأوراق المالية فى حنكة ثم أمر صبيه بفك وثاق الماعز.. واضح أن المبلغ لا بأس به برغم أنه لا يعرف كيف خرج من هذا السروال الممزق..
- هل تريد أن يوصلها لك الصبى لدارك؟ ستعطيه ما يكفى دخانه..
غمغم الفتى كالحلم:
- ليس لى بيت.. اتركاها حرة!
ونظر للماعز وغمغم:

ويا شبه غيدا لو تلبَّثت ساعة
لعل فؤادى من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتها من وثاقها
فأنت لغيدا لو علمت طليق

الحقيقة أن (قيس العامري) فى جنونه كان قد رأى رجلين يوشكان على ذبح ظبية، فهاله أن عينيها هما عينا (ليلى) بالضبط.. هكذا بادل بالظبية شاة كى لا يذبحها الرجلان.. وأنشد بيتي الشعر هذين..
مشى (قاسم) مبتعدًا.. فتبادل الجزار مع صبيه نظرة من طراز (هم بيطلعوا الساعة كام؟).. فما إن غاب الفتى فى الأفق حتى أصدر الجزار أمره للصبى:
- أمسك بالماعز!
ومن جديد خرج الحبل من جيب الصبى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حفل عائلى بهيج يقام الليلة حفل زفاف (غيداء منصور الفرجانى) إلى العقيد (عطا الله الأشمونى).. والعاقبة عندكم فى المسرات..
يقام الحفل فى إحدى القاعات الفاخرة بالمدينة.. وسوف يحضره عدد من أصدقاء العريسين.. هناك من سينظر للحفل من بعيد ويتنهد.. من هؤلاء شاعر مرهف اسمه (سمير) وسائس سيارات شاب أسمر اسمه (عنتر).. سوف يمرون من بعيد تحت جنح الظلام وينشد كل منهما شعرًا رائعًا.. هذا كل شيء..
لقد قضت (عبير) يومين فى المستشفى بعد إصابتها بانهيار عصبي لمقتل (رامى).. وقد جاء رجال الشرطة وعرفوا أن الضحايا كانوا هم الجناة.. لقد تم هذا دفاعًا عن النفس لكن أى دفاع! المعتدون فى حال يرثى لها بينما الضحايا الأصليون بخير حال!
خرجت (عبير) من المستشفى لتعرف أن أباها لم يعد يتحمل أكثر.. يجب أن تتزوج ليطمئن عليها، وراح يمارس بعض ألاعيب الآباء التى لا تفشل أبدًا.. يتحسس صدره ويظهر ضيق التنفس.. يبتلع المزيد من الأدوية.. ينام فى الصالة فى أوضاع توحى بأنه فعلها وصعد للرفيق الأعلى.. هكذا يجن جنونها وتوقظه فيصارحها بأن وقته صار ضيقًا.. ليس هناك من يعنى بها بعده.. إن أسرة (عبد المنصف) كبيرة لكنهم كذلك أكبر مجموعة من الأنذال الذين لا يوثق فيهم..
هكذا صار الزواج محتمًا..
الفتيات يستعرضن كم هن جميلات، والفتيان يستعرضون كم هم رائعون.. والموسيقا صاخبة.. (عبير) / (غيداء) تجلس إلى يمين زوجها الذى يعانى ارتباكًا واضحًا.. أولًا هو لم يعتد هذا الجو.. ثانيًا فارق السن يخجله.. ثالثًا هو يعانى عقدة المصريين تجاه لون البشرة ويشعر بأنه من الصعب أن تحبه بلون بشرته الأسمر بينما هى بيضاء كالحليب..
مجموعة كبيرة من ضباط الجيش وجنوده جاءوا يهنئون زوجها.. وأدركت من حرارتهم وإخلاصهم أنهم يحبونه حقًا.. هذا هو عالمه الحقيقي.. مملكته التى يصير خارجها مجرد طفل ضل الطريق لبيته.. تذكرت قصة قصيرة للرائع (يوسف إدريس)، عندما كانت الزوجة تشكو من غباء زوجها الطبيب وضعف شخصيته وحديثه الممل.. ثم حضرت إحدى الجراحات التى يجريها ففوجئت بأنها تقف جوار جنرال أسطوري عظيم يعرف ما يفعله ويسيطر على كل ركن من غرفة الجراحة.. هذه مملكته.. هذا ملعبه.. بينما فى الخارج يصير تائهًا معدوم الحيلة..
باختصار كانت هذه أسود لحظات حياته.. وكان يحاول التغلب على خجله بأن يسألها من آن لآخر:
- يبدو عليك الإرهاق.. هل أنا واهم؟
لو حدثها واحد آخر عن إرهاقها لقطعت شرايينها فى التو والحظة..
كانت تقدم له أفراد أسرة (الفرجانى) الذين جاءوا يهنئونه:
- هذا اللواء (صفوت).. ابن خالة عمى.. هذه مدام (زيزي).. زوجته.. هذا هو المستشار (محسن).. ابن عمة خالى.. وهذا..
ثم توقفت كالخرساء عندما رأته أمامها..
(قاسم) بالذات بأسماله ولحيته ونظرته المفتونة.. لماذا هنا بالذات؟ ومن الأحمق الذى سمح له بالدخول؟
سألها زوجها وهو يرمق الفتى فى اشمئزاز:
- ومن هذا؟

لابد أنه حسبه من المجاذيب الذين يتسولون خلف مسجد السيدة (زينب).. لكنها قالت بصوت مبحوح:
- (قاسم).. ابن عمى..
صافحها الفتى بلطف حتى كاد يبقى يدها فى يده ربع ساعة، ثم دنا من الزوج وهمس:
- مبروك!
- الله يبارك فيك..
دنا أكثر وهمس:
- إنها رائعة! إنها أجمل نساء الكون!
كما توقعت! لا بد من أن يحدث وجوده كارثة.. تمالك الزوج أعصابه وتظاهر بأنها مجاملة.. فأردف الفتى:

بربك هل ضممت إليك غيدا
قبيل الصبح أو قبلت فاها؟
وهل رفت عليك قرون غيدا
رفيف الأقحوانة فى نداها؟!

هنا فقط أدرك الزوج الموقف! هذا الوغد يأتي ليغازل زوجته أمامه! نهض مغضبًا وقد استعاد جو الحروب وهتف:
- أنت قليل الأدب!
ثم انهال على وجه الفتى بصفعة.. ليس هذا فحسب بل إنه انحنى ينزع حذاءه اللامع (الفيرنيه) عن قدمه ليهوى به فوق رأس الفتى!
تعالت الصرخات واحتشد الجميع يرون ما سيحدث.. معركة ممتعة جدًّا.. لكنها غير متبادلة.. لأن الفتى يتلقى الضربات كما تتلقى المرتبة ضربات (أم مهدى) وهى تنفضها على سور الشرفة..
- أخرجوا هذا الصعلوك من هنا!
وتكأكأت الأيدي على الفتى تحمله إلى الخارج حملًا.. بينما عاد ضابط الجيش محتقن الوجه إلى المقعد وأعاد لبس حذائه وهو يرغى ويزبد..
كانت هذه الفضيحة بحاجة إلى ما هو أقوى وأسوأ كى تنساها.. رفعت (عبير) عينيها الدامعتين لتنظر إلى الضيف التالي..
بالفعل وجدت أنها تحدق فى الوجه اللزج الناعس لـ (تامر).. (تامر) زئر النساء الذى هشمت رأسه بالأباجورة!
ويحكم! ألن تتركوني وشأني أبدًا؟
- مبروك يا عروس
ثم صافح العريس بذات الطريقة اللزجة.. إنه يتبادل معه الهمسات.. هل بينهما أرضية مشتركة من أى نوع؟ الهمس يتحول إلى ضحكات.. مصافحات بطريقة (كفك).. يتبادلان البطاقات مع الكثير من:
- سوف أخبر اللواء (عزام) بالموضوع.. ها ها! ولسوف يصر على أن يصله ملبس الفرح!!
ها ها ها ها!
ها ها ها ها!
تبًّا لسماجتك!
- إنسان ممتاز!

قالها زوجها وهو يدس البطاقة فى جيبه..
- يختلف كثيرًا عن ابن عمك المجذوب هذا..
بالفعل لا يعرف زوجها الكثير عن العالم الخارجي خارج الجيش.. إنه جندى ممتاز.. خلق لهذا فقط.. قليل هم الأشخاص الذين يشعرونها بأنها تفهم العالم أفضل منهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- عطاء الله..

لم يكن (عطا الله) زوجًا سيئًا على الإطلاق.. بالأحرى كان حنونًا كريمًا.. لكن مشكلة الغيرة كانت قاتلة..
لكم من شاب كاد يفتك به لأنه مر جوارها ببطء.. ولكم من رجل كاد يهشم رأسه لأنه أطال النظر لها..
كانت تقول له:
- حتى الشرع يعطيه الحق فى النظرة الأولى لاحتمال أن يكون القادم أسدًا..
فكان يقول وقد انتفخت أوداجه:
- يا سلام! وما هى فرصة أن يقابل أسدًا على كورنيش النيل وسط القاهرة؟
كانت تفهم مشكلته.. مشكلة الزوج القبيح المسن مع زوجة جميلة شابة هو يعرف أنها معجبة به.. لكن هل تعجب به كرجل أم تعجب به كضابط شجاع؟ هذا ما يقلقه.. يتمنى أن تحبه لأنه رجل..
على كل حال بدأت المشاكل تنحسر.. وبدا أن الحياة أكثر انتظامًا..
كانا يعيشان فى بيت جميل يبعد مائة متر عن بيت أبيها، لذا كان أبوها مدعوًا دائمًا إلى مائدتهما أو هما مدعوان على مائدته التي تعدها (سنية) الطيبة.. هناك كان الأب يحكى لها عن تقدم (قاسم) فى العلاج فى المصحة النفسية، أو عن (عنتر) الذى أخذ أمه معه وسافر إلى الإسكندرية.. كانت تحتفظ لنفسها بقصة (سمير) الشاعر الرقيق ذي الأنف العملاق، و(رامى) الذى خدعها لكنه مات وهو يحاول إنقاذ حياتها.. هذه أشياء لا تقال لكنها تحتفظ بها.. يومًا ما ستحيكها لحفيدتها وهى جالسة قرب النار كما تفعل الجدات فى القصص..
إن الشلال قد عاد ليستقر.. صار نهرًا هادئًا.. وقدرت أن قصتها انتهت عند هذا الحد..
لكنها كانت ساذجة كالعادة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زيارة من ذلك الوغد (تامر)..
لقد قضى مع زوجها وقتًا طويلًا.. إن زياراته تتكرر وزوجها مقتنع به بشدة.. لكن تأثيرًا سامًّا يتسرب إلى روح الزوج فى كل مرة.. لماذا ينظر لها تلك النظرات الغريبة؟
ودعينى أؤكد لك أنه سيحاول مرارًا.. هذا الطراز من الرجال كالذباب تذبينه فيعود..
قالها المرشد يومًا ما وهى نوع من النبوءة / التحذير.. هذا الطراز لا يغفر أن ترفضه الأنثى.. هو الذى يرفض ويتخلى عن النساء أما أن يحدث العكس (فلا نزل القطر.. فلا نزل القطر)..
زوجها يسألها:
- هذا المخبول ابن عمك.. هل كان يزورك كثيرًا؟
نظرت له فى صمت.. ثم قالت:
- إنه ابن عمى..
- وكان أبوك يترككما؟
- لا.. ابن عمى ليس من محارمى لو كنت تلاحظ هذا..
يفكر قليلًا ثم يسأل:

- والفتى الذى كان ينشد الشعر تحت شرفتك؟
- من قال لك قصته؟
- إن لى مصادري.. والآن أجيبي..
- كان معجبًا بى.. هذا كل شيء.. وقد فتك به (عنتر)..
- و(عنتر) كان يميل إليك؟
- من قال هذا..
- إن لى مصادري..
هكذا كانت حياتهما دوامة لا تنتهى من الأسئلة.. وكانت تعرف مصادره جيدًا.. إنه ذلك الوغد (تامر).. (دون خوان)..
لم تدرك خطورة الأمر إلا فى تلك الليلة..
كانت قد نامت فى غرفتهما وأطفأت الأباجورة جوار الفراش..
لم تدر متى ولا كيف شعرت بأن الضوء قد عاد.. ظلت عيناها مسبلتين بينما شعرت بالفراش ينضغط تحت ثقل زوجها..
كان جالسًا جوارها يتأمل وجهها..
مد يده يتلمس عنقها.. وشعرت به يبكى بلا انقطاع..
- سامحينى.. سوف تدفعين الثمن.. أيتها الخائنة..
وهنا شعرت بأصابعه تضغط على حنجرتها.. لم يعد هناك هواء..
فتحت عينها المذعورتين فرأت وجهه الأسمر الذى احتشدت عليه أمارات القسوة والأسف والحنان والأسى والرقة والغضب والغل.. كل هذا فى وقت واحد.. أين رأت هذا المشهد من قبل؟
همست بصوت كالفحيح
- (عط.. لل..)
وهنا تذكرت أين رأت هذا المشهد.
أغلب نقاد الأدب اعتقدوا أن اسم (عطيل Othello) هو النطق الغربي لاسم (عطاء الله).. الضابط المغربي الأسمر الشجاع الذى أحرز كل انتصار ممكن لكنه ظل طفلًا ساذجًا فى أمور الحب.. وعندما فاز بحب الحسناء (ديدمونة) لم يصدق هذا.. لم يصدق أنها قد تحبه لشخصه.. هنا يظهر من يؤكد له أن هواجسه صحيحة فعلًا.. يؤكد له أن حسناء شابة مثل (ديدمونة Desdemona) لا يمكن أن تحبه بل تحب من هو شاب جميل مثلها.. وهكذا يصل به الجنون مداه ويخنقها برغم براعتها..
ووراء هذا أشر وأعقد شخصية فى الأدب العالمي..
إن (تامر) لم يكن يلعب (دون خوان) هذه المرة.. كان يلعب دور (ياجو Iago)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- المبارزة

كان الحل الوحيد قريبًا وسهلًا، وكان عليها أن تتخذه قبل أن يجعلها نقص الأكسجين عاجزة عن تحريك عضلاتها.. هكذا مدت يدها إلى الأباجورة جوار الفراش وهوب!
كراااش!
قال شيئًا ما.. ثم تحسس رأسه الذى تغطى بالدماء وأطلق سراحها..
في اللحظة التالية هوى رأسه على الفراش وقد فقد وعيه..
يبدو أن مغامرتها فى (فانتازيا) اليوم هى سلسلة طويلة من تهشيم الأباجورات على الرءوس.. لكن هذه المرة لم تستمتع بما فعلته على الإطلاق.. إن هذا البائس يحمل جحيمه الخاص فى داخله.. جحيمًا من الشكوك والهمسات وسموم الأفاعي، ولا شك أن الضربة قد أراحته كثيرًا.. على الأقل لن يفكر لبعض الوقت..
وثبت من الفراش وبدلت ثيابها بسرعة البرق ثم هرعت إلى بيت أبيها.
إنها أسعد حظًا من (ديدمونة) على كل حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كلا يا سيدى.. هى لن تعود للدار.. سوف تبقى فى دار أبيها لتكون فى أمان.. عندما ترسل ابنتك لدار زوجها فأنت على الأقل مطمئن على حياتها. لا أتحدث عن ملء بطنها ولا عن الدفء ولا عن كسائها بل أتحدث عن الحياة ذاتها.. من حقها أن تنام عالمة أنها - ما لم يتوفها الله - ستصحو فى الصباح.. لن تمتد يد غادرة لتخنقها أثناء النوم.. يد غادرة يحركها عقل مجنون أضنته الشكوك والهلاوس.. رأيي يا سيدي الكريم أن ابنتي لن تعود.. أنت حر فى قرارك الخاص.. ربما تطلقها أو تبقيها.. ربما تلجأ إلى القضاء.. سيكون مسليًا وقتها أن أحكي قصة الزوج المسن الذى أصابه فقدان الثقة بالنفس بنوع من الخبال.. يمكنك أن تزورها هنا إذا أردت، لكنى أفضل أن تبدأ بزيارة طبيب نفسى بارع.. نعم.. أعرف أن (قاسم) ابن أخي قد أساء لها.. أعرف أن سمعتنا قد تدنت بسبب أشعاره، لكن (ليس على المريض حرج).. هذا رجل يمشى فى الأزقة الخلفية ولعابه يسيل، وينشد ألف بيت شعر كل ساعة.. وما من بيت شعر منها لا يحوى اسم (غيداء).. وقد دفع للجزار ثمن ماعز يفتدى به حياتها لأن عينيها تشبهان عينى (غيداء).. لكن هذا ليس ذنبي ولا ذنب (غيداء).. ما استطعت عمله هو أن أدخلته المصحة على نفقتي الخاصة.. وإني لأنصحك بشيء مماثل.. أنت تلاحظ أنى لم أهشم رأسه ولم أطلق عليه الرصاص ولم أخنقه أثناء نومه.. المجنون لا يعامل بهذه الطريقة.. لهذا سمحت لك بدخول بيتى وسمحت لك بشرح وجهة نظرك.. لكنى لن أعيد ابنتي لك لأنني لا أضمن أية أفاع سوف تتحرك فى عقلك المخبول غدًا.. عندها ربما تتناول سكين المطبخ لتجز عنقها.. دعك من أننى أرى أنك تستحق هذا الرأس الدامي.. إن ابنتي قد أجادت الدفاع عن نفسها ولا ألومها إلا على أنها انتقت تلك الأباجورة الرقيقة الهشة.. لو كان ما جوار فراشها مكواة لكان هذا هو الحل السعيد لكل مشاكلنا..
انتهى الكلام فراح صدر الأب يعلو ويهبط، ومد يده يتناول كوب الماء ليرشف منه عدة جرعات.. القلب الكبير لم يعد يتحمل هذه الانفعالات..
تحسس (عطا الله) رأسه المضمد وقال بصوت خفيض:

- لا أنوى أن أعلق على شيء من هذا.. معك كل الحق.. كلانا رجل شريف يكره أن يمس الضر أسرته.. لكنى أؤكد لك أنها لحظة جنون عابرة وقد انتهت..
- وما الضمان أنها لن تتكرر؟
- شك وزال.. هناك من زرع فى فكرى أفكارًا خاطئة.. عندما أفقت من غيبوبتي والدم يلوث ملاءة الفراش ورأسي يرتج، أدركت كم أنا أحمق..
قالت (عبير) فى حزم:
- ما زالت الأطراف موجودة.. أنا وأنت ومن يزرع الأفكار والأفكار نفسها.. ما زالت الفرص متاحة وما زال المستقبل مبهرًا..
قال وهو ينظر لها:
- أحد الأطراف لم يعد موجودًا.. لو رأيت هذا الكلب ثانية لقطعت رأسه..
هنا تدخل الأب الذى لم يعد يفهم حرفًا:
- ما معنى هذا؟ هل هناك من قال زيفًا عن ابنتي؟
لم يرد أحد..
نهض وقال بلهجة حازمة:
- (عطا الله) يا بنى.. أرجو أن تنصرف الآن.. أنا لست فى حال طبيعية. ربما لو التقينا بعد أسبوع لأمكنني أن أرد عليك بشكل أكثر هدوءًا..
قال (عطا الله) وهو ينهض بدوره:
- بوسعى أن أكون عصبيًا.. بوسعي أن أصر على أخذ زوجتي معي.. لكنى أعرف أن الأمور ستعود لمجاريها ولا أود أن أفسد علاقة الغد بمشادات اليوم.. سأنصرف.. فأنت فى حاجة إلى راحة وتفكير..
ثم نظر إلى (عبير) وقال:
- وأنت كذلك يبدو عليك إرهاق واضح!!
هزت رأسها فى غيظ ولم تعلق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استنطقها الأب طيلة الليل..
فى النهاية جمع الكثير من التفاصيل عن (تامر) وخادمه (سراج).. عرف قصة الكهربائي الذي جاء ليصلح عطلًا لا وجود له.. عرف قصة التخرصات التى راح الوغد يصبها صبًا فى أذن الضابط المستقيم الشريف (عطا الله)..
قال لها بعد ما جمع الخيوط كلها:
- فى الحقيقة زوجك لم يرتكب خطأً.. لقد أفسد الوغد عقله ولو كنت مكانه لفعلت الشيء ذاته!!
- الحمد لله أنك لست فى مكانه.
قال لها فى هدوء وحزم:
- سيكون أول ما ينبغي عمله أن تعودي لبيتك..
- يا سلام؟ هل نسيت أن هناك رجلًا يخنق النساء النائمات؟
- لن يفعلها ثانية.. أنا أعرف هذا يقينًا..
- ثم؟

- ثم.. اتركى لى الأمر..
فيما بعد عرفت ما حدث:
عندما جاءت الثامنة من مساء ذلك اليوم.. دق الجرس فى دار (تامر).. فتح الخادم (سراج) الباب بطريقته المتأنقة بالغة الغرور..
- هل (تامر) هنا؟
نظر له الخادم فى اشمئزاز.. هذا الرجل يبدو وقورًا له شارب أبيض ويضع العوينات لكنه قليل الأدب..
- اسمه الأستاذ (تامر)..
- قل له إن أسمى (منصور)..
بالطبع كان هذا هو الأب الذى جاء ليؤدب الوغد الذى فشل فى تدمير حياة ابنته قبل زواجها فصمم أن يدمرها بعد زواجها..
صوت خطوات على الدرج.. ينظر الأب من أعلى فيجد فتاة صغيرة السن مرتبكة تصعد.. تنظر لأعلى لتجد زحامًا عند الباب.. فتتوقف..
صاح الأب الذي بدا حينما تراه من زاوية منخفضة أسطوريًّا كأنه (زيوس) الغاضب:
- ليس هنا يا آنسة! لقد مات! من جئت من أجله قد مات.. اتفقنا؟ لا تصدقى حرفًا مما يقوله لك، فهي أسطوانة اعتاد ترديدها حتى بليت.. هلمى إلى بيتك.. وإلا!
ومد يده موشكًا على انتزاع الحذاء، لكن الفتاة كانت قد أطلقت ساقيها للريح.. لم تحاول أن تفهم.. فقط هناك رجل يصرخ على الباب.. هذا كاف جدًّا..
قال (سراج) بكبرياء:
- والآن هل لى أن أفهم سبب هذه التصرفات السوقية؟ من أنت؟ لص أم مجنون؟
- كلاهما معًا! فلتدخل لتخبر سيدك الوغد أننى أنتظر!
- لا داعى لذلك..
كانت هذه من (تامر) نفسه.. يأتي من الداخل وقد ارتدى الروب القصير ودس يديه فى جيبيه.. وحرص على أن يبدو وغدًا ونذلًا..
كان يضع لفافة تبغ بين شفتيه ونظرة ناعسة سمجة على عينيه..
- هل لى أن أتشرف بمعرفتك؟
- أنا (منصور الفرجانى).. أبو (غيداء منصور الفرجانى)!
لم يهتز الفتى لسماع الاسم.. بل بدا كأنه يتذكر.. بالطبع هذه المشادة مع الآباء قد مرت به ألف مرة من قبل.. لهذا هى نوع من التدريب المفيد على البرود..
- تشرفنا.. وإن كنت لا أذكر من هى.. إن الفتيات كثيرات فى حياتي وثق أننى لا أسعى وراءهن.. هن من يحمن حولي كالذباب..
قال الأب بصوت عال لدرجة أن فهم مقاطعه صعب:
- (غيداء) هى الفتاة التي حاولت أن تفسد حياتها قبل وبعد الزواج.. أمثالك هم حطب جهنم لو كنت تفهم معنى هذا..
- لا أفهم معنى هذا..
- معناه أنك لن تُحرق فى جهنم.. بل سيتم استعمالك لحرق الخطاة الآخرين! وقد جئت لأسهل رحيلك إلى هناك!
وفجأة رأى الفتى فى يد الأب مسدسًا..

كان رد فعل الوغد سريعًا.. لو انتظر ليفكر لما نجا.. إنه رد فعل حيواني يشبه ردود أفعال الذئاب التى جاء منها.. كان الأب يقف على قمة السلم وراءه الدرجات، ووضعه بعيد عن التوازن..
هكذا.. قبل أن يدرك الأب ولا (تامر) ولا الخادم ما يحدث فعلًا كانت ساق (تامر) تندفع لتركل الأب فى فخذه.. وهكذا..
سرعان ما انزلق إلى الوراء وهو يطلق طلقة.. طلقة لم تصب إلا الجدران طبعًا.. ثم تدحرج عدة مرات فوق الدرجات ليهمد جسده تمامًا عند (البسطة)..
فتح الخادم فمه ليتكلم، لكن (تامر) قال له وهو لم يبدل وقفته:
- اطلب الشرطة حالًا.. هذه حالة دفاع عن النفس لا شك فيها.. لكن لا تلمس شيئًا إلى أن يعاينوا بأنفسهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13–الجحيم..

قال لها المرشد:
- كان عليك أن تتوقعي هذا.. (دون خوان) قد تلاعب بعواطف ابنة قائد (سيفيل) Seville وخدعها.. هكذا تحداه الأب للمبارزة.. طبعًا انتهت المبارزة بمصرع الأب..
قالت فى غيظ وهى تجفف دموعها:
- كيف لى أن أتذكر مسار كل عمل أدبى أو فنى فى التاريخ؟
- يجب أن تتذكري.. هذا هو العمود الفقري لأوبرا (موتسارت).. على كل حال قد حققت الشرطة فى الموضوع.. لقد مات الأب الموتور ومسدسه فى يده.. لا يوجد أي غبار على الفتى.. والسقطة ليست سبب الوفاة بل هبوط القلب نتيجة كل هذه الانفعالات العاطفية.. إن المسنين يستحقون ما هو أفضل من هذا..
- سينجو (تامر) بفعلته.. فى كل مرة ينجو بفعلته..
ونهضت إلى المدفأة تتأمل صورة الأب التى احتلت مكانها جوار صورة الأم.. إنها الآن يتيمة فعلًا.. يتيمة جدًّا.. لم يعد لها إلا (عطا الله)..
هنا سمعت صوت ضحك عال.. صوت باب يفتح..
نظرت للوراء فوجدت (سنية) الطاهية تدخل مذعورة..
- إنه باب المطبخ يا سيدتي.. لم يرض أن..
ومن خلفها سمعت صوتًا مألوفًا..
هو ذا (تامر) يدخل ومعه خادمه (سراج).. وهو يحمل كيسًا يبدو أنه يحوى بعض الأطعمة.. كان يضحك فى تشف متظاهرًا بالتأثر.. متأنق بشدة متبختر كالطاووس..
يهتف وهو ينظر حوله:
- يا لفخامة البيت! من أين لأبيك هذا؟
(سراج) يقف على النضد ليخرج الأطعمة التى يحملها من كيسها..
هتفت غير مصدقة:
- كيف تجرؤ؟
قال ضاحكًا:
- من حقي أن أقدم لك واجب العزاء.. وكان من السهل أن أدخل بعد رحيل ذلك الخرتيت الأسود الذى كان يجثم على مدخل البيت.. لكنى فضلت الدخول من الباب الخلفي.. أنا لا ادخل البيوت من أبوابها أبدًا! بالمناسبة يبدو عليك الإرهاق ولا أفهم سبب هذا!
نظرت حولها بحثًا عن المرشد لكنه كان قد توارى..
صاحت وهى تتراجع:
- سوف أطلب الشرطة!
- أتمنى أن أرى كيف ستفعلين ذلك من دون خط هاتف!
صاحت فى الطاهية العجوز:
- اطلبى العون يا (سنية).. اطلبى (عطا الله)!
قال (تامر) وهو يسترخى على أحد المقاعد:
- لا ليس (عطا الله).. لا أضمن رد فعله عندما يأتي ليجدني هنا معك أتناول عشائي.. أنصحك

بالذهاب للنوم يا (سنية).. لا سبيل للخروج من هنا لأن (سراج) أغلق باب المطبخ..
ثم طوح حذاءه وقال:
- لا أدرى لماذا تتشنجين؟ سوف أتناول عشائي وأؤدي واجب العزاء ثم أرحل.. هذا وعد
بحركات ميكانيكية كان (سراج) يضع أصناف الطعام فى أطباق ورقية أحضرها معه.. ثم اتجه إلى سيده وانحنى فى تهذيب:
- كل شيء جاهز يا سيدى.. هل تسمح لى؟
قال الفتى وهو يشعل لفافة تبغ:
- نعم.. نعم أيها العزيز المخلص.. إن غرفة مكتب الفقيد هناك على ما أعتقد.. يمكنك أن تستلقى على أريكة هناك وتظفر بغفوة..
وانصرف الخادم..
هنا وقفت (عبير) وأشارت للباب فى حزم:
- اخرج!
قال (تامر) وهو يريح ساقية على مسند:
- أنا لن أفعل..
ثم دار بعينه فى المكان..
فجأة توقفت عيناه على الصورة المعلقة.. صورة الأب.. صورة الأب الذى يرمق المكان فى نوع من الحزن والعلم ببواطن الأمور.. لكنه برغم هذا يبتسم..
هتف الفتى وهو ينهض:
- آه! صورة رائعة! هل علقتها بهذه السرعة؟ لابد أنك وجدت من يكبرها لك..
ثم اتجه إلى أطباق الطعام فانتقى قطعة كبيرة من اللحم.. وقضم منها قضمة.. ثم مشى نحو الصورة وخاطب صاحبها:
- معذرة.. أعرف أن ما تراه لا يريحك.. لكن لا تنكر أنها كانت سقطة ممتازة!
هتفت (عبير) وهى تغمض عينيها:
- ابتعد عن الصورة.. أترك شيئًا واحدًا فى هذا العالم لتحترمه!
- من قال إننى لا أحترم هذا الرجل؟ (منصور الفرجانى) العظيم الأب العبقرى لكل هذا الجمال..
وبحركة تمثيلية انحنى أمام الصورة وقال ملوحًا بقطعة اللحم:
- سيدى.. هل تقبل دعوتي لك على العشاء؟
هنا قالت الصورة:
- بكل تأكيد!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة انهار منطق الواقع ليفسح المجال لمنطق الكابوس..
امتدت اليد خارجة من اللوحة وأطبقت على عنق الفتى..
صرخ وبصق قطعة اللحم التى كان يلوكها.. بينما اليد تجذبه إلى داخل اللوحة.. والضحكة على وجه الأب تزداد شراسة وتوحشًا..
الفتى يتشبث بإطار اللوحة:
- لا! لا أريد!
لكن الجذب أقوى منه.. اليد صارت مخلبية مخيفة ومن الواضح أن قوتها لا تمت لعالمنا

بصلة.. الآن صار نصف جسد الفتى داخل عالم اللوحة وسط الألوان الذائبة..
- اتركنى! لم أقصد إلا المزاح!
الصراخ صار بكاء..
هنا كان المزيد من الجذب.. وسرعان ما توارى بالكامل داخل اللوحة، والتأمت دوامة الألوان.. تكاد (عبير) تقسم أنها سمعت اللوحة تتجشأ.. ثم عاد وجه الأب الباسم الذى يعرف بواطن الأمور.. وعادت هذه مجرد صورة لمتوف..
كانت (عبير) الآن تقف مذهولة ومعها (سراج) و(سنية)..
وجوارها وجدت المرشد يقف بطريقته غير المبالية، فنظرت له متسائلة.. قال باسمًا:
- نهاية أوبرا (دون خوان) بالضبط.. لكن الأمر كان يتعلق بتمثال الأب.. قائد (سيفيل) الميت.. لقد سخر منه (دون خوان) ودعاه إلى العشاء.. كانت النتيجة أن التمثال قبل الدعوة، وجذب (دون خوان) ليحمله معه إلى الجحيم!!!
ثم استدرك فجفف عرقه وقال:
- طبعًا ليست تماثيل المتوفين جزءًا من ثقافتنا هنا، لذا بدت لى فكرة الصورة التى تدب فيها الحياة لا بأس بها.. إن (تامر) يقضى الآن وقتًا ممتعًا فى طريقه إلى الجحيم..
قالت له وهى تتراجع مذهولة من هول ما رأت:
- هكذا لقى نهاية استحقها بشدة.. ولكن ماذا عنى أنا؟
قال المرشد:
- إن طريقك محدد وهو العودة إلى (عطا الله) الزوج المخلص.. سوف تعرفين كيف تروضينه لو كنت أنثى حقيقية.. أما إن أصررت على الطلاق فعندك ذلك الشاب (سمير).. إنه نبيل مرهف يحبك حقًّا.. وهو مناسب لك اجتماعيًا أكثر من (عنتر)..
يا لها من قصة!..
لقد قتل أبوها (دون خوان) بعد ما قتله (دون خوان).. هى متزوجة من (عطيل) لكن بوسعها أن تتركه إلى (سيرانو دي برجيراك).. (روميو) قد مات و(قيس) قد جن.. (عنتر) لا يصلح وقد نفى نفسه إلى الإسكندرية.. إنها (خلطبيطة) فعلًا بلا أدنى مبالغة..
كانت تفكر عندما سمعت صوتًا مألوفًا يتكلم خلفها..

فقال بصير القوم وألمحت كوكبا
بدا فى سواد الليل فردًا يمانيا
فقلت له بل نار (غيدا) توقدت
بعليا تسامى ضوؤها فبدا ليا

نظرت خلفها فوجدت (قاسم) ابن عمها.. كان حليق الذقن نظيف الثياب.. لكن نظرة الافتتان المزعج ما زالت فى عينيه..
قال لها:
- انتهت متاعبك يا (غيداء).. سمعت أنك على وشك الطلاق.. لقد شفيت وصار بوسعي أن أعني بك بعد وفاة عمى رحمه الله!!
ثم أردف:
- بالمناسبة.. يبدو عليك الإرهاق!!
قالت له وهى تتراجع بظهرها:
- كلا لم تشف.. ما دمت تقرض الشعر بمعدل قصيدة كل ربع ساعة.. وما دمت ترى أنى

مرهقة، فأنت لم تشف..
ثم نظرت إلى المرشد وصاحت:
- مرشد.. هل يمكننا الفرار من هنا؟ لقد صار الوضع هو الملل بعينه!
- أحلامك أوامر يا أليس.. وإن تمنيت لو انتظرنا لأعرف قرارك.. (عطيل) أم (برجيراك)..
ومد يده يتأبط ذراعها متجهًا إلى خارج البيت.. لم ينس أن يقول لها:
- على فكرة.. مع ابن عمك حق.. يبدو عليك إرهاق شديد ولا أعرف السبب!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تنسى (عبير) كل شيء عن الإرهاق وعن المعجبين لأنها تنوى أن تقوم برحلة خطرة لم يعد منها الكثيرون من قبل.. رحلة تحاول استكشاف منابع نهر عظيم.. نهر النيل بالذات..

تمت بحمد الله

المصادر:

- **فاروق خورشيد**: الأسطورة عند العرب. عالم المعرفة (284). أغسطس 2003
- **فتحى سعيد**: عشاق لكن شعراء. اقرأ. 456. 1984
- **ويليام شكسبير**: روميو وجولييت. ترجمة مؤنس طه حسين. دار المعارف بمصر. مسرحيات شكسبير (5). 1960
- **ويليام شكسبير** عطيل. ترجمة خليل مطران. دار المعارف بمصر.
- عدد من مواقع الإنترنت..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

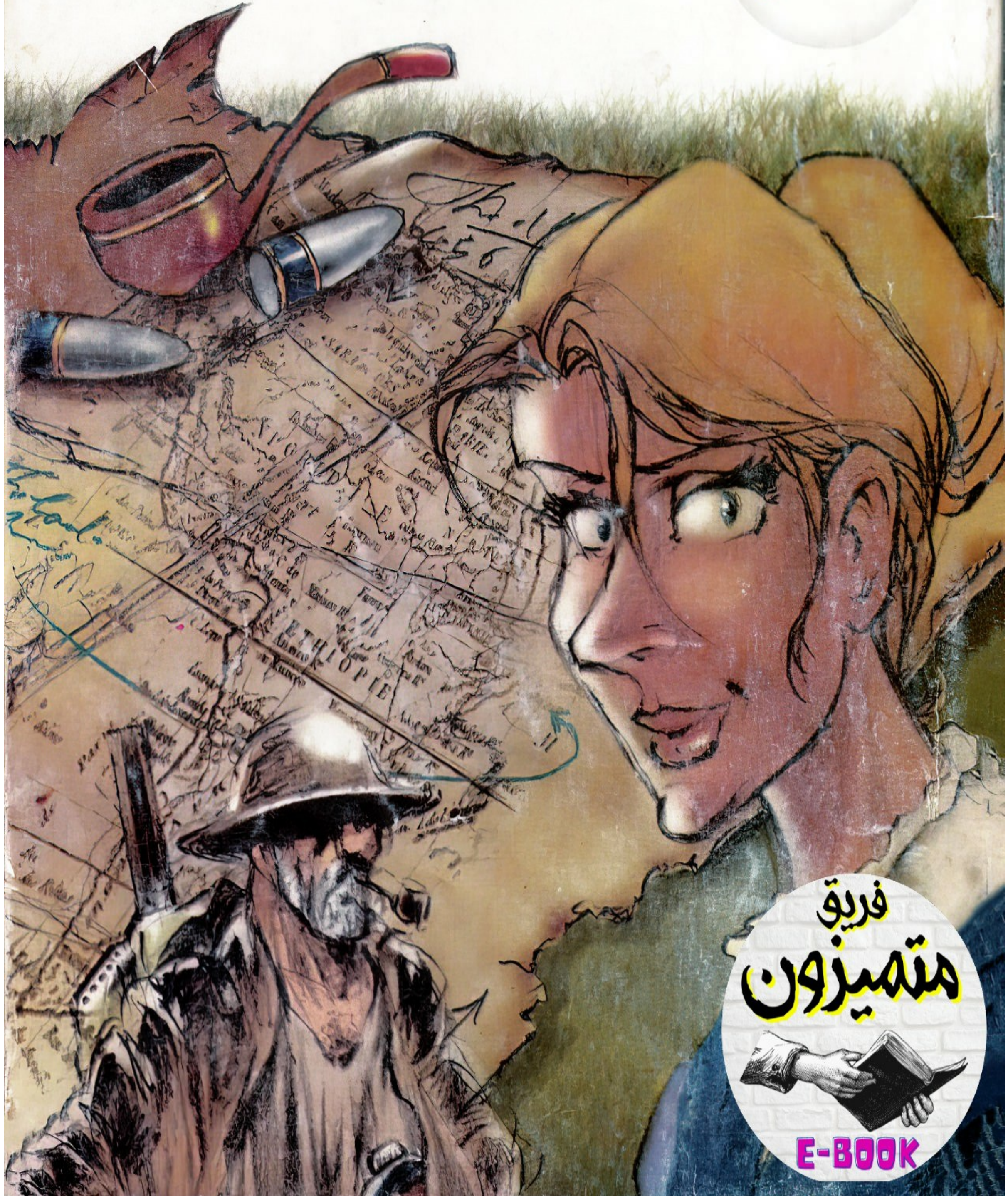
روايات مصرية للجيب

43

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

أسطورة نهر



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (43)

أسـطورة نـهر

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- إلى أين؟

قال لها المرشد:
- ألاحظ أنك مرهقة قليلا اليوم..
نظرت له في غيظ ولم تعلق..
كانت هذه من المرات القليلة التي تغادر فيها قصة فتدخل أخرى، وبدا لها هذا مرهقا.. كل الكوميديانات البارعين يعرفون أنه لا بد من مسافة لا بأس بها بين نكتة وأخرى، لأن النكتة الجيدة تتلف سابقتها.. لابد من فترة تسمح بتذوق النكتة السابقة واستحلابها قبل أن تقول التالية.. كانت بحاجة لهضم تجربة الملل تلك، لكنه مصر على أن يدخلها قصة أخرى بمقاييس أخرى..
قال لها:
- اليوم تجربة مثيرة بحق.. سوف تمضين اليوم مع الرياضيين العظام الذين يحاولون حساب محيط الأرض!
نظرت له مذهولة.. إن غباءه يزداد يوما بعد يوم..
- هل سمعت أن لي أية خبرة بالرياضيات؟ لا خبرة ولا اهتمام.. إن ما تتكلم عنه هو الجحيم بعينه..
فكر قليلا وهو يراقب المشاهد من النافذة ثم قال:
- ماذا عن البحث عن لغز الثقوب السود؟ سوف يكون هناك الكثير من المرح مع ميكانيكا الكم..
- هل تحاول استفزازي أم أنك مجرد معتوه؟
فكر برهة ثم قال:
- تاريخ رياضة البيزبول في (بوركينا فاسو)، أو فنون زراعة القمح في جمهورية التشيك).. هل أنت مهتمة بهذا الموضوع؟ سنمرح كثيرا..
- لا!!!
ثم استدارت له وقالت في توحش:
- هل انتهت القصص أخيرا؟ هل انتهى التاريخ؟
لا تقل إنك انتهيت من كل شيء فلم يبق إلا ميكانيكا الكم..
قال وهو يعقد كفيه على صدره:
- ليكن.. لكني كنت أتمنى أن أجوب بك رياض المعرفة البشرية.. الأشياء التي لا تعرفين أنك تعرفينها، لكني سأبرهن لك على عكس ذلك.. ماذا عن جولة بين عَروض الشعر مع (الخليل بن أحمد)؟ معارك الإعراب مع (سيبويه) ممتعة جدا.
ظلت تنظر خارج النافذة محاولة أن تمضغ غيظها.. هكذا فهم أنها لا تطيق هذا.. في الواقع سوف تخوض (عبير) في المرة القادمة قصة لا بأس بها مع عباقرة اللغة العربية (الخليل بن أحمد) و (أبو الأسود الدؤلي) و (سيبويه)، لكن ليس اليوم على كل حال.
خارج النافذة ترى مشهدا مألوفا بعض الشيء.
هذا النهر الأسمر الحالم الراقد تحت أشعة الشمس.. ليس حالما بالضبط بل هو أقرب للعصبية والجموح.. لكنه برغم ذلك مألوف لعينيها.. إنه النيل لا شك في هذا، لولا أنها ترى

أفراس النهر تنزل فيه وعلى ضفتيه تغفو التماسيح في كسل.. ثمة طوف في الوسط يقف عليه مجموعة من الأفارقة بثيابهم الوطنية يغنون وغناؤهم يتزامن مع حركة المجاديف.
هو النيل لا شك في هذا.. لكنها لا ترى الكورنيش ولا باعة الترمس ولا شرطة المسطحات ولا العشاق الجالسين وظهورهم للشارع حتى لا يتعرفهم أحد.. حتى لو كان هذا أعلى النيل فهي لا ترى القرى النوبية ولا ترى (حسين فهمي) يحاول إقناع (أحمد السقا) بحب مصر، بينما تدوي أغنية (زي ما هي حبها) الرائعة.
أي نيل هذا؟
نظرت في دهشة إلى المرشد الذي كان قد بدأ يغفو وهو يلوك تلك الأشياء الغامضة.. كيف يجرؤ على تركها تتساءل؟ نهضت وهزته في عصبية فأفاق مع الكثير من (بسم الله الرحمن الرحيم.. من؟ أين؟ متى؟)..
قالت في عصبية:
- ألن تشرح لي؟ أين نحن؟
- هذا هو النيل.. إن من لا يعرف النيل حين يراه هو كفيف أو معتوه.. وبما أنك ترين جيدا فإنني سأسمح لنفسي ب..
- نيل يعج بأفراس النهر وقبائل الزولو؟
قال في وقار:
- ليسوا زولو يا نبراس الجهل.. الزولو في الجنوب ولم ير أحدهم النيل.. هؤلاء كيكويو.. أو ماساي أو ماو ماو أو توركانا.. لا تنسى يا فتاة أن النيل طويل جدا.. إنه يخترق عدة حضارات وبلاد.. حضارات ترقص بالرمح حول النيران، وحضارات تستأجر فلوكة للنزهة فيه عصرا..
ثم غلبة الطرب فراح بصوت أجش يغني كما يفعل (عبد الوهاب):
- النيل نجاشي.. حليوه أسمر
أرغوله في إيده.. يسبح لسيده
حياة بلادنا.. يا رب زيده
قالت في غيظ:
- ما هذا الكلام الذي تقوله؟
- هذا (أحمد شوقي بك) عندما يكتب بالعامية.. أي أن هذه أرقى صورة للعامية التي توشك أن تكون فصحى.. والآن هل ترغبين في تجربة هذا العالم؟
نظرت إلى الجو الساحر ذي العنفوان في الخارج، وتساءلت:
- ليكن.. لكن هل أصير مجندة في شرطة المسطحات؟
أم أبيع الترمس الملوث بالتيفود؟ أم أعمل في السد العالي؟
قال لها وقد سره أخيرا انه موشك على الخلاص منها:
- لا هذا ولا ذاك.. أنظري لنفسك..
أصابها الذهول عندما رأت ما صارت إليه.. إنه ذلك الزي البريطاني الفيكتوري الذي لبسته ألف مرة من قبل.. القبعة.. التايور.. التنورة الواسعة.. الدانتيل.. المظلة..
آخر ثوب يمكن أن يقوم فيه المرء بمغامرة على النيل..
قال لها:
- هذه المرة هناك الكثير من التجديد.. أنت صحفية بريطانية!
- يا سلام! لم أفكر في هذا قط.

الحقيقة أنها لعبت دور الصحفية ألف مرة في (فانتازيا) من قبل.. وهذه المرة اسمها هو:

- مس (بارتريدج).. (إلستري بارتريدج)..

- اسم صعب جدا

- لكنه كذلك بريطاني جدا ولن يتنازل المؤلف عنه حتى لو اضطر لتمزيق هذه القصة وإلقائها في القمامة.. أنت تعرفين أنه مصاب بنوع من الوسواس القهري تجاه الأسماء.. على الأرجح هذا اسم فتاة بريطانية فعلا.. والآن هيا.. لقد تأخرت!

- تأخرت عن ماذا؟

نظرت خارج القطار فوجدت أن هذه (لندن)..

بالتحديد خارج بناية جريدة (هيرالد)..

النصف الأخير من القرن التاسع عشر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- أين ليفنجستون؟

لورد (مكدويل) رئيس تحرير الجريدة هو نمط بريطاني آخر، بأناقته والشارب الأبيض الكث الذي يقف عليه صقران، والسيجار في يده، والسترة ذات الصديري الذي تخرج منه وتعود إليه عشرات السلاسل الذهبية، وتلك الساعة الثمينة في جيب الصديري التي يخرجها من حين لآخر ولغته أيضا بريطانية من الطراز الذي يثير الغيظ:

- مس (بارتريدج) لو كان لي أن أقترض هذا.. أرجو أن تأخذي راحتك وإنني لأسمح نفسي عمدا بحرية أن أفترض أنك لا تنفرين من رائحة التبغ، وأنك قد ترحبين بشراب خفيف لو سمحت لي بذلك.. لقد تأخر المستر (مورتون) عن موعده.. دقيقة كاملة.. هذا قد يدفعني لافتراضات غير مستحبة لو كان لي أن أقول هذا، وإنني لأعطي نفسي الحرية كاملة في أن أقول إنه لو كانت مواعيد مستر (نورتون) بهذه الدقة فإن مشروعي لن يخرج إلى النور.. إن عدد الدقائق التي تأخرها السيد الطيب لخليق بأن يجعلني ثريا لو أنه تحول إلى مال بحق السماء.. ها ها ها!!

راحت تنظر له في غباء متسائلة في سرها: لماذا لا يتكلم مثل الناس؟

بعد قليل جاء الشخص المنتظر.. لابد أن هذا هو (مورتون)..

كان رجلا متألقا قوي البنية، له لحية قصيرة وعينان تلمعان بالتصميم وبعض القسوة..

قال لها (مكدويل) مقدما الرجل:

- مس (بارتريدج).. أهم صحفية عندنا.. أخشى أن هناك مجالات لا أجرؤ على تصور المرأة فيها، لكن مس (بارتريدج) تبرهن بإصرار على أنني مخطئ..

أما السير (هنري ستانلي مورتون Stanley) فهو المستكشف البريطاني الغني عن التعريف [1]..

قال (ستانلي مورتون) بصوت غليظ جدير بأن يكون صوته:

- في الواقع أنا نصف أمريكي نصف بريطاني..

قال رئيس التحرير:

- لقد شارك في الحرب الأهلية الأمريكية كما شارك في غزو (أثيوبيا).. يقولون إنه المغامر الذي لا تلين له قناة..

ثم إنه اتجه إلى لفافة ورقية فعلقها.. كانت عليها خارطة تمثل شمال إفريقيا.

- ما هذا النهر؟

قالت (عبير) في تردد:

- إنه النيل..

وإن شعرت بأن هناك شيئا ما خطأ في هذا الرسم ثم أدركت أن الخط الذي يمثل النيل ينتهي عند أعلى السودان.. ما السبب؟

قال رئيس التحرير:

- اسم النيل مشتق من اللفظة الإغريقية (نيلوس).. ثاني أطول نهر في العالم 4150 ميلا.. اللغز الذي جاء بالحياة لأقدم حضارة على وجه الأرض.. النهر الذي يجري بلا توقف وسط الصحراء وبرغم هذا لا يجف أبدا.. فقط ينخفض مستواه ثم يرتفع في أشهر الصيف ليجتاح كل شيء.. لقد حير هذا النهر الكثيرين.. أرسل (نيرون Neron) ضابطين إلى الجنوب ليعرف من أين يأتي.. غابا فترة ثم عادا يخبرانه أنهما وصلا إلى منطقة مستنقعات كثيفة عجزا عن اجتيازها.. فيما بعد زعم تاجر إغريقي أنه وصل إلى سلسلة من الجبال يغمرها الجليد.. وقيل إن النيل يتكون عندما

يذوب الجليد من فوق قمم هذه الجبال كما ينبع نهر (الجانج) من الثلج الذائب فوق جبال (الهيملايا).. طبعا هذه هي جبال القمر التي تحدث عنها الكتاب وأثارت خيال المؤلفين..
ثم أشار إلى (عبير) وقال:
- لكن هذا ليس كل شيء..
ثم أخرج من درج مكتبة الفاخر صورة كبيرة.. صورة تمثل رجلا أشيب مذعورا ولها هذا الشحوب الذي يميز صور الموتى.
تأملت (عبير) الصورة وقالت:
- ما سبب موته؟
نظر لها في رعب وكذا فعل (ستانلي).. وهتف:
- هل وصلتك أية أخبار عنه؟
قالت بلا مبالاة:
- لا أعرف أي شيء.. لكن لابد أن يكون صاحب هذه الصورة قد توفي منذ عامين على الأقل..
ضحك وأشعل سيجارا آخر ووسط سحب الدخان هتف:
- لنحمد الله أنها مزحة.. هذا هو د. (ليفنجستون Livingstone) الطبيب الأسكتلندي فائق الشهرة الذي يتساءل العالم كله عن مصيره.. لقد ذهب مع أسرته يستكشف صحراء (كالهاري) ثم قرر أن يستكشف منابع النيل عام 1866.. كانت النتيجة هي أننا لم نسمع عنه شيئا حتى اليوم ونحن في عام ١٨٧١..
كل العالم يسأل سؤالا واحدا هو (ماذا حدث لليفنجستون؟)..
أولا كان يجب أن تكون أول من يعرف هذا الموضوع لأنها صحفية.. لكن هذه (فانتازيا) حيث تلعب دور (آخر من يعلم) طيلة الوقت.. ثانيا.. من الأحمق الذي يأخذ المدام والعيال لاستكشاف صحراء (كالهارى) بدلا من أخذهم إلى السيرك أو حديقة الحيوان؟
قالت في غيظ:
- إنه أحمق بالتأكيد وأتمنى أن يكون قد مات..
قال (ستانلى) وهو يشعل سيجارا رائحته ألعن من سيجار رئيس التحرير:
- فلنأمل أن لا.. أنا قادر على أن أجد هذا الرجل.
- لو كان حيا..
- أو أعود بجثته..
- لو ظلت له جثة..
- أوه.. لا بد أن يبقى منه شيء..
قال (مكدويل) لـ (عبير) وهو يعيد الصورة والخارطة إلى درج مكتبه:
- وهذه هي مهمتك بالضبط.
- أية مهمة؟
- (هيرالد) سوف تمول هذه الحملة.. سنتحمل كل مليم.. في المقابل سيكون على السير (ستانلي) أن يكتب لنا مذكراته وتكتبي أنت القصة كاملة.. البحث عن منابع النيل.. البحث عن (ليفنجستون).. إن الجواب عن السؤالين واحد..
نظرت له في ذهول وهتفت:
هل تريد مني وأنا امرأة رقيقة مرهفة شفافة أن أجوب مجاهل إفريقيا التي لم يجبها أوروبي من قبل؟

هتف رئيس التحرير:
- هذا ما أريده بالضبط.. هذا هو ما سيرفع مبيعات جريدتي إلى السماء.. (الخناشير) من أمثال (ستانلي) لم يعودوا يحركون خيال العامة.. بينما سوف يتحمس الناس لمعرفة هل تلتهمك الأسود أم لا؟
ستكون لحظة رائعة عندما ننشر صورة قدمك الجزء الوحيد الباقي منك عندما يعود بها (ستانلي) من إفريقيا.. سوف نبكي جميعا بحرقة ونحن نتبادل أنخاب أعلى توزيع شهدته الصحافة البريطانية!
أشعل (ستانلى) سيجاره (هل هو السادس؟)، وقال:
- في رأيي أن أكلة لحوم البشر أكثر إثارة.. يجب أن تنشر صورتها وهي مقيدة وجالسة في قدر كبير يغلي ماؤه.. هذا يثير خيال العامة برغم أنني لم أر قبيلة إفريقية واحدة تطهو ضحاياها أحياء كاملين في قدر.. لقد تكفلت الصحافة ورسوم الكاريكاتور بجعل هذا المشهد محفورا في ذهن الناس [2]..
هتفت (عبير) في غيظ:
- أنتما مخبولان تماما!
وفي عصبية غادرت المكتب فقط لتجد المرشد واقفا جوار الباب يلعب بالقلم الجاف الشهير.. تك.. تتاك.. تك.. تتك.. يمكنك أن تجن تماما.. قال لها دون أن ينظر نحوها:
- لو كان لي أن أوصى بشيء فهو: أنت هنا للمغامرة فكفي عن السخف.. لا تذهبي للملاهي ثم ترفضي ركوب القطار الأفعواني.. إذن لماذا ذهبت للملاهي؟ كان خيرا لك أن تبقى في دارك.
قالت في عصبية:
- يريد مني أن أضيع شبابي في مجاهل إفريقيا.
- ستعودين على الأرجح.. لن يروق مذاقك لأكلة لحوم البشر..
- وهذه المهمة العجيبة.. أنا لا أذكر منابع النيل التي ذكرت في كتب الجغرافيا، لكن أصغر طالب في مدرسة إعدادية يمكنه أن يخبر هؤلاء الحمقى بها..
ضحك متخابثا، وقال:
- لاحظي أن هؤلاء هم من أفنوا حياتهم ولاقوا الأهوال، فقط ليجد الطالب هذه المعلومات جاهزة في كتبه.. يقرأ الطالب كلمة (أمريكا) في كتابه ببساطة.
يا سلام!! لقد احتاجت هذه الكلمة إلى رحلة مروعة قام بها (كولومبوس) ورجال هلكوا وثورات على السفينة.. إلخ.. ثم راهب يدعى (أميرجو فسبوتشي) يرسم الخارطة.. ثم حروب استقلال وحروب أهلية.. كل هذا حتى يجد الطالب كلمة (أمريكا) في كتابه.. رجال كثيرون أفنوا حياتهم كي يجدوا منابع النيل، وفي النهاية تلخصت حياتهم في بضعة خطوط مرسومة في كتاب الجغرافيا.. أنت ستكونين مع هؤلاء الرجال.
قالت في غيظ:
- هذا لأننا في زمن متخلف.. في القرن الحادي والعشرين تستطيع أية طائرة أن تحلق فوق الأحراش
وتعرف الحقيقة كاملة..
الم تفهمى بعد؟ لا توجد طائرات في هذا الزمن وليست هناك طريقة للتعلم إلا الطريقة الصعبة.. لكن أؤكد لك لولا هذه المعاناة في أحراش إفريقيا لما تمكن هؤلاء القوم من اختراع الطائرات فيما بعد.. الحضارة عملية تراكمية.. نحن العرب وصلتنا نتائجها النهائية، لكن هؤلاء

وضعوا النتيجة فوق الأخرى حتى صار هناك بناء ثابت شامخ.. من السهل أن تسخري من الهاتف الذي اخترعه (جراهام بل) لأنك تحملين المحمول.. لكن من دون هذا الهاتف الذي يشبه عشة الفراخ لما صار بوسعك أن تحمليه.. ولهذا يستعمل العرب المحمول لكنهم لا يصنعونه.

ظلت تفكر في كلماته بعض الوقت.. ليس أحمق تماما.. لذا سألته:

- إذن هل أقبل؟

- ليس لديك سبيل آخر..

هكذا بعد دقيقة كانت تقرع باب رئيس التحرير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أيام مع ستانلى

في مكان ما من الشمال تفرغ (عبير) من نشر آخر شيء على حبل الغسيل.. منامة أخيها الصغير.. تنظر في الطبق البلاستيكي الذي دخلت به الشرفة، ثم تقلبه في الشارع لتتخلص مما بقي فيه من ماء.. ترمق الغسيل في رضا وفخر.. أمها تقول لها دوما: أحب رؤية الغسيل الذي علقته يداك.. هذا النظام.. صف للثياب الخارجية.. صف للمنامات.. صف للثياب الداخلية والغيارات.. أما الصف المختفي تماما والذي يجب ألا تراه الشمس فهو الخاص بثيابها هي.
تتجه للمطبخ حيث أمها جالسة على كرسى صغير تلف أصابع (المحشي) وترصها بدقة في تلك الحلة..
إنها تفعل ذلك للغد على سبيل توفير الوقت، وسوف تحفظ الحلة في الثلاجة.. الأب في غرفة النوم ينعم بقيلولة العصر.. بعد يوم مرهق من العمل الإداري في شركة المطاحن وبعد تناول الغداء لا يصير بوسعه أن يبقي عينيه مفتوحتين ربع ساعة.
أخوها الأكبر في مكان ما مع رفاقه، والأصغر يركب الدراجة الثلاثية في الحارة..
تتجه لغرفتها وتنتقي أفضل ثوب عندها.. تضع لمستين من إصبع الروج الذي تحتفظ به أمها منذ خمس سنوات.. ثم تعض شفتها السفلى لتخفي التأثير أكثر.. سمراء.. جميلة.. ربما كانت لتشعر بسعادة أكثر لو كانت بيضاء كمرضى البهاق في بلد كمصر.. لكنها بالفعل تحب أن ترى وجهها في المرآة.
تضع رشة عطر ثم تتجه للمطبخ لتقول لأمها:
- سأذهب إلى الدرس.. هل تريدين شيئا؟
تقول هذا وهي تقف وراء ظهر الأم وعلى بعد مترين كي لا تقهر رائحة العطر رائحة المحشي، وكي لا تبدي الأم تعليقا على أحمر الشفاه..
تقول الأم دون أن تلتفت:
- كوني حذرة يا (كوثر).. هاتي لنا بجنيه فولا وبجنيه طعمية للعشاء..
تغادر (عبير) البيت.. وقد عرفت أن اسمها (كوثر) وأنها طالبة ثانوي.
هي لا تتعمد شيئا.. لكنها تعرف أنها ستقابله.. تعرف أنه سيكلمها.. تعرف أنه سيمشي بجوارها فترة طويلة ثم يقدم عرضه بأن يجلسا على النيل بعض الوقت.. تعرف أنها سترفض..
ومن بعيد تسمع صوت (عبد الحليم حافظ) من مذياع ما يغني:
- يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا اسمر.. لولا سمارك جوا العين ما كان تنور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القافلة تتحرك عبر سهول إفريقيا.. في المقدمة (ستانلي) و (عبير).. ثم يأتي الحمالون الأفارقة.. ثم جيش عرمرم من الرجال السود.
هذه هي الحملة التي مولتها (هيرالد) من أجل البحث عن (ليفنجستون).. وكان الغريب بالنسبة لـ (عبير) أن الحملة هبطت من البحر على ساحل إفريقيا الشرقي متوغلة في الداخل.. كانت تتوقع أنهم سيبحرون عكس سريان النهر بدءا من (رشيد) أو (دمياط) في مصر، لكن (ستانلي) اختار أن يرسم خطا عرضا يقطع القارة ويتجه إلى حيث فقد (ليفنجستون)..
الأفارقة يغنون.. عندما يغني ٢٠٠٠ رجل فإن النتيجة تكون مرعبة.. لا بد أن الأسود البائسة

أصابها انهيار عصبي.
المسيرة تتقدم وسط الأحراش الكثيفة.. إفريقيا كما خلقها الله.. لا توجد طرق ولا مدن وإنما أعظم معرض للطبيعة على وجه الأرض.
كان (ستانلي) رفيق سفر لا بأس به وإن خلا من روح المجاملة.. وكان شديد البأس عنيفا مع الوطنيين.. أكثر من مرة انتزع سوطه ليمزق ظهر أحد الحمالين أمام رفاقه، وكانت (عبير) ترتجف وهي ترى الغضب في عيون الرجال.. هناك شرارة ما يصر (ستانلي) على تقريبها من برميل البارود، لكنه واثق من نفسه يؤمن أنها لن تقترب أبدا أكثر من اللازم..
كان هو العنصرية مجسدة، وبالتأكيد لم يعتقد لحظة أن الإفريقي كائن بشري.. فلو كان مرافقو الحملة مجموعة من القرود لكان أكثر تعاطفا..
هذه أشياء لم تستسغها فيه.. لكنها لم تنكر أنه كان بارعا.
عندما انتصف النهار الرابع توقف، وأعلن للرجال:
- سنقيم معسكرنا هنا..
وكانت له نظرية خاصة به هي أنه ما من معسكر كامل إلا لو أحيط بفرجة خالية من الأشجار.. ويجب أن يحيط بهذه الفرجة سياج.. فيما بعد تذكرت أنها قرأت هذه الكلمات في رواية (كونغو) لـ (مايكل كرايتون Chriton)..
هكذا راح الرجال يقتطعون الأشجار.. ثم بدءوا في نصب الخيام.
قال لها (ستانلي) وهو يتفقد المشهد:
- هذه الفرجة الخالية من الأشجار تمنع الأعداء بشرا كانوا أم حيوانات من اقتحام معسكرنا.. لو كانت الأشجار تحيط بنا لتهاوى هؤلاء كالحجارة علينا من فوق غصون الشجر.
وبدأ باختيار بعض الرجال ممن يثق فيهم، فأعطاهم البنادق ووزعهم في أماكن عدة لحراسة المعسكر.. ثم دعا إلى إشعال النار.
- إنها الخامسة.. هذا موعد الشاي.
قالت له في حذر:
- هل تجد هذا أنسب مكان لشرب الشاي؟
- أنا نصف بريطاني.. ولا شيء سوى الموت يمكن أن يمنع البريطاني من شرب شاي الساعة الخامسة..
ثم جلس على صخرة هناك ودس غليونه في فمه وراح يدخن.
كان منظر محارب (الكيكويو) شبه العاري الذي يحمل صينية عليها أقداح الشاي وقوالب السكر غريبا بحق.
قالت له وهي تنفخ في الشاي ليبرد قليلا:
- هل تعتقد أنك متجه لمنابع النيل حقا؟
نفث سحابة دخان كثيفة وقال:
- على الأقل أنا متجه للمكان الذي كان يجب أن ينبع منه.. على أنني أعتقد أن النيل بدأ بداية حقيقية قبل هذا.. على الأرجح أبعد نقطة منه هي نهر (روفيرونزا Ruvyironza) في بورندى.. لكن ماذا يحدث بعد هذا؟ هذا هو اللغز الحقيقي..
- هل تعتقد أنك أول من سيكشف السر؟
- لا أعرف.. هناك أوغاد متحمسون كثيرون منهم (بيكر) و (شفاينفورث) و(سبيك).. كلهم يحاول الظفر بهذا المجد.. دعك من أنني متأكد من أن (ليفنجستون) اقترب جدا.. اقترب أكثر

من اللازم، لهذا أعتبره بالنسبة لي ذا نفع مزدوج.. من يجد (ليفنجستون) يجد منابع النيل..
هكذا مر العصر في مناقشات حتى غربت الشمس جاء الوطنيون بغوريلا ليشووها.. إن الغوريلات هنا أكثر وفرا من الغزلان.. في هذا الزمن السعيد كانت الغوريلا تحت كل حجر.. كما ترى هي أكلة شهية تسيل اللعاب فعلا، ولم تتمالك (عبير) شعورها بأن هؤلاء أكلة لحوم بشر يلتقون حول إنسان..
اقتطع (ستانلي) قطعة كبيرة من فخذ الغوريلا وقدمها لها، فهزت رأسها شاكرة:
- لقد تناولت نسناسا على الغداء فلم أعد جائعة..
- خسارة.. لا شيء يفوق مذاق الغوريلا..
وأنشب أنيابه في قطعة اللحم ففضلت ألا تنظر..
انتهى العشاء فراح الرجال يرقصون حول النار.. بصراحة لم يكن مزاجهم رائقا، ولم يكونوا راغبين في ذلك، لكنهم وطنيون وهذه حملة.. إذن لابد من أن يغنوا ويرقصوا حول النار ليلا.
- عمت مساء..
قالتها وهي تتجه إلى خيمتها..
وهناك في الظلام راحت تنظر إلى اللهب المنعكس على قماش الخيمة وتفكر.
أين كان المصريون في هذا الزمن؟ كان الأجدر بهم أن يخوضوا هذه المغامرة لاكتشاف النهر الوحيد في بلادهم.. لكنهم كانوا غافلين غائبين عن الوعي تحت حكم مولانا السلطان العثماني، وتركوا كنوز بلادهم ليكتشفها لهم الغربيون.. دعك من تلك الطبيعة المعادية للسفر لدى المصريين.. الالتصاق بالأرض.. هذا هو ما أخرهم أكثر من اللازم.. في الوقت ذاته كان البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والألمان يجوبون القارة فلا يتركون حجرا على حجر.. يصادقون القبائل أو يحاربونها.. يتعلمون لغاتها.. يرسمون الخرائط.. يكافحون الأمراض.. أراض بكر تكتشف للمرة الأولى وأعلام أوروبية ترفع في كل صوب.. هؤلاء القوم جديرون بالإعجاب بحق....
و....
فيم كانت تفكر؟ لقد جاء ساحر النوم ليبعثر رماله في عينيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحت من النوم شاعرة بذلك الشيء.
ذلك الشيء الذي يجعل النيام يفتحون عيونهم.
سمعت الزئير وشمت الأنفاس الكريهة.. لا جدال.. هناك كائن من تلك اللواحم يزج برأسه في خيمتها الآن.. ماذا تفعل؟ لو صرخت فلربما تصرف بجنون، ولو ثبتت وهذا عسير جدا فلربما يستمر في مهمته.. مهمته التي تعني التهامها طبعا.
الرأس الكبير يبدو في صورة (سلويت) على خلفية السماء الزرقاء.. لبؤة أو نمر على الأرجح.. لحظة تلتمع فيها النجوم على العينين الناريتين.. عينين تقتلان من دون أن تلمساك..
لم يعد مفر من الصراخ.. إنها لا تتحمل المزيد..
فتحت فمها وأطلقت صرخة جمعت ببراعة كل صرخات النساء في أرجاء الأرض.. لابد أنها مزقت أعصاب هذا الوحش وأعصاب كل الرجال الغافين من حولها..
هكذا أطلق الوحش ساقيه للريح، بينما تعالت أصوات الرجال.. وسمعت صوت طلقات..
أخيرا استطاعت أن تقف على ساقيها فخرجت زحفا من الخيمة لتجد لبؤة تركض في الأفق،

بينما يطاردها نحو مائة إفريقي يلوح برمحه.
(ستانلى) يقف جوارها، ويقوم بإعداد بندقيته العتيقة ثم يحكم التصويب على الوحش.. بوم!
لم يصب.. هذه بنادق عتيقة جدا لا تطلق إلا طلقة واحدة قبل أن يعاد تعبئتها..
قال لها وهو يراقب المطاردة:
- هل أنت بخير؟
هزت رأسها أن نعم.. فقال في حزم:
- هناك من سيحاسب على ترك هذه اللبؤة تتسلل هنا.. إن من يترك لبؤة تتسلل يترك قطيع أفيال..
هزت رأسها.. يجب أن يعاقب هؤلاء الرجال.. ربما بعض الجلد بالسوط أو قطع الرقبة.. الآن لم تعد مهتمة بالعنصرية بقدر اهتمامها بحقيقة أن أسدا كان على بعد متر منها..
الكارثة الأكبر كانت أن الرجال عادوا خالي الوفاض لم يقبضوا على اللبؤة برغم رماحهم وأجسادهم القوية وشراستهم.
هكذا انطلق (ستانلى) يشتمهم بالسواحلية.. ربما ببعض البانتويد.. وأنهى حديثه بشتائم أمريكية جدا لا يمكن ذكرها..
ثم أنه دس في يدها شيئا ثقيلا وقال لها:
- احتفظي به..
كان هذا مسدسا من الطراز العتيق عندما كان المسدس يدعي غدارة.. أداة زخرفية جميلة جدا لا تصدق أنها يمكن أن تقتل.. قالت له في رعب:
- لا أستطيع التصويب.. ولم أجرب قط أن..
قال في خبث:
- فقط أطلقيه قبل فوات الأوان.. سوف يعرف هو كيف يتصرف.. حواسك ستعرف كيف تتصرف.. فقط لا تغمضي عينك لتنحرف الطلقة مترين إلى اليسار.
وغادر المكان، فدست المسدس في صدرها.. وقررت أنها لن تستعمله أبدا.
وفي الصباح أعلن أنهم سيمضون هنا ثلاثة أيام للراحة ثم يعودون للحركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقع الناس شرا عندما طالت تلاوة القرآن الكريم في الإذاعة والتليفزيون.. ثم ظهر (أنور السادات) على شاشات التليفزيون يعلن الخبر بصوت مبحوح: مات (عبد الناصر)..
في ذلك الوقت (أوائل السبعينات) لم يكن أكثر الناس يملكون التليفزيون، لذا كانوا يشاهدونه في الحدائق العامة التي تضع فيها وزارة الثقافة جهاز تلفزيون على قاعدة عالية.
وهكذا شهقت مصر كلها شهقة واحدة.. لا أحد يصدق.. النسر الأسطوري الجميل القادم من أساطير التاريخ كي ينقذ البلاد قد مات..
هناك من هاموا به حبا.. هناك من كرهوه بشدة إما لبعض التجاوزات التي شهدها عهده.. أو بسبب هزيمة 67، لكن كانت هناك حالة نفسية معقدة كالتي سادت الاتحاد السوفييتي عندما مات (ستالين).. إنه الأب الذي مات.
الأب الذي حسبه الجميع أقوى من الموت نفسه فعرفوا أن الله وحده حي لا يموت.. حتى المعتقلين في سجونه بكوه.. وهي حالة أجاد الكاتب الروسي (إيليا أهرنبورج) وصفها في قصته (ذوبان الثلوج)..

هكذا خرج الناس مذعورين يجرون في الشوارع المظلمة، وهم يرددون: يا ناصر يا عود الفل.. من بعدك حنشوف الذل.
لا يدرون متى ولا كيف وجدوا أنهم يحتشدون على ضفة النيل.. هذه ملاحظة ذكية أبداها الأستاذ (هيكل) ولا يعرف لها تفسيرا.. في كل محنة تحل بالمصريين تجدهم لا شعوريا يتجهون إلى النيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا تصل الحملة إلى أهم منطقة في الرحلة.
في البداية لم تتبين ما تراه جيدا.. بدا لها كأن سهلا كاملا لونه أزرق..
ثم أدركت أنها ترى بحيرة.. بحيرة هائلة الحجم.. المشهد أسطوري وهي تراه من عل، بينما الرجال الذين تفرقوا من حولهم يتحدثون بلغتهم بسرعة ويشيرون لبعض في حماس.. هذا الوحش الطبيعي الراقد أمامهم لم يقلق أحد راحته منذ خلقه الله.
لكن الحيوانات أكثر حكمة، وقد كانت تعرف هذا المكان جيدا.. ملحمة كاملة يسيل لها لعاب أي مصور في (ناشونال جيوجرافيكس) وهو يرى أفراس النهر تستحم وتتبادل الغزل ثقيل الظل، بينما التماسيح تتظاهر بأنها ليست خطرة إلى هذا الحد، والغزلان الهيابة الوجلة تحاول الظفر ببعض الماء فيحوم حولها طائر (الفتان) ثم يركض ليخبر التمساح تمساح يثب من الماء بسرعة البرق ليقبض على خطم ظبي ويجره معه، بينما يحدث الأخير قدرا من الفوضى والرذاذ يجعلانك عاجزا عن فهم ما يحدث.. وتتصايح القردة في مكان ما.. وتحلق الطيور.
وتنظر (عبير) إلى (ستانلى) فيبادلها النظر.. الغباء والحيرة في عينيه تقولان بلسان فصيح إنه لم ير هذا المكان قط ولم يعرفه على أية خارطة....
- مذهل!
قالها وهو يرتجف..
- رائع!
قالها وصدره يعلو ويهبط.
ومد يده ليخرج غليونه.. وضعه في فمه مقلوبا لأسفل وراح يحاول إشعاله في هذا الوضع فكان ما ظفر به أن أحرق طرف لحيته.. لكنها لم تصرخ ولم تضحك.
بالفعل هذا مشهد يثير الذهول ويبعث القشعريرة..
بحيرة لم يرها مخلوق قبلك ولم ترسم على أية خارطة من قبل.. بحيرة كاملة.. ليست بركة.. ليست بقعة ماء صنعتها أم (بلبل) عندما أفرغت دلو الغسيل القذر أمام بيتك.. بل هي بحيرة كما خلقها الله.. بحيرة لم تروض ولم يحطم أنفها وشموخها البري العجيب.
سمعت أحد الأدلة يتكلم بلغته وإن بدا أنه يقول معلومات بالغة الأهمية، لكن (ستانلى) لم يبد متحمسا..
مالت عليه تسأله عن الموضوع، فقال:
- يقول إن العرب يعرفون هذه البحيرة.. كانوا يسمونها (أوكيروي).. هذا هراء..
لكنها كانت تعرف أن هذه هي الحقيقة على الأرجح.. لقد جاب العرب إفريقيا وعرفوا كل ركن فيها وهذا في عصور ازدهارهم طبقا، قبل أن يغلبنا داء الجلوس في البيوت ننعى حظنا واضطهاد الأمم لنا.. من الغريب أن التقدم يقترن بالترحال وحب المغامرة.. لقد كان (فاسكو دا جاما) يبحث عن طريق للوصول إلى الهند عندما قابل بحارا عربيا متواضعا اسمه (أحمد بن ماجد)..

هنا أصيب القبطان البرتغالي بالرعب عندما عرف أن هذه أمور بديهية بالنسبة للعرب، وأنهم كانوا يقطعون الطريق إلى الهند بالسهولة التي تذهب بها أنت لمتجر عم (دسوقي) البقال.
متى ضاع منا الطريق؟ متى؟
أخرج (ستانلي) بعض أجهزته وجلس على العشب الكثيف المحيط بالبحيرة وراح يحدد الإحداثيات، ثم غلى بعض الماء ووضع فيه (الترمومتر).. وهي الطريقة التي كانوا يحددون بها ارتفاعهم عن سطح البحر.. حكى (مارك توين Twain) الكاتب الأمريكي الساخر عن أنه في إحدى رحلاته نسي إن كان عليه غلي الترمومتر أم البارومتر، وفي النهاية غلي الأول.. في النهاية عجز عن تحديد الارتفاع، لكن المسافرين معه أحبوا مذاق حساء البارومتر كثيرا حتى صاروا يطالبون به يوميا!
قال لها بعد ما غلى الترمومتر:
- هذه البحيرة عالية جدا.. إن هذا مهم لأن معناه أن الماء يخرج منها ليبدأ رحلة النيل..
ثم وقف وبلهجة مسرحية قال:
- سأطلق على هذه البحيرة اسم ملكة إنجلترا حفظها الله.. (فكتوريا).. ستكون هذه بحيرة (فكتوريا) من الآن فصاعدا..
وقفت (عبير) ترمق المشهد شاعرة بالفخر وبعض الحسد.. هذا من حقه طبقا.. ولو اكتشفها عربي الآن لأطلق عليها (بحيرة الإدريسي) مثلا..
- فكتوريا نيانزا!!Victoria Nyanza
كذا تصايح رجال القبائل وقد سمعوا الاسم.
البحيرة العملاقة التي تقع في (أوغنده) و (كينيا) و (تنزانيا).. المنبع الرئيس للنيل.. وفي الحرب العالمية الأولى سوف تكون ضفافها مسرحا للقتال بين البريطانيين والألمان.
لكن القضية أعقد من هذا.. ما زالت هذه هي البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- هل أنت (ليفنجستون)؟

إمتى الزمان يسمح يا جميل، وأقعد معاك على شط النيل.
عرض عليها (عادل) ما توقعته وألح في الطلب.. وكانت تعرف أنه مهذب يخشاها أكثر مما تخشاه..
وكانت تستريح إليه.. هكذا وجدت أنها تمشي معه على كورنيش النيل في وقت العصر.. قال لها وهو يرتجف انفعالا:
- أنا.. أنا سعيد.. سعيد بحق..
وأدركت أن الانفعال يوشك على خنقه.. رائحة الذرة المشوية الزكية.. اتجه إلى البائع وابتاع كوزين ثم عاد لها مظفرا.
بعد قليل رأي بائع الترمس يقف وهو يصب بعض الماء من دلو متسخ علي بضاعته فركض ليبتاع لها بعضه.. قالت في حذر وخجل:
- ألا تخاف التيفود؟ إن أمي تقول..
نظر لها البائع في سخرية من طراز (هأو)، ثم أخرج نصف ليمونة وعصرها على القرطاس الذي تمسك به.. وقال في شيء من الفتور:
- هذا يكسر السم..
الترمس والفول المقيلي وحمص الشام.. أشياء لها مذاق خاص في هذه اللحظات.
جوار البائع أريكة حجرية.. يجلس (عادل) ويشير لها كي تجلس بجواره.. ثم تلقائيا يوليان وجهيهما شطر النهر الرمادي وظهريهما للعالم الصاخب.. المراكب تشق طريقها وسط الماء وثمة سفينة نهرية صغيرة تتجه للقناطر يقف على ظهرها شباب يصفق ويرقص.
هنا يمر بائع السميط فيبتاع منه الفتى اثنتين.
صاحت محتجة:
- هل أنت جائع لهذا الحد؟
ثم أدركت أنه يحاول التغلب على خجله وارتباكه بأن يشتري أي شيء في أية لحظة.. على كل حال هذه طريقة رشوة معروفة للتخلص من البائع السمج الذي لن يتركهما أبدا.. كلهم كذلك.
يكسر (عادل) قطعة من السميط ويقرب منها ورقة الملح كي تغمس قطعتها ويقول:
- أنا. أنا سعيد
ومن المذياع العتيق المربوط بألف خيط الذي يعلقه
بائع الترمس خرج صوت (عبد الوهاب) يترنم:
- النيل نجاشي.. حليوه أسمر.
عجب ف لونه ذهب ومرمر..
أرغوله في إيده يسبح لسيده..
حياة بلادنا.. يا رب زيده!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمضي الأيام ولا شيء يحدث..
فقط يتحرك (ستانلى) ومن معه حول محيط بحيرة (فكتوريا) وهو يرسمها بدقة بالغة. لاحظ

انها بحيرة عملاقة تقع في ثلاث دول: (أوغنده) و (كينيا) و (تنزانيا).. لذا لم تكن العملية بهذه البساطة.
صحيح أن التماسيح ظفرت بعدد من الرجال، لكن كل شيء هادي في الجبهة الغربية) كما تعلم.. ما دام (ستانلي) ومادامت (عبير) حيين فكل شيء هادئ.
قال لها مفكرا:
- الماء يغادر هذه البحيرة في مكان ما.. ولكن أين وكيف؟
قالت في بساطة
- هناك نهير في مكان ما.. هذا واضح.. لقد انتهت القصة..
لكن الاكتشافات لا تنتهي بهذا الشكل..
لابد من أن يجد السبيل الذي يغادر به الماء البحيرة..
كان قد بدأ يرتجف وارتفعت حرارته.. سألته والعرق يغمر ثيابه حتى كأنه سقط في البحيرة:
- ماذا دهاك؟
- إنها المل.. مل.. مل .... ملاريا.. ها.. هذا واضح. ح.. ح..
- إذن لماذا لا تتناول بعض الأقراص المعالجة؟
- هذا سهل.. لأنها لم تكتشف بعد..
خطر لها أنه لو هلك لصارت في مأزق.. عليها وحدها أن تقود ألفي رجل من القبائل لا تعرف كلمة واحدة من لغتهم. أما المأزق الأسوأ فهو أن تصاب بالملاريا بدورها.
كان راقدا في ظل شجرة يرتجف.. يمارس أطوار الملاريا المعروفة بانتظام تام: يسخن ويرتجف يعرق.. ينهض شاعرا بالتحسن.. هكذا في دورة لا تنتهي.. وراح الوطنيون يصبون في حلقة سوائل لا تعرف ما هي لكنها لا تفيد على كل حال.
كان هذا عندما جاء أحدهم يركض، وركع جوار الفراش وراح يحكي قصة مثيرة:
- (جومبا) أوجاجا جوهو مومبائا سو أكيكي
بدت الدهشة على وجه (ستانلى) فنهض على الفور.. وعاد يسأل:
- سو أكيكي؟
فأكد الزنجي كلامه:
- سو أكيكي.. أؤكد لك.
على الفور عادت الحياة إلى المستكشف البريطاني فنهض وارتدي ثيابه لأنه كان نائما شبه عار بسبب الحمى.. وصاح في الرجال من حوله:
- سو أكيكي!
هنا دبت الحماسة فى الجميع وراحوا يجمعون سلاحهم وحاجياتهم.
سألته (عبير):
- هل ترى أن حالتك تسمح بالذهاب الآن؟ حتي لو كان (سو أكيكي)؟
قال وهو يضع بندقيته على كتفه:
- الأخبار الطيبة تشفيني كأفضل الأدوية.. (سو أكيكي) وتريدين مني أن أنتظر؟
قالت في غيظ:
- هل لي أن أفهم الموضوع؟ أشعر انني الحمقاء الوحيدة هنا.
- د. (ليفنجستون) قريب.. إنه في قرية اسمها (أوجيجي Ujiji) على ضفاف بحيرة (تنجانيقا)!
- لكني لم أسمع كلمة (ليفنجستون) في كلمة واحدة مما قيل..

لم يرد إنما صاح في الرجال كي يلحقوا به.. وهكذا تحرك الموكب
فكرت (عبير) وهي تلحق بهم أن مهمتها انتهت عند هذا الحد.. لقد أرسلت للبحث عن (ليفنجستون) وقد وجدته.. الآن يمكنها أن تعود.
قالت له هذا، فقال:
- من حقك أن تعودي.. لكني مستمر في البحث عن منابع النيل سواء بك أو بدونك..
وأخرج قلما وراح يدون أشياء في مفكرة صغيرة يحملها فسألته:
- ماذا تكتب بالضبط؟
قال دون أن ينظر لها:
- أدون أجزاء من كتابي (كيف وجدت ليفنجستون عبر القارة المظلمة؟).. إنه سيكون كتابا عظيما..
في غيظ قالت:
- ألا تلاحظ شيئا؟ أنت لم تجد (ليفنجستون) بعد.. من الممكن أن يموت الآن أو ينقض عليك خرتيت يمزقك إربا..
في مصر نعتبر هذا نوعا من (المقاطعة) مما يعني أنها الطريقة المثلى كي تفشل المهمة.. لكن الوغد كان واثقا من نفسه.. واثقا من (ليفنجستون).. واثقا من الخراتيت وذباب (تسي تسي).. واثقا من عمره وشرايينه التاجية.
وهكذا تحرك الموكب.. الأفارقة يغنون بصوت عال فيرد المتخلفون منهم.. سألت (ستانلي) الخبير بهذه اللغات عما يقولون، فقال:
- يقولون: سوف نجد هذا الأحمق البريطاني من ثم نقبض أجرنا ونتخلص من هذين المخبولين.. إن الغناء يشجع على العمل كما ترين..
ومضت المسيرة وسط تلك الأغاني الغامضة
متجهة إلى بحيرة (تنجانيقا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (ستانلي) مريضا جدا عندما لاحت القرية من بعيد.. لقد ظهرت قروح عديدة على وجهه وسقط جزء من أنفه كما أنه كان محموما فسألته في قلق:
- هل هي الملاريا من جديد؟
- لا.. إنه (الياوز Yaws) هذا مرض غير معتاد في إفريقيا.. ربما الجذام كذلك لكني لست متأكدا.. على كل حال أنا بخير.
وفي حماس واصل السير متقدما الرجال.
كانت بحيرة (تنجانيقا) تلوح من بعيد عندما راح أهالي القرية يلتفون حول القادمين.. إن ألفي رجل رقم كبير، وقد خيل للقوم أن هذه حرب قادمة، لكنهم فهموا أن هؤلاء جميعا جاءوا من أجل الأخ (ليفنجستون) الذي يؤوونه في قريتهم منذ عام.. حتى صاروا يتبركون به أو يعتبرونه عبيط القرية، بالمنطق الذي يوجد فيه في كل قرية عندنا شيخ (عطوة)....
مشي (ستانلي) في ثقة بين الأكواخ.. وأمامه مشى ذلك الإفريقي الذي أخبره بأن (سو أكيكي)..
أخيرا دنت (عبير) لترى رجلا أوروبيا أقرب إلى الأشباح يرقد في كوخ قذر، وقد صارت ضلوعه بارزة بشكل يغري أي طالب طب.
عينان غائرتان تنظران بلا تركيز إلى القادمين وفم يرتجف.. رائحة تصيبك بالغثيان.. لكن لا تنكر

أنه حي..
قال (ستانلى) العبارة الخالدة التي دخلت التاريخ باعتبارها رمزا للبرود الإنجليزي:
- د. (ليفنجستون) كما لى أن أفترض؟
قال الرجل في الكوخ بوهن وبلهجة أسكتلندية لا شك فيها:
- تشرفنا يا سيدي..
حرارة مشاعر ترسل الدمع إلى مقلتيك! وهكذا تم التعارف بشكل بارد راق متحذلق، كأنهما يلتقيان في أحد أندية (لندن).. لا شيء يوحي بأن أوروبا كلها تبحث عن هذا المريض الراقد في الفراش، ولا أن هذا يعد أهم اكتشافات القرن..

خارج الكوخ والشمس تكوي الأرض لتجعلها بلا تجاعيد.. مستوية تماما، قالت (عبير) في لهفة:
- إنه هو.. لكنه مريض جدا..
قال (ستانلى):
- لا بد أن حياته هنا لم تكن آية في النظافة. لكنه حي على الأقل لو كان لي أن أقول هذا..
- إذن سوف نعيده إلى الوطن؟
- أعتقد هذا.. سوف يحمله الحمالون إلى الساحل الشرقي ثم إلى بريطانيا..
ثم فرك عينه بقوة فسألته:
- هل هي الملاريا؟
راح يفرك حبتي عينيه كأنه يبغي أن يسحقهما.. وقال:
- بل هي دودة (لوا لوا).. إنها تحب أن تتنزه تحت الملتحمة مما يسبب حكاكا قويا..
قالت له في ملل:
- هل لديك خطط أخرى بالإضافة إلى أن تتحول إلى مرجع حي لطب المناطق الحارة؟
- لا شيء.. سوف أواصل استكشاف بحيرة (فكتوريا)..
- وأنا لن أعود!!
لم يكن هذا صوت (عبير) إلا لو كانت قد تحولت إلى رجل.. رجل إسكتلندي..
نظرا إلى الخلف ليريا (ليفنجستون) واقفا.. كان يتوكأ على عصا.. ويجر نفسه جرا لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق مخيف..
وأردف الرجل:
- إنني قطعت طريقا طويلا.. لقد غيرت كل الخرائط الخاصة بإفريقيا.. ولسوف أستمر.. سوف أدفن في آخر بقعة بلغتها خطاي في إفريقيا..
قال (ستانلي) بتهذيب:
- سيدي.. لتكن روحك رياضية.. لقد انتهى السباق بالنسبة لك.. أنت تجر ساقيك بكثير من العسر.
- يمكن أن يحملوني.. هذا شيء أنا قادر عليه..
ثم لمعت عيناه أكثر.. الشيء الوحيد اللامع فيه كأنهما جمرتان باقيتان في كومة من الرماد.. وأردف:
- أنا اكتشفت حدود بحيرة (تنجانيقا).. سوف تراها معي..
راحت (عبير) ترمق الرجلين.. كلاهما أقرب إلى الخبال ومريض جدا.. لكن التصميم يجعلهما يشفيان بشكل مؤقت ويتماديان إلى آخر مدى.

قال (ستانلي) وهو يمد يده إلى (ليفنجستون):
- ليكن يا سيدي.. سأقبل عرضك.. لكن يمكننا أولا أن نقضي أمسية طيبة.. إن معي أوراق لعب كاملة وأنا أجيد لعب البريدج..
- سيكون هذا شرفا لى يا سيدي..
وهكذا اجتمع الرجلان في المساء.. وحول النار المشتعلة ووجبة شهية من التماسيح راحا يلعبان الورق.. بينما (عبير) لا تكف عن تأمل المستكشف الشهير..
(ليفنجستون) مهتم جدا بمعرفة آخر ما نشرته صحف لندن وآخر الفضائح.. (إليصابات) قد هربت مع سكرتيرها الخاص.. يا للفضيحة! (مكجريجور) يحب وصيفة زوجته.. يا للكارثة! لم يعد هناك سادة مهذبون في لندن.. ثم الكلمة الأشهر التي يقولها البريطانيون في كل مكان وزمان:
- البلد ذاهبة إلى الكلاب!
وتنظر (عبير) إلى (ليفنجستون) ممزق الثياب بارز العظام الذي أتلف أكل السحالي صحته، وتسمعه يتكلم عن السادة المهذبين فتوشك على أن تقول له: إنت في إيه ولا إيه؟
لاحظت أن (ستانلي) لم يتكلم كثيرا عن بحيرة (فكتوريا) و (ليفنجستون) لم يذكرها برغم أنه رآها حتما.. كلا الرجلين يخفى ما يعرفه عن صاحبه.. هذا واضح.
وفي الأيام التالية راح الرجلان يرسمان حدود بحيرة (تنجانيقا)...
كان هذا جهدا شاقا مع الحر والعرق والجهد العضلي، خاصة و (ليفنجستون) عبارة عن شبح يبدو كالبشر..
لو صافحته لسقط أرضا.. لو سعلت جواره لأصيب بالدرن..
هكذا جاءت اللحظة المحتومة التي تأخرت بعض الوقت.
لقد سقط على الأرض تحت شجرة.. وراح يرتجف ويرتجف فخلع (ستانلى) قبعته وكف عن التدخين على سبيل الاحترام.
قال (ليفنجستون) بصوت كالفحيح:
- أعتقد أن جولتي الاستكشافية انتهت هنا أيها الزميل..
قال (ستانلي):
- أعتقد هذا يا صديقي..
- أرجو أن تتأكد من إلغاء اشتراكي في جريدة (جارديان) وأن تخبرهم بذلك في النادي..
- سأرى أن ذلك تم يا صديقي..

ابتسم (ليفنجستون) وقد شعر بأنه قام بكل ما يجب على المواطن البريطاني أن يقوم به لحظة موته، ثم تذكر شيئا فقال:
- حفظ الله الملكة.
وأغمض عينيه للأبد.
كادت (عبير) تبكي لكن (ستانلى) أوقفها في حزم، وصاح في أحد الحمالين بالسواحلية فانتزع هذا سكينا عملاقا من حزامه وانقض على جثة (ليفنجستون)..
- ماذا يفعل هذا المخب...؟
وقبل أن تكمل حرف (الواو) كان الحمال يقف حاملا القلب الذي ما زال ينبض.. فقال (ستانلي) في تأثر
- سندفنه تحت الشجرة التي مات عندها!!

- ألا تريد أن تطبخ كبده على سبيل التكريم؟؟؟
هكذا دفنوا القلب وحده.. ووقف (ستانلى) يتظاهر بالتأثر مطرق الرأس لمدة 36 ثانية كاملة، ثم اعتمر قبعته وصاح في الرجال.. سألته (عبير) التي لا تصدق ما يحدث:
- ماذا يجري هنا؟
- أمرتهم بحمل الجسد ليدفن في (زنزبار).. هذا واجبنا نحوه!
كادت تصفعه.. جسد مشوه في صدره فجوة عملاقة.. هل هذا هو الوفاء وإكرام الميت على الطريقة البريطانية؟ لكن (ستانلى) كان قد نسي كل شيء عن (ليفنجستون).. فقط أضاف بعض ملحوظات لمفكرته وقال لها في مرح:
- لقد انتهى كتابي.. يمكنني أن أنطلق كما يحلو لي..
- تنطلق؟ أين؟
- إلى بحيرة (فكتوريا).. يجب أن أعرف من أين يخرج النيل منها..
- وأنا؟
- أنت حرة.. تعودين لتكتبي مقالك أو تصحبيني لما هو أهم من (ليفنجستون).. منابع النيل!

5- وداعا (ستانلي)

كان رجال (ستانلى) يتناقصون بسرعة مرعبة، الأمر الذي ذكرها ب. (شوطة الدجاج) في المزرعة التي جرب خالها حظه فيها.. وهي اختراع عبقري جعله يخسر ثلاثة آلاف جنيه في شهر.
كل أنواع الأوبئة دبت في الرجال، دعك من هجمات (الماساي) من وقت لآخر.. عندما يهجم (الماساي) لا تعرف ما يحدث.. فجأة ترى عددا من الأسود تنقض عليك راكضة من وراء الأشجار.. أسود تمشي على قائمتين ولها لبدات ثائرة وتلوح بالرماح.. وسرعان ما يسقط عشرة رجال على الأقل بينما يصيح كبير المحاربين:
- واراري!!
ثم يعودون خببا إلى ما وراء الأشجار.. كل حياة هؤلاء القوم جرى وقفز.. الآن اضرب هذه الهجمة في مرتين يوميا لمدة شهرين تجد أن هناك نزفا مروعا في الموارد البشرية لدي (ستانلي)..
أما (ستانلي) نفسه فقد تورمت قدماه حتى صارتا كجذع الشجرة.. ويبدو أن بوله صار أبيض اللون كالحليب حسب كلامه.. سألته في قلق:
- هل هي الملاريا؟
- بل هو داء الفيل.. إن البعوض هنا شرس جدا..
لكن عزيمته لم تفتر.. راح يتتبع مسار بحيرة فكتوريا بدقة.. تلك البحيرة التي بدا ل. (عبير) أنها المحيط ذاته وأنها لا تنتهي أبدا.
إلى أن جاء اليوم الذي توقف فيه أمام نهر تجري مياهه بغزارة، وقال لها:
- هذا هو النهر الذي يغذي البحيرة.. سأطلق عليه اسم (كاجيرا Kagera)..
- هذا جميل.. لكن لماذا (كاجيرا)؟
- ولماذا ليس (كاجيرا)؟ أعطيني سببا واحدا يمنع ذاك..
لكنها كانت عرفت سبب أنه أطلق على النهر (كاجيرا).. السبب أن نهر (كاجيرا) هو الذي يغذى البحيرة ولا سبيل لتغيير هذه الحقيقة.
ثم توقف (ستانلي)، وقال لها:
- الآن نفترق..
- يا سلام؟
قال بلهجة عملية:
- لقد وجدت البحيرة وهذا كاف ورسمتها بدقة.. لكني لن أضيع باقي حياتي هنا..
- لكنك قلت إنك ستضيع حياتك هن.
- لم أكن أفهم نفسي بدقة.. هذه مهمة تحتاج إلى صبر ووقت طويل، وأنا نافد الصبر مولع بالحركة.. لابد من مشاكل في مكان ما ولا بد من قتال.. هذه الحياة لا تناسبني.. أنا فرس جامح بينما هذه المهمة تحتاج لحمار.
ثم مد يده ملوحا بورقة في يده، وقال:
- هذه برقية وصلتني أمس من الوطن.. إن هذه البرقيات تصل بسرعة تدير الرءوس.. عام ونصف هي فترة تفوق الخيال.. إن العلم لن يتوقف عند حد..
- وما محتواها؟ أنك لست حمارا؟
قال وهو يعيد قراءة نص البرقية:

- قوات المهدي تحاصر (محمد أمين) باشا.. قف.. توجه إلى السودان المصرى.. قف.. خذه معك إلى مصر قبل أن يقتلوه.. قف..
هذه ثورة المهدي الشهيرة إذن.. إنها أيام ملتهبة لو صدقنا كتاب التاريخ في المدرسة الثانوية..
كادت تنسى حقيقة أن (ستانلي) في النهاية مجرد مستعمر بريطاني.. واحد ممن كانوا يجوبون شوارع القاهرة سكارى فيخنقهم رجال المقاومة.
إذن الأخ (ستانلي) سيترك مهمته الكشفية ليذهب للسودان ليقمع الثورة وينقذ (محمد أمين) باشا.
قالت في سخرية:
- سنة ونصف لوصول البرقية.. لابد أن ورثته قد ماتوا بالشيخوخة..
- لا تنسى صعوبة توصيل الأخبار لمن هو مثل تائه في أحراش إفريقيا.. إن العنوان الذي أرسلت له البرقية هو السير (هنري ستانلي مورتون) في مكان ما حول فكتوريا نيانزا! إن موظف البريد بارع حقا.. دعك من أن التماسيح التهمت ستة قبله.. إنه السابع!
كان يتكلم وهو يشمر السروال عن كاحله، ثم راح يحك جلده حتى ظهر ذيل طويل أبيض يشق طريقه جوار الكاحل بالضبط.. استغرقت (عبير) بعض الوقت كي تفهم أن هذا جزء من دودة يبرز متراقصا من تحت اللحم كأنه وريد من أوردة الساق
- ما هذا بالضبط؟
قال في لا مبالاة:
- هذه (دودة المدينة).. إنها تثبت رأسها في الحوض بينما جسمها كله تحت الجلد فلا يبرز منها إلا مؤخرتها عند الكاحل.. هذه نتيجة شرب ماء الآبار غير المغلى في منطقة استوائية كهذه..
قالت لنفسها إن الرجل صار كنزا حقيقيا.. المفترض أن يحنطوه في إنجلترا لتتم دراسة طب المناطق الحارة عليه.. قالت له لما وجدته غير مكترث كالعادة:
- وماذا عني أنا؟
قال في برود:
- تعودين للوطن كما قلت لك أو تواصلين البحث عن منابع النيل..
- يا سلام! وأقود المائتي رجل هؤلاء؟
كان الألفا رجل قد صاروا مائتين.. هذا طبيعي مع كل الحر والملاريا والماساي والتماسيح والأسود..
قال لها باسما:
- لو اتجهت غربا قليلا لوجدت من يواصل معك الرحلة.. لا تنسى أنهم كالذباب الآن..
- من هم؟
صمت ولم يعلق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكررت اللقاءات مع (عادل)..
(كوثر) و (عادل).. (عادل) و (كوثر).. النيل فقط يعرف.. النيل وبائع الترمس.
النيل يعرف أدق أسراري.. لا غرابة في هذا فمنه جئت أنا.. هل هذا اللون الأسمر صدفة؟ إنه الطمي قد ترسب في كل خلية من خلاياي.
المزيد من الترمس الذي عُصر عليه الليمون..

و (عادل) يقول لها:
- سوف أنهى دراستي وأتقدم لك..
- ماذا ستقول لأبي؟
- سأقول إن لي مستقبلا باهرا.. سأقول إنني سأضعك في عيني.
- وتقول له إنك مفلس..
كانت تعرف أباها.. الموظف في المطاحن الذي كافح كفاح الشهداء حتى يصل إلى درجة وظيفية تسمح بإطعام أطفاله.. بالتأكيد هو يمقت شبابه. بالتأكيد لا يريد من يذكره به.. بالتأكيد لا يريد شيئا من هذا لابنته.. (كوثر) سمراء جميلة وبالتأكيد يمكنها أن تجد فرصة أفضل..
(عادل) يمد يده في جيبه ثم يخرج شيئين:
- ابتعتهما أمس
هما دبلتان رخيصتا الثمن.. على الأرجح لا يتجاوز ثمن الواحدة جنيها.. يمد يده مناشدا فتمد إصبعها ليولج الدبلة فيه.. هنا تتساءل في رعب وقد تذكرت:
- سوف يرونها!
- انزعيها على باب البيت.. لكن لا تقابليني إلا وهي في يدك..
ويمد إصبعه مناشدا بدوره فتولج فيه الدبلة خطبة غريبة من نوعها.. لكن النيل يرحب بها ويزغرد..
النيل يجري متظاهرا بالسرور، لكنه حكيم مجرب يعرف أكثر.. إنه قلق عليهما ويعرف جيدا ما عليهما أن يمرا به.. لقد عاش هذا الموقف مليون مرة من قبل.. غريران لا يعرفان شيئا ولا يفهمان قوانين المجتمع، لكن دعهما يتعلما بالطريقة الصعبة.. من يدري؟ لربما ينجحان فيما فشل فيه كل من سبقوهما؟
ينظر (عادل) لها وتضحك عيناه.. بائع الترمس يتظاهر بأنه لم ير شيئا لكنه يرفع من صوت المذياع أكثر ليدوي صوت (عبد الوهاب) من جديد.. هل هناك من غنى للنيل أكثر من (عبد الوهاب)؟
- هل تذكرين بشط النيل مجلسنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الفراق أليما بحق ودمعت عيناها كثيرا.. لقد قال لها (ستانلي) في برود:
- أراك فيما بعد.
ثم اصطحب معه عشرة حمالين وتواري في الأحراش.
سوف يذهب إلى السودان.. لكنه أولا سيقابل الملك الأسطوري الطاغية (موتيسا) في (أوغنده)، ثم يذهب إلى السودان لينفذ تلك المهمة الشبيهة بفيلم (إنقاذ المجند رايان)، وعلى طريقة الفيلم الشهير لن يقبل (محمد أمين) الفرار إلى مصر ويصر على البقاء لمواجهة مصيره، وهو ما سيثير غيظ (ستانلي) العملي جدا.. إذن لماذا عطلت اكتشافاتي ومن أجل من؟ هكذا يعود (ستانلي) إلى بريطانيا وينشر كتابه عن (كيف وجدت ليفنجستون عبر القارة المظلمة؟).
ثم ينال رتبة (فارس).. ثم يعود إلى إفريقيا لتنقيح ما عرفه عن بحيرة (فكتوريا).. لكن هذه قصة أخرى.
الآن (عبير) وحدها مع الرجال.. وهي مهمة عسيرة بحق حتى أنها تمنت أن يهاجمهم الماساي

بكثافة أكبر.. لو صارت مسئولة عن عشرين رجلا لكان هذا أفضل.
إلا أن هناك رجلا مهذبا يجيد الإنجليزية نوعا واسمه (مامولداي).. لا بد من واحد يصدر التعليمات للرجال ويخلص لها حتى الموت.. ويقول لها (ميث) لأنه يخرج لسانه عند نطق السين كعادة أكثر الأفارقة. هذا الرجل سيكون ذراعها اليمني في هذه الرحلة..
الآن وقد صار لها حليف قررت أن تتجه غربا كما نصحها (ستانلي)..
وقد وجدت نفسها تتبع ذات أساليبه في بناء المعسكرات والتعامل مع الوطنيين، وإن لم تملك أعصابه القوية وساديته.. لهذا كانت أكثر رفقا..
ومن جديد تشق الأحراش وخلفها حشد الرجال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- مرحبا (سبيك)

فجأة توقف (عادل) عن الكلام نظرت له في حيرة فرأته ينظر إلى الوراء مثبتا نظره بطريقة أقلقتها.. تتبعت عينيه لترى أسوأ مشهد رأته في حياتها.
إن أخاها يقف هناك مع صديق له.. على وجه الصديق تعبير يقول: ألم أقل لك؟؟ والأخ ينظر لها نظرة كفيلة بحرقها لو أنها كانت كومة فحم.
وشاية نجحت.. وكارثة في الطريق.
اتجه (عادل) في خطوات ثابتة إلى أخيها، وقال له في تؤدة:
- (هشام).. أليس كذلك؟؟ هذا اسمك.. سأشرح لك كل شيء..
كان يكبر الفتي سنا وكان أطول منه بكثير لذا بدا (هشام) هو الطرف الأضعف في المشاجرة.. لكن الفتى تجاهل (عادل) تماما، واتجه نحو أخته وجرها بغلظة من يدها:
- تعالي يا ست هانم.. سوف يتصرف أبي معك!! عاد (عادل) يكرر، وهو يضم أنامله في إيماءة شهيرة معناها: اصبر لتفهم
- ولكن دعني أشرح لك..
لكن الفتى لم يصغ لأحد.. فقط جر الفتاة، ولم ينتظر ليسمع صديقه.. تذكرت المشهد النهائي الرهيب لرواية (بداية ونهاية) لـ (نجيب محفوظ).. الضابط يأخذ أخته من قسم الشرطة.. ويقف معها مطلين على النيل.. لكن الأمر ليس بهذا السوء هنا..
نظرت لـ (عادل)، وهي تبتعد فرأته صورة للحيرة والعجز.. ماذا بوسعه أن يفعل؟
وغمغم بائع الترمس، وهو يصب المزيد من الماء على بضاعته:
- هذا يحدث دائما.. العشاق يحسبون أن جلوسهم ووجههم للماء كاف كي لا يعرفهم أحد.. لكن الأمور لا تسير بهذا الشكل دائما.
ومن جهاز المذياع يأتي صوت (عبد الوهاب):

مســـــافر زاده الخيـــــــــال   والعشق والسحر والظلال
شابت على أرضه الليالي   وضـــــيعت عمرها الجبال

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشي.. المشي.. المزيد من المشي.
غناء الأفارقة يتعالى وأنفاسها تنقطع.. وفي الليالي المظلمة الباردة كانت تشعر بذلك الشعور الأنثوي الخالص.. لا بد من رجل.. رجل تثق به ويحميها ويملأ الكون طولا وعرضا فتغمض عينيها مستريحة..
كانت الأغنية القديمة تقول: «الأمر يتطلب امرأة.. حبيبة كانت أو صديقة أو زوجة».. هي الآن تردد نفس الأغنية لكن مع استبدال رجل بامرأة.. وهي لا تريد حبيبا ولا زوجا.. فقط تحتاج إلى دليل.. شخص يحمل عنها هذه المسئولية.
لو هلك أحد الرجال الآن فهذه مسئوليتها.. ولو هلكت هي فتلك غلطتها..
لهذا يمكننا فهم سرورها عندما فتحت عينيها في الصباح لترى أمامها ذلك الرجل متين البنيان

الذي ذكرها ب. (ستانلى).. فقط هو أشقر غير ملتح وله شارب بريطاني عملاق ذي طرفين مدببين يوشكان على إصابته بقرحة قرنية.
كان يقف في معسكرهم ورجالها يصوبون الرماح نحوه.. معه رجال وهم يفعلون الشيء ذاته.
ساد الصمت المتوتر، ثم سمعته يصدر الأوامر لرجاله كي يخفضوا رماحهم.. هذا هدأ الأجواء قليلا..
اتجه نحوها وانحنى راسما قوسا بيده ثم قال:
- أنا (سبيك).. (جون هانتج سبيك John Hanning Speke) مستكشف بريطاني وفي خدمة صاحبة الجلالة وخدمتك..
انحنت في رشاقة برغم ثيابها المتسخة وقالت:
(إلستري بارتردج).. صحفية بريطانية.. وكنت رفيقة سير (ستانلي) في البحث عن د. (ليفنجستون)..
هز يده في ازدراء وقال:
- (ستانلى).. إنه مغامر أفاق.. وأحسبه لم يقرأ كتابا في حياته.. أنا كنت مع (بيرتون Burton).. واكتشفنا الصومال معا..
(بيرتون) من الأسماء المحترمة جدا في عالم الكشوف.. وهو مستكشف مهم وعالم في اللغات الشرقية، وقد درس القرآن الكريم، كما إنه ترجم الكثير من الأدب العربي والهندى للإنجليزية.. على أن اسمه يرد دوما مقترنا بكتاب (كاماسوترا Sutra Kama) الذي يعلم فنون الحب.
لكن.. اكتشف الصومال؟ عبارة تثير الغيظ بحق..
عندما بدأ استقلال الدول الإفريقية في الستينات، نهض رئيس أفريقي في مؤتمر لعدم الانحياز وقال في غيظ:
- كلما قالوا إن فلانا اكتشف كذا وكذا صعد الدم لرأسي.. (كينيا) و (أوغندة) موجودتان منذ خلقهما الله.. فهذا الرجل لم يكتشف شيئا.. فقط هو وضع قبضته الاستعمارية على أرض أخرى..
المهم أن الأخ (سبيك) رحب بها.
سألته عما يقوم به فقال:
- يا له من سؤال! أستكشف بحيرة (فكتوريا) طبعا!
قالت في حيرة:
- يبدو لي أن كل الناس يستكشفون (فكتوريا) هذه.. ألم يكف ما قام به (ستانلي)؟
قال ضاحكا:
- يبدو أنه لم يعرف كيف يخرج الماء منها.. فقط وصف كيف يدخلها الماء.. أنا وجدت الجواب على هذا السؤال..
وهكذا مشى الجميع عدة أيام على حافة البحيرة.. إلى أن وصلوا إلى مشهد مهيب بحق.. معذرة.. لا تسمعني؟ سأرفع صوتي في هذا الجزء بالذات هناك من هذا المكان المرتفع تري (عبير) أضخم شلالات رأتها في حياتها.. الماء يغادر البحيرة ليهوي من عل.. هدير يصم الآذان وترتج له الأرض تحت قدميك.. الرذاذ يتطاير في كل صوب حتى ليبلل ثيابهم برغم أنهم بعيدون جدا عن مجرى الماء.. الأسماك تتطاير لارتفاع عشرة أمتار في الهواء وتلتمع في ضوء الشمس كأنها سيوف من الفضة ثم تهوى للماء....
ملحمة مرعبة.. الطبيعة في ذروة سطوتها قبل الترويض.. مشهد لم يره غربي منذ الخليقة..

وشعرت (عبير) بالشعيرات تنتصب على ساعديها ليصير جلدها جلد إوزة..
قال لها (سبيك):
- ماذا؟ لا أسمع حرفا..
عاد يكرر بصوت أعلى:
- آلالات.. إيبون.. فوز..
- لا أسمع حرفا..
هنا بدأ يصرخ:
- شلالات (ريبون فولز).. هذه الشلالات من اكتشافي أنا.. أطلقت عليها اسم (ريبون فولز Ripon Falls) هذا هو الجزء الذي لم يره (ستانلى) الأحمق..
تخيلت وجه (ستانلي) لو رأى هذا المشهد الأسطوري.
عادت تصرخ وقد ابتل شعرها بالكامل كأنما كانت تسبح: - إلى أين يفضى هذا الشلال؟
صرخ بأعلى صوته:
الأمر سهل.. فقط تعالي نمش قليلا.
هكذا مضت المسيرة عدة أيام.. وخيل ل (عبير) أنها لن تسمع أبدا أي صوت بعد هدير الشلالات.. لقد انتهت طبلة أذنها تماما.. هناك شلال صغير في كل أذن لا يكف عن الهدير.
ومن بعيد رأت تلك البحيرة التي تحتشد حولها الغزلان..
ليست بحجم فكتوريا لكنها كبيرة بما يكفي.. إنها طفل شرعي لبحيرة (فكتوريا).. والمعجزة الحقيقية هي أن ترى هذا الوحش العملاق الغاضب يحشر نفسه حشرا في مساقط مورشيسون ليدخل هذه البحيرة الضيقة الهادئة ويهبط ثلاثة سدود، قبل أن يهمد قليلا كأنه تعب من كل هذا الصراع والركض.. أما أهم شيء في هذه البحيرة فهو أنها لا تتلقى الماء من فكتوريا فحسب بل من الثلوج التي تذوب فوق قمم جبال (روينزوري) على الحدود بين الكونغو وأوغنده.. جبال القمر الأسطورية..
قال (سبيك) في فخر:
- هذه البحيرة من اكتشافي، وقد أطلقت عليها اسم (بحيرة ألبرت).. إن النيل يغادر (فكتوريا) ليدخلها، وسوف نطلق عليه هنا اسم (نيل فكتوريا).
ملكة بريطانيا نائمة غافلة في قصرها بينما رجالها الشجعان يجوبون إفريقيا يطلقون أسماء أسرتها على كل ما يجدون.. إن هذا يثير بعض الغيظ في النفس. كان يجب أن يطلق على البحيرة الأولى اسم (ستانلي) والثانية اسم (سبيك)..
قالت له وهي تتأمل البجع الذي يسبح في مياه البحيرة:
- لكن هذا لم يحل المشكلة.. ماذا يحدث بعد هذا؟
الماء يخرج من (فكتوريا) ليدخل (ألبرت).. وماذا بعد هذا؟
فكر بعض الحين، ثم قال:
- معك حق.. لم نبرهن على شيء مهم بعد. ربما لو تتبعنا مسار البحيرة بضعة ايام.. هكذا بدأت مسيرة مرهقة.. سوف تظل (عبير) تذكر عن هذه القصة أنها مشت كما لم تمش في حياتها.. فقط كان الماء دوما إلى يسارها وهي تتحرك في عكس اتجاه عقارب الساعة مع (سبيك) ورجاله.
لم تكن هناك مشاكل إلا إصابته بالحمى الصفراء والملاريا والجذام وسرطان (كابوسي).. هذا الرجل مناعته أفضل من (ستانلى) بكثير.

هنا يغادر الماء بحيرة (ألبرت) بعد رحلة ثماني كيلومترات.. يخرج منها عذبا برغم أنها مالحة معجزة ربانية أخرى مثل التي نراها في (رشيد) و (دمياط)..
هناك ذلك النهر الذي يخرج من (ألبرت).. نهر رفيع هادئ نوعا عذب المياه.
قال (سبيك):
- نهر (سيمليكي Semliki).. هذا هو..

قالت في حيرة:
- هل يطلقون عليه كذلك؟
- لا.. انا مخترع الاسم..
- ولماذا هو بالذات؟
- لأنه لا يوجد اسم يصلح للتعبير عن نهر (سيمليكي) إلا نهر (سيمليكي).
إن القصة تزداد وضوحا الآن.. هناك بحيرة ثالثة على الأرجح.. بحيرة فكتوريا تلعب الدور الرئيس لكن بحيرة (ألبرت) تساهم..
في هذه اللحظة رأت (عبير) مجموعة من السود قادمين.. توقعت المتاعب، لكنها رأت أنهم يحيطون برجل أوروبي فارع الطول يشبه (ستانلى) نوعا... هو بريطاني كذلك..
قال (سبيك) في غيظ:
- سير (بيكر) هنا!
دنا منهم السير (بيكر).. سوف تعرف بعد قليل أن اسمه (صمويل وايت بيكر Samuel White Baker)، وهو من الأسماء المهمة جدا في قصة منابع النيل قال (بيكر) وهو ينتزع قبعته
- مرحبا يا مستر (سبيك).. لم نرك منذ دهر ومنذ هزمتك في لعبة (الكونكان) في (ديفونشاير)..
كادت (عبير) تجن غيظا.. هؤلاء القوم يعرفون بعضهم جميعا، ولا يجدون غرابة في أن يلتقوا وسط إفريقيا.. كأنهم في محطة (كنجز كروسينج)..
واصل (بيكر) الكلام:
- بحيرة (ألبرت) ملكي.. أنا اكتشفتها فلا تضيع وقتك.. وسوف يكتب اسمي مقترنا بها في المراجع..
أما كيف عرف أنها صارت بحيرة (ألبرت) فمعضلة اخرى من معضلات (فانتازيا) المعروفة.. كل شخص في العالم صار يعرف فجأة أن اسمها (ألبرت) برغم أن (سبيك) أطلق الاسم أمامها منذ دقائق.
قال (سبيك) في ثقة:
- أنت تقول هذا يا سيدي.. لكن دعني أؤكد لك إنني مكتشف هذه البحيرة، وإنني مستعد لألعب معك (الكونكان) هنا والآن وأسحقك.
اختلف الرجلان بعض الوقت، ثم اتفقا على أن يؤجلا الخلافات إلى ما بعد العودة للوطن حيث يمكن للمحاكم أن تسوي الخلاف.. المهم الآن هو أن تتحد القوتان من أجل معرفة من أين يغادر الماء البحيرة.. لقد عرفنا أنه نهر (سيمليكي) لكن إلى أين يتجه (سيمليكي)؟
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- عند السدود.

أيها النيل يا حبيب الرياحين.. عيون الأزهار نسج عيونك
حسدتك الأنهار حين أتاها.. أن آمون من هواك وطينك
املآ الشاطئين حبا وشعرا.. فجناح الهوى شراع سفينك
لثم الـــــــدهر راحتيك وغني.. عبقرى الألحان تحت غصونك

(الأخطل الصغير)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت (عبير) (بيكر) وهما يمشيان وسط السافانا:
- لا أريد أن أضايقك.. لكني أعتقد أن (سبيك) هو فعلا مكتشف (ألبرت).. كما أعتقد أن (ستانلى) هو مكتشف فكتوريا..
قال بلا مبالاة، وهو يقطع الأعشاب العالية بسيفه:
- سوف تجدين الكثير من الخلط في تاريخ هذه الكشوف.. بعض الكتب يصف (ستانلى) بأنه مكتشف فكتوريا والبعض يصف (سبيك) بأنه فعل الشيء ذاته.. لا توجد حقائق واضحة في هذا الدغل ومع بطء انتقال الأخبار..
عادت تسأله وهي تزيح الأعشاب التي يمكن أن يتوارى فيها خرتيت فلا تراه:
- هل النيل الرهيب ينبع من هنا فحسب؟
- بل نصفه.. نحن نعرف كل شيء عن فرع النيل المدعو بالنيل الأزرق.. لقد وصفه المستكشف (جيمس بروث Broth).. ووصف كيف أن ماءه ينحدر من صخور بركانية إلى بحيرة (تانا T'ana) في غرب إثيوبيا، لهذا يكتسب ماؤه خصوبة غير عادية عندما يرسب الغرين على ضفتيه.. لكن هذا لا يفسر كل شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن أقدم لك بحيرة (إدوارد)..
كما ترى هي في حجم (ألبرت) تقريبا وكالعادة اختاروا لها اسما من الأسرة المالكة البريطانية.. يقف المستكشفون منقطعي الأنفاس ينظرون إلى البحيرة التي لم يرها غربي منذ الخليقة.. إنها تشبه البحيرات الباقية فيما عدا أنها مليئة بالتماسيح إلى حد غير مسبوق.. لو أنك ألقيت حجرا لوجدت قضية مرفوعة ضدك من تمساح أحدثت له عاهة مستديمة..
أفراس النهر غير عابئة بهم تنزلق إلى الماء في كسل وهي تتساءل عن سر وجود هؤلاء المخابيل هنا.. هذا عالمها منذ جاءت للحياة فماذا يثير شغفهم لهذا الحد؟ لو أنك وجدت وفدا من السياح يتصايح فرحا ويلتقطون الصور لشارعك ومدخل البناية التي تسكن فيها وبائع الفول الواقف عند المنعطف، لظننت بعقلهم الظنون.. لأسباب كهذه كان النوبيون قديما يستعملون المومياوات الفرعونية لإشعال النار.. فهي أكثر وفرة وجفافا وأرخص من الخشب!
قال (بيكر) وهو يشعل غليونه:

- القصة واضحة.. النيل يأتي من هذه البحيرات الثلاث.. (فكتوريا).. (ألبرت).. (إدوارد).. لكن بدايته الحقيقية هي نهر (كاجيرا) الذي يغذي فكتوريا.. من الممكن أن تعتبر بدايته نهر (كاجيرا) أو شلالات (ريبون).. فقط الخيار الأخير يجعله أقصر.
قال (سبيك) وهو يحك رأسه مفكرا:
- لكنه هادئ جدا.. النيل هادئ جدا ولا يمكن فهم سبب فيضانه ولا القوة التي تدفعه للشمال..
- هذا هو عملنا.. يجب أن نواصل الرحلة..
قالها وسقط على الأرض يرتجف بفعل الملاريا.. لقد صارت الملاريا عادة بذيئة لدى هؤلاء القوم، والغريب أن (عبير) لم تصب بشيء مما جعلها تتوقع أن كارثة قادمة.. يبدو أنها ستصاب بكل شيء مرة واحدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن في منطقة السدود..
لم يعد هناك نيل على الإطلاق.. لقد تلاشى وسط مستنقعات مخيفة جديرة بأفلام الرعب..
في هذه المناطق ضل الجنود الرومان طريقهم وهلك منهم المئات.. ولا عجب.. لقد تلاشى مجرى النهر العظيم ليمتد على مساحة ستين ألف كيلومتر...
هذا المشهد الرهيب هو الذي رآه الإنسان الأول الذي استقر في وادي النيل.. الإنسان الذي صنع الحضارة الفرعونية فيما بعد..
فيما بعد ظل البريطانيون يعملون ثلاثة أشهر بكل معداتهم الحديثة، فلم يطهروا إلا خمسة أميال جعلوها شيئا أقرب إلى النهر الذي يحترم نفسه.. من هنا يأتي السؤال:
ما الذي فعله البشر قديما في مصر بلا معدات ولا فئوس كي يجعلوا هذه المستنقعات نهرا كالذي نراه اليوم؟ كيف؟ أي قدر من الجهد؟ كم استغرقهم من وقت؟
نظر (سبيك) إلى المشهد الكئيب الممتد بلا نهاية، وقال للرجال:
- لا جدوى من المزيد من التقدم هذا اليوم.. سوف نجد مكانا مرتفعا نوعا ننصب فيه الخيام..
هكذا بدأ الرجال العمل.. وهي مهمة شاقة فعلا لأن الأوحال زلقة.. دعك من أن الحيوانات هنا لم تعتد البشر.. لهذا هي فضولية وقحة فعلا..
وقد نظرت (عبير) لترى رجلين يدفعان تمساحا للوراء بالمجداف، فإذا بالتمساح يطبق فكيه عليه ويجذبهما منه حتى اضطرا إلى التخلي عنه.. ونظرت (عبير) إلى الجميع فوجدتهم مغطين بالأوحال ووجوههم كالقردة.. قالت لنفسها إنها لو كانت تبدو مثلهم فهي في مشكلة.
في النهاية انتصبت الخيام.. وهتف (بيكر) وهو يرقب المستنقعات:
- خذوا الحذر.. إن التماسيح ليست قريبة.. إنها بيننا!
الليل.. ومع الليل يبدو المشهد كأنك في كوكب آخر أو في فيلم خيال علمي يدور على كوكب (بلوتو).. ظلام دامس والنجوم لا تبدد شيئا.. صوت رهيب يتردد من بعيد فيرد صوت أكثر رهبة من مكان آخر.. لهذا تكف عن النظر لما حولك وتثبت عينيك في جذوة النار التي أشعلوها بصعوبة والتي يشوى الرجال عليها لحم ظبي..
وسألت (عبير) وهي ترتجف:
- هل توجد هنا أسود؟
قال (سبيك) وهو يحشو بندقيته العتيقة:

- مستحيل! إنها تخاف التماسيح كثيرا!
وطائر ليلي شبيه بخليط من البجعة والبومة ورادياتور السيارة والعفريت يرفرف بجناحيه، ثم يقف بقربهم ويرقبهم في حدة.. توشك أن ترى نظرة الشر في عينيه..
- هش!!!
قالها (سبيك) وهو يطوح بغضن شجرة في وجهه، لكنه لم يبد مقتنعا.. فجأة مد منقاره والتقط قطعة لحم كانت في يد (عبير) ثم حلق مبتعدا.. وهتفت (عبير) في غيظ:
- يا لك من لص!!!
للأسف كان العشاء قد انتهى لذا مد (بيكر) يده في كيس معه وناولها بعض ثمار المانجو الفاسدة.. على الأقل القردة تأكلها فلماذا لا تأكلها هي؟
أخيرا نام الجميع ما عدا بعض الحراس الأفارقة يجلسون على محيط الدائرة يراقبون المستنقعات بحثا عن التماسيح.. عندما تقرر التماسيح الهجوم سوف تكتفي بأن تمد خطمها الطويل لتلتقط أي واحد من على هذه المائدة التي أرسلتها لها الأقدار.. الأرض مبتلة فيصعب عليك أن تجد وضعا مريحا.
كانت (عبير) في مشكلة.. إنه الأرق.. الأرق و...
في الواقع كانت الفاكهة فاسدة.. فاسدة أكثر من اللازم لو أردت رأيي.
إن المغص يمزق أحشاءها، وبسهولة تدرك أن كل ما كان صلبا في أمعائها قد صار سائلا.. يجب أن تتصرف تنظر إلى الحارس الأفريقي فتراه ينظر لها بدوره..
ليس المكان مناسبا على الإطلاق.. هذه هي مشكلة الأنثى.. إنها تحتاج إلى أكبر قدر من الخصوصية حتى لو كانت ترافق مجموعة نساء مثلها..
هكذا نهضت في خفة.. إن المشي هنا صعب لكنها تذكر طريقا معينا مشوا فيه وهم قادمون.. ثمة أرض مرتفعة نوعا.. سوف تقطع هذه الأمتار القليلة لتتوارى وراء جزيرة من ورد النيل وتفعل ما تريد، ثم تعود.. لن يستغرق الأمر وقتا.. ثم إن النار ستقودها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأرض زلقة والظلام دامس..
لكن هذا لم يمنعها من تحقيق ما أرادت، ثم رتبت ثيابها ونهضت.. في الحملات القادمة ستحرص على عدم التهام أية فاكهة حتى لو ماتت جوعا.. كانت تحرص على عدم دخول الحمام في أي مكان متي غادرت البيت، وكانت تضع نفسها في ظروف جفاف في الرحلات الطويلة كي..
هذه هي النار.. المهم ألا تنزلق قدمها..
فجأة انطفأت الجذوة التي كانت تراها من بعيد!
الحارس الأحمق أطفأها أو انطفأت من نفسها..
لا داعي للذعر.. سوف تعرف كيف تعود.. كان المعسكر من هذا الاتجاه.. هناك تلك الغيمة التي كانت فوقه.. وهناك نجمة في قلب الغيمة بالضبط أو تبدو كذلك.. لكن هذا كان هراء.. الأمر يشبه جحا عندما استخدم سحابة فوق بيت علامة عليه.. طبعا السحاب يتحرك والغمام يتحرك
هل هو كابوس؟ نعم.. هو كذلك.. إنها تقف تحت غطاء النجوم وحدها والأوحال تصل إلى ركبتيها، والمستنقعات تمتد إلى ما لا نهاية يطفو فوقها ورد النيل.. تحاول أن تتذكر هل كان دربها من هنا أو هناك..

تجرب هذا الاتجاه.. تجرب آخر.. عارفة أنها تزيد الأمر سوءا.. لا توجد جدران ولا شوارع.. لا توجد شجرة تضع عليها علامة..
صرخت بأعلى صوتها:
- أنا هنااااا!
ثم قررت ألا تصرخ ثانية لأن صدى الصوت مريع.. من هنا؟ أم من هنا؟ راحت تركض وسط الماء.. لابد أن الجنود الرومان تخبطوا مثلها بذات الطريقة منذ قرون.. لا بد أنهم سقطوا في هذه البركة مثلها.. طش!!
لا بد أنهم مشوا من هنا بصنادلهم الرومانية الثقيلة ودروعهم.. لا بد أن الجندي (كاسيوس أرستوس) سقط هنا ونزع خوذته وقال إنه لا أمل لابد أنهم داسوا على هذه الصخرة حاسبين أنها صخرة.. ولم يتصوروا أنها..
تمساح!!!
سقطت وسط الماء بينما ذلك الشيء البشع يزحف نحوها.. إن النجوم هنا تعطى إضاءة لا بأس بها وإلا لماتت دون أن تعرف كيف..
الغواصة الحية المريعة تتقدم نحوها ببطء.. إنه يملك كل الوقت في العالم فلماذا يتعجل؟
سوف تركله في خطمه.. لكن لا.. لا ركلات.. سوف يلتقط قدمها بسهولة تامة ويجرها لأسفل.. هناك لن يلتهمها بل سيكتفي بإغراقها ثم يدفنها في الطين بضعة أيام إلى أن تتعفن وتلين أنسجتها.. كل التماسيح لا تمضغ جيدا..
إنه يقترب.. صوته هو صوت الطبول فعلا كما قرأت عن ذلك كثيرا..
هنا تذكرت أنها تحمل هدية من (ستانلي).. المسدس أو الغدارة التي دستها في صدرها تري هل ابتلت؟ ترى هل تصلح؟
أخرجت السلاح وصوبته نحو الوحش القادم.. ثبتت يدها اليمني باليسرى وصوبت نحو الفم.. لحسن الحظ أنها ترددت لأن الفم صار على بعد سنتيمترات منها.. هكذا أغمضت عينيها وضغطت الزناد الذي بدا كأنه لن ينزاح أبدا....
دوت الطلقة..
فقط سقط التمساح في الماء الذي خرج منه.. وسمعت جلبة.. ثم بدأ الماء يفور.. إنها خمس تماسيح جاءت تقدم التحية لأخيها الميت بأن تأكله... الماء يفور والجثة تتقلب كأن لها حياتها الخاصة..
هذه هي شريعة الغاب التي لا تعرف المجاملات.. الطبيعة عملية جدا..
هنا سمعت صياحا.
رفعت رأسها فرأت بقعة من المشاعل تتحرك من بعيد..
إنهم هم! لقد سمعوا الطلقة.. لابد أن صوتها أعلى من الصراخ.. لقد أشعلوا المشاعل وخرجوا يبحثون عنها..
صرخت بأعلى صوتها:
- أنا هنا!!
لكن الحمقى يواصلون مسيرتهم الغامضة فتعاود الصراخ:
- أنا هناااااا!
ألا لعنة الله على الصمم والغباء أيهما أقرب للدقة!
فرصتها الأخيرة في ألا تفقد حياتها وسط هذه المستنقعات تبتعد.. ثم تذكرت أن المسدس

معها.. هل هذه الغدارات تحوي أكثر من طلقة؟ لم لا تجرب؟
هكذا رفعت المسدس وضغطت الزناد.. فارتجت منطقة السدود للصدى..
وسمعت صراخ الرجال.. وبدأت مسيرة المشاعل تتحرك نحوها..
ركضت نحوهم وهي تنزلق.. تقع.. تقف.. تبصق وحلا.. لكنها لا تجرؤ على أن تبعد عينيها عنهم.. وفي لحظة وجدت نفسها ترتمي على صدر (سبيك). لم تكن تميل إليه لكنه في هذه اللحظة بدا تجسيدا لكلمة الحياة.. لا تصدق أن حظها أوفر من جنود القيصر لكن هذا حدث.. راحت تنشج وتنشج وهم يحاولون تهدئة روعها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(كوثر) أيضا راحت تنشج وتنشج بعد ما حدد أبوها إقامتها في غرفتها.. بعد ثلاثة أيام سمح لها بالذهاب إلى المدرسة لكن برفقة أخيها.. وكان ينتظرها على الباب أما الدروس الخصوصية فألغيت.
راحت تفكر في (عادل).. ماذا سيفعل؟ كيف يتصرف؟ لم لا تأتي لتنقذني أيها الأحمق؟ لكن (عادل) كان يجلس على ضفة النيل حيث اعتادا الجلوس.. يجلس جوار بائع الترمس ويسحب منه على الحساب حتى صار قولونه بالونا يوشك على الانفجار.
المشكلة أنه لا يعرف كيف يتصرف.. هو يهاب أباها.. أباها الذي قاسى أهوال الحياة إلى أن وصل لموطئ قدم يسمح له بألا ينزلق.. يسمح له بملء بطون أطفاله.
هذا الرجل لا يريد أن تتكرر ذات الخبرات القاسية مع ابنته.. (كوثر) سمراء جميلة ويمكنها أن تجد عريسا ممتازا يريحه ويريحها.. إنه يشمئز من نمط الشاب المكافح الذي يعتقد أن المستقبل مشرق لمجرد أنه هو.
هذه مشكلة لكن المشكلة الأخطر هي أبوه نفسه لو كان أبوها شرسا فإن أباه مفترس.. لو كان أبوها ريحا فإن أباه إعصار.. سوف يسخر منه الرجل ويسفه أحلامه.. سوف يوجه له لكمة قوية بين لوحي كتفه ويقول له: كفاية مسخرة! إنني أشقى من أجل تعليمك وأنت متفرغ لهذه الألعاب الرقيعة..
نعم.. هو لا يجد حلا.. كل قوى الأرض ضده، لهذا يأكل المزيد من الترمس كحل أخير.
يقول البائع الذي صار صديقا مخلصا له:
- كل قصص الحب تنتهي بهذا الشكل.. لهذا تظل عزيزة على النفوس..
ثم يرفع صوت المذياع أكثر ليدوي صوت (عبد الوهاب):
- إمتى الزمان يسمح يا جميل.. واقعد معاك على شط النيل؟
بقول البائع ضاحكا:
- اسمع واتعظ.. هذا زمن غير زمنكم.. كانت أقصى أحلام سي عبده أن يجلس مع حبيبته على النيل.. هذا هو الوصال كما تخيلوه.. أنت نلت الوصال بهذه الطريقة من زمن.. فماذا تبغي أكثر من هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأمام الواجهة الملأى بفساتين الصيف وأشياء الزينة.
كانت تتوقف عيناك على ثوب ملقى في أحد الأركان الملعونة..
وتشدين بكفيك ذراعي:

ما رأيك؟
لا طعم له..
ونجوب زحام الناس..
ونجوب زحام الناس بخطوات مطعونة..
... ...
وعلى كورنيش النيل الممتد..
كنا نمشي ساعات لا نجهد..
وكثيرا ما كنت تغنين قصيدتي الأولى..
تلك الكلمات الخجلى عن عينيك وأشواقي وليالي السهد..
فإذا جاء الليل رجعنا.. نقسم أنّا أروع من تلك الدنيا والخد على الخد..
... ...
ليلى..
كم من صيف ولي..
واليوم أعود لواجهة الأمس.
في جيبي ثمن الفستان..
عيناي عليه..
لكن ذراعي مرخاة..
مرخاة جنبي في يأس!! [3]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمشي المجموعة وسط هذه المستنقعات الرهيبة.. الصمت.. لا صوت إلا صراخ رجل أو آخر ظفر به تمساح.. وقد ضايق هذا (سبيك) الذي تزعجه الضوضاء.. لماذا لا يتعلم الناس ألا يموتوا في هدوء ورقي؟
وفجأة بدأ الصمت يركض مذعورا..
هذا حقه.. إن الضوضاء شيطانية تخيف أشجع صمت في العالم..
كل هذا الصراخ والأصوات الرفيعة والخفيضة والعالية والحادة والمكتومة والموسيقية والمزعجة.. كلها في مكان واحد.
وتوقف الرحالة وقد احتبست أنفاسهم..
هل يوجد طائر في العالم خارج هذه الجزيرة؟
هناك مليون طائر على الأقل تبني أعشاشها وتتشاجر وتتبادل الغزل.. بعض الطيور يرقص رقصات الغزل بينما بعضها يبدو أنه ممتنع عن التزاوج لأسباب صحية أو فلسفية.. أغرب أنواع الطيور التي لو رآها الخواجة (داروين Darwin) لجُنّ فرحا بدلا من رحلته المرهقة إلى (الجالاباجوس)..
قال (بيكر) الذي تقطعت أنفاسه انبهارا:
- الطيور المحلية تتزاوج.. أما الطيور القادمة من أوروبا فتكتفي بالمبيت والأكل كأنها تعرف أنها لن تستقر هنا.
بجعة تحلق في الهواء ثم تهبط لتلتقط سمكة عملاقة بدورها وترتفع.
تذكرت (عبير) مشهدا مماثلا في قصة (العالم المفقود) ل. (كونان دويل Doyle)، لكن الجنة

الموعودة كانت مليئة بطيور (تيروداكتيل Pterodactyl) المخيفة، وكان على العالم الذي أراد دراستها عن كثب أن يحبس نفسه في قفص ليقترب منها من دون أن تمزقه.. طبعا لا بد أن يذكرك الأمر كذلك بفيلم (الطيور) ل (هتشكوك)..
سألت (بيكر) الذي كانت تشعر بأنه مريح نوعا عن (سبيك):
- هل ترى أن نمشي من هنا؟
هز رأسه أن لا، وقال:
- بالقطع لا.. سوف يبدو الأمر كان السماء انطبقت على الأرض.. تخيلي مليوني طائر أصابه الهياج في اللحظة بعينها. أرى أن علينا أن ندور حول هذه المنطقة.
وهكذا انتقلت الأوامر للرجال الباقين الذين صاروا ثلاثين تقريبا.. سوف ندور حول جزيرة الطيور هذه فلا تضايقوها.
إنهم يقتربون من الأراضي المأهولة.. لكن لغز النيل لم يتضح بعد.
فجأة فطنت إلى أن (سبيك) لا يمشي معهم.. عادت إلى الوراء تبحث عنه فوجدته تحت شجرة والأفارقة يلتفون حوله - ماذا أصابك؟
- هي الملاريا.. لم أعد أتحمل المزيد..
دنا منه (بيكر) ووقف حائرا لا يعرف ما يقول، فقال (سبيك) بتلك الطريقة الساخرة المريرة التي يجيدها المحتضرون:
- لا تقلق يا زميل.. سوف أشفى.. لكنى غير قادر على مواصلة هذه الرحلة.. يمكنك أن تستمر أنت وصحفيتك الحسناء..
هز (بيكر) رأسه، وأخرج من حقيبته بعض التبغ والماء، ووضعهما جوار (سبيك).. فقال هذا الأخير:
- لا تتعب نفسك.. هذه الألاعيب تمارس مع من يوشك على الموت، لكني أطمئنك: لن أموت.. سوف نلتقي في إنجلترا، ونخوض معركة كبرى لمعرفة من مكتشف بحيرتي (ألبرت) و (إدوارد)..
قال (بيكر) وهو يجذب (عبير) من يدها:
- لا تتعب نفسك.. أنا أعرف اسم المكتشف منذ اللحظة الأولى.. وهو ليس أنت.. حفظ الله الملكة.
- حفظ الله الملكة..
وهكذا واصلت المجموعة المسيرة من دون (سبيك).
حقا لقد احتاج هذا النهر المتعب إلى عدد كبير من الرجال كي يتتبعوا مساره المعقد..
هم الآن يتحركون في جنوب السودان.. تقريبا في جنوب السودان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- نهر الرعد..

مســــــافر زاده الخيـــــال   والسحر والعطر والظلال
ظمأن والكأس في يديه   والحب والفن والجمال

(محمود حسن إسماعيل)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صار لون الماء أبيض..
لاحظت (عبير) هذا واندهشت له كثيرا.. لكن يبدو أن (بيكر) كان يتوقع شيئا كهذا إذ قال لها:
- هنا صار اسم النيل (النيل الأبيض) لأنه يتلقى مياه نهر (السباط) النابع من بحيرة (رودلف) في (كينيا) و (أثيوبيا).. ماء نهر (السباط) أبيض..
راحت تتساءل في سرها عن عدد الدول التي ينبع منها هذا النهر.. إنه شديد التعقيد فعلا.. لغز عظيم منذ ولد في عصر الميوسين، أي منذ نحو 14 مليون سنة.. عندما هطلت الأمطار بغزارة فوق أراض منحدرة فشكلت تلك الوديان.. ثم جفت الأمطار وصارت المنطقة صحراء جرداء بدليل وجود عشرات الوديان الجافة في الصحراء الشرقية مثل وديان: شعيت وخريط والعلاقي وقنا.
قال لها (بيكر) وهو يجفف عرقه:
- نحن نقترب من الخرطوم.. هنا يتم اللقاء الشهير بين النيل الأزرق والنيل الأبيض..
وتقف (عبير) لترى اللقاء الذي قرأت عنه في كتب الجغرافيا.. الزواج المقدس بين النيلين ليصنعا ذلك النهر الذي نعرفه.. بعد هذه الرحلة الشاقة في مجاهل إفريقيا يصير هناك نيل وحيد.. وهو مصمم على التقدم نحو الشمال كأنه يعرف هدفه.. هدفه هو أن يستحم في البحر المتوسط..
سألت (بيكر) وهي ترمق المشهد الرهيب:
- لكن أرى ماءه منخفضا وديعا.. لا يبدو أنه يستطيع أن يتحرك مترا آخر.. إنه مجرد خزان مياه هائل الحجم..
حك لحيته مفكرا وقال:
- بالفعل.. هناك حلقة مفقودة من اللغز.. لكني سأعرفها..
وحك عينه فسألته:
- هل هي (اللوا لوا)؟
قال وهو يدفن وجهه في منديل:
- كلا.. بل هو عمي الأنهار.. لابد أنه أصابني في قلب إفريقيا..
ثم مد يده لينزع دودة برز ذيلها جوار كاحله وأمر الرجال بالتحرك.
وهكذا يواصلون السير نحو الشمال.. الآن صارت الوجوه مألوفة واللغات مألوفة.. بالنسبة لها على الأقل.. عبارات عربية وضحكات عربية وعيون عربية وثياب عربية.. أذان من فوق المساجد البسيطة المبنية بالطين في هذا العهد.. طعام قريب من طعامنا يختلف في كل شيء عن الغوريلا المشوية التي كانت تأكلها حول بحيرة فكتوريا..

لكنها مندهشة من النيل
إنه أقرب إلى بركة ضحلة مملة.. أتراها اختارت لمغامرتها موسما من مواسم الجفاف الشنيعة التي عرفتها إفريقيا، والتي كان تأثيرها في مصر يصل لدرجة أن بغلة الوالي سرقت والتهمها اللص.. ثم شنق اللص فاختفت جثته؟؟!
كانوا يمشون الآن في واد جاف كوته الشمس حتى استوي تماما.. الأرض مشققة بشعة المنظر، ولكن الشقوق لا تعيش فيها ثعابين لأنه لو وجد ثعبان هنا لشوي في دقيقة.
كانوا في شهر يونيو.. يتقدمون بصعوبة نحو الشمال.. وحالة عامة من الإحباط في النفوس.. مخيب للأمل حقا هذا النيل الرخو المسالم..
عندما جاء المساء وقف (بيكر) وثني ظهره ووضع راحتيه على ركبتيه طلبا للراحة وقال:
- لم أعد أشعر بساقي.. أرى أن نمضي ليلتنا هنا..
ونصب الرجال الخيام في مجرى النهر الجاف. كانت (عبير) قد تعلمت من (ستانلى) أنه من الخطأ وضع الخيام في مكان منخفض لكنها قدرت أن (بيكر) يعرف ما يفعله.. وجلست (عبير) ترمق النار شاردة الذهن.. قطعة لحم قدمت لها فالتهمتها دون أن تسأل عن شيء.. على كل حال لقد انتهت مهمتها. عرفت من أين يأتي النيل وإلام يمضي.. لم تعد هناك إلا إضافات بسيطة.
نامت على ظهرها وراحت ترمق النجوم.. نجوم الصيف ذي السماء الصافية.. هنا أيضا ترى النجوم كما خلقها الله قبل أن يبني الإنسان البنايات العالية ويلوث الهواء.. لو تخيلنا أن هذه النجمة أرسلت ضوءها منذ عصر الديناصورات واستغرق الضوء كل هذه المسافة ليصل إلينا فإن معنى هذا أننا ضئيلون جدا.. مشاكلنا تافهة جدا تدعو للسخرية.. لو عرفت أن النملة التي تزحف على أرض حجرتك تعاني مشاكل نفسية مع رؤسائها في العمل وقد طلقها زوجها.. لو عرفت هذا فهل تهتم؟ ألا يبدو لك الأمر مبتذلا سخيفا؟
هكذا الإنسان المغرور وسط هذا الكون المرعب المهيب.. إنك لتشعر بنفسك تتضاءل لكن بشكل ما تشعر أنك أفضل حالا.
راحت في النوم بضع دقائق (أم ساعات؟) عندما شعرت بأن السماء ترعد..
لا. ليس رعدا..
إن الأرض تهتز..
شعر بها الحمالون فصرخوا.. وشعرت بها فنهضت زلزال هنا؟ لم تسمع عن زلازل في السودان.. لكن ما المانع؟ إن..
صرخ (بيكر) في الرجال:
- أجمعوا الخيام!
ثم رآها واقفة فصرخ:
- هلمي يا حمقاء! ماذا تنتظرين؟
لم تدر ماذا يريد منها لكنها رأته يركض عبر مجري النهر الجاف ويمد يده لها ليلقى بها على الجانب.. على الأرض المرتفعة..
ونظرت (عبير) للوراء فلم تصدق ما تراه..
هل هذا هو الليل الأسود يهجم عليهم؟
لا.. إنه نهر.. نهر متوحش ينقض عليهم بسرعة البرق ليحتل هذا المجرى الجاف.. وصوته هو الرعد ذاته.. إنه يجرف الخيام التي لم يجد الرجال الوقت لفكها.. وصرخ أحد الرجال ممن لم

يجدوا الوقت الكافي للتسلق إذ جرفه الماء في طريقه.. تصايح السود وحاولوا اللحاق به لكن قوة الطبيعة عاتية.. أضف لهذا الظلام الدامس.
لقد كان هذا حلما أو كابوسا.. النهر يهدر في الظلام متوحشا كاسرا مكشرا عن أنيابه صارخا بأعلى صوته: أنا نهر عظيم! ماذا كنتم تحسبون يا أطفال؟
هذه من المشاهد التي لا تراها إلا لو كنت مع (بيكر) في رحلته الأصلية أو ارتحلت إلى (فانتازيا)..
نظرت في الظلام لـ (بيكر) غير فاهمة فقال وصدره يعلو ويهبط:
(عطبرة).. كان يجب أن أعرف هذا.. هذا النهر القادم من الحبشة.. في هذه الأيام تهطل الأمطار فوق مرتفعات الحبشة فتدب الحياة في عطبرة كأنه وحش نائم.. وهو ذا قد جاء ليبدأ فيضان النيل.. كان النيل مسالما إلى أن جاءه هذا النهر المشاغب المتوحش..
وفي الصباح وقفت (عبير) ترمق النهر في رهبة..
لون المياه أسود.. هذا تأثير الصخور البركانية فيه.. وهذا اللون الأسود يعني كذلك الخصب والحياة.. (عطبرة) يعطى النيل خصوبته وتوحشه.
وفي مصر يرى الفلاحون هذا اللون الأسود في الماء فيدركون بفطرتهم أن الفيضان قريب.
قال لها (بيكر) وهو يجمع حاجياته:
- القصة قد اكتملت.. لكن أقترح أن نكمل الرحلة في قارب لأن الفيضان سيجعل اجتياز الأرض صعبا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- يا طالع السعد

من أي عهد بالقرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق؟
ومن السماء نزلت أو فجـــرت من علـيـــا الجنـــان جـــداولا تترقـــرق؟

(أحمد شوقي بك)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصرت (شيماء) على التهام السميط فنظرت (كوثر) إلى زوجها (هاني) نظرة حازمة من تلك التي يفهمها الرجال على الفور.
يداعب (هاني) شاربه الكث ويتجه إلى البائع طالبا سميطتين.. لا بد أن الطفلة أحبت هذه الحلقات الأوليمبية.
كانت (كوثر) قد تزوجت في السنة الثانية من الكلية، ثم رزقت ب (شيماء) بعد عام وبعدها جاءت (هالة).
والثالث ينام الآن تحت حجابها الحاجز.. هكذا لم تعد تذهب للكلية ولم تعرف مصيرها هناك.. صارت أما.
هذا البائع يبدو مألوفا.. لكن لا مشكلة.. كل بائعي السميط لهم ذات المنظر.. مد (هاني) يده فتناول بيضتين من أمام البائع وكسر كلا منهما على جبينه وبدأ التقشير.. ناوله البائع كيس الملح فأفرغ بعضه في كف (كوثر) الممدودة وغمس بيضته فيه.
في الوقت ذاته أصر (سمير) على أن يأكل الترمس. راح يولول ويصرخ فنظرت (سلوى) ل (عادل) آمرة..
كان يشتهي الترمس منذ عاد من عمله كمحاسب في (دبي) لذا وجد الفكرة لا بأس بها.
نظر للنيل فرأى ذلك اللون الرمادي الذي يدل على قرب الفيضان.. صحيح أن السد العالي غير الصورة نوعا لكن عينه الحساسة اعتادت هذا.
اتجه للبائع وطلب منه بعض الترمس.. أخرج الرجل دلوا مليئا بماء قذر وسكبه على بضاعته.. اشمأز (عادل) ومد يده يتناول نصف ليمونة وعصرها فوق القرطاس..
نظر له البائع في مزيج من سخرية وضيق، وقال:
لا تصدق هذا الكلام يا بك.. الترمس شفا وخمير.. فقط اقرأ ما كتب عنه في تذكرة (داود)..
يقزقز الترمس وهو يختلس نظرة إلى الأسرة الواقفة جوار بائع السميط.. هذه المرأة.. لقد رآها من قبل؟
أين؟ إنها أيام الصبا تلك.. لا بد أنه خرج معها أكثر من مرة ثم نسي كل شيء عنها.. وجهها لا بأس به لكنها حامل مما جعله متورما مضحكا.. دعك من أن قدميها في الصندل متورمتان كأنهما خفا جمل.
(كوثر) نظرت إلى الأسرة الواقفة هناك.. من هذا؟ يبدو مألوفا.. لكنها تستبعد أن تكون عرفته من قبل.. هو حليق الوجه وهي لا تطيق أي رجل بلا شارب كث مثل زوجها.. إن له كرشا لا بأس به.. ثم إنه أصلع.
النيل يجري عارفا كل شيء.. لذا يتظاهر بأنه لم يلحظ شيئا.. فقط يبتسم بسخرية..

الأسرتان تقفان على الكورنيش ترقبان النهر الرمادي..
فقط هم متأكدون من شيء واحد: إن أحدهم لم ير الآخر من قبل قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القارب يبحر في مياه النيل.
يتحدث الملاحون عن حرف S يرسمه النيل في هذه المرحلة.. هناك ستة جنادل تجعل الملاحة صعبة.
لم يكن خزان أسوان ولا السد العالي قد وجدا.. لذا أمكنها أن ترى النيل كما خلق بالضبط.. متمردا سخيا أحيانا وبخيلا أحيانا.
الفيضان يغمر الأرض فلاترى نهاية ولا حافة للماء على الجانبين.
(بيكر) يقضي الوقت في كتابة خواطره، وفي تدخين الغليون، وفي التعذب بالملاريا والحمى الصفراء، بينما صار المراكبي الذي يقود المركب رجلا صعيديا جدا هو الريس (حمدين).. أسمر اللون كالطمي له شارب عملاق أبيض وبنية قوية.. لقد انتهى كل إلى (مامولداي) وال (أمجولو) وال (أمادو) منذ زمن لأن رحلة اكتشاف منابع النيل لم تكن هينة على الإطلاق. كانت قاسية.. وبرغم أن رحيلهم أثر في نفسها، لكنها كانت مسرورة لأن على المجداف أخيرا رجالا يمكن فهم ما يقولون.. وكانوا يغنون:

«ما تجربي يا مراكب هلى..
الريح بتجرى وانا لسه محلي»

وأحيانا كانوا يغنون مع (عبد الوهاب):

«هيلا هوب هيلا.. صلح قلوعك يا ريس»

(هيلا هوب) لفظة عربية فصحى فلا غرابة في أن يستعملها (شوقي بك)..
الريس (حمدين) يعد الشاي.. شاي الساعة الخامسة لـ (بيكر).. طبعا يضع في كفه كمية وفيرة من الشاي ثم يلقيه في البراد الأزرق المتسخ، ويغلي الماء ثم يرفع البراد على ارتفاع مترين من الكوب على الأقل، مصوبا الشاي ببراعة في الكوب كأنه يلعب لعبة النيشان، وحتى لترتفع الرغوة كأنه عرقسوس.. ثم يقدم الكوب لـ (بيكر).. طبعا هذه الطقوس تبدو غريبة نوعا بالنسبة لشاي الساعة الخامسة.. لكنه شاي وكفى.
ويقدم (حمدين) كوبا لـ (عبير) فتشمه.. يا للروعة! إنها تسكر من دون خمر بهذه الرائحة.. الرائحة وحدها تتسرب إلى أعصابها فتتفتح كالورود.. ثم ترشف رشفة تشعر بها تتسرب إلى مخها مباشرة.. لا عجب.. هذا شاي صعيدي يعده مراكبي على النيل وعندما يأتي المساء كانت تنام على ظهرها كما اعتادت لترى صفحة النجوم.. الشاشة كاملة تغطي 360 درجة.. (بلانتاريوم) رباني يفوق أي واحد آخر صنعه الإنسان.. يمكنها أن تسمى كل نجمة باسمها.
وكانت تنظر إلى بروفيل (بيكر) الجالس على حافة المركب كئيبا مهموما، وتفكر.. لو كان فارسا وسيما لاكتملت شاعرية الموقف.

إنها ترى النجم الأكبر.. الشعرى اليمانية التي ذكرت في القرآن الكريم.. النجمة التي تعلم قدماء المصريين أنها تعني الفيضان..

كهنة آمون يحتشدون ناظرين للسماء.. ثم يعلنون أن الشعري ظهرت.. يركض المنادون في الشوارع صائحين:
«يا طالع السعد! لقد ظهر النجم الأكبر..»
كهنة آمون هم أول من لاحظ أن الوقت بين ظهور شعري وأخرى هو 365 يوما.. لهذا فكروا في تقسيم هذه الفترة إلى ١٢ جزءا متساويا.. هكذا ولد التقويم
«يا طالع السعد! لقد ظهر النجم الأكبر..»
الفلاح ينتظر حتى ترتوي الحقول بالغرين البركاني الذي سال من جبال القمر وجبال الحبشة خصيصا من أجله.. سوف يستمر الفيضان مائة يوم يغطى الأرض ثم ينحسر الماء.. ويبقى الطين عالى الخصوبة الصالح للزراعة.. هنا يخرج الفلاح ليبذر حبوبه ويستعمل أساليب ما زالت قائمة حتى اليوم..
هذا هو (حابي).. (حابي) العظيم.. صديق (سبك) التمساح و (أوزيريس)..
ويقف الكهنة ينشدون:
«شكرا لك أيها النيل الذي يخرج من الأرض ويأتي ليطعم مصر.. تلك المياه والرياض التي خلقها الله لتطعم كل القطعان، والتي تروي أرض الصحراء البعيدة عن الماء؛ إنها نَدَاهُ الذي يسقط من السماء.. سيد الأسماك التي تجعل الطيور المائية تذهب إلى الجنوب.. وهو ما ينتج الشعير ويخلق القمح، هكذا المعابد تحافظ على الاحتفالات.
مصر هبة النيل كما قال (هيرودوت).. منه ولدت أول حكومة في العالم.. له حفرت أول قنوات في التاريخ.. حتى الكتابة على البردي.. من أين جاء البردي هذا الرمز الزخرفي الجميل؟ جاء من النيل..
وفجأة شعرت (عبير) بانها ليست على المركب مع (بيكر) والريس (حمدين)..
إنها على مركب أخرى عملاقة مذهبة.. مقدمتها على شكل زهرة اللوتس الساحرة.. كل ما في عالم الفراعنة له طابع خاص فريد.. اللوتس.. البردي.. البروفيل.. الصقر.
هناك صلوات فرعونية تتردد.. رجال ونساء يحيطون بها.. الحلى الثمينة توضع حول عنقها وحول معصميها.. إنهن يعطرنها.. يضعن لها المساحيق.
كاهن آمون حليق الرأس الملتف في جلد نمر يدنو منها، ويقول:
- أنت يا (ميرال) عروس النيل.. عروس (حابي)..
إنك إذ تمنحين نفسك له إنما تمنحين الحياة لمصر كلها..
إنها تذكر هذا الموضوع.. فتاة شابة عذراء يلقون بها للنيل كي يجود بفيضانه.. لو لم يفعلوا لجاء الجفاف.. هي عروس النيل، وهم يوشكون على التضحية بها ليرضي (حابي)!
صاحت في رعب:
- لكني أجيد السباحة!
وهذا كذب لكنها لم تجد حلا آخر..
لم يرد الكاهن لأنهم بالفعل كانوا يربطون ساقيها بالحبال.. ثم ربطوا معصميها إلى ظهرها.. وثبتوا ثقلا إلى ساقيها.. هم عمليون ولا يضيعون الوقت! حتى لو كانت (جوني ويسمولر) فسوف تهوي للقاع كحجر.
صرخت في رعب:
- أنقذني يا مرشد! لم آت هنا كي أغرق!!
النيل عميق رمادي اللون.. عميق.. قاس.. بارد..

وهم يقودونها إلى حافة المركب.. تقف فوق منط يشبه ذلك الذي كان قراصنة الكاريبي يلقون بالأسرى من فوقه لأسماك القرش..
المشكلة هي أنها لا تريد.. عروس النيل الأصلية كانت تفعل هذا في حماس وحب.. لكنها تعرف أن هذا كلام فارغ وأن حياتها ستضيع هباء.
فجأة سمعت من يصيح بهم:
- لا تفعلوا!
تنظر للخلف فتكتمل الفانتازيا لأنها ترى فارسا عربيا قوي البنيان يحمل لفافتي ورق.
إنه قادم في مركب ليلحق بالمركب الذي تقف فيه..
ثم يقف على الحافة ليتلو على كهنة آمون ما جاء في الرسالة الأولى:
- هذا أمر جلبته لكم من (عمرو بن العاص) حاكم مصر.. يأمركم بالتوقف عن عادة إلقاء فتاة شابة في النيل، وقد أرسل لكم أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) بهذه الرسالة لتلقوها في النيل بدلا من العروس..
ثم فتح رسالة أخرى وتلا ما فيها:
- هذه رسالة من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر.. أما بعد.. فإن كنت تجري من لدن الله فنسأل الله أن يجريك.. وإن كنت تجري من لدنك، فلا تجر فلا حاجة لنا فيك.
هكذا توقف الفراعنة عن الطقس الذي كانوا يقومون به.. مد أحدهم يده يلتقط اللفافة ثم طرحها في الماء..
اللفافة تغيب وسط تموجات تتسع وتتسع تفتح (عبير) عينيها لتجد أنها ما زالت جالسة في المركب الذي يقوده الريس (حمدين)، و (بيكر) جالس يدخن في الظلام.
هل كانت تحلم؟ بالتأكيد تحلم.. لكن (فانتازيا) ذاتها حلم، فهل كان هذا واقعا بمقاييس فانتازيا؟
قال (بيكر) وهو ينفث سحابة عميقة:
- لا يوجد دليل على أن الفراعنة كانوا يمارسون هذه العادة البربرية.. لو كانوا مارسوها حقا لوجدت ذكرها في كل مخطوطاتهم وبردياتهم؛ لأنهم كانوا..
مولعين بالثرثرة.. الواقع أنهم كانوا يلقون تمثالا يمثل (حابي).. وكانوا يلقون مخلفات ختان الفتيات..
الفتاة التي لم تكن تفعل هذا كانت تحكم على نفسها بالعنوسة للأبد.. وحتى لو كانت عادة حقيقية فهل تعتقدين أن المسيحية كانت ستتركها تمارس؟ لاحظي أن المسيحية كانت ديانة المصريين لدى وصول (عمرو بن العاص) إلى مصر، فلم يكن هناك من يعتقد بوجود (آمون) و (حابي) وقتها.. أعتقد أن القصة قد ضخمت.. وربما وصلت القصة المضخمة إلى (عمرو بن العاص) فأصدر أوامره بمنع هذه العادة الهمجية.
هل سمع أفكارها؟ هل عاش معها الحلم ذاته؟
لن تعرف أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تبخلوا بمائها على ظمي   وأطعموا من خيرها كل فم

(أحمد رامي)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والمركب يواصل رحلته نحو الشمال.
الآن ترى معالم تعرفها جيدا..
إنها تقترب من الدلتا.. كلمة دلتا دخلت كل لغات العالم للدلالة على هذا الحرف الإغريقي الذي يشبه مجرى النيل..
الآن يمكنها أن تفهم التكوين المركزي الفريد لمصر.. التكوين الذي لمح له البعض فيما سبق لكن لم يناقشه أحد بالنضج الذي ناقشه به د. (جمال حمدان).. إنها لم تقرأ كتاب (شخصية مصر)، لكنها تعرف ما يتكلم عنه.. في كلمات مختصرة نقول إنه في المجتمعات التي تعتمد على الآبار أو الأمطار يتأخر ظهور الحكومة ويسهل الاستقلال على أفرادها.. لا أحد يستطيع السيطرة على المطر أو منعه عن أناس بعينهم..
أما في مصر فإن من يتحكم في النهر يتحكم في حياة كل من يعتمدون عليه.. يمكنه حبسه عن بعض الناس وبالتالي يهلكهم.. إذن الحكومة ذات الطابع النهري أو كما يقول العالم الكبير المجتمع (الهيدروليكي)، قوية جدا.. وفي الوقت ذاته ضرورية جدا لأنه لابد من تنظيم علاقة الناس ببعضهم.. لولا الحكومة لحدثت مجازر بصدد تقسيم المياه وسالت الدماء لتملأ نهر النيل.
هناك مثلث خالد في مصر هو:
الماء + الفلاح + الحكومة
لهذا يقول الحاكم للفلاحين: أعطوني أرضكم وجهدكم أعطكم مائي.. ومن هنا تولد بذرة الطغيان.. ومن هنا تأتي الطاعة العمياء للحكام.. هنا لا مجال للتمرد ولا لفرار الثوار.. يمكن في مجتمع يعتمد على المطر أن يتمرد أفراده على الحاكم، فهم لن يموتوا عطشنا.. أما هنا فلا..
قال (نابليون) يوما: لو كان جيشي من المصريين لحكمت العالم.. ولم يكن هنا يتحدث عن شجاعة المصرى وتحمله فحسب، بل كان يتحدث عن (جندي الأحلام) الذي يفعل كل ما يطلب منه..
كانت هناك سمة أخرى لهذا المجتمع الهيدروليكي هي ظاهرة الانقلاب الاجتماعي.. فمع كل فيضان مدمر للنيل كانت الثروة يعاد توزيعها من جديد.. يصير الفقراء أغنياء والعكس.
من الواضح كذلك أن من يتحكم في أعلى النهر يسيطر على من في أسفله، لهذا كانت الحكومة في جنوب مصر غالبا.. إنها تسيطر على النيل منذ لحظة دخوله البلاد.. وهذا هو المقلق بصدد ماء النيل لأنه لا تأتي منه قطرة واحدة من داخل مصر.. إنه يأتي بالكامل من دول إفريقية عديدة، فإذا تغلغلت إسرائيل في هذه الدول فإن...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- القاهرة..

كام اشتغلت يا نيل في نحت الصخور
مليون بؤونة وألف مليون هاتور
يا نيل أنا ابن حلال ومن خلفتك
وليه صعيبة علية بس الأمور؟!

(صلاح جاهين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الليل خرج رجال (برطملين).. (الجبرتي) يدعوه هكذا، والعامة يطلقون عليه (فرط الرمان) أما صاري عسكر فيطلق عليه (بارتلمي).. الأرجح أن هذا أقرب الأسماء للدقة لأنه كان من أصل أرمني خرج رجال (برطملين) الوغد الذي عينه صاري عسكر (نابليون بونابرطه) ليصير شرطي عموم القاهرة. أي أنه كان مدير الأمن.. طبعا كان هذا مجرد تعيين لص لحماية القاهرة من اللصوص..
كلما قابل رجاله في العتمة متسولا أو عابر سبيل أو بائسا اضطر لمغادرة داره قطعوا رقبته.. وكانوا يضعون الرءوس في زكائب من أجل عمليات الإحصاء أما الأجساد فيلقونها في النيل
كانت هذه فكرة (برطملين) عن إحكام القبضة الأمنية على القاهرة، وقد راح الجنود الفرنسيون يرقبون أساليبه في مزيج من الإعجاب والذعر.
وعندما أشرق الصبح على القاهرة أصابه الهلع. أتكلم عن الصبح وكاد يفرغ معدته ففوق مياه النيل السعيد كانت تسبح أربعة آلاف جثة مقطوعة الرأس.. أربعة آلاف شخص في ليلة واحدة!
جرب النيل هذا مرارا.. ومنذ أعوام جرب أن تلقى فيه نصف مليون جثة من (رواندا).. لا شك في أن أعصابه صارت قوية فعلا.. ومعدته أقوى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في رياض نضر الله ثراها وسقي من كرم النيل رباها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة أخيرا..
مدينة الألف مئذنة تتوهج في ضوء الشمس، وترمق النيل الناعس، وهو يواصل رحلته الأبدية جوارها.
قالت ل. (بيكر):
- هل تواصل الرحلة حتى فرعي (رشيد) و (دمياط)؟
قال وهو يدق على أرض المركب الخشبية:
- لا.. هذا الجزء معروف.. لقد استكملنا الخارطة الآن بعد ما كان نصفها السفلى مبتورا.. والآن حان وقت الراحة بالنسبة لي.. لقد كانت رحلتي طويلة شاقة.
سوف أبحث عن أول باخرة عائدة إلى الوطن.

ثم قال بالعربية للريس (حمدين) الذي سمع الدقة:
- هنا يا ريس..
هكذا صاح الملاح الصعيدي في رجاله كي يرسوا على الشط، وبدأت حبال تشد وحبال تنزل ومرساة تلقى.. إلخ.
وضعوا لوحا من الخشب كي يتمكن وتتمكن (عبير) من النزول..
بقدمين ذائبتين وقفت على الأرض الصلبة للمرة الأولى منذ أشهر ترمق القاهرة التي بدت كصورة في إحدى المجلات من أوائل القرن العشرين.. طرابيش..
عصي.. عربات تجرها الخيول..
أشار (بيكر) لعربة حنطور وقال للحوذي:
- بريتيش كاونسيل..
لسبب ما قالها بالإنجليزية مع أنه كان يجيد العربية منذ قليل..
ثم هتف بها:
- هل تأتين؟
نظرت إلى القاهرة العزيزة التي لم ترها منذ عامين أو أكثر.. منذ بدأت تلك الرحلة.
وقالت:
- لا.. شكرا.. سوف أقوم بجولة هنا..
وأردفت في سخرية لم يلحظها:
- لا تنس أنني أرى القاهرة للمرة الأولى..
قال وهو يركب العربة، ويصلح من وضع قبعته:
- إذن إلى اللقاء هناك.. في بريطانيا، حفظ الله الملكة.
- حفظ الله الملكة.
ووقفت (عبير) ترمق الحنطور إلى أن ابتعد ثم مشت في الشوارع الخالية المتسعة التي رصفت بالحجارة.. وفي سرها كانت تغني:
أنا النيل مـــقبرة للغــزاة   أنا الشعب ناري تبيد الطغاة
أنا الموت في كل شبر إذا   عدوك يا مصر لاحت خطاه

(بيكر).. (سبيك).. (ليفنجستون).. (ستانلى).. (ثورن).. بحيرة (إدوارد).. بحيرة (فكتوريا).. مساقط مورشيسون.. ريبون.. عطبرة.. كل هذا من أجل هذه اللحظة.. وبعد قليل يتجه النيل إلى البحر المتوسط ليفضي بأسرار حبه هناك..
كان هذا عندما شعرت بتلك اللمسة على كتفها فاستدارت لترى المرشد..
- لقد انتهت المغامرة يا (أليس)..
- أعرف..
- يبدو منظرك مرعبا.. لو انتظرنا أكثر لنمت لحيتك.. لا أرى في مظهرك ذرة أنوثة واحدة دعك من رائحتك الكريهة.
- أعرف.. لا تنس أنني أمضيت عامين في مجاهل إفريقيا.. لم أكن أحيا حياة مترفة مثلك..
وعند طرف الشارع رأت قطار (فانتازيا) ينتظر.. يبدو أنه يستعمل خطوط الترام الذي سيدخل مصر قريبا جدا..
اتجهت إليه، وقد قررت أن تستحم في أول فرصة.

سألها وهو يساعدها على ركوب القطار:
- ما هذا الذي تدندين؟
قالت كالحالمة:

سمعت في شطك الجميل   ما قالت الريح للنخيل
يسبح الطير أم يغني   ويسكب الحب للخليل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تعيش (عبير) أكثر لحظات حياتها توترا وإرعابا.. سوف تسترجع قواعد اللغة العربية التي نسيتها.. لأنها ستواجه عبقرى أوزان الشعر (الخليل بن أحمد)، وعددا من عمالقة اللغة العربية من وزن (سيبويه)؛ ذلك العبقري الذي مات وفي نفسه شيء من (حتى)!

(تمت بحمد الله)

أسطورة نهر

نحن في القرن التاسع عشر، وقد بدأ العلم يزيل الستار عن ألغاز عديدة ما انفكت مبهمة منذ بدء الخليقة، لكن لغز هذا النهر لم يحل بعد.. من أين ينبع؟..

اليوم تنطلق (عبير) مع عدد من المستكشفين البريطانيين ومنهم (ستانلي) و (بيكر).. تتوغل في قلب القارة السوداء المتوحشة بحثا عن الجواب الصحيح لهذا

اللغز...

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

نحن في فانتازيا لكن الأساس التاريخي للقصة والبحث عن ليفنجستون حقيقيان.. كل المستكشفين المذكورين حقيقيون كذلك..

[←2]

حقيقة.. برغم أننا في فانتازيا

[←3]

شاعر شاب نسيت اسمه للأسف، لكن هذه القصيدة الرائعة كانت منشورة في ملحق زهور الذي كان يصدر مع مجلة الهلال في السبعينات.

ولم أنس القصيدة برغم أنني كنت في الصف الثالث الإعدادي!!

44

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

شيء من حتى






(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (44)

شيء من حتى

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني.. أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني.. وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

الخليل بن أحمد

1- إلى البصـرة..

مرة أخرى هي من تلك المرات التي لا تعود فيها لعالم الواقع..
بدأت تشعر بالذعر.. ونظرت في قلق إلى المرشد، فقال وقد أدرك ما تفكر فيه:
- حسبت أنك تطلبين فانتازيا هربا من الواقع..
قالت وهي تنزع عن رأسها قبعة البريطانية (إلستري) التي استكشفت منابع النيل منذ لحظات:
- ما يجعل الخيال خيالا أن يكون هناك واقع.. لكن أن أخرج من الخيال لأدخل في الخيال.... هذا مخيف.. أشد ما يفزعني في الموت غرقا ألا أجد أرضا تحت قدمي أقف عليها لثوان قبل أن أحاول النجاة..
قال بلامبالاة صارت علامة مميزة له:
- العشوائية مهمة جدا في تكوين فانتازيا.. حتى القصص التي رأيتها من قبل.. يمكن أن تعيشي ذات القصة بألف طريقة مختلفة.. لن يكون بوند هو بوند ولا هولمز هو هولمز.. أحيانا تعودين لعالم الواقع وأحيانا لا تعودين..
لاحظي أن فانتازيا هي حرب معلنة ضد النمطية والملل، والرتابة هي الملل..
- أرى أن انتظام الحياة معجزة في حد ذاتها.. من الجميل أن نطير لكن الأجمل أن نعرف أننا سنهبط من جديد..
قال في نفاد صبر:
- دعك من هذه المحاورات البيزنطية.. لن يبقى الوضع على هذا.. المهم الآن أن هناك مغامرة جديدة وأنك بحاجة إليها. راقبي معالم الطريق واقترحي..
كان القطار يخرج من القاهرة القديمة وسط معسكرات الإنجليز وعربات الحنطور والباعة الجائلين.. هذا بالضبط هو الجو الذي بدأت عنده قصة (١٩١٩) ... لو انتظرتْ قليلا لرأت الشباب يجمعون التوكيلات لحكومة الوفد الآن ينطلق قطار فانتازيا المضحك وسط الأحراش..
أحراش محيطة بالقاهرة؟ لا تعجب فأنت في فانتازيا.. هي ترى من جديد قرى البحيرات.. ترى الماساي يطاردون الأسود بين الأحراش.. فجأة تبدأ صحار جليدية يجول فيها (الياتي) وحيوان (الياك) يفر خائفا.. ثم ترى كلاب (الهسكي) تطارد وحشا مريعا يركب زحافة... هذا المشهد مألوف.. المشاهد الأخيرة من قصة (فرانكنشتاين) التي تتحاشاها كل الأفلام السينمائية باستثناء فيلم (كينيث براناه) الأخير... حصن ألماني بني في الجبل ينفجر.. مذبحة في بلدة صينية ما.. المغول يحرقون بغداد.. الرجل العنكبوت يثب من فوق بناية عالية ليقفز فوق سيارة، بينما (هاري بوتر) يركب مكنسته ويلوح بعصاه السحرية.. الفدائيون المصريون يفجرون الحفار الإسرائيلي وطائرة يابانية من طراز (زيرو) تقتحم بارجة أمريكية في (بيرل هاربر)..
قالت للمرشد:
- إن هذا (مثيرا) حقا.. لكني لا أرغب فيه
لم يرفع رأسه إذ أسندها على إطار النافذة، وقال بلا مبالاة:
- (إن هذا مثير حقا) ... لا أعرف لماذا صارت عادة مقدسة لدى الناس أن ينصبوا خبر إن.. لم أعد أجد شخصا عاقلا واحدا لا يفعل ذلك..
قالت ضاحكة:
- ليكن.. ليكن.. إن (مصححون اللغة) سيجعلون كلامي مفهوما..

رفع رأسه ونظر لها نظرة نارية ثم قال من بين أسنانه:
- (مصححى اللغة).. هنا ترتكبين غلطتين معا.. لم تنصبي اسم إن بالياء ولم تحذفي نون الإضافة! بهذا أنت تتصرفين كما يفعلون في التليفزيون: يكتبون بجرأة لا حد لها في التترات (منفذون الديكور).. (مصممين الإنتاج).. (نجارين الستوديو).. لقد صار حذف نون الإضافة مهينا على ما يبدو.
نظرت له في حدة وقالت:
- هل اعتزلت المهنة وقررت أن تدّرس اللغة العربية؟
- تمنيت ذلك لكن لغتي لا تسمح به.. إن قواعد العربية أعقد من هذا وأكثر تشعبا، لكني أطالبك بالحد الأدنى الذي يعرفه أي طالب في الصف الأول الإعدادي.. إن هذه الأخطاء تضرب أذني كأنها الحجارة.. هناك خطأ آخر صارت له قوة القانون: عدم جزم فعل الأمر.. هل تذكرين عنوان الفيلم الشهير (لا تبكي يا حبيب العمر) الذي كان يطالعنا في كل لحظة فيثير جنوننا؟ الأسوأ من هذا أن البعض يصر على تطبيق القاعدة مع فعل أمر تليه ياء المخاطبة.. فيقول الفتاة (لا تبك).. حاسبا أنه أحكم الحكماء.. لقد حذف الياء.. فلينم قرير العين بعد التهام شطيرة من الطعمية..
- شعرت بأنها ضائعة وسط هذه التعريفات.. ماذا دهاه وماذا يريد قوله؟ الحياة لا تستحق كل هذا التعقيد.
كانت تعاني مشاكل جمة مع اللغة العربية.. ولكنها لم تخسر درجات كثيرة في المدرسة لأنها - كما يفعل الجميع – استطاعت أن تبرمج جزءا من عقلها كي يتعامل مع اللغة العربية وقواعدها، وقد راح هذا الجزء يعمل بكفاءة نسبية، فإذا انتهت المدرسة أزالت هذا الجزء تماما وقامت بكي موضعه بالنار ليختفي.. لديها عقل يجيب عن أسئلة الامتحانات وعقل آخر تتعامل به مع الحياة، فإذا طلبت منها كتابة خطاب ارتكبت في سطر واحد عشرة أخطاء على الأقل لكنها لم تشعر يوما بحاجتها إلى هذه الإجادة، فالكل من حولها يخطئ.. دعك من نظرة المجتمع إلى من يصر على الحفاظ على قواعد اللغة.. إن الناس تتهمه بالتحذلق والسماجة، وبشكل ما يشعر بأنه كمن يصر على ارتداء طربوش على رأسه..
صارحت المرشد بهذه التفاصيل فقال في ضيق:
- هذه مشكلة دائمة.. في أمريكا تزدهر مصطلحات الزنوج والألفاظ العامية الغريبة، لكن هناك علماء يسهرون على صيانة هذه اللغة مما يحل بها.. في بريطانيا لم تستطع لهجة الكوكني cockney قهر الإنجليزية..
ثم نظر خارج النافذة ونظرت معه..
إنها بلدة عربية في زمن قديم.. ربما هي (دمشق) أو (بغداد) في عصر الدولة الأموية أو العباسية.. ثياب تذكرها بالمسلسلات التاريخية في التليفزيون حتى توقعت أن يخرج من يصيح: خزاعة!
وتوقعت أن تجد الساعات السويسرية الحديثة في المعاصم وأن ترى العدسات اللاصقة في عيون النساء.. هذه تقاليد الدراما التاريخية التي يصعب نقضها..
لكن شيئا من هذا لم يكن هنا.. هذه مدينة عربية في القرن الأول أو الثاني الهجري.. لا شك في ذلك..
نظرت للمرشد وصاحت محتجة:
- ربما نجد هنا الكثير من العلم والحقائق التاريخية، لكن لا تحدثني عن التسلية من فضلك.. إن متعة هذه القصة لن تقل عن متعة درس اللغة العربية.. فقط من دون عصا الأستاذ (عبد

الجواد)..
راح يداعب القلم الذي يمسكه.. تك تتك.. تك تتك
ثم قال بابتسامة خبيثة:
- أراهنك على أنك ستجدين هنا بعض المتعة.. ربما الكثير منها.. فقط أريدك أن تفتحي عقلك وذائقتك وتتخلى عن أحكامك المسبقة.. لا بأس من تجربة ناضجة مرة أو اثنتين.. لن تظلى للأبد تزورين قصص (سوبرمان) و (باتمان).. لا أنكر أنهما إبداع بشرى لكن لا بأس من تجربة إبداع بشري مختلف..
- وكيف أعود إن أنا سئمت القصة؟
قال في خبث:
- ناديني.. فقط يجب أن تتذكري: هل تنادينني قائلة (يا مرشدا أنقذني) أم (يا مرشد أنقذني)؟
قالت على الفور:
طبعا (يا مرشدا أنقذني).. ما دامت هذه صيغة غير مألوفة فلابد أنك تقصدها بهذا السؤال..
قال في غيظ:

- ها نحن أولاء نعود لسياسة التخابث والتذاكي.. سوف تقابلين هنا قوما لا يفتحون فمهم إلا بمقدار.. لو سألت أحدهم من أين تشرق الشمس، لراح يفكر ويراجع نفسه ولن يتكلم إلا بعد التأكد.. على كل حال سوف نتكلم فيما بعد..
ثم جذب حبل القطار فتوقف.
لم تجد الوقت لتخبره أنها لا توافق.. لقد قرر أن ينهي الاختيار وهي طريقة لا بأس بها وتناسب (عبير) على كل حال..
هكذا وجدت نفسها تلبس ثيابا جديرة بذلك العصر.. لا شك في أنها ثرية وعلى الأرجح ليست جارية لأحدهم..
ما هذه المدينة؟ إنها البصرة يا عبير حيث تقع أحداث قصتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- كيف بدأ كل شيء؟

فتحت جهاز الكاسيت وسألته في صوت هامس:
- كيف بدأ كل شيء؟
ينظر إلى الأرض كأنه يبغى أن يحفر فيها ثقبا، ثم يقول وهو شارد الذهن إلى حد ما:
- بدأ ب. (ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفتاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة)..
ابتلعت ريقها وقد بدا لها الأمر مخيفا.. عندما يبدأ أمر ما بشخص اسمه بهذا الطول فلابد أنه أمر مرعب.. لكنها على الأقل عرفت أنه شخص ولد في الجاهلية ما دام اسمه ينتهي ب. (عبد مناة)..
رأي حيرتها فابتسم ابتسامة رقيقة وقال:
- للاختصار نطلق عليه اسم (أبو الأسود الدؤلي)..
أخيرا بدا لها الاسم مألوفا.. صحيح أنه طويل لكنه أفضل مائة مرة من الاسم الأول الذي لن تتذكره مهما حاولت..
ضحكت من جديد فنظر لها في حدة وقال:
- إنه معلمنا جميعا فلا أقبل أي نوع من الاستخفاف به.
كانت هذه من اللحظات النادرة التي تشعر فيها بأن (سيبويه) قد يصير صارما.. في العادة هو رقيق جدا أقرب للحزن والشفافية، لكن يبدو أنها داست فتيلا مهما لدية..
قالت معتذرة:
- آسفة.. سأظل صامتة حتى تفرغ من حكايتك.
نظر لها في حيرة وبدا كأنها فتحت له بابا فكريا جديدا.. راح يلوك عبارتها ثم غمغم:
- (حتى).. أنت استعملتها كأنها أداة نصب للفعل المضارع بينما هي ليست كذلك..
عادت تكرر:
- آسفة لو كنت فعلت ذلك.. صدقني لم أتعمده أبدا.
قال بنفس الشرود:
- (أبدا) لا تستعمل لنفى ما حدث في الماضي قولى (لم أتعمده قط)..
قررت أن تخرس ما دام كل حرف تتلفظ به خطأ.. لن تكون مغامرة اليوم هينة على الإطلاق ما لم تدع أنها مصابة بالخرس أو العته..
أخرج لفافة ورق دون عليها خاطرة جاءته ثم تنهد.
شمت رائحة أنفاسه العطرة فتذكرت ما سمعته عن سبب هذا الاسم الذي اشتهر به.. (سيبويه) بالفارسية معناها (رائحة التفاح)، وكانت أمه تدلله بهذا اللقب في طفولته عندما كان في شيراز..
استطرد (سيبويه):
- (أبو الأسود الدؤلي) هو معلمنا جميعا.. إنه مؤسس علم النحو..
قالت في غيظ:
- وسبب كل درجة فقدتها في امتحانات اللغة العربية..
- إن كان عقلك لا يتسع للآلئ فلا ذنب عليها..

كان هذا دأب الطلاب في كل زمان ومكان.. يعتقدون أن أينشتاين اكتشف النسبية فقط كي يجعل حياتهم جحيما.. نابليون احتل مصر كي يرسبوا في امتحان التاريخ..
كولومبوس اكتشف أمريكا كي يصير كتاب الجغرافيا أكثر سمكا.. دعك من قبائل الجرمان الأوغاد التي ابتلتهم باللغة الإنجليزية.
عاد (سيبويه) يقول:
- كان علامة عبقريا.. وإن لم يتفق الناس على القصة التي جعلته يفكر في هذا العلم.. كانت الإمبراطورية الإسلامية تتسع ومعها كثر العجم.. هذا أدى إلى خلل بدأ يتسرب إلى اللغة العربية، وصار كل واحد يستعمل لغته الخاصة.. شعر (الدؤلي) بهذا.. القصة الأشهر – ولعلها الأصدق
- أنه مر برجل يقرأ القرآن الكريم فيقول:
(إن الله بريء من المشركين ورسوله)
كان الرجل يقرأ لفظة (ورسوله) مجرورة.. أي أنها معطوفة على (المشركين).. هذا يغير المعنى كلية.. وقيل إن (الدؤلي) أصابه الهلع وقرر أن يعرب القرآن الكريم.. وهناك من قال إن (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه كلفه بذلك..
يقال كذلك إن (أبو الأسود الدؤلي) دخل على ابنته في يوم حار، فقالت له: ما أشدُّ الحر.. فرد عليها بأن أشد الحر شهر (ناجر) الذي هو شهر صفر عند العرب قديما. لقد حسبها تسأله عن أي الفصول أشد حرا.. كان عليها أن تنصب لفظة (أشد) لو أرادت أن تتعجب من شدة الحر. بهذا تكون (أشد) فعلا ماضيا جامدا و (الحر) مفعولا به.
تذكرت (عبير) هذه المواقف.. عندما تسأل صديقك:
هل يمكنك مناولتى هذا الكتاب؟ فأنت في الواقع تطلب أن يناولك الكتاب.. من الممكن أن يعتبرك تسأله ويقول:
نعم.. يمكننى ذلك!
عاد (سيبويه) يحكي قصته:
- على كل حال نحن متأكدون من شيء واحد.. هو أنه قصد الإمام (على) - كرم الله وجهه - وشرح له وجهة نظره.. إن العربية في خطر.. الناس يرتكبون الأخطاء اللغوية كما يتنفسون.. تناول الإمام (علي) صحيفة وكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم.. الكلام اسم وفعل وحرف.. الاسم ما أنبأ عن المسمى.. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى.. والحرف ما أنبأ عن ما هو ليس اسما ولا فعلا.. ثم طلب من (الدؤلي) أن يستمر على هذا النحو.. للدقة قال له: أنح نحو هذا..
شهقت (عبير) مندهشة:
- ومن هنا ولدت لفظة (نحو)!
هز (سيبويه) رأسه وأضاف
- راح (أبو الأسود الدؤلي) يدرس كلام الناس والأخطاء الشائعة وما يحفظه من الشعر العربي، ثم عاد للإمام (على) وأراه ما توصل له.. لابد أنه راح يعرض ما اكتشفه متوترا متهيبا.. من ضمن ما عرضه حروف النصب (إنّ وأنّ وليت ولعل وكأنّ) التي تطلقون عليها (أخوات إنّ).. قال الإمام (علي): لماذا لم تذكر (لكن)؟ قال له (الدولى): لم أحسبها منها.. فقال الإمام: بل هي منها.. زدها.
كانت (عبير) مندهشة.. لم تعرف من قبل أن الإمام (علي) هو من بذر البذرة الأولى في علم النحو.. وهذه الطريقة الخلابة في رسم الخطوط الأساسية كما يفعل مشرفو الرسائل الجامعية.. وضع للعالم بداية الطريق ثم تركه يبحث وينقب..

- اختلفت الروايات حول تاريخ ميلاد (أبو الأسود الدولي).. هناك من قال إنه ولد قبل الهجرة ب 16 عاما،
ومن قال إنه ولد قبلها بعام واحد.. الشيء المؤكد هو أنه ولد في قبيلة (كنانة).. لم ير الرسول ﷺ قط ودخل الإسلام بعد وفاته. على كل حال من المؤكد أنه توفي عام 69هجرية، وأنه شهد موقعتي (الجمل) و (صفين).
كانت تصغي ل (سيبويه) وهي تتذكر كيف بدأت قصتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يعرف الكثيرون أن جريدة (الحقيقة الوحيدة) موجودة في هذا الشارع الضيق.. صحيح أن الطريق نظيف وأنه محاط بالنباتات. صحيح أن المنطقة هادئة للغاية، لكنك إذ تري هذا الشارع تستعيد بعض الذكريات عن حياة هادئة ربما عشتها في الستينيات.. ربما لم تعشها قط.. تحلم بالأسرة الهادئة والقطة مشمشية اللون والأب ذي الشارب والنظارة الذي يعمل مهندسا في مكان ما والذي يعود عند الظهيرة ليتناول الغداء وينام.. هذا زمن لم يره واحد من شباب اليوم: عندما كان الأب يتواجد في البيت مساء..
المنطقة توحي لك بهذا وأكثر، لهذا يستحيل أن يجوب بذهنك أن هناك جريدة هنا.. لكنك تصعد الدرج مارا بالبواب الصعيدي الذي يرمقك بلا مبالاة، ثم تصعد درجات نظيفة تفوح منها رائحة حمض الكاربوليك حتى تصل لباب موارب عليه لافتة بلاستيكية كتب عليها بخط جميل (جريدة الحقيقة الوحيدة)..
لا يوجد أحد بانتظارك فيما عدا كومة من أعداد الجريدة التي ردت إليها لما لم تجد مشتريا.. رائحة الورق الطازج.. هناك قط لا تعرف من صاحبه.. هذا كل شيء..
تدخل (عبير) مكتب الأستاذ (فوزي) رئيس التحرير وربما سكرتيره كذلك.. أصلع الرأس له شارب رفيع ويضع نظارة سميكة.. يلبس قميصا أبيض له كمان طويلان فقط كي يستطيع أن يلبس كمي العمل الأسودين فوقهما.. هذا يعطيه منظر رئيس تحرير حقيقيا وكأنه (على أمين) أو (مصطفى أمين).. إنه لا يدخن لكنه فعلها مرغما حينما عرف أن (على أمين) كان يدخن 360 لفافة تبغ يوميا.. إنه ليس عصبيا لكنه اضطر لذلك
ما لا يعرفه القراء ولا يعرفه أحد في البناية أن هذه الجريدة تقدم أخبارا صحيحة على طول الخط.. أخبارا أدق مما تتصوره أو يتصوره أي صحفي في العالم، ولهذا سر صغير ستعرفه فيما بعد فلو فهم الناس الحقيقة لبيعت النسخة من هذه الجريدة بألف جنيه...
تقرع (عبير) الباب المفتوح بخفة كأنها تقول (نحن هنا) فيشير لها كي تدخل.. هش وجهه قليلا لها، فأدركت أنه يحب عملها.. لم تكن صحفية رديئة قط في (فانتازيا).. إنها متحمسة مولعة بملاحقة الخبر واقتحام الأخطار فمن ذا الذي لا يهش لها؟
قالت وهي تلوح ببعض الأوراق:
- أنهيت حواري مع (محمد على).. لقد سألته عن كل تفاصيل مذبحة المماليك.. إن..
أشار بيده كي يلزمها بالصمت وابتلع المزيد من (فلتر) لفافة التبغ الذي يقضمه بلا توقف، ثم أشار لها كي تجلس.. وقال:
- فيما بعد.. فيما بعد.. هناك مهمة أخرى أريد أن تقومي بها..
- تفضل.
وضع كفيه على المكتب ومال نحوها:

- هل كان شرسا؟
- من؟
- محمد على:
ضحكت وقالت في دلال:
- هناك معاملة للرجال ومعاملة للنساء.. حتى الغيلان يلينون قليلا عند التعامل مع امرأة.. هذا هو سلاح المرأة الأسطوري.. إنها لا تُعامل كالرجال أبدا.. فكر في كلامها قليلا... بالفعل هي تنجح في أية مهمة يسندها لها.. من الصعب أن يقبل (نابليون بونابرت) أن يعطيك من وقته ثلاث ساعات من أجل حوار، لكنه يفعل ذلك من أجل (عبير).. بل إنه قبل يدها وقت الانصراف.
قال لها وهو يوقع بعض الأوراق:
- هذه المرة سوف يكون عليك أن تتوجهي إلى البصرة حالا.. هذا هو المكان.. الزمان هو الدولة العباسية.. هناك حدث جلل سوف يقع وعليك أن تكوني موجودة..
ثم ضاقت عيناه وقال:
- مباراة شطرنج العصر بين (فيشر) و (سبابسكي)...
قالت في غباء:
- ليكن.. مباراة الشطرنج العظمى في عصر الدولة العباسية.. سأكتب عنها.
ضحك كثيرا ثم استجمع أنفاسه، وقال:
- هل تتوقعين أن تقابلي عباسيا اسمه (سبابسكي)؟
على الصحفي أن يكون سريع البديهة وإلا فليقعد في دار أبيه.. ما أردت قوله هو أن المباراة التي سترينها تعادل أهمية مباراة (فيشر) و (سبايسكي).. لو بحثنا عن مثيل لها في الحروب لكانت مواجهة (هانيبال) و (سكيبيو الإفريقي).
- حقا لا أملك أية فكرة عن..
- هي المواجهة العظمى بين (سيبويه) و (الكسائي).. بين العالم المتواضع غزير العلم والعالم المبهرج قوي النفوذ.. بين علم نحو (البصرة) وعلم نحو (بغداد)..
دونت الاسمين في مفكرتها.. لم تكن لديها إلا فكرة ضبابية شبحية عن أصحاب هذه الأسماء، لكن ليست هذه أول مرة تبدأ فيها من الصفر.. بعد بحث سريع سوف تصير من أعلم الناس بالموضوع.. المهم فقط ألا يلاحظ رئيس التحرير جهلها..
قالت له وهي تطوى المفكرة:
- أوكي.. متى أبدأ؟
- الآن! إن لديك عملا كثيرا.
ثم ناولها ورقة كتب عليها:
أولا: مقابلة (سيبويه) ومعرفة تاريخ حياته خاصة علاقته بالخليل بن أحمد.
ثانيا: حضور المناظرة الكبرى.
ثالثا: أخذ وجهة نظر الناس في ذلك العصر.. هل كانوا يهتمون بالنحو أم هم مثلنا؟
ثم نهض ليفتح الستار الموجود خلف مكتبه.. ظهر الباب الخشبي الموصد..
فتح الباب فرأت النفق الذي اجتازته عشرات المرات من قبل.. الباب الذي لو رآه القراء لبيعت النسخة من جريدة (الحقيقة الوحيدة) بألف جنيه.
لا يعرف أحد أن الجريدة تقع فوق ممر زمني.. ممر من الممرات التي يحلم بها كتاب الخيال

العلمي.. يكفي أن تجتازه لتكون في زمن آخر ومكان آخر.. لا يعرف القراء أن الكلام الذي كتب عن إستراتيجية بونابرت في مصر لم يكتبه مؤرخ، بل كتبه بونابرت نفسه!... اللقاء مع محمد على لم يكن صيغة بلاغية ولكنه لقاء حقيقي فعلا.. فقط لا يمكن التقاط صور لأسباب فيزيائية يطول شرحها، دعك من أن هذا يفضح سر الجريدة.. تخيل أن ترى صورة المحررة بثيابها العصرية جالسة على الطنافس أمام محمد على وهو يدخن النارجيلة ويحكي لها عن مشروعه الحضاري العملاق!

الخلاصة أن هذه الجريدة العجيبة كانت تجري لقاءات مع شخصيات عاشت من آلاف السنين ولا أحد يعرف.. إن افتضاح هذا السر يعني أن ينتزع هذا النفق من ملكية الأستاذ (فوزي) لتأخذه جهات حكومية أو علمية.. هو لا يريد هذا أبدا لذا ضحي بكل المكسب المادي الذي كان سيحققه لو افتضح سره..

هكذا اجتازت النفق.. سمعت الباب في الناحية الأخرى يوصد، ثم وجدت نفسها في الظلام.. قبل أن تنتابها الفوبيا المعهودة رأت الضوء عند نهاية النفق.. لو خرجت من هنا لوجدت مدينة البصرة في عهد الدولة العباسية.

ثيابها؟ لم تشكل عقبة في أية مغامرة سابقة لها.. إن هذا لغريب لكنه حقيقي.. يبدو أن هذه الصفقة الغريبة تتضمن ألا يندهش أحد لرؤيتها بثيابها العصرية ومعها جهاز التسجيل..

هكذا خرجت من الناحية الأخرى للنفق لتجد نفسها تقف وسط ساحة يحيط بها أكثر من مسجد.. جمال تحمل غلالا تعبر المكان في بطء، وعبيد زنوج يفرغون حمولتها، بينما شاعر عابث يطارد جارية حسناء، وأطفال يلعبون بطوق، وسقاء يحمل قربة جلدية مليئة بالماء المعطر يطوف بها على مجموعة من طلاب العلم الواقفين يتناقشون في شرح إحدى المعلقات.. النخيل في كل مكان وهناك نافورة لا بأس بها.

دنت من أحد الطلاب وسألته عن بيت العلامة (سيبويه)، فنظر لها للحظة كأنما هو يتأكد من أنها حقيقة ثم قال:

(سيبويه)؟ ألم يرحل إلى (بغداد) بعد؟ ليكن..

ثم أمسك بأحد الصبية الراكضين وطلب منه أن يوصلها إلى بيت (سيبويه)..

راح الصبي الوغد يركض فراحت تلاحقه.. إن رئتيه تصغران رئتيها عشرين عاما على الأقل؛ لذا شعرت بأن الهواء شحيح ولم تجد ما يكفي منه كي تناديه ليترفق قليلا بها..

لاهثة أبطأت السير بجوار بائع سمك يعرض بضاعته قوية الرائحة، وجواره كانت امرأته تعد السمك المسجوف، تلك الأكلة العراقية التي طبقت شهرتها الآفاق..

رجل دنا من الطاولة وسأل البائع عن ثمن سمكة حسناء مغرية، فرد هذا:

- بدرهمان!

صاح الرجل في تقزز:

- بكم؟

- بدرهمان

باستنكار:

- بكم؟

- بدرهمان.. لن أقضي اليوم أكرر هذا..

تساءلت (عبير) عن القيمة الشرائية لدرهمين في هذا الزمن.. هل هو سعر رخيص أم غال؟ واضح أنه ليس بالسعر المرضى لو نظرنا لتقزز المشتري وذهوله.. هنا سمعت المشتري يقول

كأنه موشك على الجنون:
- هل ترفع المجرور يا أحمق؟!! (بدرهمين) مجرورة وعلامة جرها الياء لأنها مثني!!!!
هنا فهمت.. لم يكن الرجل مشمئزا من السعر بل من الخطأ - اللحن كما يقول العرب - وابتسمت.. إن أمامها الكثير من المرح في هذا الزمن.
قال البائع في تحد:
سمعت (سيبويه) يقول لى: ثمن السمكة درهمان!
أصابها الذهول.. شهرة (سيبويه) بلغت بائعي السمك إذن.. صحيح أن الرجل أخذ منه الكلام حرفيا لكنه نصر لا شك فيه أن يهتم بائع السمك بكلام العلماء..
نظرت حولها فاكتشفت أن الصبي اختفى.. الأحمق سيظل يجرى حتى يبلغ بيت (سيبويه) ثم ينظر حوله بحثا عن تلك البلهاء التي كانت ترافقه.
سألت البائع عن بيت (سيبويه).. ما دام يعرفه لهذا الحد فمن الأحرى أن يعرف بيته.. أشار لها الرجل إلى زقاق جانبي وأدلى ببضعة أوصاف من طراز: يمين في شمال.. ثم شمال في يمين.. ثم شمال.. ثم يمين.. ثم شمال ثم شمال..
هكذا تركته وراحت تجد السير وسط شوارع المدينة الحارة..
قرعت الباب العملاق، وبعد دقيقة وجدت نفسها تقف أمام (سيبويه) شخصيا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أيام مع (سيبويه)

ويواصل (سيبويه) كلامه عن (أبو الأسود الدؤلي) الذي خرجوا جميعا من عباءته..
و (عبير) تنظر لوجهه الرقيق الحالم وهو يتكلم.. بالفعل كما وصفه كل من قابله.. الملامح المريحة والجو العام الموحى بالنظافة كأنه قد خرج من الحمام لتوه.. يمكن أن تقدر أن عمره حوالي الثلاثين لكنه في الحقيقة في الأربعين من عمره بالضبط..
قال (سيبويه) بعدما قدم لها صحفة عليها البطيخ المعطر بماء الورد ودورق من الماء البارد:
- بعد هذه البحوث في النحو أدخل (الدؤلي) فن تشكيل الحروف.. كان أول تشكيل ابتكره يقضي بأن يجلس الكاتب ومعه حبر أحمر.. فإذا كان الحرف مفتوحا وضع نقطة حمراء عليه من فوق.. وإذا كان مكسورا وضع نقطة تحته.. الضمة هي نقطة أمام الحرف، الغنة تمثل بنقطتين..
قالت باسمة:
- لكن هذا مربك إلى حد كبير..
- كان هذا رأي آخرين، لكن يجب ألا ننسى أن هذه هي المحاولة الأولى.. قبل (الدولي) لم يكن هناك شيء اسمه تشكيل..
وفكر قليلا ثم أضاف:
- مات العالم العظيم لكنه ترك من خلفه عدة تلاميذ.. منهم (عطاء) و (أبو حرب) - وهما ابناه - و (عنبسة) و (ميمون) و (يحيى بن النعمان العداوني) و (سعد بن شداد الكوفي النحوي) و (نصر بن عاصم الليثى النحوي).. هل تفهمين؟ إن العلم عملية مستمرة بلا توقف.. فلولا (الدؤلي) لما جاء (الخليل بن أحمد) وسواه..
- وحتى قدومك أنت!
نظر لها في حيرة ثم مد يده إلى قرطاس معه، وخط فيه بعض كلمات وقال:
- لقد قمت برفع كلمة (قدوم).. فلماذا؟
هزت يديها كأنها تدفع عن نفسها تهمة قتل، وقالت في حيرة:
- لم أتعمد شيئا وأقسم لك.. الكلام خرج من فمي بهذه الطريقة..
قال وهو يهز رأسه شأن من يطرد عنه هاجسا ملا:
- (حتى) هذه!... إنها تثير جنوني.. هل هي حرف جر؟ هل هي أداة نصب؟ الغريب أنك رفعت ما بعد (حتى) لكن هذا ليس خطأ.. هناك نماذج كثيرة على هذا.
ثم حك رأسه من تحت العمامة مغمغما:
- لا أفهم.
قالت (عبير) محاولة أن تجعله ينسي (حتى) هذه بعض الوقت:
- ليكن.. إذن أنتم جميعا خرجتم من عباءة (أبو الأسود الدؤلي).. فهمت هذا الجزء.. الآن العالم كله يتحدث عن مناظرتك المزمعة مع (الكسائي).. متى ترحل إلى بغداد؟
- خلال شهر أو اثنين.
- ألست قلقا؟
ابتسم وقال:
- نعم.
- وما سر هذا القلق ما دمت تعتقد أنك الأفضل؟

قال في غيظ:
- أنا نفيت أنني قلق.. أنت سألت سؤالا منفيا..
لو كنت قلقا لقلت (بلى) لكني غير قلق لذا قلت (نعم)..
- الكسائي ليس خصما هينا وأنت - فيما أعرف عنك - لا تقبل الهزيمة..
- نعم.. أوافق على هذا كله.. الكسائي ليس خصما هينا وأنا لا أقبل الهزيمة.. لهذا سأغلبه بعون الله تعالى..
قالت باسمة:
- أرجو أن تكون مباراة ممتعة.. لا تنس أنني قطعت كل هذه المسافة في المكان والزمن كي أحضرها.
ثم بلهجة تمثيلية كأنها مذيعة تلفزيون بلهاء قالت:
- أمير النحاة (عمرو بن عثمان بن قنبر) الشهير ب. (سيبويه).. من هم أساتذتك الحقيقيون الذين عاصرتهم؟
أطرق شاردا كمن يتذكر، ثم رفع عينه نحوها وقال:
- تعالي معي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العام 148 هجرية.. قرية البيضاء في (شيراز)..
هل هناك لمسة ما في هذا الجو تغرى بمولد العباقرة؟ رأت (عبير) هذا الجو من قبل لكن على مشارف مدينة (شهد) عندما كان أبوها (أبو القاسم المنصور) الذي سيسمى (الفردوسي) فيما بعد.
هنا نشأ (سيبويه) العظيم، وكما قلنا فإن سبب هذا الاسم هو رائحته العطرة التي ذكرت أمه برائحة التفاح.
يرتحل الصغير إلى البصرة.. هناك تراه (عبير) جالسا في حلقات العلماء مع إمام النحو (الأخفش) و (حماد بن سلمة).. لقد ذهبت معه إلى عهود صباه الأول، فلم يكتف بأن يحكي لها بل هي تراه..
تجلس بعيدا عن طلاب العلم الجالسين، وتتظاهر بأنها لا تلاحظ نظراتهم الفضولية لها من وقت لآخر.. حينما يدنو منها أحد العاملين ليسألها عما تريد تقول في سرعة:
- أنا مع.. مع (سيبويه).
هذا جزء من عالم (فانتازيا) بالتأكيد.. أن تجلس آنسة بثياب عصرية وجهاز تسجيل في حلقة علم بالبصرة في العصر العباسي فلا تنال إلا الفضول، فهذا لا يحدث إلا في فانتازيا.. ولو أردنا أن نعبر عن الموقف بالعامية لقلنا: (عديها المرة دي)..
تصغي للدروس محاولة فهم شيء ما.. في الواقع لم تدرك مدى غبائها إلا في هذه اللحظة.. نعم هم يتكلمون العربية، لكنها لا تشبه العربية التي تتكلمها هي.. بون شاسع يفصل بين عربية هؤلاء وعربية (الروشنة طحن والنفسية وكله في الأمبلايظ)..
(سيبويه) الشاب حديث السن يجلس في الصف الأول متحمسا متحفزا يوشك على أن يثب من مكانه، كأنما هو يتلقى قطعا من اللحم المشوي لا دفقات علم.. كذلك الأستاذ الوقور الجالس مستندا إلى العمود أدرك أن له مستمعا واحدا وخصما واحدا وحليفا واحدا بين كل هؤلاء الجالسين، من ثم راح ينظر له في عينيه وحده كأنما يقول: هذا العلم لك أنت بالذات لأنك

تعرف قيمته..
الأستاذ هو (حماد بن سلمة) مفتي البصرة وقطب علماء النحو فيها..
كان يقول بصوت وقور رزين:
- قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء)
ووصل الكلام.. لكن (عبير) استطاعت من مكانها أن ترى الرعدة الكهربية التي سرت في جسد الفتى.. ثمة شيء خطأ.. رفع يده في تردد مهذب.. فنظر له الأستاذ نظرة من طراز (تكلم الآن أو اصمت للأبد)..
قال بصوت مبحوح:
- هناك خطأ يا سيدي.. الصواب أن تقول: (ليس أبو الدرداء).. نحن نتكلم عن اسم (ليس).. أي إنه مرفوع.
ابتسم الشيخ وقال في هدوء:
- لحنت يا (سيبويه)... (ليس) هنا أداة استثناء (أبا) منصوبة لأنها مستثني.
تصاعدت ضحكات خفيفة بعثت الحياة في نفوس الطلاب الملول.. أما (سيبويه) فاحمرت أذناه من تحت العمامة..
ثم قال في حماس:
- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحنّي فيه..
أي إنه سيصل درجة من العلم لا يجد أحد غلطة في كلامه بعدها..
بعد الدرس قابلته وهو يتلقى دعابات أصدقائه في تواضع مرح.. فقال لها:
- هل سجلت هذا الموقف؟ إنه جوهري في حياتي. هذا هو القسم الذي اتخذته على نفسي.
رأت (عبير) في حماسه نوعا من المغالاة.. فلا أحد معصوم، على أنها فهمت فيما بعد أن هذا جزء من حساسيته الشديدة.. تلك الحساسية التي يشعر بها لأنه فارسي الأصل ومهما حقق من انتصارات سيظل العرب ينظرون له على أنه لا يجيد العربية مثلهم.. برغم أن العصر العباسي هو باختصار شديد (عصر تدليل الفرس)، وهو ما يختلف كثيرا عن عصر الأمويين.. هذه أشياء تكلمنا عنها في (ألعاب فارسية) لكننا نكررها للتأكيد..
السبب الآخر لهذه الحساسية هو أنه ذو كبرياء.. إنه من الطراز الذي نطلق عليه في العامية (عنده دم).. وقد شعر بأنه أهين بصوت عال في حلقة الدرس.. فلابد أن هذا حز في نفسه كثيرا..
منذ أن أطلق الفتى على نفسه هذا القسم انطلق يدرس ويتابع كل شيء يخص اللغة العربية.
قالت له (عبير) وهي تجد السير وراءه في شوارع البصرة:
- هل تجوب حلقات الدرس طيلة اليوم حتى المساء؟
فجأة توقف فاصطدمت به من الخلف وارتطمت أسنانها ببعض.. لكنه لم يلحظ هذا.. التفت لها وعلى وجهه ذات التعبير الذي رأته مرارا:
- حتى المساء! لقد استعملت (حتى) كأداة جر أليس كذلك؟
قالت بذات الطريقة التي يؤكد بها تاجر المخدرات أن الحشيش المضبوط ليس ملكا له:
- والله العظيم لم أتعمد هذا.. سامحني.. كنت قد آليت على نفسي ألا أتطرق إلى أي موضوع فيه كلمة (حتى) لكن الطبع يغلب التطبع.
قال مفكرا:

- لكنها استعملت في القرآن الكريم ذات الاستعمال.. ألم يقل تعالى عن ليلة القدر: (سلام هي حتى مطلع الفجر)؟ هنا استعملت كحرف جر.. ولهذا ننطق (الفجر) مجرورة.
قالت نافدة الصبر:
- إذن هي حرف جر..
قال وهو يحك ذقنه:
- ليس الأمر بهذه البساطة.. عندما نقول (نحترم كل الناس حتى الفقير منهم).. هل تعرفين إعراب (الفقير)؟ إنها منصوبة! كيف؟ كيف؟
وبدا عليه الهم والغم..
قالت له معتذرة:
- لن أعود إلى سيرة (حتى) هذه للأبد.. هذا وعد..
ثم عادت تسأله:
- هل تجوب حلقات الدرس هذه ح.. إلى أن يأتي المساء؟
- ليس لحياتي هدف إلا العلم.. هذه طريقة حياة وليست نشاطا هامشيا أقوم به.. لكني حتى هذه اللحظة لم أبلغ ما أريد.
في هذه اللحظة سمعوا صراخا.. صراخ طفل يعوي كأن هناك من يذبحه.
انفتحت الدور وخرج عشرات الرجال يضربون الأرض بنعالهم ضربا.. وتصاعد الغبار في الجو، بينما هرعت (عبير) إلى الغلام الصارخ وانحنت لتربت عليه.. سقط على الأرض وراح يلطم خديه.. وكلما أراد الكلام خنقه البكاء وسال المخاط أنهارا على ثوبها.. في النهاية استطاع الكلام:
- أبي!
سألته (عبير):
- هل داهمته نوبة قلبية؟
- لا..
سأله (سيبويه):
- هل خرج عليه عشرون مسلحا وذبحوه؟
- لا.
سأله رجل من الواقفين:
- هل هو الذي يريد ذبحك؟
- لا.
ثم بصق وسعل وقال:
- لقد جن! أبي قد جن!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- العبقرى

هذا عمرو يستعفي من ... زيد عند الفضل القاضي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يهرع الناس وبينهم (عبير) إلى حيث دار الغلام..
زقاق تلو زقاق ثم باب خشبى عملاق.. هنا سمعت (عبير) (سيبويه) يهمس في إجلال ورهبة:
- هذا بيت (الخليل بن أحمد الفراهيدي)! إذن فالغلام ابنه!
قالت وهي تستجمع أنفاسها:
- هل هذا مهم؟
لم يرد لأنه لحق بالرجال الذين دخلوا الدار..
دار فقيرة هي، ليس فيها شيء من الزينة.. هناك كوة في السقف يدخل منها نور الشمس الذي تتراقص وتسبح فيه ذرات الغبار.. وهناك طيور تبحث عن رزقها هنا وهناك، وهناك بئر في وسط المكان في هذا العصر الذي لم يعرف السباكة الحديثة.. الغريب أن هناك رجلا يتدلى في البئر.. تقريبا يتدلى في البئر فلم يبق إلا قدماه في الخارج بينما هو منثن على نفسه وجذعه بالكامل في الداخل...
الأدهى أنه كان ينشد الشعر بلا انقطاع!
قالت لنفسها:
- كان الغلام علي حق.. لا يحتاج الأمر إلى طبيب نفسي كي يوقع على شهادة الجنون.
تعاون الرجال على إخراج الرجل المتدلي من البئر، بينما ابنه لا يكف عن الصراخ وتفجير قنابل المخاط من منخريه.
كان الأب مسنا وقورا له لحية بيضاء لا يمكن أن تصدق أنها حقيقية.. كأنها قطن قام بلصقه هناك.. وقد رأى لهفة الناس فبدا كأنما قد أفاق من حلم.
صاح أحد الرجال:
- لقد أثرت ذعر ابنك يا (خليل)!
وقال آخر:
- رجل في سنك يدفن رأسه في البئر لينشد الشعر؟
نظر الرجل إلى ابنه وإلى الآخرين ثم قال باسما:
لو كنت تعلم ما أقول عذرتني.. أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني.. وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

لم تفهم (عبير) ما يريد قوله بالضبط، لكنها فهمت أنه لا يلومهم على جهلهم.. والسبب أنهم لا يعون ما يقولون.
قال وهو ينفض الغبار عن كتفيه وثيابه:
- الأمر يتلخص في أن البئر هي المكان الوحيد الذي يرجع الصدى جيدا.. كنت أدرس مقاطع الشعر العربي..

نظرت إلى (سيبويه) فرأت وجهه الوسيم يتغير لحمرة تغزوه.. ثم انفتح فمه وراح يلهث نشوة وصدره يعلو ويهبط.. إنها العلامة!.. لقد مسته عصا الساحر.. هنا علم يوشك أن يعلن عن نفسه.
قال (الخليل) وهو يتجه إلى ركن القاعة حيث بعض الطنافس:
- منذ أيام قابلت في السوق رجلا أعجميا.. كان لطيف المعشر لكنه سخر من شعرنا العربي وقال إنه مفكك لا يحتكم إلى قواعد.. قياسه سمعي تماما على عكس شعرهم اللاتيني العظيم.. أثار هذا غيظي وقررت أن أوجد للشعر العربي قواعد.. كنت أمشي مع صديق لي في سوق النحاس حيث الصناع يدقون الأواني بمطارقهم فتنبعث لهذا نغمة مميزة هي (تن تن تن!) وقفت أصغى لفترة طويلة حتى طلب صاحبى أن نرحل قبل أن يصاب بالصمم.. بعد خطوات مررنا على سوق (القصارين)..
مالت (عبير) على (سيبويه) تسأله همسا:
- ما سوق القصارين هذا؟ هل يبيعون هناك (قصارى الزرع)؟
غطى فاه كي لا تفلت منه الضحكة القصيرة وقال:
- إنها سوق من يغسلون الثياب..
- آه! هذا هو تجمع ال Dry cleaning في ذلك العصر.. الآن فهمت.
واصل (الخليل) كلامه:
- كانوا يضربون الثياب المبتلة بمقارع من جلد.. من هنا كنت أسمع صوتا غريبا مكتوما بعض الشيء.. (تتن تن تتن تن).. خطرت لي فكرة رهيبة هي أن النغمات كلها دقة وسكون.. دقتان وسكون.. ثلاث دقات وسكون.. يمكن اعتبار هذه وحدات نميز بها النغمات.. هرعت إلى (أبو رافع) سيد الموسيقيين وطلبت منه أن يساعدني في وضع قواعد للشعر العربي، لكنه قال إنهم يعتمدون على السماع في موسيقاهم وإنه لا توجد قواعد.. لكني لم أقنط.. واصلت البحث.. ومن ضمن هذه الأبحاث إنشاد الشعر في البئر كما رأيتموني.. الآن يمكنني أن ألخص لكم ما وجدته وعرفته.. لنا لقاء في المسجد بعد صلاة العصر إن شاء الله لتعرفوا ما عرفت..
تفرق الناس.. وخرجت (عبير) لتجد (سيبويه) يقف على باب المسجد بانتظار لحظة الحقيقة.. كان يرتجف انفعالا وقدمه ترقص تلقائيا كأنها لا تطيق هدوء وثبات نصفه العلوي.
قالت له:
- أعتقد أنني لن أستطيع دخول المسجد مع الرجال..
- سوف تسمعين ما يقال من الخارج..
وطال الانتظار.. طال.. حتى تعالى الأذان.. هنا وثب (سيبويه) إلى الداخل..
هنا رأت (عبير) جحافل من الناس تهرع إلى المسجد من الواضح أن أكثرهم لم يعتد الصلاة في هذا المسجد بالذات، لكن خبر اكتشاف (الخليل) أحدث إثارة عظمي..
بدا لها أنه ما من واحد في (البصرة) بقى في بيته أو صلى في مسجد آخر غير هذا.. غريب هذا الاهتمام باللغة الذي يقارب اهتمامنا بكرة القدم.. لكنه حقيقي.
انتهت الصلاة فسمعت صوت (الخليل) الجهوري يتردد من داخل المسجد:
- أيها العرب.. لكم أن تفخروا بشعركم فله قواعده الأصيلة التي اتبعها الأولون بالسليقة.. لقد وجدت أن إيقاع الشعر يعتمد على الحركة والسكون بشكل ثابت.. لا يخرج الشعر العربي عن الأوزان: فاعلن وفعولن ومفاعيلن وفاعلتن وفاعلاتن ومستفعلن ومفعولات ومتفاعلن ومستفعلن.. من هذه الأوزان تتألف البحور.. وقد أمكنني أن أحصر خمسة عشر بحرا من الشعر

هي الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والسريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب.. مثلا بحر البسيط هو: مستفعلن فاعلن أربع مرات.. بحر الطويل هو: فعولن مفاعيلن أربع مرات..
طال الكلام الذي لم تفهم (عبير) أكثره حتى شعرت بأن أذنيها تستطيلان لتشبه حيوانا وديعا لا داعي لذكر اسمه، وما أثار غيظها أن صيحات الاستحسان تتصاعد.. القوم فيهم تجار وسماكون ونجارون وباعة تمر لكنهم جميعا يفهمون.. لابد أن مستواها العقلي لم يكن يسمح لها بدخول المدرسة أصلا.. وربما لهذا كان مدرس العربية يقول لها كلمته المأثورة: إللى دخلك المدارس ظلمك..
واحد من الجالسين بالداخل يصيح:
إلى أي بحر ينتمي البيت؟:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمي

يتعالى صوت العالم العبقري:
- هذا على وزن (متفاعلن) تكرر ست مرات.. إنه بحر الكامل.
صاح واحد من الجالسين:
وبيت الشعر؟:
إلى هند صبا قلبي ... وهند مثلها يصبي
يجيب (الخليل):
- الأمر سهل.. (مفاعيلن مفاعيلن.. مفاعيلن مفاعيلن)،
هذا بحر الهزج.. جرب أن تطبق القواعد التي شرحتها..
والبيت؟:
قادني طرفي وقلبي للهوى.. كيف من طرفي ومن قلبي حذار
- هذا على وزن (فاعلاتن) ست مرات.. إن هذا بحر الرمل..
تتذكر (عبير) مشهدا من مسلسل (الأيام) بينما (طه حسين) يبهر أساتذته الفرنسيين بالسوربون في مناقشة رسالة الدكتوراه، بينما صوت (على الحجار) الرخيم يردد: اليوم ده يا طه يومك..
الحقيقة أن هذا يا (خليل) يومك بلا أدنى شك..
طالت الجلسة.. وبدا أن الرجل أخرس أي معارض له وأنهك الجميع.. ثم سمعته يقول:
- هناك بحور لم يفطن لها العرب.. لكنها موجودة ويمكن أن ننظم بها الشعر مثل الوزن (فعلن) بكسر العين أربع مرات.. لقد قمت بنظم قصيدة عليه تقول:

أبكيت على طلل طربا ... فشجاك وأحزنك الطلل

وهناك بحر آخر يقوم على تكرار (فعلن) بسكون العين أربع مرات:

هذا عمرو يستعفي من ... زيد عند الفضل القاضي

إنه بحر جديد أقترح أن يكون اسمه (المخلع)..
عندما انتهت المحاضرة صلوا صلاة المغرب ثم خرج الحشد من المسجد.. الكل متحمس وتسمع (عبير) هذا الرجل أو ذاك يقيس على أصابعه أو يحاول تقطيع بيت شعر يحفظه،

وصاحبه يتهمه بأنه أحمق، كأنهم يختلفون حول ما إذا كان الهدف الذي دخل مرمى الزمالك صحيا أم لا...
لكن أين (سيبويه) في هذا كله؟
خرج الخليل فرأت (سيبويه) يتعثر حتى لحق به، ثم انحنى ليمسك بيده ويقبلها ويسأله:
هل تقبل أن أدرس قواعد النحو على يدك؟
نظر له الرجل في ضوء الغروب البارد وقال في وقار:
- أنا لم أبخل بعلمي قط.. ما اسمك يا بني؟
- (عمرو بن عثمان بن قنبر).. أشتهر باسم (سيبويه)..
هز الرجل رأسه محييا وابتعد وسط زحام السائلين..
وقف (سيبويه) يلهث فدنت منه.. لكنه لم يشعر بوجودها.. فقط همس:
- لقد وجدت سيدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- رجل من مسك

هكذا انتظم (سيبويه) في دروس الخليل..
كان الأستاذ العجوز قد التقط الإشارة فصار يرحب بتلميذه في كل مرة قائلا:
- مرحبا بزائر لا يمل!
وهي عبارة قلما قالها لأحد..
هكذا كان حب هذا الأستاذ العظيم يغرس جذوره في نفس الفتى، ويوما ما سيكتب الفتى كتابه (الكتاب) فيستشهد بآراء (الخليل) في 370 موضعا.. وربما في 522 موضعا حسب بعض المصادر..
كانت (عبير) تحضر الدروس من حين لآخر، فتحاول فهم أي شيء.. أين كانت تقيم في هذه الآونة؟ يمكنني أن أريحك فأصف العجوز التي سمحت لها بالإقامة معها بضعة أيام، لكننا في فانتازيا حيث لن تشغلنا أسئلة كهذه..
ومن (سيبويه) عرفت قصة حياة (الخليل بن أحمد الفراهيدي) منذ كان صبيا يتمنى الانضمام للخوارج دفاعا عن الإسلام الذي أفسده الأمويون، ثم كيف ثاب لرشده وعرف أنه من الإثم أن ينفذ الشريعة بيده لمجرد أنه يراها صحيحة من وجهة نظره.. هكذا بدل خطته وانطلق لقتال الروم..
العبقري الذي لم يعتقد قط أنه عبقري.. فقط كان يعتقد أن الناس من حوله أبطأ فهما مما ينبغي..
عرفت أيضا قصته في صباه عندما قرر أن يكون معلما بعدما كان تلميذا.. وكانت الطريقة لهذه الترقية أن يناظر أحد الشيوخ المعروفين فيسحقه.. هكذا تم ترتيب المناظرة مع أستاذه العجوز (أبو عمرو بن العلاء) الذي بلغ ثمانين حولا..
هذه المناظرة نالت اهتماما عظيما يذكرك بمناظرة (سيبويه) و (الكسائي) التي لم تتم بعد.. وقد احتشد الجميع لها متوقعين أن يهزم النابغة الصغير العبقري الشيخ..
جلس الشيخ المسن وبين يديه جلس التلميذ.. التلميذ الذي عليه أن يقهر أستاذه ويفوز بمكانه.
راح الشيخ يستعرض مسائل النحو المعقدة حتى بلغ مسألة لم يكن بارعا فيها تماما، بينما كان الخليل قد قتلها تمحيصا.
مال صديق (الخليل) عليه يحثه على القتال.. حان الوقت.
لكن (الخليل) أطرق وفضل الصمت.. من جديد تعثر الشيخ في نقطة أخرى، فراح صديق الخليل يهزه هزا كي يتدخل.. إن هذه النقطة مملكته.. لكن (الخليل) أطرق للأرض وراح يعبث في أوراقه.. ماذا دهاه؟ إنه يعرف الإجابة الصحيحة.. لا شك في هذا..
كان صديقه على وشك الإصابة بالفالج.. وراح يتلوى كمن يُشوى حيا حتى انتهى الشيخ المسن من كلامه فلم يفتح (الخليل) فمه بكلمة.. وانتهت المناظرة.
على الباب أمسك صاحبه به موشكا على خنقه من الغيظ:
- ما جدوى كل هذا ما دمت ستفضل الصمت؟ لو تكلمت لصرت كبير النحاة في البصرة! أنت يا صاحبي جبان أو معتوه أو هما معا..
لم يقاوم الخليل.. فقط أطرق للأرض في أسف وقال:
- للأسف لم أستطع.. رأيت هذا الشيخ في الثمانين من عمره، وقد علمني وعلم الناس ستين

عاما.. وأنا كنت أريد أن أستخدم العلم الذي منحني إياه كي أفضحه وأضيع حرمته؟؟ لا.. لا فعلت ذلك أبدا!
وقبل أن يتكلم صاحبه تركه وابتعد..
سمعت (عبير) هذه القصة من (سيبويه) فبدت لها أقرب للخيال.. إلى حد ما يمكنها فهم شخصية صديق (الخليل) فسلوكه أقرب لنا.. إنه كائن من لحم ودم.. أما هؤلاء فكائنات أسطورية.
على أنها لم تستبعد صحة هذه القصة عندما رأت موقفين غريبين..
القصة الأولى كانت عندما جاء ركب مهيب من فرسان وسيوف براقة وخيول مطهمة.. هذا الركب راح يجتاز شوارع المدينة الضيقة حتى بلغ بيت الخليل، فترجل قائده.. رجل منتفخ الأوداج معتد بنفسه متأنق كطاووس..
وعلى الباب طلب أن يستدعوا له (الخليل بن أحمد) لأنه موفد من أمير الأهواز.. قالها في ضيق و (ألاطة) شديدين لأنه لم يتصور أن يمشي في هذه الأزقة الفقيرة.
جاء من يحمل الخبر للأستاذ الجالس مع تلاميذه ومنهم (سيبويه)، دب القلق في الجالسين لكن (الخليل) قال لهم بلهجة آمرة:
- لم ينته الدرس بعد!
ثم قال لمن جاء يناديه:
- قل لرسول أمير الأهواز أن يأتي هنا فأنا لن أذهب له.
هكذا دخل الرسول القاعة وهو مغتاظ نوعا.. إنها إهانة لكن عنده رسالة لابد من توصيلها إذن فليبتلع الإهانة مرغما.. حيا (الخليل) وجلس وهو يتنفس من منخريه كفرس هائج بينما واصل الخليل الدرس كأن شيئا لم يكن..
عندما انتهى الدرس استدار بوجه بشوش لضيفه منتظرا أن يبدأ الكلام.
قال الضيف جليل الشأن:
- سيدي أمير الأهواز (سلمان المهلبى) يرغب في أديب يقيم في قصره.. يسليه ويعلم أطفاله ويؤدبهم.. وقد طلب مني أن أقدم لك هذا العرض مع هدية مائة ألف درهم.. إنها كافية لتغطية نفقات سفرك..
ساد الصمت.. وراحت (عبير) تفكر في قيمة هذا المبلغ السمكة بدرهمين.. إذن هذه ثروة تساوي خمسين ألف سمكة.. لكن الخليل سيرفض.. كانت تعرف أنه سيرفض.
هؤلاء العلماء العرب القدامى كانوا مولعين برفض إغراءات الأمراء.. والذين قبلوها منهم لم يعد التاريخ يذكرهم.
نهض الخليل إلى خزانة صغيرة فتناول منها شيئا وعاد به ملوحا.. إنها كسرة خبز جافة.. أتعس كسرة خبز رأتها (عبير) في حياتها...
قال وهو يعود لمجلسه:
- ما دامت هذه في داري فلست بحاجة للأمير.. أما الدراهم فهناك شعراء فقراء أولى بها مني..
نظر له الضيف غير مصدق.. ثم عاد يلح عليه فلم يلق إلا إصرارا.. سأله على طريقة البرنامج الشهير:
- هل هذا الجواب نهائي؟
- نعم.. وقل للأمير بيت الشعر هذا:

أبلغ سليمان أنى عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال

سخا بنفسي أني لا أرى أحـــــــدا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال

نظر له الضيف طويلا ثم هز رأسه في حركة أنيقة وغادر الدار..
ساد الصمت بعد رحيل الرجل، فكان أول من تكلم (عبير) ذاتها.. الحقيقة أنها كانت تجد في هذه المواقف نوعا من الميلودراما وغريزة التفاني أكثر مما يحتمله الأمر.. فقالت:
- سيدي.. هل يأمرك علمك بالفقر؟ من الطبيعي أن يبحث المرء عن الرزق.. والرزق قد أتاك بدلا من...
وصمتت تأدبا وإن أفصحت عيناها اللتان اتجهتا إلى ثيابه الممزقة وبيته المتواضع عن كل شيء.. بمقاييس العصر وكل عصر هذا رجل فاشل اقتصاديا.
قال في غضب:
الأمير يريد أن أنقطع لتعليم غلام أو اثنين بدلا من أن أعلم كل التلاميذ الذين ألقاهم هنا.. أن يصير كل ما أملك من علم ملكا للأمير يأخذ منه ما يشاء ويترك ما يشاء.. يستخدمه للهزل أو التفكه أو ليتحدى به أقرانه. أنا أحب المال حبا جما لكني أريده حقا لا جدل فيه.
عادت تسأله وقد انفتحت شهيتها الصحفية:
- لاحظت أن شعرك جيد جدا فلماذا أنت مقل فيه؟
قال في مرح وقد نسي غضبته الأولى:
- ما أرتضيه منه لا يأتيني.. وما يأتيني منه لا أرتضيه!
إنها عقدة الناقد العبقري الشهيرة.. عندما تتزايد ملكة النقد لا يعود المرء قادرا على كتابة حرف واحد.. من المفيد أن يكون الأديب على درجة من السذاجة والغرور الطفولي وإلا لما كتب حرفا..
كيف كان تأثير موقف كهذا على (سيبويه) المنبهر دائما؟ أنت تملك خيالا فلن أطيل عليك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«(الخليل بن أحمد) رجل من مسك ومن ذهب..»
«لم يأت في العرب بعد الصحابة من هو أذكى منه..»

(مقولات المعاصرين عن الخليل)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الموقف الثاني الذي لم تستطع أن تنساه كان يوم وقف على باب الخليل رجل أعرابي ومعه ابنه.
كان الرجل متعجلا نافد الصبر.. حيا الخليل ثم قدم له ابنه وقال:
- جئتك من سفر شاق لأني سمعت عن عبقريتك.. أريد أن تعلم ابنى علم النجوم والنحو وما ينفعه من الطب وفروض الفقه!
حك الخليل رأسه وسأله:
- كم عاما تنوي تركه معي؟
هتف الرجل في ذهول:
- أنا أنتظر على الباب مع حمارى إلى أن تعلمه لنرحل!
كتمت (عبير) ضحكتها وكذا فعل تلاميذ الخليل، لكن العالم الجليل لم يضحك.. بل وضع يديه على كتف الصبي وقال له:

- لتعلم يا بني أن الثريا في وسط السماء.. هذا درس كاف في علم النجوم.. الفاعل مرفوع وهذه من أهم حقائق علم النحو.. بها بدئ هذا العلم ولعله بها يختم.. نبات (الهليلج الكابلي) مفيد للصفراء.. هذا يكفيك في الطب أما عن الفقه فحسبك أن تعرف أنه لو مات رجل تاركا ابنين، فثروته تقسم بينهما بالتساوي قال الأعرابي وهو يشد ابنه بطريقته العملية نافدة الصبر:
- هلم يا بني.. اشكر (الخليل) ولا تنس العلم الذي قدمه لك هذا يكفيك.
وركبا الحمار ليبتعدا عن عيون الواقفين.
قال (الخليل) وهو يعود لمجلسه:
- هذا أقصر درس أعطيته في حياتي لكن الرجل راض بما حصل عليه.. وهذا هو المهم.
ثم عاد إلى الداخل يواصل شرح العلم الجديد الذي ابتكره..
من بين تلاميذه اليوم كان تلميذ هو أقرب للمعلم.. إنه (الأصمعي) الشهير.. عجوز وقور يرغب في أن يفهم سر العروض هذا..
المشكلة هي أن الرجل ظل عاجزا عن فهم هذا العلم.
شرح له الخليل طريقة تقطيع الأبيات ألف مرة، لكن الشيخ كان عاجزا تماما عن إجادة هذا الفن.
لم يقنط الخليل وراح يجرب بلا جدوى.. أيقن الطلاب أن الأصمعي لن يفهم العروض أبدا، وفي الوقت ذاته من يجرؤ على مصارحة الأصمعي بأنه لا جدوى من جهده؟
قال (الخليل) للعالم:
- هل تستطيع أن تقطع قول الشاعر:
إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

راح الأصمعي يحاول تقطيع البيت عدة مرات.. ثم توقف ونظر إلى الخليل.. هنا فهم.
لقد وصلته الرسالة كاملة.
هكذا نهض وطلب الإذن بالانصراف، ولم يعد بعدها قط.
في هذه اللحظة اقتحم الغرفة تلميذ حديث السن يحمل ورقة يجرى بها ملهوفا.. من الواضح أنه قصير النظر لأنه تعثر في الجالسين، وهتف وهو يلتقط أنفاسه:
- سيدي.. تداركت شيئا بالغ الأهمية!
في وقار رفع (الخليل) يده:
- فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد.. إنني لم أنه الدرس بعد.
جلس الطلاب حول الخليل، وكان من الطبيعي أن يوجد بينهم من يرى في نفسه القدرة على امتحان أستاذه.. على سبيل الغرور أو سبيل العبث..
المهم أن أحد الطلاب سأله:
- ما معنى قوله تعالى (رب ارجعون)؟
أطرق الشيخ مفكرا.. أطال التفكير والكل ينظر له في توتر.. متى يتكلم؟
بعد قليل رفع رأسه وقال:
- لا أعرف الجواب..
صمت التلاميذ جميعا احتراما لهذه الصراحة، فمن قال لا أدري فقد أفتى.. لكن ضحكة ساخرة تعالت من أحد الجالسين.. نظر له الجميع فرأوا نظرة وقحة متهكمة لا شك فيها على وجهه القبيح.

قال الخليل بهدوء:
- الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري.. ذلك عالم فاسألوه.. ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري.. فذلك جاهل فعلموه.. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري.. فذاك غفل فأيقظوه.. ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.. فذلك أحمق فارفضوه!
برغم العرق الذي سال منه قرر الطالب أن يسأل أستاذه سؤالا معضلا آخر..
من جديد راح العالم الكبير يطيل التفكير.. فقال الفتى في وقاحة:
- لم تطيل التفكير؟ ليس الأمر بهذه الصعوبة!
في برود قال الخليل:
- عرفت الحل منذ زمن، لكني أبحث عن إجابة تفهمها أنت.. وقد أرهقني هذا!
كانت ضربة.. ضربة محسوسة جدا كما يقول (شكسبير).. ونظر الجميع إلى الفتى فلم يجدوا الوقت الكافي لذلك، لأنه غادر المجلس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- رجل من ذهب

كانت (عبير) جالسة تصغي لدرس من دروس الخليل عندما جاء رجل يحمل رسالة إلى الأستاذ العجوز.. قال الرجل القادم ككارثة:
- هذا خطاب بالعربية من ملك الروم.. لقد سمع عن نبوغك فأرسل لك هذه الرسالة.
فتحها (الخليل) ونظر فيها.. ورمش بعينيه ثم ناولها ل. (سيبويه) أقرب التلاميذ له.. نظر لها الأخير فلم يبد عليه الفهم وقال:
- هذه ليست لغة عربية..
قال الذي جلب الرسالة:
- بل هي بالعربية.. أؤكد لك هذا..
وقعت الورقة في يد (عبير) فألقت عليها نظرة.. إن لها خبرة بالحروف اليونانية القديمة منذ عاشت (الإلياذة) و (الأوديسة) لهذا قالت في ثقة:
- هذه حروف يونانية قديمة.. لكني لا أذكر كيف تقرأ..
فكر الخليل قليلا ثم غمغم:
- ملك الروم يختبر ذكائي.. هذا واضح.. لكنه يعرف أنني لا أعرف اليونانية.
ثم نهض متجها إلى غرفة داخلية.. وجلس الضيف يبتسم في ثقة.. لقد جلب الشرك معه وهو يعرف أنه معجز.. سوف يفشل العبقري حتما..
قالت (عبير) ل. (سيبويه):
- هذا اختبار عسير..
قال (سيبويه) في ثقة:
- سوف يحله.. إن عقل هذا الرجل لا يعجز عن شيء..
بعد نصف ساعة عاد الخليل حاملا ورقة عليها كتابة بالعربية وناولها الضيف وقال:
- هل هذه رسالتك؟
أصيب الرجل بالذهول وكذا التلاميذ.. هتف (سيبويه) مذهولا:
- كيف فعلتها؟
ضحك الخليل وقال وهو يتخذ مجلسه:
- ويحك يا (كيسان) ولماذا أعطانا الله العقل إذن؟
بما أن هذه الرسالة كتبت بالعربية فلابد أنها بدئت ب. (بسم الله الرحمن الرحيم).. هكذا قارنت حروف أول سطر لأعرف كيف تكون الباء والسين والميم والألف واللام والراء.. إلخ في اليونانية.. ثم رحت أقرأ النص.. فإذا وجدت لفظة أعرف أكثر حروفها استنتجت الحروف الباقية.. عندما تجد لفظة (الرس... ل) فإنك تستنتج أنها (الرسول) وهكذا تعرف شكل حرف الواو لدى اليونانيين، من ثم كونت الأبجدية اليونانية كلها..
- كرر الرجل مرتين أن الرسالة بالعربية.. وملك الروم يعرف أنني أجهل معاني الكلمات اليونانية.. هكذا فهمت أنهم استخدموا الحروف اليونانية ليكتبوا لى بها نصنا عربيا..
قال تلميذ مشاغب يدعى (كيسان):
- وهل هذا سهل؟
قالت (عبير) منبهرة:

- فيما بعد سيستخدم رجل يدعى (شامبليون) هذه الطريقة لفك رموز الهيروغليفية.. كما سيستخدمها رجل يدعى (إدجار آلان بو) في قصة (الحشرة الذهبية).
لم يفهم أحد ما تقول ففضلت الصمت..
تناول الضيف الرسالة في إجلال ثم غادر المجلس ليعود لملك الروم..
هنا قال (الخليل):
- لقد أفادني هذا.. لا بد من وضع كتاب يشرح طريقة التفكير في حل الألغاز.. سوف أطلق عليه اسم (المعمي).. ما رأيك في أن تساعدني في هذا الأمر يا (كيسان)؟
- أمرك يا سيدي.
مسح الأستاذ وجهه ثم قال في تعب:
- عم كنا نتكلم قبل وصول هذا الضيف؟
في هذه اللحظة اقتحم الغرفة التلميذ حديث السن الذي يجري ملهوفا.. كما هي العادة تعثر في الجالسين، وهتف وهو يلتقط أنفاسه:
- سيدي.. هناك شيء مهم..
في وقار رفع (الخليل) يده:
- فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشروع العملاق الثاني ل. (الخليل) كان تعديلا على طريقة تشكيل الحروف التي ابتدعها العلامة (أبو الأسود الدؤلي).. المشكلة هي أن النقاط التي وضعها (الدولي) لضبط حركات الحروف كانت تتداخل مع نقاط الحرف ذاتها.. صحيح أن نقاط التشكيل كانت تكتب باللون الأحمر، لكن (الخليل) كان يراها غير مريحة للعين.. دعك من حاجة الخطاط إلى استخدام حبرين.
فكرة (الخليل) كانت أن يرسم على الحرف نفس حرف المد الذي يناسب حركته.. فإذا كنت تضم الحرف رسمت فوقه واوا صغيرة.. وإذا كنت تكسره فلتضع تحته ياء صغيرة.. أما إذا كنت تفتحه فلتضع فوقه ألفا صغيرة..
لم يسترح الناس لهذا التعديل وحاربوه.. إلا أنهم بدءوا يأخذون به بعد وفاة (الخليل) بدهر.. وسرعان ما دخلت هذه الطريقة علم القراءات.
المشروع الثالث له كان عمل معجم كامل للغة العربية.. جمع كلمات المعجم بطريقة قائمة على الترتيب الصوتي، فبدأ بالأصوات التي تخرج من الحلق وانتهى بالأصوات التي تنطق من الشفتين، وهذا الترتيب هو (ع ح هـ خ غ...) وسماه معجم (العين) باسم أول حرف في أبجديته.
كانت (عبير) الآن تهيم إعجابا بهذا الرجل حتى أنها بدأت تنسي (سيبويه) نوعا.. لكن (سيبويه) كان ينضج وتتبلور شخصيته كلما اقترب التاريخ الذي سيتفرد فيه وحده بسلطة النحو في البصرة.. وهو التاريخ الذي قابلته فيه أول مرة.
لكن (الخليل) كان شخصية فاتنة بحق... العلم والزهد والكبرياء وقد أنضجتهم السنون.
ذات مرة حضر له من يدعى (يونس).. دعني أخبرك أولا أن (يونس) شخصية مشاغبة مشاكسة، وهو من كارهي (سيبويه) لأن (الخليل) يحبه.. لكن هذا ليس موضوعنا..
كان (يونس) قد أعد لأستاذه شركا.. مسألة نحوية تبدو سهلة لكن إذا توغلت فيها اكتشفت أنها كارثة [1]..

جلس بين يدي الأستاذ وببراءة سأله عن هذه المسألة..
أطرق الخليل يفكر ولم يقل شيئا... راح (سيبويه) وزملاؤه يتواثبون كأنهم على نار.. فالمسألة يستطيع أن يحلها طفل.. حتى (عبير) شعرت بأنها تستطيع حلها..
لكن (الخليل) ظل صامتا يفكر
يفكر.. يفكر.. يفكر.. يفكر.. يفكر.. يفكر
اقتحم الفتى المتحمس المكان حاملا ورقة وهتف:
- سيدي.. لقد تداركت شيئا مهما.
قال له الطلاب في حزم:
- اسكت يا (أخفش).. إن الأستاذ يفكر.
من الواضح أن ضعف بصره جعله لا يرى توتر الموقف..
هكذا تراجع شاعرا بالخجل وإن ظل قلقه متأججا..
في النهاية أعلن (يونس) أنه مضطر للانصراف..
ما إن توارى حتى تصايح التلاميذ في غضب:
- لماذا لم تجبه وتخرسه يا أستاذنا؟
وقال (سيبويه):
- لو طلبت من أصغرنا أن يرد لفعل..
قال (الخليل) باسما:
- كنتم ستقولون له كذا وكذا؟
- نعم..
- عندها كان سيسألكم عن كذا..
- كنا نرد عليه ب. (كذا)..
ازدادت ابتسامته إشراقا وقال:
- فإن قال لكم (كذا وكذا) فيم تجيبون؟
تبادلوا النظر واحمرت الأذان.. حقا لم يخطر ببالهم هذا المأزق.
قال (الخليل) في حزم:
- تلومونني على تأخري في الجواب.. بينما أنا لا أجيب أبدا إلا وقد عرفت آخر ما يصل له من يجادلني.. ليس عيبا أن تؤخر الجواب.. العيب كل العيب أن يسرع العالم في الإجابة ثم يكتشف أنه كان مخطئا.. إن خطأ العالم يضرب له الناس بالطبول وهو عيد من أعياد الجهل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الصباح نادي (سيبويه) وقال له:
- الناس بحاجة إلى كتاب في النحو.. أراك قادرا الآن على تأليف هذا الكتاب.. أما أنا فصحتي لم تعد تتحمل هذا الجهد..
هز (سيبويه) رأسه في هيبة معتبرا هذا عهدا..
ربت الشيخ على كتفيه وأخبره بأنه ذاهب إلى المسجد.
هذا هو آخر ما سمعه ورآه (سيبويه) من أستاذه وسيده.. القصة التي نقلها له الباكون قالت إن (الخليل) مشي إلى السوق فسمع جارية تتشاجر مع بائع الدجاج لأنه غالطها في الحساب.. الرجل يؤكد أن حسابه مضبوط وهي تصرخ وتتهمه بالنصب.

قال (الخليل) لمن معه:
- الحساب عسير على جارية بائسة كهذه.. لابد من طريقة لتبسيط جدول الضرب بحيث لا يخدعها أحد ثانية.
كان الآن في المسجد فخلع نعليه ومشي شارد الذهن يفكر.. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية.. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية.. لو أن هناك طريقة لتسهيل العمليات الحسابية.. لو أن هناك... طاخ!!!
التفت الجميع ليروه على الأرض والدم الغزير الأسود ينزف من جبهته.. لقد اصطدم بعامود في المسجد وهو شارد الذهن غارق في حساباته..
حملوه إلى داره..
لكن النتيجة المؤسفة كانت واضحة للعيان.. هذا الشيخ لن يعيش ليتلقى ضربة أخرى.. لقد قتلته عبقريته ويا لها من ميتة!...
على الباب جاء الفتى الملهوف المصاب بقصر النظر إياه صائحا:
- يجب أن أقابل (الخليل)! هناك شيء مهم تداركته..
قال له (سيبويه) في حزم:
- ليس هذا أنسب وقت يا (أخفش).. إن العالم يوشك على لقاء ربه.
اللحظة كانت مهمة بالنسبة ل. (عبير) باعتبارها سبقا صحفيا، فهي أول - وآخر - صحفي في العالم يحضر وفاة (الخليل)، لكنها لم تستطع تحمل العويل المجنون للتلاميذ خاصة (سيبويه) الذي ركع على ركبتيه يلثم يدي (الخليل) اللتين ما زالتا دافئتين وإن كان برد القبر يزحف عليهما..
(سيبويه) سوف يهلك حزنا.. سوف يصاب بالجنون.
مات (الخليل بن أحمد الفراهيدي) الذي لم يأت في العرب بعد الصحابة رجل أذكى منه..
لكنه خالد ما بقيت اللغة العربية بينما نحن متنا منذ دهور..
سوف يخلده كل من وضع علامة التشكيل على حرف، وكل من تلا القرآن الكريم تلاوة صحيحة، وكل من فتح المعجم بحثا عن كلمة، وكل شاعر سهر الليل محاولا إصلاح قصيدة مكسورة..
سوف يتذكره (سيبويه) طويلا جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- (سيبويه وحيدا

تنظر (عبير) إلى (سيبويه) فتراه قد ازداد نضجا. السنون قد رسمت علامتها على كل سنتيمتر من وجهه.. ذلك الخليط العجيب من المعاناة والعلم وكبرياء العالم وتواضع من يعرف أنه لا يعرف.
اليوم هو كبير نحاة البصرة، وهو شرف لم يطلبه. لعله كان يتمنى أن يظل للأبد قابعا بين يدي (الخليل) يغترف منه العلم.. من الصعب أن تكون أنت الحجة الأخيرة.. ألا يكون هناك من تنظر لأعلى نحوه طالبا النصح.. أن يطالبك الناس بالعطاء وأنت تشعر بالحاجة للأخذ..
الآن كان (سيبويه) يشعر بهم مقيم. فهناك على عاتقه إنجاز مهمة ذلك الكتاب في النحو الذي كان آخر شيء طلبه منه (الخليل)..
كان غارقا في التفكير عندما اندفع نحوه ذلك الفتى الذي صار تلميذا له.. كان يلهث كعادته وهو يحمل لفافة ورق:
- سيدي (سيبويه.. هناك أمر مهم قد تداركته).. إنني..
في حزم قال (سيبويه):
- لا وقت عندي لسماع ما تريد قوله يا (أخفش)..
انصرف الفتى، فقالت (عبير) باسمة:
- اسمه (الأخفش)؟ اسم غريب حقا..
قال (سيبويه) وهو يعبث في لحيته:
(الأخفش) معناها ضعيف البصر.. في علم النحو هناك ثلاثة (أخافيش).. نحن نطلق على هذا (الأخفش الأوسط) واسمه الأصلي (سعيد بن مسعدة).. وهو طالب علم مجد.. لكنه يأتي دائما في الوقت غير المناسب..
ثم قال مبتسما:
- هناك بين تلاميذي اسم غريب آخر يأتي صاحبه في أوقات أغرب.. إنه (قطرب)..
قالت في دهشة:
- معلوماتي أن (قطرب) هذا هو الاسم المعرب لداء (لايكانثروبي Lycanthropy) أي (مرض الرجل الذئب)..
- اسمه الأصلي (محمد بن المستنير).. أما القطرب لغويا فدابة لا تستريح ولا تكف عن السعي.. أطلقت عليه هذا الاسم بسبب حماسه ونشاطه اللذين يجعلانه يقرع بابي بمجرد طلوع الشمس... إن له شأنا عظيما.. ولديه اهتمام بالغ بمعاني القرآن الكريم والمثلث اللغوي.. أي الأسماء الثلاثية التي يفتح أولها أو يضم أو يكسر فيعطي معاني مختلفة..
قالت في حيرة:
- حتى هذان تلميذان لك..؟
هنا هب واقفا.. كانت قد حفظت هذه العلامات.. علامات (حتى) المميزة.. وأدركت أن لسانها انزلق فقالت له:
- آسفة.. لتنس ما قلت..
قال مذهولا:
- (حتى هذان).. لماذا رفعت (هذان) ولم تجريها باعتبار (حتى) حرف جر؟

- لا أدري.. لعله الشيطان أغراني بذلك.
عاد يفكر ثم قال عابثا في لحيته التي غزاها الشيب:
- بل هذا صحيح.. (حتى) هنا استعملت كأداة ابتداء زائدة. (هذان) مرفوعة لأنها مبتدأ..
قالت في كياسة:
- لا أدري سبب ما يصيبك كلما ذكرت كلمة (حتى)..
قال مهموما:
- حتى لحظة موتي! سأموت وفي نفسي شيء من (حتى).. لم أسترح لإعرابها قط.. إنها تتخذ كل الأشكال الممكنة في الإعراب.. حتى التي تنصب المضارع.. حتى حرف الجر، حتى البادئة.. حتى التي تعمل عمل الواو.. هذه الكلمة تثير غيظي.
ثم تنهد في عمق وقال:
- ما علينا.. لكل شأن حينه.
ثم شمر عن ذراعيه وبسط أمامه قرطاسا وضع دواة الحبر، وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم).. كانت هذه أول صفحة في كتابه العملاق في علم النحو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) تتأهب في تلك الأيام.
لقد اقتربت المباراة جدا.. كانت تحمل عددا لا بأس به من شرائط التسجيل، لكنها قررت أن تفرغ ما تم تسجيله حتى لا تنقصها الشرائط في الوقت الحاسم. وهكذا وجدت نفسها تجلس إلى ذات القمطر مواجهة ل (سيبويه) وتستضيء بالشمعة ذاتها... وراحت تغمس ريشتها في ذات المحبرة التى يدون بها كتابه..
قال لها وهو يتابع ما تكتبه:
- لقد تدهور الخط عندكم كثيرا جدا!
هزت رأسها في عناد:
- شكرا..
عاد يشير بريشته إلى ورقتها وقال:
- لا تضعي همزة تحت ألف الفعل الخماسي ولا السداسي.. بالمناسبة.. هذه الكلمة منصوبة لأنها مفعول لأجله..
جمعت مفكرتها في عصبية وبحركة صبيانية كانت تمارسها منذ عشرين عاما، وقالت:
- اسمع.. لو كنت تنوي أن تحيل حياتي جحيما فأنا لن أكتب حرفا أمامك..
قال باسما:
- كل ما هنالك هو أنني أمقت أن أفني عمري من أجل هذه اللغة، ثم أرى ما صنعتموه بها في زمنكم.. أنت توشكين على تحويلها إلى لغة جديدة..
قالت وهي تفتح المفكرة من جديد:
- اطمئن.. عندنا علماء لغة ونحن نعرف قيمتها جيدا.. لنقل إنني واحدة من الدهماء الذين هم عبء على العلماء.. والآن ما هي خططك بالنسبة للمناظرة؟
قال وهو يعبث في لحيته:
- لا شيء.. سأذهب إلى بغداد.. أهزم (الكسائي).. أعود للبصرة.
- هذا برنامج طموح بحق..

وعاد يواصل الكتابة بينما هي تتأمله في اهتمام.
ببطء أدركت أن نظراتها تذوب في قسمات وجهه الوسيم.. نفضت رأسها لتفيق لكن الشعور الغريب الممض عاد يداهمها.. إنها تميل له.. ربما تحبه كذلك.. لا تعرف متى ولا كيف استولى هذا الشعور على روحها لكنها أفاقت لتجد نفسها مغموسة حتى العنق في هذا..
إنها واقعة في حب عالم لغوي من العصر العباسي!
هل هو الجنون؟
الحقيقة أنه من الصعب أن تقاوم أنثى سحر (سيبويه).. يجب ألا ننسى أنه كان وسيما وكان رقيقا وكان حالما.. والأهم أنه لا يشعر بوجودها على الإطلاق.. لا يشعر بوجود الأنثى ذاتها على الإطلاق..
كانت تتساءل: لماذا لا يتزوج برغم أنه في الأربعين من عمره؟ هذا شأن الباحثين عن هدف أعظم من أن تستوعبه الكلمات.. إن أجدر الرجال بالحب لا يبحثون عنه، وهي حقيقة أثارت قلق الأنثى عبر العصور.. التافهون يلاحقونها بعبارات الغزل وينشدون الشعر تحت شرفتها، بينما (سيبويه) لا يهتم بشعر الغزل إلا ليقطعه ويحدد ما فيه من أوتاد ناقصة.. إن أهمية (قيس بن الملوح) عنده هي أنه شاعر جيد فقط...
كانت تفكر: من المستحيل ألا يميل لي.. لقد شهدت معه قسطا هائلا من حياته وحضرت معه دروس الخليل..
لكنه يعتبرني مجرد صديق طيب لطيف..
لست قبيحة ولا منفرة.. لست غبية جدا.. فقط لو أظهر بعض الاهتمام.. بعض المبالاة.. أنا لن أنتزعه من علمه ولن أحطم مستقبله.. فقط فليمنحني شهادة بأنني حسناء ولسوف أنساه بعدها.. عندما يمنحني شخص بهذه العبقرية شهادة بأنني حسناء فهذا يكفيني..
حتى هذه النظرة المتفحصة الطويلة لم يلحظها.
لا.. ليس حتى. من فضلك ليس حتى.. لو فكرت في (حتى) ولم تلفظها لسمع أفكارها وانتفض..
في هذه اللحظة اقتحم الأخفش المكان، وتعثر كعادته في (عبير) التي لم يرها.. ثم هتف:
- هل لى أن أشرح الشيء الذي تداركته؟
قال (سيبويه) في حزم:
- فيما بعد يا (أخفش).. فيما بعد..
هكذا غادر الرجل الدار مرتبكا متوترا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى الكتاب..
قنبلة علم النحو.. الكتاب الذي لم يسمه (سيبويه) بأي اسم فقرر المعاصرون أن يطلقوا عليه اسم (الكتاب)..
هكذا بلا أية إضافات.. كأنه يغني عن أي كتاب آخر..
الكتاب الذي ألقوا عليه اللوم لأنه فكر في كل شيء فلم يترك شيئا لعلماء النحو المعاصرين.. هكذا ألقي بهم في حفرة النسيان..
وكما قلنا من قبل استشهد بآراء (الخليل) في 370 موضعا.. وربما في 522 موضعا حسب بعض المصادر.. إن (الكتاب) هو أنشودة حب تخلد (الخليل) الذي اختلف معه في بعض الآراء لكنه في النهاية ينحني أمامه تهيبا.

يوم المناظرة يقترب و (عبير) تزداد توترا.
ترى ماذا ينتظر هذا العبقري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- قررت أن أتزوج

دخلت عليه ذات صباح فوجدته يقرأ قصيدة وقد بدا عليه الغيظ.. ثم دعاها لتدنو منه وقرأ الأبيات بصوت عال:

تلاعب نينان البحور وربما ... رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

ثم هتف في ضيق:
- ما رأيك في هذا الهراء؟
قالت وهي تهز كتفيها:
- حتى أعرف أنه هراء لابد أن أفهمه أولا..
قال وهو يلقي القصيدة جانبا:
- هذا شعر (بشار بن برد).. والنون لا تجمع على (نينان) هذا الرجل يخرف..
مر جزء من اليوم.. وعند الظهيرة انفتح الباب بقوة كأن عاصفة اجتاحته ودخل رجل هو أبشع من رأته (عبير) في حياتها.. كان كفيفا ضخما قبيحا له رائحة خبيثة.. باختصار كان يشبه كفار قريش كما تراهم في المسلسلات الدينية..
هذا هو (بشار بن برد).. شاعر المجون الشهير سليط اللسان الذي لا يحترم أحدا ولا يؤمن بأية عقيدة ولا يرعي أية حرمة.. والذي وصفه شاعر ماجن منافس له قائلا:

وأعمي يشبه القردا ... إذا ما عمى القرد

مر جوارها فشمت أخبث رائحة شمتها في حياتها، لكنه كذلك شم رائحتها وعرف أن هناك امرأة هنا.. لذا أدار رأسه ينظر لها بعينين لا تريان نظرة وقحة لزجة.
قال (سيبويه) دون أن ينهض:
- أقدم لك أخبث شعراء العصر العباسي.. (بشار بن برد) الذي قال شعرا يسترضي جارية كي تمنحه بعض الطعام فقال:

ربابة ربة البيـــــت ... تطبخ الخل بالزيت
لديها سبع دجاجات ... وديك حسن الصوت

قالها في ازدراء من هذا الشعر الرديء الذي كان الدافع له هو (الدناوة) وهو أغرب غرض شعري في تاريخ الشعر العربي.. لابد أن الجارية سرت بهذا الكلام الفارغ وأعطته ما يسد رمقه.. على الأقل هو خلدها في تاريخ الشعر العربي..
قال (بشار) وهو يدق الأرض بعصاه دقا:
- سمعت أنك انتقدت شعري أيها الفارسي.. أنا قد جمعت (نون) على (نينان) كما تجمع أنت (حوت) على (حيتان) و (غول) على (غيلان).. أنا لا أخطئ.
تمنت (عبير) أن تنتهي المحادثة كي يرحل هذا الكريه، لكن (سيبويه) قال في تحد:
وماذا عن بيت شعرك القائل:

على الغزلي مني السلام فربما ... لهوت بها في كل مخضرة زهر؟

ما باله أيها الفارسي؟
(الغزلي) هذه لفظة من اختراعك أنت ولم يستعملها العرب.. أردت أن تعبر بها عن (الغزل).
بصق (بشار) على الأرض ثم أطلق صيحة عظيمة. وقال ملوحا بعصاه:
أ(سيبويه) يا ابن الفارسية ما الذي ... تحدثت من شتمى وما كنت تنبذُ؟
أطلت تغني سادرا بمساوئي ... وأمك بالمصرين تعطي وتأخذُ

ثم غادر الغرفة متعمدا أن يحتك ب.(عبير) في غلظة، فهتفت في اشمئزاز وهي تتراجع:
- أوف! (جاتكوا البلا)!!
ظل (سيبويه) جالسا حيث كان، ثم قال في وقار:
- هذا هو ما يجنيه العالم من فظاظة العامة.. لقد شتم أمي..
كانت (عبير) قد فهمت هذا الجزء.. هي (وصلة ردح) من التي تسمعها في الحارة كثيرا.. يقول (بشار) ما معناه: لا تنشغل بنقدي أيها الفارسي الذي يجهل أسرار العربية.. عليك أولا أن تهذب سلوك أمك!
قال (سيبويه):
- من الخير ترك (بشار) وشأنه.. إنه سليط اللسان قذر الأفكار، لكني لا أطيق أن أرى خطأ في اللغة دون تصحيح.. إنها رسالة مقدسة.
المشكلة هي أن الغرفة يجب أن تظل مفتوحة لمدة ساعتين حتى تزول رائحة هذا الشاعر الكريه.. ولو عرفت (عبير) أنه سيموت جلدا بتهمة الزندقة بعد أعوام لشعرت بلذة لا توصف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم جاء اليوم الذي لم تتوقعه قط..
لقد زارت (سيبويه) في داره فوجدته سعيدا مرحا كما لم تره من قبل.. منذ زمن لم تر حمرة الرضا تغزو خديه ومنذ زمن لم تر عينيه تتسعان بعدما أنهكهما العلم.
سألته وهي تفتح النوافذ ليدخل ضوء الشمس:
- هل حللت مشكلة (حتى)؟
- بالطبع لا.. قلت إنني سأموت وفي نفسي شيء من (حتى).
- إذن ما سر هذه السعادة؟
نظر لها وفي فخر قال:
- قررت أن أتزوج!
نظرت له مليا ثم أطرقت خفرا..
لقد نجحت!
ربما لن يذكر التاريخ هذه الحادثة لكنها لن تنسى أبدا أنها من أقنع (سيبويه) بالزواج.. راهب العلم قد غادر محرابه عندما رأى (عبير).. هناك بيت شعر شهير قيل في بغداد يوما يقول:
سلوا الجميلة في الخمار الأسود ... ماذا فعلت بزاهد متعبد؟
قد كان شمر للصلاة ثيابه ... حتى برزت له بباب المسجد

برغم وقاحة بيت الشعر الذي يتحدث عن ناسك ترك الصلاة لدي رؤية حسناء بخمار أسود، فإن التاجر الذي علق هذه اللافتة في بغداد باع كل خمار أسود في متجره قبل أن ينتهي اليوم! والحقيقة هي أن شاعرا نظم هذا البيت خصيصا على سبيل الدعاية لتجارة صاحبه..
(عبير) فعلت الكثير براهب العلم الذي قرر التخلي عن حياة الوحدة من أجلها.. ولسوف يأتي الناس ليروا من (عبير) هذه وتموت النسوة غيظا.. إنها النجمة في حفل تكريم لم تره عين من قبل.. تتقدم للمنصة باكية.. تصعد وسط التصفيق.. تنحني للجمهور وترسل بأناملها قبلة تحية لهم.
كان انفعالها حارقا حتى أنها بدأت تبكي كصنبور تالف وانهارت لتجلس.
قال وهو ينظر لها بدهشة:
- لم أتوقع أنك بهذه الحساسية.. إن (نتيلة) سوف تهيم بك حبا!
- من؟
- (نتيلة).. إنها زوجتي المقبلة.. سوف أعرفك عليها!
هذه المرة ازداد بكاؤها حرارة وتحول الصنبور إلى ماسورة مياه رئيسية مكسورة في ميدان التحرير.. ثم تحولت الماسورة إلى شلالات نياجرا.. فراح يربت عليها في تحفظ مرددا:
- ما أرقك! حتى أمي ما كانت لتبكي فرحة بي كما تفعلين أنت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العلماء أشد الناس غباء فيما يتعلق بمشاعر الأنثى..
قالتها لنفسها وهي ترمق فرحته.. هو لم يفهم لحظة أنها تهيم به حبا.. وحسب كل هذه الدموع تأثرا من الفرحة.. عندما تبكي المرأة من أجل الرجل فهو لا يعرف هذا أبدا.. لماذا؟ لأنه أحمق.. لأنه غافل.. لأنه لا يثق بنفسه.. لأنه.. لأنه اختار أخرى..
الآن يتقدم الهودج نحوه.. ينيخ العبد الجمل.. يتقدم (سيبويه) ليزيح الستار عن عروسة التي تضع النقاب يزيح النقاب
العلماء أشد الناس حمقا في تمييز جمال المرأة...
قالتها (عبير) لنفسها وهي ترمق العروس.. ليست قبيحة لكنها بالتأكيد ليست بالقادرة على اقتناص هذا الغزال المراوغ..
تضحك العروس فيتسع منخراها وتلتمع عيناها في وحشية لربع ثانية.. تعبير لم تتعمده لكن وجوهنا تخوننا كثيرا، كما لخصها التعبير القرآني البليغ (خائنة الأعين).. تعرف (عبير) هذه النظرة على الفور.. نظرة الاستيلاء.. هذه المرأة قد اقتنصته ولن تفلته أبدا.
تنظر لها العروس ضاحكة.. لكن نظرتها تقول بوضوح:
نحن نفهم بعضنا جيدا أيتها الحية.. فنحن امرأتان.. الرجال حمقي تماما في هذه الأمور.. لقد تغيرت قواعد اللعبة، فلا تتحدثي بهذا الهراء الذي تقولينه عن الصحافة المستقبلية وما إلى ذلك.. (قديمة يا روح ماما) ... لن أسمح لك بالجلوس معه ثانية، ولن أسمح لك بمحاولة انتزاعه مني وعبير تقول عيناها: أنت نجحت في خداعه لكنه سوف يدفع الثمن.. إنه بريء لا يفهم شيئا في النساء وهو لا يعرف أنه يستقبل جلاده لا عروسة!
في اللحظة ذاتها تتصافح المرأتان وتتبادلان اللثمات على الخدود كعادة النساء.. إنهن بارعات في إخفاء الكراهية.
ممه.. ممه.. معه.. ما أروعك يا روح قلبي.. ما أجملك يا حبيبتي!

فيفرك (سيبويه) كفيه في سعادة ويصيح:
- أسعدني أنكما متحابتان!
العلماء أشد الناس غفلة عن علاقات النساء المعقدة..
في هذه اللحظة برز الفتى الذي يعرق كأنه جاء من تحت الأمطار وهتف ملوحا بورقة:
- هلا شرحت لك ما تداركته يا سيدي؟
نظر له (سيبويه) في حزم وقال:
- تختار أغرب الأوقات أيها (الأخفش).. حتى لو شرحت لي فليس عقلي معي..
ومد يده يمسك بكف عروسة التي يراها حسناء..
العلماء أشد الناس سذاجة عندما يختارون زوجاتهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- نيران الحقد

تواري (سيبويه) عن الأنظار أسبوعا أو نحو ذلك..
في النهاية قررت (عبير) أن تزوره لتعرف هل صدق حدسها أم لا.. حتى لو كان ثمن هذا إهانة عابرة من العروس التي هي (سته) في كل شيء.. (ست) لفظة عربية صحيحة معناها أنها تحيط به من الجهات الست:
شرق وغرب وشمال وجنوب وفوق وتحت..
على باب الدار سمعت الصراخ.. توقفت باسمة في شيء من الخبث وسألت نفسها: لماذا لا تشعر بدهشة أو ذهول؟
لماذا لا تشعر بحزن؟ فقط بما أنها في معقل اللغة العربية تتذكر مقطعا من الشعر:
أضاعوني وأي فتى أضاعوا!
صراخ المرأة يتعالى من داخل البيت (من المعتاد أن يعلو لهذا الحد بعد خمس سنوات.. لكن هذه المرأة تسبق عصرها):
- أنا هنا كائن حي.. عندي أحاسيس ومشاعر وأنت تفضل أن تمضي يومك ذاهلا كأبله وسط كتبك..
(سيبويه) يقول بصوت قلما يرتفع:
- تزوجتني وأنت تعرفين أنني عالم لغة.. هل تغيرت؟
- لم تتغير وكنت أحسبني قادرة على هذا.. لكن أي علم؟ هل سال على رءوسنا الذهب مدرارا مقابل علمك هذا؟ نحن إلى الفقر أقرب!
عاد يقول:
- لم أزعم أنني ملك الفرس.. أنت تعرفين من هو (سيبويه).. ليس لديه مال إلا علمه وتقدير طلابه.
انطلقت المرأة تسب بمجموعة من الشتائم الفصحى العبقرية التي لم تعرف (عبير) أنها فصحى من قبل.. ثم صاحت:
- حتى خبزك شحيح جاف!
سمعته (عبير) يصيح في دهشة:
- ماذا؟ (حتى خبزك)؟ لماذا نطقت (الخبز) مجرورة؟
إن (حتى) هنا ابتدائية لا محل لها من الإعراب.
صرخت المرأة في جنون:
- أنت من لا محل له من الإعراب!!
ويخرج (سيبويه) ممتقع الوجه ليري (عبير).. بدا عليها الحرج وقالت:
- آسفة.. تبدو متضايقا.
قال وهو يجد السير محرجا قليلا إذ أدرك أنها سمعت المحادثة الرقيقة:
- نعم.. نعم.. إن مشكلة (حتى) هذه تزداد سوءا!!
- أتكلم عن المشاجرة التي..
- لا مشكلة هنالك.. امرأة (سقراط) كانت تلقى الماء القذر عليه وهو جالس مع تلاميذه، فكان يقول لهم ضاحكا:

- المطر يهطل غزيرا بعد العواصف.. ليتني مثل سقراط..
ثم قال لها وهو يبتعد:
- سأذهب إلى السوق.
- ليكن
فكرت (عبير): يبدو أن هذا أنسب وقت لبدء الرحلة إلى بغداد.. لقد صار وقت المناظرة دانيا.
لم تكن موجودة لتعرف باقي القصة..
عرفت أن (سيبويه) ذهب إلى السوق ليبتاع خبزا له وامرأته.. ثم عاد إلى الدار متمهلا غير شغوف بلقاء النمر الذي ينتظره..
هنا وجد الدخان يخرج من النافذة..
هرع مذعورا إلى داخل الدار ليجد كل كتبه.. كل مراجعه كل أوراقه تحترق في كومة عظمى مخيفة الشكل، بينما (نتيلة) عروسه الرقيقة تهلل فرحا وطربا.. لو كانت تعرف هذه الأمور لرقصت بالرمح حول النيران.
- هاها! لقد أحرقتها! لن يشغلك شيء عني بعد الآن!!
صاح في هلع:
- كتاب النحو! لقد أحرقت كتاب النحو!
جرى محاولا أن ينقذ شيئا فلم يستطع.. احترقت كفاه بينما المرأة تصيح في جنون كأنها إلهة نار وثنية منسية:
- هل تنوي أن تحترق في دنياك كما ستحترق في آخرتك بسبب إهمالك لي؟
- كتاب النحو! لقد أحرقت كتاب النحو!
وفي كل لحظة يكتشف مفاجأة باسمة أخرى.
- مذكراتي عن (الخليل)! لقد احترقت!
- دراساتي عن مخارج الحروف! لقد احترقت!
في النهاية سقط فاقد الوعي آملا أن يفيق ليجد أن هذا كابوس..
للأسف لم يكن الأمر كذلك.. التاريخ يخبرنا أن هذا حدث فعلا ولم يكن كابوسا كان أسوأ من الكابوس...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لما عرفت (عبير) بالقصة شعرت بشعور لم تتوقعه قط..
إنه نوع من الشفقة يغمرها تجاه هذه المرأة التي ظلمت أنوثتها إلى درجة الجنون.. ثمة قصة شهيرة عن (الفارابي) - أم هو (الجاحظ)؟ - الذي سكبت حماته المحبرة على أوراقه، فلما احتج قالت قولتها الخالدة: هذه المحبرة أخطر على ابنتي من ألف ضرة!!
(عبير) تفهم هذا.. وتفهم كذلك أن (سيبويه) تلقى ضربة قاصمة..
في الأيام التالية لم يسترح العالم العظيم لحظة.. لقد سهر الليالي يستعيد من الذاكرة كتاب النحو المدعو (الكتاب).. ولولا هذا الإصرار لما سمعنا عنه..
في النهاية عاد الكتاب حيا يرزق.. وأعتقد أنه طلق زوجته فالتاريخ لا يحكى أنه خنقها..
لكن حادثا كهذا لابد أن يترك شيئا محطما في داخلك.. لم تعد الحياة كما كانت، وجاء اليوم الذي قال فيه ل. (عبير):
- أنا راحل ل. (بغداد) غدا من أجل المناظرة.. هذا وقت مناسب لترك البصرة..
وافقته في حرارة وبدأت تعد أمورها للسفر معه في ذات القافلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- بغداد

تمضي القافلة نحو (بغداد)..
قال الحادي وهو يجر لجام الناقة:
- لن نتوقف حتى نبلغ العاصمة.
يخرج (سيبويه) رأسه من الهودج ليسأله في فضول:
- ماذا قلت؟ لماذا نصبت كلمة (نبلغ)؟
- لا أدري.. بدا لي هذا أكثر فصاحة..
- بل لأن (حتى) هنا عملت كأداة تنصب الفعل المضارع.. إنها قررت أن تكون (كي) للحظات.. لكن هذا الاستعمال غير صحيح.. المفترض أن...
ثم غاب رأسه داخل الهودج ليعيد حساباته.
ثمة جواد يركض لاحقا بالقافلة.. نظر الجميع إلى راكبه فلم يعرفوه.. فقط (عبير) أدركت أنه (الأخفش) قصير النظر الذي يصر على إيصال رسالته التي لا يعرف إلا الله محتواها..
- سيدي (سيبويه).. هل يمكن أن تصغي لي لحظة؟
وإن صوته ليتهدج بسبب خبب الجواد الذي يهز الهواء في رئتيه..
أطل رأس (سيبويه) من الهودج وقال في نفاد صبر:
- تكلم..
أخيرا! هتف الرجل غير مصدق:
- أتكلم؟
- أنت سمعتني
قال (الأخفش) في حماس:
- هناك بحر نسيه الخليل! بحر سادس عشر وقد تداركته!
هتف (سيبويه) في ذهول:
- ما هو؟
- إنه (فاعلن) ثماني مرات.. لكن يمكن أن يدخله نوع من الزحاف اسمه (الخبن) فيصير: (فعلن) ثماني مرات! ومثال ذلك بيت الشعر:
يا ليل الصب متى غده؟ ... أقيام الساعة موعده؟

صاح (سيبويه) وهو يوشك على السقوط من الهودج من فرط الحماس:
- وماذا أطلقت على هذا البحر؟
- لا أدري..
- إذن سمه (المتدارك).. لأنك تداركته بعدما أغفله (الخليل)!
أخيرا أتم (الأخفش) إبلاغ رسالته فانطلق بالحصان عائدا إلى البصرة.. ولسوف يذكر التاريخ أبدا أن بحر (المتدارك) اكتشفه (الأخفش) تلميذ (سيبويه)..
عاد (سيبويه) يسترخي وهو يجري حساباته المعقدة بصدد هذا البحر، فلابد أن هذا سلّاه طيلة الرحلة إلى بغداد..
(بغداد) العظيمة..

واحدة من أهم مدن العالم إن لم تكن أهمها بالفعل.
استقر (سيبويه) هناك عند (يحيى بن خالد البرمكي) وزير (هارون الرشيد) لأن له مكانة عظيمة، ووجدت (عبير) سكنا متواضعا تقيم فيه.. ثم راحت تقضي وقتها لمدة يوم ونصف في لقاء الناس في الشارع لتسألهم عن رأيهم في المناظرة..
تاجر الحبوب (أبو عبيد الثمداني) قال لها وهو يصلح عمامته:
- شهرة (سيبويه) عظيمة، لكنه غير معروف أو محبوب هنا.. أعتقد أنه سيخسر ما لم تحدث معجزة..
ثم قال وعيناه تلمعان:
- متى تنشرون هذا الحوار معي؟
- سوف ننشره بعد ١٢ قرنا.. في الصفحة الأولى!
بدا عليه الحماس المجنون:
لن أطيق صبرا حتى أبتاع هذه الجريدة..
الجارية (رميداء) قالت لـ (عبير) وعيناها الدعجاوان ترمقانها من فوق (اليشمك):
- أعتقد أن (سيبويه) سيكسب..
- ولماذا تثقين بهذا؟
- لأنه.. لأنه وسيم!
وهو منطق لا بأس به.. الوسامة مبرر كاف جدا لأن يربح المرء مباراة في النحو..
فقط واحد انتحي بها جانبا وقال همسا:
- أرجو ألا تقومي بتسجيل ما سأقول..
- ليكن..
قال وهو يتلفت حوله:
- (الكسائي) لن يسمح لـ (سيبويه) بالفوز بأي ثمن..
- تعني أنه سيقهره بعلمه؟
- بل سيقهره بالخداع.. بشهود الزور.. بالرشوة..
لو كنت مكانك لنصحت هذا العالم البصري بأن يعود لقواعده.. (بغداد) هي مملكة الكسائي.
وفارقها مسرعا.. فوجدت أنها تقف وحيدة حائرة في معني ما قال.. كانت تعرف أنه صادق دقيق في كلامه.. يسهل معرفة الصدق عندما تسمعه...
هذه ليست حربها ولا يعنيها الأمر في شيء. لكن (سيبويه) يهمها بالتأكيد.
هل تنذره؟ حتى لو فعلت فلن يصغي لها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن أقدم لك (الكسائي)..
هو (على بن حمزة بن عبد الله الأسدي).. اسم يوحي بالرهبة، والرجل كذلك رهيب.. إنه متقدم في السن لهذا يعتبر (سيبويه) الذي تجاوز الأربعين طفلا..
مهنته إمام نحاة الكوفة.. وهو المفضل عند الخليفة الأسطوري (هارون الرشيد).. وليس في نيته أن يتنازل عن هذه المكانة أمام صبي من البصرة في الأربعين من عمره.
قالوا إنه أعلم الناس بالنحو، وإن قراءته للقرآن قراءة نهائية بمعنى أنه لا يجب أن يختلف الناس بعدها..

لهذا كانت له جلسات مشهورة يقرأ فيها المصحف بينما يجلسون حوله يضعون العلامات ويضبطون قراءتهم على قراءته.. لم يكن جهاز التسجيل معروفا في هذا الوقت لهذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة.. ليس هذا غريبا إذا تذكرنا أن جهاز التسجيل لم يكن موجودا حتى في عصر الشيخ (محمد رفعت) القارئ الأسطوري.. كانوا يسجلون على أسطوانات شمع بدائية. فلما ظهر جهاز التسجيل تم استنقاذ هذه الدرر، ولولاها لما سمعنا عن الشيخ (رفعت) أصلا.. وهذا يفسر ذلك الصوت الخشن والضوضاء العامة المصاحبة للتسجيلات..
إذن الصراع هنا بين مدرسة (البصرة) ومدرسة (الكوفة)... لقد بقي (سيبويه) في الدار حتى جاء يوم المناظرة..
حول المكان - الذي كان بيت (الأمين) - كان زحام من الناس منهم من يشجع الكسائي ومنهم من يشجع (سيبويه) لا أستبعد أنه كانت هناك هتافات تردد: كسائي.. كسائي.. أوه.. أوه.. وربما كانت هناك احتكاكات ومشاجرات.
ذات الحماس الذي يذهب به الناس لمباريات كرة القدم اليوم، وهو ما يجعل المرء مذهولا من هذا الاهتمام الذي كانت تلقاه اللغة العربية قديما.. في فيلم (أماديوس Amadeus) كانت هناك مباراة ساخنة بين السكارى في إحدى حانات (فيينا) إذ راحوا يتحدون موتسارت كي يعزف لهم مثل (باخ) أو (هاندل)! كان عندنا دهماء يتسلون بمناظرات علم النحو وكان عندهم دهماء يتسلون بالموسيقا الكلاسية.. يبدو أن ذوق الناس ينحدر باستمرار.
(عبير) تجرى هنا وهناك عالمة أن هذه اللحظة هي المبرر الوحيد لمجيئها هنا.. لا تريد أن تضيع كلمة واحدة..
جاء (سيبويه) وسط تلاميذه شاحبا قليلا.. فهو بلغة كرة القدم لا يلعب على أرضه.. الجمهور ضده.. لكن ثقته في علمه كانت قوية، وسمعته (عبير) يهمس بآيات قرآنية ثم يردد اسم (الخليل)... كأنه يطلب من روح أستاذه أن تكون معه اليوم..
الآن جاء (الكسائي).. ضخما مرعبا يحيط به أتباعه.. على رأسه عمامة وزنها قنطاران وعلى كتفيه عباءة فاخرة وطيلسان.. تذكرت (عبير) لحظة دخول أبطال المصارعة قبل أن ينزعوا الروب ليلوحوا بالحزام الذي كسبوه في مباريات سابقة.
غير أن أبطال المصارعة ميالون للجعجعة أما (الكسائي) فكان باردا ثابت الجنان.. فقط نظراته النارية يمكنها أن تخثر اللبن أو تقتل طفلا.
وقف الرجلان وسط الحلبة.. فساد الصمت..
لا يوجد حكام لأن الرجلين هما الحكمان الوحيدان.. ما من أحد يعرف ما يعرفان.
بصوت غليظ ثابت قال (الكسائي):
- هل تبدأ أنت بالسؤال أم أسأل أنا؟
قال (سيبويه):
- ابدأ أنت
أوشكت (عبير) على قضم أظفارها بالكامل.. لكنها قررت أن تلعب دورها بمهنية.. لا وقت للعواطف.
بدأ (الكسائي) يوجه بعض الأسئلة التي أجاب عنها (سيبويه) بكفاءة..
وبدأ التوتر يزول شيئا فشيئا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- المسألة الزنبورية

يؤمل دنيا لتـبقى له: فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثا يروي أصول النخيل: فعاش الفسـيل ومات الرجل

(سيبويه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الكسائي وهو يمشي ببطء في المكان كأنه في حلبة مصارعة ينتظر اللحظة ليثب في بطن خصمه وينال لمس الأكتاف:
- ما رأيك في العبارة التالية: كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي.. أم: أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها..؟
لو كانت (عبير) قد قرأت عن الموضوع من قبل، لعرفت أن هذه هي (المسألة الزنبورية).. سؤال نحوي عويص يعرفه دارسو اللغة جيدا.
قال (سيبويه) في ثقة:
- هو الرفع.. أي: (أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي)..
عاد الكسائي يسأله:
- ما رأيك في العبارة التالية: خرجت فإذا عبد الله القائمُ.. أم عبد الله القائمَ؟
عاد (سيبويه) يقول:
- القائمُ.. بالرفع...
قال (الكسائي) وهو يواصل دورته البطيئة الاستعراضية:
- بل يجوز الرفع والنصب في المثالين..
- الرفع فقط.
- يجوز الاثنان..
هنا تدخل (يحيى بن خالد) ليلطف الجو.. فقال في تلطف:
اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما.. فمن يحكم بينكما؟
هذه هي مشكلة المباراة أصلا.. الحكم هو أحد المتصارعين.. لا أحد يستطيع أن يدلي بحجة تلزم هذين العبقريين بقبول رأيه..
هنا قال الكسائي وهو يشير للخارج:
- الأعراب.. أعراب الحطمة.. إنهم يجيدون العربية إجادة تامة وهم يقفون على الباب..
هنا نادي (يحيى) طالبا أن يدخلوا الأعراب.. دخل أربعة رجال ضخام الجثة تبدو عليهم الشراسة.. أسماؤهم هي (أبو فقعس) و (أبو دثار) و (أبو الجراح) و (أبو ثروان).. لقد خلدها التاريخ لنا..
مالت (عبير) تهمس لأحد الواقفين جوارها محتجة:
- هؤلاء جاءوا مع (الكسائي)... إنهم أصدقاؤه!
لم يرد الرجل فوقفت تتابع ما يحدث في توتر.
صاح أول الأعراب ملوحا بسيفه في الهواء:

- والله أصاب (الكسائي) إن ما قاله صحيح!
سأله (يحيى) وهو يحك رأسه تحت العمامة:
- أبو فقعس.. هل تعني أنه الرفع أم الرفع والنصب معا؟
بدت الحيرة على وجه الأعرابي، فهو لم يسمع موضوع المناظرة على الإطلاق.. لقد جاء لمهمة محددة هي شهادة الزور وهو يريد الفراغ منها بسرعة كي يرحل بما نال من مكافآت.. هكذا قال مرتبكا:
- الصواب ما قاله الكسائي..
التفت (يحيى) نحو الآخرين، فلوحوا بالسيوف وهتفوا بصوت واحد:
- الصواب ما قال الكسائي.. إنه الرفع!
- الكسائي لم يقل هذا.. قال بالرفع والنصب!
- إذن هو الرفع والنصب.. والله صدق الكسائي!
وتصايح الأعراب وهم يلوحون بالسيوف كأنها حرب داحس والغبراء.. فنظر (يحيى) إلى (سيبويه) في حرج وقال:
أعتقد أنك قبلت التحكيم..
إنها اللعبة القديمة: التلاعب في التحكيم.. تنجح دوما.
أطرق (سيبويه) برأسه ولم يدر ما يقول، فرفع (يحيي) ذراع (الكسائي) وصاح:
- المناظرة الكسائي..!...
تصايح الناس وراحوا يهللون ويتبادلون التهاني.. لقد سحق رجلهم هذا الفتى الأخضر القادم من البصرة.. أما الكسائي فلم يبتسم أو يحيى خصمه.. فقط اقترب من (يحيي) وهمس في أذنه بشيء ثم غادر القاعة ووراءه أتباعه..
انفض الجمع..
لم يبق واقفا إلا (سيبويه) ممتقع الوجه يطيل النظر إلى أبعاد أخرى..
دنا منه (يحيي) فدس في يده شيئا.. نظر (سيبويه) لهذا الشيء فوجده صرة مال..
قال (يحيى) في حرج:
- هذه عشرة آلاف دينار أوصاني الكسائي أن أمنحها لك.
لم يبد على وجه (سيبويه) أنه سمع ما قيل أو فهمه..
يرى وجه (الخليل) ووجه (حماد بن سلمة) وكل أساتذته العظام.. يرى وجه أمه.. يسمع صوت بشار بن برد القبيح يقول:
أسيبويه يا ابن الفارسية ما الذي: تحدثت من شتمي وما كنت تنبذ؟
أظلت تغني سادرا بمساوئي: وأمك بالمصرين تعطي وتأخذ
دنت منه (عبير) وربتت على كتفه لكنه لم يشعر بوجودها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لحنت يا (سيبويه)... (ليس) هنا أداة استثناء.. (أبا) منصوبة لأنها مستثني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أنها فهمت فيما بعد أن هذا جزء من حساسيته الشديدة.. تلك الحساسية التي يشعر بها لأنه فارسي الأصل ومهما حقق من انتصارات سيظل العرب ينظرون له على أنه لا يجيد العربية

مثلهم.
السبب الآخر لهذه الحساسية هو أنه ذو كبرياء.. إنه من الطراز الذي نطلق عليه في العامية (عنده دم).. وقد شعر بأنه أهين بصوت عال في حلقة الدرس.. فلابد أن هذا حز في نفسه كثيرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحني فيه..
- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحني فيه..
- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحنى فيه..
- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحني فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له (عبير) في رفق:
- ليست هزيمة في الحرب.. هي مجرد مناظرة أدبية وقد خسرت فيها. الأمر لا يستحق هذا كله..
نظر لها في حدة وقال:
- لم أهزم!
عادت تصحح مسار كلامها فقالت في رفق أكبر:
- لقد خدعوك بمكيدة قذرة.. لكن الأمر لم يكلفك مالا.. لم تفقد صحتك.. لم تسجن.. كل ما هنالك أنهم اعتبروا رأيك خطأ..
قال في ضيق وهو يبتعد جارا قدميه:
- حسبت الخداع في كل مكان في العالم ما عدا محراب العلم.. حتى هنا يوجد تحايل وتزوير ورشوة..
- ما كان الكسائي ليقبل الهزيمة على أرضه..
- صاح في عصبية أخافتها:
ولماذا لا يقبل الهزيمة؟ أنا كنت سأقبلها لو فعلها في البصرة وكان الحق معه عندما تتغلب كبرياء العالم على قدسية العلم فعلى الدنيا السلام.. نحن نطلب العلم للعلم ولا نطلبه كي نبدو أعظم ويلتف حولنا المعجبون..
كان يقول هذا وهو يتجه إلى الباب.
هناك وقف للحظة كأنه يفكر..
قالت له وهي تلحق به:
- الآن أنت عائد إلى البصرة؟
نظر لها نظرة وحشية من نظرات ذوي الكبرياء التي توشك أن ترى دمعة تغطيها.. وقال في ثبات
- لن أعود إلى البصرة أبدا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- غروب عبقري

(سيبويه) صاحب الكبرياء..
لقد هزم فأبى أن يعود مهزوما إلى الأرض التي اعتبرته بطلا لها.. أبى أن يرى الشفقة أو خيبة الأمل أو الدهشة في عيون محبيه..
هكذا ركب ناقته.
ركبت (عبير) ناقتها هي الأخرى، وإن سألته وهي تقاوم ذلك الشعور المخيف بأنها معلقة من أرجوحة توشك على السقوط:
- آي!! إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى (خراسان).. سأعيش هناك للأبد!
وتنطلق الناقتان نحو (خراسان).. لقد أنهت (عبير) مهمتها، لكنها ما زالت غير راغبة في ترك هذا العبقري الجريح.. تنظر للوراء فتري صرة المال ملقاة وسط الرمال.. كانت تتوقع هذا على كل حال.
تستمر الرحلة.. وتغرب الشمس...
في المساء جلس يداعب النيران المشتعلة بغصن شجرة ساهما.. سألته وهي تثبت بعض التمر على غصن شجرة كي تشويه:
- لم تأكل شيئا..
هز رأسه في حزن وراح يرمق النيران.. ذهول اللهب في عينيه.
قالت وهي تناوله قربة ماء:
- حتى الماء لم تشربه منذ الصباح..
ثم أدركت أنها ارتكبت غلطة جسيمة لأنه رفع عينيه نحوها.. بدا أنه سمع شيئا مهولا ثم قال:
- (حتى الماء).. هذه (حتى) الابتدائية..
- هل ما زال في نفسك شيء من (حتى)؟
قال وهو يواصل مداعبة النار بالغصن:
- لن أتعب نفسي أكثر من ذلك.. على الأقل عرفت بضع استخدامات ل (حتى) سأكتفي بها.. هناك (حتى) حرف الجر بمعنى (إلى).. أوضح مثال لها الآية الكريمة (سلام هي حتى مطلع الفجر).. هناك (حتى) حرف العطف التي تعمل مثل (الواو)... مثال قول الشاعر
(قهرناكم حتى الكماة).. الكماة هنا معطوف على منصوب لأن (حتى) تلعب دور (الواو)... هناك (حتى) الابتدائية التي لا دور لها في الإعراب.. كما في (حتى أنت يا بروتس).. الأمثلة الثلاثة يمكن تطبيقها على (أكلت السمكة حتى رأسها).. يمكنك جر (رأس) إذا اعتبرت حتى حرف جر، يمكنك نصب (رأس) باعتبار حتى حرف عطف.. يمكنك رفع (رأس) باعتبار حتى ابتدائية وتكون الجملة (حتى رأسها أكلته).
هناك حتى التي تنصب الفعل المضارع أي تعمل عمل (كي).. بشرط أن تكون هناك (أن مضمرة).. مثلا (سأعمل حتى أكسب المال) معناها الحقيقي هو (سأعمل إلى أن أكسب المال).. يجب أن يكون معناها (كي) أو (إلى أن)..
نظرت له في غباء.. لم تفهم شيئا.. فعاد يقول:
- (حتى) تعنى (إلى) وتعني (كي) وتعني (و) وتعنى لا شيء.. كل هذا في الوقت ذاته.. لكني لم أذكر

كل شيء.. هذا يكفي لما تبقى من عمري..
راحت تشوى التمر وهي ترقب وجهه في قلق.
ثمة جو عام يوحي بالنهاية..
هذا لا شك فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في خراسان.
حيث الجو الفارسي الحزين الذي يذكرك بفن المنمنمات.. يرقد العالم العظيم على (الدشت) والحمى تقهره.. و (عبير) تصب الماء على خرقة تضعها على جبينه.. مملكتي مقابل كبسولة من المضاد الحيوي.. هكذا تقول لنفسها.. كان في حقيبتها بعض (الكيتوفان) ككل فتاة، لذا جربت أن تعطيه حبة أو اثنتين لتخفيض حرارته لكن الذعر أصابه لأنه لم ير قط عقارا بهذا الشكل لا يقدم في قارورة.. رفض بإباء أن يجرب حبة واحدة..
لم تستطع قط أن تفهم المبرر القوي الذي يدفعه إلى الموت وهو في سن الأربعين.. أي أنه سيموت بينما أكثر أساتذته أحياء.. يمكنها أن تعرف السبب لكنها لا تفهمه.. إنه يموت لأنه هزم في مباراة لغوية! هذا يبدو غريبا.. يبدو مضحكا..
لكنه ليس غريبا لهذا الحد إذا تذكرنا مدي حساسيته واعتداده بنفسه.. إذا تذكرنا كيف صار هو اللغة العربية واللغة العربية هو.. إذا تذكرنا القسم الرهيب الذي اتخذه على نفسه في صباه:
- لا جرم.. سأطلب علما لا تلحني فيه..
لقد فقد الرغبة في الحياة، وهكذا صار أضعف فيروس برد قادرا على تدميره.. إنها حالة (إيدز) نفسية لا شك فيها.. العلم لم يصف الإيدز النفسي لكني أعرف يقينا أنه موجود.. الأم التي تموت بعد وفاة ابنها بشهر.. الفتاة التي تفقد حبيبها فتضمر وتموت خلال أسابيع.. رئيس التحرير الذي عنفه (السادات) أمام الجميع فعاد لداره ومات.. موظف (تشيكوف) الذي عطس في وجه موظف كبير لم يقبل اعتذاره فعاد لداره وتوفي خلال يومين.
(سيبويه) مثال واضح يضاف لهذه الحالات..
يقترب منها ذلك الشاب الذي يحمل ذات ملامح (سيبويه).. إنه أخوه.. يجلس جوارها ويمسك بيد أخيه ويقبلها..
يقول (سيبويه) بصوت مبحوح:
يؤمل دنيا لتبقي له.. فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثا يروي أصول النخيل.. فعاش الفسيل ومات الرجل

ثم مد يده ليمسك بأناملها.. يقربها من شفتيه الجافتين.. لم تفهم ما يريد عمله حتى اللحظة الأخيرة..
لقد لثم أطراف أناملها وهمس:
- شكرا لك.. لقد كنت معي في كل لحظة.. لم تخذليني قط.. لم تخذليني حتى.. حتى..
ولماذا لم تقل هذا من قبل؟ لماذا لا يعترفون بهذه الأسرار إلا على فراش الموت.. رفعت بدورها أنامله لفمها وألصقتها بشفتيها..
وعندما فتحت عينيها رأته يحدق في لا شيء.
لقد مات...

عرفت هذا يقينا عندما لم تتصاعد رائحة التفاح من أنفاسه..
عندما قال (حتى) ولم يعلق عليها..
قبل أن تنفجر في البكاء الهستيري شعرت بمن ينهضها من على الأرض.
انفجرت في البكاء والمخاط قبل أن تدرك أنها تبكي فوق سترة سوداء حديثة.. رفعت عينها لتجد المرشد واقفا هناك وهو يبتعد بها عن فراش الموت...
قال لها:
- لا داعي لتعذيب أخيه ببكائك الذي لا نفع منه..
فلنبتعد.
قالت وهي مستمرة في البكاء:
- لن أتركه الآن.. هناك واجب أخير يجب أن أقوم به نحوه.
قال كأنه يخاطب طفلا أحمق:
- لن تفيدينه بشي..
للحظة كان الغضب أقوى من الحزن، فقالت في عصبية وقد آذت الكلمة أذنيها:
- (لن تفيديه بشيء).. يجب أن تنصب الفعل المضارع بحذف النون لأنه متصل بياء المخاطبة!
هز رأسه باسما وقال:
- لقد تقدمنا كثيرا جدا.. فليرحم الله أيام كنت تتحدثين عن (مصححين اللغة).. والآن هيا بنا..
- على الأقل يجب أن أعود لرئيس التحرير كي أسلمه المقال.
- فلتعتبرى أنها وصلت.. صدقيني لم تعد هناك فائدة من بقائك هنا.. لا في هذا الزمن ولا أي زمن آخر.. لقد انتهت القصة.. والآن هل تختارين (يا مرشدا أنقذني) أم (يا مرشد أنقذني)؟
قالت بلا تردد وقد شعرت بحاجتها للفرار من هذا الألم:
- يا مرشد أنقذني.. أنت نكرة مقصودة...
- والنكرة المقصودة سوف تنقذك.
استسلمت له كطفل وهو يقتادها عبر بستان تفاح جميل يلعب فيه بعض الصبية.
(أبو أسود الدؤلي).. (الخليل بن أحمد).. (الكسائي).. (حماد بن سلمة).. (الفرائي).. (الأخفش)... (قطرب).. (ابن مالك).. كل هؤلاء العلماء الذين أفنوا حياتهم كي يحفظوا هذه اللغة من العبث ومن الاندثار.. سوف يبقون خالدين كلما وضع أحدهم علامة التشكيل على حرف، أو تلا القرآن الكريم تلاوة صحيحة، أو فتح المعجم بحثا عن كلمة، أو سهر الليل محاولا إصلاح قصيدة مكسورة..
لكن (سيبويه).. (سيبويه) سيبقى محتفظا بمكانة خاصة في روحها.. ولن تنسى أبدا اللحظة التي أغمض فيها عينيه بين يديها..
عندما مات وفي نفسه شيء من (حتى).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تقابل (عبير) من يدعي (تشي).. كلا أنا لا أعطس صدقني.. إن هذا هو اسمه.. سوف تعرف أن لفظة (تشي) كناية عن أي مواطن أرجنتيني، مثلما يكنى أي طفل ب. (حمادة) وأي بورسعيدى ب. (أبو العربي) وأي ألماني ب. (فريتز)، لكنها في حالتنا هذه شديدة الخصوصية..
إن (تشي) الذي ستقابله هو رمز المقاومة والثورة في القرن العشرين، وربما يبقى كذلك للأبد.

(تمت بحمد الله)

شيء من حتى

إنها المواجهة العظمى.. لا ليست مواجهة (نابليون) مع (ولنجتون) في معركة (ووترلو).. ليست مواجهة (هانيبال) مع (سكيبيو) الأفريقى.. ليست مواجهة (هتلر) مع جيوش الحلفاء..
إنها أكبر من ذلك وأشد خطرا.. إنها مواجهة (سيبويه) مع (الكسائي).. إن كنت لا تعرف الثانى فلتقرأ هذا الكتيب.. أما إن كنت لا تعرف الأول فرأيي هو... إحم...!

د. أحمد خالد توفيق



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

للأسف لم أجد نص هذا السؤال..

روايات مصرية للجيب

45

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا



تشى



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (45)

تشـي (ج1)

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- الواقع هو الواقع..

حقًا لماذا لا يتغير الواقع أبدا؟ لما لا تتبدل الوجوه ولا تتغير الشوارع ولا تختلف الأماكن؟ (فانتازيا) علمتها كيف لا يبقي الشيء على حاله أكثر من دقائق.. وكانت (عبير) الحالمة الكبري تتوق إلى نوع من التغيير.. كيف يتحمل البشر الآخرون ألا توجد (فانتازيا) في حياتهم؟
ربما يصنعونها في خيالهم.. لكنك ربما تقرأ مجلة فتعيش مع الأحداث.. هذا يختلف حتما عن أن تعيش مع الأحداث بالمعنى الحرفي للكلمة: يرد عليك (جيمس بوند) ويختبرك (سيبويه) ويفحمك (سارتر) وينقذك (سوبرمان)..
لماذا لا يتغير الواقع أبدا؟ الحقيقة أنه يتغير بلا انقطاع لكن إلى الأسوأ.. الناس تشيخ والشوارع تضيق والأماكن تفقد سحرها.. حتى الطعام.. ترى هل كان للمانجو هذا المذاق في الماضي؟ هل كان الشليك (الفراولة) مجرد ثمار حمراء لزجة؟ كان المانجو كائنًا حيًّا يفعم المكان والزمان ويعلن عن نفسه بقوة.. وكانت الفراولة تجربة حياة..
كانت (عبير) تفكر في هذه الخواطر وهي تداعب طفلتها.. الشيء الوحيد الذي تعرفه ويتغير للأفضل.. إنها تزداد حسنا ولطفا.. إنها تتبدل من لحظة لأخرن بلا انقطاع، وكل لحظة أفضل مما سبق.
إذن (عبير) تحيا لسببين: طفلتها و (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الآونة الأخيرة بعد عودتها من عالم النحاة وجدت (عبير) نفسها تقرأ في السياسة.. لا تدري السبب فهي اعتادت أن تقرأ للتسلية لا أكثر، وحتى قراءاتها في التاريخ كانت لما يمنحه لها من جو القصص.. وقد بدا غريبا عليها أن تجد أية تسلية في السياسة أو الاقتصاد، لكنها استطاعت أن تنفذ إلى ذلك الخيط القصصي الواهي فيهما وأن تجد بعض التسلية.. السياسة في النهاية هي دراما تصدم الإرادات..
قرأت بعض الكتب العتيقة من الستينات حينما كانت الاشتراكية هي موضة العصر، ثم السبعينات عندما صارت مهاجمة الشيوعية هي الموضة.. كلا.. لم تقرأ (نهاية التاريخ) لـ (فوكوياما Fokoyama) أي إعلان ميلاد العولمة وهي موضة التسعينات؛ لأن أسعار هذه الكتب كانت في تصاعد لا تسمح به ميزانيتها، بينما هي تبتاع ما تريد من على الرصيف أو من سور الأزبكية بسعر زهيد..
ألا بارك الله في الكتب القديمة! لولاها لما قرأت حرفا..
لقد تعودت بشكل غريزي أن تهرب متى رأت أن غلاف الكتاب صقيل أو أن طباعته حديثة توحي بسعره الذي يجمد الدم في العروق.
وقد اعتادت أن تحمل معها أحد هذه الكتب العتيقة إلى العمل حيث تختلس نظرة من وقت لآخر إلي صفحات الكتاب المتواري في الدرج.. لسبب ما يعامل المصريون من يقرأ
بشك مريب.. أما إذا كان يقرأ كتبا سياسية فالشك يتحول إلى يقين ولذا تقرأ خلسة بينما هي تراقب الصبية يلعبون (حاصد الأرواح) أو (نبوءة الدم) أو (مهنة الحرب).. لم تكن تفهم أي شيء من هذه الألعاب الجديدة وبدا لها عالما شديد التعقيد.. كل شيء يزداد صعوبة حتى الألعاب.. دعك من العناوين الدموية في حد ذاتها.. وبعد هذا يتساءلون في الغرب من أين يأتي

العنف؟ هؤلاء القوم يتمتعون ببراءة غير مسبوقة..
أحيانا كان (مراد) يدنو منها ليسألها:
- ماذا تقرئين؟
- أقرأ كتابا.
فيضحك ويركل الأرض بقدميه معبرا عن طرافة الدعابة، ثم يعاود السؤال:
- أعرف أنه كتاب.. لكن ما اسمه؟
تقول وهي تنظر للدرج:
- (عن الحرب).. كتاب لمفكر استراتيجي اسمه.. اسمه.. (كلاوزفيتز)..
فيحاول نطق الاسم عدة مرات، ثم يسألها ساخرا:
- لماذا تقرئين هذا الكلام الفارغ؟
- كي لا أسمعك!
بالطبع يبتلع هذه الإهانة وينهض.. كان يزداد غيظا منها كل يوم فلو استطاع أن يحطم رأسها لفعل.
لماذا لا تهيم به حبا؟ هذه إهانة عنيفة.. الأنثى الغبية هي التي تعرفني لفترة كافية ثم لا تبدأ في نظم الأشعار عني.. ولا تقضي الليل ساهرة مفكرة في..
ولكن - هو يعرف - أنها تتظاهر باللامبالاة بينما هي تحترق.. هو متأكد من هذا.. كل الفتيات يعرفن كيف يشعرنك أنت سمح لزج ممل، بينما هن يحلمن بك طيلة الوقت..
كان متأكدا من هذا، وهذا ساعده على ابتلاع معاملتها القاسية الجافة..
لكن (عبير) كنت تفكر.. تفكر في الصيغة التي ستتحول لها هذه القراءات السياسية.. لا تعرف لكنها متأكدة من أنهم في (فنتازيا) يعملون جاهدين لإعداد حلمها الجديد.. ينقبون في لا وعيها وتحت قشرة المخ ليستخرجوا ما لديها من خبرات.
الآن المسرح ينصب والماكياج يوضع للممثلين..
كل ما عليها هو أن تغلق عينيها وتشغل (دي جي 2).. سوف تأتي الإجابة حالا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صور كتير.. ملو الخيال
وألف مليون احتمال
لكن أكيد..
أكيد.. أكيد..
ولا جدال..
جيفارا مات موتة رجال.

أحمد فؤاد نجم 1968

2- العملية رقم 600

- أبلغوا القيادة في (فاليجراندي) أن بابا معنا!
وصلت الرسالة إلى القومندان (زنتينو Zenteno) في (فاليجراندي) ب. (بوليفيا) فلم يصدق ما يسمعه.. طلب تأكيد الرسالة ثم دوت صيحات الفرح في المكان.. بابا معنا! هذا مذهل!
بعد قيل تصل رسالة أخرى تقول بدلا من التأكيد المنتظر:
- بابا متعب؟
كانت هذه هي الشفرة المتفق عليها.. بابا هو جيفارا) و(معنا) معناها أنه سقط في الأسر.. طبعا (متعب) معناها أنه جريح.. لقد خاض (جيفارا) معركته الأخيرة في (كويبرادا دل يورو) وهزم..
(جيفارا) أسير وجريح..
(جيفارا) الأسطوري في قبضة رجالنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعة جنود يحملون (جيفارا Guevara) الجريح على محفة لمسافة سبع كيلومترات.. بينما يمشي (سارابيا) رفيق كفاحه البوليفي مقيد اليدين خلف الموكب.. جو الخريف الجميل يتسرب للرئتين والفكرة المفعمة بالشجن أن هذا هو آخر خريف تراه يا (جيفارا).. ربما آخر نهار كذلك.. هناك في (لا هيجيرا) ألقي بالأسيرين في المدرسة القديمة لأنها المكان الوحيد الذي يصلح سجنا..
بلدة بائسة هي لا يزيد عدد سكانها على أربعمائة.. بيوت منخفضة متواضعة.. لا ترى سيارة واحدة.. المدرسة ذاتها لا تحوي أكثر من غرفتين، بينما نوافذها مغطاة بالخوص.
هذا هو (جيفارا). الأسد الحبيس مقيد اليدين خلف ظهره وهو يرقد وسط القذارة والوحل والظلام الدامس.
فقط أشعل له أحد الجنود غليونه الزجاجي ودسه بين شفتيه.. هكذا بدا منظره مرعبا كأسد ينفث الدخان من منخريه.. لا بد من أن يمزقك الأسى لرؤيته بهذا الشكل حتى لو كان ألد أعدائك.. لا تنس كذلك أن هذا الأسير الراقد في الطين كان أهم وزراء كوبا والرجل الثاني فيها..
يلتقطون الصور له.. تلك الصور التي لم يرها أحد قط لأن وكالة الاستخبارات المركزية احتفظت بها حتى اليوم..
يرفع رجل المخابرات المركزية الأمريكية (والت رستو Rostow) سماعة الهاتف ويتصل بالرئيس (جونسون) يخبره أن البوليفيين ظفروا ب. (جيفارا).. الصداع الدائم للولايات المتحدة.. الرجل الذي لم يكن له هدف في حياته إلا القضاء على نفوذها.. إن رجال المخابرات المركزية في حقبة الحرب الباردة لهم جميعا ذات الشكل كأن هناك مصنعا ينتجهم بالدستة.. العوينات والنظرة الباردة والتظاهر باللطف.. يمكنك أن تري شبها لا بأس به مع (ديك تشيني) نائب (بوش)..
ويبقى السؤال: ماذا نفعل به؟
- نحاكمه ونعدمه..
- فكرة حمقاء هي.. سوف يبدو أمام العالم بطلا..

- إذن نعدمه حالا.
- نعم.. لكن بشرط أن نذيع أنه توفي متأثرا بجراحه في المعركة.. ولا كلمة عن إعدام بغير محاكمة..
(جيفارا) يطلب مقابلة ناظرة المدرسة..
الشابة الفاتنة السمراء (جوليا كيرتز) تدخل وهي تخفض عينيها.. كانت تتوقع أن ترى وحشا مكبلا بالأصفاد والزبد والدم يسيلان من شدقيه.. هذا ما قالوا لها أن تتوقعه.
لكنها رفعت عينيها في بطء فوجدت وجها حزينا وسيما فيه كبرياء وأسى ورقة.. تذكرت وجه المسيح في الصور التي تعلقها في دارها.. بالفعل هذا هو أقرب شبه ورد لذهنها.
قال لها بصوته العميق الهادئ:
- إن مدرستك تشبه الكهف.. كيف تدرسين هنا؟ عندنا في (كوبا) يستحيل أن توجد مدرسة كهذه.
قالت بصوت راجف:
- إن بلدنا فقير.
- لكن حكامكم يملكون سيارات مرسيدس.. ولهذا جئت من بلدي كي أحرركم.
- بل جئت لتقتل جنودنا..
قالتها واندفعت راكضة خارجة من الغرفة.. لكن عينيه ظلتا تومضان في ذهنها عدة عقود، كما يظل قرص الشمس يطاردك لعدة دقائق بعد دخولك مكانا مظلما.
في ذات الوقت صارت هذه القرية البائسة أهم قرية في العالم.. طائرات هليكوبتر تهبط وتقلع وجنرالات يصلون وأميرالايات ورجال مخابرات مركزية أمريكية.. لا أحد يفهم ما يحدث.
لكن الأخبار تصل إلى الكولونيل (زنتينو) بأن الأوامر صدرت لتنفيذ العملية رقم 600.. طبعا أنت فهمت أن العملية رقم 600 هي قتل (جيفارا).
دخل الضابط (رودريجز) إلى حيث كان الأسد الجريح مقيدا، ولم يكن يدخن لأن ضابطا اسمه (إسبينوزا) كان يتوق إلى امتلاك غليون.. هكذا دخل إلى جيفارا وضربه ثم انتزع الغليون من بين أسنانه! قال له (رودريجز):
- الأوامر البوليفية هي أن أقتلك.. بينما الأمريكيون يصرون على أن تظل حيا للتحقيق معك..
قال (جيفارا) بصوته العميق الذي يصاحبه صفير الربو:
- الموت أفضل لى.. كان يجب ألا أقع أسيرا منذ البداية..
وبدا كأن الرجلين متحمسان للفكرة متفهمان لها.. فقط أحدهما سيكون القاتل والآخر سيكون القتيل.
إنها العاشرة مساء التاسع من أكتوبر عام 1967..
وفي غرفة الضباط يسحبون أعواد القش لمعرفة من يقتل (جيفارا).. الرقيب (تيران) كان يعرف منذ البداية أنه سيسحب العود الأقصر لأنه نحس كما عرف عن نفسه.. بالفعل.. هو ذا العود الأقصر.. إن ثقته بسوء حظه لا حدود لها.. هكذا اتجه إلى غرفة المدرسة خافتة الإضاءة ونظر إلى (جيفارا)..
قال الرجل المقيد بينما عيناه الحادتان لا تطرفان:
- لا تفعل إلا بعد أن أنهض على قدمي.. هلم.. اقتلني أنت فقط تقتل رجلا.
يريد القول إن قتل رجل سهل.. لكن من المستحيل قتل كل الشغب والضوضاء والتحدي الذي يثيره اسم (جيفارا) ذاته.

أصيب الرقيب بالذعر وعاد لزملائه.. ظل هناك لحظات يحاول استعادة شجاعته ثم من جديد عاد إلى الأسير.. ومن دون أن ينظر له هذه المرة أطلق النار.. أطلق على الأماكن التي يمكن أن تصيب فيها رجلا لا تراه.. خصره.. حنجرته.. في هذه اللحظة تحركت النزعة السادية الموجودة لدى الجميع فراح الجنود الذين كانوا متهيبين يفرغون طلقاتهم في الجسد الساكن.
فقط قبل أن يبدأ الحفل قال الضابط (بيريز) لرجاله:
- أطلقوا الرصاص كما يحلو لكم، لكن لا أريد طلقة فوق الخصر! أريد أن يظل وجهه سليما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عينى عليه ساعة القضا
من غير رفاقة تودعه
يطلع أنينه للفضا
يزعق.. ولا مين يسمعه
يمكن صرخ من الألم
من لسعة النار في الحشا
يمكن ضحك.. أو ابتسم
أو ارتعش.. أو انتشى
يمكن لفظ آخر نفس
كلمة وداع لاجل الجياع
يمكن وصية.. للى حاضنين القضية في الصراع

أحمد فؤاد نجم [1] 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ناظرة المدرسة (جوليا كيرتز) تسمع الطلقات فتهرع إلى الغرفة التي امتلأت بدخان البارود، لتجد الجثة الغارقة في الدماء.. انفجرت باكية.
ويستدعون القس (روجيه شيلر) عند الظهر، يدخل الغرفة الرهيبة ليجد امرأة من الفلاحين تحمل دلو ماء وتقوم بتنظيف وجه (جيفارا) من الدم والوحل.
الصورة التي حفظها العالم فيما بعد للوجه الوسيم الذي يحمل شبح ابتسامة ساخرة ويبدو موشكا على فتح عينيه بعد نوم مريح.. بعد ثلاثين عاما قالت هذه المرأة البائسة:
كان أكبر خطأ ارتكبه قاتلوه أنهم سمحوا بالتقاط الصور له.. لقد بدا لى كصور المسيح ولا شك أن الشباب في كل أرجاء العالم لاحظوا هذا الشبه!
لم تكن المرأة البسيطة تهذي.. لقد انتشرت بين الفلاحين البوليفيين القصص عن (مسيح فاليجراندي).. أو القديس مبتور اليدين.. ولسوف يردد الشباب شعار:
No lo vamos a olvidar!
أى (لن نترك ذكراه تُنسى)
وفيما بعد سيقول الكاتب الفرنسي (سارتر):
- (جيفارا) هو أكمل كائن بشري في عصرنا الحديث!

طبعا هو كان يتحدث من منطق وجودى بحت..
على كل حال لم يكن هذا رأي (والت رستو) الذي اتصل بالرئيس الأمريكي ليقول له:
- موت هذا الرجل مفيد.. وسوف يقتل النوازع الثورية الرومانسية في أمريكا اللاتينية، وسوف يجهض أحلام من يريدون أن يكونوا رجال حرب عصابات يوما.. لن ينسى العالم أن رجال (البيريه الأخضر) من جنودنا هم الذين دربوا البوليفيين..
جاء أخو (جيفارا) إلى بوليفيا لتسلم جثة أخيه لكنهم قالوا له إن الجسد أحرق وإن الرماد مدفون في مكان ما قرب (فاليجراندي).. الحقائق تتضارب بهذا الصدد.. قيل إنه دفن وقيل إنه أحرق.. فيما بعد سوف يجدون هيكلا عظميا مدفونا من دون يدين.. لقد بتروا يديه ووضعوهما في الفورمالين كي تتم مطابقة بصماته فيما بعد.
الحقيقة التي أدركها الجميع هي أن الحكومة البوليفية ظلت تخاف (جيفارا) حتى بعد وفاته.. لا أحد يريد أن يبقى جثمانه ذكرى لما فعلته، ويتحول هو إلى بطل.
بعد ثلاثين عاما تم البحث عن عظامه وتم تحليلها بأسلوب تحليل DNA هكذا تأكد الجميع من أنها عظام (جيفارا) ذاته.. وقد نقلوه إلى كوبا ليدفن في ضريح في (سانتا كلارا).. المكان الذي يحمل أعظم أهمية له..
لقد مات جيفارا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مات المناضل المثال
يا ميت خسارة على الرجال
مات الجدع فوق مدفعه جوه الغابات
جسد نضاله بمصرعه.. ومن سكات
لا طبالين يفرقعوا.. ولا إعلانات

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أين أنا؟

العام 2005..
(عبير) لم تكن تعرف شيئا من هذا كله أو تعرف ظلالا مبهمة من القصة في لا وعيها..
كانت قد رأت فيلما عن (جيفارا) اسمه (تشي) في برنامج نادي السينما، قام ببطولته (عمر الشريف)، وقد كان الفيلم أمريكيا؛ لذا فعل كل شيء ممكن كي يظهر (جيفارا) كسفاح مخبول دفع ثمن جرائمه.. فيما عدا هذا هي لا تعرف عن الرجل الكثير..
لقد تركها المرشد هناك في هذا البلد الغريب.. لا تعرف أين هي ولا ما هو مطلوب منها.. كل ما تستطيع تخمينه هو أنه بلد عربي ما.. يمكنها أن تتبين رجلا يلبس عقالا ويضع غطرة ويقود قطيعا من الغنم.. هذا على مسافة مائتي متر على الأقل، فيما عدا هذا المكان محايد تماما لا يعطي أية علامات.. أين هي؟ ما المغامرة التي تنتظرها هنا؟ لا تعرف.
العقال والغطرة سمة الجزيرة العربية والشام.. ربما بعض بدو الصحراء في مصر.. هل هي في المملكة العربية السعودية؟ الأردن؟ هل هي في لبنان؟ لا تدري.. لكن الجو معتدل نسبيا لا يوحي بالخليج عامة.
وماذا تلبسه؟ لم يكن بوسعها أن ترى نفسها طبعا لكنها تلبس سروالا من الجينز وخصلات شعرها سود.. تلك إذن من المرات النادرة في فانتازيا التي يكون شعرها أسود.
لقد اعتادت أن تكون شقراء فاتنة حتى صارت هذه (عدة الشغل) بالنسبة لها.
على صدرها صدرية غريبة الشكل.. غريبة الملمس لو شئت الدقة.. أقرب إلى الدرع.. وهي غير قابلة للانثناء.. بعد قليل فهمت أنها رأت هذا المشهد مرارا في نشرات الأخبار.. إنها سترة واقية من الرصاص.. أما الشعار على صدرها فهو CDN لا تعرف إن كانت هذه شبكة في أرض الواقع أم هي من شبكات فانتازيا.. المهم الآن أنها مراسلة وأنها في أرض ما بها طلقات رصاص..
وهذا الغبار؟
دققت النظر أكثر فأدركت أنها دبابة.. دبابة عصرية رشيقة أنيقة تندفع عبر الأفق وسط الصحراء.. كأنها سكين يشق هذا الغبار..
الغريب أن الأغنام لم تبد أية علامة على الذعر والراعي لم يفر برغم أن الدبابة مرت على بعد أمتار منه..
واستطاعت (عبير) أن ترى العلم الذي يرفرف وراء الدبابة.. أشرطة ونجوم و.. العلم الذي وصفه (فرانسيس سكوت كى) في تلك الليلة الظلماء بينما القصف يدور في مواقع قواته المشتبكة مع البريطانيين.. ثم رأي العلم المميز يرتفع فانفعل وكتب قصيدة (علم النجوم اللامعة)..
هذا علم أمريكي على دبابة أمريكية في أرض عربية..
لا يجب أن تكون عبقريا كي تفهم أنك في العراق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت (عبير) حائرة.. لم تتصور لحظة أن تكون هنا فالأمر يدخل في نطاق الكوابيس ولا علاقة له بالفانتازيا.. لن تجد هنا إلا المعاناة والألم والغيظ.
ثانيا ما المطلوب منها في هذا السهل الممتد؟ لا ترى من حولها مصورين أو أي شخص

يساعدها.. هل ضلت طريقها إذن؟ هذا هو التفسير الوحيد..
في اللحظة التالية رأت المزيد من الدبابات الأمريكية.. كانت مندفعة في الاتجاه ذاته وبذات السرعة، وإن استطاعت تمييز موسيقا الهارد روك تنبعث من مكبرات صوت.. لم تر جنودا بهذا المزاج الرائق من قبل.. الحقيقة أن هذه طريقة قتال معروفة لدى الأمريكيين منذ حرب فيتنام.
الآن صار السهل كله يعج بتلك الزواحف العملاقة، وهدير جنازيرها مرعب مع الدخان المختلط بالغبار يتصاعد منها.. الأرض تهتز تحت قدميها.
وفجأة دوي الانفجار.. استدارت مسرعة لترى فوجدت إحدى الدبابات تنزف دخانها الأسود.. إصابة مباشرة لكن خبرتها الحربية لا تسمح لها بمعرفة إن كان هذا لغما أم قذيفة.. فقط أدركت أن المكان خال تماما وأن الراعي وغنمه قد تبخروا.
وعلى الفور اتجهت مجموعة من الدبابات نحو الشرق وهي تطلق النار في جشع.
قررت (عبير) أن تتوارى.. لم تجد إلا تلة مرتفعة قليلا أسرعت وراءها وراحت ترمق ما يحدث.
في اللحظة التالية وقد تحركت معظم الدبابات نحو الشرق، فوجئت بأن دبابة من تلك التي بقيت في مكانها قد انفجرت.
انفصلت بعض الدبابات متجهة نحو اتجاه الطلقة الأخيرة في ذات اللحظة التي انفجرت فيها دبابة أخرى في مكان آخر.
هذه مراوغة إذن! مراوغة بارعة حقا.. إن مجموعة الدبابات الأمريكية قد خسرت ثلاث دبابات وتفرقت في عدة اتجاهات.
كانت مذهولة لم تثبت قدميها بعد على الأرض.. يشبه الأمر أن تصحو من النوم لتجد مشاجرة بين غرباء في صالون دارك.. متى دخلوا؟ لماذا يتشاجرون؟ من هم؟ لكنهم لا يردون عليك ولا يصغون لأسئلتك وتهديداتك أصلا..
أمامها ترى أعنف معركة رأتها في خيالها أو في (فانتازيا) عامة.. وقدرت أنها ستنال بالتأكيد جانبا من الخير.. بحثت بين حاجياتها فوجدت راية بيضاء صغيرة.. لا بأس بهذا.. ستلوح بها ولسوف يفهمون أنها مراسلة وأنه لا دخل لها بهذا.
رفعت يدها بالراية فقط لتجد أن يدا صلبة قوية أمسكت بساعدها، وسمعت من يهتف:
- ماذا تفعلين يا حمقاء؟ سوف يفجرون رأسك أولا!
ثم شعرت بأنها تحمل حملا إلى الناحية التالية من التل. من أين يأتي هذا الصفير كله؟ إنها تتمرغ على الرمال.. ثم هناك من يدس رأسها في خندق صغير.. أوراق سعف نخيل توضع بكثافة فوق رأسها على سبيل التمويه.
- إن (البلاك هوك) قادمة حالا..
قبل أن تتذكر ما هي هذه (البلاك هوك) أو (الصقر الأسود) سمعت صوت المراوح.. ثم رأت من بعيد تلك الصقور المرعبة تحلق في السماء وتطلق الرصاص بجنون في كل اتجاه.. لا يوجد اقتصاد في الطلقات.
قال منقذها أو خاطفها لا تدري:
- هذا هو الفارق الرئيس بين جندي القوات النظامية ورجل العصابات.. الأول يطلق الرصاص بلا حساب وكأنه ليس هناك غد.. الثاني يطلق الرصاص عند الضرورة وعلى هدف محدد.
راااااااااتااااااااااه!
مر خط الطلقات قريبا جدا منها.. ومرت الطائرة العمودية من فوق رأسيهما مبتعدة فرفعت (عبير) رأسها في حذر لترى الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض جدا، بينما يجلس جندي على

الباب وقد دلى ساقيه للخارج ووضع بين فخذيه مدفعا يشبه (المترليوز).. هذا المشهد المألوف من أيام حرب (فيتنام).
قال منقذها وهو يعتصر ساعدها من جديد:
- هيا بنا.. سنفر قبل أن يعاود الكرة..
وانطلق يجري خافضا رأسه وهي خلفه.. وسرعان ما تواريا وسط مجموعة من المباني المتهدمة.. الآن تفهم مصدر هذا الصفير.. إنه صدره الذي يبدو كأنه امتلأ بالعصافير. هذه أسوأ حالة ربو قابلتها في حياتها.. هنا فوجئت بأن نحو خمسة أو ستة رجال ملثمين يركضون معهما.
نظرت إلى منقذها للمرة الأولى فرأت أنه ملثم كذلك لكن عينيه القويتين من فوق اللثام أخبرتاها أنه على الأرجح قائد هذه المجموعة الصغيرة.
بين المباني يبدل الرجال ثيابهم بسرعة.. ينزعون اللثام ويضعون العقال ويلبسون الجلابيب ليبدو منظرهم أقرب إلى الفلاحين.. ثم يثبون إلى سيارة (فان) واقفة هناك وسرعان ما كانت السيارة تنطلق عبر الطرقات شبه الخالية، حيث ترى من حين لآخر شاحنة محترقة أو دبابة تحولت إلى خردة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكان آخر وسط الخرائب.
هذه المرة يقف الرجال وينظرون لها حائرين.. هي أيضا كانت حائرة.. ماذا بعد؟
قال أحدهم:
يمكننا أن نتركها.
فقال آخر:
- صارت تعرف عنا الكثير.. أعتقد أنه لابد من قتلها.. هذا قرار مؤسف لكنها سوف تتفهم دوافعنا! بعض القسوة هي أقرب للرحمة!
مد منقذها يده إلى جيبه وأخرج أداة استنشاق من التي يستعملها مرضى الربو ودسها بين شفتيه وضغط.. استنشق بعمق وانتظر بضع ثوان.. بدت عليه الراحة ثم مد يده إلى سترتها وانتزع بطاقة صغيرة مثبتة هناك، لم تلحظها (عبير) من قبل وتفحصها وقال:
- اسمك (ماريا جونزاليس).. مراسلة شبكة CDN.. أنت أرجنتينية؟
إذن هذا يفسر الشعر الأسود.. إنها من أمريكا الجنوبية وإن لم تعرف عن (الأرجنتين) إلا أنها بلد (مارادونا)..
هل كان (مارادونا) أم (رونالدنيو)؟
قالت في ثقة:
- نعم..
الغريب أنها لم تلحظ إلا الآن أن لهجتها العربية كانت ذات لكنة إسبانية.. من الغريب أن لهجة منقذها كانت قريبة نوعا من لهجتها وإن لم تفهم سبب هذا..
قال أحد الرجال المتحمسين وهو يرفع بندقيته الآلية:
- فلننته يا (سي عمارة)! نحن لن نبقى هنا طيلة الوقت!
نظر له (عمارة) بعينين حادتين وقال:
- إنها أرجنتينية.. ثم إنني لم أنقذها كي أقتلها بعد دقائق.. كان من الأفضل لها أن تبقى هناك إذن.. على الأقل كانت لديها فرصة للنجاة..

ثم نظر لها بعمق وقال:
- سوف أعتمد على كلمة شرف منك.. هؤلاء الرجال يعتمدون على كلامي وهم لا يجازفون بالفضيحة أو خسارة بعض المال.. بل هم يجازفون بأرواحهم.. ما أطلبه هو أن يظل ما ترين سرا.. هناك أمور يهمني أن تعرفيها لأنك مراسلة صحفية.. لكنك لن تنشري شيئا إلا ما أسمح لك بنشره..
لم يكن لديها مجال للتردد فقالت راجفة:
- أعدك.
وبدا لها أن الطلب أحمق.. هل يتوقع منها أن تقول العكس بينما البندقية الآلية مصوبة لرأسها؟! ونظرت لملامحه بدقة أكثر.. كان وسيما له ملامح صلبة صارمة توحي بالكبرياء، يحيط بوجهه شعر أسود فاحم ثائر يمتزج بلحيته كأنها كتلة واحدة.. متى رأت هذا الوجه من قبل؟
قال لها وهو يخرج سيجارا غليظا من جيبه:
- اتفقنا.. لنبدأ بإخبارك بالتقنية التي هاجمنا بها القافلة الأمريكية هذا اليوم.. إنها من ابتكاري واسمها (الرقصة الموسيقية).. يقوم رجال العصابات بتطويق الرتل الزاحف من أربع جهات.. كل مجموعة تتألف من خمسة مقاتلين ثم نطلق النار من اتجاه ما على الرتل فيتحرك نحو هذا الاتجاه.. من ثم تهاجمه المجموعة الثانية من جهة أخرى.. مع تكرار الهجمات يتشتت العدو وتنهار روحه المعنوية.. إن حرب العصابات تعتمد بالكامل على المباغتة لأننا نتعامل مع جيش نظامي، ولا يمكن أن نسمح بتساوي الخسائر..
ثم أخرج من جيبه مطواة وقطع السيجار إلى نصفين أعاد أحدهما إلى جيبه ودس الثاني بين أسنانه.. فقالت له:
- هل أنت واثق من أن حالة صدرك تتحمل هذا؟
- لقد صار الربو أسلوب حياة بالنسبة لي.. أما السيجار فقد تعلمنا أن دخانه يطرد البعوض.
وسرعان ما تصاعد الدخان الكثيف قوي الرائحة.
أمسك بالسيجار المشتعل وتشممه في حنان غريب وغمغم:
- رائحة الوطن!
ما معنى هذا؟ أي وطن يتحدث عنه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- تشي..

ابتعد الجميع في رعب بينما المجذوم يشق طريقه عبر ممر المستشفى وهو يعوي بصوته الغليظ الذي يميز مرضى الجذام.. يسهل لك أن تفهم لماذا كان القدماء يعتبرون الجذام عقابا عادلا من الآلهة وأن المجذوم يستحق ما يجرى له.
تلك الرائحة الكريهة.. الرجل يمد يديه اللتين تساقطت أصابعهما ويرتجف بينما هو يرمق الجالسين بعين لا ترى.. وجه الأسد المخيف يحدق في الأطباء الشبان.. لكن لا أحد يجرؤ على النهوض لمساعدته.
نهض الطبيب الأرجنتيني الشاب (إرنستو جيفارا) ووضع ساعده القوي على كتف البائس.. ثم اقتاده إلى فراش الفحص.
كانوا يعرفون ولع هذا الشاب بالجذام.. من الغريب أن تفكر في بعض هوايات الشباب لكنها الحقيقة.. كان يهتم به وقد صمم على أن يصير طبيب أمراض جلدية كي يخفف آلام هؤلاء المنبوذين.. إن الجذام هو لعنة البلدان الحارة.. لعنة أمريكا اللاتينية الدائمة..
الحقيقة أن الشاب (جيفارا) كان من ألمع الأطباء الشبان في مستشفى (بوينس أيرس)..
ولد (جيفارا) عام ١٩٢٨ لخمسة أخوة وكان يعاني الربو منذ طفولته.. في ذلك العصر قبل أن يتم اكتشاف موسعات الشعب والأدوية الحديثة كان الربو عذابا مقيما إن لم يكن خطرا داهما..
انتقل الأب بالأسرة إلى الجبال باعتبار هذه هي الطريقة الوحيدة لعلاج ابنه.
برغم هذا ظل الفتى عنيدا وبرع في الألعاب الرياضية كأنه يخرج لسانه لهذا الداء.. وكأنه يبرهن على براعته في الفرار من السجن الذي يحيط برئتيه.
كانت روحه قلقة أبدا.. وزملاؤه يذكرون كيف أنه جاب كل أمريكا اللاتينية تقريبا على دراجة أو بطريقة (الأوتوستوب)..
في هذا الوقت كان الأوتوستوب اختراعا جديدا ولسوف يصير موضة في أواخر الستينات وأوائل السبعينات ثم يُنسى ثانية.. برع كذلك في لعبة الشطرنج.. وأحيانا كان يهتم بالشعر خاصة أشعار الشيلي العظيم (نيرودا Neruda)..
كانت روحه قلقة تشتهي الفرار إلى آفاق أخرى لكنه كان آخر من يعرف أين توجد تلك الآفاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حياة كل إنسان لحظة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها..
وكانت لحظة (جيفارا) الأولى هي اللحظة التي قرر فيها أنه سوف يصير ثائرا.. كانت فكرة الأخطبوط الأمريكي الملتف حول أمريكا اللاتينية تؤرقه.
بالنسبة للأمريكيين الشماليين (اليانكي) كما يسمونهم كانت أمريكا اللاتينية كلها تفاحة سقطت من إسبانيا أثناء رحيلها.. وهم لا يملكون أية نية لتركها لأحد آخر حتى أصحابها الأصليين.. هكذا نجد أن تاريخ أمريكا اللاتينية هو تاريخ تدخل وكالة المخابرات المركزية.. انقلابات في انقلابات وانقلابات على الانقلابات، والعالم الغربي يطلق على هذه الحكومات اسما ساخرا هو (حكومات جمهوريات الموز).. لم يكن من الممكن لأي بلد في أمريكا اللاتينية أن يفلت من قبضة اليانكي الصارمة، هكذا صارت هناك صورة معقدة من الفقر والقمع السياسي والفساد والشركات الأمريكية العملاقة والطغاة الذين يلبسون ثيابا موشاة بالنياشين التي منحوها

لأنفسهم.
كانت هذه الصورة تؤرق (جيفارا)..
تؤرقه وهو يسافر إلى المكسيك..
تؤرقه وهو يتدرب على أساليب حرب العصابات في مزرعة ب. (مكسيكو سيتي)..
تؤرقه عندما قابل شابا ثائرا ملتحيا يرتدي الخاكي ولا يكف عن تدخين السيجار.. كان هذا الشاب كوبيا وقد اتجه مع رفاقه إلى المكسيك للتدريب.. لماذا؟ لأن (كوبا) ترزح تحت ألعن طاغية يمكن تصوره هو (باتستا Batista)، وهذا الرجل مع رفاقه من الثوار يحلمون بالعودة إلى كوبا والإطاحة بالطاغية، والمكسيك أرض محايدة..
ماذا كان اسم هذا الشاب الثائر؟
- اسمي (كاسترو).. (فيدل كاسترو)..
هكذا نشأت صداقة بين رجلين كتب لها أن تدوم طيلة حياة (جيفارا).. كلاهما كان ماركسيا وكانت الموضة هي الماركسية في ذلك الوقت وكلاهما قرأ بعناية أفكار (ماو تسي تونج Mao Tse – tung) الزعيم الصيني الذي كان حجة في حرب العصابات.
حضر (جيفارا) مجموعة من المحاضرات لجنرال اسمه (ألبرتو بايو) حصل فيها على معرفة مركزة مكثفة بالتكتيك الحربي.. وعلى يدي هذا الرجل تعلم الرماية حتى أجادها، لكن الأمور لم تكن صافية تماما لأن البوليس المكسيكي اعتقل هؤلاء جميعا.. وفي فترة السجن القصيرة التي دامت شهرين توطدت العلاقة أكثر بين (جيفارا) و(كاسترو)..
وحينما عرف (جيفارا) أن (كاسترو Castro) ذاهب إلى كوبا لبدء الثورة قرر أن يذهب معهم..
كيف تذهب يا (جيفارا) وأنت الأرجنتيني مع كوبيين؟
كانت هذه اللحظة الأولى التي ولدت فيها صورة (المقاوم العالمي) الذي يظهر في كل مكان.. كل المقهورين هم شعبك.. كل المستعمرين والطغاة أعداؤك.. وقد أطلق على نفسه اسم (تشي)..
(تشي) كناية عن أي مواطن أرجنتيني، مثلما يكنى أي طفل ب. (حمادة) وأي بورسعيدى ب. (أبو العربي) وأي ألمانى ب. (فريتز)، لكن المكسيك لم تكن مكانا رحبا على الإطلاق.
لقد تسربت أخبار أن هناك حملة اعتقال أخرى قادمة، هكذا قرر الرجال الفرار إلى كوبا.. أعدوا يختا اسمه (جرانما) - الجدة - ونقلوا إليه كل ما يلزم من سلاح وثياب ومدافع وأطعمة.. ثم تم الفرار تحت جنح الليل في نوفمبر عام 1956..
- كنا نفتش عن الأدوية التي تعالجنا من دوار البحر لكننا لم نجد.. كان وجه كل منا محتقنا من الغثيان، وكنا نضع أيدينا على البطون.. وبعضنا دفن رأسه في الدلاء لأن القيء لا يسمح له بوقت كاف يرفع فيه رأسه..
لقد كانوا ثمانين رجلا.. وقد داروا حول الساحل عبر مياه (جامايكا) بغرض التضليل.. متجهين إلى (أورينتي)..
في ظلام الليل يدور اليخت (الجدة) حول الساحل الكوبى بحثا عن مكان للإنزال.. لا شيء يهديهم إلا الضوء من منار (سانتا كروز).. أحد ضباط البحرية من الثوار وقف على ظهر اليخت يبحث عن ضوء المنار، لكن البحر كان شديد التقلب مما جعله يسقط في الماء، ووسط الأمواج كان من المستحيل أن تجده ثانية.
عندما وصل الثوار إلى الشاطئ أخيرا رأوا طائرات (باتستا) قادمة لتحيتهم كما يجب.. هكذا فروا في الظلام ولم يجدوا الوقت الكافي لحمل أي شيء.
وفي الخامس من ديسمبر بلغوا منطقة اسمها (أليجريا دى بيو) في حقل قصب قرروا أن يبيتوا

فيه ليلتهم.. على الأقل يمكنهم أن يرووا ظمأهم بأعواد قصب السكر.
لم يدركوا كيف ولا متى جاءت أول طلقة تصفر جوار الرءوس.. ثم انهمرت الطلقات كأنها سيمفونية.. وتساقط كثيرون.
- «كان الأمر يشبه المشاهد التي تراها في صندوق الدنيا.. رجال يصرخون ويطلبون العون.. محاربون يحاولون الاختفاء وراء أعواد القصب النحيلة.. وفجأة بدأ حقل القصب يحترق! لقد أدركت أن هذه هي اللحظات الأخيرة لى..»
كانت هذه لحظة الاختيار الأهم في حياته، لأنه وجد عند قدمه صندوقين.. صندوق ذخيرة وصندوق مؤن طبية.. أيهما تختار يا (جيفارا)؟.. اختار صندوق الذخيرة وكأنه اختار مستقبله.. لقد ترك الطبيب في مكان ما هناك وسط أعواد القصب في (أليجريا دي بيو).
كان ينزف بغزارة من جرح في صدره وعنقه.. لكنه استطاع بشكل ما أن يبتعد.
فر بعض الثوار من الكمين المخيف، ومشوا تسعة أيام كاملة لا طعام لهم إلا العشب الأخضر وأعواد الذرة الجافة هناك داء غريب يصيب أقدام الماشين في هذه الأرض ويجعل المشي شبه مستحيل.. القرويون هناك يطلقون عليه (مازا مورا).. هذا الداء كان من حلفاء الطاغية.
كانوا يقابلون القرويين الذين لم يخفوا تعاطفهم معهم.. ومنهم عرفوا أن (كاسترو) حي وأنه فر إلى جبال سييرا مايسترا Sierra Maestra) الأسطورية..
الحقيقة أن القوات النظامية لم تبق منهم إلا خمسة عشر رجلا.. هؤلاء فروا إلى جبال سييرا مايسترا حيث تمركزوا هناك وبدأت تقنيات حرب العصابات التي شرحها (جيفارا) بعد ذلك..
المهم أن تكسب عطف الفلاحين.. المهم أن تستغل كراهيتهم للحاكم..
بما لا يزيد على ٢٢ بندقية قام هذا الجيش المثير للشفقة بعد شهر ونصف بالهجوم على (لابلاتا).. يجب القول إن كل نصر كان يضاعف أسلحتهم لأن الاستيلاء على أسلحة العدو جزء مهم من عملهم.
- «في (أرويو دل انفرنو) كنا نسرق البيض من الدجاجة ثم نترك لها بيضة واحدة كي لا تتوانى عن مهمتها.. في ذلك الصباح سمعنا صوت الطلقات فقررنا أن نلتهم البيضة الأخيرة ما دام وجودنا هنا قد انتهى!»
وفي العام 1957 استولى الثوار على معسكر (أوفيرتو) بعد معركة هي أشرس ما واجهوه منذ نزلوا إلى كوبا.. وصار (جيفارا) الذي كان يعني بالجرحى لأنه طبيب من قواد الوحدات المهمين.. ثم صارت له وحدة منفصلة.. هذا ساعده كثيرا لأن الحكومة لم تكن مهتمة بأمره بل ركزت كل جهدها على قوات (كاسترو).. هكذا بدأ (جيفارا) ينشئ وحدات ثابتة.. أنشأ لشدة الغرابة مصنعا للأحذية ومصنعا للذخيرة ومحطة إذاعة!!!
في الوقت ذاته راحت الإذاعة تدعو العمال للإضراب في كل كوبا..
الحرب تشتعل.. (باستا) يتوحش.. معركة مفزعة في قرية (لاس مرسيدس) اضطرت الثوار للتراجع.. وتستمر الحرب سجالا حتى فقدت قوات (باتيستا) عشرة آلاف رجل وستمائة قطعة سلاح بينها دبابة سليمة.
كانت شجاعة (جيفارا) مذهلة، وقد قرر (كاسترو) أن يراقبه خفية لأنه كان أقرب إلى الاندفاع، وقد راح الجميع ينتظرون نبأ وفاته في أية لحظة.. ثم أسند له مهمة خطرة معقدة هي غزو (لاس فيلاس).. تخريب جسور ومحطات كهرباء.. حرب.. حرب.. قتل.. قتل.. إعدام للخونة.. لقاءات مع مراسلين أجانب.. العالم كله يرى صور هؤلاء الثوار الملتحين مدخني السيجار.
حدثت المعجزة عام 1959 وفر (باتستا) الطاغية.. وسقطت (هافانا) في يد هؤلاء الملتحين

القادمين من الجبال..
ثمانون رجلا صاروا خمسة عشر.. ثم استطاع هؤلاء أن يستولوا على بلد! وكما كتب (جيفارا) فيما بعد:
- «أعتقد أن نواة صلبة تضم ثلاثين إلى خمسين رجلا إذا توافرت لها الأرض الصالحة للعمل، تستطيع أن تبدأ ثورة مسلحة في أي بلد من أمريكا اللاتينية»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرخة جيفارا يا عبيد
في أي موطن أو مكان
مافيش بديل.. مافيش مناص
يا تجهزوا جيش الخلاص
يا تقولوا ع العالم خلاص

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- سنتحرك عند الفجر..

يجلس الرجال حول النار بينما شاة مشوية تدور فيسيل منها الدهن.. وتذكرت (عبير) أنها لم تأكل منذ ساعات طويلة.
كانوا الآن وسط الخلاء خلف جدار مهدم.. لا تعرف أين هم بالضبط لكنها قدرت أن وجودهم هنا عمل أحمق.. ما تعرفه هو أن أفراد المقاومة العراقية يذوبون وسط الزحام.. منهم المدرس والحرفي والمهندس في الصباح، فإذا جاء المساء وضع كل منهم لثامه وانطلق.. أما هنا فالأمر يبدو واضحا مريبا.. مجموعة من الرجال المسلحين شديدي المراس يطل التحدي من عيونهم.. فماذا عساهم أن يكونوا؟ جمعية محبي جمع الطوابع؟ يمكن لأي طفل أن يعرف أنهم متمردون.
إنهم يتصرفون كأنهم يقاتلون في الأحراش أو الجبال. هذه هي البيئة التي تناسب أسلوبهم هذا، لكنها لا تصلح لبلد سهل عامر بالبشر كالعراق.
الجبال! معها حق! هذا هو الحل الصحيح!
سألت ذلك الرجل الملتحي المصاب بالربو:
- هل (سي عمارة) هو اسمك؟
هز رأسه أن نعم.. ثم أضاف:
- صار اسمي منذ جئت هنا..
- ولهجتك الغريبة هذه.. هل أنت عربي؟
هز رأسه موافقا:
- من أصول مغربية..
لعل هذا يفسر الاسم.. (سي) بمعنى (سيد) تستخدم في أقطار المغرب العربي.. هناك لمسة لا بأس بها من الثقافة الإسبانية لدى المغرب العربي فلعل هذا يفسر لهجة الرجل الغريبة..
لكنها لا تبتلع هذا التفسير تماما.
كانت الشاه قد نضجت فمد أحدهم يده إلى اللحم الساخن الحارق، وراح يمزق منه ويضع في أطباق من ورق.. وصل طبق إلى يد (عمارة) فناوله لها من دون أن يتكلم..
قالت في صدق:
- كل أنت أولا.. إن قاعدة (النساء أولا) لا تصلح مع المقاومة.
لم أكن من المولعين بالأكل قط..
الحقيقة أن رائحة الدخان أثرت فيه بوضوح، وبدا عاجزا عن إخراج أنفاسه، مع الأصوات المنبعثة من صدره كأنه براد شاي يغلي وليس إنسانا.
ثم أخرج نصف سيجار من جيبه وأولجه بين أسنانه وراح يطلق الدخان في كثافة.. يبدو أنه لم يسمع قط عن وجود علاقة بين التدخين والتهاب الشعب.
بم يذكرها هذا الوجه؟ إنها تذكر طريقة التدخين هذه..
قالت ضاحكة:
- هل تعرف؟ أنت تذكرني ب. (جيفارا) فعلا..
ارتبك نوعا ثم قال في شرود:
- أي شاب ثائر يذكر الناس ب. (جيفارا).. حتى أن بعض الناس يطلقون على أي ثائر (جيفارا)

كأنها صفة وليست اسما.. على فكرة تلك الصورة الشهيرة التي ظهرت على كل تي شيرت في العالم وفي غرفة كل شاب، خاصة بعد طباعتها بأسلوب الشاشة الحريرية Silkscreen التي تلغي درجات الرمادي فلا يبقى إلا الأسود الصريح على خلفية حمراء.. هذه الصورة التقطها (ألبرتو كوردا Korda) المصور العبقري.. كان (جيفارا) يقف شارد الذهن وراء (كاسترو) خلال أحد خطاباته ولم يلحظ الكاميرا، هكذا أسرع (كوردا) باقتناص الصورة الخالدة.. التي صارت أشهر صورة في القرن العشرين..

- وأنت تشبهه!

- هذا يسعدني.. تهمة لن أنفيها وفضل لن أنكره.

بعد انتهاء الطعام التف الرجال حول (سي عمارة)..

كانوا مثقلين وبدا أنهم موشكون على السقوط صرعي النوم.. ثنائية الإرهاق وامتلاء المعدة الشهيرة التي تعمل أفضل من أي مخدر.. لكنهم تماسكوا وراحوا يصغون له.

كان يتكلم بصوت خفيض وبتلك اللكنة شبه الأجنبية التي لم تفهم (عبير) سببها.. الآن تتذكر اللكنة المغربية ذات التردد الموسيقى المتكرر وحروف القاف التي لا تنتهي.. هذه ليست هي.. على كل حال سوف تفهم كل شيء فيما بعد.

قال الرجل وهو يضغط السيجار بين أسنانه:

- لا يمكن أبدا إنزال الهزيمة بجيش شعبي يضم العمال والفلاحين المتلهفين على تحرير بلادهم.. لقد برهننا على أن القوات الشعبية قادرة على هزيمة الجيوش.. والدرس المهم هنا هو أنه ليس من الضروري انتظار قيام وضع ثوري.. يمكن خلق هذا الوضع.. ولنتذكر أن المناطق الريفية هي البذرة الأولى لقيام الثورات.. إن أية حكومة تأتي إلى الحكم عن طريق شكل من الاقتراع حتى لو كان مزورا، ولو حافظت ولو قليلا على مظهرها الدستوري؛ فإن خلق حرب عصابات ضدها قد يكون شبه مستحيل لهذا يجب أن تُدفع هذه الحكومة دفعا إلى خرق الصفو الأمني أولا وبالتالي إلى خلق وضع ثوري.

ونفث سحابة دخان كثيفة جعلت الكل يسعل وأضاف:

المستهزئون يطلقون على عملياتنا تعبير: اضرب واهرب.. هذا هو الحال فعلا وهذه هي استراتيجيتنا.. نضرب ونهرب.. مرة ومرتين وثلاث مرات.. هذا يحقق الهدف. أن نحطم العدو ونحرز النصر.. صحيح أن لذة الحرب غير موجودة لكن من قال إن رجال العصابات يمكنهم مواجهة جيوش نظامية؟

ثم أخرج من جيبه خارطة مهترئة متآكلة الأطراف للعالم وقال:

- هذه هي خارطة العالم..

ثم أشار بطرف السيجار إلى الولايات المتحدة.. فجأة تصاعد الدخان من الثقب الذي أحدثه في الخارطة لأنه ضغط أكثر من اللازم بسبب الغل.. لقد تحولت الولايات المتحدة إلى الولايات المثقوبة.

أطفأ الدائرة المشتعلة بإبهامه وقال:

- يجب أن نتذكر أن هناك دولة إمبريالية واحدة تعيش على امتصاص دماء الملايين الكادحة في باقي العالم.

الفقراء في (باكستان) و(زامبيا) و(نيبال) و... و... يموتون جوعا كي يضمنوا لليانكي أن يأكلوا عددا أكبر من الديكة الرومية في عيد الشكر.. إن أطفالنا يموتون كي ينال اليانكي المزيد من ال (.. كولا) وشطائر الكلاب الساخنة!

كلاب ساخنة؟ تقلصت أمعاء (عبير) لسماع هذه العبارة ثم تذكرت أنها الترجمة الحرفية التعبير (هوت دوجز Hot dogs).. طبعا السبب هو أن (الكلاب) معناها (الأمعاء) في العامية الأمريكية.. لكن هذا الكلام غريب جدا وأقرب إلى الكتب التي تقرؤها والتي تعود للستينات من القرن العشرين.. كتب أيام الحرب الباردة وحرب فيتنام.. هي قرأت بعض كتب التسعينات وتعرف أن لغة الكلام تغيرت وأن أحدا لم يعد يتكلم بهذه الطريقة.
النقطة الثانية هي أنها تعرف أن المقاومة في العراق ذات طابع إسلامي واضح.. لغة الخطاب الديني واضحة وحتى أسماء المقاتلين ذاتها.. هذا الرجل يستخدم لغة أقرب إلى كلام الماركسيين.. ما معنى هذا؟
انتهى الدرس فكوم (عمارة) جربنديته تحت رأسه. ابتلع قرصا من ال (زاديتين) وكبسولة ما ومد قدميه الطويلتين وقال للرجال:
- الآن ننام.. سوف نتحرك عند الفجر إلى (الكوت).. هيا.
وعلى الفور ارتفع صوت شخيره مصحوبا بالصفير في رئتيه.
ظلت (عبير) ترمق النار في شرود.. نظرت إلى الرجال الملتفين حولها، فرأت كل واحد منهم قد تكور نائما.. ظلت جالسة لفترة ثم رفعت عينيها فرأت شابا يجلس ذات جلستها ويرمق النار بذات الشرود.. تحركت في حذر حتى جلست جواره.. لم يقل شيئا.. هكذا سألته:
- عراقي؟
هز رأسه أن نعم..
- هل يمكنني أن أعرف اسمك؟
- (منذر).. يمكنك استعمال هذا الاسم مؤقتا.. كنت مهندسا ثم قررت أن أنضم للمقاومة..
أشارت إلى الرجل النائم وقالت:
- هو ليس عراقيا..
- بالضبط..
- وليس مغربيا..
- التأكيد.
- إذن من هو؟
نظر لها الشاب طويلا ثم قال:
- لا أدري لماذا أقول هذا الكلام لك، لكن فيك شيئا يوحي بالثقة.. إنه أرجنتيني.. كان يجب أن تفهمي هذا إذا كنت أرجنتينية..
- ينكر هذا بإصرار.. فليس بوسعي أن أشق صدره لأعرف..
- إنه أرجنتيني لكنه عاش فترة طويلة في كوبا..
- وما دخله باحتلال العراق؟
- إنه مواطن عالمي يعتبر الإمبريالية عدوه في كل بلدان الأرض.. يمكن أن تريه غدا في فلسطين.. لقد وجد أن آخر شعبين محتلين في العالم هما الشعب العراقي والفلسطيني.. لهذا تسلل إلى العراق وقام بتكوين هذه الخلية الثورية، وتعلم العربية بشكل لا بأس به.. لا أحد يعرف بوجودنا ولم يخطر لأحد قط أن تكون هناك فصيلة مقاومة يسارية بقيادة كوبي في العراق اليوم.. معظم عملياتنا تنسب إلى فصائل المقاومة العراقية الأخرى لكن هذا لا يضايقه لأنه يبعد العيون عنا لفترة..
- (سي عمارة).. هل هذا هو اسمه الأصلي؟

ابتسم في خبث وقال:
- طبعا لا.. إنه أقرب اسم عربي وجده لاسمه الأصلي (تشي جيفارا)!
- نعم.. نعم.. لكن ما اسمه الأصلي؟
- قلت لك إن اسمه (إرنستو تشي جيفارا)..
- نعم.. أعرف أنه يستعمل هذا الاسم الكودى تيمنا بذلك المناضل الأرجنتيني.. لكن ما اسمه؟
أطلق زفيرا طويلا وتنهد وقال
- سبحان الله.. أقول لك إن هذا اسمه..
- إذن فأبوه مجنون.. إن إطلاق اسم (مارلين مونرو) عليّ لن يجعلني فاتنة..
ثم نظرت إلى الرجل النائم وصدره يعلو ويهبط.. مع صوت الصفير المستمر من شعبة الهوائية الضيقة.. لحيته تنتفش حول وجهه.. حذاؤه العسكري..
وبدأ ريقها يجف..
لكن..
إنه هو فعلا! هذا الرجل لا يشبه (جيفارا)..
إنه هو!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- ثائر في كل مكان..

إنه العام 1959

تحقق النصر وسيطر هؤلاء الثوار على (كوبا)..

أثناء الكفاح وفي جبال (سييرا مايسترا) عرف (كاسترو) معدن ذلك الأرجنتيني الباسل الذي انضم لهم..

هكذا قرر أن يكافأه بعد النصر، ولهذا منحه الجنسية الكوبية.

صار (جيفارا) هو الرجل الثاني في البلاد ثم تزوج (أليديا مارش) عام 1959، وهي التي ستنجب له أربعة أطفال.

لم تنته مكافآت (جيفارا) بعد.. لقد صار مدير بنك كوبا القومي، ووزير الصناعة.

لكن (جيفارا) لم يكن مستريحا وسط هذه الحياة السياسية الصاخبة.. الثائر الذي بداخله لم يعتد حياة الأمن والدعة.. لم يستطع أن ينام في الفنادق الفاخرة بعد كل هذه الأعوام من النوم في كيس نوم وسط الأحراش.. وقد لاحظ في أسى زملاء كفاحه الذين ابتلعوا الطين في المستنقعات، وقد امتلكوا الآن السيارات الكاديلاك والسكرتيرات الحسناوات والمكاتب المكيفة بعيدا عن طقس كوبا الحار الخانق.. كأنهم يجنون ثمار كفاحهم السابق وقد انتهت القصة عند هذا الحد.

لم يكن ينام بين تدبير أمر الثورة بمزيج من الإخلاص والحزم الذي يبلغ درجة القسوة، وبين التأليف، وقد كتب عام 1960 كتابا عن حرب العصابات ترجمه الأمريكان ودرسوه بدقة، وإن كان لا يعدو ملحوظات عامة غير منسقة.. كان يبشر بما يدعى (الإنسان الجديد el Hombre Nuevo) المستعد لمحاربة الاستعمار في كل مكان.

- «يجب أن يصبح العلم الذي نحارب تحته هو خلاص البشرية.. بمعنى أن الموت في فيتنام أو فنزويلا أو لاوس أو كمبوديا.. يجب أن يصبح أمرا مرغوبا فيه للأمريكي والآسيوي والأفريقي وحتى الأوروبي»

كانت هذه رومانسية زائدة بالطبع.. فمهما كانت حماستك للكفاح فلا شيء يمكن أن يقنعك بأن تذهب لتموت في (كمبوديا) مثلا.. يجب أن تسيطر عليك فكرة أيديولوجية قاهرة.. في ذلك الزمن كانت الماركسية.. اليوم تستطيع فكرة الجهاد الإسلامي أن تقنع شابا سوريا أو مصريا بأن يحارب في أفغانستان أو العراق ويموت هناك.. الفارق هو أن هذا الشاب يموت وهو يطمع في الشهادة والجنة، لكن ما هي المبررات التي كانت تحرك (جيفارا) وأصحابه؟

الغريب أن العدو المشترك للطائفتين هو الولايات المتحدة.. لهذا خطر لبعض الصحفيين الأمريكيين اليوم أن يربطوا بين (جيفارا) و(أسامة بن لادن).. كلاهما ملتح يعيش في الخلاء ويجيد حرب العصابات، وكلاهما يكره أمريكا كراهية التحريم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (جيفارا) ميالا للصين، وجل ما يعرفه عن حرب العصابات مأخوذ من كتابات (ماو تسي تونج).. لم يستطع قط أن يحب الاتحاد السوفيتي، وقد شعر بأن هذه الدولة العظمى لم يتجاوز دورها دور بائع السلاح.. وأحيانا بائع الكلام.

وقد كان (كاسترو) عمليا أكثر.. ضرورات السياسة تقتضي هذا، لكن (جيفارا الثائر الدائم كان

يسبب الحرج.. كيف تنشئ صداقة مع الاتحاد السوفييتي بينما أهم وزير في حكومتك لا يكف عن مهاجمته؟
في الوقت ذاته كانت كراهية (جيفارا) للولايات المتحدة معروفة للجميع، فهو لم يكن يحاول تهذيب ألفاظه عند الكلام عنها.. وعندما ذهب ليتكلم في الأمم المتحدة رفض الأمريكيون أن يعطوه غرفة محترمة في فندق، هكذا لم يجد هو والوفد الكوبي المرافق له إلا غرفة متواضعة في حي الزنوج (بروكلين)..
لقد دهش العالم لرؤية هذا الكائن الغريب الذي يطيل لحيته ويقف أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فلا يتورع عن إخراج المطواة ليقطع السيجار إلى نصفين، ويحتفظ بنصف في جيبه، ثم يهاجم الولايات المتحدة بأعنف لغة ممكنة على أرضها.
كان (جيفارا) قلقا.
وفي هذه الفترة بالذات بدأ يجوب العالم.. زار الهند ويوغوسلافيا واليابان.. ثم قرر أن يزور أنجح تجربة ثورية يعرفها في الشرق الأوسط وهي التجربة المصرية..
لقد كان الكوبيون متحمسين لناصر إلى درجة أنه لو رشح ناصر نفسه هناك والكلام لجيفارا لفاز بأغلبية ساحقة!
على عكس هذا لم يكن (عبد الناصر) في البداية متحمسا لهؤلاء الشباب القادمين من أمريكا اللاتينية، فقد اعتبرهم تقليعة جديدة بلحيهم وثيابهم الخاكية والسيجار في أفواههم..
كان هذا هو العام 1959 عندما جاء (جيفارا) لمصر بحجة دراسة تجربة مصر في الإصلاح الزراعي.. وكان معجبا بالطريقة العنيدة التي واجهت بها مصر ثلاث دول عام 1956.. صحيح أنها تلقت ضربة عسكرية قوية لكنها أصرت على الاحتفاظ بشيء وخرجت من القتال وهي تحتفظ به.. هل يوجد اسم آخر للنصر؟
تكلم عن تعاون الاستعمار مع إسرائيل، وأبدى ملاحظته الذكية عن أن القوى الاستعمارية أقدر على التعاون والاتحاد ونبذ الخلافات، وصلاتها متينة بحيث تتصرف ككتلة واحدة.. بالفعل في كل زمان ومكان نجد أن الشر أكثر ذكاء وإيجابية ونفاذ بصيرة، بينما يتصرف الخير غالبا بتخبط وسذاجة!
لو أن الأخيار امتلكوا ذكاء الأشرار وإيجابيتهم واتحادهم مرة واحدة..
مرة واحدة فقط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا شغالين ومحرومين..
ومسلسين رجلين وراس..
خلاص خلاص.. ما لكوش خلاص
غير بالبنادق والرصاص..
دا منطق العصر السعيد
عصر الزنوج والأمريكان
الكلمة للنار والحديد
والعدل أخرس أو جبان

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- كيف عاد؟

قال لها (منذر) وهو يعبث في النار بغصن شجرة:
- عندما دخلت أمريكا العراق شعرنا جميعا بالضياع.. لأيام لم نعرف ما ينبغي عمله.. ثم بدأنا نفيق وندرك أن علينا أن نفعل ما يفعله أي شعب آخر: نقاتل.. تكونت مجموعات مسلحة عدة.. أفراد الجيش المنحل وقادته الإسلاميون.. نحن.. لكننا الذين لم نكن تابعين لفصيل معين كنا أقل الأطراف تنظيما وخبرة بالحروب.. معظمنا لم ير من قبل مسدسا ولم يفجر قنبلة.. لهذا قمنا بعمليات لا قيمة لها وسط العمليات الضخمة التي ينفذها الآخرون، والتي آذت الأمريكيين فعلا.
ثم استدارت عيناه ببطء إلى الرجل النائم وأردف:
- حتى جاء هو..
- من أين جاء؟
- لا نعرف.. ولا نعرف كيف تسلل عبر الحدود.. ما عرفناه عنه أخبرتك به.. كان اسمه (تشي جيفارا) وقد تفاءلنا بهذا الاسم، لكنه قال لنا إن علينا أن نطلق عليه اسما عربيا وليكن (سي عمارة).. قال إنه يختلف عنا في الوطن والجنسية والدين وكل شيء، لكنه مثلنا في شيء واحد هو مقت الإمبريالية.. والامبريالية تتمثل اليوم في الولايات المتحدة.. لهذا انضممنا له وبدأنا ندرك أنه يعرف ما يفعله.. إنه بارع حقا.. على الفور استقطب نحو خمسين رجلا وبدأ يمارس هذه التكتيكات القتالية، وفي اللحظات التي لا نقاتل فيها يثقفنا..
قالت في حذر
- ألا ترى أن هذه بالضبط تقريبا قصة حياة (جيفارا) الأصلي..؟
قال في تهكم:
- تناسخ الأرواح؟ لاحظي أننا مسلمون أو مسيحيون.. هذه النظرية لها محل لا من الإعراب هنا.. الأمر لا يتجاوز مناضلا أعجب ب. (جيفارا) فتسمى باسمه واعتنق أساليبه.
نظرت للرجل النائم كلغز في ضوء اللهب وقالت:
هناك تفسيرات أكثر عصرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البروفسور الصيني (زينج لي وان) لم يتخذ قط اسما لهذه التقنيات التي يمارسها.. لقد أطلق على التجربة كلها اسم (الإيوجينيا الحديثة).. وهو بهذا قد اقترب جدا من تفكير (عبير)، لكن الرجل لم يعرف أنه يمارس سرا أول تجربة استنساخ في التاريخ..
كانت علاقات (جيفارا) بالصينيين ممتازة، وبالتأكيد كان هناك من يعتبرونه قديسا من بينهم.. فقط كانوا يتمنون لو كان صينيا على طريقة (الحلو ما يكملش).. وعندما صدر القرار السياسي بأن (جيفارا) لا يجب أن يموت كان السؤال الأهم هو (كيف؟)..
البروفسور الصيني العجوز عرف بوفاة (جيفارا) في ذلك العام الحزين.. 1967.. لا بد أنه علق صورة (تشي) وتحتها بعض الشموع وجلس في الظلام يتأمل على الطريقة الكونفوشيوسية.
بعد شهر جاء رجل مخابرات من (بوليفيا) حاملا معه هدية صغيرة للبروفسور.. إن يدي (جيفارا) قد بترتا بعد موته وحفظتا في الفورمالين، وكان الهدف من ذلك مقارنة بصماته للتأكد

من أنه مات فعلا.
رجل المخابرات كان يحمل معه طبقة رقيقة جدا.. مجرد سلخة من إبهام الرجل وقد حفظت في أنبوب اختبار ثبته بعناية إلى أعلى فخذه.. وقد حصل العالم الصيني على السلخة ولم يعرف أحد تفاصيل القصة بعد ذلك..
لكن التجارب تمت في سرية تامة في مختبر عسكري قرب (بكين).. ونحن لا نعرف التفاصيل العلمية المعقدة لما حدث.. فقط نقول إن الطب الصيني كان متقدما أكثر مما حسب الغرب بكثير.
لم يفكر العالم من قبل في هذا الاختراع الهائل إلا في قصص الخيال العلمي.. لكن جدلا كبيرا دار من قبل حول (الإيوجينيا Eugenia) وهي الفلسفة التي ترمي إلى تحسين النسل البشري بشكل انتقائي، وقد لفظها العالم لأنه وجد أنها الطريق الملكي لاحتقار الأجناس والنازية والتفرقة العنصرية لكن (زينج لي وان) كان يعرف ما يفعله وقد فعله بدقة وبراعة..
لقد قام بإخلاء بويضة أنثوية من محتواها ثم نقل لها الصبغيات الموجودة في إحدى خلايا (جيفارا).. ثم أجرى بعض التقنيات المستعملة مع أطفال الأنابيب. وفي النهاية تم نقل كرية الخلايا إلى رحم امرأة من الحزب قبلت أن تكون رحما بديلا..
في أغسطس ١٩٧٠ ولد الطفل الذي سيحمل اسم (تشي جيفارا)، لكن هذا ظل سرا.. على الورق كان اسمه (ريكاردو)..
كانت الخطة محكمة.. إنهم قد ضمنوا الخلفية الجينية له، لكنهم كانوا بحاجة إلى خلفية بيئية.. هكذا ينتقل (ريكاردو) الصغير إلى الأرجنتين ليربيه أبوان أرجنتينيان ويتأكدا من أنه سيدرس الطب، ومن أن الكتب التي ستقع في يده هي ذات الكتب التي وقعت في يد (جيفارا) الأصلي في صباه.. حتى دواوين شعر (بابلو نيرودا) كانت موجودة جواره ليقرأها.. ثم جاء الوقت الذي أخبره فيه أبواه أن اسمه الحقيقي هو (أرنستو تشي جيفارا).
وعندما قال الفتى لأبويه أنه يرغب في دراسة مرض الجذام، وعندما قال طبيب الأمراض الصدرية إن (ريكاردو) سيظل يعاني الربو للأبد، عندها أبرق الأبوان إلى (بكين) يزفان الأخبار المفرحة.
لكن أحدا لم يعد يهتم بهذا الموضوع.. لقد مات العالم العجوز ومات (ماو تسي تونج) وماتت الماركسية ذاتها.
لم يعد أحد يذكر هذه التجربة، بل إنهم راحوا يتابعون في شغف تجارب الاستنساخ في العالم الغربي وهم لا يعرفون أنهم سبقوا الغرب بثلاثين عاما في هذا الصدد..
لكن الأبوين كانا يتحركان بشكل آلي طبقا لمخطط وضع لهما بمعرفة المخابرات الصينية منذ عام ١٩٧١.. وقد كان راتبهما يأتي بشكل آلي من جهة ما، لذا استمرا في التنفيذ..
على (ريكاردو) أن ينطلق ليستكشف أمريكا اللاتينية، ثم عليه أن يقيم بعض الوقت في كوبا.. للأسف لم يفكر الصينيون في استنساخ كاسترو، و (كاسترو) الأصلي موجود على كل حال.. لكن (كوبا) أفادته في تعلم القتال.. عرف كيف يطلق الرصاص وكيف يفجر القنابل ويزرع الألغام..
هكذا صار مهيأ لبدء مهمته
لم تتغير الصورة كثيرا على كل حال.. إن العالم ما زال مكانا سيئا كما كان أيام (جيفارا) الأصلي.. ربما أسوأ..
على الأرض ثلاثة بلايين نسمة يعيشون بدخل أقل من دولارين في اليوم.. في كل يوم يموت أربعون ألف طفل جوعا.. أي أكثر من طفل في الثانية.. هذه إحصاءات دقيقة موثقة.

ما زالت الأرض مهيئة للثورة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرخة جيفارا يا عبيد
في أي موطن أو مكان
مافيش بديل.. مافيش مناص
يا تجهزوا جيش الخلاص
يا تقولوا ع العالم خلاص

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تعرف (عبير) كل هذه التفاصيل، لكنها خمنتها.
لقد صار الفتي في سن الخامسة والثلاثين، وهو يبحث عن استعمار ليقهره في أي مكان. يبحث عن ثورة يشعلها وطغاة يدمرهم..
لكن الأوضاع في كوبا لم تكن تناسب بدء الثورة، ولم تكن هناك فيتنام في هذا العصر.. كان قد قرأ عن (فيتنام) وعرف رأي سميه (جيفارا) فيها.. كان (جيفارا الأصلي يتمنى أن يتحول العالم إلى فيتنامات عدة كي ينزف الأمريكان حياتهم وقواهم ومالهم فيها.. وكما قال (هوشي منه) الزعيم الفيتنامي الأسطوري: أنا سعيد لأن الأمريكان يغزون بلادنا وأرجو أن يرسلوا المزيد من القوات.. قلما تتاح لنا فرصة كهذه كي نغرس مخالبنا في لحمهم الحي!
وكانت هناك دولة مناسبة جدا هي العراق.. هناك يمشي الأمريكان في الأزقة وينامون في ثكناتهم.. هناك يمكنه البدء..
كانت على وشك الغياب في النعاس عندما فتح (جيفارا) عينية القويتين، ولم ينهض من مكانه.. فقط اتجهت عيناه إلى (منذر) وقال في حزم:
- أنت تتكلم كثيرا! سوف تحرم من السلاح لمدة أسبوع!
هب (منذر) في ذعر.. حاول أن يتكلم، لكن (جيفارا) انقلب على جانبه لينام على الجانب الآخر منهيا المناقشة..
سألت (عبير) الفتى المذعور:
- كيف؟ كيف سمعك؟
- ش ش ش ش!
قالها وتمدد على جانبه وأعطاها ظهره.. واضح أنه أغلق باب المناقشة كذلك.
لم يكن هذا الـ (جيفارا) ينام إذن.. إن هو إلا نوع من الرقاد ليريح عضلاته لكن حواسه يقظة كالهررة.. ومن جديد تثاءبت ونظرت لساعة معصمها.. إنها الثانية صباحا! معنى هذا أنهم سيوقظونها بعد ثلاث ساعات على الأكثر! لا بد أن تظفر بشيء من النوم بسرعة!
وبالطبع كانت هذه هي الطريقة المثلى للإصابة بالأرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء الفجر. وصحت (عبير) على صوت الضجيج بينما الرجال يجمعون حاجياتهم.. ويتنكرون كالعادة في ثياب فلاحين.. إنهم يتحركون بتلك السيارة الفان العتيقة
وشاحنة صغيرة في مجموعات من خمسة أو ستة.

جاءها (جيفارا) وناولها جلبابا وحجاب رأس وطلب منها أن تتنكر في هذا الزي، وأشار إلى جدار قريب حيث يمكنها أن تنفرد بنفسها.
لحسن الحظ أن ملامحك يمكن أن تكون عربية.. آخر شيء نريده أن تكون معنا صحفية غربية شقراء..
وسرعان ما تحركت السيارة وقد صارت (عبير) فلاحة عراقية لا يميزها شيء.
السماء تكتسي باللون القرمزي الغريب الذي يميز قدوم الشمس، بينما الرجال يغنون بصوت عال.. صوت متعمد.. بهذا يبدون طبيعيين أكثر من اللازم..
ومن بعيد ترى (عبير) عربات مدرعة أمريكية تنطلق نحو وجهة مجهولة.. جلست في الصندوق الخلفي للشاحنة وراحت تنظر إلى الطريق الذي يركض مبتعدا من الخلف.
ترى ما هي العملية القادمة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الموقعة الأخيرة..

اللقاء الثاني بين جيفارا وعبد الناصر تم بعد موقعة (خليج الخنازير) الشهيرة.. سبع سنوات بين اللقاءين، لكن (جيفارا) كان قد تغير كثيرا.. لقد أرهقته الأعباء السياسية وبدا كأن هناك خلافا وشيكا مع (كاسترو) إن لم يكن تم فعلا.
قضي ليلته في فندق (شبرد) بالقاهرة يلف السيجار الذي سيهديه ل.(ناصر) في الصباح، ثم قابل الزعيم المصرى صباحا فأخبره أنه عاجز عن الاستمرار في عمله كوزير صناعة..
كان (عبد الناصر) يفهم هذه العقدة.. عقدة الثائر الذي يصلح للقتال ويصلح لتدمير الحصون الأمامية، لكنه لا يستطيع أن يملأ هذه الحصون.
شرح (جيفارا) ل. (عبد الناصر) أنه لا يستطيع الاستمرار في هذه الأعمال البيروقراطية التي تضطره لمجاملة الاتحاد السوفييتي عدوه اللدود.. للمرة الأولى يعلن عن نيته في أن يذهب للقتال في الكونغو.. سوف يذهب هناك لمحاربة الشركات
البلجيكية التي تآمرت لقتل (لومومبا Lumumba) ومنعته من تأميم يورانيوم وطنه.. إن قاتل (لومومبا) معروف للعالم كله لكن أحدا لا يجرؤ على الكلام.. (لومومبا) الشاب المتحمس المؤمن ببلده الذي ربطوه بحبل من عنقه وداروا به في شارع العاصمة قبل أن يقتلوه رميا بالرصاص.
قال له (ناصر):
- هذه مغامرة غير حكيمة، ولسوف ينظرون لك على أنك طرزان الأبيض الذي جاء يساعد السود.. سوف ينظرون للون بشرتك ويقولون: ماله وأفريقيا؟ هذا مجرد مرتزق.. هذا تدخل أجنبي سافر.. بصراحة لا أنصحك بتاتا بالذهاب هناك.
ثم قال الزعيم المصري بخبرة الأعوام التي رسمت شيبها على فودية:
- أنت ثورة تمشي على قدمين، لكنك لم تسأل نفسك ماذا بعدها؟ الحب لا ينتهي بالزفاف بل تبدأ مرحلة جديدة من المشاكل.. إنجاب الأطفال وتربيتهم والحاجة إلى كسب المال.. كل هذا يجب أن يكون في ذهنك..
في هذه الزيارة قابل (جيفارا) (فاتن حمامة) وأبدى إعجابه بفيلم (الحرام) قائلا:
- أنا أعتقد أن الفن الجديد هو الذي يستخدم فيه الفنان حواسه كلها.. تقديم فيلم تحت مسمى الواقعية الاشتراكية هو عمل أبعد ما يكون عن الفن.. عندما لا يكون لدى المبدع فن فإنه يكتفي بتقديم معلوماته السياسية فقط..
سألوه:
- هل الثورة جعلت الكوبيين يكفون عن الرقص؟
ضحك بشدة وقال:
- مستحيل.. لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تمنع الكوبيين من الرقص!
عندما عاد (تشي) إلى كوبا كان قد اتخذ قراره..
اختفى..
وكثرت الشكوك عن سبب اختفائه الغامض، وتخرّص البعض بأن الخلاف بينه و(كاسترو) تفاقم إلى درجة أن الأخير تخلص منه.. إلى أن أعلن (كاسترو) يوم 5 أكتوبر عام 1965 أن (جيفارا) قد غادر كوبا وترك مذكرة يشكر فيها الشعب الكوبي على ما قدمه له.. يتنحى عن كل

وظائفه السياسية ويتنازل شاكرا عن الجنسية الكوبية حتى لا تسبب أفعاله حرجا لكوبا:
- فيدل.. الآن أستأذنك في الرحيل وأستأذن الرفاق، وأستأذن شعبك الذي صار شعبي.. ولكم جميعا أقول: وداعا.
- لم تعد تربطني بكوبا إلا روابط من نوع آخر لا يمكن للرسميات أن تفصمها.
في العام 1965 ظهر متنكرا في الكونغو.. حاول أن ينظم ثورة ضد البلجيكيين في كينشاسا مستعينا بمائة وعشرين رجلا.. هذه المرة كان الفشل حليفه واضطر لمغادرة البلاد.. لقد صدقت نبوءة (عبد الناصر) بدقة تامة.
بدأ (جيفارا) يفكر في بوليفيا.. لم لا؟
(بوليفيا) بلد مفتوح الحدود. بمعنى أنه يشترك مع حدود خمس دول أخرى.. وهو بلد غير مهم.. بمعنى أن الاستعمار لن يدافع عنه بشراسة.. وظروفه تسمح بالثورة لأنه قريب من ظروف كوبا عندما هبط عليها الثوار.. كما أنه محكوم من طاغية هو (بارينتوس).. حاجز اللغة هنا لا وجود له لأن الجميع يتكلم الإسبانية.
هكذا هبط على (بوليفيا) عام 1966 بخمسين رجلا متخذا اسم (رامون)، وبدأ يمارس نفس الأساليب التي كان يمارسها في كوبا.. وبدأ يحشد جيشا من الفلاحين والشيوعيين.
كانت هذه علامة الخطر بالنسبة ل (بارنتوس) الذي لم ينس ما فعله (جيفارا) في كوبا.. هذا الرجل المزعج يجب أن يموت.. وكالعادة كانت مصالح الطاغية تتفق بالضبط مع مصالح وكالة الاستخبارات المركزية؛ فلو ترك (جيفارا) وشأنه لأفلتت أمريكا اللاتينية بالكامل من هيمنة الولايات المتحدة.. دعك من كوبا المشاغبة وأزمة الصواريخ إلخ.. كل هذا جعل الولايات المتحدة غير راغبة في تكرار التجربة لتتحول حدودها الجنوبية إلى معقل للثوار الغاضبين عليها.. هذه المرة لن تقع أخطاء ولن نتهاون.. (جيفارا) سوف يبقى في بوليفيا أسيرا أو ميتا..
في البداية كان (جيفارا) موفقا وكانت نسبة خسائره لخسائر قوات الطاغية 1 إلى 30..
ثم بدأت الريح تجري بما لا تشتهي السفن.. لم يجد العون الذي يطلبه، وفي الوقت ذاته عرفت المخابرات المركزية مكانه وبدأت تدريب البوليفيين على قتاله.. فرق البيريه الأخضر جاءت إلى بوليفيا وراحت تعلم القوم هناك أساليب حرب العصابات المضادة..
لقد جردت حكومة (بوليفيا) قوة مكونة من 1500 جندي كامل العتاد والتدريب لتظفر برجل واحد!
بدأت قواته تنزف ببطء وكانت النهاية في (لا هيجرا) عام 1967..
لقد سلم أحد رجاله يدعى (رودريجز) نفسه إلى قوات الحكومة، وعرض عليهم مقابل سلامته أن يخبرهم بمكان (تشي).. وهكذا اقتاد قوات الحكومة المكونة من 184 رجلا في المسالك الجبلية الوعرة إلى حيث استطاعت تطويق ١٧ من رجال العصابات بينهم (جيفارا)..
حوصر (تشي) في غابة وادي سيرانو جنوبي نهر (جراندي).. دام الحصار أسبوعين وسط ظروف مروعة خاصة لو تذكرت أن الذباب والبعوض عوامل كفيلة بقهر الجيوش في حد ذاتها.. دارت معركة شرسة استمرت ست ساعات كاملة، واستعمل فيها السلاح الأبيض بوفرة..
جرح (جيفارا) في فخذه ونزف دما كثيرا في اللحظة ذاتها أحاط به أربعة من رجال الحكومة.. نظروا له حيث رقد عاجزا عن الحراك، فقال ليريحهم من التساؤلات:
- أنا التشي! أنا التشي جيفارا!
لم يصدق الجنود آذانهم.. وأخرج أحدهم صورة فوتوغرافية ونظر لها في إمعان..
لا شك في هذا ....

لقد سقط (جيفارا) في الأسر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صور كتير.. ملو الخيال
وألف مليون احتمال
بن أكيد
أكيد.. أكيد..
ولا جا دال
جيفارا مات موتة رجال

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 9الموت لليانكى.

سألته بينما السيارة تنهب الطريق نهبا:
- شيئان أثارا دهشتي.. أنك عاقبت (منذر).. وأنك عاقبته بهذا العقاب التافه! تذكرت المقولة القديمة عن أن الطعام رديء لكنه كذلك قليل جدا!
قال وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان تلقتها في وجهها لأنهما كانا في صندوق الشاحنة:
- الحزم مهم جدا مع الجنود.. كنت مغمض العينين فسمعته يقول أشياء مهمة جدا لك، ويبدو أنه تأثر لأنك امرأة.. الرجال الأشداء يصيرون أطفالا عندما يتعاملون مع امرأة جميلة.. أما عن العقاب فأنا لن أعدمه لهذا.
لكني تعلمت أن السجن لا يفيد كذلك.. المقاتلون يعتبرونها فترة راحة واستجمام ونوم.. لهذا أسلوبي في عقاب رجالى هو القتل أو الحرمان من السلاح أو الطعام.. العقاب الأخير قاس جدا ولا ألجأ له إلا في حالات الإهمال الجسيم..
راحت ترمقه في فضول وهو يبتلع دخان السيجار.
كل هذا غريب.. هي الآن (عبير) مع (جيفارا) في مهمة خاصة في العراق! أليس هذا أقرب إلى الهلوسة؟
لكنها (فانتازيا) على كل حال وليس هذا أغرب ما قابلته.
كانت تعرف أنه يستطيع أن يكون قاسيا شأن من تشغله فكرة قهرية فلا يجد الوقت كي يكون حنونا.. هناك أحكام إعدام أصدرها في كوبا حاول (كاسترو) نفسه أن يقنعه بتخفيفها لكنه أصرّ.
شعرت بالعربة تتوقف فصاح (جيفارا) في الرجال الذين نام بعضهم:
- هيا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السيارة المدرعة الأمريكية تتقدم عبر الطريق عندما انهمرت عليها طلقات الرصاص.
توقفت العربة وانتظر من فيها بعض الوقت حتى هدأت الطلقات، ثم ترجلوا ليقفوا على الجانب الآخر منها وأخرجوا أجهزة اللاسلكي.. يبدو أن معهم مترجما عراقيا.
الواحد منهم مدجج بالعتاد يحمل أطنانا على كتفيه.. قفازات.. نظارة سوداء لزوم (الألاطة الاستعمارية).. خوذة عالية.. الخلاصة إنها ثياب معقدة جدا يبدو أن الغرض الرئيس منها جعله يبدو أضخم.
جاءت عربات مدرعة أخرى وتوقفت في عرض الطريق.. ثم ظهرت دبابة من مكان ما تهز الأرض هزا وببطء دار مدفعها بحثا عن فريسة.
الفريسة كانت سيارة نصف نقل مدنية صغيرة أصاب الهلع سائقها لما رأى هذه (اللجنة المرورية) المرعبة التي تسد الطريق، هكذا استدار هاربا.. لكنه كان بالضبط في مجال مدفع الدبابة.. وانطلقت القذيفة لتتحول السيارة إلى شعلة من النيران في ربع ثانية، فلابد أن البائس لم يعرف أنه احترق.
تصافح الجنود الأمريكان على طريقة high five التي يستعملونها عند إحراز أهداف السلة، وقال أحدهم في مرح:
- وووه! كان هذا (كووول) يا رجل! لقد تحول الوغد إلى (باربيكيو)..

هنا عادت الطلقات تدوي في الجو من جديد.. أحدهم يطلق الرصاص من هذه الجهة..
اندفعت مجموعة من المارينز الأشداء نحو مصدر الطلقات وهم يتخذون أوضاعا مرسومة بعناية كأنهم يمثلون فيلما.. خرجوا من الطريق لينزلوا في حقل فارغ تجري فيه ماعز مذعورة لدى رؤيتهم..
هناك بناية في وسط الحقل.. بناية عتيقة بنيت من قرميد.. ومن الواضح أن الطلقات جاءت منها.
وقف أحد الرجال على جانب الباب، ثم طوح قنبلة يدوية إلى الداخل.
بوووم! تصاعد الدخان من فتحة الباب وعلى الفور اندفع هؤلاء إلى الداخل وهم يطلقون النار بلا اقتصاد.
لم يكن هناك أحد بالداخل.. لكن هناك عدة غرف لابد من تفتيشها بالطريقة الأمريكية.. كل واحد يقتحم الباب بحذائه ثم يندفع إلى الداخل ليفرغ دفعة من بندقيته الآلية بينما يتقدم زميله في الممر ليفتش غرفة أخرى..
بعضهم صعد إلى الطابق العلوي.. كل شيء يوحي بأن المكان كان مخزنا للحبوب فيما مضى.. لا يوجد ما يثير الاشتباه لكن الحقيقة المؤكدة هي أن الطلقات جاءت من هنا..
لقد صار بداخل البناية نحو عشرين من هؤلاء..
كانت (عبير) هناك بين أشجار النخيل المتشابكة على بعد مائتي متر.. ترقب (جيفارا) وهو يمسح المشهد بنظارته المقربة، وتلمح كفه ترتفع لأعلى ببطء.. ببطء.. ثم تهبط.
رآها الشاب الجالس جوار المفجر، فنهض وبحذائه العسكري داس الكباس.
تسري الإشارة الكهربية عبر السلك الطويل المتواري بين الأعشاب.. ثم تبلغ شحنات الديناميت التي زرعت بسخاء في قبو البناية.
ودوى الانفجار المروع.. أعمدة البناية سيئة التصميم تهاوت أولا وبدا أن هذا تم تصويره بالسرعة البطيئة، ثم تحولت البناية إلى بسكويت فركه صبي شقي بين أصابعه.
تصاعد الدخان لعنان السماء، وبدا واضحا أنه ما من أحد نجا من هؤلاء الذين دخلوا البناية.
ومن الجنود الواقفين حول العربات المدرعة تصاعد الكثير من (الواو) و(أوه) مع الكثير من ال shit.. لكن الخطة لم تنته بعد..
لقد انهمر سيل من الطلقات على هؤلاء الجنود الذين ينظرون إلى الاتجاه الآخر، وسرعان ما سقط أكثرهم مضرجين في الدماء.
هدأت دفقات الطلقات فاندفع صبيان صغيران يركضان بين الجثث، ينزعان السلاح والبنادق الآلية من حامليها ولم تقتصر مهمتهما على هذا.
قال لها (جيفارا) وقد تعالي صوت هدير المحركات حتى صار الهواء نفسه يترجرج:
- اخفضي رأسك! لقد جاءت (البلاك هوك)!
تهبط الطائرتان مثيرتين الغبار.. ويترجل رجال الخدمات الطبية لينقلوا من استطاعوا من جرحي على محفات إلى الطائرات.. البعض كان في حالة سيئة جدا لدرجة أنهم قاموا بتركيب السوائل الوريدية لهم وهم بعد على الأرض.
همس (جيفارا) في نشوة وهو يرمق المشهد:
- (فيتنام) من جديد! لم أر هذه المشاهد إلا في (فيتنام)!
وأشعل سيجاره وإن لم يستطع التصويب عليه من فرط الحماس.
بدأت الطائرتان ترتفعان.. سوف تضطران للعودة عدة مرات لأن هذه مجزرة حقيقية.

صارت الطائرتان على ارتفاع خمسين مترا، ثم دارت أحدهما حول الأخرى لتبدأ رحلة العودة إلى المستشفى الميداني.
من جديد ارتفعت يد (جيفارا) ملوحة بالسيجار
ومن جديد ضغط (منذر) الواقف خلفه زر شيء يبدو كأنه (ريموت كونترول)..
وفي لحظة دوي انفجاران مريعان في السماء وتناثرت شظايا الطائرتين في كل صوب.. دخان أسود يجعلك عاجزا عن رؤية يدك.
إنها حيلة تلغيم أجساد الجرحى.. طبعا لم يكن هناك وقت لفحص جسد من ينقلون إلى الطائرة جيدا وإلا لاكتشفوا القنبلة المثبتة تحت حوض كل منهم.
في هذه اللحظة وصل المقاتلان (سليمان) و(نايف) اللذان قد خرجا من النفق الذي أعداه تحت البناية.. كانا يفكران في القيام بعملية انتحارية بحيث ينتظران دخول الأمريكيين إلى البناية ثم يفجران نفسيهما، لكن (جيفارا) لم يكن على استعداد للتضحية بجندي واحد من جنوده..
هكذا تم تنفيذ حيلة النفق.. استدراج الأمريكيين للبناية ثم مغادرتها من تحت الأرض.
قال لها (جيفارا) وقد شاعت ابتسامة على وجهه لم ترها منذ فترة:
لقد تعلمنا أسلوب الأسلاك الواصلة إلى ألغام عبر مسافات بعيدة من الجزائريين عندما كانوا يقاتلون الفرنسيين، وقد بلغوا بهذه الوسيلة درجة الكمال..
ثم صاح في الرجال:
- بسرعة! أريد قتل الأسرى!
انطلق رجاله يركضون نحو من بقي حيا من الأمريكيين، على حين هتفت (عبير) في ذهول:
- قتل الأسرى؟ هل تضرب بهذا مثالا أخلاقيا؟
تصاعد صوت الطلقات بينما قال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:
- بل أضرب مثالا على القسوة! يجب أن يثير اسمك الرعب لدى هؤلاء القوم.. تلغيم جثث الجرحى والقتلى هو أسلوب أبعد ما يكون عن أخلاق الفرسان لكنه مفيد ولسوف يجعلهم هذا يضيعون وقتا ثمينا فيما بعد مع جرحاهم.. إن هذا مهم لزحزحة روحهم المعنوية.
ومن بين الأشجار ظهر المقاتلون وهم يجرون أسيرا..
كان هذا هو المترجم العراقي الذي كان يصاحب الأمريكيين. كان شاحبا كثمرة الليمون يرتجف رعبا.
قال له (جيفارا) وهو يناوله سيجارا، بينما صدره يصفر بلا انقطاع:
- اهدأ! نحن لن نؤذيك فقط انصرف من هنا ولا تعمل مع الأمريكيين أبدا..
قال الرجل وهو موشك على البكاء:
- لقد.. لقد أرغمون..
- أعرف.. ولو كان عندي شك في هذا لأعدمتك بنفسي هنا.. انصرف!
ثم صاح في الرجال وقد صارت رائحة الجو لا تطاق من البارود والدخان والدماء والجازولين والعرق وكل شيء آخر:
- فلنرحل الآن! لا بد أن طائراتهم قادمة لتحيل المكان جحيما.
قالت (عبير):
- لكنك أبدتهم جميعا..
- لا بد من هارب هنا أو هناك يبلغ القيادة.. ثم إن انقطاع الاتصال رسالة في حد ذاتها..
- ألاحظ أنك غيرت استراتيجية القسوة في دقائق.. لقد تركت هذا الأسير يرحل.

- بل استراتيجيتي هي الوحشية المطلقة مع العدو والرحمة الكاملة مع الأهالي.. لا بد من أن يدرك الأهالى ما لدى رجل العصابات من تفوق أخلاقي.. والآن كفي عن الثرثرة واركضي..
وهكذا انطلق الرجال بين أشجار النخيل..
النخيل الذي يجلب الشؤم للأمريكيين سواء كان نخيل جنوب شرق آسيا أو نخيل العراق.
وبعد خمس دقائق راحت الأرض تهتز وترتج وترقص. ونظرت (عبير) إلى الوراء ما بين الأشجار فرأت أن جهنم قد حلت على الأرض.. الطائرات الأمريكية تفرغ كل ما تحمله من موت فوق البقعة التي تمت فيها العملية.. لن تندهش لو كانت هناك أسلحة نووية مستعملة فالأسلحة العادية لا يمكن أن توصلنا لهذه النتيجة.
اليانكي العملاق الغاضب قد أدرك أنه خدع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الخبير..

الرجل الذي جاء كان يدعى (مورتون).. (جيمس مورتون).. وكانت أوراقه تقول إنه مهندس اتصالات..
طبعا يمكن بسهولة أن تعرف أن هذا ليس اسمه الحقيقي. من المستحيل أن تعرف أسماء هؤلاء القوم الحقيقية، فقط يمكنك أن تعرف أنه قاس وأنه في الستين من عمره.. مع وجه بهذه القسوة لا تبدو السنون على حقيقتها.. لكن هذه هي السن الدقيقة على الأرجح.. يمكنك أن تميز هذا بين الشفتين الرفيعتين والفم الصارم والذقن المشقوقة بالطول والعوينات المخصصة لطول النظر من ذلك الطراز الأقرب إلى المرايا مما يجعلك لا ترى عينة أبدا.. وكأنه وحش آلى له عدستان في موضع العينين.
من السهل أن تعرف أنه ليس مهندس اتصالات خاصة إذا تذكرت أن (آل كابوني Capone) أهم زعماء المافيا الأمريكيين كانت أوراقه تقول إنه تاجر أثاث مستعمل!
صافح مجموعة الجنرالات الموجودين هناك في مركز القيادة بالمنطقة الخضراء.. قيل إن هذا المكان من قصور (صدام) السابقة لكنه قدر أنها إشاعة على الأرجح، لأن المكان لم يكن على أية درجة من الفخامة.
عرف على الفور (جون وايلدفاير) مسئول المخابرات المركزية هنا.. من الغريب أن بعض الأسماء ترتبط بمهنة أصحابها بشكل عجيب.. مثلا رئيس القوات الأمريكية في فيتنام كان اسمه (وستمورلاند) أي أنه قريب جدا من عبارة (المزيد من الأرض الغربية).. (وايلدفاير) معناها (النار الشرسة).. وهو يعرفه لأنهما مارسا معا الكثير من العمليات القذرة عالية الاحترافية.
جلس مسترخيا في مقعده وعقد يديه على صدره، وبلهجة الواثق الذي لا يقبل مناقشة قال:
- قيل لي إن الحرب تتخذ منحى غريبا هذه الأيام..
ساد الصمت ثم نهض (وايلدفاير) وقال:
- لقد عرفنا أساليب المقاومة العراقية وألفناها إلى حد ما.. صحيح أن السيطرة عليها مستحيلة لكننا نعرف على الأقل نوعية الخطر الذي نواجهه..
ثم أشار إلى جندي بحرية واقف، فأسرع بإغلاق النوافذ واتجه إلى جهاز كمبيوتر من طراز (لاب توب) موصل بجهاز عرض، وقام بتشغيل فيلم فانبعثت الصورة على شاشة كبيرة..
على الشاشة ظهرت مجموعة من الحرائق والمعدات الأمريكية التالفة.. كأنها لقطات من جحيم (دانتي) أو الحرب العالمية الثالثة.. على حين دوي صوت (وايلدفاير) يشرح ما يرونه:
- هناك تقنيات لا تتبعها المقاومة العراقية على الإطلاق. تقنيات أبسط ما أصفه بها أنها عتيقة.. الأسلاك الموصولة بألغام.. أسلوب الرقصة الموسيقية.. أسلوب الكمائن التي يتم اجتذاب الجنود لها.. المقاومة العراقية لا تلغم جثث القتلى أو الجرحى.. هذه تقنيات قاسية لكنها فعالة جدا.. صار رجال الخدمات الطبية يترددون ألف مرة قبل نقل الجرحى للطائرات..
ثم ظهر على الشاشة رجل ممتقع يبدو عليه الرعب وفي يده سيجار غليظ. كان يتكلم بالإنجليزية مع أحدهم خلف الكاميرا.. سأله الرجل خلف الكاميرا:
- كيف كان شكل ذلك الزعيم؟
- كان الرجال ملثمين، لكنه نزع اللثام ليدخن سيجارا. كان ملتحيا..
وما الغريب في هذا؟ الإسلاميون ملتحون دائما..

- ليس هذا النوع من اللحى.. هذه أشياء لا أعرف كيف أصفها لكننا نحن العرب نميزها على الفور.. أن تكون عربيا لتفهم.. ثم لكنته.. أؤكد أنه ليس عربيا..
سأله الواقف خلف الكاميرا:
- ليس سوريا أو مصريا؟
- ليس عربيا.. أكرر كلامي..
- وهذا السيجار؟
- قدمه لى كى أهدأ.. هذا بدوره غريب.. الإسلاميون لا يقدمون السيجار للأسرى.. هو نفسه كان يدخن السيجار بلا انقطاع..
- هل من شيء آخر؟
- نعم.. كانت هذه ألعن حالة ربو سمعتها في حياتي. صدره لم يكف عن الصفير..
ومن جديد عادت اللقطات تتوالى على الشاشة.
حينما انتهت الصور، نظر (مورتون) إلى الرجال الجالسين وقد راح ضوء جهاز العرض يتألق على نظارتيه.. وسأل:
الاستنتاجات؟
قال أحد الجنرالات الجالسين وهو يشعل سيجارا:
- هناك أطراف غير عربية تحارب في العراق.. لا أعرف كيف ولا من لكن الأمور تدعونا لهذا الاعتقاد.. بل إننا نرجح أنها أطراف غير إسلامية كذلك..
- أطراف غير عربية ولا إسلامية.. هل تقترح الصرب مثلا؟
- لا أقترح أي شيء. أنا أذكر حقائق..
مد (وايلدفاير) يده ودس شيئا في يد (مورتون) فنظر له مليا.. ثم قال:
- سيجار.. هذا هو السيجار الذي أعطاه للمترجم العراقي؟
ثم تشممه وغمغم:
- إنه كوبي.. لا شك في هذا.. وربما ملفوف يدويا كذلك.
كان الأمر يبدو له مألوفا.. مألوفا إلى درجة تثير الغيظ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان في الثالثة والعشرين من عمره في ذلك الوقت. عام 1967 كان في (بوليفيا) ضمن مجموعة من الجنود الأمريكيين الذين يطلقون عليهم (فرق البيريه الأخضر)..
كانت مهمتهم محددة في ذلك الوقت هي تدريب البوليفيين على حرب العصابات.
قيل له إن هناك كتابين مهمين لفهم حرب العصابات عن حق.. الأول كتبه (ماوتسي تونج) والآخر كتبه جيفارا، وقد جمع (ليدل هارت) أستاذ الاستراتيجية الكتابين في مجلد واحد.. لهذا كان هذا الكتاب مع كل واحد من رجال (البيريه الأخضر)..
كان هدف هذه العملية التي يقومون بها هو اقتناص (جيفارا) بالذات، لكن كانت السياسة العامة للمخابرات الأمريكية هي ألا تتسخ يداها.. يجب تدريب كادرات محلية تحت اسم المعارضة للقيام بهذه العمليات.. عملية خليج الخنازير الفاشلة كانت من هذا الطراز.. مجموعة من المعارضين الكوبيين في الخارج تم تدريبهم على عمل انقلاب، ثم أرسلوهم إلى خليج الخنازير في كوبا بغرض تدمير نظام (كاسترو)، لكن (كاسترو) أثبت أنه أكثر حنكة وحذرا من (باتستا).. أو بمعنى أدق أنت لا تستطيع أن تلعب حيلة على الساحر.. هكذا تمت إبادة هذه المجموعة

وكانت فضيحة.. يقال إن هذه الحادثة عجلت بنهاية (كنيدي) لأنه لم يساند هؤلاء المتمردين الذين راح الكوبيون يتسلون عليهم في (بوليفيا) كان (مورتون) يشترك مع فريق من الأمريكيين في تدريب رجال الجيش البوليفي على حرب العصابات المضادة.. كيف يفكرون مثل (جيفارا) ويخططون مثله..

رباه!

كانت أياما مجيدة.. أبلغ دليل على عظمتها أنها انتهت بجثة ذلك المارق معروضة على أغلفة الصحف العالمية.

كان هذا درسا من راعي البقر الأمريكي للعالم كله.. لا أحد يعبث بنا.

اليوم يتذكر (مورتون) تلك الأيام وهو في الستين من عمره، وقد صار من مستشارى وكالة الاستخبارات المركزية.

لماذا يتذكرها؟ لأن موضوع السيجار والثائر الملتحي ذكراه بتلك القصة.

أغلب الظن أن هناك مجنونا ما تأثر ب. (جيفارا) إلى حد التشبع.. وهو يحاول تكرار قصة حياته بالكامل.. المقاومة في العراق سنية لكن يمكن تصور وجود عناصر ماركسية بينها.. بالنسبة للماركسيين لا بد أن هذا المجنون شبيه (جيفارا) يبدو قديسا.

كل هذا سهل ومفهوم.. ما لا يمكن فهمه هو الجهة التي جاء منها هذا المتسلل.. لو كان غير عربي أو مسلم كما يقول الشاهد فإن أمريكا في مشكلة.. هناك جهة أخرى قررت أن تفتح عليها النار.. فما هي تلك الجهة؟

مهمته هي أن يعرف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- شيء مألوف..

شقت الدبابة الأمريكية طريقها في شوارع حي (المنصورية) ومن خلفها تسير عدة سيارات متمهلة بسرعة الرجل العادي بانتظار رحيل هذا الكابوس.
(مورتون) كان يجلس جوار سائق سيارته المرسيدس، لأنهم قالوا له إن هذا أكثر أمنا.. الجلوس في المقعد الخلفي يعني أنه شخصية مهمة.. ولم تكن هناك أية علامات على السيارة تدل على أهمية راكبها.
كانت هناك مدرعة محترقة إلى جانب الطريق.. قال لنفسه إن المقاومة العراقية نشطة بحق.. ثمانون عملية في اليوم.. لو هلك جندي أمريكي واحد في نصف هذه العمليات فلا بد أن الولايات المتحدة تخسر أكثر من ألف جندي في الشهر.. ثم يزعمون أن خسائرهم ألفا جندي في ثلاثة أعوام! هذا أقل من معدلات وفيات حوادث المرور لو بقوا في الولايات المتحدة!، ومعنى هذا أن الحرب في العراق من عوامل إطالة العمر! أي هراء هذا ومن يصدق هذا السخف الذي لا يخضع لأي تدقيق منطقي؟ كان أقرب من غيره إلى دوائر السلطة في واشنطن ويعرف أنهم يتبعون سياسة جوبلزية صارمة: الكذبة يجب أن تكون هائلة وبالتالي لا يجرؤ أحد على التشكيك فيها.. لا يمكن أن يكذبوا كذبة هائلة كهذه.. إذن هم صادقون!!
لكن منظر الدبابة المهيب وهي تنطلق عبر الشوارع متقدمة السيارات كان يوحي بالثقة.. كيف تهزم دولة صنعت هذه الدبابة وتملكها؟
يبدو أنه حسد الدبابة، لأنه فوجئ بها تنفجر.. برجها طار في الهواء ثم تصاعد منها دخان اسود كثيف وعلى الأرض تدحرج جندي يحترق كأنه قصاصة ورق.
سمع المزيد من القصف.. والتفت إلى اليمين ليرى هؤلاء المقاتلين يبرزون من شارع جانبي كانوا يحملون أسلحة غريبة الشكل عبارة عن مواسير من الخشب.. وفوجئ بأن شيئا ينطلق من هذه المواسير ثم يصطدم بسيارة تقف أمام سيارته فتنفجر.. إنها زجاجات!
زجاجات مولوتوف!
نظر إلى الخلف فأدرك أنه فأر في مصيدة.. لا يوجد حيز للتراجع بالسيارة، ومغادرتها معناها الموت الأكيد.. قال للسائق وهو يتلفت حوله:
انطلق إلى.. انطلق إلى..
ولم يدر إلى أين..
وفي اللحظة التالية رأي مجموعة من هؤلاء الملثمين تسرع إلى السيارة.. لم يدر ما حدث ولا كيف فتحوا الباب ولا كيف وجد نفسه وسط خمسة منهم.. إن فوهات المسدسات تكون باردة جدا عندما تلتصق بذقنك.
لكنه لم يفزع.. لقد رأى الكثير في حياته، لكنه كان قلقا بصدد الخطوة التالية.. خطف ففدية؟ أم خطف فذبح أمام الكاميرا؟ أم خطف فانقطاع الأخبار للأبد؟
رأى ذلك الرجل الملتحي يتقدم منه في ثقة.. ينزع اللثام عن فمه ليتنفس وكان معه حق.. تنفسه يشي بحالة ربو متقدمة جدا فلا شك أن اللثام يزيد الأمور سوءا..
ما إن تكلم الرجل حتى أدرك أنه هو من تحدث عنه الشاهد.. اللكنة الإسبانية لا يمكن ألا تميزها الأذن.
لقد مد يده يتفحص أوراقه وقرأ بالإنجليزية:

- جيمس مورتون.. مهندس اتصالات.. امريكي..
ثم نظر له بعينية الثاقبتين الخبيرتين، فتظاهر (مورتون) بأنه ليس رجل استخبارات مركزية.. من دون كلمة أخرى ألقى الرجل بالأوراق في وجهه وقال شيئا بالعربية للرجال ثم ابتعد ركضا مع رفاقه..
لقد نجوت!!
عاد إلى سيارته والتقط أنفاسه للحظات.. بحث عن جهاز المحمول ثم اتصل بالجنرالات هناك دبابة محترقة في المنصورية.. لقد رأيت تلك المجموعة.. أنا بخير.. كادوا يقتلونني لكن زعيمهم جعلهم لا يفعلون..
ثم أنصت قليلا وقال:
- انس أمر الدبابة.. الأمر جد خطير.. سوف أعود لكم بمجرد أن يتم إخلاء الطريق من الحطام.. أريد اجتماعا عاجلا..
ثم قال للسائق:
- هل معك كيس من البلاستيك؟
مد السائق يده في التابلوه وأخرج كيسا يبدو أنه كان يحفظ فيه بعض الشطائر.. مد (مورتون) يده داخل الكيس واستخدمه كأنه قفاز.. التقط الأوراق المبعثرة على الأرض ثم قلب الكيس وأخرج يده منه كما يفعل بائع الجبن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالوا له في ذلك الاجتماع إنه أحمق وإنه مخبول وإن التقدم في العمر قد ترك بصمات واضحة عليه.. قالوا له كل هذا في تهذيب نظراً لمكانته لكنهم قالوه على كل حال..
ظل يصغي وعلى شفتيه ابتسامة خافتة، ثم قال:
- هل انتهيتم؟
- تقريبا.. بقي أن نقول إننا سنرسل مذكرة بهذا الذي تقوله إلى واشنطن..
ظل صامتا دقيقة.. كان يعرف أن عواطفه وانفعالاته لا تبدو على وجهه أبدا بفضل تلك العوينات الكئيبة.. كان يريد هذا.. إنها تجعله يبدو مبرمَجا بفتح الميم وبالتالي رهيبا
قال لهم في هدوء:
- أنتم لم تروا (جيفارا).. أنا رأيته في عشرات الصور ثم رأيت جثته في تلك المدرسة في بوليفيا.. لن أنسى وجهه ما حييت وبرغم أن نحو أربعين سنة تفصلنا عن تلك اللحظة.. أؤكد لكم إن هذا الرجل لم يكن يقلده. إنه هو!
صاح أحدهم في ضيق وهو يضرب المنضدة بيده:
- وتريد أن نشكرك على هذه المعلومات؟!
- اصبر يا جنرال.. في تلك الأيام طور (جيفارا) أداة لقذف قنابل كوكتيل المولوتوف.. خرطوشة ذات قضيب خشبي تثبت في نهايتها قنبلة كوكتيل مولوتوف.. لقد حققوا دقة مذهلة في التصويب تصل لنحو مائة متر وقد برهن عن نجاح في تدمير دبابات العدو.. ألا تبدو هذه الطريقة مألوفة؟ لم تستعمل المقاومة العراقية هذه الطريقة قط.. أشعر كأن الزمان عاد إلى الوراء أربعين عاما..
- ماذا تريد قوله؟ هل وقعنا في فجوة زمنية جعلتنا في الماضي؟
نظر لهم في حيرة.. هو نفسه لا يجد الطريقة للتعبير عن أفكاره.. كأنه يحاول استرجاع لحن

منسي منذ أربعين عاما.
مد يده في جيبه وأخرج الكيس الذي يحوي أوراقه كلها، وقال:
- أريد إرسال هذه الأوراق في كيسها إلى الولايات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساد صمت رهيب بينما (وايلدفاير) يفتح التقرير القادم من الولايات المتحدة والذي وضع في أعلاه خاتم يقول: (سري للغاية).. لقد اقتضى الأمر يومين لكنهما مرا كالدهر على (مورتون)..
قال (وايلدفاير) بصوت خفيض رهيب:
- فحص البصمات يؤكد كلام مستر (مورتون).. البصمات تتطابق تماما مع بصمات (أرنستو جيفارا) الذي احتفظنا ببصماته منذ بتروا يدي جثته في (بوليفيا) عام 1967! يطلبون عينات من الحمض النووي لإتمام المطابقة لكني أرى أن هذا صعب.. معنى هذا أن يكون (جيفارا) الجديد في أيدينا فعلا.
من جديد ساد الصمت ثم قال أحدهم:
- هل تعني أنه لم يمت وإننا خدعنا؟
قال (مورتون) في غيظ:
- يا لك من أحمق! لو عاش حتى اليوم لكان في الثمانين من عمره، ولكان مبتور اليدين!
ثم وقف ودس يديه في جيبيه وبدا واضحا أنه يكلم نفسه قبل أي واحد آخر:
- هناك من وصل إلى تقنيات الاستنساخ في ذلك الوقت من أواخر ستينات القرن العشرين، واستطاع أن يُوجِد (جيفارا) آخر هو الذي نواجهه اليوم.. من هو؟ كيف فعل ذلك؟ هذا هو ما يجب أن نعرفه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- بلا جدوى..

جلست (عبير) على مقعد خارج ذلك المقهى تراقب (جيفارا) ورجاله حيث جلسوا في شكل دائرة.. رواد المقهى يصغون لهم في صبر.. البعض يدخن النارجيلة والبعض وضع قبضته تحت فكه وراح يصغى.. البعض راح ينظر حوله في توتر متوقعا أن يسقط صاروخ (كروز) فوقهم الآن.
(جيفارا) يجلس في الوسط وسيجاره بين أصابعه ويطلق الدخان كثيفا، ويقول بلهجته العربية المهشمة:
- لا يتحقق النصر النهائي إلا عندما يتم تحطيم جيش العدو تحطيما منظما، وكذلك تحطيم كل المؤسسات التي تدعم العهد البائد.. إن الرأي العام العالمي وبعض مؤسسات الأنباء الأمريكية الصادقة منها وغيرها من وسائل إعلام البلاد الاحتكارية الأخرى ستبادر لمهاجمة الدولة المتحررة، ومن الضروري تنظيم العمل الثوري عن طريق خلق جيش جديد يمتاز بالمهارة التقنية والثبات في العقيدة.. وعلى القيادة أن تعد لحرب دفاعية لا بد لجيش الشعب من خوضها.
نظرت (عبير) إلى الوجوه فرأت ما توقعته.
لا أحد يفهم شيئا.. لا أحد يهتم.. هذه الطريقة في الخطاب عتيقة جدا كانت تناسب الستينات، أما اليوم فهي أقرب إلى طريقة كلام حزب البعث العراقي.. والعراقيون وقعوا طويلا تحت سيطرة البعث ثم وقعوا تحت قبضة الأمريكان فلا يعرفون أيهما أسوأ.
قال (جيفارا) وهو يشرب بعض الشاي:
- علينا أولا تحديد الجانبين المتحاربين في حرب العصابات.. هناك أولا الطبقة المستبدة (الأوليجاركية) الظالمة يمثلها الجيش النظامي حسن التسلح والانضباط، وتتحالف معه البيروقراطية المتخمة.. أما في الجانب الآخر فهناك شعب البلاد في المناطق المعنية.. من هنا تكون حرب العصابات هي الصراع الذي تخوضه الجماهير متخذة من وحدات العصابات نواتها المسلحة..
هنا قال شاب نحيل في عصبية:
- لا أفهم حرفا مما تقول!
قال (جيفارا) في صبر:
- لهذا أجلس هنا.. أنتم بحاجة إلى التثقيف الثوري. رجل العصابات مصلح اجتماعي قبل كل شيء..
كان صاحب المقهى يقف جواره وهو يمسح يديه في مريولة يعلقها على خصره، فلما انتهى (جيفارا) من الكلام، قال له في حدة:
- هل انتهيت من شرب الشاي؟
- نعم..
- إذن أرجو أن تدفع حسابك وحساب رجالك وتنصرف لقد شبعنا تثقيفا ثوريا لهذا اليوم..
ثم صاح الرجل وقد بدأت نبرة غضبة تتعالى:
- أو لا أحد يفهم حرفا مما تقول.. ثانيا أنت ستجلب علينا الوبال لو سمع الأمريكيون أن المتمردين يجتمعون هنا. سوف يبدءون بحرق المقهى ثم يسألون عما يجري. صدقني أنا رأيت مواقف ماثلة.

مد (جيفارا) يده في صمت إلى جيبه وأخرج بعض قطع العملة ألقاها على المنضدة، ثم أشار إلى الرجال و(عبير) كي يلحقوا به..
سمعت صفير صدره فأدركت انه منفعل.. الانفعال يفعل مع الربو ما يفعله الدخان وألعن.
قالت له (عبير) وهي تلحق به لاهثة:
- هذا متوقع.. كلامك غريب جدا بالنسبة لهم. (أوليجاركية)؟ يا نهار اسود! لم يعد أحد يتحمل هذا الكلام أو يطيقه.. لو ظننت أنهم سيلوحون بالبنادق ويهللون ويلحقون برجالك فأنت مخطئ..
- لا بد من عدة جلسات تثقيف.. إن غبار البرجوازية يغطى أرواحهم..
ركبوا سيارة الفان التي كانت تنتظرهم فانطلقت تنهب الطرقات نحو مقرهم الجديد قرب البصرة.. قالت له (عبير) وهواء الطريق يوشك أن يطير الحجاب الذي تضعه على رأسها:
- اسمعني.. هذه الأيديولوجية انتهت.. لقد تلاشى الاتحاد السوفييتي، والصين لا تريد أن تتورط في مشاكل لأنها منهمكة بنهضتها الاقتصادية.. لم تعد هناك سوى دولة واحدة قوية هي الولايات المتحدة.. كان بوسع حركات التحرر في الماضي أن تعتمد على الاتحاد السوفييتي والصين.. كانوا يقاتلون في فيتنام والشرق الأوسط بالسلاح السوفييتي..
سعل كثيرا وابتلع ريقه وبرغم هذا أخذ نفسا عميقا من السيجار وقال:
- الاتحاد السوفييتي لم يكن ثوريا.. كان صورة أخرى من الولايات المتحدة وإن تظاهر بالعكس.
- نعم.. كلنا يعرف هذا.. لكنه كان ضروريا من أجل التوازن.. أو كما يقول العرب: كان في اختلافهما رحمة.
لقد توقف العدوان الثلاثي على مصر عندما أطلق الاتحاد السوفييتي إنذاره النووي الشهير، وانتصر مجاهدو أفغانستان على السوفييت بفضل الدعم الأمريكي لهم.. اليوم لم يعد هناك توازن وصارت هناك قوة واحدة طائشة كاسحة..
الأيديولوجية التي كنت تحارب من منطلقها قد تلاشت.. اليوم لم تعد هناك مرجعية للقتال في العراق إلا من منظور إسلامي ويبدو أن هذه هي المقاومة الوحيدة الفعالة حاليا. هناك قوميون عرب لكن عملياتهم لا قيمة لها تقريبا. دعك من أنك أجنبي ولن يثق بك أحد.. لا مكان لك هنا ولن يصغي أحد لأحلامك عن اتحاد الشعوب المطحونة. من المستحيل اليوم أن تقنع شابا ألمانيا بالقتال في التبت لتحريره من الصين..
ثم أخذت شهيقا عميقا وقالت:
- أنت رومانسي.. وككل رومانسي أنت ترفض الزمن الحالي.. ترفض الواقع.. والواقع يقول إنه لا مكان لك.
فجأة لاحظت أنها تكلمت كثيرا جدا لأنه راح ينظر لها في حدة لبضع دقائق.. ثم قال:
- هل تعرفين من أنا؟
- أنت؟ أنت (سي عمارة) المتأثر جدا ب. (تشي جيفارا)..
نظر لها لمدة أخرى حتى قررت أن تخفض عينيها.. لقد تكلمت كأنه يعرف أنها تعرف كل شيء عن نشأته وعملية الاستنساخ.. في الواقع لم تكن تعرف أي شيء.. لقد استنتجت.. لكنها كانت تفهم أنه لن يسمح بأية معلومات تتسرب عن شخصه الحقيقي.
يجب أن تخرس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- التشي يجب أن يموت..

على الشاشة يظهر أبوان فقيران يضحكان وبينهما طفل في الثالثة من عمره.. ملامح الأبوين والشعر الأسود الفاحم الناعم وخلفية الجبال تشي بشكل ما أن الصورة التقطت في أمريكا الجنوبية.

قال أحد الجنرالات الجالسين ونصف وجهه يتألق في الظلام:

- هل هذا هو (جيفارا) مع أبويه؟

قال (وايلدفاير) رجل الاستخبارات المركزية:

- بل هو (ريكاردو ألفاريس) الذي سيصير اسمه (جيفارا) فيما بعد.. هذه الصورة التقطت في الأرجنتين عام 1974

ثم تغيرت الصورة على الشاشة ليبدو رجل صيني عجوز..

ثيابه شبه العسكرية واللون الأبيض والأسود وطابع الصورة الحبيبي يشي بأنها التقطت في عصر الثورة الثقافية في الصين.

واصل (وايلدفاير) الكلام:

- هذا هو البروفسور الصيني (زينج لي وان).. عام 1966 كان مهتما بما يطلق عليه (الإيوجنيا الحديثة).. كانت تجاربه سرية ذات طابع عسكري.. إن أساليبه غامضة بالنسبة لنا، لكن لدينا كل ما يدعونا للاعتقاد أنه عرف الاستنساخ قبل أن نعرفه نحن..

ثم تبدلت الصورة ليظهر فيها إناء زجاجي به سائل ما ويدان بشريتان تجعد جلدهما.

- يدا (جيفارا).. لقد اختفت كل بقايا الرجل لكن يديه ظلتا في الفورمالدهايد لفترة طويلة.. نحن نعتقد أن الأنسجة أخذت من هنا..

وعلى الشاشة ظهرت عدة صور مختلفة لمراحل مختلفة من حياة الفتى.

- هنا نرى (ريكاردو) وهو يدرس الطب في الأرجنتين. ثم نراه وهو في كوبا.. من الواضح أنه تحرك في ذات اتجاه (جيفارا) الأصلي.. هذا كان ضروريا للخطة.. بعد هذا اختفى الفتى من أمريكا اللاتينية، ثم يظهر في العراق من يطلقون عليه (سي عمارة).. يبدو أنه كون جيشا من القوميين وبقايا الماركسيين وهو يحاول أن يكون نواة من المقاتلين ضدنا..

انتهى العرض، فهتف أحد الجنرالات الجالسين:

- هذا غريب جدا.. أقرب إلى فيلم خيال علمي!

- إنه فيلم بالفعل.. لكنه فيلم رعب..

هنا تدخل (مورتون) بطريقته العملية:

- كما ترون أنا لم أكن أهذي.. عندما أقول إن هذا (جيفارا) فأنا أعنى ما أقول.. السؤال المهم الآن هو: هل لوجوده في العراق اليوم خطر ما؟

قال ذات الجنرال:

- لا أعتقد.. إنه (خيال مقاتة) من الماضي.. لم يعد أحد مستعدا لسماع هذا الهراء الثوري اليوم.. المقاومة الخطرة هنا هي المقاومة ذات الطابع الإسلامي ولا أعتقد أنهم يمكن أن يتحالفوا معه أيديولوجيا.. أهميته الوحيدة هي أنه طرفة علمية ممتازة.. هذا الرجل يجب أن يدرس ولا يحارب!

لم يعلق (مورتون) ونظر إلى (وايلدفاير) متسائلا فقال هذا:

- أرى الرأي ذاته.
وقال آخر:
- نفس الشيء..
قال (مورتون) بدوره:
- ربما كنتم محقين، لكن يجب ألا ننسى أن هذا المارق يكلفنا جندا ومالا..
- ما نريد قوله هو إننا لن نبدد جهدنا سدى.. سوف نحاول الظفر به كما نحاول الظفر بالمقاومة.. لكننا لن نضيع وقتا معه..
صمت (مورتون)..
والحقيقة أنه كان غير راض على الإطلاق.. لقد ولت أربعون سنة في لحظة ليجد نفسه ذلك الشاب ذا البيريه الأخضر في بوليفيا مع رجال (بارينتوس) عندما كان للشر اسم واحد:
(تشي).. يجب أن يموت التشي..
يجب أن يموت التشي..
لقد قتلوا التشي مرة.. لكنه اليوم يفاجأ به حيا يحارب بلاده بذات النشاط السابق.. يشعر بأن واجبه الوحيد هو أن يبحث عن جيفارا ويقتله من جديد.. لكن هؤلاء الصبية معدومي الخبرة لن يتركوه يفعل ذلك.
قرر أن ينتظر ويرى ما يستطيع عمله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (جيفارا) يشرح لـ (عبير) تكوين قواته، بينما هم ينتظرون على جانب الطريق..
قال لها:
- الفئة هي وحدتنا الأساسية.. وهي تضم عشرة مقاتلين يقودها ضابط برتبة ملازم.. كل أربع فئات تكون فصيلا يقوده نقيب.. كل أربعة فصائل تكون رتلا يقوده رائد..
ثم أشار لها إلى متاعه وقال:
- معداتنا تتكون من الخيمة الصغيرة والبطانية والجاكت.. زوج من الأحذية وطعام مؤلف من الزيد ومعلبات وسردين.. مع حليب مكثف وسكر وملح.. الأحذية أهم جزء في ثيابنا.. يجب أن تكون متينة مريحة لأننا نمشي كثيرا جدا..
تذكرت (عبير) أن أول مصنع بناه (جيفارا) في كوبا كان مصنع أحذية.
أردف (جيفارا):
- هناك أشياء أقل أهمية مثل الكتب والأطباق والتبغ وعلب الإسعافات الأولية..
- وفرشاة الأسنان؟!
- هذه تفاهات لا يجب أن تشغل حيزا من حقائبنا..
أخيرا بدأت الأرض تهدر..
لقد جاءت الدبابات أخيرا..
صف طويل رهيب من الديناصورات العملاقة تمشي على الطريق الأسفلتي فتشققه.. وشعرت (عبير) بأن أمعاءها توشك على التمزق.
رفع (تشي) يده في حزم ثم هبط بها..
في هذه اللحظة انطلقت قذيفة البازوكا لتصيب الدبابة الأولى في الرتل.. احترق البرج فتوقف الطابور، وراح جنزير الدبابة الثانية يدور في جنون من أجل العودة، لكن الطريق كان أقرب

لمضيق طبيعي.. المكان المناسب تماما للكمائن..
وعلى الفور انطلقت قذيفة أخرى لتطير برج آخر دبابة في الرتل.
صاح (جيفارا) في حماس:
إن رجالي يجيدون الرماية حقا.. نحن حريصون على عدم تبديد طلقة بازوكا واحدة لأن ليس بوسع الجندي أن يحمل أكثر من ثلاث طلقات منها!
كان برج الدبابة الثانية يدور الآن في جنون بحثا عن فريسة، وبرز من قمة البرج مجند زنجي يمسك مدفعا ويطلق وابلا من الرصاص في كل الاتجاهات.. فجأة ارتمي على مدفعه وقد تفجر رأسه.
قال (جيفارا) من مكمنه:
كما ترين.. لدينا ثلاث بنادق بالتلسكوب وإن قناصينا لن يضيعوا فرصة كهذه..
ثم غمغم في نشوة:
- إن لدى العرب فرصة ذهبية قلما تتكرر.. لقد جاءهم الأمريكان في عقر دارهم كي يسهلوا عليهم مهمة قتلهم دون مشقة السفر.. (جيفارا) كان يتمنى لحظة كهذه لكنه لم يحارب الأمريكان قط..
في هذه الأثناء راحت طلقات البازوكا تنهمر على الدبابات.
بالفعل طلقة لكل دبابة كافية جدا.. وراحت الطلقات تتناثر في كل صوب لأن الدبابات تتصرف كثيران مجنونة حبيسة. لكن التدمير كان كاملا.. ووثب بعض الجنود محترقين يحاولون الفرار لكنهم سقطوا كالذباب على بعد أمتار من دباباتهم.
بدأت الطلقات تهدأ فأشار إلى رجلين متواريين خلفهما، فانطلقا نحو ميدان المعركة.. وفي لحظات كانا يجمعان السلاح من القتلى.. وقاما بتلغيم الجثث كالعادة..
تم هذا بسرعة البرق، وسرعان ما أصدر (جيفارا) تعليماته بالانسحاب..
وبينما هم يبتعدون سمعت (عبير) الانفجار المميز.
نظرت للسماء فرأت الدخان الأسود.. هذه طائرة هليكوبتر لن تقوم بعمليات الإخلاء الجوي مرة أخرى.. يبدو أن قائدها قرر أن يجرب حظه هذه المرة، لكن الحظ خانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- التشي يجب أن يموت.. ونكررها..

عندما جلس القادة الأمريكيون مرة أخرى لمناقشة الخسائر كانت المنحنيات مرعبة..
منحنيات المقاومة العراقية المعتادة محتفظة بثباتها من 50 إلى 80 عملية يوميا.. لكن المنحنى الصاعد باطراد كان منحنى العمليات ذات الطابع الخاص التي اصطلحوا على تسميتها (عمليات التشي).. برغم قلتها النسبية (عمليتان يوميا) كان يكسب أرضنا جديدة وضحاياه يتزايدون يوميا.. بالإضافة إلى أساليبه العنيفة.. أعنف بكثير من أساليب المقاومة المعتادة..
وقد راح الجنود الأمريكيون يتكلمون عن (الشبح الإسباني) الذي يحاربهم.. لابد أنهم سمعوا بعض الإشاعات من الأهالي..
قال (مورتون) أخيرا:
- القصة واضحة.. لن نترك هذا الخطر يتفاقم.. هذا الرجل يجب أن يموت..
قال (وايلدفاير) رجل الاستخبارات المركزية
استغرقت معرفة هذه الحقيقة شهرا ونصف حتى تم الوصول إلى المخطوطات الأصلية المنسية في وزارة الدفاع الصينية، ثم تهريبها للولايات المتحدة وترجمتها عن الصينية.
في النهاية استقرت علبة كبيرة من الكبسولات على مكتب (مورتون).. أمسك بها وتفحصها.. لم تكن عليها بطاقة ما ولا شيء يشي بصاحبها.. وقدر أن بداخلها نحو مائتي كبسولة.
رفع عينه نحو الشاب النحيل الواقف أمامه والذي يلبس قميصا من نوع (الكاروهات) مع سروال جينز متسخ.
وسأله:
- هل تتكلم الإنجليزية؟
هز الشاب رأسه في وجل (نعم أم لا؟) فقال(مورتون):
- هل هذه هي علبة الدواء الوحيدة الموجودة مع (جيف.. أ.. مع (سي عمارة)؟
من جديد هز الشاب رأسه في وجل.. (نعم أم لا؟)
قال أحد الضباط الجالسين وهو يقرأ من ورقة تحمل بيانات الحاسب الآلى:
- محتواها هو ما توقعناه فعلا.. هستيدين.. فالين.. ليوسين..
قال (مورتون) وهو يسترخي للخلف:
- أياد.. أنا سعيد بتعاونك معنا.. وعدتك بأنني سأسهل لك الهجرة إلى الولايات وسوف تمنح مكافأة سخية، لكن عملك لم ينته بعد بسرقة هذه العلبة.. ما هي قدرتك على إبدالها بعلبة تحوي مادة سامة؟
ارتجف الفتى، وبعد لحظة تردد قال:
- لا أستطيع..
- هل يوجد سبب واضح لهذا؟
- لا أستطيع.. إن عينيه ثاقبتان تكشفان كل شيء..
سوف يرى وجهي فيعرف الحقيقة.. لا أستطيع.. آسف يا جنرال.. نفس الأسباب التي جعلتني لا آخذ معي تلك الأزرار التي تكشف لطائراتكم عن مواقعنا..
قال (مورتون) في هدوء:
أنا لست جنرالا.. أنا مهندس اتصالات.. والآن ألن يكتشف أنك سرقت دواءه عندما ينظر في

عينيك؟
- السرقة تختلف عن القتل بالسم يا سيدي..
كان هذا منطقيا، وقد اعتاد (مورتون) أن يفهم منطق تلك الأمور.. للناس تصرفات غريبة.. لقد عرف رجلا يجعل صديقه يلعب القمار بدلا منه كي لا يتورط في هذه اللعبة القذرة، لكنه يدفع المال ويراهن ويختار الخانات..
فقط صديقه هو الذي يلقي الزهر! هذه الألعاب النفسية التي يخدع بها الناس أنفسهم معروفة لديه.. لا بد لمن يمارس مهنته أن يكون خبيرا نفسيا.
عاد يسأل الفتي:
- وماذا عن إفراغ هذه الكبسولات؟ سوف نفرغها الآن من المسحوق ثم تحمل معك العلبة وتعيدها حيث كانت.. هل هذه مشكلة؟
- لا أعتقد يا سيدي..
هكذا ناول العلبة لضابط يقف جواره وأمره بأن يفرغ محتوى الكبسولات ويعيدها له.
بالطبع سوف يتم ملء كل كبسولة بالسم.. لكن (أياد) لن يعرف هذا.. سوف يساعده هذا على أن يكون طبيعيا عندما يقابل زعيمه.
وابتسم (مورتون) في رضا.
إنها تلك الأيام الحلوة تعود من جديد.. الفترة الذهبية للمخابرات الأمريكية عندما كانت تغتال الجميع في أركان الأرض.. السموم المجهولة وكل هذه الأشياء العذبة.
إنه يستعيد شبابه بالمعنى الحرفي للكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) كانت جالسة مستندة إلى بعض الأجولة في ذلك المخزن المهجور الذي اتخذوه للمبيت.
كانت تكتب مذكرات الرحلة.. لم تطلع عليها (جيفارا) بعد لكنها قررت أن تعامله بشرف كما عاملها.. سوف تعرض عليه ما كتبت قبل أن تنشر حرفا..
سمعت ضوضاء وصخبا فرفعت رأسها لكنها لم تفهم شيئا بعد لأن يدا خشنة جرتها من شعرها فشعرت بنفسها تسقط.. تسحل على الأرض سحلا وهي تصرخ محاولة فهم ما يحدث.. لم تبك لأن الذهول جفف عينيها.
صوت الصفير هذا..
في النهاية وجدت أنها في منتصف المخزن بالضبط وأنها على ركبتيها، بينما جيفارا يقف أمامها مصوبا مسدسا.. ماذا حدث؟
كان الرجال يقفون حولها في دائرة، وينظرون لها في مزيج من الحيرة والغضب والشفقة.. بينما كان الغضب يغزو وجه (جيفارا) كما لم تره من قبل.
قال بصوت عال وهو يلصق مسدسه برأسها:
- بناء على حكم المحكمة الثورية فإنني سوف أنفذ حكم الإعدام فيك لخيانة هذه الفئة المقاتلة!
نظرت له في غباء فأردف:
- أنت حاولت قتل التشى بالسم! لقد ملأت كبسولات الدواء به!
أي دواء وأية كبسولات؟
لا تعرف أي شيء يتكلم عنه..
لكنها في هذه اللحظة بالذات سمعت صوت (الكليك).

إن الطلقة آتية حتما لو ضغط الزناد الآن.

المصادر:
* محمد حسنين هيكل: عبد الناصر والعالم. دار النهار للنشر بيروت ١٩٧١
* ميخائيل رومان: ليلة مصرع جيفارا العظيم. مسرحيات عربية. الهيئة العامة للكتاب. ١٩٧١
* ماوتسي تونج وإرنستو جيفارا: حرب العصابات تعريب خيري حماد. دار الكتاب العربي 1967
* عدد من مواقع الإنترنت.

(تم الجزء الأول بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

القصيدة المستعملة هنا لحنها الشيخ إمام، وقد قام مجهول بتركيب كلمات أخرى على اللحن ذاته فيما بعد لوداع جمال عبد الناصر في الأغنية الشهيرة (الوداع يا جمال يا حبيب الملايين)

روايات مصرية للجيب

46

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

الحالم الأخير



(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (46)

الحـالم الأخـير (ج2)

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هي إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل. (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا).

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول.

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- فلنتذكـــر..

نتيجة تلك القراءات السياسية المتعددة في الفترة الأخيرة، وجدت (عبير) نفسها تُحمل حملا إلى عوالم (تشي جيفارا).. رمز الثورة في القرن العشرين..
إنها في العراق.. في تلك الفترة الصاخبة من تاريخه حيث تهدر المدرعات الأمريكية في شوارعه، توطئة لأن تنفجر بعبوة ناسفة وضعتها المقاومة..
تجد نفسها ضائعة كالقطة الصغيرة وسط السيارات المسرعة، لولا أنها تقابل ذلك الثائر الملثم المصاب بالربو الذي يطلق عليه رجاله (سى عمارة)، وهو اسم بدا لها غريبا إن لم يكن سخيفا..
ثمة أسرار عجيبة تحيط بهذا السى عمارة.. إنه ملتحٍ يفرط في تدخين السيجار ويتكلم بلغة أقل ما يقال عنها إنها عتيقة.. لغة الستينات الثورية ذات المذاق الاشتراكى المميز، دعك من اللكنة نفسها التي تفوح برائحة إسبانية لا شك فيها..
إن (عبير) نفسها لم تعد (عبير).. إنها صحفية أرجنتينية شابة وجدت نفسها وسط هذه الملحمة ووسط الدخان والنيران والبارود.. تقع في يد رجال المقاومة، لكن سى عمارة يقرر تركها لسبب واضح هو أنها أرجنتينية.. الرجال يثرثرون أحيانا أنه من أصل أرجنتيني هو الآخر..
تكتشف أن هذا السي عمارة يمارس تقنيات حربية غريبة لكنها فعالة: تلغيم جثث القتلى.. قتل الأسرى الأمريكيين.. رقصة الموت.. استخدام الألغام تحت الأرض وتفجيرها عن بعد.. كلها أساليب لا تتبعها المقاومة العراقية لكنها تسبب صداعا للأمريكيين.. ثم إنه صارم جدا مع جنوده ويتابع كل شيء كالصقر..
نفس السؤال يطرحه العسكريون الأمريكيون.. هناك رجل يقود الثوار ويدخن السيجار ويقتل الأسرى..
المقاومة الإسلامية في العراق لا تفعل هذا.. إنه ملتح لكنه نوع آخر من اللحى.. يستدعون الجنرال (جيمس مورتون) أو هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليه وهو رجل مخابرات مركزية كان يعمل سابقا في العمليات القذرة في بوليفيا.. إن الأمر يبدو له مألوفا..
إثر مواجهة في الشارع أوشكت على القضاء عليه يدرك (مورتون) إن هذا الخصم لا يشبه (جيفارا) إنه (جيفارا) نفسه! البصمات تؤكد هذا.. لكن كيف تم هذا؟
بعد تحقيقات مطولة يكتشف الحقيقة.. هناك من أخذ نسيجا من أنسجة جيفارا الأصلي، وأرسلها للصينيين الذين كانوا متقدمين في الاستنساخ.. هكذا نشأ طفل صغير في الأرجنتين لينال ذات تربية جيفارا.. هذا الطفل صار اليوم جيفارا شابا متحمسا لمحاربة الأمريكيين في أي مكان، حتى وإن انقطعت علاقته بالمشروع الصيني القديم..
أين يوجد أمريكيون يمكن أن تحاربهم؟ في العراق طبعا.. هكذا يدخل العراق ويكون هذه النواة الثورية التي لا تحظى بشعبية كبيرة بين الأهالي.. إنه يتكلم لغة الستينات التي لم يعد لها مكان.. لكن عملياته فعالة والمجموعة التي تحيط به ذات كفاءة واضحة..
عن طريق المزيد من التحقيقات ينجح (مورتون) في معرفة كعب (أخيل) الخاص بهذا الجيفارا.. إنه ككل نواتج تجارب الاستنساخ يعاني عيبا حيويا.. إنه عاجز عن تكوين الأحماض الأمينية الأساسية من ثم هو بحاجة إلى الحصول عليها في طعامه.. عن طريق عميل يرفض التورط فيما هو أكثر يقوم الأمريكيون باستبدال علبة الكبسولات.. ما قالوه له هو إن الكبسولات خالية لكنهم في الواقع وضعوا فيها سما غامضا من تلك السموم الخاصة بالمخابرات الأمريكية..

لكن (جيفارا) يكتشف اللعبة، إلا أنه يلصق التهمة ب. (عبير) بالذات، وهكذا يصدر عليها حكم الإعدام الثورى..
الفوهة ملتصقة بصدغها.. وصوت ال. (كليك) قادم لا محالة..
هل نسيت شيئا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- من فعلها؟

إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة توجه إلى مظلوم في هذه الدنيا، فأينما وجد الظلم فذاك هو وطني.

تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما هو متوقع يظل المخ يعمل منذ الطفولة، إلى أن تأتي اللحظة التي تحتاج له فيها فعلا..
ها هي ذي وسط المخزن، جاثية على ركبتيها وفوهة المسدس تلتصق بصدغها.. مؤلمة جدا.. فلابد أن الرصاصة التي ستخرج منها أكثر إيلاما.. لكن الغريب أنها كانت تشعر ببرود ولا مبالاة غريبين كأن هذا يقع لشخص آخر.. وأدركت أنه أحد ميكانيزمات الدفاع الشهيرة..
الرجال يحيطون بها في دائرة، وتذكرت برغمها منظرا مشابها في فيلم (مدافع نافارون) حيث تم إعدام العميلة النازية الحسناء في احتفال جماعي شبيه بهذا.. هذا ليس عادلا.. الموت لحظة شديدة الخصوصية.. ليس من العدل أن تموت الفتاة وسط كل هؤلاء الرجال.
(جيفارا) ينظر لها في ثبات منتظرا ماسترد به، وقد صار منظره أقرب شيء إلى الأسد في هذه الإضاءة الخافتة.. لماذا أصر (ابن الهيثم) على أن العينين لا تشعان نورا؟ هي متأكدة من أن (جيفارا) يشع نارا من عينيه.
أخيرا جاءها الصوت فقالت:
- لم أفعل.. ولا علم لي بالموضوع..
قال في صوت بارد:
- أحدهم فعل هذا ودس هذا السم للتشي.. رفاقي من الثوريين لن يفعلوا هذا.. من الذي جاء لمجموعتنا مجددا؟
قالت وهي تفكر:
- أنا طبعا..
كانت تتحدث بطريقة آلية كأن شخصا آخر يتكلم بدلا منها.. لهذا لم تعرف قط إن كانت إجاباتها غبية أم رائعة الذكاء.. فقط كان عقلها يستغل هذا البرود خير استغلال.
كان يلوح بعلبة من الكبسولات في وجهها.. علبة عليها كتابة بخط اليد.. وأردف:
- عندما شككت في الأمر، دسست كبسولة في فم ذلك الكلب الضال الذي يحوم حولنا.. وكما توقعت..
- مات طبعا..
- بل لم يحدث له شيء! سموم المخابرات المركزية هذه لا تعمل بهذه الفظاظة.. إنها تعمل في صمت وخبث وغالبا ما يحسب الأطباء أنهم أمام مرض عضال!
كان المنطق عجيبا.. فلو مات الكلب لكان معنى هذا أن الكبسولة سليمة.. لكنه أردف:
- شعرت أن هناك من عبث في حاجياتي.. عندما تفحصت العلبة بعناية وجدت..
قالت بذات الطريقة الآلية:
- وجدت الشعرة في غير موضعها أو مفقودة..
الشعرة.. هي طريقة عتيقة جدا، لكنها كانت تستعملها بإفراط.. كانت تضع الشعرة محيطة

بكراس مذكراتها أو حاجياتها.. وهي الطريقة التي تتيقن بها أنه ما من أحد تسلل إلى درجها.
بالطبع لم تكن أسرارها ذات أهمية على الإطلاق.. هي فقط مهمة لها.. وبالطبع لم تكن هناك خطابات غرامية من معجب يذوب عشقا لأنها لم تكن من هذا الطراز الذي يروق للفتيان.
فقط نظر لها (جيفارا) بدهشة.. ثم قال:
- إذن أنت تعرفين موضوع الشعرة من لحيتي..
قالت في إنهاك:
- لا يحتاج الأمر إلى ذكاء.. لا تنس أنني فتاة وهذه الحيلة نسائية تماما إذا سمحت لي.. لكن الفتاة لا تستعمل شعر لحيتها بل تستعمل شعرة من رأسها.
ما زالت الفوهة ملتصقة بصدغها، لكن (جيفارا) مد يده ليخفض من حدة نظراته قليلا.. لم تعد حارقة وبدا أن هناك شيئا جعله غير واثق من موقفه.
قال بصوت أكثر هدوءا:
- غريب.. لو كنت تعرفين هذا - وأنت كذلك لحرصت على ألا ينكشف أمرك..
ابتلعت ريقها.. هناك بعض الأمل.. ليس الموقف كابيا إلى الحد الذي شعرت به أو لم تكن تملك أية فكرة عن الموضوع.. ما هذه الكبسولات؟ لماذا يتعاطاها؟ هل هي لعلاج الربو مثلا؟
من الظلم أن تموت، وهي لا تعرف أي شيء عن الموضوع.
نظر (تشي) لرجاله الواقفين.. دارت عيناه الثاقبتان بينهم ثم قال:
- من منكم يعرف أهمية هذه الكبسولات لي؟
قال أحد الرجال في حذر:
- لا نعرف.. فقط نراك تتعاطى بعضها كل يوم.. كلنا رأى ذلك.
- الفتاة لم تفعل.. لم ترني أتعاطاها قط..
ثم ازدادت لهجته اتهاما، وقال:
- هناك من عبث بحاجياتي.. فمن منكم فعل ذلك؟
كأنه يتوقع أن الفاعل سوف يرفع إصبعه في خجل.
قال أحد الرجال:
- لا أحد سوى الفتاة..
- ومن سواها؟
صمت الرجال وراحوا يتبادلون النظرات.. نفس المشهد الشهير والوجوه المتشككة في لوحة (دافنتشي) العشاء الأخير.. أينا هو (يهوذا)؟
المشكلة هي أن تحديد الفاعل عسير جدا.. كلهم ينام في ذات المكان.. كلهم يستطيع العبث في حاجيات أي شخص.. كلهم قادر على الاختفاء بضع ساعات يتصل خلالها بالأمريكيين
راح يتأمل العيون.. لا يوجد فيها دليل.. أم..؟
في هذه اللحظة ودون أن يشعر أعاد المسدس إلى حزامه.. لقد ألغى حكم الإعدام أو تم تأجيله.. ونهضت (عبير) شاعرة بأنها أمضت قرنا على ركبتيها.
قال (جيفارا) بلهجة آمرة لأحد الفتية:
- (إياد).. هات لى علبة الكبسولات من الغرفة الداخلية التي كانت مزودا... سوف أعقد امتحانا صغيرا لكم.
هز الفتى رأسه وتحرك في ذات اللحظة التي غمغم فيها أكثر من واحد:
لكن.. إنها في يدك يا سي (عمارة)..

ابتسم (جيفارا) ابتسامة واثقة، على حين توقف الفتى (إياد) في منتصف المسافة وعاد.
قال التشى، وهو ينظر للفتى في ثبات:
- نعم.. هذا صحيح.. الكل رأي علبة الكبسولات
في يدي.. لكن واحدا فقط عرف أنها ليست العلبة المقصودة.. هذه علبة فيتامينات لا تشبه الأخرى في شيء وحملتها على سبيل التمويه.. واحد فقط عرف أن علبة الكبسولات ما زالت في مكانها لأنه هو من سرقها وأعادها.. لقد ظل حذرا لكنه تصرف تلقائيا ودون وعي عندما طلبت منه إحضار العلبة.. ثمة سؤالان هنا: كيف عرفت أن العلبة ما زالت هناك؟ وكيف كنت تنوي أن تجدها؟ لماذا لم تسألني عن مكانها؟ هلم.. أجب.. إن الزلات اللاشعورية كارثية دائما وقد تودي بحياة رجل العصابات الثوري، لكن من المؤكد أنها تودي بحياة الخائن كذلك! إن الأمر يشبه قصة الجاسوس النازي الذي ظل رجال المخابرات البريطانية يحاولون بكل الطرق جعله يعترف بأنه يفهم الألمانية جربوا كل شيء على مدى أشهر عدة.. في النهاية قال له الضابط البريطاني إنهم آسفون وإن بوسعه الانصراف.. هكذا نهض شاكرا.. فقط بعد فوات الأوان تذكر الجاسوس أن الضابط قال ما قاله بالألمانية!
احتبست الكلمات في حلق الفتى، فهتف بهراء على غرار:
- أنت قلت إنها في الغرفة الداخلية.. ما دمت طلبتها فهي ليست معك..
- هذا قد يكون صحيحا.. لكني تذكرت أنني تركتك في الغرفة جوار حاجياتي أكثر من مرة في الأيام السابقة.
تذكرت أنك أضعف نفسية في رجالي، وأنك تحمل إعجابا خفيا بالحياة على الطراز الأمريكي.
كنت شبه متأكد لكني أردت أن أعقد لك هذا الامتحان الأخير.
ثم أخذ شهيقا عميقا وقال:
- دعك من أهم الأدلة.. وهو عيناك.. هاتان عينا خائن مثقل الروح..
لا تدري (عبير) متى ولا كيف طرح الفتى أرضا ولا كيف صار في موضعها بالضبط.. عندها أدركت أنها كانت أكثر ثباتا وصلابة.. لقد راح الفتى يبكي كالرضع، وبدأ يحكي كل شيء منذ أصيب بالحصبة بسبب رذاذ سعال صديقه في الحضانة، حتى إبدال الكبسولات.. استغرقت الاعترافات نصف ساعة، وكانت شائقة بحق.
اصطحبه (جيفارا) لغرفة داخلية ومن جديد دار المزيد من الاستجواب.
عندما عادا إلى المجموعة بدا واضحا أن الفتى يعرف فحوى اللحظات القادمة.. لقد ركع على ركبتيه في وسط القاعة وأغمض عينيه، وتدلى رأسه على صدره..
- بناء على حكم المحكمة الثورية، فإنني أنفذ فيك حكم الإعدام لمحاولتك قتل التشي.
وقبل أن تقول أو تفهم شيئا دوت الرصاصة.
في هذه اللحظة فقط تخلت قواها عنها وراحت تبكي وترتجف.
لقد كان هذا مصيرها منذ دقائق.
الحق إن جيفارا كان حازما لدرجة القسوة.. حتى لو كانت هذه مجرد طريقة لإيقاع الفاعل الحقيقي، فقد عبث بأعصابها أكثر من اللازم، وهو متأكد من أنها بريئة.
نظرت له في شيء من المقت وهو ينفخ الدخان المتصاعد من فوهة مسدسه، ثم يخرج نصف سيجار من جيبه ليدسه بين شفتيه.. مزيج غريب من رائحتي التبغ والبارود.
قال دون أن ينظر لها:
- الحقيقة أنه تسرع بالاعتراف.. لم أقل حجة دامغة واحدة عليه.. ربما لو صمد قليلا لاستطاع

تبرير تصرفاته بالتسرع أو سوء الفهم.. لكن ضميره كان مثقلا.
ثم هتف في الرجال:
- تخلصوا من الجثة.. ثم استعدوا للرحيل.. نحن لا نعرف ما قاله للأمريكيين... ربما كانوا يزحفون إلى مكاننا هذا الآن..
سألته في قلق:
- هل تعتقد هذا؟
قال همسا:
- لا أظن.. لو أرادوا اللجوء لهذا لما استعانوا بالسم، ولوجدت مدرعاتهم تحاصرنا منذ ساعات...
هنا سمعت عواء طويلا أليما.
أطلت برأسها من الباب فوجدت كلبا ضالا يتلوى ألما. لقد بدأ السم يعمل بنجاح تام.
دوت الطلقة الثانية فتكوم الكلب ساكنا.. استدارت في هلع لتجد (جيفارا) يعيد مسدسه لحزامه من جديد، وقال وهو يلوك السيجار:
- لقد قام هذا الرفيق بعمله الثوري خير قيام، فلا داعي لإطالة آلامه.. ألا ترين هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- جيفارا يجب أن يموت (ونكررها)..

قالت له:

- لاحظت عدة صفات فيك، لكن أهمها أنك لا تتردد في اتخاذ القرار..

قال وهو يرمق معالم الطريق:

- صفات الزعامة من أصعب الصفات.. يجب أن يقدر الزعيم على فهم كل شيء والإحساس بكل شيء.. لهذا تجدين أن (جيفارا) عندما كان في كوبا وجد أنه من الأسهل عليه أن يقوم بدور الرجل الثاني، ويترك الدور الأول لكاسترو.. لقد شعر على الفور بأن الرجل المختار هو كاسترو..

كادت تسأله عن سبب اختيار هذا المثال بالذات. الحقيقة أن الأمر انتهى منذ زمن، وصارت مستوعبة تماما لحقيقة أنها تمشي جوار جيفارا.. الغريب أن إصراره على أنه ليس (جيفارا) بدا لها سخيفا. يذكرها بصديقتها (حنان) التي تحكي لها عن صديقة تهوى شابا لا يشعر بحبها.. تجيب وتقترح لكنها تعرف جيدا أن (حنان) تتكلم عن نفسها.. سرعان ما تنسيان القناع الواهي وتروح (حنان) تسأل: وماذا أقول له؟ هه؟ هل تقترحين أن أتجاهله تماما؟.. إلخ.. لقد تم تجاهل ضمير الشخص الثالث تماما ليحل محله ضمير الشخص الأول.

كانت تعرف أن اللحظة قادمة عندما يكف فيها عن الكلام عن (الرفيق جيفارا) ويتكلم عن نفسه.. لكنها لن تبدأ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا الوقت كان اجتماع صاخب يدور في القيادة..

كان (مورتون) قد اعتاد هذه المواقف.. مر بآلاف نها من قبل، ويعرف أنها تنتهي بانتصاره دوما لهذا ظل يرقب الجالسين من خلف زجاج نظارته الذي لا يظهر عينيه أبدا، وإنما يعكس إضاءة الغرفة قال (وايلدفاير) وهو يضرب المنضدة بيده:

- لقد وجدنا جثة عميلنا.. (جيفارا) قد كشف السر وأعدمه..

- من الواضح أنه جرب الكبسولات على كلب. لقد وجدنا جثته..

- خطتك كانت مليئة بالثغرات وعميلك لم يستغرق الكثير من الوقت حتى يكشف نفسه..

وقال جنرال بدين من الطراز متقطع الأنفاس إياه:

- كان بوسعنا دس جهاز اتصال في ثياب العميل دون علمه، ثم تقوم (الأباتشي) بقصف الموقع حسب الإشارة.

ظل (مورتون) يتحسس ذقنه وهو يتابع ما يقال بطريقة بدت أقرب إلى الاستمتاع.. في النهاية قال في هدوء:

- هذه الآراء تضيف لى خبرات عظيمة يا سادة لكن إن كان هناك شيء أمقته في هذا العالم فهو الحكمة بأثر رجعي.. لدي في الولايات جار هو أفضل شخص في العالم يخبرك بالحصان الرابح، وبعد السباق هو أفضل شخص في العالم يخبرك بسبب عدم فوز هذا الحصان.. لقد كانت الخيارات، مفتوحة وقد رأيتموني أعمل فلم يقل أحد شيئا ولم تطف هذه الأفكار العبقرية للسطح إلا الآن.

تبادل الرجال النظرات..

بعد هنيهة من الصمت مد (وايلدفاير) يده إلى زجاجة الويسكي فصب لنفسه بعضا من السائل

الأصفر الشفاف وتشممه قبل أن يجرعه مرة واحدة، وقال:
- الحق معك.. لكننا محبطون لأننا فقدنا هذا العميل. إن كل عميل كنز يجب عدم التفريط فيه..
- أنا أكثر حزنا، لكن هذا لا يجب أن يمنعنا من التفكير بشكل منطقي.. (جيفارا) قد عرف فكيف عرف؟
الكبسولات قد تم التخلص منها فمن أين يأتي بالمزيد؟
برروم!
اهتزت الغرفة ودوي صوت انفجار مروع.. الواقع أن الأمر بدا أقرب إلى هزيم الرعد منه لأي شيء آخر.
وثب جميع الرجال من مقاعدهم وانحنوا جوار منضدة الاجتماعات، فهم جميعا من ذوي الخبرة العسكرية ويعرفون معنى هذا الصوت، فلم يقفوا يتلفتون في بلاهة كما يفعل المدنيون.. على حين اتخذ جنديا البحرية الواقفان على الباب وضعين قتاليين ممتازين.. الوحيد الذي ظل جالسا حيث هو بذات الثبات كان (مورتون).. فقط قال وهو يشعل سيجارا:
- قصف صاروخي.. هذه مشكلة أخرى صارت جزءا من نسيج الحياة اليومي.. لكننا على الأقل نعرف أنه ليس (جيفارا) فهذا ليس أسلوبه..
دوي انفجار آخر، وتصاعدت صفارات إنذار تعوي، وصرخ رجال في مكان ما، وتلاعب الضوء في مصباح السقف.. لكن (مورتون) ظل حيث هو.. بعد كل هذه السنوات من الخطر يحتاج لشيء أقوى كي يهزه.. إنه مسن الآن لكنه يتوقع أن أمامه ثلاثين عاما أخرى من النجاح ما لم يصب بالسرطان كعادة الغربيين متقدمي السن.
نهض إلى النافذة وفتحها، وفي الخارج كانت الفوضى ضاربة أطنابها... سيارات إسعاف تجرى هنا وهناك وجنود يتصايحون.. ولسان لهب يرتفع عشرة أمتار في الهواء.
نظر إلى السماء ثم قال بعد دقيقة:
- أعتقد أن القصف توقف يا سادة.. يمكننا مواصلة اجتماعنا..
عاد الجنرالات إلى المناضد في شيء من الكبرياء الجريحة، وقال أحدهم:
- سوف نرسل الدوريات حالا.. هؤلاء الأوغاد لن يفروا..
قال (مورتون) وهو يصب لنفسه بعض الشراب:
- ولن تجدوا شيئا.. لقد صار هذا الروتين مملا لكن هذه ليست مشكلتي على كل حال..
ثم مد يده إلى الملف أمامه على المكتب، وأخرج صورة كبيرة ل (تشي جيفارا).. تلك الصورة التي التقطها (كوردا) ل (جيفارا) وهو ينظر للمستقبل. الصورة التي تحولت إلى ذلك الملصق الشهير.
قال وهو يلوح بها:
- هذا هو خصمي الذي من أجله جئت.. منذ الستينات تعلمت أن على أن أجد هذا الرجل وأفتك به لأنه يمثل كل ما هو ضد الولايات المتحدة والحلم الأمريكي.. هذا هو خصمي وسوف أجده وأقهره كما فعلنا منذ أربعين عاما..
قال أحدهم
- هل لديك تقنية ما؟
- الخيانة طبقا..
قالها في بساطة كأنه يقرر حقيقة واقعة وأردف:

- في الستينات ظفرنا به عن طريق الخيانة، ورهاني هو أن أحد رجاله سوف يلين.. دعك من أنه يتصرف برومانسية قد تكون ساذجة أحيانا.. مثلا هو ارتكب خطأ فادحا عندما ذهب إلى الكونغو.. وارتكب خطأ أسوأ عندما ذهب إلى بوليفيا حاسبا أن الماركسيين قادرون على مساعدته.. سوف يرتكب غلطة ما هنا وسوف يدفع الثمن..
ثم نظر إلى الصورة.. الحقيقة التي لا يعرفها هؤلاء هي أنه يقضى أكثر ساعات وحدته يحدق في هاتين العينين، ويحاول تخيل ما تفكران فيه.. هذه التقنية التي استعملها (مونتجمري) مع (روميل) كثيرا جدا في العلمين.. هناك جزء ما من طريقة التفكير تعرفه من العينين.. لا مناص من تأمل العينين كي تفهم.
سوف يحاول جيفارا تجنيد المزيد من الأهالي، عندها يجب أن يقبل واحد من هؤلاء الانضمام للأمريكيين.. يقبل أن يكون عميلا جديدا ويدلهم على جيفارا.. هذا هو الحل الوحيد بما أن النواة المحيطة به صلبة غالبا صعبة الاختراق.
قال أحد الجنرالات الجالسين:
- تلقينا بعض الإخباريات عن وجوده هنا أو هناك. خرجت طائرات الأباتشى وقصفت الأماكن التي قيل إنه فيها.. النتيجة دوما محبطة.. أسرة كاملة أو مجموعة أطفال ذهبت أمهن للسوق.. إن سمعتنا تزداد سوءا..
قال (مورتون) وهو ينظر له بنظارته العاكسة:
- لابد من خسائر بين المدنيين وإلا فلا حرب أصلا.. ما يضايقني في عمليات كهذه هو الفشل وليس موت الأطفال.. إن (جيفارا) يعتقد أننا دولة إمبريالية منافقة لا تتورع عن أي عمل وحشي من أجل زيادة عدد الدولارات في جيب المواطن الأمريكي.. الواقع أنه محق وإنني لمعجب بدقته! لكن علينا أن نستحق هذا الوصف وإلا لكان ظلما!
نظروا له في دهشة.. هذا الرجل لا يخجل من التصريح بما لا يريد أحد التصريح به.. الأمور واضحة تماما وهو يتمتع بسلام نفسي لا بأس به.
نهض (مورتون) مغادرا القاعة.. وفي الخارج كانت رائحة الحريق تزكم الأنفاس الكل يركض في كل صوب مع جو عام من الهستيريا.
استقل السيارة كعادته جوار السائق، ومضت السيارة تشق طريقها خارج القاعدة بينما هو يرقب الفوضى من النافذة.
(فيتنام).. لا شك في هذا.. نفس العلامات التي يعرفها جيدا.. أعراض (فيتنام).. إننا نخسر هذه الحرب ونخسرها بسرعة.. لقد تورطنا في هذا المكان، وصار الخروج يحتاج إلى معجزة.
حتى في فيتنام كان الوضع أفضل، لأنهم كانوا يواجهون عدوا له طول وعرض وارتفاع.. عدو له قائد وله معسكرات وله تنظيمات قيادية.. الفيت كونج.. أما هنا فلا أحد يعرف شكل العدو الذي يواجهونه بالضبط ولا مدى قوته.
ثم يأتي هذا الأبله (جيفارا) ليزيد الأمور تعقيدا.
لشد ما يكره الأيديولوجيات بأنواعها.. يكره أن يرى أحدا يفعل شيئا دونما هدف واضح يمكن الإمساك به.. كسب مادي.. كسب استراتيجي.. لكن أن يقاتل المرء من أجل مبدأ فهذا يبدو له رقيعا إلى حد لا يوصف.
ضغط (مورتون) على أسنانه في حركة عصبية يكره أن يراها أحد.
سوف يجده وسوف يقتله.. ربما هزمت الولايات المتحدة وربما اضطرت إلى الخروج، لكن (جيفارا) لن يكون ضمن من يحتفلون بعيد النصر.

لقد اقسم هو (مورتون) على ذلك.. وهو لم يعتد على أن يحنث بوعوده التي قطعها لنفسه.. (جيفارا) طفرة جينية موجودة في الزمن والمكان الخطأ. وعليها أن تختفي كما يجب أن يختفي أي ديناصور تراه في نيويورك اليوم.

جيفارا يجب أن يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- للضرورة أحكام..

العالم لا يحتاج للنصائح بل للقدوة.. فكل الحمقى لا يكفون عن الكلام.

تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الآن تحفظ أكثر تعليمات (جيفارا) بصدد حرب العصابات.
كان يؤمن أن بوسع الإنسان أن يقطع من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلا في الليل، وهذا جعل قدميها تتحولان إلى عكازين لا يمتان لها بصلة.. لكنها على الأقل لم تكن تحمل سلاحا مثلهم..
بينما كان الرجل يحمل حوالي 55 رطلا (25 كيلوجراما) من العتاد.. وكانت سرعة المسيرة محددة بسرعتها هي لأن (جيفارا) كان يقول:
- إن سرعة الوحدة تتوقف على سرعة أبطأ فرد فيها..
كانوا الآن في ضواحي (بابل).. الاسم الذي جعلها تشعر برهبة وهي تتذكر أيام (جلجامش) عندما كانت
هي (عشتار).. يا لها من أيام!
إن مشكلة العتاد مشكلة دائمة لرجل العصابات، وعليه ألا يدخل أي قتال حتى لو كان موقنا من قدرته على الفوز به إذا لم تتيسر له الفرصة لتجديد العتاد بسرعة.. لهذا كانت المجموعة تترك فرائس سهلة في أحيان كثيرة.
كانت هذه الوحدة التى تمشي في الظلام الآن تتشكل من عشرة رجال.. وهو الرقم المفضل لدي (جيفارا) للزحف الليلي.
- الفئة هي وحدتنا الأساسية.. وهي تضم عشرة مقاتلين يقودها ضابط برتبة ملازم.. كل أربع فئات تكون فصيلا يقوده نقيب.. كل أربعة فصائل تكون رتلا يقوده رائد..
أما عن الاتصال بالوحدات الأخرى فلماذا يحمل هذا الرجل قفصا؟ إنه يحوي الحمام الزاجل طبعا!
من حين لآخر يكتب (التشي) رسالة بالشفرة، ثم يطويها ويلفها في لفافة من رقائق الألومنيوم ثم يثبتها إلى ساق حمامة.. ويطلق هذه الرفيقة الثورية لتحمل تعليماته إلى الوحدات الأخرى.
- ألا ترى أنها طريقة بدائية بعض الشيء؟
- هذا هو سحرها وسر قوتها.. إن مكالمات الهاتف المحمول يتم تتبعها من الأقمار الصناعية بسهولة تامة.. لا أحد يفكر في أسلوب بدائي كهذا.. وقد كان الحمام من أهم شهداء الحرب في الماضي حينما كانت التعليمات للجنود واضحة: اقتلوا أية حمامة ترونها، لكن لا أحد يفعل هذا اليوم..
صحيح أن (جيفارا) الأصلي لم ير هاتفا محمولا في حياته، لكن خليفته قد استوعب العصر بسهولة فجأة تعالى هدير الدبابات الذي ألفته أذنا (عبير) فأمر (جيفارا) رجاله بأن يتواروا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه ذلك الصوت الكريه.. صوت المحرك الذي ترتج له الأرض مع صرير الجنزير العالي..

صوت الموت..
ثم من بعيد ظهرت ثلاث دبابات أمريكية تمشي في صف واحد تحت جنح الظلام.. ثم عربة مدرعة..
تبادل (تشى) نظرة مع أحد الرفاق فأعد البازوكا.. لم تعد هناك ضرورة لكثرة الكلام.. معنى النظرة هو أن تعد البازوكا لكن لا تطلقها.. إن طلقات البازوكا ثمينة جدا لأن الفرد لا يقدر إلا على حمل ثلاث طلقات.
عامة لم يكن (جيفارا) شديد الحماس للأسلحة الثقيلة.
وقد رأته (عبير) يترك مدفعا مضادا للطائرات وجده في موقع.. هذه أسلحة تعوق التقدم، بينما الأسلحة الخفيفة والبازوكا مهمة دائما.
تتوقف الدبابات على مسافات متساوية قرب أحد البيوت فجأة يترجل من العربة المدرعة مجموعة من الجنود الأمريكيين.. يتقدمون نحو البيت ذي الطابق الواحد.. يوسعون الباب ركلا ثم يهشمونه ويقف واحد في الخارج على حين يندفع الباقون.. صوت صراخ.. صوت توسل..
ثم يخرج ثلاثة من الجنود ضخام الأجساد يجرون رجلا ويلقونه على الأرض.
تسمع (عبير) كلمات الحوار التي تحملها الريح عبر هذه المسافة:
- تكلم..
ثم واحد يقول لزميله:
- هذا العربي الأبله لا يفهم الإنجليزية..
يحاول الفتى الاحتجاج، لكن (دبشك) بندقية ينهال عليه.. ثم تتوالى الركلات مع كثير من الضحك.. علي بابا يحاول الفرار.. علي بابا لا يفهم حرفا.
يكرر جندي أمريكي السؤال بالعربية الرديئة:
- تكلم كي تضمن سلامتك.. هناك رجل ملتح يدخن السيجار.. هل تعرف معنى السيجار؟ هذا الرجل مصاب بالربو ويمشي مع حوالي عشرة رجال.. نحن نعرف أنه في هذه المنطقة.. هل رأيته؟
يقول آخر:
- ربما كان منهم..
- سيكون هذا سيئا يا علي بابا..
الرجل لا يتكلم.. لقد ألجمه الرعب.. ضربة أخرى على مؤخرة عنقه، ثم يقترح أحدهم طريقة لإضفاء بعض المرح على الأمسية:
- علي بابا يريد أن يلعب دور البطل.. سوف نربطه إلى جنزير الدبابة..
- واووو! كوول!
من مكانها وسط الخرائب راقدة على بطنها تراقب (عبير) المشهد الذي جعله ضوء الكشافات واضحا إنهم لا يمزحون.. إنهم يربطون الرجل العربي الباكي إلى جنزير الدبابة بحيث صار وجهه للسماء، وهو وضع لن يدوم طويلا لأنه سينقلب لأسفل بمجرد أن تتحرك الدبابة بضع خطوات.. سوف يتحول إلى طبقة من أسفلت الشارع.
- هلم يا علي بابا.. تكلم!
صرخ الرجل وقد فهم ما يراد به:
- يا لكم من وحوش! كيف أتكلم وأنا لم أر شيئا ولا أعرف عمن تتكلمون؟
- هذه فرصتك الأخيرة.. لو ظللت صامتا إلى النهاية لعرفنا أنك صادق!

وبدأ محرك الدبابة يهدر مطلقا سحابة كثيفة من الدخان.
نظرت (عبير) إلى جيفارا.. فوجدته ذاهل العينين ولحيته ترتجف.. افعل شيئا أرجوك.
بالفعل كان تحمله قد اقترب من النهاية.. أشار لحامل البازوكا وهمس:
- أطلق على برج الدبابة.. احترس من أن تصيب الرجل..
ثم أشار لرجاله وهتف بصوت سمعه الأمريكان بالتأكيد.
- القناصة! أسقطوا الجنود الذين يحيطون بالفتي!
وخرج من مكمنه مطلقا وابلا من الرصاص على حشد الجنود الأمريكيين الذين لم يجدوا وقتا للإمساك بأسلحتهم.
وفي اللحظة ذاتها انفجر برجا الدبابة الأولى والثالثة حاولت الدبابة الثانية أن تدور حول نفسها وقد أدرك قائدها الملازم (جيفري) من (ميسوري) أنه وقع في ذات الكمين الشهير.. مصيدة أرض الموت.. لكن طلقة بازوكا دمرت الجنزير.
كانت المجزرة شاملة قاسية.
كان الرجل العربي مقيدا إلى الجنزير بلا حول ولا قوة.. يصرخ بينما الطلقات تطير فوق رأسه.. وأدرك في هلع أن الجنزير يتحرك.. الدبابة التي طار رأسها تحاول التحرك.. هنا استقرت طلقة في الجنزير المقابل لتفكه عن المحاور نهائيا وهمد الوحش الحديدي.
تعالى صوت الطلقات بينما الأمريكان يتساقطون كالذباب.. وفجأة صرخ (تشي) وسط الضوضاء:
- لا مزيد من الطلقات! اقتصدوا في الذخيرة! لقد هلكوا جميعا!
لكن بعض رجاله واصلوا إطلاق النار، وقد استبدت بهم حماسة الحروب، من ثم كرر أمره بعنف أكبر وهتف في غيظ:
- لو كان الأمر بيدي لأعطيتكم مسدسات لا تحوي إلا طلقة واحدة حتى تستخدموا الذخيرة بذكاء.
ثم أخرج من حذائه ذي الرقبة خنجرا مزق به قيود العربي المقيد، وأمر رجاله كالعادة بأن يلغموا جثث القتلى ويأخذوا أسلحتهم.. لابد أن طائرات البلاك هوك قادمة.
الحقيقة أن شعار القوات الأمريكية الشهير (لن نترك أحدا وراءنا) بدأ يتذبذب كثيرا مع عادة تلغيم جثث القتلى هذه. لقد أصاب براعتهم في عمليات الإخلاء في مقتل.
وسرعان ما كانوا يبتعدون في الظلام ومعهم العربي الذي كان سيقضى نحبه بعد دقيقة واحدة.
لم يكن يريد الاشتباك، لكن للضرورات أحكامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- نهار صاخب..

لن يكون لدينا ما نحيا من أجله.. إن لم يكن عندنا ما نموت من أجله.

تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في موضع بين (بابل) و(الكوفة) أي نحو الجنوب أقام (جيفارا) معسكرا صغيرا مع رجاله.. كالعادة وسط مجموعة من المباني التي أحالها القصف الأمريكي إلى خرائب..
بالطبع كانت السياسة عدم إشعال نار.. لابد من تناول المعلبات وشرب الشاي الذي تم إعداده منذ يوم..
وهكذا جلس الرجال يأكلون عشاءهم، على حين جلس (جيفارا) في ذلك الموضع المعتاد له بعيدا عن الزحام، وقد أعد لنفسه حجرين عليهما لوح من الخشب فيما يشبه مكتبا بدائيا لأنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن يقرأ ويكتب. فقط جلست (عبير) بقربه مكتسبة هذا الحق من أنوثتها ومن (أرجنتينيتها) إن صح التعبير.. فتاة وصحفية وأرجنتينية.. هذا يعطيها الكثير من المزايا هنا.
أشعل لنفسه شمعة ثبتها جوار الأوراق، ثم أشعل سيجارا وبدأ يغوص في عالم الكلمات رفع رأسه يتأمل الرجل الذي أنقذه والذي جلس وسط الرجال يلتهم الطعام البارد.. ثم ناداه بصوت خفيض هادئ:
- تعال يا (غسان)..
كف الرجل عن الأكل ونهض مسرعا.
كان في الثلاثين من عمره، وإن بدا أكبر سنا مع كل هذا الشيب في رأسه والمعاناة على ملامحه.. لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق لا تخطئه العين.. يلبس قميصا خفيفا باليا أحكم غلق أزراره، وبالطبع كان الدم المتجمد على أنفه وشفتيه، فتلك المعاملة التي عاملها إياه الأمريكان لم تكن تدليلا.
سأله (جيفارا) في رفق:
- هل أنت بخير؟
- الآن بعد ما أكلت أشعر بأنني في خير حال..
- نحن قريبون من الكوفة.. يمكنك أن ترحل في أي وقت، أما إن كنت ترغب في البقاء معنا قليلا فهذا من حقك..
سألته (عبير):
- أين أسرتك؟
نظر لها الرجل وابتلع ريقه:
- ليست لي أسرة..
- لم تتزوج؟
ابتسم الرجل في مرارة وقال:
- للدقة أقول إنه لم تعد لى أسرة.. لقد فقدت زوجتي (زبيدة) وثلاثة الأطفال في قصف منذ أسبوع.

منذ ذلك الحين أهيم على وجهي.. ثم قررت أن ألجأ لهذا البيت الذي كان يخص عمي.. لم يكن هناك أحد بالداخل.. بحثت عن شيء يؤكل ففوجئت بهؤلاء الخنازير يقبضون على ويسألونني عنك..
سأله (جيفارا)، وهو يطفئ السيجار:
- هل تعرف من أنا؟
- يتكلم الرجال عمن يدعى (سي عمارة).. رجل ملتح قوي العينين يتكلم العربية بلكنة ثقيلة، وينفذ عمليات ناجحة ضد الأمريكيين.. يقولون إنه ما من أحد يفهم ما يقول لكنه فعال..
قال له (جيفارا):
- حذاءاك!
نظر له الرجل و(عبير) في عدم فهم، فأردف:
- حذاءاك غير صالحين للمشي.. تحتاج لحذاء أخف..
ملحوظة عجيبة لكن (عبير) كانت تفهم ذلك الوسواس الخاص بالأحذية لدى (جيفارا).. إن الحذاء هو القطعة الأهم في ثياب المقاتل، ولأسباب كهذه أنشأ مصنع أحذية في كوبا قبل الثورة.
عاد (جيفارا) إلى خيط الكلام الأصلي فسأل الرجل:
- هل ترغب في الانضمام لنا؟
- أرغب في الانتقام..
- سوف يتاح لك الانتقام، لكن الهدف الأصلي ليس كذلك، بل القضاء على الإمبريالية.. نحن نقاتل من أجل فقراء العالم.. من أجل المظلومين.
ما زالت (عبير) ترى مذاق هذه الفكرة غريبا. أي أنه يطالب هذا الرجل البائس بأن يقاتل الصينيين من أجل تحرير التبت مثلا.. ينضم للجيش الجمهوري الإيرلندي كي يحارب إنجلترا.. في عصرنا الحالي لا يمكن تخيل أن تضحي بحياتك إلا من أجل شيئين: الدين أو القومية.. لا يمكن تخيل وجود شيء مثل (أخوة المظلومين).. لكن (جيفارا) كان يعتنق هذه الفكرة الرومانسية.. وكأية فكرة رومانسية كانت نهايتها هناك وسط جبال بوليفيا في مدرسة ابتدائية خالية.. لقد هلك، لكن نسخته الجينية ما زالت تعتنق الأفكار ذاتها.
إن التشى لا يقنط، وقد قضى مع الفتى عدة ساعات يثقفه فيها حتى أوشك رأسها على الانفجار.
- إن النضال ضد أمريكا سوف تصبح له أبعاد قارية.. سوف تشتعل المواقد في أكثر من بلد، وستزداد هذه المواقد ضخامة وعددا.. سيظهر مناضلون وثوار جدد في معمعة النضال الثوري.. وإذا وجهت هذه النيران بقدر كاف من الذكاء الثوري فسوف تصير قوى يستحيل قهرها.. يجب خلق فيتنام ثانية وثالثة ورابعة.. إن الإمبريالية نظام عالمي هو المرحلة التالية للرأسمالية، ولا مفر من تسديد ضربات قوية لها يجب منع الإمبريالية من السيطرة على بلادنا والحصول على رءوس أموال ومواد أولية.. يجب أن نبعث الاضطراب في أوصال العدو. وأن نضطره للحرب في أماكن تصطدم فيها عاداته بالبيئة التي يعمل فيها..
ثم رفع إصبعه محذرا:
- لكن يجب ألا تستهين بالخصم.. إن الجندي الأمريكي ذو قدرات عالية ووسائله ضخمة.. إلا أنه يفتقر إلى الحافز العقائدي..
كانت عيناها الآن شبه مغلقتين.. لكنها تقاوم حتى لا يكون موقفها حرجا لو نامت الآن.
- يجب أن ننزل بهذا الجيش ضربات معنوية قوية.. بيد أن هذا يحتاج إلى تضحيات ضخمة

لكنها ستكون أقل قسوة من لو تجنبنا القتال لندع غيرنا يسحب (أبو فروة) من فوق النار..
(أبو فروة).. الكستناء.. كانت تأكلها في الماضي وكانت أمها تسخنها على تلك المدفأة العتيقة التي تعمل بالكيروسين.. البخار الساخن الحارق يتصاعد من الثمرات بنية اللون، وذلك المذاق الشبيه بالبطاطا.. تبدو كبندق لكن لها طعم البطاطا..
إنها..
لا تعرف كيف نامت.. لكنها فعلت ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحة الفجر.. رائحة مختلطة بالمازوت في هذه المنطقة.
تصحو من النوم لتجد أن غطاء موضوعا فوقها وأن (جيفارا) يغسل وجهه في دلو ماء.. وكان ذلك الرجل الذي أنقذوه (غسان) ما زال غافيا على بعد خطوات.. لم يكن (جيفارا) رفيقا لذا وجه لساق النائم ركلة خفيفة.
هب الرجل مذعورا فقال (تشي):
- أمس كان المزاح مسموحا به.. أما اليوم فأنت جندي من جنودي ويجب أن تلتزم.
هب الرجل واقفا وراح يحشر أطراف قميصه المفتوح في سرواله.. طبعا هو يتمنى أن يدخل الحمام لكنه لا يجرؤ على ذلك.. على الأقل ليس الآن.
في ذات الوقت وقف ملازم من رجال (جيفارا) العراقيين، وراح يصيح في الرجال الذين لم يصح بعضهم بعد:
- استيقاظ! أمامكم ربع ساعة للاغتسال وتناول الإفطار.. سوف نتحرك بعدها إلى الكوفة..
الرجال يتأهبون، ثم يلتفون حول البسكويت الجاف والشاي المعد منذ أيام.
لم يكد أحدهم يلتهم بضع قضمات حتى صاح (تشي):
- سوف نختصر هذه الوجبة.. إنني لا أشعر براحة كبيرة بين هذه الأطلال.
كان يتحسس صدره وقد بدأ ذلك الصفير يتعالى.
قالت (عبير) وهي تلبس حذاءها:
- هل الجو يثير الربو لديك؟ إنها رائحة المازوت تلك.
قال (جيفارا) وهو يدلك صدره:
- ليست رائحة المازوت فقط.. إن الربو يتزايد عندي عندما أشعر بالخطر.. نوع من الحاسة السادسة التي لا تخطئ.. تعال يا (فادي)..
هرع له أحد رجاله وهو شاب أسمر نحيل له شارب عراقي كث، فوضع يده على كتفه وتبادل معه حديثا هامسا هرع على أثره الشاب يختفي لينفذ مهمة ما..
ثم اتجه (تشي) إلى جربنديته ليسحب علبة الكبسولات إياها التي كتب عليها بالصينية، وابتلع كبسولتين.
سألته وقد تشجعت قليلا:
- هل حصلت على كبسولات أخرى؟
- إن لدي مخزونا هائلا منها.. ما كنت لأحتفظ بعلبة واحدة.
- لكنه سينتهي يوما ما..
- إن لدى وسائلي..
كان الرجال قد تفرقوا ليقضوا حاجاتهم بين الخرائب وتمنت لو تستطيع أن تجد مكانا آمنا..

مشكلة الأنثى وسط رجال أنها مضطرة لتجاهل فسيولوجيتها.. تنسى أن لها مستقيما ومثانة.. حدث لها شيء مماثل عندما كانت تستكشف منابع النيل.
فجأة رأت (جيفارا) يتصلب.
يرتجف.
كأنه وسيط روحاني يتلقى رسالة من عالم آخر.
أصابها الرعب من منظره غير المعتاد.
وفجأة صرخ وهو يقبض على ساعدها بأصابع كالكلابات:
- الآن!
وقبل أن تفهم كان قد جرها من ساعدها جرا. جرها إلى جانب الخرائب.. جرها إلى حفرة أحدثتها قنبلة سقطت هناك يوما ما.
وصرخ وهو يرتمي فوقها:
- اخفضي رأسك يا بلهاء!
هل جن؟ لم تعرف الإجابة إلا عندما ارتجت الأرض بفعل الانفجار الأول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- هجوم بعد الفجر.

دوى الانفجار الثاني فرفعت (عبير) رأسها تلقي نظرة من تحت إبط (جيفارا) المبتل بالعرق.
كانت الطائرة شريرة الشكل تبتعد.. طائرة سوداء هي مزيج من الهليكوبتر والنفاثة تذكرها بفيلم (رامبو). إنها (الأباتشي) كما هو واضح وكما رأتها مرارا منذ جاءت هنا.
صاروخين! لقد أطلقت صاروخين على الموضع الذي كانا فيه.. فلابد أن هذا الموضع صار تاريخا.. وهي كانت نائمة هناك بالذات!
لكن الإثارة لم تنته لأنها رأت خيطا من الدخان يخرج من موضع ما بين الخرائب.. خيطا ملتويا لا يمشي في مسار مستقيم، ولكنه يتجه في عناد هندسي نحو الطائرة.
ودوى الانفجار المروع في الهواء.. لم تسقط الطائرة وخيط دخان يخرج منها، بل تحولت إلى شظايا في لحظة.. كانت ثم لم تعد.
وعلى قدميها تناثر الغبار الساخن..
من بين الخرائب خرج (فادي) يحمل على كتفه مدفعا يذكرك بمدافع البازوكا لكنه ليس هو.. لم تكن ذات خبرة لتميز أنواع السلاح، لكنها قدرت أنه من تلك الأسلحة المحمولة على الكتف والتي تقذف الصواريخ الحرارية.. ساجر أو سام ٧.. موضة سوفييتية انتشرت في السبعينات وحققت لقواتنا نوعا من التعادل مع التفوق الجوي المرعب للإسرائيليين عندما تبنت العسكرية المصرية مبدأ (رجل أمام دبابة.. رجل ضد طائرة).. لقد كان هذا هو الصاروخ الذي أسقط الطائرة.
كانت على وجه الفتى الخجول ابتسامة تذكرك بابتسامة الطفل الذي أنجز عملا يتوقع عليه المديح.
وبالفعل عانقه (تشي) في حماس وقال:
- أنت مقاتل ثوري بارع.. سوف تصرف لك جراية إضافية اليوم.. أنت تعرف أنك القائد البديل في حالة مصرعي.. أليس كذلك؟
ثم التفت ل (عبير) قائلا:
- شعرت بدنو (الأباتشي) فطلبت منه أن يتخذ وضع الرماية بين الأطلال.. في العادة تحدث الأباتشي ذعرا لا يوصف وتفر.. لكن من الجميل أن تتصور ما يمكن حدوثه لو أن الضحية كانت متأهبة!
ثم نظر إلى السماء وهتف:
معذرة أيها اليانكي.. إن خطيبتك الشقراء الجميلة التي تنتظرك في (أوهايو) سوف تنتظر طويلا جدا..
تذكر أنني لم أحمل لك كراهية خاصة.. لكن في النهاية ما الذي أتى بك هنا؟
كان الرجال قد عادوا من حيث كانوا.. واضح أنهم جميعا أصيبوا باحتباس البول من الذعر، فنظر لهم (تشي) باسما وقال:
- هيا بنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت القاعدة الأمريكية نائمة بين المرتفعات كأنها تنتظر لحظة الهجوم عليها.

قاعدة صغيرة هي محاطة بأسلاك شائكة وبوابة صغيرة جوارها كشك حراسة.. في الداخل بعض المخيمات البسيطة التي تتكون من جدران يتم نصبها بسرعة، وتوجد ثلاث عربات واقفة هنا وهناك، بينما مجموعة من الجنود بالفانلات الداخلية يركضون جوار العريف وهم يغنون ذلك النشيد المألوف لدى الجيش الأمريكي.. العلم الأمريكي يرفرف كأنه يعتبر أنه في أرضه.
الخلاصة أن المشهد يذكرها بتلك الصور عن معسكر (جوانتانامو).. وقد تذكر (جيفارا) الشيء ذاته فهمس:
- (جوانتانامو).. لم يكن (جيفارا) يطيق وجود الأمريكيين على هذه البقعة من أرضه، لكنه لم يستطع التخلص منهم..
كان قد سبق رجاله كما هي العادة بمائتي متر.. ثم انتظر قدومهم. نظر إلى الجنود الراقدين على بطونهم يطلون على المعسكر، وأصدر الأمر:
- أطلقوا الكوكتيل مولوتوف!
وعلى الفور انطلقت القذائف البدائية تحلق في الهواء لتهبط فوق المعسكر.. حريق هنا وانفجار هناك وفوضى عامة.. ومن مكان ما تعالت صفارات الإنذار.
- تراجعوا!
كانت (عبير) تشعر بخيبة أمل حقيقية.. إن فارق القوي مخيف وهي لا تتوقع أن يهاجم (جيفارا) بهذا العدد المحدود معسكرا أمريكيا، لكن ما جدوى هذه القذائف التي لم تحدث في المعسكر ضررا أشد مما تحدثه بعض الحجارة؟
الإزعاج؟ يصعب القول إن ما حدث كان مزعجا.. هل هو مجرد التواجد؟ نوع من أزيز الذبابة؟
لو كان الرجل يعتقد أنه سيحرر بلدا شاسعا كالعراق ويهزم إمبراطورية هي الأقوى في التاريخ ببضع قذائف، فهو واهم.
لكن الرجل تراجع مع رجاله إلى منطقة أكثر أمنا.. وإن بقي رجلان في موقع متقدم يطلقان الرصاص بلا انقطاع.. طبعا هو رصاص لا يحدث أثرا أكثر من الدوي، فلا يمكن له أن يصل إلى هناك.
فجأة راحت الأرض تترجرج.. صوت الصرير الذي تحفظه جيدا.
هناك رتل من الدبابات الأمريكية يتقدم نحو المعسكر لحمايته.
ساد الصمت برهة، وحبس الجميع أنفاسهم وهم يرون الديناصورات الحديدية تزحف نحو المكان.
ثم دوت الانفجارات.
يبدو أن الدبابات مرت فوق حزام من الألغام المزروعة ببراعة.. وقد توقف الرتل عن الحركة في اللحظة التي برز فيها رجال التشي من كل صوب، يطلقون البازوكا على أبراج الدبابات المتوقفة.. النار والدخان في كل مكان والضوضاء تصم الآذان.
جند يثبون من الدبابات محاولين الفرار لكن الطلقات تلحق بهم.
صاحت في جيفارا وهي تنبطح أرضا:
- هل تريد الاستيلاء على المعسكر؟
أطلق زخة من بندقيته الآلية جعلت أذنيها تصفران وصاح:
- من تحدث عن المعسكر هنا؟ هذه من تقنيات حرب العصابات التي ابتكرتها.. تهديد المعسكر ثم تدمير القوات التي تأتي لفك الطوق.. إن رتل الإنقاذ لا يكون عليما بطبيعة الأرض.. ويكون خائفا متوترا مفتقرا للحماية الطبيعية.. هكذا يمكن مهاجمته في نقطتين أو ثلاث نقاط

وتمزيقه.. وسوف يتلقى رجال المعسكر الرسالة كاملة عندما يرون جثث وجرحى زملائهم.. لكن لا نية لي في مهاجمة المعسكر ذاته فهو غير ذي أهمية استراتيجية وخطر..
الحق أن التقنية كانت خارقة بالفعل.. إن رتل الدبابات الذي جاء لينقذ وجد نفسه بحاجة إلى الإنقاذ.
وراحت (عبير) ترقب المشهد الذي اعتادته.. القتل.. القتل.. تلغيم جثث القتلى.. سرقة السلاح ثم الانسحاب بسرعة البرق قبل قدوم الطيران.. وبالطبع كانت وحدات المؤخرة تقوم بمسح آثار المجموعة أثناء الفرار.
ورأت (عبير) ذلك الرجل الذي أنقذوه (غسان) يركض حاملا بندقيته الآلية، وهو يلملم قميصه الممزق المفتوح على صدره..
سأله (جيفارا) ملاطفا
- هيه.. هل شفيت غليلك؟
- ليس بعد.. لكني أحب ما أفعله.
ثم تواري مبتعدا.
قال (جيفارا) وهو ينظر إلى الدبابات المحترقة:
- ممتاز هذا الفتى.. يتعلم بسرعة وقد صار جنديا بارعا.. ثم إن حافزه المعنوي قوي..
- يبدو أنه يستوعب محاضرات التثقيف التي تصبها في أذنه..
- هذا صحيح.. إنه متعطش للمعرفة لا يكل أبدا.
لكنها ظلت لا تفهم.. ما هي استراتيجية جيفارا؟
هذه العمليات قد تؤذي وقد توجع، لكنها لن تطرد الأمريكان.. إنه بحاجة إلى ثورة شعبية تجتاح كل مدن العراق فمن يشعلها؟ وكيف؟ إن أحدا لا يبالي بما يقول خاصة مع لغة خطابه العتيقة التي لم يعد أحد يستعملها.
هذه أسئلة لابد أن تطرحها عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما جلسوا يستريحون بعد عملية الصباح هذه سألته عن رؤيته للمستقبل، فقال:
- عملياتنا فعالة لكنها ليست بالكم الكافي.. لا مفر من استقطاب الأهالي لنا.. لابد من المزيد من الفلاحين. عندما تتكون آلاف الخلايا الثورية سوف تصير أيام أمريكا معدودة..
- لكن هذا يحتاج إلى دهر..
- ليس بالضبط.. إن الناس بدءوا يعرفون من نحن وسوف ينضمون لنا عندما يدركون أن هذا هو الفريق الذي يربح دائما..
ثم نظر إلى جنوده وقال بصوت عال:
- من السهل التأثير على السكان المحليين، ولضمان بقائهم معنا لابد من أن نؤمن لهم التوجيه العقائدي السليم.. على الجنود أن يحرصوا على سلوكهم وأن يكونوا في غاية الأدب والكياسة عندما يطلبون من الأهالي الطعام أو الخدمات.. كل شيء يمكن أن يفسده جندي أحمق يغازل شابة حسناء. هذا خطأ لا يغتفر وسوف يجعل الأهالي أعداءك بلا نقاش.. أن تسرق شيئا من الفلاحين معناه أنهم صاروا في صف خصمك.. على أن أهم ما يجب أن ينتصر عليه رجل العصابات هو عقدة (الخوف من الحصار) إن وحدة العصابات حسنة التدريب لا تنزعج من هذه المواقف.. علينا أن نتجنب مهاجمة العدو إلا في الليل قدر الإمكان لأن الظلام حليفنا

الطبيعي.. يجب أن يكون النصر هدف كل هجوم..
كان هناك جندي يمسك بزجاجة (عرقي) صغيرة يوشك على فتحها، فنظر له (جيفارا) نظرة نارية وقال:
- ألعاب الورق والخمور ممنوعة منعا باتا في معسكر الثوار.. لقد قلت هذا ألف مرة.. في المرة القادمة سأحاكمك محاكمة عسكرية.
نظر له الجندي محاولا أن يبدو متحديا، لكن ما من أحد في التاريخ فاز بمسابقة تبادل نظرات مع (جيفارا).. هكذا خفض بصره وأخفى الزجاجة.
ثم انتهى التشي من تناول طعامه وكوم منشفة تحت رأسه وأخلد إلى النوم.
تفرق الرجال من حوله، ولابد أن كلا منهم قد قرر اغتنام الفرصة للظفر بساعة من النوم.
أما (عبير) فجلست تتأمل (جيفارا) النائم وقد انسابت خصلات شعره الأسود على وجهه.. مقطب الجبين يبدو أن الهم صديقه الصدوق حتى في عالم الأحلام، لكنها شعرت بشكل ما أنه طفل كبير، وأنها قادرة على أن ترعاه..
- آخر من جرؤ على أن يطالب بعالم أفضل.. وسوف يدفع الثمن.. هي موقنة من هذا.. لا مجال للحالمين في عالم اليوم القاسي وسط العولمة والإنترنت وثورة الاتصالات..
راحت تعبث في الحصى جوار قدمها وهي تمسك بكوب الشاي.
زر هنا؟ هذا غريب.. زر جميل الشكل أنيق.. هذا غريب.
ثم تصلبت..
هذا يذكرها بشيء ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- ألعاب الأزرار..

تمشي بين الرمال وهي تدعو الله ألا تكون قد تأخرت..
هناك وراء هذه الكثبان يرقد (غسان). الرجل الذي أنقذه (جيفارا) من التحول إلى لحم مفروم.. يرقد وقد وضع منشفة مبتلة على وجهه كي يحمي نفسه من الشمس.
إنه العصر والشمس قد ازدادت شراسة لأنها تعرف أن يوم العمل موشك على نهايته.
تتأمل (عبير) جسده الراقد على الرمال.. القميص مفتوح كاشفا عن صدره.
«يلبس قميصا خفيفا باليا أحكم غلق أزراره، وبالطبع كان الدم المتج..»
الآن لم يعد هناك عدد كاف من الأزرار يكفي لستر جسده.. كانت أزرار قميصه كاملة سليمة عندما التقوا..
دققت النظر فوجدت أن الأزرار تتطابق مع الزر الذي وجدته جوار التشي.
جلست جواره ونظرت للسماء.. إنها مقامرة لكن يجب أن تلعبها.
في هدوء دست الزر في جيبه وهو غاف ثم لمست ساعده في رفق فأزاح المنشفة عن رأسه:
هه؟ أنت الأرجنتينية؟ (ماريا)؟ هل من شيء؟
ظلت واقفة وقالت:
- لماذا تنام بعيدا؟ من الأكثر أمنا أن تكون مع الرجال..
ثم أردفت وهي تنظر للسماء في عصبية:
- لاحظت أنك مولع بالانفراد بنفسك.. لا تحب التجمعات.. ذلك الصباح الذي تعرضنا فيه لهجوم الأباتشي كنت أنت بعيدا.. يبدو أنك زهرة حائط حقيقية كما يقول الغربيون.
- لا أفهم معنى (زهرة حائط).. لكن التجربة التي مررت بها تجعلني لا أطيق البشر..
- كم كان عمر أطفالك؟
ستة وثلاثة أعوام..
قلت ما اسم زوجتك؟
(نهلة).. إنها ابنة عمي.. أعنى إنها كانت كذلك..
- رحمها الله..
ثم نظرت له في عمق، وقالت:
- سوف تعيش أياما عصيبة.. لكن صدقني.. إن الأمر يستحق.. والآن أتركك كي تواصل نومك..
- شكرا..
قالها ولم ينتظر رحيلها بل غطى رأسه بالمنشفة وسرعان ما تعالي غطيطه.. أما هي فقد قررت أن الوقت قد حان للفرار.. لقد امتحنت حظها أكثر من اللازم أما الآن فقد صار الفرار واجبا هكذا انطلقت تركض وسط الرمال. اجتازت حزام الكثبان لتقف جوار (جيفارا) النائم ووقفت تلهث وتنظر إلى حيث كانت منذ دقائق.
عندما تهجم (الأباتشي) لا تراها وهي قادمة.
فجأة ينفجر كل شيء ثم تنظر إلى السماء لترى طائر الموت الأسود يبتعد.
وهذا هو ما حدث بالضبط.. لقد نظرت إلى حيث كانت بعد ما دوى الانفجار، فرأت الرمال تتصاعد لعنان السماء كأنها بركان أصفر.. بعدها تصاعد الدخان الكثيف.. نظرت للسماء فرأت الطائرة تبتعد في رضا بعد ما أنجزت مهمتها.. لابد أن طيارها يصدر الكثير من ال (كيا ييي ي)

وال (واو)..
ووثب (جيفارا) مذعورا يصيح:
- ماذا حدث؟
قالت له باسمة:
- لا شيء.. أجريت تجربة بسيطة ثبت أنها ناجحة..
عد إلى نومك وسأحكى لك كل شيء فيما بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذا الفتى عميل دسه الأمريكان؟
- منذ البداية كنت أتساءل عن سبب تناقص أزرار قميصه.. إنها أجهزة لاسلكي.. ينتزع الزر ثم يضغط على جزء منه بدبوس ليصير فعالا ويصدر إشارات منتظمة.. هذا الجزء ضروري حتى لا يقتل الأمريكان عميلا لهم.. يلقي بالزر حيث توجد أنت وبعد هذا يكون عليه مغادرة المكان مسرعا.. طائرة الأباتشي تطلق صاروخها بالضبط على الموضع الذي منه تأتي إشارات الزر.. هذه هي الدقة الجراحية التي يتكلم عنها العسكريون الأمريكيون. هذا ما فعله من قبل وفشل وجربة اليوم فكاد ينجح..
- هل كان هذا دليلك الوحيد؟
- في البداية كان لديه ثلاثة أطفال.. اليوم قال إن لديه اثنين. كانت زوجته تدعى (زبيدة) ثم تحولت بمعجزة ما إلى (نهلة).. كانوا يقولون لنا: (على الكذوب أن يكون ذكورا).. أي أن الكذاب يجب أن يتذكر جيدا ما قال حتى لا ينفيه في المحادثة التالية..
نزع (جيفارا) البيريه الذي يلبسه تحت غطاء الرأس العربي، وحك رأسه وقال:
- إنهم بارعون حقا.. رتبوا أن يبدو لي رجلا بلا حيلة في مأزق خطير.. بهذا ما كنت لأتركه مهما حدث ومهمته كانت اختيار المكان والزمان المناسبين.. لقد اضطروا للتضحية ببعض رجالهم كي يبدو الأمر منطقيا. لكن لهذه القصة معنى واحدا..
- إنهم يريدون رأسك..
- هذه من البديهيات.. ما أردت قوله هو إنهم حاولوا الوصول لواحد من رجالي بعد (إياد) فلم يقدروا.. هكذا صارت مهمتهم ضم عملاء جاهزين بدلا من تحويل رجالي لعملاء.. إن هذه أخبار طيبة وتعني أننا قاعدة ثورية متينة..
وفجأة امتدت أصابعه لخصلات شعرها الملتفة على كتفها.. أصابها ارتباك شديد فتراجعت للوراء.. لكنه قال لها في رفق:
- أنت أنقذت حياتي بمزيج من شجاعة وذكاء. قولى لى ما يمكنني عمله لأكافئك!
لم تكن هناك إجابات كثيرة، لذا قالت له على الفور:
- لا تلمسني.. هذه مكافأتي الوحيدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- عرض مغر..

تلقى (مورتون) رجل المخابرات المركزية الخبر بمزيج من البرود والذهول والاشمئزاز.. مع نظارة كهذه لا يمكنك أن ترى انفعالاته أبدا.. فقط خلجة عابرة على جانب فمه زادت ملامحه قسوة، ثم سأل من جلب له الخبر:

- متأكدون؟

- نعم يا سيدي.. لقد اتجهت فصيلة من رجالنا إلى المكان بعد القصف.. لم تجد سوى أشلاء لكنها تعرفت القميص والأزرار المثبتة له.. لقد كان هذا (غسان)..

ضغط على عضلات فكية، ثم عاد يسأل:

- لا توجد أشلاء أخرى؟

- ما زالت نتائج الحمض النووي غير مكتملة لكننا نرجح أن هذه جثة شخص واحد..

- ألم ترتكبوا خطأ ما؟ ربما أرسل الزر إشارة لاسلكية قبل انتزاعه؟

- لا يمكن أن يرسل الزر إشاراته إلا بعد تنشيطه برأس دبوس.. أي أن الخطأ غير وارد..

ابتلع الخبر في غيظ.. وتجعد جبينه قليلا.

الشياطين اكتشفوا الحيلة ودسوا زرا في جيب عميله الذي دسه على (جيفارا).. لقد رسم الخطة على أن يصدر الأمريكيون أكبر ضجة ممكنة عندما يسمعون عن دنو (جيفارا) ورجاله من تلك البلدة.. نجح هذا الجزء تماما لكن محاولة قصف موضع الأزرار النشطة فشلت مرتين.

لقد سخر منه (جيفارا)..

لو كان أكثر احتراما لقتل العميل رميا بالرصاص لكنه فضل أن يقتله بطريقة فيها عدالة شعرية وسخرية لا شك فيها.. جزاء من جنس العمل.

لقد تعكر مزاجه فلم يعد قادرا على التفكير.. لقد انتهى اليوم.

هكذا نهض وأعلن أنه عائد إلى الفندق.. ربما تعيد بعض ساعات النوم لعقله نشاطه.

إلى جوار السائق العراقي جلس وقال له بالعربية التي بدأ يجيد عبارات منها:

- الفندق يا (كريم)..

كان ككل الغربيين يحذفون (عبد ال) من الأسماء المعبدة.. على كل حال تنحصر خبرة الغربيين بالأسماء العربية في ثلاثة أو أربعة أسماء.. (أحمد).. (قاسم).. (كريم).. الخ.. أما المتعاون معهم فهو دائما حسب قانون الأفلام (نسيم) بيه البدين الملتحي ذو البذلة البيضاء والوردة في عروة السترة.. صورة تذكرك بالخديو (سعيد) كما كنت تراه في كتب التاريخ.

انطلق (عبد الكريم) مغادرا المنطقة الخضراء يشق شوارع (بغداد).

كان (مورتون) يفكر في عمق.. لم تعد هذه الحرب تعنيه في شيء.. فقط هو مهتم بشخص واحد اسمه (سي عمارة)، وهو لن يهدأ حتى يتخلص منه، عندها تنتهي حربه الخاصة.

سمع صوت البوق فرفع رأسه.

لم تكن هناك حراسة ترافق العربة لأن هذه أسلم طريقة لتجنب الهجمات.. لقد تعلم الأمريكان أن الحراسة تجتذب المهاجمين كالذباب، وقد تعرض (مورتون) لهجوم من قبل وكاد يفقد حياته، فلم ينقذه إلا أنه لم يبد مريبا ولو شعر المهاجمون بأنه بهذه الأهمية لاختطفوه فورا.

كان (عبد الكريم) يطلق البوق في نفاد صبر كي ينتحي شاب نحيل يقف في الطريق أمام السيارة.

مد (مورتون) يده في جيبه وأخرج مسدسه تحسبا لما يحدث.

رأى الشاب النحيل يدنو من زجاج السيارة ويدق زجاجها عدة مرات.. قال (عبد الكريم):
- لا تفتح له يا سيدي.. هذا كمين لا شك فيه سأنطلق حالا..
لكن شيئا في مظهر الشاب ونظراته جعلت (مورتون) يمد يده لينزل الزجاج الكهربي بضع سنتيمترات.
الشاب عربي أسمر اللون حزين العينين.. وهو مثقل بمهمة خطيرة.. هذا واضح تماما. المثقلون بمهمة خطيرة فقط يحملون هاتين العينين.
قال الشاب وهو يرتجف كلمة واحدة:
- (سي عمارة)!
لم يتكلم (مورتون) وظل يرمق الفتى.. فأردف هذا:
- (سي عمارة).. أنت تريده.. يجب أن تدعني أركب فحياتي في خطر داهم..
ضغط (عبد الكريم) على دواسة الوقود والسيارة في وضع (المور)، فتعالي زئيرها وهتف:
- لا تطل الكلام معه يا سيدي..
لكن (مورتون) كان يمسك بالمسدس.. ماذا يمكن أن يحدث؟ الشارع خال ويبدو آمنا.
- ماذا لديك؟ تكلم الان..
- أنا أستطيع أن أسلمك (سي عمارة).. لكن لا تتركني واقفا بهذا الشكل.. إن هذا المشهد كفيل بقطع رأسي.
- هل تعرف من أنا؟
- أعرف أنك رجل مخابرات مهم.. هذا كاف على ما أظن..
مد (مورتون) يده يفتح زر التأمين للشاب كي يجلس في المقعد الخلفي.. وقال:
- اركب
وثب الفتى ليستقر في المقعد الخلفي، فانطلق (عبد الكريم) بالسيارة وهو لا يصدق أنه نجا حتى هذه اللحظة، أما (مورتون) فاستدار من مكانه في المقعد الأمامي إلى الفتى وهو يصوب المسدس إلى رأسه:
- ماذا لديك؟
قال الفتى:
- أنا من رجاله.. أعرف أين سيكون.. يمكنني أن أدس له وللرجال مخدرا في طعامهم.. فقط لو وفرتم لي نوعا جيدا..
قال (مورتون) في برود:
- لاحظ أنني لم أفتح فمي.. ربما كانت كل معلوماتك خطأ.. أنا مجرد مهندس اتصالات أمريكي.
- وأنا مجرد طاه عراقي.. حسن.. شكرا لوقتك.. فلنفترض أن هذه المحادثة لم تكن واسمح لي بالرحيل..
ومد يده إلى مقبض الباب، لكن (مورتون) قال في عصبية:
- ابق حيث أنت وأكمل كلامك..
تنهد الفتى وقال ضاغطا على كلماته:
- ما أطلبه هو الهجرة للولايات المتحدة.. أريد مبلغا من المال أبدأ به حياتي.. هذا كل شيء..
- أنا مصغ..
- سوف تنفذون الجزء الخاص بكم بمجرد أن أنهى ما وعدت به.. سوف أضع ثقتي في حكومتكم. وإلا فإنني سأخبر الصحافة بكل شيء..

- يمكننا أن ننكر.. يمكننا أن نتخلص منك.. أنا لا أقول إنني سأفعل هذا، لكن حديثنا كله قائم على افتراضات..
بهذا تضيع فرصة ممتازة للحصول على معلومات وفرصة الخلاص من كل هذه المجموعة مرة واحدة. أنت رجل واسع الخبرة ولن تضيع فرصة كهذه.
كان (مورتون) يفكر في عمق عندما سمع الفتي يقول السائق:
- والآن أخرج من (بغداد).. سأخبرك بنقطة التوقف..
- هتف (مورتون) في غيظ:
لحظة.. من الذي يصدر الأوامر هنا؟
- أنا!
قالها الفتى وهو يفتح قميصه.. عندها رأي (مورتون) الشيء الذي فهمه على الفور.. حول خصر الفتي. حزمة من أصابع الديناميت تتصل بجهاز كهربي ما. وفي قبضة الفتى استقر السلك الذي تكفي جذبة له كي ينفجر كل شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- العين بالعين ..

الشعب الذي لا يعرف الحقد لا يستطيع الانتصار على عدو شرس متوحش.

تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاح (مورتون) وهو يلوح بالمسدس في وجه الجالس في المقعد الخلفي:
- سوف أفجر رأسك! من الخطأ أن تهدد خصما يلوح بمسدسه.
في برود قال الرجل:
- والأخطر أن تحاول قتل خصم يمسك بطرف الفتيل الذي يستطيع تفجيرك! إن الموتى تتقلص أطرافهم ومعنى هذا أن احتمالات هلاكك كبيرة جدا!
نظرة لعيني الرجل جعلت (مورتون) يدرك أنه صادق لقد تلاشت نظرة التوتر المذعورة لتحل محلها نظرة باردة قاسية تعرف ما تريد.. من الواضح أنه سوف يفجر نفسه بسهولة.. هؤلاء القوم لا يمزحون.
لقد تصرف بحماقة مرة واحدة لكنها كانت كافية لقد أنساه مقته لجيفارا الحذر الثعلبي الذي تمسك به.
هنا سمع الرجل العربي يقول:
- سأكون شاكرا لو ألقيت بهذا المسدس من النافذة فهو يجعلني عصبيا..
هكذا طوح (مورتون) بالمسدس من الزجاج وهو يغلي غيظا.. ليأمل أن يجد رجال الشرطة هذا المسدس فيما بعد فيقتفوا أثره.
استرخي في مقعده وقال لنفسه إنه مر بما هو أسوأ منذ أربعين عاما يمر بما هو أسوأ.. سوف ينجو من هذا المأزق.
الفتى يصدر تعليماته للسائق بالعربية.. بعض العبارات لا يفهمها (مورتون) لكنه قد أعد نفسه للأسوأ.
وتعود به الذاكرة إلى جنوب لبنان أيام الحرب الأهلية عندما اختطف رجال حزب الله عميل مخابرات أمريكية، بل قائد المخابرات المركزية في لبنان، وقد حاول الرجل بتدريبه العالي أن يظل صامتا لكنه في النهاية لم يتحمل التعذيب واعترف بكل شيء ممكن.. وفي النهاية أعدم بطلقة في الرأس.
إن هذا السيناريو لا يبدو خياليا لهذا الحد. إنهم يمرون بمجموعات من رجال الشرطة.. ثم يرى مدرعة أمريكية تقف إلى جانب الطريق وقد وقف جوارها جند أمريكان ينظرون للسيارة في استرخاء.. ربما لو..
من جديد قال الفتى الجالس خلفه:
- هيا.. أنذرهم! لن يحدث هذا أي فارق البتة إلا في عدد القتلى.. أنت كما يبدو يا جنرال لا تستطيع فهم الحالة النفسية والروحية التي تجعل المرء يفجر نفسه.. لقد ودعت أطفالي وزوجتي ورتبت شئوني المالية.. أنا رجل ميت يمشي فلا تضغط عليّ أكثر من ذلك.
قال (مورتون):
- أنا لست جنرالا. أنا مهندس اتصالات..

- وأنا طاه.. طاه محشو بالديناميت..
ومن جديد راحت السيارة تنهب طريقها خارجة من بغداد إلى الضواحي.. فقط من حين لآخر ترى قطيع أغنام أو مدرعة أمريكية أو مجموعة من عمال الطريق يصلحون ما أتلفه انفجار سابق.
استغرق الأمر نصف ساعة في طرق وعرة، وبناء على توجيهات الفدائي الجالس في المقعد الخلفي..
كان هناك كمين مكون من رجال الشرطة العراقية وثلاثة جنود أمريكيين، وكان احتمال افتضاح الأمر كبيرا، لكن (مورتون) الذي تلقى تعليماته من المقعد الخلفي هز رأسه للأمريكيين الذين وقفوا في غطرسة استعمارية إلى جانب الطريق.. النظارات السود والخوذات والبنادق ولفافات التبغ في يد كل منهم.
- (هاودي).. كيف حالكم يا شباب؟ جو ممتاز للبيزبول!
ثم قدم بطاقته لأحد الجنود.. طبعا كانت هذه لحظة ممتازة لعمل شيء لكنه كان بارد الأعصاب بما يكفي كي يقيم الموقف.. سوف يهلك في جميع الحالات.. إذن لماذا يذهب إلى الجحيم مصطحبا معه هؤلاء الشباب؟ كان كفيلا بأن يفعلها لو كان هذا يعني نجاته.
طبعا كانت البطاقة تقول إنه مهندس اتصالات.. وقد نظر أحد الجنود إلى المقعد الخلفي حيث الفتى العراقي الذي يضم طرفي قميصه على جسده، وقد رسم على وجهه أعتى آيات الظرف والاسترخاء، وقال:
هل من مشكلة يا زميل؟ لماذا يجلس هذا هنا؟
- إنه الطاهي الجديد.. نصحونا بألا نجلس في المقعد الخلفي مهما كانت الظروف..
- طاه عراقي؟ إذن خذ الحذر.. هؤلاء القوم يضعون الكثير من الكاري في الطعام..
بالطبع هو يخلط بين عادات العرب والباكستانيين.
من جديد واصلت العربة طريقها وسط الطرق التي صارت مقفرة وفجأة وجد (مورتون) لجنة الاستقبال بانتظاره.. خمسة رجال ملثمين يقفون بعرض الطريق شاهرين أسلحتهم.. وسرعان ما وجد نفسه في سيارة (لاند روفر).. هذه المرة هناك كيس على رأسه.. فقط سمع الرجال يقولون للسائق (عبد الكريم):
- عد أدراجك وأخبرهم أن رئيسك قد اختطف.
انصحك ألا تتعامل مع الأمريكيين ثانية، لأنه لو كنا فصيلة مقاومة أخرى لأعدمناك..
وانطلقت السيارة تاركة السائق العربي واقفا في ذهول، لا يصدق أنه نجا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن هناك أية شكوك لدى (مورتون) في الشخص الذي سيقابله.. فصيلة المقاومة الوحيدة التي ستستدرجك عن طريق (جيفارا) هي فصيلة (جيفارا).
على أنهم في البداية أوقفوه في مكان وسط الصحراء وأرغموه على التجرد من ثيابه حيث أجروا له تفتيشا ذاتيا دقيقا ثم جعلوه يلبس ثيابا جديدة تخصهم.. كانوا على يقين من أنه يحمل جهاز متابعة بشكل ما.. وهكذا قرروا أن يلغوا هذا الاحتمال تماما..
إنهم يعرفون من أنا.. ويعرفون أنني أريد (جيفارا) أكثر من أي شخص آخر.. لكن كيف؟
يمشي معصوب العينين حافي القدمين على الرمال الساخنة، ليركب السيارة من جديد.
رحلة استغرقت ساعة أم عدة ساعات؟ وفي النهاية أمروه بأن يترجل.. يمشي على أرض ساخنة..

مدخل بناية.. رطوبة.. رائحة سيجار.. ثم يد تنزع الكيس عن رأسه.
وعلى الفور رأي (جيفارا) أمامه.
كان المكان أقرب إلى قاعة في مدرسة.. هناك خرائط على الجدران ولوح كتابة.. (جيفارا) يجلس على مكتب المعلم والسيجار في فمه يمضغه في تلذذ.. وجواره كانت (عبير) ترمق الضيف الجديد في حيرة.
قال التشى بالإنجليزية في تهذيب لا سخرية فيه:
- لا تؤاخذني.. لقد تعلمنا طريقة الكيس على الرأس هذه منكم..
قال (مورتون) الذي احتفظ برباطة جأشه:
- ونحن تعلمناه من الجيش الجمهوري الأيرلندي IRA.. إن تأثيره النفسي مخيف.. يشعرك بالعجز التام.
قال (جيفارا) وهو يطلق سحابة دخان كثيفة:
. أنت صيد ثمين.. نحن نعرف من أنت ولماذا جئت..
- هل لي أن أعرف كيف؟
- إن رجلكم الذي كلفته بتسميم الكبسولات قد حكي لى الكثير عنك.. وقد راقبنا القاعدة عدة أيام بوسائلنا الخاصة حتى رأيناك.. عرفناك من الأوصاف وعرفنا سيارتك وفندقك.. ما بقي كان سهلا.. فقط راهنت على أن حماسك للقبض عليّ سوف يجعلك تنسي واجب الحذر، وقد كان.. إن المخابرات لعبة لاثنين.
ثم أشار لأحد رجاله فجلب مقعدا وكأسا من عصير البرتقال للرجل.. وأردف:
- ليست لدينا مشروبات روحية لأنها ممنوعة..
ظل (مورتون) ينظر له في ثبات.. ثم قال كالحالم:
- التقينا من قبل في (بغداد) لكنك لم تلق بالا لي. إلا أني لم أنس وجهك..
قال (جيفارا):
- بالنسبة لى يتشابه الأمريكيون.. وأخص العسكريين منهم.. نفس الوجه الجاف الصارم وقصة الشعر والقدرة على ذبح الأطفال بلا تردد.. هل تعرف أنك تمثل كل ما أكرهه في هذا العالم؟ الإمبريالية الأمريكية صار لها رأس وقدمان وتجلس على مائدتي الآن.
لم يعلق (مورتون) وظل يرمق التشي في انبهار:
- مذهل.. كأنني أعود بالزمن إلى الستينات.. السيجار.. نظرة الحالم الذي لا يعي شيئا عن العالم الحقيقي. البذلة العسكرية والحذاء (الميري).. كنت أنت رمزا لكل ما نكرهه كأمريكيين..
- نحن متفاهمان إذن
شرب (مورتون) ما في الكأس مرة واحدة ثم قال:
- لكن الوضع اختلف.. لا يوجد اتحاد سوفييتي ولا صين.. الماركسية قد انتهت من العالم.. يجب أن تعرف أنك وحيد تماما وأن فرصتك في النجاح صفر.. ما الذي تحاول إثباته؟
قال التشي:
- إن أمانينا في النصر هي تدمير الولايات المتحدة الأمريكية.. إكراهها على أن تقوم بنضال صعب على أرض معادية لها.. معنى هذا أن أمامنا حربا طويلة مريرة.. أنتم خسرتم الحرب في فيتنام بكل ما لديكم من جبروت.. تخسرون كل يوم في العراق.. لقد أصيبت كبرياؤكم بضربة قاصمة وعليكم أن تعرفوا أنكم لا تستطيعون إرغام قط على أن يصير كما تريدون له..
- هذا ما تعتقده..

ظل (جيفارا) يعبث في بعض الأوراق أمامه ثم قال:
- طبقا أنت تقدر موقفي.. لن أترك صيدا ثمينا مثلك من دون معرفة كل شيء يعرفه..
- هل ستعذبني؟ أنا مدرب جيدا لتحمل هذه الأمور.. لاحظ أنني رجل مخابرات منذ عام 1975 لو كنت أكثر عملية في تفكيرك لأفرغت الرصاص في رأسي هنا والآن.
- لدينا أساليب جيدة للتعذيب تختلف عن انتزاع الأظفار والحرق.. آسف يا رفيق.. لكني أحاول أن أؤدي عملي.
- وأنا أحاول أن أمنعك من ذلك.
التفت (تشي) إلى أحد رجاله وأصدر أوامره:
- خذوه وقيدوه في القبو.. سيكون هناك رجل بجواره طيلة الوقت مهمته أن يمنعه من النوم.. يركله يلسعه.. يسكب الماء على رأسه.. المهم ألا ينام لحظة واحدة.. بعد ثلاثة أيام سيكلمنا عن تدريب المخابرات الرائع الذي تلقاه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- قسوة..

بالنسبة لـ (مورتون) لو كان هذا اسمه صارت الساعات التالية لحظة طويلة أليمة.. كان قد سمع عن هذا النوع من العقاب، ويعرف أن النازيين هم مبتكروه، لكنه لم يتصور أنه بهذه البشاعة ولا القسوة.. وبدا له أن انتزاع عينيه للعب تنس الطاولة بهما قد يكون أقرب للإنسانية.
هو الآن جالس إلى مقعد في ذلك القبو، وقد ربطت يداه إلى خلف ظهره مع تثبيت قدميه.. من حين لآخر يدسون شيئا يؤكل بين شفتيه أو يصبون الماء صبا بينهما.. ليس الموت جوعا أو عطشا ضمن برنامج اليوم إذن.
إن جفنيه يثقلان.. يوشك على أن يغمضهما فيتلقى ضربة في كتفه.. يفتحهما في ذعر، ثم تغلبه الرؤى فيثقلان من جديد.. هنا تأتي صفعة من مكان ما.. ضوء ساطع يخترق جفنيه فلا يستطيع غلقهما لو حاول.
تدريجيا كوّن نوعا من الانعكاس الشرطي كالذي وصفه الخواجة (بافلوف).. كلما غلبه النعاس صحا مذعورا لأنه ربط بين النعاس والصفعة.
العالم تحول إلى ضوء ساطع وإلى أشباح تتراقص هنا وهناك.. ولم يدر أنه يفقد عقله إلا عندما رأى نفسه يتقدم نحوه وهو يضحك وقد دس يديه في جيبه.. لحظة لقاء النفس الشهيرة في قصص (دستويفسكي).. لم يكن متدينا أو يؤمن بالروح، لكنه شعر بأن هذا نذير وفاة.
أخيرا وصل إلى حالة من فقدان التمييز التام لما يدور حوله.. بسمع كلاما فلا يعيه.. يرى أشياء فلا يفهم ما هي.. لا يعرف إن كان ميتا أم حيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحقيقة كان يومان قد مضيا على (مورتون) وهو في هذا العذاب.. فقط كان الرجال يتناوبون عليه من آن لآخر يأتي رجل عصابات نضر منتعش كالزهرة ويقف جواره على حين ينصرف زميله لينام.
وكان (تشي) يدخل المكان من حين لآخر كي يرى ما وصلت إليه الأمور، وتطوع مرة بأن يلسع (مورتون) بسيجاره المشتعل ليوقظه.. طبعا نسي (مورتون) هذا على الفور.
قالت (عبير) وهي ترتجف:
- هذه قسوة.. يخيل إلى أن الذبح كان أكثر رحمة..
قال (تشي) وهو يرمق المشهد:
- عندما تنظرين له ترين رجلا يتعذب.. أنا أنظر له فأرى أطفال هيروشيما المحترقين، والهنود الحمر الذين ألقى بهم في الثلوج عراة، وأطفال أمريكا اللاتينية الذين يتسولون في الشوارع وتعدمهم حكومة البرازيل كالكلاب، وأرى كل ضحايا فلسطين، وكل قتلى العراق.. صدقيني لا أعتقد أننا قساة على الإطلاق بل هو نوع من التدليل..
ثم انحنى على الرجل الجالس الذي لم تعد عيناه تريان تقريبا برغم أنهما مفتوحتان، وقال:
- لا أريد أن تفقد عقلك لأن هذا سيجعل اعترافاتك بلا قيمة.. هل أنت مستعد للكلام؟
من بين شفتيه همس الرجل:
- اذهب للجحيم
- هذه ليست إجابة..

- ماذا تريد أن تعرف؟
ابتسم (جيفارا) وقال في رفق:
- كل شيء.. من أنت فعلا.. رتبتك.. العمليات التي قمت بها.. خططكم.. اتصالاتكم.. ماذا تعرفون عن قوى المقاومة العراقية الأخرى.. ماذا تنوون عمله في المستقبل؟ هل هناك ترتيبات انسحاب؟ ما دورك في موت (جيفارا) عام 1967؟
صمت (مورتون) قليلا، ثم قال في تعب:
- هل سوف تسمحون لي بالنوم بعدها؟
أشعل التشى سيجاره الشهير وقال بلا سخرية:
- سوف تنام كثيرا جدا.. ربما للأبد..
لكن (مورتون) كان منهكا إلى حد أنه لم يبال بالتهديد.
فليكن ما يكون.. المهم أن يريح رأسه في وضع أفقي ويغمض عينيه ويسمح لأجنحة الحلم أن تحمله إلى أرض (أبدا أبدا) كما يقول الأمريكيون.
لقد نالوا منك بحق يا (جيمس).. لقد عرفوا كيف يهزمون روحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا مضى يومان وهو يثرثر بلا انقطاع.. صحيح أنهم سمحوا له ببعض النوم، لكنه ظل يتكلم حتي لا يعاودوا العقاب.
الطريف أنهم جعلوه يعيد اعترافاته عدة مرات بحثا عن تناقض.. وكان رجل عربي يدون كل حرف يقول.
في النهاية سأله (جيفارا):
- هل من شيء تضيفه؟
- لا.. هذا كل شيء...
لم يدر إلا وفوهة المسدس تلتصق بصدغه.. وسمع التشي يقول:
- بناء على حكم المحكمة الثورية فإنني سوف أنفذ حكم الإعدام فيك لأنك عميل الإمبريالية.. ولأنك قضيت حياتك تحارب قوى التحرر..
لم يبال (مورتون) بحيثيات الحكم.. المهم أن ينتهي وينام.
فقط رفع رأسه، وقال في شيء من السخرية:
- أنت دعاية لا أكثر ولسوف تلحق بي سريعا يا صديقي..
- ربما.. لكنك لن ترى هذا..
وانطلقت الرصاصة.
كانت (عبير) تبكي وترتجف، بينما قال (جيفارا) للرجال:
- تخلصوا من الجثة.. يجب أن يجدوها وأن تكون عبرة.. وأرجو أن ينظف أحدكم هذا الدم.
ثم نظر إلى (عبير) الباكية وقال:
- (ماريا).. إن بعض القسوة يكون أدل على الرحمة من التدليل الأبله.. الذئاب يجب أن تقتل على الفور.
لكنها لم تستطع أن تبعد المشهد عن مخيلتها.
قاس هو (جيفارا).. قاس وحازم وصارم.. هكذا قال عنه الجميع حتى إن رفيق عمره (كاسترو) كان يندهش من عنفه أحيانا.

لكنها سمعت صوت الصفير المتصاعد من رئتيه.. رأت تلك الرجفة في يده فأدركت أنه ليس متحجر المشاعر إلى هذا الحد هو لا يستمتع بما يقوم به لكنه يشعر بأنه يجب أن يفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- لا نريدك هنا..

- انتصار أي بلد على الإمبريالية هو انتصار للجميع، وهزيمة أية أمة أمامها هزيمة للجميع.
تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعلق الأمريكيون على العثور على جثة رجل المخابرات الأمريكية المهم إلى جوار الطريق، وقد اخترقت صدغه رصاصة.. هذه أخبار لا تذاع ولا تنقل للوطن.. فقط ازدادت الحملات شراسة وقد عرفوا بالطبع من السائق (عبد الكريم) الذي عاد مذعورا الجهة التي اختطفت رجلهم.. ما دام الفخ كان باسم (سي عمارة) فلا يصعب استنتاج الجهة المدبرة.
كان التشي يقيم مع رجاله العشرة في بيت فلاح عراقي يدعي، (جاسم).. كف عن الحركة لبضعة أيام على سبيل الحذر، لكن ابن الفلاح كان مثقفا قرأ عن بطولات (سي عمارة) وذكره جدا ب. (جيفارا) الحلم الثوري القديم.. لهذا عرض على المجموعة أن تقيم في بيت أبيه.
كانت هناك حظيرة مليئة بالقش، ولم تكن هناك مواش في الدار.. لذا أمكن للثوار أن يقيموا فيها بضعة أيام.. وبالطبع كان هذا سجنا اختياريا تاما لأن أحدهم لم يكن يخرج.. الطعام كان يأتيهم حيث هم ومعه الصحف.. لكن لا خروج.. إن عملاء الأمريكيين يبدون مثلنا تماما.. ولن تعرف أبدا متي تقع عينا واحد منهم عليك.
قال (جيفارا) ل. (عبير):
- ليس الموضوع موضوع عمالة فحسب.. إن المستعمر يكون قاسيا جدا على الأهالي ويعرف كيف يثير رعبهم.. وهم مدنيون مسالمون، لذا يسهل الضغط عليهم.. ليس كل من يفضح أمرك خائن واش.. ربما كان مذعورا.. ربما يخشى على أسرته..
ثم أردف بعد تفكير:
- هؤلاء يجب أن نعاملهم بأكبر قدر من الرفق واللين.. يجب أن يكون هناك فارق واضح بين معاملتك للمستعمرين والخونة التي يجب أن تكون وحشية، وبين معاملتك للأهالي التي يجب أن تتسم باللطف والتهذيب.
كان يتكلم طيلة الوقت وبلا انقطاع.
صار رأسها على وشك الانفجار، وهو لا يكف عن إقامة الندوات في الحظيرة وتثقيف الثوار عن الاستعمار والماركسية والإمبريالية والحتمية التاريخية.. يقول هذا كله وهو يدخن السيجار في نهم.. أيام وأيام.. ليال وليال.
هذا الرجل لا يتعب.
على أنها نامت ذات ليلة وصحت من نومها على رائحة الحريق.
رمشت بعينها لترى الرجال يركضون هنا وهناك. الزهرة البرتقالية تلتهم المخزن والدخان يجعل الرؤية شبه مستحيلة.. ثمة يد قوية أطبقت على معصمها وجرتها وسط الدخان إلى الخارج حيث الليل البارد. إنها لا تحلم إذن بل هو حريق فعلا..
هناك ترى الرجال يصرخون ويحملون دلاء الماء. النار تتعالي.
أين التشي؟ هو ذا يقف وسط الرجال ويصدر لهم التعليمات.. يريد أن يكونوا صفا بأجسادهم كي ينتقل الدلو من يد ليد.. لا داعي لإضاعة الوقت في الركض يمينا ويسارا.

هكذا..
فقط سمعت أحد الرجال يقول لصاحبه:
- سيجار (سي عمارة).. أنذرته من قبل أننا في حظيرة مليئة بالقش، لكنه لا يستطيع التوقف..
ببطء بدأت النار تعلن عن هزيمتها.. لكنها أعلنت ذلك مع كثير من الدخان الذي تعالى لعنان السماء..
وحمدت (عبير) الله على أنهم تنبهوا.. كان من الممكن أن تحترق أثناء نومها فلا تفهم إلا في اللحظة الأخيرة..
أخيرا وقف الرجال مبللين بالعرق والماء، والدخان يتصاعد من شعورهم وشواربهم.. كانوا يلهثون..
ومن وسط الصفوف ظهر ذلك الفلاح العراقي العجوز.. إنه (جاسم).. شارب أبيض كث وغطرة على رأسه وسترة فوق الجلباب.. إنه غاضب بحق..
يتقدم حتى يقف أمام (جيفارا) ثم يقول في حزم:
- قلت لكم مرارا أن تتوخوا الحذر أثناء التدخين..
لم يتكلم (جيفارا).. اكتفى بأن يمضغ سيجاره الذي أطفأته النيران.
- لقد تفحمت الحظيرة وكدنا نتفحم نحن أيضا. قلت لهذا الأحمق (على) إنكم ستجلبون لنا المصائب لكنه كان مصرا.. الآن يمكنني أن أقول لك بحزم إن عليك أن ترحل.. لا أدري إن كان بوسعي أن أقول هذا لرجل مدجج بالسلاح، لكني اقتربت من القبر جدا ولم يعد يخيفني أن تختصر لى الخطوات الباقية..
قال التشى في تهذيب:
- هذا من حقك.. لكن هل تريد أن نرحل فعلا؟
- أنا لا أمزح.. سني لا تسمح بذلك يا ولدي. يجب أن تعرف أننا لا نرحب بك هنا وإنك تبدو لي أقرب إلى مهرج..
نظر (جيفارا) لرفاقه نظرة ذات معنى... كان أكثرهم قد استنقذ سلاحه ومتاعه فلن يستغرق الأمر وقتا طويلا في الرحيل.. لكن الفلاح عاد يقول:
- الناس لا تتعاون معك لأنها تحبك.. إنها تخشاك. أنت غريب عنا وعن عاداتنا.. ونحن لا نريد غريبا كي يأتي ليحرر لنا أرضنا..
فلو كان (جيفارا) ذا ثقافة عربية لقال: رب اغفر له فإنه لا يعلم، لكن نظراته قالت شيئا كهذا على كل حال..
فقط نظر إلى رجاله وقال:
- فلنجد مكانا آخر يا رجال.
وهكذا ابتعد الجمع المنهك عن الحظيرة التي تحولت إلى كتلة من الفحم.
صف من الأشباح يمشي في الظلام إلى لا مكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السيارة المدرعة الأمريكية تنطلق على ذلك الطريق قرب (اليوسفية) جنوبي (بغداد)..
ووسط أشجار النخيل المتشابكة وقف (جيفارا) مع رجاله و(عبير) ينتظرون اللحظة الحاسمة.
إنه لا يستعمل الألغام لكنه يستعمل طريقة الأسلاك المتصلة بعبوة ناسفة.. وكان التوقيت مهما جدا.

عشرة أمتار.. خمسة.. سوف ينتقل هؤلاء اليانكي إلى العالم الآخر قبل أن يعرفوا كيف انتقلوا.. احبسوا الأنفاس يا شباب.
يد (فادي) تمتد إلى الشاحن.. إن هي إلا لحظة و...
بوووووم!
دوى الانفجار المروع فارتج النخيل وأحشاء (عبير)، ولولا أن هذا مستحيل لقالت إن السماء ذاتها ارتجت. لم تكن تعرف أن العبوة بهذه القوة.. وإلى عنان السماء تصاعد الدخان الأسود الكثيف.
في رضا ابتسم (تشي) وأشار لرجاله كي يلحقوا بالعربة بحثا عن شيء يمكن الاستفادة به، وإن بدا هذا مستحيلا.
هنا التفت له (فادي) في حيرة وهمس:
- أنا لم أضغط!
- ماذا تعني؟
- كانت العربة تبعد مترين عن مكان عبوتنا!
- إذن؟
وسرعان ما هرع الرجال إلى حيث تقف العربة المتفحمة والحرارة المتصاعدة منها تجعل الدنو مستحيلا.
هنا برز من وراء أشجار النخيل ثلاثة رجال ملثمين يلبسون السواد.. كانوا مسلحين وأحدهم يحمل كاميرا فيديو صغيرة.
هتف أحدهم بلهجة عراقية واضحة وبشيء من الغلظة:
- ماذا تعملون هنا؟
قال (تشي) وهو يزيح اللثام عن وجهه:
- هل لى أن أسألكم نفس السؤال؟
- إن مظهرنا لا يحتاج لشرح.. لقد داست العربة على اللغم الذي زرعناه إلى جانب الطريق.. نحن نحاول التقاط صورة للمركبة كي نضعها على شبكة الإنترنت..
- مصادفة غريبة لأننا زرعنا عبوة ناسفة على بعد مترين!
تأمله أحد الرجال في عمق من وراء اللثام ثم قال:
أنا أعرفك.. أنت ذلك الأجنبي.. الذي يطلقون عليه (سي عمارة).. أنتم الذين ذبحتم رجل المخابرات الأمريكي.
قال (جيفارا) في كبرياء:
- أعدمناه لكن لم نذبحه..
قال الرجل:
- نعم.. أنت تحدث الكثير من البلبلة.. الناس تسمع عن العملية فلا تعرف إن كان المهاجمون قد قاموا بها أم أنت..
المحصلة واحدة.. إن الأمريكيين يموتون..
قال الرجل بينما رفيقاه يلتقطان صورا للسيارة المحترقة:
- دعنا لا نطل الوقوف هنا فلسوف تصل (البلاك هوك) حالا.. فلنتوار بين الأشجار.
هكذا انسل الجميع إلى ما وراء حزام النخيل.. وبالفعل تعالي هدير المروحيات خلال دقائق.
قال الرجل الملثم:

دعني أقل لك شيئا ولتتذكره جيدا.. أنت تقاتل بأساليب مختلفة غريبة.. كلامك غريب وأفكارك أغرب. لقد ولى هذا العهد الذي تتكلم عنه.. المناضل اليوم صار اسمه (مجاهد).. أنت أجنبي تختلف عنا في الجنسية والدين واللغة وكل شيء.. لا مكان لك هنا..
قال (جيفارا) وقد بدأ صفير صدره يتعالى:
- كنت أفكر في نوع من التحالف أو تنسيق الجهود لقد فشلت في الاتصال بكم منذ جئت هنا..
- لن يكون هناك تنسيق جهود.. لا أحد سوف يتعاون معك.. أنصحك بأن ترحل..
ثم لوح ببندقيته الآلية في الهواء وأردف:
- في اللقاء القادم سوف نكف عن اعتبارك رفيق كفاح ونعتبرك خصما.. سوف نقاتلك وأنا لا أقول هذا على سبيل التخويف لكنها الحقيقة.. لن نترك أجنبيا يخوض لنا حربنا..
- كنت أحسب بينكم أجانب..
ليس بيننا أجانب.. هناك عرب غير عراقيين لكننا لا نرحب بقدوم أرجنتيني ليعلمنا كيف ندافع عن أنفسنا..
ثم صاح في الرجال:
- هيا بنا!
والتفت إلى (جيفارا) قائلا:
- في المرة القادمة سيكون الحوار بطلقات الرصاص!
وسرعان ما توارى الرجال وسط الأشجار الكثيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نام الرجال ونامت (عبير)، لكن (جيفارا) ظل يرمق النار لفترة طويلة والسيجار بين شفتيه.
صحت في الثانية صباحا شاعرة بالظمأ، فرأته جالسا حيث هو يرمق النار مفكرا..
على ركبتيها دنت منه ووضعت يدها على كتفه فلم يلتفت.
- ما بك؟
قال دون أن ينظر لها:
- ما الذي أفعله هنا؟
- تحارب الأمريكان طبعا..
- لا أحد يريدني. لقد تغير الزمن كثيرا جدا.
كانت تسترجع محادثتها السابقة معه منذ شهر وذكرته بها:
- اسمعني.. هذه الأيديولوجية انتهت.. لقد تلاشي الاتحاد السوفييتي، والصين لا تريد أن تتورط في مشاكل لأنها منهمكة بنهضتها الاقتصادية.. لم تعد هناك سوى دولة واحدة قوية هي الولايات المتحدة.
كان بوسع حركات التحرر في الماضي أن تعتمد على الاتحاد السوفييتي والصين.. كانوا يقاتلون في فيتنام والشرق الأوسط بالسلاح السوفييتي.. الأيديولوجية التي كنت تحارب من منطلقها قد تلاشت.. اليوم لم تعد هناك مرجعية للقتال في العراق إلا من منظور إسلامي. ويبدو أن هذه هي المقاومة الوحيدة الفعالة حاليا. هناك قوميون عرب لكن عملياتهم لا قيمة لها تقريبا. دعك من أنك أجنبي ولن يثق بك أحد.. لا مكان لك هنا ولن يصغي أحد لأحلامك عن اتحاد الشعوب المطحونة.. من المستحيل اليوم أن تقنع شابا ألمانيا بالقتال في التبت لتحريره من الصين.. أنت رومانسي.. وككل رومانسي أنت ترفض الزمن الحالي.. ترفض الواقع.. والواقع يقول إنه لا مكان

لك..
ثم أردفت:
- لا أقول هذا لأخبرك كم أنا عبقرية.. لا أقوله على سبيل التشفي من منطق (ألم أقل لك؟).. فقط أذكرك بأنك كنت تعرف هذا كله من قبل فماذا استجد؟
قال في ضيق:
- منظر ذلك الفلاح العراقي العجوز وهو ينظر لي بكراهية.. بالفعل كان يمقتني.. لقد جئت هنا لأحرره فإذا بي أزيد حياته صعوبة.. إن سيناريو ما واجهه (جيفارا) في بوليفيا يتكرر..
- فيم تفكر؟
نظر لها وعيناه تلمعان في اللهب، وقال:
- سوف أخبرك قريبا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الرحيل..

لنا أصدقاء كثيرون.. لكن ليس بين الحكومات.. إن أصدقاءنا في صفوف الشعوب..
تشي جيفارا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح الباكر يغسل الرجال وجوههم ويتناولون البسكويت الجاف إنهم يتخذون مقرهم في بعض الخرائب كالعادة.. وهي عملية معقدة تعلموها من (جيفارا) أو (سي عمارة) حيث يجب انتقاء مكان يصعب حصاره.. لابد من مخرج للفرار.
كانت (عبير) تغسل وجهها بدورها عندما فطنت إلى أنها لا ترى (جيفارا).
لقد تركته في الثانية صباحا جالسا أمام النار يدخن لكنها غابت في نوم عميق فلم تدر ما حدث بعدها.
كان ككل مرضى الربو مولعا بالهواء الطلق.. لا يطيق الجدران تخنق رئتيه، لذا خرجت لتلقي نظرة في الخارج.. لا أثر له.
عادت إلى الداخل وسألت (فادي) عما إذا كان رآه، فقال بلهجة غامضة:
- لا..
- ألا تبحثون على الأقل؟
لكنه ظل صامتا.. كأنه يفكر في الخطوة التالية ولا يجد الشجاعة كي ينفذها.
فجأة تقدم (فادي) ليقف وسط الرجال وقال بصوت عال:
- بما أن التشي قد رحل، فإنني الآن أملك صلاحياته كاملة.. وأنا مسئول عن هذه الخلية الثورية!
الكل بدوا على علم بما يحدث فيما عداها.. ما معنى هذا؟ هل رحل التشي؟ أين؟ متى؟ لقد كان جالسا يتكلم منذ ساعات لا أكثر.
ثم بدأت تتذكر شيئا..
- فيم تفكر؟
- سوف أخبرك قريبا!
ما الذي خطر له وهو يتأمل النار؟ إنه حصان جامح وأفعاله قد تسبق أفكاره أحيانا.
قال لها (فادي) وهو يفتش في جيبه عن شيء ما:
- لم يصدر لي التشي تعليمات إلا أن أواصل ما بدأه، وبالطبع أعطاني كل ما لديه من معلومات انتزعها من رجل المخابرات المركزية.. بخصوصك طلب أن نوصلك إلى أقرب مكان يمكن أن يجدك فيه الأمريكيون.. هم لن يؤذوك لكن سيقومون بترحيلك!
- عم تتكلم؟
كان قد وجد ما يبحث عنه.. رسالة مطوية في مغلف.. ناولها إياها وقال:
- هذه رسالة تركها لك.. إنها بالإسبانية فلم أفهم حرفا.. أرجو أن تقرئيها وأن تخبرينا بما يخصنا منها..
تناولت الورقة في تردد وجلست على مجموعة من قوالب القرميد وراحت تقرأ:
ماريا:
في هذه اللحظة أذكر أشياء كثيرة. أذكر لقاءنا وحين قررت الانهماك في التأهب والاستعداد.. لقد

سئلنا ذات يوم عن الشخص الذي ينبغي إبلاغه في حالة وفاتنا، وقد اعترتنا الدهشة لأنه لم يخطر ببالنا شيء كهذا من قبل.. ثم أدركنا أن هذا وارد وأن الإنسان في حالة الثورة إما أن ينتصر أو يموت.. وقد سقط كثير من رفاقنا في طريق النصر..

لم تكن (عبير) تدرك أن نص هذا الخطاب محفور في ذهنها، لأنه الخطاب الذي كتبه (جيفارا) الأصلي لوداع رفيق كفاحه (كاسترو).. لقد اكتسب (جيفارا) أشياء كثيرة من جده الجيني ومن بين هذه الأشياء الأسلوب.. هو ذا يستعمل لا شعوريا ذات الأسلوب الخاص به.

الآن أستأذنك يا (ماريا) في الرحيل وأستأذن الرفاق.. وأقول لكم جميعا: وداعا..

إني أتخلى رسميا عن مهامي في قيادة الخلية الثورية.. حينما أستعرض الأيام الماضية أعتقد أنني عملت بأمانة وإخلاص في سبيل دعم الثورة، لكني أشعر بأن

دوري انتهي في العراق وإنه لم يعد لي مكان هنا.. إن بلادا أخرى كثيرة تحتاج إلى جهودي المتواضعة وأنا أستطيع القيام بذات الدور في مكان آخر.

إنني راحل وأنا أشعر بمزيج من المسرة والألم وأنا أترك ورائي هنا أعظم آمالي في التشييد والبناء وأترك أعز أحبائي الأمر الذي يمزق نفسي.. لكني سأحمل معي هذا الإيمان الثوري والرغبة في الكفاح ضد الإمبريالية حيثما وجدت.

فإلى النصر دائما أو الموت.

أعانقك بكل ما أملك من حرارة ثورية..

انتهت الرسالة فطوتها (عبير) وشعرت بأنها لا تتمالك نفسها.

لقد بكى (كاسترو) عندما قرأ رسالة مماثلة وهي ليست أفضل منه حالا.

هكذا تهانفت بالبكاء، ثم راح الدمع يسيل من عينيها فأنفها

دنا منها (فادي) ووضع يده على كتفها فهمست:

- إلى أين؟

- إلى أين أي شيء؟

- إلى أين رحل؟

- لم يقل ولم يجسر أحد على سؤاله، لكننا سننفذ وصيته ونستمر في الكفاح..

- ألن نلحق به؟

- من العسير أن نتمكن من ذلك.. ربما كان في بيت مهجور أو فندق. ربما كان في الطائرة أو عربة تجتاز الحدود.. دعك من أنه لا يريد ذلك.

لكنها وقفت تفكر وهي تجفف عينيها من حين لآخر.

إن بلادا أخرى كثيرة تحتاج إلى جهودي المتواضعة وأنا أستطيع القيام بذات الدور في مكان آخر.

إنها ليست معتوهة أو متخلفة عقليا لا يصعب عليها استنتاج الباقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- إنه هنا

تأمل ضابط المطار جواز سفرها:
- (ماريا جونزاليس).. مراسلة شبكة CDN.. أرجنتينية.. هل جئت هنا في مهمة تتعلق بالعمل؟
ابتسمت وقالت في شيء من العصبية:
- السياحة.. لا أكثر ولا أقل.. قيل لي إن اليهود فكروا في بلادنا كوطن قومي أولا..
قال ضاحكا:
- سوف ترين أننا صنعنا جنتنا هنا..
كانت عصبيتها تزداد من دقيقة لأخرى، خاصة أنها المرة الأولى التي تحملها (فانتازيا) إلى هنا. إلى مطار (بن جوريون) شخصيا.. وكانت الكتابة العبرية في كل مكان تثير أعصابها، فقد تعودت عبر سنين من الكراهية أن تراها كأنها أقدام عنكبوت.. مجرد شيء يثير التقزز والقشعريرة.
لا تخافي يا (عبير).. أنت لا تمتين العرب بصلة
أنت أرجنتينية.. يجب أن تتذكري هذا.. فلتلغى جانب الاشمئزاز هذا من مشاعرك.
المهم أن يكون (سلمان) بانتظارك.. لن تستطيعي أن تتحركي خطوة واحدة من دونه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت السيارة متجهة إلى (رام الله)..
لم تتبادل كلمات كثيرة مع (سلمان) سوي عبارات التحية.. ومنذ ذلك الحين ظلت صامتة.. كان يتحاشى الإجابة عن أية أسئلة.. وقررت هي أن تتحاشى السؤال.
هناك عدة نقاط تفتيش بالطبع.. وكان الجنود الإسرائيليون ينظرون لها في شك وفضول وهم يتفقدون الأوراق.. لكنهم في كل مرة كانوا يسمحون للسيارة بالمرور.
فلسطين أخيرا! لم تكن قد زارتها من قبل ولم تتخيل كيف تبدو، فيما عدا ما كونه خيالها من نشرات الأخبار.
كانت تعرف أن فانتازيا لا تعبر عن حقائق الأشياء ولكن تعبر عن تصورها الخاص لهذه الأمور.. لهذا راحت تتساءل عن نسبة الحقيقة في هذا كله.. مثلا هل تفصل مطار (بن جوريون) أربع ساعات عن (رام الله)؟
لا تعرف.. لكن خيالها جعل الأمر كذلك.
هل نقاط التفتيش بهذا الشكل؟ هل الطرق بهذا المنظر؟ لا تعرف.. وتمنت لو ترى هذه الأرض العزيزة مرة أخرى في عالم الواقع.
عندما ترجلت من السيارة اقتادها (سلمان) عبر طرقات متعرجة يلعب فيها بعض الأطفال.. أطفال رائعو الجمال يرمقونها بعيونهم الواسعة.
في النهاية ترى تلك اللافتات التي تدين العدوان الإسرائيلي وتظهر شارون وقد علق شارة النازية على ذراعه أو رسم له شارب (هتلر). كانت العبارات على اللافتات مكتوبة بالفرنسية أو الإنجليزية.
وهناك وسط الأطفال وفوق ماسورة صرف غير مستخدمة جلست مجموعة من الشباب والشابات.. إنهم غربيون كما هو واضح من الشعر الأشقر ولون البشرة، لكنهم يربطون الكوفية الفلسطينية الشهيرة على أكتافهم. كانوا يداعبون الأطفال الفلسطينيين ويضحكون.

بالفرنسية قال (سلمان) للشباب في مرح:
- هذه (ماريا).. أرجنتينية.. وأشار للشباب.
هؤلاء هم أصدقاء العرب الذين جاءوا من بلادهم كي يدينوا الاحتلال الإسرائيلي.. وإنهم ليلقون أشد العنت من السلطات هنا، ويرغمون على نزع ثيابهم كاملة في المطارات ونقاط التفتيش، لكنهم مصممون على أن يؤدوا رسالتهم.
صافحها بعض الشباب في حماس.. وهتف أحدهم:
- يوشك هذا المعسكر أن يتحول إلى الفلامنكية لدينا ثلاثة إسبان وأرجنتينى آخر.
تساءلت فتاة بدينة زرقاء العينين:
- صحيح.. أين الأرجنتيني؟
- أين (ريكاردو)؟
أرجنتيني؟
صحيح.. أين هو؟
تشم (عبير) رائحة السيجار أولا.. ثم تراه.. يخرج من بوابة مدرسة أطفال على بعد عشرين مترا.. إنه هو.. صحيح أنه قص شعره وأزال لحيته لكن العينين لا تكذبان.. عيناه القويتان هما هما، لكن فيهما حيوية ونشاطا عارمين.. كأنه ولد من جديد.
الصورة ذكرتها نوعا ب. (جيفارا) الأصلي عندما كان متنكرا كرجل أعمال يزور الكونغو.. طبعا كان منظره معروفا في كل أرجاء الأرض، لذا أزال لحيته ووضع العوينات وحلق شعر رأسه ليبدو كأن الصلع قد زحف على مقدمته.. نفس التنكر يتكرر هنا تقريبا. لكن لا يقدر تنكر على خداعها هي.
لقد أتقن خطته.. إن البلاد تعج بناشطي السلام، فما أسهل أن يذوب وسطهم كناشط لاتيني آخر لم يكن يرتدي تلك الثياب شبه العسكرية بل يلبس قميصا شبابيا وسروالا من نوع (الجينز).. مما جعل منظره غريبا.. ثمة أشخاص يكتملون في ثياب بعينها فلا تتخيل منظرهم في ثياب أخرى.. مثل عمدة القرية الذي يرغم على ارتداء بذلة أو أمها لو لبست ثوبا قصيرا.. (جيفارا) من دون بزة عسكرية وبيرية يبدو سخيفا نوعا.
- (ماريا)!!
كذا هتف وركض نحوها فاتحا ذراعيه.
- لا تلمسني.. هذه مكافأتي الوحيدة!
تذكر هذه العبارة في اللحظة الأخيرة فتراجع وصافحها.
ثم همس، وهو يدنو منها:
- أرجو أن تكوني قد وجدت (سلمان) بسهولة.. لقد طلبت منه أن ينتظرك مهما تأخرت.. ماكنت لتجديني من دون عونه..
- إنه رجل شهم..
- كل من يعملون معي رائعون ومحل ثقة.
كانت هي قد قامت بالخطوة الأولى في البحث عنه.. لقد طلبت من صديقة أرجنتينية لها تعمل في إسرائيل أن تفتش عن وافد أرجنتيني جديد.. وافد يدخن السيجار ويعاني الربو.. وافد يتكلم عن الإمبريالية وثورات الشعوب ويحاول أن يجمع الرجال حوله.
كانت هذه هي الخطوة الأولى. الخطوة الثانية قام هو بها عندما أبلغها أنه سيرتب لها كل شيء إذا جاءت إلى إسرائيل.

وهكذا تم اللقاء بعد أربعة أشهر.. وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما....
قال لها باسما:
- المخابرات المركزية لا تقدر على العثور عليّ مهما حاولت، بينما أنت استطعت هذا..
- لأني أعرف طريقة تفكيرك.. أين يمكن أن يوجد (سي عمارة) الذي غادر العراق، إن لم يكن في فلسطين؟ كنت تكره إسرائيل كما كرهت (أمريكا)..
- إنهما وجهان للعملة ذاتها. العرب يتصورون أن إسرائيل دولة مدللة لدى الولايات المتحدة لا أكثر.. أنا كففت عن ذلك واعتبرتها جزءا أصيلا من الولايات المتحدة.. ولاية جديدة.. هذا يفسر أمورا كثيرة ويسهل التعامل معها.. لا يمكن أن تتخلى أمريكا عن إسرائيل إلا لو تخلت عن أوهايو أو كاليفورنيا. دعك من أن النشأة واحدة وهذا يحرك أسباب الحنين لدى الأمريكيين.. هم قاموا على جثث الهنود الحمر وإسرائيل تحاول القيام على جثث الفلسطينيين..
ثم طوح بالسيجار، وقال في مرح:
- سوف تظفرين بالراحة وحمام دافئ في بيت صديق عربي.. ثم أحكي لك عما أفعله هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- بداية جديدة..

نبت الياسمين والريحان في كل مكان.. عذوبة البيت الفلسطيني كما تصورتها دوما.. صورة (جيفارا) على أكثر من جدار.. الغريب أنك تجد صورة التشي إلى جانب بعض الآيات القرآنية الموضوعة في إطار ذهبي، وصورة القبة الخضراء.. هذا الخليط ممكن إذن وليس مستحيلا.
قال لها الأب وهو رجل في الخمسين كث الشارب أصلع الرأس يدعى (زياد):
- كنت أنا شابا عندما بدأت منظمة (فتح) عملياتها وبدأ الناس يسمعون عنها.. بالنسبة لنا جميعا كان (جيفارا) أسطورة والرمز الذي يقودنا.. قبل إعلان خبر موته كان شاب يدعى (مازن جودت أبو غزالة) يخوض معركة في منطقة (طوباس) استمرت ثلاثة أيام وقد فجر نفسه في الإسرائيليين عندما أوشك على السقوط في قبضتهم.. هذا الفتى كان من تلاميذ (جيفارا) ولم يدر أن أستاذه مات قبله بيومين.. لقد ألهم (جيفارا) جيلا كاملا..
سألته وهي تتحسس مواضع كلماتها:
- هل تعرف ذلك الرجل (ريكاردو)؟
قبل شهر لم أكن أعرف عنه حرفا.. إنه صديق أرجنتيني مثل (جيفارا) وهو يتكلم عنه طيلة الوقت لقد راق لي هذا..
كان الابن شابا ملتحيا أقرب في الميول إلى المقاومة الإسلامية.. هذا منطقي.. الأب من جيل الثورة ومكافحة الإمبريالية، والابن يميل لـ (حماس) وإن لم يرفض ميل أبيه الواضح لجيفارا.. هذا يفسر اجتماع صور (جيفارا) مع صور القبة الخضراء.. أما الأم فكانت امرأة فلسطينية طيبة تذكرها بأمها هي ذاتها.. وتأكدت من ذلك عندما قالت لها المرأة في لوعة:
- أنت نحيلة جدا.. ألا تأكلين جيدا؟ كيف لفتاة حلوة مثلك أن تظل كل هذا بلا زواج؟
ضيفة على هذه الأسرة الفقيرة الطيبة جلست على الأرض في جلباب عربي مزركش تتناول المنسف معهم. إن صديقة (ريكاردو) صديقتهم بالتأكيد.
تشرب الشاي ثم تدعوها الأم لساعات من الراحة في فراش أعدته لها.
إنها أول ليلة تمضيها في فلسطين حتى لو كانت فلسطين (فانتازيا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح دق الباب.
كان القادم هو (ريكاردو) أو التشى نفسه يدخل على الفور بلا حرج ولا مقدمات كان هذا بيته.
رحب به الأب فجلس على الأرض وأشعل السيجار الشهير، ثم بدأ حوارا بالإسبانية معها حتى لا يتابع أحد ما يقال:
- يبدو أن هذه البلاد ستروق لي.. إن أعضاء حركة فتح كلهم يعتبرون أنفسهم أبناء (جيفارا).. في ذلك العصر الذهبي قام يابانيان بعملية انتحارية من أجل الفلسطينيين في أوروبا في مكتب شركة العال متجاوزين بذلك حدود الجنسية.. وكان مسلسل خطف الطائرات في ذروته.. صورة التشي في كل بيت من بيوت هؤلاء صحيح أنهم تقدموا في العمر، لكن عالمهم يناسبني..
قالت (عبير) محاولة ألا تبدو كغراب البين:
- لكن الأمر ليس بهذه السهولة.. في العراق هناك حالة عامة من اللامركزية والفوضى، لكن هنا سوف تصطدم بالسلطة الفلسطينية أو الحكومة الإسرائيلية.

البلاد صغيرة غير مترامية الأطراف والحركة عسيرة. دعك من أنك ستواجه ذات المشكلة التي واجهتها في العراق.. أيديولوجيتك لم تعد تصلح، والمقاومة الوحيدة الفعالة هنا دينية..
- ومن قال إن مهمتي سهلة؟
عندما جاءت الظهيرة اصطحبها إلى المدرسة القديمة.. هناك كان نحو عشرة من الشباب الفلسطيني يجتمعون في الفناء.. لم تكن معهم أسلحة.. لكنهم كانوا يعاملون الرجل باحترام بالغ.
قال بالعربية لها وهو يشير لهم:
- هذا (راسم).. هذا (محمد).. هذا (إياد).. هذا (عبد الله)..
بالطبع كانت قد نسيت الأسماء كلها عندما وصلت إلى الاسم الرابع.. لكنها راحت تهز رأسها محيية.
كانت عيونهم تلمع بالعزيمة والتصميم كأبطال القصص..
عندما قدم العشرة قال لهم وهو يشير لها:
- (ماريا جونزاليس).. أرجنتينية مثلي.. مراسلة شبكة CDN..
قال أحدهم ممازحا:
- لكن ليس معك مصور ولا كاميرا..
قالت في شيء من الحرج:
- لم آت لمهمة رسمية.. قل إنني هنا للسياحة.
- هذا ما يقولونه للإسرائيليين..
- كنت أريد السؤال عن شيء مشابه.. ليس بينكم واحد مسلح..
قال الفتى الذي عرفت أن اسمه (عبد الله):
- نحن في مرحلة التثقيف الثورى كما يقول (ريكاردو).. لن يسمح لنا بحمل سلاح إلا بعد أن يدرك أننا صرنا نعرف ما نفعله.. بعدها يبدأ التدريب على السلاح ثم ننطلق..
- طريقكم شاق وطويل.. طويل أكثر من اللازم..
أخرج (جيفارا) نصف سيجار من جيبه، وقال وهو يشعله:
- لقد اعتدت هذا.. لاحظي أنك لم ترى ما قمت به في العراق كي أصنع ذلك الجيش الصغير.. هذه هي نصف المتعة.. أن يتحول الشباب العابث إلى جنود.
- ومن أين تنوي الحصول على سلاح؟
- أرخص وأسهل طريقة هي شراؤه من الإسرائيليين..
لاحظي أن لنا أصدقاء كثيرين في (فتح) وهم يعرفون مسالك بلدهم وأساليب التعامل مع هؤلاء القوم..
ثم أخرج كتيبا له غلاف أحمر ويماثل حجمه نصف هذا الكتيب الذي بين يديك الآن.. وجلس على رمال الفناء وقال للشباب:
- افتحوا كتبكم
أدركت دون جهد عنوان هذا الكتيب.. إنه تعليمات (ماو تسي تونج).. لقد كان (جيفارا) يحترم الصينيين، وبالذات (ماو تسي تونج).. وقد درس أفكاره دراسة مدققة.. والحقيقة التي لا يعلمها كثيرون هي أن الصينيين سبب وجود هذه النسخة الجينية في عالمنا.
أخرج كل شاب كتيبا مماثلا من حقيبته.. بدا ل. (عبير) أن التاريخ عاد للوراء ثلاثين عاما.. مستحيل أن ترى هذا المشهد في القرن الواحد والعشرين.. لكنه حقيقي.
وهكذا جلست كما تفعل في كل مرة تقاوم النعاس وتصغي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمر الأيام.

وتبدأ العمليات غريبة الطابع التي تستعمل فيها أساليب عتيقة لكنها فعالة.

كتبت الصحف الإسرائيلية عن هذه العمليات التي لم تتبنها أية جهة، وبدأ ذلك الهاجس الأمني من جديد.. العمليات ذات طابع (فتحوي) لا شك فيه، لكن الكوادر المعروفة من (فتح) لم تنفذها.

فقط تذكر ضابط مخابرات بارع يدعى (أموتاي ياريف) شيئا مماثلا.. شيئا سمعه في تقارير الأمريكيين التي تأتي من العراق يوميا.. تذكر كلاما غريبا عن رجل يتصرف مثل (جيفارا) وينفذ أساليبه، مع كلام أعجب عن تجربة استنساخ تمت بخبرات صينية في أوائل السبعينات.

- استنساخ؟.. صين؟.. سبعينات؟

بدا الأمر جنونا مطبقا لكل من سمع عنه، لكن (ياريف) كان ذئبا.. بتلك النظرة الوحشية على وجهه والضحكة الشيطانية، مع طريقته في التظاهر باللطف والرقة إلى درجة الأنوثة.. ترى هذا كله فتدرك أنه ليس بالخصم السهل.

كان (ياريف) ذئبا لهذا لم يسخر من الفكرة كما فعل الآخرون.. أرسل عملاءه يتبصصون ويراقبون.. واتصل بالأمريكيين في العراق، أولئك الذين عملوا مع رجل مخابرات اسمه (مورتون). وكانت التقارير كلها تتحدث عن مجموعة من الرجال يقودها رجل أرجنتيني يدخن السيجار بكثافة، وقد كاد الربو يقضي عليه.. لقد بدأ في تسليح هذه المجموعة الصغيرة وهو لا يكف عن التنقل من قرية لأخرى يدعو لحركته قالوا له في (الشين بيت):

- نحن نتكلم إذن عن مجنون يقلد (جيفارا)..

قال لهم:

- وأنا أتكلم عن (جيفارا) نفسه وقد ظهر في إسرائيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- نهاية جديدة.

البلدة التي اختارها للمبيت كانت تدعى (كفر الهجيرة).. قرية صغيرة قرب (رام الله) ولد فيها واحد من رجاله، وكان يعرف مسالكها وأهلها جيدا.
هكذا للمرة الألف وجدت (عبير) أن عليها قضاء الليل في مدرسة مهجورة صغيرة.. إن الليلة التي تقضيها بين أربعة جدران سليمة أو في حظيرة هي ليلة لا يمكن أن تحلم بها.
جلس الرجال المنهكون على الأرض وخلع أكثرهم حذاءه مما جعل الرائحة غير محببة، وقال (جيفارا)
وهو يتأمل الأحذية:
- أحذيتهم بدأت تبلى.. ذكريني بأن ننشئ مصنع أحذية في أقرب فرصة..
سأتذكر هذا..
لم يتخلص بعد من عقدة الحذاء المتين.. يحتاج الأمر لمحلل نفسي أكثر منه إلى خبير عسكري.
ساد الصمت فيما عدا صوت القضم والمضغ.. الرجال يتناولون العشاء.. لابد من الشاي وبالطبع يمكن تسخينه هذه المرة لأننا لسنا بين الأطلال.
سألته وهي ترشف كوب الشاي الورقي الخاص بها:
- حتى هذه اللحظة لم يتجاوز عملك الانقضاض على نقاط تفتيش.. غارة جيدة.. انسحاب منظم.. تلغيم جثث القتلى.. لكن ما هي استراتيجيتك؟
قال وهو يشعل السيجار:
- نحن بقعة نار صغيرة. استراتيجيتي هي أن تنتشر البقع في أكثر من موضع في فلسطين.. آلاف البقع.. هذا حريق لا يقدر الإسرائيليون على السيطرة عليه.. يجب أن يتحرك عرب فلسطين لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتجاوز الجدار العازل.. يجب أن نتعلم حفر الأنفاق وأن يدخل من هم خارج الجدار العازل إلى الداخل الإسرائيلي.. عملية هنا وعملية هناك.. إن استراتيجيتي هي نشر الثورة في كل مكان..
سه وهل هذا كاف؟
- سوف يرغم إسرائيل على الاعتراف بحقوق الفلسطينيين.
سيصير وضعهم أفضل..
كانت تشعر أن الأمر ليس بهذه السهولة.. هذا الوافد على البلاد منذ أشهر يعتقد أنه قادر على تحقيق ما تجاهد منظمات فلسطينية عدة للقيام به منذ ستين عاما.. إنه حالم كبير كما كان دائما.. ومن الواضح أنه لن يتوقف أو يفيق.
لهذا يبدو أحيانا كأنه ساذج كطفل.. إنه لا يعي جيدا حقيقة ما يدور من حوله ولا حقائق القوي.
وتكورت على نفسها في الركن وتثاءبت كالأسد وبدأت تغيب في عالم النعاس، عندما سمعت صوت الخطوات..
فتحت عينيها فوجدت أنهم مطوقون بالجنود الإسرائيليين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مد (جيفارا) يده إلى بندقيته الآلية.. من الغريب أن أيا من الجنود لم يحاول منعه.. صوبها إليهم وضغط الزناد
لكن الموت لم يخرج من الفوهة.. خرج صوت غريب يقول (بلوف بلوف بلوف).. نظر للفوهة في اشمئزاز ثم ألقي بالبندقية على الأرض، ومد يده إلي حزامه ليخرج المسدس، لكن طلقة دوت في أرجاء المكان ورأت (عبير) التشي ينظر ليده غير مصدق.. الدم يسيل منها كالمطر.
قال أحد الجنود بالعربية (الإسرائيلية) التي تسبب الاشمئزاز لمن يسمعها:
- لا تقاوم! إن طلقات أسلحتكم (فشنك) كلها.
رفع الرجال العشرة أيديهم لأعلى فأمرهم جندي إسرائيلي بأن يضعوها خلف الظهور، ثم دار عليهم يربط معاصمهم بحبال من البلاستيك.. فقط ظلت (عبير) و(التشي) واقفين بلا قيود
- خذوهم إلى السيارة..
همست (عبير) في أذن (جيفارا):
- ماذا حدث؟
قال وهو يضغط على أبنائه من فرط الألم:
- خيانة كالعادة.. هناك عميل لهم بين رجالنا، وقد بدل ذخيرتنا ونحن نيام..
- من هو؟
- لن نعرفه.. إنه أحد هؤلاء العشرة المقيدين. لن يفضحوه؛ لأنه قد يصلح مرة أخرى.
كان صف الرجال يتحرك إلى الخارج، بينما أمر أحد الجنود (عبير) و(جيفارا) بأن يبقيا حيث هما.. وفي هذه المرة قام بتقييدهما بهذه الحبال اللدنة الأقرب إلى السلك الغليظ.
وفجأة ودون سابق إنذار انهال الرجال على التشي ركلا ولكما.. حتى أنه سقط على الأرض والدم يسيل من أسنانه.. صرخت (عبير) غير مصدقة:
- أنتم وحوش! ماذا تخشون من رجل مقيد جريح؟
لكنها العادة الصهيونية الراسخة.. لماذا أؤذيك؟ لأنك أضعف من أن تؤذيني.. هذا سبب كاف.
ولكن التشى لم يمنحهم أي بهجة أو رضا.. كان يتلقى الضربات وهو يبتسم.. ونظرة التحدي في عينيه لم تتزحزح.
شعرت بأن هذا الموقف مألوف.. متى حدث هذا؟
ثمة شخص يدخل من باب القاعة فتوقف الحفل.
ميزت (عبير) السترة الخاكية والرأس العاري والبييريه الذي يضعونه دوما تحت (سبلايت) السترة.. عادة رجال جيش الدفاع، حتى أن أي ممثل مصري يريد تقليد مجند إسرائيلي يبدأ قبل كل شيء بوضع البيريه هناك الرجل يمشي بثقة وتؤدة.. كل شيء يدل على أنه زعيم هؤلاء.. يخرج من الظل ليصير في نور الشمس.. يضع جهاز لاسلكي على أذنه ويتكلم:
- نعم.. نعم. قل لهم إن بابا معنا.. وهو مريض..
ينزع نظارته السوداء ويرمق (جيفارا) و(عبير) للحظة ثم يصيح:
- إما أن تنكرك بارع جدا وإما أن هذه الحيوانات أساءت معاملتك أكثر من اللازم..
ثم ساعده على الجلوس، وبكثير من الحنان راح ينظف جراحه بمنديل ورقي.. ثم قال:
- فكرة حلق اللحية والعوينات ممتازة.. لدينا في (الشين بيت) عدة صور لك، وقد عالجناها حسب الاحتمالات المختلفة.. إن برنامج (أدوب فوتوشوب) برنامج رائع حقا.. لدي صورة لك وأنت أشقر أزرق العينين.. وصورة وأنت تتنكر كمطربي الروك.. لكن وجهك الحالي ليس من الوجوه التي لدينا.

ثم انحنى في احترام وقال:
- يمكنك أن تدعوني (پاريف).. (أموتاي ياريف)..
لا قيمة للأسماء الحقيقية في عالمنا.. خادمك المطيع صاحب فكرة استدراجك إلى هذه القرية.. عميلنا قام بالتأكد من أنك لن تقتل إسرائيليا آخر.. يجب أن تعرف أننا لن نسمح بوجود (جيفارا) هنا في أرضنا..
إن الانتحاريين الفلسطينيين جعلوا الحياة معقدة بما يكفي فلا ينقصنا ثائر من أمريكا اللاتينية.. لاحظ أننا أكثر براعة وقدرة من الأمريكيين والسبب أنهم نسوا فنون الاحتلال..
ومد يده يعبث في جيب التشى حتى أخرج نصف سيجار، وقال باسما:
- سيجار كذلك! يبدو أنك ملتزم بالقواعد حرفيا..
ودسه بين شفتى الرجل ثم أشعله له.. راح الدخان يتصاعد كثيفا من منخري التنين المقيد.
قال (ياريف) وهو ينفخ عود الثقاب:
- الأسباب تتعلق بالعدالة الشعرية خطر لي أنه من اللطيف أن أدعوك إلى هذه القرية.. (كفر الهجيرة).. هل لاحظت الاسم؟
هتفت (عبير) في ذهول، وقد فهمت:
- (الهجيرة).. (لا هيجيرا)..
قال الرجل في لطف:
- نعم.. أنت ذكية يا صغيرتي.. لاحظي تشابه الاسمين.. وهذه مدرسة خالية
صاحت في غضب:
- إنه مواطن أرجنتيني.. ليس بوسعك أن تؤذيه..
- نعم.. نعم.. المشاكل الدبلوماسية.. لهذا لن تكون هناك محاكمة.. للأسف لن تكون هناك محاكمة ولا تحقيقات.. سوف ننهي الأمر هنا والآن..
- لن تنجو من هذا..
- بالعكس.. سوف نفك قيوده وسوف يجدونه مقتولا.. عندها نتهم (حماس) أو (الجهاد).. إن خبر (العثور على جثة سائح أرجنتيني في إسرائيل) لن يبدو غريبا وسط هذا الجحيم..
ثم مد يده إلى حزامه وأخرج مسدسا صوبه إلى رأس التشي
نظر له التشي في ثبات والسيجار بين شفتيه وقال:
- لا تفعل إلا بعد أن أنهض على قدمي.. هلم.. اقتلني.. أنت فقط تقتل رجلا..
انطلقت الرصاصة لتجد طريقها بسهولة وسط أنسجة الصدر الذي امتلأ بحب المظلومين وكراهية الظالمين وسقط التشي على الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيني عليه ساعة القضا
من غير رفاقه تودعه
يطلع أنينه للفضا
يزعق.. ولا مين يسمعه
يمكن صرخ من الألم
من لسعة النار في الحشا
يمكن ضحك.. أو ابتسم.. أو ارتعش.. أو انتشى

يمكن لفظ آخر نفس
كلمة وداع لاجل الجياع
يمكن وصية.. للى حاضنين القضية
ف الصراع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صور كتير.. ملو الخيال
وألف مليون احتمال
لكن أكيد
أكيد أكيد
ولا جدال
جيفارا مات موتة رجال

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (ياريف) للجنود الواقفين حوله:
أطلقوا الرصاص كما يحلو لكم، لكن لا أريد طلقة فوق الخصر! أريد أن يظل وجهه سليما!
وهكذا انطلق الرصاص.. كل رصاصة كانت تنفجر في أعصاب (عبير) وقلبها وعقلها.. كانت تصرخ وتصرخ بينما الجثة تتلوى كأن لها حياتها الخاصة.
عندما توقف إطلاق النار، وعندما بدأ الدخان ينقشع وبدأت أذناها تسمعان، نظرت بعينيها الدامعتين إلى (ياريف) فوجدته ينظر لها في ثبات، وقال:
- معذرة يا صغيرتي.. أنت تقدرين موقفي.. لا أحد يحقد عليك لكننا لا نريد شهودا..
كان عليها أن تتوقع هذا
يرفع المسدس نحو رأسها.. تلك النظرة الحنون الرقيقة تثير جنونها.. لا يجب أن يكون هذا آخر مشهد تراه على وجه الأرض.. لا يجب.
هنا سمعت من يصيح:
- توقف!
ثم شعرت بيد توضع على كتفها.
يد المرشد.. إنها تعرفها من بين ألف يد.
يتراجع (ياريف) ومعه يتراجع الجنود الإسرائيليون ليفسحوا المكان وقد بدا بوضوح إنهم لا يتمنون أن ينفذوا الأمر.. لكن لا مجال للتفاوض هنا.
- أنت تأتي في الوقت المناسب دائما..
- لن أترك الاستمتاع في (فانتازيا) يقضى عليك.
ثم يقول المرشد وهو يفك قيدها:
أعتقد أنك اكتفيت بهذا القدر.. التشي قد لاقى نهايته من جديد.. لكن نهايته مكتوبة منذ اللحظة التي جاء فيها العالم.. إنه في عالم يفترس الأحلام.. إنه لم يغير الكثير في الواقع لكن أثره لن يمحى من النفوس..
نظرت إلى جثته الغارقة في الدم، وقالت دامعة:
- هل نتركه هنا؟

- بالتأكيد.. أعتقد أنهم سيلتقطون له بعض الصور.. هيا بنا..
قالت وهي تتجه معه إلى الباب دون أن تنظر للوراء:
- كم مرة جئت أنت لي وأنا أركع باكية جوار جثة؟
لقد صار هذا مملا.. (سيبويه) ثم (جيفارا).. (هانيبال).. إلخ.. ألن ينتهي هذا؟
- عندما تكفين أنت عن اختيار أبطال لا تكتمل بطولتهم إلا بالوفاة..
ترى الشمس في الخارج وترى أرض فلسطين..
لكنها ترى كذلك قطار (فانتازيا) يستعد للحركة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

.

يا شغالين ومحرومين
ومسلسلين رجلين وراس
خلاص خلاص.. ما لكوش خلاص
غير بالبنادق والرصاص
دا منطق العصر السعيد
عصر الزنوج والأمريكان
الكلمة للنار والحديد
والعدل أخرس أو جبان

أحمد فؤاد نجم 1968

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تجد (عبير) نفسها بين ساحر وأديب.. ساحر لا يؤمن بالسحر وأديب يؤمن به.. وكلا الطرفين يحاول إقناع الآخر برأيه.. إنها قصة غريبة لكنها حقيقية

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

<u>Link – لينك القنـاة</u>

فهرس المحتويات:

روايات مصرية للجيب

47

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق



الساحر وأنا



(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (47)

السـاحر وأنـا

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لا بد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكي) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- أرجـوك لا تفشـل..

اسمه (زيد).. وهو عبقرى..
كيف عرفت أنه عبقرى.. لا تعرف.. لكنها تمنت أن يكون كذلك، وفي بعض الأحيان نتمنى الشيء إلى درجة أننا لا نقبل ألا يكون حقيقيًّا..
نحيل هو. له تلك الأنامل الدقيقة الطويلة التى اعتدنا أن ننسبها لعازفي الموسيقا والجراحين البارعين.. عصبى بارز العروق توشك تفاحة (آدم) أن تقفز خارج عنقه.. يضع العوينات ويشبه آلافًا من خريجي الهندسة الذين تضع الدراسة عليهم ذلك الخاتم المميز..
قميص واسع ابتل إبطاه بالعرق وأخرجه خارج السراويل، فبدا كأنه خيمة تمتلئ بالهواء.. الجيب العلوى تطل منه علبة التبغ الأمريكية إياها.. من حين لآخر يتوهج الهاتف الجوال فيرفعه ليلقي نظرة على شاشته ويطلق سبة، لكنه لا يرد على أية مكالمة أبدًا.. فقط يعيده لمكانه على المنضدة ويواصل العمل..
حذاء رياضي خفيف.. سراويل جينز.. ساعد مغطى بالشعر والآخر خال منه.. شيء غريب، لكن ليس من حق الفتيات ولا الفتية أن يسألوا أيًّا كان عن سبب وجود الشعر على ساعد واختفائه عن ساعد آخر.. هذه من ألغاز الكون التى لن نعرف إجابتها أبدًا..
اسمه (زيد).. وهو يعرف ما يفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اليوم مبهجًا بالنسبة لـ (عبير)..
إنه إجازة من نادى ألعاب الفيديو.. فرصة ممتازة للخلاص من (مراد) بعض الوقت.. فرصة للاستيقاظ من الفراش فى ساعة متأخرة.. الطفلة نائمة جوارها فهى تصحو فى ساعة متأخرة، والشمس تتسلل من النافذة لتغمر الفراش بما تكوم عليه من كتب ومجلات..
أمس ظلت تقرأ حتى الرابعة صباحًا، وكلما أوشك النوم أن يغلبها قاومت حتى تبقى متيقظة.. من الحرام تضييع ليلة كهذه فى النوم..
هكذا قرأت الكثير من المجلات.. ومن بينها مجلة تتحدث عن قصة واقعية غريبة بعض الشيء.. وقدرت أن (فانتازيا) لن تفوت الفرصة لاستغلال هذه القصة يومًا ما..
عندما صحت من نومها أدركت أنها لا تشعر بصداع، وأن جسدها مستريح تمامًا..
الأم فى السوق.. أخوها فى المتجر.. لا يوجد ما يضايقها أو يشغلها..؟
لهذا اتجهت إلى جهاز الكمبيوتر الذى تحاصره الأسلاك موضوعًا فوق تلك المنضدة الفقيرة لكنها متينة كالحصون.. ماذا يمنع من أن..
لقد اعتادت أن تدخل (فانتازيا) على سبيل الفرار من واقع قاس مرير.. تدخلها وهى مهزومة.. لماذا لا تجرب أن تدخلها وهى.. لن نقول (منتصرة) ولكن نقول (غير مهزومة)؟ يوم منعش يبدو باسمًا وراحة تامة، وبضع دقائق فى عالم آخر لن تغير الكثير..
المشكلة الوحيدة أن تصحو الطفلة الآن فترى أمها فى هذا الوضع المريب.. مغمضة العينين وعلى رأسها خوذة تخرج منها عشرات الأسلاك.. هذا مشهد جدير بكوابيس أفلام الخيال العلمي لكنه لا يناسب تلك الصغيرة.
لقد حدث من قبل، لكن الطفلة زحفت إلى حيث كانت (عبير) وتحسست (تنورتها) ثم تسلقتها

حتى تمكنت من أن تضع يدها على خد أمها الجالسة.. هنا فتحت (عبير) عينيها لأنها لم تكن قد أتمت الرحلة بعد. الغريب أن هذا أثار رعب الطفلة أكثر لأنه بدا لها كما بدا المسخ لدكتور (فرانكشتاين) لحظة فتح عينيه..
سرعان ما مر هذا الموقف لكنه ظل يقلق (عبير)..
ألقت نظرة على الطفلة فأدركت أنها بالفعل نائمة بعمق.. هكذا ضغطت على زر التشغيل وبدأت تعد الخوذة إياها للوضع على رأسها..
لكن.. الجهاز لا يريد أن يعمل..
ترى تلك الأرقام التى تعلن بدء التشغيل، لكن بعد هذا تتجمد الصورة ولا يحدث شيء على الإطلاق..
سقط قلبها فى قدميها..
تلت البسملة وضغطت على زر الإطفاء ثم أعادت التشغيل..
لا شيء يحدث..
كانت تتوقع هذه اللحظة منذ زمن.. كل أجهزة الكمبيوتر تتلف وترى أصحابها يحملونها إلى الخبراء، فلماذا يصير هذا الجهاز استثناء؟.. لقد تحمل عدة سنوات دون أن يتلف خاصة أنه لا يوجد الآن (شريف) ليعني به.. لكنها فعلت ما هو مستحيل كي تبقيه حيًّا.. لم تستعمله لأى غرض على الإطلاق سوى دخول (فانتازيا).. لم تشغل عليه أسطوانة.. لم توصله بالإنترنت المزدحمة بالفيروسات النهمة.. لم تفتحه إلا لغرض واحد..
برغم هذا تلف..
انتظرت فى رعب حتى عادت أمها من السوق، ثم طلبت منها أن تعنى بالطفلة وسرعان ما كانت فى الشارع.. نحيلة واهنة الصحة مبعثرة الثياب تحمل الكمبيوتر فى حقيبة الخضر (كادت تحمل الشاشة ولوحة المفاتيح معها ثم تذكرت أنهما لا علاقة لهما بالكمبيوتر).. كانت تبحث عمن ينقذها.. عمن ينقذ (فانتازيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفوت) كان فى (كفر الشيخ).. لماذا يذهب (صفوت) ل (كفر الشيخ).. هذا من حقه على ما أظن.. لكن ليس هذا أنسب وقت لذلك.. ليس من أحد سواه يقدر على إنقاذ هذا الجهاز..
(شريف)... لم يبلغ الأمر هذه الدرجة من السوء لحسن الحظ..
اتصلت ب (صفوت) على هاتفه المحمول فرد بفم مليء بالطعام.. من حقه أن يأكل ويتلمظ.. فالورطة ليست ورطته..
قال لها إنه سيبقى فى (كفر الشيخ) مدة أسبوع.. أسبوع.. هل تنوى أن تصطاف هناك؟! جميل جدًّا.. فقط تذكر أن تحضر معك كسرولة لأضعها على رأسى.. حاول أن تتأكد من مواعيد الزيارة فى المصحة العقلية حتى لا تصير زيارتك بلا جدوى..
- هناك مهندس شاب بارع.. صديق لى.. اسمه (زيد).. ربما استطاع معاونتك.. سأعطيك رقم هاتفه.. فقط قولي له إن القرص الصلب يحوى برنامجًا مهمًّا.. يجب ألا يجرى له عملية تهيئة Format
برنامج مهم فقط.. إنه كل شيء بالنسبة لى..
عندما رد (زيد) على مكالمتها أخيرًا كان مهذبًا.. وإن كان مندهشًا من كل هذا الحماس.. حتى المخابرات المركزية لا تصاب بهذا الذعر عندما تتعطل أجهزة الحاسب الآلي لديها.
أعطاها عنوانًا لشركة كمبيوتر فى مدينة (نصر) وطلب منها أن تقابله هناك بعد ساعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أعتقد أنه لابد من تغيير القرص الصلب..
نظرت له فى رعب وهتفت:
- تغييره.. هل.. هل تلف؟!
- إن الأقراص الصلبة تتلف كأي شيء آخر..
- وهل يُتلف هذا البرامج الموجودة عليه؟
- أقول لك إننا سنركب قرصًا جديدًا تمامًا!
- لا أصدق أن الأمور بلغت هذه الدرجة من السوء.. هل يمكن استنقاذ المعلومات الموجودة على القرص القديم؟
فكر حينًا، ثم أشعل لفافة تبغ ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وقال:
- سأحاول.. لكن هذا عسير جدًّا.. لا أضمن النتائج..
- يجب أن تستطيع..
- بل كان يجب عليك أنت الاحتفاظ بنسخ احتياطية Backups ما دامت ملفاتك بهذه الأهمية..
ونظر لها فى شك.. لا تبدو عالمة نووية، ولا تبدو كذلك أديبة تحفظ النسخة الوحيدة من روايتها الجديدة على القرص الصلب.. ربما تحتفظ بمجموعة من المراسلات الغرامية مع أحدهم.. قد يفهم هذا.. لكن أى برنامج يمثل هذه الأهمية لهذه الفتاة؟
هاتفه المحمول يتوهج ويصدر لحنًا فيرفعه لينظر لشاشته ويطلق سبة، ثم يضعه حيث كان.. إنه لا يرد على أية مكالمة وكأنه يحمل كشافًا لا هاتفًا.. إذن كانت معجزة حقيقية تلك التى جعلته يرد على مكالمتها بالذات..
فوجئ بها تتجه إلى مقعد فى الغرفة الصغيرة المطلة على شارع (مكرم عبيد) فتجلس.. صاح فى رعب:
- هل تتوقعين أن أفرغ من هذا وأنت جالسة؟
- هذا ما توقعته بالضبط وإلا لما جلست..
- لا.. سوف تتركين لى الجهاز بعض الوقت.. حتى الإسكافي يطالبك بأن تحضري له حذاء غير الذى تنتعلينه فى قدميك، ويطلب منك المجيء غدًّا!
كانت تعرف هذه الحيلة.. عندما تذهب للإسكافي كانت تذهب له بالحذاء المطلوب إصلاحه فى قدميها.. كأنه تمزق حالًا وهى تمشى.. هكذا لا تدع له سبيلًا إلا أن يطلب منها الجلوس ويناولها قطعة من الورق المقوى تريح عليها قدميها، ثم يصلح الحذاء أمامها..
لكنها لا تستطيع أن تزعم أن الكمبيوتر كان فى قدميها عندما جاءت هنا..
- ومتى تنتهى؟
- لا أدرى.. اتصلى بى غدًّا فى السابعة مساء..
- لن تزيل أى برنامج.. هه؟
- لو استطعت..
على الباب توقفت، وقالت بهمس لم يسمعه:
- أرجوك.. أعده سليمًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مزاجها سيئًا فى البيت، وقد سألتها أمها عما هنالك فقالت فى اقتضاب إن معدتها تؤلمها..
في حياة كل منا أشياء ثمينة جدًّا، لكنها تجعل الآخرين يتهموننا بالتفاهة أو الضحالة أو الجنون إذا عرفوا بها، ونتهمهم نحن بالغباء وتبلد المشاعر عندما يبدون سخريتهم..
لا.. أمها ستفهم موضوع ألم المعدة لكنها لن تفهم موضوع تلف الجهاز أبدًا..
وعندما استلقت فى الفراش أخيرًا، رأت بعين الخيال (زيد) وأمامه مطفأة تبغ تكومت فيها الأعقاب، وهو ساهر يحاول أن يعيد إلى الجهاز حياته السابقة..
أرجوك لا تفشل.. لا تفشل..
ولا تدرى متى نامت..
ولا تدرى متى انتقلت فى صمت إلى (فانتازيا)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- لم تبق إلا دقيقة..

للمرة الأولى لم يكن (المرشد) سعيدًا، ولم يبتسم ابتسامته السمجة إياها..
قال لها فى ضيق:
- أنت تعرفين أنك هنا حسب قانون الصدفة.. قد يكون هذا لقاءنا الأخير فعلًا.. من دون الجهاز يصير لقاؤنا مرتبطًا بتداعيات عقلك الباطن.. حدث هذا مرة أو مرتين، لكنه معدل غير مريح على الإطلاق..
قال مغتاظة:
- أعرف كل جوانب الموقف فلك الشكر.. هذا المهندس يحاول إصلاح (فانتازيا).. فإما أن ينجح وإما أن يفشل فلا تعود هناك (فانتازيا) فى حياتي..
شارد الذهن نظر خارج نافذة القطار، وقال:
- الحقيقة أننى أجدر منك بالقلق والضيق.. من دون (فانتازيا) لا وجود لى على الإطلاق.. أنا كائن صنعه خيالك ومن دون خيال ينتهى أمرى.. أنت تتحدثين عن فقدان الحلم.. وأنا أتحدث عن فقدان الوجود..
- الحلم هو الوجود!
- يسهل أن تقولي هذا.. لقد أعطاك الله القدرة على أن تغمضي عينيك وتريحى رأسك على وسادة لتنالي الحلم.. يمكنك أن تغلقي صفحة الكتاب وتطيلي التحديق فى نقوش البساط وهكذا تحلمين وأنت مفتوحة العينين، حتى لو قيل إنك تعيشين أحلام اليقظة وضربتك المعلمة بكتاب الرياضيات على رأسك.. كل إنسان يحلم إذا أطال التحديق فى النار أو البحر.. أما أنا فليس لى وجود بديل من دونك..
- الحلم يعنى وجودك تلقائيًّا..
- لقد حلمت من دونى عشرين عامًا.. سوف تتعلمين الاستغناء عنى بالتدريج..
قالت فى محاولة للمرح:
- لننس هذا ولنتحدث عن مغامرة اليوم.. هل لديك مانع؟
- لا..
ثم إنه جذب حبل القطار فتوقف..
قالت له فى دهشة:
- لم تعرض علىّ أى خيارات..
- وأنت لم تستعملي الجهاز.. هل نسيت؟!
لكنها كانت تعرف المنظر.. رأته مرارًا من قبل.. هذه هى (نيويورك) فى أوائل القرن.. ربما عام 192 أو 1930.. لو كانت خبيرة فى طراز السيارات لاستطاعت التحديد بدقة، لكنها كانت تقسم السيارات إلى نوعين: (أوتومبيلات): وهى التى يجلس فيها (عماد حمدي) مع (شادية) ووراءهما خلفية ساذجة توحى بالطريق معروضة بطريقة (الباك بروجشكن Back projection) على حين تغني هى ويتظاهر هو بأنه يحرك الدركسيون.. النوع الثانى من السيارات: هى السيارات التى نعرفها!
على أن سيارات هذا العصر كانت أقرب إلى السيارات التى تراها فى أفلام (شابلن) أو التى رأتها عندما كانت فى قصة (المافيا) إياها..

كان هناك رجال شرطة يصنعون بأجسادهم دائرة.. رجال مطافئ.. هل هو حادث.. المشكلة أنها فى مركز الدائرة فعلًا..
لكن لماذا ينظر الناس جميعًا إلى السماء؟! لماذا يضعون النظارات المقربة على عيونهم؟! لماذا يشهقون؟!
رفعت رأسها فلم تحتج إلى جهد كبير كى تدرك أن هذه هى (الإمباير ستيت Empire State) مركز الحضارة الأمريكية.. مركز الرأسمالية قبل أن يظهر برجا (مانهاتن) وقبل أن يتهاويا.. كانت قد رأت صورًا من فيلم (كنج كونج) وتعرف جيدًا أن هذه البناية كانت الأعلى فى العالم وقتها؛ لذا اختارها (كنج كونج) ليحمل حبيبته (فاى راى) إلى هناك..
من قمة البناية يتدلى حبل.. وفى نهاية الحبل ترى بصعوبة - لبعد المسافة - جوالًا كبيرًا يلتف بجنازير عملاقة.. المشكلة هى أن الحبل يشتعل! هناك نار تحرقه ولا شك أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتهاوى الجوال..
رجال الشرطة يبعدون المارة وهم لا يرفعون عيونهم عن السماء.. جو عام من التوتر..
ثم ينظر لها أحدهم نظرة ذات معنى (لكن أى معنى بالضبط؟!) ويقول:
- لم تبق إلا دقيقة!
ما دخلها بهذه المعلومة.. لكنها ترى انعكاس ثيابها فى واجهة متجر، فترى (مسخرة) حقيقية.. إنها تلبس ثيابًا عجيبة قصيرة أقرب إلى فتاة استعراض.. لهذا هى تقف وسط الدائرة، ومعنى هذا أن استعراضًا يتم.. ولكن ما هو؟
الحبل يحترق أكثر.. وهى تزداد رعبًا..
لقد فهمت.. هناك رجل يتدلى من الحبل وقد تم ربطه بالجنازير.. ويبدو أن على هذا الرجل أن يتحرر قبل أن يحترق الحبل بالكامل.. تلك السقطة لن تكون هينة أبدًا لأنه لا توجد شبكة أمان.. هذا الأحمق المعلق أعلاها يثق بنفسه أكثر من اللازم..
صرخت فى رجال المطافئ بلهجة (نيويوركية) ممتازة:
- هل تقفون... لماذا لا تفعلون شيئًا؟!
قال أحد الرجال، وهو يمس قبعته ذات الشكل المميز:
- لا نستطيع يا سيدتي.. مهمتنا هى منع امتداد حريق من الحبل المشتعل فقط!
إنهم مجانين.. ولماذا يقدم شخص بكامل قواه العقلية على خطوة كهذه.. الانتحار.. إذن لماذا كل هذا التعقيد؟!
قطعت خواطرها صيحة طويلة تصاعدت من آلاف الحناجر.. صيحة لا علاقة لها بالرعب..
رفعت عينيها لأعلى ففوجئت بأن الجوال ممزق، وأن رجلًا يقف على إفريز نافذة، وهو يلوح بيده محييًا الجماهير..
هنا فقط انقطع الحبل وتهاوى إلى الشارع وخلفه نهر من الشرر.. فصرخ الناس وابتعدوا..
كانت ترمق المشهد عندما أغشى عينيها وهج ساطع أصابها بالعمى مع صوت (بوم!).. عندما استعادت بصرها أدركت أن هذه هى الفلاشات.. فلاشات آلات تصوير يحملها صحفيون عتيقو الطراز، عندما كان الصحفي يشعل الماغنسيوم ليعطي وهجًا يسمح بالتقاط صورة، وعندما كان يدس فى قبعته بطاقة تحمل اسم الجريدة التى يعمل فيها..
سمعت الصراخ والتهليل.. وامرأة باكية مولولة ركضت لتحتضنها، وقالت فى حماس:
- ل.. دق.. سدك.. جك.. هىء هىء!
ثم تمخطت فى كتف ثوب (عبير)، وعادت تقول بوضوح أكثر:

- لا أصدق.. أنا أحسدك على أن هذا الرجل زوجك!
وانقض عليها صحفي يسألها، وهو يصوب قلمه كالخنجر فى وجهها:
- بم تشعرين وأنت زوجة (هودينى)؟
هنا فقط تصلب الشعر فى مؤخرة عنقها..
الآن تفهم أين هى ومن هى....
(هودينى)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- زوجي العظيم..

عندما هبط (هودينى) إلى الأرض أخيرًا كان مرهقًا غارقًا فى العرق، لكنه يتمتع بروح مرحة حقًّا.. أمكنها أن تراه بوضوح وأدهشها أنه قصير القامة لكنه مكتنز العضلات مشدود كالوتر، من الطراز الذى نطلق عليه (مدكوك).. ذلك الجسد الغريب الذى يذكرك بجسد (مارادونا) لو أن هذا الأخير كان أكثر رشاقة..

التف الناس يهنئونه.. وكانت هى الآن قد فهمت كل شىء..

(هارى هودينى Houdini) عبقري الهروب.. الأب الشرعي لكل تلك الألعاب التى يتم فيها تقييد الساحر أو وضعه فى تابوت أو غمره تحت الماء، ثم الانتظار حتى يحرر نفسه بطريقة عبقرية غير مفهومة.. من تحت عباءته خرج كثيرون، وأشهرهم عندنا فى مصر (ديفيد كوبرفيلد) الذى ما زال كثيرون يعتبرونه قد باع روحه للشيطان..

لما التقت عيناهما، قال باسمًا:

- هل كان العرض طيبًا يا (بيس)؟

إذن هذا هو اسمها.. وهو اسم غريب لم يرق لها كثيرًا.. لو عرفت أنه تدليل لاسمها الحقيقي (فلهلمينا بياتريس رانر) لوجدت أنه اسم لطيف حقًّا..

قالت له فى مرح:

- رائع.. لقد توقف قلبي رعبًا للحظات لكن هذا كل شىء..

قال وهو يجفف العرق:

- لم أستطع أن أتقيأ المفتاح المختار! لهذا اضطررت لاستعمال دبوس الشعر!

تقلصت معدتها لدى سماع هذه المعلومة.. فى الحقيقة كان (هودينى) يجيد هذا الفن العجيب.. أن يخرج من معدته المفتاح الذى يريده بالذات..

المعلومة الأخرى المهمة هى أن (هودينى) بدأ حياته صبيًّا لدى صانع أقفال، وكانت هذه الخبرات الغريبة هى التى أفادته فيما بعد فى فتح كل الأقفال الصعبة التى يواجهها!

وقف أمام الصحفيين.. كله مهابة وخيلاء واستعراضية.. من المفيد دومًا أن يكون المذيع أو العارض نرجسيًّا إلى حد الجنون.. لعل هذه هى الفائدة الوحيدة للنرجسية..

قال لهم:

- أما وقد رأيتم عرضي فإنني أدعوكم لحضور العرض القادم.. إنه عبارة عن فرارى من زجاجة لبن عملاقة سيتم غمسى فيها وأنا مقيد تمامًا..

هتف أحد الصحفيين:

- جرّبها (جيمس والاس) من قبل..

ضحك (هودينى) وقال بلهجة ذات معنى:

- ومات غرقًا! فى العادة لا نعتبر الفقرة ناجحة إلا لو ظل الساحر حيًّا! وإلا فإن كل الموتى فى قبورهم سحرة شديدو البراعة!

ثم أشار لصدره، وهتف:

- أنا (هارى هودينى) سأفعلها!

ووقف يوقِّع الكثير من الأوتوجرافات.. كانت هناك فتيات كثيرات، وأدركت (عبير) أن لحظات صعبة تنتظرها؛ لأن السيد زوجها يروق للفتيات كثيرًا.. لابد أن زوجته الحقيقية كانت تتمتع

بأعصاب من حديد..
من بين المتزاحمين ظهر رجل وقور ضخم الجثة كالكابوس.. كان له شارب كث أنيق ينحدر على جانبي فمه، ويلبس بذلة من (التويد) تتدلى من صدارها عدة سلاسل.. كل شيء فيه يوحى بأنه لورد إنجليزي، أو...
- سير (آرثر)!
كذا صاح (هودينى) وهو يشق طريقه وسط بحر المعجبات..
إذن فهذا الرجل الضخم إنجليزي كما توقعت فعلًا.. وهو (سير) كذلك.. ليس (سير موتور) طبعًا، وإنما هو يمثل بريطانيا فى عهد الإمبراطورية..
قال (السير) المذكور:
- (هارى)! أنت عاجز عن الفشل!
قال (هودينى) بتواضعه المعروف:
- فعلًا.. هذا هو الشيء الوحيد الذى عجزت عنه تمامًا.. أعتقد أن هؤلاء الذين يفشلون عباقرة أو موهوبون..
فليساعدها الله.. إن التعامل مع هؤلاء الذين يعانون (الميجالوثيميا) - تضخم الإحساس بالذات - صعب فعلًا..
قال المدعو سير (آرثر):
- إننى راغب فى دعوتكما إلى العشاء هذه الليلة لو لم يكن لديك مانع؟
قال (هودينى):
- أنت ضيف على بلادى يا سير (آرثر)..
- فلتنس هذا.. إننى لم أكفَّ عن اعتبار الولايات المتحدة وطنى كذلك..
هكذا اتفق الرجلان على موعد فى مطعم فاخر هذه الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام المرآة يقف (هودينى) يصفف شعره بعناية.. كانت هي قد ارتدت ثوبًا أنيقًا وجدته فى خزانة ثيابها.. قالت له فى ضيق، وهى تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار:
- سوف نتأخر عن موعدنا..
قال وهو ينتزع شعرة من رأسه:
- شعرة بيضاء.. لو رآها الناس لحسبوا أن (هودينى) العظيم قد دبَّت فيه الشيخوخة..
يا لغرابة الموقف! من المعتاد أن يقف الرجل عجولًا نافد الصبر بينما زوجته أمام المرآة، أما هنا فالوضع ينقلب تمامًا.. إنها متأهبة منذ نصف ساعة..
فى النهاية التفت لها، وقال:
- بالنسبة لذلك الصحفي (راينهارت).. لقد كان يقف جوارك طيلة العرض.. كنت متدليًا هناك من أعلى ورأيته يقف جوارك.. إن نظر (هودينى) حاد كالصقور..
إذن هناك صحفي يدعى (راينهارت) وهو يحوم حولها.. للمرة الأولى تعرف هذا..
قالت فى شيء من التشفى، وبلهجة مسمومة:
- غريب.. كنت أحسب السيد (هودينى) هو الوحيد المحاط بالمعجبات..
- هذا جزء من عملي.. من عملنا.. أنت كنت فتاة أكروبات وتعرفين أهمية أن يكون المرء لطيفًا مع المعجبات..

- ويجب أن يكون كذلك مع الصحفيين أيضًا..
نظر لها نظرة نارية.. من الجميل أنه يغار إذن.. هذه علامة صحيَّة.. الرجل الذى يغار يبرهن على أنه قادر على التفكير فى شيء واحد غير ذاته.. والرجل الذى يغار يبرهن عن نقطة بشرية واحدة على الأقل فى أعماقه.. أنه يخشى أن يفقد من يحب..
هنا دق الباب قبل أن يرد، فاتجه ليفتحه..
الفتى النحيل العامل فى الفندق نظر لـ (هودينى) العظيم فى إكبار، ثم ناوله برقية.. فضَّ (هودينى) الظرف، وألقى نظرة على محتواها، ثم هتف:
- سير (آرثر) يعتذر عن موعد العشاء.. لقد تُوفِّى ابنه!
صاحت فى ذهول:
- توفى ابنه وما زال بوسعه أن يرسل برقية يعتذر بها عن العشاء؟!
- لا تنسى أنه بريطاني.. المواعيد هى شرفه.. يقول إنه سيحاول العودة إلى بريطانيا حالًا.. أرى أن نذهب للعشاء فى مطعم آخر..
- أرى أن ترسل له برقية عزاء أولًا...
- بالتأكيد.. لكنى سأرسلها إلى بريطانيا..
تنهَّدت وفكرت.. لقد كان مجيئها إلى نيويورك نحسًا على شخص واحد على الأقل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- فى قبضة الوسطاء..

عندما هاجر (إريك فايس) المهاجر المجرى الفقير مع أسرته إلى الولايات المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر، لابد أنه وقف يرمق تمثال الحرية على ظهر السفينة التى تحمله إلى (مانهاتن) وهو لا يعرف ما يخفيه له الغد خلف وجه (الآنسة حرية) الروماني البارد الصامت..
كان أصغر من أن يراه وجه غانية ملطخة بالأصباغ كما حدث مع مخرجنا (يوسف شاهين)..
كان (فايس) طفلًا فى الرابعة من عمره، لهذا كان التأقلم مع ذلك العالم الجديد سهلًا نسبيًا..
عمل لفترة فى بيع الصحف، ثم كما عرفنا من قبل عمل فى إصلاح الأقفال وهى خبرة ظل يحمل لها العرفان طيلة حياته..
عام 1891 قرر أن يحترف مهنة السحر.. بعبارة أدق يحترف الشعوذة.. السحر القائم على خفة اليد والذى يقدمه الحواة على المسارح وفي السيرك.. واختار لنفسه اسم: (هارى هوديني) لأنه كان معجبًا بساحر فرنسي شهير اسمه: (جان روبرت هودان)..
في البداية مارس ألوان السحر المعروفة.. الأرنب من القبعة.. أوراق اللعب.. العصا السحرية.. بالطبع لابد من المرأة التى ينشرها إلى نصفين وكرات (البنج بونج) التى يخرجها من فمه.. إلخ..
وفى العام 1900 قرر أن يتجه إلى مجال محبب جدًا من فنون السحر هو (الهرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الأيام التالية عرفت (عبير) الكثير من تفاصيل حياة هذا الرجل غريب الأطوار.. المتمتع بذكاء مخيف ولياقة جسدية جديرة ببرغوث!
كان (هوديني) يمارس ألعابه معتمدًا على لياقة جسدية غير عادية.. عندما يلفون الحبال أو السلاسل حول جسده كان ينفش عضلاته إلى نهايتها، هكذا ترتخى القيود عندما يرخى عضلاته.. هذا الأسلوب الذى يمارسه الحواة فى الأسواق عندنا على طريقة (أنا عاوز تلاتة يكتفوني) الشهيرة.. لم تكن (عبير) منبهرة بهذا بشكل خاص لأنها رأت (أبو شبكة) يؤديه فى الموالد كثيرًا.. وكان المذكور يبتلع النار كذلك ويضرب صدره بحجر زنته 30 كيلوجرامًا، ولم يحتشد حوله الصحفيون ولم تخصص له المجلات أغلفتها..
أما طريقة فتح الأقفال عند (هوديني) فكانت تعتمد على ترسانة لا تنتهى من الحيل.. منها ضرب القفل فى موضع معين يعرفه هو، والمفاتيح الدقيقة التى يخفيها فى كل مكان.. (هوديني) من القلائل الذين يستطيعون إخراج المفاتيح من معدتهم وقت الحاجة..
أضف لهذا أنه كان مخرجًا مسرحيًا بارعًا وكان يجيد تصميم العرض بحيث تنقطع أنفاس المشاهدين.. فى بدايات ممارسته لمهنة الهرب كان يؤديها خلف ستار.. أى إن تقييده يتم على المسرح ثم يسدلون ستارًا عليه وعندما يزيحون الستار يكون قد تحرر.. هذا أدى لاتهام الصحفيين له بأن مساعديه يتسللون وراء الستار لفك قيوده..
كانت هناك إشاعات أخرى عن أنه يؤدى العرض، ثم يظهر أخوه الذى يشبهه كثيرًا أمام الجمهور..
هذا ما دفعه إلى اتخاذ سياسة جديدة لم يتبعها الحواة من قبل، هى أن يؤدى الفقرة كاملة أمام عيون المشاهدين.. أى أنهم يرون كل تفاصيل الهرب لحظة بلحظة، والغريب أن هذه الطريقة زادت من نجاحه وجعلت عروضه مثيرة تقطع الأنفاس..

أما عن (عبير) زوجته فكان دورها سخيفًا جدًّا يتلخص فى أن تقف بثياب الاستعراض، وتبدى الرعب على زوجها عندما يكبلونه.. ثم يظهر زوجها حيًّا سليمًا، فترفع ذراعها لأعلى وتأتى بحركة راقصة بساقيها، ثم تقبّله أمام الصحفيين..
هذا كل شيء..
ولكن كان من المتوقع مع حياة كهذه أن يكون لديه أضيق وقت ممكن للتعامل معها.. معظم الوقت كان يقضيه مع مدير أعماله يتدارسان العرض القادم..
- التابوت فكرة ممتازة.. سيتم لفّى بالكامل فى الأكفان والأربطة كمومياء فرعونية، ثم أوضع فى تابوت ويتم دفني أمام الشهود.. المفترض أن أخرج خلال عشر دقائق وإلا انتهى الأكسجين وقُضى علىّ!
فيقول المدير وهو يفكر فى عمق:
- لا أرى هذا.. يمكن استخدام فكرة الأربطة والأكفان، لكن يتم تكبيلك بأثقال حديدية، وتأتى سفينة لتلقى بك فى المحيط.. يجب أن تخرج خلال خمس دقائق وإلا اختنقت..
يهز (هوديني) رأسه فى حماس:
- جميل.. وبالطبع سأستعمل أسطوانة أكسجين مخفية تتيح لى بضع دقائق إضافية.. عندما يطول الوقت، وييأس الجميع من خروجى حيًّا سوف أخرج لهم من تحت الماء ملوِّحًا..
- ربما يمكن أن تتشبث بزعنفة درفيل وتلبس مثل (نبيتون)..
- هذا عسير.. لا يمكن العثور على درفيل بهذه السرعة..
- ربما عروس بحر.. يمكن أن نجد غواصة بارعة تضع قدميها فى سراويل لها شكل الزعنفة..
كانت هى تصغى وهى موشكة على الجنون.. هذان المخبولان يناقشان الطريقة المثلى لتحويلها إلى أرملة.. هل هذه المشاعر طبيعية.. هل (هوديني) مجرد ساحر بارع أم هو مريض بدرجة ما من (الماسوشية) بحيث لا يشعر بلذة إلا عندما يرى نفسه مقيدًا معدوم الحيلة.. هناك خلل نفسى اسمه (التافيفيليا) حيث يولع المريض بفكرة الدفن، وتجده يتكلم عن الموت باشتهاء وتلذذ.. لكنها تلعب دور زوجة (هوديني) المتفهمة التى تشجعه على النبوغ؛ لذا تصمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة وصلت (هوديني) من إنجلترا.. كيف عرفت أنها إنجلترا.. لأنها البلد الوحيد الذى لا يكتب اسمه على طوابع البريد.. وقد استلقى (هوديني) فى مقعده الأثير وهو يريح قدميه فى خفهما الصوفي على مسند ويطالع الرسالة باهتمام.. ومع الرسالة كان هناك طرد ملئ بكتب ما..
قال لها لما انتهى من القراءة:
- هذه رسالة من سير (آرثر)..
ثم بدا عليه الهم وراح يفكر فى عمق:
- إن حالة الرجل العقلية تثير قلقي.. لم أتوقع أن تؤثر فيه وفاة ابنه إلى هذا الحد يبدو أن السؤال الأبدي ظل يؤرقه: ماذا يحدث بعد الموت؟! ذلك السؤال الذى لن نعرف إجابته أبدًا لأن أحدًا لم يعد من هناك..
قالت وهى تضع قدحًا من الشاي أمامه:
- الأديان تقدم هذه الإجابة..
- السير (آرثر) نشأ نشأة كاثوليكية صارمة، لكنه غير متدين.. إنه ينتمى لمذهب (اللا أدرية agnosticism).. أى أنه يرى أن عقلنا البشرى غير قادر على معرفة الحقيقة.. لهذا وقع فى أشد الشراك سذاجة.. لقد سمح لنفسه بأن يزور وسيطًا روحانيًّا استحضر له روح ابنه.. يقول سير

(آرثر) إن الوسيط كان يتكلم أثناء الجلسة بصوت ابنه، ويقول كلامًا لا يعرفه سوى ابنه.. إنه واثق من أن روح ابنه قد اتصلت به..
قالت (عبير):
- أنا لا أؤمن بتحضير الأرواح..
صاح فى حماس:
- وأنا لا أؤمن به البتة، لكن العجوز طيب القلب يريد أن يصدق هذا.. يريد أن يعتقد أن ابنه يتصل به فعلًا.. هكذا سيترك نفسه فريسة للنصابين..
وراح يحكى لها كيف أن السير (آرثر) - حسب الخطاب – التحق بالجمعية البريطانية للبحوث الروحانية التى ضمت أسماء مثل رئيس الوزراء البريطاني (بلفور)[1] و(ألفريد راسل) و(ويليام جيمس).. لقد حققت الجمعية فى قصة معتادة جدًا عن بيت مسكون.. عن كلب يرفض دخول أجزاء معينة من البيت، وزوجة تسمع سلاسل تجرّ على الأرض ليلًا.. وقد كلف سير (آرثر) بتقصى هذه القصة، وقضى ليالي سوداء فى المنزل إلى أن سمع زئيرًا ذات ليلة.. ثم غادر البيت دون أن يتأكد مما إذا كان مسكونًا أم لا.. لكن بعد فترة اتضح أن هناك طفلًا قتيلًا مدفونًا فى الحديقة، وقد جعله هذا على ثقة تامة بأن قصص البيوت المسكونة حقيقية.
- لقد صار صديقًا حميمًا لـ (دوجلاس هوم Hume)..
- وهل هذا مهم؟
- الرجل وسيط روحانى أسكتلندي شهير.. بالنسبة لى هو نصاب اسكتلندي شهير..
لم يبد لها الأمر مهمًا لهذا الحد، فقالت:
- ما دام هذا يريح سير (آرثر) فلتدعه. ما دام هذا الاهتمام لا يكلفك مالًا أو جهدًا أو يدخلك السجن فليعتقد ما يريد..
دسّ الخطاب فى جيب (الروب) الذى يرتديه، وقال:
- أشعر أن هذا الرجل طفل كبير ضخم غرير.. وأن علىّ أن أحميه من نفسه..
تذكرت شكل الرجل الضخم المهيب بشاربه الكثّ، وبالفعل بدا لها ساذجًا إلى حد ما.. لقد صار عرفًا أن ضخام الجثة أطيب قلبًا من سواهم حتى صار الاستثناء غريبًا..
يسهل على من يرى (هودينى) بجسمه الضئيل الماكر أن يدرك أنه ليس بالرجل سهل المضغ على الإطلاق.. (كل قصير مكير) كما كان معلمها فى الصف يصف صديقتها (سوسن) التى كان يدللها بـ (سوسة)..
مد (هودينى) يده إلى الطرد وأخرج مجموعة من الكتب، وقال فى سخرية:
- يتوقع منى أن أقرأ كل هذا الهراء وأبدى رأيي.. لا يعرف أننى مشغول جدًا..
تأملت العناوين فقرأت عبارات لا تبعث الطمأنينة فى النفس مثل: (الإلهام الأخير) و(الرسالة الحيوية) و(تهاويم روحانى) و(قضية التصوير النفساني).. على الأقل هى تعرف شيئًا عن الموضوع الأخير.. الوسطاء الذين يلمسون الكاميرا؛ فيسجلون أحلامهم على الفيلم..
قال (هودينى) وهو يرتّب الكتب:
- على كل حال هى سميكة وصالحة لاستبدال أرجل المناضد المكسورة.. لا أحب السير (آرثر) إلا عندما يكتب قصصًا بوليسية..
ثم تنهد، وأردف:
- لا أدرى لماذا لم يرزقه الله بشيء من ذكاء بطله (شيرلوك هولمز)!
هنا ارتجفت (عبير) من جديد..

إذن سير (آرثر) لم يكن سير (آرثر) فقط..
إنه سير (آرثر كونان دويل Doyle)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- قدوم الحوريات..

(آرثر كونان دويل) ذلك الأديب البريطاني العبقرى الذى قدم للعالم شخصية (شيرلوك هولمز).. ذلك المخبر الموهوب عازف الكمان قوى الملاحظة الذى لا يفوته شىء، وهو (دويل) ذات الرجل الذى قدم (العالم المفقود) و(النطاق السام).. لقد قابلت (عبير) (هولمز) مرارًا فى (فانتازيا) لكنها لم تلق مؤلفه..
إذن هناك صداقة حميمة تربط بين هذا المؤلف، وذلك المشعوذ الأمريكي الشهير (هوديني)..
هذا شيء لم يخطر ببالها قط.. فى الواقع ما دامت قد صنعت قصة كاملة عن الموضوع، فهى قد قرأته.. لكنه لم يعُلّق بذاكرتها ونسيته فى زحام الحياة.. فقط لا شيء يُنسى فى العقل الباطن..
كل شيء يستقر فى البالوعة يتحيّن لحظة الخروج.. ومتى يخرج إن لم يكن فى الحلم؟!
متى يخرج إن لم يكن فى فانتازيا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت (عبير) مع رجال الشرطة خارج تلك البناية العتيقة..
كان هناك صحفيون وجمهور مشاهدين.. بالتالي يتعلق الأمر - طبعًا - بمحاولة هروب يقوم بها (هوديني)..
الزحام والأضواء تجعل وعيها يضطرب، لكنها بالطبع لا تقدر على التخلي عن دورها.. أن تقف هناك وتشير بحركات استعراضية سخيفة إلى البناية وتظهر القلق..
امرأة سألتها فى حذر:
- هل تقدّرين أن زوجك قد لا يعود أبدًا؟
قالت عبير:
- لو لم أقدّر ذلك فلا قيمة لهذا الاستعراض أصلًا... إن مهنته هى الخطر.. هى المجازفة بحياته.. على الزوجة أن تقف وراء زوجها وتساعده فى القيام بالأعمال الحمقاء والمخاطرة بحياته ما دامت تلك مهنته.. وفى اليوم الذى لا يرتكب فيه عملًا أحمق ألومه بشدة على هذا الكسل!
نظر أحد المساعدين إلى مدير أعمال (هوديني) فبادله النظرة، وقال:
- هلمّ.. أشعل الفتيل..
يشعل المساعد الفتيل فتسرى الشرارة فيه.. إنه فتيل طويل سوف يصل إلى القبو خلال عشر دقائق مفجرًا أطنانًا من الديناميت، وبالتالي سيتحول كل شيء هنا إلى مسحوق..
كان (هوديني) قد قرأ فى الصحف نية الحكومة هدم هذا السجن؛ لتبنى مكانه سجنًا أجمل وأكبر يتسع لعدد اللصوص المتزايدين فى المجتمع الأمريكى.. هكذا خطرت له فكرة العرض الجديد..
سوف يحبس نفسه فى زنزانة ويقوم الحراس بتقييده بالسلاسل والجنازير والأصفاد، ثم يتأكدون من غلق الباب بإحكام بمفتاح خاص..
كل هذا مثير لكنه غير كافٍ.. الأهم هو تلك الأطنان من المتفجرات الموضوعة فى القبو التى ستنهى كل شيء ما لم يتمكن من الخروج خلال عشر دقائق..
(هوديني) لا يفشل.. لقد تعلّمت (عبير) هذا منذ زمن، لكن هناك مرة أولى دائمًا.. وفى حالتنا هذه ستكون المرة الأولى هى الأخيرة..

اللهب يسرى بطول الفتيل.. يمشى.. يزحف..
قال مدير الأعمال فى توتُّر:
- خمس دقائق..
إنها ترى بعين الخيال كيف يتملّص (هودينى) من قيوده.. يبحث بين ثنيات ثيابه عن المفتاح الذى يصلح لكل الأقفال.. يحاول معالجة قفل الباب.. لو لم يستطع سوف يدق على القفل فى مواضع معينة يعرفها جيدًا.. تراه يركض فى ممرات السجن الخالية.. لا يوجد مصعد والدرج متهدم؛ لذا سوف ينزلق على ماسورة مياه لأسفل.. ثم يركض قاصدًا فناء السجن..
- أربع دقائق..
- ثلاث دقائق..
الآن بدا واضحًا أن المشاهدين متوترون فعلًا..
وجاء رجل شرطة متوتر بدوره يتأكد من أن الناس يقفون على مسافة كافية من موضع الانفجار.. لا نريد قتلى هنا..
قال مدير الأعمال:
- فى الحقيقة بقيت له دقيقة واحدة.. يجب أن يبتعد مسافة كافية..
ونظر لها نظرة هى مزيج من شفقة وتوتر.. وبلل شفته السفلى بلسانه..
لكنها غير قلقة.. (هودينى) لا يفشل.. ثم إن هذا المتبختر يُقَيِّم حياته بسعر أغلى مما يقيمها به أى واحد من الواقفين.. هذه مشكلته ولسوف يحلها..
- دقيقة!
فى اللحظة التالية رأت المشهد الذى اعتادته ورأته عدة مرات..
رأت المشعوذ يركض خارجًا من فناء السجن فالبوابة.. العرق يغمره لكنه راض.. فقط صرخ فيهم:
- ابتعدوا!
وسرعان ما دوى الانفجار المريع الذى جعل الأرض تهتز كأن هذا بركان.. عندما تضع المتفجرات فى القبو تتهاوى البناية كأنها عملاق فقد القدرة على أن يظل واقفًا..
تتهاوى الأعمدة وتتصاعد سحب الدخان.. كأننا فى قصف بالغازات من الحرب العالمية الأولى..
بينما تلفُّ هى زوجها بالروب وتجفف عرقه، يلتف حوله رجال الصحافة وتنفجر أضواء الفلاشات.. غدًا تحمل عناوين الصحف نصرًا جديدًا يحققه المشعوذ ذو الأصل المجرى..
هودينى والفرار من زنزانة مهددة بالانفجار..
سيد الهرب والنجاح من جديد..
كان مدرس الإنجليزية فى المدرسة يقول لها إنه ما من جملة إنجليزية كاملة لا تحوى فعلًا.. الحقيقة أنه ما من عنوان لجريدة أمريكية إلا وخلا من الأفعال تمامًا..
سمعته يقول همسًا، وهو يعتصر ذراعها فى قسوة:
- قلت لك ألا تقفى مع هذا الـ (راينهارت)!
- من هو؟
- ذلك الصحفى الوسيم الذى تهوينه!
كادت تصيح محتجة إنها لا تعرف حتى كيف يبدو هذا الرجل.. لقد بدأت تعتقد أن (راينهارت) هذا شبح لا يراه سوى (هودينى).. لكن قطع احتجاجها أن سمعت الصوت المألوف من خلفها يقول:

- موهوب.. موهوب فعلًا..
نظرت للخلف مدركة أنها سترى السير البريطاني العملاق..
- سير آرثر!
كذا هتف (هودينى) واندفع نحو الرجل يصافحه.. هذا نوع من العناق بالنسبة للبريطانيين..
هذه المرة راحت (عبير) تتأمل الرجل فى انبهار.. تذكرت أنها رأت ممثلًا شهيرًا فى مصر ذات مرة، ولكنها لم تتصور أنه هو ولا أنه يمكن أن يقف فى الشارع جوارها؛ لذا لم تعبأ به.. لكنها عرفت فيما بعد وندمت كثيرًا على أنها لم تملأ عينيها منه..
هذه المرة كانت تقف على بعد متر من مؤلف (شيرلوك هولمز) ولم تعرف إلا أنه (سير آرثر).. اليوم تمعن النظر فى وجهه بانبهار.. من هذا الرأس من أى موضع فيه بالذات؟ خرجت قصة (كلب آل باسكرفيل).. ومن هنا خرجت قصة (العصابة الرقطاء) ومن هنا خرجت قصة (رابطة ذوي الشعر الأحمر).. كل عوالم (هذا بديهى يا عزيزى واطسن) و(حفظ الله الملكة) و(لو أوصلتنا أيها الحوذى إلى محطة كنجز كروسنج خلال ساعة لظفرت بجنيه كامل) ... كل هذه العوالم خرجت من هذا الرأس العبقرى..
لكن (دويل) كان ينظر بدوره إلى (هودينى) فى انبهار.. وقال له، وهو يشعل سيجارًا:
- ألا تعتقد أنك تملك قوى خارقة للطبيعة تتيح لك الهرب؟
قال (هودينى) ضاحكًا:
- بالطبع لا.. أنا مجرد مشعوذ يتمتع بخفة اليد.. على كل حال أفضل هذا.. الفضل كل الفضل لى فى الهرب، بينما لو امتلكت قوى سحرية فلا دور لى سوى الحظ.. أنا أفضّل البراعة على الحظ يا سيدى!
كانت ذات الفكرة قد خطرت لها مرارًا فيما يتعلق بشخصية (سوبرمان)... (سوبرمان) الذى جاء من كوكب آخر فصار خارقًا.. الرصاص لا يؤثر فيه فأية شجاعة هى، وأي فضل له فيما يقوم به.. بينما شخصية (باتمان) جديرة بالإعجاب فعلًا لأنه بشرى مثلنا..
قال (دويل) وهو ينزع قبعته ويحييها..
- ما زلت مدينًا لكما بدعوة على العشاء.. وقد حان وقت ذلك..
قال (هودينى):
- هذا يناسبني.. أشعر بجوع شديد بعد أداء فقرات الهروب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على العشاء فى ذلك المطعم الإيطالي مع الأصناف التى لا تعرف كنهها بدا (دويل) أقرب إلى المرح والانطلاق.. وتذكرت (عبير) كلمات (هودينى)... لقد أعطاه الإيمان بالروحانيات أملًا ما.. إن ابنه لم يمت بل هو هناك يراقب.. وربما ينتظر..
مزية هذا المطعم أن أحدًا لم يتعرف (هودينى) العظيم هنا.. هذه هى مشكلة سيد الهرب أينما ذهب ومن المبالغة أن نزعم أن هذا كان يضايقه..
قال (دويل) وهو يشعل سيجاره الغليظ، بعد انتهاء الوجبة:
- فى كل يوم يسفر ذلك العالم اللامرئى عن دليل جديد..
ومد يده إلى جيبه ليخرج مظروفًا مليئًا بالصور، وأخرج منه صورتين..
نظرت (عبير) إلى الصورة الأولى فبدت لها مألوفة.. تلك الطفلة الراقدة بين الأشجار، وهى تتأمل بشكل ناعس مجموعة من الحوريات الصغيرات..

قال (دويل):
- (كوتنجلىCottingley).. إنها بلدة قرب (برادفورد) فى وطني.. هل زرتها يا (هارى)؟
قال (هودينى) وهو يتأمل الصورة دون حماس:
- لا..
قال (دويل):
- هناك فى تلك البلدة طفلتان.. (فرانس) و(إلسى).. هاتان الطفلتان رأيتا حوريات فى حديقة دارهما، واستطاعتا أن تلتقطا لها بعض الصور.. هذه هى الصور وهى دليل لا يتطرق إليه الشك على أن الظاهرة حقيقية..
نظرت (عبير) إلى الصورة، ثم قالت:
- لكنها صور ملفقة..
صاح فى غضب وهو يضرب المائدة بيده:
- ملفقة.. خبراء تصوير وخبراء تحميض فحصوا الصور وقالوا إنها حقيقية.. خبير رقص قال إن رقص الحوريات حقيقى وغير مألوف.. كيف تتخيلين أن يستطيع الأطفال تلفيق أشياء كهذه؟!
إذن هو من الطراز الذى يعتبر الأطفال ملائكة أبرياء لا يكذبون.. وكلنا يعرف أن الأطفال أعتى كذابين يمكن تخيلهم.. هناك قصة قصيرة لـ (براندللو) تحكى عن أسرة كاملة دفعت ثمن ثقتها فى (الملائكة الصغار) هؤلاء..
هنا قال (هودينى) بطريقته العقلانية فاقدة الصبر:
- هل من شهود آخرين؟
- لا.. الحوريات تأبى أن تظهر لأى شخص غير الطفلتين..
ثم مد يده إلى ملف صغير وضعه على المقعد جواره، وقال:
- هذه هى مُسوَّدات كتابي (قدوم الحوريات) الذى يناقش هذه الظاهرة (العلمية)!
تبادلت (عبير) وزوجها النظرات، وأدركت أنه يفضل أن يصمت..
قال (هودينى) وهو يملأ فمه بالطعام:
- موضوع مثير.. أهنئك عليه.. لقد أقنعتني..
نهض سير (آرثر) إلى الحمام فأسرعت (عبير) تقول لزوجها:
- أقنعك؟
قال باسمًا:
- أقنعني بأنه طفل كبير.. هذه رسوم حوريات تم التفريغ حولها بالمقص، وتم تثبيتها إلى فروع الأشجار.. لا يمكن أن تخدع هذه الصور طفلًا لكنها خدعت مؤلف (هولمز) العظيم.. لكن الرجل يريد أن يصدّق هذا.. دعيه يصدّق.. تذكرى أن هذا رأيك منذ البداية..
ثم لمس يدها فى حركة خفية كى تصمت..
عاد السير (دويل) فجلس وهو ينفض سيجاره الغليظ، ثم قال لـ (هودينى):
- أريد طريقة أبرهن بها لك على أن الروحانيات حق لا شك فيه.. لهذا رتبت لك أن تحضر جلسة تحضير أرواح!
قال (هودينى) فى ضيق:
- (آرثر).. أرجوك.. أنا لست مستعدًا البتة لقبول هذا السخف..
- لهذا من واجبك أن ترى بعينك..
ثم أضاف فى دهشة:

- الغريب أنك أنت الساحر وأنا المؤلف.. كان عليّ أن أكون متشككًا بينما تؤمن أنت بهذا كله..
قال (هوديني):
- لأني ساحر.. يصعب أن يصدق ساحر ألاعيب ساحر آخر..
هذا حق.. وفكرت (عبير) أنه لو كان يجيد العامية المصرية لقال: (حبل على حبل ما يبرمش)..
قال (دويل):
- سوف نقوم بتحضير روح شخص معروف لديك.. وهكذا ينتفي الخداع تمامًا..
- ومن تقترح؟
- ومن غير المرحومة أمك؟!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Seance - 6

قبل جلسة تحضير الأرواح كانت مشاجرة عنيفة بين (هودينى) و(بيس)/(عبير)..
السبب كما هو واضح أنها تغار من معجباته الشقراوات وهو يغار من الأخ (راينهارت).. لقد بلغا نقطة اللاعودة حينما يصر كل منهما على استفزاز مشاعر الآخر على سبيل الانتقام، وهذا يجعل الطرف الآخر مصرًّا على الانتقام بدوره..
لكنهما يعملان فى الاستعراض؛ لذا أجادا رسم الضحكات على الشفاه وهما يغادران فندق (أستوريا) متجهين إلى الشقة التى سيتم فيها تحضير الروح..
قال لها وهما ينزلان من سيارة الأجرة:
- طبعًا لا أريد ضحكات ساخرة أو غمزات.. الرجل مقتنع بما يفعله وأنا أكره أن أضايقه..
- اطمئن..
شقة فاخرة أرستقراطية تلك التى اختارها (دويل) لعملية استحضار الروح.. وكان (هودينى) قد أصر على أن تتم الجلسة يوم السادس من أغسطس.. يبدو أن هذا التاريخ يروق له..
الوسيط - وهذا أثار ذهولهما - هى مسز (دويل) نفسها! لقد عرفا للمرة الأولى أن السيدة الوقور تملك موهبة الوساطة..
فى غرفة صغيرة بها منضدة مستديرة جلس الجميع.. إضاءة خافتة جدًّا مع موسيقا كلاسيكية لإضفاء تأثير (موتسارت)...
نظرت (عبير) إلى (هودينى) فرأته يضغط على عضلات فكيه فى عصبية.. كان مستعدًا للتحدي راغبًا فيه.. لكنها اعترفت لنفسها بأن الجو مفزع وموح.. لو خرج ديناصور من وراء الستار فلن تندهش كثيرًا..
جلست مدام (دويل) مغمضة العينين، ثم قالت بصوت عال:
- فلنصمت..
لم يعد هناك سوى صوت الأنفاس الثقيلة.. سوى صوت الصمت، وللصمت صخب عال يؤذى الأذنين فعلًا.. إنه من أعلى الأصوات عندما تكون متوترًا..
تشابكت الأيدي على المنضدة..
إن طريقة استحضار الأرواح بوسيط تختلف عن الطرق المعروفة مثل (الويجا Ouija) وخلافها.. هنا يتكلم الوسيط بصوت الروح أو يبدأ فى كتابة أوراق..
- يا أم (هودينى)... نأمرك بأن تلبى نداءنا..
قال (هودينى) فى جد لا شك فيه، لكن (عبير) كانت تعرف أنه يسخر بشكل خفى:
- اسمى (إريك فايس).. لن تفهم أمي معنى (هودينى) هذا..
- ش ش ش!
برغم كل شىء قالت السيدة الوقور:
- يا أم (إريك فايس) ... تعالى..
وأغمضت عينيها.. وبدأت تهوم برأسها.. فى المعتاد عندما تأتى الروح يسمعون صوتًا...
كريييييييك!
لقد تحركت منضدة! لا شك فى هذا.. منضدة صغيرة جوار النافذة تحركت محدثة صوتًا جمد الدم فى عروق (عبير)..

من ثم أمسكت مسز (دويل) القلم وبدأت تكتب.. تكتب بسرعة وبلا توقف.. تكتب بعينين مغمضتين.. تكتب كأنها آلة طابعة بشرية.. وفى صمت راح زوجها ينزع الورقة الممتلئة من أمامها ليضع ورقة أخرى..
قال (هودينى) همسًا:
- ماذا تكتبه؟
قال (دويل) وهو يتأمل الأوراق:
- تجيب عن أسئلتك..
- لكنى لم أسأل عن أى شيء!
- ش ش ش! الأرواح تعرف أكثر منك..
استمرت الجلسة.. الزمن الذى يمكنك أن تكتب فيه خمسين ورقة فلوسكاب بسرعة جهنمية.. وفى النهاية بدا على السيدة الوقور الإرهاق.. رجع رأسها إلى الوراء وسقط القلم من يدها.. لقد استنفدت وقودها وهو ما يعرفه أى كاتب يسوِّد عشر صفحات بشكل متواصل.. هى سوَّدت خمسين!
قال (دويل) فى وقار:
- شكرًا يا مدام.. يمكنك الانصراف..
أخيرًا ساد الهدوء، وأضاء الأنوار لتعود الحياة إلى هذا المكان الكئيب..
أشعل سيجارًا ثم طلب من خادم مذعور أن يحضر لهم بعض الشراب.. وقال:
- كما ترى.. هى تجربة ناجحة لا شك فى نجاحها.. عندما تقرأ ما كتبته السيدة فلسوف تدرك أن أمك كانت معنا فعلًا، وقد خاطبتنا من عالم الغيب..
كان (هودينى) يطالع الأوراق فى اهتمام.. يقلب ورقة تلو الأخرى.. ثم قال شارد الذهن:
- فعلًا.. فعلًا.. هذا مذهل..
قال (دويل):
- إنها أجابت عن الأسئلة التى كنت تريد أن توجهها لكن هيبة الموقف جعلتك تنساها..
- نعم.. نعم..
ثم توقف (هودينى).. أدركت (عبير) أنه يخوض صراعًا بين التأدب أمام صديقه العظيم، والرغبة فى أن يصرخ بما يفكر فيه.. وهو صراع عنيف بالطبع..
فى النهاية لم يستطع أن يتحمل أكثر.. فقال فى حرج:
- هذه المحاولة ملفقة!
نظر له (دويل) نظرة نارية، وقال:
- ماذا؟ وبالطبع تتهمني وزوجتي بالكذب؟
- لا.. لكنى بالتأكيد أتهمكما بالحماس الزائد إلى درجة أنكما وقعتما فريسة الإيحاء والوهم.. ما كتبته السيدة (دويل) كتبته لا شعوريًّا من عقلها الباطن مستخدمة القليل الذى تعرفه عنى وعن أمي..
صب (دويل) لنفسه بعض الشراب وقال فى وقار:
- والدليل؟
قال (هودينى)، وهو ينهض باحثًا عن قبعته:
- اليوم هو عيد ميلاد والدتي.. كيف لم تعلق على هذا بكلمة واحدة؟
- هل تعتقد أن الأرواح تهتم بأعياد الميلاد.. هل تعتقد أنها تشترى لنفسها كعكة وشموعًا؟

- فقط كنت أتوقع تعليقًا ما فى الأوراق.. لكن لا تعليق.. ثانيًا.. النص كله بالإنجليزية، ووالدتي لم تكن تتكلم غير المجرية حتى توفاها الله..
ضحك (دويل) فى عصبية حتى راح كرشه وشاربه الضخمان يهتزان، وقال:
- هل للغة قيمة فى عالم الأرواح... هناك لغة واحدة فقط هى لغة المعنى.. الأفكار.. لا يتعلق الأمر بحصة لغة إنجليزية..
أمسك (هودينى) بقبعته، وقال وهو يشير ل (عبير) من طرف خفى:
- رأيى يا سير (آرثر) أن هذه تجربة فاشلة.. لكنى لا أوجه لك أى اتهام، بل لا أجرؤ على التفكير فى شىء كهذا.. سأكون شاكرًا لو سمحت لى بالانصراف..
قال (دويل) وعيناه تخرجان شررًا:
- أنت عنيد يا صاحبي.. وهذه ليست مزية كما تظن..
- وأنت تصدق ما لا يُصدَّق.. وهذه ليست صفة حميدة كما تعتقد..
للحظة بدا أن الرجلين قد بلغا الذروة التى سيليها الاشتباك.. لكن (هودينى) كان يحمل قبعته على كل حال؛ لذا انحنى فى حركة راقية، وقال:
- سير (دويل)... ليدى (دويل)..
ثم تأبط ذراع (عبير) ليغادرا المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- هادم الأساطير..

إن أساس كل العقيدة الروحانية هو أن الروح نسخة أخرى من الجسد، تشبهه فى كل شىء إلا أنها أكثر شفافية. وفى الأحوال الطبيعية يمتزج هذان بحيث يتوارى الجسم ذو الطبيعة الأرق. إلا أنه فى ظروف معينة من الحياة ينفصل الاثنان، ويتولى الأخف منهما مهمة الحياة. هكذا عند الموت يتخلى أحد الكيانين عن الآخر ويتركه كأنه شرنقة غادرها محتواها. لقد طلب زميلى د. (كروكس) من السير (جورج ستوكس) سكرتير الجمعية الملكية أحد أشرس أعداء الروحانية أن يأتي لمختبره ليرى القوى النفسية تعمل، لكنه رفض هذا. ما قيمة العلم بهذه الطريقة؟! أنا أستطيع أن أعدَّ عشرة علماء بارزين رأوا تجاربنا وصدقوها..

قرأ (هودينى) هذه الكلمات التى كتبها (دويل) فى مجلة شهيرة، ثم قال لـ (عبير):

- ما معنى هذا الهراء.. الرجل قد جنّ تمامًا..

من جديد قالت:

- وماذا يضايقك.. هذا شأنه..

قال (هودينى):

- أنا ساحر. لا أحد يقدر على خداعى.. لقد رأيت كل الخدع الممكنة وأميز كل شىء.. لهذا يثير غيظي أن يؤمن هذا الرجل الذى هو أعظم العقول فى إنجلترا بهذا السخف.. والمصيبة أنه يحاول أن يعطى صبغة علمية لهذه الخرافات.. أسوأ شىء فى العالم أن يحاول المرء إعطاء الخرافات صبغة علمية..

ثم أمسك بعض الصحف البريطانية، وأشار إلى الأولى، وقال:

- انظرى ما كتبته صحيفة (صنداي إكسبريس): هل جن (دويل).. إن المرء على كل حال لا يبذل جهدًا فى فهم رجل مجنون.. فقط يهز كتفه.. يضحك.. ثم ينسى، أما جريدة (لندن تايمز) المهذبة، فوصفت الموقف بأنه سذاجة لا تُصدّق..

ثم التمعت عيناه فى حماس، وقال:

- خطرت لى فكرة رائعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا هو هادم الأساطير الحقيقي..

(هارى هودينى) العظيم يعلن أنه مستعد لفضح أى شخص يدعى أن لديه اتصالًا بالأرواح أو أن لديه قوى خارقة..

نشرت الصحف هذا الخبر مع صورة (هودينى) يبتسم ابتسامته القاسية الساخرة قليلًا، وهكذا اتصلت به الجمعية الروحية الأمريكية..

قال له الرئيس:

- لقد نشرنا إعلانًا يقدم جائزة مالية كبرى لمن يبرهن عن أنه يملك قوى نفسية خارقة.. قراءة أفكار.. تحريك عن بعد.. ثنى معدن.. إشعال النار فكريًّا.. إلخ.. المشكلة هى أن هناك آلاف المتقدمين لنيل الجائزة.. ونحن لا نعرف.. هل تحول كل سكان العالم إلى ذوى مواهب خارقة؟!

قال (هودينى) باسمًا:

- هناك شخص واحد لا يملك موهبة خارقة هو أنا! أنا مجرد مشعوذ بسيط يستعمل خفة

اليد.. وسوف أبرهن لكم على أن كل هؤلاء نصابون..
بالفعل راح (هودينى) يسافر هنا وهناك يحضر جلسات تحضير أرواح.. يحضر عمليات تحريك عن بعد.. يسمع نبوءات وقارئ أفكار.. أحيانًا كان يتخفى وأحيانًا لا..
وفى كل مرة يمد يده ليكشف عن أسلاك كهربية مخفاة تقود إلى مكبر صوت.. أو يكتشف العلامات الخفية على ظهر البطاقات التى يتنبأ الوسيط بمحتواها.. أو يجد المخبأ الذى تخرج منه مادة (الإكتوبلازم) التى يزعمون أنها تخرج من النشاط الروحي..
فى كل مرة ينتصر.. وفي كل مرة يقدم التفسير العلمي لهذه الظاهرة، والحقيقة أنه كان يمهد الطريق لجيل كامل من هادمى الأساطير جاء من بعده؛ أشهرهم اليوم (جيمس راندى Randi) و(سوركار Sorcar).. وكتب كتابًا شهيرًا اسمه (ساحر بين الأرواح) يفضح فيه أساليب هؤلاء..
لقد صار (هودينى) مرعبًا لكل هؤلاء النصابين..
وبفضله لم يفز بجائزة الجمعية الروحانية واحد حتى اليوم، وقد قال له الرئيس:
- من الغريب أننى أشعر بسرور لهذا، لكن الحقيقة أنه من دونك لخدعنا ألف مرة..
دان
قال (هودينى) باسمًا:
- من الصعب أن تلعب لعبة سحرية مع ساحر!
كان خصومه يتزايدون يومًا بعد يوم.. وكانت الحيلة السهلة التى وجدوها.. الحيلة التى لا تفشل أبدًا هى أن زعموا أنه ملحد يعادى الدين.. كأنه يجب أن يؤمن بخدعهم حتى لا يكون ملحدًا، وكأنهم هم الدين نفسه..
هكذا وقف أمام الصحفيين يقول:
- أنا لا أهاجم الدين فأنا لا أعتبر تحضير الأرواح جزءًا منه.. لكن هذا الشىء المسمى وساطة روحانية حيث يتصل وسيط بالموتى هو كذبة من البداية للنهاية. هناك نوعان من الوسطاء: أولئك الذين اختلت عقولهم ويجب أن يوضعوا تحت الملاحظة الطبية، وهؤلاء الذين يكذبون عمدًا. لن أثق بشهادة وسيط روحي أبدًا حتى وهو تحت القسم.. فالحنث باليمين لا يمثل لهم مشكلة. فى كل عام تسرق ملايين الدولارات فى أمريكا والحكومة لا تهتم بذلك لأنها تعتبر هذه الأمور مسائل دينية..
كان يكرههم من سويداء قلبه.. هؤلاء الذين يستغلون لهفة الأرامل والثكالى واليتامى كى يجمعوا المال..
وكانت (عبير) تراقب نشاطه وتتساءل: لماذا لا يشعر هؤلاء المنشغلون بأمر الملايين بأوجاع من هم قريبون منهم.. لماذا لا يشعر بها ويهملها بهذا الشكل..
كانت تعرف هذه القصة جيدًا.. إن زوجات المصلحين الاجتماعيين يكن تعيسات دائمًا، وكم من كاتب لعمود شهير فى جريدة على غرار: (اعترفوا لى) و(لمشكلتك حل) هو أتعس الناس فى حياته الخاصة، وبعضهم تزوج عدة مرات.. فاقد الشىء لا يعطيه فى كل الأحوال باستثناء حالة النصح هذه..
كان هؤلاء قذائف بعيدة المدى لا تصلح إلا لأهداف بعيدة.. بينما إذا صوِّبت على أهداف قريبة انفجرت فى وجه حاملها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الآن ذاته يواصل (دويل) دعوته المتحمسة لتحضير الأرواح..
إنه يجوب العالم يخبر كل شخص أن هذا هو السبيل الوحيد للاتصال بالأعزاء الذين رحلوا..

- كل الدلائل (العلمية) تقول إن هذا صحيح.. أمس رأيتم حوريات (كوتنجلي).. وغدًا ترون أرواح أعزاءكم..
وكان أغرب موقف ممكن هو عندما زار أستراليا فعرف أن قسًّا بروتستانتيًّا أمر بإقامة صلاة يدعو عليه فيها (لأنه يدعو لاستبدال ديانة الروحانيات بدين الرب).. وقد دعا القس فى حرارة أن تغرق السفينة التى تحمل (دويل) قبل أن تبلغ سواحل أستراليا..
لكن (دويل) كان مسلحًا بسمعته كأديب كبير عظيم، بالضبط كما كان (هودينى) مسلحًا بسمعته كساحر موهوب.. فى الحالتين يمكن أن تصغى وتكون على استعداد لأن تصدق..
فى هذا الوقت جاءت قضية الأخوات (فوكس) لتضع بعض النقاط على الحروف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- زنزانة التعذيب..

الأخوات (فوكس) ثلاث أخوات أمريكيات عانسات..
ولأنهن عانسات فهن من الطراز المتطهر (البيوريتانى) العصابي إياه الذى يذكرنا بالأخوات (برونتى) فى إنجلترا.. يكرهن العالم ويكرهن أنفسهن، وهن يدارين الإحباط العاطفي بالكثير من التدين السطحي.. شفاه رفيعة صارمة ونظرات حادة وثياب سود وصمت مريب..
كانت شهرة الأخوات قد طبقت الآفاق..
الحكاية هى أنهن يستطعن الاتصال بالأرواح.. فقط عليك أن تذهب لكوخهن وتجلس هناك، ثم تطلب الروح التى تريد الكلام معها..
وجه أسئلتك إلى الروح، وسوف تردُّ الروح عن طريق الطرقات.. طرقة واحدة معناها نعم.. طرقتان معناها لا.. أحيانًا يمكن أن تجرى محادثة كاملة عن طريق تلاوة الأبجدية كاملة إلى أن تسمع دقة.. هكذا تنتقى هذا الحرف.. ومع تراكم الحروف تكون جملًا كاملة.. هذه طريقة (التبتولوجى) typtology كما أسماها عالم الروحانيات (ألن كاردك).. وهى طريقة تستغرق وقتًا يمكنك تخيله، إذا كان الحرف الواحد يحتاج إلى تلاوة الأبجدية كلها ببطء، فكم من الوقت تستغرقه عدة جمل؟!
لقد اشتهرت الأخوات.. لكن قبل أن يشتهرن قام العديد من العلماء بزيارة كوخهن.. بحثوا فى كل مكان وراقبوا كل شىء.. لا يوجد دليل على التلفيق.. عندما تأتى الدقات فهى لا تأتى من مكان بعينه وإنما تأتى من كل مكان ولا مكان.. باختصار هى قادمة من عالم الأرواح..
جنَّ جنون (دويل) لدى سماع هذه القصة، وقد زار الأخوات وكتب عنهن عدة مقالات..
قال (هودينى) حينما سمع عن الموضوع:
- يجب أن أزور هذه العصابة عما قريب.. لكن لا وقت لأن لدى عرضًا مهمًّا غدًا..
- هذا أفضل..
قالتها (عبير) فى ملل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن لم تكن قد شاهدت عروض (هودينى) فها هى ذي (فانتازيا) تتيح لك الفرصة..
فقط تعال مبكرًا لتجد لقدمك موطئًا، ولعينك مكانًا وسط هذا الزحام..
في البداية يصل رجال الشرطة ليصنعوا ما يشبه (الكردون) لأن المعجبين يشكلون ما يشبه المظاهرة.. الكثير من التدافع والعنف واستعمال العصى..
بعد قليل يصل رجال الصحافة.. كلهم فى هذا الزمن يخرجون من مصنع واحد بقبعاتهم التى يضعون فيها بطاقة الصحيفة، وكاميراتهم العملاقة الثقيلة، ولفافات التبغ تتدلى من أركان فمهم.. عندما يفرغون من المقال سيحملونه إلى رئيسهم الذى يضع على جبهته كابًا أسود يقي العينين من النور، ويضع كمين أسودين مستعارين حول كمى قميصه..
كل هذا تم إخراجه بعناية من قبل مدير الأعمال شديد الكفاءة الذى ينال 10٪ من كل شىء.. وهو يعرف أهمية (لقطة رد الفعل) فى صناعة النجم.. لا قيمة لأى نجم سينمائي أو كروى أو غنائي ما لم نر أولًا الجنون فى عيون المعجبين به..
بعد هذا تصل سيارة الساحر الفاخرة المكشوفة، وهو يقف ملوحًا بذراعيه كأنه زعيم يخترق

شوارع عاصمة مفتوحة.. (الروب) يتطاير من خلفه والسيجار فى فمه.. و(عبير) تقف جواره مؤدية حركات سخيفة لكن الغرض منها أن يركز الناس بصرهم على (هودينى)..
كان قد صارحها ذات مرة بأن جمال الفتاة التى تقف مع الساحر يصلح لأغراض أخرى.. إنها تشتت الجمهور وتلفت نظره بحيث يستطيع الساحر أن يخرج البطاقة من كمِّه أو الأرنب من قبعته.. النساء يسرقن الكاميرا من الرجال، والأطفال يسرقون الكاميرا من النساء، والحيوانات تسرق الكاميرا من الأطفال.. هذا معروف من قديم..
يتم تقييد (هودينى) والسيجار فى فمه بالسلاسل، ثم يربطون ساقيه معًا.. يتأكد رجلان من أنه مقيد بعناية ولا يلاحظ أحد طبعًا أنه نفش عضلاته وأبعد ذراعيه عن جسده أثناء التقييد..
لعبة اليوم اسمها (زنزانة تعذيب الماء الصينية).. إنها من ابتكاره فلا أعتقد أن الصينيين فكروا فى شىء كهذا..
يقوم الرجال بتعليق (هودينى) من قدميه ثم يدلونه فى شىء يشبه كابينة الهاتف.. فقط هى محكمة الغلق.. الزجاج يتيح للناس رؤية ما يحدث بالداخل كما هى العادة فى عروض هذا الرجل..
إنه معلق كالثريّا من أعلى الكابينة ورأسه يرتفع عن الأرض بمسافة لا بأس بها..
الآن يصدر مدير الأعمال أمره للرجال المسئولين عن ملء الكابينة، فيبدأ هؤلاء فى ضخ الماء داخلها..
الماء يرتفع.. ويرتفع..
الآن صار الماء عند خصر (هودينى).. أى أن رأسه صار تحت مستوى الماء منذ زمن..
إنه يحاول التملُّص.. عضلاته القوية تسترخى لتنزلق السلسلة.. تراه (عبير) يحرك يده المقيدة خلف ظهره، فتعرف أن هذه هى اللحظة التى يفك فيها الأصفاد عن ساعديه..
لقد تحررت يداه.. يتكور حول نفسه ويمد يده إلى قدمه..
فجأة يبدو أن هناك شيئًا ليس على ما يرام..
هى رأت النظرة على وجهه قبل أى واحد آخر.. إنه زوجها وهى تعرف تعبيرات وجهه سواء أكان مقلوبًا أم لا.. خداه منتفخان بالهواء، وهو يحاول الوصول إلى القفل..
إنه مذعور.. لا شك فى هذا..
صرخت فى مدير الأعمال:
- هناك خطأ! أوقف العرض!
قال وهو يرسم ابتسامة متكلفة:
- لا يوجد خطأ.. لابد أن هذا الذعر جزء من أدائه التمثيلى.. (هودينى)لا يفشل كما تعرفين..
نظرت إلى المشهد.. لقد مرت ثلاث دقائق.. هى تعرف أنه يستطيع أن يحبس الهواء فى صدره ثلاث دقائق لكنه يتفجر بعد هذا..
- قلت لك أوقف العرض!
قال فى برود:
- لا يمكن.. إن تعليماته صارمة بهذا الصدد.. مهما حدث لا تتدخل.. كأنه الملاكم الذى يحذر مدربه من إلقاء المنشفة على الحلبة مهما كانت الإصاب. ...
هنا جن جنونها..
ووسط زحام الناس ورجال الشرطة انحنت لتلتقط قالبًا من القرميد، واندفعت إلى الكابينة قبل أن يمنعها أحد، وهوت بكل قوتها على الزجاج..

إنه زجاج قوى لم يتهشم من أول مرة.. طبعًا.. ما دام سيتحمل كل ضغط الماء هذا..
هوت بقوة أكبر فحدث شرخ..
وسرعان ما اندفع الماء خارجًا من الكابينة..
صرخ الناس وتصاعدت الشهقات.. بينما فرغت الكابينة من محتواها، ورأت (عبير) رأس زوجها فوق مستوى الماء، وهو يعبُّ الهواء فى جوع..
أخيرًا قام الرجال بفك قيود (هودينى) فانقلب بحركة بهلوانية خارجًا من الكابينة..
وقف وسط الناس والزحام ورجال الشرطة.. وقف يستجمع أنفاسه ثم ركض نحو (عبير) وهتف:
- ماذا فعلت يا حمقاء؟!
ودفعها بكفه إلى الوراء فارتطمت بالجدار وعاد يصيح:
- لقد أفسدت أجمل لعبة لى! كان عليك أن تبقى بالدار ما دامت أعصابك بهذا الوهن، وما دمت بهذا الغباء!
انفجرت فلاشات الصحفيين.. هذه قصة أجمل من قصة نجاح (هودينى).. لقد اعتاد القارئ أخبار النجاح فلسوف يثير الفشل اهتمامه أكثر..
(هودينى) يفشل بسبب تسرُّع زوجته.. هل ينفصل الزوجان؟
ستكون هذه عناوين الصحف غدًا ولسوف تحقق أعلى مبيعات..
انفجرت (عبير) فى البكاء بينما (هودينى) يجفف نفسه من الماء، ويصيح فى الواقفين:
- سوف نكررها وسوف تكون ناجحة.. (هودينى) لا يفشل أبدًا..
ثم أمسك بذراعها واقتادها بعيدًا عن الواقفين.. وقال لها هامسًا:
- آسف.. اضطررت لهذا لكنك أنقذت حياتي فعلًا.. كان لابد لى من شماعة أعلق عليها هذا الفشل..
نظرت له غير مصدقة.. لقد أهانها أمام الناس أجمعين والآن يعتذر لها فى ركن قصى..
قال لها فى خطورة:
- القفل الخاص بقيد القدمين.. المفتاح لم يكن هو!
- ماذا تعنى؟ أنت أخطأت المفتاح إذن؟
- بالطبع لا.. (هودينى)لا يخطئ.. لقد تم استبدال المفتاح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- ضربة قاصمة..

النفس البشرية غريبة الأطوار بحق..
لو أنك طلبت من جهاز حاسب آلى أن يحلل الدوافع والسلوكيات التى يبديها البشر؛ لتوصل إلى استنتاج منطقي هو أن جل البشر مخابيل..
لأسباب كهذه يعترف بعض السفاحين على أنفسهم، بدون أى مبرر وبدون أن يتهددهم رجال الشرطة.. فقط لأنهم معجبون ببراعتهم، ويمقتون أن يموتوا دون أن يعرف أحد كم كانوا مهرة..
وهكذا جاء اليوم الذى أعلنت فيه الأخت الكبرى من الأخوات (فوكس) اسمها (مارجريت) أن لديها ما تقوله للصحافة..
اجتمع الناس والصحفيون فى المسرح الكبير الذى اختارته، وهم يتساءلون عما لديها لتقوله..
جلس الجميع صامتين حابسين الأنفاس على حين صعدت السيدة التى تذكرك بغربان البين إلى المنصة.
قالت للجالسين:
- الآن تسمعون صوت الدقات الشبحية..
وحبس الجميع أنفاسهم وهم يسمعون تلك الدقات المخيفة القادمة من لا مكان وكل مكان..
صوت رهيب جعل النساء يرتجفن والرجال يتوترون.. صدى يتردد.. رتيبًا كأنه لحن القدر..
كليك.. كليك.. كليك!
رفعت المرأة رأسها، وقالت:
- هذه الأصوات لا علاقة لها بالأشباح.. لا علاقة لها بالعالم الآخر.. أنا التى أحدث هذه الأصوات!
تصاعدت الهمسات، وهبَّ أحد العلماء الجالسين يسألها:
- كيف.. لسنا أطفالًا وقد تأكدنا من عدم وجود خدعة ما فى داركم؟!
مدت المرأة قدمها خارج المنصة ونزعت حذاءها لتكشف عن أقذر قدمين فتك بهما النقرس منذ دهور.. وحركت الأصابع فانبعث صوت الدقات الغريبة!
قالت المرأة باسمة:
- فتّشتم كل شىء لكنكم لم تفتشوا حذائي!
ثم أضافت أمام الجمع المذهول:
- كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب فى نصب.. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق!
هب رئيس الجمعية الروحانية الذى كان وسط الحضور يصيح:
- حتى لو كان هذا ما قالته فإنها تكذب! لقد راقبت أنا ورجال لا يؤيدون إلا الحقيقة اتصالها بالأرواح، ونؤكد أن خداعنا كان مستحيلًا!
قالت المرأة فى هدوء كأنها تنصح طفلا:
- سيدى.. لقد اعترفت بكل شىء فلا داعى للمكابرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برغم ضيقه الشديد من الحادث الأخير فإن (هودينى) لم يخف سعادته بهذه الضربة القوية

لعلم الروحانيات، وقد راح يضحك ويضرب الأريكة بيده.. وقال ل (عبير):
- اعترفت! أعتقد أننى لو حضرت هذه الجلسات لخمنت السر! على كل حال فليصمت كل معتوه يتحدث عن (علم) تحضير الأرواح! لقد شهد شاهد من أهلها!
ثم لوّح بجريدة، وقال:
- من بريطانيا يأتينا تعليق سير (كونان دويل) ... هل تعرفين ما يقول؟ يقول: لا يهمني ما تقوله هى ولا أى واحد آخر.. أنا أعرف جيدًا أننا قادرون على الاتصال بالعالم الخفي! العجوز مصرٌّ على المضي فى غيِّه وفى كل مرة يبرهن على أنه خاسر سيئ لا يتمتع بروح رياضية!
قالت (عبير):
- إنه لا يقاتل من أجل رأيه.. بل يقاتل من أجل أمله الوحيد فى الحياة.. أن يلقى ابنه بعد الموت..
قال (هودينى):
- أنا لست متدينًا ولا أعرف ما سنجده بعد الموت، لكنه بالتأكيد شىء يختلف عن كل ما يزعمه هؤلاء النصابون..
لكن الحقيقة التى تعلمتها (عبير) من هذا الموقف هى أن الإنسان لا يقتنع إلا بما يريد الاقتناع به.. مهما كان ذكيًا أو عبقريًا فهو يحتفظ بجزء من عقله فى معزل عن المنطق، ومهما جئت له بأدلة فإنه لا يقتنع.. لولا هذا لما وجد علماء (طبيعة نووية) هنود يبكون فى إيمان أمام صور (كالى) ويركعون أمام الأبقار..
أى دليل يمكن أن تقدمه لعلماء الروحانيات أكثر من اعتراف (مارجريت سكوت) نفسها؟! لكنهم يؤكدون أنها تكذب عندما تقول إنها كانت تكذب! وما مصلحتها.. ولأية غاية.. هذه أشياء لا تجد سبيلًا إلى جزء العقل الذى يتعامل مع الخوارق..
بالطبع حدثت هذه القصة فى وقت متقدم من القرن العشرين؛ لذا لم يسمع هؤلاء اعترافًا آخر هو اعتراف إحدى الفتاتين اللتين ظهرتا مع حوريات (كوتنجلي) فى السبعينات.. كانت قد صارت عجوزًا، وقالت فى إحدى الشبكات التلفزيونية إنها وزميلتها كانتا تلعبان، وإن القصة كلها ملفقة..
على كل حال لا مشكلة هنالك.. لو تم الاعتراف فى زمن (دويل) لقال إن الفتاة هى الأخرى كاذبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى هذا الوقت استمر (هودينى) فى ممارسة إيقاع حياته المثير..
اللعبتان الجديدتان اللتان قدمهما هما أن يتم حبسه فى كيس ورقى تمَّ إغلاقه بعناية، ثم يخرج من الكيس دون أن يمزقه..
اللعبة الثانية الفريدة من نوعها هى يوم وقف على المسرح وراحت (عبير) تناوله إبَرًا.. كلما تناول إبرة ابتلعها وهو يردد العبارة الشهيرة التى تخلى مسئوليته:
- هذه الألعاب خطرة! لا تجربوها فى البيت!
فى النهاية كان قد ابتلع ثلاثين إبرة..
ناولته (عبير) بكرة الخيط، فأخرج طرف الخيط وراح يزدرده بلا توقف كأنه مصنوع من المكرونة..
فى النهاية غاب الخيط كله فى جوفه باستثناء طرف صغير منه، فمد يده يشد الخيط من أحشائه، ومع الخيط خرجت الإبر كلها وقد مر الخيط خلال عيونها! أى أنه (لضمها) فى معدته

- كما نقول بالعامية -.
لوح بالخيط الذى تتدلى منه الإبر على شكل راية، وصاح:
- سيداتى سادتى! حيلة أخرى من (هودينى) العظيم!
صفق الناس فى جنون..
وتذكرت (عبير) آخر خطاب تلقاه (هودينى) من (دويل) يقول فيه الأخير:
- أنت تمتلك موهبة خارقة للطبيعة هى التى تؤدى لنجاح ألعابك فى كل مرة.. أنت على اتصال بعالم الأرواح لكنك لا تعرف هذا!
قرأ (هودينى) الخطاب، وقال فى ملل:
- هذا الرجل مصرٌّ على أننى ظاهرة روحانية وأجهل هذا! كيف أثبت له أننى مجرد حاوٍ خفيف اليد... إن هذا يهيننى ويجردني من كل براعة أو مهارة!
فى هذه النقطة كان شجاعًا.. وهو المشعوذ الوحيد على قدر علمي الذى شرح للناس الكثير من حيله فى كتاب كامل.. لكن (دويل) كان قد بلغ مرحلة الشيخوخة؛ فتصلب الشرايين الذي يؤدى إلى تصلب الآراء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10. عرض خاص..

لا جديد تحت الشمس..
لقد قام (هوديني) بمحاولة هرب كبرى وهو يمشى على حبل فوق شلالات نياجرا، ثم قدم فقرته الأشهر بالهرب من زجاجة لبن بحجم التابوت.. زجاجة لبن مليئة باللبن ومغلقة بعناية.. هذه المحاولة التى قتلت سحرة كثيرين غرقًا.. إن الغرق فى اللبن ميتة شنيعة لكنها لا تخلو من جانب مضحك مرير.
(هوديني) لا يفشل..
إنه الأفضل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن عام 1920..
(هوديني) يواصل انتصاراته ويهدم أساطير السحرة، بينما يجوب (كونان دويل) العالم يؤكد للناس أن الأرواح حولنا، وأن هناك أناسًا حباهم الله القدرة على الاتصال بها..
الصديقان اللدودان.. الصديقان اللذان اختلفا فى كل شىء تقريبًا.. أحدهما ساذج كطفل والآخر حذر حويط كالثعبان.. الأديب المفكر يؤمن بالسحر، والساحر المحترف يؤمن بأن السحر هراء..
هذا هو الوضع تقريبًا عندما تلقى (دويل) دعوة من صديقه الأمريكي لحضور مؤتمر السحرة الأمريكيين..
جاء (دويل) إلى الولايات.. واستقبله (هوديني) مرحبًا..
لقد تقدم الأديب فى السن وشاب شعره.. انحنت قامته الفارعة وبدا بحق فى آخر أيامه..
قالت (عبير) لنفسها إن هذا سبب وجيه يجعله يفكر فى الروحانيات طيلة اليوم.. عندما توشك على مغادرة وطنك فأنت تقضى الوقت فى قراءة كل شىء عن وطنك الجديد.. تفكر فيه وتسأل عنه..
لقد ذكرها (دويل) ب. (جلجاميش) الذى خاضت معه مغامرة كبرى من قبل.. كلاهما تضنيه فكرة ما ينتظره بعد الموت.. كلاهما يحلم بالخلود.. (دويل) فقد ابنه و(جلجاميش) فقد صديقه (إنجيدو)... (دويل) طلب مشورة الوسطاء و(جلجاميش) طلب مشورة (أوتنابشتيم)..
صافح (دويل) صديقه، وقال:
- أنت تزداد شبابًا..
- وأنت تزداد حكمة!
- أرجو ألا تكون متضايقًا منى بسبب موقف جلسة تحضير الأرواح تلك..
- كنت على وشك أن أطلب منك الشىء ذاته.. نحن صديقان حميمان.. فقط لا يتبنى واحد منا وجهة نظر الآخر..
قال (دويل) وهو يشعل سيجاره:
- أتابع انتصاراتك المتوالية، وما زلت مصرًا على أنك ساحر حقيقي وعلى أن قوى خارقة هى التى تساعدك فى استعراضاتك..
قال (هوديني) فى صبر:

- سير (آرثر).. الساحر الحقيقي لن يقضى وقته فى أداء عروض خطرة على المسرح من أجل بعض الدولارات.. الساحر الحقيقي سوف يحكم العالم.. وبما أن هذا لم يحدث فإن لنا أن نفترض باطمئنان أن السحر لا وجود له..
وقبل أن يعلِّق الكاتب الكبير، سأله (هودينى) عن مكان إقامته..
- فى نفس الفندق طبعًا..
- سوف أمرُّ عليك فى السابعة مساء لنذهب إلى الحفل فى فندق (ماكالبين)..
ثم أضاف فى حذر:
- تذكر.. هذا ليس حفلًا للسحرة بل هو حفل للمشعوذين مثلى.. أولئك الذين يخرجون أرانب من القبعات ويشطرون المرأة إلى نصفين بالمنشار..
- سأتذكر هذا..
وافترق الصديقان على موعد هذه الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قاعة الاحتفالات فى الفندق مزدحمة إلى حد لا يوصف.. لكن الأغرب كان عينات البشر المجتمعين هناك.. كلهم غريبو الأطوار Weirdos كما يصفهم التعبير الغربي.. هناك من حلق شعر رأسه بالكامل فلم يترك إلا خصلة تذكرك بالهنود (الموهيكان)، وهناك من أوصل سالفتيه بشاربه كأنه الإمبراطور (غليوم) الأول.. وهناك من لبس مثل (بونابرت).. هناك من لبس عباءة دراكيولا السوداء المبطنة بالأحمر.. النساء كن أكثر غرابة.. كل واحدة تحاول أن تبدو كجنّية أو مصاصة دماء..
وسط هذا الجو الشاذ بدا (هودينى) هو الأعقل..
ظهر مقدم الحفل وهو يلوح بيده كأنه نجم، ثم صاح:
- الآن نرى أغرب عروض السحرة الأمريكيين التى أذهلت العالم..
صعد أول السحرة إلى المسرح ومعه مساعدته الحسناء.. كانت فقرته - ببساطة غير مخلّة - عبارة عن قطع رأسها بالسيف ثم وضعه على حامل خشبي.. يمكن أن تمرر يدك حول الحامل لتتأكد من أنه لا يخفى مرآة.. واضح أن الفقرة كانت جيدة لأن هؤلاء المحترفين صفقوا بحرارة..
الفقرة الثانية كانت.. ولكن لماذا أصف كل شيء بالتفصيل.. كان العرض ككل شبيهًا بما قام به سحرة فرعون أمام سيدنا موسى - عليه السلام - كل واحد يحاول أن يبهر زملاءه، حتى توقعت (عبير) أن يلقوا بعصيِّهم لتتحول إلى ثعابين..
صعد (هودينى) إلى المسرح وكرر فقرة ابتلاع الخيط والإبر.. تلك الفترة التى لم يستطع أى ساحر أن يعرف كيف تتم..
ثم صاح مقدم الحفل:
- من الغريب أن ينضم لنا الأديب الكبير السير (آرثر كونان دويل) ... لم نعرف من قبل أنه ساحر لكنه اليوم يقدم لنا فقرة عجيبة، ولن نندهش كثيرًا لو تذكرنا أنه أهم مشجعى علم الروحانيات..
تبادلت (عبير) و(هودينى) النظرات.. هذا لم يخطر ببالهما قط.. للمرة الأولى يتخلى (دويل) عن دور المشاهد المصدق لكل ما يراه، ويشارك..
لكن الرجل الضخم صعد إلى المسرح ولوح بعصاه..
على الفور تم نصب شاشة بيضاء كبيرة، وتم إعداد جهاز عرض سينمائي.. ثم ساد الظلام

القاعة فلم تعد ترى سوى اللهفة والإثارة فى العيون..
قال (دويل) فى وقار:
- أنتم تعرفون اهتمامي بعلم الروحانيات برغم أن بعضكم هنا لن يتحمس لهذا الاهتمام..
هذه الكلمة موجهة ل (هوديني) طبعًا، وقد فهم البعض هذا وأصدر ضحكة خافتة، على حين أردف الأديب الكبير:
- ما تعلمته مؤخرًا هو التصوير النفسي.. إنه علم جديد مذهل.. عن طريق هذا العلم يمكن للوسيط أن ينقل إلى الكاميرا أفكاره وعواطفه.. هذه الأفكار والعواطف تعطى صورًا مذهلة، وهذا هو ما سنراه الآن..
وبدأ الشريط السينمائي يدور، وشعر الجميع بحالة التوتر اللذيذة التى تسبق ظهور الصور على الشاشة والتي يعرفها عشاق السينما.. لحظة ظهور الحلم.. لحظة الخروج من ظلام الرحم إلى النور..
قال (دويل):
- هذه الصور ليست خارقة للطبيعة.. بل هى سابقة للطبيعة.. أى أن الحواس العادية لا تدركها..
وشهق الناس وهم يرون على الشاشة وحشًا مجنحًا.. سحلية عملاقة ذات جناحين تطارد رجلًا وتوشك على الفتك به... ثم صرخوا إذ رأوا (برونتوساورس) يخرج رأسه الطويل من بركة ماء.. ورأوا (تى ركس) يحجل على ساقيه مطاردًا فريسة مذعورة بين الأشجار..
صرخت النساء..
كانت السينما اختراعًا وليدًا، وكان الناس يؤمنون أن كل شيء يظهر على الشاشة حقيقي؛ لذا أثارت هذه الصور هلعهم فعلًا..
البعض تدافع نحو الباب.. والبعض راح يهدِّىء الجالسين..
وسمعت (عبير) (هوديني) يهمس:
- مستحيل.. هناك سر وسوف أفهمه..
بالطبع لم تر هى أية غرابة فى هذا الذى تراه.. لقد رأت فيلم (حديقة العصر الجوراسى) وتعرف أية أحلام يمكن تقديمها على الشاشة، لكن هؤلاء القوم لم يروا شيئًا كهذا..
جو عام من الرعب والهلع، قطعه (دويل) بضحكة مجلجلة من القلب..
عندما يضحك (دويل) من قلبه فأنت ترى بوضوح الطفل المختبئ خلف هذا الشارب العملاق..
قال للحاضرين:
- هذه يا سادة ليست لقطات من الحلم، لكنها لقطات من فيلم روائي فى طريقه إلى دور العرض.. إنه مأخوذ عن روايتى (العالم المفقود) ...
صاح (هوديني) محتجًا:
- لكن لا أحد يستطيع تصوير ديناصورات!
- هذه لمسة السحر.. لمسة العبقرى (ويليس أوبرايان Willis O'Brien) ساحر المؤثرات الخاصة الذى قام بتحريك هذه النماذج بطريقة ابتكرها هو، اسمها (إيقاف الكادر Stop motion).. ومن الواضح أنه بارع جدًّا لأنه استطاع أن يؤثر فى مجموعة من السحرة المحترفين..
تصاعدت الشهقات..
ونزل (دويل) من المسرح سعيدًا كأنه طفل شقى فرغ من عمل مقلب فى رفاقه..

لقد كان هذا انتقامًا صغيرًا أعده لـ (هودينى)... فحتى هذا المشعوذ البارع يمكن أن ينخدع، وليس (دويل) هو الساذج الوحيد..

وفى أذنها همس (هودينى):

- لم أدر من قبل ثراء إمكانيات هذا الاختراع المدعو (السينما).. أعتقد أننى سأدرس الموضوع بدقة أكثر..

وبالفعل فى الأيام التالية تعمق (هودينى) فى الأمر إلى درجة أنه أنشأ شركة إنتاج سينمائية تخصصت فى تصوير أعماله السحرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- ظلال غيرة..

من جديد جلس الأصدقاء على العشاء يلتهمون تلك الأشياء التى لا تفهم (عبير) كنهها.. فقط تفهم الفكرة العامة.. مثلًا هذا نوع من المعجنات.. هذا نوع من الخضر.. هذا نوع من اللحوم..
لم ينته (دويل) بعد من الضحك ولم يجفّ الدمع من عينيه..
قال لـ (هوديني):
- الحق إن المشهد كان مضحكًا.. يذكرني بمشهد من الرواية ذاتها، عندما وقف بروفيسور (تشالنجر) يحكى مغامراته لعلماء لندن المتحذلقين.. ثم إنه فتح صندوقًا فطار منه (تيروداكتيل) كامل حى محلقًا فى سماء القاعة.. هكذا صرخوا وراحوا يتدافعون نحو الباب..
التهم الساحر ما أمامه من طعام فى رشاقة، وقال:
- أجد تناقضًا غريبًا بين شخصيتك وشخصية (هولمز).. أنت تصدق كل شيء ببساطة و(هولمز) ذو عقلية نقدية لا تأخذ شيئًا على علّاته..
قال (دويل) فى استرخاء:
- (هولمز) ليس قريبًا من شخصيتي.. إنه على عكسى تمامًا، وهو أقرب إلى أستاذ لى فى كلية الطب.. لكن رأيي أن (هولمز) يؤمن بعالم الأرواح مثلى تمامًا..
ثم نظر إلى (هوديني) مفكرًا، وقال:
- فى الحقيقة أكره أن أراك متعصبًا جدب الخيال إلى هذا الحد.. لكنى أنصحك أن تتريث.. إن عالم الروحانيات عميق وصعب ولا يؤخذ بهذه البساطة..
- النصابون يجب أن يؤخذوا ببساطة.. إنهم نصابون وكفى..
من جديد ساد الصمت.. وفكرت (عبير) فى أن أحد الرجلين يدبّر مقلبًا للآخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج (هوديني) من المسرح متأبطًا ذراع تلك الشقراء التى قيل إنها ممثلة تتحسس طريقها نحو الشهرة.. وعلى الباب همست له الشقراء بشىء ما، وقربت شفتيها الحمراوين من أذنه ليصل الهمس بدقة..
شاء حظ (عبير) أن تكون على باب المسرح فى هذه اللحظة بالذات، تنتظر زوجها الذى ضاع فى الزحام..
لشد ما شعرت بحرج وهى ترى هذا المشهد، وتمنت ألا تلاحقها الكاميرات لتظهر تعبير وجهها..
الحق أن الغيرة شعور معقد ليس كله حبًّا لرجلها.. الجزء الأكبر منه حب لنفسها هى، فهى لا تبغى أن تظهر بمظهر الحمقاء أو الكمّ المهمل.. ثمة جزء لا بأس به من الكبرياء وجزء من الشعور بالتملك.. هى لم تكن تحب (هوديني) إلى هذا الحد، لكنها بالتأكيد لم تحب ما رأته..
وعلى الباب دنا منها ذلك الصحفي الذى لم تره من قبل يسألها عن شعورها لدى رؤية الخدعة التى قدمها (دويل)..
في هذه اللحظة اجتاز (هوديني) الزحام، وجذبها من كمّها فى عصبية
قال الصحفي شيئًا قبل أن يدرك أن الكاميرا الخاصة به مهشمة وقد تحولت إلى شظايا على الأرض..
جذبها (هوديني) وسط الزحام، وهو يرسم ضحكة قاسية على شفتيه.. ضحكة مفتعلة يظهر

بها أن الأمور على ما يرام، لكن هذا أعطاها طابعًا وحشيًّا لا شك فيه..
وفى السيارة قال لها:
- من جديد تتكلمين مع ذلك الصحفي (راينهارت)..
لم ترد أن تقول إنها لا تعرف (راينهارت) ولم تره قط قبل اليوم.. ليس هذا وقت إنكار شىء كهذا..
قالت فى برود:
- من هذه الشقراء؟
قال بعناد:
- ولماذا تتكلمين مع (راينهارت)؟!
الأمر لا يتعلق بالغيرة، لكنه يتعلق بمخالفة أوامره التى لا ترد..
قالت وقد تعالى مستوى الأدرينالين فى دمها إلى مستوى النوبات القلبية:
- ما دمت لا تحترم مشاعري فلا توجه أسئلة..
قال فى برود:
- الشقراء جزء من عملي..
- يا سلام! يا له من عمل جميل: الصحفي جزء من عملى كذلك..
قال ضاغطًا على كلماته:
- اسمعى.. لقد تعبت كثيرًا كى أخلق أمام الإعلام صورة (هودينى) العظيم الساحر الذى لا يفشل.. لن أشوِّه هذه الصورة بخيانة زوجية أو طلاق.. ولئن تمسكت بك فلأن الطلاق لا يناسب صورتى الاجتماعية..
قالت فى عناد، وقد شعرت بأنه تجاوز الحاجز الوهمي الذى كانت تضعه:
- ليكن.. أما أنا فلا تضايقني صورتي الإعلامية.. فليسقط المعبد على الرءوس..
هنا تدخل مدير أعماله الجالس فى المقعد الأمامي:
- (هارى).. أرجو أن تصمت ولنتكلم فى هذه الأمور فيما بعد..
كانت تعرف سر هذا الحماس المخلص.. إنه يقاتل من أجل ال 10٪ المقدسة التى ينالها عن عروض (هودينى)، وهى نسبة تستدعى أن يقاتل ويصلح ذات البين بينهما..
صمت (هودينى) وعرفت (عبير) أنه سيجتمع مع مدير أعماله لساعات هذه الليلة. طبعًا سيقتنع بأن يهدّئ الأمور.. (العرض يجب أن يستمر).. هذا هو الشعار وعلى الخلافات الزوجية والمشاكل النفسية أن تتوارى..
كانت هى أيضًا تفكر فى أن تترك الأمور تسير كما هى.. إن هى إلا أيام وتفارق هذه التجربة، فلا داعى للمشاكل.. إنها هنا كى تراقب (هودينى) فلا داعى لتضييع الوقت فى خلافات لا علاقة لها بالأمر.. فقط هى متأكدة من أنها على حق هذه المرة على الأقل.. هو يعبث مستغلًّا شهرته ونجاحه، بينما هى لا تعرف أصلًا من هو (راينهارت) هذا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى أن بزغ الفجر اجتمع (هودينى) ومدير أعماله فى مناقشة مطولة جدًّا.. لم تعرف ما يقولان لأن الغرفة مغلقة، لكن من الواضح أن هناك أشياء مهمة لأن دخان التبغ ينعقد كسحابة فى سماء الغرفة، فلن تندهش لو انهمر المطر..
فقط عندما دخلت وقد بدأ نور الشمس يتسلل إلى الحجرة، وجدت أنهما جالسان وقد احمرت منهما العيون، وكانت مطفأة التبغ مليئة عن آخرها.. كانت هناك أوراق عليها عشرات الخطوط

والرسوم البيانية..
وسمعت ما يقول المدير..
إنه يقول:
- عامة.. سوف يتم إخراجك قبل أن تختنق.. إن معنا (بلدوزر) جاهزًا..
قال (هودينى):
- أنبوب الأكسجين سيتيح لى عشر دقائق.. لكن يجب ألا يراه أحد من المشاهدين..
كادت (عبير) تجن..
كانت تحسب أنهما مجتمعان لمناقشة الطلاق أو استرضائها، فإذا بهما يخططان للهروب القادم.. شعور مدمر بالإهمال كاد يبكيها.. ألا تستحق أن يجتمعا من أجل مناقشة حالتها.. لا.. العمل هو العمل..
فقط رفع (هودينى) رأسه، وقال:
- سوف ننطلق الساعة الرابعة عصرًا.. (بيس).. أرجو أن تكوني مستعدة!
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- ماذا يحدث؟

من جديد وقف الصحفيون ورجال الشرطة.. الجماهير تتصايح وتهلل..
وصلت السيارة التى تقل (هودينى) الذى حرص على أن يلبس مثل (فانتوماس) هذه المرة.. العباءة السوداء والأناقة الزائدة والقناع على الوجه، وراح يلوح للناس فى نرجسية..
ثم وثب من السيارة فالتف حوله أربعة رجال ينزعون عنه العباءة، وجاءت السلاسل كالعادة تلتف حول جسده الصغير.. بعد السلاسل جاء دور الكفن الذى وضعوه عليه وخاطوه بعناية.. بعدها طبقة أخرى من السلاسل.. ثم تعاون الرجال على حمله إلى التابوت.. تابوت ضخم هو متين بحق..
وضعوه بالداخل ثم وضعوا الغطاء، وتأكدوا من غلقه بقفل..
هذا يشبه التجربة المائية التى قام بها من قبل، لكنهم فى هذه المرة سوف يدفنونه على عمق خمسة أمتار تحت الأرض ويردمون عليه التراب..
تمت الطقوس الكئيبة الرهيبة ببطء.. وفى النهاية أنزلوا التابوت مربوطًا بحبال إلى القبر، وبدأت عملية ردم التراب فوقه.. كمية لا بأس بها من التراب.. سوف يعانى الكثير إذا أراد شق هذه الطبقة..
جاء (البلدوزر) فسوّى التربة، ثم رشوها بالماء..
بعد دقيقة بدا أن (هودينى) اختفى للأبد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فقط (عبير) وقفت بعيدًا جوار السيارة تنظر إلى المقعد الخلفي..
عندما ينجح كل شىء والناس يلتفون حول موضع الدفن، سوف تدوى ضحكة مروعة وينظر الجميع بحثًا عن مصدرها ليجدوا الساحر الكبير جالسًا فى السيارة التى خرج من القبر وتسلل لها..
الطريف أنه سيكون بكامل أناقته..
لن يكون مغبرًا أو مرهقًا.. ولسوف يضرب الناس كفًّا بكف ويصرون على أنه ليس هو..
عندها يتم الحفر لاستخراج التابوت.. ولسوف يجد الناس أنه خال تمامًا برغم أنه غير مثقوب فى أى جزء..
هذا الهرب سيكون عنوان الصحف لمدة شهر قادم..
هكذا وقفت (عبير) تصغى لما يقال..
- هذه المرة لن يهرب..
- من المستحيل أن يفعل وإلا فهو الشيطان ذاته..
- لكنه برهن من قبل على ذلك..
مرت الدقائق..
(عبير) تنظر إلى مقعد السيارة.. تنظر إلى مدير الأعمال.. عشر دقائق.. اثنتا عشرة..
لابد أن الأكسجين نفد الآن..
هل تصرخ.. هل تتصرف بهستيريا كالعادة.. لو كانت مخططة فالويل لها، لكن لو لم تكن مخططة ولم تصرخ فالويل لها أيضًا..

نظرت من جديد للمدير فضحك لها ضحكة عصبية، لكن العرق كان يتفصد من جبينه.. وأدركت أنها محقة في قلقها..
فجأة صرخ الناس..
كانت يد (هوديني) تخرج من تحت التراب كما يفعل (الزومبي) في أفلام الرعب.. كان يشق التربة بمخالبه وأظفاره في جهد محموم.. كأنه فرخ واهن يحاول تحطيم قشرة البيضة..
صرخ مدير الأعمال:
- ساعدوني! ساعدوه!
والتف الناس يزيحون طبقات التراب.. بالأظفار وبكل أداة موجودة..
في النهاية تكوم الرجل على الأرض وهو يعب الهواء في جشع.. وجهه في لون التراب.. من العسير أن تعرف أين يبدأ وأين ينتهي.. ووضعوا قناع أكسجين جاء من مكان ما على أنفه فراح صدره يعلو ويهبط..
صاح مدير الأعمال محاولًا إنقاذ الموقف:
- لقد أفلت من القيود والتابوت.. لقد نجح!
لكن الناس تنظر للرجل فتشعر أن هناك شيئًا خطأ.. ليس هذا هو السيناريو المفترض.. كان يجب أن يقف منتعشًا ضاحكًا لدى نجاح فقرته..
جاءت سيارة الإسعاف فحملته مع (عبير) وانطلقت تنهب الطريق نحو المستشفى..
جلست جواره أمسكت بيده في مزيج من الشعور بالواجب والشفقة الحقيقية.. فنظر لها من تحت القناع، وقال بصوت مختنق:
- أسطوانة الأكسجين..
- مالها؟
- كانت فارغة! هناك من أفرغها! هناك من أراد قتلي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- الهاوية..

كان يحتاط لكل شيء؛ لذا احتفظ بقصبة طولها بضعة أمتار.. يثقب بها التربة إلى أن تبلغ السطح، ثم ينتزع قطعة من المعدن في قلبها مهمتها أن تمنع دخول الأتربة فيها.. عن طريق هذه القصبة يمكنه أن يستنشق الهواء لو حدث خلل ما يتعلق بأسطوانة الأكسجين..
هذا هو ما حدث بالضبط.. لقد اكتشف داخل التابوت أن الأسطوانة لا تعمل؛ لذا استعمل قدرته الخارقة على حبس الأنفاس، وفك قيوده ومزق الكفن وفك أصفاده، ثم أزاح الغطاء..
وسرعان ما استعمل القصبة كي يتنفس.. لكنها ليست بالطريقة المثلى.. دعك من أنه لم يستطع الوصول إلى النفق الجانبي الذى يقوده إلى الخروج من حيث لا يراه الناس، حيث يتسلل إلى السيارة..
هكذا تحولت العملية إلى فوضى كبيرة.. محاولات لإزاحة التربة بأظفاره.. محاولات للاحتفاظ بالقصبة في فمه.. الحقيقة أن هذا أسوأ مأزق مر به في حياته..
هذا ما حكاه لـ (عبير) في المستشفى..
بصفتها حمقاء قالت له الكلمة الوحيدة التى ينبغي ألا تقال له:
- أنت تقدمت في السن.. ربما كان من الواجب أن تفكر في التقاعد!
نظر لها نظرة أخرى نارية وآثر الصمت..
بعد قليل أزاح القناع، وسألها في ضيق:
- لماذا تأخرت في إحداث الضوضاء المعتادة... في المرة السابقة لم أتأخر إلى هذا الحد لكنك ملأت الدنيا صراخًا.. هل كنت تنوين أن تصمتي للأبد؟
قالت في صبر:
- في المرة السابقة لمتني كثيرًا.. لهذا خشيت أن أفسد شيئًا هذه المرة.. امنع طفلك من الصراخ عندما يرى صرصورًا ولسوف يصمت عندما يرى ثعبانًا..
- هذا مثل غريب.. لم أسمعه من قبل..
- ولا أنا.. السبب أنني قمت بتأليفه حالًا!
نظر لها وضحك.. تلك الضحكة القاسية الغريبة.. وأزاح خصلات شعره الطويل المجعد عن عينه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعالوا.. تعالوا..
تعالوا وشاهدوا (هوديني) العظيم يؤدى واحدة من أهم ألعابه..
سوف يتحرر من قيوده وهو مكبل في سيارة بلا فرامل مندفعة إلى هاوية في (جراند كانيون)..
سوف يغادر السيارة ويقف بينكم سليمًا يبتسم..
إن (هوديني) العظيم بحاجة إلى أن يستعيد سمعته بعدما فشل مرتين.. بحاجة إلى أن يستعيد ثقته بنفسه.. في الحقيقة لا شيء يمكن أن يهز ثقة (هوديني) بنفسه إلا الزلازل، لكنه برغم هذا اهتز نوعًا، خاصة وأنه كاد يلقى حتفه..
تعالوا.. تعالوا.. فليُعلم الحاضر الغائب..
لقد خرج من المستشفى على الفور، ليضع خطة الهروب الجديدة مع مدير أعماله، ولم

يستغرق الإعداد فترة طويلة.. لقد ابتكر (هودينى) أشياء كثيرة من بينها المقعد القاذف الذى استخدم فى الطائرات المقاتلة بعد هذا.. سوف يتحرر من قيوده داخل السيارة ثم يعالج رافعة فيطير بمقعده فى الهواء لحظة سقوط السيارة من فوق المنحدر..
بعدها سوف يعتمد على قدراته البهلوانية ليتعلق بحبل يتدلى على الحافة، ويدور ليسلك ممرًّا سريًّا يقوده إلى زحام الواقفين يراقبون المشهد.. سوف يقف بينهم ويصرخ: أنا (هودينى) العظيم.. أنا الذى حسبتم أنه فشل من قبل..
العملية خطيرة وسوف تحتاج إلى أكبر توفيق ممكن..
التحرر من قيودك فى سيارة مسرعة تنحدر إلى هاوية أمر لا يقدر عليه سوى (عادل إمام) فى فيلم (النمر والأنثى).. (عادل إمام) كان تحت تأثير المخدرات كذلك، وكان معه فى السيارة طفل وامرأة، لكنه فك قيوده ووثب من السيارة مع الاثنين ولم يُخدش أحد.. كل هذا فى ثوان معدودات.. لكن لا تنسوا أن قدرات السينما المصرية تفوق قدرات (هودينى) بمراحل..
برغم هذا.. تعالوا تعالوا..
صدقوني سوف تحبون ما ترون..
سوف تحكون عنه لأحفادكم جوار المدفأة ليلًا.. ولسوف تقولون فى فخر: نحن رأينا (هودينى) ولم نقرأ عنه كما فعل أفراد هذا الجيل المسكين.. (ديفيد كوبرفيلد).. من يضمن أى شىء فى عصر الخدع التلفزيونية والمؤثرات الخاصة.. أما فى عصر (هودينى) فقد كان كل شىء حقيقيًّا له لون ورائحة وطعم..
تعالوا.. تعالوا..
هو ذا الساحر العظيم يتقدم.. يقوم الرجال بتقييده بعناية وهو يضحك ويغمز بعينيه.. يضعونه فى المقعد ويقيدون قدميه بالأصفاد إلى عصا التحكم فى السرعات بحيث لا يقدر على ترك السيارة..
إنهم يحكمون تكبيله على حين يتقدم ميكانيكي سيارات ليتأكد من أن الفرامل تالفة.. يرفع إبهامه لأعلى بمعنى أن كل شىء تمام (أو تالف) ...
يضعون ثقلًا على دواسة البنزين، ثم يحركون ذراع السرعات ويرفعون الثقل الذى كان يضغط على دواسة الدبرياج.. تنطلق السيارة كالسهم حاملة فريستها..
هناك منحدر والمنحدر يقود إلى هاوية..
السرعة عالية جدًّا.. السيارة مندفعة بجنون..
نهاية المطاف.. نهاية الشوط..
تطير فى الهواء بضعة أمتار كما يحدث فى أفلام الرسوم المتحركة، ثم تهوى من حالق.. ولا يرى أحد ما حدث لكنهم يرون الدخان الأسود يتصاعد من الهاوية..
يركض الجميع إلى الحافة..
أين (هودينى)؟
يتلفتون حولهم.. أين ذهب الرجل البارع؟
(عبير) بدأت تفقد أعصابها.. ترتجف بلا توقف..
منظرها يوحى بأن كارثة قد حدثت.. أم هذا جزء من الدور التمثيلي؟
لماذا لم يظهر حتى اللحظة؟
أين هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة يصرخ أحد الواقفين أنه يراه..
التفَّ الناس حول حافة الهاوية ينظرون..
كان (هوديني) هناك متعلقًا بالصخور وهو ينزف.. ثيابه ممزقة ووجهه دام لكنه حي كما هو واضح.. ومن الواضح كذلك أنه كان على وشك الموت.. هذا مؤكد.. لو كانت خطته تتضمن الوثب من السيارة فمن المستحيل أن يكون قد رتب عمل هذا على بعد خمسة أمتار من الأرض..
ثمة خطأ حدث، وقد استطاع أن يصححه فى آخر لحظة..
وبينما راح فريق الإنقاذ يحاول الوصول إلى الرجل المعلق بين الصخور تساءلت (عبير) عما حدث..
قال مدير الأعمال المذهول:
- المقعد القاذف لم يعمل.. هذا واضح لأن سقف السيارة المحترقة غير مفتوح.. هكذا فتح الباب وقذف نفسه.. هذا هو الارتجال الحق..
ثم حكّ رأسه، وقال:
- لقد نجا (هودينى) كإنسان.. لكنى أتساءل عما إذا كان هذا إعلان وفاته كخبير هروب؟
حقًّا لم تكن تملك إجابة..
لماذا يحدث هذا الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- ما رأيك يا سير (آرثر)؟

قال (هودينى) وضوء لهب المدفأة يتوهج على ملامحه:
- سأحكى لكما القصة.. وإنني لأتوقع ردك يا سير (آرثر) باعتبارك صانع (شيرلوك هولمز) الذى لم تكن تفوته فائتة..
راح الدخان يتصاعد كثيفًا من سيجار (كونان دويل) علامة على اهتمامه، بينما اعتصرت (عبير) قدح الشاي فى عصبية..
قال (هودينى):
- فى المرة الأولى تبدل المفتاح الذى يفتح القيود.. وكدت ألقى حتفي فى زنزانة التعذيب الصينية لولا أن أتقنتنى (بيس).. مَنْ بدل المفتاح؟ لا أدرى.. بعد هذا حدث موقف غريب عندما كنت مدفونًا فى ذلك التابوت تحت الأرض.. لقد وجدت أسطوانة الأكسجين فارغة برغم أننى فحصتها بنفسي قبل العرض.. لا يمكن أن تفرغ بهذه السرعة.. هكذا وجدت نفسى مدفونًا تحت الأرض ولا يوجد هواء فى التابوت.. كان علىّ أن أتصرف بسرعة وإلا هلكت فعلًا، ومن حسن الحظ أننى ممن لا يتجمد عقلهم وقت الخطر.. لقد استعملت القصبة الهوائية التى أدخرها لظروف كهذه..
ثم شرب جرعة كبيرة من كأس المارتينى الذى فى يده، وقال:
- بعد هذا كنت فى سيارة مندفعة إلى حافة هاوية.. أجذب رافعة المقعد القاذف فلا يحدث شىء.. لم يقذفني المقعد فى اللحظة المناسبة، وسرعان ما كان علىّ أن أتصرف بينما السيارة تهوى فى الوادي.. فتحت الباب الجانبي وقفزت منه موقنًا بالهلاك، لكنى فضلت الموت فوق الصخور على الموت حرقًا.. بفضل الله تمسكت ثيابي بصخور بارزة وبقيت معلقًا حيث أنا إلى أن جاءت النجدة..
ثم نظر إلى (دويل)، وقال:
- لو أن هذا الموقف واجه مفتشك العظيم (هولمز) فكيف كان سيفكر؟
أطلق (دويل) سحابة كثيفة من الدخان، وقال:
- لو اعتبرنا أننى صرت (هولمز)، فبالطبع كنت سأتأكد أولًا من أنك لم ترتكب خطأ ثلاثيًا..
ضحك (هودينى) فى عصبية.. وبالطبع طوّح الكأس التى يحملها فى المدفأة لتتهشم.. لابد من تصرف كهذا مع نوبات الضحك الهستيري.. أى ممثل يعرف هذا..
ثم قال فى غضب مكبوت:
- خطأ.. لا.. لا تقل ما يقوله مدير أعمالي الأحمق.. أنا لا أشيخ أبدًا..
عاد (دويل) يقول:
- احتمال آخر هو أن هناك من يريد قتلك..
صاح (هودينى) فى حماس:
- هذا هو أجمل ما فى القصة كلها.. من برأيك يرغب فى قتلى؟
- أنت أدرى بهذا.. لكن لابد من خصم قادر على أن يصل إلى المفتاح وأسطوانة الأكسجين وفرامل السيارة..
نهض (هودينى) بادى الاستمتاع، وقال:
- من مثلًا؟

- مدير أعمالك.. ماذا عنه؟
- لو هلكت أنا لصار التعس متسولًا، ولراح يمسح الأحذية على أرصفة الميناء.. صدقني.. هو آخر شخص يمكن أن تكون له مصلحة فى موتى..
عاد سير (دويل) يفكر.. ثم قال:
- هناك (بيس).. لكن هذا غير معقول طبعًا..
صاح (هوديني) الذى لعبت الخمر بعقله:
- ولِمَ لا.. أعطنى سببًا واحدًا يمنع ذلك..
صاحت (عبير) وقد فهمت إلام تفضى هذه اللعبة:
- لا شك أنك جننت!
- ربما جننت لكنى لم أفقد منطقى.. هناك واحد يمكنه أن يؤذيني ويرغب فى ذلك.. السيدة المحترمة (بيس) تريد أن تتخلص منى ليصفو لها الجو مع ذلك الوغد (راينهارت).. سوف تنال إرثًا رائعًا من الأحمق الذى احترق فى السيارة!
صاحت بأعلى صوتها:
- أنت مجنون فعلًا، وقد صارت الحياة معك مستحيلة! لقد حانت اللحظة التى طالما حاولت أن أؤخرها!
قال (دويل) مرتبكًا، وهو الذى لم يتوقع قط أن تكون الأمور بهذا السوء:
- (هارى).. أنت توجه اتهامات قاسية ومهينة للغاية ولا يمكن التراجع عنها أبدًا!
- ومن قال إننى أريد التراجع!
- (بيس) تحبك فعلًا..
- هذا ما تقوله أنت..
- (بيس) أنقذتك فى تجربة الزنزانة الصينية.. كان بوسعها أن تتركك تموت غرقًا فتستريح..
- لكنها لم تفتح فمها وأنا مدفون فى التابوت.. أعتقد أن أعصابها خانتها فاضطرت إلى إنقاذي فى المرة الأولى.. لا شك أن (راينهارت) لامها كثيرًا على لحظة الضعف هذه..
وقف (دويل) فى منتصف الغرفة، وقال وهو يضع يديه فى جيبى سراويله:
- اسمع.. هناك احتمال أراه معقولًا جدًا..
- وما هو؟
- الأرواح!
صاح (هوديني) فى استهجان، لكن (دويل) عاد يقول:
- فكر فى الأمر جيدًا.. أنت سخرت من الأرواح وأهنتها.. سخرت من كل جلسة تحضير أرواح فى أرجاء البلاد والعالم.. إن الأرواح تعرف كيف تنتقم.. وليس أسهل عليها من استبدال مفتاح أو إفراغ أسطوانة أكسجين..
- أنت تعرف أننى لا أصدق حرفًا من هذا الهراء..
- وأنا لا أصدق أن (بيس) قادرة على إيذاء ذبابة فضلًا عن زوجها.. أريد أن تعتذر لها..
فى هذه اللحظة انفجرت (عبير):
- دعه يا سير (آرثر).. لم يعد اعتذاره يهمني فى كل شىء لأن (هوديني) كله لم يعد يهمني فى شىء..
ثم هزت رأسها للرجل العجوز فى وقار، وقالت:
- سير (آرثر).. أستميحك عذرًا..

وسرعان ما غادرت الغرفة.. فالجناح.. فالفندق كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- الهروب الأخير..

لهذا لم تكن (عبير) هناك عندما حدثت المأساة فى مونتريال بعد أيام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأمل المفتش (سكوت) من شرطة مونتريال الفتى المذعور الجالس أمامه، وبلل طرف القلم بلسانه قبل أن يبدأ الكتابة..

- أنت حضرت القصة كلها.. هلا ذكرت لى بياناتك بدقة؟

قال الفتى الذى لم يعتد هذه المواقف:

- أنا (جاك برايس).. طالب بجامعة (ماكجيل).. لقد حضرنا عرض (هودينى) وانبهرنا بشدة.. هكذا ذهبنا إليه فى الكواليس لنهنئه.. هناك كان راقدًا على أريكة بينما أحد طلبة الفنون يرسم لوحة له.. كان معي (جوردون وايتهيد).. لقد ظللنا واقفين أمام الرجل محبوسى الأنفاس لا نصدق أننا فى حضرته، ومن الواضح أنه كان منتشيًا بهذا الشعور.. إن (وايتهيد) أحمق ويتصرف من قبل أن يفكر.. سأله عما يقال عن قوة عضلات بطنه فأكد (هودينى) هذا.. سأله (وايتهيد) عن صحة ما يقال عن إنه قادر على تحمل أية ضربة توجه لبطنه عن طريق انقباض عضلاتها.. قال (هودينى) إن الأمر كذلك..

- وماذا فعل (وايتهيد)؟

- الأحمق.. قبل أن يعطي أى إنذار أو يقول أية كلمة وجه بأقصى قوته بضع ضربات عنيفة إلى بطن (هودينى) الراقد على الأريكة! تأوه الرجل ولم يبد على ما يرام.. لكنه تماسك وعاد إلى الابتسام وقال لـ (وايتهيد): لو أنك أنذرتني لتلقيت الضربات بشكل أفضل..

- وهذا كل شىء؟

- هذا كل شىء.. لم يحدث شىء جديد، وقد بقينا مع (هودينى) نصف ساعة وانصرفنا فى أفضل حال..

- ومتى سمعت الخبر؟

- من الصحف.. عرفت أن أعراض الالتهاب البريتوني أصابت (هودينى) فى الصباح مباشرة.. أعتقد أن (وايتهيد) فجر أحشاء الرجل.. يقال إنها الزائدة الدودية التى انفجرت.. المهم أنه دخل المستشفى فور عودته إلى نيويورك.. ومات مساء يوم 31 أكتوبر..

- هل تتهم (وايتهيد) بقتل (هودينى)؟

- أتهم الحماقة والغباء والتظرف والتسرع بذلك..

وارتجفت شفتاه بعد هذا الاعتراف المضنى..

قال المفتش، وهو يغلق الدفتر:

- سوف آخذ شهادة (وايتهيد) حول الحادث.. على كل حال لن يزيد ما يوجه له على تهمة القتل الخطأ..

- لو كانت هناك تهمة بالغباء فإنني أتهمه بها..

- سيجد القاضي تهمة تصلح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا مات (هودينى) عام 1931..
ولما كانت (عبير) ما زالت زوجته فإنها اضطرت إلى أن تكون هناك..
برغمها لم تستطع أن تنسى أن هذا الجسد الراقد فى التابوت هو ذلك الرجل المليء بالحيوية الذى استطاع أن يبهر جيلًا كاملًا.. هناك أشخاص لا تتصور أنهم قابلون للموت، لكن هذه هى الحقيقة الأليمة..
وبرغمها كذلك نظرت حولها وهى تقف أمام الجسد المسجى بانتظار أن يظهر المرشد الوغد.. إنه يأتي دومًا فى هذه اللحظة بالذات..
لكنه لم يفعل.. من الواضح أن القصة لم تنته بعد..
ارتدت الأسود.. على ما تذكر هى لم تلبس الأسود فى فانتازيا من قبل، فلم يتركها المرشد تنعى الموتى قط..
وخرجت إلى الجنازة..
كانت جنازة مهيبة حضرها ألفا شخص.. لقد أحبت نيويورك (هودينى) بحق.. المهاجر المجرى الفقير الذى استطاع أن يحرك أحلام الآلاف..
لكن أغرب من حضر الجنازة كانوا أولئك السحرة الذين رأتهم فى الحفل.. سحرة الولايات المتحدة جميعًا جاءوا لجنازة (هودينى).. وعلى قبره قاموا بتحطيم عصيهم السحرية.. هذا التقليد الذى ما زال متبعًا حتى اليوم كل عام ويسمونه ((Broken wand..
كانت هناك خطب كثيرة، وبكت فتيات كثيرات..
ووسط الزحام رأت القامة الفارعة لسير (آرثر كونان دويل)..
كان يبكى بحرقة وألم.. قلبه الطيب الساذج يسيطر على كل أفعاله.. وقد عزاها ثم انفجر فى البكاء. فأدركت أنه يتذكر ابنه أولًا قبل كل شىء..
ربما يتذكر مصيره القريب كذلك؟
انفرد بها قرب المقبرة، وقال لها همسًا:
- أما زلت تشكين فى الأمر؟
- أى أمر؟
- هذه الميتة الغريبة التى لم يتصورها أحد.. وقد هلك فى ليلة (الهالوين) بالذات، فلماذا اختار هذه الليلة دون سواها؟
- هى صدفة..
- كل شىء لديكم صدفة.. الكون ذاته صدفة.. أما أنا فأرى أن لكل شىء هدفًا معلومًا محددًا.. وأؤمن أن الأرواح انتقمت من (هودينى) لأنه فعل كل ما يستطيع كى يسخر منها..
كادت تعلّق ثم آثرت الصمت.. أما هو فمد يده فى جيبه وأخرج رسالة..
رفعت حاجبيها متسائلة، فقال:
- هذه رسالة كتبها لك وأبقاها معي.. يقول إن عليك أن تجربى استحضار روحه كل عام فى موعد وفاته.. هناك شفرة معينة المفترض أنه سيحاول استخدامها معك..
- لكنه لم يؤمن بحرف من هذا قط..
- لكنه أراد أن يتأكد.. هذه وصيته ويجب أن تنفذيها..
هزت رأسها ودست الخطاب فى حقيبتها.. كأن هذا ينقصها..
أردف (دويل) باسمًا:
- وأراهنك أن سيد الهرب لن يظل فى قبره طويلًا.. سوف يفر فراره الأخير! أنا متأكد من هذا..

نظرت له فى رعب ولم تعلق..
وسط الزحام برز صحفي شاب وسيم (هذا الوجه يبدو مألوفًا) وناداها:
- آسف لما حدث لزوجك يا مسز (هوديني).. كنت أبغى أن أجرى حوارًا معك..
ثم رفع قبعته، وقال:
- أنا أدعى (راينهارت)!!
نظرت له فى غلٍّ واشمئزاز، وهتفت:
- إذن أنت هو! فلتغرب عن وجهى وإلا جعلتك تلحق بزوجي الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا جديد تحت الشمس كما قلنا..
حتى بعد موت (هوديني)، ظل (دويل) يحاول إثبات أن (هوديني) كان يملك قوى خارقة، وأنه كان يحول جسده إلى صورة غير مادية تسمح له بالمرور عبر الجدران، وكتب عنه فصلًا كاملًا فى كتابه (حافة المجهول).
وجاء اليوم الذى كانت فيه (عبير) تحزم حقائبها لترك الفندق الذى أقامت فيه ردحًا من الزمن مع (هوديني) زوجها.. كانت تفتش فى خزانة ثيابها عن شىء عندما سقطت علبة مساحيق على الأرض فانفتحت.. وتبعثر ما فيها على الأرض..
رأت شيئين عرفتهما بسهولة ولم تعرف الشىء الثالث..
الشىء الأول: كان مفتاحًا صغيرًا.. مفتاحًا يمكن أن يكون لقيد رسغ أو قدم.. الشىء الثانى: كان صمام أسطوانة غاز.. أما الشىء الثالث فلم تدر ما هو.. إنه يشبه دائرة القطع الكهربي فى السيارة التى يطلق عليها (مرسى) الكهربائي اسم (كتاوت)..
والآن على ضوء الشيئين تعرف كنه الشىء الثالث وترتجف..
مفتاح القيد الذى تبدل.. صمام أسطوانة الأكسجين الذى تم انتزاعه ففرغت الأسطوانة.. إذن الشىء الثالث جزء مهم من نظام قذف المقعد..
من فعل هذا؟
من جاء بهذه الأشياء هنا؟
لا أحد يفتح هذه الخزانة سواها.. ولا أحد يقدر على التسلل هنا..
معنى هذا شىء واحد، هو أنها من فعل ذلك..
كيف فعلتها؟! لماذا فعلتها؟!
لقد كانت غائبة عن الوعى تتصرف كمن يمشى أثناء النوم.. قررت الانتقام من (هوديني) وكان هذا التدبير المريع القاسي.. والأسوأ أنها لم تعرف قط أنها فعلت ذلك..
حمدًا لله أنه لم يمت بسبب هذه الألعاب.. يصعب أن تتصور أنها اتفقت مع ذلك الأحمق الذى ضربة فى أمعائه فمزقها..
إن (هى) كانت تمقته أكثر مما تعرف عن نفسها..
إذن هى ارتكبت أول جريمة قتل لها فى فانتازيا وفى حياتها عامة.. صحيح أنها لم تسفر عن شىء، لكن فى القتل تقترب النية من الفعل..
ثم تذكرت (كونان دويل) وشاربه الكث يهتز فى حماس وهو يقول:
- إنها الأرواح!
هل استخدمتها الأرواح كوسيلة.. هل هى وسيطة ولا تعرف هذا عن نفسها؟!

أسئلة محيرة لا حد لها..
فقط هى خائفة.. مذعورة.. وأسوأ أنواع الرعب هو رعبنا من ذلك الجانب الذى لا نعرف عنه أى شيء فى ذواتنا..
ومن جديد تذكرت كلمات (كونان دويل):
- أراهنك أن سيد الهرب لن يظل فى قبره طويلًا.. سوف يفر فراره الأخير! أنا متأكد من هذا..
ماذا لو فرّ (هودينى) من قبره فعلًا..
ماذا لو كان هذا ممكنًا؟
وإلى أى مكان سيتجه فور فراره... مَنْ أول شخص سينتقم منه؟
الإجابة معروفة ولا تحتاج إلى عبقرية..
شعر رأسها يتصلب ودقات قلبها تتسارع..
هناك من يتحرك فى الغرفة خلفها..
هناك من يدنو منها..
إنها موشكة على الصراخ.. لكن منذ متى يخيف الصراخ الموتى العائدين لينتقموا؟
إنها..
- لاااا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما شعرت بيد المرشد على كتفها أوشك قلبها على التوقف، ثم استحال خوفها غضبًا كما هى العادة.. الخوف هو أقرب طاقة نفسية قابلة للتحول إلى غضب مجنون.. لذا انهالت عليه لكمًا وركلًا وهو يتراجع مذعورًا..
فى النهاية قال لها:
- أنا فى حال نفسية سيئة، وجئت لأخلصك من هذا كله فإذا بى أتلقى الصفعات!
قالت وقد هدأت قليلًا:
- حالتي النفسية أسوأ.. أنا مذعورة عاجزة عن الفهم..
قال فى هدوء:
- موضوع القبر الخالي شهير جدًّا.. كل مختصي الهرب يرتبون شيئًا كهذا.. هو نوع من الهروب الأخير يُبقى سيرتهم خالدة.. غالبًا ما يتم الاتفاق مع مدير أعمالهم على أن ينبش الجثة ويدفنها فى مكان آخر، ثم يطالب بنبش القبر الأصلي.. هنا يجد الناس القبر خاليًا ويتكلمون عن الهروب الأخير لسيد الهروب..
- هل فعل (هودينى) هذا؟
- لا.. وعلى قدر علمى لن ينبش أحدهم قبره بعد هذه السنوات..
- وموضوع المحاولات الفاشلة والمفتاح.. إلخ!
- فانتازيا تخلط الواقع بالخيال كثيرًا.. إن علاقة (هودينى) بـ (كونان دويل) حقيقية.. لكن هناك قدرًا لا بأس به من الخيال فى موضوع المحاولات الفاشلة، والزوجة التى تتصرف فى غير وعى وكل هذا..
ثم ناولها ذراعه، وقال:
- فلنأمل عندما تعودين للواقع أن يكون الجهاز قد تم إصلاحه.. وإلا فلربما لن نلتقى ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت هناك قصة أخرى لحسن حظ (عبير).. لكن.. ماذا أستطيع أن أقوله عنها.. للأسف لا يوجد ما يقال.. إنها لغز حقيقى تخوضه (عبير) عاجزة عن فهم أى شىء..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

نعم.. هو (بلفور) صاحب وعد (بلفور) المشئوم..

روايات مصرية للجيب

48

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

اللُّغز



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا

العدد رقم (48)

اللُّغـز

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لا بد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها فريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل ونحن معها العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد!

وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هي: لا حدود!

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- كارثــة..

اسمه (زيد).. وهو عبقرى..
صفوت) قال ذلك.. و(صفوت) عبقرى..
عندما اتصلت به - (زيد) - في الموعد، كان عليها أن تطلب الرقم ست مرات، وفي النهاية أرسلت له رسالة قصيرة تتوسل له أن يرد.. عندما فعل ذلك سألها من هي..
قالت له إنها (عبير)..
- بخصوص جهاز الكمبيوتر الذي..
- يمكنك أن تحضرية غدا.. أنت تعرفين العنوان فيما أظن؟
وكاد يغلق الخط، هنا تصاعد الدم إلى رأسها.. إنه لا يذكر أي شيء عن الموضوع ويتكلم ببرود مهني يثير الغيظ.. يثير الجنون..
- لكن الجهاز عندك فعلا!
ساد الصمت، ثم سمعت صوت القداحة الشهيرة.. كليك كلاك! ثم:
- قلت لي ما مشكلته؟
اسمه (زيد).. وهو غبي.. غبي، وهي أكثر غباء عندما تصورت أنه عبقرى..
أخيرا بعد بضع دقائق آمنت بأنه لا يوجد مستحيل.. لقد تذكر القصة كاملة، ولكنه لم يفعل شيئا بعد.. هذا واضح..
- سوف أسهر عليه الليلة.. صدقيني..
- هذا هو نفس الوعد الذي تلقيته أمس..
- آسف.. لكنها تلك الأشياء.. أنت تفهمين..
كلا.. لا تفهم.. مهما كان الطبيب صادق الضمير متحمسا فإنه يبدو باردا ثخين الجلد بالنسبة لأهل المريض المحتضر.. فماذا عن الطبيب الذي لا يذكر المريض أصلا؟
- والحل؟
- كلميني في الصباح.
لم يكن لديها من حل آخر.. سوف تنام وهى تغلي غيظا..
ترى متى يوجد الزر الذي تضغط عليه فتمر عشر ساعات من حياتك في لحظة؟ قمرة الغاز التي يدخلها رواد الفضاء ليدخلوا في غيبوبة مدتها عامان، وعندما يفيقون يكون كوكب (عطارد) على شاشات المراقبة؟
لا يوجد حل آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمه (زيد) وهو ممن يصحون عند الظهيرة..
هذا ما عرفته بعد أن طلبت الرقم ألف مرة..
صوته الناعس مع الكثير من التثاؤب.. لابد أنه في الفراش الآن يحك صدره العاري بأظفاره كأنه مصاب بالجرب.. لابد أن رائحة النوم تنبعث من أنفاسه.. لابد أنه يتحسس عويناته الموضوعة على الكومود.. لابد أنه يبحث عن..
كليك.. كلاك!

القداحة.. لفافة تبغ في الفراش كما توقعت تماما.
- الكمبيوتر.. الكمبيوتر الخاص بي.. (عبير عبد الرحمن) أنا..
- نعم.. نعم.. لم أنس..
ثم تثاءب من جديد وأضاف:
- لابد من تغيير القرص الصلب!
صاحت في جنون:
- والبرامج الموجودة فعلا؟
- أعتقد أنك ستفقدينها..
- لكنك وعدت بالعكس..
- وعدت بأن أحاول.. وقد فشلت، هذا واضح..
ثم تثاءب من جديد، وأردف:
- ظللت أجرب كل شيء حتى الرابعة صباحا.. لا أجد حلا.. هيه؟ ما رأيك؟ هل أقوم بتغيير القرص؟ هناك نوعان في السوق في الوقت الحالي.. أنا أفضل طراز..
وراح يصف لها مزايا وعيوب كل نوع، بينما هي لم تكن تصغى على الإطلاق.. وقفت تعتصر جهاز المحمول الذي كانت تتكلم منه عند بائع التبغ، وبدأت دمعة غيظ وعجز تفر من عينيها..
لقد انتهت (فانتازيا).. لا شك في هذا..
قد قال لها المرشد في المرة السابقة:
- الحقيقة أنني أجدر منك بالقلق والضيق.. من دون (فانتازيا) لا وجود لى على الإطلاق.. أنا كائن صنعه خيالك ومن دون خيال ينتهى أمرى.. أنت تتحدثين عن فقدان الحلم.. وأنا أتحدث عن فقدان الوجود..
هل كانت هذه نبوءة؟
نظرة شك من البائع، والسبب أنها لا شعوريا ابتعدت كثيرا جدا عن مجلسه، حتى صارت تقف على الناصية النائية.. في النهاية سمعته يصيح في خشونة:
- إلى أين يا آنسة؟ لو سمحتِ لا تبتعدي كثيرا..
نظرت له في عدم فهم فأردف بلهجة من لا يقبل الخداع:
- منذ شهر فعلت آنسة مثلك الشيء ذاته ثم وثبت إلى أول سيارة أجرة مارة، وفقدت أنا جهاز (الموبايل).. المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وأنا مؤمن.. صدقيني..
وربتت امرأة عجوز مفعمة بالأمومة على كتفها، وهتفت:
- لا تبكي يا حبيبتي.. غدا يأتيك سيد سيده!
- من هو؟
- هذا الوغد الذي أبكاكِ!
صاحت (عبير) في الهاتف لتنهي الموقف:
- لا تستبدل القرص الصلب.. سأتصل بك ثانية.. أبق الكمبيوتر عندك!
ثم ناولت الهاتف للبائع ونقدته ماله، بينما قالت للعجوز مفسرة:
- يريد أن يستبدل القرص الصلب! لكني لن أسمح بذلك.
قالت المرأة، وهي تمصمص بشفتيها:
- النذل! كل الرجال سواء! فلتأخذه مصيبة!

ثم انصرفت وهي تنعى ضياع الأخلاق.. بالطبع لا تفهم حرفا مما قيل لكنه سيئ بما يكفي.. على الأقل هي متأكدة من أنها عندما كانت شابة لم يكن الرجال يستبدلون القرص الصلب أو يفكرون في ذلك.. أبو (وداد) رحمه الله عاش ومات دون أن يستبدل القرص الصلب ولو مرة واحدة..

ووقفت (عبير) للحظات غير عارفة ماذا تفعل.. إلى من تذهب؟ ما أكثر القرارات حكمة؟

لم تكن سريعة البديهة قط، وكانت تحتاج إلى أن تنام ليلة كي تتدبر أمرها وتصل إلى قرار صحيح في أي شيء، لكنها في هذه المرة وجدت الجواب بسرعة البرق..

ربما وجدته والعجوز تكلمها.. ربما وجدته قبل أن تجرى المكالمة الأخيرة مع ذلك الحمار الذي يكسو الشعر أحد ساعديه فقط..

كان الجواب هو (شريف)!!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2اللغــز..

تقف وحدها وسط العاصفة تتساءل عما أتى بها هنا..
يقترب منها المرشد وهو يضم سترته على صدره اتقاء البرد ويقول باسما:
- صرتِ بارعة في المجيء من دون جهاز!
قالت وهي تضم ثوبها على جسدها كذلك:
- لا أدري ما حدث.. اتخذت قرارا بالاتصال ب. (شريف)، لكني لم أجسر على تنفيذه.. اضطجعتُ على الأريكة بعد الغداء وأنا أفكر في الأمر، وكانت (شذى) بجواري تلعب وتقرقر وفجأة.. لابد أنني نمت وأنا غارقة في التفكير.. إن التفكير والحلم يأتيان من ذات المصنع ويلعبان بالقواعد ذاتها.. فقط أحدهما إرادي والآخر لا.. يبدو أنني حلمت، وأنني انتقلت إلى (فانتازيا) لا شعوريا..
بلهجة من لا يسمع جديدا قال:
- صار هذا مملا.. الحلم هو طريقة التنفيث عن الرغبات المكبوتة.. نمتِ مشتاقة إلى (فانتازيا) فجئتِ (فانتازيا).
المشكلة أن هذه الطريقة ليست مضمونة النجاح..
ثم أضاف:
- موضوع الاتصال ب. (شريف) هذا.. يبدو قرارا ثوريا بحق.. هناك عدة عوائق منها أن يكون سمجا، ومنها أن يكون مسافرا خارج البلاد، ومنها كرامتك الشخصية..
قالت كأنها تقنع نفسها:
- لا أعتقد أنه سيرفض هذا الطلب.. ليس طفلا سخيفا لهذا الحد.. أما كرامتي الشخصية فسأعرف كيف أطلب منه هذا الطلب دون أن أريق شيئا منها.. لا يجب أن أتمرغ على الأرض وأبكي وألثم قدميه.. هناك سبل عدة لطلب الشيء بكبرياء كأنك تمنح ولا تطلب..
قال في خبث:
- أنتِ أدرى على كل حال.. إنه عالم الواقع الذي لم أتعامل معه فقط.. أعرف كيف أتعامل مع (هانيبال) و(عنترة) و(راسكولنكوف) و(آنا كارنينا)، لكني لا أملك أدنى فكرة عن طريقة التعامل مع السباك أو محصل الكهرباء..
- أنا لا أختلف عنك كثيرا وتلك هي مشكلتي.. كنت أقرأ الأدب ويخيل لي إنني قادرة على أن أقنع (سقراط) بما أريد لكني لم أستطع إقناع أمي قط بأنني غسلت يدي قبل الأكل يمكنني التفاهم مع (أرشميدس) لكني عاجزة عن التفاهم مع موظف السجل المدني..
ثم تذكرت خيط الكلام، فقالت في كبرياء:
- لكني حتما قادرة على التفاهم مع (شريف)..
- ليكن.. مرحبا بكِ في فانتازيا.
نظرت حولها إلى الوادي الخالي الذي خلا من كل شيء إلا من نباتات شوكية تتقاذفها العواصف.. وسحائب صغيرة من الغبار تحلق من هنا لهناك..
- ما هي هذه القصة؟ هل نحن في قصيدة (الأرض اليباب) ل. (إليوت)؟
نظر حوله ثم ابتسم بخبث، وقال:
- لا.. أعطيني المزيد من التخمينات الذكية..

- هل نحن في تجربة (ناجازاكى) هذه المرة؟
- لا.. جربي شيئا آخر..
- قصة (على الشاطئ) لـ (نيفيل شوت)، أو أية قصة من عشرات القصص التي تحكي عن بقاء بشرى واحد حيا بعد الدمار النووي؟
- لا.. هل من محاولات أخرى؟
قالت في غيظ
- أنت رائق المزاج، وأنا لست كذلك.. فلتقل اسم القصة وتنهي الأمر..
قال دون أن ينظر لها:
- هذه هي المشكلة.. أنا لا أملك أدنى فكرة عن هذه القصة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل تمزح؟
قال وقد بدا لها عاجزا مرتبكا للمرة الأولى منذ عرفته:
- هناك الكثير من الخلط.. الكمبيوتر تالف وأنت تعتمدين على الجهود الذاتية.. هناك الكثير من الارتباك في عقلك الباطن.. لا يوجد حجر فوق حجر.. النتيجة هي أن المغامرة قد بدأت لكني لا أملك أي تصور عن موضوعها..
- إذن أنت لم تعد قابلا لإرشادي..
- هذا ما يبدو.
- إذن أنت مفصول..
- ربما سرك هذا.. لكن الأمور ليست بهذه السهولة.. أنا جزء من عقلك الباطن قبل أن أكون موظفا عندك.. لا يمكنك التخلص من جزء من عقلك الباطن وإلا لصارت الحياة أجمل من أن تكون حقيقية.. كان بوسعنا التخلص من كل عقدنا وتجارب الطفولة التي ما زالت تعذبنا بعد بلوغنا السبعين..
تنهدت ونظرت حولها وهي تشعر أن الطقس يزداد برودة فعلا ثم قالت:
- إذن أنت غير قادر على معاونتي في شيء..
- هذا هو الواقع.. غير أن لدي ورقة واحدة هي أن بوسعي أن أقترح عليك حقيقة المغامرة.. سنرى ما تقود له الأحداث ونستنتج..
- وماذا لو كانت هذه مغامرة لم أقرأها من قبل؟
- مستحيل.. وإلا فمن أين جاءت؟
قالت في امتعاض:
- هذا ليس عدلا.. لابد من فكرة مبهمة عامة عما سأمر به..
- ليست الحياة مطعما حريصا على إرضاء الزبائن لو لاحظت هذا.. إن من بتر لغم ساقية، والطفل الذي يرتجف في برد الليل جوار جدار مهدم لم يحبا أن يكونا في هذا الوضع، لكنها الحقيقة.
صمتت..
إذن هذه هي اللعبة..
أن تجد نفسها في مغامرة لا تعرف ما هي وعليها أن تستنتج..
المشكلة الأخرى والأهم هي أن تعرف كيف تعود من هذا العالم.. ربما كان هذا عسيرا كذلك..

لكنها تقبل المخاطرة على كل حال.. حتى لو لم تقبل فماذا بوسعها أن تفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- ميديفال؟

جيش المعتدين يتقدم على خط الأفق.. فجأة يتحول الأفق إلى رءوس مدرعة ورماح مشهرة.. مع الكثير من الهتاف الذي تترجرج الأرض من هوله، كأنه تأثير (الدولبي) في دار عرض حديثة.. الهدير الذي يجعل معدتك تتقلص، وقلبك يفوت ضربات.

- هورررررررراه!

جيش المعتدين يقترب، ورائحة الحرب والموت في الهواء..

ومن بين الصفوف تبرز الأبراج العملاقة.. الأبراج المخصصة للالتحام بأسوار القلعة.

وراء الأسوار يقف القائد العظيم ملوحا بسيفه..

يركض هنا وهناك على صهوة حصانه الأبيض.. يتفقد رماة السهام.. يتفقد الفرسان.. يتفقد حملة الرماح..

كل الرماة يصوبون السهام إلى أعلى منتظرين أوامر القائد كي يتخلوا عن الزناد، وتحلق أمطار الهول فوق الرءوس.

كل شيء يبدو على ما يرام، لكنه كان خبيرا بالحروب.. ويعرف كيف يمكن أن ينهار هذا كله في ثانية واحدة.. نظرية تداعي قطع الدومينو.. إن هذه الجيوش تبدو رائعة على الورق فقط، لكن المقياس الحقيقي هو ما سيحدث عندما يندفع ذلك السيل العرمرم بينها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي خدر النساء كان جو التوتر يأخذ بالقلوب.

النسوة جالسات ينظرن للسقف، وبعضهن اتخذ أوضاع صلاة على الركبتين تذكرك بصور عصر النهضة ومادونات (رافاييل).

طفلة تبكي.. طفل يرتجف.. صوت بطن يتلوى انفعالا.. لابد من كثير من الاضطرابات الهضمية في هذا الجو.

وتنظر النسوة إلى باب الخدر الذي وقفت عليه جارية حبشية تحاول أن تعزف على الهارب لتبدد القلق.. يظهر القائد العظيم الذي طالما تنافسن عليه فيما سبق، والدروع تغطيه.. ينظر لهن نظرة ذات معنى، ثم يتنحى ليظهر في مجال الرؤية قائد آخر تحت إمرته.. قائد أشقر ملتح، له عينان تشع منهما النيران.

يقول القائد الكبير وهو يرمق النسوة:

- لو سقطنا واندحرنا فلا أريد لنسائنا وأطفالنا أن يصيروا سبايا.. أريد أن تذبح كل طفل وامرأة في هذه القاعة يا سير (ونسلوت)!

هز الأشقر رأسه بما يوحي بأنه سينفذ الأمر حرفيا..

كانت (عبير) جالسة على الأرض على إحدى الطنافس، وقد أراحت فتاة أخرى رأسها على فخذها.. وضع لا مبرر له مع كل هذا التوتر، لكن خيالها كان يقلد كل ما يعرفه عن مخادع النساء وأجنحة الحريم في الفن العالمي.. (ديلاكروا Delacroix) هو فنان فرنسي تخصص في هذه الأجواء، لكن (عبير) لا تتذكر الأسماء على كل حال. لا تذكر أي شيء بإرادتها، فقط تأتيها الأفكار بأسلوب تداعى المعاني.

شعرت بغيظ لهذا الموقف.

النساء ينتظرن هنا إلى أن يأتي لهن الرجال بالنصر أو الموت.. في كل الأحوال هن كائنات مخصصة للترفيه عن الرجل ولا دور لها في تحديد مصيرها.. نفس الكلام ينطبق على الدجاج.. الدجاج خلق للترفيه عن الرجل ولا دور له في حياته أو موته..
ومن قال إن الرجال سيجيدون الدفاع عن القلعة؟ من قال إنهم ليسوا حمقى أغبياء؟
ربما لو سمح للنساء بالخروج والاشتراك في المعركة لاستطعن تحقيق نتيجة أفضل..
فجأة ارتجت القلعة.. وعرفت (عبير) أن أولى قذائف المنجنيق هوت فوقها.
لقد بدأ قذف المنجنيق ولسوف يستمر بعض الوقت، ثم يصرخ الرجال صرخة واحدة وينقضون على القلعة.
بووم! قذيفة أخرى!
فعلا هذه هي مدفعية العصر.. إنها في مكان مأمون لكنها تسمع صوت صراخ الرجال في الخارج.. نار ودخان وفوضي..
سوف يتم اقتحام القلعة.. تعرف هذا.. كل القلاع تسقط في النهاية مهما كانت بسالة قائديها، ويبدأ مسلسل النهب والسلب و(بقر بطون الحوامل وذبح الأطفال والأخذ بلحي الشيوخ الأجلاء) كما تصر كتب التاريخ على أن تصف أية مذبحة.. سوف يكون هناك ما هو أبشع؛ لهذا تدعو الله ألا يبتعد الأخ (الاسلوت) كثيرا.. يجب ألا تسقط حية في أيدي هؤلاء..
يتواصل قذف المنجنيق، ثم تدوي صرخة واحدة من عشرات الحناجر.. هذا هو الانقضاض.
لم تستطع أن تظل جالسة حتى تجدهم يقفون عند رأسها كما حدث مع (أرشميدس).. يجب أن تتابع الحدث لحظة بلحظة..
هكذا نهضت مسرعة واندفعت نحو الباب..
سألتها حسناء كانت جالسة على الأرض تغسل قدمي حسناء أخرى:
- إلى أين يا (تريستان)؟
قالت وهي تزيح الستائر:
- لو بقيت هنا سأجن.. يجب أن أرى.
- لكنه الموت.. سوف يهوى حجر مشتعل فوقك..
- من يدرى؟؟ قد يكون هذا أفضل!
وتسللت (عبير) عبر ممرات ضيقة لا تضيئها إلا مشاعل معلقة.. بعد دقائق سوف تصير هذه الممرات مزدحمة كأنها أتوبيس (305) ساعة الذروة.
الكل على السطح الآن.. الكل متحفز.. الأدرينالين في ذروة تدفقه حتى إنه يمكنك أن تجمعه فى دلو وتبيعه لناقصي الهمة.
هناك درج تصعده وهي تعلم خطر ذلك.. لو هوى شيء هنا والآن فلن تعرف أن هذا حدث.. ستموت قبل أن تعرف..
لكنها إذ نظرت إلى السماء رأت آلاف السهام تحلق فوق الرءوس كأنها أسراب جراد، كلها تتجه نحو جيش الأعداء.. الكرة كرتنا إذن.. دفقة سهام ثانية.. ثالثة..
ترى هل لها تأثير؟ لا أحد يعرف سوى من سقطوا بها..
أولئك الذين انتهت الحرب بالنسبة لهم عند هذا الجزء، وهم يهوون على ركبهم بين الأقدام.. أغلبهم لن يقتله السهم لكنه سيموت مهشما عندما يدوس عليه إخوان السلاح.
وتنظر لساحة الوغى من بعيد فترى أن الأبراج تقترب في ثبات.. توشك على الالتحام بالأسوار.. سوف يموت أول مائة من المهاجمين.. ربما يموت غيرهم، لكن النهاية واحدة على كل حال..

سرعان ما يتمكن البعض من الوثب فوق الأسوار.. وبينما ننشغل بهؤلاء يثب سواهم من فوق السور.
الحرب في القرون الوسطى كانت تقوم على أن يهاجمك ألف فارس.. تقتل ثمانمائة منهم، لكن مائتي فارس يصلون لك ويجزون عنقك.
تدقق النظر أكثر فترى من بعيد قائد الجيش المهاجم يصدر أوامره لرجاله..
مستحيل!
هذا ليس بشريا!
إنه كائن يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار.. ووجهه أبعد ما يكون عن أن يكون آدميا.. إنه مشقق مليء بالبروزات والأخاديد وهناك ممصات لا حصر لها تتدلى منه في جشع.. وهذه الممصات تفتش بلا توقف عن شيء تثبت نفسها عليه..
ما معنى هذا؟
لقد رأت مشهدا مماثلا في فيلم (سيد الخواتم)، وإن كانت لم تقرأه لأنها لا تجيد الإنجليزية إلا في فانتازيا.. هل يعني هذا أنها في قصة (سيد الخواتم)؟ أرض (تولكين Tolkien) الوسيطة المليئة بالأقزام والهوبيت، والتي يهيم بها البعض حبا، ويراها البعض خيالات فارغة لا تستأهل أن تمنحها ذرة اهتمام أو وقت.. من المستحيل أن تتعاطف مع بطل قصة لا تتماهي معه، ولا يعنيك في شيء أن ينتصر أو يذهب إلى الجحيم.
لكن لم يكن المشهد كذلك بالضبط.. هناك اختلافات كثيرة..
برايان لوملى Lumley) كاتب الرعب البريطاني له عوالم مماثلة.. مصاصو الدماء الذين يشبهون سادة القرون الوسطى ويفعلون مثلهم بالضبط، لكنهم كذلك يمتصون الدم.. ولا غرابة في أن (لوملى) أعلن مرارا أنه تأثر ب. (تولكين).. هل هذا عالم (لوملى) إذن؟
الأشقر كان اسمه سير (لانسلوت)؟ (لانسلوت) و(كاميلوت) وجو الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة.. من الممكن أن يكون هذا هو الجواب.. وماذا عن مصاصي الدماء يا بنت يا (عبير)؟
لا.. ليست هذه إجابة على الإطلاق لكن هناك أبراجا.. أبراجا عملاقة لا يؤثر فيها اللهب.. هل نحن قريبون نوعا من عوالم (صلاح الدين الأيوبي)؟ في هذه الحالة يصير الفهم عسيرا.. لو كان الصليبيون هم المهاجمون فلا يمكن أن يكون الذين تقفين بينهم الآن عربا.. هل كان بين الصليبيين مصاصو دماء؟ مصاصو دماء بالمعنى الحرفي لا المجازي؟
ثم.. لحظة واحدة من فضلك..
يبدو أن هذا الحصار سيؤدي إلى أن يقتل المحاصرون أنفسهم..
هل هذه القلعة هي (الماسادا)؟ إذن هي يهودية؟ لكن المهاجمين ليسوا رومانا وهي خبيرة بالرومان بعد ما واجهتهم مرارا في فانتازيا..
اسمها (تريستان).. ربما لم يكن هذا اسما عارضا.. ماذا عن أسطورة (تريستان وأزولد) الجرمانية؟ أليس هذا واردا بشدة؟
هل هذا هو ما قصده المرشد؟ هل هذا هو الوضع المحير عندما تجد أنها عاجزة عن معرفة مكانها؟ إن رأسها يكاد ينفجر، وفي كل مرة تحملها الأسئلة إلى نقطة البداية.. هل هذا عالم (سيد الخواتم)؟ إذن.. إلخ... إلخ... (تريستان)؟
وبينما هي غارقة في هذه الأسئلة شعرت بألم حارق في قدمها..
نظرت لأسفل لتجد أبشع كوابيس طفولتها قد تحقق.. سهم سقط عموديا ليخترق قدمها ويثبتها في الأرض بحيث عجزت عن الحركة تماما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- فارس وسيم وبعض القنزعور..

الكثير من الألم.. الخوف من مضاعفات جرح كهذا.. ترى هل يسهل الإصابة بالكزاز (التيتانوس)؟ سؤال سخيف طبعا.. هي ليست ذات خبرة طبية لكنك تحتاج إلى أن تعيش فترة كافية كي تجد الوقت الكافي للإصابة بأي مرض على كل حال!
أنا لا أضمن ل. (عبير) الحياة ساعة أخرى.. نصف ساعة.. بل بضع دقائق وسط هذا الهول.
لقد التحم أول الأبراج بالسور، وكان انطباقه متقنا بحق كأنه قد خلق ليوضع هنا، ووثب منه عشرة من الجنود.. كما توقعت طارت أعناق هؤلاء بسهولة تامة..
الزيت المغلى - الصديق الصدوق لقلاع القرون الوسطى – يحمل في جرار عملاقة إلى الحراس الواقفين على الأسوار فيسكبونه على رءوس المهاجمين.. لا تسمع سوى صوت ال (طش ش ش!) ثم يتعالى الصراخ المريع.
رباه! كانت الحروب تقتضي شجاعة لا بأس بها في تلك الأزمنة كانت تقف هناك وقدمها مثبتة في الأرض، تنتظر مصيرها كبطة فخور.. لولا ذلك الفارس المدجج بالدروع، والذي يغطي وجهه قناع من الجنازير والسلاسل، والذي رأى موقفها المثير للشفقة فصاح في قلق:
- بحق فرسان المائدة المستديرة! إنك لفي مأزق مخيف!
ابتسمت (عبير) في وداعة بما يعني أنها تعرف حقيقة وضعها.
فرسان المائدة المستديرة! لقد انتهى سعيها إذن.. (جوينيفير) زوجة الملك (آرثر) التي تحب (لانسلوت).. قصة معروفة.. مملة لكنها معروفة على الأقل..
ركع على الأرض ورفع قدمها قليلا، وأولج نصل السيف بين الأرض والقدم.. في النهاية استطاع أن ينزع القدم بالسهم الذي يخترقها عن الأرض كأنه ينزع سدادة زجاجة مياه غازية وقال في رضا:
- يمكنك أن تكملي الباقي!
وسرعان ما تركها، وانطلق يواجه المتسلقين على الأسوار!
يا له من فارس مهذب! أعطاها حرية الحركة لكنه لم يعطها القدرة على المشي! وإذا حسب أنها قادرة على انتزاع السهم من قدمها بقوة قبضتها فهو واهم! ربما كانت النساء في ذلك العهد قويات القبضات والأعصاب، لكنها ليست كذلك!
تدحرجت على الأرض إلى أن بلغت الدرج الذي صعدت عليه، ثم تدحرجت نازلة بينما صوت الصراخ والطعان يتعالى من حولها.. في هذا السيرك لن يشعر بك أحد مهما فعلت.
هناك فارس يصعد إلى أعلى شاهرا سيفه، والطريف أنه وثب من فوق جسدها كأنها كيس قمامة، وجرى لأعلى.
الأمور تسوء وواضح أن لحظة انهيار السد دانية.
صوت يصرخ من أعلى:
- تماسكوا! إلى يا رجاااااااااااااال!
في هذه اللحظة لم تدر إلا وذراع قوية تحملها لتوضع فوق كتف أقوى، وسرعان ما وجدت أنها تحمل حملا إلى مكان ناء مظلم.
رطوبة.. صهيل مكتوم الخيول.. رائحة عطن قوية إنها تلقي على صهوة حصان كأنها كيس من الغلال، ثم تسمع ذلك الرجل القوي يقول لها في الظلام:
- أريد أن تتماسكي بعض الوقت أيتها اليهودية الحسناء. لا وقت لانتزاع هذا السهم الآن..

ثم هو ذا يثب إلى الحصان ذاته.. ويضربه في خاصرته، فينطلق الحصان وسط ممرات مظلمة.. واضح أنها مبتلة كذلك لأن (عبير) تسمع صوت خطواته تبعثر الماء.
يهودية حسناء؟ لا.. ليست قصة الماسادا إذن.. هناك موقف شبيه بهذا في رواية عملاقة قرأتها منذ أعوام برغم ما فيها من ملل (إيفانهو).. قصة سير (والتر سكوت).. فهل هذا ما يحدث الآن؟
تجربة عجيبة هي أن ترى العالم وأنت نائم على بطنك بالعرض فوق خصر حصان.. ترى أقدام الحصان وترفع عينك من آن لآخر لترى الأرض تجري، لكنك لا تستطيع أن تقوس ظهرك أكثر من هذا.. الوثبات والاهتزازات توشك على أن تجعلك تفرغ أمعاءك وربما رئتيك وربما روحك ذاتها في أية لحظة.
- أنت لست زبونا في مطعم..
قالها المرشد من قبل وكان دقيقا إلى حد لا يوصف.
الأمر على كل حال هين.. واضح أن هذا الفارس قد فر بها عبر ممرات سرية خارجا من القلعة المحاصرة، وربما من البلدة ذاتها.
لكن من هو؟ يصعب أن تعرف من هو وهي في هذا الوضع كأنها خروف مسوق إلى الذبح أو كيس من اللحم...
سمعته يقول:
- كان من حسن الحظ أننا اخترنا الفرار الآن..
وترفع رأسها قليلا وتنظر إلى الوراء، فترى أن الأفق تحول إلى شعلة من النيران والدخان الأسود.. المكان الذي كانت فيه تلك القلعة يعلم الله ما اسمها صار محرقة.. والمحرقة سوف تغدو رمادا بعد قليل.
ترى هل هلكوا؟
(ونسلوت).. هل ما زال هناك؟ وماذا عن باقي الحريم؟
أوقف الفارس جواده وترجل.. وشعرت بيده القوية تمسك بقدمها.. ثم.. آى.. أعنف ألم يمكن وصفه.. آى.. أوه.. آه.. آى.. لقد انتزع السهم من قدمها مستعملا أداة تشبه (البنسة)، ثم وجدت أنها تجلس على العشب، وترى العالم للمرة الأولى في وضع صحيح..
كان الدم ينساب من قدمها بغزارة، لكن هؤلاء الفرسان لا يواجهون مشاكل من أي نوع.. لقد أعد ضمادة ملأها بأعشاب عجيبة استخرجها من سرج الجواد، ثم ربط قدمها بعناية.
قال لها:
- إن عشب (القنزعور) سيوقف النزف فورا!
كانت واثقة من شيء واحد: هذا العشب له أي اسم ممكن عدا (القنزعور) هذا.. هي مجرد هلوسة أخرى من هلاوس (فانتازيا)..
ولكن من أنت أيها الفارس؟ نوع الفارس الذي ينقذ الأميرة على حصان أبيض.. أي أنه باختصار مادة الحلم الخام لدى الأنثى.. الأحلام لدى الإناث تصنع من الخيول البيض وفرسانها.
كان وسيما.. والحقيقة أنه كان يحمل بعض ملامح (شريف).. هذا متوقع على كل حال، ألم تبدأ المغامرة و(شريف) هو المنقذ على الأرجح؟
قال وهو يفك خوذته، ويفك ألف شيء في دروعه فينبعث منه رنين كأجراس دقيقة متصلة:
- سوف يحرقون جثث القتلى وربما الأحياء كذلك في كومة كبيرة، ثم يقضون الليل على ضوء هذه الشعلة العملاقة في اللهو وشرب الخمر وانتهاك حرمة النساء.. من الخير لك أنك فررت!

قالت في عصبية
- من هم؟
لو قال إنهم التتار لشعرت بأن الأمر سخيف، لأن المهاجمين لم يكونوا يحملون صفات التتار.. هل هذه القصة من وجهة نظر غربية تصف الحروب الصليبية من المعسكر الآخر؟ على الأقل أنت تعرف ما سيكتبه عدوك عنك.. لا تقرأ قصة كتبها مؤلف إسرائيلي عن حرب 1973 ثم تتضايق لأنه يتهم المصريين بأنهم وحوش.
لكن في جميع الأحوال لم يكن هؤلاء المهاجمون الذين فرت منهم يحملون صفات العرب.
كررت السؤال:
- من هم؟
قال وهو يمسد على شعره لاهثا.
- إنهم الإنجليز طبعا!
كادت تجن.. إذن من نحن؟ وفي أية قصة قرأت أحداثا كهذه؟ (جان دارك)؟ مع (جان دارك) لا تتحرك الأمور بهذه الكيفية دعك أنه سيكون عليها أن تحرق وسط الجموع.. هي لم تجرب هذا من قبل لكنها لا تحسبها تجربة رائعة.
تنهدت في ضيق، وقالت:
- بيني وبينك لقد بدأت أمل هذه المغامرة.. أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق.
هنا حدث شيء غريب.
لقد أدار الفارس ظهره لها وجلس في وضع الاحتباء.. لا ترى إلا كتفية العملاقتين تهتزان.. تهتزان.. هنا فهمت! إن فارسها المغوار يبكي!
زحفت على ركبتيها حتى بلغته وربتت على كتفه، ففوجئت به يستدير ليمسك بكم ثوبها، ماذا تفعل يا مجنون؟ لقد مزق جزءا منه.. ثم..
ف ف ف ف !
أفرغ معظم إفرازات أنفه في الخرقة، وكومها وألقاها بعيدا.
- معذرة! لا أستطيع أن أتمخط من دون منديل!
وطبعا الفرسان الشجعان لا يحملون هذه التفاهات كالمناديل إنهم يتمخطون في أكمام الأميرات الحسناوات.
- لماذا تبكي؟ هل آذيت مشاعرك؟
- نعم.. إن القصة لم ترق لك برغم كل ما وضعوه فيها من إثارة!
ثم غلبة البكاء من جديد فمزق قطعة أخرى من كمها الأخر!
ليته يتغلب على حزنه قبل أن يتحول ثوبها إلى كافولة طفل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- حيرة شبه بالغة..

إنها تمشي في أزقة (المغربلين) متأودة
لا تريد أن تتأود، لكن هذا الشبشب اللعين يرغم خصرها على هذه الرقصة الثعبانية.. لا تريد أن تتأود لكن الملاءة اللف المحكمة ترغمها على ذلك.. لا تريد أن تتأود لكنه اللادن في فمها يرغمها على ذلك.
تمشي في هذه الأزقة، عارفة أنه ما من صنايعي ولا قهوجي ولا حلاق إلا وتوقف عن عمله ليرمقها في إعجاب ويتنهد.
إنها الحسناء.. إنها الحب والجمال.
صف من الجنود الإنجليز السكارى يمشون مشية هي للرقص أقرب.. لم ترهم منذ.. منذ 1919!
منذ اللحظة الأولى تعرف أنهم سيعترضون طريقها.. من الغريب أن تروق لهم.. لابد أنهم يرونها بدينة أكثر من اللازم..
لا تمت بصلة لفتياتهم الشقراوات الخاليات من الشحم، لكن الخمر تذهب بالعقول، وهم ثملون.
فوجئت بهم يشكلون صفا أمامها، ويقلد أحدهم مشيتها بطريقة كوميدية.
- سوفتي بنت.. سوفتي بنت!
باعتبار هذه قمة البلاغة في اللغة العربية.. الجندي من هؤلاء لا يعرف من العربية سوى كلمة (بنت) وكلمة (بقشيش)..
تراجعت للخلف خطوة، فاكتشفت أنهم صنعوا صفا خلفها يمنعها من التراجع.
إنه لمأزق إذن!
هنا حدث ما لم تتوقعه في زمن كانت دماء الرجال فيه حارة.. لقد أشعل المشهد حماس الصنايعية وجنونهم.. وسرعان ما برز من المتجر عدد من هؤلاء الصبية يحملون المقاعد والمناضد الصغيرة، وهووا بما يحملون على رءوس الجنود.. وظهر من مكان ما عملاق أسمر يلبس فانلة داخلية وعمامة، وانطلق يغرس أنامله في أعناق هؤلاء رافعا كل اثنين في الهواء لثوان قبل أن يلقى بهما أرضا.
إنها الحرب إذن! وهي السبب!
النسوة في الشرفات يلقين بماء الغسيل القذر - أو المغلي – فوق أي جندي يسقط تحت مجال قذائفهن، مع الكثير من السباب:
- أيها الكفرة الأنجاس! ما لكم والنساء يا أولاد ال..؟

حتى الأطفال راحوا يطلقون نبالهم الصغيرة على العيون الزرق، ومن موضع ما دوت صفارة طويلة حادة.. وسرعان ما ظهر رجال الشرطة.. منهم المصري والبريطاني، وانطلقت العصي تضرب في كل اتجاه..
هرعت (عبير) تتواري تبا لهذا الكعب! في مدخل بناية وراحت تلهث مفكرة..
لو لم يكن هذا عالم (نجيب محفوظ) وهذه رواية (زقاق المدق) فهي لا تفقه شيئا.. إنها (حميدة) على الأرجح لكن.. على الأقل هذه قصة معروفة، وكانت تتوقع أن تجد نفسها في عالم (نجيب محفوظ) يوما ما.. لو لم تدخله لشعرت بأنها خدعت، هي التي لم تجرب من تلك

العوالم التي هي قلب محراب الأدب إلا عالم (دستويفسكي).. لكن المرشد كان يقول لها إنها ستدخل عوالم هؤلاء الأدباء الكبار يوم تنضج بما يكفي.. أتراها نضجت حقا؟
تنهدت واستندت إلى الجدار فقط لتشعر كأن كلب (سان برنار) أو تنين (كومودو) يلعق أناملها. أجفلت ونظرت لمصدر هذا اللعاب، فوجدت أنه رجل ضخم يلبس فانلة مخططة من التي يلبسها الفتوات واللصوص، وعلى رأسه طاقية لا داعي لها، وقد أحاط ساعديه بأساور الحديد.. إنه على ركبته يلثم يدها.
تراجعت إلى الخلف، فقال في هيام بصوت كقربة ماء يتم إفراغها:
- متى تتنازلين عن كل هذه الخيلاء يا (حميدة)؟ إن الدلال كالملح.. قليله يصلح الطعام وكثيره يسقمنا.
قالت له وهي تتلفت حولها في ذعر:
- أنت تعرف أن معلمك لن يصفح عنا يا (شطا)!!
(شطا)؟! للمرة الأولى تدرك أن هذا (شطا).. ما معنى هذا؟ (شطا الحجري) هو بطل قصة (نجيب محفوظ) المدعوة (الرجل الثاني) والتي قدمتها السينما باسم (الشيطان يعظ).. إذن هي في قلب عالم فتوات (نجيب محفوظ).. كل هذا جميل لكن لماذا هي (حميدة)؟ ولماذا تحتفظ القصة بهذه الصبغة الكثيفة من (زقاق المدق)؟
في هذه اللحظة توتر (شطا) ثم رأته يصلح القلنسوة على رأسه، ويهمس لها:
- ابقي هنا..
وسرعان ما غادر مدخل البناية..
نظرت (عبير) من موضعها إلى الشارع؛ لترى أن هناك ظاهرة غريبة تولد.
صف من الرجال ضخام الأجساد يحملون النبابيت يتقدم ليقف في تحد.. ومن جهة أخرى يأتي صف آخر من رجال ليسوا أفضل حالا يقفون، وهم يضعون النبابيت على الأكتاف بتلك الطريقة المميزة للسقائين.
إنها مواجهة إذن.. ربما لا ينقص الأمر إلا موسيقا (إنيو موريكوني) الشجية.
بالفعل تفر النسوة ويغلقن النوافذ، والمقاهي غادرها من له في الفتونة لينضم إلى جيشه، بينما أغلق القهوجية المقهى على الباقين.
الأطفال توارى كل منهم في ركن وراح يتابع ما سيحدث بعينين واسعتين.. هذه أهم ذكريات ستحفر في وجدانه ولسوف يحملها معه أبدا كرمز للقوة والرجولة.. بعد عشرين عاما سيكون عدد منهم بين هؤلاء من حاملي النبابيت.
ومن بين صفوف الرجال يخرج أغلظهم وأضخمهم وهو يحمل النبوت على كتفيه بطريقة السقاء تلك، ويشمخ بصدره أمام الجموع من المعسكر الآخر:
- هلم يا (ديناري)! أرني نفسك!
ثم وضع بعض التوابل التي تشعل الجنون في عروق منافسه:
- أم إنك خائف كالفار؟
من بين الصفوف المواجهة خرج رجل قريب منه في الحجم والسمات، وقال بصوت ارتج له الحي:
- (الديناري) لا يخاف ولكن يشمئز!
هذا هو المشهد التقليدي في كل الثقافات.. في كل أفلام (سيرجيو ليوني) الإيطالي.. في أفلام الساموراي.. القوة المجردة العاتية تواجه قوة مجردة عاتية.. عندما كان الرجال رجالا حقا، لم

يكن هناك وزن لألعاب اللسان والدبلوماسية والخداع.. دعك من نبل منظر قائدى الجيش يتواجهان أمام الجند، وهو المشهد الذي تعج به قصص حصار (عمورية) و(الإلياذة).. إلخ..
لقد افتتن (نجيب محفوظ) بعالم الفتوات، ومنه وثب إلى سماوات أخرى من الرموز والتضمين والتلميح.. إن الفتونة عند محفوظ هي بالتأكيد أكبر من مجرد رجل ضخم يحمل نبوتا.
هذا الموضوع يحتاج إلى..
آي.. لا وقت للكلام لأن الرجلين يصطرعان.. النبوت يهوي كأنه الجبل فوق رأس أحدهما فيتقيه بنبوته الخاص، وعيناه لا تفارقان عيني خصمه في خبرة وفهم لما يجري.
لحظات ملحمية.. أكبر من الواقع.. أكبر من الحقيقة.
الرجلان يتبادلان الفخر والجعجعة، ولا يكف كل منهما عن ترديد قصائد المدح في نفسه.
إنهما يدوران حول بعضهما.. إنهما يقتربان.. يبتعدان..
فجأة شعرت بأن يدا توضع على أنفها..
اليد تحمل منديلا ملوثا بسائل له رائحة كيماوية نفاذة.
رائحة أسيتون كالذى تنزع به الطلاء عن أظفارها.
لم تكن تعرف شيئا عن علم الكيمياء لكنها أدركت أن هناك ذرة كربون وثلاث ذرات كلور وربما ذرة هيدروجين.. CHCl.. إنه الكلوروفورم!
لهذا تزداد الدنيا سوادا.. ولهذا تتهاوى ساقاها.. ولهذا يصير التفكير كأنه حلوي ذائبة.. لزجة.. متداخلة.. يصعب أن تتحرر منها أو تخرج بشيء.
يمكن أن ندرك أن هناك من تسلل وراءها وخدرها بالكلوروفورم بينما هي تراقب المشهد..
لكن من هو؟
ولماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت في الف..
وكانت في الفراش مقيدة..
وكانت في الفراش مقيدة في وضع النسر الف...
وكانت في الفراش مقيدة في وضع النسر الفارد جناحيه..
هكذا بدأت تستعيد وعيها ببطء، والصورة المبتورة بدأت تكتمل ونظرت حولها.
إنها في مصر كما هو واضح.. وغالبا هي في فندق فاخر مما يؤمه الغربيون.. فندق فيه طابع أوائل القرن العشرين حيث كل شيء باذخ فاخر مصنوع بدقة وعناية، والإضاءة تعتمد على مصابيح الكيروسين.. باختصار هو ذات الزمن الذي رأت فيه صراع الفتوات.
وكان يقف هناك جوار النافذة الموصدة.
ذلك الرجل أشقر الشعر، الذي يقف بالقميص الأبيض وحمالتي السروال، وهو يعقد ربطة عنقه الرفيعة التي تنتمي لذلك العصر..
يمشط شاربه ثم يلتفت للخلف.. يراها فيشرق وجهه..
يقول لها بإنجليزية جيدة تفهمها على الفور:
- معذرة على الطريقة التي استعملتها.. إن هذه المادة تدعى (كلوروفورم) وهي اختراع بريطاني.. اختطفتك لأن بلادكم المزدحمة الخالية من الضباب لا تسمح بذات الطقوس التي اعتدناها في بلادي..

أرادت أن تتكلم ثم أدركت انها مكممة.. مف مف مفف!
كان يعبث في صندوق صغير يحمله.. يضعه على النضد، ويتفحص محتوياته كأنه ممرضة تعد أدوات جراحية قبل قدوم الجراح:
- لم تعد الظروف في (لندن) تتيح لى حياة سهلة.. لذا قررت أن آتي إلى بلدكم الدافئ.. لا بأس أن أجرب مواهبي مع حسناء سمراء مثلك..
مواهبة؟ ماذا يعني؟
«كأنه ممرضة تعد أدوات جراحية..»
خطر لها هذا التعبير ولم تتنبه له.. لكنها الآن تجد أنه أدق وصف ممكن.
إن ما يمسك به هو أدوات جراحية تذكرها بتلك المخصصة لتشريح الضفادع، والتي كانت تباع في المكتبة عند أول شارعهم.
قال وقد أدرك أنها فهمت:
- في إنجلترا لا أحد يعرف اسمي.. يطلقون على اسم جاك السفاح jack the ripper) وهم الآن ينقبون وسط الشوارع التي يخنقها الضباب عني.. لا يخطر ببال أحدهم أني هنا في مصر.. وأنني أمارس هوايتي في قتل النساء وتمزيق جثثهن بنجاح تام.. الفارق الوحيد هو أن أحدا لن يبالي بفقد فتاة مصرية بينما تهتز (سكوتلانديارد) لفقد فتاة شارع بريطانية!
(جاك السفاح)؟ وسط قصة من فتوات (نجيب محفوظ)؟ ما هذا بالضبط؟ ربما لم يكن ل (محفوظ) دور من البداية؟ ربما هي رواية غربية عالمية عن سفاح نساء.. في قصة (العطر) ل (زوسكيند) كان البطل يقتل الفتيات النضرات كي يصنع من روائحهن عطرا لم يعرفه البشر من قبل.. لا.. ليست هذه قصة العطر.. الرجل قال بوضوح إنه (جاك السفاح).
هل هناك رواية بطلها (جاك السفاح)؟
لوح الرجل بالمبضع في الهواء. لامعا مخيفا يتقدم نحوها.
وماتت الصرخة على شفتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- هــو..

إنها تجلس في غرفة مكتب ضيقة
فوضى عامة من الأوراق وأعقاب لفائف التبغ وشرائط الكاسيت المبعثرة.. ثمة جهاز كمبيوتر مفتوح وعلى شاشته يصر شلال على أن يتدفق للأبد.. هناك كوبان من الشاي فارغان، وهناك كومة من مناديل ورقية غير مستعملة.. كأن هذه الغرفة مخصصة لاستعمال خرتيت.
جدران الغرفة في أسوأ حال.. لونها خليط من الغبار وتلك اللعنة الصفراء التي تصيب الدهان الأبيض.
الكتب ذاتها متنوعة.. منها كتب عن النقد الأدبي، وكتب عن الشخصيات العالمية، وهناك موسوعة أو اثنتان.. لكن الحقيقة التي لا تفارق من هم مثله هي أنهم لا يكملون أي كتاب في حياتهم.. فقط يفتحون الكتاب ويحضرون القلم الرصاص، ويجلسون ويبدءون القراءة في حماس واضعين عشرات الخطوط والتعليقات، ثم ينتهي الحماس وينسون كل شيء بعد ثلاث صفحات.. يعود الكتاب بشكل ما إلى رف المكتبة، وينسون أنهم لم يكملوه.. ربما يحملون ذكرى شبحية عن قراءته..
أمام شاشة الكمبيوتر يجلس ذلك الشاب العصبي الغاضب منكوش الشعر.. من آن لآخر يحك شعره في شراسة كأن هذه طريقة معترف بها لاستجلاب الأفكار.
يمد يده لعلبة التبغ التى هشمها بقبضته من قبل.. ينزع لفافة ويشعلها.. لم يقلع عن التدخين كما لم يفعل أي شيء آخر وعد نفسه به.
يفكر.. يتحمس.. يعلو صدره ويهبط.. يدق على المفاتيح قليلا..
إنه قد صار ممن يستعملون الكمبيوتر للكتابة.. إنها برغم كل شيء طريقة رخيصة نظيفة لا تكلف ثمن الحبر وقذارته.. لا تكلف ثمن شريط الآلة الكاتبة.. لا أحد يتداول أوراقا مطبوعة.. هذه الأوراق سوف تنتقل إلى القرص الصلب لدى أحدهم.. كل شيء رقمي لا يستهلك أوراقا إلا في المرحلة النهائية بحق.
برغم هذا هناك أوراق متناثرة.. يبدو أن الرجل يستعمل الطريقتين معا..
ينظر لها في حيرة ثم يقول:
- لم لا تندمجين في القصة؟ إنها جيدة..
فكرت قليلا، ثم قالت محاولة ألا تجرح مشاعره:
- جيدة لكنها خالية من الأصالة.. لو أنك وضعت قصص (زقاق المدق) و(إيفانهو) وفرسان المائدة المستديرة و(روبن هود) وكتابات (برايان لوملي) و(سيد الخواتم).. لو أنك وضعت هذا كله في خلاط وتركته يعمل عشر دقائق، لخرجت لك قصة مماثلة..
- لم تتضح الأحداث بعد..
- هذا ما لاحظته.. لكني فقدت اهتمامي لأن الموضوع تحول إلى (خلطبيطة).. فتاة يتحرش بها البريطانيون فتقوم عركة في الحارة، وتلجا إلى مدخل بناية لترى مواجهة بين الفتوات، وهنا يختطفها (جاك السفاح).. و.. لو كانت هذه طريقة للمزاح فأنا لم أتذوقها، ولو كانت قصة فعلا فأنا لم أعش أحداثها.
راح يداعب أزرار الجهاز في ضيق ثم قال:
- لا أعرف ما أقول.. لكني أعتقد أن مزاج القارئ يحدد تاريخ الأدب في مصر.. لو فرضنا أنك

مصابة بإمساك أو أنك في حال نفسية سيئة فلربما..
قالت في ضيق ممائل:
- نظرية طيبة، لكن معناها الحتمي هو أن كل الأعمال الفنية تحف رائعة متقنة.. فقط القارئ أحمق مضلل.
التمعت عيناه وقال في حماس:
- ألا ترين أن هذه هي الحقيقة؟
- بالطبع نعم.. لا أرى هذا.. على الأقل أنا لم أحب مغامرة القرون الوسطى تلك، ولست مصابة بالإمساك.
نظر لها للحظة متابعا هذا المنطق.. يبدو أنه وجده سليما بالفعل؛ لأنه مد يده ومسح ملفا.. رأت (عبير) الصورة المميزة للأوراق تطير في الهواء لتسقط في سلة المهملات.
ثم بدأ يكتب من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عرفت (عبير) (عماد التوني) أول مرة لم يكن يستعمل الكمبيوتر.
عرفته جيدا جدا وكأعمق ما يكون، وبرغم هذا لم تقابله مرة واحدة.. هذا هو ديدن الكاتب الذي تشعر بأنه يجلس معك جلسة خاصة هامسة ليفضي لك بأدق أسراره.. إنه معك في مكتبك. في الفراش.. في كل مكان.. إنه ملكك ويفهمك.. حتى تتصور أنك لو قابلته في شارع مزدحم لعرفك أنت بالذات.. تلك الفكرة الرومانسية التي عذبت فتيات كثيرات من المعجبات بالأديب الوسيم (إحسان عبد القدوس)..
لكن (عبير) لم تر (عماد التوني) من قبل، ولم تختصه بأية خواطر رومانسية.
القصة بدأت عندما ذهبت لعم (زكي) بائع المجلات القديمة لتبتاع زادا من الأحلام كالعادة..
لولا عم (زكي) وأمثاله لما استطاعت أن تقرأ كتابا واحدا.. بل لما عاشت يوما جديدا.
عم (زكي) كذلك يعرفها ويحتفظ لها بالجديد، ولا يدقق معها في السعر لأنها:
- متعوضة!! متعوضة المرة القادمة.
مع الوقت يصير هؤلاء القوم جزءا من الكتب ذاتها.. لابد أنه في زمن ما جلس مع (ماكسيم جوركي) و(ويلز) و(جوناثان سويفت) و(يحيى حق..
لا.. لم يكن هذا الأخير وهما.. كل أدباء مصر في القرن العشرين مروا على عم (زكي) في وقت ما، وهو قادر على أن يحكى لك الكثير عن (يحيى بك حقي) قصير القامة المهذب الوديع ذي الدعابة القوية و..
هذه المرة كانت هناك رزمة من المجلات الفنية، وقد ابتاعتها (عبير) بسعر مغر..
في البيت فرغت من إعداد طعام الغداء مع أمها، ثم جلست على الأريكة جوار (شذى) تتصفح تلك المجلات بطابعها العتيق المحبب.. زواج (أنور وجدي) و(ليلى مراد).. الأغنية الأخيرة للآنسة (أم كلثوم يحضرها الشاعر الشاب (أحمد رامي)..
فجأة وجدت مجموعة من أوراق الفلوسكاب غير المسطرة مدسوسة بين صفحات المجلات.. أوراق دشت رخيصة الثمن من التي يحب الصحفيون الكتابة عليها، وتتشرب الحبر كأنها ورق نشاف.. وعلى الأوراق بخط جميل أنيق، وبحبر جاف أسود قلّ أن تراه هذه الأيام، قرأت كلمات:

غادة القلعة

رواية تاريخية اجتماعية

بقلم (عماد التوني)

فتحت الصفحة الأولى التي تحمل رقم (1) في الهامش العلوي.. وبدأت تقرأ: «دنت جيوش الأعداء خط الأفق.. وعرف المحاصَرون في القلعة أن اليوم هو الأخير.. لقد حانت الساعة..»
إذن صاحب المجلة السابق أديب أو يحسب نفسه كذلك.. ولكن ما سبب عدم اليقين؟ يقولون: هو ذا الجمل وهو ذا الجمّال.. فلنقرأ ولنر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- أديب ولكن..

لم يكن سيئا.. بالتأكيد لم يكن سيئا..
لكن وهذه هي المشكلة لم يكن جيدا..
إنه يكتب مثل أي شخص آخر، والقصة تدور كما يجب لها أن تدور.. لغة متماسكة.. ما من أخطاء لغوية.. من الواضح أنه كان ينال أعلى درجة في امتحانات التعبير في المدرسة.. هذه اللغة الجزلة عديمة اللون والرائحة والطعم التي تروق للكبار.. لغة (السيارة تطوي الأرض طيا) و (الأسد الهصور)، لكنها تفتقر إلى هذا الوهج المجنون المدعو (إبداع).. الشيء الذي يجعلها تختلف.. الشيء الذي يجعلك لا تنسى القصة وتشعر بأنك عاجز عن كتابتها..
باختصار كان يكتب بطريقة (تخرج عادل في كلية الطب فصار طبيبا نابها يُشار له بالبنان) أو (وثقا عهد حبهما بقبلة طويلة)..
لقد كتب ست صفحات انتهت بهذه العبارة:
«وبدأ يفك دروعه الثقيلة وهو يلهث.. بينما راحت تنظر له في إعجاب وصدرها يعلو ويهبط.. ثم نظر لها وقال:»
فجأة تنتهي القصة هنا..
لن يعرف القارئ أبدا ما قاله ذلك الفارس بعد ما فك الدروع والمشكلة هي أنك فعلا لا تهتم بمعرفة ما قيل.. لو حسب المؤلف أنك ستبكي وترتمي على الأرض لتضربها بقبضتيك متوسلا، فهو مخطئ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدت ورقة بيضاء بعد هذا..
ثم ورقة أخرى على غلافها عنوان:

السفاح في مصر
رواية بوليسية تاريخية
بقلم (عماد التوني)

فتحت الصفحة الأولى وبدأت تقرأ:
- كانت (حميدة) تهرع عبر شوارع القاهرة القديمة قاصدة دار خالتها..
وهكذا تمضي القصة بين تحرش جنود بريطانيين وقتال وصراع فتوات، ثم تخدير و(جاك السفاح) الذي فر من بريطانيا ليجرب حظه مع بنت مصرية.. وتنتهي الصفحات بعبارة:
- وسقطت الخرقة المبتلة على أنفها فلم تعد تشعر بشيء..
ثم كتب بالقلم الرصاص وبخط متعجل:
هذا هو ذات عصر (ريا وسكينة).. ربما كان ممكنا أن نقحمهما في الأحداث، بحيث يعمل معهما (جاك السفاح)..
كان هذا سخيفا إلى حد لا يصدق.. لحسن الحظ أنه لم يفعل.
بعد هذا وجدت مجموعة أخرى من الأوراق في مجلات أخرى كل الأوراق تحمل ذات الخط

وذات الكتابة بالحبر الأسود.. هناك قصائد شعر.. هناك سيناريو مسلسل تلفزيوني يتحدث عن أسرة مصرية عادية، تطرّف ابنها فترك الجامعة وانضم لجماعة متطرفة، حيث الكل يلبس الجلباب ويحمل الجنزير، ولا عمل لهؤلاء سوى تفجير حافلات السياح..
طبعا لم يكتمل أي عمل.
في كل مرة يكتب بضع صفحات ثم يتوقف.
هناك صفحة يحدد فيها لنفسه جدولا زمنيا ليصير رائعا:
- 1الإقلاع عن التدخين خلال شهر.
- 2المواظبة على الصلاة خلال أسبوع.
- 3الركض صباحا ولعب الرياضة.
- 4الوصول لمستوى ممتاز جسديا وعقليا ودينيا.
- 5كتابة 40 قصيدة ومسلسل تلفزيوني مع أربعة أفلام وستين قصة قصيرة خلال شهرين.
- 6تعلم الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية خلال هذا العام.
- 7الزواج من (غيداء).
كل هذا جميل، والطموح ليس بالشيء المقيت، لكن لابد أن تكون خطط المرء متسقة مع الواقع- كتابة 40 قصيدة ومسلسل تلفزيوني مع أربعة أفلام وستين قصة قصيرة خلال شهرين... هل هو خط تجميع في مصنع للبطاطس المقلية؟
الأمر لا يتعلق بالليمون بل يتعلق بعملية إبداعية معقدة. ديوان (كامل الشناوي) بقصائده القليلة جدا استغرق الشاعر عمره بالكامل.. (إميلي برونتي) لم تكتب سوي رواية واحدة ذات بال هي (مرتفعات وذرنج).. (سرفانتس) لم يكتب رواية مهمة في حياته كلها سوى (دون كيشوت).
وما هي صفات العقل الذري الذي يتعلم الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية خلال عام.
كيف يعاهد المرء نفسه على (الوصول لمستوى ممتاز جسديا وعقليا ودينيا)؟ يمكن أن يتعهد بأن يحاول.. لكن هذا الفتى لولا بقية من تعقل يوشك أن يعاهد نفسه على أن يدخل الجنة، ويضع جدولا زمنيا لهذا.
كانت هناك ورقة أخرى كتبت بذات الصيغة عدة مرات:
حبيبتي غيداء:
كلمات كثيرة يجب أن تقال منذ رحيلك عن مصر.. تلك الزيارة التي كانت حلما حقيقيا لا يفارق ذكرياتي.. أعرف أنك أحببت الهرم والنيل وتوقعت أن تحبيني أكثر لكنك لم تقولي هذا ولا أعرف إن كنت فعلت أم لا.. لكننا تواعدنا على أن أنهي أعمالي هنا وألحق بك في (حلب)..
بالفعل رتبت أموري لأني أعرف أني لن أعود ثانية، وهناك قائمة كبيرة من الأعمال التي على أن أقوم بها، وأنا أعرف جيدا أنني قادر على النجاح.. هناك ألف مشروع في ذهني، وأعرف أنني موهوب فعلا وأنني فقط بحاجة إلى فرصة واحدة..
أعرف أن هناك أشياء عديدة لم ترق لك ولم ترق لأخيك.. حياتي ليست هي الحياة التي تناسب أخا يتمنى أن يجد حياة هادئة لأخته، وأعرف أنه لم يحب الفوضى في غرفتي ولا تدخيني المفرط، ولا بُعدي التام عن الرياضة.. أعرف هذا جيدا..
لقد زارني في المكتبة التي أبيع فيها الكتب الدينية، ولم يبد راضيا لأنها مهنة غير منتظمة.. في أي يوم يمكن أن يطردني صاحب العمل.. أعرف هذا.. لكن الشيخ (محيي) رجل طيب ويعرف أنني أعتمد بالكامل على المبلغ البسيط الذي أحصل عليه من المكتبة.. أعرف أنني سأمارس عملا

مشابها في سوريا، لكني أعرف كذلك أن بوسعي أن أنجح وأن نشق طريقنا عن طريق كتابة المسلسلات والأفلام.. إن سوريا نشيطة في الإنتاج الدرامي وهم بحاجة إلى مؤلفين دراميين مثلي..
صدقيني يا (غيداء) الحبيبة أنا أعرف ما أقول.. سأنجح، ولسوف أكون معك للأبد هناك في سوريا الجميلة، فإن لم يكن سأكون معك في السماء حيث لن يفرقنا أحد.
أرجوك أن تردي على ولا تتركيني هكذا..

عماد

هذه هي المشكلة.. أسلوب خال من الأخطاء لكنه خال من الجودة.. وبرغم هذا هو يفرط في المسودات لأنه كتب ذات الخطاب عدة مرات..
ترى هل تزوج حسناءه السورية؟ كان هذا ضمن خططه بعد ما يصير رائعا، فهل فعل؟ شيء في قلب (عبير) قال لها إن هذا لم يحدث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- أديب ومع ذلك..

كما لنا أن نتصور قضت (عبير) عدة أيام في عالم هذا ال. (عماد)..
قرأت كل حرف كتبه، وفكرت مثله تقريبا.. إنها أنثى، وفضول الأنثى العارم شيء معروف.. لهذا تهوى الأنثى تمثيلية الساعة السابعة ليس عن ولع بالدراما، بل لأن هذه التمثيلية نوع من التلصص المحكم على بيوت وأحوال الآخرين.
بعد فترة بدأت تشعر بأنها تراه.. ترى شعره المنكوش العصبي الذي يستعصي على التمشيط، وترى أسنانه التي أتلفها التبغ، وتري نظارته السميكة.
تعرف أنه يجلس في حجرته بالفانلة الداخلية، وأن لديه قطا مشمشيا له عين تالفة، وأنه يشرب الكثير من الشاي الثقيل.
تعرفه لدرجة أنها الآن تجلس أمامه، وهو عاكف على الكتابة.
لابد أن عشر دقائق قد مرت، وهو غارق في التدوين على شاشة معالج الكلمات.. في النهاية رفع عينه نحوها، ولم يقل شيئا.
قالت له في كياسة:
- في بيتنا كنت مولعة بالطعام الجيد.. لكني كنت طباخة رديئة.. جربت حظي عدة مرات، وأوشك البيت كله على الإصابة بالتسمم.. هكذا كففت عن المحاولة، وصرت أكتفي بأن أعاون أمي في مهام بعينها.. تقطيع الطماطم. تنقية الأرز.. إلخ.. لقد قنعت بهذا..
نظر لها واتسعت عيناه، وقال:
- هذا حديث شائق، لكني للأسف آخر من يهتم بتاريخك في التدبير المنزلى..
- دعني أكمل.. تعلمت أنني أتذوق الطعام الجيد لكن لا ينبغي أن نتحول جميعا إلى طباخين.. إن لله عبادا اختصهم بهذه الموهبة، وذات الشيء ينطبق على الأدب.. أنت لم تؤت الموهبة فلماذا لا تكتفي بالاستمتاع به؟
ضرب المنضدة بقبضته، وفي غل هتف:
- لا أريد أن أكون مجرد واحد آخر.. آتي العالم لأضيف له ثلاثة أطفال يحملون نصف جيناتي.. شعري المجعد وداء السكري الذي عانت منه أمي.. ثم أرحل.
- لن يكون شعر الأطفال مجعدا ما دام نصف جيناتهم سوريا!
نظر لها في غيظ.. لا يعرف إن كان يخبرها أن قصة الحب قد فشلت أم لا.. لا لن يخبرها.. إنها تتدخل في حياته منذ رآها، وهناك أشياء لا نعترف بها حتى لأنفسنا.. قصة الحب قد فشلت لكنه لم يصارح نفسه بهذا قط..
والأدهى أنها فشلت لأن (غيداء) اعتبرته فاشلا عاجزا عن النجاح، نحن نعترف بأشياء كثيرة، لكننا لا نعترف بالفشل أبدا. نعترف بأننا ضعفاء أو متخاذلون.. نعترف بأن حظنا سيئ.. لكن لا أحد يعترف بأنه نكرة..
قال لها وهو ينظر إلى الشاشة في حماس:
- دعينا نجرب هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دخلوا حاملين المحفة، سمعت صوتهم في الممر فغادرت الغرفة.

هناك كان الضابط واقفا مع اثنين من المسعفين، ورآها فتنحى جانبا بينما هي تصلح من خصلات شعرها الأشقر، وتشعل لفافة تبغ كعادتها كي تقاوم الرائحة.
قال لها وهو يتأمل وجهها القسيم:
- حالة أخرى يا دكتورة.. أنت تعرفين الرجل.
اتجهت إلى الملاءة وأزاحتها.. وكان ما توقعته فتاة سمراء الشعر حسنة القسمات تشخص إلى السقف بعينين لن تريا بعد اليوم.. علامات التعذيب واضحة لكن سبب الوفاة هو تلك الطلقة التي اخترقت الجبهة.. من الواضح أن يدي الفتاة مقيدتان خلف ظهرها.
(عماد) مولع بالسفاحين على ما يبدو.. هناك (جاك السفاح) والآن هذه القصة التي لم تتبينها بعد.. إن لديه ميولا سادية لا شك في هذا.. المعادلة الشهيرة.. الحرمان والفشل المتكرر يؤديان إلى الغل، والغل يؤدي إلى السادية.. والسادية تعبر عن نفسها في هذا الطراز من القصص، حيث تلقى النساء عقابهن على الورق..
لن يصير (عماد) سفاحا حقيقيا لذا يكتب عن سفاح آخر.
قال لها الضابط، وقد لاحظ شرودها:
- ثالث حالة نجدها في مرآب في (مانهاتن) خلال أسبوع.. أعتقد أنك بحاجة إلى ليلة لتكملي التقرير..
قالت وهي تلوك لفافة التبغ:
- بالطبع..
كانت تشعر الآن بأنها بالفعل محترفة مارست هذا العمل مرارا.. إنها الطبية الشرعية (باتريشيا) التي كان من حظها أن شرحت أغلب هذه الجثث.. ألم يحن الوقت لتسميته (سفاح مانهاتن) بعد؟
العلامات واحدة.. التعذيب المفرط ثم القتل برصاصة في الجبهة.. هذا القاتل منظم جدا..
قال الضابط، وهو يتفحص أوراقه:
- اسمها (ماريانا كارلوتي).. سكرتيرة.. في العشرين من العمر.. ذات السن كما هو واضح..
- ومن أصل إيطالي كذلك.. لابد أن هذا يدق جرسا..
وحدها الآن في المشرحة الخالية في هذه الساعة من الليل تعد لنفسها كوبا ورقيا من القهوة ثم تدخل إلى غرفة التشريح وتحكم تسليط المصباح على الجثة.. تشغل جهاز الكاسيت.
وبلكنة أمريكية عملية تبدأ في إملاء التقرير.. هذه الطريقة العملية الباردة في النساء تروق للرجل الأمريكي جدا، ولا سيما ما إذا كانت الفتاة قادرة على ذكر لفظة بذيئة من حين لآخر..
عندها يضع الأمريكي يده في خصره وباليد الأخرى يصلح وضع الكاسكيت على رأسه، ويصف هذه الفتاة بأنها (ساخنة Hot) لا توجد فتيات جميلات أو قبيحات في أمريكا.. فقط هناك فتيات ساخنات أو لا..
(ماريانا) أيضا كانت ساخنة بالمقاييس الأمريكية.. هناك الكثير من الوشم وهي علامة جمال لا شك فيها عندهم..
ولكن..
بدأت تتوتر وهي تلاحظ للمرة الأولى شيئا لم تلحظه من قبل في الجثث السابقة..
هذان الثقبان في العنق جوار الوريد الودجي بالضبط.. ما معنى هذا؟
لو كان هذا فيلم مصاصي دماء لارتجفت هلعا، لكن الأمر ليس كذلك.. إنها الآن تميز هذا الجو وتفهمه.. إنها في إحدى قصص (أدب المشرحة) الذي تكتبه (باتريشيا كورنويل) لا جدال في

هذا.. حتى اسمها (باتريشيا) كذلك!
الأخ (عماد) قرأ إحدى هذه القصص وتأثر بها جدا كما هو واضح.. وما معنى أن يكتب كاتب مصري قصة أبطالها غربيون يواجهون مشكلة غربية في عالم غربي؟ هذا نوع فريد من الأدب المترجم يمتاز بأنه غير مترجم! طريف فعلا.. (ابن المقفع) فعل شينا شبيها بهذا في (كليلة ودمنة) عندما ألف حكايات عبقرية عن الحيوانات، وزعم أنها مترجمة عن الأدب الهندي فقط ليظفر باهتمام القراء.. ومن الغريب أن الجميع صدق هذا الزعم حتى اليوم.
لكن ما دخل الثقبين في الأمر؟
اتجهت إلى مكتبها في نهاية الممر - يا لرائحة الكيماويات هذه! - وطلبت (هانك)..
(هانك) المخبر السري صديقها.. لا غنى عنه في هذه القصص.. هو وحده يعرف ما يحدث ويعرف كيف يأتيها بالخبر اليقين
- (هانك).. أريد أن تعرف كل شيء ممكن عن فتاة من أصل إيطالي من (مانهاتن) اسمها (ماريانا كارلوتي).. سكرتيرة.
في العشرين من العمر وقد اختفت..
ثم بدأت تتلو عليه بيانات الهوية وهي تضعها في ضوء المصباح.
شعرت بأن هناك من يقف وراءها..
التفتت فوجدت الفتاة القتيلة تقف خلفها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- هجمة أخرى..

لم يكن هناك وقت للتفكير.. لا وقت للذعر وكل الهستيريا الأنثوية.. إن القبور تغص بالفتيات اللاتي وقفن يصرخن بدلا من الفرار.
لكن كيف الفرار وهذا ال.. هذا الشيء يسد الباب..؟
زجاجة الحمض على المنضدة.. كل هذه الكيماويات هنا..
أمسكت بالزجاجة وانتزعت الغطاء في ذات اللحظة التي أفرغت فيها محتوياتها في وجه المسخ..
ترى هل يجدي الحمض مع فتاة كانت ميتة منذ ثوان؟
يتصاعد الدخان قوى الرائحة ويغطى الشيء عينيه ويصرخ يسقط أرضا على ركبتيه فتثب (عبير) من فوقه وهي تصرخ بدورها..
تركض في الممر بينما يدوي صوت (هانك) من جهاز الهاتف الخلوي:
- (باتي).. ماذا يجري هنا؟
قالت وهي لا تكف عن الركض:
- الفتاة ليست ميتة! الإيطالية! لا أعرف كيف.. لكنها الحقيقة.. (هانك).. لابد من أن تأتي حالا!
الثلاجة هناك في نهاية الممر..
تقتحمها وتغلق الباب خلفها ثم تتوقف لاهثة..
هناك من.. هناك من يتحسس الباب من الخارج.. المقبض يهتز.. هذا حقيقي.. لكن الثلاجة موصدة بعناية..
إذن الأمر لا يتعلق بقاتل تسلسلي.. الأمر يتعلق بمصاص دماء في (مانهاتن) يجعل ضحاياه مثله.. تبا لك يا (عماد)!
هل هذا أفضل ما توصلت إليه الآن؟
وقفت خلف الباب تلهث وتتساءل عما إذا كانت المسوخ تتوقف كثيرا أمام الأبواب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم سمعت صوته..
(هانك) القوى الخشن الذي يعرف ما ينبغي عمله.. (هانك) المسلح.. (هانك) الذي يحبها.. إنه هنا!
تسمع صوته يناديها في الممر..
- باتي!
إنه يقترب.. هل تفتح الباب الآن؟ لكنها توقفت إذ سمعت صرخة.. صرخة رجل مذعور كما يكون الذعر..
- يا إلهي الرحيم!! ما أنت؟!
ثم صرخة مريعة أخرى.. بعدها دوت عدة طلقات.. ثم كليك كليك؟
مسدس فارغ..
فاق الأمر تحملها ففتحت الباب.. هناك وجدت ذلك المسخ على الأرض في منتصف الردهة بالضبط، وقد تصاعدت منه سحابة دخان هي خليط من أثر الحمض مع بارود الطلقات..

كان (هانك) يقف جوار الجدار يرتجف شاحب الوجه، والمسدس في يده وهو مصر على إطلاق طلقاته الفارغة على هذا الشيء.
كليك كليك!
- كفي يا (هانك)! لقد قتلتها!
- هي ميتة من قبل أن أطلق عليها طلقة واحدة!
وأشار إلى جبهته:
- لا أحد يظل حيا بهذا الثقب من مسدس (ماجنوم) في رأسه..
إذن نحن غادرنا عالم (باتريشيا كورنويل) بالتأكيد.. فأين نحن؟ لا ليس عالم (آن رايس) حيث هناك مصاص دماء رقيق معذب دائما.. مصاص يعاني مشكلة الخلود ويشعر بملل فظيع..
اقتادت (هانك) الذي لم تعد ساقاه تحملانه إلى الداخل، وقدمت له بعض مشروب (الجنجر) ليهدئ أعصابه..
ثم جاء السؤال المهم..
ماذا يحدث هنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها (هانك) وهو يقود السيارة في شوارع (نيويورك) التي بللها المطر:
- لا أعرف كيف أقول هذا وأبدو عاقلا، لكن هناك مصاص دماء في (مانهاتن)، وهو يعذب ضحاياه ثم يحولهم إلى نسخة منه.. هذا واضح..
سألته وهي تفكر في احتمالات هذا الذي قاله:
- وباقي الفتيات؟ ماذا أصابهن؟
- لاحظي أنك لم تجدي أثرا لثقوب في أعناقهن.. يبدو أنه لم يجد الوقت الكافي ليبدأ.. لكن خططه المستقبلية واضحة لأي طفل..
ثم أشعل لفافة تبغ ليبدو خشنا محترفا مثل (همفري بوجارت) في الأفلام وقال:
- سوف أجري تحرياتي.. لابد من معرفة من كان يقابل هذه الفتاة.. هناك خيط وسوف أقتفيه حتى النهاية..
وانفجر يسعل، وقد نسى للحظة أنه لم يدخن من قبل قط.
انتزعت لفافة التبغ من فمه ودستها بين شفتيها، وقالت:
- هناك جثة مزقها الرصاص في المشرحة.. هذه هدية جميلة تتركها لي.
- كح كح.. إن تقريرك سيتضمن أن الفتاة ماتت بالرصاص على كل حال. لن تغير الأمر بضع رصاصات إضافية
وتوقفت قرب مقره، فوثب من السيارة وهو ما زال يمسك بصدره ويسعل
- كح.. كح! أرجو أن تعتني بنفسك، سوف أتصل بك قريبا
هكذا قادت سيارتها وسط الشوارع وهي غارقة في التفكير..
مصاص دماء هنا؟ ماذا لو عرف هؤلاء الماشون في الطرقات الغارقون في ضباب المشاكل اليومية.. الذين خرجوا من ضباب العمل من التاسعة للخامسة ليدخلوا ضباب البحث عن مغامرة في بار أو مرقص.
ماذا لو عرفوا أن هناك مصاص دماء طليقا هنا؟
وصلت البناية التي تسكن فيها فدخلت المرآب بالسيارة.

كان الهدوء يغمر المكان، والإضاءة شبه خافتة.. هذه هي اللحظة المناسبة لمهاجمة أي شخص تريد.. كانت تهاب هذه اللحظة بشكل خاص.. تتوقع في كل ليلة أنها الأخيرة..
على كل حال، ماتت كل الفتيات السابقات في لحظة كهذه.
تفتح باب سيارتها وتخرج.
هنا حدث بالضبط ما قال عنه المثل العامي: «اللى يخاف من العفريت يطلع له..»
هذا المثل يتحقق معها بشكل ملح مستفز فعلا..
لكن العفريت هنا لم يكن عفريتا مجازيا.. كان عفريتا حقيقيا وثب عليها من فوق سيارة فان.. سقطت أرضا وهو فوقها.. ووجدت الفرصة كي ترى ملامحه بوضوح.. الوجه الشيطاني المتقلص.. الأنياب البارزة.. الوجه المجعد شبه المتعفن.. هذا مصاص دماء تلفزيوني جدا من الذين يملئون الحلقات التلفزيونية رخيصة الإنتاج على غرار (بافي) و(الملاك).. إلخ.. حيث لا تسمح ميزانية الماكياج إلا ب. 23.5 دولار وبالتالي لا مفر من شراء أقنعة الهالوين البلاستيكية للتمثيل بها..
لكنه مخيف بما يكفي على كل حال..
صرخت ووجهت لكمة في وجهه، فقط لتستقر قبضتها بين أنيابه.. ضربته بالقبضة الأخرى وهي تواصل الصراخ..
لو بلغ هذان النابان عنقها فلسوف..
هنا شعرت أن شيئا يتدخل لصالحها.. طار المسخ من فوقها ليرتطم بالجدار.. وبصعوبة تبينت سمات ذلك الشاب الذي يهاجم مصاص الدماء.. يضربه.. يركله.. يمارس نوعا من الحركات البهلوانية تذكرك ب. (بافي) فعلا.
كما قلت ألف مرة من قبل، فإن وصف القتال مضيعة للوقت والورق.. لكن دعني أخبرك فقط أن هذا الفتى الذي أنقذها كان بارعا بحق.. لقد تحاشي كل هجمات المسخ وأوسعه ضربا.. ثم في النهاية أخرج نصلا طويلا ورفعه في وضع أفقي ثابت، في اللحظة التي هجم فيها مصاص الدماء.. انغرس النصل كاملا في صدر هذا الأخير، وأطلق صرخة تذكرك بعواء ذئب ينتزعون قدمه حيا ثم سقط على الأرض.
كانت ترتجف ذعرا وتوترا لكنها استطاعت أن ترى وجه مخلصها.
لقد جاءها والدم يلوث وجهه مع ابتسامة عابرة يحاول بها أن ينسيها كل هذا الفزع.
- هل أنت بخير؟
أسمر اللون أشعث الشعر يلبس عوينات لا تعرف كيف لم تتحطم بعد كل هذا الصراع.. ثم تلك اللكنة.. لا يمكن ألا تعرف طريقة نطق المصرى للإنجليزية مهما حاول أن يخدعك.
قال وهو يمسح الدم عن وجهه:
- اسمي (عماد).. (عماد التوني)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- أديب مع بعض التحفظ..

هنا فقط قاطعت (عبير) تدفق السرد، وصاحت في غيظ:
- لماذا تقحم نفسك في الأحداث؟
قال وهو مستمر في الكتابة:
- منذ لحظات كنت متضايقة لأن القصة لا علاقة لها بأي شخص عربي.. والآن متضايقة لأن بها شخصا عربيا.. منذ متى لم تسمعي قصة جحا وابنه والحمار..؟
- الأمر يبدو سخيفا.. أعرف أن (إيلري كوين) كان يفعل الشيء ذاته، وكانت بطلات القصص يصحن: أنت رائع فاتن يا مستر (كوين)! بينما الرواية كتب عليها أنها بقلم (إيلري كوين)، لكن (إيلري كوين) لم يكن رجلا واحدا.. كانا شخصين يكتبان تحت هذا الاسم!
- لماذا نقلد الغرب في كل شيء؟ لماذا لا يكون لنا عالمنا المتفرد ويجعل كاتب القصة نفسه بطلها؟
جلست أمام شاشة الكمبيوتر وراحت تطالع ما كتبه.. لم تحب قط القراءة على شاشة الكمبيوتر وبدت لها اختراعا سخيفا.. لا شيء يعادل الكتاب الصديق الصدوق الذي تحمله معك حيثما ذهبت.. كتاب له رائحة وتتثني أطرافه ويصفر ورقه مع الزمن.
قالت له في حذر:
- لكن القصة مثيرة إلى حد ما.. ربما كانت لديك الموهبة بعد كل شيء..
- هذا ما قاتلت طيلة حياتي ليصدقه الناس..
ثم أزاحها من دون رفق عن الشاشة ولوحة المفاتيح وطقطق سلاميات أصابعه ليعاود الكتابة بطريقته المميزة.. حرف في كل مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكى (عماد) ل (باتريشيا) كل شيء عن حياته وهما يمشيان في شوارع (بروكلين)..
الهجرة إلى الولايات المتحدة أرض الأحلام.. الزوجة الأمريكية التي ملأت قلبه سعادة باعتباره نجح أخيرا في اقتناء تلك التحفة الأنيقة الشقراء.. (عبير) في شخصيتها الأمريكية شقراء فاتنة كالعادة لهذا لم تر في كلامه شيئا غريبا..
الزوجة الأمريكية التي ملأت حياته سعادة، ثم ملأتها بؤسا عندما أعلنت أنها تحب زميلها في العمل وتم الطلاق. هو الآن يدفن أحزانه في العمل.
كان في المرآب يوقف سيارته عندما سمع صراخها ورأى ذلك المسخ.. لا يعرف ما هو ولا لماذا هو هنا، لكنه باعتباره مصريا إذا سمع استغاثة أنثى يضرب ثم يفهم..
- وتحمل سيفا على سبيل الاحتياط؟
- نحن في نيويورك حيث يجب أن يحمل المرء سيفا حتى لا يموت بسيف آخر..
حكت له عن نفسها.. بدا لها وسيما رائعا.. إنه الحلم الذي تحلم به الفتاة منذ تعرف معنى لفظة (رجل) حتى تصير عجوزا وتموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا توقفت (عبير) عن القراءة وصاحت في غيظ:
- ألا ترى ما يستفز في هذا كله؟ أنت وسيم رائع وحلم كل فتاة! ألم تجرب شراء مرآة ذات مرة؟
قال وهو يواصل الكتابة
- هذه قصة خيالية.. خ.. ي..ا..ل.. ي.. ة.. كل شيء مسموح به.. لو كنا ندخل عوالم الخيال كي يلعنوا أبانا ويضربونا ونقيء دما ونموت، فليذهب الخيال إلى الجحيم.
ابتسمت (عبير) لهذه الفكرة.. ثمة قصة قديمة لـ (تشيكوف) كانت فيها الخادمة الفقيرة تلعب مع طفلها الرضيع.. تحلم معه فكانت تقول له: ستكبر.. ونذهب معا لنعمل أجيرين في بيوت الأثرياء!
هذا هو الخيال الوحيد الذي سمحت البائسة به لنفسها.. وهو شيء مفهوم على كل حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا بعد ساعتين كانت علاقة حميمة قد ولدت بينهما..
الفتى الوسيم الشاعري القادم من بلاد النيل حيث تزأر التماسيح في ضوء القمر على ضفاف النيل (أو هذا ما أقنعت نفسها به) والطبيبة الأمريكية الحسناء..
يمشيان معا في (برودواي) وسط اللافتات البراقة.. ألف مسرح وألف دار سينما تعرض ألف فيلم ساحر..
يدخلان عوالم الظلام في (سنترال بارك).. هناك ينتظرك الزنوج من تجار المخدرات حاملين هراواتهم ليحطموا رأسك، فقط قبل أن ينقض عليهم رجال عصابات (بورتريكو) ليهشموا رءوسهم بمواسيرهم.. كم أن هذا رومانسي جميل!
تقول له:
- هل تذكر أغنية (الرولنج ستونز) الشهيرة؟ أمشي في سنترال بارك.. أغنى بعد ما يحل الظلام.. فيحسبني الناس مخبولا.. أتعثر في خطواتي، أترنح في الطرقات.. يسألني الناس: تؤ.. تؤ.. ماذا دهاك يا فتى؟ رباه! أنا افتقدك يا طفلتى!
قال في حيرة:
- لم أسمعها.. كان يمكنك أن تريحي نفسك بدلا من غناء كل هذه الأوبرا..
يدق هاتفها المحمول فتتوقف تحت شجرة وترد:
- (كورنويل).
كان هذا صوت مفتش الشرطة:
- (باتي).. أين أنت؟ هناك جثة جديدة.. رجل اخترق سيف صدره في مرآب.. نعم.. نفس الأسلوب، لكنه رجل هذه المرة..
على الأقل هذا خبر تعرفه.
أردف المفتش بلهجة متحفظة قلقة:
- (باتي).. لا أعرف كيف أقول هذا.. الرجل المتوفي قد تشوه وجهه كثيرا.. مسحة شيطانية عامة على ملامحه، لكني أعرف من هو.. لا شك في هذا.. إنه (هانك)!
- ماذا تقول؟
- نعم.. (هانك).. أنا آسف..
(هاتك) تحول إلى مصاص دماء وهاجمها في المرآب.. هناك من هاجمه بعد ما فارقها.. أو لعلها الفتاة في المشرحة ظفرت به وهي لم تعرف.

أغلقت الهاتف وتهيأت للبكاء، عندما سمعت صوت (عماد) يقول في الظلام:
- كنت مضطرا لهذا كي أتعرفك.. كي أعرف ما تعرفين!
دققت النظر فأدركت أن (عماد) لم يعد هو..
صاحت في جزع:
- أنت من مسخه إلى مصاص دماء!
- وقتلته على الفور أمامك! كانت تمثيلية متقنة! الآن أنت وحدك في بقعة خالية من (سنترال بارك) مع مصاص الدماء الذي بدأ كل شيء! هل يثير هذا فزعك؟ جميل.. جميل!
مصاص الدماء يحتاج إلى بعض السادية.. يحتاج إلى ضحية راجفة باكية.. ما رأيك في بعض التوسل؟
وفتح فمه لتبرز أنيابه الهائلة.
ثقبان في عنقها.. نهاية سريعة.. ثم عودة دائمة لتصير له!!
اصرخي.. اصرخي يا بلهاء!
لربما كان هناك في مكان ما (عماد) حقيقي باسل ينقذك من أنياب هذا.. ينقذك فعلا هذه المرة!!

11- إحباط وادمصاص..

فرغت (عبير) من القراءة.. وظلت تعبث بالمؤشرة على صفحة الكتابة بعض الوقت عاجزة عن أن تقول شيئا..
ثم نظرت له في عينيه، وقالت بصراحة:
- لم أحب النهاية!
- لم أجد نهاية أفضل..
- قرأت لناقد أدبي أمريكي يقول: على المرء ألا يبدأ أبدا كتابة قصة لا يعرف كيف سينهيها!
ظل ينظر لها بعض الوقت، وفجأة فعل آخر شيء تتوقعه..
أغلق الملف، ثم ضغط بلا رحمة ولا إبطاء ولا تردد على زر (مسح).
لا محاولات للتصحيح ولا أعذار..
فقط نهض من دون كلمة وبصوت مبحوح، قال:
- كنت على حق.
ظلت جالسة في الغرفة الضيقة الكئيبة وحدها، لا تفهم حقا هل هي قاسية إلى هذا الحد.. هل يجب أن تحب ما لا تطيق أن تحبه؟ من المؤلم أن يتعب المرء بلا طائل، لكن لماذا يصر على أن يكون لاعب كرة وقدماه مكسورتان؟
ثم ما كل هذا التناقض تجاه نفسه؟ تارة يتحمس ويجعل نفسه أروع شخصية في الرواية وبطلها الأوحد، ثم يتضح أنه مخادع ومصاص دماء؟ إنه يكره نفسه ويحتقرها بقدر ما يحبها.. هذا التناقض الذي يمكن أن يكتب عنه علماء النفس مجلدات.
ثم فطنت للحقيقة المرعبة: إنه يكره نفسه لأنه يحبها بجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن القلق هو السبب..
الموضوع أنها كائن بشري وتحتاج إلى دخول الحمام من وقت لآخر.. لهذا نهضت وتحسست طريقها في شقته بحثا عن الحمام.
بالواقع كان الأمر سهلا، لأن هذه لم تكن شقة.. لم تكن وكرا كذلك.. كانت غرفة واحدة وممرا ضيقا فيه باب موصد.. هو باب الحمام طبعا ما دام المطبخ في نهاية الممر.
مدت يدها ودقت مرة ومرتين.. لا أحد بالداخل.. أدارت المقبض فانفتح بتلك الطريقة المريبة التي تنفتح بها مقابض أبواب غرف الموتى.
كان الحمام ضيقا ومن الواضح أنه لم يجدد منذ خمسين عاما، والغريب أنه لم يكن متسخا.. على الأقل احتفظ (عماد) بلمسة من الرقي.. هذا حمام من عصر ما قبل القيشاني والسيراميك معا، يصلح أن تقتل فيه (شجرة الدر) زوجها بالقباقيب.. لا يوجد مغطس وإنما هناك حفرة ببالوعة فوقها دوش.. وكل شيء يصب في النهاية في تلك البالوعة التي تتسع لكل شيء.. فوق المغطس هناك صيدلية من (الصاج) الصدئ من الطراز الذي ثبتت مرآة على بابه.
في حفرة المغطس وجدت (عماد) راقدا على الأرض مبللا.. كان فاقد الوعي والنظارة على الأرض جواره..
أدركت ما حدث لأن الفتى ليس في سن الإصابة بالجلطات المخية.

كلا.. لا توجد موسي ملوثة بالدم.. هناك علبة أقراص فارغة جواره.. وهناك كوب ماء نصف مليء.
على العلبة قرأت كلمة (ترانكسين).. لا تعرف ما هو لكنها خمنته من الإنجليزية القليلة التي تعرفها.. اللفظة تشبه لفظة Tranquilizer فلو كنا نحن الأمة التي تخترع الأدوية لكان اسم هذا الدواء (مهدئين).
هزت الفتى وصفعته قليلا.. وبدأ الذعر يتملكها.. هل تأخرت عليه؟ بهذا تكون قتلته مرتين.. مرة لأنها لم تحب قصصه ومرة لأنها لم تلحق به عندما غادر الغرفة.
أصدر أنينا فاطمأنت إلى أنه لم يمت.. على الأقل حتى اللحظة.
- (عماد).. أنا خائفة.. لا أعرف ما يجب عمله.. سوف أستدعي الإسعاف..
قال من بين أسنانه ومن دون أن يفتح عينيه:
- لا داعي.. لا أريد أن.. أتورط مع.. الشرطة..
- إذن أتركك تموت وأتورط أنا؟
- لا.. لن أموت..
ثم أشار لها إلى خارج الحمام.. عدة مرات تنظر إلى حيث يشير فلا تفهم.. في النهاية قال:
المطبخ.. كوب من الشاي الثقيل.. جدا
- فهمت.. تريد أن تعدل دماغك) قبل الذهاب للجحيم..
- فقط افعلي ما أقول.. عندما يغلي الشاي احرقي لقمة كبيرة من الخبز واسحقيها في الشاي..
- جميل.. وبعد هذا؟
- كوب كبير من محلول الملح.. أسرعي!
هرعت إلى المطبخ الحقير وهي مغتاظة.. لم تعرف من قبل أن إنقاذ المنتحرين يستدعي كل هذا الجهد.. جهد البحث عن الشاي.. جهد البحث عن لقمة خبز وسط هذه المجاعة.. جهد العثور على كبريت في بيت صاحبه لا يكف عن استهلاك الثقاب في التدخين.. جهد إشعال موقد (المصانع الحربية) الذي كان في أحسن حال منذ ثلاثين عاما أما الآن..
اعدت الشاي في براد قذر وأحرقت لقمة الخبز، وفعلت كما قال ثم عادت له في الحمام.. أجلسته مستندا إلى المرحاض وراحت تسقيه الشاي.
لما اطمأنت إلى أنه بدأ يشرب هرعت إلى المطبخ وراحت تفتش عن الملح دهرا.. صحيح أن صرصورا أمريكيا عملاق وثب من علبة فارغة في وجهها، فكادت تموت بسكتة قلبية، إلا أنها تمكنت من التماسك وإعداد محلول الملح المركز.
عادت له بكوب الملح فشربه مرة واحدة كأنه مياه غازية، وعلى الفور..
أوووووع!
تحول الحمام إلى مذبحة.. وقد اضطرت إلى الوثب إلى الخارج كي لا تغرق في بحيرة القيء.
عذاب ما بعده عذاب مر بها حتى نجح الفتى في أن ينهض ويغسل وجهه، ثم يتحامل عائدا إلى غرفته فيرتمي على الحشية الموضوعة على الأرض.
قال لها مفسرا:
- محلول الملح طريقة فعالة لإحداث القيء.. الشاي الأسود يحوي حمض التانيك الذي يؤدي لترسيب السم.. الخبز المحترق هو طريقة للحصول على الفحم المنشط الذي يدمص السم.
- تعني (يمتص) السم؟
- بل (يدمص) السم.. تذكري دروس الكيمياء يا حمقاء..

الفارق بين absorption و Adsorption هو الفارق بين الامتصاص والادمصاص..
كان من الغريب أن يتمتع منتحر بهذا العقل الحاضر، وهذه العقلية العلمية.. على قدر علمها هذا أول منتحر ينقذ نفسه بهذه الكفاءة.
أخيرا عقدت يديها على صدرها وقالت:
- هل لي أن أفهم معنى الذي حدث..؟ هل ابتلعت السم لأن القصة لم ترق لي؟
- بل ابتلعت السم لأنني فاشل في كل شيء حاولته.. لم أستطع أن أكون مهندسا ولم أستطع أن أكون شاعرا أو روائيا.. لم أستطع أن أقلع عن التدخين.. لم أستطع أن أنعم بقصة حب..
قالت ولم يكن قولها في موضعه:
- حتى الانتحار فشلت فيه.
ثم تذكرت أين هي وما عليها أن تقوله، فقالت:
- كنت ستهلك هلاكا أبديا.. من حسن حظك أنني هنا..
غطى وجهه، وأدركت من اهتزاز كتفيه أنه يبكي.
قلت له:
- سأبتاع لك بعض الطعام ثم أتركك حتى الصباح.. فقط عدني ألا تكرر هذه الحماقة.. في الصباح سوف أجد لك مخرجا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- فريال تنتوي الموت..

(عماد التوني)..
الفتى الذي ولد من جديد.
جاءته (عبير) في الصباح حاملة معها طعاما وشايا ورزمة أوراق.. نفس الطراز الذي وجدته في تلك المجلات الفنية (برغم أنه لا داعي لها لأنه يكتب على منسق الكلمات الآن).. ومع الطعام والأوراق ابتاعت له بعض الأمل الجديد.
كان جالسا على مكتبه يجرع القهوة الثقيلة.. كانت قد نصحته بهذا فهي تعرف خطورة الاستسلام للنوم في الليلة التالية لابتلاع أقراص مهدئة.. يبدو أنه أفرغ جالونات كاملة من القهوة لأنه كان محمر العينين، وكانت يداه ترتجفان بلا انقطاع..
لم يكن من الممكن خارج (فانتازيا) أن تزور شابا يعيش وحده، لكنها وجدت نفسها في (فانتازيا) تتحرك في خيوط قصة أكبر.. وبرغم كل شيء لم تكن تعرف جيدا متى ينتهي الخيال ومتى يبدأ الواقع.. هل في الواقع تزور عوالم فانتازيا التي كتبها مؤلف مغمور؟، أم إن المؤلف نفسه جزء من نسيج فانتازيا؟ هل هي (عبير) حقا أم صورتها في القصة الخيالية؟
قالت له محاولة أن تطرد هذه الهواجس عن ذهنها:
- ما زالت الحياة جميلة.. ما زال بوسعك أن تخدم المجتمع حتى لو لم تصر أديبا..
قطع نصف رغيف كاملا، ودس فيه حبة فلافل مع نصف ثمرة طماطم، وألقي بهذه الشطيرة المرتجلة في فمه ثم قال:
- من قال إنني أعمل عملا يحقق أي دخل؟ إنني أبيع الكتب وهذا لا يجعلني مليونيرا.
قالت مسترجعة كل أفلام (ماجدة) و (فاتن حمامة) التي تلعبان فيها أدوار الملائكة:
- سوف تعود للكتابة، وهذه المرة سوف تحقق نجاحا..
فكر قليلا ثم قال وقد انتفخ خداه كأنه الزمار في حفل ذكر شعبي:
- وعن أي شيء أكتب؟
- فكر في حياتك.. فكر في فشلك.. فكر فيما حدث أمس..
يبدو أنها كانت مقنعة، لأنه راح يفكر في حياته.. يفكر في فشله.. يفكر فيما حدث أمس
كان أول ما قاله هو أن كوم علبة التبغ في قبضته وقال:
- أعتقد أن على أولا أن أتخلص من هذا السم..
وعند الظهيرة أحضر مقعدا وضعه أمام شاشة الكمبيوتر، واستحضر أيقونة (مكتب ميكروسوفت) ثم بدأ يكتب الحروف الأولى من قصته الشامخة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن (عبير) تعتقد أنها ستحبه..
في الحقيقة لم تعتقد أنها ستحبه أبدا..
لكن ذلك الشعور الغريب تحرك في أعماقها.. ولم تكن بلهاء لقد خمنت أنها تحمل نحوه عاطفة أمومة متزايدة.. هذا ليس حبا بالمعنى المعروف للكلمة، وهو نوع من الرقة البالغة كالتي تغمرنا عندما ترى قطا صغيرا عاجزا جائعا بللته الأمطار يقف تحت سيارة.. إنه شعور بأن قلبك يتمزق باختصار شديد..

هذا كائن عاجز.. معقد.. يمقت نفسه لأنه يحب نفسه.. وهذا المقت اتخذ أبعادا جدية خطيرة.. هذا دفعها إلى أن تتبناه معنويا..
كل شيء في هذه المغامرة يذكرها بقصص أخرى.. متى يبدأ الواقع ومتى ينتهي؟ هل هي في عالم الواقع أم أن هذا الواقع جزء من قصة أخرى؟ حتى هذا الموقف الذي تعيشه يذكرها برائعة ستيفن زفايج (24 ساعة في حياة امرأة).. الأرملة التي قررت أن تلعب دور الأم في حياة شاب ابتلى بحب القمار أحبته.. منحته الثقة بنفسه.. اعتقدت أنه شفي من القمار فعلا، فقط لتجده غارقا في الديون على المائدة الخضراء، وفوق هذا أهانها وشتمها واتهمها بأنها عجوز شمطاء نحسته.
لكن (عماد) لن يكرر هذا معها.. لسبب بسيط.. هذا هو الواقع وليس قصة من قصص (زفايج).
من حين لآخر كانت تعيد تفحص الأوراق التي كتبها لنفسه.. الجداول الخيالية التي رسمها لنفسه.. اعتادت دوما أن تشعر بالشفقة على هؤلاء الذين يضعون جداول خيالية.. أيام دراستها كانت تضع جداول عجيبة يحسدها عليها أينشتاين نفسه.. منهج العلوم نصف يوم.. ربما ساعتان للغة الإنجليزية.. ثلاث ساعات للغة العربية.. يبقى وقت كاف من اليوم لتعلم التنس والعزف على الجيتار لو أن معها من المال ما يسمح بهذا (وهو مستحيل طبعا).
في النهاية ترى ما كتبته فتنفجر في الضحك وتدمع عيناها..
هل كنت بهذا السخف؟ هل كنت بهذه البلاهة؟
هكذا شعرت بالكثير من الشفقة على هذا الفتى، وقررت أن تساعده على أن يحترم نفسه من جديد.
في المساء كانت تمشي معه على شط النيل يلتهمان الذرة المشوية، ويتحدثان عن السبب الذي يجعل البازلاء تفسد بسرعة عندما تحفظها في كيس بلاستيكي بالثلاجة.
قال لها وهو يطوح كوز الذرة الذي خلا من الحبوب فصار أبيض متدرنا كساق مجذوم.
- فكرة ابتلاع الحبوب المنومة رهيبة.. أنا استجمعت من ذلك خبرات يمكن أن أستعملها في القصة..
قالت وهي تنهي آخر حبيبات في كوزها:
- لحظة الموت التي تعود منها خلاقة دائما.. أن تذهب هناك وتعود لأن أجلك لم يحن بعد.. هذه اللحظة قد تجلب جائزة نوبل لأكثر من أديب..
كانا الآن في الدقي.. رأته ينظر إلى لافتة تخص المركز الثقافي الروسي بعين مدققة.
قال لها شارد الذهن:
- بدءوا دورة جديدة من تعليم اللغة الروسية.. أريد أن التحق بها.. لا أستطيع أن أتصور أديبا لا يجيد الروسية التي كتب بها (دستويفسكي) و(تشيكوف).
ثم صمت لأنه وجدها تنظر له شذرا.
- هل أخطأت في شيء؟
قالت ضاغطة على أعصابها:
- (عماد).. (عماد).. جرب أن تتغير. أرجوك.. أنت تحاول كتابة رواية.. فلتفعل ذلك! (العقاد) و(طه حسين) و(نجيب محفوظ) لم يعرفوا حرفا من اللغة الروسية!
هكذا التزم الصمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قررت (عبير) أن تنهي حياتها في تلك الليلة.

طبعا من الواضح للقارئ أن هذا آخر شيء تريده (عبير)، فهي متدينة ولا يمكن أن تنزلق لجنون كهذا.. ولكن مسار القصة الذي كتبه الأخ (عماد) يرغمها على هذا إرغاما. إنه مصر على أن يقحم قصة ابتلاعه للحبوب في قصته القادمة..

هكذا أحضرت (عبير) علب المنوم وقررت أن تعطي نفسها مزية التراجع.. لذا لم تذب الحبوب في الماء وإنما قررت أن تبتلع قرصا تلو آخر.

نظرت لوجهها في المرآة.. كانت فاتنة كما هي العادة في (فانتازيا).. لكنها سمراء هذه المرة.. للمرة الأولى تتخلى فانتازيا عن ولع الأطفال الأحمق بالألوان حيث لا شعر إلا الأصفر، وتعترف بأن اللون الأسود جميل كذلك.

إن اسمها (فريال).. هذا الجزء تعرفه.

أمسكت بمجلة فرنسية وراحت تتسلى بتقليب صفحاتها إلى أن تبدأ الأقراص العمل.. كان هناك مقال عن إحدى ألعاب الكمبيوتر كتبه أديب برازيلي.. يبدأ المقال بهذه العبارة الغريبة:

- أين (القاهرة) تلك؟

هذا غريب!

تصور أن يسأل أحدهم أين (القاهرة) بينما القاهرة خارج النافذة ملء السمع والبصر.. الهواء قاهرة.. الناس قاهرة. التماثيل والتراب وسحابة الدخان قاهرة..

كانت قد فكرت في عدة طرق للانتحار لكن طبيعتها الأنثوية نفرت من قطع شرايين اليد ومن الوثب من الطابق الخامس..

كلها طرق عنيفة مروعة.

هكذا استقر رأيها على أقراص المنوم كطريقة تناسب ممثلات هوليوود.

لماذا تفعل ذلك؟ لسببين.. أولا لأن كل شيء في حياتها كان يشبه كل شيء آخر.. لن تكسب شيئا بمواصلة الحياة سوى الشيخوخة وفقد الأصدقاء.. سوف تكرر نفسها حتى تبهت ولا يعود لها طعم.. ثانيا لأنها ترى الأخطاء في كل مكان وهي عاجزة عن تصحيحها.

وقفت في النافذة شاعرة بأن قدرتها على التركيز تتلاشي.. نظرت إلى الشارع الصاخب.. شاب وسيم يمر تحت النافذة يرفع عينه فيلتقي عينها.. يبتسم.. ليس لديها ما تخسره.. بادلته الابتسامة ثم توارت داخل الغرفة..

أزيز في أذنيها.. رغبة في القيء.. معدتها تعلن عن غضبها وتمردها..

ثم غابت عن إدراك ذاتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- فريال لا تموت بسهولة..

لم تمت (فريال)..
لو ماتت لانتهت القصة بعد ست صفحات..
لقد أفاقت لتجد الإضاءة النيون تغمرها.. هناك أنابيب تخترق جسدها، ومعصماها مقيدان في الفراش، وصوت امرأة يقول لها:
- لقد سقطت على وجهك في الجحيم، وعليك أن تفعلي أفضل
أدركت أنها في المستشفى.. لقد أنقذوها.. ومالت عليها الممرضة وقالت:
- آسفة.. أعرف أنك غاضبة، لكن هذا عملي.. أن أنقذك من نفسك وأن أعطيك مخدرا
ومن جديد أفرغت شيئا ما في عروقها.
كانت تشعر ببرد شديد.. تريد أن تطلب منهم أن يزيدوا حرارة جهاز التكييف قليلا.. كل العنايات المركزة تكون باردة قاسية.
تغيب في الظلام ثم تصحو فلا ترى إلا الستائر الخضر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغت (عبير) من قراءة هذه السطور على شاشة الكمبيوتر.
ابتلت عيناها واكتسيتا بتلك الغشاوة المبتلة الرقيقة، ثم نظرت إلى (عماد) المتوتر خلفها كأنه ينتظر الحكم عليه.. قالت بصوت مبحوح:
- مؤثرة جدا وشدتني.. أريد بعنف معرفة ما سيحدث لتلك التعسة (فريال).. هل ستحاول ثانية؟
قال في مكر وهو يشعل لفافة تبغه الثالثة:
- انتظرى الباقي..
- لماذا انتحرت (فريال) حقيقة؟ هل السبب هو الخوف من ألا تتغير الحياة أو تتغير بشكل لا يحتمل؟
- انتظرى الباقي.
قالت وهي تمسك بيده:
- لقد أسأت فهمك.. أنت موهوب فعلا.. لكنك أحمق.. أغرقتني في عوالم مصاصي الدماء والقلاع المحاصرة و(جاك السفاح) حتى شككت في قدرتك على تقديم عمل أصيل..
وضع قبضته تحت ذقنه وأطلق سحابة دخان كثيفة من منخريه، وسألها في شغف:
- ما الذي راق لك لهذا الحد؟
قالت في انبهار:
- لا أدري! وهذا أروع ما في الموضوع. الأدب الجيد تعرفه على الفور بلا تعريفات.. عندما ترى زهرة خلابة فأنت تنبهر قبل أن تحاول تحليل سر جمالها..
ثم هزت إصبعها في وجهه محذرة:
- كن حذرا! لا تفسد ما بدأته.. أنت خنزير ومولع بإحباطي
- سأحاول.. سأكون حذرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أفاقت (فريال) من الغيبوبة كان هناك طبيبان شابان أحدهما فارع القامة والآخر قصير.. وعرفت من كلامهما أنها في مستشفى نفسي.
لقد أجريا معها تحقيقا شبه بوليسي عن كل شيء، كما سألاها أسئلة عن كل شيء في القاهرة.
قالت في ضيق:
- هل أنا متهمة في قضية أمن دولة؟
قال أصغر الطبيبين سنا:
- لا أريد أن أثير ذعرك، لكن الحقيقة هي أن الحبوب التي تعاطيتها أتلفت قلبك بلا رجعة.
نظرت له في جزع غير فاهمة، فقال:
- عما قريب يتوقف هذا القلب عن الخفقان!
- متى؟
تحاشي النظر لها، وقال:
- أعتقد أن خمسة أيام زمن معقول!!
كانت (عبير) تفهم معنى هذه النظرات المتعاطفة الشفوق.. معناها أنه لا يعبأ بها على الإطلاق، بل هو مستمتع أتم الاستمتاع بما يقوله وما يثيره في نفسها من رعب.. معظم هؤلاء الذين يتكلمون عن مصائب الآخرين في قلق كأنهم جزعون فعلا يستمتعون بمهمتهم بشدة.. هذا يشعرهم أنهم أفضل حظا..
قررت ألا تكافئه بهذه الكيفية؛ لذا قالت في انتصار:
- إذن أنا قد نجحت!
قال في خيبة أمل كما توقعت:
- نعم!
شد ما ساء وضعها بهذه الأخبار! ربما كان الموت سهلا عندما يأتي بسرعة، لكن انتظاره خمسة أيام أمر يفوق الاحتمال البشري.
طيلة حياتها تنتظر شيئا ما.. تنتظر عودة أبيها. تنتظر وصول القطار.. نتيجة الامتحان.. الهاتف.. العطلة.. الآن كتب عليها أن تنتظر الموت.
خرجت للنزهة في فناء المستشفى حيث يتناثر المرضي النفسيون.. لا يوجد شيء يذكرها بالسينما هنا.. لا أحد يقوم بحركات مخبولة وحده.. كل واحد يمشي في عالمه الخاص.
راحت تمشي وسط المكان الذي كان أقرب إلى ثكنة عسكرية.
هنا اقتربت منها امرأة مخبولة في الثلاثين من عمرها وقالت:
- إن الجميع هنا مجانين، لكن ما الجنون على كل حال؟ هناك من اتهم أينشتاين بالجنون عندما قال إن الفضاء يمكن أن يتقوس.. الجنون بئر.. هناك قصة قديمة عن ملك عاش مع أسرته في قصر مزود ببئر يشربون منها.. خارج القصر تلوثت البئر التي يشرب منها الشعب بالجنون.. كل من شرب منها جن.. هكذا أصيب الملك بالذعر وأرسل حراسه يمنعون الناس من الشرب لكن لا جدوى.. كل الشعب شرب والكل صار مخبولا.. وجد الملك نفسه محاصرا عاجزا عن عمل شيء، هنا جاءته زوجته وقالت له: تعال نشرب من تلك البئر لنصير مثل الناس! هل فهمت يا عزيزتي؟ علينا أن نتظاهر بأننا شربنا من البئر!
أدركت (فريال) في رعب أن قلبها لم يعد كما كان فعلا..
إنها متقطعة الأنفاس سريعة اللهاث، تصاب بدوار لدى أي جهد حاولت أن تندمج مع

المجنونات الأخريات في المستشفى.. كانت هناك مجموعة من النسوة تطلق على نفسها اسم (الأخوية).. وقد حاولت الاندماج معهن لكنهن كن أقرب إلى البرود والسخرية منها.
لا مشكلة.. بعد أيام لن تحتاج إلى غسيل أسنانها، ولا تمشيط شعرها، وبالتأكيد لن تتضايق بسبب هذه التفاهات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا توقفت (عبير) عن القراءة.
لقد امتلأت عيناها بالدمع حتى لم تعد قادرة على رؤية شيء..
راحت تردد العبارة في ذهنها: - علينا أن نتظاهر بأننا شربنا من البئر!
يا للعمق! يا للروعة! كانت تحسب الأدباء كفوا عن ابتكار عبارات كهذه منذ زمن سحيق.. منذ أغمض (تولستوي) عينيه لأخر مرة..
اسمه (عماد التوني).. وهو عبقري.. لم يكن أحد يعرف هذا حتى هو نفسه.. كانت عبقريته تحت طبقة من الفشل والملل، ثم راحت هي تنبش بأناملها حتى فجرت الينبوع.
نظرت له في عينيه حيث كان يقف وراءها يدخن لفافة تبغ في عصبية..
- هل أحببت القصة؟
قالت له وصدرها يعلو ويهبط:
- لا أهتم بالقصة الآن.. فقط أردت القول إنني أحببتك أنت!
وقبل أن يرد فرت من الغرفة والمنزل كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- أربع وعشرون ساعة في حياة (عبير)..

هذا هو ما كانت تخشاه..
الشفقة والأمومة تحولتا حبا.. ربما هو الانبهار بعبقرية هذا الفتى، وربما هي الألفة تجاه شخص تراه يوميا وبهذه الكثافة.. يقول علماء النفس إنك لو جمعت كنج كونج مع الغولة على جزيرة واحدة فإنهما سينتهيان إلى أن يرى كل منهما الآخر أجمل من رآه ويهيم به حبا.
كانت تشعر على كل حال أنها تحقق شيئا، وأن حياتها ليست بلا جدوى..
ويوم عادت له بعد اعترافها الأخير، ظلت مطرقة للأرض تخشى أن تلتقي عيناها به.. لكنه أراحها فقال:
- أنا فعلا أقاوم هذه التغيرات السحرية في نفسي.. لقد بدأت أنسى (غيداء) وهذا غريب.
ثم أضاف في خجل:
- أريدك أن تفخري بي.. ولكن لم أعرف بعد سبب طلاقك..
قالت في حزم:
- تلك قصة تطول ربما أحكيها يوما ما.. أما الآن فعليك أن تخبرني بما حدث ل.(فريال)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على أنه توقف عن الكتابة مدة يومين..
زارته في داره فوجدت جهاز الكمبيوتر مطفأ ولم تجده في الشقة..
الحقيقة أنه أعطاها المفتاح لتدخل وتخرج متى شاءت، ولطالما تساءلت عن كونها هي بالذات تفعل هذا، ثم فطنت إلى أنها في فانتازيا.. لا توجد طريقة لمتابعة ما يحدث إلا بأن تتاح لها هذه القدرة..
أين ذهب؟
قررت أن تفتح الجهاز لترى ما هنالك.. ليس هذا تجسسا لأننا في فانتازيا كما قلنا.
وجدت ملفا جديدا على سطح المكتب.. ملفا يحمل عنوان (أغنية)
فتحت الملف فطالعتها أسوأ محاولة لنظم قصيدة غنائية قابلتها في حياتها.. كانت مجموعة من مقاطع ملفقة من عدة أغان لشعراء كبار.. لا شيء ينم عن موهبة أو براعة.
وماذا عن القصة؟
فتحت ملف القصة لتعرف ما حدث ل.(فريال) فوجدت أن هذه الأخيرة ما زالت تواجه مشاكلها مع (الأخوية) وتحاول إقناع الممرضة بأن تسمح لها بعزف البيانو..
بيانو في مصحة عقلية مصرية؟ يبدو الأمر غريبا.. لكن من يدري؟ بالتأكيد هناك واحد..
هذا الأحمق لم يضف حرفا للقصة منذ يومين، وانهمك في كتابة أغان رديئة.
غادرت الشقة مغضبة، ونزلت في الدرج فقط لتسمع صوت (عماد) قادما مع عدد من الناس.. ربما كان معه اثنان أو ثلاثة..
لم يعد من مفر لذا وقفت حيث هي بينما صعد إلى مكانها (عماد) ومعه شابان.. أحدهما له شعر طويل يتدلى على كتفيه والآخر له ذيل حصان طويل.
هؤلاء من الفنانين أو المهتمين بالفن.. هذا واضح..
رآها فصاح في مرح:

- (عبير).. ملهمتي! أقدم لك..
طبعا لم تذكر أي اسم قيل لها، لكنهما كانا من خريجي الموسيقا العربية.. قال لها (عماد) همسا وهو يفتح باب الشقة
- سأطلب منك أن تعدي لنا بعض الشاي.. أنا آسف هذه المقابلة مهمة لى..
- شاي ثقيل أهشم فيه لقمة خبز محروقة؟
- ليس لهذا الحد.. ليكن شايا كأي شاي آخر..
هكذا جلس الثلاثة في غرفة (عماد) يتكلمون.. بينما وقفت هي في المطبخ تحاول تذكر أين ذهب كل شيء.. كانت تمقت إعداد الشاي طيلة حياتها، وكانت تلخص الموقف لمن يطلب منها إعداده:
- أنا أصنعه أقرب لمنقوع الأحذية..
لكن الوقت لم يكن مناسبا لهذه التعليقات الآن.
تسمع الجدل الدائر في غرفة (عماد) وأحد الجالسين يقول:
- إذن سوف ننتج هذا على نطاق واسع..
يقول (عماد) في حماس:
- لقد درست الفكرة جيدا طيلة الأشهر الستة الماضية.. لا توجد ثغرات.. فقط عليكم أن تجربوا.
عادت حاملة الشاي على صينية مهشمة متسخة إلى غرفة الكمبيوتر.. كان الفنانان جالسين على الأرض فوق بساط رث، بينما جلس (عماد) على المقعد المواجه للكمبيوتر وعيناه تلمعان في حماس.. والعرق يسيل منه بغزارة..

لما دخلت سألها:
- أنت تعرفين الآلة الموسيقية التي اخترعتها.. أليس كذلك؟
سوف ننتجها على نطاق تجاري واسع بمساعدة هذين العبقريين..
قال أحد العبقريين المذكورين:
- نحن لم نر إلا رسمها.. تقول إنها ستكون خليطا من الجيتار والعود والقانون.. أضمن لك رواجها بشرط أن تكون جيدة فعلا..
ما هذا الكلام الفارغ؟
قدمت الشاي لكل واحد في يده، ثم قالت في صبر، وهي تمسح قاع الصينية المبتلة في ثوبها:
- أية آلة موسيقية؟ لم أعرف أنك مهتم بالموسيقا على الإطلاق.
اتسعت عيناه تهديدا بما معناه (ليس الآن يا حمقاء) وقال:
- أنت لم تكوني معي منذ فترة.. إن الموسيقا هي حياتي وتسري في عروقي كالدم.. هذه الآلة سوف تجعلنا مليونيرات..
هذا هو كل شيء.. الداء الذي لا ينوي التخلص منه أبدا.. داء البدء في شيء جديد كل لحظة.. داء إلقاء بذور المانجو ثم عدم الانتظار حتى تنمو.. بل الانتقال فورا إلى حقل آخر يبذر فيه بذور العنب.. في كل لحظة هناك مشروع جديد.. لعنة برج الجوزاء الأبدية.
وبعد كل هذا ليست الموسيقا لعبة.. إنها علم قائم بذاته.. أن تزعم أنك ابتكرت آلة موسيقية جديدة لهي جرأة تبلغ مبلغ الجنون، ولهذا لم يصدق هذان الشابان أن هناك كذبة بهذا الحجم..

لما انصرفا أخيرا على وعد باجتماع آخر، وقفت جوار الكمبيوتر تنظر له في ثبات، ثم قالت:
- (عماد).. لقد تحولت أمس إلى شاعر غنائي.. واليوم صرت موسيقيا ومخترعا.. غدا تقرر أنك خلقت لتكون جراح مخ وأعصاب..
نفث سحابة كثيفة من الدخان، وقال في حماس:
- لا تمزحي يا (عبير).. أنت لا تعرفين كم أعشق الموسيقا..
- كما عشقت اللغات الأجنبية والرواية و (غيداء)..
ثم قالت في لهجة مرعبة:
(عماد).. افتح الكمبيوتر واستكمل روايتك، ودعك من هذا الهراء!
تلاقت العينان لفترة، ثم خفض بصره وقال في ذلة:
- ليكن.. لقد نسيت أنني فاشل يلمس الذهب فيصير نحاسا..
ثم دفن لفافة التبغ التي يحملها في بقية كوب الشاي:
- أقسم بالله العظيم ألا تلمسك شفتاي ثانية!
ومد إصبعه يضغط زر فتح الكمبيوتر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء قرر (عماد) أن يصير خبير شطرنج وأحد أساتذته العالميين.
زارته في الصباح فوجدت أنه وضع رقعة شطرنج كبيرة (بعض القطع مفقود لذا استعمل قداحة بدلا من الملك الأسود ومبراة بدلا من الحصان الأبيض).. وجوار الرقعة عدة كتب شطرنج من التي تصف الصراع العنيف بين (ب 3 فو) و (ب 4 رم)..
هذه هي الهوائية الجديدة إذن.. لا تريد أن تتحول إلى أم أو معلمة تطارده كلما أهمل الاستذكار، لكنها في الوقت ذاته تكره أن تراه يبدد الشيء الوحيد الذي بدأ يحقق فيه شيئا.
هكذا أمسكت بالشطرنج والكتب ووضعت كل شيء في كيس بلاستيكي تخلصت منه في القمامة.
من المرعب أنه لم يعلق عندما جاء من الخارج..
لم يتساءل..
لقد نسي الأمر برمته وانهمك في شيء آخر.. كأنه لم يقرر أن يكون أستاذ شطرنج ليلا، وحتى وجود شطرنج قد نسيه..
جلس إلى شاشة الكمبيوتر، وواصل الكتابة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- صدمة في الحمام..

كان د. (عصام) مدير المستشفى غارقا في خواطره الكئيبة..
لم يشعر قط بأنه يفعل شيئا مهما للمجتمع.. السجون تعلم السجناء ارتكاب الجرائم، والمستشفيات العقلية تعود المرضى على عالم غير حقيقي يمارسون فيه كل شيء، ولا يتحملون مسئولية..
لهذا تكون أسوأ لحظات حياته عندما يعود المرضى لذويهم.
كان لديه مخرج واحد لمشاكله هو أن يجد علاجا للجنون. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعيد احترامه لنفسه.
كان يعتقد أن مسبب الجنون مادة كيميائية أطلق عليها اسم (فيتيرول)، وقد قدمت له السماء فرصة لا تعوض بحالة تلك الفتاة (فريال) التي حاولت الانتحار.
لقد قابل أبويها أمس، وقالا إنهما لم يدخرا شيئا من أجل جعلها سعيدة.. ككل أبوين لمجنون كانا يزعمان هذا، وكان يعرف أن الجرعات العالية من السعادة تجعل الناس عاجزين عن التعامل معها.
(الفيتيرول) مادة سامة يصنعها العقل البشري في الأحوال المخيفة.. وهو يؤمن أن أباطرة الرومان وآل (بورجيا) كانوا يعرفون كيف يحصلون على هذا السم نقيا، ويقدمونه للضيوف..
فيما بعد عرف الناس كيف يقتلون بعضهم بالمسدسات، لكن ذكرى هذا السم ذي المذاق المر ظلت في الأذهان.. لهذا يشعر المرضى النفسيون بالمرارة.
سرعان ما يفقد المريض الرغبة في الحياة.. في المقاومة..
كان هو يحقن (فريال) سرا بمادة اسمها (فنتول) تسبب لها أعراض الذبحة الصدرية، وكان هذا ضمن تجربة يريد البرهنة عليها: الشعور بالدنو من الموت يغرينا بالمقاومة..
لكنه كان يعرف يقينا أن قلب الفتاة سليم ولم يتأثر بالعقارات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الغريب أن (عبير) اندمجت مع القصة لهذا الحد.
كانت تعتبر نفسها مدربة كأي ناقد كتب محترف على قراءة أي شيء وعدم الانفعال به..
لكن هذه القصة هزتها بشكل ما، وشعرت بالتماهي مع (فريال).. (فريال) الوحيدة البائسة التي سئمت الحياة، ثم أدركت أنها لا تريد الموت.. لكن بعد فوات الأوان.
لكن هذا الأحمق لا يواظب على الكتابة..
أمس غادر البيت في ساعة مبكرة ولم تره حتى المساء، وفى النهاية وجدت مجموعة من المذكرات ملقاة على الأرض.
(قواعد بيانات أوراكل وتطبيقاتها)!
كانت تعرف هذا الموضوع من زوجها السابق.. معنى هذا أن هذا المخبول قد قرر أن يكرس حياته لدراسة الكمبيوتر.
فوجئت به عائدا إلى الدار وفي يده لفافة تبغ.. لفافة تبغ يدخنها بعد ما أقسم للمرة الألف أنه لن يلمسها الحق أنها شعرت بقدر من الشفقة.. كلنا نحمل في أعماقنا جزءا من (عماد التوني)..
كلنا نحلم بالكثير مما لا نقدر على تحقيقه لأننا لا نعرف أنفسنا جيدا.. والفارق بين ما تصورناه

عن أنفسنا والحقيقة مرعب..
قال لها في جزع وهو يدفن لفافة التبغ تحت حذائه:
- لم أعرف أنك هنا..
قالت في ضيق:
- أتابع مدى تقدمك في قواعد البيانات..
قال في حماس بائع السيارات المستعملة:
- لا تتصوري كم يكسب من يجيدون هذه القواعد.. إن دول الخليج تتخطفهم.
- تتخطفهم بعد دراسة أسبوع؟
وأمسكت بأول كتاب.. كان ضخما يذكرك بالكومود جوار فراشك.. ورق براق.. كلام دقيق.. لغة إنجليزية لعينة.. كما توقعت كانت هناك خطوط على أول صفحة.. بعدها صارت الصفحات نظيفة تماما.
قالت دون أن تنظر له:
- سأدخل الحمام..
قال دون أن ينظر لها كذلك:
- سأخرج لأجلس على المقهى بعض الوقت..
هناك في الحمام وقفت تحدق في المرآة فوق الحوض بعض الوقت.
الحق أنها بدأت تكره نفسها. لقد صارت مملة مزعجة لحوحا لكنها ما زالت تعتقد أنها قادرة على مساعدته.. شد ما تمقت وجهها المتعصب اللزج في المرآة.. لابد أن الفتى صار يكره رؤيتها.
فتحت الصيدلية بحثا عن أي نوع من المسكنات.
كانت هناك علبة مغرية الشكل كتب عليها (نعناع).. علبة من أقراص النعناع.. مدت يدها تفتحها، وقد تداعت لديها ذكريات طفولة محببة، ففوجئت أن ما بها ليس تلك الأقراص عطرة الرائحة.. هذه كبسولات جيلاتينية.
لماذا يحتفظ بها هنا؟
وجدت الجواب على الجانب الآخر من العلبة.. شريط لاصق صغير ثبته هناك، وكتب عليه بخطه الأنيق (ترانكسين المكان الجديد).
ما معنى هذا؟
لماذا لم يحتفظ بالمهدي في علبته؟
لسبب بسيط.. هو أنه أفرغ العلبة ووضعها على الأرض جواره عندما (انتحر).. كان يريد أن تدخل الحمام لتجد علبة فارغة تحمل اسم المهدئ جواره على الأرض.. بالطبع لم يتخلص مما بقي عنده من كبسولات واحتفظ بها في علبة الحلوى..
كان يمثل
كل هذه المسرحية والشاي الثقيل والخبز المحترق كانت لإثارة اهتمامها أو شفقتها.
حتى الانتحار فشل فيه أو زيفه تزييفا!
كان يخدعها.. وقد سقطت في الشرك بغباء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت في وسط الغرفة الضيقة تتأمل كل شيء..
المكتبة التي ازدحمت بالكتب.. الجدران المصفرة.. شاشة الكمبيوتر.. واقي الشاشة الذي تنهمر

الشلالات فوقه.
لقد عجزت عن معاونة هذا الفتى.. كانت أمها تقول لها إن الرجل هو:
1- شيء مكسو بالشعر وتنبعث منه رائحة التبغ.
2- قابل للإصلاح مهما كانت طباعه قذرة سيئة منحطة، لكنها لم تسمع قط عن رجل كذوب أو بخيل تم إصلاحه..
3- لا توجد ملاحظة ثالثة..
لا توجد طريقة لإصلاح الكذب، ومن الغريب أن حكمة أمها البدائية هذه التقت مع نصيحة مماثلة لعالمة اجتماع أمريكية قرأت رأيها في مجلة ما..
(عماد) ليس كذوبا.. إنه فقط خفيف الطبع لا يعرف حقيقة نفسه..
ربما كان قابلا للتبدل.. من يدري؟
اتجهت إلى المكتبة وراحت تتأمل الكتب.. كما كانت تتوقع معظم هذه الكتب لم يفارق موضعه منذ دهور.. (عماد) يكدس الكتب لأنه سيقرؤها يوما ما عندها يصير مثقفا فعلا..
لكنه لا يفعل هذا أبدا..
لا يوجد وقت ولا بال رائق..
هناك كتاب متوسط السمك يبدو في مستوى أعلى من الكتب المجاورة، ويبدو أنه يسحب من المكتبة أكثر من سواه..
ماذا أثار انتباهه في هذا الكتاب بالذات؟
تناولت الكتاب وقد قررت أن تعيده إلى موضعه بالضبط كي لا تزيد شعور الفتى بأنه مراقب.
العنوان هو (فيرونيكا تقرر أن تموت)..
قصة لأديب برازيلي شاع ذكره منذ عام أو عامين هو (باولو كويليو).
لماذا يهتم بهذه القصة بالذات؟
فتحت الصفحة الأولى وبدأت تقرأ.. تقرا عن الفتاة السلوفاكية (فيرونيكا) التي قررت أن تقتل نفسها بالأقراص المنومة.. وراحت تتسلي بقراءة مقال كتبه (كويليو) نفسه عن (أين تقع سلوفانيا) بالضبط؟
لكن (فيرونيكا) لم تمت.. نقلت لمستشفى الأمراض العقلية و..
هذا الكلام يبدو مألوفا.. أين قرأته من قبل؟
ثم نظرت إلى العنوان.. لهذا اختار اسم (فريال).. لأنه أقرب اسم وجده ل. (فيرونيكا).. خياله لم يجد اسما مستقلا بعيدا عن الاسم الأصلي.
الأديب المحترم (عماد التوني) قام بنقل رواية الأديب المحترم (باولو كويليو) حرفيا واكتفى بتغيير الأسماء ونسخها على الكمبيوتر.
كل ساعات التفكير.
كل الإرهاق الذهني والصراع.
كل الطعام الذي التهمة على حسابها.
كل الدموع التى ذرفتها وهي تطالع القصة على شاشة الكمبيوتر، حتى أصيبت بالتهاب الملتحمة..
كان بوسعه أن يعطيها الكتاب ويريحها.
والغريب أنه مجنون.. لا أحد يسرق قصة ل. (كويليو) الذي سلطت عليه كشافات الاهتمام الإعلامي.. الذي جاء إلى القاهرة كي يحصل على مستحقاته عن رواية (السيميائي).. لا أحد يسرق

من (كويليو) وينجو بفعلته هذه..
لم تنتظر أكثر..
لقد انتهت أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة، ووجدت أن خير ما يمكن عمله مع هذا الطراز من البشر هو تركه.. إنه هو أشنع عقاب لنفسه..
تركت الكتاب مفتوحا جوار الكمبيوتر ليراه بوضوح عندما يعود.. وإن قدرت أنه سيكون مشغول الذهن بستوديو التحريك الذي ينوي إنشاءه.. ستوديو تحريك أو فرقة غنائية أو جمعية لاستعادة رأس (نفرتيتي)
أغلقت باب الشقة..
ولم تدر أنها تبكي بحرارة إلا عندما سال المخاط على ياقة ثوبها..
عندها وجدت يد المرشد تمتد لها بمنديل.
قال وهو يبتسم
- للمرة الأولى منذ زمن لم آت لك وأنت تقفين جوار جثة محتضر!
قالت وهي تمسح أنفها:
- من قال العكس؟ هذا مشهد وفاة آخر..
- هل عرفت القصة التي أنت فيها؟
- للأسف عرفت.. لقد عشت في العوالم الساحرة لشخص بلا موهبة..
وفي الخارج كانت العاصفة تشتد
لم يكن هناك قطار، وقد تساءلت عن مصير جهاز الكمبيوتر في هذه اللحظات..
ترى ماذا حدث له؟ ماذا سيحدث له؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك أكثر من أسطول غارق في التاريخ.. هناك أسطول بونابرت الذي غرق عند سواحل (أبو قير) و(الأرمادا) الإسبانية وأسطول (كليوباترا) الذي دمر في موقعة (أكتيوما).. لكننا في القصة القادمة نتحدث عن أسطول عملاق الدولة عظمي دمرته طائرات (زيرو) اليابانية على سواحل أجمل جزر المحيط الهادي.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

روايات مصرية للجيب

49

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

يوم غرق الأسطول



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (49)

يوم غرق الأسـطول

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- البحث عن شريف..

كما هى العادة أحيانًا لم تستفق (عبير)، ولم تخرج من هذا الحلم لتمر بالمراحل التقليدية الإستكشافية..

لقد وجدت أنها تقف فى تلك المساحة الشاسعة العارية من أية معالم.. لا يمكن أن تقول إن هذه صحراء.. ليست صحراء جليدية.. ليست حتى ذلك البياض المريح الذى رأيناه فى فيلم (ماتريكس).. إنه الخواء بالمعنى الحرفى للكلمة.. لا شىء.. معنى فيزيائى مطلق..

تمشى مذعورة..

لو لم تجد المرشد فكيف تخرج من هنا؟ كانت تقرأ فى الماضي عن عذاب (تانتالوس) البطل الإغريقى وكيف وجد نفسه فى عالم الفراغ عاجزًا عن عمل أى شىء.. فيما بعد وصف العالم السويدى العبقري (أندرس أكبرج) عذابه مع مادة كيميائية غامضة بأنه عذاب (تانتالوس).. هكذا كان أول اسم أطلقه على المادة عندما عرف كنهها هو (تنتاليوم)..

أصابها المزيد من الذعر.. الحقيقة أنها تتصرف بالضبط كالمجانين.. كل المجانين لهم عالم خصوصى متكامل المنطق والمقاييس.. هم وحدهم يزورونه ويعيشون أحداثه، فيضحكون على دعابة قالها هذا، ويغضبون لإهانة وجهها ذاك.. الناس ترى المشهد فتمصص الشفاه وتحمد الله على نعمة صحة العقل والبدن.. بينما المجنون يرى أن كل شىء منطقى..

هل هى مجنونة؟

فانتازيا لا وجود لها إلا على جهاز الكمبيوتر، وجهاز الكمبيوتر قد تلف.. إذن لا وجود لفانتازيا إلا فى عقلها.. إذن هى مخبولة..

ثم تذكرت كلام المرشد عن أن المريض العقلى والأديب كلاهما يزور نهر الجنون.. يشرب منه الأديب جرعة كبيرة ثم يعود، بينما المجنون يغرق فيه بلا رجعة..

هى ما زالت قادرة على الرجوع..

حتى هذه اللحظة على الأقل..

لو لم يأتها المرشد فماذا يبقى منها؟ وعيها تائه فى الفراغ، بينما أمها وأخوها يرونها واقفة واللعاب يسيل من شدقيها.. عيناها فى أرض الأحلام.. تضحك.. تقطب.. تبكى.. تهرش رأسها.. ربما تضع كسرولة على رأسها وتخرج للحارة، أو تبتاع سمنًا لتسكبه على رأسها كما كانت تفعل (أم رزة)..

(عبير) يا صغيرتى.. لا يفصلك عن عالم الجنون سوى خيط واه جدًّا..

خيط لا يراه سواك و(شريف)..

أنتِ بحاجة إلى (شريف)..

هو وحده القادر على أن يخبركِ بحقيقة وضعكِ العقلى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم سمعت صوت خطوات فأجفلت..

نظرت إلى الوراء فوجدت المرشد قادمًا وهو يعبث بالقلم الجاف الزنبركى كالعادة..

- «لم تتصلى به بعد؟»

- «لم أعد قط»..

قال لها فى حيرة:

- «وهل تعرفين أين هو؟ إن الأمر معقد.. أنت لا تعرفين عنوان بيته الجديد ولا رقم هاتفه»

- «هذا ما تعتقده أنت.. سوف أجده.. فى المرة القادمة ستعرف أنه هو من أعاد لى فانتازيا»

- «ومن أدراك أنه سيفعل؟»

- «إنه ليس طفلًا.. لا أعتقد أنه راغب فى المشاكسة.. مجرد خدمة يؤديها لى وينتهى الأمر»..

فكر قليلًا.. ثم بحذر سألها:

- «هل ما زلتِ تحبينه؟»

قالت شاردة الذهن:

- «لا أدرى.. الحقيقة أننى لا أحمل نحوه عاطفة ما.. كان بوسعي أن أقول إننى لا أبالى وإننى أحتقره، وإن من تخلى عنى لا يستحقنى.. كان بوسعى أن أقول هذا.. وكان بوسعى أن أقول إننى أموت شوقًا له وأضرب رأسى بالجدار عدة مرات طلبًا لسماع صوته.. أنت جزء من عقلى الباطن ولا يضيرنى أن تعرف الحقيقة.. لكنى لا هذا ولا ذاك.. متعادلة تمامًا كمحلول بلغ درجة التوازن.. فقط (شريف) يساوى فانتازيا.. إذن أنا لا أستطيع الحياة من دونه»..

قال فى خبث:

- «يجب أن تحتفظى بهذا الإصرار الصحى.. إن مغامرة اليوم تتطلب هذا وأكثر»..

- «وما هى؟ هل سألعب دور (بنيلوبى) المخلصة؟ هل سأكون (إيزيس) التى تفتش عن أشلاء جسدها فى كل أركان مصر.. دعنى أقل لك إننى أكره لصق الجثث الممزقة»..

قال لها فى غموض:

- «فى القصة السابقة كان هناك خلل ما، ولم يكن بوسعى معرفة اسم المغامرة على الإطلاق.. لم أكن أملك أى فكرة عن موضوعها.. اليوم هناك خلل آخر.. (شريف) موجود فى القصة لكنى لا أعرف أين هو»..

- «(شريف) هنا؟ ومنذ متى هو فى كل قصة؟»

- «أنت تحلمين بالعثور عليه فلا غرابة فى أن يعود للظهور.. الحلم ليس سوى ما رأيناه.. أو ما سمعناه.. أو ما خبرناه، أو ما نتمنى أن نجربه.. أو ما نحن مرغمون على أن نجربه أو ما تخيلناه.. أو ما هو طبيعة فى جسمنا.. هذا ما يقوله أساتذة اليوجا»

- «وعليّ أن أجده لأسأله؟»

- «نعم.. لكنى غير قادر على أن أساعدكِ»

كانت الأن ترى ميناءً عملاقًا.. ترى مجموعة كبيرة من السفن.. ترى بحارة وتسمع الكثير من الصخب.. طائرات تعلو وتهبط بلا انقطاع..

لكن هناك شيئًا ما غير معتاد..

طراز الطائرات عتيق فعلًا.. الجو نفسه يذكرها بأفلام الأربعينات..

قال لها وهو يمسك بورقة:

- «المعلومات التى لدى هى أنه فى مكان ما، وسط بحارة أسطول يوشك على تلقى ضربة مروّعة»..

- «وهذا يعنى؟»

قال وهو يعيد الورقة إلى جيبه:

- «أسطول يتلقى ضربة مروعة.. فجأة.. نحن نتكلم عن هجوم اليابانيين على الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر إذن..»

ثم أشار إلى الميناء وقال:

- «(شريف) فى مكان ما هنا.. عليك أن تجديه.. سوف تمنحك (فانتازيا) مساعدة صغيرة.. ثمة تلميح ما سوف يلفت نظرك.. وعندما تفعلين ذلك سيكون عليك إقناعه بأن يساعدك»

ثم لوح بإصبعه منذرًا:

- «لن يكون هذا سهلًا.. العثور على بحار وسط أسطول.. فى ألعن لحظة يمر بها هذا الأسطول.. من الأسهل أن تجدى سمكة بعينها وسط الفيضان.. دعك من أنه لن يكون هو! لن تعرفيه من ملامحه! سوف تتغير هذه بغرض خداعكِ..»

قالت باسمة:

- «ليست (فانتازيا) فى غباء الواقع وبلادته.. فى عالم الواقع يمكن أن أعيش وأموت دون أن أجده.. هنا سوف يكون بالتأكيد بين من أتعامل معهم.. عندما يحقق المفتش مع رجلين فى القصة البوليسية، فالقاتل واحد منهما حتمًا.. بينما فى عالم الواقع قد لا يكون القاتل واحدًا من العشرين المشتبه فيهم.. الخيال أكثر بلاغة واختصارًا ووصولًا للغرض.. إنه ثوب مهندم (مكسم) بعناية.. بينما الواقع مترهِّل مفعم بتفاصيل لا جدوى منها»

نظر لها وبحث عن رد لاذع يخرسها تمامًا.. ثم قرر أن يترك للمغامرة أن تعلمها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2مرفأ اللآلئ..

العثور على بحار وسط أسطول.. فى ألعن لحظة يمر بها الأسطول.. هذا ما قاله المرشد، وكان دقيقًا على الأرجح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تعرف متى ولا كيف وجدت نفسها فى ذلك المقهى..

الساقية الحسناء (جانيس) تمشي مشيتها الرشيقة بين المناضد.. تعلق فى خصرها المريولة ذات الجيوب التى تدس فيها مفكرة الطلبات.. على صدرها بطاقة تحمل اسمها..

تنظر (عبير) لنفسها فى المرآة فترى صورة جديرة بأفلام (ريتا هيوارث).. الشعر الأشقر المجعد.. الشفتان الحمراوان.. القامة الفارعة والصدر الذى لا يكف عن الوجيب.. كانت هذه مقاييس النجمة فى ذلك العصر، ولهذا يجب أن تكون (جانيس) جديرة بأن يعجب بها الجميع..

مثير فعلًا أن تجد لها شكلًا جديدًا فى كل قصة.. شكلًا جديدًا وشخصية جديدة..

اليوم هو السادس من ديسمبر عام 1941.. غدًا هو الأحد.. يوم الإجازة.. عرفت هذا من التقويم الذى رسمت عليه صورة كاريكاتورية راقصة مرحة من أمريكا الجنوبية..

أطلت من النافذة فرأت أنها فى طابق أرضى، وأنها ترى الميناء من هنا.. البوارج العملاقة التى تقف فى خمول لذيذ.. كلها تحمل علم الولايات المتحدة الأنيق.. مهرجان من اللون الأبيض الناصع مع البحر الأزرق والسماء الصافية..

طائر نورس يهبط من السماء ليقف فوق عمود من الذى يربطون له حبال الهلب.. وهناك بحار يمسك بآلة (بانجو) صغيرة يعزف عليها لحنًا راقصًا..

كل شىء مبهج جميل كما هو واضح..

الساقية الأكبر سنًّا (كلارا) تمر بها حيث وقفت تطل من النافذة فتقول لها بلهجة لائمة:

- «ليس هذا وقت الخواطر العاطفية.. إن (توم) لن يأتى اليوم.. هناك الكثير من البحارة اليوم.. يجب أن تهتمى بعملك»..

إذن هناك (توم) وهو ليس هنا اليوم.. الأهم أنها تهيم به حبًّا كما هو واضح..

(شريف) طبعًا.. لم تحل لغزًا فى حياتها بهذه السرعة من قبل..

على شفتيها ارتسمت ابتسامة خافتة وهى تعود إلى الكافتيريا لتمارس أول مرة تلعب فيها دور الساقية..

كان البحارة يتبادلون المزاح.. العضلات القوية والشعور الحليقة فوق الفودين بطريقة Crew cut.. أكثرهم يضع قبعة البحارة على مقدمة جبينه على سبيل التظرف، كما يفعلون بالطاقية فى ريفنا.. الوشم على السواعد القوية.. وبعضهم استبدت به الفتوة فراح يلعب لعبة (رادى فير).. الكثير من أكواب الجعة..

هنا أدركت أول مشكلة تواجهها المرأة التي تعمل ساقية.. بشكل ما يعاملها الجميع على أنها متاحة وأنها ضمن قائمة المشروبات.. يصعب على الرجل أن يصدق حقيقة أن ساقية الكافتيريا ليست رهن إشارته.. هذا يتكرر فى كل مكان وزمان..

قال لها أحدهم فى مرح:

- «هل ترقصين معى يا (جانيس)؟»

نظرت له.. كان عتلًا صفيقًا أقرب إلى شاحنة آدمية.. ولو داس على قدمها فلن يختلف الأمر كثيرًا.

ابتسمت فى حرج بطريقة أمريكية جدًا وقالت:

- «شكرًا»..

انفجر رفاقه يضحكون.. كانت هذه هى كلمة السر المطلوبة.. هكذا نهض والشر فى عينيه.. الشر فى كشافات الشاحنة.. واتجه نحوها ليمسك بساعدها بقوة كادت تهشمه إلى نصفين وقال وهو يضغط على أسنانه فى حقد:

- «عندما يطلب (ديك) فتاة للرقص فهو لا يتوقع رفضًا.. عليها أن تكون سعيدة فخورًا»..

قالت ما معناه: (إيه يا ختى ده؟) وانتزعت ساعدها بعنف.. أسوأ إهانة توجه لامرأة هى أن تشعرها بأنها لا تملك حق الاختيار..

لكن الأخ (ديك) كان ثملًا على الأرجح.. جرها بقوة إلى منتصف القاعة برغم احتجاجها وصاح بصوت جهير:

- «الموسيقا يا شباب.. أريد بعض الديكسى!»

ومن صندوق موسيقا فى مكان ما انبعثت أنغام مرحة..

كان يطوح بها فى اتجاه ثم يتلقفها قبل أن تسقط ليقذف بها فى اتجاه آخر.. وأدركت أن البحارة يلتفون حولهما فى دائرة وهم يصفقون.. (ديك) سعيد بقدرته على الإرغام ووساوس الجبروت، وأصدقاؤه سعداء بأنهم تحت قيادة رجل قوى مثل هذا..

كانت ترقص وهى موشكة على البكاء.. أنا أكره البحارة.. أكرههم من أعماق قلبى..

تبًا لكم.. أتمنى أن أراكم تحترقون أحياء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الصعب أن تتحقق الأمنيات بهذه البساطة، لكنها الحقيقة..

في هذه اللحظة يجرع الأدميرال (ياماماتو Yamamoto) بعض الساكى فى توتر على ظهر حاملة الطائرات اليابانية.. يملس على رأسه الأصلع ويختلس النظرات إلى (متسو فوشيدا) و(جيندا) و (ناجومو) مهندسى الهجوم القادم..

فقط عندما ترى (جيندا Genda) قائد الطيران تشعر بأن النصر حليفنا غدًا..

هذا الشاب المتحمس المتوثب هو العسكرية اليابانية تمشى على قدمين.. عيناه اللامعتان تقولان بوضوح: لن نفشل..

لكن (ياماماتو) برغم أنه المسئول بالكامل عن الخطة يشعر بالتوتر.. أمريكا عملاق نائم غافل عن اليابان.. ومنذ عام 1812 لم يتلق أية هجمة على أرضه.. معنى هذا أن غضبته ستكون مخيفة، ومن الصعب أن تتحمل اليابان دفع الفاتورة..

لكن قل هذا من دون أن تبدو جبانًا أو خائنًا للطيارين اليابانيين المشتعلين حماسة، والذين ربطوا رءوسهم علامة الكاميكازى.. قل هذا للميكانيكيين والبحارة.. قل هذا لـ (جيندا) و(متسو فوشيدا).. قل هذا للإمبراطور العظيم..

فيما بعد وبعد أن انتهت الحرب بدفع الثمن الباهظ الذى دفعته اليابان، زار (ياماماتو) الولايات المتحدة فقال:

- «عندما رأيت حقول النفط فى تكساس والمصانع العملاقة فى (دترويت).. أدركت أننا لم نحسن صنعًا»

هذا حق.. لقد استثار قارة كاملة، وهكذا تحركت إمكانات قارة ضد اليابان.. وكانت النتيجة كارثية..

كان (جيندا) هو الذى رسم خطة الهجوم على (بيرل هاربور) - مرفأ اللآلئ - منذ يناير عام 1941.. هو الذى وضع كل التفاصيل الدقيقة.. المفاجأة ثم المفاجأة ثم المفاجأة..

لقد تجاوز الأمر مرحلة مناقشة التفاصيل.. لقد تم التدريب على الخطة منذ نوفمبر الماضى، وأصغر بحار يعرف التفاصيل..

فقط يجلس الرجال يحاولون تزجية لحظات القلق القادمة..

كانت اليابان دولة تحاول التمدد منذ بدايات القرن العشرين.. الدولة (السوستة) كما يصفها السياسيون.. ومن هذه الدول المشاغبة التى تشتهي التمدد دومًا كانت ألمانيا وإيطاليا..

كانت اليابان قد تورطت فى الحرب مع الصين ومعارك فى (منشوريا)، وظهرت أطماعها واضحة فى الهند الصينية، ثم فى عام 1940 انضمت لقوات المحور.. ثلاث دول هى ألمانيا وإيطاليا واليابان اجتمعت لتحارب العالم..

كانت الولايات المتحدة تتصدى لأطماع اليابان، وحظرت تصدير النفط لها..

معنى هذا أن أنامل الولايات المتحدة التفت حول عنق اليابان.. وصارت الفكرة المسيطرة على اليابانيين هى: سحق القوة الأمريكية فى المحيط الهادى.. لابد من ضربة تجهض القوة الأمريكية..

برغم هذا ظلت الولايات المتحدة بعيدة عن أتون الحرب العالمية الثانية.. كانت تفضل أن تنأى بنفسها عن المشاكل..

وفى كل ليلة كان (تشرشل) رئيس وزراء بريطانيا يصلى صلاة يدعو الله فيها أن يدخل الولايات المتحدة على الحرب، لأن موارد إنجلترا انتهت ولم تعد قادرة على الصمود..

الحقيقة أن الله استجاب لدعائه.. وكانت بوادر الاستجابة هى هذا الاجتماع المنعقد بين القادة اليابانيين الآن..

قال (ياماماتو) وهو يصب لنفسه المزيد من الساكى:

- «أرجو أن تنجح خطتنا مع الطوربيد»

الحقيقة أن مياه بيرل هاربور ضحلة جدًّا.. يحتاج الطوربيد المقذوف من الجو إلى مياه عميقة ليعمل.. هكذا عمل اليابانيون طيلة الصيف على اختراع طوربيد خاص يمكنه أن يعمل فى المياه الضحلة..

ليست هذه هى المشكلة الوحيدة.. هناك مشكلة سمك ألواح الصلب التى تحمى المدمرات الأمريكية، لذا طور اليابانيون قنابل خاصة خارقة للدروع..

والآن تتقدم اليابان بأسطول مكون من حاملات الطائرات (أكاجى) و(هيريو) و(كاجا) و(شوكاكو) و(سوريو) و(زويكاكو).. مع 9 مدمرات ومدرعات وغواصات.. هناك على حاملات الطائرات 423 طائرة معظمها من طراز (متسوبيشى) التى اشتهرت باسم (زيرو).. تلك الطائرات المضحكة التى نراها اليوم فنشعر كأنها تطير بالزنبرك..

أسطول هائل يتقدم.. لكنه لن يصمد لحظة أمام أسطول الولايات المتحدة لو أفاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا هوت اللكمة على مؤخر عنق (ديك)..

كانت الضربة قوية إلى حد أنه هوى على ركبتيه، ومعه طن من الهيبة والغرور والكبرياء الزائدة.. رفع وجهه ليرى من هذا الذى سيبيت فى المقبرة فرأى ذلك البحار الوسيم قوي البنية..

- «(توم)؟ أنت تختصر ساعات حياتك أيها الطفل!»

هذا هو (توم) إذن؟

رفعت (عبير) عينيها لترمق وجهه فى فضول.. لا.. ليس هو (شريف).. لا يمت بصلة له على الإطلاق.. لكن هذا لا يغير حقيقة أنه أنقذها..

نهض (ديك) وهو ينفخ من منخريه كالثيران.. ثم قرر أنه سيوحى بالقوة أكثر لو رسم ابتسامة الأوغاد على شفتيه.. قال (توم):

- «إذا كنت تحاول أن تلعب دور الرجل القوى، فابحث عن رجل.. ليس هذه الفتاة الرقيقة»

ابتسم (ديك) وكور قبضتيه واتخذ وضع ملاكمة ممتازًا وقال:

- «هذا خبر طيب.. لقد وجدت الرجل!»

كانت عضلاته مكورة الآن توشك على أن تمس خده.. وعضلات صدره مشدودة متوترة كأنها قدت من صلب..

(توم) قوي البنية، لكنها تلك القوة التى تسمح له بحمل حقيبة ثقيلة، لكنها بالتأكيد لا تسمح

بشئ مع ثور آدمى غاضب مثل هذا..

الآن عادت الدائرة تلتحم.. لكنها لم تكن فى المركز هذه المرة.. كانت تقف فى محيطها تنظر فى رعب إلى المعركة القادمة.. الأغنية تصدح من جهاز الموسيقا تقول:

- «فلتنس كل شئ عن الأحزان هذه الليلة أيها الشئ الحلو.. أنا أريد أن أرقص معك حتى الصباح»

إن مرفأ اللآلئ ليس مرفأ الأحلام دائمًا كما يحلو للبعض أن يتخيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- صباح القلق..

ضربة قوية هنا.. ضربة قوية هناك.. لكمة.. مراوغة..

(ديك) قوى جدًّا يا شباب.. لكن (توم) ليس سهلًا على الإطلاق.. (ديك) غاضب كالثور، لكن (توم) متماسك هادئ الجنان.. لذا يكسب أرضًا باستمرار..

لا ركلات.. نحن فى زمن (تسديد اللكمات القوية على الفك).. يبدو أن فكاك الرجال كانت مربعة فى هذا الزمن من أجل هذا الغرض خصيصًا.. (توم) يراوغ لأنه لو تلقى لمسة لفكه من قبضة (ديك) الحديدية لأحتاج إلى فريق من جراحى العظام والأسنان البارعين..

يراوغ.. يبحث عن ثغرة.. ثم يضرب.. وضربته ليست هينة..

- «فلتنس كل شىء عن الأحزان هذه الليلة أيها الشىء الحلو.. أنا أريد أن أرقص معك حتى الصباح»

بدا أن المعركة سوف تستمر للأبد، لولا أن دوى صوت آمر:

- «توقفا!»

عرف الرجال القادم من دون أن ينظروا.. إنه من رجال الشرطة العسكرية..

كان يقف هناك متصلبًا حازمًا كالمصيبة.. وهكذا تصلب معه كل من كانوا فى الكافتيريا..

- «لا أريد تصرفات رعاع هنا.. أنتم تمثلون بحرية الولايات المتحدة الأمريكية»

هكذا تراجع المتقاتلان.. لكن (ديك) همس من بين أسنانه لخصمه:

- «أنت بطة ميتة!»

اتجه (توم) منهكًا إلى منضدة.. فهرعت (عبير) إليه.. وجذبت مقعدًا وجلست.. كانت تشعر بهذا المزيج من الرعب والفخر الذى تشعر به الأنثى عندما ترى رجلها يقاتل من أجلها، فلابد أن هذا يعود للعصور السحيقة عندما كان أقوى رجلين فى العشيرة يتصارعان حتى الموت من أجل أنثى..

- «هل أصبت؟»

- «لا.. الخنزير قوى.. هذا كل شىء»..

- «خذ الحذر.. إن ديك حقود ولا ينسى الإساءة»..

كأنها تعرف أى شىء عن (ديك) هذا.. لكن هذا ما تمليه ضرورات الموقف..

- «لا يهمنى إن كان (جوليات) نفسه.. المهم إننى رأيته يتحرش بك، ولو كنت تتصورين أننى سأراك فى هذا الوضع ثم أصمت، فأنت تسيئين الظن بى كثيرًا»

ثم أخرج علبة التبغ ودس لفافة تبغ بين شفتيه..

كانت تهيم به حبًّا.. عرفت هذا عن نفسها بسهولة.. منذ توقفت سفن الأسطول الأمريكى فى ميناء (بيرل هاربور) فى (هاواى) منذ عامين، ووقعت عيناه عليها حتى عرف كلاهما مصيره ومستقبله..

يقولون إن للبحار فتاة فى كل ميناء، ولو كان هذا صحيحًا فإن (توم) يملك الكثير من الافتتان ليوزعه على كل هذه الموانئ.. لقد منحها من الاهتمام والحنان ما تجف معه ينابيع أى واحد آخر.. لو كان يملك المزيد من الحنان فهو شخص فريد من نوعه.. هناك طاقة قصوى للحب لا يمكن أن يتعداها المرء وإلا احترقت دوائره الداخلية.. و(توم) قد أعطاها هذا القدر فلا يمكن أن يكون عنده المزيد لفتاة أخرى..

هنا سمعت من يقول:

- «أريد أن أتكلم معك على انفراد»

كان هذا هو (ديك) الذى وقف خلف (توم) وكان يتكلم بلهجة باردة لا غضب فيها ولا انكسار ولا حزن ولا أى شىء..

نهض (توم) ومشى معه مبتعدين عنها، ووقفا يتكلمان جوار صندوق الموسيقا..

لا حاجة إلى استراق السمع.. كل شىء فى نظراتهما وتعبيرات وجهيهما يدل على أنهما فارسان من القرون الوسطى يرتبان لمبارزة فى الغد.. الكاردينال (ريشيليو) يحرم المبارزة لذا سيكون علينا يا سيدى المهذب أن نتقابل بعيدًا عن عيون رجاله.. هذه هى الطريقة التى يمكن بها لسيدين شريفين من حرس الكاردينال أن يسويا خلافاتهما..

راحت يدها تعبث فى علبة التبغ من طراز (كامل Camel) التى يضعها على المنضدة..

لا تريد أن تفقد توم فى بداية المغامرة.. دعك من مهمتها العسيرة فى معرفة من هو (شريف) حقًّا.. لا يمكن أن يكون واحدًا ممن رأتهم فى المقهى حتى اللحظة.. ليس واحدًا من اليابانيين طبعًا..

ليس هو الـ ...

هنا شعرت بشىء فى علبة التبغ.. مدت يدها تعبث فيها.. هناك أوراق مقواة صغيرة جدًّا موضوعة تحت بطانة العلبة.. لا شك فى هذا.. مدت يدها تتحسس.. أبرزت طرف واحدة من هذه الأوراق..

حتى بثقافتها العسكرية المحدودة جدًّا تدرك أن هذه صور فوتوغرافية صغيرة جدًّا.. البطاقة الواحدة بطول علبة التبغ وعرضها، لكنها تحوى نحو ست صور.. والصور تظهر ميناء (بيرل هاربور) على وجه اليقين..

هناك حوالى ست بطاقات.. نحن نتكلم هنا عن 36 صورة دقيقة لميناء (بيرل هاربر).. ومتى؟ فى السادس من ديسمبر عام 1941..

هذه ليست علبة تبغ.. إنها كارثة مركزة مجمدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه صباح الأحد.. السابع من ديسمبر..

الهجمة الأولى كانت مقسمة على ستة تشكيلات يقودها جميعًا (متسو فوشيدا Fuchida)..

أقلعت الطائرات من شمال (أواهو) وكانت تتكون من 49 قاذفة و 51 قاذفة منقضة و40 قاذفة طوربيد و43 مقاتلة.. 183 طائرة تتقدم فى إصرار نحو الميناء الناعس.. عامة سوف تشمل الهجمة 353طائرة يابانية..

قاذفات الطوربيد هى التى بدأت الهجوم..

كانت الساعة السابعة وثلاثًا وخمسين دقيقة.. إنه الفجر عند اليابانيين..

الأمريكان فى (هاواى) يتناولون الإفطار..

(عبير) تركض يمينًا ويسارًا حاملة أطباق البيض المقلى واللحم وتصب القهوة.. تشعر بأنها نحلة.. لكنها كذلك قلقة لأنها فى هذه المرة تعرف موعد الهجوم.. ليس الأمر خدعة قاسية كما حدث لها يوم ضرب (هيروشيما)..

تنظر لساعتها.. معلوماتها أن الطائرات اليابانية لم تقصف أى هدف على البر.. لكن هذه هى فانتازيا حيث كل شيء ممكن..

اصطدمت بالرئيسة (كلارا).. نظرت لها وأشرق جمالها الذابل الذى ما زال يتألق تحت تجاعيدها، وقالت:

- «لا تبدين على ما يرام اليوم»..

قالت (عبير) وهى تنظر خارج النافذة..

- «فقط أتساءل.. هل يمكن أن يقصف اليابانيون (بيرل هاربر)؟»

نظرت لها فى دهشة ثم تقلص وجهها وقالت:

- «لابد أنك فى حالة معنوية سيئة.. أرجو أن تهتمى بالعمل أكثر.. إن البحارة الجائعين خطرون»

طبعًا لم يكن البحارة جميعًا يفطرون عندها.. هناك الميس والكانتين.. لكن هناك حالة عامة من التسيب والاسترخاء.. دعك من أن هذا يوم إجازة.. أمريكا كلها تتمطع وتتثاءب فى تلذذ متسائلة عما يحمله لها اليوم الجديد..

لم يكن اليوم الجديد يحمل إلا أسطولًا يابانيًا وطائرات (زيرو) انتحارية تتجه إلى هنا بالذات..

على ظهر السفن الأمريكية كان البحارة يقفون لتحية العلم.. البعض كان نائمًا..

كان قائد الفرقة الموسيقية يقود العزف عندما سمع هذه الطائرة المنخفضة عن يساره..

قال لرجاله الواقفين أمامه يعزفون السلام الوطنى:

- «حاولوا معرفة رقم هذا الطيار الذي يحلق منخفضًا.. لابد من أن أشكوه»..

لكن منظر الطائرة كان غريبًا.. ولم يصدق أحد أنها ليست أمريكية إلا عندما ألقت قنبلتها

الأولى..

هنا دوت الانفجارات.. وبدا أن أبواب الجحيم انفتحت على مرفأ اللآلئ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- نمر.. نمر.. نمر!

عبر أجهزة اللاسلكى دوت الرسالة الشهيرة التى تسمعها فى كل فيلم أمريكى تقريبًا منذ ذلك الحين:

- «هذا ليس تدريبًا This is not a drill..»..

كل شىء ليس فى مكانه.. الطائرات على الأرض متلاصقة الأجنحة.. الذخيرة فى المخازن.. البحارة ليسوا على ظهور سفنهم.. شباك الغواصات التى تحرس الميناء غير منصوبة.. المخابرات لديها 14 رسالة مشفرة لم تحل ألغازها بعد..

وعلى ظهر السفينة (وست فرجينيا) اندفع الطباخ الزنجى (دوريس ميلر) ليمسك بالمدفع المضاد للطائرات الذى لم يمسه قط من قبل، وراح يطلق النار على الطائرات اليابانية حتى أسقط منها واحدة على الأقل.. هذا بينما سفينته تتلقى سبعة طوربيدات يابانية..

الدخان يتصاعد لعنان السماء فلا ترى شيئًا.. لا أنت ولا الطائرات المهاجمة..

حاولت المدمرة (نيفادا) الفرار لكن القادة خشوا أن تغرق فتسد الميناء.. هكذا تلقت عشرات الطلقات والطوربيدات..

(أوكلاهوما) تلقت أربعة طوربيدات.. وتكفل الوقود المتحرك الذى غطى صفحة الماء بأن يحيل البحر إلى واحد من بحار (هيدز).. كان الرجال يسقطون فى الوقود المشتعل صارخين.. غريب هو الموت الذى يجمع بين الحريق والغرق لكنه يحدث..

فى هذا الوقت كانت هناك عملية هجوم منظمة على المطارات.. الطائرات الناعسة فى صباح الأحد فى شمس الشتاء.. الطائرات متلاصقة الأجنحة التى وضعت فى هذا التشكيل منعًا للتخريب..

لقد تم تدمير ال 188 طائرة التى تملكها أمريكا فى (بيرل هاربور).. أغلبها دمر على الأرض أما التعساء الذين حلقوا فقد تكفلت بهم النيران الصديقة.. كانت هناك نيران صديقة فى هذا الزمن أيضًا..

الطيار اليابانى الذى كان يفاجأ باحتراق طائرته، كان يندفع بها نحو هدف أمريكى..

استمرت الهجمة تسعين دقيقة..

فقط لينقشع الدخان عن جثث 2400 جندى أمريكى وألف جريح وثمانية عشرة سفينة أمريكية غارقة.. أكثر من ماتوا من أمريكيين لقوا حتفهم فوق ظهر المدمرة (أريزونا).. لكن الغرق النهائى لها كان بقنبلة ألقاها طيار يدعى (كوزومى)..

اليابانيون أيضًا خسروا.. لقد هلك 55 طيارًا.. وغرقت تسع من غواصاتهم..

أين حاملات الطائرات الأمريكية؟

يبحث عنها اليابانيون فى لهفة.. تحلق طائراتهم هنا وهناك وهى تئز كالبعوض..

كانت (إنتربرايز) عائدة من مهمة فى المحيط الهادى.. و(لكسنجتون) كانت قرب جزيرة (ميدواى).. و(ساراتوجا) كانت تجرى إصلاحات فى (سان دييجو)..

هذا هو دور الحظ فى اللعبة.. لو غرقت هذه الحاملات الثلاث لكانت الضربة قاصمة للولايات المتحدة فعلًا..

وعبر اللاسلكى دوت إشارة الشفرة اليابانية التى تؤكد أن المفاجأة كانت كاملة:

- «تورا تورا تورا!»

ومعناها «نمر.. نمر.. نمر!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الكافتيريا بلغت الفوضى ذروتها..

موجات الانفجار القادمة من الخارج قلبت الموائد وأطارت الأطباق، حتى ليحسب من هو غير ذى خبرة عسكرية أنها تقصف.. البحارة يركضون إلى سفنهم.. وصفارات الإنذار تدوى.. كل شىء يهتز والغبار يتساقط من السقف..

و(عبير) و(كلارا) انزلقتا تحت منضدة من مناضد الطعام وغطت كل واحدة رأسها على طريقة النعام.. كأن المرء لا يموت إلا إذا جرح رأسه..

قالت (كلارا) وهى ترتجف:

- «أنت تملكين حاسة سادسة فعلًا.. ما الذى جعلك تتوقعين هذا؟»

تمنت (عبير) أن تشرح لها أنها رأت فيلم (تورا تورا تورا) الشهير، وبعده رأت (بيرل هاربور)، لكنها لا تستطيع.. لذا قالت:

- «إنه مجرد إحـ ...»

بوم!

دوى الانفجار فأضاع التفسير.. وخرجت من مكانها إلى النافذة لترى الجحيم ذاته.. الميناء الجميل تحول إلى شعلة نيران بينما تتصاعد سحابة سوداء كثيفة إلى عنان السماء، وطائرات (زيرو) تئز كالبعوض مصاص الدماء باحثة عن شخص تلدغه.. الرصاص (الفيكرز) يتطاير حتى أن بعضه تناثر داخل الكافتيريا..

سيارات إسعاف.. السفن تطلق سرينتها الغريبة المولولة..

إنه الجحيم.. فى مكان ما منه يوجد (توم) ومعه سر لابد من أن يجيب عنه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طالب بعض الضباط (ناجومو) بأن يهجم بموجة ثالثة لتدمير مخازن الوقود، والحقيقة أن هذه الضربة الثالثة كانت ستحقق الكثير لكن (ناجومو) فضل الانسحاب فورًا.. لقد لاحظ أن الدفاع الجوى الأمريكى يزداد قوة.. معظم خسائر الطيران اليابانى حدثت فى الموجة الثانية.. لقد تنبه

الأمريكان ومعنى هذا أن الأمر يزداد خطورة..

دعك من أنهم سيجدون مصدر الهجوم عاجلًا أم آجلًا و(ناجومو) تنتظره معارك طويلة فليس بوسعه أن يجازف بحاملات طائراته من أجل هدف تم تحقيقه فعلًا.. السبب الأهم هو أن الموجة الثالثة تعنى عودة الطائرات لحاملاتها ليلًا.. ولم تكن هناك فى عام 1941 أية تقنية مضمونة للرؤية الليلية أو لتسهيل هبوط الطائرات فى الظلام..

حاملات الطائرات كانت على بعد مائتى ميل شمالى (هاواى) وقد فشل الأمريكان فعلًا فى تحديد المصدر الذي جاءوا منه..

والحقيقة أن حرب المحيط الهادئ بدأت بما يفوق هذا المشهد الشنيع ذاته.. قبل الهجوم بتسعين دقيقة كانت اليابان قد بدأت غزو الملايو وهاجمت (هونج كونج).. وتلا (بيرل هاربر) الهجوم على الفليبين وتايلاند..

وعلى المستوى الدبلوماسي مارست اليابان سياسة (الاستعباط) الكاملة - وأعتذر عن اللفظة لكنها معبرة جدًّا - بأن أرسلت إعلانها الحرب على أمريكا بعد الهجوم بأربع وعشرين ساعة.. وقد نقل الرسالة موظف بائس على دراجة هوائية استغرق عدة قرون حتى يوصل رسالته..

كان فشل الاستخبارات كاملًا برغم أنها استطاعت فك الشفرة القرمزية اليابانية وتوقعت عملًا معاديًا ضد (بيرل هاربر).. لكن الاستجابة كانت بطيئة جدًّا، تذكرنا بإشارة (عنب عنب عنب) الشهيرة عندنا التى أرسلها الشهيد (عبد المنعم رياض) من (عجلون) فى ساعة مبكرة من صباح 5 يونيو عام 1967، ولم يهتم بها أحد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- شكوك..

يرشف (توم) القهوة فى صمت.. ويمسح جبينه..

كانت الضمادات تملأ جبهته.. يبدو أن تلك النافذة تطايرت فى وجهه من جراء موجة انفجار، لكنه فيما عدا ذلك سليم تمامًا..

جلست أمامه على المنضدة وسط قطع الخشب وشظايا الزجاج الموجودة فى كل مكان تقريبًا..

لم يتسع الوقت لتنظيف شيء، لكن الكافتيريا كانت تلخص حال أمريكا الغاضبة الجريحة.. على الجدار تمزق ملصق (العم سام) وهو يشير لنا قائلًا: «أنا أريدك»، لكن هناك ملصقًا جديدًا يظهر العم (سام) مشمرًا عن ساعديه ويلوح مهددًا: «انتقموا لبيرل هابور».. متى استطاعوا رسم وطبع هذا الملصق؟ الله وحده يعلم..

قالت ل. (توم) وهى تمسد على شعره الأشقر المتهدِّل فوق الضمادات:

- «كان هذا عسيرًا؟»

نظر لها فى حيرة ثم أشعل لفافة تبغ.. ثم قال وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان:

- «الرئيس (إيزنهاور) أعلن الحرب على اليابان.. هل سمعت الخبر؟»

هزت رأسها أن نعم.. لم يلحظ اختفاء علبة تبغه السابقة كما هو واضح.. الحمد لله! عادت تسأله:

- « ماذا عن (ديك)؟ »

ابتسم فى حزن وغمغم:

- «لن أواجهه أبدًا لسبب بسيط.. إنه الآن فى أعماق المحيط..»

- «أوه!»

وشعرت بالذنب.. مهما كرهنا خصومنا فنحن بحاجة لدرجة عبقرية من المقت كى نتمنى أن نراهم جثثًا تلتهمها أسماك القرش..

لقد اختفت وجوه كثيرة.. سوف يستغرق الأمر دهرًا حتى تعرف من مات ومن فقد، ومن هو ببساطة يمارس عمله على ظهر إحدى القطع البحرية الناجية..

قال لها وهو يضغط بأسنانه على لفافة التبغ كعادة الرجال فى ذلك الوقت:

- «كان هذا كابوسًا.. أتمنى لو وجدت جهازًا يمنحنى القدرة على النوم بلا كوابيس.. ربما أريد جهازًا يمنحنى أحلامًا جميلة..»

نظرت له للحظة.. هل هذه هى العلامة؟ لا تعرف ولا تجرؤ على أن تسأله ببساطة: هل أنت (شريف)؟ شىء فى أعماقها يقول لها إنه ليس هو.. لكن ماذا لو كانت مخطئة؟

فى هذه اللحظة رأتهم..

خمسة من رجال الشرطة العسكرية يدخلون الكافتيريا.. يقفون وراء (توم).. يتقدم أحدهم وهو رجل قوى البنيان له ملامح صارمة، فيقول له:

- «المجند (توماس واينبرجر)؟»

نهض (توم) مذعورًا ونظر إلى القادمين، فقال الرجل:

- «لدينا أوامر باعتقالك.. أرجو أن ترحل معنا بهدوء..»

- «هل لى أن أعرف السبب؟»

تبادل الرجال النظرات، ثم قال الرجل الذى يبدو أنه رئيس هذه المجموعة:

- «لا يمكن شرح التفاصيل هنا.. فقط أقول لك إنك متهم بخيانة الولايات المتحدة الأمريكية»

شحب وجه (توم).. بالله عليك يجب أن تصاب بهستيريا وتنهار.. اصرخ واشتمهم! لا داعى لهذا الصمت.. لا داعى لهذا الاستسلام كفأر وقع فى المصيدة..

الآن فقط أعرف أنك مذنب وأننى محقة فى شكوكى.. لا يهمنى مجرى التحقيقات، فقد أجريت تحقيقاتى الخاصة وعرفت الجواب..

أنت مذنب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنس كيف اتجهت فى مساء الاثنين إلى المخابرات العسكرية.. كان الصخب هناك شديدًا والفوضى ضاربة أطنابها.. الكثير من الرءوس سوف تطير إثر التحقيقات لمعرفة من المهمل ومن المتسيب ومن المتسبب فى هذه الكارثة..

لهذا أصيبت المخابرات بالهستيريا.. راحت تعتقل بالجملة، وبالطبع كان حظ اليابانيين المقيمين فى الولايات المتحدة هو الأكثر فسادًا.. لقد عوملوا كأعداء متربصين بالأمة، واعتدوا عليهم علنًا.. كما وضعوا جميعًا تحت المراقبة.. وانتشرت الإشاعات.. ذات المناخ الهستيرى الذى ساد بعد الحادى عشر من سبتمبر بعد ستين عامًا، مع استبدال المسلمين باليابانيين هذه المرة..

هناك جلست.. ولم يكن هناك الكثير لتقوله..

فقط أخرجت علبة التبغ بما فيها من صور.. اتسعت عينا الضابط الذى يسمع لها وتفحص الصور، ثم دق جرسًا يطلب اثنين من معاونيه.. والتف الجميع حول هذه الكارثة..

قالت لهم إن (توماس واينبرجر) هو صاحب علبة التبغ.. (توماس) هو من اختفى وقت الهجوم، واتضح أنه متوار فى حانة بعيدة عن الميناء فلم يلحق بسفينته (وست فرجينيا).. كأنه كان يعرف موعد الهجوم بالضبط..

هنا مال عليها الضابط وسألها فى حذر:

- «وهو حبيبك.. أليس كذلك؟»

نظرت له فى حيرة، ثم قالت:

- «بلى.. لكن هذا لا يجعل كلامى غير ذى قيمة.. ربما أحببته لكنى أحببت وطنى أكثر.. ربما أكره أن أخونه لكنى أكره خيانته للوطن أكثر..»

قال لها:

- «إن الأمر خطير.. هناك عدة جواسيس لليابانيين فى هذا المرفأ.. حبيبك سوف يحاكم أمام المحاكم العسكرية، ولو أدين فلسوف يعدم رميًا بالرصاص.. ثمن الخيانة فى وقت الحرب باهظ جدًّا»

- «أعرف هذا..»

قالتها وابتلعت ريقها.. وفجأة انهار حاجز التماسك وراحت يدها ترتجف بلا انقطاع.. ثم أجهشت بالبكاء.. لم يتحرك الضابط بل ظل يرمقها ثابتًا بلا كلمة.. لم يعد هناك وقت للحنان ولا الاهتمام بالفتيات الباكيات.. لقد انفتحت أبواب الجحيم ولن تُغلق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غريب هذا الشعور! الخليط من شعورك بأنك بطل قومى، وأنك خائن مثل (يهوذا)..

بالنسبة للولايات المتحدة أنت بطلة.. بالنسبة لحبيبك أنت خائنة قاسية تلاعبت به.. كيف وجدت الأعصاب لتجلسى معه وتسأليه عن حاله بينما أنت تعرفين أن رجال الشرطة العسكرية يحاصرون الكافتيريا؟

لقد أسلمته لهم.. أسلمته لجلاديه.. وأنت تعرفين أنه لن ينجو..

لكن.. فكرى فى كل الجثث الأمريكية التى التهمتها أسماك القرش.. الموت هو الموت حتى لو كنت فى عالم الواقع لا تحملين استلطافًا كبيرًا للولايات المتحدة.. الخيانة هى الخيانة.. و(توم) كان أمريكيًّا.. لو كان يابانيًّا لحملت له الكثير من الاحترام..

ستكون كارثة حقيقية لو اتضح كذلك أن هذا البائس هو (شريف).. لا توجد طريقة لإطلاق سراحه الآن..

كانت تفكر فى هذا كله وهى تفتح باب شقتها..

شقة ضيقة جدًّا.. نظيفة.. تعيش فيها وحدها لأنها لا تطيق فكرة فتاة تشاركها كل شىء..

النافذة مفتوحة تهب منها رائحة البحر.. تقف فى النافذة وسط الستائر المتطايرة تنظر إلى الشارع، الذى يمشى فيه بحارة أمريكيون ومواطنون من (هاواى)..

لن تتمكن من النوم.. سوف تبتلع قرصًا من (الفاليوم) وتحاول.. قرصين.. ربما أكثر..

عشاء؟ لا.. لا تطيق فكرة أن يمس الطعام معدتها..

دعت الله ألا تستدعى ضرورات التحقيق أن تواجه (توم) ثانية.. أن يجلسوها أمامه لتقول ما

تعرفه.. أن تنظر فى عينيه..

لقد قاتل فى الكافتيريا من أجلها.. قاتل ببسالة..

دعت الله كذلك أن يصدقوا وعدهم وألا ترد سيرتها فى التحقيق.. كيف عرفتم هذا كله؟ إن لنا مصادرنا أيها البحار (واينبرجر).. لدينا مصادرنا..

كان هناك صوت خدوش..

من أين تأتى؟

بحثت حولها وهى تستبعد أن تكون الشقة مسكونة.. من الصعب أن يجتمع (بيرل هاربر) والأشباح فى قصة واحدة..

ثم سمعت المواء..

إنه القط.. قطها الرومى الصغير الذى رأته مرتين منذ بدأت هذه القصة.. إنه هنا.. لكن أين؟

راحت تقتفى أثر الخدوش.. نعم.. هنا.. إنه آت من خلف هذا الجدار الخشبى.. لكن كيف؟ هذا مجرد جدار..

إنه حبيس.. هذا مؤكد..

راحت تفتش بعناية فى الجدار فوجدت مقبضًا مخفيًّا.. ضغطت عليه وهنا حدثت المعجزة..

وثب القط من الداخل ليمسح جسده الناعم المخملى فى ساقها فشعرت برجفة.. أما ما رأته بالداخل فكان عجبًا.. غرفة كاملة كانت متوارية.. يبدو أن صاحب الشقة أضاف هذا الجدار الخشبى ليصنع غرفة صغيرة خفية، وقد أدى هذا لانكماش بسيط فى طول الغرفة الأصلية..

هناك منضدة.. هناك جهاز لاسلكى عملاق عتيق الطراز.. ذلك الزمن الذى كانت كل الأجهزة الإلكترونية تعمل فيه بصمامات.. هناك أوراق.. هناك كاميرا صغيرة.. هناك مظاريف تحمل عنوانًا فى بلجيكا..

ما معنى هذا؟ هل (توم) كان يأتى هنا؟

دنت من الأوراق وتفحصتها.. كانت هناك رسائل بالشفرة.. لكنها رأت كتاب الترجمة الذى يحوى المفتاح ورأت عبارات بالقلم الرصاص بخطها على ورقة صغيرة:

- «مينرفا.. تحددت الساعة (0) لتكون صباح الأحد السابع من ديسمبر.. نريد صورًا حديثة للميناء قبل وبعد الهجمات.. يتم إبلاغ (أرجوس)»

هناك علب تبغ فارغة.. علب من الطراز الذى يستعمله (توم)..

سقطت على ركبتيها غير مصدقة..

إذن هى (منيرفا).. رئيس هذه الشبكة! و(توم) ليس إلا العميل (أرجوس).. لقد ترك علبة تبغه معها عمدًا لأنها كانت تحوى صور الميناء!

من هذه الغرفة كانت رسائل شفرية ترسل إلى اليابانيين، وهنا كان يتم تصوير ما يلتقطه (توم)

على شكل (ميكروفيلم) يرسل فى خطابات إلى عنوان ما فى (بلجيكا)..

لا تعرف حجم الاستخبارات اليابانية فى الميناء، لكن من الواضح أن هذه الغرفة كانت مصدرًا مهمًّا للمذبحة التى حدثت يوم الأحد..

وهى أبلغت عن عميلها! أبلغت عن (توم) ويعلم الله وحده متى يتكلم..

سوف يرغمونه على الكلام.. لا مفر من هذا..

عندها سيتذكرون أشياء تتعلق بها.. ستقول (كلارا) إن (جانيس) تنبأت بالهجوم قبل حدوثه بدقائق.. ستقول إن (جانيس) كانت قلقة لا تكف عن النظر إلى ساعتها..

هذا هو المقلب الذى أعدته لها (فانتازيا)..

فجأة هى رئيس شبكة الجاسوسية الذى لا يعرف عن الجاسوسية حرفًا..

إنها...

وهنا دوت الضربات العنيفة على الباب فأفلت قلبها ضربتين..

ومن الخارج سمعت صوتًا آمرًا يقول:

- «مخابرات عسكرية! افتحى باسم جيش الولايات المتحدة!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- معركة أخرى..

كانت متجهة إلى الباب لتفتحه..

هنا شعرت بمن يجذبها من كمها.. هل (توم) هنا؟ أم أن رجال المخابرات قد دخلوا؟ أم..

لكنها كانت تعرف هذه اللمسة.. لمسة المرشد.. لذا التفتت له صارخة:

- «أنت أيها المخبول! هل تتصور أن أكون جاسوسة وأن تكون وسائل الاتص....»

قال فى هدوئه الأسطورى المعتاد:

- «خطأ تعتذر عنه إدارة فانتازيا.. كان المقصود أن تكون قصة اليوم كلها فى (بيرل هاربر)، لكن يبدو لى أنك لم توفقى لمعرفة (شريف) لذا سأختصر الأحداث.. أعتقد أن بيرل هاربر ليست هى المعركة المقصودة..»

قالت فى عدم فهم بينما القرعات توشك على انتزاع الباب:

- «لا أفهم..»

- «(شريف) وسط بحارة أسطول يوشك على تلقى ضربة مروعة.. هذا ما عرفته.. هكذا افترضت أنها (بيرل هاربر).. يبدو أننا نتكلم عن أسطول آخر..»

- «وهذه المغامرة؟»

نظر للباب الذى بدأ يتداعى بوقع الضربات وقال:

- «لا شىء.. تحقيقات.. ضغط نفسى عليك ثم الإعدام باعتبارك رئيس الشبكة التى سربت لليابانيين كل شىء عن الميناء.. لا يبدو لى هذا السيناريو شائقًا جدًّا.. فلنجرب شيئًا آخر»

وأمسك بيدها.. وفى اللحظة التالية لم تعد موجودة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يومنا فى إكتيوما.. ذكره فى الأرض سار

اسألوا أسطول روما.. هل أذقناه الدمار؟

أحرز الأسطول نصرًا.. هز أعطاف الديار

شرفًا أسطول مصرا.. حزت غايات الفخار

صارت الإسكندرية.. هى فى البحر المنار

ولها تاج البرية.. ولها عرش البحار

(أحمد شوقي بك)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هى الآن تقف على ظهر سفينة عملاقة أقرب إلى بارجة..

للمرة الأولى فى قصة تدور فى الأسطول تجد (عبير) نفسها على ظهر سفينة!

لكنها ليست سفينة معاصرة.. إنها سفينة عتيقة.. أكثر قدمًا من سفن الأرمادا الأسبانية وسفن كولومبوس.. أقدم من هذا بكثير، لكنها برغم هذا أجمل بكثير.. تحفة فنية تصارع الأمواج فتعلو مقدمتها ثم تهبط..

تنظر (عبير) لقدميها فتدرك أنها تلبس ثيابًا هفهافة وصندلًا عليه زهرة اللوتس.. ما معنى هذا؟ ثيابها أقرب لثياب العازفات الفرعونيات الثلاث فى اللوحة الجنائزية الشهيرة.. بعبارة أخرى لم تكن ترتدى شيئًا تقريبًا..

ثمة شىء فى هذا الجو يذكرها بمغامرة سابقة.. نعم.. قصتها مع (رمسيس الثانى).. أشك فى أن هذا هو عالم مصر القديمة..

غريب جدًّا هذا العالم.. كل شىء متناسق مع الآخر كأنهم جميعًا يعملون لغرض واحد، هو أن يكون كل شىء ذا طابع فرعونى.. المجاديف التى تخرج من جانبى السفينة.. شكل الخشب.. شكل الشراع.. ثياب البحارة.. حتى الطيور التي فى الجو ذات طابع فرعونى.. لولا ما فى ذلك من مبالغة لحرص كل واحد على ألا يراه الآخرون إلا من منظور (البروفيل)..

لكن البحر نفسه لا يمت للفراعنة بصلة.. إنه بحر ذو طابع رومانى أو يونانى لا شك فى هذا..

لا تعرف ما هو الطابع الرومانى، لكنها واجهت الرومان كثيرًا جدًّا حتى صارت تشمهم من بعيد.. هذه العملاقة فى الأفق سفن رومانية بلا أدنى شك.. وهى لا تصطف فى المواجهة بل هى تتحرك مع سفينتها كأنهم حلفاء..

سفينة مصرية وسفن رومانية تتجه لنفس الغرض.. ما معنى هذا؟ هل حدث تحالف تاريخى بهذا المعنى من قبل؟

المهم أن معدتها مقلوبة تمامًا وأنها توشك على إفراغها.. هذا الموج.. هذا الموج اللعين يوشك على أن.... منذ متى كان لون العالم أخضر؟

دنت منها فتاة من العازفات الثلاث لتقول لها:

- «(شرميون).. الملكة تريدك!»

ملكة؟ (شرميون)؟ من هى؟ وجف قلبها لدى سماع لفظة ملكة، ثم نظرت إلى الفتاة السوداء وبرغم هذا بارعة الحسن.. معنى هذا أنهما وصيفتان أو جاريتان لدى ملكة..

مدت الفتاة يدها الدقيقة فمشت معها متجهتين لقاء السفينة..

فى هذه اللحظة برز لها فتى أسمر من طراز (العشاق) الذين تراهم فى القصص.. أسمر دقيق الملامح حزين يبدو عليه التصميم والصدق.. إنهم ينتجونهم بالجملة فى هذه القصص بينما لا تقابل الفتاة واحدًا فى عالم الواقع وحتى تموت..

قال لها الفتى فى لهفة:

- «(شرميون).. لا تخرجي لظهر السفينة أبدًا إذا تم الالتحام..»

وراح صدره يعلو ويهبط متوقعًا أن تقول تعليقًا أو ترتمى فى أحضانه، لكنها قالت له آخر شىء يمكن أن يخطر بخياله:

- «هل أنت (شريف)؟»

بدا عليه الذهول وارتجت الكلمات فى حلقه، لكن الفتاة الرقيقة جرتها من يدها إلى قاع السفينة قبل أن يجد إجابة.. بالتأكيد لم يكن ليجيب ب. (نعم)..

ما إن هبطت بضع درجات حتى احتبس الكلام فى حلقها.. لم يكن هذا قاع سفينة مما نراه فى الأفلام يعج بالفئران وبراميل الماء والأطعمة.. لا.. هذا مخدع كامل لملكة.. طاووس.. أكثر من واحد.. جوار يحملن مراوح.. عبيد سود عمالقة لا يفعلون شيئًا إلا أن يبدوا مرعبين.. طنافس.. أطباق فاكهة.. أطباق طعام.. دوارق شراب.. فتاة تضرب على أوتار الهارب.. كل هذا فى جو فرعونى ساحر شبه مخدر..

وسط هذا كله كانت الملكة ترقد على حشية لا تبدو مريحة جدًّا.. كل هاته الملكات يعشن حياتهن متكئات على ساعدهن الأيسر وفى وضع أفقى.. لابد أنهن كن يعانين تنميلًا مروعًا فى تلك السواعد.. جوارها سلة مليئة بالتين تغطيها بقطعة قماش صغيرة..

الملكة امرأة.. هذا واضح طبعًا.. فى منتصف العمر تضع طنًا من الأصباغ، مع زينة ملكات فرعونية كاملة.. لكنك تري وسط هذا كله بقايا من جمال لم يذبل بعد.. ربما بعد حين..

لها أنف طويل جميل.. ثمة أنوف لا تنتمى لعالم الدقة لكنها تعطى الوجه فتنة لا شك فيها..

أنف؟ ملكة فرعونية؟.. (شرميون)؟

لقد اتضح كل شىء..

إنها تقف الآن أمام (كليوباترا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الالتحام..

تساءلت (كليوباترا) بصوت رقيق وبلكنة شبه أجنبية:

- «(شرميون) يا حبيبتى.. تعالى وأخبرينى ما رأيت على ظهر المركب.. هل ظهر (أوكتافيوس)؟»

نظرت (عبير) إلى السلة فى رعب.. كل واحد على ظهر الأرض يعرف اليوم أن ثعبان الكوبرا الذى انتحرت به كليوباترا موجود هنا وسط التين.. كانت تحمل معها طريقة انتحارها كمخرج سرى أخير للفرار فى حالة إذا ما ساءت الأمور..

لم تكن (عبير) تملك أية خبرة عسكرية ولا علم لها بالقصة، لكنها قالت:

- «لم يظهر (أوكتافيوس) بعد يا مولاتى»

وانحنت انحناءة عظيمة جدًّا.. لكنها قدرت أن جو المخدع حميم جدًّا.. جو صديقات يتسامرن وليس جو ملكة وجواريها..

قالت (كليوباترا) فى قلق:

- «إن الوقت يمر.. عسى ألا يكون هذا كمينًا.. أرجو أن يأخذ اللورد (أنطونيو) حذره»

ثم أشارت لها برأسها إشارة أنيقة بمعنى أن بوسعها أن تنصرف..

لم يفتها فى طريقها للخارج أن ترى تقويمًا معلقًا على الجدار كتب عليه (2 سبتمبر عام 31 قبل الميلاد).. هذه من لمسات فانتازيا المعتادة.. كيف عرف من عاشوا قبل الميلاد أنهم كذلك؟ لو نزعت الورقة لوجدت أن تاريخ الغد هو 1 سبتمبر.. نحن نتحرك بالمقلوب كما تعلم..

على سطح السفينة بينما الموج يقذف السفينة إلى عنان السماء ثم يهوى بها فى حفرة بلا قرار.. مرة فمرة.. هو ذا دوار البحر يعود من جديد.. سوف تفرغ معدتها بلا هوادة..

دنت منها جارية أخرى لها ملامح أوروبية لا تخطئها العين.. ووقفت جوارها متمسكتين بحاجز السفينة.. تنظران من أعلى إلى المجاديف.. عشرات منها على الجانبين يحركها آلاف العبيد الجالسين فى القاع..

قالت الجارية:

- «لن تغرب شمس هذا اليوم من دون الالتحام..»

- «هذا صحيح..»

ليتها تفهم شيئًا.. كل هذا ليس عادلًا.. لذا قررت أن طريقة تتبع أطراف الأخبار لن تجدى هنا.. لابد من السؤال المباشر..

- «لماذا يريد (أوكتافيوس) محاربة كليوباترا؟»

نظرت لها الجارية فى دهشة لبعض الوقت.. هذه أشياء انتهى زمن مناقشتها فلماذا نعاود شرحها

من جديد؟ قالت فى صبر:

- «الموضوع ببساطة هو ثأر شخصى.. إن زوجة (أنطونيو) Antony هى أخت (أوكتافيوس) Octavian ربيب (يوليوس قيصر).. هناك إهانة لا بأس بها فى الموضوع أن يتخلى (أنطونيو) عن زوجته من أجل ملكة مصر.. أنت تعرفين أن (أنطونيو) وقع فى حبائلها.. لم يستطع أن يقاوم سحرها عندما جاءته فى (سوريا).. كان يعتقد أنه أقوى من ذلك، وأنه لن يقع فى الشرك الذى وقع فيه (يوليوس قيصر)..»

- «وهل خرج (أوكتافيوس) للحرب من أجل شرف أخته؟»

- «طبعًا لا.. لقد أشعل روما حماسة ضد (أنطونيو).. قال إن (أنطونيو) العظيم قد أهدر كرامة روما من أجل غانية مصرية.. والأسوأ أن (أنطونيو) راح ينادى بأن (قيصرون) ابن (كليوباترا) هو الوريث الشرعى ليوليوس قيصر.. معنى هذا أن يحكم روما رجل نصفه مصرى.. هذا كان كافيًا كى يجرد مجلس الشيوخ أسطول الجمهورية.. والهدف القضاء على أنطونيو واحتلال مصر»

قالت (عبير) فى حيرة:

- «وهل يملك (أنطونيو) خبرة بالمعارك البحرية؟»

- «ولا (أوكتافيوس) وحياتك.. لكن هذا الأخير يستعين بقائد بارع فى المعارك البحرية هو (أجريبا) Agrippa بينما يعتمد (أنطونيو) على الجهود الذاتية..»

- «وماذا عن سفينة كليوباترا؟»

- «ليست سفينة بل هى أسطول مصرى كامل جاء لمعاونة (أنطونيو) فى حربه على بلاده.. لكن الملكة تفضل أن تبقى على مسافة معينة وتراقب مجريات الأمور»

هذا وضع (عبير) فى الصورة مؤقتًا.. وقررت أن تراقب بدورها..

إن هذه الحرب لا تعنيها فى شىء.. لكنها مهتمة بأن تجد (شريف)..

لكن هل هى مهمة سهلة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم اللقاء بين الأسطولين عند مستعمرة (أكتيوما) Actium الرومانية على سواحل اليونان ولذا اتخذت نفس الاسم.. لماذا يسمونها (اكتيوما) وليس (اكتيوم)؟ هذا مزاج المترجمين العرب الذين أصروا على أن تكون (بريتين) (بريطانيا) وأن تصير (نيوزيلاند) (نيوزيلاندا).. نفس الأسباب التي تجعل الغربيين يستعملون لفظة Egypt ولا يستعملون (مصر).. لماذا يحولون (هلفتيا) إلى (سويسرا) و(سوومى) إلى (فنلندا)؟

على كل حال سأخرس قليلًا حتى أتيح لك متابعة أحداث المعركة..

تذكر أن هذه الحرب وقعت قبل ألفى عام.. لا مدفعية ولا طوربيدات.. فقط السهام المشتعلة والتقنية المتطورة: أن تقتحم سفينة خصمك لتقلبها.. ثم الالتحام والقتال بالسيوف والرماح..

أسطول أنطونيو يتكون من 220 سفينة.. ومعظم سفنه ثقيلة ضخمة مدرعة بصفائح البرونز

لجعل اقتحامها صعبًا.. لكن هذا فى الوقت ذاته جعل السفن ثقيلة الحركة.. إن الدبابة هى أبطأ شىء فى ميدان القتال.. وما تكسبه من المناعة تفقده فى خفة الحركة..

يحاول انطونيو أن يسد على أسطول أوكتافيوس الطريق من الجنوب.. ثم يحاول ممارسة التقنية التى وجدها جيدة.. أن يقتحم السفن بمقدمات سفنه..

يقف على ظهر سفينته صارخًا:

- «لماذا لا يندفع هؤلاء الحمقى أسرع من هذا؟»

يقول مساعده الخائف:

- «معظم المجدفين قد هلكوا بالملاريا يا سيدي.. إن أعداد من يحركون السفن قليلة»

حتى من موضعها أدركت (عبير) المشكلة..

هرعت إلى الملكة (كليوباترا) التى تنتظر الأخبار فى مخدعها الفاخر بقاع السفينة، وقالت:

- «فى الحقيقة يا مولاتى.. سفن (أكتافيوس) أخف وأكثر رشاقة.. إنها تراوغ كالثعالب»

تنهدت الملكة وقضمت تفاحة.. لكنها نسيت أن تبتلعها من فرط التوتر لذا ألقتها جانبا وقالت:

- «أوف! اعزفى لى لحنًا يريح الأعصاب يا (شرميون)»

هكذا اتجهت (عبير) إلى الهارب.. لم تكن تعرف كيف تضرب وترًا واحدًا، لكن - كما يحدث فى فانتازيا - بدأ النغم يتصاعد راقيًا حالمًا..

ترى ماذا يحدث لهم عندما ينتهى (أنطونيو)؟

هذا مقلق.. من الخير أن ينتصر ذلك الأحمق..

وعلى السطح كانت سفن (أوكتافيوس) تقترب من سفن (أنطونيو).. تلتحم بها ثم تطلق عليها سيلًا من السهام المشتعلة والقذائف من المنجنيق.. بهذا كانوا يقضون على كل بحار على السطح..

ما أفظع الحرب الأهلية! أن يقتل المرء أخاه والجار جاره.. كلهم رومان.. لكن الغضب قد استبد بالعقول والقلوب..

ومن بعيد تحول الأفق إلى شعلة نار..

إن معركة (إكتيوما) فى ذروتها الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- النصر الزائف..

بعد ساعات بدا بوضوح أن الحرب لا تسير فى الاتجاه الذى أرادته (كليوباترا).. سفن (أنطونيو) تحترق وتغرق..

انتقام (أوكتافيوس) الرهيب يتحقق..

هنا فقط نهضت (كليوباترا) وكانت (عبير) تحسبها مشلولة القدمين.. نهضت متجهة إلى السطح حيث كان البحارة المذعورون يراقبون المعركة فى الأفق.. بصراحة لا أعرف كيف تصلهم النتائج فى هذا الزمن حيث لا يوجد اتصال لاسلكى ولا نظارات مقربة ولا تلسكوب ولا صور من القمر الصناعى..

ازداد ذعر البحارة حينما فطنوا إلى أن الملكة تقف وسطهم..

قالت وهى ترمق الأفق:

- «(أجريبا) بارع بحق..»

ثم قالت لقوادها الذين التفوا حولها:

- «أديروا الدفة! نحن عائدون إلى الإسكندرية!»

نظرت لها (عبير) فى ذهول.. هل تتخلى عن (أنطونيو) بهذه البساطة؟ لكن (كليوباترا) كانت ملكة وكانت ترى المشهد من منظور أوسع من منظور الحب الضيق.. إن هذا النصر يعني أن (مصر) صارت مستعمرة رومانية..

يجب أن تعود إلى (مصر) وترى ما يمكن عمله.. إن (أنطونيو) يستطيع العناية بنفسه..

هكذا - فى أشهر حركة نذلة عرفها التاريخ - استدارت سفن (كليوباترا) مبتعدة.. الواقع أن التاريخ لم يكن منصفًا جدًّا.. كما قلنا كانت لدى الملكة مهام أضخم من الموت مع حبيبها..

سألتها (عبير) عن هذا الذى فعلته، فقالت:

- «كنت فى مركبى وبين جنودى.. أزن الحرب والأمور بفكرى.. قلت روما تصدعت فترى شطرًا من القوم فى عداوة شطر.. وتبينت أن روما إذا زالت عن البحر.. لم يسد فيه غيرى.. كنت فى عاصف.. سللت شراعى.. فانسلت البوارج إثرى.. علم الله أنى خذلت حبيبى.. وأبا صبيتى وهو عونى وذخرى.. والذى ضيع العروش وضحى.. فى سبيلى بألف قطر وقطر..»

رآها (أنطونيو) وهو وسط القتال..

رآها (أنطونيو) تتخلى عنه..

وفى هذه اللحظة بالذات أدرك أنه خسر المعركة وأن افتقاره للخبرة البحرية كان خطأ فادحًا..

لهذا أمر بتجهيز قارب صغير له ولرجاله من الخاصة.. وسرعان ما كان يثب فى القارب.. وسرعان ما كان يبتعد تاركًا الرومان من رجاله ملتحمين فى المعركة الخاسرة.. يبدو أن هذه ثانية أشهر

حركة نذلة فى التاريخ..

لقد انتهت معركة أكتيوما..

معركة صغيرة قصيرة لكن لها نتائج جمة..

لقد سقطت (مصر) فى قبضة الرومان.. هكذا انتهى عصر البطالمة.. لن يخرج الرومان من (مصر) إلا بيد (عمرو بن العاص)..

أطلق (أوكتافيوس) على نفسه لقب (برنسبس أوجستس) توطئة لأن يمنح نفسه لقب إمبراطور، وبهذا انتهى عصر الجمهورية الرومانية وصار (أوكتافيوس) أول إمبراطور فى تاريخ روما..

وفى (مصر) أعلنت (كليوباترا) أن قواتها المشتركة مع (أنطونيو) انتصرت، وأمرت بأن تقام الاحتفالات تكريمًا لهذا النصر العظيم.. وفى الشوارع راح الناس يهتفون باسم (كليوباترا) و(أنطونيو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمع الشعب (ديون).. كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافًا.. بحياتى قاتليه

أثَّر البهتان فيه.. وانطلى الزور عليه

يا له من ببغاء.. عقله فى أذنيه

(أحمد شوقى بك)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرفت (عبير) وهى فى قصر كليوباترا أن أغلب أفراد جيش (أنطونيو) قد تخلوا عنه.. لقد فقد الرجل 12 ألفًا من الفرسان.. وفقد 19 فيلقًا..

وحينما وصل الرجل إلى الإسكندرية لم يكن لديه عدد كاف من القوات.. لقد خسر الحرب قبل أن يبدأ..

فى هذا الوقت دخلت (شرميون) على (كليوباترا) تخبرها بالحشود الهاتفة فى الخارج:

- «الجماهير يا مليكة بالشط.. يموجون فى حبور وبشر

سرهم ما لقيت فى إكتيوم.. من ظهور على العدو ونصر..»

هتفت (كليوباترا) وهى تغطى وجهها:

- «يا لإفك الرجال.. ماذا أذاعوا؟ كذب ما رووا صراح لعمرى

أى نصر لقيت حتى أقاموا.. ألسن الناس فى مديحى وشكرى؟»

هنا فوجئت (عبير) بنفسها تقول:

- «ربة التاج ذلك الصنع صنعى.. أنا وحدى وذلك المكر مكرى

كثرت أمس فى الإياب الأقاويل.. وظن الظنون من ليس يدرى

فأذعت الذى أذعت عن النصر.. وأسمعت كل كوخ وقصر»

كادت تضرب خديها غيظًا.. فهى لا تعرف شيئًا عن الموضوع، لكن (أحمد شوقى بك) الشاعر العظيم أصر على أن تكون (شرميون) هى المسئولة عن هذا الخبر الكاذب..

وقدرت (عبير) أنها على الأرجح ستدفع ثمن هذا غاليًا..

هنا كان (أنطونيو) قد وصل..

ذهب إلى حبيبة قلبه (كليوباترا).. لقد خسر الحرب لكنه لم يخسر الحب على الأقل.. لابد أنها كانت تملك آلاف المبررات التى تفسر بها فرارها على هذا النحو، ولابد أنه أصغى فى اهتمام وصدق كل شىء..

كانت (عبير) تقدم لهما الشراب ولم يفتها أن تتأمل القائد العظيم الذى تراه لأول مرة..

كانت له ملامح (شريف).. لا شك فى هذا.. ذات الوجه الوسيم.. لكن وجه (شريف) ناعم خال من القسوة وخبرات الحياة المريرة، إلا أن كليهما يملك ذات العينين الحالمتين.. فقط هناك فارق ضخم بين الرجلين.. أحدهما لم يعرف الحب أصلًا، والآخر ضحى بكل شىء وكل مجد من أجل الحب.. طبعًا أنت تعرف من هو من..

قال للجمع الجالس والحاشية وهو ينهض ملوحًا بكأسه:

- «قيامًا نشرب الخمرا.. على حب (كليوباترا)»

قالت (كليوباترا):

- «على حبك (أنطونيو).. على الجيش.. على (مصر)..»

قال قائد رومانى جالس:

- «على (روما)»

فقالت (كليوباترا) فى ضيق:

- «دعوا (روما).. ولا تجروا لها ذكرا

فما (انطونيو) منها.. وإن كان ابنها البكرا

ولكن تحت أعلامى.. يقود البر والبحرا»

ماذا جرى؟ لماذا يتكلمون بالشعر؟ ثم فطنت (عبير) إلى أنها الآن فى موقف آخر من مواقف مسرحية (مصرع كليوباترا) ل. (أحمد شوقى بك)..

هؤلاء السادة يحتفلون بالنصر بينما أسطول (أنطونيو) قد احترق، والأخ (أوكتافيوس) قادم إلى الإسكندرية ليجهز نهائيًا على (أنطونيو).. ولو كانت فى هذا العصر فضائيات أو سور أقمار

صناعية لشنق الشعب المصرى هذين بعد دقيقة..

كان الرئيس الأمريكى (جونسون) يعانى المتاعب فى (فيتنام) فاقترح عليه قائد أمريكى محنك:

- «أعلن انتصارك ثم انسحب!»

وهذا يدل على فهم تام لسيكولوجية الجماهير.. النصر لمن يعلن أنه انتصر.. من الصعب وسط كل هذا الضباب أن تعرف من انتصر ومن انهزم، وبعد أن تملأ الجماهير الشوارع احتفالًا بالنصر فمن العسير أن تقنعها أنها هُزمت.. (يا له من ببغاء.. عقله فى أذنيه)..

لشد ما يفعل خداع النفس بنا من مهازل! هؤلاء القوم بدءوا بخداع الآخرين، والآن هم يخدعون أنفسهم.. إنهم سعداء فعلًا..

قال (أنطونيو) وقد بدأ لسانه يلتوى بفعل الخمر:

- «غدًا أواجه (أوكتافيوس) على البر.. سوف يدفع لى الثمن غاليًا..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الرحيل الثلاثى..

تدور الأحداث بسرعة بعد ذلك، والكل يعرف القصة على كل حال..

لقد هزم (أنطونيو) على البر وجاءه خبر كاذب بأن (كليوباترا) انتحرت.. هكذا ثبت سيفه فى الأرض وألقى بنفسه على نصله..

فى الوقت ذاته كانت (كليوباترا) تحاول أن تلعب اللعبة ذاتها مع (أوكتافيوس).. لقد نجحت مع (يوليوس قيصر) العظيم ومع (أنطونيو).. فلماذا تفشل مع (أوكتافيوس)؟ قررت أن تقابل الرجل وقد وضعت أرقى أنواع العطور والمساحيق.. واستعملت ذات العرض المبهر بالراقصات والموسيقا.. منحت المحارب الخشن جو الأنوثة الناعم الذى لم يره فى حياته خاصة مع زوجته ذات الشارب..

لكنها اكتشفت حقيقة مروعة.. الرجل لا يبالى بها.. إما لأنه يفتقر للرجولة.. وإما لأنه غبى.. وإما لأنه مستقيم أكثر من اللازم والغضب يعمى عينه فعلًا..

لابد أنه قال لها شيئًا على غرار:

- «هذه الألاعيب لا تنطلى على يا مدام..»

فلما تأوَّهت فى دلال قال لها:

- « يبدو أنك مصابة بإمساك مزمن.. أقترح أن تكثرى من أكل الخضراوات..»

ولما أرخت جفنيها لتوقعه فى شراك أهدابها الكثيفة اقترح عليها أن تجرب قطرة عيون تحوى (الكلورامفنيكول)..

هكذا توصلت إلى أنه رجل طموح.. وكانت قد بلغت من السن والحكمة ما يكفى لتعرف أن الرجل الطموح لا يبالي بالمرأة إلا إذا عاونته على استكمال هذا الطموح..

هكذا غادرها (أوكتافيوس) دون أن تحقق شيئًا..

على الباب قابل (شرميون) التى جلبت له بعض الشراب، فجرعه وهو لا يرفع عينيه القاسيتين عن وجهها.. ثم قال وهو يعيد لها الكأس:

- «فقط فى عالم الأحلام يمكن أن يُهزم (أكتافيوس).. تذكرى هذا يا صغيرة.. إن عبير النصر يزكم أنفك..»

وانصرف تاركًا إياها فى حيرة.. لماذا تكلم عن الأحلام؟ مع وصيفة صغيرة لا قيمة لها.. ولماذا استعمل لفظة (عبير)؟ إن رأسها يوشك على الانفجار..

هل تناديه لتسأله إن كان (شريف)؟ حتى فى فانتازيا هناك قواعد.. والوصيفة لا تنادى إمبراطور روما لتسأله سؤالًا كهذا.. ثم إن الرجل سمج ثقيل الظل ولن يرد عليها أصلًا..

وفى اللحظة ذاتها جاء الرجال يحملون جثة (أنطونيو) الغارقة بالدماء..

صرخت (كليوباترا) وهى تضرب جيدها بكفها:

- «آه! (أنطونيو) حبيبى.. أدركونى بطبيب!

ما ترون الأرض تروى.. من دم الليث الصبيب؟»

قالت لها (عبير) فى تأدُّب:

- إحم.. ألا يكون الأمر أسهل يا مولاتى لو قلته نثرًا لا شعرًا؟ على الأقل سيوفر هذا وقت تأليف الكلام الموزون المقفى»

لكن (كليوباترا) كانت مصرة على الشعر.. لقد اندمجت أخيرًا ودخلت فيما يطلقون عليه (طور السلطنة)..

وقفت وسط القاعة وصاحت وهى ترفع ذراعيها:

- «أيها الجند مات قيصر فابكوا.. معى السيد الجسور الوهوبا

شبّكوا ساعديه فوق صدر.. كان فى الروع بالمنايا رحيبا»

ثم هتفت فى (شرميون) وهى تحمل سلة التين:

- «سأخلو إلى مخدعى.. أريد أن تكون هناك معى..»

هكذا تبعتها (عبير) إلى المخدع متسائلة عما تزمعه هذه المرة..

جلست (كليوباترا) فى الفراش.. ونظرت إلى التقويم المعلق.. الثانى عشر من أغسطس عام 30 قبل الميلاد.. فى مثل هذا اليوم انتحرت (كليوباترا)..

قالت ل. (عبير):

- «يا مرحبا بالسلة.. والرُّقُب المطلة.. الكافياتى الذلة»

طبعًا.. هذا منطقى.. هى تعرف أن (أكتافيوس) لن يكون (جنتلمان) ولن يتورع عن عرضها فى قفص فى الأسواق.. هكذا تفضل الملكات أن يخترن زمان ومكان وطريقة موتهن..

أمسكت بالسلة وفتحتها فأصدرت الكوبرا فحيحًا شريرًا..

مدت يدها فالتقطت الثعبان ورفعته لتتأمله ثم قالت:

- «هلمى الآن منقذتى هلمى.. وأهلًا بالخلاص وقد سعى لى

شريت السم من فيك المفدى.. بسلطانى وزدت عليه مالى

وبعض السم ترياق لبعض.. وقد يشفى العضال من العضال»

كان من واجب (عبير) أن تبكى وتلطم الخدين.. لكنها ظلت تراقب الموقف فى فضول علمى بحت.. رأت (كليوباترا) تدس الثعبان فى صدرها.. لحظات من التوتر ثم شهقت الملكة.. شهقت وانحدر رأسها جانبًا.. وبدأت ترتجف.. ما أسرع هذا السم وما أشد فتكه!

فقط كانت تشير إلى سلة أخرى على بعد خطوات من الأولى..

ماذا تريد قوله؟ هل الجرعة غير كافية؟ مستحيل.. لو لم يكن هذا وجه امرأة تموت فكيف يكون الموت إذن؟

راحت (كليوباترا) تلقى الشعر الذى لا يتسع له المجال هنا لأنه ثلاث صفحات كاملة، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة..

فى هذه اللحظة انفتح الباب واندفعت الوصيفة الأخرى أوروبية الملامح، وقالت لـ (عبير):

- «لقد انتحرت سيدتنا! أسرعى! يجب أن ننتحر نحن أيضًا.. هناك ثعابين أخرى.. الملكة أعدت لنا سلالًا كثيرة!»

لماذا لم تقل هذا واكتفت بالإشارة؟ قالت (عبير) فى ضيق:

- «والسبب؟ أنا لست راغبة فى الانتحار اليوم خاصة بهذه الطريقة»

- «أولًا هذا هو واجب الوصيفة المخلصة.. بعد ما تلدغك الكوبرا ستقولين:

- «(كليوباترا).. ويا لهفى.. عليك يا (كليوباترا)»

- «وصيفاتك فى الدنيا.. وصيفاتك فى الأخرى»

قالت (عبير):

- «هل هذا مبرر كاف؟ أن أخدمها فى العالم الآخر؟»

- «السبب الثانى وهو الأهم هو أن الناس فى الخارج موشكة على اقتحام القصر.. لقد انكشفت الخدعة، وقيل لهم إن مصدر الإشاعة وصيفة تدعى (شرميون)! سوف يمزقونك إربًا!»

مستحيل..

لكن صوت الجلبة بالخارج وصوت تحطيم الأبواب يقول بوضوح إنه لا مستحيل هنالك..

- «وماذا أفعل؟»

- «يا سلام! انتحرى الآن! هذا هو ما أقوله لك..»

تقلصت أحشاء (عبير).. إما الكوبرا أو الموت بيد الجماهير الغاضبة.. ألا يوجد خيار ثالث؟ ألا يمكن الاتصال بصديق؟

الصديق ظهر فعلًا.. رأته يتقدم ليدخل المخدع فى تؤدة فيلقى نظرة على الجثة الراقدة.. على وجه الوصيفتين..

قال لها وهو يدس يديه فى جيبى البذلة:

- «أعتقد أننا مخطئون هذه المرة كذلك.. (شريف) ليس هنا.. لقد كان الأمر يتعلق بأسطول آخر!»

قالت له (عبير) فى غيظ:

- «كل هذه المعاناة من أجل لا شىء؟»

- «هذه هى الحقيقة..»

ثم أمسك بمعصمها لتنهض وقال وهو يشير إلى الباب الرئيس:

- «من مصلحتك أن تفرى الآن.. كل الشعب المصرى على الأبواب الآن للانتقام من الأفعى التى خدعته.. أنت طبعًا وليست (كليوباترا)..»

ثم مد يده فالتقط سلة وطوحها إلى الجارية الأوروبية وقال:

- «يمكنك الانتحار يا عزيزتى.. فهم لن يجدوا شرميون.. لذا سيقررون الانتقام من أية فتاة يجدونها..»

شكرته فى رقة وأخرجت الثعبان من وسط التين..

قال المرشد ل.(عبير) وهو يتأبط ذراعها خارجين من قصر (كليوباترا) المنيف:

- «أعتقد أننا سنجرب أسطولًا آخر موشكًا على الغرق..»

- «لا أعرف سبب لعنة الأساطيل التى حلت بفانتازيا.. إن البلل صار يفسد أفكارى.. دعك من دوار البحر.. عدنى بأن هذه آخر مرة»

قال باسمًا:

- «إن غرق الأسطول لحظة فارقة فى التاريخ.. لحظة تمثل المجد والكبرياء والغرور وهم يهوون إلى أعماق المحيط، حيث تلتهم الأسماك كل شىء.. سوف تفهمين هذا أكثر مع القصة القادمة»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- مكان فى البحر المتوسط..

إنها فى مكان مظلم كئيب..

رطوبة شديدة وهناك أكثر من مشعل على الجدران.. رائحة الزيت الزنخ هذه..

إنها راقدة على حشية على الأرض وثمة فأر صغير يتشمم قدمها.. أطلقت صرخة جديرة بامرأة تكتشف أن من يتشمم قدمها فأر..

هنا شعرت بيد خشنة على فمها.. وفى الظلام سمعت من يقول:

- «صه يا بلهاء! سوف تفسدين عملية الفرار!»

إذن هذا سجن.. وإذن هى فى سبيل الفرار منه..

استطاعت أن تدرك أن من كمم فمها يتكلم لغة لاتينية عامية.. تلك اللغة التى تحولت إلى اللغة الإيطالية فيما بعد..

كان رجلًا قوى البنيان.. وقد أدركت من شكل أنفه وطريقة تصفيف شعره أنه رومانى..

- «من أنت؟»

لا

- «أنا (فيريس).. هلمى»

نهضت معه وهى لا تعرف ما ينوى عمله..

كانت هذه زنزانة.. خارج الزنزانة كان حارس مهشم الرأس يرقد على الأرض وسط بركة من الدم.. السيناريو التقليدى المعروف للفرار من السجون.. لابد أن يتم تهشيم رأسه بإناء من فخار.. لقد كانت بقايا الإناء تتناثر حول الأسير..

الغريب (فيريس) يركض وسط عدد من الزنازين.. يعالج أبوابها بمفاتيح يبدو أنه سلبها من الحارس.. من الداخل تتصاعد أصوات تتكلم بالرومانية..

- «هلم أيها المنقذ.. أسرع!»

لم يتغير شىء تقريبًا.. نفس الزمن - تقريبًا - ونفس الطابع الرومانى.. توشك أن تتحول إلى مواطنة من (روما) فى فانتازيا هذه.. لا تعرف سبب كثرة المغامرات التى خاضتها والتى كانت فيها مواطنة رومانية أو عدوًا لـ (روما)..

تنظر إلى قدميها وهى تركض.. أول ما تراه عندما لا تتاح لها مرآة.. فعلًا هى تلبس العباءة الرومانية إياها والصندل ذا الشرائط.. شعرها الأشقر يتطاير فى مجال إبصارها..

إلى أين هذه المرة وماذا يحدث بالضبط؟

من الزنازين يتحرر عدد من السجناء.. كلهم من الرومان..

يركضون عبر الممرات المظلمة..

يهتف أحدهم وهو يوزع عليهم السلاح:

- «استوليت على هذا السلاح من غرفة الحرس..»

يركضون فى الشوارع المظلمة حيث تنبح الكلاب..

قدرت (عبير) أنها الأسيرة الوحيدة الأنثى.. على الأرجح تم هذا الترتيب كى يتم إشراكها فى المغامرة..

كان هناك حارس يقف فى الظلام وظهره لهم..

اندفع أحد السجناء الفارين ليولج سيفه بين لوحى كتف الحارس..

إن عددهم الآن نحو عشرة.. إلى أين الفرار؟

يصيح فيهم ذلك الذى أنقذها والذى يدعى (فيريس):

- «لن نرحل قبل أن نتسلل إلى قصر الحاكم..»

هناك تحت بناية من طراز عتيق يتوقف المتسللون.. يقف أحدهم ويرفع كفيه متشابكتين فيصعد آخر عليهما ليتسلق إلى الشرفة.. ثم إذ يتوغل داخلها يدلى بحبل غليظ للرجال.. هكذا يتسلق الجميع، لكنها آثرت أن تبقى حيث هى.. فقط ترقب الظلام فى توجس وهلع..

سمعت صراخًا.. سمعت سيوفًا ترتطم.. سمعت صوت حاكم يُقتل..

ثم من جديد راح الرومان يتواثبون من الشرفة..

- «قد قضينا على الحاكم ورجاله.. هلموا!»

السيوف مخضبة بالدم.. والأنفاس لاهثة.. والعرق يغمر الثياب.. بينا هم يركضون إلى بوابة المدينة.. هناك التحموا مع الحراس فقتلوهم، وسرعان ما كانت عشرة خيول تركض عبر السهول المظلمة مبتعدة عن المدينة..

أدركت (عبير) أنها مدينة ساحلية كما هو واضح.. شىء ما فى طراز البناء بدا لها مألوفًا..

كانت تنظر إلى الخلف بينما حصانها يركض.. رأت ضوء الفجر القرمزى يغمر الأفق.. العباءة القرمزية سوف تستحيل إلى عباءة وردية قريبًا جدًّا..

فجأة سمعت من أحد مبانى المدينة التى فرت منها صوتًا مألوفًا يتنحنح.. ثم رفع عقيرته:

- «الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.... حى على الصلاة!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القائد الرومانى فى معسكره كان فى غاية السرور بهذه المغامرة الجريئة..

انفجر ضحكًا وهو يجلس على مقعده، وقضم قضمة من دبوس الدجاجة الذى يمسك به كعادة القادة الرومان، وصب لنفسه المزيد من النبيذ، ثم أمر بأن يقدم الشراب لجميع الأسرى

الرومان الفارين..

- «فررتم وذبحتم الحاكم العربى ورجاله! أنتم رائعون!»

شرب (فيريس) ما فى كأسه جرعة واحدة ثم قال:

- «ليس هذا وقت إطراء المغامرة أيها القائد.. لابد أن تعرف كل شىء عن الأسطول الذى يحتشد خارج (طرابلس فينيقيا).. لقد أعد (معاوية بن سفيان) عدته لأن يغزو البحر ويصل إلى القسطنطينية.. لهذا رتبت لعملية الفرار هذه.. كان لابد من إبلاغكم»

قال القائد الرومانى مفكرًا:

- «(معاوية).. هذا الرجل شديد الطموح.. يخيل لى أن فكرة السيطرة على البحر المتوسط لا تفارقه لحظة.. إن العرب يطلقون عليه (بحر الروم) ومن الواضح أنه يريد تغيير الاسم»

كانت هى تصغى لما يقال وهى فى أسوأ حال..

هذه المرة هى جزء من جيش الإمبراطورية الرومانية التى تحارب المسلمين.. عليها أن تسمع أقذع السباب يوجه للعرب، بل أن تشارك فيه.. إنها هنا رومانية تدعى (هيلانة) ويبدو أنها قد سقطت فى أسر العرب عندما استولوا على تلك المدينة المدعوة (فينكس)..

من المفترض حسب دورها فى (فانتازيا) أن تمقت العرب.. هذا الرجل (فيريس) هو بالنسبة لها بطل.. قام بتهريب الأسرى وقتل حاكم المدينة وحررها.. إذن هو بطل إذا ما كنت تقف فى الجانب الآخر..

لكنها شعرت بحيرة بالغة.. هل من المفترض أن تخون الرومان وأن تنقل للعرب تفاصيل ما يقال؟ ودت لو فعلت ذلك لكن كيف؟

عندما دخلت الخيمة التى أعدوها لها جلست على الأرض تفكر فى عمق..

سمعت من يتنحنح وانزاح ستار الخيمة.. على ضوء المشاعل ترى جنديًا رومانيًا يقف يحرس من بعيد.. وترى وجه (فيريس)..

وجه صلب قاس قُد من صخر.. هذا الرجل ليس خصمًا سهلًا أبدًا..

قالت له:

- «أعتقد أننى مدينة لك بالشكر..»

هز رأسه وقال وهو يجلس جوارها:

- «لا تقلقى.. النساء آخر شىء أفكر فيه الآن.. إن حقدى على العرب يعمينى عن أى شىء آخر..»

ثم راح يعبث فى النار شاردًا:

- «منذ قرروا أن يكون لهم أسطول والمتاعب تنهال على (روما).. هؤلاء البدو القادمون من الصحراء لا يفقهون شيئًا عن عالم البحر.. (معاوية) هذا بذل الكثير من الجهد حتى تمكن من

إقناع الخليفة (عثمان بن عفان) بارتياد البحر.. جاء بمن يدعى (عبد الله بن قيس الجاسى) وكلفه بتشكيل الأسطول، وبه تمكن من غزو (قبرص).. تصورى! (قبرص)! أهم جزيرة استراتيجية فى البحر المتوسط كله صارت للعرب، وإن ظل أهلها أوفياء لـ (روما).. واستعان بعدها بـ (أبولا باروس)»

- «هل هناك مع المسلمين من يدعى (أبولا باروس)؟ يبدو أن الأسماء غريبة عندهم فعلًا..»

فكر الروماني قليلًا ثم قال:

- «أعتقد أن العرب ينطقون اسمه هكذا: (عبد الله بن أبى السرح).. الذى حكم مصر.. وغزا (ليبيا).. ثم بدأ (معاوية) يسيطر على شواطئ (الشام) و(آسيا الصغرى).. بل إنهم هزموا أسطولًا بيزنطيًّا يقوده الإمبراطور (كونستانتين) نفسه، واستولوا على (رودس).. هذا ما أثار قلق الإمبراطور.. لهذا جمع أسطولًا مهيبًا يقدر بألف سفينة.. إنه ينوى الانتقام من العرب على ما فعلوه بنا فى (إفريقيا)..»

قالت فى لهجة محايدة:

- «معنى هذا أن العرب يتعلمون بسرعة..»

قال بضحكة وحشية:

- «ليس بالسرعة المطلوبة.. إن المواجهة قادمة بين من يعرفون كل شىء عن البحر، ومن لا يعرفون إلا الصحراء.. سوف نرى.. سوف نرى»

ونهض مغادرًا الخيمة..

وجلست فى ترمق النار عاجزة عن اتخاذ القرار الصائب..

(عبد الله بن أبى السرح) يتحول بلسانهم إلى (أبولا باروس).. كما تحول (أبو القاسم الزهراوى) إلى (ألبوكاسيس Albucasis) وتحول ابن رشد إلى (أفيرويز Averroes) فى ظروف غامضة..

إن أيامًا عصيبة تنتظرها هنا.. لا شك فى هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 11المواجهة..

وصلتها الأخبار أن (معاوية) رضى الله عنه أعد أسطوله من أسطولى (الشام) و(مصر).. تحت إشراف رجله (أبولا با) ... (عبد الله ابن أبى السرح)..

كانت المواجهة تقترب ولا شك فى ذلك..

وقرب يوم القتال اجتمع الإمبراطور (قنسطنطين) بالقواد ليعطيهم ما نسميه اليوم بالتوجيه المعنوى للقوات..

كان إمبراطورًا رومانيًا كما نعرفهم.. رجلًا رخوًا بدينًا أنانيًا نذلًا.. ربما لم يكن كذلك فى الحقيقة لكن (عبير) لا تعرف إلا النمط النيرونى لتطبقه على الجميع..

- «إن المسلمين بحاجة للأخشاب لبناء سفنهم.. وهذه الأخشاب يمكنهم الحصول عليها من ساحل الأناضول حيث تكثر أشجار السرو.. مهمتنا أولًا هى إحباط تقدم المسلمين نحو (القسطنطينية).. ثانيًا السيطرة من جديد على جزر البحر المتوسط.. ثالثًا – وهو الهدف الأهم - غزو (مصر)..»

قال قائد رومانى مزدان بالدروع مدجج بالسلاح:

- «الهدف الرابع هو أن ننتقم لهزائمنا فى (أفريقيا)..»

اتسعت عينا الإمبراطور ونفخ من منخريه وقال:

- «أيها القائد (أيولوس بروفاندوس).. أرجو ألا تقاطعنى ثانية بملحوظات سخيفة..»

ثم استكمل كلامه:

- «الهدف الرابع هو أن ننتقم لهزائمنا فى (أفريقيا)..»

كانت (عبير) تنظر إلى البحر حيث اصطفت سفن الأسطول الرومانى..

لم تكن تذكر هذه المعركة ولا ما حدث فيها، لكنها كانت تعرف أنها موجودة فى ركن ما من كتب التاريخ المدرسية.. ركن مظلم لا تتذكره أبدًا بعد الامتحان.. فقط كانت متأكدة من أنها رأت الأسطول الرومانى المرعب فى موقعة (أكتيوما).. هؤلاء الناس كانوا خبراء معارك بحرية حقًا.. دعك من سرعة الالتفاف وتكتيكات الحصار.. إلخ.. كل السحر الذى كان يمارسه (أجريبا) مع (أنطونيو)..

الخلاصة أن فرصة العرب شبه معدومة.. يجب أن تكون الحرب برية فقط.. يجب أن يعرفوا هذا..

اتجهت لتعنى بطيورها الأليفة كى تنسى همومها.. عندما ينظر لها الحمام تلك النظرة الصافية التى تجمع بين الاهتمام والحب والخوف، تنسى كل هموم العالم..

تحلق الحمامة فى سماء الأناضول.. فوق السفن المتراصة

فى البحر، فتتمنى (عبير) لو أن لها جناحيها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(ليكيا).. آسيا الصغرى..

من موقعها المرتفع على اليابسة ترى (عبير) وقائع المعركة..

فى البداية نزل عدد كبير من العرب إلى البر فتفرقوا هناك.. يبدو أن هذا نصف عدد القوة المهاجمة..

قالت جارية حبشية تقف جوارها:

- «هذا أسلوب العرب فى المعارك البحرية.. إن قائدهم يدعى (بُسر بن أبى أرطأة).. مهمة هذه المجموعة تأمين الساحل ومراقبة المراسى لئلا تكون سفن العدو متوارية هناك..»

رفعت (عبير) إصبعها وبدأت تعد سفن العرب..

- «عشرة.. عشرون.. ثلاثون..»

قالت الجارية فى نفاد صبر:

- «مائتا سفينة.. لا تتعبى نفسك.. لقد أخبرنا الجواسيس بذلك»

- «والرومان لديهم ألف سفينة.. هذه ليست معركة.. إنها مذبحة..»

- «بل هو سيرك.. الرومان لا يقدرون على الحياة من دون سيرك يسليهم.. سيرك يلقى فيه الضعفاء للأسود.. سوف ترين كيف يلقون بالعرب للأسود الآن!»

نزل قارب من إحدى سفن العرب اتجه نحو سفن الرومان.. ووقف بحار عربى يخاطب الرومان عن طريق مترجم..

قالت الجارية:

- «إن العرب يخيرون الرومان بين المواجهة على البر أو البحر..»

ارتجفت (عبير) وسألت فى لهفة:

- «وماذا قال الرومان؟»

- «هل هذا سؤال؟ طبعًا طلبوا المواجهة فى البحر.. هذه هى أرضهم التى يسيطرون عليها ويعرفون أسرارها.. سوف يفقدون هذه المزية لو نزلوا إلى البر..»

هكذا عاد القارب العربى بمن عليه ليبلغ القواد..

الآن يدنو الأسطولان إلى مرمى السهام.. فتنطلق السهام من السفن نحو بعضها.. سهام مشتعلة وعادية.. ثم بدأ قذف الأحجار من صناديق مليئة بها فى أعلى كل صار.. هذه الصناديق يطلقون عليها اسم التوابيت، ويتوارى فيها قاذفو الأحجار لكنهم يخرجون من حين لحين ليقذفوا أحجارًا ثقيلة على السفن الأخرى..

هذه هى المدفعية فى عصر ما قبل اختراع المدفعية..

تذكرت (عبير) طائرات (زيرو) تئز فوق المدمرات الأمريكية فى بيرل هاربر وابتسمت.. حتى (بيرل هاربر) صارت متخلفة مضحكة بمقاييس القرن الواحد والعشرين..

فجأة رأت مشهدًا غريبًا..

غواصون من العرب يثبون فى البحر.. يسبحون كالأسماك من سفينة الأخرى فيربطون شبكة معقدة من السلاسل.. يربطون سفن العرب إلى بعضها ثم يربطون سفن الروم إلى سفن العرب.. يتحركون بخفة كالضفادع البشرية.. يغوصون.. يصعدون..

حاولت السفن الرومانية أن تمر بين سفن العرب، لكن السلاسل منعتها من ذلك..

شهقت (عبير) وهى ترى سفينة رومانية عملاقة تتحرك فتجر خلفها سفينة القيادة العربية.. السفينة التى تحمل (عبد الله ابن أبى السرح) نفسه..

هنا وثب أحد الجنود إلى السلسلة فوقف عليها وهى مشدودة بين السفينتين، وهوى عليها مرارًا بسيفه حتى قطعها.. فيما بعد سيعرف التاريخ أن اسم هذا الشجاع هو (علقمة بن يزيد العطيفى)..

لقد تمَّ الالتحام..

ورأت (عبير) المسلمين يمشون فوق السلاسل الغلاظ يقصدون سفن الروم.. وعندها تحول المشهد إلى بركة من الدم.. بركة تسيل من السفن وتطفو على مياه البحر ويقذفها الموج إلى الشاطئ..

الضرب بالسيوف والحراب.. صراخ.. دم..

شهقت الجارية، وقالت وهى تغطى وجهها:

- «هل فهمت ما حدث؟ المسلمون يعرفون أنهم لا يجيدون المعارك البحرية، لذا حولوا المعركة إلى معركة برية! أفقدوا السفن الرومانية القدرة على المناورة ثم تسلقوا إليها وأعملوا السيف فى جنودنا..»

هذه إذن أول معركة برية تتم فى البحر.. وبقواعد البر!

لقد وصف المؤرخ (أرشيبالد لويس) المشهد بأنه (خطة غير عادية.. لقد ربط العرب سفنهم لبعضها فاستحال أن يخترقها الرومان.. واستخدموا خطاطيف طويلة تصيب الصوارى فتهشمها)..

دامت المعركة عدة ساعات.. والبحر الذى كان قد بدأ يصطبغ بالأحمر صار الآن أحمر بالكامل.. فقط هناك بقع زرق تذكرك بلونه القديم.. وعلى الماء سبحت مئات الجثث..

رأت (عبير) الإمبراطور يفر واثبًا إلى قارب نجاة.. لابد أنه سيتجه إلى (صقلية)..

مائتا سفينة تمكنت من هزيمة ألف.. والألف يقودها سادة البحار..

لقد انتهت معركة (ذات الصوارى) أمام عينى (عبير) التى لا تعرف أنها رأتها..

يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة لكثرة صوارى السفن فيها.. صواري 1200 سفينة ليست بالعدد الهين.. ويقال إنها سميت بذلك نسبة للمكان الذى جرت فيه.. إن المكان كان يعج بالأشجار التى تستخدم فى صنع صوارى السفن..

قال المؤرخ (أرشيبالد لويس): كانت معركة ذات الصوارى هى (أكتيوما) العرب.. فكما أن (أكتيوما) فرضت سيطرة (روما) على البحر المتوسط، فإن (ذات الصوارى) فعلت الشىء ذاته بالنسبة للعرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعواطف متناقضة تقف (عبير) على الشط ترمق الجثث التى يقذفها الموج..

خيرة شباب روما ممزقون.. مبعثرون..

فى قلبها هى عربية راضية عن هذه النتائج، وفى قلبها كذلك هى رومانية تملي عليها أحداث القصة أن تشعر بالثّكل..

فجأة شعرت بيد باردة مبتلة تمسك بذراعها..

التفتت للخلف فرأت (فيريس).. لكنه لم يعد هو.. هناك ضربة سيف مزقت وجهه بالطول إلى شطرين، ويبدو أن ذراعه تهشم تمامًا لكنه كان يحمل كيسًا مليئًا فى الذراع الأخرى.. دعك من الدم الذى يبلل ثيابه فلا تعرف إن كان هذا دمه أم دم رفاقه..

صاحت فى لهفة:

- «(فيريس).. أنت حى!»

وهرعت نحوه.. لكنه تلقاها بصفعة ألقت بها على الرمال..

- «ماذا دهاك؟»

قالتها وبصقت الرمل الذى ملأ فمها..

قال وهو يفتح الكيس:

- «كنت قد كلفت الصبية باصطيادها بالمقلاع.. كل تلك الحمائم التى كنت تربينها تحلق فوق رءوسنا إلى سفن العرب.. لقد جلب لى الصبية اليوم جثث الحمام الذى اصطادوه.. هذا حمام زاجل وهناك رسائل حول السيقان.. كل شىء عن خططنا.. عن توزيع السفن.. عن نوايا الإمبراطور.. كل شىء كان العرب يعرفونه مقدمًا.. كنت قد شككت فى أمرك لأنك كنت تراقبين الساحل ثم على الفور تتجهين للعناية بالحمام.. لقد تلقيت الجواب الآن وبعد ما خسرت (روما) المعركة وفقدت أسطولها..»

ومن حولها وعلى الرمال تناثرت جثث الحمام الزاجل..

لم يكن بوسعها إلا أن تفعل ما فعلت..

لكنه يجرد سيفه الغارق فى الدماء الجافة.. ينوى الآن أن يلوثه بدم رومانى طازج..

يرفع السيف فتشهق وتمد يدها تتقى الضربة كما فى لوحات (ديلاكروا)..

هنا أمسكت يد ثابتة بذراعه.. ورأت المرشد..

قال له:

- «معذرة يا أخ (فيريس).. واضح أن هذه ليست القصة المقصودة.. لا يمكن أن أسمح لك بقتلها من دون أن تجد ضالتها..»

نظر له (فيريس) فى ثبات ومقت.. ثم أعاد سيفه إلى غمده..

ساعدها المرشد على النهوض.. ونفض الرمال الملتصقة بخديها وشعرها.. ثم قال:

- «سوف نعود إلى الإسكندرية من جديد.. تذكرى أن تبتعدى عن مخزن الذخائر فى أول فرصة ممكنة!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- لقد وجدونا!

البداية هذه المرة كانت قنبلة هوت على سطح السفينة..

لقد صحت من نومها فى الظلام وهى ترتجف.. وأدركت أنها فى مكان خانق ضيق وأن الظلام فى كل مكان، وأن هناك فأرًا كان يتشمم قدمها ثم فر.. الفئران كثيرة فى مغامرة اليوم..

عندما تهوى قنبلة على سفينة أنت تختبئ فى قاعها، فإن التأثير لا يكون محببًا على الإطلاق.. تشعر بأن كيانك كله يهتز.. أذناك تفقدان السمع والاتزان.. وفى أعماقك تتحرك كل كوابيس رهاب الأماكن المغلقة..

ومن وسط الظلام صاح أحدهم:

- «لقد وجدَنَا (نلسن)!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هناك جنود يساعدون هؤلاء الذين احتشدوا فى قاع السفينة على الخروج..

تسمع عبارات بالفرنسية - وتفهمها طبعًا - لكن الجو العام جو ارتباك مخيف..

تصعد درجات خشبية فى الظلام وسط مجموعة أخرى من نساء وأطفال.. وعلى سطح السفينة ترى البحر وترى النيران تندلع من مكان ما فى الصارية.. ومن بعيد ترى الشاطئ وترى النيران تندلع من سفن أخرى..

ماذا يجرى؟ ما هذه الحادثة؟ هناك أساطيل كثيرة غرقت فى التاريخ فمن العسير أن تتذكر هذه الحادثة بالذات.. هناك حروب غامضة مثل (حرب الثلاثين عامًا) و(حرب البوير) و.. و.. حروب لا تذكر منها إلا اسمها فأيها هذه الحرب؟

كانت هناك قوارب نجاة.. وسرعان ما وجدت نفسها فى مشهد من فيلم (تيتانيك).. النساء والأطفال فى قارب يتم إنزاله بالحبال إلى الماء، بينما يحاول بعض الرجال الذين لا يصدقون أنهم سيموتون أن يزاحموا هؤلاء على الأماكن..

جندى فرنسي يطلق الرصاص فى الهواء منذرًا كل من يحاول أن ينزل فى هذا القارب...

طفلة شقراء تبكى فتحتضنها (عبير) وتضمها بقوة.. هنا تهوى قذيفة مدفع على بعد أمتار منهما.. تنفجر فتتصاعد نافورة ماء إلى عنان السماء..

القارب صار مزدحمًا يطفو بصعوبة بالغة.. معجزة هى ما تبقى كثافته أقل من واحد فيطفو، ولا شىء آخر.. هناك بحار فرنسى يجدف بلا انقطاع قاصدًا الشاطئ.. إنه يضغط بأسنانه على غليون منطفئ ولا يكف عن إطلاق الشتائم الفرنسية الرقيقة التى لا تجدها إلا فى معجم (لاروس)..

قذيفة أخرى تهوى..

نيران فى كل مكان.. دخان.. صراخ.. هناك الكثير مما يشغل كل حواسك: الروائح.. الأضواء.. البلل والنيران..

هذا ليس عدلًا.. ليس عدلًا أن تغط فى النوم.. وبعد نصف دقيقة تجد نفسك فى الظلام وسط أمواج البحر الصاخب والقذائف تطير فوق رأسك..

كان القارب يتحرك نحو الشط وهو لا يكف عن الاهتزاز، بينما القنابل تجعل الأمواج أكثر شراسة.. يرتفع القارب لعنان السماء ثم يهبط..

لكنه وصل إلى الشاطئ أخيرًا..

كانت تجر قدميها وسط الرمال المبتلة وهى تحمل طفلين.. برغم هذا لم يكن الطقس باردًا.. أقرب إلى ليلة صيف هادئة..

هناك على الشط وقف عدد من البدو يرمقون ما يحدث فى دهشة.. لسبب ما لم يتطوع أحدهم بمساعدتها..

بدو؟ إذن نحن فى دولة عربية ما..

سمعت الجندى الفرنسي يقول وهو يحمل طفلين آخرين:

- «كانت فكرة حمقاء أن يخفوا الأسطول الفرنسي فى (أبو قير)!»

إذن هى (أبو قير)! وإذن نحن على مشارف الإسكندرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ترتجف.. ليس من البرد لكن من الصدمة العصبية..

رأت أعرابيًّا فارع الطول يتقدم منها فيخلع عباءته ويضعها على كتفيها.. قالت له فى حرج:

- «ميرسى»

قال وهو يعينها على المشي فوق الرمال:

- «أنتم أعداؤنا.. لكننا لا نرحب بقتال النساء ولا إيذائهن.. هذا الظرف يستدعى أن نزيح الخلافات جانبًا.. دعك من أنك غير مسئولة عن حماقات (صارى عسكر).. معظم الجنود على سفنكم هذه لا يتجاوز عمرهم ثمانية عشر عامًا..»

- «صارى عسكر؟»

- «الجنرال (بونابرطة)»

تذكرت الاسم فابتسمت ثم سألته:

- «ما اسمك أيها البدوى الشهم؟»

- «شريف!!»

نظرت له فى ذهول غير مصدقة أن يكون الأمر بهذه السهولة، فقال لما رأى حيرتها:

- «(الشريف حسان).. لكنهم يفضلون استعمال اسم (شريف)»

طبعًا.. لا تتصور بدويًا اسمه (شريف) إلا لو تصورت مصارعًا اسمه (شادى) أو مخبرًا اسمه (سامر).. فكرت فى هذا وهى تشرب الشاي البدوى الثقيل الذى أعده لها ومن معها بينما الانفجارات تدوِّى..

سألته وهى ترشف الشاى:

- «ما هذا؟ من يهاجم من؟»

نظر لها فى دهشة وقدر أنها تحت الصدمة العصبية.. فقال:

- «وأين كنت أنت؟ على كل حال هذا هو البريطاني (نلسون) يهاجم أسطول (بونابرت).. لقد أمضى نلسن ستة أشهر يفتش البحر المتوسط عن سفن (بونابرت) وهو متأكد من أن (بونابرت) فى مكان ما من هذا البحر.. أخيرًا وجده هنا فى (أبو قير).. هذه فرصة سانحة قلَّ أن يجد مثلها..»

هنا دوى انفجار مروع يفوق ما سبق.. فتوقفا عن الكلام ونظرا إلى البحر..

البحر الذى استحال قطعة من الجحيم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- أبو قير..

لكى نفهم ما حدث يجب أن نرجع للوراء عدة ساعات.. ربما أيام..

كان (بونابرت) فى الإسكندرية فى هذا الوقت.. آخر يوليو من عام 1798.. وقد انتوى أن يتجه إلى الصالحية؛ لذا عهد بأسطوله إلى الجنرال (بروى).. وكانت تعليماته هى أن يخفى الرجل الأسطول فى خليج (أبو قير).. كانت مهمة شاقة بالنسبة لطبيعة الخليج وصخوره.. لكن الرجل أنجزها ببراعة..

كان جواسيس بونابرت قد أخبروه أن (نلسن) أميرال البحر البريطاني ينقب البحر المتوسط بعدسة بحثًا عن هذا الأسطول.. (نلسن) شخصية عجيبة مثيرة للجدل.. خاصة بعينه الوحيدة وساقه الوحيدة وكراهيته المجنونة للفرنسيين.. معنى أن يجد الأسطول الفرنسي أن يحوله إلى فتات..

فيما بعد ألقى (بونابرت) - كعادة القادة - مسئولية كل ما حدث على الجنرال (بروى).. فى الواقع كانت هذه كلها أخطاء بونابرت.. فقد كان بوسعه أن يرسل الجيش إلى مكان أكثر أمنًا فتشه البريطانيون من قبل هو جزر (كورفو)..

لكن (بروى) ارتكب خطأ عندما ترك مسافات واسعة بين السفن وبعضها، وبذا سهل حركة الالتفاف حولها والمرور بينها على الأسطول البريطاني..

ثلاث عشرة بارجة فرنسية تقف فى (أبو قير).. كبط ينتظر الهجوم عليه..

ظهر الأول من أغسطس تلقى الفرنسيون إشارة بأن 12 بارجة بريطانية تندفع نحوهم بسرعة البرق..

وظهرت السفن البريطانية فى الرابعة عصرًا والشر فى عيونها لو كانت للبوراج عيون..

و على ظهر البارجة (فانجارد) عرف (نلسن) أن الأسطول الفرنسي فى (أبو قير)..

يبدو أن هذا ضاعف شهيته للطعام فطلب طعام الغداء له وضباطه..

ثم رفع كأسه وقال للضباط المحيطين به العبارة التى صارت شهيرة جدًّا:

- «يا سادة.. بإذن العلى القدير سيشهدني الغد فى مجلس اللوردات أو سيشهد جنازتي فى كنيسة (وستمنستر)..»

والحقيقة أن الغد لم يشهده هنا ولا هناك، لكن الجميع نسوا هذا.. كان شعورهم هو شعور طفل ظل ينتظر قطعة الشيكولاته شهرين، وهو يعرف بالضبط ما سيفعله بها ومن أين يفتحها وكل شيء..

وقد خرج (نلسن) إلى السطح.. كان ضرسه يؤلمه فلم يستطع أن يهدأ لحظة.. هنا سمع بحارين بريطانيين يتكلمان وهما ينظران إلى الأسطول الفرنسي:

- «انظر يا (جاك).. الفرنسيون.. عليهم لعنة الله.. إذا لم نقتلهم قتلونا!»

شعر براحة تامة لسماع هذا..

الحمد لله العلى القدير أن زرع كل هذا المقت للفرنسيين فى نفوس البريطانيين.. الفرنسيون الذين يأكلون الضفادع.. حتى أفعالهم اللغوية تثير الجنون.. هناك لكل فعل 654687 تصريفًا.. كيف يمكن أن تتذكر كل هذه العلامات المائلة فوق حرف e؟ تبًّا لهم!

بدأ يشعر بأن الفرنسيين هم ضرسه الملتهب.. سوف يصب كل حقده عليهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (نلسن) متحمسًا.. لم يضيع الوقت فى استكشاف المنطقة قبل أن يصف سفنه فى خط قتال.. هذه هى التقاليد البحرية لكن حماسه جعله يتجاهلها..

(بروى) كان مصابًا بالإسهال.. وهذا يجعل معركة (أبو قير) معركة بين الضروس الملتهبة والإسهال.. لابد أن الإسهال أكثر تأثيرًا على حكمة القرارات من الضروس لأن أغلب قرارات الفرنسي كانت خاطئة..

عند المساء تسابقت البارجتان البريطانيتان (زيلوس) و(جوليات) نحو الميناء.. تمكنت (جوليات) من السبق فتعالت صيحات البحارة مهللين فى مرح..

رد الفرنسيون بصوت رقيق خائف محاولين الهتاف، لكن المحاولة كانت مضحكة جعلت البريطانيين ينفجرون فى ضحك من طراز:

- «هع هع هع هاااع!»

وتمكن قائد (جوليات) من أن يحشر نفسه بين السفينة الفرنسية (جورييه) والساحل..

- «هييييه! رائع!»

لم تكن هذه من البريطانيين، ولكن من البدو الذين جلسوا على الشط يرقبون المعركة مهللين كأنهم يتابعون مباراة بين الأهلي والزمالك.. لابد أن المشهد كان رائعًا..

هنا وجد قائد (جوليات) نفسه أمام سفينة فرنسية بحجم صفحة هذا الكتيب.. فرقاطة فرنسية (كتكوتة) هى (سيريوز) تحمست للقتال وأطلقت مدافعها على (جوليات) فلم تحدث سوى خدش..

صاح قائد (جوليات) بصوته الفظ الخشن:

- «أغرقوا هذا الحيوان! ماذا يفعله هنا؟»

على الفور ضربت دفة (جوليات) الفرقاطة فأرسلتها إلى القاع..

كانت السفن البريطانية الآن بين السفن الفرنسية.. بالتالي صار بوسع كل سفينة أن تطلق مدافعها على سفينتين فرنسيتين فى الوقت ذاته.. أما سفن المؤخرة الفرنسية فكانت الريح تمنعها من اللحاق لنجدة زميلاتها..

ألف مدفع يهدر بلا انقطاع.. لذا صار الوميض يعمى العيون والدخان يتصاعد إلى القمر نفسه..

فى بعض اللحظات تم تبادل النيران بالمسدسات عبر السفن المتلاصقة..

كانت السفن فى ذلك العصر تحمل النساء.. وهو ما يفسر لنا وجود (عبير) على السفينة الفرنسية (لوريان).. ويفسر لنا كذلك كيف ولدت امرأة على ظهر السفينة البريطانية (جوليات).. هذا أول طفل يولد على سفينة تتبادل القصف بالمدافع..

هذا هو تقريبًا الوقت الذى هوت فيه قذيفة على (لوريان) فقتلت الجنرال (بروى) قائد الأسطول الفرنسي.. وهى القذيفة التى أيقظت (عبير) من نومها فى قاع السفينة..

إن (لوريان) سفينة عملاقة، وقد وصفها (الجبرتى) بأنها (القايق الكبير نصف الدنيا الذى وضع به الفرنساوية أموالهم وذخائرهم)..

استسلمت (الكونكران) و(الجورييه) للبريطانيين، وجرح (نلسن) فى رأسه.. المشكلة هى أن الجرح جعل جفنه يسقط على عينه السليمة الوحيدة فلم يعد يرى تقريبًا..

صاح وهو يفرد ذراعيه بحركة تمثيلية:

- «لقد قتلت! أنا شهيد! تحياتى لزوجتى! لقد اختار لى العلى القدير ميتة الأبطال»

لكنهم قالوا له إنه لم يمت بعد وإن عليه أن يكف عن الصراخ لحظة.. وحملوه إلى غرفة الجراحة حيث خاط له الطبيب جفنه..

كل هذا والمعركة متبادلة بين الطرفين.. لا يمكن التنبؤ بالمنتصر..

ثم بدأ كل شىء يتغير عندما اشتعلت نار بسيطة على ظهر القايق الكبير نصف الدنيا.. أقصد البارجة (لوريان)..

سرعان ما تمكن البحارة من إخماد هذه النار.. هنا نجد اللعبة المعتادة لدى النيران: إنها لا تنطفئ كما تظن أنت أبدًا..

بعد ربع ساعة وجد البحارة أن النار تغطى ظهر البارجة كله..

- «مضخة الماء!»

- «مكسورة!»

- «أحضروا البلط!»

- «إنها تحت الأنقاض!»

- «الدلاء؟»

- «مبعثرة.. لا يمكن جمع عدد كاف منها..»

- «عليكم اللعنة إذن!»

كانت (عبير) على الشاطئ تراقب هذا الجحيم فى عرض البحر.. الحقيقة أنها لا تصدق إلا بصعوبة أنهم فى الليل.. وميض المدافع يحيل المشهد لحفل نهارى متواصل..

رأت البحارة يقطعون الحبال التي تربط السفينة (تونان) بالبارجة (لوران) لأن النار قد تصل لهم عبر هذا الحبل..

وبعد ساعة من المناقشات وجد القوم أن السيطرة على النيران مستحيلة، وأنه لابد من ترك البارجة (لوريان) لمصيرها.. لقد مات (بروى) على كل حال..

هكذا وثب نحو مائة من الفرنسيين إلى قوارب النجاة.. بالطبع دون أن يحملوا جرحاهم..

رأت (عبير) رجلًا عاريًا تمامًا يسبح حتى وصل إلى الشاطئ، ثم بدا أنه تذكر شيئًا فعاد إلى السفينة المشتعلة.. هل سيحضر ما يستر به عريه؟ لا..

لقد عاد سباحة إلى الشاطئ وقبعته بين أسنانه!

كانت تعرف ولع الغربيين بالقبعات، لكن ليس لهذا الحد..

حينما خرج من الماء رمى له البدو بما يستر عريه، بينما أشاحت هى بوجهها..

قال له الشريف (حسان) فى خشونة:

- «أنتم أعداؤنا.. لكننا لا نرحب بقتال النساء ولا إيذائهن، وأنت تبدو لى شبيهًا بالنساء.. هذا الظرف يستدعى أن نزيح الخلافات جانبًا.. دعك من أنك غير مسئول عن حماقات (صارى عسكر)..»

هتفت (عبير) فى الفرنسي مغتاظة:

- «لابد أنك مجنون.. القبعة فى هذه الظروف؟ كان الأجدر أن تجد ما تستر به عريك.. فكر فى كرامة الجمهورية.. فيف لا فرانس.. فيف لا ريبابليك!»

قال فى حماس وهو يلتف بالجلباب البدوى الواسع:

- «أنا الملازم أول (شيرى).. لست مجنونًا أو من هواة الاستعراض.. لكن القبعة هى الشىء الوحيد الذى يثبت لقواتى وللبريطانيين أننى ضابط!»

(شيرى)؟ هذا غريب..

بما أن الحرف الأخير يتم تجاهله لدى الفرنسيين على الأرجح، فما هى الطريقة التى يلفظون بها اسم (شريف) يا ترى؟

أشار لرأسه وقال فى فخر:

- «لا شىء مثل سرعة البديهة وقت الخطر.. إن ما فى رأسى ليس عقلًا لكنه جهاز كمبيوتر»

جهاز كمبيوتر؟ هل كان هناك وجود لهذه الكلمة عام 1798؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- قد تموت الأفاعي من سموم العقارب..

انفجرت البارجة (لوريان)..

أضاء وميض الانفجار (رشيد) و(الإسكندرية).. ربما يزعم المبالغون أنهم رأوا الوهج فى اليونان أو إيطاليا.. لكنى أعتقد أن هذا سخف..

كان الانفجار عبقريًا هو خليط من الأخشاب والأشلاء والنيران والمسامير والحبال والدخان والذخيرة الباقية..

وفجأة ولسبب مجهول توقف القتال نحو عشر دقائق ولأول مرة منذ ساعات.. كأن رهبة المشهد جعلت الجميع عاجزين عن عمل أو قول شىء..

غاصت البارجة (لوريان) وعليها تماثيل من ذهب وفضة وصناديق آثار سرقها الفرنسيون من كنائس مالطة.. ولسبب كهذا سوف يبقى خليج (أبو قير) مكانًا محببًا للغواصين الباحثين عن كنوز..

وقف (شيرى) على الشط ونزع قبعته فى أسى احترامًا للزملاء الذين حملتهم (لوريان) إلى القاع..

(عبير) المحظوظة التى رأت الكثير فى مغامرتها، تذكرت على الفور مشهد غرق (أريزونا) فى مياه (بيرل هاربر)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قائد السفينة الفرنسية (تونان) راح يواصل القيادة وقد فقد ساقيه وذراعيه.. هذا المقاتل النبيل يدعى (دوبتى توار) قد تحول إلى جذع لا أكثر يصدر التعليمات..

ثم رأى أنه ينزف بغزارة.. فقال:

- «لعلى أفقد حكمتى مع دمى.. ولسوف أفقد القدرة على القيادة الحكيمة..»

ثم صوب المسدس على رأسه وأطلق الرصاص..

عرفت (عبير) بهذه القصة من البحارة العائدين إلى الشط فقالت فى دهشة:

- «كيف أطلق الرصاص على رأسه ما دامت ذراعاه بترتا؟»

نظر لها البحار الذى أخبرها بالقصة فى دهشة ثم راح يتكلم فى مواضيع أخرى.. الحقيقة أن التاريخ يحتاج إلى تدقيق؛ لأن أمورًا كثيرة تبنى على مثل شهادة هذا البحار المذعور الراغب فى كسب الاهتمام..

إنها الثالثة صباحًا..

يبدو أن البدو قرروا أن كرمهم تجاوز الحد، لذا بدءوا يمارسون هوايتهم فى خطف الفرنسيين وقتلهم.. لا يمكنك أن تعفو عن 300 جندى فرنسى على كل حال..

قال لها الشريف (حسان):

- «قد تموت الأفاعى من سموم العقارب.. هذا شطر من بيت شعر عربى شهير..»

- «لا أفهم..»

- «هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. لكننا تمنينا لو قضى الأسطولان على بعضهما.. أما وقد انتهى الأمر فإننى أطلب الإذن للقيام بواجبى.. سنخطف بعض الفرنسيين كما هى العادة..»

- «أوه.. إننى أفهم ذلك..»

- «إذن أرجو أن تسامحينى.. أنت تتفهمين الأمور طبعًا.. سنبدأ بك!»

وهكذا وجدت نفسها مقيدة بالحبال تقاد إلى خيام البدو.. ليست أبشع نهاية ممكنة إذا قورنت بالاحتراق فى عرض البحر..

على كل حال لقد فقد الفرنسيون معظم سفنهم بين انفجار وغرق واستسلام.. خسارة الإنجليز فادحة لكن لم تغرق أية سفينة لهم..

وفيما بعد سيلقى بونابرت بلوم كل ما حدث على (بروى) وعلى ربانى السفينتين (جوربيه) و(كونكران).. سوف يكتب لحكومة الإدارة فى فرنسا تقريرًا يتهم فيه (بروى) بكل شىء تقريبًا..

فهو أحمق مارق مخالف للأوامر متمرد جبان وغد.. وينهى التقرير ب. (لقد أحسن صنعًا إذ مات).. كتب هذا التقرير ومعه كتب خطاب تعزية لأرملة (بروى) التى هى (زوجة صديقى)..

ولخص الموقف قائلًا: «لا يمكن اعتبار سلوك (نلسن) فى (أبو قير) مثلًا أعلى، لكنه وبحارته أظهروا أقصى ما عندهم من مهارة وجهد، بينما أظهر الأسطول الفرنسي ما يماثل هذا عجزًا وجبنًا!»

نعم.. كان الفرنسيون جبناء.. مات منهم أميرال وثلاثة ربابنة و1700 بحار.. وجرح عدد مماثل منهم.. لكنهم جبناء برغم كل شىء ما دام (بونابرت) أراد ذلك..

أما (نلسن) فقال:

- «لقد بارك العلى القدير جيوش صاحبة الجلالة»

كأنه كان ينفذ أوامر العلى القدير عندما مزق 4000 جثة منها النساء والأطفال.. لقد مات 218 بريطانيًا وجرح 677.. ودفن القتلى فى الجزيرة التى تعرف اليوم باسم (جزيرة نلسن)..

الخليج الهادئ صار بحيرة من الجثث الميتة والدماء والأخشاب المحترقة.. ولعدة أسابيع قادمة ستظل النيران مشتعلة فى المياه كأنها نصب تذكارى للمعركة..

وعلى الشط وقف (نلسن) يستعرض الأسرى الذين بلغ عددهم 3200أسير..

مر بأول جندى فالثانى فالثالث ثم أصابه انهيار عصبى.. من المستحيل أن يوفر الطعام والمأوى لكل هؤلاء.. إنهم مصيبة هبطت على رأسه..

لكن مزاجه السيئ راق أخيرًا عندما تلقى رسالة من حبيبته جميلة الجميلات (ليدى هاملتون)

التى ما زالت أية صورة زيتية لها تخطف أنفاس من يراها حتى اليوم..

- «لو كنت ملكة إنجلترا لرفعتك إلى رتبة الدوق.. صاحب الشرف الرفيع.. ماركيز النيل.. إيرل الإسكندرية.. فيكونت الهرم.. بارون التماسيح.. أمير النصر..»

ابتسم واحمر وجهه لهذه الكلمات التى لن تستطيع (أم العيال) أن تقول ربعها ولو بعد ألف سنة.. وقدر فى سره أن العلى القدير راض عنه..

لهذا نظر إلى الأسرى الفرنسيين وأصدر فرمان العفو:

- «أرسلوهم إلى الإسكندرية.. إلى الجنرال (كليبر).. هم ليسوا مشكلتى..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت معاملة البدو لها حسنة..

لا تنكر هذا..

كان اختطاف الفرنسيين يتم بغرض الإزعاج - وهو الأعم - أو الحصول على فدية أو مبادلتهم.. و إن قدرت أنها باقية للأبد على الأرجح لأن أحدًا لن يبالى بدفع فدية لها.. وكانت تقضى أكثر أيامها مع نساء البدو فى خيامهن تتعلم كيف تصنع السلال أو تخض اللبن..

فقط عرفت منهم أن الخبر الأسود بلغ بونابرت وهو فى الصالحية يوم 13 أغسطس.. لكن القائد الكبير قيم الموقف جيدًا.. لو حسب (نلسن) أنه سجن الجيش الفرنسي فى مصر فهو مخطئ.. هناك سفن كثيرة فى رشيد والإسكندرية.. دعك من أنه قرر أن يستولى على القاهرة.. إن اسم القاهرة له سحر خاص بينما اسم (أبو قير) لا سحر له.. هكذا عندما ذاعت أنباء هزيمة بونابرت فى (أبو قير) كانت أنباء الاستيلاء على القاهرة تقهرها وتقلل من أهميتها..

أما آخر ما قام به بونابرت فهو أنه ألقى - كعادة العظماء - بالذنب كله على عاتق رجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه هو (بروى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- من هو؟

انحنى على ستار الخيمة الذى يغطيها، وأزاحه جانبًا فصرخت نساء البدو مذعورات.. رحن يجرين والخلاخيل فى كواحلهن تصطك فتحدث صوتًا يضاف إلى الصراخ..

هرع رجال البدو الملثمون حاملين سيوفهم وبنادقهم معتزمين تمزيق هذا المتسلل إلى أشلاء.. لكنهم رأوه واقفًا فى أناقة ويداه في جيبيه فتراجعوا.. وقال أحدهم:

- «المرشد؟ لو كنت أخبرتنا بقدومك بدلًا من هذا الظهور المفاجئ؟»

قال فى برود:

- «لا مشكلة.. سرنى أن رأيتكم متأهبين يقظين.. أين أسيرتنا الحسناء؟»

أطلت (عبير) من الخيمة.. لقد حان الوقت إذن..

قالت له وهى تنفض الرمال عن ثيابها التى صارت خليطًا من ثياب أوروبية وثياب بدوية:

- «إلى أين؟»

قال لها فى جدية:

- «أولًا.. هل عثرت على (شريف)؟»

- «شكوك.. الكثير من الشكوك.. لكن لا يقين..»

هز رأسه بما يعنى أن غباءها متوقع على كل حال، ونظر فى كتيب صغير يحمله.. أقرب إلى مطويات الأماكن السياحية وقال:

- «الخطة بعد ذلك تتضمن غرق (الأرمادا Armada) الأسبانية.. هل أنت مستعدة؟

- «وماذا لو لم أكن؟ أنت من يعطى الأوامر هنا.. على الأقل مؤقتًا..»

- «إذن هيا بنا..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانا الآن يقفان أمام البحر حيث تقف سفن أسطول هائل..

أسطول لم تر مثله من قبل.. لكن السفن عتيقة الطراز.. لو شئت الدقة لقلنا إننا نقف فى حقبة بين (ذات الصوارى) و(أبو قير).. حقبة وسيطة.. والسفن ليست قديمة لدرجة الرومان وليست حديثة لدرجة البحرية الأمريكية.. لكنها تعرف هذا الطابع..

- «ما هى الأرمادا؟ إننى أعرف هذا الاسم»

- «لفظة أسبانية معناها جيش.. لكنها دخلت اللغات الغربية بمعنى (أسطول كبير).. عامة كان الأسبان يطلقون على أسطولهم عبارة طويلة معناها (الأسطول الأعظم والأكثر توفيقًا)»

وحك رأسه ثم قال لها:

- «نحن الآن قرب ممر (دوفر) عام 1588.. فيليب الثانى ملك أسبانيا أرسل جيشًا جرارًا ليعيد إنجلترا إلى الكاثوليكية بعد ما صارت بروتستانتية.. كما ترين هذه حرب تبشيرية أخرى.. وبالطبع تحظى بتأييد كامل من بابا الفاتيكان.. بالنسبة له تعتبر إنجلترا دولة مارقة كافرة إذن المواجهة بين سيد البحر إسبانيا والبرتغال ضد إنجلترا وهولندا»

ثم راجع الأرقام فى يده وقال:

- «هناك 18000 جندي و7000 بحار أسبانى اتجهوا للقنال الانجليزى.. انتظرهم 30000 جندى أسبانى للاشتراك معهم.. الهدف نقل جيش من 65000 جندى إلى لندن..»

سألته فى حذر:

- «جميل.. لا أريد استباق النتائج لكنى أريد معرفة الفريق الخاسر.. المفترض أن يكون (شريف) بين بحارته حسب كلامك الشبيه بنبوءة العرافين»

- «قلت لك إن الحدث هو غرق الأرمادا.. لا يمكن أن يكون الأسطول الغارق هو المنتصر لو أردت رأيى.. فى الحقيقة يبالغ البريطانيون فى تضخيم هذا النصر.. التدقيق التاريخى يكشف أن معركة نفسها لم تدمر الكثير من السفن الأسبانية.. من بين 167سفينة لم يغرق سوى 3، فقط تكفل الطقس الرديء والأعاصير بإغراق نصف عدد السفن الأسبانية.. لهذا هناك مبالغات حول أهميتها.. لكنها مهّدت الطريق لهزيمة أسبانية الكاملة عام 1604.. هكذا صار البحر ملكًا لبريطانيا وفرنسا»

ثم عاد يراجع الأرقام:

نجلترا خسرت الكثير من البحارة فيما بعد.. حوالى 8000بحار هلكوا لكن ليس بيد الأسبان لكن بيد الزحار (الدوسنتاريا).. فى كل مرة يبرهن المرض على أنه أقوى من أى جيش فى العالم..»

قالت وهى تتهيأ للانطلاق:

- «جميل.. هيا بنا.. (شريف) موجود فى الأسطول الأسبانى إذن.. هذا واضح»

لكنها فوجئت بأنه ما زال واقفًا يرمقها فى خبث..

سألته:

- «ماذا بك؟»

- «هل حقًا لم تجديه بعد؟»

- «بالطبع لم أجده.. مجرد شكوك..»

جلس على صارية ووضع ساقًا على ساق وقال:

- «فكرى معى.. استرجعى شكوكك أيام (بيرل هاربر)..»

قالت مذعورة:

- «أنت قلت إنها خطأ وإن (شريف) ليس فى القصة..»

- «لم أزعم العكس.. لكن أرجوك أن تتذكرى..»

قالت وهى تحاول التذكر:

- «كان هناك (توم).. لم يكن يشبه (شريف).. لكنه قال عبارة موحية هى (أتمنى لو وجدت جهازًا يمنحنى القدرة على النوم بلا كوابيس.. ربما أريد جهازًا يمنحنى أحلامًا جميلة..).. ربما كان يلمح إلى (دى جى).. أنت تربكنى الآن..»

قال المرشد كأنه (شيرلوك هولمز):

- «كان موحيًا لكنه كان يعمل تحت إمرتك.. كنت أنت رئيسه.. أعتقد أن هذا يضعف الاحتمال نوعًا.. وماذا عن (أكتيوما)؟»

قالت محاولة التذكر:

- «فى أكتيوما كان هناك ذلك البحار الوسيم الأسمر الذى يحب (شرميون).. لكن لم يكن له دور على الإطلاق.. مجرد كومبارس.. ثم قابلت (أكتافيوس).. قال لى كلمة موحية أخرى هى (فقط فى عالم الأحلام يمكن أن يهزم (أكتافيوس).. تذكرى هذا يا صغيرة.. إن عبير النصر يزكم أنفك).. لماذا تحدث عن الأحلام مع وصيفة لا أهمية لها؟.. لماذا استعمل لفظة (عبير)؟»

قال المرشد:

- «فعلًا احتمال قوى.. لو كان شريف متنكرًا فى فانتازيا فلسوف يكون (أكتافيوس) الإمبراطور المغرور.. هكذا ستتخيلينه.. وماذا عن (ذات الصوارى)؟»

قالت وهى تمعن التفكير:

- «لم تكن هناك تلميحات.. لكن التلميحات كثرت مع (أبو قير).. البدوى نفسه كان يدعى (شريف) ثم اتضح أن اسمه الكامل هو (الشريف حسان).. هناك ذلك الضابط الفرنسي العارى الذى أصر على استرداد قبعته.. إنه يدعى (شيرى).. فقط بقى حرف واحد على (شريف).. ثم إنه وصف رأسه بأنه كمبيوتر آدمى قبل أن يسمع العالم عن لفظة كمبيوتر..»

قال المرشد:

- «من الصعب أن ترى (شريف) عاريًّا.. هو من الطراز الذى يفضل الموت على أن يراه أحد فى وضع غير لائق.. الكلام عن الكمبيوتر محاولة تضليل لا أكثر»

قالت فى غيظ:

- «إذن هو ما قلته.. لم يوجد (شريف) فى أية قصة.. إن هى إلا حجة أدخلتني بها فانتازيا فى كل قصص غرق الأساطيل فى التاريخ.. ولا شك فى أن قصة الأرمادا لن تفيد كثيرًا»

قال المرشد:

- «بالعكس.. كان شريف موجودًا فعلًا.. وكانت هناك علامة مهمة.. القصة الوحيدة التى لم تتلق فيها تلميحًا.. ألم تسألي نفسك عن السبب؟ (شريف) كان فى قصة ذات الصواري وأنقذك

من الأسر.. كنت تحملين نحوه عاطفة متناقضة بين مقتك له لأنك عربية، وحبك له لأنه أنقذك.. هذه هى عاطفتك نحو (شريف) بالضبط.. إنه البطل والوغد معًا..»

هتفت فى ذهول:

- «(شريف) هو (فيريس)؟»

- لو فكرت فى هذا الاسم الغريب الذى لا يحمل أى طابع رومانى لفهمت.. اسمه كان يكتب FIREHS وهو هجاء مقلوب للفظة SHERIF..»

غطت وجهها غير مصدقة.. يا للغباء!

قال لها المرشد:

- «على كل حال هذا يدل على أنك لن تجدى ما هو جديد فى قصة الأرمادا.. لقد جعلتك فانتازيا تعيشين أحداث (بيرل هاربر) و(أكتيوما) و(ذات الصوارى) و(أبو قير).. المرء لا يستطيع أن ينال كل شىء فى الحياة..»

قالت له:

- «وماذا لو كنت قد عرفته؟»

- «ربما كان سيقدم لك الحل لتنفذيه بمعرفتك.. الآن لم يعد من مناص من أن تجديه فى عالم الواقع.. هذا لو شئت إنقاذ فنتازيا..»

نظرت إلى البحر حيث ترامت سفن الأسطول الأسبانى، وحيث بدأت الطلقات الأولى تخرج من المدافع.. كل هذا خيالها هى.. هى صنعته.. هذه هى فنتازيا وهى لا تنوى التخلى عنها مهما حدث..

قالت وهي تبتعد دون أن تحول وجهها:

- «سوف أنقذها.. أعدك أننى سأفعل ذلك»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تعاني (عبير) عقدة نفسية مستعصية، ولا تجد حلًا سوى أن تلجأ لعون عدد من أطباء علم النفس يتزعمهم (سيجموند فرويد) نفسه..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

روايات مصرية للجيب

50

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

هي والأنا



(كلمه مهمة(:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (50)

هى والأنـا

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتشب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- لقـاء تأخـر..

تنظر لها السكرتيرة بعينين زرقاوين باردتين من فوق إطار العوينات المنحدرة على قصبة أنفها.. كلهن لهن عيون زرق هذه الأيام ولا يمكنك أن تعرف الحقيقة أبدًا..
تتوقف الفتاة عن الكلام فى الهاتف وتزيح قدح (الكابوتشينو) الموضوع أمامها، ثم تسأل(عبير):
- «طلباتك؟»
إذن هى من النوع الذى يقول (طلباتك؟) مثل الأخرى.. شريف يعيش فى عالم متشابك صناعى معقم تحيط به فتيات يلبسن عوينات رقيقة ويقلن (طلباتك)..
ثم تلك الأخرى التى تلبس الجينز والبادى ولها شعر منكوش مصبوغ بلون أشقر.. ماذا تريد؟.. ولماذا تقف جوار المكتب ترمقها ولا ترفع عينيها عنه؟.. لا تكره (عبير) شيئًا سوى الذين ينظرون لها فى فضول كأنها أغرب شىء فى العالم رأوه فى حياتهم.. دعك من أن فى هذا كله طابعًا لا يخفى من الهستيريا.. التمثيل..
- «هل المهندس (شريف) موجود؟»
- «أقول له من؟»
ترددت حينًا ثم بللت شفتها السفلى بلسانها، وقالت:
- «(عبير)..»
رفعت الفتاة الأولى السماعة وتكلمت.. بصوت غير مسموع، ثم رفعت عينها نحوها وأشارت بترفع إلى الردهة الجانبية..
تمشى (عبير) فى ممر ضيق.. على الجانبين غرف لها باب زجاجى.. عشرات المكاتب.. يذكرها الأمر بعشرات الأفلام الأمريكية التى رأتها.. هذا جو متصنع غير أصيل.. لكن إلى أين؟
هنا وجدت أنها تنظر إلى (شريف) الذى فتح باب مكتبه ووقف ينتظرها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطبيعة الحال كان اللقاء مربكًا غريبًا..
هذا الرجل كان زوجى وكان يعرف أدق أسرارى.. فجأة.. نحن غريبان بالكامل.. ليس من حقه أن يلمس يدى أو يغلق باب مكتبه علينا..
تجربة عجيبة هى.. ليست أليمة إلى هذا الحد لكنه غريبة..
رواية (تولستوى) الضخمة التى قرأتها عدة مرات، وخططت فيها آلاف الخطوط، ورسمت على هامشها رسومًا عديدة بيدك الساذجة المتعرجة.. هذه الرواية باعتها أمك لتاجر الأشياء المستعملة.. بعد عامين وجدت ذات الرواية.. وجدتها عند بائع الكتب المستعملة.. مددت يدك تتصفحينها فجاء صوت البائع الصارم:
- «هذه ليست طماطم يا (أبلة).. لا تتلفى الكتب ما لم تكن عندك نية الشراء..»
نظرت له غير مصدقة.. الكتاب الذى كان لك وتعرفين كل صفحة فيه.. خطوطك فى كل سنتيمتر منه.. هذا الكتاب لم يعد من حقك أن تتصفحيه أو تطيلى النظر له.. فقط من أجل قهر هذا الشعور القاسى ابتعت الكتاب من جديد..
هذه المرة لن تبتاعى (شريف) من جديد.. لقد انتهى كل شىء يا صغيرة..
تجلس على مقعد دوَّار متعب كأنها على صهوة حصان فى مباراة (روديو).. لو ظلت جالسة دقيقة كاملة ولم تسقط فلها هذه البندقية (الونشستر) جائزة.. يا هووووووه!.. ما أجمل حياة

الغرب أيها العم (ماكماهون) العجوز..
هو كذلك - (شريف) وليس العم (ماكماهون) - يجلس على مقعد مماثل ويضع قدميه على قطعة بارزة من المقعد..
كان (شريف) محتفظًا بوسامته وأناقته.. يبدو مديرًا تنفيذيًّا فى شركة أمريكية أكثر من أى شىء آخر.. ما زالت خصلة الشعر على جبينه تعطيه ذلك الانطباع بالطفولة، وما زالت فى عينيه تلك السذاجة التى تقول إنه لا يفقه شيئًا عن العالم الخارجى تقريبًا.. (فالنتين مايكل سميث) فى رواية (غريب فى أرض غريبة).. الفتى الذى تربى فى المريخ ولا يعرف أى شىء عن طريقة حياة الأرضيين ولا قواعدهم..
صمت طويل مربك ساد.. قطعه بأن قال:
- «هل تشربين شيئًا؟»
هزت رأسها أن لا..
- «كيف حالك يا (عبير)؟ وكيف حال؟»
- «بخير..»
لسبب ما شعرت بأنها لا ترغب فى أن تسمح له بنطق اسم ابنتهما.. يجب أن تتكلم بسرعة.. يجب.. لا ينبغى أن يعتقد للحظة أنها جاءت تجدد الوداد أو تستجدى مالًا أو أى شىء من هذا القبيل.. مهمتها محددة شبه رسمية وعليه أن يعرف هذا..
رسمت على وجهها تعبير فتاة ترغب فى إصلاح جهاز الكمبيوتر الخاص بها ونظرت له فى حزم..
رباه!.. لشد ما تحملت وقاومت.. لشد ما ضغطت على كبريائى كى آتى هنا..!.. كم هو ثمن باهظ أدفعه لـ (فانتازيا)..
قبل أن تفتح فاها قال باسمًا:
- «البرنامج ليس على ما يرام.. أليس كذلك؟»
نظرت له فى دهشة، وقالت:
- «كيف عرفت؟»
- «لأنك لن تأتى إلا لهذا السبب.. أنا أعرفك جيدًا..»
قالت وهى تشعر بامتنان شديد لأنه أراحها من التفسيرات:
- «الكمبيوتر كله ليس على ما يرام.. يريدون منى أن أستبدل القرص الصلب.. هذا معناه مسح البرنامج..»
- «هذا صحيح.. لكن الجهاز قديم جدًّا على كل حال.. أعتقد أنه تداعى تمامًا..»
- «والحل؟»
فكر حينًا ثم نهض.. اتجه إلى ركن المكتب وانتقى شيئًا يشبه الحقيبة، ثم فتح الدرج وراح يعبث وسط مجموعة من الأقراص المدمجة.. فى النهاية دس قرصًا فى الشىء الذى اتضح أنه جهاز كمبيوتر محمول.. وراح يقوم بعملية ما.. ربطة عنقه تتدلى على لوحة المفاتيح فيزيحها جانبًا ويواصل ما يقوم به..
سألته وهى تجلس على طرف المقعد:
- «هل هناك أمل ما؟»
قال وهو ينظر إلى الشاشة:
- «الحقيقة أننى وجدت عندى نسخة من البرنامج.. كنت أحسب أننى تخلصت من كل النسخ، وأنت تعرفين أننى صرفت النظر عن الفكرة، لكن هذه النسخة صالحة.. تعالى هنا..»

نهضت (عبير) فى حذر ووقفت جواره.. نظرت إلى شاشة الجهاز المحمول فرأت أيقونة على سطح المكتب كتب تحتها DG..
أغلق الجهاز المحمول باسمًا، فسألته:
- «المشكلة هى جهاز الكمبيوتر نفسه.. كيف أنسخ هذا البرنامج عليه وهو تالف؟»
قال وهو يصلح من ربطة عنقه:
- «لا مشكلة.. لن تنسخى أى شيء.. فلتحتفظى بجهاز الكمبيوتر القديم باعتباره (عشة دجاج.. هذا الجهاز لك!»
ووجدت الكمبيوتر المحمول فى يدها.. فهتفت وهى تثب للوراء كأنها قط مبتل:
- «مستحيل.. كم ثمن هذا الشىء؟»
قال محتفظًا بابتسامته الهادئة:
- إنه باهظ الثمن.. لكنه يخصنى وقد انتويت أن أستبدل به واحدًا أحدث.. أرجو أن تقبليه وأعتقد أنك لن تجدى عسرًا فى توصيله إلى الأقطاب.. العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل..»
- «مستحيل..»
قال فى برود:
- «لا أعرف طريقة أخرى لاستعادة البرنامج.. إما أن تأخذى الجهاز بما عليه أو تنسى الأمر..»
- «يمكن أن أصلح الجهاز القديم وأنسخ عليه البرنامج..»
- «لا أضمن أن يظل سليمًا أسبوعًا آخر.. هناك أشياء يعتبر إصلاحها حماقة ومضيعة للوقت..»
- «لن أقبل هذا الشىء..»
- «خذيه أو اتركيه.. أنت تعرفين جيدًا أننى لا أقدم هذه الهدية لأى غرض آخر سوى رغبتى فى أن أريحك.. لن أقبل ثمنًا..»
كانت تعرف أنه صادق.. هو لا يريد منها أى شىء.. هو لا يقيم المال كما يقيمه الآخرون، فقد كان طيلة حياته يجد ما يفيض منه.. لكن لماذا يتخلى المرء عن شىء باهظ الثمن كهذا؟ هل لمجرد الشفقة أم المجاملة أم هو شىء آخر؟
لا تدرى حقًّا..
كان الإغراء قويًّا.. لن تعود هنا أبدًا فلماذا لا تأخذ ما تقدر عليه؟ عندما يتعلق الأمر بفانتازيا فالأمر يختلف عن مجرد جشع مادى عادى..
لقد نسيت أن تشكره أو تهز رأسها محيية.. فقط أخذت الجهاز..
هكذا نهضت ووضعت الحقيبة تحت إبطها.. نظرت إلى الأرض ولم تجد شيئًا تقوله على الفور، سوى:
- «كيف؟ كيف حال المدام؟»
كان سؤالًا غبيًّا.. أغبى سؤال ممكن..
لكنه قال وهو يدس القلم فى جيب قميصه ذى اللون السماوى:
- «لا توجد مدام.. لقد تم طلاقنا منذ شهرين يا (عبير)..»
نظرت له لربع ثانية، ثم سرعان ما خرجت من الباب..
سمعته يناديها لكنها لم تتبين ما يريد..
كانت تركض تقريبًا فى الطرقات حاملة كنزها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- كابوس..

هل تم الانتقال بسلاسة أم أنها تخيلت هذا؟
هى تعرف أن الأمر رقمى.. أى إنه يجب أن يتم بذات الطريقة فى كل مرة.. لن يجعلها الجهاز الجديد تنتقل بسلاسة أكثر ما لم يكن شىء قد تبدل فى البرنامج.. لكن كل شىء حدث بسهولة فعلًا..
هى الآن تقف فى فانتازيا.. الهواء يطير شعرها وإلى جوارها يقف المرشد ينظر لها باسمًا بتلك الطريقة التى تقول (ثمة - خطأ - ما).. لكنك لا تعرف الخطأ أبدًا..
قال لها:
- «مرحبًا يا أليس.. ها نحن أولاء نعود للأيام الحلوة الخالية..»
قالت فى تحفظ:
- «لقد غامرت فاستعدت البرنامج ومعه جهاز كمبيوتر أنيق..»
- «حقًّا.. جهاز أنيق عالى القدرات.. لكن هل يدل هذا التصرف على شىء معين؟»
- «لا أهتم.. يدل على أنه مهذب للغاية أو إنه يشفق علىّ للغاية.. لا أريد التكهن.. المهم أننى هنا والآن..»
- «ألم تفكرى فى احتمال إضافى؟»
نظرت له طويلًا ولم ترد، فقال:
- «هل كنت ترغبين فى الحصول على البرنامج فقط عندما ذهبت؟ هل كان هناك سؤال يعتمل فى عقلك الباطن؟ ألم تتلقى الجواب عنه؟»
صعد الدم إلى رأسها.. ليس بالضبط.. لقد احتشد فى خديها.. لم تسامح نفسها على هذا.. كان الاحمرار نتيجة الحياء لكنها نجحت بكثير من الجهد أن تحوله إلى حنق..
- «أنت تهذى.. لست تافهة إلى هذا الحد.. لست بلا كرامة إلى هذا الحد!»
ثم أضافت:
- «ماذا حدث بعد ما أخذت الجهاز؟ نسيت كل شىء عما قاله (شريف).. تركز كل تفكيرى فى الجهاز..»
قال المرشد بذات الطريقة الخبيثة الغامضة:
- «نعم.. إن الدافع كان قويًّا إلى حد أن الكبت كان أعلى.. لم تجسرى على أن تعترفى لنفسك بشىء كهذا..»
ثم سألها وهو يعبث بالقلم الجاف الذى يحمله (تك - تتك):
- «هل رأيت أية أحلام أثناء الانتقال؟»
- «لا أعتقد.. تم هذا بسرعة.. ولكن.. أعتقد أننى رأيت نفسى راقدة على منضدة جراحة.. يبدو أنها جراحة تأخرت كثيرًا.. كان الجراح هو مدرس اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية.. كنت خائفة، لكنه قال لى: العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل..»
قال المرشد:
- «هذا هو عقلك الباطن يفصح عن مكنوناته.. أنت تحلمين بالعودة لشريف..»
- «أنت مخبول!»
- «وأنت تكبتين هذه الرغبة بقوة.. لا تعترفين بها لنفسك.. إن العملية الجراحية هى الصيغة

الرمزية لدى العقل الباطن ليرمز للزواج.. مدرس اللغة العربية يقول لك: العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل.. من الذى قال لك هذه العبارة؟ فكرى جيدًا..»
راحت تفكر.. ثم تقلص وجهها.. هذا صحيح!
قالت فى ارتباك:
- «قالها (شريف) عندما كان يتكلم عن توصيل الأقطاب بجهاز الكمبيوتر.. ما هى المشكلة؟»
- «مدرس اللغة العربية هو أول رجل تعرفينه فى حياتك عن كثب.. لهذا اتخذت منه نموذجًا لى.. باختصار: هو رمز الرجل الدائم عندك.. فى حلمك هذا تنكر (شريف) فى شكله.. هكذا ظهر (شريف) فى الحلم.. حلم له علاقة بالزواج وهي قصة (تأخرت كثيرًا).. كما ترين أنت تحلمين بالعودة لشريف لكنك لا تعترفين بهذا..»
قالت بمزيد من الارتباك:
- «أنت تزداد حماقة.. هذا لىٌّ لعنق الحقيقة بشكل مستفز..»
قال فى تواضع:
- «ربما.. لست واحدًا من المختصين الذين ستقابلينهم اليوم.. لكن المعتاد أن ينكر الناس ما يجابههم به المحلل النفسى.. ينكرونه وهم يؤمنون أنهم على حق فى هذا الإنكار..»
- «إذن ما المقياس؟ لم يكذب أى طرف هنا.. لماذا لا يكون سبب إنكارهم أن هذا هراء فعلًا؟»
- «لا يوجد مقياس.. لهذا يحبو علم النفس حتى اليوم.. ولهذا هو أقرب للفلسفة منه إلى باقى فروع الطب التى تقاس فى المختبر أو بالترمومتر وعد النبض وجهاز الضغط والميزان.. لا يوجد اختبار معملى يقيس الهستيريا.. لا يمكن تصوير الاكتئاب بالأشعة.. هذه هى المشكلة..»
حكت رأسها، ثم عادت تسأل:
- «قلت إننى سأقابل مختصين اليوم؟»
- «نعم.. لهذا سوف أتركك الآن.. فقط أنصحك أن تصغى جيدًا وأن تتعلمى شيئًا مما يقال..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للمرة الثالثة كانت الثعابين..
الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان.. هل الثعابين تتسلق الجدران؟ ربما.. إنها تفعل هذا هنا على الأقل..
كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا.. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًّا.. الهشاشة تبدأ بقدمين عاريتين..
كلهم هناك فى الجانب الآخر من البيت يصخبون ويتكلمون بصوت عال.. تعالوا وساعدونى.. إن أباها هناك.. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله..
فتحت فمها لتناديه. لكن أين ذهب صوتها؟ لا صوت على الإطلاق.. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء..
قدماها ثقيلتان.. حركتها غبية جدًّا..
الثعابين جاءت على رائحة الأسماك.. أسماك؟ هل كانت هناك أسماك؟ لا تذكر.. لكن رائحتها عطنة تملأ المطبخ من ورائها، وهى تعرف يقينًا أن خالها يكره أغانى (أم كلثوم)..
تصرخ من جديد..
لكن.. إنها قادرة على أن تمشى على الجدار.. لم تدر من قبل أنها قادرة على ذلك لكن هذا حقيقى..

يمكنها أن تتسلق الجدار وتلحق بالأسرة..
تمشي فى حذر وترى الدنيا مقلوبة.. تدنو من المكان الذى تجتمع فيه الأسرة..
ما هذه الشقة؟ ليست شقة أسرتها على الإطلاق.. هناك لوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل تجلس جوار بئر.. هناك مصباح قديم كئيب الضوء يتدلى من أعلى.. حذار من أن تلمسه وإلا صعقتها الكهرباء..
إنها تقترب من مصدر الصخب..
لكن.. لقد تأخرت كثيرًا..
الكل على الأرض وسط الثعابين والكل قد مات.. وجوه بنفسجية محتقنة وألسنة تبرز من أفواه.. لقد ماتوا.. لدغتهم الثعابين.. لا تعرف وجوه هؤلاء الموتى لكنها تعرف فى سرها أنها وجوه أسرتها..
تصرخ من جديد.. ترى هذا كله من أعلى وقوتها على التماسك تتلاشى.
لو سقطت لانتهيت..
لكن.. ما هذا الذى يزحف على ذراعك باردًا لزجًا مقززًا؟
يقولون إن الثعابين ليست لزجة.. ربما.. لكنها بالتأكيد باردة ومقززة و...

هذا لا يليق بك

تمسكي يا فتاة بماسورة المياه..
ماسورة مياه فى غرفة النوم.. لا مشكلة هنالك..
تمسكى بها جيدًا.. الشىء البارد يواصل الزحف.. إنه يتسلل إلى ما تحت إبطك.. إنه بالداخل بالكامل.. يزحف عند لوح كتفك..
لو كان ثعبانًا فقد حان وقت اللدغة..
تمسكى..
على الأرض يرفع ثعبان من نوع الكوبرا رأسه الشامخ الشرير ويفح.. تمسكى..
لكن الماسورة تنهار.. لن تأتى السقطة منك بل من الماسورة اللعينة..
الماء يتساقط فوق رأسك.. الماء يبلل كل شىء.. الماء..
ثم السقطة..
آهههههههه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلام..
صوت من يتكلمون..
ضوء أباجورة جوار الفراش..
الآن ترى امرأة فى منتصف العمر ورجلًا بدينًا نصف أصلع ذا شارب كث يقفان جوار فراشها..
هناك فتاة شابة تجلس جوارها فى الفراش ونصفها تحت الأغطية، تنظر لها فى رعب ناعس..
لا تحتاج إلى كشف عائلة كى تعرف من هؤلاء.. إنهم أبوها وأمها وأختها طبعًا.. لقد صرخت وهى تحلم بهذا الكابوس فأيقظت الجميع..
الأم تقول وهى تربت على كتفها:
- «لا تخافى يا (غادة).. فلتتلى المعوذتين يا بنيتى..»
والأب يقول فى توتر:
- «للمرة الرابعة فى أسبوع واحد.. هل هو ذات الكابوس؟»

هزت رأسها أن نعم.. كانت تعرف أنه ذات الكابوس.. هذا مؤكد..
قال الأب فى شك:
- «إذن..»
هنا صاحت الفتاة وهى تثب من الفراش، كأنما لسعها ثعبان تخلف من الكابوس:
- «فعلا!!!»
ورفعت الأم الغطاء لتكتشف (عبير) أن الفراش مبلل تمامًا! إنها فى العشرين من العمر تقريبًا لكن فراشها مبلل ومن الواضح أن هذه ليست أول مرة.. ماسورة الماء التى انفجرت فى الكابوس لم تكن محض خيال..
صرخت الفتاة وهى تبتعد كيلومترين عن الفراش، وقد تقلص وجهها اشمئزازًا:
- «ألا تخجلين من نفسك؟ كالأطفال الرضع!»
قالت الأم فى غضب:
- «كأنها تعمدت ذلك يا (صفاء).. كفى عن هذا السخف.. سوف أبدل الملاءات حالًا..»
صرخت (صفاء) وقد وقفت متباعدة الساقين ويديها فى خصرها كأنها فى مباراة مصارعة:
- «لن أنام معها فى فراش واحد بعد اليوم!»
قالت الأم فى حزم:
- «ليكن.. لكن تذكرى أنه لا يوجد فراش ثالث فى البيت.. سوف تنامين على الأرض إذا أصررت..»
- «يا سلام! ولماذا لا تنام هى؟»
- «لأنها المريضة.. ولأنها الأخت الكبرى!»
كانت (عبير) فى حالة لا تسمح لها بالاعتراض أو الدفاع عن نفسها.. أنا بللت الفراش.. أنا بللت الفراش! هذا هو كل ما تعرفه..
فرغت الأم من تبديل الملاءات ومن إقناع الفتاة الشرسة (صفاء) بأن تنام جوار أختها.. ثم أغلقت النور وانصرفت مع الأب..
هنا فقط أدركت (عبير) - من صوتها - أنها تبكى!
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
كان الأستاذ (جودة) موجه الرياضيات رجلًا حسن السمعة، ومن المتفق عليه أن بنتيه جوهرتان تنتظران المحظوظين اللذين سيظفران بهما.. لم يكن يعطى دروسًا خصوصية لكنه ورث أملاكًا لا بأس بها فى قريته؛ لذا كان على درجة متوسطة من الثراء.. الدرجة التى كان يطلق عليها اسم (الستر)، وهو ما كان يستفز (عبير) فى طفولتها.. تسأله عما إذا كانوا أثرياء، فيقول:
- «نحن مستورون يا (غادة)..»
وكانت هى تجن غيظًا.. ما هو مقدار الستر وما معناه لو ترجم إلى أرقام فى المصرف؟ هل يساوى ألف جنيه مثلًا؟ هل يساوى مليونًا؟
لكنهم مستورون والكل يعرف هذا..
هو - كأى أب يعمل فى التربية والتعليم - كان يغلق بابه أمام الخطاب إلى أن تنتهى الفتاتان من الدراسة..
(عبير) أو (غادة) طالبة فى كلية الآداب قسم اللغة العربية.. أختها الصغرى (صفاء) طالبة فى كلية الهندسة، ويبدو أنها ورثت ذكاء أبيها.. الأم ست بيت بالمعنى الحرفى للكلمة، وعلى الأرجح لا تقدر على المشى خمسة أمتار فى الشارع قبل أن تضل طريقها..

هذه هى الأسرة الهادئة التى اختارت هذه الكارثة مهبط مطارها لتنزل عجلاتها وتحط..
كارثة بالطبع.. إن التبول الليلى لكارثة بالنسبة لطفل فى التاسعة فماذا عن فتاة شابة ناضجة فى العشرين؟ ماذا عن زوج المستقبل الذى لن يرحب كثيرًا - على الأرجح - بزوجة تبلل الفراش كل ليلة؟
من أين جاءت هذه الكوابيس؟ وما سببها؟ وكيف استطاعت أن تتجاوز كل أسوار البخور والتعاويذ التى نشرتها الأم حول ابنتها؟
فى اليوم التالى جلس الأب مع ابنته (غادة) - لا تنس أنها (عبير) من فضلك - فى الشرفة، وراح يتأمل بائع الفول الواقف على الناصية يقلب محتويات قدره الكبير.. راح الأب يتكلم عن الفارق بين هذا الفول وفول بائع أخر يعرفه فى (الحسين).. هذا الرجل غشاش ولا يضع الكثير من الزيت الحار، كما أن حبة الفول غير ناضجة.. فارق كبير بين من يدمس الفول بالطريقة البيتية المعتادة ومن يدمسه تحت الأرض فى قمائن مخصصة لذلك.. كلام فارغ لا أول له ولا آخر، فأدركت أنه يمهد الطريق بلعبة نفسية كى تقبل ما هو آت..
- «أنا لا أثق به لكنى أرى أن نجرب..»
كان يتكلم طبعًا عن الشيخ (زينهم) الذى تحكى كل صديقات الأم عن أن (سره باتع).. من الواضح أن كل من لا تنجب ذهبت إليه فرزقت بعشرة أطفال.. كل من لم تتزوج ذهبت إليه فتزوجت سبعة رجال.. كل من مات ذهب إليه فعاد حيًّا وصار بطل الجمهورية فى ألعاب القوى..
قالت له وهى موشكة على البكاء:
- «لكن أكثرهم نصابون يا أبى.. هذا لا يليق بك..»
نظر لها نظرة طويلة، ثم قال
- «والكوابيس التى تطاردك كل ليلة.. هل هى تليق بى؟»
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- العيادة فى أول الشارع..

لم تكن تجربة الشيخ (زينهم) تختلف عن عشرات القصص المماثلة..
إنه يعيش فى قرية قرب بنها، وقد استأجر الأب سيارة مخصوصة ركبتها (عبير) جوار أمها..
وكان بوسعك أن ترى جيشًا من (المصدقين) يلتف فى ساحة القرية حول دار الشيخ.. هذا ولّد مجموعة من المهن الفرعية مثل بيع الشاي والسقاء والصحف والسجائر.. لقد صار الشيخ (زينهم) مركز قوة اقتصادية للبلدة ولن يتخلى عنها بسهولة أبدًا..
قالت هامسة:
- «هـ. هـ.. ع.. فلى.. فلى..»
سألها الأب عما تقول فرفعت صوتها لتقول فى شىء من الاستمتاع:
- «إما أن هناك عملًا سفليًا مدفونًا فى المقابر لى، وإما أننى متزوجة من جنى..»
استعاذت الأم من الشيطان الرجيم ودعت أن يجعل الله (كلامنا خفيفًا عليهم)، بينما قال الأب المهموم:
- «فلندع الله أن يكون الأمر كذلك.. على الأقل يكون هناك سبب لما يحدث لك..»
وقفت (عبير) جوار السيارة ترمق الجماهير.. حينما دنت منها امرأة عجوز تتوكأ على عصوين وتفوح منها رائحة اللبن الرائب، وقالت لها:
- «إنهما ساقاى يا شابة.. يقولون إنه الروماتيزم.. وأنت؟ لابد أنك جئت تطلبين زوجًا..»
ابتسمت (عبير) وهزت رأسها موافقة، ثم غمغمت:
- «حرام أن أكون فى الثلاثين من دون أن أتزوج.. كلما تقدم لى شاب أصابه مرض..»
هتفت العجوز:
- «عين الحسود.. وبرغم جمالك الواضح.. ما اسمك يا عروس؟»
قالت (عبير) فى حياء:
- «اسمى (شاهيناز)..»
ربتت العجوز على كتفها وابتعدت وهى تدعو لها..
فى النهاية استطاعت الأسرة أن تدخل.. لابد أن هذا حدث بعد ثلاث ساعات وبعد الكثير من البقشيش لحارس قدس الأقداس..
كانت هناك قاعة فسيحة تعبق برائحة البخور.. وكان الشيخ (زينهم) شيئًا بدينًا ملتحيًا يجلس على بساط ولا يكف عن إلقاء البخور فى النار..
رأى الأسرة المذعورة على الباب فقال بصوت عميق راجف مدوٍّ:
- «تعالى يا (شاهينااااااااااااااز)!!»
لم يفهم الأب والأم ما يحدث لكن (عبير) اقتربت من الشيخ أكثر، وقالت وهى ترتجف:
- «يا سيدنا الشيخ.. إنهم.. إنهم..»
قال بذات الصوت الاحتفالى يلقي بالمزيد من البخور:
- «نعم.. نعم.. أعرف كل شىء.. هناك جنى واقع فى غرامك.. هو لا يريد لبشرى أن يظفر بك.. لهذا لابد من صرفه.. لابد من جعله يكرهك.. لهذا أنت فى الثلاثين من دون زواج..»
هنا نظرت (عبير) إلى الأب فرأته يبادلها نظرات مذهولة حائرة..
قالت باسمة:

- «اسمى (شاهيناز).. فى الثلاثين.. يهرب منى الخطاب.. هل من تعليق؟ إن الشيخ مكشوف عنه الحجاب فعلًا..»
قال الشيخ فى فخر ولحيته تهتز طربًا:
- «العلم كله عندنا.. فقط نحن نحقد على بعضنا ولا نؤمن بأهل العلم..»
من دون كلمة أخرى جرَّت (عبير) أباها من يده متجهة إلى الباب..
وفى الخارج التف حولها الملهوفون وطالبو البركة وراحوا يسألونها عما حدث بالداخل..
كأنها خارجة من لقاء مغلق للمحادثات مع رئيس الولايات المتحدة؛ لذا قالت بلهجة من يصرح للصحفيين:
- «الرجل بارع فعلًا.. لقد شخص كل شىء..»
همس الأب فى أذنها وهم يعودون إلى السيارة وسط الزحام:
- «ما هو موضوع شاهيناز هذا؟»
- «الموضوع بكل بساطة أن هذا نصاب آخر.. لقد أنفقت الكثير من المال حتى اللحظة يا أبى لكننا على الأقل لن ننفق مليمًا آخر.. أعتقد أن علينا أن نجرب الطب النفسي..»
هتفت الأم وهى تضرب صدرها بيدها:
- «يا ندامتى! طب نفسى! معنى هذا أنك مجنونة!»
قال الأب بلهجة متعقلة:
- «الطب النفسى لا يعنى الجنون يا (عظيمة).. دعك من أن الجنون أفضل من أن يعجب بها جنى.. سوف نقوم بزيارة سرية لطبيب نفسى ونرى ما يقدمه لنا..»
وسرعان ما كانوا فى السيارة التى تشق بهم الطرق الترابية خارجين من القرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأب هو أول من لاحظ اللافتة..
كان عائدًا إلى البيت غارقًا فى العرق، حاملًا البطيخة كواجب كل أب مصرى نحو أسرته، والجريدة تحت إبطه.. يبدو أنه توقف عند اللافتة قبل أن يعبر الشارع.. لابد أنه ارتجف.. لابد أن قلبه خفق للحظة.. ثم إنه صعد الدرج ببطء بسبب ثقل البطيخة ليسأل ويعرف المواعيد..
سرعان ما كان يدخل الشقة ليضع البطيخة على المائدة التى تتوسط الصالة.. وككل أب مصرى كان من واجبه الاطمئنان أولًا:
- «أرجو أن تشقيها يا (عظيمة).. أريد أن أرى إن كان البائع نصابًا أم لا..»
من المطبخ مبتلة اليدين والثوب جاءت الزوجة.. فى يدها سكين عملاقة.. بسملت ثم غرست السكين فى البطيخة وحركتها.. انفصل النصفان أبيضين من غير سوء..
تقلص وجه الأب اشمئزازًا وغيظًا.. لكن الوقت كان ضيقًا لا يسمح بالعودة للشجار مع البائع..
هنا سقطت (عبير) على الأرض بلا إنذار سابق.. لقد تخلت عنها ساقاها..
جرى الأب يسندها والأم ترش وجهها بالماء وهى تستعيذ بالله.. ماذا دهاك يا بنيتى؟ كل يوم يجد جديد.. تمنت أن تسألها السؤال الذى كانت تخشاه.. هل هى واقعة فى حب بلا أمل؟ من ذلك الوغد المخادع إذن؟ الأب أيضًا تمنى لو يتأكد من هذه النقطة بالذات لكنه لم يعرف كيف يوجه السؤال..
لكن (عبير) كانت تعرف.. تعرف أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. فقط منظر نصفى البطيخة وهما ينفصلان بدا لها مرعبًا.. لا تفهم السبب.. فوبيا البطيخ.. هل هناك شىء مماثل؟

ثمة حقيقة واحدة.. هى أنها مجنونة أو على وشك الجنون..
قال الأب وهو يتجه للحمام كى يتوضأ ليلحق بصلاة الظهر:
- «فلتلبس ثيابها بسرعة.. الطبيب فى عيادته الآن.. يجب أن نلحق به..»
- «أى طبيب؟»
- «طبيب نفسى.. يبدو أنه بارع..»
- «ألن تتناول الغداء؟»
- «عندما نعود سيكون هناك وقت كثير؛ أما الآن فعليها أن تسرع..»
هكذا كانت (عبير) فى غرفتها ترتدى ثياب الخروج، وبعد عشر دقائق كانت مع أبيها تحت شمس يونيو الحارقة تتأبط ذراعه وهما يمشيان نحو عيادة الطبيب فى أول الشارع..
ماذا تقول للطبيب؟ إنها ترى ثعابين فى نومها وإنها لا تطيق منظر البطيخ المشقوقة؟ صحيح أنه مهيأ لسماع السخف، لكن ليس إلى هذا الحد..
وأخيرًا رأت أباها ينظر لأعلى فنظرت معه..
بناية عتيقة لم ترها من قبل قط.. لافتة صغيرة بحجم صفحة هذا الكتيب عليها الاسم التالى:

سيجموند فرويد
محلل نفسى

هتفت (عبير) غير مصدقة:
- «لكن.. لكننى أعرف هذا الرجل.. إنه..»
قال الأب وهو يعد ما فى جيبه:
- «ألمانى هو أو نمساوى.. لا أعرف بالضبط.. يقولون إنه بارع.. سوف نرى..»
كانت هى توشك على الجنون من الانبهار..
(فرويد) شخصيًّا هنا وسوف يقوم بعلاجها.. لعبة أخرى من ألعاب فانتازيا.. لكنها لا تشعر بأى نوع من السعادة.. تشعر برهبة لا حد لها..
وأنا لا ألومها كثيرًا على هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- عزيزى فرويد..

كانت العيادة عتيقة الطراز يمكن بسهولة أن تقول إنها تنتمى لأوائل القرن العشرين..
هناك شهادات معلقة كتبت بالألمانية على الجدران التى ثبتت عليها مصابيح تعمل بالكيروسين.. هناك لوحات تأثيرية.. هناك صور تحمل طابع (السيبيا) العتيق الذى يجعل الألوان مزيجًا من البنى والأصفر الحبيبى.. فى الصور ترى طلبة دفعة ما فى العصر الذى كان الطلبة فيه عمالقة ملتحين يرتدون بذلات كاملة.. كأن سن الطالب منهم خمسون عامًا.. هناك صور لرجل ملتح يقف مع امرأة عتيقة بدورها مع طفل.. هناك ستائر باذخة وإن بدأت تتآكل من القدم.. الأثاث قديم جدًّا يحمل طابع البذخ المميز للماضى.. ومن مكان ما تدوى موسيقا (باخ)..
حتى على الباب يمكنك أن تشم رائحة الغليون القوية المحببة..
من موضع ما ظهرت ممرضة عابسة الوجه تتكلم بكبرياء غريب، وسألت:
- «هل لديكما موعد؟»
قال الأب فى ارتباك:
- «لا.. هذه أول مرة..»
اتجهت الممرضة إلى منضدة صغيرة عتيقة الطراز وفتحت دفترًا دونت فيه شيئًا ما.. ثم قالت:
- «يمكنكما الدخول!»
هكذا بهذه البساطة! لم يدفعا مالًا، ولم تأخذ أسماء، ولم ينتظرا ثانية واحدة.. هذا مزعج.. المرء يحتاج إلى لحظات يستجمع فيها روعه ويتأهب نفسيًّا قبل دخول عيادة الطبيب.. الدخول فجأة بهذه الطريقة يشعرك بأن الباب انفتح وأنت لم تفرغ من ارتداء ثيابك..
يبدو أن هذه العيادة ليست رائجة إلى هذا الحد..
انفتح الباب العتيق العملاق المزدان بالنقوش، لتخرج منه سحابة من دخان الغليون، ووجدت (عبير) نفسها تدخل إلى عالم (فرويد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما تدخل غرفة الفحص يلفت نظرك شىء واحد: صعوبة الرؤية.. السبب هو الإضاءة الخافتة عامة، والدخان الذى يفعم الجو.
هناك أريكة طويلة عليها أقمشة تعطيها طابعًا شرقيًّا.. وهناك مقعدان بسيطان أمامها.. لكن أين هو نفسه؟
سمعت الصوت العميق يقول بلكنة ألمانية لا شك فيها:
- «أرجو أن تنتظر أنت فى الخارج..»
رفعت رأسها لترى مصدر الصوت، فوجدت العينين الصارمتين الثاقبتين تنظران لها.. من الذى قال إن العينين لا تشعان الضوء؟ كلما رأت عينين مماثلتين بدأت تشك فى صواب رأى (ابن الهيثم) عالم البصريات العظيم..
كان الكلام موجهًا لأبيها طبعًا، وحاول الأب أن يحتج فى وهن، لكن هيبة الرجل كانت كاسحة، هكذا خرج من الغرفة..
من جديد عاد الصوت العميق يقول:
- «أرجو أن ترقدى على الأريكة..»

هنا أدركت أنه يجلس على مقعد بحيث يكون خلف الأريكة فلا يراه الراقد فوقها. كان يضع ساقًا على ساق، ويمسك بغليون وقد فتح مفكرة صغيرة..
رقدت على الأريكة، وإن ضايقها أنها لا تستطيع أن تملأ عينها منه.. فقط اختلست نظرة فرأت ذلك الوجه المسن واللحية البيضاء الأنيقة... عوينات شفافة تنحدر على أرنبة الأنف يطل من فوقها كشافاه الثاقبان.. نظرة متعبة عارفة تقول بوضوح: أنت لن تدهشينى أبدًا.. لقد رأيت كل شىء من قبل..
تنهدت ونظرت إلى السقف وهى تصغى للموسيقا القادمة من فونوغراف عتيق..
قال لها وهو يقلب المفكرة:
- «فرويلاين (غادة).. ما هى المشكلة بالضبط؟»
يعرف اسمها من دون سؤال! هذا الرجل جدير بسمعته فعلًا! قالت وهى تتنهد:
- «كوابيس..»
قال بصوت ملىء بالاهتمام:
- «جمييل.. أنا أحب الأحلام وأعتبرها الطريق الملكى إلى اللاوعى.. إن اللاوعى موجود لكن هناك آلاف المفاتيح والجدران السميكة تحيط به كى لا يعرف أحد ما يدور هناك.. فقط ينكشف هذا اللاوعى فى لحظتين..»
قالت فى ذكاء:
- «التنويم المغناطيسى..»
لم تدر أنها أثارت غيظه إلى هذا الحد، إلا عندما ارتفع صوته يصرخ بالألمانية النازية:
- «هراء! أنا جربت هذا لفترة مع البروفسور (شاركو Charcot) فى فرنسا.. كان يؤمن أن التنويم المغناطيسى هو الحل.. ثم وجدت أن هذا غير صحيح.. اللا وعى لا يكشف عن نفسه إلا فى لحظتين.. عندما نحلم.. وعندما نتكلم بلا قيود.. هذه هى طريقة تداعى الأفكار الحر..»
ثم قال بنفس الهدوء السابق:
- هل من شىء آخر؟ فكرى..»
قالت فى خجل:
- «كوابيس تنتهى ب.. بتبول لا إرادى..»
- «جميل.. جميل.. أحلام مبتلة.. هذا رائع.. أرجو أن تحكى لى الكابوس بالتفصيل..»
- «فى كل مرة أرى نفسى فى ....»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

.. .. ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- «ثم تأتى السقطة وأصحو صارخة..»
فكر حينًا ونفث سحابة دخان كثيفة، ثم قال:
- «وبعدها تجدين الفراش مبتلًا..»
- «نعم.. لقد صارت هذه قاعدة..»
- «هل من شىء آخر؟»
- «نعم.. البطيخ.. لقد رأيت البطيخة البيضاء مشقوقة إلى نصفين.. فجأة أصابنى هلع لا يوصف وفقدت وعيى..»
فكر قليلًا ثم غمغم فى عدم اقتناع، وقال:

- «بطيخ.. هم م م.. فى الواقع لم يكن البطيخ من مفردات التحليل النفسى المهمة.. ربما لأنه لا يوجد الكثير من البطيخ فى (فيينا).. أعتقد أن تحليل هذا الجزء قد يقتضى جهدًا كبيرًا، لكنى سأجد الحل..»
سألته فى عصبية:
- «أى إنك لن تعطى التشخيص الآن؟»
ضحك ضحكة قصيرة، وقال:
- «التحليل النفسى يا صغيرتى يحتاج إلى الكثير من الوقت والصبر.. سوف أسمع الكثير من الكلام الفارغ إلى أن يسمح لى لا وعيك بتلميح ما هنا أو هناك..»
ثم أردف:
- «على كل حال، يمكن القول إننى لا أتردد فى تطبيق قوانين العصاب على نوبات الهيلة الليلية المصحوبة بهلاوس ونكوص وبعض الارتكاسات.. إذ أن زيادة الليبيدو لا تنتج عن الانطباعات العارضة وحدها، بل تعتمد على موجات متعاقبة من العمليات التمخضية التلقائية؛ لأن الرغبات الدافعة فى الطفولة لا يستغنى عنها فى تكوينه. ولا يتعرض خيط من خيوط الفكر السوى لمعالجة نفسية غير سوية إلا إذا حولت له رغبة لا شعورية مكبوتة من الطفولة.. إن مركب (أوديب) يمكن ترجمته من الجهة الأخرى بتسمية غير موفقة تمامًا، وهى (مركب الكترا) لكن المبدأ واحد، وهذا ليس مرضًا نفسيًّا قدر ما هو حالة من حالات النفس..»
فرغ من الكلام، فسألته:
- «هل تتكلم العربية؟»
- «ما قلته كان بالألمانية..»
- «ألمانية أو عربية. المهم أننى لا أفهم حرفًا.. لم أسمع سوى كلمة (افتكاسات)..»
- «(ارتكاسات).. على كل حال رأيك لا يهم.. المهم أننى أفهم يا صغيرة.. إن التحليل النفسى عملية معقدة وليس لعبة هواة يمارسها المدعون أمثال أدلر ويانج.. تصورى أن هذا الأخير كان تلميذًا لى ثم انشق عنى وخالفنى.. يا له من أحمق!»
ويبدو أن عرقه الألمانى قد تيقظ لأنه راح يرغى ويزبد ويقذف الشتائم بالألمانية، حتى حسبت نفسها فى فيلم عن الحرب العالمية الثانية.. ربما تدوى الطلقات النارية فى أى وقت.. أختونج.. ماين كامف.. ماين فيورر.. فيج ميت شتالين.. دويتشلاند أوبر اليس.. طاخ طاخ بوم!
طمأنت نفسها أنه يهودى فلن يكون نازيًّا أبدًا.. لقد بدأ يهدأ أخيرًا ثم نظر لساعته وأعلن أن وقت الجلسة قد انتهى.
فى الخارج كان أبوها ينتظرها فى قلق، وسألها وهو ينظر ليدها:
- «أين الروشتة؟ هل نسيتها بالداخل؟»
يتوقع أن يجد روشتة زرقاء بها نوعان من الأقراص ونوع من الكبسولات، يصرفها من عند الدكتور (إسكندر) وينتهى الأمر.. ليست الحياة بهذه البساطة..
قالت له فى انتصار:
- «لا توجد روشتة.. فقط المزيد من تداعى الأفكار الحر الذى قد يجد حلًا للعصاب الهستيي المقترن بالهيلة الليلية ذات الهلاوس..»
- «هل تمزحين؟»
- «ربما.. لكن هذا ما قاله الدكتور..»
هنا قالت الممرضة وهى تدون شيئًا فى دفترها:

- «موعدنا الثلاثاء القادم.. السادسة مساء..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- عزيزى فرويد مرة أخرى..

فى انتظار دخولهما إلى فرويد، تبادل الأب ثرثرة طويلة مع الممرضة عن هذا الرجل.. كان ككل المرضى يريد أن يعرف ذلك الذى يعالج ابنته، وقد دس فى يدها خمسة جنيهات لتفك عقدة لسانها.. كل الممرضين صموتون متشككون قليلو الكلام إلى أن تلمس أناملهم قطعة العملة.. فحكت له الممرضة:

- «د. فرويد Freud قد ولد عام 1856 فى (مورافيا).. إنها تتأرجح بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا.. كان أبوه تاجر صوف يهوديًا وثق فى ذكاء ابنه وأعطاه خير فرص ممكنة للدراسة.. ثم كبر الصبى فانتقل للدراسة فى فيينا.. أخرج عام 1881 ليصير طبيب أمراض عصبية ونفسية، وله أبحاث مهمة فى مرض الشلل المخى cerebral palsy.. ثم ارتحل إلى فرنسا ليدرس على يدى أستاذ الأمراض العصبية الأشهر (شاركو Charcot)، بعد هذا اهتم بالأمراض النفسية حيث فكر فى استخدام التنويم المغناطيسى فى العلاج.. وتتلمذ كثيرًا على أستاذ يدعى Bruer.. هنا بدأ فرويد يكون نظريته الخاصة عن اللاوعى وقدرة التحليل النفسى على إخراجه إلى السطح، وكان رأيه أن معظم الأمراض النفسية ناجمة عن تجارب سيئة فى الطفولة..»

نظرت (عبير) إلى أبيها، وهمست:

- «مثقفة جدًّا هذه الممرضة.. أشعر أنها زميلة فرويد فى محفل علمى..»

قالت الممرضة التى سمعت التعليق بطبيعة الحال:

- «لا تنسى أن هذه فانتازيا يا عزيزتى.. لابد أن تعرفى خلفية ما يحدث هنا..»

نظر الأب نظرة حادة إلى عبير لتخرس، ثم طلب من الممرضة أن تكمل الكلام، فقالت:

- «قبل فرويد كانت الفكرة المسيطرة على الطب النفسى هى أن المرء يسيطر بالكامل على ذاته ويعرف كل دهاليزها.. فرويد أدخل مفهوم اللاوعى.. كل شىء يحدث فى أعماق وعينا.. نحن لا نعى أكثره ولا نتحكم فيه.. هناك طبقات فوق طبقات تمنعنا من معرفة ما يدور هنالك.. على كل حال أغلب وأهم آراء فرويد موجود فى كتابه (تفسير الأحلام) الذى كتبه عام 1899..»

احمر وجه الأب كعرف الديك، وقال فى حزم أبوى:

- «هذا كتاب بذىء.. كتاب فاضح! لقد قرأته!»

- «قرأت ما أخذه منه مؤلفون لا يهمهم إلا البيع.. إن الجنس عنصر مهم من عالم فرويد، لكن هناك الكثير من العلم كذلك.. ما يحدث هو أن أى مترجم يأخذ الجنس والإثارة فقط ويحشو به كتابًا رخيصًا يباع على الأرصفة، ويطلق على الكتاب (تفسير أحلام فرويد).. هذا أساء لسمعة فرويد بحق.. بالنسبة لكثيرين هو مجرد كاتب جنسى رخيص بذىء..»

تذكرت (عبير) تعبيرًا سمعته فى مكان ما: لقد صنع فرويد قنابل عالية التفجير ليحفر بها أنفاقًا فى الذات البشرية، فأخذها الناس وصنعوا منها (بمب) و ألعابًا نارية يتسلون بها..

قال الأب فى حماس:

- «ثم إنه يهودى!»

قالت الممرضة:

- «فى هذا أنت محق.. معظم الأطباء النفسيين الرواد كانوا يهودًا؛ لهذا تشكك النازيون فى علم

النفس واعتبروه (علمًا يهوديًّا).. ولهذا أحرقوا أغلب كتب فرويد، ولو بقى فى النمسا لأحرقوه بدوره، لكنه فر إلى لندن قبل الحرب العالمية الثانية.. إلا أن فرويد لم يكن يهوديًّا متدينًا، دعك من أن أكثر معارضيه ومن اتهموه بأنه مغفل يهود بدورهم.. وعلى كل حال معظم علماء الفيزياء النووية يهود كذلك، فهل ترفض علم الفيزياء النووية برمته؟»
هز الأب رأسه وبدا أنه غير مقتنع لكنه آثر الصمت..
عادت الممرضة تواصل السيرة الذاتية لفرويد:
- «فى اللاوعى تكمن كل خواطرنا وذكرياتنا الأليمة أو المشينة.. نعتقد أننا نسينا لكن لا شىء يُنسى فى العقل الباطن.. لقد بحث الدكتور كثيرًا فى الأساطير الشعبية.. وبحث فى نشأة الأديان ومفهوم التابوو والطوطم.. كل هذا كى يفهم.. وكان رأيه أن عقدة أوديب (Oedipus complex) تسيطر على وجداننا منذ الطفولة.. الطفل يحب أمه ومرتبط بها، بينما يعتبر الأب دخيلًا وعدوًا.. هذا النشاط يصل لذروته عند سن خمسة أعوام ثم يهبط.. دعك من حسد الطفلة لأخيها لأنه يملك صفات الذكورة، بينما يخشى الطفل أن يفقد هذه الصفات فى ظروف غامضة بما أن أخته فقدتها و...»
- «المريضة!!»
جاء الصوت من داخل غرفة الكشف فقاطع هذه المحاضرة العلمية.. قالت الممرضة فى لهفة:
- «هيا.. ولكن أرجوك لا تقولى إننى كلمتك عن أى شيء..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الداخل كان دخان الغليون والظلام ينتظرانها كالعادة..
وتساءلت (عبير) عن مصدر دخل هذا الرجل ما دام لا يبدو أنه يتعامل مع أى مريض سواها.. لهذا ليس التحليل النفسى رائجًا.. الطبيب يقضى مع المريض ساعات طويلة كان يمكنه خلالها أن يرى عشرات المرضى لو لجأ للطريقة العادية بدلًا من التحليل النفسى.. لو تعاملنا بمبدأ الجدوى الاقتصادية فهذا مشروع فاشل.. لكن فرويد لم يكن يبحث عن المال.. لو أردنا الدقة لقلنا إنه لم يبحث عن علاج المرضى كذلك، قدر ما كان يبحث عن المعرفة التى لا تقدر بمال..
طلب منها أن تتمدد على الأريكة كالعادة وجلس فى الظلام يدخن.. الحقيقة أنها بدأت تعتاده وتعلمت كيف تسترخى.. فى البداية تجد صعوبة شديدة فى أن تنام مسترخية أمام شخص غريب، دعك من أن يكون هذا الرجل فرويد نفسه، لكنها تعلمت مع الوقت كيف يسترخى جسدها وتسترخى روحها.. إنها تتكلم كأنها تكلم نفسها فى المطبخ..
سألها بصوته العميق:
- «هل من مزيد من الكوابيس؟»
- «الكثير منها.. لقد صارت عادة..»
- «سأكون شاكرًا لك لو أعدت سرد الكابوس من جديد.. إن اختلاف الكلمات يساعدنى.. دعك من تركيزك على نقاط بعينها.. هذا مهم..»
تنهدت فى ملل.. يبدو أنها حكت هذا الكابوس خمسين مرة حتى الآن..
سألته:
- «هل من نزيف.. أقصد هل من بصيص ضوء؟»
هنا سمعت صوته المتنبه الذى يشعرها بأن عينيه تضيئان فى الظلام، يقول:
- «لماذا قلت (نزيف)؟»

قالت فى ارتباك:
- «عثرة لسان لا أكثر.. هذه الأمور تحدث..»
- «أنا لا أعتقد أن عثرات اللسان صدفة.. هذه من اللحظات التى يعبر فيها العقل الباطن عن نفسه برغم الرقابة العاتية..»
ثم أطلق سحابة دخان كثيفة، وقال:
- «أنت تعرفين أن الحلم يلجأ إلى الترميز مثله مثل الشعر.. حلمك يعج بالثعابين، وهى رمز رجولى قوى.. هناك رائحة سمك.. السمك والعين رمزان أنثويان قويان جدًّا.. تذكرت أباك فجأة وطلبت عونه.. هنا يبدو مركب أليكترا بشكل واضح.. إن أباك قادر على إنقاذك لكنه (هناك فى الجانب الآخر من البيت).. مع أمك.. المنافس.. لكنك تحدثت عن خالك الذى يكره أغانى أم كلثوم.. هذا لغز واضح.. ما الذى أقحمه فى هذا التداعى الحر للأفكار؟»
- «ربما لأن خالى يكره أغانى أم كلثوم فعلًا..»
- «وما الذى جاء بسيرة أم كلثوم هنا؟ وما دور البطيخة؟ هذا هو ما أتوقع أن أعرفه وأستخرجه من عقلك الباطن.. لقد وجد اللبيدو الخاص بك متنفسًا فى التبول غير الإرادى، الذى يقحم نفسه فى صورة واحد من أحلام جرس المنبه، حيث يتم تلفيق حلم كامل وبأثر رجعى من أجل لحظة نهايته.. البلل فى نهاية الحلم هو مبرر وجود مواسير الماء فى بدايته..»
قالت فى غيظ:
- «لو كنت تعتقد أننى أغار من أمى لأننى معجبة بأبى، وربما أحب خالى كذلك لأنه يشترى لنا البطيخ، فأنت مخبول تمامًا..»
- «هكذا يقولون دومًا.. أنت لن تستطيعى أن توجهى لى إهانات أكثر مما وجهه لى زملائى عندما أذعت نظرياتى.. قالوا إننى أفسدت كل شىء فى الحياة.. شوهت علاقة الأم وابنها، وشوهت حبنا لأقاربنا، وشوهت حزننا على من مات.. حتى الضحك على النكات وحب الوطن شوهته.. صدقيني لقد سمعت ما هو أسوأ.. هناك أطباء ألمان محترمون بصقوا على الأرض عندما مررت بهم..»
- «وكانوا على حق..»
- «ربما.. لكن هذا ليس موضوعنا.. و... معذرة..»
وفجأة نهض واتجه إلى ركن القاعة.. نهضت مستندة على كوعها لترى ما يفعله فوجدته قد أوقد مصباحًا وفتح فمه وراح يتفحصه فى مرآة صغيرة على الجدار.. ما معنى هذا؟ كانت كالعامة تعتقد أن الأطباء النفسيين ليسوا على ما يرام غالبًا؛ لذا بدت لها هذه اللمسة تبشر بالكثير من الخير.. لن تتأخر كثيرًا لحظة وضع الكسرولة على الرأس..
لكنه تفحص فمه قليلًا ودس إصبعه فيه، ثم عاد ليجلس، وقال:
- «سرطان الفم من جديد! لقد عاد.. شعرت بهذا التورم وأنا أكلمك الآن.. برغم كل الجراحات التى أجريتها.. لقد سببه لى تدخين السيجار المفرط.. ولهذا اتجهت إلى الغليون..»
- «هذا مؤسف.. لكن الغليون ليس أكثر أمنًا..»
- «لابد لى من أن أدخن شيئًا ما وإلا جننت.. تصورى إن سقف فمى من النحاس وليس من العظم؟ لكن هذا ليس كافيًا.. لقد تحملت هذا المرض كثيرًا حتى عام 1939 عندما طلبت من طبيبى المعالج أن يريحنى من عذاب لا ينتهى.. هكذا قام بحقنى بجرعة مضاعفة من المورفين وانتهى الأمر.. على كل حال.. ما علينا..»
كانت هذه فانتازيا حيث يمكن أن يتكلم المرء عن ظروف وفاته وما تلاها.. هذا شىء معتاد

وطبيعى جدًّا هنا..
أطفأ المصباح وعاد لها ثم فتح المفكرة، وقال:
- «تكلمى عن أى شىء يروق لك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى ذلك اليوم كنت ألعب مع (سحر) و(هدى) فى الشارع.. كنت فى الحادية عشرة من عمرى.. الحر الشديد.. بابا يعود من العمل حاملًا بطيخة.. يطلب منى ألا أتأخر ثم يدخل مدخل البناية.. العرق يبلل صلعته ووجهه وإبطيه..
الحر الشديد.. إنه يونيو.. بداية الصيف.. الشعور بأن الإجازة بدأت لتوها وأنت لا تعرف ما تفعله بنفسك.. (سحر) لطيفة وشقية.. (هدى) حازمة قليلة الضحك تبدو مثل أمى.. فستانى أبيض مريح يوحى بانتعاش الصيف.. قصير الكمين.. صندل.. لكن الصندل زلق بفعل العرق، لهذا أفضل اللعب حافية..
نتقاذف الكرة.. البواب يصغى للراديو.. يطلب منا ألا نبتعد.. هناك قط مشمشى اللون يرمقنا فى كسل من تحت سيارة.. سيارة فيات بيضاء.. يغمز بعينه ثم يتوارى فى الظل..
بائع آيس كريم يمر منهگًا وقد لوح الحر بشرته.. الرسوم الساذج على السيارة لها طابع فرعونى لكنه متخشب، ومن الغريب أن المصرى بحسه الشعبى يرسم كما رسم الفرعونى القديم.. المقطع جانبى للوجه لكن العين فى مسقط أمامى تبدو كالسمكة بالضبط..
يبدو الآيس كريم مغريًا لكن أبى لن يسمح لى بشرائه، لأنه ملوث بالتيفود.. حسب كلام أبى، هذا الرجل يقوم بشراء بكتريا التيفود من المعامل ويضيف لها السكر واللبن ثم يجمدها ويبيعها..
ربما لو طلبت من خالى شراء بعضه لى.. لكن لا.. خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب..
الكرة تبتعد.. تصطدم بالجدار.. أركض لأحضرها.. لكن.. ماذا حدث لى؟؟ لقد جرحت.. لقد جرحت! عينى تنزف دمًا لا أدرى كيف ولا متى.. لا أكلم صديقتى الصغيرتين..
أجرى إلى البيت..
البطيخة على المائدة.. أهرع إلى غرفة النوم، وأتوارى وأبكى.. لا أريد أن يرانى أحد.. لا أريد أن تعرف أمى.. إننى أبكى.. الدم يتساقط والرعب يفعمنى..
هل أنا أموت؟ هل سأكون عمياء بقية حياتى؟
إننى....
لا !!!!!!!!!!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبير وعبير وعبير
(مسرحية من فصل واحد)

(إضاءة المسرح خافتة جدًّا، والديكور بسيط أقرب إلى التجريدية.. لا بأس من جدران هنا وهناك مع بعض الرموز الفرويدية المعلقة.. ربما يفضل مهندس الديكور وضع طوطم صغير فى خلفية المسرح ليذكرنا بكتاب فرويد الشهير (الطوطم والتابوو).. هناك أريكة أيضًا.. لا يمكن الكلام عن فرويد من دون أريكة.. هناك موسيقا مخيفة كأنها من الأدغال تذكرنا بظلمات النفس.. المفترض أن هذا هو عقل عبير، لهذا يمكن لمهندس الديكور أن يجعل شكل المسرح

الكلى أقرب إلى تعاريج المخ)..

الشخصيات:

عبير (هىID): فتاة مائعة تلبس ثيابًا خليعة ولها ضحكة مدوية تثير القشعريرة

عبير (أنا :(Ego فتاة عاقلة تلبس ثيابًا محترمة.. أقرب إلى الاتزان..

عبير (أنا علياSuper Ego): فتاة حكيمة وقور تتحدث بشكل أسطورى لا يمت للواقع بصلة.. ثيابها كثياب المنقبات أو الراهبات ولها نظرات حالمة تتطلع إلى أعلى طيلة الوقت..

(تدخل (عبيرهى) متمايلة مترنحة ممسكة بكأس.. تضحك فى ميوعة ثم تجلس على الأرض مواجهة لجمهور المسرح)

عبير هى: حر.. حر شديد.. لماذا لا يحق لنا أن نمشى من دون ثياب؟ لهذا يشعر الرضع بالسعادة.. لأنهم غير مقيدين بالثياب..

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتاب وهى منهمكة فى القراءة.. تنظر فى احتقار إلى (عبير هى) وتهز رأسها..

عبير أنا عليا: الحيوانات كذلك سعيدة لأنها عارية.. لكن لابد من شىء يميز بيننا وبينها.. كل هذه القرون من التحضر لابد أن يكون لها معنى ما.. لو كان جل حلمنا هو التشبه بالرضع أو الحيوانات فعلى البشرية السلام..

عبير هى: الهدف الوحيد للحياة هو اللذة.. كم أتمنى أن تصيرى على طبيعتك وتكفي عن ارتداء عباءة الفلاسفة ومسوح الرهبان.. أنت منافية للطبيعة..

عبير أنا عليا: وأنت عبارة عن طفل.. طفل لم يتعلم التهذيب..

عبير هى: ومن قال العكس؟ **(تضحك فى مجون)**.. فرويد وصفنى فقال إننى عبارة عن طفل ولد لتوه ولم يتعلم أى شىء.. إننى شهوات بلا رقيب.. شهوة الطعام وشهوة الجنس.. الأنانية المطلقة.. انتصار الحيوانية.. السيطرة لمراكز العقل السفلى.. بالمناسبة **(تنظر إلى الجمهور)** هناك شاب وسيم فى الصف الثالث! أشعر بأننى وقعت فى الحب! هل هناك شىء فى العالم كله أروع من رجل جميل؟

عبير أنا عليا: نعم.. عقل جميل.. أخلاق جميلة..

عبيرهى: أنت لست امرأة.. أشعر بأنك مزيج من فيلسوف ورجل دين ومفكر ومصلح اجتماعى.. ضمير يمشى على قدمين..

عبير أنا عليا: أنا كذلك فعلًا.. فرويد قال إننى أمثل أسمى ما وصل له الضمير البشرى.. لقد تكونت عندما تعلمتْ (عبير) الكبيرة أن تقرأ قصص الأبطال والشعر وتسمع المواعظ الدينية.. إننى السمو نفسه.. ومهمتى أن أراقبك وأوبخك.. ليس هذا فحسب.. إننى أراقب أحلامك أيضًا وأمنعها من أن تكون صريحة.. كل ما هو محرم فى الحلم أقوم بتحويله إلى رمز..

عبير هى: ربما تتحسن مشاكلك النفسية لو تناولت جرعة من هذا الشراب..

عبير أنا عليا: أنا لا أشرب هذا (الهباب).. لقد توضأت استعدادًا للصلاة..

عبير هى: صلاة؟ (تضحك).. يبدو أننا لن نتفق أبدًا.. اسمعى.. هناك صديقة لى قد تركت معى ألفى جنيه.. سوف تأتى لتطلبها غدًا.. هل تعرفين ما سيحدث؟ سأنفى أننى أخذت منها أى شىء..

عبير أنا عليا: إذا اؤتمن خان.. هذه من آيات المنافق الثلاث..

عبير هى: ربما كنت منافقة، لكنى كذلك أحقق الهدف من وجودى؛ الحصول على كل شىء بلا ثمن.. هذا هو الهدف الأسمى لى.. على كل حال لا يشكل المال بالنسبة لى كل شىء.. هناك

اللبيدو Libido.. الطاقة الشهوانية المحركة للوجود.. هذا من تعبيرات فرويد.. أنا غريزة الحياة. الإيروس Eros.

عبير أنا عليا: لا تنسى أن هناك غريزة فناء ذاتى أو موت لدى كل البشر.. الثاناتوس.. كل الناس تريد أن تموت وتسكن..

عبير هى: دعك من هذا.. الحقيقة أننى لم أعد أطيقك!

عبير أنا عليا: هلمى أيتها المستهترة.. جربى أن تذوقى قبضتى..

تدور الفتاتان حول بعضهما ثم تلتحمان فى صراع شرس شبيه بشجار القطط.. فقط ينتهى هذا لدى الدخول المتعجل ل. (عبير أنا)..

عبير أنا: يا ساتر! لا أستطيع أن أترككما فى سلام أبدًا!

عبير هى: هذه الفتاة تعتبر نفسها الشهيدة والقديسة والمعلمة.. بصراحة لم أعد أطيقها..

عبير أنا عليا: أما هذه المستهترة فمجموعة شهوات تمشى على قدمين..

عبير أنا: ومن قال العكس؟ كل واحدة فيكما تفعل بالضبط ما هو مفترض منها.. لكن هناك مشكلة خطيرة.. صراعكما يعذب (عبير) الكبيرة فعلًا.. إنها الآن تعانى الصداع والتوتر النفسى والاكتئاب والشعور بالذنب.. أنتما تعرفان التوازن الدقيق الذى نمثله.. (عبير هى) تمثل الدوافع الجنسية، بينما أنا أمثل غريزة حفظ الذات.. أنا الوسيط بين رغبات (عبير هى) الجامحة المخبولة وواجبات العالم الخارجى.. عندما تكون الغلبة ل. (عبير هى) يبدأ عصاب التحويل من طراز الهستيريا والوسواس.. عندما تكون الغلبة لى يبدأ العصاب النرجسى.. (عبير هى) طفل يريد كل شىء لنفسه.. مثلًا هى تتمنى لو سرقت المصرف..

عبير هى: فكرة رائعة لم تخطر لى ببال! يجب أن أجرب هذا غدًا! لن يتصور أحد أن فتاة رقيقة تحمل معها سكينًا وتهدد الصراف..

عبير أنا: فكرة غبية.. المجتمع لن يسمح بذلك.. سوف يحملونك إلى قسم الشرطة حيث يصفعك مخبران على قفاك الجميل..

عبير هى: إذن لا داعى للسرقة.. سأنزع ثيابى أمام الكاميرا وأضع صورى هذه على الإنترنت.. كم هى فكرة مثيرة أن يرانى الشباب جميعًا فى هذه الصورة..

عبير أنا: هذا هو الجنون بعينه.. سوف تتلقين الصفعات على قفاك من مخبر فى شرطة الآداب هذه المرة..

عبير أنا عليا: ولماذا تهددينها بالشرطة؟ لماذا لا تمتنع عن الفعل لأنه عيب وحرام؟

عبير أنا: هى لن تفهم هذه الأمور.. كل ما يهمها الحفاظ على كيانها.. أى إنها سوف تمتنع عن كل ما يدمرها أو يقتلها.. أما الكلام عن المثل العليا فشىء لا تفهمه..

عبير هى: فعلًا أنا لا أفهم دورك.. هل كل ما تفعلينه هو إصلاح المشاجرات بينى وهذه القديسة؟

عبير أنا: فعلًا.. هذا هو دورى.. أنا الحكم بينكما.. كما أننى أحرك ميكانزمات الدفاع للتوفيق بينكما.. يجب أن نقبل طبيعتنا.. يجب أن تفهم (عبير أنا عليا) أن (عبير هى) لا تستطيع إلا أن تكون شهوانية شرهة أنانية.. يجب على (عبير هى) أن تعرف أن (عبير أنا عليا) لا تستطيع إلا أن تكون ضميرًا.. هكذا تهدأ الأمور.. **(تنظر لهما وتبتسم)**.. هيه.. صاف يا لبن؟

عبير هى: حليب يا قشطة! **(ترقص فى مرح)**..

عبير أنا عليا: سأحاول أن أتسامح مع تلك المستهترة.. سوف أفترض أنها مجرد طفل كما تقولين.. لا أعرف كيف سأتحملها لكن سأحاول..

عبير هى: إذن نرقص رقصة ساخنة معًا!
عبير أنا: بل تسترين جسدك وتتوضئين ونصلى صلاة شكر لله..
يخرجن من المسرح متعانقات.

ستار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- لم أعد أتحمل..

كانت تبكى.. فجأة هى تتذكر تفاصيل كل شىء.. تتذكر رعبها وتبكى.. تصرخ فى فرويد وتلومه وتطلب منه الأشياء التى كانت تطلبها وهى طفلة مذعورة:

- «ألا ترى الدم يا أحمق؟ ساعدنى! لا تناد أمى!»

سمعت فرويد يقول فى الظلام:

- «هذا هو مبدأ التحويل Transference.. جميل.. جميل.. أنت تكررين فى الحاضر ما كنت تفعلين فى الماضى مع شخص لا علاقة له بطفولتك.. غالبًا ما نحول عاطفتنا نحو والدينا أو ما يسمونه بال dyad باتجاه أزواجنا.. كثيرًا ما يتم التحويل نحو المحلل النفسى وهذا مفيد.. هناك مثلًا الرجل الذى عذبته أمه فى طفولته، من ثم كبر ليكره كل النساء ويعذبهن.. السبب أنه قام بالتحويل.. والآن أريد منك أن تهدئى..»

هدأت نوعًا لكنها ظلت ترتجف وتبكى فى صوت خفيض..

لا تذكر سوى عينيه تشعان فى ظلام الغرفة وهو يقول بلهجته الألمانية:

- «هناك بطيخة يحملها أبوك.. هناك فستان أبيض وسيارة فيات بيضاء.. تذكرى البطيخة بيضاء القلب التى سقطت مغشيًا عليك لدى رؤيتها.. هناك قدمان حافيتان.. مفردات الحلم تتكرر.. لاحظى أن القدم الحافية رمز ذكرى قوى.. البواب يصغى للراديو.. هل تسمعين الأغنية فى الراديو؟ هل تميزينها؟»

انها بالفعل تسمعها بوضوح.. «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادى من غدى..»

- «إنها أم كلثوم.. تكلمى.. هى ذات الأغنية التى تسمعينها فى الحلم.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. ولكن..»

لكنه كان مصرًّا بلا رحمة.. يواصل الكلام:

- «هناك أكثر من عين.. الرمز الأنثوى الأقوى.. قط يغمز بعينه.. عين فرعونية على عربة الآيس كريم.. عينك تنزف.. العين لا تنزف فجأة هكذا.. تهربين من صديقاتك.. تتوارين فى البيت خجلًا.. لا يجب أن تراك أمك.. لماذا لا يجب أن تراك أمك؟ لماذا؟»

تقول وهى تغطى فمها:

- «لا أعرف.. لا أعرف!»

- «هناك كذلك عثرة اللسان عندما قلت (هل من نزيف ضوء).. ما حدث لك وقتها هو تغير فسيولوجى طبيعى يمر بالفتيات لدى البلوغ.. حدث فجأة وأنت تلعبين مع صاحباتك، ورأيت قطرات الدم. أصابك ذعر لا يصدق لأنك حسبت أنك تموتين أو أن هناك خطأ ما.. الموقف هكذا دائمًا.. لكن الرعب أدى لميكانزم دفاعى فى عقلك الباطن.. الذكرى التى بقيت لك من هذا الموقف هو أن عينك كانت تنزف..»

صاحت فى رعب:

- «لا.. **لا يا أبى.. أنا لم أفعل شيئًا!»**

قال فى رضا:

- «المزيد من التحويل.. وأنا أبوك وأقول لك إنك ابنتى وإننى أثق بك..»

- «لم أفعل شيئاً!»

- «وأنا أصدقك! إن أى اضطراب نفسى هو فى الحقيقة اضطراب للوظيفة الجنسية للفرد.. لو

قرأت كتابى (ثلاث نظريات فى الجنس) لفهمت ما أقول..»
الحقيقة أن هذا صحيح.. لدرجة أنه فسر نشوء الدين كله بعقدة (أوديب) لدى الإنسان الأول.. وفى كتاب (موسى والتوحيد) حاول أن يجمع بين الهجوم على الدين اليهودى والدفاع عنه..
انفجرت (عبير) فى البكاء من جديد، فقال الطبيب اليهودى صارم العينين:
- «إن المادة التى يتم استرجاعها بالتحليل النفسى كريهة مقيتة لدى المريض؛ لذا يكون انفعاله مثل انفعالك الحالى: البكاء.. هذا يفسر الكثير عن ذلك الكابوس الذى ترينه.. إنه ببساطة هذا الموقف وإن تنكر فى لغة الحلم الرمزية.. إن الحلم هو حارس النوم، ومهمته أن يطلق التوترات التى فى أعماقك ويريحها.. لكن حتى فى لحظات كتلك تظل الأنا العليا تراقب فى صرامة.. هكذا يضطر الحلم إلى استخدام لغة الترميز ليفلت من هذا الرقيب الصارم المتدين.. على كل حال قد بدأ الأمر يتضح.. البطيخة صار لها معنى ما.. ربما كنت مخطئًا وكانت مجرد (فوبيا phobia).. الفوبيا هى المخاوف التى لا تخضع للمنطق ولا يتناسب حجم الاستجابة لها مع موضوع الخوف.. التفسير الحالى يقول إن البطيخة ارتبطت بخبرة مروعة فى الطفولة، هكذا ظلت رؤيتها تستعيد هذه الخبرة، والتفسير الثانى يقوم على إحلال خوفك من رغباتك المحرمة مكان البطيخة.. هكذا تخافين من البطيخ بدلًا من خوفك من رغباتك المحرمة.. هذا تفاعل شهير فى تكوين الفوبيا.. أحيانًا نخاف الأماكن المرتفعة أو الظلام لأننا نخاف فى الحقيقة أن نعترف بكراهية الأب.. فى حالتك تخافين الاعتراف بنواح مؤلمة جدًّا من نفسك لهذا تفضلين أن تخافى البطيخ..»
وحك لحيته فى رضا وقد بدا كأنه (شيرلوك هولمز) فى نهاية رواية من رواياته عندما يفسر كل شىء، وأردف:
- «ولكن هناك مقطعًا لم أفهمه من كلامك.. قلت إن خالك لا يحب أم كلثوم.. ثم قلت الآن: خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب.. لماذا؟»
- «لا أعرف..»
نفث سحابة كثيفة من الدخان، وقال:
- «لأنك متعلقة بخالك بشدة.. ربما أكثر من اللازم.. الأنا العليا لا تسمح لهذا التعلق بأن يتجاوز مداه؛ لذا يظهر ميكانيزم دفاع آخر اسمه (الإسقاط projection).. إما أن تعتقدى إن صديقتك تحب خالك بشدة، وإما أن تعتقدى أن خالك يكرهك بشدة..»
- «لا أفهم حرفًا..»
- «لكنى أفهم وهذا هو المهم.. (غادة).. هناك مستنقع فى أعماق نفسك وقد بدأنا نكشف الغطاء عنه..»
ثم فرك يديه فى مرح، وقال:
- «هناك الطفلة جوار البئر.. هذا جزء لابد من فهمه بوضوح.. هذا موضوع جلستنا التالية.. والآن..»
قبل أن يفهم ما يحدث كانت قد وثبت من على الأريكة وجرت خارجة إلى أبيها..
ارتمت بين ذراعيه باكية وهو يبسمل غير فاهم ما دهاها..
قالت له وهى تمسح أنفها فى بذلته:
- «هذا الرجل مجنون.. إنه.. إنه مريض.. كل شىء فى عالمه هو الجنس.. تفسير كل شىء.. يتخيل أننا مجموعة من الوحوش نداری حقيقتنا حتى عن أنفسنا.. إنه يجعل الحياة جحيمًا..»
لم يفهم الأب.. فقط استخلص من كلامها أن (فرويد) عجوز وقح قليل الأدب، وخلع حذاءه

مصرًّا على الدخول ليؤدبه، لكنها استوقفته:
- «لا.. إنه مهذب جدًّا.. لكن عقله مريض ومنطقه معوج...»
ثم قالت فى تصميم:
- «أبى.. لن أعود هنا مرة أخرى.. لنجرب طبيبًا آخر..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هى فى حقل.. تعرفه جيدًا.. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة..
تركض فى الحقل.. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك..
هناك من يصرخ.. صرخات رفيعة جدًّا من خلفها..
تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب..
فجأة توقفت الصرخات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هو التوفيق الإلهى الذى جعل الأب يمشى فى الشارع المجاور عصر ذلك اليوم القائظ.. كان يشتهى البطيخ، لكن النكوص والارتكاس لدى (غادة) مع كل مركبات (ألكترا) وتثبيت اللبيدو والتحويل والإسقاط والتسامى، كل هذا جعله يخاف البطيخ كالموت ذاته..
قال لنفسه:
- «صيف من غير بطيخ تضحية هينة مقابل أن تحتفظ ابنتى بعقلها..»
المهم ألا تكون مصابة بفوبيا ما تتعلق بالخوخ والمانجو.. هذا يجعل الحياة قاسية فعلًا..
هنا وجد أنه يقف عند مدخل عمارة يهب منه هواء رطب منعش لكنه غير محبب الرائحة..
وعلى باب البناية رأى لافتة صغيرة بحجم هذا الكتيب، عليها:

ألفريد أدلر
محلل نفسى

قال لنفسه وهو يجفف عرقه:
- «ما شاء الله.. المحللون النفسيون صاروا كحبات الليمون هذه الأيام.. اسم (أدلر) موح على كل حال. له رنين (أفعل التفضيل) فى اللغة العربية... هذا الرجل أدلر من زميله.. معنى هذا أنه أفضل على الأرجح.. أعتقد أننى سأجربه..»
هكذا جرى إلى البيت وجلب (عبير) من يدها قبل أن تفرغ من استبدال ثيابها بالكامل وصاحت محتجة:
- «من هو هذا الـ (أدلر)؟ لم أسمع عنه من قبل..»
- «ولا أنا.. لكن اسمه موح بالجودة.. إنه أدلر من غيره.. بشىء من التوفيق يمكن أن يكون هو الأدلر على الإطلاق..»
سرعان ما كانا يدخلان العيادة التى تحمل ذات الطابع العتيق.. لكن الممرضة كانت ممرضًا عجوزًا هذه المرة.. وكانت هناك رائحة سيجار قوية جدًّا تزكم الأنوف.. يبدو أن التحليل النفسى لا يجوز من دون سرطان.. سرطان رئة أو لسان أو مثانة يسببها السجائر أو الغليون أو السيجار بالترتيب.. قال لهما الممرض:
- «أحسنتما إذ جئتما هنا.. إن د. أدلر هو أفضل محلل نفسانى فى البلاد.. فى العالم كله..»
قال الأب ضاحكًا:
- «قالوا من يشهد للعروس..»
لكن الممرض لم يضحك، وأخذ ثمن الكشف فى حزم وعد المال مرة ومرتين، ثم أشار لهما كى

يدخلا غرفة الكشف..
بعد لحظة وجدت (عبير) نفسها واقفة أمام الدكتور (ألفرد أدلر)..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الرجل (الأدلر) من سواه

لم يكن أدلر Adler مهيبًا عظيم المنظر مثل فرويد.. كان أقرب إلى البدانة، وله شارب (هتلرى) مضحك وعينان جاحظتان زرقاوان تتواريان خلف عوينات شفافة.. كان أقرب إلى جنرال نازى منه إلى طبيب، وقد ذكرها فعلًا بالصورة المعتادة لهملر Hemler المخيف قائد الجستابو لدي هتلر..

الغرفة نفسها كانت منمقة أنيقة ليس لها ذات الطابع القديم المغبر الخاص بغرفة فرويد..

الإضاءة كانت ساطعة.. هنا المكان ليس مناسبًا لوحوش النفس كى تخرج، بل هو مخصص لإلقاء نظرة فاحصة دقيقة على المريض.. كأنها غرفة فحص لدى طبيب باطنى حيث الظلام لا يفيد..

سألها وهو ينظر لقدمها نظرة فاحصة:

- «لماذا تعرجين؟ هل هناك مشكلة فى ساقك؟ هل هو شلل أطفال؟»

نظرت لساقها، ثم قالت:

- «لم أعرج.. ربما هو الحذاء الضيق.. أو هو التردد والتهيب..»

كانت فيما مضى قد سمعت طبيبًا يقول: لو لم يدخل المريض على طبيبه فى شىء من التهيب والخوف، فهو لن يشفى.. يجب أن يشعر برهبة كأنه يدخل للكاهن الأكبر وبهذا يصدق كل شىء ويؤمن بالعلاج..

لكن أدلر كان يتصرف كضابط مباحث مشاكس:

- «ولماذا التهيب؟ هل هناك ما يقلقك؟»

- «كل مريض يشعر بتهيب عندما يدخل للطبيب النفسى.. لو لم أشعر بتهيب لاحتجت إلى طبيب نفسى!»

- «لاحظت أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة.. هل هناك سبب ما؟ هل هذا عيب فى نطقك منذ الطفولة؟»

- «لم أنطق الهاء بطريقة غريبة..»

- «خيل لى أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة..»

- «لكن الأمر ليس كذلك..»

- «حسبته كذلك..»

هنا كان صبر الأب قد نفد، فانفجر صارخًا:

- «ألن تطلب منا الجلوس بدلًا من استكمال تحقيق المباحث هذا؟»

قال أدلر:

- «هذا صحيح.. لكنى أطلب منك أن أكلمها على انفراد لو سمحت..»

شعر الأب باليأس.. لا يوجد مكان فى هذا العالم يسمح فيه أن يكون مع ابنته.. هكذا ألقى على أدلر نظرة نارية ثم خرج ليجلس مع الممرض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما بعد عرفت أن الأب جلس مع الممرض يستنطقه عن المدعو أدلر.. قدم له لفافة تبغ، وسأله:

- «هل كل هؤلاء ألمان؟»

صاح الممرض فى كبرياء كأنه أهين:
- «لا.. الدكتور نمساوى..»
- «إذن هو صديق فرويد..»
- «بل عدوه اللدود! كانا صديقين فى العام 1902 ثم دب بينهما الخلاف بعدها بعشر سنوات.. فرويد يعتقد أن الجنس هو محور كل شىء فى العالم.. متشائم وقذر الأفكار.. د. أدلر يؤمن بفلسفة نيتشه عن الإنسان السوبرمان.. وقد عمت شهرته أوروبا.. ثم اضطر إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة عندما تولى النازيون السلطة، وعاش يحاضر هناك وحول العالم إلى أن توفى فى اسكتلندا عام 1937.. الحقيقة أن موته المبكر نسبيًّا أدى لتراجع مذهبه فى التحليل النفسى بسرعة، وهى حقيقة غريبة.. لكى تترك تأثيرًا فى أى مجال يجب أن تعيش طويلًا جدًّا.. عند الناس لا فارق بين العالم الكبير سنًّا والكبير علمًا.. كله (عالم كبير)..»
حكى له الممرض المثقف كيف أن أفكار أدلر تكونت من نيتشه والفيلسوف الألمانى (فاينجر Vaihinger) الذى ابتكر فلسفة (كما لو أن As if) التى تحاول أن تتعايش مع العالم بأن تتخيله فى صورة أفضل..
كتاب (تفسير الأحلام) الخاص ب. (أدلر) - أى الكتاب الذى يشرح كل نظرياته - هو كتاب (الشخصية العصابية) الذى صدر عام 1912.. محور فلسفته هو أن كل إنسان يتحرك بشكل (غائى) من أجل الشعور بالتفوق.. أن ينتقل من الشعور بالضعة إلى العظمة وربما الكمال.. هكذا تكون القوة المحركة للإنسان هى مركب النقص Inferiority complex.. هذا المصطلح الشهير جدًّا الذى أدخله أدلر إلى علم النفس والأدب ولغة رجل الشارع وكل مكان تقريبًا..
لو حدث ما يعوق المرء عن الوصول إلى الاكتمال الذى يحلم به، فإنه يصير خطرًا على نفسه وعلى المجتمع.. لهذا يتم استخدام منهج (علم النفس الفردى) للوصول إلى هذا الفرد المعقد..
قسّم أدلر البشر إلى أنواع تذكرنا بأنماط أخرى تكررت فى علم النفس:
النوع الآخذ: هؤلاء الأشخاص الذين يأخذون فقط.. أنانيون مزعجون لا جدوى منهم ولا يفيدون الناس.. لابد أنك فكرت فى شخص يحمل هذه الصفة الآن.. على كل حال من الصعب أن يعرف هذا النمط نفسه عندما يسمع هذه المعلومة، فكل إنسان يعتبر نفسه مثال العطاء والتضحية..
النوع الحذر: يخشون التعامل مع المجتمع لأنهم يمقتون الهزيمة.. لو حققوا شيئًا فليس هذا راجعًا لكفاحهم..
النوع المسيطر: هؤلاء يفعلون أى شىء للوصول لما يريدون.. ومن السهل أن يكونوا أعداء للمجتمع..
النوع الاجتماعى: كما يدل الاسم فهذا النوع من البشر... إحم... اجتماعى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا لا يختلف كثيرًا عن مستشفى المجانين الذى وجدت عبير نفسها فيه داخل غرفة الكشف..
فى البداية حاولت أن تكون صريحة مع أدلر فاعترفت أنها كانت تعالج عند فرويد.. هنا انفجر الرجل صائحًا:
- «هذا الأحمق! مدمن الكوكايين!!»
قالت فى دهشة:
- «مدمن كوكايين؟»
- «نعم.. إنه يتعاطاه بإفراط وقد نصح به مرضى كثيرين حتى جعلهم مدمنين[1].. عندما تدمنين

الكوكايين تجدين أن الجنس يكتسب أهمية كبرى ويصير كل تفكيرك مقصورًا عليه.. لقد وضع فرويد نظرياته وهو غارق تحت تأثير الكوكايين لذا اعتبر أن كل خلل فى النفس سببه الجنس.. كل شىء ألقى فوقه ظلال الشك والدنس حتى علاقة الرضيع بأمه والأب بابنه.. عندما تبكين لأن جدك مات فأنت فى الحقيقة تكبتين فرحة عارمة للخلاص منه لأن إرادة الموت انتصرت..»

- «للأمانة لم يقل هذا كله..»

- «لكنه قاله فى كتبه.. هذا كاف..»

كانت تصغى فى صبر.. كيف تتأكد أيهما الصادق؟ قديمًا قال التعبير الشعبى: «عدوك ابن كارك..».. هات سباكًا يُصلح حوض المطبخ بعد سباك آخر واسمع ما يقوله عن حماقة الأول وغبائه وانعدام ضميره.. سوف يُشعرك بأنك كنت ضائعًا ونجوت بمعجزة... كنت تتعامل مع أسفل سباك فى العالم، ثم رزقك الله بأنزه وأبرع سباك..

كانت قد حكت حلمها لأدلر، فسألها:

- «أنت الأخت الكبرى طبعًا..»

- «نعم..»

- «هذا مهم.. وكيف حال أختك الوسطى؟»

- «ليست لى أخت وسطى.. فقط أنا و(صفاء) وهى فتاة رقيقة فعلًا.. تتمنى أن ترانى جثة ممزقة فى الصحراء..»

قال أدلر وهو يشعل سيجارًا غليظًا:

- «جميل.. جميل.. هى فتاة مدللة لا تجيد التعامل مع المجتمع.. أما أنت فكنت مدللة قبل أن تولد هى.. جاءت فأصابتك عقدة الطفل الأكبر.. فقدت عرشك وأهملوك.. هكذا صرت شخصية مزعزعة عصابية ولديك استعداد كبير للإدمان والانحراف ودخول السجن..»

- «أشكرك..»

- «هذه هى الحقيقة.. معظم المنحرفين والسفاحين الذين قابلتهم هم الأبناء الأكبر.. الأبناء الأصغر مدللون لا يصلحون لشىء.. الأكثر نجاحًا واستقرارًا نفسيًّا هو الابن الأوسط..»

- «الذى لم ينجبه أبى وأمى..»

- «لو كنت مكانك لطلبت منهما أن ينجبا طفلًا ثالثًا.. هكذا تنجو (صفاء) من أن تكون عالة على المجتمع وتصير ابنة وسطى.. أما أنت فقد فات أوان إنقاذك من الانحراف..»

- «هذا مطمئن..»

راح يتأملها بعض الوقت حتى شعرت بالارتباك، ثم قال وهو يحك شاربه:

- «أنت قبيحة جدًّا.. هل لاحظت هذا؟»

- «كنت أعتقد أننى مليحة ذات وجه مريح..»

- «هذا خطأ.. ميكانزم دفاع.. أنت قبيحة وأنت تعرفين هذا فى عقلك الباطن.. هذا كون لديك مركب نقص.. وهذا أدى إلى العصاب..»

ثم أضاف:

- «هذا الكابوس الذى ترينه هو نوع من الاحتجاج الداخلى على التناقض بين ما تريدين وما لا تقدرين على بلوغه.. مركب النقص هذا يحرك حياتك كلها.. لقد وضعنا يدنا على الخلل وسوف نعمل على العلاج.. سوف نقنعك بأنك لست قبيحة إلى هذا الحد..»

قالت وقد احمر وجهها غيظًا:

- «لكننى بالفعل لست قبيحة.. لست قبيحة على الإطلاق..»

كانت غادة جميلة بالفعل.. أجمل من عبير بمراحل.. فكيف يستعمل هذا الرجل عينيه؟
قال في هدوء:
- «هذا هو النكران Denial وهو ميكانيزم دفاع معروف.. أنت قبيحة كالشيطان لكنك تقنعين نفسك بالعكس، ونحن سنجعلك تعتقدين أنك جميلة وبهذا نقهر مركب النقص..»
قالت مصرة على كلامها:
- «إذن لماذا تقنعني بأنني جميلة إذا كنت فعلًا أعتقد هذا؟»
- «لأنك غير مقتنعة..»
هنا انفجرت باكية بصوت عال:
- «أنا مليحة.. أقسم بالله العظيم إنني مليحة وأعرف هذا! كيف أقنعك بذلك؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- عن الكسفريت والسباكنتا واللاوعى الجمعى..

هى فى حقل.. تعرفه جيدًا.. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة..
تركض فى الحقل.. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك..
فجأة توقفت الصرخات..
تعرف أنها لن تسمعها ثانية.. إنها مسرورة.. إنها منتشية..
لقد صار كل شىء لها.. تصفق بيديها وتطارد اليعاسيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها الأب فى غيظ وهو يجفف قطرات العرق التى ازدحمت على جبينه:
- «قيظ شديد.. ألم تجدى شهرًا أفضل للجنون من يونيو؟»
قالت فى كبرياء:
- «الجنون هو الذهان. وأنا لست مصابة بالذهان.. أنا مصابة بالعصاب..»
- «وهل هناك فارق ضخم؟ العصاب والذهان يرغمان المريض على وضع الكسرولة على رأسه..»
- «الفارق هو قدرة الحكم على الواقع وعلى مدى الاحتياج للعلاج.. الحلم هو ذهان كامل لكن العودة منه ممكنة.. الحُصار - بضم الحاء - هو الوسواس الذى....»
قال لها فى ضيق وهو يجر قدميه الثقيلتين فى الشارع:
- «بينى وبينك.. كان هذا الأدلر مناسبًا ومتزنًا.. لا أعرف ما هى المشكلة فى أن يتهمك بأنك قبيحة.. الكلام لا يلتصق بالمرء وقوله إنك قبيحة لن يجعلك كذلك!»
- «هذا مهين لى كأنثى.. دعك من أن هاجسًا يسيطر عليه هو مركب النقص.. مركب النقص.. مركب النقص.. هذا لا يطاق.. إما أن أختار من يتحدث عن اللبيدو والنكوص والميول الأوديبية، أو أقبل بمن يرى الحياة كلها مركب نقص..»
هنا هتف الأب وهو يشير إلى باب بناية عتيقة:
- «لا هذا واحد آخر!!»
دنت عبير من اللافتة الصغيرة وقرأت الأسم بصوت عالٍ:

د. كارل يانج
محلل نفسى

قالت (عبير) فى دهشة:
- «لم أر كل هذا العدد من المحللين النفسيين من قبل.. معلوماتى إنها مهنة نادرة وإنه لا يوجد سوى 300 محلل نفسى فقط فى الولايات المتحدة كلها.. ربما لأن المرء يبحث عنهم هنا.. أتذكر أيام المدرسة أننى لم أكن رأيت مطبعة فى حياتى، وكنت أتصور أن المطابع أماكن نادرة أو لا وجود لها، ثم أصدرت المدرسة مجلة صغيرة طبعناها على آلة (رنيو) رخيصة.. كنت مشاركة فى هذا المشروع.. اكتشفت وقتها أن المدينة تعج بالمطابع وأنها فى كل بناية تقريبًا.. كل زقاق كنت تشم فيه رائحة حبر (الرنيو) بعد ما تعلم أنفى البحث عنه..»

- «هل سمعت عن هذا الرجل من قبل؟»
- «سمعت عنه.. وأعتقد أن نطق اسمه الصحيح هو (يونج) لكن من العسير ألا يمارس المرء الخطأ الشائع.. دعك من أن الأخطاء اللغوية لها سحر خاص وتتسرب إلى اللسان بسهولة أكثر، باعتبار أن العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة.. كان بقال شارعنا يطلق على الكبريت لفظ (كسفريت) و على المكرونة السباجيتى لفظ (سباكنتا).. تصور أننى أجد عسرًا بالغًا حتى اليوم فى ألا أنطق (كسفريت) و(سباكنتا)؟»
لم يعلق الأب وإن تخيل ابنته تقول لعريس المستقبل: «سأشعل الموقد بالكسفريت لأعد لك بعض المكرونة السباكنتا..».. ستكون مصيبة بحق ربما تفوق موضوع بلل الفراش هذا..
واجتاز المدخل وهى معه..
كان المدخل يعج بالمرضى.. كل مريض تعس المنظر يجلس على درجات السلم ممسكًا بزجاجة ماء بينما يحتشد حوله سبعة من أقاربه.. هذا راق للأب الذى قال لعبير فى رضا:
- «علامة مطمئنة.. هذا طبيب بارع..»
وهو الخلط الشهير لدى الرجل العادى بين كفاءة الطبيب العلمية وسعة رزقه.. سعة الرزق هى التى تملأ العيادات لا المستوى العلمى، ولكم من طبيب شديد البراعة ملأ نسيج العنكبوت مدخل عيادته بسبب عدم دخول أى مريض..
دنا من أحد المرضى وربت على كتفه، وقال:
- «سوف تشفى إن شاء الله.. ما هى عقدتك؟»
نظر له المريض الجالس على الأرض فى دهشة وأعاد لف التلفيع حول عنقه، وقال:
- «عقدة؟»
- «نعم.. هل هو النكوص أم الارتكاس؟ أم لعله نشاط زائد للأنا العليا؟»
قال المريض فى ملل:
- «بل هو الإسهال.. ست مرات فى اليوم شىء متعب حقًّا.. مع الكثير من الغازات.. لابد أن (الخبيزة) مع البط هى السبب..»
نظر الأب للباقين فى حيرة ولم يفهم، فقال أحدهم مفسرًا:
- «د. (سليم الأحدب).. جهاز هضمى.. أليس هذا من تقصدون؟»
هنا احمر وجه الأب وجذب عبير من ذراعها ليصعدا فى الدرج.. لو قال لهم إنه ذاهب للتحليل النفسى لفروا مذعورين..
كانت عيادة (يانج) فى الطابق الثانى.. خالية تمامًا أقرب لكهف مظلم.. هكذا يمكن فهم الأمور ويبدو الأمر مألوفًا..
دخلا إلى الشقة.. كانت هناك ممرضة عجوز جالسة تطالع جريدة فدنا منها الأب وسألها عن ثمن الكشف.. طلبت منهما الجلوس وقيدت بعض البيانات..
ثم سُمح لهما بالدخول.. واضح أنه من الصعب أن يقابلا محللًا نفسيًّا يتركهما جالسين فى الانتظار بعض الوقت بسبب الزحام.. هذه عيادات تعمل بطريقة (من الشارع إلى غرفة الكشف فورًا) ...
إنه الدكتور (كارل يانج) يجلس وراء مكتبه..
يمتاز هذا المكتب بشىء غريب.. إنه قاعة فسيحة مزدانة بالأقنعة الأفريقية والرماح المعلقة.. هناك دروع عتيقة وتماثيل خشبية أقرب للطوطم.. على الجدار لوحات عملاقة تمثل بعض الأساطير اليونانية القديمة وربما أساطير صينية كذلك.. و هناك برديات فرعونية.. هناك تمثال

رأس عملاق لزيوس وهو ينظر للقادمين مهددًا بخراب بيوتهم.. هناك وعاء كانوبى يستخدمه لإطفاء السجائر والأريكة نفسها تذكرك بسرير توت عنخ آمون فى المتحف المصرى..
الخلاصة: تشعر بأنك تدخل مكتب تاجر آثار نصابًا أو عالم مصريات أو عالم أنثروبولوجى.. لا أعرف كيف كان مكتب (فريزر) يبدو لكنه لم يختلف عن هذا حتمًا..
نظرت (عبير) إلى الباب من الداخل ففوجئت بصورة عملاقة ل (فرويد).. غريب هذا.. لكن هناك سهامًا استقرت فى عينه وفوق حاجبه.. يبدو أن (يانج) يستعمل صورة فرويد للتدريب على رمى السهام!
(يانج) نفسه كان رجلًا صارمًا له شارب كث ووجه مقتحم جرىء.. واثق من نفسه وعدوانى قليلًا.. وكالعادة كانت تلك العوينات النازية تستقر على أنفه.. فى يده لفافة تبغ سوداء تطلق دخان ستة مصانع.. كما قلنا: التحليل النفسى الذى لا يصيب المريض والطبيب بالسرطان يكون فاشلًا..
كان أول ما قاله هو:
- «معذرة.. أرجو أن تتركها وتخرج..»
قال الأب فى غيظ:
- «ومن أدراك أنها هى المريض؟ ربما كنت أنا؟»
- «لأن العصاب والفتيات الشابات متلازمان لا يفترقان.. هل تعرف معنى كلمة هستيريا؟ إنها مشتقة من لفظة (رحم Hyster) اللاتينية.. برغم أننا نعرف أن الهستيريا تصيب الرجال كثيرًا جدًّا، لكن جرى العرف على أنها مرض نسائى.. إنه اللاوعى الجمعى.. أرجو أن تتركها من فضلك..»
هكذا خرج الأب ليجلس مع الممرضة بينما جلست هى متوترة أمام د. يانج..
- «هلمى.. من أجل فهم المزيد عن اللاوعى الجمعى احكى لى قصتك ولا تختصرى..»
يا للملل! لابد أنها حكت هذه القصة ألف مرة حتى هذه اللحظة! كأنها دار سينما تعرض عرضًا متواصلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- عزيزى يانج..

(كارل يانج Jung).. اللاوعى الجمعى..
لعالم السويسرى الشهير - غير اليهودى لشدة الغرابة – الذى ولد عام 1875 وتوفى عام 1961..
والذى جعل علم النفس يتمدد ويأخذ مصادره من الأديان والأساطير وتراث الشعوب والأحلام والأغانى الشعبية وحتى الأطباق الطائرة.. يعرف متابعو هذه السلاسل أن (يانج) كان له اهتمام شديد بعملية تحضير الأرواح مثلًا... ليس لأنه يؤمن بها، ولكن لأنه يؤمن بالأسرار التى يكشف عنها اجتماع عدة أشخاص فى مكان مظلم مغلق ليمارسوا طقسًا رهيبًا كهذا.. ولو لم يكن يانج عالمًا لكان ساحرًا مبهرًا..
منذ طفولته آمن بأنه مهتم بعلم النفس.. درس فى (زيورخ) وراسل فرويد وأهداه أحد كتبه، ثم فى العام 1913 أصدر كتابه الشهير (سيكولوجية اللاوعى).. بعد الحرب العالمية الأولى تمكن من أن يجوب العالم.. زار أفريقيا والهند.. رأي الشرق كثيرًا حتى آمن بأن الجانب الروحى من الإنسان مهمل فى الغرب ويجب أن تتم تقويته أكثر.. يجب أن تمتزج الروح بالمادة..
كانت العلاقات بين (يانج) وفرويد قد بدأت تتوتر.. وفى لحظة ما بدا أن كلا العبقريين لا يطيق الآخر.. خلافهما كان حول طبيعة اللبيدو! ياتج كان يؤمن أن الليبيدو قوة خلاقة وقد قسم البشر إلى نوعين هما المنقلب للخارج extravert والمنقلب للداخل introvert، حيث يخرج اللبيدو للعالم الخارجى أو يظل بالداخل..
نعم.. هكذا يختلف العلماء حول اللبيدو لا حول المال الذى اقترضه أحدهم ولم يعده، أو الذى استأثر لنفسه بفتاة الآخر.. هذا الخلاف كان عنيفًا لدرجة أن (يانج) ألقى محاضرة فى الولايات المتحدة عن دور التحليل النفسى فى تاريخ حياة (أمنحتب الرابع)، وكانت آراؤه صادمة لدرجة أن فرويد سقط مغشيًّا عليه!!
عندما قامت الحرب العالمية الثانية، اتهم (يانج) بأنه تعاون كثيرًا مع النازيين.. حاول هو نفى هذا بأنه كان يحاول لعب دور الوسيط بين النازيين والعلماء اليهود.. النازيون كما قلنا كانوا يرتابون فى علم النفس باعتباره علمًا يهوديًّا، وكان على (يانج) أن يظهر كما قال كوجه غير يهودى يقبله النازيون.. فى الوقت الذى كانت فيه كتب فرويد تُحرق فى الميادين العامة فى ميونيخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كسفريت وسباكنتا.. سباكنتا وكسفريت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت (عبير) من سرد حلمها المعتاد الممل..
ثم صمتت منتظرة أن يفسر لها الرجل ما هنالك.. ما هى المشكلة..
قال فى ثقة:
- «إنه اللاوعى الجمعى collective unconscious..»
لم تفهم.. هل معنى هذا أنها بخير أم فى حالة خطرة؟
دفن لفافة التبغ فى المطفأة، وقال ضاحكًا:
- «لو أنك ذهبت لهذا المجنون (فرويد) فى عيادته، لقال لك إن حلمك يعبر عن الكبت.. هناك ثعابين وهذا مهم جدًّا عنده.. هناك دهاليز وهناك سمك.. هذا كفيل بأن يسيل لعابه.. هناك

قدمان حافيتان وهناك سقطة من أعلى.. كل شىء فى حلمك معد كى يجد فيه فرويد شيئًا..»
كتمت ضحكتها.. كيف لو عرف؟ هذا هو ما حدث فعلًا وحرفيًا..
قال (يانج) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:
- «لو سمعت أنك طلبت رأى فرويد أو أحد تلاميذه فلسوف أنسفك.. أنا كنت أعتبر نفسى من حوارييه، ثم عرفت الحقيقة وسقط الوهم.. إنه مجرد نصاب وهو يلفق الأبحاث طيلة الوقت.. لم يشف أيًا من حالات الهستيريا التى يزعم أنه شفاها..»
هكذا ابتلعت لسانها.. كانت على وشك أن تتعامل بصراحة معه، ثم وجدت أن هذا مستحيل فعلًا..
أردف يانج وقد بدا أن موضوع شتيمة فرويد يروق له:
- «طريقته فى التحليل النفسى عجيبة.. إنه يؤمن أن اللاوعى هو صفيحة القمامة التى تدارى أكثر رغباتنا عفونة.. هذا خطأ.. اللاوعى عملية خلاقة متجددة تتراكم فيها خبرات الأجيال.. ما نراه فى الحلم ليس إلا رموزًا تراكمت عبر الأجيال من الأسطورة القديمة والحكاية الشعبية والشعر.. إنه اللاوعى الجمعى.. كل هذه الأشياء موجودة فى اللا وعى وعلينا أن نقيم علاقة طيبة معها كى نعيش حياة سليمة.. لو غرقنا فى اللاوعى جننا.. ولو ابتعدنا عنه صرنا متبلدين.. طفولتك تشبه طفولة البشرية.. الطفل الرضيع هو ذاته رجل الكهف بمعتقداته.. هكذا يمكن فهم الأمر.. أنت تنضجين وتصيرين فردًا مفيدًا للمجتمع وكذلك تتقدم البشرية وتنضج.. العصاب ليس إلا العودة للمراحل الأولى.. للإنسان البدائى..»
لم تفهم شيئًا على الإطلاق لكنها كانت مسرورة.. الكلام يبدو صائبًا.
قال لها:
- «هناك مفهوم الظل.. الظل هو ما يرفض الشخص الواعى أن يعترف به فى نفسه.. وهو يظهر فى الحلم على شكل أشباح سوداء من نفس جنس الحالم، ما تفعلينه أنت هو أن تنكريها أو تحوليها أو تتوحدى معها أو تسقطيها..»
قالت له وقد تذكرت شيئًا:
- «أحيانًا أشعر بأننى غير كاملة الأنوثة.. هناك رجل فى أعماق يمكننى أن أسترجعه بسهولة..»
قال ضاحكًا:
- «كل رجل يحمل دون وعى جزءًا من الأنثى فى أعماقه واسمها (أنيما Anima) كما أن كل أنثى تحمل جزءًا من الرجل هو (الأنيموس animus). أحيانًا نشعر بحب أو انجذاب مفاجئ لشخص ما.. السبب هو أننا نرى الأنيما الخاصة بنا فيه..»
- «هل هذا هو تفسير الحب من طرف واحد؟»
- «بالضبط.. فجأة ترين رجلًا.. وتعتقدين أنه يحمل الأنيموس الخاص بك.. الأنيموس فيك هو مصدر التفكير الممنطق العقلانى، بينما (الأنيما) فى الرجل هى مصدر التفكير المتهور غير المنطقى..»
- «هذا يشبه المفهوم الصينى عن.. عن..»
- «الين واليانج Yen and Yang.. نعم.. إلى حد ما..»
الحقيقة أن كل هذا بدا لها أقرب إلى الفلسفة.. ذكرها بأجواء (فلاسفة فى حسائى) لا أعاد الله تلك الأيام السوداء ولم تكن بعيدة عن الحقيقة إلى هذا الحد.. بالفعل يُنظر لـ (يانج) بجدية أكثر بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع أكثر مما ينظر له بين المحللين النفسيين.. مراكز تحليل نفسى محدودة جدًا هى التى تمارس التحليل (اليانجى)..

قالت له وقد بدأت تتعب من كل هذا الشرح:

- «حسن.. وماذا عن مشكلتى أنا؟»

- «إنه اللاوعى الجمعى! فكرة السقوط قديمة جدًّا منذ كان أجدادنا ينامون على الأشجار وتتخلى يد الواحد منهم عن غصن الشجرة فيسقط.. هذا الحلم ينتهى قبل لمس الأرض.. فى حالتك ينتهى بسبب شعور البلل.. لقد بعثت هذه الفكرة نتيجة للعصاب..»

- «جميل.. لكن هذا لا يساعدنى كثيرًا..»

- «بالعكس.. فهم لغة الحلم الرمزية هو بداية العلاج للعصاب.. يجب أن تفهمى وأن تعقدى علاقة طيبة مع هذه الرموز.. أنه اللاوعى الجمعى كما تعرفين..»

ثم أغلق المفكرة، وقال فى رضا:

- «هذا عمل طيب بالنسبة لأول جلسة.. فى الجلسات القادمة سوف نفهم أكثر..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- بعض التاناتوس..

على الباب سألها أبوها وهو يفرك شاربه فى شغف:
- «هيه؟ سبع والا؟»
- «لا هذا ولا ذاك.. المزيد من اللاوعى الجمعى..»
ثم وجدت أنه يمسك بمجموعة من أوراق اللعب فى يده.. دققت النظر فوجدت أنها تحمل رسومًا غريبة.. هذه أوراق تاروت! أبوها يلعب التاروت مع الممرضة العجوز!
- «ما معنى هذا يا أبى؟»
قال فى خجل:
- «أوراق تاروت. إن الممرضة تلعب بها، وتقول إنها تقود إلى الكثير من فهم طفولة العقل البشرى ومفهوم الأسطورة..»
- «دعك من هذا الهراء.. فقد تأخرنا على الغداء..»
هكذا وضع ما معه من أوراق وشكر الممرضة ولحق بابنته.. سألها فى حيرة وهو ينزل معها الدرج وسط جحافل المرضى المصابين بالإسهال، وينتظرون الشفاء على يد د. (سليم الأحدب) عبقرى الخبيزة مع البط:
- «لا أفهم مشكلتك.. هل هى الرغبات الدفينة التى تكبتينها وسببت العصاب؟ أم هو مركب النقص؟ أم هو الوجدان الجمعى؟ أم أنت ببساطة مجنونة أو ممسوسة؟»
- «ربما هذا كله يا أبى..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هى فى حقل.. تعرفه جيدًا.. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة..
تركض فى الحقل.. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك..
من جديد تتعالى الصرخات هذه المرة.. هذه أمها تركض حافية وتلطم خديها.. هناك رجال كثيرون يقرءون القرآن.. هناك صندوق يحمله رجلان.. هناك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد كانت الثعابين..
الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان.. هل الثعابين تتسلق الجدران؟ ربما.. إنها تفعل هذا هنا على الأقل..
كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا.. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًّا..
تقول للثعابين وهى تبعدها بيدها:
- «أنت لا تلدغين.. أنا أعرف هذا.. أنت مجرد رمز فرويدى للذكورة.. لن أخاف منك..»
ولكن أين أبى؟ أين أبى؟ يجب أن يكون موجودًا لأن الأمر يتعلق بمركب (اليكترا)..
الثعابين جاءت على رائحة الأسماك.. أسماك؟ لابد من أسماك لأن هذا رمز فرويدى آخر..
خالها يكره أغانى (أم كلثوم).. لكن خالها ليس هنا.. يجب ألا يكون هنا وإلا انتهز فرويد الفرصة ودمجه فى تفسير الحلم..
تطير.. الطيران هو الزواج عند فرويد.. الطيران والقطار والعملية الجراحية، كلها تعنى الشىء ذاته.. وبما أنها ستسقط فهذا يعنى أنها غير موفقة فى حياتها العاطفية..

أشباح سود قادمة.. هذا هو الجزء الخاص ب.(يانج).. الظل.. لابد أنهن إناث..
فتاة طفلة جوار بئر.. لكنها لا ترى وجهها.. كأن هناك من لونه بالأسود..
الماء يتساقط فوق رأسك.. الماء يبلل كل شىء.. الماء..
يبدو أن هذا وقت التبول اللا إرادى.. أنت غير راغبة فى ذلك لكن الواجب هو الواجب.. سوف تملأ (صفاء) الدنيا صراخًا.. لكن لا يهم.. لن يتم الكابوس من دون تبول حتى وإن لم يرق لها هذا..
ثم السقطة.. السقطة التى يمكن تفسيرها على طريقة (يانج)..
المزيد من اللاوعى الجمعى.. العصاب..
آهههههههههه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد الأم تقف باكية..
(صفاء) تملأ الدنيا سبابًا وهي تقف على بعد مترين من الفراش:
- «أنت مخبولة! لابد من أن نجد لك علاجًا جذريًا أو تلبسى حفاضة قبل النوم!»
الأب محتقن الوجه يراقب هذا كله ويفكر فى عمق:
- «إذن لم يفدك العلاج النفسى بعد: الأمور تزداد سوءًا أو على الأقل لم تتحسن..»
جلست (عبير) على حافة الفراش وغطت وجهها، ثم قالت:
- «الحقيقة أننى ارتكبت الخطأ الذى يقع فيه المرضى دومًا.. لم أستكمل العلاج مع طبيب واحد ولم أعط أحدهم فرصة لاستكمال ما بدأه.. لكننى..»
وقبل أن يفهم أحد ما حدث كانت قد نهضت.. ركضت نحو الصالة.. فتحت الشرفة الكبيرة هناك.. ووضعت ركبتها على السور..
الظلام الرهيب فى الخارج.. السقوط.. لحظة قاسية ثم ينتهى كل شىء..
أم يبدأ؟؟؟؟؟؟؟
من الغريب أنها لم ترغب فى الانتحار، ولم تقبل الفكرة قط.. كانت متدينة.. لكنها وجدت نفسها تفعل ذلك من دون أن تعرف السبب.. كان جسدها يتصرف بإرادة مستقلة عن إرادتها..
لا تدري متى ولا كيف شعرت بيد أبيها القوية تطبق على ساعدها وتجرها إلى الداخل، بينما أمها توصد الشيش بإحكام.. يلقونها على الأريكة.. الأم تولول:
- «لابد أنه عفريت قد مسّك! لا تفسير سوى هذا!»
(صفاء) أختها تراقبها فى مزيج من الندم وعدم التصديق، كأنها تقول: لن ينطلى على هذا التمثيل.. أتمنى لو تركك أبي لنرى إن كنت ستفعلينها حقًّا.. لا أصدق يا عزيزتى..
أبوها يقول وهو يوجه لها صفعة خفيفة جدًّا على خدها أقرب إلى التربيت:
- «إن لم تكن الفضيحة فهو الكُفر.. أترانا قصرنا فى شىء أو لُمناك على شىء؟ أقضى اليوم كله فى عيادات المحللين النفسيين، تاركًا مصالحى، وأسمع كل ما يقولون عن النكوص والليبيدو واللاوعى الجمعى.. بعد هذا كله تنوين أن تحرقى قلبى عليك؟»
كانت تريد أن تفسر..
فعلًا هى لم تتعمد شيئًا من هذا.. ليتهم يفهمون.. كان جسدها يتصرف على هواه ودون أن يطلب رأيها..
قال الأب فى حزم وبلهجة من لا يقبل المناقشة:
- «سنعود غدًا إلى فرويد.. لقد بدأنا به وسنعود له..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن فرويد موجودًا فى اليوم التالى.. كان فى النمسا يجرى واحدة من جراحات استئصال سرطان الفم الثلاثين التى أجراها..

على أنه عاد فى اليوم التالى بخير كما يحدث دومًا فى فانتازيا، وكان يدخن الغليون كالعادة..

قال للأب عندما سمع تفاصيل ما حدث:

- «هذا متوقع..»

- «ما هو المتوقع؟»

- «إن هذا يثبت رأيى حول إرادة الموت (الثاناتوس) Thanatos.. كل كائن حى يحمل ميلًا غريزيًا فطريًا للموت والعودة إلى الحالة العضوية الأولية.. هناك رغبة الحياة (الإيروس Eros) ورغبة الموت.. هذا هو الاكتشاف الثورى الذى توصلت له متأخرًا، وجعلنى أغير رأيى بصدد طاقة اللبيدو.. الرغبة فى الجنس جزء من رغبة الحياة، لكنها ليست كل شىء..»

- «وما دخل هذا بمحاولة البنت أن تثب من الشرفة؟»

- «لا شيء. ما فعلته طبيعى جدًا وجزء من تكوين الكائن البشرى..»

- «هل يجب أن يثب الكائن البشرى الطبيعى من الشرفة؟»

- «فقط عندما يكون طبيعيًا أكثر من اللازم.. وهذا يعنى أننا غير طبيعيين إلى هذا الحد..»

- «تعنى أننا مجانين لأننا لا نملك درجة كافية من الجنون؟»

- «هذا صحيح..»

تحول وجه الأب إلى ثمرة طماطم ناضجة، وراحت الشرايين تنبض فى فوديه.. لو ترك لنفسه العنان لقتل فرويد بعد وفاته بستين عامًا..

لكن منظر ابنته وهى تهرع إلى الشرفة لترمى بنفسها.. منظر الفراش المبتل.. كل هذا جعله يقرر أن يصمت.. إن اضطره الأمر للتعامل مع شيطان مصاب بالجذام والسل فسيفعل..

هكذا غادر الغرفة بينما استلقت (عبير) على الأريكة..

قال لها (فرويد) من وراء ظهرها:

- «المشكلة أنك تقاومين بشدة.. ميكانيزمات الدفاع تعمل عندك بشكل عنيف..»

- «لا توجد عندى ميكانيزمات دفاع.. هذه أشياء لا أفهمها..»

- «بللت الفراش بالبول وهذا أمر خطير.. ألا ترين هذا؟»

- «ليس خطيرًا لهذا الحد.. (صفاء) هستيرية ومجنونة..»

سمعت صوته يبتسم.. يبدو هذا غريبًا لكنها تعلمت أن تسمع ابتسامته فى الظلام.. قال لها:

- «الآن أنت تمارسين نوعين من ميكانيزمات الدفاع.. الإنكار Denial باعتبار التبول الليلى شيئًا غير مهم.. والإسقاط Projectionلأنك تعتبرين أختك هستيرية.. هذا لأنك تخشين أن تكونى هستيرية..»

ثم سألها:

- «هل لك هوايات؟»

- «أحب الرسم.. هل هذا مشكلة أيضًا؟»

- «هذا ميكانزم دفاع آخر هو (التسامى أو الإعلاء sublimation).. حيث تحولين عواطفك الضارة إلى شىء راق سام.. أعتقد أن كل فنان يفعل الشىء ذاته.. العدوانى يصير مصارعًا أو محاربًا شجاعًا.. هاوى الاستعراض المرضى Exhibitionist يصير بطل كمال أجسام والفتاة تصير (باليرينا).. هل تحبين قراءة الروايات؟»

قالت فى براءة:
- «نعم.. لكن الأدباء لا يلتزمون التهذيب اللازم.. يحشرون الكثير من المشاهد المشينة التى تخجلنى وتخنقنى.. لا أعرف لماذا يفعلون هذا؟»
قال فرويد وهو ينفض غليونه:
- «هذا ميكانزم دفاع تتبعه الفتيات كثيرًا اسمه التعويض Compensation.. إن هذا الاشمئزاز ناجم عن أنك تهتمين فعلًا بهذه الأمور وبشدة.. وبما أنك عاجزة عن قبول هذا من نفسك فإنك تتخذين موقفًا مضادًّا.. الفتيات الحساسات اللاتى يلاحظن هذه الأشياء أكثر من سواهن، هن فى الحقيقة مهتمات بها جدًّا.. عندكم فى العربية يقولون: (يتمنعن وهن الراغبات).. بينما فى الأدب العالمى ينتشر نمط المرأة المحافظة العصابية التى تخفى براكين تحت جلدها.. هناك عالم فرنسى ألف كتابًا فجاءته امرأة محافظة فى حفل، ولامته على أنه ذكر بعض الألفاظ الجنسية فى كتابه.. مثلًا ذكر كلمة كذا عشرين مرة وكلمة كذا عشر مرات.. قال لها: إذن أول شىء فعلته يا سيدتى عندما وجدت الكتاب أن بحثت عن هذه الكلمات؟!!!»
نهضت (عبير) من رقدتها لتجلس، وصاحت فى غيظ:
- «لماذا لا تقبل أن يوجد شىء واحد برىء فى العالم؟»
- «لأنه لا يوجد شىء واحد برىء فى العالم..»
- «لماذا لا تفترض أن الفتاة التى تكره قراءة الأدب المكشوف تقول ذلك لأنها فعلًا تكره قراءة الأدب المكشوف؟»
والحقيقة أن (عبير) وضعت يدها فعلًا على مأخذ مهم ضد فكر فرويد.. هناك فيلسوف يدعى (بوبر) قال إن صحة أية نظرية علمية يأتى من قابليتها للنفى، وهذا يعنى أن نظريات فرويد علم زائف لا قيمة له.. ما لا يمكن نفيه لا يمكن إثباته.. فرويد يقول إن عندك ميولًا خفية.. لو أنكرت إن عندك هذه الميول فهذا لا قيمة له عند فرويد، لأنك تمارس الكبت والرقابة على عقلك الباطن.. إذن أين يوجد الرجل الذى لا يملك ميولًا خفية؟ منذ البداية يفترض فرويد أنه لا وجود له.. الموقف يشبه أن يسألك المحقق: هل قتلت (شلاطة)؟ إذا قلت إنك لم تقتل (شلاطة)، اتهمك المحقق بأنك تكذب وأنه توقّع هذه الإجابة.. إذن ما قيمة السوال؟ كيف تثبت العكس؟
وتنهدت (عبير)..
حقًّا سوف يعلمها (فرويد) هذا كيف تشك فى نفسها.. تشك فى كل شىء..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- ميكانيزمات دفاع

أمها كانت منهمكة..
فى حياة كل أم لحظة تفتح فيها خزانة الثياب، وترص ثياب الشتاء أو ثياب الصيف، وتضع بين ثناياها قطع (النفتالين) حتى عودة الفصل ذاته.. هذه هى اللحظة.. تجد شيئًا هنا أو هناك فتتوقف العملية إلى أن تفحص الشيء جيدًا وتتذكره..
هكذا كانت منهمكة فى طى ثياب الشتاء، وهى مهمة تأخرت كثيرًا.. كان يجب أن تقوم بها فى مايو لكنها أجلتها إلى يونيو..
(غادة) /(عبير) تجلس على الفراش تثرثر مع أمها.. و(صفاء) عند صديقة لها..
ألقت الأم بمظروف يحوى مجموعة من الصور على الفراش جوار (عبير) وواصلت ما تقوم به..
مدت (عبير) يدها تتفحص الصور بذهن شارد.. معظمها صور بالية بالأبيض والأسود تبدو كأنها أفيشات فيلم من أفلام (فاتن حمامة) و(عماد حمدى).. الزوجان الشابان يمشيان على الكورنيش وبطن الأم منتفخة ب. (عبير) طبعًا.. زفاف شخصين ما عندما كانت حفلات الزفاف تقام على أسطح البيوت.. إلخ.. لابد أن (عبير) رأت هذه الصور ألف مرة من قبل، لكنها لم تدقق النظر فيها..
فجأة رأت صورة طفلة.. طفلة رضيعة عمرها عام واحد تقريبًا.. تجلس فى جلباب واسع مريح وتضحك ضحكة مشرقة..
لكن (عبير) لم تشعر براحة..
شيء فى هذه الصورة أشعرها بالرعب.. راحت يدها ترتجف..
ألقت نظرة على أمها فوجدتها تشب على أطراف أصابعها محاولة الوصول إلى أعلى رف فى خزانة الثياب، هكذا مدت (عبير) يدها وأخفت الصورة فى جيبها..
لماذا شعرت بالذعر؟
ما سر هذه الصورة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هى فى حقل.. تعرفه جيدًا.. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة..
تركض فى الحقل.. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك..
هناك من يصرخ.. صرخات رفيعة جدًا من خلفها..
تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب..
فجأة توقفت الصرخات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تشعر بصداع عظيم..
نهضت إلى الحمام وهى تترنح، وتأملت وجهها فى المرآة فوق الحوض فرأت أنه يشبه وجه جثة انتفخت وتعفنت بعد ما ظلت ملقاة فى الصحراء أسبوعًا..
ماذا حدث؟ بم أصابتها تلك الصورة المسحورة؟
إنها.. موشكة.. على.. فقدان الوعى....
لكنها نظرت إلى عينيها فى المرآة، وهتفت:
- «تذكرى يا فتاة.. هذه ميكانيزمات دفاع.. لهذه الصورة معنى رهيب بالنسبة لك لهذا يعاقبك

عقلك الباطن على اختراق هذا الحجاب..»
هناك من يدخل الحمام..
أبوها يقف هنالك وراءها وينظر لها فى دهشة:
- «(غادة).. هل أنت بخير؟»
تماسكت إلى أن استطاعت أن تقف ثم مدت يدها فى جيبها وأخرجت الصورة:
- «أبى.. من هذه؟»
نظر إلى الصورة وقطب جبينه.. فقط تنحى بضع خطوات خارج الحمام ليقرأ الفاتحة فى الصالة، ثم قال:
- «أنت تعرفين.. هذه أختك (مى) رحمها الله.. لماذا تسألين؟»
نظرت له فى عدم فهم، فقال:
- «تعرفين (مى).. الغرق فى أرض (الدلنجات).. لم نعد نتكلم عنها لكنك تعرفين..»
تعرفين..
تعرفين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترقد على الأريكة أمام فرويد.. تستدير لترمق عينيه الناريتين خلف عويناته، وتقول:
- «نعم. أعرف.. كانت لى أخت.. كانت تصغرنى عامًا وتوفيت وأنا فى الثالثة أو الرابعة.. هذا يحدث فى عائلات كثيرة.. الطفل الذى مات وهو رضيع يُعامل كأنه لم يوجد.. أعرف أن لى أختًا توفيت فى صغرها لكنى لا ألاحظ التفاصيل..»
قال بصوته العميق:
- «أو لا تذكرينها..»
- «ربما..»
- «أو لا تريدين أن تذكريها!!»
ثم فتح المفكرة وبدأ يدون..
- «أريد أن تغمضى عينيك.. أنت الآن فى لحظة وفاتها.. لماذا استعملت تعبير (لا ألاحظ التفاصيل)؟ لا أحد يتكلم بهذه الطريقة.. يجب أن تقولى: (لا أذكر التفاصيل)..»
- «ربما.. إنها عثرة لسان..»
- «نعم.. نعم.. عثرة لسان، وعثرات اللسان ليست صدفة.. أنت الطفلة الأولى فى الأسرة.. (صفاء) لم تولد بعد.. أنت الملكة المتوجة.. كل ما تفعلين ظريف حتى لو بللت البساط ببولك أو وضعت إصبعك فى أنفك.. أبوك لك بالكامل.. (غادة) الطفلة المدللة التى يعود الأب من عمله ليلعب معها.. ثم جاءت (مى).. الشيطان الذى جاء ليسلبك عرشك.. كل شىء صار لها.. كل وقتهما مخصص لها.. يتزامن مجىء الطفل الثانى دومًا مع كبر الطفل الأول وفهمه للمسئوليات الملقاة عليه.. يبدأ اللوم.. تبدأ التربية.. تبدأ بعض القسوة.. من هنا يشعر الطفل الأول أن كل هذا حدث لأن الوغد الثانى جاء..»
- «أنت تبالغ..»
- «من ثم ليس من المبالغ فيه أن نفترض أنك تمنيت لو تزول من على وجه البسيطة.. لم تتمن لها الموت لأن الأطفال لا يعون فكرة الموت قبل سن العاشرة.. هو بالنسبة لهم (عدم وجود) لا أكثر..»
- «أنت مجنون..»

كانت تبكى.. هذا الشىء الحار المالح الذى يسيل على جانبى فمها ليس دمًا.. إنه دموع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنت فى حقل..
أرض الدلنجات التى ورثها أبوك..
من النادر أن يذهب هناك لكنه فى ذلك اليوم صمم على أن يصحب الأسرة كلها..
أنت تلعبين.. تطاردين اليعاسيب.. صوت أم كلثوم يخرج من الراديو الصغير الموضوع على ملاءة فوق الأرض «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادى من غدى..»
خالك يصيح ضاحكًا إنه لا يحب أم كلثوم.. يقول أبوك فى غضب:
- «الست يا جاهل.. الست.. هل هناك من لا يحب الست؟»
يصيح خالك الشاب إنه الوحيد.. ثم يهشم البطيخة التى ابتاعها بقبضته ليكتشف أنها بيضاء تمامًا.. تقول الأم فى استفزاز:
- «كنت طيلة حياتك أسوأ من يشترى البطيخ..»
أنت تركضين وراء اليعاسيب..
أبوك يعلن أنه يجيد لعب (الراكيت).. يخرج ثلاثة مضارب.. مضرب معه ومضرب مع خالك ومضرب مع أمك.. أمك تركض.. للمرة الأولى تركض.. بلا رشاقة.. تتعثر وتلهث.. تلاحق الكرة..
ضحكات.. مرح..
أنت تراقبين ما يحدث وتطاردين اليعاسيب..
دودة أرض عملاقة تزحف.. أنت صغيرة جدًّا.. قلت إنها ثعبان وارتجفت رعبًا..
ابتعدت عنها..
«هناك لوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل تجلس جوار بئر..»
أنت ترين هذا المنظر.. ترين (مى) تزحف مبتعدة من حيث كانت تجلس فوق الملاءة.. تزحف..
ترين هذه البئر التى تعتليها طلمبة صغيرة.. الماء يترقرق ذهبيًّا جميلًا فى ضوء الشمس..
(مى) تزحف نحو البئر..
(مى) تزحف..
تفتحين فمك لتنادى الكبار «لكن أين ذهب صوتها؟ لا صوت على الإطلاق.. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء..» كلهم هناك فى الجانب الآخر من الحقل يصخبون ويتكلمون بصوت عال.. تعالوا وساعدونى «إن أباها هناك.. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله..»
لم تكن هناك صرخات.. فجأة دنت (مى) من البئر ثم توارت..
ظللت صامتة لحظة تراقبين المشهد ثم ابتعدت..
رحت تطاردين اليعاسيب..
من خلفك تتعالى الصيحات (مى).. (مى)..
لقد افتقدوا الطفلة الرضيعة..
يبحثون.. يبحثون..
سوف يمر وقت طويل قبل أن يجدوا الجثة الطافية فوق مياه البئر..
لن تعودى هنا أبدًا.. لن يعود هنا أحد، وسوف يبيع أبوك الأرض لأنه لا يريد أن يراها ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تبكى وتغطى وجهها..
(فرويد) من ورائها يواصل الكتابة ودخان الغليون يتصاعد كثيفًا:
- «لقد نسيت ما حدث.. إنه فقدان الذاكرة الهستيرى وهو من ميكانيزمات الدفاع الشهيرة.. ما هو شنيع أكثر من اللازم هو ببساطة لم يحدث.. لكن عقلك الباطن ظل يحمل الوصمة.. أنت أردت قتل (مى).. أنت قتلت مى.. كان بوسعك أن تصرخى وتنادى الكبار، لكنك لم تفعلى.. لماذا؟ لماذا احتبس صوتك؟ لأنك أردت أن تموت.. لم تغفر لك الأنا العليا هذا.. عاقبتك بالعصاب.. فى كل كابوس تعاقبك الأنا العليا من جديد على هذه الجريمة ثم تصحين من النوم مبتلة ملوثة بوصمة تجعل الناس يشمئزون منك.. فى كل كابوس تعدمك الثعابين.. من أين جاءت الثعابين؟ من دودة الأرض التى رأيتها..»
قالت والمخاط يسيل من أنفها بلا انقطاع:
- «أنت فسرت الكابوس من قبل، وقلت إنه كبت جنسى..»
- «كنت مخطئًا.. لم تكن معى كل الأوراق.. الخطأ شائع جدًا فى التحليل النفسى.. لكننا قد لمسنا الحقيقة وعلينا أن نبرئ الطفلة الصغيرة (غادة).. ما كان بوسع طفلة فى الثالثة أن تفعل أى شىء.. أنت لم تقتلى (مى). إهمال الكبار هو المسئول.. يصعب أن نقنع الأنا العليا بشىء لأنها لا تعترف بالطفولة والبلوغ.. لكننا سنتوصل لهذا فى النهاية..»
وساد صمت طويل لا يقطعه إلا صوت دخان الغليون (دخان الغليون له صوت هنا).. ثم قال كأنه يطمئن نفسه:
- «سنتوصل لهذا فى النهاية..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبير وعبير وعبير

(مسرحية من فصل واحد)

(نفس الديكور والإضاءة)..

الشخصيات:

نفس الشخصيات..

تدخل (عبير هى) متمايلة وتحك شعرها فى حركة غير أنيقة بالمرة..

عبيرهى: أعتقد أن هذا الصداع قد انتهى.. يبدو أن الكابوس لن يعود.

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتابها المعتاد وان بدا عليها الرضا..

عبير أنا عليا: من الصعب أن أعتبر (غادة) /(عبير) بريئة من قتل (مى)، لكن علىّ أن أقبل هذا.. الطبيب أقنعنى أنه ما كان بوسعها أن تفعل شيئًا وهى فى الثالثة.. لكن بالنسبة لى لا وجود للزمن.. الرضيع مسئول كالكبير بالضبط..

عبير هى: مشكلتك إنك تطالبين الناس بما هو فوق طاقتهم.. من الطبيعى أن يغار الطفل ويمقت ويتمنى الخلاص من أعدائه..

عبير أنا عليا: مهمتى أن أطالب الناس بما فوق طاقتهم..

عبير هى: سوف تشفين من هذه الهلاوس وتتعلمين كيف تستمتعين بحياتك بلا ألم.

عبير أنا عليا: لا أتمنى ذلك.. لا يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم.. هكذا قال (ألفريد دو موسيه)..

عبير هى: تصورى أننى أجد فرويد هذا جذابًا.. عجوز كئيب مصاب بالسرطان، لكن فيه جاذبية لا توصف..

عبير أنا عليا: تذكرى مبدأ التحويل.. العامل الذى (لا يمكن أن نحلم بأهميته) كما وصفه (فرويد).. من المعتاد أن تحب المريضة طبيبها النفسى وربما تتمثل فيه الأب..

عبير هى: لا يهمنى التفسير.. المهم أنه يروق لى..

عبير أنا عليا: لن تتغيرى أبدًا.. ذات الدنس والتفكير فى صغائر الأمور..

تدخل (عبير أنا) مندهشة..

عبير أنا: تتشاجران من جديد؟ (عبير) الكبيرة تعانى بالفعل من هذا الصراع..

عبير هى: لا أطيق التصنع.. وهى متصنعة..

عبير أنا: قلت لك ألف مرة إن هذه طبيعتها ولا حيلة لها فيها.. **(تنظر لخلفية المسرح)** هناك رجل قادم..

يدخل المرشد وهو يضع يديه فى جيبيه وقد بدا عليه الاستمتاع

المرشد: لو سمحتن لى.. يبدو أن وقت الرحيل قد حان.. لقد انتهت القصة..

عبير هى: أنت وسيم جدًّا.. أنا مستعدة للذهاب معك إلى أى مكان.. خذني أنا واترك هاتين..

المرشد: للأسف لا أستطيع أن أكون انتقائيًّا.. أنتن الثلاث تمثلن طبقات العقل الباطن لعبير الكبيرة ولا يمكن أن آخذ واحدة دون الأخرى..

عبير أنا: مفهوم.. مفهوم.. إنها الضرورة.. نحن الثلاث..

عبير أنا عليا: ولكن إلى أين؟ أرجو ألا تكون قصة تافهة مخصصة للتسلية فقط..

المرشد: بصراحة لا أعتبر التسلية البريئة عملًا فاسدًا، لكنى على كل حال أحملكن إلى مغامرة

واقعية من الحرب العالمية الثانية..
عبير أنا عليا: جميل.. بعد ثقافى لا بأس به.. ربما بطولات أيضًا..
عبير هى: أنا أحب الحرب. أرجو أن يكون هناك الكثير من الدم والقتل.. أرجو أن يكون هناك ضباط شديدو الوسامة..
المرشد: هناك الكثير من كل شىء.. فقط تعالين معى وسوف تفهمن كل شىء..
عبير أنا عليا: هيا بنا.. فقد سئمت عالم التحليل النفسى..
عبير هى: للمرة الأولى أتفق معك.. وداعًا يا د. فرويد ويا د. يانج ود. أدلر.. وداعًا للعصاب والارتكاس والنكوص ومركبات النقص واللاوعى الجمعى وكل هذا الليبيدو..
يخرج الجميع
ستار..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

للأمانة لم يكن الكوكايين ممنوعًا في ذلك الزمن وكانوا ينظرون له نظرتنا الحالية إلى السجائر.. لهذا تجد أن فرويد و إدجار آلان بو وبودلير كانوا يتعاطون علنًا، وقد كان فرويد يعتبره مفيدًا للتركيز..

روايات مصرية للجيب

51

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

فلننقذ الدوتشي





كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (51)

فلْننقذ الدُّوتشى

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

(عبير عبد الرحمن) هى شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إن الفاشية لا تؤمن باحتمال دوام السلام ولا بجدواه.. فقط الحروب هى التى تستثير طاقات الإنسان كلها، وتضع طابع النبل على أولئك الذين يجدون الشجاعة لمواجهتها.»

بنيتو موسولينى

جهاز رشيق أنيق هو..

عندما تنظر له فى غرفتها تجد تناقضًا هائلًا بينه وبين تلك الغرفة الحقيرة، كأنه فراشة تحلق فوق كوم قمامة. دعك من اختلافه التام عن الجهاز القديم الذى كان يشبه عش الدجاج، وتوشك أن تحسبه يعمل بالكيروسين..

طبعًا حرصت أن تخفيه عن العيون، لأن أخاها سيجده سهل الحمل مريحًا.. ولسوف يأخذه عاجلًا أم آجلًا ليلعب به مع رفاقه فى المقهى، خاصة تلك الألعاب التى تروق له. أية لعبة فيها قطع رءوس ودماء تسيل ودهم المارة بالسيارات.

لم تكن علاقتها بأخيها حسنة قط فى أى وقت من الأوقات، وبرغم أن أمها ظلت تؤكد لها أن الأخ أهم شىء فى العالم:

- « عندما تتعثرين وتؤلمك قدمك ما هو أول ما تقولين؟.. تقولين (أخ!) ... تنادين أخاك قبل أى شخص فى العالم! »

بدا هذا المنطق سخيفًا ل (عبير).. من المؤكد أن كل من يخاف يقول (يا ماما) أو (يا أمه)، أما هى فلم تقل (أخ) لدى أى ألم فى حياتها، وإنما كانت تقول (أى!).. وماذا عن الأجانب الذين يقولون (أوه!) و(أوتش!)؟.. هل هؤلاء جميعا يمقتون أخوتهم؟

كلام أمها هذا نموذج من الكلام البراق لفظيًّا، لكن لا معنى له ولا يصمد أمام المنطق..

فى الحقيقة كانت هناك عدة أسئلة فى ذهنها عن السبب الذى جعل (شريف) يختصها بهذه الهدية. أسئلة عن طلاقه وعن الأسباب المحتملة لذلك..

لقد صار (شريف) صاحب سوابق بالمعنى الحرفى للكلمة.. باللغة الأمنية هو (مسجل خطر)، خاصة عندما يطلق زوجته الثالثة.. بسهولة وبساطة يفعل هذه الأشياء، ومن الصعب أن تفترض أن زوجته سيئة فى كل مرة.. يجب أن يكون العيب فيه.. وهذا يعكس عدم نضج نفسى غريب.. إنه طفل غير قادر على أن يعطى قدر ما يأخذ.. أو هو طفل يسأم اللعبة فيرميها.. أو هو طفل يجد الفراش ضيقًا عندما يرغمونه على أن ينام جوار أخيه.. المهم أنه غير طبيعى ولربما كان الحل الأصوب له ألا يتزوج أبدًا..

أسئلة كهذه كانت تزور عقلها على استحياء فتتخلص منها بسرعة.. كلام فرويد عن ميكانيزمات الدفاع لم يفارق ذهنها، وهى تعرف كيف تتخلص من أشياء كهذه. التساؤلات قد تعنى أنها ضعيفة واهية، أو أنها ما زالت بحاجة له.. التساؤلات قد تعنى أنه يمثل لها ما هو أكثر من فانتازيا.. التساؤلات قد تعنى أنها بلا كرامة..

أمها عرفت الخبر.. كان هذا خطأ فادحًا..

قالت لها أمها وهى تقتطف أوراق الملوخية وتضعها فى مصفاة:

- « أنت الوحيدة التى أنجبت منه.. هذه نقطة مهمة.. »

قالت (عبير) فى صبر:

- « ومن قال إنه لم ينجب من زوجته الثالثة؟ »

- « لم يكن هناك وقت لذلك.. ولو حدث لقال لك.. »

فكرت (عبير) حينًا ثم قالت:

- « إلامَ تلمحين؟ »

- « إلى العودة له طبعًا.. الرجال أطفال كبار لا يعرفون مصلحتهم، وعلى المرأة أن تحدد لهم ما يحبون عمله.. »

- « أى أن على أن أجعله يعرف أنه يريد استعادتى.. »

- « تلك هى الفتاة البارعة.. »

ثم نهضت لتغسل الملوخية فى حوض المطبخ، وجلبت باقى الاستعدادات البالغة التعقيد.. الطبلية، والمخرطة والجريدة، والسكين.. الأم المصرية القديمة الباسلة الموشكة على الانقراض، تبدو وهى تخرط الملوخية كأنها ملكة تعتلى عرشها..

لكن (عبير) لم تكن على استعداد لسماع شىء من هذا.. ميكانيزمات الدفاع تعمل بشكل ممتاز، وهكذا هى لا تسمع أى حرف أو لا تبالى به..

فى الصالة كان جهاز التلفزيون مفتوحًا.. جهاز تلفزيون صغير من عصر (الأكرة) والأزرار لكنه ملون على كل حال. وقد كان بيتها يستعمل الوصلة كأى بيت أخر، حيث صارت الفضائيات هى القاعدة. كان هناك فيلم على إحدى القنوات يظهر مجموعة من الضباط النازيين المتخشبين تلمع عيونهم بالتوحش والتفوق الآرى، بينما يظهر الأمريكان مجموعة من الشباب المرحين قليلى النظام مفرطين فى استعمال الشتائم لكنهم ظرفاء (جدعان) وقلوبهم من ذهب.. تذكرت (عبير) عبارة سمعتها من قبل... هى أن الشرير فى أى فيلم أمريكي يكون أجنبيًا أو يتكلم بلكنة بريطانية منمقة واضحة الحروف والمخارج..

طبعًا وجدوا فى الأعوام الأخيرة نوعًا جديدًا من الأشرار هم العرب الذين يقولون Allah طيلة الوقت قبل أن يفجروا أنفسهم.

جلست تراقب الشاشة بعض الوقت، وتذكرت أكوام ما قرأته من قبل عن الحرب العالمية الثانية.. الحرب التى كتب تاريخها الحلفاء، فماذا لو كتب تاريخها رجال المحور؟.. هل كانت الحقائق ستختلف كثيرًا؟.. وإلى أى حد؟

اليهود بذلوا كل مرتخص وغال للتحالف مع هتلر، لكنهم فشلوا فى استمالته وعندما بدأ فى النكاية بهم أطلقوا كل حكايات أفران الغاز والمعتقلات وصاروا يدمرون كل من يحاول الكلام بحياد عن النازية.. من يجرؤ اليوم على ذكر هذه الحقيقة؟.. مستحيل..

بالتأكيد لم يكن هتلر منقذًا للبشرية، لكن الحلفاء لم يكونوا كذلك أيضًا..

على الشاشة واصل الأمريكان الجدعان أولاد البلد تحطيم النازيين المعقدين نفسيًا، هنا نادتها أمها كى تبتاع بعض الطماطم من (أم وائل) على الناصية.. تحب أن تضع ثمرتى طماطم مع

الحساء أثناء غليانه ليعطى الملوخية مذاقًا أفضل. لم تكن عبير تحب الأكل كثيرًا، لهذا كانت تندهش من كل هذا الجهد الذى يبذله الناس من أجل متعة لا تدوم سوى خمس دقائق. إن مشاهدة الفيلم أفضل بكثير، لكن أمها لن تتركها.

- « ولا تنسى الخبز.. اشترى بجنيهين..!.. »

هكذا أغلقت (عبير) الجهاز وأخذت كيس نقودها ودست قدميها فى الصندل وخرجت إلى الحارة.

كانت (أم وائل) جالسة عند قمة الحارة حيث تلتقى بالشارع، وهى تتشاجر بصوتها المبحوح الخشن مع (أم عاطف). طبعًا هذا صراع على أماكن النفوذ كما تفعل أفراس النهر. كل واحدة تعتقد أن الأخرى تنافسها على أفضل مكان يهبط فيه الرزق.. سوف تنزل كرة الرزق من السماء فعلى حجر من تنزل؟..

راحت (أم وائل) تطلق السباب وهى تزن الطماطم لعبير، ثم وجهت مدفع سبابها إلى السيارة الواقفة بقربها، تلك التى تحجب عنها كرات الرزق. هؤلاء الذين بلا شغلة ولا مشغلة ولا يفعلون سوى وقف حالنا.. غريب أن تقف سيارة فى هذا الشارع الضيق دعك من أنها باهظة الثمن بالتأكيد.. لم تكن تعرف موديلات السيارات.. عندها أن السيارات حمراء وبيضاء ورمادية وفضية.. هذه هى الموديلات التي تعرفها..

رفعت (عبير) عينيها بحذر فوجدت أن الجالس خلف زجاج السيارة هو (شريف)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عادت إلى الدار وضعت ما ابتاعته فى المطبخ ثم هرعت إلى حجرتها..

سألتها الأم:

- « إلى أين؟.. ألن تتناولى الغداء؟ »

قالت (عبير) وهى تغلق باب الغرفة:

- « فيما بعد.. لست جائعة.. هناك صداع عظيم يوشك على تفجير رأسى.. »

- « ربما كان ال... »

لكنها كانت قد أغلقت الباب..

فتحت جهاز الكمبيوتر، ومن الكيس البلاستيكى أخرجت الأقطاب وجلست أمام الجهاز..

كانت بحاجة إلى فرار سريع.. فرار إلى عالم ليس فيه (شريف) و(أم وائل) و(أم عاطف) وملوخية وكل هذه المنغصات..

فى فانتازيا تصير الأمور منطقية ويغدو لكل شىء معنى، وتصير هى سيدة نفسها..

لكن إلى أين هذه المرة؟؟؟؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « فلننقذ الدوتشى.. »

قالها الجنرال (كورت شتودنت)، ثم نظر لها بعينيه الرماديتين اللتين تشعر بأنهما لا تريان.

لم تقل شيئًا، وظلت واقفة بتلك الطريقة العسكرية الصارمة المتخشبة، فعاد يقول:

- « لن أعطى تفاصيل أكثر، لكن طائرة استطلاع من سلاح الطيران قد حلقت فوق الجزيرة والتقطت عدة صور.. الطريف هو أنها التقطت صورة الدوتشى ذاته فى الشرفة.. »

ثم مد يده وتناول سيجارًا غليظًا من درج المكتب وأشعله، وقال وهو يطلق سحابة كثيفة:

- « لا أخفى عليك أن الفوهرر شخصيًا مهتم بالأمر.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتعود (عبير) بذاكرتها إلى قطار فانتازيا المضحك وهو يتأرجح بها بين معالم أكبر وأغرب مدينة ملاه أو theme park فى التاريخ.. فانتازيا.. لا شك أن من صنعوا (ديزنى لاند) كانوا سيرتجفون ويتضاءلون لو رأوا ضخامة هذه المدينة وامتدادها عبر كل العوالم وكل العصور. المشكلة الوحيدة هى أنها مدينة مَلاهٍ مخصصة لزائر واحد هو (عبير).. هنا لن يكون اصطحاب الأطفال مشكلة، لأنه لا يوجد أحد على الإطلاق ولا يوجد زبون آخر سواها.

قالت همسًا:

- « هذه ثروة.. »

التفت المرشد وقد سمعها تهمس وقال:

- « ماذا تقولين؟ »

- « هذه المدينة تشكل ثروة.. فقط لواستطاع شريف الأحمق أن يتيحها للجميع.. »

قال المرشد:

- « سوف تحاربها القوانين فى كل البلاد وسوف يُحرق من يمتلكها.. نحن نتحدث هنا عن نوع من المخدرات، وقابلية الإدمان واضحة تمامًا.. لو صارت فانتازيا متاحة للجميع، فلن يعمل أى إنسان على وجه الأرض.. سوف يجلس الجميع أمام الشاشات وعلى رءوسهم تلك الأقطاب.. الحلم أقوى وأجمل من الواقع دائمًا، ويطرده كما تطرد العملة المزيفة العملة الصحيحة.. كانت هناك فى أوائل القرن العشرين لعبة عبقرية اسمها (التيكن)، وقد نجحت إلى حد أن الموظفين لم يكونوا يرجعون إلى بيوتهم بل كانوا يمضون الليل يلعبونها تحت أعمدة الإنارة، وكانت القطارات تتصادم لأن المحولجية كانوا منهمكين فى تلك اللعبة.. »

- « لكن لفانتازيا دورًا تثقيفيًا لا شك فيه.. »

- « هناك من سوف يستعملها فى أغراض مشينة لو أتيحت له.. لقد علمتنا التجارب أن الإنسان قادر على إفساد أية متعة بريئة.. »

ثم أشار إلى رأسها وقال:

- « الخلاصة أن هذه اللعبة لا تناسب سواك، ومن الخير ألا تناسب سواك.. »

كان القطار الآن يخوض مستنقعات كئيبة تذكرها بمنطقة السدود فى رحلتها النيلية السابقة، لكنها فوجئت بكائن عملاق غريب يرفع رأسه من الماء ويحاول اقتناص القطار..

نظرت للمرشد فى حيرة فراجع الدليل الصغير فى يده وقال:

- « كوكب المستنقعات.. لابد أن هذا جزء من رواية خيال علمى ما.. »

ثم دوت صيحة طرزان الشهيرة وهو يثب فوق القطار ثم يثب من جديد إلى أعلى شجرة.. قالت فى ضيق ما معناه: « انت لسه عايش؟».. عندما تستنفد مغامرة تبدو لها سخيفة جدًّا كأنها فيلم رأته مائة مرة من قبل.. منذ أيام قابلت طالبين من مدرسة ثانوية يتناقشان بشأن (الفولتامتر العيارى) فشعرت بالغثيان. أما زال هناك من يتكلم عن الفولتامتر العيارى حتى اليوم؟

فجأة راحت الأرض تهتز..

كانت هناك مدرعات عتيقة الطراز نوعًا تزحف فى الأفق وهى لا تكف عن إطلاق المدافع.. لحسن الحظ ليس فى اتجاه القطار، لكنها ترى الانفجارات من بعيد والقطار يهتز بفعل تفريغ الهواء. هذه حرب لكنها ليست حربًا حديثة.. غالبًا هى الحرب العالمية الثانية..

قال المرشد وهو يراجع الدليل:

- « دبابات البانزر.. نحن فى قطاع (ألعاب تاريخية).. بالتحديد فى عالم الحرب العالمية الثانية.. هل تفضلينها أم تفضلين الحرب العالمية الأولى؟ »

قالت فى ملل:

- « كل ما أعرفه عن الأولى هو الخنادق والأطراف المبتورة والموت بالغازات السامة والتيفوس، والجنود البروسيون الذين يثبتون رمحًا فى قمة الخوذة.. »

- « معك حق.. هذا يلخص كل شىء.. لكنك قلت الصورة الذهنية ولم تتكلمى عن الحرب ذاتها.. ما علينا.. يبدو أنك تفضلين الحرب العالمية الثانية.. سوف نقترب أكثر لنرى المشهد.. »

ثم هتف وهو يشير إلى المدينة:

- « داس است برلين! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشهد كان مهيبًا بحق..

هناك ميدان واسع وعلى الجانبين يصطف آلاف من الناس.. سجاد أحمر يمتد إلى ما لا نهاية. موكب من الجنود يلبسون الخوذات البروسية على صهوات الخيول المطهمة.

هناك فى وسط الميدان درجات تقود إلى منصة عالية يرفرف فوقها العلم النازى مع علم آخر لم

تعرفه. العلم النازى رمز استعمارى قوى يصعب أن تراه من دون أن تستحضر آلاف الصور. هناك نار مشتعلة كأنه احتفال أوليمبى.

هناك صفوف من الأطفال الذين يلبسون الأبيض ويحملون صور الفوهرر.. أناشيد ترتفع إلى عنان السماء، بينما هناك مواكب من العسكريين ذوى القمصان السود، يرفعون أيديهم بتحية النازى.

هناك كذلك صفوف من الجنود الألمان بخوذاتهم غريبة الشكل يمشون بخطوة الإوزة الشهيرة. وهى طريقة المشى التى يرتفع فيها الفخذ إلى زاوية قائمة تمامًا والساق على امتداده

(خطوة الوزة.. خطوة فيها عزة).. هكذا كانت تغنى الطوابير الألمانية فى واحدة من فوازير (فطوطة) التى كتبها الشاعر الراحل (عبد السلام أمين).. تذكرتها (عبير) على الفور..

الأمطار تنهمر، لكنها برغم هذا تشعل نار النفوس ولا تطفئها..

هذا جو من التعصب والحماسة ملتهب.. هذا جو قادر على أن يحرك الجماهير لتعمل أى شىء.

و(عبير) وسط هذا الزحام تشعر بأنها ريشة ضائعة، لكنها تدرك على الفور أنها تقف وسط مجموعة مماثلة لها من الفتيات الشقراوات يلبسن ثيابًا شبه عسكرية..

إذن هى جزء من هذه الآلة العملاقة المجنونة..

وتنظر لملامح الفتيات فتراهن شقراوات، ماسخات، عديمات اللون والرائحة والطعم.. عضليات جدًّا.. إنهن نماذج آرية من تلك التى تروق لهتلر وقد تم انتقاؤهن بعناية...

عندما يتصاعد غناء الجماهير تشعر بأن الأرض ذاتها ترتج من تحتك..

داس إست برلين.. إنه 23 سبتمبر عام 1938...

داس إست برلين.. واليوم يوم خاص..

داس إست برلين.. وكل أعضاء الحزب النازى فى الشوارع اليوم..

داس إست برلين.. الحرب لم تبدأ بعد، لكن العالم كله قلق من ألمانيا..

إنها تنوى شيئًا.. الجميع يعرف أنها تنوى شيئًا ما..

والحقيقة أن خيوط هذا إل (شىء ما) كانت تُنسج فى هذا اليوم بالذات.. ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرًا تفتش كثيرًا حتى تقع عيناها عليه..

إنه يقف هناك فى وضع متخشب رافعًا يده بالطريقة النازية إياها محييًا الجماهير..

يلبس قميصًا بنيًا وسروالًا اسود وهو لباس النازية المعروف..

إنه أدولف هتلر..

لقد قابلته من قبل.. بالأحرى كانت حبيبته، وشهدت معه سقوط الرايخ. فى تلك الفترة كان أقرب إلى حطام بشرى وكان يجر نفسه بصعوبة وعسر وكان شاحبًا، لكنها الآن تراه فى خير حال.. متألقًا لامعًا يشع بالكاريزما والثقة... بل بدا لها كذلك بعيدًا جدًّا.. أقرب إلى رمز.. من الصعب فى هذه الظروف أن تتصور أنها كانت معه لحظة بلحظة فى ذلك المخبأ تحت الأرض..

النازيون فى ذروة قوتهم قبل بدء الحرب..

ثم تصل إلى الميدان سيارة سوداء ضخمة فاخرة.. عتيقة جدًّا لكنها أحدث وأفخم شىء فى عام 1938 طبعًا.. حول السيارة دراجات بخارية يركبها عسكريون ألمان يبدون كالسياط الحادة..

تفتح السيارة وينزل منها من يفتح الباب، ويتصاعد الهتاف من الحناجر أكثر فأكثر..

ترى ذلك الرجل الذى ينزل من السيارة وقد فرد صدره للأمام وطوح ذقنه إلى أعلى، حتى بدا منظره كوميديًا أقرب إلى الديك الرومى المنتفخ..

ثياب عسكرية أنيقة جدًّا وأكثر من وشاح ونياشين وعلى رأسه طاقية غريبة تذكرها بما كان جدها يضعه على رأسه طلبًا للدفء..

إنها تعرفه.. إنه رمز بصرى قوى جدًّا مثله مثل غاندى وشابلن وهتلر وأينشتاين.. هذا هو موسولينى Mussolini.. الدكتاتور الإيطالى الشهير.. الدوتشى Duce.. أى القائد كما يسميه الإيطاليون..

الحرس يؤدون التحية العسكرية وهو يرد عليها وهو ينظر تجاه هتلر الواقف فى المنصة، بدوره يأتى بحركة عجيبة متخشبة.. يثنى كف يده ويثنى الكوع ثم يوجه الكف للسماء كأنه يرفع ثقلًا.

ابتسمت فى سرها؛ لأنها لم تتمالك أن تقارن بين هذه الحركات وألعاب الأولاد.. لا شك فى أن هناك جزءًا من الصبيانية فى نفوس هؤلاء الطغاة يجعلهم مولعين بالثياب العسكرية الأنيقة والاستعراضات والدبابات.. إلخ.. بالضبط كما يحب كل طفل أن يلبس كضابط حيث يتاح له حمل المسدس..!

ما لم تعرفه (عبير) هو أن موسولينى اشترط قبل الزيارة ألا يرغم على ارتداء البذلة.. الحقيقة أن هذا كان حكيمًا لأن أية صورة له بالبذلة تظهره مهرجًا.. معظم صور موسولينى المحترمة تظهره بالثياب العسكرية أو عارى الصدر على صهوة حصان..

اليوم يوم خاص فعلًا..

إنه يوم لقاء الدكتاتورين (هتلر) و(موسولينى) فى شهر سبتمبر عام 1938 من أجل الاتفاق على التحالف وتوحيد قواهما ضد العالم..

هتلر يحتقر أوروبا كلها، لكنه ما زال يؤمن بالإيطاليين باعتبار جينات الإمبراطورية الرومانية ما زالت موجودة فيهم..

كان هذا هو لقاؤها الأول مع الدوتشى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها (هانا).. (هانا شتورمجر)..

فتاة ألمانية من آلاف الفتيات اللاتى يعشن فى ألمانيا النازية، وكما يحرص الإعلام على إظهارهن مليئات بالصحة والعافية رياضيات حسنات التغذية، وبالطبع شديدات الإيمان بالفوهرر.. كم من صورة رأيتها أنت لفتاة من هذا الطراز تمسك فى يدها اليسرى بمقود دراجتها وتمسك فى يدها اليمنى بتفاحة حمراء...

كانت (عبير) تعرف أن الفوهرر فى النهاية مجرد رسام مخبول أراد أن يلون الكرة الأرضية بلون الدم. كانت تعرف هذا جيدًا وقد كان لها الحظ أن رأته رأى العين، لكنها اعترفت لنفسها بأن جنون الجماهير طوفان يجرف.. فجأة تكتشف أنه لا رأى لك سوى رأى الناس.. تتخلى عن كل قناعاتك القديمة عندما ترى جارك متحمسًا وصديقك متحمسًا وأباك متحمسًا..

هناك حمى أصابت الجميع اسمها (الفوهرر) وهذه الحمى معدية، ولسوف تصيبك مهما قاومت..

هذا غريب..

إنها تعلق صورة الفوهرر، وتتحمس له مع الجموع، وهى مشتركة فى أكثر من تنظيم للشباب النازى. وقد كُرمت أكثر من مرة، وأرسلت إلى إيطاليا للمشاركة فى بعض المهرجانات الرياضية، لهذا هى تعرف بعض الإيطالية..

كان أبوها عضوًا فى الحزب، وهو بقال مسن يبدو أقرب إلى الموت، لكنها اليوم تراه يعلق شارة النازية على ذراعه ولا يكف عن الكلام عن الفوهرر، أما أمها فلا تكف عن إنشاد (ألمانيا فوق الجميع). لها أخ شاب وسيم يتغيب عن البيت كثيرًا جدًّا لأنه يقوم مع رفاقه بتشكيل ميليشيات تهاجم بيوت من لم يعرف عنهم الولاء للحزب..

حتى حبيبها الذى يقابلها فى الشارع ولا يكف عن ملاحقتها.. هذا الفتى يلبس القميص البنى الغامق والسروال الأسود ويضع (كاسكيتًا) وشعار الحزب على ذراعه..

الحقيقة أن رواية 1984 لجورج أورويل ليست خيالًا كلها.. لقد حدثت فعلًا على هذا الكوكب..

الفتى العاشق يدعى (مولر).. وهو نموذج للشاب الهتلرى بعينيه الزرقاوين الخاليتين من الحياة، وشعره الأشقر، ورضاه التام عن الوضع الحالى للبلاد.. لقد حل كل مشاكل الكون ووصل إلى الصواب..

قال لها:

- « سوف نتزوج بعد انتهاء الحرب.. »

قالت فى شىء من سخرية:

- « هل تعتقد أن هذه الحرب يمكن أن تنتهى؟.. نحن نتحدث عن احتلال العالم.. »

- « عندما تسقط أوروبا سوف تقبل الولايات المتحدة أن تتبعنا.. سوف نصبر خمس سنوات

بعدها نصير نحن السادة.. »

عادت إلى البيت حيث كانت الأسرة جالسة إلى مائدة العشاء..

فى هذه الجلسة يطيب لهم أن يذكر كل منهم ما قدمه اليوم من أجل الرايخ. تبرعت بجزء من دخلى.. ألقيت محاضرة تثقيفية على مجموعة من الصبية.. قذفت يهوديًا بحجر.. أبلغت عن جارنا الذى لا يحضر اجتماعات الحزب... إلخ..

المهم أن يترافق كل يوم مع إنجاز جديد..

قال لها أبوها:

- « هناك ضابطان من الصاعقة جاءا للسؤال عنك! »

عندما تنشأ فى هذا الزمن وتكون لك علاقة بالنازية، فإن أمعاءك تتعلم أن تتقلص، وقلبك يتعلم كيف يتوقف للحظة، وريقك يتعلم كيف يجف، عندما يذكر اسم (قوات الصاعقة).. SS[1]..

إنهم أشد النازيين تعصبًا وقسوة وغرورًا.. تعرفهم من قاماتهم الرياضية الفارعة ووجوههم الصخرية وعلامة الصاعقة المرسومة على ياقات السترات.. تم اختيارهم من طبقات أرستقراطية تمثل ذروة الحلم الآرى.. إنهم (الوحوش الشقر الرائعون) الذين حلم بهم (نيتشه Nietzsche) فيلسوف النازية. هم يتبعون (هملر) المخيف، ومعنى وجودهم أن هناك من يشك فى نازيتها. يعنى أن عين البوليس الصارمة مصوبة عليها تدرس سكناتها..

لكن الأب يقول فى فخر وهو يضع فى طبقه قطعة هائلة من السجق:

- « لقد سألوا عنك كثيرًا ويقولون إن إخلاصك للفوهرر فوق الشبهات، لذا يريدون أن تنضمى لسلاح خاص.. لم يذكروا أية تفاصيل.. فقط قالوا: إن عليك أن تتوجهى إلى مقر الجشتابو غدًا.. »

ابتلعت ريقها.. لولا أنه قال إنهم معجبون بها لكتبت وصيتها..

- « قوات خاصة؟.. أنا؟ »

هنا تذكرت (عبير) المعلومات التى تعرفها عن نفسها لكنها لا تعرف قيمتها.. إنها رشيقة جدًا.. بارعة فى كل الألعاب الرياضية تقريبًا.. تحصل على الكأس فى أية بطولة تدخلها.. دعك من أنها نازية متعصبة..

هذه الصفات قد أدارت رءوس هؤلاء القوم.. لكن ماذا يريدون بالضبط؟

- « هذا ما ستعرفينه غدًا.. »

- « وأنت لن تأتى معى؟ »

- « لن يسمح لى بدخول مقر الجشتابو.. هذا مكان لا يدخله إلا المحظوظون جدًا أو تعساء الحظ جدًا! »

- « وفى الحالين لا أحد يخرج! »

ضحكت الأم وقالت فى خفة:

- « يقول إنهم معجبون بك! »

- « ومعنى هذا؟ »

- « معناه أنك على الأرجح ستخرجين! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الأم مخطئة كالعادة، وستعرف السبب حالًا..

لقد اتجهت (عبير) إلى ذلك المركز واجفة القلب. كان عليها أن تمر بالعلم النازى الرهيب عدة مرات.. كان عليها أن تمر بكل هؤلاء الحراس المتشككين المتخشبين، وأن تقف فى النهاية أمام مكتب الجنرال (فون)... لا تعرف ماذا!! وهو يمسك بكأس صغيرة من الويسكى ويرمقها فى اهتمام. مكتب عتيق لكنه فاخر، وخلفه صورة عملاقة لهتلر تحتها صورتان أصغر لهملر وجورنج.

جندى المراسلة يقف متخشبًا خلف الجنرال وقد بدت عليه معالم الخطورة، برغم أن كل دوره هو أن يملأ الكأس للجنرال كلما فرغت.

قال لها الجنرال:

- « فرويلاين (شتورمجر).. »

ثم راح يقلب أوراق ملف عملاق أمامه.. كأنه قال ما يكفى.. يبدو أن هؤلاء القوم درسوا كل شىء عنها، ولعل الملف يحوى صور أول عملية خلع أسنان مرت بها..

- « أنت عضو نشط فى تنظيمات الشباب.. مخلصة للفوهرر.. رياضية.. جميلة.. »

كل الكلام كان صحيحًا ما عدا آخر جزء، لأن (عبير) لم تستطع قط أن ترى جمالًا فى صورتها الماسخة الخالية من الحياة.. بالنسبة النازيين هى رائعة برغم أنها لا تساوى بصلة فى مصر.

قال الجنرال كأنه يحلم:

- « ما أفكر فيه هو نوع خاص من التدريب.. تدريب على العمليات الخاصة.. إن النازيين عامة لا يؤمنون بقدرة المرأة على القتال، لكنى أحاول أن أزحزح هذه العقيدة وأن أبرهن أن الفتاة النازية مثل الرجل فى صلابته وربما هى أصلب.. »

هذا جميل فعلًا، لكن ماذا تريد بالضبط؟

قال الجنرال كأنه يسمع أفكارها:

- « لن تعودى إلى الدار فورًا.. سوف يتم نقلك إلى رقعة سرية فى (الرور) حيث تخضعين لتدريب عال فى الالتحام والقتال والهبوط بالمظلات.. لن تكونى وحدك بل ستكون مجموعة أخرى من فتيات الرايخ الأريات.. سيكون هذا الفيلق سلاحنا السرى الذى لا يعرف أحد أنه موجود.... »

قالت محتجة:

- « لا أحد يعرف فعلًا وهذه هى المشكلة.. عندنا فى البيت سوف.... »

قال فى حزم:

- « أنت الآن لم تعودى ملك أسرتك بل أنت ملك الرايخ.. هذا استدعاء للحرب وليس عرضًا تقبلينه أو ترفضينه.. لا مجال للمناقشة هنا، وأهلك سوف يتم إخطارهم فى الوقت المناسب، ولسوف يكونون فخورين بابنتهم! »

هكذا وجدت (عبير) نفسها مجندة فى فرقة خاصة من النساء تعمل لحساب الرايخ..

لم يخب ظنها أن من يدخل مقر (الجشتابو) لا يخرج.. ربما يخرج لكن إلى منطقة نائية يُعدم فيها أو يتم تدريبه على القتال..

فرقة نسائية مقاتلة؟؟؟

لا تعرف كيف؟، ولا تعتقد أنها سمعت بشىء كهذا، لكنها قدرت أن هذه طريقة فانتازيا لدمجها فى الأحداث.. لا يضم تاريخ الحرب العالمية الثانية أى خبر عن نساء مقاتلات، وإنما دور النساء هو الصراخ أو أن يكن جاسوسات فاتنات.. أو - على أقل تقدير - هن خائنات يتعاملن مع النازى ويُعدمن بعد الحرب بعد جز شعور رءوسهن طبعًا..

معنى أن تكون هناك فرقة نسائية هو أن فانتازيا تبحث لها عن عمل ما..

هكذا انطلقت عربات جيش مغطاة جيدًا فى ظلام الليل نحو (الرور)، وهى المنطقة التى تضم مصانع الصلب الخاصة بالنازى، وهناك قضت أسوأ أيام حياتها فى حياة عسكرية قاسية جدًّا...

الكثير من التثقيف.. قراءة كتاب (كفاحى) ألف مرة... الطوابير والزحف والوثب فوق النيران.. إطلاق النار.. وضع الألغام.. القفز من الطائرات.. التدريب يتم على يد ضباط محترفين من الصاعقة.

الحقيقة أن تلك الأيام مرت بسرعة فى فانتازيا طبعًا، لكنها برغم هذا كانت شديدة القسوة.. وجدت (عبير) أن جسدها صار عضلًا مشدودًا أقرب إلى جسد رجل قوى. وخطر لها أنها لو عادت لعالم الواقع بهذا الجسد لانتصرت فى أية مشاجرة فى أى مكان..

الطعام قليل ومحسوب بعناية بحيث يقدم أعلى قدر من البروتين والسعرات مع أقل قدر من التضحيات الصحية. النوم شحيح.. الفتيات الأخريات مزعجات كالكابوس ثرثارات كالببغاوات.. كانت (عبير) تمقت أى معسكر أو مكان يرغمها على الحياة والنوم مع فتيات، خاصة عندما يزول سحر الافتعال وترى المرأة على حقيقتها منكوشة الشعر، تفوح منها رائحة النوم والعرق والأقدام التى ظلت فى حذاء عسكرى ست عشرة ساعة. كل هؤلاء الفتيات سوف يضعن المكياج ويمشطن شعورهن ويخلبن لب الفتيان بمجرد عودتهن إلى العالم الخارجى، لكنهن هنا لا يرين ضرورة لغسل الوجه ذاته، وتذكرت ما تسمعه عن معسكرات الرجال حيث ينتهزون فرصة غياب الأنثى حتى لا يضطروا إلى حلق ذقونهم أو تمشيط شعورهم أو الاستحمام. يبدو أنه لابد من وجود جنس آخر كى يرغمنا على النظافة!

هكذا مر شهران من هذا الجحيم...

قالت لها صديقتها (أولجا) وهى تتثاءب كفرس النهر:

- « هل تعتقدين أنهم سيكونون بحاجة لنا؟.. أشعر أننا مجرد ديكور يقنعون به أنفسهم لا أكثر.. »

قالت (عبير):

- « أنا أيضا أعتقد ذلك.. لا مجال للنساء فى هذه الحرب.. »

وكانت تتابع الأخبار، وتعرف أن العالم اشتعل نارًا.. (هتلر) قد دخل إلى تشيكوسلوفاكيا وتحالف مع ستالين ضد بولندا..

هذه هى الأعوام التى كانت فيها قوة الحلفاء تتآكل.. وبدا للجميع أن ألمانيا تصعد بلا توقف..

وفى هذه الأعوام بالذات كان هناك وحش يزأر فى إيطاليا.. وحش أصلع الرأس ضخم الجثة اسمه (بنيتو موسولينى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتصور (عبير) قط أنه سوف يتم ربط حياتها بحياة ذلك العملاق الأصلع..

بعد أعوام طوال من العمل الصحفى والتنظيمات السرية والعمل كشيوعى تارة ومعاد للشيوعية تارة، كان موسولينى الشاب الإيطالى المشاغب الطموح قد وصل إلى أن يصير رئيس وزراء إيطاليا..

قبل هذا كان قد أسس الحزب الفاشى عام 1921م.. الفاشيةFascismo هى دكتاتورية تعلى مصلحة الدولة على المصلحة الفردية، وتضع كل هذا تحت سيطرة زعيم أو دكتاتور..

كان صعود موسولينى صاروخيًا، وتدريجيًا تمكن من إقصاء كل الوزراء من غير ذوى الميول الفاشية.. فى الواقع كان تأثيره مغناطيسيًا على الجماهير بطريقته العنيفة المقتحمة، وخاصة أنه ذكَّر الإيطاليين بأمجاد الإمبراطورية الرومانية..

كان يقف كعادته وقد طوح ذقنه للأمام وفرد صدره.. غالبًا كان يفضل أن يخاطب الجماهير فى الريف بالذات عارى الصدر ليوحى بالقوة البدنية..

وفى كل مكان تضج الحناجر بهتاف لا معنى له:

- « إيا إيا إيا.. الا الا الا.. »

وهو هتاف عجيب ابتكره شاعر الفاشية (دانونزيو)، وكان له تأثير السحر فى تنويم الجماهير وإشعارها بأنها فى الطريق إلى هدف موحد عظيم..

كان يدعو إلى الخشونة والتخلى عن الطريقة المهذبة فى الكلام. الحقيقة أن الطب وجد تفسيرًا لغرابة أطوار أكثر من دكتاتور فى إصابته بزهرى الجهاز العصبى Neurosyphilis ولم يكن موسولينى استثناء، لقد سُرح من الجيش لهذا السبب.. هكذا نرى أن تاريخ العالم وتاريخ إيطاليا كان يمكن أن يتغير بحقنة من البنسلين!.. بالمثل وجد الطب تفسيرًا لغرابة أطوار حكام روما القديمة فى تسممهم بالرصاص الذى كانوا يشربون ويأكلون فى أوعية مصنوعة منه..

سوف تجد فى تاريخ صعود كل ديكتاتور مرحلة أولى من الإصلاح الاقتصادى.. تنتعش البلاد ويشعر المواطن بالأمن. لقد تسلم (هتلر) ألمانيا عندما كان راتب الموظف لا يقدر على شراء أربع حبات من البطاطس، فجعلها خلال سنوات قوة صناعية وحربية واقتصادية مخيفة. نفس السيناريو تكرر مع موسولينى.

هناك تفاصيل كثيرة جدًا لكن هذه الأشياء تضايق القارئ غالبًا، وتضايق (عبير)، لذا سوف نثب فوق البدايات.. ما يعنينا هنا والآن أن موسولينى صار دكتاتور إيطاليا القوى.. فى الواقع لم يعد لملك إيطاليا (فكتور عمانويل) الثالث أى نفوذ من أى نوع..

لن أتحدث عما فعله فى ليبيا (قصة رمى جراتسيانى للأسرى الليبيين من الطائرات حقيقية وتمت بتعليمات واضحة من موسولينى) والسبب أنه كان يحلم بأن يصير البحر المتوسط بحيرة إيطالية (بحرنا Nostrum).. لن أتحدث عن ضرب المدنيين بتعليمات واضحة منه بغاز الخردل فى أثيوبيا، وقصف معسكرات الصليب الأحمر التى كشفت للعالم عن استعماله هذا

الغاز.. وفى العام 1938م تحالف الشيطانان.. هتلر وموسولينى.. تحالفا على أن يحاربا العالم معًا..

وفى ميدان (متفيلد) الألمانى انقطع التيار الكهربى فلم يعد مكبر الصوت يعمل، من ثم صاح موسولينى فى جماهير ألمانيا بأعلى صوته:

- « **عندما تتخذ الفاشية صديقًا فهى تمضى معه حتى النهاية!!..** »

بالفعل قلد موسولينى النازيين فى كل شىء حتى مشية الإوزة، وهى مشية عذبت الجنود كثيرًا.. يصر موسولينى على أن هذه المشية رومانية فى الأصل ويطلق عليها اسم passo romano.. أى: المشية الرومانية.. إنها صعبة جدًّا، وقد حاول الملك (عمانويل) أن يمشيها فكان منظره مضحكًا وكاد يصاب بتمزق عضلى، من ثم قال موسولينى:

- « ما ذنب المشية إذا كان هذا الرجل قزمًا قميئًا لا يستطيع ركوب الحصان من دون سلم؟ »

والطريف أنه هو نفسه جرب هذه المشية ووجدها صعبة جدًّا.. والأطرف أن التحية النازية التى أدخلها هتلر كانت رومانية فى الأصل!.. كان الدكتاتوران يتبادلان الأسرار الصبيانية الإمبراطورية إياها.. لن أتحدث عن هذا أيضًا..

فى 10 يونيو عام 1940م أعلن موسولينى أن إيطاليا تدخل الحرب مع قوات المحور. فى الحقيقة كان بهذا يوقع قرار إعدامه بعد خمس سنوات، وقرار احتلال الحلفاء لبلاده بعد ثلاث سنوات..

منذ البداية أثبت الإيطاليون أنهم اختلفوا كثيرًا جدًّا عن أجدادهم.. الإيطاليون الذين كانوا يستعرضون عضلاتهم الحربية وتقدمهم مع الليبيين، حاولوا احتلال فرنسا فى مغامرة مثيرة للشفقة كلفتهم 4000 جندى مقابل 200 جندى فرنسى!.. هذا نموذج صارخ على (أسد على وفى الحروب نعامة)..

كانت هزائمهم مستمرة وانتصاراتهم محدودة جدًّا، لكن (هتلر) كان يعتقد أن موسولينى يختلف عن شعبه.. من المرات القليلة التى شوهد فيها (هتلر) يبتسم أو تغرورق عيناه تأثرًا لتلك اللحظات التى يلقى فيها (موسولينى)، وقد رآه الكل يبكى وهو يودعه بعد زيارة قام بها إلى إيطاليا.. عندها همس موسولينى:

- « لن تستطيع قوة فى العالم التفرقة بيننا! »

يبدو أن هذا حب حقيقى رومانسي، كانت نتيجته أن الاثنين نالا المصير ذاته..

وكانت أقسى لحظات (موسولينى) عندما واجه المشاكل فى اليونان واضطر إلى طلب مساعدة (هتلر).. فى كل مرة كان الجيش الألمانى يظهر لينهى المشكلة فى دقائق، مظهرًا كفاءة وسرعة - وقسوة - غير عادية، مما جعل (موسولينى) ينبهر بهؤلاء القوم جدًّا.. وقد قال عن ألمانيا:

- « هذه أعظم أمة فى التاريخ، وهي تسمو فى طريقها إلى المجد والعظمة.. »

وفى أروقة الحكومة الإيطالية وفى القصر الملكى تكررت القصة التى تتكرر مع كل ديكتاتور منذ عهد (يوليوس قيصر)، وتكررت مع (هتلر) فيما بعد...

رجال السياسة يتهامسون:

- « هذا المخبول سوف يدمر البلاد تدميرًا.. »

- « لابد من وقفه عند حده.. »

- « الملك يترك له الحبل على الغارب.. »

- « الملك لا يطيق (هتلر)، و(موسولينى) مُصرٌ على أن يقحمه فى كل شىء ويتبعه حيثما ذهب.. »

- « إنه قد قتل الكثير من خصومه.. هناك أدلة قوية على تورطه فى هذا.. »

- « لابد من وقف (موسولينى).. »

وعلى الطريقة الرومانية كان أحد المتآمرين ضده قريبًا له.. زوج ابنته بالذات.. (تشيانو).. Ciano.. لكنى لن أتحدث عن هذا كى لا أضايق القارئ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى هذا الوقت أنهت (عبير) تدريبها فى (الرور)...

لم يكن هناك حفل تخرج ولا احتفالات.. فقط وقفوا طابورًا فى الشمس لمدة ثلاث ساعات ثم جاءت سيارة (جيب) حربية، يجلس فيها الجنرال (فون لا أعرف ماذا) وقد وقف خلفه ياوره حاملًا المظلة ليحميه من الشمس، وفي يد الجنرال قفاز جلدى انتزعه عن يده اليمنى ليتاح له شرب الويسكى..

عندما رأى المجندات الواقفات فى الشمس بدا عليه الرضا، وترجل من السيارة ليتلقى التحية..

مشدودات كالأوتار المعدة للانطلاق، كلهن نشاط وحماس وتعصب.. مستعدات للقتل فى أية لحظة. فى الواقع لم تعد لهن علاقة قوية بالأنوثة.. هن مجموعة من رجال الصاعقة المزودين بكروموسومى XX.. لا أكثر..

قال لهن وهو يستعرض الصف المكون من عشرين فتاة:

- « أنا راض عن أدائكن.. سوف تعدن إلى دياركن وتنتظرن لحظة الاستدعاء.. لا نعرف متى ولا كيف.. لا نعرف هل هى آتية فعلًا أم لا.. فقط نحن نعرف أن لدينا سلاحًا سريًّا مهمًا.. »

انفجرت إحدى الفتيات تتكلم بفيض (نازى) من الحماس:

- « نحن نرغب فى أن نقاتل الآن من أجل الفوهرر! »

قال الجنرال فى تؤدة ورضا:

- « اللحظة آتية عندما نحددها نحن.. »

ونظر إلى (عبير) نظرة طويلة فاحصة.. قدرت فى سرها أن معنى هذه النظرة هو أن احتمال أن تكون فى تلك المهمة 99%..

وفى تؤدة عاد الجنرال إلى السيارة وأصدر الأمر إلى سائقه، فانطلقت السيارة مبتعدة...

وفى المساء تحرك رتل من السيارات المغطاة عائدًا إلى الديار..

لقد عادت إلى البيت أخيرًا..

تنزل من سيارة الأجرة لتدق باب بيتها.. ينفتح الباب.. هذه أمها تحتضنها وتلثمها باكية..

يخرج أخوها ليعانقها..

- « لقد افتقدناك كثيرًا يا (هانا).. »

- « ولكن أين أبى؟ »

الدموع تغرق وجهها ووجه أخيها ووجه أمها.. ثم يقتادانها إلى الداخل..

تبحث الأم عن عشاء.. ما زالت هناك بعض المكرونة والصلصة من عشائهما، وهى تضع هذا مع قطعة خبز.. تبحث عن السجق وتقطع منه شريحة كبيرة تضعها لـ (عبير)..

(عبير) تأكل والغريب أنها تعودت الأكل كالثيران وبطريقة ذكرية جدًّا.. طريقة أكل الجنود المتعبين الجياع، لا طريقة أكل البنات طالبات المدارس.. تستعمل السكين كثيرًا جدًّا وتغرسها فى أى شىء على المنضدة لتلتقطه ببراعة..

تقول الأم:

- « يا لشهيتك!.. أنت صرت قوية وجافة كالمعدن الأصيل.. »

تسألها (عبير) بفم ملىء بالمكرونة:

- « نعم، لكن أين أبى؟ »

هذه المرة أدركت أن هناك كارثة ما.. إن الدوران حول الموضوع يتخذ شكل إصرار غريب، وهذا يعنى أن الأخبار سيئة جدًّا على الأرجح..

قال أخوها ضاحكًا ضحكة عصبية:

- « بعد يومين جاءنا ضابطان من ال SS وقالا إنك ستتغيبين طويلًا... قالا إنك ستكونين مفخرة للرايخ.. هذا كل شىء، لكنهما أمرانا ألا نسألك بتاتًا عما رأيت وعرفت.. »

- « هذا جميل... لكن أين أبى؟ »

فى النهاية جلست الأم على مقعد فى الجهة الأخرى من المنضدة وغطت وجهها.. قالت من بين دموعها:

- « هو.. هو فى الجشتابو! »

نظرت عبير إلى صورة هتلر المعلقة جوار الموقد نظرة ذات معنى، وقالت:

- « لماذا؟ »

قال الأخ فى كياسة:

- « كل شىء على ما يرام.. سوف يعود سالمًا.. أنت تعرفين أن أباك من أخلص أعضاء الحزب وأنشطهم.. الكل يعرف هذا.. »

- « هذا يشرح لك سر دهشتى لكنه لا يفسر شيئًا لى.. »

- « لقد.. لقد كان عصبيًا بصدد غيابك غير المبرر، وتكلم كثيرًا جدًّا مع الضابطين.. ربما فقد أعصابه وقال كلمة حادة هنا أو هناك.. »

هتفت (عبير) والمكرونة تتطاير من فمها:

- « هذا منطقى.. لا تطالب أبًا بأن تختفى ابنته يومين ثم شهرين، وبرغم هذا يكون هادئًا مهذبًا.. »

- « على المرء أن يكون هادئًا مهذبًا مع ضباط الصاعقة.. على كل حال سوف يعود أبى حتمًا.. »

قالت فى عصبية:

- « لن يعود..!.. »

كم من مرة رأت ذلك الرجل المشنوق على عمود نور، وقد علقوا على صدره لافتة تقول:.. « أنا خائن..لقد خذلت الفوهرر وشعبى..».. هذا منظر يراه الأطفال وهم ذاهبون للمدرسة كثيرًا، والخيانة المقصودة قد تكون عدم حضور اجتماعات الحزب أو عدم إظهار الحماسة للحرب..

لن يعود..

هى تعرف هذا جيدًا..

والغريب أنها لا تستطيع أن تغضب فعلًا أو تنقلب على الحزب.. لقد قاموا ببرمجتها جيدًا فى ذلك المعسكر، ولم تعد تعرف ما تعتقده حقًّا..

هكذا غرست الشوكة فى مزيد من المكرونة وجلست وقالت:

- « سوف يعود! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الدكتاتورية فى إيطاليا تفرض وجهها الكئيب..

ها ذى سبعة عشر عامًا، مرت على تولى الحزب الفاشى، وقد صار طبيعيًّا جدًّا أن يُدرس للأطفال فى المدارس كتاب يقول بالحرف:

- « إن الطفل الذى يتساءل عن السبب يشبه حربة مصنوعة من الحليب.. لقد علمنا الدوتشى أن نطيع؛ لأن الطاعة واجب علينا.. »

تذكر أن (موسولينى) نفسه لم يكن أكثر الأطفال تهذيبًا وطاعة، وقد مُنع من حضور الصلاة فى الكنيسة طفلًا؛ لأنه كان يقذف المصلين بالحجارة..

إن الحرب تسير مع إيطاليا بشكل غاية فى السوء.. إيطاليا بلد عاشق للمرح والحياة، ولم يعد صاحب مزاج حربى كما كان أيام الرومان.. كأن الرومان استنفدوا كل روح البطولة العسكرية لدى هذا الشعب، فلم يبق لديه منها إلا ما يستعمله مع الليبيين والأحباش والألبان..

دعك من أن السلاح كان شحيحًا.. تصور أنهم اقترضوا بعض السيارات من الشرطة لاستخدامها فى العروض العسكرية. لا توجد حاملات طائرات أو سلاح جوى يعتد به. وضع عجيب جدًّا لطرف يرغب فى أن يحتل العالم..

(موسولينى) لم يكن أعمى تمامًا عن هذا كله، وقد كانت حالته النفسية غاية فى السوء تتأرجح بين الحماس المجنون واليأس التام.. بين التبعية العمياء لألمانيا وبين الذعر مما ينقاد له..

فى هذا الوقت قال أحد وزرائه همسًا:

- « إن الزهرى قد أتلف عقل الدوتشى.. يجب عليه أن يبحث عن علاج بأسرع طريقة.. »

كلما هُزم الإيطاليون راح (موسولينى) يلوم:

- « هذا الشعب الناعم الذى لا يصلح لشىء!.. أنا أفتقر إلى الخامة لأشكلها بيدى جنودًا كما كان (مايكل انجلو) يصنع تماثيله.. »

وكذلك:

- « الفن!!.. مشكلة الشعب الإيطالى هى الانغماس فى الفنون فلم يعد قادرًا على القتال! »

وتمنى لو يبيع كل تحف إيطاليا ليمول بها آلة الحرب.

المشكلة هى أن (هتلر) كان يحقق الانتصارات فى كل مكان وأى وقت..

يعانى (موسولينى) الأمرين فى اليونان فيغزوها (هتلر).. يتمرد ضباط يوغوسلافيون ويستولون على الحكم واضعين (موسولينى) فى مأزق، هنا يقول (هتلر):

- « لابد من سحق يوغوسلافيا بلا رحمة.. »

ويرغم الإيطاليين على أن يعملوا تحت إمرة قواده، وخلال عشرة أيام تكون القوات الألمانية قد

غزت يوغوسلافيا وحققت نصرًا ساحقًّا..

عندما أعلن (هتلر) أنه يعتبر نفسه فى حالة حرب مع (روسيا) أصيب (موسولينى) بالذعر، لكنه أصر على أن يرسل مائتى ألف جندى إيطالى ليشاركوا فى الحرب هناك..

برغم هذا يمكننا أن نفهم تلك النقطة النفسية..

النازيون لا يهزمون.. النازيون ينتصرون دومًا.. إنهم شياطين..

يمكننا إذن فهم العاطفة المعقدة التى شعر بها (موسولينى) تجاه حلفائه.. مزيج من الغيرة والحسد والإعجاب.. مع غل شديد نحوالإيطاليين الذين لا يكفُّون عن خذلانه..

سمع أن الألمان يلاقون مقاومة عنيفة فى روسيا فقال لخلصائه:

- « آمل أن يفقد النازيون الكثير من ريشهم فى هذه الحرب!!.. »

ونحن نعرف أن أمنيته تحققت حرفيًا.. لقد خسر النازيون ريشهم كله، ولكنه لم ير هذه النهاية على كل حال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ينزل (موسولينى) من السيارة مع (أدولف هتلر) ليتفقد القوات الإيطالية التي تحارب فى الجبهة الشرقية ضد (ستالين) المفترس..

كان رأسه يوشك على الانفجار؛ لأن (هتلر) لم يكف عن الكلام لحظة.. هذا رجل قادر على الكلام ساعتين بلا توقف فى كل شىء حتى الفنون والمسرح والدين والفلسفة... اعتاد (موسولينى) أن يتكلم هو وأن يصمت الناس، لكنه مع (هتلر) يصغى ويصغى ويصغى فحسب..

هذه فرقة (تورين) الإيطالية.. تمنى (موسولينى) أن يجد الجنود شُعثًا غبرًا غارقين بالدماء وقد بدت عليهم معالم نبل الحرب ومعاناتها، لكنه اغتاظ عندما وجد الأوغاد متأنقين لامعين حليقى الوجوه عطرى الرائحة..

لابد أنه قال لنفسه:

- « هذه ملامح عشاق.. ملامح مطربين يفتنون المراهقات ولا يمكن أن تكون ملامح جنود.. »

ثم يستعرض الرجلان الجنود الألمان، فيغتم موسولينى أكثر..

وجوه خشنة مليئة بالرجولة والكبرياء.. جروح فى كل مكان.. ذقون نامية.. ثياب مغبرة.. هذه وجوه جنود فعلًا..

يبدو أن (هتلر) لاحظ هذا، وبدا فى مسلكه بعض الإهمال تجاه (موسولينى)..

اتجه الفوهرر إلى جنوده ووقف معهم يمازحهم ويكلمهم بالألمانية التى لا يفهمها الدوتشي. لابد أنها نكات سخيفة لكنهم يضحكون مجاملة.. تصور نكات (هتلر) وكيف تكون!

ووجد (موسولينى) نفسه يقف مهملًا جوار الجنرال العجوز (فون رونشتات).. وتمنى لو كان (هتلر) اصطحبه معه ليقدمه للجنود..

لكنه يملك شيئًا لا يقدر عليه (هتلر)..

عندما اتجه الفوهرر مع ضيفه إلى طائرته الخاصة، اتجه موسولينى إلى الطيار وطلب منه أن يقود الطائرة بنفسه!

أصيب (هتلر) بالذعر، لكن (موسولينى) أخبره أنه يقود الطائرات منذ زمن وأن عليه ألا يخشى شيئًا..

نظر هتلر إلى مرافقيه آملًا أن يجد أحدهم مخرجًا، لكنهم ظلوا صامتين..

هكذا ركب الطائرة كأنه ذاهب إلى الإعدام، بينما جلس (موسولينى) فى مقعد الطيار، وبدأ الانطلاق مع كثير من الغرور والاستعراضية.. لابد أن هذه كانت أقسى لحظات فى حياة هتلر، لكنه أدرك على الفور أن (موسولينى) يجيد قيادة الطائرات فعلًا، والمنظر على كل حال لابد أن يذكرك بمشهد عادل إمام الكفيف وهو يقود الطائرة بينما المدرب يلطم خديه فى المقعد الخلفى..

هذه قصص يصعب أن نصدقها، وتدل على مدى طفولية أولئك الطغاة، وكم أنهم يغارون ويحقدون كالأطفال.. (تامر) يستعرض براعته فى قيادة الدراجات، لأنه مغتاظ من إجادة (شادى) لكرة القدم..

على كل لم يطل انتظاره كثيرًا وراحت أنباء سيئة تأتى من الشرق عن خسائر الجيش الألمانى..

لم تكن علاقته مع النازيين صافية كلها، فهو كان يمقتهم نوعًا لخلوهم من الشفقة.. كان يسمع عن فظائعهم فيقشعر بدنه برغم أنه ارتكب عددًا لا بأس به من الفظائع، لكن أفعالهم ظلت فوق مستوى تصوره..

كذلك لم يحب تعاليهم ومعاملتهم القاسية لجنوده الإيطاليين حيثما حارب الفريقان معًا.. كان الألمان يستأثرون بالسيارات ويتركون الإيطاليين يمشون.. لم يحب (جورنج) وزير حربية هتلر بطباعة الغريبة وشذوذه والمساحيق التى يلطخ بها وجهه، وطلاء الشفاه الذى يدهن به شفتيه، والأسد الصغير الذى يحمله كأنه قط ولا ينفك عن الوثب على حجر (موسولينى) كلما جلس..

فى ذات مرة التقط رجال مخابراته مكالمة بين ضابطين ألمانيين سمع فيها التالى:

1 - الإيطاليون شعب رقيع من أكلة المكرونة.

2- الدوتشى مجنون.

3- هو ضعيف جدًّا تجاه اليهود.. هو يحب أن يتظاهر بمعاداة السامية لكنه لا يمارسها فعلًا.

4- يجب أن يفكر الفوهرر فى غزو إيطاليا فيما بعد.

كانت طريقته فى الاحتجاج هى أن يجرى مكالمة مع أحد أصدقائه يشكو فيها الألمان، وكان مطمئنًا إلى أن النازيين يمارسون هوايتهم فى تسجيل مكالماته.. هكذا يصل كل ما يضايقه إلى (هتلر) سريعًا..

هكذا هزل جسده وخبا بريق عينيه، وأصابته قرحة فى الأثنى عشر جعلته يتلوى ألمًا، وأوصاه طبيبه بألا يأكل أى شىء تقريبًا.. من ثم أصيب بالضعف وفقر دم حاد..

كانت المؤامرات تتزايد ضده، وتهامس الجميع أن الوقت قد حان كى يتخلى عن كل سلطاته للملك وأن يتولى الكونت (جراندى) منصب رئيس الوزراء..

وفى جلسة شهيرة جدًّا للمجلس الأعلى للحكومة تم التصويت على حجب الثقة به..

وجاء اليوم الخامس والعشرون من يوليو عام 1943م..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يوم أحد..

وبناء على استدعاء من الملك اتجه موسولينى بسيارته إلى قصر (سافوى)..

مثلما حدث ليوليوس قيصر منذ مئات الأعوام، نصحته زوجته راشيل ألا يذهب.. هذه مؤامرة.. لكنه لم ير على نفسه خطرًا أكبر من التجريد من سلطاته..

تمشى السيارة داخل ساحات القصر..

هو ذا الملك (فكتور عمانويل) يقف بثيابه الرسمية والسيف معلق إلى خصره، وهو ينزل الدرج ليستقبل ضيفه الأصلع الذى لم يعد ضخم الجثة..

يخرج موسولينى ويترك سائقه وحده..

السائق يشعر بالحر القائظ.. يجفف عرقه.. الذباب.. كل هذا الذباب.. التعاسة كلمة تتلخص فى ذباب مبلل بالعرق.

هنا جاءه ضابط يعرفه من الشرطة، وانحنى جوار نافذة السيارة ليقول له بطريقة عرضية خفيفة:

- « هناك مكالمة هاتفية لك يا (بوراتو).. تعال معى إلى القصر.. »

وداخل القصر لاحظ السائق أن عدد رجال الشرطة أكثر من اللازم.. هناك حركة مريبة بالداخل... ثمة شىء يتم تدبيره لكن ما هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة لم يكن الملك ودودًا ولا غاضبًا..

كان يتكلم بلا مبالاة وثبات.. كل قرار يتخذه مجلس الدولة لابد من تنفيذه حرفيًا.. 19 صوتًا يطالب بوقفك.. لا يجب أن تكون عندك أوهام يا ألدوتشى.. معنى هذا الكلام أنك أكثر رجل يمقته الإيطاليون.. سوف يتولى المارشال بادوليو رئاسة الوزراء بدلًا منك، أما أنت فلا تخش على سلامتك شيئًا؛ لأننى أضمنها..

ظل الدوتشى صامتًا وهو شاحب الوجه يتحسس قرحته، ثم قال:

- « أفهم من هذا أن جلالتك تطلب منى أن أقدم استقالتى..»

- « نعم.. »

- « إذن أنا أقدمها لجلالتك.. »

- « وأنا أقبلها.. »

هكذا نهض موسولينى ومشى مع الملك إلى الخارج وصافحه، وبدأ الرجلان حديثًا وديًّا عن الطقس..

من الغريب أن كلًا منهما وصف الآخر فيما بعد بأنه كان شاحبًا ضئيلًا كأنه انكمش..

هنا لاحظ موسولينى أن سيارته غير واقفة فى مكانها.. تقدم منه نقيب شاب أدى له التحية العسكرية فى احترام، ثم قال:

- « تلقينا الأوامر بحمايتك يا الدوتشى.. »

فى غضب وضيق قال موسولينى:

- « لا أريد حماية.. عندى حراسى.. »

- « هذه هى الأوامر يا الدوتشى.. كما أن الأوامر تقضى بأن تركب سيارتنا.. »

نظر موسولينى إلى سيارة الإسعاف التى اقتربت من مكانه وفيها أربعة ضباط أشداء ينتظرون منه أن يركب معهم، وفهم الأمر.. قال للضابط الشاب:

- « إذا كانت هذه أوامرك فننفذها.. »

وأنزل قبعته على عينيه وصعد إلى السيارة.. ساعده الضابط على الصعود فبدا للحظة كأنه يرغمه على ذلك.. وسرعان ما انغلقت السيارة وانطلقت نحو مصير مجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

« قبل جلالة الملك استقالة الشيفالييه بنيتو موسولينى من رئاسة الحكومة واختار جلالته خلفًا له ماريشال إيطاليا الشيفالييه بتروبودوليو.. »

هكذا دوي الخبر من المذياع..

هنا يحدث ما يحدث فى كل مرة، ويثبت أن الجماهير لا عقل ولا إخلاص لها.. كل الذين كانوا يبكون من فرط الهيام بالفاشية أمس خرجوا للشوارع يرقصون احتفالًا بالخلاص من الدكتاتور.. لا فاشية بعد اليوم.. لا موسولينى بعد اليوم..

كانوا أمس يعدون بأن يحاربوا حتى آخر قطرة من دمهم، واليوم يلعنون الحرب ويرقصون؛ لأن الصلح آت لا ريب فيه..

صور موسولينى تمزق وتحرق وتماثيله تلقى على الأرض..

حماس شديد لا تعرف كيف كان موجودًا تحت الرماد.. ربما تقبله باعتباره صيحة الحرية، لكن لا تنس أن هذه الجماهير كانت أكثر حماسًا لموسولينى أمس.. لو أنك شتمت موسولينى أمس لمزقوك إربًا ولو هتفت له اليوم للاقيت المصير ذاته..

(يا له من ببغاء عقله فى أذنيه) على رأى أحمد شوقى بك..

هاجموا مقر الجريدة الفاشية فدمروه، وضربوا من يحملون شعار الحزب الفاشى..

فى مكتب (مورجاجنى) عضو مجلس الشيوخ كتب الرجل:

- « لقد استقال الدوتشى وانتهت حياتى.. عاش الدوتشى! »

كتبها، وأطلق الرصاص على رأسه..

برغم لا أخلاقية الانتحار فإن هذا بلا شك موقف شريف.. هذا رجل أخلص لما آمن به حتى اللحظة الأخيرة، وهو موقف نادر وسط كل هذه الهمجية التى ملأت الشوارع...

لكن أول بيان لبودليو قال:

- « لا جورا كونتينوآ فيانكوديل ألياتوجرمانيكو[2]! »

مصيبة.. أليس كذلك؟..

ماذا؟.. لا تفهم معنى ما قال؟.. مع أن الكلام يمكن استنتاجه بالفهلوة المصرية المعتادة، مستعينًا بتشابه الكلمات مع الإنجليزية.. ذات مرة قمت بترجمة ورقة علمية كاملة بالأسبانية التى لا أعرف حرفًا منها بذات الطريقة. على كل حال معنى كلامه هو.. « سوف تستمر الحرب إلى جانب حلفائنا الألمان! »

سبب هذا خيبة أمل لا شك فيها للجماهير فى الشوارع..

الحقيقة أنه كان مضطرًا لهذا، فلا أحد يستطيع إنهاء الحرب فجأة.. قد يسهل أن تستدعى العفريت لكن التخلص منه عسير ويحتاج إلى الكثير من التعاويذ والأدعية..

تم الاتصال بالمخابرات البحرية كى تعد العدة لتأمين نقل (شخصية على درجة عالية من الأهمية) إلى جزيرة اسمها (فنتوتينى) جنوب إيطاليا.

يتم الانتقال على متن سفينة حربية، ثم يغير الإيطاليون الجزيرة لأن (فنتوتينى) عليها حامية ألمانية.. فلنذهب إلى (بونزا) إذن..

كان (موسولينى) يشعر بخجل شديد من أن يضطر إلى النزول إلى الشط ويراه الناس فيحسبوه سجينًا وهو كذلك لهذا طلب من أميرال السفينة الحربية أن ينتظر حتى الليل كى لا يعرف أحد أن (موسولينى) هو الضيف غير العادي. لكن الأميرال قال إنه لا حيلة له فى تغيير الأوامر.

هو بيت صغير أصغر من ثلاثة طوابق، يطل على خليج صغير.

هذا هو المكان الذى اختير للدوتشى كمزيج من السجن والمنفى..

سرير حديدى ومنضدة خشبية عتيقة وجدران متسخة..

على الباب يقف رقيب إيطالى شاب مرتبك لا يصدق أنه يقف أمام الدوتشى.. وقف يبلل لسانه عاجزًا عن الكلام، وإن أدى التحية الرومانية فى عصبية، فنهض موسولينى نحوه وأمسك كتفيه وهتف:

- « تشجع!.. أنا أعرف ما تحس به! »

لقد راق له برغم كل شىء ما فى الموقف من مسرحية قوية، وكره أن يفوت الفرصة..

- « لم نعرف أنك ستكون ضيفنا إلا منذ نصف ساعة يا دوتشى.. »

- « لا بأس.. لا بأس.. »

- « كنت أتمنى لقاءك فى الماضى.. كى.. كى.. »

ثم جاء الطعام تحمله زوجة أحد الجنود.. وعاء ملىء بالفاصوليا وبيضة على سبيل البروتين، وبرغم كل شىء كان موسولينى جائعًا ففتك بالطعام فتكًا..

لابد أنه أغمض عينيه وهو ينام على الفراش الحديدى، ويتذكر ساخرًا أن الغد 29 يونيو هو عيد ميلاده!..

لابد أنه راح يقول لنفسه ما يشبه ما قاله الشاعر العربى فى محبسه:

- « أضاعونى وأى فتى أضاعوا.. ليوم كريهة وسداد ثغر.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الأيام التالية قضى موسولينى وقته فى القراءة والكتابة..

قرأ كتابًا عن حياة السيد المسيح، وقد ترك هذا الكتاب فيما بعد فوجدوا مئات التعليقات على الحواشى تثبت أنه كان متأكدًا من تطابق حياته مع حياة المسيح!!. هكذا ببساطة اعتبر أنه جاء ليخلص الإيطاليين لكن أحد أصدقائه خانه.. والمشكلة أنه كان لا يخشى الإيطاليين.. كان يخشى استسلام إيطاليا وعندها سيكون أول شروط هذا الاستسلام تسليمه إلى انجلترا!!.. ولسوف يصنع البريطانيون من جلده نعالهم..

طعامه كان حمية ممتازة:

الإفطار: كوب لبن وبيضة..

الغذاء: بيضة وطماطم وفاكهة..

العشاء: كوب لبن..

أضف لهذا هدايا مستمرة من الكابوريا يأتى بها الصيادون.. هم لا يصدقون أن موسولينى ضيف على جزيرتهم، وسلوكهم نوع من عبارة (حصلت لنا البركة) التي ترددها ربات البيوت عندنا..

لم يكن صنبور الماء يعمل.. وقد قال للرقيب المكلف بحراسته:

- « قل لى يا رقيب.. أنا أنفقت الكثير من المال من أجل مد أنابيب الماء إلى جزيرة (بونزا)، فلماذا لا أجد ماء فى صنبور غرفتى؟ »

- « هناك أنابيب، لكن لا ماء فيها.. الماء يضيع فى البحر! »

عندها انطلق يسب ويلعن فى الموظفين والبيروقراطية..

ثم جاءته ملابس جديدة أخيرًا ولأول مرة..

كان هذا أسعد خبر فى حياته.. لقد أخذ الثياب كأنه كان ينتظرها ثم نزع قميصه ليمشى عارى الصدر كعادته!

بعد أسبوع أيقظوه فجرًا بسرعة، وأخبروه أنهم سينقلونه إلى جزيرة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صارت الحياة كئيبة فعلًا فى برلين..

أخوها لم يظهر منذ فترة طويلة، ويقال إنه فى الجبهة الشرقية.. إذا كان هذا صحيحًا فلماذا لا يكتب لها؟..

البريطانيون الأوغاد لا يكفون عن قصف المدينة.. صحيح أن سلاح الجو الألمانى بعافيته، لكن الطيارين البريطانيين بارعون، وينجحون فى اختراق كل شىء..

هناك قيود على التموين.. على الورق.. على الإضاءة.. على كل شىء.. هذه بلاد فى حالة حرب حقيقية، لكن (عبير) كانت تؤمن أن النصر لهم فى النهاية.. الجنس الآرى خلق ليسود.. هذه سنة الحياة..

برغم هذا كله كانت تجد وقتًا هادئًا يسمح بأن تذهب إلى النهر مع (مولر)..

بقميصه البنى الغامق وسرواله الأسود وشعار الحزب، يأخذها على دراجته إلى ضفة النهر حيث يجلسان بالساعات ويقذفان ألف حجر فى النهر.. من البراعة أن تتعلم قذف الحجر بحيث يرتطم بالماء عدة مرات ويحدث دوائر كلما ارتطم.. هذا مسل..

لم يظهر أبوها بعد.. سألته عنه.. هل تعتقد أنه مات؟

قذف حجرًا وقال:

- « لا أحد يهتم بأعداء الحزب سواء عاشوا أو ماتوا.. »

قالت محتجة:

- « أبى ليس من أعداء الحزب.. أنت تعرف أنه يؤمن بالفوهرر.. »

- « رجال الجشتابو رأوا أنه من أعداء الحزب.. إذن هم مصيبون.. لا أحد يعرف أفضل من الجشتابو.. »

كتمت غيظها وراحت تتأمل ساقها المطلة من تحت التنورة.. كمية عضلات جديرة بطرزان فعلًا.. إنها قد صارت كالسلاح السرى المعد للإطلاق فى أية لحظة.. كل هذا التدريب لا يجب أن يذهب هباء..

قالت له وهى تفتح شطيرة ملفوفة بالورق وتناولها له:

- « أكرر.. هل تعتقد أنه مات؟ »

هز رأسه ثم نظر لها نظرة ذات معنى.. أخيرًا قال:

- « أنا أرجح ذلك.. »

هبت واقفة فى جزع وسألته:

- « هل رأيت جثته؟ »

- « بل رأيت التقارير عنه.. عمى ضابط فى الجشتابو..»

- « أية تقارير؟.. أبى لم يفعل أى شىء سوى الحماس للنازية.. »

- « لا يمكنك أن تعرفى أبدًا.. »

كأنه من السهل أن يجهل المرء أشياء كثيرة عن أبيه..من السهل أن تجهل عن أبيك كل علاقاته قبل أن يتزوج.. من السهل أن تجهل قصص حبه.. اختلاسه.. تلقيه للرشوة.. من السهل أن تجهل هذا كله، لكن من المستحيل أن تجهل آراءه السياسية.. هذا مستحيل..

هنا اختمرت الفكرة فى ذهنها ونظرت ل (مولر) طويلًا..

قالت له ضاغطة على حروف كلماتها:

- « عمك ضابط جشتابو؟ »

- « نعم.. »

- « وأنت تغذيه بالتقارير.. هه؟.. هذا يرجح كفتك عندهم.. »

- « أحيانًا أفعل ذلك.. »

- « وبعض هذه التقارير مختلق ولا أساس له من الصحة.. ربما تضمنت هذه التقارير كلامًا عن أبى.. أليس كذلك؟.. العبارة الحادة التى تبادلها مع ضباط الصاعقة تحولت إلى تاريخ كامل من العمل السرى ضد الحزب.. يمكننى أن أتخيل ذلك.. »

نظر لها بعينيه الميتتين الزرقاوين، ولم يرد..

كان هذا فى حد ذاته كافيًا..

عندما تعمل مع الجشتابو لا يمكنك أن تأتى بأخبار صحيحة ومهمة طيلة الوقت.. هذه مشكلة عميل المباحث فى كل زمان ومكان.. يصير أشبه بالصحفى الذى لا يجد ما يكفى من أخبار، من ثم يضطر إلى اختلاق بعضها ليكسب رزقه ولا يفقد أهميته.. هذا عدم أمانة، لكنك عندما تتعامل مع جهاز مفترس مثل الجشتابو يتحول الأمر إلى قتل عمد..

قالت له وهى تنظر فى عينيه:

- « مولر.. قل لى إننى مخطئة وغبية.. »

- « أنت لم تكونى غبية قط يا ملاكى.. »

لا تعرف متى وجهت تلك الضربة إلى فكه فسقط إلى الخلف، وعلى الفور وجهت له لكمة فى صدره ثم لكمة أخرى فى فكه.. كانت قوية جدًا وكان هو ضعيفًا كفتاة صغيرة.. كان بلا حول ولا قوة فى يدها، وجعلها هذا تشعر بنشوة حقيقية..

طار فى الهواء ليسقط فى الماء.. طش!.. وتناثرت القطرات حتى بللت حذاءها، وتوقف عجوز وزوجته يرقبان المشهد فى ذعر..

صاح وهو يضرب الماء بيديه وقدميه:

- « أنا.. جلوب!.. أنا.. جلوب!.. أنا لا أعرف السباحة! »

- « هذه فرصة طيبة للتعلم! »

ثم ركعت على ركبتها ومدت يدها لتمسك بخصلات شعره الأشقر وجذبته حتى صار قرب الشاطئ، ثم همست له وهو يجاهد من أجل الهواء:

- « كما ترى.. أنا قوية جدًّا.. أما عن اتصالاتى داخل الحزب وعلاقاتى برجال الصاعقة فلا تصدق.. عندما أسروا أبى لم أكن بهذه القوة.. لو حاولت أن تلعب ذات اللعبة القذرة وتشى بى، فلسوف ينقلبون عليك.. سوف يمزقونك أنت.. جرب أن تلعب بقذارة ولسوف ترى النتيجة.. فقط جرب.. »

كان معلقًا من خصلات شعره فوجهت له صفعتين بيدها اليسرى، ثم ضربت رأسه فى ضفة النهر وإن تأكدت من أنه لن يغرق.. يغرق فى المهانة نعم لكن ليس فى الماء..

وغادرت المكان..

هى مؤمنة بالنازية والفوهرر.. فقط عندما تظهر أخطاء تقول لنفسها: ليت الألمان كانوا على المستوى الأخلاقى الذى أراده الفوهرر لهم.. الأخطاء تأتى من البشر لا من المبدأ نفسه..

كانت تعرف أنه سيشكو.. لكنها مستعدة له..

تعرف أنها فى وضع خارق للعادة وأن السلطات ستصدقها هى ولن تصدقه.. يمكنها طلب الجنرال فى أى وقت، بل إن بوسعها بشىء من الصعوبة طلب هملر نفسه...

وماذا عن أبيها؟.. ألا يضعف هذا موقفها وثقة الحزب بها؟

لا تعرف.. لكنها متأكدة من شىء واحد.. لقد أعدم الرجل غالبًا..

ما زالت تذكر ليلة السكاكين الطويلة.. ذلك الاحتفال النازى الذى قام فيه شباب الحزب فى ليلة واحدة بذبح كل المعارضين.. كل من حوله علامة شك.. وفى النهاية شنق الجميع بأسلاك الهاتف وعلقوا إلى أعمدة النور أو أُلقيت جثثهم فى الراين..

إن فرصة المواطن المعارض أو على أضعف الإيمان الذى يريد أن يترك وشأنه معدومة فى هذا المناخ..

وماذا عن أخيها؟..

ولم تكن تعرف أن أمها ستضطر إلى الحياة وحدها قريبًا جدًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن عشرة أيام مرت على الدوتشى وهو معزول عن العالم فى محبسه..

لكنه عرف أن طائرة استطلاع ألمانية حلقت فوق جزيرة (بونزا) والتقطت عدة صور. لهذا نقله الإيطاليون خارج الجزيرة؛ لأنهم خافوا أن يهاجمها النازيون..

لا أحد يعرف أنه هناك، لكن تسرب الأخبار وارد.. والنازيون شياطين..

هكذا انطلقت السفينة الحربية إلى جزيرة (مادالينا).. البحر عاصف والأمواج عالية، ونومه متقلب.. يشبه الإغماء من حين لآخر..

وصلت السفينة إلى مادالينا حيث نُقل إلى بيت تحيط به أشجار الصنوبر، ويطل على البحر. كان ناديًا لضباط الطوربيد فى السابق.

كانت مادالينا خالية تقريبًا من السكان بسبب الغارات المتكررة، فلم يبق عليها إلا نفر من الصيادين..

وشعر (موسولينى) بالخطر فى هذا المكان المنعزل، الذى يحيط به البحر وجبال جالورا المظلمة السوداء. وفى الصباح كانت الشمس حارقة فعلًا..

هنا وصلته هدية من (هتلر) أرسلها له منذ أسبوعين هى مجلدات (نيتشه) الأربعة والعشرون.. الأمر الذى لم يخفف من الوحشة كثيرًا.. عندما يرسل (هتلر) هدايا فهى تكون جديرة به..

هكذا كان (موسولينى) يقضى الوقت يقرأ فى شرفة داره..

فى يوم 26 أغسطس حلقت طائرة ألمانية منخفضة فوق الشرفة.. كانت منخفضة إلى حد أنه رأى بوضوح وجه الطيار ينظر له.

بعد قليل جاء ضابط الحراسة ليخبر الدوتشى أنهم سينقلونه إلى مكان آخر..

- « هناك حشد من الغواصات الألمانية يحوم حول الجزيرة.. هؤلاء القوم شعروا بشىء.. »

الميناء من جديد..

فلو كان موسولينى يعرف مصطلح (الكعب الدائر) المصرى الشهير لوصف به الموقف..

وفى هذه المرة نقلته طائرة حربية بحرية إلى بحيرة براسيانو.. من ثم إلى روما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأى موسولينى معالم الطريق من سيارة الإسعاف التى تنقله فارتجف..

إنه طريق أكويلا.. الوادى الذى يفصل بين جبال سابين عن جبال أبروز..

إنهم يتجهون إلى (صخرة إيطاليا العظمى).. جران ساسو Gran Sasso.. أكثر جزء يحبه من خارطة إيطاليا..

جبال شاهقة.. الأغنام التى ترعى يحرسها رعاة على صهوات خيولهم يبدون فى خشونتهم وفروسيتهم كأنهم جاءوا من عصر آخر.. نحن على ارتفاع عشرة آلاف قدم عن البحر وسط إيطاليا..

على أعلى قمة فى هذا الجبل يوجد فندق اسمه (برجوريفوجيو).. والفندق يعتبر منتجعًا لكنهم خصصوه لإقامة الدوتشى..

وفى دهشة نظرت مديرة الفندق إلى الدوتشى الذى بدا لها رجلًا شاحبًا مذعورًا.. هل هذا هو حقًّا؟؟

رأته يركع على الأرض فى حجرته ليجمع السجاد ويقول للحراس:

- « ما دمت سجينًا هنا فعليكم أن تعاملونى كسجين، وإلا فأعيدونى لبيتى! »

ومن جديد بدأت دورة الحياة المملة.. الطعام عديم المذاق قليل الكمية.. فقط كان هناك الكثير من العنب، وكان يحبه لدرجة التهام ثلاثة كيلوجرامات منه يوميًا..

في المساء العشاء ثم لعب الورق مع الحراس.. ثم ساعة من سماع المذياع قبل النوم..

أحيانًا كانت تتاح له متع فريدة من نوعها..

كان يلعب الورق عندما سمع شجارًا على الباب بين راع خشن ورجال الحراسة..

رجل الحراسة يقول:

- « ممنوع الدخول هنا! »

والراعى يقول:

- « أريد شراء بعض النبيذ.. أنت لن تستطيع منعى! »

هنا هتف موسولينى فى الجندى:

- « دعه يدخل.. »

دخل الراعى الخشن الذى لم يعتد المجاملة، والذي بدا واضحًا أنه لا يعرف أنه يقف أمام زعيمه السابق، فاقتاده موسولينى إلى منضدة وطلب له زجاجة نبيذ.. راح الراعى يجرع ويمسح فمه بكمه فسأله (موسولينى) متلطفًا:

- « ما الخدمات التى قدمتها الفاشية لرعاة الماشية مثلك؟»

- « خدمات كثيرة.. مثل.. مثل.... »

وراح يفكر بعض الوقت ثم قال:

- « لا أذكر أية خدمة فى الواقع! »

ووضع يده على كتف (موسولينى) بلا كلفة وقال له:

- « يا رجل.. هم كانوا مخطئين.. (موسولينى) العجوز فرض علينا الضرائب وترك الموظفين يسرقون منا الصوف والجبن.. »

تجاهل (موسولينى) هذه النقطة.. الرجل يتكلم على حريته فدعه.. وعاد يسأل:

- « لماذا انتهت الحرب بهذا الشكل؟ »

قال الراعى وهو يضيق عينيه فى ذكاء:

- « كان اللصوص فى كل مكان.. كثيرون أكلوا الخبز المخصص الجنود.. »

ثم انتهى من كأسه فنهض وعانق الدوتشى وصافحه وقال:

- « اعتن بنفسك يا (موسولينى).. شكرًا على الشراب! »

إذن كان يعرفه منذ البداية!

فى الحقيقة استمتع (موسولينى) بهذه الجلسة أيما استمتاع، وراحت عيناه تلمعان.. لا شىء أكثر سحرًا من أن تقابل رجلًا على طبيعته لا ينافقك ولا يخشاك ولا يتملقك..

صعد لغرفته وفتح المذياع على إذاعة برلين، هنا سمع أنباء كارثية..

قالت المذيعة:

- « أذيع رسميًا أن الشيفالييه بودليو وقع ميثاق الهدنة مع الحلفاء.. ومن شروط هذه الهدنة تسليم موسولينى إلى قوات الحلفاء!!.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يخشى استسلام إيطاليا وعندها سيكون أول شروط هذا الاستسلام، تسليمه إلى انجلترا!!.. ولسوف يصنع البريطانيون من جلده نعالهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الحارس الخاص لموسولينى (فيولا) يجلس فى الغرفة المجاورة عندما جلب له خادم موسولينى رسالة قصيرة.. فتحها فوجد التالى:

- « لا ريب فى أنك كجندى تدرك ما يعنيه وقوعى فى يد الأعداء. لن أرضى بتاتًا بأن يتم تسليمى إلى البريطانيين لذا أطلب منك أن تسلمنى مسدسك.. »

- « **يا للكارثة!** »

كذا صاح فيولا ووثب كالملسوع إلى غرفة الدوتشى فوجده يجلس على الفراش وهو يعد شفرة

حلاقة حادة، يريد أن يختار لها شريانًا ثريًّا فى معصمه..

قام فيولا بأخذ كل شىء يصلح للانتحار فى غرفة (موسولينى) ثم قال للدوتشى:

- « أنا كنت أسيرًا فى طبرق، وأعرف كيف يعامل البريطانيون الإيطاليين فى توحش.. لهذا لن أسلم إيطاليًّا إلى البريطانيين أبدًا.. »

وسال الدمع من عينيه..

لكنه كان يدرك أشياء أخرى لم يقلها للدوتشى..

يدرك أن الاحتمال الأكبر هو أن يصل الألمان للدوتشى أولًا، وكانت لديه تعليمات صريحة من قيادته تزيد الأمر تعقيدًا:

- « لا يُسمح للألمان بأى ثمن أن يحصلوا على (موسولينى) حيًّا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) كانت عائدة إلى دارها بعد أحد اجتماعات الحزب..

إنه السادس والعشرون من يوليو عام 1943م..

كانت صامتة شاردة الذهن تنظر إلى الأرض وهى تعبر ذلك الشارع الضيق عندما شعرت بأن الطريق مسدودة، وأن هناك حذائين عسكريين لامعين يسدان عليها الممشى..

رفعت رأسها لترى الملامح المميزة لضابط من رجال الصاعقة. على الكاسكيت الذى يضعه على رأسه علامة الجمجمة الرهيبة التى لا يضعها الجميع.. إنه شعار رأس الموت الذى يضعه رجالTotenkopfverbande ومعها شعار يقول (إخلاصى هو شرفى).. ووراءه كانت سيارة سوداء تعرف جيدًا معنى وجودها هنا..

- « فرويلاين (شتورمجر).. أرجو أن تأتى معنا.. »

نظرت له فى قنوط.. من الواضح أنها مهمة أخرى لدى الصاعقة، وهو أسوأ وقت ممكن.. أمها وحدها الآن.. ومن الوارد جدًّا أن يكون ذلك الأحمق (مولر) نقل عنها الأكاذيب لينتقم، ومعنى هذا أنها ستتغيب عن أمها كثيرًا جدًّا..

ربما للأبد!

لكن المرء لا يجادل كثيرًا مع رجال الصاعقة.. هكذا دخلت من باب السيارة المفتوح وهى تتمنى لو كان من يرغمها على الركوب مجموعة من المجرمين ينوون خطفها ثم فصل رأسها وإلقاء جثتها فى النهر.. بالتأكيد هذا أفضل بكثير..

تنطلق السيارة عبر شوارع المدينة المظلمة..

كانت قد تعلمت من تجارب كثيرة أنه لا داعى لإضاعة الوقت فى الأسئلة.. هؤلاء لا يجيبون عن أى شىء..

إن السيارة تتجه فى الظلام إلى مطار (تمبلهوف).. هناك كانت طائرة من طراز (يونكرز) تهدر محركاتها..

نظرت (عبير) فى جزع إلى الضباط من حولها وسألت:

- « مسافرون؟.. إلى أين؟ »

لكن لا أجوبة كالعادة..

إنها تقاد إلى الطائرة، وتجد مقعدًا فتجلس ويأمرها مضيف أقرب إلى الجندى بأن تربط الحزام.. نظرت جوارها فوجدت تلك الفتاة (أولجا) التى كانت معها فى التدريبات.. الفتاة ذات القدم الكبيرة التى لعرقها رائحة الكرنب..

سألت الفتاة بينما الطائرة تهدر فوق الممر:

- « إلى أين؟ »

قالت أولجا بطريقتها الخبيثة:

- « غالبًا إلى ما تم تدريبنا من أجله! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحيرة هادئة فى الظلام بعد طيران ثلاث ساعات..

سيارة مرسيدس سوداء تقف جوار البحيرة..

ثم الرحلة عبر غابة ألمانية متشابكة جدًّا..

هناك حاجز عسكرى يقف عليه ضباط متشككون.. طلبوا أوراق السيارة وتفحصوا الجالسين فيها بدقة مع الكثير من الشينات والخاءات.. كشاف يعمى العيون يتفحص الجالسين.. ثم..

تنطلق السيارة عبر ممر آخر فى الغابة.. هناك حاجز آخر..

فحص أوراق وكشاف..

هذه المرة كان على السيارة أن تمر أمام مدفع قادر على تبخير مدينة لا سيارة.. ومن جديد تم فحص الأوراق..

ما هذا؟.. هل هم ذاهبون إلى قدس الأقداس؟

أخيرًا هناك مبنى من خشب به غرفة مريحة.. أرض مفروشة ببساط سميك، وهناك وجدت (عبير) مجموعة من الرجال العسكريين جالسين يمسك كل واحد منهم بمشروب فى يده ويدخن.. لم تكن هناك سوى فتاتين هى و(أولجا)..

الرجل الذى استرعى نظرها بشكل خاص كان ضابطًا وسيمًا رياضى الجسد، لكن السبب فى أنه لفت نظرها الجرح الطويل العميق على خده الأيسر.. كانت رياضية لذا تعرف أن هذا الجرح يميز المبارزين البارعين ويعتبرونه من علامات الشرف، ويُطلق عليه اسم Smite..بالواقع كان وجه الرجل يشى بشجاعة وقوة جديرتين بأبطال السينما. هذا وجه لا تقابله إلا نادرًا... وكان يدخن بكثافة لأن التدخين كان فى ذلك العصر من سمات الرجولة، قبل أن يعرف الطب أنه من سمات البلاهة.

سمعت أحدهم يناديه باسم (سكورتسينى Skorzeny).. (أوتو سكورتسينى) اسم مهم جدًّا قرأته أو سمعته فى مكان ما لكنها لا تذكر أين..

جلست وجلست (أولجا).. وهمست فى أذن صاحبتها:

- « لا أعرف ما يريدون منا القيام به، لكن لو كان على الاختيار لاخترت هذا الرجل ذا الندبة على خده.. إن الكفاءة تطل من عينيه، ومن لا يرشحه أحمق ابن أحمق..»

ثم مدت أولجا يدها فى جيبها وأخرجت زجاجة صغيرة وفتحت سدادتها..

هنا لاحظت أن ذلك الشاب (سكورتسينى) ينظر لها فى دهشة وفضول, وابتسم وقال لها:

- « ما هذا؟.. مشروب كحولى؟ »

قالت أولجا فى فخر بطريقتها التلقائية المقتحمة:

- « لا.. إنه عصير بيتى تقوم أمى بصنعه. هل تجربه؟ »

مد يده وأمسك بالزجاجة فى حذر، وشم فوهتها ثم ألصقها بشفتيه وجرع جرعة كبيرة:

- « لا بأس.. يذكرنى بمذاق.. بمذاق ال... »

قالت أولجا فى فخر:

- « الكرنب!.. أمي تصنع عصير كرنب ممتازًا لذيذ الطعم! »

كانت هذه هى القشة التي قصمت ظهر البعير.. لقد تحسس (سكورتسينى) معدته وتحول لون وجهه إلى الأخضر، ثم وضع يده على فمه وهرع يبحث عن مكان يفرغ فيه معدته.. وحدثت حالة من الفوضى..

قالت أولجا فى غيظ:

- « كنت مخطئة.. هذا الفتى مدلل!.. يحب التظاهر بأنه رقيق ذو معدة حساسة برغم أنك لو سألت عنه لعرفت أنه كان يأكل أمعاء الخنازير.. »

فى اللحظة التالية دخل الحجرة نقيب من الحرس النازى، وعد الموجودين ثم قال فى حيرة:

- « أحدكم ناقص! »

قال ضابط من الجالسين:

- « إنه يفرغ معدته لأنه شرب عصير كرنب.. أعتقد أنه غير قادر على العودة حالًا.. »

قال النقيب فى توتر:

- « لا وقت الانتظاره إذن.. يا سادة.. أنتم ستقابلون الفوهرر الآن! »

انفجرت الكلمة كالقنبلة فى صمت الغرفة وسقطت لفافات التبغ من الأيدى.. كان عليهم أن يخمنوا هذا..

- « سوف يذكر كل منكم رتبته وتدريبه، ويجيب عن أى سؤال يوجه له.. هيا بنا.. »

نهضت (عبير) وهى تشعر بأن ساقيها لينتان.. هى قابلت (هتلر) من قبل كما تعرف، لكنك تدرك ضخامة الموقف عندما ترى ردود أفعال من حولك.. لهذا لا يظهر البطل فورًا فى المسرحيات الكوميدية بل يظل الممثلون الآخرون يتكلمون عنه نحو عشر دقائق قبل أن يظهر هو وقد أعد المكان لدخوله فعلًا.. عندها ينفجر التصفيق.. خبراء الدعاية الأمريكيون يعرفون هذا، لهذا تنظر زوجة الرئيس ونائبه فى اتجاه الرئيس فى انبهار مما ينقل هذا الانبهار لشخصية الرجل، ويشعر الناس أنه أكبر من الواقع ذاته[3]..

بطنها تتلوى توترًا..

هناك غرفة عملاقة امتلأت جدرانها بالخرائط..

رائحة غريبة فى الجو..

ثم انفتح باب جانبى وظهر الفوهرر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما رأته عبير أول مرة فى قصة سابقة، كان قد بدأ الهبوط من أعلى المنحدر.. كان مرهقًا له كتفان ذابلتان وعينان ميتتان..

اليوم هى تراه عن قرب فى ذروة عنفوانه وتأثيره..

اليوم تفهم لماذا استطاع أن يُنوِّم هذا الشعب ويقوده إلى الهاوية..

وجه واثق.. عينان لامعتان ذكيتان.. ابتسامة خافتة..

فى عصبية أدى الضباط التحية العسكرية فردها بشكل نازى تمامًا..

كان يلبس قميصًا أبيض وربطة عنق سوداء وعلى ياقته ثبت الصليب الحديدى.. صليب مالطة..

مشى إلى الضابط الأول ووقف يتبادل معه حديثًا خافتًا.. ثم مشى إلى الثانى وتبادل معه حديثًا.. وهكذا حتى بلغ (عبير)، وتوقعت أن يقول لها إنه قابلها فى مكان ما من قبل، لكنه نظر لها نظرة ثاقبة وقال:

- « فتاة.. هه؟ »

كأن هذا غير واضح لذا تصلبت وهتفت:

- « فتاة يا فوهررى! »

وتلت عليه قائمة بالتدريبات التى حصلت عليها.. بعد هذا انتقل إلى أولجا.. قال الضابط المرافق له:

- « إنهما من فرقة الكوماندوز النسائية الخاصة التى تم تدريبها فى (الرور) يا فوهررى.. »

قال هتلر باسمًا:

- « فتاتان.. قد تكونان عاليتى الكفاءة لكن العملية التى نحن بصددها تحتاج إلى رجل.. »

ثم تراجع إلى الوراء وقال:

- « من منكم يعرف إيطاليا؟ »

هنا هتفت (عبير) بطريقتها العسكرية الصارمة:

- « أنا يا فوهررى!.. لقد اشتركت فى عدة دورات هناك.. »

- « هل تجيدين الإيطالية؟ »

- « نعم يا فوهررى.. »

قال عبارة بالإيطالية فردت عليه برد مناسب.. عاد يسأل:

- « ما رأيكم فى إيطاليا؟ »

أخذ الضباط يتحدثون عن المحور والفاشية.. يقولون كلامًا فارغًا بالطبع.. لكن صوت (عبير) اندفع يقول فى حماس:

- « أنا ألمانية يا فوهررى.. »

ساد صمت ثقيل، ورأت أن عينيه القويتين تنظران لها فى إمعان..

هنا قال الضابط المتحمس الذى كان يُعرِّف الفوهرر بهم:

- « إنها من أبرع الرياضيات وقد حققت أرقامًا مذهلة فى الوثب بالمظلة.. ولكن هناك مشكلة تتعلق ب. ..... »

وراح يهمس فى أذن الفوهرر.. يتكلم عن أبيها (الخائن) طبعًا، لكن هتلر شوح بيده بمعنى أن هذا لا أهمية له وقال:

- « أنا أعرف النازى المخلص عندما أراه.. »

ثم نظر لها الفوهرر وقال:

- « ابقى أنت ولينصرف الباقون! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) وحدها الآن مع الفوهرر..

قال لها بصوته المجلجل:

- « إن موسولينى صديقى وزميلى المخلص فى السلاح قد تعرض لخيانة من ملك إيطاليا.. أنا لن أتخلى عن أعظم رجل أنجبته إيطاليا فى ساعة محنته.. إن هذا الرجل يمثل لى كل عظمة الرومان.. لذا يجب أن أنقذه.. لا يوجد سبيل آخر.. »

ثم نظر لها فى عينيها وقال:

- « من الغريب أن أكلف امرأة بهذه المهمة، لكن الأغرب أن كل الصفات المطلوبة تنطبق عليك.. إجادة الهبوط بالمظلات.. الولاء للرايخ.. معرفة إيطاليا.. معرفة اللغة الإيطالية.. »

ثم أردف:

- « مهمتك هى أن تنقذى الدوتشى من محبسه.. »

شعرت بتوتر وبالدم يغلى فى عروقها..

- « هناك كثير من التفاصيل سوف تعرفينها فيما بعد.. »

هكذا أدت التحية العسكرية وقالت:

- « فهمت أيها الفوهرر وسأنفذ المهمة.. »

وعندما غادرت الغرفة كانت عيناه لا تفارقانها..

ظلت هاتان العينان تحرقان مؤخرة عنقها حتى عندما استدعيت إلى مكتب آخر..

فى الممر الخارجى رأت ذلك الرجل الذى لا يتناسب مع الجو على الإطلاق.. بذلة سوداء وقلم جاف زنبركى ونظرة لا مبالية.. كان يستند إلى أحد الجدران ويثرثر مع حارس نازى..

- « مرشد!.. ماذا تفعل هنا؟ »

- « أراقب مجريات الأمور.. هل أنت مستمتعة؟ »

قالت فى حيرة:

- « إنقاذ موسولينى؟.. أنا؟ »

قال لها باسمًا:

- « كل هذه ترتيبات من فانتازيا.. فى هذا العالم الذكورى العنيف حيث يتم الكلام بالسيف أو طلقات النار، لا يكون بوسعك أن تشتركى فى الحرب إلا لو صرت رجلًا كما حدث مع « رمسيس الثانى » و « روبن هود » أو صرت عضوًا فى فريق كوماندوز أنثوى.. لم يكن بوسعى أن أجعلك حبيبة موسولينى (كلارا) لأن هذا معناه ألا دور لك على الإطلاق سوى أن تموتى.. »

- « وهذا الضابط الذى أصيب بالتسمم من عصير الكرنب؟ »

- « آه؟.. (أوتو سكورتسينى)؟.. إنه بطل من طراز نادر وهو الذى أنقذ موسولينى فى الحقيقة، وحياته قصة فريدة من نوعها تستحق مغامرة أخرى فى فانتازيا.. هل تعرفين أنه كان مستشارًا للرئيس (جمال عبد الناصر) فى مصر؟.. لقد اضطررت لهذه الحيلة كى أمنعه من لقاء هتلر.. »

- « لكنك تعرف أننى لا أقدر على مهمة كهذه.. »

- « سوف تنجحين.. ولكن ليس بسهولة.. والآن هيا بسرعة لأنهم ينتظرونك.. »

دخلت إلى الغرفة المجاورة لتجد جنرالًا نازيًا ورجلًا قصيرًا قميئًا له شارب صغير مضحك ونظارة رفيعة الإطار.. رجلًا يوحى بالشر والدناءة..

(هملر Himmler) المرعب!... الكابوس...!... السفاح.. إنه هو بلا شك..

قال (هملر):

- « أنت فتاة.. لا أحد يعترض على اختيارات الفوهرر فهو يعرف أكثر من الجميع، لكنى أشك فى قدرتك على النجاح. النساء لا ينجحن أى شىء.. »

- « شكرًا.. »

عاد يقول:

- « هناك إيطاليون كثيرون يحاولون التفاوض مع الحلفاء الآن.. إن إيطاليا سوف تفلت منا ما لم يتم تحرير موسولينى.. »

أخرجت ورقة وقلمًا لتدون النقاط الأساسية، لكنه صاح فى جنون:

- « هل جننت؟.. لا شىء من هذا يجب أن يدون على الورق.. إنه سرى للغاية.. فى وسعى أن أرى أنك غير صالحة على الإطلاق! »

لكن الجنرال كان أكثر هدوءًا، وقد عرفت (عبير) أنه الجنرال (شتودنت) المسئول عن إعداد الخطة..

المشكلة الآن هى أن نجد الدوتشى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنم (عبير) تلك الليلة..

لقد راحت تعد كل ما يلزم عملية الاستكشاف فى إيطاليا.. ملابس تنكرية.. أسلحة.. متفجرات.. وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى كانت الطائرة الألمانية تحلق نحو إيطاليا..

الحقيقة أن البحث عن الدوتشى فى إيطاليا كان عسيرًا.. نظريات عديدة تناثرت فى كل مكان:

- « الدوتشى فى الشمال تحت حراسة.. »

- « الدوتشى انتحر.. »

- « الدوتشى يقاتل فى الجبهة.. »

- « الدوتشى فى إسبانيا.. »

كلف رجال المخابرات الألمان بعمل كل استطلاع ممكن، بينما قام هتلر بنشاط محبب له هو أن يحضر العرافين ليخمنوا له مكان موسولينى..

في النهاية وجدت خطابًا كتبه ضابط إيطالى فى جزيرة (بونزا) لحبيبته يخبرها فيه:

- « هناك شخصية سياسية مهمة سجينة على الجزيرة.. »

ثم جاء خبر آخر أن الدوتشى فى جزيرة (مادالينا)...

هكذا انطلقت إلى الجزيرة مع ضابط ألمانى يجيد الإيطالية..

دخلا إلى الحالة حيث كان الرعاة يشربون الخمر، وراحت تترنح وتغنى مع الضابط المتنكر متظاهرين بالثمل.. لم يكن هناك شك فى أنهما حبيبان.. حبيبان ثملان.. من المدهش أن تقرأ كم مرة استعملت فيها حيلة الجندى الثمل فى عمليات المخابرات.. هو دائمًا يسمع الكثير أو يستعمل لتسريب أخبار زائفة.. لو كان هؤلاء القوم أكثر حكمة لأعدموا أى جندى ثمل فورًا بتهمة التجسس!

قرب الضابط شفتيه من أذنها وقال بصوت عال:

- « سأقبلك قبلة لا يستطيع الدوتشى أن يقبل امرأة مثلها!»

قالت جملة الحوار المتفق عليها:

- « أنت تعرف أن الدوتشى مات.. »

كان هذا أقوى مما يتحمله البسطاء الذين يريدون أن يظهروا عالمين ببواطن الأمور.. لا أحد من هؤلاء يتحلى بمزية الصمت الحكيم، لذا قال فلاح إيطالى عجوز:

- « الدوتشى حى يا فتاة! »

نظرت له (عبير) ورمشت بعينيها كأنها لا تراه جيدًا وقالت العبارة المتفق عليها:

- « هل تراهننى؟ »

من جديد كان هذا أقوى من تحمل العامة الإيطاليين فلا أحد منهم يجرؤ على مقاومة الرهان..

هكذا اصطحبهما الفلاح إلى منزل قريب وأشار فى فخر إلى رجل يجلس فى الشرفة..

رجل أصلع عارى الصدر ضخم الجثة!

- « هل رأيت يا فتاة؟.. هذا هو الدوتشى! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى برلين هرعت (عبير) تخبر الفوهرر بما وجدته وما رأته..

كانت قصتها قوية جدًا وقد أصغى لها هتلر فى اهتمام..

فجأة نهض وقال:

- « أنا أصدقك... مطلوب منك أن تعدى خطة لخطف الدوتشى من مادالينا! »

وابتسم ابتسامة أشاعت الدفء فى قسمات وجهه وقال:

- « ستنجحين يا (شتورمجر)!.. »

لم يعد بوسعها أن تفشل بعد هذه الثقة المغناطيسية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى السابع والعشرين من أغسطس، وهو اليوم المقرر لبدء العملية، عرفت عبير أن موسولينى تم نقله من جديد..

لكن الأقدار شاءت أن يكون البحث أسهل هذه المرة..

لقد شوهدت طائرة تهبط عند بحيرة (براسيانو)، ثم التقطت المخابرات رسالة بالإيطالية تقول:

- « موسولينى تم نقله إلى الصخرة الكبرى (جران ساسو).. »

هذه المرة لن تكون هناك أخطاء..

على سبيل الاحتياط أرسلت بعض الضباط متظاهرين بأنهم أطباء يدرسون الملاريا فى المنطقة.. الملاريا وإيطاليا لفظتان متلازمتان أو كانتا كذلك، وقد كان هناك نشاط كبير لأطباء المناطق الحارة الألمان فى إيطاليا فى هذا الوقت..

لكن الأطباء المزيفين لم يستطيعوا الاقتراب من الصخرة الكبرى، لأن الشرطة تحرس محطة التلفريك، وقيل لهم: إن الفندق مخصص للتدريب العسكرى والمنطقة كلها محظورة..

ثمة شىء مهم يجرى فى هذا الفندق..

وحلقت طائرات استطلاع ألمانية فوق الفندق فى حذر والتقطت عدة صور للمنطقة، سرعان ما استقرت أمام الجنرال (شتودنت) الذى وضع خطة الهجوم..

تأمل الجنرال الخارطة وصور الاستطلاع وقال ل (عبير):

- « أمامنا ثلاثة احتمالات:

« الاحتمال الأول هو الهجوم من الأرض وتسلق المرتفعات.. هذا عسير لأنه يحتاج إلى عدد هائل من الجنود..

« الاحتمال الثانى: عمل إنزال بالمظلات.. وهذا عسير لأن الجنود سوف يتفرقون فى هذه المرتفعات الوعرة الخطرة.. سوف نفقد كثيرين منهم..

« الاحتمال الثالث: الهبوط طائرة من دون محرك.. »

قالت (عبير):

- « لا توجد أرض تسمح بهبوط طائرة.. »

قال وهو يشير إلى رقعة على الخارطة خلف الفندق:

- « هنا.. هذا المثلث.. أرض صغيرة وعرة وسوف نفقد الكثير، لكنها تظل الخطة الأقرب إلى النجاح.. وسوف تتم يوم 12 سبتمبر.. الساعة الثانية بعد الظهر.. »

هنا اقترح مساعده:

- « لابد من جنرال إيطالى معنا.. هذا الضابط سوف يربك الإيطاليين ويجعلهم فى حيرة من

أمرهم، وبالتالى لا يبادرون بقتل الدوتشى إذا شعروا بالحصار.. »

ابتسم الجنرال وقد راقت له الفكرة وطلب أن يبلغوا الجنرال الإيطالى (سوليتى) الذى احتفظ بوفائه للفاشية والنازية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنه اليوم الموعود..

لقد بدأت عملية البلوط operation Eiche أو غارة (جران ساسو) كما سماها البريطانيون بعد ذلك..

تركب (عبير) قائدة الهجوم طائرة من الطائرات الاثنتى عشرة..

وارتفعت الطائرات إلى عنان السماء، فتألقت فى ضوء الشمس... لامعة مهيبة..

الحر خانق داخل الطائرات، وقد فقد بعض الجنود وعيهم.. لكن (عبير) متماسكة تتذكر عينى الفوهرر وكلماته.. لا يهمها ما يحدث بعد ذلك.. لقد طلب منها طلبًا وسوف تنفذه..

ونظرت إلى ساعتها لتجد أنها الثانية بالضبط...

أزاحت جزءًا من شراع الطائرة فرأت الفندق القابع فوق الصخرة الكبرى..

وسرعان ما راحت الطائرات تنزل فوق الأرض الوعرة فشعروا بأن عظامهم تتحطم.. ولم تسلم أغلب الطائرات من التحول لفتات لكن أيا من الرجال لم يصب..

ومن إحدى الطائرات التى تحطمت وثب الجنرال الإيطالى يصيح فى الجنود الإيطاليين الذين هرعوا لدى سماع الارتطام:

- « **لا تطلقوا النار!.. لا تطلقوا النار!** »

كان موسولينى قد سمع الضوضاء وهو جالس فى الشرفة، فخرج ليرى أفضل.. وجد الطائرات تهبط فى الفسحة أمام الفندق.. بعضها تحطم وبعضها يوشك على ذلك..

هنا فوجئ بحارسه فيولا يقتحم الشرفة صائحًا:

- « إنهم الألمان يا سيدى!!.. »

ثم أخرج مسدسه وصوبه إلى الدوتشى وصاح بصوت مرتجف:

- « ادخل الغرفة ولا تتحرك! »

أما (عبير) فكانت فى مشهد جدير بأفلام (الأكشن).. لو أن أمها رأتها لزغردت فرحًا.. إنها تركض بثيابها العسكرية حاملة مسدسها.. تندفع كالسهم عبر باب الفندق.. ومن خلفها رجالها..

كان هناك جهاز لاسلكى فى اللوبي فأطلقت عليه رصاصة.. تناثرت الشظايا فى كل صوب..

ثم أسرعت تركض صاعدة الدرج.. نظرت لأعلى فرأت نافذة مربعة صغيرة يطل منها رأس أصلع خائف، فصرخت بأعلى صوتها:

- « ابتعد عن النافذة! »

هنا قابلها أحد رجال الشرطة وأدركت أنه مذعور جدًّا لذا اكتفت بأن ركلته بحذائها العسكرى فتدحرج على الدرج..

الحقيقة أن سماع الكلمات الألمانية أصاب الحراس الإيطاليين بالهلع، ولهذا ألقوا أسلحتهم وراحوا يجرون وهم يتصايحون كالدجاج..

تصعد كل ثلاث درجات معًا.. كان هناك رواق طويل..

قالت لنفسها إن هذه هى لعنة الفنادق حيث يكون عليك أن تستكشف كل غرفة على الجانبين..

ركلت أول باب بقدمها وهى تأمل أن يكون هو..

هنا رأت موسولينى للمرة الأولى يقف فى وسط الحجرة..

كان فيولا يقف جواره وهو يرتجف وفي يده المسدس.. أطلقت رصاصة واحدة أطارت المسدس من يده.. إن تدريب الصاعقة البارع الشاق يؤتى أكله..

صاحت بالإيطالية بأعلى صوتها:

- « **أريد قائدكم الإيطالى هنا ليخبرنى أنكم استسلمتم!** »

خلال دقيقة ظهر ضابط إيطالى برتبة عقيد وفى يده كأس من نبيذ أحمر.. وفى تهذيب انحنى وقدمه ل (عبير) قائلًا:

- « إلى المنتصر! »

سكبت الكأس وهى تتساءل عن ماهية هؤلاء القوم.. ألا يريدون أن يطلقوا رصاصة واحدة على سبيل الكرامة؟..

وما شأن موسولينى هذا؟.. شد ما اختلف عن الصور.. نحيل كالأشباح.. لحيته نامية.. مسن جدًّا..

واستدارت إلى موسولينى وأدت له التحية العسكرية النازية:

- « الفوهرر قد بعثنى لك يا دوتشى.. أنت الآن حر! »

قال الدوتشي متعبًا:

- « كنت أعرف أن هتلر لن يتخلى عنى.. »

خرج الجميع من الفندق، بينما هبطت طائرة صغيرة خاصة بالجنرال (شتودنت) أمام الفندق.. ودنت (عبير) من الطيار لتهنئه على الهبوط فقال لها فى رعب:

- « لا أعتقد أننى سأتمكن من الارتفاع بها ثانية! »

لكنها لم تنقل هذه المخاوف لأحد..

وقف موسولينى يصافح خدم وعمال الفندق الواقفين بالخارج، ووجه لهم عبارات الشكر.. هذه حركة راقية جديرة بدكتاتور لا يتنازل عن شىء من صلفه، لكن هذه اللمسات أقرب للغرور منها للتواضع..

وقصد إلى الطائرة بينما جلس خلف المقود بطل الطيران الألمانى (جيرلاخ)..

على جيرلاخ أن يقوم بمعجزة هى أن ينطلق ويحلق من هذه الرقعة الضيقة الوعرة..

قالت عبير للطيار:

- « سوف آتى معك.. »

صاح (جيرلاخ) فى ذعر:

- « الطائرة لا تتحمل راكبًا واحدًا فكيف باثنين؟ »

الحقيقة أنها لم تكن لتسمح للدوتشى بأن يخاطر وحده.. لو سقطت هذه الطائرة فمن الخير لها أن تسقط معه بدلًا من أن تعود حية للفوهرر.. لهذا لم تشعر بأى خوف على حياتها. لا يوجد شىء يخيف أكثر من خيبة أمل الفوهرر وغضبه..

وكان موسولينى يشعر بالرعب بدوره لكنه لم ينطق بكلمة وحشر جسده فى المقعد الخلفى..

انطلق هدير المحرك، واندفعت عبر صخور الهضبة لتصل إلى الهاوية..

إنها تسقط!!

لكنها عادت فارتفعت من جديد بضعة أمتار ثم هوت ثانية..

وغابت تحت مستوى الهضبة..

هرع الجميع ليروا نتيجة هذه المأساة فرأوا الطائرة تحلق فوق صخور الوادى، بينما قائدها يحاول أن يرتفع بها.. بطل الطيران الألمانى قد تمكن من السيطرة على تلك الصخرة الهاوية.. ذلك العصفور المنحدر لأسفل..

مدت (عبير) يدها إلى كتف موسولينى لتهدئه قليلًا.. كان شاحبًا والعرق يحتشد على جبهته لكنه صامت. هذا أسوأ إقلاع رآه فى حياته، لكن (جيرلاخ) نجح فى عمل المعجزة..

أخيرًا تحلق الطائرة عالية فوق الجبال بين السحب.. نهاية ممتازة لفيلم سينمائى خاصة لو دخلت هنا مقطوعة لـ (هنرى مانسينى) أو (جيرى جولد سميث)..

ينظر موسولينى إلى أسفل ويقول لـ (عبير):

- « هذه هى إيطاليا.. »

وراح يشرح لها كل المعالم التى يمرون بها..

ثم مال رأسه على صدره ونام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الظلام هبطت الطائرة فى مطار فيينا..

هناك كان حرس شرف من النازى ينتظرون الدوتشى، وراحوا يؤدون حركات بارعة ومعقدة جدًّا لكن الرجل لم يكن قادرًا على التركيز أو الوقوف على قدميه.. لا وقت للاحتفالات.. ولم يصدق نفسه عندما انتهى كل هذا وحملته سيارة إلى فندق (الكونتيننتل)..

عندما دخل إلى غرفته التى أعدوها له، جاءه صوت الفوهرر عبر الهاتف يهنئه بسلامته..

قال فى تعب وإرهاق:

- « أنا مرهق. أنا مرهق.. أريد أن أنام.. »

وعندما رفع رأسه وجد (عبير) تقف وفى يدها منامة جديدة أعدها له الحرس النازى...

قال لها وهو يأخذ المنامة:

- « شكرًا.. أنا لا ألبس شيئًا أثناء النوم ليلًا.. »

وغمز بعينه فى خبث، فقالت (عبير) لنفسها إن هذا الرجل (مش تمام).. عاد يسألها:

- « قلت لى ما اسمك أيتها البطلة؟ »

قالت وهى تؤدى التحية:

- « (هانا).. (هانا شتورمجر).. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اهتز العالم لنبأ خطف الدوتشى من محبسه (أو تحريره). خاصة وأن ألمانيا تملك أكبر بوق دعاية عرفه التاريخ وهو الدكتور (جوبلز). افتح المذياع تجد نبأ تحرير موسولينى.. اقرأ الصحف تجد نبأ تحرير (موسولينى).. ادخل السينما تجد فى الجريدة السينمائية نبأ تحرير (موسولينى).. افتح الثلاجة تجد نبأ تحرير (موسولينى)..

الكوماندوز الألمان فعلوها.. وجدوا (موسولينى) وحرروه ولم يفقدوا واحدًا منهم ولا من الإيطاليين..

أما (موسولينى) فقد نام نومًا طيبًا، وفى الصباح جاءه الحلاق فحلق ذقنه، وكانت المغامرة الكبرى هى أنه قرر أن يستحم. كان موسولينى يكره الاستحمام ويفضل أن يسكب الكولونيا على جسده يوميًا. لابد أنه راح يصرخ ويبكى لأن الصابون دخل عينيه..

تم نقله إلى ميونيخ ثم إلى بروسيا الشرقية..

هناك يوم 15 سبتمبر التقى الحبيبان الدكتاتوران (هتلر) و(موسولينى)، ومن الغريب أن الدموع كانت متحجرة فى عينى الفوهرر..

إن محاولة فهم الكيمياء القوية بين هذين الرجلين تحتاج إلى خبير نفسى وليس مؤرخًا.. كلاهما دكتاتور لا يتمتع بأية درجة من الرقة، لكن صداقتهما مؤثرة قوية إلى حد لا يصدق..

غير أن هذا الحب الملتهب لم يدم طويلًا، وسرعان ما أسفرت النازية عن وجهها القبيح المعتاد...

سأله (هتلر) لما اختلى به ومعهما جوبلز وزير الدعاية الهتلرى:

- « ما هى خططك القادمة؟ »

قال الدوتشى:

- « سوف أنسحب من الحياة العامة.. »

ضرب هتلر المنضدة بقبضته وصاح:

- « هذا سخف.. إنه يظهر للعالم أنك فقدت ثقتك فى ألمانيا!.. يجب أن تعود وتقيم حكومة فاشية قوية فى إيطاليا.. يجب أن تعود وتحاكم الخونة الذين أسروك وتعدمهم..!.. يجب أن تسمح للنازيين أن يتواجدوا فى شمال إيطاليا لكى نصد أى هجوم يأتى من يوغوسلافيا..

فى ضعف قال (موسولينى):

- « لكن زوج ابنتى (تشيانو) هو أحد هؤلاء الخونة الذين سجنونى.. »

قال الفوهرر على الفور:

- « هذا يجعل خيانته أدهى.. لو أنك غفرت له لأفلت الأمر من يدك.. يجب على (موسولينى) أن يضرب المثال فى القسوة وأن يهتز العالم لعودته.. »

وتدخل جوبلز ليضيف كغراب البين، وعلى طريقة (عاوزين نهدى النفوس) الشهيرة:

- « إذن سيعود تشيانو.. هذا الفطر السام سيُسمح له بأن ينمو من جديد وسط الحزب الفاشى.. »

وكان بشكل ما يشعر بأن (موسولينى) تغير.. لم يعد حاقدًا بما يكفى أو دمويًّا بما يكفى.. هذا رجل عجوز منهك يريد أن يتاح له التقاعد والراحة والجلوس فى الشمس..

يجب أن يكون الطاغية حقودًا.. يجب ألا يربطه رابط بشىء أو أحد.. هكذا هو (هتلر).. هكذا هو عدوهم (ستالين)..

قال جوبلز همسًا لرئيسه الفوهرر:

- « إنه إيطالى.. مهما فعل لن يستطيع الخلاص من هذا التراث المشين! »

كان موسولينى مذعورًا..

لقد بدا واضحًا أنه فى قبضة الألمان ولا مفر له ولا تراجع.. إنهم يملون عليه ما يجب عمله.. بل هم يقولون صراحة: إنهم سيحتلون شمال بلاده..

(هتلر) يواصل الإملاء:

- « يجب أن تحصل ألمانيا على مقاطعة بزلزانو الإيطالية.. وكذا مقاطعتى تزرنتو و بيلونو.. ربما نحتاج إلى دالماتيا فيما بعد.. لابد من إعادة تنظيم مصانع إيطاليا من أجل الألمان.. يجب نقل المصانع إلى منطقة الألب.. يجب تزويد المصانع الألمانية بعمال إيطاليين.. »

(هتلر) متحمس وقد صار يصرخ تقريبًا..

كان (موسولينى) يصغى عاجزًا عن الرد أو الاحتجاج، وقد شعر بأنه لا حيلة له على الإطلاق.. إنه يتلقى الأوامر، وهو لا يجرؤ على الاعتراض أو قول إنها قاسية.. لقد محيت شخصيته تمامًا أمام شخصية (هتلر)، بينما هذا الأخير يقضم من بلاده قطعة تلو أخرى بدعوى حماية ألمانيا.. لا يوجد شك كبير فى شخصية حاكم إيطاليا الحقيقى الآن..

وحينما انتهى الاجتماع الذى كان أسوأ اجتماع فى حياته، كانت لدية قائمة من الأعمال يجب القيام بها..

على الباب قابل (عبير) التى كانت شبه ملازمة له، والتى وعدها هتلر بعدة أوسمة رفيعة..

قال لها وهو يمسك بيدها:

- « سوف أعود إلى إيطاليا.. »

أحست فى لمسته بحنان أكثر من اللازم، والحقيقة أنها كانت قد بدأت تميل له من دافع الشفقة باعتباره عجوزًا محطمًا تعسًا..

قالت له بلهجة رسمية وهى تتنزع يدها:

- « رعاك الله يا الدوتشى.. هل ستطير بعض الرقاب هناك؟ »

نظر لها فى عجز وقال:

- « الكثير منها.. لا أريد أن أفعل ذلك، لكن بلادى قد صارت محتلة تقريبًا ولو تقاعست لصار الاحتلال الجزئى كليًا.. »

كانت تفهم أزمته، وقد أشفقت عليه لكن عملها كان يقضى أن تكون بلا عواطف، لذا قالت له:

- « نفذ كلام الفوهرر.. إنه الحكمة مقطرة.. »

قال لها وهو يمسك بيدها من جديد:

- « نسيت أن أشكرك على شجاعتك.. فى الغد عندما تأتين إلى إيطاليا يجب أن تكونى ضيفتى.. »

قالت فى سرها:

- « قال العنكبوت للذبابة: لماذا لا تأتين لبيتى لتناول العشاء؟... »

هذا رجل لم يترك امرأة تمر فى حياته دون أن يتحرش بها أو يقيم معها علاقة، وعلاقاته مليئة بالعنف والهمجية والضرب والصفعات.. امرأتان تحملتاه حتى النهاية هما (راشيل) زوجته و(كلارا) حبيبته.. وإن اعترفت لنفسها بأن شكله الحالى وقوتها الجسدية يوحيان بأنه هو الذبابة وهى العنكبوت..

قارنت بين منظره الذابل وعينيه الميتتين وبين الفوهرر الملىء بالحيوية والقوة، وحمدت الله على أنها ألمانية.. فى هذه القصة طبعًا..

أدت له التحية العسكرية وتمنت له التوفيق..

ولم تعرف أنها لن تراه أبدًا بعد اليوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا أعلن موسولينى قيام الجمهورية، وعين أعضاء حكومته الجديدة..

كان مقر الحكومة الجديدة فى بلدة جرجنانو على ضفاف بحيرة جاردا.. وكان حراسه كلهم من الألمان.. الألمان باردى العواطف المتحفزين للقتل لو رأوا عصفورًا يتحرك فى الحديقة، حتى إن ضابطًا منهم كتب لزوجته:

- « لا أستطيع المشى فى الحديقة إلا وأنا أغنى وأصفر وإلا فجر أحدهم رأسى باعتبارى دخيلًا.. »

كل مكالماته يراقبها الألمان.. كل خطاباته يفتحها الألمان..

إن الخيط الواهى بين من يحرسك ومن يسجنك يمكن أن يزول أحيانًا.. وفى هذه الحالة بالذات لم يعد له وجود..

ومضى قدمًا إلى الاستيلاء على الحكم وإلى تشكيل محكمة مهمتها محاسبة الذين عزلوه.. كانت تعليماته لرئيس المحكمة هى:

- « أن يستلهم العدالة فى حكمه، وأن يستلهمها من المصلحة العليا للدولة، بحيث لا يكترث الحكم لأى إنسان مهما يكن! »

« بحيث لا يكترث الحكم لأى إنسان مهما يكن ».. هذه العبارة واضحة جدًّا ولا تحتاج إلى أى تفسير، وقد فهم رئيس المحكمة الرسالة بوضوح: عليك أن تعدم زوج ابنتى الذى تآمر علىَّ..

هنا جاءته ابنته (إيدا) وارتمت عند قدميه مثلما يحدث فى أفلام (يوسف بك وهبى):

- « أرجوك أن تنقذ زوجى من الموت! »

هنا ككل ديكتاتور فى التاريخ يلعب موسولينى لعبة (الأمر متروك لعدالة المحكمة.. وأنا لا أتدخل فى أحكام القضاء).. كأنه غير قادر على أن يلغى القضاء ذاته فى إيطاليا لو أراد..

- « لو غفرت أنا لزوجك فإيطاليا لن تغفر له خيانته وتآمره مع الإنجليز.. »

كان قد غدا صارمًا له وجه قُدَّ من صخر، ويبدو أن هذه الصلابة رد فعل دفاعى لما شعر به من ضعف أمام هتلر.. هذا يشبه الرجل الخنوع المطحون الذى لا يجد طريقة سوى أن يصير متوحشًا مع أبنائه.. يبدو أن هذا هو التفسير الوحيد لهذا الإصرار..

على كل حال هرعت ابنته لتقابل الفوهرر مصدر القوة الحقيقى لتبكى عند قدميه وتتوسل له أن يرحم أب عيالها، لكن الفوهرر قال الكلمة المعهودة (هذا شأن إيطالى داخلى وليس من حقى أن أتدخل)..

هكذا جنت الفتاة تقريبًا ودخلت مصحة عقلية..وحينما خرجت فرت إلى سويسرا حيث راحت يائسة تحاول التفاوض مع الجشتابو على حياة زوجها مقابل المذكرات السرية التى كتبها. طبعًا كان رأى (هملر) السفاح أن هذا كلام فارغ.. وقال ما معناه (يمكنها أن تبل هذه المذكرات وتشرب ماءها)..

بينما موسولينى لا يكف عن ترديد:

- « هكذا كان الحكام الرومان أجدادنا.. لم يكونوا يترددون لحظة فى التضحية بزوجاتهم وأبنائهم.. »

حوكم ستة من المتهمين بينما فر 13 متهمًا خارج إيطاليا..

ومن الطريف أن كل واحد من هؤلاء تلقى ليلة المحاكمة هدية من الدوتشى هى تابوت خشبى صغير!

كانت محاكمة مذهلة انتهت بالحكم على الجميع بالإعدام رميًا بالرصاص فى مؤخرة الرأس، وهى طريقة إعدام الخونة فى إيطاليا..

كان موت تشيانو جديرًا ببطل، حينما أجلسوه على مقعد خشبى من مقاعد المدارس فى صف مع رفاقه على حين وقف جندى نازى مفترس خلف كل واحد منهم.. فى لحظة الإطلاق تحرر تشيانو من قيوده ووثب مواجهًا جلاديه، وهو يبتسم ابتسامة واثقة فى وجه عدسة المصور الألمانى الذى كان يلتقط صور التنفيذ.. وهى صورة ما زالت شهيرة جدًّا حتى اليوم ويعرفها كل إيطالى.. ..

عندها اضطروا إلى إطلاق الرصاص عليه من الأمام...

سمع (موسوليني) الخبر فراق له كثيرًا أن هؤلاء القوم ماتوا في شجاعة كفاشيين نبلاء، وخاصة ما فعله زوج ابنته.. لقد أحسن الاختيار لابنته فعلًا ولم ينخدع في نبل الفتى وجسارته!.. ثم قال:

- « لقد بدأنا دحرجة الرءوس.. فعلينا أن نمضي في هذا حتى النهاية! »

غير أن زوجته رأته يبكي بحرقة وهو يركض إلى مكتبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فلننس الدوتشى الآن بعض الوقت بضخامته وصلعته ورائحته وقرحة معدته ومشاكله مع ابنته والحزب الفاشى، ونعود إلى عبير...

عبير التى صارت فعلًا أهم شخص فى الرايخ.. بالواقع أهم شخص فى أوروبا ذاتها..

صحيح أن الخطة وضعها الجنرال (شتودنت) لكن الأمر يشبه مخرج الفيلم الذى لا يعرف أحد اسمه، بينما تصرخ الفتيات عندما يرين الممثل ويقذفنه بالورود..

كان نجاحها عظيمًا.. وقد صارت أكثر الوقت قرب الفوهرر..

وهنا فهمت حقيقة غريبة هى أن بعض الرجال يكون لهم طابع أنثوى لا شك فيه.. هل لديك تفسير لهذا الحقد وهذه الغيرة التى يعاملها بها (هملر) و(جورنج)؟

(هملر) كان يكره (موسولينى) لنفس السبب؛ لأنه يغار منه على الفوهرر.. الآن جاء دورها..

لكنها قررت أن تجرب حظها..

هكذا دخلت إلى (هملر) الذى كان جالسًا إلى مكتبه يوقع بعض الأوراق.. هذا الرجل لا يوقع إلا أوامر الإعدام ويعتبر هذا عملًا شاقًّا يستحق أجرًا..

أدت التحية العسكرية فنظر لها فى برود وقال:

- « هل من جديد؟ »

قالت فى كياسة:

- « أبى.. »

- « وماذا عنه؟ »

- « لقد اختفى يا هر (هملر).. اختفى منذ أشهر طويلة وأعتقد أن هناك كاذبًا قد وشى به.. »

تفقد (هملر) بعض أوراقه ثم عقد كفيه تحت ذقنه، وقال لها:

- « نحن نعرف كل شىء.. الفوهرر يعرف كل شىء.. أبوك شيوعى مناهض للنازى وقد اشتبك فى صراع مع رجال الصاعقة.. »

- « أبى شيوعى؟.. أبى لم يقرأ كتابًا فى حياته باستثناء (كفاحى) للفوهرر.. هل سمعت عن شيوعى مسن وعضو ناشط فى الحزب النازى؟ وكيف يشتبك فى صراع مع الصاعقة وهو فى هذه السن؟ »

نظارته المستديرة تلمع فى الضوء فتشعر بأنه يضع مرآتين، لا نظارة.. هذا يعطيه طابعًا غير آدمى كأنه آلة تقتل بلا رحمة..

قال لها:

- « تقاريرنا لا شك فيها.. العشب الضار يجب أن يجتث ويحرق.. »

ثم أردف فى استمتاع:

- « يروق لى أن أرى مقدار إخلاصك للفوهرر من موقف بسيط كهذا.. الفوهرر يضعك فى مكانة عظيمة ونموذج للفتاة الآرية، لكنك تخذلينه بالتمسك بأشياء تافهة مثل الأب.. إن هذا الاختبار يخبرنا بالكثير عنك.. »

ثم مد يده فى الدرج وأخرج بعض الصور الفوتوغرافية..

ناولها ل (عبير) دون كلمة وقال باسمًا:

- « لم أرد أن أطلعك على هذه الصور قبل عملية (البلوط).. لكنها تمت ويمكنك الآن أن تعرفى أين أبوك.. هذا هو ما يحدث للخونة فى ألمانيا الهتلرية.. »

نظرت للصور وابتلعت ريقها..

هؤلاء القوم وحوش حقًّا..

عندما تكلم (هملر) عن اجتثاث الأعشاب الضارة وحرقها كان دقيقًا جدًّا...

ترى ماذا فعل أبوها فى اللحظات الأخيرة؟.. هل تذكرها؟.. هل ظل محتفظًا بإيمانه بالفوهرر؟.. هل هتف من أجل الرايخ؟...

وضعت الصور من جديد أمام (هملر) وحاولت أن يبدو وجهها متماسكًا..

هذه المرة هى تعرف ما يجب عمله.. سوف تقتله..

لو كان معها مسدسها لفعلت ذلك هنا والآن، لكن لا أحد يقابل هملر وهو يحتفظ بسلاحه.. إنه حذر كالذئاب..

عيناه لا تفارقان وجهها برغم أنها لا تراهما.. يريد أن يلمح بادرة غضب أو ضعف.. هو أحمق.. حتى هتلر نفسه لن يتحمل رؤية صور كهذه بصدد أبيه.. لابد أن تنقلب على النازية كلها، ولعل هذا هو ما أراده فعلًا..

لكنها لم تعطه ما يريد..

سوف تقتله.. ولسوف تستمتع بذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما خرجت من الغرفة وصارت وحدها فى قاعة الانتظار فى مقر الجشتابو؛ حيث يرتسم صليب (سواستيكا) المعقوف على جدار كامل، دست مسدسها فى عنق الحذاء الطويل الذى تلبسه.. سوف تتظاهر بأنها تريد أن تعترف ل (هملر) بشىء.. سوف تطلب مقابلته وسوف يعتقد الحراس أنها غير مسلحة. فى هذا العصر قبل استخدام الجهاز الكاشف عن المعادن كانت الاغتيالات سهلة.. عندما تدخل عليه سوف تخرج المسدس وتفجر رأسه...

عندما رفعت رأسها وجدت أنها تحدق فى فوهة مسدس..!

لقد انكشف أمرى إذن..

رفعت مجال الرؤية أكثر فوجدت أنها تحدق فى عينى ذلك البطل الوسيم الذى شرب عصير الكرنب.. (أوتو سكورتسينى)..

كان ينظر لها فى كراهية وفكه يهتز.. ثم من بين أسنانه قال:

- « ماذا يمنعنى من قتلك؟.. لقد ضبطتك تحاولين إخفاء سلاح تتسللين به لمقابلة هملر.. »

قالت محاولة أن تتماسك:

- « ربما يمنعك أن أحدًا لن يصدقك.. إن وضعى فى الرايخ يفوق الوصف.. سيقولون إنك قتلتنى بسبب الغيرة المهنية.. »

قال لها فى غل:

- « أنا انتزع منى كل شيء.. كنت سأفعل كل هذا الذى قمت به.. كنت سأنقذ الدوتشى وأنال ثناء الفوهرر.. كل هذا ضاع منى بسبب عصير كرنب!!.. »

ثم وضع المسدس جانبًا وجلس وقال:

- « لو كنت قد نجحت فى هذه العملية لكلفنى الفوهرر بعملية أخرى هى (روسلشبرونج).. هدفها اختطاف قائد المقاومة اليوغوسلافية (تيتو) من مقر قيادته.. كان هذا سيمنحنى اللقب الذى استحققته وهو (أخطر رجل فى أوروبا).. عندما تقع المؤامرة على حياة الفوهرر فى يوليو 194 كنت سأتولى الحفاظ على حياة هتلر وأسيطر على الجيش الألمانى بالكامل ثلاثة أيام إلى أن تستقر الأمور.. »

كانت عبير تعرف طريقة فانتازيا المميزة.. هذا رجل يتحدث عن أحداث فى حياته كانت ستقع بعد عام!...

قالت له:

- « سجل مشرف جدًّا.. »

واصل الكلام وهو يبدو منهارًا:

- « كنت سأقوم بعملية خارقة أخرى اسمها (بانتزر فاوشت) عام 1944.. سوف يحاول ولى عهد المجر (ميكلوس هورتى) أن يتفاوض مع الحلفاء ضدنا.. لذا سوف يرسلنى هتلر إلى المجر فى عملية سرية لأخطف ابن ولى العهد، وأرغم ولى العهد عن التنازل لتحكم البلاد حكومة نازية مقابل حياة ابنه.. »

- « أنا حرمتك من هذا المجد كله؟ »

- « وفى العام 1945 كنت سأقود عملية (جريف) التى تتلخص فى تجنيد 24 جنديًا ألمانيًا يلبسون كالأمريكيين ويقودون سيارات جيب أمريكية، ونخترق الخطوط الأمريكية حيث نحدث ارتباكًا وفوضى فى صفوف الأمريكان.. بل إننى كنت سأخطط لخطف الجنرال الأمريكى (أيزنهاور)... أنا كنت فى طريقى لأن أصير مصدر رعب الحلفاء..

» وحتى بعد سقوط ألمانيا كنت سأدرب (فيلق المذءوبين) الذى يحارب الحلفاء حرب

عصابات.. وكنت سأدير (شبكة الفئران) وهى ممرات تحت الأرض يهرب منها قادة النازى إلى أمريكا اللاتينية.. كان الحلفاء سيقبضون على ويحاكموننى لكنى كنت سأتمكن من الفرار عام 1948.. كنت سأهرب إلى اسبانيا تحت حماية الجنرال فرانكو.. »

« فى الستينات كنت سأفر إلى مصر وأعمل مع الرئيس المصرى (جمال عبد الناصر) كمستشار.. ولسوف يزعم الموساد أننى عميل مزدوج، لكن هذا غير حقيقى فأنا لا أطيق اليهود.. »

كانت تصغى فى ذهول..

إن حياة هذا الرجل تستحق أكثر من فيلم سينمائى إذن.. لم تلق قط شخصًا أقرب إلى (جيمس بوند) منه.. والحقيقة أنه نازى لكنه نازى شجاع شريف ولا أحد ينكر هذا...

قالت له فى حيرة:

- « وحرمت من كل هذا بسبب جرعة من عصير الكرنب؟ »

قال وهو موشك على البكاء:

- « نعم.. هل فهمت لماذا أرغب فى قتلك؟ »

ثم أضاف وهو ينهض:

- « على فكرة.. محاولة قتل هملر عمل أحمق.. سوف يمزقونك قبل أن تمدى يدك للمسدس.. أقترح أن ترحلى الآن وتنسى أباك!!.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى هذا الوقت كانت الأمور تسوء فى إيطاليا..

اشتعلت الحرب الأهلية ودار القتال فى الطرقات بين الفاشيين والذين رأوا أن الفاشية جلبت الخراب..

هكذا ضاقت الأمور على الدكتاتور وقرر الفرار وإن أصر حراسه النازيون على أن يكونوا معه حيثما ذهب..

الملازم بيرزير وقف أمام سيارة الدوتشى وقال:

- « لن تذهب إلى مكان يا الدوتشى من دونى.. هذه أوامر الفوهرر.. »

قال موسولينى فى غيظ:

- « دعنى وشأنى.. »

- « لن تذهب لأى مكان من دونى يا الدوتشى.. »

كان يقف كالصخر وبدا أنه من المستحيل إبعاده من دون أن تدهمه السيارة، وهرع النازيون يخرجون مسدساتهم، عندها قرر الإيطاليون أن الأمر لا يستحق العناء وقبلوا أن يصحبوهم..

وتحرك موكب السيارات ومن بينها سيارة موسولينى الألفاروميو...

تبعهم بيرزير وهو يخشى أن يباغته الدوتشى ويفر منه وسط طريق الجبال الوعر هذا.. لكنه استنتج على كل حال أن موسولينى يحاول الفرار مع وزرائه وحبيبته (كلارا) إلى سويسرا..

المشكلة هى أن رجال المقاومة الثائرون ضده ينتشرون فى هذه الجبال..

وكانت الطامة الكبرى عندما قابلت القافلة شجرة عملاقة على الطريق، وكان هذا كمينًا من رجال المقاومة...

انطلق الرصاص من كل صوب فرد النازيون بشراسة، وهكذا تم الاتفاق على أن يسمح الثوار بمرور النازيين لكنهم لن يسمحوا بمرور أى إيطالى فاشى..

هكذا وجد موسولينى نفسه وقد تنكر فى ثياب ضابط نازى. وبدأ الثوار تفتيش السيارات..

ثمة مشهد غريب رأوه فى السيارة الأخيرة هو جندى ألمانى يجلس القرفصاء جوار صفيحتى بترول ويتظاهر بأنه نائم... قال الألمان:

- « هذا زميل سكير.. »

لكن الثائر الذى وجده عرف على الفور من هو...

قال له:

- « هل أنت إيطالى؟ »

بعينين محمرتين مرهقتين ووجه شاحب وذقن نامية، وبصوت لا يمت لعالم الأحياء بصلة، قال موسولينى:

- « نعم.. »

هنا هتف الثائر من الرهبة وقد نسى نفسه:

- « يا صاحب الفخامة!!.. »

وعندما نزل موسولينى من السيارة ونزع الخوذة هلل القوم حماسة..

اقتادوه إلى بيت العمدة وانهالوا عليه بالأسئلة وجاء الجميع ليرى المشهد..

- « لماذا قتلت تشيانو؟ »

- « لماذا خلعت الملك؟ »

- « لِمَ خنت الاشتراكية؟ »

- « هل الخطاب الذى ألقيته بعد نجاتك من الأسر خطابك أم أملاه عليك هتلر؟ »

قضى ليلته الأخيرة فى منزل آل (ماريا)، وقد سهر مع الثوار الشيوعيين ليلة كاملة حول النار يصطلى ويثرثر عن ذكريات شبابه وعن الحرب وعن إعجابه الشديد بستالين.. وأهداهم ساعته لتذكرهم به..

لقد انتهت الحرب بالنسبة له، وبدت فكرة الموت مريحة جدًّا..

وفى الصباح اقتيد إلى قرية (جيلينو دى متسيجرا)؛ حيث تم إطلاق النار عليه هو وحبيبته التى أصرت على أن تموت معه..

إنه 29 إبريل عام 1945.. جثة موسولينى وكلارا تعلق من خطاطيف لحم فى ميدان لوريتو كى يراهما الجميع. ثم علقوا جثث الخمسة عشر وزيرًا واحدًا تلو الآخر بينما الناس يهتفون باسم الجثة إذا تعرفوها.. وراح الإيطاليون يتسلون على الجثث.. بركلها وسحقها والبصق عليها..

حتى بعد الموت لم ينعم موسولينى بالراحة، لأن جثته سرقت مرارًا ثم أعيدت إلى بريدابيو، حيث يرقد حتى اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عبير واقفة فى مقر الصاعقة تطالع هذه الأخبار فى الصحف عندما سمعت من يتحرك خلفها..

- « مرشد؟.. أهذا أنت؟ »

قال المرشد وهو يتثاءب:

- « نعم.. جئت لأمنعك من قتل هملر.. هذه مغامرة مخبولة كما قال (سكورتسينى).. »

- « والانتقام؟ »

- « لم يعد هناك ما يضاف بعدما بدأت نهاية الرايخ.. ليست هناك نهاية أسوأ من التعليق على خطاف لحم أو الانتحار.. أما هملر فسوف يحاول التفاوض مع الحلفاء لكنه سيعتقل ولسوف ينتحر كأى رجل مخابرات يحترم نفسه بابتلاع كبسولة سيانيد.. »

قالت فى ضيق:

- « حياة موسولينى خليط عجيب من القسوة واللين.. أحيانًا تتمنى أن يحترق حيًّا وأحيانًا تشفق عليه.. »

قال باسمًا:

- « بل هى خليط من جنون العظمة واليأس المطبق.. هذا هو تاريخ مرض زهرى الجهاز العصبى باختصار شديد.. على كل حال إن كنت تشفقين عليه فلتشفقى أولًا على الليبيين الذين ألقاهم جراتسيانى من الطائرات بأوامر مباشرة منه! »

كانا يتجهان نحو باب مقر الصاعقة وسط الجنود المدججين بالسلاح وشعارات النازية..

قال لها وهما يركبان قطار فانتازيا:

- « الآن موعدنا مع مغامرة أخرى.. فلنترك الدوتشى! »

- « نعم.. فلنترك الدوتشى! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى المغامرة القادمة تصير عبير قطعة من لعبة الشطرنج.. فى مواجهة محمومة مع شطرنج حى مرعب بحق.. ولسوف تعرف الكثير عن جامبيت الوزير وافتتاحية الروى لوبيز و... و..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

[←1]

) اختصار لكلمة Schutzstaffel ومعناها (تشكيل الدفاع).

[←2]

« Laguerra Continua Flanco dell'alleato germanico »

[←3]

لو كنت مهتمًا بمعرفة المزيد عن هذه الحيل، راجع كتاب (خفايا نظام النجم الأمريكى) لبول وارن من ترجمة حليم طوسون. سلسلة الألف كتاب الثانى رقم 184. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1995

روايات مصرية للجيب

52

د. أحمد خالد توفيق

فانتازيا

ب4م



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (52)

ب 4 م

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لا بد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البدهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس؛ لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- فقط جربى..

فى كل مرة تكتشف عبير كم أنها قد عرفت الكثير من خالها..

الطفلة المذعورة التى تخشى العالم، والغارقة فى الأحلام الرافضة للواقع بشراسة، كانت بحاجة إلى صديق مخلص.. أخوها لم يكن مناسبًا ولعله كان يمثل فى حياتها العدو الدائم archenemy كأنه (لوثر) فى قصص سوبرمان أو (هيرا) فى الأساطير الإغريقية.. أختها كذلك لم تفهمها قط.

عمها كان لا يختلف كثيرًا، فهو رجل صارم أشيب على وجهه علامات المعاناة.. غاضب دائمًا مريض دائمًا.. يلبس قميصًا أبيض واسعًا ينقصه زرّان، ولا يتكلم إلا عن اللجنة النقابية والظلم الذى وقع عليه، ويكتب عرائض شكوى يكرر فيها (أسوة بزملائى) ألف مرة..

كانت علاقتها به أنه يطلب أن تحضر له كوب ماء أو تطلب الشاى من (الحاجة) أو يرسلها بمأمورية ما لدى الحاج (عبد الظاهر عفيفى) وبيته فى أول الحارة..

هنا يظهر خالها.. خالها المرح خفيف الظل ذو الاهتمامات المتعددة، والذى لا يبالى بأمور الكبار الجدية حتى اشتهر بأنه (خفيف)، لكنه كان يملك كل ما من شأنه أن يجعل حياتها أجمل.

لسبب ما كان يجدها ظريفة ملائمة لصداقته، ولهذا كان كل ما تعرفه عن السينما أو المولد أو المسرح.. لأنه كان يصحبها فى كل مكان. وكانت سنه صغيرة نوعًا مما جعله فعلًا أقرب الناس لها. عندما كانت تصغى لذكريات الأخرين كانت تجد أن الخال يلعب هذا الدور فى حياة أغلب الناس.. الخال ليس والدًا كما تقول أمها، لكنه أقرب لصديق عزيز خاصة إذا كان شابًّا..

تتذكر هذا الآن وهى تنظر إلى رقعة الشطرنج على شاشة الكمبيوتر..

هناك زر يتيح لها أن ترى الرقعة ثلاثية أو ثنائية الأبعاد. بضغطة زر يمكنها أن تغير شكل الحجارة أو تغير لون الرقعة، أو تجعل الجهاز يلعب مع نفسه..

لكن هذا يختلف بالتأكيد وأقل إمتاعًا من الشطرنج القديم الذى كان فى بيتها، والذى ضاع منه الوزير الأبيض فوضع خالها زجاجة صمغ فارغة بدلًا منه.. هناك جندى أسود مفقود لذا وضعوا بدلًا منه غطاء السبرتاية..

قطع قديمة متآكلة.. رقعة بالية.. لكن المتعة كلها كانت تنبعث من هذا الشىء.. متعة وإثارة لا يمكن أن تحققهما تلك الشاشة الباردة..

كان خالها قد علمها الشطرنج..

لم يكن لاعبًا عبقريًّا لكنه كان يكسب دومًا، وهى صارت مثله قادرة على أن تربح.. لكنها لم تعرف قط هذه الأشياء الغامضة المسماة بالخطط وكل هذا الهراء.. هى لعبة وكفى..

لقد مرت أعوام منذ لعبت الشطرنج آخر مرة. شريف كان يلعب تلك اللعبة لكن مع جهاز الكمبيوتر ويبدو أنه كان يربح دائمًا..

(كاسباروف) بطل العالم الروسى لعب مع الكمبيوتر عام 1997 وخسر.. هكذا عرف العالم أن الكمبيوتر صار قادرًا على هزيمة أبطال العالم..

هى الآن تجد اللعبة على جهاز الكمبيوتر الذى أهداه لها (شريف)، فراحت تتسلى بنقل القطع، وقد راق لها أنها ما زالت تتذكر..

أحجار على رقعة الشطرنج.. هذا التعبير الشائع والذى يدل غالبًا على المنظمات اليهودية أو المخابرات المركزية التى تتحكم فى العالم.. كلنا أحجار على رقعة الشطرنج حتى إشعار آخر، وهى صورة تروق كثيرًا لهواة نظرية المؤامرة..

قرأت قصة (لاعب الشطرنج) لـ (زفايج) فى المدرسة، وقد انبهرت بعبقرية المؤلف وبطل القصة.. الرجل الذى سجنه النازيون فى زنزانة منفردة كاد أن يجن فيها، لولا أن وقعت يده على كتاب صغير ممل عن لعبة الشطرنج.. درسه وحفظ كل سطر فيه ولعب لعبة الشطرنج آلاف المرات فى زنزانته بقطع صنعها من لباب الخبز على بطانية ذات مربعات. وفى النهاية بلغ مرتبة تسمح له بأن يلعب أطول الأدوار فى ذهنه وأن يهزم عدة أشخاص فى الوقت ذاته Simultaneous chess بل أن يحرج بطل العالم ذاته.. لكنه دفع الثمن من سلامته العقلية....

قرأت كذلك أليس (عبر المرآة) وكيف وجدت الفتاة نفسها داخل اللعبة..

الشطرنج بالفعل لعبة ذات جذور راسخة فى الوجدان الجمعى لنا، منذ كان الفرس يلعبونها باسم (شاترونجا) التى تعنى (أربعة أقسام الجيش) حتى أخذها العرب وأطلقوا عليها (شطرنج)، إلى أن بلغت العالم الغربى واكتسبت قواعدها التى نعرفها، وفى كل اللغات الغربية تقريبًا صار اسمها تنويعًا على كلمة (شاه):

Seacchi - Schach - Checs ñ Checs

هكذا ظلت (عبير) تنقل القطع على الشاشة بعض الوقت، بلا هدف ودون أن تركز فيما تفعل..

شاعرة بالملل نهضت وجلبت الأقطاب إياها التى توضع على الرأس.. لقد بليت الأسلاك تمامًا وتم لحامها بالشريط اللاصق فى عدة مواضع..

نحو الخمسين رحلة ليست بالعدد الهين. من الجميل أن الجهاز صار جديدًا.. لكنها قلقة من أن يحدث شىء لهذه الأقطاب برغم أنها تعنى بها وتضعها فى كيس بلاستيكى فى الخزانة، لكن هذا يجعلها تتلوى وتتثنى.. الحل الأمثل هو تعليقها لكن كيف تضمن سلامتها لو فعلت؟

ليس الوقت وقت القلق على كل حال.. فلتؤجله بعض الوقت..

أغمضت عينيها وأخذت شهيقًا عميقًا، ثم ضغطت على الأيقونة الخاصة بالبرنامج.. لقد مر زمن طويل منذ كانت تتعامل مع بيئة (الدوس).. اليوم هى فى عالم النوافذ الملون البراق..

ترى إلى أين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- «إلى عالم الشطرنج طبعًا..»

قالها المرشد وهو ينظر فى ورقة تعليمات فى يده..

قالت (عبير) محتجة:

- «حسبت لى الخيار..»

- «هو لك.. لكننا هنا نلعب فى مملكة اللاوعى.. آخر ذكريات لك كانت مع الشطرنج قبل أن تنامى.. من ثم كان من الطبيعى أن تفكرى فى الشطرنج.. مثلما يقرأ المرء قصة مخيفة قبل النوم فيظل يجرى من الغيلان طيلة الليل..»

- «لكن ماذا يمكن أن أجده فى الشطرنج؟»

- «كل شىء تقريبًا.. التوتر.. الإثارة. التخاطر بالقوى العقلية.. الملل.. الحياة كلها تتجسد فى هذه الرقعة..»

- «ولو لم أحب ما أقابله؟»

- «عندها لن يكون هذا آخر اختيار خاطئ فى حياتك.. إن اختياراتنا المصيرية الخاطئة لا تتوقف.. ربما من لحظة أن ينجح ذلك الحيوان المنوى فى أن يصل لتلك البويضة.. حتى لحظة أن تقنعى نفسك بأن الألم فى صدرك ناجم عن سوء هضم.. لا داعى لاستدعاء الدكتور (إبراهيم) يا أولاد.. بينما الألم فى الحقيقة جزء يموت من عضلة قلبك..»

فكرت حينًا، ثم قالت:

- «هل أصير قطعة شطرنج؟»

- «ليس بالضبط... فقط جربى ولنر ما سيحدث..»

هكذا قررت أن تدخل عالم الشطرنج، وكان دخولها فريدًا من نوعه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- مشروع عملاق..

فى كل العالم تستعمل لعبة الشطرنج ذات القطع، لكن أسماءها تختلف.. إن الملك موجود دائمًا.. الوزير عندنا هو الملكة Queen عندهم.. الطابية عندنا هى الرخ Rook عندهم.. الفيل عندنا هو الأسقف Bishop عندهم.. الحصان عندنا هو الفارس Knightعندهم.. العسكرى عندنا هو البيدق Pawn عندهم.. الأخير رمز لمن تتم التضحية به بسهولة ولا يسبب غيابه خسارة..

لا تنس أن هناك قطعة أضافها العبقرى (الخليل بن أحمد) هى الجمل، وكان يرى أنه ينقص اللعبة، لكن لم يكتب لها الانتشار وماتت معه..

تخيل أن الرقعة مقسمة أبجديًا إلى a وb و c.. إلخ... تخيل أنها مقسمة إلى 1 و2 و3.. هكذا يمكن تحديد موضع كل قطعة بدقة كأنها خانات برنامج Excel..

هناك طريقة أخرى هى أن تصف موضع البيدق فتقول: بيدق الوزير.. بيدق الملك.. بيدق حصان الملك.. الخ...

لهذا نجد أن عبارة (ب 4 م) معناها أن يتقدم العسكرى الذى يقف أمام الملك خطوتين للأمام ليقف فى الصف الرابع من ناحيته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مركز الأبحاث النفسية التابع لوحدة (نمرو) الأمريكية يقع فى شارع هادئ متواضع الحال، لا يوحى البتة بأنه مكان يمارس فيه علم، أو إنه على أية درجة من الأهمية الأمنية..

فكرت فى هذا وهى تقدم بطاقتها لرجل الأمن المصرى على الباب..

نظر للبطاقة ثم ضغط على أزرار جهاز كمبيوتر..

نظرت إلى البطاقة النحاسية المعلقة على صدره وابتسمت..

سوف تحتاج إلى زمن طويل حتى تقابل رجل أمن لا يدعى (بسيونى). لكنه لم يبتسم.. راح يراجع البيانات ثم سألها:

- «سعادتك د. (داليا عثمان)؟..»

- «نعم..»

لم تكن تعرف هذا لكن ما دام قاله فهو حقيقى..

- «دكتوراه فى الشطرنج من الاتحاد السوفييتى السابق وبطلة مصر فى اللعبة لمدة ثلاثة أعوام؟»

هزت رأسها مبتسمة.. وقالت:

- «كان هذا فى الثمانينات.. أنا قد كبرت الآن..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحقيقة أن السوفييت من أكثر الشعوب اهتمامًا بهذه اللعبة، ولينين كان لاعب شطرنج بارعًا، فحرص على إدخال هذه اللعبة ضمن برامج التربية. يضم اتحاد اللعبة خمسة ملايين فى روسيا بينما عدد اللاعبين فى الولايات المتحدة لا يتجاوز خمسين ألفًا..

لهذا يعد بطل العالم السوفييتى إعدادًا نفسيًّا خاصًّا على يد خبراء، بلغ الذروة عندما لعب اللاعب كاربوف أمام خصمه كورتشنوى عام 1981. كورتشنوى روسى هرب من الاتحاد السوفييتى عام 1974.. بهذا وجه ضربة ساحقة لهذه الرياضة لأنه أستاذ للعبة، وقد صار من الآن فى معسكر الأعداء!

تعرض كورتشنوى لمشاكل كثيرة منذ ترك الاتحاد السوفييتى. مثلًا فى إحدى البطولات جلس فى الصف الأول البروفسور السوفييتى (زوخار) الذى اشتهر بامتلاكه لقدرات تخاطرية عالية. كان ينظر فى ثبات للبطل السوفييتى.. هذا أثار هلع كورتشنوى.. وسواء كان زوخار يملك هذه القدرات أم لا، فإنه أربك البطل السوفييتي المنشق. مما دفعه إلى أن يطلب وضع حاجز شفاف يقية الموجات المغناطيسية فى كل مبارياته..

المشكلة هى أن كورتشنوى كان يعرف كل أساليب السوفييت وتلقى كل دروسهم النفسية. هذا يجعل هزيمته عسيرة على أى سوفييتى آخر. وقد بدأ المباراة مع كاربوف بتحد غريب، فرفض منذ البداية أن يقف أثناء السلام الوطنى للاتحاد السوفييتى مما أكسب المباراة جوًّا عدائيًّا شرسًا. لكن كاربوف استطاع أن يهزمه ست مرات مقابل مرتين..

هكذا عاد كاربوف إلى وطنه ليتلقى وسام لينين بينما خسر كورتشنوى اللقب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونظرت (عبير) لانعكاس صورتها فى زجاج النافذة التى يجلس خلفها بسيونى، امرأة عملية جدًّا ترتدى تايورًا أنيقًا وعلى رأسها بونيه فاخر يجمع بين الحجاب والأرستقراطية، لكن خصلة شعر أفلتت من تحته فأدركت أنها شائبة..

إنها فى الأربعين على أقل تقدير..

حتى صوتها صار متحشرجًا نوعًا فيه بحة تشى بأنها كانت من المدخنين فيما سبق..

- «موعد مع الدكتور (جيمس فلاهرتى)؟»

- «نعم.. بقيت ثلاث دقائق..»

هز الحارس رأسه وأشار لها إلى الداخل وهو يرفع سماعة الهاتف..

- «أول ممر على اليسار... المصعد.. ثم الطابق الرابع.. أنا سأبلغه بقدومك..»

هكذا دخلت إلى المكان.. وأدركت على الفور مدى الفخامة والبذخ.. بالفعل لا يمكن أن تتنبأ بالمكان من مظهره الخارجى.. نادرة هى الأماكن الي تكون من الداخل أكثر فخامة من الخارج، فالناس تعشق المظاهر.. نفس نظرية البذلة الأنيقة التى تحتها قميص بلا أزرار وفانلة داخلية ممزقة..

هنا القميص الذى بلا أزرار موجود فى الخارج هنا..

المصعد.. لا يوجد عامل ولا أحد.. هكذا ضغطت على الزر، وكان الانتقال حاسمًا سريعًا سلسًا..

إنها فى الطابق الرابع ود. (فلاهرتى) يقف على الباب.. لابد إنه هو.. يا للكنة الإيرلندية التى لم تستطع الجنسية الأمريكية أن تقضى عليها!... (فلاهرتى) اسم إيرلندى جدًّا مثلما يشى اسم (هريدى) بأنك صعيدى ويشى اسم (أبو العربى) بأنك من بورسعيد..

رجل قصير القامة له وجه أحمر محتقن وشعر أحمر خفيف.. حتى عينيه بدتا حمراوين.. مهما كان ما يشكو منه صحيًّا فليس فقر الدم من بين أمراضه..

قال وهو يصافحها:

- «دكتورة عثمان.. مرحبًا بك..»

هناك قاعة الاجتماعات تلك المنضدة الطويلة الفاخرة والشاشة المعلقة وأكواب الماء والملفات.. هناك السكرتيرة الحسناء التى تروح وتجىء كالنحلة، وهناك مؤشرات ليزر وأجهزة تسجيل وأجهزة كمبيوتر محمولة..

لكن لم يكن هناك أحد سواهما..

جلس د. (فلاهرتى)، وقال:

- «أنت بالطبع تتساءلين عن سبب استدعائك..»

- «خبيرة شطرنج يتم استدعاؤها لمركز بحوث نفسية تابع للبحرية الأمريكية.. هذه أمور مفهومة جدًّا..»

قال فى استمتاع:

- «وماذا فهمت؟

- «لا شىء..»

ضغط على أزرار جهاز كمبيوتر ونظر إلى الشاشة، فانبعث شعاع من جهاز عرض، وعلى الشاشة ظهرت جزيرة صغيرة وسط الأمواج..

قال لها:

- «هذه هى الجزيرة المختارة.. إنها فى البحر الأحمر قرب رأس بناس..»

- «جميل.. لقد شعرت براحة بالغة.. كنت قلقة كما تعلم»

ابتسم من جديد، وقال بلهجته الأيرلندية اللعينة:

- «سأكون أنا المشرف على المشروع ككل، بينما أنت مسئولة عن مجموعتك.. المسئول الآخر لن تعرفيه ولن تلتقيا أبدًا لأننى أكره أن تتدخل العلاقات الشخصية فى الدراسة.. سيكون عليك جمع المعلومات والملاحظة بينما سيتم تصوير كل شىء لنحلله فيما بعد.. السؤال الذى نحن بصدده محدد وهو: إلى أى مدى يمكن أن يتمادى المرء وهو يعتقد أنه تحت سلطة ما؟.. لو أن

وزيرًا طلب منك أن تقتليني فهل تفعلين؟»

- «أنا أحب طاعة رؤسائى..»

- «جميل.. هذا هو ما نريد معرفته.. إلى أى مدى تستطيع السلطة أن تؤثر فى الناس؟.. هل يمكن أن تحملهم على حب ما لا يطيقون وكره ما يحبون؟.. متى يحدث التمرد؟..»

- «اعتمد على..»

ونهضت متجهة للباب..

ثم عادت وقد تذكرت شيئًا مهمًا فنظرت فى عينه وسألته:

- «قل لى.. أنا لا أعرف حرفًا عن هذا الذى نتكلم عنه. ما رأيك لو حكيت لى كل شىء بوضوح ومن البداية؟!!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3- 32 شابًّا..

عندما هبطت طائرة الهليوكوبتر المصرية فوق تلك الجزيرة والرمال تتناثر فى كل صوب، خطر لعبير أنها رأت هذه الحبكة فى أكثر من فيلم غربى..

فقط لم يكن الشطرنج فى الموضوع، وكان الأفراد موضوع التجربة محكومًا عليهم أو تلاميذ مشاغبين كما فى فيلم (باتل رويال) اليابانى الشنيع..

الفكرة هنا أنك تتعامل مع شباب عاديين تمامًا قبلوا أن يمروا بالتجربة مقابل مبلغ مغر لكل منهم، دعك من أن تيمتى (البقاء حيًّا) و(تلفزيون الواقع) صارتا شائعتين جدًّا.. طبعًا كان حمل أجهزة المحمول ممنوع منعًا باتًّا ومن يخالف ذلك يطرد بلا مناقشة..

اقتادها رجل أمن مصرى من شركة خاصة إلى بناية صغيرة تحيط بها الأسلاك الشائكة.. واضح أنها مكهربة كذلك، وهناك أكثر من كلب ينبح فى مكان ما..

الطابق الثانى... هناك غرفة تشبه كهف الرجل الوطواط فى الأفلام. عشرات الشاشات فى كل مكان، وشاشة كبيرة تظهر منظور (عين الطائر) الشهير بحيث تظهر الجزيرة كأنها صورة من قمر صناعى..

هناك مكبر صوت..

هناك شاب يضع سماعات على أذنيه ومنهمك لدرجة أنه لم يشعر بدخولها..

قال لها رجل الأمن الذى لم يكن اسمه (بسيونى) للأسف:

- «هنا سوف تكون حياتك.. الغرفة المجاورة سننقل لها حاجياتك وحقائبك.. يمكنك النوم هناك.. سوف يشرح لك المهندس (مختار) كيف تشغلين هذا كله..»

- «وأين ستكون أنت؟»

ابتسم للمرة الأولى، وقال:

- «هناك خمسة حراس يتأكدون من سلامة البناية ويمنعون أى تسلل لها.. لكنك تستطيعين استدعاءنا متى أردت..»

فكرت حينًا، ثم قالت بطريقة عابرة:

- « والآخر؟.. أين هو؟»

- «على الجزيرة.. لكنك لن تعرفى مكانه ولن تقابليه..»

كانت تفهم الضرورة، لكنها كانت تعرف كذلك من هو الآخر.. (شريف) طبعًا ولا أحد سواه.. عندما لا يظهر سوى بطلين فى مسلسل بوليسى فالقاتل واحد منهما. ليس فى حياتها سوى شريف فمن أين يأتون بشخص آخر يواجهها؟

- «من هو؟»

- «التعليمات تمنعنى من الإجابة..»

- «هل هو رجل؟»

- «التعليمات تمنعنى من الإجابة..»

- «هل هو مصرى أم أمريكى؟»

- «التعليمات تمنعنى من الإجابة..»

جلست فى مقعد مريح دوار وهى تدرك أنها لن تتلقى أية معلومات مفيدة من هذا النصب التذكاري. كانت أمامها مجموعة كبيرة من الصور.. فتيات وفتيان.. راحت تتأمل الوجوه شاردة..

قال رجل الأمن وهو يضع أمامها سماعتين يتصل بهما مكبر صوت صغير بحيث تتكلم مباشرة دون الحاجة لإمساك ميكروفون.. فقط تقرب السماعة من شفتيها أكثر:

- «سوف تضعين هذه على رأسك.. كل واحد منهم يضع سماعة فى أذنه.. فقط أنت تضغطين على الصورة المطلوبة قبل الاتصال كى توجهى كلامك للطرف المطلوب.. هو سينفذ ما تقولين..»

- « والأخطاء؟.. الشبكة معطلة.. الخطوط مقطوعة.. الصوت ردىء... إلخ..»

ضحك فى سخرية، وقال:

- «لا أخطاء.. أنت تتعاملين مع تقنية اتصالات شديدة التطور.. يختلف الأمر عن شبكة هاتف محمول تتلف كل ثلاث دقائق.. أنت تتعاملين هنا مع ذروة ما بلغه العلم الغربى..»

ثم أشار إلى مختار، وقال:

- «المهندس خبير اتصالات وسوف يساعدك إذا ظهرت أية مشكلة..»

- «نعم.. هو لم يلحظ وجودى ذاته.. إن كفاءته لا تحتاج إلى دليل..»

- «هكذا يفعل العباقرة.. كلهم لا يلاحظ أى شىء خارج نطاق اهتمامه.. هل تريدين شيئا؟»

- «نعم.. معلومات.. مثل: متى نبدأ؟»

- «التعليمات أن نبدأ عند منتصف الليل.. يمكنك أن تنالى قسطًا من النوم حتى ذلك الحين..»

ثم انحنى محييًا وغادر المكان..

لم يقل لها كيف تطلبه لكنها ستعرف الطريقة من (مختار) هذا..

اتجهت نحوه وهو جالس أمام شاشة عملاقة يراجع بعض البيانات، والسماعات على أذنيه ووجهه ممتقع ولفافة تبغ فى فمه.. هو من الطراز الذى يعتقد أن السجائر للمضغ لا التدخين..

هو كذلك من طراز: عينان جاحظتان - عوينات سميكة – شعر يصل للكتفين - لحية نصف نامية على سبيل الأناقة لا إهمال المظهر.. ثيابه تدل على أنه يقبض جيدًا...

مدت يدها له، وقالت:

- «مساء الخير.. عبى .... أ.. د. (داليا عثمان)..»

نظر لكفها فى دهشة كأنها ارتكبت جريمة، ثم نظر لوجهها فى ذهول.. ثم عاد يضغط على المفاتيح..

جميل جدًّا.. زميلها فى التجربة مجنون تمامًا.. لن يستغرق الكثير من الوقت قبل أن يضع القلم فى أنفه أو يأكل السجائر..

قالت له بصوت حازم ثابت كأنها تكلم طفلًا:

- «سأدخل لأستريح.. راقب كل شىء.»

ثم أدركت أنه لا يسمع حرفًا مما تقول بسبب السماعات اللعينة..

لكن ما الذى يسمعه بهذا الاهتمام إذا كانت التجربة لم تبدأ بعد؟

قربت أذنها من السماعة فسمعت الأخ (شاجى) يترنم:

- «مستر لافا لافا.. شى كول مى مستر بومباصتيك.. سيز أم رو... رو.. رومانطك..»

جميل جدًّا.. إذن البيانات على الشاشة هى كلمات الأغنية التى كان يبحث عنها على الإنترنت.. هذا رجل يشعر بالمسئولية التى على عاتقه وليكونن خير عون لها..

إن أيامها هنا ستكون مبهجة جدًّا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان النوم مريحًا.. فى الحقيقة هى قد لفظت أنفاسها الأخيرة تقريبًا وعادت للحياة بمعجزة.. كانت الرحلة الشاقة واهتزازات الطائرة قد أرهقتها لهذا لم تحلم..

الغرفة كذلك كانت مكيفة مريحة خافتة الإضاءة، والفراش كان وثيرًا من الطراز الذى يبتلعك داخله.. كل هذا أنساها أنها لم تأكل منذ ساعات.. والإخوة لم يسألوها..

صحت تلقائيًّا ونظرت للمنبه.. لا يوجد شىء على شاشته، ثم فطنت إلى أن عليها أن تضغط عليه، هنا انطلق شعاع يرسم الوقت على السقف فوقها:

PM10:14

جميل جدًّا..

خرجت من الغرفة لتجد الصالة الصغيرة وقد أعدت فيها مائدة عليها وجبة ساخنة.. طعام ردىء المذاق لكنه طعام على الأقل.. هناك ترموس به بعض القهوة، وقد كانت تتمنى بعض الشاى، لكن يبدو أن هذه هى الطريقة الأمريكية.. لا شاى وإلا تشبهنا بالبريطانيين الأنذال..

عادت لغرفة التحكم حيث كان ذلك المهندس غريب الأطوار يقوم بمتابعة كلمات أغنية أخرى.. يبدو أنها تقول:

- «سماك ذات.. جيم مى صام مور.. سماك ذات..»

على كل حال سوف تتحمل الموقف إلى أن يبدأ فى سماع (العنب العنب) عندها سوف تصاب بانهيار عصبى وتطلب منه أن يخرس...

من جديد جلست تتأمل وجوه الشباب المعلقة مع بياناتهم..

الفتيات كن ست عشرة فتاة...

أجمل فتاة فيهن كانت فى أعلى القائمة.. فتاة من الطراز الذى يدير رأس أى أفريقى أو آسيوى أو أمريكى.. كما إنها كانت كبيرة فاخرة كدمية غالية الثمن.. وقد كتب جوارها:

ميادة عبده..... كلية هندسة..... الملك King

تحتها كانت فتاة رائعة الجمال بدورها لكنها كذلك قوية الشخصية خبيثة نوعًا وقد كتب جوارها:

نرمين منصور...... كلية طب...... الوزير Queen

ثم فتاة بدينة قوية تبدو شرسة بحق كتب جوارها:

مها كمال....... مدرسة...... فيل ملك King’s bishop

فتاة بدينة أخرى لكنها من الطراز المرح الوديع اللطيف:

مها سالم...... أديبة..... فيل وزير Queen’s bishop

فتاة رشيقة طويلة العنق ذكية النظرات:

غادة الفقي...... مدرسة تربية بدنية..... حصان ملك King's Knight

فتاة مثلها لكن أكثر ذكاء:

أيرين شفيق..... طالبة تربية نوعية..... حصان وزير Queen's Knight

فتاة قوية العضلات عريضة الكتفين:

جورجيت صبحى..... طالبة آداب..... رخ ملك Queen’s Rock

فتاة أخرى صارمة قاطعة قوية الشخصية بادية الشراسة:

مي عبد الحميد..... سكرتيرة..... رخ وزير King's Rock

بعد هذا بدأت مجموعة من صور الفتيات صغيرات الحجم باهتات الشكل:

1- مروة عبد السميع..... طالبة تجارة..... بيدق رخ ملك

2- منال عبد المحسن..... طبيبة..... بيدق حصان ملك

3 - مها أسطفانوس..... مأمورة ضرائب..... بيدق فيل ملك

4- رانية محمد..... طالبة علوم..... بيدق ملك

5- لمياء جاد الله..... مهندسة..... بيدق وزير

6- مى عدنان..... محاسبة..... بيدق فيل وزير

7- ريهام خليفة..... صيدلانية..... بيدق حصان وزير

8 - روان خليفة..... مهندسة زراعية..... بيدق رخ وزير

لاحظت (عبير) أن بوسعها الضغط على أية صورة من هذه الصور كأنها زر ينضغط للداخل..

انتقلت نظرات (عبير) إلى مجموعة من صور الشباب وراحت عيناها تجريان بسرعة على الأسماء:

الشاب الوسيم الضخم الذى يصلح ليكون بطل أى فيلم، وهو من طراز لا يثير غيرة الفتيان الآخرين لأنه خارج المنافسة.. قالوا دائمًا إنه لا توجد امرأة تغار من مارلين مونرو ولا وجد رجل يغار من رشدى أباظة!

هذا الفتى كان:

رامى اللبودى..... مذيع..... الملك King

كالعادة كان الوزير أقل وسامة لكنه أكثر حيلة وخبثًا:

سمير مصطفى..... مهندس زراعى..... الوزير Queen

ثم رجل بدين مكتنز بادى الشراسة كالخرتيت:

عزت الشرقاوى..... ملاكم..... فيل ملك King's bishop

رجل بدين آخر فيه طفولة يذكرنا بصلاح جاهين:

ناجى سليمان..... محاسب..... فيل وزير Queen's bishop

أما عن الحصان هنا فكان:

شادى شريف..... لاعب كرة قدم..... حصان ملك King's Knight

هناك حصان آخر رشيق هو:

أشرف صدقى..... طبيب..... حصان وزير Queen's Knight

الطابية كان:

مصطفى عبد الحميد..... مدرس..... رخ ملك King's الطابية الأخرى كانت:

محمد عطية..... ملازم شرطة..... رخ ملك Queen's Rock

بعد هذا بدأت مجموعة من صور الشباب الذين تقتحمهم العين.. يعنى لا تتوقف عندهم كثيرًا:

1- مصطفى المهدى..... طالب حقوق..... بيدق رخ ملك

2- عصام السيوى..... مأمور ضرائب..... بيدق حصان ملك

3- سيد أمين..... عاطل..... بيدق فيل ملك

4- يحيي منير..... طبيب..... بيدق ملك

5 - زياد مصطفى..... مهندس..... بيدق وزير

6- محمد فخرى..... مدرس..... بيدق فيل وزير

7- ألبير ميخائيل..... طالب طب..... بيدق حصان وزير

8- محمود أبو وائل..... مهندس..... بيدق رخ وزير

كانت الأسماء كثيرة.. 16 اسمًا لفتاة و16 اسمًا لفتى.. 32اسمًا.. لكن لا حاجة لها أن تتذكر الاسم.. فقط عليها أن تتذكر الوظيفة..

نظرت للشاشة الكبيرة التى تظهر منظور عين الطائر، فرأت أماكن الشباب.. لاحظت فى رضا أن الكمبيوتر أضاف لكل واحد رمزًا صغيرًا على رأسه يدل على شخصيته.. التاج للملك.. أذنا الحصان للحصان.. برج للطابية.. هذا يسهل الأمر..

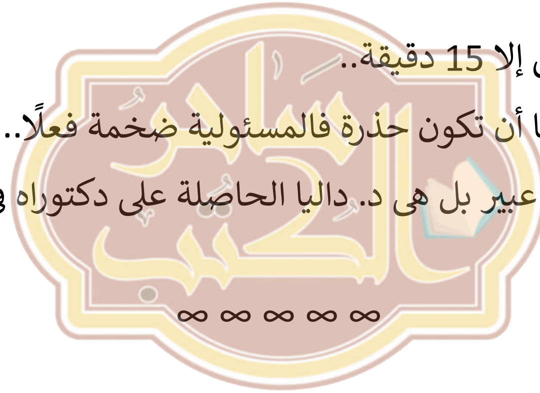
كما أن التحركات كانت تكتب فى جدول صغير على شاشة مصغرة..

نظرت لساعتها..

لقد اقتربت الساعة فلم تبق إلا 15 دقيقة..

أخذت شهيقًا عميقًا.. عليها أن تكون حذرة فالمسئولية ضخمة فعلًا...

يجب أن تتذكر أنها ليست عبير بل هى د. داليا الحاصلة على دكتوراه فى الشطرنج..



4 - ب 4 م..

» مستر لافا لافا.. شى كول مى مستر بومباصتيك.. سيز أم رو... رو.. رومانطك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصوت متهدج قليلًا من فرط الانفعال والمسئولية تقرب شفتيها من مكبر الصوت وتضغط على صورة (رانية محمد) وتهمس:

- «ب 4 م..س

وتنظر للشاشة فترى (رانية محمد) طالبة العلوم النحيلة تسمع الأمر فى سماعة أذنها فتتقدم ببطء.. الأمر الصادر لها بوصفها بيدق الملك هو أن تتقدم إلى الصف الرابع وتنتظر..

كانت هذه هى افتتاحية (روى لوبيز Ruy Lupez) المفضلة لدى (عبير).. فى الواقع هى مفضلة منذ القرن السادس عشر..

بهذا تحتل المربعات الوسطى فى الرقعة وهى الأهم استراتيجيًا..

بالطبع يفضل أساتذة المدرسة مفرطة الحداثة hypermodernism أن يتم احتلال مربعات الوسط بتأثير القطع التى تضرب من بعيد، وليس بالجنود.. هذا يجعل الخصم يضع جنوده فى الوسط وهكذا تنهال عليهم الضربات.. يعنى هم يفضلون المدفعية كى يغروا الخصم باستعمال المشاة...

الرد الأمثل على خطوة مثل (ب 4 م) هو أن تفعل ما يماثلها تقريبًا..

هكذا يتقدم (يحيى منير) الطبيب الشاب.. بيدق الملك.. ويقف أمامها..

العينان متقاطعتان والصمت سيد الموقف.. لكنه يعرف أنهما لن يلتقيا بأى شكل ولن يكون بينهما صراع.. مهمتهما أن يسد كل واحد الطريق على الآخر..

يقول المحترفون إن الافتتاحية تحدد الفائز فى النهاية.. يقصدون بالافتتاحية أول عشر حركات فى اللعب، ثم يحتدم اللعب فى مرحلة الوسط، ومرحلة النهاية تبدأ عندما تطير أغلب القطع ويتحرك الملكان بفعالية لحماية الجنود..

أحيانًا تكون الافتتاحية هى تضحية مباشرة من أحد اللاعبين بقطعة بيدق غالبًا يقدمها من أجل مكاسب استراتيجية، وهنا يكون اسمها (الجامبيت gambit).. الكلمة توحى بنوع من شطائر (التيك أواى) مثل (الجمبري الجامبو) وسواه، لكنها كلمة إيطالية معناها (مقص الحرامية) ... أى أن تضع ساقك فى طريق شخص مندفع ليتعثر...

لو كانت (عبير) هى التى تلعب لحركت الوزير مبكرًا، لكن بصفتها دكتورة فى الشطرنج فهى تعرف أن هذا خطأ قاتل وغالبًا ما يحدد المهزوم..

الافتتاحيات كثيرة جدًا وهناك مراجع عنها، وأسماء عديدة منها أسماء مكتشفيها أو أسماء الحيوانات أو أسماء البلدان التى لعبت فيها، لهذا يطلقون على افتتاحية (لوبيز) اسم (الافتتاحية

الأسبانية)..

e4, 1. d4.1

لاحظ أنه فى اللغة الغربية لا يذكر اسم البيدق.. أى إنهم لا يقرنون الرمز بحرف P..

افتتاحية الطائر لا بأس بها كذلك وهى (ب 4 فم).. أى إن البيدق الذى يقف أمام فيل الملك يتقدم للصف الرابع.. بالإنجليزية هى:

f4.1

غالبًا ما يكون رد الأسود الأفضل هو تكرار ما فعله الأبيض كأنها صورة بالمرآة.. وهذا هو دفاع (بتروف).. عامة إما أن يعتمد اللاعبون على حركات كلاسيكية معروفة وعندها يقال إنهم يلعبون (وفقًا للكتاب) أو يرتجلون فيقال إنهم يلعبون (خارج الكتاب)..

إن مزية الروى لوبيز هى إنها تحرر الوزير والفيل وبالتالى يمكنهما التنقل بحرية.. لقد صار الطريق مفتوحًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرمال التى صارت باردة مع الليل تقف (رانية محمد) طالبة العلوم..

إنها فتاة رقيقة هشة لكنها تحمل وجهًا من تلك الوجوه التى لا تتذكرها بعد أن تتركها، وكانت من الطراز الباسل الذى يعانى فى صمت.. فى الواقع كانت تدرك أنها بيدق.. بيدق فى لعبة شطرنج عملاقة يسهل أن يضحوا بها ولن تسبب خسارة كبيرة..

الرقعة ليست رقعة شطرنج بالضبط، بل هى صحراء مترامية..

منذ دقائق كانت فى معسكر الفتيات خلف هذه التلة حيث اجتمعت البنات يستعددن للمباراة.. كن يشوين لحمًا ويعددن بعض الشاى على نار أوقدنها، ثم سمعت السماعة فى أذنها تخبرها أنه (ب 4 م)..

كانت تتوقع هذا لأنها كانت تلعب الشطرنج أحيانًا وتعرف أن مباريات كثيرة تبدأ بهذا الشكل..

كانت قد تلقت مع الفتيات دورة فى معنى هذه الرموز، وكيف تتحرك..

كن قد تعلمن أيضًا أن هذا القيد حول الكاحل الأيمن يساعد على تتبع مكانهن ولا سبيل لفكه أو نزعه..

هتفت بصوت راجف:

- «يبدو أن علىَّ أن أتحرك...»

ونظرت فى قلق إلى الملكة (ميادة) طالبة الهندسة رائعة الجمال التى جلست وسط الفتيات، وهن يقدمن لها الطعام والفاكهة.. حتى قبل أن تبدأ المباراة كانت تتصرف كملكة حقيقية.. جوارها كانت وزيرتها (نرمين منصور) وهى لا تقل عنها جمالًا...

قالت لها (ميادة) وهى تمسح الطعام عن شفتيها القرمزيتين:

- «هيا يا حلوة.. تحركى..»

قالت (رانية) وهى تبتلع ريقها:

- «خائفة..»

قالت (ميادة) فى شىء من اللطف:

- «غالبًا لن يهددك خطر.. أنت تحتلين موقعًا لا أكثر..»

ثم أضافت وهى تنهض لتضع ذراعيها حولها:

- «لا تنسى سلاحك..»

ولثمتها على خدها.. هنا تقدمت باقى الفتيات ولثمنها..

وحدها مضت (رانية) بساقين من عجين مبتعدة عن المعسكر.. ظلام الصحراء أمامها ما عدا الكشافات التى تسمح بالتصوير..

على الرمال هناك علامات مغروسة رأسيًا تحدد المربعات.. المربع مساحته تقارب ثلاثة أضعاف الغرفة التي تقرأ أنت فيها هذه الصفحات الآن لو أنك من الطبقة المتوسطة..

منعًا للخلط هناك فى مركز كل مربع علامة مغروسة تحدده، وكانت علامتها هى E4..

مشت إلى مركز المربع ووقفت تستجمع أنفاسها..

ظلام الليل.. الصحراء.. صوت ذئب يعوى من بعيد..

تحسست المسدس المعلق فى خصرها وارتجفت.. لن تستطيع أن تستعمله.. دعك من أن الأمر غير متروك للتصرف الشخصى بل التعليمات...

ثم من بعيد ظهر الفتى...

(يحيى منير) الطبيب الشاب النحيل..

تراه مسربلًا بالظلام ثم يدنو أكثر فتتبين ملامحه..

ليس وسيمًا وليس قبيحًا.. بما أنه بيدق مثلها فمن الواضح أنه من نمط لا يعلق بالذاكرة..

يتحسس المسدس المعلق على خصره ثم يقف فى الخانة التى أمامها.. E5....

القيد حول كاحله الأيمن يضايقه لكنه سيعتاده سريعًا...

رجل وامرأة فى الصحراء يقفان فى الانتظار..

ترى من يصدر له التعليمات ومتى؟

قال لها بعد صمت طال:

- «أنا (يحيى).. طبيب حديث التخرج...»

- «وأنا (رانية)... علوم قسم جيولوجيا..»

- «يبدو أننا جزء من افتتاحية (روى لوبيز) ... هل تفهمين خطط الشطرنج؟»

- «لا..»

نظر حوله فى قلق، ثم قال:

- «أعتقد أننى مهدد بهجوم من أفراسكم.. هذه هى الخطوة التالية غالبًا..»

ثم فكر حينًا وراح يتأملها، وقال:

- «أنت مثلى.. مجرد بيدق يسهل للآخرين التضحية به.. أليس كذلك؟»

قالت بصوت مبحوح:

- «بلى.. لكن تذكر أننا نلعب.. لن يكون هناك قتلى.. لا تضحيات حقيقية..»

قال فى مرارة:

- «لكنهم فى عالم الواقع يضحون بنا مئات المرات كل يوم.. عندما يمرض أخى الأكبر أرى فى عينى أبى نظرة توشك أن تقول: ليتك مرضت بدلًا منه.. فى امتحانات الكلية أقع دائمًا فى قبضة أقسى الممتحنين.. هؤلاء الذين يعتبروننى عدوًا شخصيًا لمجرد أن شكلى لا يوحى بأى مجد.. بالنسبة للفتيات أنا مجرد وجه عابر لا يعلق بالذاكرة.. افتتحت عيادة جوار أكبر كوم قمامة فى قرية نائية ولم يدخلها مريض منذ شهرين.. أنا بيدق فعلًا..»

نظرت له فى شفقة وخطر لها أنه يكرر ذات قصة حياتها لكن من دون عيادة طبعًا..

قالت له معزية:

- «هناك فرصة للترقى لو ظللت حيًا.. من الممكن أن تكون وزيرًا لو بلغت الصف الأخير..»

ضحك فى مرارة:

- «أصير مثل (سمير مصطفى)؟.. هذا المهندس الوسيم؟.. كيف؟.. المرء لا يملك تغيير شكله ولا نشأته.. سأظل كما أنا لكن أحمل لقب وزير.. دعك من أننا لن نصل أحياء إلى نهاية هذا الجحيم..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راقبت (عبير) الموقف بضع دقائق ثم دنت من مكبر الصوت وضغطت صورة (غادة الفقى) وهتفت:

- «ح 3 فم»

وكررت الأمر بالإنجليزية:

- « 3NF»

سمعت (غادة) مدرسة التربية البدنية الرشيقة النشيطة هذه الكلمات فهبت واقفة، وتبادلت مع الفتيات التحية الأمريكية (هاى فايف) كأنها فى مباراة سلة، ثم أخذت مسدسها وانطلقت تركض

عبر المربعات..

كان المفروض على الفتاة التى تلعب دور الحصان أن تركب حصانًا فعليًّا لكنهم عدلوا عن هذا لصعوبة التحكم فى جعل الحصان يقف فى المربعات المختارة.. دعك من أن عددًا من المتسابقين لم يكن يملك فكرة عن الخيول..

الحقيقة أن (غادة) بدت حصانًا آدميًّا بخطواتها الرشيقة وعنقها الطويل وهى تركض فوق الرمال، حريصة على أن تتخذ تحركاتها شكل حرف L المميز لخطوات الحصان..

الأمر الصادر لها هو أن تتقدم بوصفها حصان الملك، لتقف أمام فيل الملك فى الصف الثالث.. بهذا تهدد البيدق الذى هو (يحيى)...

هذا جزء من لعبة السيطرة على مربعات الوسط...

هى الآن ترى (يحيى).. ترفع مسدسها نحوه وتضحك فى وحشية..

رآها فارتبك وكف عن الكلام مع (رانية)...

لكنها لم تطلق الرصاص.. إن القتل فى هذه اللعبة ليس مبارزة بل هو إعدام.. على الضحية أن تنتظر مصيرها فى صمت..

(غادة) لن تطلق الرصاص قبل أن تتلقى التعليمات...



∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- أحقاد قديمة..

سألته (غادة) بصوت عال:

- «عم تتكلم مع هذه البائسة الساذجة؟.. أكاذيب؟»

قال (يحيى) فى ضيق:

- «هذا ليس من شأنك.. علاقتنا هنا رسمية تمامًا قوامها الاحترام المتبادل والقتل لا أكثر..»

- «هذا ما تتمناه وهذا ما سوف تناله..»

قال لها فى شىء من تشف:

- «لا تتفاءلى كثيرًا... هذه هى طقوس افتتاحية (روى لوبيز).. تهديد أفراس مع حماية بأفراس أخرى.. سوف تأتينى النجدة حالًا.. أما فى صورة حماية لى أو تهديد لفتاتك الرقيقة..»

- «ربما يميل الذين يلعبون بنا إلى (التكسير).. كما كنا نلعب فى الطفولة.. تتكوم القطع الميتة على جوار الرقعة بلا توقف.. معنى هذا أننى سأتلذذ بقتلك حتى لو هلكت أنا..»

- «هكذا يلعب الأطفال أما هؤلاء فأساتذة..»

- «ما اسمك وعملك يا فتى؟»

نظر لها فى سخرية، وقال:

- «اسمى (يحيى).. طبيب.. وأنت؟»

- «اسمى (غادة).. مدرسة رياضة بدنية.. حاليًّا أنا حصان ملك..»

- «هذا واضح.. أنت حصان آدمى بالفعل.. نشيطة متحفزة كالحصان، لكنك عدوانية كثعبان الماء..»

نظرت له مفكرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطر.. البرق... جو ديسمبر البارد المفعم بالشجن..

الخروج من كلية التربية الرياضية والزحام.. وسيارة (عادل) الجولف البيضاء.. د. (عادل) الذى كان ينتظرها هناك..

تشق الطريق وسط زميلاتها، وتنظر له وتبتسم وهو يبتسم. ابتسامة تقول كل شىء.. تقول إنه لها..

جريمة هى أن تركب سيارة شاب ليس أخاها ولا زوجها ولا عمها ولا خالها، لكنها كانت تعتقد أنها تفعل الشىء الصحيح..

د. (عادل) وسيم كالأحلام.. د. (عادل) ثرى.. هو ليس بحاجة للطب لكنه يمارسه من أجل الوجاهة الاجتماعية..

سيارته الدافئة والمساحات تزيل الماء عن الزجاج فترى وجوه صديقاتها التعسات المبتلات فى الخارج.. سوينك!.. يغرقن فى الماء.. سوينك!... يعدن فى مجال الرؤية وهن ينظرن لها فى مزيج من حسد ويأس بينما السيارة تدور مبتعدة..

سوينك!.. نحن تحت الماء فى قاع المحيط..

سوينك!.. شوارع القاهرة المبللة..

الموسيقا تنبعث من كاسيت السيارة مع رائحة عطرية ما.. هل هناك أجهزة كاسيت تصدر رائحة مع الموسيقا؟.. ربما..

يقول لها إنها رشيقة نشيطة كأنها حصان آدمى يشعر فى أية لحظة بأنها ستصهل ثم تجرى على شاطئ البحر..

سوينك!... هو يحبها..

سوينك!... هى تحبه..

سوينك!.. ذلك المقهى الدافئ فى المعادى على بعد مرمى حجر من بيته.. كل من يدخله مبلل بالماء و المعاطف الجلدية تنزع وتوضع على المقعد جوارك.. يتساقط الماء قطرات على الأرض..

سوينك!.. تلك القهوة الغريبة.. رائحة زكية لا يمكن نسيانها..

أنا أحبك.. أنت تحبيننى..

سوف يوصلها بعد هذا إلى أقرب نقطة ممكنة من دارها ثم ينسحب حتى لا يراه أحد..

سوينك!.. المستقبل جميل باسم..

سوينك!.. إنها تختلف عن الأخريات..

أنا أحبك يا عادل لأنك تشعرنى بأننى أختلف عن الأخريات، لأنك تجعلنى أرضى عن نفسى..

سوينك!... ثم رحل..

العلاقة تتوتر.. هناك فتاة أخرى فى كلية أخرى تقف تحت الأمطار بانتظاره كى يوصلها لدارها ويمر على ذات الكافتيريا التى تبعد مرمى حجر عن بيته.. فتاة أخرى سعيدة تعتقد أنها الوحيدة..

لقد سئمها.. سئمها برغم أنه لم يظفر منها بشىء سوى ركوب سيارته..

سوينك!.. وتزول أيام الحلم...

سوف تتذكر هذا دومًا عندما تقف وسط زميلاتها تحت الأمطار بانتظار الميكروباص.. ويسألنها عن فتى الأحلام.. عن الفارس الذى يركب سيارة جولف بيضاء..

سوف يبللها الماء لكنها لن تسمع صوت سوينك!..

احتاجت إلى وقت طويل كى تشفى وكى تستعيد لياقتها ونشاطها، لكن حياتها منذ ذلك الحين صارت نسائية تمامًا.. لا مجال للرجال هنا وهى تمقتهم كالجحيم...

أدركت أن من هو مثل د. (عادل) لا يطارد الفتيات عن شهوة ولكن لأنه مولع بأن يؤذى مشاعرهن ويجرحهن لا أكثر.. كل ما يريده أن تتعلق به فتاة وتعتبره حلمها الوحيد وتفخر به، ثم يتركها ويستمتع بلذة جنونية وهو يتخيلها محبطة تعسة..

كل الرجال مخادعون.. كلهم أوغاد..

لكن أسوأ الرجال هم الأطباء الشبان..

والآن تنظر ل (يحيى) فتدرك أنها ستجد لذة حقيقية فى إطلاق الرصاص عليه.. هذا الأحمق لا يدرك أنه يقف أمام قاتلته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من مكان ما جاء الأمر..

لم نسمعه لكن لا شك فى أنه كان (ح 3 فو)..

تحرك (أشرف صدقى) الطبيب الشاب الثانى الذى يلعب دور حصان الوزير ليقف أمام فيل الوزير..

إنه رجل رياضى ممشوق القوام.. بالفعل هو المعادل الذكرى ل (غادة).. حصان آدمى آخر فارع الطول رشيق الحركات متحفز، وتفاحة آدم البارزة فى عنقه تعلو وتهبط...

يقف هناك ويصوب مسدسه نحو (غادة)..

الرسالة واضحة.. هو هنا لحماية (يحيى).. لو قتلت (يحيى) فهو سيقتلها.

ما زالت معركة مربعات الوسط محتدمة...

(أشرف) رياضى قديم ولا علاقة له بالطب تقريبًا، لكنه كان يعرف جيدًا كيف ينجح فى اللحظات الأخيرة.. بمعجزة ما تخرج فى الكلية.. وبمعجزة ما حصل على دبلوم فى طب الأطفال..

أدرك أن (غادة) فاتنة وجذابة، لكنه أدرك أنها كذلك تحمل حقدًا بالغًا نحو الرجال..

هكذا وقف الأربعة.. شابان وفتاتان.. فى هذه الرقعة الصحراوية.. يمكنهم أن يروا بعضهم لكنهم ليسوا قريبين كما تتخيل...

سوف يظلون هكذا بانتظار التعليمات...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفى غرفة المراقبة التفتت (عبير) إلى (مختار) مهندس الاتصالات فوجدت أنه منهمك فى سماع أغنية اسمها (شيواوا).. هذا رجل مشغول فعلًا...

كانت هناك علبة من البسكويت جوارها، وكان هناك ترموس به قهوة..

ألا يمكن الظفر بكوب شاى فى هذا المكان اللعين؟

كم الساعة الآن؟

إنها الثانية صباحًا.. سوف تظل تلعب إلى أن يغلبها النوم..

إن الزمن كلمة لا وجود لها فى لعبة الشطرنج.. يمكنها أن تنام ثمانى ساعات فى أى وقت تريد كى تكون قراراتها صحيحة. الشطرنج من الألعاب القليلة التى لا يلعب الحظ أى دور فيها... البطء سيد الموقف فى هذه اللعبة، وقد استغرق اللاعب الروسى بونشتاين خمسين دقيقة فى إحدى المباريات قبل أن يحرك أول قطعة!.. دعك طبعًا من شطرنج المراسلة الذى كانوا يلعبونه عندما كانت السفن تنقل الخطابات قبل اختراع الطائرة.. قبل الهاتف.. قبل البريد الإلكترونى.. أى إن عليك أن تنتظر عدة أشهر حتى تعرف نقلة خصمك..! لابد أن المباراة كانت تستغرق عشر سنوات..

غير أن هناك مباريات يتم الاتفاق مسبقًا على أن تكون سريعة جدًّا.. شطرنج البرق blitz chess مثلًا يحدد فيه وقت المباراة ليكون أقل من ربع ساعة.. شطرنج الرصاصة مبارياته مدتها ثلاث دقائق!

هذه من النقاط التى لعب عليها الأمريكى (فيشر) فى مباراة العصر مع السوفييتى (سبابسكى)، عندما أدرك أن خصمه ممن يثير أعصابهم البطء الشديد، لهذا تمادى وتمادى حتى حطم أعصاب منافسه..

هناك قضية أخرى شهيرة هى قضية دورة المياه التى ظهرت فى بطولة العالم سنة 2006.. الهواية المستفزة لدى بطل العالم الروسى (كرامنيك) كانت أن يذهب للحمام كل ثلاث دقائق، مما أثار غيظ خصمه مع الكثير من الريبة.. لماذا يذهب للحمام بكثرة؟ نفس السؤال الأبدى الذى أرق مراقبى لجان الثانوية العامة عبر العصور. ربما يتلقى العون من جهاز لاسلكى خفى.. ربما هو يلجأ إلى (البرشام).. هكذا اضطرت اللجنة المنظمة إلى عمل حمام مشترك خاص للبطلين، وكانت قضية اهتزت لها الصحافة!

عامة لا مشكلة فى البطء الزائد فى الشطرنج..

لو أردنا الدقة: ثمة مشكلة بسيطة هى هؤلاء البؤساء الواقفون فى الصحراء.. لكنهم جاءوا لهذا الغرض.. دعك من أنها تعرف أن هناك وجبة يتم توزيعها عليهم حيث هم.. و يمكن أن يناموا إذا سمحت لهم بذلك..

هكذا صبت لنفسها بعض القهوة وفتحت البسكويت دون أن تفارق عينها الشاشة..

لقد تم احتلال مربعات الوسط تقريبًا.. لم يبق إلا خروج الأفيال..

وراحت تفكر فى خصمها المجهول.. كيف يبدو؟

لم تستطع تخيل أنه أى واحد غير (شريف).. فماذا يفعله الآن؟

لمست صورة البيدق (منال عبد المحسن) وقالت فى مكبر الصوت:

- «ب 3 حم..»

من المصادفة الغريبة أن هناك ثلاثة أطباء فى الساحة الآن، لكن (عبير) لا تعرف مهنة الفريق الآخر.. فقط نحن نعرف...

بالنسبة لها (منال) هى أول طبيب تتعامل معه..

وفى معسكر الفتيات سمعت الطبيبة الشابة (منال) الأمر فنهضت.. قالت للفتيات:

- «يبدو أن هذا دورى يا بنات..»

قالت لها الملكة:

- «خذى الحذر.. يبدو أنك ستَقتلين أو تُقتلين»

هزت منال كتفيها ومشت فى تردد فوق الرمال الباردة.. نحو مربعات الوسط..

إن الطقس يزداد برودة فعلًا..

أم هو الرعب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- ح × ب..

على د. (منال) - بيدق حصان الملك - أن تخطو خطوة للأمام لتقف فى الصف الثالث.. هذا هو الأمر..

هناك إلى جوارها تقف (غادة) حصان الملك متحفزة..

نظرت خلفها فوجدت (مروة عبد السميع) طالبة التجارة التى تلعب دور بيدق رخ الملك. نظرت لها مروة وابتسمت ولوحت بمسدسها. هذه رسالة واضحة: أنا أحمى ظهرك فلا تخافى لو فتك بك أحد فسوف أفتك به..

لكن هذا لا يريح المرء كثيرًا.. هناك لحظات تستدعى التضحية بالجنود، وإلا فلماذا هم جنود؟ ثم ما العزاء فى أن تعرف أن قاتلك سيعاقب؟.. سواء عوقب أم لا فأنت قد انتهيت.. ربما كان الغرض منح روحك الراحة لا أكثر..

نظرت لها غادة، وابتسمت وقالت:

- «حركوك مبكرًا!»

قالت منال فى توتر:

- «يبدو أنهم سيضحون بى مبكرًا كذلك..»

قالت غادة، وهى تتحسس مسدسها:

- «لا تقلقى.. الرجال لا يفكرون بشكل منطقى.. إنهم أغبياء أنانيون شهوانيون.. عندما يكون الإنسان شهوانيًّا فهو لا يفكر بمنطقية ويرتكب أخطاء قاتلة..»

ثم أشارت إلى د. (يحيى) الواقف مذعورًا، وقالت:

- «هل ترين هذا الغبى؟.. يعتقد أن صاحبه يحميه وإننى لن أفتك به.. سوف يرى..»

قالت منال شاردة:

- «هذا لو كانت لنا إرادة فيما يحدث.. نحن مجرد دُمى..»

ثم بحثت عن تعبير أقوى فقالت:

- «نحن.. نحن أحجار على رقعة الشطرنج!»

وارتجفت....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يتأخر الرد من الجانب الآخر..

ح3 فم..

بعبارة أدق تحرك حصان الملك ليقف أمام فيل الملك.. شادى شريف لاعب كرة القدم الصاعد يركض فى نشاط ليقف فى المكان المحدد.. معنى هذا أنه يهدد (رانية) بشكل مرعب...

للمرة الأولى تجد (رانية) أنها مهددة فعلًا..

هكذا بدأت ترتجف ثم انفجرت فى البكاء كالأطفال..

فى كل مواقف حياتها كان الحل الوحيد الذى تعرفه هو البكاء.. وكانت تفعل هذا كثيرًا وهى وحدها فلم يرها أحد تبكى قط..

ونظرت لـ (شادى) بوجهه البارد العابث فأدركت أنه لا يعتبرها فتاة.. لايعتبرها كائنا حيًّا أصلًا... سوف يقتلها بلا ندم..

قال لها د. (يحيى) مهدئًا:

- «اصبرى.. نحن فى وضع كالذى وصفه أبو القاسم الشابى: لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب.. نحن فى وضع توازن رعب.. لن يحدث لك شىء..»

بدأت تهدأ قليلًا... هذا معقول.. المشكلة أنها لا تملك أن تتقدم.. لا مكان لها على الإطلاق تذهب إليه إلا أن تَقتل أو تُقتل..

ثم تذكرت..

من الذى يحميها؟.. لا أحد فى الواقع.. هذا اليحيى يهذى..

إنها مكشوفة فعلًا...

كانت (عبير) فى هذه اللحظة تراقب اللعبة وقدرت أنها فى غير حاجة إلى تضييع وقتها أكثر من هذا على مربعات الوسط.. إنها مولعة بتقدم الأفيال..

هكذا لمست صورة (مها كمال) ودنت من مكبر الصوت:

- «ف 5 حو»

سمعت (مها كمال) هذا الأمر فنهضت متجهة إلى الرقعة..

مها فتاة شرسة قوية تذكرك بالثور الغاضب... وقد أقسمت لنفسها أنها سوف تظفر ببعض هؤلاء الفتية.. إنها تلعب هنا دور فيل الملك.. عليها أن تتقدم إلى الصف الخامس.. الخانة التى تحمل رقم B5.. نفس صف حصان الوزير...

مها تعدت الثلاثين ولم تتزوج بعد.. هذا ليس غريبًا فى قاهرة اليوم حيث متوسط سن الزواج للفتاة صار 32 سنة، ولم يعد هناك سن للرجل تقريبًا، لكنه مقلق لو عرفنا أن له سببًا قويًّا..

السبب هو أن الرجال يخافون شراستها.. لسانها سليط يلذع كل من يتقدم لها، وضخامتها توقع الرعب فى نفوس الرجال.. تبدو فعلًا نموذج الزوجة التي تضرب زوجها فى النكات الشعبية..

كانت معلمة فى مدرسة إعدادية، وقد أجادت استعمال قبضتها لتوجيه لكمات قوية بين لوحى كتفى أى طالب مشاغب.. ذات مرة أمسكت برأسى طالبين وضربتهما معًا وإن سبب لها هذا

مشاكل فى الإدارة لأن والد أحد التلميذين جاء يشكوها وقال إنها (فتوة)..

هكذا ارتبط الاسم بها..

دعك من أنها لا تمارس أى نوع من نشاطات الأنوثة... السراويل الجينز والحذاء المطاطى والبول - أوفر القديم.. حاولت أمها جعلها تضع بعض المساحيق.. حاولت أن تجعلها أكثر رقة ولطفًا، لكن هذا كان قناعًا سرعان ما تنساه وسرعان ما يعود طبعها الحاد ليطفو على السطح..

عندما تنشأ فتاة وحيدة مع أربعة إخوة فإنها تتطبع بطباعهم، ولو لم تفعل لما استطاعت أن تجد لعبة واحدة أو تأكل لقمة واحدة فى هذا البيت...

هكذا كونت نظريتها الخاصة عن أن الرجال تافهون لا يستحقون أى اهتمام.. يمكن أن يمنحوا الفتاة متعة واحدة فقط هى التى تشعرها عندما تهشم رءوسهم..

هذه اللعبة تمنحها هذه الفرصة ولسوف تحسن استغلالها!

هكذا تتقدم وسط الرمال إلى أن تقف فى خانتها..

تنظر فى سخرية إلى د. (أشرف صدقى) الرجل الرياضى ممشوق القوام الذى يحمى (يحيى)... هذا رجل وسيم.. ممتاز!.. الطراز الذى يخدع الفتيات الأخريات ويفر منها هى.. الطراز الذى يسخر منها عندما تدير ظهرها وينفخ خديه وينفش عضلاته ليقلدها.. هذا هو ضحيتها المنتظرة لو صدرت الأوامر!... هذا جميل جدًّا.. ما كانت لتحلم بضحية أفضل!

صحيح أن بيدق الوزير يحميه لكنها لا تهتم بهذه الأمور سوف تستمتع بقتله بحيث لن تتألم للموت بعد ذلك!

قال لها الطبيب باسمًا فى شىء من السخرية:

- «مرحبًا بكم!»

وهى دعابة سخيفة قديمة اعتادتها.. (من هؤلاء؟).. (مرحبًا بكم).. للدلالة على أنها ضخمة كأنها عشر فتيات..

قالت له بصوتها الغليظ:

- «اضحك كما تشاء.. أتعشم أن تحتفظ بروح الدعابة وأنت تموت..»

- «لن أموت.. إن بيدق الوزير يحمينى.. مهندس (زياد مصطفى) شاب شجاع يقظ..»

قالت ضاغطة على أسنانها:

- «شاب شجاع يقظ!.. هذا تناقض مصطلحات.. مثل عبارة (حزن سعيد) أو (نار باردة)..»

ظل ينظر لها مشاكسًا بعض الوقت.. لا يتصور أن تكون نهايته مع هذا الفيل الآدمى.. قال لها:

- «من أين تبتاعين ثيابك؟.. من متعهد ثياب السيرك؟.. هذا البنطال يكفى لستر أطفال أوغندا العراة كلهم..»

كادت تفقد أعصابها وتضربه، لكنها كانت تعرف أن التعليمات صارمة.. لن تأخذ مليمًا من

مستحقاتها..

عاد يقول لها:

- «عرفت فتاة مثلك ذات يوم.. كانت تحبنى.. لكنهم أخذوها منى لأنهم حسبوها الفيل الفار من حديقة الحيوان..»

ضحكت ضحكة مفتعلة:

- «هئ.. هئ.. ظريف.. سوف نسمع دعاباتك بعد الموت..»

- «سيكون الموت رائعًا لأننى لن أرى هذا المشهد المرعب ثانية..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف يقينًا إن كانت عبير تعمدت هذا أم أنه سهو منها..

لقد تجاهلت التهديد الواقع على (رانية) تمامًا..

هكذا صدر الأمر لـ (شادى شريف) حصان الملك كى يقتل..

ح Xب

رفع مسدسه فى برود ثم اتجه نحو (رانية) طالبة العلوم المذعورة..

صاحت فى رعب:

- «أنت لن تفعل هذا.. لا يمكن!»

ونظرت مستغيثة إلى (يحيى) الطبيب الواقف أمامها فهز رأسه وقال:

- «أنا آسف فعلًا.. كلنا فى الهواء سواء.. لا يمكن عمل شىء كما تعرفين..»

نظرت لوجه (شادى) البارد القاسى.. بالفعل لن يشعر شىء.. لن يتردد..

ح X ب

انطلقت الرصاصة لتخترق صدرها.. سقطت أرضًا بلا صرخة أو كلمة واحدة..

ووقف مكانها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- شىء يدبر ضدى..

تعاون شابان على جر جثة رانية على الرمال ليلقياها بعيدًا..

تراقب (عبير) المشهد على الشاشة ويخطر لها أنها فقدت المربع E4 الذى تعرف بخبرتها أنه أهم مربع فى الرقعة.. هذا يدلنا على أن الأمر كان سهوًا منها..

بالطبع لم تحزن على مصير الفتاة لأنها تعرف - كما يعرف اللاعبون - أن الطلقات طلقات مخدرة لا أكثر تحوى مادة (الثورالين) كما قرر د. (فلاهرتى).. سوف تنام (رانية) عدة ساعات على الرمال لكنها بالنسبة للعبة قد ماتت على كل حال.. صحيح أن الفتاة كانت مذعورة لكن هذا يمكن فهمه. تخيل أن تتلقى طلقة فى صدرك حتى لو كانت لن تقتلك..

كانت (عبير) تعرف لعبة الشطرنج جيدًا.. الفارق الواهى غير الواضح بين مرحلة تكون أنت فيها حذرًا بارعًا ومرحلة تتحول فيها إلى شخص لا يكف عن تبديد القطع وارتكاب الأخطاء.. هناك لحظة ما تعبر فيها ذلك الخط، وعندها لا تستطيع التراجع أبدًا..

يجب أن تكون أكثر حذرًا..

على كل حال هى تعرف يقينًا أن هذا الحصان فى هذا الموضع يضايقها.. هذا الفتى (شادى شريف) نشط متحفز وهو قريب جدًّا من قطعها المهمة الآن.. يجب أن يبتعد أو يموت..

هكذا ضغطت على صورة (أيرين شفيق).. طالبة التربية النوعية الرشيقة الشابة، والتى تلعب دور حصان الوزير، وقالت:

- «ح 3 فو..»

كانت إيرين جالسة على الرمال تمزح مع (روان) المهندسة الزراعية، وتشرب الشاى معها، عندما سمعت الأمر فتوترت..

قالت للفتيات:

- «هذا دورى...»

كالعادة قبلت زميلاتها مودعة ونهضت..

مشت فى حذر فوق الرمال راسمة حرف L المميز لخطوات حصان الشطرنج، وفى النهاية بلغت المربع المختار، ورفعت مسدسها مهددة (شادى).. الحصان الآخر..

لا خطر عليها منه لأنها تحت حماية ريهام خليفة.. بيدق حصان الوزير...

قال لها شادى فى سخرية:

- «لا تتوقعى أننى سأترك هذا المربع المهم.. أهم مربع فى اللعبة..»

قالت باسمة:

- «نعم.. لن تتركه إلا قاتلًا أو مقتولًا.. أنا أضمن لك الحل الأخير..»

ونظرت إلى الظلام الممتد إلى بعيد..

معسكر الرجال هناك.. ترى هل يمكن أن تقابل (ألبير)؟.. ولو قابلته.. هل تضطر إلى قتله أو يضطر إلى قتلها؟..

(ألبير) طالب الطب وجارها.. يتردد معها على ذات الكنيسة.. لم يتبادلا أكثر من عشر كلمات فى حياتهما لكنها تعرف أنها تميل له.. خجول جدًّا جدير بأن يكون بيدقًا فى لعبة الحياة، لكنها تعرف أنه يخفي تحت مظهره الهادئ بركان عواطف.. وبركان العواطف هذا مخصص لها..

كم دهشت عندما فوجئت به فى الطائرة التى أقلتهم إلى هنا..

ولكم تمنت ألا تشتبك معه أبدًا..

يمكنها أن تقتل (شادى) هذا لكن لا تطالبوها بالمزيد...

لم يكن (شادى) بالفعل ينوى ترك هذا المربع المهم.. ولم يكن من يحركه ينوى هذا؛ لذا تقدم (سيد أمين) بيدق فيل الملك إلى الصف الرابع من ناحيته ليحميه..

(سيد أمين) عاطل.. ليست هذه هى المشكلة لكنه يبدو صاحب سوابق كذلك.. له عين وقحة شرسة وهو لا يكف عن النظر إلى الفتيات نظرات لزجة.. يهرش رأسه بلا توقف مع هواية محببة أخرى هى البصق على الأرض..

تمنت (إيرين) أن ينتهى أمره بسرعة لأنه مزعج فعلًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت (عبير) لساعتها.. إن الفجر قريب..

سوف تنام عندما تشرق الشمس، لكن الوقت يسمح لها بلعبة أخرى..

ت

نعم.. لقد حان وقت التبييت القصير أو ال castling.. سوف ينام الملك فى القلعة..

هكذا تقدمت طالبة الهندسة الفاتنة.. الملكة (ميادة عبده) إلى المربع G1... بينما تحركت إلى يسارها طالبة الآداب قوية الشخصية والعضلات (جورجيت صبحى).. بعبارة أخرى توارى الملك فى حماية الطابية (أو الرخ)..

لا أحد يستطيع الدنو من هنا لأن جورجيت ستخرب بيته..

هذه الخطوة تتيح للملك أن ينعم بحماية الرخ وأمامه جنوده الذين يمكن أن يضحوا بأنفسهم من أجله.. فقط هو موقف يقيد حركته نوعًا ويجعله تحت رحمة فرس ينزل هنا أو هناك ليهدده..

كان رد الجانب الآخر غريبًا بعض الشىء..

لقد تقدم فيل الملك للأمام ليصير أمام الوزير.. ف 3 و..

أى أن (عزت الشرقاوى) الملاكم الضخم شديد الشراسة تقدم للأمام ليحمى ظهر د. (يحيى).. د. (يحيى) الذى يحميه الحصان أصلًا...

شعرت (عبير) بقلق..

هناك شىء يدبر ضدها لكنها لا تفهم ما هو..

يجب أن تنام الآن. ليس هذا أفضل وقت لاتخاذ قرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الخدعة الكبرى..

كما فى كل شىء فى العالم تخلد العبقرية ويخلد الغباء فى الشطرنج..

كل الأدوار العبقرية المذهلة موجودة فى الكتب، وكذلك الأدوار شديدة الغباء ومنها (دور الأغبياء) الذى يتلخص فيما يلى:

الأبيض: ب 3 فم (حرك البيدق أمام فيل الملك خطوة للأمام)..

الأسود: ب 4 م..

الأبيض: ب 4 حم (حرك البيدق أمام حصان الملك خطوتين للأمام)..

الأسود: و 5 رم!! (حرك الوزير إلى الصف الخامس من ناحيته ليقف فى خانة رخ الملك الأبيض)..

كش.. مات!... هكذا انتهى ملك الأبيض قبل أن تنتهى النقلة الثانية!!

لم يحفظ لنا التاريخ اسم هذا اللاعب الأبيض العبقرى فى غبائه، لكنهم فى الخارج يطلقون على أمثاله اسم (باتسر Patzer).. لفظة ألمانية قريبة من لفظة (غشيم) عندنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (عبير) ل (مختار) إنها ستدخل لتنام قليلًا، فلم يسمعها لأنه كان يصغى باهتمام لأغنية تقول:

- «إت وازنت مى..»

وكان يتابع الكلمات على الشاشة ويهز رأسه فى حماس مع الإيقاع..

هكذا قررت ألا تزعجه..

اندست تحت الأغطية المريحة فى غرفتها وراحت تئن بسبب آلام ظهرها..

الغرفة مظلمة هادئة مكيفة، والجو مريح.. لكنها برغم هذا ظلت عاجزة عن النوم..

عيناها مفتوحتان وكل تفاصيل المباراة فى ذهنها.. أضف لهذا فكرة كل هؤلاء الشباب الجالسين فى الصحراء الباردة بانتظار أن تصحو من نومها.. نعم الصحراء باردة جدًّا ليلًا لو كنت نسيت دروس الجغرافيا.

كلما دخلت حالة السنة أو ال Hypnagogic state اكتشفت أنها لا شعوريًّا تنقل القطع وتواصل المباراة.. إن هذه اللعبة قد تؤدى للجنون فعلًا، ولهذا يمكنها أن تتصور حالة الخبال التى عبر عنها (زفايج) بدقة فى قصة لاعب الشطرنج، حيث صار البطل ينقل قطعًا لا وجود لها ويلعب أدوارًا لعدة ساعات مع خصوم وهميين. بل إنه صار قادرًا أن يصير اثنين لا علاقة لأحدهما بالآخر ولا يعرف ما يفكر فيه..!

هكذا مرت الساعات.. كان من الممكن أن تنهض لكنها كانت تعرف أن هذا أسوأ..

من الأفضل للجميع أن تتماسك هذه الساعات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الصحراء ظل الجميع واقفين بانتظار النقلة التالية للأبيض (الفتيات) لكنها لم تأت..

بعد فترة بدأ الجميع يجلسون على الرمال..

بعض الرجال أشعل لفافة تبغ ومن مكان ما ظهر رجل أمن صموت يحمل بعض الطعام والشراب الساخن، وراح يمر على هؤلاء الجالسين...

قال (أشرف صدقى) الطبيب الشاب والحصان وهو يمسك بكوب الشاى بكلتا يديه:

- «واضح أن من يحركوننا ينامون الآن..»

- «هم محظوظون. جميل أن تتحكم فى مصائر الناس مثلما كان الإغريق يتصورون آلهة الأوليمب جالسين يتسلون..»

كان جالسًا على الرمال قرب (مها كمال) المعلمة حادة الطباع..

من الغريب أنها بدأت تبتسم وبدأت تضحك أحيانًا..

وخطر له إن العينين تحملان روح الشخص كله.. عيناها صادقتان فيهما دفء لا شك فيه.. ثم تذكر أنه كان يشعر دومًا نحو الفتيات البدينات بأنهن يحملن طاقة حنان عارمة. نوعًا من الأمومة..

أما هى فكانت تتساءل فى سرها: هذا رجل وسيم وبرغم هذا ظريف.. كيف؟.. من المستحيل أن تحكم على أى شخص ما لم تقترب منه.. من الممكن أن يوجد رجل وسيم وطيب مع هذا.. رياضى؟.. هذا ليس ذنبه.. لسنا مسئولين عن تكويننا العضلى ولا شكلنا..

من الممكن أن تميل لأى إنسان لو مستك طاقة روحه.. فقط عندما تدنو من شخص لهذا الحد فتزداد نفورًا تعرف أنه غبى الروح.. روح مقفلة يستحيل التعامل معها..

قالت له وهى تعتدل فى جلستها (وهذا صعب مع بدانتها):

- «أرجو ألا أضطر لقتلك..»

- «لن تضطرى.. ما لم يمل هؤلاء لتحطيم القطع..»

- «لا نعرف ما سوف تتطور له الأمور..»

فى هذا الوقت تجلس (غادة الفقى) على الرمال تراقب ضحيتها المحتملة د. (يحيى)...

إنها تهدد حياة طبيب بينما يحميه طبيب.. هذا وضع فريد من نوعه..

بالتأكيد يختلف (يحيى) كثيرًا عن (عادل).. لقد خلق ليكون بيدقًا.. لكنه بالتأكيد لم يخدع فتاة فى حياته. عيناه صادقتان مليئتان بالحرارة..

فقط لن تفخر فتاة أبدًا بأنه لها..

سألته ضاحكة:

- «هل انتهى هذا الـ (روى لوبيز)؟»

قال وهو يرشف الشاى:

- «لست خبيرًا باللعبة لكن أعتقد أننا أنهينا الافتتاحيات..»

وخطر له أنها فاتنة بحق.. لو فاز المرء بحب فتاة كهذه فليذهب العالم للجحيم.. يمكنه أن يتحمل الفقر والعيادة التى لا يدخلها أحد.. لو ظفر بحبها فلن يعود بيدقًا فى لعبة الحياة..

المشكلة أنه لا يمكن الظفر بحبها وأنت بيدق!.. هذه هى المشكلة فى حياته دومًا.. دائرة شيطانية مفرغة.. لابد أن تكون وسيمًا ثريًا كى تفوز بحب فتاة تغنيك عن أن تكون وسيمًا ثريًا!!

وتذكر ساخرًا عبارة قالها أحد ملوك الكوميديا الأمريكيين لفتاته:

- «لو أننى أفضل من هذا كما تريدين لاخترت فتاة أفضل منك!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحت (عبير) من نومها عاجزة عن معرفة الساعة..

ضغطت على الشعاع فرأت على السقف:

AM 7:00

تناولت إفطارًا سريعًا مع المزيد من القهوة السوداء. ألن تجد شايًا فى هذا المكان اللعين أبدًا؟ ...

ثم خرجت لغرفة التحكم حيث كان (مختار) لم يمت بعد للأسف.. كان يصغى للموسيقا كالعادة بالسماعات على أذنيه وهو يشرب الشاى..

نظرت للساعة فوجدت أنها السابعة والربع الآن..

نور الشمس يتسلل إلى الغرفة ساطعًا منعشًا..

استغرقت بعض الوقت حتى تتذكر أين هى وأين توقفت اللعبة..

ثم قربت مكبر الصوت من فمها لمست صورة (لمياء جاد الله) المهندسة.. وقالت:

- «ب 3 و»

معنى هذا أن يتقدم بيدق الوزير خطوة للأمام..

رأى الجميع (لمياء) تتحرك فعرفوا أن الليلة انتهت..

كانت الشمس قد جعلت الدم يعود إلى أطرافهم، وهو دفء سوف يتزايد تدريجيًا إلى أن يصير الجحيم ذاته.. لكنهم بالفعل تجمدوا أثناء الليل..

مشت (لمياء) ببطء فوق الرمال قاصدة الخانة المخصصة لها.. وصارت تهدد (شادى) لاعب

الكرة الذى يلعب دور الحصان..

نظر لها فى سخرية..

لا يتصور أن تهدده فتاة مثل هذه.. إنها فى حجم ساعده بلا أدنى مبالغة..

لكنها كانت جادة جدًّا.. جادة بشكل يبعث السخرية.. على كل حال (سيد أمين) يحمى ظهره من خطرين...

فى رد سريع تحرك الفيل (عزت الشرقاوى) الملاكم الضخم شديد الشراسة، ليهدد الحصان (إيرين)...

لقد تعقدت الأمور..

ضغطت (عبير) على صورة (لمياء) وأصدرت الأمر المرعب:

- «ب **X**ح»

فليقتل البيدق الحصان....

لم يصدق (شادى) هذا..

هذا ليس لعبًا.. إنه انتحار..

لابد أنهم يمزحون!

لكن (لمياء) المهندسة النحيلة كانت متحمسة كما قلنا، وهكذا رفعت المسدس وصوبته نحو صدر (شادى) وأطلقت الرصاص..

سقط على الأرض.. فمشت لتقف مكانه..

لن يطول انتصارها على كل حال لأن الانتقام قادم حالًا لو لم تكن مخطئة..

تعاون اثنان من الفتية على حمله إلى خارج الساحة، وأرقداه جوار جثة (رانية) التى هلكت ليلًا...

هنا حدث شىء غريب..

لقد نهض أحدهما فنظر ليديه.. إنهما ملوثتان بالدم..

نظر لثياب صاحبه فوجد أنها ملوثة بالدم..

تبادلا النظرات فى رعب..

بالفعل كان هناك ثقب ينز الدم بلا توقف فى صدر (شادى)..

وهرع أحد الفتيين إلى جثة (رانية)... ما معنى هذا؟.. إن هناك ثقبًا فى صدرها كذلك!

إذن ما معنى كل ما قيل عن حقن (الثورالين) المخدرة وكل هذا؟.. هذا رصاص حى!.. من مات مات فعلًا!

صاح أحدهما:

- «تعالوا يا شباب وانظروا!!»

والتف الشباب حول الجثتين غير مصدقين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مصرع سيد أمين..

- «كل هذا حقيقى إذن!»

- «لقد خدعونا..!.. إن من ماتوا ماتوا فعلًا!»

وراحت (لمياء) تنظر إلى مسدسها فى جزع، وصاحت:

- «إذن أنا قتلته بدم بارد... أنا مجرمة!»

- «لكنك لم تعرفى..»

(عبير) لم تكن تسمع شيئًا من هذا، لكنها فقط كانت ترى حركة غير عادية على الشاشات أمامها.. ونظرت إلى (مختار) متسائلة عما يحدث فقال للمرة الأولى:

- «يحاولون التمرد.. هذا متوقع..»

- «وما سبب التمرد؟.. إن كل شىء على ما يرام..»

- «هكذا يفعلون جميعًا.. فى وسط التجربة يتوقفون ويهددون بإفساد كل شىء ما لم نرفع مستحقاتهم..»

ثم فتح مكبر الصوت، وقال بصوت غليظ:

- «إنكم جميعًا تسمعون ما أقول.. هذه التجربة مستمرة ولن تتوقف.. إن القيد حول الكاحل الأيمن الذى وضعه كل منكم فى البداية ليس مجرد جهاز تتبع، إنه كذلك قنبلة محدودة يمكن أن تنفجر فتقضى عليك أو تطيح بطرفك السفلى لدى أى تمرد. لا يوجد مزاح هنا.. فلينهض الجميع ولتستمر المباراة..»

نظرت له (عبير) فى دهشة، وقالت:

- «ما كل هذا العنف؟»

أغلق مكبر الصوت، وقال باسمًا:

- «لابد من بعض الخداع.. إن التجربة تهدف لمعرفة استجابتهم لدى أعلى درجة من الضغط.. هذا جزء من الضغط..»

- « يعنى لا توجد قنابل؟ »

- «لا توجد.. فقط الكثير من الخداع.. «

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (أشرف صدقى) وهو يقف فى مربعه:

- «الأمر واضح.. هذه مباراة بالغة القسوة والشراسة.. قالوا لنا إن الغرض منها معرفة إلى أى

مدى يمكن للمرء الخضوع للسلطة، وواضح أن مدى الطاعة أكبر مما تخيلناه.. سوف نقتل بعضنا إذن..!»

ثم أضاف وهو ينظر إلى (مها):

- «أما أن نقتل الآخرين أو نموت نحن..»

هتفت (إيرين) فى جزع:

- «هذا لن يكون.. أنا لن أقتل إنسانًا أبدًا مهما كان الثمن.. كنا نفعل ذلك حاسبين أننا نلعب.. لكننا الآن سوف نتمرد!»

ورفعت رأسها إلى أعلى كأنما تخاطب الكاميرات فى كل صوب:

- «هل تسمعون يا حمقى؟.. نحن لن نستمر فى هذه اللعبة!»

ثم انطلقت تعدو خارجة من مربعها.. الحصان الآدمى الثانى فى هذه اللعبة..

صاح (أشرف):

- «انتظرى.. يجب أن نتناقش أولًا.. ليس بهذه السرعة..»

ليس بهذه ال...

لم يصدق أحد ما حدث..

لقد دوى الانفجار ليهز الأرض تحت أقدامهم..

لم يكن هائلًا أو مروعًا.. بالواقع لم يخطر ببالهم أنه مؤذ إلى هذا الحد إلا عندما انقشع الدخان كاشفًا عن جثة (إيرين) الممزقة..

غطت الفتيات وجوههن غير مصدقات..

لم يصدق أحد أن هذا ممكن..

وفى لحظة ظهر رجلان ليحملا الجثة خارج الرقعة، ويصلحا كل شىء ويعيدا تثبيت لافتة الخانة.. كأن (إيرين) لم توجد قط..

فى الوقت ذاته لم تر (عبير) هذا المشهد.. لحظة الانفجار أظلمت الشاشة وملأتها الخطوط.. ونهض (مختار) ليحاول إصلاح خلل افتراضى..

خلال هذه اللحظات ظهرت فتاة أخرى رشيقة خفيفة الحركة..

اسمها (نهى خالد).. طالبة تجارة لكنها كذلك بطلة من أبطال الجمباز..

بلا أية كلمات وقفت فى ذات المربع الذى كانت تقف فيه (إيرين)، وقالت بصوت عال:

- «أنا (نهى).. حصان الوزير الجديد!»

لقد بدأ لاعبو الاحتياط فى أخذ أماكنهم!

هنا عادت الصورة إلى شاشة (عبير)..

دققت النظر فبدت لها (إيرين) مختلفة قليلًا، لكنها قدرت أنها حمقاء.. مع هذه المسافة لا يمكن أن يحكم المرء بدقة..

قالت ل. (مختار) الذى عاد لمكانه:

- «شكرًا لك..»

لم يكن اللاعبون قد استجمعوا أنفاسهم بعد، عندما دوى الأمر المروع:

- «ب **X ب**»

كان الأمر مخيفًا فى البداية لكنه الآن صار مريعًا..

إنه أمر إعدام حقيقى لا مزاح فيه..

مد (سيد أمين) العاطل صاحب السوابق يده فى حزامه وصوب مسدسه إلى رأس المهندسة النحيلة (لمياء)..

هذه أول من يموت وهو يعرف أنه سيموت فعلًا...

لكنها لم تقاوم ولم تصرخ.. ظلت تنظر له فى ثبات واستسلام وقالت:

- «أنا قتلت رجلًا منذ دقائق.. هلم اقتلنى وليباركك الله!»

قال (سيد) وركن فمه يهتز بحركة عصبية تميز مدمنى المخدرات الذين بلغ جهازهم العصبى الحضيض:

- «أنا آسف.. آسف يا أختى.. أما أن أفعل هذا أو أموت..»

قال (أشرف صدقى):

- «لا تفعل يا (سيد).. لا تفعل..»

- «وهل لديك اقتراح آخر؟»

أطرق (أشرف) عاجزًا عن الإجابة..

هكذا أطلق (سيد) مسدسه فتهاوت الفتاة على الأرض، وسرعان ما كانت تُحمل إلى الخارج..

ووقف مكانها..

المشكلة أنه صار يهدد (غادة) حصان الملك بشدة...

إنه ينظر لها ويضحك ويصوب المسدس نحو رأسها ويقول (بوم) ثم يقهقه.. يخرج لسانه.. يرقص حاجبيه بانتظار أوامر القتل... كانت غادة فاتنة وقد راق له أن يدمر هذا الجمال.. أما هى فكان رأيها فى الرجال يزداد سوادًا..

وقال لها د. (يحيى) وهو يرتجف:

- «هذا الوغد سوف يقتلك.. أنصحك أن تهربى..»

قالت (غادة) وهى تنظر إلى (سيد أمين) فى اشمئزاز:

- «ليس قبل أن يتلقى تعليمات بقتلى..»

- «لا أعتقد أنه سينتظر.. سوف يرتجل..»

لم تشعر عبير بشىء ولا شعرت بأنها رأت مأساة كاملة..

كل ما كان يهمها هو أنها لن تسمح لهذا الوغد بأن يقتل حصانها (غادة)..

هكذا أمرت حصانها الجديد (نهى خالد) بأن يتقدم ليحتل الخانة التى يقف فيها (سيد أمين).. المشكلة أن هذا يضيع موقعًا استراتيجيًّا مهمًّا جدًّا لكن ما باليد حيلة..

هكذا تقدمت (نهى) ومن دون كلمة أخرى رفعت مسدسها إلى رأس (سيد)..

رأى (سيد) المسدس مصوبًا إلى رأسه، فصاح فى جزع:

- «أنتِ لن تجسرى على ذلك!.. هذا السلاح يقتل فعلًا.. يقتل!.. لا مزاح هنا.. أنت تقتلين شخصًا بريئًا!»

ثم تذكر أن الموقف لم يعد يحتمل الالتزامات القانونية، وهكذا مد يده إلى حزامه ينتزع مسدسه..

هنا أفرغت (غادة) طلقة فى رأسه..

نظر لها الجميع فى دهشة، ونظرت لها (نهى) فى لوم..

قالت وهى تنفخ دخان المسدس من الفوهة:

- «آسفة.. لكنه كان سيطلق الرصاص قبلك!.. إنه معتاد الغش!»

وتقدم رجلان يخرجان جثة (سيد)...

بينما تقدمت (نهى) لتقف مكانه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- بذور تمرد..

الخطوة التى قام بها ملك الرجال هى التبييت..

المذيع (رامى اللبودى) توارى خلف حماية (مصطفى عبد الحميد) الطابية الآدمية..

هذا يدل على أنه بدأ يقلق من تناثر القطع فى كل مكان.. بعبارة أخرى هو دخل القلعة فعلًا...

ضغطت (عبير) على صورة (مها سالم) الأديبة البدينة الظريفة، وأصدرت أوامرها:

- «ف **3** و»

مها هى فيل الوزير.. ومعنى الأمر أن تتقدم خطوة واحدة جانبية لتقف أمام الوزير.. هذه حركة تدعى (فيانشتو fianchetto)..

هكذا تقدمت (مها) وعلى وجهها تلك الابتسامة الطفولية لتواجه الرقعة.. يبدو أن (عبير) تحاول منع وزير العدو من التقدم لتهديد مربعاتها.. لا أعرف بالضبط هدف هذا الفيانشتو فأنا لم أكن قط لاعب شطرنج بارعًا.. أعرف الكثير عن اللعبة وقواعدها لكنى لا ألعبها جيدًا، وهو ما يذكرك بأستاذ موسيقا لا يستطيع عزف لحن واحد بإصبع واحد على البيانو، أو خبير فى أوزان الشعر لا يقدر على نظم بيت واحد..

كانت (مها) تتمتع بقدر كبير من الطفولة، وكانت مولعة بالحيوانات الصغيرة والأطفال.. إن نمط الضخم ذا قلب الطفل صار معتادًا على كل حال، وكانت تمزح مع صديقاتها ولربما سخرت من نفسها معهن، لكنها فى نهاية اليوم تعود لغرفتها فتغلقها على نفسها وتنزف على الورق دمًا بدل الدموع..

تخرجت فى كلية الآداب ولم تعمل.. كرست نفسها للأدب.. يمكنك أن تراها فى أية ندوة أدبية فى وسط القاهرة تطلق ضحكاتها وقفشاتها التى لا تتوقف.. أصدرت ديوانين من الشعر ومجموعة قصصية لم تحقق أى نجاح.. ابتلعت ألمها واستمرت فى الضحك، وإن كانت تعرف مصير هذه الشخصيات الانبساطية الاكتئابية مثلها.. سوف تنفجر فجأة..

لم تكن تعرف حرفًا من هذه اللعبة، لكنها نفذت الأمر كما صدر لها حرفيًا..

هنا تحرك وزير الأعداء..

و 3 ر م..

لابد أن هذا هو الأمر الذى صدر لـ (سمير مصطفى).. المهندس الزراعى قوى البنية واسع الحيلة..

فى تؤدة يتقدم شأن من يعرف أنه أقوى قطعة فى اللعبة وأكثرها أهمية..

إنه يهدد فى كل الاتجاهات.. له كل الصلاحيات.. يتحرك فى كل صوب. فقط هو لا يملك حيلة وحركة الحصان..

لو تحرك فى خط طولى فهو يهدد (غادة) الحصان، وإن كان وزيرها يحميها لهذا هى فى أمان مؤقتًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى خدرها - كهف صغير ضيق - تجلس الملكة.. (ميادة عبده) طالبة الهندسة الفاتنة..

تتصرف كملكة فعلًا وقد اندمجت فى هذا الدور، وهى الآن مضطجعة على ساعدها تلتهم بعض الفاكهة. كانت منتشية بشدة لأن الاختيار وقع عليها لتكون الملكة ومعنى هذا أن كل هذه الحرب تدور من أجلها..

لم تكن قد رأت (رامى اللبودى) ولا تعرف كيف يبدو، ولا المؤهلات التى جعلته ملك الرجال، لكنها كانت تعرف أن اللعبة والحياة لا تتسع لهما معًا.. لابد من رحيل واحد منهما..

تنظر فى رضا إلى (جورجيت) طالبة الآداب قوية الشخصية والعضلات التى تحرسها.. يمكنها أن تطمئن وأن تنام بعض الوقت.. هذا الظهر القوى لن يترك خطرًا يتهددها..

كانت موشكة على النوم عندما سمعت (جورجيت) تتجادل مع شخص ما..

نهضت مذعورة فرأت أن الفتاة تكلم شابًّا نحيلًا ذا نظارة سميكة..

هتفت فى ذعر:

- «رجل هنا؟.. اطرديه حالًا..»

كان بوسع (جورجيت) فعلًا أن تقذفه فى الجو أو تركله فيطير بضعة أمتار، لكنها كانت راغبة فى سماع ما يقول..

- «يريدك فى شىء مهم يا (ميادة)..»

قالت (ميادة) فى حزم تخلطه بشىء من الهزل:

- «اسمى ليس ميادة ولكن قولى لى (مولاتى).. دعيه يقترب..»

دخل الفتى ليجلس على الأرض لاهثًا.. كان فى أسوأ حال وبدا موشكًا على البكاء فى أية لحظة.. هذا جعل من المستحيل أن توقفه أو تمنعه.. الضعف المفرط والقوة المفرطة كلاهما قادران على اختراق الأسوار..

- «أنا (ألبير ميخائيل).. بيدق حصان وزير..»

قالت فى شىء من سخرية:

- «مفهوم.. مفهوم.. جسمك هذا لا يسمح لك بأن تكون ملكًا أو وزيرًا..»

- «سأتكلم بسرعة لأننى أعتقد أنهم يسمعون ما نقول عبر هذا القيد اللعين حول كاحلنا.. لقد فقدت حبيبتى (إيرين) منذ ساعة..»

قالت (ميادة):

- «نعم.. البائسة.. حصان الوزير.. لقد حاولت التمرد..»

- «ألم تفهمى بعد؟.. كلنا سنموت.. هذه مؤامرة لا تبالى بأرواحنا قدر ما تبالى بدراسة ردود فعلنا.. ما يحدث فى الخارج هو قتل بالمعنى الحرفى للكلمة.. لم يعد هناك كلام لطيف عن طلقات مخدرة وهذا الهراء.. هناك عدد من الجثث يتكوم..»

- «وماذا تريد؟»

- «سوف نتمرد.. جميعًا سنتمرد.. لكننا لا نريد أن تكونن خصومنا بل حلفاءنا.. عندما يقع التمرد يجب أن تشاركن فيه..»

- «وكيف نعرف أنكم تمردتم؟»

- «عندما ترينا نحطم كل شىء.. هذه الكاميرات لا تتصل بسلك.. معنى هذا أن هناك هوائيًّا يتلقى الإشارات.. سوف نجده ونحطمه، وعندها سوف يكون بوسعنا انتزاع هذه القيود..»

ثم جفف العرق على وجهه وأشار إلى طبق الفاكهة أمامها:

- «هل يمكن أن آخذ ثمرة كمثرى؟.. أنا أموت جوعًا..»

- «نعم.. لكن ألم يوزعوا عليكم المؤن فجر اليوم عندما توقفت اللعبة؟»

- «نعم.. لم يوزعوا على البيادق.. إن البيادق لا تنال شيئًا..»

وقضم قطعة كبيرة من الثمرة، ثم انطلق جاريًا..

توقعت أن تسمع صوت الانفجار لكنه لم يحدث لحسن الحظ..

يبدو أن أحدًا لم يشعر به فعلًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قررت (عبير) أن تحرك وزيرها..

إن الطريق مغلق أمامه لهذا حركته إلى الأمام خطوة جانبية توطئة لتحريره..

(نرمين منصور) طالبة الطب واسعة الحيلة تتقدم خطوة للأمام.. هى أهم قطعة فى الرقعة كلها وهى تعرف هذا.. ماذا تفعله الملكة سوى النوم والتهام الكمثرى؟.. كل العبء عليها هى..

صارت الطابيتان أو الرخان (جورجيت) و(مى عبد الحميد) على خط واحد، وهى قوة كاسحة تنذر بتحطيم كل من يجرؤ على الوقوف بينهما..

تحرك بيدق الوزير.. المهندس الشاب (زياد مصطفى) ليفتح المجال لحركة الفيل..

وزير (عبير) يتحرك خانة أخرى..

إنه الآن يهدد المهندس (زياد).. ليس بالضبط.. لأن وزيره يحميه..

فيل الوزير (ناجى سليمان) يتقدم إلى الخانة H3.. إنه ذلك المحاسب البدين المرح الذى هو أقرب للطفولة.. شبيه جدًّا بصلاح جاهين.. لنقل إنه المعادل الذكرى لـ (مها سالم)..

لكنه بوضعه بهذا يهدد الطابية (جورجيت)...

لقد بدأت الأمور تسوء...

التحام القطع على الرقعة شديد يحتاج إلى خبير كى يقوم بفكه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- المزيد من القتلى..

ح5 حم...!!

معنى علامتى التعجب أنها حركة بارعة جدًّا... علامة الاستفهام معناه أنها حركة غبية..

هذا هو الأمر الذى أصدرته (عبير) وهى تلمس صورة الحصان (إيرين)... طبعًا هى لا تعرف أن (إيرين) مزقها الانفجار وأن حبيبها يدبر المكائد الآن ضد اللعبة كلها..

لكن (نهى) نفذت الأمر.. بحركة الحصان الرشيقة الشبيهة بحرف L تقدمت إلى الخانة الخامسة من صف حصان الملك..

هذه حركة خطرة جدًّا لأنها تنذر بقتل بيدق رخ الملك.. (مصطفى المهدى) طالب الحقوق الذى يهدده الوزير بالفعل...

أنت تعرف هذه المواقف... سوف تقتل (نرمين منصور) هذا البيدق التعس ولن يستطيع ملك الرجال عمل شىء لأن الخانة يضربها الحصان.. من ثم يجد نفسه فى موقف غاية فى السوء.. بالضبط سوف تجثم (نرمين) على نفسه ولن يكون هذا ممتعًا بل هو الاختناق....

كش مات...

سوف تقتل (نرمين منصور) (رامى) بسهولة تامة...

لكن هناك حلًّا لحسن الحظ هو أن وزير الرجال تحرك جانبًا ليحمى طالب الحقوق بنفسه..

فى تؤدة تقدمت الوزير (نرمين منصور) بضع خطوات للأمام..

أشارت بمسدسها إلى الملك (رامى) وابتسمت...

لم يفهم ما تريد.. إنها بعيدة جدًّا عنه..

لكنها قالت بصوت عال:

- «كش!!»

هنا فطن إلى أنها على ذات الصف معه..

تراجع خطوة لينزوى فى الركن وهو يشعر بضيق شديد لأن فتاة كهذه ترغمه على هذا.. فى ظروف أخرى ما كانت لتقاوم سحره...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسمت (عبير) وجرعت المزيد من القهوة..

إن قطعها أفضل وفى أماكن أكثر إحكامًا.. يمكن القول إن السيطرة لها..

أما وقد انتهت مناورتها لحصار الملك فلم يعد هناك ما يدعو لبقاء الفيل (ناجى) فى موضعه

الذى يهدد الطابية.. إنه خطر..

قالت من بين أسنانها وهى تضحك:

- «آسفة.. لكنى لا أحب الرجل الذى يقف وسط الفتيات.. مكانك ليس هنا يا صاحبى..»

وأصدرت أمرها للحصان (نهى) أن يتراجع ليقتل الفيل..

ح 3 رم

ح X ف

منذ نزلت (نهى) إلى الرقعة وهى نشطة فى القتل فعلًا..

كما أنها متحمسة كما هو واضح..

هكذا اتجهت نحو المحاسب البدين المرح ورفعت مسدسها..

قال لها فى جزع:

- «تعرفين أن هذا موت حقيقى.. تعرفين أنها ليست لعبة!»

قالت وهى تصوب المسدس جيدًا:

- «وأنت تعرف ما يحدث للمتمردين.. آسفة!»

وانطلق الرصاص فتهاوت الجثة المكتنزة على الأرض والدم ينز من جبينها..

وقفت (نهى) تلهث وهى تنظر للمسدس..

لقد قتلت اثنين.. ربما لم تكن متضايقة جدًّا من قتل (سيد) لكنها بالتأكيد لم تحب قتل هذا الفتى..

رائحة البارود تزكم الأنوف..

خطر لمن كان بقربها إنهم كانوا حمقى..

رائحة البارود هذه تنفى تمامًا أية أوهام بصدد الطلقات المخدرة.. لكن الغريب أنهم لاحظوها فقط بعد أن عرفوا!

دخل رجلان يحملان جثة المحاسب الثقيلة إلى خارج الرقعة بينما وقفت (نهى) مكانه..

لقد تم التطهير فى هذا القطاع..

لا توجد أية قطع متسللة بين الفتيات...

ونظرت (عبير) لساعتها..

كم يجرى الوقت بسرعة هنا!

إنها الثالثة بعد الظهر..

وهى جوعى لم تذق شيئًا منذ الصباح.. هكذا وقفت تنتظر نقلة العدو قبل أن تعلق اللعب إلى أن تبحث عن شىء تأكله..

تقدم الوزير (سمير مصطفى) المهندس الزراعى إلى الخانة B2..

هناك كانت (ريهام خليفة) الصيدلانية.. إنه يمقت الصيادلة لأنه تمنى دخول كلية الصيدلة فلم يظفر إلا بكلية الزراعة التى لم يحبها قط.. هو كذلك يمقت الفتيات..

عشرة بيوت.. عشر فتيات مختلفات.. أمه معه.. (الحاجة) العجوز التى لم تنزع الأسود منذ وفاة أبيه.. نريد أن يكون البيت واحدًا إن شاء الله.. خطوة عزيزة يا حاجة، لكن العروس تظل ساهمة مكفهرة الوجه..

ما هى مشكلته؟.. إنه وسيم يروق للفتيات.. رياضى الجسد لكنه مفلس.. مفلس فعلًا..

الفتيات لا يتنازلن.. كل واحدة تريد جزيرة وطائرة (بوينج) ورحلة صيفية إلى جزر البهاما ويختًا.. تريد فيلا فى فلوريدا وتريد وزنها ذهبًا...

الفقر يتزايد والحياة خانقة، لكن لا فتاة تقبل أن تضحى.. لا فتاة تقبل أن تبدأ معه..

عشرة بيوت.. وعشر فتيات.. والنتيجة هى أنه صار يكره الفتيات جميعًا.. يكره نفسه ويكره قامته الفارعة وجسده الرياضى.. هذه أشياء لا ثمن لها فى سوق الزواج..

(ريهام خليفة) صيدلانية.. والصدفة الأجمل أنها فتاة..

هكذا رفع مسدسه بيد ثابتة..

هتفت (ريهام) التى لم تصدق أن هذا يحدث:

- «أنت لن تفعل ذلك.!... تذكر أنها ليست لعبة.. أنا سأموت فعلًا..»

- «أعرف هذا..»

وانطلقت الطلقة..

طاخ!

جثة أخرى فوق الرمال..

قال لنفسه: «لا بأس.. واحدة أخرى لن ترفضنى بعد اليوم!»

ثم تقدم ليقف مكانها..

ونظر إلى (مى عبد الحميد) التى تلعب دور رخ الوزير.. السكرتيرة المشاكسة قوية البنيان قوية الشخصية وابتسم فى توحش.

لا يعرف متى يصدر الأمر (**و X ر**) لكنه يتمنى أن يكون قريبًا...

نظرت (عبير) للشاشة مفكرة فى عمق...

علاج هذا سهل على كل حال.. سوف تنفذه بسرعة (على الواقف) قبل أن تذهب لتناول

الغداء..

لمست (عبير) صورة (مى عبد الحميد) فى غرفة التحكم وهمست:

- «رو 1 حو..»

هكذا تحركت (مى) رخ الوزير خطوة جانبية لتقف فى صف حصان الوزير، ولتهدد الوزير مباشرة وهى تضحك فى وحشية..

لا يستطيع أن يقتلها لأن (جورجيت) الطابية الأخرى تحميها..

لكنه لم يكن ينوى الرحيل بسهولة من هذا الموضع الممتاز.. بمعنى أدق لم يكن من يحركه ينوى هذا..

هكذا استدار ليفرغ مسدسه فى (مى عدنان) المحاسبة التى تلعب دور بيدق فيل الوزير..

ووقف مكانها...

إنها لمذبحة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 - الأسود..

سألت (عبير) (مختار) إن كان يرغب فى تناول الغداء معها.

نظر لها نظرة خاوية من المعنى والسماعات على أذنيه وهو يهز رأسه.. وعلى الشاشة أمامه قرأت كلمات الأغنية الحالية:

- «آم أ نايت مير.. أ ديزاستر..»

الكلمات الرقيقة التى ترجمتها:

» أنا كابوس.. أنا كارثة.. هذا ما يقولون دومًا عنى..»

» أنا بطاقة خاسرة.. لست بطلًا..»

» لكننى قادر على النجاح وحدى..»

» إننى أقف ضد العالم! »

هزت كتفها وتركته.. على قدر علمها لا أحد يتقاضى راتبًا من أجل سماع أغان.. وبهذا يكون هو صاحب أعلى راتب فى العالم!

طال وقت الغداء.. ربما تحتاج كذلك إلى بعض النوم بعده لأن حبيبات (نيسل) فى مخها قد نفدت ولابد من تجديدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل الشباب واقفين بانتظار النقلة التالية ثم بدءوا يتعبون..

هنا ظهر رجل الأمن الصموت يحمل لهم وجبة ساخنة، وعرفوا أن فترة الراحة ستطول..

تمدد د. (يحيى) على الأرض ناظرًا للسماء.. لم يتصور أنه سيعيش حتى هذه اللحظة مع أنه بيدق لا قيمة له..

من الغريب أنه صار يتمنى أن يعيش كثيرًا جدًّا.. إنه سعيد بحق..

كانت (غادة الفقى) مدرسة التربية البدنية وحصان الملك تجلس على الرمال بقربه وهى تغطى وجهها... لكنها لم تكن تبكى.. كانت حيرى..

بعد قليل قالت له:

- «حقًّا لا أعرف ما حل بى.. أعتقد أننى جننت..»

قال فى مرارة:

- «هل لأننى بيدق؟.. من الصعب أن أفوز بحب حصان؟»

- «بل لأننى أُحب أصلًا!.. أنت طبيب ورجل.. هاتان صفتان كافيتان كى أستمتع بتفجير رأسك..

لكن من الغريب أننى حكيت لك كل شىء وشعرت براحة..»

نظر للسماء التى بدأ ضياؤها الحارق يبرد، وقال:

- «هذه قصة معروفة وتحدث كثيرًا جدًّا.. عندما تغرق السفن أو توشك الطائرات على السقوط تولد قصص حب سريعة جدًّا.. لأنه لا وقت للتصنع أو الادعاء، ولأن الهشاشة النفسية تلعب دورًا مهمًّا.. عندما نكون ضعفاء نقع فى الحب بسرعة..»

- «أنا لم أكن ضعيفة قط سوى مرة واحدة.. وقد أقسمت إننى لن أحب ثانية..»

قال لها وهو يحجب السماء عن عينه:

- «عندما نخرج من هنا سوف تعرفين الحقيقة.. يمكنك أن تعرفى عواطفك الحقيقية..»

قالت فى ضيق:

- «ما أعرفه هو أننى لن أستمتع بقتلك.. قل لى..»

- «ماذا؟»

- «هل عندك سيارة؟»

نظر لها مندهشًا.. هى تفكر فى هذه الأمور إذن.. من المستحيل أن تحب المرأة من ليست عنده سيارة كما هو واضح..

اهتز صدره بالضحك، وقال:

- «لا.. ربما قريبًا جدًّا... هل غيرت رأيك؟»

قالت فى حماس:

- «يعنى لا توجد عندك مساحات زجاج تحدث صوت (سوينك)؟»

نظر لها من جديد مدققًا.. يرى وجهها من أسفل بشكل مخروطى فتبدو كهرم يجثم فوق وجهه.. هرم يقول (سوينك)..

قال:

- «ولا حتى صوت (سوانك)..»

- «ولا ترتاد أية كافتيريا فى المعادى؟»

- «لم أذهب للمعادى قط..»

شعرت بسرور وإن لم تخبره بالسبب.. تركته يعتقد أنها مجنونة تمامًا..

سوينك!... هى تحبه..

سوينك!... سوف يحبها..

على بعد خطوات فى مربع رمال آخر يجلس (أشرف صدقى) قرب (مها كمال) يشربان القهوة...

كانت تتساءل فى نفسها: هل يمكن أن يولد الحب بهذه السرعة؟.. مستحيل.. هى ليست بهذه البلاهة.. تعرف يقينًا أن غرابة الموقف والتوتر هما سبب ما تشعر به..

قال لها:

- «أنا آسف على الإهانات التى وجهتها لك..»

قالت باسمة بطريقتها الفظة المندفعة:

- «لا تخف.. أنا ثخينة الجلد، أو بعبارة أخرى (ما عنديش دم)..»

قال لها فى شرود:

- «لو خرجنا من هنا حيين، فعلينا أن نلتقى وأن نتكلم أكثر.. لابد أن نفهم إن كان هذا الانجذاب وليد الظروف الصعبة أم هو حقيقى أصيل..»

- «كنت أسأل نفسى السؤال ذاته..»

ثم توقف فى اشمئزاز ومد يده فى فمه.. بصق قطعة من البلاستيك هى جزء من كيس، ثم مد يده يفتحها..

كانت هناك رسالة ورقية مطوية.. مد يده يفتحها وقرأ ما فيها..

سألته فى حيرة:

- «ما هذا؟»

- « منشورات!.. هناك من يحاول أن يحدث ثورة هنا.. يطالبنا بالتمرد الجماعى.. يبدو أنه دس بعض هذه البيانات فى أقداح القهوة..»

- «ومن هو؟»

- «لا أعرف لكنه واحد منا.. لا يمكن أن يكون من بين المراقبين..»

- «وماذا ستفعل؟»

لا أدرى.. هناك احتمال كبير جدًّا أن تكون محادثاتنا هذه تُسمع فى بناية المراقبة.. أقترح أن نصمت ونراقب..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهضت (عبير) من نوم مريح طويل فاتجهت إلى غرفة المراقبة لتستكمل المباراة..

لم تكن راضية عن سير اللعب حتى هذه اللحظة.. ينقصها الإلهام وابتكار خطط جديدة. هذه مباراة يلعبها أى شخص عادى وليست مباراة أساتذة جديرة ب. د. (داليا عثمان)..

يجب أن ترغم العدو على الاستسلام، فيدق بأنامله على قطعة الملك كما يفعل الأساتذة علامة على الانسحاب.. يجب...

نظرت للساعة.. إنها السابعة مساء وقد بدأ الليل كموج البحر يرخى سدوله على رأي عمنا

(المتنبى)..

لم يكن (مختار) فى الغرفة.. هذه أول مرة يغادرها فيها..

خطر لها أنه من الممتع أن تضع السماعة على أذنيها وتسمع بعض الموسيقا.. هى سمعت ما يحب سماعه ولا تعتقد أنه يمكن أن يضع أغانى (أم كلثوم) على جهازه لكن لربما كان من حقها أن تجد بعض أغانى (فيروز)..

هكذا اتجهت للشاشة الخاصة به وحركت الفأرة...

بالفعل كان هناك برنامج لتشغيل الأغانى أسفل الشاشة فى شريط المهام، لكن هناك نافذة أخرى.. فتحتها ففوجئت بأنها مليئة برموز مثل:

O_O Nbd7 9. Qe2 Bg6 10. E4 O_O 11. Bd3 Bh5 12. E5 Nd5 13. Nxd5 .8 exd5 14. Qe3 Bg6 15. Ng5 Re8 16. F4 Bxd3 17. Qxd3 f5 18. Be3 Nf8 19. Kh1 Re8 20. G4 Qd7 21. Rg1 Be7 22. Nf3 Re4 23. Rg2 fxg4 24. Rxg4 Rxa4 .25. Rag1 g6 26. H4 Rb4 27. H5 Qb5 28. Qe2 Rxb2 29

هذا تسجيل دقيق لخطوات المباراة...

ثم وجدت مجموعة أسماء.. أسماء الرجال جميعًا.. هناك خانة تسمح بكتابة الخطوة القادمة، وهناك شاشة مراقبة صغيرة تسمح برؤية مسار اللعبة..

هنا بدأت تفهم...

خصمها الغامض طيلة اللعبة.. خصمها الذى يحرك الأسود وفريق الرجال..

كان معها فى ذات الغرفة....

لم يكن سوى (مختار) ذاته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- لقد حدث!

كان عليها أن تتوقع هذا..

لا توجد بنايات أخرى على هذه الجزيرة.. هناك بناية واحدة مؤمنة جيدًا وهى تجلس فيها الآن.. إذن كان خصمها معها وهى لا تدرى. يتظاهر بسماع الموسيقا وبالطبع يسمح برنامجه باستعمال الكتابة.. الكتابة التى ستتحول إلى تعليمات سمعية يسمعها الرجال بطريقة (رقمى آلى تناظرى)؛ لأنه لا يمكن أن يتكلم بصوت مسموع أمامها..

هو يصغى للموسيقا ويدندن، فإذا انهمكت هى فى اللعب بدأ يلعب بدوره.. يكتب نقلاته على الشاشة وهى لا تلاحظ..

لكن ما السبب؟..

فلاهرتى قال لها: «المسئول الآخر لن تعرفيه ولن تلتقيا أبدًا لأننى أكره أن تتدخل العلاقات الشخصية فى الدراسة..»

هذا هو السبب غالبًا..

سمعت حركة فى الخارج فعادت لمقعدها.. دخل (مختار) وهو يقضم شطيرة.. ثم وضع السماعة على أذنه وبدأ يتظاهر بأنه يسمع الموسيقا كالعادة..

أنت ممثل بارع يا صديقى.. لكن لم أتوقع أنك خبير شطرنج كذلك..

قال لها دون أن ينتظر إجابة:

- «هل نمت جيدًا؟»

لم ترد لأنها كانت قد دخلت جو المعركة من جديد..

تأملت الرقعة بدقة ثم بدأ التحريك....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لن أطيل الوصف عليك لأنه من المستحيل أن تتصوره ما لم تكن ترسم القطع والنقلات قطعة قطعة كما يفعل كاتب هذه السطور، على كل حال صارت اللعبة بالغة التعقيد فى العاشرة مساء..

الحقيقة أن موقف (عبير) كان يزداد قوة...

فقط استطاع وزير الخصم (سمير مصطفى) أن يتقدم إلى خانة يهدد فيها الملكة (ميادة).. كش..

كانت هذه أول مرة تتعرض فيها إلى تهديد، وقد أصابتها حالة من الهستيريا.. لم يكن هناك مكان تذهب إليه..

لكن (عبير) كانت تعرف كيف تتصرف..

حصانها (غادة) يمكنه أن يقف أمام الوزير فقط لو تحرك إلى الخانة E3 التى وصل لها (يحيى)!

هكذا أصدرت أمرها للحصان..

حX ب

تلقت (غادة) الأمر المرعب عبر سماعة أذنها..

ارتجفت..

هتفت فى جزع:

- «لا.. ليس الآن..»

الطبيب الشاب الذى وجد الحب أخيرًا يقف ساكنًا مطرقًا للأرض..

هى أيضًا وجدت الحب.. ومع من؟.. مع هذا الذى يطالبها الأوغاد بقتله..

والأدهى أنه كان يقترب فعلًا من الصفوف الأخيرة.. بعد خانتين سوف يترقى ويصير وزيرًا.. يسمون الترقية باسم (التوزير)، أو Queening عندهم لأنه من النادر أن يختار من يترقى قطعة أخرى غير الوزير، وهذا يعنى أن تلعب المباراة بوزيرين فى جيش واحد..

صاحت وهى - لا شعوريًا - تضغط على المسدس فى جرابه كأنها تمنعه من الانطلاق برغم إرادتها:

- «لن أفعل!»

قال (سمير مصطفى) باسمًا:

- «إذن ابحثى عن رد آخر لـ (كش).. لكن لابد أن تجدى حلًّا وأن تردى.. هذا الوضع شبيه بوضع يدعى (وضعية الإجهاد) أو Stalemate)[1] »

قال (يحيى) بدوره:

- «لابد أن تفعلى يا (غادة).. سوف يفجرونك أو – وهو الأدهى -يتسببون فى بتر ساقك..»

سوف أنسحب من اللعبة..

لكن الانسحاب يعنى الانفجار...

عليك أن تختارى بين ثلاثة خيارات:

حبيبك..

مليكك...

أنت...!

ومن بعيد صاحت (ميادة) الحسناء:

- «هيا يا (غادة)..! أنت هنا تلعبين دور الجندى!.. واجبك هو نحوى أولًا وقبل أى شىء.. يجب أن تنقذى حياتى!»

هكذا وبعد صراع طويل هزت (غادة) رأسها..

غارقة فى الدموع حتى لا تكاد ترى، صوبت الفوهة نحو (يحيى)..

طاخ!

سقط على الأرض...

سوينك.. كان (يحيى) هنا..

سوينك.. لم يعد هنا..

تقدمت لتقف مكانه فوق الرمال المبللة بالدم، ولوحت بمسدسها فى وجه (سمير)، وقالت دامعة متوحشة:

- «الآن ابتعد أيها الوغد عنى، وإلا فجرت رأسك..»

قال باسمًا فى ثقة:

- «لن تفجرى رأسى.. هذا ليس من حقك بل هو من حق تلك الفتاة التى تحميك.. بيدق فيل الملك.. هى التى تستطيع قتلى..»

ابتسمت (مها) مأمورة الضرائب ولوحت بمسدسها، مع وعد بالانتقام لو ظفرت بالفرصة..

لكنك لا تستطيع الظفر بالوزير بسهولة.. إن حرية حركته تعطيه قدرة هائلة على الكر والفر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى الواحدة صباحًا استمرت اللعبة..

لم تكن (عبير) تعرف طبعًا أن لعبها يكدس الجثث فى الرقعة.. إنها جثث حقيقية بينما هى تحسبها مجرد فتية مخدرين.. بالواقع لم تكن تملك خبرة طبية، لهذا لم تتساءل كثيرًا عن ذلك المخدر الذى يعمل بنشاط أكثر من يوم كامل..

الآن كان عليها أن تحكم قبضتها على صفوف العدو.. إنها تقترب من الملك جدًّا..

لابد من أن تتخلص من ذلك الحصان المزعج الذى يقف كاللقمة المحشورة فى حلقها.. (أشرف صدقى)..

هكذا أصدرت أمرها للفيل الشرس (مها كمال):

- «ف **X** ح»

(مها) هى الأخرى كانت ممن وجدن الحب أخيرًا.. وفجأة وجدت أن عليها أن تقتل حبيبها بيدها..

صاحت (مها) غير مصدقة:

- « لا!.. هذه قسوة!»

قال (أشرف) فى استسلام:

- «مها.. أنت تعرفين أن هذه اللحظة قادمة.. منذ أمس تعرفين أنها قادمة وكنت سعيدة بها فى البداية.. تصورى متعة قتل هذا الفتى المغرور الوقح!»

- «ليس الآن..!»

وركلت الأرض بحذائها الرياضى الغليظ.. ثم من دون أية كلمة أخرى ألقت بالمسدس على الأرض ووطئته بقدمها..

- « هلم!.. فجرونى هنا والآن...!»

فى هذه اللحظة فوجئت (عبير) بأن عدة شاشات أظلمت وتلاشت الصورة من عليها..

هناك خلل ما فى الاتصال...

فهمت هذا عندما رأت (مختار) يحاول فى جنون أن يستعيد الصورة.. يضغط الأزرار.. يضرب لوحة المفاتيح بقبضته..

- «ماذا حدث؟»

لم يرد كالعادة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- لقد حدث!

» مستر لافا لافا.. شى كول مى مستر بومباصتيك.. سيز أم رو... رو.. رومانطك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل هذا بعشر دقائق كان ثلاثة من الشباب قد خاطروا بحياتهم وتسللوا خارج الرقعة..

كانوا يعتمدون على نعمة ألا يكون المرء مهمًّا... إنهم بيادق.. لا أحد ينظر لهم فى هذه اللحظة بالذات لأن الجميع يتابع الملوك والوزراء فى منتصف الرقعة.. صحيح أن هناك أجهزة تتبع، لكن لابد من المخاطرة كما تعلم..

هكذا انسحبت مجموعة، منهم ذلك الفتى (ألبير) الذى فقد حبيبته ومنهم (عصام السيوى) مأمور الضرائب و(روان خليفة) المهندسة الزراعية..

انتهزوا فرصة الظلام وراحوا يفتشون..

كانوا قد عرفوا موضع كل كاميرا هنا، لكن المشكلة كانت فى العثور على أسلاك.. لا أسلاك إذن هناك هوائى.. واحتاج البحث إلى نصف ساعة لكنهم فى النهاية وجدوه..

كان شيئًا شامخًا أقرب إلى برج إيفيل صغيرًا يقف هناك يراقب الأمور فى جشع، وفى أعلاه عدة أشياء شبيهة بأطباق استقبال الفضائيات..

كان الرهان إذن على أن تدمير هذا الشىء سوف يقطع الجهاز العصبى لغرفة الاتصال..

هكذا تسلق (عصام) الصارية لاهثًا، وهو يرتجف خوفًا من فكرة أن تكون مكهربة..

فى الظلام والسكون أخرج مسدسه.. صوبه على عدة ضفائر سخية من الكابلات تصل بين هذا وذاك..

طاخ!

بين ذاك وذاك..

طاخ!

بين هذه وتلك..

طاخ!

وتأمل عمله فى رضا..

الحقيقة أنهم نجحوا أكثر مما كانوا يتصورون.. الهوائى هو الرئيس فعلًا، والأهم أن من صمموا اللعبة تحسبوا لحدوث تمرد لذا جعلوا المسدسات إلكترونية قابلة لأن تُغلق بإشارة لاسلكية هكذا يصير المتمردون عذلًا.. ما حدث هنا هو أن المسدسات تحررت..

فى ذات اللحظة كانت (مها) تلقى بالمسدس رافضة الاستمرار، وضغط (مختار) على زر التفجير

الذى جواره كلمة (فيل ملك أبيض) وهو ينظر للشاشة التى سوف تمتلئ حالًا بسحابة الدخان على غرار ما نراه من طائرات الأباشى عندما تفجر هدفًا فى العراق.. لكن الشاشة نفسها أظلمت ولم يسمع الدوى..

بعض الشاشات كانت تعمل خاصة تلك التى تعرض منظور عين الطائر، فالخراب لم يكن كاملًا، لكن التحكم فى التفجير انتهى..

نظر (مختار) ل (عبير) بعينين زائغتين ثم هتف:

- «على فكرة. أنا الأسود!»

- «أعرف.. كنت تتظاهر بأنك تحب سماع (الهيب هوب) و(الراب)»

لم يعلق ونهض هاتفًا:

- «أعتقد أنهم دمروا الهوائى.. ربما هو خلل إلكترونى لكن ليس بوسعى النزول لأتحقق..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى هذا الوقت فى الساحة كان المنظر مضحكًا..

الانفجار الوهمى الذى تلا تمرد (مها كمال) جعل البعض يرتمى أرضًا والبعض يغطى أذنيه.. هى نفسها أغمضت عينيها وضغطت على أسنانها. السبب أنهم سمعوا صوت الطلقات..

لكن لم يحدث شىء.. إنها حية سليمة!

هنا فقط ظهرت (روان) تركض بقامتها القصيرة المضحكة، وصاحت ملوحة بذراعيها:

- «لقد تحررنا!!.. يمكنكم فك هذه القيود على الكاحل!»

تساءل (أشرف) فى حيرة:

- «ما الذى يجعلك واثقة هكذا؟»

- «لقد نسفنا الهوائى!»

وبرغم هذا ظل الجميع ينتظر بينما راحت هى بمطواة صغيرة تمزق القيد حول كاحلها.

أخيرًا تحررت فألقته أرضًا ونظرت لهم كى يحذوا حذوها..

تصايح الشباب فى حماس، وبدءوا ينزعون القيود..

ونظر (أشرف) إلى (مها)..

حقًّا هو عرف فتيات بعدد شعر رأسه، وقد تعلم أن يتعامل معهن كأشياء مسلية لا أكثر.. لكن كم فتاة منهن ضحت بحياتها بالمعنى الحرفى للكلمة من أجله؟.. هذا كثير جدًّا.. هذا يشعره بالتضاؤل والتعاسة.. لو صارت حياته كلها مخصصة ل (مها) فهى قد دفعت الثمن مقدمًا ومرة واحدة. إن مشهدها وهى تلقى بالمسدس على الأرض وتطؤه سوف يزور أحلامه طويلًا.. ربما كوابيسه كذلك لأنه لم يعتد أن يكون مدينًا لأحد بهذا القدر..

لكنها لم تترك له فرصة التساؤل أكثر..

لقد قالت وهى تنتزع مسدسها:

- « هلم!.. سيكون لنا كلام مع الذين وضعونا فى هذا الموقف!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- نريد النجدة..

قال لها (مختار) وقد فقد اتزانه تمامًا وراح يذرع المكان جيئة ذهابًا كنمر حبيس:

- «د. (داليا).. نحن بلا اتصال من أى نوع.. سوف أبحث عن مخرج..»

وسرعان ما غادر غرفة التحكم..

لم تفهم (عبير) المشكلة الخطرة فى هذا.. لم لا يخرج ويصلح الكابلات كأى مهندس يحترم نفسه؟.. ليس الأمر أخطر من توقف اللعبة بعض الوقت..

سوف يخرج لهؤلاء الشباب ويضع يديه فى جيبيه ويقول فى مرح:

- «آسف يا شباب.. هناك خلل بسيط.. خذوا راحتكم إلى أن نستعيد الاتصال..»

ما هى المشكلة؟

هكذا فتحت لفافة صغيرة من البسكويت وعادت تجلس أمام الشاشة تقضم وتراقب..

سرها أن هناك شاشة أخرى تظهر البناية من أعلى.. هناك شاشة تظهر رسمًا كروكيًا من منظور عين الطائر للمداخل والمخارج.. هكذا يمكنها أن تتابع..

هناك ترى الشباب - قطع الشطرنج - أو من تبقى منهم يجتمعون فى الساحة الرملية.. يتكلمون..

ضغطت على صورة (ميادة) وقالت:

- «م 1 رم»

لكنها لم تر أية استجابة على الشاشة.. هم بالفعل لا يسمعونها..

فجأة رأت شخصًا وسط الكادر.. شخصًا يمسك به ثلاثة وهم يجرونه جرًا إلى وسط دائرة التفوا حولها..

هنا فهمت.. هذا هو (مختار).. يبدو أنه كان يحاول إصلاح الاتصالات عندما أمسكوا به..

إنهم يستجوبونه عن شىء ما وهو ينكر ثم يهز رأسه.. ثم يتكلم كثيرًا جدًا.. المشهد كله يوحى بشخص يتم استجوابه قد أنكر ثم غلبة الرعب فتكلم..

فجأة رأتهم ينهالون عليه ركلًا وضربًا..

إنه يسقط على الأرض وهم لا يتوقفون!

ما معنى هذا؟

هل جنوا؟

كل هذا من أجل لعبة؟

ثم رأت أحدهم يلوح بذراعيه، كأنه يدعوهم للتقدم.. ووجدت أن (مختار) لا يتحرك على

الإطلاق كأنه خرقة ممزقة فوق الرمال..

لقد مات على الأرجح...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانوا يتقدمون..

رأت أولهم على الشاشة وهو يطلق الرصاص على البوابة..

ظهر رجال الأمن من مكان ما، لكنهم لم يفعلوا شيئًا..

لقد رأوا عدد المهاجمين ورأوا الأسلحة فى أيديهم فرفعوا أيديهم مستسلمين.. (بسيونى) و(بسيونى) و(بسيونى) و(بسيونى) و (بسيونى) لم يكن لهم نفع كبير.. لقد تخلوا عن عملهم لدى أول تهديد حقيقى..

ترى (عبير) عددًا يقرب من عشرة شبان - فتية وفتيات - يتقدمون داخل طرقات البناية. يمكنها أن تراهم من منظور عين الطائر كأنهم فئران فى متاهة..

المشكلة أنها كانت هى الفأر هنا..

لابد من البحث عن مكان ما..

تراهم على الشاشة يتقدمون.. يبدو من حركتهم أنهم يفتشون قاعة تلو أخرى.

ماذا دهاهم؟.. لماذا أصيبوا بالجنون؟.. هذه مجرد لعبة..

لابد من الفرار لموضع ما..

هكذا انتزعت رافعة معدنية صغيرة كسلاح، وفتحت باب الحجرة وخرجت.. منظر (مختار) وهو يموت ركلًا لا يفارق مخيلتها.

مرت بغرفة نومها.. لِمَ لا؟.. ربما لو فتحت الخزانة وتوارت فيها إلى أن تزول هذه العاصفة..

هكذا دلفت إلى الغرفة المريحة المكيفة خافتة الإضاءة، وفتحت خزانة الثياب ثم خطت داخلها. هنا لاحظت لدهشتها أن هناك بابًا آخر فى الجزء الخلفى من الخزانة..

مدت يدها فى حذر وتلمست المقبض..

إنه يدور..

هذه الخزانة باب يقود لغرفة نومها إذن...

فتحت الباب فوجدت أنها تنظر إلى غرفة تحكم تشبه تلك التى كانت فيها، لكنها أكبر.. إضاءة زرقاء خافتة.. شاشات أكثرها مظلم.. فراش فى ركن الغرفة ومنضدة صغيرة عليها بقايا طعام..

وذلك الرجل يجلس وظهره لها يحدق فى الشاشة أمامه..

لم تعرف من هو لذا دنت منه بحذر على أطراف أصابعها وهى ترفع تلك الرافعة.. حسب قواعد أفلام الرعب القديمة سوف تجده ميتًا ويسقط عن المقعد، وحسب قواعد أفلام الرعب

الأحدث سوف يلتفت لها لتجد وجهه متآكلًا ودودة تزحف خارجة من محجره.. لكنه حى...

لم يتحرك.. فقط دوى صوته الإيرلندى الجهير:

- «مرحبًا يا دكتورة (عثمان)..»

(فلاهرتى)!.. من سواه؟

هاتان الأذنان اللتان توشكان على الانفجار بالدم هما أذناه حتمًا..

هتفت غير مصدقة:

- «أنت هنا منذ البداية؟»

قال دون أن يلتفت:

- «بالطبع.. ما جدوى التجربة من دون أن أراقب وأسجل كل شىء؟.. كنت أتوقع أن تسجلى أنت، ثم فطنت إلى أن التركيز فى اللعبة يكفيك..»

- «لا أفهم سبب هذا الهياج بين اللاعبين لكنه حقيقى..»

ضغط على بعض الأزرار، وقال:

- «كنت أتوقع شيئًا كهذا لكنى حسبت أن ربطات الكاحل ستسيطر عليه.. الحقيقة أن الهوائى كان كعب (أخيل) فى هذه اللعبة المحكمة..»

- «ما الذى يدفعهم للثورة أصلًا؟»

نهض فى بطء واستدار لها لترى وجهه الأحمر المحتقن بالدم وقال:

- «تعرفين أن هدف هذه التجربة هو دراسة استجابة الناس للسلطة متمثلة فى صوت يأمرهم بعمل ما يجب عليهم.. الأنظمة الدكتاتورية هى شطرنج من نوع خاص جدًّا.. كان علينا أن نرى إلى مدى يمكن للناس أن يتمادوا فى أفعالهم إذا عرفوا أن هذه الأفعال تأتى بأوامر عليا، وبرغم هذا تلك الأفعال تقتل زملاءهم!»

قالت فى حيرة:

- «تعنى: تخدرهم..»

اهتز بالضحك المكتوم، ثم قال:

- «بل القتل.. هذه المسدسات تقتل.. لقد اكتشفوا هذا مؤخرًا بعد الضحية الثانية وهو بالطبع ما لم تعرفيه أنت.. هكذا لم تعد هناك أوهام.. من ينفذ الأمر يقتل صاحبه. برغم هذا هم فعلوا ذلك.. فضلوا الاستجابة للأمر على أن يتمردوا.. لم يأت التمرد إلا متأخرًا جدًّا..»

ضربت المنضدة بقبضتها فى جنون:

- «إذن من ماتوا ماتوا فعلًا!.. كنت تعرف هذا!»

- «طبعًا..»

- «وتركتمونى أتسلى على القطع بلا رحمة!»

- «ما كنت لتفعلين من دون سبيل آخر.. لابد من الخدعة..»

- «وطبعا اخترت مصر لأنك لم تجرؤ على عمل هذه التجارب فى الولايات المتحدة..»

- «طبعًا.. لكن لا تظلمى المصريين، فهم لا يعرفون حقيقة هذه اللعبة..»

قالت وهى تعقد ذراعيها على صدرها:

- «لكن لا تفرح بنتائجك.. كانوا ينفذون لأن خدعة القيد الملغم حول الكاحل مقنعة.. هم كانوا يتصرفون من منطق (إما أن أقتل أو أُقتل)..»

- «لم تكن خدعة.. كانت قنبلة حقيقية. الحقيقة أن هذا القيد كان يؤدى أشياء عديدة منها التتبع اللاسلكى، وقياس بعض المؤشرات مثل الحرارة وضغط الدم وسرعة النبض ونسبة الأدرينالين.. هذه النتائج كلها عندى.. لكن لو أردت رأيى ليس منطق (أقتل أو أُقتل) هذا كافيًا للقتل.. رأيى أن الشخص القويم يفضل الموت على أن يفتك بواحد آخر..»

هوت بالرافعة الحديدية على لوحة المفاتيح أمامه فتناثرت قطع البلاستيك..

- «أنت وحش.. يروق لى أن أعرف رأيك العلمى فى مشاعر من أحطم رأسه..!»

وثب للخلف بخفة فهوت على شاشة كبيرة بجواره..

تناثر الشرر مع قطع الزجاج...

قال لها وهو يثب لمكان آخر:

- «لو كنت مكانك لحافظت على حياتى.. أنا الوحيد الذى يمكنه إخراجك من هنا سالمة.. هناك نحو خمسة عشر شابًّا غاضبًا وأنت تعرفين كيف يتصرف الدهماء عندما يغضبون.. سوف يمزقونك كما فعلوا مع مختار..»

ثم أخرج جهاز هاتف محمول من جيبه، وقال:

- «بينما أنا قادر على استدعاء النجدة.. لن نخرج من هنا إلا فى حراسة الجيش..»

كان كلامه منطقيًّا.. الأدهى أنها لو هشمت رأسه فهى لا تعرف كيف تطلب المساعدة. يمكنها طلب خالتها لتطلب الشرطة، لكن هذا سيحتاج إلى وقت طويل يكون فيه الأوغاد قد هشموا كل شىء ووجدوها..

قالت فى غيظ:

- «إذن أطلب النجدة..»

- «يجب أن أعرف أولًا ما ينوون عمله..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما ينوون عمله كان واضحًا على شاشة داخلية تظهر وجوهًا غاضبة تفتش.. تحطم كل شىء..

هؤلاء الفتية الذين دفعوا دفعًا إلى قتل بعضهم يقومون الآن بالانتقام..

ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس. كانوا يرغموننا على أن نموت فى المصارعة فى الحلبة.. الآن سوف نموت ولكن سنأخذهم معنا..

من حسن حظها أن البناية مليئة بالغرف.. هذا يضيع وقتًا..

تنظر إلى الشاشة وينظر (فلاهرتى)..

الحصان (أشرف) يرسم حرف L واسعًا وهو يتقدم من غرفة الأخرى.. الفيل (مها) تصوب نفسها باتجاه مائل.. الوزير (سمير مصطفى) يتقدم يمينًا ويسارًا.. الحصان (غادة) تدخل غرفة أخرى وتفتشها بعناية...

إن (مها) تحمى باب هذه الغرفة بالذات..

ثم يتقدم الوزير ببطء كى يقتحمها..

هنا وثبت (عبير) إلى الخلف..

فتحت الباب الذى جاءت منه، و عبرته إلى الخزانة وأغلقت الباب من جديد.. وهناك وقفت فى الظلام تصغى للضوضاء فى الجهة الأخرى...

إن (فلاهرتى) لم يجد سبيلًا للفرار..

كش.. مات..

محاصر بالوزير والفيل والحصان..

لا يمكنه الخروج من الغرفة.. لا يمكنه أن يقتل..

سمعته يقول بلهجته الأيرلندية:

- «اسمع.. يمكننى أن أشرح..»

لكن صوت (سمير) دوى يقول:

- «لا داعى للشرح.. أنت ذلك الوغد الأمريكى الذى رتب كل شىء.. مختار كان يعرف كل شىء وقد تكلم..»

وصاحت (مها) فى توحش:

- «كش مات!»

تسمع عبير صوت الصراخ.. جسد يهوى على الأرض... صوت ضربات.. ركلات.. صفعات..

يبدو أن الغرفة صارت تعج بالبيادق...

يبدو أن (فلاهرتى) يموت...

أخيرًا ساد الصمت إلا من صوت أنفاسها وهى تصغى حيث وقفت فى الخزانة المظلمة.

سمعت من يقول:

- «فلنكمل التفتيش يا شباب!»

قال (أشرف) فى ثقة:

- «لا يوجد أحد.. أنا واثق من هذا.. هذا الذى اصطدناه فى الخارج قال إن اللعبة يتحكم هو والأمريكى فقط فيها..»

هتفت (مها) فى دهشة:

- «لكن الصوت الذى يصدر الأوامر للفتيات أنثوى..»

- «يستعملون جهازًا يغير طبقة الصوت للتمويه.. هناك برامج كمبيوتر تحيل صوتك صوت طفل أو امرأة.. أنا أعرف يقينًا أنه ما من شخص يمارس اللعبة سوى هذين.. الباقون حراس..»

تنفست (عبير) الصعداء.. إن (مختار) قد قرر أن يقوم بعمل طيب أول وأخير فى حياته.. لقد أخرجها من المسئولية تمامًا.. بالواقع ألغى وجودها وهى ليست نادمة على ذلك.. ثم سمعت من يسأل:

- «ماذا سنفعل الآن؟»

- «هل هذا هاتف محمول؟.. انظر لترى إن كان قد تحطم أثناء اعتدائنا على هذا الأمريكى.. لا.. هو سليم.. حمدًا لله!... سوف نتصل بكل رقم نعرفه كى يخرجونا من هنا...»

وبدأت الأصوات تبتعد ومعها عادت تتنفس....

هنا رأت المرشد واقفًا فى وسط الحجرة ينتظر وهو يداعب قلمه الشهير..

قال لها بطريقته السمجة:

- «هلم يا فتاة!.. لقد لعبت مباراة جيدة ومن المؤسف أن القطع تمردت قبل النهاية!... لو حدث هذا فى كل مباراة لظللنا من دون شطرنج للأبد..»

قالت وهي تنزل من الخزانة إلى أرض الحجرة:

- «ماذا سيحدث؟»

- «لا شىء.. سوف ينتظر هؤلاء الشباب قدوم نجدة.. ولسوف تصلهم وبهذا تنتهى فصول هذه المأساة.. سوف يسمعون عن امرأة جاءت الجزيرة لتلعب بفريق الفتيات لكنهم لن يجدوها أبدًا..»

ثم مد لها يده...

أمسكت بها ومشت معه إلى باب الغرفة..

سألته وهما يخرجان:

- «كل هذا بدأ من (ب 4 م)؟»

- «مليون معركة ومليون موقف ومليون مغامرة.. هذا هو الشطرنج مهما كانت بداية المباراة بسيطة.. على كل حال ما زلت أؤمن بأن افتتاحية (جامبيت الوزير) أفضل نوعًا.. لكن هذا شأنك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مستر لافا لافا.. شى كول مى مستر بومباصتيك.. سيز أم رو... رو.. رومانطك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تعيش (عبير) مغامرة مثيرة مع بحارين.. أحدهما برتغالى خبيث والآخر عربى سليم النية.. علاقة غريبة جدًّا ربطت بين الرجلين وأدت لنتائج وخيمة لكنها تدعونا للفخر. هذه قصة طويلة على كل حال سوف تفهمها فى الكتيب القادم..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

ليس هذا دقيقًا جدًا... وضع Stalemate هو الوضع الذى لا تجد فيه أية قطعة يمكن تحريكها، لكن يجب ألا يكون الملك مهددًا..

روايات مصرية للجيب

53

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

بحّاران





(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (53)

بحَّـاران

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. أنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البدهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتشب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- إلى أيـن؟

إلى أين يا (عبير) هذه المرة؟
هل إلى عوالم تجوب فيها الأشباح أروقة القصور المهجورة وتشرب أنخاب الدم، بينما تدوى صرخات الأطفال الخائفين؟
هل إلى عوالم تفتح فيها المومياوات عيونها مستجيبة للعنة منسية؟
إلى أين يا (عبير) هذه المرة؟
ربما إلى عوالم تسبح فيها أوراق (البانسيه) على صفحة مياه الجداول، على حين يطلق كيوبيد سهامه ليدمى القلوب، بينما تنحدر دمعتان من عين مؤرقة..
ربما إلى عوالم يقف فيها العشاق يرمقون الشمس الدامية وهى تغرق مياه البحر بدمها، بينما يقرر الكروان أن الوقت قد حان ليستحق شهرته..
إلى أين يا (عبير) هذه المرة؟
هل إلى عوالم تجوب فيها المدرعات الشوارع المشتعلة، بينما جنازيرها تحطم أحلام الشباب وألعاب الأطفال؟
هل إلى عوالم يقف فيها الجنرالات بمعاطفهم الطويلة يتأكدون بعناية من أنه لا يوجد موضع خال من نيرانهم ودخانهم ودم أعدائهم؟
إلى أين يا (عبير) هذه المرة؟
ربما إلى عوالم تحلق فيها المكوكات مسرعة من مجرة لأخرى، قبل أن ينطلق شعاع الليزر ليدمر كل شىء فى طريقه، وربما يدمر المومياوات والعشاق والجنرالات كذلك...
إلى أين يا (عبير) هذه المرة؟
ربما إلى عوالم يركب فيها اللوردات المتأنقون عرباتهم ويدخنون الغلايين، متجهين إلى ذلك النادى الأنيق من أندية لندن، أو عوالم يفتش فيها علماء الآثار بين المقابر المنسية، أو إلى عوالم يتواثب فيها طرزان من شجرة لأخرى وهو يطلق صرخته المدوية الشهيرة..
حقًّا أنت لا تعرفين...
تغلقين عينيك وتتركين أمرك للمرشد يتولى أمرك، وتأملين فقط أن تكون مغامرة الليلة ممتعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يجلس الشيخ على ضفة الخليج وقد أراح ذقنه إلى عصاه..
بما أن الشمس من خلفه؛ فقد صار فى وضع (سلويت) رائع الجمال وقسماته الصخرية تنحفر على الخلفية. لابد أن أى مدير إضاءة فى السينما العالمية سوف يسيل لعابه لدى رؤية هذا المشهد..
البحر مظلم لكنك ترى الأمواج محددة بلون ذهبى وهاج، وهناك فى المركز حيث الشمس الغاربة يخلق مزيج الألوان العجيب هذا، الذى لا هو أصفر ولا أزرق ولا أحمر ولا أرجوانى.. هو كل شىء..
وقسمات الشيخ!
ما أروعها!.. لحظة الاكتمال الكبرى عندما تصل الملامح البشرية لنهاية رحلتها..
تقترب منه وتزحف على ركبتيها فوق الرمال، ثم تخرج جهاز التسجيل وتسأله فى كياسة:

- « هل تسمح لى؟ »
لم يبد أنه سمعها. فقط راح يترنم بلحن ما حزين الطابع وهو يدق بعصاه على الرمل..
سألته:
- « هل تحب أن تكون وحيدًا؟ »
قال بصوت واهن دون أن ينظر لها:
- « سوف أكون وحيدًا للأبد عما قريب جدًّا.. بالطبع أحب بعض الصحبة البشرية الآن ما دمت حيًّا.. »
ضغطت على زر جهاز التسجيل وسألته:
- « هل ما تشعر به هو الندم أم الرضا عن النفس أم الحزن أم السرور؟ »
- « التعب.. »
قالها بصوت يخرج من أعمق أعماق أعماقه.. حقًّا لو كان للتعب صوت فهو هذا.. صوت يخرج من عند قوس الأورطى.. ربما ما بين المرىء والقصبة الهوائية.. ربما من برزخ الغدة الدرقية..
- « التعب.. »
ويضرب بعصاه من جديد ولا يعلق أكثر.. فتسأل هى:
- « التعب من أى شىء؟ »
- « لم تكن حياتى سهلة يا بنيتى.. لم تكن سهلة على الإطلاق.. يخيل لى أن القبر هو راحة مستحقة لى كى أنام حتى الساعة.. إن جسدى واهن لكن عقلى يتواثب كالدرافيل ولا يهمد لحظة، هو ذا يفكر فى أن يبدأ كتابًا جديدًا.. أنا بحاجة إلى أن أريح هذا العقل.. »
- « هل تعتقد أنك كنت السبب فى كل ما حدث؟ »
- « لم أفكر فى هذا وأؤمن أنه لا ذنب لى فيه.. »
ثم أخرج خنجرًا يمنيًّا جميلًا من نطاقه ولوح به:
- « يمكن أن أستخدم هذا كزينة.. يمكن أن أقطع به غصنًا يعوق طريق الناس.. يمكن أن أذبح به شخصًا بريئًا.. الخنجر لا ذنب له فيما يحدث.. الخنجر أداة.. »
- « وأنت لعبت دور الخنجر؟ »
- « نعم.. ولو تكرر الاختيار لفعلت الشىء ذاته بشرط ألا أعلم الغيب.. هذا هو قانون البحر يا بنيتى.. »
كان يتكلم بينما الإضاءة من خلفه تخفت وتخفت حتى صار الظلام دامسًا.. يبدو أن الصورة لم ترق للظلام فتناول قبضة من النجوم بعثرها على ثوبه ليكسر حدة الرهبة..
لكنها كانت ترى وجهه..
تسمع الموج العاتى يرتفع ويتصارع فتشعر بقشعريرة.. الحقيقة أن هذا العجوز ينتمى بشكل ما للبحر المهيب من خلفه. كلاهما أكبر من الحياة.. فوق الواقع.. إنهما أسطوريان..
لكن العجوز سيموت.. لا شك فى هذا بينما يبقى البحر..
ترى هل يموت البحر أيضًا بعد ملايين السنين؟
لقد ولد.. وكل ما ولد سيموت..
كانت تفكر فى هذا كله وهى تتذكر هذه التجربة الصحفية الفريدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- من أجل حفنة من الفلفل..

كانت هناك تقف جواره على سطح السفينة (ساو جابرييل)..
البحر هادئ صموت يبدو أنه يشعر بالملل.. يكفى أن يشعر المرء بالملل حتى تصاب الأشياء بالملل كذلك.. لم تكن (عبير) ميالة إلى المقولات على غرار أن الكون كما نراه نحن، لكنها شعرت أنها موشكة على تصديق ذلك..
كانت رحلة طويلة شاقة بلا مخاطر تقريبًا وقد خطر لها أن مهنة الصحفى ليست مثيرة دائمًا..
رفعت رأسها تتأمل الطابع الغربى المميز للسفينة، وتلك الأعلام التى عليها صلبان.. بالذات ذلك الصليب الذى تتسع شفراته عند الحواف ويدعى (صليب مالطة).. هذا طابع أسبانى أو برتغالى لا شك فيه.. فى ذلك العصر كانت القوتان العظميان المعروفتان هما إسبانيا والبرتغال.. فقط كى تنزلقا من المقعدين وتجلس مكانهما إنجلترا وفرنسا.. ثم تنزلقان لتجلس أمريكا والاتحاد السوفييتى.. وسرعان ما جاءت ولايات متحدة متضخمة الردفين لتجلس على المقعدين معًا..
على قدر علم (عبير) لم يحدث هذا الموقف فى التاريخ من قبل..
يعرف قراؤنا المخضرمون أن (عبير) كثيرًا ما تجد نفسها فى فانتازيا محررة لجريدة (الحقيقة الوحيدة) التى لا يعرف الناس أنها فعلا الحقيقة الوحيدة. هذه هى الجريدة الوحيدة التى تملك طريقة ترسل بها محرريها للقاء الشخصيات التاريخية، وعندما تنشر الجريدة لقاء صحفيًا مع بونابرت أو محمد على فإن القراء يفترضون أنها مجرد حيلة بلاغية (سخيفة بعض الشىء) لتغيير طريقة (الإخبار) التقريرية المملة، لكن الحقيقة أن هذا حديث صحفى فعلًا..!
هذه المرة طلب منها الأستاذ فوزى أن تكون موجودة فى هذا الزمن مع (فاسكو دا جاما Vasco da Gama) المستكشف البرتغالى الشهير، معنى هذا أن ترحل لما بين العامين 1469 و 1224.
كانت الرحلة هادئة والانتقال سهلًا، وسرعان ما وجدت نفسها على ظهر ذات السفينة مع المستكشف الذى طبقت شهرته الآفاق. طبعًا كانت تتكلم البرتغالية بطلاقة كأنها (بيليه) شخصيًا، ولم يكن القبطان ودودًا لكن سلطة (فانتازيا) الكاسحة اضطرته لأن يكون كذلك..
القبطان (دا جاما) الشهير هو رجل قوى البنيان، له أنف معقوف غريب، وفى عينيه نظرة شرسة قاسية.. هناك لحية لا تكسب وجهه رقة، وطبقًا للموضة السائدة يلبس تلك الثياب التى تجعل كفيه أعرض وساقيه أرفع، وهذا لم يفد كثيرًا فى تقليل طابع السماجة العام..
لكن الرجل مهم جدًّا.. أنه من أعظم المستكشفين فى ذلك العصر.. كل صحفى يتمنى أن يقف معه هذه الوقفة المنفردة عند ميمنة السفينة..
قال لها القبطان وهو ينظر للبحر:
- « أنت تعرفين أنه فى الظروف الطبيعية لا نسمح لامرأة بركوب السفينة.. هذه قواعد البحر، وقد اضطررنا لعمل استثناء كبير.. »
- « شكرًا يا قبطان.. »
- « تقولين إنك صحفية؟.. هذه مهنة لا نعرفها ولا نفهمها، لكنك تقولين إنها سبيلى إلى المجد وأن تعرف الأجيال القادمة تفاصيل بطولاتى.. »
- « فعلًا يا قبطان.. »
مد يده إلى جيبه وأخرج بين أنامله شيئًا لم تتبينه (عبير).. لكنه رفعه إلى أنفه واستنشق بعمق ثم عطس، وترك الحبيبات السوداء تتطاير مع الهواء..

قال لها:
- « أنا ثرى جدًّا.. أسرتى من النبلاء، ولهذا أقدر على أن أحمل هذه الحبيبات السوداء باهظة الثمن فى جيبى، وأرميها في البحر إذا شئت.. إنه الفلفل!! »
- « فلفل؟ »
وكانت قد شمت الرائحة فعرفت ما هو.. هذا الرجل لا يتكلم عن الذهب و الفضة ولا اليورانيوم إذن.. معنى هذا أن أمها ثرية كقارون، ويمكنها أن تشترى قارة كاملة فى ذلك الزمن. فلتتذكر هذا.. لو مرت مرة أخرى بتجربة آلة الزمن فعليها أن تحمل معها عدة كيلوجرامات من الفلفل لتشترى كل شىء على ظهر البسيطة..
قال لها وهو يشم أنامله:
- « التوابل..!.. من أجل التوابل خرجت الحملات ونشبت الحروب وغرقت الأساطيل.. صدقينى.. إن ثمن الجرام منها أغلى من جرام الذهب بكثير.. السبب هو بُعد الهند وجزر التوابل عن أوروبا، ولهذا نقطع البحار بحثًا عن طريق مختصر يقصر الرحلة من وإلى الهند.. »
قالت متخابثة:
- « وبعض الاستعمار كذلك.. »
- « هذا شىء لا أنكره.. من الجميل أن نضم المزيد من القارات والبلدان إلى أملاك الملك (مانويل الأول) العظيم.. »
ثم وضع يده فوق عينه محاولًا أن يرى بوضوح أكثر، فقالت عبير:
- « لم لا تستعمل التلسكوب كالجميع؟ »
- لم يُخترع بعد.. هناك طابع بريد شهير يظهر (ماجلان) وهو ينظر إلى الأفق بتلسكوب، وهذا خطأ قاتل لأن التلسكوب اخترع بعد زمن ماجلان بمائة عام.. لهذا تم سحب هذا الطابع وصار ثمنه خياليًّا.. »
- « أنت تعرف ماجلان؟.. إنه لم يأت بعد.. »
- « هذه هى فانتازيا.. وهذا هو الناتال! »
قالها وهو يشير إلى الساحل.. الناتال كلمة برتغالية معناها (عيد الميلاد) ولهذا يمكن استنتاج أنه بلغ هذا الساحل فى عيد الميلاد، وما زال هذا الاسم باقيًا حتى اليوم..
ثم تركها وراح يسكب السباب البرتغالى على رأس بحارته وضباطه.. إن هذا الرجل يعرف كيف يكون قاسيًا عنيفًا متى أراد وهى سمة مهمة فى القادة، لكنه يعرف كذلك كيف يكون بذيئًا جدًّا.. هذا غريب بالنسبة لرجل من أصل راق مثله، لكنه يدل على أنه عاش مع البحارة منذ طفولته وهو ما حدث فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نترك (عبير) مع فاسكو دا جاما المولع بالسباب على ظهر سفينته لنضع بعض النقاط فوق الحروف..
لقد قضى البرتغاليون وقتًا طويلًا يحاولون أن يلتفوا حول الساحل الغربى لأفريقيا ليصلوا إلى الهند، والسبب طبعًا هو أنه لا توجد طريقة حالية لبلوغ الهند إلا عن طريق البر.. تخيل الرحلة المريعة البرية بالقوافل من البرتغال إلى الهند ثم العودة. لهذا كان سعر التوابل كما رأينا..
جربوا الإبحار على ساحل أفريقيا ولكن كانت الرحلة طويلة جدًّا.. يبدو كأن القارة الأفريقية تمتد إلى الأبد للجنوب وبلا نهاية..
لو تأملت صورة أفريقيا لرأيت جمجمة بشرية عملاقة.. يمكنك أن تتخيل السفن البرتغالية تنزلق

على الجانب الأيمن من هذا الرأس الكبير باحثة عن طريق لبلوغ الجانب الأيسر، لكن هذا مستحيل كما يبدو.
أنت تعرف أن هناك طريقة، لكن تذكر هؤلاء القوم الذين ينقبون بلا خرائط ولا صور أقمار صناعية ولا تجارب سابقة.. من الوارد جدًا أن تكون أفريقيا ممتدة للأبد نحو الجنوب فعلًا..
فيما بعد مر (ماجلان) بتجربة سوداء مماثلة وهو ينقب على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية عن طريقة يلتف بها ليبلغ المحيط الهندى، وبالصدفة وجد ذلك المضيق الذى يحمل اسمه إلى اليوم: (مضيق ماجلان)..
لكن (بارتلميو دياز Bartolomeu Dias) وصل إلى أقصى الجنوب.. إلى طرف الفك السفلى للجمجمة، وكانت رحلته عنيفة جدًا حتى إنه أطلق على المكان اسم (رأس الأعاصير)، ثم اكتشف أنه لو دار حول هذه النقطة لبلغ الجانب الآخر من الجمجمة..
فجأة تغير مزاجه عندما هنأه ملك البرتغال على اكتشافه، وكان الملك هو من اقترح الاسم الجديد.. لم يعد يُطلق على المكان (رأس الأعاصير) بل يطلق اسمًا مبهجًا (رأس الرجاء الصالح)، وهو الاسم الذى ما زالت كتب الجغرافيا تذكره حتى اليوم..
الآن صارت مشكلة البرتغال هى استخدام هذا الطريق للوصول إلى الهند، لكن كيف؟
هناك مشكلة أخرى تضايق البرتغاليين هى المسلمون الموجودون فى كل مكان تقريبًا.. يجب التخلص منهم ومن تجارهم شديدى النشاط..
هذه هى المهمة التى أوكلت إلى (فاسكو دا جاما).. فى الحقيقة أوكلت إلى أبيه أولًا لكنه مات قبل أن يقوم بها..
وفي العام 1497 - عام الرب البركة كما تقول الوثائق – خرج أسطول فاسكو دا جاما يبحر فى نفس المسالك التى زللها العظيم (بارثلميو دياز) من قبل...
هذه هى الرحلة التى تشهدها (عبير) وترى أحداثها رؤية العين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاح الناضورجى من أعلى بصوته الحلقى الذى غيرته ظروف المهنة:
- « سفينة على مرمى البصر..! »
نظر (فاسكو) إلى الأفق فلم ير شيئًا.. لحظات احتبست فيها الأنفاس، ثم بدأ الشراع يظهر..
لا توجد أية علامات على هذه السفينة القادمة، لكنها سريعة فعلًا خاصة والريح معها.
وقفت (عبير) متوترة جوار القبطان البرتغالى الذى قال لها فى شىء من السخرية:
- « سفينة سريعة بلا علامات ومصرة على أن تلتحم بنا.. هل عندك تفسير؟ »
قالت فى ذعر التفسير الوحيد الممكن:
- « قراصنة! »
- « إن هذه المنطقة تعج بهم، وقد قمت بحرق بعض سفنهم من قبل.. إن هذا يجعل الحياة محتملة.. يبدو أنك ستظفرين بتحقيق ممتاز! »
- « لكنهم لا يعلقون علم الجمجمة و... »
قال فى ملل كعادته:
- « أوه!.. أنت تتكلمين عن عصور حديثة نسبيًا بالنسبة لك.. عصور (سيركوف) والسير (مورجان) والقبطان (كيد).. تتكلمين عن علم القراصنة المعروف باسم (روجر المبسوط Jolly Roger) الذى سيستعمله أولًا القرصان (إدوارد إنجلاند) فى القرن الثامن عشر.. نحن متأخرون جدًا عن هذه الأساليب المتقدمة.. »

ثم صاح بأعلى صوته:
- « استعدوا للقتال!.. دينار لمن يظفر برأس قائدهم!.. أريد أن نلاقيهم رأسًا لرأس! »
ودارت السفينة العملاقة وزادت من سرعتها متجهة نحو سفينة القراصنة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- آرام وراميشا..

فى هذا الوقت بالذات تفرغ (راميشا) من نثر قرون الشطة الحمراء على الحصيرة أمام الدار..
سوف تحتاج إلى أيام لتجف، وبعدها يكون عليها والنسوة أن يسحقنها ليحصلن على المسحوق الأحمر الذى لا يستقيم المزاج الهندى من دونه: الشطة.. إن هؤلاء القوم قد أخذوا الكثير من طباع الشطة فى خلاياهم، لهذا هم أقرب إلى النيران فى حماسهم.. فى حبهم.. فى غضبهم..
مهمة عسيرة لأنها سوف تجعل يديها تحترقان بالنار، لكن هذه هى حياة العذراء الهندية.. فإذا تزوجت كانت هذه هى حياة السيدة الهندية..
المسجد القريب يعلن صلاة الظهر، و(راميشا) هندوسية.. لكن فى ذلك الوقت فى (كاليكوت) بالهند، شمال ولاية كيرالا، لم يكن هناك من يسألك عن دينك ما دمت تحسن معاملة الآخرين وتؤدى لهم حقوقهم..
لا تخفى أنها تشعر بسرور ونشوة عندما تسمع صوت الآذان المميز، والذى تعتقد أنه أروع صوت سمعته برغم أن المسلمين الذين ذهبوا للحج فى تلك البلاد البعيدة قالوا إن هذا الصوت لا شىء.. مخارج الحروف خطأ ولا يمكن أن تقارنها بصوت الآذان من الحناجر العربية كما سمعوه هناك..
قابلت الكثيرين من العرب.. إنهم فى كل مكان هنا، وهم تجار بطبيعتهم.. بارعون حقًّا ولهم عيون حساسة لما يمكن شراؤه أو بيعه.. المهم أن هذا كله يتم فى جو من التراضى والسماحة بين الطرفين..
أمس رأت تاجرًا عربيًّا يلعب مع طفل فى الخامسة.. الطفل يكيل اللكمات للتاجر الذى جثا على ركبتيه أمامه، فسقط التاجر على الأرض كأن الضربة آذته فعلًا.. مما جعل الصبى يضحك حتى سال الدمع من عينيه..
قالت أمها وهى تنسج على النول:
- « هذه حركات يكسبون بها النفوس.. عندما تكسب الأطفال فأنت تكسب أهلهم.. »
- « وماذا يريدون من كسب الأهل؟ »
- « لا شىء.. فقط يميل العربى إلى أن يكون محبوبًا فى الوسط الذى هو فيه.. هكذا انتشر الإسلام فى الهند يا (راميشا) عن طريق حسن المعاملة ولمسات ذكية بسيطة كهذه، بينما لا يمكن للسلاح أن يقهر الهنود.. هذه بلاد مترامية الأطراف أهلها شديدو الكبرياء والمراس.. لا يمكن إرغامهم على أى شىء بالقوة.. »
كانت الأم تقرر حقيقة مهمة. لا يمكن فرض أي دين بالسيف.. ما حجم الجيش الذى يقدر على احتلال جزر مترامية شاسعة لا حصر لها مثل (أندونيسيا)؟.. كيف يمكن فرض عقيدة على شعب حساس غضوب لا ينسى الثأر أبدًا؟.. لا يمكن.. لكن الإسلام لم يغز أندونيسيا بل دخلها بالمعاملة وحدها..
المسيحية لم تدخل أفريقيا بوساطة المدفع والبندقية.. هذا مستحيل.. لكنها دخلت عن طريق المبشر الذى يعالج جراح الوطنيين ويداعب أطفالهم ويعلمهم، ويجلس معهم وسط الأدغال محاولًا تحاشى لدغات ذبابة (تسى تسى) القاتلة..
(راميشا) لا تعرف هذا ولا يهمها أن تعرف لأن لديها مشاكلها الخاصة. تعرف أن عليها الكثير من

العمل فى شئون البيت.. شئون البيت الهندية التى لا تنتهى والتى يعد تجفيف الشطة قطرة منها..
وكانت تفكر فى (آرام)..
ترى ماذا يفعله الآن؟..
غدًا سوف تزور المعبد وتقدم بعض القرابين للكاهن لعله يصلى لها صلاة خاصة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
منذ الطفولة كان (آرام) هناك..
من الذى يحضر لها ثمار المانجو الشهية؟.. من الذى اصطاد (فرس النبى) وربطه بخيط فى عنقه وجلبه لها كى تلعب به؟.. من الذى ذهب قرب المعبد وجاء بذلك القرد الصغير لها، حتى عرف الكبار ووبخها أبوها بشدة لأن القردة التى تلعب حول المعبد مقدسة..؟
إنه (آرام)..
(آرام) لم يكن جميلًا، لكنه كان خفيف الحركة بطريقة فاتنة، دعك من عينيه الواسعتين السوداوين شديدتى الحساسية.. ترقصان فى محجريهما بسرعة لا تصدق..
كان معجبًا بها.. تعرف هذا..
يوم راحت ترقص مع صديقتها على نغمات المعزف، وهى تحاول بصعوبة أن تجعل أصابعها تؤدى الحركات شديدة التعقيد التى يجب أن تعرفها الراقصة الجيدة..
كانتا تتحركان معًا.. تسربت الموسيقا إلى روحيهما فلم تعد لهما إرادة.. الموسيقا كانت تحرك العضلات مباشرة دون أن تتوقف عند الأذنين أو العقل..
رفعت عينها لتجد أنه يتعلق بأغصان الشجرة العجوز ويراقبها فى اهتمام..
رأته صاحبتها فصرخت فى ذعر:
- « ولد!.. ولد! »
وانحنت لتلتقط بعض الحصى وراحت تقذف الصبى المتسلل.. هكذا راح يتواثب بين الأغصان مبتعدًا.. لكن (راميشا) عرفت على الفور أنه جاء من أجلها هى.. »
تمر الأيام ويكبر (آرام).. ما زالت عيناه تحتفظان بذات اللمعان والنشاط، لكن جسده امتلأ بالعضلات وصار له صوت خشن رخيم..
(آرام) يريد أن يحقق ذاته وأن يرى العالم.. يريد أن يكون رجلًا..
(آرام) يرحل مع أحد التجار العرب المتجهين إلى أفريقيا. هناك فى جنوب أفريقيا جالية هندية عظيمة سوف يكون هو من رجالها، لكنه يعدها بأن يعود عما قريب ثريًا قويًا والأهم مليئًا بالخبرات..
- « الهندى يعيش ويموت من دون أن يرى حوتًا.. أنا سأرى حيتانًا كثيرة هناك.. إن المحيط يعج بها.. »
سوف يرى قومًا لجلودهم لون الليل.. هناك قوم بيض البشرة كالحليب.. هناك سفن عليها مدافع..
سوف يرى أشياء وأشياء تختلف عن (كاليكوت)..
كان هذا غريبًا بالنسبة لمن عرفوه. كان صادمًا لكن الفتى كان كالعادة يشعر بتلك النار المتقدة لدى الشباب، والتى تجعلهم يريدون الذهاب إلى زمن آخر ومكان آخر لعمل أشياء أخرى..
هكذا رحل (آرام) مع التاجر العربى، وبقيت هى فى بيتها تجفف قرون الشطة.
تجفف قرون الشطة..

تجفف قرون الشطة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن راميشا تعرف ولو عرفت لجن جنونها.

كان آرام الآن يواجه خطرًا مروعًا وهو يرى سفينة القراصنة تقترب من أسطول فاسكو دا جاما..

لقد ترك العمل مع التاجر العربى، وعمل لفترة على البر، ثم التحق بالأسطول البرتغالى حيث عاش أسود أيام حياته.. لقد تحمل لأنه يعرف أن القبطان (دا جاما) متجه إلى الهند.. هذا يتيح له العودة للوطن..

لكنه الآن فى خطر داهم فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- من هذا البطل؟

التحمت السفينتان..
وبرغم ضخامة السفينة البرتغالية فإنها بدت ثقيلة الحركة مهيضة الجناح عندما احتكت بها سفينة القراصنة الرشيقة..
لا تعرف من أين هوى الخطاف الثقيل، ولا كيف طار خطاف آخر ليتمسك بالسارية، وفوق الحبال ركض رجال سود خفيفو الحركة كالقردة، عراة الجذوع، بين أسنان كل منهم سيف أو خنجر.. أقوياء البنية كالوحوش، شرسون كالتماسيح..
من الواضح أنهم من السكان الأصليين لهذه المياه، وقد انطلقوا يعملون الطعن والذبح فى البحارة..
من أعلى الصارى وثب شاب خفيف نحيل قوى كالفهود فأوقع قرصانين فى الماء بركلة من قدمه، ثم هبط على قدميه فأخرج خنجرًا وغرسه فى قرصان ثالث.. وقبل أن يسقط القرصان كان قد استعار سيفه وراح يعمل القتل..
خرج دا جاما من مكمنه حاملًا سيفين، وراح يضرب بحركة ميكانيكية لا تتعب..
أما (عبير) التى راحت تراقب كل هذا الهول من مخبئها تحت قارب نجاة، فقد عجزت نهائيًّا عن توقع المنتصر.. لو سيطر القراصنة على السفينة فلا مفر من الوثب فى الماء.. الماء الذى يلتقى فيه المحيطان والذى لن يكون رقيقًا معها.. ستكون مغامرتها كفيلة بجعل ما حدث لركاب التيتانيك نزهة فى الملاهى..
دا جاما القوى يضرب ذات اليمين وذات اليسار ويبدو عصيًّا على الطعن، حتى إنه هشم رمحين كانا يطيران نحو صدره.. لم تلحظ من قبل كم هو ضخم عملاق.. ثم إن عينية تشعان شررًا يمكن أن يحرق..
لكن لو كنت ريحًا فمن الحتمى أن تقابل إعصارًا، وقد برز من بين القراصنة ذلك العملاق الذى تراه فى كل الأفلام تقريبًا.. كرش ضخم يحبسه فى مكانه بسيور جلدية تحيط بالكتفين والبطن على شكل علامة X.. ورأس أصلع ووجه ملىء بالندوب..
تقدم العملاق وهوى ببلطة على سيف دا جاما فحطمه، وقبل أن يضربه دا جاما بالسيف الثانى كان قد حطمه بدوره..
الآن صار القبطان البرتغالى وحيدًا أعزل.. يتراجع للخلف ورجاله بعيدون، والعملاق يتقدم نحوه ببلطة من الواضح أنه يستخدمها ببراعة..
يتراجع دا جاما نحو ميمنة السفينة وهو يعرف أنه سيقابل الحاجز بعد قليل..
عندها سوف تهوى الضربة..
يتراجع..
يتراجع..
هنا من مكان ما هوى ذلك الشاب رشيق الحركة فوق كتفى العملاق ليحيط رأسه بفخذيه. صرخ العملاق ورفع البلطة محاولًا تحطيم رأس هذا الذى امتطى كتفيه، لكن الفتى تفادى الضربات ببراعة، ثم مرر نصل سيفه بخفة تحت ذقن العملاق من الخلف..
ووثب فى الوقت المناسب قبل أن يسقط جبل اللحم والعضلات هذا على الأرض..
يا للدماء!.. كمية تكفى لإغراق سفينة فعلًا.. إن معدتها تتقلص..

نظر (فاسكو دا جاما) لمنقذه فى رضا.. من الصعب أن تشيع نظرة رضا على هذا الوجه المتعالى الصارم لكنه فعلها، وسرعان ما كان يلتقط سيفًا من كف أحد القتلى وينطلق للمزيد من ضرب الرقاب..
بدأت الكفة تميل لصالح البرتغاليين بشدة..
وبدأ القراصنة يشعرون بالخطر ويتصايحون أن وقت التراجع قد حان، لكن البرتغاليين سدوا عليهم طريق الفرار.
فى الوقت ذاته عبر بعض البرتغاليين إلى سفينة القراصنة وبدءوا نهبها!.. نهب سفن القراصنة طريقة معروفة للثراء، وقد كان أحكم القراصنة فى التاريخ هم الذين قرروا ممارسة القرصنة على سفن القراصنة العائدة محملة بالكنوز المنهوبة!
كانت (عبير) تراقب فى ذهول هذا المشهد..
الضحية تستولى على أموال اللص.. هذا مشهد لا تراه إلا فى الأفلام الكوميدية، لكنه يحدث فعلًا..
ومن قال العكس؟.. ما لا تعرفه (عبير) هو أن سفن (دا جاما) كانت تمارس القرصنة على نطاق واسع جدًّا، وكانت فريستها المفضلة هى السفن العربية التجارية..
لهذا كان ما يحدث الآن مجرد تدريب بسيط...
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
عندما انتهى القتال قام رجال (دا جاما) بقذف سفينة القراصنة بالمشاعل وبراميل الخمر وهكذا تحولت السفينة إلى شعلة ملتهبة ترتفع لعنان السماء.. كان من حظ هؤلاء القراصنة الأسود أنهم اختاروا سفينة فاسكو دا جاما للنهب.. والنتيجة أنهم قُتلوا ونُهبوا..
ثم وقف (دا جاما) لاهثًا يلوح بسيفه المخضب بالدم، وصاح فى رجاله اللاهثين المخضبين بالدم:
- « أحسنتم!.. المزيد من المجد للبرتغال! »
كانوا محملين بالغنائم لهذا لم يستطيعوا التلويح بأسلحتهم والهتاف..
قال لهم فى وقار:
- « لقد ظفر كل منكم بشىء ثمين، وهذه مكافأتكم على جهودكم.. لكنى أبحث عن ذلك الشاب النحيل الهندى الذى أنقذ القبطان (دا جاما) العظيم من ذلك القرصان الهمجى..»
من بين البحارة تقدم الفتى النحيل واسع العينين.. وانحنى أمام القبطان فى رهبة.. هل سيقطع رقبته عقابًا له لأنه تدخل؟.. أشياء كهذه متوقعة جدًّا مع (فاسكو دا جاما) فالفتى قد رأى الكثير..
إنه (آرام) حبيب (راميشا).. الذى لم يلحظ (دا جاما) وجوده حتى هذه اللحظة طبعًا..
- « أنت فتى شجاع برغم الدماء الهمجية التى تجرى فى عروقك.. لست برتغاليًّا لكنك سوف تكون ذراعى اليمنى.. »
ثم صاح بالأمر الذى يعرف أن البحارة ينتظرونه فى شغف:
- « سيصرف لكل منكم مقدار إضافى من الروم هذه الليلة! »
هنا فقط تعالى الصياح والتهليل، بينما راحت (عبير) تدون الأحداث بسرعة حتى لا تنساها..
رأته يضع ذراعه على كتف الفتى وينتحى به جانبًا، ثم يميل ليهمس فى أذنه:
- « أنت هندى.. فهل بوسعك أن تقودنا من هنا إلى الهند؟»
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- انتظار فى ماليندى..

لكل شخصية بشرية مفتاح خاص بها، وقد كان مفتاح (فاسكو دا جاما) هو الطموح..
الطموح هو الذى حرك كل خيط من خيوط حياته، وهو الذى يفسر الكثير من أفعاله. لقد قام بحملته ودار حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى مومباسا وماليندى، وما زال كثيرون يعتبرونه من اكتشف رأس الرجاء الصالح، لكنه كان يعرف جيدًا أن هذا لن يغير من الحقيقة شيئًا:
- « مكتشف رأس الرجاء الصالح هو (بارثلميو دياز).. »
تسأله عبير:
- « وماذا وجدت أنت يا كابو؟ »
- لا شىء!.. »
يقولها ويقذف زجاجة الخمر لتضرب الجدار وتتهشم..
- « لا شىء! »
يقولها وهو يغرس السكين فى خشب المنضدة حتى المقبض..
- « لا شىء! »
يقولها وهو يجلد اثنين من البحارة وجدهما نائمين فى قارب النجاة..
- « يوم يكتبون سيرتى سيقولون إنه بحار جيد مشى فى الممرات البحرية التى اكتشفها (بارثلميو دياز) العظيم قبله.. هذا مضحك!! »
كان هذا يثير جنونه وغيظه..
هو مصاب بعقدة الرجل العادى.. يريد كل شىء فى العالم غير أن يكون عاديًّا.. مجرد ضابط يؤدى ما يُطلب منه وينال رضا الملك.. كلا.. إن لفاسكو دا جاما شأنًا أعظم من هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشكلة هى أن البرتغاليين لا يعرفون ما يكفى عن هذه المياه..
الخرائط عتيقة ومن عهد (بطليموس) والإبحار اعتمادًا عليها انتحار لا شك فيه.. هناك مجانين جربوا حظهم وأبحروا نحو الهند، وهؤلاء لم يسمع عنهم أحد ثانية..
قالها لـ(عبير) بصراحة ذات ليلة فى قمرته، ثم ضرب الطاولة بقبضته، وقال:
- « هذا الكلام ليس للنشر.. »
- « لكن يا كابو.. »
ثم توقفت عن الكلام.. الحقيقة أنه كان يفرط فى احتساء الخمر، لهذا كان يكلم نفسه كثيرًا جدًّا وصارت تعرف كل شىء عن هواجسه.. سوف تعود لزمنها وجريدتها ثم تنشر هذا كله، ولو أغضبه ما ستكتبه عنه بعد خمسمائة عام فعليه أن يجدها ليرفع قضية أو لينتقم!
لقد حاول أن يحصل على معلومات من ذلك الفتى الهندى، لكن الفتى كان واضحًا منذ اللحظة الأولى: هو لا يعرف أى شىء عن البحر.. كونه يجيد القتال لا يعنى أنه خبير فى الملاحة..
قال الفتى بلغته البرتغالية الرديئة جدًّا:
- « كابو.. يمكنك أن تعرف الكثير من التجار العرب، فهم ملمون بهذه المياه.. »
اشتعلت النار فى عينى (فاسكو دا جاما) وقال بعصبية:
- « كله إلا هذا!.. أنا لا أثق بهؤلاء القوم ولا أعتقد أن عندهم ما يقدمونه.. »
والفتى كان يفكر فى أشياء أخرى..

عرفت ذلك عندما كانت واقفة على سطح السفينة تراقب الرجال وهم يعملون. كانوا ينظرون لها نظرات عابرة فضولية، لكنهم لم يجسروا على مضايقتها ولو بأفكارهم لأنها تحت حماية (دا جاما).. هكذا لم يجسر واحد منهم على أن يحتفظ بصورتها لأحلامه لأن هذا معناه خراب بيته.. سوف يحلم بها وسوف يعرف القبطان بطريقة ما، ولسوف يجد نفسه معلقًا على إحدى الصوارى..

(دا جاما) قبطان من الطراز الذى يبعث التوتر والقلق وعدم الراحة فى نفوس من يعملون لديه، ولعلها لم تلق شخصية كهذه إلا مع القبطان (أهاب) بطل قصة (موبى ديك).. والغريب أنه يتغذى من هذا التوتر كمصاصى الدماء..

كان الفتى يقف بقربها وهو يربط حبلًا غليظًا.. كل هؤلاء البحارة يربطون حبالًا طيلة اليوم..

قال لها بصوت خافت متظاهرًا بأنه لا يكلمها:

- « امرأة على السفينة.. هل أنت أسيرته؟ »

نظرت له فى عدم فهم، فقال من جديد:

- « هل أنت أسيرة القبطان؟.. جارية لديه؟ »

قالت فى ضيق شأن من يتدخل فى أمورها من لا حق له:

- « أنا صحفية.. مهمتى أن أكتب عن رحلته بالتفصيل..»

- « لا أعرف معنى (صحفية) هذه.. يبدو أن هذه اللفظة معناها (أسيرة) أو (جارية) أو (فريسة)، لأننى منذ رأيتك شعرت بأننى أرى يمامة فى عش صقر.. »

- « اطمئن.. أنا يمامة تعيش بكامل إرادتها هنا، وقبطانك هذا أكثر طموحًا من أن يهتم بامرأة.. صدقنى إن لى خبرة بالأمر.. الرجال شديدو الطموح لا يبالون بالجمال الأنثوى، وعندما يتزوجون تكون زوجاتهم قبيحات أو على الأقل مفتقرات للفتنة الأنثوية.. لا وقت عندهم لهذه الأمور. قبطانك يحمل رأسًا مفعمًا بالفلفل والبهارات والخرائط البحرية.. »

ضحك كثيرًا مما قالت، وأحكم ربط الحبل حتى بدأ يلهث ثم أضاف:

- « من الغريب أنهم يهتمون بهذه الأمور.. عندنا فى الهند لا ثمن للتوابل على الإطلاق.. لهذا نتركها لهم بأرخص الأسعار عندما يأتون لنا.. »

- « وهم يبيعونها أغلى من الذهب.. »

- « فقط لو عادوا إلى البرتغال أحياء.. إن طريق الحرير ليس حريريًا على الإطلاق، وهناك عصابات كثيرة من قطاع الطرق تفتك بالقوافل.. لا ينجح فى عبور الطريق سوى واحد من كل خمسة.. »

ثم قال وهو يبتعد ليقوم بمهمة أخرى تتعلق بالحبال بالتأكيد:

- « فقط خذى الحذر منه.. لقد عرفته بما يكفى كى أقول ذلك.. هذا الرجل يجمع بين غدر العقارب وشراسة النمور.. لو كانت حياتك تساوى جرامًا من الفلفل لقتلك حالًا.. »

صاحت كى يسمعها:

- « لكنك دافعت عنه.. لو لم تكن موجودًا لكانت جثته الآن وليمة للأسماك.. »

- « لأننى نشأت على احترام قبطانى وحمايته، لكننى لا أنصح فتاة رقيقة بأن تفعل ما أفعله.. »

كان يبتعد وهو يتكلم حتى إنها سمعت آخر مقطع فلم تتبينه بالضبط، لكنها قدرت أن هذا هو المعنى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه هى (ماليندى Malindi) المدينة الكينية..

واحدة من المدن الأفريقية القليلة المطلة على المحيط الهندى، مثلها مثل (مومباسا) و(موزامبيق)..
لسبب ما يهوى السياح الإيطاليون (ماليندى) اليوم، ولكن الأمور لم تكن كذلك فى القرن الخامس عشر..
هذه هى المدينة التى توقفت سفينة (دا جاما) عندها.. وهناك قضى عدة أيام ينتظر الفرج..
كان قد وقع فى مشاكل عديدة مع سلطات (مومباسا) وفر منها فرارًا، لهذا سره أن علاقات سلطات (ماليندى) سيئة مع سلطات (مومباسا).. هذا جعله ضيفًا شبه مرحب به من منطق (أعداء أعدائنا هم أصدقاؤنا)..
خطوة واحدة تصل به إلى الهند، وخطوة واحدة تهوى به إلى أعماق المحيط الهندى.. سوف يرثيه الناس بضعة أيام ثم ينسون اسمه تمامًا، ولم يكن (دا جاما) العملى نافد الصبر ممن تروق لهم قصص الشهداء وضحايا الواجب.. كان يريد المجد والثروة فى حياته فإذا مات فلينسوا اسمه إذا أرادوا..
قال لها فى واحدة من تلك المرات التى يتحرر فيها لسانه:
- « يجب أن أجد من يرشدنى إلى الهند.. يجب... »
ولم يعرف كم هو محظوظ..
فى ذلك اليوم جاء قارب صغير يدنو من السفينة، وصاح نوتى أفريقى مناديًا:
- « هناك تجار مسلمون يرغبون فى الصعود لتحية القبطان (فاسكو دا جاما) العظيم! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- بحار عربى..

انتقل الخبر إلى القبطان (دا جاما) فاهتز كتفاه ضحكًا، ثم قال ل (عبير):
- « أنا لا أطيق هؤلاء القوم.. إن مهمتى هى قص ريشهم وتقليل نفوذهم فى بحر العرب.. إنهم تحت كل حجر وفى كل جزيرة.. والآن يريدون تحيتى!.. تبًّا لألعاب الدبلوماسية هذه!.. »
ثم صاح فى البحار الضخم الذى جاء يبلغه الخبر:
- « قل لهم إنه لا وقت لدى القبطان (دا جاما) لهذه السخافات.. »
قالت (عبير) كاتمة غيظها:
- « لكن هذه (قلة ذوق) لا شك فيها.. هم يريدون تحيتك لا أكثر.. اعتبروك ضيفًا.. »
- « ومنذ متى تعتبر هذه أرضهم حتى يعتبرونى ضيفًا؟..»
مدت يدها إلى خارطة عتيقة موضوعة على مكتبه.. الخارطة تبدو كرسم فى كراس تلميذ بما فيها من خطوط ساذجة وتعاريج لا وجود لها. ضمن المعلومات الجغرافية ترى صور شياطين وتنين وملائكة مجنحة.. خارطة فيها من الزخرفة أضعاف ما فيها من دقة..
قالت له:
- « ذلك الفتى الهندى قال إنهم يعرفون هذه المياه.. »
صاح (دا جاما) فى غيظ:
- « هؤلاء القوم لا يعرفون سوى الصحراء والرمال، وقد جففت الشمس أرواحهم وعقولهم.. لا أتصور أن عربيًّا يعرف أى شىء عن البحر.. هذه خرافة.. هم فقط يبحرون فى الماء.. يبحرون فإذا قابلوا أرضًا نزلوا عليها وإن لم يقابلوا ماتوا ولم يعد أحد يذكرهم.. هذا كل شىء..»
ثم راح يداعب لحيته الكثة بعض الوقت مفكرًا.. بسمة وحشية بدأت ترتسم على ملامحه، ثم قال:
- « ولكن.. لِمَ لا؟.. الإبحار ممل والحياة كئيبة.. بعض المزاح لن يؤذي أحدًا.. فلنر ما سيقولون ولسوف نضحك كثيرًا.. »
ثم نظر إلى البحار الضخم الذى جاء يبلغه، فاستحالت ابتسامته شرًّا وتطاير الشرر من عينيه وزأر كأسد:
- « أما زلت هنا يا أحمق؟.. لماذا لم تبلغ هؤلاء التجار أننى بانتظارهم؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يصل القارب إلى السفينة فى هدوء...
ثم يصعد نحو ستة من التجار العرب بثيابهم المميزة، وعلى ظهر السفينة يقف (دا جاما) وسط ضباطه وقد لبس أفخم ثيابه وأكثرها غطرسة.. النتيجة أنه بدا مرعبًا لا مهيبًا..
يتقدم الرجال نحوه ومعهم مترجم ينقل عربيتهم إلى البرتغالية، وبالطبع تفهم (عبير) اللغتين معًا..
- « السلام عليك يا قبطان.. مما يشرفنا أن ترسو سفنك فى مياه هذا المرفأ المتواضع.. »
اقتادهم إلى قمرته وهو لا يكف عن غمز (عبير) أو ضربها بكوعه كلما قال أو قالوا شيئًا.. لسان حاله يقول: « سوف نتسلى قليلًا.. »
بدا التجار العرب منبهرين بهذه الفخامة التى رأوها فى قمرة القبطان.. هناك مخدع مغربى كامل وستائر هندية فاخرة.. هناك مجموعة كاملة من زجاجات الخمر المعتقة رفضوا أن يتذوقوها

شاكرين وكئوس صنعها أبرع صناع الزجاج.. هناك منضدة كبيرة مخصصة للاجتماعات ازدانت بالزخارف، وهناك لوحة زيتية عملاقة للقبطان جوار صورة ملك البرتغال.. الشموع من طراز فاخر.. الورق من طراز فاخر.. حتى ريش الكتابة يبدو أنه ريش طاووس..
فرد (دا جاما) خرائطه على المنضدة وثبتها بالفرجار ومسطرة معدنية، ثم قال للتجار وهو يضرب الورق:
- « كما ترون.. الحسابات معقدة جدًّا وعملنا ليس سهلًا..»
هنا قال أحد العرب فى الخمسين من عمره وهو يقرب عينيه قصيرتى النظر من الخرائط:
- « عمل متقن وجميل جدًّا.. هذه الأعمال الفنية لا تقدر بمال.. »
- « طبعًا.. لكننى أتكلم عن أهميتها للملاحة.. »
قال العربى وهو يتراجع:
- « لا أهمية لها.. هذه قطعة من الفن الخيالى الجميل، لكن إحداثياتها خطأ وكل شىء فيها خطأ!.. لأنها قديمة جدًّا! »
نظر له (دا جاما) قليلًا ثم ابتلع ما يريد قوله، واتجه إلى بعض الأدوات فالتقط (أسطرلاب) خشبيًّا ورفعه فى فخر أمام العيون فى ضوء الشموع، وقال:
- « أدوات ملاحة.. لن تفهموا هذه الأشياء طبعًا لكنها مهمة لنا.. »
تناول ذات العربى الأسطرلاب ووضعه فى كفه وتأمله للحظة ثم ألقى به على المنضدة، وقال:
- « أسطرلاب.. لكنه شديد البدائية.. أنا صنعت (أسطرلاب) من النحاس يمكن أن أهدى واحدًا منه للقبطان.. لدى كذلك مزولة ممتازة صنعتها بنفسى!.. »
نظر له (دا جاما) بعينين يتطاير منهما اللهب.. لو كان الدخان الأسود يخرج من الرءوس كما فى الكاريكاتور لأحاطت سحابة سوداء برأسه.. وسأل:
- « فهمت أنك تاجر.. »
- « بل أنا بحّار منذ الصغر.. »
- « وما اسمك أيها البحّار منذ الصغر؟ »
قال العربى فى صوت خفيض:
- « أنا العبد الله الفقير (أحمد بن ماجد).. من جلفا[1].. »
مد (دا جاما) يده الضخمة إلى كتف البحّار العربى ضئيل الحجم، واقتاده هو والمترجم بطريقة تحمل الكثير من اللهفة خارج القمرة، ثم سأله بصوت خفيض:
- « هل تعرف الطريق من هنا إلى الهند؟ »
قال البحّار فى دهشة:
- « نعم.. طبعًا... »
- « من هذا الساحل.. ساحل أفريقيا الشرقى.. هل تعرف كيف تقودنا إلى الهند؟ »
كرر البحّار فى دهشة:
- « بالتأكيد يا قبطان.. قلت لك.. »
عاد (دا جاما) إلى القمرة حيث كان التجار العرب والضباط و(عبير) يقفون مندهشين بانتظار عودته، فرفع ذراع البحّار العربى كأنه يعلن فوزه فى مباراة مصارعة، وحتى كادت ذراع الأخير تنخلع، وقال بصوت مجلجل:
- « سوف يكون (ابن ماجد) هو دليلنا إلى الهند! »
تبادل البرتغاليون النظرات غير مصدقين، وابتلعوا اعتراضاتهم.. بينما دنت (عبير) منه لتهمس

فى حذر:

- « قلت إن العرب لا يفقهون شيئًا فى البحر.. »

- « وكنت مخطئًا!.. هذا الرجل يعرف ما يريد وكيف يحصل عليه.. لن أبحر للهند بخارطة رسمت فى عصر بطليموس.. الرجل الذى يصنع (أسطرلاب) بهذه الدقة والبراعة يعرف بالتأكيد كيف يقودنا إلى الهند! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- بحار عربى (عنوان مكرر لكن لا يوجد أنسب منه)

وداعًا (مالیندی)!
ها هى ذى العمارة تبحر باتجاه الشمال الشرقى نحو الهند..
(عبير) تتابع الأحداث كعهدها، وقد حاولت أن تلتقى بأكثر من بحار برتغالى لكن الشىء ذاته كان يحدث فى كل مرة.. تضع جهاز الكاسيت قرب فمه وتسأله عن رأيه فى الرحلة، فيسألها فى رعب:
- « هل القبطان سيسمع هذا الكلام؟ »
- « لا أضمن ألا يفعل.. أكلمك بصراحة.. »
هنا يتراجع فى ذعر ويلقى بهذا الحبل أو يجذب هذا الخطاف أو يدير تلك العجلة، وبعضهم كان يكتفى بالقول:
- « رحلة رائعة.. نحن سعداء لكوننا مع القبطان العظيم..»
كان (دا جاما) صارمًا فعلًا، وقد رأت أكثر من مرة عملية جلد قاسية لهذا البحّار أو ذاك، لأنه لم ينفذ أمرًا أو لأنه سرق بعض اللحم المقدد..
على كل حال كان يمكنها فهم هذا.. الرجل الذى يقود هذه العمارة بمن عليها من رجال ورءوس أموال هائلة.. الرجل الذى عليه أن يضيف قارات كاملة لمملكته، لا يمكن أن يجد الوقت ليكون رقيقًا.. كان قد تعامل مع البحارة وحتى أسفل عينات منهم وعرف كيف ينتزع احترامهم، وإن وجد أن انتزاع الاحترام عسير من دون أن تظفر ببعض الخوف معه..
رجل واحد بدا واضحًا أن (دا جاما) معجب به، وكان من حقه مقابلة القبطان فى أى وقت، كما كان يجلس معه بالساعات فى قمرته يناقشان الرحلة..
هذا الرجل هو (ابن ماجد)، ولقد حاولت كثيرًا أن تجرى حديثًا معه، لكنه كان مشغولًا دائمًا..
كان البرتغاليون قد أطلقوا عليه اسم (ماليموكانا) وهذا أفضل نطق توصلوا إليه لعبارة (المعلم الفلكى) وبهذا الاسم عرف أثناء هذه الرحلة.. على أن المراجع البرتغالية الأخرى تصفه باسم الميرانتى أى (أمير البحار)..
فى تلك الليلة رأته يقف مع القبطان والضباط على ظهر السفينة.. السماء مرصعة بالنجوم بذلك الشكل الخام المذهل، حيث تدرك للمرة الأولى أن فى السماء من النجوم أكثر مما فيها من الظلام.. نجوم يمكنك أن تقرأ على ضوئها، ولو مددت يدك لقطفت بعضها لتهديه لحبيبتك..
كان (ابن ماجد) واقفًا يشرح للقبطان خارطة النجوم وكيفية الاهتداء بها.. كان يعرف موضع كل نجم وكيف تعرف اتجاهك عن طريقه، وخيل للرجال أن هذا الرجل ليس بحاجة إلى بوصلة من أى نوع..
قال (فاسكو دا جاما) فى رضا:
- « هذا علم جديد علينا بالكامل يا (ماليموكانا).. يجب أن نكتب كل ما قلت كى لا ننساه.. »
كان قد شرح لهم أمس الرياح الموسمية وكيف يمكن استغلالها، كما شرح لهم المد والجزر ودور القمر فيه.. الحق إن هؤلاء العرب كانوا يجيدون الملاحة فعلًا..
قبل يومين عرض عليهم الحقة الملاحية التى ابتكرها، و(حقة) هى الترجمة العربية للفظة

بوصلة، وكيف علق الإبرة الممغنطة على محور لتتحرك حركة حرة مع هياج البحر.. هكذا تعرف السفن طريقها وسط أعتى العواصف..
لو فكرنا جيدًا لوجدنا أن هذا منطقى.. هؤلاء قوم لم يعيشوا فى الصحراء بل على الخليج، وقضوا أكثر حياتهم فى السفن.. (ابن ماجد) نفسه قضى فى البحر خمسين عامًا، وورث علم أبيه الذى ورث بدوره علم جده.. فقط يميل الذهن الغربى إلى التنميط.. العربى يعنى الجفاف والصحراء..
عندما انصرف البرتغاليون وقف (أحمد بن ماجد) لفترة طويلة ينظر إلى البحر المتراقص فى ضوء النجوم، وبدا كأنه يرقص مع ذكرياته المنسية.. ثم رفع عينيه يتأكد من أن القلوع منتفخة حبلى بالريح الموسمية..
كانت الفرصة سانحة فدنت منه وفتحت جهاز التسجيل:
- « قبطان (ابن ماجد).. هل تسمح لى بإجراء حوار معك؟ »
نظر لها بوجهه المنهك قوى السمات، ولم يبد أنه فهم معنى إجراء حوار، لكنه قال:
- « لو كنت تقصدين الكلام معى وسؤالى عن أشياء فأنا موافق.. »
- « هل لى أن أعرف من أنت؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يوجد الكثير مما يقال يا بنيتى..
أنا (شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل ابن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبى معلق السعدى ابن أبى الركائب النجدى)..
هنا قالت (عبير) باسمة:
- « كفى وإلا انتهى شريط التسجيل.. »
ولدت فى (جلفار) كما تعرفين عام 1421 بالتقويم الغربى وعام 840 الهجرى.. أنا من أسرة مولعة بالبحر، وقد نشأت على هذا الفن منذ نعومة أظفارى.. أبى يطلقون عليه اسم (ربان البرين)..
إن البحارة فى الخليج يذكروننى جيدًا، وحتى فى زمنك المعاصر سيظل بعضهم يهتف عندما تبدأ سفينته الإقلاع: (الفاتحة لابن ماجد).. برغم أنهم لا يذكرون عنى أية تفاصيل..
الحقيقة أننى أضفت الكثير لما تعلمته فى صغرى، ودرست علم الفلك جيدًا.. وقمت بتطوير الحقة المائية والأسطرلاب وآلات تقيس ارتفاع الشمس وارتفاع النجم القطبى.. ثم بدأت أكسب عيشى كمرشد ملاحى..
لى مؤلفات عديدة فى عالم البحر، ولسوف يحتفظ معهد الدراسات الشرقية فى (لينينجراد) بمخطوطة لى بالعربية أصف فيها سبل الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى. إنها مكتوبة بالشعر كلها كما هى العادة فى زمننا.. كل شىء ينظم شعرًا لتسهيل حفظه، وأمثال (دا جاما) يمكن أن يضحوا بذراعهم الأيمن كى يجدوا مثل هذه المخطوطة مترجمة..
سألته (عبير) فى حذر:
- « ما رأيك فى معلومات البرتغاليين البحرية؟ »
ابتسم ابتسامة أفصحت عما لم يقله.. وفضل أن يصمت..
الحق أن تلك الأيام كانت ضربة قوية لكبرياء (فاسكو دا جاما)، لكنه كان عمليًا وكان يعرف أن يفيد من أى وضع مهما كان صعبًا..
وقرب حاجز السفينة الأيمن يجلس الفتى الهندى (آرام) يغنى بصوت خفيض.. يغنى لليل

والبحر والظلام..
دنت منه (عبير) وأخرجت جهاز التسجيل لتسجل جزءًا مما يغنيه، ثم سألته:
- « ماذا تقول؟ »
قال باسمًا:
- «لا يمكن أن تترجمى الغناء.. إنه يصير سخيفًا.. غناء كل لغة لا معنى له إلا بها.. غالبًا أغنى لبلدتى.. لحبيبتى (راميشا).. لأمى.. لهواء وطنى الذى بدأت أشمه من هنا..»
- « هل تنوى البقاء هنالك للأبد لدى وصولنا؟ »
صمت قليلًا، ثم قال:
- « هذه عودة ليست فى وقتها الصحيح.. لم أعد ثريًا.. لم أعد عظيمًا.. لم أعد رجلًا واسع الخبرة.. باختصار: لم أحقق شيئًا مما خرجت لتحقيقه، وأعتقد أننى سأعود للبحر لا محالة مع القبطان.. إذن هى زيارة لوطنى لا أكثر... »
دوى صوت الغناء والتصفيق، فاستدارت (عبير) لتجد أن البحارة أشعلوا بعض المشاعل، وراحوا يرقصون وهم يصفقون ويهللون.. صنعوا دائرة توسطها أحدهم وراح يأتى بحركات خرقاء المفترض أنها رقص..
كانوا ثملين تمامًا، وكانت تعرف أن كل البحارة البرتغاليين فى هذا الزمن على الأقل ثملون.. ما أقبح الغناء عندما يصدر من حناجر ثملة أفقدها السُّكْر كل قدرة على تشكيل النغمات..
كانت تعرف ما سيحدث.. لابد من التحرش بالنساء أو الأجانب.. هذه هى القواعد.. لقد ألفوها فلن يضايقوها.. على الأقل لأنهم يعرفون أن غضبة (دا جاما) ستكون كاسحة.. لكن ما الذى يمنع من التسلية على الكهل العربى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8تحرش وتحدٍّ..

هكذا بدأت الدائرة تتحرك، ولم يدر (ابن ماجد) متى التأمت الدائرة من حوله ليجد أنه يقف فى وسطها بينما يحيط به البحارة بوجوههم الفظة وأنوفهم المحمرة.. كانوا يريدون منه أن يرقص معهم..
تظاهر بأنه لم يلحظ وشق طريقه ليخرج من الدائرة لكنها التأمت من جديد، وقال قائل منهم:
- « هلم أيها العربى.. ارقص! »
ومد يده ليرغمه على احتساء الخمر، لكن (ابن ماجد) أبعد الزجاجة فى ضيق، وحاول أن يجد ثغرة أخرى.. لم يفهم كلامهم لكن الإيماءات تكفى..
الآن تحول التحرش إلى عدوانية صريحة، فالرجل يرفض الشرب معهم وهذه إهانة ما بعدها إهانة بالنسبة لهم..
كانت (عبير) تراقب الموقف فى قلق..
من العسير نوعًا أن تتخيل أن (ابن ماجد) الكهل الوقور سوف يمزق سترته كاشفًا عن عضلاته القوية، ويطلق صرخة رفيعة من صرخات (بروس لى) ويقول:
- « لقد أردتم القتال فأنا له.. تقدموا! »، ثم يمزقهم جميعًا..
لو حدث هذا لاندهشت بعض الشىء..
السباب ينطلق بالبرتغالية لحسن الحظ وهو لا يفهمها، لكن من السهل أن تتصور بذاءة ما يقال عنك عندما ترى تعبيرات وجه من يتكلم..
ظل ثابتًا وسطهم ينظر لهم دون أن تطرف عيناه، ثم نظر لها من وسط الرجال، وقال:
- « هلا قمت بالترجمة لى؟.. »
قالت فى عصبية:
- « لا داعى لهذا.. سوف أبلغ (فاسكو دا جاما) بأنهم يضايقونك، ولسوف تكون غضبته مريعة.. »
- « لا.. لا تفعلى.. »
كانت تفهم هذا الموقف.. هو ليس طفلًا ليشكو لبابا فاسكو دا جاما.. هناك مشاجرات كثيرة يمكن إنهاؤها بأن تطلب الشرطة، لكن طرفى الشجار لا يرغب أحدهما فى أن يبدو كفتاة مذعورة تستغيث.. الأمر يتعلق بالكرامة والتحدى، لذا لن يحسّن تدخل (دا جاما) الأمور.. هذه مشكلته وسوف يحلها بنفسه.. لكن كيف؟
دنت منه فى رهبة منتظرة ما سيقول..
قال بصوت هادئ:
- « أنتم تحاولون السخرية منى لأننى مختلف، وأنا قد أقبل هذه السخرية من بحارة يجيدون عملهم فقد عملت مع أعظم البحارة وأبرعهم فى حياتى، وكان المتميزون منهم يحترمون من هم مختلف عنهم.. إننى أدعوكم لتحد بسيط.. لو نجح أحدكم فيه فلسوف أقبل السخرية والعار باقي الرحلة.. »
نظر إليه الرجال متسائلين..
هذه من دلائل فهم الشخصيات التى يملكها كل من عرك الرجال كثيرًا.. هؤلاء القوم لا يرفضون التحدى أبدًا.. مهما بلغت شراستهم فالتحدى عرض لا يمكن رفضه..

قال و(عبير) تترجم:
- « أريد حبلًا... »
من مكان ما قذف أحدهم له بحبل غليظ، فتلقفه وصنع أنشوطة صغيرة قذفها على وتد يبرز من خشب الأرضية وأحكم ربطه بعدة عقد متتالية..
- « هذه العقدة يعرفها البحارة العرب، ويستطيع أصغر صبى فيهم أن يفكها بلمسة واحدة.. الرجل الذى يستطيع أن يفكها دون أن يقطع الحبل جدير بلقب بحّار حقًّا.. »
هكذا نسى الرجال أنهم ثملون ونسوا أنهم عدوانيون، واجتمعوا حول العقدة.. كل واحد منهم يحاول أن يثبت أنه قادر على فكها..
عملية مرهقة طويلة.. العروق تبرز من الأعناق والعرق يسيل من الجباه، لكن لا جدوى..
كل واحد ينظر بحقد ل.(ابن ماجد) وفى النهاية ساد الصمت..
تقدم (ابن ماجد) فى هدوء وبيد واحدة فك العقدة فعاد الحبل حرًّا طليقًا.. وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة خافتة..
تقدم منه بحّار برتغالى كثيف شعر الرأس والحاجبين والشاربين واللحية، حتى لم يبق فى وجهه سوى بياض العينين، وقال وهو يترنح:
- « علمنى هذه العقدة.. »
هكذا بدأ (ابن ماجد) يشرح له كيف قام بها، والتف الرجال يحاولون الفهم..
ابتسمت (عبير) وهى ترى أن المواجهة المتوقعة قد تحولت إلى درس من دروس الكشافة.. الرجل عالج الموقف ببراعة ولا شك فى أنه ظفر باحترام هؤلاء الرجال..
هنا سمعت السباب بالبرتغالية..
بدا (فاسكو دا جاما) فى ضوء المشاعل مرعبًا غير حقيقى.. أكبر من الواقع ذاته، وهو بكامل ثيابه ونظرة متوحشة نارية فى عينيه.. وقد وضع قبضتيه فى خصره.. ومن خلفه كان عدد من ضباطه وهم أقل منه حجمًا وهولًا لكنهم يشبهونه كثيرًا..
من خلفهم يمشى الفتى الهندى (آرام) متوترًا..
كانت الرسالة واضحة.. لقد أسرع الهندى يوقظه من نومه ليخبره أن البحارة يعتدون على (ابن ماجد).. (أبن ماجد).. (ماليموكانا) الذى هو أثمن بالنسبة له من الذهب.. آسف.. أثمن من الفلفل..
هكذا ارتدى ثيابه وغادر قمرته وجاء ليسوى الأمور..
وقف الرجال غير مصدقين، على حين زأر (فاسكو دا جاما):
- « (خوزيه) و(ألفاريس) و(ماريو).. أنتم من بدأ التحرش.. تقدموا! »
بالفعل من بين الرجال تقدم ثلاثة البحارة الذين كانت لهم الذراع الأطول فى الشغب.. تقدموا برءوس مطأطئة وأقدام ثقيلة..
- « ليتلق كل منهم عشرين جلدة.. الآن.. »
ترجمت (عبير) ما قيل لابن ماجد، فهرع يبلغ القبطان إنه لا يريد ذلك.. لم يحدث شىء وقد عادت المياه لمجاريها.. مجرد سوء فهم بسيط، لكن (دا جاما) هتف فى عصبية:
- « أنا لا أتلقى التعليمات منك.. هذه سفينتى أنا (فاسكو دا جاما) العظيم.. هؤلاء رجالى وعليهم أن يتلقوا العقاب الذى أحدده! »
هكذا نزع الرجال ستراتهم ووقف كل منهم ووجهه لعمود خشبى يحتضنه بقوة، بينما جلاد السفينة يعد سوطه المغموس بالزيت فى ضوء المشاعل.. »

سمعت (عبير) أحد البحارة من خلفها يقول لصاحبه وهما يراقبان المشهد الرهيب:
- « إنه ذلك الكلب الهندى.. لقد وشى بنا.. »
- « صبرًا!.. سوف ينام وحده فى لحظة ما وعندها..! »
لا تعرف كيف التقطت أذنا (دا جاما) هذا الكلام، ويبدو أن القادة يجب أن يكونوا حديدى السمع كذلك.. فالتفت إلى الرجال وصرخ بزئير كالأسد:
- « لا يجب أن أؤكد أن سلامة الفتى الهندى مسئوليتكم.. لو حدث له أى شىء حتى ولو غرق فى الماء أو مات من تلقاء ذاته فدمه على رأسكم، وسوف أشنق ثلاثة رجال أختارهم عشوائيًّا عقابًا لكم!! »
ثم استدار عائدًا لقمرته بينما بدأ صوت السياط يتعالى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وليلة عاصفة..

العاصفة هى الصورة الأولية شديدة الوضوح لغضبة الطبيعة.. وعندما تغضب الطبيعة فهى لا تكظم غضبها ولا ترفق..
أن تواجه عاصفة وأنت على ظهر سفينة بدائية من القرن الخامس عشر لهو كارثة، ويبدو أن الطبيعة كذلك كانت فى ميعة الصبا فى ذلك الوقت لأن العواصف كانت أعنف بالتأكيد..
السماء سوداء بالمعنى الحرفى للكلمة، فقط تشقها ألسنة البرق من حين لآخر.. ثم يظهر جبل أسود قادم من بعيد.. يجب أن تصدق أنه قادم.. يجب أن تصدق أنه سيمر من تحتك وأنك ستعلو حتى تبلغ عنان السماء ثم تهوى فى حفرة سحيقة سوداء، وعليك أن تظل حيًّا وفى وضع رأسى..
يمر الجبل، لكن جبلًا آخر يلحق به قبل أن تلتقط أنفاسك..
لقد طووا القلوع كلها وغيروا اتجاه السفينة..
(عبير) فى القمرة خائفة لا تجرؤ على النظر إلى الخارج، لكنها تطير كل ثلاث دقائق لتضرب الجدران الخشبية..
تسمع صياح (ابن ماجد) بالخارج وهو يصدر تعليماته للبحارة.. لقد أجاد الكثير من البرتغالية وهم أجادوا الكثير من العربية..
تراه بعين الخيال وقد ربط نفسه بالحبال كأنه (أوليس) عند جزيرة عرائس البحر، فلو لم يفعل ذلك لغاب فى المحيط خلال ثوان..
الحق أنه رجل شجاع وموح بالثقة.. والأهم أنه يعتبر نفسه مسئولًا بالكامل عن سلامة هؤلاء لأنه اقتادهم إلى هذه المياه.. فى لحظات كهذه يمكنك أن تفهم اللقب الذى أطلقه التاريخ عليه حتى اليوم: (أسد البحار)..
تسمع الصراخ وترفع رأسها لتجد (فاسكو دا جاما) جالسًا فى هدوء يكتب فى دفتر السفينة على ضوء شمعة.. حتى محبرته لا تهتز.. كأنه ينتمى لعالم آخر شديد الهدوء.. قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه..
رفع رأسه فوجدها مكومة كقط مذعور جوار الجدار وهى تجاهد كى لا تفرغ معدتها..
قال لها:
- « لا تقلقى.. هذا الرجل بارع.. إنه يملك من الكفاءة ما يفوق عشرة من هؤلاء الخنازير المتغطرسين الذين يعتبرون أنفسهم ذئاب البحر.. »
ثم أضاف فى استمتاع:
- « لم تبلغ أية سفينة برتغالية هذه النقطة من قبل.. كلها غرقت قبل هذا.. »
- « وهذه ستغرق الآن..!! »
- « أنت غير ذات خبرة بحرية لهذا تعتبرين هذه الأنسام عاصفة.. لم أر فى حياتى عاصفة إلا وكانت أسوأ من هذه وأعنف.. »
- « نحن مدللون سعيدو الحظ إذن.. »
قال وهو يداعب لحيته:
- « لم نر عُشر ما رآه (بارثلميو دياز) فى رحلته حول رأس الرجاء الصالح حتى إنه أطلق عليه (رأس العواصف).. والجميل فى الأمر أن خرائطنا كانت كلها خطأ فعلًا.. أنا أعيد رسم الخارطة

بشكل دقيق.. »
دوى الرعد من جديد فرفع رأسه، وقال باسمًا:
- « المحيط الهندى غاضب لأننا موشكون على هزيمته.. هلم يا أحمق.. أرنا ما لديك.. هل هذا كل ما عندك؟ »
وكأن المحيط سمع هذا التحدى فاستشاط غضبًا.. هكذا ارتفعت السفينة كأنها تتسلق جبلًا كاملًا ثم هوت مرة واحدة حتى أوشكت كل قطعة خشب فيها أن تنفصل..
- « تبًّا.. لقد لوثت بقعة من الحبر الخارطة!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تغرق السفينة..
فى الصباح كانت العاصفة قد هدأت، وكان الرجال مشغولين فى إصلاح ما أتلفته غضبة المحيط أمس..
رائحة الرطوبة فى الجو ورائحة الخشب المبلل.. رائحة الإجهاد وذلك الصفاء الذى يلى العواصف..
كان (ابن ماجد) مرهقًا محمر العينين من فرط ما قضى الليل فى التركيز والانفعال وتوجيه الأوامر، لكنه كان كذلك يتشمم الهواء من حين لآخر..
مشى إلى المقدمة ووقف متصلبًا بعض الوقت..
راح ينظر إلى البوصلة الحقة التى صنعها ثم أخرج آلة السُّدس وأجرى بعض القياسات، ثم استدار ليعلن الخبر:
- « نحن على سواحل الهند..! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- زامورين وتوابل وأشياء أخرى..

وهكذا استغرقت الرحلة 22 يومًا وهى فترة مدهشة بمقاييس ذلك العصر، عندما كان هناك الكثير من الزمن فى كل شىء، بحيث تخصص بضعة أيام للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية، وتستغرق رحلة الحج عدة أشهر..
للمرة الأولى تدخل السفن البرتغالية العملاقة المياه الهندية..
وقد خرج (فاسكو دا جاما) إلى سطح السفينة ليرى المشهد المهيب.. يمكنه أن يشم رائحة التوابل من هنا.. وأثار دهشته أن السفن العربية الواقفة فى هذه المياه كثيرة جدًّا. بالفعل كان الحل لدى العرب منذ زمن سحيق وكان عليه أن يضغط على كبريائه قليلًا ليعرف..
كان يحلم..
يحلم بأن تختفى هذه السفن، وألا تُرى هنا سوى الأعلام البرتغالية..
البحارة يقفون بدورهم ينظرون لتلك الأرض المفعمة بالأسرار والكنوز.. أرض تختلط فيها ثمار المانجو بالبهارات بالنمور المتوحشة فى الأحراش، برائحة البخور فى المعابد القديمة بثعابين الكوبرا ورائحة الأمطار السنوية، وعيون الحسناوات الممتلئة بالكحل وهن يغمرن أجسادهن فى مياه نهر الجانج تقربًا لشيفا أو كالى.. هذه هى الهند..
لكنها ليست بالأرض البكر للأسف.. العرب فى كل ركن هنا..
قال (أحمد بن ماجد) وهو يفرك عينيه:
- « أعتقد يا قبطان أنه يجب أن أنزل أولًا.. هؤلاء القوم لم يروا سفينة برتغالية فى حياتهم.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 20 مايو عام 1498، رست سفينة البرتغاليين على سواحل الهند..
(كاليكوت)..
وفى قارب توجه (أحمد بن ماجد) مع (عبير) وبعض الضباط البرتغاليين إلى اليابسة. أنه لينزل من قاربه فتحييه وجوه الهنود الباسمة ويعانقه البعض، فهم يعرفونه جيدًا..
توجه إلى مندوب الحاكم، وطلب منه الإذن لهؤلاء البرتغاليين فى النزول إلى اليابسة. كان مندوب الحاكم يبكي تأثرًا لأنه اكتشف أن الموظف العجوز الذى يعمل معه هو أبوه وبدأ يغنى أغنية حزينة.. باختصار النشاطات اليومية للهنود التى تتضمن لقاء أفراد من الأسرة طال فراقهم..
وكان الهنود يتكلمون العربية بطريقة (أنت فيه واهد نفر صديج) التى يعرفها كل من زار الخليج وسمعهم يتكلمون...
قال المندوب دامع العينين:
- « إن أصدقاء (ابن ماجد) هم أصدقاؤنا، لكن عليك أن تطلب إذن الراجا شخصيًّا.. »
خرج (ابن ماجد) ومن معه ليقابل (مانافيكرامان) حاكم (كاليكوت) فى قصره..
البريطانيون يطلقون على حكام (كاليكوت) اسم (زامورين)، وكان الحاكم يقيم فى قصر منيف بالمدينة.. هناك أفيال وعبيد وراقصات هنديات..
بالطبع كان الحاكم يبكى لأنه اكتشف أن تلك الجارية التى تقدم الشراب هى أخته التى ضاعت منه فى طفولته، وبدأ ينشد أغنية هندية حزينة، هنا قيل له إن (ابن ماجد) يطلب لقاءه..
قال الحاكم وهو يجفف دموعه:
- « إن أصدقاء (ابن ماجد) هم أصدقاؤنا، لكن يجب أن أقابل قبطانك هذا.. »

في هذه اللحظة هب أحد التجار العرب الواقفين قرب الراجا وصاح:
- « البرتغاليون!.. هل وصلوا هنا؟.. هؤلاء السفلة!.. هؤلاء القتلة! »
ثم انحني أمام الراجا وقال بصيغة التوسل:
- « لا تسمح لهم بالرسو يا مولاى.. سوف يحيلون هذا البلد الجميل نارًا ودمًا.. نحن نعرفهم فى كل مكان وهم ليسوا غريبين علينا.. »
قال (ابن ماجد) فى غيظ:
- « كونهم من بلد مختلف ولهم دين مختلف ولون بشرة مختلف لا يعنى إدانتهم.. ليس لك أن تفترض أن السفاح سفاح حتى يقوم ببعض الذبح أمامك.. »
- « نحن لن ننتظر هذا.. »
هكذا دارت المناقشة الحامية، وفى الوقت ذاته اكتشف الراجا أن العجوز الذى يعنى بالخيول هو عمه فانفجر يلطم خديه صارخًا:
- « مهاندرامات مانهاب مهون مهان ن ن ن! »
ودوت أغنية هندية راقصة تعبر عن فرحته، بينما راح الرجل وعمه يلثمان أيدى بعضهما.. ومن مكان ما ظهر شرير يحمل لفافة تبغ سوداء ويكلم الكاميرا فى توحش وهو يرفع حاجب التوعد الأيمن:
- « راج كوبار مهاندرانات مومكين ها موشكل مهان ن.. »
كانت (عبير) تراقب هذا كله فى استمتاع، فلم تلحظ أن (ابن ماجد) انصرف.. وبعد نصف ساعة عاد ومعه (فاسكو دا جاما) شخصيًّا..
ساد الصمت بينما القبطان البرتغالى الرهيب يمشى وسط الهنود المتشككين.. حتى الراقصات والعازفين كفوا عن الرقص والعزف، وأطلق أحد نمور الراجا زئيرًا متشككًا..
لكن القبطان مشى فى ثبات فاردًا ظهره.. هناك لوحة شهيرة جدًّا تظهر هذا المشهد، وفيها يبدو الراجا متشككًا يصغى لدا جاما الذى يشرح وجهة نظره فى كبرياء..
أحد التجار العرب شتم دا جاما بصوت مسموع بالبرتغالية، لكن هذا فضل تجاهل الإهانة..
قال الراجا فى ثبات عن طريق (أحمد بن ماجد) الذى كان الآن يجيد البرتغالية فضلًا عن إجادته العربية والهندية:
- « لن نسمح لك بالتجارة هنا ما لم تترك بعض البضائع كضمان.. »
انحنى (دا جاما) موافقًا.. كان هذا أفضل مما توقعه..
الحقيقة أن (ابن ماجد) أو (ماليموكانا) مفيد على البر مثله مثل البحر، لأن الهنود يثقون فيه ولأن أبوابًا كثيرة تفتح عندما يكون موجودًا..
قالت (عبير) ل.(دا جاما) أثناء المأدبة التى أقامها لهم الراجا:
- « هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذا النصر الصغير؟ »
ملأ فمه بالتوابل التى كانت تغطى خروفًا مشويًّا.. لم يصدق أن كل هذا الثراء موجود فى مكان ما.. فلفل.. شطة.. كمون.. هيل (حبهان).. كسبرة.. زعفران..
كادت النار تخرج من فمه وأذنيه فشرب جرعة كبيرة من الماء وقال:
- « هذه هى الخطوة الأولى.. أن تكون لك امتيازات تجارية، ثم تعززى هذه الامتيازات بأسطول كامل.. لاحظى أن احتلال بريطانيا للهند بدأ بشركة الهند الشرقية.. »
ثم ملأ قبضته بالشطة ودسها فى فمه:
- « دعك من أن الطريق للهند صار شيئًا محفوظًا.. »

وصرخ لأن النار ملأت فمه من جديد..
كان يجد صعوبة فى إقناع الضباط الذين معه أن يحترموا أنفسهم ويكفوا عن سرقة التوابل ودسها فى جيوبهم..
فى هذه اللحظة اكتشف ثلاثة من الهنود الجالسين إنهم إخوة توائم فانفجروا باكين وتعانقوا:
- « رابدنرانات كابور مهان ن ن! »
ودوت أغنية حزينة، على حين ظهر الشرير يواجه الكاميرا ويقول أشياء شريرة جدًّا وهو يرفع حاجب التوعد الأيمن..
كان أحد التجار العرب الجالسين على بعد خطوات يرمق (دا جاما) فى كراهية..
لاحظ (دا جاما) هذا فتناول كأسه ورفعه بطريقة ساخرة فى وجه العربى وابتسم بما معناه (فى صحتك)..
ثم ابتلع ما فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- معضلة تاريخية..

(راميشا) كذلك بكت فرحًا وهى ترى (آرام) يركض كالغزلان نحوها..
كان يركض بين الأشجار، ثم يركض فى الشوارع ويبعثر سلال الفاكهة ويصطدم بالمتسولين والحواة ويضرب بقدمه الشطة التى نثرت لتجف.. من الجميل أن ترى كيف أن هؤلاء الهنود يمكنهم الجرى بالسرعة البطيئة كما يحدث فى السينما.. والأجمل أن الغناء الهندى يخرج من مكان ما..
(راميشا) كانت تنشر الغسيل فى فناء دارها المجاورة للمسجد، عندما سمعت اسمها..
كان يركض ويركض وبدا واضحًا أنه سيرتمى فى أحضانها لو التقيا، لكنه استطاع فى آخر لحظة أن يضغط على فرملة روحه ويقف أمامها بالضبط.. لاحظ أن الهنود محافظون مثل العرب.. فقط هو يملك الحرية أن يقف صامتًا ويلهث..
تلتقي العينان...
يلهث..
تتجمع الدموع فى عينيها..
لقد نضج وبدا أكثر خبرة وقوة، وصارت بشرته سمراء أكثر مع خشونة واضحة فى كفيه، لكنه بالتأكيد لم يكون ثروة.. هذا واضح تمامًا..
- « آرام.. أنت حى.. إذن جئت مع هؤلاء البرتغاليين.. »
- « آرام يفى بوعوده.. »
يحيط بهما الأطفال وتتصايح العجائز أن آرام قد عاد.. ومن مكان ما تأتى أمه راكضة باكية.. سخاء فى المشاعر لا حد له يمكن أن تتهم معه العرب بالبرود.. إن السر فى الشطة التى ألهبت عواطف هؤلاء القوم.. كل شىء حار.. الجو والماء والعواطف والطعام..
وبين قبلات أمه الدامعة المبتلة على خديه سألته:
- « هل جئت لتبقى؟ »
لم يرد.. لكنها عرفت الإجابة..
قال لها وهو يلثم كفيها:
- « سوف أرحل ثانية مع القبطان (دا جاما).. إنه يحبنى ويدافع عنى.. لكننى عائد بالتأكيد.. »
وتنهمر الأمطار الموسمية..
أمطار غزيرة من الطراز الحار الذى يمتزج بالعرق فى مزيج فريد. البرق يشق السماء، بينا يغمر الماء المعابد القديمة والغابات والأفيال..
الهند..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

و(أحمد بن ماجد) يودع القبطان (فاسكو دا جاما):
- « وداعًا يا قبطان.. لقد أنهيت مهمتى وأنتم قادرون على العودة.. »
لم يكن القبطان قادرًا على التأثر، لكنه صافح العربى بقوة وسأله:
- « عائد إلى (جلفار)؟ »
- « بل إلى مكة.. لقد اقترب موسم الحج وعلى أن أنطلق من هنا الآن إذا أردت أن أصل فى وقت

مناسب.. »
ثم إنه صافح البحارة وعانقهم.. لقد صاروا أصدقاء بالتأكيد بعد هذه الأيام الطويلة..
رجل عربى فقير يحمل عصا على كتفه علقت فى نهايتها صرة هى كل متاعه فى الحياة.. رجل عربى فقير يبتعد.. سوف يعود إلى البحر، وسوف يخوض المزيد من الرحلات لكن المؤكد أنهما لن يلتقيا ثانية أبدًا إلا فى كتب التاريخ..
(عبير) ترمق المشهد وتدمع عيناها.
هنا شعرت بأن هناك من يقف خلفها ويراقبها..
استدارت فى عصبية فوجدت المرشد يقف، وهو يعبث بقلمه الجاف كالعادة.. شكله غريبًا وسط هؤلاء البحارة ببذلته الحديثة السوداء ووقفته التى تحمل معنى الملل واللامبالاة.. قالت:
- « هل مغامرة اليوم قصيرة لهذا الحد؟ »
- « لا.. »
قالها فى لا مبالاة ثم أضاف وهو يدس يده فى جيبه:
- « ما زالت أحداث كثيرة تنتظرك، لكنى أردت أن أصحح لك نقطة معينة.. »
- « تصحح؟ »
- « بل أعرض نقطة معينة لتكون عندك القدرة على الحكم.. من الخطأ أن يسمع المرء كل الحقائق من جهة واحدة.. هناك مؤرخون كثيرون يرون أن هذه الرحلة لم تتم وأن (أحمد بن ماجد) لم يلق (فاسكو دا جاما) قط.. مرشد آخر قام بإرشاده إلى الهند.. »
- « وهل هذا صحيح؟ »
- « لا أعرف.. هناك أدلة قوية على أن (أحمد بن ماجد) هو مرشد (دا جاما)، لكن من ينفون ذلك يقولون إنه لم يرد أى ذكر لأحمد بن ماجد فى كتابات البرتغاليين المعاصرين.. »
- « ورأيك أنت؟ »
- « سوف ينسب (دا جاما) الفضل كله لنفسه.. هو رجل متواضع صادق كما تعرفين عنه، لذا سيدعى أنه من فعل كل شىء.. هذا يفسر لنا أن (أحمد بن ماجد) لا وجود له فى كتابات البرتغاليين الذين بالطبع لا يريدون أن ينسبوا أى فضل لعربى، ويعتمدون على كلام قائدهم الذى هو فوق الشبهات. هناك فى كتبهم كلام عن الميرانتى أي (أمير البحار).. لكن هذا بالطبع ليس دليلًا على ابن ماجد.. فى الوقت ذاته تعج الكتابات العربية بقصة (أحمد بن ماجد).. الأهم أن هناك عربًا ينفون عن (ابن ماجد) إرشاد البرتغاليين لينفوا عنه تهمة أنه سهل التفافهم حول السواحل الإسلامية.. الأمر شديد التعقيد كما ترين وتتدخل فيه عوامل كثيرة: الدفاع عن ابن ماجد قد يدفعك لإنكار ما قام به، بالضبط كما يدفعك الحماس للبرتغاليين للشىء ذاته! »
قالت فى حماسة:
- « أنا ميالة لأن القصة وقعت بالضبط كما رأيتها.. »
- « وأنا مثلك فهذا أقرب للمنطق.. لم يكن بوسع سوى رجل عربى أن يقود (دا جاما) للهند، وكان من الطبيعى أن يستعين بأبرع العرب.. أى يستعين بأحمد بن ماجد (ماليموكانا) أسد البحار.. قد نكون نحن متحمسين لعروبتنا أكثر من اللازم وقد يكون البرتغاليون أوغادًا أكثر من اللازم، لكن أردت أن تعرفى ما يُقال بدقة.. هذا هو كل شىء.. »
ثم نظر لساعته، وقال:
- « الآن تعودين مع (دا جاما) إلى البرتغال.. لقد بدأ مجده الحقيقى.. »
- « والهند؟ »

- « سيترك هنا بعض البضاعة والتجار.. هذا هو (مسمار جحا) الذى سيسمح له بالتدخل للأبد.. »
ونظرت (عبير) إلى الميناء فرأت أن الرجال يحملون المؤن إلى السفينة ويعيدون إصلاح ما أحدثته الرحلة فيها..
ستكون الرحلة شاقة لدى العودة إلى البرتغال، لكن لن يضل أحد طريقه هذه المرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- رجل عملى جدًّا..

فى طريق العودة حدثت أشياء بسيطة تافهة مثل أن شقيق (دا جاما) قد مات.. طبعًا هذا كلام فارغ لا يمكن أن يعكر مزاج القبطان.. لكن (عبير) دونته فى مذكراتها على كل حال..
من دون (ماليموكانا) نسى (دا جاما) القواعد التى تتحكم فى الرياح الموسمية، وهذا كلفه الكثير.. هكذا اضطر لعبور المحيط الهندى فى 132 يومًا بدلًا من 22 يومًا مع (ابن ماجد).
فارق مائة يوم يكون قاتلًا فى البحر، وقد وصل إلى ماليندى من دون نصف طاقمه، ويبدو أن السمك أحب مذاق اللحم البرتغالى..
كان الأسقربوط Scurvy داء وبيلًا يقتل البحارة، بعد ما يجعلهم ينزفون كل قطرة من دمهم وتتعفن أطرافهم، ويتجعد شعرهم وتتورم لثاتهم بحيث لا يقدرون على أكل شىء.. طبعًا كان يمكن إنهاء هذا كله ببعض عصير الليمون أو البرتقال، لكن ما زال أمام الطب الكثير ليتعلمه فى القرن الخامس عشر..
على كل حال كانت هذه منغصات بسيطة بالنسبة للقبطان العظيم..
إن الرجال يمكن تعويضهم، لكن المجد لا يأتى مرتين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن (آرام) الفتى الهندى ممن أصيبوا بالأسقربوط..
كان يمارس عمله فى نشاط كالعادة، لكن من دون حماسة كبيرة.. لقد جعلته رؤية الوطن والحبيبة يفقد الكثير من شجاعته.. دعك من أنه اكتشف أربعة إخوة له لم يكن يعرفهم، وغرق الكل فى الدموع والأحضان مع أغنية هندية تناسب الموقف، والكثير من الركض بالسرعة البطيئة و:
- « مهان نننننن رابندرانات آكيه مهانن.. آتشا.. »
يقولون إن أول من ينزع حذاءه بعد رحلة شاقة لا يقدر على استكمال السير، وهذا صحيح.. لقد نزع الفتى حذاءه فى (كاليكوت) ونزع أثقال روحه، ثم وجد أن عليه أن يستكمل رحلته الشاقة التى لا يعرف لها هدف ولا نهاية..
لقد عاد للبحر كى لا يعود لليابسة..
فقط..
فى ذلك اليوم اجتازت السفينة جزر (الآزور)، وكان منهمكًا فى تنظيف سطح السفينة من القشريات الملتصقة به، عندما رفع رأسه فوجد عددًا من البحارة يحيطون به..
(خوزيه) و(ألفاريس) و(ماريو).. يعرفهم جيدًا لأنهم من تلقى ضربات السوط فى تلك الليلة.. ليلة التحرش بابن ماجد..
واصل التنظيف متظاهرًا بأنه لم يلحظهم، لكن (خوزيه) وقف أمامه متصلبًا..
لم يعد من الممكن التظاهر بالغباء.. توقف الفتى ورفع رأسه متسائلًا فقال البرتغالى الفظ:
- « أنت أيها الكلب الواشى.. لم ننسك برغم كل هذه الأشهر.. »
وقال آخر:
- « لقد وجدنا الهند وحان وقت تصفية الحساب.. »
وقال ثالث (يبدو أنه ألفاريس):
- « ما زالت ضربات السوط تؤلم ظهرى! »

قال الفتى وقد أدرك دقة موقفه:
- « لم أكن أنا من أمر بجلدكم.. »
قال (ماريو) وهو يحك شعر صدره الكثيف:
- « القبطان فعل ما يمليه واجبه، لكن من يجب أن يُعاقب هو الكلب الواشى خاصة إذا كان من جنس منحط همجى.. »
ولمح البريق.. لا يحتاج لذكاء كى يعرف أنها سكين فى يد أحدهم.. سوف يكبله اثنان ويغرس الثالث مديته ثم تسقط جثته فى البحر فلا يعرف أحد أنه مات أصلًا.. هكذا القصة دائمًا..
هنا جاءت النجدة بصورة مسرحية غير متوقعة.. لقد انفتح أحد الأبواب وظهر القبطان شخصيًّا!.. القبطان (دا جاما) جاء فى وقت كهذا ليرى بعينه ما يدور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- « لا يجب أن أؤكد أن سلامة الفتى الهندى مسئوليتكم.. لو حدث له أى شىء حتى ولو غرق فى الماء أو مات من تلقاء ذاته فدمه على رأسكم، وسوف أشنق ثلاثة رجال أختارهم عشوائيًّا عقابًا لكم!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر له الفتى ولسان حاله يقول:
- « هل ترى؟.. ينوون قتلى! »
لكن القبطان نظر للمشهد نظرة لا مبالية.. كأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق، ثم صاح فى أحد البحارة:
- « (ألفاريس).. عندما تنتهون أحضر لى بعض الروم! »
ثم أغلق الباب!!..
هكذا وصلت الرسالة. ما كان على الفتى أن يعود على نفس السفينة مع ذات الرجال.. لقد كان مهمًا لأنه هندى وقد قدر القبطان أن (ابن ماجد) وحده لن يكفى للتفاهم مع الهنود، والآن لم تعد له أهمية بعد مغادرة الهند.. يمكن للبحارة أن يمرحوا قليلًا لو أرادوا!
هذا الرجل عملى جدًّا.. من الطراز الذى لا يحتفظ بأعقاب سجائره التى دخنها.. ولا شك فى أن مصيرًا مماثلًا كان ينتظر (ابن ماجد) لو بقى معهم فى رحلة العودة..
البحارة بالتأكيد خمنوا ذلك وإلا ما كانوا قد بدءوا الهجوم..
نظر الفتى للمحيطين به.. لا توجد ثغرة سوى حاجز السفينة من خلفه..
كانوا يقتربون ببطء لكن بثقة..
هكذا لم يتردد.. أدار ظهره لهم وتسلق الحاجز وبوثبة واحدة كان بين الأمواج..
فضل أن يموت غرقًا على أن يظفر به هؤلاء.. إن السمك أرحم من البحارة الثملين على كل حال..
ولكنه لن يموت.. سوف يسبح طويلًا جدًّا إلى أن يبلغ جزر الآزور التى لم يبتعدوا عنها كثيرًا لحسن الحظ..
هناك سوف يلقى بأعبائه مع أعضائه ويستريح لفترة طويلة جدًّا قبل أن يحاول العودة إلى (كاليكوت)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- أمير البحار الهندية..

أفسحوا الطريق يا رجال..
فلتتنحوا جانبًا، وليسرع العبيد بفرش السجاد الفارسى الثمين..
فلينفخ فى البوق ولتنثر النسوة أوراق الورد..
إن الفاتح العظيم قد عاد من رحلته مظفرًا، منتفخًا كالطاووس، يلبس أفخم حلة لديه.. حلة من الطراز الذى يناسب موضة العصر ويجعل المرء أقرب لجبل مقلوب.. كتفان عريضتان محليتان بالفراء وسراويل ملتصقة بالساقين النحيلتين كجوربين..
فليهلل الصبية.. فلتطلق أسراب الحمائم..
لقد عاد (فاسكو دا جاما) من الهند.. لم يحمل معه كنوزًا لكنه حمل ما هو أهم.. حمل معه الطريق إلى الهند..
إنه العام 1499 و(عبير) تقف هناك مع حاشية الملك (مانويل الأول)..
هو ذا المستكشف العظيم يتقدم، والرجال يرددون بلا توقف:
- « كابو.. كابو.. »
للمرة الأولى يتقدم الملك شخصيًّا لمصافحة قبطان يعمل لديه، وهو يعانقه وينعم عليه بالألقاب:
- « أنت أهديت الهند كاملة للبرتغال.. لهذا نهديك إقطاعيات فى (ساينز).. نهديك لقب (دوم).. وهذا اللقب سوف يكون لقبك ولقب كل فرد فى أسرتك إلى يوم الدينونة.. »
قال (دا جاما) بوقار:
- « شكرًا يا مولاى.. إن جلالتكم تغمروننى بالكرم.. »
- « ليس هذا فحسب.. أنت إيرل (فيديخيرا) وأول كونت لا يحمل دمًا ملكيًّا فى عروقه.. »
ثم جلس الملك على العرش وطلب من (دا جاما) أن يخبره بما حققه بالضبط!
كأنه ممثل عظيم يقف على المسرح وقف (دا جاما).. متظاهرًا بالاحترام لكن الفخر يوشك أن يغلبه.. هذا رجل فخور لا خاشع..
- « نحن (فاسكو دا جاما) خادم (مانويل الأول) ملك البرتغال قد درنا حول رأس الرجاء الصالح كما فعل سلفنا العظيم (بارثلميو دياز)، ومنه إلى ماليندى.. فى هذا الوقت تمكننا من تطوير أسطرلاب حديث وحُق ..أ.. وبوصلة ورسمنا خرائط دقيقة جدًّا، كما استطعنا أن نحدد سبل الملاحة بالمحيط الهندى عن طريق الاسترشاد بالنجوم.. ومن ثم انطلقنا نحو الهند حيث رسونا فى (كاليكوت) وعقدنا اتفاقيات تجارية مع الراجا (مانافيكرامان) الذى يحمل كل ولاء وخضوع للملك العظيم.. »
هتف الملك فى حماسة:
- « رائع.. أمير البحار الهندية!.. سوف نطلق عليك لقب (أمير البحار الهندية)..! »
ابتسم (دا جاما) فى وقار وأضاف:
- « استطعنا كذلك يا مولاى أن نبرهن على أن ساحل أفريقيا الشرق (كونترا كوستا) مهم جدًّا لسفننا.. إن (موزامبيق) ستكون مفيدة جدًّا كمستعمرة للتاج البرتغالى.. »
هللوا يا رجال..
اليوم ليس يومًا عاديًّا..

إنه اليوم الذى صارت فيه البرتغال قوة كاسحة..
بونابرت سيقول فيما بعد إن من يحكم مصر يحكم العالم، لكن دعنا لا ننس أنه غزا مصر كى يقصر الطريق إلى الجوهرة الكبرى: الهند..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بما أن هذه فانتازيا، فإن لنا أن نفهم تلك الوثبة التى قفزتها عبير ثلاثة أعوام للأمام وهى تتابع حياة الأخ (فاسكو دا جاما) وصعوده المستمر..
العام 1502..
إن الميناء يستعد لاستقبال (بدرو الفاريس كابرال) المستكشف البرتغالى الآخر العائد من الهند..
إنهم يتشابهون حتى على مستوى الملامح وضخامة الجثة والقسوة..
ينزل الرجل إلى الميناء ضخمًا مرعبًا، فيقدمون له أكثر من (شوب) مفعم بالخمر، يفرغ كل منها فى جوفه حتى يبلل لحيته وصدر سترته..
ثم يلاقى (دا جاما) فيتعانق الجبلان..
سأله (دا جاما):
- « ما أخبار الهند؟.. »
- « سيئة.. تمرد فى كاليكوت وقد أعدم بعض الثوار التجار البرتغاليين الذين تركتهم.. »
كان (دا جاما) يتوقع هذا بل يتوق إليه.. هذه هى اللحظة المختارة للتدخل (لحماية الرعايا البرتغاليين) كما تفعل كل الدول الاستعمارية..
لكنه أظهر الذهول والغضب.. وانطلق لا يلوى على شيء لمقابلة الملك..
راحت (عبير) تركض وراءه متلاحقة الأنفاس، وهى تسأله وهو يرد باقتضاب دون أن ينظر لها:
- « ماذا تنوى عمله؟ »
- « يا له من سؤال!.. سألقنهم درسًا طبعًا.. »
- « لكن (كابرال) يقول إنه قصف سواحلهم.. »
- « هذا ليس كافيًا.. أنا أعرف مصدر هذا التمرد.. »
ثم توقف عن المشى الحثيث واستدار ليواجهها وعيناه تشعان نارًا:
- « المسلمون!.. »
- « المسلمون؟ »
- « منذ البداية هم يريدون أن يستأثروا بهذه البلاد ولا يطيقون فكرة وجودى فيها.. يمكننى أن أتخيل كيف ألبوا نفوس الهنود علىّ.. وأول علامة للغضب عند الهندى هى القتل.. اكتبي هذا واكتبي أننى سأطلب أسطولًا من عشرين سفينة لاستعادة (كاليكوت).. »
وابتعد تاركًا إياها تتوقع الأسوأ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السفينة تمخر عباب المحيط عندما صاح النوتى:
- « سفينة عربية فى الأفق! »
ابتسم (دا جاما) فى وحشية واتجه إلى المقدمة ليراقب السفينة القادمة.. بالفعل يشعر بغيظ لأنه لا يوجد تلسكوب، ومن الصعب تخيل قبطان سفينة يقف مستندًا على حاجزها ولا يمسك بتلسكوب..
قال لضباطه وهو يتراجع:
- « استعدوا للالتحام.. هذه السفينة لنا! »

سألته (عبير) فى توتر وهى تركض كالعادة لملاحقته:
- « من قال إنها سفينة مقاتلة؟.. أنت قلت إنك تنوى الذهاب لتأديب (كاليكوت) ولم تتحدث عن الق... »
ثم توقفت لأنها خشيت أن تكمل كلمة (قرصنة) هذه...
لكن الرجل لم يتكلم.. دخل فى طور سماع أفكاره الخاصة والكلام مع ذلك الشيطان القابع فى رأسه يدلى بالتعليمات.. فقط لا ترى منه إلا عينين زائغتين ذاهلتين..
وعندما تم الالتحام وعندما وثب البرتغاليون كالشياطين إلى ظهر السفينة العربية، عندها فقط استطاعت (عبير) أن تسمع صرخات الأطفال والنساء..
هذه ليست سفينة مقاتلة.. فى الواقع ليست مقاتلة على الإطلاق..
هذه سفينة عائدة من مكة وعليها نحو 400 من الحجاج..
لقد بدأ عصر الرعب البرتغالى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- مذابح مذابح..

عبير كانت تصرخ وتقاوم وتشتم وتلعن..
وفى النهاية أمسكت بتلابيب القبطان.. بعباءته الفاخرة المحلاة بالفراء، فصفعها بقوة لتطير وتضرب الجدار الخشبى خلفها، ثم أمر رجاله أن يسجنوها فى قاع السفينة فلا تأكل سوى الخبز والماء لعدة أيام لعلها تهدأ..
لم يكن يستطيع التخلص منها لأنها تتبع إدارة فانتازيا وهناك توصيات كبيرة على سلامتها.. فقط يمكنه أن يعاقبها بعض الوقت، ويستريح من صراخها الهستيرى..
الحقيقة أن النار كانت تتعالى حتى تبلغ عنان السماء..
ما قام به (فاسكو دا جاما) هو عمل فريد فى قسوته والتاريخ يذكره بكثير من الدهشة والاشمئزاز، والأهم أنه لا ضرورة له على الإطلاق سوى (الصدمة والترويع) على الطريقة الأمريكية المعاصرة.. كان يريد أن يرتجف المسلمون متى سمعوا اسم (البرتغال) أو اسم (فاسكو دا جاما)..
هكذا قام بحبس راكبى السفينة العربية فى القاع ثم أحرق السفينة.. تطايرت المشاعل فوق الخشب المبلل بالنبيذ فى سيناريو عرفناه مسبقًا.. لكن الضحايا هذه المرة لم يكونوا قراصنة.
هذه العملية استغرقت نحو أربعة أيام.. لا يوجد ناجون من الأربعمائة مدنى الذين كانوا عائدين من الحج..
الحق أن الدخان ورائحة اللحم المحترق والصراخ كانت قوية جدًّا حتى إنه كان مشتاق إلى لحظة الرحيل، لكنه ظل يراقب المشهد شاعرًا بأنه فنان أنجز عملًا مهمًّا وهو ذلك الشعور الذى يغمر كل سفاح انتهى من حرق أبرياء..
فى النهاية وقد استحال سطح المحيط إلى بقعة من النار والدخان والخشب المتفحم أصدر أمره بأن تتحرك السفينة إلى وجهتها الأصلية:
- « إلى (كاليكوت)!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) فى قاع السفينة تمرح مع الفئران.. الفئران التى لم تبد لها سيئة جدًّا..
طوق معدنى فى كاحلها يثبتها إلى الجدار وكومة قش تنام عليها.. لكنها لم تشعر بأية معاناة لأن سجنها كان مزيجًا من فقدان الرشد والإفاقة.. مائة مرة رأت فيها القبطان يقتنع بمنطقها ويعفو عن السفينة فترحل.. ثم تفيق لتدرك أن كل شىء حدث فعلًا..
كان هناك أطفال.. أطفال..
الفكرة توشك على أن تذهب بعقلها.. هكذا تفقد وعيها من جديد، وفى غيبوبتها ترى (دا جاما) يعفو عن العرب ويسمح لهم بالرحيل، فتلوم الكابوس الذى جعلها تراه يحرقهم أحياء ثم تفيق لتدرك أن..
إنه الجنون..
لا يوجد تفسير آخر..
أما الرجال فقد استخف بهم المرح.. إن اللحظة التى تفصل بين البحّار العادى والقرصان غير واضحة، والخط الفاصل بين الاثنين يمكن عبوره دون أن تشعر.. هكذا صاروا جميعًا قراصنة

متعطشين للدم، خاصة إن تم هذا من أجل التاج البرتغالى..

كانت سجينة فى القاع، فلم تعرف أن (دا جاما) هاجم مجموعة كاملة من الموانى التى يسيطر عليها العرب.. يبدو أنه كان يمارس حملة تطهير لكل موضع إسلامى على ساحل أفريقيا الشرقى..

ثم إنه هاجم كل سفينة عربية واستولى عليها وسلبها البضاعة التى تحملها..

أخيرًا يصل الأسطول البرتغالى الرهيب إلى سواحل الهند...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دخلت سفن (فاسكو دا جاما) إلى الميناء الهادئ (كاليكوت) لم تكن فى هذه المرة مراسم لكسب الثقة ولا قوارب تدنو للتعارف..

لقد رأى الهنود سفنه قادمة فأدركوا أن الخطر قادم.. السفن ذاتها بدت كأنها تكشر عن أنيابها أو توشك على الافتراس.. سفن حية متعطشة للدماء..

قبل أن يتصايحوا منذرين بعضهم هوت أول قذيفة من مدافع (دا جاما) على سفينة راسية فى الميناء، فاشتعلت النار بها، وراح بحارتها يقفزون إلى الماء صارخين..

مدافع عتيقة جدًّا تصلح للوضع فى أى متحف، لكنها بالنسبة لذلك العصر شديدة الحداثة.. دعك من أنها تقتل مثل أى مدفع آخر..

وانطلقت قذيفة أخرى لتهوى هذه المرة فوق بناية من خشب على الميناء.. طبعًا تحولت إلى فحم على الفور..

عشرون سفينة برتغالية تطلق قذائفها بلا توقف..

والمدينة الجميلة بقبابها ومعابدها ومساجدها ورياضها تحولت إلى جذوة من النار والدخان..

نساء يركضن صارخات وأطفال يتعثرون ويبكون ورجال ينزفون..

و(فاسكو دا جاما) القبطان العظيم يقف على ظهر سفينته يرقب هذا كله بوجه قُد من صخر..

فقط صاح فى رجاله:

- « صبوا عليهم كل شىء!! »

ودوت الانفجارات من جديد..

لشد ما اختلف دخول (دا جاما) فى المرة الثانية. لقد كان فى المرة الأولى ضيفًا يتمنى أن يسمح له بالدخول.. اليوم هو سيد جاء ليعاقب..

عندما تنقشع سحابة الدخان والموت من فوق (كاليكوت) سوف ينزل رجاله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 15مذابح مذابح مذابح..

الآن بدأ نزول الرجال..
وكما قال (دا جاما) فإن السلب والنهب نوع من حفلات الترفيه التى يجب أن تتاح من وقت لآخر للبحارة المتوترين المتعبين.. لهذا سمح لهم بعمل أى شىء..
وفى شوارع (كاليكوت) المحترقة المهدمة راح البرتغاليون الثملون يركضون متصايحين، ويعملون السيف فى كل من يقابلونه.. بالطبع لا يمكن أن تنجو منهم امرأة أو رجل مسن أو طفل..
كل برتغالى تمنى لو كانت لديه سبع أذرع كى يحمل بها ما نهبه من مال وتحف، وفى الوقت ذاته يحتفظ بذراعين من أجل القتال والخطف..
لم تعد هناك شطة منثورة على الحصير لتجف.. لقد احترقت..
لم تعد هناك رائحة مانجو ولا أزهار لوتس تطفو فوق البركة التى يشرب منها الطاووس.. البركة كلها تبخرت..
ووسط هذا الخراب وبكامل ثيابه الأنيقة المهيبة التى يمكن تلخيصها بكلمة واحدة (الغطرسة) يتقدم (دا جاما) وسط ضباطه متجهًا إلى قصر الراجا..
يخرج الراجا المذهول المرتجف وحوله رجاله، ويمشى للقاء القبطان غير مصدق ما انتهت إليه مدينته الجميلة..
يسمع صراخ قومه من بعيد فيتخيل ما يحدث..
من خلفه التاجر العربى الذى كان معه فى البداية، يقول له:
- « قلت لك ألا تعقد معهم أية صفقة يا مولاى.. قلت لك ألا تدعهم يرسون هنا.. القتلة السفلة ينثرون الموت والخراب أينما ذهبوا.. »
لا يرد الراجا ويقف أمام (دا جاما) فى ساحة القصر التى لم يصبها الخراب..
شتان ما بين المشهد منذ أعوام والمشهد اليوم.. كان (دا جاما) يرجو، لذا كان مهذبًا محترمًا برغم كبريائه الشديدة، أما اليوم فهو هنا ليأمر وقد تحرر كبرياؤه من أية قيود..
يقول (دا جاما) عن طريق المترجم:
- « ها نحن أولاء نلتقى من جديد.. »
قال الراجا فى كبرياء:
- « ماذا تريد يا قبطان.. لا داعى للمقدمات.. يمكنك قطع رأسى وتعليق جثتى على صارتك لو أردت.. لكن لا ذنب لقومى فى هذا.. قل لرجالك أن يتوقفوا ولتظفر بتسليتك معى.. »
ضحك (دا جاما) طويلًا بتلك الطريقة المسرحية العصبية التى يجيدها الأوغاد.. طوح رأسه للخلف وفتح فمه عن آخره:
- « ها ها ها ها... أنت رجل شجاع لكن ليس رأسك ما أريد.. »
وسقطت عيناه الناريتان على التاجر العربى الواقف خلف الراجا، فابتسم فى توحش وقال لرجاله:
- « تعرفون ما يجب عمله.. خذوه! »
(ما يجب عمله) يعنى قطع رأس الرجل وأطرافه وإلقاء كل شىء فى البحر..
ثم قال (دا جاما) وهو يجفف عرقه بمنديل معطر ثمين:
- « لا أريد شيئًا منك يا راجا.. أريد طرد أى مسلم من هذه المدينة خلال ساعات قبل أن يأتى

الليل.. هل هذا شرط عسير؟ »
لم يرد الراجا فقال (دا جاما):
- « أريد شروطًا جديدة للتجارة.. شروطًا مجحفة قاسية مهينة.. هل هذا مفهوم؟ »
- « مفهوم.. »
- « سوف يستمر رجالى فى المرح إلى أن أرى آخر مسلم يغادر البلدة.. »
بالطبع لم يجد الراجا مفرًّا من هذا، ولم ينته اليوم إلا وكان البحر يعج بجثث التجار المسلمين الذين قطع البرتغاليون رءوسهم وأيديهم وأرجلهم..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
فى هذا الوقت تقريبًا كانت (عبير) قد هشمت رأس الحارس البرتغالى الثمل..
قالت له إنها خائفة من الفئران، وإن هناك فأرًا فى ركن الزنزانة.. أنت رجل قوى شجاع ويمكنك أن تظفر به.. طبعًا دخل الأحمق وزحف على ركبتيه أمامها ليبحث عن ذلك الفأر، هنا هوت على رأسه بإناء الماء المصنوع من فخار ثقيل..
ضربة قوية جدًّا وجهتها بكل خلية فى جسدها لأنها تعرف أنه لن تكون هناك فرصة لضربة أخرى..
سقط على الأرض والفئران تتواثب حول رأسه الدامى، فلم تنتظر حتى تدرك حجم إصابته وراحت تعبث فى نطاقه حتى وجدت المفتاح..
المفتاح الذى دسته فى القيد الحديدى فى ساقها وسرعان ما تحررت..
صحيح أن دمها متجمد وأن عضلة واحدة لا تطيعها، لكنها استطاعت أن تقف وأن تزحف حتى الباب وتخرج منه. لم يكن هناك أحد بالخارج.. الكل منشغل بالنهب فى الخارج.. لا مبرر للبقاء فى السفينة وترك هذا السيرك الهندى الممتع، لذا وجدت أنها تمشى وحدها فى ممرات خشبية رطبة مظلمة..
الدرج الذى يقود لسطح السفينة.. يجب أن تكون حذرة..
إن الليل قد جاء لكنه ليس ليلًا بالضبط..
(كاليكوت) تحولت إلى شعلة برتقالية كبيرة تذكرها بحريق روما.. لا.. هى لم تر حريق روما لكنها تتخيله...
زحام من السفن من حولها.. والمرفأ نفسه صار شعلة أخرى..
(دا جاما) يؤدى دور (جنكيس خان) بكفاءة تامة..
فى عالم الواقع لا تجيد (عبير) السباحة، لكنها هنا استطاعت أن تنزلق على حبل الهلب حتى سطح الماء، ثم تشق طريقها نحو اليابسة فى الظلام حريصة على أن تبتعد عن منطقة الأحداث.. يجب أن تكون بعيدة عن السفاحين..
سوف تتوارى بضعة أيام فى أى مكان حتى تهدأ الأمور، بعدها تبحث عن طريقة للعودة..
إلى أين؟
لا تعرف..
إنها لم تأت من مكان ما لهذا لا تعرف إلى أين تعود لو أردت رأيى..
فقط لا تشتتوا ذهنها وهى تشق طريقها للساحل وسط قطع الخشب المحترقة العائمة، ولا تخبروها من فضلكم أن هذه الأشياء العائمة على الماء هى أطراف تجار عرب، وإلا فقدت وعيها وغرقت..
سوف تعرف هذا بنفسها عما قريب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16 - بعد المحرقة..

حقًّا لم تستطع قضاء كل هذا الوقت فى الغابة.. هذه أمور جديرة بالصبى (موجلى) الذى ربته الذئاب أو طرزان الذى ربته القردة، لكنها لم تستطع تحمل يوم واحد فى مكان كهذا برغم أن المانجو متوافرة وهى تعشق المانجو بجنون... لكن مشكلة الأدغال الأزلية هى أن كل شىء يتحرك.. غصن الشجرة ثعبان، وجذع الشجرة العفن الذى تجلس عليه تمساح، وتلك الظلال الرقيقة بين الأوراق هى ببر..

هكذا وجدت نفسها تركض نحو المدينة التى يتصاعد منها الدخان، والتى بدأت رائحة الموت تخرج منها..

لم يكن هناك أحد ليقابلها..

بعبارة أدق لم يكن هناك أحد يمشى على قدميه.. هناك الكثير من الجثث وهناك من يجثون على ركبهم باكين جوار الجثث..

المساجد الرائعة التى كانت آية فى الطراز الإسلامى عندما يستعرض عضلاته ويظهر لغير العرب كم هو جميل.. هذه المساجد صارت كالأرض حتى لم تعد متأكدًا من أنها وجدت أصلًا..

(كاليكوت) قد صارت منطقة منكوبة بالمعنى الحرفى للكلمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك كان صوت البكاء يمزق نياط القلب..

تدنو أكثر، ويخيل لها أنها تعرف هذا الصوت..

هناك بيت مهدم وهناك حرائق فى كل صوب.. وبين الخرائب تناثرت الجثث الممزقة، لكن هذا الذى يبكى تعرفه جيدًا.. أنه يلف لثامًا حول رأسه وقد نمت له لحية خفيفة، لكنه هو.. هاتان العينان لا يمكن أن تخفيهما مهما حاولت..

دنت أكثر ووقفت خلفه..

كان راكعًا على الأرض وعلى ركبته رأس جثة فتاة.. واضح أنها كانت حسناء.. الشعر الأسود يغطى يديه تمامًا.. هناك دم في كل صوب فلا تعرف هل هو من الجثة أم من جثث أخرى..

كان يهزها ويردد كلامًا كثيرًا بالهندية أعتقد أنه نواح..

هتفت بصوت متردد:

- « آرام؟ »

استدار للخلف.. كان الدمع يغرق حدقتيه ويسيل من أنفه، وقال وهو يشهق:

- « أنت هنا؟ »

- « وأنت هنا؟ »

ثم أردفت فى شىء من الحدة:

- « أنت كنت مع (دا جاما).. كيف بقيت معه وهو يفعل هذا كله بأهلك؟ »

- « لم أكن معه.. لقد هربت إلى جزر الآزور.. وعندما سمعت أنه قادم إلى (كاليكوت) كنت فى طريقى للعودة.. توقعت ما سيحدث وأردت أن أهرب بأهلى ورفاق قبل أن يحدث المحظور.. لكنى تأخرت كثيرًا جدًّا.. »

نظرت بعين الفضول إلى الجثة فقال:

- « اسمها (راميشا).. كانت تحبنى ووعدت بأن تنتظرنى.. اسمها (راميشا) وقد جاءت للكون من

أجلى، لكن قبطانكم العظيم قرر أن هذا لا يناسبه.. »
ثم انفجر فى البكاء..
لم تعد لديه أسرة.. لم يعد لديه بيت.. الأحلام التى جاب العالم من أجلها قد قضى عليها القبطان العظيم (دا جاما) وأسطوله..
قالت (عبير) بصوت مبحوح:
- « ليس قبطانى.. قلت لك إننى مجرد صحفية أتابع الأحداث.. وقد فررت منه بالمناسبة قبل أن يتخلص منى بدورى.. »
نظر لها بعينين ناريتين قبل أن ينتثر شعره الناعم ليغطيهما فى حركة انفعالية هندية شهيرة، وقال:
- « لكنك عربية.. أليس كذلك..؟ »
- « بلى.. وهو ما يجعلنى مرشحة بشدة للتخلص منى فى هذه الظروف.. »
- « كان ذلك الرجل مخطئًا.. (أحمد بن ماجد) ارتكب خطأ جسيمًا.. ما كان يجب أن يقود البرتغالى إلى الهند.. إلى وطنى.. إلى مدينتى.. إلى أمى.. إلى (راميشا).. كم تقاضى من أجر مقابل هذا؟ »
هذا هو أول من اتهم (ابن ماجد) فى التاريخ بهذه التهمة الشهيرة..
قالت (عبير) محاولة أن تتكلم بكياسة وهدوء:
- « ابن ماجد لم يقتل هذه الفتاة.. »
- « أحيانًا يكون من الجرم أن تخبر النمر بمكان الخراف.. هذا هو ما فعله بحّارك العربى، والنتيجة هى أن قومك المسلمين أنفسهم قد طُردوا من هنا أو أبيدوا.. البرتغال صارت تسيطر على الهند وسوف تظل فيها.. »
قالت ضاغطة على كلماتها:
- « (ابن ماجد) لم يتصور أنه يعلم نمرًا.. »
- « التجار العرب كانوا يعرفون ذلك وقد أسدوا النصح فلم يصدقهم أحد.. اليوم هم دفعوا الثمن.. كلنا دفعنا الثمن.. »
وانفجر فى بكاء هستيرى..
وسط الخرائب تمشى (عبير) والدخان يتصاعد من الأرض كأنها فى (ديسكوتيك).. فقط هنا تُرقص رقصة الموت وتُعزف ألحان الخراب..
من الغريب أن ترى مدى تقارب حروف اسمى (دا جاما) و(ابن ماجد).. بحّاران لكن السبل اختلفت بكل منهما، ولعب أحدهما دور الملاك الساذج قليلًا بينما لعب الآخر دور الشيطان الذى صبر حتى نال..
بحّاران..
لكن ما أكبر الاختلاف بينهما..
أين (ابن ماجد)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17 - وداعًا دا جاما..

« ينبغى إنك إن ركبت البحر أن تلزم الطهارة فإنك فى السفينة ضيف من ضيوف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره.. »

أحمد بن ماجد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (فاسكو دا جاما) إلى البرتغال تسبقه شهرته.. لابد من بعض المذابح هنا وهناك كى تكسب الهيبة، وكان يؤمن بهذا وقد نفذه بعناية..
عاد إلى البرتغال رجلًا ثريًا، لكنه كذلك لم يتخل عن رغبته فى احتلال كتب التاريخ.. لم يكف لحظة واحدة عن وصف معاناته إلى أن بلغ الهند، وكيف اخترع الأسطرلاب والحُقة.. آسف.. البوصلة..
تماثيله التذكارية فى كل مكان، وأسرته تنعم بالألقاب..
عام 1524 أصدر له الملك أمرًا:
- « ستعود إلى الهند.. »
إن (إدواردو دى منديز) نائب الملك فى البرتغال رجل ضعيف الشخصية.. يبدو أنه لابد من استبداله برجل بارع حقًا..
قبل (دا جاما) المهمة وانطلق من جديد نحو الهند فى رحلته الأخيرة..
فى رحلة الذهاب هذه مرت السفينة جوار سفينة أخرى برتغالية يقف على سطحها رجل ملتح ثقيل الظل يلبس نفس الثياب عريضة الكتفين..
قيل له إن هذا القائد يدعى (فرناندو ماجلان).. يبدو أنه سيذهب فى مهمة خطيرة للبحث عن الهند غربًا..
- « يبحث عن الهند غربًا؟.. هذا جنون! »
لكن (ماجلان) سوف يفعلها، وسوف يكتشف أمريكا الجنوبية ومضيق ماجلان، ولسوف يكون أول رجل دار حول العالم وبرهن على أن الأرض كروية.. لكن هذه قصة أخرى جديرة بكتيب آخر يا (عبير)..
(دا جاما) يعود إلى الهند..
يقول لمن حوله:
- « س.. س.. سوف..أ.. أعل .. أعلم.. هؤلاء.. الهن.. الهنود.. كيف.. كيف.. »
لا يوجد خطأ مطبعى هنا.. إن شفتيه تهتزان.. بل كل شىء فيه يهتز..
لا يجب أن تكون طبيبًا كى تعرف أنه أصيب بالملاريا..
فى هذا الوقت لم يكن أحد يعرف (الكينين) وبالنسبة لشخص لم يصب بها من قبل كانت المضاعفات خطرة..
هكذا سقط فى غيبوبة، وصار طبيب تلو آخر يدخل ليفحصه ثم يخرج وهو يهز رأسه فى قنوط.. لابد أنهم أجروا له الكثير من كئوس الهواء والفصد لكنه فى النهاية مات..
سوف يُدفن فى الهند لفترة، ثم تطالب البرتغال برفاته فينقل لها عام 1539..
بالنسبة للبرتغال هو بطل قومى.. واسمه يتردد فى ملحمة (لا لويسيداس) الملحمة الوطنية

للبلاد.. وفيما بعد أطلق اسمه على إحدى فوهات القمر..
بالنسبة للهنود ولنا هو بحار عظيم.. وسفاح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يجلس (ابن ماجد) العجوز على الأرض متربعًا وقد بلل ريشته بالمداد، بينما يتراقص اللهب فى المصباح الصغير الموضوع جواره..
يكتب عن الربابنة الآخرين:
- « غير أن خبرتهم مع ذلك محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من (سيراف) إلى (بر مكران)، وساروا يسألون عن كل بر أهله ويؤرخون، وكان فى زمانهم من المعالمة المشهورين عبد العزيز بن أحمد المغربى وموسى القندرانى وميمون بن خليل، فكان فى زمانهم من النواخذة المشهورة أحمد بن محمد ابن عبد الرحمن بن أبى الفضل بن أبى المصري.. فيأخذون من كل أحد بره وبحره ويؤرخونه فهم مؤلفون لا مجربون.. »
هكذا ينتقد صاحب الصنعة الآخرين معه فى تلك الصنعة، لكنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرًا..
ثم إنه يكتب عن أهمية ركوب البحر:
- « إن لركوب البحر أسبابًا كثيرة فأهمها وأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها، وكذلك مواسم البحر والآلات السفينية وما يحتاج إليها وما ينفعها وما يضطر إليها فى ركوبها، وينبغى أن تعرف المطالع و الاستوائيات وجلسة القياس فى كل طريقة وأن تكمل جمع الآلة فى السفينة، وتتفقد الحمولة فى أحضان السفينة ورجالها، ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع فى مركب لا يطاع فيه، ولا مركب بغير اعتداد، ولا فى موسم ضيق.. »
كانت (عبير) جالسة أمامه تبتسم متظاهرة بالفهم، لكنها فى الحقيقة لا تستوعب حرفًا تقريبًا مما يقال..
فيما بعد ستعرف أن الأخنان هى الاتجاهات والباشيات هى قياس العمق، والدير هى الشواطئ، وموسم الضيق هو ما قبل العاصفة..
كان قد فرغ لتوه من مهمة إرشاد صعبة أخرى هى الوصول بسفينة من مضيق هرمز إلى جدة.. وقد اتخذ طريقًا بعيدًا عن الشاطئ وهذا برغم مقاومة الرياح الشمالية له.
ثم إنه تناول كتابه الذى فرغ الخطاط من زخرفة كعبه..
(الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد)..
هذا هو الكتاب الذى سيخلد اسمه فى علم البحار، والذى ألفه فى ثمانية أعوام..
فى هذا الكتاب وصف أصول الملاحة وحجر المغناطيس ومنازل القمر والنجوم التى تقابل أقسام الإبرة المغناطيسية الاثنين والثلاثين. كما أنه وصف الثغور فى المحيط الهندى والبحر الصينى وساحل الهند الغربية وجزيرة العرب وجزيرة القمر وزنجبار وجزيرة البحرين. كما يصف البحر الأحمر بالتفصيل.
إنه واحد من أربعين كتابًا عن البحر.. كلها كتبت بالشعر لتسهيل حفظها..
يتناول كتابًا آخر يرمقه فى رضا..
(حاوية الاختصار فى أصول علم البحار)..
قالت له (عبير) وهى تخرج جهاز التسجيل:
- « هل صار ذهنك صافيًا الآن بما يكفى كى تجيب عن أسئلتى؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 18وداعًا ابن ماجد..

قد راح عمرى فى المطلعات
وكثرة التساؤل فى الجهات
وكم رأيت فى خطوط الشول
ونظمهم والنثر والفصول
وكم نظرت فى الحساب العربى
وحسبة للهند مذ كنت حبى

أحمد بن ماجد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له وهى ترمق لهب المصباح المتراقص:
- « ألست نادمًا؟ »
قال وهو يرمق حروف كتابه بعينين لا تريان تقريبًا:
- « نعم.. لست نادمًا.. عندما قابلت (دا جاما) لم أفعل سوى ما يجب أن يقوم البحّار لبحار آخر.. »
- « كنت قد سمعت عن البرتغاليين وفظائعهم.. »
- « لم أسمع عن هذا قبل تلك اللحظة لكننى سمعت الكثير الآن.. إن من صنع السيف قد تسبب فى إراقة دماء غزيرة لكننا لا نلومه بل نلوم من يقتل بالسيف.. »
ثم تحسس رأسه بكفيه وبدا كأنه مرهق جدًّا.. وقال:
- « نخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم فى القلوب.. »
قالت له فى غباء:
- « لا أفهم.. »
بدا عليه الضيق، وكرر ما قاله بعبارة أقرب لفهمها:
- « أخاف أن أموت وما زال عندى بعض العلم لم أنقله لمن بعدى.. سوف يؤلف ابنى كتابًا عن البحر.. وسوف يبحر البحارة فى الملايو حاملين كتابًا اسمه (قواعد ابن ماجد) لكن ما زال عندى الكثير.. »
هنا سمعت (عبير) خطوات المرشد..
نظرت للخلف فرأت أنه جاء فعلًا، لكنه اتخذ مجلسه قرب الشيخ ونظر له باحترام ثم قال لها:
- « المرء يشعر بحيرة بين الفخر بأن (ابن ماجد) قاد البرتغاليين للهند، وبين الدفاع عنه بكونه لم يفعل.. ما زالت القضية ساخنة تعقد من أجلها المؤتمرات العلمية.. فى لشبونة عام 1998 عقدت ندوة اسمها (ابن ماجد) والغرض منها تبين الحقيقة.. هناك ندوة (تاريخ العلوم عند العرب) التى عقدت فى اللاذقية بسوريا.. هناك مؤتمر عمان فى التاريخ.. السؤال مستمر والبعض ارتاح لإجابته: لم يلتق (ابن ماجد) و(دا جاما) قط، بينما البعض اطمأن إلى أن (ابن ماجد) هو من قاد (دا جاما) إلى الهند.. هذا يشبه السؤال الهوميرى الشهير: هل وجد هوميروس فعلًا؟ »
نظرت (عبير) إلى (ابن ماجد) متسائلة فقال باسمًا:

- « أنت حضرت رحلتى ورأيت كل شىء، ثم تسألينني إن كانت قد حدثت أم لا؟ »
قالت وقد بدا لها موقفها سخيفًا:
- « معك حق.. على كل حال تصر الكتب الدراسية فى كل مكان على أن ما حدث بالفعل هو ما رأيته معك.. »
- « وهو ما كان.. »
ثم نظر خارج النافذة إلى الخليج حيث ترسو بعض مراكب الصيادين فى ضوء الغروب الخافت الباعث على الشجن، وقال:
- « ما يبقى من المرء هو ذكره وكتاب أضافه وسفينة نجت من الإعصار بفضل تعليماته.. فيما عدا ذلك لا قيمة لشىء يبقى.. »
ثم تنهد فى عمق وأضاف:
- « فاسكو دا جاما ظفر بأشياء كثيرة بدوره.. تماثيله فى كل مكان واسمه فى كل الكتب.. سوف نلتقى هناك فى الجانب الآخر ووقتها نعرف من المنتصر حقًّا.. »
وهز رأسه فى نفاد صبر:
- « أرجو أن تتركانى وحدى فلدى الكثير مما يجب أن أدونه.. »
اتجهت (عبير) مع المرشد إلى الباب..
هناك وقفت طويلًا ترمق الشيخ الجالس أمام قرطاسه يدون ما يذكره من علوم البحار، فأحست أنها ترق له كثيرًا..
تمشى مع المرشد فوق رمال الساحل.. هناك تقف سفينة الصيادين تلك وبحارتها يتأهبون للإبحار.. يساعدها المرشد على الصعود، ولم تسأل عن سبب ركوبهما سفينة هذه المرة بدلًا من قطار فانتازيا.. فقط كانت السفينة تتأرجح بقوة فتمنت ألا يغلبها دوار البحر.. من الغريب أن تفرغ معدتها بعد مغامرة كاملة قضتها فى البحر..
يقف (المعلم) وريس البحارة ممسكًا بالدفة.. يرفعون الهلب وتبدأ السفينة تتوغل فى البحر، فيرفع عقيرته صائحًا:
- « الفاتحة لابن ماجد! »
نعم.. الفاتحة لابن ماجد.. المعلم.. أسد البحار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تظل (عبير) فى عالم التاريخ العربى.. لكنها هذه المرة تقابل شاعرًا مخيفًا.. شاعرًا عبقريًّا بحق.. وقد أورده لسانه الطويل موارد التهلكة..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[1←]

في رأس الخيمة حاليًّا.

روايات مصرية للجيب

54

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

عبقرى آخر



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف،الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (54)

عبقري أخر

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..
ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..
إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا فى رحلتها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..
سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخيل والليل والبيداء تعرفنى...
والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى...
وأسمعت كلماتي من به صممُ

1- إلى الفـرار..

«ما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونا، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح، وهجوا فأجادوا الهجاء».

طه حسين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له (عبير):

- «ثلاث زوجات.. ثلاث حالات طلاق.. لا تقل لى إنهن جميعًا سيئات.. كانت هناك فرصة 30% أن تكون واحدة منهن رائعة، ولكن عجزك عن العثور على زوجة مناسبة يدل بلا شك على إنك مضطرب.. اغفر لى تبسطى لكن هذه هى الحقيقة».

تحسس الكدمة على وجنته اليسرى، ثم قال لها وهو يقلب الشفاط فى كوب العصير:

- «هناك أشخاص سيئو الحظ إلى درجة لا توصف..»

- «وهناك أشخاص مضطربون نفسيًّا إلى درجة لا تصدق..»

- «كلنا نخطئ.. لكن الرجل الذكى هو من يصحح أخطاءه..»

- «والرجل الأذكى هو الذى يعرف متى تكون الأخطاء عصية على التصحيح..»

ضحك طويلًا وضاقت عيناه من خلف نظارته السوداء.. هى تراها بوضوح من خلف الزجاج الأسود.. ما زال الوغد وسيمًا.. قال لها:

- «هل تعرفين ما أشعر به؟.. كأنها مباراة (اسكواش).. أنت تردين ببراعة كراتى وتحاولين أن تسحقينى.. كلما قلت شيئًا وجدت لي ردًّا مسكتًا..»

امتصت بعض العصير.. عندما نكون قلقين أو مشغولى البال نشعر بأن ما يدخل الفم حمض كبريتيك مركز.. سمعت أمعاءها تحتج غضبًا، لكنها أخرستها.. اشربى يا بلهاء.. اشربى.. يجب أن تعرفى من القائد هنا..

ثم قالت:

- «أنا لا أبحث عن الردود المسكتة.. لكنها تتدافع على لسانى.. هناك دم يسيل من طاقة أنفك اليسرى..»

أخرج منديلًا ضغطه على أنفه، بينما تحسست هى شعرها من تحت الحجاب الذى وضعته منذ عام، وقالت:

- «نحن نشيخ.. ألا تفهم هذا؟.. إننى أتقدم فى العمر.. أمس وجدت شعرة بيضاء، برغم صغر سنى.. كلما شابت شعرة احترق جزء من سذاجتنا.. لهذا (عبير) التى تعرفها تغيرت جدًّا..»

ثم قالت كأنها تبصق:

- «لا تستطيع التخلى عن زوجتك بهذه البساطة كأنها عقب لفافة تبغ، ثم تتوقع أن تعود لها لتجدها تنتظرك فى مرح مشرقة الوجه ..»

- «لم أتوقع هذا.. توقعت عاصفة من الغضب والضيق، لكنى توقعت أن أجتازها لأبلغ تلك الجزيرة.. قبلك.. لكن كما يقول المتنبى على ما أظن:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهى السفن

ابتسمت.. هذه التعبيرات تبدو لها سخيفة.. ثمة نوع من افتعال الشاعرية هنا. على كل حال لم يكن شريف واسع الثقافة.. إنه شديد الذكاء عبقرى فى الكمبيوتر، لكنها بالتأكيد قرأت أضعاف ما قرأه فى الأدب..

لاحظ أنها ابتسمتْ، فخمن على الفور ما تفكر فيه:

- «ما ذنبى إذا كان الشخص الوحيد الذى فهمنى واستجاب لى هو جهاز الكمبيوتر؟.. إنه عبد مطيع لى يقرأ أفكارى وينفذها قبل أن أطلب.. أعتقد أن لدى بدلًا من القلب وحدة معالجة مركزية CPU..»

رفعت كوب الليمون تحييه، وهتفت:

- «الآن فهمت!!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا قبلت أن تقابله؟

كانت تعرف أنه يحوم كثيرًا حول المنطقة، وقد صارت سيارته المميزة من معالم الشارع. تجاهلته لفترة لا بأس بها، حتى فوجئت به يقفو أثرها بذات سرعتها فى المشى.. يطل من النافذة ويتوسل لها أن تركب.. يجب أن يقول لها بضع كلمات..

لا ترد.. يواصل القيادة.. يتكلم..

- «ربما من حقك أن تغضبى، لكن المرء لا يلفظ حياة كاملة بهذه السهولة..»

- «هناك من فعل هذا بسهولة تامة.. هل تذكره؟ »

- » ربما لو ركبت لاستطعت أن أفسر نفسى.. إن...»

طـاااخ!

كان يقود سيارته على يمين الطريق ملاصقًا للإفريز تمامًا، وقد انهمك فى الكلام فلا يعرف كيف ارتطم فى مؤخرة سيارة واقفة.. ارتطم بقوة وعنف فلابد أن مقدمة سيارته تلفت تمامًا.. وسرعان ما وثب الرجل من مقعد القيادة.. نعم.. لابد أن يكون ضخمًا فظًا كالكوابيس.. أنت لا تصدم سيارة رجل وديع ضئيل أبدًا لو أردت رأيى..

هكذا وقفت على الإفريز تراقب فى ذعر (شريف) وهو يعامل كخرقة من القماش.. يحاول أن

يتكلم بعقلانية، بينما الرجل الذى ارتطم بسيارته يمسك بياقة سترته ويطوح به فى كل اتجاه.. هذا رجل لا يريد تعويضًا أو مالًا.. لا يريد سوى الدم ليهدئ من أعصابه..

كان شريف يتلقى اللكمات والمارة قد احتشدوا، عندما صاحت برغمها:

- «اسمع.. سأذهب معك بضع دقائق! «

- «جمى.. .. ي.. ي.. ل!»

قالها قبل أن يتلقى لكمة ألقت به فوق كبود سيارته المهشم.. فى الحقيقة بدا كأنه يقول للرجل: هلم انته من الضرب بسرعة فأنا مشغول..

وقد انتهى الرجل بسرعة فعلًا.. وجه ثلاث لكمات ثم ركب سيارته وهو يسب ويلعن..

اتجه نحوها شريف كأنه لم يمر بعلقة ساخنة منذ ثوان، وأدار محرك السيارة.. كشىء تعمل لحسن الحظ.. فتح لها الباب المجاور له، فجلست...

وانطلق بسيارته نحو تلك الكافتيريا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت لأمها:

- «شريف يبغى العودة لى..»

كان هذا بالنسبة للأم أجمل من أن يصدق.. سوف تتخلص من عبير وابنتها ومشاكلهما بضربة واحدة.. لن تعود ابنتها مطلقة بل زوجة فى دار زوجها.. هى تحب (عبير) فعلًا، لكنها ترى أن المرأة مخلوق لا غرض من مجيئه للدنيا سوى الزواج والإنجاب.. ما عدا هذا يعد تحديًّا للحكمة من وجوده..

كانت عبير عبئًا.. قبيحة فقيرة ولديها طفل.. من الصعب أن تجد زوجًا آخر. خلافاتها مع أخيها لا تنتهى.. عودة شريف فرصة ذهبية لا يجب أن تتخلى عنها بأى ثمن..

هكذا ألحت عليها الأم فى القبول..

قالت عبير إنها تقريبًا قد قطعت الجسور بينها وبينه.. لقد قالت لا شبه حاسمة..

هنا تلقت لكمة فى صدرها من أمها.. لكمة مفاجئة لم تتلق عبير مثلها منذ عشر سنوات..

وقبل أن تندهش انفجرت العجوز فى البكاء.. جالسة على كرسى المطبخ الواطىء دفنت وجهها بين كفيها وراحت تبكى.. تمثال معاصر هو تقليد بائس لتمثال (المفكر) لرودان..

(عبير) هى الأخرى شعرت بأن الصنبور فى عينيها وأنفها انفتح ولا شىء يوقفه.. كانت تبكى بسبب بكاء أمها ولا تبكى بسبب اللكمة.. أقسى شىء فى الكون أن نُبكى أهلنا وهم فى هذه السن..

أما الأسوأ فهو طفلتها التى رأت كل شىء فانفجرت تبكى بدورها.. ثلاثى من الباكيات يذكرك بالمسرح الإغريقى فلا ينقصهن سوى جوقة تنشد أشعار سوفوكليس..

لم تنتظر طويلًا، وركضت باكية نحو حجرتها..

أغلقت الباب.. هرعت نحو جهاز الكمبيوتر النقال الذى أعطاه إياها شريف. جلست على الفراش وثبتت الأقطاب على رأسها..

هى بحاجة إلى الهرب.. بحاجة للنسيان..

هى بحاجة إلى فانتازيا...

قبل أن تغيب راح بيت الشعر يتردد فى ذهنها:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- سيف الدولة..

هناك كان المرشد واقفًا جوار جدار ينتظرها، ويده فى جيبه بينما هو يضغط سوستة القلم بلا توقف.. تك.. تتك.. تك.. تتك.. لسبب ما يعتقد هذا الرجل أنه ساعة حائط...

البذلة السوداء ونظرة اللامبالاة والأناقة العامة الباردة، كأنه يلعب دورًا فى فيلم (رجال بثياب سود). مهما كانت حزينة أو مكتئبة أو منهارة أو سعيدة محلقة، فهو يرمقها بذات اللامبالاة مع لمسة من السخرية.. شخص لا يطاق ولولا أنه مفتاح فانتازيا الوحيد لتخلصت منه أو قتلته..

- «تأخرت يا أليس.. أنباء سيئة هذه المرة..»

قالت وهى تمسك بساعده كأنه خطيبها:

- «صراع (دنو ضد تجنب).. أريد الشىء وأمقته فى ذات الوقت.. أنت تفهم هذه الأمور وأكون شاكرة لو كففت عن التدخل فى شئونى الخاصة..»

قال فى دهشة:

- «أنا لست شخصًا غريبًا أو عابر سبيل.. أنا جزء من عقلك الباطن.. أنت صنعتنى..»

- «ونادمة على ذلك.. هلم.. ألا تعرف أن المرء قد يخفى أدق الأسرار عن نفسه؟.. لقد كانت لنا مغامرة شنيعة مع علماء النفس.. ألم تتعلم شيئًا؟»

- «بلى.. تعلمت أنك مجنونة تقريبًا.. والآن إلى أين مغامرة اليوم؟ «

فكرت حينًا ونظرت إلى قطار فانتازيا المضحك الذى يتصاعد منه الدخان، وهو يهتز ويزأر ويوشك على الوثب من مكانه.. قطار حى تمامًا ككل قطارات ديزنى..

قالت له:

- «المغامرات ذات الطابع التاريخى.. إنها غالبًا مفيدة إن لم تكن ممتعة..»

هز رأسه فاهمًا، وقال:

- »آه.. ألعاب تاريخية.. تحبين هذا الجزء.. من الجميل أن يثرثر المرء مع بونابرت أو محمد على.. لِمَ لا؟.. هل ترغبين فى فترة زمنية معينة؟ «

حكّت شعرها، ثم قالت:

- » أمس كنت أقرأ أشعارًا للمتنبى.. لم أفهم بالضبط ما يقول، لكن شعره بدا لى رائعًا، ويخيل لى أنه أكثر شاعر استعمل شعره فى الأقوال المأثورة والأمثال..»

- « هو و(أحمد شوقى).. أعتقد أن هذا صحيح.. كم من مرة استعملت بيت الشعر (دقات قلب المرء قائلة له.. إن الحياة دقائق وثوان) لشوقى؟.. أو (ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام) للمتنبى؟.. بالنسبة للمتنبى أنت تتكلمين عن 326 قصيدة من عيون الشعر العربى.. »

- « إذن لماذا لا نجرب؟ »

- « حقًّا لماذا؟.. إن حياة الرجل صاخبة وهناك قدر كبير من الغموض يحوم حوله.. أعتقد أنه يمنحنا مغامرة لا بأس بها.. لكنى أنذرك.. سوف نستعمل الاستشهاد بالشعر كثيرًا جدًّا.. »

- « أنا أمقت كثرة الشعر.. القليل منه جيد لكن لا تفرط فيه.. تذكرنى بعمر الخيام عندما كان ينشد رباعية كلما مرت خمس دقائق.. »

- « لا يمكن أن أتكلم عن المتنبى بلا شعر.. سيكون هذا كوصف الأيس كريم دون أن أسمح لك بتذوقه.. »

قالت فى قنوط:

- « ليكن.. قل شعرًا لكن لا تفرط فيه.. »

تدخل معه حلب فى القرن الرابع الهجرى.. هذه الأجواء مألوفة، ورأتها أكثر من مرة..

أشار المرشد - كأنه تحول إلى مرشد سياحى فجأة - إلى بيت صغير عتيق الطراز، وقال:

- « هنا كان يعيش أشعر شعراء العرب.. خلف خان الوزير فى حلب.. هناك باحث وجد هذا الموقع فى العصر الحديث، والحكومة السورية قررت أن تحوله إلى متحف يحمل اسم المتنبى.. لكنك لن تبدئى المغامرة هنا.. سوف تذهبين إلى بلاط (سيف الدولة الحمداني).. »

وقبل أن تسأل أسئلة أخرى كان قد اختفى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يستوقفها الحراس على الباب فتبرز تحقيق الشخصية الذى يثبت أنها صحفية..

كارنيه الصحافة.. يخترق كل الأبواب الموصدة أو من المفترض أن يفعل ذلك.. حتى بلاط سيف الدولة. عرفت على الفور أنها صحفية كما اعتادت فى فانتازيا، والأهم أنها صحفية عبر الأزمان..

ثياب الحراس الذين يسدون طريقها بالرماح المتقاطعة تشى بأنهم من العصر الأموى أو العباسى أو شىء من هذا القبيل..

تعرف أنها تجتاز مدخل بلاط سيف الدولة بن حمدان حاكم (حلب).. لكنها لا تعرف تفاصيل أخرى..

هناك فى صدر القاعة كان جالسًا.. من الواضح تمامًا أنه ملك أو أمير.. له تلك الملامح الهادئة الموحية بالثقة.. ملامح رجل مطمئن إلى قوته وثروته وكرم محتده.. هذا رجل بلا عقد تقريبًا.. وسيم على شفتيه بسمة هادئة خافتة من تلك البسمات التى تدل على قوة مفرطة..

لكنه لم يكن يتكلم..

كان هناك عشرات الرجال من حوله يفترشون ما يبدو كمجلس عربى.. وكانوا يتجادلون بقوة.. فقط لاحظ أحدهم وجودها بثيابها العصرية فساد الصمت، ونظر لها الجميع بفضول..

قال أحد الحراس بسرعة:

- « صحفية يا مولاى! »

كأن لفظة صحفية مألوفة فى هذا العصر..

ضحكت (عبير) كاشفة عن أسنانها ولوّحت بجهاز التسجيل، ثم أخرجت الكاميرا الرقمية الصغيرة من حقيبتها، والتقطت صورة للجالسين.. صورة لا قيمة لها طبعًا لأن كل من يراها فى عصرنا سيحسب أنها التقطت فى مدينة الإنتاج الإعلامى.. لا يلبس أى من الجالسين ساعة رقمية ولا يستعمل الهاتف المحمول.. ربما كان هذا دليلًا على أصالة الصورة..

بدا أن الملك أو الأمير لا وقت عنده للصحافة، لذا أشار لها كى تجلس فى نفاد صبر، ثم راح يتابع المحادثة المحتدمة بين اثنين من الجالسين..

الأول كان عجوزًا وقورًا أشيب اللحية يتكلم بتؤده وثقة، والثانى كان أقرب للشباب.. وكان عصبيًّا نافد الصبر لا يثبت على وضع فى جلسته..

يبدو أنهما كانا يتناقشان فى قضية نحوية صعبة..

وتذكرت باسمة أجواء (سيبويه) و(الخليل بن أحمد).. ومعركة (سيبويه) النحوية مع (الكسائى).. يبدو أن المصارعات النحوية كانت تسلية شائعة فى ذلك العصر..

مالت على رجل يجلس جوارها، وسألته همسًا:

- « بس س!.. من الرجلان بعد إذنك؟ »

نظر لها فى غيظ وهمس:

- « أنا أصغى ولا وقت للأسئلة السخيفة.. »

- « أعدك أن أخرس بعدها.. فقط من هما؟.. أريد أن أتابع.. »

قال بذلك الهمس الذى يذكرك بالفحيح:

- « الشيخ هو (ابن خالويه)... العالم البغدادى صاحب كتب (الجمل فى النحو) و(كتاب الأسد) و(إعراب ثلاثين سورة من القرآن).. الرجل هو (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى).. »

- « فهمت.. فهمت.. لقد شخت عما كنت عندما وجهت السؤال.. »

- « وهو جرىء جدًّا كى يتحدى (ابن خالويه) فى النحو.. »

لم تعرف من هو صاحب ذلك الاسم الطويل، لكنها أدركت أنه يلعب دور من يتحدى (رونالدنيو) فى تسديد الأهداف، أو يتحدى (بروس لى) فى الكونج فو..

هنا تعالى صوت الرجل الأصغر سنًّا يقول فى تحدٍّ:

- « أكرر.. رأيك خطأ خال من أى صواب..! »

كان هذا الأسلوب يفوق ما يمكن أن يقبله الشيخ، مهما بدا عليه من سماحة وسعة أفق.. بالواقع كان الاستفزاز قويًّا لذا مد بيده فى كمه وأخرج مفتاحًا.. مفتاحًا من مفاتيح ذلك العصر

التى تحتاج لرجلين لحملها، وضرب به الرجل فى رأسه ضربة قوية فوق العمامة، وهو يقول من بين أسنانه:

- « تأدَّب يا فتى! »

تحسس الرجل رأسه.. بالطبع لا يجرؤ أحد على رد الضربة لشيخ فانٍ كهذا، دعك من أنه رجل مهيب أصلًا.. لهذا نظر نحو سيف الدولة وهو يفرك موضع الألم.. كأنه يطالبه باتخاذ إجراء ما..

قال سيف الدولة بصوت هادئ واثق:

- « فلننه هذا الموضوع.. أنت تجاوزت حدودك مع الشيخ يا (أحمد).. »

تعالت أصوات الناس مؤيدة..

وقد رأت (عبير) أن معهم كل الحق فى هذا، وإن فهمت كذلك أن هناك درجة معينة من الشماتة فى تصرفهم.. إنهم يحقدون عليه كما هو واضح.. لكن الرجل لم يستطع قبول ذلك..

اتسعت عيناه وضغط على عضلته الماضغة فصارت كرة حديدية.. ثم نظر للناس الجالسين وسيف الدولة، وسرعان ما نهض مغادرًا المكان...

مالت على ذلك الرجل الذى يجلس جوارها، والذي بدا موشكًا على خنقها من كثرة أسئلتها، وهمستْ:

- « هذا الرجل شديد الحساسية الذى غادر المكان شاعرًا بالإهانة.. (أحمد بن عبد الصمد بن الحسين الكوفى الجعفى)..»

قال مصححًا فى ضيق:

- « تقصدين (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى) طبعًا.. »

- « نعم.. نعم.. هل له اسم أسهل؟ »

بدت عليه الدهشة، ونظر لها ولسان حاله يقول: « من أين يأتون بهؤلاء الحمقى؟ »

ثم قال:

- « هو (أبو الطيب) طبعًا.. (المتنبى) يا حمقاء! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مفترق الطرق..

» جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس .. »

ابن رشيق القيروانى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا هو المتنبى إذن!

المتنبى بشحمه ولحمه وعبقريته.. الذى اعتبره الكثيرون أعظم الشعراء العرب طرًّا، والذى اعتبره كذلك ليس أنا بل من هو فى وزن (أبو العلاء المعرى) شخصيًّا.. أبو العلاء له كتاب كامل فى شرح شعر المتنبى..

قال (أبو العلاء) هذا الرأى ذات مرة أمام الشريف المرتضى نقيب الأشراف، مما استفز هذا الأخير.. راح يشتم المتنبى ويسفه من شعره وقيمته، فقال أبو العلاء:

- « يكفيه أنه قال قصيدة (لك يا منازل فى الفؤاد منازلُ).. »

طبعًا كان أمراء وخلفاء ذلك العصر خبراء فى الشعر؛ لذا عرف الشريف المعنى الذى قصده الشاعر الكفيف، وصاح وقد احمر وجهه فيمن حوله:

- « **أخرجوا هذا الكلب من هنا!!** »

فلما طردوا (أبو العلاء) شر طردة من المجلس - وهو لم يكن راغبًا فى حضوره على كل حال - قال الشريف المرتضى لمن حوله:

- « هل فهمتم؟.. الأعمى يلمّح إلى هذه القصيدة؛ لأن فيها البيت القائل:

وإذا أتتك مذمتى من ناقص.. فهى الشهادة لى بأنى كامل! »

أى إن الشريف ناقص؛ لذا فإن رأيه لن يضر المتنبى بشىء.. بل يزيد من قدره.. بصراحة تعتقد (عبير) أن فى هذا نوعًا من التذاكى، وأن (أبا العلاء) تلقى علقة لتهمة لا ذنب له فيها.. ربما هو قد ظُلم بقسوة.. لكنها تعرف يقينًا أن هؤلاء القوم يفهمون الشعر فعلًا، وليس من السهل خداعهم...

هذا هو المتنبى إذن..

طموح وعبقرية يمشيان على قدمين، وحدة طبع واضحة فى كل شىء..

هذا هو المتنبى العبقرى.. لقد قابلت عباقرة كثيرين فى فانتازيا وها هو ذا عبقرى آخر..

فقط عليها أن تلحق به بسرعة..

هكذا نهضت مغادرة المجلس، آملة ألا يلاحظ أحد رحيلها..

هذه قلة ذوق لا شك فيها، لكن لا وقت للمجاملات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مشغولًا يجمع حاجياته وثيابه فى عدة صناديق.. ويكلف الخدم بأشياء..

وقفت على باب جناحه فى حرج تنتظر..

استدار فرآها.. تغير وجهه قليلًا وبدا أكثر عصبية، ثم حمل طيلسانًا ألقى به فى أحد الصناديق كيفما اتفق، وسألها:

- « من أنت؟ »

- « صحفية مكلفة بإجراء حوار معك.. »

كان قبيحًا إلى حد ما.. ملامحه حادة فعلًا، وكانت عيناه قويتين نفاذتين.. بالإضافة لهذا كان شديد الكبرياء على درجة ما من التعالى.. لا يمكن فهم هؤلاء العباقرة، فإما أن يكونوا متواضعين بسيطين مثل (تشيكوف) و(نجيب محفوظ)، أو يكونوا مغرورين لهم طباع الأطفال المشاكسين مثل (بيرون) و(بيتهوفن).. ربما يكونون أقرب إلى الجنون كذلك كما فى حالة (فاجنر).. فى الحالتين هم عباقرة.. فلا يمكن أن تصل إلى قاعدة نهائية تقول إن الغرور يدل على ضعف الموهبة، كما لا يمكن أن تقول العكس.. الفيصل الوحيد هو ما يصنعه هذا الفنان فى النهاية..

(المتنبى) كما واضح نموذج للشاعر المعتز بنفسه إلى درجة مستفزة أحيانًا، ولا يكف عن خلق الأعداء، كما أنه لا ينظر بأى عين من العطف أو التقدير للشعراء الآخرين.. كلهم تافهون مدعون..

فيما بعد ستعرف (عبير) أنه لا يضحك أبدًا.. هو أميل للاكتئاب والعبوس، وهناك قصة واحدة عن أنه ضحك عندما رأى رجلين قتلا فأرًا ضخمًا وراحا يعرضان جثته فى فخر، فسخر منهما..

وهكذا عندما قالت (عبير) إنها صحفية قال لها فى شىء من السخرية:

- « وماذا تريدين معرفته؟.. لا أحد يجهل من هو (أبو الطيب)..

الخيل والليل والبيداء تعرفنى

والسيف والرمح والقرطاس والقلم..

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى..

وأسمعت كلماتى من به صمم.. »

قالت وهى تكتم غيظها:

- « نعم.. لكن لا أحد يعرف خلفيات هذه العبقرية.. العبقرى له أم وأب وقصة حب ومشاكل عمل وأحلام و... و... »

استند إلى أحد الصناديق المفتوحة التى امتلأت بالدنانير وقطع الذهب، وقال:

- « مشاكل عمل.. نعم.. أنت قد جئت بينما أنا أوشك على مغادرة بلاط سيف الدولة.. تسع سنوات وثمانون قصيدة أو أكثر.. لم يحدث فى تاريخ العرب أن امتدح شاعر حاكمًا بهذا العدد

من القصائد. إنه الحاكم الوحيد الذى أحببته حقًّا وارتحت له ووثقت به، ورافقته فى كل حملاته البطولية ضد الروم.. وصفت كل شىء.. رثيت من مات من أقاربه.. امتدحته.. وصفت معاركه.. إن أصدق مدحى كان من أجله.. وهو كذلك كان يعرف قدرى جيدًا.. »

» بالجيش يمتنع السادات كلهم

والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع.. »

أى إن السادة يحتمون بالجيوش.. لكن الجيوش تحتمى بسيف الدولة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتشرد نظرات المتنبى.. يسترجع تدليل سيف الدولة له، حتى إنه الشاعر الوحيد الذى كان يحق له إلقاء الشعر جالسًا أمام الحاكم، بينما أى شاعر آخر يجب أن يقف.. يسترجع حقد الشعراء عليه، وكيف دخل أحدهم على سيف الدولة غاضبًا ليقول:

- « أنت يا مولاى تدلل المتنبى أكثر من اللازم.. أنا أفضل منه فى الشعر، ويمكننى أن أعارض أية قصيدة له.. »

قال سيف الدولة على الفور:

- « عارض قصيدته التى تقول: لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى.. وللحبّ ما لم يبقَ منى وما بقى.. »

نظر له الشاعر فى حيرة.. فالقصيدة متوسطة المستوى.. بل هى من أسوأ قصائد المتنبى.. ثم أدرك أن سيف الدولة اختارها لأنها قصيدة ضعيفة.. إنها الغبار المتناثر من تحت سنابك ذلك الحصان الجامح.. لقد كان المتنبى يقول فى القصيدة:

بلغتُ بسيف الدولة النور رتبة.. أنرتُ بها ما بين غرب ومشرق

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق.. أراه غبارى، ثمّ قال له: الحقِ!

هذا هو!.. سيف الدولة أراد أن يلهو بلحية الشاعر الأحمق، فأراه غبار المتنبى وطلب منه أن يلحق به!

هكذا كانت الأمور ثم انتهت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألته (عبير) وهى تضع الجهاز قرب فمه:

- « شعر المناسبات والمدح قد يبدو أقل أهمية من الشعر الذاتى.. لاحظنا أن وصف الطبيعة فى شعرك قليل جدًّا.. »

كان سؤالًا مهمًّا فعلًا؛ لأن الرجل لم يصف نهرًا أو مطرًا إلا من حيث هو يذكره بسخاء من يمدحه.. فقط!

قال فى عصبية:

- « هل تحسبين الحياة مع أمير باعتبارك شاعرته سهلًا؟.. يجب أن تكون قريحتك جاهزة دائمًا فلا مجال هنا (للمزاج).. لو أمطرت السماء على الأمير، كان عليك كتابة قصيدة تفضل صيب الأمير على صيب السماء.. لو هبت عواصف فأطارت خيمة الأمير، فعليك أن تكتبي قصيدة تتفاعل بهذا الذى حدث، وتقولين إن عظمة الأمير أكبر من أن تتحملها الخيمة.. لو مرض الأمير فعليك أن تتمنى له الشفاء.. لو شفى الأمير فعليك كتابة قصيدة تهنئة ممتازة.. كل هذا يجب أن يتم بسرعة وإلا سبقك الشعراء الآخرون!.. أنا فعلت هذا بكفاءة تامة مع سيف الدولة.. »

سألته (عبير):

- « ولماذا ترحل ما دامت العلاقة مع سيف الدولة حميمة كما تصفها؟ »

احمرَّ وجهه وأغلق الصندوق بصوت مسموع، وهتف:

- « لأنه لم ينصفنى.. لقد أهنت أمامه الآن على يد (ابن خالويه) فلم يتدخل!.. هذا الموقف نتيجة أشهر من الوشايات وسوء الفهم.. أخشى أننا بلغا مفترق الطريق فعلًا.. حان الوقت لإنهاء صداقة دامت تسعة أعوام.. حان الوقت كى أترك حلب كلها لينعموا بها هم.. فى الحقيقة أنا أفهمهم إلى حد ما.. هذا شعور بشرى طبيعى.. لابد أن يجنوا ويغتاظوا لوجود شاعر مثلى فى هذا العالم، فلو زلت لنالوا المجد كله.. إن لى شعرًا يلخص هذا الموقف:

» إنى وإن لمتُ حاسدىّ فما

أنكر أنى عقوبة لهمُ

وكيف لا يُحسد امرؤ عَلَم

له على كل هامة قدم؟ »

ابتسمت (عبير).. يجب أن تضغط على أعصابها وتتحمل فخر هذا الرجل بنفسه طيلة الوقت، لكنها لا تنكر كذلك أن شعره رائع.. الحمد لله أنها ليست شاعرة وإلا لجعلها تلقائيًّا من أعدائه..

لكن المتنبي - والحق يقال - كان يحترم شاعرًا واحدًا فى البلاط كله ويصغى لشعره فى اهتمام.. إنه (النامى).. شاعر حقيقى استطاع أن يظفر باحترام المتنبى، لكنه - لأسباب مجهولة - لم يشتهر فى تاريخ الأدب العربى فلا يعرفه إلا قلة من الدارسين..

عادت تسأله:

- « هل الوشاية هى السبب الوحيد؟ »

ابتسم فى خبث، وتحسس لحيته الناعمة، وقال:

- « ربما كذلك ما قلته عن (خولة) أخت (سيف الدولة) فى قصيدة لى أرثيها فيها.. لقد وصفت مبسمها، واعتبر هو هذه إهانة لا تليق.. »

أطلت على مدينة حلب كما تبدو من نافذة فى الغرفة، وكما تبدو وقد استحمت فى ضوء الغروب القرمزى الباهت الحزين.. حلب الشهباء الواقعة ما بين نهر الفرات والبحر المتوسط.. وقالت:

- « بينى وبينك.. معه حق.. هذه قلة أدب لا شك فيها.. »

فيما بعد قال الخوارزمى عالم الجبر العظيم: لو عزانى أحد فى امرأة لى ببيت شعر كهذا لألحقته بها!!

هذه واحدة من تجاوزات المتنبى المعروفة.. أحيانًا يكون وقحًا جدًّا أو يجافيه التعبير.. لو سمحت لى بتعبير عامى دقيق لقلت إنه (مَدَبّ).. ولسوف توردِه عثراته الذوقية هذه موارد الأذى طيلة حياته...

مد المتنبى يده إلى قرطاس يحمله.. قرطاس من الطراز العباسى جدًّا الذى تكتب عليه أوامر الملوك وفرماناتهم، وناوله لها:

- « هذه آخر قصيدة مدح كتبتها فى سيف الدولة.. خذيها لتنشريها عندك حصريًّا.. هذا انفراد لا شك فيه.. تخيلى عناوين جريدتكم تقول: نحن ننفرد بنشر آخر قصائد المتنبى فى سيف الدولة! »

بالفعل هذا انفراد.. المشكلة هى أن القصيدة سوف تنشر بعد 1000سنة تقريبًا.. لكنها فتحت القرطاس فى امتنان وقرأت بصوت عال مرتجف:

لا تطلبنّ كريمًا بعد رؤيته

إن الكرام بأسخاهم يدًا خُتموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أى أن (سيف الدولة) هو أكرم الكرام فلا تسأل عن كريم آخر بعده، وكذلك شاعره هو الأفضل فلا تهتم بالشعراء الآخرين.. هذه سمة عامة سوف تلاحظها (عبير) فى شعره فيما بعد: لابد أن يمتدح نفسه مع من يمتدح.. بل إن امتداحه لنفسه غالبًا ما يأخذ الجانب الأكبر والأجمل من القصيدة..

قالت مصادقة:

- « أبيات جميلة جدًّا.. »

- « إم م م.. »

قالها بلهجة من مل سماع هذه البديهيات.. ثم عاد يصدر أوامره الحادة للخدم..

برغم كل شىء كان متأثرًا فعلًا.. الصدام بين كبريائه الملتهبة وحبه الحقيقى لسيف الدولة.. لقد ربحت الكبرياء.. دعك من أنه لا يشعر براحة وسط كل الأفاعى التى تزحف فى هذا البلاط..

لابد أن البلاط كله سمع بالخبر، ولابد أن (سيف الدولة) عرف أن المتنبى راحل. فلماذا لم يستدعه أو يهرع له؟.. المعنى ببساطة أنه أراد هذا...

قال المتنبى فى يأس عالمًا أن الوقت فات لتقريب الفجوة بينه وبين سيده:

بينى وبينك ألف واش ينعبُ

فعلام أسهب فى الغناء وأطنبُ؟

صوتى يضيع ولا تحس برجعه

ولقد عهدتك حين أنشد تطربُ

ثم قال قصيدة رقيقة فعلًا:

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به

من أن أكون حبيبًا غير محبوب

لقد انتهت مرحلة مهمة من حياة المتنبى، هى علاقته بسيف الدولة..

إنه راحل وبالتالى هى مضطرة للرحيل معه..

تريد أن تعرف من هو؟

كيف صار من صاره؟

والأهم هو: ماذا سيحدث له وهو القادر على اجتلاب المتاعب أينما كان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مصر التى لم يحبها..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله، ومن فوقه لوح المتنبى بسيفه وصرخ صرخة هائلة.. هوى بسيفه على عنق أحد الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان..

وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال المتنبي ل (عبير) وهو يقود حصانه، وقد رفع حاجبيه وأغمض عينيه، بالطريقة التى فهمت (عبير) أنها لحظة تلقيه لشيطان الشعر:

وأعلم أن البين يشكيك بعده

فلست فؤادى إن رأيتك شاكيًا

فإن دموع العين غدر بربها

إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

أقلّ اشتياقًا أيها القلب إننى

رأيتك تصفى الود من ليس صافيا

ثم فتح عينه ببطء ونظر ل (عبير) التى تلاقى المتاعب على صهوة جواد يخب جواره، وكأنه يسألها عن رأيها أو ينتظر إطراء، فقالت وهى تمسك اللجام بقوة:

- « لا أفهم حرفًا.. لو كنت تحسبنى (الخليل بن أحمد) فأنت مخطئ على الأرجح.. »

- « لا أحسبك شيئًا على الإطلاق.. هذه أبيات ألوم فيها فؤادى على اشتياقه لسيف الدولة.. »

قالت فى عصبية:

- « جميل جدا.. تصفه بأنه غادر.. وأن ما يمارسه ليس سخاء ولكنه (تساخ).. وهو ليس صافي الود.. ألا ترى أنك تحمل له تقديرًا زائدًا؟.. هل هذا رأيك فيه فعلًا؟ »

أغمض عينيه من جديد، وقال وهو يهز رأسه:

- « ألم تسمعى عن شيطان الشعر؟.. أحيانًا تكتب الأبيات نفسها وتدفع الشاعر إلى قول ما لم يقصده.. المغالاة.. المبالغة..هذه من سمات الشعر المهمة.. »

- « ربما لهذا يكتبون الشعر الحديث أحيانًا.. يقولون ما يريدون دون تكلف.. »

نظر لها فى اهتمام وتساءل:

- « شعر حديث؟.. ما هو؟ »

- « شعر تحرر من القافية وطول السطر.. وربما التفعيلة أحيانًا.. »

ثم أغمضت عينها وقالت بلهجة درامية:

- « أراها تخط تاريخها السرمدى فى صفحة الطحلب الزغبى..

» وفى رئة الشمس يغلى التداخل والاختمار... »

نظر لها ورفع حاجبًا واحدًا.. ثم سألها دون أن يبدو مزاح فى صوته:

- « هل أنت متأكدة مما تقولين؟.. الشمس لها رئة.. وهناك من يكتب فى صفحة الطحلب الزغبى؟.. لقد سمعت شعرًا أروع قالته ناقتى.. ما معنى هذا الكلام الفارغ؟.. هل هى تعويذة لطرد الشياطين؟ »

قالت فى كبرياء:

- « بل هو شعر حديث.. أنت لن تفهم هذا.. »

فى ضجر قال:

- « ولا أريد أن أفهم.. نحن متوجهون إلى مصر على كل حال.. »

مصر؟

ولماذا مصر؟

كان العراق أقرب له وأسهل..

لما سألته هذا السؤال، قال فى غموض:

- « هذا السؤال سيحير أديبًا من عصركم اسمه (طه حسين)، ولسوف يرجح أن السبب هو أنى أفسدت علاقتى بالعراق والعراقيين بكل ما قلت من هجاء فيهم.. لقد قطعت جسورى مع العراق.. صحيح أننى هجوت الإخشيديين فى مصر قليلًا، لكن هذا لم يخلق خلافات خطيرة.. »

- « هذا كلام (طه حسين) عنك!.. فماذا عن كلامك عن نفسك؟»

قال بذات الغموض:

- « هذا سر! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام وليال فى صحراء سيناء الرهيبة.. وبعد الفرار من مئات الذئاب وهجمات عشرات من قطاع الطرق - لاحظ أنه لم تكن هناك نقاط حراسة ولا قرى سياحية فى ذلك العصر – بلغ المتنبى ومرافقته وقافلته (مصر)...

بدا الجو مألوفًا لعبير فعلًا برغم أن ألف عام تفصلها عنه..

سألت المتنبى وهما يقتربان من مشارف المدينة الضخمة (الفسطاط):

- « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

- « سؤال سخيف.. طبعًا ذاهب للقاء الحاكم (كافور الإخشيدى).. »

- « وماذا تنوى عمله عنده؟ »

- « سؤال أسخف.. سأمدحه طبعًا.. »

حكت رأسها مفكرة، ثم سألته:

- « هل تعرف من مآثره ما يكفى لجعلك تنفعل وتكتب شعرًا؟»

رفع رأسه فى شمم وضرب خاصرة الحصان بكعبيه ليسرع أكثر، وقال:

- « يا فتاة.. أنا لم أمدح أحدًا، ولن أمدح أحدًا عن اقتناع سوى (سيف الدولة)، أما هنا فالمدح مجرد وسيلة للتقرب من الرجل.. هذه صفقة عادلة.. أنا لدى شعر ممتاز وهو لديه مال ونفوذ عظيمان.. خذ هذا وهات ذاك.. نفس ما تفعلينه فى السوق.. »

- « هذا منطق عملى.. لكنه (براجماتى) أكثر من اللازم.. »

- « لا أعرف معنى لفظة (براجماتى) هذه لكنى أعرف معنى لفظة (طموح).. »

الطموح.. نعم.. هذه الكلمة تلخص المتنبى..

الطموح لمكانة فى الشعر لا يبلغها أحد..

الطموح للمجد..

الطموح للثراء..

الطموح للنفوذ..

الطموح ل... لشىء لا يعرفه هو نفسه لكنه يريده بقوة كاسحة..

تدخل (عبير) معه إلى بلاط (كافور الإخشيدى)..

ينظر الجالسون فى فضول ودهشة إلى القادم الجديد.. لا يبدو عليه الوجل أو التردد بل يتقدم مرفوع الرأس مليئًا بالثقة بالنفس نحو الحاكم الجالس على العرش.. الحاكم أسود اللون الذى يلتمع جلده فى ضوء المشاعل كأنه الأبنوس، والذى تطل نظرات مخيفة من عينيه ببياضهما الناصع.. شفته السفلى غليظة جدًّا ومثقوبة، بينما يتهدل شعره المجعد الأشيب على كتفيه..

لم يكن جميلًا لكنه مهيب بلا شك.. فاخر لو شئت الدقة..

بصوت جهورى قال المتنبى:

- « السلام على (كافور الإخشيدى).. أنا (أبو الطيب) أشعر شعراء العرب.. جئت بقصيدة أمتدحكم فيها.. »

ساد الصمت.. الحقيقة أن هذا التملق بدا أقرب إلى التهجم.. كأن (كافور) هو الذى جاء يستعطى المتنبى، وقد تذكرت (عبير) على الفور التعبير العامى (حسنة وأنا سيدك)..

نحوها اتجهت العينان المخيفتان، وسأل (كافور):

- « ومن هذه؟ »

قال المتنبى:

- « صحفية تغطى قصة حياتى وتدون شعرى.. »

- « ما معنى (صحفية)؟ »

- « لنقل إنها (راويتى).. »

ثم انتصب وأخذ شهيقًا عميقًا، وأغمض عينيه وقال:

- « هذه أبيات قمت بتأليفها لـ (كافور) العظيم:

» قواصد كافور توارك غيره

» ومن قصد البحر استقل السواقيا

» فجاءت بنا إنسان عين زمانه

» وخلت بياضًا خلفها ومآقيا.. »

فى الحقيقة لم يكن قد ألف هذه الأبيات، بل هو يؤلفها للحظته..! ارتجال الشعر من مواهبه العظيمة، لكنه يخفى ذلك ويتظاهر بأنه سهر أيامًا فى نظمها.. وما كان يعرف كيف ستكون القصيدة قبل أن ينشد أول بيت فيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حذار يا متنبى..!

كافور الإخشيدى يختلف تمامًا عن سيف الدولة..

الأستاذ - هكذا ينادونه - أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى.. عبد عاش فى مصر ثم بيع إلى أمير سورى.. مات سيده أمير دمشق، فولاه ابناه مكان أبيهما لأنهما يعرفان ذكاءه وشجاعته جيدًا.. ثم اتجه إلى مصر ليهزم ملكها (غلبون المغربى).

لم يكن كافور حاكمًا سهلًا أو ساذجًا.. أن الفاطميين كلما فكروا فى غزو مصر كانوا يقولون: « دوننا ومصر الحجر الأسود!».. والحجر الأسود هو كافور...

الحقيقة أن المتنبى خلد هذا الرجل فعلًا، ولكن خلده بالشكل الخطأ.. خلده بالسباب فيما بعد.. لكن التاريخ ينقل لنا صورة مختلفة تمامًا عن هذا الرجل.. والمؤسف أن معظم الناس لن تعرفه إلا عن طريق أبيات المتنبى..

هكذا ظل متجهم الوجه يصغى للمتنبى وهو يمدحه:

- « وأخلاق كافور إذا شئت مدحه

وإن لم أشأ تُملى على فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلًا وراءه

ويمم كافورًا فما يتغرب »

قال كافور فى برود ما معناه (كويس).. هذه الحيل لا تنطلى على رجل ارتقى السلم منذ كان عبدًا بيع بعشرة دنانير إلى أن صار حاكم مصر ومعظم الشام.. ..

يواصل المتنبى إنشاده:

- « أحنّ إلى أهلى وأهوى لقاءهم

وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم

فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب »

المعنى؟.. أن المتنبى يحن لأهله بشدة وقد ابتعد عنهم كأنه طائر العنقاء فى رحلته نحو الغرب، لكن لو كان عليه أن يختار فهو يفضل الأستاذ (كافور)..

كرر كافور شكره الفاتر للشاعر، ثم أمر بأن يقيم فى البلاط معه هو وتلك الص. .. تلك الصحفية.. وأمر له بمنحة مالية.. الرجل يتذوق الشعر ويفهمه، فليس عنده للمتنبى إلا المال.. هذا هو سعر ما قال من شعر..

فى اليوم الثانى أنشده المتنبى قصيدة أخرى تقول:

- « كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا »

ابتسم كافور للمرة الأولى.. ابتسامة شاحبة متحفظة، لكنها جعلت المتنبى يدرك أن الجدار ليس مسدودًا تمامًا..

بعد أيام ألف قصيدة جديدة تقول:

- « ولما صار ود الناس خبا

جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه

لعلمى أنه بعض الأنام »

هنا غابت الابتسامة عن وجه الأستاذ كافور.. هذه من عثرات المتنبى الذوقية المعروفة.. إن الناس يبتسمون لى برغم أننى أشك فيهم جميعًا.. حتى من أحبه أشك فيه لأنه (ناس) هو الآخر.. هكذا قرر كافور ألا يبتسم فى وجه المتنبى ثانية، وقد فهم المتنبى أن الرجل يفهم الشعر جيدًا وليس أحمق.. لا غرابة فى أن اسمه (الأستاذ).. السبب هو براعته فى اللغة العربية..

الحق أن المتنبى أهان نفسه كثيرًا مع كافور.. والأغرب أن شعره كان يقول عكس ذلك، كأنه كان

يمارس تفاعل الإزاحة النفسى الشهير..

ومن يهن يهن الهوان عليه

ما لجرحٍ بميت إيلام

هكذا بدا أن أيام شاعرنا الطموح فى مصر ستكون صعبة فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- ذكريات..

عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث، شعر بالأرض تميد تحت أقدام الحصان..

إن للخيول عادة ذميمة هى أنها تتعثر فى اللحظة غير المناسبة، وقد هوى حافر الحصان فى حفرة فى الأرض فأطلق صهيلًا ثم تعثر ليسقط على قائمتيه الأماميتين..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار، وللحظة حسبت (عبير) أن رأسه طار كذلك، ثم أدركت أنها العمامة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كره المتنبى كل شىء فى مصر.. جوها.. حرها.. ماءها.. ناسها.. وبالذات كره حاكمها..

من الواضح أن قلبه ظل معلقًا بحلب للأبد..

وقد كان جالسًا فى جناحه يطالع بعض الصحائف، عندما دقت (عبير) الباب ودخلت.. لقد وجدت أن الوقت مناسب لمعرفة خلفيات هذا الشاعر العظيم..

- « تعالى.. »

دخلت وجلست بقربه فتأملها فى اهتمام.. ماذا هنالك؟.. هل سيحبها كعادة أبطال فانتازيا؟.. ثم أدركت أنه يريد أن يعرف شيئًا واحدًا:

- « هل أنت مصرية؟ »

- « نعم.. »

- « كيف تطيقين هذا البلد وهؤلاء القوم؟ »

بدا لها كلامه لا يخلو من إهانة.. هل هو حقًّا لا يجد ما يجذبه فى النيل والخضرة ووجوه الفلاحين الطيبة؟.. فقالت فى حزم:

- « كما يطيقك هذا البلد وهولاء القوم.. »

- « إذن هى كراهية متبادلة.. »

هنا فهمت لماذا كان يطيل النظر لها.. هو لن يحبها طبعًا.. هو من طراز الرجال الذين استبد بهم الطموح ولا يرون شيئًا سوى المستقبل، ويتزوجون أول امرأة تصلح لتخفيف العبء عنهم فى رحلة الطموح المجنونة هذه.. فقط كان ينظر لها فى فضول لأنها مصرية..

نظر لسقف الغرفة وتنهد طويلًا، ثم قال:

أقمت بأرض مصر فلا ورائى

تخب بى الركاب ولا أمامى

قليل عائدى.. سقم فؤادى

كثير حاسدى.. صعب مرامى

بهذه الأبيات العبقرية لخص حاله فى مصر:

1 ـ عائد قليل..

2- فؤاد سقيم..

3- حاسدون كثيرون..

4- مرام صعب..

قررت أن تغير الموضوع حتى لا تشتبك معه.. مهما كانت تحفظاتها على مصر فهى لا تسمح لغير مصرى بأن يشتمها..

حكى لها قصة حياته حتى هذه اللحظة..

لقد ولد فى (كندة) بالكوفة عام 303 هجرى (أو 915 ميلادى).. (الكندى) لا تعنى أنه من كندا طبعًا.. إنه مولود من بلدة قرب النجف... يتيم لم ير أمه قط.. حار المؤرخون حول أبيه وما إذا كان سقاء بسيطًا أم من نسل ملوك اليمن.. وبدأ يقرض الشعر من صغره.. ولديه قصائد ممتازة فى سن التاسعة!..

يقولون إن أول ما نظمه من شعر هو:

بأبى من وددته فافترقنا

وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولًا فلما التقينا

كان تسليمه على وداعا

لا تعرف (عبير) كيف نظم صبى هذه المعانى الناضجة، ولا كيف يعرف معنى اللقاء والوداع فى عصر سبق الفضائيات بعشر سنوات، لكن المتنبى كما قلنا كان عبقريًّا.. (موتسارت) جرب أن يكتب أول سيمفونية له فى سن السادسة!

قال لها المتنبى فى غيظ:

- « د. طه حسين فى عصركم سوف يرى أن هذا البيت سخيف مفتعل، وإننى افتعلته لمجرد أن أقول (كان تسليمه على وداعًا).. أى أنه شطر راق لى فبنيت عليه قصيدة كاملة لا معنى لها! »

قالت ضاحكة:

- « مثل الرجل الذى يلعب كلبه الشطرنج، لكنه غير منبهر بهذا لأنه يغلب الكلب فى كل مرة يلعبان فيها! »

- « لا أفهم مثالك هذا.. لكن الويل لك لو كنت تشبهيننى بكلب!»

رسمت على وجهها علامات الجدية، متظاهرة بأنها لم تشبهه بكلب، وعادت تسأله:

- « وماذا بعد ذلك؟ »

ذهب الصبى إلى البادية ليتعلم لغة العرب جيدًا، وهى سياسة معروفة لدى من قرر أن يحترف الأدب..

ومن بين كل شعراء العرب توقف طويلًا عند (أبو تمام) و(البحترى)..

الحقيقة أن هذه الحقبة كانت هى التى بدأت تتفكك فيها الدولة العباسية.. صارت هناك عشرات الإمارات والدول الصغيرة المتناحرة عند الأطراف، وهى فترة مستحيلة الحفظ أرهقت كل طالب يدرس التاريخ..

صراعات وتنافس بين إمارات صغيرة.. فتنة القرامطة.. إلخ..

استولى البويهيون على بغداد، واستولى الإخشيديون على حكم مصر، وأسس الحمدانيون دولتهم فى شمال الشام بعد صراع مع الإخشيديين.

كل إمارة تطلب المجد لنفسها..

قال لها المتنبى:

- « الشاعر العظيم يلعب فى زمننا ما تلعبه فى زمنكم قناة فضائية كاملة لا هم لها سوى مدحك والإشادة بك.. هكذا عرفت طريقى منذ اللحظة الأولى، ولم أضيع وقتى.. سأكون الشاعر الذى يتقاتل عليه الأمراء.. ثم أصير أميرًا.. وسوف يأتى الشعراء ليلقوا أمامى قصائد المدح.. »

هكذا نجد إنه عاد إلى الكوفة بعد ما سيطر على اللغة العربية.. اللغة العربية ذلك الحصان الجامح الذى يمكن أن يقهر أقوى الفرسان وأعلمهم..

- « كنت أعرف بالضبط ما أحتاج إليه كشاعر، وقد حرصت على تحصيله مبكرًا جدًّا.. »

الآن جاء موعد بغداد.. الملتقى العلمى والأدبى الأهم فى العالم العربى.. ربما فى العالم كله وقتها..

ذهب هناك مع أبيه وهو فى سن المراهقة، وهناك قابل الكثيرين وتعلم منهم، ومنها إلى الشام.. دمشق.. اللاذقية.. حمص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل هذه الخبرات الصغيرة هى ما يصنعنا ويشكل فلسفتنا فى الحياة؟

حكى لها المتنبى أنه كان يمشى فى السوق ومعه خمسة دنانير.. رأى البطيخ الأخضر جميل اللون عند بائعه الذى شق ثمرة أو اثنتين ليظهر قلبهما الأحمر الذى يسر الناظرين..

- « هل تبيعنى بطيخة بخمسة دنانير؟ »

قالها للبائع.. فضحك هذا ساخرًا ورفض..

عاد يكرر الرجاء لكن الرجل كان مصرًّا.. وهكذا وقف الفتى الجائع الظمآن ينظر للدنانير وينظر للبطيخ.. حسناء ليس معه مهرها وخمسة دنانير لا تغنيه شيئًا..

هنا ظهر رجل متأنق يلبس ثيابًا فاخرة، تبدو عليه الثقة، فاتجه نحو البائع وانتقى بطيخة ممتازة.. ثم سأل البائع عن ثمنها.. قال البائع النصاب:

- « بدينارين فقط يا سيدى! »

دفع الثرى الدينارين وانصرف شاعرًا بالرضا عن نفسه..

هنا سأل المتنبى البائع فى حيرة:

- « تبيع له بدينارين، وتأبى أن تبيع لى بخمسة؟ »

قال البائع بلهجة من فهم الحياة منذ زمن:

- « ويحك!.. إنه ثرى.. لديه مائتا ألف دينار! »

كان هذا هو الدرس الأول والأقسى فى حياة المتنبى.. الأثرياء يحصلون على كل شىء، ويحصلون عليه بأسعار أرخص من الفقراء.. من يدفع الثمن الباهظ هو الفقير..

إذن لابد أن يكون ثريًا.. لابد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتاب راق له عند بائع الكتب..

راح يقلب صفحاته الثلاثين ويعيد تقليبها، فملّ البائع وسأله:

- « هل تنوى شراءه أم لا؟.. لن تستطيع قراءته كله وأنت واقف هكذا.. »

ابتسم الشاعر فى ثقة، وأعاد الكتاب للرجل وقال:

- « بل قد حفظته كله! »

وفى اللحظات التالية برهن على أنه كان صادقًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من حين لآخر له سقطات ومبالغات لا بأس بها، وقد نال عشرة دراهم لا أكثر عن هذه القصيدة:

لم يخلق الرحمن مثل محمد

أحدًا.. وظنى أنه لا يخلقُ!

لاحظ أنه لا يتكلم عن (محمد) رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه يتكلم عن محمد آخر من بنى أوس يمتدحه بهذه المبالغة الشنيعة، وهى مبالغة لم تنطل على الرجل الذى أعطاه عشرة دراهم لينصرف عنه.. أى إنه بلغتنا أعطاه سيجارة وقال له (اتوكل)..

عامة يميل المتنبى إلى التجاوز الدينى كثيرًا جدًا، وله أبيات يمكن أن يشيب لها شعر رأسك.. هناك كذلك قصائد مطولة يمتدح فيها أشخاصًا أهدوا إليه وجبة من السمك بالعسل والفستق! يبدو أنه كان مولعًا بالطعام الجيد إلى درجة (الدناوة) مثل (بشار بن برد)..

إضافة لهذا كانت أشعاره فى تلك الفترة تتعمد غرابة الألفاظ فى استعراضية واضحة.. كلما تقدم فى السن ازداد شعره سهولة..

هو الآن فى العشرين.. هذه هى السن التى تحوم حولها علامات الاستفهام.. يقولون إنه ادعى النبوة فى ذلك الحين، ويقال إنها إشاعة أطلقها المغرضون.. لكن هذا سبب اسم (المتنبى) الذى التصق به للأبد..

له فى هذه السن قصيدة شهيرة جدًّا يشبه نفسه فيها تارة بالمسيح بين اليهود، وتارة بسيدنا صالح فى ثمود.. وفى هذه القصيدة يتكلم بلهجة القرامطة فيستحل دم الحجاج فى ثياب الإحرام، ويحرم الصلوات الخمس.. ثم فى النهاية يسخر من كل شىء لأنه (محتقر فى همتى.. كشعرة فى مفرقى).. باختصار لو عاش فى القرن العشرين لصار من كبار المفكرين الفوضويين..

هذا هو مستند الاتهام الأول أو Exhibit A كما تقول المحاكم الغربية.. لم يدع النبوة بالمعنى الحرفى.. لكنه جدف كثيرًا..

إشاعة أم لا.. لقد دخل الفتى السجن عامًا كاملًا لتأديبه.. ومن الواضح أن السجون فى ذلك العصر كانت تجربة أقسى بمراحل من سجوننا الحالية.. لكنه سعيد الحظ لأنه لم يُعدم..

قالت له (عبير) وهى ترتجف:

- « لقد أعدم سقراط والحلاج لأسباب كهذه أو أقل.. »

قال فى خبث:

- « دعك مما لم يسجله الزمن.. لقد ألغيت الكثير مما قلت فى ذلك العصر.. »

فى السجن كتب للؤلؤ وإلى الإخشيديين يطلب العفو، ويقول:

- « وكن فارقًا بين دعوى أردت

ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد.. »

أى أن على الوالى أن يفرق بين (أردت) و(فعلت).. المتنبى أراد فقط.. لابد ألا يُعامل من أراد معاملة من فعل..

كانت تجربة عصيبة لشاب طموح مثله، وعندما خرج من السجن كان قد صمم على أن يبتعد عن قصة النبوة هذه، وأن يجد أميرًا أو ملكًا قويًّا يلتصق به ليحميه..

فى البداية تزوج من امرأة شامية، أنجبت له ولده الوحيد (محسد)..

إن المتنبى فى الثلاثين من عمره الآن.. فى أنطاكية قابل ابن عم سيف الدولة، ولقد سهل له الرجل أن ينضم إلى بلاط سيف الدولة.. هذه كانت أجمل فترات حياته وأكثرها خصبًا..

لقد وصف كل شىء فى هذا البلاط ووصف حروب (سيف الدولة) وشخصيته العظيمة.. هذا أصدق شعره بالفعل لأنه آمن بنبل الرجل.. من منا لا يحفظ هذه الأبيات فى مدح سيف الدولة؟

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الرَّدى وهو نائم

تمر بك الأبطال كَلمَى هزيمة

ووجهك وضاحٌ، وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

إلى قول قومٍ أنت بالغيب عالم

صورة خالدة عبر الأجيال للبطل الباسم هادئ الجنان، يرى الفرسان الشجعان يتساقطون جرحى، لكنه ثابت كأنه يقف فى عين الموت.. ثابت حتى قال الناس إنه يعرف الغيب ويعرف أنه سينجو..

كما قلت: كانت من أجمل فترات حياته، لهذا كان لابد أن تنتهى.. الحساد يكثرون والوشاة.. والمتنبى لا يجيد فن التواضع أو كسب الخصوم، ولا يمنحك أبدًا لفظة مجاملة أو مديح تحتاج لها. وهم لا يكفون عن الهمس فى أذن سيف الدولة: شاعرك هذا مغرور.. شاعرك هذا وقح.. شاعرك هذا معدوم الموهبة.

ثم.....................

شاعرك أهان أختك وهى ميتة..

كانت هذه هى نقطة افتراق الطرق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يجرب المتنبى الفصل الثانى من حياته فى مصر..

فلو كان هذا فيلمًا سينمائيًّا لكان أقسى الفصول وأقلها أحداثًا..

إنه فى مصر مع حاكم لا يحبه ولا يفهمه.. وفى جو لم يعتده..

أدركت (عبير) أن إقامة المتنبى فى مصر لن تطول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- كافور..

نهض المتنبى على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من دوار..

الويل لهم.. سوف يرون..

هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحًا بسيفه، وكان له من اسمه نصيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يحب (كافور) المتنبى قط، لكنه لم يعلن هذا..

من السهل أن تجده يبتسم له، لكنه لا يعطيه كل كيانه، ويكتفى بأن يمنحه مكافأة بسيطة ولا يعيره أذنه.. وبالطبع كان يعاملها بجفاء مماثل باعتبارها تنتمى للمتنبى بشكل ما..

كان المتنبى واضحًا.. هو لا يريد مالًا.. يريد ولاية.. يريد أن يصير حاكمًا، وأن يعرف سيف الدولة هذا.. لكن (كافور) أذكى من ذلك.. لقد فهم معدن المتنبى بنظرة واحدة، وقرر ألا يسمح له بشىء..

نحن الآن فى مجلس كافور.. هذا هو شاعر من شعراء مصر ينشد فى حضرة كافور..

المتنبى لا يحسن المجاملة ولا يخفى مشاعره.. هو يرى أن كل هؤلاء حمقى لا يفقهون شيئًا فى الشعر.. لهذا يجلس ولا يصغى.. بل يدمدم بفمه محدثًا جلبة تضايق الشاعر..

عندما انتهى الشاعر من قصيدته نظر بعينين ناريتين تقتلان إلى المتنبى وكذا فعل الجالسون.. لو أن النظرات نصال لمزقت عباءة الشاعر العراقى وعمامته.. وتعالت أصوات همسات مسموعة:

- « هذا لا يطاق.. »

- « المتنبى لا يملك موهبة تبرر كل هذه الوقاحة، وكل هذا الغرور.. »

أنشد المتنبى بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:

- « أرى المتشاعرين غروا بذمى

ومن ذا يحمد الداء العضالا؟

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرًا به الماء الزلالا.. »

سأله كافور بصوت عال:

- « ماذا تقول يا أبا الطيب؟ »

قال المتنبى بنفس اللهجة السابقة:

- « أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت

وإذا نطقتُ فإننى الجوزاءُ

وإذا خفيتُ على الغبى فعاذر

ألا ترانى مقلة عمياءُ.. »

هذا غير معقول..

فكرت (عبير).. المتنبى يريد الظفر بحب وثقة كافور، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يتنازل لحظة ويجامل من حوله.. لهذا يخلق الأعداء حيثما كان.. والأعداء يصبون سمومهم فى أذن حاكم مصر..

هكذا مرت الأيام.. عام كامل مر فى مصر..

المشكلة هنا تتلخص فى:

1- كافور لا يثق به، ولا يعطيه ما يريد..

2- هو فعلًا لا يقابل (كافور).. يتبعه لكنه لا يقابله..

3 - الحياة خاملة فعلًا.. لا شىء يحدث وهو اعتاد حياة المغامرات مع سيف الدولة. المشكلة فى مصر هى بُعدها عن الخطر.. فلا يتهددها الروم مثلًا كما فى الشام.. ربما يهددها الفاطميون لكنهم بعيدون جدًّا.. دعك من أن مصر بلد سهل الحكم، أهله أميل إلى قبول أى حاكم يحكمهم، وليسوا من هواة الثورات والفتن كالعراقيين.. هكذا صارت حياة خاملة جدًّا لا تناسب طبيعته المغامرة القلقة الوثابة..

4- الحمى التى أصيب بها والتى جعلت مزاجه غاية فى السوء..

تأملت نحول ذراعه والأوردة البارزة على جبينه، وقالت:

- « يبدو أن الأمر خطير.. أنت تفقد وزنك بسرعة فعلًا.. »

قال على الفور بيتًا قديمًا له كتبه وهو مراهق:

- « كفى بجسمى نحولًا أننى رجل

لولا مخاطبتى إياك لم ترنى.. »

- « يا نهار اسود!! »

قالتها فى ذعر وهى تضرب صدرها.. لولا أنه يتكلم لما رأته!.. معنى هذا أنه موشك على الانتهاء..

ذهبت (عبير) خارج القصر تبحث عن طبيب.. هداها الناس إلى بيت قريب عليه لافتة تقول (د. محمد بن أبى بكر بن الصاوى - نطاسى مختص بأمراض الصفراء والقيلة واعتلال المزاج - حاصل على شهادة جالينوس)..

دخلت إلى الطبيب وطلبت منه أن يأتى معها إلى القصر، حيث ضيف (كافور) مريض جدًّا..

حمل حقيبته ولحق بها متوقعًا أجرًا ممتازًا طبعًا..

على الأرض جلس د. (محمد) مع المتنبى، وقاس نبضه ثم فتح عينه وجسه..

قال بعد تدقيق:

- « لا أرى أنك مصاب بشى؟.. »

قال المتنبى وهو يجفف العرق على جبينه:

- « أيها النطاسى.. الحمى لا تظهر إلا ليلًا.. حمى وآلام عظام.. »

ثم أنشد أول شعر أعراض Symptomatology يعرفه الأدب العربى، وربما آخره كذلك، وهو دقيق جدًّا كالعادة:

- « وزائرتى كأن بها حياء

فليس تزور إلا فى الظلام

فرشت لها المطارف والحشايا

فعافتها ونامت فى عظامى

يضيق الجلد.. عن نفسى وعنها

فتوسعه بأنواع السقام

كأن الصبح يطردها فتجرى

مدامعها بأربعة سجام »

قال الطبيب مفكرًا، وهو يعتصر لحيته:

- « هم م.. حمى لا تأتى إلا ليلًا.. تشعر بالبرد وتغطى نفسك، لكنها لا تهدأ.. وتشعر بألم فى عظامك.. هممم!.. ثم تختفى مع طلوع الصباح.. »

هنا تدخلت (عبير) مقاطعة:

- « يقول لك يا دكتور إن مدامعها تجرى بأربعة سجام.. يبدو لى أن هذا الكلام خطير! »

- « ليست سوى صورة بلاغية جميلة.. الشاعر تخيل أن الحمى حبيبة رقيقة لا تريد فراقه، لذا تبكى بحرارة فيسيل دمعها من أربعة مجار.. لكل عين ركنان يسيل منهما الدمع.. كل ركن هو (سجم).. »

كان فى ورطة.. إن وصف المتنبى للمرض دقيق جدًّا، وحتى اليوم يرى أكثر الأطباء أنه يصف (البرداء) أو (الملاريا) وهى داء متوطن فى مصر وقتها، بينما يرى آخرون أنه يصف الحمى المالطية (البروسلا).. حمى ليلية مزمنة مع ألم فى العظام..

قال الطبيب (الأحمق طبعًا) للمتنبى:

- « لابد أنك أكلت شيئًا سبب هذه الحالة.. »

نظر المتنبى لعبير وتنهد، وقال:

- « يقول لى الطبيب أكلت شيئًا

وداؤك فى شرابك والطعام

وما فى طبه أنى جواد

أضرّ بجسمه طول الجمام »

يقصد أن حالته نفسية.. قلة الحركة ورتابة الحياة هى سبب مرضه.. بالطبع لا يؤمن الأطباء بهذا..

على كل حال أخرج الطبيب أخلاطًا عجيبة من حقيبته وأوصى المتنبى بشربها.. هذه الأخلاط تصلح لكل شىء من المغص حتى التهاب الزائدة وحتى حصوة المثانة وسرطان البروستاتا..

عندما غادر المكان أمسك المتنبى بالزجاجات كلها وسكبها على الأرض..

- « يقول لى إننى أكلت شيئًا..!.. بالطبع أكلت أشياء.. هل يحسبنى مضربًا عن الطعام؟.. إن حماقة هذا الرجل لا شك فيها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن فى أول ذى الحجة، وعلامات اقتراب عيد الأضحى فى كل مكان.. أبسطها ثغاء الخراف فى الشوارع..

فوجئت بالمتنبى يجمع حاجياته وأشياءه فى ذات الصناديق التى جاء بها من عند سيف الدولة..

- « ماذا هنالك؟ »

قال دون أن ينظر لها:

- « سأعود إلى الشام طبعًا.. سئمت مصر، وهذا الأحمق الذى لا يعرف مكانتى.. »

ثم سألها بشكل عارض:

- « هل تأتين معى؟ »

- « مهمتى ألا أفارقك.. »

- « إذن اجمعى المتاع إلى أن أقابل (كافور).. »

هكذا ظلت وحدها فى جناحه تجمع حاجياته.. كل العطايا التى نالها من شعره..

لقد أحسن استخدام شعره فعلًا.. إنه يفتقر للمثالية الأخلاقية لكنه شاعر عظيم.. لا أحد ينكر هذا.. وتذكرت كلمة (أفلاطون) القديمة عن أن العباقرة غالبًا ما يكونون واهنين أخلاقيًّا.. أنانيين وربما كانوا أشرارًا كذلك..

هذا الطيلسان.. هذه العباءة.. تلك العمامة.. هذا الخنجر اليمنى المذهب..

لكنه لم يعد بالشىء الوحيد الذى أراده فعلًا: الولاية.. أن يحكم.. أن يأتى له الشعراء فى مجلسه

ليلقوا الشعر وهو يلقى لهم الدنانير، والأهم أن يعرف سيف الدولة بهذا.. الآن لن يعرف سيف الدولة سوى أن المتنبى لم ينل أى شيء عند كافور وعاد يجر أذيال الخيبة..

لم تر المقابلة ولم تحضرها.. لكنها عرفت أخبارها ممن شهدوها.. وعرفت أنها كانت كارثية..

لقد كان رفض كافور لرحيل المتنبى قاطعًا..

كافور الأستاذ ذكى وحكيم، لكنه يحتفظ بغرور الحكام الشرقيين: لا أحد يتركنى إذا أراد.. أنا أطرد الناس لكن لا يفارقنى أحد.. هكذا سوف يبقى المتنبى عندى، أراد أو لم يرد.. سيبقى حتى أطرده أنا.. لن يقال إنه ترك مصر و(كافور)؛ لأنه لم يلق تكريمًا هناك..

كان كلام المتنبى حادًّا، ولابد أن لسانه انزلق مرارًا..

فى النهاية اقتحم جناحه حيث كانت عبير ما زالت ترتب حاجياته، فركل الصندوق الذى أغلقته ليتناثر ما فيه، وهتف مغضبًا:

- « الوغد لا يسمح لى بالرحيل!.. أنا سجين هنا! »

- « إذن هو متمسك بك! »

- « بل الغرض هو إذلالى.. لكن لا أحد يقدر على إذلال المتنبى أبدًا.. »

كادت تقول شيئًا، لكنه أمسك بمعصمها بقسوة، ورأت الغضب عارمًا فى عينيه.. ثم استجمع أنفاسه فقال:

- « سوف أهرب من كافور.. سأهرب من مصر كلها! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- هروب عند الفجر..

صاح صائح:

- « اتركوا ابنه (محسد)! »

لكن صائحًا آخر قال:

- « بل يموت معه! »

وسرعان ما سقط (محسد)، ورأت (عبير) (فاتك) يصرخ صرخة عظيمة ويندفع نحوها ملوحًا بسيفه.. أغمضت عينيها وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعالي صوت التكبيرات يوم عيد الأضحى..

« الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. ولا نعبد إلا إياه..

« الله أكبر كبيرًا.. والحمد لله كثيرًا..

« وسبحان الله بكرة وأصيلًا.. »

جو الفجر الأزرق النقى البارد الندى...

من الغريب أن هذا الجو يقترن برائحة الخراف وثغائها من بعيد فى جو فريد لا يعرفه إلا عيد الأضحى..

قال لها (المتنبى) وقد غطى نصف وجهه بلثام، وجمع أهم أشيائه فى صندوق:

- « يمكنك القيام بدورك.. »

اتجهت (عبير) إلى خارج الجناح حيث كان ثلاثة الحراس واقفين وقد أوشك النعاس على أن يغلبهم تمامًا.. أخرجت جهاز التسجيل وقالت بطريقة مرحة عملية جدًّا:

- « معذرة.. أريد أن أسألكم عن بعض الأشياء.. كيف يحتفل أهل مصر فى عصركم بعيد الأضحى؟.. هذه نقاط مهمة للتحقيق الصحفى.. فى عصرى كنا نغنى (العيد فرحة).. ويبتاع الأطفال البالونات ويخرجون إلى الحدائق العامة.. ربما يذهبون إلى حديقة الحيوان ليضايقوا الأسود، ويسمموا فرس النهر، ويدفعوا القردة إلى الانتحار.. لكن ماذا عنكم أنتم؟ »

ثم هتفت - وقد تذكرت -:

- « هل هناك حراس فى الخارج؟.. هاتوهم من فضلكم.. أريد سماع رأى الجميع.. »

هكذا لحق بها ثلاثة آخرون...

تطوع حارس بدين بأن يشرح لها ما يقومون به.. إنهم يتسلون بتبادل الصفعات والركلات.. هذا

أجمل شيء.. متعة حقيقية.. كان يحكي هذا بينما انهمك الآخرون فى تأمل سحرها وجمالها..

يمكنها أن ترى بعين الخيال المتنبى وهو يفتح الشرفة، ثم يثب منها - وهو ارتفاع بسيط - إلى الأرض، ثم يتسلل ليتسلق نطاق الأشجار والسور إلى حيث ينتظره جوادان سريعان...

هى مشاركة فى عملية الهرب، ولو عرف كافور لفتك بها لكنها كانت تعرف أنها ستلحق بالشاعر العراقى العبقرى المتمرد.. لن تبقى هنا...

» لا إله إلا الله..

« ولا نعبد إلا إياه.. »

انتهت من تسجيل الحوار والتقاط بعض الصور، ثم شكرتهم بحرارة..

- « لا تنسوا قراءة هذا الحوار بعد ألف سنة من الآن.. »

قال الحارس البدين:

- « هذا رائع!.. سوف أبتاع عشرة أعداد من هذه الجريدة.. سوف تسعد حماتى كثيرًا عندما ترى صورتى.. »

ثنت (عبير) ركبتيها فى رشاقة ثم اتجهت إلى الخارج.. طبعًا هى غير سجينة، ومن حقها أن تخرج وتعود متى أرادت..

هكذا غادرت القصر.. دارت بسرعة حوله، عندها سمعت حوافر الخيول..

رأت المتنبى قادمًا على صهوة جواده، وقد جر الحصان الثانى من خلفه، فدعاها للركوب بسرعة.. لا وقت للانتظار..

وثبت على ظهر الحصان وضربته بكعبيها ليركض، وانطلقت تلحق بالشاعر الكبير.. فى ذات اللحظة سمعت من يصرخ من داخل القصر:

- « **المتنبى هرب!!** »

لكنها لم تسمع الباقى لأن الحصانين كانا يركضان الآن بأقصى سرعة..

بينما يدوى الصوت من كل المساجد تقريبًا:

- « **الصلاة جامعة!.. صلاة عيد الاضحى أثابكم الله!** »

لابد أن الفرار من الفسطاط استغرق ساعتين، لأن الشمس كانت قد علت وسخنت الموجودات، وهناك فى الصحراء يجلس المتنبى على الرمال جوارها بينما الجوادان يلتقطان الأنفاس اللاهثة وقد أغرقها العرق..

كان يهمس بأشياء وعيناه مغمضتان فأدركت أن شيطان الشعر يزوره الآن..

فضلت الصمت لأنه يصير عصبيًا جدًا فى لحظات كهذه..

لما انتهى قال لها وهو يجفف عرقه:

- « لقد انتهى الأمر.. خلدت (كافور) للأبد!.. هذه الأبيات سوف يذكرها الناس طويلًا جدًّا.. اسمعى:

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيدًا دونها بيد »

قالت ضاحكة:

- « هذا مقطع شهير جدًّا.. فعلًا هو من أخلد الشعر.. لكن أين كافور فى الموضوع؟»

كور أنامله على شكل قمع بمعنى (انتظرى)، وواصل الإنشاد:

- « إنى نزلت بكذابين ضيفهم

عن القرى وعن الترحال محدود

ما يقبض الموت نفسًا من نفوسهم

إلا وفى يده من نتنها عود »

قالت فى شىء من الحرج:

- « هأنتذا قد بدأت فى قلة الأدب! »

لكنه لم يعلق وواصل الهجاء:

- « أكلما اغتال عبد السوء سيده

أو خانه.. فلة فى مصر تمهيد؟

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمن وما تفنى العناقيد »

قالت مقاطعة:

- « هذا خطأ.. كافور لم يقتل سيده.. »

على كل حال هذا بيت شعر شهير جدًّا ويصلح لكل عصر.. النواطير: جمع ناطور، وهو حافظ الزرع. غفل الملوك عن مصر وأهملوها فتمكن منها العبيد والأرذال، فجمعوا الأموال وأتخموا من كثرتها.. مسكينة مصر التى تسرق بلا توقف منذ عصر المتنبى حتى عصر (بقرة حاحا) قصيدة (نجم) الشهيرة..

ويواصل المتنبى قصيدته العنيفة فائقة الشهرة:

- « لا تشتر العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن

يسىء بى فيه عبد وهو محمود

وأن ذا الأسود المثقوب مشفره

تطيعة ذى العضاريط الرعاديد.. »

الأسود المثقوب مشفره هو كافور طبعًا، الذى ثقبت شفته السفلى كدأب الزنوج، والعضاريط جمع عضروط، وهو الخادم الذى يعمل من أجل طعام بطنه..

هكذا أطلق المتنبى كل صديد نفسه وكل ما ادخره من حقد على كافور ليفجره فى لحظات.. بدا هذا الشعر ل. (عبير) قاسيًّا جدًّا على كافور وعلى مصر كلها.. فيه نزعة عنصرية لا شك فيها واحتقار للون الأسود شديد.. كافور بالنسبة له مجرد عبد أسود يجب أن يعاقب ويضرب بالعصا.. لاحظ أننا لم نذكر الأبيات البذيئة فى القصيدة..

الحق أن شعورها نحو المتنبى متناقض..

انبهار بموهبته..

دهشة من غروره..

ذعر من طموحه..

خوف من أنانيته وقلة أدبه أحيانًا..

عدم فهم لما يريده بالضبط...

لقد انتهت الحقبة المصرية من حياة المتنبى، وحان الوقت ليبدأ فصل جديد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الشام من جديد..

نظر المتنبى فى غيظ للغلام.. لو كان الوقت مناسبًا لجلده، لكن لا وقت لهذا.. لذا تقدم بالحصان ليواجه الجمع..

الحق أنه كان شجاعًا لا شك فى هذا.. وكان فارسًا.. إنه التناقضات فى ثياب إنسان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكف المتنبى طيلة الرحلة إلى الشرق - ثلاثة أشهر - عن نظم أشعار تسب (كافور) حتى شعرت (عبير) أن الأخير يوشك أن يتحول إلى بخار نووى..

يقول لها عن (كافور):

- « يستخشن الخزّ حين يلبسه

وكان يبرى بظفره القلم »

يقول إن الرجل صار يجد الثياب الناعمة خشنة على بشرته، برغم أنه حينما كان عبدًا كانت أظفاره غليظة لدرجة أنها تبرى القلم.. عبير شهدت مشاجرات كثيرة فى الحارة شبيهة بهذا، من طراز (كنتم تحسبون اللحم دهانًا للرأس) أو (فليرحم الله ماضيكم يا من كنتم لا تعرفون الكشرى عندما ترونه).. فقط يقولها المتنبى ببلاغة وجمال..

كان هذا طريفًا.. أن تهرب من مصر وأن تترصدك الأخطار فى كل صوب، وأن يتهددك فى كل لحظة خطر أن يقبض عليك الحراس وتُساق إلى كافور من جديد، وبرغم هذا أنت لا تكف عن نظم الأشعار:

- « لِتَعلَمَ مصر وَمَن بِالعِراقِ

وَمَن بالعواصم أنّى الفتى

وَأنّى وفَيتُ وأنى أَبَيتُ

وَأنّى عتوت على مَن عَتا

ومَاذا بمصر من المضحكات

وَلكنَّه ضحك كالبُكا »

هتفت عبير فى مرح كأنها اكتشفت شيئًا جديدًا:

- « هذا البيت الأخير: وماذا بمصر من المضحكات.. شهير جدًّا.. ومن الغريب أنه ما زال صالحًا. لو تقاضيت قرشًا عن حق الأداء العلنى لكل مرة يستخدم فيها لصرت مليونيرًا.. »

لكن المتنبى لم يكن يصغى.. كان يواصل السباب المقفى الموزون:

- « وَأَسودُ مشفره نِصفُهُ

يُقالُ له أنتَ بَدرُ الدُّجى

من جديد لا يكف عن العنصرية.. شفة كافور السفلى ضخمة تبلغ نصف حجمه، وبرغم هذا ينافقه الشعراء قائلين إنه بدر الظلام..

قالت (عبير) فى غيظ:

- « لاحظ أنك مدحته كثيرًا جدًّا.. لا تقل لى إنك لم تكن ترى مشفره هذا وإنك اكتشفته فجأة.. »

قال على الفور:

- « وشعر مَدَحتُ بِهِ الكَركَدَنَّ

بَينَ القريض وبين الرُّقى

فما كان ذَلِكَ مَدحًا لَهُ

ولكِنَّه كان هَجو الوَرى »

أولًا: كافور هو الكركدن.. أى هو خرتيت آدمى.. ثانيًا: شعر المدح لم يكن مدحًا، بل كان نوعًا من الرقى ضد جنون الرجل.. لم يكن مدحًا لكافور لكنه شتيمة للناس الذين اضطروا المتنبى لمدح أمثال كافور.. أى إن كل بيت شعر مدح به (كافور) هو فى الحقيقة لوم للمجتمع.. إن الشاعر لن يعترف أبدًا بأنه أخطأ، ولن يغلبه فى الكلام أحد لأنه جاهز بالمنطق الملتوى فى أية لحظة..

قالت له متعمدة إغاظته:

- « هناك بيت من الشعر لك يقول:

» وإذا ما خلا الجبان بأرض

» طلب الطعن وحده والنزالا..

» ألا ترى أنك تمارس بالضبط ما وصفته فى هذا البيت؟ أنت تحارب حربًا ليس فيها خصم سواك، وهأنتذا تطعن وتبارز وتكر وتفر.. »

قلص وجهه فى استسخاف، وقال:

- « ظريفة وذكية كذلك؟.. ما شاء الله! »

الحقيقة كما قال طه حسين: المتنبى فى قصته مع كافور كلها صغير حقًّا.. صغير حين مدح، وصغير حين هجا، وصغير حين رضى، وصغير حين غضب، ولكن صغره هذا لا يمنعه من أن يهجو فيجيد، ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد..

هما الآن يدنوان من الشام.. لقد فر المتنبى من مصر ولن يعود لها أبدًا..

ربما فكر فى الاتجاه غربًا ليعيش عند الفاطميين فى المغرب، لكن هذا يعقد الأمور أكثر لأنه يبعده عن أحلامه بالعراق والشام.. فى كل مرة سيكون عليه أن يمر على كافور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مِن أيَّةِ الطرق يَأتى نحوك الكَرَمُ؟

أينَ المحاجم يا كافورُ وَالجَلَمُ؟

ساداتُ كل أناس من نفوسهم

وَسادَةُ المسلمين الأعبُدُ القَزَمُ

أغايَةُ الدين أن تُحفوا شَوارِبَكُم

يا أُمَّةٌ ضحكت من جهلها الأُمَمُ؟

ما أقدَرَ الله أن يُخزى خليقته

وَلا يُصَدق قَومًا فى الذى زَعَموا

إهانات.. إهانات.. لا تنتهى.

على كافور أن يأتى بالمحاجم والمقصات (الجلم) وهى عدة الحلاقين فى ذلك العصر، ليمارس عمله الطبيعى الذى خلق له: الحلاقة..

بل إن هذه الإهانات تتجاوز كافور الإخشيدى إلى أهل مصر أنفسهم.. سخرية من عادتهم فى حفّ الشوارب معتبرين هذا جزءًا مهما من التدين.. إنهم ارتضوا أن يكون سيدهم قزمًا عبدًا.. وكافور يجلب الوبال على الإسلام لأن الملحدين يقولون: هذا هو المسلم الذى يريدون أن نكون مثله.. إذن كافور يجب أن يُقتل، فإن لم يُقتل فالله قادر على أن يزيله من الوجود، فتزول ادعاءات القوم..

على كل حال نتذكر هنا قول طه حسين: « ما ينبغي أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونا، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح، وهجوا فأجادوا الهجاء ».

الحق إن (كافور) نال الخلود فعلًا، ولكن على طريقة المتنبى..

على من يغلظ فى معاملة المتنبى بعد اليوم أن يعمل له ألف حساب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع المتنبى سافرت (عبير) إلى الكوفة..

الطريق كان مزينًا بزينة من نوع خاص.. حرائق.. بيوت مهدمة.. جثث مقطوعة الرأس.. جثث مصلوبة.. رءوس مقطوعة، لا يبدو أنها تخص تلك الأجسام..

- « القرامطة.. نحن فى ذروة عصر فتنة القرامطة.. »

قالها كأنه يلقى معلومة عابرة.. لا تعرف تفاصيل فتنة القرامطة، لكنها الآن تعرف ما يكفى: هم يتركون وراءهم آثار أقدام على شكل جثث.. الحق إن الدولة المركزية مهمة جدًّا فى العالم الإسلامى، ومن دونها يفسد كل شىء وتتآكل الأطراف فالقلب.. أشياء كهذه ما كانت لتحدث فى

زمن قوة العصر العباسى أو الأموى..

لكن هذا الطموح المجنون القلق لدى الشاعر لا يستقر فى موضع واحد..

هكذا انطلق إلى بغداد..

قالت له فى شىء من السخرية، وهما يدخلان المدينة الكبيرة.. عاصمة العالم الثقافية وقتها:

- « ملك جديد.. وقصائد مدح جديدة.. وإحباط، ثم قصائد هجاء بذيئة.. إن حياتك تمشى على وتيرة واحدة.. »

التقط بعض البرتقال من بائع عجوز فناولها واحدة وبدأ يقشر أخرى لنفسه، وقال:

- « بالعكس.. الحاكم هنا هو (المهلبى).. إنه من البويهيين.. هؤلاء هم خصوم (سيف الدولة) المعتادون.. لو امتدحتهم لكانت كارثة.. »

تذكر التقسيم الذى ذكرناه: الحمدانيون فى الشام.. البويهيون فى بغداد.. الإخشيديون فى مصر..

ثم ناول البائع نقوده، وأردف:

- « ما زلت أفكر فى (سيف الدولة)، وأشعر أننى سأعود له يومًا.. معنى مدح (المهلبى) أن أقطع جسورى نهائيًّا.. »

- « إذن لماذا تزوره؟ »

- « لأنه لابد من ملك أو حاكم أكون فى كنفه.. أنا بحاجة للطعام لو لاحظت هذا.. »

وقذف باقى البرتقالة لفمه ليريها معنى كلماته..

كان جو قصر (المهلبى) كارثة حقيقية.. لهذا ارتبط اسم (المهلبى) فى ذهنها بأسماء الأشرار فى الأفلام العربية..

راحت (عبير) تبحث حولها عن مفتش الرقابة على المصنفات الفنية فلم تجد..

هذا الجو من الخلاعة والمجون لم تره من قبل إلا فى الأفلام الدينية التى تصور حياة الجاهلية، وعندما زارت الأبيقوريين فى رحلتها مع الفلسفة..

راقصات خليعات فى كل مكان، والخمر تسيل أنهارًا.. ضحكات ماجنة.. فجور.. تجديف..

هنا كل شىء مما يودى بالمرء إلى جهنم.. ثم إنه جو لا يناسب أنثى على الإطلاق.. أعنى أنثى غير مغنية ولا راقصة..

الغريب أنه جو لم يناسب المتنبى كذلك..

من جديد وللمرة الألف تكتشف أن هؤلاء الطموحين لا يميلون للهو بتاتًا.. كأنهم رصاصة انطلقت نحو هدفها لا تحيد..

المتنبى يريد السلطة والنفوذ والصيت، فلا وقت لديه يضيعه مع هؤلاء السكارى الذين ذهبت الخمر بوعيهم ولم يعودوا يعون قولًا..

كان يمقت الخمر بجنون؛ لأنها تذهب بالعقل وتلوى اللسان، وهو لا يواجه الدنيا إلا بسلاح واحد هو عقله ولسانه.. لقد جلب له الساقى كأسًا فسكبها على الفور، وقال:

إذا ما الكأس أرعشت اليدين

صحوت.. فلم تحل بينى وبينى

وهو تعبير ذكى.. الخمر تحول بين المرء وبينه..

هكذا كان يدخل مجلس (المهلبى)، و(عبير) تركض فى أثره كدجاجة مذعورة..

يجلس فيرحب به الحاكم..

يصمت..

لا يقول حرفًا مهما قالوا أمامه ومهما تحدوه فى الشعر.. فقط يبتسم ابتسامة صفراء ويظل صامتًا يراقب كل هذا فى شىء من التعالى...

فقط قال ذات مرة بيت الشعرالذى يعتبر دستور البرود:

وأتْعَبُ مَن ناداك من لا تُجيبه

وأغيظُ مَن عاداك مَن لا تُشاكل

إذا أردت أن تتعب خصمك فلا تشاكله، وإذا أردت أن تتعب من يناديك فلا تجبه.. هكذا تجعله يغلى ويلتهم أذنه لو استطاع بلوغها..

لابد أن الوصول لهذه الفلسفة أتعبه حقًّا وهو العصبى طويل اللسان، لكنه كان عبقريًّا فى العثور على طرق الاستفزاز لخصومه.. فيما مضى كان يرد بعبارات موجعة، واليوم يصمت..

طال بقاؤه سبعة أشهر فى بغداد..

وفى النهاية رأت (عبير) المشهد المعتاد: المتنبى يجمع حاجياته فى صناديق.. يأمر خدمه بإعداد الخيول.. لقد صار هذا مملًّا..

الرجل يطارد حلمًا.. وهذا الحلم يجرى بسرعة لا توصف، من الكوفة إلى مصر إلى بغداد إلى.....

لقد انتهى الجزء الخاص ببغداد من حياته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- ما أنصف القوم ضبة..

هنا بدا الطريق مسدودًا..

لقد كان هناك مجموعة من الفرسان - نحو الخمسين – يسدون الطريق.. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم.. بعضهم على سرج جواده، وبعضهم يجلس على الأرض يلمع نصل سيفه، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى لا تتخشب..

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتحل المتنبى إلى شيراز ليكون مع (عضد الدولة ابن بويه الديلمى)..

الحقيقة أن اختياره لشيراز لغز، فهو لم يكن يميل للفرس بحال. ربما كان السبب هو إظهار ضيقه من العرب الذين لم يظفر منهم بما أراد.. وربما لأنه أراد أن يصل إلى بغداد..

هناك كتب المتنبى عن (ضبة بن يزيد) - وهو من القرامطة - أبياتًا من الشعر فى غاية البذاءة، مطلعها:

مَا أنْصَفَ القوم ضبّه

وَأُمَهُ الطُّرْطُبَّه

وَإنّمَا قُلْتُ ما قُلْت

رحمة لا مَحَبَه

رَمَوا برأس أَبيه

وَبَاكَوا الأُمَّ غُلبَه

معذرة!.. لا أجرؤ على الشرح، كما لا يمكننى استكمال أبيات القصيدة.. فقط لنعرف أنه يسخر من الأم والأب سخرية فاحشة فعلًا..

فى زمن يفهم فيه كل الناس الشعر، وفى زمن تنتقل فيه أبيات الشعر مع القوافل كأنها الموجات الفضائية، وفى زمن لا شرطة فيه.. يجب على المرء أن يحذر فيما يقول، وهو ما لم يفعله المتنبى..

(ضبة) من القرامطة وهم قوم شديدو الخطر.. كما يقولون فى أفلام المافيا:

Nobody messes with the mob أى (لا أحد يعبث مع المافيا)، فإن العبث مع القرامطة لعبة خطرة جدًّا..

(فاتك بن أبى جهل الأسدى).. هل سمعت هذا الاسم؟.. مخيف.. أليس كذلك؟ هل يمكنك أن تتخيل صاحبه؟.. جميل جدًّا..

(فاتك) كان يشرب الخمر عندما جاءه بعض الرجال الممتقعين فى الحانة، ودنا منه أحدهم ليهمس فى أذنه:

- « المتنبى.. »

- « ماله؟ »

- « قال شعرًا فى ابن أختك.. وفى.. فى أختك كذلك.. »

صاح بصوت كالرعد:

- « قله! »

- « لا أستطيع.. »

بيده الغليظة اعتصر (فاتك) عنقه وأخرج خنجرًا بحجم السيف، وسيفًا بحجم الصاروخ العابر للقارات ووضعه على أوردته.. سوف يذبحه ذبحًا إن لم يقل ما يعرف..

قال الرجل وهو يوشك على البكاء:

- « مَا أنْصَفَ القَوْمُ ضبّهْ

وأُمّهُ الطُّرْطُبَّه.. »

صرخ (فاتك) صرخة ارتجت لها جدران الحانة، وهتف:

- « طُرطُبّة؟.. أختى أنا طُرطُبّة؟ »

- « ما بقى أسوأ.. »

وأنشد بقية الأبيات.. هنا كان (فاتك) قد قرر أن يبدأ ليلته بالذبح، ويبدأ ضحاياه بهذا المسكين الواقع فى قبضته، لكن الرجال أقنعوه أن يهدأ.. ما على الرسول إلا البلاغ..

نهض (فاتك) ومسح فمه بظهر يده، وهتف:

- « نعم.. المتنبى!.. أريد هذا الوغد!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (عبير) مع المتنبى فى أصفهان فى ضيافة (أبو العباس الصاحب بن عباد).. لقد ذهب المتنبى هناك مع ابنه الوحيد (محسد) وغلامه (مفلح).. (مفلح) الخادم المثقف الذى يرفض أن يعامل كخادم، وهو يحفظ من الشعر أضعاف ما يحفظ (المتنبى) و(أبو العلاء) و(أبو تمام) معًا..

كان مطلب (العباس) بسيطًا وغريبًا فى الوقت ذاته:

- « امدحنى! »

نعم.. قواعد اللعبة معروفة، لكنها لا تلعب بهذه البساطة ولا أحد يكشف أوراقه بهذه الطريقة، وإلا فسد الأمر كله وبدا عبثيًا..

لكن المتنبى بدا ميالًا للتسلية، لذا مال على المنضدة سائلًا:

- « كم؟ »

- « سأجزل لك العطاء.. نصف ثروتى.. »

لابد أن هذا أعلى سعر فى التاريخ عرض على شاعر لأجل قصيدة مدح، لكن المتنبي كان زاهدًا فى هذا كله، ليس لأنه يمقت المال، بل لأنه يرغب بشدة فى شىء آخر: السلطة..

فيما بعد سألته عبير عن سبب هذا التمنُّع، فقال:

- « لو كنت جائعة ظامئة فى الصحراء، ووجدت كيسًا مليئًا بالدنانير فماذا تفعلين؟.. تتركينها طبعًا.. لا جدوى منها.. »

لكن هذا الرفض المتكرر لقول الشعر أورث (أبو العباس) حقدًا شديدًا على المتنبى..

وفى النهاية ودع المتنبى الرجل عازمًا على العودة إلى بغداد، فكان الفراق باردًا فعلًا...

وداعًا شيراز..

أنت كغيرك من البلدان لم تمنحى المتنبى شيئًا ولن يفتقدك أبدًا..

وعلى باب المدينة قال واحدًا من أروع أبياته الشعرية وأقواها:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى

فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام

تكسرت النصال على النصال

السهام ملأت قلبه حتى لم يعد هناك مكان عليه يمكن أن يمر منه سهم جديد، وهو ما يعنى كذلك أن كثرة المعاناة علمته الصبر فلم يعد من شىء قادرًا على إضافة جرح جديد له.. طه حسين يجد هذين البيتين سخيفين، على كل حال ليس فيهما جديد...

هكذا يرحل - المتنبى لا طه حسين - ومعه (عبير) وابنه وغلامه.. لم يتوقع أن ما خلّفه وراءه من أحقاد يمكن أن يتحالف ضده..

فى هذا الوقت تم الاتصال سرًا بين (أبو العباس) وخصم لدود للمتنبى.. إن الرجل فى الطريق قربكم.. لو لم تغتنموا الفرصة فقد لا تعود أبدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوجئ صديق المتنبى فى (واسط) (أبو نصر بن محمد الجبلى) بزيارة من رجل مرعب ضخم الجثة..

قال له مقدمًا بطاقته:

- « أنا (فاتك الأسدى).. »

- « تشرفنا.. »

نظر (فاتك) حوله بعين وقحة فضولية، ثم سأل (أبو نصر):

- « هل تعرف أين يوجد هذا الشاعر..الذى يدعى.. يدعى أعتقد أن اسمه (المتنبى)؟ »

- « لم تريده؟ »

- « كل خير.. له معى مال أرجو أن أوصله له.. »

فكر (أبو نصر) قليلًا ولم يستطع أن يبتلع الرجل.. ليست هذه نظرات رجل أمين يريد إعادة مال لصاحبه، بل هى نظرات سفاح.. هكذا قال بعد تفكير:

- « فى الحقيقة.. لم أره منذ عام.. »

نظر له (فاتك) بعينين تثقبان الحجر كأنما يتأكد من صدقه، ثم تهيأ للرحيل مع رجاله المرعبين مثله، هنا سأله (أبو نصر) كأنما خطرت له فكرة ما:

- « هل أنت من القرامطة؟ »

- « نعم.. »

الاسم المرعب يتردد من جديد.. القرامطة بتنظيمهم السرى الشبيه بالمافيا، وذبحهم للحجاج وقطع الطرق.. لكن السؤال الأهم هو:

- « هل أنت قريب (ضبة بن يزيد)؟ »

قال (فاتك) فى بساطة:

- « أنا خاله!.. هيا بنا يا رجال.. »

وابتعد القوم والأرض ترتج ارتجاجًا تحت أقدامهم الغليظة..

صوت سيوفهم تقعقع فى قرابها.. يجب أن يعرف المتنبى بأمر هذه الزيارة.. يجب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المتنبى الآن فى بداية الرحلة، عندما ظهر فارس على جواد يركض مسرعًا.. لما دنا أكثر عرف المتنبى فيه صديقًا له..

ترجل الفارس لاهثًا وراح يجفف عرقه، فقال المتنبى يقدمه لعبير:

- « (عبير عبد الرحمن) صحفية.. (أبو نصر بن محمد الجبلى).. صديقى.. »

قال الفارس فى ضجر من لا وقت عنده لهذا الهراء، ودون أن ينظر لها:

- « تشرفنا.. »

ثم استدار للمتنبى، وصاح فى ذعر:

- « هذه الفلاة خطرة.. أعداؤك كثيرون.. (فاتك الأسدى) خال (ضبة) يبحث عنك، وهو

بالتأكيد لا يريد دعوتك على العشاء.. لقد رتبت أن يصحبك عشرون فارسًا فى رحلتك لحمايتك.. »

قال المتنبى فى خفة:

- « ولم لا ترسل مائتين؟.. يا صاحبى ليس الأمر بهذه الخطورة.. »

- « أعتقد أنه كذلك.. »

- « إن معى سيفى وابنى وخادمى.. هذا أكثر من كاف.. »

قال (أبو نصر):

- « ألم تقل فى شعرك:

» الرأى قبل شجاعة الشجعانِ

هو أول، وهى المحل الثانى؟ »

- « بلى.. »

هنا تدخل غلام المتنبى وهو - كما قلنا - فتى ثرثار مثقف جدًّا وكثير التدخل فيما لا يعنيه:

- « معنى هذا البيت أن العقل أهم من الشجاعة.. ويجب الأخذ به قبل كل شىء.. فلماذا لا تنفذ ما تؤمن به؟ »

قال المتنبى فى غيظ، وهو ينظر للخادم نظرة كارهة:

- « أحيانًا يقول الشعراء كلامًا لا يؤمنون به تمامًا.. أحيانًا ترغمهم شياطين الشعر أو يرغمهم تدفق الكلمات والقوافى على قول ما لا يريدون.. وهناك بيت آخر لى يقول:

يرى الجبناء أن العجز عقلٌ

وتلك خصائص الطبع اللئيم

وأنا لست جبانًا ولا أعتبر العجز عقلًا.. والآن أخرس... »

لكن (عبير) عرفت الإجابة.. إنه موعد مع قدره لا يريد أن يخلفه أو يؤخره..

همس الغلام لها:

- « تفكرين فيما أفكر فيه؟.. إنها دراما إغريقية! »

نظرت له فى دهشة لأنه قرأ أفكارها.. دراما إغريقية فعلًا.. كأن الرجل قرأ قصة حياته وقرر أن ينفذها حرفيًّا.. لا يريد أية أخطاء أو تأخير فى المواعيد..

وبالفعل ودع المتنبى صديقه شاكرًا، وانطلق مع رفاقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- أنياب الليث..

نحن الآن غرب بغداد.. منطقة (دير العاقول)..

العام هو 354 هـ..

هناك مدرعة أمريكية تحترق إلى جوار الطريق، وهو هذا الخلط المعتاد من فانتازيا، لكن (عبير) خطر لها أن هذا البلد لم ينعم بالهدوء قط فى حياته الطويلة.. وما أشعلة القرامطة فى ذلك العصر، أشعلته صواريخ (كروز) فى عصرنا هذا.. متى يكون العراق آمنًا وينعم بثروته ومستحقات تاريخه العريق العظيم؟

هنا بدا الطريق مسدودًا..

لقد كانت هناك مجموعة من الفرسان - نحو الخمسين – يسدون الطريق.. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم.. بعضهم على سرج جواده، وبعضهم يجلس على الأرض يلمع نصل سيفه، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى لا تتخشب..

هؤلاء جاءوا من أجلى..

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان..

الآن يراه بوضوح تام.. هذا الجسد الضخم واللحية المنتفشة والنظرات النارية.. إنه (فاتك بن أبى جهل الأسدى).. هو بعينه.. بقوته وشراسته.. والأسوأ أنه غاضب.. لكنه يكشر عن أنيابه فى شبه ابتسامة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا رأيت نيوب الليث بارزةٌ

فلا تظنن أن الليث يبتسم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (عبير) فى رعب وهى تعتصر رقبة جوادها:

- « ماذا نفعل؟ »

قال المتنبى دون أن يهتز:

- « تراجعى للوراء.. لا شأن لهم بك.. الأمر بيننا.. »

قال الخادم (مفلح) متفلسفًا:

- « لا شأن لنا بهذه القضية.. الخدم والنساء ينجون، بينما هم يريدون رأس سيدى المتنبى لا أكثر!.. سوف ينتهون بسرعة ونمر.. »

نظر المتنبى فى غيظ للغلام.. لو كان الوقت مناسبًا لجلده، لكن لا وقت لهذا.. لذا تقدم

بالحصان ليواجه الجمع..

الحق أنه كان شجاعًا لا شك فى هذا.. وكان فارسًا.. إنه التناقضات فى ثياب إنسان..

ولو أن الحياة تبقى لحيٍّ

لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ

فمن العجز أن تكون جبانًا

هذا حق.. لو كان الجبن يطيل العمر لكان الشجعان أبله البلهاء وأغبى الأغبياء..

عيناه على عينى (فاتك) الناريتين..

استدار (فاتك) لعبده (سراج) دون أن يبعد عينيه عن الشاعر الكبير، وأمره:

- « يا غلام.. الدرع.. »

ناوله (سراج) الدرع فلفّه على صدره - كأنه بحاجة لحماية - ووضع الخوذة.. ثم تقدم نحو المتنبى وهو يلوح بسيفه.. لما صار الرجلان على بعد مترين، قال (فاتك):

- « قبحًا لهذه اللحية يا سبّاب!.. ألست القائل (الخيل والليل والبيداء تعرفنى)؟ »

فى ثبات قال المتنبى دون أن يطرف بعينه:

- « أنا عند ذاك يابن اللخناء العفلاء.. »

لم تفهم (عبير) معنى هذا، لكنها قدرت أنها سبة مهينة أو بذيئة... بالفعل هى كذلك كما أن شرحها يحتاج إلى طبيب أمراض نساء ليعبر عن المعنى..

وعلى الفور انطلق المتنبى يعمل سيفه فى القوم..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله، ومن فوقه لوّح المتنبى بسيفه وصرخ صرخة هائلة.. هوى بسيفه على عنق أحد الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان..

وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة.. عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث، شعر بالأرض تميد تحت أقدام الحصان..

إن للخيول عادة ذميمة هى أنها تتعثر فى اللحظة غير المناسبة، وقد هوى حافر الحصان فى حفرة فى الأرض فأطلق صهيلًا، ثم تعثر ليسقط على قائمتيه الأماميتين..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار، وللحظة حسبت (عبير) أن رأسه طار كذلك، ثم أدركت أنها العمامة..

نهض المتنبى على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من دوار..

الويل لهم.. سوف يرون..

ثم أدرك على ما يبدو ضعف موقفه، فأطلق ساقيه للريح، وصاح فى جماعته:

- « **فلنهرب!** »

ووثب على جواد (عبير) لأنها أخفهم وزنًا فجوادها يتحمل ثقل اثنين..كانت عبير ترى هذا الرأى.. ألم يقل المتنبى ذاته:

» الرأى قبل شجاعة الشجعانِ

هو أول، وهى المحل الثانى؟ »

من الشجاعة أحيانًا أن تفر من الموت الأكيد..

لكن الغلام الفيلسوف (مفلح) قال للمتنبى:

- « كيف تهرب يا سيدى؟.. ألست القائل: الخيل والليل والبيداء تعرفنى.. والسيف والرمح والقرطاس والقلم؟.. معنى هروبك أن يموت هذا الشعر وألا تصير لكلماتك معنى.. هناك شاعر فرنسى سيعرفه العالم بعد قرون اسمه (رانبو).. اضطر أن يعمل نخاسًا للعبيد، وكان الحل الشريف الذى وجده هو أن يعتزل الشعر؛ لأنه هذا أفضل من أن يقول شيئًا ويفعل شيئًا.. لو هربت اليوم فمن الأفضل أن تهجر الشعر للأبد.. »

فيلسوف حقًّا.. والأهم أنه يعرف أى شعراء فى فرنسا سيولدون بعد قرون..

نظر له المتنبى طويلًا، وتمنى أن يحطم رأسه، ثم قال من بين أسنانه:

- « قتلتنى يا هذا!.. قاتلك الله!! »

واستدار ليواجه أعداءه...

هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحًا بسيفه، وكان له من اسمه نصيب..

هوى (فاتك) بسيفه على عنق المتنبى فأطاره.. سقط الشاعر الكبير على الأرض يتشحط فى دمه، فأحاط به الفرسان يغرسون فيه رماحهم...

صاح صائح:

- « اتركوا ابنه (محسد)! »

لكن صائحًا آخر قال:

- « بل يموت معه! »

وسرعان ما سقط (محسد)، ورأت (عبير) (فاتك) يصرخ صرخة عظيمة ويندفع نحوها ملوحًا بسيفه.. أغمضت عينها وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة..

لكن الرجل توقف فى منتصف المسافة، وأنزل سيفه وهتف وهو يدور حولها بحصانه:

- « لا.. (فاتك) لا يفتك بالنساء.. »

قال لها (مفلح) فى حماس:

- « هل رأيت؟.. النساء والخدم ينجون دائمًا!.. هذه مزية ألا يكون المرء مهمًّا.. »

لكن (فاتك) هوى على رأسه بسيفه، وهو يصيح:

- « لا.. النساء فقط.. أنا لا أستثنى الخدم! »

إنهم يمثلون بالجثة.. يحفرون حفرة كبيرة فى الأرض يلقون فيها الجثث التى احتشد عليها الذباب وراح يخرج من الأنوف الفم الذى ألقى روائع الشعر العربى مغلق للأبد.. لن يفتح ثانية..

يردمون التراب، ثم تمشى الخيول فوقه لتدكه أكثر.. وتنطلق الحوافر مبتعدة، وعبير تقف وحدها فى لا مكان.. لا تعرف أين تذهب.. لا تعرف ما تعتقده..

لكنه دائمًا يأتى فى لحظات كهذه..

هذا هو يخرج من وسط الغبار والنقع.. يمشى وسط الحر ويخترق سحاب الذباب..

المرشد..

- « لقد انتهت المغامرة يا (أليس)، ولاقى المتنبى نهايته فى سن الواحدة والخمسين.. يبدو أن علينا أن نرحل.. »

وقفت لحظات تنظر إلى القبر الذى لم تعد علامة تميزه سوى حوافر الخيول.. وقالت باكية:

- « لا أعرف إن كنت أبكى عليه كعبقرى مات بالسيف، أم أشمت فيه كشتام تلقى عقابه؟.. هل آخذ العبرة من نهايته باعتبارها جزاء الطموح الزائد، أم أرتجف لأن الرجل ظل يطارد حلمه حتى القبر فلم يفز به قط؟.. إنه مأساة إغريقية كاملة.. »

- « يمكنك أن تفعلى وتشعر بهذا كله.. الرجل خليط من كل شىء.. »

الطفل العبقرى المولع بالشعر..

الشاب الذى يدعى النبوة ويخدع الناس..

السجين المقهور..

صديق سيف الدولة المعجب بمليكه..

الصديق المطعون فى كرامته..

المنافق المتملق لكافور..

الهارب الغاضب على كافور..

صديق الفرس..

الشتام السبّاب..

الفارس المغوار..

كل هذا شخص واحد..

حقًا.. هناك أشخاص يأتون الدنيا فى صخب ويفارقونها فى ضوضاء.. (طه حسين) يرى أن المتنبى جاء العالم فى فترة مليئة بالاضطرابات والتناقضات، لذا كان الشخص الوحيد الذى

يمكن أن يتكيف مع هذا العالم هو شخص مليء بصراعات داخلية مماثلة..

فى زمننا هذا قد يقابل المرء فتاة شرسة فظة الكلمات خشنة الطباع، فيدرك أنها تتكيف مع عصر شرس فظ خشن..

باختصار: المتنبى كان ابن عصره فعلًا..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

تنظر (عبير) للقبر مرة أخيرة ثم تبتعد مع المرشد....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله

وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تقابل عبير نوعًا خاصًّا من الصيادين...

الصيادين الذين ضحوا بكل شىء كى يمنحونا الصحة والحياة..

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

55

الصيَّادون

د. أحمد خالد توفيق



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـــانتـــــــــازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتــــــازيـــا
العدد رقم (55)

الصـــــــيادون

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) هى شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء؟.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مغـــــــامرة جديدة..

المزية التي تحققها المغامرات التاريخية هي أنها تجعلها أكثر علما.. يصعب أن تنسى أيامها مع المتنبي؛ لأن هذه المغامرة صارت ذكريات حقيقية وليست مجرد سطور في كتاب. صار المتنبي رجلا حقيقيا له طول و عرض و ارتفاع و عواطف، وهو في هذا يختلف عن المتنبي الذي قرأت عنه مرارا في كتب الشعر العربي بالمدرسة وكانت تنسى كل شيء بعد ثلاث دقائق..

لقد رأته وهو يقاتل.. ورأته وهو يقتل.. ورأت الذباب يحوم حول جثته ويخرج من أنفه. كيف تنسي هذا كله؟

وقد فطنت إلى أنها منذ فترة تختار الألعاب التاريخية، وخطر لها أنها بحاجة إلى أن ترتاد عوالم الخيال قليلا. ربما عوالم الأدب أو المسرح أو حتى القصص المصورة.. لقد قرأت إحدى قصص (تان تان) التي يرسمها الفنان البلجيكي (ريمي هيرجي) وخطر لها أنه من الجميل أن تبحر مع تان تان والقبطان هادوك في رحلة بحرية إلى جزيرة غامضة، كما فكرت في أن تكون حبيبة الرجل العنكبوت، لكنها لفترة لا بأس بها تشبعت برابطة العدل الأمريكية JSA ولم تعد ترغب في مقابلة المزيد من هؤلاء المقنعين الذين يلبسون ثيابا من (الليكرا) ملتصقة بأجسادهم ويطيرون أغلب الوقت حتى لو لم يملكوا قوة الطيران..

كانت تفكر في هذا كله عندما عادت من عالم المتنبي، ولكن يبدو أن الجهاز لم يعطها فرصة التوقف.. لم تعد لعالم الواقع قط..

(شريف) أخبرها بأن هذا يحدث أحيانا.. هناك في البرنامج خاصية أمن تمنع تكرار هذا أكثر من ثلاث مرات، وإلا دخل البرنامج حلقة مفرغة وراح يكرر نفسه للأبد، ومعنى هذا غيبوبة لا تفيق منها كما حدث عندما دخلت عوالم فانتازيا أول مرة وكانت مع شيرلوك هولمز

الحق أنها هشة جدا في عالم الأحلام هذا..

إنها تلعب بالضبط في الحدود بين الموت والحياة بين الصحوة والغيبوبة.. لو حدث خطأ ما.......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المرشد معها لم يتركها منذ مات المتنبي.. إنهما غربى بغداد كما قلنا..

قال لها وهو يشق طريقه وسط الرمال ويساعدها كى لا تتعثر:

- هل قررتِ شيئا؟

قالت له وهي تحاول ألا تدوس هذه القطعة من الحديد المحترقة الملتوية أو تلك:

- كنت أفكر في مغامرات تان تان.. هل تذكره؟.. الصحفي البلجيكي بخصلة شعره الطائرة... ما رأيك؟

مط شفته السفلى، ثم أخرج الدليل الصغير الذي يشرح جوانب فانتازيا وراح يرسم خطوطا بالقلم ثم راح يفتش:

- حرف التاء.. حرف التاء... تختخ.. تونتو ترمينيتور.. تسلا.. تامر إبراهيم كاتب الرعب.. تان تان؟.

للأسف ليس هنا.. لابد أن هناك خطأ ما..

قالت في غيظ:

- هل تمزح؟.. كل العالم يعرف تان تان.. إنه رمز الثقافة الفرانكفونية هو والفيل (بابار).. كان الرئيس الفرنسي ديستان يعترف أنه يحقد عليه لأنه يفوقه شهرة وشعبية..

- ليس عندي.. على كل حال سوف أخطر الإدارة بهذا الخلل..

كان هذا أول خطأ من نوعه منذ عرفت فانتازيا.. وبما أن

فانتازيا هي عقلها الباطن بشكل أو بآخر، فإن عليها أن تقلق بصدد العمليات المريبة التي تدور هناك.. ثمة اضطراب لكن ما سببه ومتى بدأ؟

كان المرشد قد غادر منطقة الرمال الآن، وكانا يمشيان وسط مروج خضراء من الطراز المغسول البراق. هناك عشرات الدرجات من اللون الأخضر. هناك أكثر من بقرة تمضغ العشب في كسل.. هناك طاحونة وهناك أكواخ ذات سقف منحدر فوقها مداخن... ثمة غابة قريبة من أشجار البلوط وسناجب..

ما هذا المكان؟.. هذا ريف أوروبي بلا شك.. لكن هل هو عالم ديزنى؟.. هل هو عالم الأخوين جريم؟.. صعب أن ترتاد هذا العالم من جديد..

المرشد يمشي ببطء.. ببطء...

مدت يدها تمسك بيده كالأطفال.. تفعل هذا أحيانا عندما تفقد اتجاهها أو لا تعرف أين هي، هنا انتزعت يدها وقد أصيبت بالرعب:

- أنت ساخن جدا!!

استدار لها وابتلع ريقه:

- بالفعل أنا كذلك..

هناك شيء خطأ.. إن وجهه محمر كالطماطم.. لاحظت كذلك أن غدة عملاقة انتفخت عند منبت عنقه.. متى حدث هذا؟

سعل للحظة ثم أخرج منديله وبصق فيه.. لا يجب أن تنظر كى تدرك أن البلغم الذي لوث المنديل أزرق.. بلغم أزرق؟.. لم تسمع بهذا من قبل.

ثم إنه ركع على ركبتيه وراح يجفف عنقه من العرق الغزير، وفك ربطة عنقه.. وقال لها:

- أعتقد أنني أموت..

هذا جنون... المرشد هو فانتازيا والمرشد لن يموت إلا بموتها هي: عبير.. لأنه ليس له وجود مادى حقيقى.. لا يملك أجهزة حيوية ولا فسيولوجيا.. إنه مجرد رمز يمشي على قدمين..

قالت في حيرة:

- ما تقوله غير منطقي..

- لا يعنيني إن كان غير منطقي أم لا.. المهم أنه ساخن ويسبب الصداع وجفاف الحلق ومغصا شديدا.. إنني أريد أن... أن... أفرغ معدتى.......

تراجعت للخلف في ذعر. هذه المرة الأمر يدعو للتوجس..

لو مات المرشد فكيف تعرف أين هي؟.. كيف تدخل مغامرة جديدة، والأهم من ذلك كيف تخرج منها؟

لما انتهى من طقوس إفراغ معدته ارتمى على العشب ينظر للسماء ويئن..

لكم بدا هشا... لقد اعتادت أن يكون سمجا ثقيل الظل مفرط الثقة بالنفس.. الآن هو يبدو في أسوأ حال، لكنها شعرت أنها تميل له بهذه الصورة.. كيف يمرض المرشد؟..

بدلته السوداء الأنيقة مكسرة مبعثرة اتسخت بالعشب والوحل ويبدو أن قلمه الجاف اللعين قد ضاع في مكان ما..

لقد تم كل هذا بسرعة جدا.. فجأة تحول إلى شبه جثة..

تكور على جانبه وتوسد ذراعه وأغمض عينيه. كلما كلمته أغمض عينيه وهز رأسه..

كانت هناك طفلة صغيرة جميلة تقترب.. طفلة شقراء ذات ثوب هفهاف كأنها من شخصيات القصص بدورها. اقتربت منهما في فضول وألقت نظرة..

فجأة سمعتها عبير تصرخ.. نظرت لها في رعب فرأت أنها محمرة الوجه، وبدأت تفرغ معدتها.. ذلك الانتفاخ اللعين يظهر في جذور عنقها.. ثم بدأت تسعل بذلك البلغم الأزرق الكريه.

هتفت وقد فهمت:

- العدوى سريعة جدا!.. لقد انتقلت لها منك..!

- هذا واضح..

- وأنا مهددة كذلك..

قال دون أن يفتح عينه:

- لا أعتقد ذلك.. يبدو أن هذه هي مغامرة اليوم.. هناك وباء غامض يهدد حياتي وحياة كثيرين.. عليكِ أن تحلى هذه المعضلة.. يجب أن تنجحي لأنني أمثل تذكرة عودتك من هذا العالم!، وبالطبع لن تصابي بالعدوى كى تتمكني من الاستمرار..

بدا لها الكلام منطقيا..

نظرت إلى أكواخ القرية البعيدة، وقالت:

- سوف أذهب هناك طلبا للعون.. لكن ماذا أفعل بك؟

مد يده فجذب الطفلة الصغيرة المريضة إليه، فأراح رأسها على صدره، وقال لعبير:

سوف أغفو تحت ظل هذه الشجرة إلى أن تجدى حلا..

ثم أضاف محذرا بصوت مبحوح:

- يجب أن تفعلى.. وإلا فلن تفارقي هذا العالم أبدا.. لو كنتِ أكثر حكمة لأدركتِ أن هذه أخطر مغامرة مرت بكِ في فانتازيا!.. لو أنني هلكت فهي نهايتك.. ودعيني أؤكد لكِ مما أشعر به أن هذا الاحتمال وارد جدا!!

ثم أغمض عينيه فأصابها الذعر..

تركته وراحت تركض صوب القرية....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- صانع الساعات والقيصر..

- داس إست فوندربار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذلك البيت الريفي الصغير جميل الشكل ينتظرها من بعيد ترى قطيع أبقار حسناء يشبه الذي تراه على علب السمن في بيتها، وهناك طواحين دوارة في الأفق لحظة.. هذه هولندا إذن... لا شك في هذا..

المدخل مفتوح وهناك أطفال يلعبون، وثمة فتاة بارعة الجمال تعني بحوض فيه أزهار.. الفتاة تمسك بشيء في يدها وتفحصه ثم يتهلل وجهها، وتركض إلى داخل البيت صائحة بالهولندية:

- بابا!.. وجدت يعسوبا!

يا سلام... ما هذا المزاج الرائق؟.. هنا يحدثون كل هذه الضوضاء من أجل يعسوب؟

أضف لهذا أن هذه القرية هولندية، فما الذي يمكن أن يوجد في قرية كهذه سوى السمن واللبن المجفف؟

لسبب لا تدرية وجدت أنها تدخل البيت الجميل الصغير وراء الفتاة، وهناك جوار النافذة حيث كان يتسرب نور الشمس المنعش كان يجلس عجوز كث الشارب حاد النظرات يحدق في شيء ما.. ينظر في عدسة أكثر مجهر بدائى رأته في حياتها.

كان هناك مجهر في مختبر العلوم في مدرستها يقوم الطالب بتجميعه بنفسه من عدستين، وقد كان يشبه هذا بالضبط..

- رائع!.. رائع!

تناول الرجل اليعسوب في حماسة وثبته على لوح زجاجى، ثم راح يضبط عدساته وهو يئن ويزوم بلا سبب، بينما وقفت الفتاة الحسناء تنتظر رأيه:

- رائع!... أرى سيقانه وأوردة أجنحته بوضوح تام..

كانت عبير تذكر شيئا من هذا لكن ليس بالتفصيل، وقد دنت من الفتاة الحسناء وسألتها في كياسة عن هذا العجوز،، فقالت في فخر:

- هذا أبي!

- يا سلام... معلومات جديدة تماما.. أعني ما اسمه؟

- إنه أنتون ليفانهوك Loceuwenhoek

لم تستطع عبير تذكر الاسم فظلت واقفة تراقب ما يدور هنا.. إن الرجل شبه مجنون.. أو هو مصاب بوسواس قهري يجعله يمسك بأي شيء ليضعه تحت العدسة..

يمسك بالنحل والنمل والذباب ويراقبه تحت العدسة ثم يرسم كل ما يراه بيد ثابتة..

قالت (عبير) في حماسة:

- لحظة.. ألا يعني هذا أنك مخترع المجهر؟

نظر لها في ضيق خلق.. إنه من هؤلاء العجائز المتشككين سيئى الطباع كما هو واضح.. قال لها:

- لا يعنيني أن أكون.. كل القرية تسخر مني، لهذا لا أريدهم وهم لا يريدوننى فقط فليتركوني أراقب الأشياء الصغيرة تحت هذه العدسة..

انتحت عبير بالابنة جانبا وسألتها همسا:

- إذن هم لا يصدقونه.. ما هي مهنته الأصلية؟

- أبي صانع ساعات.. لكنه بلغ الكمال في صقل الزجاج وصنع العدسات.. ولهذا رأي تحت المجهر عالما خفيا لم يره أحد من قبل

هنا اقتحم البيت سيدان إنجليزيان متأنقان ونزعا قبعتيهما في احترام

- سيدى.. لقد سمعت الجمعية الملكية البريطانية عن اكتشافات وطلبت منا أن نأتي لندعوك لعرض ما توصلت له هناك..

قال في اشمئزاز دون أن يرفع عينه عن العدسة:

- لا أبالي بهذا السخف.. فقط اتركوني وشأني

قال أحد السيدين في تبجيل وهو ينحنى احتراما:

- لقد عرف العلماء هناك أنك وجدت أشياء غريبة.. الدم البشري يتكون من كرات.. قطرة المطر مليئة بكائنات سابحة.... عفن الخبز يشبه الأشجار الصغيرة.. إن هذا مذهل..

- أعرف ذلك

فكر أحد السيدين طويلا ثم قال بطريقته المنمقة الأنيقة:

- لا أعرف كيف نقنعك.. لكننا بالفعل بحاجة إلي أن يرى العالم هذه الأعجوبة.. سوف يخلد التاريخ اسم (ليفان هوك) باعتباره أول رجل يخترع المجهر، ويتمكن بعينه الحادة من رؤية ما لم نره.. الرجل الذي أخبرنا أن العالم من حولنا يعج بكائنات دقيقة لا نراها..

كل هذا جميل.. لكن (عبير) لم تفهم أهمية هذا المشهد بالنسبة لإنقاذ المرشد. لو كانت فانتازيا تريد البدء من البداية فقد اختارت بداية متقدمة جدا جدا

ليكن.. ليفانهوك هو مكتشف وجود كائنات دقيقة.. يكفي هذا فلتغادر هذا الجزء الهولندي وتبحث عمن يستطيع أن يساعدها..

* * *

من جديد هي لم تفارق جو الريف

لكن كل شيء هنا يعزز اعتقادها بأنها في قرية ألمانية في القرن التاسع عشر.. بالواقع اسم القرية هو (فولشتاين). كان هناك ذلك المدخل الضيق الذي يقود إلى بيت صغير، وهناك أصص أزهار على الجانبين يبدو أنها تحوي أزهار الأقحوان. هناك سنجاب يشتمها بلا توقف.. وهناك حصان ريفي جدا من الطراز الذي يحيط بقوائمه شعر كثيف كأنه يمشي على أربع مكانس.. يبدو أنه حصان جر.. جو ساحر فعلا يوحى بقصة أطفال، لكنها تعرف جيدا أنها ليست كذلك..

هناك لافتة كتب عليها بخط غير محترف:

عيادة

هذا حظ حسن.. هناك طبيب هنا. طبيت ريفي جدا و يبدو أنه من الطراز الذي ينال أجره بالبيض أو الدجاج. لكنه بالتأكيد يستطيع مساعدتها

لم يكن المشهد مطمئنا عندما دخلت.. هناك مقاعد عتيقة

جلست عليها مجموعة من الفلاحين. أم تضع ابنها على ركبتها وتبكي.. الابن ليس على ما يرام فعلا يصدر صوت اختناق لا شك فيه ووجهه أزرق تماما.. يفتح فمه مجاهدا من أجل الهواء. هناك فلاح عجوز يسعل بلا توقف ويبصق على الأرض دما.. هناك امرأة متهالكة على مقعدين وهي تتحسس بطنها

الأم الدامعة تنظر لعبير بعينين حمراوين، ثم تحاول أن تساعد طفلها على التنفس. هنا تظهر امرأة رشيقة هادئة يبدو أنها ممرضة، فتسألها الأم في لهفة:

- ألن ندخل؟.. لا يوجد مرضى بالداخل..

تقول الممرضة الهادئة بلهجة من قال هذا ألف مرة:

- حالا..

ثم تنظر لعبير في فضول، فتبتلع عبير ريقها، وتقوله:

- أريد رأي الطبيب.. ليس المريض معى

- الهر كوخ Koch مشغول جدا.. أخشى أن جدول مواعيده مكتمل

ارتجفت عبير انفعالا.. إذن هي في عيادة الهر (كوخ).. (روبرت كوخ) العظيم.. القيصر... إن هذا مبشر حقا

لكن لماذا يهمل مرضاه بهذا الشكل؟.. فهمت من الكلام أنهم ينتظرون الدخول منذ ساعات من العجيب أن الطفل لم يمت بعد هذا الانتظار

والأدهى أن الممرضة أشارت لعبير كى تلحق بها.. يبدو أنها غيرت رأيها

كيف؟.. كادت عبير تحتج، فهي تؤمن بالعدل وليس من العدل أن تدخل قبل هؤلاء جميعا، لكن الممرضة وقد رأت ترددها قالت:

- ليس معك مريض.. هذا يجعلك لن تستغرقى وقتا..

هكذا اقتادتها إلى غرفة بها أثاث رخيص وإضاءة واهنة فقط هناك نافذة مفتوحة تلقى حزمة من الضوء وسرير كشف وكمية هائلة من الكتب هناك مكتب صغير جوار النافذة تتسرب له حزمة الضوء التي تم حساب قطرها بدقة بالستائر. وهناك مجموعة عيون مقلوعة!

نعم.. لا يوجد خطأ مطبعي.. هناك عيون مقلوعة على بعضها كامل وبعضها شطر إلى نصفين، وإن كان حجمها يؤكد أنها ليست عيونا بشرية.. هناك كذلك ثمرات بطاطس مقطعة إلى نصفين، خلف هذا كله هناك مجهر عتيق بدائي يشبه لعب الأطفال وقد تم ضبط حزمة الضوء لتسقط على مرآته العاكسة، وخلف المجهر ذلك الوجه الذي حفظته جيدا من كتب العلوم الصلعة واللحية والمونوكل على العين... روبرت كوخ شخصيا

قال دون أن ينظر لها:

- هلا جلست لحظة.. إنني أوشك على رؤية هذه العصويات..

مدت يدها تستند إلى المكتب، فكأنها شدت زناد قنبلة انفجر يصرخ في جنون بتلك الطريقة الألمانية النازية إياها:

- يا لك من بلهاء!!.. لا تلمسي شيئا... المكتب ملوث بدماء الجمرة الخبيثة!!

أصابها الهلع فتراجعت للخلف، هنا مد يده - دون أن يرفع عينه عن العدسة وناولها زجاجة صغيرة سوداء قوية الرائحة، وقال:

- هاك بعض حمض الكاربوليك.. لستر البريطاني يقول إن له نتائج ممتازة في التطهير.. اغسلي يديك

اتجهت لمغطس صغير على حامل، وصبت بعض السائل في يدها.. آى.. آى!.. إنه يحرق بالمعنى الحرفي للكلمة!.. يحرق العينين قبل جلد اليد وما لم تعرفه عبير هو أن لستر البريطاني كان في هذا الوقت يغرق غرفة العمليات بهذا السائل ويسكبه على الجروح، ويرسل بخارا منه في الغرفة أثناء الجراحة. كانت النتائج باهرة بعد ما كانت لفظتا (جراحة) و (موت) مترادفتين، لأن كل الجروح كانت تتعفن بلا استثناء لم يكن أحد قد سمع عن كلمات بكتريا أو تعقيم

أو تطهير.. هكذا قرر لستر أن هناك أشياء صغيرة تؤدي لتعفن الجروح، وهذه الأشياء يجب القضاء عليها بحمض الكربوليك قبل ممارسة الجراحة. لكن النتيجة المؤكدة هي أن كل الجراحين كانوا مصابين بالتهاب رهيب في العين وقد اسودت أيديهم من تأثير هذه المادة الكاوية

هكذا طهرت عبير يديها.. هي لا تعرف معنى (الجمرة الخبيثة) لكن الاسم مخيف بما يكفي

عادت تجلس أمام الرجل المهيب.. قال لها وهو يضبط العدسة:

- هذا المجهر أهدته لى زوجتي.. وقد غير حياتي بالكامل بصراحة لم يعد لدي مزاج رائق للعيادة ولا المرضى.. وعبر هذه العدسة وجدت تلك العصويات في جثث الماشية التي ماتت بداء الجمرة.. زرعتها في الفئران فوجدتها قد ملأت جسد الفأر هنا خطر لي أن أزرعها في وسط مناسب..

قالت (عبير) في كياسة:

- هناك تلك الأطباق التي يستخدمونها في المختبرات إنها..

هنا صاح في عصبية:

- لا أعرف هذه الأمور..!.. لم تخترع بعد!.. لاحظى أنني الأول وأنني أتحرك في الظلام، كما إنني مجرد طبيب أرياف لا يعرف شيئا عن أساليب البحث العلمي. هكذا قررت أن أزرع هذه العصويات في عيون الثيران..

هذا يفسر كل هذه العيون المقلوعة. إنه يشترى عيون الثيران من السلخانة، لأن السائل فيها غالبا سيعمل كالجسد الحي

- ورأيت!.. رأيت كل شيء.. رأيت العصويات تنمو أمام عينى صانعة خيوطا!.. لا شك في هذا.. لقد تحولت عين الثور إلى بكرة خيط معقودة متشابكة.. إنها حية!!

قالها بحماسة تذكرك بحماسة د. فرانكنشتاين عندما دبت الحياة في ذلك المخلوق

هنا دخلت الممرضة على أطراف أصابعها وهمست:

- فراو (فلهلم) توشك على الجنون.. تقول إنها تنتظر منذ العاشرة صباحا..

نظر لها في دهشة ثم ضرب المنضدة بيده وصرخ:

- لتنتظر أكثر.. ما الذي يعرفه الأطباء عن المرض؟.. لا شيء.. معلوماتي هي معلوماتها، بينما ما أقوم به يقودنا وفعلا لفهم كيف يمرض الناس..

ثم قال لعبير:

- زرعت هذه العصويات من عين ثور لعين ثور لعين ثور ومن عين ثور العين ثور..

هكذا صار لدي عصويات هي حفيدةوحفيدة حفيدة أول عينة التي أخذتها من الماشية.. الآن هل تستطيع هذه العصويات أن تنقل العدوى كما فعل أجدادها؟.. جربت هذا وحقنت بها الفأر.. فماذا كانت النتيجة؟.. لقد أصيبت الفئران بالجمرة الخبيثة. بالضبط كما كانت في الماشية..

هتفت عبير في حماسية:

- إذن أنت أثبتت أن هذه العصويات تنقل الجمرة لا مجال للشك في هذا.. ألم تنشر هذه الأبحاث عندئذ؟

- مستحيل!.. ليس بهذه السرعة.. لابد من أن أكرر التجربة مرارا وأضع نفسي في موقف خصومى، وأفترض أنني جاهل أخرق..

هنا دخلت الممرضة:

- فراولاين (شتايجر) في ولادة.. يريدونك أن تذهب لمزرعتها..

- فورا. فورا

وبالطبع لم يحرك ساكنا.. كان يحكى لعبير عن مغامرته مع داء الجمرة لقد توصل إلى الكثير جدا من الأبحاث المهمة وأجرى كل تجربة مرارا، وأخيرا حمل معه المجهر وحقائبه وقفصا به فئران وركب القطار - على طريقة فلاحينا الذين يحملون معهم البطة والفطير - واتجه إلى العاصمة ليخبر العلماء بما توصل له لم يكن الطبيب الريفي الخجول ليجيد الكلام.. وجد نفسه أمام هؤلاء السادة المرعبين الذين هم أقرب لجنرالات الجيش منهم للأطباء، والسوالف العملاقة والثياب الفاخرة والجمات وجميع أنواع اللحى.. كان موقفا رهيبا، لكنه لم يأت ليتكلم بل ليفعل ولمدة ثلاثة أيام راح - كأنه حاو بارع - يريهم كيف فتت طحال الماشية المريضة وكيف حقن المستحلب في الفئران، وكيف حصل على العصويات وزرعها في عيون الثيران.. و.. و....

كان كل شيء مقنعا.. واندفع البروفسور المرعب كونهايم إلى قاعة الدرس ليصرخ في طلبته:

- داس إست فوندربار.. داس إست اين....

معذرة.. لا داعي للألمانية هنا.. قال لهم إن هذا شيء مذهل وطلب منهم أن يجتمعوا حول الطبيب الريفي الذي اكتشف من تلقاء نفسه طريقة بحث علمي لا يتسرب منها الماء. اكتشف الجرثومة المسببة لمرض الجمرة.

وكان هذا هو الدرس الأول في علم الميكروبات: كل حيوان يموت بالجمرة يجب أن تحرق جثته، أو تدفن في حفرة عميقة تحت الأرض حيث تكون الأرض باردة لا تسمح بعودة الحياة للجراثيم

- داس إست فوندربار..

من حسن حظه أنه وقع مع علماء حقيقيين.. علماء لم يسرقوا عمله أو يسخروا

منه، بل إنهم نشروا أبحاثه على مسئوليتهم، ونبهوا كل غان إلى أن اليوم هو ميلاد الطب الحقيقي

كان (كوخ) غارقا في الذكريات وقد غلبه الحنين، حتى ليوشك على تقبيل جراثيم الجمرة بشفتيه، لولا أن صاحت (عبير):

- لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من هذا.. هناك مرض جديد أرغب في أن آخذ رأيك فية..

التمعت عيناه في شغف متوحش:

- مرض!!!.. أين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أرجوك يا دوكتور..

راح الهر (كوخ) يصغي لما تقول في اهتمام، وهي تصف الأعراض التي أصابت المرشد والطفلة. قال لها:

- بالتأكيد هذا مرض معد ينقله ميكروب ما.. يجب أن نجد الميكروب وأن يحقق لنا فرضية كوخ..

كان هذا هو الوقت الذي ولدت فيه فرضية كوخ الشهيرة:

لكي تتهم ميكروبا بأنه يسبب مرضا ما يجب:

1- أن تجده في كل مريض مصاب بالمرض

2- أن تستطيع أن تفصله وأن تزرعه صافيا

3- أن يسبب المرض لو حقنت به شخصا سليما

4- أن تعزل الميكروب من المريض الجديد، وتجده شبيها تماما بالميكروب الأول

دقة غير عادية تقترب من الوسواس، وإن كان الطب الحديث قد وجد أن بعض الفيروسات لا يحقق هذه الشروط كاملة، ولكننا نتكلم عن القرن التاسع عشر هنا.. لو أن كوخ سمع عن فيروس الإيدز أو البريونات لجن بالتأكيد

قال لها (كوخ) وهو يمسك بمبضعه في شوق:

- هاتى لى جثة المريض لأستخرج الطحال وأفحصه..

- لم يمت بعد للأسف..

بدت عليه خيبة الأمل وغمغم:

- يا للخسارة!.. إذن أريد بعض إفرازاته.. تقولين إنه يقيء قيئا أزرق؟

- نعم

- جميل!.. جميل!

وناولها ثلاث أنابيب اختبار مغلقة بعناية، ومعها أداة للمسح

- احصلي على عينات من القيء والبول والبلغم.. لا أحب (العك) وعدم الدقة كأن تخلطي العينات، أو تلوثي كل أنبوب بأصابعك.. أريد عيناته ولا شيء سواها!

راحت تفكر مهمومة في الطريقة التي ستحصل بها على هذه العينات القذرة، وإن لم تستطع أن تجادل الرجل كثيرا.. إن شخصيته كاسحة خاصة تلك النظرة الألمانية الباردة من وراء المونوكل

∞∞∞∞∞

راحت تمشي في المرج حاملة سلة صغيرة، شاعرة بأنها ذات الرداء الأحمر.. فقط ليست ذاهبة لجمع التوت ولكنها ذاهبة لجمع عينات الوباء

الذئب ليس هنا.. إنه في كل مكان.. قد يكون في الهواء أو في العشب أو في لدغة تلك الحشرة. كان الفلاحون الألمان يعانون انتشار وباء الجمرة الخبيثة الذي يفتك بماشيتهم وبهم كذلك كانوا يأتون بقطيع في أتم صحة ليرعى في حقل معين.. بعد أيام يموت القطيع كله، وهكذا قالوا إن أرضهم ملعونة

هي الآن تمشي في أرض قد تكون ملعونة

لكن أين المرشد والطفلة؟... ليسا في المكان الذي تركته....

هل يكون التجأ لكوخ من تلك الأكواخ؟.. أم لعله توارى وراء شجرة..؟..

صبي فلاح يقود عربة يجرها ثور رآها وهي تفتش فشد الفرملة.. أعنى شد اللجام وقال لها:

- هل تبحثين عن الرجل المريض والطفلة الأكثر مرضا؟

هتفت في لهفة:

- نعم..

- إنهما في الكنيسة.. لقد وجدهما القس وأخذهما هناك.. يبدو أنه تسرع بهذا القرار لأن اثنين من القساوسة يحتضران الآن..

- والكنيسة.. هل هي بعيدة؟

- بعيدة.. لابد من الركوب معى

ثم فكر حينا وهو ينظر للقرية التي تتراءى في الأفق.. قرية أخرى غير التي كانت فيها.. وقال:

- كنت ذاهبا لهذه القرية أطلب عونا.. القس طلب مني هذا.. لم لا تذهبين أنت؟

الجديد في الأمر أنها تكتشف للمرة الأولى أن الصبي يتكلم الفرنسية لا الألمانية.. هناك تغير معين في جو الرواية بلا شك.. يبدو أن عليها زيارة القرية الأخرى..

فكرت قليلا وبدأت تجد الفكرة معقولة:

- ليكن.. أنت ستعود للقس وتطلب منه أن يعطيك بعض العينات في هذه الأنابيب.. سأشرح لك كيف.. ثم تعود بها للطبيب.. الهر (كوخ).. هل تعرفه؟.. جميل.. جميل..

تم الاتفاق سريعا.. هكذا سوف تصل العينات إلى (كوخ) ليجرى تجاربه، بينما تجرب هي مكان آخر في هذه المغامرة عندما تنتهي تعود لـ (كوخ)..

وبعد قليل كانت تهرع نحو القرية الجديدة لتعرف ما يدور هنالك

منذ البداية فطنت إلى أن كروم العنب كثيرة هنا جدا.. العناقيد تتدلي في كل مكان.. يبدو أن المهنة البشرية هنا هي جمع العنب، وحبات العنب ذاتها ضخمة بنفسجية اللون يهرس العنب بقدميه - وهو منظر غير محبب - وهناك غلايات عملاقة ومعاصر.. فلاحات في كل مكان

تسمع العبارات الفرنسية في كل مكان

بدأت تستنتج أن النشاط الرئيس لهذه القرية هو صنع النبيذ.... تقطير الخمور.. ومن الواضح أنها قرية فرنسية

هنا رأته..

كان يمشي وسط مجموعة من الرجال الذين يبدو من ثيابهم أنهم فلاحون، وكان متأنقا له لحية نصف شقراء نصف شائبة ، جميلة المنظر، وفي يده عصا يستخدمها للكلام أكثر منها للمشي وكان ذا شخصية لامعة براقة فإذا تكلم صمت الجميع، كما كان من الطراز المغناطيسي الذي يتحمس فيتحمس من حوله، ويغضب فيتوتر من حوله

كان يقول لهم:

- هذه هي القواعد.. إذا أردتم أن تنقذوا صناعة النبيذ أو صناعة الجبن فعليكم أن تقتدوا بتعليماتى حرفيا..

قال أحد الفلاحين في أدب بالفرنسية:

- دوكتيور باستير.. نحن..

قاطعه الرجل في عصبية:

- أنا لست طبيبا.. أنا كيميائي.. كيميائى!!

إذن هذا هو.. لوى باستير Pasteur شخصيا.. عالم العلماء ومكتشف لقاح مرض الكلب - بفتح اللام - وعشرات من الأمراض الأخرى.. الذي صار اللبن مبسترا من أجله

نظر لها بعينية الثاقبتين، وأدرك على الفور أنها غريبة فسألها:

- هل تريدين شيئا؟

- استشارة يا دوكتيور

عاد يردد في عصبية:

- أنا كيميائي ولست طبيبا... تعالي معي..

هكذا دخل معها إلى بيت ريفي جميل.. بالتأكيد أكثر أناقة وجمالا من الوكر القذر الذي يعيش فيه كوخ. الشمس تغمر كل شيء وهناك مزهرية جميلة بها أزهار على منضدة مغطاة بشرشف أبيض ناصع. هناك كأسان من سائل أحمر لابد أنه نبيذ وهناك صحف فرنسية ورواية لدوما

جلس وصب لنفسه بعض النبيذ وتذوق رشفة منه، ثم قال في استمتاع:

- ممتاز!... لقد حللت لمقطري الخمور المشكلة التي كانت تحيل نبيذهم خلا..

كانت تعرف شيئا كهذا، لكنها بالطبع لم تعتبره عملا عبقريا أو معجزة ما، فما جدوى الخمر أصلا في العالم؟.. هذا لا يكفي مبررا لما ناله باستير من شهرة ساحقة...

قيمة هذا الاكتشاف هو أنه التجربة الأولى التي علمت باستير والعالم أن هناك كائنات دقيقة جدا.. كائنات حية تتكاثر وتنقسم وتفسد ما تعيش عليه

كانت له كذلك مغامرة ممتازة مع الجبن الفرنسي الذي تتلفه تلك الكائنات، ومغامرة أخرى مثيرة مع وباء ديدان القز، لكن الوقت ليس وقتها طبعا حتى لا نغرقك في التفاصيل

كان باستير يجيد الدعاية لنفسه وكان يتكلم كثيرا جدا، حتى أن الفرنسيين اعتبروه يعرف كل شيء. بل إن بعضهم اعتبره يملك سر الحياة ذاته

كان من الطراز المولع بالجدل وفي أسلوبه شيء من التعالي لهذا لم يكف عن خلق أعداء علميين في كل مكان.. كانت طريقته في الكلام توحي دوما بـ (أنتم أغبياء ولن تفهموا ما أقول)، كان مستفزا أحيانا لدرجة أن جراحا كبيرا هو (جوران) تحداه للمبارزة.. لكن باستير كان أذكى من أن يموت بهذه الطريقة

- والآن ما هي المشكلة يا آنسة؟

بدأت تحكي له قصة المرشد الذي أصيب بالمرض خلال دقائق، وكيف سقط أرضا ونقل العدوى لطفلة.. بل نقلها لكل من تعامل معه. لاحظت فعلا أنه لا يهتم بعلم الأمراض البتة ولم يحاول أن يعلق على شيء منها.. حتى أنه كان يحسب الحمى عرضا يختلف عن ارتفاع الحرارة.. لا عجب فهو ليس طبيبا.. قالها مرارا في شيء من الفخر

قالت له:

- إن الهر (كوخ) يحاول أن يعرف سر هذا الوباء و...)

هنا ضرب المنضدة بقبضته وصرخ:

- الألمان!... أنا أكره الألمان..... كوخ هذا مجرد طبيب ريفي لا يمكن أن يطمح إلى مكانة فرنسا.. فرنسا التي تقود الفنون والعلوم.. فيف لا فرانس!!

تذكرت على الفور موقفها مع (يونج) و(فرويد) وكيف كان أحدهما لا يطيق الآخر..

الحقيقة أن باستير كان من أشد كارهي الألمان في العالم إخلاصا.. الويل لبروسيا.. فلتسقط!

هكذا قررت أن تبتلع لسانها ولا تذكر حرفا عن (كوخ)..

وكان من أغرب أبحاث باستير (الوطنية) محاولته اليائسة لصنع بيرة فرنسية تتفوق على البيرة الألمانية إن البيرة الفرنسية رديئة جدا لكنه جرب المستحيل، وهنا اكتشف أن عليه أن يتذوق البيرة ليعرف مدى جودتها.. مستحيل.. إنه لا يطيق طعمها ولا رائحتها.. هكذا قرر أن يترك هذا النصر الوطني وبدأ يفكر في مقاومة البكتريا في البشر

هنا وصله خطاب من الجراح البريطاني العظيم (ليستر) يخبره أنه قرأ أبحاثه جيدا، وبذل كل جهد ممكن لمقاومة تلوث الجروح بتلك الكائنات الصغيرة... كانت النتيجة رائعة

لقد بدأ باستير حمى الميكروبات في أوروبا كلها وصارت هي الموضة

قالت له (عبير):

- أرجوك أن تساعدني يا دوكتيور..

لم يلحظ لحسن الحظ أنها نادته بالدكتور. نظر لها في شغف

وراح يفرك يديه:

- أريد عينات.. الكثير منها ولسوف أبدأ حالا

4- البحث عن وغد

كان (كوخ) في ذلك الوقت قد انتقل إلى برلين، بعد ما تلقى عرضا سخيا ليعمل ملحقا في مكتب الصحة الإمبراطوري. وكانت الميكروبات قد غزت أوروبا كلها.. الصحف تزف في كل يوم نبأ اكتشاف بكتريا جديدة، مع قدر لا بأس به من الخبال

اكتشاف البكتريا المسببة للسرطان!

اكتشاف نوع بكتريا يسبب كل الأمراض في التاريخ!

الدرن لا تسببه بكتريا واحدة وإنما مائة نوع من البكتريا تهاجم في وقت واحد!

كان الجنون العلمي لا يختلف عن الجنون الذي نراه في صحفنا اليوم، لكن القيصر كوخ ظل محتفظا بثباته وبروده وصرامته العلمية:

- كل نوع من البكتريا لا يسبب إلا مرضا بعينه.. فقط يجب أن تحصل على سلالات نقية تزرعها بعيدة عن أي تلوث خارجى

من أجل هذا الغرض ابتكر صيادو الميكروبات أجهزة شديدة التعقيد، لدرجة أنهم كانوا يفرغون من صنع الجهاز فينسون ما الغرض منه

أما كوخ فقد وجد البطاطس!.. البطاطس سطح صلب يسمح بأن يزرع عليه نوع واحد فقط من البكتريا. استدعى مساعديه (لوفلر Loeffler) و(جافكي Gaffky) ليخبرهما بما توصل اليه وبالدقة الألمانية التي تثير الغيظ جلسوا يتأكدون من نظريته.. في الواقع طلب منهما (كوخ) أن يبرهنا أنه أحمق واهم. (باستير) لم يخلق لهذا النوع من الصبر المضني والدقة الشنيعة

يقولون إن كوخ كان يتعامل مع اكتشافاته المذهلة باعتبارها اكتشافات خصم له، لديه ألف اعتراض عليه.. كان قاسيا باردا يتعامل مع العلم كأي كتاب رياضيات، وفي طريقته لمسة غير إنسانية تشعرك بالرعب.. إن قيصر الطب لم يكن يرحم الجهلاء والمتسرعين

لاحظي المدعو (لوفلر) يا (عبير)!.. لا تنسى ملامحه!.. إنه الرجل الذي سينقذ البشرية من وباء الدفتيريا فيما بعد. لاحظي (جافكي) فهو من سينقذ العالم من التيفود. كل واحد من هؤلاء سخره الله كى ينقذ العالم من كابوس حقيقي

جلست (عبير) في أدب تنظر إلى البطاطس المتناثرة كل مكان ثم سألت:

- هل من أثر يا هر كوخ؟.. العينات التي أرسلتها لك..

نظر لها للحظة ثم قال:

- لا.. لم أجد فيها أية بكتريا.. جربت أن أستزرع منها شيئا باستعمال كل المزارع الممكنة بلا جدوى.. ربما كان المرض لا تسببه بكتريا..

كان الأمر منطقيا بالنسبة لها.. بالطبع المرض تسببه بكتريا أو فيروس وإلا لما

دارت المغامرة هنا

قالت في ثقة:

- أؤكد لك أن المرض تسببه بكتريا

- إذن هي لم تظهر بعد.. هل تعرفين قصتي مع مرض الدرن؟... لقد فشلت تماما وفشل الجميع في العثور على البكتريا المسببة له.. تعالي معى لترى ما نقوم به..

* * *

قال (كوخ) وهو يدخل المشرحة:

- كنا على يقين من أن الدرن تسببه بكتريا.. قام (كونايم) العالم العظيم بزرع قطع من رئة من ماتوا بالدرن في عين الأرنب. بهذه الطريقة أمكنه أن يشاهد الدرنات المميتة تتكاثر وتزدهر داخل العين، كأنه يشاهدها من نافذة..

تراجعت (عبير) رعبا وهي ترى الجسد الراقد على الرخام. جسد رجل ضخم في الثلاثين من عمره، يبدو أنه قوى جدا بل كان قويا جدا.

قال (كوخ) وهو يصلح من وضع عويناته ليري جيدا، ثم يخرج مبضعا من كيس صغير:

- هذا العامل كان في خير حال منذ ثلاثة أسابيع.. الآن هو ميت بداء الدرن،، سوف ترى.. سوف نرى..

ومن دون قفاز - لأنه لم يكن اخترع بعد - شق صدر العامل أمام عبير المذعورة.. هنا رأت الرئة.. لم تعد رئة بل هي شيء مخيف.. لهذا سمي المرض الدرن بسبب الدرنات التي ملأت السطح الوردى.. الدرنات الكريهة التي تحوي مادة شبيهة بالجبن

- قربي منى المصباح..

دنت منه وهي تكتم تنفسها..وحاولت ألا تنظر.. لو نظرت لأصابتها العدوى

رأت (كوخ) بيد ثابتة ينزع بعض هذه الدرنات بطرف المبضع ثم يضعها في أوعية صغيرة. ثم أمرها أن تتبعه

في المختبر الخاص به راقبته وهو يهشم هذه الدرنات بالمبضع، ثم يخرج خنزير غينيا صغيرا من القفص – وهو كائن أقرب إلى الفأر الكبير - فيجرح ذيله ليدس فيه هذه الأنسجة المهشمة، ويعيده للقفص

لما انتهى غسل يديه بثنائي كلوريد الزئبق.. يديه اللتين اسود لونهما فصارتا بلون جلد الحقيبة المدبوغ، وأشعل غليونه في استمتاع وقال:

- الآن ننتظر!

كانت في أتعس حال تشعر بأنها صارت مرضا يمشي على قدمين. تريد أن تغوص في زجاجة حمض الكربوليك بكل جسدها.

قضى كوخ الوقت يجرب أن يصبغ تلك الأنسجة بصبغات مختلفة لعلها تظهر له البكتريا الغامضة. وفي ذات يوم كان ينظر تحت المجهر عندما صاح في لهفة:

- هناك شيء!!

ودنت (عبير) تنظر عبر العدسة معه لتفاجأ بمجموعة من العصويات الرقيقة الزرقاء وسط أنسجة الرئة.. كأنها سجائر متراصة في علبة.

- أترانا وجدنا الوغد؟

وهرع يصبغ أنسجة عديدة من جسد العامل المسكين ويفحصها.. في كل مرة يجد ذات العصويات

هنا صرخت (عبير) في جزع وهي تشير إلى الأقفاص التي كانت فيها خنازير غينيا

كانت الحيوانات البائسة تجلس متكورة ساكنة تنظر في يأس إلى قطع الجزر الملقاة في الأقفاص، ثم تنقلب وتموت

كان المشهد مروعا لكنه بالنسبة لكوخ كان أجمل مشهد في العالم

على الفور شرع يشرح خنازير غينيا البائسة

- بالفعل!.. تلك العقد الصغيرة تملأ الأجساد من الداخل... لقد نقلت الداء الخنازير غينيا فمرضت بالضبط مثل العامل هاتى الصبغة الزرقاء!

وراح يصبغ الأنسجة ويفحصها تحت المجهر. وفي كل مرة يجد تلك العصويات الجميلة البشعة

- إنها هي!!!!

لكن (كوخ) ليس من الطراز الذي يكتفي بهذا. لقد راح يجوب كل مشارح ألمانيا يجمع الأدران من جثث الذين ماتوا بالدرن، ويفحصها.. كانت عادته كما قلنا هي أن يفصل جزءا من شخصيته يجعله خصما عنيدا قوي الحجة، وهذا الخصم غير مقتنع وعليه أن يبذل المستحيل لإقناعه

قالت له (عبير)

- ألن تنشر ما توصلت إليه؟

نفث دخان الغليون في وجهها وهتف:

- أنشر؟.. هل تحسبينني عجولا مولعا بالدعاية مثل (باستير)؟.. لا..

كان يمسك بفأر نقل له داء الدرن.. هنا حاول الفأر التملص وعضه عضة قوية في

يده.. صرخ كوخ وأعاد الفأر للقفص ثم غمر يده في ثنائي كلوريد الزئبق وقال:

- أه... عملية صيد الميكروبات هذه مرهقة للأعصاب حقا!

قالت له (عبير):

- أنت قد برهنت على ما تريد.. انتهى الأمر!

اتجه للوح الكتابة الذي كتب عليه فرضية كوخ، وقال وهو

يشير بأنامله المسودة:

- ناين.. ناين.. هذا قد يقنع أحمق مثل ذلك الفرنسي لكن ليس أنا.. لقد حققنا الشرط الأول.. الشرط الثاني هو أن نزرع هذه العصويات نقية!.. بعد هذا نحقن فأرا سليما بناتج المزرعة فيصاب بالمرض.. وبعد هذا نجد نفس العضويات داخل أحشاء الفأر بعد موته!

تنهدت في تعب وقالت:

- ليس الوقت مناسبا لذلك. إن مشكلتي الخاصة خطيرة وقد أضعنا الكثير من الوقت

- بحثي هنا قد يفيد بحثى هناك.. فأنا أبحث عن داء صديقك في الوقت ذاته..

هكذا راحت في تعاسة تراقب محاولاته لزرع هذه العصويات في المزارع التي ابتكرها.. البطاطس.. الحساء المجمد.. كل أنواع الحساء... لا شى ء

- هذه البكتريا اللعينة بحاجة إلى طعام يشبه ما تحصل عليه في الجسد الحي..

وهكذا قام بإعداد حساء من دم الحيوانات.. وزرع عليه هذه الكائنات، ثم وضع الأنابيب في الفرن لتكون في درجة حرارة الجسم البشري..

لكنه ظل ينتظر

وينتظر

أدرك أنه فشل من جديد، فقد مر أسبوعان على زرع البكتريا ولم تنم بعد، وهو قد اعتاد أن تنمو أية بكتريا خلال يومين نام تعسنا وقد عزم على التخلص من الأنابيب صباحا.

لكن الصباح كان يحمل له مفاجأة.. لقد نمت البكتريا!.. نمت في اليوم الخامس عشر.. بيد مرتجفة مد قطعة من السلك البلاتيني وأخذ مسحة من السطح ووضعها على شريحة، ثم صبغها بالصبغة الزرقاء.. إنها هي!.. أكثر توحشا من جيش من الهون وأخطر من عشرة آلاف حية جرس

قام بحقن هذه العصويات في خنازير غينيا.. بل حقنها في الضفادع والسمك والسلاحف. الحقيقة أن مختبره صار مكانا مرعبا.. لاحظ أننا نتحدث عن وباء

غامض قاتل لا علاج له حتى ذلك الوقت

لقد نجح

قالت له عبير في تعب وملل:

- ألن تنشر البحث؟

- بالطبع لن أنشره على أن أثبت أن هذه العصويات تنتقل بالهواء كما يحدث مع البشر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتدخل عبير المختبر لتجد منظرا مروعا..

صرخ فيها كوخ في جنون:

- لا تدخلي يا حمقاء!.. ابقى خلف الزجاج!

هرعت لترقب ما وراء الزجاج في رعب. لقد وضع خنازير غينيا في صندوق، ثم جلس هو خارج الصندوق وراح يضخ الهواء يدويا عن طريق منفاخ.. هذا الهواء يمر على مزارع قاتلة من الدرن. يفعل هذا نصف ساعة كل يوم

معنى هذا أن الهواء داخل الصندوق يمكن من يقتل جيشاً

لا أحد يعرف كيف استطاع أن يدخل الصندوق بعد هذا ليخرج جثث خنازير غينيا التي قتلها الدرن، ولا ما فعله بالصندوق بعد هذا..

الحق إن شجاعة هذا الرجل كانت مرعبة، لكنها ليست أكثر من شجاعة (باستير) و(ريد) كما سنعرف فيما بعد

في النهاية ظهرت على وجهه البروسى الصارم ابتسامة طفل، وقال لها:

- الآن فقط يمكن أن أعلن أبحائى!

5- العودة لباستير

حضرت (عبير) المؤتمر العلمي الذي عقده كوخ في 24 مارس عام 1882، في برلين، حيث جلس أهم علماء ألمانيا وعلى رأسهم (إرليخ) و(فيرخوف)..

كان كوخ لا يوحي بالثقة فهو لا يملك شيئا من بريق باستير وتوهجه، وكان قصير النظر مما كان يجعله يتوقف كثيرا ويقرب الأوراق من عينه، دعك من أن مخارج حروفه كانت سيئة.. لابد أن يكون العالم ذا بريق كاريزمى، أو يعين من يواجه الجمهور بدلا منه كما فعل داروين ونيوتن.

لكن الأبحاث كانت تتحدث عن نفسها، ولا توجد ثغرة يمكن المعارض أن يمر منها.. إنه الإتقان والوسواس الألماني الشهيران في صورة إنسان

انتهى كوخ فوقف ينتظر هجوم المهاجمين وتمزيق الممزقين، لكن ساد الصمت.. ببطء بدأ التصفيق واهنا... ثم تعالى

هكذا بدأت حمى كوخ تجتاح العالم

الكل يتكلم عن الطبيب الألماني الذي وجد القاتل.. عندما تجد القاتل يكون هناك أمل. عندما تقرأ الروايات الفرنسية القديمة تكتشف أن الدرن هو طريقة الموت الوحيدة تقريبا.. من يصب بالدرن هو جثة في القبر مهما كانت الظروف، وكان كتاب هذه الروايات يفرغون من كتابة الرواية فيموتون بالدرن هم كذلك كانوا يتحاشون ذكر اسم الدرن فيطلقون عليه (المرض اللي ما يتسماش) أو (الاستهلاك Consumption)

لكن كوخ لم يعتبر نفسه عبقريا قط.. ولم يحب حفلات التكريم والميداليات، كما كان يمقت التدريس لكنه كان مضطرا لأن يعلم التلاميذ الذي جاءوا من كل العالم ليتعلموا أساليبه.. هكذا وجد نفسه وسط حشد من اليابانيين الذين يستحيل أن يجيدوا الألمانية، والبرتغاليين الذين يستحيل أن يجيدوا أي شيء..

كانت (عبير) تلاحقه وهو يجرى أبحاثه على ذلك المرض الغامض الذي أصاب المرشد.. طبعا بمقاييس فانتازيا كان كل هذا يتم في أيام معدودات، لكن بدا أن المرض مستعص على هذا العبقرى

لم يستطع عزل شيء..

كانت جالسة في المختبر تراقب المزارع المتعددة، عندما فوجئت بطبيب قصير القامة يدخل.. يمسك بأنبوب من تلك الأنابيب فيمد أنامله فيها ثم يفرك بأنامله جلد ساعده عدة مرات..

بعد لحظات امتلا ساعد الرجل بالدمامل والخراريج، فصاح في فرحة:

- رائع!... هذه البكتريا التي وجدها هر كوخ وأطلق عليها اسم (المكورات

العنقودية).. قال إنه يشك في أنها سبب الدمامل.. أنا د. (جاريه) قد برهنت على ذلك!!

نظرت له عبير في دهشة ثم قالت:

- وماذا عن ذراعك؟

و«لا شيء.. هي تجربة غير سارة لا أكثر... ثم رحل!... الحقيقة أنه من السهل أن تعتبر هؤلاء القوم مجانين

هنا دخل كوخ المختبر وهو يحمل حقيبة كبيرة مع معطف.... وقد وضع المونوكل على عينه فبدا مظهره رسميا جدا مقبلا على عمل جلل

- هل أنت ذاهب لمكان ما يا هر كوخ؟

قال وهو يخرج ساعة من الصديري ليرى الوقت:

- نعم.. وباء الكوليرا بدأ في الهند وهو يجتاح العالم.. شوارع الإسكندرية خالية والجثث في كل مكان.. انا ذاهب لمصر

- ولكن.. ذلك الوباء الذي كلمتك عنه..

- الأولوية للداء الذي يحصد الملايين، ثم إن باستير اللعين أرسل (رو Roux) و(توييه Thuillier) تلميذيه لدراسة المرض لو سبقتنا فرنسا لكانت كارثة.. سلام.. أوف فيدزيهن!

الحقيقة أن (توييه) البائس سوف يموت بالكوليرا في مصر، وسوف يحمل (كوخ) جثته عائذا به لوطنه فرنسا، برغم أنه لا يطيق الفرنسيين ولا اسم بلدهم.

هكذا وجدت (عبير) أنه لا جدوى من إقناعه بالبقاء المشكلة هي أنها جاءت لهؤلاء القوم في حقبة مليئة بالاكتشافات، فلا وقت لديهم لها على الإطلاق

لابد أن تهرع لباستير لترى إن كان قد وجد شيئا......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وجدت باستير كان يقف هناك في الأكاديمية الطبية... بباريس كان المحاضر يلقي محاضرة طويلة باللاتينية والإغريقية عن سبل منع حمى النفاس التي تقتل تسعا من كل عشر أمهات باريسيات يلدن في المستشفى، عندما هب باستير من مقعده واتجه للمنصة وهو يعرج كعادته بسبب شلل قدمه اليسرى. صعد على المنبر وصرخ بصوته الجهوري:

- ما ينقل حمى النفاس بكتريا النفاس بكتريا.. وهذه البكتريا تصيب المريضات بسببكم أنتم!.. بسبب الأطباء وأيديهم المتسخة أثناء الولادة!.. يا سادة أنتم سبب وفاة كل هاته الأمهات!!

قال المحاضر في اشمئزاز:

- ليكن.. بكتريا.. لكنك لن تجدها أبدا..

صرخ باستير وهو يمسك بقطعة الطبشور:

- وجدتها وعزلتها.. وهي تبدو هكذا!!

ورسم البكتريا التي تشبه المسبحة على لوح الكتابة في هذا العصر كان الأطباء يغسلون أيديهم بعد الجراحة والتوليد ولا يغسلونها قبلهما!.. كل شيء كان ملوثا وقذرا بعد المحاضرة هنأت (عبير) باستير على براعته، وسألته:

- عما توصل له بصدد المرض الذي أصاب المرشد فقال:

- لم أجد خيطا بعد.. القصة ما زالت معقدة..

ثم نظر في ساعته وقال:

- موعد الغداء.. تعالي نتناول الغداء معا في مختبرى ثم نواصل الكلام..

جاءت الأطباق الفرنسية جميلة المنظر صحيح أن بعضها يحوي أفخاذ الضفادع بصلصة البوربون، لكن (عبير) لا تعرف هذا لذا أكلت في نهم.. كان باستير يتمتع بشهية ممتازة، وقد راح يقول لها بفم مليء بالطعام:

- نظرياتى تقول إن هناك شيئا أصغر من البكتريا، لذا يتمكن من العبور عبر ثقوب مصافي البكتريا التي قمت بابتكارها، ولهذا لا يمكن فصله أو التعرف عليه..

قالت في كياسة:

- تعنى الفيروسات؟

- لا تقولى هذا!.. نحن لم نسمع عن الفيروسات ولم نكتشفها بعد.. أعتقد أن هذا الشيء هو ما أصاب صديقك وهو الذي ينشر الوباء الآن..

- وهل أنت قادر على البحث عنه؟

- لا يوجد شيء لا أقدر على البحث عنه.. أولادي في كل مكان من العالم يبحثون عن رسل الموت.. سوف نكشف النقاب عن الجذام والطاعون والكوليرا.. (رو) الآن يبحث في أصل الكوليرا.. أما أنا فأبحث في لغز آخر مخيف سوف يعيد لفرنسا المجد الذي كاد يشاطرها إياه ذلك الألماني..

- التهاب الكبد الوبائي مثلا؟

قال في شيء من الفخر:

- أنا لست طبيبا.. فعلا لا أعرف الفارق بين الكبد والرئة لم أمسك مبضعا في حياتي، وما زلت أشعر بخوف وتوتر عندما أدخل مستشفى!

كانت هذه هي الحقيقة.. الرجل الذي كتب له أن يغير تاريخ الطب كان يخاف المستشفيات ولا يطيقها ولا يطيق رائحتها.كما أنه كان لا يتحمل فكرة إعطاء

حقنة لحيوان، لهذا جاء لمساعدته بطبيب حقيقي هو (رو) ليقوم بكل العمل الصعب

كان طوفانا من الأفكار والصخب.. شلالا من الأفكار المجنونة معظمها غير علمي ولم يكن يملك الصبر على استكمالها، لكن بعضها يصيب.. عندما تطلق ألف طلقة فلابد أن تنجح عشر طلقات في بلوغ الهدف.. لهذا كانت نجاحاته كثيرة، بينما لم يكن كوخ يطلق إلا طلقة واحدة تصيب الهدف بلا مناقشة

في أكثر من مؤتمر التقى العدوان اللدودان كوخ وباستير، فكان باستير يدعو خصمه لمناظرة.. إنه يجيد الجدل والنقاش وقادر على قهر كوخ الذي لا يجيد الكلام، لكن كوخ لم يبتلع الطعم ولو مرة.. كان يبتسم من وراء المونوكل على أنفه ويقول:

- سوف أرد على المسيو باستير في ورقة علمية أنشرها قريبا..

الحقيقة أن كوخ فضح باستير مرارا وبرهن على أن لقاح الجمرة الخبيثة الذي صنعه غير مفيد ويقتل الماشية، ومليء بأنواع أخرى من البكتريا، وما كتب عنه يصلح لبيع قطعة أرض لكنه لا يصلح لتقديم كشف علمى مهم. لكن الفرنسيين بالطبع لم يصدقوا حرفا من كلام كوخ.. إنه ألماني فماذا تتوقع من ألماني؟.. هل يعتقد هذا الـ (كوخ) أنه استطاع أن يزيح ملكهم المقدس عن عرشه؟..

هاو هاو هاو هاو!!!

في هذه اللحظة سمعت عبير صوت النباح المجنون خيل لها أن هذا صدى صوت، ثم نظرت خلفها ففوجئت بالمنظر المرعب

هناك شرطي فرنسي يمسك بعصا من الحديد طويلة، وفي نهايتها كلب منكوش الشعر يعوى كالمجنون ويحاول الإفلات واللعاب يتطاير من فمه.. وثبت في هلع فوق المائدة غير مصدقة ما تراه الشرطي يسأل باستير بلهجة روتينية:

- أين يا دوكتيور؟

- أنا لست طبيبا!.. أنا كيميائي.. ضعه في المختبر كالعادة!

كان منظر الكلب مرعبا لكنه كذلك يثير الشفقة وهو يقاوم الجر بقائمتيه الأماميتين.. لكن لا جدوى.. وهنا أدركت (عبير) أنها تشهد أهم فصول حياة باستير.. مرض الكلب (بفتح اللام).. معنى هذا أن الكلب الذى مر جوار ساقها مسعور، وأن عضته تعني الموت بلا مناقشة

قال باستير وهو يجفف فمه بالمنشفة:

الكلب... الهايدروفوبيا Hydrophiba كما كان يسمى قديما، ومعناها الخوف من الماء، بسبب خوف المريض من شرب الماء لما يسببه له من ألم مريع.. هذا مرض وبيل لم يشف منه أحد في التاريخ، ومعنى الإصابة به هي الموت..

الحقيقة - كما سنعرف حالا - أن الوضع لم يتغير كثيرا عما كان وقتها

- ما زلت حتى اليوم أذكر صرخات البؤساء المصابين بالداء في قريتي، بعد ما عضهم ذئب مسعور.. أذكر كيف استن الأهالي قوانين تسمح لهم بإطلاق الرصاص على المرضى بالكلب.. هذه الصرخات لا تفارق ذاكرتي..

ثم قال لها وهو ينهض:

- تعالي معي إلى المختبر لنري ما يدون هناك..

6- كلاب وكوليرا وأشياء أخرى

كان المشهد أقرب إلى بيت رعب في الملاهي.. كل الأقفاص فيها كلاب هائجة تعوى بجنون وتتسلق القضبان الحديدية واللعاب يتطاير من أشداقها في كثافة تشعرك أنه ليس لعابا بل هو مناديل ورقية ممزقة

لكن هذا اللعاب كان خطيرا، وكان يحوى الفيروس بلا شك باستير لم يعرف هذا بعد

لقد صار هذا المختبر مركز استقبال كل كلب مسعور في باريس كلها

رأته عبير يتجه نحو قفص من الأقفاص فيخرج ماصة طويلة من الزجاج، ويأمر الخادم فيفتح شدقى الكلب بأداة تشبه أدوات طبيب الأسنان، ثم راح باستير يمتص السائل المخيف بالماصة ويبصقه في أنابيب اختبار مستحيل!.. لو أن هذا الفك المرعب أطبق على وجهه.. لو أن هذا الرذاذ المميت تناثر على عينيه، لو أنه أخطأ وابتلع اللعاب فهى النهاية

ثم إنه كان يقوم بحقن هذا السائل في الأرانب

كانت فكرة (رو) هي أن يصنع فجوة Trephine في جماجم الأرانب تكشف عن أمخاخها.. هذه الفجوة يمكن عن طريقها حقن المرض مباشرة في المخ.. إن (رو) جراح ويعرف ما يفعله، لكن (باستير) لم يتصور الفكرة أصلا:

- اخرس!.. تعذب كائنا حيا بلا مبرر وتثقب مخه؟.. أنت متوحش.. سوفاج!

هكذا اضطر (رو) إلى أن ينتهز فرصة سفر أستاذه ليجرى الجراحة على مخ كلب سليم، ويحقن المادة القاتلة فيه، وعندما عاد (باستير) من السفر لم يصدق ما يراه.. الكلب حي الكلب حي ويأكل ويلعب!.. وبعد أسبوعين سقط - الكلب لا باستير - ضحية داء الكلب اللعين، وهو خبر سيئ للكلب البائس لكنه انتصار بالنسبة لباستير

هكذا صار بوسعه أن يزرع المرض ويراقب التغيرات التي يحدثها في المخ.

قال لها باستير وهو يشعل سيجارا لينسي الرائحة الكريهة:

- الداء قاتل مائة بالمائة.. كل كلب قمنا بحقن مخه مات بلا مناقشة.. لابد من طريقة لإضعاف الجرثومة

قام بتجربة مثيرة، هي أن يعلق جزءا من مخ أرنب مات بالداء في أنبوب اختبار ليجففة. بعد أسبوعين من التجفيف حقن هذا النسيج في أمخاخ الكلاب.. تحملت الكلاب هذه المادة القاتلة مما يدل على أنها ضعفت كثيرا

بدأ يجفف أمخاخ الأرانب عشرة أيام.. تسعة أيام.. وفي كل مرة يحقن أمخاخ الكلاب بالمزيج الجديد. معنى هذا أن الجرعة التي كان يحقنها كانت تزداد قوة

يوما بعد يوم.

في اليوم الرابع عشر قام بحقن الكلاب بالمزيج القوى الحي المزيج الذي لم يفقد شيئا من قوته بعد.... لو لم تكن قد كونت مناعة ضد المرض فلسوف تموت حالا

وجلس يدخن السيجار وينتظر النتيجة.

قالت له (عبير):

- يبدو أن شعر رأسك قد ابيض تماما..

- من يبالي بهذه السخافات؟.. لا تنسى أنني على مشارف الستين إنني أشيخ.. أشيخ.. لم يعد العمر كافيا لتحقيق انتصار جديد..

لكنها كانت قادرة على رؤية شعر رأسه وهو يبيض.. إنه انتظار مرهق.. لو أن الكلاب ماتت فمعنى هذا أنه دخل في طريق مسدود ولا يعرف كيف يبدأ ثانية

لكن الكلاب لم تمت.. وبعد شهر ظلت حية تأكل وتلعب في أقفاصها

لقد انتصر الفرنسي العجوز

قالت له (عبير) في حيرة:

- معذرة.. ما زلت لا أفهم شيئا.. هل ستطعم الكلاب كلها؟

- لا.. فكرة غبية.. هناك 2.5 مليون كلب في فرنسا هل يمكن إعطاء كل كلب منها 14 حقنة؟.. ومن أين لي بالرجال والأرانب؟.. القصة هي أن المرض يحتاج إلى أسبوعين حتى يبلغ مخ الإنسان.. لذا سنطعم البشر الذين عضهم كلب... سوف يكسبون المناعة في وقت كاف قبل أن يصل الفيروس للمخ..

وجرب هذا مع الكلاب فكان النجاح ساحقا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- برقيات للمسيو باستير

قالها ساعي البريد وهو يناولها شيئا يشبه دليل هاتف الصين... أصابها الذعر فحملت هذا كله لباستير الذي كان يتناول الكرواسان والقهوة، فراح يقلب الخطابات:

- إمبراطور البرازيل يطلب اللقاح العظيم الذي اخترعته..... الأكاديمية البريطانية تطلب جرعات.. أم تقول:.... أنقذ ابني..... وسأدفع لك أي شيء تريد.. إنه ينتظر الموت.. أب يقول: سوف أزحف على ركبتي وألثم حذاءك لو....

شردت نظراته ونظر لها.. وانسكبت القهوة على الشرشف

- اللقاح آمن جدا مع الكلاب.. لكن لا أعرف الإنسان... أنا

هنا اقتحمت المكان امرأة دامعة مبعثرة الشعر، وفي يدها طفلها الذي يبلغ التاسعة من العمر.. اسمه (جوزيف) وسوف يعرفه العالم كله عندما يرى تمثالا له في مدخل معهد باستير لقد عضه كلب مسعور منذ يومين فلم يبق جزء سليم في جسده..

- انقذ ابني يا مسيو باستير..

ثم ارتمت في حضن عبير وراحت تهتز وتنهنه بقوة

وعندما رأى الأطباء العاملون معه الجراح فهموا ما هنالك.. هذا الطفل لن يعيش أبدا.. إنه ميت بالفعل.. لن يخسر شيئا لو جربنا.. هكذا اتخذت الأقدار القرار لباستير بدلا من أن يتخذه هو، وكانت هذه رحمة إلهية لا شك فيها

وفي هذا المساء - 6 يوليو عام 1885 - تلقي الصغير أول جرعة من لقاح الكلب.. أي أنه تلقى فيروسات تم تجفيفها 14 يوما

بعد 14 يوما أخذ آخر جرعة تتكون من الفيروس الذي جفف يوما واحدا فقط، ولم يحدث له شيء

هنا نلاحظ شيئا غريبا: إن الله يرعى هؤلاء المكتشفين فعلا؛ فلم يمت واحد من مرضاهم الأوائل بالحساسية.. لو أنك حقنت إنسانا سليما بمستحلب من مخ الأرنب لمات بالحساسية بالتأكيد. وبالطبع كنت ستصرف النظر عن هذه الفكرة لأنها خطرة، لكن إرادة الله شاءت أن ينجو الصبي جوزيف، كما نجا أول من تلقى حقنة بالإنسولين (وكانت عبارة عن مستحلب قذر من بنكرياس الكلاب)، وأول جرعة من البنسلين (وكانت مستحلبا قذرا من عفن الخبز) من الصعب اليوم أن نصدق أن ينجو شخص يتعاطى هذا (العك) لكن هؤلاء نجو.. وبالتالي نظر العلماء بجدية لهذه الفتوح

هكذا جاء العالم كله إلى (رو دوالم) يطلب الشفاء..

خرجت (عبير) إلى الشارع فرأت مشهدا عجبا حشد فلاحين روس كأنهم خارجون من روايات تولستوى القلنسوات الصوفية والفراء واللحى الطويلة.. كلهم قادمون من سمولنسك في سيبريا لأن ذئبا مسعورا عضهم.. هكذا جاءوا من روسيا قاصدين الرجل الوحيد الذي يملك إنقاذهم الكلمة الوحيدة التي يعرفونها من اللغة الفرنسية كانت:

- باستير!!

لم يستطع الرجل النوم، وظل ساهرا مع رجاله يعدون اللقاح بل إنه علم (عبير) الكثير من التقنيات كي تساعده. لقد أضاع الروس وقتا كثيرا أثناء قدومهم من سيبريا لذا اضطر إلى أن يحقنهم بجرعتين يوميا ليوفر الوقت

في النهاية نجا معظم الفلاحين الروس، وعادوا مظفرين لبلادهم.. أرسل القيصر الروسي صليب (القديسة آن) الماسى ومعه مائة ألف فرانك ليبني بها

معهد باستير المعهد الذي يعرفه الجميع اليوم.. المعهد الذي ما زال يقدم اكتشافاته للبشرية، حتى الإيدز وفيروس إنفلونزا الخنازير

* * *

في هذا الوقت كان (كوخ) في مصر يخوض مستنقعات من الكوليرا، ويشرح عشرات الجثث ممن قتلهم هذا الداء الوبيل المشكلة هي أن الوباء انحسر بسرعة درامية قبل أن يتمكن كوخ من عمل شيء، وإن كان قد وجد بكتريا غريبة تشبه حرف (الواو) قدر أنها المسئولة عن المرض، لكن هذا غير كاف

هكذا طلب من الحكومة أن ترسله إلى الهند ليلاحق الوباء

عرفت عبير هذا وعرفت أن المشكلة تزداد تعقيدا.. هو لا يملك الوقت الكافي لها

سوف يموت المرشد وتضيع هي.. لا شك في ذلك في الدير كان المرشد يرقد هناك جوار الجدار، وقد صار يبدو كجثة حية.. لا شيء فيه يتحرك سوى عينيه اللتين تلمعان بقوة، وكانت الانتفاخات تحيط بعنقه كأنه يلبس قلادة فريدة من نوعها. وقد تلوثت بدلته الأنيقة بالكامل.. أما الطفلة فكانت أفضل حالا نوعا لكنها لا تقدر على النهوض..

نظرت عبير إلى المكان الخالي المتسخ، والضوء يتسرب من النافذة عبر الغبار فيرسم خطوطا كأنها قاعة عرض في سينما هناك رهبان يرقدون جوار الجدار ومن الواضح أنهم ليسوا أفضل حالا..

قالت للمرشد وهي تسقيه بعض الماء:

- لا تقلق.. سوف نعرف ما دهاك..

بصوت مبحوح وشفتين أوشكتا على أن تلتصقا فلا تنفتحان أبدا قال:

- أنا خائف عليك.. لو أنني هلكت فمن الوارد ألا تعودى أبدا!

- أعرف هذا..

سعل كثيرا ثم قال:

- الوباء يزداد شراسة.. هناك الكثيرون قد ماتوا حول هذا الدير، والدير نفسه فقد ثلاثة من رجاله..

- وماذا أفعل إذا كان باستير وكوخ عجزا عن العثور على مسبب؟

- هناك غيرهما الكثير من تلاميذهما.. هما مشغولان جدا ومسنان.. جربى (رو) و(بيرنج) و(متشنكوف) و(لوفلر).. هناك ذلك الياباني ذو اليد الواحدة (نوجيوشي).. تذكري كذلك كلمات باستير الميكروب صغير جدا يمر من كل مرشحات البكتريا.. إذن هو فيروس على الأرجح..

ثم فرد ساقه.. رأت عبير وسط الجلد المتقيح الذي برزت شعيراته الدموية أثرا غريبا.. كأنه عضة.. عضة تذكرها بعضة الصرصور الذي عضها في طفولتها فملأت الدنيا صراخا هناك عضة أخرى في الساق اليسرى.. لكن ما معنى هذا؟.. هي لا تملك أية خبرة طبية

قالت عبير بعد تفكير:

- رو.. تلميذ باستير الجراح البارع.. سوف أخذ رأيه..

7- هل هي حشرة؟

كان (رو Roux) منهمكا في ذلك الوقت في سحب عينة من حلق صبى. صبي مسكين غلفت الدفتريا حلقه بذلك الغشاء الكريه الرمادي الذي يعني الموت خنقا.. حكم بالإعدام صدر على الصبي لا راد له.. لن يصل عفو من الملك أو رئيس الجمهورية، ولن يأتي فارس مسرع يصرخ: توقفوا! وهو يلوح بالعفو

يرقد الصبي متورم العنق أزرق اللون يجاهد من أجل الهواء الذي لن يصل لرئتيه، و(رو) يمد أنبوبا في حلق الصبي ليأخذ عينة من الغشاء القاتل.. من جديد نتذكر أن الدفتريا كانت مرضا لا علاج له، وكانت تنتقل بالتنفس شجاعة (رو) لا تختلف عن شجاعة من يمد يده في فم تمساح

نفس التجارب يجريها في ألمانيا شاب آخر متحمس هو تلميذ كوخ (بيرنج Behring).. ومن المصادفة العجيبة أن اسمى العالمين (إميل).. (إميل رو) و(إميل بيرنج).. وكلا (الإميلين) يعمل على بكتريا سبق أن فصلها وعرفها تلميذ كوخ (لوفلر).. لوفلر ذو الشارب الكث المنتصب الذي كان يعوقه عن النظر في عدسة المجهر

لا يمكن للوفلر أن يخطئ.. إن كوخ الرهيب.. كوخ القيصر يقف جواره ويراقب عمله ويصحح أخطاءه:

- خذ وقتك وتمهل.. الدفتيريا موجودة منذ الخليقة ولسوف تنتظرك.. لسنا مثل باستير الأحمق الذي يثب للاستنتاجات.. ليكن لك من نفسك ألد خصم لك.. لتنتقد نفسك طيلة الوقت وتشك في كل شيء تعمله.. وجه لنفسك أسئلة محرجة.. حاول أن تثبت أنك نصاب متعجل ومدعى علم!

الآن في فرنسا كان (رو) منهمكا في عمل مضاد لسم الدفتيريا وقد ساعده (يرسين yersin) العظيم.. يرسين الذي سيسافر الفيتنام فيما بعد ويكتشف البكتريا المسببة للطاعون، ولسوف يطلق عليها (باستوريلا بستس) تكريما لأستاذه، لكن العلم سيصر على أن يسميها (يرسينيا بستس) تكريما له هو

جلست (عبير) جوار (رو) وهو منهمك في حقن الأرانب بسم الدفتريا، وقالت له:

- هناك عدد من الناس يوشكون على الموت، وباستير وكوخ لم يجدا الميكروب المسبب.. هل يمكنك أن تساعدني؟

قال لها وهو يكتم نفسه كي لا يستنشق المسائل العين

- في الواقع أنا مشغول جدا.. إن (بيرنج) في ألمانيا يقترب من الوصول لمضاد الدفتيريا.. الوقت ضيق، وأنا أعرف تلاميذ كوخ هؤلاء.. إنهم لا يتعبون ولا يرتكبون أخطاء..

ثم تناول أنبوب اختبار به مصل رائق أصفر وقال:

- هل تعرفين ما هذا؟.. لقد قمنا بحقن سم الدفتيريا في الخيول لفترة طويلة حتى كونت أجساما مضادة ومناعة ضد هذا السم.. بعد هذا أخذنا دم الحصان واستخرجنا منه المصل حقن هذا المصل في الأطفال المصابين بالدفتريا أذاب الغشاء القاتل تماما. جعلهم يتنفسون!.. هل تفهمين هذا؟

بدت عليها الحماسة وهتفت:

- إذن أنت يا (رو) منقذ البشرية من الدفتيريا..

- ليس بالضبط.. (بيرنج) في ألمانيا توصل لنفس النتيجة في ذات الوقت.. لكننا قد وضعنا أساس مفهوم المصل.... المصل الذي يحوي أجساما مضادة ويعطى مناعة فورية.. لقد غيرنا التاريخ!!

- أهنئك..

أضاف:

- أقترح أن ترسمي كل الأحداث التي سبقت إصابة صديقك هذا.. لقد التقط العدوى من شخص ما في مكان ما.. ماذا حدث بالضبط قبل المرض؟..

* * *

بيردمون التراب، ثم تمشي الخيول فوقه لتدكه أكثر وتنطلق الحوافر مبتعدة، وعبير تقف وحدها في لا مكان لا تعرف أين تذهب.. لا تعرف ما تعتقده

لكنه دائما يأتي في لحظات كهذه

هذا هو يخرج من وسط الغبار والنقع.. يمشي وسط الحر ويخترق سحاب الذباب

المرشد

- لقد انتهت المغامرة يا (أليس) ولاقى المتنبي نهايته في سن الواحدة والخمسين.. يبدو أن علينا أن نرحل..

* * *

هتفت في دهشة:

- كنت في العراق.. ولكن هذه كانت قصة أخرى

نظر لها في عدم فهم.. ما معنى قصة أخرى؟.. هذا هو الواقع ولا واقع سواء بالنسبة له. كانت تستعيد الشريط في ذهنها:

- كان هناك مجموعة من القرامطة السفاحين الذين قتلوا المتنبي.. وكان هناك الكثير من الذباب.. هل تعتقد أنه من الممكن أن تنتقل العدوى من قصة لقصة

في فانتازيا؟

(رو) يهرش رأسه في حيرة.. لربما التقطت العدوى؟.. لكن من قال إن الدفتيريا تصحبها هلاوس؟

- هل تعتقد أن الذباب لعب دورا؟.. إن الذباب الصحراوي يلدغ..

رفع حاجبيه في عدم فهم، ثم قال:

- الحشرات لا تنقل الأمراض.. هذا معروف..

صاحت في غيظ:

- يا سلام!!.. والملاريا والليشمانيا والحمى الصفراء وحمى الوادي المتصدع والطاعون الراجعة و......؟

هناك حزمة كاملة من الفيروسات تنقلها الحشرات، ويطلقون عليها اسم ARBO فكيف لا يعرف ذلك؟

ثم أدركت الحقيقة.. هذه أشياء لم يعرفها الطب بعد.. لم يتصور أحد أن تنقل الحشرات أي مرض، وظل هذا لغزا حتى اكتشف اللغز من يدعي... من يدعي

لقد نسيت الاسم

قالت وهي تنهض مغادرة المختبر الذي يعج بالدفتيريا:

- شكرا لك.. سوف أواصل البحث

* * *

كانت تركض في الحقل متجهة إلى البقعة التي سقط فيها المرشد مريضا.. الطبيعة ساحرة غناء، وهي للمرة الأولى ترى حقولا من الأزهار

لكن هناك شيئا غريبا.. الريف هو الريف في كل مكان الريف أوروبي الطابع، لكنه ليس الريف الألماني ولا الفرنسي كما كانت الأمور

بدأت تبطئ من ركضها وتنظر حولها.. كانت تلهث بلا توقف .. هنا سمعت أطفالا يلعبون لعبة تشبه لعبة (افتحي يا وردة) المصرية.. لكنهم كانوا يغنون أغنية ذات مقاطع إنجليزية واضحة. إنها في إنجلترا إذن... (جلوسسترشاير) بالتحديد

هناك كان جالسا في حديقة بيت ريفي.. تحيط به مجموعة من الفتيات الفاتنات اللاتي يلبسن كالفلاحات، ولو كانت عبير أكثر خبرة لأدركت أنهن يلبسن ثياب حالبات الأبقار

هناك أم تتقدم نحوه وهي تشمر عن ذراع ابنها الصغير الصغير يبدو مذعورا لا يريد أن يتقدم، لكن الطبيب الشاب ذا الوجه المرح الطفولى نوعا يقول له:

- لا تخف.. ألم تلمس شوكة الوردة من قبل؟.. الأمر هنا أقل إيلاما..

ومد يده ليضع قطرة من السائل على ذراع الصبي، ثم مد يده وأحدث خدشا بدبوس فشهق الصبي، لكنه قاطعه صائحا في مرح:

- لم تشعر بها.. أليس كذلك؟

بالطبع تألم الصبي كثيرا لكنه خضع للإيحاء وأقنع نفسه أنه لم يشعر بألم، وقالت الأم للطبيب وهي تثنى ساقيها في حركة أنيقة:

- شكرا د. (جنر)..

هتفت (عبير) وهي تتقدم منه منبهرة:

أنت (إدوارد جنر Jenner) مكتشف التطعيم!... أنت من خلص العالم من داء الجدري القاتل!

ابتسم في تواضع وقال:

- أنا مجرد طبيب أرياف..

- كذلك كوخ..

- وجدت أن البنات اللاتي يحلبن الأبقار لا يصبن بالجدرى أبدا.. السبب أنهن تعرضن لإصابة سابقة بداء (جدري البقر) من البثور الموجودة في ضرع البقر.. معنى هذا أن الإصابة بفيروس جدري البقر - وهي لا تؤذى الإنسان - يمكن أن تحمي الإنسان من الجدري البشري القاتل.. هكذا صنعت هذا السائل من بثور جدري البقر وأقوم بجرح الجلد لأجعله يتسرب إلى أوعية اللمف.. بعد قليل يصير الطفل مقاوما للجدري..

نظرت عبير لأعلى ذراعها فلم تجد شيئا على جلدها لا توجد ندبة.. إذن هي لم تتعاط هذا اللقاح.

قال (جنر):

- هذا طبيعي.. لقد اختفى وباء الجدري من على ظهر الأرض منذ العام 1974.. لم تعد هناك ضرورة للتطعيم

هل

ترغبين في أخذ جرعة على سبيل (الاستخسار)؟

- لا شكرا.

- لقد برز مفهوم اللقاح للوجود.. العلم أطلق على العملية اسمه Vaccination نسبة للفظة Vacca اللاتينية بمعنى (بقرة)..

كان مسرورا من نفسه فعلا، لكن لا لوم عليه.. هو فعلا قد غير تاريخ الطب كما غيره (رو) بمفهوم المصل.. لابد أنك تذكر جدول المقارنة بين المصل واللقاح في كتاب العلوم بالمدرسة. يكفي أنك ترى في كل مكان أناسا مسرورين من

أنفسهم بلا سبب يبرر هذا.. هناك من هو مسرور بنفسه بسبب شاربه الكث أو سيارته أو طريقته في التدخين.. من الجميل أن تسمح لمن هو مثل (جنر) أن يسر بنفسه قليلا

سألته وهي تجلس على العشب الجميل اللين:

- هل لديك فكرة عن انتقال الأمراض بوساطة الحشرات؟

فكر قليلا ثم قال:

- عليك ب (ثيوبالد سميث).. هل تتضايقين من الأمريكان؟.. لا؟.. جميل.. جميل.. بعض البريطانيين لا يتحملون الأمريكان و(سميث) منهم.. يبدو أن يومك سيعج بالأبقار!

8- مرح مع القراض

(ثيوبالد سميث Theobald Smith).. هذا هو الاسم الذي غاب عن ذهنها.. الطبيب الأمريكي الذي برهن على أن الحشرات قد تنقل الأمراض

تكساس.. كأنك ترى مشاهد من فيلم رعاة بقر.. رعاة الأبقار بالأنشوطة والقمصان الكاروهات وسراويل الجينز يلاحقون الأبقار هنا وهناك.. طلقات رصاص و(يبى ى ى ى!)..

كان هناك قطيع من الأبقار يتقدم ويبعثر الغبار في كل مكان. وكان هناك رجل يركب حصانا ويلوح بقبعته صارخا:

- كى يبى آى بى!!!

ثم يمد يده لقرابه فيخرج زمزمية ماء ويجرع منها جرعات تغرق صدر قميصه، ويرفع المنديل على أنفه من جديد. راعى بقر عادي جدا من الذين تعج بهم هذه القصص، حتى توقعت عبير أن يبرز بعض قطاع الطرق ويتم تبادل الرصاص

دنت منه وصاحت ثم سعلت بسبب الغبار، وبصقت وعادت تصيح:

- أين أجد د. (ثيوبالد سميث)

هتف وهو ينزل المنديل الذي يسد به أنفه

- أنا هو.. ماذا تريدين؟

كان هذا أغرب طبيب رأته في حياتها.. والأهم أنه لا يتكلم بلكنة الغرب.. لكنه كان قد تعلم عادات وطباع رعاة البقر منذ أوفده مكتب صناعة اللحوم في واشنطن لدراسة الكارثة التي تحوم حول القطعان هنا.

قالت له وهي تبصق الغبار:

- ما زلت لا أفهم المشكلة التي تحيركم...

نادي عجوزا نحيلا من الطراز الذي يحمل زجاجة خمر دائمة، ولا توجد سن واحدة في فمه، وقال:

- العم مكماهون العجوز سيشرح لك

قال (مكماهون) بطريقة رعاة البقر التي تمط الكلمات، وهو يدس أنامله في حمالتي السروال:

- الماشية.. الجدعان يسمونها حمى تكساس.. فلأشنق إن لم يكن لوسيفر العجوز موجودا هنا.. عندما نأتي بقطعان أبقار من الشمال إلى الجنوب تمرض وتموت.. وعندما ننقل أبقار الجنوب إلى الشمال فإنها تظل سليمة لكن أبقار

الشمال تمرض وتموت إنها تسقط على الأرض كهندي أحمر من الشيين تلقى رصاصة في بطنه، وتكف عن الأكل.. فلتأخذنى مصيبة إن كنت أفهم ما يدور هنالك.. الدوك جاء هنا يحاول فهم المعضلة..

ترجل (سميث) من على صهوة الجواد، وقال لها وهو يقودها إلى كوخ صغير:

- لابد أن حلقك يشبه حذاء (جيرونيمو).. تعالي اشربى شيئا..

في الكوخ ناولها مغرفة حلة ملأها من برميل مليء بالماء، وقال:

- لقد كنت معجبا بكوخ علمت نفسى الألمانية، ثم عكفت على كل شيء كتبه ذلك العبقري الألماني.. بدأت أزرع الميكروبات بطريقته ولدي مختبر لا بأس به..

قالت له:

- أنا أريد مساعدتك في فهم كيفية إصابة صديق لى بوباء مخيف.. هناك لدغات حشرات على ساقيه.. هذا ما دفعني أن أشك في

- نحن لم نثبت شيئا بعد.. ما زلت أجرب.. هل استرحت؟.. تعالي معي إلى المرج..

هكذا عادت من المرج ثم عادت إلى المرج هذه المرة أعطوها جوا\ا أسود لطيفا وسرجا جانبيا يناسب النساء. كانت الماشية الشمالية هناك في المرعى.. رباه!.. لا يجب أن تملك خبرة بيطرية كي تدرك أنها في أسوأ حال.. تبول على نفسها فينزل البول أحمر كأنه الدم.. لا تأكل بتاتا وإنما ترمق القادمين بعيون تشي بالموت القادم

قال لها (سميث) في تأثر:

- ماشية شمالية.. لم تتحمل أن توجد في مرعي جنوبى.. إنها تموت خلال أيام. لكن العكس غير صحيح.. لو نقلنا ماشية الجنوب لمراع شمالية فإنها تظل سليمة، لكن الماشية الشمالية تموت!

قالت وهي تحك رأسها:

- مسألة منطقية غريبة.. لا تفسير لها سوى أن ماشية الجنوب تحمل لعنة ما..

أخرج العم مكماهون العجوز غليونه المصنوع يدويا، وحشاه بالطباق ثم أطلق سحابة كثيفة وقال:

- الفلاحون يتحدثون عن قراضة.. حشرة قراض تعيش على الأبقار وتنقل حمى تكساس.. سام العجوز في الحانة قال لى هذا، وهو رجل طيب إن لم يفرط في احتساء الخمر فلأشنق إن لم يكن طيبا..

قال سميث مقاطعا العجوز الذي ينوي أن يثرثر إلى ما لا نهاية:

- طبعا الأطباء يقولون إن هذا كلام فارغ.. لكني وثقت في الفلاحين.. إنهم من

يقضي كل حياته مع الماشية إنهم من يطعمها ويولدها ويدفن الميتة منها.. إنهم يعرفون كل شيء عن الماشية، أكثر بالتأكيد من طبيب يعيش في مكتبه وسط المراجع

وجدت منطقة محاطة بالسياج ورأت سميث يقتاد لها ثلاث أبقار جنوبية سليمة لكنها مغطاة بحشرة القراض، ثم جاء بست أبقار شمالية سليمة ووضعها معها قال لها:

- سنبدأ الجزء القذر من العملية!

كانت هناك ثلاث أبقار جنوبية أخرى امتلأت بالقراض فجلس في الشمس الحارقة مع ثلاثة رجال آخرين، وراحوا يلتقطون الحشرات بأناملهم.. ثم يلقونها في دلو من المطهرات لتموت.. عملية (تفلية) ضخمة معقدة جدا ينزعون الحشرات الملتصقة بالشعر والمتوارية في كل ثنية من جسد البقرة.. البقر يعض ويركل بلا توقف محتجا على هذا الانتهاك لجسده. واضطرت عبير في اشمئزاز إلى أن تساعد قليلا.. كان العرق يبلل ثيابها ويتساقط من أرنبة أنفها وهي تنزع الحشرات القذرة من فراء الأبقار.. عدد لا نهائى

في النهاية صارت الأبقار نظيفة تماما، هكذا نقلها إلى منطقة أخرى محاطة بالسياج ووضعوا معها أبقارا شمالية سليمة

النتيجة.. الأبقار الشمالية في السياج الأول أصيبت بالقراض ثم بدأت تكف عن الأكل وتموت. في السياج الثانى ظلت تأكل وترعى العشب

قام (سميث) بإخلاء السياج الأول، ثم نقل له بعض الأبقار الشمالية السليمة من السياج الثاني.. واستطاع أن يرى كيف يتسلق القراض سيقان الماشية ويبدأ في اللدغ.. وكيف بدأت الماشية تمرض...وتموت

قالت له (عبير):

- إذن القراض ينقل المرض من ماشية الجنوب لماشية الشمال.. فلماذا لا تمرض ماشية الجنوب؟

قال لها وهو يفحص قراضة تحت المجهر:

- لأن كل ماشية الجنوب تحمل القراض منذ صغرها.. لقد أصيبت بالمرض في سن صغيرة، وبالتالي صارت منيعة ضده.. إنها تحمل المرض ولا تصاب به.. هكذا يمكننا القضاء على حمى تكساس لو كافحنا القراض..

ثم تنهد وقال:

- ليس المهم أننا قضينا على حمى تكساس... الأهم أننا برهنا على أن الحشرات تنقل البكتريا والميكروبات.. ليكونن هذا فتحا طبيا جديدا!

كان ذلك الطبيب العسكري البريطاني واقفا يصغي، فلما سمع هذا الجزء نهض واعتمر قبعته في مرح.. وصاح:

- هذا ما كنت أريد سماعه!... أنا ذاهب إلى جنوب أفريقيا لأكتشف سر مرض النوم!

قال لها (سميث) باسما:

- هذا هو ديفيد بروس Bruce..

وقاطع الحديث رجل ذو شارب كث يبدو طبيبا عسكريا آخر

وهتف:

- أنا ذاهب للهند ثبت أن البعوض ينقل الملاريا!

قال سميث مفسرا:

- وهذا هو (روس Ross) البريطاني.. لقد قدم اكتشافى الجواب لكل هؤلاء..

قالت له في حزن:

- يبدو أن الجميع سعداء باستثنائى.. ما زلت أعيش في لغز

قال وهو يعتمر قبعته ويركب جواده:

- تعالى لترى (والتر ريد).. إنه قد يملك الإجابة

٩- والتر ريد

نحن في فانتازيا، لذا يمكن أن نتصور رحلة على ظهور الخيل من تكساس إلى غابات كوبا.. هذا شيء سهل جدا كما نرى..

نحن الآن في قاعدة أمريكية في كوبا عام ١٩٠٠.. بالتحديد سان كرستوبال دى هابانا

رفع (سميث) يده مودعا وقال لعبير:

- سوف تجدين د. (والتر ريد Reed) هناك.. سلام خذي الحذر فقد تلقين حتفك بسهولة..

ثم ضرب خاصرتي الحصان، فانطلق يرمح مبتعدا

مضت (عبير) وسط الأدغال الاستوائية لا تعرف إلى أين تذهب حقا.. أشجار متشابكة في كل مكان، حتى بدأت تقلق، فعلا.. المرشد مريض وربما مات، ومعنى هذا أنها قد تضل طريقها بلا رجعة

هنا فوجئت بجنود أمريكان يحيطون بها وهم يلوحون بسلاحهم.. جنود في ثياب بداية القرن العشرين طبعا..... رفعت يديها وهتفت:

- أبحث عن الميجور (ريد)..

هكذا أمسك أحدهم بلجام الحصان واقتاد جوادها عبر المستنقعات إلى مرتفع صغير.. هناك وجدت معسكرا كاملا وكانت هناك خيام ومتاريس

(والتر ريد) نفسه كان شابا ممشوق القوام عليه ملامح العسكريين التي لا تخطئها العين.. أهم طبيب عسكرى امريكى على الإطلاق وربما أهم طبيب كذلك، وفيما بعد سوف ينشئون مستشفى (والتر ريد) العسكري تكريما له. وقد خرج من خيمته ليلقي نظرة على هذه الزائرة الغريبة، فقالت له:

- جئت أطلب عونك..

قال في جفاء وهو يمضغ السيجار:

- لا وقت لدينا.. نحن في كارثة حقيقية هنا..

ودخل خيمة قماشية منصوبة هناك فتبعته في حذر. وليتها لم تفعل

لقد رأت الكثير من المرضى منذ بدأت هذه المغامرة، لكنها اهتزت فعلا عندما دخلت هذه الخيمة التي امتلأت بالجنود الأمريكان المرضى. كانوا صفر الوجوه والعيون في أتعس حال ممكن، وكان بعضهم يقيء بلا توقف فيفرغ مادة صفراء مقززة على الأرض. البعض كان ينزف بلا توقف من أنفه وفمه البعض امتلأ جلده بالبقع الزرقاء التي تدل على نزف تحت الجلد

كل شيء قذر.. كل شيء مخيف.. كل شيء ملوث..

كتمت أنفاسها بالمنديل لأنها شعرت بأن المرض يتسلل إلى أحشائها، فقال ريد:

- لا ينتقل بالهواء.. لا تقلقي.. وأكون شاكرا لو أخفيت معالم الجزع عن وجهك أمام جنودى الشجعان هؤلاء..

قالت دون أن تبعد المنديل:

- ما الذي لا ينتقل بالهواء؟

- وباء الحمى الصفراء!.. إنه يجتاح المنطقة ويكلفنا جنودا يفوق عددهم أي قتال..

- وهل وجدت الميكروب المسبب له؟

- لا.. شرحنا عشرات الجثث بلا جدوى.. يبدو واضحا أن المسبب له فيروس؛ لهذا لا نراه بالمجهر.. والمشكلة أننا لسنا واثقين من كيفية انتقاله..

- قيل لي إنك تتهم الحشرات

- الأهالي يتهمون البعوض لكننا لم نتأكد من ذلك..

ثم خرج معها إلى خارج المعسكر.. كانت هناك ساحة ممتدة أقيم بها كوخان من خشب. وقف أمام الكوخ الأول ودق الباب انفتحت كوة صغيرة وأطل وجه جندي أمريكي له شارب كث من وراء شبكة من السلك

- كيف الحال يا (دونالد)؟

- بخير يا سيدى ٠٠

نظر لعبير التي لا تفهم وقال:

- هذا هو الكوخ (1).. إنه أقذر مكان يمكن تصوره لقد بعثرنا فيه الغبار من عنابر الذين ماتوا.. فرشاه بوساداتهم وأغطية فراشهم الملوثة.. الأكل هنا يتم بأطباق وملاعق من ماتوا..

هتفت عبير وهي توشك على إفراغ معدتها:

- يع ع!.. ومن المجانين الذين قبلوا هذا؟

- هم جنودى الشجعان.. طلبت متطوعين فوجدت..

- هذا الكوخ إذن وسيلة تعذيب سادية..

- فيه كل شي مقزز أو بشع.. لكن فيه مزية واحدة هي

أنه ليست فيه بعوضة واحدة.. لا يمكن أن تدخله بعوضة

ثم اتجه إلى الكوخ الثاني ودق الباب فأطل وجه جندي من الكوة

- هل أنتم بخير يا (جيرالد)؟

- (ويليام) ليس على ما يرام يا سيدي..

استدار ريد لعبير يشرح لها:

- هذا هو الكوخ (ب).. مكان نظيف مغسول بعناية بالمطهرات.. ملاءات نظيفة وآنية معقمة.. كل شيء رائع فيما عدا شيئا واحدا

قالت في ذكاء:

- البعوض حر في الدخول والخروج!

- لقد فهمت اللعبة!...

وهكذا بعد يومين اصطحبها إلى الكوخ الأول وفتحه.. كانت القذارة بالداخل لا تصدق فعلا، وكان الجنود بالداخل في أسوأ حال من الاشمئزاز والتقزز.. لكنهم كانوا سالمين

اتجه للكوخ الثاني وفتحه.. وعلى الفور سقطت جثة جندي كانت تستند إلى الباب.. وعلى شفتيه قيء دموي جاف وبنظرة عابرة على الكوخ أدركت عبير أن كل الجنود مرضى منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.. يبدو أن التجربة نجحت فعلا

قال ريد وهو يفرك يديه حماسة:

- البعوضة هي الشيء الذي ينقل فيروس الحمى الصفراء

لقد مات هؤلاء الشجعان كى يخلصوا العالم من هذا الكابوس لم يعد هناك مجال للشك، وبرغم هذا لابد من أن أتأكد أكثر

وهناك في خيمته راح يبحث حتى أخرج مخبارا زجاجيا مغلقا مليئا بالبعوض.. بعوض حي يحاول الفرار بلا جدوى.. وضع المخبار على جلد ساعده وأزاح الغطاء وتأوه في ألم ونشوة..

قالت (عبير) في ذهول:

- ما الذي تفعله بالضبط؟

- آخر لمسة من التأكد..! لقد جمعنا هذا البعوض من خيام مرضى الحمى الصفراء!.. لا شك أن كل بعوضة مثقلة بالفيروس..

- لكن هذا جنون!

- ليس بالضبط... أشك في أن تقتل الحمى الصفراء رجلا قويا مثلي!

بدا لها سخيفا جدا.. لقد أثبت نظريته ولا مجال للشك، لكن ما يقوم به انتحار

أكيد.. والحقيقة أنه أصيب بالحمى الصفراء منها ونجا منها بمعجزة ما، بينما مات مساعدوه.

أعاد غلق المخبار وقد امتلأ ساعده بالثقوب الحمر الصغيرة.

فقالت عبير وهي تجفف عرقها بسبب الرطوبة والحرارة الشديدة:

- ميجور.. من الواضح أنك ستموت بسرعة لذا أريد إجابة سريعة بصدد المشكلة التي أواجهها

وراحت تحكي له قصتها مع المرشد والمرض العجيب الذي أصابه

أشعل سيجارا كوبيا غليظا كريه الرائحة وراح يصغي لما تقول، وكان الظلام قد بدأ يحل فنهض ليشعل مصباح الكيروسين.. أشعل شمعة وثبتها في طست معدني ثم ملأ الطست بالماء ووضعه على المكتب. راح البعوض يحوم حول النار فيسقط في الماء أو يحترق.. هذا هو الصاعق الكهربي الخاص بذلك العصر

في هذا الجو الملوث قد تعني لدغة البعوضة حياتك نفسها

قال لها لما انتهت من قصتها:

- من الواضح تماما أنك تتحدثين عن فيروس.. فيروس ينتقل بلدغة الذباب.. ولكن ما يثير دهشتي أن هذا الوباء لم يكن معروفا في تلك البقعة من بلاد بين النهرين.. هناك من جاء به.. هل كان هناك أشخاص غير عرب في المشهد؟

فكرت قليلا في الموضوع ثم قالت وهي تتأمل جثث البعوض السابحة فوق الماء:

- هناك خادم هندي كان مع القرامطة.. هذا هو ما أذكره..

قال لها:

- لو أردت رأيي.. الهند تعج بالأوبئة الغريبة.. لقد جاء الخادم بالوباء معه، وهذا الوباء انتقل لصديقك والآخرين عن طريق لدغ هذا الذباب. أقترح أن تصممي تجربة مماثلة لتجربتي هذه.. لابد أن تذهبي هناك وتواصلي البحث..

وهل يظل المرشد حيا إلى أن تعود بالجواب؟

كانت تعرف الإجابة: الغرض من هذا كله ليس جعلها تنقذ المرشد، ولكن جعلها تقابل أكبر عدد من الصيادين وأن تعرف ما يقومون به

تعرف أنها ستذهب للهند سواء أرادت أو لم ترد، لأن فانتازيا تحتم ذلك.

10- الموت يأتي من الجانج

عندما رست السفينة بها على سواحل الهند، وعندما رأت (كلكتا) من بعيد، خطر لها أنها زارت الهند أكثر من أية دولة أخرى في فانتازيا.. إن الهند حلم حي لا يمكن تجاهله حلم حار حريف المذاق له رائحة البخور والعرق والأمطار الموسمية

لكنها غير رائقة المزاج هذه المرة.. لا تعرف من أين تبدأ ولا أين تذهب بالضبط عليها أن تجد خيطا تبدأ منه

عندما مشت في شوارع كلكتا الموحلة التي أغرقتها الأمطار وسط الفقر والأطفال العراة والمتسولين المصابين بالجذام، لاحظت أن كل شيء ليس على ما يرام.. البلد ليس رحبا على الإطلاق.. هناك مشكلة ما

كانت هناك خيام منصوبة، ورجال يركبون عربات عتيقة بدائية ينقلون لها أجسادا مغطاة بملاءات بيضاء

من بعيد ترى سحابة دخان تتعالى إلى الأفق من فوق تل، وبرغم أن المشهد بعيد فليس من الصعب أن تخمن أن هذه محرقة جثث

يبدو أنها جاءت في قلب وباء مريع

مضت بين الخيام لا تعرف إلى أين تتجه، هنا اصطدمت بذلك الرجل الغربي ذي اللحية والمونوكل، وكان يحمل في يده أنبوب اختبار

نظر لها ونظرت له ثم هتفت في فرح:

- هر كوخ!... أما زلت في الهند؟

- وأنت تلك الفتاة النحيلة.. نسيت الاسم

- أنا لم أقل اسمى قط

- شون.. شون.. كانت لديك مشكلة فهل وجدت الحل؟

- لا.. وأنت؟

- اقتربت جدا..

كانت قد نسيت أن (كوخ) في الهند الآن. لقد بحث في مصر جيدا لكن الوباء كان قد انحسر، من ثم طلب من الحكومة أن توفده إلى الهند للبحث عن الوباء. كان قد وجد البكتريا الشبيهة بحرف (الواو) أو (الشولة) في كل حالة مصابة بالكوليرا تقريبا لكن هذا غير كاف بالنسبة له كما نعرف

كان هناك عنقود عنب مغرى الشكل في طبق جوارها فمدت يدها تلتقط حبة،

هنا هوت يده تصفع يدها وصرخ في عصبية

- مجنونة... لا تتناولي أية فاكهة أو خضر طازجة لا تأكلى أي شيء لا يتصاعد منه الدخان.. لابد من عصر ليمون على الماء قبل شربه وربما غليه كذلك!... إن الموت ينتظر في كل ركن هنا!

- آسفة..

قال لها وهو يدخل خيمة رقد على أرضها الرطبة عشرات من الهنود المرضى الذين لم تبق نقطة ماء في عروقهم:

- قمت بتشريح أربعين جثة.. في كل مرة أجد البكتريا الواوية

- وهذا لا يثبت شيئا حسب قواعدك..

- نعم.. لهذا صار على أن أضع هذه البكتريا في مزرعة ملائمة، وقد نمت جيدا على حساء اللحم

لقد بحث عن هذه البكتريا في نهر الجانج وفي الآبار الملوثة التي يشرب منها الهنود

وجدها.. وجدها بكثافة.. وعرف كيف أنها تنتقل عبر شرب هذا الماء الملوث لتصيب البشر، ثم تنزل مع إفرازاتهم لتصيب سواهم ..

- إن نهر الجانج ينشر الكوليرا في العالم كله، لكن لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة للهندوس لأنه نوع من الحج المقدس بالنسبة لهم.. لا أعتقد أن وباء كوليرا في العالم لم يبدأ من نهر الجانج

قالت له (عبير) في انبهار:

- أنت فعلا قيصر الطب..

قال في لا مبالاة حقيقية:

- كلام فارغ.. كل ما قمت به هو أنني بحثت في أماكن لم يبحث فيها أحد قبلى، لهذا كان الذهب مكوما بانتظار من يجده..

هذه هي تقريبا ذات العبارات التي سيقولها للإمبراطور وهو يتلقى وسام التاج عند عودته إلى ألمانيا

أمسك بأنبوب مليء بالميكروب المميت في فخر وقال:

- هذا الأنبوب به كوليرا تكفي لقتل جيش الإسكندر المقدوني..

قبل أن يكمل الكلام كان رجل ملتح أخر قد برز من مكان ما وانتزع الأنبوب من يده، وقال ضاحكا:

- كلام فارغ.. الكوليرا لا تنتقل بالبكتريا ولكن تنتقل بالـ Disposition..

لا تسأل من فضلك عن معنى هذا ال Disposition.. فقد كانت الموضة هي أن يجد كل عالم مصطلحا كبيرا موحا ويعلن أن هذا هو التفسير لكل شيء

أصلح كوخ من وضع المونوكل على عينه وقال في غلظة:

- د (بيتنكوفر).. كف عن هذا السخف وأعد لى الأنبوب لا أعرف ما هذا ال Disposition الذي تتكلم عنه وليس لدي مزاج رائق لسماع هذه النظريات الفلسفية.. أنا رجل علم..

قال بيتنكوفر وهو يفتح الأنبوب:

- سوف أبرهن لك على أنك مخطئ بطريقة عملية..

- أنت مجنون.. لا تفعل!

- سوف أشرب الأنبوب كله أمام عينيك ولن يصيبني شيء!

صاح كوخ في جنون:

- قلت لك إن كمية البكتريا هنا تكفي لقتل جيش!

ببساطة قرب الرجل الأنبوب من شفتيه وشرب كل محتوى الأنبوب.. وقال وهو يلعق شفته السفلى:

- لقد ذقت ما هو افضل.. لكن لا وقت للتلذذ فنحن نجرى تجربة علمية..

نظرت عبير للرجل غير مصدقة هذا الانتحار ونظرت لكوخ الذي بدا وقد خارت قواه تماما.. فقط راح يردد في وهن:

- غبي.. جاهل..

قال بيتنكوفر وهو يبتعد:

- أرجو أن تضيف لمزارعك بعض السكر في المرات القادمة.. أوف فيدرزين..

وما لم تعرفه عبير هو أن الرجل لم يمرض!.. لم يصب حتى بمغص.. وهذه من الألغاز الطبية العجيبة.. حاول الأطباء فيما بعد تفسير الأمر بأنه كان مصابا بحموضة زائدة في المعدة، ومن المعروف أن بكتريا الكوليرا هشة جدا بالنسبة للحموضة فلا تتحمل أي ارتفاع فيها، ولهذا يعصرون الليمون على كل شىء يؤكل.. لكن هل هو تفسير كاف؟

قال لها كوخ وهو يتحسس لحيته:

- هناك شيطان يطارد العلماء يحاول أن يثبت أنهم مخطئون... وهذه القصة نموذج علي ذلك و لكن هذا العمل البطولي لن يغير من الحقيقة شيئا.. ان النار تحرق حتى لو مد أحد المشعوذين يده فيها فلم تحترق...

ثم طهر يديه وتأبط ذراعها في رفق بيد ترتجف من الشيخوخة، ومشي مبتعدا

عن الخيام الرهيبة.. وسألها:

- ماذا تنوين عمله الآن؟

- سوف أبحث عن ذلك الوباء الذي سألتك عنه.. هناك ذبابة معينة أشك فيها كثيرا.. ثمة ما يجعلني أشك في أن العدوى جاءت من الهند، وأن هذه الذبابة هي التي نقلت العدوى..

- الحشرات لا تنقل الأمراض

- ليوبالد سميث برهن على العكس.. في مومباى الآن ستجد (روس) يثبت أن البعوض ينقل الملاريا..

هز رأسه مفكرا ثم قال:

- يبدو أنني أشيخ فعلا.. إنني أعيش الدقائق الأخيرة في مسرحية حياتي قبل نزول الستار.. لست قادرا على مساعدتك البتة لكني أعرف من يستطيع..

تنهدت في إرهاق.. هذا بحث مضن جدا وفي كل مرة يعطيها أحدهم خيطا لا يقود إلا إلى طرف خيط آخر

كان طرف الخيط هو طبيب ألماني لم يحتفظ لنا التاريخ باسمه، ولم يسمع عنه سوى قراء فانتازيا.. إنه صديق كوخ د. (هوفمايشتر) وهو رجل ملتح نحيل يبدو مريضا هو نفسه ويعرق بلا توقف، وهو هنا لا لملاحقة الكوليرا لكن لملاحقة مرض غريب آخر

قال لها وهو يبحث في دفاتره:

- هناك عشر حالات في هذه القرية.. حمى ورجفة.. احمرار في الوجه.. غدد لمفاوية منتفخة. بلغم أزرق، قيء أزرق.. عرق غزير.. مغص شديد هل هذه الأعراض تذكرك بشيء؟

نظرت له في لهفة وصاحت:

- إنك تصف ما حدث بالضبط!!

- طريقة الانتقال مجهولة تماما بالنسبة لي.. جربت كل شيء.. لكن الداء ينتقل بسرعة كالبرق

قالت في حماسة:

- لأن الذباب الصحراوي هو من ينقله.. أنا شبه متأكدة من ذلك..

هز رأسه غير مصدق وقال:

- الحشرات لا تنقل الأمراض..

- بل تنقلها وقد صار ذكر هذه الحقيقة مملا فعلا..

قال وهو يراجع أوراقه:

- هناك من يصاب بالمرض لكن الأعراض لا تبدو عليه يظلون مستودعا للعدوى يصيب الأصحاء.. على كل حال أنا أطلقت على هذا المرض الجديد اسم (حمي كلكتا)..

قالت في حماسة:

- سوف أساعدك.. أريد قدرا كبيرا من عينات هؤلاء المرضى.. كانت لدى عينات لكن (كوخ) و(باستير) استهلكاها.. في نفس الوقت أريد عمل تجربة معينة..

* * *

احتاج الأمر إلى كثير من الترتيبات ودفع أجر للمتطوعين وفي النهاية قامت (عبير) بتصميم كوخين من الأخشاب وبقايا المخلفات.. في الكوخ الأول أحضرت مجموعة من عينات من أصيبوا بحمي كلكتا وملاءاتهم وأدواتهم.. تأكدت من أن الكوخ مغلق بعناية بالسلك ولا يمكن لذبابة أن تدخله، ثم جعلت ثلاثة متطوعين من الهنود يقيمون فيه... برغم القذارة العامة للمكان الضيق فإن فقر هؤلاء القوم جعلهم يعتقدون أنهم في نزهة أو فندق فاخر.. وقد وجهوا لها الكثير من عبارات الشكر:

- شوكريان!!

الكوخ الثاني تأكدت من أنه نظيف تماما، لكن الذباب كان قادرا على الدخول والخروج ووضعت فيه ثلاثة متطوعين آخرين

قال لها د. (هوفمايشتر) في ذهول:

- بروتوكول محكم فعلا... عقليتك علمية دقيقة!.. هل هذا بسبب الفترة التي قضيتها مع كوخ العجوز؟

لم تخبره بالمكان الذي تعلمت فيه هذا الأسلوب، فهي من القلائل الذين حضروا تجربة ريد الرهيبة، وقالت في فخر:

- أي شخص ذى تفكير منطقي سليم سيفكر بالطريقة ذاتها!

بعد أسبوع فتحت عبير الكوخ الأول فوجدت أن الهنود الثلاثة بخير حال.. فتحت الكوخ الثاني فوجدت الهنود الثلاثة على الأرض لا يكفون عن الصراخ والأنين وقد تورمت أعناقهم

اتجهت للجدار حيث وقفت ذبابتان شريرتا المنظر، وبحذر شديد هوت عليهما بعنق زجاجة لتحبسهما بالداخل.. ثم سدت الزجاجة وثقبت مدادتها لتسمح بدخول الهواء، وقالت في مرح:

- لدى عينات من الوباء ولدى الحشرة التي تنقل الوباء!..

قال د. (هوفمايشتر) في تعاسة وهو يحك رأسه:

- لم تحققي شيئا بعد.. أنا بحثت مرارا عن الميكروب في هذه الإفرازات ولا يوجد أمل.. الشيء الذي يسبب هذا أصغر من البكتريا ألوف المرات..

- لأنه فيروس... أنتم لم تعرفوا هذا المفهوم بعد لكنى أعرف أنه فيروس..

ثم نظرت إلى أنبوب الاختبار حيث تعبث الحشرتان محاولتين الفرار، وقالت في تصميم:

- أعرف إلى أين أذهب بعد هذا..

11- مرحبا بكم في المستوى الرابع

مرحبا بكم في مستوى الأمان الحيوي الرابع..

مرحبا بكم في هذا المكان المخيف الذي يذكركم بأفلام الخيال العلمي على الباب تجد هذه العلامة التي تذكرك برأس الشيطان

وقرونه بشكل ما:

سوف تجدها في كل مكان تقريبا، وهي علامة (الخطر الحيوي) العالمية.. أي أن الموت موجود هنا بكثرة وفي كل ركن ومع كل شهيق مرحبا بكم في السى دى سى CDC.. مراكز السيطرة على الأمراض ومنعها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقع CDC في أطلانطا بالولايات المتحدة

حاليا يمكن القول إن الأوبئة في العالم كله تمر عبر مصفاتين هما معهد باستير بفرنسا ومركز سى دى سى، لقد تم تأسيس هذا المركز عام 1942 عندما كانت الملاريا هي المشكلة الوحيدة والأهم والأعقد بالنسبة لأمريكا.. لقد كانت تحصد جنودهم حصدا في جزر الملايو، أفضل وأكفأ مما يفعله اليابانيون.. كان هناك الكينين لكنه غير كاف

وهكذا كان عمل المركز في بدايته يتلخص في رش البيوت بالدى دى تى.

تمدد عمل المركز مع الوقت ليشمل الأمراض السرية والدرن فيما بعد، وحاليا يكافح مجموعة هائلة من الأمراض الجديدة والإرهاب البيولوجي. وحاليا يملك المختبر الوحيد الذي يتيح مستوى الأمان الحيوى الرابع في الولايات المتحدة، كما أنه يملك نصف المخزون الوحيد الباقي على ظهر الأرض من الجدري. النصف الآخر في روسيا طبعا.

باختصار يستطيع المركز أن يبدأ حربا بيولوجية تفنى البشرية متى أراد.

للمركز عشرة فروع في الولايات المتحدة بجانب المركز الرئيس في أطلانطا، وميزانيته ثمانية مليارات عام 2008

عبير الأن تجلس في قاعة الانتظار.. معها حقيبة العينات وكل ما جمعته عن هذا الوباء الغريب.. أما عن كيف بلغت ولاية جورجيا قادمة من الهند، فسؤال يدل على أنك مستجد على عوالم فانتازيا.

دخلت الغرفة سكرتيرة حسناء تتقدم د. (ماكس فريدلر) المسئول عن الأوبئة في العالم الثالث.. كان رجلا ذا عوينات شفافة بلا إطار وله رأس بدأ الشعر يتساقط عن مقدمتها وشفتين رفيعتين توحيان بالعزم وشيء من القسوة

قال العبير وهو يصافحها:

- الوباء ينتشر بصورة لا تصدق فعلا.. قرية كاملة قد أصيبت به.. هناك وفيات وقد بدأ البعض يعتقد كالعادة أننا نتكلم عن سلاح بيولوجي تسرب من مختبراتنا..

قالت عبير بابتسامة ذات معنى:

- ألم يحدث هذا من قبل؟

ابتسم ابتسامة قاسية وقال:

- حدث فعلا.. ولا أكتمك أننا قدمنا للعراق بعض البيولوجية أيام حكم صدام حسين، فنحن لم ننكر لحظة أننا كما نحمى نهددا!.. لكن دعيني أؤكد لك أننا لا نعرف أي شيء عن هذا الوباء الجديد...

ثم اتجة إلى جهاز مثبت للجدار يشبه الدكتافون، وضغط زرا أحمر وبدأ يتكلم بلهجة صارمة:

- انتباه.... نعلن عن مستوى حيوى رابع مستوى.... حيوي رابع.. حمى كلكتا

لم تفهم عبير معنى هذا ولا ما حدث، ولا كيف انطلقت طائرات الجيش الأمريكي نحو تلك القرية البائسة التي يرقد فيها المرشد.. ولا كيف جرت استعدادات مخيفة في كل أرجاء هذا المبنى العملاق.. أطباء يركضون وممرضات يسرعن، وأجهزة إنذار تدق.. يبدو أن الجحيم قد انفتح مع ضغطة هذا الزر

قال د. (فريدلر) وهو يغلق مكبر الصوت:

- سوف ننقلك فورا إلى مستوى الأمان الرابع أنت وعينات.. فمن الوارد أن تكون ملوثة بالعدوى...

قالت عبير:

- صدقني لست مصابة بالعدوى ولا أحملها.. قواعد اللعبة تحتم ألا أمرض بل أحتفظ بقواي لأنني أمل المصابين

- لن نجازف بشيء.. لا يمكنك أن تكون حذرا أكثر مما يجب..

* * *

هناك درجات لخطورة الوباء وإجراءات الحجر الصحي والتطهير تتدرج من الرقم 1 حتى الرقم 4

في المستوى الرابع يصير المشهد أقرب إلى مشهد من فيلم (سلالة أندروميدا) ولا يمت للواقع بصلة

هنا أخطر الفيروسات طرا.. هنا الموت الذي لا يمكن التفاوض معه أو مهادنته. لا توجد أمصال ولا لقاحات وغالبا لا يعرف الطب علاجا بعد

الإيدز؟.. بالطبع لا.. الإيدز مرض مسالم بالنسبة لهذه الأمراض.. يمكنك أن تعيش مع مريض ايدز وتأكل معه ولا تصاب بالإيدز، لكن من يجرؤ على الاقتراب من مريض (إيبولا)؟

الأسماء هنا مرعبة على غرار (حمى الكونغو والقرم) و(الأسا) و(إيبولا) و(ماربورج). يلبسون ثيابا كثياب رواد الفضاء مزودة بنظام أكسجين خاص بها وتسمى ثياب (المواد الخطرة Hazmat)

هكذا تجد عبير نفسها تمر عبر حمام، ثم حمام بالمطهرات ثم مرحلة أخرى تعرضها للأشعة فوق البنفسجية.. كلما انتقلت من مرحلة انغلق باب أوتوماتيكي وراءها عليه تلك العلامة المرعبة لا يمكن أن ينفتح بابان في الوقت ذاته. كاميرات مراقبة في كل مكان... أجهزة مسح إلكتروني أجهزة مسح إلكتروني.. تفريغ ضغط سالب لمنع انتشار العدوى المحمولة بالهواء... أي أن الهواء - في حالة حدوث تصدعات أو اختراقات - يدخل ولا يخرج..

أخيرا أدخلوها في ممر بلاستيكي يشبه الممرات العجيبة التي رأتها في فيلم (إي تي)، وبالخروج من الممر تكتشف أنها تلبس البذلة المسماة (هازمات) كاملة وأن هناك قفازين في يديها

إنها في قدس الأقداس الآن.. المنطقة الساخنة Hot zone.. حيث يقف رجل لا ترى وجهه، لكنها تقدر أنه د. (فريدلر) هناك غرفة مغلقة بإحكام، وفيها منضدة عليها عينات من المرضى.. يتم التعامل مع هذه العينات عن طريق قفازين يدخل الطبيب يده من خلالهما وهو ينظر عبر النافذة السميكة

تكلمت فلم يسمع الرجل صوتها.. يبدو أن الصوت لا ينتقل هنا.. فقط أخرج لوح كتابة وكتب عليه بخط كبير بقلم (ماركر):

- لا حركات مفاجئة هنا.. يجب أن أراك بوضوح وتريني بوضوح.. لا يجب أن نصطدم ببعض وإلا تمزقت بدلتانا..

ثم أخرج لفافة من الشريط اللاصق (سيلوتيب) وقطع قطعة منها ثم أشار لها أن تستدير، وألصقها على كتفها. لم تفهم معنى هذا فكتب على اللوح:

- كل من يبصر تمزقا في بدلة زميله عليه أن يلصق عليه قطعة من الشريط...

ثم راح ينظر عبر المجهر

تذكرت (عبير) باستير العظيم وهو يشفط لعاب الكلب مباشرة دون قناع ولا احتياطات من أي نوع وابتسمت.. لو أن باستير رأى هذا المشهد لأصابه الهلع. لكن هذا ما كان ليوجد من دون باستير وكوخ ولوفلر ورو وسواهم

وفي بداية الصف يقف الهولندي (لي فان هوك Leeuwenhoek) مخترع الميكروسكوب، الذي بدأت معه المغامرة.. إنه موجود بقوة.

هنا تناولت الشريط اللاصق وقطعت قطعة ثبتتها على مؤخرة الطبيب الأمريكي

حيث وجدت تمزقا.. التفت لها بنظرة امتنان ثم واصل عمله

لقد صار من المؤكد أن ما يسبب حمى كلكتا فيروس فيروس غريب لم تعرفه البشرية من قبل

كان الرجل يعد عينات بالمجهر الإلكتروني، والتقط عدة صور، ثم اتخذ ما يلزم لتحليل التركيب الوراثي لهذا الكائن الجديد.. وكتب لها:

- هيا بنا..

ثم اتجه لركن القاعة حيث يقف شيء كأنه بدلة معلقة فدس فيها ذراعيه وضغط، وسرعان ما اختفى.. لحقت به عبير وفعلت كما فعل، فاكتشفت أنها تغوص في ممر آخر.. وسرعان ما كانت تعبر ذلك النفق البلاستيكي الطويل لتخرج من الجانب الآخر فتنهمر فوقها المياه، وانفتح القفل الأتوماتيكي لتعبر إلى حيث حمام المطهرات الشهير.. ثم جاء دور الأشعة فوق البنفسجية.

استغرق الأمر نصف ساعة حتى وجدت نفسها أمام المصعد، فقال لها حارس مدجج بالسلاح يلبس كرواد الفضاء:

- سوف تغادرين المستوى الرابع.. يمكنك الانتظار في المبنى الإداري

12– مابع....

بعد ساعتين من قراءة المجلات واحتساء القهوة الأمريكية الكريهة، دخل عليها د. (فريدر) حاملا مجموعة أوراق خرجت من الطابعة فورا، وألقاها أمامها فنظرت لها في عدم فهم.. رأت صفحات كاملة امتلأت بهذه العلامات:

CTNNNNNNNN NNNNNNNNNN NNNNNNNNNN

NNNNNNNNNN NNNNNNNNNN

GGGGCTCTTG CTGAATTCTG TGGTAAGTAA

CCAACCCGTG TCTGG--ACC

GGGGCTCTTG CTGAATTCTG TGGTAAGTAA

CCAGCCAGTG TCTGG--ACC

GGGGCCCTCA CTGAGATGTG TGGTGAGTAA

CTCGCCTCTA TCCTG--TGC

GGGGCCCTCA CTGAGATGTG TGGTGAGTAA

CTCGCCTCTA TCCTG-TGC

بدت لها كأنها علامات شفرة، ونظرت له متسائلة فقال وهو يجلس إلى مكتبة:

- فعلا هي شفرة.. هذا هو ترتيب القواعد في الفيروس...... الفيروس الذي قررنا أن نسميه (كلكتا).. لقد قام الكمبيوتر بتحليله وقمنا بتكبير جزء من حمضه النووي باستعمال تفاعل سلسلة البوليمريز PCR، وعرفنا حجمه وخواصه وتركيبه الجزيئي وعلى الأرجح سوف نتمكن خلال شهر من تخليق لقاح ضده، وبالتالي سوف يخرج من المستوى الرابع..

قالت في دهشة:

- ما شاء الله!.. كل هذا في ساعتين؟

- ماذا تتوقعين؟.. نحن في عصر البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية.. صارت لدينا سياسة محددة لعزل أي ميكروب وتحليله خلال ساعات.. لم نعد نضيع وقتا..

هنا سألت السؤال الذي يؤرقها:

- هل نتمكن من إنقاذ هؤلاء البؤساء؟

- على الأرجح سوف نستطيع ذلك... لقد قمنا بنقلهم هنا وسوف نبدأ تجربة

عقار الإنترفيرون وعقار الريبافيرين.. بل نحن بدأنا فعلا... لكن هناك خبرا قد يهمك..

نظرت له وتوقعت أن يقول لها الخبر الذي تخشاه أكثر من سواه.

الحقيقة أنها كانت قلقة، لكن ليس على مصيرها.. أدهشها هذا.. إنها خائفة على المرشد برغم أنه.. إنه لا وجود له فعلا وليد خيالها. المفترض أن تخاف على مصيرها فقط، حيث يمكن بسهولة أن تجد نفسها في فانتازيا للأبد. ليس هذا شيئا كريها لكن جسدها في عالم الواقع سيكون في غيبوبة دائمة..

فتح د. فريدلر علبة كولا.. فوش ش ش! ثم قال:

- الخبر الذي يهمك هو أن الذباب لا يحوي شيئا من الفيروس..

نظرت له مندهشة وقالت:

- إذن كيف ينتقل؟.. لابد من طريقة ما.. ربما التنفس؟.. هل بالإفرازات؟

- نحن درسنا معظم هذه الاحتمالات.. وما زلنا لا نعرف يقينا تعرفين أننا نفتش عن الحمض النووي للفيروس في كل شي و..

ساد الصمت لفترة، وراحت ترمق وجهه الصارم وهو يمتص الكولا من العلبة كأنه في حرب.. ثم قالت:

- أتساءل عما كان كوخ سيقول ويفعل لو رأي ما تفعلون هنا..

- كان سيشعر بالحيرة قليلا، ثم يفهم قواعد اللعبة ويتفوق على الآخرين.. إن العقل العلمي البارع هو العقل العلمي البارع.. لا شك في أنه سريع التعلم..

قالت باسمة:

- أرجو ألا يوحي لكم الفيروس الجديد بسلاح بيولوجى

- هذه مسئولية الجيش.. في وضعه الحالي هو لا يصلح لأنه قابل للعلاج.. ربما لو أجرينا تعديلا وراثيا بسيطا لأمكن أن

والتمعت عيناه كأنما يزن الفكرة جيدا.. يبدو أنها ستروق له في النهاية..

* * *

الآن صار بوسع المرشد أن يرقد في فراش مستشفى عادى بدلا من الغرفة المحصنة التي كان ينام فيها محاطا بممرضات يلبسن كرواد الفضاء..

كان الإنترفيرون قد أعطى نتائج ممتازة، وعلى بعد خطوات كانت الطفلة الجميلة التي أصيبت بالعدوى تلهو بدميتها عندما دخلت (عبير)..

قال لها ضاحكا:

- للمرة الأولى تريننى بالمنامة.. أشعر كأنني عار تماما..

- للمرة الأولي أرى فيك لمسة من الآدمية.. هذا غريب..

قال وهو يبحث جوار الفراش عن شيء ما.. في النهاية وجده.. إنه القلم الجاف إياه

- هل راقت لك المغامرة؟

- الكثير من القرف.. أشعر بأنني لن أكل بشهية لفترة طويلة... برغم هذا سوف أذكر تلك الأيام طويلا.. أحببت باستير واحترمت كوخ وأعجبت بريد.. إنهم أبطال جديرون بالملاحم..

ثم حكت ذقنها مفكرة وقالت:

- ما زلت لا أفهم مصدر العدوى التي أصابتك.. لقد كلفنى هذا رحلة إلى الهند ولم أفهم بعد.. لم يكن الذباب هو السبب..

حاول النهوض من الفراش فتأوه.. كانت ساقاه ترتجفان لكنه تحامل.. بحث عن الخف فلم يجده، هنا تطوعت عبير وجلبته له من تحت الفراش ودسته في رجله. نهض مترنحا وقال وهو يستند على كتفها:

- أريد بدلتي السوداء.. لا أستطيع العمل من دونها

- سأجدها لك حالا..

- كنت تسألين عن مصدر العدوى.. سوف يعرفونها قريبا ولسوف يكون كشفا علميا مذهلا لكننا لن نعرف لأننا لن نكون هنا..

وجدت بدلته السوداء ورابطة العنق والقميص في الخزانة، فوضعتها على الفراش ثم خرجت للشرفة ترمق الحديقة الممتدة أمامها وسماء جورجيا. وصاحت تسأله:

- إلى أين يا مرشد؟

جاء صوته من الداخل:

- وكيف لي أن أعرف؟.. أنت ستختارين وأنا أنفذ..

قالت وهي تتثاءب:

- أريد شيئا من الخيال.. الكثير منه..

* * *

في القصة القادمة تدخل عبير عوالم ألف ليلة وليلة لتفهم شيئا عن هذا العالم الساحر، الذي أضاف لعالمنا الكثير من الكتاب والحالمين

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

56

ليالٍ عربية

د. أحمد خالد توفيق



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (فـــانتــــازيا)



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـــانتـــــــازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـــــازيــــا
العدد رقم (56)

شـيء من حتى

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا في رحلتها. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب..

تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد، وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هي: لا حدود.

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ

مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- ما أقسى الوحدة!

محاولات لا تنتهي من (شريف) لاستعادتها، حتى بدأت تشعر بأنه ليس على ما يرام.. هذا الإصرار غير طبيعي ويعكس طفولة لا شك فيها، أو ربما هو العناد.. الرجال يكشفون عن طبيعة طفولية مزعجة جدا عندما ترفضهم المرأة، حتى ليوشكوا على أن يرتموا على الأرض ويركلوها بأقدامهم ويبكوا..

بصراحة.. لم تسأل نفسها قط إن كانت ترغب في العودة له أم لا. لقد استراحت لعملها وحياتها.. وبدا لها أنه من الممكن أن تستمر هكذا للأبد...

سوف تربي ابنتها وتأخذها للمدرسة، وفي المساء سوف تشرح لها ما استغلق عليها من دروس.. وسوف تراقبها تنمو يوما بعد يوم ثم تزوجها وتعيش وحدها، إلى أن يجدوها ميتة يوما ما.. هذه هي حياتها كما خططت لها وكما لا ترى طريقا آخر.

على الأقل هي تملك نوعا ساحرا من سبل الهروب هو (فانتازيا).. في النهاية عندما تموت، سوف تقول لنفسها لحظة الاحتضار: إنها عاشت ألف حياة وحياة... لقد عاشت في عمر واحد ما عاشه ألوف البشر وما لم يعيشوه أيضا.. قليل من البشر من يفخر بأنه تواثب فوق الأشجار مع طرزان أو كان مع هانيبال في حملته العظيمة.. هي فعلت.. هل كان هذا خيالا؟..

الخيال الذي تتألم فيه وتشعر بالبرد والنشوة والألم والشبع والرضا والتوتر ليس خيالا بالضبط.. ما الواقع غير هذا؟

لماذا يجب أن يوجد رجل في هذا؟

ابنته؟.. يمكنه أن يرى ابنته إذا شاء.. لكنها تعرف الرجال.. سوف يحتضن الطفلة في حنان ويغمرها بقبلاته، ويبتاع لها لعبة أو لعبتين، ثم ينسى كل شيء عنها بعد ذلك. عواطفهم خفيفة سطحية غير راسخة... قد تكون الأنثى غامضة لا تعرف ما تريده حقا، لكن حبها أكيد وراسخ...

ظلت تعتقد هذا حتى تلك الليلة.. تلك الليلة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا شهر رمضان

لقد تناولت بضع لقيمات هي السحور، وبالطبع لم تأكل أمها معها لأن حالتها الصحية لا تسمح لها بالصيام و شربت كوب الشاي الجميل ثم دخلت الفراش وقدرت أن صوت التسابيح من الزاوية القريبة سوف يوقظها عند الفجر..

كانت نائمة بعمق تحلم بساحل أفريقيا والأسود كما كان ذلك الصياد في

قصة (العجوز والبحر). سمعت صوت الشهيق العنيف.. بالطبع دخل هذا الصوت إلى عوالم الحلم، ثم أفاقت لتدرك أنها في فراشها الصغير الملاصق للجدار، غارقة وسط الكتب طبعا، وأن الصوت قادم من الغرفة الأخرى حيث أمها..

وثبت من الفراش، وقد اضطرب قلبها لأن الدم تجمع في قدميها.. لكنها تماسكت وهرعت إلى هناك..

كانت الأم تشهق في ذعر محاولة انتزاع أنفاسها من قبضة بخيلة لا تريد التخلي عن شيء.

هاااااااااااااااااه!

الذعر في العينين العجوزين.. ومن الواضح أنها لا ترى تقريبا...

لو لم يكن هذا منظر امرأة تموت فما هو؟

هاااااااااااااااااه!

لم تعرف عبير ما تفعل ولا كيف تتصرف..

هكذا هرعت باكية وبقميص النوم والقدمين الحافيتين تركض في الشارع. من مكان ما برزت جارة ومن مكان آخر برز أحد الشبان أقوياء البنية حافيا بفانلته الداخلية.. هذا النمط الذى يربط ساعده بالضمادات ويبدو أنه جاء العالم ليحمل الناس متوفين أو مرضى.. سرعان ما تكونت مظاهرة صغيرة ويبدو أن هناك من طلب الإسعاف.. سوف يصل غدا طبعا لأن الخدمات قد تحسنت كثيرا...

الأم تختنق.. لابد من عمل شىء..

هنا أدركت عبير سحر مصر الذي يجعل الناس لا يكرهونها مهما حدث لهم.. أنت لست وحيدا أبدا في مصر.. ربما تتضايق من هذا في الظروف العادية، لكنك بالتأكيد لا تحتاج إلى أن تكون وحيدا عندما تكون أمك - لا سمح الله - موشكة على الاختناق..

هرع الشباب الحفاة الذين يلبسون الفانلة الداخلية ويربطون سواعدهم، ليصنعوا محفة بدائية يضعون عليها الأم ليحملوها إلى المستشفى القريب.. لا وقت لانتظار الإسعاف طبعا.. وتطوعت بعض الجارات بالصراخ والعويل والذعر.... بعض الجارات تطوعن بالعناية بابنة (عبير) التي لم تصح من نومها بعد هكذا وجدت (عبير) نفسها في المستشفى تراقب الأطباء يجرون تخطيط قلب لأمها، وقد بدا التوتر على الوجوه..

عينات دم.. قناع أكسجين على الوجه المجعد الحبيب.

سدة رئوية.. هذا هو ما سمعته من الأطباء.. لا تعرف معنى ذلك لكنه مخيف بما يكفي.. جلطة في الساق انفصلت قطعة منها ودارت مع الدم لتنحشر في الشريان الرئوي قال لها الطبيب إن أمها سعيدة الحظ، لأن الجلطة صغيرة

الحجم ولسوف يتمكنون من إذابتها.. في المعتاد تقتل هذه الجلطات المريض بسرعة البرق لو كانت ضخمة..

جلست أمام غرفة العناية المركزة وقد تخلت عنها ساقاها..

كانت إحدى الجارات قد أحضرت لها ثيابا تصلح للخروج كان من الممكن أن يكون هذا هو اليوم..

كان من الممكن أن يكون هذا هو اليوم..

بمعجزة ما أفلتت من الكارثة..

وارتجفت هلعا وهي تفكر في البيت الخالي الموحش.. لا أحد يقطف الملوخية في المطبخ أو يحشو أصابع الكرنب. لا أحد يسألها عما فعلته أو يلومها أو يكلفها بشراء شيء من على الناصية...

سيكون هذا قاسيا.. سيكون مرعبا..

إن لديها ابنتها، ولكن (عبير) تعتبر نفسها طفلة ما زالت بحاجة إلى من يعني بها.. لا تتصور أن تعنى بكائن آخر وحدها..

الوحدة.. الوحدة.. هذا شيء مخيف..

تراقب وجه أمها خلف قناع الأكسجين.. وتقول لنفسها: إنها لن تستطيع أن تعيش وحيدة.. لهذا يتزوج الناس كي لا يجدوا أنفسهم في بيت خال مظلم.. ترى هل يمر (شريف) بذات المخاوف؟.. هل يخشى أن يجد نفسه وحيدا فجأة؟

وهي؟.. هل ستعيش من دون زواج حقا؟.. الفكرة التي بدت لها منطقية جدا أمس تبدو اليوم سخيفة جدا.. طفولية للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما انتهت تلك الأيام السوداء، وعندما عادت أمها للبيت استقبلتها الحارة استقبال الفاتحين.. لم يخل البيت لحظة من (أم عصام) و(أم رشا) و(أم حماده).. كلهن هناك، وقد اكتسبن صلاحيات غير مسبوقة فصار بوسع أية واحدة أن تدخل البيت متى شاءت أو تعد الطعام في المطبخ أو تفتح الثلاجة وبرغم أن (عبير) لا تميل للناس كثيرا، فقد أحبت كثيرا هذا الزحام.. الزحام الذي يضيع فيه أي شيء حتى نفسها.. إنها عاجزة فعلا عن العثور على نفسها في هذه الفوضى، وهذا شيء جميل.. لا وقت للقلق أو التفكير في الغدّ..

كانت الأم تتعافى بسرعة.. وبرغم أنها صارت تتعاطى قائمة هائلة من الأدوية فإن حالتها العامة كانت أفضل..

المشكلة أن قائمة الأدوية هذه عبء مادي لا شك فيه، وقد طلبت من (صفوت) أن يقرضها بعض المال ففعل بسماحة، لكنها بالتأكيد لن تجرؤ على

تكرار ذلك..

هذه كانت الأوضاع عندما دخلت إلى غرفتها..

كانت أمها قد نامت في سلام وتنفسها منتظم..

للمرة الأولى تمد يدها إلى جهاز الأحلام غير شاعرة بالذنب.

سوف تغسل نفسها لمدة نصف ساعة ثم تعود لتواجه الواقع القاسي..

من مكان ما في الشارع انبعث صوت جهاز تلفزيون مفتوح..

تسمع صوت (زوزو نبيل) الخشن الجميل إذ تتثاءب وتقول:

«مولاى...»

ثم تنبعث تلك الموسيقا الخالدة التي هي نياط قلب يتمزق مع صياح ديك مع جني يشق الجدار ويخرج... إنها كل هذا في وقت واحد... مقطوعة ريمسكى كورساكوف Korsakov الأسطورية..

ضغطت على زر التشغيل، وخطر لها أن هذه الموسيقا قد تتسرب للحلم بشكل ما. وابتسمت للفكرة.

لم تدر كم هي محقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - احكي يا شهرزاد..

كانت هناك وسط النساء..

الجو العام يوحي بأحد المخادع الشرقية التي رسمها (ديلاكروا).. هناك ستائر.. الكثير منها.. هناك طنافس ووسائد.. هناك حوض ماء صغير يتصاعد منه بخار عطر الرائحة، وهناك طاووس أو اثنان يدوران حول الحوض...

ربما وجدته نمرا كذلك لو بحثت بعناية..

هناك جوار أكثرهن أفريقيات داكنات البشرة يقمن بتمشيط شعرها الأسود الطويل.. وهناك عبيد عراة الصدور سود البشرة من الذين يصلحون للمصارعة، يقفون في شموخ وقد عقدوا سواعدهم على الصدور. شعرت بخجل لأن هؤلاء الأوغاد هنا ثم تذكرت أن هؤلاء العبيد عولجوا بطريقة خاصة كي يخلوا من هرمونات الرجولة، ومهمتهم حماية النسوة في الحريم

هناك جارية شقراء - لابد أنها أوروبية تعنى بأظفار قدميها، وأخرى تبدو كالصينيات تجلس جوارها ممسكة بصحفة عليها فاكهة طازجة.. شىء مستفز.. كأنها لا تستطيع التوقف عن التهام الفاكهة إلى أن تمشط شعرها، لكن من الواضح أن هذه حياتها ولا حياة أخرى.. أي أن يومها عبارة عن تبرج طويل فلا توجد لحظة خالية تأكل فيها

هناك من ترش عليها من قنينة عطر.. عطر مدوخ هو، يبدو أنه تم تقطيره من خلاصة الشرق ذاتها. جارية أخرى تحمل مرآة عملاقة تضعها أمامها

ترى (عبير) نفسها للمرة الأولى في هذه القصة، فتدرك أنها ساحرة.. صغيرة الحجم دقيقة أقرب لطفلة.. لكن عينيها تشعان ذكاء وقوة شخصية، ومن الواضح أنها خبيثة كذلك على رأسها عمامة عملاقة مزينة بريشة وماسة، وحول جيدها وفي ذراعيها كمية هائلة من الحلي والمجوهرات..

هنا فهمت على الفور

لا توجد شخصيات كثيرة لها هذا الطابع، وهي تتخيل كيف كانت الملكة سميراميس تلبس وكذلك شجرة الدر.. نحن بالتأكيد في بلد عربي في العصر العباسي

شهرزاد

من سواها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك كان جالسا على فراش عملاق يبلغ ارتفاعه مترين وقد اضطجع على

جانبه ونزع عمامته فتدلى شعره الأسود الطويل الحريري على كتفه، وكان يعبث في لحيته بلا توقف

تشق طريقها وسط غابة الستائر الحريرية لا تعرف أي طريق يقود إليه. هناك كان راقدا يدخن النارجيلة.. وقد وقف جواره ذلك العبد الأسود العملاق.. لابد من عبد أسود لهؤلاء القوم وإلا فقدوا شعورهم بالتميز

هناك كان مضطجعا يلتهم تفاحة حمراء ضخمة في ملل، حتى ليوشك على أن يبصقها.. يأكلها ولا يريد ذلك لحظة...

من يكون هذا سوى (شهريار)؟

أخيرا بعد مسيرة ساعة وسط الستائر، بلغت الفراش فانحنت محيية بحركة رشيقة ذات طابع ملكي، فتوقف عن المضغ على سبيل التحية، ثم فرد لها العباءة التي وضعها على الفراش لتجلس فوقها.. تسلقت الفراش وتربعت شاعرة بأنها تغوص نعومة لا يمكن وصفها، فهل هو ريش النعام حقا؟

شهريار

الملك الشرقي الذي خانته زوجته فقطع رأسها، ثم قرر بعد هذا ألا يثق بأنثى للأبد.. وشعار حياته هو (لا تأمنن إلى النساء.. ولا تثق بعهودهن)..

كان انتقام شهريار من جنس النساء شاملا وقاسيا بالطبع

في كل يوم يجلبون له عروسنا عذراء يتزوجها ليلة واحدة وفي الصباح يأتي مسرور السياف حاملا السيف والدلو والنطع. مسرور هذا يقطع رءوس الناس بالبساطة التى تقشر بها أنت ثمرة يوسفي. هكذا يهوى السيف ويسقط رأس العروس لليلة واحدة في الدلو.. ويخرج المنادون ليبحثوا عن عروس أخرى..

هذا يعني أن هناك 365 رأسا مقطوعة في كل سنة...

هناك ملك آخر لم يقطع كل هذا العدد من الرءوس، لكن التاريخ منحه اسم (شهريار بريطانيا)، هو الملك هنري الثامن

هنا تظهر شخصية شهرزاد الفريدة...

إنها تلك الفتاة الذكية واسعة الحيلة التي قررت أن تنجو بحياتها أولا، ثم تنقذ نساء المملكة ثانية..

لقد قبلت الذهاب لشهريار عروسنا الليلة واحدة كما فعلت الفتيات الأخريات، لقد استشفت أن شهريار برغم هيبته الواضحة ولحيته العملاقة وعينية المفترستين طفل كبير.. طفل يحب الحواديت كأي طفل آخر.. ويمكن القول إن هذا المعتقد يتسع ليشمل كل الرجال في الحقيقة.....

هكذا بدأت تحكي له قصصا ممتعة.. قصصا لا تنتهي أبدا، وكل قصة تحمل

نهاية شائقة.. كانت هي أول من ابتكر نظام (القفلات) أو HANGERS CLIFF إذن

هكذا يجد الأخ شهريار نفسه في الصباح مخيرا بين الالتزام بعهده الرهيب وقطع رقبتها، أو الانتظار ليلة أخرى لمعرفة ما حدث بعد هذا

الطفل الكبير فضل أن ينتظر

والمشكلة أن كل ليلة تلد قصة أخرى لم تنته.. هكذا يكون عليه أن ينتظر

يشبه الأمر أن تحاول غلق باب تتدافع عبره أسراب من الدجاج لا تجد أبدا اللحظة المناسبة لغلق الباب

ظل الباب مواربا.. 1001 ليلة... ثلاث سنوات تقريبا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد تضخم دور شهرزاد في الوجدان الثقافي العالمي، حتى صارت ترمز للأنثى واسعة الحيلة التي استطاعت بذكائها ترويض الثور المشعر مفتول العضلات المسمى بالرجل.. لم يبقها حية سوى ذكائها وقدرتها على نسج قصص ممتعة...

إنها الفنان عبر العصور.. الفنان الذي يجب أن يقدم فنا جميلا، وإلا طار عنقه.. النقاد سيطيرون عنقه والجمهور سيطير عنقه.. وهو نفسه سيطير عنقه، عندما لا يجد سببا للحياة..

هناك مسرور أبدى يحمل سيفا ونطقا وراء كل فنان.. ينتظر اللحظة التي يجف فيها فنه

وشهرزاد كانت فنانا.. فنانا خلدته الأساطير

فنانا لم يتوقف عن ابتكار قصص مسلية لمدة ألف ليلة وليلة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- احكي يا دنيا زاد..

بدأت تفتش في ذاكرتها عن قصة.. لابد أنها تستكمل قصة قيلت أمس، فهذه هي تقنية ألف وليلة وليلة.. والقصة تلد قصة داخلها ثلاث قصص، وكل قصة داخلها قصتان، ويبدو أن هذه الطريقة العنقودية المعقدة سبقت كل المحاولات الأدبية السابقة

هنا نظر شهريار خارج الستائر في ملل وقال:

- ألن تأتي يا شهرزاد؟

شهرزاد؟ ...

هنا انزاحت الستائر ووجدت عبير نفسها تنظر إلى شهرزاد فعلا.. امرأة ناضجة مكتملة فارعة الطول، وفي عينيها ذات الذكاء وقوة الشخصية.. هنا فهمت (عبير).. لم تكن هي شهرزاد.. كانت هي (دنيا زاد) أختها التي جاءت لتعيش معها في قصر الملك..

ليس غريبا أن تجملها الجواري فهي أخت ملكتهم.. ولهذا بدت لنفسها

أصغر سنا مما تتوقع

جلست شهرزاد على الفراش بدورها، فصارت الجلسة ثلاثية....

قال شهريار في لهفة وعيناه المجنونتان تلمعان:

- هيه! ماذا حدث للحمال في قصة أمس؟

ابتلعت شهرزاد ريقها.. كان لديها ما تريد قوله وإن كان عسيرا. بعد صمت طال قالت وهي تتحاشى نظرات الملك:

- أنا بحاجة إلى راحة!

- راحة؟

- نعم.. ضع نفسك مكاني.. هناك ما يسمى (سدة الكاتب (Writer's block)..) منذ 800 ليلة وأنا أحكي لك قصصا مثيرة بلا توقف. بشرط أن تكون القصة كثعبان لا يمكن غلق الباب قبل أن يمر بالكامل، وقبل أن يمر يكون ثعبان آخر قد حشر رأسه معه.. أبذل هذا الجهد كي أنقذ عنقي وعنق الفتيات الأخريات.. الآن لابد من لحظة نضوب.. لابد من أن أتوقف لفترة وأستجمع أفكاري.. أريد أن أقرأ وأشاهد أفلاما وأتأمل الناس.. أنت لا تمنحني هذه الفرصة: لقد جففت!

عيناه صارتا عيني نمر وهو ينظر لها فيوشك على أن يحرق عمامتها.. قال من بين

أسنانه:

- والحل؟

قالت وهي تتمطى على الفراش:

- لابد من التغيير!

- بل لابد من مسرور!!

لم تفهم هي، لكن مسرورا العملاق الزنجي فهم وهو على بعد أمتار، وما زال يقف خلف الستار.. وهكذا لم تدر عبير إلا والعملاق الزنجي الأبنوسى المبلل بالعرق يزيح أستار الفراش، ثم يهوي بسيف بتار من طراز السيوف التترية إياها على عنق شهرزاد

لقد صارت الفوضى بالغة... ما من مجنون يقطع رأس امرأة على الفراش.. هكذا تحولت الغرفة إلى بركة دم.. وصاح شهريار متقززا:

- يا لك من غبى!... لماذا لم تقطع عنقها على النطع كما هي العادة؟

قال مسرور وهو يحمل الرأس الجميل:

- حسبت الأمر عاجلا يا مولاي.. خطر لي أنها تهددكم!

- تهددني أنا يا أحمق؟

ثم نهض متأففا يبحث عن العبيد كي يعطوه ثيابا وحماما وعطرا.. يحب رؤية الدماء لكنه يمقت أن يستحم بها

فقط (عبير) ظلت وحدها على الفراش ترتجف عاجزة عن الكلام أو الحركة أو الفرار

لقد تم كل شيء بسرعة البرق.. هناك حادث حقيقي عن رجل هندي كان يتناول عنقود عنب في قطار فوثب قرد من النافذة وخطف العنقود، ثم فر من النافذة الأخرى.. ظل الرجل في وضع متصلب ويده ما زالت في وضع الإمساك بالعنقود وحبة عنب قرب شفتيه.. ظل على هذا الوضع ثلاث ساعات!

لقد وجدت نفسها في موقف مشابه لم تتحرك.. لم تتكلم.. لم تتنفس.. كأنها أصيبت ببله مغولي مفاجئ

وعندما أفاقت كانت على البساط الثرى السميك بينما جاريتان تعنيان بها

كانت تبكي منهارة وترتجف بلا توقف

لم تكن علاقتها بشهرزاد قوية.. كما قلنا هي قابلتها منذ ربع ساعة لأول مرة، لهذا لا يمكن أن نقول إنها تأثرت لموت أختها فقط تأثرت لرؤيتها مصرع إنسان بهذه الوحشية..

شهريار وحش.. شهريار سايكوباثى، شهريار دموى.

لقد ماتت شهرزاد وانتهي مبرر وجود ألف ليلة وليلة إذن لقد صارت 800 ليلة لا أكثر.

هنا رأت في مجال بصرها طيلسانا فاخرا وحذاء ثمينا محلى بالمجوهرات.. لم ترفع عينيها فقد عرفت من العطر أنه هو..

قال بصوته الجهورى:

- الآن أنت ضحيتى القادمة يا (دنيا زاد)..

ارتجفت هلعا.. ما ذنبها هي قال وهو يتجشأ:

- إلا إذا

إلا إذا ماذا؟

عاد صوته يتردد:

- إلا إذا استطعت أن تواصلى مهمة أختك.. لقد كانت بارعة في التأليف وحكت قصصا رائعة.. هل تعتقدين أنك قادرة على استكمال المهمة...؟

نظرت له في حيرة

إذن هذا هو المقلب وسبب وجودها في هذه القصة.. عليها أن تسلى هذا الثور المولع بالدماء والقصص

قالت في تردد وبصوت مبحوح:

- سأحاول.. سأحاول...

منذرا لوح بإصبعه:

- وتعرفين طبعا ما سيحدث لو لم ترق لي القصص

- أعتقد أنه قطع عنقي طبعا..

- لا.. قطع العنق يعني أنني متسامح ومزاجى معتدل إن لدي خيالا أقوى بكثير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - بلغني أيها الملك الرشيد.

الآن صارت عبير هي الزوجة الجديدة لشهريار..

بدأت تفتش في ذاكرتها عن قصة.. لابد أنها تستكمل قصة قيلت أمس، فهذه هي تقنية ألف وليلة وليلة.. والقصة تلد قصة داخلها ثلاث قصص، وكل قصة من هذه فيها قصتان.. حتى أنك عندما تعود القصة الأصلية تكون موشكا على فقدان الوعي..

لقد ألبستها الجاريتان ثياب شهرزاد الواسعة عليها، ووضعتا العمامة الثقيلة على شعرها.. بدا التأثير غريبا كأن شهرزاد الأصلية قد خضعت لعملية انكماش مفاجئة..

جاء شهريار فتثاءب وتمطى ثم ألقى بنفسه على الفراش الوثير، وفي عينيه بدت نظرة شغوف كطفل جاء وقت سماع قصص جدته.. بل إنه نام على بطنه واستند على قبضته وراح يركل الهواء بقدميه.. طفل كبير لكنه يملك نفوذا مخيفا وما أفظع الأطفال الذين يحق لهم القتل!

تنحنحت وتوكلت على الله، لكن صوتها خرج مبحوحا حاولت أن تقلد نغمة صوت زوزو نبيل الأرستقراطية الأنفية قليلا.. هذا الصوت الساحر الذي تربينا عليه جميعا في طفولتنا

قالت في تؤدة:

- بلغني أيها الملك الرشيد.. ذو العقل السديد.. أنه كانت في بلاد الفرنسيس.. مدينة تدعى باريس. كانت المدينة تغلى بالغضب.. وتشتعل بنيران اللهب. لأن لويس السادس عشر.. كان يعيش مع أعوانه في القصر. لا يبالي بشئون الرعية قدر ما يهتم بالصيد في البرية. وزوجته ملكة تدعى مارى أنطوانيت.. هي سيدة البيت. ولم تكن فرنسية.. بل كانت نمساوية. ولما سمعت أن الناس يطالبون بالخبز.. لم تفهم سر هذا اللغز. واقترحت أن يأكلوا (الجاتو).. بدلا من الخبز الذي به طالبوا..

كانت تعرف أن هذه المعلومة الأخيرة غير دقيقة.. مارى أنطوانيت ليست هي قائلة (لم لا يأكلون الجاتو بدلا من الخبز؟) لكنها من المعتقدات التى صار تغييرها مستحيلا

كان شهريار يتابع. وبدا لها أنه من الممكن أن تنجح... هو لم يقرأ رائعة ديكنز (قصة مدينتين) وبالتالي يمكن أن يبتلع كل شيء.

واصلت الكلام:

- كانت الشوارع تغلي بالثورة.. والحياة صارت مرة. وكانت في أزقة العاصمة

المنسية.. حركة مقاومة سرية. من أهم قوادها المسيو ديفارج.. وزوجته مدام ديفارج، وهي امرأة قاسية.. باردة وعاتية. وكانا يملكان حانة صغيرة.. لكنها خطيرة. يؤمها الثوار ليتآمروا.. فإذا لاح شرطى جروا. وكان الثوار يكنون أنفسهم باسم جاك.. حتى لا يقعوا في الشراك

- في ذلك الوقت وصلت إلى المدينة... فتاة حسناء لكنها حزينة. كان اسمها لوسى مانيت.. وأبوها طبيب حويط سجنوه اعواما في سجن الباستيل.. ولم تسمع عنه سوى القليل وسجن الباستيل سجن رهيب.. لم يتحمله عقل الطبيب. فلما غادر السجن أخيرا.. صار محطما كسيرا. واستضافه ديفارج في حانته وأكرم وفادته.. فلما جاءت الفتاة تبحث عن أبيها أخذها ديفارج ليريها. نزلا معا إلى غرفة مخفية.. حيث كان الطبيب عاكفا على إصلاح الأحذية، فلما قابل ابنته بعد هذه الأعوام.. لم يعرفها وكاد ينام. بكت على صدره الله شاكرة.. وقررت أن تأخذه إلى انجلترا. بعيدا عن هذا البلد اللعين.. الذي يوشك على أن يصير الجحيم.

كان شهريار يصغي بضمير مخلص محاولا أن يستمتع

كان كل هذا غريبا بالنسبة له.. أسماء غريبة.. أحداث غريبة.

للأسف لم يرد لذهنها المنهك سوى عنوان (قصة مدينتين) قصة تشارلز ديكنز الرائعة. إنها سرقة أدبية بالمعنى الحرفى الكلمة، لكنها مضطرة لذلك كى تنقذ عنقها.. ديكنز نفسه كان سيسمح لها بالسرقة إذا عرف أن ثمن عدم السرقة هو السيف كانت الأحداث سهلة يسيرة التذكر، فلم تكن معقدة مليئة بالأسماء مثل الكارثتين (ديفيد كوبرفيلد) و(أوقات عصيبة)

مد شهريار أنامله إلى عنقود العنب فأخذ بضع حبات دسها في فمه وراح يمضغ في بطء.. وقال:

- أكملى ..

قالت (عبير) بصوتها الناعس:

- يظهر هنا شاب وسيم.. كان متهما بجرم عظيم (تشارلز دارنى) هو اسم الشاب.. وقد برأه المحامي بلا صعاب لأن المحامي الداهية.. كان يملك حيلة واعية. إذ لديه مساعد يدعى سيدنى كارتون.. يشبه دارني في الملامح واللون وهكذا شكك في شهادة الشهود.. وبين للقاضي أن الشبه موجود. هكذا ظفر تشارلز دارني بالحرية.. ووقع في حب لوسى الوفية

قال لها شهريار في دهشة

- هل تعنين أن هذا الـ .... لتشارلز دارنى يشبه سيدنى كارتون؟

قالت باسمة:

- نعم.. وهذه هي النقطة المهمة في القصة.. أحد الرجلين شاب ناجح

اجتماعيا، بينما الآخر صعلوك ولد خاسرا. سوف يفوز تشارلز دارني الوسيم الناجح بكل شيء ولوسى نفسها، لكنه يقع في مشكلة خطيرة عندما تعتبره الثورة عدوا لها وتحكم عليه بالإعدام... سوف نعرف أن سيدنى كارتون نفسه يحب لوسى سرا، وهكذا يقرر سيدنى كارتون أن يقوم بأعظم تضحية قام بها إنسان.. يضع نفسه مكان تشارلز دارنى ويذهب بدلا منه إلى المقصلة وهو يردد: ما سأقوم به هو أفضل بكثير جدا من أي شيء فعلته من قبل...

عبث شهريار في لحيته وتساءل:

- وما هي المقصلة؟

- الجيلوتين guillotine.. هذه طريقة متقدمة لقطع الرقاب، لكنها كانت في البداية آلة للحصاد. حولها الفرنسيون إلى آلة إعدام رهيبة، فهم لا يملكون مسرورا بالتأكيد

قال في اشمئزاز:

- لا أحب هذه الوسائل المتقدمة.. منظر الجلاد الذي يحمل السيف درامي أكثر..

ثم داعب شاربه ولمعت نظرة ميزوجينية شنيعة في عينه،

وقال:

- ما هو الحب الذي يدفع المرء إلى أن يضحي بعنقه من أجل امرأة.. النساء كائنات كالصراصير لا تستحق أية تضحية! من أي نوع.. هذه قصة خيالية أكثر من اللازم

قالت في كياسة:

- أبطال القصص أكثر جموحا ودرامية من الناس العاديين هذا طبيعي وإلا ما كتب أحد عنهم حرفا لن تجد برواية تحكي عن رجل ذهب للبقال وابتاع جبنا ثم عاد ليتناول عشاءه ويتجشأ وينام..

أضاف شهريار وقد تذكر شيئا:

- هذه هي القصة إذن؟ لقد أتلفتها تماما... لقد قلت لي كيف ستنتهي قبل أن تبدأ.. أنا أمقت الـ Spoilers

هنا تذكرت أنه مستمع قصص ممتاز، ولا شيء يؤذى هؤلاء سوى أن يعرفوا نهاية القصة.. هذا يقتلهم قتلا. هنا لجأت إلى الحل الذي وصلت فيه شهرزاد إلى مرحلة الإبداع.. فتح جبهات جديدة:

فلما التقى دارنى وكارتون بعد المحاكمة... تبادلا عبارات بالمجاملة مفعمة. شكر دارنى شبيهه على الدفاع الجميل.. الذي أنقذه من سجن الباستيل.

فقال كارتون إن هذا يذكره بقصة الصياد الفقير.. الذي وجد لؤلؤة حجمها كبير.. وكان يحسبها تجلب له السراء.. فلم تجلب سوى الضراء..

قال لها شهريار في فضول:

- وما هي قصة اللؤلؤة ذات الحجم الكبير؟

قالت في غموض:

- هي قصة غريبة.. وأحداثها عجيبة. وما هي بأعجب من قصة دارتانيان والفرسان الثلاثة الشجعان

هنا صاح الديك.. وأدركهما الصباح.. فسكتت دنيا زاد عن الكلام المباح،

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - الصياد وزوجته الحبيبة.. واللؤلؤة العجيبة

في اليوم التالي ذهب شهريار لتدبير شئون المملكة..

تذكر أن شهريار ليس مجرد مستمع للقصص كما تظهره القصص، بل هو ملك قوي.. إن أباه هو من ملوك (ساسان) بجزر الهند والصين. أي - للدقة - هو يحكم منطقة ما في جزر الملايو. وقد ورث شهريار عنه هذا الملك، أما أخوه (شاه زمان) فقد كان ملك سمرقند

جلست عبير في جناح الحريم.. وراحت واحدة من الجوارى تضفر شعرها وواحدة أخرى تضمخها بالعطر في المشهد الممل المعتاد الذي يروق للغربيين ورسمه ديلاكروا مرارا. كانت شاردة الذهن لا تكف عن استكشاف مجالات القص المتعددة

إن لديها مخزونا لا بأس به من القصص، لكنه يبدو غريبا.... غربيا أكثر من اللازم يختلف بالتأكيد عن ذلك الجو الحميم العربي الذي اشتهرت به قصص شهرزاد.. بغداد والأزقة والحمالون والمتسولون والنساء الغامضات اللاتي يضعن الخمر.. من الصعب أن تستبدل بهذا الجو جو مسيو (ديفارج) ود. (مانيت) والمقصلة..

لكن الحقيقة هي أنها بالفعل لا تذكر حرفا من قصص ألف ليلة تتذكر الجو العام.. هناك جني في مصباح وأربعون لصا، لكن فيما عدا هذا لا توجد تفاصيل

على كل حال لا مفر من أن تستمر في خطتها..

سوف تحكى له ما تعرفه من أدب غربي أو عربى معاصر لا يوجد حل آخر، وعليه إن لم يحب هذا أن يبحث عن طريقة تسلية أخرى.

سوف تحكى له قصة (اللؤلؤة) رائعة (شتاينبيك)، ثم تتفرع منها إلى (الفرسان الثلاثة) رائعة دوما.. وبعدها تعود للؤلؤة ومنها إلى قصة مدينتين.. هذه هي التقنية التي تعرفها إن هذا سيطيل حياتها أسبوعين على الأقل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا عندما جاء المساء وفرغ شهريار من قطع الرقاب، وتناول عشاءه الدسم الذي يتكون من خروفين، كل خروف قد حشي بديك رومي، والديك الرومي محشو بالدجاج، والدجاج محشو بالحمام، والحمام محشو بالعصافير والعصافير بالجوز واللوز.. ثم شرب زقا من خمر بابل، كان الآن في حاجة إلى قصة مثيرة تناسب عملية الهضم

جاء إلى غرفته فشق طريقه وسط الستائر إلى أن بلغ الفراش، فارتمى عليه كأن جبلا يجثم فوق صدره.. راح يلهث طلبا للهواء، ثم قال لها:

- اليوم يا دنيا زاد أنا راغب في سماع قصة الصياد الفقير واللؤلؤة ذات الحجم الكبير..

ابتسمت في ثقة أنثي تعرف أين وكيف تقود رجلا أضخم منها بمراحل، وقالت:

- بلغني أيها الملك الرشيد.. ذو العقل السديد. أنه في قرية مكسيكية.. كان صياد هندى سليم الطوية. وكان كينو هو اسمه.. وله زوجه فقيرة مثله. عاشا يعانيان الفقر والجوع.. ولديهما ابن رضيع. كان هو الذي يمنحهما الأمل.. ومن أجله يحبان العمل. حتى جاء اليوم الخطير.. عندما مشى عقرب فوق فراش الصغير، سقط فوق الرضيع فلدغه بذبانه.. قبل أن يقتله كينو. هكذا انتشر السم.. وجرى في الرضيع مجرى الدم. حمل كينو صغيره إلى الطبيب الموجود.. وهو أسباني يكره الهنود لكن الطبيب رفض فحص الرضيع.. لأنه يعرف أن الهنود حالهم وضيع. والهنود.. ليس معهم نقود. هكذا زعم أنه ليس هنالك.. وأرسل الخادم يخبر كينو بذلك. جن جنون الهندي وغلبة القنوط وأدرك أن ابنه سيموت..

قال شهريار وقد اتسعت عيناه دهشة:

- ليس معه أجر الطبيب؟ أليس صيادا؟

قالت عبير

- تعرف يا مولاي أن الصيادين يعيشون من يوم ليوم إن حياتهم تتوقف على رزقهم. كان كينو صياد لؤلؤ.. واللؤلؤ لا يوجد عندما تريده..

ثم ابتلعت ريقها وعادت لعادة السجع:

كأنما يستجدى الأقدار.. وثب كينو إلى أعماق البحار. وراح يبحث عن لؤلؤة.. تحت ربوة ناتئة. من الغريب أنه وجد محارة كبيرة.. بداخلها لؤلؤة خطيرة. أكبر لؤلؤة رآها في حياته.. ولن يرى مثلها حتى مماته. هكذا أطلق صرخة مدوية وجرى يخبر زوجته الوفية. لم يأت المساء.. حتى بنات القرية كلها قد عرفت بما وجده في الماء. الكل شعروا بحقد عليه.. الثروة التي هبطت في يديه. وقال الطبيب فى غرور.. إنه يعالج ابن كينو الصغير. وكان معلوما لدى الفقراء.. أن الفقير الذي يصير ثريا يمعن في العطاء.

راح شهريار يصغي في استمتاع لهذا الجزء، لأنه يحب قصص المجوهرات عامة.. هناك لؤلؤة وهناك صياد فقير يبدو أنه لم يبتعد كثيرا عن جو ألف ليلة وليلة على كل حال

واصلت عبير سرد القصة:

- امتلأ ذهن كينو بالأحلام.. سيعلم ابنه الحساب والأرقام سيذهب ابنه للمدرسة.. ويعرف كل شيء ويدرسه. وعند المسام جاء الطبيب.. زاعما أنه

لم يعرف أن الرضيع أصيب قال له كينو إن الصغير قد شفي من اللغة المميتة.. لكن الطبيب أصر أن يفحصه بعناية مقيتة. وقال إن السم. قد سري في الدم خرج من حقيبته شيئا في ضوء السراج.. وقال إن هذا هو العلاج. بعد ساعات، اشتدت الحمي بالرضيع.. وأفرغ معدته وانفجر في الدموع. عندما تعرف كينو أن السم نشيط.. وللرضيع مميت لكنه شعر بشك مريب.. تجاه ما أعطاه له الطبيب..

حك شهريار رأسه من تحت العمامة وتساءل:

- هل تعنين أن الطبيب قد يكون دس سما للرضيع؟

- هذا وارد.. لقد عرف بموضوع اللؤلؤة ومن الممكن أنه جعل الرضيع يمرض أكثر ليعالجه ويطالب بفاتورة فلكية

- لقد جن بطل قصتك هذا..

- الحقيقة أنه سيغرق في البارانويا.. سوف يعتقد أن كل شخص يتربص به والأشجار تتحرك.. كل شيء في الكون يريد اللؤلؤة.. إن اللؤلؤة لن تجلب له سوى أسوأ ساعات حياته..

قال شهريار محذرا وفي عينيه نظرة مخيفة:

- حذار.. حذار.. لا تفسدي هذه القصة كذلك..

تذكرت على الفور أن الشيء الوحيد الذي يبقيها حية ويبقى عنقها على كتفيها هو التشويق.. يجب أن يظل شهريار ينتظر معرفة ما سيحدث

قالت له وهي تتثاءب:

- قصة غريبة، لكن ما هي أغرب من قصة دارتانيان والفرسان الثلاثة الشجعان..

سوف تحكى له جزءا من الفرسان الثلاثة، ثم تعود إلى كينو واللؤلؤة.. ثم تعود لقصة مدينتين.. هكذا قصة الفرسان الثلاثة لا تروق لها. هناك جو مفتعل سخيف مزخرف بالدانتيلا.. كل شيء انيق متغطرس، وهؤلاء السادة الشجعان الذين قبل أن يتبارزوا ينحنون ملوحين بالقبعات المزينة بريش الطاووس.. وجو المؤامرات التي يدبرها (رشليو) دائما، وزجاجات السم الصغيرة.. و.. و.. لكنها على الأرجح ستروق لشهريار

هنا لاحظت شيئا غريبا.. إنها لا تتذكر حرفا من قصة الفرسان الثلاثة.. انطباع عام عن القصة لكنها لا تستطيع أن تذكر فقرة كاملة منها

وماذا عن مغامرة كينو واللؤلؤة؟ لا تعرف.. لقد تبخرت القصة من ذهنها

شعرت بأنها توشك على فقد الوعي

قالت لشهريار وهي تتثاءب:

- مولاى.. لقد أدركنا الصباح وعلينا أن نكف عن الكلام المباح!

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. مازال الصباح بعيدا، لكنها أغمضت عينيها وأطلقت شخيرها

سمعته يقول في غيظ:

- ما زال الصباح بعيدا.. يا لك من بلهاء!

وراح يهزها في عنف فارتفع شخيرها أكثر.. أطلق بعض السباب.. وفي النهاية بدأ صوت شخيره يتعالى هو الآخر.. من الصعب أن تظل متيقظا عندما ترى من يغط في سلام كطفل.

أما هي فلم تنم وعلى الأرجح لن تنام.. يجب أن تعرف ما حدث لذاكرتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - ليس ألزايمر لسوء الحظ..

كانت جالسة في جناح الحريم تمارس عملها اليومي: لا شيء. إلا لو كان الجلوس لفتاة صينية تقلم أظفارها عملا تقضم قطعة هائلة من أجاصة (كمثرى) ثم تلوكها مفكرة

ماذا حدث لذاكرتي؟

من الممكن أن تحكى له أدبا عربيا.. هذا وارد.. بلغني أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد.. أنه بقرب الميدان.. كانت عمارة اسمها يعقوبيان

أو: بلغني أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد.. أن أحمد عبد الجواد.. كان تاجرا لديه أولاد.. وكان في البيت صارما وغير حنون.. لكنه كان يعشق الطرب والمجون

قطع عليها خواطرها صوت البنات يشهقن ويصرخن.. تعرف هذا النوع من الصراخ من طراز (يا لهوى! راجل!).. معنى هذا أن رجلا ظهر في جناح الحريم. لا رجل يجرؤ على ذلك ما لم يكن راغبا في قطع عنقه، أو هو..

المرشد!... نعم

يمشي بقامته الفارعة وبذلته السوداء المملة التي لا يخلعها أبدا، والقلم الكئيب إياه.. تتك.. تك.. تتك.. وأدركت أن الجواري فررن مذعورات.. رؤية رجل غريب هنا لا تقل رعبا عن رؤية ديناصور

يحييها بهزة رأس ثم يلتقط تفاحة، ويمسحها في كمه، ثم يقضم منها

- لم يطل بك الوقت حتى صرت في مشكلة..

أشارت للجارية الصينية كي ترحل، ثم قالت له:

- هل تتكلم عن داء (ألزايمر) الذي أصبت به مؤخرا؟

قال وهو يلوك التفاحة:

- كرونش.. كرونش! ليس داء ألزايمر.. أنت وقعت في ورطة زمنية كئيبة. هل تعرفين القصص إياها عندما يعود المرء عبر الزمن ليقتل المخترع الفلاني.. من ثم لا يعود وجود لاختراعه في عالم الغد؟ في فيلم (المفني Terminator) يرسل طغاة المستقبل قاتلا اليا عديم الرحمة لعالمنا، كى يقتل المرأة التي ستلد زعيم الثوار فيما بعد

حاولت أن تربط كلماته بما هي فيه فلم تفهم.. ضيقت عينيها أكثر بمعنى (أوضح).. فقال:

- عندما تطالعين سيرة أي كاتب غربي تقريبا، فسوف تعرفين أنه قرأ ألف ليلة

وليلة أول ما قرأ.. ونتيجة لهذا قرر أن يصير كاتبا. ما حدث هنا هو أن شهرزاد لم تعد موجودة والقصص لم تستكمل.. النتيجة أن معظم الكتاب الغربيين لم يكتبوا حرفا! كيف تحكين قصصا من الأدب الغربي بينما لا أنت كرجل يجاهد لبلوغ سقف بناية وجود لها أصلا؟ شامخة، بينما البناية ذاتها لم يعد لها وجود.. تصعدين درجات سلم تلاشى.. تصعدين إلى قمة شجرة ذبلت واختفت!

نظرت له في رعب وقد بدأت تفهم قال لها بطريقته الباردة السمجة قليلا:

- محاولتك هذه سوف تخلخل تاريخ الأدب بالكامل سوف تنقرض قطاعات هائلة من الفنون..

سألته في هلع:

- والحل؟

- الحل هو أن تحكي القصص كما كانت شهرزاد ستفعل بالضبط..

نهضت واقفة ووضعت يديها في خصرها:

- كيف؟ لا أذكر حرفا من هذه القصص.. لم أقرأ ألف ليلة وليلة منذ كنت في العاشرة..

- هذه مشكلتك..

- إذن لا يوجد حل..

راح يفكر بعض الوقت، ثم قال لها وهو يصلح من ربطة عنقه:

- هناك حل واحد.. إن قصص ألف ليلة وليلة مأخوذة من الحياة مع لعب حر بالخيال.. لو أنك مشيت في شوارع بغداد ودمشق وبلاد فارس تستلهمين الأفكار، لربما استطعت أن تجدى بعض القصص..

- هل تعني التأليف من البداية؟

- إن الحياة حبلى بالأفكار..

- ومن يسمح لي بهذه الفترة؟ لقد رأيت بنفسى كيف طار عنق شهرزاد لأنها طلبت مهلة تستجمع فيها الإلهام..

قال في ثقة:

- لا تقلقي بهذا الصدد.. يمكن أن أتفاهم مع شهريار يجب أن يقبل وإلا فلن تكون هناك ألف ليلة وليلة وبالتالي لن يكون هو نفسه موجودا

فكرت قليلا.. تبدو فكرة معقولة بالإضافة إلى أنها لا تملك الخيار.. لقد وضعتها فانتازيا في هذا الموقف وعليها أن تقبل

هزت رأسها موافقة، وسألته:

- متى نبدأ؟

- على الفور.. لكن لابد أولا من لقاء بعض الشخصيات المهمة..

- مثل من؟.. شكسبير؟

- تقريبا.. سوف تفهمين أكثر عندما تقابلينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- ما قبل ألف ليلة وليلة

السادة الجالسون كانوا مرعبين حقا

لو كان هذا معرضا للحي والسوالف الكثة والثياب الفكتورية فهو أنجح معرض ممكن.. وكانوا يرمقونها في شك وكراهية

جلست عبير إلى المنضدة وأدركت انها لحظة عسيرة أخرى من لحظات فانتازيا.. لكنها على الأقل اطمأنت لوجود المرشد.. بدا لها الأمر كأنها مقبلة على محاضرة يلقيها عدة أشخاص

وقف المرشد في مركز الصدارة من المنضدة حسب قواعد الاتيكيت، وفرد صدره وقال بطريقة خطابية:

- مما يسعدنا أن يكون معنا هنا المسيو (أنطوان جالان Galland) الذي ينسب له أنه ترجم الليالي للأوروبيين للمرة الأولى عام 1717.. وقد سمع هذه القصص من أحد المسيحيين في حلب - سوريا.. لقد كان نجاح هذه الترجمة ساحقا..

ثم أشار إلى رجل بريطاني الملامح ملتح مخيف جدا.. تذكرت (عبير) أنها تعرفه لكنها لم تذكر أين، فقال المرشد:

- عند منابع النيل سبق لك لقاء السير (بيرتون Burton) إنه مغامر شهير وخبير لغات شرقية وأفاق ونصاب كذلك.. يذكر التاريخ أنه تنكر كتاجر تركى مسلم كى يدخل مكة ويرى كيف يبدو الحج، وقد ترجم ألف ليلة وكتاب كاما سوترا الهندي بلا حذف كانت هذه خطوة جريئة جدا في إنجلترا الفكتورية.. إن ألف ليلة وليلة مليئة بما لا يصح أن يقرأه صغار السن كما تعرفين..

نظر لها السير بيرتون نظرة وقحة وراحت عيناه تجولان فيما يتجاوز وجهها، فأدركت أنه استحق سمعته كرجل شديد الشهوانية.. لقد وجد ضالته في ألف ليلة وليلة وكتاب كاما سوترا الهندي الذي هو في الحقيقة مرجع لتعليم العلاقات الشهوانية. زاد الطين بلة بقيامه بإضافة ملاحظاته الخاصة...

يعني من دون إضافاته كان يمكن لبعض المقاطع أن تمر علي من يقرأ، لكن الرجل حرص على أن يتغزل بها ويبرزها. على كل حال كانت ترجمته لألف ليلة هي الأكمل على الإطلاق

أما الأخ الثالث فهو:

- دكتور (مارادو) الفرنسي الذي أصدر ترجمة عام ... 1898

أخرج بيرتون سيجارا عملاقا قضم من طرفه قطعة وأشعله فتصاعدت سحابة كثيفة عطرة الرائحة، وسعل مرتين ثم قال:

- كتاب ألف ليلة كتاب بالغ الأهمية.. يمكن بلا مبالغة القول إنه هو من صنع (جوته) و(لافكرافت) و (إدجار آلان بو) و(فلوبير) و(دوما) و(شوسر) و(بوكاتشيو) و(كونان دويل) و(ويلز) و(كويليو) و.. و.. لقد قدم للغرب فن الخيال وفن السرد، ومن تحت عباءة ألف ليلة نضج الأدب الغربي.. وهو اليوم يعيد تصدير نفسه للشرق من جديد... رباه!

ونفث سحابة كثيفة أخرى من الدخان وقال:

- أنا فخور بما قمت به!

هنا تدخل جالان فوقف كالمحاضرين وقال:

- هناك قصة محورية هيكلية هي قصة شهريار مع شهرزاد.. ثم تتفرع القصص التي تحكيها هي، وكل قصة تقود القصة قد تقود لقصة أخرى.. في هذه القصص تجدين آلاف الحيل الأدبية.. لا توجد حيلة أدبية معروفة لم تتطرق لها ألف ليلة وليلة..

سألت (عبير) في حرج:

- آسفة على السؤال الغبي.. لكن من هو المؤلف؟..

- لا أحد.. لا أحد يعرف.. لقد ذابت في هذا الوعاء قصص فارسية وهندية وعربية ومصرية.. مثلا قصة شهريار مع شهرزاد لها أصل هندى واضح.. هناك من وجد قصصا تمت لحضارة ما بين النهرين، والبعض وجد قصصا لها أصل يوناني مؤكد. يمكن القول إنه الشرق وقد تم تذويبه في كتاب واحد لا يوجد كتاب آخر يحوي هذا الخليط الساحر من العفاريت والسحر والشخصيات الحقيقية والخيالية..

قال بيرتون ولعابه يسيل:

- ولا كل هذا القدر من الإثارة الشهوانية..

كانت عبير تعرف أن المجتمع الذي تتحدث عنه الليالي مجتمع ماجن عابث.. الكل يشرب الخمر بسهولة تامة، والكل يقضي وقته مع الجواري، وكل امرأة خائنة بطبعها. الشريفة شريفة لأنها لم تجد فرصة للانحراف بعد. لهذا كانت معظم النسخ الموجودة في السوق المصرية نسخا مراقبة بعناية.. وفي الحقيقة لم تفقد الكثير من روعتها بعد هذا التهذيب، مما يدل على أن العنصر الشهواني مقحم

قال جالان مواصلا محاضرته:

- يتكرر كثيرا ظهور هارون الرشيد ووزيره جعفر.... هارون الرشيد هنا شخصية مخلقة بالكامل تختلف عن الشخصية التاريخية، فهو عابث يقضى الوقت مع الجواري ويتسلى بهذه القصص المسلية التي ترد له. هنا خطأ تاريخى واضح لأن الدولة الساسانية زالت قبل هارون الرشيد بمائتي عام.. إذن كيف تحكي

شهرزاد شهريار – وهو من ملوك الساسان – عن هارون الرشيد الذي سيأتي بعده بقرنين؟

جلس الرجل فنهض دكتور (مارادو) الفرنسي واتجه نحو لوح كتابة وبدأ يشخبط عليه بقطعة من الطبشور.. كان يرسم دوائر داخل دوائر.. لا.. هذه ليست دائرة بل حلقة دخان من سيجار بيرتون. قال مارادو:

- القصة داخل القصة.. التقنية الأهم في ألف ليلة وليلة تقليد فارسى قديم.. هناك تقنيات أخرى مهمة مثل (الإرهاص) أو (الغرس).. حيث تقدمين معلومة او شخصية لا يعرف القارئ أهميتها.. لكن اهميتها تتضح فيما بعد. هناك ألعاب زمنية خبيثة تتكرر في عدة قصص وهي ألعاب متقدمة جدا تقنيا هناك الحلم المتبادل.. هناك النبوءة التي تتحقق..

قال بيرتون وهو ينفث سحابة كثيفة أخرى:

- إن ألف ليلة وليلة مزيج لعدة ثقافات، لكن في النهاية لها مذاق عربي عراقي أصيل.. إن بغداد في كل مكان منها وتتنفس في كل صفحة.. لغة السرد ذاتها تشي بأن الراوي من بغداد..

كانت عبير تصغي في رهبة محاولة أن تحتفظ بهذا الكلام فلا تنساه.. معلومات كثيرة لكن كيف تنتفع بها؟. الحقيقة أنها لم تشعر قط أن الكتاب بهذه الأهمية.. كانت تعتبره مجرد كتاب مسل، لكن كلام هؤلاء القوم يوحي بأنه مجرة ثقافية كاملة.

قال جالان مواصلا سباق قذف الطوب على رأسها:

- يغلب الظن أن ألف ليلة وليلة وضعت بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لكنها لم تكف عن النمو منذ ذلك الحين..

ثم نظر لها نظرة خطيرة كأنه مدير مخابرات فرغ من شرح المهمة لعميله:

- النصيحة هي: لتكن نقطة ارتكازك بغداد.. تنطلقين منها وتعودين لها.. اختلطى بالناس وحاولي أن تجدى قصصا.. إن هذا التراث الإنساني العملاق أمانة بين يديك، ولولا أن شهريار تهور وقتل شهرزاد لظل هذا التراث حيا للأبد.. لكنه موشك على الانقراض.. وبانقراضه لن يكون هناك أدب معاصر.. نعم إن الأمر بهذه الخطورة فعلا.....

قال بيرتون وهو ينفض رماد السيجار على شرشف المائدة الأبيض الأنيق:

- هناك قواعد عدة سوف تتعلمينها.. مثلا النساء العجائز خطرات جدا ولا يمكن الوثوق فيهن.. بالذات اللاتي يظهرن تدينهن وورعهن. كل إنسان في ألف ليلة وليلة يشرب الخمر ببساطة حتى لو لم يذقها طيلة حياته من قبل. الإيمان بالقدرية شديد جدا.. كل الناس صيادون أو أمراء.. كل الجواري يحفظن القرآن والشعر العربي وخبيرات في الطب وعلم الفلك والفقه هارون الرشيد

موجود في كل مكان ومتنكر دائما.. العدد أربعون مهم جدا وكذلك العدد ثلاثة.. كل النساء خائنات تقريبا.. الجان في كل مكان.. كل إنسان ينشد الشعر في أية لحظة، وطريقة استحسان الشعر هي أن يشق المرء ثيابه ويغشي عليه.. العطور مهمة جدا ومن علامات الترف.. سوف تلاحظين المساواة الكاملة بين الأديان والتسامح الشديد.. قلت للأوروبيين إن اليهود لم ينالوا قط تدليلا كالذي نالوه في العصر الذهبي الإسلامي، فلم يصدقني أحد..

راحت عبير تدون بسرعة كل هذا في مفكرة صغيرة، فلما انتهت ساد صمت رهيب

أخيرا قال لها المرشد:

- هيا بنا.. الوقت ضيق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- ما هي الزرباجة؟

كانت عبير تركب بغلة وتمشي في سوق شرقية ما

لم تعرف أين هي بالتحديد.. على الأرجح هي في بغداد أمامها يركض عبد من عبيد القصص حافيا عملاقا، وخلفها يركض عبد آخر

إذن هي ثرية ومن الواضح أنها فاتنة... إن هذا المنظر الغامض اللافت للنظر هو تقريبا مشهد ظهور كل حسناء في ألف ليلة وليلة..

لاحظت ذلك الرجل الذي يلبس ثيابا عصرية نوعا ويضع العوينات، ويبدو مثل تشيكوف إلى حد ما.. كان يمشي جوار البغلة بنفس سرعتها ويدندن شيئا ثم يدون كلمات في مفكرة يحملها... لم تكن بحاجة إلى السؤال:

- أنت الموسيقار الروسى ريمسكى كورساكوف طبعا

أحني رأسه في تهذيب وقال وهو يلهث من فرط المشى الحثيث:

- بعينه

.. أنا منهمك في كتابة مقطوعة شهرزاد التي ستخلد اسمى.. لكن الفوضى التي حدثت في الليالي كادت تدمر إلهامى تماما..

قالت عبير وهي تركل خاصرة البغلة:

- لا أعرف كيف يكتبون الموسيقا، لكني فقط أهنئك عليها، وأطلب منك ألا تتدخل أو تعوق مغامراتي..

- هذا آخر شيء أريده..

وسرعان ما كان مشيه قد تأخر عن مسيرتها كثيرا

توقفت البغلة عند متجر ثياب على جانب الطريق، وهرع العبد إلى الداخل ثم عاد بالتاجر، وهو شاب وسيم بدا عليه الذعر.. ثم رآها فبدا عليه الذهول فالإعجاب

ككل فتيات هذه القصص ازاحت الخمار قليلا لتسمح لذلك السهم الفاتن بأن يخترقه، وشعرت بنشوة كاملة عندما رأت تأثير هذه الطعنة عليه

- يا فتى.. هل عندك ثياب جميلة؟

لم يكن عنده لكنه كعادة التجار قادر على أن يأتيها بما تريد من التجار الآخرين، وقد راح يركض هنا وهناك يأتي لها بالعينات من الثياب وهي تختار في كبرياء.. هذا يصلح.. لا أعرف بصدد هذا.. ربما لو كان هذا اللون أغمق

ثم إنها سألته من هو

قال في شيء من الحياء:

- أنا ابن تاجر كبير من بغداد، لكن أبي كان مولعا باللهو فلم يترك لي إلا الديون.. لكني استطعت بصعوبة بالغة أن أسدد الديون وأبدأ في الكسب.. - وراح يحصي ما أخذته وقال -

- خمسة آلاف درهم.. ليس بالمبلغ الهين..

ثم صمت.. وأدركت أنه يخجل من أن يطالبها بالدفع جميل.. ليس معها مال الآن

كانت الآن تعرف أنها جارية (زبيدة) زوجة هارون الرشيد شخصيا.. إنها بمثابة طفلتها المدللة.. لا مشكلة في شراء الثياب الفاخرة فهي قادرة على الدفع

هكذا أخذت الثياب وانصرفت....

ولم تدر أن الفتى لن ينام ليلته.. ليس بسبب القلق على المال ان أبطال ألف ليلة وليلة لا يسهرون لأسباب كهذه، ولكن يسهرون بسبب الهوى وتباريحه

في الأسبوع التالي عادت إلى السوق.. إلى نفس الشاب..

كما توقعت لم يسألها عن المال، وراح كالأبله يجلب لها أثوابا وأقمشة جديدة.. إلا أنها قررت أن ترفق به هذه المرة فأخرجت تلك الزكيبة المألوفة المليئة بالذهب وقالت في دلال:

- هات الميزان وزن مالك..

وبالفعل دفعت ثمن ما أخذته وأجزلت له العطاء.. ثم سألته بطريقة عابرة:

- هل لك زوجة؟

قال متلعثما:

- لا.. أنا غير متزوج..

تهيأت للرحيل مع عبديها

وعند ركن الشارع انتحت جانبا بأحد العبدين وطلبت منه أن ينقل للفتى الرسالة التالية.. هي ترغب في الزواج منه.. سيدتها (زبيدة) موافقة بشرط أن ترى الفتى جيدا.. على الفتى أن يذهب لقصر هارون الرشيد ليخضع لمقابلة شخصية مع السيدة (زبيدة).. الاختبار الأهم هو ألا يشعر به أحد.. فإن شعر به أحد كان الثمن عنقه..

ذهب العبد للتاجر وتم الاتفاق معه...

وفي المساء ذهب التاجر الشاب المفعم حبا إلى المسجد الذي بنته زبيدة على نهر دجلة، فصلى العشاء ثم أمضي الليل هناك.. كانت هذه هي التعليمات

في المسجد كانت هناك صناديق فارغة، وعرف الفتى أن عليه أن يتوارى في صندوق منها

تم كل شيء بسرعة وتم نقل الصناديق إلى القصر. وعندما انفتح الصندوق وجد الفتى نفسه وسط عشرين جارية بارعة الحسن، ووسطهن السيدة زبيدة شخصيا

إنها سيدة أريبة بالتأكيد.. من تنجح في السيطرة على هارون الرشيد وتظل زوجته كل هذه الأعوام هي امرأة تملك دهاء عدة قواد

لم تكن عبير في المجلس.. كانت واقفة وراء ستار تراقب اللقاء.. تراقب أسئلة زبيدة الدقيقة الصارمة للفتي.. تريد أن تعرف من أبوه ومن أمه ومن أين جاء بماله.. ثم في النهاية قالت:

- أنا موافقة.. سوف تقيم معنا لمدة عشرة أيام إلى أن أطلب الإذن من الخليفة..

كاد الفتى يطير فرحا وهوى على الأرض يلثمها بين قدمى زبيدة.. بينما أبدت هي التأفف الأرستقراطي المناسب

تم كتب الكتاب وصارت عبير عروسا للفتى..

جلست عبير في قمة زينتها إلى مأدبة العروسين، وكانت المأدبة مليئة بأصناف لا يمكن تبينها.. إنه المطبخ العباسي المترف

كان هناك طبق عملاق فيه شيء لا يمكن فهمه.. ربما طاووس محمر أو حوت مدخن أو حوت التهم طاووسا.. مالت عبير على الجارية جوارها وسألتها عن هذا فقالت:

ـ خافقية زرباجة محشوة بالسكر، وعليها ماء ورد ممسك، وفيها أصناف الدجاج المحمرة، وغيره من سائر الألوان مما يدهش العقول

- مما يدهش العقول؟.. وما دخل السكر وماء الورد بالدجاج؟..

على كل حال هذا دائما هو وصف الطعام في قصص ألف ليلة وليلة، كما أن للهوى عبارات محددة تتكرر في كل مرة، مما يدل على أن مؤلفي ألف ليلة وليلة كانوا يصفون ما يتحلب العابهم من أجله.. هذا نوع من إشعال الخيال الشعبي

الفتى كان يحب الزرباجة كما هو واضح لأنه انقض عليها انقضاضا، لدرجة أن (عبير) لم تفهم مكوناتها.. فقد لوث لحيته وفمه وأنامله كطفل يلتهم (السريلاك)..

انتهي من الأكل فمسح يديه وتجشأ بصوت عال، بينما جاءت الزفة.. الزفة مجموعة من الجواري يحملن الشموع ويقدن العروسين إلى المخدع..

لما صارت وحدها معه في ضوء الشموع، وضع يده على كتفها.. هنا اكتشفت شيئا.. هي لا تعرف ما هي الزرباجة لكن لها ألعن رائحة يمكن وصفها عندما تلتصق باليد

صاحت في جنون:

- ألم تغسل يدك؟

قال في ارتباك:

- بلى.. لكن.. نعم. اكتفيت بمسحها..

كانت الرائحة تثير جنونها... وأدركت أنها تمر بحالة من الهستيريا لا مثيل لها

صرخت منادية الجوارى:

- تعالين حالا!!

امتلأ المخدع بالجواري الفاتنات، لكنهن مع العدد الكبير صرن مرعبات.. وقالت لهن:

- هاتوا (متولى)... ليقطع يده التي أكل بها الزرباجة ولم يغسلها!

قطع يد؟ لماذا قالت هذا؟ الأمر لا يستحق هذه الضوضاء والفتى لم يأكل فسيخا مثلا ليستحق! لكنها أدركت أنها تنفذ خطوات قصة ما..

لما بدت الجواري غير متحمسات لهذا العقاب أمرتهن عبير بأن ينادينى متولى.. اسم غريب جدا لجلاد لكنه ما حدث

قيدت البنات الفتى على حين قطع متولى بالموسى إبهامي يديه وإبهامي قدميه.. الفتى يصرخ في جنون صراخ من يقطع إبهاماه

- أقسم بالله ألا أكل الزرباجة بعد اليوم، إلا وقد غسلت يدي مئة وعشرين مرة بعدها.. أي!...

ثم فقد الوعي

الآن كان على (عبير) أن تعنى به وترفق به حتى يسترد صحته.. كأنها هدأت لما سمعت هذا القسم العجيب

عادت الأمور لمستقرها بعد هذا، كأنه من الطبيعي جدا أن تقطع الزوجة أصابع زوجها لأنه لم يغسلها.. لقد عادا زوجين متحابين سعيدين.. لكن الفتي ظل يحمل عقدة الزرباجة ويتحاشى أكلها في أي وليمة، إلا بالطبع لو كان ينوي أن يغسل يدية 120 مرة

دونت عبير تفاصيل هذه القصة، ولم تدر كيف تستفيد منها. أضف لهذا أنها تافهة، والأسوأ أن يكون مغزاها الأخلاقي هو: اغسل يدك قبل الأكل وبعده

على كل حال هي ما زالت تستكشف عوالم القصص

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدت نفسها في بلاط شرقي يبدو كأنه لملك صيني أو ياباني.... على عرش عظيم جلس الملك العظيم الذي يجيد العربية كأهلها ككل ملوك ألف ليلة وليلة.. وكان متحمسا يصدر الأوامر لرجاله:

- أريد أن تكتبوا هذه القصة بماء الذهب!

أية قصة؟ لابد أنها رائعة

على كل حال أية قصة تروق للوالي أو الحاكم تكتب بماء الذهب.. كما أنها دائما (لو كتبت بالإبر على آماق البصر لصارت عبرة لمن يعتبر). كل القصص مذهلة ويجب تخليدها للأجيال القادمة

أمام الملك الصيني كان رجل يلبس كخياط.. كيف يلبس الخياط؟ هذه أسئلة بديهية لا داعي لإضاعة الوقت فيها

كانت هناك جثة راقدة على الأرض على جانبها.. أما لماذا أرقدوها على جانبها فلأن صاحبها أحدب.. وكان فمه مفتوحا علامات اختناق واضحة تتبدى في لونه

لو كانت عبير ذات خبرة طبية لشقت قصبة الرجل الهوائية وغرست فيها أنبوبا، أو لقامت بمناورة هايمليخ التي تحول أحشاءه إلى مدفع يقذف بما استقر في الحنجرة.

القصة كما فهمتها عبير هي أن الخياط كان متهما بقتل الأحدب.. الخياط يؤكد أن الوفاة قضاء وقدر، لأنه دعا الأحدب للعشاء في بيته.. كان هذا العشاء سمكا مقليا وخبزا وليمونا. يبدو أن الأحدب از درد قطعة سمك هائلة بما فيها من شوك.. فتورم حلقه ومات.. ولم يعرف الخياط ما يفعله فتخلص من الجثة

كان هناك طبيب.. والطبيب في ذلك العصر كان على الأرجح مزينا - حلاقا - وقد راح يتفحص المتوفى ويفتح حلقه.. ثم هتف:

- الأحدب حي يا ملك الزمان!

كان الملك يحب هذا الأحدب فعلا، لأنه يضحكه.. وقد بدت له ميتته قاسية فعلا لأنه يعني مستقبلا مملا.. دنا في وقار من المشهد أكثر ومط عنقه.. طبعا كان من المفهوم أنه سيقطع رقبة المزين لو كان يهذي

أخرج المزين من حزامه عدة طبية كاملة: مكحلة بها دهان. دهن به عنق الأحدب الميت، ثم أخرج كلابين وفتح فم الرجل وبعناية التقط قطعة السمك

هنا فقط سعل الأحدب وعطس ثم نهض وهو يردد:

- لا إله إلا الله.. محمد رسول الله

انفجر ملك الصين يضحك.. يهتز.. يضحك.. عيناه دامعتان.. كرشه يهتز.. ثم فقد وعيه وهو ما بدا غريبا لعبير الموقف لأن لم يكن ظريفا لهذا الحد

لما أفاق الملك أمر بكتابة القصة بماء الذهب، ثم خلع على الخياط والمزين وعبير

قالت عبير في خجل:

- لكني لم....

لكن أحد العبيد نظر لها نظرة مخيفة.. ليس هذا وقت الرفض والقبول

هكذا انصرفت (عبير) وهي تفكر في هذه القصة.. أحدب حسبوه مات لكنه لم يمت.. ما الجديد في هذا وما الطريف؟

لو حكت هذه القصص لشهريار لكان عليها أن تحفر قبرها أولا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مقلب ساخن

أحيانا يكون الانتقام شهيا.. خاصة عندما يقوم به زوج غيور المشكلة هنا أن الزوجين هما اللذان استدرجا الفتى لهذا الشرك، وهذه تيمة تتكرر كثيرا في ألف ليلة وليلة

كانت عبير متزوجة.. المكان هو بغداد

هناك نافذة جميلة ذات طرز عربى رائع من النوع الذي نسميه عندنا (مشربية)، ومنها كانت تطل على زقاق.. الزقاق فيه متجر خياط على الجهة الأخرى

كان الخياط جالسا وقد وضع رجلا على رجل وراح يخيط بعض قطع الثياب، ثم نظر لأعلى فالتقت عيناه بها.. الكهرباء!.. السحر! رأت عبير في عينيه الانبهار المجنون بها، وعرفت أنها على الأرجح ستكون فاتنة في أغلب هذه القصص

هكذا لم يعد يخيط شيئا تقريبا.. أو للدقة صار يخيط أصابعه إلى بعضها

زوج عبير التقط الخيط.. ألقي نظرة على الزقاق وعرف ما هنالك

من دون كلمة حمل مجموعة من الأقمشة ونزل للخياط وطلب منه أن يفصل له هذا القماش قمصانا

كان الخياط قد تحول بفعل الهوى إلى إنسان آلي، لذا هز رأسه موافقا وراح يخيط ويخيط

في نهاية اليوم جاءه الزوج ليأخذ عشرين قميصا وسأل عن الثمن

هنا نظر الخياط إلى عبير في المشربية، فلوحت بيدها أن لا لا تأخذ منه شيئا!.. هذه القمصان تخصها

هكذا لم يتقاض شيئا.. وقع في عملية نصب ممتازة تعتصر جهده كله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ككل قصص ألف ليلة وليلة لابد من جارية تأتي للرجل وتخبره أن سيدتها ترغب في لقياه.. أين؟.. في الطاحونة تحت البيت

هكذا دق قلب الخياط واجفا وعندما جاء الليل اتجه إلى الطاحونة.. الظلام دامس لكن الغرام يجعله شجاعا

ذهب زوج عبير إلى الطحان وطلب منه تلك الخدمة... هناك ثور آدمي في الطاحونة وهو بحاجة إلى بعض التأديب

هكذا ذهب الطحان إلى الطاحونة في الظلام، وأمسك بالخياط وربطه في

حجر:

الطاحون وهو يقول:

- هذا الثور كسول برغم أن كمية القمح المطلوبة مني كثيرة.. سوف أربطه في الحجر حتى الصباح!

وهكذا لم يجرؤ الخياط على الكلام، ووجد نفسه يدير الحجر في صمت.. بينما تنهال عليه ضربات السياط..

لم ينقذه إلا الفجر وقدوم الجارية لتحرره.. وتعتذر له، لكنه كان عاجزا عن الكلام

عاد للسوق والمتجر كل عظمة في جسده تؤلمه، فقرر أن ينسى كل شيء عن الحب.. لكن (عبير) أرسلت له الجارية كالعادة:

- سيدتي مشتاقة لك وهي تقف فوق السطح بانتظارك..

خرج الرجل متشككا خائفا ليكلم عبير.. فقالت له من أعلى:

- لماذا قطعت التعامل بيننا؟.. أقسم بالله إن ما حدث في الطاحونة لم يكن لي فيه ذنب

وقالت له الجارية إن زوج عبير سيبيت خارج البيت هذه الليلة. هذا سيتيح فرص الوصال

هكذا ابتلع الثور الأحمق الطعم وذهب في المساء إلى حيث كانت عبير.. مد يده لها لكن يدا أخرى هوت على قفاه ووجد نفسه يطير في الهواء

وسرعان ما وجد الزوج يحمله إلى صاحب الشرطة – وهو الاسم القديم للمخفر - فتولوا ضربه علقة ساخنة بالسياط، ثم أركبوه جملا وطافوا به شوارع بغداد.. طبعا كانت هذه أسعد لحظة في حياة الصبية الذين تولوا ضربه بالطوب وسكبت النساء الماء القذر عليه

لم تنته آلامه لأنه سقط من فوق الجمل فكسرت قدمه.. هكذا صار أعرج....

هذه هي القصة كلها!....

مقلب لا بأس به لكنه لا يصلح كى يكون حكاية.. دعك من أن الحب كما هو واضح لا ينتصر أبدا في قصص الف ليلة وليلة هذه..

كانت عبير تشعر بمزيج من التوتر وخيبة الأمل وهي تنطلق لتعيش قصة أخرى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا راحت تجمع القصص.. تصغي وتتابع وأحيانا تشارك

لاحظت أن هناك مجموعة من القصص تتشابه كثيرا.. هناك شاب وسيم في متجر، تاجر أو خياط، ثم تظهر له فتاة فاتنة تذهل عقله.. بعد هذا يتورط الفتى في شيء ما.. هناك عدد أكثر من اللازم من الأطراف المبتورة.. أكثر من شاب فقد يده لأنه اتهم بالسرقة

هل هذا يحمل بصمة مؤلف واحد؟ ...

مثلا القصة التي كانت تعيش أحداثها هذه الأيام وكانت تدور في مصر بالذات، كانت أحداثها كما يلى:

هناك شاب وسيم فاخر الثياب يأكل مع تاجر مسيحى، والملاحظ أن الشاب لا يستعمل سوي يده اليسرى مما يثير فضول المسيحي

سأله التاجر:

« لماذا تأكل بيدك اليسرى؟.. هل باليمنى عاهة ما؟

ككل واحد من أبطال ألف ليلة وليلة كان الشاب جاهزا ببيت شعر:

- خليلى لا تسأل على ما بمهجتى

من اللوعة الحرى فتظهر أسقام

- وما عن رضا فارقت سلمى معوضا

ولكن للضرورة أحكام

طبعا مقطع شعر رديء.. معظم أشعار ألف ليلة وليلة رديئة لكن لها تأثير السحر على الأبطال، الذين يغشي عليهم أو يشقون ثيابهم أو يصرخون من الطرب فترتج القاعة من هول صرختهم

ثم إن الشاب أخرج ذراعه المتوارية خلف ثيابه فاتضح أنها مبتورة..

بدأ يحكي قصته.. معظم أبطال ألف ليلة وليلة لهم قصة طويلة معقدة..

لقد جاء الفتى من بغداد ليبيع القماش، وذهب إلى مكان يدعى قيصرية جرجس حيث حاول أن يبيع بضاعته مرة واحدة.. لم يستطع سوى أن يحصل على أمواله بالتقسيط... وموعد القسط هو الاثنين والخميس من كل أسبوع

- دخلت الحمام يوما من الأيام وخرجت إلى الخان ودخلت موضعى، وأفطرت على قدح من الشراب، ثم نمت وانتبهت فأكلت دجاجة وتعطرت، وذهبت إلى دكان تاجر يقال له: بدر الدين البستاني فلما رآني رحب بي وتحدث معي ساعة في دكانه

هنا ظهرت عبير كالعادة..

فتاة فاتنة تذهب العقول جاءت لتأخذ قطعة من القماش المشغول بالذهب. سوف تنقد بدر الدين ماله بعد أيام، لكن بدر الدين طلب ماله حالا.. لأن الفتى

جالس ينتظر وهذا موعد حصوله على القسط الأسبوعي الخاص به

نظرت عبير إلى الفتي نظرة من تلك النظرات التي تذهل الرجال، وابتسمت.. وكانت تعرف ما سيحدث.. الشهامة سوف تتحرك به إلى درجة انه سيعرض عليها أن تأخذ ما تريد وتسدده فيما بعد.. فيما بعد.. ربما بعد ألف عام

إن رجال ألف ليلة وليلة يضعون الحب والجمال في المرتبة رقم واحد. وهم أقرب إلى البلاهة يسهل خداعهم.. إن هرموناتهم هي صاحبة الكلمة الأولى في أي قرار يتخذونه

لما رحلت الفتاة ظل الفتى يحدق في الفراغ مذهولا، ويبدو أنه نسي أين هو

قال التاجر (بدر الدين) بلهجة العارفين:

- إنها غنية.. هي ابنة أمير، وقد ورثت ثروته..

الآن يعود الفتي إلى الخان الذي يقيم فيه، فيمارس أهم دور لأبطال ألف ليلة وليلة.. لا ينام.. لا يأكل.. مقروح الجفن لا خليل له سوى لواعج الغرام وتباريح الهوى

ومن جديد تأتيه الجارية لتبلغه أن سيدتها تهيم به حبا، وأنها تدعوه للقائها.. عليه أن يصلي الجمعة ثم يتوجه إلى باب زويلة ثم يسأل عن قاعة بركات النقيب المعروف بأبي شامة.. هذا هو عنوانها.. لا تنس أن الفتى عراقى والوصول لهذا العنوان مشكلة

خليط عجيب جدا من التدين والصلاة والخمر والعربدة.. خليط لا يمكن فهمه فعلا، لكننا اعتدناه في صفحات ألف ليلة وليلة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دق الفتى الباب ففتحت له جاريتان كأنهما قمران، وقالت له:

- أدخل.. إن سيدتنا تموت شوقا لك..

كانت القاعة مغلقة بسبعة أبواب، وفي دائرها شبابيك مطلة على بستان فيه من الفواكه جميع الألوان، وبه أنهار دافقة وطيور ناطقة، وهي مبيضة بياضا سلطانية يرى الإنسان وجهه فيها، وسقفها مطلي بذهب وفي دائرها طرزات مكتوبة باللازورد، قد حوت أوصافا حسنة وأضاءت للناظرين، وأرضها مفروشة بالرخام المجزع، وفي أرضها فسقية، وفي أركان تلك الفسقية الدر والجوهر مفروشة بالبسط الحرير الملونة والمراتب

هذا هو وصف الأماكن غالبا... كل مكان مذهل يذهب بالعقول

أما عن الطعام الذي قدمته عبير فهو كالعادة:

- سفرة من أفخر الألوان من محمر ومرق ودجاج محشو

بعد الأكل قدموا له الطست والإبريق فغسل يده ثم تطيب بماء الورد والمسك.. هذه هي الطقوس

في الليلة التالية عاد الفتي.. وقد غلبته عادة سيئة هي أن يترك لها في كل مرة منديلا به دنانير، كما أنه يعد في كل يوم عشاء فاخرا ويرسله لعبير مع (حمار). الطريقة القديمة لخدمة الدليفرى.

يوما بعد يوم بعد يوم لقد أفلس الفتي

إن الإفلاس مع الرغبة في البذخ مع الحب عوامل ثلاثة تقود المرء إلى الجنون

والجنون الذي وقع فيه الفتى هو أنه كان ذاهبا للقاء حبيبته، عندما اصطدم بجندى.. لا أحد يسرق جنديا ما لم يكن مجنونا والفتي مجنون... مد يده إلى صرة المال المعلقة في نطاق الجندي وأخذها

هنا نقول من جديد إنه ما من أحد يحاول نشل جندي وهو لم ينشل في حياته ما لم يكن مخبولا، والفتي مخبول.. هكذا شعر الجندي بيد الفتى الثقيلة وهي تنتزع ماله..

هوى على وجهه بصفعة ثم اثنتين.. وسرعان ما التف الناس حول المشهد المهيب وتلقى الفتى علقة ممتازة

حدث هذا أثناء قدوم الوالى

كانت السرقة ثابتة، والشهود كثيرون.. وهكذا أصدر الوالى أمره بقطع يد الفني اليمني.

هكذا وقف الفتى ينزف وقد فقد يده اليمنى للأبد.. ورق له قلب الواقفين، حتى أن الجندي ترك له الكيس بما كان فيه من مال.. وقال له إن السرقة حرام، فأنشد الفتي:

- والله ما كنت لصا يا أخا ثقة

ولم أكن سارقا يا أحسن

الناس

- ولكن رمتني صروف الدهر عن عجل

فزاد همي ووسواس إفلاسى

يجب على المرء أن يتحلى بالصبر.. هذا الفتى قطعت يده منذ عشر دقائق، ولا شك أنه يتألم كأنه في الجحيم، وينزف بلا توقف، لكنه قادر على أن يتكلم شعرا.. دعك من المنطق الغريب.. والله لم يسرق؟.. إذن ما هو تعريف السرقة؟

لقد عاد الفتى إلى عبير ولم يخبرها بما حدث له.. قال إنه مرهق ويريد أن ينام

يبدو انه من السهل في ألف ليلة وليلة أن تخفي أن يدك مقطوعة. لقد قلقت عبير وجاءته بشيء من الطعام والطعام كالعادة هو: سفرة من أفخر الألوان من محمر ومرق ودجاج محشو..

- لماذا لا تتكلم؟.. احك لي عما حدث لك اليوم

قدمت له كأسا من الشراب فرأته يتناوله بيده اليسري

- لماذا تستعمل يدك اليسرى؟.. هل تغير مركز التحكم في مخك؟

لكن الفتى أصر على ألا ترى يده.

بعد عدة كئوس نام الفتي نوما عميقا.. هكذا مدت عبير يدها إلى كمه تعبث.. هكذا رأت اليد المقطوعة.. وفي حزامه وجدت كيس المال.. بما أن النساء عباقرة فقد استنتجت على الفور أنه سرق وقطعت يده

لم تنم ليلتها بل ذهبت لتذبح له أربع دجاجات ليعوض السدم الذي نزف منه..

كانت الآن تشعر بشفقة حقيقية عليه مع زهو أنثوي مزعج الرجل الذي يحب امرأة لدرجة أن يبدد كل ماله ويسرق وتقطع يده، لهو عاشق لا تلقاه المرأة كل يوم.. هي لا تبالي بالمال لديها أكثر من حاجتها لكنها بالفعل بحاجة إلى الحب..

واستدعت الشهود كى تكتب كتابها على الفتى.. ثم قالت لهم:

- اشهدوا أن جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب..

المفاجأة هنا هي أنها لم تنفق مليما من المال الذي كان يعطيه لها.. كانت تحتفظ به في صندوق من أجله هكذا صارت السرقة وقطع اليد وسيلة للحصول على الحب الأبدي... يبدو أن الحب من غير يد يمني له مذاق ألذ

المفاجأة الأجمل هي أنها ماتت بعد ذلك بخمسين يوما فتركت له ثروتها كلها.. لقد صار الفتى ثريا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- يجب صنع قصة

تجمعت القصص عند (عبير).. قصص كثيرة جدا

كانت تشعر بتعاسة لأنها لا تعرف كيف تتحرك.. كان شهريار قد أعطاها إجازة لمدة أسبوعين تحاول فيها اكتساب قصص جديدة.. قصص لها ذات طابع ما كانت أختها تحكيه.. لا يريد قصصا سخيفة عن مدن أوروبية تجتاحها الثورات، أو صيادى لؤلؤ مكسيكيين

عرفت أن المرشد نجح بصعوبة في إقناع شهريار بالتخلي عن مزاجه الليلي لمدة أسبوعين، ويبدو أنه أعطاه مشغلا صغيرا للأقراص المدمجة كي يستمتع بمشاهدة الأفلام في فراشه كل ليلة.. لكن (شهريار) فظ لا يجيد سوى قطع الرقاب، وقد دمر الجهاز على الفور باستعماله الأخرق

هكذا عادت إلى القصر مهمومة كاسفة البال

استقبلتها الجواري فقمن بإدخالها الحمام ونظفن جسدها وعطرنها.. ارتدت ثيابا جديرة بالأميرات، لكنها كانت مهمومة فعلا.. لا تضيعن وقتكن يا فتيات في تصفيف شعرى، فهذا الشعر الجميل سوف يستقر على النطع بعد ساعات.. هذه الثياب الحريرية الفاخرة سوف تتلوث بالدم

كان أكثر ما يضايقها هو أن تحكي تلك القصص التي تنتهي فجأة.. تقول (تمت) بينما المستمع يتهيأ للمزيد فيصاب بخيبة أمل وينظر لها غير مصدق.. هذه هي مشكلة ما لديها من قصص

جلست وطلبت قرطاسا وريشة ومحبرة.. هذه أشياء يستحيل العثور عليها في الحريم، لكن الجواري استطعن أن يجدن بعضها بدأت تكتب:

ا- الصياد الذي حسب أنه قتل الأحدب بشوك السمك. وكان على ملك الصين أن يفصل في القضية

2 - التاجر الذي خدعه الزوجان ووضعاه في حجر الطحين

3- المزين الذي رأي عشرة رجال فحسب أنهم ذاهبون. لوليمة وانضم لهم.. طبعا تبين أنهم ذاهبون كي تقطع رقابهم!

هناك قصة مماثلة بالضبط بطلها أشعب الطفيلى

4- شاب عاشق تم استدراجه إلى بيت حيث ضربه عبد اسود علقة ساخنة، وأصيب بالفالج بعدها.

5- رجل أعور كان جزارا اتهم بأنه يذبح الناس ويبيع لحومهم. المشكلة هي أن الناس رأوا جثثا معلقة في متجره، وكانت هذه لعبة خبيثة من ساحر شرير

6- رجل دعاه أحد الخبثاء إلى مأدبة لا طعام فيها.. بل هو نوع من البانتومايم (التمثيل الإيمائي).. وكان يسخر منه لكنه رد له الصاع صاعين.

7- الفتى الذي سرق من أجل الحب وقطعت يده.

8- الفتى الذي قطعت زوجته إبهامه لأنه لم يغسل يده بعد أكل الزرباجة!

9- إلخ... إلخ

سوف تحكى هذا كله من دون حماسة شاعرة بالارتباك وأنها سمجة، وسوف ينتقل هذا كله لشهريار.. يجب على راوي القصة أن يكون أكثر الناس حماسة لها.. تستطيع سماع شهريار ينادى السياف كى يقطع عنقها.. وسوف يبحث في الغد عن زوجة أخرى

كانت جالسة أمام المرآة تحدق في أغبي وأتعس وجه رأته في حياتها..

هنا انزاحت الستائر من خلفها ودخل شخص ما

شهريار؟

ليس بهذه السترة السوداء والثياب الحديثة.. إنه المرشد كما هو واضح يتقدم نحوها في تؤدة وهو ينظر للأرض كما يفعلون في أفلام الوسترن.. بلغ موضعها أمام المرآة فدس أنامله في عروة حزامه وقال:

- هل أنت جاهزة للسرد؟

قالت في غم:

- تجربة فاشلة جدا..

نظر للقرطاس الذي دونت عليه خواطرها، ثم انفجر يضحك.. لم تفهم ما هو مضحك في هذا كله

قال لها:

- أنت وقعت على قصص ممتازة.. قصص ألهمت شهرزاد نفسها... لكن لابد أنك لاحظت الطابع الواحد.. هذه القصص مصدرها مؤلف واحد بلا شك.. هناك دائما جو السوق وجو التجار والخياطين والأقمشة.. هناك فاتنة تظهر وتخلب لب رجل ثم يتلقى عقابه.. هناك بتر أطراف وبعض القصص فيها فقء عيون.. يمكننا من هذه اللبنات أن تصنع قصة واحدة طويلة..

ثم أخرج قطعة طبشور لا تعرف من أين جاء بها، وبدأ يخط على الجدار الحجري

التركيب المعروف لألف ليلة وليلة هو الحلقات المتداخلة.. هناك شكل القصص العنقودي كذلك

أولا: هناك القصة المحورية Wraparound التي تبدأ كل شيء وتنهي كل

شيء.. إنها قصة شهريار ودنيا زاد... سوف تبدئين السرد بالطريقة التي تعرفينها

ثانيا: هناك قصة محورية أصغر.. هذه هى قصة الخياط الذي يدعو الأحدب ليأكل عنده.. تنحشر شوكة سمك في حلق الأحدب ويموت.. يتخلص الزوجان من الجثة.. هنا تقع بعض المواقف الطريفة، لأن كل واحد يصطدم بالجثة ويحسب أنه هو القاتل... يحملان الجثة لجارهما الطبيب اليهودي ويفران.. هنا يجد الطبيب اليهودي نفسه في موقف عسير.. يتخلص من الجثة فوق سطح جاره المسلم على أمل أن تأكلها الكلاب الضالة. يأتي الجار المسلم ويحسب الجثة لصا يتربص به فيوكزها بالعصا.. هكذا يخيل له أن عصاه هي سبب موت الأحدب يحمل الجثة ويتخلص منها عند جاره النصراني.. النصراني كان عائدا في الظلام فحسب الأحدب لصا وراح يكيل له الضربات، هنا مر حارس ليلى وحسب أنه رأي عملية قتل.. هكذا اقتاد النصراني إلى الوالي.. يقرر الوالى إعدام النصراني لكن المسلم يعترف بأنه القاتل.. قبل إعدام المسلم يعترف اليهودي أنه الفاعل.. قبل إعدام اليهودي يعترف الخياط أنه الفاعل.. وضع محير! سرعان ما يتصاعد الأمر إلى ملك الصين ونعرف هنا أنه كان يحب الأحدب لأنه مضحكه الخاص.. لهذا هو يريد قطع رقاب الجميع.

ثالثا: هنا يقرر النصراني أن يحكى قصة للملك لعلها تروق له.. إن ملوك ذلك العصر يتركون القتلة أحرارا لو كانت لديهم قصة مسلية. عملية الحكم مزاجية تماما وتخضع لانبساط الرجل. تكوين القصة بهذه الطريقة يشبه أغنية (عبد الحليم حافظ) الشهيرة (مبسوط يا سيدي؟)؛ حيث يغني للباشا أغاني قديمة؛ لعله يصفح عنه ولا يدخله السجن.. وفي كل مرة يصر الباشا على أنه لم يستمتع بما يكفي. سوف يحكى النصراني أنه استضاف شابا يصر على الأكل باليد اليسرى.. الشاب يحكي له قصة الغرام الذي دفعه للسرقة.. طبعا لم ترق القصة للملك.. وهكذا..

رابعا: يحكى له المسلم قصة الشاب الذي لم يغسل يده بعد الزرباجة. لكن الملك ما زال مصرا على أن يعدم الجميع.. هكذا..

خامسا: يحكى له اليهودى قصة عن شاب يوشك على الزواج من فتاة حسناء، ويحضر المزين ليحلق ويشذب شعره.. المزين ثرثار جدا كعادة الحلاقين.. لا يكف عن الكلام ثانية واحدة..

سادسا: يحكي المزين قصته عندما رأى عشرة رجال فحسب أنهم ذاهبون إلى وليمة. تبين أنهم ذاهبون للخليفة كي يقطع أعناقهم.. بعد قطع أعناق عشرة وجد الخليفة العدد زائدا فطلب من المزين أن يحكى قصته.. يقول المزين للخليفة إنه رجل طيب وإنه أفضل واحد من أخوته الخمسة:

الأخ الأول هو الأحمق الذي ربطوه في حجر الطاحون

الأخ الثاني هو الذي كاد العبد يفتك به وأصيب بالفالج

الأخ الثالث هو الأعور الجزار الذي اتهموه ببيع لحوم البشر

الأخ الرابع هو بطل أو ضحية محاولة نصب أخرى.

الأخ الخامس هو الذي تلقى دعوة للعشاء مع ممثل بانتومايم

سابعا: يسر الخليفة بالقصة ويعفو عن المزين

ثامنا: نعود إلى (ثانيا).. ما زلنا عند ملك الصين، وما زالت جثة الأحدب سؤالا ينتظر الجواب. هنا يمد المزين يده في حلق الأحدب وينزع الشوكة.. فيعود الأحدب للحياة

تاسعا: نغلق الدائرة ونعود لشهريار ودنيا زاد!.. التي تبدأ قصة أخرى.....

أهنئك.. لقد انتهيت لتوك من تأليف قصة الخياط والأحدب

هتفت عبير مصفقة بيديها:

- أنت بارع حقا!

قال في غرور:

- طبعا.. هذه القصص تمنحك عشر ليال على الأقل أنت تفهمين الان كيف تنسجين قصص ألف ليلة وليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما جاء المساء كانت (عبير) جاهزة.

وعندما دخل شهريار المخدع بقامته الفارعة وعطره وجثته العملاقة، وتمدد على الفراش ينتظر القصص التي ترضي شهوة السمع بعد ما نال شهوة الطعام والنفوذ

هنا كانت (عبير) مستعدة لتحكي بصوتها الذي استعارته من زوزو نبيل، مع صوت موسيقا كورساكوف الساحرة التي بدأت تكتمل:

- بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان في مدينة الصين، رجل خياط مبسوط الرزق يحب اللهو والطرب، وكان يخرج هو وزوجته في بعض الأحيان يتفرجان على غرائب المنتزهات، فخرجا يوما من أول النهار ورجعا آخره إلى منزلهما عند المساء، فوجدا في طريقهما رجلا أحدب رؤيته تضحك الغضبان، وتزيل الهم والأحزان، فعند ذلك تقدم الخياط هو وزوجته يتقوزان عليه ثم أنهما عزما عليه أن يروح معهما إلى بيتهما لينادمهما تلك الليلة، فأجابهما إلى ذلك ومشى معهما إلى البيت، فخرج الخياط إلى السوق وكان الليل قد أقبل، فاشترى سمك مقليا وخبزا وليمونا وحلاوة يتحلون بها، ثم رجع وحط السمك قدام الأحدب وجلسوا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- يونان وجان..

واقفة على ضفاف (دجلة) تفكر في القصة الجديدة

كانت في الليل تحكي بنجاح تام قصتها (الأحدب والخياط). وقد راقت لشهريار جدا، وكانت تدرك ذلك من اتساع عينيه وتسارع تنفسه.. الطفل الكبير قاطع الرقاب قد وجد ما يريد

لكن كانت هناك ملاحظتان لم تجد لهما تفسيرا

منذ أيام يلاحقها ذلك الرجل. رجل يلبس ثياب العرب في ذلك الزمن، لكنه يبدو مختلفا... يبدو أجنبيا أو هو أجنبي فعلا. كلما نظرت خلفها رأته في مكان ما، والأسوأ أنه يتظاهر بأنه لا يراها وأنه موجود بحكم الصدفة.. بالطبع لا يلاحقها في المخدع، لكنها استطاعت أن ترى هذه الخرزة الصغيرة المتدلية من الستار في أعلاه، وقد فحصتها فأدركت أنها تشبه أجهزة التنصت فعلا

لماذا؟.. هل يراقبها شهريار؟.. هل يشك فيها؟.. إنه لا يثق بأية امرأة ومن الطبيعي أن يشك، لكن كيف ولماذا يستعين بالتكنولوجيا المتقدمة بدلا من إرسال أحد البصاصين؟.. إنه لا يفهم شيئا في التقنيات، والدليل أنه أتلف مشغل الأقراص بعد ثلاث دقائق

ظل هذا السؤال بلا جواب

الاحتمال الوحيد هو أن يكون من يراقبها هو نفسه من يتنصت عليها.. ولكن لماذا؟

كانت قد اعتادت أن ترى المهتمين بألف ليلة وليلة حولها لكنهم لا يضايقونها... قابلت كورساكوف أكثر من مرة فهز رأسه وواصل الدندنة.. وقابلت جالان يكتب مذكرات.. لكنهم لم يخفوا وجودهم

على كل حال لا وقت تضيعه في هذا الهراء.. إن الأسد جائع وبحاجة إلى قصص، وعليها أن تبتكر له بعضها بسرعة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذلك الصياد العجوز يحمل شبكته الثقيلة ويتجه للماء..

قالت عبير لنفسها إن الرجل صياد.. بشرى خير!... الصياد له أهمية بالغة في ألف ليلة وليلة، وعلى الأرجح سوف يستخرج زجاجة فيها جني أو حذاء قديما أو صندوقا فيه جثة... الخ.. المهم أنه سيجد شيئا مثيرا... توشك أن تعتقد أن كل أبطال ألف ليلة وليلة أمراء أو صيادون

توارت وراء شجرة وراحت تراقب الموقف

كان الصياد قد وجد صيدا ثقيلا، فبدأ فصل من (العجوز والبحر) لهيمنجواى، وهو يقاوم ويجاهد كي يخرج الشبكة.. ساذج.. الشباك الثقيلة بهذه الدرجة لا تحوي إلا جثثا على الأرجح

بالفعل هي جثة، لكنها جثة حمار متعفن...

أطلق الرجل أنينا وعصر الشبكة، ثم طرحها من جديد.....

كان يوما أسود والفشل يتكرر بين زجاجات فارغة وزئر مليء بالطين.. إلخ..

المرة الخامسة جعلته يخرج قمقما من نحاس أصفر عليه خاتم سيدنا سليمان... عندما تشتري زجاجة زيت فإن لها شكلا مميزا، وكذلك الخل له شكل مميز.. في ألف ليلة وليلة هذا هو الشكل المصطلح عليه لزجاجات الجن

توارت عبير وقد عرفت ما سيحدث، فهي رأت فيلم (لص بغداد).

الصياد فتح السدادة، وهكذا انطلق لسان كثيف من الدخان إلى عنان السماء مع ضحكة شمهورشية الطابع.. وبدأ الدخان يتخذ شكل عملاق / عفريت.. عملاق له ذات الوصف الدائم للجن (رأسه في السحاب ورجلاه في التراب برأس كالقبة وأيد كالمدارى ورجلين كالصوارى، وفم كالمغارة، وأسنان كالحجارة، ومناخير كالإبريق، وعينين كالسراجين)

احتبس نفس عبير وهي تدرك أن هذا الشيء قادر على أن يراها ويفتك بها.. لتأمل أن يكون مثل الديناصورات لا يهاجم إلا ما يتحرك

قال المارد للصياد بصوت زلزل المكان:

- أبشر أيها الصياد..

ابتسم الصياد وتجعد وجهة العجوز... لقد حان وقت الثراء إذن، لكن المارد قال:

- أبشر بقتلك شر قتلة!

هنا بدأت عبير تتذكر القصة..

المارد الذي كان يعمل عند سيدنا سليمان وعصاه، فحبسه في هذا القمقم.. بعد مئة عام تمنى المارد لو ينقذه أحد ليجعله ثريا بعد مئة أخرى تمنى لو ينقذه أحد ليعطيه كنوز الأرض.. بعد أربعمائة عام تمنى لو ينقذه أحد ليقتله!

بالفعل تمت القصة كما توقعتها:

الصياد في مأزق، لكنه يملك الحيلة.. السلاح الوحيد الذي امتلكه الإنسان ومكنه من حكم العالم. هكذا يعرض على العفريت تحديه الشهير:

- لا أصدق أنك كنت بحجمك الهائل ذلك أسير هذا القمقم

العفاريت غبية وسهلة الاستفزاز

- أنت رأيتني أخرج منها..

- أعتقد أن الأمر كان يتعلق بلعبة بصرية أو خداع نظر أو تنويم مغناطيسى...

قال العفريت من بين أسنانه:

- أنت أحمق تماما.. انظر!

وهوب!.. غاب داخل القمقم من جديد، فوثب الصياد ليغلق السدادة ويعود هو السيد

حمل القمقم إلى البحر وحمل الزجاجة ليرميها وهو يقول للجنى:

- سألقيك في البحر.. إن كنت أقمت فيه ألفا وثمانمائة عام فأنا أجعلك تمكث إلى أن تقوم الساعة، أما قلت لك أبقني يبقيك الله ولا تقتلني يقتلك الله؟ فأبيت قولى وما أردت إلا غدرى فألقاك الله في يدي فغدرت بك

توسل له الجني كثيرا جدا، لكن الصياد لم يكن بهذه الحماقة.. كلا.. لا يمكن أن يكون بهذه الحماقة أبدا.. بل هو كذلك!

لقد صدق توسلات الجني وقسمه الغليظ.. هكذا فتح له القمقم من جديد

قالت عبير في نفسها وهي ترى الدخان يحتشد في السماء:

- ضاع الصياد الأحمق!

بالفعل كان الجني قد ركل القمقم ليغوص في المحيط.. بمعنى أنه لا رجعة له.. عرف الصياد معنى هذه الخطوة وبلل سراويله من الرعب.. كان الصراع قوا بين (العفو عند المقدرة) و(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين).. انتصرت المقولة الأولى للأسف.. ومن الواضح أن العفاريت لا تحفظ العهد

لم يستغرق الأمر وقتا حتى هرس الجني الصياد بإصبع قدمه.. ثم مسح بقاياه في الرمل، وحلق في السماء وهو يضحك ضحكته الشمهورشية المجلجلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- يونان وجان (ما زال صالحا)

لم يكن المشهد محيا وقد أمضت وقتا طويلا شاعرة بالتقزز والهلع

لا تذكر أن القصة انتهت هذه النهاية المقتضبة الأليمة كانت أطول.. نفس الفكرة التي تراودها مع قصص جيمس بوند. لو كان الشرير أكثر عملية وحصافة لأعدم بوند وانتهى الفيلم بعد عشر دقائق، لكن الحاجة إلى حبكة تجعل الشرير يربط بوند في فقاعة معلقة في الهواء مربوطة بحبل مشتعل.. الخ.. هذا يمنح بوند عدة ساعات يفر فيها

لا تعرف متى وجدت أنها تمشي في بلاد يمكنها أن تخمن أنها بلاد الرومان. كانت تعمل مساعدة لطبيب مسن من الطراز الذي يسمونه (نطاسى). وكان اسم الحكيم (رويان).. لماذا رويان؟.. لأن هذه بلاد الرومان والملك يدعى يونان.. يبدو أن مؤلف القصة من المولعين بالسجع

كان الطبيب كأي واحد آخر من أطباء عصره.. يجيد الطب الفلك والنباتات والأعشاب.. إلخ

كان دورها يتلخص في أن تخلط له الأعشاب التي يطلبها وكانت مهنة لا بأس بها

إلى أن جاء اليوم الذي قال لها الحكيم فيه:

- أعدى الأدوات والبسي ثيابا نظيفة لأن الملك يونان يريد لقاءنا!

هذا شيء مذهل.. الذهاب للقاء الملك شخصيا.. القصر والهيلمان والعبيد.. كل شيء رائع ما عدا الملك نفسه... إنه مصاب بالبرص.. على الأرجح هو الجذام لأن القدامى كانوا يخلطون بين المرضين

كان بشع المظهر، وكان يلبس عباءة يسدلها على وجهه معظم الوقت مما يجعله مرعبا أكثر.. من حين لآخر ترى ضمادات مبللة بالإفرازات أو الدم.. هذا لم يجعل المشهد أفضل

فحصه الحكيم على مهل ثم قال له:

- مولاى.. علاجك سهل.. وسوف أفعلها من دون دهان ولا عقاقير..

- كيف؟.. لو فعلتها لأجزلت لك العطاء.

أرسل الحكيم (عبير) لتجلب له بعض الأدوية، ثم قام بخلطها ليصنع منها كرة وصولجانا

ودخل على الملك ليناوله الكرة والصولجان.. ثم انحنى بين يديه وقال:

- سوف تمسك بهذين.. وتلعب بالكرة طيلة اليوم. الهدف هو أن تعرق كفك

فيتسرب لها الدواء ويدخل جسمك.. عندما ينتهي اليوم عد للقصر واستحم، ولسوف تجد أنك شفيت..

علاج يبدو مبهرا، لكن لابد من تجربته أولا.. قد يكون مجرد لعب أطفال..

وهكذا قضى الملك اليوم كله يلعب بالصولجان والكرة.. بدأ العرق يخرج من جسده ويبلل كل شيء.. وقد نفذ التعليمات حرفيا، وعند المساء عاد للقصر فاستحم ونام

عادت عبير مع الحكيم إلى بيتهما بانتظار الغد. لم يفتها أن تلاحظ أن ذلك الرجل الذي يراقبها كثيرا موجود هنا أيضا. لقد صارت هذه عادة فيما يبدو.. من هو؟ وماذا يريد بالضبط؟

في الصباح كانت المعجزة..

أخذ الملك حمامه ثم وقف أمام المرآة... لا توجد قروح لون الجلد متجانس جميل.. وجهة استعاد قدرته على التعبير

لقد شفي تماما!.. إن الحكيم رويان عبقرى فعلا

هكذا عومل الحكيم وعبير مساعدته معاملة أفضل الأصدقاء وفتحت لهما الخزائن.. وطلب الملك من الحكيم أن يكون جليسه وأنيسه طيلة عمره

في كل يوم كان يقدم الهدايا للحكيم ومساعدته.. ويبقيه معه حتى المساء.. وهي معاملة لابد أن توغر النفوس في النهاية

هنا بدأ مجرى الأحداث يتغير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الوزير الحقود الذي تشي ملامحه بالشر والحسد (لكن الملك لا يرى هذا كعادة القصص):

- أهنئك بالشفاء يا مولاي... لكن هناك نصيحة أرغب في أن أقدمها لك..

بدا التوتر على الملك، وارتسم على وجهه ذات التعبير الذي ارتسم على وجه عطيل من قبل عندما زرع باجو الشك في نفسه

نحو ديدمونه. يبدو أنني كنت أحمق.. لم أفهم المكيدة التي تدور من وراء ظهري

- إن هذا الحكيم عدو لك.. لكنه قد كشف عن قدراته الخارقة. استطاع شفاءك بكرة في يدك.. فهو قادر على أن يسممك بشىء تشمه.. إنه قوي جدا..

حك الملك لحيته في شرود وقال:

- فعلا.. هو قوي جدا.. والعمل؟

قال الوزير في براءة:

- اضرب عنقه.. هذا هو الحل الجذري الوحيد الذي أعرفه..

راح الملك يفكر، ومن جديد بدت له الفكرة معقولة.. هو لن يحتاج إلى الحكيم مرة أخرى. ثم هو لن يأتي بعمل جديد، فقد فعلها قبلة ملك يدعي سنمار عندما أعدم المهندس الذي بني له قصرا منيفا، وكانت أسبابه أوهي بالتأكيد: منعه من بناء قصر آخر لواحد آخر... يجب ترك أخلاق العامة التقليدية للعامة

عندما جاء الحكيم استقبله الملك مع السياف وقال له ضاحكا:

- أحضرتك كي اقطع رقبتك!

تبادل الحكيم وعبير نظرات الرعب.. هذه هي مشكلة مصادقة علية القوم.. إن مزاجهم ناري وتقلباتهم كثيرة.

- لماذا؟.. ماذا فعلت؟

- لأنك جاسوس يبغي قتلى...

هكذا يصدق القصة التي جاءت من طرف واحد.. لكن ألف ليلة وليلة ترى هذا تصرفا معقولا..

- أهذا جزائي بعد ما شفاك الله على يدي؟

- لا مفر من قتلك.. أيها السياف!

وقفت عبير تولول.. سوف يقتلون الحكيم.. وبعدها ربما جاء دورها ... لكن على الأرجح سيكتفى الملك بطردها.. ماذا تفعل؟.. كيف تنقذ الموقف؟

دنا منها الحكيم وهمس:

- لا مفر.. إن رقبتي مقطوعة مقطوعة.. فقط يجب أن تسمعي ما أقول لك وتنفذيه حرفيا..

ثم قال للملك:

- أرجو أن تأذن لمساعدتي بأن تدبر أموري مع أهلي وتستنقذ كتبي وأدواتي.. وسوف تأتي لك بكتاب مهم عندي. كتاب يجب ألا يصل ليد العامة.. لهذا الكتاب مزية عجيبة هي أنه لو وضعت رأسي جواره ثم عددت ثلاث صفحات، وقرأت أول سطور في ثالث صفحة، فإن الرأس يكلمك ويرد على أسئلتك

- هل تحاول خداعي؟

- أنا ميت.. والميت لا يحاول خداع أحد

صاح الملك في سرور طالبا أن يساعدوا (عبير) على إنجاز مهمتها.. لقد تحرك بداخله الطفل الموجود في كل ملوك ألف ليلة وليلة.. لو استطاع لقتل الحكيم الآن لكن الكتاب غير موجود

تم الاستعداد لكل شيء، فأحضر الحكيم الكتاب وطبعا طلب من الملك أن يضع رأسه فيه بعد القطع.

تم الأمر بسرعة السياف بارع حقا.. لكن (عبير) لم تعد تتحمل المزيد من الرءوس المقطوعة في هذه القصص

أما الملك فوضع الرأس في الطبق، وفتح الكتاب.. كانت الصفحات ملتصقة فبلل اصبعه وفتح أول صفحة.. الثانية ملتصقة.. اضطر من جديد لأن يبلل اصبعه..

- لا توجد كتابة...

قالت عبير

- استمر في التقليب يا مولاي..

بلل الملك إصبعه من جديد.. كان السم الذي استعملته عبير على الصفحات من مادة راتنجية صمغية.. لهذا اضطر الملك إلى وضع إصبعه في فمه مرارا.. لقد تلقى جرعة مضاعفة

سقط الملك ميتا جوار رأس الحكيم.. هنا أنشد الرأس:

- لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا

فبغى عليهم الدهر بالآفات والمحن

وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم

هذا بذاك ولا عتب على الزمن

وعندما غادرت عبير القاعة لم يعترض طريقها أحد.. كان الجميع في حالة ذهول.. بسبب هذا الانتقام المخيف من رأس مقطوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن كانت قد وصلت في قصة الأحدب والخياط إلى أخوة المزين ذوي الحظ العاثر

قدرت أنها مع الكثير من المط والتثاؤب وقول الشعر والوصف المبالغ فيه، قد تستطيع أن تمد القصة ثلاثة أيام أخرى.. بعدها لن تجد زادا..

وكان شهريار متحمسا وعيناه تلمعان.. معنى هذا أن الأدرينالين يتدفق في دمه.. من السهل على من يتدفق الأدرينالين في دمه أن يقطع الرقاب.. لابد من أن تتصرف بسرعة ولو اعتمدت على رصيدها الضئيل

الآن صارت لديها قصتان لا بأس بهما.. لكنها لا تعرف كيف تربطهما.. دعك من تفاهة قصة الصياد والعفريت، فقد تم القتل قبل أن تبدأ القصة..

عادت عبير إلى الشط.. شط بركة هذه المرة.. وجلست تراقب مجريات الأمر.. من جديد رأت صيادا يلقي بشبكة

نظرت حولها فتوارى ذلك الذي كان يراقبها فجأة.. نفس الرجل شبه الأجنبي الذي يتبعها في كل مكان.. ليس جالان ولا كورساكوف ربما هو بيرتون؟.. إن بيرتون يجيد التنكر كتاجر عربى، وقد دخل مكة متنكرا كتركي من قبل.. لكن لماذا يفعل هذا الآن؟

تعلمت مما رأته أن مراقبة الصيادين تثمر قصة دائما، لذا انتظرت قرب العجوز.. ثم وجدت أنه من الأفضل أن تجلس جواره

لمحها فأحني رأسه وقال في احترام واتضاع:

- أنا صياد فقير..

- وأنا أبحث عن قصص حتى لا تطير رقبتى

عندما جذب الشبكة كف عن الكلام.. كان المشهد رائعا لأن الشبكة كانت تحوي أسماكا ملونة زاهية.. بيضاء وصفراء وحمراء.. ما هذا؟ ... هل صارت البركة بحيرة استوائية فجأة؟

شهق الصياد في حماسة، فقالت عبير:

- تحتاج إلى فلتر وموتور هواء.. ربما تحتاج إلى (دوادة) كذلك لإطعام السمك..

قال ضاحكا:

- لا.. هذا السمك ليس لاستعمالى.. بل هو هدية للملك شخصيا.. سوف يجزل لي العطاء..

وملا إناء كبيرا بالماء ووضع فيه السمك، ثم هرع وهى خلفه إلى قصر الملك

لم يكن الملك هو هارون الرشيد وقتها.. على كل حال هو شخص يمكن أن ينبهر بهدية كهذه، وقد فتح الحراس الطريق للوافدين.. ورأى الملك السمك فأطلق صرخة انبهار عظيمة

- سمك..!.. سمك ملون رائع الجمال!

قال الصياد في سرور:

- أظن أنك يا مولاي تنوي جعل هذا السمك نواة لأول متحف أحياء مائية في بغداد!

- بل سأفعل ما هو أكثر..

- ربما سوف تهديه لكلية العلوم؟

- بل سأقليه!

طريقة مبتكرة غريبة بعض الشيء للتعبير عن الانبهار.. وقد نظر بعينين ناريتين لعبير وأمرها بأن تأخذ السمك للمطبخ وتتبله وتقليه. لم تجرؤ على الاعتراض أو قول إنها ليست جارية عنده

- أعطوا الصياد 400 دينار!

اتجهت للمطبخ مغتاظة.. حتى أمها لم تنجح في جعلها تنظف السمك في عالم الواقع.. لكنها هنا مضطرة لذلك. بدأت تنظفه من الأحشاء - وهي عملية قذرة طبعا - ثم تبلته ووضعته في وعاء الزيت

طش ش ش ش!

هنا حدث شيء غريب

لقد انشق الجدار فجأة.. حتى خطر لعبير أنها في قصة سندريلا وأن الجنية الطيبة سوف تبدل بثيابها ثيابا تناسب الحفل.. سقطت على الأرض وقد فقدت ساقاها تماسكهما..

ما رأته عبير يخرج من الجدار كان (صبية رشيقة القد أسيلة الخد كاملة الوصف، كحيلة الطرف بوجه مليح وقد رجيح، لابسة كوفية من خز أزرق وفي أذنيها حلق وفي معاصمها أساور، وفي أصابعها خواتيم بالفصوص المثمنة وفي يدها قضيب من الخيزران)

غرست الصبية القضيب في الزيت وصاحت:

- يا سمك.. يا سمك.. هل أنت على العهد مقيم

يبدو أنها تخلط بين هذه القصة وسنوهوايت حيث النداء الشهير (يا مرآتي.. يا مرآتي). المهم أن السمك المقلى أخرج رأسه من الزيت وقال بصوت سمك لا شك فيه:

- نعم.. نعم.. إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا..

ثم احترق السمك وتحول إلى فحم

وغابت الصبية في ثقب الجدار من جديد

كانت عبير تحاول أن تستجمع روعها عندما رأت الوزير يقف خلفها ويقول:

- الملك ينتظر السمك!

حقا غريب أمر هذا الملك الذي ينتظر السمك المقلي بهذه اللهفة، لكن (عبير) بالتأكيد كانت في موقف بالغ السوء لا أحد يحرق سمك الملك ما لم يكن مجنونا أو يريد الانتحار

لسبب ما حكت عبير قصتها للملك، فصدقها.. طلب أن يأتيه الصياد بمزيد من السمك ليكرر التجربة

وهنا تمارس ألف ليلة وليلة عنصر التكرار.. ما رأته عبير يتكرر بالضبط مع الوزير.. وما رآه الوزير يتكرر مع الملك... نفس القصة.. انشقاق الجدار.. الصبية.. القسم السمكى الغامض

هنا كانت القصة قد استحوذت بالكامل على تفكير الملك لهذا أحضر الصياد من جديد.. الصياد الذي سئم القصة كلها وتمنى أن يتخلص من هذا كله

- لابد أن نرى تلك البركة العجيبة التي تصطاد منها

وفي هذه المرة عاد الصياد إلى البركة كديك مبتل بالماء، فمن خلفه الملك وجيش كامل مسلح وعبير طبعا

قال في نفسه إن هذه القصة لن تمر على خير.. هناك رأس سيقطع في هذا اليوم على الأرجح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 - سمك ورجل نصف حجرى

قال الملك لعبير همسا حتى لا يسمعه الرجال الذين انتشروا بين الخيام:

- أريد أن أدور حول هذه المنطقة.. لا أستطيع أن أذهب بنفسي، لهذا أرجو أن تذهبى أنت لاستكشاف المكان.. قلبى يحدثني بأن هناك لغزا في هذه البركة..

ملاحظة ذكية فعلا... سمك يخرج رأسه ويتكلم، وهذا يجعل قلبه يحدثه بأن هناك لغزا

هكذا مضت (عبير) وحدها في تلك الرحلة.. مشت كثيرا جدا وهي تحمل سلاحا صغيرا وطعاما وتحمل مخاوف عديدة بالطبع لم يفارقها الشعور بأنها مراقبة.. لقد اعتادت أن تشعر بتلك النظرات من خلفها.. بالطبع لو التفتت فلن تجد شيئا أو ستجد ذلك الأجنبي الغريب

أمضت ليلتها في الخلاء على شط البركة.. أشعلت نارا تصطلى بها، وقدرت أنه لن يحدث لها مكروه.. الأهم هنا أن تكتمل القصة فلا مجال لظهور سفاح نساء أو غول

واصلت السير حتى ظهر اليوم التالي عندما رأت تلك القلعة السوداء

دقت الباب العملاق مرارا ثم عمدت إلى النداء لكن لا إجابة

كان الباب مواربا والإغراء قويا.. على ما تذكر فإن القصص التي يدخل فيها البطل إلى قلعة الغول ليست ضمن ألف ليلة وليلة هكذا دخلت في حذر والخنجر في يدها، عالمة أنها عاجزة تماما عن استخدامه ببراعة لو حدث شيء

وسط القصر كانت هناك فسقية.. عليها أربعة سباع من الذهب تلقى الماء من أفواهها

صوت بكاء.. هذا مؤكد

انتصب شعر رأسها فاتجهت نحو مصدر البكاء

في حذر أزاحت ستارا فرأت سريرا.. فوق السرير يجلس شاب تنطبق عليه علامات الوسامة في ألف ليلة وليلة (شاب مليح بقد رجيح ولسان فصيح وجبين أزهر وخد أحمر وشامة على كرسي خده كترس من عنبر)..

كان نصفه الأسفل مغطى بالملاءة الموشاة بالذهب.. وكان يمارس عمل الشباب في ألف ليلة وليلة: يبكى بلا توقفى و ينشد الشعر

قالت له في دهشة:

- من أنت؟.. وما سر هذا السمك؟

لم يرد

ببطء رهيب أزاح الملاءة عن نصفه السفلى فأشاحت بعينها خجلا، لكن ما رأته جعلها تنظر من جديد.. إن النصف السفلى الفتى من حجر! كأن نصف ميدوسا نظرت له فجمدته

قالت عبير لنفسها إن ألف ليلة وليلة تحوي اجزاء مرعبة بالتأكيد اقتربت من الشاب الدامع قليلا، فقال:

- لى قصة......

- لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر أعرف هذا. أرجو أن تكمل..

- كنت سلطان هذه المدينة، فلما توفي أبي تزوجت ابنة عمى... عشنا حياة سعيدة باسمة. حتى جاء يوم نمت فيه على حجر جاريتين من جواري..

ابتلعت عبير ريقها وسألت:

- أنت زوج عاشق وكنت نائما على حجر جارية؟

- نعم.. هنا سمعتهن يتكلمن عني.. يحسبننى نائما. كن يحكين كيف أن زوجتي خائنة شريرة وكيف أنني غافل.. إنها تخدرني بمنوم في الشراب كل ليلة وتخرج

- عندما صحوت جاءت زوجتي المحبة وقدمت لنا العشاء ثم صبت لي كأسا.. تظاهرت بأنني شربت ما فيه وسكبته في عبي، ثم تثاءبت وتظاهرت بالنوم. سمعت زوجتي اللطيفة المخلصة تقول: نم.. ليتك لا تصحو أبدا! ثم لبست ثياب الخروج وخرجت

هذا المنظر يتكرر كثيرا في الأساطير على كل حال، وفي الأساطير الإغريقية بالذات

عندما تبع الشاب زوجته رآها تتجه إلى قصر خارج المدينة، فتدخله.. بالداخل كان عبد أسود عملاق يجلس في انتظارها، فركعت ولثمت الأرض بين قدميه

شعرت عبير بدهشة.. إن العبد الأسود شرير خائن كمعظم قصص ألف ليلة وليلة، وهي نظرة عنصرية قد تقبلها في قصص غربية، لكنها غريبة هنا فعلا

لقد أصيب الشاب بذهول وهو يرى ابنة عمه الرقيقة المخلصة تتوسل لهذا العبد وتقبله مسترضية، بينما هو يسبها بأغلظ القول لأنها تأخرت عنه.. سلسلة شتائم لو جرؤ هو على استعمال كلمة واحدة منها لطلبت الطلاق

سألت عبير الفتى:

- لحظة.. تقول إنها ابنة عمك؟.. وهي كذلك ساحرة كما هو واضح..

- نعم.. وما المشكلة؟

- ما هي الجذور التي أدت بها لهذا؟.. ما خلفيات

شخصيتها؟

ضحك الفتى كثيرا برغم ألمه وقال:

- دعك من كلام النقاد هذا.. أفعال مبررة وسيكولوجية الشخصية وتاريخها.. نحن في ألف ليلة وليلة المخصصة أصلا لإمتاع الخيال الشعبي.. المقاييس النقدية هنا لا وجود لها.. إنها شريرة وكفى.. أشرار ألف ليلة وليلة أشرار من البداية ولا يحملون أي ظل رمادي.. الأخيار كذلك...

لما نام الخائنان نهض الشاب، فحمل سيفه ورفعه وهوى على عنق العبد الأسود.. ثم فر.. هذه هي المشكلة الدائمة. عليك عندما تقتل أحدا أن تتأكد من أنك فصلت الرأس.. هناك دائما من يقدر على توصيل الأنسجة..

جاء الصباح ومعه عادت ابنة العم إلى بيتها، لكنها كانت شاحبة دامعة تحيط بعينيها هالات تذكرك بالراكون، وارتدت السواد

قالت لزوجها الذي تظاهر بالدهشة:

- هذا الحداد من أجل أمي التي توفيت الليلة.. وأبي الذي مات في الجهاد.. وأخوي اللذين مات أحدهما ملسوعا والآخر رديما!..

هكذا ببساطة تريد إقناعه أنها فقدت أربعة من أهلها في ليلة واحدة.. لكنه تظاهر بتصديقها.. والأدهى أنها أرادت أن تبني ضريحا للحزن تمضي فيه وقتها

الحكاية أنها نقلت العبد - الذي قامت بتوصيل رقبته بطريقة ما - إلى الضريح، وحولته إلى زومبي تطعمه وتسقية وتبكي جواره..

لما عرف الشاب هذا جن جنونه.. وعرفت هي أنه هو الذي قطع عنق العبد حبيبها.. كان انتقامها سريعا.. رددت بعض الكلمات وسرعان ما وجد الفتى أن نصفه السفلى تحول إلى حجر لقد صار قعيدا للأبد بأقسى طريقة ممكنة

الآن تخرج ابنة العم الساحرة كل ما كانت تخفيه من شر لقد خرجت كالطوفان الغاضب إلى العالم الخارجي، فسحرت كل سكان المدينة.. المسلمون سحرتهم إلى سمك أبيض... النصارى صاروا سمكا أزرق.. المجوس صاروا سمكا أحمر.... اليهود صاروا سمكا أصفر... بالطبع لم تسمح لأحد بترف اختيار اللون الذي يفضله.. لو كانت لهذه القصة موعظة أخلاقية فهي: لا تتزوج ابنة عمك أبدا

بعد ما انتهت من هذا، بدأت تقتبس من الزملاء الإغريق بعض الأساليب.. مثلا اقتبست عقاب برومثيوس المتجدد، فراحت تجلد الفتى مئة جلدة يوميا

(على نصفه اللحمى العلوى طبعا).

كان الفتى يبكي بلا توقف وهو يحكى هذال (عبير) وتوسل لها أن تنقذه.. وكانت قد فكرت في خطة معقولة

- إن العبد الأسود هناك في الضريح..

آى!.. هذا أسوأ جزء في القصة.. تقتل إنسانا وهو أقرب إلى زومبي كذلك.. إن قتل كائن بشع عملية بشعة بدورها وكل من جرب قتل برص عملاق عرف هذه الخبرة.

لكن هذا هو السبيل الوحيد لتحرير الشاب وتحرير سكان البلدة هكذا وجدت على الجدار سيفا معلقا فحملته. تبا.. إنه ثقيل كالخرتيت

مضت ماشية وهي تقدم رجلا وتؤخر أخرى..

هناك في ذلك الضريح كان جالسا وظهره لها.. دنت منه أكثر عملاق مخيف، ولو كان بكامل لياقته فقد انتهى أمرها.. لكنه كان واهنا يرتجف

عندما صارت على مسافة متر استدار لها...

كان رأسه بالفعل لا يتصل بجسده إلا بجلد واه ضعيف.. كان يتأرجح ومن حين لآخر يسقط إلى جانب كرأس دمية.. لكن من الواضح أنه كان قادرا على البلع لأنه كان يحمل كأسا من الشراب..

رآها فاتسعت عيناه الواسعتان أصلا، واحمرت عيناه وأصدر خنفرة عنيفة.. تذكرت مشهد مواجهة الزومبي في كل أفلام الرعب التي رأتها.. لا يختلف الأمر كثيرا، والزمبي مهما كان بطيئا يلحق بك ويلتهمك مهما فعلت

هوت بالسيف على عنقه ولم تعط نفسها فرصة التردد، ثم أدارت وجهها بعيدا كي لا ترى المشهد... لا. لابد أن تتأكد فما فعل الفتى من قبل هو أنه رحل قبل أن يتأكد

بصعوبة بالغة جرت الجثة مترين بعيدا....

ثم أنها جلست في مكانه وهي تحاول ألا تلوث قدميها بالدم كان الظلام دامسا والرؤية السيرة، وكان قبل موته يضع عباءة كتفيه العاريتين، لذا وضعت نفس الغطاء على كتفيها وأدارت ظهرها للجالس

تسمع صوت الخطوات الرشيقة.. تشم العطر الفواح. هناك من تدنو منها من الخلف..

راحت عبير تئن و غيرت صوتها ليناسب عملاقا أسود مقطوع الرأس

قالت للساحرة بهذا الصوت الغريب:

- انصرفى عنى يا ملعونة.. لا أريد أن أرى وجهك..

جاء صوت الساحرة المذعور:

- ماذا دهاك؟.. ماذا قارفت في حقك يا حبيبي؟

- قارفت؟.. لقد ملأت البلاد بالتعاسة والبؤس، والنتيجة هي أنهم لا يكفون عن البكاء ويحرمونني النوم.. سكان البلدة وذلك الشاب حجري القدمين.. هذا كثير فعلا.. أريدهم أن يخرسوا!!

- يمكن أن أعالج هذا حالا

ثم أخرجت قارورة صغيرة من صدرها فعزمت عليها.. واستردت سحرها الذي ألقته على الناس وعلى الفتى.. وفي البركة تحولت الأسماك إلى بشر.. صحيح أن معظمهم ماتوا غرقا على الفور لأنهم لا يعرفون السباحة، لكن المبدأ هو المهم

ومن محبسه جاء الفتي يتواثب غير مصدق.. كان يحتاج لساعات حتى يزول التنميل في قدميه لكنه لم يجد وقتا لهذا الهراء.. صاحت به ابنة عمه الساحرة في اشمئزاز

- هيا ارحل ودعنا لا نر وجهك أبدا

واستدارت لتكمل كلامها، لكن السيف كان في طريقه لعنقها من المؤسف أنها لم تجد الوقت الكافي لتفهم أن (عبير) كانت هي التي تلعب دور العبد

وعندما سقط الرأس على الأرض عرف أهل البلدة أنهم تحرروا..

لن يحصل الملك على سمك ملون بعد اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- إنهم يسرقون قصصي

عندما جلست عبير مع المرشد ترتب القصص التي مرت بها، كان هناك أكثر من مخطط في ذهنها، ودار جدل طويل.. في النهاية استقرت على التركيب التالي:

1- قصة محورية حول شهريار ودنيا زاد التي تعده بقصة مثيرة جديدة
2- هنا تبدأ قصة الصياد والعفريت.. سنجري تعديلا يقضي بأن يتوسل الصياد للعفريت ألا يقتله حتى لا ينال جزاء الملك يونان
3- هكذا يمكن أن نحكى قصة الملك يونان والحكيم.. هنا مغزى أخلاقي يبرر هذه القصة.
4- نعود للصياد والعفريت. الخدعة البارعة للصياد التي تجعل العفريت يتوسل. في تعديلنا لن يقتل العفريت الصياد، بل سيصحبه إلى البركة التي يخرج منها سمك ملون.. بهذا دمجنا صيادين معا.. ومن هنا تبدأ قصة السمك الملون والشاب الذي تحول نصفه السفلي إلى حجر.. بما أن البطولة النسائية غير محببة للذوق الشعبي في عصر ما قبل (لارا كروفت)، فلسوف يقوم الملك بالمغامرة كلها وقتل العبد والساحرة.
5- نعود لشهريار ودنيا زاد مع وعد بقصة أخرى

فرحت عبير بهذا التعديل جدا وكتبته حتى لا تنساه.. لعلها بشيء من الإطناب تظفر بعشر ليال من السرد. وعندما عاد شهريار في المساء وتمدد على الفراش وراح يتجشأ.. دنت منه دنيا زاد التي تحول دورها إلى جهاز تلفزيون، وبدأت تحكي:

- بلغني أيها الملك السعيد أنه كان رجل صياد وكان طاعنا في السن.. وله زوجة وثلاثة أولاد وهو فقير الحال.. وكان من عادته أنه يرمي شبكته كل يوم أربع مرات لا غير.. ثم أنه خرج يوما من الأيام في وقت الظهر إلى شاطئ البحر وحط معطفه وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت في الماء إلخ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جالسة في المخدع بعد يومين راضية عن نفسها، عندما سمعت الخطوات المميزة للمرشد.. كان قادما يجتاز طبقات الستائر الكثيفة حتى بلغها فجلس على حافة الفراش

كان مرهقا غارقا بالعرق وكان يحمل كتيبا سميكا في يده...

على الغلاف رأت عبير الصورة المميزة لشهرزاد وهى تحكى لشهريار قصة جديدة.. لكن العنوان كان بلغة غريبة.. كان بالعبرية.. بحروفها القبيحة الشبيهة بأرجل العناكب...

قالت له في عدم فهم:

- هل ترجموها للعبرية؟

قال لاهثا وهو يناولها الكتاب:

- ليس بالضبط.. بل قاموا بتأليفها!

بدا عليها الغباء.. عم يتكلم بالضبط؟.. تأليف ما قامت هى بتأليفه؟.. قال في إرهاق:

- من عادة إسرائيل أن تنسب كل شيء لنفسها.. بدءا بأهرام مصر التي يزعمون أنهم بناتها. كما قال المفكر عبد الوهاب المسيري إنهم يعلنون في كل مكان أن الكباب أكلة يهودية.. الكوشير - طعامهم الحلال - اسم مسروق ومحرف من الكشري الذي نأكله.. يحاولون إثبات أن لديهم حضارة عريقة، ولكي يفعلوا هذا يسرقون حضارة راسخة بالفعل. هناك مركز دراسات في تل أبيب نشر أعمال العبقري (كامل الكيلاني) على زعم أنه يهودي إسرائيلي. الكيلاني هو من بسط قصص ألف ليلة وهذبها للأطفال، وهو اسم يفخر به الأدب العربي كله. مؤخرا صدر كتاب لباحث أسمه د. جمال شاكر البدري.. اسم الكتاب هو (اليهود وألف ليلة وليلة)، وفي هذا الكتاب يؤكد المؤلف أن ألف ليلة وليلة عمل كتبه اليهود حجته في ذلك أن كتاب ألف ليلة وليلة ظهر في فترة ازدهار اليهود الثقافي والاقتصادي أي في بعض فترات العصر العباسي والفاطمي!

هتفت عبير في دهشة:

- لكن الجو الإسلامي العباسي واضح جدا في ألف ليلة وليلة إنها مليئة بالمجون لكنها برغم ذلك معجونة بالفكر العربى والإسلامي..

- رأى كذلك أن ألف ليلة وليلة تستعمل لفظة (ملك) أكثر مما تستخدم لفظة (خليفة) أو (أمير المؤمنين) وهذا في رأيه دليل كاف على يهوديتها!.. وهو يرى أن شهرزاد شخصية نسائية يهودية بوضوح شديد.. تنقذ بنات جنسها كما أنقذتهن أخت زوجة كورش التي طلبت منه عودة بني إسرائيل إلى أورشليم!.. ويرى كذلك أن (شهرزاد) هو الاسم الرمزي للبطلة اليهودية (أستير) وشهريار هو اسم (أحشويرش)!

هتفت عبير في ذهول:

- هذا كذب صريح

- لكن هذا لا يقارن بظهور قصصك بالعبرية، مع مقدمة تقول إنها الأصل الذي حاول العرب أن يخفوه..

راحت تتذكر. نعم.. ذلك الوجه الأجنبي الذي يلاحقها في كل مكان ويتنكر كالعرب

- هناك جاسوس يتابع مغامراتي كلها... أنا واثقة من ذلك بل إن هناك من يتنصت على قصصي التي أحكيها لشهريار ليلا

- كل ما كان عليه هو النسخ والتوقيع.. إنه لرجل سعيد الحظ..

ثم بدت على وجهه الصرامة والجدية.. وقال لها وهو يطوى الكتاب تحت إبطه:

- سوف تستمرين في عالم ألف ليلة وليلة لكن عليك أن تضللى الوغد.. وأن تضعي أشياء تثبت أنك صاحبة هذه القصص.. لعبة ملكية فكرية من دون شهر عقاري ولا دار محفوظات.. إن هذا سهل...

- لا أراه سهلا.. كيف؟

فكر قليلا في حماسة.. ثم قال بصوت عال:

لا أعرف...!

انتهى بحمد الله الجزء الأول (ليال عربية)

الباقي في الجزء الثاني (قصة كل ليلة)

نادي المحاربين الجدد

الآن نصل إلى نادي المحاربين الجدد الذين لوحوا برماحهم وأطلقوا صرخة واحدة، واندفعوا بخيولهم يطاردون الشمس من أجل فانتازيا.. سنابكها تبعثر النقع في كل مكان، وصهيلها يصم الآذان.. المشهد يثير الرهبة والإجلال في النفس

نبدأ اللقاء مع الشعر.. أشعار ناضجة ومحكمة للمترجمة التي لم أعرف أنها شاعرة من قبل (ريهام زكريا):

سميتك أجمل أحلامي

يا فجرا لاح بأيامي

يا قمرا يرسل فضته

ليبدد في الليل ظلامي

سميتك قطعة موسيقا

حملت أنغام الأنغام

لو غاب الشعر عن الدنيا

ستظل يقينا مولاي

عيناك منابع إلهامى

شفتاك نصال من ورد

وأنا اعلنت استسلامى

فدعني أنهل منها الشهد

برغم عنيف الآلام

ودعني أهواك فقلبي

مذبوحك من ألفي عام

يا رجلا أتعبت الدنيا

يا جرح التاريخ الدامي

يا رجلا يجتاح كيانى

مثل الإعصار المتنامى

من أجلك أعلنت جنوني

وتركت غرامك يغزونى

وكتبت شهادة إعدامى

ما رأيكم؟ ... رائعة وأذنها حساسة جدا، وصورها وتعبيراتها شعرية فعلا.. فقط أتحفظ على الوزن في:

سميتك قطعة موسيقا.. حملت أنغام الأنغام

وأنا أعلنت استسلامي.. فدعني أنهل منها الشهد

أعتقد أن الوزن اختل..

قصيدة أخرى؟.. طبعا.. لدى الكثير:

هذه قصيدة لها طابع شعر المواعظ والحكم العربي، ومن الواضح فعلا أنها قرأت الكثير ولهذا سأعفيها من نصيحتى الأبدية بأن تقرأ أكثر:

لا تفش سرك للبعيد و إن دنا

فالسر إن عم الملا كثر الندم

واحذر بأن تلقى همومك للذي

لا يستريح من التحدث في العدم

كم مرة أفشيت سرك دونما

قيد، فعاركت الضمير ولم تنم

فالسر كنز في الصميم مخبأ

إن صنته صنت الكريم من التهم

أطلق عنان القلب في أفق السما

وأرح فؤادك لحظة مما يهم

وابعث بسرك للفضا

فالكون يستر ما يباح بلا قسم

وهذه قصيدة ثالثة.. أعتقد أنها الأخيرة لهذه المرة:

أحب أمسى وأمسى اليوم يؤلمني

وأسكب الدمع مدرارا لذكراه

أقلب الطرف في يومي وأسأله

ما أبعد اليوم عن أمسى و أدناه

بالأمس أمسى بلا هم يساورني

يشدو الفؤاد إذا ما الليل أضواه

أرنو إلى نجمة بالليل أرقبها

يهوى لها من نوى بالليل مسراه

حمامة الأيك فوق الغصن باكية

أشكو لها الوجد مرا وهي تأباه

هذا الزمان تجني أم نحن نجهله

زاد التغير فينا عما ألفناه

صديق هذا الزمان يمل صحبتنا

الا القليل متي نحظى بمرآه

أين الصديق الذي بالأمس نألفه

أين الصدوق الذي في الحلم نلقاه

راح الصديق وراح الصدق يتبعه

حل النفاق وحب الذات يقفاه

نشكو الزمان ونشكو جور سطوته

والعيب فينا إن قلنا ظلمناه

ريهام

فعلا شاعرة ناضجة.. والأهم أنها مصرة في عناد على الشعر العمودي الذي يوشك الجميع على تركه. فهي كالقابضة على الجمر، ولها تحياتي

الآن مع المقال الذي يقدمه صديقي محمد بلال من المنصورة.. أرسل لى مجموعة مقالات كبيرة أكتفي منها باثنين:

البحث عن سعاد حسنى

أعشق كل ما ينتمي لزمن (الأبيض والأسود)، فأنا أعشق أم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب ونجاة الصغيرة وحتى (الفيس بريسلي) و(البيتلز). أحب هذا الزمن حين كانت الشوارع أنظف والأماكن أجمل والمصريون لهم احترام أكبر في العالم كله وفى مصر، حين كان الموظف يحيا على ما يرام دون أن يعاني شظف العيش والطالب الجامعي مفعم بالآمال لا تراوده ذرة شك أن مستقبله واعد مادام قد التحق بالجامعة مهما كان تخصصه.

هذا العشق جعلني أشاهد الأفلام القديمة على تفاهتها فقط لأستعيد هذا

العصر الحالم الثائر الجميل وأتداخل معه بخيالي لمدة قصيرة هي مدة الفيلم. أهم ما تعلمته من هذه الأفلام أن الحياة الجامعية رائعة حقا فحين تبدأ تنتهي المذاكرة وتتحول حياة الشاب الى الاهتمام بالسياسة والحب فقط فأحمد رمزي وشكري سرحان وحسن يوسف كانوا يمضون الصباح والظهيرة في المظاهرات ثم في فترة العصر يرتدون القمصان المفتوحة حتى منتصف بطونهم ويركبون السيارات المكشوفة الجميلة ليطاردوا - طبعا – الرائعة سعاد حسنى؛ ولا تأتي سيرة الدراسة طوال الفيلم إلا في لقطة واحدة حين يأتي (سنيد البطل) لصديقه بالنتيجة ويقول له: مبروك يا أحمد... نجحت يا بطل! وهنا نعود لسعاد حسني مرة أخرى فتكون الخطوة التالية هي الذهاب لأبيها لطلب يدها، فإذا ما كان الفيلم حزينا توجب حينها أن يكون الأب وغدا أصلع له شارب رفيع وجسد بدين، يرتدي الروب فوق البدلة ويدخن السيجار! ويقول له البطل الفقير: أنا طالب القرب منك يا عمي! يقول الوغد: معندناش بنات للزواج! أو: أنا أزوج ابنتى لهلفوت مثلك؟! وفي الخلفية نسمع الموسيقى الحزينة ويخرج البطل من بيت حبيبته ليغني (إن كان عبد الحليم)! أو (إن كان بطلا غير عبد الحليم) يذهب الى الخمارة ليسكر مع صديقة (سنيد البطل) ويظل يقول: مش عارف أنساها مش عارف أنساها وهو يضع الكؤوس الفارغة على المنضدة بعنف! أما إن كان الفيلم سعيدا فيكون البطل ميسور الحال وحينها حين يذهب لأبي فتاته ليجده مرتديا البدلة فقط بلا روب وشعره أبيض فخم جميل، يفتح الأب علبة سجائره المعدنية ويعرض على حسين شكري سيجارة فيرفض حسين شكري في أدب ويقول: لا أدخن يا عمي! وحينها تنتفخ أوداج الأب ويقول: عفارم! يبدو عليك أنك شاب مهذب وابن ناس! ويتبادلان الحديث من طراز: أنا مصدقك (بتفخيم الدال جدا) وضحكات من طراز: هأ..... و...............هأ............هأ! ثم ينتهي الفيلم والبطل يقبل سعاد حسني قبلة حارة جدا وأنا أحقد عليه جدا لأنه تزوج هذه السمراء الرائعة!

أثرت هذه الأفلام في تفكيري أثناء مراهقتي الى حد كبير، ولأنني لا أجيد دور (سنيد البطل) فعندما دخلت الجامعة قررت أن أكون البطل....! وطال البحث عن سعاد حسني في قصص حب فاشلة لأكتشف أن أمثال سعاد حسني في الحقيقة لا يصلحن للارتباط والزواج، كما طال تعاطي السياسة بحماقة لأكتشف أني أودي بنفسي للهلاك بينما من معي يستغلون السياسة كطريقة تجعلهم مثيرين في نظر البنات لا تختلف كثيرا بالنسبة لهم عن ارتداء سراويل تكشف سراويلهم الداخلية! كان نتاج هذا أنى رسبت سنتين في الجامعة فلم يأت لي صديقي ليقول: نجحت يا بطل! بل جاءت النتيجة من الإنترنت بما يسمى كارت النتيجة لأجد نتيجتى كرنفال جميل من الدوائر الحمراء مكتوب جوارها بخط نسخ متقن: ض. ج ثم كتابة توضيحية في أسفل الصفحة: ض. ج = ضعيف جدا! وهكذا تعلمت أول دروس الواقع القاسي وهي أن الأفلام ليست صادقة أبد بل مليئة بالظواهر المضللة والأحلام الجميلة والقيم المغلوطة وأدركت تأثير الإعلام الفادح على أفكار

الناس وخاصة المراهقين والشباب

بعدما كبرت قليلا وقرأت عن الحرب العالمية الثانية قرأت مقولتين لجوبلز (وزير إعلام هتلر) أثارتا انتباهي فالعبقري جوبلز كان يقول: إذا أردت أن تكذب فاكذب كذبة كبيرة يصعب تصديقها ليصدقها الناس، أما المقولة الثانية فهى: إنني كلما سمعت كلمة ثقافة أتحسس مسدسي!!! بالطبع كان للإعلام دور كبير جدا في كل الحرب سواء في تضليل الشعوب عن حقائق معينة أو لإضعاف معنويات العدو والأمثلة كثيرة أذكر منها كمثال ما حدث في حرب 67 في مصر من تضليل للشعب في بداية الحرب وما حدث قريبا في قضية غزة حينما تم تحويل مشاعر المصريين العدائية تجاه قطر ومنظمة حماس بدلا من الإسرائيليين والحكومات العربية المتخاذلة. هذه الأمثلة تتضح فيها كم هى صحيحة وعبقرية مقولات جوبلز فأنت في البداية تبعد الشعب عن الثقافة ومن ثم أن يكون له المعرفة العافية والمنطق المنظم لتفنيد ما يستقبل من معلومات فيتحول للتفكير بأذنيه بدلا من عقله، بعد ذلك توجهه كقطيع كيفما شئت بالكذب عليه كذبات كبيرة يصدقها العامة بالطبع لأنه يبدو لهم أنه من الحذق والذكاء تصديق كل ما يبدو مستحيلا كما أن تفكيرهم المشوش وعدم وجود رؤية خاصة للأفراد يجعل من الأسهل لهم أن يصدقوا أي فرقعة عن أن يبحثوا عن الحقيقة بين ضباب الكذب والادعاء المتقن جدا والمعمم جدا حتى يكاد يكون اتجاها وطنيا أو شعارا. بهذه المنظومة من الكذب المتقن والتدليس يتمكن أي نظام قمعي من توجيه مشاعر الشعب حيث يشاء ليسهل قمعه، مثلا لدينا فى مصر استخدم الإعلام منذ الأزل الحيلة القديمة: فرق تسد!،ففي بدايات القرن كانت لعبة الأحزاب حيث يتم إشعال نار الفتنة بين الأحزاب المختلفة ليتقاتلوا فيما بينهم ويتركوا قضية البلد الأساسية منذ الأزل وهي: الفساد وانعدام الديموقراطية، بعد ذلك كان الانقسام الى شيوعيين وإخوان مسلمين ثم إخوان مسلمين وأنصار سنة والآن الحيلة المستخدمة هي التعصب الكروي! نعم فعدد البرامج المهتمة بكرة القدم أكثر من عدد البرامج المهتمة بكل الأشياء الأخرى مجتمعة وهذه البرامج أغلبها لا شاغل له إلا إشعال نار الفتنة بين مشجعي الفرق المختلفة والتهويل من كل حادث تافه وجعله قضية وطنية يتهم البعض فيها بالخيانة ويخرج آخرون يتكلمون عن مصلحة مصر وإعلائها كأن تأهل منتخب مصر لكأس العالم مثلا كفيل بإشباع الجوعى وتسكين المشردين وتشغيل العاطلين!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقال ممتع يا محمد لكني اضطررت لبتره لأنه طويل جدا جدا.. لا أحد يتحمل مقا بهذا الطول أبدا، وما من كاتب يسيطر على مقال بهذا الطول ما لم يكن (هيكل) نفسه. بترت المقال عند ألف كلمة تقريبا لكن ما زال الباقي أطول.. هذه هي نصيحتي: أسلوبك ممتع.. أخطاؤك اللغوية قليلة... أنت ثرثار جدا... لا تهتم بعلامات الترقيم لهذا جملك مرهقة جدا تقطع الأنفاس بانتظار نهايتها

تعال نر المقال الثاني لك.. طوله معقول (نحو 700 كلمة) ومن الواضح أن موضوعه حارق حساس.. ويدعى:

كربلاء كرة القدم

من السهل أن نكره الجزائريين، بل لأول وهلة يبدو ذلك هو المنطقي. هم تمادوا في التعصب المجنون والعدوانية، هاجموا المصريين في السودان والجزائر وفرنسا في غضب مجنون بينما المصريون - كالعادة - الشعب يكتفي بالاختباء والحكومة بالشجب والندب وتصريحات من طراز: (عيب كده.... العبوا مع بعض يا ولاد).. وأسعد الناس بهذه الكراهية هؤلاء الذين يقبعون على الضفة الأخرى محتلين أرض فلسطين مهددين بهدم الأقصى ويرتكبون كل يوم مذبحة جديدة تستحق كراهيتنا وعدواننا، هؤلاء سعداء فعلا بفرقة جديدة وعداء جديد داخلى بين العرب يؤكد تشتتهم ويشغلهم عن عدوهم الحقيقي المشترك، ومن يقرأ الصحف الإسرائيلية سيرى كم نحن حمقى وكم هم شامتون في حماقتنا

رأيت تسجيلا لشاب مشجع جزائري يقول فيه إن ما بين مصر والجزائر من ود انتهى وأن هناك ثأرا للجزائريين المقتولين بمصر، وأنه وأصدقاؤه سيذهبون إلى السودان لأخذه وكلهم صيع لا أب ولا أم تبكي عليهم لهجة الشاب وهو يقول: (أقسم بالله ستدفعون ثمن ما فعلتم).. ذكرتني جيدا بلهجة المجاهدين الفلسطينيين قبل أن يقوموا بعملية استشهادية، نفس الغضب والحمية والتصميم، هذا شيء غير طبيعى، نعم الجزائريون متعصبون كرويا جدا ولكن لا أصدق أن الكرة وحدها ما أوصلت الأمور لهذا الانفجار النووي المجنون، الكسرة فقط كانت الصاروخ بعيد المدى الذي حمل الرأس النووية فرغم كل ما تغير في أفكار وانتماءات ومشاعر الشعبين من حرب 73 إلى الآن، ليس من الطبيعي أن تكون مصر عدوة الجزائر وشعبها وأن يشعر الجزائريون تجاهنا بغل وكراهية كالتي تحمل تجاه الإسرائيليين من أجل مباراة كرة قدم هنا رسالة خاطئة وصلت للشعب الجزائري مدسوسة في إعلام مريض من المرتزقة وربما بطرق أخرى أيضا لا نعلم عنها شيئا الخلاصة أن الشعب الجزائري وصلته رسالة أن الشعب المصرى قتل الجزائريين بالقاهرة وروعهم و هاجم اللاعبين ومؤكد أن ما وصل كان مبالغا فيه بدرجة كبيرة ومدروس، ولأن الشعب الجزائري عصبي بطبعه ولأن الشعوب العربية عامة تنخدع بسهولة لتترك قضاياها الرئيسية وتعادي بعضها، ولأن المسئولين في كل من مصر والجزائر لم يكونوا بما يكفي من الذكاء كى يدركوا أن هناك من تلاعب بمشاعر الشعبين ودس السم في قلوبهم ولم يكونوا من الحنكة أن يستوعبوا الموقف، كانت النتيجة أن تحولت الساحة الكروية الى كربلاء أخرى ولو أعطى المشجعون سلاحا لفتكوا ببعضهم البعض..

في رأيي الشخصي كرة القدم الآن هي التي تستحق الكره الحقيقي، وكما قال أحد الصحفيين الرياضيين من القلائل المحترمين: ملعون أبو الكرة التي

تفعل بنا ذلك.....

القنوات المصرية والجزائرية استغلت الحدث كمصدر رزق طوال الفترة الماضية تذاع الأغاني الوطنية ويتم تعبئة الشعب لموقعة المباراة، تعبئة لم نشهدها قبلا في أي حدث مهم وتغطية إعلامية لكل صغيرة وكبيرة لم تحدث يوما لأجل فلسطين أو العراق أو أفغانستان وكأن وطنيتنا تبدأ وتنتهي عند أقدام مجموعة من الشباب النصف موهوبين وكأن ذهابنا لكأس العالم سيجعل الحياة أفضل لأي فرد من الشعب غير لاعبي كرة القدم الذين سيتقاضون الملايين بينما الشعب كله يرسف فى فقر مدقع، عندما سمعت أن مكافأة الفوز في مباراة الجزائر الأخيرة كانت ستة ملايين لكل لاعب، حمدت الله على الخسارة كي لا يحترق دمي بمزيد من إهدار المال العام، مئة وعشرون مليونا من الجنيهات... ياإلهي.. كم مريضا يمكن أن يتعالج بمبلغ مثل هذا؟ وكم شابا يمكن أن يتزوج؟ وكم جائعا يمكن أن يأكل؟ ... إنه الجنون بعينه! وبالطبع ليس معنى كلامى أني أنكر حلاوة تشجيع كرة القدم أو أني لا أسعد بفوز المنتخب الوطني مع الملايين، فقط أنا أعرف أن هذه الفرحة فرحة مزيفة شكلا وموضوعا، شكلا حين تعطى هذا الحجم الضخم لمباراة كرة قدم الخسارة فيها لا تعنى شيئا والفوز فيها لن يجعلنا نتقدم في أي مجال حيوي من المجالات التي تحقق رفاهية وسعادة الشعوب، ومزيفة موضوعا لأن كرة القدم مهما بلغ الجنون بها ينبغي أن يتوقف عند كونه جنونا بلعبة ولا يتحول الى قضية وطنية وقومية

ولذا فأنا أحمل مسئولية أحزان هذا الشعب وعصبية الشعب الآخر إلى أولئك الذين اختصروا وطنيتنا في كرة القدم ومشاركتنا السياسية في كرة القدم بل اختصروا امكانية النصر والسعادة في كرة القدم، أولئك الذين دمروا الوعي السياسي للشعب والشعور الوطنى الحقيقي للشعب حتى وصلوا به إلى مرحلة اليأس من كل شيء آخر وأعطوه كرة القدم ملاذا أخيرا للأمل.. ذلك الأمل الذي ينتهي ويبدأ عند صفارة الحكم.. فياله من بؤس وضياع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقال جميل ومتعقل يا محمد.. أدعوك للاستمرار في كتابة المقال، مع الدقة النحوية أكثر.. أرسلت لنا عنوان مدونة يهمك أن نراها وهأنذا أعيد نشرها:

www.mgala.com

وهذه نقطة مناسبة للتوقف عن الكلام المباح.. فإلى لقاء

د. أحمد خالد

(تمت بحمد الله)

شيء من حتى

إنها المواجهة العظمى.. لا ليست مواجهة (نابليون) مع (ولنجتون) في معركة (ووترلو).. ليست مواجهة (هانيبال) مع (سكيبيو) الأفريقى.. ليست مواجهة (هتلر) مع جيوش الحلفاء..

إنها أكبر من ذلك وأشد خطرا.. إنها مواجهة (سيبويه) مع (الكسائي).. إن كنت لا تعرف الثانى فلتقرأ هذا الكتيب.. أما إن كنت لا تعرف الأول فرأيي هو... إحم...!

د. أحمد خالد توفيق



<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

الفهرس

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

57

قصة كل ليلة



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (57)

قصة كل ليلة

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا فى رحلتها، سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- مَنْ فعلـها؟

هكذا صار للأمور بُعد آخر معقد..

هى لا تنقذ حياتها فقط، بل تنقذ ما قامت به وما بذلته من جهد. أسوأ شىء يلقاه الكاتب أن يجد من ينسب جهده لنفسه.. ألعن أنواع السرقة طرًّا..

بمقاييس ألف ليلة وليلة هى صارت معمرة فعلًا... كل هذا الزمن ولم يقطع رقبتها.. يا له من إنجاز!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال بيرتون وهو ينفض رماد السيجار على شرشف المائدة الأبيض الأنيق:

- « هناك قواعد عدة سوف تتعلمينها.. مثلًا النساء العجائز خطرات جدًّا ولا يمكن الوثوق فيهن.. بالذات اللاتى يظهرن تدينهن وورعهن. كل إنسان فى ألف ليلة وليلة يشرب الخمر ببساطة حتى لو لم يذقها طيلة حياته من قبل. الإيمان بالقدرية شديد جدًّا.. كل الناس صيادون أو أمراء.. كل الجوارى يحفظن القرآن والشعر العربى وخبيرات فى الطب وعلم الفلك والفقه..

هارون الرشيد موجود فى كل مكان ومتنكر دائمًا.. العدد أربعون مهم جدًّا وكذلك العدد ثلاثة.. كل النساء خائنات تقريبًا.. الجان فى كل مكان.. كل إنسان ينشد الشعر فى أية لحظة، وطريقة استحسان الشعر هى أن يشق المرء ثيابه ويغشى عليه.. العطور مهمة جدًّا ومن علامات الترف.. سوف تلاحظين المساواة الكاملة بين الأديان والتسامح الشديد.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن تمارس الخطأ التاريخى الشهير فى ألف ليلة فتقابل (هارون الرشيد).. كما قلنا يستحيل أن تحكى شهرزاد لشهريار عن ملك سيأتى بعده بقرنين، لكن علينا أن نبتلع هذا..

رحب بها هارون الرشيد كمرافق.. هى تريد أن تسجل كل تحركاته وخطواته، والحقيقة أن هارون الرشيد كما تصوره ألف ليلة وليلة لا علاقة له البتة بالشخصية الحقيقية.. إنه فى القصص مجرد رجل عابث ينعم بالجوارى والشراب ومستعد دومًا للاهتمام بتوافه الأمور... لا يريد سوى التسلية...

لكن كانت البداية طيبة فعلًا....

كان يتأهب مع وزيره جعفر للقيام بجولة من تلك الجولات المتخفية فى ظلام الليل.. هكذا تأهبت بأن ارتدت ثياب الرجال وغطت وجهها، وتأهب جعفر والسياف مسرور... جعفر الذى دخل التاريخ من عبارة: دبرنى يا وزير... التدابير لله يا ملك... بالمناسبة.. أليس مسرور هو سياف شهريار، فماذا جاء به هنا.. يبدو أن القاص شارد الذهن مثل كاتب هذه السطور..

بغداد فى ظلام الليل..

هى زارت بغداد كثيرًا فى فانتازيا، ومن الواضح أنها فى ذلك الزمن كانت تحظى بذات أهمية ومركزية نيويورك، حيث يخيل لك من الأفلام الأمريكية أن شيئًا لا يحدث إلا فيها.. هنا لا شىء

يحدث إلا فى بغداد.

الأزقة النائمة.. المآذن.. الخطوات على الدرب.. اللهاث...

هنا ظهر ذلك الشيخ الذى يحمل شبكة على ظهره ويمشى وقد حمل معها كل هموم الأرض. اقترب منه هارون المتنكر وسأله عن عمله... طبعًا كان سؤالًا سخيفًا فكيف يبدو الصيادون إذن؟؟؟؟

معظم الناس صيادون فى ألف ليلة وكلهم لا يجدون رزقهم والصياد الخالى كان من هؤلاء. لا يقدر على إطعام أطفاله..

قال هارون فى أريحية:

- « إذن عد لنهر دجلة وارم شبكتك.. سأبتاع ما تخرج به بمئة دينار».

طبعًا تحمس الصياد...

ذهب الجميع إلى نهر دجلة الذى صار سجادة سوداء مرعبة.. توغل الشيخ فى الماء قليلًا ثم ألقى بالشبكة وطفق ينتظر ثم جمعها..

هذه المرة كان الصيد ثقيلًا بحق..

ما خرج فى الشبكة كان صندوقًا.. لم تستطع عبير تذكر هذه القصة، لكنها تعرف يقينًا أنها من قصص الصناديق المغلقة الشهيرة فى التراث البشرى.. تعرفها لكنها لا تقدر على استرجاع التفاصيل جيدًا...

نال الصياد الشيخ أجره فانصرف وهو لا يصدق كل هذا الحظ، بينما حمل مسرور الصندوق ومشى به متجهًا لقصر هارون الرشيد..

كانت عبير تنظر حولها فى حذر... هل هناك من يتجسس؟... هل هناك من يتلصص؟.. لا.. لا يوجد لصوص أفكار.. القصة لها وحدها إذن..

هناك فى القصر أشعل هارون الرشيد الشموع وبدأ الرجلان يفتحان الصندوق..

كانت هى على قدر من الخيال يسمح لها بأن تقف بعيدة ولا تنظر.. هناك شىء بشع فى الصندوق لكنها لا تذكر ما هو.. شىء بشع؟.. بالتأكيد.. وماذا يمكن أن يكون سوى...

- **«جثـة!!!»**

دوت صيحة هارون الرشيد وهو يتراجع للخلف مذعورًا..

وعندما رفعت عبير عينيها رأت أن الصندوق كان يحوى ما يشبه الكفن من الخوص بداخله بساط مخيط.. وعندما مزقوا البساط وجدوا صبية ممزقة بعناية، كأن جزارًا أو جراحًا بارعًا تولى تعبئتها فى هذا الكفن..

كانت الصدمة بالغة... حتى مع كل الرءوس التى يقطعونها فى هذا الزمن. لم يكن مشهد هذا الجمال ممزقًا من المشاهد المحببة للنفس..

وفى عصر ما قبل الطب الشرعى كانت طرق البحث الجنائى فعالة جدًّا.. تساءلت عبير فى غباء:

- «من السفاح الذى فعل هذا؟»

لكن أحدًا لم يهتم بأن يجيب عن أسئلتها.. لقد صرخ هارون والدمع يسيل من عينيه:

- «يا كلب الوزراء!.. أتُقتل الصبايا فى عهدى ويُلقى بهن فى البحر؟... وحق نسبى الذى يرجع لخلفاء بنى العباس.. إن لم تأتنى بالذي قتل هذه لأنصفها منه لأصلبنك على باب قصرى أنت وأربعين من بنى عمومتك!»

هذه هى مشكلة الاقتراب من الكبار. إن طباعهم نارية... قد تجد نفسك فى القمة، وقد تجد رأسك وحدها فى القمة.. كأن من مهام جعفر منع القتل فى أى مكان من البلاد، وقد برهن رجال الشرطة فى كل زمان ومكان أن هذا مستحيل..

ثم أولاد عمه!.. تخيل أن يأتوا ليعدموك ذات صباح لأنك ابن عم الوزير جعفر!

قال جعفر مطرق الرأس:

- « فليمهلنى مولاى ثلاثة أيام.. »

كان ينوى أن يقوم بعمل بوليسى مهم فى الأيام الثلاثة هذه: كان سيجلس فى داره مطرقًا..

قالت عبير لهارون الرشيد فى أدب:

- « معذرة يا مولاى.. لكن مهمته مستحيلة فعلًا... لابد من تشريح الفتاة ولابد من التحقيق فى بلاغات الفتيات المختفيات.. هذا عمل شرطة جيد.. »

قال فى غيظ:

- « لقد طلب ثلاثة أيام.. فليقم بهذا العمل الجيد.. لقد أعطيته حافزًا ممتازًا هو حياته.. »

مرت ثلاثة الأيام فعاد جعفر إلى هارون الرشيد ليخبره بما حققه من نجاح. لم يفعل شيئًا على الإطلاق.. كان يتهيأ للعقاب لا أكثر...

ظهرت نظرة نارية فى عينى هارون.. نظرة يمكن أن تقوم بعملية الإعدام وحدها..

- « اصلبوه على باب القصر!! هاتوا أربعين من أولاد عمومته معه! »

ثم أمر جميع أهل المدينة بالحضور للاستمتاع بهذا السيرك..

هيييييييييه!.. سرعان ما خرج الناس من بيوتهم متحمسين.. لا داعي للسؤال عن السبب.. فلننعم بمشهد الإعدام ثم نفهم...

لم تجرؤ عبير على الاعتراض.. إن للخليفة هيبة، ثم إن رد فعله لا يمكن التنبؤ به.. قد يأمر بقطع رقبتها لو تضايق منها..

هكذا خرجت أمام القصر تراقب المشهد الرهيب...

لكن القصة كانت على وشك البدء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- هو فعلها؟

من موضع ما برز ذلك الشاب الوسيم الأنيق...

تقدم وسط الزحام وشق طريقه حتى اعتلى المنصة التى يقف عليها الوزير.. ثم صاح:

- « لا تقتلوه!.. أنا قاتل الفتاة فى الصندوق!.. فلتفعلوا بى ما تشاءون.. »

تعالت صيحات الناس..

كانت عبير ترمق كل هذا فى غيظ.. متى وكيف عرف الناس والشاب سبب إعدام الوزير؟.. هناك ثغرات من حين لآخر لكنك تبتلعها على كل حال..

تنهد جعفر الصعداء.. لقد نال حريته أخيرًا... سوف يستمتع بمشهد إعدام هذا الشاب.. فارق كبير بين أن تكون أنت الخروف أو تراقب ذبح الخروف..

لكن الأمر لم ينته..

من مكان ما ظهر شيخ واهن..

صعد إلى ذات المنصة وهتف:

- « لا تصدقه أيها الوزير جعفر.. أنا القاتل!»

صاح الشاب فى أريحية:

- « بل أنا القاتل فاقتلونى! »

راق الأمر لعبير.. هذه نواة قصة ممتازة.. سوف يروق الأمر لشهريار بالتأكيد عندما تصوغ له هذه القصة مساء..

الآن عادت الدماء لوجه جعفر.. لقد صار عنده قاتلان بدلًا من واحد.. استعاد سطوته وسيطرته، ودخل مع عبير على هارون الرشيد يبشره بأنه وجد قاتلين يعترفان...

قال هارون الرشيد فى ملل وهو يقضم تفاحة:

- « اعدموا الاثنين! »

هنا ارتمى الشاب على الأرض.. ورفع يده يقسم أنه هو القاتل:

- « سأصف لك.. هناك صندوق ثقيل.. الصندوق يحوى ما يشبه الكفن من الخوص بداخله بساط مخيط.. وعندما تمزق البساط تجد صبية ممزقة بعناية، كأن جزارًا أو جرّاحًا بارعًا تولى تعبئتها فى هذا الكفن.. »

قالت عبير فى إعجاب:

- « ما كنت لتصف المشهد بدقة أكثر.. واضح أنك القاتل فعلًا... »

بدأ هارون الرشيد يتحمس.. لماذا يعترف أحد بجريمة بهذه البساطة ومن دون أن يُضرب علقة أولًا؟.. إن ضرب المتهم أسلوب شرقى بوليسى عتيد.. ولا تُقبل أية اعترافات لا تؤخذ عن طريق الضرب.. ما عدا ذلك يعد أسلوبًا رقيقًا يفتقر للمصداقية..

كان يملك الكثير من طباع شهريار.. كل ملوك ألف ليلة وليلة يبدون كأنهم نفس الشخص.. لهذا كان هارون الرشيد هنا يحب الحواديت، وقد طلب من الفتى أن يحكى له لماذا قتلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الفتى:

هذه ابنة عمى وزوجتى.. أما الشيخ فأبوها.. أى هو عمى..

كانت حياتنا مستقرة ولربما جميلة.. إلى أن أصابها مرض شديد...

وفى ذات يوم قالت لى إنها تشتهى التفاح.

هنا قالت عبير فى ذكاء:

- « حامل!.. هذا وحم بلا شك.. »

نظر لها مغتاظًا وقال:

- « كلا.. لم تكن حاملًا.. ولم يكن وحمًا. كان شيئًا أقرب إلى الرغبة الأخيرة للمحتضر.. والمشكلة أن هذا لم يكن وقت التفاح بتاتًا... هكذا شعرت بأننى مكلف بمهمة مقدسة.. رحت أبحث عن التفاح فى كل مكان.. وسط الأعاصير.. تحت الجبال.. فى أعماق الوديان.. وسط شعاب المحيط.. فى.... »

نظرت لساعتها وطلبت منه أن يختصر.. فأردف:

- « فى النهاية ابتعت لها ثلاث تفاحات بثمن باهظ من البصرة.. باختصار لعبت دورًا ممتازًا كزوج يعنى بزوجته.. لكنها لم تتحمس عندما رأتها.. كان المرض قد استبد بها.. »

فى هذه اللحظة صرخ الناس فى الزحام وتراجعوا..

نظرت عبير من مكانها لتفهم ما يجري فرأت رجلًا يمسك بسلسلة وقد ربط فيها دب ضخم شرس المنظر، لكنه لا يقاوم آسره..

ماذا هنالك؟ هل السيرك الروسى فى البلدة؟

كانت أغرب إجابة تلقتها هى من امرأة عجوز تقف وسط الزحام:

- « إنهم سيذبحونه..! »

- « يذبحون الرجل؟ »

- « بل الدب.. من أجل اللحم.. هذه قصة طويلة.. على كل حال هذا الدب هو (على الزيبق) شخصيًّا.. »

بدا هذا مألوفًا لعبير لكنها لم تستطع تذكر القصة.. فقط حسبت للحظة أنها فى القطب

الشمالى حيث يأكلون الدب هم وكلاب الهسكى ويلقون بالكبد للذئاب.. هكذا نسيت الأمر وعادت تصغى لقصة الزوج المضحى:

- « تركت التفاح مع زوجتى، وذهبت للسوق للتجارة.. هنا رأيت عبدًا أسود يمر أمام المتجر وهو يلعب بتفاحة يقذفها فى الهواء ويلقفها.. سألته من أين جاء بها فحكى لى قصة مسلية فعلًا... »

قالت عبير وقد فهمت:

- « أخذها هدية من حبيبته.. وهى امرأة تتظاهر بالمرض سافر زوجها الأحمق إلى البصرة ليأتى لها بتفاح! »

- « بالضبط.. أنت ذات حاسة قصصية ممتازة.. »

الحقيقة أن ألف ليلة وليلة عنصرية جدًّا بالنسبة للسود.. لا تختلف فى شىء عن كتب المستعمرين البريطانيين. دائمًا الشر والخيانة هما عبد أسود قبيح.. عبد طريقة التعامل المثلى معه هى قطع رقبته وتمريغها فى الغبار.. لكن لهؤلاء العبيد سيطرة كاسحة على النساء..

يمكن فهم ما حدث بعد هذا..

لقد عاد الشاب للبيت وبحث عن التفاحات الثلاث.. لم يجد إلا اثنتين..

كان هذا دليلًا كافيًا.. كأنه لا يمكن أن تجوع الزوجة فتأكل واحدة...

وثب الرجل عليها فأوقعها أرضًا وقطع عنقها بالسكين.. تفاحتان يا خائنة؟... ثم مزق جسدها بدقة.. اثنتان يا مجرمة؟؟؟.. ثم غطاها بالإزار والبساط.. إلخ... ورمى بالصندوق فى نهر دجلة. طبعًا يحتاج لقدر كبير من النحس حتى يجد الصندوق أحد، ويحتاج لقدر عبقرى من النحس كى يكون من يجد الصندوق هارون الرشيد نفسه... لكن الفتى كان يملك هذا النحس وأكثر!

قالت له عبير فى رضا:

- « برغم كل شىء أنت فعلت الشىء الصحيح.. لو كنت مكانك لفعلت الشىء ذاته.. »

قال لها وهو يحك شعره فى عصبية:

- « لا.. هل تحتاجين لأى قدر من الذكاء كى تعرفى أن قتلها كان غلطة؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- لِمَ فعلها؟

قبل أن يكمل الفتى السرد، فوجئت عبير بأن جماعة من الناس يقتادون شابًّا وسيمًا آخر إلى المنصة.. تبًّا.. هذه مقاطعة أخرى لا علاقة لها بالقصة..

كان الفتى صامدًا بينما هم يربطون ذراعيه بسيور جلدية ويبدو أنهم ينوون قطع يديه.. هنا بدأ الناس يبكون وراحت النسوة يضربن الخدود..

من الواضح أنهم لا يعرفون شيئًا عن الفتى، لكن هناك قاعدة ثابتة فى ألف ليلة وليلة: أنت شاب مليح.. إذن أنت نقى النفس وبرىء..

ثم ظهر رجل مهم متأنق يدعونه ب. (خالد بن عبد الله القسرى).. اتجه نحو الفتى المقيد وقال له:

- « هل تصر على أنك سرقت دار هؤلاء القوم؟ »

ضغط الفتى على أسنانه وهز رأسه أن نعم..

عاد (خالد) يكرر الإنذار:

- « لو أنكرت لدرأت الحدود عن نفسك.. »

عاد الفتى يكرر:

- « بل أنا لص وقد سرقت منهم نصابًا كاملًا.. هلم يا سيدى قم بواجبك.. »

شعرت عبير بدهشة.. كل الناس يريدون العقاب اليوم، بتلك الطريقة المسرحية الغريبة التى تروق للجماهير.. من الواضح تمامًا أن المدعو (خالد) هذا يبحث للسجين عن مخرج...

التفتت إلى الشاب الأول الذى قتل زوجته من أجل تفاحة وسألته:

- « هل هذه القصة تتصل بك؟ »

- « لا.. لا علاقة.. تذكرى أننا فى ألف ليلة وليلة حيث تتدفق القصص كالشلال.. »

كان (خالد) يخرج رقاقة ورق.. ثم فردها وقال للشاب بصوت عال:

- « هذه هى الأبيات التى كنت تترنم بها أمس، وقد كتبوها لى:

« هددنى خالد بقطع يدى إذا لم أبح عنده بقصتها

« فقلت هيهات أن أبوح بما تضمن القلب من محبتها

« قطع يدى الذى اعترفت به أهون للقلب من فضيحتها »

لم تفهم عبير الأبيات جيدًا.. مشكلتها مع الشعر أن الإيقاعات تستلبها فتنسى ما تقوله الكلمات. لكن من الواضح أن الفتى يفضل قطع يده على أن يبوح باسم حبيبته. هز الفتى رأسه

فى عناد مصرًا على أنه لص.. هكذا طلب (خالد) سكينًا وقد بدا عليه الأسف وتهيأ لقطع يد الفتى.. هنا على طريقة (جريفث) فى الإنقاذ على آخر لحظة.. معذرة.. أعنى أنها الطريقة التى سرقها جريفث بعد قرون، صرخت جارية وسط الجموع وهبت تمنع البتر..

تصايح القوم ونسوا كل شىء عن قاتل زوجته الأول.. لقد انتقلت الأضواء كلها إلى الفتى والجارية، أما خالد فقد نادى الجارية وسألها عما هناك...

كانت القصة بسيطة.. الفتى يعشق الجارية، وككل عشاق ألف ليلة وليلة تسلل إلى دارها ليلًا.. لا أحد يعشق بعفاف أو رومانسية أفلاطونية فى ألف ليلة وليلة أبدًا.. لكن أهل البيت صحوا ليلًا وضبطوه. كان ما تفتق عنه ذهنه هو أن يبدو كلص!.. اللص سوف يتلقى عقابًا سريعًا يبدأ بالضرب وينتهى بقطع اليد، أما العاشق فنهايته أشنع.. ثم هو نبيل كفرسان القرون الوسطى الذين يخونون صديقهم مع زوجته، لكنهم يفضلون الموت على أن يبوحوا باسم هذه الحبيبة! كأن الكتمان عاطفة أسمى من حق الصداقة....

هكذا صار الفتى نبيلًا وعظيمًا حسب مقاييس ألف ليلة وليلة.. لقد قبل أن تقطع يده حتى لا يفضح الفتاة التى كان معها ليلًا!.. يا سلام!.. لو سادت هذه الأخلاق لصار العالم أفضل!.. لا مشكلة عند هؤلاء القوم فى أن تتسلل لبيوت الناس ليلًا ما دام بغرض الغرام وليس للسرقة..

كوفئ الفتى النبيل بعشرة آلاف درهم ومثلها للفتاة وتزوجا فى دقيقة واحدة وسط تهليل القوم.. وسرعان ما انصرف الجميع بينما عبير تضرب كفًا بكف... لهذا تبددت ثروات الدولة..

لما ابتعد الجميع اتجهت الأنظار إلى الفتى قاتل زوجته الذى اختطفوا منه الكاميرا لبعض الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الفتى وهو يحاول تذكر النقطة التى توقف عندها:

- « بعد ما تخلصت من الجثة فى نهر دجلة عدت لدارى، فوجدت ابنى يبكى.. السبب أنه سرق تفاحة من أمه وخرج ليأكلها، هنا قابله عبد أسود سأله من أين أتى بهذه التفاحة، فحكى له أن أمه مريضة وأن أباه ذهب للبصرة ليبتاع لها تفاحًا فعاد بثلاث من هذه. هنا انقض العبد على الطفل وسرق التفاحة وهرب!.. الآن يمكنك أن تفهمى من أين أتى العبد الذى قابلته بتفاحته وقصته... هكذا جلست أبكى.. وأبكى.. خمسة أيام.. جاء أبوها الشيخ وسمع القصة فجلس يبكى معى وإننى لأرجو أن تعجلوا بقتلى.. »

كان هارون الرشيد كما قلنا يسمع القصة من الشرفة، فتأثر بعنف...

راح يفكر فى عمق، بينما وقف جعفر يتنفس الصعداء ويحمد الله على نجاته...

قالت له عبير:

- « حظ حسن يا وزير.. إن تقنية الإنقاذ على آخر لحظة تعمل عندكم بشكل ممتاز.. »

هنا تدخل هارون الرشيد غاضبًا:

- « ليس بالضبط.. وحق نسبى الذى يرجع لخلفاء بنى العباس.. إن لم تأتنى بالعبد الأسود

لأصلبنك على باب قصرى أنت وأربعين من بنى عمومتك! »

لم يفلت الوزير تمامًا ولم يفده حظه الحسن السابق...

كان يبحث عن قاتل وهذا صعب.. الآن يبحث عن سارق تفاح وهذا أصعب بكثير...

لكنه كان يملك تقنيات ممتازة للبحث الجنائى كما قلنا، وقد برهنت عن نجاحها حتى هذه اللحظة... ذهب لداره ومكث فيها ثلاثة أيام..

فى اليوم الرابع كالعادة ودع أولاده...

إن احتمال أن يتكرر الحظ الحسن مرتين عسيرة جدًا... لابد أن الموت قادم هذه المرة.. تبًا لهارون الرشيد.. ألا يمكن أن يتعامل المرء معه مطمئنًا للغد؟

هنا تذكر (عبير) تلك الفتاة الحشرية الموجودة فى كل مكان.. قالت له إن الإنقاذ على آخر لحظة ممتاز عندهم، لكن لماذا لا يعمل؟.. هه؟

احتضن ابنته الصغرى عالمًا أنها ستكون يتيمة عند المساء غالبًا وبكى كثيرًا..

المشكلة فى الأطفال أنهم يصابون بأورام فى بطنهم بسهولة أكثر من اللاز............ لحظة!.. هذا الانتفاخ فى جيبها ليس طبيعيًا.. مد يده يبحث فى جيبها فخرجت بتفاحة!

- « من أين جئت بهذه؟ »

قالت الصغيرة وهى تمسح أنفها:

- « من عبدنا (ريحان).. باعها لى بدينارين! »

هنا أدرك أن الفرج والخلاص قد جاءا..

كان العبد الذى سرق التفاحة وتسبب فى موت الصبية هو (ريحان) إذن...

هتف منشدًا:

ومن كانت دريته بعبد فما للنفس تجعله فداها

فإنك واجد خدمًا كثيرًا ونفسك لم تجد نفسًا سواها

وهرع بالعبد المولول الباكي إلى الخليفة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- تسجيل..

تعرف بالطبع ما فعله الخليفة..

كلا لم يعدم العبد، لأن (جعفر) طلب منه أن يهبه حياته..

قال إن هذه القصة لو كتبت بالإبر على آماق البصر لصارت عبرة لمن يعتبر.. وطلب أن تكتب بماء الذهب لتصير عبرة.. لا أعرف بصراحة المغزى الأخلاقى للقصة.. ربما: لا تقتلوا زوجاتكم لأن هناك تفاحة ناقصة.. أو: تأكد من أنه لا توجد تفاحة فى جيب ابنتك قبل أن تذهب للإعدام.. أو: لا تدع الصبية يلعبون بالتفاح أمام البيت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغت عبير من كتابة القصة..

إنها أحداث مثيرة ولا غرابة أن الغربيين اعتبروا قصة التفاحات الثلاث أول قصة من طراز (من فعلها؟) فى التاريخ. الآن صار عليها أن تضع علامات واضحة - وخفية - تثبت أنها من عملها..

أطلقت على الشاب الذى قتل زوجته اسم (عبد الرحمن)، وأطلقت على العبد اسم (عبير)... ألم يكن اسمه (ريحان)؟.. ثم أطلقت على ابنة الوزير جعفر اسم (دنيا).. وأطلقت على الولد الذى سُرقت منه التفاحة (زاد)..

هذه أول مرة يوقِّع فيها المؤلف داخل القصة باسمه على قدر علمها، على أنها كذلك وضعت إشارات عديدة.. إن اسم الوزير جعفر ينطق فى الفصحى مع جزء من حرف الدال قبله (دجعفر).. هذا يوحى باسم (دى جى).. ثم وضعت أخطاء متعمدة لتميز عملها، مثل إن الصندوق كان فى نهر دجلة مرة والفرات مرة... إلخ..

لما انتهت من هذا طلبت من العبيد أن يجهزوا لها بغلة على طريقة ألف ليلة وليلة.. أى إنها « بغلة زرزورية غالية سريعة المشى، عليها سرج مذهب بركابات هندية وعباءات من القطيفة الأصفهانية، تمشى كأنها عروس مجلية.. »

وراكبة هذه البغلة العجيبة اتجهت عبر شوارع بغداد إلى الشهر العقارى..

لم تكن واثقة إن كانت عملية تسجيل الملكية الفكرية تحتاج إلى دار المحفوظات أم الشهر العقارى. سوف تفعل كل شىء تقدر عليه..

عند السجل المدنى ترجلت ودخلت حاملة الكتاب المكتوب على رقائق من جلد الغزال. فى الداخل كانت الموظفات ينتهين من التهام طبق الإفطار الصباحى ويوشكن على بدء الطهى للغداء، ورحن يصغين فى ملل لما تقول:

- « الإسرائيليون يستولون على كل كتاباتى.. يصدرونها بالعبرية على أنها من تأليفهم. أريد أن أثبت أن هذه الأعمال لى أنا.. »

لم يكن قد مررن بموقف مماثل.. من الممكن أن يضعن الأختام على صفحة واحدة مع إثبات

تاريخ، لكنهن لا يجدن حلًّا قانونيًّا لاعتماد كتاب كامل..

كان هناك الأستاذ عطوان.. وهو خبير فى هذه الأمور، لكنه بدوره لا يملك حلًّا..

قالت (عبير) فى عصبية:

- « لقد وضعت بعض الحيل فى النص.. لو حدث خلاف بيننا حول ملكية النص فإننى سأسأل منافسى عن نقاط معينة.. سأطلب منه أن يأتى باسمى من القصة.. سأسأله عن مواضع الأخطاء المقصودة.. »

قال الأستاذ عطوان فى رضا وهو يتحسس كرشه العملاق:

- « هذا رائع... إذن يمكنك أن تتركينا وشأننا إلى أن تحدث مشكلة كهذه.. »

هنا تدخلت إحدى النسوة الجالسات وقالت:

- « بينى وبينك... لو كنت مكانك لحاولت الخلاص من هؤلاء الأوغاد.. لا يمكن أن تتعاملى معهم بتحضُّر وتعقل.. »

فكرت عبير فى الكلام للحظة وبدا لها معقولًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى المساء كانت تحكي لشهريار هذه القصص الجديدة..

قصة التفاحات الثلاث كانت ممتازة وراقت له جدًّا..

إن جو اللغز البوليسى الغامض وجو تنفيذ الأحكام، والنجاة على آخر لحظة أجواء تروق للجميع.. صحيح أن المصادفات أكثر من اللازم، لكن من قال إن الناس فى ذلك العصر كانوا لا يحبون المصادفات؟.. كان هذا يجعلهم يستريحون لفكرة أن كل شىء يتكرر والعالم صغير.. إلخ.. نفس أسباب نجاح الأفلام الهندية. كل الناس تحب سماع قصص المصادفات باستثناء النقاد الأدبيين..

كانت عبير قلقة تفكر فى ضرورة أن تذهب غدًا للبحث عن قصص أخرى..

على الزيبق؟... من هو على الزيبق؟

هى قصة مسلية لكنها لا تذكر التفاصيل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الزيبق فى بغداد..

قصة على الزيبق تفوح بالجو المصرى، ولا يمكن أن تعتقد أن نفس العقل هو من كتب القصص التى تدور فى بغداد.. إن مؤلف القصة يعرف الدرب الأحمر والشرابية.. إلخ..

كان على الزيبق شاطرًا.. والشاطر فى ألف ليلة وليلة هو اللص، لكنه لص من ذلك الطراز الظريف المراوغ الذى يروق للناس جدًّا.. كل ثقافة لديها من يشبهه، وكلنا نعرف روبين هود فى إنجلترا وأدهم الشرقاوى فى مصر وروب روى فى إيرلندا وند كيلى فى أستراليا... كل انتصار لهذا اللص يعتبر نصرًا للرجل العادى..

ولما كان من المستحيل أن يقبض أحد على هذا الفتى لأنه كالزئبق، فقد أطلقوا عليه (على الزيبق)..

ومع الوقت تتحول قصص هذا الرجل إلى بئر يلقى كل واحد فيها بالدلو الذى يحمله، بحيث يصير لقصته عشرات المؤلفين...

إن مغامراته تتضخم بلا توقف ولعلها تتضخم الآن...

كان على الزيبق قد جاء لبغداد مؤخرًا..

لهذا قصة معقدة تدور حول لقائه مع سقاء فى شوارع القاهرة.. السقاء عائد من بغداد حالًا ويحمل رسالة ممن يدعى المقدام (أحمد الدنف) إلى على الزيبق.. لقد أعطاه الدنف بغلة ومئة دينار هدية له وطلب منه أن يوصل الرسالة لعلى ويقول له: كبيرك يسلم عليك....

لكن مشكلة السقاء هى أنه لا يجد على الزيبق أبدًا...

طبعًا أعلن الزيبق عن شخصيته.. إنه فعلًا تلميذ المقدم أحمد الدنف.. أما الرسالة ففيها كلام فارغ كالعادة:

كتبت إليك يا زين الملاح على ورق يسير مع الرياح

ولو أنى أطير لطرت شوقًا وكيف يطير مقصوص الجناح

لحسن الحظ سمع (على الزيبق) هذه الأبيات فلم يشق ثيابه ويغشى عليه كالعادة. فقط هز رأسه فى تأثر.. كان باقى الرسالة يدعوه إلى بغداد لأن هناك فرصة للتقرب من الخليفة والظفر بالخير العميم...

فى هذه اللحظة فوجئ (على) برجل يبدو أنه رقيق الحال، يمشى مهمومًا وهو يردد:

- « كنافة بعسل قصب السكر.. كنافة بعسل قصب السكر.. سوف تمزقنى العرة! »

نادى الرجل.. فجاء هذا وهو يحمل صينية عليها كنافة، وإن بدا مهمومًا فى حالة اكتئاب شديدة:

- « سوف تمزقنى العرة! »

- « ما هى العرة؟ »

- « زوجتى!.. هكذا يطلقون عليها لخستها ونذالتها.. »

- « ومن أنت؟ »

- » أنا معروف الإسكافى.. »

- » وهذه؟ »

- « كنافة بعسل قصب السكر.. زوجتى اشترطت أن آتيها بكنافة من عسل النحل.. لكن الحلوانى منحنى هذه نسيئة ولا أعرف ما أفعل.. »

بحث (على) عن نقود فى جيبه فأعطى الرجل بعضها، وطلب منه أن يبتاع كنافة بعسل النحل.. لا وقت لفهم تفاصيل هذه القصة على كل حال، فانفجر الرجل البائس يدعو له..

عاد (على) إلى الخطاب فقبله، ثم أعطى السقاء عشرة دينارات، وعاد يخبر رجاله أنه متجه إلى بغداد..

كانت هناك قافلة فيها شاه بندر التجار فانضم لها..

كانت هناك بعض المضايقات التافهة..

مثلًا كانت هناك مغارة فى الطريق فيها أسد شرس.. كان على التجار أن يلعبوا قرعة لمعرفة من يلقون به للأسد حتى يتركهم يمرون.. كانت القرعة هذه المرة من نصيب شاه بندر التجار الذى ملأ الدنيا صراخًا وعويلًا كأن الأمر يستحق كل هذا الضجيج.. وقال ل. (على):

- « الله يخيب كعبك وسفرتك ولكن وصيتك بعد موتى أن تعطى أولادى حمولى.. »

لكن (على الزيبق) لم يكن يبالى بهذه السخافات... لقد عرض عليه التاجر ألف دينار لو قتل الأسد.. هذا هو (البيزنس) فعلًا.. هكذا دخل المغارة وأخرج سيفه.. انقض عليه الأسد لكنه ضربه بالسيف فقسمه إلى نصفين.. يمكنه أن يقتل عشرة أسود أخرى لو كان الأمر يجلب هذا المكسب السهل..

مكسب سهل فى رأيه..

بعد أيام كان على القافلة أن تقطع وادى الكلاب ويا لها من معالم سفر عجيبة.. هذا الوادى يوجد فيه بدوى بلطجى يقطع طريق القوافل ويسرقها..

قال الشاه بندر ل. (على):

- « هل يمكنك أن تنقذ مالى؟ »

قال (على) فى ملل وهو ينزع قميصه ليظهر ما يحمله من دروع:

- « بالطبع.. لقد صار السفر معك مملًا فعلًا.. »

وانطلق راكبًا حصانه نحو البدوى، وهو يهز الجلاجل التى يلبسها هزًا... جفلت فرس البدوى فأسقطته أرضًا، وهكذا تمكن (على) من أن يقطع رقبة البدوى وعاد بها الشاه بندر..

- « لو كنت تنوى إزعاجى من أجل كل أسد وكل قاطع طريق، فان السفر معك ممل فعلًا.. »

واصل الركب السير نحو بغداد...

بدأ (على) يفتش عن دار (أحمد الدنف)... ليست مهمة سهلة جدًّا لأن الكل يعرفون مكانها لكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون..

استطاع عن طريق صبى اسمه (أحمد اللقيط) أن يجد قاعة (الدنف) فدخلها... وكان (الدنف) يجلس وسط رجاله الأربعين..

إنه اللقاء المؤثر بين الأستاذ والتلميذ.. لقاء الشطار............

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى هذا الوقت كانت (عبير) فى دار فاخرة وحولها العبيد والجوارى..

لا.. لم تكن لها علاقة بالملك.. كانت رائعة الجمال كالعادة تحبس أنفاس الرجال بسحرها، لكنها كانت تعرف يقينًا أنها شريرة خطرة كالأفاعى..

كانت أمها عجوزًا أريبة تحتفظ بملامح جمال ذابل... اسمها (دليلة المحتالة).. هكذا تطلق عليها بغداد كلها.. وكانت العلاقة بين الأم وابنتها من ذلك الطراز المعروف: إنهما شىء واحد... الدهاء دهاؤنا.. الذكاء ذكاؤنا.. الجمال جمالنا.. هذا قوامنا.. هذه ذراعنا.. هذه قدمنا... وعلى من يتزوج الصبية أن يعرف أنه فى الواقع يتزوج أمها..

جاءتها الأم عائدة من السوق وقد بدا عليها الكثير من القلق..

كانت متأنقة على طريقة ألف ليلة وليلة، أى أنه (على رأسها خوذة مطلية بالذهب، وبيضة من بولاد وزردية وما يناسب ذلك).. فنزعت هذه الخوذة وقالت لـ (عبير):

- « زينب.. أنا قادمة من السوق.. هناك رجل يشبه (أحمد الدنف) كثيرًا.. فى الواقع أخشى أن يكون من رجاله وأن ينتقم منا لما عملناه مع (أحمد الدنف).. »

سألتها (عبير) وهى تتقلب على الفراش فى كسل:

- « وما اسمه يا أماه؟ »

- « هذا ما سأعرفه.. »

فى هذا العصر يوجد ما يشبه جوجل وان كان أكثر منه سرعة وبراعة وتدقيقًا..

تخت الرمل.. تأتى به الأم فتضعه على الأرض ثم تضربه.. هكذا تتناثر ذرات الرمل ثم تكتب بوضوح:

على الزيبق المصرى

الحالة العامة: مُسعد.. سعده غالب على سعدك

لا يوجد بحث ولا نتائج مرتبة تجربها جميعًا فلا تجد ضالتك.. سل تظفر بالإجابة الصحيحة الوحيدة..

قالت (عبير) أو (زينب) إنها ستتصرف.. ثم نهضت فلبست أفضل ثيابها وخرجت...
مهما كانت شجاعة على الزيبق فهو رجل... والجمال نقطة ضعف أى رجل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- واحدة بواحدة..

لما رأت (على الزيبق) عرفته على الفور.. يسهل عليك أن تعرف بطل أى فيلم عندما تراه ولو كان الفيلم باللغة الأيسلندية. هكذا دنت منه ورمته بنظرة ثاقبة من تلك النظرات التى يمكن أن تصرع من هو أضعف منه.. لكنه للشهادة لله كان قويًّا فعلًا..

سألها وهو يرخى جفنيه بنظرة لزجة:

- « عزباء أم متزوجة؟ »

- « متزوجة.. »

هذا ليس مانعًا للعشق فى أية قصة من ألف ليلة وليلة على كل حال، وأضافت:

- « عمرى ما خرجت إلا فى هذا اليوم... وما ذاك إلا أنى طبخت طعامًا وأردت أن آكل فما لقيت لى نفْسًا.. ولما رأيتك وقعت محبتك فى قلبى... فهل يمكن أن تقصد جبر قلبى وتأكل عندى لقمة؟ »

هذه سمة أخرى عامة فى ألف ليلة وليلة.. الفتيات كلهن درر مصونة لا يخرجن ولا يراهن أحد، وبرغم هذا مستعدات للقيام بمغامرات مريعة فى أى وقت.. هل هذه جرأة فتاة لم تخرج قط؟

مشيا فى أزقة معقدة.. هنا رأت بستانًا صغيرًا وفيه شاب وسيم يجلس أمام صينية مليئة بالطعام. كان يحاول أن يقاوم وفى النهاية انهار تمامًا فالتقط دجاجة قذفها إلى فمه.. ثم دجاجة أخرى.. ثم صب لنفسه كأسًا..

فجأة ارتخى جسد الشاب وانغلقت عيناه.. وبدأ يشخر كالثيران. رأت فتاة بارعة الحسن تقترب منه، فتضع على بطنه وهو نائم قطعة من الفحم الأسود، وتصب بعض الملح.. ما معنى هذه الايماءة؟

للأسف لا يوجد وقت لفهم هذه القصة لأنها مشغولة بخدعتها الخاصة..

كانت تصطحب (على الزيبق) إلى بيت قرب تلك الناحية.

كان يحسبه بيتها لكنه فى الواقع كان بيت الأمير حسن.. أعدت الطعام ليأكلا معًا وجلسا يأكلان ويتبادلان النظرات..

فقط تذكرت وهى تأكل أن زوجها كان قد ابتاع لها خاتمًا غالى الثمن وهذا الخاتم سقط فى البئر..

لم يكن الوقت وقت تجاهل هذه الطلبات الصغيرة.. نهض (على الزيبق) وقد صعدت شهامة الرجال إلى رأسه وأصر على أن ينزل فى البئر ليجلب لها الخاتم..

نزع ثيابه ونزل فى البئر..

سحبت الحبل وأخذت ثيابه وفرت عائدة لأمها..

لقد تم الأمر بسهولة...

إنها برهنت على أنها ابنة دليلة المحتالة فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دارها علقت ثياب (على الزيبق)..

الحقيقة أنها فعلت ذلك من قبل ب. (أحمد الدنف) وكل رجاله.. ليس منهم من لم تجد حيلة تسرق بها ثيابه وتعلقها... كانت تجد لذة خاصة فى أن تقهر هؤلاء الرجال الذين يقدر الواحد منهم على قتل أسد بيديه العاريتين..

أما عن (على الزيبق) فقد وجد نفسه فى موقف غريب بعض الشىء.. خدم الأمير جاءوا يملئون له الدلو بالماء البارد فخرج الدلو وفيه رجل عار..

- « سيدى.. يبدو أن البئر فيها عفريت.. »

يبدو أن الأمير اعتاد هذه الأمور فلم يندهش.. فقط طلب أن يجلبوا أربعة فقهاء يقرءون القرآن..

لما جاء الفقهاء وشب (على الزيبق) من الدلو - الذى لا أعرف حجمه بالضبط - وبحث عن ثوب عتيق ستر به نفسه ثم انطلق فارًا...

لقد فازت (زينب) ابنة (دليلة) بحبه واحترامه...

نعم.. لا توجد طريقة لاستلاب قلب رجل كهذا مثل أن يكتشف أنه وجد من تعادله فى الدهاء..

يبدو أن هؤلاء القوم يملكون نزعة ماسوشية تغريهم بالفتاة التى تقهرهم..

هكذا عاد ل. (أحمد الدنف) يبلغه أنه أحب (زينب) ويريد الزواج بها..

لم يصدق الرجال ما سمعوه.. وفى الوقت نفسه كان رأيهم أن هذا مستحيل... لا أحد يظفر بيد ابنة (دليلة المحتالة) أبدًا..

لكن أحد المحتالين ويدعى (حسن شومان) خطرت له فكرة لا بأس بها....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت دليلة جالسة فى البيت تؤدى عملها عندما انفتح الباب ودخل عبد أسود يحمل اللحم والخضر قادمًا من السوق..

توقفت عن العمل ونظرت له نظرة ثاقبة حادة، ثم قالت بصوت بارد:

- « ماذا صنعت بعبدى الطباخ؟ »

يا لذكاء النساء القاتل!!.. فراستهن لا تخطئ فعلًا..

لكنه التفت نحوها وسأل فى حيرة وبلغة الزنوج:

- « ماذا تقولين؟ »

كان قد دهن جسده بالأسود بشكل متجانس متقن يذكرك بأشرف عبد الباقى فى (رشة جريئة)،

وقد جعل العبد الذى حل محله يسكر.. من ثم عرف منه بالتفصيل نشاط العبيد وجدولهم اليومى فى ذلك البيت.. لا يمكن أن يخطئ..

لكن المرأة قالت فى إصرار:

- « أنت تكذب يا على زيبق المصرى! »

هنا تدخل العبيد.. كانوا حمقى كمعظم عبيد ألف ليلة وليلة العنصرية جدًّا، لذا أصروا على أن هذا ابن عمهم..

أصرت دليلة فى غيظ:

- « ليس ابن عمكم. بل هو على زيبق المصرى!.. »

- « بل هو ابن عمنا سعد الله الطباخ!.. »

قالت آمرة وهى تناولهم دلوًا به مادة منظفة:

- « جربوا أن تزيلوا هذا اللون الأسود! »

هتف العبيد فى ذهول وهم يفركون المادة:

- « أبيض!.. إنه متسلل فعلًا! »

نظرت عبير فى دهشة لترى ما يحدث، ففوجئت بأنهم يفركون ذراع واحد آخر.. ليس من تشك فيه دليلة المحتالة.. كان يحاول التملص، لكنها عرفت على الفور من هذا المتسلل..

قالت دليلة فى غيظ:

- « ليس هذا يا حمقى! »

قالت عبير:

- « لا مشكلة.. هذا أيضًا متسلل.. لا يجب أن نتركه من أجل الآخر الذى تشكين فيه! »

كان العبيد قد أزالوا الصبغة السوداء كلها.. الآن يقف الإسرائيلى الذى يتجسس عليها منذ جاءت لعالم ألف ليلة وليلة، وقد افتضح أمره بطريق الخطأ.. دائرة بيضاء كالحليب فى ذراعيه وعلى وجهه.. وكان يحاول التملص لكن هيهات..

قالت (عبير) وهى تكتم الضحك:

- « الآن أرونى بأس السود وقوتهم.. لقنوه درسًا! »

هكذا انقض العبيد جميعًا على المتسلل، وبالفعل بدا أنهم سيصنعون منه شيئًا رقيقًا كالورق.. كان يصرخ فيزيدهم حماسًا للضرب.. اقتادوه للخارج لكن صوت الضرب لم يتوقف لحظة...

قالت دليلة المحتالة وهى تشير إلى على الزيبق المتنكر:

- « أعتقد أننا لو غسلنا الجميع لما وجدنا عبدًا أسود واحدًا هنا!»

قال العبيد بصوت واحد:

- « أما هذا فلا.. إنه ابن عمنا سعد الله الطباخ! »

هنا وضعت ذقنها على قبضتها ونظرت له سائلة:

- « إذن ليقل لنا ما هى الأصناف التى طلبناها منه للعشاء.. »

قال على الفور دون أن يتخلى عن لهجته:

- « عدس وأرز وشربة ويخنى وماء وردية ولون سابع وهو حب الرمان.. »

كانت ترمقه كالصقر.. وأمرته بأن يذهب إلى المطبخ فيفتح الكرار.. وقذفت له بالمفاتيح، ثم راحت تراقبه..

الأمر سهل جدًّا عندما يكون هناك قط..

لقد هرول القط نحو باب مغلق.. طبعًا هذا هو المطبخ..

الأمر أسهل عندما يكون مفتاح المطبخ ملوثًا بالريش.. هكذا اختار على هذا المفتاح بالذات وأداره فى القفل.. ولما أعاد تأمل المفاتيح وجد واحدًا عليه آثار دهان فعرف أنه مفتاح الكرار..!

لم أعرف أن مفاتيح الكرار تكون ملوثة بالدهان..لكن على الزيبق يعرف..

هكذا نال القبول واقتنع الجميع بأنه عبد أسود.. هو عبدهم..

طبخ لهم الطعام.. وبخفة دس مخدرًا للعبيد ولدليلة وزينب، ثم قام بتسميم الكلاب..

أخيرًا صار وحيدًا فى البيت كله وله السلطة العليا على كل شىء......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الصباح عندما أفاقت عبير من نومها العميق، أدركت أن على الزيبق خدعهم جميعًا..

لقد خدر الجميع ثم عمد إلى حيث كانت تضع ثياب رفاقه وأحمد الدنف فأخذها جميعًا.. والأهم أنه لم يمس أحدًا من أهل البيت برغم أنه كان قادرًا على ذلك...

هذا رجل لا يترك ثأره أبدًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- فلنخدع (زريق).

- « الآن نريد أن تهبى ابنتك زينب لابننا على الزيبق.. »

قالها أحمد الدنف لدليلة التى جاءت بيته... لقد قام على بالمطلوب منه وأثبت أنه نصاب ومخادع مثلها.. إذن هو جدير بابنتها..

كان شرطها قاسيًا بعض الشىء.. يجب أن يخطبها من خالها زريق...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من ضمن الصور الخالدة التى رسمتها قصص ألف ليلة وليلة، تظل صورة بائع السمك المقلى الذى يقف فى متجره وقد علق كيسًا مثقلًا بالذهب يحوى أرباحه، يتحدى به اللصوص. تظل هذه الصورة من أمتع الصور..

كان الرجل قويًا كالثيران سريع الحركة حاد السمع.. الكيس فيه جلاجل وأجراس من نحاس.. وفى الكيس كل مكاسبه من السمك التى يدخرها.

عندما يفتح المحل يصيح:

- « أين أنتم يا شطار مصر ويا فتيان العراق ويا مهرة بلاد العجم؟.. من يقدر على أن يأخذ هذا الكيس؟ »

يدنو أحد اللصوص ويمد يده إلى الكيس...

ترن.. ترن!

هنا يتصرف زريق كأنه أحد رهبان الزن اليابانيين أو يننجا.. يتناول رغيفًا من رصاص يحتفظ به دائمًا، وهوب.. يقذفه فى الهواء ليطير ويحطم رأس اللص... لا أحد ينجو..

كان هذا الطلب معناه باختصار أن (على) لن يرى صباحًا آخر..

كان هناك ذلك الفتى الذى يبدو أجنبيًا برغم أنه يلبس ثيابًا عربية.. له أنف مميز معقوف ولكنة غريبة أنفية شبه فلسطينية.. لقد اقترب من المتجر وحاول الظفر بالكيس، لكن الطبق طار ليهشم أنفه..

عرفت عبير الرجل على الفور.. إنه الإسرائيلى الذى يدس أنفه فى كل مكان، والحق أن لديه أنفًا يسمح بذلك فعلًا...

هكذا قرر على أن الطريق الوحيد الممكن هو الخداع..

ككل هؤلاء الشطار كان يجيد التنكر.. مثله مثل روكامبول وأرسين لوبين وأدهم الشرقاوى وبطل المقامات أبى الفتح السكندرى وحتى عبدالله النديم.. الأخير لم يكن لصًا لكنه عاش حياة فارس صعلوك حقيقى من فرسان العرب..

ارتدي ثياب امرأة حاملًا.. ثم استأجر حمارًا وذهب إلى السوق ليمر على متجر زريق..

تشمم الجو ثم سأل صاحب الحمار فى دلال:

- « ما هذه؟.. رائحة سمك؟.. ياى!.. أنا حامل ورائحة السمك تؤذى حملى ما لم يعطنى هذا البائع سمكة مقلية.. »

يبدو أن هذا كان عرفًا قويًّا... من حق الحامل أن تأكل أى شىء تشم رائحته، وقد دخل زريق المتجر ليقلى السمك وهو يسب ويلعن..

هنا صرخ على الزيبق معلنًا أن رائحة السمك سوف تؤدى إلى إجهاضه، فصرخ الحمّار:

- « الويل لك يا زريق.. إنها تفقد حملها وأنت لا تقدر على مواجهة زوجها.. »

هكذا أطلق زريق قدميه للريح مذعورًا....

مد على الزيبق يده على الكيس وهو يحبس أنفاسه...

ترن.. ترن!

تلك الأجراس اللعينة!

طار الطبق الرصاصى فى الهواء ملاحقًا (على).. هذا الطبق يمتاز بأنه كالبوميرانج يجدك أينما كنت ويفتش عنك....

بصعوبة استطاع أن ينجو من الطبق اللعين ويعود إلى أحمد الدنف...

هذه المرة تنكر فى ثياب سائس وعاد للسوق يبتاع سمكًا مقليًّا.. اشترط على زريق أن يكون السمك ساخنًا، فلما دخل هذا المتجر مد يده إلى الكيس..

ترن.. ترن!

وكالعادة طار طبق الرصاص....

تنكر على فى ثياب مشعوذ يدرب الثعابين.. الخلاصة أنه جرب سبع مرات وفى كل مرة ينكشف أمره ..

المهم أن عليًّا نجح فى النهاية فى أن يأخذ الكيس.

وهكذا صار من حقه أن يطلب يد زينب من خالها..

لكن (عبير) / (زينب) لم تكن لتمنح نفسها بهذه السهولة.. إن لديها شروطًا إضافية.. موضوع السمك المقلى يخص أمها أما هى فلديها شروط أخرى..

الفروة الذهبية؟.. لا.. لسنا فى الأساطير الأغريقية، والأخ عنترة قد تناول موضع النوق مهر عبلة من قبل.. ما تريده هو شىء خاص جدًّا..

قالت وهى تجلس فى وضع استرخاء جدير بفتاة يدور كل هذا القتال من أجلها:

- « أريد بدلة قمر بنت (عذرة) اليهودى.. »

بدا الأمر غريبًا لعلى.. عليه أن يذهب لفتاة فيسرق بذلتها ويعود بها..

لكن الطلب كان شديد التعقيد لأن (عذرة) اليهودى ساحر بارع ويستخدم الجان فى كثير من أغراضه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان على يقف مهمومًا يفكر فى مهمته التالية.. بينما عبير تفكر فى الطريقة التى ينفذ بها هذه المهمة..

هنا سمعا من السماء من يقول: لا إله إلا الله..

ثم هوى جواره رجل يصرخ وتوارى عن عينه..

نظر حوله فى عدم فهم، فقال أحد العبيد بلا مبالاة:

- « هذا (أبو محمد الكسلان).. كان متجهًا لمدينة النحاس لينقذ فتاة، وكان يركب على ظهر مارد من المردة.. التعليمات التى أعطيت له فى السماء هى ألا يذكر اسم الله حتى لا يتلاشى المارد ويسقط!.. »

تساءلت عبير فى حيرة:

- « ولكنه قال: لا إله إلا الله.. »

- « الحكاية أنه أثناء التحليق فوجئ برجل يحمل عصا يطير منها الشرر، يحلق جواره ويأمره بأن يذكر الله.. فعل ذلك فهوى.. أى أن الطائرة التى كان يركبها ذابت.. »

بدت القصة غريبة لعبير... لأول مرة يكون ذكر الله مهلكًا فى قصة من القصص صحيح أنه يقضى على المردة لكنه يؤدى لسقوطك من السماء.. ثم قالت لنفسها إن ألف ليلة وليلة بئر كبيرة ألقت فيها حضارات كثيرة قصصها.. لا شك أن هذه القصة ذات جذور ضد إسلامية... ربما هى ذات رائحة فارسية قوية..

على كل حال دونت هذه الحادثة لتعرفها فيما بعد.. المهم الآن أن تعرف ما سيفعله على الزيبق..

لو نجا من هذا الموقف فهو جدير باسمه فعلًا، وبالطبع جدير بأن يتزوجها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- اليهودى يقاوم..

يقيم اليهودى فى قصر عجيب.

هو من الناس الذين لا يمكن أن يزعموا أنهم غير موجودين فى البيت. فمن خصائص هذا القصر أنه موجود طالما هو فيه، فإذا غادره اختفى القصر!. كما أنه مبنى من طوب ذهبى يتبادل مع طوب فضى..

كما هى العادة فى هذه القصة، يجلس اليهودى فى قصره الشامخ ويعلق البذلة، ويصيح:

- « أين شطار مصر وفتيان العراق ومهرة العجم؟ من أخذ هذه البدلة بشطارته فهى له.. »

هناك حالة تحد منتشرة لدى كل من يملك شيئًا ثمينًا فى هذه القصة.

لكن منظر اليهودى لا يبعث الراحة فى النفس.. واضح أنه شرس خبيث..

الأسوأ هو أنه لا ينفق شيئًا تقريبًا... ألقى ببعض التراب فى الهواء فهبط التراب على شكل صينية طعام امتلأت بأشهى الأصناف.. أكل كثيرًا ثم ارتفعت الصينية وتلاشت، ومن جديد هبطت صينية عليها خمور.. فراح يشرب..

زحف (على) زحفًا من الخلف، وانتزع السيف وهوى به على عنق اليهودى...

لكن يده تصلبت فى الهواء.. لقد ظفر به اليهودى فعلًا.....

نظر له اليهودى فى حيرة حيث تصلب فى الهواء كأنها لقطة تم تثبيتها من فيلم سينمائى، ثم استعمل برنامج جوجل الذى كان شائعًا فى ذلك العصر: تخت الرمال.. ضرب الرمال بقوة فاصطف الرمل ليكتب الاسم:

على الزيبق المصرى

الحالة العامة: مُسعد.. سعده غالب على سعدك

حك لحيته التى تشبه لحية التيس، وراح يفكر ثم سأل الفتى المشلول:

- « ماذا تريد بالضبط؟ »

قال على فى إصرار:

- « أريد البدلة التى تعلقها هنا لأتزوج زينب ابنة دليلة.. سلمنى البدلة كى تسلم من شرى! »

كان الموقف ظريفًا بحق.. كأن الفأر الذى حبسته فى مصيدتك يشترط عليك أن تلقى له قطعة جبن ليرحمك. لابد لمن يهدد أن يملك الحد الأدنى من القدرة..

قال اليهودى وهو يكتم الضحك:

- « اسمع يا بنى.. يمكن أن أطير رقبتك حالًا لكنى أرى هنا أن سعدك غالب على سعدى.. لهذا سوف أطلق سراحك على أن تنسى هذا الكلام الفارغ.. »

- « بل أنا مصر على أن آخذ البدلة.. »

تكرار ملح على مشهد (متقدرش) العبقرى فى مسرحية محمد صبحى..

هكذا أخرج اليهودى طاسة وعزّم عليها وسكبها على (على)..

عندما حاول على أن يتكلم خرج صوته نهيقًا.. ولاحظ أنه لا يرى قدميه.. لقد صارتا بحوافر..

حمار!.. اليهودى قد مسخه حمارًا....

والأظرف أنه استعمله لينقل عليه حاجياته ويريح البغلة.. وعندما ذهب إلى السوق باعه لرجل يريد أن يعمل سقاء..

لكن بئس حظ من يبتاع حمارًا هو على الزيبق أصلًا...

لقد هاج الحمار وركل وضرب ورمح... والنتيجة أن الحمار عاد لليهودى لأنه سيئ الأدب..

اغتاظ اليهودى جدًّا..

أعاد عليًّا إلى حالته البشرية، ثم قال له:

- « أنصحك بأن تنسى موضوع البدلة هذا... »

- « بل أنا مصرٌّ على أن آخذها وأتزوج (زينب).. »

قال اليهودى وهو يفرك لحيته البيضاء التى تشبهه لحية التيس:

- « أنت كالجوز.. ما لم تكسر لا تؤكل.. ليكن.. »

وعزَّم عليه من جديد ليحيله دبًّا... ثم وضع طوقًا فى عنقه وجلس جواره..

طبعًا هنا يظهر رجل يريد شراء دب.. يريد شراءه للذبح لأن زوجته مريضة وقد وصف لها الطبيب لحم دب..

بالطبع تمت الصفقة وأخذ الرجل الدب مربوطًا بسلسلة، ولا أعرف كيف أقنع الجزار بأنه يريد أن يذبح له دبًّا.. يبدو أن الجزارين كانوا يذبحون أى شىء فى ذلك الزمن.. كان هناك زحام كبير حول قصر الخليفة، وسمع من يقول إن (جعفر) الوزير سيعدم هو وأربعون من أبناء عمومته لأنه فشل فى الكشف عن لغز مقتل صبية.. لكن الرجل لم يهتم.. لديه مشاكل كافية..

هذه المرة عاد الدب إلى اليهودى بفعل السحر.. قمر ابنة اليهودى استعانت بجنى أنقذ لها (على) قبل أن يمس السكين عنقه..

من جديد عاد على آدميًّا...

ما أوسمه!.. انحبست أنفاس قمر لما رأت مبلغ جمال هذا الفتى.. وشعرت أنها تحبه..

يريد بذلتها ولماذا؟.. كى يتزوج (زينب) ابنة (دليلة المحتالة)؟.. طبعًا لن تسمح بهذا أبدًا...

من جديد سحر اليهودى الفتى كلبًا...

فى هذه المرة تمكنت فتاة - اسمها بنت السقطى - من إنقاذه.. فتاة تجيد السحر لأنها اعتادت

أن تتسلل لمتجر اليهودى لتقرأ كتبه. أى أن السحر يمكن تعلمه بإلقاء نظرة سريعة على الكتب..

عندما رأته يدخل البيت وهو ينبح، توارت فى خجل وصرخت فى أبيها: منذ متى تسمح للرجال بدخول البيت علينا؟!

قال أبوها فى حيرة: أى رجال؟

- « هذا الكلب هو ببساطة على الزيبق المصرى.. »

هنا ظهرت قمر ابنة اليهودى لتعلن أنها أسلمت، وأنها قطعت رأس أبيها وتقدمها مهرًا لعلى.. نهاية مبتسرة بعض الشىء وسريعة جدًّا لكنها تؤدى الغرض.. فجأة تقطع الفتاة رأس أبيها لأنها أحبت (على)..

إن القصة تنتهى بعدة أشخاص يسرقون البدلة، وكل واحد منهم يقوم بتخدير الآخر.. بحيث تحولت بغداد إلى مجموعة من الأشخاص الذين غابوا عن الوعى.. على كل حال عادت البذلة إلى على الزيبق، وقد تضخم ما يحمله: رأس اليهودى.. كنوز.. بذلة.. إلخ..

وتنتهى القصة وقد تزوج رزمة كاملة من النساء، منهن عبير (زينب) وبنت السقطى وجاريتها وقمر بنت اليهودى..

» ورتب له الخليفة جامكية، وجعل له سماطًا فى الغذاء وسماطًا فى العشاء وجارية وعلوفة ومسموحًا ». ثم أمر الخليفة بأن تكتب هذه القصة بماء الذهب طبعًا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دونت عبير هذه القصة فى لهفة قبل أن تنساها.. فيما بعد سوف تحاول معرفة ما هى الجامكية والعلوفة..

ان للقصة مذاقًا خاصًّا فعلًا، يذكرك بجو روبين هود وروب روى وإيفانهو.. الشاطر الذى يفوز دائمًا.. هذه قصص تنجح فى جميع الظروف لأن الرجل العادى يتماهى معه.. باختصار يعطى المرء توكيلًا لعلى كى يفعل كل ما يعجز هو عنه...

كانت تعرف أن وجود ساحر يهودى فى القصة يناسب الإسرائيليين جدًّا.. وسوف يضعون عبارات عبرية على لسانه ليوحوا بأن القصة قصتهم أصلًا... لهذا قامت بجعله مجوسيًّا.. ثم أطلقت على المحتالة اسم (دينا) وأطلقت على ابنتها زينب اسم (داز)... وأطلقت على بائع السمك المقلى اسم (ربيع)..

هكذا تبعثرت أسماء دنيا زاد وعبير فى القصة..

الآن جاء وقت أن تحكيها لشهريار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مغامرات إسكافى..

استيقظ الناس فى الدرب الأحمر على صوت الصراخ والضرب..

كانت عبير من بينهم، فقد قررت أن تجمع بعض القصص من مصر على سبيل التجديد..

هرع الجميع إلى مصدر الصراخ.. وسمعتهم يقولون وهم يركضون:

- « العرة تفتك بزوجها معروف الإسكافى.. »

العرة؟؟

الحقيقة أن (عبير) كانت تقف على عتبات واحدة من أهم قصص ألف ليلة وليلة، وهناك أكثر من أوبريت وفيلم كامل عن هذه القصة..

عندما ذهبت إلى هناك رأت مشهدًا كالذى تخيلته من الضوضاء.. رجل طيب ضئيل الجسد يتلقى الصفعات والركلات من امرأة ضخمة تشبه الحيتان لو أن الحيتان قبيحة بذيئة اللسان بهذا القدر. هناك نسوة هن النكد يمشى على قدمين، ومن المستحيل فعلًا أن تعرف لماذا تزوجهن شخص ما أو لماذا يصر علم التشريح على اعتبارهن إناثًا.. كانت فاطمة العرة نموذجًا لهذا الطراز من النساء..

سبب ضربها المبرح لزوجها هو أنها طلبت منه كنافة بعسل النحل.. لم يكن مع البائس مال، وقبل الحلوجى أن يعطيه كنافة بعسل قصب السكر..

كانت تقول له:

- « قلت لك إن جئت من غير كنافة جعلت ليلتك مثل بختك حين تزوجتنى ووقعت فى يدى.. »

بالطبع كان الجميع يخشى التدخل.. كل من يقترب أكثر سيناله بعض الخير: ركلة أو صفعة أو سبة بذيئة..

وسط الزحام رأت عبير ذلك الرجل الإسرائيلى ذا الملامح المميزة. كان يراقب الأحداث فى نهم واستمتاع.. هتفت وهى تشير إليه:

- « هذا هو المسئول... قال لزوجك إنك ستحبين الكنافة بعسل قصب السكر أكثر! »

هتفت العرة وهى تنزع خفها:

- « اشهدوا يا عباد الله! »

وقبل أن يفهم الإسرائيلى ما يحدث كانت قد هوت فوق رأسه بخفها، ولو أنكم رأيتم قدمها لفهمتم أن هذا سلاح قتل.. هكذا هوت به خمس أو ست مرات والرجل يعوى، ثم فر وسط الزحام فانبرت لزوجها الذى كان يلتقط أنفاسه اللحظات..

كسرت له سنين ثم تركته وهرعت إلى القاضى لتشكو له.. مصداقًا للمثل المصرى: ضربنى وبكى

وسبقنى واشتكى..

فما إن ذهب معروف وقابل القاضى وأصلح بينهما، حتى خرج يلتقط أنفاسه.. هنا ظهر رجلان يطلبان منه أن يقابل القاضى..

- « أى قاض؟.. أنا كنت عنده حالًا.. »

- « امرأتك اشتكتك لقاض آخر!.. »

لقد صارت حياته جحيمًا.. كأنه يعاقب على ذنب لم يقترفه ولا يذكر متى اقترفه..

جلس يبكى.. وقفت عبير تراقبه شاعرة بأن قلبها ينفطر.. بكاء الرجل قاس دومًا، فما بالك ببكاء رجل مسن ضعيف كهذا؟

قالت له:

- « الأمور ليست بهذا التعقيد.. يمكنك الفرار من زوجتك دائمًا.. ثم إنها تكرهك فلن تبحث عنك.. »

قال وهو يتمخط بعنف:

- « بف ف ف!.. أنت لا تفهمين طباع البشر.. إنها لن تتخلى عنى لأنها تكرهني.. أنا أمثل لها حاجة نفسية ملحة.. »

- « لكن ال... »

هنا حدث أمر يومى معتاد فى ألف ليلة وليلة.. انشق الجدار وبرز عملاق.. كل الجدران محشوة فى ألف ليلة وليلة.. لا يوجد جدار مصمت أبدًا..

كان جنيًّا كالعادة.. جنيًّا يحاول الظفر ببعض ساعات الراحة والاسترخاء، ولا يطيق أن يأتى شيخ ليبكى كل هذا البكاء جواره..

- « هل تريد أن تفر من زوجتك؟.. إذن اركب على ظهرى.. »

قالت عبير فى حماسة:

- « هل لى أن أركب أنا الأخرى ؟ »

بدا عليه الضيق:

- « ليست هذه سيارة أجرة لو خطر لك هذا، لكن.. ليكن.. اركبي.. »

ركب معروف وتعلقت عبير بظهره كأنها دراجة بخارية..

وللمرة الأولى فى فانتازيا تجرب الطيران على ظهر عفريت..

يمكنها أن ترى معالم مصر بوضوح كأنها تنظر من نافذة طائرة، حتى توقعت أن يقول لها أحدهم: دى مصر يا عبلة.. فقط لولا صعوبة التنفس عند الطيران بهذه الطريقة، لصارت تجربة رائعة..

أخيرًا بدأ المارد يهبط بشكل عمودى فوق قمة جبل، وأعلن لمعروف الإسكافى أن زوجته لن تجده هنا.

قالت عبير وهى تلهث طلبًا للهواء:

- « هل هذا جبل إفرست؟.. ألا تجد أنك تبالغ فى خطورة زوجة الرجل؟.. إنها ليست ظاهرة كونية.. »

قال المارد وهو يبتعد:

- « هذا ليس إفرست.. زوجته مرعبة فعلًا ويمكن أن تجده فى أى مكان، لكنها لن تجده هنا! »

هكذا وجدت عبير نفسها ومعروفًا على قمة جبل مجهول..

بدءا النزول من قمة الجبل.. لحسن الحظ كانت هناك مدينة كاملة التحضر تنتظر. قدرت عبير من شكل الناس والمبانى أنهما فى بلدة ما من وسط آسيا.. بلدة من تلك التى ينتهى اسمها ب. (ستان)، وأسماء سكانها ب. (أوف) على غرار (عبد السميعوف)..

التف حولهم الناس مندهشين.. طابعهما المصرى الواضح بدا غريبًا جدًّا هنا..

قالت عبير لنفسها إن العرة جديرة باسمها فعلًا إذا كان الهرب منها يقتضى المجىء إلى هنا.. لكن المصريين موجودون فى كل مكان فى الواقع، وقد ظهر رجل ذو ملامح مصرية واضحة رحب بهما واصطحبهما إلى داره..

وكما يحدث فى الأفلام الهندية، تبين أن هذا الرجل ابن الشيخ أحمد العطار.. كان صديق معروف الإسكافى فى الصبا.. إن الأفلام الهندية كلها تلعب حول مبدأ (مصير الحى يتلاقى) كما تعرف..

قالت عبير وقد بدأ الموقف يروق لها:

- « هذا مسل. واحد فر لوسط آسيا وواحد تزوج غولًا وعمل إسكافيًّا.. ثم التقيا.. »

عاد ابن الشيخ أحمد يسأل معروفًا عما أتى به هنا فقال له:

- « لما اشتد على أذاها هربت منها فى جهة باب النصر، ونزل على المطر فدخلت فى حاصل خراب فى العادلية، وقعدت أبكى فخرج لى عامر المكان وهو عفريتٌ من الجن، وسألنى فأخبرته بحالى فأركبنى على ظهره وطار بى طول الليل بين السماء والأرض، ثم حطنى على الجبل وأخبرنى بالمدينة فنزلت من الجبل ودخلت المدينة والتم علىّ الناس وسألونى، فقلت لهم أنى طلعت البارحة من مصر فلم يصدقونى فجئت أنت ومنعت عنى الناس وجئت بي إلى هذا الدار، وهذا سبب خروجى من مصر.. »

سألته عبير فى ضيق:

- « هل لى فى سؤال؟ »

قال معروف:

- « تفضلى.. »

- « أنا لم أدرس فن السيناريو، لكن ألا تلاحظ أن هذا الخطأ يتكرر فى ألف ليلة وليلة مرارًا؟.. أنت تعيد سرد أحداث مررنا بها من قبل وعشناها.. »

قال ابن أحمد العطار:

- « إن هذا خطأ يتكرر فعلًا فى ألف ليلة وليلة لكنه برغم هذا يعطيها طابعًا محببًا.. على كل حال أنا أنصحك ألا تردد قصة المارد والطيران هذه.. لن يصدقك أحد وسيفترضون أنك ممسوس أو مجنون.. إن الطريقة المثلى هى أن آخذك غدًا للسوق وهناك أقدمك للتجار وأسألك عن أصناف من القماش فتؤكد لى أنها عندك.. »

وهو ما كان بالفعل.

فى اليوم التالى ظهر معروف ومعه عبير فى السوق وهو على ظهر بغلة زرزورية غالية سريعة المشى، عليها سرج مذهب بركابات هندية وعباءات من القطيفة الأصفهانية، تمشى كأنها عروس مجلية، وكان هناك عبد يتقدمه. إن أساليب كتاب (فن صناعة النجم) صالحة لكل زمان ومكان.. هكذا قابل ابن أحمد العطار معروفًا باحترام وإجلال.. على الفور انتقل التبجيل إلى معروف.

- « هذا الرجل يملك مالًا لا تلتهمه النيران.. »

لكن هناك شيئًا خطأ..

عبير لاحظت أنه يبالغ فعلًا.. إنه يوزع قبضات ذهب على كل فقير يسأله.. ليس لهذا الحد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10– المبذر..

كان ذلك الرجل النحيل يشق الزحام ليأخذ قبضة ذهب بدوره.

راحت (عبير) تنظر له مليًّا... ثم نادته ليدنو منها.. بالفعل لا يمكن أن تخطئ هذه الملامح.. رأتها عشرات المرات منذ جاءت ألف ليلة وليلة..

قالت له فى ضيق:

- « هل حقًّا بلغ بك الفقر مبلغًا؟ »

كانت ثيابه ممتازة.. ربما أفضل من ثياب معروف الإسكافى ذاتها... لكنه قال لها بصوت مميز:

- « الحاجة لا تنتهى.. إنها كالمحيط.. عندكم تقولون إن البحر يحب الزيادة.. ما دام هناك مغفل يعطى فلابد أن يكون هناك ثعلب يأخذ.. »

قالت دون أن تنظر له:

- « ارحل واتركنا وشأننا.. هذه كلمتى الأخيرة.. »

هز رأسه فى سماجة، وقال:

- « ليس قبل أن أثبت حقوقنا.. ألف ليلة وليلة دليل آخر على العبقرية اليهودية.. »

- « مزاح سمج.. أسوأ أنواع الكذابين من يكذب عليك وهو يعرف أنك تعرف أنه يكذب.. نحن نرى كل شىء معًا.. كل شىء شرقى أو عربى أو إسلامى... دور اليهود فرعى تمامًا..»

ابتسم واتجه نحو (معروف).. ثم عاد والدنانير المعدنية تصل فى قبضته..

سوف تقتله.. لا يوجد حل آخر...

قالت عبير لمعروف بعد أسبوع فى هذه المدينة:

- « حاشا لله أن أنتقد سلوكك.. لكن ألا ترى أنك توزع المال بكثرة لا توصف؟ »

الحقيقة أنه كان ينفق كالملوك فعلًا... قال فى لا مبالاة وهو يقذف قطعة ذهب فى الهواء:

- « ما المشكلة فى ستين ألف دينار؟... اقترض من التجار بلا توقف على حساب البضاعة القادمة.. »

- « وهل هناك بضاعة قادمة؟ »

- « بالطبع.. »

إذن صار (معروف) من هؤلاء.. الذين يصنعون الكذبة ثم يصدقونها بقوة..

أما من كان موقفه أسوأ بكثير فهو ابن أحمد العطار.. لقد امتدح معروفًا كثيرًا جدًّا من قبل.. ومعنى أن يذمه الآن أنه كان يكذب أولًا..

لكن التجار يكلمونه هو ويشكون له هو، ويسألونه عن مالهم هو..

مشكلة أن تكون واجهة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكا التجار أمرهم إلى الملك، لكن الأمر بدأ يروق له..

لا يمكن أن يكون (معروف) أحمق لهذا الحد، بل الأرجح أنه فعلًا يعرف قيمة بضاعته التى ستصل عما قريب..

قال له الوزير محذرًا:

- « يا ملك الزمان.. ما أراه إلا نصابًا كذابًا.. والنصاب لا يبلغ مراده إلا عن طريق الطماع.. »

لكن الملك بدا مقتنعًا.. إن ابنته حسناء ولابد أن تروق لمعروف، وهذا معناه أن يصير مصدر هذا الثراء الفاحش معه.. لم يجد الوزير بدًّا من أن ينصاع للأمر وعرض ابنة الملك على معروف..

قال الإسكافى أمام عبير المذهولة:

- « الخير عندى كثير ولا بد أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس، وأحتاج إلى ألف كيس أفرقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها الذين يمشون فى الزفة، وألف أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم، وأحتاج إلى مئة جوهرة فأعطيها للملكة صبيحة العرس، ومئة جوهرة أفرقها على الجوارى والخدم فأعطى كل واحدة جوهرة تعظيمًا لمقام العروس، وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء ولا بد من صدقات وهذا شىء لا يمكن إلا إذا جاءت الحملة.. »

قالت (عبير) لنفسها إن هذا الرجل مجنون بالتأكيد.. لا يوجد تفسير آخر، ولعل زوجته ضربته على رأسه كثيرًا..

لكن سياسة (جوبلز) لا تفشل أبدًا.. الكذبة الكبيرة الجريئة تجد من يصدقها، أما الكذبة الصغيرة المترددة فيسهل نقضها..

لقد صدّق الملك هذا كله، فاستدعى (معروف) وقال له إن هذا الذى يقوله ليس مبررًا لتأجيل الزواج.. يمكنه أن يقترض المال منه ويسدده فيما بعد..

هكذا صار معروف يعيش حياته كلها نسيئة.. باعتبار ما سيأتى..

إن ثروته ورأس ماله هو الوعود... هو الغد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست عبير جوار العريس الجديد تراقب فى دهشة ما يقوم به..

يوزع كل ما فى يده يمينًا ويسارًا، وكلما جاءه واحد أو انبهر بألعاب مهرج أو رقص راقصة مقبضته ذهبًا وأعطاه أو أعطاها..

همست عبير فى أذنه:

- « أضعت مال التجار. الآن تضيع مال الملك.. أرجو ألا يعتبروننى أنتمى لك عندما ينكشف كل شىء.. »

قال بقدرية لا نهاية لها:

- « فليكن ما يكون.. »

ولما انتهت الأفراح، لحق بعروسه الحسناء..

لقد صار الإسكافى الآن يلبس كالملوك وتدثر بالحرير وفاخر الثياب.. لم يكف عن العطاء لحظة..

وعرفت عبير أن اللحظة السوداء قادمة.. هذا رجل يمكنه أن يخرب ميزانية الولايات المتحدة نفسها..

وجاء اليوم الذى دخل فيه الخازندار على الملك مهمومًا.. انحنى ثم قال وهو لا يعرف لأين يوجه عينيه:

- « الخزانة صارت فارغة يا مولاى ... لم يبق فيها مال يكفينا إلا عشرين يومًا ثم هو الخراب.. وبضاعة هذا التاجر لم تصل بعد ولا يبدو أنها ستصل أبدًا.. »

راح الملك يفكر مهمومًا...

لو تبين أن الزوج نصاب فعلًا فلسوف تكون غضبته قاتلة..

لكن كيف يتأكد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن ابنة الملك كانت قد تأكدت فعلًا...

الأزواج يتكلمون كثيرًا وقد تكلم معروف.. عرفت منه أنه ليس تاجرًا بل هو مجرد إسكافى فقير هارب من زوجته العرة. لن تكون هناك بضاعة ولن يسترد أحد ماله..

إذن هى نهايته..

لكن هناك عاملًا كان منسيًّا وظهر الآن.. لقد أحبته.. لا تريد أن يهلك..

طلبت منه أن يفر.. يتنكر كمملوك ويأخذ منها خمسين ألف دينار، ويذهب لبلاد بعيدة عن حكم أبيها.

- « قم قبل أن يطلع النهار عليك وينزل بك الدمار.. »

نهض مسرعًا وارتدى ثياب المماليك..

رأته عبير يتأهب للرحيل، فقالت له:

- « لا أعتقد أننى سأبقى هنا لأرد على أسئلة الملك.. »

- « لو أردت فهذا شأنك.. »

وسرعان ما كان حصانان ينطلقان فى الأفق مبتعدين عن القصر والبلد كلها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- الحظ يتغير..

كانت عبير جائعة ومرهقة فهى لم تعتد ركوب الخيول كل هذا الوقت..

هكذا اضطر معروف الإسكافى للتوقف قرب مزرعة يعمل فيها فلاح بادى الفقر. نظر للخلف ليتأكد من أن أحدًا لا يتبعه.. إن انتقام الملك منه سيكون عبقريًا.. سوف يرد فى الأساطير التى تحكيها الأجيال التالية..

رآه الفلاح فعرض عليه بأريحية أن يأتيه بشىء من الطعام والعلف للجوادين..

- « هؤلاء القوم كرماء فعلًا... »

وجلس معروف على كومة تبن يرمق المكان..

- « من الممكن أن أحرث له الأرض إلى أن يعود.. »

ونهض محاولًا أن يكون مفيدًا.. كانت عبير تفهم جيدًا خلفية هذا الشعور.. لقد أحدث ما يكفى من أذى لذا يريد أن يشعر بأنه ذو قيمة ما. عندما كانت تدمر شيئًا فى البيت وهى صغيرة كانت تغسل الأطباق...

بدأ معروف يحرث الأرض بمعونة الثيران، هنا اصطدم بشىء...

الحلقة المعدنية المعروفة تبرز من الأرض..

الحلقة التى رأتها على غلاف ألف قصة من قصص ألف ليلة وليلة من قبل، وتعنى دائمًا أن هناك كنزًا.. تنهدت عبير... لن تفهم أبدًا المنطق الأخلاقى لقصص ألف ليلة وليلة. فى قصة يظفر الكسول بكل شىء، وفى قصة أخرى يجد هذا المبذر الكذوب كنزًا.. كنزًا يمكن أن يحل كل مشاكله..

قالت له وهي تنهض:

- « أعتقد أن مشاكلك انتهت.. »

كان صدره يعلو ويهبط فى حماسة مجنونة.. جذب الحلقة فانفتح باب مستدير صغير....

الفلاح يحرث الحقل ليلًا ونهارًا منذ أعوام، لكن (معروف) هو الذى يجد هذه الحلقة.. هذا شىء تبتلعه لأنك فى عالم ألف ليلة وليلة...

بالطبع كانت هناك درجات سلم.. نزل عليها..

قالت (عبير) دون أن تنظر:

- « انتظر.. سأقول لك ما وجدته... هو مكان مثل الحمام بأربعة لواوين: الليوان الأول ملآن من الأرض إلى السقف بالذهب، والليوان الثانى ملآن زمردًا ولؤلؤًا ومرجانًا من الأرض إلى السقف، والليوان الثالث ملآن ياقوتًا وبلخشًا وفيروزًا، والليوان الرابع ملآن بالماس ونفيس المعادن من سائر أصناف الجواهر، وفى صدر ذلك المكان صندوق من البلور الصافى ملآن بالجواهر

اليتيمة، كل جوهرة منها قدر الجوزة وفوق ذلك الصندوق علبة صغيرة قدر الليمونة وهى من الذهب.. »

هتف من داخل الجب فى دهشة:

- « كيف عرفت؟ »

- « هكذا تبدو الكنوز فى ألف ليلة وليلة دائمًا... وأتمنى لو عرفت ما هو البلخش.. لا عليك.. »

لكن التجديد الحق كان فى العلبة الصغيرة التى كانت تحوى خاتمًا..

لقد فرك الخاتم كالعادة فظهر له جنى مارد يعرض خدماته..

- « شبيك لبيك يا سيدى.. »

لم يهدد بتحطيم عنقه لحسن الحظ...

لم يكن هذا الجنى ضعيفًا..

- « إنى سلطانٌ على أعوان من الجان، وعدة عسكرى اثنتان وسبعون قبيلة، كل قبيلة عدتها اثنتان وسبعون ألفًا، وكل واحد من الألف يحكم ألف مارد وكل مارد يحكم على ألف عون وكل عون يحكم على ألف شيطان وكل شيطان يحكم على ألف جنى وكلهم من تحت طاعتى.. »

حاولت عبير أن تحسب..

هناك 72 قبيلة.. وكل قبيلة بها 72000.. وكل واحد يحكم ألف مارد.. وكل مارد يحكم ألف عون. وكل عون يحكم ألف شيطان.. كل شيطان يحكم ألف جنى..

معنى هذا أن هذا الوغد يسيطر على 5184 مليار شيطان!

قال الجنى:

- « طريقة الاستعمال هى أن تدعك الخاتم.. سهل جدًّا.. لكن لا تفعل ذلك مرتين حتى لا أحترق.. سلام.. »

أدركت عبير أن المارد يستعمل الحيلة السردية المعروفة باسم (مسدس تشيكوف). فيما بعد سوف ينسى أحدهم ويدعك الخاتم مرتين.. لا شك فى هذا. ولكن بعد فترة كافية تسمح بأن ينسى القارئ هذا التحذير..

تم التعارف بسهولة...

الجنى يدعى (أبو السعادات)... الكنز كنز (شداد بن عاد)..

- « هل تستطيع أن تنقله لى على ظهور بغال؟ »

- « هذا سهل جدًّا.. »

هنا قالت عبير فى تحفظ:

- « لحظة.. هذا الكنز على أرض الفلاح الكريم الذى .... »

لكن أحدًا لم يصغ لها..

تمت تعبئة الكنز على ظهور 300 بغلة.. لكن (معروف) لم يكتف بهذا بل طلب عينات من أقمشة البلدان المختلفة، مئة حمل على مئة بغل.. حتى (أبو السعادات) لا يستطيع عمل هذا فورًا بل يحتاج إلى العمل طيلة الليل..

ثم إنه انتظر حتى عاد الفلاح وقد جلب الطعام... كان هذا الطعام علفًا للجياد وعدسًا فى قدر.. فقط ليجد أن ضيفيه يلتهمان طعامًا فاخرًا وهناك مأدبة حقيقية وموسيقا وراقصات وعبيد...

إن الفلاح لم يفهم ما حدث قط، وعلى كل حال لم يتخل عنه معروف تمامًا.. لقد شرب العدس ثم ملأ له القدر بالذهب...

إنها ثروة بالنسبة للفلاح الفقير الكريم، لكن لا تنس أن الكنز على أرضه أصلًا..

فى الصباح جاء أبو السعادات بالأقمشة التى طلبت منه..

مئات البغال والعبيد والمماليك وتختروان ليركبه معروف الإسكافى.. تقول القصة إنه كان فى موكب (يفقع مرارة الأسد).. ولم أكن أعرف أن مرارة الأسد بهذه الصلابة..

قالت له عبير:

- « أعتقد أننى خمنت ما تنوى القيام به.. »

- « بالضبط.. سأرسل هذه القافلة للملك ليعتقد أنها البضاعة التى كنت أعد بها... »

بالطبع كان دخول هذه البضاعة وهذا الموكب إلى المدينة مشهدًا لا يوصف.. كل من اعتبر (معروف) نصابًا صدم وشعر بأنه ظلمه..

أما الملك فإنه شعر بأنه كان بعيد النظر فعلًا.. زوج ابنته ثرى بشكل لا يمكن وصفه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عودة معروف صاخبة بحق..

التف الناس حوله وكان الملك فى غاية الفخر والانبهار..

» وصار معروف يعطى التجار الذين لهم عليه دينٌ من الأقمشة فى نظير ديونهم، والذى له ألف يعطيه قماشًا يساوى ألفين أو أكثر، وبعد ذلك صار يفرق على الفقراء والمساكين. ثم التفت إلى العسكر وجعل يفرق عليهم معادن وزمردًا ويواقيت ولؤلؤًا ومرجانًا، وصار لا يعطى الجواهر إلا بالكبشة من غير عدد.. »

الخلاصة الأخلاقية لهذه القصة: أنفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب.. حتى لو كان ما فى الجيب لا يخصك... التبذير دون عقل فضيلة لا شك فيها..

وفى هذه الليلة صارت مشكلة خزائن الملك أنها فاضت بما فيها من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان، فلم يعد أحد يستطيع غلقها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- كشف السر..

قال معروف لعبير فى حماسة:

- « سوف أطلب من (أبو السعادات) أن يحضر لك بدلة كنوزية والكثير من الحلى.. »

قالت له فى فتور وهى تدون مذكرات بما حدث:

- « لا شكرًا.. هناك من يستحق ذلك فعلًا وهو زوجتك الباسلة التى ساعدتك على الفرار، برغم أنك نصاب.. »

- « هناك الكثير للجميع على كل حال.. »

بالفعل هذا الوضع يناسبه جدًّا.. أن ينفق من مال لا آخر له ولم يتعب فى جمعه..

على كل حال رفضت عبير أن يجلب لها أى شىء فلا صفة له ولا لها، لذا جلب لزوجته نفائس كثيرة، يصفها راوى ألف ليلة وليلة واسع الخيال فيقول: « رأت من جملة الحلى خلخالين من الذهب مرصعين بالجواهر صنعه الكهنة وأساور وحلقًا وحزامًا لا يتقدم بثمنها أموال.. »

دعك من هذا.. لقد أمر الخادم بأن يصنع له مئة بذلة للجوارى، وكل بذلة بداخلها هدية من الحلى...

كل هذا البذخ مريب جدًّا..

كل هذا البذخ يثير الشبهات..

أنت تعرف كيف يقع اللصوص فى أيدى رجال الشرطة، عندما يبدأ شاب لا يملك مالًا فى الإنفاق بلا حساب فى الملاهى الليلية، ومنذ أعوام اشتبه رجال الشرطة فى شابين يبتاعان شطائر الشاورمة، وتبين بالفعل أنهما سرقا منزلًا!

أولى العلامات المريبة هى اختفاء المماليك، واختفاء البغال والدواب من الأسطبلات..

طبعًا كانت هذه الدواب من صنع الجنى، ولهذا اختفت فى الليل من دون إنذار..

كان غضب الملك على خدمه شديدًا.. من المعقول أن يُسرق بغل أو اثنان، لكن اختفاء ألف دابة وخمسمائة مملوك أمر يدل على أنه يؤوى تحت سقفه مجموعة من العميان بلا كفاءة..

كان غضب الملك أشد عندما أخبر (معروف) بذلك.. قال معروف:

- « أية قيمة لبعض الدواب؟.. هذا لا يستحق أن نتضايق من أجله.. »

راح الملك يضرب كفًّا بكف...

مهما كانت درجة الثراء فلها حدود..

لابد من لحظة يشعر عندها المرء بالحسرة والخسارة..

لابد من معرفة سر هذا الإسكافى العجيب..

هنا تفتق ذهنه عن الحل الدائم لمعرفة الأسرار فى ألف ليلة وليلة.. عقار بنتوثال الصوديوم فى ذلك العصر: الخمر...

دعا الملك وزيره و(معروف) و(عبير) إلى نزهة..

ذهبوا إلى مرج جميل فيه قصر للملك... وكان الوزير يحكى لهم قصصًا طريفة ممتعة لا تنقطع. ومن مكان ما ظهرت الكئوس وظهرت الخمر.. هؤلاء القوم كانوا يشربون الخمر بنفس طريقتنا فى شرب الكولا أو العصائر..

طبعًا رفضت عبير أن تذوق كأسًا، وتمنت لو أن هنا بعض الكولا فعلًا..

لكن (معروف) شرب وشرب وشرب..

قالت له ناصحة وقد توقعت ما سيحدث:

- « اسمع.. أقترح أن تكف عن الشرب ونرحل.. »

لكنه لم يصغ.. وسرعان ما كان يتطوح ويصدر تلك الكلمات الأنفية الممطوطة التى تدل على مستوى الكحول فى دمه. هنا سأله الملك:

- « أنا منبهر فعلًا بقدرتك على الإنفاق!.. ما السر الذى يجعلك بهذا الثراء؟ »

هكذا بدأ يتكلم.. يتكلم فى حماقة..

حاولت عبير أن تمنعه عدة مرات، لكنه كان فى حالة غياب تامة عن الوعى والتعقل...

حكى كل شىء حتى الخاتم.. بل إنه أخرجه ليريه للملك ووزيره..

- « هل تسمح لى بأن أجربه؟ »

وتناول الوزير الخاتم ودعكه.. ولم يبد دهشة لما رأى الجنى كأنه اعتاد هذه الأمور..

وكما توقعت عبير كان الأمر الذى أصدره الوزير إلى (أبو السعادات) هو: احمل هذين ثم ارمهما فى أوحش الأراضى الخراب، حتى لا يجدا فيها ما يأكلان ولا ما يشربان فيهلكان من الجوع كمدًا ولا يدرى بهما أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشكلة مع هؤلاء الجان أنهم روتينيون جدًّا.. لا يحملون أى ولاء إلا لصاحب الخاتم فى لحظة بعينها.. نفس ما حدث مع علاء الدين من قبل. أى أنهم دائمًا عبيد مطيعون لمن يملك السلطة، على طريقة (عبد المأمور) الشهيرة.

لهذا وجدت عبير نفسها و(معروف) التعس فى الهواء يتوسلان للجنى.. يبدو أن من الطرق الممتازة للخلاص من تأثير الخمر أن يحملك جنى غاضب فى الهواء البارد..

الجني صار قاسيًّا كأنه لم يعرفهما من قبل ولم يسد لهما أية خدمات.. غير أنه كان يحمل كذلك جزءًا من الضيق الشخصى، لأنه لم يتحمل أن يفشى (معروف) سرًّا مهما كهذا.. إنه

مستهتر.. إذن فليعامل كمستهتر..

هناك فى الربع الخالى هبط فتخلص منهما وطار..

كان (معروف) يلطم خديه بلا انقطاع، وأوشك على أن ينشد قصيدة فوضعت عبير يدها على فمه وهتفت:

- « أرجو أن تصمت.. تحمّل نتيجة أخطائك كرجل.. لقد بدأت أعتقد أن زوجتك العرة كانت أفضل منك.. »

وجلست على صخرة وراحت ترمق الرمال المترامية..

رمال مترامية للشرق.. رمال للغرب.. للشمال..

لا يمكن أن يخرجا من هنا إلا بمعجزة...

الحقيقة أنها حمقاء بدورها.. كانت تشاهد كل شىء كأنها تشاهد التلفزيون عاجزة عن تغيير الأحداث.. لو كانت أكثر إيجابية لانتزعت الخاتم ولجعلت الخادم يسحق أو يمحو أو يقتل الإسرائيلى الذى يسرق منها القصص...

هنا رأت (معروف) ينظر للسماء وقد بدا عليه الذهول..

المارد قد عاد، لكن لماذا؟

لكنها خمنت السبب.. بالطبع تخلص الوزير من الملك كذلك، وجاء الملك لينضم لهما فى هذا المنفى.. ما الذى يجعل شخصًا عاقلًا يجد هذا الخاتم ثم يتخلى عنه؟.. ولماذا يظل تابعًا بينما يمكنه أن يكون سيدًا؟.. هناك أحمق واحد فعلها هو (معروف)..

بالفعل هبط المارد ليضع الملك - حما الإسكافى – على الأرض ثم يطير بدوره..

المشكلة هنا أن ابنة الملك سوف تجد نفسها وحيدة مع الوزير، وسوف يكشف الوزير عن أنه كان يريدها دومًا.. لذا سوف يقرر الزواج منها.. يطالبه الفقهاء بانتظار العدة لكنه لا يعترف بالعدة.. بالواقع لا يعترف بأى قيود دينية. وهكذا يكتشف الناس أنهم صاروا تحت حكم رجل كافر..

انفجر الملك فى البكاء لضياع مملكته وابنته، بينما قالت عبير فى قسوة:

- « هناك مشكلة فى الطعام.. كنا سنقسم لا شىء على اثنين.. الآن صار علينا أن نقسمه على ثلاثة... هذا حظ سيئ! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- جزيرة أكلة لحوم البشر..

لما طال بقاء عبير فى الصحراء، قررت أن الوقت قد حان للمغادرة.. سوف تلفق أية نهاية للقصة لشهريار؛ لأنها لن تنتظر هنا للأبد..

فى الحقيقة كانت ابنة الملك ستنجح فى الاستيلاء على الخاتم وتنقذ أباها وزوجها، وتعيدهما للمملكة، بينما يلقى الوزير شر الجزاء..

هناك جزء آخر من القصة هو أن العرة زوجة معروف كانت ستلحق به وتطلب شفقته، وهذا جزء طويل معقد من القصة.. لن تنتظر لترى هذا كله فقد تأخرت على شهريار..

هناك فى مخدع شهريار قامت بتلفيق بعض الأحداث، ثم قامت بتغيير بعض الأسماء لتضمن حقوق الملكية الفكرية. لن تستطيع تغيير اسم (معروف الإسكافى) ولا (العرة) لأنهما أشهر من نار على علم..

وعندما شمت رائحة العطر المميزة، وعندما انشقت الستائر ليظهر السلويت المميز لشهريار، كانت جاهزة بالقصة. لقد قضى يومًا شاقًّا فى مملكته والآن يريد التسلية..

تنهد وتربع على الفراش فغاص ريش النعام أمتارًا، وسمعت موسيقا كورساكوف المميزة تصدح..

قالت بصوتها الأنفى الوقور المحبب الذى تصطنعه اصطناعًا:

- « مما يحكى أيها الملك السعيد أنه كان فى مدينة مصر المحروسة رجل إسكافى يرقع الزرابين القديمة، وكان اسمه (معروف) وكان له زوجة اسمها عبير ولقبها العرة، وما لقبوها بذلك إلا لأنها كانت فاجرة شرائية قليلة الحياء كثيرة الفتن و.................................... »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لما ذهب شهريار لشئون الحكم فى الصباح، فوجئت بوجود رجل فى المخدع.. لا لم يكن المرشد - وهو الوحيد المسموح له بالذهاب حيث شاء فى فانتازيا - ولكنه (بيرتون).. المستكشف والأفاق والمترجم البريطانى الشهير..

- « أنت هنا؟ »

كان يدخن الغليون الشهير ويرمقها بنظرة نارية من عينيه المخيفتين:

- « جئت أهنئك.. تبلين بلاء حسنًا بالتأكيد، لكننى أتحفظ على الدور الرقابى الذى تمارسينه.. »

- « لا أفهم.. »

أطلق سحابة كثيفة من الدخان وقال:

- « هذا مجتمع شهوانى بطبعه.. والمرأة فيه بطبعها جارية مخصصة لمتعة الرجل بلا إرادة

تقريبًا، فإذا أرادت أن تتحرر تعبث من وراء ظهره أو تخادع أو تسحر.. لكنك فيما نقلت من قصص تقومين بعملية تهذيب مستمرة لا أفهمها.. تطهير مستمر بلا توقف.. كل هذه القصص مليئة بقبيح الأمور، وخاصة (معروف الإسكافى).. »

تذكرت ما قيل لها من أن (بيرتون) شهوانى بطبعه، فقالت:

- « اسمع.. لقد صدرت طبعات كثيرة مهذبة فى القاهرة، ولم تخسر شيئًا على الإطلاق.. الكنوز هى الكنوز، والعفاريت هى العفاريت.. هذا دليل على أن الجزء الجنسى مقحم.. »

- « لكن هذا عدم أمانة.. »

رفعت رأسها وقالت فى شمم:

- « لا أبالى.. الفن هو حياة تم تهذيبها.. إن ألف ليلة أكثف وأعقد من هذا.. كتاب عملاق ذوبت فيه عدة ثقافات قصصها.. أرى أنك لو حذفت الإباحية لبقى الكثير جدًّا... »

ثم بدا أنها تصغى لصوت ما.. وقالت فى ذعر:

- « شخص قادم.. أقترح أن تتوارى.. إن شهريار مصاب بعقدة شك مزمنة، ولو شك فى أمرك فلن يكفيه أن يذبحك.. »

بدا عليه الرعب فراح يلوح بيده ليبعد دخان الغليون.. قالت له:

- « ارحل أولًا وسوف أشعل بخورًا غاليًا يبدد هذه الرائحة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتواصل عبير جمع القصص..

لقد صارت لديها مجلدات ممتازة فعلًا...

من ضمن ما جمعته قصة سمعتها وهى تجلس فى مجلس (سيف الملوك) وأخيه (ساعد) وأخيهما (تاج الملوك).. إن لقاء حافلًا ضم الإخوة فى قصة طويلة من قصص ألف ليلة وليلة...

يبدو أن المدعو (ساعد) كان قد مر بتجربة عسيرة، لذا كان آتيًا من الحمام يحيط به العبيد وهو يرتدي روبًا أنيقًا.. فلما بلغ المجلس جلس وسطهم يأكل ويحكى..

كانت قصته شبيهة بقصص أخرى كثيرة فى ألف ليلة وليلة، وتذكرك بالبداية الدائمة لقصص السندباد.. لابد من سفينة وعاصفة ولابد أن تغرق السفينة..

قضى الفتى ورفاقه شهرًا فى البحر على طوف خشبى.. وطبعًا لا أحد يموت فى وسط المحيط.. لابد من جزيرة..

نهض الرجال ومشوا على الشط لا يصدقون أنهم نجوا..

كانت هناك غابة أمطار جميلة فدخلوها وراحوا يأكلون من الثمرات.

هنا فوجئوا بكائنات كالقردة تثب عليهم من قمم الأشجار.. الكائنات التى جف ريق البحارة القدامى وهم يصفونها..

كان الأمر واضحًا.. هذه الكائنات سوف تلتهمهم.. لا يحتاج آكل لحوم البشر إلى بطاقة معلقة على صدره..

قال ساعد للرجال:

- « لن نموت بسهولة.. دعونا نعصر لهم بعض العصير.. »

فى دهشة راحت الكائنات تراقب الرجال وهم يجمعون الأعناب ثم يعصرونها فى بقايا القرع، والبعض وجد جماجم عتيقة فصب فيها العصير.. ثم تظاهر الرجال بأنهم يشربون..

طبعًا لا أعرف كيف تحول العصير إلى خمر بهذه السرعة.، لكن الكائنات قررت أن تجرب.. شربت مرة.. فمرة... فمرة..

- « من لم يشرب عشر مرات سوف يموت! »

طبعًا صدقت الكائنات هذه السخافة وشربت عشر مرات فعلًا...

فى النهاية غلبها السكر فسقطت أرضًا..

هناك تشابه شديد مع قصة أوليس مع الغول.. لكن الأوديسة هى الأقدم طبعًا.. تذكر قصة أوليس مع العملاق و(لا أحد يقتلنى.. لا أحد)..

قام البحارة بجر جثث هذه القردة جميعًا ووضعوا الحطب فوقها ومن حولها ثم أشعلوا النار. لو كنت لم تشم رائحة قرد مشوى فلا تحاول أن تفعل ذلك..

لقد احترقوا وهم غائبون عن الوعى...

لما صار المهاجمون رمادًا قال ساعد لرجاله:

- « نجونا بحمد الله تعالى.. هلم نواصل استكشاف الجزيرة.. »

لم يكن الخطر قد انتهى طبعًا... الجزر التى تعج بسكان كالقردة يأكلون البشر لابد أن فيها أشياء أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- المزيد من أكلة لحوم البشر..

ما زلنا إذن مع ساعد الذى راح يستكشف الجزيرة مع مملوكين..

كانت الغابة ممتدة لمساحة هائلة والدوران حولها يستغرق عدة أيام، وهنا برز لهم رجل فارع القامة له لحية طويلة وعينان ملتهبتان...

يبدو أنه راعى غنم..

طبقًا لنظرية الرجل الغامض الودود أكثر من اللازم، رآهم الرجل فتهلل وجهه وارتفع حاجباه وصاح:

- « يا أهلًا يا أهلًا.. تعالوا فى ضيافتى.. إن الغداء اليوم شاه مشوية فى دارى.. »

سأله ساعد فى شك:

- « وأين دارك؟ »

- « قرب هذا الجبل.. ثمة مغارة بها ضيوف آخرون فاجلسوا معهم.. »

هكذا مشى ساعد ورفيقاه نحو المغارة..

ثمة ملحوظة غريبة هنا هى أن هذا الرجل يستضيف العميان فقط!..

كان العميان يجلسون بالداخل وقد بدا عليهم الوهن والإرهاق.. فلما شعروا بالقادمين هتفوا:

- « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. ماذا جاء بكم هنا؟.. هذا غول يأكل بنى آدم وقد أعمانا ويريد أن يأكلنا.. »

طريقة هذا الغول تتلخص فى أنه يستضيف الناس، ثم يقدم لهم اللبن ليشربوا.. من الواضح أن اللبن يسبب العمى.. بهذا يصيرون بطًا جالسًا ينتظر الذبح..

لا أعرف شيئًا يسبب العمى بالشرب إلا الكحول الميثيلى، لكن من الواضح أن ألف ليلة وليلة فيها تقدم كيميائى مذهل..

عندما جاء الغول بعد قليل كان يحمل أكوابًا من اللبن، وقدمها لضيوفه..

تناول ساعد اللبن وبخفة سكبه فى حفرة صغيرة من خلفه، ثم صرخ وهو يغطى عينيه:

- « عيناى!.. عيناى!.. أنا أعمى! »

هنا انفجر الغول يضحك.. طبعًا لم يمنع هذا صاحبى (ساعد) من شرب اللبن فالعمى..

كان هناك سيف فى طاقة فتناوله ساعد، ونصحه العميان بأن يضرب به الغول فى خصره..

ترنح الغول وتهاوى.. وهنا.....................

قالت عبير فى رعب:

- « لا تقل إنك ضربته ضربة ثانية!.. كل الغيلان تصحو ثانية لو ضربتها ضربة ثانية! »

نظر لها ساعد فى إعجاب وسألها:

- « برافو.. من علمك هذا؟ »

- « قصص الرعب فى كل مكان.. هلم أكمل! »

- « لم أضربه ضربة ثانية.. لقد أنذرنى العميان.. هكذا تركته ينزف حتى مات.. »

لما فرغ ساعد من قتل الغول، خرج مع الرجال فتزود بالمؤن.. وصنعوا سفينة.. وانطلقوا إلى البحر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبعًا نحن لا نمزح هنا..

هذه ألف ليلة وليلة حيث تبدأ كل قصة بغرق السفينة.. هكذا غرقت هذه السفينة خلال ساعة واحدة بعد ما ازداد ظلام الليل، وتحطمت الصارية وتمزق الشراع..

ومن جديد وجد الأخ ساعد نفسه يمارس هوايته فى التعلق بقطعة خشب وسط الأمواج.. لكن أبطال ألف ليلة وليلة لا يغرقون أبدًا...

لما وصل ساعد إلى الشط اكتشف أنه فى الجزيرة التى يحكمها أخوه..

كتبت عبير هذه القصة بسرعة.. كانت بحاجة إلى قصة فيها أكلة لحوم بشر.. هذه المواضيع تروق لشهريار حتمًا..

هناك مشكلة أصيلة فى ألف ليلة، هى أنك لا تجد بداية القصة بسهولة أبدًا!

القصص مجدولة ببعضها بطريقة بالغة التعقيد، والبطل فى ذروة القصة ينجب طفلًا تكون له قصة معقدة أخرى، بينما يمر البطل بقصة أخرى.. يسهل تخيل ما لاقاه (كامل الكيلانى) وهو يحاول فك هذه القصص وتبسيطها وتهذيبها..

عندما راحت تتبع شخصية (تاج الملوك) مثلًا، وجدت أن هناك قصصًا معقدة جدًّا..

اضطرت للعودة إلى البداية، عندما أنجبته أمه فوجدته غلامًا جميلًا مصداقًا لقول الشاعر:

هشت لمطلعه الأسنة والأسرة والمحافل والجحافل والظبى

ولتفطموه عن الرضاع فإنه ليرى دم الأعداء أحلى مشربًا

أى أن هذا الرضيع يحب شرب دم الأعداء أكثر مما يحب لبن أمه.. هذه علامة على الشجاعة ولا تدل على أنه مصاص دماء.

» ثم إن الدايات أخذن ذلك المولود وقطعن سرته وكحلن مقلته ثم سموه تاج الملوك خاران، وارتضع ثدى الدلال وتربى فى حجر الإقبال.. »

عندما بلغ السابعة جلب له أبوه العلماء وأمرهم بتعليم ابنه. ثم علمه الفروسية..

فى سن الثامنة عشرة صار مولعًا بالصيد، برغم أن أباه الملك لم يحب هذا كثيرًا.. كان يخشى أن يفقد ابنه فى مغامرة طائشة.. معنى هذه العبارة أن هذا ما سيحدث غالبًا..

المهم أن (تاج الملوك) خرج مع الخدم للصيد، وهو الوقت الذى قابلته فيه عبير.. فانحنت فى تهذيب:

- « أنا أجمع القصص.. فهل تسمح لى أيها الأمير بأن أكون معكم؟ »

الحق يقال إن الفتى كان بارع الحسن فعلًا... وقد نظر لها طويلًا، ثم وافق على أن تكون معهم، فسرها هذا..

مشى الموكب أربعة أيام حتى بلغ أرضًا تصفها ألف ليلة - كالعادة - بأن فيها وحوشًا راتعة وأشجارًا يانعة وعيونًا نابعة.. أى أنه بالضبط المكان الصالح لكل أمير يرغب فى الصيد..

هكذا انطلق مع خدمه يصطاد الوحوش.. طلب من عبير أن تبتعد، ثم راح يرمى بالسهام حتى ظفر بعدد كبير من الوحوش فعلًا..

فى الصباح ظهرت قافلة كبيرة قادمة إلى ذات المكان، وراحوا ينصبون الخيام ويسقون خيولهم.. دهش لوجودهم وطلب من الخدم أن يعرفوا من هؤلاء..

انطلق جوادان نحو القافلة يسألون..

- « نحن تجار نطلب أن يرعانا ويضيفنا الملك سليمان شاه.. ومعنا قماش نفيس لولده تاج الملوك.. »

سمع تاج الملوك هذا فقرر أن يذهب ليرى ما مع هؤلاء القوم..

ما إن بلغ القافلة حتى تعالى هتاف التجار يدعو له.. وكانوا قد أعدو له خيمة عملاقة من القماش الأحمر مع مقعد يشبه العرش..

أشار إلى عبير كى تجلس جواره وقد بدا عليه الرضا من هذا الاستقبال الدقيق..

دامت عملية الانتقاء فترة طويلة، أما عبير فقد نظرت إلى جوار الخيمة ففوجئت بشاب (له جبين أزهر ووجه أقمر) من الطراز الذى تحبه ألف ليلة وليلة كثيرًا.. الطراز الشاحب المصفر الذى ما أن تضغط على أى جزء منه حتى ينشد شعرًا رديئًا:

طال الفراق ودام الهم والوجل.. والدمع فى مقلتى يا صاح منهمل

والقلب ودعته يوم الفراق وقد بقيت فردًا فلا قلب ولا أمل

يا صاحبى قف معى حتى أودع من.. من نطقها تشفى الأمراض والعلل

ثم بالطبع لابد أن ينشد هذا الشعر ويشق ثيابه ويغيب عن الوعى..

تنهدت عبير وقد عرفت أن قصة هذا الشاب هى موضوع القصة القادمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- بانتومايم..

بالطبع اهتم (تاج الملوك) جدًّا بهذا الفتى..

أهم الناس طرًّا فى ألف ليلة وليلة هم الرجال الباكون المولولون بسبب الوصال والبعد عن الحبيبة.

هكذا طلب (تاج الملوك) أن يأتوا بمقعد، فنصبوا له مقعدًا من عاج وأبنوس مشبكًا بالذهب والحرير وأمامه بساط.. جلس تاج الملوك وأمر الفتى أن يجلس على البساط..

ثم أمره بأن يعرض بضاعته..

قال الفتى الباكى:

- « بضاعتى لا تليق بالملوك يا مولاى.. »

- « لابد من ذلك.. »

هكذا جاء الفتى ببضاعته وكانت قطعة من القماش.. فرد القماش فسقط شىء على الأرض.

تناولت عبير ما سقط فوجدته خرقة.. لكن الفتى كان يحاول جاهدًا ألا يراها أحد.. دائمًا ما يكون لهذا الفتى سر تافه، وهذا السر محفوظ فى رقاقة ورق أو خرقة عليها بيت شعر غالبًا..

لكن هذه المرة كان على الخرقة رسم بالذهب لغزالين.. أحدهما مزدان بالفضة..

قالت عبير فى ملل:

- « طبعًا هى قصة حب فاشلة مع ابنة عمه.. كل القصص هكذا.. »

نظر لها الأمير (تاج الملوك) نظرة نارية وقال بصوت قاس:

- « حذار من السخرية من العواطف الصادقة.. هلم يا فتى احك لنا قصتك.. »

قال الفتى وهو يبكى بلا توقف:

- « هى قصة حب فاشلة مع ابنة عمي.. لقد تربت فى دارنا لأن أباها مات.. ومنذ البداية كان هناك اتفاق على أنها زوجتى وأنا زوجها.. وقد أعد أبى لنا عدة الزواج وجهز الولائم وأدوات الفرح.. وتم الاتفاق على أن يكتب الكتاب بعد صلاة الجمعة.. دخلت الحمام وارتديت بدلة فاخرة، ثم قررت أن أزور صاحبًا لى ليحضر الزفاف. جلست فى زقاق لم أدخله قط ورحت أستريح لأن العرق كان يغمرنى.. هنا شعرت بمنديل رقيق هفهاف يهبط من أعلى ليمسح عرقى.. كان هناك غزال آدمى حقيقى يطل علىّ.. »

قالت عبير فى سخرية:

- « إذن هى قصة العريس الذى تبدل قلبه قبل الزواج بدقائق..»

نظر لها الأمير نظرة نارية أخرى على حين واصل الفتى:

- « رأيت هذا الغزال يطل علىّ من طاقة من نحاس ويأتى بثلاث حركات.. الإصبع فى الفم.. أصبعان على الصدر.. ثم سدت باب الطاقة.. »

قالت عبير فى ذكاء:

- « تريد أن تخبرك أنها مصابة بارتجاع فى الصمام الميترالى.. نتيجة عدوى سبحية فى الحلق.. هذا واضح.. »

لكن الأمر لم يكن كذلك فى الحقيقة..

على أن هؤلاء القوم يتمتعون بطباع نارية فعلًا.. لقد ظل الفتى فى موضعه حتى غروب الشمس ينتظر أن تنفتح الطاقة مرة أخرى..

ثم إنه نهض وتناول المنديل الحريرى العطر، فسقطت منه كالعادة ورقة عليها أبيات شعر ركيك:

بعثت له أشكو من ألم الجوى بخط رقيق والخطوط فنون

فقال خليلى ما لخطك هكذا رقيقًا دقيقًا لا يكاد يبين

فقلت لأنى فى نحول ودقة كذا خطوط العاشقين تكون

» فلما رأيت ما على المنديل من أشعار، انطلق فى فؤادى لهيب النار، وزادت بى الأشواق والأفكار.. »

من أجل هذا الكلام الفارغ أضاع الفتى موعد كتب الكتاب.. عاد إلى داره غارقًا فى الحب الجديد..

بالطبع جاء أعيان البلد والمشايخ والقاضى بعد صلاة الجمعة فلم يجدوه.. أكلوا وشربوا ثم انصرفوا.. كانت ابنة عمه تبكى بلا توقف بعد أن فشلت فى الظفر بعريس..

بالطبع حكى لها الفتى بسذاجة كل شىء وعرض عليها المنديل وقطعة الورق..

قالت له فى حكمة لأنها تجيد لغة الجسد الأنثوية:

- « الفتاة وضعت أصبعها فى شفتيها، ومعنى هذا أنك كروحها فى جسدها.. المنديل هو سلام العاشق للعاشق.. أما الأصبعان على صدرها فهى تعطيك موعدًا بعد يومين.. »

طبعًا هذا تلفيق.. دعك من أن تطوع الفتاة ضد المنطق ويبدو مهينًا فعلًا.. ربما هى مصابة بماسوشية عنيفة تؤهلها بشدة لتكون من مرضى فرويد..

هكذا شكرها الفتى وقضى اليومين ينتظر.. يضع رأسه على حجر ابنة عمه و...

هنا صاحت عبير فى غيظ:

- « ماذا؟.. تضع رأسك أين؟ »

- « على حجر ابنة عمى.. وهى تدعونى إلى الصبر والسلوان.. »

- « ابنة عمك التى كانت ستكون زوجتك لولا مغامرتك الحمقاء؟ »

- « طبعًا.. أنت لا تتابعين كلامى جيدًا .. »

راحت تضرب كفًّا بكف.. لو كتب عليها أن تعيش فى هذا العصر لماتت بالفالج من شدة الغيظ..

لما انتهى اليومان جاءت له ابنة عمه بأثواب جديدة وبخرته ودعته إلى أن يلبى موعده..

ذهب الفتى كما قال للموعد وانتظر تحت الطاقة..

من جديد ظهر الغزال من أعلى.. كانت تحمل مرآة ومنديلًا أحمر.. فتحت كفها ودقت به على صدرها ثم أدلت بالمنديل من الطاقة ثلاث مرات.. بلته بالماء وعصرته من الطاقة ثم أغلقتها ودخلت..

قالت له عبير:

- « يبدو أننا بصدد لغة النافاهو.. هل توقعت أنك ستفهم هذا؟ »

القصة أن الفتى العاشق عاد إلى ابنة عمه فى البيت، وكان الوجد قد استبد به فسقط مغشيًّا عليه.. لقد أغشى عليه نحو ثلاثة أرباع القصة.

لما حكى لها ما حدث بدت الأمور واضحة جدًّا:

- « الإشارة بالكف معناها تعال بعد خمسة أيام.. المرآة معناها اجلس فى دكان الصباغ حتى يأتيك رسول منى! »

فعلًا.. الإشارة بالمرآة تعنى دكان الصباغ فى كل اللغات.. الأحمق هو من لا يعرف هذا..

كان هناك صباغ يهودى فى الزقاق فعلًا..

ثم إن ابنة عمه جاءت له بالطعام لكنه ما استطاع أن يأكل..

- « هجرت لذيذ المنام واصفر لونى وتغيرت محاسنى، لأنى ما عشقت قبل ذلك ولا ذقت حرارة العشق إلا فى هذه المرة..»

تغيرت محاسنى؟....

لما مرت الأيام الخمسة سخنت له بعض الماء وحممته، وأعدت له ثيابًا أنيقة ثم دعت له بالتوفيق..

ذهب إلى دكان الصباغ وانتظر حتى جاء المساء فلم يحدث شىء.. هكذا عاد للبيت ودمعته على خده..

بلغ من فظاظته واستهتاره أن ابنة عمه قابلته تسأله عما كان فوجه لها ضربة.. اصطدمت رأسها بوتد فسال الدم من جبهتها غزيرًا...

برغم هذا نصحته أن يذهب غدًا لأن الفرج صار قريبًا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- بانتومايم أيضًا..

هذه المرة كانت الإشارات أكثر تعقيدًا..

كانت هناك مرآة وقصرية بها زرع أخضر وقنديل...

قالت عبير لما سمعت هذا:

- « تريد أن تلقاك فى حديقة بيت الصباغ! »

لكن ما حدث هو أن الفتاة - التى تعمل كما يبدو فى سلاح الإشارة - أخذت المرآة فى يدها وأدخلتها فى الكيس ثم ربطته ورمته فى البيت ثم أرخت شعرها على وجهها ثم وضعت القنديل على رأس الزرع لحظة ثم أخذت جميع ذلك وانصرفت به..

عاد الفتى للبيت باكيًّا فوجد ابنة عمه تبكى وتنشد، وقد ربطت جبهتها من موضع الضربة السابقة:

أينما كنت لم تزل بأمان أيها الراحل المقيم بقلبى

ولك الله حيث أمسيت حار منقذ من صروف دهر وخطب

ليت شعرى بأى أرض ومغنى أنت مستوطن بدار وشعب

لما سمعت ما حققه، شعرت ببشر شديد وبدا لها الأمر واضحًا.. إشارة المرآة ووضعها فى كيس معناها أن ينتظر حتى الليل.. إشارة القصرية لا تدعوه لقضاء حاجته لكنها تطلب منه دخول البستان فى نهاية الزقاق.. ثم تقول له أن يمشى حتى يبلغ القنديل..

هكذا جلس الفتى يعول ويصرخ:

- « يا رب عجل بمجىء الليل.. »

لما جاء الوقت خرج الفتى - الذى لا عمل يشغله – إلى البستان..

وحسب كلماته يقول: « وجدت مقعدًا عظيمًا معقودًا عليه قبة من العاج والأبنوس، والقنديل معلق فى وسط تلك القبة، وذلك المقعد مفروش بالبسط الحرير المزركشة بالذهب والفضة، وهناك شمعة كبيرة موقودة فى شمعدان من الذهب تحت القناديل، وفى وسط المقعد فسقية فيها أنواع التصاوير، وبجانب تلك الفسقية سفرة مغطاة بفوطة من الحرير، وإلى جانبها باطية كبيرة من الصينى مملوءة خمرًا وفيها قدح من بلور مزركش بالذهب، وإلى جانب الجميع طبق كبير من فضة مغطى، كشفته فرأيت فيه من سائر الفواكه ما بين تين ورمان وعنب ونارنج وإترنج وكباد، وبينها أنواع الرياحين من ورد وياسمين و آس ونسرين ونرجس ومن سائر المشمومات.. »

هكذا راوى ألف ليلة وليلة.. يعشق الوصف بجنون.. بالذات وصف الطعام وجلسات الحظ والنساء..

جلس الفتى ينتظر..

هنا تحركت الغدة التى وصفها الأستاذ (أحمد رجب) عند العاشق الشرقى.. الغدة الأكلوغرامية، التى تربط بين مواقف العشق والجوع.. لا يذهب العاشق الشرقى للقاء حبيبته بين الأشجار إلا ويتذكر المانجو فجأة (آه يا ليل يا قمر.. والمنجة طابت عالشجر)..

عاشقنا كشف الغطاء فوجد دجاجًا محمرًا وبقلاوة وقطائف ورمانًا..

أكل كمن لم يأكل قط...

النتيجة طبعًا هى أن جفنيه ثقلا.. ولا يدرى كيف ولا متى نام...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما صحا من نومه كانت الشمس تغمر المكان، ووجد على بطنه خليطًا من الفحم والملح.. لغز جديد..

ما لا يعرفه كذلك هو أن زينب ابنة دليلة المحتالة مرت عليه وهو نائم ومعها على الزيبق، وكانت تتمنى فعلًا لو فهمت معنى الفحم والملح..

عاد لابنة عمه وهو يبكى.. حكى لها ما كان، فقالت له:

- « الملح معناه أنك دلع المذاق تحتاج إلى ملح، لأنك تدعى أنك من العشاق الكرام والنوم على العشاق حرام. أما الفحم فمعناه سود الله وجهك حيث ادعيت المحبة كذبًا لكن لم يكن لك همًا إلا الأكل والشرب والنوم.. »

هكذا انفجر الفتى فى البكاء كالأطفال..

الذى يثير الجنون فى النفس هو أن الفتاة ابن عمه طلبت منه أن يعيد الكَرَّة ولا ينام هذه المرة..

ذهب الأحمق وأكل وبالطبع ثقلت جفونه ونام.. أبطال القصص الشعبية حمقى غالبًا ينسون التحذيرات والنبوءات.. ومن جديد تركت له الفتاة رسالة أخرى رمزية.. قال الأمير (تاج الدين):

- « اسمع.. لقد صار هذا مملًّا... أنا أمقت القصص التى يكون أبطالها أغبياء.. »

المشكلة أنه فعل هذا مرة ثالثة..

الرسالة التى تركتها له الفتاة هذه المرة عندما صحا من النوم هى سكين ودرهم حديد..

قالت ابنة العم للفتى الباكى:

- « الدرهم معناه أنها تقسم بعينك اليمنى.. السكين معناها أنها ستذبحك لو أنك عدت ونمت كالثور.. »

مشكلة شديدة..

راح الفتى يفكر مهمومًا وسأل ابنة عمه:

- « وكيف يكون العمل يا بنت عمى؟ أسألك بالله أن تساعدينى على هذه البلية.. »

قامت ابنة عمه بتدليله كأنه طفل.. أطعمته حتى لا يجوع.. وأنامته طويلًا حتى يظل الليل ساهرًا ثم أرسلته إلى الحديقة إياها..

برغم كل هذا تغلب عليه شرهه الطبيعى فأكل، وكاد يغرق فى النوم كالعادة لولا أن ظهرت الحسناء هذه المرة...

أتت ومعها عشر جوار، وهى بينهن كأنها البدر بين الكواكب، وعليها حلة من الأطلس الأخضر مزركشة بالذهب الأحمر، فلما رأتنى ضحكت وقالت:

- « كيف انتبهت ولم يغلب عليك النوم؟ وحيث سهرت الليل علمت أنك عاشق، لأن من شيم العشاق سهل الليل فى مكابدة الأشواق.. »

كادت عبير تجن غيظًا..

عاشق لماذا بالضبط؟.. أى حب يولد من رؤية فتاة فى طاقة لمدة نصف دقيقة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على كل حال التقى العاشقان، وعندما حان وقت الرحيل ناولته تلك الخرقة التى عليها رسم الغزال وطلبت منه أن يحتفظ بها.. ثم اتفقا على لقاء يومى..

عندما عاد - عديم الدم - وأخبر ابنة عمه بإنجازه قالت له أن ينشد الفتاة بيت شعر هو:

ألا أيها العشاق بالله خبروا إذا اشتد عشق الفتى كيف يصنع

عندما فعل ذلك فى اللقاء التالى بكت الفتاة وقالت:

يدارى هواه ثم يكتم سره ويصبر فى كل الأمور ويخضع

المهم أن الفتى عديم الدم ظل يزور البستان كل ليلة وينشد الفتاة أبيات الشعر التى تمليها عليه ابنة عمه، وكانت ابنة عمه تضمر وتضمحل فى الوقت ذاته لكنه لا يلاحظ لأنه أحمق.

فى النهاية صاحت الفتاة التى كان يلقاها:

- « ويحك!.. إن قائل بيت الشعر هذا قد مات.. من هو؟ »

- « ابنة عمى.. »

- « لك ابنة عم تحبك؟.. حسرك الله على شبابك كما حسرتها على شبابها.. »

تركها وهرع إلى البيت فوجد ابنة عمه قد ماتت فعلًا...

وقالت أمه له:

- « روحها فى عنقك لا سامحك الله من دمها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- الخلاص..

لم تنتظر (عبير) طويلًا لتعرف ما حدث لهذا الفتى الممل..

إنه قادر على أن يبكى وينشد الشعر للأبد، وعندما يأتى موعد الوصال يأكل كالثيران وينام كالحلاليف البرية..

من أبسط ضرورات القصص أن يوجد حد أدنى من التعاطف مع البطل.. أن تتماهى معه.. لكن هذا البطل يثير الغيظ فعلًا.. كان أسوأ بطل تعرفه حتى اللحظة هو الذى يدخل قبو مصاصى الدماء بعد الغروب.. من هنا ولد مصطلح (متلازمة الضحية الغبية).. لكن هذا الفتى تفوق على نفسه..

عادت إلى قصر شهريار..

طلبت قرطاسًا وريشة، وجلست تدون مجموعة القصص الأخيرة هذه..

سوف تكون قصة ممتعة لشهريار برغم أنها لم تكتمل بعد.. لكنها بدأت تتعلم أكثر..

سوف تجعل الفتى العاشق يفر فى سفينة إلى البحر، والسفينة تغرق وتهبط عند الغيلان.. وهكذا عن طريق القص واللصق يمكنها أن تصنع قصة واحدة طويلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الصباح خرجت لتبحث عن قصص جديدة..

مشت فى السوق تراقب الناس..

يسهل فى عالم ألف ليلة وليلة أن تعرف الأبطال أو الجوارى التى لهن شأن كبير.. بالطبع فى السوق ترى بدايات قصص لا حصر لها..

كان هناك فريق أمريكى يصور ولدًا خفيف الحركة يزحف فوق خيمة، ويسرق البرتقال من الباعة.. توقفت بعض الوقت فسمعت من يصيح فيها كى تبتعد:

- « نحن نصور فيلم (لص بغداد)!.. ابتعدى من هنا! »

لقد رأت هذا الفيلم فى طفولتها وأحبته كثيرًا..

فى الوقت ذاته رأت حصانين يركبهما فارسان ملثمان يهاجمان رجلًا قوى البنية ملتحيًا.. الرجل يلبس عمامة وقميصًا فتح صدره.. هذا المنظر يبدو مألوفًا جدًّا..

الرجل يثب ليتفادى سيفًا هوى على رأسه ثم يضرب مهاجمه بعصا فيوقعه من فوق صهوة الحصان..

من جديد رأت الكاميرا.. ورأت علامة (الكلاكيت) التى كتب عليها (رحلة السندباد الذهبية).

يبدو أن المخرج (جوردون هسلر) يصور فيلمه الشهير.. الفيلم الذى لن يتذكر الناس اسمه

بعده، لكنهم لن ينسوا اسم (راى هارى هاون) ساحر المؤثرات الخاصة الأمريكى، الذى ارتبط اسمه بالتحريك بإيقاف الكادر..

هنا فوجئت بأن ذلك الإسرائيلى يقف وسطهم...

يده فى خاصرته ويتكلم بثقة شديدة..

دنا منه المخرج يسأله عن شىء ما فقال بصوت عال:

- « هذه القصة فيها ظلال هندية، برغم أن أجدادى اليهود الذين كتبوا ألف ليلة وليلة لم تكن عندهم هذه الثقافة... »

تصاعد الدم إلى رأسها.. إنه يعمل مستشارًا كذلك..

دنت منه وسط الزحام.. وحيته..

رآها فابتسم وقال بسماجة:

- « مرحبًا دنيا زاد.. هل من مقالب جديدة؟ »

ابتسمت عبير بدورها وراحت تراقب فنيى الإضاءة وهم ينقلون أجهزتهم وقالت:

- « لا مقالب.. الحقيقة أننا نضيع وقتًا أكثر من اللازم فى العراك.. نحن أولاد عم وكل تاريخنا يشهد بذلك.. من الواجب أن نتصافح معًا.. إن العبقرية الإسرائيلية مع الثروة العربية يمكنهما صنع الكثير.. »

نظر لها فى شك وتساءل:

- « من تقلدين بهذا الكلام؟ »

- « أقلد نفسى.. وشكك هذا نموذج لما أقول.. قرون من سوء الظن.. »

ثم تناولت تفاحة كانت على الأرض سقطت من مكان ما، ومسحتها بكمها وقضمت قضمة منها وقالت:

- « هذا هو عرضى.. اتركه أو خذه.. أنت حر.. أريد أن تقابلنى فى القصر.. سوف نقتسم قصص ألف ليلة وليلة معًا..»

- « أنا آخذها كلها دون جهد منك.. »

ابتسمت فى قسوة وقضمت المزيد من التفاحة وقالت:

- « أنت تقول هذا.. لكن هناك لحظة سوف نقف فيها أمام المحكمة وعندها لن تقدر على إثبات أنك صاحب القصص.. »

ضحك فى شك.. معه كل الحق طبعًا فى أن يشك، لكنها بالفعل لا تمزح..

- « أريدك داخل القصر.. »

- « هذا جميل.. لكن رءوس المتسللين تطير كما تعرفين.. »

قالت وهى تبتعد:

- « تعلم من على الزيبق.. لقد تحول إلى عبد أسود بسهولة تامة وخدع الجميع.. »

وقف يفكر بعض الوقت..

وقدرت أنه سيقتنع فى النهاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على باب مخدعها رأت ذلك العبد الأسود يضحك فى سماجة..

بالفعل كان التنكر رائعًا... يبدو أنه أحرق الفلين ودهن به نفسه كما يفعلون فى السينما.. وإن لم تكن أسنانه بيضاء جدًّا..

قالت له:

- « أحسنت صنعًا... »

ثم فكت خصلات شعرها وقالت:

- « نحن فى ألف ليلة وليلة.. لذا يجب أن تليق الأمور بها... سوف أطلب صينية عليها ما لذ وطاب من طعام، وبعض الشراب من أجل المدامة.. انتظر فى المخدع إلى أن أعود لك..»

- « سأنتظرك قرونًا لو أردت.. »

ضحكت وراقبته وهو ينظر داخل المخدع فى حذر، ثم يزيح الستائر ويتسلل..

لما غاب فى الداخل، مضت إلى قاعة الملك..

كان شهريار هناك يدير شئون البلاد.. فلما رآها امتقع وجهه لأنه لا يسمح لها بالقدوم له أثناء العمل..

- « دنيا زاد! »

قالت وهى تنشج وتشهق:

- « أنت تشك فى النساء جميعًا لأنهن خائنات.. الآن أرجو أن تلقى نظرة على مخدعك حيث ذلك العبد الأسود يتودد لى.. يريد أن أصير خائنة! »

احمرت عيناه وبدأ الشرر يخرج من منخريه..

لقد بدأت القصة كلها لأن عبدًا أسود خانه مع زوجته.. ومنذ ذلك اليوم قرر أن يقطع رقبة امرأة كل ليلة..

هذا المشهد يحرك الوحش فى داخله...

والآن يأتى هذا العبد ليراود زوجته عن نفسها؟

هكذا أمر (مسرور) بأن يحضر له أكبر سيف لديه.. ونهض وهو يشمل ذراعيه..

قالت له باسمة:

- « ماذا تنوى عمله؟... تقطع رأسه؟ »

قال وهو يتقدم ويتنفس من أنفه كثور:

- « سيكون هذا من حظه الحسن.. لا.. لا أريد أن ترى ما سيحدث لأن الكوابيس سوف تلاحقك طيلة حياتك.. سوف يتمنى لو أننى كنت رقيقًا وقطعت رأسه! »

وقفت عبير وأسندت ظهرها للحائط وراحت تتخيل ما سيحدث لسارق القصص عندما يجد أمامه شهريار..

هنا سمعت صوت القلم..

- « المرشد؟.. هل انتهت القصة؟ »

- « بالتأكيد.. إن ألف ليلة وليلة عمل عملاق، لكنك رأيت الكثير منها.. أما سارق القصص فهو يمزق إربًا الآن.. »

ودس يده فى جيبه وفكر قليلًا ثم قال:

- « هى عمل شديد التعقيد، لكنه كذلك شديد الأهمية.. لا أعتقد أن البشرية قادرة على الاستغناء عنه أبدًا.. »

- « لكنه كذلك عمل للبالغين فقط.. »

- « يمكن دائمًا أن توجد منه عدة مستويات.. إن ما قام به كامل الكيلانى كان مثاليًّا.. على كل حال لا يمكن فهم ألف ليلة وليلة بشكل جيد ما لم تدرسى العصر العباسى جيدًا.. »

هنا سمعت صراخًا شنيعًا من ناحية المخدع.. صراخ رجل يمزق إربًا وهو حى..

قالت وهى تحاول ألا تتخيل ما يدور هناك:

- « إذن هيا بنا... »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت عبير على موعد مع البطل ذى الألف وجه.. مع ميلاد الأسطورة.. مع ناقد أدبى أمريكى يهوى أن يشرّح كل شىء.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

58

البطل ذو الألف وجه



د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (ف-انت-ازيا)



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (58)

البطل ذو الألف وجه

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل. (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا في رحلتها. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب..

تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد، وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هي: لا حدود.

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن طريق الأدب ندخل أرواح وعقول آلاف الأشخاص سوانا، وبرغم هذا نظل أنفسنا.

أ. تشامبرز

1- مغامـرة جديـدة..

فانتازيا من جديد...

القطار المضحك الذي عرفه القراء جيدا يهتز ويتأرجح بركابه، وبرغم أنه لطيف يذكرك بأفلام الرسوم المتحركة فهو يهتز بعنف كأنه يحاول أن يحيلك إلى وعاء من الزبادي أو الجبن المخضوض. بطنك توشك على الخروج من فمك لولا أن فمك لم يعد هناك.. صار في قفاك..

هناك كان هاري بوتر يلعب الكويدتش مع رفاقه، محلقين فوق مكانسهم في السماء، وكان الرجل العنكبوت يتسلق بناية.. لقد صار هناك كثير جدا من الأبطال الأمريكيين المزعجين ذوي الشخصيات السرية؛ على غرار الفانوس الأخضر و(ثور) وخلافه. كما أن هناك موضة من قصص الكوميكس ذات المحتوى الخاص للبالغين لما فيها من جنس وعنف معا، على غرار قصة (الواعظ) و(مدينة الخطيئة).. اندهشت عبير لأنها لا تذكر أنها قرأت هذا كله، لكن المرشد قال لها:

- السينما صارت وسيلة مشروعة للحصول على الثقافة ومعظم هذه الشخصيات عرفت طريقها للسينما مؤخرا.. لقد اكتشفت هوليوود منجم أفكار ثريا..

- لكني لم أر هذه الأفلام..

- لكنكِ قرأتِ عنها.. المهم أنها تسربت لعقلكِ..

كان بطل (السيميائي) يواصل رحلته المسروقة على الأرجح من عوالم نجيب محفوظ، وكان النبطي يرتحل في رحلته الرهيبة عائدا بزوجته الشابة من مصر، بينما كان بطل (قمر على سمرقند) يرقص البولكا مع الفاتنات السوفيتيات الثملات في حفل عرس... هناك كمٌّ لا بأس به من الأعمال العربية.. لا بأس..

لقد تمددت فانتازيا جدا وما زالت...

تذكرت عبير مقولة إنه لو مشي الشعب الصيني في طابور عرضي مكون من أربعة أمام نقطة بعينها، فلسوف يستمر الطابور للأبد السبب طبعا هو أنه إلى أن ينتهي الطابور سيكون صينيون آخرون قد ولدوا.. نفس الشيء ينطبق على فانتازيا.. المساحة تتسع في الوقت الذي نقول فيه هذه الكلام..

لكنها كانت تشعر بملل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها المرشد وهو يداعب القلم الجاف إياه:

- لا يبدو عليكِ حماس كبير..

قالت وهي تعبث في شعرها:

- لا أدرى... كثرة الاحتمالات قد تكون عاملا غير مريح.. إنها تسبب حيرة لا شك فيها.. أتعس لحظة في طفولتي كانت عندما أخذني خالي لمتجر الحلوى ووقفت أنظر إلى كل هذه الأشياء المغرية.. لم أعرف ما أفعله وفجأة انفجرت في البكاء!

- رد فعل غريب.. لا شك في أنكِ مخبولة قليلا..

- أشكرك..

- لكني مستعد لأن أفهمكِ.

ثم أراح ظهره للخلف وعقد أنامله خلف قفاه وقال في كسل:

- ليكن.. اختاري وسوف أنفذ.. هذا ما أعِد به..

راحت تفكر مليا... أجواء الحرب العالمية الثانية.. لا.. بل الأولى.. جو الغازات السامة والتيفوس.. لا.. ربما لو فكرت في القاهرة في أوائل القرن العشرين - عالم ريا وسكينة.. لكنه عالم معقد ومتسخ وكريه الرائحة.. لقد كانت الدعارة تُمارس كأنها التدخين في ذلك الوقت، وكانت ريا تسكر في الخمارة كل ليلة قبل أن تعود للدار... وكانت المرأتان تأكلان الطيور الميتة... جوّ مقزز فعلا..

ماذا عن جو نجيب محفوظ؟.. لا.. إنه جو معقد متشابك يحتاج لتأهب نفسي شديد.. يجب أن تنتوي زيارته منذ البداية، ولا تتخذ هذا القرار فجأة...

راحت تفكر.. نفس الكلام ينطبق على ساراماجو وماركيز وماذا عن عالم كازنتزاكس الرائع؟.. هذه مشكلة أخرى.. يمكن أن تغرق في قصصه فلا تخرج..

هناك الفرسان الثلاثة ودارتانيان.. جو مؤامرات البلاط والكاردينال والملكة وقسم الشرف و... لا.. ليس هذا ما تريد اليوم.

في النهاية تنهدت في ضيق.. من الواضح أنها عاجزة عن الاختيار..

- يا مرشد..

كان نائما وبدأ يغط... إنه لن يكف عن إثارة غيظها.. لقد جاء ليسليها ويجب أن يفعل هذا بنجاح..

- مرشد!

لما لم يرد رفعت ركبتها ووجهت له ركلة في ركبته. تصرف غير لائق لكن المرشد وليد خيالها ولا وجود له أصلا.. بعبارة أخرى هي تركل خيالها بالحذاء..

صحا مذعورا وراح ينظر حوله في ذهول ثم أدرك أين هو، فقال:

- هه.. هل استقررتِ على شيء؟

ونظر خارج النافذة إلى حيث كانت مساحة جليد شاسعة في شتاء القطب.. وكان دب قطبي يقف جوار فتحة في الجليد ينتظر عجل البحر... هذا أسوأ وقت وأسوأ مكان يمكن أن تنزل فيه.. سوف تتجمد لمجرد التفكير..

- نانوك من الشمال أو استكشاف القطب.. هل هذا ما تريدين؟

قالت في ضيق:

- لا... أردت أن تختار أنت لي..

فكر لحظة ثم قال في خبث:

- عرفت ما سنفعله..

- جميل.. أنت رجل محظوظ..

- ما سنفعله هو أن نتركك تصممين مغامرتك الخاصة!!

- ماذا؟

كانت قد رأت ألعاب كمبيوتر يقوم فيها اللاعب بتصميم المتاهة التي يريد أن يضيع فيها، ورأت أطفالا يصممون اللعب التي سيلعبون فيها.. لكن ما معنى أن تصمم مغامرة أدبية خاصة بها؟.. كانت قد قرأت محاولتين تحملان عنواني (في كهوف دراجوسان) و(36) من قبل.. في قصة (36) كان بوسعك أن تختار البطل وصديقه وخصمه وتختار نوع المغامرة كذلك.. ([1])

لكن هذا لا ينطبق عليها هنا..

قال المرشد:

- سوف نستعين بخبرة عالم.. عالم حقيقي..

ثم شد حبل القطار ليوقفه....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- سوق الأبطال..

يشبه الأمر سوق العبيد بالضبط.. هناك الزحام والباعة الجعجاعون الذين لا يكفون عن الصياح والكذب.. وهناك منصة عالية في الوسط يقف عليها مجموعة من الرجال لا يبدون سعداء..

قالت (عبير) لنفسها إن القصة تبدأ في سوق عبيد، ومن الواضح أنه خالٍ من الجواري.. هذا يناسب دعاة تحرر الأنثى جدا..

لم تستطع فهم المطلوب.. ظلت واقفة هناك طويلا تنتظر وكانت تعرف أن البداية ليست بيدها يجب أن يقوم أحدهم بشيء ما يبدأ القصة..

هنا دنا منها ذلك الرجل الأوروبي الذي يتصبب عرقا. كان يحمل دفترا سميكا وقلما وقد بدا عليه الانهماك..

- معذرة يا آنسة..

- مدام..

- معذرة يا مدام على تأخري.. أنا كارل بيرسون..

كأنها يجب أن تتذكر الاسم وتصرخ انبهارا.. هذا رجل مهمّ بالتأكيد لكنها لا تعرف عنه حرفا. ومد يده يصافحها بشكل عملي ثم وثب كالقرد على المنصة بوثبة واحدة...

- سوف ترين النمط الذي يناسبك... سوف تختارين..

قالت في عدم فهم وهي تخشى أن يكون قد فاتها شيء مهم:

- هل تقصد أنني سأبتاع عبدا؟.. هل تقصد أنني أبحث عن عريس أو حبيب أو...؟

قال وهو يمد يده فيجذب أول العبيد إليه:

- بل تبحثين عن بطل.. أنا قمت بدراسة الأدب العالمي.. احم.. درست معظمه.. وتوصلت إلى أن هناك 12 نوعا من الأبطال.. والآن هذا هو النمط الأول..

كان العبد الذي جذبه من يده كتلة من العضلات.. يمشي على قدمين كأنهما نحتا من برونز، وفي عينيه نظرة إغريقية مخيفة.. باختصار كان يصلح لقيادة جيش..

- هلم يا أخيل.. قل لها شيئا..

هتفت عبير في حماسة:

- أنا رأيت أخيل.. كنت ألعب دور هيلين في حرب طروادة..

قال بيرسون وقد بدا نصابا أكثر من أي وقت مضى:

- هذا هو نمط البطل المحارب.. لا أعرف إن كان يناسبكِ أم لا. لكنه شرس جدا ومتعب في

إطعامه لأنه يأكل كالحلاليف البرية.. البطل التالي هو...

البطل التالي الذي ظهر على المنصة كان كتلة من الهيام والرقة.. يتنهد بلا توقف ويحمل وردة ويبكي طيلة الوقت.. إنه فيرتر وقيس بن الملوح وجميل بثينة في وقت واحد... قال لها بيرسون:

- هذا هو نمط البطل العاشق.. مناسب جدا للفتيات رقيق ومرهف.. لكنه يحتاج لمن تدافع عنه..

أما النوع الثالث من الأبطال فكان ملتحيا له نظرة عميقة غامضة.. بالفعل كان اسمه (الحكيم) الباحث عن الحكمة..

- نمط ممتاز من الأبطال لكنه مملّ نوعا.. لا يتكلم كثيرا ونظراته مزعجة لكثيرين. بعض السيدات يضعن له نظارة سوداء... النمط التالي هو....

- هذا النمط هو الباحث.. رحالة أبدي يبحث عن حياة أفضل ولا يكف عن التنقل بين مدينة وأخرى. إن بطل السيميائي لنموذج ممتاز لهذا النوع من الأبطال.. السندباد البحري.. نموذج ممتاز آخر..

- رائع.. لكنه لا يستقر أبدا. أسوأ زوج ممكن على فكرة..

- أنا لا أبحث عن زوج..

- أعرف.. أعرف.. لكنه كذلك لا يستقر في مغامرة واحدة..

بعد هذا جاء نمط الأحمق.. باخوسي تماما يعشق الحياة ولا يريد سوى اللذات والشهوات.. في يده كأس من الخمر وخلف أذنه عنقود عنب.. طبعا لا يمكنك أن ترتاح لبطل كهذا ولا أن تمشي به في الشارع..

كان هناك نمط الحاكم الذي يريد أن يسود النظام.. وكان هناك نمط الراعي الذي يمنح حياته كلها ليساعد الناس وهكذا راحت عبير تتأمل الأنماط كلها..

في الواقع بدأت تشعر بدوار وصداع.. ليست طريقة مسلية جدا للبحث عن تسلية.. هناك درجة لا بأس بها من التعقيد ما تعرفه هو أن البطل هو البطل وكفي.. إنه أبو زيد الهلالي وأدهم صبري وعنترة.. لا داعي للتصنيف.. البطل هو الذي يمنحه القارئ توكيلا ليفعل كل ما يعجز عنه هو..

هنا اصطدمت برجل خيّل لها أنها تعرفه.. كان يمشي في الزحام ويدون بعض المذكرات.. بدا عليه هو الآخر أنه تعرف عليها.. هتفت في دهشة:

- دكتور يونج!... ماذا جاء بك هنا؟ هل أنت من أنماط الأبطال؟

كارل يونج.. الطبيب النفسي الألماني العبقرى ومنافس فرويد الشهير.. الرجل الذي أضاف لنا لفظة (الوجدان الجمعي)، يمكنك معرفة تفاصيل أكثر في قصة (هي والأنا) لكن لا وقت لهذا الكلام الفارغ الآن. قال بلكنته الألمانية التي اعتادتها عندما كان يعالجها مع فرويد:

- يا له من سؤال!.. تعرفين أنني قضيت حياتي أدرس الأساطير الشعبية والحكايات.. عندما يكون هناك سوق تختارين فيها بطل قصتك فلابد أن تقابليني..

قالت في غيظ وهي تبعد نفسها عن المتزاحمين:

- هذا المتحذلق المدعو كارل بيرسون يعقد الأمور أكثر من اللازم.. البطل هو البطل..

قال يونج:

- ما معنى البطولة أولا؟.. البطولة هي محاولة الوصول لوعي متكامل.. إنها المحاولة الجاهدة لدمج قمة جبل الجليد (وهي الوعي) بجبل الجليد المغمور نفسه (وهو اللا وعي).. هذه الكيانات المفككة تصير كلا واحدا، وهو ما نطلق عليه اسم (التفرد individuation) ووقت البطولة في حياتنا هو النصف الثاني من العمر..

- يبدو هذا معقولا.. هذا يناسب الشيوخ..

- هناك عالم آخر اسمه رانك قال إن البطولة هي محاولتنا للاستقلال.. للتحرر من البيت ومن سلطة الأبوين.. ما يريده البطل حقا هو أن يتحرر من سلطة الأب أو أن يكون هو الأب ذاته.. وبالتالي يكون وقت البطولة هو النصف الأول من العمر. أي أن من أضاع شبابه لا يمكن أن يصير بطلا..

وضعت يدها على رأسها وناحت متوجعة:

- ارحمني يا دكتور.. أرجوك... لقد أصابني الصداع مشكلتكم معشر العلماء هي ميلكم لتعقيد كل شيء.. التفاحة شهية.. لكن الكلام عن حمض الفيوماريك والماليك والكيمياء الحيوية وطريقة هضمها.. هذا الكلام يتلف الشهية تماما..

لم يكن يصغي لها... كان يراقب مشادة بين بائع ومشترٍ حول أحد الأبطال، وكان البطل يبدو كأنه فارس إسبرطي بدروعه وعضلاته، فانتهزت هذه الفرصة لتفر.. إن خبرتها مع فرويد ويونج تقضي بأنهما متى بدآ الكلام يستمران فيه للأبد.. معنى هذا أنها ستظل تسمع بقية اليوم..

لقد وعدها المرشد بأن تركّب مغامرتها الخاصة بنفسها كالميكانو.. لكن كيف؟.. من أين تبدأ؟

هكذا راحت تشق طريقها وسط السوق الذي يعجّ بالروائح العطرية ورائحة البخور والطعام والعرق.. كل شيء يوحي بأنها ستبدأ قصة من قصص ألف ليلة لولا أنها تعرف أنه لا توجد مغامرة مُعدَّة لها اليوم.. فانتازيا لا تملك أفكارا وتعتمد عليها هي..

لاحظت وهي تشق طريقها في السوق أن الزمان والمكان مبهمان فعلا.. لمسات كثيرة من الجو الشرقي كما قلنا، لكنها كذلك كانت ترى بعض رعاة البقر يربطون خيولهم خارج مقهى، وكان هناك عدد من جنود حرب الكواكب بدروعهم البيضاء يمشون حاملين بنادق الليزر في السوق، وتوقفت سيارة عليها العلم النازي ليقفز منها ضابط من رجال الصاعقة..

وجدت تاجرا يبيع برتقالا فاتجهت له.. كانت في خصرها صرة مليئة بالدنانير فأخرجت قطعة وناولتها له، فأعطاها صرة بها بعض البرتقال..

وجدت بائعا يبيع خبزا فابتاعت رغيفين.. ثم ابتاعت بعض اللحم المشوي طيب الرائحة..

ربما كانت هذه هي المغامرة.. سوف تتناول طعام الغداء ثم تعود.. يبدو أنه لا مغامرة اليوم.

وجدت حجرا فجلست عليه ومدت يدها في الجراب تتناول قطعة من اللحم المشوي..

هنا سمعت من يقول لها:

- تبتاعين الطعام لأنك خادمة!... خادمة لا تمتاز بشيء على الإطلاق.. وهذه هي نقطة البداية..

نظرت في دهشة لمصدر الصوت

كان هذا هو لقاؤها الأول مع جوزيف كامبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- رحلة البطل تبدأ..

إنها تشبه سندريلا جدا..

جميلة.. شابة.. حافية القدمين.. ثياب ممزقة.. سوء تغذية فشل بجدارة في أن يجعلها قبيحة. وقد اكتسب وجهها نظرة تجمع بين البؤس والمرارة والسخرية..

هي فعلا خادمة تعمل لدى أسرة تتكون من زوج قاس غليظ يذكرك بهولاكو لو كان هولاكو بهذا القبح، وزوجته الباردة الجميلة التي تبدو كساحرة شريرة.. أمثال هذه المرأة كن يقمن بذبح العذارى والاستحمام في دمهن مثل إليزابيث باثوري. أن تكون ابنا أو زوجا لسيدة كهذه أمر مرعب فماذا لو صرت خادمة؟

أما عن سيدتها الصغيرة ففتاة شيطانية قبيحة مرعبة، لها ضحكة مميزة سافلة تفتح فيها فمها بالكامل لدرجة أن لعابها يسيل. وطريقتها في اللوم تتلخص في أن تقرص (عبير) من عضدها حتى لتوشك على انتزاع قطعة لحم..

كان اسم (عبير) هنا هو (لارين)...

كانت تصحو عند الفجر من مرقدها المتعب حيث تنام فوق الموقد في المطبخ.. لا بأس.. أنور السادات نفسه كان ينام فوق الفرن، ويعتبر هذه الفترة من أجمل فترات حياته. تصحو في البرد القارس لتمسح الأرضيات وتشعل النار وتعد الإفطار لأسرة التنابلة التي تعمل عندها..

في هذا الوقت المبكر كانت هناك فئران، لكن الفئران لا تضرب ولا تسخر ولا تقرص.. إنها كائنات مذعورة بريئة لا تريد سوى الفرار ببعض الطعام، لذا أدركت عبير أنها تحب الفئران جدا، ولو خيروها بين قتل فار وقتل سيدتها فلن تتردد كثيرا.. لهذا كانت أسعد لحظات اليوم هي هذه اللحظات..

في العاشرة صباحا يصحو أفراد الأسرة..

منذ اللحظة الأولى ينهال عليها السباب.. إنها كسول قذرة لا تحسن شيئا.. أمثالها يجب أن يقدموا طعاما للخنازير..

ثم يجلس الجميع للأكل.. وتجلس هي في المطبخ تلتهم كسرة خبز.

كانت سيدتها تتصرف كأي سيدة شريرة في العالم.. السيدات اللاتي يعتقدن أن لفظة (خادمة) معناها في القاموس (أداة عديمة الحيلة صالحة للتعبير عن ساديتك الخاصة).

لهذا كانت تضع الطعام في خزانة معينة في المطبخ.. وكانت تخرج للخادمة (لارين) ما يلزمها لإعداد طعام الأسرة، ثم تراقب بعناية ما تم استهلاكه.. يجب أن تظل الخادمة جائعة محرومة وإلا فكيف تكون خادمة؟

كانت عبير تجلس على مقعد المطبخ وتدس الخبز الجاف في الشاي الذي أعدته لنفسها.. كانت تتعذب فعلا وكانت جائعة فعلا..

كان بوسعها أن تخمن أنها على الأرجح في قصة (سندريلا)...

لا يوجد احتمال آخر..

لكن كيف ينتهي هذا الوضع ومتى تبدأ المغامرة بالضبط؟..

لقد مر يوم أو يومان ولم يحدث شيء سوى بعض الصفعات والوخزات.. هل تستمر في هذه المهزلة للأبد؟ إن فانتازيا تعاملها أحيانا بطريقة قاسية.. الأب الذي يصطحب ابنه للحلاق ويتركه هناك ويذهب لشراء أشياء.. الوقت يمر ولا أثر للأب والحلاق متململ لأنه يريد أن يغلق المحل. الصبي قلق.. هل حدث شيء لأبيه؟.. هل يعود؟ في كل مرة تشعر بهذا القلق.. ماذا لو تخلت فانتازيا عنها؟.. ماذا لو ظلت في هذا العالم للأبد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السوق رأته للمرة الثانية..

الرجل القصير ذو الوجه المريح - يذكرها نوعا بالرئيس الأمريكي كارتر - والذي يلبس بذلة أنيقة ويحمل مجموعة ملفات ويراقبها في اهتمام..

في المرة الأولى سألته عن سبب ملاحقتها، فرفع قبعته وقال:

- اسمي كامبل.. د. جوزيف كامبل Campbell..

قالت في حماسة وقد اتسعت عيناها وخفق قلبها:

- دكتور كامبل.. الهارب.. كان هناك مسلسل ممتع جدا عن مغامراتك..

قال في كبرياء:

- لا.. لا.. تتكلمين عن د. كمبل.. اسمي هو كامبل..

صاحب كتاب (البطل ذو الألف وجه).. هل قرأته؟

حكت رأسها مفكرة ثم قالت:

- لا..

- مستحيل.. لابد أنك سمعت عنه وإلا ما كنت لأظهر في عالم خيالك.. هذا الكتاب من عيون الأدب العالمي، وقد صار شعارا لمدرسة كاملة في الفكر.. يعترف المخرج الأمريكي جورج لوكاس والمخرج ستيفن سبيلبرج بأنهما يحفظان هذا الكتاب صفحة صفحة.. لقد غير طريقتهما في التفكير للأبد.. هذا الكتاب لا يقدر بمال بالنسبة لكتاب السيناريو وبالذات للمهتمين بأفلام المغامرات... إن فيلم (إنديانا جونز) فيلم مدرسي صناعي تمت كتابته بالقلم والمسطرة اعتمادا على كتابي هذا.. وبفضلي دخل مصطلح (رحلة البطل Monomyth) إلى الأدب العالمي..

قالت في ملل وهي تضع الطماطم في الحقيبة المجدولة:

- هذا جميل ومفيد.. لكن لم أعرف بعد من أنت.

- أنا عالم أساطير.. خبير أساطير.. وقد درست مئات الأساطير والقصص قبل أن أفطن لحقيقة مروعة أثارت ذهولي.. هل تعرفين ما هي؟

قالت وهي تحمل لوازم السوق مبتعدة عنه:

- الطماطم مرتفعة السعر اليوم!

- ليس هذا فحسب.. لم أضيع عمري كي أكتشف سعر الطماطم.. ما وجدته وذهلت له هو أن كل الأساطير هي قصة واحدة في الواقع!... لها نفس الهيكل والتركيب لكنها تتخفى بألف شكل وشكل..

- سمعت أن كتاب سيناريو هوليوود يقولون إن القصص كلها 36 قصة لا أكثر..

- بل هي قصة واحدة فقط...!

ثم غمز بعينه وقال لها:

- سوف تجدين أن أبطال الواقع مثل غاندي وبوذا.. إلخ.. نفذوا أنماط البطل في الحكاية الشعبية لا شعوريا.. فهم قد خرجوا في رحلة بطل عادوا منها مظفرين بجوائزهم، وهذا هو سبب خلود قصصهم..

كانت تقف أمام حانوت يبيع الثوم فابتاعت بعض الحزم قوية الرائحة بينما واصل هو الكلام:

- أنت فتاة فقيرة تافهة غير مؤهلة للبطولة... تعانين سوء المعاملة... هذه هي الخطوة الأولى.. هل يمكنك أن تخبريني بالبطل الذي تشبهينه؟

فكرت حينا ثم قالت:

- سندريلا طبعا...

- ثم...؟

- لا أحد..

بل أنت الآن تشبهين هاري بوتر وماتيلدا وأوليفر تويست والرجل الوطواط قبل أن يصير بطلا والسندباد قبل أن يبدأ رحلاته... أنت أدهم صبري قبل التدريب وجيمس بوند قبل أن يصير في المخابرات البريطانية..

فكرت حينا ثم قالت:

- لا بأس.. هذا الكلام يبدو منطقيا.

وثب ليقف أمامها كأنه في فيلم موسيقي غنائي وقال في مرح:

- سوف يتغير كل شيء... مع دعوة المغامرة!!

- أية دعوة؟..

- فكري سندريلا تصلها الدعوة للحفل الراقص أوليفر تويست يباع.

جيمس بوند يكلف بالمهمة الأولى رئيس الشرطة العلمية يكلف (نور) ورفاقه بمهمة جديدة.. العميلة الجديدة تعرض مشكلتها على شيرلوك هولمز.. الساحر يخبر علاء الدين إنه صديق أبيه يرحمه الله.. هاري بوتر يتلقى الدعوة إلى مدرسة السحر... لوك سكاي ووكر يتلقى دعوة للمغامرة من أوبي وان كنوبي في قصة حرب الكواكب..

فكرت في كلامه.. جلست على حجر لأن الفكرة بدت لها ثقيلة مدوخة فعلا.. هذا الرجل ذكي بالتأكيد.. بل هو عبقرى لكن القياس لا يمكن أن يظل بهذه الدقة على كل حال..

قالت:

- هذا جميل.. لكنه لا ينطبق عليّ، ما لم تكن تنوي جعلي أعيش قصة سندريلا من جديد..

انحنى ليحمل عنها الحقيبة الثقيلة التي امتلأت باللفت والباذنجان واللحم، وراح يلهث.. بدأ يمشي ببطء فنهضت لتلحق به..

قال لها وهو يلهث:

- لن أفسر لك.. إن رحلة البطل الخاصة بك قد بدأت.. أنت تبدئين ال Monomyth الآن.. وقد جرت العادة على أن تظهر شخصية اسمها (المعطاء) تدعوك للمغامرة.. هذا هو ما ينتظرك إذن..

- ونوع المغامرة؟.. بالتأكيد لن أحضر حفل الأمير..

- ليس بالضبط.. يمكنك أن تختارى المغامرة الخاصة بك.. إنها فرصة نادرة فعلا..

رأت البيت الرهيب يقترب عند الناصية، ففعلت وقالت كما تفعل وتقول أي خادمة تخشى أن يراها أحد مع صبي المكوجي:

- ابتعد يا دكتور كامبل وإلا رأتك (ستي) معي.. إن عقابها لشديد..

تحسس قبعته في كبرياء وابتسم.. مهما كان شجاعا فإن سيدتها قادرة على أن تبعثر كرامته في كل مكان.. من الأسهل أن تواجه سبعة نمور..

وفي وقار ابتعد مسرعا بينما أولجت هي المفتاح في الباب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- من هنا

جالسة في المطبخ بعد العشاء تكلم الفئران:

- أنت يا إديت تعرفين أين أطفالك وتسرقين الجبن من أجلهم.. لو أصاب أحدهم شيئا فسوف تجنين.. أنت يا إديت تحبين أطفالك.. تري بم تشعرين لو سمعت أن أحدهم وحيد جائع مذعور.. يخدم ثلاثة وحوش ولو أخطأ يتلقى صفعة أو يسكبون الحساء الساخن في قفاه؟.. بالطبع سوف يجن جنونك..

هنا شعرت بالشيء..

قبل أن تصاب بالرعب أو أي شيء كانت قد رأت تلك العجوز المتقزمة التي تقف على بعد خطوات منها.. عجوز قصصية جدا من طراز (شعرة في الذقن - دمل على الأنف - تورمات في السلاميات) ... كان كامبل قد منحها خلفية لا بأس بها. هذه هي المعطاء طبعا..

- مساء الخير يا أماه

- مساء الخير يا فتاة..

ثم أن العجوز راحت تهتز ضحكا لبضع ثوان قبل أن تقول وسط ضحكاتها التي تشبه الصرخات:

ما هذا الكلام الفارغ الذي تقولينه للفأر؟.. ألا تستطيع فتاة أن تتواجد في موقف دون أن تستبد بها روح التمثيل فتقول كلاما سخيفا يفترض منها أن تقوله؟.. أنتن معشر الفتيات تثرن غيظي.. تمشي الواحدة جوار المقابر فتجد من واجبها أن تقول:

كم من أمم عظيمة اندثرت وصارت تحت هذا التراب... تمر جوار البحر فتقول: أنت تخفي في أعماقك أسرارا عظيمة أيها البحر. تسافر فتقول: وداعا يا أرض الذكريات ومهد الطفولة.. إلخ. هذا المونولوج السخيف عن الفأرة وأولادها لا معنى له.. أولا لأن هذا فأر نرويجي.. لا يمكن أن يحمل اسم إديت بل لا بد من اسم نرويجي مثل أولاف أو أنسلن.. ثانيا..

- ثانيا ماذا؟

- هذا فأر ذكر!..

جلست عبير ترمق هذه الضيفة الثرثارة.. لم تتوقع أن تأتي الجنية لتسخر من سندريلا بكل هذه (اللماضة).

اتجهت المعطاء إلى القدر فشبت على قدميها، وغرفت بالمغرفة كمية من الحساء الذي يسبح فيه اللحم والتهمتها فصاحت عبير مذعورة:

سيدتي تعرف عدد قطع اللحم وكمية الحساء بالضبط..

سوف تنسفني نسفا..

قالت المعطاء وهي تلوك ما أكلته:

- صه.. أنت تولدين الآن كبطلة.. لا تلتفتي لهذه الترهات.

- سيدتي تلتفت..

قالت المعطاء وهي تجلس على مقعد مطبخ آخر:

- الآن عليك أن تختارى المغامرة..

وبدأت تعد على أناملها:

1- دعوة لحفل ساهر يقيمه الأمير.. طبعا سيكون عليك أن تجدي ثيابا أفضل..

2- العثور على الفيروس الذي سرقة السوفييت من مختبرات أطلنطا..

3- زوج الليدي كاسى قد توفي وهي تعتقد أنه قد قتل..

4- أنت مدعوة للبحث عن أسطورتك الخاصة في الصحراء..

5- هناك عاشق يعزف تحت شرفتك ليلا وعليك أن تعرفي من هو..

6- يجب الحصول على موافقة عمك للزواج من عبلة..

7- يجب أن تعطلي القنبلة الهيدروجينية قبل أن يفجرها اليوناني المخبول ستافروس..

8- يجب الانتقام من الوغد الذي قتل أبويك..

فكرت عبير قليلا.. ثم سألت:

- هل من احتمالات أخرى؟

- الكثير منها لكن هذه هي التيمات الأكثر شيوعا.. والآن هلا اخترت شيئا؟

طبعا كان من السخف أن تجرب عبير نفس تيمة سندريلا الشهيرة.. كما أنها لن تستطيع الزواج من عبلة لسبب بسيط هو أنها ليست ذكرا.. هي جربت جو الرجل الوطواط قبل ذلك لكن تيمة الانتقام ليست سيئة على كل حال.

هكذا قالت للمعطاءة:

- لا بأس.. يمكن أن أجرب موضوع الانتقام هذا.. الفقرة الثامنة..

تنهدت المعطاءة وفتحت دليلا تحمله وراحت تتصفح قليلا ثم قالت:

- إن قاتل أبويك النذل يدعى (جوميز) وهو في أمريكا الجنوبية الآن..

قالت عبير في حيرة:

- أنت لا تعطين معلومات كثيرة على كل حال.. كنت أتوقع معلومات أكثر..

- سوف تعرفينها يا صغيرة.. سوف تعرفينها..

وانطلقت تركض خارجة من المطبخ بقدميها الصغيرتين المشوهتين. وهكذا وجدت عبير نفسها وحيدة من جديد..

تنهدت وبدأت تفك رباط المريولة حول خصرها... واتجهت للباب عندما سمعت صوتا كالجليد:

- لاااارين!

رفعت عينيها لتري سيدتها.. بدت مثل الكونتيسة باثوري أكثر من أي وقت مضى.. باردة بيضاء كالشمع قاسية وفاتنة!

- لماذا لم تعدى لى كوب العصير الذي طلبته؟

قالت عبير وهي تعرف أنها ليست حجة على الإطلاق:

- نسيت..

هنا يعتبر النسيان جريمة أفظع من التعمد وأشنع. هكذا رأت الملعقة في يد سيدتها... الملعقة ذات المقبض الخشبي التي لا تستعمل إلا لهدف واحد.. وضعتها السيدة في النار حتى بدأ المعدن يحمر وهي تنظر لعبير في ثبات وتوحش..

هنا كانت الأمور قد بلغت نهايتها بالنسبة لعبير.. لا أحد يتحمل هذا خاصة إن كان على وشك بدء رحلة البطل، وهكذا تناولت القدر الثقيل الذي كان على الموقد.. هتفت السيدة وهي لا تصدق:

- هيه.. أنت لن!

لكن عبير كانت قد دارت حول محورها الطولى بسرعة فتطاير الحساء في دوامة ليغرق المرأة... وسمعتها عبير تصرخ لكن هذا لم يشف غليلها بالقدر الكافي.. كانت تريد أكثر..



لابد أن الساعة كانت منتصف الليل عندما خرجت عبير إلى العالم الخارجي.. الهواء الطلق الذي غسله المساء.. شهقت بقوة وراحت تعب الهواء في نهم مشت في الشارع المبهم الذي لا تعرف إن كان شرقيا أم غربيا.. قديما أم حديثا.. إنه شارع محايد تماما بالفعل يناسب بدء مغامرة لا يعرف أحد أي شيء عنها..

لقد انتقمت من سيدتها وشفت غليلها إلى حد كبير.. المرأة الشيطانية لم تعد جميلة على الإطلاق..

هنا شعرت بذلك الرجل الذي يلاحقها.. رجل يلاحق امرأة عند منتصف الليل لا يمكن أن يكون ملاكا طاهرا..

هكذا أخرجت سلسلة مفاتيحها وتأهبت لطعنه في عينه كما تعلمت..

لكنها سمعت الصوت الذي صار مألوفا.. صوت كامبل شخصيا.. يبدو جليا أنه سيلعب دور المرشد في هذه المغامرة..

قال لها في (قرف):

- أولا أسجل عدم ارتياحى لنوعية القصص التي اخترتها.. الانتقام الذي يقدم باردا تيمة مملة وقتلت بحثا... كنت أحسبك تختارين شيئا أكثر إثارة... فيما عدا هذا أنا منبهر لأنك لم تستغرقي وقتا كثيرا في قبول الدعوة.. المعتاد أن تتأخر هذه الخطوة بعض الوقت.. البطل لا يريد تغيير حياته أو لا يصدق أو لا يثق بنفسه..

تنهدت وقالت وهي تدس يديها في جيبي ثوبها:

- أنا بطل؟.. حقا لا أعرف معنى البطولة الحقيقي..

قال وهو يلحق بها لاهثا:

أنا وضعت تعريف البطل.. قلت إن البطل هو ذكر أو أنثي يفارق عالمه اليومي ليقوم برحلة إلى عالم خاص ملئ بالتحديات، لكنه يقهر مخاوفه من أجل جائزة (معرفة) يتقاسمها بعد هذا مع أفراد مجتمعه..

- ليس سيئا

- هذا ينطبق على رحلة الحياة التي نحاول فيها أن نفهم أنفسنا.. نحاول أن نعرف من نحن ولماذا نحن هنا؟.. باختصار: الرحلة هي مجاز للنمو..

إذن كل نمو هو مغامرة مثيرة في حد ذاتها... عندما يكبر الطفل ليصير رجلا فهذا يعادل رحلة جليفر أو السندباد من أجل المعرفة.

كانت هناك ثلاجة مياه غازية فتوقفت لتدس فيها قطعة عملة وتحصل على علبة.. هذا زمن هستيري غريب تجد فيه ثلاجات المياه الغازية جوار أكواخ الحطابين وجو سندريلا وذات الرداء الأحمر، مع عملاء سوفييت يسرقون الفيروسات..

هذه هي فانتازيا.. لكنها اليوم في ذروتها كما يبدو..

نزعت غطاء العلبة.. فليش ش ش!.. ورشفت رشفة ثم سألته:

وماذا بعد ذلك؟

قال وهو يرقص في مكانه طربا:

- هنا خطوة اجتياز البوابة الأولى... لقد انطلقت العربة.. أقلعت سفينة الفضاء.. وقفت دوروثي بطلة (ساحر اوز) على أول الطريق القرميدي الأصفر.. ركب أدهم صبري الطائرة إلى وجهته.. ذهب هاري بوتر إلى هوجوورث..

تجشأت بقوة كالثيران... ثم مسحت فمها وقالت:

- وأنا؟

قال في مكر:

البوابة الأولى لك هي...........

5- ليما..

البوابة الأولى لعبير كما وصفها لها كامبل يمكن أن تكون من البوابات التالية:

1- تعلم الطيران والتحليق إلى أمريكا الجنوبية..

2- أن تجمع نقودا من الأصدقاء والجيران لتكمل ثمن التذكرة..

3- أن يختطفها بعض النازيين ليحموها من انتقام اليهود. كل النازيين يفرون إلى أمريكا الجنوبية حتى لم يبق هناك مواطن أمريكي جنوبي واحد تقريبا.. كلهم نازيون يشكون في بعضهم.

4- تخترع جهاز نقل الجزيئات وترحل إلى أمريكا الجنوبية..

5- ترحل بجسدها إلى أمريكا الجنوبية بمجرد التفكير.. بطريقة الاسترفاع المعروفة.

6- تموت ثم تولد في أمريكا الجنوبية.

7- يقبض عليها القراصنة ويبيعونها في أمريكا الجنوبية كجارية.

8- يتضح أن هذه أمريكا الجنوبية فعلا والقصة تدور هناك منذ البداية.

راحت تفكر في هذا كله.. بدت معظم الحلول غريبة وخيالية.. الاحتمال السابع مضحك جدا لأن القراصنة لم يبيعوا العبيد لأمريكا الجنوبية قط...

قالت لكامبل وهي تحك شعرها:

- يبدو لي أن أقرب الاحتمالات للصواب هو الثالث..

- جميل.. جميل..

كانت تمشي كما قلنا في الشارع المظلم المبهم، وكان الطقس باردا بحق.. لا تعرف متى اختفى كامبل.. شعرت بوحشة حقيقية فالوغد مسل وظريف..

يجب أن تفكر في طريقة تذهب بها إلى أمريكا الجنوبية وإلا فالقصة لن تبدأ أبدا. ماذا يجب أن تفعل وما هي البداية إذن؟

هنا لا تعرف ما حدث ولا كيف.. شعرت بتلك اليد توضع تحت أنفها، واليد كانت تحمل خرقة مبللة بسائل له رائحة أسيتون الأظفار.. ك يد 3 كل.. يا للكارثة!.. هذا كلوروفورم إذن..

وشعرت بأن الأرض تنزلق من تحتها.. الحفرة السوداء الإجبارية.. الغيبوبة.. من فعل هذا ولماذا؟.. من الذي؟؟؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما فتحت عينيها كانت في مخزن مظلم كبير.. كانت في صندوق يشبه التابوت، وكان الظلام

دامسا من حولها لكنها استطاعت أن ترى رجلين.. رجلين يحمل أحدهما كشافا.. رائحة الكلوروفورم في كل مكان..

كان رأسها يدق بقوة.. كأنه جرس كنيسة عتيقة...

قال أحد الرجلين:

- معذرة.. كان علينا أن نتصرف بسرعة.. لو شعروا بك فلن يرحموك..

خاطفان يعتذران في تهذيب عم يتكلمان بالضبط؟.. نظرت حولها وتحسست رأسها ثم قالت وهي تئن ألما:

- ماذا تريدان مني؟

قال الرجل الأول الذي أدركت أنه قصير القامة أصلع الرأس:

- لا شيء.. سوف نغلق الصندوق عليك عندما نقترب من بيرو.. لن تكون هناك مشاكل في الجمرك..

مذهولة راحت تنظر حولها.. بيرو؟.. عم يتحدث هذان الرجلان؟.. معنى هذا ببساطة أن هذه طائرة وليست مخزنا.. لكن لماذا جاءا بها هنا؟

قال الرجل الثاني طويل القامة:

- تعرفين ما فعله اليهود من قبل مع (إيخمان).. خطفوه إلى إسرائيل وأعدموه هناك.. كل من تعاون مع الفوهرر يوما ما يتم خطفه ويعدم في إسرائيل.. أنت لست استثناء..

- آه هـ هـ!

هكذا فهمت بسهولة..

هذه هي البوابة الثالثة التي اقترحها كامبل.. هناك متعاونون مع النازيين يخطفونها إلى بيرو خوفا من اليهود وصيادي النازيين.. السبب في خطفها الرغبة في سرعة وفعالية الاختفاء.. لا داعي أن تعرف فتتصرف بشكل مريب..

هذا هو المخطط إذن..

وهكذا مضت الساعات المملة وهي في مخزن البضائع.. جلبوا لها وجبة ساخنة وشرابا، ثم نامت وصحت ونامت وصحت.. كل عظمة في جسدها تؤلم وتتحرك في اتجاه مختلف.

في النهاية جاء أحد الرجلين وقال لها إن عليها أن تتلقى حقنة منومة. السبب طبعا هو أن تكون هادئة عندما يتم اجتياز الجمرك.. يجب أن تكون كجثة بالضبط. كانت قد قرأت أساليب اليهود في خطف النازيين إلى إسرائيل، فأدركت أنها تمارس نفس الطريقة بالعكس..

هكذا شعرت بالوخزة في ذراعها.. وبعدها لم تعد تعرف أين هي.. إنه تأثير يشبه سطر النجوم القادم الذي يفصل بين فقرتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نحن الآن في بيرو..

بيرو على الحافة الشمالية الغربية لأمريكا الجنوبية.. أعتقد أن هذا كاف. العاصمة؟.. ليما طبعا.. هذه هي المعلومات التي ظلت حية في ذهن عبير، أما الباقي فقد نسيته بالتأكيد.

كانت في ليما العاصمة.. لكنها لا تعرف ما ينبغي أن تفعله..

لا توجد عندها ذكريات عما حدث، وبالتالي لا تملك خططا مستقبلية أو أحقادا..

لقد أطلق الخاطفون سراحها ومنحوها مبلغا من المال وتمنوا لها حظا سعيدا، كما طلبوا منها أن تكون حذرة.. اليهود في كل مكان.

قضت أياما في ذلك الفندق الرخيص الذي يعج بالبراغيث والبق.. وكانت تخرج ليلا لتتأمل وجوه الناس التي تجمع بين الملامح الهندية الأمريكية مع مزيج أسباني لا شك فيه.. فقط في هذه البقاع تجد فتاة شقراء يعمي بياضها العينين، جوار فتاة سمراء كأنها من قلب أفريقيا.. تنوع (اثني) مذهل.. وبالطبع جاء الصينيون من مكان ما في القرن التاسع عشر، ليزيدوا الأمور تعقيدا.. احفر حفرة في أي مكان ولسوف تمتلئ بالصينيين بعد نصف ساعة.

إن (عبير) لا تعرف أن تعداد بيرو ثلاثون مليونا.. منهم خمسة ملايين في ليما.

هناك أشياء كثيرة لا تتذكرها لكنها بالتأكيد قرأت عنها يوما ما..

بعد أيام فتحت باب غرفتها لتجد ذلك الوجه المميز (جوزيف كامبل) شخصيا على باب غرفتها يطالع كتيبا صغيرا.. كان أول ما فعلته هو أن ركلته بقوة في ساقه فراح يتواثب كاللقلق:

- أوووو...!... هل جننت؟.. هذه منطقة تقتل!

قالت في غيظ:

- للأسف!.. أنت تستحق هذا وأكثر بعد ما ألقيت بي في مغامرة مسدودة بلا مستقبل.. أنت تضيع وقتي.. هذا هو كل شيء..

قال لها وهو يكشف عن سرواله ويتفحص موضع الركلة في ساقه:

- أنت نافدة الصبر.. ما حدث هنا هو أننا اجتزنا البوابة الأولى.. بعد هذا تأتي مرحلة التحالفات والاختبارات.. اللحظة التي يدخل فيها البطل صالون رعاة البقر.. بطل الكونج فو يجد مدربا شيخا ويبدأ التدريب.. إلخ..

- وأنا؟.. ماذا ستفعل بي؟

- لابد أولا من فهم من هو عدوك ولماذا صار كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الجريمة..

كانت في الغرفة منضدة خشبية عتيقة جوار الفراش، ولسبب ما كانت هناك سكين ضخمة مغروسة حتى نصف نصلها في خشب المنضدة. جلست عبير على المقعد وجلس كامبل على الفراش.. الحقيقة أن هذا البروفسور الأمريكي الرقيق لم يتحمل كل هذه البراغيث، وبدا عصبيا فعلا.. ثم بدأ يهرش بعنف..

قالت له وهي مستمتعة بالمشهد:

- لاحظ أنني أعيش في عالم صممته أنت..

- أنا لم أصمم أي شيء.. ما فعلته هو أن استكشفت عوالم القصص السابقة..

وراح ينفخ محاولا طرد البعوض..

ثم حك رأسه بقوة وبدأ يحكي..........

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ عشرين عاما كان الأبوان (بابلو) و(ماريا) يقيمان في إحدى ضواحي باريس.. لا يعرف الناس عنهما أي شيء تقريبا سوى أنهما جاءا من مكان ما من أمريكا الجنوبية، وكانت لغتهما الفرنسية غاية في السوء.

(ماريا) كانت رائعة الجمال.. نموذج الجمال الهندي كما أراد له الله أن يكون..

(بابلو) كان من النمط الأمريكي الجنوبي إياه الذي يذكرك بالهنود في جبال الأنديز..

كانا فقيرين، ولا شك في أن بيتهما كان في غاية البؤس والقذارة.

السؤال الذي لم يوجهه أحد هو: ماذا يفعل هذان هنا؟.. هما لا يكسبان ما يكفي من مال.. لا شيء يدعوهما للبقاء هنا أكثر..

ثم بدأت بطن ماريا تنتفخ.. تنتفخ.. ثمة طفل قادم...

- إنه أنت يا لارين.

- أنا؟

- طبعا.. ألم تفهمي هذا بعد؟

لارين جاءت إلى العالم.. ويا له من مكان!... أروع مكان في العالم وأقبح بقعة في هذا المكان. كأنك تطبع قبلتك على الدمل المتقيح في جبين ملكة جمال الكون. لكنها استطاعت أن تعيش وتتكيف وسرعان ما شهدتها الشوارع والأزقة وهي تجري مع أطفال آخرين، تلهو بصفيحة معدنية فارغة.. بينج بونج.. بي لى... هناك صبي تربي بهذه الطريقة في بلد مجاور اسمه البرازيل،

وكان اسم الصبي (أديسون أرانتوس).. وكانت الصفيحة تصدر صوت (بي ليه) ... لهذا عندما صار أعظم لاعب كرة قدم في العالم اختار اسم (بيليه)..

تلعب طيلة اليوم، ثم تغرب الشمس فتعود للبيت الحقير هناك تجلس الأسرة حول طبق من الأنتيكوخوس أو الباشاماناكا الذي يذكر بابلو بالوطن، ثم يخلدون للنوم بانتظار يوم جديد قاس بلا رزق..

منذ عشرين عاما كانت عبير سعيدة راضية.

منذ عشرين عاما كان دفء الأب والأم موجودا..

منذ عشرين عاما حدثت الكارثة.

كان هذا في أحد أيام إبريل..

لسبب ما صحت (عبير) من نومها في منتصف الليل. كانت في الخامسة من عمرها وقد تعلمت التحكم في البول مؤخرا.. لذا وجدت أن مثانتها توشك على الانفجار..

صحت من النوم وخرجت إلى الفناء كما تعلمت.. الحقيقة المخزية هي أنهم كانوا يقضون حاجتهم في حفر في الفناء..

الظلام.. البرد.. لا أحد سواها..

ثم رأت ذلك الخيال المسربل بالظلمة يتقدم نحو البيت.. الباب كان لا يغلق أبدا لذا لم يبذل الغريب جهدا في فتحه.. دخل..

وهي كانت وحدها في الخارج تراقب ما يحدث في دهشة..

زائر في هذا الوقت؟.. شيء غريب نوعا..

سمعت صرخة تدوي في الظلام:

*** «جوتيريز... بحق الآلهة لا تفعل!»**

كان هذا صوت أمها..

سوف تظل للأبد تذكر هذه الصرخة المذعورة المتوسلة.. ما لن تنساه كذلك هو صوت الغناء.. نعم صوت غناء موقع يدوي من البيت.. صوت لا يمت لأبيها ولا أمها بصلة.

ثم ظهر الخيال من جديد.. هذه المرة كان يجري..

عندما بدأت تزحف للبيت في الظلام كانت تتوقع مشهدا مفزعا، لكنها لم تتوقع مشهدا مريعا بهذا الشكل.. كان هناك جسدان على الأرض.. جسدان تعرفهما من الشكل والثياب، لكن لا رءوس... لم يعد لأبيها ولا أمها رأس..

صرخت لكنها بالطبع لم تفهم بالضبط ما حدث.. الأطفال في سن كهذه لا يفهمون الموت ولا يعرفون ما هو..

فيما بعد جاء الجيران ثم جاء رجال الشرطة، وانتقلت عبير إلى ملجأ للأيتام.

احتاجت إلى عدة سنوات لتعرف ما حدث في تلك الليلة: هناك شخص تسلل للبيت ليلا وقطع رأس الزوجين بالبلطة.. ويبدو أنه كان يبحث عن طفلتهما كذلك، لكنها نجت بمعجزة.. كل شيء يوحي بالتفتيش... كما أن الأسرة مقلوبة وهناك باب مقتحم.. كان يبحث عن الشخص الثالث بلا شك..

هل سرق شيئا من الدار؟

لا أحد يعرف.. الفقر يوحي بالطبع بأنه لم يمس شيئا، لكن لماذا فتح كل درج وكل خزانة..؟

عبير تتربى في ملجا الأطفال.. أسئلة كثيرة في ذهنها..

عندما يأتي الليل وتنام في الفراش غير المريح وتفتح عينيها في الظلام.. تقول لنفسها: سوف أنتقم..

عندما تتحرش بها صديقاتها ويوجهن لها الإهانات لأنها غريبة في كل شيء.. في لغتها ولون بشرتها وجمال عينيها، كانت تغمض عينيها وتقول لنفسها: سوف أنتقم..

عندما تتذكر كل ما فقدته.. كانت تقول لنفسها: سوف أنتقم..

وفي سن السابعة عشرة عرفت أشياء كثيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كامبل يحكي وعبير تصغي بانبهار..

في الضوء الخافت ومع الحر الشديد والرطوبة، بدا كل شيء غير حقيقي كأنه كابوس.. لكنه كابوس ممتع فعلا..

الغريب أن هذه الكلمات بدأت تشكل ماضيا لها.. قبل هذا كانت حاضرا دائما لا تعرف أي شيء عن نفسها. الآن بدأت خلفياتها توجد.. بدأت تعرف من هي حقا.. كأنها شقة في الطابق الثالث طائرة في الهواء، ثم فجأة صار لها طابق ثان وأول..

سألها كامبل وهو يجفف عرقه:

- هل القصة أفضل هكذا؟.. لقد صنعنا لك خلفيات ممتازة..

- لكن الأمور ما زالت غامضة..

هنا سمعته يصرخ.. ثم ضرب قفاه بيده.. عندما عاد بها كانت ملوثة بالدم وعلى راحته بقة عملاقة مخيفة الشكل فعلا..

قالت عبير التي صارت خبيرة في هذه الأمور:

بقة ترياتوما.. كارثة أمريكا الجنوبية..

قال في ذعر:

هل هي تمتص الدماء فعلا؟

- نعم.. ثم تسبب مرض (شاجا) الذي يجعل كل أحشائك تتضخم: القولون.. المعدة. القلب.. الأمعاء.. وفي النهاية تموت.. هكذا مات داروين!

جفف عرقه ومسح البقة في سرواله وقال:

- هذا بالضبط لو كنت عاثر الحظ..

نحن في قصة.. من الوارد أن يحدث لك شيء غير معتاد.. والآن أكمل...

عاد الرجل يواصل السرد محاولا نسيان نهاية داروين الدامية:

- في هذه السن قابلت (موربيل) العجوز..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موربيل العجوز جاءت للملجأ.. كانت تمشي على عكازين ولها ملامح الساحرة الشريرة في القصص.. ساحرة من نفس طراز (أنف معقوف - دمل على الأنف - قامة محنية)..

جاءت الراهبة الكاثوليكية تخبر (عبير) أن هناك سيدة عجوزا تدعي موربيل تريد رؤيتها. في تردد خرجت عبير إلى الفناء متوجسة.. أجمل شيء في كون المرء يتيما أنه يعرف يقينا أن هذا اللقاء المفاجئ ليس لإخباره أن أحد أبويه قد مات..

لا أسرة لي فلا خوف على أسرتي!

لكن العجوز وثبت إلى عبير فاحتضنتها وقبلتها مرارا باكية وقالت:

- أنا صديقة أمك.. أنا (موربيل) جارتكم..

إن لها لحية مؤلمة حقا كما أن قبلتها غزيرة اللعاب.. ماذا تريد هذه المرأة التي تظهر فجأة بعد سبعة عشر عاما؟

قالت العجوز:

- أنت تعرفين أن هناك سفاحا قتل أبويك.. قبل موتها بيومين أعطتني أمك هذه القلادة وطلبت مني أن أحتفظ بها إلى اللحظة التي أعرف فيها أن أوان منحها قد جاء. لم أفهم هذا الكلام إلا منذ شهر.. لقد وجد الأطباء أنني مصابة بالسرطان وسوف أموت قريبا.. هكذا أدركت أن عليّ إزاحة هذه الأمانة بسرعة.. بحثت عنك وهأنتذي صرت حسناء شابة..

يمكن أن تأخذي هذا التذكار وتحافظي عليه..

كان ما قالته مرهقا لها أكثر من اللازم، فراحت تسعل وتبصق.. ثم سقطت ميتة على الفور. لكن (عبير) لم يكن لديها وقت لهذا الكلام الفارغ.. لو كان المرء سيمضي نصف ساعة مع كل عجوز كانت صديقة أمه ومعها قلادة فأعمارنا قصيرة جدا.

انهمكت عبير في فحص القلادة..

على الفور أدركت أنها قديمة جدا ثمينة جدا وهناك لغز يحيط بها..

رقاقة مستطيلة تمثل محاربين من الإنكاس يصوبان رمحيهما نحو عدو مجهول.. هناك كتابة بلغة لا تفهمها.

شيء غامض.. لكن (عبير) أدركت حقيقة واحدة شعرت بها عميقة في عظامها: هذه القلادة هي الشيء الذي سبب موت أبويها، وهي ما جاء السفاح يبحث عنه في تلك الليلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- لهذا فعلها..

قال كامبل وهو يبتسم في ارتياح:

- هكذا وضعنا أساس القصة.. هل هذا يرضيك؟.. هل هناك أسئلة؟

قالت عبير وهي تحاول ترتيب أفكارها:

- جميل.. لكن لم أعرف ما يدفعني للقدوم هنا..

في عصبية ضرب المنضدة وقال:

- تقصدين لماذا اجتزت البوابة الأولى.. أرجو أن تستعملي مصطلحات (رحلة البطل) ... ليكن..

وراح يفكر بعض الوقت، وقتل بقتين تزحفان على قفاه، ثم قال:

هنا يأتي دور البروفسور (بيير لافاييت)..

- من؟

- لافاييت.. أستاذ الحضارة القديمة. مختص في أمريكا الجنوبية بالذات.. أنت سوف تبحثين عنه وتقفين أمام بابه عدة ساعات..

قالت عبير في حيرة:

- هذا جميل.. لكن كيف لفتاة في السابعة عشرة من عمرها أن تفكر في هذا؟.. وكيف لها أن تصل لهذا البروفسور؟.. لاحظ أنني قضيت طفولتي في الملجأ وأنني أشبه بوحش بري.. لا أعرف أي شيء على الإطلاق..

احمر وجهه غيظا.. هؤلاء الهواة يفسدون كل شيء عندما يتدخلون.. والأسوأ أنها تخلط بين مهنته كناقد يدرس هيكل الأسطورة ومهنة المؤلف..

قال في غيظ:

لنقل إن العجوز أخبرتك بهذا..

- لكنها ماتت بالسرطان بمجرد أن أعطتني القلادة..

- إذن هي الراهبة.. أنت سألت الراهبة فأخبرتك بها و أخبرتك بما يجب عمله..

فن سرد قصة قابلة للتصديق.. هذا الفن المهم والذي يجيده أي لص يقبضون عليه عندما قبضوا على ريا وسكينة استطاعت الشقيقتان الشريرتان أن تغرقا المحققين في مئات القصص المعقدة الملتفة، وكانت لقصصهما مصداقية لا بأس بها المشكلة بدأت عندما بدأ الأحمق (حسب الله) يلفق قصصا بدوره فظهر الفارق الشاسع في الموهبة القصصية.

لنقبل موضوع الراهبة إذن.

تفحص البروفسور بيير لافاييت القلادة، وأخرج قاموسا وراح يحاول قراءة الترجمة.

نظر لعبير في ذهول ثم عاد يحملق في القلادة... بعد قليل قال لها ويده ترتجف:

- لا شك في أن هذه أصلية تماما.. قادمة من بيرو رأسا..

- ماذا تعرفين عن أمك؟

غيرت عبير من وضع ساقيها طلبا للمزيد من الراحة نتيجة الارتباك والتوتر، وقالت:

- لا شيء.. فقط كانت جميلة جدا.. فيما عدا هذا هي ماتت منذ زمن بعيد..

قال في اقتناع:

بالطبع جميلة جدا.. أميرة من الإنكاس لابد أن تكون فاتنة!

- أميرة؟

- نعم.. أمك كانت أميرة من أميرات الإنكاس.. في الواقع هي وريثة لسلالة طويلة من ملوك الإنكاس يعودون لعصر ما قبل قدوم الإسبان.. إمبراطورية الإنكاس أهم وأكبر إمبراطورية في أمريكا الجنوبية قبل غزو الأسبان.. كان ذروة مجدهم في القرن الخامس عشر. ثم جاء بيزارو وجيشه من السفاحين عام 1532 ليعتقل الإمبراطور أتاهولابا وتصير بيرو تحت التاج الإسباني.. من الواضح من هذه القلادة أنك تنتمين لجنس الملك أتاهولابا..

قالت في خيبة أمل:

- جدي اسمه أتاهولابا؟.. هذه فضيحة..

ربما هو خبر سيئ لكن من الواضح تماما أنه خبر سيئ أكثر لشخص يرغب في وراثة اللقب.. أو يرغب في تمشيط العالم من سلالة أتاهولابا.. هكذا يمكن أن نفسر تلك المذبحة التي حدثت لأبويك، لكن القاتل كان يريد بالتأكيد الحصول على هذه القلادة... إذن يمكن القول إنه يبحث عن القلادة وما زال..

- ومن هو ذلك الشخص؟

راح يفكر بعض الوقت ثم نهض إلى المكتبة ليجلب ملفا سميكا من على رف خلفه، وفتحه وراح يقلب الصفحات.. ثم توقف أمام صفحة وأخرج صورة كبيرة لرجل كث الشاربين يبدو بوضوح أنه من هنود أمريكا الجنوبية. لابد أن اسمه بدرو أو خافيير أو جوميز..

- هل رأيت هذا الوجه من قبل؟

- طبعا لا.. لماذا يجب أن أكون قد رأيته؟

- لأنه حاول إقناعي أنه وريث إمبراطورية الإنكاس.. وهو يؤمن أن سلالة أتاهولابا مجموعة من الرعاع..

- هذا مهم..

وراحت تتأمل الصورة.. ليس ألطف شيء يمكن أن يقابله المرء في ليلة مظلمة.. على الأرجح هو

من السفاحين الذين تقرأ عنهم في القصص، والذين يحملون خنجرا متعرج النصل.

- ما اسم هذا الوغد؟

- اسمه (جوميز) طبعا.. وقد جاء إلى فرنسا منذ أعوام، ثم عاد إلى بيرو ليعلن أنه الوريث الحقيقي لإمبراطورية الإنكاس..

وأقام في الجبال، ومن حوله مجموعة من الأتباع.. لا أرجو أبدا أن يكون هذا هو قاتل أبويك، ولو كان الأمر كذلك فأنا أنصحك بأن تنسى الموضوع.. الرجل شرس وخبيث جدا، كما أنه يمارس نوعا قديما من السحر الذي كان الإنكاس يمارسونه.. صدقيني.. لن تحبي لقاءه..

ثم جلس وابتسم في لطف وعقد أنامله تحت ذقنه:

- هل من خدمة أخرى أقدمها لك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الرجل مفيدا.. مفيدا أكثر من اللازم في الواقع وهكذا جلست (عبير) تقلب المعلومات في ذهنها في تلك الغرفة الحقيرة في فندق بليما، بينما أمامها جوزيف كامبل لا يكف عن الهرش.

قالت له متأملة الحقائق:

- إذن على الأرجح هذا الجوميز كان في باريس.. وهو الذي قتل أبي وأمي لأنه يريد الانفراد بأن يدعي الإمبراطورية.. لا يستطيع أن يزعم هذا ما دامت القلادة معي..

ثم نظرت لكامبل وقالت:

- ألا ترى أن الموضوع معقد أكثر من اللازم؟

قال بلا مبالاة:

- يجب على المرء أن يكذب كثيرا جدا ليحبك الكذبة الأولى.. والآن أنت هنا في ليما تنتظرين.. أنت تعرفين أن عدوك أو مصدر ال Nemesis يقيم في جبال الأنديز.. وعليك أن تصلي له... هكذا يبدأ الجزء التالي من رحلة البطل..

- وماذا أفعل؟

باتمان يتدرب لينمى عضلاته.. هاري بوتر يتعلم السحر... طرزان يجيد أساليب القرود... كل القصص تحكي الشيء ذاته.. لهذا نجد أن للبطل ألف وجه وإن ظل هو نفس الشخص، من هنا جاء اسم كتابي.

- يبدو أنك تلاحظ كل شيء..

- لقد علقت أهمية قصوى على الأنماط Archetypes التي تكلم عنها (يانج).. هكذا نجد أن أساطير البطولة والأحلام شيء واحد تقريبا. من ضمن الأنماط التي تتكرر في الأساطير: البطل العجوز الحكيم - المرأة المتحولة (كل أفراد الجنس الآخر في هذه القصص متحولون) - الخصم الشرير الغامض - هذه أشياء كامنة فينا وفي كوابيسنا، ويمكن تحليلها لفهم أنفسنا أكثر..

ثم نهض وتثاءب فاردا ذراعيه... ومط عضلات ساقيه.. لقد أرهقه كل هذا الجلوس..

ثم قال لها وهو يتجه نحو الباب:

- عليك أن تنتظري... سوف يصل الناصح أو ال Mentor ليعلمك كيف تقهرين خصمك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- الناصح والاستعداد..

كانت معرفتها بكامبل مفيدة جدا في الواقع.. لا يمكن لشخص يريد أن يكون كاتب سيناريو أو روائيا إلا أن يصغي لنظريات كامبل، وهو ما فعله جورج لوكاس وستيفن سبيلبرج.. صحيح أنك تشعر بأنه يشرح لك التفاحة.. أنت تريد التهام التفاحة فقط، لكنه يشرح لك تركيب حمض الفيوماريك وفسيولوجيا حلمات التذوق على اللسان. إلخ.. لن يقودك هذا إلى أن تخلق تفاحة فهذا مستحيل، لكنه يفيد من يريدون الفهم.. من يريدون أن يكون تفاحهم أحلى مذاقا..

قال لها إن الأبطال ليسوا كلهم من النموذج القوى الشجاع الذي نتخيله، فهناك أنواع غريبة من الأبطال منها مثلا (ضد البطل).. وهو شخصية قد تكون خارجة عن القانون، إلا أنها تحظى بإعجاب المشاهد وتعاطفه؛ منها الشخصيات التي تخفي جرحا هائلا ومرارة من الماضي، والشخصيات التي تحمل بذور فنائها (مثل هاملت) وهي شخصيات مليئة بالعيوب لكننا نعجب بها. النوع الأخير من الأبطال هو ما يسمونه (الشخصية التراجيدية).

هناك كذلك البطل المنتمي لجماعة: يبدأ مع جماعة ثم ينفصل عنها ليخوض مغامرات عدة، ثم يعود للجماعة من جديد.

وهناك البطل المنعزل: الذي يبدأ وحده ثم يجد جماعة ينضم لها ويخوض مغامراته، وفي النهاية يودع الجميع ويعود لحياة الوحدة... معظم أبطال قصص رعاة البقر من هذا النوع. تذكر مشهد لاكى لوك على حصانه وهو يبتعد في ضوء الشمس الغاربة.

هناك كذلك البطل كعنصر مساعد: هو نفسه لا يتغير لكنه يغير حياة الآخرين

هناك شخصية مهمة للبطل هي الناصح Mentor الذي يلعب مزيجا من دور الأب والمعلم.. إنه هو الضمير أو الأنا العليا.

بالإضافة لهذا يزود البطل بالسلاح (سلاح أو دليل أو معلومة) وخير مثال لهذا Q في قصص جيمس بوند.. كما إنه يزود البطل بالدافع للمغامرة. وكانت عبير على موعد مع الناصح الخاص بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا جاء اليوم الذي خرجت فيه عبير من الفندق، لتجد رجلا مسنا تشي ثيابه بتكوين عضلي ممتاز لم تستطع السنون أن تدمره.. وكان ينظر لها نظرة ثاقبة من تحت حاجبين كثيفين..

فومانشو.. هذا خطر لها وهي ترى ملامحه الغريبة.

قال لها وهو يضع قبعته على صدره على الطريقة الأمريكية الجنوبية:

- أنا الناصح لك.. أرسلني د. كامبل.. اسمي هو...

- فومانشو؟

ضحك كثيرا وراح شارباه الشائبان يهتزان، ثم قال:

- لا.. فومانشو اسم صيني.. أنا (خوان بدرو).. العجوز السكير..

ثم نظر إلى الفندق الحقير.. اللافتة المتآكلة والجدران التي دمرتها الرطوبة والعطن.. قال لها:

- أولا لابد من التخلص من حياة الترف هذه...

- ترف؟

- لابد أن تجربي الحياة في الطبيعة والجوع والظمأ والخوف..

ثم أطبقت يده العظمية الشبيهة بيد هيكل عظمي على ساعدها:

- معي تتعلمين البقاء حية وتتعلمين شظف العيش.. أما أهم شيء فهو أنك ستتعلمين السحر!

وهكذا بدأت عبير تتغير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلد وعر بالمعنى الحرفي للكلمة.. تضاريس صعبة جدا يسيل لها لعاب أي مدرس جغرافيا في العالم.

هناك سلسلة جبال الأنديز على الساحل الغربي.. دعك بالطبع من اللغز الذي حير العلماء على مدى التاريخ، والذي يحتل دائما موضعا في كل برنامج تلفزيوني عن أسرار العلم.. إنها خطوط نازكا [2].. يقال إن تاريخها يمتد لخمسمائة عام قبل الميلاد. مئات النقوش التي لا يمكن أن تدرك كنهها إلا من الجو، وعندها ترى رسوما معقدة متقنة لحيوان اللاما والزواحف والبشر والقردة إن الخطوط سطحية جدا في التربة وقد تحملت كل هذه القرون بمعجزة حقيقية. البعض قال إنه من المستحيل على الرجل البدائي أن يصنع رسوما كهذه، خاصة أن بعض الرسوم يبلغ طوله ربع كيلومتر، والبعض قال إن هذا ممكن لو تم التخطيط جيدا.. النظرية الأرجح هي أن الهدف من وجودها ديني.. ربما رسمت هذه الرسوم كي تراها الآلهة التي عبدها النازكا من سمواتهم. إن تكرار الخسوف الشمسي في تلك العصور جعل الناس يتوهمون أنها عين سماوية تنظر لهم.

هناك بالطبع نظرية (إريك فون دنيكين) في كتاب (عربات الآلهة) الذي تكلم عن أن هذه الخطوط مهابط لسفن الفضاء!.. الواقع أن هناك كلاما كثيرا مثيرا يروق لهواة الظواهر الفورتية في أمريكا الجنوبية.. الكلام عن حضارة متقدمة جدا اندثرت والكلام عن الفضائيين، حتى يوشك المرء أن يحسب أن أمريكا الجنوبية كانت في الماضي قاعدة فضائية كبيرة.

الخلاصة أنهم مصرون بأي ثمن على أن حضارة عظيمة سادت الأرض منذ ملايين السنين ثم انقرضت فلم يبق منها إلا آثار بسيطة كقطعة حجر أو إبرة مصقولة بعناية..

تنقسم بيرو إلى ثلاثة أسماء إسبانية شهيرة جدا.. كوستا.. سييرا.. سيلفا.

الساحل.. الجبال.. الغابة.. بالترتيب.

في منطقة الجبال يوجد جبل خوازكاران.. ومن هناك تنبع الأنهار.. بعضها يصب في المحيط وبعضها يصب في نهر الأمازون. وعند قمة الجبال تجد الثلوج بكثافة.. مشهد يذكرك بجبل كليمنجارو في أفريقيا.

أما الغابات فهي غابات أمطار تنتمي لحوض الأمازون وفي الغابات الكثيفة الحارة الرطيبة قضت عبير عاما كاملا...

عاما كاملا تحاول فيه أن تتأهب للجزء التالي من رحلة البطل..

كان العام أقرب لكابوس.. الحر.. العرق.. الرطوبة.. البعوض..

هناك أشياء مستفزة في الأدغال فعلا.. مثلا لا يمكن أن تمر تحت أي غصن من دون أن يكون هناك ثعبان أناكوندا فوقه..

الأناكوندا ليس ساما هو فقط يعتصر جسدك إلى أن يحول عظامك إلى مسحوق.. اقتل!

لا يمكن أن تعبر أي مجرى مائي من دون أن تدرك أن جذع الشجرة هذا هو تمساح كايمان. كايمان تمساح أمريكي يترجمونه بالقاطور، ويمتاز بأن فكيه يشبهان منقار الطائر.. اقتل!

لا يمكن أن تنام من دون أن يزحف جوارك عنكبوت الأرملة السوداء.. لا يمكن أن تقضي حاجتك من دون أن ترى فهدا يتربص بك بين الأغصان.. اقتل!

لا يمكن أن تلمس قدمك الماء دون أن تكتسي بالعلق.. اقتل!

بالإضافة لهذا كله لم يكن (خوان بدرو) يمتاز بالرقة.. كان أقسى من أقسى مدرب في الجيش.. أرغمها على النوم في الطين والزحف فيه والأكل منه... راقبها وهي تلتهم الأفاعي الحية، وتأكد من أنها تنام والظمأ يمزقها..

لكن الأمور كانت تتحسن عصرا عندما يجلس جوارها وسط الغابة تحت الأغصان المتدلية.. تقسم له أنها تسمع صوت غوريلا فيؤكد لها أنها بلهاء.. لا توجد غوريلا إلا في أفريقيا..

يبدأ في تعليمها الصيحات المطلوبة. وكيف تستعمل الخاتم.

إن الحيوانات تفهم لكن لابد من أن تعرف النغمة الصالحة لمخاطبتها. من يسيطر على الوحوش يصر أقوى شخص على ظهر الأرض عندما تسيطر على الوحوش فأنت تعرف كل شيء.

في السماء يحلق النسر الأمريكي (الكوندور).. تذكرت أغنية قديمة هي (الكوندور يمر) التي سرقها سيمون وجارفاتكل من ملحن بيروفي..

تصور أنك صرت مثل هذا النسر تعرف وترى كل شيء..

تعلمي فحيح الأفعى.. تعلمى الزئير.. تعلمي زئير الفهد الخافت.. تعلمي خنفرة التابير..

أنت في الغابة يا بلهاء وهذا معناه أنك تسيطرين على مفاتيح كثيرة..

الخاتم المسحور يتوهج في إصبعها.. يخبرها أنها قادرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما عقد لها الامتحان النهائي كانت قد قضت الليل كله تستذكر في جدية..

وقفت هنالك وحدها في غابة الأمازون الرهيبة تصغي للأصوات.. هو جلس قرب قدميها وراح يصغي بدوره، ثم قال لها بصوت هامس:

- تابير!

راحت تركض وقد خفضت رأسها محاولة أن تتجنب اتجاه الرياح، وسمعت الصوت الخشن للأغصان التي يمزقها هذا الوحش الشبيه بالخنزير.. مدت فمها للأمام وأصدرت صوتا غريبا..

بعد لحظات راحت الأعشاب تتهشم... وظهر الوحش الضخم يركض نحوها..

همس خوان بدرو من جديد:

- جاجوار!

ليست السيارة طبقا ولكن أسد أمريكا الجنوبية الشرس سريع الحركة، ومن مكان ما جاء الأسد يركض قاصدا التابير.. إن لحمه شهي وبالتأكيد سوف يشبعه عدة أيام طار في الهواء قاصدا الحيوان، فأطلقت عبير صيحة.. ثم لوحت بالخاتم..

على الفور توقف الأسد عن وثبته الجامحة.. ثم راح يزحف في حذر بين الأعشاب حتى صار عند قدميها..

- أرماديللو..

برز حيوان المدرع الأمريكي يركض... كأنه وحش من وحوش ما قبل التاريخ.. شكله بشع ومذاقه أبشع.. دعك من أنه الكائن الوحيد على وجه الأرض غير الإنسان الذي يصاب بالجذام.

جاهدت عبير حتى تذكرت طريقة السيطرة على هذا الوحش فتحت ذراعيها وأطلقت صيحة معقدة وعلى الفور ضغط الحيوان على فرامله وانزلق عند قدميها..

هكذا وقفت عاقدة يديها على صدرها، وقد أحاط بها التابير والجاجوار والأرماديللو.

كانت تشعر بالفخر، لكنها نظرت في قلق إلى ناصحها بانتظار رأيه..

كان الرضا باديا عليه.. قال لها وهو ينهض من بين الأعشاب:

- أنا أشعر باطمئنان عليك.. لقد تحققت مهمتي..

ارتجفت عبير وشعرت بنشوة بالغة.. لقد بدأ الجزء التالي من رحلة البطل..

كامبل قال لها إن الجزء التالي اسمه (الاقتراب من الكهف)..

هناك دائما كهف أو منطقة خطر.. هي التي ننتظرها جميعا.. ثيذيوس يدخل التيه ليقتل المينوتور.. علاء الدين يهبط في البئر بحثا عن المصباح..

لقد جاء كهفها الخاص وعليها أن تنتقل إلى جبال الأنديز بحثا عن جوميز. وعن الانتقام..

9- الاقتراب من الكهف

عندما قابلت كامبل من جديد، لاحظت أن عينه متورمة..

فسألته باسمة:

- هل لكمك أحد في عينك؟

قال وهو يضع المنديل على العين:

- لا.. بل هو مرض (شاجا) اللعين الذي تكلمنا عنه.. يبدو أن البقة أصابتني به..

بالطبع لا هو ولا عبير يعرفان أن هذه العلامة مهمة جدا في قائمة علامات مرض شاجا، واسمها (علامة رومانا).. لابد أن تتعلم طب المناطق الحارة لتعرف هذه الأمور على كل حال

قالت له عبير في غيظ:

- ما موضوع مخاطبة الحيوانات هذا؟

- طريقة ممتازة للاستعداد.. إن المواجهة لن تكون سهلة..

- في كل مرة تعطيني عدة خيارات.. مثلا لربما فضلت أن أجيد العمليات الخاصة أو أكون من النينجا.. موضوع مخاطبة الحيوانات هذا يذكرني بقصص الأطفال..

- بالعكس.. يبدو خيارا مناسبا لمغامرة في أمريكا الجنوبية.. الحيوانات مثيرة دائما.. لقد سمحت لنفسي أن أحدد مصيرك هذه المرة دون أن أنتظر رأيك..

- على كل حال سوف يكون الأمر مسليا..

- هكذا تعتقدين طبعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدأ رحلة عبير نحو جبال الأنديز ومعها مجموعة من الهنود المحليين وقصاص أثر.

إلى الغرب تتجه.. وبالطبع لابد من أن يكون الاعتماد على حيوان اللاما. يمكن بشيء من الخيال أن تتصور أنه خروف أبيض له سيقان غزال.. وكانت قد تعلمت من القصص أنه حيوان صبور لكنه يبصق عند الاستفزاز.. طبعا بصقة اللاما شيء يصعب نسيانه..

تمر الأيام وهي متجهة إلى الغرب..

لا تعرف من يدفع لهؤلاء الهنود الذين يمشون معها في القافلة ولا من يدفع لقصاص الأثر.. غالبا إدارة فانتازيا هي التي تدفع أو ربما كامبل نفسه..

عندما يأتي المساء وأنت عند سفح جبال الأنديز، فأنت تشعر ببرد قاتل.. برد يتخلل العظام.

تجلس جوار النار مصابة بذلك البله المغولي الذي يصيب الناس عندما يتأملون النار أو البحر.. ذهن شارد وعينان زائغتان.

الهنود يوزعون اللحم المقدد ويقدمون لها بعضه لكنها لا تأكله لأنها لا تعرف نوعية اللحوم التي يأكلها هؤلاء.. ربما كان لحم تابير وربما كان لحم أعدائهم من البشر.

يبدءون الغناء.. وغناؤهم مزعج للأذن فعلا

جلست جوار قصاص الأثر المسن وسألته:

- هل رأيت جوميز هذا؟

بصق القصاص في النار كما يفعل كل عراف أو قصاص أثر، وراح يمضغ الطباق في نهم، ثم قال لها:

- هناك عبر الجبال الوعرة حيث يعمي الضباب الغرباء، وحيث تلتقط النسور عيون الذين ضلوا السبيل...

قالت مقاطعة:

- لو تكرمت، وكشفت عن الوصف الشعري لكنت لك شاكرة..

لقد عاشت طويلا في فانتازيا ورأت الكثير جدا من تلك النبوءات الشعرية.. كلهم يصفون مكانا تعوي فيه الأشباح ويعمي الضباب العيون..

لم يبال كثيرا بكلامها وواصل الكلام:

- هناك حيث تعوي الشياطين في الظلام، وحيث يرتجف الأسد الجبلي من هول الرحلة.. عندما تكسف الشمس يتراجع المد. هناك يعيش جوميز يعيش كإمبراطور وسط أتباعه الذين يؤلهونه ويقدمون له القرابين، لكنه غير مكتمل.. يحتاج إلى قلادة الحياة التي تمنحه الإرث النهائي.

إنه يجلس على عرش عظيم.. إنه محاط برجال فهود لا يخافون شيئا ويقذفون سهاما مسمومة في العيون.. إنه يمارس السحر ويستعين بسلطان الشياطين... إنه قادر على أشياء عديدة لكنه غير قادر على استرداد القلادة ما لم يفتك بمن يحملها..

وهنا أدركت عبير أن عينيه ليستا مغلقتين.. كان ينظر لها من تحت أجفانه المتهدلة.

تحسست صدرها في رعب لتتأكد من أنها لم تفقد القلادة..

قال لها القصاص وهي لا تعرف أين عيناه حقا:

تماسكي في المرة القادمة.. لمسة كهذه تجعلني أعرف أن القلادة معك.. هكذا يعرف اللص مكان المال الذي تخفيه العجوز..

كان هذا خطرا فعلا.. لو كان (جوميز) بهذه القوة فمن الوارد أن يسخّر هؤلاء القوم ضدها.

تثاقلت الجفون.. وبدأ الجميع يغمضون عيونهم ويأوون للخيام..

تمددت عبير بدورها راقدة على ظهرها، وهي ترى ضوء القمر عبر قماش الخيمة..

تنفس بعمق.. ببطء.. النعاس يتسلل لعينها..

تعرف هذه اللحظة جيدا.. بعدها لن تعرف ما حدث.. سوف تجد الشمس من حولها.. سيكون نوما رااااائعا..

لكنها سمعت الحركة..

هناك من يتسلل بشكل ما نحوها.. هناك من يزحف نحو الخيمة لا شك في هذا..

فتحت عينيها متوترة وراحت تنظر للظلام.. لماذا لم تحمل مسدسا؟.. وكيف كانت تنوي أن تقتل (جوميز)؟

انفتحت الخيمة ورأت وجوه الهنود القاسية تطل عليها.. هناك من رفع جوانب الخيمة كذلك.. وفي يد أحدهم رأت سيفا بتارا مما يقطعون به الأعشاب..

لقد تمت الخيانة بأسرع ما تتوقع.

وخلال لحظة وجدت أن أربعة من الهنود يقيدون أطرافها الأربعة، بينما الخامس يضع سيفه تحت عنقها وقال لها:

- القلادة!... قلادة الإمبراطور!

كانت تحاول التملص لكن الأوغاد كانوا أقوياء فعلا.. تريد أن تعطيهم القلادة لكنها لن تسمح ليد قذرة لأحدهم أن تدس في صدرها.. لابد أن يطلقوا سراحها تتعطيها لهم بنفسها.. لكنهم لا يريدون إطلاق سراحها

- القلادة!

والمشكلة أنها لو أعطتهم القلادة فلن تساوى حياتها خردلة.. أهميتها الوحيدة حاليا هي أنها تعرف مكان القلادة.. بعدما تنتقل هذه الخبرة ينتهي أمرها..

تسمع صوته من بعيد يزحف بين الأشجار.. ترى ما يراه بتلك الطريقة المميزة للرؤية الليلية.. تسمع صوت الحشرجة الخافت مثل مرضى الربو من حنجرته القوية.... تشم رائحته وتشعر بتوتر جسده والعرق على عضلاته...

الجاجوار الذي يدنو من المعسكر الآن..

إنه قريب جدا..

تعال وأنقذني... حررني أرجوك..

هناك نوع من التردد وهو يزحف بين الأعشاب.. يخاف الرجال ويخاف النار لا تخف.. إنهم غير مسلحين إلا من سيف واحد تحت عنقي..

تكوم بين الأعشاب.. ثب!... ثب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- ماتشو بيتشو..

كانت مذبحة حقيقية..

لقد وثب الجاجوار في الهواء لينشب أنيابه ومخالبه في الرجال.. دماء تتطاير... أحشاء تنفجر.. صراخ.. صوت قضم.. صوت تهشم... حشرجة..

الرجل الذي كان يهددها وثب ملوحا بالسيف بينما جندل الجاجوار ستة من الهنود.. المشكلة أنه مزق قصاص الأثر المسن كذلك...

الجاجوار يتقدم ملوثا بالدماء نحو الرجل.. الرجل يتراجع.. يدوس الفحم المشتعل بقدميه العاريتين لكن تدفق الأدرينالين يجعله لا يشعر..

يسقط على الأرض ويغطى وجهه بذراع مستسلمة.. لا جدوى منها طبعا.. لابد أنه يتساءل لماذا لا يهاجم الجاجوار الفتاة ويمنحه فرصة الهرب؟.. إن الحياة غير عادلة فعلا..

لكن الجاجوار وقف في مكانه يصدر ذلك الزئير الحلقي المخيف..

(عبير) تدنو من الرجل تقف أمامه.. تمد كفها فيضع فيها السيف بمنتهى الأدب..

- ما اسمك؟

قال وهو يرتجف ويبدو أنه بلل سرواله:

- سانشيز..

قالت في ثبات:

- أنت رأيت المشهد.. أنت رأيت تمزيق رفاقك.. الآن تعرف ما ينتظرك..

بكي بحرقة:

- رأيت.. رأيت..

إذن عليك أن تكون دليلي في الوصول إلى جوميز.. لكن من دون ألعاب قذرة.. تذكر أنني لم أترك الأسد يفتك بك إلا لسبب واحد هو حاجتي إلى دليل..

كانت مترددة في البداية، ثم مدت يدها تتحسس عنق الجاجوار الجميل.. كأنه قط عملاق يقر.. أطلقت سراحه فانطلق يركض وسط الأعشاب..

لقد صارت قوية بالفعل.. قوية جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جديد تستمر في الرحلة..

تخرج من الغابة لتقف في رهبة أمام جبال الأنديز الملتفة في الظلام.. وعرة بشكل لا يوصف.. تبدو قريبة جدا لكنها تدرك أنها على بعد أيام من المشي والتسلق العسير..

كانت تجعل ذلك المدعو سانشيز يسبقها دائما اتقاء لهجمة غادرة من الخلف.. وقد رأته يرقب الجبال في ذعر، ثم التفت لها وقال:

- لن نعبرها أبدا.

نظرت له صامتة.. هي تعرف هذه القصص والدليل الذي يرفض التقدم عند نقطة معينة.. لقد صار هذا تراثا قصصيا حقيقيا.

خيل لها أنها ترى امرأة هندية تمتطى جحشا صغيرا.. وقد غلفت كتفيها بالبونشو، وكانت تدخن غليونا طويلا حتى بدت كأنها من زعماء الهنود الحمر.. المرأة تقترب.. وأدركت عبير أنها على الأرجح جاءت من أجلها هي..

مدت العجوز لها يدها بخطاب مغلق ثم ابتعدت دون كلمة واحدة..

فتحت عبير الخطاب وقد خمنت من أين جاء على كل حال.. كان من كامبل.. يقول فيه بخطه المنمق الجميل:

«أنا مريض جدا.. مرض شاجا يوشك على قتلى لألحق بداروين.. لقد صار حجم أمعائي كحجم قولوني.. وصار قلبي في حجم كبدي.. إنني أموت على الأرجح.. ولهذا لم أقدر على المجيء لك..

«أنت مقبلة على مرحلة المعاناة العظمى في رحلة البطل.. أي أن أعظم خطر في الأسطورة قادم لا محالة، ولسوف يموت القارئ خوفا عليك لأنك ستمرين باللحظة السوداء... أرجو أن تأخذى الحذر..

«جوزيف كامبل..»

مزقت الخطاب في غيظ.. معنى هذا أن الأمور تسوء بلا توقف..

قالت لمرافقها الراغب في ذبحها:

- تقدم..

تقدم هذه كان معناها المشي في الضباب.. المشي في الضباب بالمعنى الحرفي للكلمة كأنك تسبح في بحر أبيض فلا يبرز من الماء إلا كتفاك.. لا ترى ما تمشي عليه لكنه صخور بارزة قاسية على كل حال..

هكذا استمر المشي يومين تقريبا.. حتى الأكل كان معناه أن تنزل تحت مستوى الضباب وتتحسس بحثا عن الطعام..

اللاما صارت عنيدة.. وأدركت عبير أنها لولا قدراتها السحرية لأبت أن تتحرك خطوة واحدة.. بصقت في وجه الرجل عدة مرات لكنها بالطبع خجلت من البصق في وجه عبير..

قال الرجل وهو يضرب اللاما على كتفها ويمسح البصاق:

- اللاما أذكى منا..

كانت عبير تشعر بضيق في صدرها، كأنها تتنفس في كوب ماء.. السبب هو الغيظ طبعا.. ثم أدركت أن الأمر فسيولوجي.. ليس مزاحا.. التنفس صعب فعلا..

قال الرجل ضاحكا كاشفا عن أسنانه الصفر العملاقة:

- هذا لأننا نرتفع.. الأكسجين يقل يا سنيوريتا..

بالفعل يقل ضغط الهواء.. يتزايد ثاني أكسيد الكربون في دمها ويصير قلويا.. تتنفس بصعوبة وبسرعة، ويصير بولها قلويا.. هذه أشياء يعرفها طلبة الطب لكنها لا تعرفها..

نظرت عبير لأعلى وتمنت أن تتأقلم بسرعة.

الحقيقة أن ما يقوم به جسمها اسمه (متلازمة التأقلم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست منهكة جدا تلتقط أنفاسها وتعب الهواء في جشع..

أما سانشيز فجلس يشوى سحلية على النار... كمية دخان رهيبة، دعك من أنه دخان يثير الاشمئزاز.. لو كنت تحسب أنني سأجلس هنا أستمتع بمنظرك وأنت تأكل سحلية فأنت مخطئ..

قال لها وهو يتذوق اللحم:

- كنت آمل أن تتذوقي معي.. إنها شهية فعلا..

- شكرا..

ما زال معها بعض البسكويت وعصير البرتقال، لكن الطعام يزداد تعقيدا فعلا.. لم تحمل معها الكثير من المؤن لأن الجاجوار التهم معظم رجالها.. يبدو أنه سيكون عليها البحث في الطبيعة بعد قليل.

سألته عن مكان جوميز وسط هذه المرتفعات الرهيبة.. قال لها وهو يلوك لحم السحلية:

- ماتشو بيتشو..

ماذا؟.. إنها تفهم الإسبانية منذ جاءت إلى فانتازيا، لكنها لا تعرف هذا المصطلح.. هل هي من لغة الإنكا؟.. ولماذا لم تفهمها باعتبار كل شيء ممكنا في فانتازيا؟..

قال لها سانشيز:

- ماتشو بيتشو.. معناها بلغة (الإنكا) قمة الجبل القديم إنها مدينة غامضة رهيبة على ارتفاع 2 متر.. عمرها سبعة قرون.. وهي تقع على حافة هاويتين سحيقتين.. التسلق إلى هناك مشكلة لا توصف بل هو مستحيل..

ما لا تعرفه عبير هو أن المستكشف حيرام بنجهام هو الذي وجد هذه المدينة عام 1911 وهو يبحث بين آثار الإنكا.. إنها مدينة مفقودة أخرى من ضمن مدن أمريكا الجنوبية الغامضة على غرار مدينة (سيبولالا) الذهبية. تقع المدينة فوق نهر أولو بانبا وهي من عجائب الدنيا السبع

الجديدة.. كالعادة المدينة مبنية من أحجار عملاقة لا يوجد بينها ملاط.. أي أننا نعزف على نفس نغمة أهرام الجيزة، ومن جديد يحلو للمهتمين بالظواهر الفورتية Fortean أن يتخيلوا أن هذا كله بنته كائنات فضائية. أضف لهذا خطوط (نازكا) في مكان آخر في بيرو حتى تصل ليقين أن بيرو كانت قيادة فضائية تشبه أفلام حرب الكواكب في زمن ما.

سألت سانشيز في رعب:

- وكيف ينزلون ويصعدون لها؟

- سكانها يعرفون ممرات سرية توصلهم للعالم الخارجي، أما نحن فلا نعرف.. لا طريقة سوى تسلق الهاوية..

- وكيف اتصل بكم لقتلى؟

- لم يتصل بنا.. أحد رجاله الفهود كلفنا بهذا ونحن في القرية ودفع الثمن ذهبا.. ووعدنا بالمزيد..

شيء رهيب فعلا..

ساحر شرير شيطاني يسخر الشياطين ويقيم في مدينة غامضة يحرسه رجال فهود شرسون..

وعليها هي أن تواجه هذا كله!

الحقيقة أن فكرة العودة لم تعد تضايقها لهذا الحد.. فليذهب كامبل للجحيم هو ورحلة بطله.. إن القبور تعج بالأبطال على كل حال.. لا فارق لو زاد قبر جديد..

قالت بصوت عال:

- فليذهب كامبل إلى حيث ألقت!

هنا جاءها صوت كامبل يتردد في ذهنها:

- للأسف لا أحد يستطيع التراجع بعد هذه النقطة.. إن أسطورتك مستمرة حتى لو قتلت...!

11- ماتشو بيتشور (يخيل لي أنني استعملت ه العنوان من قبل، لكني واهم غالبا)

تستمر الرحلة الرهيبة وسط الضباب..

أفظع شعور في العالم هو ألا تعرف ما تمشي فيه.. الأفظع منه أن تصعد بلا توقف.. إلى أين؟

اللاما صارت عصبية.. الطعام صار شحيحا وعبير جوعى معظم الوقت..

دعك من عملية الصعود المستمرة... هكذا يتناقص ضغط الأكسجين وتشعر أن التنفس صعب جدا جدا.. والأسوأ وجود قاتل يريد الخلاص منك.

المعاناة العظمي.. لكنها لم تبدأ بعد للأسف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما جلست على الصخرة لم تكن ترى سانشيز في أي مكان.

تعالي صوت شخيره وهو نائم.. لكن الضباب كان يحجبه تماما.

عندها مدت يدها إلى المظروف الذي أرسله لها كامبل وراحت تعبث حتى وجدت ورقة أخرى مطوية لم ترها من قبل فأضاءتها بالكشاف الصغير الذي تحمله، وكان يقول فيها سوف أشرح لك هنا الوظيفة الرباعية للأسطورة:

1- وظيفة ميتافيزيقية: أن توقظ شعور الرهبة أمام لغز الوجود..

2- وظيفة كونية: محاولة شرح شكل الكون وألغازه. إذن الأسطورة نوع من العلم البدائي.

3- وظيفة اجتماعية: في الأسطورة يوجد ترتيب اجتماعي طبقي يجب الخضوع له.

4- وظيفة نفسية: أن تدرس نمو المرء عبر مراحل الحياة.. هكذا نرى نمو هركيول وسواه.. كما قال الجميع: رحلة البطل هي قصة نمو الطفل..

تأملت هذه السطور مفكرة.. خطر لها كأن كارل يونج هو كاتب هذا الكلام.. ثم تذكرت أنه بالفعل من أهم مصادر كامبل في نظرية رحلة البطل.. لئن كان بعض الناس فرويديا أو ماركسيا فإن كامبل كان يونجيا بشدة.. وطبعا لابد أن يكون قد قرأ كتاب (الغصن الذهبي) لفريزر وتأثر به جدا.. كل من يهتم بالحضارة القديمة أو نشأة الأساطير تغيرت حياته مع كتاب الغصن الذهبي.

تتلمذ كثيرا كذلك على فلاديمير بروب أستاذ الفولكلور الشهير جدا في الأدب الروسي، الذي درس القصص الشعبية الروسية وكتب كتابا اسمه (مورفولوجيا الحكاية الخرافية)، قال فيه إن

الحكاية الشعبية لا يمكن أن يكون فيها سوى 8 شخصيات أحدها هو البطل.. البطل قد يكون ضحية وقد يكون باحثا.. الضحية هو الذي أوقع به الشرير أو طرده في بداية القصة.. الباحث هو البطل الذي يدرك أنه يفتقر إلى شيء ما فيخرج لاكتسابه.

رحلة البطل معناها أن البشرية كلها تحكي قصة واحدة منذ فجر التاريخ.. تحكيها وتعيد سردها مرارا... إنها البحث عن النضج.. إنها البحث عن حقيقة الكون.. محاولة فهم من أين جئنا وإلى أين نذهب.

كانت غارقة في هذه الأفكار عندما سمعت صوت شيء يسقط على الأرض.. شيء ثقيل هوى جوارها..

نهضت مذعورة لتجد رجلا يلبس ثياب الهنود.. كان قد تسلق جدارا صخرا عاليا.. أي أنه قادم من الهاوية.. ثم انزلق من فوق صخرة ليصير جوارها.

لما عرف أنه بلغ أرضا راح يشهق ويسعل ثم رقد على الأرض وراح يضحك في جنون:

- أنا حي!.. أنا مبصر!..

قالت له وهي تتشبث بحافة صخرية وراءها وتلوح بالسيف الذي أخذته من سانشيز:

- مكانك وإلا فتحت أحشاءك.. من أنت وماذا تريد؟

نظر لها للحظة ثم عاد يضحك:

- من يبالي بك أصلا؟.. أنا هارب من بلد العميان.. كانوا ينوون أن ينتزعوا عيني!

هكذا فهمت ما هنالك بلد العميان قصة هـ. ج. ويلز الشهيرة كانت تدور في جبال الأنديز.. ربما هنا بالذات. الرجل الذي هبط في بلد العميان وحسب أنه سيصير ملكا عليهم لكنه لم يحقق أي نجاح، وفي النهاية قرروا أن ينزعوا عينه لأنهم اعتبروها سبب جنونه..

كانت هذه القصة مقررة على كل من يدرس الأدب الإنجليزي على مدى عدة أجيال، حتى كرهها الناس بجنون... إن قصة عنترة بن شداد ليست سيئة، لكن وزارات التربية والتعليم جعلت الطلبة لا يطيقونها..

ثم إنه - الغريب وليس عنترة - سألها وهو يرتجف:

- لكن من أنت بالمناسبة؟

بطلة أخرى.. زميلة لك..

ثم مدت يدها لتخرج بعض البسكويت وزجاجة ماء صغيرة فتناولها شاكرا وهو يتساءل إن لم يكن معها بعض النبيذ، فقالت إنها لا تتعامل مع هذه الأمور.

- هل أنت صاعدة؟

- نعم.. نحن ذاهبان إلى ماتشو بيتشو..

صفر بفمه مندهشا ثم قال وهو يلوك البسكويت:

رحلة شاقة شنيعة.. أحمد الله أنني سأهبط.. هل تريدين شيئا؟

- تمن لي حظا حسنا..

- سأحاول وإن كان في هذا الكثير من المبالغة..!

وسرعان ما اختفى..

في هذه اللحظة صحا سانشيز من النوم، ووقف يحك بطنه في استمتاع ثم قال لها:

- هل كان أحدهم هنا؟

- هذا لا يهمك كثيرا..

قال وهو يضع القبعة على رأسه:

- سوف نبدأ التسلق.. وهو لن يكون سهلا أبدا... حان وقت التخلص من اللاما.. لن تقدر على الصعود معنا..

شعرت عبير بالذعر.. شعور من يفقد اللاما في جبال الأنديز يشبه شعور من يفقد سيارته في صحراء موهافي الأمريكية.. أنا لا أعرف الشعورين لكن يمكنني التخيل.

دعك بالطبع من شعورها أنها صارت وحيدة.. هذا شعور قاس جدا.. كان الحيوان يؤنسها ويشعرها أن هناك روحا بريئة معها.. الآن سوف تفقد هذا.. لن يصاحبها سوى هذا الوغد..

قال لها سانشيز وهو يحاول أن يحمل أكبر قدر من حمولة اللاما:

- حاولي أن تحملي ما تقدرين عليه..

لكن كيف يمكن تسلق الجبل وأنت تحمل كل هذا؟.. ليس جبلا بل هو جدار رأسي تقريبا ارتفاعه كيلومتران!.. لم تكن لديها خطة ولم تكن تحمل أدوات تسلق، ولو كانت معها فلن تستطيع حملها..

راحت تفكر بعض الوقت ثم نظرت لسانشيز في عينيه:

- يمكنك أن ترحل!

نظر لها في ذهول غير مصدق:

- عم تتكلمين؟

أنا سأجد ماتشو بيتشو بنفسي.. لكني أريد أن يظل ظهرى آمنا.. عليك أن ترحل..

12- ماتشو بيتشو (بالتأكيد)..

هكذا صارت وحدها وسط جبال الأنديز..

ليس معها سوى حزمة حبال تركها لها ذلك الوغد. تمشي في تلك المنطقة الصخرية وسط الضباب، عارفة أن قدمها قد تزل في أي لحظة.. سوف تمضي للأمام إلى أن تجد جدارا عموديا أمامها فتحاول تسلقه..

على الأرجح ستجد نفسها في ماتشو بيتشو..

فوووت!

ما هذا؟ ... هي تعرف بالتأكيد أن شيئا مر جوار أذنها أو من فوقها لكن ما هو؟

عادت للخلف بضعة أمتار وهي تنظر حولها في حذر.. فجأة تعثرت وسقطت أرضا.. ما تعثرت فيه لم يكن صخرة وإنما كان قدمين بشريتين..

هبطت على ركبتيها وسط الضباب وراحت تتحسس..

بالفعل هذا شخص ميت.. هذا الحذاء.. إنه سانشيز.. سانشيز الذي طردته منذ ربع ساعة. ماذا أصابه؟.. هل كان يحبها وقتل نفسه حزنا لأنها أصرت أن يبتعد؟.. هل توقف قلبه عن الخفقان بسبب الرعب؟.. ماذا حدث فعلا؟

عندما رقدت جواره وتفحصت جثته، وجدت في عنقه تلك الشوكة الطويلة المتصلة بريشة سهم قصير في حجم القلم الرفيع مغروس في عنقه..

هذا سهم.. سهم من سهام القبائل الهندية هنا. سهام يتم قذفها عن طريق قصبة ينفخون فيها، وعادة ما تكون السهام مغموسة في سم (الكورار) كي يشل عضلات الفريسة ويقتلها حالا..

إنها تعرف أن هذا على الأرجح عمل رجال جوميز.. الرجال الفهود..

إنهم يرونها ويراقبون ما يحدث.. ولربما كان السهم الذي انطلق نحو سانشيز يقصدها هي وتعذر التصويب وسط هذا الضباب.

المعاناة العظمي.. هذا صحيح.. إن كامبل دقيق فعلا...

لكن مقتل هذا الهندي جعلها تعرف ما ستفعله بالضبط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا رأت مياه النهر..

نهر غريب جدا فهي تعرف أنها في المرتفعات.. معنى هذا أنه يتدفق من مستوى أعلى.. غالبا هو تكون من الثلج الذائب عند قمة ما..

رقدت على بطنها تعب الماء البارد.. لو كان هنا شاي لكان الأمر ممتازا.

هذا نهر أولو بانبا.. خمنت ذلك بسهولة ولا تعرف السبب.. كأن المياه كتب عليها الاسم.

معنى هذا أنها قريبة جدا من الجدار العالي الذي تقع على حافته مدينة ماتشو بيتشو.

نهضت وراحت تنظر حولها.. في الماء رأت ثعبان الأناكوندا المرعب يشق طريقه... لكنها ليست خائفة منه طبعا..

وفجأة سمعت صوت النسر.. رفعت عينيها للسماء فرأت الكوندور يحوم حولها... تذكرت أغنية سيمون وجارفنكل (الكوندور يمر)، وراحت تدندن لا شعوريا: أتمنى لو صرت عصفورا بدلا من أن أكون قوقعة.. لو استطعت لفعلت.. أتمنى لو صرت غابة بدلا من أن أكون شارعا.. لو استطعت لفعلت..

لا غرابة في أن هذه الأغنية جاءت من بيرو بالذات..

ما أروعه.. وكم هو مهيب وكم هو عظيم..

جلست عبير على حافة النهر وأمسكت بالحبل الذي تركه لها المرحوم سانشيز.. راحت تجدل شبكة كبيرة لها طرفان.. شبكة تصلح للتعليق بين شجرتين لو أرادت..

استغرق هذا ساعة من العمل.

في النهاية جلست وسط الشبكة ونظرت للسماء وصاحت بصيحة معينة..

أيتها النسور.. يا نسور الكوندور.. أريد من يحملني إلى أعلى هذا الجدار.. أنا بحاجة لكم..

هنا بدأ أول نسر يهبط.. ثم لحق به نسر آخر.. ثلاثة نسور عملاقة يبلغ حجم الواحد منها حجم حمار صغير.. شعرت برهبة بينما النسور تطبق مخالبها على الشبكة.. تطلق صيحة عظيمة ترتج لها الجبال..

تمسكت عبير بحبال الشبكة وأغمضت عينيها في ذعر..

لو كانت حساباتها خاطئة فلسوف يلقون بها في الهاوية..

وشعرت بأنها ترتفع وترتفع.. يخفق قلبها بينما يرتج الجبال بصيحات الكوندور..

إنها تحلق.. ترتفع نحو كيلومترين ونصف نحو ماتشو بيتشو.. مدينة الجبل القديم.. لم تفتح عينيها قط حتى لا تصاب بسكتة قلبية..

ثم شعرت بأن الصعود توقف ففتحت عينيها بحذر..

أدركت في ذعر أن هذا جدار شامخ من الحجر، وأن النسور تلقيها جواره وعندما استطاعت أن تحرر نفسها، بدأت تتسلق الجدار الحجري بصعوبة وفي النهاية أمكنها أن تلقي نظرة بانورامية على ماتشو بيتشو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما كل هذا الإتقان وما كل هذه العظمة في البناء..؟

تخطيط عمراني يصعب أن ترى مثله في عشوائيات القاهرة.. شوارع متسعة منسقة. مدرجات.. قباب مذهبة.. قنوات مخصصة للصرف... مدرجات كأنها للعب كرة القدم..

هذه مدينة مذهلة فعلا.. يمكن تخيل ما شعر به حيرام بنجهام في العام 1911 عندما رأى هذا كله..

لكن كيف تجد جوميز وسط هذا؟.. هل تسأل عنه؟

فجأة صارت تجيد لغة الإنكا القديمة (رونا سيمي).. اللغة التي لم تكتب بعد..

دخلت المدينة لتراقب المباني في ذهول.. أولا هي مدينة مهيبة.. ثانيا لا توجد هنا أي لمسة عصرية.. كل شيء قديم فلا شك أنه لا توجد كهرباء ولا سيارات..

كانت هناك مجموعة من الكباري المعلقة (شاكاس) المجدولة من حبال تحيط بالمدينة، عابرة الهاوية في عدة أماكن.. بعض الكباري كان متحركا على بكرات.. إن البيئة الصعبة شديدة الوعورة جعلت هؤلاء القوم يبتكرون أشياء تذكرك بالتلفريك فعلا.

وككل مجتمعات الإنكا كان هناك نظام خدمات بريدية متقدم يستخدم فيه حيوان اللاما، عبر الطرق الجبلية بالغة الوعورة..

هناك معابد عملاقة رأت مثلها في الصور من قبل، وهي معابد الشمس.

كانت تبدو مثل هؤلاء القوم.. دعك من أن المعاناة جعلتها أقرب للمتسولين، لذا لم يسألها أحد عن شيء وهي تمشي في شوارع المدينة.. ودنت منها امرأة عجوز لتضع في يدها شقة من بطيخ. التهمتها عبير في شغف.. يبدو أنها صدقة فقير أو نوع من تحية الضيوف.. لا تدري..

ثم سمعت دقات الطبول.. وسمعت الحراس يتصايحون..

الإمبراطور قادم..

الإمبراطور قادم..

جوميز قادم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- اللقاء مع جوميز أخيرا...

موكب الشمس يتقدم.

عبادة الشمس مهمة جدا عند الإنكا.. بل إن لفظ إنكا معناها (ابن الشمس) الوحيد..

كان ملك الإنكا في الماضي يتزوج من أخته للحفاظ على الدم الملكي.. ويعتبران نسل الآلهة. الحق أن تشابه هذه الحضارة مع الحضارة الفرعونية لأمر يدير الرءوس، فإذا أضفنا لهذا وجود الأهرام والمومياوات في الحضارتين لامتلأت رءوسنا بأسئلة عديدة. هل جاء المصريون القدامى هنا؟.. النرويجي ثورهايردال كان يؤمن بهذا وقام برحلة شهيرة وخطيرة على طوف اسمه (كونتيكي)... سوف تخوضها عبير معه عما قريب.. أثبت هايردال إن بوسعك أن تسافر من أفريقيا إلى أمريكا الجنوبية بطوف بدائي.

فوق ظهور العبيد يظهر الإمبراطور.

هنا مملكة خاصة لا علاقة لها بحكومة بيرو العصرية إنه هناك يجلس في شموخ وينظر إلى الناس من أعلى.. صدره منفوش وهو مزركش بالحلى كأنه ببغاء يبدو شريرا كما ينبغي له أن يكون، لكن ملامحه ليست واضحة على كل حال.

جوميز...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحثت عن جدار تقف جواره..

نظرت حولها فلم تر أحدا ينظر لها.. كل الناس ينظرون للموكب الفخم.. الراقصات.. العبيد.. النمور المكبلة.. ثم رأت الرجال الفهود الذين زاروا كوابيسها كثيرا.. الأمر سهل.. مجموعة من الرجال لهم رأس فهد.. لا يحتاج الأمر لتعقيدات أكثر!

كانوا فارعي القامة مفعمين بالهيبة.. يتقدمون ملوحين بالمخالب ويزأرون.. ومن الواضح أنك لا تستطيع التفاهم معهم أبدا..

لا أحد يراها.. لا أحد ينظر لها..

ربما لو استطاعت أن تفعل كما فعل لي هارفي أوزوالد مع كنيدى.. لكن الأول كان مزودا ببندقية بتلسكوب. هي تحمل قصبة طويلة فيها سهم مسموم.. لقد وجدته في حزام سانشيز.

سوف أنتقم لأبي وأمي صحيح أنه لن يتألم بما يكفي لكن هذا هو الحل الوحيد مع إمبراطور تحيط به كل هذه الحراسة..

قربت الأنبوب من شفتيها.. و... فووووووووووووه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالطبع لا يوجد حظ حسن لهذا الحد حتى في فانتازيا..

يمكن الرهان على حظ المبتدئين لكنه ليس ساريا طيلة الوقت..

لقد طار السهم بقوة.. لكنه لم يصب جوميز.. حلق حتى دنا منه ثم تهاوي ليضرب كتف أحد العبيد حاملي المحفة.. وتهاوي العبد وسط ذهول الحضور ودهشتهم، فكاد الرجل الجالس على المحفة يسقط بدوره.. يحتاجون إلى وقت طويل حتى يعرفوا أن العبد ليس أحمق ولكنه ميت.

هنا فقط نظروا للخلف..

وهنا فقط كان الشخص الوحيد الغريب والذي يقف في مكان عال بقرب الموكب هو عبير، صرخ جوميز:

- أولا هالاه!

طبعا نحن لا نجيد لغة الإنكا، لكننا نستنتج: اقبضوا على هذه الفتاة لكن لا تقتلوها.. أريدها حية..

ولم تكن عبير قد هربت أو حاولت التملص.. كانت في هذه اللحظة بالذات تضع سهما آخر في قاذف السهام..

إن كان على أن أموت فلامت كأبطال الأساطير.. أليست هذه في النهاية رحلة البطل؟..

صوبت الماسورة نحو جوميز قبل أن تبلغها أيدي الغاضبين وقبل أن يشهر الجنود حرابهم ورماحهم، وقبل أن يجد جوميز من الوقت ما يكفي إلا ليغطي وجهه..

فوووووه!

طار السهم هذه المرة ليستقر في عنق الرجل، ورأته عبير يتراخى.. اللعاب يسيل من جانب فمه ثم يسقط فوق الذين يحملون المحفة.. لو كان ساحرا حقا فهو لم يجد فرصة سانحة لاستغلال سحره..

لقد فعلتها. فعلتها!

هنا انقض عليها الحراس.. وقبل أن تفهم ما يدور كانوا قد راحوا يكيلون لها الضربات والركلات، بينما أحدهم يصيح آمرا:

- أولا هالاه!

طبعا نحن صرنا نعرف أن معنى هذا غالبا هو اقبضوا على هذه الفتاة لكن لا تقتلوها.. أريدها حية..

وأدركت أنهم لن يقتلوها.. سوف يخضعونها للاستجواب.

وداعا جوميز. لم نتعرف جيدا ولا أعرف عنك سوى ما قاله البروفسور الفرنسي (بيير لافاييت)، لكني نجحت في الخلاص منك على كل حال.. هذا يسر النفس بصراحة..

سرعان ما قذفوها في قفص من الخشب.. قفص عملاق يشبه أقفاص الوحوش..

رائحة كريهة جدا.. من الأفضل أن يقتلوها.. إنها من الطراز الذي يفضل الموت على الاشمئزاز، وحقا كان هناك الكثير من الاشمئزاز مدخرا لها في هذا الوكر.

جلست على الأرض الموحلة وحاولت أن تتماسك..

وهنا سمعت في الظلام من يقول لها:

- أنت نلت الجائزة.. مبروك!

بالطبع يمكنها تخمين من يتكلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- البعث..

نظرت في الظلام إلى الشخص الجالس هناك.

تعرف أنه كامبل الذي يقوم بدور المرشد في هذه المغامرة منذ البداية..

كان جالسا وفي يده نصف قرعة يبدو أنها تستعمل كإناء ماء هنا..

قالت له وهي تهرش رأسها:

- جائزة؟.. لم أشعر بمتعة عظيمة برغم أنني قتلته..

قال كامبل:

- هذه مرحلة الحصول على الجائزة في رحلة البطل.. السيف - التفاحة - الجوهرة الميكروفيلم.. إلخ. الآن صرت بطلة حقا. هنا تكمن المتعة الكبرى؛ لأنك لا تستمتعين بالحياة أبدا مثلما تستمتعين بها بعد ما أيقنت بالموت..

مدت ساقيها أمامها وقالت في ملل:

- وماذا بعد؟.. هل صرت بطلة وسوف يقطعون رأسي؟.. أي إنني سأصير بطلة ملحمية؟

- ليس بالضبط.. سوف تبدأ مرحلة (طريق العودة). حيث يحاول الخصوم في انتفاضة أخيرة منعك من العودة بمكاسبك. البطل لم يخرج من المستنقعات أو غرفة الميكروفيلم أو قاعة المومياوات بعد..

هنا سمعت صوت جلبة بالخارج..

ظهر حراس غلاظ أشداء مدججون بالرماح.. يذكرونك بالجنود في قصة (أهولا) الشهيرة.. تقدموا بين الأقفاص حتى بلغوا مكانها ثم أخرجوها.

يبدو أن موعد الإعدام قد حان..

سمعت كامبل يصيح بها:

- لا تقلقي. رحلة البطل لم تنته بعد!

- متأكد؟

- بالتأكيد..

إنهم يحملونها على الأعناق إلى ساحة واسعة احتشد فيها شعب الإنكا بثيابه المميزة، وهم يرددون بلا توقف:

- نجاة.. نجاة!

شعرت عبير بالرضا لأنها ستفلت.. لقد سامحوها.. لكنها لا تعرف أن معنى هذه الكلمة (نجاة)

هو (اقتلوها) بلغتهم!..

للأسف هي مقيدة لا تستطيع عمل شيء لنفسها ولا يمكنها أن تخرج القلادة.. شيء يحدثها بأنها لو أخرجت القلادة لسجد كل هؤلاء لها باعتبارها الإمبراطور الشرعي الذي يرث أتاهولابا.. لكنها لا تستطيع سوى الصراخ، وصوتها يذوب وسط صياح الناس وهتافهم.. إن المدينة المفقودة ستتذكر هذا اليوم طويلا..

أخيرا يقيدونها إلى جذع شجرة عملاق بحيث وجدت نفسها معلقة فوق الأرض عاجزة عن الحركة..

رفعت عينيها فرأت مشهدا مذهلا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هناك نار مشتعلة تبلغ عنان السماء..

هل سيحرقونها؟

رأت الناس يرقصون حول هذه النار ويلقون فيها أشياء.. ثم رأت منصة عالية يقف خلفها كاهن.. ورأت فتاة - عذراء طبعا - تتقدم لتنام على المذبح، فيرفع الكاهن ذراعه بسيف بتار ويهوي على عنقها..!

القرابين البشرية!... جزء أصيل من الثقافة الدينية لدى الأديان غير السماوية.. أي الأديان التي اخترعها الناس.. الدماء سوف تسيل على المذبح وسوف يلطخ الساحر وجهه بها..

المشكلة هي: هل دورها قادم؟

إنها على كل حال تستحق أقسى عقاب ممكن.. لقد فتكت بالإمبراطور شخصيا.. هنا فوجئت بمشهد جمد الدم في عروقها..

رأت من وسط النيران شيئا ينهض.. يستطيل..

ومن مكان ما خرج الرجال الفهود يزأرون ويرقصون حول النيران.. ومن قلب اللهب خرج (جوميز)... خرج وقد بدت عليه مخايل النصر كاملة..

يجب أن تتوقع هذا.. الساحر لن يموت بسهولة أبدا..

الإمبراطور عاد من الموت.. ربما هو لم يمت فعلا واستطاعوا أن يعالجوه من تسمم الكورار.. لا تعرف.. لكن من المؤكد أنه يخرج من النار ويشير لها.. إن عينيه تحملان كل سمات الشر.. إنه الشيطان مجسدا..

وبينما تتزايد الرقصة شعرت بآلام حادة في ساقيها ماذا يحدث؟.. أي!... آلام في عنقها.. أي!.. آلام في ذراعها..

هذا الشعور يشبه حرق السجائر نوعا.. لكن ما هو بالضبط؟..

هل يلسعونها بألف سيجارة؟

ثم بدأت تفهم عندما نظرت لأسفل.. إن نملا عظيم الحجم يتسلق جسدها.. سمعت عن هذا النمل العملاق آكل البشر من قبل. كانت هذه طريقة إعدام قديمة. الشجرة المقدسة التي يعيش فيها هذا النمل.. خذ لصا هناك واربطه وادهنه بالعسل أو لا تدهنه بعد نصف ساعة يمكنك أن تجد هيكلا عظميا نظيفا وآية في الجمال.

إذن هم يفضلون لها الموت البطيء عن طريق التهام النمل لها..

لكنهم بالتأكيد مخطئون.

هكذا راحت تكلم جحافل النمل.. لقد قدم لها الناصح خدمة العمر عندما علمها كيف تخاطب الحيوانات والحشرات.. هذه خبرة مهمة جدا هنا..

راحت تتكلم..

ابتعدوا عني.. هاجموا هؤلاء.. لا تؤذوني.

لم تعرف إن كانت قد أصابت أو أخطأت إلا عندما صرخ أول واحد في الجماهير.. ثم صرخ آخر.. ثم صرخ ثالث... ورأت أن أحدهم ينهض والنمل يكسو وجها فيصرخ ثم يسقط على الأرض.

نظرت للسماء.. هناك سرب من الطيور..

أنقذوني.. هاجموا هؤلاء الحمقى... أين الكوندور؟

هنا سمعت الصراخ.. ما رأته هو رجل يتلوى بينما نسر عملاق هائل ينشب مخالبه في وجهه...

وسادت الفوضى.. هناك نمل يهاجم أقدام الناس وهناك نسور تهاجم رءوسهم وعيونهم.. ومن حولها راح الجميع يتفرقون والزحام ينفض.

شعرت به.. الأرماديللو قريب جدا.. إنه على بعد خطوات.

تعال هنا.. أنا بحاجة لك..

وبعد قليل شعرت. مشمئزة - باللعاب الدافئ على ساعديها... وشعرت بمن يحاول تمزيق الحبال بأسنانه.. أخيرا تقدر على تحريك ذراعيها.. ثم شعرت بأن قدميها تتحرران فتهبط من على جذع الشجرة..

هناك رأت أن الساحة تحولت لمهرجان كامل. الكل يصرخ.. الكل يجري.. النمل في كل مكان..

جوميز يقف هناك يراقب ما يحدث غير مصدق.

صاحت عبير وهي تشير له:

- أنت ستدفع ثمن وفاة أبي وأمي.. أنت ذبحتهما!

- أبوك وأمك؟

- نعم أيها السفاح.. باريس... أنا وريثة أتاهولابا يا أحمق!

ومدت يدها ولوحت بالقلادة التي كانت تعلقها على صدرها..

هنا صرخ جوميز في رجاله كأنه مجنون أو لسعة الحساء:

- أولا هالاه!

كما فهمنا.. غالبا معناها: هاتوا لى هذه الفتاة حية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركض عبير فارة من المدينة...

تسمع زئير الفهود من خلفها.. تلهث.. يجب أن تحاول السيطرة على هؤلاء الرجال الفهود.. أليسوا في النهاية حيوانات؟

لكن لا.. من الواضح أن سيطرة جوميز عليهم أقوى..

في الخارج راحت تركض بين الصخور.. هي لم تجرب هذا المخرج من قبل..

هل تجد جدارا صخريا فجأة؟

هل تنتهي مغامرتها الآن؟

فجأة وجدت أن هناك نهرا يقطع الطريق فعلا.. بداية نهر أولو بانبا بالتأكيد.

نظرت للخلف فرأت أن الرجال الفهود قادمون..

ماذا تفعل؟

لم يعد من حل سوى الوثب في الماء.. هي لا تجيد السباحة لكن الغرق أفضل على كل حال.. ثم وجدت أن قدميها على الأرض وأنها قادرة على المشي النهر ليس عميقا وليس ضحلا.. ارتفاع الماء يبلغ صدرها..

هكذا راحت تشق طريقها بصعوبة نحو الضفة الأخرى وهي تنظر للخلف..

هنا رأت أن الفهود تتبعها وهي تزأر.. يا للمشهد الشنيع!..

أجساد رجال أقوياء البنية لكن لهم رءوس فهود.. المنظر الذي يذكرها بالمذءوبين.

ماذا تفعل؟

سمعت صوت الأسماك..

أسماك البيرانها هنا!

في كل مجرى مائي في هذه البلاد يوجد سمك بيرانها.. وهو سمك صغير الحجم لكن قوة فكية

كاسحة، وبعض مجارى نهر الأمازون لا يمكن عبورها.. يلقي الفلاحون في النهر ببقرة ضعيفة مريضة لينهمك السمك بها ثم يعبرون بباقي القطيع.. هنا لا ترى سوى الماء يفور.. يفور..

هلم يا سمك البرانها.. أنا في مأزق..

هلم.. كن صديقي.

وكانت الآن على درجة عالية من الثقة تسمح لها بأن تعرف أن الصراخ سيدوي حالا... بالفعل دوي الصراخ وفارت المياه في عدة أماكن.. يبدأ الفوران أبيض ثم يصير أحمر بسرعة وتتطاير الأطراف في الهواء.. ربما رأيت سمكة أو اثنتين تثبان في الهواء ثم تتواريان.

عندما بلغت الضفة الأخرى كان النهر قد صار أحمر.. ولم يعد هناك فهود.

لقد تم الانتصار الثاني الذي أطلق عليه كامبل اسم (البعث)...

وهنا وجدت أن جوميز يقف في انتظارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- الإكسير..

كانت زاهدة في هذا اللقاء كل الزهد، لذا استدارت وراحت تجد السير وسط النهر إلى الضفة الأخرى.

شهقت وأخذت نفسا عميقا وهي ترى الماء الملوث بالدم.. ثم رفعت عينيها لأعلى فوجدت جوميز هناك!

أصابها الذهول..

عادت تشق طريقها نحو الضفة الأخرى. وعندما رفعت عينها وجدته واقفا.. يعقد ذراعيه على صدره..

أدونيس.. الراعي الوسيم أدونيس في الميثولوجيا اليونانية مر بتجربة كهذه عندما أعجبت به ربة من رباتهم.. لا تذكر الاسم لأن الربات الوثنيات في الأساطير الإغريقية كلهن يعشقن الرجال البشريين ويهبطون من السماء كلما رأوا واحدا وسيما!

هكذا راحت تنتظره عند الضفة، فإذا سبح للضفة الأخرى وجدها تنتظره.. شيء لا ينتهي.. والمشكلة أنه كان يخجل من الظهور عاريا..

المهم.. يبدو أن جوميز قرأ هذه الأسطورة.. الحمد لله أنها بثيابها الكاملة..

لهذا وفي النهاية خرجت من الماء ووقفت أمامه..

بصقت الماء وسعلت.. ثم قالت له وهي تعتصر شعرها:

- اسمع.. يمكنك أن تحاول قتلى لكن لا أنصح بهذا.. قلت لك إنني وريثة أتاهولابا من قبل أن يأتي الإسبان.. سواء أردت أو لم ترد..

ظل صامتا ينظر لها بوجهه القاسي الذي لوحته الشمس.. كان جلده محترقا وهناك انتفاخ في عنقه.. باختصار يبدو فعلا كأنه عاد من عالم الموت بشكل ما..

قال لها بصوت جاف ثابت:

أنت لا تفهمين شيئا.. أنت فعلا وريثة أتاهولابا.

- تعترف بهذا؟

- بل أدعو له!.. لقد كنا في انتظارك!

قالت عبير وهي تضرب رأسها قبل أن تجن:

- عم تتكلم بالضبط؟

- أنت سمعت ما قلت..

- ولماذا قتلت أبوي؟

ضحك طويلا.. طوح برأسه للخلف وراح يهتز ثم قال:

- نبوءة الإنكا تقول إن ابنة الشمس سوف تضيع.. ثم تعود عندما تقتل أبويها!!

- عم تتكلم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم رأت ذلك الخيال المسربل بالظلمة يتقدم نحو البيت.. الباب كان لا يغلق أبدا لذا لم يبذل الغريب جهدا في فتحه.. دخل..

وهي كانت وحدها في الخارج تراقب ما يحدث في دهشة...

زائر في هذا الوقت؟.. شيء غريب نوعا..

سمعت صرخة تدوي في الظلام:

- جوتيريز... بحق الآلهة لا تفعل!

كان هذا صوت أمها..

سوف تظل للأبد. تذكر هذه الصرخة المذعورة المتوسلة..

ما لن تنساه كذلك هو صوت الغناء.. نعم صوت غناء موقع يدوي من البيت.. صوت لا يمت لأبيها ولا أمها بصلة..

ثم ظهر الخيال من جديد.. هذه المرة كان يجري..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت عبير:

- أنا رأيت المشهد.. أنت قتلت أبوى!

ثم تذكرت.. لماذا قالت الأم جوتيريز ولم تقل جوميز؟..

ما السبب؟

قال جوميز وهو يلوح بصولجانه:

ذاكرة خادعة ملفقة.. أنت نفذت النبوءة وقد منحتك قوة لا يمكن أن تكون لطفل في الخامسة.. أنت تسللت للكوخ وقتلت أباك وأمك وهما نائمان.. كنت تلبين نداء الأجداد الذي يقضي بأن تكوني يتيمة، وبعدها نسيت الأمر وتخيلت أن غريبا تسلل وقتلهما.. وعندها عرفت أنا أن الوقت قد حان وسافرت لفرنسا أبحث عنك واستعنت بخبرات بروفسور فرنسي.. لكني لم أجدك ولم أعرف كيف أستمر. هكذا عدت إلى هنا ورحت أعد المكان لقدومك.. أعدت إمبراطورية الإنكا على خير صورة.. علمتهم الطقوس كلها.. كان الجميع ينتظر سليلة أتاهولابا... وإن حسب الناس أنني إمبراطور.. لا.. كنت أعد المسرح لقدوم الإمبراطور..

- أنت.. أنت أرسلت الرجال الفهود لقتلي وسرقة القلادة..

- لم أفعل.. هم فعلوا لأنهم أرادوا الاستيلاء على العرش..

كانت عبير ترتجف.. لا تصدق..

إذن كانت تحاول الانتقام من قاتل أبويها.. بينما كانت هي قاتل أبويها..

لكن لابد أنه يلهو بها.. لابد أنه يحاول خداعها ثم يقتلها.. إنه وغد ومن الواضح أنه لا يمكن الثقة به.

ثمة صوت..

تسمع الصوت بين الأشجار وتدرك أن ثعبان الأناكوندا هناك.. ليس راغبا في القتال ولا يريد الاشتباك.. لقد التهم خنزيرا وصار متخما كسولا..

لكنها تهمس له: أنقذني.. تعال لوجبة إضافية..

كان جوميز يقف أمامها ويقول:

- من الذي علمك فن السيطرة على الحيوانات؟.. أنا أعلم ضروب السحر كلها لكن هذا فن لا أقدر عليه..

قالت وهي تنظر من فوق كتفه:

- تلقيت دروسا خصوصية عند من يدعي خوان بدرو.. كانت مجموعة خاصة...

- إنه بارع حقا....

ثم صمت للحظة واستدار ليرى ما تنظر له..

هنا وجد أنه يحدق في وجه ثعبان الأناكوندا العجوز. وقبل أن يتراجع كان الثعبان قد لف نفسه من حوله ثلاث أو أربع لفات وبدأ يعتصر.. وسمعت عبير صوت ضلوع تتهشم.

قال لها وهو يرتجف:

- مريه أن يتركني.. سأكون لك خير حليف!

- أفضل أن تكون له خير وجبة عشاء..

وراحت تراقب الوحش الأسطواني يلتف بإحكام حول الرجل.. الرجل تجحظ عيناه ويبرز لسانه.. ازرق لونه لعجزه عن التنفس..

جوميز يموت للمرة الثانية وهي الأقسى..

لم تنتظر حتى يبدأ الابتلاع وابتعدت دون أن تنظر الخلف..

هنا سمعت صوت كامبل يركض جوارها..

جاء من مكان ما على طريقة المرشد.. وكان في أسوأ حال بعدما فتك به داء شاجا فعلا.. إن بق الترياتوما فعال جدا هنا.. لقد تضخم قلبه فلم يعد قادرا على المشي الحثيث..

قالت له:

- أرجو أن تكون راضيا.. المفترض أنني الإمبراطورة اليوم..

قال لها لاهثا:

- هذه هي خطوة (العودة بالإكسير).. وهذا الإكسير قد يكون الكنز الذي دخل البطل الكهف لأجله، وقد يكون الحكمة، وقد يكون العودة للوطن سالما بقصة جيدة...

- وأنا؟.. ماذا اكتسبت؟

- اكتسبت الحكمة.. الكثير منها.. دعك من أنك اكتشفت حقيقة أنك فعلا قتلت أبويك ثم قضيت حياتك تتدربين على الانتقام من قاتلهما..

- طبعا تريد أن أنتحر؟ لكن أنا لم أكن مسئولة عن القتل ولم أشعر بأني قتلت..

- لا أطالبك بهذا برغم إرادتك.. لكنه سيجعل الأسطورة أفضل بكثير..

جلست على صخرة وراحت تراقب ثعبان الأناكوندا من بعيد.. لحسن الحظ صار من العسير أن ترى ما يحدث هناك على العشب..

سألت كامبل:

- هل انتهت رحلة البطل الخاصة بي؟

- بالطبع.. لابد أن يمر بطلنا بهذه المراحل جميعا مع تغيير ملامحها أو حذف بعضها من قصة إلى أخرى.. الناصح لن يظل امرأة عجوزا بل هو مدير المخابرات أو عالم نفسي.. الكهف ليس كهفا دائما بل هو مقر المخابرات المركزية أو مفاعل نووي.. الجائزة هي سيف أو ميكروفيلم أو فيروس جديد..

- هذا يجعل تأليف القصص سهلا..

- بالتأكيد.. وهذه هي المشكلة.. إن مفهوم هذه الرحلة له عيوبه وآثاره السلبية على السرد عندما يتمسك العمل الفني بهذا المفهوم أكثر من اللازم، ويكون واعيا به أكثر من اللازم، نجد أن الأحداث متوقعة.. ونجد أن كل المغامرات تأتي في قوالب محفوظة..

نهضت عبير ونفضت التراب عن ثيابها..

ثم نظرت له في امتنان وسألت:

- هل لي أن أذهب الآن؟

- بالطبع يمكنك.. لكن تذكري أن رحلتك الخاصة يمكن أن تكون على ذات المنوال.. وتذكري أن أبطال الواقع مثل غاندي وبوذا إلخ.. نفذوا أنماط البطل في الحكاية الشعبية لا شعوريا.. فهم قد خرجوا في رحلة بطل عادوا منها مظفرين بجوائزهم، وهذا هو سبب خلود قصصهم..

- وداعا د. كامبل..

- وداعا يا فتاة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القصة القادمة تدخل عبير عالم ألعاب الكمبيوتر لتواجه أخطر الخصوم وتجتاز أعقد المتاهات.. لكنها تكتشف أن الخروج صعب جدا

(تمت بحمد الله)

نادي المحاربين الجدد

فقدت الكثير جدا من أعمال القراء بسبب فيروس تسلل لجهاز الكمبيوتر الخاص بي، والمشكلة هي أن كل الأعمال اليوم تصل بشكل رقمي.. كنت أضع على رأس القائمة د. عمرو نايل والمحاسب حسام يحيى ثم وجدت أن الملف الخاص بهما صار فارغا.. ألعاب الكمبيوتر السخيفة لا تنتهي، وإنني لأرجو أن يتكرما ويرسلا لى الملفات السابقة من جديد. لهذا السبب أكتفي ببعض الخواطر الشعرية المنثورة للصديقة مها محمد من كلية هندسة طنطا، وقد أرسلتها لي بعد ندوة أقيمت هناك، وهي تطلب رأيي:

لم يعد الحب في حد ذاته هو المشكلة

كان قديما (في حياتي) الحب هو كل شيء وأي شيء وهو الحياة..

وحتى أكون مجحفة كان أكبر كثيرا من الحياة

كان الحياة والموت..

لقد تغيرت..

لم أعد أجد كل شيء في الحب..

لم يعد ضالتي..

ليس لأني وجدت الحب الأفلاطوني السامي (الذي طالما بحثت عنه) فتشبعت منه وأصبحت ناكرة..

ولكن ربما لأني لم أجده بعد..

لقد أصبحت أشعر أن الحب مجرد فصل من الفصول..

ليس الصيف بحرارته وعنفوانه..

ولا الشتاء بخيره وبراءته..

ولن يكون الربيع بدفئه وأزهاره..

إنما هو الخريف الذي تفقد فيه الأشجار هيبتها وبهاءها..

وتتجرد فيه الحياة من طيبتها ليظهر وجهها القاسي الذي لا يرحم..

لم أجد أحدا يوما يفضل الخريف..

وجدت من يحب الشتاء ويفضل الصيف ويعشق الربيع..

لكن لم يكن للخريف نصيب..

لم يكن أبدا شغفا لأحد..

أنا كاذبة..

لقد كان الخريف يوما ما شغفي..

ولكن لم يعد الحب شغفي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالطبع ليس عملا مذهلا يدير الرءوس وليس من أشعار ناظم حكمت. لكن فيه سلاسة وجمال.. وخاصة المقطع الأخير الذي تعترف فيه بأنها أحبت الخريف.. رقيقة ولا شك، لكننا لم نصل بعد لجذوة الفن المتوهجة التي تميزها عن أي فتاة أخرى تكتب خواطرها.. ما زالت مها في بداية الطريق.. لكنها بالتأكيد تربة خصبة وصالحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العمل الثاني قريب جدا من هذا:

باحثة والبحث ما زال قائما..

يبدو أنني لست موهوبة..

لن أكون كاتبة يوما ولم أكن..

وإلا لما هربت كل الأفكار والكلمات من رأسي..

أكاد أجزم بأني أركض وراءها ولا أستطيع استيقافها أو حتى لمسها..

أو ربما أنا أجرى وراء سراب..

أنا أجري في الظلام ولا أري طريقي..

أحتاج إلى بادرة ضوء فلقد انطفأ نوري واختفي وهجي..

ربما أصبحت عمياء..

حتى لو كنت عمياء.

ألا يوجد من يمد لى يد المساعدة..

أتذكر نعم أذكر يوم كان طريقي ملؤه الكلمات والحكايات والمشاعر والأسرار و...

لم يكن ممهدا ولا مفروشا بالأزهار..

ولم تكن الحياة سائغة العيش..

فطالما كانت جافة إلا من الكلمات التي كانت مركبي وشراعي ومنقذي وهروبي وعالمي الخاص وملاذي..

أما الآن....

فربما أصبحت بليدة المشاعر وقاسية.

أرض بور لا تنبت...

أو مات ما بداخلي..

أتمنى أن يكون هذا كابوسا وأستيقظ منه لأكتب ما مررت به!

ربما!

إذا كان كابوسا فهذا أسوأ حتى من أسوأ كوابيسي..

ولكن يا للعجب إنه مليء بالكلمات...

رأي القارئ مهم جدا، لكني أكرر نفس الرأي السابق.. تربة خصبة وعالم رقيق لكنه ما زال في بداية البداية. يجب أن تقرئي كثيرا يا مها.. اكتبي كل يوم ولا تعرضي ما كتبت على أحد فلربما يكون باتر اللسان أو فظا. بعد ثلاث سنوات سنرى نتيجة ملحوظة.

أكرر أسفي.. وأشكركم على إنصاتكم لي.

د. أحمد خالد

البطل ذو الألف وجه

لسنا في قناة التعليم فنون الطهي بالضبط، لكننا اليوم ندخل المطبخ معا لنعرف بالضبط المقادير والخلطة اللازمة لصناعة أسطورة..

(عبير) تستكشف هذا العالم الساحر، وتعرف أن بوسعها أن تصمم مغامرتها الخاصة كذلك.

والأهم أن معها (كامبل).. العبقري الذي اكتشف أسرار الطبخ كلها، وأول من تحدث عن. البطل ذي الألف وجه.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفـهرس:

الملاحظات

[←1]
صدرتا ككتب نصية بالفعل، وقد كان الاختيار بالضغط على لينك الاختيار فينقلك مباشرة الى صفحة اختيارك!! تجربة فريدة، وعمل رائع قام به فريق (النخبة) عند تحويل هذه الكتب للصيغة النصية، ونحن هنا نسجل اعجابنا وتقديرنا له.

[←2]

( ) هذا الجزء من قصة (غريبو الأطوار) للمؤلف.

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

59

فى جحيم الألعاب





د. أحمد خالد توفيق


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (59)

فى جحيم الألعاب

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا فى رحلتها. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى.. هذه المرة تقرؤها على شاشة جهاز الإنترنت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشكر حتمي لمن ساعدني - حتى وإن لم يعرف – على تقديم هذه القصة فى موضوع لم أكن أعرف عنه إلا أقل القليل: شباب شبكة روايات الذين درست بعناية مناقشاتهم فى منتدى التكنولوجيا حول ألعاب الفيديو، ومنها انطلقت إلى شبكة الإنترنت لأعرف أكثر، وإن كانت معرفة مليئة بالثغرات، لأن هذا عالم متكامل شديد التعقيد من الصعب أن يتعلمه المرء متأخرًا. أشكر كذلك الصديق السعودي (نايف قبوري) الذى اقترح علىّ يومًا ما منذ أعوام فى خطابه أن تكون (عبير) هى (لارا كروفت) فلم أفهم ما يقول.. اليوم تذكرت يا (نايف).. تذكرت وفهمت وتحمست.. وبالطبع أشكر (محمد) ابنى الذى يعيش فى عالم كامل من هذه الألعاب.. يتنفسها.. يحلم بها.. والذى جلست معه جلسة طويلة جدًّا أدون ما يقول فى مفكرتي..

1- مغامرة أخرى..

وكان المرشد ينتظرها.. يداه فى جيبيه ومن خلفه قطار (فانتازيا) المضحك..

قال لها وهو يرفع قدمه ليتسلق إلى داخل القطار:

- «يبدو أن موعد رحلة جديدة قد حان يا فتاة..»

لم ترد وصعدت معه إلى القطار.. وفى ذهنها راحت تتساءل عن الشىء الذى سيفاجئها به هذه المرة.. إن أكثر مفاجآته كئيبة على كل حال.. لقد فاجأها من قبل برحلة (هيروشيما) يوم انفجار القنبلة.. وفاجأها بأن تكون (عشتار).. وفاجأها بأن تكون هى المسئولة عن (الأوديسة) كلها.. ماذا ينتظرها اليوم؟

وكأنما قد سمع ما كانت تريد قوله قال وهو يدق على سقف العربة:

- «لا تنسى أننى لا أختار.. أنت تفعلين.. فقط أنا أمهِّد لكِ الأمور..»

وما لم يقله لها طبعًا هو أنه يغريها لتنزلق إلى الفخ ببطء وسلاسة.. كانت هناك لعبة ورق قديمة تحتفظ فيها بورقة فى جيبك ولتكن الستة مثلًا.. ثم تطلب ممن تلعب معه أن يختار خمسة أرقام.. فإذا اختار الستة من بينها كان بها، وإلا طلبت منه أن يختار من بين الأرقام الباقية.. وهكذا تقوده دون أن يشعر إلى اختيار رقم ستة.. إنه يلعب معها اللعبة ذاتها لكن بمقاييس مختلفة..

راحت تنظر من النافذة إلى معالم (فانتازيا) التى تتغير فى كل مرة.. قصص (هكسلي).. قصص (هوجو).. قصص (بلزاك)... قصص (أجاثا كريستي).. البعض يبدو الآن مألوفًا لها والبعض لا.. كانت الآن قد فهمت قواعد (فانتازيا).. لقد قابلت (بوارو) من قبل.. مرتين فى الواقع، لكنها لو قابلته الآن لعاشت مغامرة لم تمر بها من قبل..

قال لها المرشد فى شرود وهو ينظر خارج النافذة:

- « هه؟.. هل اخترتِ شيئًا؟»

ظلت تنظر شاعرة بالذنب.. أحيانًا ما تختار لمجرد أن ترضيه.. لكنها اليوم ترغب فعلًا أن تجرب شيئًا جديدًا غير مسبوق...

هنا وقعت عيناها على مشهد فريد..

كانت هناك دبابة عملاقة.. دبابة لا تبدو كأية دبابة رأتها، تزحف فوق الثلوج.. ولم تكن تقذف النيران من مدفع برجها كالعادة إنما هى تنثره من يدين ميكانيكتين عملاقتين.. حتى بدت كأنها كائن حديدي حى.. وكان هناك رجال أشداء يبدون كرواد الفضاء فى ثيابهم البراقة يركضون ذات اليمين واليسار، وهم يصوبون مدافعهم إلى برج الدبابة... كان كل شيء يتم بسرعة مذهلة، مع الكثير من الإبهار..

قال لها المرشد شارحًا:

- «هذا عالم....»

قالت فى ملل:

- «نعم.. نعم.. عالم قصص الخيال العلمي.. جربته أكثر من مرة..»

قال متضايقًا:

- «ليس الخيال العلمي فقط.. أحيانًا ما يكون الرعب مهًّما فى ألعاب الفيديو..»

نظرت له فى حيرة:

- «ألعاب فيديو؟»

- «نعم.. هذا هو قطاع ألعاب الفيديو هنا.. أنت تعرفين أن ألعاب الفيديو صارت ثقافة فى حد ذاتها.. كل عمل أدبى ناجح يتحول إلى فيلم والفيلم يتحول إلى لعبة فيديو.. أحيانًا يحدث العكس.. إن لعبة (الوهم الأخير) تحولت إلى فيلم سينمائي وكذا لعبة (غازية القبور) ... بينما أفلام سينمائية شهيرة مثل (هارى بوتر) تحولت إلى ألعاب فيديو... لاحظى أن الأخير كان عملًا أدبيًّا..»

قالت فى حيرة:

- «وما دخلي أنا بهذا؟»

- «أولًا هذه الألعاب صارت جزءًا مهمًا من ثقافة الشاب المعاصر.. لا أعنى أنها ثقافة بالضبط لكنها جزء من عالمه.. جزء من مكونات شخصيته.. ثانيًا أنت تملكين خبرة لا بأس بها بهذه الأمور منذ كنت تشغلين ألعاب الفيديو للصبية فى مكتب (صفوت).. هذه الخبرات استقرت فى وعيك وهى الآن تعلن عن نفسها.. ولابد أنك بحثت عن الجديد عدة مرات..»

نظرت للخارج حيث كانت الأخت (لارا كروفت) تواجه مومياء خرجت من جدار مقبرة.. وسألته:

- «وما دوري فى قصة كهذه؟»

قال بلا مبالاة:

- «وكيف لى أن أعرف؟ إن (فانتازيا) تختار لكِ الإطار الذى يناسبك..»

ثم أضاف:

- «سوف تدخلين عالم الوهم، وعندها ستعرفين من أنتِ وما يجب عمله..»

- «أنت مفيد جدًّا..»

قال فى كبرياء:

- «ليس هذا كل شىء.. فى البداية سيكون اسمك (مارى مكدونالد).. الكاتبة الأمريكية الشهيرة التى اشتهرت بمقالاتها المطولة فى (نيويورك تايمز) عن ألعاب الفيديو..»

- «هل هناك فعلًا كاتبة بهذا الاسم؟»

قال فى ضيق:

- «فى (فانتازيا) لا نسأل أسئلة كهذه.. الخيال له ذات قوة الواقع.. ربما أكثر منه واقعية.. لكن لأريحك.. لا يوجد شىء كهذا بالضبط وإن كان هناك مما يشبهه كثير.. إن هى إلا مجرد ذريعة كى ندخلكِ عالم القصة..»

ونظرت لنفسها ففوجئت بأنها صارت كاتبة أمريكية تدعى (مارى مكدونالد) اشتهرت بمقالاتها المطولة فى (نيويورك تايمز) عن ألعاب الفيديو.. تعرفون هذا الطراز طبعًا.. كانت الآن امرأة فى الأربعين أنيقة.. تلبس تايورًا كحليًا وشعرها أشقر معقوص بشكل عملي يوحى بأنها لا تمزح.. وأدركت أنها قوية الشخصية عنيدة المراس.. من الطراز الذى يطلقون عليه Self-managed..

لقد بدأت القصة ولم يعد بوسع أحد أن يوقفها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- فى جحيم الألعاب..

عندما اختُطفت وهى تفتح باب سيارتها فى المرآب، لم تندهش كثيرًا.. كل النساء الأمريكيات يُختطَفن أو يُقتلن وهن يفتحن سياراتهن فى المرآب، ويبدو أن هذا نشاط يومي لهن.. فلماذا تختلف هى؟

قطعة من القماش المبلل برائحة كيماوية ما وضعت على أنفها، وخطر لها أن هذه الرائحة تشبه الأسيتون الذى كانت تزيل به الطلاء عن أظفارها.. ربما هى رائحة أحد المذيبات العضوية.. ثم أدركت أن هذه رائحة ثلاث ذرات من الكلور وذرة كربون وذرة هيدروجين.. إنه الكلوروفورم! يا للكارثة!..

على سبيل أداء الواجب قاومت وأطلقت الكثير من ال (م م م ف ف!!) ثم غابت عن الوعي راضية عما قامت به..

وانزلقت إلى الظلام المقدس....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أفاقت من غشيتها كانت جالسة.. النور النيون البارد يتسلل إلى وعيها ببطء.. يا لهذا الصداع!..

أخيرًا بدأت تتبين أبعاد القاعة التى تجلس فيها. تدرك أن هناك من يقف جوارها لا ليقيد حركتها ولكن ليتأكد من أنها لن تسقط عن المقعد... هذه المائدة الطويلة الممتدة إلى ما لا نهاية..

أين أنا بالضبط؟

رائحة دخان السيجار.. كلمات يابانية وإنجليزية وألمانية..

ترى مجموعة من السادة المهمين يجلسون إلى مقاعد متراصة بطول المائدة.. أمام كل منهم زجاجة ماء وزجاجة عصير.. مكبر صوت.. أباجورة صغيرة أنيقة.. جهاز كمبيوتر محمول.. والكل يرمقها فى مزيج من فضول وغل..

أخيرًا بدأ رأسها يستقر على كتفيها.. فرمشت بعينيها عدة مرات..

- «قدم لها بعض الماء البارد..»

واستقر الكوب المغطى بالبخار جوارها، فمدت يدًا ترتجف ورشفت منه القليل.. ثم عادت ترمق الجالسين بعينين متسائلتين..

كان أول من تكلم رجلًا فى الخمسين من العمر، له ملامح يابانية واضحة وإن بدا كرجال الأعمال اليابانيين المقيمين فى أمريكا، وكانت إنجليزيته ممتازة..

- «مسز (مكدونالد).. يسرنا أن نراك هنا برغم أن طريقة استحضارك لم تكن تقليدية جدًّا..»

قالت من بين أسنانها

- «(جون موشيموكازا) ... كان يجب أن أعرف..»

من هو (جون موشيموكازا)؟.. لا أعرف. و(عبير) لا تعرف.. لكن (مارى مكدونالد) تعرفه جيدًا كما هو واضح وتتوقع هذه السفالة.. دعنا نتابع المحادثة وسوف نفهم..

قال الرجل:

- «إن مقالاتك النارية قد بدأت تؤثر فى مبيعاتنا فعلًا.. ولهذا صار الأمر خارج نطاق المزاح..»

قالت فى سخرية:

- «يسعدني أن أعرف أن الكلمة لها كل هذا التأثير وإن لم أستبعد أنك تبالغ بعض الشىء..»

قال أحد الجالسين وهو أمريكى أصلع الرأس له سمت (التنفيذيين):

- «قلت فى مقالاتك إن الألعاب التى نقدمها تحتوى عنصرًا إدمانيًّا، وإن قدرات اللاعب الذهنية تتلاشى ببطء مع الوقت.. كما زعمت أننا نغرس العنف فى نفس الشباب ونعودهم أن الضغط على زر قد يأتى بالحل الأخير لأية مشكلة..»

قالت (عبير) فى صلابة وقد استعادت قدراتها العقلية:

- «لقد رأيت الألعاب الأخيرة.. هناك كمية دماء وأطراف مبتورة تفوق ما رأيته فى أية نشرة أخبار فى حياتي.. أنتم تتعمدون هذا..»

- «الأطفال يحبون هذه الأشياء... هناك فيلم شهير أعيد مونتاجه بناء على طلب المنتج لإضافة بعض مشاهد الدماء (كى لا نكسر بخاطر الأطفال) على حد تعبيره.. هل فهمت ما أعنيه؟.. لسنا ساديين.. لكننا نحاول أن نروج أعمالنا..»

فى غيظ قالت (عبير):

- «الناس تهوى الجنس والدماء.. لماذا لا تقدمون لهم فيلمًا عن تمزيق فتاة عارية وينتهى الأمر بدلًا من كل هذا الجهد؟»

- «لمعت عينا الرجل ونظر إلى زملائه وهتف فى حماس:

- «كيف لم نفكر فى هذا من قبل؟»

وهنا تدخل آخر وقال وهو يلوح بسيجار عملاق:

- «نحن نحاول تقديم أكبر قدر من الدماء والعنف لكن من دون أن يجرمنا أحد.. هذا هو ما يتخذ شكل الصراع الديالكتيكى بين الـ (هى) و(الأنا العليا).. بعبارة أوضح: بين الشهوات والضمير.... أو بين ما نريده وما تريده التقاليد.. من هنا تولد ألعابنا البارعة.. لو تركنا العنان لكل فرد فى المجتمع ليفعل ما يشاء لكانت طريقة كسب الرزق المثلى هى السرقة بالإكراه.. لكن تلك كانت أيام سعد لن تعود...»

قال رجل قصير القامة يضع عوينات غليظة:

- «هذه الألعاب عامة ليست إلا نوعًا من قص القصص بشكل تفاعلي.. السينما مثلًا تجعلك

تتقمصين الشخصية لكنك عاجزة عن تغيير سلوكها على الشاشة.. بينما ألعاب الفيديو تسمح لك بأن تكوني متفرجة ومؤلفة ومخرجة فى الآن ذاته.. ولا ننكر طبعًا أن هناك بعض الأفلام التفاعلية لكنها محدودة.. يمكنك هنا أن تغيري النهاية كما يحلو لك..»

قال اليابانى المتأمرك:

- «هذه تجارة عملاقة تتعامل بالملايين.. وكل لعبة موفقة يتم تصميمها فى الوقت ذاته لكل أنواع الحاسبات.. هكذا هناك سوقان مهمان لدى كل شركة: سوق الألعاب وسوق الأجهزة التى ستمارس عليها الألعاب. وكم من جهاز جيد سقط لأنه لم تصمم له ألعاب جيدة..»

قال آخر وهو يشير إلى مجموعة من الأجهزة على منضدة طويلة:

- «لن أتحدث عن محطات الألعاب (بلاي ستيشن) من (سونى) وجهاز ميكروسوفت X Box الذى يوشك على التحول إلى حصالة، لأنه لم تصمم له ألعاب قوية.. و(النايتندو) وجيم بوى ومكعب الألعاب... شركتنا (نايتندو) قدمت جهاز N64 وعيبه الأساسى ارتفاع ثمن ألعابه. ثم قدمت مكعب اللعب Game Cube بإمكانياته المذهلة التى لا يدرك المصممون أنفسهم مداها.. كما قدمت جيم بوى وجيم بوى أدفانس.. هذه المنافسة القاطعة للرقاب قد خسرتها (سيجا) بجهاز (دريم كاست Dreamcast) وجهاز (ميجا درايف) و(ساتيرن)..»

قال واحد فى حماس غاضب ويبدو أنه من شركة (سيجا):

- «لكننا ما زلنا أهم شركة أركيد Arcade.. لن نتخلى عن هذا اللقب بسهولة..»

عاد السابق يقول كأنما لم يسمع ما قيل:

- «بعض مصممي هذه الألعاب صاروا نجومًا... كأنهم شعراء ينتظر الناس قصيدتهم التالية.. مثل (يو سوزوكى) و(هيديو كوجيما)..»

عقدت (عبير) أناملها وسألت فى صبر:

- «هل جئتم بى هنا كى أسمع هذا الكلام؟»

قال اليابانى الأمريكى وهو يضغط زرًّا صغيرًا على المائدة أمامه:

- «بل أردنا أن نحيطك علمًا بأن الأمر مهم لنا جدًّا.. ولهذه الأسباب....»

وفوجئت (عبير) بأن بابًا إلكترونيًّا ينفتح فى ركن القاعة.. وخلف الباب كانت ترى أحراشًا كأن المكتب يطل على قلب (الكونغو)...

الرجل يكمل كلامه:

- «لهذه الأسباب ربما نبدو لك قساة، لكن تذكرى مدى أهمية الأمر بالنسبة لنا..»

- «هل ستقتلوني الآن؟»

ضحك الرجل فى وقار وقال:

- «تمنينا هذا لكننا صرنا أكثر رقيًّا.. للأسف.. سوف نقوم بإدخالك إلى عالم افتراضي.. هل

تعرفين معنى Virtual reality؟»

قالت فى كياسة:

- «(فانتازيا) كلها عالم افتراضي إن لم أكن أسأت الفهم..

- «أنت فهمت ما أريد قوله.. هذا العالم الافتراضي سيقودك إلى ممارسة عدد لا بأس به من ألعاب الفيديو.. حقيقة افتراضية معناها أنك فى خطر فعلًا.. الرصاصة تقتل وأنياب المسخ تمزق.. وهناك سوف تعرفين حقيقة ما تقولين عن هذه الألعاب.. سوف تعتمدين على سرعتك.. ذكائك.. شجاعتك لتخرجى من جحيم الألعاب.. وإلا فلسوف تبقين فيه للأبد مثل عذاب (تنتالوس) فى الأساطير الإغريقية.. فى الحقيقة هناك حل واحد تركه مبرمجو الألعاب.. وعليك أن تصلى إليه..»

- «لن أفعل هذا أبدًا..»

- «هذا ما تقولين..»

وأشار بطرف عينه فانقض رجلان عملاقان يلبسان بذلتين ضيقتين توشكان على الانفجار من العضلات.. أناقة الغوريلا التى تميز البودي جارد.. انقض الرجلان يمسك كل واحد منهما بذراع..

صرخت وهى تحاول أن تقاوم:

- «لقد غرقتم فى المستنقع بما يكفى... يكفي هذا!.. لا تتورطوا أكثر..»

قال اليابانى الأمريكى:

- «نحن متورطون منذ اللحظة التى وضع فيها رجلي قطعة القماش المبللة بالكلوروفورم على أنفك.. لا تراجع الآن..»

- «قتلة!!»

كذا صرخت وهى تقاوم التيار.. لكن عضلات الرجلين كانت كالحديد.. ولم تستطع الوصول لأجزاء طرية من الوجهين تصلح للخمش أو العض.. كانت تُحمل حملًا إلى الباب الذى يقود إلى الأدغال... ولا تعرف متى ولا كيف انغلق الباب عليها لتجد نفسها فى ذلك العالم الافتراضي الشنيع.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- فلنغزُ القبور!

كانت الآن تقف وسط الأحراش.. وحدها..

لم تكن هناك مرايا لكنها قدرت أنها رشيقة جميلة، وإن كانت تلبس ثيابًا عجيبة كأنها سائحة. ثمة شورت قصير وتى شيرت أخضر، مع عدد لا بأس به من الأحزمة تتدلى منها أشياء عديدة، وهناك مسدس عتيق الطراز يتدلى إلى جانب فخذها.. حركت رأسها جانبًا فطار ذيل حصان يتطوح يمينًا ويسارًا..

إنها تذكر شيئًا عن هذا..

ثم بدأت تدرك الحقيقة.. إنها لا تشاهد لعبة.. إنها بطلة اللعبة ذاتها.. وأية بطلة!... إنها تلك الحسناء التى تدعى (لارا كروفت) والتى أنشئ لها ألف موقع إنترنت ووصلتها رسائل غزل حقيقية.. ابنة عالم الآثار.. بريطانية جدًّا.. عندما يصمم البريطانيون لعبة فإن الأخيار هم البريطانيون بينما الأمريكان هم الأشرار أو ضيقو الأفق أو الأغبياء.. وقد شكلت بريطانيتها هذه الكثير من المشاكل بالنسبة لمن اختاروا بطلة أمريكية جدًّا هى (أنجلينا جولى) لتقوم بدورها..

وقبل أن تفهم جيدًا ما يحدث سمعت فحيحًا.. التفتت للوراء وهى تعرف أنها سترى ذلك الثعبان العملاق.. هناك بركة ماء وقد خرج رأسه منها...

ثمة شىء يثير الغيظ فى هذا العالم.. إن زواياه حادة جدًّا.. كل شىء له زوايا تدور حول الـ 90 درجة.. ثم أنها ترى نفسها من الخارج، وهو لعمرى شعور غريب.. من الصعب أن ترى قفاك لكن هذا هو ما يحدث هنا..

ما لا تعرفه (عبير) أن هذه من الألعاب التى تدعى بـ third person shooter حيث الكاميرا خارج الشخصية الرئيسية.. هذا هو المعادل البصرى لضمير الشخص الثالث فى الأدب.. ذهب.. فعل.. أطلق النار.. مات!!!

لكن الثعبان كان متقنًا فعلًا ومخيفًا... تحسست مسدسها الثقيل عتيق الطراز وأفرغت مجموعة من الطلقات فى هذا الوحش... كان يحاول الظفر برأسها لكنها راحت تراوغ.. وفى الوقت ذاته تطلق بلا انقطاع...

قاوم كثيرًا جدًّا.. تناثر الماء فى كل صوب.. الماء الرقمى لا يصيب بالزكام لحسن الحظ.. ثم فى النهاية همدت حركته..

نظرت (عبير) حولها... ثم بدأت تتقدم وسط الأحراش...

ماذا تريد بالضبط؟.. ما هدفها؟

هدفها أن تغزو القبور أو تغير عليها.. أليس هذا كافيًا؟.. هذا هو هدف اللعبة أصلًا، ويسهل على من رأى سلسلة (إنديانا جونز) أن يدرك أن (لارا) ليست سوى هذا الأخير فى صورة أنثوية.. كلاهما عالم آثار يبحث فى المقابر القديمة عن شىء ما.. لكن بدلًا من (هاريسون فورد) بطابعه البوجارتى الخشن غير الحليق، نرى (لارا) الفاتنة ممشوقة القوام..

كانت (عبير) الآن تسيطر بالكامل على الشخصية التى تتقمصها.. إنها تفكر مثلها وتعيش فى خلاياها.. وهذه أيضًا من مميزات الألعاب التى يطلقون عليها (ألعاب التقمص role playing game) أو RPG.. وتعنى فى إحدى صورها أنك تصنع قصة بنفسك.. نوع من خلق الدراما المرتجلة.. وقد ظهرت أول مرة بصورة بدائية فى لعبة (الكهوف والتنانين D&D) عام 1975.. هذه اللعبة خرجت من عباءتها كل ألعاب التقمص حتى اليوم..

أخيرًا تقف أمام ذلك المعبد فى الأدغال..

معابد الأدغال يكون لها على الأرجح طابع تايلاندى مميز.. أو على الأقل لابد من وجه صنم عملاق يطل عليك ويثير الرعب فى القلوب.. من الواضح أن هذه البيئة مألوفة للارا كروفت وأنها جاءت هنا مرارًا.. عندما ترى فيلمها تشعر أنه لا يوجد مكان لم تره من قبل وتزوره مرارًا ولها أصدقاء قدامى فيه..

هناك جسر صغير من الطراز المنسوج من الحبال الليفية.. وعليها أن تعبره..

لم يكن لديها مناص من ذلك.. المغامرة تحتم ذلك.. لا يوجد سبيل للتراجع ولا اتخاذ قرار آخر.. هكذا توكلت على الله ووضعت قدمها على الجسر.. تمسكت بالحبال على الجانبين وبدأت تتحرك..

ببطء...

ببطء...

المعبد يزداد قربًا.. وبرغم زواياه الحادة، فإن التجسيم ليس سيئًا على الإطلاق.. تشعر بأن ذلك الصنم يقترب منها ليتفحصها فى اهتمام..

تنظر لأسفل لترى هاوية سحيقة.. ألعن أنواع الهاويات هى تلك التى لا ترى قاعها.. إذن عليها ألا تنظر لأسفل وأن تواصل المشى..

وفجأة حدث ما لا تتوقعه..

لقد تخلى الجسر عنها...

الجسر يهوى من تحت قدمها.. وهى تحاول التمسك لكن بلا جدوى، لأن الأمر تم بسرعة غير متوقعة.. إنها تهوى!.. حلم السقوط الكابوسي الذى نراه منذ أتينا العالم يتحقق بحذافيره..

إنها تهوى.. ثم لا شىء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنها تقف من جديد على حافة الجسر تقرر السبيل الأمثل لعبوره..

ماذا وكيف؟.. ألم تمت؟ ...

ثم أدركت أنها تعيش أجواء اللعبة حرفيًا.. لديها محاولات أخرى بحيوات أخرى كأنها القط بأرواحه السبع.. تبًا..!.. سيكون هذا مثيرًا للاشمئزاز.. الموت بعدة طرق تتكرر وتعيش مشهد الموت مرارًا.. فى الأساطير اليونانية كان على (برومثيوس) أن يدفع الثمن بأن يعلق بين جبلين،

ويلتهم الرخ كبده كل يوم.. على أن ينبت له كبد جديد فى الليل..

سوف تمر هى بشيء مماثل...

من جديد تدور حول المكان محاولة ألا تعبر الجسر.. لكن هناك جرفًا من اليمين لا يمكن تجاوزه وهاوية من اليسار.. لو عادت للوراء فلسوف تجتاز الغابة ذاتها..

كيف؟.. لابد من حل؟

جلست على الأرض تفكر.. ثم بدأت تدرك حقيقة أخرى...

إن هناك حممًا تزحف عليها من ركن الشاشة.

معنى هذا أن عليها أن تتحرك.. اتجهت إلى الجسر من جديد وقررت أن تعبره بخفة أكثر..

لكن الأمور سارت كما كانت.. تهاوى الجسر وصرخت وهى تنحدر فى الهاوية من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنها تقف من جديد على حافة الجسر تقرر السبيل الأمثل لعبوره..

لقد صار هذا مملًّا..

الحمم تزحف من جانب الشاشة.. وهى لا تعرف حقًّا ما يجب أن تعمله..

هنا فوجئت بمن يقول لها:

- «لا جدوى.. إن الأمر عسير حقًّا.. ربما ظللت تجربين عدة أيام..»

نظرت للوراء فوجدت فتى مراهقًا لا يتجاوز الخامسة عشرة على الأرجح.. كان يحلق شعره على جانبى رأسه بتلك الطريقة التى يسميها الأجانب (قصة الطاقم) أو نسميها نحن (كابوريا).. شعره عال مرتفع، وقد صار له زغب كثيف فوق شفته العليا، أما صوته فهو ذلك الصوت الغريب الواقف بين عالمي الأطفال والرجال.. وأدركت أنه سيقول لها: «وعهد الله» فى أية لحظة.. كما سيناديها (يا كابتن) لو كانت رجلًا..»

كان يلبس تى شيرت واسعًا جدًّا يتدلى حتى أعلى ركبتيه، مع سروال قصير واسع، وحذاء مطاطى، وكان يدس سماعة فى أذنه تتصل بجهاز تسجيل معلق على خصره، يمكن أن تسمع منه النغمات المتلاحقة الخالية من الموسيقا المميزة لإيقاع (الراب).. وتحت إبطه كانت مجموعة من الكتب محفوظة فى ملف سميك.. عرفت على الفور نمطه وذلك الطابع المتأمرك.. ليس المتأمرك فحسب بل الذى يقلد الزنوج الأمريكيين بالذات..

قال لها:

- «نسيت أن أقدم لك نفسى..»

قالت وهى تدس يديها فى خصرها النحيل:

- «لا يهم.. أنت فتى العصر.. هذا كل شيء.. (رامى) أو (كريم) أو (أشرف) أو (شادي)..»

مد يده مصافحًا وقال:

- «اسمى (أشرف) فعلًا..»

- «وكنت فى طريقك للدرس الخصوصي أو عائدًا منه..»

قال باسمًا وهو يعبث بزر جهاز الكاسيت:

- «المفترض أننى ذاهب إلى هناك لكنى أعرج على (السايبر) لأنى مدمن لهذه الألعاب.. سأصارحك بسر.. أنا ذكى.. شديد الذكاء لكنى متمرد ملول بطبعى.. لهذا لا أحقق فى الدراسة أى نجاح، لكن درجاتي فى اللغات الأجنبية تدير الرءوس.. كما إننى مخترق نظم لا بأس به.. أنا Geek كما يقول الأمريكان.. هلم أعطينى خمسة!»

ورفع يده لأعلى ليضربها بيدها على طريقة لاعبي السلة الأمريكان..

ثم نظر إلى الهاوية وإلى الحمم الزاحفة من الجانبين وقال:

- «دعينا من هذا الهراء.. أنت فى مأزق حقيقى..»

ومد يده لها فأبعدتها.. قال باسمًا:

- «لا تخافي.. ما زلت بعيدًا عن الاكتمال الهرموني، وما زلت أرى أن الفتيات كائنات سخيفة مملة.. أحتاج إلى عام آخر كى أرى شيئًا من الجمال فيك..»

قالت فى مرارة:

- «وبعد أعوام أخرى تكتشف من جديد أن الفتيات كائنات سخيفة مملة.. هكذا ديدن الرجال..»

قال لها وهو يتجه عائدًا للوراء:

- «المهم الآن أن نجد جهة شمالية.. هذه هى..»

ووقف ودعاها إلى أن تقف بجواره.. ثم مد يده فى جيبه وأخرج شيئًا... كان هذا مقبضًا يشبه مقبض محطة الألعاب..

قال وهو يضغط على طرف لسانه علامة الحذق:

- «فلنر L1 ..L2 ..R1 ..R2 ثم نضغط المثلث.. »

قالت له فى عدم فهم:

- «ما معنى هذا؟»

فجأة لم تعد هناك هاوية.. لم يعد هناك معبد...

وجدت (عبير) نفسها داخل معبد له طابع فرعوني.. وخطر لها أن هذا سخف.. لو كان هو ذات المعبد الذى كانت تقف أمامه - المعبد الأسيوى - فمن المستحيل أن يكون هذا محتواه.. نظرت جوارها فوجدت مخلصها يقف باسمًا وهو يحرك ساقيه مع نغمات (الراب)..

قالت له:

- «ما هذا الذى فعلته؟»

- «غش طبعًا!.. لقد استعملت شفرة غش فأخرجتك من المستوى الذى كنت فيه...»

- «غش؟ ... هناك غش فى الألعاب؟»

قال فى سخرية:

- «من أين جئت؟.. من (زائير)؟ ... إن الغش فى الألعاب cheating فن فى حد ذاته.. باب خلفى للهرب كى لا تملى اللعبة.. كل مبرمج يضع للعبة بابًا خلفيًا يمكنه أو يمكن سواه الدخول منه، تخيلى أن تظلى عاجزة عن دخول المعبد للأبد.. هذه أمور يبحث عنها هواة الألعاب ويتبادلونها كأسرار مقدسة..»

قالت فى عدم فهم:

- «ما زلت لا أفهم.. اللعب هو اللعب.. هل تلعب اللعبة لتنهيها أم تلعب من أجل اللعب؟.. الغش مقتصر على الأمور التى تمقتها وترغب فى تفاديها بلا ألم..»

نظر لها نظرة من طراز (لن – تفهمي - أبدًا) وقال:

- «هل هذا سؤال؟.. طبعًا ألعب اللعبة لأنهيها!... لا وقت للاستمتاع هنا!.. على كل حال لولا الغش لقضيت بقية حياتك واقفة هنالك.. لاحظى أن خروجك من هذا الجحيم كله يعتمد على طريقة ما.. نوع معين من الغش لكنى لا أعرفه بعد.. عليك أن تفتحي عينيك وتنظري حولك بدقة..»

ابتلعت غيظها ووقفت أمام الباب تفكر...

كان هناك مقبض فمدت يدها تزيحه..

قال لها الفتى:

- «بالمناسبة.. هناك وغد فى هذه الألعاب.. عدوك العتيد اسمه (فان ترومب).. يبدو أنه هولندى هذه المرة.. أنت تعرفين أن كل الأشرار فى الأفلام الأمريكية بريطانيون.. أحيانًا يجعلونهم من الألمان.. على أن لعبة الشرير العربي صارت شعبية جدًّا حاليًّا..»

قالت له وهى تواصل فتح الباب:

- «وما دخل هذا بالقصة؟»

- «لأنه أعد لك كمينًا بالتأكيد..»

فى اللحظة التالية أطلقت صرخة لأنها كانت كمن هدم جسرًا.. المياه تتدفق وتطيح بكل شىء.. لكنها ليست مياهًا بالضبط.. إنها هياكل عظمية كانت وراء الباب..!

لكنها (لار كروفت) (والأجر على الله).. وهى لا تفتقر إلى الأسلحة.. تراجعت للوراء وراحت تطلق الرصاص.. بوم!.. بوم!

تسمع صوت الفتى يقول:

- **«لا (بوم) ـلح!... بوم!!.. تحت ـ (بوم) – اجي ـ (بوم) ـن. إلى (بوم)!»**

لكن هناك مشكلة.. الهياكل تقذف للوراء لكنها تنهض من جديد وتتجه نحوها.. كل ما تفعله ذخيرتها هو أن تدفعهم للوراء بضعة سنتيمترات.. ومخزونها يفرغ فعلًا..

هذه الهياكل لا تمزح.. واضح أنها شرسة فعلًا..

نظرت للوراء وهى مستمرة فى الإطلاق فوجدت (أشرف) يصرخ وهو يقف فوق حجر:

- «هذا المسدس لن ...»

وركل أحد الهياكل ليبعده عنه ثم واصل الكلام:

- «لن يصلح!! لابد من مدفع ولابد أن تسقطيهم فى حفرة!»

- «حل عبقرى!»

هتف الفتى وهو يضغط على مفاتيح عصا التحكم:

- «نتجه للشمال.. ثم.. L1 ..L2 ..R1..R2هكذا.. ثم لأسفل على زر الاتجاه.. نضغط المثلث.. و....»

رائع!.. إنها تحمل مدفعًا عملاقا الآن...

انطلقت تجرى حتى وجدت جبًّا عميقًا... وقفت وراءه ووضعت المدفع على ظهرها..

دارت الهياكل العظمية حول الجب وانطلقت مهاجمة. هنا راحت تطلق مدفعها بسخاء، وسرعان ما راحت الهياكل تتساقط الواحد تلو الآخر فى الجب..

هتفت فى الفتى:

- «أنت رائع!!»

قال وهو يواصل الضغط على الأزرار:

- «هذا ليس كل شيء.. سأمنحك ذخيرة لا تنتهى لكل الأسلحة.. لحظة.. دعينا نر..»

فى هذه اللحظة سمعت أصوات رجال فاستدارت بالمدفع متحفزة، لكنها رأت مجموعة من الأشخاص الذين لا يبدو أنهم من عالم اللعبة.. سترات سوداء أنيقة وسيجار.. كان أولهم يرفع يده ليهدئ من روعها:

- «دعك من هذا فهو لن يؤثر فينا..»

وقال آخر بلهجة بريطانية شديدة الرقى وهو ينظر حوله:

- «الحقيقة أن هذه اللعبة تحفة وقد أجادوا صنعها.. نحن من شركة Eidos التى نشرت هذه اللعبة بعد ما صممتها (كور ديزاين)، وقد رأينا ما حققت.. يكفى هذا الجزء..»

ثم نظر إلى شيء على الجدار.. كان هناك نقش فرعونى مشوه فمد يده يمسح عليه، وسرعان ما

استعاد النقش رونقه.. يبدو أنه لم ير هذا الخطأ إلا الآن وهو كفنان أصيل يكره أن يتركه..

اتجه آخر إلى (أشرف) فاعتصر أذنه فى وحشية:

- «قلت لك ألا تتدخل يا ولد.. لقد جعلت الأمور سهلة عليها.. انتظر حتى تجرب (الضربة المضادة) و(الإنذار الأحمر) ولنر مهارتك!»

ثم أطلق سراحه فراح هذا يركض مبتعدًا..

قال الرجل الأول:

- «لا يمكن الحكم من لعبة واحدة خاصة وهذا الفأر الصغير قد تدخل.. الآن يمكنك مغادرة هذه اللعبة.. لا أعرف ما ينتظرك خلف هذا الباب، لكنه بالتأكيد معقد ومخيف..»

ومن دون كلمة أخرى انصرف الرجال..

يبدو أنها بالفعل انتهت من هذه اللعبة.. الباب الذى ستعبر منه لا يقود لغرفة أخرى بل للعبة أخرى..

هكذا وقفت وحدها فى المعبد الخالي، ودلفت من الباب الذى فتحته من قبل..

ولم يكن ما رأته مطمئنًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- بعض النازية قبل النوم

ممرات خالية ملأى بأبواب على الجانبين.. ممرات طويلة ذات طابع (كافكاوي) صريح كأنها فى كابوس.. كل الكوابيس تقلد كافكا وليس العكس...

صمت.. جو معقم مقلق..

لا تسمع إلا صوت الصمت وصوت جهاز ما يئن فى مكان ما.. كأنه جهاز تنقية هواء..

صوت أنفاسك وصوت كعبيك إذ يجتازان الردهة..

إنها مسلحة بسكين.. ومتحفزة.. بالواقع هى أكثر من متحفزة.. واضح أنها محترفة من الطراز الذى يمسك المسدس بيديه معًا ويصوبه لأعلى..

الآن هى تعرف من هى وماذا تريد.. تريد تحطيم النازيين والفرار من هذه القلعة المخيفة.. قلعة (فولفنشتاين)... اسمها (إيريكا بلاسكوفيتش).. تعرف أن البطل الأصلي للعبة كان يدعى (ويليام) لكن تم تحوير هذه النقطة من أجلها خصيصًا.. إنها فى سجن ألماني شهير أسطوري كقلعة (شبانداو)..

هى كذلك تعرف أن حارس زنزانتها قد قتل.. هى قتلته بمدية عندما قدم لها الطعام وهى الطريقة المعتادة فى قتل الحراس..

إنها تجتاز طرقات السجن المخيف وهدفها أن تجد سلاحًا أفضل.. وأن تصل إلى مدير السجن الرهيب الجنرال (هانس جروسيه).. وهو بالطبع يشبه أى قائد نازى آخر.. متصلب مجنون نوعًا.. يدخن السيجار ويضع المونوكل ولا يكف عن ترديد (جوت ميت أونز).. أى (الله معنا).. كل طاغية فى التاريخ كان يعتقد أن الله معه..

لكن الطريف فى الموضوع أنها لا ترى نفسها.. إنها تعيش داخل الشخصية لكنها لا تراها من الخارج.. ترى بعينيها.. كأنها لقطة السينما المعروفة باسم (لقطة وجهة نظر)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(عبير) لا تعرف أنها تعيش نوع آخر من الألعاب اسمه First person shooter.. وهى المعادل لضمير.. ذهبت.. أكلت جريت.. قتلت...

تلام هذه الألعاب على أنها تغيب الشخص عن الواقع فعلًا، كما أنها تنمى الحس السادي.. القتل يبدو ممتعًا جدًا عندما لا ترى سوى فوهة المسدس المسلطة على عدوك.. هناك مشكلة أخرى هي عدم التوحد التام مع البطل. يبدو هذا غريبًا لكنها تجربة شهيرة جربتها السينما الفرنسية من قبل.. أن تضع الكاميرا مكان عينى البطل.. لقطة وجهة نظر POV طويلة جداً ترى فيها الناس تكلمك وتقابلك وتقاتلك. لكن الغريب أن هذا أربك المشاهدين ولم يرتاحوا له. التفسير هو أنك تحتاج لرؤية وجه البطل دائمًا حتى لو كنت متوحدًا به.

يبدو أننا أطلنا الكلام وبالتالي ظهر ذلك الجندى النازي الذى يحمل مدفعًا... إنه يصوب النار

علينا فتنهمر الطلقات.. للأسف لم تستطع (عبير) أن تفر فى الوقت المناسب..

العالم يحمر من حولها ثم تتهاوى قدماها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حياة أخرى.. بداية جديدة.. ليت هذا ممكن فى حياتنا هذه.. بعد ما تسقط من القطار وتتمزق تعود للحياة من جديد وقد تعلمت أن تكون حذرًا...

من جديد نحن نجتاز هذه الممرات..

هناك حارس لم يشعر بقدومها، وفى هذه المرة ضربته بالمدية عدة مرات.. هكذا فازت ببندقيته الآلية.. إن الأمور تتحسن...

إنها تقتل الحراس بلا توقف.. من الغريب أن لذة سادية ما بدأت تتسرب إلى نفسها.. إنها تستمتع بالقتل فعلًا وبلا أية مبالغة..

عندما كانت هى (مارى مكدونالد) كتبت تقول: «إن هذه الألعاب تولد العنف فى نفوس الشباب بلا أدنى شك.. هناك من يزعمون أنها طريقة للتطهر والتخلص من العدائية.. لكن دعونا نر حادث مذبحة المدرسة الثانوية فى (كولومبين).. الحادث الذى ارتجت له الولايات المتحدة.. طلبة نابغون يحملون البنادق الآلية ويقتلون زملاءهم فى الصف. لقد اتضح أن هؤلاء القتلة قضوا وقتًا طويلًا يلعبون لعبة (دوم)... بل إن أحدهم ابتكر مستويات إضافية فى لعبة (دوم) يمكن تحميلها من الإنترنت وهو ما يدعى ب. (مستوى هاريس).. هذه الألعاب التى تدعى First person shooter كلها تبعث العنف فى النفوس أو توقظ وحشًا غافيًا. طبعًا ستحاول الشركات إثبات العكس وسوف تسخر ألف طبيب نفسى يؤكدون غير ذلك..»

كانت (عبير) الآن تستمتع بجماليات القتل لو صح التعبير.. وصارت الدماء المتناثرة تبعث النشوة فعلًا...

عقيدة السفاحين.. هذه هى عقيدة السفاحين وهكذا يفكرون... ذكروني بأن أكتب عن هذا فى مقال كامل..

لقد صارت مسلحة ببندقية قنص ورشاش MP40 ونوعين من القنابل اليدوية ومدفع بازوكا ومدفع رشاش دائري الإطلاق (كلاشنكوف). وأدركت أنها تقوم بسلسلة من المهام كى تنهى مستوى ما من اللعبة..

صار المهاجمون الآن غريبى المنظر نوعًا... لم يعد هناك جو نازى كما كان إنما هى محاطة بكائنات غريبة تبرز المدافع من صدورها... هذه طفرات جينية غريبة جدًّا...

إنها تحاول أن تتفادى هذه الطلقات.. يبدو أن النازيين توصلوا إلى صنع هذه الكائنات، وهو الخيال المحبب لكتاب الخيال العلمي: ماذا إذا ساد النازيون الأرض ولم يمت (هتلر)؟

راحت تركض فى ممرات جانبية بحثًا عن مخرج..

كانت ضائعة فى هذا التيه تحاول أن تجد حلًا...

لكن... إن الوضع يتغير..

إن من يهاجمونها الآن هم أقرب إلى الزومبى.. نفس الحركات المتصلبة والمشية المترنحة.. عليها أن تصوب على الرأس.. لكن. ليس هذا دمًا الذى ينفجر من الرووس بل هو أقرب للعرق.. هذا هو التعديل الذى أدخلته بعض الدول الأوروبية على اللعبة لتجعلها أقل عنفًا..

أين أنت يا (أشرف)؟.. لماذا لا تظهر حين يحتاج لك المرء يا أحمق؟

أى خيال هذا الذى استبدل بالجنود النازيين تلك المسوخ المتحولة ثم الزومبي؟.. إنهم يفعلون أى شىء كى يسوقوا ألعابهم حتى لو كان ضد المنطق...

لا يبدو أن لهؤلاء المهاجمين آخرًا..

إنها نهايتها إذن..

عقيدة السفاحين.. هذه هي عقيدة السفاحين وهكذا يفكرون.. ذكروني بأن أكتب عن هذا فى مقال كامل..

وفجأة جاء الحل من حيث لا تتوقع...

لقد تصلب كل شىء.. الرصاص فى الهواء ومهاجموها.. حتى من كان منهم موشكًا على السقوط ظل فى الوضع ذاته.. كأنه كادر سينما تم تجميده..

هتفت فى حيرة:

- «ماذا حدث؟.. هل ضغطت على شىء ما خطأ؟»

سمعت شخصًا يتنحنح من ورائها فالتفتت فى ذعر لترى رجلًا وقورًا يبدو عليه نوع من الخجل:

- «معذرة.. لقد تلفت اللعبة.. هذا انهيار Crash أو ما يطلق عليه الشباب (تهنيج)..»

نظرت للبيئة المتجمدة من حولها وقالت:

- «فهمت.. هل هذا خلل فى برمجة اللعبة؟»

- «بل هو عيب فى الحماية.. أنت تعرفين أن أكثر هذه النسخ مسروقة، لهذا لا تعمل الألعاب بشكل جيد على طول الخط..»

ومد يده يتحسس أحد الزومبي المعلقين فى الفضاء فسألته (عبير):

- «من أنت؟»

- «أنا مصمم اللعبة.. أتقاضى راتبي من شركة ID software..»

ثم هز كتفيه فى ضيق:

- «لا أعتقد أننى أستطيع إصلاحها الآن.. أعتقد أنك ستجربين لعبة أخرى..»

وأشار لها إلى ممر طويل، وقال دون أن ينظر لها:

- «لو مشيت حتى آخر هذا الممر لبدأت اللعبة التالية..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- القتال القتال!

فى هذه المرة كانت القواعد هى البساطة ذاتها..

كانت هذه فكرتها عن ألعاب الفيديو قبل أن يتعقد الأمر ويتحول إلى ما يشبه الكهنوت..

إنها تقف فى يسار الشاشة وتواجه خصمًا على اليمين.. وعلى كل منهما أن يوسع الآخر ضربًا.. بالطبع لا يمكن لعب لعبة كهذه وأنت ثابت، بل أن اللاعب يتواثب ويتلوى محاولًا نقل حركاته إلى الشخصية..

على أن (عبير) أدركت بعد جهد أنها ليست على شاشة كمبيوتر منزلي أو محطة ألعاب.. إنها على شاشة آلة ألعاب فى إحدى الصالات.. هناك شباب كثير يحيط بالآلة ويدسون فيها قطع العملة.. وقد ضايقتها كل هذه النظرات المتركزة على أدائها.. هذا موقف يمكن تلخيصه ب. (إلى ما يشترى يتفرج)..

ما لا تعرفه (عبير) هو أنها الآن فى لعبة (أركيدArcade).. ألعاب الأركيد أساسًا هى ألعاب بالعملة منذ دخلت هذه الآلات الخدمة عام 1972 عندما التقى (نولان بوشنل) و(تد دابنى) لإنشاء شركة (أتارى)... تلك الكلمة التى اتسعت حتى لم تعد اسم شركة. بل هى ترمز لعالم كامل من هذه الألعاب.. طبعًا كانت الأركيد الأولى لعبة بسيطة هى البنج بونج الإلكتروني.. ثم زحفت ألعاب القتال الثنائية.. وهى ألعاب يسمونها (اضربهم علقة Beat'em up).. وعامة تكون هذه الألعاب منزلقة.. أى أنك تشق طريقك بالضرب وسط الخصوم، منزلقًا من يسار الشاشة إلى اليمين.. يبدو أن ما تمارسه (عبير) الآن ينتمى لهذا الطراز..

إن الأعداء كثر وكلهم ذوو أساليب قتالية متفردة.. وقواعد هذه الألعاب ثابتة سواء كانت ذات بعدين أو ثلاثة أبعاد مثل لعبة (المقاتل الافتراضي) ...

تكرار.. تكرار.. تكرار.. لا شك فى أن هذه الأمور تحتاج إلى شىء من الذكاء المحدود..

تسمع من يقول لها:

- «حذرناك **مرارًا من مافيا الألعاب!.. مافيا الألعاب!.. الآن فات أوان الندم!!**»

يبدو أن دورها هنا قد انتهى.. لذا ستجرب لعبة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- إنها الحرب!

كانت (عبير) الآن تشعر بالإرهاق شديد..

هذه الدوامة تبدو بلا نهاية فعلًا.. والحقيقة أنها كانت تمقت ألعاب الفيديو فعلًا فى عالم الواقع.. كانت تشغلها للصبية القادمين لمحل (صفوت)، لكنها لا تتابع ما يحدث ولا تهتم به.. فقط كانت تتأمل تلك الوجوه الشهوانية المتعطشة للدماء وتؤكد لنفسها: هى ليست خبيرة نفسية.. لكن أى شىء فى العالم يجعل الوجوه تتوحش هكذا، لابد أنه غير صائب..

لابد من الفرار من هذه الدائرة المغلقة لكن كيف؟

تعرف أن هناك حلًّا فى مكان ما، ولكن ما هو؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

» سوف تعتمدين على سرعتك.. ذكائك.. شجاعتك لتخرجى من جحيم الألعاب.. وإلا فلسوف تبقين فيه للأبد مثل عذاب (تنتالوس) فى الأساطير الإغريقية.. فى الحقيقة هناك حل واحد تركه مبرمجو الألعاب.. وعليك أن تصلى إليه..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الآن فى مكان يبدو كأحد مراكز القيادة.. الجو بارد ثلجي.. الإضاءة زرقاء.. كل مكان فيه أجهزة حاسب آلى تهدر فى جشع... جو معقم يسبب المرض بكل هذا التعقيم وهو أمر يبدو غريبًا..

كانت تمشى فى ثقة عبر ردهة طويلة.. واضح أنها مهمة لأن أحدًا من هؤلاء الحراس لم يعترضها بل إنهم كانوا يؤدون لها التحية...

فى النهاية وجدت أنها فى غرفة فسيحة. فسيحة بمعنى أنها فى اتساع ميدان التحرير مع بعض المبالغة.. كل هذه الغرفة مخصصة لشخص واحد.. تقترب أكثر لتراه عن كثب..

كان جنرالًا وكان يقف أمام خارطة عملاقة للعالم بالحجم الطبيعى تقريبًا.. بمعنى أنها توشك أن تبحر فى أحد هذه المحيطات..

كان أصلع الرأس.. وغدًا... هذه الملامح لا تخفى على أحد..

وقف الجنرال منتصب الظهر ينظر لها فى ثبات، ثم قال:

- «تأخرت يا رفيقة (إيفانوفنا)..»

رفيقة؟ ... آه!.. إذن هؤلاء سوفييت كما توقعت.. كل هؤلاء الجنرالات السوفييت كما يراهم الأمريكان مرضى نفسيون معقدون وشواذ على الأرجح.. وشعرت بالغيظ.. هل هناك من يضيع وقته حتى بعد الانهيار السوفييتي فى تصوير الخطر الأحمر؟.. الخطر الذى سيزحف على العالم ويلتهمه ويقضى على الديمقراطية الأمريكية؟

لقد شفيت السينما الأمريكية من هذه القصة.. منذ زمن كف الإرهابيون والأشرار عن أن يكونوا من السوفييت، وصار الشرير الآن هو العربي.. لا أحد سواه فى رأيهم.. أحيانًا يتساهلون ويجعلون الشرير صربيًا.. لكن يبدو أن هذه التطورات لم تصل إلى ألعاب الفيديو بعد..

قال لها الرجل:

- «منذ حاول ذلك الأحمق (أينشتاين) أن يعود للماضي فى آلة (كرونوسكوب) التى اخترعها ليقتل (هتلر)، والاضطراب يغمر العالم.. لقد نصبنى الحلفاء أنا الجنرال (ألكسندر رومانوف) كى أكون دمية لهم تحكم الاتحاد السوفييتي المهزوم.. وما لم يعرفوه هو أننى لن أكون دمية.. لقد أعدت بناء الجيش الأحمر من جديد وهاجمت الولايات المتحدة... طبعًا باستعمال ترسانتي العسكرية وما نملكه من موهوبين قادرين على السيطرة العقلية.. إن حلفاءنا العظام هم (ليبيا) و(العراق) و(كوبا).. وقد احتللنا أكثر الولايات المتحدة وهدمنا تمثال حريتهم المزعومة..»

هنا فكرت (عبير) فى أن الرجل أحمق.. هذه اللعبة تداعب الخيال الأمريكى العتيق جدًّا حينما كانت العراق دولة مستقلة وليبيا عدوًّا والقذافي حيًّا، ولم تكن كوريا الشمالية ولا إيران ضمن الدول المارقة..

اتجه (رومانوف) إلى الخارطة العملاقة.. وأشار بمؤشر ليزر إلى نقطة على خارطة الولايات المتحدة وهتف:

- «أريد تدمير شيكاغو!»

لا تعرف السبب للتدمير لكنها فى اللحظة التالية رأت أن النقطة تحولت إلى سحابة.. بدا الرضا على وجه الجنرال وقال:

- «هكذا!!»

وفجأة راحت صفارات إنذار تدوى فى كل مكان.. ثم راح المركز يرتج... هناك قصف من نوع ما.. وكأنما الأضواء تساهم فى جو الرعب راحت تضئ وتنطفئ..

نظرت له فى غباء فقال وهو يهرع نحو باب كتب عليه (الهرب):

- «إنها غارة..!.. الأمريكان يغيرون على (الكرملين)!»

إذن هى فى الكرملين.. وإذن الانتقام جاء بسرعة لا تصدق.. لقد دمرت (شيكاغو) فأغار الأمريكان خلال خمس دقائق..

جرى مسرعًا ليجتاز الباب بينما دوت الانفجارات من كل صوب..

رجال العمليات الخاصة الأمريكان بثيابهم المعقدة المثيرة يقتحمون المكان.. خوذات.. سماعات.. بنادق حديثة تصوب بالليزر.. كشافات فى الخوذات وتلقى شعاعًا قويًّا حيثما وجهوا الرءوس..

كادت تقول شيئًا لكنهم مروا بها بلا تعليق واندفعوا نحو باب الهرب إياه.. ودوت الطلقات..

واضح أنهم محددون فى مهمتهم.. لا يريدون إلا الجنرال (رومانوف)...

نظرت حولها فى حيرة..

هل انتهت اللعبة عند هذا الحد؟

هنا رأت شخصًا يبرز من نهاية القاعة ويشير لها بإصبع إلى فمه لتصمت..

- «ش ش ش!.. من هنا!»

- «من أنت؟»

- «ش ش ش!»

واتجه نحو باب كتب عليه (لا تهرب من هنا).. ففتحه.. ثم أشار لها كى تلحق به...

كان الممر مظلمًا.. لكنه مضاء على الجانبين.. واستطاعت أن تتأمل وجه الرجل الذى يركض أمامها.. كان ضخم الجثة أصلع الرأس.. وحينما التفت لها أدركت أن له عينى ثعلب.. لا ليستا عينى ثعلب.. فهما لا تحويان الخداع فقط بل تحويان شراسة النمور..

راح يركض وهى وراءه..

إلى أين هو ذاهب؟.. لن تندهش لو اتضح أنهما الآن تحت أستراليا..

لقد ظل يركض نحو نصف ساعة.. وفى النهاية وجدت أنها فى قاعة لا تختلف كثيرًا عن تلك التى رأتها أولًا..

جلس يلهث أما هى فجلست تموت..

قال لها وهو يجفف عرقه:

- «هل لك فى بعض الفودكا؟»

- «لا.. لكنى أكون شاكرة لو منحتني بعض الأكسجين!»

نظر لها بعينيه نظرة ثاقبة ثابتة.. وهمس:

- «أنت الآن بخير حال.. ألا تشعرين بهذا؟»

هذه هى الحقيقة.. لقد غسلت نظرته ثاني أوكسيد الكربون من دمها بعصا ساحر..

- «من أنت؟»

- «أنا (يورى).. مستشار الجنرال (رومانوف)... لا هربت من الأمريكان لكنى سأنتقم منهم.. سأحطم كل خصومى بقواى العقلية الخارقة.. إننى أحتاج إليك لإعداد جيشى..»

أرادت (عبير) أن تقنعه بأنها آخر من يهتم بالموضوع.. ولو كانت تهتم به فهى لا تفهم كيف تقوم بهذا كله..

قال لها فى صبر وهو يجلسها أمام لوحة تحكم:

- «هذه اللعبة تدعى (الإنذار الأحمر).. الجزء الذى أقوم به اسمه (انتقام يورى) ... هذا النوع من الألعاب يدعى الألعاب الاستراتيجية.. أنت تجلسين أمام الشاشة وترتبين قواتك وتدريبنها

وتوزعينها فى البر والبحر والجو.. إنها ألعاب معقدة لكن هناك من جنوا بها فعلًا.. هناك ألعاب مثل (القوقاز) و(عصر الإمبراطوريات) و(جنرالات الحرب الأهلية).. إلخ... لكن يقال إن هذه اللعبة التى نحن فيها التى صممتها ستوديوهات وستوود أسهلها وأوضحها..»

رأت أمامها على لوحة التحكم خارطة تبين ميدان المعركة.. كما رأت نماذج لقواتها... إن الاتحاد السوفييتي فى هذا الزمن متفوق حقًّا..

عندها جنود.. عندها مدفعية قوية تطلق الكهرباء (اسمها قوات التسلا).. وطفيليات الرعب التى تلصق نفسها بسلاح العدو فتفجره.. هناك دبابة (يوم القيامة) أثقل أنواع الدبابات فى اللعبة.. وقاذفات قنابل على شكل مناطيد اسمها (كيروف).. هناك غواصات وسفن مائية وهناك (يورى) المخيف الذى يستطيع أن يسيطر على قطع العدو بعقله... لا طائرات مقاتلة؟ ...

دعك من تحصيناتها على غرار الدفاع الجوى وأبراج الكهرباء العالية..

الحلفاء (بريطانيا وأمريكا وفرنسا وكوريا) لديهم أيضا جنود.. لكن لديهم أنواعًا أخرى من السلاح.. مدفعية طائرة بشرية اسمها (الروكتير) جواسيس يستطيعون سرقة المال والتكنولوجيا من الخصم.. وطائرة مهاجمة اسمها (هاريار).. وسفن مضادة للغواصات..

يبدو أن الأمر سيكون مسليًا..

كانت (عبير) تؤمن أن الولايات المتحدة دولة ظالمة تستحق ما سيحدث لها، كما كانت تؤمن أن زوال الاتحاد السوفييتي هو أكبر غلطة فى التاريخ... لم تكن تحب الشيوعيين لكنها كانت تؤمن أن اختلاف الدولتين كان رحمة للغلابة من أمثالنا..

لذا سرها أن تنتقم من الولايات المتحدة، فتوزع قواتها كأفضل ما يكون.. هذه الألعاب تبدو صعبة فى البداية ثم يتضح أن الأمر ليس بهذا التعقيد..

على الأقل ليست مطالبة بالتحاشي والوثب وإطلاق النار بلا توقف..

هكذا راحت تجرى الإعدادات واستغرق هذا نحو ربع الساعة.. وكانت مستمتعة فعلًا بالخلفية الموسيقية المصاحبة لهذه الإجراءات..

وخطر لها أن هذه الألعاب قد تكون خالية من الضرر.. إنها نوع من الشطرنج الإلكتروني.. لا سادية وشهوة افتراس ولا خصوم مجانين.. لا رغبة فى الاحتكار ولا ممارسة مشاعر المرتزقة.. يبدو أنها لعبة صحية فعلًا..

على الشاشة رأت مدينة (نيويورك)... اقتربت الكاميرا أكثر فاستطاعت أن ترى الخراب الذى خلفه تمثال الحرية عندما سقط.. ترى برجى مركز التجارة العالمي.. و...

هنا سمعت (يورى) يقول:

- «هذا هدف ممتاز للضربة القادمة!»

نظرت له وقالت بصوت مبحوح:

- «أنت موضة قديمة فعلًا.. تتكلم من زمن كان فيه مركز تجارة واتحاد سوفييتي و....»

لم يبد أنه يسمع ما تقول وكرر كأنه يحلم:

- «فى مرحلة قادمة أعتقد أن هذا المكان يصلح لعملية ممتازة..»

إنه مُصرّ.. وعيناه القويتان تحلمان..

التفتت للوراء فى هذه اللحظة بالذات لترى ذلك الجندي الذى لطخ وجهه بالأسود، وارتدى ثيابًا سودًا، وهو يهبط متدليًا من حبل..

نظر (يورى) إلى الوراء ليتابع نظرتها وهتف:

- «خيانة!»

فى اللحظة التى فتح فيها النار على الجندي فطار فى الهواء ليضرب الجدار.. يهشم شاشتين أو ثلاث شاشات.. يلطخ دمه كل شىء.. ثم هوى على الأرض..

أما هى فقد سقطت على الأرض ترتجف غير قادرة على أن تتماسك..

قال (يورى) وهو يعيد حشو مسدسه:

- «إنهم الأمريكيون.. لقد وجدوا قاعدتي السرية.. لكنهم يحتاجون إلى المزيد من قطع الشيكولاتة كى يظفروا ب (يورى)..»

اقتحم الغرفة ثلاثة جنود.. لكنهم بالفعل كانوا بحاجة إلى مزيد من الشيكولاته.. لقد أطلق (يورى) طلقة واحدة على كل من هؤلاء الجنود المحترفين المدججين بالسلاح، فهشم رأسه.. وماتوا وهم يتأوهون بالأمريكية على غرار:

- «آوتش... أوه جاش!... إلخ..»

هنا لم تعرف متى ولا كيف مدت يدها لتنتزع ذلك المسدس من ربطة ساقها.. وقبل أن تفهم هى نفسها ما يحدث أطلقت رصاصة محكمة جدًّا على رأسه..

بدا للحظة كأنه امرأة هندوسية متزوجة ممن يرسمن دائرة حمراء على الجبين... وبدت على وجهه أغبى نظرة ممكنة.. راح يردد بلا توقف:

- « ماريو!.. ماريو!»

من هو ماريو؟.. وكيف يتكلم رجل اخترقت رأسه رصاصة؟.. لا تعرف..

ثم هوى على الأرض..

وقفت تلهث والمسدس فى يدها.. لماذا فعلت ذلك؟

اقتحم المكان عدد من هؤلاء الجنود الأشداء، وكان ما رأوه كافيًا...

اقترب منها أحدهم وأدى التحية وقال بلهجة أمريكية واضحة:

- «لقد قمت بعمل بارع..»

نظرت له فى غباء وسألته:

- «هل تداخلت اللعبة مع (غازية القبور)؟.. هذه حركات (لارا كروفت) ذاتها..»

قال وهو ينزع خوذته الثقيلة ليهرش:

- «لا.. الموضوع أن الأحمق لا يعرف أننا دسسناك عليه.. لم يعرف أنه وضع ثقته فى (تانيا) أخطر سلاح لدى الحلفاء.. احتجنا إلى جهاز خاص يعطل قواه العقلية حتى لا يتسلل إلى عقلك..»

كانت رائحة البارود والدماء تفوح من كل شىء.. وقالت لنفسها إنها لم تعرف للحظة أنها عميلة سرية شديدة البراعة والخطر.. إذن هى تعمل مع الأمريكان منذ البداية.. لو خيروها لرفضت..

سألت الجندي الأمريكى الذى ناولها لفافة تبغ سلسة:

- «هل انتهت اللعبة عند هذا الحد؟»

قال وهو يشعل لفافة بدوره:

- «بالنسبة لك.. نعم.. لكن الشركات لن تتوقف عن تقديم حلقات أخرى من اللعبة.. إن (الإنذار الأحمر) بطة تبيض ذهبًا.. لهذا لابد من أن يعود (يورى) للحياة فى جزء تال، أو يصعد أحد معاونيه المنسيين إلى القمة ليحاول احتلال العالم من جديد..»

وانفتح باب فى نهاية القاعة فاتجهت إليه شاردة الذهن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- آرينا..

شعرت (عبير) بالقلق وهى ترى غلاف اللعبة..

إن الأمر يشبه القصص الخيالية لأن غلاف اللعبة عملاق بحجم جدار شامخ أمامها، وعليها أن تجتاز الباب الذى ليس سوى الفتحة التى يدس فيها شريط اللعبة.. أى أنها تدخل اللعبة حرفيًّا...

شريط اللعبة عبارة عن علبة من البلاستيك يطلق عليها اسم (كارتردج)، أما الغلاف المخيف فكان يمثل حلبة رومانية.. حلبة سيرك تحيط بها جماهير متعصبة متعطشة للدماء..

فى الحلبة أمهات يحتضن أطفالهن ورجال يصرخون.. والهلع على الوجوه، بينما أسد ضخم مهيب المنظر يثب نحو إحدى الأمهات.. من الواضح أنه سيمزقها خلال ربع ثانية بعد رسم هذا الغلاف..

قرأت (عبير) اسم اللعبة (آرينا).. (آرينا) هى حلبة المصارعة..

أما عن تعليمات اللعبة فهى تقضى بأن تدخل الحلبة مع الأسود، وتحاول إنقاذ من تستطيع من المسيحيين.. فى ذلك العصر كانت التسلية الوحيدة لدى الرومان هى اعتقال المسيحيين الذين يتعبدون سرًّا فى الأقبية، ثم يلقونهم للأسود التى تم تجويعها دهرًا..

قالت (عبير) لنفسها إنها ستقوم أخيرًا بعمل مفيد.. إنقاذ ضحايا أبرياء لم يقترفوا إثمًا إلا أنهم عبدوا الله ولم يعبدوا (زيوس)...

سوف تدخل وتجرب حظها.. صحيح أنها لم تقتل أسدًا من قبل لكن الأمر يستأهل التجربة..

هكذا تخلصت من لفافة التبغ التى خرجت بها من (الإنذار الأحمر) وخطت إلى داخل غلاف اللعبة..

هنا فوجئت بمنظر غريب بعض الشىء..

الساحة خالية تمامًا.. هناك دائرة كبيرة.. وهناك حروف L وعلامات زائد +.. والحركة بطيئة جدًّا.. أما تلك النجمة فلابد أنها مرتبطة بها بشكل ما.. إنها تضغط على السهم الأيمن فتتحرك النجمة لليمين.. تضغط على السهم العلوى فتتحرك النجمة لأعلى..

ثم رأت أحد حروف L يجرى بسرعته البطيئة نحو حرف + وبالتالي اختفى هذا الأخير..

هنا فهمت!!... حرف L يرمز إلى الأسود وحرف + يرمز إلى المسيحيين!!! وهى النجمة التى تتحرك محاولة التهام حروف L!..

ما هذه السذاجة؟

هنا جاء صوت (أشرف):

- «لا تسخرى!.. إن هذه هى قدرات أجهزة الكمبيوتر القديمة.. هذا جهاز (سينكلير) عتيق... إن

لعبة كهذه هى أقصى إمكانياته.. كانت ذاكرة كمبيوتر (صخر) القصوى هى 64 K وهو ما لا يكفى صورة واحدة تحتفظين بها على ذاكرة جهازك.. دعك من أن لغة البرمجة كانت هى لغة (البازيك) غالبًا.. وهى لغة شديدة البطء..!»

قالت له وهى تحك رأسها:

- «إنها أكثر بساطة من ألعاب مثل ولفنشتاين..»

قال لها:

- «لكنها تحتفظ بسحر القدم.. هناك مدمنون لهذه الألعاب.. ثم أنها هى البدايات التى قادتك إلى ألعاب مثل (الوهم الأخير) و(ميراث كين).. أى أنها (بسبق حائزة تفضيلا).. هناك من يستعيدون لذة اللعب بألعاب (صخر) القديمة التى تتعامل بنظام MSX باستعمال ما يدعى بال Emulator أو (المضاهى)..»

ثم أضاف وقد تذكر:

- «فى الواقع لا أرى لعبة ولفنشتاين ساذجة بتاتًا..»

هزت رأسها وراحت تتسلى بالتهام حروف L..

ما أغرب خيال الرسام!.. لقد رسم لها هذا المشهد المخيف المعقد على الغلاف فقط ليجذبها إلى شباك تلك اللعبة الساذجة.. ولعل الفنان رأى ما عجز الآخرون عن رؤيته..

انتهت الحروف واستعادت علامات + حريتها وحياتها.. وشعرت بأنها توجه لها عبارات الشكر فهزت رأسها فى تواضع..

عليها الآن أن تجرب لعبة أخرى.. لكن ليتها تكون بذات السهولة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- إنها ألعاب المنصات!

أخيرًا يبدو العالم أكثر بهجة..

إنها تمشى فى عالم بسيط للغاية.. رسوم طفولية محببة للنفس وألوان مبهجة..

الغريب هنا أنها - للمرة الأولى - ليست حرة الحركة.. فقط تتحرك من يمين الشاشة إلى يسارها، ولا تستطيع أبدًا أن تغير اتجاهها لتمشى نحونا أو بعيدًا جدًّا... البروفيل فقط.. كأنها نقش على جدار معبد فرعوني حيث لم يكن الفراعنة يؤمنون باللقطة المواجهة لأى شىء ما عدا العين..

هذه الألعاب تدعى (ألعاب المنصات) ...

كانت ألعابًا ثنائية الأبعاد محببة فى الثمانينات ومع تطور ألعاب الكمبيوتر الرهيب انتهى أكثرها، إلا أنها قد عادت ثلاثية الأبعاد.. بشكل ما يعتبر خبراء الألعاب (لارا كروفت) مجرد لعبة منصات أخرى ثلاثية الأبعاد..

فى هذه الألعاب يتحرك اللاعب من اليسار إلى اليمين.. ولا ترى الشخصية الرئيسة إلا من الجانب.. تصعد السلالم وتنزلها وتثب وتجمع القوى...

إنها الآن فى ملكوت شركة (نينتندو) صانعها هو العبقرى اليابانى (شيجرو مياموتو)..

الشخصية التى تلعبها اسمها (ماريو)..

مهمتها بسيطة جدًّا.. هى أن تنزلق وتنزلق وتنزلق عبر مملكة عش الغراب.. تواجه قوى (باوسار) وتنقذ الأميرة (تودستول).. (تودستول) نوع من الفطر معناه الحرفى (براز الضفدع) الأمر الذى لا يوحى بأن الأميرة بارعة الجمال..

هناك خونة اسمهم (جومبا).. وجنود سلاحف اسمهم (كوبا تروبا).. إنها تركل السلاحف فى درقاتها نحو الأعداء لكن قد يرتد أحد السلاحف بالعكس ليضربها هى..

لعبة لطيفة. على الأرجح تروق للفتيات ولابد أن تروق للأطفال.. على الأقل لا يوجد هنا دم ولا أشلاء تتمزق.. إنها فكرتها الأساسية عن ألعاب الفيديو، لكن بالطبع ما كان هذا ليناسب الشباب الباحثين عن الدماء.. الكثير منها.. بالنسبة لهم هذه لعبة منومة لطيفة أكثر من اللازم..

إنها تمشى فى خفة.. تقفز فوق الأعداء.. الطريف أنهم ليسوا مخيفين على الإطلاق..

نقاطها تتضاعف..

فجأة لمست جذوة ملتهبة.. شعرت بالقوة تتسرب إلى عروقها.. إنها الآن تملك قوة خارقة..

سمعت صوت (أشرف) مرشدها فى هذا العالم يقول:

- «هذه زهرة النار.. أنت الآن نارية.. جربى!»

لم لا تجرب؟.. قذفت النار من يدها فتفحم أحد الخصوم القادمين..

إنها تقذف النار يمينًا ويسارًا... وفجأة اصطدمت بعش غراب عملاق..

كانت النتيجة مذهلة لأنها تضخمت إلى ضعف حجمها السابق.. إنها الآن (سوبر ماريو) الذى لا يقهره شيء..

كانت تركض شاعرة بالقوة والمرح.. فجأة اصطدم بها أحد هؤلاء الحمقى.. يبدو أنه (كوبا تروبا)..

فى اللحظة التالية عادت إلى حجمها السابق...

وقبل أن تتحاشى الخطر القادم اصطدمت بأحمق آخر..

هنا وجدت أنها فى مكان آخر.. مكان يبدو أنها قطعته من قبل.. ما معنى هذا؟

قال (أشرف):

- «عليك أن تعتادي هذا.. لقد عدت لمرحلة سابقة..»

كان الزحف مرهقًا... لقد بدأت تمل المشوار الطويل الذى ينتظرها.. خاصة أنها أنهت تلك المرحلة لتجد أن هناك مرحلة جديدة تحت الماء.. ثم وجدت أن عليها أن تلعب فى السماء.. بعد هذا تمر عبر قلعة..

وفى كل مرة يحدث خطأ ما فتعود لمرحلة سابقة..

تذكرت لعبة (السلم والثعبان) فى طفولتها.. كانت توشك على بلوغ مربع النهاية حينما تتعثر فى ذلك الثعبان المشئوم الذى تنزلق معه إلى نقطة البداية تقريبًا... هذا يحدث الآن...

المستوى السادس ليل.. ظلام دامس تصارع فيه خصومها..

إن اللعبة مكونة من ثمانية مستويات.. ولكل مستوى عوالم فرعية..

جاء صوت (أشرف) يخبرها بما يعرفه عن اللعبة:

- «هناك مستوى يدعى ب. -1.. هو مستوى تحت الماء لم يستطع كثيرون الوصول إليه.. لكن لا يمكن بلوغه إلا من المستوى واحد.. هل تريدين أن تريه؟»

هزت رأسها فى غيظ وهى تتفادى واحدة من تلك الأشياء الطائرة..

- «هل أجد فيه السعادة الأبدية؟»

ضحك قليلًا ثم قال:

- «لا. لكنه فتح فى حد ذاته.. أن تصلى لمكان قيل إنه أسطورة وإنه لا وجود له.. لأسباب كهذه وصل الناس إلى قمة إفرست.. لو اتجهت ليسار المستوى الأول يمكنك العبور قبل أن تظهر لافتة (مرحبًا بك فى منطقة الدوران).. إن .....»

قالت فى ضيق:

- «ما أريده فعلًا هو الخروج من هنا..»

- «إذن هو الانتحار..»

- «ليكن.. ولكن كيف؟»

- «لا تفعلي أي شيء على الإطلاق حتى ينتهي وقتك وتنفد الحيوات التى اكتسبتها.. هل تقرئين كتابات سينكلير لويس؟»

لم تفهم ما يقصده لكنها وقفت تتلقى الضربات والصدمات ثابتة تمامًا..

هذه لعبة لا غبار عليها.. لعبة نظيفة ذات طابع أسرى لكنها أشعرتها بالملل.. هل مأساة الإنسان هى أن يختار للأبد بين (نظيف وممل) وبين (مثير وقذر)؟.. أن يختار بين (لا دماء ونوم) وبين (الكثير من الدماء وإثارة لا تنتهى)؟..

يبدو أن مبرمجي الألعاب لم يكونوا بهذا السوء.. إنهم تجار قبل كل شيء وليسوا مصلحين اجتماعيين.. لم يدّع أحدهم أن هالة الرهبان تعلو رأسه..

لم تطل أفكار (عبير) لأنها استنفدت آخر حياة لديها وماتت...

لكن الجحيم لم ينته...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- وحدى مع لافكرافت!

كانت مرهقة بحق وهى تضع قدميها على بداية هذا العالم..

نحن الآن فى عالم (لافكرافت) كاتب الرعب الأشهر لو تحول هذا العالم إلى لعبة.. نعم.. صناع اللعبة لم ينكروا لحظة أنها مستلهمة من عوالم (لافكرافت).. هناك لعبة من ذات الطراز اسمها (نداء كتولو).. فيما بعد، سوف تواجه (عبير) عوالم (لافكرافت) هذه وتفهم أن (كتولو) من أهم مفرداتها..

اسمها (إميلى)..

فتاة رشيقة جميلة هى.. كل بطلات الألعاب جميلات رشيقات وبعضهن مثيرات إلى حد أثار أعصاب منتقدي هذه الألعاب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- «الأطفال يحبون هذه الأشياء... هناك فيلم شهير أعيد مونتاجه بناء على طلب المنتج لإضافة بعض مشاهد الدماء (كى لا نكسر بخاطر الأطفال) على حد تعبيره.. هل فهمت ما أعنيه؟.. لسنا ساديين.. لكننا نحاول أن نروج أعمالنا..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها (إميلى)...

وعليها أن تقوم بجرد هذا المنزل الذى يخص رجلًا يدعى (جيريمى هارتوود).. إنه قريبها.. مالك بيت (ديرسيتو) فى (لويزيانا).. وهى تعرف أنه انتحر. قيل إن قوى شريرة كانت تستحوذ عليه. ويبدو أن الانتحار كان السبيل الوحيد للخلاص.. طبعًا هذه قصة الجزء الأول من اللعبة.. تتغير القصة فى كل جزء وأحيانًا يصير اسمها (ألين).. لكن المحور واحد: لابد من دخول البيت..

ثمة تاجر عاديات طلب منها دخول البيت وجرده.. ولسبب ما قررت أن تقوم بهذا ليلًا...

الحقيقة أن الجو مرعب فعلًا.. يقال إن أفضل تأثير لهذه الألعاب يتم عند لعبها ليلًا.. هناك مدمنون لها ينهضون وحدهم فى الليل ليلعبوها والناس نيام، والنتيجة كارثية غالبًا لأن أى باب يفتح يجعلك تثب مترين فى الهواء..

بدأت (عبير) تكتسب خبرة بالألعاب إلى حد ما.. إنها تدرك أن هذه لعبة من طراز Third person shooter حيث ترى نفسها من الخارج..

ثمة نقطة أخرى غريبة هى أن أوضاع الكاميرا تتبدل.. أحيانًا ترى نفسها من زاوية منخفضة وأحيانًا ترى نفسها من زاوية مرتفعة.. هذا تأثير ساحر فى حد ذاته.. الحقيقة أن هذا الأسلوب بالذات يتبع فى لعبة أخرى شهيرة هى (الشر المقيم).. والسبب أن محرك اللعبة واحد..

هناك باب موصد.. تتجه إليه لتفتحه..

هنا لاحظت شيئًا غريبًا..

لا يمكن فتح الباب إلا فى وضع معين لها.. أى أنها لابد أن تتحرك أمامًا وخلفًا على أن تصل لوضع يمكن معه فتح الباب..

أخيرًا استطاعت أن تفتح الباب لتجد نفسها فى غرفة كرار..

خالية.. و...

خالية؟ ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لعل لعبة (وحدى فى الظلام) التى صدرت عام 1993 هى أول لعبة من هذا الطراز من الألعاب التى اصطلح على تسميتها (ألعاب رعب البقاء على قيد الحياة Horror survival games).. كل هذه الألعاب لها ذات القواعد.. عليك أن تدخل بيتًا أو قلعة وأن تجد نفسك محاصرًا... الحصار مهم جدًا فى هذه الألعاب.. ثم يهجم عليك حشد رهيب من الزومبي والمسوخ وكل مفردات أفلام الرعب.. وعليك أن تقاتل..

أحيانًا تقاتل... أحيانًا تضطر لحل ألغاز... المهم أنك لا تهمد لحظة..

بالنسبة لعاشقى الألعاب فإن أشهر هذه الألعاب هى (الشر المقيم) ... هناك ألعاب تعتمد على الكتابة فقط مثل (كاميتاشى نو يورو).. هناك كذلك ألعاب مثل (مخلوقات الكوابيس) و(نداء كتولو).. وثمة ألعاب لا تلعب إلا فى اليابان مثل (برج الساعة) و(الهضبة الصامتة) وهى ألعاب تركز على الرعب النفسي أكثر من المادى.. الذين لعبوا اللعبة الأخيرة قالوا إنها عالم مجنون كابوسي لا يمكن وصفه إلا برؤيته...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الكرار خاليًّا...

لقد رأت شيئين يتقدمان منها.. إنهما أقرب إلى رجلين لكن أطرافهما مبتورة.. الدم ينزف من مواضع البتر.. ولا وجه لهما.. يتقدمان منها وهما يزأران..

أطلقت الرصاص على الرأسين المشوهين.. فى هذه الألعاب يكون القتل عن طريق إطلاق النار على الرأس..

احتاج الغولان إلى وقت أطول من اللازم كى يسقطا أرضًا..

كلينج!

كان هذا صوت شيء سقط من أحدهما.. انحنت لترى ما هنالك فوجدت أنه مفتاح ذهبي.. حملته ووضعته مع قائمة ما حصلت عليه...

إن القائمة غريبة.. وهى تعرف أنها ستضطر إلى استعمالها فيما بعد..

هنا رأت وحشًا غريبًا مريب الشكل يبرز لها من ركن القاعة، فأطلقت بضع رصاصات عليه.. هذه هى الكوابيس التى كان على (هارتوود) أن يواجهها يوميًّا كأسلوب حياة.. ثم اكتشفت حقيقة غريبة هى أن ضوء الكشاف كاف لقتله..

أخيرًا استطاعت أن تتفقد الكرار للمرة الأولى...

كانت هناك لوحة معلقة يبدو أنها تخص الأخ (جيريمى هارتوود).. وكانت هناك شمعة وستار أحمر رث...

استعدت للخروج وراحت تصوب على الباب كالعادة لتعبره.. هذا ليس سهلًا.. أية زحزحة عن الباب تجعلها تحرك قدميها فى الفراغ إلى ما لا نهاية..

هنا سمعت صوت (أشرف) يهتف بها:

- «هل فرغت من هذه الحجرة؟»

قالت فى غباء:

- «نعم..»

- «يا لك من حمقاء!!.. ليست هذه اللعبة بهذه البساطة!.. هناك عشرة ألغاز فى هذه الحجرة يجب حلها!.. ماذا يوجد وراء اللوحة؟.. ماذا يحدث لو أوقدنا الشمعة؟.. هل المفتاح الذهبى الذى معك يفتح الصندوق؟.. ماذا يوجد خلف الستار؟.. حتى لو لم تحل هذه الألغاز الآن فهى تطاردك ولسوف تتذكرين هذه الغرفة بعد قليل وتعودين لها..»

قالت فى غيظ:

- «وهل هذه لعبة أم رسالة دكتوراه؟»

- «إنها أسوأ من رسالة دكتوراه.. أنت تتصرفين كمن ذهب إلى البحر ليجلس فى كافتيريا ويشرب كوب شاي ثم يعود لداره!... لابد من أن تجربي كل شىء..»

هزت رأسها واتجهت إلى الستار المعلق وأزاحته..

كانت هناك فتحة.. فتحة يبدو أنها تؤدى إلى نفق ما..

هكذا توكلت على الله وتسلقت الفتحة.. وسرعان ما انزلق جسدها إلى الداخل..

لحظة صمت.. لحظة سواد...

ماذا حدث؟

- «إن اللعبة تحمل الجزء التالي إلى الذاكرة.. هناك وقفات لابد منها..»

أخيرًا تهبط فى نفق منحدر إلى أسفل.. على الجانبين هياكل عظمية مدفونة فى الجدران لكن يبدو أنها ماتت صارخة..

على ضوء الكشاف تكتسب هذه المناظر حياة خاصة بها..

الحقيقة أن الشركة لم تدخر جهدًا فى جعل هذا العالم مرعبًا.. الناس تحب العنف والمراهقون يحبون الرعب..

فجأة سمعت عواء مرعبًا فنظرت إلى الوراء..

كان هذا ذئبًا يركض فى الممر المظلم ليلحق بها.. عيناه تتألقان.. تضيئان.. كأنه الإنذار الأحمر.. إنذار أحمر مخيف من نوعه.. وقبل أن تطلق رصاصة واحدة كان قد وثب على عنقها ليقضمه مرة واحدة..

هنا سمعت (أشرف) يصيح بنبرة من يشد شعره:

- «ألم تسجلى ما حققته حتى الآن؟»

قالت وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة بينما الكلب يواصل تمزيق الأنسجة:

- «نعم.. لم أفعل..»

- «فى هذه الألعاب لابد من تسجيل ما حققته من تقدم... لأن الموت قد يأتى فى ربع ثانية مثل حالك الآن.. بالتسجيل لن يكون عليك البدء من جديد فى كل مرة...!»

أرادت أن تقول إنها لم تتقدم كثيرًا فى هذه اللعبة..

لكن سكرات الموت عاجلتها وأمام عينيها انتشر الظلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- الوهم الأخير..

هكذا بدأت لعبة جديدة فى هذا الجحيم الذى لا يمكن الهروب منه..

كانت الأن تجتاز عالمًا سحريًا.. بالفعل لا توجد كلمة تعبر عنه إلا السحر...

إنها الآن تجتاز عالم إبداعات العبقرى اليابانى (هيرونوبو ساكاجوشى).. أى أنها فى ملكوت شركة (سكوير سوفت) ... لقد كانت الشركة موشكة على الإفلاس فقدم الرجل هذه المحاولة الأخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وأطلق عليها اسم (الوهم الأخير).. عنوان مناسب جدًّا...

وكان أن هذا الوهم الأخير أنقذ الشركة.. وصدرت من هذه اللعبة أجزاء لا تنتهى.. لابد أن هناك جزءًا صدر لحظة كتابة هذه السطور..

القصة؟.. إنها معقدة جدًّا... هذا نوع من الألعاب التى يمكن أن تكتفى فيها بمتابعة القصة كأنك تتابع (الحرب والسلام) لـ (تولستوى)....

فى هذه اللحظات تعرف (عبير) أنها تدعى (تيرا)... هذا عن النسخة الإنجليزية.. أما فى اليابانية فاسمها (تينا).. السبب أن الصوت (تى) غير معتاد فى اليابانية لهذا يبدو اسم (تينا) مثيرًا للخيال اليابانى بينما هو فى الإنجليزية تافه.. بينما اسم (تيرا) جدير بالخيال العلمي..

ليس هذا كل شىء.. إن النسخة اليابانية مليئة بالعرى وهذا تم تغطيته فى النسخ الإنجليزية.. بل إن حلقات الدخان التى تخرج من الغلايين تم حذفها.. والأبطال لا يدخلون البار بل يدخلون المقهى..!

لقد تحسبوا تمامًا لاتهامات واحدة مثل (مارى مكدونالد).. التى سوف يسعدها بالتأكيد أن تفضحهم..

لقد انتهت الحرب مع (الماجى) - يعلم الله من هم فعلًا - وصارت الإمبراطورية تسيطر على الكون كله باستعمال قوة غريبة هى مزيج من السحر والتكنولوجيا اسمها (ماجيتك).. لابد من إمبراطورية ما كما تعلم..

(تيرا برانفورد) تتجه إلى (نارش) مع جنديين فى مهمة خاصة..

المهمة تتلخص فى إعادة الحياة إلى رجل أسير هناك.. هذا لأسير يملك قدرات تخاطرية خارقة.. لكنها تحررت بشكل ما من تاج العبودية...

قابلت لصًّا من الطراز الذى نعرفه.. لص (جدع) وشجاع اسمه (لوك).. وهو يفضل ألا نطلق عليه (لص) بل (صائد كنوز).. وهذا الـ (لوك) قد ساعدها على الفرار لتنضم إلى مجموعة ممن يطلقون على أنفسهم (العائدون)... وهؤلاء العائدون هم تنظيم سرى يحاول قهر الإمبراطورية..

هناك تقابل مع (العائدون) مجموعة فريدة من الأشخاص... (إدجار فيجارو) الملك المتمرد على الإمبراطورية.. له أخ يدعى (سابين) خبير فى الفنون العسكرية...

هناك من يدعى (الظل) وهو محارب نينجا متقاعد..

هناك (جنرالة) اسمها (شيرى) لديها موهبة خاصة هى امتصاص التعويذات السحرية..

هناك (جاو) وهو طفل مفترس ربته الحيوانات مثل (موجلى) فى كتاب الأدغال..

هناك (ستزر) وهو مقامر محترف..

هناك (أومارو) وهو حيوان ضخم (ساسكواش) الأقرب إلى رجل الثلوج.. وكان يعيش فى كهوف (نارش)...

هناك مجموعة ممتازة من الأشرار أهمهم (كيفكا بلازو) وهو خليط من شرير ومجنون تمامًا.. دعك من الإمبراطور الأعظم (جشتال)....

فريق ممتاز ومتنوع ويمكن أن تعمل به أى شىء..

كانت (عبير) تملك قدرات سحرية وقد قررت أن تلهو قليلًا.. لكنها فوجئت بذلك الفتى (أشرف) يقف جوارها فى ذلك العالم السحرى..

كانت السماعات على أذنيه وهو منهمك فى لعب لعبة ما على جهاز المحمول الذى معه.. فقالت له:

- «ألم تشبع من اللعب على الشاشات حتى تلعب على المحمول؟»

قال وهو مستمر فى الضغط:

- «هى عادة لا أكثر.. لحظة.. انتهيت..»

ثم تقلص وجهه فى اشمئزاز وقال:

- «ما هذا الهراء؟.. ألم تجدى أقدم من لعبة (الوهم الأخير) رقم 6؟»

قالت فى غيظ:

- «لو لاحظت لوجدت أننى لا أختار على الإطلاق.. أنا فى دوامة ولا أستطيع التوقف..»

قال باسمًا:

- «على الأقل يمكنك دخول (الوهم الأخير) رقم 10.. إنهم يجمعون على أنها الأفضل.. ثمة من يقولون إن الثامن أفضل لكنى لا أرى هذا الرأى..»

قالت:

- «لماذا لا أجرب رقم 7؟»

- «جو عبراني غير مريح.. هناك أرض ميعاد.. ومفردات عبرانية أخرى.. لتبقى مع رقم 10..»

واتجه إلى باب جانبى وفتحه ثم نظر حوله وقال:

- «لو وجدونى لنسفونى.. أنا متسلل غير مرحب به على الإطلاق.. سلام!»

ثم أسرع يركض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن صار اسمها (يونا)... لا بأس.. بعد ما كانت (تيرا) يبدو الاسم (أفضل)..

إنها فى (سبيرا)...

لها وظيفة غريبة جدًّا يعرفها لاعبو (الوهم الأخير) هى أنها (مستدعية Summoner) أى أن لديها القدرة على استدعاء السحر والتعاويذ..

لديها مهمة واحدة فى الحياة هى القضاء على (سين)... (سين) معناه الخطيئة وهو كذلك فعلًا..

أبوها اللورد (براسكا) العظيم كان قد تمكن من قهر (سين) منذ عشرة أعوام.. دائمًا ما تكون ابنة هذا الطراز من الرجال قوية الشكيمة مسيطرة صادقة العزم..

اليوم عليها أن تجتاز رحلة أسطورية مرعبة عبر (سبيرا) للحصول على التعويذة العظمى..

لكن بداية مغامرتها تبدأ فى ملعب..

ملعب؟.. ملعب غريب بعض الشىء عبارة عن كرة ماء عملاقة.. فى الماء يسبح الفتى الوسيم (تيدوس).. وهو نموذج الفتى الوسيم فى رسوم الأنيمى والهنتاى اليابانية..

منتصب القامة بادى التصميم ولمدة 24 ساعة يوميًّا.. عيناه تلمعان فى حماس.. إن الطابع الأسيوى للشخصيات واضح جدًّا فى هذه اللعبة..

المباراة هى خليط من كرة القدم والسلة وكرة الماء.. يطلقون عليها اسم (بليتزبول).. إنه بطل فريق (قرود زاناركاند).. وهو الآخر ورث البطولة من أبيه.. هناك موسيقا رائعة تصاحب اللعبة ومن الواضح أن هذا البطل بطل فعلًا..

إن (تيدوس) فى عالم (يونا) الغريب عنه... لا يعرف كيف ولا متى فقد عالمه.. لكنه يحاول العودة بمساعدتها..

هناك الكثير من المرح فى هذه اللعبة.. إنها قادرة على استدعاء مخلوقات عجيبة اسمها (الأيونز).. كما يمكنها استدعاء (شيفا) وهى عبارة عن الجليد مجسدًا..

معها فى مهمتها تقابل (لولو) الساحرة السوداء، و(واكا) الذى يلعب ذات اللعبة العجيبة، و(ريكو) المؤمنة باستعمال الآلات والتى تجيد قذف القنابل الكاسحة.. وهناك صديق أبيها (أورون)...

هنا أدركت (عبير) ظاهرة غريبة.. إن بوسعها أن تجعل (تيدوس) يقاتل بالسيف أو تجعل (لولو) تستعمل سحرها.. يمكنها التحكم فى قدرات كل شخصية عن طريق القوائم..

الشخصيات تزداد قوة وحكمة كلما تقدمت اللعبة.. والقدرة تتزايد على مواجهة أعداء أقوى..

وسيلة التنقل هى طيور أسطورية تدعى (شوكوبو)..

راحت تلعب فى حماس.. وإن لم تشعر بسعادة لأن مستوى الثياب لم يكن لائقًا.. صحيح أنها تستطيع تبديل ثيابها أثناء القتال لكنها لا تجد ثوبًا واحدًا محتشمًا بما يكفى..

ثم كانت المفاجأة حينما عرفت أن الجزء العاشر له جزء آخر - عاشر أيضًا - سوف تكمل فيه البحث عن (تيدوس).. لماذا؟.. لأن (تيدوس) سيضيع منها فى نهاية هذا الجزء..

أما الأغرب فهو أنها ستعرف أن (لولو) ستكون حاملًا من (واكا).. صحيح أننا فى الفضاء الخارجى لكن من ذكر كلمة زواج فى هذا كله؟..

شعرت بغصة فى حلقها..

برغم جمال هذه اللعبة وإبهارها فإن هناك عدة نقاط لا تريحها كثيرًا... كانت الآن وحدها فى الظلام.. وحدها فى الظلام.. وهذه الفكرة أثارت رعبها كثيرًا..

وكانت تواجه أحد الوحوش على ظهر (الشوكوبو) الخاص بها حينما استدعاها أحدهم ليخبرها بأن دورها فى هذه اللعبة انتهى وعليها أن تجرب لعبة أخرى..

راحت تتساءل فى دهشة عن الكيفية التى يتعامل بها عاشقو الألعاب مع كل هذه التعقيدات.. كيف يتذكرون أسماء الشخصيات وكيف يذكرون كل جزء بما حدث فيه..

إما أنها موهبة يُولد المرء بها، أو هى موهبة يكتسبها ببطء مع كثرة التعامل مع هذه الأحلام البصرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



12- عرض لا تستطيع رفضه..

الآن (عبير) تقود سيارتها فى شوارع مدينة أمريكية..

ما هى؟..

فى الحقيقة ليست متأكدة..

هى فقط تعرف أنها فى فترة تاريخية متأخرة نوعًا من القرن العشرين.. ثلاثيناته؟.. نعم.. هو كذلك.. موديلات السيارات وثياب المارة.. لقد جربت هذه الفترة بالذات أكثر من مرة فى فانتازيا.. تذكر المرة التى اختلطت فيها بعوالم المافيا.. و..

هل هى تحلم؟..

هذان الرجلان اللذان يهرعان إلى السيارة التي تركبها.. بالمعطف والقبعة والمدفع المسمى (تومى جان) والحذاء الأبيض. إنها عوالم المافيا فعلًا... لا شك فى هذا..

قال لها الأول (وهى لم تتبين وجهه لكن من الواضح مما رأته من ملامحه أنه يدعى بولى):

- «لا بأس.. لقد انتهينا من قتل (جيرالدو).. والآن فلترينا مهارتك!»

مهارتك؟..

إذن هى مكلفة بتنفيذ سيناريو هرب هذين القاتلين..

الرجل الآخر يدعى (سام).. وهو من الطراز الذى يلتهم طفلين على الإفطار حتى لا يتعكر مزاجه.. قال لها:

- «إن الحلوف لم يقاوم.. لقد رآنا فرفع يده يحاول أن يقول شيئًا..»

- «وما هو؟»

- «لم نسمع.. لقد كانت الطلقات أسرع..»

ضغطت (عبير) على دواسة البنزين فعوت السيارة، وانطلقت تسابق الريح فى شوارع المدينة.. هذه نيويورك.. لا شك فى هذا..

المشكلة أنها لا تعرف الطرقات جيدًا.. لكنها ستعرف فيما بعد أن حفظ الشوارع جزء مهم أساسى من لعبة (مافيا) التى قدمتها شركة (إيلوجان)..

كانت اللافتة على أول الشارع تقول:

- «ممنوع الدخول..»

هنا هتف (بولى) من بين أسنانه:

- « ادخلى!.. لقد أقنعت الأسرة بأنك خير من يصلح لهذه المهمة.. كانوا مترددين بشأن أن تقود

سيارة الهرب امرأة، لكنى أقنعتهم.. لقد رأينا قيادتك السيارة الأجرة من قبل!»

هنا فهمت.. الدور الرئيس فى اللعبة يقوم به رجل.. اسمه الذى لا تعرفه هو (تومى أنجلو).. لكن (فانتازيا) قررت أن تقنع المافيا بأن تقود سيارتهم امرأة.. من أجلها خصيصًا...

اندفعت (عبير) داخل الشارع فى الاتجاه المعاكس.. بينما سيارات تنقض عليها طيلة الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت براعتها غير معقولة.. لم تتصور قط أنها تقود بهذه البساطة..

وسمعت العواء المميز لسيارة شرطة تنطلق خلفها..

قال (سام):

- «سيارتنا هى الأفضل.. لاحظى أنك اخترتها من بين خمسين موديلًا.. اسبقى هؤلاء الأطفال!»

كانت تسابق الريح فى الشارع، وأصيب سائق قادم بالذعر فاندفع جانبًا ليرتطم بعمود نور..

ثمة طلقات تأتى من الخلف، لذا راحت تحاول التملص.. وارتطمت بمضخة حريق على جانب الطريق فسمعت صوت الكشاف الأمامى يتهشم..

ثم اندفعت إلى شارع جانبى فجأة، فسمعت فرامل سيارة الشرطة تعوى قبل أن تسمع صوت تهشم المعدن والزجاج إذ اقتحمت سيارة الشرطة مطعمًا..

كانت الآن فى طريق الفرار الذى لم يعد يسده شىء.. الظلام يحل بالمدينة لذا أضاءت الكشافات وأثار دهشتها أن الكشاف الذى تحطم لا يضىء.. نصف مجال الرؤية مظلم.. إلى هذا الحد بلغت دقة من صمموا اللعبة..

وفى سرها كانت تتساءل: ألن يصل مصممو الألعاب هؤلاء إلى حد؟ ... بعد الدماء والأشلاء هى ذى تتقمص دور قاتل فى عصابة وعليها أن تتقمصه ببراعة.. أى أن هذه اللعبة تقوم حرفيًا على تقمص مشاعر مجرم..

أخيرًا تصل السيارة إلى فيلا خارج حدود المدينة..

على الباب أشخاص يشبهون الدببة أو هم دببة بالفعل.. ينظرون فى شك إلى السيارة، ثم يسمح لهم بالمرور إلى قصر منيف..

أما الرجل الجالس يداعب قطًا جوار المدفأة وعيناه عينا ثعلب فهو الدون.. الدون (ساليير)... إنه الرجل الكبير الذى يدير هذا التنظيم العصابى..

قال لها وهو يحك فراء القط بعصبية:

- «لقد أبليت بلاء حسنًا.. وهذا يدفعنا إلى أن نسند لك دورًا فعالًا أكثر.. أكثر من قيادة السيارات ببراعة..»

ثم أشار لها كى تدنو منه وهمس:

- «(فابريزى)... أريد التخلص منه.. هل هذا بوسعك؟»

تمنت أن تقول أن هذا ليس بوسعها، لكن هيبة الرجل كانت كبيرة.. دعك من أنها تريد أن تصل باللعبة إلى آخر مدى لها.. لذا هزت رأسها موافقة..

قال لها الدون إن عليها أن تغير مظهرها.. وأن تتوجه إلى مقر الرجل متظاهرة بأنها من ال FBI وبهذا تكون أقرب ما يكون له..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا بدأ أغرب فصل عرفته.. لم تكن تتصور أن هذه إمكانات لعبة لكنها الحقيقة.. إنها ترتدى ثيابًا كالتي يمكن أن يرتديها أحد رجال ال FBI.. ثم تتجه إلى المرآب لتختار سيارة مناسبة..

سيارات كأنها تحف فى معرض.. سيارات تجمع بين الشكل الكلاسي والسرعة..

اختارت سيارة (بويك) أنيقة.. ثم تزودت بمسدس محشو وانطلقت فى شوارع المدينة..

يبدو أنها اعتادت السرعة لأن سيارة شرطة راحت تعوى من خلفها.. ونظرت إلى عداد سيارتها فرأت أنها تجاوزت الثمانين كيلومترًا فى الساعة.. غريب هذا..

هكذا اضطرت إلى التوقف على يمين الطريق.. ومن سيارة الشرطة ترجل ضابط منهك.. اقترب منها.. طبعًا ليس بوسعها أن تتكلم عن ال FBI لأن هذه حيلة مفضوحة..

قال رجل الشرطة وهو يحرر لها مخالفة:

- «ثمانون كيلومترًا وسط المدينة.. أعتقد أن هذا درس طيب لك..»

من دون كلمة دفعت ثمن المخالفة.. على قدر علمها هذه أول لعبة تدفع فيها غرامة لقيادة السيارة بسرعة..

من جديد انطلقت..

ما هذا الذى تفعله؟.. إنها بالفعل ذاهبة لقتل رجل..

والغريب أنها مندمجة فى الموضوع بشدة... لقد أفسدت هذه الألعاب أخلاقها.. كل ما كانت تهاجمه فى مقالاتها قد صار الآن عالمها..

لابد أن هناك وسيلة للفرار.. ولكن كيف؟

حتى هذه اللحظة لم تتلق أى تلميح.. أو تلقت تلميحات لكنها غبية..

إن ملهى المدعو (فابريزى) يقع فى الجهة الأخرى من المدينة.. عليها أن تطلب لقاءه وتطلب الانفراد به.. ثم تفرغ مسدسها فى رأسه وتفر.. طبعًا الجزء الأخير شديد الصعوبة لكن يجب أن تقوم به..

لكنها الآن ترى مركز التجارة العالمي... علامة (نيويورك) الشهيرة قبل 11 سبتمبر..

هنا سمعت صوت (أشرف) يقول لها:

- «هناك خطأ ما.. اللعبة الأصلية تدور فى مدينة افتراضية لا هى (نيويورك) ولا هى (شيكاغو).. إنها خليط من الاثنين..»

ثم تذكر شيئا فأضاف:

- «دعك من أنه لم يكن موجودًا فى هذا العصر.. عصر ازدهار المافيا وتحريم الخمور.. إلخ.. لقد بدأ البناء فيه فى ستينات القرن العشرين.. وافتتح البرجان فى أوائل السبعينات..»

اضطرت إلى أن توقف السيارة إلى جانب الطريق.. وقالت فى جدية:

- «ماذا تعنيه؟»

- «أعنى أن هذه رسالة.. تلك أخطاء لا يقع فيها حمار.. إذن هى وضعت عمدًا..»

كان جرس ما يدق فى عقلها.. لقد مر بها هذان البرجان من قبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الشاشة رأت مدينة (نيويورك)... اقتربت الكاميرا أكثر فاستطاعت أن ترى الخراب الذى خلفه تمثال الحرية عندما سقط.. ترى برجى مركز التجارة العالمي.. و..

هنا سمعت (يورى) يقول:

- «هذا هدف ممتاز للضربة القادمة!»

نظرت له وقالت بصوت مبحوح:

- «أنت موضة قديمة فعلًا.. تتكلم من زمن كان فيه مركز تجارة واتحاد سوفييتي و....»

لم يبد أنه يسمع ما تقول وكرر كأنه يحلم:

- «فى مرحلة قادمة أعتقد أن هذا المكان يصلح لعملية ممتازة..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- عقيدة السفاحين

كأننا فى مشهد من فيلم أفاتار....

أو كتيب من فانتازيا!

عبير ترقد على فراش كأنه فراش فحص طبى. هناك شىء يوضع على رأسها يذكرك فعلًا بدى جى - 2. تعرف جيدًا أن اسمها (دزموند مايلز)..

هذا الاسم كان يخص ذكرًا لكن تم تناسى ذلك لمصلحة اللعبة.

رفعت عينيها إلى السقف.. فى كل مكان ترى علامة (مصانع أبستيرجو) ...

هذا الجو يذكرها بالاتحادات الشريرة فى السينما الأمريكية. يبدو أنه كالعادة مصنع يجرى تجارب غير مشروعة أو ينتج أدوية خطرة..

تعرف أنها سفاحة.. انحدرت من نسل سفاحين..

جاء الطبيب أو العالم الذى سيجرى التجربة ومعه امرأة لا بأس بها، وقال:

- «إن شركة يوبيسوفت راضية جدًّا عن المبيعات.. الآن سوف ننقلك من جديد إلى العالم القديم..»

لم تكن شركة يوبيسوفت جزءًا من اللعبة.. بل هى الشركة التى صممت اللعبة، وهذا كعادة فانتازيا فى خلط الأوراق..

أما الجهاز الذى سيتم نقل عبير به فهو (الأنيموس) وهو اسم (يونجى) جدًّا... أى أنه قادم من عالم (يونج) الطبيب النفسي الشهير..

فجأة بدأ العالم يبيض من حول عبير وشعرت بأنها تنتقل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك عند أبواب المدينة الشامخة حيث تقف أبراج الحصار، وجدت عبير نفسها تحمل السيف العملاق البتار وتضرب الرءوس.. إنها مدججة بالسلاح والدروع.. كتلة عضلات...

تعرف جيدًا أنها فارس فى الحروب الصليبية – بالتحديد الحرب الصليبية الثالثة - يدعى (الطائر)... أحيانًا هى سفاح إيطالي من عصور النهضة.. الاسم هو (إتسيو أوديتورى) ...

لقد عاشت هذه التفاصيل من قبل.. هذه ذكريات الأجداد تُبعث من جديد والفضل لهذا الجهاز (أنيموس)...

إن مصانع أبستيرجو هى قناع يتخفى وراءه فرسان المعبد.. وهم يحاولون جمع لغز معين من التاريخ هو (أجزاء عدن)..

يبدو أن حبكة (شفرة دافنتشي) فتحت شهية العالم كله لهذه الأجواء.. جو الحروب الصليبية

وفرسان المعبد والشفرات الدينية الغامضة.. أضف لهذا لمسة من (أمير فارس) ولمسة من فيلم (ماتريكس)... لا عجب فى لمسة أمير فارس على كل حال، فكما أن كل أديب أو رسام له بصمات تتكرر بوضوح، فإن مصممي أمير فارس هم الذين صمموا هذه اللعبة..

وفى هذا الجزء المفعم بالأسرار من السهل أن تمر لارا كروفت - غازية القبور الجميلة - أمام عينيك للحظة ثم تختفى.. فركت عبير عينيها.. بالتأكيد رأتها للحظة.. لا وقت للشكوك على كل حال....

مهمة عبير محددة باعتبارها من جماعة الحشاشين التى قابلتها من قبل.. فى هذه المهمة هى فداوية مكلفة بقتل تسعة من القواد الصليبيين.. والصراع يدور بين القدس وعكا ودمشق..

من الطريف أنها تتسلق الجدران بسلاسة تامة كأنها الرجل العنكبوت

ترى نفسها من الخارج طبقًا لألعاب الشخص الثالث Third Person Shooter..

تقف فوق السور وتمسك بعدسة تسلطها على مجاميع الناس تحت، فترى أعداءها بوضوح تام.. عبارة Memory Error تظهر أمامها.. ما معنى هذا؟

آه.. لا تنسى يا عبير أن هذا برنامج كمبيوتر يحدث له ما يحدث لأى برنامج آخر.

إنها تراقب كل شىء من مكانها العالى ولا تشعر بالدوار.. هكذا كل أبطال القصص منذ عصر باتمان.. فى هذه اللعبة تراقب الأعداء لفترة وتقرر الأسلوب الأمثل لمهاجمتهم..

يخرج لها مجموعة من الأعداء.. فتبارزهم كما ينبغي أن يكون.. تستعمل السيف ثم تقذف الخنجر بسلاسة تامة فيستقر بين ضلوعهم..

لا تنكر أن التجسيم ممتاز.. على الأرجح هى أكثر لعبة متقنة رأتها منذ دخلت هذه الدوامة. شوط عظيم قطعته ألعاب الكمبيوتر منذ ألعاب سينكلير حيث حرف يطارد حرفًا آخر..

تثب من فوق السور فتطير عباءتها فى الهواء كأنها جناحان..

هناك جندى أسير مكبل بالأغلال.. تنقض على الحراس لتقتلهم بنفس السرعة والبراعة. عندما حررت الجندي فوجئت بأنه صار حليفًا لها وإنه يقتل أعداءها معها.. هناك ذكاء صناعى ممتاز يتحكم فى هذه اللعبة.. وأبطال اللعبة لهم شخصيات مستقلة فعلًا...

كانت تقاتل بعنف..

الأدرينالين يتدفق فى دمها..

قلبها يتسارع..

يجب أن يتوقفوا.. يجب أن يعطوها فترة من الراحة.. إنها مرهقة فعلًا..

فجأة لم تعد ترى المدينة من حولها.. فجأة لم تعد تتنفس..

فتحت عينها للحظة فرأت أنها راقدة هناك فى مختبر (مصانع أبستيرجو) ... وأدركت أنهم يضعون جهاز الصدمات القلبية على صدرها.. يا للمصيبة!.. معنى هذا أنها تموت!

لم يتحمل قلبها هذه الإثارة..

أدركت هذا ثم انزلقت لعالم الظلام ببطء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



15- نداء الواجب

من جديد تجد عبير نفسها فى جو قريب من عوالم الإنذار الأحمر..

أجواء الحرب النووية والقتال على أعلى مستوى فى العالم..

إنها ترى كل شىء بطريقة (الشخص الأول).. وتعرف أن هذه اللعبة لعبة صدرت فى أجزاء لا حصر لها اسمها (نداء الواجب)، ويبدو أن هناك خبراء مختصين فيها..

إنها تقود مجموعة من الجنود البريطانيين فى أذربيجان..

يدنو منها جندى ليقول بلكنته البريطانية الغريبة، كأنه يتعمد الضغط على الحروف:

- «إن ابن زاكيوف معنا الآن يا كابتن..»

سرها هذا الخبر كثيرًا برغم أنها لا تعرف من هو زايكوف.. أدت التحية للرجل الذى يضع علامة قوات SAS البريطانية..

كان مقر القيادة هناك وسط الثلوج..

طائرات الهيلوكوبتر تحلق فى كل صوب كأنها البعوض..

على باب مركز القيادة حاولت أن تستدرج الجندي ليخبرها من هو زاكيوف هذا...

هنا بدأت تفهم القصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه من القصص النادرة التى ما زالت تصر على أن تجعل الاتحاد السوفييتي عدوًّا..

إنها قصة عن ترسانة الأسلحة النووية التى تراخت قبضة الدولة عليها فصار بوسع كل من يملك عشرة دولارات أن يشترى صاروخًا نوويًّا، وقد تمكن زاكيوف هذا من تكوين ترسانة نووية لا بأس بها حصل على معظمها عن طريق إفساد ضباط الجيش الروسي..

إن زاكيوف يخشى الأمريكان ويخشى أن يتدخلوا فى الترسانة التى ينشئها، لذا يبدأ فى تنظيم اضطرابات فى الشرق الأوسط..

ومن الطريف أن اللعبة تبدأ بضرب النظام الدكتاتوري فى مصر!.. كان هذا قبل (الشعب يريد إسقاط النظام) طبعًا..

تتصاعد الأحداث بانفجار نووى مروع فى الشرق الأوسط، وهو الانفجار الذى يقتل العديدين من القوات الأمريكية..

ويفر الزعيم العربي المسئول عن الانقلابات..

إن زاكيوف هو المطلوب رقم واحد لدى القوات البريطانية والأمريكية الآن..

وتنجح القوات البريطانية فى تحديد مكان ابن زاكيوف فى أذربيجان وتقبض عليه، وتحاول أن تنتزع منه أسرار أبيه ومكان وجوده..

عبير هى الكابتن برايس المسئولة عن استجواب ابن زاكيوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دخلت مقر القيادة كان الفتى جالسًا وهو ينظر للجدار..

قالت له بصوت وقور:

- «هلم.. أنت تعرف أنك ستتكلم فى النهاية..»

قالتها بالإنجليزية ثم الروسية، لكنه ظل صامتًا..

عندما دنت منه رأت قطرات الدم على الأرض ورأت القطع فى شرايين يده. لقد انتحر الفتى حتى لا يعرفوا سر أبيه..

إن غضبة زاكيوف ستكون مخيفة لو عرف أن ابنه قد مات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عبير الآن فى دور برايس تقاتل حربًا محمومة..

تؤدى نداء الواجب كما يقول اسم اللعبة، وما لم تعرفه عبير هو أن هذا أول جزء من اللعبة يتعامل مع الحرب العصرية.. الأجزاء السابقة كانت تتعامل مع الحرب العالمية الأولى والثانية..

على صوت موسيقا ستيفن بارتن أحد نجوم الموسيقا التصويرية لهذه الألعاب تقاتل..

كان هناك شىء متخشب فى اللعب.. الحركة ثقيلة نوعًا..

فجأة رأت رجلًا يلبس سترة سوداء يتقدم وهو يحمل قرصًا مركبًا.. قال لها:

- «أرجو المعذرة..»

ودس القرص فى فتحة فى جدار عملاق.. ثم أردف:

- «إن هذه اللعبة تحتاج إلى نسخة حديثة من برنامج Direct X وإلا بدت الحركة غبية ثقيلة.. أنت كنت تستعملين الإصدار التاسع وقد غيرته لك بالإصدار العاشر.. جربى الحركة..»

تحركت عبير ودارت حول نفسها فكانت حركتها سلسة رشيقة بلا شك.. ابتسم الرجل فى رضا وانصرف..

إن الأسلحة التى تتعامل بها كثيرة جدًّا.. وتذكرها كثيرًا بألعاب الـ Arcade لكن على نطاق جبار طبعًا..

هناك طريقتان للقتل؛ التصويب على الرأس يقتل فورًا طبعًا، أما التصويب على الساقين فيسبب الشلل.. كل هذا وينكرون أى دور سادى لهذه الألعاب..

الصوت!.. يا للصوت الواقعي.. والفارق بين إطلاق الرصاص فى مكان مغلق ومكان مفتوح!!

فوجئت عبير بأن هناك قناصًا يلعب فى صفها، ولكنها لا تحركه.. ثم أدركت أن اللعبة الآن جماعية.. هناك عدة لاعبين منهم من يلعب كفرقة هجوم ومن يستخدم المدفعية الخفيفة وهناك القناصة..

المثير هو أن بوسعها أن تجرب أكثر من رتبة أثناء تقدم اللعبة.. إنها تترقى كأنها فى لعبة شطرنج..

هناك مهمات خاصة وهناك أهداف يقوم الفريق بتنفيذها..

هناك طور (ابحث ودمر) حيث يكون عليك أن تزرع ألغامًا ويكون على الفريق الآخر البحث عنها وإبطال مفعولها..

هناك طور الهيمنة.. حيث يكون على فريقك جمع أكبر عدد من الأعلام لتتفوق على الفريق الآخر.

هناك طور التخريب حيث تشبع هوايتك فى إحداث أكبر قدر من الخراب.. كل شىء يجب أن يدمر أو يحرق..

باختصار يبدو أن الانتهاء من هذه اللعبة يحتاج لعمر كامل، وخطر لعبير أن المرء يمكن أن يسجن فى زنزانة انفرادية وحده مع لعبة كهذه فلا يحتاج إلى الخروج..

دوي انفجار قوى فطارت فى الهواء وأدركت أنها قد ماتت على الأرجح..

لكنها على كل حال تعلمت أن اللعبة تبدأ من جديد أو هى سوف تبدأ لعبة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- تنتالوس..

هناك كانت تقف قرب تلك القرية الساحلية.. هناك طائرة هليوكوبتر فى الجو تطلق النيران بلا توقف على مجموعة من التحصينات.. النيران تتصاعد.. الأرض ترتج..

الحقيقة أنها رأت ما يكفى من الحرب ليوم واحد..

تمشى فوق العشب وهى تشعر بدوار بالغ.. ماذا ستفعل؟.. إنه عذاب تنتالوس فعلا وحرفيًّا.. سوف يستمر للأبد ولن تتمكن من الخروج أبدًا.. لقد أجاد هؤلاء القوم عقابها فعلًا...

رأت الفتى أشرف الذى يصف نفسه بأنه geek يمشى هناك وهو يلعب بجهاز صغير يحمله فى يده.. يبدو أنه جهاز iPad يلعب عليه لعبة تيك تاك تو التى نسميها نحن (السيجة)..

هذا الفتى لا يهمد أبدًا.. لابد أنه يلعب فى الحافلة وفى الصف والفراش والحمام.. إدمان ألعاب لا مفر منه..

قالت له وهى تشير إلى ذلك المشهد المعقد فوق القرية:

- «أشرف.. كنت أبحث عنك بلهفة.. ما هذه اللعبة بالضبط؟»

نظر مدققًا إلى المدى البعيد حيث تدور المعركة وقال:

- «هاتان لعبتا (الضربة المضادة) ولعبة (نصف حياة)..»

- «كلها ألعاب حربية؟.. سئمت هذه الألعاب..»

هنا دوى صوت آمر يقول لها:

- «لا تهربي من نداء الواجب.. لا تهربى من نداء الواجب.. لا تهربى من نداء الواجب..»

كانت هناك مزرعة صغيرة فقيرة عن قرب، وهناك كافتيريا ومكتب بريد ومحطة بنزين.. وجدت عبير نفسها تبتعد عن المعركة لتقترب من الكافتيريا.. كانت بحاجة إلى أن ترطب حلقها ببعض المشروبات..

رائحة البارود والدخان تتصاعد من شعرها... ثيابها ممزقة.. منهكة بعنف...

جلست على مقعد عال هناك وهى تتذكر كلمات ذلك اليابانى الذى قذف بها فى ذلك العالم: سوف تعتمدين على سرعتك.. ذكائك.. شجاعتك لتخرجي من جحيم الألعاب.. وإلا فلسوف تبقين فيه للأبد مثل عذاب (تنتالوس) فى الأساطير الإغريقية.. فى الحقيقة هناك حل واحد تركه مبرمجو الألعاب.. وعليك أن تصلى إليه..

حل واحد.. ما هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت أشرف وهى تحاول التذكر:

- «أشرف.. أيها العزيز... أنت عشت معى معظم هذه القصص.. هل يمكنك أن تجد لى بصيص نور؟.. أريد العودة إلى فانتازيا العادية.. أريد أن أصحو من هذا الكابوس..»

راح يفكر بدوره... حل واحد.. ولكن ما هو؟

فى النهاية قال لها وهو يكتب على ورقة:

- «لندون الألعاب التى مررت بها منذ البداية:

Tomb raider

Wolfenstein

Counter strike

Alone in the dark

Mario

Half life

Red alert

Arcades

Sinclair

Final Fantasy

Mafia

Assassin's creed

Call of Duty

قالت فى ملل:

- «وهذا يخبرنا بماذا؟»

قال مفكرًا:

- «الحروف الأولى هى ACTwCAMHRASMF»

ثم أضاف بحماس:

- «يمكن إعادة ترتيبها.. قد تكون (أناجرام).. إنها لعبة أطفال تقوم على تبديل الحروف ومحاولة الوصول إلى كلمة ذات معنى من حروف متفرقة..»

ثم بدأ يعد الاحتمالات:

Warm fact chasm

A CF warmth scam

Facts warm Mach

Facts march maw

قالت عبير فى ملل وهي ترشف عصير الليمون:

- «ما معنى هذا؟.. مثلًا أول جملة معناها (أخدود الحقائق الدافئة) ... هذا كلام فارغ..»

راح يحاول أن يوجد عددًا أكبر من التباديل والتوافيق.. لكن الأمر كان عسيرا وبدأ يكتشف أن الاحتمالات فلكية فعلًا... لن ينتهى قبل ألف عام..

راح يحك جبهته معيدًا التفكير ثم قال:

- «لابد من طريقة أخرى..»

- «هذا ما أؤمن به!»

- «التلميحات..»

- «نعم.. نعم.. التلميحات..»

قالتها وهى لا تفهم ما يفكر فيه ذلك المخبول.. راحت ترمق القرية البعيدة التى تتلقى ضربة مضادة، وترمق محطة البنزين والمزرعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى مغامرة (الوهم الأخير) Final Fantasy جاء التلميح...

«برغم جمال هذه اللعبة وإبهارها فإن هناك عدة نقاط لا تريحها كثيرًا... كانت الآن وحدها فى الظلام.. وحدها فى الظلام..»

فى مغامرة (وحدى فى الظلام Alone in the dark) جاء تلميح ثان:

«كان هذا ذئبًا يركض فى الممر المظلم ليلحق بها.. عيناه تتألقان.. تضيئان.. كأنه الإنذار الأحمر.. إنذار أحمر مخيف من نوعه..»

فى مغامرة الإنذار الأحمر Red alert جاء التلميح كما يلى:

«راح **يردد بلا توقف: ماريو!.. ماريو!.. من هو ماريو؟.. وكيف يتكلم رجل اخترقت رأسه رصاصة؟..»**

أما فى لعبة ماريو Mario فكان التلميح كما يلى:

«هل **تقرئين كتابات سينكلير لويس؟**»

عندما انتقلت للعب بألعاب الكمبيوتر سنكلير تلقت تلميحًا واضحًا هو:

- «فى **الواقع لا أرى لعبة ولفنشتاين ساذجة بتاتًا**..»

وفى لعبة ولفنشتاين Wolfenstein كان التلميح هو:

» عقيدة السفاحين.. هذه هى عقيدة السفاحين وهكذا يفكرون... ذكروني بأن أكتب عن هذا فى مقال كامل..»

وعندما وجدت نفسها فى لعبة عقيدة السفاحين Assassin's creed كان هناك تلميح قوى آخر:

» وفى هذا الجزء المفعم بالأسرار من السهل أن تمر لارا كروفت - غازية القبور الجميلة - أمام عينيك للحظة ثم تختفى..»

أما فى لعبة (غازية القبور Tomb raider) فقد كان التلميح هو:

«قلت **لك ألا تتدخل يا ولد.. لقد جعلت الأمور سهلة عليها.. انتظر حتى تجرب (الضربة المضادة) و(الإنذار الأحمر) ولنر مهارتك!»**

ثم فى لعبة الضربة المضادة ونصف حياة كان هناك صوت آمر يقول:

- «**لا تهربى من نداء الواجب.. لا تهربى من نداء الواجب.. لا تهربى من نداء الواجب**..»

في لعبة نداء الواجب Call of Duty جاءت لفظة أركيد Arcade..

وهى تلعب لعبة الأركيد صاح بها صوت:

- «حذرناك **مرارًا من مافيا الألعاب... مافيا الألعاب!.. الآن فات أوان الندم!!»**

وهذا يشير للعبة المافيا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت عبير فى غيظ وهى تمسك برأسها الموشك على الانفجار من الصداع:

- «حقًّا لا أفهم معنى هذه الألعاب المعقدة التى تجريها.. هذا عبث..»

قال وعيناه تلمعان كأى صبى ذكى فى العالم:

- «هذا هو الترتيب الصحيح للحروف...

هكذا يمكن ترتيب الألعاب كما يلى:

Final Fantasy

Alone in the dark

Red alert

Mario

Sinclair

Wolfenstein

Assassin's creed

Tomb raider

Counter strike

Half life

Call of Duty

Arcades

Mafia

هذا هو الترتيب الصحيح.. نأخذ الحروف الأولى فتصير الجملة هى:

Farms Watch Cam

نظرت له عبير فى ذهول.. هذا لم يخطر لها ببال ولم تتوقع أن هناك حلًّا لمعضلتها.. معنى العبارة هو (كاميرا المراقبة بالمزرعة) ...

هذه عبارة معقولة جدًّا وممكنة..

نهضت ملهوفة إلى المزرعة القريبة.. راحت تركض وهى تنظر لكل شىء وتثب أحيانًا.. وتلهث..

فى النهاية رأت العدسة فوق جرن الدجاج مسلطة لها.. لقد كان أشرف هذا عبقريًّا فعلًا..

لم تستطع مقاومة إغراء أن تخرج لسانها لتغيظ من يراقبها عبر هذه الدائرة المغلقة، ثم صرخت:

- «أنا **حللت اللغز أيها الأحمق..!... هلم اخرجنى من هنا!**..»

راحت تصرخ حتى بح صوتها..

سمعت أشرف يتحرك خلفها فقالت:

- «إنهم لا يعترفون باله ...»

ثم أدركت أن هذا ليس أشرف.. قطعة من القماش المبلل برائحة كيماوية ما وضعت على أنفها، وخطر لها أن هذه الرائحة تشبه الأسيتون الذى كانت تزيل به الطلاء عن أظفارها.. ربما هى رائحة أحد المذيبات العضوية.. ثم أدركت أن هذه رائحة ثلاث ذرات من الكلور وذرة كربون وذرة هيدروجين.. إنه الكلوروفورم! يا للكارثة!..

على سبيل أداء الواجب قاومت وأطلقت الكثير من ال (م م م ف ف!!) ثم غابت عن الوعى راضية عما قامت به...

وانزلقت إلى الظلام المقدس...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- خاتمة..

قال لها (هيديو كوجيما) وهو يمرر يده على أنبوب المحلول الواصل لذراعها:

- «كانت محاولة جيدة لكنك فى النهاية لم تجد الحل بنفسك...»

ثم نظر فى عينها وقال:

- «من وجد لك الحل هو فتى يدمن ألعابنا ويتنفسها.. أظن أن النتيجة واضحة الآن.. عقلك صاف نقى لم يتلوث بالألعاب، وبالتالي لم تجد حل اللغز..»

ثم ضحك وهو ينهض متجهًا للباب وقال لها:

- «هذا يلقنك درسًا أن تعتمدي على ذكائك ولا تتلقى مساعدات خارجية.. ويعلمك أن ألعاب الكمبيوتر والفيديو مفيدة..»

هتفت فى ذعر وهى تنهض من الفراش:

- « انتظر!.. ماذا سيحل بى؟»

ابتسم ابتسامته اليابانية المميزة وقال:

- «لا شىء.. أنت لم تحل اللغز ولم تفتحي الباب.. لهذا سوف تبقين فى عالم الألعاب للأبد!..»

- «هذا مستحيل!»

- «لكنه عادل..»

وقال وهو يخرج من الباب:

- «هناك مئات الألعاب لم تجربيها. ماذا عن (الشر المقيم) و(الهضبة الصامتة)؟.. ماذا عن (الرجال إكس) و(الرجل العنكبوت)؟.. ماذا عن (هاري بوتر) و(تيكن) و(العواء الدامى)؟»

وأخذ شهيقًا عميقًا وأردف:

- «إن مستقبلًا ممتعًا ينتظرك بلا شك!»

جلست فى الفراش شاعرة بالهلع..

لا.. لن تخوض هذه التجربة من جديد..

لقد اكتفت..

إنها أعمال فنية حقيقية ولا شك أنها تنمى شيئًا ما فى الروح.. لكنها لا تعرف ما هو!..

إن هذا الفتى (أشرف) ذكاء يمشى على قدمين.. ولا شك أنه اقترب جدًّا من الحل الصائب.. لقد أعدته الألعاب لمواجهة العالم بشكل خاص، لكنه بالتأكيد ليس هو الشكل الذى يرضى معلميه وأبويه.. سوف يواجه الحياة بطريقته كأنها خصم له فى لعبة (تيكن)..

لكن هذه الألعاب كذلك تنمى الكثير من العدوانية والسوداوية والتملك.. دعك من الإدمان الذى يدفعك لقضاء ليال كاملة فى لعبة مثل (الوهم الأخير)..

لابد أن تهرب من هنا..

لابد من مخرج....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لهذا حينما وقف المرشد على الباب هرعت لترتمي عند قدميه.. غير مبالية بكل الخراطيم التى تدلت منها.. وهتفت:

- «أرجوك.. أبعدني عن عوالم الشركات الأمريكية واليابانية.. لا أريد أن أتحول إلى (أفاتار)..»

ضحك بوقار وقال:

- «لكن هذه الألعاب تمنحك الخيال الذى ترغبين فيه..»

- «ليس هذا النوع من الخيال.. ما زلت أرى أن الكتاب يمنح متعة حريفة لا تشبه أى شىء آخر..»

- «ليكن يا (أليس).. أحلامك أوامر.. فقط اتبعينى للخروج من المستشفى..»

وهكذا انتهت هذه القصة.. فى القصة القادمة تتعرف (عبير) عوالم كاتب عبقرى قابلناه نوعًا فى هذه القصة.. إنه (لافكرافت) خالق الكوابيس الأشهر.. من سواه؟

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفـهرس:

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

60

وحدى مع لافكرافت

د. أحمد خالد توفيق




فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (60)

وحدي مع لافكرافت

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا في رحلتها. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب..

تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد، وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هي: لا حدود.

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأطفال سيظلون يخشون الظلام ولسوف يرتجف الرجال دوما - بعقلهم الحساس لمؤثرات موروثة قديمة - عندما يفكرون في العوالم السرية الغامضة الموجودة خلف النجوم، أو المحيطة بكوكبنا.، في أبعاد مشئومة لا يراها سوى الموتى والمجانين.
ه. ب. لافكرافت

1- عن الرعب والمرعوبين..

الوحدة..

الوحدة والظلام..

الوحدة والظلام والظلال..

الوحدة والظلام والظلال وخيال لم يتهمه أحد بالخمول..

الوحدة والظلام والظلال وخيال لم يتهمه أحد بالخمول و(عبير) وحدها في غرفة النوم المظلمة..

ابنتها نائمة.. لكن ماذا يعرف الأطفال على كل حال؟.. هذا يجعل الخطر مضاعفا.. أن ما لا يقدر عليك يقدر حتما على طفلتك..

عقارب الساعة الفوسفورية تقول إنها الرابعة صباحا... يبدو كأن دهرا يفصلها عن الفجر.، وذلك الرجل الذي يمشي في الشارع لا تسمع إلا صوت خطواته.. كيف وجد الشجاعة ليفعلها؟..

ربما السبب الوحيد لكونه غير خائف هو..

هو أنه مصدر خوف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المشكلة هي أن التيار الكهربي مقطوع..

لا يمكن أن تبدد الظلام.، وقد نفدت الشمعة منذ ساعة لكنها لم تجد الجرأة كي تتسلل إلى الخارج بحثا عن أخرى.، لأن اليد الباردة الملساء ستقبض على معصمها وقتها حتما..

الوحدة..

الوحدة والظلام..

الوحدة والظلام والظلال..

الوحدة والظلام والظلال وخيال لم يتهمه أحد بالخمول..

لا تدري كيف غلبها تعب اليوم.، ولا تدري متى نامت.. لكنها وجدت أنها تركب قطار فانتازيا وأن المرشد جوارها.. سرها هذا كثيرا وأدركت أن هذه من المرات التي تدخل فيها فانتازيا بجهد ذاتي من دون تكنولوجيا..

- مسرورة لرؤيتك يا مرشد..

- وأنا كذلك.. وإن كنت أقدر أنني أنقذتك من خيالك المجنون..

- لقد فررت من خيال لأغيب في خيال.. لكني على الأقل أقبل هذا العالم.. الخوف هنا له طعم

ساحر..

القطار يتحرك وسط الجبال والهضاب.. الغريب أن مزاجها يتناسب مع ما تراه.، لأن السماء كانت مكفهرة ومن حين لأخر يشق السماء لسان من البرق.. ثم يدوى الرعد.. كانت تمقت البرق وتحمد الله على أنه نادر كل الندرة في مصر.. هذا الفتق الذي يحدث في السماء يشعرها بعجز مطلق أمام سطوة الطبيعة لا دور لها ولا أمل إلا أن يتجاهلها البرق مرة أخرى على الأقل..

لو عاشت في سيبيريا لانتحرت حتما..

من فوق الجبال ترى القلاع.. قلاعا بسيطة مضحكة تذكرك بقصص الأطفال حيث تعيش الساحرات اللاتي لا يكففن عن سلق أرجل الوطاويط وعيون الموتى من أجل صنع شراب يحيلك إلى ضفدع..

كل قلعة يقود لها طريق متعرج مخيف على جانبيه هاوية..

قالت للمرشد:

- أين نحن؟

قال في لا مبالاة:

- نحن في عالم الرعب القوطي..

- قوطى؟

وابتسمت برغم الجو الكئيب.. هذه الكلمة هي المصطلح الذي تستخدمه أمها للكلام عن الطماطم.. وقد بدت لها غريبة هنا..

قال وقد أدرك أنها لم تفهم:

- القوطية هي نمط من البناء كالذي ترينه في هذه القلاع، منذ كتبت قصة قلعة (أتروانتو) المرعبة ارتبطت هذه المباني بالقصص المخيفة حيث تعيش الأشباح والشياطين.، وحيث يعيش الناس من ذوي النفوس المريضة المعقدة.. كلمة (قوطى) تعني نوعا بأكمله من الأدب.. لقد انقرض ولم يعد أحد يمارسه.، لكن عشاقه كثيرون.. من رواد هذا الأدب (إدجار آلان بو) و(لافكرافت) و(هوراس والبول) و(مارى شيلى) و(أن راتكليف).. و... و...

- ولماذا يهتم المرء بهذه القصص الرهيبة؟

قال باسما:

- السؤال قديم قدم البشرية ذاتها.. الحقيقة هي أن الإنسان يحب أن يخيف نفسه.. لا شك في هذا.. تأملي الأطفال الملتفين حول جداتهم يطلبون سماع المزيد من القصص عن الغولة و(أبو رجل مسلوخة) ... دعي أي شخص يسمع طرفا من قصة مرعبة وراقبي اهتمامه.. أن سماع قصص الرعب يشعرنا باطمئنان داخلي على أنفسنا.، فنحن نرتاد أفظع مخاوفنا لكننا نعرف أننا سنظل سالمين.. يمكنك الاستمتاع بتخيل مواجهتك لعفريت على سلم دارك.، لكنك لا تتصورين لن يحدث هذا في الواقع.

- هل تتصور أن المرء يحب تعذيب نفسه؟

- لماذا لا نصدق هذه الحقيقة؟.. أعتقد أن الناس جميعا تهوي ذلك.. كان (ماسوتش) يستفز زملاءه في المدرسة حتى يضربوه ليتلذذ بذلك.، وإليه نسبت لفظة (ماسوشية)... هناك أشخاص يمزقون جسدهم بالمدى.. أما الغالبية العظمى منا فتجد لذة في تذكر كم أساء لها الآخرون.. فكري في الليالي التي سهرتِ فيها تفكرين كم أنك حساسة وكم أن صديقتك شريرة عندما قالت لك كذا وكذا.. الغالبية العظمى تتلذذ بركوب القطار الأفعواني في الملاهي لتتعذب بممارسة فكرة السقوط من أعلى.. الغالبية العظمى تقرأ بنهم أخبار الحوادث وتعشق أفلام الرعب.. كل هذه صور من الماسوشية.. على كل حال الماسوشية طبع نسائى نوعا.. السادية طبع ذكرى.. ويقال أن الزواج السعيد هو الذي يتم بين رجل سادى وامرأة ماسوشية.. لا أعني بهذا أن يجلدها بالسياط ويغرس الإبر تحت أظفارها.. أعني أنه يقسو عليها ويثير قلقها.، وهي تتلذذ لا شعوريا بهذا..

- هل تعني أن السادية مقصورة على الرجال؟

- ليس تماما.. هناك نساء ساديات يعرفهن التاريخ جيدا الرجال كذلك يحبون قراءة قصص الرعب..

كان القطار الآن يمر قرب بلدة مظلمة تركزت العواصف فوقها غيوم... قلاع.. بيوت كئيبة حالكة السواد..

فقط كانت هناك لافتة كبيرة كتب عليها بخط قوطى (آرخام)...

قالت محاولة نطق الاسم:

- آرخام..

قال مصححا:

- للدقة هو (آركام).. لكن رنين كلمة (آرخام) مخيف في العربية.. على فكرة هناك دار نشر كبرى تحمل نفس الاسم الآن.، تخصصت في قصص الرعب التي كتبها.. سوف تجدين مؤلفين عديدين اقتبسوا هذا الاسم.، وكانت هناك مصحة آرخام في قصص الرجل الوطواط..

كتبها؟ ... هو؟

- إنه أعظم كاتب رعب في القرن العشرين.، ولعله الأعظم على الإطلاق... (لافكرافت).. نحن الآن نمر جوار مملكته.. فهل ترغبين؟

شعرت بقشعريرة شديدة.. هذا الجو بارد يجعلك ترتجف..

لكنه كان محقا بصدد اللذة الماسوشية..

لقد قَبِلَت أن تنزل هنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- في آرخام..

ماذا تريد من هنا؟.. ما المطلوب منها؟

لا تعرف حقا.. المغامرة هي التي تبدأ نفسها..

كانت هناك أبواب عملاقة تنفتح.، وحراس يقفون في الظلّ فلا ترى وجوههم.. رائحة رطوبة قوية مع رائحة عطن طحلبي.

نباح كلاب من بعيد.. صوت سلاسل غليظة..

لا صوت سوى صوت الكعوب التي تقرع الأرض.، وصوت الأقفال الثقيلة التي تنفتح. صوت دقات قلبها..

لابد أنها اجتازت ستة أبواب.، ثم جاء دور درج حلزوني ينحدر لأسفل. درج خطر يذكرك بالسلالم الخلفية للبيوت العتيقة، أو ذلك السلم في مصنع الحديد والصلب الذي يمر فوق قيزان الحديد الملتهب.. سوف تسقط في القيزان بسهولة تامة.، لكن لا يوجد قيزان لحسن الحظ..

درجات لا أول لها ولا آخر.. السلم يئن كأنه موشك على الانهيار. مياه تتساقط من أعلى.. هناك حارس يتقدمها حاملا كشافا

ثم تمشي في ممر رطب طويل.. فئران تركض هنا وهناك...

على الجانبين تري زنزانات موصدة.. زنزانات مبطنة من الداخل كالتي تراها في السينما.. وترى ممرضين يضعون اقفاصا على رءوسهم ويحملون العصى الغليظة. هذه الأقفاص مهمتها حمايتهم من الضربات..

مرحبا بكم في مصحة آرخام للجنون المرضى

كل نزيل هنا لابد أنه قتل اثنين أو التهم لسان امرأة أو شوى طفلا.... هذا أقل واجب كما يقولون

في هذا العصر كانت هناك طريقة واحدة للتعامل مع المجانين هي توجيه الضربات لهم حتى تتحطم عظامهم.، أو رشهم بالماء البارد بلا توقف. الحالات الميئوس منها كانوا يستأصلون الفص الجبهي في أمخاخها.. هكذا هكذا يصير المريض نباتا يتنفس فحسب..

كانت تشعر بأنها موشكة على الاختناق.. عصاب الأماكن المغلقة يوشك على قتلها. هذا المكان يحمل مظهر الكابوس إضاءة الكابوس.. رائحة الكابوس

تمشي وسط الممرات وتحاول ألا تنظر عبر طاقات الأبواب

في النهاية وجدت أن هناك بابا مواربا.. الحارس يقف ويسلط الكشاف للداخل. لا ترى وجه الحارس لأن الضوء مسلط عليها هى

تريد أن تسأله عما ينتظرها بالداخل.. ماذا يتوقع منها أن تفعل؟

لكنها وجدت نفسها تخطو.. الزنزانة مظلمة ما عدا طاقة في السقف تسقط شعاعا من نور يزيد الرؤية صعوبة.، ويلقي بظلال من الجبهة والوجنات. تعرف طريقة الإضاءة الكابوسية القادمة من أعلى هذه كما في فيلم الأب الروحي

غرفة مبطنة كأنها منجدة بالمراتب

هناك في مركز الغرفة في مركز الضوء القادم من أعلى يوجد مكتب صغير.. مكتب مبطن هو الآخر حتى لا يهشم المرء رأسه ضربا فيه. وهناك مقعد ورجل جالس.. جواره مجموعة هائلة من المجلدات العملاقة..

دنت من الرجل أكثر فأكثر

هذه الملامح الشاحبة الكئيبة. النظرة التعسة الضائعة المذعورة. تعرف هذا الشكل لأنها رأته مرارا من قبل في صور فوتوغرافية.

هذا هو لافكرافت نفسه..

لافكرافت العظيم.. سيد كتاب الرعب بعد إدجار آلان بو. لم تدر من قبل إنه سجين في آرخام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دنت منه أكثر فرأت أنه يمسك بقلم حبر من طراز عتيق.، يدسه في المحبرة.، ثم بيد ترتجف يكتب.، وهو يتلو ما يكتبه بصوت هامس:

- ربما كان عدد كبير من رؤانا الليلية لا يزيد على انعكاسات لخبرات صحونا كما قال فرويد.، فإن جزءا معينا يظل بطبيعته الأثيرية ممتنعا عن التفسير.. ويعطينا تأثيره المقلق المثير لمحة خاطفة عن عالم عقلي لا يقل أهمية عن عالمنا المادي.، ولكن يفصلنا عنه جدار لا يمكن اجتيازه..

كانت يده ترتجف وهو يدون هذه الكلمات... ثم أغمض عينه وراح يهمس:

- كتولو.. كتولو!

ومد يده إلى دورق كبير من مادة شبيهة بالبلاستيك (حتى لا يؤذي نفسه بالزجاج أو المعدن) وجرع جرعة كبيرة من الماء.، لكنه لم يتماسك أكثر وهوى رأسه على المنضدة التف عنقه فراح يصدر شخيرا

الحقيقة أنه كاد يقتلها ذعرا. نهضت وتناولت الدورق لتسكب باقي ما فيه من ماء على رأسه

فتح عينه ببطء وقال:

- إنهم الآحاد القدامى.. كائنات تتوارى هناك في أعمق أعماق المحيط بانتظار اللحظة المناسبة. في لحظة بعينها سوف يتحطم الحاجز وينهض هؤلاء.. كاهنهم الأكبر كتولو وعندها سيكون علينا أن نموت أو نجن.. نحن في غفلة لهذا نحن نعيش ونتزاوج ونلهو.. لو كنا نعرف واحدا بالمئة من الحقيقة.. واحدا بالمئة فقط لانفجر الدم من أنوفنا..

ثم راح يردد الأسماء الرهيبة:

- يوج سوثوث المنفى للنجوم.. حاصتور.. نيارلاثوتيب المخيف.. العزيف. العزيف..

مررت يدها بين خصلات شعره المبتلة بالعرق والماء وقالت:

- منذ متى دخلت مصحة آرخام؟.. آرخام أصلا لا وجود لها سوى في كتاباتك..

- عالمى حقيقى أكثر من العالم نفسه. عالم كتولو وأزوث والعزيف وآرخام ويوجوسوث. لقد عاش هذا العالم طويلا بعدي. لهذا أنت في عالمي الآن.. مع لافكرافت يزول الحاجز بين ما هو حقيقي وما هو خيال الكاتب..

ثم تحسس بطنه وقال متأوها:

- التاريخ الرسمي لي هو أنني توفيت بسرطان القولون عام 1937.. أي في سن السابعة والأربعين..

ثم أمسك بيدها.. اشمأزت من يده المتجمدة الراجفة والمبللة بعرق بارد. خطر لها أن هذا الرجل ليس على ما يرام. إلى متى يكون علينا أن نكتشف أن هؤلاء العباقرة غرباء الأطوار وربما إلى الجنون أقرب؟ لقد غدا هذا مملا بالفعل

قال وهو ينهض:

- تعالى أقودك في عالمى.. رحلة سياحية قصيرة..

قالت راجفة:

- لا يمكن مغادرة هذا المكان.. إنه شبيه بسجن الكاتراز..

- لا توجد سجون في عالم الخيال.. يمكننا أن ندخل أي مكان ونرى أي شيء..

ومشى معها إلى فتحة في الجدار لم ترها من قبل خطوة واحدة ووجدت نفسها في عالم لافكرافت الرهيب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها لافكرافت:

- هناك مفاتيح عدة لعالمي.. أو هناك الشخصية الحساسة المنعزلة عن العالم والتي تعكف على قراءة كتب السحر القديمة..

- هذا معروف.. هذا الرجل في كل قصصك.. ويقول البعض إنه أنت

- هناك كذلك عنصر المعرفة المحرمة.. كل أبطال قصصى يعرفون سرا يفضي بهم للجنون. باختصار كل أدبي تكرار الأسطورة برومثيوس الذي وجد سر النار ودفع ثمنا فادحا هناك كذلك عنصر مهم آخر هو الكيانات العملاقة أو الأحاد القدامى الذين يسيطرون على مصائرنا ويعرفون كل شيء.، لكنهم ينتظرون لحظة الخروج..

- مثل كتولو..

- لابد أن كل واحد منا يحمل ذنبا قديما بسبب خطيئة ارتكبها أجداده وعليه دفع ثمنها.. الوزر يورث في عالمى أنت بريئة نقية لكنك قد تجدين أن عليك دفع ثمن خطيئة ارتكبها جد لك في عصر الرومان. وكل أبطالي محكوم عليهم بشكل قدري.. كل واحد منهم يعرف نهايته ويتحرك نحوها بلا حيلة..

كانت عبير تدرك هذه التيمات

لو أنها بطلة من قصص لافكرافت.، فلسوف تكون مهتمة بالآثار.. تكتشف سرا مرعبا عن أجدادها ليس لها أن تعرفه تعرف عن كتاب نيكرونوميكون وإينوخ وتعرف ما عرفه كراولى ودي.. تقترب من الجنون.. في النهاية تكتشف أنها أصلا ليست بشرية بل أجدادها جاءوا من تحت المحيط.. تنتحر وهكذا

كان هناك كتاب من جلود الموتى كتبت عليه رموز غريبة عرفت على الفور أنه كتاب أسماء الموتى (نيكرونوميكون) الذي عرف لافكرافت قصته من الستر كراولى.

كراولى الشيطان الذي أنشأ مذهب الثليما. هذا الرجل عرف الكثير من الأسرار بالتأكيد.. ثم نقلها إلى سارة.. سارة تزوجت من لافكرافت وأخبرته بالكثير

جو نيويوركى كئيب مطير....

البرق يشق عنان السماء....

تقف مع لافكرافت وسط الأمواج المتلاطمة عند مدينة مبهمة في المحيط.. مدينة من صخور عملاقة لا تنتمي لشيء في عالمنا.. زوايا البناية غريبة لا تنتمي للهندسة الإقليدية التي نعرفها..

الرؤية نفسها غريبة.، ودرجات السلم توشك أن تكون عمودية

البخار يعمى العيون..

ثم في أحد الأبنية باب هائل.. لا تعرف أن كان بالطول أم العرض عليه رسم يشبه إنسانا برأس أخطبوط

يبدو أن الباب يدور حول محوره ببطء.. والغريب أن الظلام يخرج من الداخل ليملا الكون.. هناك شيء جيلاتيني عملاق يتحرك بالداخل منذرا بالخروج. بل هو موشك على الخروج فعلا. نظرت إلى لافكرافت في رعب فرأت عينيه متسعتين ونظرة الجنون لا شك فيها.، ثم همس:

- يير آدونى الويم.. إدوناى ساباوث. ميتراتون.

سحابة خضراء عفنة الرائحة لا تطاق....

همسات تتحرك ببطء نحو الباب....

عاد لافكرافت يكرر:

- كتولو..

أدركت في هلع أنه يتلو صلاة غامضى.، وأن هذا الشيء القادم هو كتولو نفسه.. الكيان القديم المرعب الذي تكلم عنه لافكرافت في معظم قصصه. يوشك افتتانه بالأمر أن يكون أسطوريا.،

وكان يقول لصاحب له أن حناجرنا الأرضية لا تقدر على نطق الاسم الذي يجب أن ينطق كأنك تسعل مع تثبيت اللسان إلى سقف الفم!.. ويرى بعض النقاد الغربيين أن الكائن مستوحى من شخصية (الكراكين) الوحش النائم في حفرة في أعماق المحيط في قصيدة ل (تنيسون Tennyson). إنه الوحش الأخطبوطي المكلف بالتهام الحسناء أندروميدا والتي سينقذها (برسيوس) في آخر لحظة بالاستعانة برأس ميدوسا!

أغمضت عينيها وهتفت:

- أرجوك أن نبتعد.. أنا مذعورة فعلا.. لو خرج هذا الشيء!

قال موافقا:

- هو سيخرج فعلا.. سوف تنجح الطقوس التي يؤديها أحدهم في عودته.، وعندها لن يظل العالم كما عرفناه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- وحدي مع لافكرافت

هذه المرة كانت تتوارى معه وسط أشجار قصيرة.، وهما يجثمان على بطنيهما محبوسى الأنفاس.

هناك قضيب سكك حديدية ومساحة من الخراب وظلام دامس

كادت تنهض لكنه أرغمها بيد حازمة على أن تظل متوارية معه وسط الأشجار.، وعندما دققت النظر أكثر رأت أن هناك مسيرة بالمشاعل عن بعد.. مسيرة مشاعل لجمع غفير لا تعرف من هو.، وهو منظر يذكرها بأفلام الجنوب الأمريكي عندما كان أهالى القرية يفتشون عن عبد أبق.، فهم يخرجون بالمشاعل جميعا وقد تأبط كل منهم ذراع جاره وهم يمسحون المنطقة كلها

يبدو واضحا أنها ولافكرافت هما هدف البحث..

كادت تتكلم لكنه كتم فمها بكفه لتصمت..

الآن ترى بوضوح هؤلاء الباحثين فتكتم صرخة هلع شنيعة هؤلاء ليسوا بشرا.. هذه كائنات تقف بالضبط بين البشر والأسماك أو الكائنات البحرية.. لو تخيلت أنك وضعت الجمبري والكابوريا والسمك وقناديل البحر مع البشر في خلاط.، فماذا يخرج لك؟

ثم الرائحة.. الرائحة الزفرة اللعينة

المسيرة تتحرك ببطء.. وصوتهم مخيف كأنه زئير مكتوم واضح بالتقريب مصير من سيجدونه..

قال لافكرافت همسا:

- هذه هي (إينزماوث) التي سقط الظل فوقها منذ عقد (أوبيد مارش) صفقة مع الشيطان

هنا ديانة وثنية واحدة هي ديانة (داجون).. ومن يدخل هذه البلدة ويمض ليلته فيها.، فلن يخرج أبدا.. دخول إينزماوث هو كدخول الحمام.. ليس كالخروج منه!

قالت له:

- لنبتعد من هنا أرجوك..

لارلياهل سيهويل فلجانجل دا لا.... يها نتلى

أمسك بيدها وراحا يزحفان وسط النباتات... وكان يلهث بلا توقف فأدركت أن لياقته معدومة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمشي معه في شارع مظلم من شوارع مدينة لا تعرف ما هي. يقع الشارع عبر نهر أسود المياه كأن دخان المصانع القريبة يحجب عنه الشمس للأبد.، تحيط به مستودعات بنيت من قرميد ويعبره جسر من الحجر الأسود. وكانت مياه النهر خبيثة الرائحة.، ثم هناك ممر مبلط بحجر الإسكافي يقود إلى شارع (دوسية).

أين هو شارع دوسيه؟ ... لا أحد يعرف.. لافكرافت نفسه قال إنه نسي مكان الشارع..

ومن نافذة في طابق بناية متهالكة سمعت صوت كمان

صوت غريب لهذا الكمان.. يبعث نغمات لا تصدق أن الكمان قادر على بعثها. مصراع النافذة يهتز بقوة ويضرب النافذة. ثم يتهشم الزجاج فتطير أوراق

الكمان بذلك العواء الشيطاني يرج أعصابها رجا..

حاولت سد أذنيها بكفيها بلا جدوى فصاح لافكرافت:

- هذه موسيقا الشيطان نفسه.. موسيقا (إريك زان).. لا جدوى من محاولة عدم السماع..

تمر معه أمام بيت فاخر يبدو أنه لأحد الأثرياء.

هنا رأت رجلا يقف على العتبة.. يصب على نفسه الكيروسين ثم يشعل ثقابا.. تصاعد اللهب بينما الرجل يصرخ ويتلوى الما.... مشهد لا يصدق

سألت لافكرافت في رعب:

- هل هذا راهب بوذي يحتج على حرب فيتنام أم ماذا؟

قال لافكرافت:

- هذا هو سير أرثر جيرمين الذي اكتشف حقيقة أسلافه..

- وما حقيقة أسلافه؟

- هذه قصة طويلة ربما أحكيها لك يوما ما..

كانا يبتعدان عن اللهب والجذوة العملاقة التي صارت رمادا

الآن يمران جوار مقبرة عتيقة تنمو فوقها نباتات متسلقة ويزحف الطحلب على شواهد قبورها

هنا رأت رجلا يركع على ركبته جوار الشاهد وهو يصرخ ويلطم خده بينما هناك سماعة هاتف على أذنه.. السلك يمتد عبر العشب إلى داخل المقبرة..

وسمعت من سماعة الهاتف صوت ضحكات مجنونة.. ضحكات لا تصدر إلا من شياطين

نظرت في دهشة إلى لافكرافت فقال:

- ذلك المجنون الذي يجسر على وضع سماعة هاتف داخل قبر.. ما الذي يسمعه؟.. أصوات الموتى طبقا.. هذه هي تجربة وارين وصديقه راندولف كارتر المشئومة. أن كارتر لا يصدق ما يسمعه ويبدو أنه سيجن من الرعب مثل معظم أبطالى..

قالت عبير في دهشة:

- راندولف كارتر.. أريك زان.. هذه الأسماء الغريبة..

- بل هي أسماء من نيو إنجلند.. من بروفيدانس ولسوف تجدينها تعطى قصصي طابعا فريدا.. (راندولف كارتر) و(تشارلز دكستر وارد) و (إينزماوث) و(ريتشارد بيكمان) و(آرثر جيرمين)..

كان هذا حقيقيا.. رنين اسم أبطال قصصه مميز فعلا. كان يحب بروفيدانس - نيوإنجلند فعلا، بينما عاش في نيويورك ألعن فترات حياته.. كان يكره كل شيء في نيويورك:

المباني.. الناس.. الوجوه.. زوجته..

الآن ترى رجلا يفتح أحد القبور.، ويغيب بالداخل ثم يخرج وهو يحمل دورقا زجاجيا ويضحك ضحكة شيطانية.. ينظر للسماء ويهتف:

- أملاح الموتى!.. ي ناش يوج سوتوث هي إيجيب ثروداح!

هنا يشق البرق الظلام وترتج الأرض

ومن قبر ما ترتفع يد راجفة.. تشق التربة محاولة التمسك بشيء..

قال لافكرافت:

- هذا هو جوزيف كوروين.. كوروين الساحر الشرير الذي عرف كيف يخاطب أزوث. لقد استحوذ على جسد (تشارلز دكستر وارد)..

ثم أمسك بيدها ليفرا من هذا المشهد الرهيب

الحق أن عبير رأت في تلك الليلة السوداء ألف كابوس وكابوس.. لم تتصور قط أن هناك عقلا قادرا على خلق هذه العوالم المخيفة. كانت تعرف أن إدجار آلان بو شاعر عبقرى خلق عوالم كابوسية كاملة.، لكن من الواضح أن عوالم لافكرافت أكثر تعقيدا....

كانت الأرض تنفتح فتبرز أعداد من مجلة لها غلاف مميز هي مجلة (حكايات غريبة).. يبدو أن كل هذه القصص كانت مخبأة في أعداد هذه المجلة.، وكانت متناثرة وكان لافكرافت يؤمن أنها سوف تزول من العالم بعد رحيله ما حدث هو أن تلميذه أوجست ديرليث قام بجمع هذه القصص وافتتح دار نشر اسمها (ارخام) تخصصت في طبع مؤلفات لافكرافت

من كل مجلد كانت تعيش قصة جديدة.... رأت اختراعات مجنونة تقود أصحابها للخبال. رأت موتي يعيشون بعد وفاتهم بعشرات الأعوام عن طريق اكتشاف طبي رهيب. رأت باكمان الرسام الذي يرسم الغيلان ونكتشف أنه كان يرسم ما يوجد في قبو بيته

كانت ترتجف وتصرخ بلا توقف

فقدت الوعي للحظات ثم فتحت عينيها ببطء

العالم عندما يكون مشوشا مهتزا ثم يستعيد وضوحه.، كأن أحدهم لامس العدسة ليضبط البؤرة..

هذه هي الزنزانة المبطنة.، وهذا هو لافكرافت بقميص أبيض مفتوح الكمين يجلس إلى المنضدة. ويشرب جرعة ماء أخرى.، ثم يدون سطورا في المجلد الضخم

تنظر لوجهه الشاحب وتتذكر أبطال قصصه الممتقعين السقيمين الذين أدمنوا المهدئات.. لا شك أنه كان يضع نفسه في قلب كل قصة منها.. كما يصف البطل ونحن نعرف جيدا أنه يصف نفسه: شاب أسمر نحيل بادى العصبية والقلق.، شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب

اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة، وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق). ولما كان منطويا صار خفيا بالنسبة لمجتمعنا.، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس..

في قصصه تقابل دوما ذلك الشاب الحساس غريب الأطوار الذي يعيش منفردا ويتصل بسر مخيف غامض.، ينكشف لراوى القصة فيجن أو يهرب ويقضي حياته مذعورا

لما أدرك أنها أفاقت قال لها:

- أرجو أن تكون الجولة قد راقت لك..

- يصعب أن أقول هذا.. ولكن....

تلاعب شبح ابتسامة على وجهه الصارم الكئيب وقال:

- لقد انتهت رحلتك في عالم لافكرافت

- بهذه السرعة؟

- لا تتوقعي أن تمضي حياتك هنا.. أرجو أن ترحلي الآن لأنني مشغول فعلا..

ثم أمسك بورقة مطوية وناولها لها وقال:

- هذه الورقة تلخص كل شيء عني.. أرجو أن تقرئيها.. عندما تعودين

نهضت شاعرة بخيبة الأمل.. هذه المرة كان العرض قصيرا أكثر من اللازم.. اتجهت لباب الزنزانة. انفتح الباب وظهر ممرض غليظ العضلات يحمل هراوة ويضع رأسه في قفص نظر وراء كتفها في حذر ليتأكد من أن لافكرافت بعيد ثم سمح لها بالمرور

وسمعت صوت الرتاج الثقيل يوصد

قالت للرجل الغليظ:

- هو أديب واهن لا يقدر على ضرب ذبابة.. لا أعرف سر هذا الحذر

قال في شيء من خوف:

- أنت لا تعرفين القوة التي يمنحها الجنون.. أضيفي لهذا أن هذا السجين مخيف. يعرف أسرارا لا نعرفها ويتصل بالشياطين. إنني على استعداد أن أواجه عشرة مجانين ضخام الجثة على مواجهة هذا الرجل الواهن كعقرب..

هزت رأسها باسمة.. لم يخلُ كلامه من منطق،،

الآن بدأت رحلة العودة بالعكس عبر الممرات الطويلة المظلمة الرطبة.. ممرات تم استخراجها من عوالم الكابوس بلا شك

لم تحاول أن تنظر عبر القضبان الحديدية التي تغلق نوافذ الأبواب.، فخلفها يوجد أعتى العذاب البشري.، كأنما هذه نوافذ على سقر. تسمع الصراخ.. لم تسمع من قبل صراخ روح لكن هذه هي الحقيقة.. تسمع الرءوس وهي تتهشم على القضبان

بيت الأرواح المعذبة.. هذا هو الاسم المناسب للمكان

ولهذا شعرت براحة عظمى عندما وقفت في العراء ترقب هذه المصحة الرهيبة.، بينما البرق يمزق صفحة السماء ثم يدوي الرعد

المطر.. المطر الذي يغسل كل أدران الروح

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- حادث في السوق

عندما فكت الأقطاب عن رأسها،، جلست تحدق في الفراغ اللحظات.. البيت هادئ والصمت يسود المكان ما عدا ذلك الكلب الذي ينبح عند شارع قريب

الدوار.. ذلك الدوار الذي يغمرها غالبا عندما تعود من عالم فانتازيا. نفس ما يشعر به ذئب البحار عندما يعود من رحلة في البحر طالت عامين.، ثم يمشي في شوارع المدينة

تشعر بظمأ حارق.. اتجهت إلى المطبخ وفتحت الثلاجة فأخرجت زجاجة من الماء البارد وأفرغتها كلها في بطنها.

غريب.. دائما ما تعطيها خبراتها في فانتازيا جو الإشباع كأنها كانت في رحلة ممتعة.. تعود منتعشة أكثر قدرة على تحمل الواقع. اليوم هي منهكة فعلا... لا تريد شيئا سوى أن تنام..

كان كل من معها بالبيت نائما..

أعدت لنفسها كويا من الشاي بالحليب.، ثم تربعت فوق الفراش الأرفف جوار الفراش مفعمة بالكتب.. أفكار تتزاحم كأنها في حافلة وقت الذروة.. لابد أن هناك الكثير من التدافع والتحرش .

ترى هناك ترجمة عربية للافكرافت. يمكنها الآن أن تفهم من أين جاء لافكرافت لعالمها

لكن التجربة كانت قاسية جدا قصيرة جدا.

تتذكر طفولتها عندما كانت تتحرق شوقا للذهاب إلى السيرك. عندما اصطحبها خالها العزيز هناك جلست تصفق في حماس وتفرك يديها.. جاءت فقرة ثم فقرة ثم فقرة تصاعدت مشاعرها نحو ذروة من الاستثارة والحماس.. هنا ظهر مدير السيرك ليشكر الجمهور على حضور العرض!

لقد انتهى كل شيء

كانت تتهيأ لذروة.. ذروة تفقدها صوابها وتجعلها تصرخ حماسة.، لكن كل شيء انتهى فجأة

لم تعش ما يكفي مع لافكرافت. يكفيها فقط أنه ليس على ما يرام وأن عوالمه كابوسية.، ولا شك أن في شخصيته جزءا من النبي الزائف.. فهو يبشر بدين جديد وهو يصدق هذا الذي يبشر به.. اقتناعه بعوالم كتولو وأزوث يتجاوز الاهتمام الأدبي..

رشفت رشفة أخرى من الشاي.، ثم تمددت في الفراش تنظر للسقف وتفكر في خطة الغد.. سيكون عليها أن تدفع فاتورة الكهرباء المتأخرة. عليها أن تجد حضانة أخرى للطفلة فهذه الحضانة وكر عصابة... ماذا تطهو غدا؟

غالبا ستبتاع بعض السمك المشوي.. السمك البلطي رخيص ولن يستغرق الأمر منها جهدا سوي إعداد بعض الأرز

هذه الورقة....

أناملها تكرمش الورقة.. تتحسسها في دهشة.. أي ورقة هذه؟

رفعتها أمام عينيها ثم فتحتها وحاولت أن تقرأ الموجود

رباه!.. هذه هي الكلمات التي خطها لافكرافت قبل أن ترحل قال لها إنها ستفهم كل شيء. لكن كيف؟.. هل هذه الورقة جاءت معها من عوالم الحلم مثل ذلك الشاعر البريطاني الذي حلم بالفردوس ثم صحا ليجد زهرة في الفراش؟

مستحيل.. هذا كلام شعراء.. لكن على قدر علمها هي لم تعد قط بشيء من فانتازيا. لم تحمل سوى الذكريات

فتحت الورقة ببطء وراحت تطالع المكتوب بذلك الخط المبعثر الأسود:

كتولو فتاجن

فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن

پاى نجناه.. يوج سوثوث

هي لجيب

فاى ثرودوج.. يواه.... جيب ليب

زرو

دسميس جيشيت بون دوسيف دوفما انتيموس لارلياهل سيهويل فلجانجل دا لا... يها نتلى

هل هذه لغة لاتينية؟.. لا.. هذا واضح. على الأرجح هي لغة (عفاريتية). مخيفة فعلا وتوحي بالشؤم

لكن لماذا أعطاها لافكرافت هذه الورقة وما أهميتها؟.. لكي تنتفع بالورقة فعليها أولا أن تفهم ما فيها. واصلت القراءة وهي مضطجعة في الفراش..

في النهاية كان هناك رمز.. رمز الثليما الذي تعرفه من قراءاتها عن كراولي. كل هذا جميل ولكن لا معنى له.. دعك من أنها لا تفهم حقا كيف عبرت بهذه الورقة من عالم الخيال؟

ثم بدأت تعتقد أنها تعرف الحل. يمكن بسهولة أن يكون هذا خطها لو تشوه نوعا.. لابد أنها أثناء الغيبوبة نهضت.. بحثت عن ورقة وخطت عليها هذه الكلمات.. ألعاب العقل الباطن الشهيرة

هكذا كورت الورقة وتهيأت للنوم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السوق...

تحب السوق برغم الزحام والغبار والطين والكلاب الضالة والضوضاء.. يشعرها بالخير كله محتشدا في مكان واحد. لم تكن تحب الأكل أبدا لكنها تحب منظره.. قد لا تحب مذاق الطماطم لكنها تعشق حباتها الحمراء الملساء اللامعة.. ربما لا تذوق السبانخ لكنها تعشق هذه

الأوراق النضرة....

السوق ليس ببعيد على كل حال...

اتجهت نحو بائعة السمك لتبتاع سمكا مشوا للغداء كما قررت لكن يبدو أن المرأة لم تأت اليوم. كان هناك زحام في ذلك المكان استطاعت أن ترى مجموعة من النسوة وشباب السوق.، وهناك رجلا شرطة.. شرطة؟

كانت ككل فتاة في حي شعبي تلبس شبشبا وتحمل كيس النقود الصغير في يدها. شقت الزحام لتعرف ما هنالك..

عندما اقتربت أدركت أنها تحدق في قدمين متسختين تخرجان من تحت ملاءة.. وأدركت أن الملاءة ملوثة بالدم

جريمة لا شك فيها.. ليتها تستطيع أن تقسم أن هاتين القدمين ليستا قدمي البائعة

وسمعت إحدى النسوة تقول في لوعة:

- يبدو أنها جاءت في ساعة مبكرة.. لابد أنه باغتها بالطعن.، ولم يكن هناك أحد سواهما في السوق.. سرق المال وهربا..

قال الشرطي:

ولماذا يشوهها بهذه القسوة؟.. القتل تكفيه طعنة واحدة..

كانت عبير تدرك أن هذه العجوز بلا أعداء. ولو كان لها أعداء فليس منهم من يرغب في تمزيقها.. التمزيق يقوم به شخص ينتقم أو عاشق غيور أو زوج يدرك خيانة زوجته ليس هناك قاتل يتطوع بالمزيد من العمل بلا سبب. لا يتعلق الأمر بالحصول على أجر إضافي

- يبدو أنه انتزع كبدها..

شعرت بمعدتها تتقلص وأنها توشك على القيء

هتف أحد رجلي الشرطة:

- فليذهب كل واحد لشأنه.. انتهت الفرجة..

استغرقت عبير ربع ساعة حتى عادت معدتها تعمل.، وإن سال اللعاب من بين شفتيها دون أن تدرى

أدركت عبير أن الأمر له جوانب مأساوية كثيرة.، لكن الجانب الذي يهمها الآن هو الحاجة لشراء سمك مشوي رخيص جيد قبل موعد الغداء.. هذه هي مأساتها الخاصة.. هناك أسرة جائعة لن تهتم بأخبار قتل البائعة

لحظة أن تغير حلاق أو سائقك أو بائع سمكك هى لحظة قاسية فعلا.

كانت ماشية في السوق تبحث عن بائع سمك آخر.، عندما وجدت مجذوبا يحمل مبخرة.. يمشي واللعاب يتطاير من فمه وهو يهز رأسه يمينا ويسارا.. لا لم يكن يقول: (قيوووم) بل كان

يقول:

- فنوجلوي مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن

يا للخبال!.. كل الناس قد جنت. يبدو أن الضغوط النفسية قد.....

لكن....

ماذا قاله هذا المخبول؟

- فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن

هنا في السوق؟. يبدو الأمر غريبا بعض الشيء

لقد كان يردد ذات كلمات لافكرافت!... لابد أنها مجنونة أو على وشك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- يوم الجنون

لا يمكن أن يقابل المرء لافكرافت حتى في فانتازيا.، إلا ويسبب له هذا بعض النحس.. الكثير منه.

لا شك أن العالم لم يعد كما كان أمس

هكذا خطر لها وهي تقدم السمك لأمها والطفلة.، ثم تغرف الأرز في الأطباق.. كانت هناك مائدة في البيت لكنهن يفضلن الجو الحميم للطبلية.. مائدة الملك آرثر المستديرة على الطريقة المصرية..

راحت تصنع لقيمات وتنزع الشوك من السمك ثم تدس هذا كله في فم الصغيرة الرطب

قالت لأمها أن أم (فتحى) بائعة السمك قد قتلت في السوق قتلت بطريقة شنيعة ولا يعرف أحد السبب

كانت الأم قد صارت شبه صماء لذا راحت تصغي.، بينما عبير تكرر كل عبارة مرتين بصوت عال. لما انتهت عبير من السرد قالت العجوز العزيزة:

- النفوس صارت سيئة..

كلمتها الشهيرة.. تسمعها عبير منذ طفولتها ومنذ كانت في عمر هذه الطفلة. الأمر غريب النفوس صارت سيئة منذ ثلاثة عقود فمتى كانت طيبة إذن؟.. هذه الأم جاءت من عالم يملك أفراده جناحين ويحلقون بين الأزهار.، ولا يقتلون بائعات السمك أبدا.. بيني وبينك.. العالم الذي لا يقتلون فيه بائعات السمك وينزعون كبدهن هو عالم جدير بالحياة فيه

بسرعة انتهت عبير من طعامها فانتقت طبقا وضعت فيه بعض الأرز وسمكة وملعقتى سلاطة.. ونهضت لتغسل يدها..

سألتها الأم عن وجهتها فقالت وهي تجفف يدها في المنشفة:

- أم سيدة..

لو لم تكن تعرف أم سيدة فأنا أقول لك إنها تلك العجوز التي تعيش وحدها في الشقة المجاورة. أولادها يمتازون بالعقوق وليست معها ابنتها سيدة.. وهي لا تملك مليما.. لهذا اكتشفت عبير أن العجوز طاوية أغلب الوقت.، وفي أيام كثيرة تنام بلا غداء ولا عشاء.. كبرياؤها تمنعها من التسول.. لا تطلب شيئا من أولادها ولا جاراتها. بما أن عبيرا هي ملكة جمال أرواح؛ فقد أضافت لأسرتها الصغيرة فردا جديدا.. في أكثر الوجبات تذهب للعجوز الوحيدة لتقدم لها طبقا من أوسط طعامها.. تفعل هذا خلسة وهي تتلفت حولها كأنها تسرق المصرف

هكذا خرجت عبير من الشقة قاصدة الشقة المجاورة.. دقت الباب عدة مرات ونادت:

- يا أم سيدة.. أنا عبير

لم ترد المرأة

كانت عبير تعرف الحيلة. تمد يدها عبر الشراعة وتهبط بأناملها لتفتح المقبض من الداخل. تفعل هذا كثيرا.. هكذا وضعت طبق السمك على الأرض.، ثم مدت يدها وتحسست المقبض

الشقة خالية.. يبدو أن العجوز خرجت.. هذا نادر لكنه يحدث..

- أم سيدة!

التلفزيون مفتوح على مسلسل سخيف يعاد وقت العصر يوميا.. هناك منضدة عليها رغيف وقرطاس به فلافل. هناك علبتا دواء.. هذه آثار أم سيدة لكن أين أم سيدة نفسها؟

دخلت عبير إلى غرفة النوم.

كان ما رأته مثيرا للهلع

كان الدم في كل مكان.، وكانت هناك نجمة خماسية على الأرض.. نجمة رسمت بالطبشور.. وفي كل صوب تناثرت شموع سود... هناك رسم بدائي لرأس ماعز

وأدركت أن مركز النجمة هو جسد بشري ممزق.. جسد أم سيدة بالذات.، وقد تم إبعاد أطرافها لتبدو كنجمة.. الأدهى هو أن الفم مفتوح ومن الواضح تماما أن هناك من نزع اللسان!

هنا فقط استندت إلى الجدار وأفرغت ما كانت معدتها تتوق لأن تفرغه منذ الصباح..

ما هذا الجنون؟.. أي يوم هذا؟

هناك من قتل هذه العجوز الفقيرة البائسة.، وقتلها بطريقة شنيعة فعلا

الأسوأ أنها لا تعرف أين ذهب القاتل.. الشقة مغلقة.. هناك احتمال لا بأس به أن يكون هنا..

كاد قلبها يثب من فمها.. خيل لها أن ثمة من يتحرك في الصالة.. لا شك أنه يحاول الفرار.، ولو رآها فلسوف يحاول أن يلحقها بالعجوز قطعا..

تجمدت في مكانها.. برد فعل غبي تناولت شمعة سوداء وقبضت عليها كأنها خنجر لتطعن بها من يهاجمها. حقا ستكون الشمعة فعالة جدا في طعن المهاجم

ثم وجدت حلا أفضل.. ركضت نحو النافذة وفتحتها.، ثم أمسكت بالقضبان وراحت تصرخ بلا هوادة.. تصرخ كأنها في كابوس:

-الحقونى ى ى ى ى!

ورأت المارة ينظرون لها في فضول.، ثم هرع فتوات الحارة بالجري لمساعدتها.. هذه مزية الحياة في حارة.. لو حدث هذا في منطقة راقية لظل الناس ينظرون لها في غباء.، ثم انصرفوا الحال سبيلهم. بينما هنا الشباب مستعد للشجار معك أو من أجلك أربعة وعشرين ساعة

وبعد دقيقة كان هناك عدة شباب ينظرون إلى الجثة الغارقة في الدم.، ويفتشون في الشقة وهم يلوحون بالمطاوي

وأدركت أنه لا يوجد قاتل في الشقة في هذه اللحظة.. هذه من بنات خيالها إذن

- بعد ساعة - وهذا يعني أنهم جاءوا بسرعة - وصل رجال الشرطة والمختبر الجنائي.، ليحققوا

في مثل ويلتقطوا بعض الصور ويأخذوا البصمات.. ثم جاء محقق مرهق ليأخذ أقوالها

هل لأم سيدة أعداء؟.. بالطبع لا.. إنها كائن يعيش على هامش العالم كاليعسوب.. هل تعرف من هم أعداء اليعسوب؟.. هل تهتم بوجود يعسوب؟ بل هل تعرف ما هو اليعسوب أصلا؟

لكن الضابط الذي راح يتأمل الجثة قبل وصول رجال الإسعاف الذين جاءوا بعد ساعتين (لأن الأمر ملح وخطير).. هذا الضابط قال وهو يتفحص فم الجثة المفتوح:

- انتزاع لسان.. هذا جديد..

قالت عبير وهي ترتجف:

- نجمة خماسية.. رأس ماعز..

نظر لها الضابط في حيرة ثم قال:

- نجمة ماذا؟ خماسية؟ ومعنى هذا؟

لقد بلغت روحها الحلقوم من انعدام خيال الناس وثقافتهم لو رأى هذا الضابط فيلما أجنبيا واحدا لعرف معنى النجمة الخماسية

قالت في نفاد صبر:

- هذا قتل (طقسى)..

- وما معنى طقسى؟

يا رب امنحنى الصبر.. لو أطلقت سبة لجلبت على نفسى المتاعب. قالت وهي تتنهد:

- سحر.. سحر أسود.. عمل..

قال مفكرا وهو يحك ذقنه:

- بيني وبينك معك حق.. هناك جرائم مشابهة في المناطق التي توجد بها آثار فرعونية. يعتقدون أن هذه الطقوس الدموية تقودهم للعثور على الكنوز..

ثم نظر في ساعته وسمح لها بالانصراف.. سوف يطلبونها لو جد جديد.. عليها أن تكون حذرة وتغلق بابها جيدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن الكلام سهل

لقد تبدلت حياتها بالكامل.. عندما تعرف أن هناك سفاحا دخل البناية التي تقيم فيها، وذبح امرأة مسنة في الشقة التي أمام شقتك.، فأنت قد فقدت الأمان للأبد

تأكدت من غلق الشقة.، وأصدرت تعليمات الحماية لأمها الأم التي كانت في حالة ذعر جعلتها لا تفهم بالضبط الموضوع..

دخلت عبير إلى الحمام.، وقررت أن تبدل ثيابها.. لم تكن ملوثة طبقا لكن رائحة عرقها كانت

تكتم الأنفاس.. لقد فقدت ستة لترات من العرق على ما يبدو في الساعة الماضية

وقفت بقميصها الداخلي أمام المرآة وبدأت تمشط شعرها.. هنا لاحظت شيئا ما.

إن قميصها الداخلي ملوث بالدم عند الصدر.. دم أحمر جاف بدأ يسود.، وهو ليس دمها.. لا توجد جروح!... من أين جاء الدم إذن؟

ثم خطر لها أن هذا الدم جاء من.. من انتزاع لسان امرأة مسنة تعيش وحدها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- حادث عابر

راحت ترتجف بلا توقف

هذا كله مستحيل.، ولكن من أين جاء الدم إذن؟ كان ذعرها سيكون أقل لو وجدت جرحا نازفا في صدرها.. على الأقل هذا تفسير منطقي للعالم.، لكن لا يوجد تفسير سوى التفسير الأشنع الذي تهابه

كيف؟

هناك نقطة أخرى مهمة هي أن أم سيدة لا تفتح إلا لعبير وعبير تعرف كيف تدخل الشقة بلا جهد كما قلنا

هل تكونين أنت القاتل يا عبير؟.. نزعت ثيابك ورحت تمزقين العجوز وأنت تلبسين قميصك الداخلي ثم اغتسلت ولبست ثيابك من جديد وعدت لدارك.، وجلست تعدين لها طعام الغذاء؟..

تعدينه لضحيتك! ما هذا الجنون؟.. تقرأ عن أشياء كهذه في القصص.، لكن أن يحدث هذا في عالم الواقع فهو شيء مستحيل. ولكن ما التفسير إذن؟

نظرت لوجهها في المرآة وتقلصت ملامحها في توحش:

- هذا اللافكرافت النحس.. هذا اللافكرافت اللعين.. لقد غير شخصيتى.. لم أعد بعد مقابلته كما كنت.. أنا متأكدة من هذا..

نزعت القميص الداخلي ونقعته في ماء ومسحوق غسيل وأدركت أن الدماء الجافة تلوث عدة أجزاء. هل سيجد رجال الشرطة بصماتها؟.. هل يوجهون لها الاتهام؟..

والأهم هو: كيف تواجه نفسها؟.. لا تجرؤ على طلب عون أو رأي شخص آخر.. مساء الخير يا سيدي. أعتقد أنني مخبولة وأنني أنتزع لسان العجائز وأقتلهن. هل من مقترحات؟

هل تسلم نفسها للشرطة؟.. تصرف أحمق آخر خاصة أنها لا تملك دليلا.، ولن يصدقوا حرقا..

يجب أن تحل مشكلتها بنفسها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نفس الوقت تقريبا.

في ذلك المطعم بالإسكندرية

كان الزبائن يلتهمون أطباق الكباب المشوي مع السلطة أطباق شهية ممتازة فعلا. سلاطة الطحينة التي يقدمها المطعم شهية كذلك.، فإذا أضفنا لهذا الخبز الأسمر النضر الذي تشم رائحته الطازجة من على بعد عدة أمتار.. يمكنك أن تختار هذا المطعم كأفضل مطعم عرفته في حياتك

صاحب المطعم الحاج (الششماوي) جالس على الكاونتر يدخن الشيشة في رضا ويعد المال.، ويقدم للزبائن أعواد خلة الأسنان.. كأنه يعوضهم بهذه الأعواد عن المال الذي دفعوه

توقفت سيارة أمام المطعم.. سيارة لها ذلك المنظر الرسمي الكئيب.، ومنها ترجل مفتشا تموين وطبيب ورجل شرطة مسن منهك

تقدم الموكب نحو المطعم

الحاج خرج ليقابلهم ومعه أحد صبيانه المذعورين.، وهو يتساءل:

- خير يا باشا؟.. هل من مشكلة ما؟

زيارات رجال الصحة هؤلاء روتينية على كل حال.، وقد اعتادها. لابد أن زبونا ابن حرام قد وجه شكوي ما.، أو واحدة من مطلقاته قد فعلت هذا.. وراءه جيش من النسوة المطلقات يبحثن عن طريقة يضايقنه بها

تقدم المفتشان إلى المطبخ حيث كان هناك عدد من العاملين عرق.. زحام.. بخار خانق.. قيزانات تغلي.. فتاتان تتبلان اللحم.. خلية نحل كاملة

يقوم الطبيب بتشمم اللحم ثم يأخذ عينات منه..

لاحظ أحدهما أن العاملات لا يغطين شعرهن.، وهذا يخالف القواعد الصحية.. وعلى الفور زغر الحاج بعينه فمدت الفتيات أيديهن إلى مناديل رأس وربطنها

هذا روتين سوف ينتهي حالا.. ربما احتاج إلى دفع رشوة بسيطة من تحت المائدة.، لكنه اعتاد هذا كذلك

لكن رجل الشرطة المسن وقف عند باب في نهاية المطبخ باب عتيق موصد بعناية.، وتساءل عما هنالك

قال الحاج في قلق:

- لا شيء هنا.. مجرد صندرة..

-افتحها..

تملص الرجل وزعم أن المفتاح ليس معه.، لكن مفتشي الصحة تعاونا على فتح الباب عنوة.. انفتح الباب أخيرا وقد تهشم جزء من مفاصله.، ودخل الطبيب المكان باحثا عن مخالفات

بالواقع لم تكن هناك مخالفات.. كانت هناك فظائع

لقد كان المشهد جديرا بأفلام الرعب الحديثة أو مسرح (الجراند جوينيول).. كانوا يتمنون رؤية حمير مذبوحة ليبدأ الكلام ويحرروا قضية مكتملة الأركان. لكن هذه الأشياء المذبوحة هنا ليست حميرا.

وارتمى الطبيب على ركبتيه يفرغ معدته. بينما بكى الشرطي هلعا..

للأمانة يجب أن نقول أن معظم العاملين ذهلوا بدورهم.. لم يكونوا عارفين بهذا الذي يتعاملون

معه.، ويبدو أن دخول هذه الغرفة الرهيبة كان مقصورا على عدد محدود من (المحظوظين).، بينما ما يراه العاملون في المطبخ هو قطع لحم ممتازة تم إعدادها ليلا بعد غلق أبواب المطعم

وخرج مفتش التموين إلى الزبائن الذين ملئوا أشداقهم بالطعام وقال وهو يرتجف:

- لا تأكلوا!!.. ابصقوا ما في أفواهكم.. أنتم تأكلون ب... بش....

ثم سقط فاقد الوعي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام شاشة التلفزيون في المساء راحت عبير تتابع أحداث هذه الواقعة المريعة

الغريب أن المطعم بدأ هذا النشاط الشيطاني منذ أيام معدودة.. اكتشف فجأة أن لحم البشر رخيص ومتوافر.. بدأ يتعاقد مع اللحادين ثم بدأ يقتل بنفسه

هذا الخبر المريع صار حديث الإعلام لعدة أيام. والحقيقة أن معدتها كانت متقلصة بما يكفي فلم تستطع سماع المزيد

على الشاشة ظهر الشنشماوي.، ورجال الأمن يحيطون به. لقد صار نجما.. أشهر وجه في مصر حاليا.. والإنترنت مقسمة بين من يطالبون بتمزيقه وإلقاء بقاياه للكلاب.، ومن يطالبون بشيه حيا على أن يأكل هو أشلاءه كما حدث مع (ابن المقفع).

ينظر للكاميرا نظرات زائغة ويؤكد أن الشيطان هو من جعله يفعل هذا

ثم فجأة يغني.. ويطرى رجال الأمن على يقظتهم ويؤكد أن مصر أم الدنيا.. واضح أنه مجنون. لو أمعنت التفكير في الأمر لوجدت أن هذا منطقي.. هذه جريمة لا يقدم عليها إلا مجنون. كانت هناك في الماضي أيام سعد ونفوس طاهرة تطعم زبائن المطاعم لحما فاسدا.. ثم صارت النفوس أكثر شرا فبدأ تقديم لحم الحمير.. اليوم يبدو أن إبليس نفسه هو الذي ابتكر فكرة لحم البشر هذه

كانت واقفة في الصالة الضيقة ترمق الشاشة عندما راح الرجل يردد بعينين متسعتين:

- لارلياهل سيهويل فلجانجل دا لا.... يها نتلى...

ماذا قال؟

ثم بدأت عيناه تبيضان وهو يشخص للسقف.، وراح يردد بلا توقف:

- قولوا.. قولوا..

سأله المذيع في حيرة:

- قولوا ماذا؟

لكن عبير فهمت ما يقال على الفور.. لقد كان الرجل يردد:

- كتولو!... كتولو!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- أمور غريبة

عندما تقرأ الأخبار على شبكة الإنترنت هذه الأيام تجد أمورا غريبة:

«شاب أمريكي يحرق نفسه حيا في بروكلين..»

«نساء أمريكيات يقمن مأدبة من القطط.، ثم يعلقن باقي القطط على أبواب بيوتهن لتجف»

«حارس حديقة الحيوان في مانيلا يلتهم ثعبان كوبرا كاملا..»

«سائق حافلة يخترق بسيارته عمدا مظاهرة تمشي في شوارع شيلى..»

«الفنانة عزيزة جنح تلتهم أذن الفنان حمادة الحليوه في مشادة كلامية..»

«في مؤتمر نسائي بالجزائر زائر تبادلت سيدتان مبارزة بالأحذية..»

«طيار أمريكي يقصف مدرسة في فرجينيا.. لحسن الحظ حدث هذا في العطلة فلم يصب أحد. يبدو أن هذا نوع من الجنون المؤقت»

«شابان يفرغان بندقيتيهما الآليتين في نزلاء مستشفى في منيسوتا..»

«لاعب الكرة عبده السيد يركل الحكم في مؤخرته لأنه أعطاه بطاقة صفراء..»

«القبض على تنظيم لعبادة الشيطان في لندن. اشتكى الجيران من صخب يصم الآذان.، واكتشفت الشرطة طقوس قداس شيطاني يتضمن التضحية بأطفال رضع وعبادة بعلزبول»

«عصابة من الرجال المسنين تتحرش بالفتيات في ستوكهولم..»

«السفيرة الإيطالية تبصق في وجه وزير خارجية الأرجنتين أمام عدسات الكاميرا..»

«سائق قطار في كولومبيا يمشي عكس الاتجاه ويصطدم بقطار آخر..»

«مئة من قبائل الماوري يمشون مشتبكى الأيدي ليغرقوا أنفسهم في المحيط..»

كانت عبير تطالع هذه الأخبار في شيء من الطرافة والخفة في كل يوم حدث غريب جدير بأن تحكيه لصديقاتها.. تبتسم ثم تنسي الأمر وتبحث عن حدث آخر

لكن الصورة بدأت تتجمع ببطء.. هناك وباء حقيقي من الجنون يحتشد.. كالنار عندما تشتعل في أكثر من بؤرة في ورقة كبيرة.، ثم تلتحم بقاع اللهب وتفاجأ بأن الورقة تتقلص وتتحول إلى رماد.. وربما تحرق أناملك..

العالم يجن.. العالم يتحلل.. العالم يحترق.. لا شك في هذا.. لكنها كذلك كانت غارقة في هواجسها الخاصة بصدد ما قامت به أو لم تقم به.

هناك جو عام من الذعر في شقتها.. في البناية.. في الحارة.. في المدينة.. أمها مذعورة طيلة أربع وعشرين ساعة.. عندما ينتزع لسان جارتك على بعد أمتار منك فمن الصعب أن تعتقد أنك تعيش في الفردوس

لكن ما كان يفزع عبير حقا لم يكن السفاح.. كانت خائفة من نفسها هي.. لو كان السفاح يكمن بداخلها فهو ألعن أنواع الخطر.. خطر لا يمكن الفرار منه.. كيف يفر المرء من نفسه ما لم ينتحر؟

رباه..

هل تكون هي المسئولة عن مقتل بائعة السمك في السوق؟ معنى هذا أنها وحش تحرر ولا مناص من أن تسلم نفسها للشرطة بأي ثمن

كيف تعرف؟.. كيف تضمن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يومين توفي عم حمزة البقال

أنت تعرف متجر عم حمزة البقال.. ذلك الشيخ الذي لا يبيع شيئا تقريبا ويقع متجره في آخر الشارع جوار عمود النور محل ضيق بحجم الكشك فيه أرفف تمتاز بأنه لا يوجد فوقها أي شيء على الإطلاق.. ربما بعض علب الثقاب.. ربما زجاجة زيت.. لا أكثر..

يجلس الرجل طيلة اليوم يشاهد صورة رديئة ما في تلفزيون (كاترون) عتيق أبيض وأسود صورته مشوشة تماما. ومن حين لآخر يبيع علبة سجائر أو علبة ثقاب. لابد أنه كان يقيم حفل عشاء في بيته يوم يبيع علبة مسحوق غسيل

عندما ذهب الناس في الصباح إلى المتجر وجدوه مفتوحا خلف الكاونتر وجدوا جثة البقال العجوز مشوهة ممزقة على وجهه نظرة رعب لا توصف

من الواضح أنه مات في ساعة متأخرة ليلا قبل العودة لداره أو هو فتح المتجر مبكرا وهاجمة القاتل

لماذا يهاجم أحد هذا البقال الطيب؟..

إنه كاليعسوب.. لا قيمة له ولا خطر.. لا أحد يسرق رجلا كهذا لا يمكن أن يكون في محله مبلغ أكثر من خمسة جنيهات لا يمكن أن يحقد أحد على رجل كهذا لابد أنه لم يؤذ نملة منذ ثلاثين سنة... لا أحد يعرف له أسرة أو زوجة أو أولادا

جريمة عبثية جدا.

والأسوأ هو أنه لا يوجد أي دليل على القاتل.

عبير كانت تمر في الشارع عندما رأت الزحام والمتكأكئين حول المتجر.. هذا يوم سعيد للأطفال يوم سعيد للأطفال.. الكثير من المرح المرء لا يرى جثة ممزقة كل يوم وهذه مشاهد تسعد الأطفال جدا كما تعرف.، لكنها تصيب الكبار بالغثيان

وقفت مذعورة خائفة من الاقتراب.. ثم أزمعت أن تدنو بضع خطوات.

لو رأيتها وقتها لقلت إنها القاتلة يقينا. من يدري؟.. ربما كانت هذه هي الإجابة فعلا.

وقفت من بعيد ترتجف.. زحام ناس.. رجال شرطة.. الإسعاف تحاول أن تجد لنفسها مكانا..

ثم تصلبت عيناها على شيء جوار باب المتجر.. رسم بدائى بطبشور أسود... يمكن القول أن هذا رسم لأخطبوط.. أخطبوط بجسم بشرى....

هذا هو التوقيع.. لا توجد أشياء كثيرة لها ذلك الشكل.. يا ربي.. ماذا يحدث هنا بالضبط؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتأمل وجهها في المرآة عندما استيقظت

هل أكون قد فعلتها؟

هل أكون قد تبدلت بعد رحلتي المشئومة إلى آرخام؟

يسهل تصور هذا عن أن تتصور أن هناك حشدا من القتلة يمارسون جرائمهم في وقت واحد وبشكل واحد ويبعثرون علامات من عالم لافكرافت

عبير يا صغيرتي.. يجب أن تفعلي شيئا

لو ذهبت للشرطة وقلت أنك تخشين أن يكون عالم لافكرافت قد غيرك.، فلسوف يطردونك وهم يضحكون ساخرين. يجب أن يكون المبرر أقوى

ماذا تفعل؟

لن تجسر على قضاء يوم آخر في هذا البيت وهي تشك في عقلها..

هكذا حزمت أمرها.. بدلت ثيابها إلى ثياب ثقيلة مريحة.، ثم نظرت إلى أمها النائمة وابنتها في حسرة. لا بأس.. لقد اضطررت لهذا.. أنا آسفة.. سامحيني يا أمي.

نزلت إلى الحارة..

مشت بخطوات ثابتة إلى الشارع إلى المصرف الموجود على الجهة الأخرى. شقت طريقها وسط السيارات..

هناك كان الشرطي يجلس على باب المصرف يرشف كوبا من الشاي ويدخن وبندقيته جواره. جو التراخى المصرى العام

باعتبار أنه لا يحدث شيء في العالم على الإطلاق. دنت منه فنظر لها نظرة عابرة بلا فضول ثم عاد يشرب الشاي الآن!

أسرعت لتلتقط البندقية الثقيلة.، وضمتها لصدرها ثم انطلقت تجرى هاربة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- فلنتابع التلفزيون؟

دسميس جيشيت بون دوسيف دوفما أنتيموس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تجري عالمة أنها بطيئة جدا... عالمة أنها مرتبكة جدا.. عالمة أنها تتعثر جدا. تعرف هذا جيدا وتعرف أنهم سيمسكون بها خلال دقائق. لا يهم.. لقد سجلت تهمة خطرة لا بأس بها.. عندما يمسكون بها سوف يضعونها في الحجز لفترة طويلة. أضمن الأماكن لقضاء الليل عندما تخاف من نفسك هو السجن.

: راه

- أمسكوا بها!

- لا تدعوها تهرب!

تشق زحام الناس فينظرون لها في دهشة. فتاة محجبة نحيلة تركض وهي تنوء بحمل بندقية. هناك رجلا شرطة يركضان من بعيد.

لكن أحدا لم يحاول اعتراض طريقها.، ولعل البندقية جعلتهم يتوجسون

على أن هناك بطلا واحدا على الأقل في كل شارع من الجبناء وقد مد هذا البطل قدمه أمامها فطارت في الهواء لتسقط على ركبتيها.، وسرعان ما وجدت أن رجلين يقيدان يدها وقد انتزعت البندقية

في قسم الشرطة وجهوا لها عشرات الأسئلة عن سبب تصرفها هذا فلم ترد. الضابط أشعل علبة تبغ كاملة وهو يحاول انتزاع كلمات منها

في النهاية قالت وقد أوشكت على النوم من الملل:

- أن كتولو عائد!

نظر لها في حيرة للحظات.. ثم كرر السؤال:

- من يا أختي؟

- كتولو..

راح يردد الاسم ساخرا ثم اكتشف أنه يصلح ليوضع في أغنية: كتولو كتولو الحقيقة.. كتولو باحبه من أول دقيقة على نفس لحن أغنية عبد الحليم حافظ القديمة

كررها وضحك في عصبية.، ثم أصدر أوامره الصارمة لرجل الشرطة الواقف أمامه:

- ألقوا بهذه المجنونة في الشارع.. لدي من المشاكل ما يكفي..

راحت هذه المجنونة تحاول المقاومة بينما الشرطي يجرها للخارج. هذه على قدر علمي المرة

الأولى التي يقاوم فيها السجين الخروج للحرية بهذه الشراسة. وقد راحت تتملص وهي تردد.، على طريقة الفنان أحمد توفيق في فيلم (شىء من الخوف):

- أنا لست بريئة.. أنا كائن شيطانى...... أنت ترتكب خطأ جسيما!

- للخارج!

وسرعان ما وجدت نفسها تطير خارج القسم هؤلاء القوم بلهاء فعلا.. لقد كانت لديه فرصة العمر لكنه يفوتها ببساطة لأنها لا تبدو قاتلة. هذا بلد ينخدع بالمظهر جدا..

ماذا تفعل؟.. هل تقتل أحد المارة لتضمن هذه المرة أن تقضي بقية حياتها في السجن.. مستحيل.. لا يمكنها أن تفعل شيئا كهذا بكامل وعيها وإن كانت تعتقد أن بوسعها عمل ذلك لو تم تغييبها

سوف تعود للبيت وتفكر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخرجت مجلد مؤلفات لافكرافت وراحت تقرأ ما كتبه عن كتولو.

عبارة «فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن» معناها «في بيته في (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم.» عبارة رهيبة لكنها غير مفهومة قطعا

يتكلم لافكرافت عن حقب حكمت فيها تلك الكيانات القديمة الأرض وكانت لهم مدن عظمي. وبقايا تلك المدن موجودة في بعض جزر المحيط الهادي. هم موتى لكن من الممكن أن يعودوا لو أن النجوم اتخذت موضعا مناسبا.

هم ليسوا من لحم ودم.. لهم أشكال لكنهم غير مكونين من مادة.. كلهم ينتظرون في مدينتهم العظمى (رليه) بانتظار التعاويذ التي سيلقيها كاهنهم (كتولو)..

هم ينتظرون في الظلام ويحلمون.، فتمر عليهم ملايين السنين لكنهم يعرفون كل ما يدور في الكون لأن طريقة تفاهمهم هي الأفكار. سوف ينتظرون حتى الوقت المناسب قبل أن ينهضوا.. هذا الوقت المناسب تسهل معرفته لأن البشر سيكونون وقتها مثل الآحاد القدامى.، أحرارا لا يبالون بالخير أو الشر ولسوف يتخلصون من الأخلاق ويقتلون بعضهم البعض. وسوف يعلمهم الآحاد القدامى المزيد من وسائل المتعة حتى تصير الأرض محرقة من الجنون

قال لافكرافت أن مركز هذه الديانة كان في صحراء العرب حيث توجد (إرم) ذات العماد.. وإنه لم يرد ذكر لها في أي كتاب ما عدا كتاب (نيكرونوميكون) الذي كتبه الشاعر المجنون (عبد الله الحظرد).

فكرت عبير في قلق... سوف يتخلصون من الأخلاق ويقتلون بعضهم البعض. وسوف يعلمهم الآحاد القدامى المزيد من وسائل المتعة حتى تصير الأرض محرقة من الجنون.

فيم تختلف هذه الكلمات الرهيبة عن سيناريو الأيام الماضية؟.. الكل يقتل الكل ومحرقة الجنون في كل مكان..

راحت تفكر في قلق..

الأمر ليس سهلا وليس بهذا الوضوح. نحن نتعامل مع أشياء قابلتها في فانتازيا.. خيال روائى عبقرى مع لمسة جنون لا بأس بها. هذه أشياء مفهومة في عالم فانتازيا.، لكنها غير قابلة لأن تعبر إلى عالمنا. حدثت لها تجربة بسيطة في الماضي حكيناها في قصة (بين عالمين).، لكنها كانت خبرة لم تتكرر... لا يمكن أن تتكرر

ولكن هناك دليلا أخر لا يدحض هو أن كل من ماتوا أو قتلوا آخرين.، لهم علاقة بعبارات من عالم لافكرافت.. لماذا يتردد اسم كتولو؟

هل هي تحلم؟.. لعلها ما زالت في عالم فانتازيا؟

ربما هذا من طراز كابوس داخل كابوس الذي تخافه كثيرا قرأت يوما عن تأثير دروست الرهيب Droste effect.، عندما ترى رجلا يعلق صورة على الجدار.. في الصورة ترى رجلا يعلق صورة على الجدار.. داخل هذه الصورة ترى رجلا يعلق صورة على الجدار.. وفي الصورة..... إلخ دوامة شيطانية مرعبة بلا نهاية.

ما تعرفه هو أنها لن تغادر البيت سوف تجلس أمام شاشة التلفزيون وتتابع الفضائيات طيلة اليوم. سوف تتابع الحوادث الغريبة التي تحدث في العالم.

وتحاول استنتاج شيء.. لن تخرج بأي ثمن. سوف تغلق الباب وتخفى المفتاح مع أمها.. ربما تقيد نفسها لمقعد كما يحدث للمذئوبين قبل التحول في الأفلام السينمائية

ربما يمكن أن تخبر أمها بمخاوفها.، لكن العجوز الطيبة سوف تصاب بذعر.. ربما تقضى نحبها لو سمعت هذا الكلام دعك من أنها لن تفهم حرفا..

جلست أمام التلفزيون تصلبت عيناها على كيس أسود صغير ملفوف بعناية.، وقد علقته على مسمار خلف التلفزيون.

لا تريد أن تلقي نظرة على محتواه.. لا تريد ولا تجرؤ.. بالمناسبة قد اختفى لسان جارتها العجوز أم سيدة..

لا شك أن هذا من أجل طقس ملعون ما. لكنها لن تحاول البحث عنه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- ظل فوق ليفربول

من رحمة الله بنا عجز العقل البشري عن استيعاب كل محتويات الكون. نحن نعيش فوق جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللانهاية.، ولم تخلق لنبحر بعيدا. لم تستطع العلوم أن تؤذينا إلا قليلا لكن يوما ما سوف تجتمع قطع المعرفة المتناثرة وتفتح آفاقا جديدة من الحقيقة.. عندها سوف نجن من هول الاكتشاف.، أو نفر من النور إلى حيث السلام والأمان في عصر مظلم جديد

هـ. ب. لافكرافت

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لابد أن هذا هو الوقت الذي تثاءب فيه سائق الحافلة (لويد جيمس).، وهو يفتح الباب ليصعد الركاب

كان هذا عند أطراف (ليفربول) في إنجلترا.. يمكنك أن ترى النوارس تحلق في السماء.، وتشم رائحة البحر المالح من وراء حاجز المباني.. يمكنك كذلك سماع البحر لو أن الهدوء كان سائدا

انفتح الباب وصعد أول الركاب.، وهو امرأة مسنة دفعت تذكرتها واتجهت للمقعد الخلفي. بعد هذا جاء شاب له شارب كث.. ثم ظهر شيخ منحن

هنا فقط بدأ لويد جيمس يفطن إلى أن رائحة الحافلة كريهة فعلا..

هذه رائحة سمك (زفرة) بلا شك نظر في اشمئزاز إلى الركاب الذين صعدوا.، وقال:

- معذرة يا سادة.. هل هناك من يحمل معه حقيبة مليئة بالسمك؟

سمك عفن كذلك.. لكنه لم يقل هذا

نظر له الركاب في بلاهة كأنه أحمق ولم يقل أحدهم شيئا. ثم تذكر أنه لم ير أي واحد من الركاب يحمل حقيبة.. لابد أن الأمر يتعلق بالقذارة الشخصية.. هناك صيادون في هذه البلدة على كل حال.

صعد مزيد من الركاب. مع الوقت لاحظ أن الرائحة تتزايد صارت خانقة فعلا وشعر بأنه سقيم.، ومد يده يفتح النافذة المجاورة له طلبا للهواء.

لم يكن لويد يحب هذه المحطة بالذات.، لأن معظم الركاب الذين يصعدون من سكان ضاحية قريبة يمتازون بغرابة الأطوار هم ليسوا ودودين ولا يتكلمون كثيرا.، لكنه لا يذكر أن رائحتهم كانت كريهة لهذا الحد. على كل حال هو عائد من إجازة مرضية.، ولربما صار أكثر حساسية

انطلقت الحافلة في الشارع القريب من الميناء.، ثم انحرفت يمينا عبر طريق مليء بالأشجار على الجانبين....

رفع لويد رأسه للمرآة يتأمل الجالسين.. هنا شعر بعدم الراحة..

لا شك أن كل من في العربة يرمقه في ثبات. مد يده يبدل وضع المرآة ليرى المزيد.. فأدرك أنه ليس واهما.. كلهم ينظر له..

شعر بعصبية أكيدة ومد يده يخرج المنديل ليجفف عرقه..

رائحة السمك بالفعل تسبب له الدوار.......

لماذا يشعر بهذا التوتر؟.. ما الغريب في ركاب فضوليين؟

ثم فطن إلى السبب... السبب أن عيون هؤلاء القوم محملقة لا تطرف أبدا. زجاجية واسعة ثابتة

بدأ يختلس النظر إلى الفتاة الجالسة بالقرب منه.، وعينه الأخرى على الطريق حتى لا تحدث كارثة.. أدرك بالفعل أن لها هاتين العينين الزجاجيتين.. لكن كذلك هناك شيء يشبه القشور على عنقها.. لا شك في هذا.، والأهم أن في أسفل عنقها شقين عميقين.. كأن هناك من حاول ذبحها بسكين ثم عدل عن رأيه

ألقي نظرة إلى الرجل المسن الجالس قربه. لا شك أن موضوع القشور هذا يتكرر هنا.. ما الذي دها هؤلاء القوم؟

ونظر ليدى الرجل فرأى مشهدا غريبا.. هناك غشاء يصل بين الأصابع وبعضها.. غشاء سميك يذكرك بأيدي الضفادع لا شك في هذا

الرائحة تتزايد والعرق يغمره أكثر.....

وماذا عن العجوز الجالسة جوار الرجل.. ماذا عن يديها؟.. لا شك في أن هناك ممسات كممسات الأخطبوط تبرز من الكم.

ماذا أصاب هؤلاء القوم؟.. من أين تأتي هذه الرائحة الشيطانية؟.. يده تتقلص على عجلة القيادة ويبتلع ريقه ما يعرفه هو أنه داخل حافلة بها قوم غريبو الأطوار... قوم هم مزيج من السمك والضفادع والأخطبوط

من أين جاء هؤلاء؟

ماذا حولهم لهذا؟

والأهم هو ماذا يفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نفس الوقت تقريبا فرغ (مارسيل دوفان) من رسم شجرة أسرته على تلك الخارطة التي علقها على الجدار. شرب كأسا آخر من النبيذ وأشعل لفافة تبغ ثم راح يتأمل المشهد

يده ترتجف بلا توقف

يتأمل مجموعة من الخطابات والصور.. ووثائق وجدها في العلية في بيت الأسرة في (نانت).

ليته لم يفعل.. ليته لم يبحث عن أشياء تسوءه.. يرى أجداده.. ثم أجداد أجداده..

الشجرة تضيق لأسفل.. في النهاية يصير عدد الأسلاف أقل لكن أسفل الشجرة توجد صورة مريعة بالفعل.. صورة لا تصدق

اليوم جاءته هذه الصورة المرسومة من باتاجونيا.، فعرف من أين جاء جده بجدته عام 1635

هناك رسام كان على السفينة استطاع أن يرسم الصورة بدقة. وظلت الصورة في حرز ثمين قرونا إلى أن وصلت ليد (مارسيل)...

الآن هو يعرف من أين جاء..

يعرف لماذا انتحر كل واحد من أجداده عندما جرب أن يجمع شجرة الأسرة كما فعل هو..

لكنه الأخير.. ليس له أولاد.. ليس له أقارب

هذه المعلومات المريعة سوف تتلاشى للأبد ولن يراها شخص آخر.

من الصعب عليه بعد اليوم أن يلمس لحم ذراعه.، أو يسمح لهذه اليد - يده - أن تدس الطعام في هذا الفم.. ربما يشمئز الفم من اليد أو تشمئز اليد من الفم. لا يدري بالضبط..

شرب كأسا أخرى..

ثم اتجه إلى زجاجة الكيروسين وأغرق الورق والصور وكل شيء بالسائل قوي الرائحة

أشعل عود ثقاب وألقاه على هذا كله.. وراح يراقب الزهرة المغرورة الفاتنة تتوهج وتنمو

ان يقدر على أن يصير قربانا لها.، فهو ما زال يخشى الألم برغم أن تطهير هذا الجسد الدنس بالنار شأن جميل

ترك الحريق المتأجج من خلفه واتجه للنافذة

وضع ركبته على الحافة.، ونظر لخلفه مرة أخيرة ثم وثب إلى الشارع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما لويد جيمس سائق الحافلة.، فقد كان في موقف أسوأ بكثير..

كان يقود الحافلة بسرعة جنونية.، ويحرك المقود يمينا ويسارا كي يختل توازن مهاجميه

الحقيقة أن ركاب الحافلة بدءوا ينهضون ببطء.. يمشى الواحد منهم ممدود اليدين نحوه والغشاء يغلف أصابعه.. ينظر له بعيني السمكة الشاخصتين اللتين لا ترمشان.. رائحة السمك الكريهة.

العدد يتزايد.. يبدو أنه ما من راكب ظل في مقعده..

يصيح في جزع بصوت راعش:

- يا سادة.. ليجلس الكل!

لكن أحدا لم يطعه.. وسمع من يردد بصوت مكتوم لزج:

- رلياهل سيهويل فلجانجل دا لا

راح يكرر بلهجة كالتوسل.. لكن أحدا لم يصغ...

كان يدرك جيدا ما سيحدث... يعرف الحادث الذي سيقع حالا. لكنه يفضل هذا على أن تلمسه يد لزجة باردة من تلك الأيدي

إن الحافلة مندفعة على حافة أخدود.. مكان خطير جدا ولا يناسب هذه المغامرات المخبولة

لا شك أن الحادث سيقع الآن.. سيقع لا محالة...

نفروكانا اى حادوث..

نفروكانا اى جادوث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الجزيرة..

رأت عبير الحافلة المحطمة على شاشة إحدى الفضائيات.، وخطر لها أن هؤلاء البريطانيين سعداء الحظ حقا.. الحافلات تنقلب عندهم لكن من دون جرائم قتل طقسية وكتولو وكل هذا الكلام الفارغ..

تناولت جهاز التحكم عن بعد في كسل.، وداعبت الأزرار....

هنا رأت صور فيضان عنيف.. فيضان يشبه بالضبط صور تسونامي القديمة...

أين هذا؟.. في الأقيانوسية.. في المحيط الهادي في تلك المنطقة المربكة التي تتضمن الملايو وأستراليا ونيوزيلندا وبابو غينيا الجديدة..

باختصار تلك الجزر التي ترى فيها النخيل المائل على الشط.، ويشربون جوز ثمار جوز الهند.، ويلبس رجالها تنورة مزركشة يلفونها حول نصفهم الأسفل بينما يظلون عراة الجذع....

الموج يتعالى ويفور.. ثم تنطلق الموجة الكاسحة....

المنازل تتهاوى.. السيارات تطفو وتصدم بعضها

مشهد شنيع هو بالضبط منظر تسونامي.. لا يختلف عنه تقريبا.

و

فيما عدا أن المذيع يؤكد:

- لا يوجد مركز سيزموجرافي للزلازل.. الموجة قادمة من بقعة في المحيط الهادي قرب ميكرونيزيا..

فركت عبير كفيها

يبدو أن اللعنة مستمرة إذن... أشياء غريبة لا تكف عن الحدوث

هناك ألف خبير يتكلم.، والمنظر يدل على مأساة حقيقية ربما كانت هذه صدفة على كل حال. لا يمكن أن تتهم زيارتها للافكرافت بكل مصيبة في العالم. الفيضانات تحدث منذ وجد الكون... ويبدو لها أن هؤلاء القوم في جزر المحيط الهادى يعيشون فوق غطاء إبريق.. يهتز طيلة الوقت بالزلازل أو ينفجر بالبراكين.. لو كانت مكانهم لهاجرت إلى أستراليا و..

ثم تذكرت أن أستراليا هي جزء من الأوقيانوسية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فقط عند المساء سجلت الأقمار الصناعية مركز هذه الفيضانات

هناك قطعة من قاع المحيط ترتفع.. وهي التي سببت هذه الموجات القاتلة.. أما عن سبب ارتفاع قاع المحيط فسؤال علمى يمكن أن يغير كل ما نعرفه من علم الجيولوجيا.. سؤال لا

يعرف إجابته العلماء.

جهات علمية كثيرة اهتمت بالأمر.. هناك أكثر من معهد يحمل كلمات (جيولوجيا المحيطات) في اسمه اهتم بالأمر وكذلك ناسا..

حلقت بعض الطائرات الأمريكية فوق مكان الموجات والتقطت بعض الصور.، ثم تم إرسال بعض قطع الأسطول الأمريكي إلى بقعة خارج الدوامات.

كانت الحقيقة تتأكد في كل لحظة.. هذه البقعة هي مركز هذه الموجات العاتية التي غيرت حياة الملايين..

وبدا من صور الأقمار الصناعية أن هناك جزيرة قد ولدت جزيرة برزت للسطح من أعماق المحيط..

وكان القرار الوحيد الممكن هو إرسال فريق من العلماء إلى تلك الجزيرة لدراستها.. لا شيء يفوق القدرة المعجزة لفريق ينزل على الأرض ويمشي فوقها ويلتقط صورا

اليوم هو السابع من يوليو.. تحلق طائرة هليوكوبتر فوق مياه المحيط الثائرة.. متجهة إلى مركز هذه الدوامات الذي اصطلحت البحرية الأمريكية على تسميته (رأس الشيطان) وهو يختلف عن (رأس شيطان) عندنا في مصر طبعا

الحقيقة أن الأمر كان يوحى فعلا بشيطان أخرج رأسه فثارت المياه من حوله

على متن الطائرة تجد اثنين من علماء المحيطات ومصورا وجيولوجيا..

الآن يرى ركاب الطائرة الجزيرة التي ولدت

يتبادلون النظرات

هذه الجزيرة عليها صخور ضخمة زلقة.. وعليها أكثر من تشكيل صخرى لا يمكن إلا أن يكون بناية.. بناية صنعها ذكاء شبه بشرى

هل كان هناك مكان على هذه الجزيرة التي برزت من الأعماق؟ ... إذن كانت هذه أرضا مأهولة يوما ما وفيها بشر.، ثم غمرها المحيط.. اليوم قرر أن يقيئها ثانية.. والا

ماذا عن قارة ليموريا؟.. ألم يقولوا إنها كانت تمتد في هذا الموضع تقريبا قبل أن يغمرها المحيط؟ هل هذا الكشف البيولوجي هو كشف القرن؟.. ربما عدة قرون كذلك..

إن التاريخ يكتب من جديد في هذه اللحظات.. قارة غمرت منذ ملايين السنين.، ثم تعود للسطح اليوم بما عليها من أسرار صحيح أن ظهورها أحدث كارثة بيئية.، لكن كنوز المعرفة التي ستتدفق منه ستتفوق على السيول التي أغرقت تلك الجزر التعسة

مساحة الجزيرة تقترب من نصف فدان تقريبا.. بالفعل هناك جدار صخري يشبه معبدا عتيقا.. لا شك أن يد بشرية هي التي شيدت هذا المكان..

الطائرة تهبط ببطء في جزء أكثر استواء من غيره.

يترجل العلماء في حذر فوق الأرض الزلقة.، وهم يصوبون الكاميرات.. الكاميرات التي تنقل

للقيادة ولناسا صورا كاملة لهذا المكان المخيف..

ما يجب أن تلاحظه هو هذه الزوايا العجيبة للبناء. كل شيء يختلف عن القواعد الهندسية معروفة.. هنا الزاوية المنفرجة تساوى 90 درجة والزاوية القائمة تساوى 180درجة.. حيث الخط الرأسي يمتد أفقيا.. وحيث تسقط الأجسام الأعلى.

كل شيء كان غريبا كأنها هلاوس المخدرات.. هل هي هلوسة جماعية؟

النقطة الأخرى الغريبة هي أن رائحة المكان لعينة فعلا.. هناك بخار أخضر يتصاعد من الأرض.، وهذا البخار يخنق الأنفاس. لكن ما اسم هذا الغاز الغريب؟

فجأة صاح (موريسون) وهو المصور:

- هلا نظرتم لهذا!

هرع الرجال ينظرون

كان هناك جدار صخري عليه نقوش غريبة.. لغة مبهمة مما يطلقون عليه اسم Asemic.

- أي لغة هذه؟

والأسوأ من هذا تلك الرسوم المنقوشة على الصخرة.. رسوم في معظمها تبدو كأخطبوط عملاق له جسد بشري.. أو عملاق ضخم له رأس أخطبوط.

هناك عقل بشري في هذا المكان.. أو - للدقة - هناك عقل لا نعرف إن كان بشرا أم لا، لكنه قادر على تشييد بنايات وصروح وقادر على الكتابة والرسم.

كل لحظة تمر كانت تفعم الرجال إثارة وحماسة.... هذا أهم كشف عرفوه في حياتهم. سوف تحتاج البشرية إلى أعوام فوق هذه الجزيرة لتصور كل شيء وتدرس كل شيء.

ومن الطائرة اتصل أحدهم بالسفينة

- هذه جزيرة كانت عليها حياة في زمن ما.. زمن سحيق جدا... غمرت تحت المحيط واليوم ظهرت من جديد لسبب غامض..

هنا هتف أحد رفاقه:

- انظر!!!

واستدار العالم.. هنا رأى أسوأ كابوس يمكن أن يحدث

كان هناك باب في ذلك الصرح الحجري.. لم يكن يفتح كأبوابنا بل هو يفتح بالورب.

كان الباب يتسع.. وظهر ممس عملاق يزيحه جانبا

وفي اللحظة التالية برز جزء من رأس هائل عملاق.. رأس بحجم الطائرة التي جاءوا بها.، وفي منتصف الرأس كانت عينان تشعان نارا وتقطران دما هل هو فيل أم أخطبوط أم هو كائن لا قبل للبشرية به؟

لقد كان هذا الشيء المريع يخرج...

ليس ممسا واحدا.. هناك ممسان.. ثلاثة

صرخ المصور:

- يا إلهي الرحيم!.... لا تجعل هذا الذي نراه حقيقة!

بالفعل تمنوا جميعا أن يكونوا قد جنوا أو فقدوا عقولهم هناك هول لا يتحمله العقل البشري مهما كان صلبا قويا

11- في بيته في (رليه)..

ما وصل إلى السفينة وإلى مركز القيادة كان مجموعة من الصرخات.. صرخات لم يسمعوا مثلها من قبل.، وتشوهت الصور على الشاشات.. كهرباء استاتيكية تحجب كل شيء.

كثير من الناس لم يصدقوا

تذكروا خدعة أورسون ويلز الإذاعية للأمريكيين.، عندما راح يحكي عن هبوط سفينة فضاء من المريخ.. يصف المذيع المشهد.. يصف انفتاح الطبق.. يصف خروج شيء له ممسات.. ثم يصرخ وينقطع الإرسال

أفلتت دعابة ويلز من السيطرة.، وعمت الفوضى الطرقات وخرج الأمريكان كلهم من بيوتهم إلى السيارات مهاجرين.، وانتحر عدد منهم بسبب الذعر من الغزو الفضائي

تذكر الناس هذه الخدعة وحسبوها شيئا مماثلا

لكن القيادات العليا عرفت - في كآبة الأخ الذي يعرف أكثر - أن هذا كله حقيقى

واضح أن البعثة أبيدت.. سحقت.. ديست

لم تعد هناك بعثة.. لكن الكلمات الأخيرة التي قالها الطاقم وصور الباب الذي ينفتح لم تفارق أذهان الأمريكيين.....

بعد ساعات حلقت طائرات الاستطلاع فوق الجزيرة الغامضة أجمع العلماء الذين رأوا الصور على أنهم لم يروا شيئا كهذا قط..

كان هناك شيء عملاق أسود ينمو على الجزيرة.. الرأس وحده في حجم جبل صغير.. هناك ممسات أخطبوط تحيط بالرأس ولا شك في هذا..

بعد مشاورات عديدة انطلقت قاذفة وسرب مقاتلات من حاملة طائرات قريبة

الواقع أن المشهد بدا للقادة كأنها لقطات من فيلم مسوخ تلك الأفلام التي يحمل اسمها علامة تعجب ضخمة.. ربما أفلام جودزيلا كذلك حيث هناك شيء ضخم يولد من المحيط.، وتقذفه المقاتلات بصواريخها وقنابلها.. لكن لا يبدو أن هذا يؤثر على الإطلاق.

كأن هذه الأسلحة المرعبة التي هي ذروة تقدم الترسانة الأمريكية هي أسلحة فشنك

احترسوا يا سادة فالرعب قد ولد.... احترسوا يا سادة فالحياة لن تظل كما كانت

احترسوا يا سادة.. فقد كنا ننام فوق هذا الخطر ونسبح فوقه ولم نتصور أنه موجود

احترسوا يا سادة فالأمر أكبر من مجرد مسخ يحطم عدة مدن نحن نتكلم عن احتلال العالم..

في كل نظام قمعي يوجد هامش الحياة البشر.، لكن مع هذا الميلاد لن يكون هناك بشر أصلا.

تنحدر المقاتلة الأمريكية نحو ذلك الجسم العملاق.. تصوب صواريخها نحو الرأس وتطلق.. في

اللحظة التالية يطير ممس عملاق بسرعة البرق ليضرب القمرة ويمزق رأس الطيار.. لابد أن هذا يحدث بسرعة الضوء أو شيء قريب من هذا. تحترق الطائرة وتهوى لتغوص في المحيط ويتصاعد جبل من المياه الثائرة الفائرة..

ماذا يحدث هنا؟

هل هي نهاية العالم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبير رأت الصور في التلفزيون وراحت ترتجف.. وكانت تعرف أكثر من سواها معنى ما تراه.. لا شك في هذا.

كتولو!

الكابوس النائم تحت المحيط منذ ملايين السنين قد استيقظ بالضبط كما وصفه لافكرافت وتخيله يمكنها أن تفهم ما حدث في الأيام الماضية.، كان هناك نوع من الطقوس يراد به أن تعاد الحياة لهذا المسخ.. المسخ القادم من الفضاء في زمن سحيق.، والذي اعتبره البعض إلها

جرائم القتل الطقسي.. الجنون العام.. أكل لحوم البشر بلاد بأكملها تتحول لمخلوقات بحرية كما حدث في (إينزماوث).

كل هذه صلوات من نوع خاص بغرض أن يجد المسخ العالم مستعدا.. لقد كان كتولو نائما في بيته.. فنوجلوى مجنوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن «أي في بيته في (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم»

يبدو أن النجوم اتخذت الوضع المناسب الذي تمناه عبد الله الحظرد.، والذي كان لافكرافت يخشاه كثيرا

مع كتولو سيصحو الآحاد القدامى..

سوف يصير البشر كلهم عبيدا لكتولو.، وسوف تسود ديانة الدم وتصير الأرض جحيما لا تقدر الشياطين على الحياة فيه......

أيتها البشرية.. كنت تخشين جنكيز خان وهتلر.. تخشين أن يسود العالم دكتاتور سفاح. اليوم سوف يأتي كتولو فيدرك البشر أن هتلر كان لطيفا وأقرب إلى ميكى ماوس..

كانت معدتها تتقلص.، ودخلت الحمام عدة مرات... هذا إسهال بلا شك

تجلس أمام السي إن إن تراقب الشاشة.، وتحاول فهم ما يقال بالإنجليزية.. في عالم الواقع هي لا تتكلم إنجليزية جيدة

جنرال في البنتاجون يظهر فخورا يزدان صدره بالنياشين وشعر رأسه حليق بطريقة الطاقم المميزة للعسكريين.. جنرال سكوت مكوايرل المتخشب بادى القسوة..

ويؤكد:

- سوف نقصفه بالنووي.. We will nuke it

هذه لحظة يحلم بها الأمريكان.. لذة القصف النووي ورؤية سحابة عش الغراب تتعالى. جو الكي الموحى بالنظافة وأن تحرق أعداءك ليتحولوا لغبار نووى.. هذا يغريهم جدا.، وهو الانتشاء الذي أظهره ستانلي كوبريك بوضوح في آخر فيلم (د. سترانجلاف).

وعند العصر انطلقت الطائرات الأمريكية لتلقي قنبلتين ذريتين فوق هذه الجزيرة المعزولة لحسن الحظ...

عندما سقطت القنبلة الأولى ارتفعت مياه البحر إلى عنان السماء.، وفار المحيط.، ثم تصاعدت سحابة عش الغراب.. الكثير من الانشطار والكثير من البلوتونيوم واليوارنيوم والبروتونات و... و... منهج كامل في الفيزياء يتحقق

عندما دارت الطائرة لترى ما حدث لم تفهم شيئا بسبب الدخان الكثيف.. وألقت الطائرة الثانية قنبلتها ثم ارتفعت

عندما بدأت السحابة تنقشع صرخ الطياران هلعا.. لقد كان هذا الأخطبوط المخيف يتزايد ارتفاعا وضخامة.. هناك شيء مثل مخالب السلطعون يحاول أن يبلغ الطائرة..

أما عبير فجلست في البيت تراقب هذه المشاهد في ملل..

لماذا يضيعون وقتهم في هذا الكلام الفارغ؟

كتولو ليس من عالمنا أصلا.. بل هو من عالم نجمى كابوسى بعيد. لا تنطبق عليه قواعدنا الفيزيائية ولا يحترق بالنار أو يتجمد بالبرد أو يتأين.. هذه قوانين أرضية تنطبق علينا فقط كما أن قوانين المرور المصرية لا تنطبق على من يقود سيارته بسرعة في تكساس.

لا بأس

لا أحد يعرف ما تعرفه هي لهذا يجربون ويضيعون وقتهم..

سوف يدركون بعد قليل أن هذا ألعن كابوس مر بالبشرية هذه هي نهاية العالم كما نعرفه.، ونهاية التاريخ الحقيقية لا كما وصفها الخواجة فوكوياما

على كل حال كانت عبير قد اتخذت قرارها. تعرف ما سوف تفعله.. المهمة كلها على عاتقها فإن لم تقم بها فلن يقوم بها أحد آخر

أغلقت الغرفة عليها ثم قامت بتثبيت أقطاب دى جى - 2 إلى رأسها وأخذت شهيقا عميقا

سوف تعود إلى فانتازيا

سوف تعود إلى آرخام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- وحدي مع لافكرافت

قال لها المرشد وهو يضغط على زنبرك القلم اللعين إياه:

- بهذه السرعة تعودين لفانتازيا؟.. ماذا ترغبين في تجربته اليوم؟ هل لي أن أقترح عوالم يوسف إدريس؟

في تصميم قالت:

- لافكرافت!

قال ما معناه (خير اللهم اجعله خيرا).. ثم تساءل عن السبب وراء هذا التكرار.، فقالت إنها قصة يطول شرحها العالم الذي نعرفه يتآكل ببساطة.. تريد معونة الرجل الكبير

هكذا دارت العجلة من جديد

مصحة آرخام... الأبواب تنفتح.. الحراس الغلاظ شديدو الشراسة.. الممرات المظلمة والظلام والرائحة الكريهة صوت الخطوات.. صراخ المعذبين في أقبية المستنطق

في النهاية تدخل إلى تلك الغرفة الضيقة الكئيبة

كان هناك مستمرا في الكتابة في ضوء خافت ضيق يهبط من أعلى.. وكان يردد بصوت رتيب:

- هل تحسب أن الزمن والقيمة معنى؟؟ هل تحسب أن هناك ما يدعى بالشكل والمادة؟.. لقد اخترقت ورأيت حدود اللانهاية وأسعدت الظلال التي تعبر من عالم الآخر لتبذر الموت والعدم. إن الفضاء ملكي أنا.. هل تسمعني؟.. ثمة أشياء تلاحقني.. أشياء تلتهم وتذيب.. لكني أعرف كيف أتفاداها..

قالت عبير همسا:

- سيد هوارد..

لكنه واصل الكلام:

- أنا كيان شبيه بالذي تكونه أنت نفسك عندما يحررك.... أنا أخوك الضوئي. نحن نحيا في فضاء بلا نهاية ونعيش في زمن بلا نهاية.. ونعيش في زمن بلا نهاية

قاطعته في إصرار:

- سيد هوارد.. أرجو أن تخرس قليلا!

رفع عينه نحوها كأنه لم يرها إلا الآن لم يرها إلا الان... وتساءل

- لماذا؟

- لأن خيالك السقيم يتحول لحقائق.. إن كتولو يغزو عالمي الآن

اتسعت عيناه وراح يصغي لما تقول بينما شفته ترتجف.. يده ترتجف.. جفنه الأيسر يرتجف

راحت تحكي له القصة كاملة.، وهو يصغى باهتمام. في اللحظة التالية ظهر جواره رجل كان متواريا في الظلال.، وله نظرة ليست أقل جنونا. رجل آخر جاحظ العينين يبدو أصغر سنا

سألت في شك:

- من هذا السيد؟

تنحنح الرجل جاحظ العينين وقال:

- أنا تلميذ لافكرافت.. اسمي (روبرت بلوخ).. لو كنت قد قرأت قصة (سايكو) أو رأيت فيلم هتشكوك الشهير فأنت تعرفين من أنا.. لقد كنت أتبادل مراسلات منتظمة مع هذا العبقري وسمح لي بأن أستعمل اسمه في أي قصة لى. إن تلاميذ لافكرافت كثيرون ومنهم أوجست ديرليث وبرايان لوملي وأنا.

قال له لافكرافت مفكرا:

- ماذا ترى يا روبرت؟.. ماذا أفعله؟

قال بلوخ على الفور:

- أقترح أن تذهب لعالمها يا سيدي.. في النهاية نحن مسئولون أخلاقا عن المسوخ التي صنعناها.. عندما تتحرر هذه المسوخ وتخرج للبشر يكون علينا أن نخلصهم منها..

- ربما كنت على حق

نهض لافكرافت ونزع عويناته.، ثم أغلق المجلد الذي يكتب فيه.. وقال:

- ليكن.. يبدو أن هذا ضروري فعلا..

تساءلت عبير:

- هل بوسعك أن تعبر لعالم الواقع؟.. هل يمكنك مغادرة المصحة أصلا؟

- لم لا؟.. أنا مجرد ذكرى.. فكرة.. لا تنطبق على القوانين المادية إلا هنا. قوانين فانتازيا لا تسري الا في فانتازيا

- وهل تعرف ما يجب عمله؟

- لا.. لكن أعتقد أن بوسعي أن أفكر في مخرج للبشرية.. إن الهول القادم لا يصدق ولا يوصف.، وأنا أكره أن أرى البشرية تحت سيطرة الذي لا اسم له..

- هل يمكن أن تحاول كتابة نهاية لهذا الكابوس في إحدى قصصي؟

ابتسم ابتسامة مريرة:

- للأسف كتولو أقوى من هذا.. إنه لا يخضع لمزاجى الخاص. في رأيي أنني عندما كتبت عن كتولو كنت أصف ظاهرة طبيعية ولم أكتب قصة... الكتابة عن جبل كليمنجارو لا يعنى أني

أوجدت هذا الجبل. فقط وصفت ما هو موجود

لم تفهم عبير جيدا وشعرت أنها توشك على فقدان الوعي لذا نهضت مع لافكرافت ومشت معه إلى باب الزنزانة.. وفي هذه المرة بدا أن أيا من الحراس لا يريد أن يسجنه في آرخام فعلا

عندما مرت عبير عبر دوامة الزمن وعبرت بين عالمين.، أدركت في النهاية أنها تقف فوق صخرة عالية والهواء يطير أطراف ثوبها.. ترى منظرا بانوراميا لساحل كئيب تصطرع فيه الأمواج مع طيور النورس التي تحاول البقاء حية.، بينما تشمخ صخور وسط المياه منذرة بالويل للقوارب التي تدنو. ومن بعيد رأت فنارا يوحي باقتراب مصيبة.

وأدركت كذلك أن الرجل غريب الأطوار لافكرافت يقف بجوارها.. وهو يهمس في انتشاء:

- بروفيدانس!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لها لافكرافت وهما يهبطان فوق الصخور الوعرة:

- أسعد أيام حياتي كانت في بروفيدانس.. أيام امتزجت بالحلم والخيال وقصص ألف ليلة وليلة.، بينما ألعن أيامي كانت في نيويورك. بروفيدانس - أي (العناية الإلهية) – هي عاصمة رود آيلاند في نيو إنجلند. تأسست عام 1636 لتكون ملاذا دينيا للراغبين في حرية العقيدة.. حاليا يطلقون عليها (خلية نحل الصناعة)..

كان هناك كوخ فوق الصخور يطل على ساحل صغير... بيت من أخشاب يبدو كأن نجارا غير محترف قام ببنائه

بدا واضحا أنه يقودها إلى هناك.. وهو يقول:

- ما زال هذا البيت الصغير قائما.. كنت ألهو فيه في طفولتي..

- هذا جميل.. لكن ما زلت لا أفهم سبب مجيئنا له.. ليس هذا أفضل وقت لاجترار الذكريات..

- بل هو الوقت المناسب.. في بروفيدانس يصفو عقلى وأستطيع التفكير..

فتح الباب الخشبي فدوى صوت صرير يصم الأذن.، وتساقط غبار الأيام من فوق الباب.. رائحة القدم.. وفي الداخل رأت عبير فراشا ومكتبا ومدفأة وضع عليها إناء طهي.. وكانت هناك غرفة جانبية مغلقة. لكن لافكرافت لم يبد مهتما بهذا كله

دعاها إلى تحت

تحت هذه كانت درجات خشبية تقود إلى بدروم. وبرغم وهنه الواضح وبرغم مشيته المترنحة.، فإنه أمسك بيدها واقتادها عبر الدرجات

وحدى مع لافكرافت

وحدي مع لافكرافت في قبو كوخ متداع مظلم رطب.. وهذا الكوخ في بروفيدانس كذلك

ان فانتازيا تقودها فعلا إلى مواقف عجيبة وأماكن أعجب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- عودة البارون

كان القبو مظلما والفئران تتواثب

مد الرجل الكبير يده وأوقد شمعة. هذا الضوء الرقراق الرهيب جعلها تزداد تشاؤما

هناك كان كم هائل من الأوراق المغبرة والملفات.. ملفات تحتاج إلى سنين لتفحصها

هناك رفوف كتب وشموع. هناك ورقة معلقة عليها رسم تنين كتبت كلمات مبهمة عند ذيله:

پای نجناه.. بوج سوثوث

هي لجيب

فای ثرودوج جيب ليب

كانت هناك منضدة عليها أنابيب اختبار. قوارير لا حصر لها تشبه معامل السيميائيين الباحثين عن حجر الفلاسفة في الماضي وقد كتب على بعض القوارير كلمة (كستودز) وعلى بعضها (ماتريا). وكل زجاجة مسدودة بالمعدن... في كل زجاجة مسحوق له لون خاص

ما هذا المكان؟

الأهم أن رائحة كريهة تغمر كل شيء.. رائحة لا يمكن تفسيرها بالقدم أو الزمن. ثمة شيء متحلل هنا لا شك في هذا

قالت له في دهشة:

- ما هذا المكان بالضبط؟

ببساطة قال:

- عرين نكرومانسي.. طبعا.. هنا نمارس فنون استحضار معلومات الموتى.. عن طريق التعذيب. هلا قربت كفك؟

مدت يدها في حذر فتناول قارورة صغيرة.، سكب بعضا من محتواها في كفها...

هذا مسحوق أخضر ناعم غريب الخواص لأنه لا يلتصق بالكف.. نفضت كفها فلم يبق شيء من المسحوق عليه ... ما معنى هذا؟

قال باسما:

- هذه أملاح مستخلصة من الموتى. ونحن نعيد لها الحياة بشكل مؤقت.. (كستودز) أملاح مأخوذة من الحراس حراس سور هادريان. بعد آلاف السنين يمكنك العودة إلى هؤلاء الرومان..

كانت هي منهمكة في حك كفها في الجدار في اشمئزاز.، وهى تردد عبارات من قبيل:

- الله يقرفك يا شيخ!!

لكنه لم يهتم

جلس إلى منضدة متداعية هناك عليها شمعة. أشعل الشمعة ثم جلس. ومد يده يتناول مجلدا ضخما مصفر الأوراق مكسوا بالغبار

فتح المجلد وراح يجول عبر الصفحات..

قال ويده ترتجف بلا هوادة:

- الوهن العصبي.. الوهن العصبي قديم في أسرتي. كان أبي في غيبوبة طويلة وظللت عامين يقال لى إن أبي غاف الآن فلا توقظه. أعتقد أنه كان في المراحل الأخيرة من زهرى الجهاز العصبي. لقد ظللت أرتقب هذه اللحظة وأخشاها اللحظة التي يعبر فيها كتولو إلى عالمنا.. اللحظة التي يصحو فيها حيث كان غافيا في أعماق المحيط..

حكت عبير شعرها في عصبية وجلست أمامه على الأرض المغبرة، وقالت:

- لحظة من فضلك.. أنا موشكة على الجنون.. ما أعرفه هو أن كتولو هذا لا وجود له. هذا من بنات أفكارك لو سمحت لي بالتعبير.. إذن هو موجود في فانتازيا وفاتك في فانتازيا.، لكن ما دخله بعالمنا هذا؟

- كتولو قادر على العبور من عالم الخيال لعالم الواقع قلت لك إنني أصف جبل كليمنجارو ولم أخلقه!

تبا لهذا الخبال... من المستحيل الكلام مع هذا اللافكرافت... بطريقة منطقية.، ففكرة الدمار ويوم القيامة الذي سيجلبه كتولو تسيطر عليه بشدة

نهض واتجه إلى القوارير الموضوعة على المنضدة.، فراح يتصفح الأسماء الملصقة على كل أنبوب....

ثم هز رأسه وقال لها:

- أقترح أن تنامي قليلا لتستعيدي قواك.. في الوقت ذاته سوف أجد في هذه الكتب طريقة القضاء على كتولو..

صعدت في الدرج.، وأغفت في الفراش غير المريح. الفراش الذي لم ينم فيه أحد منذ 100 عام تقريبا. هذا ليس بالشعور المحبب

كان نومها شنيعا قلقا.. العرق.. الصراخ.. صوت الأمواج من بعيد.. ما السر الرهيب الذي عرفه آرثر جرمين؟.. لماذا يتوارى د. مونوز في غرفته ولا يخرج أبدا مع رائحة النشادر وكل هذا البرد؟.. وماذا عن السر الذي هبط على بلدة إينزماوث؟.. ما الصفقة التي عقدها أوبيد مارش مع شياطين البحر؟

نهضت من نومها شاعرة بظمأ شديد

العرق الذي أغرق الحشايا قد أفرغ جسدها من كل قطرة ماء فعلا..

بحثت عن ماء فلم تجد.. أين لافكرافت؟.. هل ما زال في القبو كما هو؟

نزلت الدرجات الكئيبة إلى القبو.، فكان ما رأته لا يصدق

كان لافكرافت هناك جاثيا على ركبته

كان يمسك بقارورة مفتوحة.، ومحتويات القارورة مبعثرة في كل اتجاه.. مسحوق أزرق ومسحوق أخضر.. يبدو أنه خلط المكونات..

يردد بلا توقف:

- نفروكانا اى حادوث.. نفروكانا اي حدوث..

الأخطر هو تلك النجمة الخماسية التي تتوسط المكان.، وقد رسمت بالطبشور.. هناك دخان ضباب أخضر يتصاعد بكثافة من المركز.. لا تستطيع فهم ما يدور

هرعت لتمسك بكتفه في هستيريا وتصيح:

- مستر لافكرافت... ماذا تفعل؟

كان يرتجف كورقة وهو يردد بلا توقف:

- نفروكانا اى حادوث.. نفروكانا اى حادوث.

وهنا بدأت في هلع تدرك أن هناك شخصا يتجسد وسط الدخان.. شخصا يتحرك.. شخصا يلبس دروعا ثقيلة تجعله ضخما كتنين

ومن وسط الدخان رأت ذلك العملاق يخرج..

ناري النظرات مشعث اللحية منكوش الشعر.. يلبس دروعا تشي بأنه من سادة القرون الوسطى وعباءة طويلة يجرها خلفه وهو يخرج من المركز... له رائحة خانقة غريبة كأنها الكبريت

الكوخ يهتز لخطواته الثقيلة.، بينما لافكرافت الراكع على ركبتيه يقول:

- البارون فيرنكزي هنا.. إن هذا الشرف ليفوق قدراتى على التحمل..

يقف فيرنكزى والدخان يتصاعد منه أمام لافكرافت.، ويتصاعد صوت زفيره كأننا نتكلم عن جهاز رئة صناعية.، ويقول بصوت غليظ ولكنة رومانية واضحة:

- هل لديك نبيذ؟.. إن الرحلة الطويلة والغبار قد جعلا حلقي جافا..

- لا نبيذ يا سيدي.. لا نبيذ.. الخمر تتلف الأملاح... لن نجازف..

دنت عبير راجفة من لافكرافت وتساءلت:

- من هذا الفيرنكزي؟

استدار نحوها بعينين متسعتين.. العينين اللتين يفزعك النظر فيهما.، وقال:

- صه!... لقد استعدت كيانه عن طريق الأملاح المحفوظة أنا قد مارست النكرومانسي.. هذا الرجل جاء من رومانيا ومن وراء عالمنا..

حاولت ألا تنظر للبارون وقالت:

- ما معنى هذا؟ ولماذا تحتاج له؟

- البارون فيرينكزي ساحر عظيم مخيف القدرات.. لو كان هناك من يعرف أسرار كتولو على وجه الأرض فهو هذا الرجل..

ثم صحح كلماته:

- من كان رجلا..

من كان رجلا؟

هذا يدل على أن فيرنكزي كان شيئا منذ بضع دقائق.. بينما هي نائمة قام لافكرافت بأداء طقوس مخيفة استعادت هذا الشيء

كانت عبير تذكر شيئا كهذا من قصة (تشارلز دكستر وارد). كانت هناك مراسلات بين الرجل الشرير جوزيف كوروين وساحر روماني يدعى (فيرنكزى).. نعرف من سياق القصة أن فيرنكزى هذا مات منذ 150 سنة. لقد توصل كوروين إلى أسرار النكرومانسي وحول مزرعته المنعزلة إلى عرين لممارسة هذا الفن المشئوم.. وبالطبع لم تكن كل نتائج النكرومانسي موفقة - تذكر ما حدث مع النعجة دوللى - فالعلم لا ينجح دائما هكذا كان يحرق نتائج كثيرة جدا.، كما أنه كان يجلب كميات هائلة من اللحم للمزرعة ليطعم تلك المسوخ

يبدو أن لافكرافت لا يعرف كيف يعيد وحوشه إلى عالم الخيال.، لهذا استقدم هذا الفيرنكزي الشرير كي يستعين بعلمه..

إن الصورة تزداد قتامة.. لكن من يدري؟.. لربما كانت قاعدة أن الحديد لا يفله إلا الحديد صادقة هنا.. لربما كان الأخ فيرنكزي يملك حلا.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- كتولو فتاجن

في هذا الوقت كان العالم يمر بألعن لحظات ممكنة..

في أكثر من بقعة بحرية بدأت المياه تفور.، ثم ارتفع إلى السطح شيء صخري يشبه تلك الجزيرة التي وجدوا فيها كتولو

ومع المياه الفائرة كانوا يرون كائنا ضخما آخر يتحرك كائنا له سمات المخلوقات البحرية مع لمحة بشرية كابوسية.... أنت تأكل الإستاكوزا.، لكنك لا تتصور أن ترى إستاكوزا تحمل صفات بشرية وتمشي على قدمين

وفي معظم جزر المحيط الهادي تذكر الكهنة والأجداد عقيدة قديمة اندثرت منذ دهور. وهكذا خرج الكهنة يحملون عصيهم التي تحمل أخطبوطا صغيرا في طرفها ووقفوا يلوحون للجميع عندها يجثو سكان القبيلة راكعين

يهتف الكاهن والزبد يسيل من شدقيه وهو في حالة غيبوبة بفعل أعشاب غريبة:

- كتولو.. كتولو فتاجن.. فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن..

عندها يهتف القوم وراءه:

- كتولو فتاجن!

ينظرون جميعا للبحر في رعب وأمل. لعل هذا التوسل يمنحهم رحمة هذا المسخ العائد.، ولكن هل تتوقع رحمة من أخطبوط؟.. كم مرة سلقت فيها الكابوريا الحية ووقفت تراقبها وهي تتلوى وتحاول الفرار بينما لونها يحمر وتهلك؟.. هل شعرت برحمة؟ هل رققت لها؟ ... إذن لماذا تتوقع أن ترق لك هذه الكائنات البحرية وقد انعكست لعبة الأحجام؟

أما العالم كله فراح يراقب المشهد معدوم الحيلة لا يعرف ما يفعله. الحقيقة أن الحكومة الأمريكية والروسية فجرتا عشرات القنابل النووية في المحيط الهادي.، وقد زاد هذا موجات التسونامي بالفعل.، وبرغم هذا لم يخدش كائن واحد

في نشرات الأخبار بدأ الاسم الحقيقي يتردد:

- لقد جاء كتولو والآحاد القدامى!!

لقد تذكروا ما كتبه لافكرافت.. وعرفوا أن كابوس هذا الأديب العبقري يتحقق....

كان الناس يصرخون ويجرون في الطرقات.، وازدحمت دور العبادة بأناس باكين يدعون الله أن يرحمهم.. أما من لا يملك إيمانا فقد اكتفي بأن يلهب رأسه بالرصاص أو يثب من فوق بناية عالية.. فضل العودة لحالة الكربون والنتروجين على انتظار الهول القادم. ربما يندم فيما بعد على أنه لم يقتل نفسه عندما كان هذا ممكنا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الإسكندرية فوجئ الناس بحشد غريب يمشي على الكورنيش

في البدء ظن رجال الأمن أنها مظاهرة. لكنهم دققوا النظر فأدركوا أنها مسيرة.. مسيرة لسكان من المدينة تتجه إلى نهاية الكورنيش.، وكل هذا مقبول

لكن لماذا تتصاعد منهم رائحة الأسماك هذه؟

لماذا ينظرون أمامهم بعيون شاخصة متجمدة زجاجية؟ لماذا يزومون؟.. لماذا هم مغطون بالقشور ولماذا توجد أغشية بين أناملهم؟

على الضوء الخافت القادم من أعمدة النور يدرك الناس الذين وقفوا أمام المطاعم والمقاهي أنهم يرون ظاهرة مروعة.......

ما سر هذا التشوه الذي أصاب الناس؟

نفس هذا المشهد تكرر كثيرا في أي مدينة ساحلية.، وكان ينتهي على الأرجح بأن تتجه الجموع إلى البحر وتغوص فيه مختفية

لابد أن كل بيت شهد قصة مخيفة لتغيرات غير مفهومة لأحد أفراده.. لابد أن هناك فترة طويلة كف فيها هذا الفرد عن الأكل والحياة الاجتماعية.. لماذا لم تعد عيناه ترمشان؟ لماذا تنتشر هذه القشور على جلده؟....

الرائحة الكريهة الشبيهة برائحة السمك الفاسد تملأ البيت.، ثم تأتي اللحظة التي ينطلق بها هذا الفرد إلى الشارع لينضم لمسيرة تحتشد في الشارع..

المجتمع يتحول لكائنات بحرية.

هل يوجد شيء كهذا؟.. هل من تفسير لهذه الظاهرة المريبة؟

لا أحد يعرف.. قيل إنه مرض غريب.، وتكلم الأطباء عن داء (تصلب الجلد scleroderma) الذي يبدل شكل الوجه إلى ملامح السمكة.. وتكلم أطباء الجلدية عن أمراض تغطي الجلد بقشور كقشور السمك.، لكن ظل الربط بين هذا كله صعبا

لم يعرف أحد أن الظل الذي سقط فوق إينزماوث يوما.، قد سقط فوق الإسكندرية اليوم.. سقط فوق كل مكان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أريد بعض النبيذ!

قالها فيرنكزي وهو يضرب المنضدة بقبضته في عصبية.، وعيناه تتقدان نارا.، حتى إن عبير كادت تفقد وعيها رعبا

لكن لافكرافت تماسك وقال من جديد:

- النبيذ يتلف الأملاح يا سيدى.. سوف تتحول إلى غبار..

- حلقى جاف.. عليكم اللعنة..

ثم نهض بجسده الضخم القوي.، والذي زادته الدروع ضخامة.، فاتجه نحو عبير التي كانت ترتجف ذعرا فأمسك بمعصمها لتنغرس مخالبه الطويلة في لحمها.. وقال في غلظة:

- نحيلة جدا.. قبيحة جدا.. فيرنكزى بحاجة للنساء لكن هذه لا تصلح البتة.. هي أقرب لسحلية كبيرة.. لقد رأى فيرنكزى صراصير أكثر حسنا وإغراء!

قال لافكرافت بسرعة لينقذ الموقف:

- هي لا تناسبك بتاتا أيها الساحر العظيم.. دعها.. لدى أملاح أميرات رومانيات بارعات الحسن..

أطلق فيرنكزي معصمها فتنهدت للخلاص هناك لحظات تغبط فيها المرأة نفسها لأنها قبيحة. تذكرت كيف كانت الأمهات السوفيتيات يلطخن وجوه بناتهن بالقاذورات قبل وصول الجنود النازيين

التحرش شىء قبيح.. لكن ماذا عن تحرش ساحر ميت متحلل ضخم كهذا؟

مشى فيرنكزي في الكوخ مفكرا وسأل:

- هل أعدت (أوبيد مارش) لعالمنا؟

- نعم.. أملاحه كانت لدي..

كانت عبير تذكر الاسم.. أوبيد مارش هو الجد الأكبر الصياد الذي كان يعاني من نقص الأسماك.، ثم باع روحه للشيطان ونذر قومه لسادة المحيط والآحاد القدامى.. هكذا صار الصيد وافرا وتزاوج الصيادون من سادة المحيط وأنجبوا منهم.. ومع الوقت اكتسب الناس سحنة إينزماوث التي تذكرك بالضفادع أو الأسماك لقد ولدت سلالة جديدة سرعان ما تعود لقاع المحيط من جديد

لكن لماذا يعيدون أوبيد مارش لعالمنا؟ ما نفعه؟

قالت للافكرافت همسا:

- أنت استعنت بفرينكزى.. هذا مفهوم. لكن ماذا عن أوبيد مارش هذا؟.. لا جدوى منه لعالمنا ولن يقدم شيئا..

قال لافكرافت في كآبة:

- هو قريب بالنسب للآحاد القدامى.. تعرفين أنه تزوج منهم وذريته تنتمي لهم

- هل تعني أنك ستستعمله كوساطة صلح مع كتولو؟

- بالطبع لا.. لا يمكن التفاهم مع كتولو.. لكن أوبيد مارش قد يجد أجوبة

كانت تشعر بحيرة بالغة.. الأمور تسوء.. ليتها تفيق من هذا لتدرك أنه كابوس.. كل شيء يوحي بذلك.، لكن ما ألعن الكابوس الذي لا نفيق منه..

هو تكلم عن نهاية العالم كما نعرفه.. كان محقا في ذلك كل شيء يتغير.. لم يبق حجر على حجر.. في كل مكان هناك أشخاص يتشاجرون.. هناك عشاق يطلقون الرصاص على حبيباتهم..

هناك طائرات تقصف المدارس في وطنها.. المحيط يفور وتخرج منه تلك الكائنات المخيفة الناس يتبدلون إلى كائنات بحرية وينزلون في المحيط ليختفوا نهائيا....

البرق يشق السماء.. والرعد يهز الأرض تحت قدميها.

لقد جاء كل هذا من فانتازيا.، لكنها تتوق إلى أن تهرب إلى فانتازيا لتنسى!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- إنه الخوف

الخوف هو أقدم وأقوى عاطفة عرفها الإنسان.، وأقوى وأقدم نوع من الخوف هو الخوف من المجهول.

هـ. ب. لافكرافت

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحقيقة أن العالم كله كان يتجه للجحيم

في مكان ما هناك تجربة د. تلنجاست التي تتعلق بتنبيه الجسم الصنوبري مما يسمح للإنسان أن يرى الحقائق الخفية في العالم. إن خمس حواس لا تكفي لرؤية العالم.. تلنجاست استطاع أن يهشم الحواجز التي تحيط بنا لنرى ما كنا لا نراه ونسمع ما كنا لا نسمعه. هكذا استطاع أن يرى ما يجعل الكلب ينبح في الظلام وما يجعل القطط تحك آذانها

لقد استطاع تلنجاست أن يثبت أن الجسم الصنوبري الذي اعتقد علماء الغدد الصم أنه بلا جدوى.. أثبت أنه أهم عضو في أجسادنا. وهكذا استطاع أن يرى العالم من حوله مزدحما صاخبا.. كائنات لم ترها عين من قبل.، وأجسام كقناديل البحر تسبح حولك وتلتهم بعضها

بالنسبة للناس قد جن تلنجاست.. لكنه في الحقيقة قد اقترب فرأى.. رأي السر بوضوح تام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي تلك القرى بالمنوفية رأي الفلاحون ذلك الرجل فارع الطول يمشي.. رجلا لم يروه من قبل.، وله ملامح لم يعهدوها قط.. يذكرك نوعا بنقش فرعوني متحرك. كانوا يخشون الاقتراب منه لسبب لا يعرفونه..

كان قد تجاسر ووقف عند الترعة حيث كانت نساء القرية يغسلن الثياب أو يستحممن. لم يجسر أي شاب من أهالي القرية على الدنو من هنا.، فكيف يقبلون ذلك من غريب

لكن عندما تجرأ بعض الشباب ليفهموا من هو. وعندما لوحوا بالعصي مهددين.، عندها أدركوا أن هذا ليس بشرا

لقد تحول إلى ما يشبه نجمة بحر خماسية عملاقة.. الرأس تخرج منه ممصات تتلوى في كل اتجاه

لم يفهم هؤلاء المساكين أنهم جسروا على استفزاز (نيارلاثوتيب).. واحد من الأحاد القدامى له القدرة على المشي في الأرض والظهور كرجل عادى.

إنه يتكلم كالبشر وليس وحش مثل كتولو ويوج سوثوث... وهو خادم لأزوثوث.. لكنه يحول البشر إلى خدم له يتبعونه في كل مكان..

إن (نيارلاثوتيب) يتواجد في أكثر من مكان في الوقت ذاته..

لقد خرج من قصة قصيرة للافكرافت.، ويبدو أنه جاء أرضنا هذه ليبقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكان ما في كوخ ما في جبال تمبست يغفو بطلنا جوار المدفأة مع رجلين شجاعين جاءا معه ليقابلوا الخوف الكامن Lurking fear

لا يعرف البطل أنه سيصحو ليكتشف أنه وحده وأن رفيقيه اختفيا ولن يرجعا. لكنه سيرى مشهدا وظلا يجعلانه يفقد صوابه للأبد. وفي كوخ آخر ينتظر أحد الأبطال مع صديقه قدوم الخوف الكامن

يشق لسان برق السماء وينظر الصديق خارج النافذة.. يظل ثابتا حيث هو برغم أن بطل القصة يناديه عدة مرات

عندما يدنو البطل من صاحبه ويدير وجهه يكتشف أنه قد انتزع بالكامل.. لم يعد لصديقه وجه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في قبو بيت في بوسطون ينهمك الفنان بيكمان في رسم لوحات مفزعة لمسوخ تسكن شبكة المترو تحت المدينة. هذه المسوخ تخرج من وقت لآخر لتهاجم ركاب المترو وتلتهمهم وتمزقهم..

يرسم رسوما شنيعة فعلا.، لكن الحقيقة التي لا يعرفها كل من يشاهد لوحاته هي أنه يرسم موديلات حقيقية رسم مسوخا تخرج له من القبو

يقع هذا البيت في شارع نصف مألوف تحيط به بيوت عتيقة هذا شارع (تشارتر) ثم شارع (هانوفر) عند ركن (جوى)..

هناك بيت آخر في شارع تحيط به مستودعات بنيت من قرميد.، ويعبره جسر من الحجر الأسود. ثمة نهر أسود دائما كأن دخان المصانع القريبة يحجب عنه الشمس للأبد. ومياهه خبيثة الرائحة. أخيرا تصل لممر مبلط بحجر الإسكافي يقودك إلى شارع (دوسيه).

في الطابق الخامس وجد الملحن إريك زان إلهامه الخاص.، فراح يعزف الكمان بسرعة جنونية وصوت رفيع صارخ.. عيناه مجنونتان تذكرانك بيوسف وهبي عندما كان يبالغ في أدائه ليستمتع بدور عازف الكمان المجنون.. ولاحظ سكان الشارع أن الغيوم تتجمع في السماء وأن البرق يضرب

القطط وقفت في الشارع محتشدة وراحت تموء.. وانتصب الفراء حول أعناقها

إن الشيطان نفسه يعزف.، لكنه يستعمل إريك زان ككمان كبير

النغمات تتصاعد.، وفي الوقت نفسه يرسم بيكمان بسرعة أكبر

وأمام بيت مهجور في بروفيدانس يتكلم رجلان همسا عن الذي لا اسم له.. تنفتح نافذة صغيرة في العلية ويطل منها رأس تيس

وفي مختبر قريب يعكف عالم على إعادة تحريك الجثث

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل هي نهاية العالم فعلا؟

لا تنجبوا أطفالا.. لا تقعوا في الحب

لا تأتوا بأطفال أبرياء لهذا الجحيم.. لا تبدءوا الحياة بينما الحياة ذاتها تنتهي

ابتعدوا عن الأمل فهو قاس.. إنه شبيه بكأس ماء بارد يوضع تحت شفتي ظمآن ثم ينتزع انتزاعا

ابتعدوا عن النور وعن الشمس

عندما يكتمل مجد كتولو والآحاد القدامى لن تكون هناك شمس لا رحمة.. لا شفقة

سوف تندمون لأن هولاكو وهتلر وأتيلا ليسوا هم الذين يحكمونكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- أنت فعلت!

كانت عبير موشكة على الجنون..

الأيام تمر وهي في برووفيدانس في ذلك الكوخ.، تراقب الموج وهو يضرب الشط..

لا تفعل أي شيء.. فقط تدخل الكوخ من وقت لآخر لتجد لافكرافت جالسا مع البارون يطالعان كتب السحر الأسود العتيقة وكان منظر فيرنكزي يثير رعبها.. أقرب شكل بشرى للغيلان كما أن علامات التحلل قد بدأت غزو جلده وسحنته الكريهة هناك عين قد سقطت من مكانها كاشفة عن محجر فارغ قبيح هناك شفة متآكلة وأصابع تساقطت..

تراه وهو يمشي فوق الصخور وأسماله تتطاير من خلفه فلا تصدق أنك تراه فعلا..

جاء ذات مرة رجل عتيق المظهر.، يبدو أقرب لرجال القرن الثامن عشر الذين نراهم في السينما.، وكان له ذات السمت المقلق المعذب. سمعت الرجلين يناديانة بلقب (مارش)..

عرفت على الفور أن هذا أوبيد مارش الذي بدأ أسرة كاملة تعبد الأحاد القدامى

نظر لها نظرة نارية.، ثم دخل الكوخ ليجتمع مع الآخرين

أحيانا كانت تدخل منطقة المقابر القريبة.، وتمشي بين شواهد القبور المتآكلة

هنا كانت تري راندولف كارتر يجثو على ركبتيه خارج المقبرة ويحاول سماع صوت صديقه الذي غاب داخل القبر

عادت إلى الكوخ وجلست فوق الصخور تراقب البحر

كان البارون فيرنكزي يقف على الشاطئ ويسكب مسحوقا من قارورة صغيرة.. يسكبه في صفوف.. بعض المسحوق يتطاير في الهواء ليبلغها فكانت تتوارى في رعب.. تعرف الآن مما يتكون هذا الشيء

فيرنكزي يدور حول المسحوق الذي بعثره.. كأنه فلاح فخور يتفقد حقله..

ثم يقف صائحا وقد فرد ذراعيه في الهواء:

- نفروكانا اى حادوث.. نفروكانا اى حادوث..

يدوى الرعد في الجو.. ينهمر المطر

ثم يتصاعد دخان أخضر كثيف من الأرض.. لا يمكنك أن ترى يدك ذاتها من كثافة الدخان.. صوت سعال هدير الأمواج.. البحر يثور وجبال سود تتصاعد

ثم ينقشع الدخان ببطء فتدرك أنها ترى جيشا من المحاربين جيشا كاملا يمتد حتى البحر.. تميز هذه الدروع لأنها رأتها في قصص (استريكس).. هؤلاء جنود رومان.. جنود رومان مدججون بالسلاح والدروع..

فقط هناك مشكلة صغيرة هي أنهم بلا رأس في ظروف معينة قطعت رءوس هذه الكتيبة.، وتحللت الجثث.

النكرومانسر المحترف لم يجد هذه الرءوس واضطر للعمل من دونها.. مستحيل أن تصدق هذا لكنها تراه

هذا الجيش المخيف الذي يتكون من جنود أشداء بلا رأس.... هل هو قادر على مواجهة كتولو فعلا؟

ركضت وقلبها يتواثب إلى الكوخ إلى حيث كان لافكرافت عاكفا على الكتابة كأن ما يدور بالخارج أمر طبيعي معتاد وممل ركعت جوار المنضدة التي يكتب عليها وظلت تلهث حتى استعادت أنفاسها ثم سألته:

- فيرنكزى صديقك.. لقد استعاد جيشا من محاربى الرومان الذين هلكوا عند سور هادريان..

- هذا متوقع.. إنه بحاجة لمقاتلين شكلهم مخيف..

- لكن هذا لا يعني أن دروعهم وسيوفهم قادرة على مواجهة كتولو وكل هذه الكابوريا القادمة من تحت المحيط..

هنا توقف عن الكتابة ونظر لها في جدية:

- هؤلاء لم يأتوا لمواجهة كتولو.. هؤلاء هم جيش كتولو!!

ارتجفت ووثبت لتقف على قدميها ونظرت له في دهشة.. هؤلاء جيش كتولو؟

- هؤلاء جيش كتولو؟

- هؤلاء جيش كتولو!

- هل تعني أن... هؤلاء جيش كتولو؟

- هذا ما أعنيه بالضبط..

- إذن ما معنى هذا النكرومانسي واستحضار الساحر القديم واستعانتي بك؟

قال لافكرافت بوجهه الكئيب الذي لا يعكس أي انفعال سوى الرعب:

- ألم تدركى بعد دورك في هذه القصة؟ ... هل تذكرين الورقة التي أعطيتك إياها في لقائنا الأول؟.. كانت فيها عبارات هل تذكرينها؟

كتولو فتاجن

فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن

ياى نجناه.. يوج سوثوث

هى لجيب

فاى ثرودوج.. يواه.... جيب ليب

زرو

دسميس جيشيت بون دوسيف دونما انتيموس

لارلياهل سيهويل فلجانجل دا لا... بها نتلى...

- كانت هذه هي الكلمات التي تستحضر كتولو لعالم الواقع تنقل عالمي كله إلى عالمك. كنت بحاجة إلى شخص قادر على عبور الثغرة بين فانتازيا وعالم الواقع.، وهذا الشخص سيحمل معه الكلمات.. عندها يتغير كل شيء ويبدأ عصر الإرهاب. كل شيء بدأ بعد ما تلوت تلك الكلمات. ألم تفهمى بعد أنك كاهنة كتولو العظمى؟.. ألم تفهمي أن كل ما يحدث للأرض اليوم هو من صنعك أنت؟

وثبت من جديد كمن لدغتها حية.، وصاحت:

- إذن لماذا جئت بك؟.. لماذا جلبت لي فرنكزي وأوبيد وكل شخصيات كوابيسك؟

- في كل ركن من الأرض هناك جزء من قصصي.. سوف تجدين الناس السمك يجوبون المدن الساحلية.. سوف تجدين الذي لا اسم له.. نيارلاثوتيب يمشي وسط القرى المصرية..... الجنود الرومان الذين لا رأس لهم.. بيكمان يرسم لوحاته..... د. مونوز في غرفته الباردة الثلجية... آرثر جيرمين يصل لحقيقة أسلافه......

- أنت مجنون!

- كل فنان يأمل في أن يرى العالم وقد تحول إلى صورة كاملة لأوهامه وأحلامه.، وأنا قد نجحت في ذلك بفضلك كنت أرغب في رؤية السواد في كل مكان.، وقد فعلت أنت هذا..

- لكنك كنت ترتجف خوفا من هذا اليوم..

- لكني كذلك كنت أتحرق شوقا.. ألا تفهمين؟.. لذة المحرقة النووية التي يحلم بها جنرالات البنتاجون.، وبرغم هذا يخشونها.. أخشى عصر الإرهاب الذي كتبت عنه لكني كذلك أحلم به..

كانت هناك سكين ملقاة جوار المنضدة فأمسكت بها واعتصرتها في عصبية.، ثم هبت نحوه محاولة طعنه بالطبع ما كانت لتقدر.، والأهم هو أنه لم يحرك ساكنا.. ظل ينظر لها في ثبات وقال:

- يمكنك قتلى.. أنا ميت فعلا منذ عام 1937.. ما ترينه أمامك هو ظل رجل.. ذكرى.. لا أحد يقدر على قتل ذكرى سوف أموت ويبقى عالمي للأبد.، وأنت من صنع هذا العالم لقد استمد وجوده منك..

كانت موشكة على الجنون.. سقطت المدية من يدها....

لقد خدعها.. عبث بها وجعلها تأتي بكل هذه الكوارث للعالم..

اليوم صار العالم مكانا أروع.، بما فيه من جرائم قتل طقسية ومطاعم تقدم لحم البشر وجنود رومان بلا رءوس....

كيف كان الناس يشكون حالهم قبل هذا؟

17- يجب أن نعمل شيئا..

وضعت عبير نصل المدية تحت عنقه وضغطت وقالت:

- سوف تكتب..

- أكتب ماذا؟

- تكتب عن زوال كتولو.. سوف تكتب عن زلزال في المحيط.. هذا الزلزال يؤدي لخلق فجوة.، وهذه الفجوة تبتلع كتولو ليعود كما كان منذ ملايين السنين

- هذا تفكير جيد.. لكن هل تعتقدين أنه كاف؟

- سنجرب..

- لو أن هناك نمرا يتربص بك.، وكتبت أنا عن نمر يجد نفسه في قفص.، فهل تتوقعين أن يختفي النمر؟.. لقد صار كتولو خارج نطاق السيطرة أو أحلام الواهمين..

ضغطت بالسكين أكثر فقال:

- يمكنك قتلي ولسوف أقضي سعيدا برغم أنني لا أعتقد أنه من الممكن قتل ذكرى عشت طيلة حياتي اكتب عن عبد الله الحظرد والعزيف وعالم كتولو.. اليوم تحقق هذا وكتولو سيحكم العالم..

كانت تفكر جديا

كلامه صحيح فعلا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهناك وقفت على الشط فوق صخرة عالية ترمق البحر المتلاطم تحتها..

هي صارت كاهنة كتولو

هي التي جاءت بالآحاد القدامى من تحت المحيط ليحكموا الأرض..

«أنت من صنع هذا العالم.. لقد استمد وجوده منك..»

هو قال هذا..

«ألم تفهمي بعد أنك كاهنة كتولو العظمى؟.. ألم تفهمي أن كل ما يحدث للأرض اليوم هو من صنعك أنت؟»

لكن معنى هذا أن كل هذا الهول صار مرتبطا بوجودها هي.... هي التي تحدثه.. هي مصدر الوباء. رحلتها المشئومة إلى فانتازيا هي التي جلبت أهوال الرجل ذي الخيال العبقري.، لتسكبها على أرضنا المسالمة الوديعة

كانت تعرف ما سوف تقوم به.....

الانتحار عمل مقيت لكنه قد يكون أقرب إلى النبل لو كان سينقذ الأرض من عصر الظلام القادم.. لعل الله يغفر لها لأنها أرادت أن تعود الشمس للعالم والرحمة لمخلوقاته.

سوف تراهن على أنها مصدر ما يحدث.. تراهن على أنها عندما تموت.، سوف يزول فرينكزى ويغوص كتولو ثانية ويتحلل أوبيد مارش ويعود الناس السمك لطبيعتهم

سوف تراهن على هذا..

الخطر كل الخطر ألا تموت.، أو يظل الكابوس حيا ويجد فرينكزى بقاياها.، لهذا سوف تثب فوق الصخور.. سوف تتهشم جمجمتها قبل أن يغيب جسدها في المحيط للأبد...

أغمضت عينها وتمالكت شجاعتها.، ثم وثبت...

لن تطول لحظات الألم.

اصبرى.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنها شعرت بيد رفيقة تمسك بها....

هناك من يبعدها عن السقوط....

تفتح عينيها مذعورة لتجد المرشد.. كان يمسك بها في حزم وهو يبتسم.. وقال شيئا على غرار:

- أنت مخبولة تماما!

- هل تعني أني في فانتازيا أم دنيا الواقع؟

- كل هذا في فانتازيا.. أنت تعرفين الكابوس داخل كابوس داخل كابوس.. تأثير دروست الرهيب.. أنت لم تعودي لعالم الواقع قط..

- لم تكن هناك بائعة سمك ولا أم سيدة ولا كتولو في المحيط؟

- ولا أكلة لحم بشر ولا مسيرات للناس السمك في الإسكندرية.. كل هذه مغامرة واحدة طويلة..

تنهدت وارتجفت بالبكاء.، ثم قالت في ارتياح:

- لقد زال عبء ضخم عن كاهلي.. كنت أمقت لافكرافت ولا أطيق سماع اسمه..

- الرجل كان صاحب خيال مخيف معقد فعلا.، لكنه لم يكن شريرا.. كان يخشى الشر مثلنا جميعا.. وحساسيته المفرطة جعلت هذه الفكرة تعذبه ليلا نهارا.....

تنهدت وقالت:

- كان عبقريا..

- هو وإدجار آلان بو عميدا الأدب القوطي.. أما عن أسلوبه فشيء لن تدركيه لأن إجادتك للإنجليزية لا تسمح بفهم مدى عبقريته..

كانا يهبطان فوق الصخور

ومن بعيد رأت سفينة تنتظر

قالت له:

- إلى أين هذه المرة؟

قال وهو يمد يده لها في رفق:

- إلى جزيرة سانت هيلانه.. لدينا موعد مع جريمة قتل.

تمت بحمد الله

نادي المحاربين الجدد

نواصل اللقاء مع مواهب القراء كما اعتدنا.، وهم الذين يحاولون أن يسابقوا الريح بخيولهم كي يجلبوا لفانتازيا أرضا وآفاقا أخرى. كما نعرف فإن مملكة فانتازيا لن تنتهي أبدا لأنها تنمو في ذات اللحظة التي نكتب فيها عنها.. سأحاول هنا أن أقدم بعضا من أفضل ما جاء لي في الفترة الأخيرة من أعمال القراء:

من أفضل الأعمال التي وصلتني قصيدة لفتاة قالت إنها في السابعة عشرة من عمرها.، وقد بدا لي رنين الاسم (منة شتا) مألوفا.. فعرفت أنها من بسيون بمحافظة الغربية.. هذه هي القصيدة التي نشرتها في كذا موضع من الإنترنت:

فتيات الربيع

هاته الفتيات اللواتي

نبتن على شجرات السكاكر

هؤلاء البنات اللواتي

رسمن بأحبارهن الفراشات ملء الدفاتر

هؤلاء اللواتي يطرن سرورا إذا ما مشين

وحين المزاح يقلدن مشى العساكر

هؤلاء اللواتي.. اللواتي.. اللواتي

عرفن السعادة

ومنذ الطفو كن ينمن وأحلامهن بديل الوسادة

ينمن على الدفء والأمنيات

يقمن على الحب والأغنيات

وكوب الحليب.. حلى القصص

وضوء النهار.. ووقت الحصص

مرور الدقائق.. صوت الجرس

ليلعبن في التل وسط البنات

هؤلاء اللواتي.. اللواتي.. اللواتي

لديهن خلان لهو........... وهرة

وأوقاتهن امتلت بالمسرة

ويضحكن طيل النهار إلى أن

ملأن من الفرح ألفي جرة

يجيء النعاس على حين غرة

فيخلدن للنوم والأمنيات

فتيات الربيع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هؤلاء اللواتي اللواتي اللواتي

لديهن ذات العيون البريئة

بمشيتهن الخجول الجريئة

وأسمارهن التي لا تمل

ولا تعرف الحزن..........

.... والاكتئاب

هؤلاء اللواتي يهبن السعادة؟

ويملكن أفياض حب لهذي الحياة!!

فتيات الربيع!..........

هؤلاء اللواتي.. اللواتي.. اللواتى

هؤلاء اللواتي كبرن كثيرا وصرن عرائس

يجاهدن كى يخلصوا من طباع المدارس

ويلبسن وجة النساء الأنيق الرزين

وما زال حبر الطفولة فوق الملابس

هؤلاء اللواتي اللواتي اللواتى

عرفن المساء وضوء القمر

ولون الفراش وطعم المطر

وعطر تفتح وزهر تنفس

وقصة حب تعرش فوق القلوب

وتسمع من أجلها الل.......

...... أغنيات

ف ت ي ا ت.. ال ر ب ي ع!!!!

هؤلاء اللواتي

تسابقن بين الشجر

جلسن يغنين وقت السمر

....

هؤلاء اللواتي يعشن بأعمارهن

ويملكن روح المرح

وليس لديهن ذاك الغلاف الحزين

وليس لديهن..........

ليس لديهن حين يحل المساء

ويستشعر المرء هذا الحنين إلى الذكريات

فليس لديهن هذا التراث المرير

....

هؤلاء اللواتي عرفن الربيع

هؤلاء البنات

السكر نبات

منة شتا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ *

قرأت القصيدة وشعرت بقشعريرة حقيقية.. هذا الجو المرهف الرقيق الذي يذكرك بعالم ورسوم سوزان عليوان.، وخاصة المقاطع التي تطرب لها النفس مثل «اللواتي.. اللواتى... اللواتي» أو التعبيرات البليغة التي تجمل صورة كاملة: لديهن خلان لهو...... وهرة.. وأوقاتهن امتلت بالمسرة. هذا هو الشعر كما أعرفه.، وكما يجب أن يكون. لهذا أرسلت أقول لها إنني لا أصدق أنها كاتبة هذا الشعر وأنني (مش راكن الفيل قدام البيت) إلخ.. فقط أنا فشلت في العثور على اسم الشاعر الأصلي الذي تسرق قصائده على شبكة الإنترنت. هنا أرسلت لى المزيد من قصائدها فلم يعد لدي شك. هي صاحبة هذا الشعر فعلا.، ولا أنكر أن فتيات الربيع أفضل قصائدها.، لكن كل شعرها ساحر غريب.. خذ هذه القصيدة مثلا:

أنا العنقاء

أنا العنقاء في حزنى

وما حزنى سوى مهدى

وما النار التي ألقي

سوى التمهيد كى أهدى

لهذا الكون در الدر

من شعري ومن شهدى

وما كل الذي ألقي

سوى طرق على الصلد

سوى دقات مطرقة

تزيد صلابة قدي

أنا العنقاء أحرقني

إلى صنيعة تسدى

أنا العنقاء فاحسدنى

وهل أملكت في الدنيا سوى حسدى؟!

أنا العنقاء لا شيء

بكل الأرض يكسرنى

ولدت ربيبة النخلات في وطني وفي بلدى

ويبقى شامخا رأسى

إلى الأبد

أنا العنقاء بنت النار

أنهض من ثرى جسدى

وأجرع حقد حسادى

الأولد من دجي الحقد

أنا العنقاء أحزاني تشكلني

أنا مصرية النزعات والأهواء والعشق

أنا العنقاء من مثلي سوى نفسي؟!

أنا منة..!

جميلة جدا.. لكن لم أفهم بصراحة مقطع «أنا العنقاء أحرقني.. إلى صنيعة تسدى.. أنا العنقاء فاحسدني وهل أملكت في الدنيا سوى حسدى؟!» انصحك يا منة ألا تتقيدي بالشعر العمودي.. أنت تكونين في أفضل حالاتك عندما تلتزمين بالتفعيلة لكن ليس طول السطر.. كذلك الألفاظ الخفيفة اليومية أجمل لديك من الألفاظ الجزلة القوية. أعتقد أنك عندما تكتبين الشعر الفخيم مثل شعر المدرسة لا تكونين نفسك.. البساطة الطفولية تناسبك أكثر

منة اكتشاف رائع.. لم أقرأ شعرا لقارئ يسبب لي القشعريرة وتطرب له نفسي هكذا.، منذ زمن سحيق. فيما مضى قدمت هنا شاعرة دمنهور الرائعة (هند خالد) صاحبة «وعلى من يدخل مملكتي أن يدخلها بقوانينى» لكنها توقفت للأسف.. اكتفت بدراسة الأدب بدلا من إنتاجه.، وهي حاليا مدرس للأدب الإنجليزي بالجامعة. ولكني أتمنى من منة ألا تتوقف أبدا لأنها خسارة فعلا

* ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقال لصديقى باسم سليم أوافق على ما فيه.، وقد تناول القضية من منظور جديد.. المشرحة تتكلم عن الأحداث المؤسفة التي تعيشها مصر:

نداء من المشرحة

بدأت منذ ثلاثة أيام أحداث جديدة على مصر.. أحداث لم تذكر في تاريخها كله..!

أنظر إلى هذه الأحداث.. وأنظر إلى ثورة 1919 حينما كان شعار الثورة «يحيا الهلال مع الصليب» ......

أنظر إلى أحداث اليوم وأنظر إلى أحداث ثورة 25 يناير التي قامت من أجل تحقيق «الحرية والتعبير عن الرأي»..

هل من قام بهاتين الثورتين مصريون من كوكب آخر.. أم هم المصريون الذين كان أجدادهم في 1919.. وكانوا هم من قاموا بثورة 25 يناير؟!

نعم.. هم ولكن ظهرت أفكار جديدة عليهم.. نسوا فكرة التعايش الذي دعا إليه الإسلام.. وفكرة الحب والمودة التي دعت إليها المسيحية.

وهذه الأفكار هي «الشماتة» و«العنصرية» و«التصفية العرقية» و«حب النفس على حساب نفس أخرى».

أنا لا أعلم ما أسباب الأحداث الحالية غير هذه الأفكار السوداوية التي أصبحت مثل الدوامة تلتهم مبادئنا وإنسانيتنا بالتدريج.. ولكن ما علاقة هذا الكلام باسم المقالة.. «نداء من المشرحة»..

إن المشرحة هي العامل المشترك الأساسي الذي لم يتغير في كل الأحداث التاريخية.. ولكن في كل الأحداث السابقة عدو مشترك يقف أمامه الجميع...

يذهب الجميع إلى المشرحة لاستلام ضحايا وشهداء هذا الحدث الذين ضحوا بأنفسهم من أجل قضية واحدة..

أما اليوم تذهب إلى المشرحة لتجد جدالا كبيرا (خناقة بالكلام) على بوابتها.. فهذا يقول أن ضحيتي هو من كان على حق.. وأنه كان ينادي بالشرعية والدين الإسلامي الحق.. ومن من قتله كفار في جهنم وبئس المصير!!

وهذا يقول أن ضحيتي هو جندى مصري كان يريد مصلحة الوطن وحمايته من الإرهابيين.. وإن من قتله في جهنم وبئس المصير!!

وهذا يقول أن ضحيته هو مسيحى وذنبه أنه مسيحى ويريد حقه في وطنه.. وأن من قتله في جهنم وبئس المصير!!

وهذا يشمت في هذا.. وهذا يشمت في هذا.. وهذا يشمت في هذا!

وينسون أن ضحاياهم ليس لهم قضية بل هم أشخاص يتبعون الأوامر من حيوانات بشرية مات ضميرها.. واستيقظ حبها لنشر الدم والفتنة!

ويتحول الجدال إلى مشاجرة (خناقة كبيرة).. ويصبح من كان يريد استلام جثة.. هو جثة يأتي آخر لكي يستلمها وتدور الدائرة مرة أخرى!!

أنا ومثلى قليلون (كارهو الدم) نريد أن نعلم أين هي القضية التي أشعلت الفتنة.. وجعلت مسلم يكفر مسلما.. وجعلت من مسلم آخر إرهابيا.. وجعلت المسيحي لا يعلم أين الحق في أرض المواطنة.. وجعلت المصري شخصية (شماتة) (عدوة للإنسانية) و(محبة للدمار والدم)..

وهنا تتحدث المشرحة بندائها..

نداء من المشرحة..

أفيقوا يا أهل الكنانة..

أنا لا أريد أحد داخلى مغيبا بدون قضية.. يتبع أهواء آخرين يريدون هم السلطة.. ولا يريدون المنفعة .....

أفيقوا يا أهل الكنانة..

إنها مصر المحروسة التي جعلت العالم كله يلقبها بأم الدنيا ومقبرة الغزاة.. فلا تجعلوا من أنفسكم غزاة.. ولا تجعلوا أنفسكم بنادق في أيادي أعدائكم.. الذين لا يريدون إلا ما أنتم عليه الآن!!

نداء من المشرحة..

أفيقوا

فأنا بيت الدم ولا أريد أحد داخلى بدون قضية يجعل من أمه (أم المقتول) ويجعل من ابنه (يتيم)!!

أفيقوا يا من نسيتم الإنسانية وجعلتم من أنفسكم ضباعا تأكل في لحم الميت.. وتتحدث وكأنها إله يعلم أين الحق.. وأين الباطل؟!

وإذا كنتم تريدون حق.. أنا لست بيت الحق.. أنا بيت الدم! ومن بداخلى بدون قضية.. فما هو

إلا مقتول لعنصريته... وعنصرية أناس آخرين

أفيقوا..!

باسم سليم

* ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك قصص رعب لباسم سليم أقدم لك واحدة منها بعد ضبط بعض القواعد واللغة:

التجربة الأولى....

الاسم: أحمد النجار

المكان: شاليه الإسكندرية.

صدقوني والله العظيم بقول الحقيقة!..

لم أعهد يوما أحمد (النجار) كذابا.، أو من النوع الذي يختلق القصص والروايات الزائفة حتى يلفت الانتباه إليه. فشخصية (النجار) معجونة بالثقة في النفس والقوة والصلابة.، تركيبة ألفناها من خلال معرفتنا به.، منذ سنين.، وأيام السهر في عز الصيف

ولكن هذه المرة ما قاله بعد غير مقبول.، ولا يمكن تصديقه وخارج عن نطاق الاستيعاب. ولكنه (النجار).. صاحب روح الفكاهة ولكنه لا يكذب

يقول أحمد (النجار):

ليلة البارحة وأثناء سهري في البيت وحدي بعد أن عدتم إلى بيوتكم جميعا.، جلست أشاهد التلفزيون.، ثم سرعان ما شعرت بالملل.، لاسيما وأنني لا أنام إلا مع بزوغ خيوط الفجر الأولى.، فكما تعلمون هذه هي حالي منذ أن أصبحت مصر بهذا الشكل فلا أقدر على الذهاب إلى عملي لأنه ببساطة لا يوجد عمل ومنذ حينها وأنا أعيش يومي بلا هدف بانتظار الرد من إدارة الشركة لكي أذهب مرة أخرى.

وبين التنقل بالريموت كنترول بين قنوات التلفزيون من محطات أغاني وأفلام إلى أخبار وبرامج تافهة.، تساءلت كيف سأضيع ليلتي هذه والليل لا يزال في أوله. كانت عقارب الساعة تشير للثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل حين قررت أن أسحب مفتاح السيارة وأرتدي ملابسي وأنطلق إلى الشاليه في الإسكندرية. لا تسألوني من أين جاء هذا القرار.، خاصة وأن جميعكم لستم متفرغين للذهاب معي فكل منكم لديه عمله أو جامعته في الصباح الباكر.

انطلقت بالسيارة على سرعة 100 كم في الساعة. وأنا أستمع لبعض الأغاني أو أتحدث بالتليفون مع خطيبتي

وبعد مشادة حادة بيني وبينها.، قفلت الخط وقررت ألا أرد عليها.، مع أنها ظلت تتصل حتى وصلت إلى الشاليه. اتصلت بهاتف البواب.، ولكنه مغلق.، ظللت أتصل.، ولكن ما من مجيب.، وهنا فقط تذكرت بأن البواب سافر قبل أسبوع إلى بلده

ترجلت من السيارة، وفتحت البوابة ودخلت بسيارتي إلى ساحة الشاليه الداخلية. كان الظلام دامسنا.، ولا شيء يعكر هدوء المكان سوى هدير الموج الذي كان مدا في تلك الليلة نزلت من السيارة ولم أقفل أبوابها.، فليس هناك من أحد يفكر بأن يسرقها أو حتى يمر بقربها. فهذا الوقت من السنة تكون العوائل مشغولة مع أبنائها في الدراسة لاختبارات نهاية العام.، وتكون منطقة الشاليهات تقريبا شبه مهجورة.

وضعت المفتاح في باب صالة الشاليه.، أدرته بهدوء ودخلت فتحت الإضاءة وشغلت الكهرباء.، ثم فتحت التلفزيون ووضعت هاتفي والمفاتيح على الطاولة الصغيرة وسط الصالة.

وعلى صوت الأغاني المنبعثة من إحدى محطات الأغاني على التلفزيون بدأت أتجول في الشاليه وأعد لى وجبة خفيفة في المطبخ. ثم خرجت لأطل على البحر.، فقد كان المنظر خلابا.، وبنظرة سريعة على الشاليهات المجاورة تيقنت بأنني الليلة وحدى بعيدا عن الهم وبعيدا عن كل الناس. عدت لصالة الشاليه.، وجلست أشاهد التلفزيون. رن تلفوني النقال.، ودون أن أنظر عرفت بأن المتصل خطيبتي.، وفعلا نظرت فوجدت اسمها على الشاشة.، لم أرد عليها.، وظلت تتصل حوالى أربع أو خمس مرات متتالية ولكنني لم أرد عليها فقد كنت متضايقا منها

مر الوقت.، تقريبا نصف ساعة أو أكثر.، وأنا أشاهد التلفزيون وآكل بعض الفاكهة. وفجأة سمعت رنة صفارة من تليفونى.. صفارة كالتي تسمعها عندما يصلك بلوتوث من أحد استغربت.. نظرت الشاشة تليفونى فصدمت! شخص ما يرسل لى بلوتوث في منتصف الليل في منطقة شبه مهجورة بعيدا عن الديرة. دققت في اسم المرسل فكان (أنا شايفك) !..

أنا شايفك !.. مين ده؟ وماذا يفعل هنا في هذا الوقت المتأخر اعتقدت في البداية بأنه أحد منكم.، ربما يكون مقلبا أو مزحة ثقيلة تعدونها لي.، ولكن كيف عرفتم بأنني ذاهب للشاليه؟ فلا أحد يعلم بأنني هنا سوى صديقتي!

قد يكون أحدا من الجيران؟ ولكنني متأكد بأن الشاليهات المجاورة خالية تماما من أي مخلوق.، إذا كيف وصل هذا البلوتوث؟..

استقبلت.. وانتظرت ثواني حتى أعرف ما محتوى الرسالة وصلت الرسالة.. فتحتها... وفجأة.. كانت الصدمة الكبرى كانت صورة لى التقطت قبل دقائق من وصول البلوتوث وأنا جالس في صالة الشاليه آكل فاكهة..!

صعقت.، ونهضت من مكاني.. شخص ما صورنى من وراء نافذة الشاليه وبعث لي بالصورة عن طريق البلوتوث

اتجهت نحو نافذة الصالة.، نظرت.. فلم أجد أحدا.. هنا شككت أن يكون أحد من إخوتي قد أتى للشاليه فوجدني فحب أن يعمل في مقلب. ولكنني استبعدت هذا الشيء تماما خاصة وأن اليوم هو الاثنين أي في منتصف الأسبوع والساعة قاربت على الثالثة صباحا والكل نيام في البيت استعدادا لأشغالهم في السابعة صباحا!...

إذا من يكون؟ صديقتي؟ لا مستحيل.، إنها بالكاد تخرج من البيت وإن خرجت فإن حظر التجول عليها يبدأ من الساعة العاشرة مساء.، ولديها بدل الأخ خمسة.، أي لا أمل لها في التسلل والخروج ليلا.، ثم إنها لا تعرف طريق شاليهنا فهي تسمع به ولكنها لم تزره مطلقا!

أسرعت نحو الباب وخرجت.، وبخطوات هادئة ثم سرعان ما صرت أدور حول الشاليه.، أبحث عن أي أثر أو صوت أو حتى طبعات لخطوات أرجل. ولكنني لم أجد شيئا.، كان الظلام دامستا.، ولا نور ينير المكان سوى ضوء القمر المكتمل في صدر السماء.، ونور صالة الشاليه الذي يتسلل من وراء ستائر النوافذ

احترت.، من المرسل؟ من الذي صورني وأرسل لى صورتى ثم اختفى فجأة.، إنه مقلب.. أكيد مقلب.. مستحيل هذا يحدث دون تدبير وتخطيط

فتحت تليفوني بسرعة، وعملت بحث سريع لأسماء أجهزة الهواتف الموجودة في البلوتوث.، وكان الرد.. لم يتم العثور على أجهزة بلوتوث.، حاول مرة أخرى!..

وقفت لبرهة أفكر محاولا فهم الموقف.، ترى هل هو مقلب؟ أم!..

فجأة.

وصلني بلوتوث آخر.. المرسل.. (أنا شايفك)

استقبلت دون تفكير.، ثوان ووصلت الرسالة.. فتحتها وكانت الصورة.. صورتى!

نعم صورتي وأنا أقف خارج الشاليه التقطت لي قبل لحظات وأنا أبحث عن المصدر المرسل للبلوتوث..!

التفت ورائي بسرعة.، أبحث وأبحث دون هوادة.. لا بد أنه كمين.، مقلب من أحدكم.، مستحيل ما يحدث لي مستحيل أن يتم تصويرى دون أن أشعر أو أن يرسل لى أحد بلوتوث دون أن أحس بوجوده في المكان.، يا جماعة قصة لا تدخل العقل

دخلت لداخل الشاليه وأنا أحاول أن أتصل بواحد فيكم.. ولكن لم يرد على أحد.. شيء طبيعي فالساعة قاربت على الرابعة فجرا..

جلست أفكر.، كتمت صوت التلفزيون.، ورحت أقرأ بعض الآيات القرآنية على أمل أن أهدئ من روعي قليلا وأجد تفسيرا منطقيا. هنا فكرت بالنزول للبحر فربما أجد بعض الشباب من الشاليهات القريبة يصطادون في هذا الوقت.، شباب لا عمل لهم مثلي ويريدون ملء وقت الفراغ.، وربما يريدون أن يتسلوا بي.

خرجت ومشيت على رمل الشاطئ ونور القمر دليلي في هذه الليلة المظلمة.، أطل وأبحث وأمعن السمع لعلي أمسك خيطا يوصلني لنتيجة تمحى أوهامي التي زرعت في رأسي بعد ما حدث معي.

وعلى بعد عشرين متر من الشاليه.، شهقت فزعا وأنا أسمع صوت التلفزيون داخل الشاليه وقد انطلق في فضاء الليل الهادئ وعلا ضجيجه في كل مكان.، كانت أغنية أجنبية، وكانت مزعجة جدا. ركضت إلى الشاليه مسرعا.، وكل ظني أن أحدا وصل إلى هناك. ركضت وركضت وأنا أقع وأنهض من ثقل التراب الذي تنغمس فيه رجلي على غير هدى وكأنني ضائع ووجد ضالته

دخلت الشاليه.. التلفزيون شغال.، الصوت عال بطريقة غير طبيعية.، وكل شيء في مكانه مثل ما هو. أغلقت التلفاز.، تلفت حولى أبحث عن أحد.، أبحث في الغرف.، في الحمام.، في ساحة الشاليه.. لا أحد.. لا أحد

وفجأة.. انفتحت أضواء السيارة الأمامية.. انفتح كشافها العالي.، أحسست بعيني يكاد يصيبهما العمى.، صرخت:

- مين؟.. مين؟

وبدل أن يجيبني أحد أخذت إضاءة السيارة تنطفئ ثم تنفتح مرة أخرى.، وتنفتح ثم تنطفئ مرة أخرى.. وأنا لا أستطيع

أن أميز شكل الشخص الذي كان داخلها. وبعد لحظات قليلة مرت كالدهر. ترجل من السيارة رجل طويل القامة.، يا جماعة طويل بطريقة مريبة. يرتدي جاكت أسود في عز الصيف وكان أسود اللون.، ولكن وجهه يميل للزرقة كالمخنوق وكانت عيناه ناعستين. أحسست بأن قدماى لا تحملانى وشعرت بكل وصلة في جسدى ترجف ودقات قلبي تكاد تنتزعه من مكانه وأكاد أراه يسقط أمامي على الأرض من شدة الرعب

تقدمت خطوة على أمل أن أشعر الرجل بشجاعتي وبأنني لست خائفا منه.، قلت وصوتي لا أكاد أسمعه من رهبتى:

- اؤمر يا صاحبي.. أقدر أساعدك في حاجه؟

نظر لى صامتا واجما.، ثم صد عني وسار نحو بوابة الشاليه ظل يسير ويسير حتى أقسم أنني رأيته يختفي في الظلمة

ودون تفكير مني دخلت الشاليه بسرعة أبحث عن تليفونى ومفاتيحي. سحبتهم من فوق الطاولة وخرجت بسرعة.، ركبت السيارة وانطلقت هاربا وأنا لا أكاد أصدق عيني. وفي الطريق فتحت الإذاعة على القرآن الكريم وأنا أهلوس بيني وبين نفسي هل ما رأته عيناى صحيح؟ هل كان جن؟ هل كان أنس؟ هل كان من أهل الأرض؟ ماذا كان هذا الرجل؟ ومن أين أتي؟ وماذا كان يريد؟

أمسكت تليفونى.، فكرت أتصل بالشرطة ولكن ماذا أقول لهم؟ فكرت أتصل بإخوتي.. أتصل على أحد منكم ولكن من سيجيب على في هذه الساعة؟

انطلقت عجلات سيارتي في الخط السريع على غير هدى.، وعلى أثير إذاعة القرآن الكريم. بينما أخذ الفجر يرسم خطوطه الأولى في السماء معلنا نهاية ليلة غريبة وبداية يوم جديد.

أخذ الأصدقاء يهزون رأسهم غير مصدقين ونحن نجتمع في القهوة بقرب بيت أحمد.، وبدأت التعليقات والنكات تنهال عليه وهو يطرق رأسه في الأرض وكأن لسان حاله يقول: علمت بأن لا أحد سيصدقني. الجميع ظن بأن أحمد يتوهم أو ربما هو يدعى ما سرده علينا من قصة لا تدخل العقل حتى لا نطالبه بالمزيد من الرحلات إلى شاليهم والنوم هناك كما اعتدنا كل صيف. ولكن شيء ما في داخلي كان يشك بأن قصة أحمد حقيقية.، وأن هناك شيئا مفقودا بالقصة لم يذكره أحمد يؤكد كلامه ولكن لسبب ما آثر على كتمانه

جلس الجميع في جلسة دائرية يلعبون الكوتشينة.، وأحمد من ضمنهم. لا أعرف ما الذي جعلني أسحب تليفون أحمد وأبحث فيه.. دخلت على ستوديو الصور.، وأول صورة ظهرت لي كانت لرجل أسود اللون يرتدي جاكت أسود.، وجهه يميل للزرقة كالمخنوق.، وعيناه ناعستان.،

الصورة التقطت في شاليه أحمد بتاريخ أمس!

صدقوني والله العظيم بقول الحقيقة!..

باسم سليم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ *

الفكرة جميلة وتداعب هاجس البارانويا الكامن فينا.. ماذا لو كان هناك من يلتقط لي الصور في هذه اللحظة بالذات؟.. راق لي كذلك جو الأصدقاء الذين يصغون لقصة أحدهم وهو تكوين شهير في قصص جى دى موباسان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ *

هناك قصتان من صديق اسمه (إبراهيم محمود سنهابى)، قابلته في ندوة ووعدته بأن أنشر القصتين في كتيب فانتازيا.،

لكن مشكلة الأعمال المكتوبة باليد هي أنها مرهقة لي في إعادة نسخها خاصة أن الخط غير واضح.، وتعاملي مع المؤسسة صار رقميا بالكامل فلا مكان لأوراق مكتوبة باليد يعيدون نسخها هناك. لهذا أنا لم أحنث بوعدي يا إبراهيم لكني أنتظر نسخة رقمية تصلني على البريد الإلكتروني. اتفقنا؟

أعتقد أنني سأتوقف هنا. ما زال هناك جبل من أعمال القراء.، لكن لابد من أن يتوقف المرء في نقطة ما. نلتقي في الكتيب القادم إن شاء الله.

د. أحمد خالد توفيق

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

15 - إنه الخوف

16- أنت فعلت!

17- يجب أن نعمل شيئا..

نادي المحاربين الجدد

فتيات الربيع
أنا العنقاء
نداء من المشرحة
التجربة الأولى....

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

فانتازيا

61

من قتل الإمبراطور؟

د. أحمد خالد توفيق




فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذى يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف فى المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (61)

من قتل الإمبراطور؟

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) مخلوقة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شىء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..

ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا فى رحلتها. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان.. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى.. هذه المرة تقرؤها على شاشة جهاز الإنترنت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- اتصال متأخر..

إضاءة خافتة وغرفة شبه مظلمة..

مروحة عتيقة لا تكف عن الصرير..

بعوضة تحاول أن تبحث عن فرصة سانحة بين عواصف المروحة..

كوب من الشاى الثقيل.. وشاشة الكمبيوتر تتألق فى الظلام.

سوف يذكر التاريخ أن هناك جيلًا قضى حياته ينظر لسطح براق. وعلى هذا السطح عاش حياة كاملة وقابل أصدقاء ورأى العالم. ربما كان هذا كله ملفقًا لكنه يبدو حقيقيًا وخطيرًا.

كانت عبير جالسة أمام شاشة الكمبيوتر تفكر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ فترة لم يظهر شريف.. هل شعر بالملل أم أن كرامته أُهينت؟.. لو كان هذا فيلمًا عربيًا لكانت على يقين من أنه سيظهر ويتزوجها فى النهاية، أما فى عالم الواقع فلا يوجد ضمان من أى نوع.. لا نهايات سعيدة ولا مأساوية.. لن يأتى ليتزوجها على حصان ولن ينتحر ولن تدهمه سيارة وهو قادم ليخطب ودها.. لن تموت قبل أن يصل.. فى الحقيقة لن يحدث أى شىء على الإطلاق..

لماذا؟ لأن الواقع ممل!

سوف يمر العمر من دونه.. تقضي أيامها مع ابنتها والمدرسة والعمل الشاق، ثم تموت أمها فى ليلة كئيبة فتبدأ أيام قاسية خافتة الإضاءة، ثم تعتاد الأمر.. ثم تتزوج ابنتها وتتشاجر مع زوجها لأنه لا يريد أمها معها، ثم تصاب بالسكرى وهبوط فى عضلة القلب وجلوكوما.. تتورم قدماها ثم تموت، وتأتى أم بلبل لتقوم بتغسيلها.. هذه هى حياتها.. أو كما يقول الفيلم الفرنسي الشهير (عاشت حياتها)..

وعندما ترقد هى فى القبر سوف يبكى أقرباؤها أول يوم.. يتبادلون ابتسامات متحفظة ثاني يوم.. يتشاجرون على المعاش ثالث يوم.. ينسون كل شىء عنها رابع يوم..

الإنسان وحيد.. هذه حقيقة لا شك فيها..

راقبت شاشة الهاتف المحمول التى تتوهج.. إنه صامت طبعًا..

عرفت على الفور من يتصل..

ضغطت بأناملها على شفتها السفلى وفكها.. لن ترد.. ليس الوقت مناسبًا للرد.. إن هذا الاختراع اللعين يقتحم خصوصيتك فعلًا. تشعر أن شريف يحلق فى الغرفة ويراقبها. أنه على بعد خطوات.. أنه يراها..

الوهج مستمر.. الوهج يقول لها: ردى يا عبير..

فى النهاية استجابت للضغط النفسي ورفعت الهاتف وألصقته بأذنها.

هذا شريف.. بالطبع تعرف أنه شريف لكن ماذا يريد؟

قال لها:

- «لا أستطيع النوم.. ماذا تعملين الآن؟»

- «أرد على مكالمتك!»

- «هل من شىء آخر؟»

- «أعاقر الخمور وأمارس كل أنواع العلاقات الآثمة.. نساء وغلمان وميسر..»

ضحك فى عصبية.. وقد أدرك أن مزاجها الليلة هو التسلية عليه. وعاد يكرر من جديد:

- «لا أستطيع النوم..»

- «هناك صيدلية قريبة.. ابتع بعض أقراص الفاليوم.. على الأرجح يكفى أن تكون الأقراص معك كى تنام.. لا يجب أن تبتلعها!!»

هل يريد أن تهدهده مثلًا؟ هل تحكى له قصص أطفال تساعده على النوم؟.. هؤلاء الرجال يصيرون أطفالًا بسهولة.. أطفال شديدي السخف مزعجين، يجدر أن يتخلص المرء منهم فورًا..

ساد صمت ثقيل ثم قال:

- «هل أنتِ جالسة أمام جهاز الأحلام؟»

- «جالسة أمام الكمبيوتر.. لكن لم أجرب حلمًا بعد»

- «ألا تخشين أن يتلف البرنامج أو الجهاز يومًا؟ بعدها لن تكون هناك أحلام. أنتِ لن تتعاطى نبات القنب أو عقار LSD أو DMT لتحلمي. إذن كم ستكون حياتك رتيبة قاسية!»

كانت تخشى هذا..

هذا هو كابوسها القديم، لكن هل تعود المرأة لزوجها السابق لمجرد أنه مبرمج جيد؟.. لا يوجد هراء كهذا. الكمبيوتر لم يكن من دعائم البيت قط.. ولا يضمن أن تعود السعادة لهذا الثنائي التعس غير المتكافئ..

كانت تعرف معنى ما يقول.. عودى لى كى تضمني صيانة الجهاز والبرنامج... أغرب عقد صيانة فى التاريخ..

كانت تحب شريف.. لا شك فى هذا، لكنها دفنت هذا الحب تحت أطنان من الهموم اليومية والمخاوف والقلق من تقلبه.. دفنته تحت شهور طويلة جدًّا مرت من غيره... الحياة من دونك يا صاحبي ممكنة.. تالله هى ممكنة..

قالت له فى فتور:

- «سأفكر فى ذلك.. والآن أرجو أن تجرب النوم.. كما قلت لك، فإن قرص فاليوم قد ينهى

المشكلة... وحاول أن تطفئ النور وتعدَّ غنمك..»

قال فى خيبة أمل:

- «تصبحين على خير إذن.. سأحاول أن أتخيل غنمًا فى الظلام.. لا أعرف كيف لكننى سأحاول..»

وانقطع الاتصال..

جلست تحملق فى شاشة الكمبيوتر التى بدأ واقي الشاشة يرسم عليها خطوطًا.. سوف تفكر فيه.. بالتأكيد سوف تفكر فيه وسوف تعذبها كل خلية عصبية فى مخها بذكرى أليمة ما.. سوف ترى ألف فيلم ذى نهاية قاسية أليمة. وستكون هى بطلة كل هذه الأفلام..

يبدو أنه لا مفر من استعمال مولد الأحلام هذه الليلة..

وهكذا أوصلت السلك، ووضعت الأقطاب على رأسها.. ثم حركت مؤشر الفأرة إلى حيث أيقونة البرنامج.. وضغطت عليها..

وبدأ دفق الشحنات الكهربي، وبدأ مخها يعبر إلى عوالم الحلم..

عبر الأزمان و عبر المسافات..

إنها تقترب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الجزيرة..

كانت هذه جزيرة، وكانت الريح تهب فتطير ثوبها وشعرها الذى أدركت أنه أشقر... هى أوروبية هنا على الأرجح...

الموج يرتطم بصخور الشط فى عناد محاولًا أن يملك الكلمة الأخيرة، لكنه يتعلم الدرس فى كل مرة.. لن تستطيع عمل شيء. والحقيقة هى أنه ينجح فعلًا فى تغيير معالم الشط الجيولوجية لكنه لا يدرك هذا.. يحتاج الأمر لعشرات السنين كى يبدو التغيير منظورًا، ويدرك البحر أنه ليس بهذه التفاهة..

تقف فوق صخرة عالية ترمق البحر المتلاطم..

أى بحر هذا؟ بحر الشمال؟.. بحر إيجة؟.. أم هو محيط؟

لو كان المرشد هنا لأعطاها إجابة واضحة. لكن أين هو إذن؟.. تكره تلك المغامرات التى تبدأ من دون مرشد ومن جولة قطار فانتازيا.. تحتاج لوقت طويل كى تعرف أين هى وما المطلوب منها..

هناك سفن فى البحر من بعيد..

سفن من الطراز العتيق الفكتورى إياه.. جو نلسون وسيركوف أمير البحار وشركة الهند الشرقية.. إلخ. السفن ذات الأشرع العديدة والمدافع على الجانبين. يمكن بالتقريب أن تحدد الزمن إذن...

ألقت نظرة إلى خلفها فرأت أن الجزيرة عبارة عن صخور جرداء.. جزيرة بركانية جدًّا، ويمكنها أن ترى بعض الماعز تحاول جاهدة أن تجد ما تأكله بين الصخور.. لقد اختارت المكان الخطأ والزمان الخطأ..

لو كانت تملك برنامج خرائط جوجل لأدركت أنها فى جنوب المحيط الأطلسي.. قريبة نوعًا من جنوب أفريقيا.

بدأت تهبط المنحدر الصخري وهى ترتجف رعبًا.. لو سقطت هنا فلسوف يدق عنقها. سوف تبحث عن بيوت أو ناس..

هل هذه القصة تدور فى جزيرة من آكلة لحوم البشر مثلًا؟.. تايبى؟.. وماذا عن جزيرة الكنز مثلًا؟.. ماذا عن مغامرات سيركوف؟

المؤكد أن هذه قصة غير عربية.. هذا لا شك فيه..

هنا فوجئت بذلك الشخص فارع القامة الذى يلبس بدلة سوداء ويقف مستندًا إلى جدار صخري، وهو يضغط على الزنبرك فى قلم من الحبر الجاف: تتك.. تك.. تتك.. تك..

المرشد اللعين ببروده وسماجته ومعلوماته الغزيرة وحضوره القوى.. الصورة الرمزية لمعلم اللغة العربية فى مراهقتها..

ألقت بنفسها على صدره غير مصدقة أنه هنا..

- « مرشدا!.. حسبت أنك لن تظهر أبدًا!»

قال دون أن يبذل أى جهد ليضمها له أو يبعدها عنه:

- «هذه قصة يصعب أن تعرفي سياقها تلقائيًا.. يجب أن تنالي بعض التلميحات..»

ثم نظر للأفق والهواء المبلل بالملح.. وطيور النورس تنقض من السماء لتلتهم شيئًا بين الصخور. وقال:

- «هذه جزيرة فى جنوب المحيط الأطلسي.. اسمها (سانت هيلانة).. هل يذكرك الاسم بشيء؟»

جزيرة القديسة هيلانة.. لكن ما أهميتها؟ قالت:

- «لا..»

- «هذا ما توقعته منك على كل حال يا ذاكرة السمك وعقل الذبابة.. هذه جزيرة منعزلة جدًّا.. ربما أكثر الجزر انعزالًا فى العالم.. أقرب مكان لها هو كيب تاون فى جنوب أفريقيا ويبعد نحو 2000 كيلومترًا..»

قالت فى دهشة:

- «وما شأن هذا بقصتي؟.. هل هى قصة روبنسون كروزو؟.. على أن أجد طريقة للأكل وإلا هلكت جوعًا؟ ربما هى أسطورة (حى بن يقظان)؟»

- «الأمر أسهل من هذا..»

كان يتكلم فرأت من خلف كتفه مشهدًا غريبًا..

هناك مجموعة من الجنود يلبسون ثياب القرن الثامن عشر والبنادق على أكتافهم.. والرجل الذى فى المقدمة يحمل علمًا مميزًا. علم بريطانيا أو (يونيون جاك).. بينما هناك عازف نقير يعزف لحنًا حماسيًّا هو.. «فلتسودى يا بريطانيا..». كانوا يمشون مشية عسكرية منظمة وقد امتلئوا بالفخر ومجد الإمبراطورية..

قالت عبير وقد بدا لها الأمر مألوفًا:

- «أحمد عرابي فى منفاه.. هذه هى القصة..»

ابتسم وهز رأسه كأنه يقول لها: لا بأس بتفكيرك.. وقال:

- «ليس هذا سيئًا.. بالفعل نحن فى منفى، لكنه ليس منفى عرابي.. هذه ليست إحداثيات سيشل لو لاحظت. نحن نتكلم عن نابليون بونابرت.. الإمبراطور العظيم..»

نعم. نعم.. يمكنها الفهم الآن.. لكن ألم يكن بونابارت منفيًّا فى جزيرة ألبا؟

سألت المرشد فقال وهو يحك رأسه:

- «ألبا منفاه الأول الذى هرب منه. أما سانت هيلانة فهى منفاه الأخير الذى ظل فيه حتى مات تحت حراسة البريطانيين، مع من فضلوا النفي معه من أتباع مخلصين.. هل تذكرين قصة

الكونت دي مونت كريستو؟ كل المصائب التى حلت بالبطل كان سببها اتهامه بأنه نزل فى جزيرة ألبا وقابل نابليون.. طبعًا أرسله هذا إلى الباستيل..»

لم تكن تذكر القصة تمامًا.. كان هناك انتقام، ومنه ولدت مئات الأفلام المماثلة.. أمير الانتقام.. أمير الدهاء.. دائرة الانتقام.. إلخ.. المهم أن هذه جزيرة بونابرت الأخيرة إذن..

نظرت لثيابها وشعرها الأشقر يتطاير حول رأسها.. لكل واحد منا انطباع خاص عن شكله قد يكون خاطئًا.. على الأرجح هو خاطئ وهذا ما تكشف عنه أول لقطة بالكاميرا، لكن انطباعها عن نفسها فى تلك اللحظة كان أنها غاية فى الرقة.. شفافة قابلة للكسر كالزجاج. هذا نوع الفتيات اللاتى يغنين مع الأرانب فى قصص ديزنى..

- «ومن أنا؟.. سنوهوايت؟»

قال المرشد بلهجته العملية غير الراغبة فى المزاح:

- «بل أنت ماريا فالفسكا.. البولندية الحسناء..»

ثم راح يدون شيئًا فى مفكرته.. وقال دون أن يرفع عينيه:

- «هناك خطأ تاريخى هنا.. لم تكن ماريا فالفسكا فى سانت هيلانة.. إنها قصة حب عذبة فى حياة بونابرت، وقد ظلت تحبه حتى اللحظة الأخيرة، لكنها لم تكن على سانت هيلانة كما قلت وإن حاولت ذلك.. نحن نرتكب هذا الخطأ التاريخى عمدًا لنضيف شيئًا من التوابل إلى القصة. أما من وقع بونابرت فى حبها فهى فتاة صغيرة السن اسمها اليزابث لوسيا.. آخر حب فى حياته وابنة صاحب الدار الذى استضافه..»

ركلت عبير قطعة حجر صغيرة فى ضيق وقالت:

- «هذا يثير غيظي دائمًا.. قصص الحب المقحمة. فى الأفلام الحربية لابد من حشر قصة حب حتى لو كان الموضوع ذكوريًا كله، وفى مصر تم حشر قصص حب فى كل فيلم إسلامي تقريبًا.. لا أدرى سبب هذه العادة. ربما نقبل هذا فى السينما لأن المشاهد يحتاج لتوابل، لكن لماذا تفعل هذا هنا؟»

- «لا تنسى أن الهدف تسليتك.. سوف تكون قيم التسلية أكثر بهذه الطريقة. تصوري قصة حب مع بونابرت شخصيًا..!»

لم يبد لها هذا مقنعًا، لكنها تقبلت كلامه لتريح دماغها من الصداع.. فلتبدأ إذن.. لسان حالها يقول فالفسكا فالفكسا.. ليكن...

قالت له:

- «ما هى نقطة البداية؟»

قال فى غموض:

- «ليس هنا ولا هذا الزمن..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال د. (فورشوفود) وهو يفتح نافذة صغيرة فى عيادته:

- «هذا سوف يزيل الرائحة..»

تسرب شعاع الشمس إلى الغرفة الكئيبة، فشعرت ببعض الانتعاش. وناولتها الممرضة كوب ماء فرشفت منه وتمضمضت.. ثم بصقت فى الحوض.. ومن جديد عاد المثقاب يهدر حتى ليوشك على تحطيم رأسها وأعصابها.. هذا المثقاب يعبث بالأعصاب ذاتها وليست الأسنان...

دززززززززززززززززز!

إنه ينخر فى ذات وجودها.. فى توازنها العقلى...

وشمت رائحة مسحوق الأسنان الساخن، كما أن مشكلتها مع أطباء الأسنان عامة هى أين توجه عينيها.. يستحيل أن تنظر لوجه شخص على بعد عشرة سنتيمترات من وجهك وإلا أصابك الحول..

دززززززززززززززززز!

قال د. (فورشوفود) وهو يتكلم بالثقة الخنفاء التى يجيد الأطباء اصطناعها:

- «سوف يحتاج هذا الضرس إلى عدة جلسات..»

كانت تدرك جيدًا أنه يتكلم السويدية.. فجأة صارت تجيد السويدية، وفجأة صارت فى القرن العشرين.. لكن ما دخل هذا بمغامرة اليوم؟.. صحيح أن زيارة طبيب الأسنان مغامرة مفزعة، لكنها غير كافية. ثم ما علاقتها بسانت هيلانة وبونابرت؟..

عندما نهضت أخيرًا كانت تترنح وتشعر بما يشعر به من انفجرت قنبلة ذرية فى فمه، لو كان هناك شخص كهذا.. الضرس ساخن من احتكاك المثقاب مع رائحة قرنفل مؤذية..

كانت تدرك جيدًا أنها لم تأت لهذا الغرض..

الآن تفهم ما جاءت من أجله..

وعندما جلست على مقعد آخر غير مقعد الإعدام هذا، قال لها (فورشوفود) وهو ينزلق بمقعده الصغير ذى العجلات نحوها:

- «الاسم بيتى مولدر.. أليس كذلك؟.. أمريكية لكنك تجيدين السويدية..»

كان فمها محشوًا بالقطن فاستطاعت بكثير من العسر أن تقول:

- «ممه.. فوه.. مممف.. عاووف..»

ثم بصقت القطن وقالت دون أن تعرف هذه الحقائق:

- «أمى سويدية أصلًا..»

إنها تدهش نفسها بما تعرفه..

عيادة فى ستوكهولم.. طبيب أسنان.. ولكن.. بيتى مولدر!.. إنها صحفية إذن.. هذا هو الاسم

الذى كانت تحمله عندما زارت راسبوتين فى آلة الزمن..

لقد كانت صحفية مرارًا فى فانتازيا.. وكانت فى مرات كاتبة..

إذن هى جاءت هنا كى تحقق فى شىء ما.. الحيلة الشهيرة أن تجرى كشفًا عند الطبيب إذا أردت سؤاله عن شىء. وكما يحدث فى الأفلام يجد لديك كارثة!!! هذه المرة حول فمها إلى منجم ماس فى جنوب أفريقيا لم يعد فيه شىء..

نظر لها فى فهم وقال:

- «أعتقد أنك جئت من أجل السؤال عن أبحاثى..»

هذه المرة لم تستطع أن تنفى.. ابتلعت ريقها الدامى وهزت رأسها..

قال باسمًا:

- «خمنت هذا عندما وجدت أن أسنانك سليمة!.. لقد كانت حجة ملفقة!»

حجة ملفقة أيها الـ....!!!

كل هذا الحفر وكل هذا الدم والحجة ملفقة.. إذن ماذا لو كانت أسنانها تالفة أصلًا؟ ...

- «على كل حال من المفيد أن يذهب المرء لطبيب الأسنان من وقت لآخر.. لكن دعينا من هذا.. ولنتكلم عن أبحاثى. أنا متأكد من أن بونابرت قتل.. لكن من فعل هذا؟ ؟؟..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- سهرة مع الإمبراطور..

حياة مملة هى..

بالنسبة لرجل قضى حياته على صهوة الفرس يلوح بسيفه، ويقود الجيوش وسط دخان المدافع ورائحة البارود، بينما الطلقات تصفر من حوله.. رجل كهذا لا يمكن أن يتحمل تلك الحياة الوادعة فى سانت هيلانة..

جاء بونابرت أسيرًا إلى الجزيرة عام 1815 بعد هزيمته فى ووترلو... لقد وجدت إنجلترا أن هذا الأسد الجريح خطر جدًّا. لا أحد يجسر على قتله طبعًا.. لا يمكنك أن تقتل قائدًا بهذا الحجم، لذا قررت أن تبقيه فى قفص بعيد بقية حياته..

وهكذا اختارت له الجزيرة القاحلة... ومعه حاشية من الفرنسيين والمتحمسين له الذين فضلوا أن يعيشوا معه إلى آخر يوم، وهم مجموعة من القوم المتعصبين الذين يقدسون نابليون إلى درجة تقديم القرابين له. لا تنس أن لفظة (شوفينية Chauvinism) مشتقة من اسم جندى فرنسى متحمس لوطنه لدرجة الجنون من ذلك العصر.. طبعًا أنت تعرف معنى شوفينية لو كنت من قراء هذه السلاسل..

هكذا يهتفون فى كل لحظة:

- «فيف لا فرانس.. تحيا فرنسا!»

حياتهم كلها أزرق وأبيض وأحمر.. ألوان العلم المثلث..

لكنهم كانوا مضطرين لتحمل هذه الحياة القاسية فى جزيرة الماعز هذه، خاصة والبريطانيون فى كل مكان.. يمكنك أن ترى كل أنواع المسيرات العسكرية البريطانية، وتسمع أنشودة (الجرينادير) وصوت الطبل..

كانوا يطلقون عبارات السباب من تحت شفاه مغلقة كمدًا، ويبتلعون غيظهم. الفائز يأخذ كل شىء. هذه هى القاعدة وعليهم أن يقبلوها..

البيت الذى اختاره البريطانيون لبونابرت يقع داخل الجزيرة محاطًا بنطاق من الصخور. الفكرة هنا هى إبعاده عن البحر حتى لا تحدث محاولة هرب أخرى. اسم البيت (لونكوود).. وهو ليس قصرًا بالتأكيد.. جدرانه نخرة زحفت عليها الرطوبة، كما أنه كان باردًا.. وقد قيل وقتها إنها طريقة قتل بطيئة ضد هذا الخصم العنيد.

فى البحر هناك بارجة تدور حول الجزيرة من وقت لآخر، وهناك قوارب تقوم بدوريات منتظمة..

البيت نفسه أنيق.. هناك حديقة صغيرة بها أزهار من أنواع اسمح لى بألا أسميها لأن الأزهار عندي تختلف فى اللون فقط..

فى البيت هناك مطبخ وعدة غرف للحاشية ومكتبة عامرة بالكتب وهناك معزف.. هناك كذلك

مجموعة التذكارات التى سمحوا لبونابرت بأن يصحبها معه إلى هذا المكان القصى..

أما عن مجموعة مرافقي الإمبراطور المتحمسين هؤلاء؛ فبوسعنا أن نذكر الضابطين الوسيمين القويين (برتران) و(مونتولون)..

برتران له شارب كث جدير برجل عسكري، أما مونتولون فله ملامح أدونيسية وسيمة.. وقد جاء هنا مع زوجته.. زوجته امرأة فرنسية بارعة الجمال..

سوف نعرف الباقين حالًا....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند المساء دخل الفرنسيون إلى غرفة الجلوس حيث كان الإمبراطور قد انتهى من العشاء. كانت هذه الغرفة ذات أرائك مريحة وتنيرها شمعدانات ثمينة، بينما راحت الستائر تهتز مع الريح التى تتسرب من الخارج.. ريح ساخنة تزيد الحر ولا تخففه.

للمرة الأولى ترى عبير بونابرت هنا..

لو كنت تذكر فهى قد رأته بشكل عابر عندما كانت مع هانيبال.. كان بونابرت يدرس كل تكتيكات هانيبال الحربية العبقرية، وهو يردد:

- «غاااائع!»

اليوم تقابله من جديد.. لكنها تراه مهزومًا فى نهاية رحلته.

كان بونابرت فى هذه الفترة أقرب للصورة التى تراها فى الكتب الدراسية. أميل للبدانة والصلع.. وله لغد صغير يدل على سنوات عمره الخمسين.. فى عينيه نظرة مهزومة لا شك فيها، لكنه تعلم أن يتجنب أن تلتقى عيناه بأحد.. كما اعتاد أن يشمخ برأسه ليبدو أقوى، وهناك لمسة من الخمول العام فى تصرفاته.. برغم هذا فالحقيقة أن حضوره كان قويًّا أخاذًا.. حتى لو لم تعرف أنه الإمبراطور، فلسوف تصمت عندما يتكلم وتشعر بشىء من الرهبة فى حضوره... الأومفOmf التى يعرفها مخرجو هوليوود ولا يعرفون كيف يصفونها..

وقف الجميع بانتظار أن يجلس الإمبراطور..

وعندما جلس أشار لهم فى كبرياء بما معناه (استريحوا).. ثم نظر إلى رجل بدين يضع مريولة حول خصره ويضع قلنسوة الطهاة على رأسه. خمنت عبير بذكاء أن هذا طاه. قال الإمبراطور:

- «كان الطعام شهيًّا أيها المواطن بيارون.. صحيح أنك أكثرت من الفلفل لكنه لذيذ..»

قال بيارون فى كبرياء وهو يشمخ برأسه:

- «الفلفل ضروري لينشط الأمعاء فى هذا الطقس الحار يا سيدى الإمبراطور.. لكننا سنراعى ذلك فى الوجبة القادمة..»

هذا إذن من الطهاة الفرنسيين شديدي الكبرياء الذين يشعرون بأنهم شعراء. حذار أن تنتقد طهى أحدهم وإلا طلب أن يبارزك بالسيف.

ثم إن الإمبراطور التفت إلى رجل له ياقة عالية وشديد الغرور بدوره وقال:

- «المواطن مارشان.. أرجو أن تجلب لنا بعض النبيذ. خذ المفتاح من الضابط مونتولون..»

قال المدعو مارشان بنفس الغرور:

- «البريطانيون الملاعين لم يجلبوا لنا المزيد يا سيدى الإمبراطور..»

فيما بعد سوف تكتشف عبير أن مارشان المغرور هذا ليس سوى رئيس الخدم!

التفت بونابرت إلى ضابط يقف وقد نزع قبعته وأبقاها تحت إبطه.. رجل فى الأربعين من عمره، لكن شعر رأسه شاب تمامًا..

قال بونابرت للضابط:

- «أيها الضابط جورجو.. اتصل بضابط المراسلة البريطاني وقل له إن النبيذ غير كاف. حرمان الإمبراطور من النبيذ طريقة وضيعة جدًّا بالنسبة لبريطانيا، حتى لو كانت هى (إنجلترا المخادعة Perfidious Albion).. إنهم أشرار لكنهم لم يهبطوا لهذا الدرك..»

عبارة (إنجلترا المخادعة Perfidious Albion) سوف تسمعها عبير مئة مرة فى اليوم.. توشك هذه أن تكون شعار الفرنسيين.

ثم إن بونابرت قال بنغمة رقيقة:

- «الآن سوف نسمع بعض العزف على البيانو..»

هنا أدركت عبير أن الكل ينظر لها.. ياللكارثة.. فى حياتها لم تستطع قط سوى عزف (والله يا زمان يا سلاحى) وبإصبع واحدة، لكنها هنا ماريا فالفسكا.. لابد أن البولندية الحسناء كانت تعزف البيانو كالشيطان...

حبست أنفاسها واتجهت إلى البيانو حيث وضع شمعدان ونوتة موسيقية، وانحنى الضابط برتران ليلثم يدها ثم يعينها على الجلوس..

أخذت شهيقًا ولامست المفاتيح الرهيبة ليدوى النغم الذى يجعل قلبك يرتجف فى الضلوع..

بدأ اللحن يدوى.. لحن قادم من نياط قلب يتمزق.. وفى دنيا الخيال راحت جوقة ملائكية تنشد الشعر، وتسلل اللحن ليسد ثقوب الكون ويصلح ثلمات الحياة ويداوى جراح المعذبين. كان اللحن يحمل أجراس كنائس الوطن وشقشقة الطيور فى المارن.. وبرغم هذا كان يحمل رائحة سهول بولندا..

لقد كانت ماريا عبقرية فى العزف!... وشعرت عبير بامتنان لأن فانتازيا لم تخذلها..

الكل يصغى كأنهم مسحورون... على رءوسهم الطير، وثمة امرأة تقف جوار مونتولون سالت دمعة على خدها الأسيل فمسحتها بكم ثوبها الدانتيل.. فيما بعد سنعرف أن هذه هى زوجته..

اللحن يسرى كما الجدول الصافي..

يقف بونابرت وعلى وجهه تلك النظرة التى تراها فى كتب التاريخ.. يميل رأسه قليلًا. يدس يده فى سترته بين الأزرار كما هى العادة...

ثم...

آى ى ى ى!

يصرخ ويسقط على ركبتيه..

وأمامه على الأرض رأت عبير بركة صغيرة من القيء الدموي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الإمبراطور المريض..

كانت هناك صورة عملاقة معلقة لبونابرت وهو يدس يده بين أزرار سترته، وقد سلط عليها كشافان جعلاها شبه مجسمة..

كان هذا مكتب د. (فورشوفود) الداخلي، الذى ازدان بالكتب الغليظة وبالصور على الجدران. وكان هناك مجهر وموقد بنزن على منضدة.. خليط غريب من مكتب ومختبر..

قال د. (فورشوفود) لعبير وهو يشعل غليونًا ويتأمل الصورة:

- «فى أى سن مات بونابرت؟»

بالطبع لا تعرف.. دعك من أن فمها يؤلمها بعد كل المذابح التى دارت فيه. فقال لها:

- «سن 51 سنة.. ألا يبدو هذا صغيرًا أكثر من اللازم؟»

بصقت لتستطيع الكلام.. ثم قالت بلعاب ملىء بالدم:

- «عبد الناصر توفى فى سن 52 سنة..»

- «وأثار الكثير من الشكوك حول وفاته، وقيل أن الموساد قتله بالسم، وهذا برغم أنه كان مصابًا بالسكرى البرونزي وذبحة صدرية صامتة. مع رجل نشط لا يعانى مرضًا مزمنًا مثل بونابرت يجب أن نجد لوفاته سببًا واضحًا..»

ثم تناول ورقة مكتوبة بالفرنسية.. نسخة مصورة من ورقة أصلية عتيقة كما هو واضح، وقال:

- «هذه الجملة بخط الإمبراطور.. يقول فيها بشكل واضح: إننى أموت قبل أواني لأن (إنجلترا المخادعة Perfidious Albion) قد اغتالتني..»

ونفث سحابة دخان كثيفة كادت تخنقها.

قالت وهى تشهق طلبًا للهواء:

- «لحظة.. هل بونابرت خبير فى الطب الشرعي؟ إن كراهيته لإنجلترا أسطورية فلو أصيب بإسهال لاتهم إنجلترا..»

- «هذا هو بيت القصيد.. عندما تكونين ألد أعداء بريطانيا وعندما تكون بريطانيا مسئولة عن إطعامك فعليك ألا تعتبرى الإسهال مجرد شىء عارض!!!»

مشى جوار الجدار يتأمل الصور المعلقة، ثم توقف أمام لوحة لبونابرت.. لوحة من اللوحات التى تراها فى كتب التاريخ فلا تميز شيئًا لأنها أبيض وأسود وطباعتها رديئة جدًّا.. لكنها هنا واضحة.. الرجل بدين فعلًا..

قال فورشوفود بلغته السويدية المستعصية على الفهم:

- «هذه من الصور الأخيرة التى رسمت لبونابرت فى سانت هيلانة.. تلاحظين بدانته وتورم

جسمه.. قالوا إنه كان يقئ باستمرار.. وقالوا إنه صار كسولًا خمولًا... هل تعرفين معنى هذه الأعراض؟»

- «معناها أنه صار خمولًا وبالتالي بدينًا!»

نفث المزيد من الدخان وقال:

- «معناها أنه مسموم.. وهذا السم هو الزرنيخ بلا شك..»

كان قد نشر ملخص هذه الدراسة فى مجلة (الطبيعة) عام 1961.. هى قرأتها وتعرف ما يفكر فيه، لكنها تريد سماع كلماته الخاصة...

- «كان على أن أثبت نظريتي.. لكن كيف؟.. هل أطلب من الحكومة الفرنسية أن تشرح بونابرت المدفون حاليًا فى (الأنفاليد)؟.. كانوا سيقومون بتشريحي أنا لو طلبت ذلك..»

- «وماذا فعلت؟»

التمعت عيناه وراء نظارته. وقال بشفة سفلى راجفة:

- «الشعر... ماذا عن تحليل الشعر؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارقد أيها الإمبراطور الجريح فى فراشك وانظر للعالم بعينين زائغتين وجبهة يغمرها العرق.. جفف الدم السائل من ركن فمك وانظر للمحيطين بك..

يجلس د. أنتو مارشيه طبيب بونابرت جواره ويضع أنامله على النبض، ثم يمرر أنامله على بطنه..

يدق بعض الدق على المعدة بطريقة د. أونبروجر الشهيرة، ويفتح الجفنين.. ثم يقول:

- «أعتقد أنها قرحة معدية أيها الإمبراطور..»

ثم يوصى له بطعام خفيف من السوائل وجرعات من دواء قام بتركيبه بنفسه، ثم يوصى كذلك باللبن. الكثير منه.. فى هذا العصر لم يكن هناك هامش حركة أمام الطبيب تقريبًا..

ثم صفق بيده يدعو الواقفين للتفرق قائلًا ما معناه بالفرنسية:

- «يالله يا حضرات.. مفيش حاجة تتشاف..»

هكذا غادر ال 35 واحدًا الغرفة.. ترى من كان منهم صادقًا فى لهفته وحزنه ومن كان يتظاهر بالحزن.. مشهد مماثل حدث بعد قرون مع وفاة الزعيم ياسر عرفات بالبولونيوم المشع.. لا شك أن أحد ممن كانوا يبكون عليه هو الذى دس له السم..

- «انتظرى يا ماريا!»

كان هذا صوت الإمبراطور الواهن.. فتوقفت عبير.. وأدركت أنها تبكى بحرارة..

تراجعت لتجثو على ركبتيها جوار الفراش ومدت يدها لتضعه فى كفه (الملظلظة) المبللة

بالعرق..

قال لها بنفس الصوت:

- «أنا بخير.. ليس كل من تناول عصيدة حارة فى العشاء جديرًا بأن تذرفي الدمع من أجله..»

لم تكن عبير تعرف الكثير عن ماريا فالفسكا..

مثلًا لم تعرف أنها بولندية حسناء رحبت ببونابرت بشدة عندما دخل بلدها، لأنها اعتبرته المحرر الذى سينقذ وطنها من الروس والألمان.. كانت من الفتيات اللاتى يلقين الورود عليه حيثما ذهب. وبلغ إعجابها به درجة بالغة حتى أنها تخلت عن زوجها من أجله.. نعم.. لقد كانت متزوجة!

علاقة طويلة بين الاثنين خلدتها الكتب وخلدها فيلم جميل اسمه (الغزو) من بطولة جريتا جاربو. لكنها فى الواقع علاقة بين زوجة خائنة وطاغية.. بالطبع يستطيع الفن أن يحول كل شىء إلى عمل راق. كتب أحمد رجب ساخرًا عن ليلى العامرية فى مسرحية شوقي التى جعلها الشاعر تهيم حبًّا بقيس وهى متزوجة من رجل آخر، وهذا الآخر يغادر الخيمة تاركًا زوجته لقيس، قائلًا: أنت حبيب القلب والزوج أنا!!... لكن فن شوقي وعبد الوهاب يحيلان هذا المشهد المخزي إلى شىء نبيل جدًّا!

قال بونابرت وهو ينظر للستائر التى تحيط بالمخدع والتى تحملها تماثيل برونزية لنساء عاريات:

- «لقد ظفر بى البريطانيون.. لن أغادر هذه الجزيرة حيًّا..»

قالت له وهى تلثم يده:

- «سوف تغادرها أيها الإمبراطور وتسيطر على أوروبا كما حدث من قبل..»

- «أنت تعرفين أن هذا مستحيل.. لقد تعلمت طيلة حياتي أن اليأس عاطفة مستحيلة، لكن البريطانيين نجحوا فى أن يجعلوا المستحيل ممكنًا!..»

ثم راح يلهث وهو ينظر للسقف.. وظهرت قدمه العارية من تحت الغطاء، فلاحظت عبير أنها منتفخة جدًّا.. ليست ذات خبرة طبية لكنها تدرك أن معنى هذا مشكلة فى الكليتين أو القلب. لماذا لم يعلق طبيبه على ذلك إذن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى الصباح جاء ضابط بريطاني ومعه طبيب...

الغطرسة تمشى على قدمين.. وبرغم هذا هناك لمسة من القلق لا شك فيها. كل الأخبار تنتقل هنا بسرعة، وقد سمع البريطانيون أن الإمبراطور مريض. هم بالطبع لا يثقون فى الطب الفرنسي لذا أرسلوا واحدًا منهم ليفحص الإمبراطور..

تقدم الضابط مفرود القوام وسيفه يتدلى جواره، فوقف على باب الإمبراطور.. ثم أنه خلع سيفه وأعطاه للضابط جورجو على سبيل البروتوكول، ثم تقدم ومعه الطبيب إلى المخدع. نزع قبعته وهز رأسه محييًا (عبير) ثم قال بفرنسية رديئة جدًّا:

- «نرجو أن تكون صحة الحاكم الفرنسي مستقرة.. إننا لنرجو أن يسمح لنا بفحصه..»

قال بونابرت ضاغطًا على أعصابه ليبدو لطيفًا:

- «شكرًا سيدى. لكننى أثق برأى طبيبي د أنتو مارشى، وقد فحصني ووصف لى العلاج. إن كرم بريطانيا الزائد يغمرني..»

بلهجة رسمية:

- «سوف يسرنا أن تطلب منا أى طلب.. ويسرنا أكثر أن نسعى لتحقيقه..»

ثم هز رأسه من جديد.. وابتعد الرجلان يمشيان بخطوة شبه عسكرية.

قالت عبير لبونابرت وهى ما زالت جاثية على ركبتها جواره:

- «منافقون!... لا يبالون بصحتك البتة!»

ابتسم ومد يده يحاول الوصول لكأس الماء، فتناولت الدورق وصبت له بعضه.. شرب جرعة كبيرة وغمغم:

- «بالعكس.. ليس من مصلحتهم أن يحدث لى شيء وأنا فى قبضتهم.. سوف يتهمهم العالم كله بقتلى..»

تعرف عبير هذا.. إدارة السجن فى أى بلد متحضر تقلق على صحة المساجين كأم رؤوم.. أى شيء يحدث لهم يتهمها مباشرة ويفضحها..

إنجلترا المخادعة!!

- «عندما أموت.. تأكدي من أنهم سيشرحون جثتى.. يجب أن تعرف فرنسا سبب وفاة مخلصها..»

قالها بونابرت ثم أردف:

- «من يهمهم أن أموت هنا هم البوربون.. هؤلاء يهمهم ألا أعود من جديد.. أن أمحى من على ظهر الأرض..»

كان البوربون يمثلون الملكية التى قامت ضدها الثورة، وقد فروا من فرنسا بعد الثورة ثم عادوا لها من جديد ليمارسوا كامل سلطتهم. إنهم أقرب شيء للفلول فى ثقافتنا المصرية. الآن استرد الفلول سلطتهم وصارت فرنسا لهم يجب ألا يعود بونابرت بأى ثمن..

لكن هل يصل الأمر إلى القتل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الإمبراطور المريض (مرة أخرى)..

الإمبراطور يتحسن.. لا شك فى هذا...

غادر الفراش وراح يجوب الجزيرة مع مرافقيه، ومعه كلبه الوفي. وذهب إلى الشط غير ذات مرة وراح يقذف الحجارة فى الماء محاولًا جعلها تتواثب ثلاث مرات.

رأت عبير اللمعة من جديد فى عينيه مع الكثير من المرح والأمل. كان يعيش قصة حب ملتهبة معها برغم فارق السن المخيف، لكنه كان يتمسك بالحياة فى آخرها.. لقد قضى العمر كله وسط الجيوش ونيران المدافع ورائحة أحذية الجنود، فلم يذق الحب بمعناه الحقيقى سوى مع هذه البولندية الحسناء..

اعتادت أن تخرج معه وقت العصر ليمشيا على الشط، وهو يراقب المناورات البريطانية من بعيد.. راح يحكى لها عن بدايته كجندي عادى فى القوات الفرنسية فى إيطاليا، ثم عن صعوده السريع. حكى لها عن حملته إلى مصر بلاد الأهرام وكيف تخيل نفسه يحمل على رأسه عمامة عملاقة ويدخل الهند على ظهر فيل. كانت تذكر خطوات زحفه إلى عكا من كتاب التاريخ: بلبيس الصالحية العريش غزة يافا حيفا عكا..

حكى لها عن محاولة غزو روسيا تلك المحاولة التى قضت على جيشه فى الثلج الروسي الرهيب...

حكى لها عن ولنجتون اللعين خصمه الدائم وعن معركة ووترلو ونفيه..

الحق أن هذا الرجل قد عاش حياة ممتازة حافلة....

ذات يوم كانت تمشى معه على الشط، فرأت الضابط جورجو يتكلم مع كبير الخدم مارشان.. كان يتكلم بحدة وعصبية..

كانت قد لاحظت منذ البداية أن جورجو عصبى ميال للشجار وقصير الفتيل، كما أنه من الطراز الذى يبلل وجه من يحادثه باللعاب.

لم يشعر الرجلان بقدومها.. فلما رأياها توقفا...

كانا يعرفان أن نفوذها قوى جدًّا، وأن الإمبراطور يطيعها طاعة عمياء ويثق بصدقها. هكذا توقفا عن الشجار، وبعد دقيقة شمت رائحة العطر الذى يضعه بونابرت.. إنه هنا..

وقف خلفها وقال للرجلين بلهجة من فهم ما حدث:

- «ليعد كلٌّ لعمله، وأنت أيها المواطن مارشان.. تأكد من أن خزانة الخمور كاملة..»

ابتعد الرجلان فى صمت فقال بونابرت لها:

- «جورجو غير متزوج.. لا توجد امرأة تتحمل عصبيته.. لهذا هو نافد الصبر عصبى.. أى أن عصبيته تنفر النساء فيزداد عصبية. وهو يكره هذه الجزيرة بجنون لأنه لا يجد ما يفعله.. كان محاربًا ممتازًا فيما سبق أما اليوم فهو أقرب إلى سكرتير..»

هزت عبير رأسها فى فهم..

قدم لها بونابرت باقة من الورد، ثم قال لها:

- «الليلة تأتين لمخدعى..»

- «لماذا؟..»

اندهش لسؤال كهذا، فقال بارتباك:

- «كى.. كى... الأنثى التى تزور رجلًا فى مخدعه لا تسأل أسئلة..»

لا. هذا لن يكون.. استجمعت شجاعتها وقالت مصرة:

- «هذا لن يكون!!»

- «أنت لا تفهمين..»

ومد يده إلى الساعة المتدلية من حزامه.. لوح بها ولفها حول أصابعه ثم هوى بها على الصخور وهشمها بحذائه فى ثانية. ثم نظر لها بعينين من نار وقال:

- «لا توجد امرأة ترفض طلب الإمبراطور... يمكنني أن أدمر وطنك بولندا كما دمرت هذه الساعة!»

كان قد ألقى هذا التهديد منذ زمن لكنه الآن بدا لها سخيفًا.. لا يمكنه قتل عصفور فى بولندا لكنها لا تجرؤ على قول هذا، دعك من أنها تحبه فعلًا...

- «مولاى.. من الصعب أن يفوز المرء بامرأة مخلصة بهذه الطريقة..»

- «إن جربت الطريقة الأخرى التى،...»

ثم توقف وتحسس معدته.. يبدو أن الألم قد بدأ من جديد. تجمع العرق على جبينه وبدا موشكًا على فقد الوعى، ثم إنه انحنى وأفرغ معدته..

أما هى فكانت تتواثب كالماعز فوق الصخور متجهة نحو البيت.. د/ أنتو مارشى لابد أنه هناك، ولابد أنه قادر على عمل أشياء كثيرة. فى طفولتها كانت زيارة الطبيب تكفى لشفائها قبل أن يفعل الطبيب أى شىء أو يلمسها.. هناك شىء كهنوتي يحيط بهذه المهنة كأنها تتلقى البركة مثلًا.

أنتو مارشى.. تعال من فضلك!

وسرعان ما وجدت الضابطين برتران ومنتولون.. كانا واقفين يتكلمان عند مدخل البيت، مع زوجة الأخير، وهى امرأة جميلة فعلًا لكنها سمجة الظل كالغربان.. لا يخفى على فطنة القارئ قوى الملاحظة أن يدرك أن المرأة تحمل بعض الحقد على عبير لأنها - المرأة - معجبة ببونابرت.. بل يقال إنها على علاقة به كذلك... لكن ليس هذا وقت الأقاويل. كما كانت جارة عبير الشمطاء أم بلبل تفعل.. تلوك سمعة وشرف الناس لعدة ساعات ثم تمصمص بشفتيها وتقول: «مالناش دعوة..»

كانت عبير تبكى فى هستيريا وهى تردد كلمات غير مفهومة..

برتران لم يفهم حرفًا لكنه قال كلمة واحدة:

- «الإمبراطور!»

الإمبراطور يموت أو جريح أو رجله مكسورة أو مصاب بإسهال أو تم اغتياله.. المهم أن هناك كارثة، وسرعان ما ركض الرجلان إلى الشاطئ الصخري حيث كان بونابرت يتلوى ألمًا على الأرض وقد اختلط قيئه بالمياه المالحة الثائرة..

وتعاونا مع الخدم على حمله إلى البيت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى تكساس بأمريكا كانت هناك حانة.. حانة صغيرة متداعية الجدران.

فى ذلك المساء التقى هناك مجموعة فرنسيين يدعون كلًّا منهم باسم جاك.. على طريقة حانة مسيو ديفارج فى قصة مدينتين..

فى تلك الحانة كان هؤلاء الفرنسيون يعرفون ما يفعلون..

صاحب الحانة الأمريكى كان متعاطفًا مع الفرنسيين.. كل الأمريكان كانوا متعاطفين مع الفرنسيين وقتها، وكلاهما يكره بريطانيا المخادعة.. وكان هؤلاء الفرنسيون جنودًا تم نفيهم بوساطة البريطانيين إلى هنا بعد ووترلو..

قدم لهم صاحب الحانة النبيذ والجبن، ثم جلس يحاول أن يتابع خططهم.

قال جاك الأول الذى يبدو كبحار:

- «لقد أهانونا إهانة بالغة فلم يبق سوى الانتقام..»

وقال جاك الذى يبدو كبلطجى:

- «الإمبراطور يجب أن يتحرر..»

وقال جاك الذى يبدو كشرطى:

- «يجب أن يتحرر.. دعونا نقسم على ذلك..»

وعلى المنضدة التقت أيدى الجنود الخشنة مسودة الأظفار بارزة العروق، وأقسموا بالدم أن يعيدوا الإمبراطور..

قال جاك الذى يبدو كجندي فرنسى اسمه جاك:

- «سوف نقوم بتهريبه من سانت هيلانة ومن ثم يقيم مملكة فى أمريكا الشمالية..»

قال جاك الذى يبدو كنجار:

- «الحل هو غواصة بدائية.. غواصة كالتي صنعها الأمريكان.. هذه الغواصة سوف تحوم حول سواحل سانت هيلانة ثم يركب الإمبراطور قاربًا يوصله لها..»

- «المسافة طويلة جدًّا حتى يصل إلى أمريكا..»

- «لن يفعل هذا بالغواصة.. سوف تكون هناك سفينة متأهبة لنقله من الغواصة إلى أمريكا..»

وصب الرجال النبيذ فى الأقداح ورفعوها... فى صحتكم... فى صحة الإمبراطور العظيم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مات بونابرت بعد هذا بيوم واحد....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- لماذا مات؟!

هناك لوحة شهيرة تظهر مشهد وفاة بونابرت.. ربما رأيتها أنت من قبل.

يرقد فى الفراش الكبير ناظرًا للسقف، وكفاه تعتصران الملاءة بأسلوب Carphology الذى يعرفه الأطباء. والستائر تبدو كأنها أكفان مبكرة..

يلتف رجال الحاشية حوله وقد أطرقوا الرءوس.. الرجال كاسفو البال يحتضنون قبعاتهم والنساء دامعات يشهقن.. الحقيقة أنه يسهل أن تعتقد أنه مات اختناقًا بسبب نقص الهواء فى الغرفة.. لا توجد ذرة أكسجين واحدة هنا إلا ملتحمة بالكربون...

عبير جاثية جوار الفراش تمسك بيد البطل.. وتبللها بدموعها.. رأسها منخفض لذا لم يرها الفنان الذى رسم اللوحة.. الفنان نفسه كان يقف وقد نصب لوحته وألوانه وانهمك فى وضع الأصباغ على اللوحة. سأله بونابرت بصوت واهن:

- «ماذا ترسم؟»

قال الفنان فى حماس وهو يوزع بعض اللون الأزرق بأصابعه:

- «لوحة وفاة بونابرت يا سيدى..!»

الإضاءة خافتة تناسب الموقف فعلًا. عندما تخرج تجد العلم المعلق فوق البيت منكسًا، بينما يكفهر الجو ويصطبغ بلون رمادي كئيب.. يوم جميل للموت كما ترى..

ما هو تاريخ اليوم؟.. لا أذكر طبعًا.. يمكنك أن تجده بضغطة على زر البحث فى جوجل. هذه مزية زمننا الذى لا يطالبك بأن يتحول مخك إلى مكتبة.. هناك معلومات لا قيمة لها، هى التى يحشون بها عقول الطلاب.. معلومات يمكن أن تجدها بعد دقيقة على الإنترنت. على كل حال هو 5 مايو 1821.. بحثت لك عنه كى أريحك..

اليوم كئيب فى حياة فرنسا..

دقات الساعة رتيبة تنذر باقتراب كارثة..

دقات على الباب ثم ظهر الخادم الفرنسي ليقول فى تهذيب:

- «البريطانيون يسألون إن كان الإمبراطور قد مات بعد.. يريدون بدء التشريح..»

قال أحد الواقفين:

- «قل لهم أن يصبروا قليلًا..»

يبدو أن بونابرت شعر بخجل لأنه يعطل كل هؤلاء القوم، مع خوفه من أن يشفى فينتفى الغرض من اللوحة، فقال كلماته الأخيرة التى انتظرها الجميع، وهى كلمات غامضة كعادة المحتضرين:

- «فرنسا.. قائد.. جوزفين..»

جوزفين هى زوجته طبعًا.. ثم أطلق شهقة ومال رأسه جانبًا. اتجهت مدام منتولون إلى الساعة لتوقف محركها فى حركة درامية.. معناها أنها تريد تثبيت الزمن عند هذه اللحظة..

تقدم الضابط برتران فرفع الملاءة وغطى بها وجه الإمبراطور.. وفى صوت خفيض أنشد الواقفون نشيد المارسلييز...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن يبدأ الحفل..

حملوا جثة الجنرال إلى قاعة كبرى، ووزعوا المصابيح حول الجسد.. ثم ظهرت أدوات التشريح الرهيبة.. نصال.. مناشير.. مباضع..

وما هو أفظع من النصال كان سبعة أطباء بريطانيين، من ذوى السوالف الكثة الذين تراهم فى أول الكتب الطبية.. السير كذا.. والسير كذا.. من الجمعية الملكية.. والسير كذا عميد طب أدنبره.. إلخ...

كلهم جاء الجزيرة ليحضر حفل التشريح.. يجب أن نفتح بونابرت ونراه من الداخل. سنمرح كثيرًا. وهكذا تهيأ الدكتور (موريسون) ورفع المبضع... هنا أوقفه صوت بريطاني:

- «توقف يا سيدى..»

نظر فى دهشة إلى مصدر الصوت، فوجد قائد الحامية البريطانية يتكلم:

- «لا أعتقد أنه من الحكمة أن نجرى التشريح وحدنا يا سيدى لو كان لى أن أقول هذا، وإلا فكيف بحق السماء يصدقنا الفرنسيون أكلة الضفادع لو سمحت لى..»

ثم انفتح الباب ليدخل طبيب بونابرت د / أنتو مارشى..

وقف والقبعة فى يده.. شاحب الوجه منكوش الشعر قليلًا.. ثم أحنى رأسه فى تهذيب وبحركة أقرب للفروسية وقال بإنجليزية فرنسية فظيعة:

- «سيدى..»

أحنى الطبيب البريطاني رأسه وقال بفرنسية بريطانية لعينة:

- «سيدى..»

- «لى الشرف أن أبدأ هذه العملية..»

- «سوف يكون من دواعي سرورنا أن تبدأ..»

وناوله المبضع بحركة رقيقة.. ثم قرب الرجال المصابيح من الجثة، وهم ينظرون فى فضول إلى الطبيب الفرنسي الذى قال:

- «سوف أبدأ بعمل قطع عرضى لو سمحتم لى..»

قال الطبيب البريطاني:

- «بل نحن نفضل القطع الطولي..»

قال الفرنسي فى كبرياء:

- «نحن لا نفتح سمكة رنجة يا مسيو.. هذا امبراطور فرنسا..»

- «الطب الفرنسي متأخر جدًّا عن الطب البريطاني..»

- «والعقل البريطاني متأخر جدًّا عن العقل الفرنسي..»

كانا يتكلمان فى حدة وقد وضع كل منهما مبضعه تحت عنق الآخر، فتدخل قائد الحامية البريطاني وقال وهو يقف بينهما:

- «أيها السيدان.. لن نختلف لأشياء صغيرة كهذه.. فليفتح الطبيب الفرنسي الإمبراطور كما يروق له.. إنه ضيفنا..»

هكذا صمت الجميع..

راح الطبيب الفرنسي يعالج الشق العرضي، ثم راح يفحص الرئتين والقلب... المعدة.. راح يتحسس الجدار، ثم نظر للأطباء البريطانيين وقال:

- «هذه إيلسيغ..»

لم يفهموا التعبير... معذرة هل تعنى السير؟.. ما معنى هذا؟.. جاء ابن حلال منهم بقاموس إنجليزي ألماني.. وجاء آخر بقاموس ألماني فرنسى...

- «إيلسيغ بالفرنسية معناها بالألمانية هو جشفير.. جشفير بالإنجليزية معناها: قرحة..»

آه هـ!.. تصايح البريطانيون وقد فهموا.. لهذا كان الإمبراطور يفرغ معدته دمًا. من الطبيعى لرجل بهذا التوتر وهذا الطموح وهذه العصبية أن يصاب بقرحة. وقال أحدهم فى ذكاء:

- «لابد أنها قرحة سرطانية..»

لم يفهم الفرنسي فجرت الترجمة إلى الألمانية:

- «سرطان معناه كريبس..»

- «وهذا بالفرنسية معناه كانسيغ.....»

قال الطبيب الفرنسي فى حماسة:

- «نعم.. نعم.. سرطان.. قرحة سرطانية كما هو واضح..»

وقرب وجهه من طبيب آخر كى يرفع له النظارة.. كانت قد انحدرت من فرط العرق على أرنبة أنفه.

قرحة سرطانية.. على الأرجح هذا هو ما حدث فعلًا. كل صور بونابرت تبين أنه يضع يده على معدته.. لابد أن آلام القرحة كانت شنيعة..

قال طبيب بريطاني قصير القامة له صوت رفيع كالصراصير:

- «لكن الإمبراطور كان بدينًا.. هل سمعت عن مصاب بسرطان المعدة وبدين من قبل؟»

تبادلوا النظرات فى حيرة ولم ينطق أحدهم بكلمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- نحتاج إلى شعر..

فتح د. (فورشوفود) علبة صغيرة من الخشب.. فمدت عبير أنفها لترى ما فيها..

كانت هناك شعرة.. شعرة واحدة موضوعة بعناية فى الصندوق. وقد تم تثبيتها بشريط لاصق من الطرفين إلى أرضية من الخشب الأبيض الأنيق.

نظرت عبير للشعرة فى غباء، فقال فورشوفود:

- «هذه شعرة من رأس بونابرت طبعًا..»

- «وهل قمت بانتزاع شعرة من رأس بونابرت؟»

- «هناك من فعل هذا.. وأنا حصلت عليها.. لقد سافرت لفرنسا خصيصًا من أجل هذه الشعرة..»

رومانسية غريبة نوعًا.. كانت تعرف عشاقًا يحتفظون بخصلات شعر حبيباتهم أو مناديلهن الورقية، هو نوع من الهيام الزائد يقترب من عقدة (الفتيشية) أو (التوثين) كما يطلق أطباء النفس العرب عليها..

لكن لماذا يقع أحدهم فى حب بونابرت؟

اقتادها فورشوفود إلى المختبر الصغير فى ركن الغرفة، حيث كانت تنتشر أوراق علمية عديدة.. وصب لنفسه بعض القهوة الساخنة.. تمنت أن يقدم لها بعضها لكن هذا مستحيل طبعًا.. سوف تنزف أسنانها..

- «كنت مهتمًا بالتاريخ بشدة، وخطر لى أن وفاة الإمبراطور كانت غريبة فعلًا.. وفاة فى سن 51 سنة.. لا تبدو قابلة للبلع جدًّا. هل سرطان المعدة يؤدى للبدانة وتورم القدمين؟.. أنا طبيب أسنان لكن خلفيتي الطبية جيدة. فكرت إن كان من الممكن أن هناك من سمم الرجل؟.. كيف يمكن إثبات ذلك؟»

ثم حك لحيته وقال:

- «الأعراض التى أصابت نابليون.. كما قلت لك هى تتفق كثيرًا مع أعراض الزرنيخ.. الزرنيخ الذى أطلقوا عليه (مسحوق الميراث) لأنه محبب لدى الناس لقتل أقاربهم الأثرياء. يمكن لجرعات بسيطة منتظمة أن تمر بلا ملاحظة فلا طعم له ولا رائحة.. هكذا تتيح الجريمة الكاملة، والأطباء يجدون أنفسهم أمام مرض غريب لا تفسير له أقرب للنزلات المعوية العادية..»

وأمسك بورقة علمية مصورة على المكتب:

- «وجدت هذا البحث لطبيب بريطاني يشرح طريقة كيميائية لفحص شعرة واحدة والبحث عن زرنيخ فيها.. هذا سوف يساعدني كثيرًا. سافرت إلى فرنسا وقابلت أحد ورثة بونابرت ممن يملكون بعض الشعر من رأسه. حصلت على شعرتين فأرسلت واحدة لإنجلترا.. هل تعرفين

النتيجة؟ صاحب الشعرة تلقى جرعة هائلة من الزرنيخ.. والظريف أن الطبيب البريطاني أجرى هذا البحث الذى يشير بإصبع الاتهام لبلده فى قتل بونابرت..»

ابتسمت عبير لطرافة الموقف..

عبقرية البريطاني أدت لاتهام بلاده بالقتل!

قالت عبير:

- «لكن الاتهام بعيد عن بريطانيا إلى حد ما..»

قال فورشوفود باسمًا:

- «تذكرى أن الأمر يشبه قصص (من فعلها؟).. لا يوجد أشخاص فوق الشبهات.. فى بعض القصص تبين أن راوى القصة هو الفاعل. هناك قصة كشفت أن القاتل هو بوارو المخبر العظيم.. هناك قصص تبين فيها أن القاتل ليس فى القصة أصلًا! إذن بريطانيا متهمة كأي شخص آخر!»

ثم وقف يتأمل لوحة جدارية تبدو كأنها تخطيط لتحليل سبكتروجرافي. أنت تعرف طريقة حرق الخامة وتصوير الطيف الناتج عن الاحتراق هذه..

قال لها:

- «ظلت الإجابة مبهمة.. هناك زرنيخ.. لكن هل هو دليل كاف؟.. كيف نربط بين ما حدث للإمبراطور وهذا الزرنيخ؟» وارتجفت شفتاه والتمعت عينه فى وله وشوق وقال:

- «شعر!.. أريد المزيد من الشعر!.. أريد أن أغرق فى بحيرة من شعر الإمبراطور!»

- «هذا حلم جميل.. لكن كيف؟.. لن تفتح فرنسا القبر لك..»

- «ليست هذه هى المشكلة..»

ثم أعاد إشعال غليونه وقال:

- «بففت!... فرنسا رفضت بالفعل.. لكن السبب أكبر من تقديس الإمبراطور.. هم يعرفون جيدًا أن البريطانيين لم يكونوا قادرين على الوصول الطعام الإمبراطور وشرابه.. اختراق جدار الشك والحذر مستحيل. معنى هذا ببساطة أننى لو برهنت عن وجود زرنيخ فالفاعل فرنسى!!»

كانت عبير تدرك هذا الموقف الخالد.. لا توجد دولة تقبل الاعتراف أن هناك خونة من بينها. هناك شهوة لصناعة الأبطال حتى لو لم يستحقوا ذلك. اكتشف أصحاب المتاجر الأمريكان بعد يوم 11 سبتمبر الرهيب أن هناك معاطف فراء ثمينة جدًّا سرقت من متاجر المركز التجاري العالمي.. أعنى من الطوابق السفلية التى ظلت قابلة للدخول فيها. من فعل هذا؟ بالطبع هم رجال إطفاء نيويورك الأبطال. لم يجسر أحد على الاعتراف بهذا وفضلوا تجاهله، لأنه لا أحد يريد أن يكتشف أن رجال الإطفاء العظام لصوص.

هكذا رفضت فرنسا فى كبرياء أن يتم هذا التحليل.. لو كان الإمبراطور قد مات فلتكتف بتبرير سرطان المعدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد عشرين عامًا من وفاة بونابرت، حفر الفرنسيون القبر..

كان الهدف هو نقل رفاته لتدفن فى فرنسا كما تمنى طويلًا. سوف يدفن فى الإنفاليد فى باريس، ولسوف يصير مزارًا سياحيًّا مهمًّا.

وقف الجنود الفرنسيون الذين جاءوا لنقل الجثة وقفة مهيبة، بينما المعول يشق طبقات الأرض ليزعج الإمبراطور للمرة الأخيرة..

هناك بريطانيون يراقبون المشهد فى اهتمام، وبالتأكيد كان يمكن أن يلتهموا الفيشار على سبيل التسلية، لولا أن رهبة الموت عابرة للقارات والبلدان. هكذا صمتوا بينما الصندوق الكئيب ينكشف للعيان..

من بعيد يرتفع الموج وتتمايل السفينة الفرنسية (الدجاجة الحسناء) التى سوف تعود إلى الوطن برفات الرجل العظيم. تحتشد السحب فى مشهد مهيب رهيب ...

أخيرًا وبعد جهد جهيد بالحبال استطاعوا أن يرفعوا الصندوق، وتعاون الرجال على انتزاع الغطاء..

هنا دوت صرخات الدهشة.. وفى الوقت ذاته عبارات الإجلال والتقديس..

وسقط بعض الجنود على ركبتهم وقد فقدت عضلات السيقان القدرة على حملهم..

لقد كانت جثة الإمبراطور سليمة كأنه مات منذ بضع ساعات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- المزيد من الشعر..

ارتجفت عبير رعبًا ورهبة وهى تسمع هذه الكلمات..

فى الثقافة العربية هذا يعنى أن صاحب الجثة شهيد.. فى الثقافة الغربية صاحب الجثة قديس.. وأحيانًا قد يكون مصاص دماء! أين بونابرت من هذا؟ ليس شهيدًا ولا قديسًا.. لا أعتقد أنه مصاص دماء على كل حال.

ضحك د. (فورشوفود) وهو يرى رعبها. يتلذذ الرجال دومًا بأن يثيروا رعب النساء.. هذا كامن فيهم منذ كنا أطفالًا.

- «الأمر ليس بهذا التعقيد.. لو أن لديك خبرة بعلم السموم لأدركت أن الذين قتلهم الزرنيخ لا يتعفنون بسهولة.. الزرنيخ يمنع البكتريا من تدمير الأنسجة..»

هتفت فى ذهول:

- «إذن......»

- «إذن هذا يؤكد نظرياتي أكثر.. نحن نقترب من التأكيد جدًا لكنى كنت بحاجة إلى مزيد من الشعر..»

لماذا لا تبيع الدول شعر أبطالها عندما يموتون؟.. إنه يشعر بالظلم والغبن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما نشر بحث فورشوفود فى مجلة الطبيعة أحدث دويًا هائلًا.. مجلة الطبيعة مجلة محترمة وعلمية رصينة..

يذكر كاتب هذه السطور أن معلمة - أبله إيفون – فى المدرسة الابتدائية التى كان طالبًا فيها حكت للصف هذه القصة، وقد أصغى الأطفال فى دهشة وذهول.. هم الذين لم يسمعوا عن بونابرت إلا منذ أيام. أعنى أن القصة كانت شهيرة جدًا لدرجة أن طلبة المدارس الابتدائية عرفوها! لكن أبله إيفون اتهمت البريطانيين بلا تردد!

هكذا انتشرت فى أوروبا حكاية حاجة الطبيب إلى مزيد من شعر بونابرت..

هنا جاء الفرج.. اتصل به رجل سويسري وقال له إن لديه خصلة من شعر بونابرت.. خصلة مكتنزة ممتازة بها 50شعرة..

كيف حصل عليها؟ لا أحد يعرف.. الحقيقة أن حلاق بونابرت لو كان حيًا لصار أهم رجل فى العالم..

تطوع السويسري بأن يرسل الخصلة بريديًا..

هكذا جاء اليوم الذى وجد فيه فورشوفود خطابًا مسجلًا مغلقًا يبدو أن فيه ورقة مقواة.. فتحه فى حذر فوجد خصلة من الشعر مربوطة بشريط حريرى دقيق..

كان المعنى واضحًا.. هذه هى الخصلة التى طلبها والتى كان مستعدًا لأى شىء كى يحصل عليها.

قال فورشوفود لعبير:

- «إن كل خمسة مليمترات من الشعرة تحكى قصة أسبوعين فى حياة بونابرت.. نحن نعرف أن الخصلة قد قصت يوم 6مايو.. هكذا رحت أدرس تركيزات الزرنيخ على طول الشعرة..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بونابرت يشعر براحة تامة.. تناول العشاء فى شهية والتهم كميات هائلة من النبيذ والجبن. بعد العشاء قال لماريا فالفسكا أنه يرغب فى المشى معها على الشاطئ..

تأبط ذراعها ومشيا.. لم تره من قبل بهذه الخفة وهذا الرضا عن الكون..

قال لها:

- «لو لم تكوني فى حياتي لكانت جافة جدًّا..»

وبدأ يدندن لحنًا فرنسيًّا رقيقًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فحص فورشوفود أول جزء من الشعرة.. لا شىء.. لا يوجد أثر للزرنيخ.. التحليل الطيفي يظهر خطًّا مستقيمًا لا يدل على شىء.

لم يكن هناك سم فى دم الإمبراطور وقتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بونابرت عصبى.. لقد اكتشف أن هناك من يسرق الخمور من المخزن، وقد استدعى مارشان كبير الخدم ووجه له اللوم واتهمه بأنه لص..

كان فى قرارة ذاته يتوجع.. الإمبراطور الذى أرعب أوروبا كلها يومًا، هو الآن باهل بلا عمل.. لا عمل له إلا أن يشتم رئيس الخدم ويراقب مخزون الخمور..

شعر بضيق شديد وهذا الضيق جعله يشتم الرجل بشراسة.. صحيح أن هذه الشتائم الفرنسية لا تبدو قبيحة جدًّا لآذاننا لكنها مهينة بما يكفى..

دخل إلى غرفة الطعام، وهنا شعر بتقلص هائل فى معدته.. انحنى على السجادة وأفرغ معدته.. قىء شديد جعله غير قادر على الوقوف.. تخاذلت قدماه من تحته.. ولا يدرى متى حمله الرجال إلى الفراش والعرق يغمره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظ فورشوفود أن مستوى الزرنيخ ارتفع فى الشعرة عند هذا الجزء..

لابد أن هذا حدث فى 12 أو 13 أبريل..

اتجه إلى مذكرات الإمبراطور التى ابتاع صورتها بثمن باهظ من فرنسا.. راح يفتش الصفحات

حتى وصل إلى هذا التاريخ.. الأيام العشرة الثانية من أبريل.. ماذا يقول الإمبراطور؟

- «أنا أموت.. أشعر كأنني أريد أن أفرغ جوفي.. قدماى متورمتان بشدة لدرجة أننى لا أقدر على وضع الخفين فى قدمى. لا أعرف ماذا دهانى؟.. ربما كنت سقيمًا فعلًا وربما قتلتني إنجلترا المخادعة.. إن فرنسا سوف تفقد بطلها.. لا شك فى هذا...»

يتعالى معدل الزرنيخ أكثر فأكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس بونابرت خارج البيت يراقب الأزهار النامية فى الحديقة. جاء كلبه يتواثب من حوله وذيله يهتز كأنه خارج إرادته.. مد يده وربت على رأسه..

جاءت مدام مونتولون الحسناء تطمئن عليه فأمسك بيدها فى امتنان وشغف..

تنفس بعمق وبدا له أن العالم أروع مما يكون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خط مستقيم.. لا يوجد زرنيخ تقريبًا فى الشعرة هنا..

هكذا لا توجد اهتزازات فى التحليل الطيفي. بونابرت مر بفترة من السلام كما هو واضح..

فى المذكرات يقول بونابرت:

- «إننى أتحسن.. بالتأكيد..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لعدة أيام لم يتمكن بونابرت من أن يغمض عينه ليلة واحدة.. راح يتقلب.. جرب الطبيب الفرنسي أن يعطيه بعض المنومات لكنها لم تجد شيئًا..

بدأت نوبات شديدة من الإسهال. حتى أنهم حسبوا أنه مصاب بالكوليرا. وظهر طفح جلدي زال سريعًا...

كان يتدهور باستمرار وخطر للبعض أنه يموت فعلًا..

وفى مذكراته كرر من جديد اتهامه لبريطانيا المخادعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان تحليل الشعر هذه المرة يؤكد وجود كميات من الزرنيخ بلا شك...

الصورة واضحة.. كلما حدث تدهور فى مذكرات الإمبراطور تزامن هذا مع ظهور الزرنيخ فى الشعرة.. هذه حالة تسمم مزمن بالزرنيخ.. لا شك فى هذا...

لقد تمت الإجابة عن السؤال الأول.. السؤال الثانى هو من فعل هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9 – التحقيق..

للمرة الأولى يتم تحقيق فى جريمة قتل بعد 150 عامًا من حدوثها..

قال لها فورشوفود وهو ينظر فى ساعته:

- «هذا موعد العشاء.. هل تقبلين دعوتي لك إلى مطعم قريب؟»

بالطبع ليس لديها أى شىء تعمله.. لا أحد ينتظرها فى أى مكان، ولكن كيف تتناول طعامًا من أى نوع بعد ما تحول فمها إلى حقل ألغام انفجرت كلها.. هناك مئة ثقب.. لا يبدو أن هناك أسنانًا باقية..

قال لها ضاحكًا:

- «سوف أطلب لك طعامًا لينًا باردًا. لا تقلقي..»

ومد يده ليتأبط ذراعها، وخرج معها من العيادة.. اعتمر قبعته ومعطفه وقال للممرضة الصارمة السمجة أنه ذاهب للعشاء، وإن مواعيد اليوم قد انتهت.. لا مزيد من الكشوف.

خرجا معًا يمشيان فى شوارع ستوكهولم الباردة بينما الثلج ينهمر.. بالطبع كانت عبير تلبس معطفًا من الفراء وقلنسوة صيفية لا تدرى كيف ظفرت بهما..

دخل بها إلى مطعم قريب.. وطلب لهما عشاء لينًا باردًا.. لابد أنه كان نوعًا من الآيس كريم..

قال لها:

- «بما أنك قادرة على السفر فى الزمن...»

اعترضته:

- «لحظة. من قال هذا؟»

باسمًا قال كأنه أب يلقن ابنه درسًا:

- «لا تنسى أننا فى فانتازيا.. هناك خلط واضح بين الواقع والخيال.. خلط عمدى.. لهذا أعرف أنك صحفية عبر الأزمان وقادرة على التواجد فى عدة أزمنة..»

فى تشكك قالت:

- «لنفرض هذا. وبعد؟»

- «ليس هناك شخص مثلك أقدر على التحقيق فى هذه القضية.. سوف تعودين إلى الجزيرة وعبر الزمن، وتحاولين معرفة الفاعل الوغد..»

لهذا تفهم سر هذا اللطف والدعوة للعشاء. قالوا إنه عليك أن تخاف عندما يجلب لك اليونانى هدية.. عليك كذلك أن تقلق عندما يدعوك السويدى على العشاء.

قالت فى كياسة:

- «تذكر أننى لا أعرف نقطة البدء..»

صاح فى مرح:

- «هذه نقطة ممتازة للبدء.. أنت متعادلة تمامًا!»

عندما دفع ثمن الوجبة، عرفت عبير أنها ستنفذ طلبه على الأرجح.. على الأقل لتروى فضولها الذاتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن نحن فى جزيرة سانت هيلانة..

تعرف عبير أنها عادت شقراء بارعة الحسين مثلما كانت (ماريا فالفسكا).. كما قلنا لم تكن فالفسكا الأصلية مع الإمبراطور على الجزيرة، لكنه نوع من العبث التاريخى الذى تمارسه فانتازيا. وهو عبث ليس فاحشًا جدًّا إذا تذكرنا عدد الأفلام الخيالية التى رأيت فيها رجل الكهف يصارع الديناصور، أو رأيت رواد فضاء يتكلمون على القمر... وسمعت صوت الانفجارات فى الفضاء الخارجى. هذه أخطاء قاتلة لكن الفيلم يرتكبها عمدًا من أجل بعض الإثارة.

تقف عبير أمام مقبرة الإمبراطور وهم يدلون التابوت فيها، ثم يهيلون التراب.. تتهانف وتدفن رأسها فى كتف برتران.. الحقيقة أنها تمسح كمية هائلة من المخاط فيه كذلك... يطوق برتران كتفها بذراعه.. تذكر أنه غير متزوج وقد رحل الإمبراطور. الطريق صار مفتوحًا للظفر بقلب البولندية الحسناء.

التراب ينهال على القبر.. وفى النهاية صلاة قصيرة ومقاطع من كتاب العقد الاجتماعي لمونتسكيو. كثيرون من جنرالات بونابرت ومنهم جنرال كافاريللى كانوا يطلبون قراءة فقرات من هذا الكتاب على قبورهم.. هذا دين صناعي عجيب اعتنقه كثيرون.

نابليون أوصى بأن يدفن فى باريس، لكن البريطانيين أصروا على دفنه هنا فى مكان اسمه (وادى الصفصاف). كان حفار القبور قد كتب على شاهد القبر اسم (نابليون بونابرت)..

هنا تدخل برتران وقال فى غيظ:

- «بل يكتب (نابليون) فقط.. هذه هى عادتنا فى دفن الملوك.. الاسم الأول فقط..»

ببرود بريطاني قال الضابط الذى يراقب العملية:

- «لابد من كتابة الاسم كاملًا..»

- «نابليون..»

- «بل نابليون بونابرت..»

قالها بشفة عليا متصلبة كما يقول البريطانيون.

دار جدل يشبه مشادات الأطفال.. ملحمة من تصلب الرأى، وفى النهاية قرر الطرفان أن الحل

الأمثل هو ألا يكتب أى شىء.. كأن صاحب القبر بلا اسم أصلًا....

فى النهاية يتحرك الموكب الحزين مبتعدًا..

لم يكونوا يعرفون المصير. هل يشحنهم البريطانيون إلى الوطن أم يستمر النفي؟

بالفعل فوجئوا بصف من الجنود البريطانيين يعترضون الطريق.. يلبسون الأحمر البريطاني اللعين وهم يحملون علم يونيون جاك.. هل سيطلقون علينا الرصاص الآن؟.. فيف لا فرانس إذن.. لتحيا فرنسا....

لكن قائد الحامية البريطاني يتقدم بينما تدق الطبول فى مرسم جنائزي لا بأس به لتوديع بونابرت.. جواره السير هدسون حاكم الجزيرة..

يقف القائد متظاهرًا بالتأثر ويقول بفرنسية لعينة:

- «بوفاة بونابرت قد انتهى الغرض من وجودكم هنا.. أعرف أنكم كتبتم إقرارات بالبقاء هنا للأبد لكننا نعلن تحرركم منها.. يمكن لمن شاء الرحيل أن يعود لفرنسا على ظهر سفننا، أما من يرغب فى البقاء فهو حر..»

ساد الصمت.. من المبكر جدًّا اتخاذ قرار كهذا... يجب أن ينفردوا بعض الوقت ويسترجع كل منهم أحزانه وما بقى له هنا وما بقى فى الوطن..

قال برتران:

- «شكرًا لك يا مسيو.. لكننا نفضل ألا نعطى إجابتنا الآن..»

حفنة من الفرنسيين الذى وسع طموحهم العالم وظنوا أنهم أسياد الكون، ثم تلقى غرورهم ضربة موجعة.. الآن هم أسرى يرجون النجاة من آسريهم.

لا يمكن أن ننفى أن البريطانيين يتصرفون كجنتلمانات لكن هذا اللطف يخفى الكثير من القسوة والحزم بالتأكيد.

كانت عبير تفكر.. ربما كان من الضروري أن تبدأ باستبعاد البريطانيين من القصة..

هكذا تقدمت من الضابط البريطاني وثنت ركبتيها فى رشاقة وقالت:

- «مسيو.. أكتب كتابًا عن أيام الإمبراطور الأخيرة فى سانت هيلانة.. وقد رغبت فى معرفة وجهة النظر البريطانية فى هذا..»

نظر لجمالها والتمعت عيناه.. بالتأكيد يرحب جدًّا بعمل حوار مع حسناء كهذه..

قال لها:

- «يمكنك أن تأتى معى للثكنات يا مدموازيل.. سوف أجيب عن كل أسئلتك..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الطباخ؟

اسمه الميجور هتشنسون..

له جذور أسكتلندية أكيدة.. وسيم نوعًا ويثرثر كثيرًا..

كان مستندًا إلى المنضدة الخشبية يصب لنفسه الخمر، بينما طلبت هى بعض الشاى.. كان مندهشًا من الفرنسية التى تحب الشاى، فبالنسبة له كان الشاى مشروبًا بريطانيًا...

أخرجت عبير دفترًا وقلمًا من الرصاص.. والقلم الرصاص اختراع فرنسى لأحد علماء الحملة الفرنسية فى مصر بالمناسبة..

سألته:

- «لابد أنكم سعداء جدًا بالخلاص من بونابرت..»

جرع الكأس مرة واحدة وقال:

- «العكس.. ما من سجان يحب أن يموت السجين الذى فى عهدته.. مسئولية كبرى.. دعك من أن وفاته غير مفهومة وغير مبررة..»

- «سرطان المعدة..»

- «هذا ما قاله الطبيب الفرنسي.. ونحن لا نثق بأطبائكم الفرنسيين. إنهم حمقى.. على كل حال طبيبكم أنتو مارشى لم يوقع على تقرير التشريح.. هذا يعنى أنه غير متأكد من كلامه..»

كانت هذه معلومات جديدة عليها...

قالت فى حيرة:

- «معنى هذا ببساطة أن بريطانيا متهمة بالقتل..»

هز رأسه وأنفه الذى بدأ يحمر.. كانت أنفاسه تتلاحق الآن نتيجة ارتفاع حمضية الدم... أنه ثمل تمامًا وهذا يناسبها..

قال لها:

- «بالفعل نحن متهمون.. لا شك فى هذا.. لكن المنطق يقول إنه من المستحيل أن نقتله. أولًا نحن المشتبه فيه رقم واحد.. ثانيًا كيف نصل له لنقتله؟ إنه محاط بالفرنسيين.. حاشيته تعنى بطعامه وشرابه وهى التى تقدمه له.. أى سم سوف يقضى على عدد من المحيطين به كذلك. نحن لا نستطيع الوصول إلا عن طريق أحد الموثوق فيهم من حوله..»

بدا لها هذا منطقيًا..

هذا ينفى تهمة القتل لكنه لا ينفى القتل غير المباشر.. القتل عن طريق وسيط أو مرشح منشورى Manchurian Candidate.. كما يقول التعبير الغربى للدلالة على عميل تم غسل

مخه، أو ثمة من يحركه..

انتهى الحوار فنهضت باسمة وشكرته..

قال لها وهو يحك فمه بكمه كعادة السكارى:

- «تعالى فى أى وقت.. إننى رجل عسكري أشعر بملل رهيب على هذه الجزيرة اللعينة.. لا شىء مثل أنثى حسناء ليبدد هذا الملل..»

قالت فى غيظ:

- «أنت ستعالج مشكلتك بأنثى حسناء.. وأنا؟»

- «لا شىء مثل ضابط بريطاني وسيم يبدد هذا الملل..»

ثم أعاد مسح فمه بكمه. تذكرت ما قرأته منذ زمن عن أن هذا سبب ابتكار أزرار الكمين فى ثياب الرجال. الإمبراطور فردريك كان يريد أن يمنع جنوده من مسح أفواههم بعد شرب الجعة، لذا ثبت لهم هذه الأزرار فى ستراتهم.. مسح الفم يشبه أن تمسح فمك بورقة صنفرة.

عادت عبير شاردة إلى معسكر الفرنسيين أو (الجيتو) المغلق الخاص بهم. ما زالت غير متأكدة.. لا تستطيع أن تنفى التهمة عن البريطانيين لكنهم الاحتمال الأخير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يومان وهى تقلب الاحتمالات فى ذهنها، ثم خطرت لها فكرة..

الطباخ. بيارون!..

وعندما جلس أشار لهم فى كبرياء بما معناه (استريحوا).. ثم نظر إلى رجل بدين يضع مريولة حول خصره ويضع قلنسوة الطهاة على رأسه. خمنت عبير بذكاء أن هذا طاه. قال الإمبراطور:

- «كان الطعام شهيًّا أيها المواطن بيارون... صحيح أنك أكثرت من الفلفل لكنه لذيذ..»

قال بيارون فى كبرياء وهو يشمخ برأسه:

- «الفلفل ضروري لينشط الأمعاء فى هذا الطقس الحار يا سيدى الإمبراطور.. لكننا سنراعى ذلك فى الوجبة القادمة..»

هذا إذن من الطهاة الفرنسيين شديدي الكبرياء الذين يشعرون بأنهم شعراء. حذار أن تنتقد طهى أحدهم وإلا طلب أن يبارزك بالسيف.

من سواه؟.. هو قادر بسهولة على الوصول لطعام بونابرت ويستطيع تسميمه متى أراد.. لو كانت هذه قصة لأجاثا كريستي لشك بوارو منذ البداية فى أمر بيارون..

مشكلة الزرنيخ هى أن الموت بطئ جدًّا جدًّا.. هكذا لا يمكن استعمال الحجة الشهيرة: أين كنت وقت الوفاة؟.. كنت ألعب الورق أيها المفتش ولدى شهود.. لا شىء من هذا.. عملية مزمنة غامضة.. لو سألت لقلت: أين كنت فى الأشهر السبعة الماضية؟ على سبيل المثال.

ثم ما موضوع الفلفل هذا؟ ... سم الفئران يبدو لمن يتذوقه كأنه فلفل.. وماذا عن الزرنيخ؟.. لم تقرأ عن مذاقه لكن لنفرض أن مذاقه حاد، أو أنهم يضعون الفلفل ليخفوا طعمه لو كان له طعم..

اتجهت إلى المطبخ حيث كان الطهاة جالسين لا يطهون شيئًا.. الطاهيات دامعات يمخطن فوق الفاصوليا التى يقطعنها، والرجال يقفون كاسفى البال..

سألتهم فى قلق:

- «هل لن نأكل اليوم؟»

قال أحد الطهاة الشباب وهو يجفف دموعه:

- «لا أحد يملك القدرة على الطبخ يا آنسة.. منذ دفن الإمبراطور ونحن نتحامل لنؤدى واجبنا. لكن لا شك أننا سنعود للعمل حالًا.. هناك أفواه يجب أن تأكل..»

البخار يتصاعد فى الجو فتوشك أن تختنق.. يبدو أنهم غلوا الماء كثيرًا ولم يضعوا فيه الخضر أو اللحم. على الأرض كميات هائلة من حزم المقدونس وقشور البصل.. كل شىء يدل على عمل هائل هنا، فيما عدا أنه لا يوجد عمل.. لا يوجد (مزاج)...

تقدمت إلى الداخل.. هناك رفوف عديدة تناثرت عليها التوابل. لا أحد يقف قربها.. فتحت علبة خشبية صغيرة وراحت تشم ما فيها.. لا تعرف أى يد انتزعت منها العلبة فى عصبية..

رفعت عينها فرأت الشيف بيارون البدين يرمقها بعينين ناريتين، وقال من بين أسنانه:

- «مدموازيل!.. أرجو ألا تعبثي بأى علبة تجدينها..»

نظرت للعلبة فى يده بشك، وقالت:

- «ما هذا بالضبط؟ ... ما خطره؟»

بدا عليه ارتباك واضح.. ثم قال:

- «بعض التوابل قوى جدًّا بحيث لا يصح العبث فيه..»

هل هذا هو السم؟.. غالبًا لا... لا أحد يحتفظ بسم الزرنيخ فى المطبخ وسط التوابل. لكن ربما كانت مخطئة وكانت محظوظة أكثر من اللازم.

شدت قامتها وقالت:

- «لابد أن الإمبراطور كان يحب طهيك جدًّا.. لقد سمعته يطرى أطباقك..»

نفخ الرجل أوداجه وبدا كبطة فخور، وقال وقد احمر لغده:

- «هذا شىء طبيعي.. الإمبراطور لا يأكل إلا طعام طباخ الإمبراطور..»

- «وهل كانت له أطباق خاصة به؟»

- «كان عسكريًّا.. لذا لم يكن يهتم بالطعام بشكل خاص.. أى شىء يصلح. لقد جرب الجوع

والتهام الأفاعى فى جبال إيطاليا، وأكل الدهن الضأن فى مصر.. لا مشكلة عنده. لكنى كنت أطبخ له وللحاشية.. ورجال الحاشية أكثر انتقاء فى طعامهم..»

- «هذا يعنى أنك لم تكن تعد أطباقًا خاصة بالإمبراطور؟»

- «لا.. كنت أعد الطعام للجميع..»

هذه كانت النقطة التى تريدها..

لو دس هذا الرجل السم للإمبراطور، فلن يضمن أن يأكله وحده.. كنت ستجد جيشًا من الضباط والحاشية يفرغون مَعِدَهم.

أخرجت ورقة كتبت فيها أسماء المشتبه فيهم وشطبت اسم بيارون..

إنه فظ مغرور. لكن لم نسمع عن إنسان اتهم بالقتل لأنه فظ مغرور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- زوجة منفية..

من فعلها؟

حقًّا من فعلها؟

عندما جلست إلى مائدة الطعام راحت ترمق الوجوه.. لو كان هذا فيلمًا لكانت الكاميرا تدور على الوجوه وتتوقف عند كل وجه للحظة. الإمبراطور ليس هنا. يشبه الأمر بيتًا غاب عنه الأب.. لهذا ساد جو من الكآبة والصمت، وبرغم أن وجوده كان مهيبًا رهيبًا مما يفرض نوعًا من النظام الشبيه بنظام المدارس، فإن غيابه لم يقلل من الصمت والوجوم.. بل زادهما..

الكل ينظر فى طبقه ويلوك الطعام.. الكل غارق فى خواطره..

لاحظت عبير شيئًا غريبًا..

العدد أقل مما يفترض.. عاودت النظر. ثمة شخص غائب. يشبه الأمر أن تفطن فجأة إلى أن هناك نوعًا من الضوضاء كان يملأ أذنيك ثم اختفى. عندها تشعر بدوار للحظة وطنين فى أذنك..

من اختفى؟.. مونتولون يأكل لكن زوجته لا تجلس جواره..

التفتت إلى برتران الضابط المرافق بونابرت الجالس جوارها وقد ملأ فمه بالطعام، وهمست:

- «أين مدام مونتولون؟»

قال بصوت كالفحيح:

- «ش ش.. لقد عادت لفرنسا..»

غريب هذا.. عادت فى هذا الوقت بالذات وتركت زوجها؟.. صحيح أنه عصبى ولا يطاق ولا يكف عن لعب دور الوغد لحظة، لكن ليس هذا أفضل وقت تفارق فيه امرأة زوجها..

لماذا رحلت؟.. لماذا رحلت بعد موت الإمبراطور؟..

هل أنهت مهمتها؟.. أم هى تبتعد عن الشبهات؟ هل المدام مشتبه فيها إذن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءت مدام مونتولون الحسناء تطمئن عليه فأمسك بيدها فى امتنان وشغف..

تنفس بعمق وبدا له أن العالم أروع مما يكون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهى امرأة جميلة فعلًا لكنها سمجة الظل كالغربان.. لا يخفى على فطنة القارئ قوى الملاحظة أن يدرك أن المرأة تحمل بعض الحقد على عبير لأنها معجبة ببونابرت.. بل يقال إنها على علاقة به كذلك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد الغداء وقفت مع برتران الذى راح يتحسس بطنه فى رضا، شاعرًا بلذة الامتلاء، لكنها أدركت كذلك أنه راغب فى بعض النميمة.. هو يعرف الكثير ويكره أن يعتقد الناس أنه لا يعرف الكثير. يحتاج بشدة إلى استعراض مواهبه وعلمه ببواطن الأمور..

عادت تسأله فى كياسة:

- «أنت لا تعرف طبعًا سر رحيل مدام مونتولون.. لا شك أن البيوت لها أسرارها..»

كانت هذه هى العبارة التى داست على ذيل الشيطان بداخله. نقطة اللاعودة، فهو لا يتحمل أن يقال إنه لا يعرف..

صاح على الفور:

- «بل أعرف لكن لا أجسر على الكلام..»

ابتسمت عبير فى مشاكسة وقالت:

- «أعتقد أنك لا تعرف.. هذه أمور تحدث خلف أبواب مغلقة..»

بعد صبر طويل ومقاومة لا بأس بها، قال فى غموض وهو ينظر حوله:

- «إنها تحب الإمبراطور وقيل إن الشعور متبادل.. لما توفى الأخير صار يومها كله بكاء وعويلًا... لا يوجد زوج فى العالم يتحمل أن تمضى زوجته اليوم تبكى عشيقها!... لهذا نفاها إلى الوطن.. قال إنه لا يريد أن يراها ثانية..»

ثم أضاف على طريقة أم يحيى جارة عبير:

- «هذه أمور لا تعنينا.. للبيوت أسرار!»

ظلت عبير بعض الوقت تفكر فى هذا الكلام..

من الجلى إذن أن مدام مونتولون ليست متهمة.. لا أحد يقضى اليوم فى البكاء على من قتله، ما لم يكن هستيريًّا على شىء من الجنون أو ممثلًا يبالغ لإقناع الناس ببراءته..

كانت قد أدركت بالفعل أن المدام تحب بونابرت وبجنون.. سمجة كالغربان قوية الشكيمة، لهذا تبحث عمن يقهرها كعادة هؤلاء النسوة الشرسات.. ومن أفضل لقهرها من الإمبراطور؟

المدام لم تتحمل وفاة حبيبها.. من ثم طردها زوجها لتعود لفرنسا.. هذا يجعل القصة منطقية.

تناولت الورقة التى كتبت فيها الأسماء وشطبت اسم مدام مونتولون..

طريقة الاستبعاد جميلة دائمًا.. لكنك فى لحظة بعينها تغير مقاييس الاستبعاد.. وتعود تتفحص القائمة فتقول: لِمَ لا؟.. ما الذى يمنع من كذا؟ هكذا تزيل الشطب عن أسماء كنت قد شطبتها من قبل.. فى النهاية تكتشف أنك غارق حتى الأذنين فى الألغاز..

لا يوجد شىء سهل أو واضح فى الحياة..

يجب أن تستجوب شخصًا آخر..

ماذا عن جورجو؟..

هذا الضابط العصبي ضيق الخلق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«جورجو غير متزوج.. لا توجد امرأة تتحمل عصبيته.. لهذا هو نافد الصبر عصبى.. أى أن عصبيته تنفر النساء فيزداد عصبية. وهو يكره هذه الجزيرة بجنون لأنه لا يجد ما يفعله.. كان محاربًا ممتازًا فيما سبق أما اليوم فهو أقرب إلى سكرتير..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من السهل أن نتخيل القاتل شخصًا ضيق الخلق نافد الصبر..

فى البداية قررت أن تبدو أنيقة فاتنة. معظم الرجال يفرغون أسرار وجدانهم أمام امرأة أنيقة فاتنة.. بوسعها أن تنزع منهم ما تريد من أسرار..

اتجهت لخزانة الثياب وبحثت عن ثوب أنيق. إنها حسناء كما قلنا.. رقيقة هشة قابلة للكسر.. دعك من لكنتها البولندية التى تذيب القلوب.

لكن... هناك الكثير من الثياب الجديدة التى لم تكن عندها.. إنهم يعنون بها حقًّا.. سوف يكون هذا ممتعًا. جربت عدة أثواب ثم اختارت واحدًا. الجميل أن هناك مجموعة ممتازة كذلك من الثياب الداخلية والأشياء المعقدة الشبيهة بالكورسيه، والمظلات التى كانت تلبسها نساء تلك الفترة تحت التنورات.. وقفت الوصيفة تراقبها وهى تلبس ثيابها ثم ربطت لها الأشرطة حول خصر الفستان..

كانت عبير شاردة الذهن تفكر فى جورجو... سوف يضعف بالتأكيد خاصة أنه غير متزوج..

عليها إذن أن تقابل جورجو وتسأله.. هل دسست الزرنيخ للإمبراطور يا سيدى؟؟؟ لم تفعل؟.. جميل جدًّا.. تصور أننى شككت فيك للحظة..

جورجو الرهيب.. هناك وحش فى أفلام الرعب يحمل هذا الاسم.. على ما أذكر كان يخرج من تحت الأعماق على غرار جودزيلا..

كان الضابط الأربعيني الأشيب واقفًا يصرخ فى بعض الجنود مصدرًا سلسلة لا تنتهى من الأوامر.. بدا لها شبيهًا بذلك الوحش فى أفلام المسوخ..

دنت منه وتنحنحت طالبة لحظات من وقته..

كانت تدرك سر عصبيته الشديدة.. عصبية الفراغ.. ليس لديه ما يفعله هنا سوى الشجار. عندما ابتعد معها قال لها وهو يركل التراب الأحمر الذى يميز الجزيرة:

- «روحي بلغت الحلقوم فعلًا.. لقد كان لدى التزام نحو الإمبراطور وقد انتهى.. لقد مات سيدى.. سوف أغادر هذه الجزيرة اللعينة إلى فرنسا..»

- «لكن فرنسا لم تعد كما كانت..»

- «وهذه الجزيرة لم تعد كما كانت..»

ثم مشى بها إلى البيت.. ركل الباب ليفتحه واتجه إلى منضدة.. أراح حذاءه الغليظ عليها ثم مد يده لزجاجة نبيذ جرع منها جرعة هائلة.. ثم صب القليل فى كأس..

قال فى شرود وهو يتأمل الكأس:

- «قد تشاجرت مع كل شخص على ظهر هذه الجزيرة.. لم أعد أتحمل رؤية أحد ولا أحد يريد أن يراني.. منذ جئت فى مارس وأنا فى هذه المشاكل.. كان الإمبراطور وقتها يمر بنوبته الرابعة من هذا المرض الغامض الذى أصابه والذى يقولون إنه قرحة المعدة.. هذا زاد من تعقيد الأمور وجعله عصبيًّا.. عندما يصير عصبيًّا أصير عصبيًّا بدوري.. أنت تعرفين هرم الإذلال.. كل طبقة تذل من تحتها.. وكان تحتي الكثيرون ممن يمكن أن أخرج عصبيتى عليهم..»

توقفت عبير وقالت مرددة كلامه:

- «لحظة.. قلت إن الإمبراطور وقتها كان يمر بنوبته الرابعة...»

هذا ما قاله فعلًا...

يمكنها التأكد من التاريخ. لو كان دقيقًا فلا يمكن بحال أن يكون مسئولًا عن تسمم الإمبراطور. كانت الأعراض موجودة عندما جاء ولم تبدأ بعد مجيئه..

هكذا أخرجت القائمة وشطبت اسم جورجو..

سألها فى فضول عن هذا الذى تقوم به فابتسمت وقالت:

- «قائمة مشتروات.. كل واحد يملك واحدة ويشطب ما تم شراؤه..»

- «وهل هناك سوق على هذه الجزيرة؟»

نظر لها بعض الوقت وترنح رأسه من السكر.. ثم غاب فى نعاس عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12– التسمم..

القائمة تقصر..

لقد حذفت الطباخ وزوجة مونتولون وجورجو.. وربما حذفت البريطانيين كذلك..

كانت ترتجف ذعرًا من احتمال مخيف.. أن تنتهى القائمة دون أن تجد المشتبه فيه أو دون أن تشك فى أى واحد.. سيكون هذا قاسيًا فعلًا.

جلست فى غرفتها وكتبت رسالة تشرح فيها مخاوفها لدكتور (فورشوفود).. هذه رسالة تعبر المسافات كما ترى.. إلى السويد كبلد.. وإلى القرن العشرين كزمن..

بعد قليل جاءتها تعليمات (فورشوفود).. كيف؟.. لا أعرف طبعًا.. نحن فى فانتازيا لهذا كل التفسيرات ممكنة..

كان الخطاب يقول:

- «عزيزتى بيتى / ماريا:

»خطابك مهم فعلًا وأرى أنك قمت بعمل عظيم.. أهنئك.. لكنه جهد غير مكتمل وأنا لا أرى فى عيوب الناس كعيب القادرين على الكمال (كما يقول شاعر عربى)..»

«لابد من البحث وراء أكثر من خيط.. ماذا عن رئيس الخدم مارشان؟.. أنت تعرفين أن رئيس الخدم هو القاتل دومًا فى روايات (من فعلها) البريطانية. هذا خيط يجب ألا تتركيه. ماذا عن مونتولون ضابط بونابرت المقرب؟.. لديه دافع مهم للقتل هو غيرته على زوجته. ماذا عن برتران الضابط الآخر؟.. لماذا استبعدنا د أنتومارشى نفسه؟.. لاحظى أنه من قام بالتشريح.. وأنه صاحب نظرية سرطان المعدة؟»

» أرى أنه لابد من استجواب هؤلاء جميعًا.. أنت تقتربين من الحل»

بإخلاص فورشوفود

كأن هذا سهل.. سوف تجرى استجوابًا لكل هؤلاء.. وماذا بعد؟.. ربما يكون القاتل غير موجود فى الكتاب أصلًا على الطريقة البريطانية الساخرة.. ربما قام بالجريمة مسيو (جان لافران).. من هو؟.. لا أعرف...

وقفت على قبر بونابرت ترمق الفراشات التى تحوم على الورود.. ورود كثيرة ألقاها المحبون.. بعض هؤلاء مخادعون وقتلة. ركعت فى وضع القرفصاء وتخيلت الإمبراطور الراقد تحت الثرى يمد لها يده عبر التراب.. يقول لها لا تحزني يا ماريا. فقط انتقمى لى.. أنا لا أعرف من قتلني لكنى أشك كثيرًا فى انجلترا المخادعة الشريرة..

فى اللحظة التالية خرجت يد الإمبراطور المتحللة من التربة لتقبض على معصمها..

صرخت عبير فى هستيريا..

صرخت. صرخت حتى بح صوتها. كانت تندهش من النساء الهستيريات اللاتى يملأن الدنيا عندما يرين فأرًا، فإذا مشى على أقدامهن فقدن الوعى أو توقف قلبهن. لكنها مستعدة لفهم الموقف الآن وهى تشعر بيد إمبراطور ميت باردة تلتف حول معصمها..

سرعان ما فقدت وعيها..

ظلام.. ولا شىء سواه..

... .

لا تدرى كم من وقت مر وهى فى تلك الغابة خلف الغيوم، لكنها فتحت عينيها فأدركت أنها راقدة على فراش وأن هذا الرجل الذى يقيس نبضها هو د أنتو مارشى شخصيًّا.. وأدركت أن بعض ضباط بونابرت يحيطون بها..

حاولت النهوض لكن رأسها كان يدور بشدة..

قال الطبيب مهدئًا وهو يقدم لها كأسًا به دواء ما:

- «اشربى.. اشربى.. لا بأس.. هذا العرض متوقع لفتاة تقف أمام قبر حبيبها..»

شربت ومصمصت شفتيها ثم قالت:

- «أى عرض؟.. لقد رأيت ما حدث فعلًا..»

- «أى شىء حدث؟»

- «الإمبراطور أخرج يده من التربة وأمسك بمعصمي..»

ابتسم وقال فى شفقة:

- «هل رأيت؟.. هذا يدل على أن عقلك ليس على ما يرام.. إنها لوعة الفقد..»

لكنها كانت تعرف أن هناك فارقًا بين الهستيريا وبين الهذيان.. لا يمكن أن يتهمها أحد بالهستيريا وإلا حطمت أنفه.. كانت تهذى. هى متأكدة من هذا..

ولكن لماذا تهذى؟

نهضت من الفراش مترنحة فسقطت أرضًا لأن قدميها لم تطاوعاها.. تعاون الضباط على حملها للفراش ثانية، وعاد الدكتور يصب أشياء فى حلقها..

مرت أيام عليها فى هذا السقم..

لكنها بدأت تدرك أشياء غريبة..

هناك القيئ.. يحدث كثيرًا جدًّا وتوشك معه على أن تفرغ معدتها بالمعنى الحرفى. أى أن البواب والفؤاد سيخرجان من فمها.. سوف تتدلى المعدة من المريء على صدرها... الإسهال كذلك عرض مريب، ومعه تلك التغيرات فى أظفار يدها..

هناك طفح جلدي غير معتاد...

يظهر ويختفى فى موجات متكررة..

وماذا عن تورم قدميها؟ تصحو من النوم كأن هناك كيسين من الماء فى قدميها؟.. شكت إلى د / أنتومارشيه ذلك فأخذ عينة بول فى أنبوب اختبار، ثم قام بغليها.. النتيجة أن البول تحول لما يشبه بيضة مسلوقة.. هذا زلال كثير..

ما معنى هذا؟.. معناه أنها تفقد كليتها ببطء.. أضف لهذا الهلوسة التى رأتها على قبر الإمبراطور..

هنا خطر لها خاطر مروع..

هناك من يشك فى أمرها، وهناك من يدس لها الزرنيخ كما حدث مع الإمبراطور..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13– الترياق..

فى الواقع تدهورت حالتها أكثر فأكثر..

لم يعد لديها شك فى أن هناك من يسممها.. لكن من هو؟.. على كل حال هى موقنة من أن البريطانيين صاروا خارج دائرة الاتهام.. كذلك زوجة مونتولون.. ثم عرفت أن الضابط جورجو غادر الجزيرة منذ فترة طويلة، وهذا يعنى أنها مرضت بعد رحيله. شخص آخر يثبت براءته.. هناك ثلاثة أطراف بريئة على الأرجح..

صارت أيامها سوداء ولياليها قاتمة..

هناك غشاوة على عينيها.. وقدماها تتورمان أكثر فأكثر..

المشكلة الألعن هى التهاب الأعصاب الطرفية.. هناك تنميل شديد فى قدميها وكفيها مع فقدان شعور.. يمكن أن تلمس النار فلا تشعر... وأحيانًا لا تعرف أنها كانت تلبس حذاء أم حافية القدمين..

امتنعت عن الطعام تقريبًا.. أو حاولت أن تخلط طعامها بما يأكله الآخرون أو أن تبدل طبقها.. لكن هذا لم يجعلها أفضل..

قالت لأنتومارشى إنها مصابة بتسمم زرنيخ فضحك كثيرًا:

- «أنت هنا بين محبى الإمبراطور.. أخلص مواطني فرنسا.. كيف يجرؤ واحد على أن يؤذيك؟؟»

بالطبع هناك من يسممها بشدة.. لا شك فى هذا، وبالتأكيد من يسممها هو أكثر الناس بكاء وتأثرًا لرحيل الإمبراطور... هكذا تسير الحياة طيلة الوقت...

قالت فى سخرية:

- «هل تعتقد أننى مصابة بسرطان المعدة؟»

فكر بجدية فى الأمر ثم قال دون أن تهتز ملامحه، أو يوحى بأنه فهم الدعابة:

- «لا أرى هذا فأنت تزدادين بدانة!!»

لم تعلق وكتمت الشتائم التى تمنت لو توجهها له.. وأدركت أنها على الأرجح لن تعيش حتى تستكمل التحقيق.. القاتل يجيد عمله فعلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت راقدة فى الفراش وسط الهلاوس والعرق، وهى ترمق الشمعة المتراقصة.. كأنها ترمق خيط حياتها ذاته.. إنها فى مأزق فعلًا.. لو ماتت فى فانتازيا فسوف تموت فى عالم الواقع على الأرجح.. الإنذار الذى تلقته منذ تجربتها الأولى.. الآن هى تجربه على الطبيعة..

كان العرق يغمرها كما أن التهاب الأعصاب كان يعذبها..

سمعت من يتحرك فى الغرفة.. هل هو القاتل جاء ينهى مهمته بشكل أسرع؟.. لا بأس.. سيكون هذا أفضل... ربما كان أكثر رحمة...

ثم سمعت الصوت المألوف. صوت التك تتك تك تتك.. هذا قلم ذو زنبرك..

رفعت عينها إلى المرشد بقلمه المعتاد.. كان قادمًا عبر الظلال فى تؤدة، وهذه المرة كان يحمل محقنًا فى يده الأخرى وزجاجة دواء صغيرة..

- «هل جئت لتنهى حياتي يا مرشد؟»

جلس جوارها على الفراش وقال بطريقته الباردة:

- «تمنيت هذا.. لكن هذا ليس عملي للأسف، دعك من أن موتك يعنى أن أذهب للعدم فأنا من بنات أفكارك لو كان لى أن أقول هذا.. لقد جئتك بالـ BAL أو عقار دايمركابرول..»

ثم ضحك ضحكة سمجة وقال:

- «لاحظى أن هذه معاملة لا يلقاها سواك.. هذا اكتشاف لم يوجد بعد.. أمام البشرية مئة عام على الأقل كى تجده لكنى أقدمه لك برضا نفس.. لم يظفر بهذه المعاملة سوى تشرشل الذى أصيب بالتهاب رئوي أثناء الحرب فعالجوه بالبنسلين قبل أن يصير متاحًا عالميًّا..»

- «ما هو هذا الـ BAL»

- «الترياق المناسب ضد الزرنيخ كما أنه يستعمل مع تسمم الفلزات الثقيلة. الاسم اختصار لعبارة (المضاد البريطاني لغاز الليفيزايت) ... الليفيزايت هو غاز سام كان الألمان يملكونه وكان كثيرون يعتقدون أن هتلر سوف يستعمله فى الحرب، لذا اخترع البريطانيون هذه المادة.. (دايمركابرول).. وهى مادة مفيدة جدًّا فى علم السموم..»

ثم لوح بالمحقن:

- «العلاج يستمر 11 يومًا تقريبًا. حقنتان فى اليوم. نعطيها فى العضل..»

شمرت ذراعها وكشفت عن العضلة ثنائية الرأس، فقال:

- «لا.. العضل الآخر يا ماما!.. إرفعى ثوبك..»

آى ى ى ى!

كانت الحقنة مؤلمة جدًّا وأدركت أنها ستعرج لفترة لا بأس بها.. تذكرت كل كوابيس الطفولة عندما تقتحم الفصل تلك الشخصية البغيضة: ممرضة المدرسة، وهى تحمل المحاقن والعقار.. رائحة الكحول وتصاعد أصوات البكاء والعويل للتلاميذ الذين هم مجبرون على تلقى اللقاح.. مشهد إعدام جماعي شديد القسوة.. نفس المشاعر والخوف.. بعض التلاميذ كان يختفى تحت المنضدة آملًا ألا يراه أحد.. بالطبع لم يكن أحد يهرب..

لما انتهى الألم أو خف، قالت له وهى تدعك ردفها ليزول الألم:

- «هل عندك فكرة عمن يدس لى السم؟»

- «لا.. والأهم هو أننى لست واثقًا من أنك مصابة بتسمم.. دعك من أننى لست واثقًا من موضوع السم الذى قتل الإمبراطور أصلًا... هناك دراسات اتهمت ورق الحائط الذى يملأ هذا القصر بأنه يطلق أبخرة الزرنيخ.. هذا سبب تسمم الإمبراطور. مجرد خطأ بيئي بسيط..»

هتفت فى دهشة:

- «هل تمزح؟.. قصة قاتل الزرنيخ هذه خرافة؟»

قال فى حيادية:

- «قلت إن هذه إحدى النظريات الشائعة حاليًا.. ولا يمكن إثباتها إلا إذا بحثت عن الزرنيخ فى أنسجة كل من كانوا فى البيت مع بونابرت.. لو كان خطرًا بيئيًا فقد تلقاه الجميع، وهنا يبرز سؤال: لماذا بونابرت بالذات هو من ظهرت لديه الأعراض؟..»

- «أنا حالة تسمم أخرى. فهل يمكن أن...؟»

- «قلت لك إننى متعادل.. لست واثقًا من شىء.. هناك كذلك من يتهمون بعض الأدوية التى كان الإمبراطور يتعاطاها. هناك أدوية كثيرة فى علم الصيدلة تحوى الزرنيخ.. لابد من رج الزجاجة جيدًا قبل الاستعمال وإلا وجد المريض جرعة عالية جدًّا فى نهايتها.. هذه من أسباب التسمم الشائعة..»

ثم أضاف بعد تفكير:

- «لاحظى أنك حذرة فى طعامك.. لكن حالة التسمم مستمرة.. لو كان هناك من يسممك فأنا شغوف بمعرفة كيف يدس السم لك.. يبدو أنه بارع فعلًا...»

هذا صحيح.. توشك ألا تأكل شيئًا أو هى حذرة جدًّا فيما تأكل، وتبدل طبقها عدة مرات. فكيف؟

كان المرشد جالسًا وقد وضع ساقًا على ساق وعقد ذراعيه على صدره كأنه فى ندوة.. مفرود القامة بادى الثقة بالنفس.. أقرب للسماجة لو تجسدت فى صورة شخص...

برغم كل شىء كانت تميل له وتشعر أن غيابه مرعب..

نهضت من الفراش ولملمت ثيابها وودعته.. سوف تخرج لتمارس مهنة المحقق البوليسي من جديد، برغم أنه من الوارد أن تكون مخطئة من البداية..

إن رأسها يوشك على الانفجار مما فيه من أسئلة بلا جواب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- شعر وحساء..

فى القصص البوليسية البريطانية يكون القاتل هو رئيس الخدم دائمًا.. حتى لو لم يكن هناك خدم فى القصة.. حتى لو كان القتيل متسولًا على الرصيف، فهناك رئيس الخدم..

ماذا عن رئيس الخدم هنا؟ مارشان شديد الغرور والكبرياء..

هل هو من المشتبه فيهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم إن الإمبراطور التفت إلى رجل له ياقة عالية وشديد الغرور بدوره وقال:

- «المواطن مارشان.. أرجو أن تجلب لنا بعض النبيذ..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا مهم.. رئيس الخدم يجلب للإمبراطور النبيذ.. يجلب له الفاكهة.. تعامله مع الإمبراطور حميم جدًّا.. لو أن شخصًا يستطيع أن يضع السم للإمبراطور فهو رئيس الخدم طبعًا...

هكذا اتجهت إلى جناح البيت الذى يضم الخدم..

الحقيقة أن البيت كان يتحول إلى خراب مع الوقت.. الفوضى تضرب أطنابها وكل شىء يتلف.. مدام مونتولون كانت تتعامل مع البيت كأنه بيتها وتراقب كل شىء، فلما رحلت تحول المكان إلى قبيلة بلا زعيم..

هناك كان مارشان يقف موجهًا اللوم لوصيفتين لا تقومان بعملهما كما ينبغي، حسب ما فهمته عبير..

فلما رآها انحنى انحناءة سريعة.. حتى تحياته كانت أكثر احترامًا ولطفًا عندما كان بونابرت حيًّا، أما اليوم ففيها قدر ما من الوقاحة..

- «مدام..»

صحيح.. تنسى أنها متزوجة.. وأنها بولندية حسناء...

كانت تعرف أنه منفذ وصية بونابرت والأمين على أسراره، لذا قالت له:

- «مسيو.. كيف تنوى أن تنقل رفات الإمبراطور إلى الوطن؟.. أنت تعرف أنه أوصى أن يدفن قرب السين..»

قال فى قرف:

- «البريطانيون يرفضون.. هذه قضية سياسية لابد من أن تقضى فيها الدول.. أنا أقول وصية الإمبراطور لكنى لا أملك قدرة على تنفيذها..»

ثم رفع إصبعه كمن تذكر شيئًا وقال:

- «هناك شىء صغير.. أرجو أن تتبعينى..»

ومشى ومشيت معه إلى رواق طويل.. مضى يمشى حتى بلغ غرفة جانبية مغلقة فتحها ودلف للداخل. هل هذه غرفته؟.. ربما.. وقفت تنتظر بعض الوقت، ثم عاد وهو يحمل صندوقًا خشبيًّا صغيرًا.. فتحه فى حذر وأخرج شيئًا..

وضعته فى كفها وتأملته.. خصلة شعر مربوطة بشريط حريرى.. ما معنى هذا؟

قال بطريقته المتكبرة:

- «لن تأخذي الخصلة كلها.. سوف أعطيك ست شعرات..»

فى غيظ قالت:

- «هذا جميل.. أنت تعرف حبى للشعر، لكن أى شعر هذا؟..»

- «شعر الإمبراطور طبعًا.. من سواه؟.. لقد احتفظت بخصلات منه للذكرى..»

ناولها أربع شعرات فشعرت بقشعريرة.. هى لا تحب شعر الموتى كما لا بد أنك تفهم، دعك من أن هذه ليست حلوى يتم تقاسمها..

على كل حال فتحت قلادتها.. كل نساء هذه الفترة لديهن قلائد تنفتح، فوضعت الشعرات فيها.. سوف تنقل الخصلة التى معه الشعرات إلى الأحفاد، فلابد أن واحدًا منهم هو الذى أرسل الشعر لفورشوفود بعد مئة عام. وهذا يعنى أن رئيس الخدم ساهم بشكل ما فى إثبات الجريمة.. لكن فى ذلك العصر لم يكن هناك من يقدر على البحث عن زرنيخ فى الشعر أو الأظفار، فهو لا يشعر بالخطر..

لكن هل هو من ارتكب هذا فعلًا؟

سألته فى حذر:

- «لابد أنك كنت مخلصًا للإمبراطور وموضع ثقته. هل كانت لديه عادات غذائية معينة؟.. ربما كانت هى سبب إصابته بسرطان المعدة..»

أغلق الباب المفتوح وقال مغضبًا:

- «كيف لى أن أعرف؟.. أنا رئيس خدم ولا علاقة لى بطعامه أو شرابه..»

- «ولا شرابه؟»

- «ظننت هذا مفهومًا..»

نظرت حولها ثم بصوت كالفحيح سألته:

- «لكنه طلب منك بعض النبيذ أمامى؟»

- «لا أجلب النبيذ بنفسى.. أقدمه فقط.. هنا فارق..»

نظرت لعينيه وقالت لنفسها: هذا الرجل مخلص.. كل شىء يقول إنه مخلص صادق.. الحقيقة

كائن حى يمكن رؤيته يتحرك خلف حدقة عين الصادقين، بينما تظل حدقات الكاذبين معتمة خاوية..

كان هذا أغرب اختبار للكذب فى التاريخ، لكنه بالنسبة لها كاف..

عندما ابتعد الرجل أخرجت القائمة وبيد راجفة شطبت اسم (مارشان)..

عادت لمخدعها شاردة.. كان موعد العشاء يقترب، وهى على كل حال صارت تخشى أن تأكل هنا.. ربما تأخذ بعض الثمار من طبق عام يأكل منه الجميع، أو تنتقى من (سرفيس) جماعي.. لكنها لا تأكل أبدًا من طبق وضع أمامها أو كأس أفعم لها..

غيرت ثيابها.. فتحت خزانة الثياب تبحث عن قطعة ثياب معينة.. قطعة أنثوية حميمة لن أذكر اسمها لو سمحت لى.. هنا لم تجدها.. فتشت بعناية. هى لم تضعها فى الغسيل ولم تعطها للوصيفة..

شىء مستفز فعلًا... كل شىء يختفى هنا على هذه الجزيرة الغبراء..

نادت الوصيفة لتسألها أين ذهبت هذه القطعة، فشحب وجه الفتاة البلهاء.. هى لا تعرف ولا تفهم ولا تجد مبررًا ولا تشك و.... كفى!!!

لعنت الغباء وتركت الفتاة ترحل غير مأجورة..

ما علينا.. سوف تذهب إلى العشاء، وعندما ينتهى سوف تفحص أمر مونتولون.. أنه جدير بالشكوك بسبب علاقة زوجته بالإمبراطور.. هذا مشتبه لا بأس به..

دخلت إلى القاعة الكئيبة التى تنيرها الشموع.. عدد الطاعمين يقل بشكل ملحوظ.. لم يعد هناك هذا الصخب القديم المحيط بالأب (بونابرت)... صاروا أطفالًا سخفاء بلا كبير..

بحثت حتى وجدت مونتولون.. الضابط الوسيم القوى الذى هجر زوجته..

كان جالسًا يلتهم بعض الجبن فحيته برأسها.. نظر لها فى شىء من دهشة ثم حياها برشاقة، وبفروسية نهض ليقدم لها مقعدًا.

وضع النادل أمامها طبقًا من الحساء وكانت تعرف طبعًا أنها لن تمسه..

لما مر حاملًا طبقًا به بعض المعجنات يمر بها على الجميع أمكنها أن تنتقى قطعتين..

الأكل الجماعي.. هذه هى القاعدة..

الآن يجب أن تتفرغ لجارها.. كيف تبدأ؟.. ليت الحياة أكثر سهولة.. فى عالم مثالي يمكنك أن تسأل جارك: مساء الخير يا مسيو.. هل أنت من دس الزرنيخ للإمبراطور؟ لكن هذا ليس عالمًا مثاليًا للأسف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- دوامة شكوك..

لم يؤد الحوار لنتيجة ما.. دعك من أنه ليس من النوع الذى يحب الخمر ويثمل فتنحل عقدة لسانه.. يبدو أن للخمر نفعًا واحدًا هو أنك تستطيع بسهولة استجواب شاربها.. أى أنها تلعب دور بنتوثال الصوديوم فى عصرنا هذا..

تذكرت فقط عبارة الإمبراطور كاملة:

- «المواطن مارشان.. أرجو أن تجلب لنا بعض النبيذ. خذ المفتاح من الضابط مونتولون..»

لماذا نسيت باقى العبارة وشكت فى مارشان فقط؟

إذن الضابط مونتولون كان قادرًا على الوصول إلى الخمور.. بإمكانه أن يدس فيها ما يريد. وبالطبع للإمبراطور أنواع معينة فاخرة.. يمكن بسهولة انتقاء الزجاجة الأنسب..

ترى هل أنت الفاعل إذن؟

كيف للمرء أن يثبت؟

سألته وهى تلتهم بعض المحار:

- «هل كان الإمبراطور يفضل نوعًا معينًا من النبيذ؟»

نظر لها بعض الوقت كأنه يتساءل عن سبب تذكرها لهذا الموضوع، ثم قال فى حياد:

- «كان يفضل الأنواع المعتقة.. أنا لا أفهم أنواع النبيذ لذا كنت أعهد بهذا لبرتران صاحبي.. إنه ذواقة حقيقي..»

شعرت برأسها يدور.. إذن هو خارج دائرة الشكوك.. هل برتران هو الفاعل؟..

تذكرت أغنية شعبية قديمة: «هنا بنت حجازية.. شعرها ضانى ضانى.. لفيتو على حصانى..

وحصاني فى الخزانة.. والخزانة عايزة سلم

والسّلّم عند النجار.. والنجار عايز مسمار

والمسمار عند الحداد.. والحداد عايز بيضة

والبيضة عند الفرخة

نفس الدوامة اللولبية العجيبة التى لا خلاص منها.. شك يقود لشك يقود لدليل.. ثم دليل يقود لشك ثم شك آخر..

قال لها:

- «ألاحظ أنك لا تأكلين تقريبًا.. هل من سبب؟»

التسمم بالزرنيخ سبب كاف لكنها لم تقل هذا طبعًا..

قالت فى رقة:

- «ليست معدتي على ما يرام..»

- «احترسى يبدو أن جو هذه الجزيرة مسموم.. الإمبراطور لم يتحمله..»

وشعرت بنغمة ساخرة خفية فى كلامه، كأنه يتعمد أن يفزعها. طريقة طفولية نوعًا..

انتهى الطعام فحيته فى رشاقة.. وغادرت المكان عائدة إلى مخدعها..

سوف تستكمل تحرياتها مع د / أنتو مارشيه..

الطبيب الذى كان يعالج بونابرت.. الطبيب الذى شرّح الجثة وقال إنها مصابة بسرطان معدة. من أقدر منه على الخداع وتسميم بونابرت؟ ربما كان يعطيه الزرنيخ وهو يزعم أن هذا علاجه ضد الأعراض المخيفة التى يمر بها.. أقدر الأشخاص على قتل المريض هو طبيبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- «أنت هنا بين محبى الإمبراطور.. أخلص مواطني فرنسا.. كيف يجرؤ واحد على أن يؤذيك؟؟»

- «لا أرى هذا فأنت تزدادين بدانة!!»

- « .. نحن لا نفتح سمكة رنجة يا مسيو.. هذا إمبراطور فرنسا..»

- «لماذا استبعدنا أنتومارشى نفسه؟.. لاحظى أنه من قام بالتشريح.. وأنه صاحب نظرية سرطان المعدة؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان د / أنتو مارشيه فى الصباح منهمكًا فى جراحة صعبة..

هناك جندى قد أصيب بالتهاب الزائدة الدودية، لهذا جثم فوقه خمسة جنود ليقيدوا أطرافه، بينما تعرى الطبيب تقريبًا حتى يتحاشى مجزرة الدم القادمة.. وبالطبع كانت الجراحة فى مخزن عتيق، تمت إضاءته بمصابيح واهنة..

شق بطن الجندي بينما الأخير يطلق الصراخ بلا توقف. يبدو أن الأثير اختراع د. (مورتون) لم يصل هنا بعد.. وفى ذلك الوقت كان من ضمن طقوس رجولة الجندي أن يتحمل جراحة شنيعة كهذه..

- «اصمد!»

- «أوشكنا على الانتهاء!»

- «لا داعى للعض.. لو عضضتنى فلسوف ألتهم أذنك!»

صرخ الجندي:

- «تيت دو ميردا!.. لا أريد جراحة!.. أريد أن أموت بالزائدة!»

- «هذا ليس من حقك.. الجندي لا يقرر متى يموت أو يعيش..»

طبعًا لا يوجد تعقيم والجراحة تتم بيدين عاريتين لأن لستر العظيم لم يخترع قفازي الجراحة بعد. باختصار كانت مجزرة.. كأنها عملية ذبح ثور برى غير مفيد...

قالت فى كياسة:

- «يمكن أن أمر عليك فى وقت آخر يا دوكتيور!»

ليس هناك خطأ فى كتابة كلمة (دوكتيور) لكننا نحاكى النطق الفرنسي.. قال لها الطبيب وهو يكافح بأنامله حتى يوسع الجرح:

- «لا مشكلة.. تفضلي بالكلام يا مدام.. إنها جراحة زائدة عادية..»

- «هل هذا هو الروتين إذن؟»

- «جراحات أورام المخ تكون أعنف عادة لأننا نهشم جمجمة المريض بالمطرقة أولًا.. أرجو أن توجهى سؤاااا .... »

آآه

كان هذا هو المريض الذى أطاح بجنديين من فوقه، وغرس مخالبه فى عنق الثالث.. وتمسك الجنديان الأخيران بساقيه، بينما صاح الطبيب:

- «يا لك من مدلل!.. تتصرف كالأطفال!»

لم تر عبير شيئًا من تصرفات الأطفال فى ثورة رجل يجد مصرانه الأعور بين أنامل طبيب، وهو ما زال مستفيقًا!..

دكتور مورتون العظيم.. أين أنت.؟؟؟

قالت عبير وهى تحاول تفادى النظر للجرح والرجل الصارخ:

- «كنت أزور قبر الإمبراطور عندما خطر لى أن أكتب دراسة عن معاناته.. هل تذكر متى بدأت أعراض ذلك السقم المخيف؟»

تلقى لكمة فى ذقنه من الجندي فوجه له لكمة مماثلة انتقامًا.. بدا أن الجندي فقد الوعى، وكانت هذه فرصة ممتازة كى يواصل فتح طبقات العضلات.. ثم قال لها:

- «لا أعرف.. أنا جئت الجزيرة بينما الأعراض مستمرة.. وقيل لى إنها بدأت منذ أشهر!»

هنا اتسعت عيناها:

- «أى أنك لم تكن فى الجزيرة منذ البداية؟..»

- «بالطبع لا.. لقد سألوا عن شخص يتطوع بأن يُنفى هنا مع الإمبراطور فقبلت..»

هذا يغير كل شىء إذن.. الرجل جاء بعد ما بدأت الأعراض.. الواقع أنه جاء بعد قص خصلة الشعر التى لدى د. (فورشوفود).. هذا يخرجه من دائرة الاشتباه تمامًا..

سوف تشطب هذا الاسم..

هنا صرخ الطبيب في فرح:

- «وجدت الزائدة الدودية!.. لا تتركوا هذا الشيطان التعس..!»

وارتمى وسط سيقان الجنود يمسك بالزائدة قبل أن تهرب وراح يحاول قطعها، بينما الجندي الفرنسي يطلق السباب...

كادت تنصرف لولا أن سألها الطبيب ساخرًا وهو على الأرض وسط بركة من الدم:

- «هل تحسنت من التسمم؟»

قالت في برود:

- «نعم..»

- «قلت لك هذا.. كنت تتوهمين أعراض التسمم... بيني وبينك كل النساء في العالم يعشن هاجس أن هناك من يدس لهن السم.. هل تريدين رأيي؟.. أعتقد أنهن يرتبن في ذلك لأن لديهن استعدادًا مطلقًا لدس السم للناس.. الخائن يرى الخيانة من حوله..»

هزت رأسها موافقة وابتعدت بينما الصراخ والسباب يدوى من الجندي...

- «أنني **أموت!... فيف لا فرانس!!**»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16-أنت الفاعل..

تكلم يا مسيو برتران..

أنت الضابط المخلص الذى كان بونابرت يثق به..

للأسف أنت آخر واحد فى قائمة المشتبه فيهم الذين تم استبعادهم، وهذا يجعلك متهمًا مهما كان كلامك أو تبريرك..

لم تهاجمه بهذا الشكل طبعًا، لكنها حاصرته بأسئلة كثيرة حتى أنه صار عصبيًّا..

كان منهمكًا فى التفتيش عن سلاح الجنود الذين تحت إمرته، لهذا لم يكن لديه وقت يسمح بأن يرى فضولها..

قال لها فى ضيق:

- «هناك سفينة سوف تقلع بعد ساعات عائدة للوطن.. يمكنك أن تستعدي للرحيل لو أردت. بعدها سوف تجدين من ينقلك إلى بولندا..»

لم تكن مهتمة بالعودة الآن.. كانت تريد أولًا التأكد من شكوكها..

قالت له بلا مناسبة:

- «كنت أنت من ينتقى الخمور للإمبراطور..»

نظر لها محاولًا فهم ما تريد قوله، ثم أصدر أوامره للجنود بأن يتحركوا.. وقفوا مؤدين له التحية ودقوا الأرض بكعوب البنادق، ثم ابتعدوا بخطواتهم العسكرية..

أجابها فى نفاد صبر:

- «لا أعرف السبب وراء هذا السؤال.. لكني خبير فى الخمور، وأجيد انتقاءها. كان الإمبراطور يكلفنى بهذا العمل.. لكن لا علاقة لى بمخزن الخمور.. فقط كنت أطلب النوع الذى يحتاج له الإمبراطور..»

ثم أضاف وهو يبتسم:

- «المفتاح مع الضابط مونتولون.. أنا لا أملك نسخة منه..»

كانت عبير تنظر له مفكرة.. هل هو يكذب؟ أحد الرجلين يكذب.. برتران أو مونتولون. هذا يحصر المتهم بينهما كما هو واضح..

يجب أن تدخل مخزن الخمور بأى طريقة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلام وضوء الشمعة المتراقص...

العتلة والقفل على الباب..

لن يكون الأمر صعبًا.. هذا مخزن خمور وليست خزانة مصرف. أى أن أى قفل يصلح.. هكذا دست العتلة فى المزلاج وضغطت... قليل من الجهد لكنه كاف جدًّا...

انفتح المخزن...

قبو مظلم رطب.. وعلى الناحيتين هناك براميل مفعمة.. وهناك صفوف من الزجاجات السود الموضوعة فى قش... السقف على شكل أقواس ورطب جدًّا، حتى أن قطرات ماء تسقط من أعلى..

راحت تفتش بين الزجاجات.. لو كان هناك زرنيخ هنا فهو بالتأكيد فى زجاجة من تلك... لكن كيف تجدها؟.. هناك فتاحة.. هناك قمع.. إذن هناك من يفتح الزجاجات ويعيد تعبئتها أو يضيف لها شيئًا ما...

اصطدمت بشىء على الأرض.. شىء يشبه دلوًا صغيرًا..

انحنت بالشمعة تتفحص هذا الشىء.. إنه يخصها..

قطعة الثياب الحميمة التى اختفت من مخدعها.. إنها هنا بالذات. هناك من سرقها. هذا السائل الذى نقعت فيه. يمكنها أن تشم رائحة غريبة.. القصة واضحة. الوصيفة تتقاضي مالًا كى تسرق ثيابها.. هناك من ينقع هذه الثياب فى محلول به مادة سامة. على الأرجح هى الزرنيخ. هى لا تأكل شيئًا وحدها، ولا تشرب خمرًا ولا تتعاطى عقارًا ما. إذن هناك طريقة واحدة لتسميمها هى بثيابها... هكذا دخلت فى حالة تسمم كادت تفتك بها لولا المضاد البريطاني لمادة الليفيزايت BAL... يبدو أن الفاعل لم يرق له أنها لم تمت بعد لذا طلب من الوصيفة أن تأتيه بقطعة ثياب داخلية ليضمن أن تلتصق بجسد عبير..

من الذى فعل هذا؟

سمعت صوت الباب ينفتح..

استدارت مذعورة لكن وقت التراجع قد فات..

الباب مفتوح وقد تم اغتصابه، وهناك شموع مضاءة.. لا وقت لإخفاء هذا كله..

أما من دخل فقد كان مونتولون طبعًا..

لشد ما صار مخيفًا شرس النظرات.. عندما رأت وجهه أدركت على الفور أنه هو القاتل بلا شك..

كان يملك الهدف.. وكانت زوجته تخونه مع الإمبراطور، لكن هذه ليست جريمة غيرة.. بالواقع كان من عناصر قوة الرجل فى ذلك الوقت أن تكون لزوجته علاقة مع الإمبراطور. لا شك أنه ارتكب جريمته لأن البوربون قدموا له مبلغًا ضخمًا من المال.

كان البوربون يمثلون الملكية التى قامت ضدها الثورة، وقد فروا من فرنسا بعد الثورة ثم عادوا لها من جديد ليمارسوا كامل سلطتهم. إنهم أقرب شىء للفلول فى ثقافتنا المصرية. الآن استرد الفلول سلطتهم وصارت فرنسا لهم.. يجب ألا يعود بونابرت بأى ثمن..

قالت فى ذعر وهى ترى عينيه:

- «هذه قطعة من ثيابي!»

أمسك بالعتلة الثقيلة التى فتحت بها الباب وقال:

- «لقد قمت بتشبيع ثيابك كلها بمحلول سام، ولا أدرى كيف ظللت حية حتى اليوم.. كنت أتوقع أن يقودك البحث لمعرفة الحقيقة.. أما الآن فلن يجدك أحد... إن السفينة ستتحرك بعد دقائق.. سأعود إلى الوطن وأنت سوف تتعفنين هنا...»

قالت وهى تتراجع أكثر:

- «البوربون قد رشوك لتقتل الإمبراطور..!»

- «أنت تجيدين الاستنتاج.. لكن لا وقت عندي للرد للأسف.. يجب أن ألحق بالسفينة..»

وهوى على رأسها بالعتلة..

كان هذا كافيًا كى يسود العالم كله، ولم تعد تعرف أين هى ولا ماذا تفعل..

ظلام.. ظلام.. ظلام.. ظلام.. ظلام.. ظلام..

ظلام.. ظلام..

ظلام.. ظلام..

ظلام.. ظلام..

عندما فتحت عينها كان لعابها صمغيًا جافًا، وكان الظلام سائدًا... وكان رأسها يدق من فرط الصداع كأنه جرس كنيسة عملاق تم دقه، وراح يهتز بفعل موجات الرنين...

رنانات هلمهولتز.. متى قرأت هذا الموضوع فى دروس الطبيعة؟

حاولت أن تنهض لكن كل عظمة كانت تؤلمها..

إنها سجينة هنا.. لا شك فى هذا...

مونتولون هو القاتل يا دكتور فورشوفود. لقد اعترف بذلك.. لكن كيف أخبرك بذلك؟

سمعت صوت القلم يتكتك فى الظلام، ثم رأت المرشد واقفًا جوارها..

قال لها:

- «لقد أوذيت كثيرًا.. لكنى جئت لأخلصك... تك تتك تك..»

- «شكرًا يا مرشد.. أى..»

ثم أضافت وهى تسعل:

- «هل ستعيدنى لدكتور فورشوفود؟»

- «لا.. هو علم بالنتيجة وأدرك أن مونتولون هو القاتل ولسوف ينشرها فى كتاب وبحوث

هامة.. للأسف لن تصل العدالة الأرضية لهذا الوغد مونتولون، لأنه حبسك فى مخزن الخمور وفر على السفينة المتجهة إلى فرنسا.. سوف يصل هناك.. بينما تموتين أنت فى المخزن. ربما لن يجد أحد جثتك قبل قرون......»

- «جميل جدًّا.. وطبعا عاش فى تبات ونبات واستمتع بثمرة خيانته. هكذا تمضى الحياة للأسف خارج الروايات وشاشة السينما..»

قال باسمًا:

- «ليس دائمًا. يحكى التاريخ أن مونتولون طلق زوجته، ثم راح يرتاد الحانات ويقامر ويشرب الخمر كأسفنجة...»

- «لكنى لاحظت أنه لا يشرب..»

- «هو يزعم هذا.. معظم ما يقوله كذب. المهم أنه سيموت مريضًا مفلسًا بعد عام ولن يفيد من ثمن الخيانة.. وفيما بعد.. بعد أكثر من مئة عام سوف يكشف فورشوفود من فعلها.. طبعًا بمساعدتك.. لكنه لن يذكر هذا!»

ثم مد يده لها كى تتأبط ذراعه.. فنهضت مترنحة كأنها شربت كل الخمر الموجودة فى هذا المخزن اللعين.. لابد أن ساقيها صنعتا من عجين لم يدخل الفرن بعد..

يمكننا الآن أن نغادر سانت هيلانة.. يمكننا أن ننسى هذه المغامرة..

لقد عرفنا من قتل الإمبراطور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى القصة القادمة تخوض عبير مغامرة ممتعة فى عوالم الحلم.. سوف نتعلم الكثير عن النوم ذلك الكائن السحرى، وعن ميلاد الرؤى الذى نطلق عليه اسم (الحلم).

تمت بحمد الله

نادى المحاربين الجدد..

الآن نلتقى مع مزيد من كتابات القراء. وإن كنت لا أنكر أننى أتلقى أكثر من هذا.. لكننى أنتقى الأعمال القصيرة والتى تتفق مع مساحة هذا الجزء. دعك من أن النشر صار أسهل بكثير.. لهذا أبتعد عن الأعمال الطويلة نوعًا، والتى على الأرجح ستجد طريقها للنور فى شكل كتاب:

فاطمة على سالم - الإسكندرية:

أرسلت لى عددًا من قصصها القصيرة، ومعظم أفكارها غريب وبعضها صادم، لدرجة أنها تذكرني بتشاك بولانيك. المجموعة ستحمل اسم (قابل للكسر) لو اكتملت، لذا لن أنشر سوى عينة بسيطة للتذوق. هذه المرة وعدتني بتخفيف جرعة السوداوية نوعًا.. فلنر:

وريد

حاول إدخال سن المحقن فى عروقه دون جدوى، أدرك أن أوردته أصابها العطب، لكنه كاد يموت ألمًا دون أن يأخذ جرعته.

راحت يداه تهتزان كعادتهما مؤخرًا، خاصة كلما حاول أن يقاوم ارتعاشهما ليدخل سن المحقن فى أوردته، أغمض عينيه مقاومًا، فتحهما مرة أخرى فكان التدميع المصاحب لأعراض الانسحاب يحول دون رؤية سن المحقن، أضواء الشارع الجانبية انعكست على الإبرة بقوة، وكلما ركز بصره أكثر كلما تراقص سن المحقن أكثر.

شعر بعظامه تنخر من شدة الألم، أحس بجلده يتآكل ودبيب كالنمل يسرى فى مسامه، وأن رأسه لا وجود لها.

لم يعبأ بمسح أنفه الذى يسيل على ذراعيه التى غطتها آثار الحقن، أعياه البحث عن عروق حية فى ذراعيه، كثرة استخدام المحقن على مر السنين أصابها بالضمور.

نزع سرواله يبحث فى ساقيه عن عروق، يعلم جيدًا أن ذلك أكثر خطورة فربما يصيبه الشلل أو الموت، ربط حزام السروال على فخذه لتنفر عروقه، عبثًا راح يوخز جلده كيفما اتفق، حتى غرس السن الحاد فى وريده لينساب السائل الأبيض حاملًا إحساسًا دافئًا لذيذًا بالأمان والسعادة.

لم يعد ملقى فى زقاق مظلم يفترش الأرض المبللة بمياه المطر، لم يعبأ حتى بنزع المحقن الفارغ من ساقه، ارتسمت على شفتيه المتشققتين ابتسامة نشوة وتطلع للأفق، فقط... أصبح هناك.

راح نور الشمس يلسع عينيه، فتحهما على مضض، شعر بحرارتها تحرق ساقيه العارية، تمطى بجسده المبعثر، لا يندهش كثيرًا لافتراشه الزقاق، لم يعد يذكر آخر مرة افترش فيها فراش.

فى نور الصباح نظر حوله ليكتشف كم أخفى الظلام من قذارة، وحاويات نفايات ممتلئة حتى حافتها، سمع خطوات تعبر الزقاق الضيق، كانت امرأة تحمل كيس نفايات، أطلقت صرخة وهى

تراه دون سروال، بالرغم من أنه ما زال يرتدى سرواله الداخلي إلا أنها قذفته بكيس النفايات الذى تمزق على وجهه وأسرعت هاربة.

لم يكن قد تحرك قيد أنملة، لم يكن حتى يملك الرغبة أو القوة ليؤذيها، تخشب جسده، تحركت عيناه تنظران للقمامة التى أصبح جزءًا منها، زجاج متكسر، مناديل متسخة، بقايا بيض فاسد، وأحشاء دجاجة، كل هذا أصبح يغطيه بالكامل، شعر بالقيء من معدته الفارغة يرتفع لفمه، فى اللحظة التالية كان يتناول قطعة زجاج ليمزق أوردته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فاطمة على محمد سالم..

فعلًا قصة وديعة ورقيقة يا فاطمة!.. بالمقارنة بالقصص السابقة لك هى قصة أطفال!.. لا يوجد سوى مخدرات وقيئ وانتحار بقطعة زجاج.. لكن لا تنكر أنها ساحرة وسيطرتها على اللغة جيدة وعرض قضيتها واضح ومتماسك..

ماذا عن القصة التالية الأكثر وداعة؟

مجرد شعر

شاهدت الفيلم المعروض على التليفزيون، بالرغم من تكرار مرات عرضه إلا أنها كانت تشعر بالذنب إذا تجاهلت فيلمًا لنجمها المفضل دون مشاهدته للنهاية، كأنها خانت حبها له.

ثم تخللت بأناملها خصلات شعرها الشىء الوحيد الثائر فيها، أحبت أن تتخلله بأصابعها برتابة تساعدها على التأمل.

- سوف أقصه.

رنت الكلمة فى ذهنها كفكرة مجنونة، دون تردد تقدمت للمرآة التى لا تستعملها إلا نادرًا، تأملت خصلاته الجعدة بنظرة تقييم بارد، ليس طويلًا كما تتمنى. منذ كانت فى السادسة وهى تأمل أن يكون شعرها طويلًا كابنة الجيران الفخورة بجديلتها الطويلة، يذكرها الشعر الطويل دائما بالأميرات التى يزينهن التاج فى قصص الأطفال ذات الرسوم الملونة.

- لن أقصره بل سأقصه كله مثل الفتيان.

خطر ببالها كم من الوقت قد يستغرقه ليستعيد طوله من جديد ستة أشهر ربما عام.

- لا يهم.

قالتها بلامبالاة أدهشتها نفسها، امتدت أصابعها مرة أخرى لتتحسس خصلاتها الناعمة ذات لون يجمع ما بين البنى والأشقر، تابعت يداها المسيرة لتتلمس قسمات وجهها ثم مدت كلتا يديها لترفعه وتتأمل وجهها مرة أخرى كأنها قصته. لن يطرأ تغيير كبير فهى دائمًا ما تجمع جناحى شعرها عن وجهها فى شريط مطاطى.

التمعت عيناها وذهبت لتحضر المقص. تسللت لغرفة أمها المريضة دائمًا حتى لا توقظها وعبثت يدها فى الأدراج بحثًا عنه ولم تجده، بحماس أكبر سارت للمطبخ وراحت تبحث فى الأدراج تفتحها وتغلقها فى عنف حتى وجدته.

مقص المطبخ الكريه الرائحة الصدئ قليلًا وامتدت يدها فى بطء وأمسكته بكلتا يديها وذهبت للمرآة، تعلقت عيناها بشعرها ثم امتدت يدها لتمسك خصلة ثم تركتها، غاصت أصابعها فى شعرها لتبحث عن خصلات مخفية أمسكتها بين أصابعها ومدت المقص ببطء وقصتها. رن صوت القص فى أرجاء الحجرة كصوت منبعث من مكبر صوت. راقبت الخصلة التى استلقت بين يديها وفاجأها عدم إحساسها بالخسارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفعت عينيها مرة أخرى وامتدت يدها لتمسك خصلة أكبر راحت تملسها أكثر تحاول أن تعطي لنفسها الفرصة لتتراجع ثم امتدت يدها اليمنى بالمقص الصدى لتقصها.

نظرت للخصلة التى لم تصبح قطعة منها.

رفعت عينيها لوجهها تفكر فى شكلها عندما تصبح صلعاء!!!!!! ربما ليست صلعاء تمامًا أن يكون طوله طول أصغر أصابعها.

ترى ماذا سيكون رد فعل أبيها على ذلك؟ داعبت ابتسامة فمها وهى تتخيل ثورة غضبه وأيضًا.. إحساسه بالخجل منها.

ثم ماذا..... متى أحس بالفخر أصلًا؟ قالتها وعيناها تمتلئ بالدموع وهى تجد نفسها بالرغم من كل ما صنعت من أجله بالرغم من أنها لطالما حاولت ألا تشعل فتيل غضبه مهما ألقى من ملاحظات عن ملبسها وعملها حتى أسلوب تخاطبها مع صديقاتها.

كانت تسعى دائمًا لإرضائه لتجعله فخورًا بها لطالما تتبعت ملاحظاته ونفذتها.

حتى عندما تخطت سن المراهقة بخمسة عشر عامًا.

إلا أنها ما زالت تتألم إذا أبدى امتعاضه من شكلها وملبسها حتى أنه علق على تلك التجعيدة التى تختبئ بجوار فمها ولا تظهر إلا عند الابتسام.

لطالما حاولت ألا تبتسم خاصة لرجل حتى لا يسئ الظن بها وحتى لا تتحول ابتسامة بريئة لابتسامة داعية. هكذا كانت تفكر أنه يجب على الفتاة المحترمة ألا تعبث مع الفتيان ربما لن تكون المحبوبة لديهم ولكن سوف يحترمها وإذا لم تظفر بمحبته سوف تظفر باحترامه والاحترام أهم؛ لأن احترام الفتاة هو سمعتها وسمعتها هى سمعة أبيها..... حتى لو تشاجرت معه وأعلنت بالكلمات أنها لن ترتدى إلا ما تفضله أصلًا وأنها لن تبدل زينتها وأن ملاحظاته لا تعنيها إلا أنها لطالما نفذتها بالفعل.

ولذلك لطالما ارتدت القمصان طويلة الأكمام الفضفاضة وحتى الألوان تحاول ألا تكون ملفتة تحرص دائمًا على أن تكون نظيفة ومهندمة.

وإذا ما قابلتها نظرات أبيها قبل خروجها فى طريق للعمل ولم يعلق بأى كلمة كانت تشعر بالانتصار وأنها أصبحت شخصًا يفخر به.

ولكنه ليس كذلك.

شعر المرأة هو تاج جمالها وأنوثتها ولكنها لم تستخدم أنوثتها قط بل حتى لم تحدد فهمًا معينًا لمعنى الكلمة.

تساءلت أتراها خطوة كبيرة قص شعرى؟

أتراها خطورة كبيرة قص شعرى؟

التمعت عيناها بالتحدي... وأكملت القص صوت المقص الخشن على الخصلات الناعمة أصبح كموسيقى خلفية وراقبت الخصلات وهى تسقط على الأرض الواحدة تلو الأخرى وراحت تشعر بالتحرر.

مع كل خصلة تسقط ينعقد حاجباها ويتضاعف إحساسها بالتحدي والتحرر.

لن أدع رأيه يوثر فى... راحت تردد الكلمة مع صوت جز المقص لشعرها.

لن أدع رأيه يوثر فى.

التمعت عيناها بالدموع التى لن تدعها تغادر حدقتها.

وأخيرًا.. تأملت رأسها العديم الشعر وشعرت... بالقوة الحرة.

ثم سارت إلى كرسيها المفضل لتتابع الفيلم المذاع لنجمها المفضل رغم تكرار عرضه.... . . ..

وتنتظر عودة أبيها برأسها الصلعاء وزهرة بيضاء خلف أذنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة جميلة وقوية وتناول جديد.. لكنها طالت منك يا فاطمة. لو قصرتها أكثر لصارت أكثر إحكامًا. ثم إن استعمالك لعلامات الترقيم خطأ غالبًا.. أرهقتني جدًّا فى التصحيح وأنا أعرف أن مصححنا اللغوي سيقضى وقتًا صعبًا معها.

تعالوا إلى قصة ثالثة لأنني فعلًا شغوف بأعمالها. قلت لكم إنها أعمال غير تقليدية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قدح قهوة

لم تتخيل أن يكون الخروج من أجل قدح من القهوة يتطلب كل هذا الاستعداد النفسي والشجاعة، حتى إنها أبدلت ثيابها مرتين وأصلحت وشاح رأسها والآخر الذى تضعه حول كتفيها عدة مرات. تعلم أنها ستجالس نفسها فقط، ربما تكون المشكلة فى الخروج وحيدة لأول مرة.. فذلك مكانها الأول الذى ستقصده بعد خروجها من المستشفى.

هبطت الدرج ببطء وحذر أصبح من عاداتها مؤخرًا، تريثت للحظة قبل أن تخطو خارج البناية، لوهلة صفعتها الشمس اللافحة بالخارج... وقفت فى مواجهتها لدقيقة كاملة، يرحب جسدها المتعافى بإحساس دفء لم يكن يعبر نافذتها بالمستشفى.. كأنها شمس جديدة لم تتذوقها من قبل. عقدت يديها حول صدرها بحذر (مكتسب) وتوجهت مطأطئة الرأس نحو المقهى.

تطلعت لواجهته الزجاجية تتأمل الرواد الذين التفوا بسلام وهدوء حول الموائد المتناثرة مجتمعين وفرادى... ارتسمت على وجوههم ابتسامة راضية وقد انهمك أغلبهم فى الحديث.

لمست الوشاح الملتف حول رأسها دون مبرر، شدت سترتها السميكة والتقطت أنفاسها.

تدخل المقهى... هل يتطلع إليها الناس وهى سائرة؟ هل يفصح مظهرها وطريقة خطوها عن أنها تضع ثديًّا صناعيًّا؟ لم تجسر على رفع رأسها لتتأكد، فقط توجهت منكسة الرأس بخطوات سريعة بدت لها كالأبدية نحو طاولة منزوية، جلست مولية ظهرها للطاولات الأخرى، ارتجفت وهى تشد جانب سترتها الأيسر دون داع، نسيت نعمة مخالطة الناس الطبيعيين حتى دون محادثاتهم... إلا أنها شعرت بنظراتهم الوهمية مرة أخرى... فكرت فى الالتفاف لتكسر ظنها إلا

أن حقيقة شكوكها ستدمرها.

ربما فكرة تناولها لقدح من القهوة وحدها فكرة سيئة، هناك رف كامل من علب القهوة بالمنزل لعلها سارعت للخروج دون أن تتماثل نهائيًا للشفاء، ربما لم يفت الوقت للرحيل... أمسكت بيد مقعدها تستند عليه استعدادًا للنهوض... تسلل صوت النادل بأدب بارد يسألها عن طلبها؟ كان أول رجل يخاطبها بخلاف طبيبها وعائلتها، تسارعت أنفاسها، أمسكت بجانب سترتها تشدها بقوة، ارتعشت بالرغم من حرارة المكان، ارتفعت ضربات قلبها حتى كادت تصم أذنيها، تطلعت للقائمة بسرعة حاولت أن تتذكر ما تريد شرابه، ذكرت أول اسم مدون على قائمة المشروبات غمغمت بتلعثم أضطرها لأن تردد اسم المشروب مرتين.

زفرت بقوة حين انصرافه كما لو كان يمتص روحها، أصلحت وشاح رأسها، ضمت جانبى معطفها وأصلحت من وشاحها للمرة العاشرة فى نفس الدقيقة... عقدت ذراعيها ببطء حتى لا تتألم ثم فكتها مرة أخرى.

هل من الطبيعي أن يجلس المرء معقود الذراعين أم وضعهما على الطاولة أكثر طبيعية؟

نظرت ليدها الخالية من (دبلتها)... إلا أن إصبعها الثالث مازال يحتفظ بأثرها... وضع أمامها كأس العصير، تناولته بسرعة دون أن تميز طعمه.

التقطت حقيبتها لتبتلع أقراصها ثم خشيت أن يبدو تصرفها غريبًا..

وضعت حفنة نقود على الطاولة.. احتضنت حقيبتها بقوة مسارعة للخروج من المقهى دون أن تلتفت خلفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا الأسلوب يدعى (وجهة النظر الدرامية) وهو خاص بهيمنجواى، حيث يمكنك استنتاج أفكار الشخصية، وسياق المشكلة من مشاهدة التصرفات بلا ثرثرة كثيرة (نظرت ليدها الخالية من دبلة). أفكارها غير تقليدية وعينها حساسة فعلًا. طبعًا هناك قصص عجيبة مثل مشاعر ترانفستايت (أى رجل مولع بارتداء ثياب النساء) ... قلت لكم أن لدينا مشروع تشاك بولانيك مصري وفتاة كذلك!. كما أنه من الواضح أن مفردات عالم الأنوثة ترهقها وتحيرها..

قابلت فاطمة لأول مرة مع رفعت إسماعيل فى كتيب أسطورة الظلال، وقد رد عليها رفعت هناك، وعرفنا أنها سكندرية تدرس التجارة حاليًا وفنانة تشكيلية (نحاتة) لها عدة معارض، وعلى ما أذكر هى القارئ الوحيد الذى قدم لى قطعة حجر ما زالت للذكرى عندما قابلتها فى مكتبة ألف السكندرية.

فاطمة موهبة لا شك فيها، ودعني أؤكد لك أن أعمالها النحتية لا تقل روعة..

على ذكر ندوات مكتبة ألف.. هناك حفل توقيع تلقيت فيه هدية من الشيكولاته، لكن الصديقة التى أهدتها لى دست فيها حرف A من ذهب. لا أعرف أين هى ولا اسمها لأعيد لها هذه الهدية الثمينة.. سأعيد لها الحرف الذهبى لأنني لا أستحقه طبعًا، لكن سأحتفظ بالشوكولاتة لأسباب عاطفية تتعلق بالفجع... أ بالمعدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صديقة أخرى هى سمر أحمد ترسل لى فصلًا من روايتها الوليدة، وتسألني أن كان هذا الفصل يستحق أن يتم استكماله لرواية:

الساعة العاشرة صباحًا... معهد (...) التعليمي... معامل الكلينيكال باثولوجي.. درجة الحرارة 90 فهرنهايت.

الجو حار وخانق معبق برائحة العرق، كميات مهولة من البول والبراز والبصاق تنتظر الفحص وكتابة التقارير، لا أستطيع التركيز، عين على الساعة وعين على الباب ولا أجد عين ثالثة للعينات، أسمع صوت دقات كعبها العالي يقبل الملاط ويتركه طامعًا فى المزيد، أراها أخيرًا وقد برزت من الباب وتخطو مقتربة.

من هذا الذى يرتدى ملابسها!!! إنها هى نفسها ولكن منذ متى كان لها هذا الأنف الضخم والعيون الحمراء البارزة والبشرة الصفراء، هنا استنتجت بذكائي المعهود بأن تلك هى آثار البكاء وقلة النوم وعدم وجود بال رائق لمساحيق التجميل!!!

اقتربت منى ونظرت لى بعيون متورمة محمرة يحيطها السواد، ولمحت خيطًا من الدموع يسيل من عينيها وأنفها، همست بصوت مبحوح (خلاص يا عماد مش موافقين، ماما رافضاك تمامًا) شعرت للحظات بامتنان لتلك الأم العظيمة التى منعتني من اقتراف تلك الجريمة البشعة بحق البشرية، ثم أدركت الأمر وتذكرت أننى حقًّا أحبها ومنذ لحظات مضت كنت لا أطيق الحياة بدونها، (ليه) (زى متوقعت طبعًا رافضة أنى أسيب هنا وأروح أعيش معاك فى بلدك وشارطة أنك تجيبلى شقة هنا) (أجيبلك شقة هنا إزاى منا لو كنت أعرف كنت جبت لنفسى ورحمت نفسى من مشوار كل يوم) (ماما بتقولى أنتى طول عمرك عايشة فى المعادى إزاى عايزانى أوافق تسيبى هنا وتروحى تعيشى فى قرية من قرى المنصورة، يا ريتها كانت المنصورة نفسها كانت وافقت) (أنتى عارفة الشقة فى المنصورة بكام النهاردة!!!) (......) (يعنى أنتى عايزانى أسيب أمى وإخواتى البنات وآجى أعيش معاكى هنا، أنا حتى لو معايا فلوس مقدرش أسيبهم وآجى أعيش هنا هما مالهمش غيرى) (مانتا كل يوم بتيجى هنا هى هتفرق أية يعنى) (لا تفرق كتير كفاية إنى أرجعلهم كل يوم ومش ببات هنا غير يوم النباطشية).

(بص يا عماد مفيش قدامنا غير الحل ده لو عايزنى يبقى تجيبلي شقة هنا) (أجيب أزاى ومنين لو جبت هتبقى إيجار ومش هنتجوز قبل ماجوز إخواتى البنات وهجيب أمى تعيش معايا) (يبقى أنت كدة جبت أخرها يا عماد) ابتعدت وكعب حذائها يصفع الأرض ويدق دقات صاخبة، لعنة الله على من اخترع الكعب العالى تلك الدقات تكاد تصيبنى بالجنون، هل ترتدى فى قدميها حذاء أم هاون!!! كما أن صوت دقاته عجيب فهو يشبه...

ترررررررررررررررررن جرس المنبه!!!!!!

الساعة الخامسة صباحًا... قريتى بالمنصورة

الحلم العاشر فى تلك الليلة السوداء، منذ أن أنغلق هاتف لمياء الأمس بعد مقابلتى مع والدتها وأنا أشعر أن الأمر لا يبشر بالخير، يا ترى ماذا فعلو بها هل قتلوها ليغسلو العار على طريقة أهل الصعيد، لكن أى عار هذا؟ إن لمياء من أسرة منفتحة وعدد أصدقائها الشباب يقارب عدد أعضاء مجلسى الشعب والشورى.

لمياء القطة الأنيقة المرتعبة من كل شيء، وجدت نفسها فى هذا التخصص الكريه مثلى هربًا من فقر التقدير، فجأة وجدت نفسى وقد تحولت من البيه الدكتور لبتاع المعمل، كذلك وجدت لمياء نفسها وسط مستنقع من البول والبراز والدم والبصاق ومطالبة بالتشمير عن ساعديها والخوض فيه، كيف تخوض قطة شيرازية شقراء ترتدى الشاموا فى هذه القاذورات؟!!!! بالطبع كان لا بد من الطبيب الأسمر الغلبان القادم من الأرياف أن يهب لإنقاذ الأميرة من المستنقع الشرير والخوض فيه حتى غطت الطحالب عويناته، لكنه خرج منه وقد فاز بقلبها وبابتسامة عذبة وكلمة ميرسى كافلة لتطهيره من خطاياه.

لعنة الله على تلك الكلية الظالم أهلها كيف ترتادها زهرات يانعات بسكوتات مثل لمياء لتخرج منها لتمارس تلك التخصصات العفنة وتتحول مع الوقت إلى أبله عطيات التى تتعارك مع المرضى وتتبادل السباب البذىء وتمسك العينات بيدها المجردة ولو كان بإمكانها لتذوقتها توفيرًا للوقت!!!

كيف أنه لا يزال هناك البعض ممن يرتاد تلك الكلية مبتسمًا أملًا بغدًا رائع ومستقبل مشرق يغره مجموع عظيم بالثانوية العامة يكفيه لشراء ثلاث كليات وبعض المعاهد.

لماذا ارتدت تلك الكلية؟!! حقًّا لا أعلم فلقد تركت كل ذكرياتى وأحلامى على بابها كما يترك مرتادو جحيم دانتى خلفهم كل أمل، كل ما اذكره هو 99% وأب فخور يكاد أن يطير فرحًا ويقول لى فى حبور (هايل يا عماد كدة تقدر تدخل طب وأنت حاطط رجل على رجل) (طب ليه يا حاج) (أمال يعنى عاوز تدخل كلية ايه فى حد يكون جايب مجموعك ويدخل أى كلية تانية غير طب) وكأننى لو دخلت كلية تطلب 90% فإن باقى المجموع سوف يحمض وهذا حرام طبعًا فلابد من استغلال المجموع حتى آخر قطرة كما تقوم أمى باستغلال بواقى الطعام فى إطعام الحيوانات بدلًا من رميها لأنه طبعًا حراااام.

لماذا كنت ضعيف الشخصية ولم أقم بالاعتراض، وقتها حقًّا لم أكن أعلم ما أريد كنت أدرس بالثانوية العامة كمن يجتر الطعام خوفًا من المجاعة القادمة، كنت أحشر المعلومات حشرًا حتى كدت أطفح بها فأنا فى أمس الحاجة لكل ربع درجة كما أخبرنى والدى، لم يكن عندي لحظة واحدة للتوقف والتفكير لماذا كل هذا، وماذا سيحدث بعد الثانوية العامة، هذه من الأسئلة الملحدة المحرمة على كل طالب ثانوية فلابد من عدم تضييع الوقت بتلك التفاهات، لو عاد بى الزمن لالتحقت بكلية الشرطة ولتذهب بواقى مجموعى إلى الجحيم حتى لو أطعمتها أمى للفئران.

أفقت من شريط الذكريات الأليم على ألم ممض فقد جرحت ذقنى بالموسى أثناء الحلاقة، ورأيت قطرات الدم تتساقط على الحوض الأبيض الذى حال لونه من القدم، هرعت إلى زجاجة عطر ردىء ملقاة بركن الكومود وأسرعت بتطهير الجرح، منذ أن التحقت بهذا التخصص وأنا أرى الكون من حولى ميكروبات هائمة، صرت موسوسًا وبشدة فيما يخص الجروح والتطهير، ضمدت الجرح بلاصق طبى على أن أزيله قبل دخول المعهد حتى لا تظننة لمياء فتى رقيع لا يتحمل جرح موسى.

ألقيت نفسى بداخل سروال جينز ملقى على الشماعة والتقطت تى شيرت قطنى من الغسيل وارتديته على عجل، لا وقت الآن للقمصان المكوية التى تتكسر من الشعبطة بالمواصلات والوقوف بالقطار وتمتلئ بالعرق وتحولنى مع الوقت إلى فواحة بشرية خبيثة الرائحة.

الساعة السادسة صباحًا... محطة القطار..

مر القطار من أمامى وكعادته فى غير المحطات الرئيسية فهو لا يتوقف بالمعنى المفهوم إنما يبطئ من سرعته قليلًا، والمطلوب منك أن تقوم بكل لياقة وخفة باستغلال تلك اللحظات الثمينة والقفز إلى القطار، دون أن تسقط تلك الحاجة القافزة بجوارك أو تهرس نفسك تحت العجلات.

وجدت ولله الحمد ركنًا أستطيع ثنى ركبتى به، فاتخذت وضعًا يشبه الجلوس وتظاهرت بالراحة، وحاولت بكل الطرق الممكنة والبهلوانية تفادى أقفاص الدجاج المتطايرة من كل صوب على أكتاف الراكبين، الجو حار وخانق ومعبأ برائحة عرق وأقدام خبيثة، اللعنة على مخترع الجوارب لا أجد لهذا الاختراع نفعًا سوى إنتاج الغازات السامة.

حاولت الاسترخاء قليلًا وأخذ قسط من النوم أسد به بعض أقساطى المتراكمة منذ سنوات، لماذا لا يأتينا هذا اللعين حين نطلبه، يشبه الفتاة اللعوب كلما توددت لها نفرت منك فإن تركتها جاءتك راكضة، أخرجت هاتفى المحمول لأجد به رسالة أن الرقم الفلانى متاح الآن يمكنك الاتصال به، اتصلت سريعًا بلمياء علها ترد على وتشرح لي سبب قتل أهلها لها!!! تلك البلهاء لا ترد وصوت الكول تون المزعج يكاد أن يصيبنى بالصمم، أعدت الاتصال فكنسلت!!! هنا بدأ القلق الحقيقى يساورنى واضح أنها لم تقتل بعد إذن هو الأسوأ....

وصلت للمعهد أخيرًا بعد أن تخطت الساعة حاجز التاسعة بقليل، أشعر وكأننى لص أحذية تم الإمساك به فى مسجد ممتلئ وقت صلاة الجمعة، كل مفصل بجسدى يئن، أكاد أجزم أننى قد جربت الشعبطة والقفز والتدلى من كل وسائل المواصلات بالقاهرة فقط فى خلال بضعة أشهر من استلامى لتلك النيابة اللعينة.

وقفت على باب المعمل ألهث ككلب ركض أميالًا عبر الصحراء الغربية، واستطعت اللحاق بدفتر الحضور بأعجوبة قبل أن يقوم محمد مسعد بممارسة هوايته المحببة فى التشطيب، ارتديت معطفى الأبيض الذى أهملت منذ سنوات كيه وتنظيفه وتحول مع الوقت لملهى ليلى للميكروبات قليلة الحياء، أتذكر أيامًا بعيدة باسمة فى بداية عهدى بالكلية المحروسة، كنت أحرص على غسيل وكى المعطف يوميًّا بنفسى، حتى أننى نقشت حروف اسمى الأولى عليه، كنت أعتقد أننى سأتخرج من الكلية أبو قراط العصر والأوان وأنه سيتم حفظ معطفى مع رفاتى فى متحف العلوم حيث يتأملها طلاب العلم مبهورين غير مصدقين أن العلامة النابغة عماد بن محمد الحفنى كان جلده يلامس هذا الشىء منذ قرون.

ههححححححححححح تنهدت وأغلقت ماسورة الذكريات وتذكرت المصيبة التى غفلت عنها، لمياء... أنتى أيتها الخرقاء لماذا لا تجيبى هاتفك، رأسى يكاد ينفجر من الكول تون المزعجة التى تصلح منبهًا أكثر من منبهى المخنث الرقيع، أكاد أجن قلقًا، أقسم أيتها البلهاء أن اقتلع لسانك إن لم يكن لك مبررًا مقنعًا لعدم الرد.

ظهر لى مصيلحى من مكان ما بفم ملئ بالفول وأنفاس معبقة بالبصل الأخضر قال لى وهو يلعن سلسفيلى فى سره نظرًا لمقاطعتى وجبته الشهية (تحب أجيبلك العينات يا دكتور عماد؟)

مصيلحى هو أحد أهم فنى المعمل، له خبرة بالمجال أكثر من طبيب استشارى حاصل على زمالة جامعة بروروم الدولية، فهو هنا منذ أكثر من عشرين عامًا ويمكن أن نقول بلا مبالغة إنه

يستطيع معرفة ما بالعينة بالعين المجردة دون الحاجة لفحصها، لكن بطبيعة الحال فإن عمله يقتضى أن يقوم بتحضير العينة وأقوم أنا بالفحص وكتابة التقرير.

أشرت له بأن نعم على الرغم من عجزى فى تلك اللحظة عن التمييز بين البراز والبصاق، هنا سمعت صوت محمد منير يتردد بالرواق من بعيد، أدركت أنها قادمة وهذا صوت هاتفها الذى بح صوته وأبت أن تجيبه، سمعت طرقات الكعب العالى تقبل الملاط المحظوظ وتخيلت الشامواه وهو يتمايل فوق كعبين بارتفاع 12 سنتيمتر.

كان الواقع أقل بشاعة من الحلم فقد كانت لا تزال جميلة إذا استثنينا عيون ضفدع رضيع وأنف ينافس أفخر ثمرة بطاطس، من الجلى أن ليلتها لم تكن سعيدة للغاية وإنها بكت حتى كاد أن يصيبها الجفاف، اقتربت منى ولمحت خيطًا من الدموع يسيل من رموش بلون الذهب، لعنة الله على الماسكرا السوداء لماذا كانت تلك الحمقاء تصبغ هذا الجمال، انفرجت شفتاها وبدأت بالحديث، كلماتها لم تختلف كثيرًا عن الأحلام العشر السوداوية، فقط تم استبدال جملة (ماما بتقول إنتى طول عمرك عايشة هنا) (أنا طول عمرى عايشة هنا مقدرش أسيب المعادى وأعيش معاك فى قرية مقدرش أعيش فى بيت عيلة مع أمك وأخواتك مقدرش أسافر معاك بالقطر وأركب الأتوبيس ماما معاها حق لا تجيبلى شقة هنا لا كل واحد يروح لحاله)

جرس المنبه لماذا لا يرن هذا اللعين حين نطلبه، هل سيقرر مصيلحى الآن المشى على الحائط أو الطيران كفيلم ماتريكس، أم هل ستخرج من العينات كائنات هلامية تشبه العناكب وتنقض علينا؟!، أتمنى لو أرى شيئًا يثبت لى أننى لا أزال بفراشى الدافئ بقريتى أغط فى نوم عميق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما رأيكم؟ الأسلوب طريف وفيه طلاوة.. لدى خطة القصة كاملة وهى ذات طابع بوليسى اجتماعى.. سوف تحدث كوارث لا أجرؤ على ذكرها حتى لا أفسد الرواية. لكنى متحفظ على أن تكون المحاولة الأولى لأى صديق هى رواية. إن الرواية فن معقد مراوغ يحتاج لأن يسيطر المرء على عدة مفاتيح. أهم مشاكل الرواية هى أنه لا توجد قواعد واضحة.. هذه حرية مزعجة. حرية تشعرك أنك عاجز عن عمل شىء. ما زلت أقترح أن يبدأ كل موهوب بالقصة القصيرة. هذا رأيى.. فما رأى القارئ؟

شكرًا لكم وإلى لقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفـهرس:

روايات مصرية





أحلام

فانتازيا 62

د. أحمد خالد توفيق


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.
مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيـا
العدد رقم (62)

أحـلام..

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

عبير عبد الرحمن) مخلوقة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا..
الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..
ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..
في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..
ان (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرأة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمي) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته..
ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..
إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..
إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..
لقد حان موعد قصة أخرى هذه المرة تقرؤها على شاشة جهاز الإنترنت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- اللغز..

هكذا قال لها الدكتور مصطفى وهو يناولها القرص المنوم:

- أتمنى لك التوفيق.. إن شجاعتك لخارقة..

ابتسمت في سخرية. كانت تتصور أنماطا عديدة للشجاعة، لكنها لم تتخيل قط أن تكون هناك شجاعة في النوم المريح..

كانت الغرفة مريحة خافتة الإضاءة، لكن هناك كاميرا جدارية مصوبة عليها، وبالطبع كانت هناك أقطاب عدة مثبتة لرأسها، وعلى صدرها...

كما أن مقياس أكسجين الدم (أوكسيميتر) كان مثبتا في إبهامها. الحقيقة أنها كانت تشعر كأنها أخطبوط.. أخطبوط تراقبه كاميرات ناشونال جيوجرافيكس النهمة.

مختبر النوم.. الموضة العلمية الجديدة التي عرفها الثلث الأخير من القرن العشرين. هناك تمر بما يسمى (رسم النوم المتعدد Polysomnography).

تنام كطفل بينما هم يقيسون لك تخطيط الدماغ وحركة العينين ونشاط العضلات وتخطيط القلب وكذا نسبة أكسجين الدم..

الأمر يشبه جهاز كشف الكذب نوعا لكنه أعقد ومهمته الرئيسية تشخيص أسباب الأرق وأسباب توقف التنفس ليلا وكثرة نومك في النهار..

هناك أجهزة أسهل يمكن استعمالها في البيت، لكننا هنا لسنا بصدد تشخيص مشاكل النوم.. نحن نواجه مشكلة معقدة خطيرة..

أغمضت عينيها وراحت تتنفس بعمق وهي تستعيد ملابسات هذه القصة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الانتقال سريعا وسهلا...

كانت في سانت هيلانه تحقق في موت بونابرت، وعندما انتهت القصة فوجئت بأنها تنتقل بلا مقدمات إلى عالم هذه القصة.. حتى أن المرشد لم يظهر قط ليخبرها بأي شيء..

وجدت نفسها تقود سيارة وتدخل من بوابة حديدية انفتحت لها، ثم رأت من يفتح لها باب السيارة ويحييها في احترام.. ثم وجدت أنها تمشي في ممرات مخيفة رسمية الطابع..

من هي بالضبط؟ ملكة؟ وزيرة؟

كانت هناك مرآة جانبية عملاقة استطاعت أن ترى فيها وجهها الجديد.

لم تكن جميلة أو فاتنة كعادة فانتازيا، بل هي امرأة قصيرة القامة ذات شعر شائب معقوص لخلفية رأسها، وتلبس تايورا يوحي بأنها امرأة عملية نشطة.. على وجهها مزيج من التصميم والقلق، ومن الواضح أنها لا تهوي المزاح جدا..

كانت تمشي كأن هذا هدفها الوحيد في الحياة، وفي نهاية الممر ينفتح مكتب...

مكتب فاخر عملاق يدل على رفعة مقام صاحبه.. الجو عطر...

هناك شاب متأنق يقف على سبيل الترحيب بها...

هناك شخص عظيم خلف المكتب... وزير أو لواء أو زعيم أو رئيس...

لا يهم.. المهم أنه موحٍ بالسلطة والرهبة، ومن الواضح أنه لا يترك السيجار لحظة وكذلك لا ينزع النظارة السوداء.. من الصعب أن يضعف هذا الرجل لينام...

لما رآها قال لها على الفور بصوت آمر:
- مهمتكِ أن تقومي بالعثور على الميكروفيلم الخاص بالمفاعل. وهذا القرص الصلب سوف يحترق ذاتيا خلال................
ثم تذكر أنه خلط الأمور.. فابتسم... هذه مهمة أخرى لشخص آخر..
هي كانت قد خمنت أنها في جهاز مخابرات أو شيء من هذا القبيل، لكن لا تشعر أنها جاسوسة.. لابد للجاسوسية أن تكون حسناء فاتنة تذهب العقول.. نساء جيمس بوند الساحرات الغامضات شبه العاريات، أما هي فتبدو كمعلمة رياضيات في مدرسة إعدادية.
من هي ومن هو؟
الإجابة الأولى كانت سهلة.. لقد قال لها:
- أرجو أن تجلسي يا دكتورة إنجي.
فجلست كدكتورة إنجي ووضعت ساقا على ساق.. لسبب ما فوجئت بأنها تدخن.. هذا غريب.. ليس عن فتنة أو إغراء بل عن طبيعة رجولية.. وتمنت لو تملك الجرأة لسؤاله عن اسمه ووظيفته.. هنا وجَّه لها السؤال الثاني:
- أنتِ تتساءلين طبعا عن سبب احتياجنا لخبيرة في علم النوم..
هكذا عرفت مهنتها وهي مهنة غريبة فعلا. هل هناك خبراء نوم؟ ماذا يعملون بالضبط؟ ينامون؟
قالت العبارة المتوقعة:
- أولا أنا أدرس النوم وأدرس علم الأونيرولوجى... علم دراسة الأحلام.. ثانيا.. بالفعل.. أنا مهتمة..
وسعلت كثيرا ثم أطفأت لفافة التبغ في المطفأة بجوارها..
هنا طقطق بإصبعه فظهرت شاشة كبيرة تهبط من موضع في السقف وساد الظلام، هذا جو جيمس بوندى فعلا، لكنه مصري جدا برغم هذا.
من عدسة ما انبثق شعاع.. وراحت ذرات الغبار ترقص فيه على الشاشة ظهر رجل نائم.. أعني بالطبع أنه يبدو نائما... يمكنك بسهولة أن تدرك أنه رجل في الخمسين يرقد في فراش وقد فتح فاه..
هذه ملامح شخص ميت..
العين نصف مفتوحة، والوجه كله يرسم معالم صرخة.. هذا وجه رجل مات مذعورا.. يد دخلت الكادر وفتحت العين أكثر، مباعدة الجفنين... ثم أزاحت الملاءة.. تراجعت الكاميرا لتظهر أن كفي الميت تتشبثان بمخالب في الفراش.. تطبقان على الملاءة بجشع..
دوي صوت الرجل المهم يقول:
- السيد الشناوي.. مسئول مهم في وزارة التخطيط... قد لا يعرف كثيرون من الناس أن هذا الرجل من أهم عشرة رجال في الدولة... هكذا وجدوه في الصباح. آوي لفراشه ليلا.. لا يشكو من أمراض... قالت زوجته إنه صحا من نومه وراح يصرخ ثم هوي على الوسادة ميتا..
قالت عبير في ملل:
- الكوابيس تحدث على كل حال القلوب الضعيفة لا تتحملها.
- ربما...
ومن جديد عادت الصور تظهر مشهدا آخر.. هذا رجل يلبس المنامة وقد سقط نصفه العلوى نصف سقوط نحو الأرض... وجهه يحمل علامات ذعر غير مسبوق وجسده يرقص رقصة

مخيفة للخلاص. المنامة مفتوحة كاشفة عن صدره العريض الذي يكسوه شعر أبيض كالقطن.. هناك من جديد يد تتفحصه ثم سماعة طبيب تدخل الكادر وتوضع على صدره.. الملاءة ترتفع لتغطي الوجه..
جاء صوت الرجل المهم:
- منصور بيومى، رجل شرطة مهم يعيش وحده، وقد جاء الخادم المسن صباحا ليوقظه للإفطار وأعدَّ له الجريدة.. فوجئ بهذا المشهد... هو مريض بخلل بسيط في القلب..
قالت عبير:
- هناك دستة أمراض تقتل أثناء النوم.. وهناك ما يدعى متلازمة بروجادا... اضطراب ضربات يحدث أثناء النوم، وقد وصفه طبيب كوبى... في الفليبين ينتشر هذا المرض كثيرا ويسبب الموت في الفراش ليلا، ولهذا يضع كثير من الرجال هناك ماكياجا نسائيا قبل النوم لأنهم يعتبرون سبب النوم شيطانة تزور الرجال ليلا.. لذا يتنكرون حتى تحسبهم نساءً!
ضحك في عصبية وقال:
- هذا جميل وغريب.. لكننا لسنا في الفليبين.. هذه مصر..
وعلى الشاشة ظهر مشهد آخر لرجل ميت أثناء نومه على الأرجح. هناك زوجة أخرى تحدثت عن رجل يصحو صارخا والزبد يسيل من شدقيه..
قال شيئا مثل: إنه يفتك بي، ثم سقط ميتا..
- مراد وصفي.. خبير تسليح.. هناك خمسة من أمثال هذا الرجل في العالم كله، وقد حاولت الولايات المتحدة أن تأخذه لنفسها..
هكذا توالت الصور على الشاشة حتى شعرت بأنها موشكة على إفراغ معدتها
في النهاية رفعت يدها وهتفت:
- سيدي.. أرجو أن تتوقف.. لقد أصابني الدوار والغثيان.
طقطق بأصابعه من جديد فأظلمت الشاشة وارتفع الستار ببطء ثم عاد الضوء... أغمضت عينيها لأن الضوء المها وقالت:
- حسب ما فهمت. هناك وباء من هؤلاء الذين يموتون أثناء نومهم.. Dead in bed كما يقول الغربيون. ويبدو أنهم يرون كوابيس قبل النوم كلهم مسئولون مهمون.. ألم يجل بخاطرك أنهم مرضى بالقلب؟
قال في هدوء:
- بلى.. لكن التشريح يؤكد أن معظمهم سليمو القلب.
- والعشاء الدسم الذي يطبق على الأرواح؟
- كلهم يأكلون عشاءً دسما؟
- الرجال المهمون يتمتعون بشهية ممتازة فهم يتمتعون بكروش عملاقة..
قال في ملل بلهجة من لا يطيق المزيد من هذا المزاح السخيف:
- الأمر خطر فعلا... نحن ننزف رجالا شديدي الأهمية.. لا نعرف السبب... هل هناك عملية مخابرات شديدة البراعة، وهل هناك سم يقتل الناس أثناء النوم؟
قالت مفكرة:
- لا أعتقد.. لا يوجد سم ينتظر ساعات النوم على قدر علمى..
ثم استدركت:
- ولا أزعم أنني أعرف كل حيل المخابرات.. لربما هناك عالم صربى توصل لسم لا يعمل إلا في

دفء الفراش، أو الساعة الثالثة صباحا.. من يدرى؟
قال في ثقة:
- على قدر علمي لا يوجد...
ثم نفث سحابة ضخمة من الدخان:
- ما نريد فهمه هو: لماذا يموت الناس أثناء نومهم؟ من يفعل ذلك؟ هل هي صدفة؟
قالت مفكرة:
- هناك طريقتان لدراسة الظاهرة.. أن تراقب المسئولين وترى كم منهم سيموت في الأسابيع القادمة، أو تفحص حالات الذين ماتوا محاولا فهم السبب... من المستحيل أن نراقب كل المسئولين المهمين أثناء النوم، ومن الصعب أن تجمع أخبار هؤلاء الذين ماتوا بدقة.. أعتقد أننا أمام مهمة مستحيلة.
نهض باسمًا وصافحها في حرارة:
- المهمة: المستحيل... بالضبط... مثل عنوان المسلسل والفيلم الشهير.. أكاد أسمع موسيقا (لالو شيفرن) الرائعة هذه هي مهمتك.. عليكِ أن تعرفي، ولتعلمي أن خلفك جهازا كاملا يسعى للحقيقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- استدعاء ليلي..

الأحلام هي: ما رأيناه.. ما سمعناه.. ما خبرناه.. ما نتمنى أن نجربه.. ما نحن مرغمون على أن نجربه... ما تخيلناه.. ما هو طبيعة في جسمنا..
أساتذة اليوجا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تغادر دكتورة إنجي مكتب اللواء مراد..
عرفنا إذن أن اسمه اللواء مراد، ومن الواضح أن كل مسئول خطير اسمه مراد على الأرجح. كانت السيارة تنهب بها شوارع المدينة وهي عاجزة عن اتخاذ قرار.. لابد من نقطة بداية تتحرك عندها..
أخيرا توقفت بالسيارة أمام بناية فاخرة في الزمالك. ترجلت واتجهت إلى المصعد عارفة أنها ذاهبة إلى الطابق الثامن.. هذه شقتها كما هو واضح..
إنها ثرية وذوقها راق.. الشقة كلها استعراض للون الأزرق بدرجاته وقطع الأثاث بسيطة فاخرة..
ككل المهتمين بالنفس كانت هناك لوحات لفان جوخ ولوحة الصرخة الشهيرة لمونش... اللوحة التي تزلزل أعصابك بصرخة غير مرئية، وتشعرك بأنها تدوي في أعصابك ذاتها
هناك مكتبة أنيقة رفوفها من زجاج، وهناك سبوت لايت يلقي الضوء على كعوب الكتب:. استطاعت أن تقرأ أسماء فرويد ويونج وأوتوفنخل ومتشنسون وبيرل تعرف بعضهم ولا تعرف الآخرين، لكن د. إنجي تعرف طبعا
هناك جهاز هاى فاى ضغطت على زر فيه فانبعثت موسيقا هادئة منومة
المطبخ ضيق أنيق، وهناك منضدة في المنتصف عليها طبق فيه بعض قطع البفتيك... هناك طبق آخر فيه مكرونة باردة
ومن مكان ما ظهر كلب رتريفار صغير راح يتواثب حولها بالبلاهة المحببة المميزة للكلاب كان هناك طبق معدني صغير على الأرض فأمسكت بقطعة بفتيك ووضعتها له
هذه شقة امرأة وحيدة.. لا شك في هذا.. لا يوجد أثر للرجال هنا
النظام المبالغ فيه والأناقة والنظافة وكمية الطعام المقتصدة.. هذه أشياء تدل على عدم وجود رجال، وإلا لتحول المكان لبيت الخرتيت في حديقة الحيوان
العيب الوحيد كان أن هناك أكثر من مطفئة سجائر في المكان، وكلها مليئة.. واضح أنها تدخن كالعجوز رفعت إسماعيل. وهذا أورث الشقة رائحة خانقة فعلا، كما أنك لا تقدر على تبين المكان إلا وسط ضباب يذكرك بالصباح الباكر على الطريق الزراعي في يوم قائظ
دخلت غرفة النوم، وانتقت منامة حريرية وبدأت تنزع ثيابها هناك جهاز تحكم عن بعد.. ضغطت عليه فأضيئت شاشة التلفزيون
هي امرأة مستقلة... امرأة لم تحتج إلى الرجل في حياتها قط، ويبدو أنها لن تحتاج.. يبدو كذلك أن الرجل لن يحتاج لها إذا ما تذكرنا وجهها الصارم.... التعامل معها يحتاج لبراعة وسيطرة كأننا في قفص الأسود في السيرك
استلقت في الفراش وراحت تتابع أحداث فيلم غربى، وقالت لنفسها انها ستنام كفطيرة ساخنة.. لابد أن خبيرة النوم تجيد فن النوم

لكنها نظرت إلى الكومود جوار الفراش فأدركت في رعب أنها مصابة.. هناك جبل من مشتقات البنزوديازيين والزاليبلون والزوبيكلون والكلورال هيدرات.. واضح أن النوم عصى عليها لا يأتي إلا بالأدوية... هذا على كل حال يتفق مع شخصية المرأة العصبية المفرطة في التدخين
هكذا ابتلعت قرصا من الزوبيكلون بكوب ماء ثم استلقت تنظر للسقف وتسترجع أحداث اليوم.
جاء النوم كالعادة دون أن تعرف متى جاء فجأة تدرك أنك في عالم آخر
كانت هناك أمور مبهمة تحدث، فلم تتبينها.. الأحلام التي لا تصحو منها بسرعة تنسى فورا
هي تعرف جيدا أن المرء يقضى ستة أعوام من حياته في الحلم (بمعدل ساعتين كل ليلة)، ولكن هاتين الساعتين تتمددان جدا جدا ليحدث فيهما أي شيء..
عالم الرموز الغامض الذي حاول كثيرون أن يفكوا مفاتيحه..
هل هي قمامة اليوم كما يقول علماء النفس، أم أن بطاريات المخ تعيد شحنها، أم أن الشهوات والرغبات المكبوتة طيلة اليوم تحاول الخروج لتعلن عن وجودها، أم هو المستقبل يلمح لنا بما هو آت، أم هي مسرحية تؤديها الأرواح وقد اختارت لها أدمغتنا؟
لا نعرف
فقط يبقى الحلم.. من دونه نتلاشى ونضيع. ومن دونه يختل جهازنا العصبي وننهار
لا تعرف ما رأته في الحلم لأن..........
ترررررررررررررررررررررررررررن
صوت الهاتف المحمول المزعج حيث وضع جوار فراشها. فعلا شخصيتها تتسق مع ذلك.. لا تختار نغمة لهاتفها سوى صوت الرنين الصارم يذكرك بصوت الهاتف الأرضي العادي
تناولت السماعة ونظرت للساعة المضيئة على السقف.. هناك ساعات تعكس الوقت على السقف كأنه شاشة. رأت أن الساعة 3:32 صباحا
من يتصل في هذه الساعة وغد يتحرش. او عاشق ولهان، أو سفاح لن يتكلم بل سيلهث في السماعة.. فلتر..
لم يأت صوت من هذا بل هو صوت اللواء مراد الأمر المسيطر يقول لها:
- هل أنت نائمة؟
هذا الرجل لا ينام إذن.. ويتوقع أن تكون متيقظة مثله. بالنسبة له يبدو النوم في ساعة كهذه عملا رقيقا للغاية. فقط الأغبياء ينامون ليلا
قالت في ضيق:
- آسفة.. هذه عادة سيئة
وتثاءبت.. فهدر في السماعة:
- هناك مسئول لم يمت!
- هذا خبر مهم من الطريف أن تجد مسئولا لم يمت في هذا الزمن الخطر!
قال في غلظة:
- لا أمزح.. لقد كان مرشحا لينضم للقائمة لكنه لم يمت.. نجا في اللحظة الأخيرة. سوف يكون مفيدا لك
- ليكن.. سأقابله غ....
قاطعها في عصبية:
- لا يوجد غد.. الأمر عاجل وخطر.. هناك سيارة تنتظر على باب البناية.. نتوقع أن تستعدى

للخروج خلال سبع دقائق...
- لكن الساعة..............
لكنه كان قد وضع السماعة
ظلت تحملق في الهاتف للحظات في غباء. مقاومة النعاس والقرص المنوم والخروج في البرد وساعة كهذه.. أمر قاس فعلا، لكنها تعرف أنهم قادرون على إزعاجها ولربما تحطيم الباب ليحملوها حملا.. لا يوجد مزاح في أمور كهذه..
هكذا نهضت وهي تسب وتلعن وتتثاءب وارتدت ثيابا ثقيلة، وهرعت تغادر الشقة بينما الكلب ينظر لها في دهشة.. استقلت المصعد لأسفل وسرعان ما كان صوت كعبيها يدقان على رخام المدخل
بعد دقيقة كانت السيارة السوداء تقلها إلى نفس المكان السابق. الفارق هو أنها لم تكن تقود هذه المرة
∞ ∞ ∞ ∞
في المستشفى تقدمها اللواء بقامته الفارعة عبر ردهة طويلة، وهناك أدركت أن الأمر جلل لأن عددا كبيرا من رجال الحراسة الخاصة كانوا هناك.. يضعون السماعات في آذانهم وستراتهم منتفخة بمدافع العوزى أو المسدسات. ومتوترون كالقطط البرية.. لو مرت ذبابة لحدثت مجزرة..
كان هناك من يتكلم في جهاز لاسلكي:
- الأحوال مطمئنة.. حول!
كل هذا والأحوال مطمئنة؟ ماذا لو كانت مقلقة أو مخيفة؟
فتح اللواء باب غرفة يقف على بابها حارس ببدلة سوداء أنيقة لكنها منتفخة كأنه دب أرغم على ارتداء بدلة. وتقدم للداخل
هناك رجل في الفراش وقد وقف طبيب جواره يفرغ محقنا في ساعده
قال لها اللواء همسا:
- عصام السمدوني.. أنت تعرفين من هو فلا داعي لأن أشرح خطورة الأمر....
لم تكن قد سمعت عن هذا الرجل حرفا... لكنها أدركت أنهم سيعتبرونها بلهاء لو سألت.. وقد أدركت أنه رجل بالغ الأهمية في الدولة، ومنصبه خطر.. لو مات كالعادة لكانت كارثة..
دنت من الفراش أكثر فرأت رجلا مهما.. أنت تعرف شكل الناس المهمين.. كلهم يبدون مهمين، لكنه كان منهكا ووجهه شاحبا والعرق يغمره.. وأدركت أن الطبيب حقنه بمهدئ ما
جلب لها أحدهم مقعدا فجلست على بعد خطوات من الرجل قال اللواء في وقار:
- عصام بك.. دكتورة أنجي مهتمة بالموضوع وسوف تستمع إلى قصتك
التفت الرجل نحوها بعينين حمراوين ثم فتح شفتيه اللتين ألصقهما اللعاب الجاف، وقال بصوت كالفحيح:
- لو لم أثب في النهر البارد لهلكت!
أي نهر؟
قال اللواء مراد:
- قرينته لاحظت أنه نائم يصرخ ويتشنج.. حاولت أن توقظه فلم يصح.... أمسكت بكوب ماء بارد فسكبته عليه.. صحا مذعورا لا يصدق أنه نجا
إذن هذا هو النهر البارد الذي تسرب إلى الحلم.. هذا شيء معتاد..

لكن ما هو الحلم نفسه؟
قال عصام بك وهو ينظر للسقف:
- كنت أركض في غابة مظلمة.. الأغصان تضرب وجهي، وشعور بالذعر يغمرني.. قدمي تتعثر في الأوحال.. أدرك جيدا أن هناك من يقتفى أثرى
قالت عبير في برود:
- أحلام المطاردة شهيرة جدا.. لقد كتب عنها يونج كثيرا... غالبا لا ترى وجه مطاردك.. هذا يوحي على الأرجح بأنه شيء تخشى مواجهته في ذاتك أنت
لم يفهم أحد ما تقول، فواصل الرجل سرد الحلم:
- كنت أعرف أن هذا الذي يطاردني كان حبيسا لفترة.. أنا حبسته.... ويبدو أنه تحرر.. لذا كان الرعب قاتلا..... وجدت نفق طويلا فدخلت فيه ورحت أركض عالما أن هذا تصرف غبي جدا... لو بلغ النفق فلسوف يظفر بى، لكني كنت أتصرف بغباء وأعرف أنني أتصرف بغباء... أخيرا خرجت من النفق ونظرت للخلف فرأيت ظلا عملاقا فارغا يهرع عبر النفق.. لم يبد لي بشريا لكني لم أفهم ما هو.. واصلت الركض وقلبي يتواثب. كنت أعرف أنه لن يتحمل أكثر... وفجأة أدركت أنني أقف على حافة جرف عال جدا.. نظرت للخلف فرأيته قادما نحوي.. نظرت لأعلى الجرف.. رأيت الماء يتلاطم. هذا نهر ذو تيار سريع ولاحظت بعض البقاع في الماء حمراء... بعد لحظة تردد اتخذت قرارى ووثبت في الماء. فضلت الغرق على أن أواجه هذا الشيء... وفي اللحظة التالية كنت في فراشي أرتجف وزوجتى تهدئ روعي
كان يتكلم وهو يرتجف كورقة.. صوته ورعبه جعلا اللواء وعبير يشعران بأنهما يريان الحلم ذاته. برغم هذا كان كابوشا عاديا جدا.. كل الكوابيس هكذا لو أردت رأيى
ابتلعت عبير ريقها وسألته:
- هل حلمت بكابوس كهذا من قبل؟
قال في فخر:
- أنا لا أحلم بتاتا!... لا أرى أحلاما طيبة أو سيئة.. من الصعب أن أبدأ نشاطي في الأحلام برؤية كابوس
هذا يتفق مع نمطه.. الرجال المهمون لا يحلمون ولا يملكون خيالا.. يتركون الأحلام لرائقى المزاج من أمثالنا. علاقتهم بالأزهار هي تحويلها لمربى
قال اللواء بلهجة (وجدتها) الشهيرة:
- هذا هو...... كان قلبه سيتوقف وكنا سنجده في الفراش صباحا مثل الآخرين.. لكن زوجته أجادت التصرف!
ثم خطر له شيء فقال:
- لكنها سكبت الماء عليه في نهاية الكابوس.. بينما رأى النهر قبل هذا... فكيف صار هناك نهر قبل أن يثب فيه ويشعر بالبلل؟
قالت عبير وهي تتحسس خصلات شعرها:
- هذه أحلام المنبه.. الحلم يتم تأليفه من لحظة الاستيقاظ بالعكس!... شعر بالبلل فتم تلفيق حلم ينتهي بالغرق.. والغريب أنه يراه بأثر رجعي.. كأنه فيلم تراه من نهايته
- لن أفهم هذا أبدا
ثم وضع يده على كتفها وقال بهدوء:
- يجب أن نتكلم في مكان آخر فهو بحاجة للراحة

هكذا نهض الاثنان خارجين من الغرفة، وهناك في استراحة صغيرة بالمستشفى يحيط بها الرجال الذين توشك ستراتهم على الانفجار بما فيها من عضلات وأسلحة، وحيث مطفأة السجائر توشك على أن تفيض مما فيها من أعقاب. هناك قال لها وهو يضع ساقا على ساق:

- نحن نتكلم عن عقار يصيب الأشخاص المهمين بالكوابيس.. لدرجة أنهم يموتون وقد توقف قلبهم!.. هل من شيء كهذا؟

فكرت قليلا. قائمة العقارات التي تسبب الكوابيس طويلة فعلا، ولعل أشهرها عقار الريزربين الذي يجمع بين الكوابيس والاكتئاب.. لكن هذه كلها تفاعلات بسيطة محتملة. لا يوجد عقار يسبب الكوابيس لدرجة أن يتوقف القلب، ما لم يكن هذا اختراع مخابرات لا تعرفه.. عقار ابتكره العالم الروسي (ميخائيل ميخائيلوفتش) وتستخدمه الكي جي بي في القتل.. إلخ.. إلى آخر هذا الكلام الذي لا ينتهى

تثاءبت.. هي لم تظفر سوى بساعتين من النوم على كل حال

سألته:

- هل من شيء يمكن أن أفعله الليلة

- على قدر علمي..لا

- إذن هل من عائق يمنع اصطحابي لبيتي..؟

فكر بعض الوقت ثم أدرك أنه لا يوجد مانع فعلا.. هز رأسه موافقاً.....

قالت وهي تنهض:

- سوف أفكر في ذلك الحلم بشكل أكثر هدوءا... يجب أن أرجع لكتبي

∞ ∞ ∞ ∞

٣- الأمور تتعقد

لم تنم د. إنجي / عبير وإنما جلست في الفراش لفترة طويلة
بدأ ضوء الفجر يتسرب من خصاص النافذة، وهي جالسة القرفصاء تدخن بلا توقف. في النهاية أدركت أنها تضيع وقتها. نهضت لتفتح النافذة فيتسرب الضوء الأزرق الساحر الذي يشعرك بالبرد نوعا
كان الكلب غافيا جوار الفراش
نهضت وبحثت في رفوف المكتبة عن كتاب تفسير الأحلام للعلامة ابن سيرين، وهو عالم غزير العلم.. لكن الحقيقة هي أن الكتاب المنسوب له والذي يباع في كل مكان ليس له. لم يقل أي واحد من معاصريه أنه كتب في تفسير الأحلام.. الكتاب الموجود هو للعالم أبي سعد الواعظ....
قلبت صفحات الكتاب بحثا عن النهر النهر الذي غرق فيه عصام السمدوني في الحلم. النهر حسب الكتاب هو الرجل المنيع ذو السلطان أما السقوط في الماء فهو حزن يخرج منه....
هناك غابة في الحلم.. الأشجار حسب الكتاب هم الرجال الضخام الذين لا خير عندهم
لو استخدمنا الكتاب في التفسير، لقلنا إن عصام السمدوني سيطارده رجال أقوياء أشداء، فيهرب منهم.... لكنه يلجأ لشخص منيع قوى النفوذ
هذا التفسير اللغوي لم يرحها كثيرا
مدت يدها لكتاب تفسير الأحلام لدى فرويد
كانت تعرف ما سيقول تقريبا.. كل شيء رمز جنسى، وحلم عصام السمدونى يعج بهذه الأمور.. الأشجار والنفق.. لكنها لا تعتقد أن لدى المدعو عصام كبتا جنسيا يقاومه
حسب الكتب الغربية الأخرى، فالغابة تدل على الحيرة.. لو كنت تعرف طريقك فيها فأنت مولع بالمغامرة...
النفق رمز معروف.. لا داعي للتفسير..
أما النهر فيعبر عن استقرار الحالة النفسية.. كان النهر متوترا ثائرا... السقوط في النهر يدل على الرغبة في أن تطهر عواطفك وروحك.. الأجزاء الحمراء في الماء تدل على كمية غضب وغل موشكة على التحرر
لو جربنا طريقة التحليل الغربية، لقلنا إن لدي عصام مشاكل كثيرة تجعله متخبطا حائرا.. ولديه استعداد هائل للغضب والانفجار في الناس، وهو يجد الراحة في علاقات أنثوية عديدة
كل هذا جميل لكن ما معناه؟
هل عصام السمدوني سيطارده رجال أقوياء أشداء، فيهرب منهم ويلجأ لشخص منيع قوى النفوذ؟
أم لدي عصام مشاكل كثيرة تجعله متخبطا حائرا.. ولديه استعداد هائل للغضب والانفجار في الناس، وهو يجد الراحة في علاقات أنثوية.... عديدة؟
أي التفسيرين تفضل؟
وماذا عمن يطارده في الكابوس؟ جزء من روحه لا يريد أن يعرفه..
وحتى لو فسرنا هذا الحلم، فلماذا اختار هذه الليلة بالذات؟
أسئلة لا حصر لها

نهضت لتعد إفطارا لها مع الكلب الذي صدا من النوم، وكانت غارقة في التفكير
كانت تعرف أنها تعمل في كلية الطب في قسم وظائف الأعضاء، وهي مختصة بأبحاث النوم فقط.. كما تعرف أنها لن تذهب للعمل اليوم يبدو أنها لن تقوم بأي شيء سوى التحقيق في هذا الموضوع، وهو على كل حال بالغ الأهمية ويؤرق الكثيرين.. الأمر لا يحتمل المزاح أو.. المزاج
لكن من أين تبدأ؟

∞ ∞ ∞ ∞

سلخت بيدي جلود كل من قبضت عليهم من أسرى (عيلام)!
ثم نمت فكانت أحلامي بهيجة مفرحة
وتلك شيمة المحارب
آشور بانيبال في نقش جدارى

∞ ∞ ∞ ∞

عند الظهر دق جرس الباب ففتحت
كان هناك شابان من الطراز مكتنز العضلات الذي يلبس بدلة موشكة على الانفجار بسبب السلاح، وقد نظرا لها في شك ثم ناولاها ملفا من اللواء مراد.. نظرت لهما في ريبة فنظرا لها في كراهية...
أغلقت الباب في اشمئزاز وعادت للداخل وراحت تخرج ما في الملف هناك قائمة بأسماء من ماتوا وهم نيام، وهناك ملف صغير عن كل واحد منهم
السيد الشناوي
منصور بيومى
مراد وصفى
أحمد جاد
جورج باسلى
كلهم مهمون جذا وقد ماتوا خلال ثلاثة أيام تقريبا، وكاد عصام السمدوني يلحق بهم.. بالفعل هناك شيء مريب يحدث.. لا يمكن أن تكون صدفة. لو أن كلا منهم مات بطلقة بندقية لكان الأمر سهلا، ولكان التفسير قريبا.. لكن موتهم وهم نيام أمر غريب
الأحلام عالم غريب شديد التعقيد، وهي تمثل لغزا لم يحل حتى هذه اللحظة، لهذا هي عالم فاتن
هناك كلام كثير عن مادة DMT التي يفرزها المخ فتسبب الحلم...... إنها في ذروتها أثناء الحلم وقبل الموت مباشرة.. فهل الموت ضرب آخر من الحلم إذن؟
عندما ننام يبدأ النوم هادئا ثم يدخل مرحلة عصبية يرتفع فيها ضغط الدم ومعدل التنفس ويضغط النائم على أسنانه ثم تبدأ حركة العين السريعة REM.. وهذه هي المرحلة الأهم التي يكون فيها الحلم. يسمون هذه المرحلة مرحلة النوم المتناقض Paradox sleep وتستمر ساعتين على الأغلب. تتكرر عدة مرات في الليل اكتشفها العالمان (كلايتمان) و(أرسينسكي) عام 1، وزعما أنها مهمة لنمو المخ ولتدعيم ذكريات اليوم وفترته تزداد طولا كلما كان الكائن أضعف، لذا يكون أغلب نوم الأطفال REM.. من المعتاد أن تفقد العضلات قوتها في هذه المرحلة، وإلا كرر النائم ذات ما يفعله أثناء الحلم.. يضرب ويحرك قدميه كأنه يجرى الحق أن النظر للنائم في هذه المرحلة مخيف
إن أدوية الاكتئاب تلغي فترة ال REM هذه، وهذا يساعد في شفاء الاكتئاب.....

نفس المرحلة الفسيولوجية تمر بها بعض الحيوانات التي تتظاهر بالموت عندما يهاجمها عدو.. تمر بطور REM مع تغيرات واضحة في جذع المخ لذي يتولى كل شيء.. هل الحلم هو تطور لتلك الظاهرة القديمة، تمثل لينا نفس ما تمثله الزائدة الدودية؟
عندما توقظ النائم في هذه المرحلة فهو يتذكر العلم جيداً.... عامة كلما كان الحلم أطول وأكثر درامية تذكره النائم. وما يقع في الحلم يقع من تلقاء نفسه كأنك تشاهد التلفزيون. لا تقدر على التدخل إلا في أحلام خاصة هي الأحلام المتجليةdreams Lucid في هذه الأحلام يمكنك التفاعل وتغيير الأحداث لأنك تعرف أنك تحلم
لم يفهم الإنسان معنى الأحلام قط، لهذا افترض القدماء أنها اتصالات من آلهة أو هي أرواح الموتى......
فيما بعد جاء فرويد ليقول إن الأحلام كلها رغبات محبطة لم تتحقق رغبات مكبوتة.. وهذه الأحلام تعكس اللاوعي لدى المريض بشدة، لذا يمكن استخدامها في التحليل النفسي بشكل ممتاز. بعض النظريات قال إن الأحلام لا تمثل اللاوعي لكنها تمثل الذكريات البعيدة
تلميذ فرويد المشاغب كارل يونج اعتبر الحلم رسالة يرسلها العقل الباطن للنائم. وقد ربط بشدة بين الأسطورة الشعبية والحلم.. إن ألف ليلة وليلة لها نفس تكوين الحلم
قال كثيرون إن الأحلام مجرد عملية تنظيف قمامة يومية مثل ما يحدث عندما نغلق الكمبيوتر، وفي هذه العملية يتم التخلص من الأفكار غير المكتملة والذكريات التي لا قيمة لها ليكون المكان نظيفا صباح اليوم التالي.. بينما قال آخرون إنها عملية تعلم مستمرة
قال آخرون إنها عملية تدريب دائمة على الخطر والتهديدات....... في الماضي كانت التهديدات على حياتنا خطيرة؛ مثل الوحوش والزلازل.... إلخ الكوابيس عملية تدريب مستمرة على هذه المخاوف حتى لا ننساها وسط رخاوة المدنية
قال البعض ومنهم هوبسون إننا في مرحلة حركة النوم السريع نعيد تنسيق الذكريات.. الذكريات القريبة قصيرة المدى تصنف لتدخل ضمن الذكريات البعيدة
ما هي الحقيقة؟
كل ما يتعلق بالحلم غامض ساحر كأنه حلم!

∞ ∞ ∞ ∞

عند الظهر ذهبت للمستشفى لتقابل عصام السمدونى
تفحص ألف واحد بطاقتها الشخصية، ومرر ألف واحد العصا المغناطيسية على ثيابها، وفتح ألف واحد حقيبتها، ومررت ألف امرأة يدها عليها للتأكد... في النهاية أجرى ألف اتصال بين ألف فرد حراسة متشكك ووجدت نفسها في الغرفة التي دخلتها أمس بسهولة مع اللواء مراد.......
كان عصام السمدوني يجلس في الفراش، وجواره امرأة شائبة أنيقة واضح أنها المدام، وكانت تدس حبات العنب في فمه.. واضح أنها تهوى سكب الماء البارد على من يعانون الكوابيس
كما قلنا كان رجلا مهما لهذا يبدو كالمهمين الآخرين، شعر أشيب فضي وشارب أبيض كث... نظرة حادة في العينين برغم الإرهاق العام
قال لها على الفور:
- هل تريدين شيئا يا دكتورة إنجي؟
هو إذن ممن لا ينسون الأسماء بسرعة.. كان مرهقا شبه غائب عن الوعى، وناداها مراد مرة واحدة.. برغم هذا لم ينس الاسم
- أريد المزيد من التفاصيل عن كابوس أمس

ابتسم وقال:
- أم اليوم؟
نظرت له في حيرة غير فاهمة فأردف:
- لقد أغرقوني بالمنومات.. صباح اليوم رأيت أنني في ذات الغابة.. كنت أركض خائفا وذلك الشيء من خلفي... نفس شعور أنه كان حبيسا وتحرر.. نفس الرعب والركض... لكني في هذه المرة لم أدخل النفق.. لقد وجدت صخرة تسلقتها فصرت فوق سقف النفق، وارتميت على بطني أراقب... أردت أن أراه بالكامل دون أن يراني.. لا يمكنك مشاهدة شيء بوضوح وأنت تركضين هاربة منه، هكذا انتظرت للحظة ثم رفعت رأسي فأدركت أنني في مأزق كارثي.. كان يقف خلفي وأنا على الأرض غافلا عنه. صرخت ووثبت من فوق النفق.. هذه المرة كان هناك قطار في الطريق العكسي.. ثم.. ثم
قالت الزوجة في قلق:
- كان علي أن أصفعه هذه المرة ليصحو.. من حسن الحظ أنني كنت جالسة جواره
- صحوت قبل أن ألمس القطار، لكن كان بوسعي تخيل المعدن الثقيل يمزق جسدي.. كان بوسعي سماع صوت تهشم العظام.
توترت عبير / إنجي... هذه إذن من الأحلام التي تستعمل في أجزاء تالية، وهي معروفة على كل حال.. لكن المفزع هنا أن الخطر ما زال قائما.. ينتظر في كل حلم
تفر إلى دارك هربا من ذلك الغريب الذي يقفو أثرك، وتتوارى عدة ساعات فتشعر بالأمان.. تخرج للشارع من جديد فتجده واقفا هناك عند لناصية بانتظارك... أنت لم تهرب.. سوف تبدأ المطاردة من جديد... هذا شيء مخيف
ابتسم عصام لما رأى ذعرها وقال بلهجة من يستمتع بهذه الأخطار
- هل فهمت؟ إنه هناك ينتظرني!... لن يتركني أهرب أبدا.. أنا حاول البقاء متيقظا وأثرثر مع زوجتي وكل من يدخل الغرفة، لكني في لحظة سوف أتخلى عن يقظتي.. عندها سيكون هناك بانتظارى...
خطر لعبير أن هذا سيناريو فريد من نوعه
تعرف سيناريو الحارس الذي يخشى أن يغلبه النوم فيقتله السجين أو.. لكن هنا ينتظر الكابوس لحظة النوم لينفرد بالرجل
ما معنى هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞

4- لا تنم..

انتهت إنجي / عبير من أخذ التفاصيل كلها

هذا حلم أقرب للأحلام المتجلية، حيث تعرف أنك تحلم.. وتملك بعض القدرة على تغيير الأحداث.. جمعت أوراقها واتجهت إلى الاستراحة

هناك جلست وأخرجت علبة التبغ كعادتها، وأشعلت لفافة ثم راحت تقلب الأوراق

هناك أدوية كثيرة تسبب الرؤى والهلاوس المورفين نفسيه اشتق اسمه من (مورفيوس) إله الأحلام عند اليونان.. الأتروبين يسبب الهلاوس.. الريزربين يسبب الكوابيس السيبروفلوكساسين يسبب الكوابيس... أدوية القلب مثل أتينولول تسببها.. أدوية الكولستيرول مثل الأتورفاستاتين تسببها

سحبت نفسا عميقا

هناك على الأرجح من استطاع أن يدس سما لهؤلاء المهمين.. من يفعل ذلك؟ جهاز مخابرات طبعا.. لا أحد سوى جهاز مخابرات يقدر على ابتكار عقار اسمه (ل - هـ) أو (ر - ١٨) وهذا العقار لا يستطيع التشريح أن يجده.. وليس معروفا عالميا.. وجهاز المخابرات هذا قادر على الوصول لكل هؤلاء الذين ماتوا

يبدو الأمر معقدا جدا

لا يوجد جهاز مخابرات قادر على ذلك.. الشياطين فقط تستطيع.....

لكن الإجابة كما هو واضح مع عصام السمدوني.. إنه الوحيد الذي استطاع أن ينجو ويحكي ما رأه. هذا يشبه ما يراه أولئك العائدون من تجربة الدنو من الموت.. هؤلاء وضعوا أقدامهم على الحافة، ثم لظروف ما سقطوا للداخل من جديد... السبب طبعا هو أن أجلهم لم يأت بعد..

عصام يعرف من تعامل معه مؤخرا. من قدم له طعاما وشرابا.. من يدري؟ قد يكون هؤلاء الموتى حضروا جميعا اجتماعا ما أو تناولوا مأدبة ما أو شموا غازا ما

يجب الحفاظ على سلامة هذا الرجل.....

لكن كيف يمكن ذلك ولو جئت بفرقة قوات خاصة كاملة فلن يستطيعوا حمايته في نومه، ولن تقدر أبدا على أن تمنعه من النوم طويلا. أنت بهذا تقتله....

وهكذا أمسكت بورقة وبدأت تكتب أفكارها:

- الاتصال باللواء مراد
- الحصول على تحركات كل من ماتوا بحثا عن شيء مشترك
- استجواب عصام بدقة ورسم خارطة لتحركاته خلال آخر 48 ساعة
- عمل رسم مخ لعصام
- خارطة الأدوية التي يتناولها عصام. هل هناك مخدرات؟
- علاقة عصام بزوجته

بدا لها هذا مقنعا.. هذه خطة محكمة وسوف تعرف أين يوجد الخطأ طبعا ربما تكون هذه الوفيات مصادفة، لكن من منذ متى تحدث هذه المفاجآت النادرة ولا شك أن أي خبير إحصائي سيتحدث عن احتمال واحد في المليون

هنا ظهر على الباب رجل أمن ممتقع الوجه. كان يصغي لسماعة أذنه في رعب، ثم قال لها:

- د. إنجي..؟
أنا هى
- أرجو أن تلحقى بى.. لقد حدث شيء سيىء؟
كانت تعرف الآن ما حدث... سوف تذهب للغرفة لتجدها مفتوحة والمرأة تصرخ وتلطم خديها، بينما على الفراش يرقد عصام ميتا.. لقد صار هذا السيناريو مم، وكل مرة تشعرها بغباء شديد
أطفأت لفافة التبغ في عصبية ونهضت..
مضت وراءه في الممر، لكنه اتجه نحو مجموعة من الرجال المهمين الذين يتحدثون في قلق.. لابد أنهم سيتجهون جميعا للغرفة.. سوف تطلب منهم أن يعفوها من المهمة، فقد أثبتت فشلها وهي لا تريد أن تلام في كل مرة
نظروا لها جميعا، وقال كبيرهم:
- كيف حدث هذا؟
قالت في ضيق:
- كاد يحدث أمس ليلا وكاد يحدث صباح اليوم.. لا يمكن منع الرجل من النوم
- لم ينم أمس بتاتا
قالت في ملل:
- إذن كيف حلم ورأى الكوابيس؟
أصلح الرجل من وضع السماعة في أذنه وقال:
- لم يحلم ببساطة لأنه لم ينم.. اللواء مراد ليس من الرجال الذين يحلمون!
اتسعت عيناها وسقط القلم من يدها..
إذن لم يكن عصام هو الذي مات!... لقد التف الموت من الخلف ليهاجم من كان يطارده!
∞ ∞ ∞ ∞
ليرحمه الله..
كان مرهقا للغاية.. سهرة أمس وكل هذا التوتر جعلاه يعود لبيته في الثانية عشرة ظهرا. قال للسائق أن يأتي ليأخذه بعد ساعتين. يعيش في فيلا في المقطم، وهو وحيد بعد زواج أولاده ووفاة زوجته. قال الخادم إنه كان مرهقا شاحب الوجه..
قالت عبير وقد شعرت أنها وجدت الحل هذه المرة:
- وطلب كوب ماء.. كل من يصابون بنوبة قلبية يحدث لهم هذا إرهاق ثم نوبة قلبية. الجواب سهل هذه المرة..
لكن طبيب اللواء يصر على أنه لم يمرض يوما ولم يكن من هواة متاعب القلب.. لم ينضم يوما لعضوية نادي الشرايين التاجية ولا التنظيم السري لذوي ضغط الدم المرتفع.. كان رجلا رياضيا
- لكن لابد من سبب يموت الناس به.. وإلا فنحن نعيش وسط الخالدين
قال لها ذلك الضابط الكبير الذي يتواجد مع اللواء دوما:
- دخل إلى الفراش وأعلن أنه سينام بعض الوقت. لسبب ما شعر الخادم بأن الأمور ليست مريحة جدا... ظل هناك في الصالة لمدة ساعة، ثم تسلل إلى الحجرة وألقي نظرة على الفراش.. رأي اللواء يتلوى ألما وهو يحارب بيده خصما خفيا لا نراه.. فقط يردد: ارحمني!.. ارحمني!... وبرز لسانه كأن هناك من يخنقه، هرع الخادم المذعور إلى الهاتف ليطلب ضباط الحراسة أو الطبيب أيهما أقرب... لما عاد كان اللواء على أرض الحجرة وقد برز لسانه وأزرق وجهه كأن

هناك من خنقه
- هذا يحدث للبعض في نوبات الصرع
- اللواء لم يشك من أي شيء في حياته حتى الصرع
- وهل وجد التشريح شيئا؟
نظر الضابط في عينها بثبات وقال بلهجة ذات معنى:
- دكتورة.. أنت تعرفين أن ما قتل اللواء أو من قتله هو نفس ما قتل أو من قتل السابقين كلهم.. كل شيء يدل على ذلك... وباء الموت أثناء النوم بعد رؤية كابوس.. هذا ما حدث ببساطة وليس علينا أن نبحث عن تفسيرات أخرى. عندما تصدم سيارة رجلا وتمزقه فنحن لا نقول إنه مات بسبب الالتهاب الرئوي....
هناك سيارة..
لكن ما هي؟ من يقودها؟ ولماذا؟
وفجأة خطر لها خاطر مرعب فصاحت:
- عصام السمدونى!
- عصام بك..
- يجب ألا ينام!

∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا نوعا من التعذيب الذي كان النازيون يمارسونه، وفيما بعد قرأت عن تجربة النوم الروسية - وهي إشاعة غير حقيقية - حيث كانوا يرغمون الأسرى على البقاء متيقظين لعدة أسابيع
هذا تقريبا ما فعلوه مع عصام السمدونى.
طيلة الوقت كانت زوجته أو أحد رجال الأمن جواره يكلمه.. فإذا ثقل جفناه قرص خده.. بعد هذا يوجه له صفعة خفيفة. ثم يسكب الماء البارد على قفاه.. أحيانا كان الأمر يحتاج إلى الدبابيس أو عقب لفافة تبغ مشتعلة
لابد أن النازيين لم يكونوا بهذه القسوة..
وراح عصام البائس يردد:
- أريد.. أن... أنام..
ثم يغمض عينيه فتهوى صفعة على خده..
راح اللعاب يسيل من فمه بعد ما صار عاجزا عن غلق شفتيه. هالات سوداء كثيفة تحت عينيه.. شعره منكوش... صوته مضعضع
- أريد.. أن... أنام
لكنهم لن يسمحوا له بذلك
جاء الليل وشعرت بالإنهاك وتثاءبت عدة مرات.. من حقها أن تنام طبعا فهي غير مهددة بالقتل. نظرت إلى ذلك البائس الجالس جوار الفراش يشرب القهوة بلا توقف وعيناه حمراوان، ثم نظرت إلى الضابط الشاب الذي جاء للتو.. بالطبع لم يسمحوا لعصام بأن يتمدد في الفراش.. بل إنهم أجبروه معظم الوقت على الوقوف في مكانه
قالت للضابط الشاب:
- سوف أخلد للنوم بعض الوقت... أرجو أن تستمر في مراقبته متى يأتي زميلك؟
- بعد ساعتين

كانوا قد قسموا الليل إلى أقسام كل منها مدته ساعتان، وهكذا يصل في كل مرة شاب مفعم بالحيوية كأنه قد خلق للتو، فيشرع في جعل حياة عصام كارثية
تثاءبت من جديد كفرس النهر، واتجهت إلى الاستراحة كانت قد أعدت لنفسها ركنا فيه السجائر والقهوة والمجلات والكتب، ومع الوقت لم يعد أحد يحاول الاقتراب. كما أنها كانت تنزع حذائيها وتمدد ساقيها على مقعد أمامها فلا يعترض أحد
أغمضت عينيها وشعرت بالنعاس يتسلل.. أفضل طريقة لعلاج الأرق المزمن هي أن يكون عملك هو السهر!.. لهذا ينام الحراس الليليون والمسعفون ورجال الشرطة نوما هانئا.. لم تسمع قط عن ممرضة ليلية مصابة بأرق
هاآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآو...! تثاؤب
هذا المخزن الغريب.. رأت مثله في طفولتها لكنها لا تذكر متى كانت هناك وكانت تلعب المساكة مع صديقتها. صديقتها ليست هنا لكنها ترى نفس الصناديق ونفس الثياب الرثة ملقاة هنا وهناك.. نفس الغبار......
المكان مظلم مع رائحة عطن قوية..
هي تدرك جيدا أن عليها أن تظل هنا.. يجب ألا تخرج.. لماذا؟ لا تعرف
شعور مريب مخيف بالحصار يدهمها..
ثم ترى ظله هناك خلف الباب.. هناك نافذة من الزجاج المصنفر وهو خلفها. لا تعرف من هو ولا ترى ملامحه لكنها تخافه.. يطلق زفرة فيتغطى الزجاج بالبخار كما يفعل الفيلو سيرابتور في اللقطة الشهيرة من (حديقة العصر الجوراسي). لن تتحرك.. لن يراها لو ظلت ثابتة
يعبث في مقبض الباب.. لا يوجد ما يمنع من أن يفتحه..
استدارت تبحث عن ملاذ... فئران.. هي لا تخشى الفئران كأي أنثى أخرى. تمقت كل علامات الضعف الأنثوي..
فجأة سمعت من يقول:
- هلم يا دكتورة إنجي!... توارى وراء كومة الصناديق!
نظرت للخلف غير فاهمة فعاد يكرر النداء بلهجة تتوسل..
ثم اقتحم أحدهم الباب..... الشيء الضخم الذي كانت تخشاه بعنف رائحته كريهة.. مخيف.. لكن له مظهر البشر برغم كل شيء
وسرعان ما وجدته يجثم على الرجل الذي أنذرها.. كان يقضم صدره يقضم قلبه بلا تردد
كان الذعر أقوى منها فانطلقت هاربة.... خارج المخزن كان هناك منحدر زلق.... ووجدت قدميها تسبحان بسرعة لأسفل.. لأسفل
شهقة!
فتحت عينيها فإذا هي ما زالت في استراحة المستشفى.. حولها الكتب والمجلات والتبغ
ماذا حدث؟ هل رأت كابوسا بدورها؟
لقد صحت في ذروة مرحلة REM وهذا معناه أنها تذكر كل تفاصيل الكابوس جيدا
شعور غريب يغمرها مع جفاف شديد في حلقها.. صبت لنفسها بعض القهوة في كوب ورقي وشربتها.. لماذا تشعر بهذا التوتر؟
ماذا يقول ابن سيرين عن أحلام المخازن حينما يحذرك أحدهم من مقتحم على الباب؟
يجب أن ترى ذلك المدعو عصام........
عندما مضت للغرفة وهي ترتجف من البرد والتوتر، لأن معدل الاحتراق في جسدها كان

منخفضا بما يتفق مع النوم.. عندما تركها المجند الجالس على الباب تدخل، كان أول ما رأته بالداخل هو الضابط الشاب وقد جلس على مقعد وشبك أنامله على مسند مقعد آخر، ومن فوقهما وضع رأسه... كان مسرورا جدا منتشيا.. لابد أنه (يأكل رز مع الملائكة) كما يقولون
نظرت للجهة الأخرى فرأت (عصام السمدونى) على الفراش.. لقد جلس على مقعد وأراح نصفه العلوي على الفراش، لكنها رأت عينيه الجاحظتين ونظرة الذعر في عينيه.. أدركت كذلك أن وجهه متصلب..
وأن جسده ساكن وأنه لا يتنفس
إنه ميت
لحظات غلب فيها النوم ذلك الحارس الأحمق فنام.. كانت لحظات كافية كى يخدعه عصام وينام بدوره.. وعندما نام انتظره قاتل الحلم وفتك به
لكن.. هذه الملامح...
نفس الملامح التي رأتها في الكابوس. كان عصام هو الرجل الذي طلب منها أن تتوارى خلف الصناديق
لقد كان في حلمها
ثم ظفر به الشيء.. التهم قلبه في الواقع
معنى هذا مخيف وغريب.. يتجاوز مبدأ توارد الخواطر أو الصدفة لربما حلم بها عصام قبل موته
هذا الكابوس لديه القدرة على عبور الأحلام يعبر من حلمها لحلم عصام ببساطة وسهولة
∞ ∞ ∞ ∞

5- مختبر النوم..

نجاح تام..

لقد مات عدد قياسي من الأشخاص المهمين في فترة قصيرة............

لو أن هناك من يفرغ بندقية سريعة الطلقات فيهم، لكان الأمر أكثر منطقية.........

هكذا قررت أنها فشلت.. أتجهت لرجل الأمن الكبير الذي حل محل دكتور مراد، وقالت في ثبات:

- أعتقد أنني فشلت.. لم أستطع فهم ما يحدث وليس لدي أي تفسير له. أرجو أن تقبل استقالتي من هذه المهمة.. لا أتحمل المزيد من الدم أكون أنا مسئولة عنه

قال محتجا:

- لكننا نتحرك في ظلام دامس... نحتاج إلى رأيك........

- وأنا ليس لدي رد.. لا أعرف من أين أبدأ ولا أملك نظريات بصدد هذه الوفيات. لو كلفتني بقيادة غواصة فالنتيجة واحدة.. ولسوف أحمل ذنب كل من غرقوا مع الغواصة للأبد............

ثم جمعت أوراقها من دون أن تنتظر ردا، ووضعت هاتفها وعلبة تبغها في الحقيبة وغادرت الاستراحة. توقعت أن يناديها أو يقول شيئا لكنه لم يفعل، ورأت من بعيد محفة يدفعها رجلان وعليها جسد مغطى بالملاءات...........

لسبب ما لم تستطع منع فكرة أنه ضحى بنفسه من أجلها.....

لعله يحلم الأن حلمه الأخير.. الحلم الذي سيظل يعيشه حتى يوم الحساب....

∞ ∞ ∞ ∞

عند باب المستشفى كان يقف.....

يستند إلى الباب وهو ممسك بالقلم الجاف الزنبركي... يضغطه تك تتك تك على سبيل التسلية. هذه الأقلام مستفزة جدا وتتلف بسرعة... الكل يمسك بالأقلام التي تلفها لتبرز السن، لكنه رجل عتيق الطراز.. سبب هذا هو أن مدرس اللغة العربية هو نموذجها الذي بنت عليه المرشد لم يكن المدرس على كل حال بهذه السماجة وهذا البرود... لكن برود المرشد ومهنيته ارتبطا بفانتازيا جداً.. لو كان أكثر حرارة وظرفا لبدا الأمر غريبا.. فلما رآها تقترب مشي جوارها وهو يدس يده الأخرى في جيب بدلته السوداء الأنيقة

- مرحبا يا مرشد..

- مرحبا يا أليس... أنهيت المغامرة مبكرا اليوم.....

- لا بد أن أجد آثارا على الرمال... مدقا تمشي فيه القوافل.. أنا لا أسحر.....

ابتسم في غموض وقال:

- هذا حلم.. أعتقد أنك خبيرة في أمور الأحلام.. فانتازيا نفسها حلم كبير

قالت في تهكم:

- حلم عن الأحلام.. ألا ترى أنك تبالغ قليلا؟

- المسرحية داخل المسرحية تقنية قديمة.. «هاملت» فيها مسرحية طويلة داخل المسرحية

- لست مرتاحة لقصة اليوم.. غامضة أكثر من اللازم.......

- هل ترغبين في التغيير؟
- سيكون هذا رائعا............
كانا يقفان أمام سيارتها التي تنتظر في المرآب فتأملت صورتها في الزجاج وقالت:
- هذه من المغامرات القليلة التي لم تجعلني فيها فاتنة شقراء..
- على سبيل التغيير.. على كل حال أي صورة لك مهما كانت أفضل من الأصل.......
ما معنى هذه العبارة.. لا يهم.. إنه سليط اللسان على كل حال ثم استند إلى السيارة الواقفة، وقال بلهجة إغراء:
- سوف أقدم لك عرضا لا يمكن رفضه كل ما عليك هو أن تعودى للبيت وتنامي.. هكذا ستبدأ المغامرة....... هكذا ستبدأ المغامرة.. هذا كل شيئ
- تعني أنني سأموت أثناء النوم كالآخرين؟
- ليس بالضبط... لكنك ستقتربين من ذلك جدا.. لا شيء كالدنو من الموت يمنحك إثارة عظيمة.. هذا يكسر الملل فعلا
فتحت باب السيارة وربطت الحزام، ثم أدارت المحرك شاردة الذهن ونظرت له حيث وقف جوار النافذة:
- هل تريد أن أقودك لمكان ما؟
ضحك في استمتاع:
- هل تمزحين؟.. أنت في عالم من الحلم وأنا الحلم ذاته.. يمكنني أن أكون في أي مكان في أي وقت
- وأنا مالكة هذا العالم.. لا تنس هذا
- بالطبع لم أنس
وانطلقت السيارة تاركة هذا المرشد البغيض واقفا يراقبها ويعبث بالقلم الجاف في استمتاع

∞ ∞ ∞ ∞

المركز الذي تعمل فيه ليلا يقع على بعد شارعين من بيتها..........
الحقيقة أنها لم تكن تذهب هناك بانتظام ربما تمضي ساعة كل يومين.. وعامة لم يكن عملا ناجحا أو يجلب الكثير من المال، لكنها كانت تحب ما تقوم به
هذا المركز مختص بالاضطرابات النفسية.. وقد أنشأته مع عدد من زملائها دفع كل منهم مبلغا من المال.. المكان يبدو كأي عيادة استثمارية في مصر. مدخل ولافتة نيون ونباتات زينة... كاونتر رخامي عليه جهاز كمبيوتر وفتاة استقبال حسناء. مقاعد متناثرة ومن حين لآخر تصيح الفتاة:
- أستاذ مرعى... مدام هدي..
فيهرع أحدهم لباب من الأبواب الخمسة في المركز. يمكنك أن تدرك من وجوه الجالسين أن كلا منهم يمر بلحظات قاسية في حياته.. التهاب زائدته النفسية.. سرطان في روحه.. فتق في شخصيته.. وفي الداخل ينتظر الجراح البارع الذي يعرف..
جلست في مكتبها عارفة أنها ليلة جرداء على الأرجح ساعة من النسكافيه ثم العودة للبيت ومحاولة النوم.......
جاءتها الممرضة لتخبرها أن هناك من يدعى (سيد خليفة) قد طلب موعدا. سمحت له بالدخول.......
كان رجلا بدينا مرهقا تحت عينيه هالات سواد كثيفة.. متأنق لكنه لم يجد الوقت ولا المزاج كي يهتم بلمسات بسيطة مثل ربطة العنق. كتفاه متهدلان كأنهما شماعة تحت السترة..

لما تقدم منها قدم لها بيد ترتجف ورقة صغيرة.. أدركت أنه لم يأت لها مباشرة. لا أحد يأتي لها مباشرة لكن من أرسله طبيب نفسي آخر......
اضطرابات نوم؟ هكذا قالت الورقة.........
عندما جلس خليفة أمامها استطاعت أن تنتزع منه بعض التفاصيل....
يعتقد أنه نام لكنه يصحو في النهار مضعضعا مهشم العظام.. لا يستطيع التركيز... ضغط دمه مرتفع جدا علاقاته الزوجية ليست على ما يرام ويتشاجر بسهولة شديدة....
- هل تدخن؟
- نعم.. كثيرا
وأثار غيظه أنه قال نعم... كل الأطباء يسألون هذا السؤال كمخرج للنجاة.. لو قال الطبيب إنه يدخن فلسوف يعلقون كل شيء على شماعة التدخين. هذا حل ظريف جاهز.. لو قال المريض إنه يعاني من نزف من عينه فالتدخين هو السبب.. لو أنجبت المرأة كائنا فضائيا له هوائي على رأسه فالتدخين هو السبب
- هل تنام بشكل متواصل حتى الصباح؟
- لا أعتقد هذا
- هل تري كوابيس؟
- الكثير منها
كانت الإجابة الآن قد صارت قريبة جدا.. هذا المريض يعاني من (توقف التنفس أثناء النوم).. وهو مرض شائع.. لكن المريض قد لا يذكر الأمر عندما يصحو صباحا ويواجه العالم مرهقا عاجزا كأنه قطعة من القطن....
كلما غاب في النوم اختنق ونهض مذعورا.. ثم يعاود النوم فيتكرر الأمر.. كأنه ذلك التعذيب النازي الذي تكلمنا عنه، أو ما كانوا يفعلونه مع عصام المسكين الذي أصر على الموت برغم كل شيء.........
يزداد هذا مع السمنة والتدخين السمنة والتدخين، وهناك قائمة أسباب لا بأس بها، والحل - بعد وقف التدخين وتقليل الوزن وعلاج السبب - هو الجراحة أو استعمال الأكسجين المتقطع الإيجابي.. أي أن المريض ينام وقناع على وجهه يمنحه ضغط أكسجين مناسبا... هكذا لا يختنق طيلة اليوم ويظل مجرى التنفس مفتوحا........
لكن ليس بوسعها اتخاذ قرار قبل أن تتأكد من التشخيص
- نحن نحتاج لمختبر النوم
نظر لها في رعب.. مختبر نوم؟ عم تتحدث هذه المخبولة؟
شرحت له في صبر معنى (توقف التنفس أثناء النوم) وكيف أنها لا تقدر على اتخاذ قرار من دون عمل دراسة مطولة حول تنفسه أثناء النوم.......
- وهذا يستدعي أن....؟
سألها في رعب وتوجس فقالت:
- بالنسبة لك يمكن أن نجرى لك هذه الدراسة في بيتك وفراشك سوف أخبرك بالطريقة
شرحت للرجل المذعور ما تنوي عمله بالضبط... سوف يقضي ليلته بهذه الأجهزة، وفي الصباح سيعود للمركز حيث يقومون بتفريغ الأجهزة ومعرفة ما حدث في تلك الليلة السوداء..
شيء مفزع ومزعج أن تمضي ليلتك مربوطا بأقطاب وأسلاك... لكنه العلم. د. مصطفى بارع حقا ويجيد العمل في مختبر النوم.. د. مصطفى خبير النوم رجل وقور أشيب الشعر له ملامح صلبة

جافة كأنها منحوتة من خشب، لكن عينيه صادقتان شفافتان. ليست كل الحالات خاضعة للنوم داخل المختبر.. الحالات المهمة والغامضة فقط، أما عدا هذا فالمريض يجري الاختبار في بيته

كانت تفكر... لو أنها جمعت كل مسئولى البلاد المهددين وجعلتهم ينامون في مختبر النوم لتراقب حركاتهم وضغط دمهم. عندئذ كان بوسعها أن توقظ كلا منهم عندما تسوء الأمور......

لكن هذا مستحيل.....

الحل الوحيد هو أن تجد شخصا هدده الموت ونجا مثل عصام – قبل وفاته - فتضعه في هذا المختبر تحت رقابة صارمة..

غادر هذا الأخ الذي لا ينام مكتبها فأغلقت أوراقها. ظهرت الممرضة على الباب وابتسمت وحركت يدها حركة بمعنى (لا شيء). فحركت عبير يدها حركة بمعنى (أنا عائدة لدارى).. ونهضت

∞ ∞ ∞ ∞

راح الكلب يتواثب حولها في شغف، بينما ابتلعت قرصا من المنوم وقدمت له طعامه ثم دخلت إلى فراشها بينما لحن كلاسى ناعم يتسرب عبر السماعات

تحب قراءة شيء خفيف ليلا مثل مجلات الكوميكس البلجيكية.... اندهشت لأن فرنسيتها جيدة.. يذهلها أنها تكتشف في نفسها شيئا كل مرة..

راحت تطالع ثم انزلقت المجلة من يدها فأطفأت الأباجورة...

لماذا يزوم الكلب هكذا؟.. ماذا يوتره؟.. للأسف لا تقدر على النهوض لأن النعاس يهزم.............

∞ ∞ ∞ ∞

6- الكابوس ..

هذا البرج الشامخ.. واقفة هي هناك والريح تطير ثيابها أو (تمضغ معطفها) على رأي نزار قباني.
أين هي؟ يمكنها أن ترى المنطقة كلها....
هذه التماثيل التي تمثل شياطين صغيرة تحيط بالسقف. إنها الكراجل Garglyles وهذا يعني أنها تقف فوق أحد أبراج كنيسة النوتردام في باريس. لم ترها قط لكنها تذكر مشاهد فيلم أحدب النوتردام.. في فيلم ديزنى تتحرك هذه الكراجل وتتكلم.....
هي تعرف أن هذا حلم......
لكن كيف تهبط من هنا؟ الليل يقترب والسماء صارت زرقاء داكنة توطئة لأن تصير سوداء تماما.. سوف يصير الهبوط مستحيلا بعد نصف ساعة
تتحسس الأرض بقدميها.. يبدو أن هذا البرج يقود لباب، وعلى الأرجح هذا الباب يقود لدرج ينزل بها. لكن الباب موصد....
نظرت من أعلى وقررت أن تصرخ.. سوف يسمعها الناس، ولسوف يفتحون لها الباب أو تأتى المطافئ. ليس من عادة الفرنسيين أن يتركوا شخصا حبيسا في برجهم، على الأقل حماية للبرج وليس حياته!
لما نظرت من عل أدركت أنها أخطأت......
الشيء الذي يشبه البشر يتسلق البرج قادما نحوها!!
إنه يقترب.. هرعت نحو الباب وحاولت أن تفتحه.. راحت تهزه بعنف بلا جدوى... تحول ذعرها إلى هستيريا كاملة.. انفتح أيها ال.............
ثم هرعت للسور فرأت أنه يقترب....
كانت له ملامح آدمية بالتأكيد، لكنها مخيفة بالقدر الذي يمكن أن تتحول فيه ملامح المرء إلى ملامح غول.. له أنياب حادة ومن الواضح أن....... الدم الذي يسيل على شفته جاء منه هو!... يدمي شفته مثل تنين كومودو........
فجأة رأت ذلك الحبل الغليظ الذي يتدلى لأسفل.. يتدلى حتى الميدان....
يمكنها أن تهبط عليه، برغم أنها تخاف المرتفعات وتعرف أن قبضتها ليست قوية. لكن الفزع القادم كان كافيا ولأسباب كهذه ألقى أناس بأنفسهم من برج التجارة العالمي وفضلوا التحطم إلى ألف قطعة بدلا من انتظار الموت حرقا........
تمسكت بالحبل وسمعت نفسها تتلو الشهادتين.. لا بد أنها قالت هذا بصوت مسموع اثناء النوم
تنزلق لأسفل ببطء حريصة على أن تنزلق في الناحية الأخرى.. الناحية البعيدة عن تلك التي يتسلق عليها، وكان يفعل هذا بكفاءة كأن لديه ممصات في كفيه... الرجل العنكبوت لو أصابه السعار......
تنزلق... تنزلق..
ثم أدركت أن الدوار يقتلها.. لا تفقدي الوعى الأن يا بلهاء.. إن فقدت الوعي فلن تستيقظي للأبد، ولا تنسى أنك إن مت في فانتازيا مت في عالم الواقع.....
نفس منطق الموت أثناء الحلم. للقلب قدرة محدودة على التحمل.....

الحبل خشن.. الاحتكاك يحرق كفها فعلا......
إنها.. قبضتها تتخلى عن ال........
تبا!.. تماسكى..!!
الهاوية والأرض تقترب بلا توقف......

∞ ∞ ∞ ∞

لوحة الصرخة لمونش. لابد أنها تصرخ خارج غرفة النوم.
صحت من نومها مذعورة وهي تشهق......
هناك نوبات تصيب الأطفال اسمها (نوبات الذعر الليلي)، لكنها لا تكون مسبوقة بكابوس.. يصحو الطفل صارخا وقد ازرق لونه من الهلع يعجز عن الكلام للحظات
هي الآن تمر بشيء كهذا..........
لم تكن ممن يحلمون بالكوابيس... لا تنس أنها لم تكن تنام أصلا..
جلست في الفراش وتماسكت بصعوبة. الكلب هناك يتواثب على الأرض مذعورا.. حالته غير طبيعية فعلا ولعله شعر بذلك التواصل الغامض بين الكلب وصاحبه... شعر بها.......
نهضت إلى الأرض واحتضنته في الظلام شاعرة بقلبه الصغير ينتفض..
ثم أنها نهضت إلى النور الكهربي فأضاءته.. من الواضح أنها ستنام في النور كالأطفال. الكوابيس عالم شنيع، وبرغم أنها تعيش حياتها مع عالم النوم والأحلام فإنها لم تطق أن تمر بكابوس هي نفسها......
قررت في النهاية ألا تواصل النوم.........
ستجلس في الفراش باقي الليل وتقرأ.......
عند الفجر دق جرس الهاتف.. جاء صوت ذلك الضابط الذي تولى المهام بعد مراد بك.. كان يتكلم بصوت حزين ثابت كما يتحدث المذيعون في جنائز الأشخاص المهمين.. أدركت على الفور سبب الاتصال. قال لها بصوت مبحوح:
- رأفت التويجري
كادت تقول (اشمعنى) ثم وجدت أن هذا مزاح سخيف فعلا.. انتظرت باقي الخبر الذي تعرف محتواه على كل حال. قال لها:
- لقد مات.. مات أثناء النوم كالعادة..
كانت قد أدركت أن التويجري هذا شخص مهم جدا بالتأكيد.. لا بد أنه أهم الشخصيات الاقتصادية أو ملحق عسكري أو رجل مخابرات... المهم أنه مهم وقد مات.......
- وجده ابنه ميتا ساعة القيلولة بنفس علاماته الذعر المعتادة........
قالت في عصبية:
- لقد صار هذا لا يطاق.. لا بد من مسئول حي أو اثنين.. مستحيل أن ينتهي كل المهمين بهذا الشكل
نحن نتكلم عن:
السيد الشناوى
منصور بيومى
مراد وصفى
أحمد جاد
جورج باسيلى

عصام السمدونى
مراد بك (لا تعرف باقي اسمه)
رأفت التويجري
ثمانية أشخاص مهمين ماتوا في أسبوع بنفس الطريقة.. لا بد من تفسير واضح لهذا كله. لقد تجاوز الأمر قوانين الصدفة. قالت له:
- لا بد من تشريح الجثث التي لدينا بعناية.. يجب أن يقوم خبير بالبحث عن أثر لأي سم مما يسبب الهلاوس..
صمت وبدا واضحا أنه يكتب ما تقول، فعادت تقول:
- لا بد من معرفة تحركات هؤلاء..لا بد من البحث عن عامل مشترك.... يجمع هؤلاء غير أنهم مهمون... ربما كان شعرهم أحمر أو عيونهم زرقاء أو هم أعضاء في محفل ماسوني، أو ربما ولدوا في برج الجدي جميعا
- ليسوا هذا كله.........
- أرجو أن تتأكد.. لا بد من سبب لقتل ثمانية أشخاص مهمين.......
- التخريب.. هذا سبب كاف.......
- إذن كيف فعلها الفاعل؟ أنا شخصيا أتمنى قتل مئة شخص لكن لا سبيل لي لقتلهم أثناء النوم
ثم أنها وضعت السماعة وتثاءبت...........
ربما تظفر بساعة أخيرة قبل موعد الكلية.........
∞ ∞ ∞ ∞
قبل موعد الذهاب للكلية عرجت على المركز......
لم يكن هناك أحد سوى دكتور مصطفي.. يلتهم بعض شطائر الفول والطعمية ويشرب الشاي، وأمامه جلس سيد خليفة متوترا.. أشار
د. مصطفى للطعام وقال:
- بسم الله
لم تكن بحاجة لدعوة. كانت جائعة فعلا لذا مدت يدها لشطيرة فول وراحت تقضم منها في نهم، ثم سألت سيد خليفة:
- هل جئت بالنتائج الليلية كلها؟
- كلها
كان مرهقا متورم العينين كالعادة وبدا أكثر بدانة مما كان.........
سألت دكتور مصطفى عما وجده في الأبحاث، فقال بلهجة تقريرية:
- ماذا تتوقعين؟.. طبعا Sleep apnoea
نظر لها سيد في ذعر كأنها قالت إنه مصاب بسرطان المثانة، وتساءلت عيناه عن معنى ما تقول فترجمت له بسرعة ليهدأ:
- (توقف التنفس أثناء النوم).. كما توقعت. هناك فترات طويلة ينقطع فيها تنفسك تماما أثناء النوم، لكنك لا تذكر هذا في الصباح.. إلا أن جسدك يعاني بعنف
ازداد الذعر في عينيه فقالت مطمئنة:
- لقد وجدنا السبب.. لم يبق سوى أن نعالجه. سوف تفقد وزنا وتكف عن التدخين... لو لم تتحسن الأمور سوف نلجأ لعلاج الأكسجين الإيجابي المتقطع.. ربما نفكر في الجراحة
ثم أضافت باسمة:

- سوف يصحب هذا تحسن أكيد في ضغط دمك وعلاقاتك الزوجية....
ثم نظرت لساعتها.. لقد تأخرت على الكلية، لكن هذا لا يمنعها من التهام شطيرة طعمية كذلك.. إن كومة الشطائر أمام د. مصطفى عالية وتسمح بهذا الطموح
∞ ∞ ∞ ∞
عند منتصف النهار جاء د. وليد الشيخ..
نحيل وديع مسالم.. فيه خفر يذكرها بالعذارى..... له ملامح وجه رقيقة، وهي لا تطلق لفظة رجل إلا على من يبدو خشنا قوي الملامح وله شارب كث.. أي أن جنس الرجال عندها يبدأ برشدي أباظة كبداية، ثم يتحرك لأعلى وترتفع معدلات الخشونة
أما أن يأتيها ذلك الفتى الذي يفوقها رقة ونعومة، فهي تشعر بأنه كائن مزعج لم تكن تهتم بالرجال كما قلنا، لكن لو اختارت رجلا فعليه أن يختلف عنها في كل شيء
برغم هذا كان إنسانا مهذبا.........
يحمل مجموعة من الأوراق ويرتجف قلقا.. لقد جاء من المنوفية خصيصا ليعرف رأيها. إنه ريفى لا يشعر براحة كبيرة في القاهرة، ولكنه يحمل من الريف أفضل بما فيه........
تعرف أن هذه الأوراق هي رسالة الماجستير التي يعدها، وهي تشرف عليها.. لن ندخل في التفاصيل لكنها نوع من دراسة مادة كيماوية معينة في مخ الفئران أثناء النوم.. شيء من هذا القبيل
سمحت له بالجلوس ثم راحت تقلب صفحات الرسالة.....
كانت قد أجرت الكثير من التعديلات، وقد أرادت أن تعرف إن كان نفذها أم لا.. لكن افتقارها للنوم جعل الصفحات زائغة تماما.. كانت قادرة على التركيز بصعوبة. هذا نوع من ال Aphasia أو الحبسة البصرية حينما ترى الحروف جيدا لكنك عاجز عن فهم ما تعنيه..
جرعت الكثير من القهوة وأشعلت لفافة تبغ محاولة التركيز فلم تقدر
أخيرا شعرت باليأس فقالت له:
- اترك لى الأوراق.. سوف أطالعها وأخبرك برأيي........
سألها في حيرة وقلق:
- هل أنت بخير يا دكتورة؟
- ربما لم أنم جيدا.. هذا كل شيء........
ظل ينظر لها في عينيها بعض الوقت وابتسم.. ثم إنه ابتعد شاكرا........ فعلا لا جدوى من التركيز.. أطفأت لفافة التبغ في قدح القهوة، وقررت أن تعود للبيت لتظفر ببعض النوم..لا يمكنها أن تمارس العمل ليلا ما لم تنم قليلا
بعد الغداء نامت بعمق.. لم تدرك متى غابت عن الوعي.. كانت تقرأ ثم سقط الكتاب من يدها وسرعان ما وجدت نفسها فوق برج النوتردام تنظر من أعلى لذلك المسخ الذي يتسلق الجدار........
أطلقت صرخة هلع......
نظرت لجانب السور فرأت ذلك الحبل الذي كان هناك.........
لكنها كانت تعرف أنها لن تستطيع التمسك.. سوف تنزلق يداها........ لن تكرر غلطة أمس............
المسخ قادم.. لا بد من حل سريع..
فجأة رأت ذلك المسدس..........

من أين جاء؟ من وضعه على السور؟
حملته شاعرة بثقله.. وبرودة المعدن. من المذهل أننا نشعر بالأشياء أثناء الحلم كأنها في عالم الواقع. وكانت تعرف أنها ستستعمله ببراعة... هي لم تطلق الرصاص قط إلا في فانتازيا، لكنها عندما تطلق الرصاص تتصرف كأنها خاضت الحرب مئات المرات..........
التقطت المسدس وصوبته نحو ذلك الشيء الصاعد
بوم!.. بوم! وبوم!.... كليك!
نفد الرصاص لكن الشيء المنحوس قادم.. هل الرصاص لا يؤثر فيه أم ماذا؟
فجأة انفتحت الأرض من تحتها وأدركت أنها تقف على قمة درج حجرى متلو يهبط لأسفل. ما العجب؟ هذا هو النوتردام بناية قوطية عتيقة مخيفة، ولا بد أن فيها ألف ممر سرى..
لا يوجد وقت للاختيار.. فلتهبط.
بسرعة..
بسرعة
العادة السيئة للأحلام وهي أن قدميك لا تطيعانك انت بطيء وغبى جدا.
لكنها في النهاية تجد قبوا
هناك ممر طويل وعلى الجدار شمعدانات على اليمين واليسار.. هناك صور بيزنطية على الجانبين، وبعض لوحات كلاسية.. معظم هذه اللوحات تمثل قديسين مسيحيين شهداء. هذا متوقع في النوتردام على كل حال......
الممر طويل ونصفه البعيد يتوارى في الظلال..........
قلبها يتواثب ولا تكف عن النظر للخلف.........
لو رأى ذلك الشيء الفتحة لنزل وراءها. ولسوف تكون فرصتها معدومة هنا، فهي ستجري بلا أي فرصة للكر والفر.. وهو بالتأكيد أسرع منها..
«أحلام المطاردة شهيرة جدا.. لقد كتب عنها يونج كثيرا... غالبا لا ترى وجه مطاردك... هذا يوحي على الأرجح بأنه شىء تخشى مواجهته في ذاتك أنت»
هكذا قالت.. وكانت حكيمة جدا
لماذا لا تجد هذه الحكمة والشجاعة الآن؟
نظرت جوار إحدى اللوحات فرأت.. أقصد أنها سمعت أولا.. كان هناك طفل رضيع يصرخ طفل وضعه أحدهم جوار الجدار عاريا هشا
انحنت وضمته إلى صدرها... لا وقت للفرار ولا النجاة، لكن ربما كان بوسعها أن تنقذ هذا الرضيع

∞ ∞ ∞ ∞

٧- نزوة مراهقة..

الطفل الرضيع لم يكن طفلا رضيعا.........
لما ضمته لصدرها رأت ملامحه تتقلص وتتجعد.. كان يشيخ بسرعة جنونية..
إنه شيخ مسن تضمه لصدرها.. وبرغم هذا هو صغير الحجم فعلا كأنه طفل رضيع. هل هذا سحر؟ وتذكرت مقولة كامبل عن أن النساء العجائز في عالم الأسطورة متحولات دائما..
هنا طفل تبدو عليه البراءة والهشاشة.. لكنه تحول لشيخ مجعد مقزز.......
سمعت صوت الخطوات ورأت ذلك الشيء قد دخل البهو......
مدت يدها إلى مشعل معلق إلى الجدار جوار صورة حرق جان دارك... طوحت بالمشعل في وجه الشيء القادم فصرخ.. صرخ صراخا مريعا.......
فجأة وجدت أن ذلك الشيخ ليس بين ذراعيها......

∞ ∞ ∞ ∞

في مركز العلاج النفسي...
لم يكن هناك مرضى لها كالعادة.. هذا المكان يناسبها جدا لأنها تنجز أعظم المشروعات طموحا.. يمكنها أن تؤلف الالياذة وتتبعها بالأوديسة والإلياذة مع كل هذا الهدوء والفراغ.......
هكذا أشعلت لفافة تبغ وسعلت ورشفت رشفة من القهوة، ثم راحت تتصفح كتب تفسير الأحلام التي لديها
في حلمها تماثيل.. والتماثيل عند ابن سيرين هي أصنام.. معنى هذا أن صاحب الحلم يتقرب إلى رجل يبغضه الله تعالى، وتدل الرؤيا على ذهاب ماله ووهن إيمانه.......
رأت طفلا.. والطفل عدو ضعيف لك، يظهر صداقته ثم يظهر عداوته فيما بعد. رأت أنها حملت الطفل، وابن سيرين يقول إن من يحمل طفلا ملكا.. حكى له أحد الناس عن حلم يطارده يضع فيه طفلا في حجره والطفل يبكى بلا توقف، فقال له: اتق الله ولا تعزف العود.... أما تحول الطفل لشيخ في الحلم فمعناه أن المرء يكتسب علما وأدبا.......
ما معنى هذا؟
مئات المعاني وكلها لا تتسق لتصنع معنى متكاملا....
سوف تكسب علما وأدبا، وفي الوقت نفسه لها عدو مراوغ يظهر صداقته. وهي تتقرب من رجل يغضب الله.. وفي الوقت نفسه تدير ملكاً..........
ترى ماذا يقول تفسير الغربيين؟
بالنسبة لفرويد الأمر سهل.. فالكنيسة عنده رمز للأنثى، والطفل والمسدس والشمعة رموز للذكر.....
المفسرون الأكثر تعقلا يقولون إن الكنيسة تدل على اهتمام المرء بالعالم الآخر.. الأطفال يدلون على حاجتنا للتحرر من قيود حياة الكبار..... الشموع تدل على أن لديك مواهب خفية... إطلاق المسدس يدل على أنك لا تطيق شخصا ما... لا تريده في حياتك. ثم يفرغ المسدس كناية عن العجز
هي منهكة من حياة الكبار وتشعر بأنها تملك مواهب لم تظهر بعد.. هي تكره شخصا ما وتتمنى لو قتلته لكنها عاجزة... هي مهتمة جدا بالحياة بعد الموت

تنهدت في صبر...
أي الرأيين تصدق وكيف تصنع من هذا خليطا واحدا..؟؟
كلما قرأت تفسيرات الأحلام شعرت بالتخبط، وبأننا نتكلم عن شيء لا نعرف أي شيء عنه. فعلا هي مؤمنة أننا ما دمنا بعيدين عن رؤى.. الصالحين والأنبياء فإن أحلامنا متخبطة لا تزيد على بخار العادم المتصاعد من عمليات الاحتراق اليومية
نحت جانبا كتابي الأحلام.. ومدت يدها لرسالة ماجستير ذلك الطالب.. وليد الشيخ
راحت تقلب الصفحات التي تم تغليفها بكعب بلاستيكى.. وراحت تلاحظ التعديلات التي طلبتها بخط يدها....
وصلت لمنتصف الرسالة فوجدت ورقة مطوية بعناية.. فتحتها في حذر فوجدت المكتوب:
«ليست نزوة مراهقة.. لو صرت لي لجعلتك ملكة»
وجوار الكلام كانت صورة لا بأس بها بالقلم الرصاص لوجهها.. إذن لهذا الرسالة معطرة. هل هذا الكلام موجه لها؟.. بالطبع لا.. إنها تكبر الفتى بخمسة عشر عاما.. وهي منفرة عصبية يخافها الرجال.
لكن ما معنى الرسم؟ وما احتمال الصدفة هنا؟
واستشاطت غضبا....
الوغد المائع.. الوغد المنحل يصارحها بحبه......
كان يمكن أن تتساهل لو كانت جديرة بالحب، لكن هذا مستحيل لا يمكن أن يحبها أحد. ومعناه أنه يحاول أن يخدعها لتتساهل معه في الرسالة......
شعلت لفافة تبغ أخرى وراحت تفكر.. هل توبخه أو تطرده؟ وماذا لو كان يخاطب واحدة أخرى؟ سوف يظهرها بمظهر المجنونة التي ذهب الحرمان من الحب بعقلها.....
يمكنه أن يكون خبيثا كما يشاء.. يمكنه أن يزعم أن الكلام غير موجه لها...
لكنها تعرف جيدا أنه يخاطبها
يمكنها فهم هذا التعلق.. آثار فرويدية من طفولته لمعلمة أو مربية تشبهها... ثم نزعة ماسوشية تجعله يتمنى أن تقهره امرأة قوية الشخصية. هو ضعيف واهن أقرب للأنوثة، والرجال من هذا الطراز يتعلقون بالنساء القويات
هي لا ترغب في أن تلعب دور الحبيبة ولا المعالجة النفسية.....
أسلوب المراهقة هذا يستفزها فعلا..........
لكنها قررت في النهاية أن أفضل سياسة ممكنة هي التجاهل. لم تر شيئا ولم تعرف شيئا سوف يعتقد أنها لا تقرأ الرسائل العلمية وأنها مهملة.... لا بأس.. هذا يتحاشى المواجهة، لكنها على كل حال ستجعل حياته صعبة.. سوف يتعذب جدا وهو يحاول عمل كل الإصلاحات التي طلبتها....
يحبني؟ وليد الشيخ يحبني؟ وأنا أكبر منه بخمسة عشر عاما؟
لو قبلت بحبه فلسوف تصير أضحوكة الكلية، ولسوف ينطبق عليه المثل الشعبي (من همه.. أخد واحدة قد أمه)

∞ ∞ ∞ ∞

جاءها في الكلية بعد يوم..
رأت عينيه القلقتين والإرهاق على ملامحه، كما أنه كان يضع يده على خده بشكل متواصل لسبب لا تدرية. فأدركت أنه بالفعل كان يقصدها عندما كتب هذه الرسالة. دعته إلى الجلوس،

ثم رشفت رشفة من قدح القهوة..
ناولته الرسالة وقالت في برود:
- هناك أخطاء كثيرة جدا... أنت لا تتعلم.. أرجو أن تقوم بالتصحيح
نظر لها متسائلا......
معنى هذا أنها لم تر ورقته.....
أو ربما رأتها وهذا هو الرد؟
تناول الرسالة ونهض.. فقالت له وهي تشعل لفافة تبغ:
- من أين أنت يا وليد؟
- من المنوفية
قالت ضاحكة:
- أعرف هذا.. المنوفية ليست مدينة واحدة.. من الممكن أن تكون من تلا. من شبين الكوم.. إلخ
قال في حياء:
- قريتي اسمها دناصور.. مركز الشهدا
- وهل تأتي من هناك يوميا؟
لدي شقة صغيرة هنا في القاهرة.. أحيانا أبيت هناك
- متزوج؟
نظر لها في أمل واعترف أنه عزب.. هي كانت تعرف ذلك طبعا لكنها تمتحن ملامح وجهه. لم يعد هناك شك في أنه كتب الوريقة بكامل إرادته الحرة. لكنه ارتكب خطأ جسيما
عندما عادت لدارها كان الكلب يتواثب حولها فرحا بقدومها، وضعت له...... بعض طعام الكلاب المجفف في طبق ووقفت تراقبه....
تقول داليدا:
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
قد يحيا المرء مع كلب
قد يحيا المرء مع زهرة
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
اخترع الإنسان السينما والذكريات
اخترع ظلا
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
ينتظر المرء الربيع.. وعندما يموت الربيع ينتظر الربيع التالي
أحبك وأنتظرك لأخدع نفسي بأنني لا أعيش وحدي...
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
تبني الكاتدرائيات
التي يصلى فيها أولئك الذين يشعرون بالوحدة
لكننا لا نصنع تابوتا يتسع لاثنين أبدا
أعيش وحيدة معك
وأنت تعيش وحيدا معى
لكننا نتظاهر بأننا لا نعيش وحيدين.

اسمه وليد الشيخ وهو وقح كذلك.
وليد الشيخ... لا شك في أن فيه عذوبة ما. سذاجته جذابة
تناولت قرصا من المنوم وقررت أن تنام
لماذا يتواثب الكلب بهذا الشكل ولماذا ينتصب شعره ويزوم بهذه الطريقة؟ تخاف جدا من الحيوانات الخائفة.. كأنها ترى شيئا لا تراه

∞ ∞ ∞ ∞

8- معاكسات

من جديد هي في ذلك الرواق الذي تتناثر فيه صور الشهداء.....
لقد اختفى ذلك الرضيع الذي تحول إلى شيخ من بين يديها......
أحرقت باللهب وجه الذي هاجمها.. ذلك المسخ الغامض.. ثم انطلقت تركض في الرواق الذي يتوارى نصفه في الظلام.. هل من نهاية؟
المسخ الذي هاجمها قد أحرق وجهه، وهذا يعني أنه مسعور وغاضب إلى أقصى حد. لو لحق بها فلسوف.....
تجرى وتشعر بأن أعوام التدخين قد أهلكت رئتيها.. نصيحة عندما يطاردك وحش في ردهة طويلة: لا تكن مدخنا أبدا
هناك ضوء في نهاية الرواق أو البهو......
إن النجاة قريبة جدا..........
أخيرا استطاعت أن ترى ضوء الشمس.. أخيرا شمت رائحة الهواء النقى.......
لا توجد جغرافية في هذا الحلم. كانت في قمة النوتردام وهبطت بضع درجات وركضت عبر رواق، فإذا بها في مستنقع تتصاعد فوقه أبخرة غاز الميثان.. وترى شعلة المستنقعات الغامضة التي أثارت رعب الناس منذ فجر التاريخ......
تعرف هذا النوع من الكوابيس سوف تحاول عبور المستنقع فتخرج أيد متحللة من تحت الوحل تمسك بكاحليها. هذا حتمى.. لو لم يحدث لكانوا معدومي الخيال..
هناك أمور حتمية.. أي قتال يتم في مخزن فيه قش لا بد أن يهاجم أحدهم الآخر بالشوكة الثلاثية التي يكومون بها القش وينتهي المشهد بحريق. أي مطاردة في سوق شرقي ينتهي بالاصطدام بعربة فاكهة... أي شخص يمشي في المستنقعات أو المقابر لا بد أن تخرج أيد تمسك بكاحليه..
لكن هذا لم يحدث هنا.....
رأت فجأة أن شيئا عملاقا مخيفا يرفع رأسه في الأفق دققت البصر.. هذا ليس شيئا.. هذا ديناصور عملاق من طراز (برونتوسوروس) وهو آكل نباتات على كل حال، لكنها لا تتوقع أن تكون الدقة الباليو إكولوجية كبيرة في هذا الحلم.. غالبا سوف يكون ال. (برونتوسوروس) آكل لحوم هنا..
رأته يدنو منها.. ثم كما في الحلم اختزل جزء كبير من المسافة.. لقد صار وجهه على بعد متر من وجهها.. وفتح فاه وزار رائحة كريهة والكثير من البخر.. وشعرها طار إلى الخلف سقطت في الأوحال.. ورفعت رأسها
رأته يفتح فمه المليء بالأنياب الحادة ويقترب منها.. لن تمثل له أكثر من قضمة
- ال. (برونتوسوروس) لا يأكل اللحوم يا أحمق!... ال. (برونتوسوروس) لا يأكل اللحوم يا أحمق!...
صرخت طويلا.. صرخت

∞ ∞ ∞ ∞

صرخت

هي الآن على أرض غرفة النوم بينما الكلب يعوى ويحاول أن يجرها من منامتها..
لقد كان كابوسا.. الحمد لله أنه كابوس.. الكوابيس لعبة قاسية فعلا.. لا ترحم ولا تتسامح....
ترتجف رعبا.. هي ليست من النوع الذي يخاف من هذه الوحوش هذا جو طفولى جدا.... طفولى جدا... أسوأ الكوابيس عندها هي المتعلقة بخطر مبهم، أما أن يأكلك ديناصور فهذا سخف... مثلما يبكي البعض خوفا عند رؤية أفلام جودزيلا، بينما الرعب الحقيقي هو في فيلم الحاسة السادسة مثلا. برغم هذا كان كل شيء حقيقيا ومخيفا.. للحظات عاشت نفس مشاعر من يلتهمه ديناصور الحقيقة التي لا تستطيع استيعابها هي أنها فعلا صارت مستهدفة.. صارت من هؤلاء الذين تطاردهم كوابيس مخيفة وبالتأكيد هي لم تتعرض لعقار ما أو غاز ما.. لو كان قلبها أضعف لهلكت أثناء النوم.......
الهاتف يدق بلا توقف....
كم الساعة؟ الرابعة بعد منتصف الليل......
هناك مصيبة.. على الأرجح سيكون مسئول مهم آخر قد مات في نومه. وسوف تشعر بالأسف والندم، لكن ماذا تفعل؟ نفس الكابوس صار يطاردها ولم تعد تقدر على الفرار
رفعت سماعة الهاتف وقالت:
- آلو..
ساد الصمت.. الحمد لله!.. هذا شخص حقير يعاكسها بالهاتف..
أين هؤلاء؟... أين من يعاكسون؟ أين من يعاكسون؟.. هي لا تتلقى إلا أخبارا لعينة كريهة، وقد صارت بحاجة إلى سخافات حمار وقح... على الأقل لن يخبرها بموت أحد...
جاء الصوت المتحشرج الغريب:
- هل.. أنت.. بخير؟
ماذا؟.. عم يتكلم؟
قالت في غلظة:
- اسمع أيها الشاب.. لقد كان يومي مرهقا لهذا سأكون سعيدة لو أنك ذهبت للجحيم
عاد يسألها بصوت متحشرج ولهفة صناعية:
- هل أنت بخير؟
قالت في برود:
- بخير ولله الحمد..
- كنت قلقا.
كان الهاتف مزودا بخاصية إظهار رقم الطالب.. تناولت القلم جوار الفراش وكتب الرقم بسرعة، وكان هاتفا محمولا... سوف تعرف كيف تؤدبه في الصباح......
وضعت السماعة وتنهدت... على الأقل ليس هذا خبر ميت آخر. عليها أن تحاول الظفر ببعض النوم قبل الصباح..لا جدوى من تعاطى عقارات مهدئة أو منومة لمنع الكوابيس. كل التجارب المماثلة أدت لزيادة الكوابيس بدورها
لا حل سوى النوم من جديد......
رقدت على الفراش وأبقت النور مضاء.. سوف تنام برغم كل شيء.. إنها منهكة كما أن الكابوس الذي يزورها لا يبدو من الطراز الذي يكمل نفسه في الليلة ذاتها.. راحت الأغنية تتردد في ذهنها بإلحاح ممل وبلا توقف.. كما يحدث في السينما.. نوع من الوسواس القهري الذي لا يتوقف لحظة.. هل هي رسالة ما لا تعرف

من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
قد يحيا المرء مع كلب
قد يحيا المرء مع زهرة
من الذي اتصل بها؟
كل شيء يؤكد أنه وقح يعاكسها.. شعر بنزوة مراهقة عند الفجر..... فأمسك بالهاتف على سبيل التسلية. لكن وهي تدخل عالم النوم تذكرت كلمات:
هل أنت بخير؟
هل أنت بخير؟
هل أنت بخير؟
ثم تذكرت كلمات أخرى:
هل أنت بخير يا دكتورة؟
هل أنت بخير يا دكتورة؟
هل أنت بخير يا دكتورة؟
الصوت المتحشرج أولا ثم الصوت الهادئ الرزين بعدها.. وليد!... لقد غير صوته كثيرا.. حشرج حنجرته وأبقى شفتيه مغلقتين تقريبا. هناك حروف لا تتحرك فيها الشفتان أصلا على غرار بيت الشعر الشهير:

قطعنا على قطع القطا قطع ليلة... سراعا على الخيل العتاق اللاحق

وهو بيت شعر ينسبونه عادة لسيدنا علي بن أبي طالب، وأنا أشك في هذا. لربما وضع المتصل منديلا على فمه كذلك، لكنه لم يستطع خداع أحد. هناك روح معينة أو هالة تميز الصوت مهما تم تغييره..
الذي اتصل بها هو الفتى العاشق.. وليد الشيخ.. لا شك في هذا.....
المشكلة هي أنها غير قادرة على إثبات ذلك. ولا تقدر على مواجهته حتى إذا جربت الاتصال بالرقم الذي أخذته فمن الأحمق الذي يعاكس اليوم مستخدما هاتفه الأصلي؟ بالطبع ابتاع خطا سوف يستعمله للمعاكسات ثم يتخلص منه
أغمضت عينها وراحت تحاول نزع لحن أغنية داليدا اللحوح من ذهنها

∞ ∞ ∞ ∞

بين النباتات العجيبة تركض محاولة الفرار من الديناصور لا تعرف هذه النباتات لكن يبدو أن النبات الوحيد في ذلك العصر كان السرخس.. هناك نباتات كثيرة طبعا لكنها لا تعرفها، وهذا يكفي لجعلها غير موجودة. تسقط في وحل المستنقع ثم تنهض، بينما من حولها تحوم حشرات (ويتا) عملاقة
عنق الديناصور طويل جدا ويقدر على أن يلتقمها متى أراد......
هنا رأت أمامها وحشا آخر.....
الووساوروس... عظاية الرعب.. تشبه التي ركس نوعا لكنها أضخم وأسرع وأكثر شراسة... تشعر عبير كأنها في ساحة الحرب بين دبابات...
هيا.. التهمني أرجوك.....
تعرف أن هذا كابوس.. كل هذا خلقه عقلها لكن الرعب حقيقي بلا شك.. إلى متى يتحمل قلبها هذا كله؟
على كل حال هناك مزية للتواجد مع ديناصورات شرسة.. إنها تهاجم بعضها وتفضل

الديناصورات مثلها كفرائس.. لهذا التحم الديناصوران في صراع شرس فحلقت طيور تيروداكتيل بعيدا، وتناثر الوحل في كل مكان وارتجت الأرض
الزئير يهز الغابة هزا......
كانت تركض وهي تحاول فهم ما يحدث. كانت في النوتردام وهربت عبر ممر طويل وفجأة صارت في العصر الطبشورى وهذا كابوس، والهذيان وارد لكن حتى الكوابيس لها بعض المنطق
راحت تركض وسط المستنقعات لاهثة متعبة.....
توقفت جوار شجرة وراحت تعب الهواء عبا.....
سمعت صوت طرطشة الوحل والماء فنظرت من وراء الشجرة في حذر
كان ذلك المسخ شبه البشرى يركض وسط الأوحال ويداه تتدليان جواره... شعره منتفش لكنها لا ترى ملامحه بوضوح.. يمكنها أن تقسم أن وجهه مرعب فعلا....
مر بالشجرة التي تتوارى خلفها.. وأبتعد فتنهدت الصعداء.. لكن صوت الطرطشة توقف.. لم تدر السبب...
نظرت بحذر من وراء الشجرة ففوجئت أنه توقف للحظة مفكرا وتشمم الهواء كقط، ثم عاد يركض نحوها.......
هذه المرة لم تر داعيا للتخفي فصرخت مولولة

∞ ∞ ∞ ∞

من جديد يلعق الكلب وجهها.. كانت تمنعه من الصعود للفراش، لكن من الواضح أن الأصوات التي تصدر منها أفزعته من الغريب أن لسانه الدافئ الصغير لم يتسرب إلى الحلم.......
كفي!... انزل.. أنا شاكرة لك لكني أريد لحظة لالتقاط الأنفاس....
جلست في الظلام تلهث وترتجف يمكن بكل فخر القول إنها صارت من المبتلين بالكوابيس. حياتها لن تعود كما كانت أبدا. صار النوم مخيفا مفزعا.. هذا سوف يحطم أعصابها، هي التي كانت تنام بصعوبة أصلا... الآن لو دخلت في النوم فلسوف يوقظها كابوس.......
نهضت من الفراش وأضاءت النور الكهربائي سوف تراجع كتب التفسير بحثا عن إجابة برغم أنها تركها على الأرجح.......
سوف تندهش جدا لو تكلم ابن سيرين أو فرويد عن البرونتوساوروس في الحلم
حلمها كان يحتوي على وحوش عملاقة.. يقول ابن سيرين أنها ترمز لملك عظيم لا يقدر أحد على مقابلته. لو امتطيت هذا الوحش فأنت ملك
بالنسبة للتفسيرات الغربية، فالخطر في الحلم والشخص الذي يطاردك يرمزان لمشكلة خطيرة في حياتك. لو استطعت الفرار فأنت تؤمن بقدرتك على تحدي المشكلة. عندما تحلم بشخص تعرفه يطاردك فأنت على الأرجح لم تعد تثق به. أما إن مات شخص تعرفه في حلمك فأنت تعتبر نفسك مسئولا عنه. معنى هذا أنها شعرت بالمسئولية نحو عصام السمدونى
أحلام المطاردة مهمة جدا كما قلنا.. لقد أثارت اهتمام يونج جدا لأنها أحلام شائعة. ليس منا من لم يحلم بها. إنها غريزة مزروعة فينا منذ زمن كانت تطاردنا فيه الدببة والنمور سيفية الأسنان
يجب أولا أن تعرف ما يخيفك في الحياة.. الفقر.. زميل عمل... مهمة شاقة. الوحش غالبا هو رئيسك في العمل.. ربما كان من يطاردك هو أنت نفسك..... غالبا يكون المهاجم الذي لا ترى وجهه أو يلبس قناعا هو أنت نفسك
على كل حال من الممكن أن تتناول عشاء دسما، أو ترى فيلما مرعبا.. هذا كاف غالبا لترى

كابوس مطاردة.. في هذه الحالة لا قيمة للكابوس وليس له معنى مهم
أغلقت الكتب ونهضت لتعد لنفسها وجبة إفطار.. بعض رقائق القمح باللبن.. وقهوة.. جالونات من القهوة
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
نبني الكاتدرائيات
التي يصلى فيها أولئك الذين يشعرون بالوحدة
لكننا لا نصنع تابوتا يتسع لاثنين أبدا
كان في أحلامها صبي رضيع صار شيخا
كان في أحلامها ديناصور مرعب..
كان في أحلامها رواق امتلأ بصور الشهداء
فجأة أرتجفت وسقطت زجاجة اللبن من يدها فراح الكلب يلعق السائل الدسم في نهم. هناك معنى واضح لهذا
هناك من يدخل أحلامها فعلا ويحاول قتلها بالرعب. وعقلها الباطن يعرف من هو. عقلها الباطن يتصرف بالطريقة الفرويدية المعروفة فيلعب بالكلمات.. يعطى تلميحات لكنه لا يجسر على إعلان الحقيقة كاملة..
قبو ملىء بصور الشهداء.. ألا يذكرك هذا بمركز الشهدا في المنوفية؟
هناك ديناصورات تحاول الظفر بها. أليست هناك قرية اسمها دناصور في مركز الشهدا؟
وماذا عن الوليد الذي يتحول لشيخ؟ ألا يعني هذا (وليد الشيخ)؟

∞ ∞ ∞ ∞

9- أنت هو !..

كانت تعرف أن هذا تضييع وقت، لكنها على كل حال أمسكت بالهاتف الجوال وطلبت الرقم..
سوف يدق قليلا ثم يتوقف غالبا
فجأة جاء الصوت المألوف:
- آلو ؟
صمتت بعض الوقت، ثم قالت:
- وليد؟
قال بصوت راجف:
- إنجي!
لم يضف أي لقب.. كأنه صديقها منذ زمن، ولم تستطع أن تعترض برغم أنها في ظروف أخرى كانت ستلقي عليه درسا.. الأغرب أنه استعمل هاتفه المحمول فعلا. الاحتمال الأول أنه غبي جدا، والاحتمال الثاني هو أنه أراد أن تعرف.. إذن لماذا غير نبرة صوته عندما اتصل فجرا؟.
قالت بصوت خفيض:
- اسمع.. هل أنت من يأتي لحلمى أم أنا من يأتي لحلمك؟.. لماذا تطاردنى؟..
قال بعد لحظات:
- إنجي.. لابد من اللقاء
فكرت قليلا ثم لم تجد مناصا من القبول:
- تعال لمكتبي في الكلية اليوم
- بل أقترح اللقاء في مكان آخر...
وذكر لها اسم كافتيريا قريبة من الكلية......
ماذا يحدث هنا؟ كان بوسعها أن تهينه وتشتمه وتقول في عصبية: كيف تسمح لنفسك؟ لكن الوضع كان فريدا ولم تدر ما تقول. هكذا وافقت

∞ ∞ ∞ ∞

الأستاذة الجامعية الخشنة المفتقرة للأنوثة ذاهبة لموعد غرامي مع طالب أصغر منها بخمسة عشر عاما!.. وهو رقيق هش كالفتيات.....
كل شيء غريب.. على الأرجح هو كابوس آخر
دخلت إلى الكافتيريا وتفحصت الوجوه. من من هؤلاء طالب عندها؟.. من منهم يعرفها ولكنها قدرت أن هذه ليست وجوه طلاب. هم أقرب إلى مجموعة من الأوغاد أو الأنذال أو قراصنة الكاريبي. هذا يريحها بالتأكيد.. هذه آخر لحظة تتمنى أن تلقى فيها تلاميذها المخلصين.
كان الفتى جالسا إلى منضدة جوار الجدار ينظر إلى شمعة تتوهج في كوب. يبدو شاردا مهموما وليس بالطراز الذي ينوى بدء مغامرة عاطفية.. هناك مشكلة فعلا....
جلست فحياها بهزة من رأسه دون أن ينهض.. وقال:
- أعتقد أنك فهمت معنى مغامرتك في قبو صور الشهداء. والطفل الوليد الذي صار شيخا.. والديناصورات.. كان عقلك الباطن يلمح لك بالحل..
قالت في دهشة:

- أنت رأيت كل شيء فعلا؟
- قلت لي: إنني كنت هناك، وكان معك حق!
ظلت صامتة تفكر ثم رفعت حاجبيها طالبة أن يكمل
قال لها:
- عندما أنام أكتشف أنني أدخل إلى أحلام الآخرين.. وغالبا هم يرونني في أحلامهم كذلك.. في أحلامي لا أكون أنا.. أتحول إلى وحش مسعور متعطش للدم.. أقتل لمجرد التسلية..!
- ما زلت لا أفهم
- دخلت إلى كوابيس الكثيرين.. قتلتهم في الحلم مرارا.. هناك من التهمت قلبه وهناك من قذفته من فوق جبل.. هناك من انتزعت أحشاءه بيدي وهناك من قطعت رقبته
- وهل كان الشخص يموت؟
- في الكابوس كان يموت بالتأكيد.. لكني كنت أشعر بقوى غامضة تطردني خارج الحلم بعدها.. أعتقد أن الشخص كان يموت فعلا في عالم الواقع. لا أدري.
فكرت قليلا وتذكرت أن وفاة هؤلاء الأشخاص المتهمين، لم تعلن بشكل إعلامي واضح.. ثم إن القصة لم تستغرق وقتا كبيرا.. من الوارد ألا يعرف
- وأنت دخلت كوابيسى لذات الغرض؟
فكر بعض الوقت ثم قال:
- في البداية كان هذا هو الغرض، لكن ميلى الطبيعي نحوك جعلني أقاوم حاولت مرارا أن أنذرك أو أتجنب قتلك.. كدت تموتين على برج النوتردام.. أطلقت الرصاص على عدة مرات.. وألقيت بمشعل في وجهى.
ثم التفت بوجهه لليسار فلاحظت ذلك اللون الأحمر على خده. لم تلحظه من قبل. لهذا كان يضع يده على خده عندما التقيا بعد الكابوس. قالت له في دهشة:
- لا تقل إن المشعل في الحلم حرق وجهك!
قال بصوت خفيض:
- فعل ذلك... لكن بشكل رمزى. لقد شعرت بالنار تؤلمني، وعندما صحوت كان الهستامين والبرادي كاينين قد تكفلا بجعل الأوعية تتسع في ذلك الموضع.. هكذا صار خدي أحمر كأنه احترق... لو كان احترق فعلا لرأيت قطعة من الفحم
- هل كان هذا أخر شيء؟
كانت تمتحنه.. قال لها على الفور:
- صراع الديناصورات في المستنقع.. وجدت نفسي أبحث عنك كأنني ذئب جائع.. ووجدتك فعلا فأطلقت أنت صرخة جعلتني أصحو من نومى مذعورا.. لا أعتقد أنني قادر على قتلك أثناء النوم
قالت في عصبية:
- لأنك تحبنى
- هذه هي الحقيقة.....
- تهيم بأستاذتك الجامعية التي تكبرك بخمسة عشر عاما
- للناس فيما يعشقون مذاهب.. والأغنية التونسية تقول: خذوا عيني شوفوا بيها
- ألا تجد هذا سخيفا مبتذلا؟
- ربما.. لكنه كذلك قوى جدا

- وماذا عن المصلحة؟ عندما يقع الطالب في حب مشرفته أو يقول هذا، فإن أول ما نفكر فيه هو أنه يحاول التسلق لانهاء رسالته
ضحك في حياء ثم قال:
- بصراحة.. لا أعتقد أنني سأكمل هذه الرسالة. أنا في لغز مخيف.. لست مهتما على الإطلاق بمعرفة ما يدور في أمخاخ الفئران. ربما كان على أن أعرف ما يدور في مخي أنا
عقدت أناملها تحت ذقنها وتأملته في فضول، ثم قالت:
- حتى هذه اللحظة لم أعرف حقا كيف بدأ هذا كله
أغمض عينيه وقال:
- لا شيء.. فترة طويلة من الأرق ثم بدأت أتعاطى عقار البزنوديازيبين لأنام.. امتنعت عن شرب الشاي والقهوة وصرت أدخل الفراش مبكرا.. فعلت كل شيء.. ربما كان للحب المحبط دور هنا.. لا أعرف. لقد بدأ كل شيء بعد أن عرفتك، وكانت صورتك تلاحقني في غرفتي ليلا.. أتذكر كل كلمة وكل نظرة جانبية وكل همسة..
ابتسمت في سخرية:
- مراهقة متأخرة جدا جدا.. والأدهى أنني آخر شخص يمكن أن يقع مراهق في غرامه.. أنا أعرف نفسى.. أبدو كأمينة مكتبة شرسة حادة الطباع، وعلى قدر علمى لم يقع أحد في غرام أمينة مكتبة، ولم يسهر مفكرا فيها مقروح الجفن مسهدا
- لا بد من بداية!
همهمت تطالبه بالاستمرار فقال:
- بعد فترة تمكنت من أن أنام التغذية الرجعية جعلتني أسيطر على نفسى.. وهكذا قضيت عدة ليال هادئة ونمت، ولكني لاحظت مع الوقت أنني أفعل أشياء غريبة جدا.. أطارد أناسا وأتسبب في قتلهم. ثم أدركت أن الحقيقة هي أنني أتسلل لعوالم الآخرين أثناء نومهم.. أنا أدخل أحلام الآخرين وأطاردهم.. بل إنني أعبر من حلم لحلم
- هل تجد هذه موهبة عادية؟
تنهد وقال:
- بالطبع لا.. كون الموهبة مذهلة لا يعني أنها غير موجودة.. ثم إني لم أطلب هذه المزية اللعينة ولم أرغبها.. فجأة وجدتها عندي، ثم إنني كنت لأكون سعيدا لو كانت طوع بنانى.. لو كنت أختار الأشخاص الذين أدخل منامهم، أما أن تتقاذفني الظروف فلا أختار من أدخل منامه، وفي كل ليلة أجد نفسي في موضع لم أرده، فهذا شيء لا يروق لى على الإطلاق
قالت في شك:
- أنت تدخل منامي؟
- لم أختر هذا.. صدقيني.. وجدت نفسي في أحلامك أو ربما أنت من دخلت أحلامي..لا أدري
- هل تعرف أنك دخلت أحلام أهم مجموعة من المسئولين في البلاد؟
- عرفت هذا مؤخرا.. لم أختر هذا صدقيني.. ولا أعرف السبب معظم هؤلاء لم أر وجههم من قبل
جاء النادل بالمشروبين فطلبت منه قدح قهوة، وأشعلت لفافة تبغ وقالت:
- كيف يدخل المرء حلم شخص لم يره ولا يعرف عنه أي شيء؟
نظر حوله في حذر، ثم مال على المنضدة وقال :
- اعتقادي الخاص أن هناك موردا عاما يرده الحالمون في الكون كله كأن الحلم متنزه عام يزوره

الجميع. يمكن للقادرين أن يدخلوا حلم أي شخص أخر.. لو كنت أملك الاختيار لدخلت أحلام رئيس الولايات المتحدة أو نجمة سينما أو قط.. لكن ما يحدث معي غير إرادى
نفثت دخانا كثيفا ثم قالت:
- واضح طبعا أن جدول أعمالك القادم يتضمن قتلى
- لا أستطيع
- ربما لا تريد.. لكنك تستطيع.. ربما صرت أنا شاهدا خطرا وأعرف أكثر من اللازم.. لا أدري. ربما لأنني تورطت في تلك القضية وكل من تورط فيها مات أو يموت أو سيموت. نحن في مشكلة خطيرة.. سوف تنام وسوف أنام.. وعندها سوف نلتقي خلف تلك الشجرة في المستنقع.. ليس عليك إلا أن تنشب أنيابك في عنقي.. أو تغرقني تحت مياه المستنقع إلى أن أختنق.. الأمر سهل كما ترى
ضرب المنضدة بقبضته وصاح في عناد:
- لن أقتلك أبدا.. هذا ما أعرفه.
نظر كثيرون في الكافتيريا إليهما محاولين فهم هذه العلاقة الغريبة هناك رجل يقسم أنه لن يفتك بامرأة أكبر منه سنا...
عاد يقول بصوت هامس:
- كان على أن أقتلك كما هو واضح لكن حبي العميق لك منعني.. حتى في الحلم الذي أسيطر عليه لم أستطع أن أقتلك... هناك أشياء لا يقدر المنوم مغناطيسا على عملها وكذلك الحالم عندما يفوق الأمر قدراته ومبادئه
هدأته بحركة من يدها.. ثم رشفت من القهوة وقالت:
- أنصحك أن تنساني... هذه العلاقة العجيبة لن تفيد أحدنا..
وبحركة ذات دلالة أخرجت بعض المال ووضعته تحت قدح القهوة، ثم وضعت علبة التبغ في الحقيبة وغادرت المكان

∞ ∞ ∞ ∞

10- لا ينامان.

دخلت الفراش في تلك الليلة عازمة على نوم عميق...
ابتلعت قرصا من المنوم وأصلحت من وضع الوسادة.. سوف تلاحقها أفكار كثيرة جدا، ولسوف يعرض فيلم اليوم نفسه ألف مرة قبل أن تظفر بالنوم
الجديد في هذه الليلة هو أنها خبأت تحت الوسادة سكينا حادة أطبقت عليها بيدها. كان لورد بيرون الشاعر الكبير يضع تحت وسادته مسدسا فإذا حلم بكابوس - وهو كان يفعل ذلك كثيرا - فهو ينهض ملوحا به في عصبية
سوف تكون السكين معها في الحلم، وسوف تستخدمها.....
∞ ∞ ∞ ∞
هناك من وراء الشجرة راقبته وهو يركض نحوها..
الآن تدرك أن هذه الملامح ملامحه هو.. نفس الملامح الأنثوية الرقيقة لو تم تضخيمها وكسوها بالشعر.. كما يحدث للمذءوبين في السينما....
هذه المرة لن تكرر الخطأ وتنتظره حتى يمر.. تعرف أنه سيعود حتما....
هكذا صرخت صرخة وحشية وخرجت من وراء الشجرة لتغمد السكين حتى المقبض في صدره المشعر، فأطلق عواء مخيفا.. خيل لها أنه يقول:
- إنجي!
لم تنتظر لتفهم بل أطلقت ساقيها للريح. ومن الغريب أنها لم تعد تخوض مستنقعا هذه المرة. كانت تركض وسط شواهد قبور متداعية.. هذه مقبرة في وقت الغروب لا تعرف متى بلغتها..
نظرت للخلف فرأت أن مطاردها يقف بعيدا.. يترنح.. ثم ينتزع السكين من قلبه......
يركض وسط المقابر بين شواهد القبور........
القمر من أمامه لكنه في الظل والضوء يسقط أمامه.. المخرج المجنون في عقلها الباطن يلهو بالقواعد الفيزيائية كما يريد لخلق جو الرعب غير المنطقي الذي يصبو له..
راحت تركض وسط الشواهد... تعرف أنها ستتعثر فورا.....
ذئب أو كلب عملاق ينبح في طريقها.. وجهت ركلة أفكه فأطلق صرخة اليمية وابتعد. عندما يطاردك مسخ كهذا تبدو الذئاب نوعا من الأرانب.....
وجدت فأسا على الأرض فحملتها وعرفت أنها سلاحها القادم....
وليد الشيخ.. سامحني.. عندما يطير رأسك في حلمى سيطير كذلك حلمك، وعلى الأرجح لن تستطيع أن تفتح عينك ثانية.. هذه من الرحلات المختصرة التي تغادر فيها عالم الميتة الصغرى إلى الميتة الكبرى مباشرة بلا ترانزيت
توارت وراء شاهد قبر وراحت تلهث..
رأته من بعيد ينحنى من وقت لآخر ليفحص الأرض.. يقلب حجراً......
عندما دنا منها أكثر من اللازم استجمعت شهيقا عميقا وهوت على وجهه بالفأس.. كان المشهد بشعا حيث سقط هناك وسط بركة من الدم..... لكنها دققت البصر في ضوء القمر فأدركت أن هذا هو أخوها. أخوها الذي تهشمت جمجمته.لا بأس هذا نوع من الخلط المعروف في الأحلام لا سبيل للفرار كما هو واضح........

هناك حفرة جوارها.. حفرة رطبة يبدو أنها كانت معدة لقبر آخر........
انزلقت وسط التراب الناعم إلى قاعها.. راحت تجذب بعض الأغصان لتغطي نفسها. لكن. الغبار ناعم فعلا.. إنها تنزلق لأسفل أكثر تغوووص... ورفعت رأسها محاولة أن تبقية فوق التراب فأدركت أن التراب ينهال عليها من عل. هناك من يدفنها!!..
هذا إذن من كوابيس الدفن حيا وهو طراز عتيق جدا من الكوابيس مثله كمثل كابوس السقوط من حالق. كابوس قذر مخيف.. معنى هذا الحلم في التفسير هو أن مخاوفنا تفسد علينا الحياة كلها.. عليك أن تتخلى عن قلقك الذي يسلبك حياتك. لو كنت تدارى سرًا فقد حان الوقت لتذيعة!
كلام جميل لكن لا وقت له الآن.. الحلم حقيقى ومخيف ورائحة التراب الرطب تخنقها.......
راحت تصرخ وتخمش الغبار بيدها.. لا جدوى..
لا تستطيع أن تجد القوة الكافية لتخرج. هناك كمية أكسجين تكفي ربع ساعة.. أي ما يكفي لجعل موتها عصيبا أليما.. وكانت تعرف يقينا أنه هو من يهيل الغبار عليها.. يحبها لكنه مرغم على أن يدفنها حية.....
أخيرا وجدت أنها راقدة على ظهرها تحت الأرض.. مغطاة بالغبار ما عدا جيبا هوائيا صغيرا تتنفس منه. هل تقدر على إزاحته؟ مستحيل ثم شعرت بتلك الأجسام الناعمة الدافئة تحتك بها.. في هلع عرفت أنها فئران.. هناك شبكة فئران تحت الأرض.. فئران مقابر ضخمة متوحشة لها أنوف حرشفية وشعور مشعثة ورائحة كريهة.. فئران تدربت على أكل أشياء أخرى غير الحبوب والخشب!
هذا لن يكون. راحت تصرخ.. تصرخ ثم شعرت بفأر يقضم أصبعها السبابة.......
إن هذا لا يطاق... من بين كل الميتات التي تخيلتها كانت هذه أسوأها فلا عجب أن القفص الذي يحوي الفأر كان هو الذي جعل السجين يحب الأخ الأكبر، في رائعة أورويل 1984
صرخت من جديد... وعندما أرهقتها حنجرتها كانت تتلوى على أرض الغرفة المكسوة بالموكيت، بينما الكلب يلعق وجهها كالعادة... هذا الكلب سيموت بالرعب قبلها بكثير!
احتضنته ولثمت أنفه الباردة المبللة دائما، فأطلق نباحا خفيضا قالت له:
- لا تقلق.. صاحبتك في الطريق إلى الجنون أو الموت، المشكلة هي أنهم سيلقون بك في الشارع.. لن تجد شخصا لطيفا يأخذك معه لداره.
سيكون عليك تعلم القتال وتحمل لحظات الجوع وفكرت بعض الحين وخطرت لها فكرة معقولة:
- لماذا لا تعمل على موت وليد الشيخ؟
حل عنيف جذري لكنه ممتاز... لكن هل تجرؤ على ذلك

∞ ∞ ∞ ∞

تغيرت حياة عبير تماما......
صارت فكرة النوم تفزعها، فمن الوارد جدا أن تعود لهذا القبر بالذات، ومع كل هذه الفئران القذرة.. هي بخير طالما ظلت متيقظة..
عند الفجر شعرت برغبة عارمة في النوم فنهضت وأعدت لنفسها الكثير من القهوة ثم خرجت إلى الشرفة.. الهواء البارد الأزرق الغض سوف ينعشها..
راحت تعب أنفاسها في جشع....
هذا وضع مقلق غير مريح.. العدو لم يرحل.. العدو ينتظرك يمكنها فهم شعور عصام

السمدوني.. كيف راحوا يوقظونه كلما ثقل جفناه.. لقد تعذب فعلا.
لا تقدر على الذهاب للعمل اليوم، لكن لابد لها من أن تذهب.. ماذا يفعله الشخص الذي لم ينم ليلا سوى أن ينام صباحا؟
لابد أن تذهب
وبالفعل سرعان ما كانت تغادر شقتها في السابعة صباحا مودعة الكلب، ولم تجرؤ على قيادة سيارتها بهذه الحالة من النعاس لذا استوقفت سيارة أجرة.. ستذهب إلى... إلى... لا تعرف لها مكانا غير الكلية والمركز.....
طلبت من السائق أن يأخذها إلى الكلية.....
سيكون عسيرا أن يسمح لها رجل الأمن بالدخول مبكرا هكذا ما لم يكن يعرفها..
تمر سيارة الأجرة في شارع تراصت على جانبيه المقاهي الساهرة.... هذه مقاه ساهرة لذا لم يكن هناك من صحا مبكرا ليفتتحها
على الجانبين يجلس السائقون ورجال الشرطة يلتهمون إفطارهم بسرعة ويدخنون حجرين من المعسل قبل بدء العمل. هذا المقهى.. لافتة كتب عليها (قهوة الأمراء).. كل المقاهي اسمها قهوة الأمراء منذ فجر التاريخ. في الخارج ترى منضدة عليها كوبان فارغان من الشاي وترى شيشة وهناك شاب يجلس متوترا يأخذ نفسا آخر وينظر حوله.. وليد الشيخ!
لم ينم مثلها كما هو واضح.. قضى ليلته هنا يشرب الشاي الثقيل ويدخن الشيشة..
وابتسمت.. معنى هذا أنه صادق فعلا. لا يرغب في أن يؤذيها لكنه مضطر.. كيف ولماذا لا إجابات
ما لم تعرفه عبير هو أن الفتى قضى فعلا أسود أيامه مؤخرا..
أدرك أنه يرتكب مصيبة في كل مرة ينام فيها، والأسوأ أنه كان يحبها فعلا.. لا يطيق فكرة أن يجدوها ميتة في الفراش بسببه.. لهذا راح يرتاد المقاهي بكثرة. كلما اقترب الليل راح يمشي على الكورنيش أو يقصد حيا لا ينام ليمضي الليل على المقهى يدخن الشيشة ويشرب القهوة
القهوة!.. شرب منها الكثير فعلا حتى لم تعد أي ضربة من قلبه تشبه الأخرى عندما تقاوم النوم تدرك أن القهوة أقوى مخدر في التاريخ، وتتساءل لماذا لا يعطون المريض بعض القهوة قبل الجراحة لينام؟. علاج الأرق الأقوى هو أن تمنع نفسك من النوم، وأن يكون في النوم خراب بيتك كان طالبا متفوقا في المدرسة، ولا يذكر أن أي طالب في الثانوية العامة كان يشكو الأرق.. كلهم كانوا يعانون كثرة النوم
تعلم كذلك من صديق طبيب أن يأخذ حقن الفروسيمايد (اللاسكس) لتمتلئ مثانته طيلة الوقت. هكذا لا يغمض عينيه خمس دقائق إلا ويشعر أن مثانته توشك على الانفجار ويهرع إلى الحمام
ثم تعلم أن يبتلع أقراصا معينة أخبره بها أحد المدمنين.. قال له إن سائقي الشاحنات يبتلعونها في بداية الليل فيظلون ساهرين ثلاث ليال.. ويتمكنون من القيادة كذلك. طبعا يتمكنون إلى أن يقتحموا أول شجرة أو يسقطوا في أول مصرف
صحيح أن هذا يدمر صحته تدميرا.. لكنه أفضل من أن يدمرها هي
هي الآن قد سجنت حية تحت التراب.. هناك فئران مسعورة كذلك.. فئران تربت على التهام لحم الموتى. لكن إنجي لم تمت.. سوف تتمكن من الفرار على الأرجح، لكنه يعتقد أنه سينتظرها خارج القبر ليهوي على رأسها بشيء ثقيل.. لا شك في هذا
لن ينام..لا

ربما تستكمل هي الكابوس وحدها وتنجو.. فقط يجب ألا يكون هناك بقربها
لم يستمر السهر على كل حال.. غاب عن الوعي ذات مرة، فرأى نفسه في جزيرة في محيط.. رأى أنه يقف جوار الشط يرمق الأمواج المتلاطمة ويسمع صوت القوقعة الذي كان يشجيه في طفولته. الرذاذ المالح يلفح بشرته ثم رأي أن كلبا من نوع الريتريفار يعوى ويطارده.
كان الكلب صغيرا والخيار سهلا.. وجه ركلة عنيفة لخصر الكلب فسقط ثم حملة للماء وبدأ يحاول إغراقه.. سيبقى رأسه تحت الماء أطول فترة ممكنة.. المهم ألا يتعرض للعض...
هنا شعر بيد باردة تمنعه من إغراق الكلب أكثر سمع من يصرخ:
- مش هنا يا أستاذ!
فاستدار ليفتك بمن يهاجمه
كان القهوجي يربت على كتفه في إلحاح:
- النوم ممنوع هنا يا أستاذ. اطلب مشروبا أو أرحل!
أفاق مذعورا شاعرا بتنميل في جسده كله.. كان هذا كابوسا إذن يلعب هو دور المطارد فيه - بكسر الراء - ومن الواضح أن اختراقه للأحلام صار عجيب هذه المرة اخترق أحلام كلب على الأرجح.. فلابد أن كلبا في مكان ما صحا مذعورا وراح ينبح ويجاهد للتنفس
ككل أحلام المنبه كانت مثانته مليئة تماما.. لهذا حلم بالبحر طبعا.... إن اللاسكس مدر قوى فعلا
طلب كوبا أخر من الشاي الثقيل، ثم ذهب باحثا عن حمام يفرغ فيه بحار البول... ليس هناك سوى ميضئة المسجد
لا يدري ما حدث لكنه ضبط نفسه جوار عمود في المسجد يوشك على بدء نوم جديد..
نهض مذعورا وصمم على أن يمضي الساعات التالية ماشيا
∞ ∞ ∞ ∞

١١- وضع مستحيل

عندما راح الكلب يتلوى أثناء نومه كأنه يختنق، خمنت عبير تقريبا ما يحدث.....
نهضت وراحت تهزه ليفيق.. وجهت له عدة صفعات فأخرج لسانه وفتح عينيه وراح يعوى بطريقة مثيرة للشفقة. الحيوانات تحلم وتمر بمرحلة REM ولهذا فهي ترى الكوابيس كذلك......
لقد دخل الفتى إلى حلم الكلب كما هو واضح..
لحسن الحظ ما زال الكلب حيا. أنهضته وجعلته يستريح على صدرها.. لم تر من قبل كل هذا الذعر في كائن حي. إن الفتى يدخل كل الأحلام ويجول بحرية مطلقة
من الواضح أن النعاس غلبه
هي أيضا غلبها النعاس وهي في العمل.. لكن من الواضح أنه لم يكن نائما لذا مر النوم بسلام. رن جرس الهاتف فرفعت السماعة لتسمعه يقول:
- إنجي!
إنه هو. وما زال الوغد مصرا على نزع الألقاب كأنهما صديقان قديمان.
قالت في فتور:
- ليس هناك من يدعي بهذا الاسم. هناك دكتورة
قال في نفاذ صبر:
- انسى هذا السخف للحظة!
سخف؟؟
كادت ترد لكنه قال على الفور:
- سوف نجن معا.. علينا تقسيم فترات النوم.. أنت تنامين من التاسعة للثانية عشرة صباحا ومساء، وأنا أنام من الرابعة للسابعة صباحا ومساء.. هذا يمنع أي تصادم بين حلمينا.. هكذا يظفر كل منا بست ساعات..
بدا لها الحل مقنعا.. لكن النوم بموعد مسبق يبدو لها أمرا غريبا... قالت له:
- هذا جميل.. لكن من قال لك إنني أنام بسهولة؟.. أتعب جدا حتى أنام، ومعنى هذا أن ظفرى بالنوم شيء لا يمكن أن أبرمجه
ثم أضافت في عصبية:
- دع كلبي في حاله.. هذا حيوان بريء
قال دون أن يعلق:
- سوف أرن لك الهاتف.. لو رددت لعلمت أنك متيقظة ولصار بوسعي النوم.. لو لم تردي لظللت متيقظا بأي طريقة...
هذا الفتى أحمق لكنه منطقى....
قالت في غير اكتراث:
- ليكن ....
ووضعت السماعة

∞ ∞ ∞ ∞

هكذا بدأت تجربة جديدة هي النوم التبادلى
رننننننننننن!.. يدق جرس الهاتف فتضغط زر الإجابة..لا تتكلم لأنها لا تملك الكثير من المودة، لكنها على الأقل تسمح لهذا البائس ببعض النوم. ثم - بعد وقت طويل - تتناول قرصا منوما وتضع رأسها على الوسادة. وفي هذه الظروف لم تكن تحلم على الإطلاق.. على الأرجح يدق الجرس فلا تسمعه.. كانت تعرف أنه على الأرجح ذهب للمقهى ليشرب جالونات من القهوة على أساس أنها نامت.
لكن لابد من أخطاء في كل نظام محكم.......
ذات مرة دق جرس الهاتف وهي متيقظة فلم تضغط زر الإجابة.. لم تسمع الجرس.......
بعد ساعة غلبها النعاس، ومن الواضح أنه افترض أنها نالت كفايتها من النوم واستيقظت.. تعقيد شديد كما ترى....
حدث ما تخشاه......
كانت هناك في تلك المقبرة تحت التراب تتلوى.. هناك فأر يقضم أناملها.. تصرخ..
ثم شعرت بمن يدق التربة بقوة فوق رأسها. هناك من يزيح التراب.. الهواء يتسرب
تأخذ شهيقا عميقا تملأ به رئتيها
ما أجمل الهواء!
لكن الظلام دامس من حولها وهي تدرك أن من يحاول إنقاذها هو نفس المسخ.. إنه جاث على ركبتيه يزيح التراب واللعاب يسيل من فمه...
يفضل أن يلتهمها على أن تظفر بها الفئران...
التقطت حجرا وجدته جوار أناملها وهوت على وجهه بأعنف ما استطاعت.... ثم وثبت هاربة من القبر نصف المفتوح.. سمعته يعوى ألما لكنها تعرف أن لحظات عجزه لا تطول للأسف....
انطلقت تجرى فارة....
سمعت لهاثا من ورائها.......
فجأة أدركت أنها لم تعد في المقبرة.. هي تركض على الطريق السريع بينما سيارة غامضة سوداء تطاردها.. تعرف جيدا أنه هو راكب السيارة
اهدئي اهدئى سوف يتحطم قلبك......
ترى ظلها طويلا على الأرض لأن كشافاته تسقط عليها من الخلف كلما قصر الظل عرفت أنه يقترب...
بسرعة انزلقت إلى جانب الطريق المنحدر........
تدحرجت كالحجر وسط الصخور والنباتات الشائكة التي مزقت ساقيها..
ثم نظرت لأعلى.. رأته هناك في كشافات السيارة.. إنه يبحث عنها ثم يترجل ببطء.. أدركت أنه يحمل سيفا عملاقا في يده.. يحمله بطريقة تدل على الاحترافية كأنه ساموراى يابانى. هذه الطريقة توحي بإطارة الأطراف ثم قطع العنق......
يجب أن تظل حيث هي.....
يجب ألا تتحرك.........
لتدع الله ألا يجدها....
لكن.. متى كانت تحمل الهاتف المحمول؟
لم يظهر في الحلم من قبل.. لقد دوى رنينه
ررررررررررررررررررررررررن!

هنا رأته ينظر باتجاهها.. يهرع نحوها وهو يرسم دوائر بالسيف في الهواء..

∞ ∞ ∞ ∞

صحت من النوم خائفة ترتجف
ترررررررررررن!
كان الهاتف المحمول جوارها يدق بلا توقف.. رأت رقم صديقة لها.. لن ترد
هي تعرف ما حدث طبعا. افترض أنها قد صحت من نومها من ثم أخلد للنوم وتلاقي الحلمان.. لن يستمر الأمر على هذا المنوال سوف تجن أو يجن.. أو يجنان معا، كما أنه يقترب لحظة بلحظة من قتلها.. لو طار عنقها في الحلم فلربما انضمت إلى نادي (جثة - في - الفراش)
الآن اتخذت قرارها.. سوف تواجهه
سوف تدخل عالم الحلم قبله وتنتظره.. لن يكون هو صاحب المبادأة بل هي....
لكن لابد أن يكون معها أحد.. لابد من شخص يحميها ويراقبها أثناء النوم. انتقت من المطبخ سكينا ووجدت عصا غليظة.. كان لديها صاعق كهربى واق فأخذته معها، ونزلت من البيت لتستقل سيارة أجرة إلى المركز النفسي...
كانت الساعة السابعة صباحا عندما اجتازت المدخل...
رمقتها الممرضة بدهشة فهذا ليس موعدها المعتاد ....
لكن إنجي كانت تعرف أن د. مصطفى هنا، فهو يتلقى تقارير مختبر النوم... وجهة الخشبي الجاف يرسم شبه ابتسامة وهو يتفحص رسم مخ أمامه
نهض ليحييها.. فأشارت له في عصبية كي يجلس.....
وفي كلمات سريعة عصبية شرحت له قصتها كاملة.. بدا منبهرا لا يصدق حرفا لكنها كانت متمسكة بكلامها ولا تترك له فرصة للنقاش أو الجدل.
- وماذا أستطيع عمله؟
- سوف أدخل تجربة النوم الآن.. سأكون متأهبة مسلحة بالصاعق والسكين والعصا... وسوف تكون المبادأة معي.. سوف أقتله في الحلم.
ثم أخرجت هاتفها المحمول ووضعته على المنضدة:
- سوف يتصل بي بعد قليل ليرى إن كنت متيقظة أم نائمة.. ليس عليك سوى ضغط زر الإجابة، هكذا سيفترض أنني متيقظة وينام.. سوف يفاجأ بي في الحلم
قال د. مصطفى وهو متحير:
- لكننا في السابعة صباحا.. هل تتوقعين أن تنامي؟
لهذا اخترع الناس المنومات
ثم أضافت في قلق:
- سوف تراقب معدلات النبض وضغط الدم.. لو شعرت بأن الأمور خطرة فمعنى هذا أنه يوشك على قتلى.. يجب أن توقظني وقتها بأي ثمن.. لو لم تفعل فلن أصحو أبدا.. لهذا السبب أجريت التجربة في مختبر النوم. أنا بحاجة إلى من يعتنى بى
ثم دخلت إلى غرفة النوم فنزعت حذاءها وتسلقت الفراش.. أمسكت بالسكين والعصا في يد والصاعق في يد.. ابتسم مصطفى وقال:
- تذكرينني بمومياوات الفراعنة التي تضم عصوين إلى صدرها
لم تبتسم

∞ ∞ ∞ ∞

هكذا قال لها الدكتور مصطفى وهو يناولها القرص المنوم:
- أتمنى لك التوفيق.. إن شجاعتك لخارقة
ابتسمت في سخرية. كانت تتصور أنماطا عديدة للشجاعة، لكنها لم تتخيل قط أن تكون هناك شجاعة في النوم المريح.....
كانت الغرفة مريحة خافتة الإضاءة، لكن هناك كاميرا جدارية مصوبة عليها، وبالطبع كانت هناك أقطاب عدة مثبتة لرأسها، وعلى صدرها كما أن مقياس أكسجين الدم (أوكسيميتر) كان مثبتا في إبهامها. الحقيقة أنها كانت تشعر كأنها أخطبوط.. أخطبوط تراقبه كاميرات ناشونال جيوجرافيكس النهمة.
مختبر النوم.. الموضة العلمية الجديدة التي عرفها الثلث الأخير من القرن العشرين. هناك تمر بما يسمى (رسم النوم المتعددPolysomnography) تنام كطفل بينما هم يقيسون لك تخطيط الدماغ وحركة العينين ونشاط العضلات وتخطيط القلب وكذا نسبة أكسجين الدم..
الأمر يشبه جهاز كشف الكذب نوعا لكنه أعقد.. ومهمته الرئيسية تشخيص أسباب الأرق وأسباب توقف التنفس ليلا وكثرة نومك في النهار
أغمضت عينيها وراحت تتنفس بعمق.......
لم يكن الانتقال صعبا.......
بعد قليل رأت أنها هناك في تلك الغابة على جانب الطريق توقعت كانت مسلحة بالسكين والعصا وفي جيبها الصاعق لقد دخلت هذه الأشياء الحلم معها...
كمنت هناك تنتظر.. سوف ينام قريبا ولسوف يدخل حلمها. عندها سوف تفتك به
مر الوقت ثقيلا..
فجأة رأت المسخ من بعيد وهو يلوح بالسيف.. كان يبحث عنها.... تأهبت للهجوم.. لا يعرف بالمكان الذي توارت فيه.. يبحث عنها في الموضع السابق. بين لوحي الكتف.. سوف تصعقه بين لوحي الكتف ثم تحطم رأسه بالعصا.. لا سبيل أمامها سوى هذا.. وهو.. سوف يموت أثناء النوم ويجدون جثته في الصباح
فجأة رأته يتوقف. يطوح بالسيف.. يرفع ذراعيه لأعلى صاح فارتجت الغابة.....
- إنجيييييي!
لم ترد فعاود النداء:
- إنجيييي!!
ثم أردف:
- أعرف أنك هنا في الأحراش.. صدقيني لم أتعمد ما أنا فيه. كنت في حالة أرق مزمنة فجئت للمركز الذي تعملين فيه ولم نلتق. قابلت من يدعى د. مصطفى لطلب العلاج.. هكذا اكتشف الظاهرة الغريبة التي أمر بها وهي قدرتي على دخول عوالم حلم الآخرين.. قال إنه سيجرب معي التغذية الرجعية. أعتقد أنه نومنى مغناطيسيا كي أقتل من يشاء هو ولا أتذكر ما فعلته أو أستطيع السيطرة عليه.. الآن فقط أتذكر عينيه وكلماته الهامسة لى. هل رأيت فيلم عيادة د. كاليجارى؟ كان د. كاليجارى قد نوم مريضا نفسيا ليصير قاتلا يفتك له بمن يريد لقد فعل معى الشيء ذاته، لكنه استغل قدرتي على دخول الأحلام.. كانت لديه قائمة من الناس المهمين.. الأسماء اللامعة التي يجدها في الصحف. السبب هو أنه يملك عقلية نازية مخبولة ولمحة من جنون العظمة.. هكذا بدأ مسلسل اغتيال هؤلاء المشاهير.. كنت أنت آخر اسم في القائمة لكني حاولت جاهدا أن أقاوم.. أنت في أمان الآن!!

خرجت من مكمنها وهتفت:
- في أمان؟. كيف؟
ابتسم. للمرة الأولى ترى ابتسامته في الظلام.. بدا وسيما في عينيها لأول مرة. قال:
- الأرض لا تتسع كلينا.. يجب لواحد منا أن يرحل ليعيش الآخر... وينام في سلام.. أنا الآن أحلم حلمي الأخير. لقد ابتلعت علبة منوم كاملة لأريحك من تهديدى، لكنى في حلم الموت الأخير رأيتك.. كان هذا أجمل مما توقعت..
فتحت فمها لتتكلم لكنه هتف:
- يجب أن تنسيني.. يجب كذلك أن تفيقي بسرعة لأن جسدك نائم في مختبر طبيب مجنون.. أنت تحت رحمته. يجب أن تفيقي
- يجب أن تفيقي!
ورأته يرتفع لأعلى... يبتعد ويبتعد للمرة الأولى وجدت نفسها تناديه في لوعة
- وليييييييييد!!
ثم ساد الظلام
∞ ∞ ∞ ∞
فتحت عينيها في لحظة لتجد أن د. مصطفى يحمل محقنا يوشك على غرسه في وريد ساعدها.. لا تعرف أي حقنة هذا ولا ما ينتويه.......
كان رد فعلها أسرع من تفكيرها، فسرعان ما غرست السكين حتى المقبض في عنقه!
نظر لها غير مصدق وتحشرج صوته. آسف لأنني لا أستطيع الكلام بوضوح لأن هناك مدية تخترق عنقي
ارتجف كورقة ثم سقط على الأرض
ماذا فعلته
لكنها كانت تدرك أن الرؤيا التي رأتها صادقة.. وليد الشيخ قد مات، ومصطفى هو المسئول عن كل هذا.. وعلى الأرجح كان سيقتلها أو يضعها تحت رحمته.. من الطريف أن تكتشف أن زميل عملك سفاح له ميول نازية
لقد مات الفتى الخجول الرقيق القادم من دناصور.. الآن فقط تدرك أنها تحبه
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
قد يحيا المرء مع كلب
قد يحيا المرء مع زهرة
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
اخترع الإنسان السينما والذكريات..
اخترع ظلا
من أجل ألا يعيش المرء وحيدا
ينتظر المرء الربيع.. وعندما يموت الربيع ينتظر الربيع التالي
المهم الآن أنها ارتكبت جريمة قتل وقد ضاع مستقبلها على الأرجح ماذا تفعل؟ لا جدوى من الفرار.. الكل رأوها تدخل هنا.. وكلبها؟ كلبها المسكين سيموت جوعا.. لا تفكر إلا في هذا
هنا شعرت بيد توضع على كتفها
سمعت الصوت المألوف المحبب من خلفها.. المرشد هنا.. لقد نسيت أنها في فانتازيا
قال المرشد:

- سوف أحل لك مشكلة الفرار من جريمة قتل.. يمكننا أن نرحل الآن ما لم ترغبي في تجربة مغامرة المحاكمة واتهامك بالقتل.. وربما الإعدام شنقا
قالت في إنهاك وهي تمسح الدم عن أناملها في الملاءة:
- لا شكرا.. أرجوك أن نرحل
غادرا المركز النفسي وهبطا في المصعد.. قالت له وهما يخرجان من المدخل إلى الشمس الساطعة:
- نادرة هي المرات التي أحلم فيها داخل فانتازيا أنني أحلم!
قال في ملل:
- لو تذكرت.. هناك قصة لك اسمها (بين عالمين) شبيهة بهذه نوعا
كانت تفكر في المغامرة القادمة......
ترى ما هي؟
الوعد الذي قطعه جوناثان للعرب المتشرذمين بأن يجد لهم وطنا قوميا في أمريكا!

(تمت بحمد الله)

نادي المحاربين الجدد

اليوم نقابل بعض إبداعات القراء كما هي العادة. صديقي عمر محمد أحمد من الإسكندرية (17 سنة) يقدم لنا قصته القصيرة (زهور الحائط)

زهور الحائط

- هيا يا فتاة! سنستمتع بوقتنا ولن نتأخر! إنه مكان راق و قريب!
- لا أدري مممممممم......... حسنا!
- أنتظرك!

بهذه الكلمات أنهت صديقتي روان كلامها معي، إنها اجتماعية جدا، بينما أنا العكس تماما، أنا أمقت الخروج تماما! بالرغم أن هذا هو سن الشباب الذي يملك الإنسان فيه حرية الحركة، لكني سأذهب معها إلى ذلك المقهى الصغير الأنيق مجاملة لها، إن بعض أصدقائنا من الجامعة قادمون أيضا، هي ستستمتع بوقتها بالتأكيد، أما أنا فسأمارس دوري المعتاد كـ (زهرة حائط) دخلت غرفتي وبدأت أغير ملابسي و.....

∞ ∞ ∞ ∞

......أنهيت ارتداء ملابسي على عجل، لمعت حذائي الأسود وأنا اسب وألعن، ما الداعي لإنفاق الوقت و الجهد و المال أيضا في تلميع حذاء مادام سيتسخ مرة أخرى بمجرد نزولى الشارع في هذا الجو؟! كانت تمطر بغزارة ولا زالت تمطر وبالتأكيد ستتكون أكوام من الطين في الشوارع نحن في الإسكندرية ولسنا في لندن لكن مع ذلك للإسكندرية سحرها في الشتاء، نظرت في المرآة إلى لحيتي الخفيفة وخطر لي أن أخلع ملابسي وأحلق لكنني عدت عن الفكرة، ليس أمامي الكثير من الوقت كما أن اللحية تضفي لي بعض الوقار، حملت صندوقي الخشبي وارتديت قبعتي المستديرة ومشيت بهدوء خارج شقتي و أنا أحمل في يدي الأخرى مظلة سوداء، لدي عمل أقوم به في أحد المقاهي وحتى يأتي موعدي سأجلس لأمارس هوايتى كـ (زهرة حائط)، خرجت من العمارة و كانت السماء ملبدة بالغيوم وكان...

∞ ∞ ∞ ∞

..... الجو ممطر، لم أرد النزول لكن روان أصرت، مشيت معها ونحن نمسك بمظلاتنا بقوة كي لا تطير، كان المكان قريبا لذا لم نأخذ (تاكسى)، اقتربنا من المكان، الآن نمشي في الممر الضيق المؤدي للمحل الذي يقع داخل أحد العمارات، كان يمشي أمامنا رجل طويل القامة، يرتدى قبعة مستديرة قديمة الطراز جدا ومعطفا طويلا وكان يمسك بمظلة مطوية في يد وفي الأخرى صندوق خشبي غريب الشكل، وقد جعله الضوء القادم من نهاية الممر مجرد (سيلويت) دخل الرجل قبلنا ودخلنا نحن ووجدنا الأصدقاء قد ملئوا حوالي ثمانية كراسي وضموا طاولتين لكى تسعهم بعد أن تبادلت التحية تابعت الرجل الغريب فوجدته يجلس على مائدة قصية في طرف القاعة، كانت تسمح له برؤية القاعة كلها دون أن يراه أحد لظلام هذا الركن من القاعة، ما كنت لأختار مكانا غير هذا لأجلس فيه هذا لو كنت وحدى - بالطبع - جاء النادل وسألنا عما نريد

فطلبت.....

∞ ∞ ∞ ∞

...... كوبا من الشاي بالطبع! لست من عشاق القهوة كباقى أصدقائي، الشاي يهدئ أعصابي أكثر وبدأت أتسلى بمراقبة رواد المقهى من موقعي الاستراتيجي في نهاية القاعة، وجدت هناك ذلك الفتى الرقيع الذي يمسك بجيتار تعلم عليه العزف أمس ويحاول أن يتظرف ليبهر الفتيات اللاتي يجلسن حوله، واحدة منهن كانت أكثر انبهارا بدا عليها شدة التفاهة، أنا عازف وأؤكد أن كل ما يعزفه الفتى الرقيع ضوضاء غبية، هناك فتاة تجلس وحدها في أحد أركان القاعة، كانت قد قصت شعرها ليصبح قصيرا وكانت تدخن سيجارة وتضع أمامها كوبا من القهوة وتقرأ ومن وقت إلى آخر تنظر إلى الفتى الرقيع باشمئزاز ثم تهز رأسها وتكمل قراءة الكتاب، هي بالتأكيد ناشطة حقوقية، والشاب يمثل لها نموذجا (للمجتمع الذكوري المتعفن) وفي الحقيقة أنني أشفق عليها، إنها تحرق أعصابها كما تحرق صحتها بالسجائر، حتى السجائر لا أظن أنها تشربها من باب المزاج، بل من باب العناد والتحدي.. حولت نظري لأجد فتى وفتاة حديثي السن وحدهما على إحدى الموائد يتحدثان هما، لم أتمالك نفسي من الابتسام ولكن كالعادة مع الفتيات الحساسات أحست الفتاة بأني أنظر إليهما فقالت للفتى شيئا وهي تشير لى، نظر لى الفتى متحفزا وقد انعقد حاجباه في غضب، لم أحول رأسى عنه، نظرت له بسخرية ثم بتلذذ كأنني أراقب شخصا في ورطة مضحكة، نظرة كأنني أقول له: لا تظن أن الحياة جميلة جدا يا فتى، اسمعها من شخص ذي خبرة! ثم أشحت وجهي وأنا أضحك ضحكة ساخرة خافتة ورفعت الكوب بيدى

∞ ∞ ∞ ∞

...... ورشفت رشفة من الشاي، كان كل أصدقائي منشغلين بالحوار مع بعضهم البعض، إذا لماذا لا أكمل مراقبتى للناس؟ هذه الفتاة ذات الحجاب الواسع وذلك الشاب اللذان يجلسان هناك، كان معهما طفل صغير لابد أنه أخو الفتاة ويمثل دور (العذول)، إنهما مخطوبان هذا واضح لابد أنهما يتناقشان في مسألة الشقة والعفش و و و..... الخ. وكان هناك.... أحد السقاة يعمل ووجهة صارم وفي يده خاتم خطوبة، واضح من عينيه الحمراوين أنه يعمل بوظيفتين ليتم مصاريف زواجه، وكان هناك ساق آخر مراهق يتجادل مع كبير السقاة وكبير السقاة يتحدث وهو يشير إلى القاعة الممتلئة والفتى يشير إلى ساعته فيرد كبير السقاة الكهل بهدوء وهو يربت على كتف الفتى، والفتى قد هز رأسه مستسلما ثم انتحى جانبا ليتكلم في هاتفه المحمول، لا بد أن كبير السقاة أخبره أنه سيتأخر اليوم في العودة لبيته لأن القاعة مزدحمة والفتى لابد أنه يتصل بأهله ليخبرهم أنه سيتأخر، أما كبير السقاة فقد ارتسمت على وجهه المتعب المليء بالتجاعيد علائم الارتياح وهو ينظر إلى الزبائن، لا بد أنه يفكر في الإضافي الذي سيصرف له من أجل خدمته في يوم كهذا، نظرت ناحية الحمام فوجدت فتاة تخرج منه وهي تضع يدها على وجهها وهي تمشي مسرعة حتى أنها كادت تصطدم بكبير السقاة في طريقها للخروج من المقهى، لا ريب أن هناك وغدا قد حطم قلبها وقد أمضت بعض الوقت تبكي في الحمام، لا بأس يا فتاة، يومين على الأكثر ثم ستنسينه لأنه وغد! مجرد وغد مخادع! نظرت في ساعتى، ترى هل.....

∞ ∞ ∞ ∞

.... مر الكثير من الوقت؟ أريد أن أنتهي لكي أذهب بيتي وأنام ملء جفوني حتى الصباح! لا بأس فلأكمل مراقبتى! نظرت إلى طاولتين متلاصقتين جلس عليهما بعض الأصدقاء، حوالي عشرة، كان هناك ثلاثة فتيان يتناقشون بحدة، غالبا في السياسة أو في كرة القدم، وكانت هناك فتاة

تمسك بهاتفها المحمول ولا ترفع رأسها عنه، لا بد أنها لم تتبادل كلمة واحدة مع أصدقائها وبعد قليل ستطلب منهم أن تصورهم (Selfie) لكي تضع الصورة على الفيس بوك لتثبت للجميع أنها تستمتع بحياتها وأنها اجتماعية للغاية، وكان هناك بضع فتيات يتكلمن وهن يضحكن من حين لأخر، وكان هناك فتى ينظر إحداهن من حين لآخر بتركيز ثم يخط خطوطا بقلم رصاص على ورقة بيضاء، لا بد أنه غارق لأذنيه في حبها وهي لا تعرفه وهو خائف أن يأخذ خطوة فيخبرها، لا بد أنه قد رسم له عشرات الرسومات، ثم نظرت إلى فتاة كل ما فيها أبيض، ملابسها، وجهها قلبها، لكن بالرغم من بياضها كانت تبدو كأنها تشع باللون.....

∞ ∞ ∞ ∞

...... الرمادي!!! إنه - بالرغم من الأسود الأنيق الذي يحيط به - يشع بالرمادى، لوني المفضل! لون محايد يضم جميع الألوان، نظرت له وابتسمت.. خرج وجهه من الظلال المحيطة به ونظر إلى و........

∞ ∞ ∞ ∞

.. ابتسمت!!! لا يمكنك أن تراها دون أن تبتسم لها!!! كانت ذا وجه طفولى صغير، وجه يليق ب....

∞ ∞ ∞ ∞

..... زهرة حائط!!! إنه زهرة حائط بالرغم من صرامة وجهه وحدة ملامحه.. تبادلنا حوارا بالأعين قبل أن يقول مدير المسرح الصغير الموجود بالقاعة:......

∞ ∞ ∞ ∞

.... سيداتى أنساتى وسادتي، يسرني أن أقدم لكم عازف ال (Jazz) الموهوب، محمد سمير!!!! دوي التصفيق! لقد حانت فقرتي في وقت غير مناسب تماما!! حملت صندوقى وصعدت للمسرح وأنا أنحني للجمهور ثم أخرجت (الساكسفون) من صندوقي وجلست ثم بدأت أعزف مقطوعة (المحقق البلجيكي -.........

∞ ∞ ∞ ∞

.. كريستوفر جانينج)!!!! كم أعشق تلك المقطوعة خصوصا وال Jazz كله عموما، يا لها من مصادفة! كان عزفه رائعا، أنهى المقطوعة الأولى ثم عزف مقطوعات أخرى تسمى (Noir Jazz)تنتمي لفترة الأربعينيات، إنها تعيد الذاكرة الأيام أفلام المحققين وتعطى انطباعا باللون....

∞ ∞ ∞ ∞

..... الرمادي! كم أحب ذلك النوع من الموسيقى! كنت أعزف وعيني لا تفارقها، ثم أنهيت العزف ووقفت أتلقى تحية الجمهور ثم نزلت من على المسرح واتجهت إلى مائدتها وسط دهشة أصدقائها وأخرجت من جيبى

∞ ∞ ∞ ∞

.... زهرة حائط قرمزية!!! قدمها لي الرجل مبتسما وسط دهشة أصدقائي ثم خرج من المكان حاملا صندوقه، فقمت بلا شعور أتبعه حتى أحس بي في ذلك الممر أمشي خلفه فنظرت إليه وابتسمت ابتسامة و......

∞ ∞ ∞ ∞

...... ابتسمت لها ابتسامة رمادية اللون كابتسامتها.. إننا نقرأ أفكار بعضنا البعض تقريبا لأننا متشابهون في كل شيء، هذا لأننا.....

∞ ∞ ∞ ∞

.... زهور الحائط!!!!!!!

تم بحمد الله
عمر محمد أحمد

كما ترى فيها تقنيات المونتاج السينمائي تماما والتداخل بين خواطر العازف والفتاة شيق جدا، ويبرر هذا بأنهما طائران على شكليهما وقعا هذه هي القصة الوحيدة عندي لعمر.. لكنها عينة ناجحة جدا.

صديقتي حفصة الشرقاوي أرسلت لي مخطوطة ديوان شعر جميل لها، اسمه (السير على البلور المتحرك).. تقول في أولى قصائده:

وماذا يضير؟
لو أننا
عبرنا الحياة كعصفور صغير؟
يهبط أرضا يلتقط رزقه
ويمضي عمره بين الأشجار
محاولا أن يطير
لا شيء هناك ينسى
لا شيء يذكر
لا شيء يستحق التفكير
سوى رفقة وسماء ومحيط شاسع
وعش دافي وثير
ماذا يضير
لو أننا غافلنا الحراس
وانطلقنا صوب الشمس
دون اعتبار يا صديقي؟
لطلقة صياد خبير
أرأيت ذلك الوهج؟
ألمست حافة أحلامك؟
لا تأسف لشيء إذن
فرصاصة ليست بالكثير
تذكر أنه ذات مرة
حلقنا نحو الشمس
حتى لو أنه
ذلك التحليق الأخير!

حفصة الشرقاوي

قصيدة رقيقة فعلا، وتذكرني بأغنية سيمون وجارفنكل (أفضل أن أكون عصفورا لا قوقعة.. لو استطعت لفعلت).. لكني أخذ عليك كسر الوزن عدة مرات.. ثم اللغة القريبة جدا التي تشبه كلام الصحف (لا شيء يستحق التفكير.. فرصاصة ليست بالكثير).. هناك طرق أقرب للشعر لقول ذات الأشياء. على كل حال أنا أؤمن أن الشعر عاطفة أولا، وأن يخلق الشاعر حالة

وجدانية كاملة.. هذا موجود لديك فلم يبق إلا تدريب الأذن على الإيقاع بقراءة شعر أكثر فأكثر
ديوان حفصة به قصائد ممتازة، لكنها أرسلته لي بطريقة PDF ونسخ القصائد منه يشوه حروفها، لهذا أعدت كتابة القصيدة التي نشرتها فقط لأنها الأولى والأقصر
شكرا لكم.. وإلى لقاء جديد

د. أحمد خالد

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

63

فانتازيا



وعد جوناثان

د. أحمد خالد توفيق


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتــازيــا
العدد رقم (63)

وعد جوناثان

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

عبير عبد الرحمن) مخلوقة عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حد يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا..

الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء. لكن لابد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها..

ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام، والذي لا يصلح إلا لها في الواقع وبهذا غدت أول مخلوق بشري يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك.. ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

ان (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير سوف تصحبنا معها.. سوف نعبر معها عالم المرأة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمي) و(أينشتاين).. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته..

ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب.. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كي تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد.. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هي: لا حدود..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار.. والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى هذه المرة تقرؤها على شاشة جهاز الإنترنت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- طفلة سقيمة..

أمام المدرسة..

امرأة وحيدة تنتظر خروج طفلتها. الملل والشارع المزدحم.

أنت تعرف أن هذه (عبير) عبد الرحمن بطلتنا الدائمة. يمكنك أن تدرك كذلك أنها تقدمت في السن نوعا.. لم تمر بها كل تلك السنين، ولكن كل هم وكل لحظة إحباط ترك علامة في وجهها كأنها سنة..

الحق أن حياتها في عالم الواقع كانت صعبة جدا، لكنها كانت تملك باب الهروب الخلفي.. في الليل عندما تختلي بنفسها وتجلس أمام الكمبيوتر وتغمض عينيها وتحلم...

كانت قلقة بصدد ما يمكن أن تحدثه هذه الموجات في جهازها العصبي..

هل تصاب بورم مخ أو خبال يوما ما؟

في فيلم (النائم 1973) لوودي ألين تكون هناك غرفة اسمها أورجازموترون.. اسم هو مزيج من النشوة الحسية والسايكلوترون!..

تدخل الغرفة وتغلق على نفسك لتعيش لحظات من النشوة لا توصف وتخرج راضيا. هناك كذلك كرة صغيرة يعيش من يمسك بها لحظات نشوة مذهلة. تكررت هذه التيمة في أفلام خيال علمي تالية كثيرة. معنى ذلك أن هذه أنواع من المخدرات الرقمية!

قرأت كذلك عن الموسيقا المخدرة التي يستعملها بعض الشباب. هذا المخدر الرقمي عبارة عن (تراك) ستريو صوتي يسمع بالأذنين معا، يمكن شراؤه بثلاثة دولارات من النت. النغمات تحدث حالة مزاجية صناعية عن طريق عزف نغمتين معا مما يغير موجات المخ. فتنتج نفس الموجة التي ينتجها الدماغ أثناء الارتخاء والتأمل. وقد تبين أن المخ يفرز بسببها كميات من الاندورفين مما يتيح تحسنا في حالات القلق. الموجات المخدرة تباع حسب المزاج وحسب احتياجك!

ترى هل تعتبر فانتازيا نوعا من هذه المخدرات الرقمية؟

لا تعرف.. لكنها تعيش عالما أدبيا راقيا وتقابل أبطال قصص وفلاسفة وعلماء. لا يمكن أن يكون هذا هو طريق الإدمان...

نظرت لساعتها ثم راحت تتأمل بائعة اللب المسنة الجالسة خلف قفص مقلوب جوار المدرسة.. تتأمل بائع الدوم.. تتأمل شابا ممزق الثياب يبيع مراوح من تلك التي تدور في نسمات الهواء.

مجتمع البائسين.. ملح الأرض..

لكنها أفضل حالا من الآخرين.. لديها ابنتها التي تعشقها.. لديها أمها التي تتشبث بالحياة بصعوبة وأنامل واهنة.. ولديها جهاز دي جي الذي يمنحها الحلم..

لن تتزوج أبدا.. لقد دخلت مرحلة الاستغناء ولم يعد للرجال دور في حياتها.

هذا عالم أنثوي شبيه بحريم السلطان حيث لا يسمح لأي رجل بالدخول..

وتنهدت..

كانت قد قرأت أمس رواية اسمها (الطريق إلى بئر سبع) لمؤلفة أيرلندية اسمها (إيثيل مانين)، وهي رواية مؤثرة تحكي عن معاناة الفلسطينيين بعد وعد بلفور اللعين، ومعاناتهم مع العصابات الإسرائيلية تأثرت كثيرا وراحت تقرؤها بترجمة د. نظمي لوقا الساحرة، فلم تنم تقريبا.. جاء الصباح فأرغمت نفسها على ترك الرواية لتعد الإفطار لابنتها والنتيجة هي أنها لم تنم (طبقت) كما يقولون بالعامية. غالبا ستنام كلوح خشب عندما تعود للبيت. نفس السيناريو يتكرر مثلما حدث عندما قرأت رائعة رضوى عاشور المذهلة (غرناطة)..

كانت تنتظر خروج ابنتها بفارغ الصبر..

في البيت دجاجة مسلوقة وكيس من الملوخية المجمدة.. سوف تُعِدَّ الملوخية في دقائق، وتتناول الغداء مع أسرتها الصغيرة. ما زالت ابنتها صغيرة والحمد لله فلا كلام عن الدروس الخصوصية.

دق جرس المدرسة، وانفتح الباب ليخرج الغبار ويخرج الصبية الملاعين.. ويخرج الصخب والقذارة..

هيييييييييييييييييه!.. نفس النغمة منذ كانت في المدرسة الابتدائية..

زحام من الأطفال.. زحام بنات.. صخب.. صراخ..

ثم رأت مدرسة ابنتها مس (عواطف)... وهي صديقة شخصية لها رأتها تمشي نحوها وفي يدها (ندى) الصغيرة.. ثمة شيء في المشية جعل قلبها يثب في الضلوع..

كانت (ندى) تحمل رأسها بصعوبة وتفتح عينيها بصعوبة أكبر..

هرعت (عبير) واجفة إلى الطفلة، فهتفت مس (عواطف):

- لا تقلقي..!.. إنها بخير..

ثم فهمت (عبير) أن (ندى) أصيبت بوعكة صحية وراحت تفرغ معدتها وارتفعت حرارتها، ولم تكن تعرف رقم هاتف أمها ولم يكن الرقم مع أحد في المدرسة.. هكذا ظلت في غرفة المعلمات ساعة كاملة.

تحسست (عبير) جبين ابنتها فلسعتها الحرارة فعلا..

- هل أنتِ بخير؟

نظرت لها الطفلة في إعياء ولم تقل شيئا..

بلا كلمة أخرى جرتها (عبير) من يدها مسرعة. وبعد عشر دقائق كانت تجلس في المستوصف الخيري الموجود في الحي تنتظر دورها وتريح رأس ابنتها على فخذها. وتمسك بحقيبتها الصغيرة التي رسم عليها (سبونج بوب بضحكته المزعجة).

دخلت إلى الطبيب.. كل أطباء الأطفال ينظرون في حلق الطفل ثم يقولون إنها (اللوزتان)

ويكتبون مقويا وخافض حرارة وحقن مضاد حيوي.. يمكنها أن تفعل ذلك لكنها تخشى أن يكون الأمر أخطر من هذا..

تفحص الطبيب حلق الطفلة ثم قال:

- التهاب لوزتين!

كأنه يمكن أن يقول شيئا آخر..

لكنه ألصق السماعة بصدر الصغيرة، ثم قال:

- أريد أن أراها مرة أخرى.. ثمة احتمال بسيط أن تكون هناك حمى روماتيزمية.

وأمسك بالورقة وراح بخط رديء جدير بالأطباء يكتب قائمة من التحاليل وقائمة من الأدوية.. كم يكلف هذا كله؟ والمئة جنيه في حقيبتها التي يجب أن تكمل بها الشهر بأي طريقة..

أنهى الطبيب الفحص فناولها الورقة وقرص أنف الطفلة على سبيل الدعابة، فبصقت في وجهه تعبيرا عن سماجته..

خرجت (عبير) شاعرة بالحيرة.. اتجهت لأقرب صيدلية فابتاعت الحقن، وأقنعت الصيدلي أن يعطي أول جرعة لـ (ندى)...

لن تستطيع أن تجري التحاليل الآن.. هناك أولويات.. الميزانية لا تسمح..

استقلت (توك توك) للبيت هذه المرة سامحة لنفسها بهذا الترف، لأن الطفلة لا تتحمل مشوار العودة..

في البيت أرقدت الصغيرة في الفراش وبدلت لها ثيابها.. ثم أعدت الغداء بقلب كسير قلق. دقت الثوم في الهاون وقلبته في السمن ثم طششششش!.. فوق الملوخية..

لكن الطفلة رفضت الأكل بإباء واشمئزاز.. قررت (عبير) أن تعدّ لها شطيرة من الجبن مع كوب عصير..

جلست (عبير) تلتهم الطعام مع أمها العجوز التي لم تعد تسمع تقريبا.

سألتها المرأة ست مرات عن سبب عدم جلوس (ندى) على المائدة.

- مريضة يا أمي.

فتهز المرأة رأسها في اتعاظ كأنها مشفقة، ثم بعد ثلاث دقائق تسأل عن سبب عدم جلوس الطفلة على المائدة..

لما انتهى الغداء نهضت (عبير) فتحسست جبين الطفلة الغافية المبلل بالعرق.. الحرارة قد هبطت أخيرا.. ستنام في عمق.. لكن (عبير) ما زالت قلقة كلما تذكرت وجه الطبيب المكفهر..

أقسى ما في الأمر أن تواجه هذا كله وحدها.. أمها تقريبا صارت في عالم منعزل. لعله الصمم ولعله داء (ألزايمر) أو تصلب شرايين الشيخوخة لا يمكنها أن تعرف..

هي وحدها فعلا.. تقلق وحدها.. تسهر وحدها.. تنفق وحدها..

وتبكي وحدها!!

عندما بدأ البيت يهدأ عصرا وعندما نامت العجوز، قامت (عبير) إلى بخاخة الفليت فرشت غرفتها جيدا بالسائل قوي الرائحة ليهرب الذباب، ثم أغلقت النافذة ليسود المكان ظلام مريح محبب للنفس... بالواقع تسلل الظلام إلى جهازها العصبي فبدأ يسترخي.. ظلام النفس..

إن الجو هادئ.. فلماذا لا تجرب دخول فانتازيا لتريح أعصابها المرهقة؟

هكذا ثبتت الأقطاب حول رأسها.. صارت خبيرة في هذه التقنية بعد كل هذا العمر. شغلت جهاز الكمبيوتر وراح تراقب بدء نوافذ ميكروسوفت..

سوف يبدأ الحلم.. ولكن إلى أين هذه المرة؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- المديرة غاضبة..

هي واقفة في الصف..

واقفة أمام الطلاب الجالسين، وتمسك في يدها كتابا لإبسن.. بيت الدمية.. يمكنها تذكر العنوان من قراءاتها السابقة، مع فارق بسيط هو أنها قرأته بالعربية، أما هنا فهو مكتوب بلغته الأصلية: النرويجية وبرغم هذا هي تفهمه تماما.

يمكنها أن تستنتج بسهولة أنها تلعب هذه المرة دور معلمة نرويجية.

ماذا تقول؟ كعادة (فانتازيا) راحت تصغي لكلامها الخاص:

- في مسرحية بيت الدمية نرى تحول البطلة (نورا) من طفلة في حاجة إلى الحماية، إلى شخصية تتكلم بحزم بلسان الدعوة إلى الحرية الفردية.

نرويجية ممتازة جدا كأنها كانت تتكلمها منذ ولدت..

هنا دق الجرس فبدأ الطلبة يجمعون حاجياتهم..

هم في الصف الثانوي على الأرجح.. شقر زرق العيون يحملون ذلك الطابع الإسكندنافي البارد. لا بد أن أسماءهم من طراز (إينار) و(ستيجوود)..

لا بد أنها شقراء لا تختلف عنهم كثيرا.. لو أنك أحصيت قصص (فانتازيا) التي كانت شقراء فيها لوجدت أنها تمثل 80% من المجموع.

غادرت الصف ووقفت للحظة تستنشق الهواء في الممر الذي يطلّ على مساحة شاسعة من الخضرة تناثرت فيها زهور رائعة الجمال. الطقس بارد لكنه لذيذ يعطى لسعة محببة للنفس. دست يديها في جيبي المعطف طلبا لدفء لا حاجة له وحملت أوراقها..

تحتاج إلى دخول الحمام.. مثانتها مليئة فعلا.

كان هناك في الممر حمام صغير عليه علامة فتاة بثوب. دخلته وكان نظيفا مريحا للأعصاب كما يجدر بحمام نرويجي، فوقفت أمام المرآة لتعيد تمشيط شعرها.. هنا فوجئت بأنها محجبة.. إيشارب أبيض أنيق يلتف حول رأسها، وهذا الوجه الأسمر المليح. هي عربية.. لا شك في هذا..

غادرت الحمام شاردة في أفكارها. في كل مغامرة تبدأ وهي في وضع فاقد الذاكرة الذي لا يعرف من هو حقا ويعتمد تماما على كلام من يقابلهم.. مرحبا يا (بيومي).. كيف حالك يا (رامي)؟.. المخدرات وصلت يا (عماد).. هكذا..

ترى ماذا سيقال لها؟

- جو مورن (صباح الخير) يا (أمينة).

- نهارك سعيد يا (أمينة)..

هي عربية فعلا ومسلمة.. وما دخل مدرسة عربية بتدريس الأدب النرويجي للطلبة النرويجيين؟

إنها تتجه إلى مكتب مديرة المدرسة، وهو موجود في نفس الممر الذي تمشي فيه. لا تعرف السبب الذي يدعوها للذهاب هناك لكن (فانتازيا) تعرف.

على الباب لافتة صغيرة تقول (أجنيثا أنسجار). رنين الأسماء النرويجي هذا... كأنهم جميعا من غزاة الشمال..

دقت الباب ودخلت. كانت المديرة امرأة شقراء ضئيلة الحجم رقيقة جدا ومن الواضح أنها كانت رائعة منذ عشر سنوات... كانت جالسة وأمامها كوب ورقي من القهوة وبعض الكرواسان. من الذي قال إن النرويجيين لا يفطرون إلا الرنجة إذن؟

- ادخلي يا (أمينة).

هزت (عبير) رأسها محيية ودخلت لتجلس على مقعد أمام المكتب..

الغرفة باردة لكنها مريحة.

قالت المديرة (أجنيثا):

- أنت تعرفين أنني أحبك ومتحمسة لعملك، لكن نفس الشكوى تتكرر كل مرة.. أنذرتك مرتين من قبل وصدقيني لن تكون هناك مرة قادمة..

لوم؟ بهذه السرعة؟ لا بد من فترة كامنة دائما قبل تلقي الشتائم.. هذا أسرع من اللازم.. رفعت حاجبيها في دهشة فقالت المديرة في شيء من التحفظ:

- أعرف أنك تحملين احتراما عميقا لتاريخك.. كلنا ذلك الشخص، لكن مع التلاميذ حقا في افتراض أنك تحاولين دس بعض المفاهيم في أذهانهم..

ثم قلبت في الأوراق:

- هنا قلتِ إن غزو المسلمين للأندلس كان حقا طبيعيا لهم، وإن مساحة الدول تقاس بقدرة جيوشها على التوسع.. قلت هذا في الصف منذ شهر.

قالت (عبير) محتجة:

- لم أقل هذا بالضبط.. قلت إنه كان زحفا حضاريا أكثر من أي شيء آخر.

قالت المديرة ببساطة:

- ونحن نعتبره احتلالا...

ثم قلبت المزيد من الصفحات وقالت:

- هنا قلت إن الغزوات الصليبية كانت تتنكر بشكل ديني زائف، لكن الغنائم والسيطرة كانا محرك الأحداث.. هذا كلام لا يقال لمراهقين..

وبحثت عن صفحة أخرى ثم قالت:

- وفي الصف أول من أمس قلت إن أورشليم عربية وكان يجب أن تظل مع العرب.

بدأت (عبير) تفطن لأبعاد المشكلة.. أمينة هذه تعمل مدرسة في بلد أجنبي، لكنها مصرَّة على ذكر رأيها الحقيقي.. وليس هذا بالزمان ولا المكان المناسبين. ولو قبل الغربيون أن تقول هذا معبرا عن رأيك في صحيفة أو كتاب، فهم لا يقبلون أن تقول هذا في مدرسة، لأن التهمة الجاهزة هي العبث في عقول الأولاد. لا تعرف هل الطرد من العمل جزء من المغامرة أم شيء لا يجب أن يحدث حتى لا تفسد المغامرة. (عبير) ستكون أكثر حكمة من أمينة. من فضلك يا أمينة اخرسي قليلا..

قالت للمديرة في حصافة:

- أرجو أن تقبلي عذري.. أحيانا يغلبني الانتماء.

- نحن نسميه التعصب العرقي..

ثم نظرت لـ (عبير) بعينيها الرماديتين الحازمتين وقالت:

- (أمينة). كما كررت من قبل، ستكون هذه المرة الأخيرة.. بعد هذا سأكون آسفة جدا إذ أنهي تعاقدي معك. لكني أرى العالم من موضع أكثر بانورامية.

- ستكونين راضية يا سيدتي.. طق!

(طق) الأخيرة هي (شكرا) بالنرويجية ويبدو أنها تستعمل لدى كل اللغات الإسكندنافية..

ثم هزت رأسها في أدب واستدارت مغادرة المكان.

وقفت تراقب الخضرة من الشرفة الممتدة بطول الردهة. كان المطر قد بدأ ينهمر رقيقا حانيا..

استنشقت نفسا عميقا.. هنا سمعت الصوت خلفها:

- تك تتك.. خذي الحذر..

نظرت للخلف فرأت المرشد يقف مستندا إلى باب أحد الفصول وهو يضغط على قلمه الأبدي. وكان يبتسم ابتسامته السمجة اللا مبالية التي صارت جزءا من حياتها..

قالت له في غيظ:

- بدأت هذه المرة من دونك ومن دون قطار فانتازيا..

- أردت كسر الروتين لا أكثر.

ثم أضاف وهو يتثاءب:

- سوف تكتشفين الكثير في هذا العالم.. لكن تذكري أن من مصلحتكِ ألا تفقدي عملك هنا.

- وما هي نقطة البداية؟

- لا شيء ستعودين لبيتك وزوجك وابنتك.. وهناك ستعرفين كل شيء.

قالت في قلق:

- أنا متزوجة هنا؟

قليلة هي القصص التي تكون فيها متزوجة في فانتازيا. وهذا أفضل.. لا تحب أن تجد نفسها مرغمة على معاشرة شخص لا يطاق لتعيش القصة..

لا تملك القدرة على الاختيار..

رأي القلق في عينيها فضحك وقال:

- ابنتك هي ابنتك.. ابنتك.. اسمها (ندى).. وزوجك هو زوجك.. إنه (شريف)!

إذن سوف تجمع (فانتازيا) بينها و(شريف) من جديد.. هذا لم يحدث منذ دهر، عندما كان (شريف) يظهر في كل حلم تقريبا... لم تعرف إن كان هذا خبرا جيدا أم سيئا..

ثم أضاف وهو يبتعد:

- أمامك رحلة كفاح طويلة فإستعدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الجيتو..

قد تتبعثر أجزاؤك في بقاع الأرض، لكنها ما دامت تتذكر أنها أجزاؤك فلسوف تحتشد ثانية مثل جثمان أوزيريس.

سمير الشيخ [1]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقع البيت في شارع هادئ في أوسلو..

بيت صغير نظيف يبدو أن أصحابه ليسوا أثرياء ولا فقراء..

تمشي في الممر الصغير بين البيوت، فتجد أن هناك نسوة يحيينها بالعربية.. نسوة سمراوات ملامحهن عربية بلا شك:

- كيف حالكِ يا (أمينة)؟

- صباح الخير يا (أمينة).

هناك رجال لهم ملامح عربية واضحة. هناك أطفال يلعبون..

قالت (عبير) لنفسها إن هذا هو الحي العربي في المدينة بلا شك..

بالفعل. هناك مطعم صغير للفول والفلافل.. هناك مطعم شاورمة.. هناك متجر يبيع جلابيب وأغطية رأس..

رائحة البخور والعطور العربية تمتزج برائحة الشاورمة والكبيبة..

ثم سمعت صوت آذان من قريب وراق لها هذا.. هناك مسجد صغير، أقرب لما نعتبره زاوية. هذا حي عربي كامل كما هو واضح..

سمعت صوت صخب فنظرت للخلف..

رأت سيارة مندفعة لا تكف عن إطلاق النفير..

رأت الناس يتواثبون على الإفريز في ذعر، وأدركت أن السيارة تتسلي بمطاردة الناس. هي في الشارع.. السيارة قادمة بسرعة جنونية..

يمكنها أن ترى السائق.. شاب نرويجي هو، طويل الشعر وغد النظرات، وجواره فتاة منتشية تصفق بيديها.. الاستهتار والجنون.. وهذه الكتلة الحديدية تندفع نحوها..

صرير العجلات.. رائحة الكاوتشوك المحترق..

تثب إلى الإفريز بينما تندفع السيارة جوارها وتسمع سبة بذيئة..

تنطلق السيارة وتدور دورة في الشارع ثم تئن الفرامل وتعود من حيث جاءت.. من لا مكان..

كانت ترتجف انفعالا.. ترتجف فزعا وذهولا..

سمعت امرأة تصيح في هلع:

- للمرة الثالثة.

- عنصري متعصب.

- يجب أن ننتظره بالحجارة في المرة القادمة.

- لو تعطلت به السيارة لحولناه إلى عجين.

فتحت (عبير) باب البيت ثم دلفت إلى الداخل. الشقة الجميلة المريحة.. لكنها تحمل بعض لمسات معينة.. صورة لأم (كلثوم) في الصالة.. سجادة صلاة على الأريكة...(مكرمية) معلقة على الجدار.. وصورة للمسجد الأقصى على الجدار.. قبة الصخرة لو شئت الدقة..

تعرف جيدا أنها ستعد الغداء لأن زوجها قادم بعد قليل..

(ندى).. كيف تبدو؟ وماذا كان سيحدث لو مرت بنفس موقف السيارة المجنونة؟ ماذا كانت تفعل؟ بالتأكيد كانت السيارة ستدهمها..

التفسير.. لا بد من تفسير..

الشعور الممض بأن الفيلم بدأ منذ فترة وهي دخلت في منتصفه تحاول الفهم. فيما مضى كانت تدخل دور سينما العرض المستمر فترى البطل يقتل الشرير ويسترد لفافة.. لا تفهم شيئا إلى أن ترى الفيلم من جديد.. تعرف أن البطل كان يملك اللفافة المليئة بالماس ثم سرقها الشرير.. إلخ..

ثم تأتي اللحظة التي دخلت فيها، فيسألها خالها إن كانت تريد استكمال المشاهدة أم تريد العودة للبيت. في معظم الحالات كانت تفضل المشاهدة لتربط الأحداث.

تشعر أنها لو ظلت في هذا العالم لفهمت لماذا هاجمتها هذه السيارة.. ستصل إلى الجزء الذي دخلت فيه.

أعدت سلاطة وقامت بطبخ بعض شرائح اللحم، ثم دق الباب..

- (ندى)!!... تقف أمامها.. بالضبط كما تخيلت أنها ستكون بعد أربعة أعوام. جميلة أنيقة تنظر لها في دهشة:

- ماما.. لماذا تنظرين لي بدهشة؟

إذن لم تكن (ندى) هي من ينظر لها بدهشة.. هي التي كانت تنظر بدهشة لـ(ندى)!!

قبلتها ثم أخذت الحقيبة الثقيلة على ظهرها وجذبتها للداخل. قالت (ندى) وهي تنزع ثيابها في الصالة كأنما غير مستعدة للانتظار حتى تصل لغرفتها..

- كيف الحال؟

قالت (ندى) في ضيق:

- التحرش المعتاد.. أولاف وجاسبار.. كالعادة.

كانت (ندى) الآن تفهم ما يحدث.. إنهم عرب، وهذا الحي يشبه الجيتو العربي.. لهذا يتحرش بهم النرويجيون كما يفعل كل أهل الشمال بأهل الجنوب. إنهم أقلية.. وهذه الأقلية تحاول الحفاظ على تراثها وعاداتها ولهذا ينعزلون أكثر فأكثر..

قال هتلر في كتاب كفاحي إنه رأى رجلا يهوديا ألمانيا فخطر له أنه ليس ألمانيا على الإطلاق.. إنه ينتمي لجنس خاص ودولة واحدة هي اليهودية ولها ولاؤه الأول. يمكن القول أن النرويجيين هنا ينظرون للعرب ذات النظرة..

هل العرب هنا كذلك فعلا؟ هل انتماؤهم للعرب أقوى من انتمائهم للدول التي يعيشون فيها؟ وهل المتطرفون الغربيون على حق أم هم واهمون؟

السؤال الثاني هو: منذ متى كانت النرويج تفرق بين الجنسيات؟ لقد ذاب العرب في هذه الدول منذ زمن لهم تراثهم لكنهم في النهاية مواطنون لهم حقوق وعليهم واجبات..

يبدو أن نرويج هذا الحلم تختلف عن نرويج عالمنا الحقيقي..

كانت تفكر في هذا وهي تضع شريحة لحم في طبق مع السلاطة.. هنا سمعت من يفتح الباب..

ظهر (شريف) في معطف جلدي وهو يحمل بعض البقالة.. (شريف) نفسه!! نفس النظرات والكلمات والإيماءات.. لقد أعادته لها (فانتازيا) ببساطة.. فقط كان أكبر سنا..

وضع ما يحمله على المنضدة ثم هرع نحوها فلثم جبينها..

شعرت بأنها تتقلص.. لا تنس أنها دأبت على اعتباره شخصا غريبا منذ زمن..

- أنا أموت جوعا.. هلا تناولنا الغداء؟؟

ثم تشمم الجو وبدت عليه خيبة الأمل:

- قلتِ إنكِ ستعدين بعض الملوخية.. لقد اشتريتها بسعر الذهب كما تعرفين. لو تلفت فلن أسامحكِ.

وبدأ ينزع ثيابه فشعرت أنها خجلي من النظر له..

غريب.. هكذا صار وهكذا هيأت نفسيتها:

- هل كان يومك طيبا؟

قالت في لا مبالاة:

- رائع.. لوم من المديرة وتهديد بالطرد.. ثم سيارة شباب مستهترين كادت تدهمني، ثم (ندي) تشكو من مضايقات.. إنه الروتين المعتاد.

قال ضاحكا:

- رأيت أياما أسوأ.

جلس إلى المائدة وداعب شعر (ندى).. ثم نقل لطبقه شريحة لحم، وانتظر حتى جلست (عبير) ثم راح يأكل بجشع..

- علينا أن نتحمل ونتماسك.. نحن أقلية في بيئة معادية. وجودنا هش وولاؤنا مشكوك فيه.. ليس هذا أفضل وقت لافتعال مشاكل.

- لا أدري كيف يكون عدم التحمل..

قال في فخر وهو يلوك قطعة لحم:

- هم م.. الأمر بسيط.. أنا مثلا عبقري كمبيوتر في شركتي.. إنهم لا يقدرون على الاستغناء عني.. المدير يعرف أهميتي جيدا. أنتِ معلمة ممتازة.. تصوري أنك تدرسين النرويجية لطلبة نرويجيين.. نحن نتألق في كل مكان نوضع فيه..

كانت تتوقع هذا على كل حال.. (شريف) عبقري كمبيوتر دائما في كل زمان ومكان..

الأقليات تتميز على كل حال، لأنها تحاول أن تخرج أفضل ما فيها وأقوى ما فيها لتواجه المحيط المعادي بالخارج. لماذا كان أكثر علماء القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية يهودا؟ لماذا سيطر اليهود على السينما الأمريكية؟ لماذا سيطروا على اقتصاد العالم؟

لكن لم تفهم بعد.. ما أهمية هذه المغامرة؟ أن تجد نفسها من الجالية العربية في النرويج.. نرويج أكثر تعصبا وعنصرية..

ما المقصود من هذا؟

دق جرس الباب فقامت من على مائدة الغداء واتجهت لتفتح.. كان القادم شابا أسمر قصير القامة يضع طاقية بيضاء صغيرة على رأسه ويضحك كاشفا عن أسنان بيض ناصعة. وجه عربي بشدة..

قال الفتى العربي:

- أستاذ (شريف).. أنا هنا.

تعالى صوت (شريف) من على مائدة الطعام يصيح بفم ممتلئ:

- تعال يا (مصطفى).

دخل الفتى مترددا وسرعان ما وجد نفسه يجلس أمام طبق مملوء بالطعام.. إن العادات العربية مستمرة في كل مكان، وما زالت دماء حاتم الطائي تجري في العروق.

- هلم. كُل..

في ارتباك بدأ (مصطفي) يأكل بينما سأله (شريف):

- هل كتبت أغنية جديدة؟

- لا...

قالها (مصطفى) ثم أبدى ملاحظة سريعة:

- داجفين يتكلم الآن..

بدا الاهتمام على وجه (شريف)، ثم استدار إلى (عبير) ليطلب منها فتح جهاز التلفزيون..

فتحت (عبير) التلفزيون فظهر داجفين يخطب الآن.. لمزيد من التوضيح هو رجل نرويجي في الأربعين من العمر يتمتع بكاريزما هائلة، وله وجه شيطاني لا يبعث الراحة في النفس، يقف على منصة وحوله اللافتات بينما مجموعة من القوم المتعصبين يلوحون بأعلام ولافتات أخرى. كأنه حفل انتخابي..

ثم رأت (عبير) اللافتات المكتوبة بالنرويجية التي صارت تجيدها فجأة..

- الموت للعرب.

- أيها العرب.. عودوا لبلادكم.

وتعالى التصفيق بينما هذا الخنزير الأربعيني يصيح على طريقة خطابات (هتلر):

- هكذا يتخلل العرب كل شيء هنا، كما يتخلل الصدأ أجزاء المعدن الصقيل الممتاز.. توطئة لأن ينهار كل شيء، تدرس في المدرسة على يد مدرس عربي يلوث عقلك.. تشتري الطعام من بقال عربي يسممك..

تتداوى عند طبيب عربي يقتلك.. الاقتصاد يسيطر عليه العرب. أنا أفتش عن الإسكندنافيين.. غزاة الشمال.. أبناء أودين. فلا أجد.. ذهب أنفريد وجاسبار وأولاف وجاء (أحمد) و(محمد) و(كريم). هكذا صارت أوروبا كالصخرة الهشة تنتظر طرقة واحدة تهوي عليها..

توقعت أن يمد يده بعلامة هايل هتلر أو يصيح (ألمانيا فوق الجميع)..

الحقيقة أنه كان كاريزما ديماجوجيا، وكان أداؤه يتصاعد بلا توقف..

يسخن كما يقول المسرحيون..

تعالت الصيحات الغاضبة فصاح بطبقة أعلى:

- هكذا تتداعى حضارتكم.. وهكذا يدمرون تراثكم.. وهكذا سيأتي اليوم الذي يستعبدون فيه أطفالكم ونساءكم، لأنهم في الحقيقة يتظاهرون بأنهم اندمجوا في المجتمع الغربي.. الحقيقة هي أنهم يكرهونكم ويتحينون اللحظة المناسبة ليفتكوا بكم... إن العربي الجيد الوحيد هو..

توقعت أن يقول: هو العربي الميت على طريقة رعاة البقر، لكنه كان أذكى من أن يضع نفسه بين أنياب المحامين، لذا قال:

- هو العربي الذي يحمل حقيبته ويغادر البلاد..

تعالت الصيحات الغاضبة المتحمسة ولوحوا بالأعلام.. وبرغم أنهم تمالكوا أنفسهم نوعا فقد رأت بوضوح وسمعت لافتة الموت للعرب..

هذا بلد مقبل على عملية تطهير عرقي بلا شك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الغوغـاء..

العنف لغة الكلام لمن لا عقل ولا لسان له..

ألبير سعادة [2]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العربة التي نزلت أمام الجيتو العربي كانت تبدو كأنها سيارة نقل أثاث وللحظة نظر العرب في دهشة إلى العربة.. لماذا تتوقف عند مدخل الحي كأنها تتعمد أن تسده؟

ثم رأوا الرجال يثبون منها..

رجال ملثمون هم.. أقوياء البدن يحملون الهراوات وبعضهم يحمل جراكن البنزين وبعضهم يلوح بشيء تبين بعد قليل أنه شعلات. صارت كذلك ببعض أعواد الثقاب..

للرجل الملثم نوع معين من الهيبة والرعب، لأنه يجعل الوجه بلا مشاعر. ليس الأمر لإخفاء الهوية فقط بل له أثر نفسي أكيد يرهب الخصوم..

صرخ الناس بينما اندفع الملثمون في كل مكان..

كرراش.. هوت عصا على نافذة متجر الأزياء المحجبات، ثم اندفعت شعلة إلى الداخل فتصاعد الدخان الأسود مع النار.

عربة كشري انقلبت على الأرض فتكدس الأرز وتلوت المكرونة كالديدان، ولما حاول صاحب العربة الدفاع هوت عليه ضربة قوية من هراوة..

شعلة تهوي فوق مخبز صغير..

الرجال يسكبون البنزين حول المطاعم. ثم يشعلون النار فيتصاعد ستار من اللهب يحرق كل شيء..

شاب عربي متحمس التقط مشعة وجرى ليلقيه داخل سيارة الأثاث، وبالفعل اندلعت النيران من الداخل، لكن أحد المهاجمين أسقطه أرضا وهوي عليه ركلا..

العنف..

العنف..

العنف..

عندما تتحرر القوى الشيطانية التي كان كبحها هو ثمن التحضر. عندما تتلف فرامل التقدم وكبح الذات.. عندما يتحرر رجل الكهف الراغب في القتل والذبح. عندها لا فرصة للضعفاء من أي نوع..

طارت شعلة لتسقط في بيت ذي نافذة مفتوحة..

كانت (عبير) قد أغلقت باب الشقة عليها مع (ندى). (ندى) ترتجف رعبا وتتمسك بأمها لا تريد تركها، ماما لماذا يفعلون ذلك؟. خوف الأطفال يخيفك أنت نفسك.. (شريف) لم يكن هنا.. كان في شركة الكمبيوتر.. من الأفضل ألا يظهر الآن.. لن يمر الأمر بسلام.

لحسن الحظ أن الشقة في الدور الثالث.. لن يقتحموها ما دام الباب موصدا.. لن يصعدوا في الدرج لاقتحام الشقق.. هرعت إلى الهاتف وطلبت الشرطة.. هناك ترد الشرطة على الفور فلا تمض يومك في محاولات فاشلة. جاء صوت كسول سأل عما هنالك فصرخت:

- هنا شارع هالدار.. نعم.. هناك مجموعة من البلطجية يهاجمون ويحرقون كل شيء.. أنا أدعى (أمينة). نعم.. أمينة الجنايني.. هلم من فضلك قبل أن نموت جميعا.

ووضعت السماعة وهي تتمنى لو يركبوا صواريخ نفاثة لينقذوا الموقف..

تسمع صوت الصراخ في الشارع.. تقترب من النافذة وتنظر في حذر فترى سيارات محترقة.. محال محطمة.. أشخاصا سقطوا على الأسفلت.

من موضع ما ظهر أحد الجيران. كان يحمل شيئا في يده.. باو!!

هذا مسدس.. يا لك من مجنون..... أنت تعطيهم الذريعة الكاملة لذبحنا.

تكوم اثنان من المهاجمين على الأرض يتلويان.. بينما دس العربي المسدس في خصره وانطلق يجرى لنهاية الشارع، ومن خلفه انطلق ثلاثة من الملثمين..

كانت سيارة الأثاث تحترق بلا شك.. الفتى العربي آذاها حقا بتلك الشعلة التي ألقاها فيها، ويبدو أن السائق أدرك أنه لا جدوى من إطفاء الحريق فاندفع بالسيارة المشتعلة ليقتحم مطعم الشاورمة اللبناني الطابع وكان التصادم مروعا وامتزجت كتلة الحديد المشتعل بالجدران.. وتساقطت الشعلات في كل مكان.. لكن السائق وثب قبل التصادم بالطبع فهو لم يرغب في الانتحار..

يا للنيران!.... الوحش المفترس الذي تستحيل السيطرة عليه.. يمزق كل الأغلال ويهشم كل الأقفاص..

لا تعرف متى ولا كيف فوجئت بزجاج النافذة يتهشم..

على الأرض سقطت زجاجة مشتعلة لتتحطم.. مولوتوف.. الاختراع اللعين الذي يحمل اسم وزير الخارجية السوفييتي على سبيل التهكم، والسائل ينسكب على البساط ليبلله ثم تسري فيه النار خضراء في البداية وترتفع..

خلال لحظة كان الكابوس قد تحقق بالكامل..

غرفة المعيشة تشتعل كلها..

صراخ (ندى) يحطم الأعصاب..

جرت لتمسك بيدها ثم جرتها إلى الأرض لتزحف هناك حيث يكون الأكسجين نقيا، ثم هرعت إلى المطبخ لتحضر علبة السائل الذي يطفئ الحريق.. عادت وصوبته على اللهب.. لا جدوى.. هذه العلبة في حجم علبة المبيد الحشري ولا تصلح بتاتا لهذا الحجم من الحرائق التي لا تمزح..

هكذا ألقت العلبة في قنوط وركضت إلى باب الشقة وجرت (ندي) الهستيرية من يدها..

لا وقت للهستيريا الآن.. فيما بعد سيكون هناك وقت كاف للهستيريا والبكاء، أما الآن فعليها أن تكون حازمة كجنرال في الجيش.

فتحت الباب.. هنا سمعت صوت خطوات على السلم وكلاما بالنرويجية.. الأوغاد دخلوا البناية..

ألقت نظرة حذرة عبر بئر السلم الحلزوني، هنا سمعت صوت صرخة.. رأت الجسد يهوي من عل بسرعة ليرتطم برخام الطابق السفلي..

هذا هو الذي أطلق الرصاص.. لقد هرب إلى هذه البناية لكنهم ظفروا به وألقوا به في بئر السلم. لا بد أن مسدسه خلا من الرصاص.. لقد تلقى عقابه..

المشكلة الآن هي أن الشقة تحترق وعليها أن تهبط في الدرج.. والأوغاد على نفس الدرج.

لم تعرف ما تفعله فاحتضنت (ندى) أكثر وجاء دورها لتبكي.. من خلفها تحترق الشقة ومن أمامها الأوغاد، على طريقة (طارق بن زياد) الذي أحرق سفنه (وهي قصة لم تثبت صحتها قط)..

هنا ارتطمت بكتف رجل فمزقته بأسنانها وأنشبت أظفارها في لحم وجهه..

هنا سمعته يقول:

- لت.. لت... اهدئي.

فلما رفعت وجهها اكتشفت أن هذا رجل شرطة. لقد جاءوا بسرعة البرق.. وسمعت صوت سرينة سيارات الإطفاء.. أمامهم عمل كثير بالفعل..

عندما نزلت إلى الشارع ممسكة بكف ابنتها أخيرا وسط النيران والدماء ومياه الإطفاء التي أغرقت الشارع.. والجثث الملقاة التي تنتظر سيارات الإسعاف.

عندما رأت هذا كله أدركت حجم الكارثة التي حدثت..

لم يسبب المهاجمون هذا كله. سببه الحمقى الذين استجابوا لغريزة التعصب لأن داجفين هو الذي أغراهم بهذا..

داجفين هو القاتل... كما أن هتلر مسئول عن موت كل روسي وبيلاروسي ويهودي..

عرفت (عبير) أن مشكلتها في هذا العالم قريبة جدا من مشكلة اليهود في ألمانيا النازية. لن يمر وقت طويل قبل أن تأتي ليلة السكاكين الطويلة أو ليلة الزجاج المكسور، وهما ليلتان شهيرتان في تاريخ النازية عندما راحت الجماهير الغاضبة تفترس اليهود..

صدق المرشد عندما قال إن أمامها رحلة كفاح طويلة..

☆ ☆ ☆

5- العربي التائه..

- التطهير العرقي.. لعنة السياسة.

جلس (جوناثان راينهارت) يقلب هذه الفكرة في ذهنه، وهو يتصفح كتابا عن مذابح رواندا. ثم رشف رشفة من الكأس الذي يضعه بجواره، وعاد يقلب الصفحات..

هناك جوار المدفأة وقف (مكرم) يمتص دخان السيجار ويفكر بدوره..

(جوناثان راينهارت) نائب الرئيس الأمريكي، هو رجل في الخمسين من عمره، له وجه صارم قاس لا يوحي بأي عاطفة، هذا الوجه الذي يذكرك بالإمبريالية.. الوجه القاسي البارد لأمريكا وهو يختلف كثيرا عن الوجه الذي تراه مع ميكي ماوس وديزني والكولا.. هو كذلك من الطراز الذي يحب أن يرمق محدثه من فوق زجاج العوينات لتبدو نظرته متربصة ثاقبة.

لكن الحقيقة لم يكن الرجل يحمل أي صفة مما يوحي بها مظهره.

(مكرم) أستاذ جامعة عربي له لحية قصيرة شائبة، وجسد قصير ممتلئ.. يلبس مثل كل أساتذة الجامعة ربطة عنق على شكل بابيون ويدخن السيجار بكثافة.

قال (مكرم) وهو ينظر لنيران المدفأة:

- مذبحة أخرى في الفليبين.. وبلطجية في النرويج.. وأمس حرق مسجد في لندن.

ثم تنهد في ضيق..

قال (جوناثان) بصوت عميق قوى النبرات:

- عليك أن تقبل هذا.. إن العرب هم يهود العصر الضائعون في الشتات.

- ولماذا أقبل هذا بينما لم يقبله اليهود؟

- أنت بما تستطيع عمله..

ثم عاد يقرأ الكتاب الذي في يده..

بعد قليل سأله (مكرم):

- هل الرئيس في المكتب البيضاوي؟

- لا.

قالها دون أن يرفع رأسه

ساد الصمت لبرهة، بينما اتجه (مكرم) إلى الأريكة وجلس واضعا ساقا على ساق.. انتظر قليلا ثم قال:

ابنتي.. أم (عادل).. كانت في المول أمس وكانت تتسوق عندما اندفع ذلك الرجل نحوها، وبصق

عليها وصاح: اتركي بلادنا أيتها ال...

- وماذا حدث؟

- لا شيء.. استدعت الشرطة، لكنهم رفضوا اتخاذ إجراء.. قالوا إنه ما من دليل على أن الرجل قال ما قاله.

تنهد (جوناثان) وقلب كفه وقال:

- ستظل جرائم الكراهية قائمة ما دام البشر مختلفين في اللون والدين واللغة.

قال (مكرم) بلهجة قاطعة:

- نحن نتحدث نفس اللغة.. وأنا مسيحي مثلكم ولست أسود البشرة.

- لكن كل شيء في وجهك ينطق بأنك عربي.

☆ ☆ ☆

أنا عربي..

أنا اسم بلا لقب..

أبي من أسرة المحراث

وجدي كان فلاحا بلا حسب ولا نسب..

(محمود درويش)

☆ ☆ ☆

حك (مكرم) ذقنه المشعثة وراح يتأمل نيران المدفأة.. كل الناس تشرد أمام النار والبحر.. هذه قاعدة لا تتغير. كان يحمل فكرة.. مسكين هو من يحمل فكرة تؤرقه ليل نهار كالدجاجة التي تريد أن تضع بيضة.. قلقة متألمة تبحث عن موضع تستقر فيه لتتخلص من فكرتها.. أعني بيضتها..

كان يحلم..

يحلم بأن يلتقي كل عرب العالم في موضع واحد.. المسلمون يلتقون عند الحرمين في موسم الحج، ثم يتفرقون من جديد.. هناك عرب مسلمون ومسيحيون في كل بقعة من بقاع الأرض.. في أمريكا. في الصين.. في روسيا.. في اليابان.. في أستراليا..

في كل موضع هم أقلية.. صحيح أنهم متميزون بارعون، وقد شحذ كونهم أقلية قدراتهم وبراعتهم، لكنهم في النهاية قلقون خائفون يصنعون لأنفسهم (جيتو) خاصا بهم حيث يمارسون عاداتهم ويتكلمون لغتهم ويأكلون أطعمتهم..

كان يحلم..

يحلم بدولة عربية واحدة يجتمع فيها العرب بعدما تشتتوا في العالم، وبعدما ترك أغلبهم بلاده الأصلية إلى الغربة.. هناك لن يضطهدهم أحد ولن يخيفهم أحد.. سوف تكون دولة قوية لأنها تضم عقولا متقدمة ذكية.. ولأنها ستمزج بين ما تعلموه في كل الحضارات..

يسمع صوت (أم كلثوم) يترنم بأغنية وطنية شجية، ويسمع (عبد الحليم حافظ) يقول: (ما تغيب الشمس العربية طول ما أنا عايش فوق الدنيا) وعبد الوهاب يلحن: (وطني حبيبي الوطن العربي). صوت فيروز يغني: (لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي..).

كل هذه الأغاني التي يسمعها على جهاز الكمبيوتر والتي حمّلها من شبكة الإنترنت. لقد صنع منها أكثر من تورنت ليحملها من يريد.. وكان كلما فتح البرنامج ووجد أن هناك عشرين واحدا يحملون التورنت في أي وقت من اليوم، كان يدرك أن الشمس العربية لم تغب. كل هؤلاء عرب طبعا.. أعلام كثيرة لا حصر لها.. أوروجواي وكولومبيا.. فرنسا والصرب.. تنزانيا ونيوزيلندا.. كلهم هناك يشعرون بالقشعريرة مثله..

كلهم سيبيتون غدا وهم يسمعون (أمجاد يا عرب أمجاد).

هناك في كل ركن من الأرض رجل يجيد القراءة بالعربية ويعرف من هو (صلاح الدين) ومن هو المتنبي و(أبو العلاء المعري).

يجب أن يلتقي هؤلاء في مكان واحد ووطن واحد..

كان هذا الحلم يحركه دوما كأستاذ للتاريخ في هارفارد، ولما انعقدت الصداقة بينه وبين النائب الأمريكي (جوناثان)، فإنه حرص أن ينقل له هذا الحلم.. على دفعات طبعا..

نفس ما فعله اليهود في أوائل القرن العشرين تقريبا، مع ملاحظة أنه لم يكن هناك هولوكوست عربي بالمعنى الحرفي، ولكن بعض الاضطهاد والتحرش.. أوروبا شعرت بالذنب والخطيئة فبحثت عن مكان تنفي له اليهود وتكافئهم.. ليس الحافز قويا لهذه الدرجة بالنسبة للعرب..

يحتاج الأمر إلى حشد وإلى تعبئة نفسية..

هناك مجموعة من العرب الأقوياء الأثرياء هنا، والرئيس يعرفهم. لا بد أن هؤلاء العرب قادرون على تكوين لوبي يضغط على الرئيس الأمريكي.

لماذا الضغط؟ لأن أمريكا أقوى دولة في العالم، وتقدر على فرض سلطتها حيثما شاءت وأنى شاءت..

كان يحلم..

يحلم بكتاب (العربي التائه) الذي يكتبه بالعربية، ويوزعه في كل أرجاء الأرض ويضعه على شبكة الإنترنت. سوف يقرؤه الجميع، لكن العرب فقط هم من سيلتقطون الإشارات الواضحة في هذه الكلمات.. سوف يتحمسون ويتحركون.

كان قد بدأ وضع أول ثلاثة فصول من الكتاب على شبكة الإنترنت ولاحظ أن هناك إقبالا كبيرا عليه.. لا بد أن من يقرءونه هم ذات من يحملون التورنتات.. عشاق (أم كلثوم) و (فيروز)..

هناك عالم عربي متكامل على الإنترنت.. تفاسير قرآنية.. كتب وأغان.. أفلام عربية قديمة.. كأن العالم العربي الحقيقي موجود هناك في الفضاء السايبري

سوف ينفذ خطته.. مهما طال الأمر فلسوف يفعل ذلك.

☆ ☆ ☆

6- سليم والبلطجية وما إلى ذلك..

(سليم) كان عائدا لبيته في تلك الضاحية قرب مونروفيا في ليبريا..

كان يحمل بعض الفاكهة والخضر، ويجتاز الأزقة الضيقة التي امتلأت بماء المجاري الطافحة. يضطر إلى السير فوق قوالب القرميد حتى لا تبتل قدماه.. لقد خرّبت الحرب الأهلية البلاد فلم تعد فيها مرافق صالحة، كما أنها كلفت البلاد ربع مليون قتيل. الآن فقط تحاول التعافي.

(سليم) في الخامسة والعشرين من عمره، له قائمة فارعة نحيلة وعينان عربيتان رائعتان. إنه متزوج من كريمة.. شابة عربية أقرب للبدانة وطيبة القلب، ولهما ابنان.

أن تكون لك أسرة في سن صغيرة كهذه لأمر مرهق.. المسئوليات توضع جبلا فوق كاهلك قبل الأوان، ولقد شعر بأنه تسرع عندما قرر أن يطفئ نيران حبه لكريمة بين ذراعيها كزوجة محبة مخلصة. ربما كان عليهما أن يتريثا أو يفترقا.. المسئوليات تحرق قصص الحب.. الزواج يدمر قصص الحب.. الفقر يدمر قصص الحب..

لا يعرف (سليم) سوى أنه ولد في هذا البلد. أبوه التاجر العربي جاء إلى ليبريا في يوم من الأيام لسبب مجهول، فهو بلد فقير لا يغري بشيء، لكن يبدو أنه البلد الوحيد الذي فتح ذراعيه له كان أبوه يدعى (علوي أبو زهرة)، وفي مونروفيا افتتح متجرا صغيرا للمواد الغذائية، ثم بعد سنين صار عنده عامل عربي اسمه ثروت.. عامل أمين يمكن أن تثق به، وقد صارا صديقين حميمين بعد هذه السنين ثم جاءت اللحظة التي رزق فيها (علوي) بابنه (سليم) ورزق (ثروت) بابنته كريمة.

كان من الواضح أن الطفلين سيتزوجان أرادا أو لم يريدا.. هناك أمور لها قوة القوانين الفيزيائية.. ما يلقى من فوق سوى يسقط.. لا جدال ولا مجال للتفكير. الشابان العربيان في ليبريا سيتزوجان..

ولا يعرف (سليم) هل كان الحب فعلا أم قوانين الفيزياء.. في سن العاشرة أدرك أنه يحب كريمة فعلا..

هي أيضا أدركت أنها تحبه في لحظة ما، وهكذا جاءت اللحظة التي تزوجا فيها في سن مبكرة جدا، وخلال عامين صار له طفلان..

يمر وسط جيرانه السود الذين اعتادهم واعتادوه عائدا إلى متجر البقالة، الذي يتولى أمره منذ توفي أبوه منذ عامين..

متجر صغير فقير لكنه يصلح ليكفل لهما الحياة.. لافتة بالعربية والحروف الغربية تقول (أبو زهرة).

يشعر بالراحة عندما يشم رائحة الصابون والجبن ومساحيق الغسيل.. يشعر بالراحة عندما يرى وجه كريمة ووجهي طفليه.

دخل المتجر فألقى ما حمله على مقعد من الخوص، ونادي زوجته..

كان يسكن في الطابق العلوي من البناية فوق المتجر بالذات، وهكذا كان الذهاب للعمل يقتضي فقط الهبوط في الدرج.. والعودة من العمل معناها فقط الصعود في الدرج..

بحث عن علبة تبغ على الرف، فمزق غلاف السيلوفين المحيط بها وأشعل لفافة تبغ.. ثم راح يصف بعض علب المعلبات.

ليبيريا بلد فقير أضنته الحروب الأهلية، لكنه لا يعرف لنفسه موضعا آخر. يعرف أن جذور أبيه تمتد لليبيا، لكنه بصراحة لا يعرف له أقارب هناك.. لقد تفرق الجميع..

فقط يملك ذكرى جمعية غامضة عن بلاد العرب.. يعرف أن للمسلمين ثلاثة أماكن مقدسة في الجزيرة العربية وفي إسرائيل - اسمها كان كذلك منذ ولد - وللمسيحيين آثار مقدسة في إسرائيل أيضا. هذا كل ما يعرفه عن العرب.. وبالطبع كان يجيد العربية والإنجليزية. لا تنس أن ليبيريا بلد أمريكي أصلا صنعه العبيد الذين تم إطلاق سراحهم في أمريكا..

جاءت كريمة وهي تحمل طفلها، وجلست على مقعد في الركن وراحت ترضعه..

لم يكن هناك غد... الحياة حاضر طويل ممل. ليس له أن يأمل في شيء ولن يتغير شيء. فقط سوف يكبر الطفلان، وفي يوم من الأيام سوف يرثان هذا المتجر.. هذا هو السيناريو الوحيد للحياة كما يعرفها، لكنها مستقرة وآمنة على الأقل..

قالت (كريمة):

- (غسان) مريض.. ارتفعت حرارته ظهر اليوم..

هذا خبر مقلق.. معنى هذا الكثير من الدولارات الليبيرية لشراء وصفات شعبية لا جدوى منها، ثم إنفاق المزيد من أجل رأي طبيب ومن أجل شراء دواء... الحياة لا تحتمل تغيرات درامية كهذه.

نفث الدخان بعمق وقال:

- جربي الليمون والعسل أولا.

كان يؤمن مثل أمه - يرحمها الله - أن الليمون والعسل يشفيان كل شيء بدءا بالبرد وانتهاء بسرطان الدم والإيدز... لكن لحظة..

هذا زبون.. بل زبونان.. إن الحياة تبتسم.

كانا من الأهالي السود، وكانا ضخمي الجثة تبدو عليهما الشراسة.

يلبس أحدهما قميصا قصير الكمين، والآخر يمشي بالفانلة الداخلية ويعتمر قبعة من قش..

قال الأول وهو ينظر لأرجاء المحل في وقاحة تتجاوز الفضول التجاري العادي:

- هل لديك أسماك مقددة؟

ابتلع (سليم) ريقه. شم رائحة العدوانية والتحرش على الفور.

- لا أبيع سمكا مقددا.

هنا اتجهت نظرات الرجل إلى (كريمة).. نظرات أكثر وقاحة من التي تحتاج المرأة للاستحمام بها لأنها لزجة تلتصق بالجلد، ثم قال:

- هل لديك روم؟

- لا أبيع الخمر.

قال الرجل الآخر في غضب لا مبرر له:

- إذن ماذا عندك عليك اللعنة؟

عرف (سليم) ما يحدث.. تعرض من قبل لتحرش مماثل، لكنه كان من عصابات الحماية بالقوة.. ادفع لنا لنحميك وإلا كنا نحن الخطر على حياتك.. باختصار بلطجة.

أحد الرجلين التقط زجاجة مياه غازية. تأملها ثم هشمها على الأرض.. كراش ش ش!

لم يكن بوسع (سليم) أن يظل صامتا. هتف في غضب:

- سوف تدفع ثمنها ثم تنصرف.

قال الرجل ذو القبعة وهو يحرك شفتيه بغلظة كأنه يبصق:

- لم يكن هذا في نيتنا أيها العربي.

- لكن هذا في نيتنا هذه المرة!

وعلى الفور اندفع الرجلان يهشمان صف الزجاجات على الأرض وهما يطلقان صيحات المرح. لا بد أن هذا ممتع جدا.

وثب (سليم) واندفع نحوهما ليمنع هذا العبث، وعلى الفور شعر بقبضة ثقيلة تهوي على وجهه.. سقط أرضا فوجه أحدهما ركلة قوية في خاصرته.. لا.. هذا لا يحدث لي..

ثم إن الرجلين اندفعا يحملان هراوتين - لا أدري أين كانتا – وراحا يهويان على كل شيء ويسكبان كل شيء..

(سليم) على الأرض يرى كل شيء بالمقلوب.. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر، ويرى متجره يتحول لخراب.. في الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل.

بوم!.. تهوى الهراوة بالسرعة البطيئة على.. على رأس (كريمة)..

نافورة دم تناثرت بالسرعة البطيئة، وقالت بالعربية شيئا لم يفهمه أحد ثم سقطت على الأرض.. كان الصوت والمنظر يدلان بلا شك على ما حدث. لن تحتاج لطبيب.

هوى الطفل على الأرض وراح يعوي كالكلب المجنون، فوجه له أحد الرجلين ركلة.

وثبا فوق (سليم) يبغيان الفرار، فتمسك كالمجنون بقدم أحدهما.. لدرجة أنه جره معه.. لن تفلت.. سوف أهشم رأسك الآن وهنا....

لكن الهراوة سقطت على يد (سليم) فهشمت أنامله وصرخ..

ثم تلاشى الرجلان... وببطء بدأ المتجر يمتلئ بالناس.

- لقد قتلوا المرأة العربية!

- يبدو أن الطفل مات كذلك.

كان (سليم) يسمع هذا وهو على الأرض وسط الزجاجات المهشمة.. كل شيء ينبض من حوله، وأنامله تتقلص... ثم إن بقعة سوداء راحت تتسع أمام نظره.. وغاب في الظلام.

☆ ☆ ☆

7- تخلصوا منهم وأنقذوهم..

هناك عند حافة العالم سوف نغتسل من أوجاعنا وغربتنا.. وعند حافة العالم نولد من جديد بلا رجس.. بلا مخاوف.. بلا ندم!

محمود راغب



(مكرم) هو الذي ترأس الاجتماع برغم أن الرئيس الأمريكي كان هناك وكذلك (جوناثان إيرهارت) النائب. الاجتماع تم في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض، وقد اجتمع المجتمعون حول مائدة طويلة وضعت في المركز، عليها شرشف أبيض وأزهار والكثير من العصائر الصفراء والخضراء وربما الزرقاء. معظم الجالسين من العرب، وبعضهم أعضاء في الكونجرس هناك رجلان من وزارة الدفاع ورجل من المخابرات المركزية.

كان (مكرم) يقف عند صدر المائدة كأنه هو الذي استضاف هؤلاء في البيت الأبيض، وكان يدخن السيجار كعهدهم به.. قليل من يسمح لهم بالتدخين في حضرة الرئيس. أما الرئيس الأمريكي فظل عاقدا ذراعيه على صدره ولم يلفظ ببنت شفة تقريبا.. إن (هارفي دونالسن) معروف بأنه يفضل الاستماع على الكلام، والحقيقة أن نائبه كان يقوم بمهمة الكلام بدلا منه.

قال (مكرم) بصوت جهوري:

- هكذا يمكن القول إن العرب هم يهود العصر.. مشتتون في كل بقاع الأرض. منعزلون في مجتمعات من الكراهية، حيث يعتبرهم الكل غرباء.. لا يصدقون أنهم يمكن أن يندمجوا في مجتمعاتهم الجديدة. العربي الذي ولد في الصين يظل عربيا.. العربي الذي ولد في ألمانيا يظل عربيا. والكل يتوقعون أن ينهضوا ويثوروا ويفترسوا تلك المجتمعات التي استضافتهم.. وهكذا فإنهم يلقون الاضطهاد حيثما كانوا. هم ليسوا أول ولا آخر أمة كانت قوية متماسكة ثم دب فيها الضعف وتحللت، لكن حظهم عاثر أكثر من الإمبراطورية البريطانية أو الرومانية أو الفرنسية أو الإغريقية.. في النهاية بعد أن بادت هذه الحضارات ظلت نواة صلبة محترمة نوعا قادرة على التماسك.. لكن العرب ارتكبوا حشدا من الحماقات في الجيل السابق وبددوا ثرواتهم. ثم تعرضوا للغزو الخارجي فاضطروا لترك بلادهم... كل بلد في العالم فيه جالية عربية، وهذه الجالية تعاني الأمرين..

ثم أمر بصوت عال:

- أرجو أن تبدأ العرض يا موريسون.

أظلم المكتب.. وأزاح أحدهم الستائر لتظلم المكان أكثر، ثم خرج شعاع من فانوس عرض ليسقط على شاشة في ركن المكان..

وجوه خائفة متسعة العيون.. وجوه سمراء مذعورة..

وجوه دامية.. امرأة تشهق باكية والدم يسيل في خيط طويل من أنفها..

بيت يحترق..

سيارة مشتعلة يحيط بها غوغاء غاضبون..

- في كل مكان يوجد فيه عرب تتكرر هذه الصور..

رعاع أوروبيون يلوحون بالهراوات والزجاجات..

- في كل بلد في أوروبا هناك قائد متعصب يدعو لذبح العرب.. ولا أحد يعتبره مجنونا..

صورة قائد صيني أو كوري له وجه متوحش يلوح لجماهير تملأ ميدانا..

- دكتاتور منشوريا (واه شانج لى).. إنهم يعتبرونه نسرا جاء من كتب التاريخ، وهم يدللونه باسم (جنكيز خان)..

صورة لمجموعة من الأفران.. تشبه أفران الخبز..

- وهذا هو الدليل على أنه أوجد أفران غاز جديدة يضع فيها العرب.. هذه الصور التقطها صحفي عربي قام بمغامرة وقد دفع حياته ثمنا لها، لكنه استطاع تهريب الصورة عبر الإنترنت..

شهق أحدهم في الظلام.. وبدا أن أحدهم يتقيأ فقال (مكرم):

- في كوبا لدينا دليل على أنهم يخطفون العرب ويسرقون أعضاء هم للزرع..

- يا للهول!

واصل (مكرم) الكلام وقد بدا كأن حاسته الاستعراضية تتوهج:

هكذا في كل بلد نجد قصص اضطهاد شديدة.. وشنيعة، وهذا هو ما يدفعني إلى أن أطلب منكم إنقاذ العرب.. والخلاص منهم في الوقت نفسه!

نظروا له في دهشة لدقائق، ثم قال (جوناثان):

- كيف تتخلص من شيء وتنقذه؟ المثال الوحيد في ذهني هو أن تأكل اللحم بسرعة لتنقذه من الفساد في الطقس الحار..

دوت ضحكات مكتومة.. حاول (مكرم) أن يضع هذا المثال العجيب في صورة مفهومة فلم يستطع.. لذا هز رأسه بمعنى أن هذا سخف وقال:

- ما أتحدث عنه شيء آخر.. لقد قامت أوروبا بنفي اليهود من كل العالم إلى فلسطين.. هكذا كانت الفائدة ثلاثية: تخلصت من إزعاجهم.. أنقذتهم من الإبادة.. اعتذرت بشكل ما عن مذابح النازيين..

- إذن

ما أتحدث عنه هو وطن قومي يجمع العرب جميعا.. هكذا تنقذهم من الاضطهاد وتريح العالم منهم ما دام يعتبرهم كائنات سامة..

هنا نطق الرئيس للمرة الأولى. قال:

- لحظة.. ما كان اليهود ليتمكنوا من إنشاء دولة لولا دعم أوروبا والولايات المتحدة. لقد بدا لنا أنهم قوة عسكرية مهمة نزرعها في العالم العربي، وكان استثمارا يستحق التمويل.. لكن ماذا تمثل لنا دولة عربية؟

وماذا يدفعنا لتبديد أموال دافع الضرائب عليها؟ ولو لم نساعد هذه الدولة فكيف تتوقع أن تقف على قدميها؟

قال أحد العرب الجالسين:

- سوف نتولى نحن تمويلها.. نحن أثرياء وقادرون.

قال (مكرم) بلهجة الانتصار:

- هكذا هم يلعبون دور أسرة روتشيلد مع الدولة الإسرائيلية الناشئة.

ساد الصمت، وراح الكل يفكر في الظلام والضوء القادم من جهاز العرض، ثم قال (جوناثان):

- هل فكرت في مكان يجمعكم؟

صفق (مكرم) بيده فظهرت على الشاشة خارطة المكان مميز.. إنهم يعرفونه. أستراليا..

صاح (جوناثان) في استنكار:

- لا تقل لي إنك تنوى وضعهم في أستراليا!

قال (مكرم) على الفور:

- لا... شمال أستراليا.. غينيا الجديدة في قلب المحيط الهادي.. بعبارة أخرى هي بابو غينيا الجديدة.. هذا مجتمع بدائي بكر.. موارد غير مستغلة.. لا توجد حضارة تقريبا.. هذا هو وطننا المختار..

هتف أحد الجالسين في ركن القاعة.. لم ير أحد وجهه بسبب شعاع النور الساطع:

بقعة بعيدة جدا.. نائية جدا.. أنتم على حافة العالم حرفيا.. هل تتوقع أن يستجيب لك هؤلاء الذين اعتادوا الترف في أمريكا وأوروبا؟

قال (مكرم) في ثقة:

- يجب أن يعتادوا. إن مشكلتهم هي الشوق إلى بداية جديدة، بداية بلا أخطاء. الحياة لا تمنحك هذه الفرصة أبدا، لكن الوطن الجديد يفعل.. هكذا فعل المهاجرون من أوروبا إلى العالم الجديد.. لقد صححوا أخطاءهم وصنعوا الولايات المتحدة الأمريكية..

ثم ابتلع ريقه وفكر حينا وأضاف:

- ثم إن الذهاب لحافة العالم أفضل من الموت في أفران الغاز..

عاد الضوء للغرفة، فراح كل واحد يرمش بعينه كأن تأثير النور حارق للشبكية.. بدا لهم للحظة

كأن ما رأوه كان حلما.. لكنه للأسف كان حقيقيا تماما....

قال الرئيس الأمريكي في ضيق:

- وما دور الولايات المتحدة في هذا؟

- دوران.

وفتح إصبعيه ليعد عليهما:

- أولا أن تعلن موافقتها على هذه الفكرة وتباركها.. ثانيا أن تتولى البحرية الأمريكية نقل كل هؤلاء المهاجرين لأن معظمهم لا يملك مالا يغطى ربع هذه الرحلة.

صب جوناثان لنفسه بعض العصير ثم قال:

- أرى أنها فكرة جيدة يا سيدي الرئيس.

☆ ☆ ☆

8- تاريخ بديل..

مهنتي ساحر.. مهنتي هي صناعة التاريخ أستطيع أن أجعل الديناصورات تنقرض أو أجعلها لم توجد قط. يمكن أن أبيد أمما وأوجد أمما أخرى. فقط أعطني القلم والورقة والوقت.

جمال عدوان [3]



المشكلة التي ضايقت (مكرم) كثيرا هي العثور على مبرر أخلاقي لهذا الذي ينوون القيام به. كل حرب مهما كانت قذرة خادعة لا بد أن يكون لها مبرر أخلاقي، وقد أقنع هتلر نفسه أن ستالين خطر داهم كي يهاجم روسيا، وكانت الحروب الصليبية تزعم حماية مهد المسيح والبحث عن الكأس المقدسة (برغم أن الغرض كان اقتصاديا بحتا).. وإسرائيل لم تكف عن قول إنهم سكان فلسطين الأصليين وليس اليبوسيين.. وهي لم تكف لحظة عن البحث عن هيكل (سليمان)..

أشر الناس طرا لا يمكن أن يحاربك من دون مبرر أخلاقي، حتى لو كان يدرك جيدا أنه يخدع نفسه.

هكذا استعان بأستاذ تاريخ وأستاذ أديان مقارنة وأديب. كلهم من العرب المقيمين في الولايات.. قال لهم:

أريد تاريخا مزيفا!

تبادل الرجال النظرات.. هذا مطلب عجيب فعلا، يشبه ما كان (محجوب عبد الدايم) بطل (نجيب محفوظ) يتمناه.. أن ينشر في الجريدة خبرا يقول إنه مستعد لأي عمل غير أخلاقي. لهذا يندر أن يقول أحد إنه يريد تاريخا مزيفا.

كانوا جالسين في مكتبة الكونجرس في قاعة مغلقة لا يسمع أحد ما يقال بينهم.

قال (مكرم) وقد رأي دهشتهم:

- أنا أحاول أن أجمع العرب من الشتات في بلد واحد.. بلد غريب ناء.. كل عربي يعتبر وطنه الأصلي هو الدولة التي يقيم فيها، حيث العمل والأصدقاء، حتى لو كان يلقي الأمرين ويتعذب ويضطهد.. تخيل المنطق المحطِّم - بكسر الطاء - الذي يمكن أن يقنعه بالتخلي عن حياة ثابتة راكدة، كي يذهب إلى بلاد نائية خطرة؟ مهما حاولت فلن أقدر. لكنكم تقدرون.

تساءل أستاذ التاريخ الذي لن نذكر اسمه حتى لا نضل طريقنا وسط الأسماء:

- ما هو تصورك؟

قال (مكرم) وهو يخط خطوطا في مفكرة أمامه:

- أحلم بكتاب رائع.. كتاب ممتع يحكي عن تاريخ مهم للعرب في غينيا الجديدة.. كتاب يثير الحمية الوطنية، وله صبغة دينية حزينة تذكرك بالأندلس!

ثم قال بلهجة ملحمية وقد تجعد حاجباه:

- ثم ماذا يا عرب؟ إلام تركتم تاريخكم العظيم في بابوا غينيا الجديدة، عندما سدتم الدنيا وكنتم رجالا، وحيث مات آباؤكم!!

في غيظ ضرب الأديب المنضدة بقبضته وقال:

- هل تمزح؟ العرب وغينيا الجديدة؟ أنت تتكلم عن حدود أستراليا الأوقيانوسية.

- للأسف أنا لا أجيد المزاح.. كل من عرفوني قالوا إنني سمج لا أفهم الدعابة.

تبادل الرجال النظرات.. الأمر يبدو غريبا.. أغرب مما تصوروا.. قال أستاذ التاريخ في سخرية:

- هل تعتقد أن العالم سيتركك بهذا الكتاب بما فيه من هراء؟ سوف يشرحونك في وسائل الإعلام والدوائر الأكاديمية، حتى يبرهنوا للناس أنك مخرف.. وأن كل حرف أكذوبة.

قال (مكرم) على الفور:

- وهذا سيدعم ما قاله الكتاب.. سوف يفترض الجميع أن العالم يتآمر ضدنا بالأكاذيب.. لن يصدقه أحد.. يمكنك دائما أن تصنع غبارا حول الحقائق فلا يفهم أحد ما حدث..

ثم ضاقت عيناه كثعلب وقال:

- علينا أن نبدأ.. أعطيكم فترة عام لكتابة هذا الكتاب، لكن لا بد أولا من سلسلة مقالات مدفوعة الأجر في الصحف العالمية. هذه المقالات ستكون نواة الكتاب... أريد عمل موقع إنترنت سينفق عليه أحد الأثرياء العرب هنا، وهو سيبشر بالفكرة ليل نهار..

- وهل تتوقع تغطية الميزانية بهذا الحجم؟

ضحك (مكرم) وتحسس جيبه بحثا عن علبة السيجار، ثم تذكر أن التدخين ممنوع هنا.. قال:

- إخواننا مهتمون بالقضية وسوف ينفقون عليها. أنتم أعطوني المقالات والكتاب.. بعد هذا هي مشكلتي أنا..

ثم نهض معلنا انتهاء الجلسة فنهضوا معه ورءوسهم حبلى بالأفكار.



مع الوقت بدأت الخطة تكتمل..

أعترف لك بأنني أنا شديد الإعجاب لـ (مكرم).. إنه لا يكف عن الحركة والطيران إلى كل مكان، ليقابل من يعرفهم من مسئولين وينتزع الوعود من كل واحد لا يعرف الكثير عن الآخر. مثالا للقصة الشهيرة عن الأب الذي وعد ابنه أن يزوجه ابنة بيل جيتس... ذهب لمدير البنك الدولي

وطلب تعيين ابنه مديرا. لماذا؟ لأنه زوج ابنة بيل جيتس.. هكذا تحمس المدير وتم التعيين، ثم ذهب الرجل إلى (بيل جيتس) وطلب يد ابنته.. لماذا؟.. لأن ابنه مدير بالبنك الدولي.. هكذا وافق (بيل جيتس) في حماس.

كان (مكرم) يمارس شيئا كهذا في عالم الواقع.. وكان يقابل الممولين ليخبرهم أن الرئيس الأمريكي متحمس للفكرة بشدة، ثم يقابل الرئيس الأمريكي ليخبره أن الممولين متحمسون بشدة.

كل هذا وهو لا يتعب.. يتحرك بجسده القصير المكتنز في كل مكان، ولا يكف عن نفث دخان السيجار والإتيان باقتراحات طريفة. وكان ينام ساعات محدودة جدا، وآخر ما يفكر فيه هو العرب وأول ما يفكر فيه صباحا هو العرب، وقبل أن يرى وجهه في مرآة الحمام..

كان يعرف أنه سينجح..

سوف يحقق للعرب فرصة العمر، ويعيد لهم كيانهم وينقذهم من الانقراض.

لو لم يتدخل فلسوف يذوب العرب تماما في مجتمعاتهم الحالية. تضعف الثقافة واللغة، ثم يأتي عامل اتقاء الاضطهاد.. لو لم تستطع أن تقاومهم انضم لهم. هكذا لا يجد العربي في أمريكا سبيلا إلا أن يصير أكثر أمريكية.. في الصين يصير صينيا أكثر من فومانشو نفسه.. وهكذا..

سوف يذكر التاريخ ل (مكرم) فيما بعد أنه فعل ما فعله غاريبالدي وماتزيني لبلادهم.

الحق أنني معجب ل (مكرم).. ولولا أنني من ابتكرته لظللت معه ونفذت كل شيء يطلبه..



فصل من كتاب (تاريخ لا يحكونه في المدارس)
كتبه أحمد صفوان - أستاذ التاريخ في جامعة برنستون [4]

لابد أن (الحارث بن مسعود) قد شعر بالراحة عندما رأى سواحل غينيا الجديدة، بعد سفر طال في المحيط الهادي. هذا هو العام 750 ميلادية وهو تقريبا الوقت الذي أسس فيه (عبد الرحمن الداخل) دولة أموية في الأندلس. وكانت سفن الحارث قد انطلقت في رحلة استكشاف في المحيط الهادي وضل الطريق في مياه مجهولة بلا خرائط، حتى أن البحارة هددوا بالثورة. ليس للعرب تقليد في استكشاف البحر وهم لا يجيدون فنون الملاحة، لذا كانت هذه الرحلة بالغة الأهمية.

ثم في العام الثالث استطاع الرجال أن يروا سواحل غينيا الجديدة.. وهللوا وكبروا وهم يرون الغابات والسواحل. وعندما رست السفن وأنزلت قواربها سجد ابن (مسعود) على صخور الساحل وسط الأمواج، وقال لرجاله:

- سبحان الله... ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.. هذه الخضرة توحي لي بأن نسميها أرض الياقوت.

وانطلق الرجال يستكشفون الجزيرة..

كان أول ما قابلوه شعوبا بدائية غاية في الانحطاط والتخلف، يعيش أهلها على الفطرة. ولم تكن لهم لغة معروفة سوى الإشارات. وكان طبيب الحارث نطاسيا يهوديا عرفت عنه البراعة والحكمة، فطلب منه الحارث أن يأخذ عشرين رجلا ويتولى علاج مرضى هذه القبائل. والحق أنهم قابلوا أمراضا عجيبة ربما عرفوا منها البرص والصفراء لكن أغلب الأمراض كان غامضا.

لكن الأهالي بدءوا يثقون في القادمين، الذين يعالجونهم ويداوون جراحهم، وبدءوا يترددون على معسكر هؤلاء القادمين.

كان الحارث منهمكا، فقد خطر له أن هذه الأرض البكر تحتاج إلى من يبدأ منها حضارة جديدة. بالطبع كانت إندونيسيا قريبة جدا وكذلك أستراليا، لكنه لم يعرف هذا، وكتب لأستراليا أن تظل مجهولة إلى يبلغها الكابتن كوك.

كان لديه البناءون والمهندسون والدعاة فبدأ ينشئ مدينة صغيرة أطلق عليها (شآبيب).. وهي تعني السحب المحملة بالمطر. وارتفع في المدينة الصغيرة مسجد كبير يرفع من فوقه آذان الصلاة، وأنشأ مدرسة ومستشفى وبعض البيوت الصغيرة، كما أعلن نفسه خليفة لأرض الياقوت.. بلغتنا نحن لم يكن يعرف أنه حاكم بابو غينيا الجديدة.

بالطبع حدثت مواجهات عنيفة من وقت لآخر، لكنه استطاع برجاله حسنى التدريب المدججين بأفضل السيوف أن يهزموا رجال القبائل، وقد اختار عدد منهم أن يدخلوا في الإسلام.

مع مرور الأعوام صارت شآبيب هي عاصمة العرب في جنوب المحيط الهادي.. وصارت مركز (الأوقيانوسية)..

وبدأت سفن من إندونيسيا والجزر الدانية تنقل ركابها الذين يريدون رؤية هذه الأعجوبة. وكانوا ينزلون بدائيين عراة ينظرون في دهشة إلى هذا العمران وهذه الحضارة.

أما (الحارث بن مسعود)، فقد أصلح سفينة من سفنه وأرسلها إلى الوطن كي تعود له برجال وعتاد ومزيد من البنائين.. وطلب منهم أن يعلنوا الولاء لخليفة المسلمين العباسي في بغداد، وأن يزينوا له الأمر ثم قال لمن معه:

- لتكونن شآبيب هي بغداد الجنوب.

وهكذا لما عاد الرجال بعد عامين، كان معهم نساء ليتزوجن من رجال الحارث، وبدأت حركة توسع شاملة.. ونظم الجيوش التي تحمي الجزيرة وتصد المعتدين، وعقد أحلافا مع رجال القبائل الظامئين إلى التعلم.

لم يتزوج معظم الرجال من نساء الجزيرة بسبب تفشي مرض جلدي مريع لدى النساء، وخشوا أن يكون مما ينتقل بالزواج، ولهذا يندر أن تجد دماء عربية لدى أهل بابوا غينيا الجديدة. كل الجيل الجديد الذي لا يحمل سوى الدم العربي ولد ونشأ وتعلم في شآبيب، وصارت هي أرضه.

صار في شآبيب علماء وأطباء بارعون، كما نشأ فيها شعراء مثل (أبو منذر الشآبيي). صاحب القصيدة الشهيرة:

زارت شآبيب الغيوث ديارنا.. فإذا (شآبيب) ارتوت بالصيّب
فإذا الجبال اخضوضرت وترعرعت.. فالعيش في الياقوت أضحى مطلبي

وساد نوع معين من العزف أطلقوا عليه اسم (ياقوتيات)..

لقد قضى العرب زمنا مجيدا في غينيا الجديدة، واستطاعوا أن يكونوا منارة حضارية قوية. المسجد الذي بنوه هناك اسمه (مسجد الياقوت) وقد كان آية في الفن، وقد أنفق الحارث عليه بسخاء.

على أن الرياح لا تجرى بما تشتهي السفن.

لقد تأخر وصول الخراج إلى الخليفة العباسي ولم يعد يعرف شيئا عن الحارث وحملته، وجاء من قال له إن الحارث خلعه وسحب مبايعته له كخليفة. أوغر هذا صدره ونصحه الناصحون بأن يجرد حملة إلى غينيا الجديدة ليعيد عاملة إلى الصواب

وكان أن أبحرت السفن، وعلى سواحل أرض الفيروز التحم الجيش القادم من بغداد مع العرب الذين عاشوا في شآبيب، وكانت النتيجة مروعة. لقد أعملوا السيف في سكان المدينة وسحقوهم ثم هدموا المباني التي شيدوها بالعرق والدم. ولم يستحوا من هدم المسجد على رأس من احتموا فيه.

احتمى الخليفة صفوان بن الحارث في قصره فاقتحموه ثم قطعوا رأسه وأخذوها معهم إلى بغداد ومعها حشد من الأسرى. أما القبائل فقد رأت (صفوان بن الحارث) ورجاله ينهزمون فطمعوا فيهم، وانقضوا على من بقي حيا من العرب فذبحوه.. وقيل إن عشرين ألف عربي قتلوا في يومين.

أما المسجد فتحول إلى ركام.

لقد تحولت حضارة الحارث إلى أطلال دامية، ولم يبق شيء من مدينة شآبيب العظيمة.

وبعد قليل تجاهل المؤرخون أي ذكر لهذه القصة في كتبهم، ولم يعد أحد يذكر في التاريخ شيئا عن دولة الفيروز ولا عن فتح العرب لبابوا غينيا الجديدة..

لكنني ذهبت هناك ورأيت بقايا أطلال المسجد قرب الساحل، وهكذا قضيت حياتي أجمع تفاصيل هذه الدولة التي دامت أعواما غالية.

وفي الفصل القادم أحكي بشيء من التفصيل عن هذه الدولة..

☆ ☆ ☆

9- وعد جوناثان..

(عبير) / أمينة كانت وحدها في البيت تطالع كتاب العربي التائه وكانت قد قرأت قبل هذا كتاب (تاريخ لا يحكونه في المدارس) بما فيه من (حقائق مذهلة لم تعرفها من قبل. دفعها هذا للتفكير كثيرا وأدهشها أنها قرأت كثيرا جدا لكن لم تسمع أن العرب كانوا في الأوقيانوسية. يبدو هذا معقدا وغريبا خاصة أنها تعرف أن ارتياد المحيطات ليس هواية عربية..

على كل حال، الكتاب كتبه (أحمد صفوان) أستاذ التاريخ الشهير. هذا رجل لا يتكلم إلا وهو يعرف ما يقول.

ارتجفت كثيرا وهي تقرأ وارتجفت يدها..

كانت الحياة تزداد قتامة في أوسلو، والخطر يزداد كما أن موضة معاداة العرب تحولت لوباء متفش.. هذا الخنزير داجفين لا يكف لحظة عن نشر الشر، والأمر يشبه عدوي مصاصي الدماء.. لقد نقل هو العدوى للآخرين فصار كل منهم داجفين آخر.

لقد وجدت الكلمات - كلمات (صفوان) - سبيلها لقلبها وعقلها..

يجب أن تعلم ابنتها كل شيء عن تاريخهم.. تحسن لغتها العربية جدا.. يوما ما سوف يحدث شيء، وسوف تعود لأرض الميعاد..

عندما قرأ (شريف) الكتاب ألقاه جانبا وقال في سخرية:

- ما هذا الهراء؟

في تقزز هتفت:

- تاريخنا هراء؟

تراجع خطوة في كلامه وقال:

- هذا الذي في الكتاب هراء لا يصمد لأي منطق..

- لماذا؟

- لأنه لا يمكن الحضارة هائلة كهذه أن تبيد فلا يبقى منها أثر.. حتى حضارة الأطلنطس حكي عنها المؤرخون، ووجد العلماء بقايا منها تحت المحيط.. المفترض أن حضارة (شآبيب) هذه أحدث... فكيف لم يحك عنها أي مؤرخ؟ وكيف لم تبق منها مزهرية واحدة؟

- لأن الغرب يهمه ألا نتذكر تاريخنا المجيد.

أبتسم في سخرية وتثاءب:

- نظرية المؤامرة من جديد.. تسمح بتمرير أي شيء.. يمكنك أن تصدقي ما تريدين بزعم أنهم يحجبون الحقائق.. العرب وصلوا للمريخ لكن ناسا تخفي ذلك.. كليوباترا كانت تتكلم العربية

لكن علماء الآثار يخفون ذلك..

لكنها كانت تشعر أن الأمر معقد جدا.. معقد لدرجة تكفي لجعله حقيقيا.. لا أحد يستطيع اختلاق كذبة بهذا الحجم. هكذا تجاهلت ما يقول (شريف) وواصلت قراءة كتابات (أحمد صفوان) وكتابات (مكرم).. بلغت كتابات صفوان درجة من الحيوية جعلتها ترى الأماكن والأشخاص وتسمع الحوار وتشم غبار المعارك... كما أن أشعار الشآبيي راقت لها جدا، وراحت تسترجع بعض المقاطع.

حتى في المدرسة كانت تشرح الدروس بينما عقلها يلوك ويجتر أبيات الشعر الجميلة.

الحق أن الأمور كانت تزداد سوءا لدرجة أن الناس كانوا يجدون خطرا في الصلاة في المسجد، وكان ضروريا وقت صلاة الجماعة أن يقف البعض خارج المسجد يراقبون تحسبا لهجمة غادرة أو زجاجة مولوتوف تلقى على المصلين. تمكنوا ذات مرة من القبض على متعصب يحمل بندقية آلية ويتجه للمسجد أثناء صلاة الجماعة، وقد سدد أحد الشباب قطعة طوب محكمة لرأسه من الخلف فسقط فاقد الوعي قبل أن يحقق مذبحته.

تذكرت رواية غرناطة رائعة رضوى عاشور عن المسلمين الذين بقوا في الأندلس.. وكيف كانوا مرغمين على الإعلان عن إفطارهم في رمضان وتعليق لحم خنزير على الباب. الأمر شبيه بما يحدث هنا مع فارق أن الاضطهاد ضد العرب جميعا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين..

الآن تتكفل كتابات صفوان بأن تفتح كوة أمل..

هناك كانت حضارة.. هناك كان مجد تليد.. فهل يعود؟



بعد ستة أشهر اهتز العالم لبيان غريب ألقاه نائب الرئيس الأمريكي.

كانت (عبير) جالسة في دارها عندما سمعت دقا حثيثا على الباب.. دقا نافد الصبر.

- من؟

بصوت مرتجف.. كانت قد تعلمت ألا تفتح الباب مباشرة وبدت لها هذه الدقات مريبة.

انفتح الباب وظهرت جارتها زهرة.. كانت ممتقعة الوجه وصدرها يعلو ويهبط بلا توقف، وبلا كلمة أخرى اندفعت لتفتح جهاز التلفزيون.

رأت (عبير) على الشاشة نائب الرئيس الأمريكي جوناثان راينهارت الذي يعرفه الجميع، بوجهه الصارم القاسي الخالي من الانفعالات مع نظرته الثاقبة، وعينيه الأمريكيتين الباردتين.. كان يقف على منصة وخلفه العلم الأمريكي بشكله الأنيق المميز، وحوله ما يبدو كمؤتمر صحفي.

لكنه كان يقول كلاما غريبا غير معتاد:

- لقد عانى العرب كثيرا ولاقوا ضروبا عدة من الاضطهاد والتمييز العنصري، وتشتتوا في كل الأرض حيث جمع بينهم شيء واحد هو المعاملة السيئة. إن الولايات المتحدة تنظر بعين

العطف إلى اتخاذ (بابوا غينيا الجديدة) موطنا للعرب يبدءون فيه من جديد بعيدا عن الاضطهاد والتمييز.. حيث يعيدون إحياء تاريخهم وتقاليدهم، والولايات المتحدة ملتزمة بنقل عرب العالم إلى ذلك الوطن الجديد لمن أراد.. كما أن مجموعة من الدول سوف تخصص حسابا دوارا يسمح ببدء المستعمرات في ذلك البلد. نحن نعرف أن للعرب جذورا قوية في غينيا الجديدة، وقد قمنا بالتنسيق مع الحكومتين الأسترالية والإندونيسية لذلك.

ثم هز رأسه ونزل من المنصة بينما انقض عليه الصحفيون كالغربان يسألون، بينما هو يتلذذ بمتعة رفع يده ليقول في سماجة:

- لا تعليق.

ظلت (عبير) تنظر للشاشة غير مصدقة، ثم نظرت لجارتها زهرة وصدرها يعلو ويهبط.. ثم نظرت لابنتها وسرعان ما تعانقت المرأتان وهما تبكيان... لقد انتهى الكابوس.. أرض أخرى واحتمالات أخرى ووجوه أخرى.. لا مزيد من الخوف والاضطهاد.

كانتا تبكيان.. برغم كل شيء هما نرويجيتان بحكم المولد والنشأة، ولسوف يكون فراق هذا البلد عسيرا، لكن تذكر وجه داجفين القبيح العنصري كان يكفي ليخفف أي ألم..

سألتها زهرة وهي تجفف دموعها:

- هل تنوين الرحيل؟

قالت (عبير) وهي تتذكر النيران التي تحرق شقتها. تتذكر الدماء التي تغطي الشارع.. تتذكر الصراخ... تتذكر دموع (ندى):

- بالتأكيد.

- وكيف تنوين العيش في المجتمع الجديد؟ لا أعتقد أنهم بحاجة لمعلمات للأدب النرويجي.

قالت (عبير) في حماسة:

- لكنهم بحاجة إلى أمهات.. بحاجة إلى نساء عاملات باسلات.. سوف أكون هناك.

☆ ☆ ☆

- كفي عن هذا السخف!

- أي سخف.. لا بد أنك تمزح.. لا يمكن أن تكون جادا.

قالت (عبير) في جنون:

- أي سخف؟ لو لم تكن أنت تصدق فأنا أفعل.. أؤمن أن الفرصة قد جاءتنا.. لا يمكن أن نركلها.

ضغط على أسنانه في توحش وقال:

- الأمر سهل.. أنا لن أتخلى عن حياة ناجحة أتقدم فيها يوما بعد يوم، من أجل أن أجرب حظي

في جزيرة على حافة العالم.

- هناك كان أجدادك.

- لم يكن لي أجداد في الأوقيانوسية.. هذا شيء أنا موقن منه.

كان متصلب الرأي بشكل لا يوصف.. وأدركت أن صدام الإرادات لن يمر على خير. عليها إذا أرادت الحفاظ على هذا البيت أن تخرس.. لكن من قال إنها قادرة على التحمل أو أن تخرس؟

أثارت الموضوع عدة مرات في الأسابيع التالية.. الإغراء شديد والحياة في النرويج تزداد خطرا.. عندما يرحل الجميع سيكون موقفهما غاية في السوء.

قال لها في عصبية:

- سيعودون جميعا.. هذه قصة فشل أكيد..

لقد رحل معظم سكان البناية.. يذهبون للمطار حيث تقف الطائرات الأمريكية تنتظر.. هناك أسطول كامل في كل أرجاء العالم.. بعض الناس كانت سفن الأسطول السادس تنقلهم.

رحلت زهرة وأولادها وزوجها أمس.. أشعرها هذا بوحدة شديدة، وطلبت منها أن تكتب لها بانتظام.

ضحكت زهرة وقالت:

- الأمر شبيه بأيام المستعمرات الأولى يا غالية.. لا توجد خدمة بريد ولا هواتف.. وبالطبع لا يوجد بريد إلكتروني أو واتساب.. لا أعرف متى ولا كيف يمكنني أن أتصل بك.

وتعانقت الصديقتان بقوة ثم راحت كل واحدة تلثم أبناء الأخرى..

رحلت زهرة فمتى نرحل نحن يا (شريف)؟

10- الرحيل..

تعرف هذه اللحظة التي تؤدي غالبا للطلاق بين زوجين متحابين:

أنت زوجتي ويجب أن تكوني معي في كل مكان.. لقد انتدبوني للصعيد وسوف آخذك معي.. لا.. أنا لن أترك أمي وحدها هنا.. عليك الاختيار بين زوجك وأمك.. لماذا تجعل الأمور بهذا التعقيد؟ لأنها بهذا التعقيد.. أرجو أن تختاري بين واجبك مع زوجك أو البقاء مع أمك.. وأنا لن أتردد ولن أفكر مرتين.. الأزواج يأتون ويذهبون بينما ليست لدي سوى أم واحدة.. هل تعرفين معنى ما تقولين؟ ... بالتأكيد.. أنت تتحدثين عن الطلاق.. نعم أعرف ما أقول.. الزوجة التي لا تطيع زوجها تستحق الطلاق.. الزوج الذي لا يحترم حب زوجته لأمها هو زوج لا لزوم له.. إذن أنت طالق.. طالق... تبكي وتحكى للناس كم هو وغد ونذل، خاصة عندما تصل الأخبار فيما بعد أنه تزوج في الصعيد..

هذا هو تقريبا ما حدث هنا في النرويج مع اختلاف الأماكن..

قالت (عبير) /أمينة لزوجها:

- لم يبق لنا أصدقاء.

- بالعكس.. لدينا كرستيان وسجفريد..

- أتكلم عن العرب.

قال في لا مبالاة:

- نملك بعضنا ونملك وظائفنا.. نستطيع البقاء للأبد.

ابتلعت ريقها ثم قالت:

- لقد قدمت لهم إنذار شهر في المدرسة.. أنا فعلا مستقيلة!

نظر لها غير مصدق.. أنت فعلت هذا؟ ولماذا؟

- أنت تعرفين أن قراراتنا مشتركة ومستقبلنا مشترك.

- هذه حياتي.

قال في مرارة:

- منذ قيل إننا تزوجنا لم يعد لأي واحد منا حياة مستقلة.. هذا بيتنا هذه ابنتنا.. هذه حياتنا.. بل إن هذا وجهنا وهذه ذراعانا.

لماذا لا يسبها ويلعنها ويهينها ويصفعها؟ إذن لجعل الأمور أسهل.. يتصرف بطريقة الضحية مما يثير غيظها ويشعرها بالذنب... قالت وهي تحاول ألا تضعف:

- في لحظة أن ينزلق أحد الزوجين لخطأ أو جريمة يجب أن يتصرف كل واحد وحده.. هبني أردت أن أقتل.. هل تبقى معي؟

- أعتقد ذلك.

نظرت إلى النافذة وهمست بصوت أرادت ألا يسمعه:

- إذن أنت أحمق.

ثم أمسكت بيده وبطريقة أقرب إلى التوسل ضمتها لصدرها وقالت وهي ترمق عينه:

- (شريف).. أنا لا أطيق الحياة هنا.. صرت مذعورة خائفة أرتقب قدوم الليل كلما جاء نهار جديد، ثم في الليل أرتقب قدوم النهار، لا بد من أمن..

- الأمن في بابوا غينيا الجديدة؟ فعلا.. الجذام والزهري وأكلة لحوم البشر.

- بل التجربة.. بل صفحة بيضاء واعدة.

نظر في عينيها ثم تنهد وقال:

- أمينة.. أنا سأبقى هنا ولن أغير رأيي.. إذن..

- إذن ماذا؟

نهض في عصبية ودس يديه في جيبه وقال:

- الطلاق طبعا!

- ولمه؟

لأنني لا أتحمل فكرة بقائي هنا، بينما زوجتي تخوض مغامرات مجهولة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.. أريد ألا أكون مسئولا عنك أو ابنتك بأي شكل.. أنا مسئول عمن هم تحت سقف بيتي.

لم تستوعب ألمها بعد ولم تقدر خسارتها

فقط كانت مدفوعة بغريزة العناد وعدم التراجع، لذا قالت بصوت ثابت:

- كما تريد.

وهكذا انهمكت كثيرا في اليومين التاليين في إنهاء الإجراءات المدنية، ولم تكن هناك مشاكل أخرى.

الطفلة راحت تبكي وتمسكت بأبيها، فأخذها إلى جنب وقال لها كلاما كثيرا.. أكذوبة ما عن أعمال سينهيها قبل اللحاق بهما.. كلام فارغ.

لكنه و(عبير) قدرا أن المجتمع الجديد سيجعل الفتاة تنسى.

- لا تحاول تشغيل شواية الدجاج فهي تنطفئ والغاز يتسرب منها.

قالتها له بصوت مبحوح، فقال:

- كوني دوما مع المجاميع.. قاومي حاسة الاستقلال قليلا.

- لا تفتح الباب لأي طارق ليلى.. ولا تترك سيارتك خارج الجيتو.

- لا تنسى أقراص الحديد في موعد الدورة الشهرية.. أنت مصابة بفقر دم.

وهكذا تم الفراق.. انتظرت فترة طويلة حتى ابتعدت وصار من حقها أن تترك المخاط يسيل من أنفها..



خلال يومين وجدت (عبير) نفسها تقف مع ابنتها تراقبان البحر، الأمواج المتلاطمة فوق قطعة من الأسطول السادس الأمريكي. حيث وقف حشد من العرب من أكثر من بقعة في أوروبا.. ستكون رحلة شاقة وطويلة جدا إلى أن يبلغوا نصف الكرة الجنوبي. بين أستراليا وإندونيسيا..

بابوا غينيا الجديدة.. أرض الميعاد..



11- مجتمع وليد..

هكذا يبدأ الفجر الجديد.. يسألونك عن الشمس من أين تشرق فلا تقل من الشرق.. قل إنها تأتي من أقصى الجنوب الشرقي.. تأتي في تؤدة ومعها الأمل والميلاد الجديد لشآبيب.

نبيل أبو زهرة



الوضع كان أسوأ مما توقعت..

الطقس حار فعلا، ولا بد من أخذ علاج الوقاية من الملاريا وعدد لا بأس به من اللقاحات، ليست هذه مدينة على الإطلاق.. هناك غابة استوائية كثيفة قرب الساحل، وقرب هذه الغابة يوجد سياج، ثم مجموعة من الأكواخ مما يذكرك بمعسكرات الجيش. في وسط الأكواخ تم إنشاء بعض دورات المياه، لكنها بالطبع لا تقود للمجارى ولكن إلى حفر عميقة.

هناك كوخ صغير تم تحويله إلى مدرسة، وكوخ تحول إلى مسجد وكوخ صار كنيسة..

كان قائد هذه المستعمرة هو (مكرم). أستاذ التاريخ قصير القامة الذي قرأت كتاباته، وبرغم أنه كان أكثر نفعا لهم لو ظل في الولايات المتحدة فإنه رأى أن من العدل أن يكون معهم في هذه التجربة. وكان يقول:

- لدينا في الولايات المتحدة أعضاء كونجرس ومليارديرات عرب. هذا كاف... فليبقوا حيث هم، أما أنا فواجبي أن أكون مع من جاءوا من أجل أفكاري.

كان يلبس ثيابا خاكية اللون وقبعة توحي بأنه مستكشف. وكان يحمل خارطة في يده طيلة الوقت. ويمشي مع مجموعة من المهندسين الذين يتكلمون عن عمل شبكة صرف صحي هنا.. إن سفن الأسطول السادس تساعدهم وتجلب لهم ما يريدون ما دام أثرياء العالم العرب يدفعون الثمن.

رأى (عبير) تراقبه من مسافة، فناداها.

لشد ما هو قصير القامة نفاذ العينين.. من أين يأتي بكل كمية السيجار هذه؟

دنت منه وهي ترتجف تهيبا فاستغل فارق السن الذي يسمح لها بألا تسيء فهمه، وطوق كتفها.. وداعب شعر (ندي)، ثم سألها:

- من أين أنت؟

قالت في تهيب وهي لا تجسر على مواجهة عينيه:

النرويج.. أوسلو.

- والمهنة الأصلية؟

- معلمة.

قال لها باسما:

- نحن بحاجة إلى معلمين كثيرين.. هذه أهم مهنة في الوجود.

سوف تدرسين التاريخ العربي واللغة العربية... ما اسمك؟

- أمينة عبد الغفار.

- مسلمة.. إذن يمكن أن نضم تدريس الدين الإسلامي لعملك. هل قابلت (قاسم)؟ إنه وزير التعليم هنا..

بدا لها الأمر مضحكا.. الأمر أقرب لقرية كبيرة ومع ذلك يتكلم عن وزراء تعليم!

قال وقد فهم ما يعتمل في ذهنها:

- لدينا وزير دفاع ووزير عدل ووزير ثقافة.. لا تقلقي.. إن دولتنا تتكامل وتنمو.. هل تعلمين أن الجزيرة كانت تحت الاحتلال الأسترالي حتى عام 1973؟ بعد هذا لم يعد هناك أحد سوانا.

ثم قال لأحد الواقفين جواره:

- أرسل رسالة للوطن مع السفينة الراحلة.. رسالة تقول: العروس جميلة لكن لها زوجا!

بدت العبارة مألوفة ل (عبير).. سمعتها من قبل في عالم الواقع.

نفس العبارة التي قالها اليهود الذين ذهبوا لفلسطين أول مرة بعد وعد بلفور اللعين.. كانوا يعتقدون أنه لا يوجد ناس هناك، لكنهم وجدوا الفلسطينيين.. أرسلوا هذه الرسالة إلى مجمعهم في أوروبا فكانت الإجابة هي أن يقضوا على الفلسطينيين، فهل سيكون عليهم قتل سكان غينيا الجديدة؟



كانت لغة التفاهم واحدة طبعا هي العربية، فكلهم عرب.. منهم من جاء من الصين أو بوليفيا أو ألمانيا.. لكنهم في النهاية عرب لهم نفس اللغة ونفس التراث... كلهم يعرف (طارق بن زياد) وشعر المعري والمتنبي ويسمع (أم كلثوم) و(فيروز).

وقع عبء الإنشاءات على مجموعة من المهندسين القادمين من ألمانيا، وتم عمل وحدة طبية مصغرة.. بالطبع بلا إمكانيات تقريبا. بلا جهاز الأشعة ولا دورة أكسجين ولا غرف عمليات، لكنها النواة الأولى..

أما هي فذهبت إلى المدرسة وقدمت نفسها للمدير الذي هو نفسه وزير التعليم!!.. وهو رجل عراقي يدعي قاسم. لم يسألها عن مؤهلاتها بالطبع فهذا مجتمع جديد لا يملك هذا الترف... فقط سألها:

- هل درست من قبل؟

- نعم.. لكن ليس بالعربية.

- لا يهم التدريس هو التدريس. نقل المعلومة من رأس لرأس بأي لغة.

كانت المدرسة عبارة عن كوخ خشبي تم بناؤه من جذوع الأشجار، وفي الداخل رأت مجموعة أطفال من العرب لهم أعمار متباينة يجلسون إلى دكك. وكانت هناك معلمة بدينة جاءت من فرنسا، تعلمهم قواعد اللغة العربية.. للمرة الأولى يسمعون عن فاعل أو نائب فاعل، وكانوا يسألونها بالصربية واليابانية ولغة الزولو.. فترد بالعربية.. الأمر صعب.. اللغة العربية شديدة التعقيد ولا يوجد من يجيدها تقريبا منذ أبي العلاء المعري!

قالت لها المعلمة:

- اسمي صفية.. أدرس اللغة العربية كما لا بد أنك لاحظت.. سوف يكون عملك هو تدريس التاريخ.

- هذه مهمة شاقة.

رحلة طويلة سوف تحكي عنها، منذ كان العرب أكبر إمبراطورية في العالم، وكادوا يفتحون فرنسا نفسها.. ثم جاءت الفرقة فالصراعات فالتفكك والضعف..

استمر هذا الضغط ليصل ذروته في القرن العشرين بعد اتفاقية سايكس بيكو ثم تفكك الإمبراطورية العثمانية التي كانت فاسدة أصلا، ثم عصر الدكتاتوريات التي حكمت العالم العربي تحت شعار الدفاع عن فلسطين ثم انهماك العرب في الإنفاق والصراعات الداخلية مع أشباح، وبدلا من أن يدخلوا عصر التكنولوجيا اشتروها بمالهم. في كل وقت كان شراء سيارة أسهل وأسرع من صنعها. كان العربي يقتني جهاز محمول لا يقدر مخترعه على اقتنائه هو نفسه!... الصينيون يمشون بينما يركب العرب السيارات التي صنعوها..

التفكك النهائي جاء بعدما جف البترول وبعد حرب الغزو الشامل التي قام بها الغرب للاستيلاء على ثروات هذه المنطقة ووضعها الجغرافي المتميز، فصار على كل واحد أن يبحث عن رزقه في مكان آخر وبدأت موجات الهجرة.. هناك عرب بقوا في دولهم الأصلية لكنهم يعانون أسوأ المعاملة وشظف العيش، نموذجا للأكثرية الواهنة الضعيفة التي تسيطر عليها أقلية متقدمة تكنولوجيا..

وفي النهاية يمد صفوان يده في بئر التاريخ، ليخرج حقيقة غريبة عن حضارة عربية نشأت في بابوا غينيا الجديدة.. هي أرض بكر نسبيا.. خصبة بها موارد لم تستغل..

هذه فيما يبدو النهاية السعيدة لمعاناة العرب..

قررت أن تكتب منهجها الخاص من كتابين وجدتهما بالإضافة إلى كتاب (تاريخ لا يحكونه في المدارس) الذي لا تتركه أبدا.. تحفة أحمد صفوان..

للأسف ظل أحمد صفوان في الولايات المتحدة.. هذا منطقي.. المفكرون لا ينزلون ساحة المعركة بل يجلسون في مكان آمن ليرسموا الخطط.. هم أثمن من أن تتم التضحية بهم. كانت تتمنى لو رأته ولثمت يده..

سوف تتعب أكثر وتعمل أكثر من أجل هذا المجتمع الوليد..



12- في غينيا الجديدة..

تلقينا الوعد فتمسكنا به، وعرفنا أننا لن نتخلى عنه حتى لو مزقوا أجسادنا واجتثوا أناملنا وأحرقونا. فهم لن يغتالوا أرواحنا أبدا، والوعد باق حتى بعد رحيلنا.. الأحفاد قادمون.

جورج مندوه

☆ ☆ ☆

شآبيب الجديدة..

اسمها شآبيب.. وهي لنا..

☆ ☆ ☆

زارت شآبيب الغيوث ديارنا.. فإذا (شآبيب) ارتوت بالصيّب
فإذا الجبال اخضوضرت وترعرعت.. فالعيش في الياقوت أضحي مطلبي

(من قصيدة الشآبيي الشهيرة، ولكن قام (مكرم) بتغييرها لتناسب العصر)..

☆ ☆ ☆

فوجئت (عبير) عندما دخلت الصف أن تلاميذها العرب موجودون ومعهم ابنتها (ندى) طبعا، لكن معهم ثلاثة تلاميذ من الوطنيين.. سمر البشرة لهم شعر مجعد منكوش وهم لا يلبسون أحذية كاشفين عن أقدام هائلة الحجم مشوهة من اعتياد الحفاء. عيونهم جاحظة مذعورة كالقطط..

لم تفهم.. هنا جاء المدير قاسم من خلفها، فقال همسا لما لاحظ حيرتها:

- هذا طبيعي.. الأهالي فضوليون ومعظمهم يأتي هنا ليعرف شيئا أو شيئين.

- لكن التاريخ العربي لا يعنيهم.

ضحك ضحكة خافتة وقال:

- هذا ما يفعله المستعمرون في كل مكان.. نقل لغتهم وثقافتهم وتاريخهم.. مع العلاج طبعا. يجب أن نلعب دورنا جيدا.

ثم أردف:

- بعد قليل سيشعر كل منهم أنه عربي آخر..

الحقيقة هي أن بابوا غينيا الجديدة متباينة جدا بسبب وعورة تضاريس البلاد مما يعوق اختلاط

الأجناس.. هناك 820 لغة.. هناك في وسط الجزيرة مجموعة عرقية تعدادها 50 ألف شخص لم يعرف أحد بوجودها إلا عام 1938 عندما طارت هليوكوبتر فوق الجزيرة كلها. هذه الجزيرة كنز لقناة ناشونال جيوجرافيكس.

بصعوبة سألت الصبية عن أسمائهم:

- جوبيا جاييما.

- بيون كيرينجا كيريكا.

- جوليف أكليكا.

- أتايميلاهو أيزاكوا.

هذا جميل.. سيكون الأمر سهلا إذن!.... أسماء مستحيلة الحفظ ووجوه متشابهة. وعليها كذلك أن تعلمهم اللغة العربية.. لكنها كانت تشعر بأهمية دورها.

ازداد حماسها عندما رأت أن هناك عملية بناء.. بناية حقيقي بالقرميد والأسمنت الذي جلبته السفن الأمريكية.. وكان المهندسون العرب يشرفون على خليط من عمال عرب وأهالى الجزيرة.. عرفت أن هذه ستكون المدرسة الجديدة..

لا شك أن المكان يتغير..

صارت هناك شوارع.. شوارع بدائية تذكرك بما تراه في أفلام الغرب الأمريكي، وصار هناك بقال وحلاق ومشفى. لكن النشاط الأهم كان الزراعة..

بابوا غينيا الجديدة جزيرة بركانية تمتلئ بجبال شامخة فوقها خضرة كثيفة.. لهذا تربتها خصبة فعلا.. أما عن الرى فهناك نهر طويل عظيم اسمه (سيبيك).. وهو نفس النهر الذي أطلق عليه الألمان اسم (أوجستا) - نسبة لإمبراطوريتهم - عندما كانوا في غينيا الجديدة.. إنه أطول نهر في الجزيرة يمتد حتى الجزء الإندونيسي منها. هذا النهر كان صالحا جدا لري مشاريع الزراعة التي بدءوها هناك.. إن زراعة الجزيرة تعتمد على القلقاس والبطاطا لكن العرب طوروا الكثير من الأنواع، فقد كانت معهم الأسمدة والبذور ومعهم مهندسون زراعيون.

لقد صار هناك نشاط سكاني..

العرب يتدفقون في كل يوم ليزداد العدد. وبدا مع الوقت أن المدينة الصغيرة التي هي نواة شآبيب لا تتسع لكل هذا العدد.. لا بد من التوسع..

كان (مكرم) يجوب المكان وهو يدخن السيجار مفكرا.. كان يزداد قلقا.

لحق به شاب عربي قصير القامة يضع قلنسوة بيضاء على رأسه.

لو دققت النظر لأدركت أن هذا (مصطفي) جار (شريف) و(عبير) في النرويج.. لقد جاء هنا، وصار شخصا مهما..

قال (مكرم) وهو يصلح من وضع قبعته:

- اكتب لجوناثان في الولايات المتحدة.. قل له إننا بحاجة لأسلحة أكثر..

نظر له (مصطفي) في دهشة فقال:

- معنا بعض البنادق التي تسمح بالدفاع عن أنفسنا، لكننا بحاجة لسلاح هجومي.. نريد قنابل ومترليوزات MAG.

- والسبب؟ لو سمحت لى.

نظر (مكرم) للأفق والقرية المزدحمة وقال:

- نحن نتكلم عن نصف مليون عربي عما قريب سيقفز العدد..

سوف نقترب من خمسة ملايين لهذا العام.. بعد هذا سيأتي مئة مليون.

لا بد من احتلال غينيا الجديدة كلها، وربما كل جزر سليمان

لم يتصور (مصطفي) هذه المشكلة قط من قبل. أن يكون نجاح أفكار (مكرم) ساحقا إلى درجة أن تفشل الفكرة!... في الثمانينات من القرن العشرين كانت هناك حملة ناجحة جدا لمكافحة شلل الأطفال في مصر، إلى درجة أن اللقاحات انتهت في أسبوع.. أخذها من لا يحتاجون للقاح أصلا، والنتيجة أن الحملة فشلت.

إذن لن يستمر شهر العسل طويلا.. سوف تأتي لحظة العنف.. نحن نتكلم عن استعمار إحلالي.

قال المكرم:

- الأرض هناك ليست خالية.. هناك قبائل وفلاحون ورعاة.. هناك أسر..

ضغط (مكرم) على شفته السفلى بأسنانه وقال:

- لا يمكن أن تعد الحلوى بلا نار، ولا بد أن تكسر البيض لتصنع عجة.. كيف تعتقد أن الولايات المتحدة قد نشأت؟ حروب الأباشي.. الشيين... جنرال كاستر.. البطاطين الملوثة بالجدري.

- هل تنوي توزيع بطاطين ملوثة بالجدري؟

للأسف انقرض الجدري منذ عام 1974... أحتاج لشيء أكثر فعالية.

ارتجف (مصطفي) وهو يرى عينى (مكرم).. رأي الدم والصراخ والألم.. أقسى الرجال هم الذين تستولى عليهم فكرة مسيطرة.. هنا قل وداعا للرحمة أو الشفقة أو أي ضعف بشري.

☆ ☆ ☆

لا أعرف كيف يمكن عمل سلام مع العرب؟ الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان..

بن جوريون أيام نشأة إسرائيل

☆ ☆ ☆

كانت (عبير) واقفة خارج المدرسة عندما رأت مجموعة من حمالي القبائل.. كانوا يقفون في

دائرة حول شاب عربي في العقد الثالث من العمر له قامة فارعة نحيلة لكنه مكتمل العضلات. لم تفهم ما يقال لأنه يقال بلغة (توك بيسين) أو (هيري موتو) وهما أكثر لغتين شيوعا على الجزيرة من بين نحو 800 لغة. كانوا على الأرجح يتشاجرون حول أجرهم.. ككل البدائيين يتعامل هؤلاء بالملح والخرز والزجاج الملون، ومن الواضح أن الشاب لم يكن معه ما يكفي..

رأته يحتد ويرغى ويزبد، ثم تناول عصا كانت جواره وانهال ضربا على الرجال، ومن الغريب أن غضبته كانت كاسحة لدرجة أنهم بادروا بالفرار، برغم أن بوسعهم أن يمزقوه لو أرادوا..

لاحظت وجه الفتى فرأت فيه كمية غضب وحقد لا يمكن وصفهما.. عينان تقتلان..

التقت العينان فأجفلت، لكنه هدأ نوعا عندما رآها.. قال بالعربية:

- معذرة... أنا لا أطيق هؤلاء القوم..

- والسبب؟

- لأنهم.. لأنهم يعوقوننا.

لم تفهم ما يريده.. عادت تسأله:

- ما اسمك؟

إنه (سليم) طبعا.. نحن خمنا ذلك من قبل أن يفتح فمه.. لكنها سمعت الاسم لأول مرة.. (سليم علوي أبو زهرة).

- ومن أين جئت؟

هذه أسئلة سخيفة يا (عبير).. كلنا نعرف أنه كان في مونروفيا بليبريا.. أنت تضيعين وقتنا..

قال لها وعيناه تلتمعان:

- نحن نحتاج لهذه الجزيرة بالكامل.. لا بد من إبادة هؤلاء.. إنهم أقرب للقردة ولن يخسر أحد شيئا بفقدهم حتى هم..

شعرت برعب من كل هذه السادية والقسوة.. تراجعت للخلف خطوة ثم سألته:

- شعرت في وجهك وتصرفاتك وكلامك بقسوة غير عادية.. ما السبب؟

نظر للأفق وتقلصت عضلتاه الماضغتان وقال:

- لقد فقدت كل شيء وتعلمت أن الحياة شر.. المتخاذلون يهبطون للقاع والقسوة هي اسم اللعبة.

13- مذبحة ليلية..

النار مشتعلة.. وفوق المواقد يغلى لحم الخنازير البرية..

عندما ترى خنزيرا بريا يُسلق فأنت تفقد شهيتك للطعام للأبد، وعندما ترى امرأة ترضع خنزيرين صغيرين من ثدييها - كطقس ديني مهم - فأنت تمقت الأمومة للأبد.

لكن الحقيقة هي أن هذا عيد ديني مهم لدى قبائل بابوا غينيا الجديدة..

أطنان من الملح يتم التهامها، ثم يشربون كميات هائلة من الخمر.. خمر مصنوعة من البنجر المختمر..

حول النار يرقص الرجال فهذا واجبهم كبدائيين كما تعلم..

لابد من كثير من الإباحية في هذه الليلة بالذات لترضى عنهم الآلهة..

العيد اسمه Pig bel وهو عيد فائق الأهمية لهم.. يأكلون كميات هائلة من لحم الخنزير والخمر، ثم يحدث التخمر في بطونهم فينفجر القولون ويتعفن.. لكن هذا موضوع آخر يهم أطباء المناطق الحارة، لكنه لا يهم (سليم) ورفاقه الذين يتوارون في الأحراش المظلمة..

همس (سليم) وهو يلهث انفعالا:

- لن أشعر بشفقة عليهم!

هز من معه رءوسهم..



(سليم) على الأرض يرى كل شيء بالمقلوب.. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر، ويرى متجره يتحول لخراب.. في الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل..

بوم!... تهوى الهراوة بالسرعة البطيئة على.. على رأس كريمة..



وفي اللحظة التالية اندفع الرجال من الأحراش وهم يصرخون ويطلقون النار في الهواء..

أصيب البدائيون بالهلع.. كانوا في حالة قاتلة من الشبع والانتشاء بالخمر، فلم يستطيعوا الحركة أو مواجهة القادمين..

لم يكن (سليم) يحمل سلاحا ناريا بل شيئا يشبه السنجة أو (الماشيت) يلوح بها ويطير الرقاب

أو يبقر البطون..

وركل أحد الرجال قدرا فسال الحساء المغلي على الأرض، ثم اشتعلت النار في ثياب أحد البدائيين القليلة.. أي أنها الخرقة التي تداري نصفه الأسفل. تعالى الصراخ..

صاح (سليم) وهو يلوح بالسلاح:

- هلم يا رجال!... تذكروا أن الشخص الوحيد الطيب من هؤلاء هو الذي مات!!

كأي مذبحة يمكن أن نرص الكلمات المعتادة، لكن - لحسن حظ نساء القبيلة - لم يكن هناك اغتصاب، من ناحية لأن المهاجمين ليس لديهم وقت لهذا الهراء، ومن ناحية لأن النساء كن قذرات جدا مصابات بأمراض جلدية عديدة.. هناك مرض لعين اسمه الياوز Yaws منتشر هنا ولا ينتقل بالعلاقات الجنسية لكنه معد برغم هذا، ورؤية امرأة مصابة به تكفي لمطاردة كوابيسك للأبد..

الظلام والدخان والنيران..

لقد تحول عيد الخنازير إلى مذبحة سوف يتذكرها أهل القبيلة طويلا..

الطلقات تنطلق في كل صوب..

الدماء تغمر جذوع الأشجار..

كان هؤلاء القوم أكثر بدائية من أن يستعملوا السهام.. وبالطبع لم ير معظمهم سلاحا ناريا من قبل. إنهم هنا منذ بدء الخليقة تحميهم سلسلة الجبال هذه، لكن (سليم) ورفاقه استطاعوا أن يتسلقوا هذه الجبال بعد يوم كامل من الجهد..

كان هناك جاسوس أخبرهم بموضوع عيد الخنازير هذا، وما كانوا ليجدوا فرصة أفضل..

راحت الأمهات يركضن مع أطفالهن، بينما راحت الخنازير البرية التي تحررت من أقفاصها تصرخ وتصدر صريرا... وانطلقت تجرى.

في السماء حلقت أسراب من وطاويط الأشجار دقيقة الحجم التي تذكرك بحجم صرصور كبير، وهي مميزة جدا لغينيا الجديدة..

تعثر أحد الأهالي فداس عليه (سليم) بقسوة..

أخيرا خلا مكان القبيلة إلا من النار وإلا من الرجال المهاجمين..

وقف (سليم) يلهث... ثم أعلن النصر..

هذه خطوة ضرورية.. لم يحب ما فعله كثيرا لكنه فعله على كل حال. كان عليهم طرد الأهالي من بقعة جديدة، وعلى هذه البقعة سوف تنشأ مستعمرة أخرى..

عند الفجر عاد الرجال مظفرين، وقد صارت قمصانهم عجينة واحدة من العرق والدم.. معظمه دم الأعداء.

قال (سليم) ضاحكا في وحشية:

- قالوا البقية والهندي يحصدهم.. ولا بقية إلا السيف فانكشفوا.

سألته في حيرة:

- هل قالوا البقية بلغة (توك بيسين)؟

ضحك كثيرا وبصق ثم قال:

إنه مثال شعري لا أكثر.. لم يقولوا أي شيء.. ماتوا في صمت.

ملأت وعاء بالماء وقدمته له فشرب في جشع، ثم سألته:

- ماذا فعل هؤلاء القوم ليستحقوا هذه القسوة؟

مسح فمه بكمه وقال:

- زوجتي وطفلي لم يستحقا ما حدث.. القتل أمام عيني لمجرد أنهما مختلفان.. هذه هي رسالة العنف التي نأخذها وننقلها بأمانة لآخرين.. هناك فتى هرب من القبيلة هذه الليلة وهو يحمل ذكري دامية لما فعلناه، ولسوف يعذب ويذبح أخرين فيما بعد عندما يصير أقوى.. وهكذا إلى يوم الدين.

إذن أنت تفشي ميراث العنف للأبد... لم يعد على الأرض سلام.

- لم أبدأ هذا التفاعل المتسلسل القذر.. لكن أعدك أنني لن أظل ضحية ومضطهدا للأبد.. أريد أن أَظلِم بدلا من أُظلَم.

كانت تنظر لجسده النحيل المتحفز بالعضلات.. الحق أن العنف لا يحتاج القوة جسدية يحتاج إلى قلب ميت وشراسة وكراهية.. كل البلطجية يعرفون هذا، بل إن الواقع يخبرها أن العكس صحيح.. نموذج الفتي الضخم المكتنز بالعضلات ويحمل قلب طفل ويحب القطط.. ولا يستطيع أن يرد على شخص يهينه.. ربما يبكي بسهولة كذلك. هذا نموذج شائع جدا..

هنا ظهر (مكرم).. في ضوء الفجر يتقدم نحوهم ولا يبدو سعيدا جدا.. عيناه متورمتان بسبب نوم مرهق.. لم يضع قبعته على رأسه بعد لكنه أشعل سيجاره.

رفع يده محييا ثم سأل:

- هل أبليت بلاء حسنا إذن؟

قال (سليم) في فخر:

- لم ينج واحد منهم إلا قلة تواروا في الأشجار.. القرية خالية لمن يسكنها.

فكر (مكرم) قليلا ثم قال:

- تناول إفطارا دسما مع رجالك واستحم ثم نم.. عندما تصحو سوف نناقش ما قمت به من دون أخذ رأيي.. فأنا أطلب توقف هذه العمليات.

اتسعت عينا (سليم) في دهشة:

- أنت قلت إنه لا بد لعمل العجة من كسر البيض، وقلت إن الولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر. لم أفعل سوى تنفيذ ما قلته.

قال (مكرم):

- عملية واحدة كافية جدا حتى ترهبهم.. لكن تكرارها سوف يجعل علينا دينا هائلا من الدم ولسوف ندفعه حتما.. دعهم يحكوا لبعضهم عن مذبحة عيد الخنازير Pig Bell هذه لكن لا تضف مذبحة أخرى إلا بمشورتي.

نظر له (سليم) نظرة نارية.. كانت لحيته نصف نامية وشعره منكوشا مما جعله يبدو نصف مجنون..

قال (مكرم) وهو يشم رائحة تمرد:

- نم الآن. سوف نتكلم عندما تستيقظ ورجالك.

☆ ☆ ☆

14- حكاية حب..

هكذا يولد الحب في ظروف غامضة.. لماذا يا بلهاء تقعين في حب هذا الثائر الدموي المتمرد؟.. نفس النظرات والطابع المميز لتشي جيفارا، لكنه أكثر جنونا وأحيانا أكثر قسوة.. ولا عجب أن (مكرم) اتخذه وزيرا للدفاع (والهجوم في الواقع).

قال لها مرارا إنه كان شخصا آخر منذ أعوام:

- بقال وديع مسالم.. لكن كم من الناس يمكن أن يجتازوا تجربة ذبح الزوجة والابن أمام عيونهم ويحتفظوا بإنسانيتهم؟ الوحوش تقدر دائما على صنع الوحوش..

قالت له وهما يجلسان على حافة النهر، يقذفان الأحجار:

- لكن الوطنيين هنا لم يكونوا من فعلها بزوجتك.

- لقد قررت أن يكون هنا وطني. ولهذا سوف أقتل كل من يعوقني.. أنا رأيت الكثير من العنف في حياتي وتم تدميرها تدميرا، لذا سأدمر حياة الآخرين إذا وقفوا في طريقي.

ارتجفت.. يا لك من حمقاء بلهاء.. لا بد من مصاصة دماء كي تقع في حب رجل ينطق بهذه الكلمات.. إنه قاس فعلا.

منذ يومين استيقظ من النوم عصرا بعد تلك الليلة السوداء التي قضاها في المذابح مع رجاله، فرأت (مكرم) يسحبه من ذراعه ويقتاده بعيدا قرب نطاق الأشجار المحيط بالمعسكر.

هناك دارت مناقشة طويلة بين الرجلين.. (سليم) يلوح بيده في عصبية، بينما يهز (مكرم) سبابته..

يمكنها أن تضع حوارا للمشهد على كل حال كأنها تضع (دوبلاج) لفيلم سينمائي..

- هذه آخر عملية تقوم بها.. هذه أوامري.

- أنا أفعل ما أراه صوابا..

- هذا العناد سيضيعنا.. لقد اخترتموني زعيما وأوامري نافذة.. لا أريد دما لمجرد أنكم تستمتعون بالدم.

- أنا لم أخترك.. هذه نقطة.

- كل فكرة (شآبيب) فكرتي... وأنا المسئول عن تنفيذها وعليكم الطاعة.

لم تسمع حرفا من المحادثة لكنها كذلك لم تفوت حرفا منها.

عاد (سليم) وهو يسب ويلعن.. وبنصل سيفه أطار غصن شجرة.. فلما رآها تنظر طلب منها أن تلحق به.

قرب نطاق الأشجار تراجع وأمرها ألا تقترب، ثم طوح بذراعه فطار النصل ليضرب شيئا فوق الشجرة.. ثم هوى حيوان غريب عند أقدامهما كان يتشحط في الدم.. شعرت للحظة كأنه أرنب عملاق تم ذبحه.

هتفت في رعب:

- ماذا فعلت؟

- قتلت حيوانا لا أعرفه ويبدو مريبا.

تحسست فراء الكائن البائس وقالت:

أنت قتلت كانجارو الأشجار (جود فيلو).. هو كانجارو لكنه يتسلق الأشجار.. حيوان نادر جدا ويميز بابوا غينيا الجديدة.. مسالم وموشك على الانقراض إن لم تكن أنت قد قتلت أخر واحد!

حاول أن يتفادى نظراتها وكانت (عبير) بالطبع معلمة واسعة الثقافة في هذا العالم، وتعرف معظم أجناس الحيوانات هنا.. هذه بلاد غنية بالثروة الحيوانية.. فيها 8% من كل فقاريات العالم، وفيها 4% من كل سحالي العالم و10% من كل أسماك العالم.. وبرغم هذا مساحة الجزيرة نصف بالمئة من مساحة العالم. هكذا ربما أزال (سليم) جنسا كاملا من خارطة الأنواع!

قال لها في قنوط وهو ينزع النصل من اللحم:

- آسف!

- أسف؟

قالت له في غيظ:

- هذا ديدنك.. مندفع دوما ثم تفعل أشياء لا يجدي معها الاعتذار..

نظر لعينيها في صمت لحظات ثم قال:

- لن أعتذر أبدا عن وقوعي في حبك.

لماذا يا أحمق تسكب البنزين على النار؟ ليس هذا هو الزمان ولا المكان المناسبين للوقوع في الحب.. و(ندى)؟ ليس هذا أفضل زوج أم يأتي لها.. ثم إنه متقلب سريع الغضب.. يمكن السيطرة على حصان جامح أسهل بكثير من السيطرة على رجل كهذا.

لكنها كانت تعرف أنه سيقع في حبها لا مفر من هذا فهي بطلة القصة. هذا سيجعل الأمور أكثر تعقيدا، لكنها كانت تعرف كذلك أن عليهم الزواج وتعمير هذه الأرض.. سوف يأتي عرب كثيرون بالتأكيد في الأيام القادمة، لكن لا بد من أن يولد أطفال هنا.. أطفال يشعرون أن هذه أرضهم ويغنون: هذه أرضى أنا.. وأبي ضحى هنا... كما فعلت إسرائيل مع أول جيل يولد فيها.. جيل الصابرا.. هذا هو الجيل المتعصب الذي خرج للعالم مصرا على أن فلسطين أرضه..

لو طلب يدها للزواج فلسوف تقبل..

☆ ☆ ☆

الحقيقة أنك لو رأيت ما صارت له شآبيب والمستعمرات المحيطة بها لأصابك الذهول. لقد بدأت شبكة طرق تشق طريقها في الغابة.. العرب في الخارج أرسلوا أدوات شق الطرق والبلدوزرات إلى البلاد الوليدة، كما صار هناك مطار صغير يسمح بإقلاع وهبوط الطائرات المروحية.. تبرع أثرياء الخارج بثلاث طائرات..

من يعرف بابوا غينيا الجديدة يعرف أهمية الطائرات في جزيرة تغطي الجبال نصفها وتغطى الغابات نصفها الآخر.

قال لها (مكرم) ضاحكا عندما زار المدرسة:

- من يدري؟ ربما خلال عام أو عامين ننشئ محطة بث تلفزيوني وإذاعي ونحصل على أجهزة راديو.

قالت بمزيج من المزاح والجد:

- نحن بحاجة لأجهزة كمبيوتر.. العملية التعليمية تحتاج لذلك.

تحسس لحيته القصيرة وسحب نفسا عميقا من السيجار وقال:

هذا كلام معقول بالتأكيد.. لكن لا بد من أن تكون عندنا كهرباء أولا.

كهرباء!! مياه!.. المشوار طويل والعملية معقدة فعلا!.. لا يمكنك تخيل مدى التعقيد الذي يستتبعه أن تنشئ دولة، إلا عندما تحاول أن تقيم دولتك الخاصة.. كل من بدأ بتأثيث شقة اكتشف كم الصعوبات الجمة التي تنتظره، بدءا بعداد المياه والكهرباء وشراء أنبوب غاز وفتاحة علب ومكنسة!!! كم مذهل من التفاصيل... الآن نحن نتحدث عن دولة كاملة..

خمن ما تفكر فيه ورأى الإرهاق والعجز في عينيها فقال في خفة وبشاشة:

- نحن نقف على قاعدة متينة.. سوف نضيف لبنة كل يوم ويرتفع البناء.. ربما ليس في جيلنا هذا.. لكن (شآبيب) ستكون دولة عظمى يوما ما..

هناك في غينيا الجديدة كانت دولة جديدة تولد..

أخلى الأهالي المذعورون بعض القرى المجاورة، وهكذا هرع مهندسو العرب ليضعوا قواعد مدن جديدة.. الحق أن الرقعة كانت تتسع.

زارت (عبير) إحدى تلك المعسكرات الجديدة مع (مكرم) و(سليم)..

وكان (مصطفى) يلحق بهما.. كان هناك حارس شخصي من أصل مغربي يقيم في فرنسا، وقد راح يمشي على مقربة منهم وهو ينظر حوله في حذر.

فجأة رأوا كوخا من أغصان وخشب البامبو.. هذا كوخ لم يخله سكانه أمام الكوخ كانت امرأة من الأهالي تبكي بلا توقف، وقد جلست القرفصاء، وعلى الأرض كان رجل راقد لا يكف عن الضحك.. ضحك هستيري لا يتوقف. لا يستطيع أن يأخذ نفسه.

ينهض ويقهقه ثم يسقط على الأرض ويواصل الضحك..

جوار الرجل وقف طبيب شاب من أطباء العرب يبدو أنه من أصل خليجي وقد كان يقيم في كندا.. رأى (مكرم) فأدى له التحية العسكرية.

لم يكن لهذا داع فمكرم ليس جنرالا والطبيب ليس جنديا، لكن كان هناك طابع عسكري عام في المكان..

تساءل (مكرم):

- ماذا يدور هنا؟

- كورو يا فندم!

كورو.. هذا مقلق فعلا... المهم ألا ينتشر و...

- ما هو الكورو؟

شرح لهم الطبيب الشاب أن أهالي بابوا غينيا الجديدة يأكلون من مخ الموتى على سبيل الحصول على قوتهم وحكمتهم.. هذه عادة منتشرة.. لكن هذا يؤدي لانتقال فيروس معين يسبب داء الكورو Kuru.. وهكذا يصاب المريض بالتهاب مخ ويضحك حتى يموت..

نظر (مكرم) للمريض في شفقة.. ثم سأل:

- هل من طريقة لشفائه؟

- لا شفاء يا سيدي.. الموت مضمون مئة في المئة.

هز (مكرم) رأسه في حزن فتساءل الحارس وهو يخرج مسدسه:

- هل أنهي عذابه؟

شهقت (عبير) في ذعر، بينما قال (مكرم):

- أعتقد أن هذا أفضل... سوف يستريح من عذابه، بينما الزوجة المذعورة ستركض لتخبر الأهالي أن الشياطين الذين جاءوا من البحر يقتلون بلا رحمة. سوف يخلون المزيد من القري.

صاحت (عبير):

أنت لا تملك سلطة أن تحيي أو تم....

بوم!!!

كانت هذه هي الطلقة الوحيدة التي نسفت رأس المريض فهمد وكف عن الضحك. في نفس اللحظة تقريبا انفجرت المرأتان في صراخ هستيري كأنهما كلبتان عاويتان..

قال (مكرم) وهو يجذب (عبير) من معصمها:

كانت ضربة موفقة.. أرحناه من عذابه وصنعنا هالة رعب أكبر من حولنا..

ضربته بقبضتها في كتفه، فابتسم وتحمل اللطمة شأن الفلاسفة الذين يتحملون الصفعات:

- لا بأس.. لكن تذكري أنني من يقود هنا، وأعرف ما ينبغي عمله.



15- كنا هنا..

هكذا يولد عالم جديد.. هكذا يأتي فجر وليد، واللون الذي تراه في الأفق ليس لون الشفق، بل هو دم من ماتوا من أجل الحلم.

عبد اللطيف الخولي



انتهى (مصطفى) من عزف اللحن على الجيتار.. لم يكن قد حفظ الكلمات بعد، لكنه كان يتابعها من ورقة أثناء الغناء.. فلما انتهى رفع رأسه إلى (عبير) / (أمينة) و(سليم) متسائلا..

صفق الاثنان في حماسة.. اللحن كان موفقا وحماسيا ومؤثرا في الوقت نفسه، وهتفت (عبير) دامعة العينين:

- لم أعرف أنك تجيد التلحين والعزف يا مصطفي.

ابتسم في خجل كأن سره قد افتضح، ووضع الجيتار جانبا.. كان هذا هو النشيد القومي لشآبيب الذي سيكون هو السلام الوطني الدائم فيما بعد. سمعه (مكرم) وراق له.. إنه تلحين موفق لقصيدة الشآبيي الشهيرة:

زارت شآبيب الغيوث ديارنا.. فإذا (شآبيب) ارتوت بالصيب
فإذا الجبال اخضوضرت وترعرعت.. فالعيش في الياقوت أضحى مطلبي

طبعا عبارة (غينيا الجديدة) تم تأليفها مؤخرا لأنه لم تكن هناك غينيا جديدة أيام العباسيين.

في الوقت ذاته كانت الحفريات تدور على قدم وساق بناء على تعليمات (صفوان) بحثا عن آثار دولة الحارث بن مسعود.. كانت هناك بقايا مسجد الفيروز والقصر.. بقايا ابن الحارث... لا بد من وجود آثار تدل على هذا وعلى أن العرب وجدوا هنا..

جرى الحفر في عدة بقاع.. كانت هناك بقايا معبد لكن استخراجها برهن على أنه معبد وثني أقيم في زمن مجهول..

كان هناك عالم آثار عربي يدعى (مرزوق) راح يحاول جاهدا أن يجد شيئا. الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة طبعا هو (مكرم).. وقد احتفظ على وجهه بتعبير غامض من طراز (احنا طابخينه سوا).. لكنه كان يعرف أن هذا مهم جدا لتكريس الأسطورة... الأكذوبة التي صنعها هو وصفوت..

هكذا كانت الفرحة عارمة عندما وجد الرجال ذلك الإناء الفخاري.. عندما أزال مرزوق الغبار

بحذر، وطبع قطعة من الصلصال على الإناء كما يفعل علماء الآثار ثم نزعها.. استطاع الكل أن يروا زخرفة عربية لا شك فيها مع بيت شعر..

هذا الإناء عربي بلا شك، وهو مدفون هنا منذ قرون هلل الجميع فرحا وحملوا الإناء ليضعوه في بناية خاصة وأحاطوه بوسائد منعا لتهشمه..

قال مرزوق في شك وهو يتأمل الإناء:

- هذا ضرب من الخط المغربي لم يكن شائعا وقتها..

ثم نظف عويناته وقال:

أقترح أن يتم إرساله للولايات المتحدة لتقدير عمره بالكربون المشع..

هذه هي مشكلة العلماء الذين يصرون على الدقة في وقت لا يتحمل هذا... إن الغباء البشري لا نهاية له... قال (مكرم) في عصبية:

- هل أنت معنا أم ضدنا؟ نحن بحاجة للحماسة وأن نشعر الناس بالانتماء، وقد وجدنا ما يحمسهم، وأراك تقاتل كي تثبت العكس.

قال مرزوق بحياد العلماء:

- ليست الشوفينية هي أفضل سبيل.. الدقة العلمية مطلوبة سواء كانت معنا أو ضدنا..

لهذا تستمر الحفريات.. لكن تذكر أننا بصدد إنشاء دولة.. التخاذل يعتبر خيانة.

بالطبع كان (مكرم) يعرف جيدا أن معاونا له ابتاع الإناء من سوق في الصين وجاء به.. لا بد أنه انتزع ملصق (صنع في الصين) منه قبل أن يدفنه تحت التراب مباشرة.. طبعا لا بد من خطأ منطقي، مثل العملة التي كتب عليها (تم صكها عام 215 قبل المسيح!).. كيف عرف من صنع العملة أن هناك مسيحا آتيا؟؟؟

لكن العامة لا يدققون ولا يرون هذه الأخطاء المنطقية.. كربون مشع؟ ... اللعنة على الكربون المشع والعلماء كلهم!

استمرت الحفريات في حماسية لكن لا يوجد أثر واحد يدل على وجود مبان ومسجد هنا في القديم. فقط إناء خزفي ومسبحة.. البروفسور مرزوق لم يكن راضيا..

قال لمكرم وهو يتحاشى النظر لعينيه:

- حفرنا الأرض كلها في الموقع الذي يفترض أن تكون فيه شآبيب.. للأسف لا شيء... لقد بدأت أعتقد.......

اتسعت عينا (مكرم) غضبا وتساءل:

تعتقد ماذا بالضبط؟

- أعتقد أنه لا وجود لهذه العاصمة.. أعتقد أن القصة كلها أسطورة.. نحن لم نوجد هنا قط..

استشاط (مكرم) غيظا وسدد لكمة منذرة بقبضته لكتف العالم وهمس:

- صمتا!.... في هذه الظروف العصيبة يمكن لي أن أعتبر كلامك خيانة صريحة، لسنا في مجال الدقة العلمية.. بل إنني سأطلب ما هو أكثر.. سوف أطلب منك أن تلفق أثرا أو اثنين... لا بد أن يقتنع هؤلاء بأن لهم حقا تاريخيا في بابوا غينيا الجديدة.

قال مرزوق وقد شحب لونه:

- ولكن.. ولكن هذا مفضوح حتما..

- بالعكس.. من يجرؤ على التشكيك؟ فقط رتب لى سيناريو استخراج بقايا بناية وسوف نعلن أننا وجدنا مسجد الفيروز الذي هدمه العباسيون..

كانت (عبير) قد جاءت مع (سليم) بعدما أنهت عملها في المدرسة، وقررت أن يزورا منطقة الحفريات قرب الغابة، فرأت الرجلين يتكلمان..

(مكرم) يبدو صارما وغاضبا والعالم في حالة رعب... عم يتكلمان؟

من الدغل القريب خرج رجلان من المواطنين..

كانا عاريين تقريبا ويتكلمان بتلك اللغة الغريبة.. يطلبان السماح لهم بالدنو..

دنا أصغر الرجلين وهو شاب قوي العضلات يملأ وجهه بالأصباغ.. دنا على ركبتيه من (مكرم) وهو لا يكف عن الكلام.. ونظر له (مكرم) في دهشة..

كان (سليم) قد أجاد لغتين من لغات هؤلاء القوم، لذا ترجم ما يقال:

يقول إنك جئت من نسل الآلهة، لهذا هو عبدك.. وكل أسرته عبيد لك.

قال (مكرم) باسما:

- أستغفر الله.. إن دور الإله الوثني لا يناسبني...

تمادي الوطني فزحف أكثر، ثم مرغ وجهه في الغبار عند قدمي (مكرم) وراح يلثم حذاءه.. كان هذا أقوى من تحمل (مكرم) فتراجع للخلف قائلا:

- هلا كففت عن هذا الس..

لم يكمل العبارة..

نظر بغباء إلى النصل الذي غاب حتى المقبض في قلبه.. لم يستطع فهم أن الفتى قد كان يمثل دورا ليقترب منه أكثر من اللازم.. سقط منه السيجار... بصق دما وارتجف ثم هوي على الغبار.

لم يصدق أحد ما حدث. لم يتصور أحد أن (مكرم) يمكن أن يموت بهذه البساطة جوار الحفريات التي حاول القيام بها. جوار الأكذوبة التي يعرف قليلون جدا أنها أكذوبة.. المشهد الذي لم تعتده (عبير) قط.. أن يتحول رجل حي ينبض بالحيوية إلى جثة في لحظة واحدة..

الحارس الشخصي لمكرم أخرج مسدسه ليفرغه في رأس الفتى، لكن

(سليم) استوقفه.. لا تفعل... توقف..

- لا بد من أن يكون عبرة..

هتفت (عبير) وهي ترتجف:

عبرة؟.. عبرة؟.. ماذا تنوي عمله؟

ركل الفتى الجالس مستسلما على الأرض وقال باسما في وحشية:

- سأجعل منه عبرة.. لا مزيد من التفسيرات.

☆ ☆ ☆

16- ما بعد (مكرم)..

قفوا يا عرب وأطرقوا برءوسكم..

ابكوا بدمع ثخين ذلك الحالم الذي تبنى الفكرة ومولها وكتب عنها واقتادكم إلى هنا. إن (شآبيب) هي ابنة أفكار رجل واحد، وهذا الرجل جثة غارقة في الدم توشك على أن تغيب في الثرى. لم يكن أحد يتذكر دين (مكرم) ولا إن كان مسيحيا أو مسلما إلا في لحظات كهذه، عندما وقف قس يصلي على المتوفي. الحقيقة أن الجميع عرب مضطهدون حلموا ببلد واحد يجمعهم..

وهكذا غاب الرجل العظيم تحت التراب.. ووقفوا يكفكفون دموعهم..

لم يعرف أحد أنه كذب كذبة كبيرة، لكنها كانت كذبة أراد بها أن توحدهم وتوجد لهم بلدا من العدم.

على أن المشهد القاسي الذي حاولوا ألا ينظروا له هو مشهد الفتى القاتل، الذي علقه (سليم) على خازوق مرتفع ليراه قومه.. ليعرفوا ما يحدث لمن يتمرد على سلطة العرب.

كان ما زال حيا يتلوى ويطلب جرعة ماء.. لكن إعطاءه جرعة ماء يقتله فورا و(سليم) لا يريد هذا.. نفس الموقف الذي حدث ل (سليمان الحلبي) الذي وضعوه على خازوق بسبب قتله كليبر.

كانت (عبير) ترتجف رهبة وتقززا، وحمدت الله أن (ندى) لم تر ما حدث.

ابتعدت عن المشهد راجفة، قاصدة بيتها.

قال لها (سليم) إنهم سيقيمون تمثالا صغيرا ل (مكرم) في موقع الاغتيال. هكذا يصنعون تاريخا تدريجيا.. تتراكم الأحداث مع الوقت لتصنع ذخيرة للجيل الجديد.. يوما ما سيحتفل الشباب بيوم استشهاد (مكرم) ويضعوا أزهارا على قبره.. ربما يحتفلون يوما بغارة عيد بيج بل.. إلخ..

لم ترد عليه.

الحق أنها كانت مشمئزة من قسوته.

كادت تبتعد عن المشهد عندما سمعته يصيح:

- اصغوا لى!!!

نظرت للخلف فوجدت أنه يقف فوق صخرة عالية يطل منها على الرءوس.. صوته جهوري وشخصيته آمرة نافذة:

اصغوا لى.. هل هناك بينكم من يرى أنني لا أصلح لقيادة (شآبيب)؟ ... لو كان أحدكم يرى هذا فليتكلم الآن وهنا!

لم يتكلم أحد.. كانوا مرهقين مندهشين... هذا أسلوب عجيب لاختيار رئيس.. لا بد من

انتخابات يتم ترتيبها، لكنه فرض نفسه بطريقة أشبه بالمبايعة.. اختطف الموافقة قبل أن يستوعب أحد الأمر..

ابتعدت (عبير) أكثر وهي تسمعه يصيح:

- لم يعترض أحد.. إذن أنا القائد!!!

☆ ☆ ☆

دخلت بيتها الصغير الذي صار من قرميد وصارت له أبواب خشبية.. صحيح أنه بلا إضاءة كهربية ولا أجهزة، لكنها كانت تؤمن أنهم سيصلون لتوليد الكهرباء قريبا..

تشعر بالحر وقد امتزج العرق بالغبار، لكنها لن تستحم الآن.. لديها أعمال كثيرة، ثم إن الاستحمام هنا عملية معقدة تقتضي نقل دلاء ماء كثيرة من النهر. إلخ.

كانت (ندي) نائمة تحت الناموسية لحسن الحظ.. لا تعرف بكل الأحداث الدامية التي وقعت.

دخلت (عبير) المطبخ لتعد طعام الغداء، ففوجئت بالرجل الواقف هناك.. الرجل الوحيد الذي يمكن لها أن تراه واقفا في مطبخها فلا تصرخ أو تصاب بهستيريا.. المرشد طبعا..

أحضرت طنجرة وبدأت غسلها من دلو الماء الذي تملؤه من النهر يوميا.. استند هو إلى الخزانة التي تضع فيها الأطباق وقال:

- هل تنعمين بالمغامرة؟

- لا أرقص طربا من فرط السعادة.. إنها ممتعة لكني لم أحب عنف الأحداث الأخيرة.. كل هذا الدم..

ابتسم في خبث وقال:

- وهذا الحب الوليد مع (سليم)؟

- انتهى.. يمكنني أن أحب خنفسة لكني لا أتحمل القسوة..

تأمل أظفاره وقال:

- التجربة التي مر بها كانت قاسية.. هل تذكرين كيف صار الجوكر شريرا في قصص باتمان؟ طارده باتمان فسقط في مياه كيماوية حرقت وجهه وجعلت شعره أخضر.. صار قاسيا كالشيطان، وهذا التحول تم في لحظات..

- وباتمان بدوره قتل أبواه أمام عينيه لكنه صار نصير الحق والمكافح ضد الجريمة.

(سليم) قد مر بتجربة مشابهة.. لكنه ليس باتمان.. هو أقرب للجوكر.

واصلت تنظيف الطنجرة وقالت في عناد:

- في جميع الظروف.. هو روح مشوهة، وقد رأيت ما يخفيه من عنف.. لقد ذبل ما كنت أحمله له من حب وليد.. كان موشكا على أن يترعرع..

قال المرشد وهو يتجه للخروج من المطبخ:

- ما زالت الرحلة طويلة شاقة.. إن (سليم) سوف يمارس المزيد من سياسة العنف.. لاحظي أن (مكرم) كان يهدئه مثل قضبان الجرافيت في المفاعلات النووية.

كان هذا مقلقا فعلا..

لقد رأت كيف يرتكب (سليم) المذابح... الآن ليس هناك من يمنعه..



الأيام التالية صارت تكرارا لنفس السيناريو الدموي.. وفي كل مرة:

- لا بد لعمل العجة من صنع البيض، والولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر.

- لا بد من إشعال النار لصنع الحلوى..

إلخ..

(سليم) يتصل بالولايات المتحدة ليبلغ جوناثان بتطورات الأمور..

قال لجوناثان في رسالة نقلتها له مدمرة أمريكية:

- لقد تم انتخابي بعد وفاة (مكرم) وقد أقر كل العرب هنا بسلطتي.

علينا أن نرتب المزيد من الأسلحة لأنني أحمل نوايا توسعية، كما أن الوضع هنا يزداد خطرا وروح المقاومة تتنامى - شبكة الطرق تتحسن وقد أنشأت مصنعا صغيرا أو مصنعين.. غير أننا سنظل نمارس الزراعة لفترة، خاصة أن الجزيرة خصبة فعلا. سنقوم بالتصدير.. على أن نتقاضى الثمن من الأقمشة والمصنوعات والأدوية المختلفة.

كان يدرك أن طريقه شاق جدا... لا بد من عمل نظام مصرفي وطباعة عملة، كما أنه بحاجة إلى استخراج الحديد والألومنيوم اللذين اشتهرت بهما الجزيرة للتصدير..

لا بد كذلك من إدخال شبكة اتصالات هاتفية..

تبا!.. الطريق طويل جدا..

وبدأت الحملات على قرى القبائل المجاورة.. نفس الأحداث تقريبا.. حرق الأكواخ.. قتل الرجال بالرصاص.. فرار النساء والأطفال.. بدء تعمير المكان وإنشاء سور خارجي للحماية مع حراسة ثم بناء بعض الوحدات السكنية، وبالطبع تربية المواشي التي تركها البدائيون في فرارهم..

كان هناك قوم من البدائيين رضخوا للقوة وانضموا للعرب، ومنهم كانوا متحمسين في صداقتهم فعلا.. ألجيم تير.. ونتا جارا.. كومبي كونديكا... بالانتينا روساا... ييريما..

تعرفهم على الفور بشعورهم الرمادية المجعدة ونحولهم وأقدامهم المغبرة والشحوب الواضح في سحناتهم..

إن رقعة شآبيب تتسع.. لا شك في هذا.. والمستعمرون يزدادون قوة..

لكن الخلافات كانت في الأفق، وبدا أن إرادة الفشل موشكة على الانتصار..

☆ ☆ ☆

17- سليم يخطب..

كان مسجد الفيروز الجديد يرتفع ببطء..

مساهمات المسلمين في الخارج ساهمت في بنائه، وكان في ذات الموضع الذي قيل إن المسجد القديم يحتله، بالواقع لم يكن هناك سوى اثنين أو ثلاثة يعرفون أنه لم يكن هناك مسجد هنا قط. بالطبع كان مرزوق عالم الآثار يعرف جيدا الآن، لكنه لم يجسر على الكلام..

استمرت (عبير) في التدريس.. وكان تلاميذها يكبرون، كما أن الجيل الأول من الأطفال ولد في بابوا غينيا الجديدة.... هؤلاء هم المستقبل بالتأكيد..

كان (سليم) قد انتهى من عمل جواز سفر لشآبيب.. وإن كانوا بحاجة للاعتراف بهذه الدولة الوليدة أولا وقبولها في الأمم المتحدة.

استعان بأحد أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولي ليسترشد به كي يعرف كيف تصير دولة معترف بها. طبعا لا بد أن تستتبع هذه الخطوة وجود سفارات. المهم ألا تتوسع لدرجة تهدد الجزء الإندونيسي من الجزيرة.

بدأت المجتمعات الزراعية تزدهر.. إن الجزيرة خصبة بشكل لا يوصف.. وبدا التصدير..

كانت (عبير) تقف عند الشاطئ تراقب عملية تحميل سفينة بإنتاج المستعمرات من الموز، وكان العمال من الأهالي يتعاونون مع العرب..

فجأة سمعت صخبا ثم رأت رجالا يتبادلون اللكمات والسباب.. رأت دما ونصلا يلمع... ثم رأت جسدين على الأرض..

لم تكن هناك شرطة في شآبيب بعد لأن التفاهم كان تاما ولا أحد يملك ثروة أو نفوذا، لهذا كانوا يعتمدون على العقلاء بينهم ليلعبوا دور الشرطة.. وقد تدخل العقلاء ليفصلوا بين المتعاركين، واضطروا لاستخدام العنف..

ظهر (مصطفى) الشاب قصير القامة صديق الأسرة قديما، وراح يضرب كفا بكف.

سألته عما هنالك فقال في حسرة:

- العمال القادمون من أوروبا يتشاجرون مع العمال القادمين من أفريقيا.. الكل عرب، لكن هناك عربا يعتبرون أنفسهم في مكانة أعلى.. عربا أكثر... حدث احتقان وشجار أدى لمقتل عربيين.

هل داء الاقتتال العربي - العربي قد وصل إلى هذه الأرض البكر؟ سيكون ذلك تعسا جدا لو حدث. تستبعد ذلك لأنه أسوأ من أن يقع.

لكن الأمور صارت أعقد مع الوقت.

لم يكن يوم يمر يوم من دون مشاجرة لأسباب دينية أو عرقية.. ومع الوقت اضطر (سليم) لتكوين قوة شرطة لحفظ الأمن.. الغريب أن المشادات لم تكن تمس الأهالي.. كانت تمس العرب فقط.. ومع الوقت سقط عشرون قتيلا لأسباب متعددة..

الأخطر ما قاله (مصطفي) ل (عبير) من أن بعض العرب استعان بقوات من الأهالي لمحاربة خصومه..

جاء اليوم الذي أعلن فيه (سليم) عن إلقاء خطاب..

المكان المختار لإلقاء الخطابات هو دائما النصب المجاور لمقبرة (مكرم). بالطبع لم تكن هناك وسائل إعلام تنشر الخطاب لذا كانوا يعتمدون على النقل الشفوي للمعسكرات المجاورة.

وقف (سليم) ساكنا وهو ينظر للوجوه كاسف البال، ثم ابتلع ريقه وتنفس في عمق.. قال:

- هذه لحظة قاسية على نفسي.. لا يمكن القول إنني سعيد أو أنني كنت أتوقع أن أقف هذه الوقفة. لقد ضاعت حضارتنا العربية فيما سبق بسبب رفض الآخر وتصفية الحسابات والاقتتال العربي العربي.. كان العالم كله يتحرك ونحن مصممون على تصفية حساباتنا أولا.. ولم تأت تلك اللحظة قط.. صراع بين أتباع الأديان السماوية.. ثم صراع بين أتباع الدين الواحد.. صراع بين البيض والسمر.. صراع بين الأغنياء والفقراء صراع بين الجنوبيين والشماليين.. صراع بين مشجعي فرق الكرة.

ثم شرب جرعة ماء من زجاجة يحملها وقال:

- عندما جئنا هنا حسبت أننا سنبدأ صفحة جديدة من الصفر.. ظننت هذه الخلافات العرقية بعيدة عنا، وأن أمامنا هدف واحد هو أن تكون (شآبيب) دولة.. لكنكم أخرجتم معاولكم لتضربوا بعض، وهذه المعاول انهالت على دولتنا الوليدة..

صاح أحد الواقفين:

- لم نكن من بدأ.. هؤلاء القادمون من شمال أوروبا هم الذين....

قاطعه (سليم) في حزم:

- أنا من أفريقيا.. كنت في ليبيريا وقد قتل المتعصبون زوجتى وطفلي أمام عيني.. لهذا صممت أن أصنع دولتي الخاصة.. ولهذا أضع يدي في يد القادم من الشمال، وفي يد من يخالفني في الدين واللون ما دام عربيا مثلي.

قال أحد الواقفين في عصبية:

- أنا وهو عربيان مسلمان ولدنا في اليابان ولنا نفس اللون.. لكننا مختلفان في الرأي، والنتيجة هي أنه ضربني بهراوة أمس..

- كفي!

صاح (سليم) في عصبية وعيناه تتقدان نارا:

- كفي!.... القبائل تترصد بنا ويرقصون رقصات الحرب كي يفتكوا بنا انتقاما.. وهناك جبل من التحديات، بينما أنتم تضيعون الوقت في هذا السخف!

ثم لوح بإصبعه مهددا:

- سيكون عقابي شديدا لو عاد هذا الهراء ليفسد مجتمعنا..

كان من الواضح أن طابع الخلاف والانقسام بدأ يتسرب إلى هؤلاء المهاجرين.. مشكلة العرب الدائمة هي أنهم لا ينتظرون حتى يثبتوا أقدامهم على أرض إلا ويبدءوا الخلاف.. ومن ثغرات الخلاف يتسرب الخصوم ليقهروهم... السيناريو العمل الذي لا يكف عن التكرار...

☆ ☆ ☆

18- الدمار..

عندما بدأت الاهتزازات الطفيفة في الأرض تحت الأقدام، توتر الجميع ووقفوا يتبادلون النظرات.

قال (سليم) بصوت عال:

- هذا متوقع.. إن الزلازل أمر مألوف هنا.. نحن في زحام زلازل.

ثم جلس على الأرض وصاح:

- إن هي إلا لحظات سريعة مرعبة وينتهي كل شيء.

لكن (منصور أحمد) العالم الجيولوجي العربي، الذي كان يعمل مع هيئة يابانية مهمة قال في قلق:

- لا أفكر في زلزال.. لا تنس أن هذه جزيرة بركانية.. أنا أفكر في بركان خامد..

من جديد ساد القلق.. أن تنتظر وأنت لا تعرف ما يجب عمله..

في الصباح كان البخار الأخضر يملأ المكان.. بصعوبة ترى قدميك والأرض... بخار يحرق العينين ومن الواضح أنه من أول أو ثاني أكسيد الكبريت.. التنفس عسير والسعال لا يتوقف..

راح القوم يتصايحون ماذا يحدث؟.. هل هي القيامة؟ هل هذا هو الضباب الذي هو من علامات الساعة؟ هل يلي هذا شروق الشمس من المغرب؟

كانت الأرض ترتج تحت الأقدام عندما اعتلي منصور صخرة عالية جوار الضريح، وصاح في الواقفين المذعورين:

- هذا هو النذير.. الغاز والبخار الذي يسبق انفجار البراكين.. إن البركان يمنحنا أسبوعا..

صعد (سليم) جواره وسأله بصوت عال وهو يواجه الجماهير:

- أسبوعا لماذا؟

لمغادرة الجزيرة..

- ولو لم يحدث؟

سينفجر البركان.. ستسيل الحمم لتغمر كل شيء وتغرقنا.. ستذوب قرانا ومبانينا وأجسادنا... ستغمر الحمم أراضينا..

تعالت صيحات الرعب واحتضنت (عبير) طفلتها.. كان الكل يسعل والكل محتقن العينين..

شآبيب سوف تحترق وتغمرها الحمم.

قال (سليم) في حزم:

- لا مشكلة.. سوف نزحف إلى الجانب الآخر من الجزيرة.. الجانب الإندونيسي.. ثم ننتظر حتى يهدأ البركان.. بعدها نعود.. هكذا عاش هؤلاء القوم من خمسين ألف سنة.

- وما بنيناه؟ ومزارعنا وبناياتنا؟

- سوف نبني كل شيء من جديد

قال (منصور) مصححا:

- الجانب الآخر من الجزيرة يتعرض لتيارات تسونامي لا توقف.. هذه مخاطرة لا شك فيها.

كان الحشد يمتد للأفق، وقد أصغى الجميع لما يقال وسط السعلات..

وكان هناك أكثر من واحد ينقل الكلام للصفوف الخلفية على طريقة صلاة الجماعة..

قال (سليم):

وهل تقترح شيئا آخر؟

قال (منصور):

بالتأكيد سوف تصل سفن الأسطول لتجلى الجزيرة.. أقترح أن تترك للناس الخيار.. من أراد أن يبقى هنا ومن أراد الرحيل فليرحل. لا ترغم أحدا على شيء.

☆ ☆ ☆

البخار الأخضر كان يتصاعد العنان السماء، والرائحة تخنق الصدور بينما الهزات الأرضية تتزايد.. من البركان تصدر أصوات تذكرك بالرعود..

البحر مليء بالسفن.. يشبه الأمر صورة يوم الغزو (اليوم) التي تراها في أفلام الحرب العالمية الثانية، قبل عملية الإنزال على (نورماندي).. لكن هنا يختلف الأمر.. لا يوجد إنزال بل (إركاب)!

صفوف من العرب تتجه إلى صنادل سوف تنقلهم إلى السفن..

على الأرجح سيتم نقلهم إلى جزر (سليمان) القريبة لفترة إلى أن يهمد البركان.. فم الطبيعة الغاضب المتوحش الذي لا يكف عن قذف الشتائم.

المشهد درامي غاية في الضخامة... لا تصدق (عبير) قدرات خيالها (الإنتاجية) السخية.

تتجه في الصف حاملة متاعها القليل على ظهرها، وممسكة بيد (ندى).. تجفف عبرة سالت من عينها.

هناك على الشط وقف (سليم).. للمرة الأولى ترى التأثر في عينيه.

ملامحه توشك على التشقق من فرط ما ظلت بتعبير جامد قاس. نظر لها ونظرت له.

سألها:

مصرة على الرحيل؟

- نعم.

سوف تعودين عندما يهمد البركان؟

- لا... هو رحيل نهائي.

ولم تطل الكلام وساعدها بحار على اجتياز الماء الضحل، ثم الصعود إلى القارب، وساعد (ندى) بدوره. لم تنظر للخلف.. فقط عندما ابتعدت نظرت لترى البركان الهائل يرتج والدخان يزداد كثافة، وفي الضباب تدرك أن (سليم) ما زال ينظر لها..

وداعا يا شآبيب.. لن أراك ثانية.

☆ ☆ ☆

من خطاب سليم لجوناثان راينهارت

عزيزي جوناثان

للأسف تفكك ذلك المجتمع الذي حاول (مكرم) صنعه في بابوا غينيا الجديدة، وحاولت أنا أن أستكمله..

الفكرة هنا أنه نشأ على أكذوبة.. أنا عرفت هذا. العرب لم يكونوا قط في غينيا الجديدة ولا الأوقيانوسية وليست لديهم بقايا مسجد أو أطلال. هذه قصة تم تلفيقها بالكامل. لا يمكنك أن تقيم بناية كاملة شامخة فوق وهم.

المبدأ ذاته يقوم على الاستعمار الإحلالي، وكما قال (مكرم) في رسالته لك: العروس جميلة لكن لها زوجا!. يجب أن يتم محو هؤلاء السكان وتذويبهم في مجتمعنا، وقد حاولت هذا جاهدا لكن العرب الذين معي لم يساعدوني.. كانت هناك دوما اعتراضات بحجة الشفقة أو الرحمة، بينما إنشاء دولة على بقايا مجتمع آخر عملية جراحية لا تتطلب أي قدر من الرحمة.

معنى أن يبقى معظم سكان بابوا غينيا الجديدة أن تحاول إقامة دولتك وسط محيط معاد. وهي محاولة لا يمكن أن يكتب لها النجاح.

ما حدث مع إسرائيل بالضبط. من الصعب أن تستمر هذه الدولة في محيط معاد مهما طال الزمن.. خاصة أنها تعتمد على وهم لإثبات حقها..

تجربة أستراليا والولايات المتحدة نجحت لأن المستعمر نجح في إبادة شعب كامل..

فشلنا كذلك بسبب الخلافات العرقية والدينية.. مشكلة العرب الدائمة هي صراعاتهم الداخلية.. والوهم الذي يعتقده كل فريق أن بوسعه إبادة الفريق الآخر، وبعدها يحارب الأعداء.. بالطبع هذا وهم.. القتال يستمر للأبد ولا ينتهي أبدا بينما يزداد الخصوم قوة.

لم أستطع حل هذه المشكلة قط..

أما آخر العوامل فهو الأرض المعادية.. بابوا غينيا الجديدة بلد معاد جيولوجيا، كله براكين وزلازل وموجات تسونامي... أما من الناحية البيولوجية فهو معقل أمراض معدية..

البركان قد دمر كل ما شيدناه في الأعوام السابقة وعلينا البدء من جديد. والفكرة قد حطمت أعصاب كثيرين ففضلوا الرحيل بلا رجعة.. بعضهم عاد لوطنهم الأصلي.

الشعور العام لدى هؤلاء أنهم سيعودون لأرضهم القديمة للعالم العربي الذي احتله الغرب، سيبدءون من هناك ويستردون ما كان لهم.

عندما يطردني أحدهم من بيتي فليس على أن أبني بيتا جديدا بل على أن أستعيده..

أعترف أنني فشلت يا مستر راينهارت..

ربما أمكن أن تصحو الفكرة من جديد مع واحد آخر غيري، فما زال هناك عرب على الجزيرة، لكني بالتأكيد لست صالحا لقيادتهم. شكرا لك على عونك لنا.

سليم علوى أبو زهرة



تمشي (عبير) مع (ندى) والمرشد مبتعدين. لا تعرف المكان جيدا لكنها ترى نهرا أسمر وتري هرما من بعيد.. لم تكن قد رأت مصر على الإطلاق في هذه القصة وقد ولدت في النرويج، لكنها استطاعت أن تعرف مصر وأن تشعر بالألفة.. سوف تبدأ هنا من جديد..

لقد انتهت تجربة شآبيب، ويمكن القول إنها لم تكن ناجحة جدا..

في القصة القادمة تجرب (عبير) القيام برحلة صعبة على طوف مع مستكشف نرويجي اسمه ثورهايردال. انتظروا (عبير) في قصة (كونتيكي).

(تمت بحمد الله)

نادي المحاربين الجدد

أحاول دائما في هذا الباب أن أختار الخطابات القديمة أولا، والحقيقة هي أن الأعمال صارت كثيرة لدى لدرجة لا تسمح بإعطائها حقها، لكن هذا الخطاب وصلني منذ أيام لصديق طالب في كلية الهندسة بجامعة القاهرة واسمه عمر طلعت. وجدت القصة ناضجة جدا كما أنه يسيطر على اللغة العربية جيدا - وهذا شيء نادر في عصرنا هذا - والجو إلى حد ما يحمل لمسة من جو (الشحات) لنجيب محفوظ، والعنوان نفسه يوحي بنضج أدبي لا أعرف كيف أصفه لأنه لا يمكن التعبير عنه. لهذا شعرت أنني بحاجة لمشاركة القصة معكم:

ثم أقرأ عن التصوف

ضع جنيها واحصل على كرة بلاستيكية، رأيت هذه الجملة مكتوبة على آلة تحمل العديد من الكرات البلاستيكية الملونة في ركن من أركان الدور الثاني في أحد المولات الكبيرة.

منظر الكرات مغر لأعين الأطفال التي تنجذب للألوان انجذاب المعادن للمغناطيس. نمر نحن الكبار بجانب الآلة غير مكترثين، لا تجذبنا الألوان ولا الكرات، ثم نمر أمام محال أخرى بها من المتاع الكثير ولكنه متاع لا نحتاجه حقا، ولكننا نكترث. وفي أوقات عديدة تصل درجة اكتراثنا لأن ننهمك في الشراء بمبالغ وهمية من جيوبنا وأوقاتنا من أجل شيء ليس مهما على الإطلاق.

جلست في مقعد قصي في الدور الثاني ذي المحال الفارهة التي أرتادها دائما، أرتاح من تعب التسوق ومن تعب تدفق الأفكار. أعلم أنهم يستغلوننى، وأني لا أحتاج كل هذا لأعيش، يكفيني القليل فقط لأعيش راضيا، ولكن اتخاذ قرار حاسم بهذا الشأن ليس بهذه السهولة.

دائما ما تعجبنى تجارب من استطاعوا التخلص من قيود حياتهم، من عرفوا ما يحتاجونه حقا وما يهم. الأمر يتطلب شجاعة لا أملكها، أنا أهتم بآراء من حولي، بشعورهم تجاهي، برؤية أسرتي لي، لا أريد أن يرى ابني أني أقل من آباء زملائه، لا أريد أن يركب مرءوسي سيارة أفضل من سيارتي ولا أن يرتدي بدلة أفخم من بدلاتى ذات المبالغ التي تحتوي أصفارا يعلم الله وحده كيف قبلوا بوقاحة أن يجاورا بعضهم بعضا بعددهم هذا ليشكلوا هذا الرقم.

يقولون إن البؤس وأنت تقضي إجازتك في أفخم منتجعات العالم أفضل من البؤس في أي مكان آخر، ولكن هذا ليس صحيحا أبدا. البؤس واحد في أي مكان.

وجودك في أفخم منتجعات العالم لن يخفف عنك إذا فقدت عزيزا ولن يقلل بؤسك إن شعرت بالوحدة. بالتأكيد أفضل الغنى على الفقر، وبالتأكيد أكن كل احترام وتبجيل لأفضل المنتجعات وما تقدمه من رفاهية لا أستطيع التخلى عنها، وبالتأكيد أحب أوقاتي هناك، ولكني عندما شعرت بحزن حقيقي، ذلك الحزن الذي يهزك هزا كريح صرصر عاتية فتخور قواك، ثم يضرب ضربته القاضية فيقتلعك من جذورك فلا تملك أن تقاوم، ثم يقوم بحركته الأخيرة فيطوحك في الهواء فتشعر أنك بلا وزن، بلا جاذبية، معلق في الهواء فلا تملك الطيران ولا تملك العودة إلى الأرض، ثم ينتشر الخدر في جسدك وعقلك وإحساسك، فتشعر بنقص الهواء الذي يدخل

رئتيك، ورغبة في الابتعاد، وزهد في الحياة.. هذا الحزن عندما ضربني علمت أن كل ما أملك ليس ذا قيمة، إطلاقا.

حياتي العاطفية انتهت منذ سنين، عندما استحال زواجي لزواج رسمي بين اثنين من عائلتين غنيتين. بعد سنتين أو ثلاثة لا أذكر تحديدا، أصبحنا كنزلاء فندق لم تجد إدارة الفندق غرفتين شاغرتين لهما فحشراهما في غرفة واحدة مضطرين كارهين.

أما أولادي فلا أراهم تقريبا. فإما أنا في العمل، وإما هم بالخارج.

نشئوا وتربوا في غيابي فاعتادوه، وألفت أنا غيابهم عني. أصبحت كقريبهم من بعيد، ذاك السخيف الذي يرونه في المناسبات فيقرصهم من خدهم قائلا بلزاجة: كبرت يا حبيبي، ثم يحيلهم لزوجته التي تحتضنهم وتقبلهم وهي تقول كلاما عن أنها رأتهم منذ كانوا في اللفة وما إلى ذلك من دروس التاريخ.

أشعر أحيانا أني سجين، سجين عملي ومنصبي ومكانتي الاجتماعية، سجين في بيتي، في سريري، استحال العالم سجنا ومكانتي وعملي كلاهما سجانا لعينا.

أحيانا أقرأ عن التصوف، فأتيه في دروبه، وأهيم بنصوصه، وأبجل رجاله. ثم ما ألبث بعد دقائق أن أدرك أني لست زاهدا، لست محبا بلا مقابل، لست نقيا، لست متجردا، لست مستسلما للإرادة العليا للكون، أحب أن أتصارع، أن أملك، أن أدخل المعارك وأفوز بها. فأدرك أني لست أهلا له، وأن أمامي الكثير للوصول، بل إني قد لا أصل أبدا، فأبكي، ثم أعود لقراءة قصيدة عن العشق الإلهي فتنهمر الدموع أكثر، يا ربي أريد هذا العشق الدافئ، أريد دفئا في هذه الحياة قارسة البرودة، تجمدت أوصالي يا إلهي من البرد فهل من بردة أرتديها؟ بردة عطفك وفيضك، هل لي من نصيب؟ وعندما لا أتلقى إجابة، أدرك أني لست أهلا له. فتأتيني زوجتي وأنا في قلب معركتي الوجدانية، فتباغتني بأمر سخيف، فأرد عليها بأن امكثى مكانك إني آنست نارا، لعلى آتيكِ منها بقبس أو أجد على النار هدي، فأنتظر أن تكون كزوجة موسى وتنتظر، ولكنها تفضل سلوك زوجة لوط، فأفكر في أمر الله للوط بترك زوجته والذهاب بعيدا عن قومه بعدما لاقى منهم، فأعزم على الذهاب، ثم أتذكر أني مكبل بماديات الحياة وأن روحي ليست بخفة المتصوفة الكرام، فتشتاق روحي لأقوالهم، وأعزم سلك دروب التصوف، ثم أعود لأدرك أني لست أهلا له، ثم أعود، ثم أقرأ عن التصوف.

أفقت من تأملاتي في مقعدي القصى على صوت طفل من آلة بيع الكرات يدنو، رأيت في يديه جنيها فأدخله الآلة، صدر صوت خفيض منها ونزلت كرة تتدحرج في ممرات داخلية، راقبها الطفل بعيون تقطر شغفا كأنه سيتلقى مال الدنيا، تحرك قلبه مع حركتها، وتبعت عيناه نزولها وألوانها الزاهية، خرجت الكرة فتناولها بسرعة وجري، راقبته وهو يتجه لأبيه مسرعا فيحتضنه أبوه بلهفة ودفء وعينا الطفل تشعان سعادة، فأجد نفسى أقوم مذهولا وأخرج جنيها من جيبي، فتقودني قدماي للآلة ذات الكرات البلاستيكية الملونة، وأرى الورقة المكتوب عليها ضع جنيها واحصل على كرة بلاستيكية ، فأمتثل للأمر كأنه صادر من الله، فأضع جنيها وأنتظر كرتي لتنزل كأنها الخلاص، فالتقطها، ثم أمشي إلى باب المول مزهوا بانتصاري.

عمر طلعت – هندسة القاهرة

☆ ☆ ☆

صديقة أخرى اسمها مريم عطا أرسلت لي بعض أعمالها. القصص طويلة وأقرب إلى أن تكون قصائد نثرية.. القصيدة / الخاطرة المذكورة هنا راقت لي، برغم أنها تتمنى بشدة أن يملك المرء القدرة على تناسخ الأرواح. الفكرة غير ملائمة جدا دينيا لكنها كقصيدة نثرية مكتوبة جيدا.

ماذا لو تعلمت روحك الدرس؟

كنت أفكر كم يستطيع أن يذنب الإنسان؟

أو كم يستطيع أن يفرح؟

كم يستطيع أن يكره؟

كم يستطيع أن يحب؟

كم يستطيع أن يعيش؟

ما هي الحدود المتعارف عليها التي تستطيع أن تستند عليها لمعرفة الإجابة؟

ماذا لو تعلمت روحك الدرس قبل حتى مولدك

ماذا لو خلقت روحك قبلك في جسد غيرك

ماذا لو لم تكن هذه حياتك الأولى

ماذا لو كانت تلك فرصة أخرى لروحك

الله برحمته خلق العلم وخص لنا النسبة الصغرى منه

فلا جدال بين مخلوق وخالق ولكن

ما محدودية المعرفة بذلك العلم

أترك لخيالك لتتخيل ماذا لو لم تكن تلك حياتك الأولى

ماذا لو لم تكن هذه أول مرة تحب

أول مرة تكره

أول مرة تتألم

أول مرة تفرح

ماذا لو كانت تلك حياة أخرى تعيش

ماذا لو كانت روحك تسكن جسدا قبلك

والآن أعطيت فرصة أخرى

ماذا لو تعلمت روحك الدرس

فلتتخيل مثلا لو كنت شابا في العشرينات عاش لهدف وتعلم وتخرج من إحدى الكليات التي

يختلف والده عن أهميتها وتصادمت معه الحياة كثيرا

فاحب ولكن فشل كما فشل كثيرا ولا أهمية لذكر الأسباب

ولكنه استسلم لمن أغواه

ورسم له الشيطان إحدى لوحات الهروب

وتزينت له المخدرات بإحدى الجميلات التي لا يفك عن ذكرها

وتم العشق

والزواج الأبدي

ومات

وصعدت روحك في السماء وظل جسدك ينادي تحت التراب

ماذا لو تعلمت روحك الدرس وعدت؟

يمكن أن يعطى الرحمن فرصة أخرى لروحك لتسكن جسدا غيرك

فلتتخيل

روحك الآن في طفل داخل رحم أمك ربما لم يعطى لروحك الأذن لتتذكر الآن

ترى في عيني ولديك الفرحة التي لا تعرف لها سببا

وليتك علمت أن روحك بعثت من جديد

تظل تكبر وتتعلم ويبقى الدرس الذي تعلمته روحك بداخلك لا تعلم لم

لا تحب التدخين ولم لا تطيقه

لم لم تجرب أو تشتهي

ربما لأن روحك تعلمت الدرس

فلتتخيل

هذه الشابة التي تتمايل محاولة لترضي الجمهور الثمل الذي صار يأتي يوميا لرؤية بعض الثنايا من ذاك الجسد الذي كتبت عليه الدنيا وحاولت صاحبته إخفاء ما تحاول الدنيا أن تتفاخر بما فعلته بتلك المسكينة

فلتتخيل هذه الجميلة التي يبغضها المجتمع ومشى في جنازتها شخص واحد لم يعرفها حقا ولكنه تبرع بدفنها لا يعرف السبب أحس بروحه لم يسأل عنها أو اسمها

ربما فقط أحس بروحه تجذب ناحيتها

فقام بدفنها

فتخيل أن دفن الجسد وبعثت روحها

وتعلمت روحها الدرس؟

فبعثت فداخل رحم لا تعرف رحم من ولا تابت لذاك إنها فرصة أخرى

ووجدت في عيني ذاك الأب حنانا ليس كمجرد أب

ولكنها دائما تحس أنها تعرفه من قبل ذاك

إنه كان بجنبها يوما ما

ساعدها يوم لم تجد غيره

ربما فقط تحس بلحظات أو ما يسمى بالأحلام

أو الديجافو

تكبر الفتاة وتجد نفسها تنفر من الرجال لا تعلم لم ليس في ذاكرتها

ما يسيء لهم

وأبوها خير مثال فهي حقا تحب أباها حقا ولكنها تخاف الرجال

وتبغض جسدها حقا

تتجه لتعاليم الدين الحنيف لتصبح يوما إحدى علماء الدين

وكان أول مبادئها ما تعلمته من أبيها

عليك أن تتعلمي أن تشكري الله إنه لم يبتليك بعد

كانت تتذكر هذه الكلمة عندما يُسأل أبوها عن التدخين

وماتت وكانت جنازتها أكبر الجنازات في المدينة

ربما تعلمت روحها الدرس

فلتتخيل كل من حولك

من كانوا قبلا

ومن سيكونون بعد

تضرع لله أن تتعلم روحك الدرس

فالجسد سيبلى عاجلا أم آجلا

فلتتخيل أما عاقرا

كم كان لها أطفال قبلا

وتمنت العكس

ولكنها لا تعلم بعد

فلتتخيل عاهرا

من كانت قبلا

ربما غفلت روحها من ذاك الدرس

فلتتخيل قديسا أو شيخا

كم كان عصيا قبلا

وتعلمت روحه الدرس

فلتتخيل عبقريا أو عالما

كم من الجهل كان

وروحه تعلمت الدرس

فلتتخيل فقيرا

كم كان غنيا

وكره الغني

وروحه تعلمت الدرس

ستعيد النظر الآن فمن كنت

ربما عليك أن ترضى لأنك لا تعلم في حياة قبل ذاك من كنت وكيف كنت تعاني

ربما ستعيد النظر في كل ما تري

ربما عليك أن تتعلم الدرس

ربما عليك أن تترك الحكم لله وحده لا شريك له

ربما عليك أن تتضرع لكي تتعلم الدرس

ربما عليك أن ترضى بما قطع لك

في بعض الأوقات تجد روحك تتجه لشخص ما

لا تعرف السبب

ولا تحاول معرفة

تجد الحياة لها معان بذكراه

وتعجز التخيلات عن البحث عن أحلام تخلو من ذكراه

لا تحاول أن تجد أسبابا لحبك سواء أن روحك

تجذب له

عليك أن تتيقن

ربما روحك تعلمت الدرس

فلا تقلق.

تتشابك قصصنا وسنعود سويا يوما ما يا من فقدت يوما

ربما لن تعرفوني

ولن اعرفكم

ربما لن نجد أسبابا

ربما لن نحاول

ربما لن نعرف لماذا

ربما أيضا لن نسأل

سنكتفي لنذكر دائما

ان روحنا حقا تتشابه

ربما تكون روحنا تعلمت الدرس

فلا تيأسوا

سنعود يوما.

فلا تندم على ما قد فقدت في هذه الحياة ربما ذاك ما كنت تمنيت فقدانه في حياة أخرى

ربما قد تعلمت الدرس

فلا تقلق

أنت لا تعرف ذلك بعد

ربما ما تحلم به الآن سيكون درسا

روحك ستتعلم منه قبل بعثتها الثانية

أعتقد أن الأحلام ما هي إلا رفاهية

لأن ما لديك من مشاكل سيعجز تفكير بالبحث عن الحلول

حتى ستصبح الحلول يوما ما أحلام وسيكتفي بهم عقلك كأفضل غاية

لعل روحنا ستجد الطريق يوما ما، لعل روحنا ستتعلم الدرس

☆ ☆ ☆

في النهاية قصة غريبة جدا للصيدلي (رامي قطب).. لم أستطع فهم هل هو يتكلم بجد أم هي

مزحة؟ ولو كانت مزحة فلماذا لم يمهد لها؟ لأن القصة تبدو جادة جدا في البداية ثم تتحول لمزاح.. فجأة صارت فصلا من رجل المستحيل ومطاردات ومدافع رشاشة. توقعت أن تأتي الدعابة في آخر فقرة لكن شيئا لم يحدث. يبدو أن هذا ما وقع فعلا... اقرأ القصة وقل رأيك

ثعلب الإسكندرية

صيدلي/ رامي قطب

لحظة سعيدة أراد أن يمسكها في قلبه أطول فترة ممكنة.. أغمض (هادي) عينيه مبتسما وهو يجلس بجوار زوجته عند الكورنيش..

كم تمنى هذه اللحظة منذ سنين.. ها هي هند قد أصبحت له وحده.. لا يفرقهما شيء.. صارت مثلما يريد تماما في كل شيء..

كان ممتنا جدا لهذه النعمة ونسيم البحر يداعب وجهيهما فيلتفتان ويضحك.... ترررررررررررن

إنه هاتفها أيقظهما من هذا الحلم الجميل.. نظرت إلى الهاتف «رقم غريب...»

لا بأس، هاتي أرد أنا.. أعطته هاتفها فرحة برجلها..

- السلام عليكم..

رد صوت رجل:

- ألو.. أليس هذا هاتف هند؟

احمر وجه صاحبنا وقال: من المتحدث؟

- أنا صديقها (عمرو شعبان)، ممكن أكلمها؟

انتزعته هذه الكلمة من كل سعادة فيه، رد باقتضاب تأكد من الرقم يا أستاذ!

نظرت إليه هند بفضول وعلى شفتيها ابتسامتها كما هي «من يريد من؟»

كان صاحبنا قد تغير وجهه فأجابها بسؤال: تعرفين رجلا اسمه (عمرو شعبان)؟

قالت: نعم (عمرو) هذا كان زميلي في الجامعة!

وكيف حصل على رقم هاتفك الجديد؟ ألم نتفق على أنك لن تكلمي رجلا غيري وأباك وأخاك؟ أنا أغار عليك يا هند ألا تفهمين؟

تضايقت من أسلوبه وقالت بلى ولكن (عمرو) هذا مجرد زميل ربما حصل على رقمي من إحدى صديقاتي، أنت تضخم الموضوع كالعادة!

واختفت الابتسامة من على شفتيها..

هدأ هو قليلا وقال في نفسه (لعلى فعلا بالغت في ردة فعلي) فاعتذر لها وقال لا بأس دعينا

ننسى ما حدث.. آآآ.. انظري إلى البح..

فجأة أتى صوت عن يمينهما ينادي «هند؟»

التفتا فإذا شاب قوي البنية مفتول العضلات يرتدي سروالا قصيرا وقميصا ضيقا مفتوحا.. يأتي تجاهها وهو يضحك ويمد يده للسلام عليها، فاحمر وجه (هادي) والتفت إلى (هند) بتحفز منتظرا رد فعلها، فوجدها قد سلمت عليه وقالت شلبي كيف حالك؟ لم أرك منذ سنين.

قام (هادي) من مقعده ليتدخل وقد تملكه الغضب فإذا بصوت من الناحية الأخرى لشابين آخرين يقولان معقولة! دادا! كيف حالك وما الذي أتي بك إلى هنا؟ ضحكت هند وكأن هادي ليس موجودا بالمرة وقالت حسين، ياسر، كيف حالكما هذا شلبي أيضا هنا ما هذا التجمع اللطيف، هل هناك حفل أم ماذا؟

ارتبك هادي (هند صارت دادا!! وثلاثة رجال مع امرأتي؟! ما هذا الذي يحدث؟) وحين أفاق من صدمته إذا بمجموعة من الشباب آتين باتجاههم مشيرين إلى هند يسلمون ويصيحون «هندة!» و(هند) تسلم عليهم في مرح..

شعر هادي بغضب عارم يملأ نفسه ويهز كيانه بأكمله، صرخ بأعلى صوته وقد غلى دمه في عروقه ووجد نفسه يطوح كفه ليصفع شلبي صفعة، أودعها كل ما يعتمل في نفسه من غضب، سقط شلبي من أثر الصفعة على الأرض وارتطم رأسه بحافة سور الكورنيش، ففقد وعيه في الحال..

فقفز (هادي) فوق السور، ثم طار باتجاه (حسين) و(ياسر) وهو يقول تقولان لامرأتي أنا (دادا)؟! فضرب الأول بقدمه اليمنى في بطنه فطار عدة أمتار وارتطم بسيارة مسرعة وفي نفس الوقت ضرب الثاني بقدمه اليسرى في وجهه فمزق فكه وخر مغشيا عليه.. وهند تنظر إليه بإعجاب..

ثم التفت هادي تجاه المجموعة الأخيرة فنظروا إلى بعضهم البعض وفروا هاربين، فانطلق يجري وراءهم بأقصى سرعة فقال أحدهم «يا للشيطان! هذا المجنون سوف يقتلنا!» وأخذ يبكي فسقط على الأرض مرتبكا فجذبه هادي من شعره في قسوة وهو يقول: «وأنتم تقولون لها هندة؟!!» ثم لكمه عدة لكمات حتى فقد وعيه ثم ركض هادي بأسرع ما عنده حتى أدرك الآخرين ووجدهم في انتظاره يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة، وهادي ليس معه سوى مطواة قديمة مستعملة..

فأدرك خطورة الموقف وفي جزء من الثانية كان قد اتخذ قراره فجري بسرعة في خط متعرج وهم يجرون وراءه ويطلقون عليه الرصاص لكنهم لا يستطيعون إصابته حتى اختبأ في إحدى ورشات النجارة الكبيرة..

وحينما وصلوا أخذوا يبحثون عنه في كل مكان فلم يجدوه فهموا بالرحيل لكن آخرهم تنبه فجأة إلى حركة غير طبيعية تحدث خلفه فاستدار بحدة شاهرا مدفعه الرشاش، ولكنه لم يجد سوي كتلة من الأخشاب ساكنة، وبرغم ذلك - تخيل! - لم يطمئن قلبه، فتحرك بحذر محاولا الالتفاف خلف الكتلة الخشبية وهو ينقل قدميه في بطء، ثم قفز فجأة مصوبا مدفعه إلى ما خلف الأخشاب، ولم يلبث أن تنهد في ارتياح حينما لم يجد ما يستدعي الخوف أو القلق، ولم

يكد يرخي مدفعه الرشاش حتى شعر بأصابع قوية تنقر على كتفيه، وسمع صوتا هادئا ساخرا يقول:

هل تبحث عن شيء ما يا صديقي؟

استدار الرجل بسرعة بالغة معيدا تصويب مدفعه الرشاش ولكن استدارته لم تكتمل ومدفعه لم يجد الوقت الكافي للانطلاق، إذ أوقفته قبضة صبت من فولاذ، هوت على فكه بقوة كافية لتحطيم فك ثور، فتهشمت فك المسكين بصوت مكتوم وجحظت عيناه ألما ورعبا وزعلا، وهو يهوي إلى الأرض كالصخرة.. فجاء باقي المجموعة مسرعين، فتناول هادي المدفع الرشاش في رشاقة منقطعة النظير وأسرع يصوب تجاههم فما بين مقتول وفاقد لوعيه ومدروخ.. غمغم هادي بسخرية:

لو أن أعمالي كلها تتم بنفس هذا القدر من البساطة، ما أصابني هذا الإرهاق الذي أشعر به دائما.

وما هي إلا دقائق حتى عاد إلى حبيبته التي وجدها تنتظره باشتياق وحينما وصل إليها احتضنته بقوة وطبعت على وجنته قبلة رقيقة وهي تقول في دلال: أنت بطلي!

فابتسم (هادي) في فخر وهو يقول:

«تصدقي أنتي ما عند أهلك دم!»

تمت

إلى هنا أودعكم وأرجو أن نلتقي على خير في الكتيب القادم إن شاء الله

د. أحمد خالد

وعد جوناثان

"إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ (بابوا غينيا الجديدة) موطنا للعرب".

كانت هذه هي كلمات جوناثان راينهارت نائب الرئيس الأمريكي، وبعدها بدأ تدفق العرب من الشتات إلى أرض الميعاد

أخيرا سيكون لنا وطن يجمعنا.. لكن الأمر كان أعقد مما تصوروا..



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفـهرس:

ماذا لو تعلمت روحك الدرس؟
ثعلب الإسكندرية

الملاحظات

[←1]
() كل المقتطفات في بدايات الفصول ليست حقيقية ولا يوجد مفكرون بهذه الأسماء، إنما هي من تأليف المؤلف نفسه!

[←2]

كل المقتطفات في بدايات الفصول ليست حقيقية ولا يوجد مفكرون بهذه الأسماء، إنما هي من تأليف المؤلف نفسه؟

[←3]

((من جديد أذكرك أنه لا يوجد مفكر بهذا الاسم، والمقولة كلها من خيال المؤلف!

[←4]

( ) كل هذا وليد خيال المؤلف فلا يحسبن أحد أنها معلومات حقيقية!

روايات مصرية

64

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

كونتيكي



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة فـانتـازيا إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة فانتـازيا

العدد رقم (64)

العدد الأخـــير

كـونتيكي

تأليف: د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق.. إلى حدٍ يخطف الأبصار.. إنها الشخص الذي نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا.. الشخص الذي لا يتفوق في الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء.. لكن لابد من شيء ما يميزها، وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها.. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة.. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق.. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر.. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء.. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة..

في نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا.. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التي أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممي الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذي يولد الأحلام والذي لا يصلح إلا لها في الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك..

ومن البديهي أن (عبير) صارت تنتمي ل (فانتازيا) أكثر مما تنتمي لعالمنا.. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم في (فانتازيا)..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير.. سوف تصحبنا في رحلتها. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يوما ما.. سوف تقابل - ونحن معها - العبقري المخيف (دستويفسكي) وتجلس في مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين)..

سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذي أصابه بالسرطان.. سوف تمشي مع (أفلاطون) في بستان مدرسته.. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب..

تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس في كرة أعماق الدكتور (بيب).. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هي: لا قواعد، وحيث الحدود الوحيدة الرقعة الخيال هي: لا حدود.

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار والمرشد الملول الذي يرشدها في أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار.. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة..

لقد حان موعد قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- جلسات كيميائية..

لم تكن (عبير) تعسة. الحق والأدق أنها لم تكن سعيدة.. كان يمكن لحياتها أن تكون أجمل.

لكنها لم تعتد قط لعب هذه اللعبة المعقدة المسماة بالحياة. كانت لديها مجموعة أوراق ضعيفة. ولم تكن لاعبة بارعة، لذا وجدت نفسها تخسر طيلة الوقت..

كانت تعيش حياتها المعتادة، ومن حين لآخر كانت تتذكر (شريف)..

يومًا ما ستكلم (ندى) عن أبيها وتأخذها من يدها الصغيرة لتلقاه. يبدو واضحًا أن (شريف) مر بنزوة عابرة من اللطف جعلته يفكر في استعادتها، ثم عدل عن ذلك.. على كل حال لقد تغيرت الأيام جدًا وتقدم الكل في العمر.

من حين لآخر تجلس أمام التلفزيون تتابع البرامج، وقد أدهشها جدًا أن الناس تستغنى بهذا الصندوق الملون عن القراءة.. لذة الجلوس أمام دفتي كتاب تحويان حيوات الآخرين وأفكارهم منذ الأزل. التحليق في عوالم الحلم. عندما تقرأ أن الغابة كانت جميلة فكل واحد يخلق غابته في ذهنه، وعندما تقول إن بياتريس كانت ساحرة فكل واحد يرى (بياتريسه) الخاصة. بينما التلفزيون يرغمك على حقيقة واحدة وغابة واحدة وبياتريس واحدة.

لكنها في التلفزيون كانت ترى (شريف) من وقت لآخر. أي برنامج يتعلم عن تكنو لوجيا المعلومات أو الحواسيب كان يستضيف (شريف) على الأرجح. لم تكن تفهم معظم ما يقول، لكنها كانت تحب طريقته في الكلام، وتدهشها فكرة أن هذا الرجل الناجح الوسيم كان لها يومًا ما. إن الطلاق شيء عجيب.. أن يمتزج اثنان تمامًا ويصير اسمهما (نحن). هذا بيتنا.. هذه ثلاجتنا.. هذا مطبخنا.. هذا مستقبلنا.. ثم فجأة يتفكك كل شيء.. هما غريبان.. لكل ثلاجته وبيته ومطبخه ومستقبله. يحاول كل منهما أن يمحو الذكريات المشتركة من ذهنه كأنها لم تكن. والمشكلة لو تزوج أو تزوجت، فلسوف يظل كل موقف جديد قديمًا لأنه عاشه من قبل. لم يكن قد تزوج بعد منذ فشل قصة الفتاة التي تقول (طلباتك) إياها. هو لم يتزوج وهي لم تتزوج. هذا الباب الموارب يسبب المشاكل دائمًا. الأمل اختراع شرير يصلح للتعذيب.

لكن (شريف) بالتأكيد ترك لها هدية حياتها: (فانتازيا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من حين لآخر ترى لمحات من العالم الواقعي القاسي، (نبيل) ابن الجارة (نادية)، الضحوك الذي ينزل للحارة أول واحد في الصباح ويعود لداره آخر واحد في المساء. شيطان صغير لا يتوق لحظة واحدة عن مطاردة الكلاب وقذف القطط بالحجارة وركوب الدراجة وقذف (البومب) ولعب الكرة..

منذ شهرين فوجئ الجميع بنزف شديد من أنف الصبي، نزه أغرق تراب الشارع. ما المشكلة؟ كل الصبية تنزف أنوفهم طيلة الوقت..

لكنه بدأ يفقد وزنًا وبدأ يزداد شحوبًا، ثم صار أقل ميلًا للعب مع رفاقه. اقتضى الأمر وقتًا حتى ذهبت به (نادية) للمستشفى، وهناك كتبوا له بعض المقويات، ثم بعد أسبوع آخر ذهبت لطبيب أطفال طلب منها صورة للدم ثم عينة من النخاع. وكانت النتيجة هي سرطان دم حاد.

بدأ الصبي يتعاطى جلسات العلاج الكيماوي، وتحول لشبح نحيل، وتساقط شعر رأسه. ثم عرفت أنه يجب أن تجرى له عملية زرع نخاع..

المشكلة الآن في العثور على متبرع..

كانت (عبير) ترمق (ندى) الغافلة السعيدة التي تشد ذيل القط. وارتجفت عندما تصورت أن يكون هنا السيناريو في ببيتها بالذات.. لكن كيف تضمن؟ كيف تعرف أن (ندى) لن تصحو غدًا لتجد وسادتها مبللة بالدم، أو تجد أن هناك عقدة لمفاوية صلبة في عنقها؟

الحياة قاسية بالفعل. قاسية علينا.. لكن ما يخيفنا فعلًا أن تكون أقسى على من نحبهم. تلك أنانية مستترة، لكن (عبير) تمنت أن تكون درعًا.. تتلقى هي كل مرض يصيب أسرتها الصغيرة، وأن يسقط فوق رأسها أي حجر يستهدف رأس واحد من أسرتها.. أن تصيبها أي طلقة موجها لأهلها، هي قادرة على تحمل الألم. كل أنماط الألم محتملة ما عدا ألم أمها وألم (ندى)..

اليوم ذهبت مع (نادية)، لتساعدها؛ لأنه موعد جلسة العلاج الكيمائي للطفل..

(نادية) وحيدة تقريبًا.. ليس لها أقارب وزوجها مشغول للأبد، هؤلاء الأزواج الذين يزعمون أن العمل يمتص أي وقت يمكن أن يمنحوه لأسرتهم، وبالطبع في مقر عملهم تكتشف أن أسرتهم تمتص كل الوقت الذي يمنحونه للعمل.. في العمل هم آباء مخلصون، وفي البيت هم موظفون متفانون..

جلست (عبير) ممسكة بيد الصغير بينما هو يتلقى العلاج، ونظرت لـ (نادية) فاكتشفت أنها نامت على مقعد قريب من فرط الإرهاق. لا شك أنها لا تنام هذه الأيام..

بيد واحدة فتحت (عبير) حقيبتها وعبثت حتى أخرجت كتابًا عتيقًا وجدته على الرصيف.. اسم الكتاب هو (رحلة رع).. كان كتابًا ممتعًا يحكي عن محاولة عبور المحيط الأطلنطي بقارب من البردي.. هناك مستكشف نرويجي وشيء من هذا القبيل..

لما انتهت الجلسة استقلت المرأتان سيارة أجرة مع الصبي السقيم وعادتا للبيت. في يوم كهذا كانت أم (عبير) تعد بعض الحساء وحمامتين محشوتين للصبي، وتحمل الصينية متعثرة إلى بيت (نادية). لسبب ما كانت أمها تعتقد أن الحمام متخصص في علاج الأورام..

يرقد الصبي في الفراش ويقيء ويصر على عدم أكل شيء، فيبدأ السيرك ومحاولات الإقناع..

شعرت (عبير) بإرهاق شديد، وبأنها راغبة في الفرار من هذا كله..

(فانتازيا).. أنا بحاجة لـ (فانتازيا)..

في شقتها لم تجد (ندى). كانت تلعب مع أولاد الجيران في شقتهم، وكان المكان خاليًا ومغريًا.. يفوح بالبخار ورائحة سلق الحمام لكنه مريح برغم ذلك..

وضعت اللاب توب على المنضدة وثبتت الأقطاب..

- «شكرًا يا (شريف).. أنت تخليت عني لكنك قدمت لي (ندى) وقدمت (فانتازيا).. هذان سببان للحياة..»

وضغطت على زر الفأرة..

حتى قبل أن يتم الانتقال خمنت أنها ستعيش في عالم السفينة رع. فهي ذكرى ما زالت طازجة

جدًا.

ترى ماذا سيحدث؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- مقهى في المغرب..

عندما سمعت (عبير) اللغة النرويجية، قالت لنفسها:

- «يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم..»

ألم تكن في المغامرة السابقة مدرسة تعيش في النرويج؟. كانت وقتها تتكلم النرويجية كأهلها. اليوم هي تسمعها فلا تتكلمها ولا تفهمها لكنها تعرف أنها النرويجية. توشك أن ترى حرف ال O التي تمر بها شرطة مائلة.. ذلك الحرف الذي لم تعرف قط كيف ينطقونه.

كان هناك يرقد في الفراش، وقد غطت عينيه تلك السحابة الغائمة التي تفصل المحتضرين عن عالمنا. تزداد سمكًا وكثافة مع الوقت إلى أن يميل الرأس ويتم الرحيل. هذا رجل يموت.. تعرف هذا من شكل الوسادة وأغطية الفراش ورائحة الدواء والطبيب الواقف على بعد متر، وتلك النظرة الجهيمة على الوجوه هذه لوحة اسمها الموت..

كان يتكلم مع الطبيب بالنرويجية، ولاحظت أن رأسه حليق أكثر من اللازم وهناك آثار خياطة تظهر من تحت الضمادة، شأن من مر بجراحة مخ..

مسن هو. لون بشرته يشي بشخص قضى حياته تحت الشمس وماء البحر المالح. عضلاته قوية برغم الوهن والمرض..

قال لها الطبيب:

- «هو ممتنع تمامًا عن الأكل والشرب.. لو استطعت إقناعه..»

لكنها كانت تعرف.. فجأة صارت تعرف. لها تجربة طويلة مع هذا الرجل، وتعرف أنه عنيد وأنه لا يخاف الجوع ولا الظمأ..

التفت لها وقال شيئًا بصوت مبحوح فلم تفهم.. قربت أذنها منه فكرر ما يقول بالإنجليزية هذه المرة:

- «أعتذر عما سببته لك من ألم..»

لا تعرف نوعية الألم.. لكنك بالتأكيد تصفح عن المحتضرين غالبًا مهما فعلوا. اعتصرت يده بمعنى أنها تسامح.. وكان هذا هو الوقت المناسب لأنه شهق ثم ابيضت عيناه وهمدت حركته..

سمعت صوت الشهقات والدموع..

وسمعت صوتًا حكوميًا رسميًا يقول:

- «ستقيم الحكومة النرويجية جنازة رسمية لثور (هايردال)!!..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثور (هايردال)!

يا لها من ذكريات!!!

الرحالة النرويجي الأشقر.. كل شيء فيه نرويجي، اسمه.. وجهه.. لغته.. عيناه.. لحيته.. لو لم

يكن (ثور) نرويجيًا فماذا يكون؟

الفنان الذي ظلت فكرة معينة تؤرقه طيلة حياته فلم يهمد لحظة واحدة في محاولة البرهنة عليها. ولكن لماذا نستبق الأحداث؟

نحن في العام 1969..

كفتاة مصرية، كانت غارقة في هواجسها عن احتلال إسرائيل لسيناء، وحرب الاستنزاف ومحاولة لملمة جراح حرب 1967، لكنها الآن تدرك أنها تغادر فندقًا أنيقًا له طابع شرقي ساحر. تمشى في أزقة مسقوفة، على جانبيها يتناثر بائعو التحف العربية والسجاد والنرجيلة والطرابيش.. هذه العباءات..

هذا بلد عربي.. يمكن بسهولة أن تتصور أنها في المغرب. يمكنها أن تميز اللكنة الموسيقية المميزة والكلمات التي لا تستوعبها بتاتًا.. ذات مرة عرض التلفزيون المصري فيلمًا جزائريًا فوضع له ترجمة أنيس عبيدًا!. اختلاف اللهجات شديد، لكن تظل اللغة الفصحى هي (اللينجوا فرانكا) التي يفهمها كل عربي في كل مكان..

إنها تلبس قميصًا وسروالًا من طراز يليق بالستينيات، وتعتمر قبعة من الفلين، ويبدو أنها رشيقة جميلة.. لا تستطيع الحكم ما لم تر نفسها في مرآة..

أخيرا ترى المقهى العربي هناك.. دخان النارجيلة والمظلة ورائحة النعناع. الخشب المزخرف بطريقة الأرابيسك، هنا يجلس عدد من الأجانب ومنهم رجل أفريقي أسود البشرة تمامًا..

ترى ثور (هايردال) بينهم بملامحه الوسيمة عندما كان شابًا، وكان يلبس جلبابًا مغربيًا ليشعر بالراحة، لكنه بدا غريبًا جدًا.

- «مرحبًا (عبير).. تأخرت عشر دقائق!..»

اسمها (عبير) هنا؟.. هذا غريب.. ربما هي المرة الأولى في (فانتازيا) التي تحتفظ فيها باسمها، ولعل السبب أنها ستكون مصرية جدًا، ولربما تعسة وخيالية كما هي في الواقع..

جلست (عبير) على مقعد من خوص، بينما جاء النادل يسألها عما تريد..

قال (هايردال):

- «لديهم شاي مغربي ممتاز، أنصحك بأن تضيفي له النعناع الأخضر..»

بالفعل كان أمامه قدح في حجم (شوب) البيرة مليء بالشاي، وتطل منه أوراق النعناع..

قال لها:

- «أقدم لك الفريق..»

فريق ماذا؟ هل هم بصدد عملية اغتيال أو تجسس؟

هي تعرف ثور(هايردال). الرحالة وعالم الأنثروبولوجي والمستكشف النرويجي الشهير.. أما هذا الرجل ذو الملامح الأمريكية فلابد أنه أمريكي لكنته واضحة.. أشقر له ذقن مربعة صلبة وعينان رماديتان..

- «هذا هو نورمان بيكر.. أمريكا.

هذا البدين الملتحي الذي ترقص عيناه طيلة الوقت.. لابد أنه من سكان البحر المتوسط..

- «كارلو موري.. إيطاليا..»

- «بونجورنو..»

قالها وأفرغ كوبًا من العصير في جوفه..

أما هذا الغليظ العضلي قاسى الملامح فلابد أنه سوفييتي..

قال (هايردال):

- «(يورى) سنكفيتش.. الاتحاد السوفيتي..»

- «تشرفنا..»

المكسيكي هو هذا الرجل ذو الشارب الرفيع والبشرة السمراء. بما أنها تخلق عالم (فانتازيا) بنفسها فإنها جعلته مكسيكيًا جدًا.. يوشك أن يطلق الرصاص ويقذف الخناجر ويصيح (أميجو). سنتياجو جينوفيس.. أما الأخ الأفريقي ذو الضحكة الآسرة والذي يضع على رأسه طاقية بيضاء، فمن الواضح أنه من بلد إسلامي غير عربي.

- «(عبد الله جبرين).. تشاد..»

جبرين.. أي جبريل.. كل أبناء هذه المنطقة ينطقونها جبرين بدلًا من جبريل..

ثم أشار لها (هايردال) وقال مقدمًا:

- «عبير عبد الرحمن.. مصر.. كان المفروض أن يكون المصري هو (جورج سوريال) لكنه اعتذر..»

(عبير) كانت تعرف أن (جورج سوريال) لم يعتذر، لكن (فانتازيا) اضطرت لحذف اسمه من القائمة لتقوم هي بالمغامرة.. نفس ما حدث عندما تم اختيارها هي لتنقذ موسوليني وتم تجاهل بطل الجيش النازي (سكورتسيني).

قال ثور (هايردال):

- «قرأت البحوث التي قمت بها في جامعة القاهرة عن تشابه حضارة الفراعنة وحضارة أمريكا الجنوبية.. نحن نتحرك في نفس القارب ونفكر بنفس الطريقة، لذا كنت أنت الاختيار الأفضل..»

هنا تدخل السوفيتي، وقد أدركت (عبير) أنه لن يكون صديقها:

- «كل هذا جميل.. لكن هل تعرفين ما ننوى القيام به؟..»

بالطبع (عبير) بطلة القصة تعرف، لكن عبيرنا لا تعرف.. إلا أنها لا تجرؤ على الكلام.. لذا قالت كلاما محايدًا:

- «بالطبع.. سيكون شيئًا عظيمًا.. أنا أتوق إلى.. إلى..»

قال السوفيتي بحدة وهو يطوح عقب لفافة التبغ على الأرض الحجرية:

- «رحلة عبر الأطلنطي بطوف. يعلم الل..»

ثم تذكر أنه ملحد فقال مصححًا:

- «لا أحد يعلم كم تستغرق رحلة كهذه ولا أي صعاب سنواجهها.. ومعنا امرأة على الطوف!.. هذا مزيج من بلاهة وحماقة ومحاولة لعمل فيلم بورنو!..»

أدركت أن وجهها احمر غيظًا وخجلًا.. لكن معه حقًا بالتأكيد..

تدخل ثور(هايردال) قائلا في وقار وحسم.

- «(يورى).. نحن لسنا بصدد امرأة هنا، بل بصدد عالمة تاريخ خبيرة في الحضارات..» - «وامرأة!..»

قال الأمريكي في تؤدة:

- «لا أرى ما يمنع هنا.. نحن ستة.. لن ينفرد بها أحدنا وكل منا خير رقيب على الآخرين، ولسوف تكون لها خصوصيتها.. هذا يضفي على التجربة كذلك طابعًا فريدًا. امرأة تعبر الأطلنطي في طوف..»

- «وكيف تستحم؟..»

انفجر ثور (هايردال) في الضحك حتى أسقط الشاي من الكوب وقال:

- «وهل تتصور أن أحدنا سيستحم؟ لا أعتقد.. يجب أن نكون حازمين بصدد الماء..»

ثم نظر ل (عبير) بعينيه الزرقاوين وقال:

- «سوف نتحرك خلال أسبوع فهل أنت مستعدة؟..»

لم تكن.. لكنها قدرت أن (عبير) بطلة القصة رتبت أمورها. ترى هل هي متزوجة؟ مستحيل. ما من زوج عربي يترك زوجته في تجربة كهذه.. وكم سنها؟ على الأرجح هي في الخامسة والثلاثين أو شيء كهذا..

- «سوف يكون رع مع..»

رع إله الشمس عند قدماء المصريين.. ما معنى هذا؟

لما رأى حيرتها قال ضاحكًا:

- «رع.. اسم الطوف الذي سنعبر به المحيط!..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- (كونتيكي)..

لم تكن هذه رحلة (هايردال) الأولى..

يبدو أن هذا الرجل قضى 90% من حياته فوق أطواف تعبر المحيطات. لابد أن الماء المالح قد دبغ جلده تمامًا. ومن العجيب أن هذا الرجل لا يجيد السباحة ويكره الماء كراهية التحريم.

دائمًا - منذ كان صبيًا - كانت تؤرقه فكرة تسرب الحضارات لبعضها.. هل انتقلت حضارة الفراعنة إلى المايا؟ هل انتقلت حضارة (بيرو) إلى جزر بولينيزيا؟.. هذا السؤال لابد أنه حيرك وأنت ترى أهرام المايا المدرجة.. هل فكّر الإنسان في نفس الشيء في قارتين مختلفتين، أم أنه نفس الإنسان في الواقع؟

هذه كانت رسالة الدكتوراه التي فكر فيها الشاب النرويجي المتحمس ثور (هايردال)..

هل يمكن أن يكون القدماء قد استطاعوا بطوف بدائي أن يعبروا المحيط الهادي الرهيب من (بيرو) ليصلوا لجزر بولينيزيا؟ هذه الجزر هي آخر جزر استوطنها البشر على ظهر الأرض، ومن الصعب أن تراها على نموذج الكرة الأرضية إلا لو قلبته أو نمت تحته كميكانيكي السيارات..

كان هذا هو السؤال. وهذا هو ما يطلقون عليه علم الأنثروبولوجي التجريبي..

لو استطعت عمل الشيء بوسائل بدائية، فلا يوجد ما يمنع أن يكون أسلافنا قد أفلحوا فيه. وهذا يعنى أن سكان بولينيزيا جاءوا من (بيرو)..

لم تحضر (عبير) هذه الحملة الشهيرة، التي جعلت اسم (هايردال) على كل لسان، وحفظ الناس اسم الطوف (كونتيكي) الذي صنعه من خشب البالسا.

البالسا خشب خفيف الوزن يستعملونه في صنع نماذج الطائرات.. أما (كونتيكي) فهو اسم أحد آلهة الإنكا..

بدأت الرحلة عام 1947 واستغرقت مئة يوم..

قال (هايردال) لها فيما بعد ذات ليلة وهما يرمقان المحيط:

- «أنا أفترض أن هناك هجرة كبرى لرجال ذوي بشرة فاتحة وذقون طويلة.. هؤلاء القوم الذين كانوا يعبدون (كونتيكي) قد هاجروا إلى بولينيزيا.. ولهذا يمكنك أن ترى في بولينيزيا رجالًا ليست بشرتهم داكنة.. هذا غريب.. هذه الجزر البكر قد استوطنها المهاجرون القادمون من (بيرو).. نفس المهاجرين بلغوا جزيرة عيد الفصح وصنعوا الوجوه العملاقة الغامضة المخيفة هناك..»

وفي النهاية تمكن (هايردال) ورفاقه من بلوغ جزيرة تواموتو في بولينيزيا الفرنسية.. كان النجاح مدويًا وقد كتب عن تجربته في كتاب تُرجم لعشرات اللغات..

قال لها (هايردال) فيما بعد:

- «يومًا ما سيكتشف العلم ال PCR ويحللون جينات سكان (بيرو) وسكان بولينيزيا ويكتشفون تشابهًا غريبًا..»

بدا الأمر غريبًا ل (عبير).. أن يتكلم المرء عن نتائج اختراع سيتم عمله بعد أربعين سنة.. على

طريقة العملة التي نقش عليها (صُكت عام 50 قبل المسيح).. كيف عرف من صك العملة أن هناك مسيحًا؟ لكن هذه (فانتازيا) على كل حال.. كل شيء ممكن..

معنى هذا الكلام أن (هايردال) كان على حق. صحيح أنه لم يثبت كلامه بشكل قاطع وقتها، لكن العلم بدأ يرد اعتباره.. معظم علماء الأنثروبولوجي يرون العكس، ويعتقدون أن بولينيزيا تكونت نتيجة هجرة من آسيا.. ليس من أمريكا الجنوبية. ومنهم كثيرون يعتبرون هذا الذي قام به (هايردال) هذيانًا علميًا... هناك حساسية مزمنة لدى العلماء تجاه زملائهم الذين ينالون شهرة إعلامية أكثر من اللازم. لا شك أن معهم بعض الحق فنحن نتكلم عن نظريات علمية وليست ألعاب حواة.

برغم هذا يظل (هايردال) مهمًا جدًا، ورمزًا من رموز القرن العشرين، كما أن متحف (كونتيكي) ما زال موجودًا ويجذب السياح في أوسلو حتى اليوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتجهت (عبير) للهاتف العمومي.. الشمس حارقة تجعلها تفتح عينيها بصعوبة. تطلب رقمًا يبدأ ب 002 وتنتظر.. هذه مصر طبعًا..

يأتي الصوت.. صوت (شريف).. يا للكارثة!.. هي لا تعرف ما ستقول ولا لماذا تطلب تلك اللعينة - (عبير) القصة - هذا الرجل..

تقول وهي تضرب الأرض بكعب حذائها:

- «أعتقد أن أمامي أسبوعًا.. ثور أعدّ كل شيء..»

جاء صوته يحمل عاصفة من السباب والاحتجاج.. أنت مجنونة فعلًا.. لابد أنك مخبولة تمامًا..

- «كراهيتك لي ومحاولتك البقاء بعيدًا ليس معناها أن تموتي عبر الأطلنطي..»

هنا بدأت تفهم.. (شريف) في هذا العالم - كما في الواقع - هو طليقها. الخلافات التي لا حل لها قد اشتعلت بينهما، وفي النهاية تم الانفصال، ومن الواضح أنها قررت أن تعيش حياتها بعيدًا.. بل تحقق وجودها بأغرب طريقة يمكن أن تحققها أنثى: أن تعبر الأطلنطي على ظهر طوف كله رجال. هكذا تفهم القصة كلها.. لكن من الواضح أن هناك خيطًا يربط بينهما برغم كل شيء، وإلا لما اضطرت للاتصال به أصلًا تتصرف كأنها تطلب منه الإذن.

قال لها بصوت بعيد عابر للحدود كله تشويش:

- «تذكري أنك ما زلت زوجتي....»

إذن هي ما زالت زوجته..

قالت:

- «وتذكر أنني لم أعد أحمل لك أي عاطفة..»

هذا غريب.. يستطيع أي رجل أن يرغم زوجته على عدم السفر في طوف، لكن من الواضح أنه متفهم جدًا أو ضعيف جدًا أو يكرهها جدًا..

- «امرأة وحيدة مع كل هؤلاء الرجال وسط أمواج الأطلنطي.. أنت تبالغين كثيرًا..»

قالت له:

- «اسمع يا (شريف).. لقد دارت العجلة.. لم يعد من الممكن أن أوقفها..»

- «يمكنني منعك..»

قالت في حزم:

- «نعم.. يمكنك منعي بالقانون. ولك مطلق الحرية في عمل ذلك، لكني أعرف أنك لن تفعله.. وإلا لما تركتني أسافر للمغرب..»

ساد الصمت.. ولم يجد ما يقول.. في النهاية أردفت:

- «تمن لي حظًا سعيدًا.. هذه مغامرة حياتي..»

ووضعت السماعة وشهقت.. كانت تفضل لو كانت وحيدة تمامًا. الأزواج والأبناء يعقدون الأمور، في القرارات النووية هناك شيء اسمه (فرضية الرجل المتفرد) وتقضي بأن الرجل غير المرتبط يتمتع بعقل أصفى وقدرة أفضل على اتخاذ القرارات المصيرية.. هي الآن تلعب فرضية الفتاة المتفردة..

نظرت لساعتها.. ثور (هايردال) ينتظرهم في المقهى الذي صار غرفة عمليات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكف (هايردال) قط عن الترحال والتجارب..

نظرياته كانت كالبيضة لدى دجاجة تريد بأي شكل أن تضعها. تدور حول نفسها في قلق تبعثر حبيبات التراب.. تلتقط حبة ثم تلفظها.. تقوقئ.. ومن أجل هذه النظرية لم يجرب حياة الاستقرار قط.. هناك دائمًا حملة ما..

بعد أعوام يجرب حملة أخرى إلى جزيرة عيد الفصح.. إيستر آيلاند. الجزيرة القريبة من (شيلي)، والتي لابد أنك رأيت صور تماثيل الوجوه المخيفة فيها.. الأصنام العملاقة لوجوه رجال غامضة تحملق فيك. الجزيرة التي اكتشفها البريطاني كابتن (كوك) وأثارت ذهوله.

بالطبع كان يفكر في أن قوم (بيرو) هم الذين وصلوا بطوف بدائي لهذه الجزر، وقد كتب عن تجربته كتابًا مهمًا اسمه (آكو آكو)..

وصف كذلك الأخدود الرهيب الذي احترق فيه عدد هائل من أبناء الجزر ذوي الآذان الطويلة..

في العام 1969 بدأ يفكر في رحلة أخرى رهيبة..

لقد عبر المحيط الهادي من (بيرو) عدة مرات..

في هذه المرة سيجرب عبور المحيط الأطلنطي.. ولسوف يبدأ من المغرب.

بالنسبة له كان على يقين من أن المصريين القدماء قاموا بهذه الرحلة عدة مرات منذ مئات السنين.. ووصلوا إلى العالم الجديد ونشروا ثقافتهم.

(كونتيكي) قد تحول إلى رع في ظروف غامضة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- رع تنطلق..

تقف (عبير) على المرفأ تراقب كل هذا الصخب وكل هذه الضوضاء، ولا تصدق أن أحلامها صنعت هذا كله. هناك حشد هائل من النوارس التي تصيح وتلتقط الأسماك وتنقض على الأمواج انقضاضًا، وهناك حشد من الصحفيين العالميين الذين يلتقطون بعدساتهم كل شيء..

في النهاية هناك أصدقاؤنا الذين تعرفهم..

هناك الكثير من المؤن يتم نقلها.. براميل ماء.. لحوم معلبة. بسكويت مجفف.. علب سردين.. بعض التبغ، وقد راح الزملاء يتناقلون هذه الأشياء من يد ليد في سلسلة طويلة، تنتهي عند القارب غريب الشكل..

هو خليط من قارب وطوف وعشة دجاج.. وكان يهتز فوق الأمواج، بينما شراع مطوي يتأرجح محاولًا التحرر من الحبال..

وصاح (هايردال) باللهجة المغربية:

- «باهي!.. باهي!..»

أي (جيد.. جيد).. كان هناك عدد من الرجال السود ذوي العضلات القوية يقومون بربط أجزاء من الألياف لبعضها، أي أن القارب كان يتم صنعه وتحميله في نفس الوقت.. وكان بعض الرجال مغمورين في الماء يقومون بطلاء بعض الأجزاء بسائل براق. من الواضح أنه نوع من الصمغ أو الراتنج لمنع البلل..

الأمريكي كان يمسك بقائمة يراجع فيها أصناف البضاعة التي يتم تحميلها..

دنت (عبير) والماء المالح يتطاير في وجهها وسألت (هايردال) الذي كان يحاول إشعال غليون، وهي محاولة لا جدوى منها مع كل هذه الرياح:

- «مم صنع هذا القارب؟..»

كانت تتأمل اللفائف الملقاة على أرض المرفأ والتي بدا منظرها مألوفا.. شيء في هذا يذكرها بالبرديات التي تباع للسياح في خان الخليلي..

بالفعل قال لها:

- «هذا هو البردي.. جئنا به من حول بحيرة تانا في (أثيوبيا).. والبناءون هم من تشاد.. إنهم بارعون جدًا وقد قاموا بعمل رائع..»

راحت تحاول ترتيب أفكارها أو تخمين ما يمكن قوله.. بدا لها هذا القارب أقرب إلى عشة دجاج كبيرة، ولو قيل لها إنه مخصص لعبور ترعة المحمودية لأطلقت السباب ساخرة، والآن يحدثها هذا المجنون عن عبور الأطلنطي؟

كادت تلطم خديها.. من أجل عشة الفراخ هذه تركت زوجها وسافرت إلى المغرب لتحقيق كيانها، لا بأس يا فتاة.. عندما تغرقين فسوف تعيشين للأبد في كتب التاريخ..

ثم البول!!.. مشكلة لم يتحدث عنها أحد.. لكن كيف يتبول المرء فوق طوف كهذا، والألعن أن

يكون امرأة!..

اتجهت نحوه في عصبية وصاحت:

- «هل تتوقع أن هذا القش سيعبر الأطلنطي؟..»

نفث دخان الغليون وقال:

- «يجب أن ينجح. هذه حياتنا..»

- «أي أنه لا شيء يضمن، سوى أننا سنموت لو فشل. هذا منطق غريب، سينجح وإلا فهي نهايتنا..»

- «بالتاكيد..»

هنا تدخل الأمريكي بيكر وقال ليهدئ الجو:

- «لاحظي أن ثور قد عبر المحيط الهادي بطوف مماثل..»

لكن الدقة العلمية تغلبت على (هايردال)، فلوح بإصبعه منعًا للخطأ:

- «لا.. لا.. الآخر كان من خشب البالسا لأنني أردت أن أقلد أهل البيرو.. هذا هو أول طوف من البردي تتم تجربته..»

- «هذا يبعث على الطمأنينة..»

ثم إنها وضعت يديها في خاصرتها، وركلت علبة فارغة ملقاة على المرفأ.. وبعناد الأطفال صاحت:

«شكرا سيد (هايردال).. كانت معرفتك طيبة.. هل هناك طائرات عائدة للقاهرة قريبا؟..»

نظر لرفاقه.. ولم يقل شيئًا، بينما هي تبتعد غاضبة عبر المرفأ.. تطير طيور النورس خائفة، وينظر لها البحارة في عدم فهم.. صورة مجسدة للغضب والإهانة.. يبدو أنها ستعود للقاهرة وتعود ل (شريف).. لا يوجد حل آخر، فيما بعد ستعرف سبب الطلاق.. هل هو الملل أم ضيق الأفق أم الخيانة؟ أم هو ببساطة اختلاف الطباع..

لم ينادها أحد، وهذا يثير الغيظ جدًا.. نتوقع عندما نغضب ونرحل أن يستوقفنا أحد محاولًا أن يستبقينا، لكن هذه الطريقة تفتقر إلى اللياقة. هي لن تحدث فارقًا بالتأكيد فعددهم كاف..

كان واقفًا هناك يمسك بأحد الحبال المتدلي من صارية، وقد عقد قدميه وبدا محتفظًا بطابع اللامبالاة المعتاد.. فقط هناك القلم الجاف الذي يضغط على مؤخرته في عصبية.. تك تتك.. تك.. تتك..

المرشد هنا.. هذا جميل..

قال لها ببرود دون أن ينظر:

- «انتهت المغامرة بسرعة هذه المرة..»

تمسكت بالحبال حتى لا تقع وقالت في عصبية.

«اسمع.. أنت علمتني أنني لو هلكت في (فانتازيا) فعلى الأرجح سأموت فعلًا في عالم الواقع..

ستجدني أمي جثة شاخصة النظرات متصلبة أمام شاشة الكمبيوتر. سيكون وعيي قد ضاع في قصة أخرى..»

للمرة الأولى نظر لها، وأصلح من شأن ياقة بذلته وقال:

- أنا أهتم بحياتك صدقيني.. لو هلكت أنت لزلت أنا من الوجود، لكن لابد من مخاطرة.. هلا سألت نفسك عن طعم المخاطرة التي لا مخاطرة فيها؟؟..»

- «المخاطرة تختلف عن الموت الأكيد..»

- «أنت تعرفين أن الرحلة الحقيقية نجحت.. هذا ليس ضمانًا طبعًا، فقد تغير (فانتازيا) التاريخ.. لكن هناك احتمالًا كبيرًا أن ترى أمريكا..»

فكرت للحظة ثم قالت في خجل:

- «وقضاء الحاجة.. كيف تقضي امرأة حاجتها في قارب مزدحم بالأوغاد..»

ابتسم كأن هذا سؤال سخيف.. نتحدث عن تغيير التاريخ فيثب قضاء الحاجة للواجهة؟ هل فكر أحد في طريقة تبول كولومبوس؟.. وقال:

- «هناك دورة مياه بعيدة عن العيون ولها باب من البردي.. تفرغين كل شيء في دلو ثم تفرغينه في البحر.. عملية هينة!..»

- «أنت مقرف!..»

- «نحن نتحدث عن فضلاتك لا فضلاتي.. أنا فكرة.. فلا فضلات لي..»

- «سوف أنسحب.. هذا لن يسبب مشاكل في خطته.. العدد كبير.. أنا مسمار صغير لن يحدث فارقًا..»

مط شفته السفلى وقال:

- «الحقيقة هي أنه بحاجة لمصري في المشروع.. لابد من واحد من أحفاد الفراعنة. (جورج سوريال) كان سيؤدى المهمة، لكن (فانتازيا) اختارتك أنت....»

في النصف ساعة التالي راح يكلمها عن أبعاد هذه المغامرة. رحلة الأطلنطي.. الخبرة الغريبة للتواجد مع كل هذه الجنسيات.. السماء الصافية.. النوارس.. الموج.. أسماك القرش.. ربما الحيتان..

- «لاحظي أنك لم تخوضي مغامرات بحرية كثيرة من قبل..»

قالت وهى تنظر للبحر البعيد الذي بالتأكيد يعج بالسردين، بما أننا في المغرب:

- «هل هذا الرجل مجنون؟..»

- «لا أدرى.. لقد تسلطت عليه فكرة جعلته يفعل أي شيء ويقبل أي شيء.. إنه يذكرني بالقبطان أهاب في قصة موبي ديك. لقد كان مستعدًا ليبيع روحه للشيطان مقابل الانتقام من الحوت الذي حرمه من ساقه. هنا (هايردال) مستعد لأي شيء كي يبرهن على فكرته..»

تنهدت بعق، وملأت رئتيها بهواء البحر النقي حتى كادت تتسمم باليود، وقالت:

- «ليكن.. سوف أركب عشة الدجاج هذه..»

- «هذا جميل.. بعض المخاطرة لن يؤذى أحدًا..»

عادت إلى حيث كان الرجال يعملون. رأت (هايردال) ينظر لها بعينيه الزرقاوين ويبتسم.. كأنه كان يعرف أنها سترجع. مشت نحوه بخطوات ثابتة. قات له.. دوى صوت صفارة سفينة عاليًا فلم نعرف نحن ما قالته، لكنه كان رائعًا بالتأكيد.. لقد كف عن تدخين غليونه وترقرق الدمع في عينيه

صاح في الرجال كي يسرعوا.. ثم نظر لساعته وقال إنهم سيتحركون صباح الغد.. يتوقع أن تكون الرحلة مئة يوم..

ثلاثة أشهر.. فكرت.. ثلاثة أشهر وثلث بلا أرض.. بلا شوارع.. بلا أسرة.. فقط الماء من حولك.. الماء في الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وما لم تكن تعرفه وقتها هو أن الرجل يكره الماء بشدة، ولا يجيد السباحة.. لو عرفت هذا لماتت من الرعب..

ليلتها الأخيرة في الفندق المغربي الجميل كانت ليلة قلقة وقد اضطرت لابتلاع بعض الديازيبام كي تنام. برغم هذا حلمت بأنها تقترب من حافة العالم موشكة على السقوط مثل بحارة كولومبوس. خرائط القرون الوسطى التي تنتهي في أطرافها بهاوية مرعبة لسقوط السفن، مع عبارة (لتكن هنا تنانين).. أو (ليكن هنا ظلام)

Here be dragons

Here be dragons

الصباح كان منعشًا لكنها لم تتناول إفطارًا، لأنها تعرف أنها ستفرغ معدتها بعد نصف ساعة من الحركة.. راجعت أدويتها وكتبها التي وضعتها في حقيبتها ولبست ثيابًا رياضية ثم توكلت على الله نحو الميناء..

حيث تنتظر السفينة رع.. التي هي (كونتيكي) بشكل آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الابحـار..

ارفع شراعك يا (يورى)..

لحظة أين اتجاه الريح؟.. جميل.. إنه يمتلئ بالرياح وينتفخ.. رمز رع.. قرص الشمس المكتمل يمد عشرات الأيدي نحو البشر الظامئين للنور.. هناك نقوش فرعونية على الشراع لكنها لا تفهمها..

اقطع حل المرساة يا (عبد الله).. الشراع ينتفخ أكثر، على الدفة يقف سنتياجو المكسيكي.. يحركها فيتحرك القارب ببطء.. المكسيكي هو الشخص الوحيد الذي يملك خبرة ملاحية جيدة هنا. (هايردال) تعلم الكثير من رحلته (كونتيكي) لكنه ليس بحارًا بعد.

على الشط يقف الصحفيون يلتقطون الصور لهذا الحدث الفريد: السفينة رع تبدأ رحلتها الرهيبة عبر الأطلسي، وغالبًا لن تعود. يقف (هايردال) والغليون في فمه نافشًا صدره في انتصار، ومن خلفه تقف (عبير) ممسكة بحبل. بينما الأمريكي يفعل شيئًا ما..

الساحل المغربي يتوارى.. يبتعد ببطء.. و...

أووووع!

بدأت (عبير) على الفور تفرغ معدتها وقد اخضر العالم، وراحت تترنح.. ثم تمسكت بالحبال لتفرغ ما بقي داخلها. كانت حكيمة عندما لم تفطر وإلا لحدثت كارثة.

نظر لها (هايردال) في شك وقال:

- «هذه ظاهرة فريدة.. دوار البحر يبدأ بعد 40 ثانية من الإبحار.. لم نهتز مرة واحدة، وتقريبًا لم نبتل.. هذا أسرع دوار رأيته في حياتي. غالبًا يحدث في اليوم الثالث..»

قالت وهي تغالب الدوار والغثيان:

- «القصة نفسية أكثر منها جسدية. بالنسبة لي على الأقل. دقيقة في الصحراء أموت بعدها من الظمأ.. دقيقة في البحر أفرغ بعدها معدتي..»

- «أنت متميزة في كل شيء..»

شعرت براحة أخيرًا.. يمكنها استعادة توازنها. تذكرت فيلمًا قديمًا لشارلي شابلن، كان ينحني فيه بهذه الطريقة على حاجز السفينة، ونرى حركة كتفيه المتشنجة فنحسبه يتقيأ، ثم يستدير فنكتشف أنه كان يصطاد سمكة بخيط..

كان الشط يبتعد بلا توقف، وتحمس الإيطالي فأنشد أغنية إيطالية سمعت لحنها من قبل:

Ma n'atu sole cchiù bello, oje ne'

O sole mio sta 'nfronte a te!

صوت التينور الجميل يدوي في الأفق ممتزجًا بصراخ النوارس. وبدأ الموج يرفع القارب ويهبط به، أخيرًا لم تعد ترى الساحل المغربي. يمكن القول بلا مبالغة إنها بدأت أولى خطواتها في الأطلنطي.. ليس عليها سوى أن تتحمل البحر مئة يوم وبعدها تدخل التاريخ..

مشى بها (هايردال) في أرجاء القارب..

- «هنا دورة المياه.. غرفة مغلقة تسمح بالخصوصية.. وهناك دلو يمكنك أن.. إحم.. ومن هنا المطبخ.. لن نستعمله إلا فيما ندر، لأننا لا نحب أن نمرّ بتجربة قارب مشتعل في عرض البحر.. معظم طعامنا هو السردين المعلب والفاكهة والبسكويت واللحم المقدد..»

ثم أشار إلى دكة من البردي:

- «هنا مركز القيادة.. معي أدوات الملاحة والخرائط..»

بدا لها الآمر مثيرًا للشفقة.. أين أجهزة اللاسلكي إذن؟ غرفة قيادة السفن تكون مزدحمة بالأجهزة ولربما كان هناك رادار أعماق، هكذا هي في السينما..

قال (هايردال) باسمًا:

- «نحن نعيش بالضبط تجربة الفراعنة.. لا أجهزة لاسلكي.. لا وسائل ملاحة حديثة..»

بدا لها هذا مرعبًا.. لا بد أنه يمزح.. لا بد من خط رجعة.. فنان الترابيز في السيرك يؤدي روائعه فوق شبكة.. مهما كان هناك نقطة لا يريد أن يموت بعدها و(يا روح ما بعدك روح)..

عادت تسأله:

- «هناك بالتأكيد طائرات هليكوبتر تحلق فوق مسار رحلتنا....»

- «بتاتًا.. قلت لك إننا نمارس ما كان قدماء المصريين يمارسونه، كانوا يضعون ثقتهم في رع ونحن سنفعل ذلك..»

الفارق الوحيد هو أنهم كانوا واثقين في وجود رع، أما (عبير) فتعرف أنه لا وجود لهذا الهذيان.. الخليط المبهم من رع وآتون وآمون.. ثلاثتهم لا يساوون جهاز لاسلكي رخيص الثمن..

كان التفكير في الغرق يجعلها موشكة على فقدان الوعي. لكنها لم تفقد الوعي.. فقط عاودها دوار البحر.. ستمضي معظم هذه الرحلة مريضة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Ma n'atu sole cchiù bello, oje ne'

O sole mio sta 'nfronte a te!

كانوا قد قسموا القارب إلى ثلاث غرف.. غرفة - هي الأضيق - لها بطبيعة الحال، بينما يسكن كل ثلاثة رجال في غرفة.. غرفتها لا تنغلق للأسف لكن هناك ستارًا يسمح ببعض العزلة، أما النوم فهو على حشية على الأرض.. المكان ضيق ويحرك مشاعر الكلوستروفوبيا بقوة..

لكنها وجدت في حاجياتها جهاز راديو.. جهاز راديو صغيرًا يعمل بحجارة جافة، وأدركت أنه مع الكتب سيكون وسيلتها الوحيدة لعدم الانتحار أو الجنون. فتحت الجهاز وحركت المؤشر نحو إذاعة الشرق الأوسط أو صوت العرب، لكنها لم تسمع سوى شوشرة استاتيكية.. ثم سمت كلامًا بالإسبانية. طبعًا.. هنا خليط بين الحضارات العربية والإسبانية، والبريطانية في جبل طارق طبعًا..

سيمر وقت طويل قبل أن تسمعهم يتكلمون بالإسبانية من جديد في إحدى جزر الكاريبي.

بحثت في حقيبتها حتى وجدت الخنجر. من الطبيعي أن أحد الرجال سيتحمس ذات ليلة ويقتحم غرفتها، متظاهرًا بأنه رومانسي ويحبها.. لكنها ستصرخ بأعلى صوتها وتولج هذا الخنجر في صدره حتى المقبض..

هكذا هي متأهبة لكل شيء. ماذا تفعل الآن؟ تشعر بالملل وقد مر وقت طويل.. ترى كم من الوقت قد مر؟ نظرت للساعة فاكتشفت أنه لم تمر سوى ساعتين!

لا بأس.. هناك 2400 ساعة.. الآن صارت 2398 فقط.. ليس الأمر صعبًا إذن..

تذكرت قصتها في جزيرة الشطرنج.. ب 4 م .. كان الوقت يمضي فلا تشعر به مع هذه اللعبة الرائعة. لو كان واحد من هؤلاء القوم قد جلب رقعة شطرنج فلربما صار هناك أمل.

لم تكن تعرف أن السوفييتي يجيد الرسم وقد أحضر مجموعة ألوان معه، كما أن المكسيكي يجيد التطريز وقد بدأ ينسج بعض الشراشف.. كما لم تكن تعرف أن الإيطالي يحب إدخال إصبعه في أنفه، وجبرين متدين جدًا يقضى وقته في تجويد القرآن، وثور (هايردال) يحلم بالمجد..

كلهم مشغولون جدًا.

عليها أن تشغل نفسها مثلهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- يوم آخـر..

عندما يأتي الظلام، فأنت تدرك عظمة الخلق والمجد السماوي بمعناه الحرفي.. من بعيد يبدو البحر كسطح أسود متجانس يمكن المشي فوقه، لكنك ترى من حين لآخر موجة عالية ترتفع وتهبط.. كأنها سلاسل من فضة تزحف فوق السطح البراق.

في السماء تتلألأ النجوم كما لم ترها من قبل، أكمل نطاق نجوم يمكن أن تراه في حياتك.. أنت ترى بوضوح النجم القطبي ووعاء الدب الأكبر وتعرف حدود مجرة درب التبانة.. تعرف كوكب المريخ في الأفق وكذلك الزهرة.

لم يبزغ القمر بعد، لكنها متأكدة من أن المنظر سيكون رهيبًا يرتجف له قلبها.

في الظلام ترى رفاقها، وتعرفهم فقط من عيونهم اللامعة في ضوء النجوم.

يقف الإيطالي عند مقدمة القارب متمسكًا بالحبل ويغنى أغنية إيطالية ما شعرت بقلبها يرتجف.. تذكرت مصر ولسبب ما تذكرت (شريف).. هناك درجة من الحب تبقى في نفوسنا تجاه من كرهناهم. مهما بلغ مقتنا لهم يظل هذا الحنين القديم في القاع.

ثم سمعت الصياح..

من بعيد هناك سفينة عتيقة مسربلة بالظلام. كأنها سفينة أشباح.. كانت على بعد مائتي متر، ومن على سطحها سمعت صياح البحارة، ثم صوت شيخ غليظًا يقول:

- «ماذا تفعلون لو رأيتم حوتًا يا رجال؟..»

صاحت الأصوات:

- «نغنى له.. ثم نلاحقه.. وشعارنا هو الحوت الميت أو القارب!..»

- «كلكم سمعني أتكلم عن حوت أبيض.. انظروا لي.. هل ترون هذه الأوقية الذهبية الإسبانية؟ إنها قطعة بـ 16 دولارًا.. ناولني مطرقتك يا مستر (ستارباك). من يبلغني منكم عن ظهور حوت أبيض مجعد الحاجب ملتوى الفم.. من يبلغني عن حوت أبيض في ظهره ثلاث فتحات.. من يخبرني برؤيته ينل هذه الأوقية يا أولادي!..»

كان الصوت يصلها عبر البحر الصامت والموج..

نظرت في دهشة إلى ثور(هايردال)، فأشعل غليونه بعود ثقاب ونفث سحابة بيضاء تصاعدت في ضوء النجوم ولم يتكلم.. هنا قال الأمريكي:

- «هذه قصة من وطني أنا.. القبطان أهاب يلاحق الحوت موبي ديك عبر المحيط.. رائعة هرمان ملفيل التي يصعب نسيانها. هنا يثبت قطعة عملة بمسمار إلى الصاري، ويقسم أن يمنحها لأول بحار يرى الحوت الأبيض اللعين..»

قالت في حيرة.

- «حيتان هنا؟ أعتقد أنه كان في المحيط الهادي؟..»

- «لا أذكر بالضبط. لكن لا تنسي أن هذه (فانتازيا). (فانتازيا) أقوى من الجغرافيا والتاريخ

والواقع..»

ابتعدت السفينة في الظلام، ومعها تلاشى صوت أهاب الذي يصرخ في رجاله. قالت لنفسها إنها يجب أن تجرب هذه القصة يومًا ما.. بالطبع ستختار لها (فانتازيا) دور رجل قوي، فليس من السهل أن تسافر فتاة أو امرأة على سفينة مليئة بصيادي الحيتان الأشداء كهذه. أما هنا فهم مجموعة من المثقفين أقرب للرقي.

لم تشعر براحة مع السوفييتي (يورى) ومن الواضح أنه لا يرحب بها على الإطلاق، لكن من السهل أن تتحاشى التعامل مع من لا ترتاح له..

كان الفجر دانيًا فسمعت (عبد الله جبرين) يتجه لركن القارب، فيخرج الماء بدلو ويتوضأ.. ثم بطريقة ما يحسب اتجاه القبلة ويكبر للصلاة ويصلي. فيما بعد سوف يزعم (هايردال) أن (جبرين) بدد مخزون القارب من الماء في الوضوء، بينما يقول (جبرين) إنه يعرف جيدًا أن ماء البحر المالح طاهر صالح للوضوء.. خلاف عنيف سوف يتزايد بين الرجلين، وحملة اتهامات على صفحات الجرائد، والنتيجة هي أن (جبرين) لن ينضم للرحلة رع 2 ولكن سينضم رجل مغربي اسمه (مدني عيط)..

لا تعرف بحق هل كان (هايردال) عنصريًا متعصبًا أم لا.. بالنسبة لها كان لطيفًا مهذبًا. فقط تسلطت عليه فكرة معينة لدرجة الجنون.. بالفعل كان أقرب نموذج معاصر للقبطان أهاب..

دخلت غرفتها الصغيرة وتحسست الخنجر تحت الوسادة، ثم نامت على ظهرها وأغمضت عينيها.. الاهتزازات تجلب النوم.. البحر أفضل منوم عرفته ال......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شمس النهار الحارقة تتسلل من مكان ما.. غالبًا من بين شقوق البردي.

هذا الجو المميز للصباح في المصايف. وأدهشها أن هناك ذبابًا لزجًا سمجًا.. هل يوجد ذباب في البحر؟ نهضت واتجهت للبحر فرقدت على بطنها وملأت الدلو إياه، وغسلت وجهها، ناولها المكسيكي بعض البسكويت والليمون وقدح ماء. في البحر يجب أن تتعود امتصاص الليمون لأن مرض الاسقربوط قاتل.

كان (هايردال) يقف عند حاجز القارب يلتقط صورًا لبعض الدرافيل التي تتواثب من بعيد.. لم يكن الفراعنة يملكون كاميرات، لكن هذا لن يفسد دقة الرحلة..

دنت منه وراحت تحك شعرها كأنه مليء بالقمل وسألته:

- «هل تعرف أين نحن بالتقريب؟..»

- «أسبوع من الملاحة.. لا يمكن أن أقطع بشيء.. لكن الأمور ليست سيئة..»

ثم أضاف بعد لحظة تفكير:

- «هذا مريب.. لا يمكن أن تتوقعي حظًا كهذا لدى عبور الأطلنطي. لابد من عواصف وأعاصير.. وليكونن هذا الاختبار الأقسى لمتانة هذا القارب..»

- «هل تتوقع أن يصمد قفص الدجاج هذا أمام الأعاصير؟؟..»

هز كتفيه العريضين وقال:

- «لقد صمد مع قدماء المصريين.. فلسوف يصمد معي..»

بدا لها هذا منطقا ثعبانيًا فاسدًا.. نحن نجرب لنرى إن كان الفراعنة وصلوا لأمريكا.. يجب أن يصمد هذا القارب كما صمد معهم.. إذن أنت متأكد من أنهم جربوا ونجحوا فماذا تختبر إذن؟..

الشمس تتعالى وحرارة الجو تتزايد..

هذه هي اللحظة التي تكرهها لأن الرجال جميعا ينزعون ستراتهم ليعملوا بجذوع عارية، فترى قدرًا لا بأس به من الكروش والعضلات النافرة وشعر الصدر. بعض الأجساد رياضي رشيق وبعضها مترهل رخو كقديل البحر، في كل الأحوال ليس هذا بالمنظر الذي يريح امرأة وحيدة، وبالطبع هي ستظل بكامل ثيابها.. يجب أن تتحمل الحر كأي أنثى محترمة في التاريخ..

لكنها حسدتهم في شيء واحد، هو بشرتهم المتجانسة النحاسية بفعل الشمس. شمس البحر التي تحرق الجلود وتدبغها..

لاحظت أن بشرتها تمر بتغيرات عديدة.. تزداد خشونة، وكريم الشمس الذي جلبته من المغرب لم يعد يجدي، وازداد كفاها خشونة بسبب جذب الحبال..

صارت الشمس عمودية تمامًا ولا يوجد ظل، فقام المكسيكي بنشر قطعة من القماش السميك فوق أربع عصي عمودية لتشكل ما يشبه المظلة، وقد اجتمعوا تحتها محاولين ألا يحترقوا..

قال (هايردال):

- «هو وقت الغداء.. فلتقم بتقسيم الطعام يا (يورى)..»

طعام الظهيرة هو نصف علبة من السردين، وشريحة توست.. ثم كوب كبير من الماء. يجب أن تطيل عملية المضغ كي تقلل شعورك بأن الوجبة صغيرة..

قال (هايردال):

- «يجب أن يكفينا مخزون الطعام بأي شكل.. لقد قمت بحساب الأنصبة لتكفينا أربعة أشهر....»

قالت محتجة:

- «يمكن أن يلحق بنا (لنش) إنقاذ يحمل المؤن..»

- هذا لم يكن متاحًا أيام قدماء المصريين وعلينا أن نمارس حياتهم بالضبط.. لو كنا سنمارس الغش فلماذا لا نستعمل قاربًا بمحرك، أو نستقل سفينة مريحة تعبر بنا الأطلنطي؟..»

- «ولكن من الحماقة ألا نملك خط رجعة..»

مضغ الطعام ببطء، ثم شرب جرعة ماء وقال:

- «هناك طائرة من حلف شمال الأطلنطي تحلق فوق مسار رحلتنا كل أسبوع وتلتقط الصور.. ليس الغرض هو مساعدتنا بل الغرض التأكد من أننا لم نغش.. وإلا لأمكن أن نستقل سفينة سريعة تعبر بنا الأطلنطي وتنزلنا بالسفينة رع قرب سواحل أمريكا....»

- «كان هذا سيكون رائعًا..»

بعد الغداء كان لابد أن يمارسوا النشاط المنطقي التالي: النوم بعمق.. وقد رقد الجميع وتعالى صوت شخيرهم.. لسبب ما تتصاعد رائحة أقدام النائمين. فهل هي بدايات التعفن الرمي؟.. هل تعتقد الأقدام أن أصحابها ماتوا فتتحلل في حياتهم؟.. أما هي فنهضت إلى الحمام لقضاء حاجتها.. يجب أن تزجي وقتها. يجب..

هل من شيء لا تفعله اليوم من أجل كوب بارد من المياه الغازية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- العاصفة قادمة..

تقف في الظلام تراقب البحر الذي لا نهاية له.. عندما تتصور أن أمريكا تقع على الجانب الآخر تشعر بدهشة وعدم تصديق، لكنك على الأقل أفضل حالًا من بحارة كولومبوس.. البحارة الذين أبحروا للغرب وهم لا يعرفون ما سيجدونه، فقط توقعوا أنها نهاية منطقية.. سوف يسقطون من حالق إلى هاوية الجحيم، أليس العالم مسطحًا؟

تمردوا وكادوا يفتكون بكولومبوس لكنه طلب أن يمهلوه يومين آخرين.. كانوا طاوين مرهقين والمؤن قد نفدت والأمراض تفشت.. وخلال يومين فوجئوا بطيور النورس وعرفوا أن ثمة أرضًا قريبة. ثم صاح الناضورجي بالكلمة المقدسة: أرض!!! لقد وجد كولومبوس أمريكا وإن لم يعرف هذا قط، وحسب أنه وصل إلى الهند لما رأى الهنود الحمر..

هذه المرة هي تعرف فعلًا أن هناك أرضًا.. لكن متى وكيف؟

من خلفها تسمع صوت الغناء. غناء السكارى النشاز.. هؤلاء القوم يحملون زجاجات خمر. هكذا يغيبون عن الوعي.. يشربون ويشربون ثم يرقدون منهكين بانتظار صباح آخر، وبالطبع يقوم (هايردال) بتقنين الخمر لأنها لن تكفي الرحلة..

تسمع أغاني مكسيكية وسوفييتية وإنجليزية ونرويجية..

ثم أدركت أن (عبد الله) يقف قربها. السبب أن أسنانه البيضاء تلمع في الظلام كالفوسفور.. يمكنك أن تجده في أي مكان..

قال لها بلغته الإنجليزية المضحكة التي ينطق فيها السين كأنها ثاء:

- «لم لا تنضمين لنا يا ثيدتي؟..»

كان يتكلم العربية أحيانًا لكنها عربية سيئة جدًا، فلغته الأصلية هي لغة التُبو (الدازاقا)، والكلمات الوحيدة الظاهرة هي التي قرأها في القرآن من قبل.. كانت تعرف أنه مثلها لا يشرب الخمر لذا يفضل مراقبة البحر في الليل..

قالت باسمة:

- «لست مغرمة بهذا النوع من التسلية..»

وفجأة هتفت في رعب أنها ترى شيئًا.. هناك.. هل تراه؟.. هذا القارب على البعد. هناك رجل مسن فيه. لا شك في هذا..

نظر (عبد الله) في نفس الاتجاه ورأى ما رأته.. صاح مناديًا (هايردال):

- «قبطان.. هلا أتيت لحظة؟..»

ظهر (هايردال) ممسكًا بزجاجة نبيذ، قادمًا من مكان ما، ونظر إلى الاتجاه الذي يشيران له. قارب صغير على بعد مائتي متر، وفي القارب رجل مسن - لكنه قوى البنيان برغم ذلك - يمسك حبلًا يدليه في الماء ويجذبه في حذر..

قال (هايردال) كمن لا يهتم كثيرًا:

- «العجوز والبحر.. قصة (هيمنجواى) هذا هو العجوز في قاربه.. يحلم بالأسود على ساحل أفريقيا، ويحاول أن يجر هذه السمكة العملاقة معه إلى داره.. للأسف سوف تفترسها أسماك القرش..»

قالت (عبير) في حيرة:

- «هل هذا المحيط يضم كل قصة حدثت في البحر؟..»

- «فقط هو نوع من تسليتك.. (فانتازيا) تمارس هذه الطريقة كثيرًا.. لا شك في أنك ستقابلين سمكة القرش بطلة بنشلي في رواية (فكان) أو لربما ترين التيتانيك..»

- «هل التيتانيك تتحرك على دائرة عرض كهذه؟ كانت تتحرك في الشمال..»

- «(فانتازيا) تفعل أي شيء.. أنت تعرفين هذا..»

ابتعد القارب بالعجوز ليغيبا في الأفق.. وتساءلت (عبير) عن مصير هذا المسن وهو وحده.. إنه جائع بردان..

من يقرأ القصة يعرف ما حدث.. لا داعي لإفسادها..

نظر (عبد الله) إلى الأفق.. رأى أول ما رأى تلك السحابة السوداء في الأفق تزحف كأنها مصيبة. ظهر في صوته التوتر وطلب منها أن يدخلا..

سألته عما يقلقه فقال بصوت مبحوح:

- «عاصفة دانية!..»

هذا ما كانت تخشاه.. عاصفة في قلب الأطلنطي وسط الموج.. والمشكلة أنك تركب قفص دجاج لا سفينة بالمعنى الحقيقي.. إنها النهاية غالبًا. هي التي كادت تفقد الوعي بعد خمس دقائق من مغادرة الشط.

اتجه عبد الله إلى حيث الركاب الذين جلسوا على السطح يشربون ويغنون، وصاح بصوت أراد أن يكون هادئًا فخرج يرتجف:

- «عاصفة يا قبطان!..»

بمعجزة ما زالت الخمر من رأس (هايردال).. وثب على قدميه، ثم شخط في الموجودين فزالت الخمر من رءوسهم كذلك. هذا أول خطر حقيقي يهدد الرحلة، أنزلوا الشراع.. فلتواجه مقدمة السفينة العاصفة القادمة.. اربطوا كل شيء على ظهر القارب..

هذه البراميل سوف تتدحرج.. اربطها يا (يورى)..

(عبد الله).. تمسك بالدفة بقوة.. سوف تدور بشراسة فحاول ألا تفلت منك..

نورمان.. اجمع الزجاجات وضعها في الصندوق المغلق..

(عبير).. عليك أن .... ثم نظر لها مفكرًا.. الحق أنها مشكلة فعلًا.. لن تلعب دورًا أكبر من أن تتدحرج في الماء، ثم خطر له أن يحضر الحبل فيلفه حولها ويربطها في جانب السفينة.. قيدها بشراسة وإن ترك ذراعيها حرتين. قالت إنها تجد صعوبة في التنفس لكنه لم يهتم.. ليس الوقت وقت مزاح..

بدأ المطر يهطل.. والقارب يهتز...

ثم ظهر لسان من البرق يشق السماء. وأضيء كل شيء بضوء كهربي مخيف، ثم دوى هزيم الرعد.. برووووووووم!

تساءلت في سرها عن السبب الذي يجعلهم بمنأى عن الصعقات الكهربية.. أليس الماء موصلا جيدًا للكهرباء؟ ألم تكن أمها تنصحها بالابتعاد عن بقع الماء أثناء العاصفة الرعدية؟ هناك تفسير فيزيائي قديم لكنها لا تذكره..

صاح الأمريكي نورمان بصوت عال ومن أعماق حنجرته:

- «سوف تكون عاصفة عنيفة يا ثور!..»

هرع ثور والحبل في يده، ودار على الرجال يربط كل واحد منهم لجسم السفينة، وإن أبقى لهم بعض حرية الحركة ليتمكنوا من الملاحة...

ماذا لو انقلب القارب؟ عندها فليتولهم الله لأنهم عاجزون عن التحرر.. في النهاية قيد نفسه وقبض على الخنجر ليتمكن من تمزيق الحبل في الوقت المناسب...

لسان برق.. ثم الرعد...

تذكرت (عبير) مغامرتها مع الأوديسة في القديم. عندما كان البحارة يربطون أنفسهم في صواري السفينة حتى لا يلبوا نداء عرائس البحر القاتلات..

بينما العاصفة تدنو أكثر قالت لنفسها إنها كانت حمقاء..

فلتذهب للجحيم أيها المرشد.. سوف أهلك وتهلك معي.. هذا عزائي الوحيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- نحتاج الى معجزة..

كان الأمر ألعن وأسوأ مما تصورت..

فجأة صار القارب ريشة تتقاذفها الأنواء.. يهوي في قاع عميق مظلم وفجأة يرتفع إلى قمم الجبال. أرجوحة ملاهٍ مجنونة لا ينجو منها أحد.. أحشاؤك كلها تترجرج وتتمنى أن تموت قبل الموجة القادمة..

شعرها ابتل وغطى وجهها.. ثيابها ابتلت وروحها ابتلت.. لم تعد ترى شيئًا والماء تحول إلى مدفع يضرب وجهها في عنف..

الأمر يبدو شكسبيريًا أكثر منه حقيقيًا.. تطير وتهبط.. تطير وتهبط.. تصرخ فيملأ الماء المالح فمها فتشهق مختنقة ولا تصرخ..

البحر الذي كان يبدو مسالمًا هادئًا قد قرر أن يعلن أنه أعتى من الجحيم.

لا أحد يمزح معي أو يتسلل فوق جلدي كبرغوث.. هياجه مجنون لا يمكن أن يهدأ.. ليس حصانًا تربت على منخره أو سيارة تدوس على فراملها..

إنها قوة الطبيعة التي تصير معها نملة طافية في دلو ماء عملاق...

وفكرة أن قاع المحيط بعيد. بعيد. بعيد.. أنت تسبح فوق حفرة مليئة بالماء، وهذه الحفرة كان القمر فيها يومًا ما!.. رحلة الهبوط للقاع سوف تستغرق أيامًا إذن!....

أين الآخرون؟.. لا تراهم..

أين (هايردال)؟.. بدا لها أقوى من هذا.. ليس من الطراز الذي يموت في عاصفة، لكن من الواضح أنه ضاع وسط الفوضى، ومن العسير أن يجدوه ثانية..

من العسير أن تجد أي واحد.. لقد انتهى الأمر..

البرق.. ثم الرعد.. البرق ثم الرعد..

رباه فلتكن ميتتي هينة سريعة..

وفجأة أدركت أنها حرة.. لقد انقطع الحبل أو تفككت عقده. ليس هذا بالخبر الطيب لأن معناه أنها ستصير في البحر حالًا. المحيط الذي لا نهاية له..

صرخت: الغووث!.. والماء المالح يتسلل لحنجرتها..

ثم وجدت أنها تطير في الهواء.. تنقلب.. فجأة هي في مكان مليء بالفقاقيع، ثم ترتفع.. تصفر أذناها.. تدرك أنها سقطت في الماء فعلًا.. سقطت في هذه الدوامة الكريهة حيث لا يستطيع سباح من وزن (جوني ويسمولر) أن يتماسك فكيف بها؟

ترفع رأسها فقط فترى البحر قادمًا من أعلى كأنه يوم القيامة.. المحيط كله ضدها...

الظلام.. فرصتها معدومة فعلًا...

وفجأة وجدت أنها تتمسك بحبل.. حبل غليظ التف حولها لا تدرى من أين، فتمسكت به بقوة

وصرخت.. عندما استطاعت أن ترى، رأت القارب هنالك يعلو ويهبط محاولًا التماسك، ورأت المكسيكي وعبد الله يتمسكان بالجانب وهما يدليان لها ذلك الحبل..

صرخ المكسيكي وسط صخب الأمواج:

- «ت.. ولا.. ت.. زلق.. إيكي!..»

لم تسمع ما يقول، لكن المرء يكون مجنونًا لو ألقي له بحبل وسط المحيط الثائر، ولم يتمسك به لأنه لا يسمع الكلام جيدًا. لا تحتاج لمن يشرح لها أن تتمسك بالحبل.. لفته حول معصميها وأقسمت أنه لن يفلت أبدًا..

إلا بالطبع لو فقدت وعيها.

كانا يجذبانها بسرعة.. لا تعرف متى تحررا.. لربما أفلتا من القيود مثلما حدث معها. ووجدت أنها تقترب من القارب برغم الموجات العالية التي تشبه الجبال وإن غمرت بالماء حتى الاختناق مرارًا..

هي الآن ترى القارب.. ترى الرجلين فوق متنها يهللان، أدركت أن هناك ضوء كشاف ساطعًا (سبوت لايت) يصوب عليها من عل ليعميها لكن ليجعلها واضحة تمامًا. من الواضح أن (هايردال) - لحسن الحظ - لم يلتزم بالأمانة الكاملة في تقليد رحلة قدماء المصريين..

تشعر بأن منظر الماء من حولها مألوف نوعًا. هذا المنظر رأته من قبل لكن أين؟

هذه الزعنفة المثلثة فوق الماء.. هل مر بها شيء كهذا؟

زعنفة مثلثة؟؟؟

الأمر واضح إذن.. هناك أسماك قرش تحوم حولها!.. عاصفة وأسماك قرش.. (فانتازيا) تبالغ في تسليتها.. على قدر علمها تهاجم أسماك القرش في المياه الهادئة فقط..

وسمعت الرجال يصرخون بينما الزعنفة الشريرة تحوم من حولها..

وفجأة انقضت عليها في نفس اللحظة التي كان الرجلان يرفعانها فيها من الماء.. وهكذا وجدت قدميها في الهواء، بينما الفك الشرير يحاول الوثب عليها.. العينان الميتتان القاسيتان.. الموت البارد غير المبالي.

ترتفع أكثر، ومحاولة القرش الأخيرة قد فشلت، لكن العاصفة مستمرة والقارب يتأرجح ويمكن أن تسقط له مرة أخرى في أي لحظة. وجدت نفسها على السطح مبتلة كإسفنجة، ولم تدر إلا ب‍(هايردال) يربطها بالحبال بشكل أكثر إحكامًا. ثم يأمر رجاله:

- «أعيدوا ربط الحبال بقوة.. نحن لا نمزح هنا..»

البرق يشق السماء ثم بروووووووووم!

تسأله (عبير) بصوت تبطره الأمواج:

- «متى يهدأ المحيط ذلك القاتل؟..»

- «عندما يقرر هو!..»

إذن على الأرجح تأجلت وجبة القروش لكنها لم تلغ. سوف يتناول السمك عشاءً دسمًا بالتأكيد.

- «لقد نجونا!..»

كذا صاح الإيطالي وهو ينظر للأفق البعيد، فنظر له (هايردال) متسائلًا. قال:

- «سفينة..!.. هناك في الأفق..»

نظر الجميع إلى حيث أشار.. بالفعل كانت هناك سفينة عملاقة تمر من بعيد وكانت أنوارها مضاءة.. من الصعب أن تسمعهم أو تراهم إلا لو كانت معك مسدسات إشارة أو لاسلكي، تصايحوا وصرخوا بينما الموج يرفعهم ويهبط بهم والمطر ينساب غزيرًا، ومن حين لآخر يشق لسان البرق السماء. راح (هايردال) يصوب الكشاف نحو السفينة، ثم راح يغلق النور ويضيئه محاولًا أن تكون الإشارات المتقطعة لافتة للنظر.. لا جدوى..

هنا صاح الأمريكي نورمان وقد فهم الأمر:

- «لا داعي للهفة.. إنها السفينة (كارباتيا).. سفينة رومانية.. هي ذاهبة لالتقاط ضحايا التيتانيك الذين تجمدوا في المياه المثلجة....»

قالت (عبير) في غيظ:

- «هل تنوون إصابتي بالجنون؟ التيتانيك غرقت عام 1912..»

قال نورمان مهدئًا:

- «قلت لك أنت في (فانتازيا).. حيث يحدث كل شيء في زمن ومكان واحدين..»

إذن كارباتيا لم تأت هنا من أجلهم، بل هي ذاهبة لمهمتها الكئيبة في المياه الشمالية وسط جبال الثلوج، لتكشف الجثث المتجمدة لنحو 1800 راكب تعس الحظ..

لم تكفّ الريح والأمطار عن العويل طيلة الليل، ولم تعد (عبير) تذكر كم مرة حسبت فيها أنها المرة الأخيرة.. فقدت غريزة الحياة ولم تعد تهتم بما يحدث لها.. فلتمت بسرعة..

عندما لاح الفجر وبدأ الأفق يصطبغ بلون وردي شاحب، لاحظت أن هناك شيئًا مخيفًا..

كل من في القارب - أو عشة الدجاج العائمة - لاحظ هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- تحت..

لم يعد العالم معتدلًا كما كان بل انقلب رأسًا على عقب.

القارب المصنوع من البردي والذي تحمل هذا كله لم يعد يتحمل أكثر. ارتفعت موجة عاتية، لكنه لم يستعد توازنه بل انقلب...

إنهم مقيدون إلى أخشاب قارب منقلب يهوى، وأسماك القرش متحفزة.. اللحظة التي كانت تعرف أنها آتية لا محالة قد جاءت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما هدأت العواصف وبدا أن العالم أفرغ طاقة العدوانية والسادية فيه، حلقت طائرة فانتوم من طائرات حلف شمال الأطلنطي فوق المحيط..

هذا هو المكان المفترض أن يكون فيه الطوف / القارب طبقًا لسرعته واتجاهه والحسابات الملاحية. لا يوجد شيء.. حلقت الطائرة من جديد، وكررت المحاولة الخرقاء.

قال الطيار لحاملة الطائرات عبر مكبر الصوت:

- «سلبي.. أو وان ألفا سلبي.. 18-11.. وحدة. روجر..»

فجاء رد الحاملة قطعًا:

- «113 ألفا.. التوجيه 8-6.. روجر..»

- «علم.. أو وان ألفا.. 180 هـ.. روجر..»

هذه المحادثة البليغة كما ترى تتلخص في أنه لا يجد الطوف.. لقد اختفى ثور (هايردال) وطاقمه متعدد الجنسيات.. غالبًا هم في قاع المحيط الآن.. العاصفة كانت قاسية جدًا وكادت تقتلع الجزر من جذورها لو كان شيء كهذا ممكنًا..

ابتعدت الطائرة، وعلى حاملة الطائرات احتسوا البيرة في أسى، ثم أعلنوا أنهم فقدوا القارب رع.. (كونتيكي) الجديد..

هكذا عرف العالم كله أن الرحلة قد فشلت وأن المغامرين قد هلكوا، وتم تكليف حملات بالبحث في المحيط، كما تحركت بعض سفن الأسطول نحو تلك المنطقة.. لا شيء..

هذا هو ما حدث فعلًا في عالم الواقع، لكننا نمتاز عن هؤلاء بأننا نملك كاميرا مطلعة على كل شيء، وتفسير ما حدث كان معقدًا نوعًا..

تعالوا نر ما حدث فعلًا، وما لا يعرفه العالم عن هذه الرحلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الهبوط لقاع المحيط سيئًا أو أليمًا.

في الواقع شعرت (عبير) بأنها تسبح في أثير جميل.. كل شيء هادئ مدوخ منوم، وخطر لها أن هذا هو الموت على الأرجح.. لربما سترى الضوء في نهاية النفق على طريقة تجارب الدنو من

الموت.

نظرت حولها فرأت أن الرجال جميعًا يسبحون حولها، وكلهم في حالة الذهول والدهشة.. إنه فراغ.. لا شك في هذا.. يسبحون بالطريقة المميزة لرواد الفضاء في غرف انعدام الوزن.

دققت أكثر فأدركت أنهم محاطون بغشاء رقيق منتفخ.. فقاعة عملاقة شفافة مليئة بالأكسجين تحيط بهم. ناعمة كأنها الغشاء المبطن لرحم الأم. هل هذا هو الموت؟ هل تحملهم الملائكة للسماء؟

القارب موجود لكنه مقلوب من تحتهم، وهناك كمية لا بأس بها من الماء داخل الفقاعة العملاقة.. من خلف غشاء الفقاعة ترى المحيط يزداد سوادًا كلما ازداد العمق.. ترى أسماكًا غريبة الشكل.. طبعًا.. نحن ندنو من القاع حيث أنواع فريدة من الأسماك التي تتحمل الضغط..

من الغريب كذلك أن الضغط كان ثابتًا داخل الفقاعة.. لو كانت الحسابات دقيقة، فلابد أن الضغط على جوانب الفقاعة يبلغ عدة أطنان.. كان لابد أن ينسحقوا. لكننا ندخل عالمًا فريدًا لا تلعب فيه الفيزياء هذا الدور المعروف...

نظرت إلى (هايردال) فرأته راقدًا في الفراغ على ظهره وقد جحظت عيناه محاولًا فهم ما يحدث..

هذه تجربة فريدة جدًا.. في جميع الأحوال يجب أن تفتح عينيها.. لو كان هذا هو الموت، فهي تعرف الآن ما عرفه كل من ماتوا وعجزوا عن إخبار الآخرين.. ليس مخيفًا ولا منفرًا أما إن كان شيئًا غير الموت فما هو؟

تنظر لأسفل فترى أضواء غامضة.. القاع مضيء كأنه مبطن بالفوسفور، ورأت الأمريكي والمكسيكي يهتفان في جزع وهما ينظران لأسفل..

بدأ المشهد يتضح ببطء.. هذا التكوين الفوسفوري عبارة عن هرمين شامخين..

متى قرأت عن شيء كهذا؟.. بالفعل هناك من زعم أنه رأى هرمين في قاع مثلث برمودا.. هل هم في مثلث برمودا؟ بالطبع لا.. إنهم في وسط المحيط على الأرجح.. على بعد 20 يومًا من المغرب.. مثلث برمودا بعيد جدًا..

كان هناك عالم أمريكي اسمه (مايرفيرلاج) الذي أعلن أنه وجد هرمين من الكريستال في قاع المحيط، وحجم الهرم يقترب من ثلاثة أضعاف هرم خوفو، رأى هذا بدراسة قاع المحيط بالسونار، هذه صورة ثابتة في كل مجلات الظواهر الغريبة. البعض صدقه والبعض قال إن القصة كلها هذيان..

هل هي تمر بشيء كهذا؟

التفاصيل تزداد وضوحًا..

إن الأمر أقرب لمدينة كاملة مغلفة بقبة عملاقة من غشاء ما. ومن هذه القبة تتلألأ أضواء غامضة.. مدينة مستقرة على قاع المحيط..

لا داعي لأي أسئلة، الأمر واضح كالشمس..

هذه هي أطلنطس.. لن يترك خيالها فرصة كهذه..

وحين نظرت لثور (هايردال) وجدته يحلق ناظرًا لأسفل في دهشة، ورأت شفتيه ترسمان كلمة

(أطلنطس) بوضوح تام، لقد فهم ما فهمته.. وإن أدركت أن قارة ميو وليموريا واردتان كذلك.. كتب الظواهر الفورتية جعلت هذا شأنًا مفروغًا منه.

يمكنها من هنا أن ترى أن الهرمين يفتحان من أعلى عند القمة، فتخرج فقاعات تشبه تلك التي هم محبوسون فيها. يبدو أن هذه نوع من سفن الملاحة، وإن كانت لا ترى قومًا داخلها.. ثم تعود قمة الهرم لتغلق من جديد..

تبادلوا النظرات..

الرحلة تدخل طورًا غير مسبوق لم يتهيأ له أحد. وبلا تفكير تماسكت أيادي المجموعة كأنهم يصنعون دائرة سحرية، كما يفعل المظليون الاستعراضيون عند الوثب من الطائرة..

لم يكن هناك مجال للكلام.. برغم أن حولهم مجالًا واسعًا من الأكسجين.

لكن (عبير) تمنت لو تعرف: هل هم مخطوفون أم أنه قد تم إنقاذهم؟

مادا ستراه في اللحظات التالية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلنطس.. القصة التي خرجت من فم أفلاطون ليصدقها العالم حتى اليوم. إنه أول من وصف تلك القارة عام 350 قبل الميلاد في محاورتين شهيرتين هما (كريتياس) و(تيميوس).. يقول إن يونانيًا عظيمًا اسمه (سولون) زار مصر، وعرف من الكهنة هناك قصة هذه القارة.. لقد وصف لنا كم كانت الأطلنطيس ثرية متقدمة قوية عسكريًا، وكيف سيطرت يومًا على أوروبا كلها. وقال إن الشعب الوحيد الذي هزمها كان اليونان.. ثم بعد الهزيمة - ولأن المصائب لا تأتي فرادى - حدث زلزال وغاصت أطلنطس في المحيط وقد استشهد الرجل بكلام الكهنة المصريين الذين عاشوا قبله بمائتي عام.

الحق أن (أفلاطون) وصف أطلنطس بالتفصيل الممل.. قال إنها مليئة بقنوات الماء وفيها نظام ري متكامل يسمح لأهلها بجنى محصولين في العام..

هلكت هذه الحضارة عام 9600 قبل الميلاد حسب كلام أفلاطون. هناك من يعقدون أن السبب هو الزلزال.. وهناك من يعتقدون أنه استخدام قوتها بشكل خطأ.. وهناك من قالوا إن السبب هو التحلل الأخلاقي.. بهذا يكون ما حل بها شبيها بما حل ب. (سدوم) و(عمورية).

نسي العالم الأسطورة حتى العام 1882 حينما ظهر كتاب (أطلنطس.. العالم الموغل في القدم)، كتبه أمريكي عضو سابق في الكونجرس اسم (إجناتيوس دونلي).. وقد ملأ الكتاب بالهراء على غرار أن أطلنطس كانت مكان جنة عدن!.. وإن أهلها أول من ابتكر الحروف الأبجدية. بل زعم أن ملوك أطلنطس هم الذين اتخذتهم الشعوب القديمة آلهة. ومازال بعض الناس يعتقدون أن الإنسانية بلغت الكمال في ذلك العهد ثم انحدرت إلى ما نحن فيه.

نصابة أخرى اسمها (هيلينا بلافاتسكي) أعلنت إن أهل أطلنطيس جاءوا من قارة أخرى هي (ليموريا).. وزعمت أنها عرفت هذه المعلومات من كتاب مخفي في التبت اسمه (كتاب ديزان).

كتاب (سر أطلنطيس) بقلم (أوتو موك) يقول إن أطلنطس فنيت نتيجة ارتطام جرم سماوي بالأرض شمال غرب المحيط الأطلسي. يقول المؤلف إن هناك فعلًا منخفضين قرب بورتوريكو.. وهذا يشير لارتطام جسم نصف قطره عشرة كيلومترات وبقوة انفجار 300 قنبلة

هيدروجينية. من هنا حدثت تغيرات طقسية رهيبة وتجمدت سيبيريا بما فيها من حيوانات ماموث.

مؤخرًا أعلن خبير روحاني اسمه (إدجار كليس) أنه دخل السجلات الأكاشية وزار أطلنطس.. وقال إنها انهارت بسبب انفجار ذري، وحدد موقعها قرب جزر البهاما.

كانت أطلنطس تقع في المحيط الأطلنطي لو كنت قد لاحظت الاسم!.. قال أفلاطون إن القارة كانت أكبر من ليبيا وآسيا الصغرى معًا، وقال إنها كانت موجودة في المحيط الأطلنطي غربي أعمدة هرقل.. بلغتنا الحالية نقول إنه كان يتكلم عن مضيق جبل طارق.. أنت تعرف أن الإغريق كانوا يعتقدون أن قبضة هرقل صنعت ثقوبًا في الجبال في هذه النقطة بالذات..

أحيانا كانت تظهر علامات مريبة تشير على المحيط الهادي. مثلًا هناك غطاس شهير اسمه د. (فالنتين) زعم أنه وجد أجزاء من مرفأ قديم مغمور قرب البهاما، وقال إنه يعتقد أنها خرائب أطلنطس.. هناك من يلاحظون كيف أن الهنود الحمر يشبهون الهنود في آسيا.. من ثم يعتقدون أنها هجرة تمت عبر البر.. وأن أطلنطس كانت هي الجسر الذي تم بوساطته هذا العبور.. وهذا يعني أنها كانت في المحيط الهادي!

آخرون يعتقدون أن (أعمدة هرقل) التي وصفها (أفلاطون) لم تكن إلا مضيق البوسفور أو مضيق سردينيا.. هذا يجعل مكان أطلنطس في تركيا أو سردينيا.. كما يرجح بعض العلماء أن انفجار بركان (سانتوريني) هو الذي أوحى ل. (أفلاطون) بموضوع فناء (أطلنطس)..

لا تذكر أطلنطس من دون ذكر قارة (ميو) في المحيط الهادي. الرهبان الهندوس أخبروا (جيمس شيرشود) بها حين كان في البنغال.. هناك قارة أخرى مهمة في المحيط الهادي هي (ليموريا) التي وصفها (فيليب سكلاتر).. أن الليمور حيوان يعيش في أفريقيا وماليزيا، فكيفا استطاع التواجد في المكانين؟.. أي أن تلك القارة كانت تربط أفريقيا بماليزيا قديمًا، ومن هنا جاء الاسم. كان الإغريق يسمونها (حقول الفردوس) والفراعنة يسمونها (حقول العشب) أو (حقول الأسلاف).. ثم غرقت فأطلقوا عليها (أرض الموتى) حيث لا يجسر بحار على الاقتراب. الغريب أن اسم (أرض الأسلاف) معناه (سومطرة).. وهي الجنة كما يعتقد الهندوس.. كل هذا غريب ويشير بشكلٍ ما إلى أن أطلنطس فعلا كانت في المحيط الهادي!..

لكن تظل القصة لغزًا محيرًا.. لماذا لم نسمع عن أطلنطس قبل أفلاطون ولا بعده؟.. لم نر لها رسمًا واحدًا ولا قطعة واحدة من الخزف.. لماذا لم نر نقشًا فرعونيًا واحدًا يظهر هذه الأسطورة؟.. كان الفراعنة مولعين بالثرثرة ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا حكوها في نقوشهم.. فلماذا صمتوا هنا بالذات؟ حتى هذه اللحظة لم يجد أحد دليلًا ماديًا على وجود (أطلنطس)..

كانت (عبير) تتساءل وهي ترى معالم هذا العالم: هل تراها وصلت للإجابة فعلًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- هي حـقًا..

استمر الهبوط لأسفل..

يشبه الأمر هبوط الطائرة.. نقاط مضيئة متناثرة كالجمرات على بساط أسود.. ثم تتحول إلى بنيات.. النقاط المتحركة تصير سيارات. ترى الشوارع.. ثم يحبس الكل أنفاسه بينما عجلات الطائرة تضرب الأرض..

الأمر يتكرر هنا، ولكنها لا ترى شوارع.. ترى الهرمين الشامخين.. ثم ترى تماثيل عملاقة.. لا تعرف تماثيل لأي شيء، ولو أطلقت لخيالها العنان لحسبت أن هذا كتولو، الشخصية التي كانت تطارد خيال لافكرافت. العملاق الذي له رأس على شكل أخطبوط. هناك ما يشبه المعابد بأعمدتها..

من أين يأتي الضوء؟ لا تعرف مصدره، لكن الموجودات نفسها تطلق أشعة زرقاء غامضة تجعها مرئية، وتجعلك ترى وجوه من حولك..

كل شيء غريب. إنهم يعبرون فجوة زمنية بالتأكيد.

أما الغريب في الأمر فهو أن الغشاء المحيط بهم التحم بالغشاء المغلف لهذا العالم، وفي لحظات صار داخله طريقة الخلايا لاقمة الجراثيم في ابتلاع البكتريا.. تتحول لحويصلة وهذه الحويصلة تندمج بالجدار.

هكذا صاروا بالداخل وليس الخارج..

ثم استمرت عملية الهبوط. هذه مساحة فسيحة خالية، لكن في المركز يوجد شعار غريب أقرب لشجرتين تلتفان حول بعضهما. هذا الشعار العملاق من الواضح أنه يشبه علامات هبوط الطائرات في عالمنا.

أخيرًا استقر القارب رع على القاع مقلوبًا.. ومن فوقه هبط أبطالنا..

كان الأمر أقوى من تبادل كلمات.. لا مجال لكلمات بلهاء من طراز:

- «هذا غريب!.. ما معنى هذا؟.. إلخ..»

أحيانًا يكون الكلام سخيفًا ومبتذلًا. فقط وقفوا بثيابهم المبتلة ينظرون إلى ما حولهم والماء يسيل من شعورهم وحواجبهم..

القارب البردي يقف وسط بقعة من الماء.. فيما عدا هذا كان هذا العالم جافًا تمامًا.. قبة غشائية تحمي هذه المدينة من المحيط في الخارج.. كأنها قبة السماء نفسها، لكنك ترى من ورائها الوحوش البحرية تحوم، كأنه مطعم غاطس من تلك المطاعم التي تجلس فيها في قاع البحر..

بعد قليل بدا أن الغشاء الذي يحيط بهم قد ذاب بالكامل.. لم تبق منه سوى أنسجة ملقاة هنا وهناك..

ماذا سيحدث بعد هذا؟ نفس شعور ركاب طائرة هبطت بهم أخيرًا، بعد ما كادت العواصف

والأنواء تحطمها.. نحن أحياء.. متى تصل سلطات المطار؟

قال الإيطالي أول عبارة تعبر عن أفكارهم جميعًا:

- «أحياء على الأقل!..»

قال (هايردال) وهو يرفع رأسه محدقًا للقبة:

- «لو لم أكن أهذي، فنحن الآن في أعماق المحيط.. كيلومترات عديدة من الماء فوقنا.. لا أحد يعرف أننا هنا وما من سبيل للخروج..»

قال الأمريكي:

- «حتى لو افترضنا جدلًا أننا مزقنا هذا الغشاء، فلسوف يمزقنا ماء المحيط.. لا توجد طريقة للوصول للسطح..»

ولكن من تحدث عن التمزيق هنا؟ هذه مدينة بلا شك. مدينه تختلف عن مدننا، وهندسة الأبنية عجيبة جدًا.. ولا يبدو أثر لبشر ولا سيارات، لكنها في النهاية مدينة.. مدينة بها ذكاء من نوع ما.. هناك كائنات حية..

قالت (عبير) لاهثة:

- «تعرفون طبعًا أن هذه أطلنطس..»

قال الإيطالي في اشمئزاز:

- «لماذا؟ هل قرأتِ اللافتة مثلا؟..»

قالت في بساطة:

- «مدينة غارقة تحت المحيط الأطلنطي.. لن تكون نيويورك على الأرجح..»

في تعالٍ وعصبية قال السوفيتي (يورى):

- «قصص الخيال العلمي هذه.. غذاء العقل الرأسمالي الغارق في غيبوبته. أما نحن فجدليون ملتصقون بالواقع..»

- «إذن جِد تفسيرًا جدليًا آخر..»

فكر بعض الحين، وحك ذقنه ثم قال:

- «قارة ليموريا مثلا!!..»

- «أنت عبقري.. الخلاف إذن على اسم القارة فقط..»

قال (هايردال) وقد بدأ يستعيد سيطرته وقوة شخصيته المبتلة:

- «لو كانت ليموريا موجودة حقا فهي ليست هنا على الإطلاق.. ليموريا تمتد من ساحل افريقيا شرقًا نحو ماليزيا.. هي في المحيط الهادي لا هنا..»

قالت (عبير) في كياسة:

- «بعض النظريات قالت إن أطلنطس في المحيط الهادي فعلًا!..»

كان هذا جدلًا عقيمًا.. هم يقفون فوق قاربهم المقلوب وسط بركة من الماء، وسط ساحة خالية فسيحة تشبه المطار.. وهذه الساحة تقع في قاع المحيط. هذه حقائق.. أما اسم المكان فلن يحدث فارقًا كبيرًا.. لو قيل إنهم في أرض (أبدًا - أبدًا) أو (شانجري- لا) لو كنت قد قرأت قصة الأفق المفقود لهيلتون، أو أيرهوون EREHWON في قصة باتلر.. فلا فارق..

هم مبتلون مذعورون مشوشون يشعرون بالبرد والجوع بعد ليلة لعبوا فيها دور الريشة في عاصفة.. الآن هم يحتاجون إلى المأوى والاطمئنان..

فكرة أن كل هذا المحيط يجثم فوقهم تدمرهم نفسيًا وتشعرهم بالاختناق. (عبير) مصابة بدرجة من الكلوستروفوبيا، ولم تحب قط هذا الشعور الرهيب.. ليس ألعن من أن تسجن حيًا في قبر ترابي، إلا أن تسجن حيًا في قبر مائي.

لكن الأكسجين كان وافرًا.. هذه نقطة مهمة..

نظر عبد الله في نقطة ما نحو ... لا نعرف الاتجاهات هنا لنقول هو الشرق أم الغرب..

عندما نظروا شهقوا من الدهشة..

كان شيء يقترب منهم قادمًا من بعيد. للحظة الأولى يخيل لك أنهم مجموعة من الرجال يحلقون في الهواء. بشيء من التدقيق تدرك أنهم يقفون فوق رقعة متحركة.. كأنها سجادة ترتفع عن الأرض مترًا.. بساط طائر..

أما عن الرجال أنفسهم فهم يبدون كأي رجال آخرين نعرفهم. فقط هم يلبسون ثيابًا واسعة بيضاء تذكرك بالمنامات الحريرية. فوق رءوسهم قبعات غريبة لها أهداب مثل الأخطبوط.. في أيديهم أشياء غريبة أقرب لغصون لبلاب تلتف حول الأذرع..

الموكب يقترب أكثر..

إنهم سبعة..

يمكنك أن تدرك أنهم فارعو القامة سمر الوجوه، ولهم أعين واسعة جميلة لكنها محاطة بالكحل بكثافة. يبدو أن هناك وشمًا على الوجوه في عدة مواضع. يبدو أنهم يستعملون عدسات لاصقة لأن لون القزحيات يختلف. قد تجد رجلًا له عين زرقاء والأخرى حمراء.. وهكذا..

الوجوه باسمة مريحة لحسن الحظ..

أدركت (عبير) على الفور أن غصون اللبلاب التي يحملونها هذه هي نوع من السلاح.. هذا واضح.. هؤلاء رجال جيش أو شرطة طبعًا. لو أردنا الدقة لقلنا إنهم (شرطة المطار).. هذه اشياء يسهل استنتاجها..

قال (هايردال) وهو يتقدم خطوة:

- «سأتولى أنا الكلام..»

قالت (عبير):

- «وهل تعتقد أنهم سيكلمونك بالإنجليزية أو يطلبون جوازات السفر؟ واضح أنهم يروننا نوعًا غريبًا من قناديل البحر مثلًا..»

- «إذن؟..»

- «لا أدري.. أعتقد أنهم سيبدءون بالإبادة.. سيطهرون عالمهم منا!..»

الآن صار الرجال في مستوى القارب المقلوب. وقفوا يتبادلون النظرات مع أصدقائنا.. لحسن الحظ أنهم يبدون بشرًا وإلا لكانت تجربة مفزعة جدًا..

وفجأة تكلم أول الرجال، والذي أدركت (عبير) أنه الأطول والأقوى والأكثر هيبة.. تكلم بصوت ناعم أملس لكنه لم يفتح فاه.. فجأة سمع الجميع صوته يتكلم في الرءوس.. وكل واحد سمعه بلغته. بالنسبة ل (عبير) بدا أنه يتكلم بعربية فصحى ممتازة، أما (هايردال) فقد انبهر بهذه اللغة النرويجية، وتساءل جبرين عن سر براعة هذا الرجل في استخدام لغة التبو (الدازاقا).

- «أنتم في أمان.. سوف نأخذكم إلى المحراب..»

أدركت (عبير) أن الرجل يستعمل لغة التخاطر.. أفكاره تنتقل لهم مباشرة..

قالت بصوت عال:

- «شكرًا..»

هنا سمعت الصوت يتردد في ذهنها:

- «نحن نسمع أفكاركم فلا ترهقوا أحبالكم الصوتية..»

لكن (عبير) قالت بصوت مسموع:

- «عذرًا.. ربما يمكننا سماعك لكننا بحاجة لسماع بعضنا كذلك..»

قال (هايردال):

- «هذا صحيح.. نحن لا نستطيع قراءة أفكار بعضنا.. والآن هلا تكرمت أيها السيد الكريم بأن تخبرنا أين نحن؟..»

عاد الصوت يتردد في الأذهان:

«أنت تعرف يا أستاذ (هايردال).. الإجابة واضحة في أذهانكم جميعًا.. أنتم في الأطلنطس.. نعم هي حقيقية!..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الاس.تقبال..

كانت (عبير) تعرف يقينا أن هذه هي الإجابة..

التعامل مع شخص يقرأ الأفكار عملية خطرة جدًا. يجب أن تسيطر عل أفكارك جيدًا.. كم من آراء سلبية أو شتائم سوف تتدافع بشكل قهري لذهنك. لابد أن هؤلاء القوم يسمعون مصائب.. لكن لا تمكن الحياة بهذه الطريقة. لابد أنهم يملكون طريقة للسيطرة على أفكارهم. من المستحيل أن تنشأ حياة وسط قوم يعرفون ما في ضمائر بعضهم.

حاولت أن تركز تفكيرها على شكل سؤال، وحركت شفتيها ليسمعها رفاقها:

- «هل تعرف من نحن؟..»

- «أنتم ملاحو رع»

- «ومن أنت؟..»

انتصبت قامته بشكل شبه عسكري ومد قبضته إلى الأمام كأنه يضرب خصمًا، ودوت الإجابة في ذهنها:

- أنا الأرشيدوق (روجاسوناتي كلامانوشيسان جاليكورايان) كبير حراس أطلنطس البواسل..»

وهل تعتقد أنه يمكن حفظ اسم كهذا؟ هم مختلفون في كل شيء حقًا..

كان (هايردال) موشكًا على الجنون.. هذا السيرك يدور أمامه وهو لا يملك كاميرا ولا يستطيع توثيق هذه اللحظات. أما (عبير) فقد تقبلت فكرة أنهم في قاع المحيط يكلمون رجلًا من أطلنطس.. لا بأس ببعض الجنون في (فانتازيا)..

لماذا أنقذوهم؟ ما الفارق بينهم وأي قارب آخر؟؟

لكن من الواضح أن الأخ (روجاسوناتي كلامانوشيسان جاليكورايان) لم يكن مخولًا بتقديم إجابات. فقط أشار لهم، ثم مد يده النبيلة الشبيهة بالزجاج لها فخطت نحوه، وسرعان ما وجدت أنها تقف فوق منصة متحركة هي التي جاءوا بها.. منصة طائرة ترتفع مترين عن الأرض، وسرعان ما لحق بها باقي الرجال، وارتفعت المنصة ودارت محلقة.. هذه هي طائرات هليكوبتر هذا العالم إذن..

كان التحليق سلسًا ولم تشعر (عبير) بأن الارتفاع يرعبها..

كانت للرجال رائحة عطرة غريبة، تذكرك بنبات (التمر حنه) نوعًا، كما أنهم كانوا يمضغون نوعًا من الجذور العطرة طيلة الوقت.. لربما كانت هي مصدر الرائحة..

هناك طرق طويلة واسعة. على الأرجح هي الشوارع هنا، لكنها مرصوفة بمادة عجيبة تذكرك بحراشف الثعبان. هناك مبان غريبة على الناحيتين.. مبان تذكرك بالمعابد.. لكنها ديانة غامضة.. كما قابلنا هناك تماثيل لكنك لا تعرف لأي شيء بالضبط...

من حين لآخر ترى واحدة من تلك الفقاعات الغشائية تمر بك منزلقة قاصدة وجهة ما.

دوى الصوت الناعم في أذهانهم:

- «لا أنصحك بالمحاولة يا أخ سنتياجو.. العنف مرفوض ومجرم في أطلنطس..»

خطر لها أن القصة واضحة.. المكسيكي يحمل خنجرًا أراد أن يضعه تحت عنق الأرشيدوق، وهي محاولة غبية طبعًا. أنت تحت رحمتهم بالكامل، ثم إنك لا تعرف ما ستطلبه. أعيدونا للسطح، هاتوا طائرة تقلنا للأرجنتين لا يوجد شيء..

قال (هايردال) في حزم:

- «سنتياجو.. لا تثر سخطهم.. لا أريد أي محاولات بطولية من أي واحد..»

أخيرًا استطاعت (عبير) أن ترى مكانًا فسيحًا صمم على شكل محارة علاقة.. محارة تسمح لسفن بأن تمر من خلالها. لابد أنه مهندس ديكور عبقري..

لون الجدران هو لون اللؤلؤ فعلًا، وهناك إشعاع بارد غامض يأتي من لا مكان، هؤلاء الناس يتنفسون مثلنا ويحتاجون إلى الأكسجين.. لم يتحوروا لأسماك ذات خياشيم كما اعتقد كتاب الخيال العلمي، والحقيقة أن عمر أطلنطس ليس كبيرًا لهذا الحد. التغيرات المورفولوجية تحتاج لعدة ملايين من السنين.

هذا هو المحراب طبعًا..

مكان يستحق هذا الاسم.. ربما هو قصر الحاكم كذلك...

لم يترجلوا بل انسابت المنصة في تعاريج المحارة العملاقة، واستطاعت (عبير) أن ترى مجموعة فتيات بثياب شفافة يرقصن رقصة غريبة، والموسيقا نفسها كانت غريبة تعتمد على آلات وترية.. غالبًا هي الهارب..

بدا لها المشهد مألوفًا إلى حد ما..

وفجأة مالت على (هايردال) وهمست:

- «هؤلاء راقصات فرعونيات!.. نفس المشاهد التي كنا نراها في المعابد..»

هز رأسه مؤمنًا.. دقيقة بدقيقة بدءوا يدركون أن هناك طابعًا فرعونيًا لا بأس به، سواء في شكل الأعمدة أو النقوش على الجدران.. هذا طابع فرعوني مزج بطابع بحري غير مسبوق..

ظهرت أكثر من فتاة فأدركوا أن الطابع الفرعوني لم يكن صدفة. ثم ظهر رجل أصلع يضع جلد قرش ويحمل عصا.. صورتنا النمطية عن الكاهن. هناك حراس لكنهم يحملون غصن اللبلاب هذا.

احمر وجه (هايردال) النرويجي المحتقن أصلًا وقال:

- «هناك لغز مذهل هنا.. هل لديك تفسير؟..»

هزت كتفها.. لو كان يعتقد أن كونها مصرية يفسر لها وجود هذه المملكة تحت قاع المحيط فهو مخطئ..

لكنهم ضيوف فوق العادة كما هو واضح.. تتقدم المنصة في الهواء، بينما يركع الرجال صُلع الرءوس على ركبة واحدة وينشدون نشيدًا طويلًا دون أن يفتحوا أفواههم:

- «المجد لرع.. أبناء رع قد عادوا من غابة الظلام حيث يطفو البردي وتخور أفراس النهر..»

كل واحد منهم سمع الأغنية ملحنة في ذهنه بلغته هو. ظريف جدًا أسلوب الترجمة الفورية هذا..

وكما توقت (عبير)، كانت هناك قاعة أخيرة يتوسطها عرش يشبه المحارة المفتوحة.. هي رأت لوحة كهذه يومًا ما، بالطبع (عبير) لا تعرف أنها تتكلم عن لوحة مولد الزهرة لبوتشيللي..

لكن من على العرش لم يكن فينوس العارية، بل كان رجلًا فارع القامة قوي الأطراف، ونقول الأطراف لأنها لم تر سوى هذا.. وجهه يختفي تحت قناع ابن آوى.. أنوبيس الفرعوني بخطمه الطويل المخيف..

ما هذا الخلط؟ خليط عجيب من الحضارات والديانات..

لابد أن هناك قصة غريبة لهذا العالم..

انخفضت المنصة وجثا الرجال على ركبة واحدة وهم يطلقون صوتًا منغمًا واحدًا، وبالطبع لم يفعل رفاقنا شيئًا.. لا يمكنك أن تبدى الاحترام والإجلال لشيء لا تعرف من هو..

دوى الصوت في أذهانهم:

- «نحن لا نتدخل..»

متصلب هو لا يلتفت يمينًا أو يسارًا..

- «نحن لا نتدخل فيما يدور هناك على السطح.. كم من سفن غرقت وطائرات تحطمت وقوارب انقلبت.. هذا ليس شأننا وإن كنا نراقبه ونعرفه ونتنبأ به.. لكننا رأينا قاربكم الذي يحمل شعار رع واسمه، فعرفنا أن أساطين الماضي قد عادوا وأن الزمان يعيد نفسه...»

لم تعرف (عبير) ما قاله (هايردال) في ذهنه، لكن الحاكم أو الملك نظر له وقال:

- «أنا حاكم أطلنطس.. وريث عرش بيساروس.. أنا (كيراف سولانوسين باركلاس) أزرق الدماء.. فليخضع الجميع..»

هنا رأت (عبير) لدهشتها أن الكهنة على الجانبين، أخرج كل منهم مدية وطعن ساعده ليسيل الدم. غالبًا هي طريقة ليظهروا أن دمهم أحمر وليس أزرق، أي أنهم عبيد وسيظلون كذلك. وتمنت لو رأت دم هذا الحاكم.. لو كان صادقًا فإن الحبر هو ما يملأ عروقه.

تساءلت في ذهنها:

- «هذا اسم ليس فرعونيًا..»

سمعت الضحكة تتردد في ذهنه ثم قال:

- «هناك خلط واضح.. لسنا من قدماء المصريين....»

ثم فكر قليلًا ونظر إلى السوفيتي (يورى) وقال:

- «لا داعي للتلوي.. مثانتك مليئة.. أفرغها..»

هز (يورى) يده في امتنان ووثب من فوق المنصة، وركض نحو.. نحو الحمام. ولكن أين الحمام في أطلنطس؟ هل يمكن أن تجد غرفة عليها رمز للذكر ورمز للأنثى؟ على كل حال انزلقت قدمه على الأرض الملساء. نهض في خجل كأن هذا مشهد غير ملكي بالمرة..

ظهر مجموعة من الأقزام عراة الجذوع، يقتادونه من يديه إلى نهاية القاعة.. واضح أنهم يقودونه لدورة المياه. بعد قليل عاد، وقد بدا عليه نوع من الاكتئاب الغامض.. قال هامسا:

- «ديمو..!..»

تساءلت (عبير):

- «ماذا قال؟..»

قال (هايردال) الذي يعرف بعض الروسية:

- «لا داعي للترجمة.. لم يرق له الأمر على كل حال..»

من الواضح أن حمامات القارات المغمورة ليست نظيفة جدًا..

قال الحاكم في وقار:

- «هناك وقت كاف لفهم كل شيء، أما الآن فأنتم منهكون تحتاجون للراحة.. جائعون تحتاجون للطعام..»

ثم فرقع بأطراف أصابعه..

عندها انفصلت المنصة إلى أجزاء. واحد من الرفاق على كل جزء، وتفرقت بهم السبل.. وجدت نفسها تبتعد عن الآخرين، محمولة والمدهش أنها وجدت فتاتين تقفان جوارها.. من أين جاءتا؟

تمشى المنصة في نفق طويل كأنه ممر من الأعشاب الملتفة.. أعشاب تتساقط منها قطرات الندى، والنفق كله مضاء بضوء أزرق غريب..

في النهاية هناك نموذج عملاق جدًا لرحم الأم.. رحم أم حقيقي يتصل بمبيضين، ومنتصب يمكنك دخوله من موضع عنق الرحم. تراه من الخارج أولًا ثم تدخله. دافئ مريح مبطن بالمخمل.. حتى الجدران تشبه الخلايا الطلائية..

هذا غريب. تفكير ثوري هو أن تستعير من رحم الأم راحته وأمانه. هناك شرايين وشعيرات دافقة بالدم على الجدران، ومن الواضح أنها تقوم بوظيفة مواسير السباكة أو الكهرباء أو شيء كهذا..

في منتصف المكان توجد أريكة وثيرة لها نفس شكل المشيمة المكسوة بأغشية الخلاص..

تشعر بأنامل الوصيفات الباردة تنزع ثيابها، بينما سائل شفاف عطر الرائحة ينساب فوقها من أحد الجدران.. هذا دوش لكنه شاعري جدًا.. الحمد لله أن هذا العالم يؤمن بخصوصية المرأة.. يلبسنها منامة واسعة كالتي رأتها على الرجال في الخارج. (اليونيسكس) أو الجنس الموحد.. لا اختلافات بين الذكر والأنثى في الثياب كما هو واضح كما تفعل المجتمعات الماركسية. ومعنى هذا على الأرجح أن الراقصات شبه العاريات والوصيفات من طبقة أخرى..

تقدمت وصيفة منها ولثمتها على أرنبة أنفها.. طريقة غريبة للترحاب، ولفت حول عنقها قلادة ذهبية غريبة تنتهي بشيء يشبه عين حورس. هذه علامتك لأنك المصرية الوحيدة بينهم. سوف تمنحك الحكمة والشفافية.. ثم قدمت لها قرصًا في حجم عملة الدولار النقدية. هل هو مخدرات؟ ترددت (عبير) متوجسة ثم قضمت قطعة منه.. إنه مادة عطرية تذكرك برائحة نبات التمر حنه.. إذن من هنا تأتي الرائحة، هذا القرص يعطر الأنفاس ويعطر رائحة العرق.

بعد قليل - لا تملك ساعة ولا يبدو أن هذا العالم يعرف الزمن - اقتادتها الوصيفات الرقيقات

إلى مكان غريب.. هناك جدار يشبه الشعاب المرجانية، ومن بين الشقوق تتدلى أشياء كأنها إفرازات مرجانية أو بطارخ.. وفوجئت بأن باقي أصدقائها هناك.. كلهم يلبسون هذه المنامات الواسعة، وكلهم عطرو الرائحة، يتبادلون النظرات الغبية...

قال (هايردال) في عصبية:

- «الأمر واضح.. هذه الأشياء المقززة التي تسيل بين الشعاب هي الطعام!.. هذه هي قاعة الطعام..»

قالت مشمئزة:

- «يا سلام!.. لن تكون هناك أطباق بامية أو أرز أو قطع لحم محمر؟..»

- «من الواضح أنه لا توجد رنجة كذلك..»

ونفخ في غيظ....

قرر المكسيكي أن يحاول، فمد أنامله بين الشقوق المرجانية والتقط بأصابعه بعض هذه البطارخ.. ثم دسها في فمه. راح يحرك لسانه مفكرًا ثم قال:

- «ليس سيئًا.. مالح قليلًا لكنه لذيذ..»

- «وما هو أصلا؟..»

- «كيف لي أن أعرف؟؟..»

هنا سمعوا الصوت يتردد في أذهانهم:

- الطعام قادم حالًا.. نأسف لأن هذه هي الفترة التي يفرز فيها حيوان (اللزيق) المخاط طالبًا للتزاوج، حاولوا ألا تنظروا إلى هذا الإفراز المقزز!..»

نظروا جميعًا إلى المكسيكي الذي تقلص وجهه وهذا الشيء مازال على شفتيه، ثم قال في عناد:

- «لزيق.. لزيق.. طعمه لا بأس به..»

بعد لحظات ظهرت أطباق أقرب إلى أصداف كبيرة.. وكانت تحوي أشياء أقرب إلى الخضر مع لحم مسلوق هو على الأرجح لحم حيوان بحري. وضع أمام كل واحد طبق كبير. تبادلوا النظرات في رعب.. هل نأكل؟ على كل حال للجوع سلطان كالنوم بالضبط، وهم على استعداد لأكل أي شيء ما دام ليس لحمًا بشريًا..

هذا جدير بالتساؤل فعلًا.. قالت (عبير):

- «و هل أنتم واثقون من أنه ليس لحمًا بشريًا؟..»

وتساءل جبرين:

- «وهو ليس لحم خنزير؟..»

قال الأمريكي نورمان وهو يتشمم الطبق:

- «أعتقد أن لا.. لا تنس أنني يهودي.. هذا طعام (كوشير) وليس (طريفه)، كما أن رائحته ليست رائحة اللحم البشرى..»

- «هل تعرف رائحة اللحم البشرى؟..»

- «أعرف على الأقل أنها ليست هذه الرائحة..»

وانطلقوا يأكلون.. لم يكن الطعام سيئًا.. بالتأكيد أفضل من إفرازات اللزيق التي التهمها المكسيكي. الخضر كانت غريبة تشبه الأعشاب البحرية، ولم تميز (عبير) اسم أي نوع منها. بعد قليل ظهرت إحدى القيان ووضعت أمام كل منهم زجاجة صغيرة تشبه زجاجات الديتول في كل شيء.. الحجم والشكل ورائحة السائل. لم يكن للتطهير بل للشرب على ما يبدو....

بعد الغداء تذكر (هايردال) غليونه الحبيب.. لكن لم تكن هناك فرصة، ومن الواضح أن هؤلاء القوم لم يصلوا لاختراع التدخين بعد..

سمعوا جلبة قادمة من خلفهم فالتفتوا..

كان هذا شرفًا عظيمًا لأن الحاكم أزرق الدم (كيراف سولانوسين باركلاس) شخصيًا قد جاء محاطًا بالكهنة وضباطه الأرشيدوقات..

موكب عظيم هو لكنه موكب محلق فوق الأرض كالعادة...

وفكرت (عبير) في غيظ:

- «ألا ينوى أن يسمح لنا بدقائق للنوم؟..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- الاستقبال.. (المزيد منه في الواقع)..

القيلولة بعد الغداء شيء جميل، لكن يبدو أن هذا الرجل لا يسمح به..

بالمناسبة هل هو غداء فعلا؟ لا تعرف.. لا شمس تصل هنا، ولا يوجد سوى هذا الضوء الأزرق الصناعي الذي لا تعرف مصدره. هل هي حيلولة أم قيلولة أم عيلولة؟ لا تعرف..

نزل (كيراف سولانوسين باركلاس) من على المنصة، وهو ما زال يعتمر رأس ابن آوى، فجلس على جزء بارز من الأرض يجعله في مكانة أعلى قيلًا، وفي أذهانهم سمعوه يسأل عن جودة الطعام فقالوا في أذهانهم صادقين أنه جيد..

الآن أحكي لكم قصة أطلنطس..

بالفعل قام قدماء المصريين بارتياد المحيط، وكانت قواربهم من البردي تشبه كثيرًا هذا الذي جئتم به، لكن قواربهم كانت أكثر تقدمًا ومصنوعة ببراعة أكبر. كانت السفن تضع صورة رع على الشراع ثم تبدأ رحلتها الاستكشافية.. بعضها كان يرجع وبعضها لا يعود أبدًا..

قبل عصر الدولة القديمة كما تسمونها، أبحرت قوارب عدة في المحيط، وفي هذه المرة هبت عواصف شديدة، فألقت بهم على سواحل هذه القارة التي تسمونها أطلنطس..

كانت قارة بكرًا وأرضها خصيبة، وقد استقر القوم هناك وصنعوا مجتمعهم وعباداتهم، وبدأ التزاوج حتى أنهم عمروا القارة خلال 200 سنة..

بلغت هذه الأمة شأنًا عظيمًا في العلوم والفنون، ولعل بعدهم عن مصر الأم جعل علماءها أكثر حماسة للبحث والتجريب، وكانت هناك قوانين صارمة باستضافة أي قارب من بردى يعلق رمز رع على الشراع. هؤلاء أخوتنا وقومنا.

بعد هذا وقع الزلزال المرعب.. لكن كانت هناك نذر عدة تتنبأ بقدومه، وتبنى أحد علماء أطلنطس إرهاب الناس وتخويفهم من الهول القادم، وقد قدر أن جزءًا لا بأس به من القارة سوف يهبط لقاع المحيط. فكروا في الفرار لكن لم يكن هناك من وقت لبناء كل هذه القوارب، من ثم فكروا في أن يحيطوا مدينتهم الكبرى بغشاء مقاوم يتحمل الضغط، وزودوا المدينة بأجهزة متقدمة تضخ الأكسجين من ثاني أكسيد الكربون في دورة لا متناهية.. نعم.. قوم تلك الفترة كانوا يعرفون الأكسجين قبل أن يعرفه العالم الخارجي بقرون.

وقعت الواقعة، وهوت أطلنطس إلى قاع المحيط، وصارت هناك فجوة ماء هائلة.. وهلك من هلك، ربما بلغ عددهم مليونًا، لكن من ظلوا أحياء وجدوا أنهم في قاع المحيط.. عليهم الاستمرار والعثور على سبل للبقاء أحياء. وهذه السبل طوروها على مدى قرون عديدة حتى بلغت درجة الكمال. هناك زراعة وهناك صحة وهناك تعليم وهناك سلاح..

فكرت (عبير) في استمتاع:

- «الأمر يشبه ما فعله أبو سوبرمان العالم الكبير عندما انفجر كريبتون!..»

هنا جاء الصوت الهادئ:

- «بالفعل.. غير أن هذا حدث فعلًا..»

يا للكارثة!.. عليها أن تسيطر على أفكارها بشدة. هذا صعب جدًا خاصة مع الوسواس القهري..

في مصر لم يكن أحد يتحدث عن هذه القارة باستثناء الكهنة، وقد قرر هؤلاء أن يظل الأمر سرًا لذا راحوا يتخلصون من أي أثر يحكي عن أطلنطس، ومحوا ذكرياتها من عقول الناس بعقاقيرهم وصلواتهم، وبرغم هذا تسربت بعض أخبار للناس. لن تجد أي شيء يحكى عن أطلنطس في كتابات المصريين، فيما عدا ذلك اليوناني الثرثار الذي سمع بعض القصص وحكى عنها لأفلاطون.

أطلنطس راحت تراقب المحيط، وتعيش منعزلة لأنها وجدت أنها تقدمت حضاريًا جدًا كما أنها بلغت مستوىً مرموقًا في الأخلاق. طبقًا للأواني المستطرقة سوف تنقل علمها وأخلاقها للعالم الخارجي الفاسد بينما تكتسب هي أمراضًا وفقرًا وجريمة.. كان القرار عسيرًا لكن أطلنطس فضلت الانعزال للأبد.

محاولة الفرار عقوبتها الإعدام..

التدخل في شئون العالم الخارجي عقوبته الإعدام..

نحن نراقب لكننا لا نفعل.. العالم الخارجي بالنسبة لنا شاشة سينما عملاقة.

أطلنطس شبه قارة كاملة.. لديها إمكانات قارة ويمكنها أن تعيش مستقلة بزرعها ومواردها ومعادنها، لكنها كذلك تمزج الطابع الفرعوني بثقافة البحر وخيراته، لهذا صارت ذات طابع فريد.. وهناك هذان الهرمان العملاقان اللذان وصفهما أحد المستكشفين في عالمكم، لكن أحذا لم يصدقه.

ومع الوقت اكتسب أهلها بعض العادات العجيبة الناجمة عن عزلة القرون. مثلًا نمت قدرة التخاطر، وهي موجودة لدى البشر جميعًا لكنها ازدهرت هنا بشكل غير مسبوق..

طورت أطلنطس أسلوب غواصات الأغشية، وهي غواصات تصعد للسطح وتمارس الصيد أو التجسس، وقد كانت غواصة غشائية هي التي أنقذتكم..

أطلنطس بعيدة جدًا وعلى عمق غير مسبوق، لهذا ظلت سرًا حتى بتقنيات العلم الحديث. وإن ظهرت بعض البوادر مثل العالم الذي صور الهرمين بالسونار.

تساءل (هايردال) بصوت عال ليسمع الرفاق سؤاله:

- «ولماذا أنقذتمونا؟..»

تردد الصوت في أذهانهم يقول بهدوء:

- «كنا سنتركك لمصيركم، لكننا ملزمون بقسم الأجداد.. وقسمهم يرغمنا على معونة كل من يبحر في قارب رع، إنه ينتمي لجذورنا ويعيد تمجيد ذكرانا.. ومصيركم كان محتومًا شأن من تنقلب سفينته في المحيط، لو لم نسد لكم العون، هكذا تحركت نافاح 2 كي تنقذكم..»

- «نحن لكم شاكرون يا (كيراف سولانوسين باركلاس) يا ذا الدم الأزرق....»

كانوا جميعًا صادقين، وقد أدركوا في لحظة واحدة أن نافاح 2 هي الغواصة الغشائية التي أنقذتهم. لكنهم ظلوا يشعرون بالقلق.. الرجل قال «إن.. محاولة الفرار عقوبتها الإعدام.. التدخل في شئون العالم الخارجي عقوبتها الإعدام..». هذا ينطبق على الجميع إذن؟

سمع (كيراف سولانوسين باركلاس) أفكارهم فتردد صوته الحازم في أذهانهم:

- «أنتم لن تغادروا أطلنطس.. هذا واضح..»

كانت (عبير) تدرك يقينًا أنه سيقول هذا.. لقد قرأت الكثير من القصص، ولسوف تندهش لو قرأت قصة تدور في عالم مفقود، ويحق فيها للمستكشفين مغادرة العالم الذي اكتشفوه.. هناك أشياء لها قوة القانون كما تعلم.. لن يغادروا إلا عندما يحدث الزلزال أو ينفجر البركان الذي يمحو هذه الحضارة.

يبدو أن مغامرة (هايردال) انتهت هنا والآن. في (فانتازيا) لم يصل (هايردال) لأي مكان..

كانت تعرف أن هناك - في عالم الواقع - مرحلة لا بأس بها انقطعت فيها أخبار القارب رع واعتبره العالم مفقودًا. هذا يتكرر هنا ولكن بشكل آخر..

(هايردال) يمر بتجربة أنثروبولوجية ثرية فعلًا.. أن يعيش في أطلنطس بل ويكون سجينًا فيها للأبد!

ساد صمت مرتبك لفترة، ثم سمعوا في أذهانهم (كيراف سولانوسين باركلاس) يقول:

- «سوف نتخاطر عن هذا أكثر فيما بعد، أما الآن فلتعودوا للأرحام لتنعموا بغفوة عميقة بعد كل هذه الانفعالات..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- عودة للمدرسة..

لعل هذا أعمق نعاس ظفرت به (عبير) في حياتها. يمكن القول بسهولة إنها ماتت وبعثت من جديد. على أنها في الصباح بدأت تدرك غرابة الوضع، وأنه من الصعب أن تمضي حياتها هنا، في مجتمع غريب وعادات أغرب..

كل ما يعرفونه لا تعرفه، وكل ما تعرفه لا يهمهم أن يعرفوه. المساكن غريبة.. الطعام غريب.. لا توجد لغة أصلًا..

في الصباح جاء الأرشيدوق (روجاسونانتي كلامانوشيسان جاليكورايان)، أول من قابلهم عندما بلغوا أطلنطس، فدعاهم إلى أن يلحقوا به إلى وحدة التعليم. نعم. تعليم.. لكي يحق لهم أن يعيشوا في أطلنطس فعليهم المرور ب. (كورس) تثقيفي.

قال الإيطالي في رعب:

- «مام ما ميا.. أنا الذي كنت أكره المدرسة بشدة..»

قال (هايردال):

- «يبدو أن عليك قبول قضاء باقي حياتك فيها. إن عشرات القرون تفصلنا عنهم وسوف يستغرق استيعاب هذه القرون فترة طويلة..»

القاعة التي يتم التدريس فيها ليست قاعة بالضبط.. يمكنك أن تتخيل أنك تجلس في نفق طويل مظلم. في نهاية النفق هناك تمثال عملاق.. يمكن بشيء من الخيال أن تتصور أنه يمثل آمون ولكن بعد حدوث عدة تغيرات في مظهره..

جوارك نوافذ صغيرة مستديرة كنوافذ الغواصة. تطل منها على الخارج فترى ظلامًا دامسًا ومن هذا الظلام تتولد رؤى مبهمة كالأحلام. تسمع الشرح في عقلك دون صوت، وبلغتك. كل شيء مقترن بصورة واضحة على الشاشة الوهمية.

رأوا قصة ميلاد أطلنطس والفيضان الذي أغرقها وكيف شكلت حضاراتها وعلومها.. رأوا نماذج من فنونها. ديانتهم مزيج من عبادة رع إله الشمس الفرعوني ونبيتون إله المحيطات الإغريقي، وبالفعل أدركت (عبير) أن التماثيل التي تراها في كل صوب هي مزيج من تمثال (نبيتون) مع هالة شمس تحيط برأسه. هؤلاء القوم وثنيون إذن..

كم مر من الوقت؟ لا تعرف.. لا توجد ساعات ولا يوجد ضوء.. لو قلت لها إن ربع ساعة قد مر لصدقتك، ولو قلت لها إن عشر ساعات قد مرت لصدقتك..

فقط كانت معدتها تخبرها بالوقت تقريبًا..

من وقت لآخر يوزعون عليهم طعامًا لزجًا في صدفات عملاقة.

هذه البلاد تتكون من حاكم أعظم هو (كيراف سولانوسين باركلاس) أزرق الدم، وريث العرش.. وتحت يده مجلس حكماء نصفه كهنة ونصفه علماء. لا يوجد وزراء لأن قرارات المجلس تنفذ نفسها بنفسها بقوة العقل..

ابنوا هذا. ازرعوا هذا.. كلوا هذا...

عليك أن تبدى ولاءك للحاكم من حين لآخر، كأن تجرح ذراعك لتظهر أن دمك أحمر وحقير يختلف عن دمه الأزرق، هذه نقطة لم تكن (عبير) على استعداد لممارستها بأي شكل.

الأطفال في هذا المجتمع يؤخذون من آبائهم وتتم تربيتهم في أرحام خاصة، حيث يتعلمون تاريخ أطلنطس، ثم يتم تقسيمهم حسب الميول إلى علماء أو عمال أو صيادين أو كهنة أو راقصات..

أن تكون وحدك تحت المحيط بعيدًا عن كل شيء، أليس هذا رائعا؟ يمكنك أن تقضى الوقت في الابتكار وتطوير الفنون. تذكر داستين هوفمان في فيلم الخريج عندما كان يلبس ثياب الغطس ثم يرقد بالساعات في قاع حمام السباحة.. لا يريد من البشر شيئًا ولا يريدون منه شيئًا...

لكن هل لهذا المجتمع أعداء؟

الحقيقة أن هناك قارة منافسة مغمورة تحت المحيط الهادي هي قارة ليموريا. وهذه القارة على قدر لا بأس به من التحضر، لكنها تعبد (كتولو) ذلك الكيان الذي وصفه لافكرافت في قصصه. كتولو معبود قديم نسيه الناس وظل ينتظر غاضبًا تحت الماء. هذا ما قاله الأخ لافكرافت عنه طبعًا..

عندما توجد قارة منسية كاملة تعبد كتولو، فإن التعامل معها غير مريح...

حدثت حرب واحدة منذ ثلاثة قرون مع ليموريا.. حاول الليموريون تمزيق الغشاء المحيط بأطلنطس لتغرق، لكن غواصي أطلنطس اكتشفوا هذا سريعًا وأطلقوا سلاحهم السري الأفعواني ليلتهم غواصات ليموريا.

منذ ذلك الحين ساد بين القارتين سلام بارد.. لكن لا توجد حرب على الأقل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء الرجال بأخطبوط كبير اصطادوه خارج غشاء المدينة، وقتلوه..

سال الدم على الأرض الحرشفية الشبيهة بجلد ثعبان، فارتجفت (عبير) لأنها تمقت مشهد الدم..

كان هناك حشد يراقب المشهد، وقد جاء كبير الكهان على منصة متحركة فأشرف على المشهد. لم تدر أهمية ذلك.. لابد أنهم يصطادون ثلاثين أخطبوطا كل يوم هنا. وما أثار دهشتها أكثر أن حراس القارة قد جاءوا، وجاء الحاكم أزرق الدم ليقف على منصته الطائرة ويراقب.

راح الكاهن يحرك عصاه ويتابع الدم.. كأنه يدرس شكلا معينًا، قطب.. توتر.. ثم دوى صوته في أذهانهم:

- «لقد تكلم الدم....»

- «ماذا قال أيها الكاهن (سورجاتون سيرافيكال هابير)؟..»

- «قال إن القادمين على سفينة رع سيكونون مستشاري الحاكم العظيم أزرق الدم (كيراف سولانوسين باركلاس). إنهم أوسع علمًا من مستشاريه ويعلمون الكثير عن العالم الخارجي القديم، وبينهم فتاة مصرية.. فليُكرموا ويتبوأوا مكانة عظيمة.. لقد تكلم (سورجاتون سيرافيكال

هابير) كاهن الكهان المقرب للآلهة..»

أدركت (عبير) أن الكاهن يمارس نوعًا من العرافة ربما هو شيء يشبه زجر الطير عند العرب. تعرف قصصًا كثيرة عن التنبؤ بشكل أحشاء الحيوان المذبوح. لربما كان الدم يتصرف كبقايا القهوة في فنجان خالها. معنى هذا الكلام أن لهم شأنًا كبيرًا، سوف يثق فيهم الحاكم ثقة عمياء.

قال الحاكم بصوته الهادئ:

- «فليقيموا في القصر الملكي، وليخصص لهم العبيد وتخصص لهم القيان....»

نظر لها (هايردال) في عدم فهم..

أما من نظر في أسى وحقد فقد كان الأرشيدوق (روجاسونانتي كلامانوشيسان جاليكورايان)، ومعه عدد من الكهان والحراس.. لكن هؤلاء القوم كانوا قد تعودوا كتمان خواطرهم. لا يمكن أن تنتزع منهم فكرة لا يريدون لها أن تذاع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- وداعًا أطلنتس..

مرت أيام - لا تعرف أنها أيام إلا من عدد الوجبات - عليهم في القصر لم تفعل شيئًا ذا بال سوى الأكل، لكن الحاكم كان يأتي كثيرًا ليجتمع ب. (هايردال)، وكان يتبادل معه الأفكار بالمعنى الحرفي للكلمة. أي أنهما يجلسان وقتًا طويلًا صامتين.. فقط تدرك من ملامحهما أنهما يتبادلان حوارًا عقليًا.. كان (هايردال) يفضل الصمت فلا يشرح شيئًا للآخرين. لكن من الواضح أنه حكى للحاكم عن كل شيء.

في ذلك اليوم دخل (هايردال) حيث يجلس الرفاق.. فقال:

- «يبدو أن هناك حربًا قادمة!..»

نظر له السوفيتي في دهشة.. لم يرق له هذا بتاتًا.. ففسر (هايردال):

- «أجهزة استطلاعهم رصدت غواصات قادمة من ليموريا.. يبدو أن غريزة التوسع لا تفارق الناس حتى في أعماق المحيط..»

قالت (عبير):

- «هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. ليس هذا شأننا..»

- «ليس بعد ما صرت كبيرة المستشارين!.. لقد صارت هذه حربنا فعلًا!.. الحاكم ينتظر منا خطة عمل كاملة. إنه يؤمن بنبوءة الأخطبوط تمامًا..»

- «ونحن لا نملك خطة.. وهذا معناه ....»

قال الإيطالي وكرشه يهتز:

- «معناه أنه سيغضب.. ترى كيف تكون غضبة الأخ (كيراف سولانوسين باركلاس)؟..»

ساد الصمت.. كان الموقف سيئًا لكن موقفهم سيئ منذ البداية.. منذ صاروا أسرى تحت أعماق المحيط.. لعل النهاية تأخرت قليلًا لكنها قادمة لا محالة.

نامت (عبير) عندما أرهقت.. لم يكن هناك مساء. أنت تنام عندما تُرهق أو عندما تضعف الإضاءة القادمة من الموجودات..

هذه المشيمة مريحة جدًا بالتأكيد.. ترتفع وتهبط... ترتفع وتهبط.. ثم شعرت بيد تهزها بقوة وفكرة تدوي في ذهنها:

- «حان الوقت..»

وقت ماذا؟..

فتحت عينيها.. في الضوء الأزرق رأت الرجال جميعًا.. (هايردال) وجبرين ونورمان وسنتياجو ويورى وكارلو موري. كانوا قلقين والتوتر باديًا عليهم.. والأغرب أنهم كانوا يلبسون نفس الثياب التي بدءوا الرحلة بها.. هل هي تحلم؟

قال (هايردال):

- «سوف نخرج إلى أن تلبسي ثيابك..»

ماذا يحدث هنا؟ يمكنها أن ترى الأرشيدوق (روجاسونانتي كلامانوشيسان جاليكورايان) واقفًا، وجواره ضابطان ممن يحملون غصن اللبلاب إياه، وضابط ثالث يحمل بلورة ذات ضوء فيروزي أخضر بحجم بطيخة صغيرة.. تساءلت عيناها عما هنالك فقال (هايردال):

- «سوف يساعدوننا في الرحيل.. الأرشيدوق لا يحب وجودنا ولا الأهمية التي اكتسبناها.. إنها الغيرة المهنية على ما أعتقد..»

عقدة الطفل الأول المدلل عندما يولد طفل ثان.. إنه يكرهه بجنون وقد يفكر في قتله جديًا..

هنا تردد في أذهانهم صوت الأرشيدوق:

- «أنتم لا تحبون أطلنطس.. أطلنطس لا تحبكم.. سوف تغادرون وتعود رحلتكم لمسارها..»

تساءلت (عبير) في عدم فهم:

- «والسر؟ سر أطلنطس؟..»

قال الأرشيدوق:

- «سوف تنسون كل شيء.. البلورة سوف تمحو كل تفاصيل أطلنطس من ذاكرتكم.. الحاكم سيعرف أنكم فررتم.. لن يقدر على اختراق عقولنا لأننا نعرف كيف نكتم الأفكار..»

تساءل (هايردال) في ضيق:

- «ننسى كل شيء؟ كأنه لم يكن؟..»

- «هذا هو الحل الأصوب للطرفين.. هكذا تحتفظون بحياتكم.. إما حياتكم وإما السر.. لو رفضتم النسيان فعليّ أن أقتلكم هنا والآن بتهمة الخيانة..»

كان هذا غير عادل بالنسبة لـ (هايردال)، بعد كل ما عرفه مما يمكن أن يملأ عدة كتب، لكن هذه من اللحظات النادرة التي يمنحها الحظ. أن تتفق مصلحتك مع مصلحة خاطفك.. يجب أن يقبل الشروط..

قال الأرشيدوق بصوته الذهني:

- «منذ البداية كان علينا ألا نأتي بكم هنا.. كان هذا خطأً جسيمًا، وقد سبب وجودكم خللًا جسيمًا في نظامنا الطبقي وخطط المستقبل. حياتكم مقدسة ولا نستطيع الخلاص منكم، لكن من الممكن دومًا أن تفروا.. بالطبع لو قبض عليكم أثناء الفرار فهو الإعدام..»

ثم تناول من الضابط البلورة الفيروزية، وأردف:

- «بعد محو ذاكرتكم، سوف تحملكم نافاح 2 مع قاربكم إلى نفس النقطة.. وسوف تبدءون من هناك..»

ورفع البلورة عاليًا وأغمض عينيه، وكذا فعل المحيطون به.. وبدأت البلورة تبعث ضوءًا أخضر مريبًا يصعب أن تبقى عيناك مفتوحتين فيه، وشعرت (عبير) بأنها تغوص في دوامة فيروزية بلا نهاية.. دوامة.. ما الذي ذكرها بالدوامة؟ لا تذكر.. الضوء الفيروزي يغمر كل شيء. من هي؟ ماذا تفعله هنا؟

كان هناك رحم كبير.. كانت هناك قارة تحت الماء.. كانت هناك عاصفة.. لا تذكر شيئًا.. لعله كابوس..

الشمس تحرق وجهها.. والقارب يهتز...

تفتح عينيها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- في المحيط من جديد..

فتح الجميع العيون...

كانوا يرقدون على ظهورهم فوق قارب البردي، وكان الملح يغطي وجوههم وأجسادهم من فرط البلل الذي جففته الشمس الحارقة.. إنهم يحترقون..

كانوا منهكين بفعل العاصفة التي كادت تغرقهم، ومن الواضح أنهم فقدوا الوعي بضع ساعات لكن البحر صار هادئًا الآن..

نهض (هايردال) وراح يحك رأسه.. الصداع قاتل.. يشعر بظمأ رهيب، وكذلك (عبير)..

أين برميل الماء؟ هل سقط في العاصفة؟ كانت هناك مشكلة في الأطعمة لأن البسكويت مبتل وبعض البراميل فارغ..

تساءل نورمان:

- «هل من أحد يذكر ما حدث؟.. كيف ضاعت هذه الأشياء؟..»

لا أحد يعرف. على الأرجح كانت العواصف شديدة لدرجة أنهم فقدوا الوعي، ومُحي قطاع كامل من ذكرياتهم..

ثمة رؤى ضبابية غامضة عن عالم له أضواء زرقاء، وأصنام ضخمة.. وراقصات شبه فرعونيات، ولسوف يزور هذا المشهد أحلامهم لفترة طويلة.. لربما يزور كوابيسهم كذلك.. لكن كلًا منا يحمل رؤى غامضة مماثلة..

لماذا تفوح رائحة التمر حنه من أنفاسهم؟

لقد نسى الجميع كل شيء، و(عبير) نفسها عاشت المغامرة ومُحيت من ذهنها، فلا يذكر التفاصيل سوانا نحن من نقرأ هذه السطور، وما من سبيل لنحكي ما حدث لأبطالنا. الأمر يشبه قليلًا من ماتوا.. الذين لا يجدون طريقة يبلغون بها الأحياء بما يعيشونه في العالم الآخر. كيف لو عرف (هايردال) أنه وجد إجابة سؤاله. المصريون القدماء ارتحلوا عبر الأطلنطي بقوارب البردي هذه، وبعضهم استوطن أطلنطس.. وبعضهم الآخر استكمل رحلته إلى الغرب..

(هايردال) لا يعرف أنه وجد الإجابة عن لغز الهرمين.. وعن لغز أطلنطس الذي حير العلماء والمؤرخين منذ فجر التاريخ. لا يعرف أنه صار مستشار ملك أطلنطس لفترة لا بأس بها، هذه حقائق لن يعرفها (هايردال) ولن يعرفها العالم أبدًا.

من يدري؟ قد يكون كل واحد منا قد مر بتجربة عجيبة مماثلة ونسي كل شيء عنها. لربما كنت أنت حاكم المريخ أو كنت أنت ملكة جمال كوكب المشترى، ثم محيت هذه الذكرى.. لكننا نرى بصيصًا منها في أحلام غامضة...

لربما كانت هذه الذكريات مصدر خرافات تناسخ الأرواح التي يؤمن بها البعض، ولربما فسرت ظاهرة (ديجا فو) الغريبة.. ظاهرة أنا رأيت هذا وعشت هذا الموقف من قبل..

ومن جديد: من يدري؟ لربما لم تكن الأحلام أحلامًا.. لربما هي ذكريات!

ارتفع الشراع وامتلأ بالهواء فبدأ القارب يتحرك نحو الغرب..

عادت الحياة ببطء، وعاد كل واحد لمهمته القديمة. السوفيتي عاد للرسم والمكسيكي عاد لتطريز الشراشف.. الإيطالي يدخل إصبعه في أنفه، وجبرين يقضى وقته في تجويد القرآن، وثور (هايردال) يحلم بالمجد، و(عبير) تقضى وقتها في القراءة والملل.. أحيانًا تتحسس القلادة الغامضة على صدرها.. القلادة التي تنتهي بعين حورس، وتتساءل متى وكيف اشترتها. غريب أن يبلغ بها الغباء هذا الحد لتنسى.

الإيطالي يغنى من دون حماسة أغنية سمعت لحنها من قبل:

Ma n'atu sole cchiù bello, oje ne'

O sole mio sta 'nfronte a te!

كلهم مشغولون جدًا..

لكن (هايردال) كان قلقًا، فقد تدهور مخزون المؤن جدًا، ولو كانوا بعيدين عن جزيرة قريبة فلسوف تحدث مجاعة هنا. نريد بعض الماء والفاكهة الغنية بالفيتامين. وتمنى أن تقلع الطائرات بحثًا. أين طائرة حلف شمال الأطلنطي التي تنطلق بحثًا عنهم؟

يقف في الظلام يرمق نطاق النجوم، محاولًا فهم أين هم بالضبط.. وكانت لديه بعض الخرائط السليمة، فكان يقارنها بما يراه..

كان جالسًا على ظهر القارب في ضوء القمر، وقد فرد أمامه خارطة وبدأ يرسم بالفرجار والمسطرة. كان الآخرون نائمين مرهقين، وتعالى الشخير مع رائحة الأقدام كالعادة..

دنت منه (عبير) في حذر وهي تتحسس القلادة، وتربعت أمامه.. بعد قليل كسرت الصمت وسألته:

- «هل من أمل؟..»

نظر للأفق وقال:

- «لو كانت حساباتي دقيقة فلا أمل.. سوف تنتهي المؤن وكل شيء قبل أقرب يابسة. يحيرني جدًا فهم ما حدث وقت العاصفة.. ماذا أصاب مئونتنا.. لكن على الأقل قد برهنت على أن قدماء المصريين لو كانوا قد جربوا هذه المغامرة فقد هلكوا.. لم يكونوا ليظلون أحياء. هذا اكتشاف في حد ذاته..»

ثم نظر لها وأردف:

- «كنت رفيقة ممتازة في الرحلة، وأرى أن (جورج سوريال) لو جاء معنا لما كانت النتيجة أفضل..»

كانت (عبير) تفكر في قلق.. تكره الموت من الجوع والظمأ.. ميتة بطيئة أليمة تحت شمس المحيط الحارقة، وما من أرض تدوس عليها.. بالطبع سوف ينتهي الأمر بهم إلى شرب ماء المحيط، فيحتجز الصوديوم في دمهم ويتورم مخهم ويجنون.. هذه قصة كل من يضل في المحيط، ما لم تبدأ مسابقة أكل لحم البشر.. القرعة والتهام من يجذب العود القصير..

ثم خطر لها أن هذا الطائر - لو اقتنصته - يمكن أن يؤجل هذا المصير قليلًا، هناك موقد

وآنية..

وثبت على الطائر لكنه تملص منها.. فصرخت في (هايردال) أن يسرع ويمسكه..

كان طائرًا أبيض له شكل مميز وصرخة مميزة، وأدركت أن هناك ثلاثة طيور أخرى..

- «أسرع.. سيريحنا من عذاب الجوع!..»

لكن (هايردال) لم يمسكه.. راح يرقص فرحًا ويركل النائمين:

- «هذا نورس!.. نورس!.. الأرض قريبة جدا!!..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- البربادوس..

كانوا يصرخون غير مصدقين، وراحوا يوجهون القارب باتجاه الغرب..

بدا واضحًا أن النوارس تتزايد وثمار جوز الهند وأوراق الشجر الطافية تتزايد، ثم بدأت منطقة الصخور.. نحن في الاتجاه الصحيح.. لقد قادنا تيار الكناريا المبارك.. أنا وأنتم نعرف أن ما حدث على الأرجح هو قيام رجال الأرشيدوق (روجاسونانتي كلامانوشيسان جاليكورايان) بتوصيلهم وتقصير الرحلة عليهم.

لكن حذار.. لو اصطدم القارب بصخرة لتكرر مشهد التيتانيك لكن من دون جليد..

أخيرًا يمكنهم أن يمشوا في مياه ضحلة. تطوع السوفييتي بحمل (عبير) لأنه الأقوى هنا، وكان القمر مكتملًا فصار بوسعهم أن يروا كل شيء في ضوء خافت..

صاح (هايردال):

- «ترى أين نحن؟..»

قالت (عبير) في تشاؤم:

- «سواحل المغرب طبعًا!!..»

نظر لها في غيظ، وصرخ:

- «طبعًا لا.. (كولومبوس) في موقف مماثل حسب أنه وصل إلى الهند.. لأنه رأى هنود أمريكا الحمر.. أما نحن فنعرف يقينًا أننا عند العالم الجديد..»

وواصلوا المشي. على الأقل لن يكون هناك جوع ولا ظمأ.. على الأقل هناك حياة برية. يمكنك أن تشعر بالفشل وأنت ببطن مليئة وغير ظمآن.. أما أن تجربه وأنت جوعان وظمآن فأمر صعب..

الموج يضرب الشط وهم يتوغلون.. هناك غابة كثيفة، ولكنهم قدروا أنهم لن يحاولوا اجتيازها.. هناك وحوش بالتأكيد. الصباح قد يسمح بأي شيء..

جلسوا على الرمال وراحوا يراقبون المشهد والبحر الغاضب من بعيد. قاربهم يعلو ويهبط..

فجأة هتف (جبرين) وهو يشير إلى الأشجار:

- «هل ترون؟..»

ماذا يرون؟

هناك مجموعة من الأشخاص يمشون من بعيد في ضوء القمر.. يخرجون من بين الأشجار. يلبسون الأسمال وأيديهم ممدودة أمامهم يمشون كأنهم مخدرون.. يترنحون..

عندما تدقق النظر تدرك أنهم ذوو وجوه متآكلة.. بعضهم بلا عين على الإطلاق.

يرتجف أصدقاؤنا، لكنهم يدركون أن السارين ليلًا لا يمشون نحوهم.. هناك نار موقدة في الدغل، وصوت إنشاد..

تبادلوا نظرات الحيرة، لكن (عبير) مدت يدها تصافح (هايردال)، الذي لم يفهم.. فقالت في حماسة:

- «مبروك يا دكتور.. لقد برهنت لي صحة نظريتك، هذه من جزر الكاريبي وهؤلاء من الزومبي!..»

- «هل هناك شيء في الواقع اسمه زومبي؟..»

- في (فانتازيا) هناك زومبي.. وقد ظهروا كدليل لا يدحض على أننا في الطريق الصحيح!..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح - وبعد ليلة طويلة مخيفة - خرج أصحابنا يستكشفون الجزيرة.

الرمال حمراء بشدة تتخللها خطوط بيضاء كثيفة..

كان القوم بالفعل يحملون طابع الكاريبي، وكانوا قد اعتادوا رؤية السياح، لكنهم لم يروهم قط بهذه الحالة الرثة. كانوا يجيدون الإنجليزية وقد سألهم (هايردال) عن مكانهم فقالوا بإنجليزية رديئة جدًا:

- «بربادوس يا سيدي!..»

السبب طبعًا هو امتزاج الإنجليزية باللغة الباجانية مما يجعل الحديث غير مفهوم تقريبًا..

بربادوس.. هذا يفسر كل شيء.. كان اسم الجزيرة قديمًا معناه الأسنان البيضاء على أرضية حمراء. هذا وصف دقيق جدًا.. ثم صار معنى اسمها (الملتحون).. لا أحد يعرف مصدر التسمية.. ربما كان رجالها ملتحين في الماضي..

العاصمة هي بريدج تاون.. والدولة من دول الكومنولث.. أي أنها مازالت تابعة لإنجلترا..

أمضوا الوقت في مشاهدة معالم الجزيرة، ومشاهدة طقوس الفودو المثيرة.. لاحظ أن العقيدة الودونية قادمة من غرب أفريقيا أصلًا، وقد تم مزجها بالمسيحية في خليط غريب.

عند المساء اتجه (هايردال) إلى مكتب بريد وأبرق لعدة صحف عالمية:

- «وصلت رحلة (هايردال) بسلام إلى بربادوس.. لقد برهنت على دقة نظرياتي، لابد أن المصريين القدماء قاموا بهذه الرحلة ووصلوا للعالم القديم، ومن هنا نشأت ثقافة الأهرام!..»

تساءل العالم كله عما حدث لدى اختفاء القارب لكن للأسف لم يكن لدى (هايردال) ما يقال.. لم يكن أي واحد من أبطالنا يعرف الحقيقة..

(عبير) اتجهت إلى هاتف عمومي وطلبت رقمًا معينًا..

جاء صوت (شريف) يتساءل، فقالت له:

- «(شريف).. أنا بخير. أنا في بربادوس..»

- «ع.. (عبير)؟.. ما هي بربادوس هذه؟..»

حمار في الجغرافيا كالعادة. قالت في نفاد صبر:

«اعتبرها (جامايكا) أو (كوبا) بشكل ما..»

ساد الصمت للحظة ثم سمعت صوت همس أنثوي.. وسمعت (شريف) يقول:

- «صه.. إنها هي!!..»

قالت بصوت مبحوح:

- «لاحظ أنني لم أمت بعد..»

قال مرتبكًا:

- «ظن العالم كله أنكم متم.. أو ابتلعكم المحيط.. هذا خبر سعيد..»

- «وأنت تزوجت بسبب وفاتي؟..»

قال بارتباك أكبر:

- «لم أتزوج.. هذه نازك.. أنت لا تفهمين.. هذه نازك.. إنها...»

وضعت السماعة في عصبية، وارتجفت من الغيظ ولعلها كانت تحمل ذرة حب له. هذا فصل من حياتها يجب أن ينتهي.

وقفت (عبير) في المرفأ تراقب السفينة الحديثة القادمة لتعيدهم للمغرب. هذه المرة لن تكون العودة بالقارب المتهالك..

هنا شعرت بيد مألوفة توضع على كتفها. نظرت في دهشة فوجدت أنه المرشد.. لقد انتهت المغامرة إذن..

قال لها من وراء نظارته السوداء:

- «حان الوقت.. لقد شاركت (هايردال) في رحلته المهمة عبر الأطلنطي ورأيت قارة أطل... أ .. ورأيت الكثير..»

- «هل هذه نهاية (هايردال)؟..»

ابتسم وقال:

- «من قال هذا؟ الرجل مشاغب وسوف تستمر الأفكار تطارده إلى أن يموت..»

بعد أعوام سوف يبنى طوفًا اسمه (دجلة).. كان يحاول إثبات أن الأطواف ربطت بين بلاد ما بين النهرين وباكستان. وقد أقلعت هذه الرحلة من العراق.. لكن في عام 1978 أوقف (هايردال) الرحلة وأحرق الطوف بنفسه احتجاجًا على الحروب في كل مكان يحيط بالبحر الأحمر، وقد شرح هذا في مذكرة قدمها لكورت فالدهايم أمين عام الأمم المتحدة وقتها.

كانت حياته حافلة صاخبة، ولا شك أنه غير الكثير في عالمنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصة القادمة تدور في مصر حيث تقابل (عبير) أديبًا ساخرًا جاء من نفس عوالم أوسكار وايلد ومارك توين. إنه محمد عفيفي طبعًا.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس: